

تَيْسِيرُ الْكَلِمَاتِ الْحَرَامِ

فِي تَفْسِيرِ كَلِمَاتِ الْمَنَابِتِ

تَأليفُ

الْعَلَامَةِ الشَّيْخِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ

قَدَّمَ لَهُ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ عَقِيلٍ حَفْظَهُ اللَّهُ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ الْعِثْمِينِ رَحِمَهُ اللَّهُ

تَحْقِيقُ

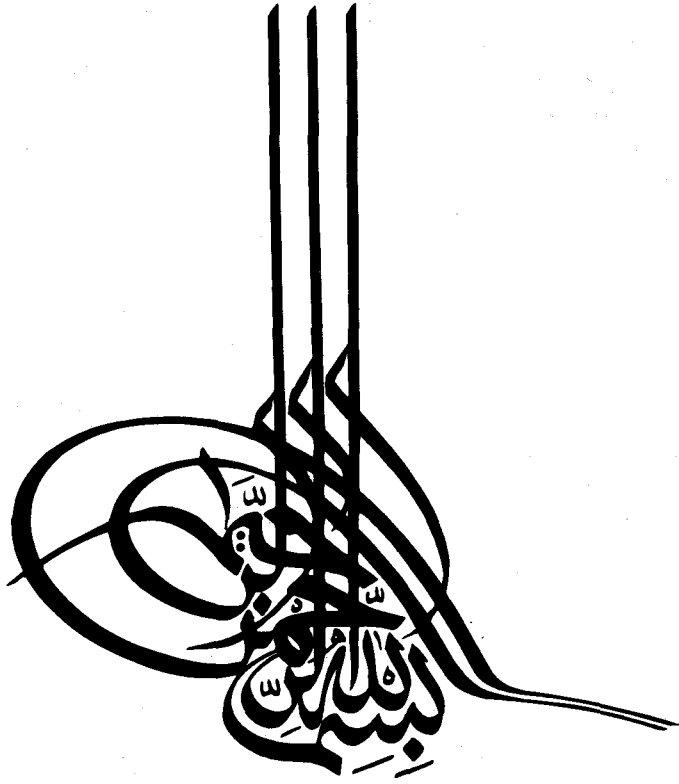
د. عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَعْلَانَ الْوَلِيحِيِّ

التَّصْحِيحُ وَالْمَرَاجَعَةُ

بِقِسْمِ الْبَحْثِ وَالْإِعْدَادِ الْعِلْمِيِّ بِمَكْتَبَةِ دَارِ السَّلَامِ



دار السلام للنشر والتوزيع



تَسْبِيحُ الْكَلِمَاتِ الْحَمْدِ
فِي تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ



دار السلام للنشر والتوزيع

شارع الأمير عبدالعزيز بن جلوي
(الضباب سابقاً)

مقابل الغرفة التجارية

ص.ب ٢٢٧٤٣ الرياض ١١٤١٦
المملكة العربية السعودية

هاتف: ٤٠٣٣٩٦٢-٤٠٩٦٦١/٠٠٤٣٤٣٢

فاكس: ٤٠٢١٦٥٩/٠٠٩٦٦١

الطبعة الثانية

١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمة الناشر

مصحف الحاسب الآلي، ووضعها بين أقواس مميزة بنفس خط المصحف ضماناً لسلامتها، وتمييزاً لها عن التفسير.

٢- تدارك ما كان من الأخطاء المطبعية واللغوية والتعليق على مواضع يسيرة أخرى.

٣- العمل على تحسين إخراج الكتاب حتى تكون قراءته أسهل بحيث لا تتزاحم الأسطر عند النظر، مع العمل - قدر الإمكان - على التناسب في الإخراج بين المصحف والآيات المفسرة.

وإننا إذ تم العمل ندعو الله عز وجل أن ينفع بجهدنا هذا علماء الأمة وطلبة العلم، وراعي فهم الكتاب العزيز، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

دار السلام للنشر والتوزيع
الرياض

الحمد لله ولي الحمد ومستحقه، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أما بعد:

فإن مكتبة دار السلام للنشر والتوزيع الدولي تُشرفُ بنشر كتاب: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) تأليف العلامة الشيخ: عبدالرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله وأسكنه فسيح جناته - وتفتخر أن كان إخراجها للكتاب في حلّة جديدة، وعلى ورق نفيس في مجلد واحد آمله في تسهيل قراءته وحمله ومطالعه، وذلك فضل من الله وإحسان، فله الحمد كثيراً كما أجزل كثيراً.

ولقد قام جماعة من العلماء والباحثين بمتابعة طباعة الكتاب وتصحيح ما كان من أخطاء مطبعية أو إخراجية بإشراف من محقق التفسير في الطبعة المعتمدة الدكتور: عبدالرحمن بن معلا اللويحق.

وقد تميز عملنا بما يلي:

١- أخذ الآيات القرآنية المفسرة والمستشهد بها من

المقدمات

مقدمة فضيلة الشيخ: عبدالله بن عبد العزيز بن عقيل .

مقدمة فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين .

مقدمة المحقق .

مقدمة

صاحب الفضيلة الشيخ: عبدالله بن عبد العزيز بن عقيل

حلقات الدروس في مسجد الجامع بعنيزة، كما أنني ممن أشار عليه بطبعه، فطبع الجزء الخامس فقط في حياته عام ١٣٧٥هـ في المطبعة السلفية بمصر، وبعد ذلك تشاورنا في طبع بقية، وساهمت في ذلك أيام كنت قاضيًا في عنيزة فطبع باقيه بعد وفاته في عامي ٧٦ و٧٧، وبعد تمام طبعه تداوله الناس بالقراءة والتدريس، ودرسته لإخواننا وأبنائنا الطلاب، وحصل بذلك خير كثير، وقرأه أئمة المساجد على جماعاتهم لوضوح عباراته. وقد طبع بعد ذلك طبعات أخرى، لا يخلو كل منها من ملاحظة أو مواخضة.

ولما صارت طبعاته بهذه المثابة مع حاجة الناس إليه سمت همة ابنتنا الشيخة الفاضلة: عبد الرحمن بن معلا اللويحق الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إلى طبعه على هامش المصحف الموجه كل جزء (٢٠) صفحة، مراعيًا في كل صفحة وضع ما يتعلق بتفسيرها. وقد عرض عليّ النماذج الأولى لهذه الطبعة فأعجبتني، وسررت بها جدًا مؤملًا أن تكون هذه الطبعة خير معين على فهم كتاب الله تعالى، والاعتناء به تلاوة وحفظًا وفهمًا، لأنّه بهذا الصنيع يقرب الاستفادة لتالي القرآن لسهولة التناول وسرعة الرجوع إلى تفسير الآية من نفس الصفحة، بدلًا من الرجوع إليها من كتب التفسير البعيدة. كما أنه سيعتني بتصحيح الأصل وجودة الطبع، فأسأل الله أن يشكر للابن الشيخ عبد الرحمن بن معلا اللويحق هذا الصنيع المبارك، وأن يجزيه أفضل الجزاء، وأن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بسابقاتها، وأن يجزي كل من ساهم في إخراج هذا المشروع النافع أفضل الجزاء، وأن يتعمد الجميع ومؤلف التفسير برحمته، إنه جواد كريم، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

حرّر في ٢٧/٩/١٤١٦هـ

وكتبه الفقير إلى الله

عبدالله بن عبد العزيز بن عقيل

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقًا

وعضو بمجلس القضاء الأعلى (متقاعد)

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن الله بحكمته ورحمته أنزل كتابه تبيانًا لكل شيء، وجعله هدى وبرهانًا لهذه الأمة، ويسره للذكر والتلاوة والهداية بجميع أنواعها ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ أنزله بلسان عربي مبين، وتكفل بحفظه وإبلاغه لجميع البشر، وقيض له من العلماء من يفسرونه، ويبلغونه للناس ألفاظه ومعانيه، لتتم بذلك الهداية وتقوم به الحجة. وقد أكثر العلماء من التأليف في تفسير القرآن العظيم، كل بما أوتي من علم، فمنهم من يفسر القرآن بالقرآن، ومنهم من يفسره بالأخبار والآثار، ومنهم من يفسره من حيث اللغة العربية بأنواعها، ومنهم من يعتني بآيات الأحكام إلى غير ذلك.

وقد كان لشيخنا العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - من ذلك حظ وافر، وذلك بتفسيره المسمى: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) حيث جاء هذا التفسير سهل العبارة، وواضح الإشارة، وصاغه على نمط بديع عبارات قريبة لا خفاء فيها ولا غموض، فهو يعتني بإيضاح المعنى المقصود من الآية بكلام مختصر مفيد، مستوعب لجميع ما تضمنته الآية من معنى أو حكم، سواء من منطوقها أو مفهومها، دون إطالة، أو استطراد، أو ذكر قصص، أو إسرائيلييات، أو حكاية أقوال تخرج عن المقصود، أو ذكر أنواع الإعراب إلا في النادر الذي يتوقف عليه المعنى، بل يركز على المعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرأها، مهما كان مستواه العلمي، فهو في الحقيقة سهل ممتنع يفهم معناه من مجرد تلاوة لفظه، وقد اهتم بترسيخ العقيدة السلفية، والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى، التي لا توجد في غير تفسيره مع اهتمامه بتفسير آيات الصفات بمقتضى عقيدة السلف خلافا لما يؤولها بعض المفسرين.

وقد منَّ الله عليّ فسمعت منه بعض تفسيره شفهيًا في

مقدمة

فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى

تقرير العقيدة.

ومنها دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم، وهذا يظهر جلياً في بعض الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة، حيث استنبط منها خمسين حكماً، وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص.

ومنها أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾

ومن أجل هذا أشير على كل مرید لاقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم.

وأسال الله تعالى أن ينفع به مؤلفه وقارته، إنه كريم جواد، وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

كتبه محمد الصالح العثيمين
في ١٥ / رمضان ١٤١٦ هـ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة:

منها سهولة العبارة ووضوحها حيث يفهمها الراسخ في العلم ومن دونه.

ومنها تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه، إلا إضاعة وقت القارئ وتبليبل فكره.

ومنها تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره، وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد.

ومنها السير على منهج السلف في آيات الصفات فلا تحريف ولا تأويل يخالف مراد الله بكلامه، فهو عمدة في

مقدمة المحقق

ها تفني بعض أفاضل طلبة العلم من المشايخ الكرام كان منهم: فضيلة الدكتور: عبد الرزاق بن الشيخ عبد المحسن العباد البدر، وفضيلة الدكتور: خالد بن عثمان السبت، حيث جرت مهاتفات معهما، ومقابلة للشيخ عبد الرزاق كانت فاتحة خير للاهتمام بالتفسير ونسخه المخطوطة، وطبعاته، فبين أن في الطبقات عوارًا كثيرًا، وأن التفسير لم يخرج حتى الآن على الصورة التي تركها الشيخ - رحمه الله - وبيان ذلك يحتاج إلى تفصيل تاريخي لكتابة الشيخ لهذا التفسير، وما وقع من طباعته، فرأيت أن أعرض الأمر مفصلاً في هذه المقدمة حتى يستبين الأمر للقارئ الكريم، ويرى ما يمكن أن يفعله

الكتيبون والناشرون في الكتب.

تأليف الشيخ للتفسير:

بدأ الشيخ - رحمه الله - تأليفه لهذا التفسير المبارك في عام ١٣٤٢هـ وأنه في عام ١٣٤٤هـ. وبهذا يظهر أنه قد بدأه وله من العمر خمسة وثلاثون عامًا، وأتمه وله من العمر سبعة وثلاثون عامًا.

والذي يقرأ التفسير يحسب أنه لا يمكن لمن كان في هذا السن أن يكتبه، إذ يمثل كتابة عالم ناضج متمكن من العلم وآلاته، واسع الاطلاع ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد كتب نسخة واحدة، ثم أمر من ينسخ له نسخة أخرى، وبالتتبع والسؤال يبدو لي أنه لم يُنسخ من التفسير إلا هاتان النسختان: نسخة الشيخ - رحمه الله - والنسخة التي أمر النساخ بنسخها.

وابتغاء توضيح الأمر أبين تفاصيل متعلقة بهاتين النسختين مع وصف لهما:

النسخة الأولى:

هذه النسخة هي التي كانت في حوزة الشيخ وملكه، وهي في جملتها كما سيظهر بخط الشيخ - رحمه الله - وهذا وصف لها:

تتكون هذه النسخة من تسعة أجزاء، جعلها الشيخ رحمه الله في تسعة مجلدات:

المجلد الأول:

وقد كتب على غلافه (المجلد الأول من تيسير الكريم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فإن إنزال القرآن الكريم على هذه الأمة منة عظيمة؛ لأنه سبيل الهداية، وطريق السلامة من الضلال والغواية: ﴿فَإِمَّا بَأْيُنِكُمْ مَتَى هُدَىٰ فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۖ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾

ولكن الاستفادة الحقة من هذا الكتاب الكريم تكون بدوام الصلة به علمًا وعملاً، تلاوة وتدبرًا وفهماً: ﴿كَتَبْنَا آيَاتِنَا إِلَيْكَ مُبْرَكًا لِّيَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ومن سبل ذلك التدبر والفهم: النظر فيما كتب أهل العلم في تفسير القرآن العظيم؛ فإن من كمال حفظ الله عز وجل لهذا الذكر الحكيم أن قيض له جهابذة فهموا مراد الله عن الله وعن رسوله ﷺ، فألفوا في ذلك كتبًا بسطوا فيها ألفاظ القرآن، وأبانوا ما يعسر فهمه، وفصلوا ما جاء فيه من القواعد والكليات، ودفعوا التعارضات المتوهمة، وبيّنوا مراجع الضمائر، وعبّئوا المعاني المرادة إذا احتمل الكلام أوجهًا متعدّدة، وكانوا طرائق قديمًا في عنايتهم بهذا الكتاب العظيم، حتى جاء شيخ مشايخنا العلامة: عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله بن سعدي رحمه الله فجعل جلّ عنايته بالمعاني التي هي المراد الأعظم، فكان كتابه فتحًا في هذا العلم؛ إذ أوقف القارئ على المراد، وأعانه على تدبر التنزيل، دون أن يقف به على المشغلات الصارفات عن ذلك كالبحوث اللغوية الصرفة، والإسرائيليات ونحوها، وليس ذلك عن قصور، إذ لا يبلغ هذا المبلغ من القدرة على تسهيل المعاني وبيان المراد، إلا من ملك من علوم الآلة، وسعة الاطلاع على كتب التفسير ما يؤهله للقيام بهذه المهمة العظيمة.

ولقد منّ الله عليّ بالعبارة بهذا التفسير، ومحة صاحبه - رحمه الله - وقراءة التفسير وإقرائه، والنصح بقراءته، ومنّ الله عليّ بالعبارة بطبعه في مجلد واحد يهدم الحواجز النفسية الصادرة عن قراءته في مجلداته السبعة التي كان عليها في أشهر طباعته السابقة، وكان الهم منصرفًا إلى ذلك، ولم يكن الذهن ملتفتًا إلى طباعات الكتاب وما فيها من أخطاء حتى

الرحمن بن سعدى - رحمه الله - ويقع في (١٤٢) صفحة،
في كل صفحة (٢٩) سطرًا تقريبًا، أوله تفسير سورة القصص،
وآخره آخر تفسير سورة الصافات.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٥٣) صفحة،
في كل صفحة (٢٨) سطرًا تقريبًا، أوله: تفسير سورة (ص)
وآخره آخر تفسير سورة الفتح.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٤٦) صفحة،
في كل صفحة (٢٩) سطرًا، أوله أول تفسير سورة الحجرات،
وآخره آخر تفسير سورة القيامة.

المجلد التاسع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٥٠) صفحة، في
كل صفحة (٣٠) سطرًا تقريبًا، أوله تفسير سورة الإنسان،
وآخره آخر تفسير سورة الناس.

النسخة الثانية:

المجلد الأول:

وقد كتب عليه: (المجلد الأول من تيسير الكريم المنان في
تفسير القرآن لمعلقه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر
السعدى غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين) وهكذا كتبت
هذه العبارة، أو قريبًا منها باختلاف يسير على طرة كل مجلد.

وفي وسط الصفحة ما يلي: (تبييه: اعلم أن طريقتي في
هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرنى من معانيها، ولا
أكتفي بذكري ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق
بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «مثنائي»
تثنى فيه الأخبار، والقصص، والأحكام، وجميع المواضيع
النافعة، لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه؛ لما في ذلك من
زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح
الأمر كلها).

وكثير من هذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - إلا

الرحمن في تفسير كلام المنان، من منن الله على عبده، وابن
عبده، وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله بن
سعدى^(١) وفوقها بخط الشيخ - رحمه الله - وبحرف صغير
(هذه التسمية مأخوذة من قوله: ﴿وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ
مِنْ مُذَكِّرٍ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ
تَقْسِيمًا﴾ وفي وسط الصفحة وبخط الشيخ أيضًا: «شرعت في
هذا التفسير المبارك غرة شهر ()»^(٢) سنة ١٣٤٢ هـ أرجو الله
أن يتمه بنعمته.

وهذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - وعليه هوامش
وتعديلات بخطه أيضًا، ويقع في (١٥٠) صفحة، في كل
صفحة (٣٠) سطرًا تقريبًا، أوله المقدمة، ثم تفسير الفاتحة
إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ
لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الآية (١٢٩) من
سورة آل عمران.
المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٩٢) صفحة في
كل صفحة (٣٠) سطرًا تقريبًا، أوله تفسير الآية (١٣٠) من
سورة آل عمران، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمُ الَّتِي كَسَبْتُمْ مِنْ حَرْثِكُمْ وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ
عَالَمِينَ﴾ الآية (١٢٩) من سورة آل عمران، وآخره
آخر تفسير سورة الأنعام.

المجلد الثالث:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢١٤) صفحة،
في كل صفحة (٢٥) سطرًا تقريبًا، أوله أول تفسير سورة
الأعراف، وآخره آخر تفسير سورة هود.

المجلد الرابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٢٩) صفحة،
في كل صفحة (٢٦) سطرًا تقريبًا، أوله أول تفسير سورة
يوسف، وآخره آخر تفسير سورة الإسراء.

المجلد الخامس:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢٢٩) صفحة،
في كل صفحة (٢٨) سطرًا تقريبًا، أوله تفسير سورة الكهف،
وآخره آخر تفسير سورة النمل.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ: محمد بن منصور بن إبراهيم بن
زامل - رحمه الله - أتم كتابته في ٢٤ رجب سنة (١٣٤٥ هـ)
وهو خط جميل، ولكنه كثير الأخطاء، ويفصل بين جزئي
الكلمة في سطرين، ويكثر هذا منه مما يربك القارئ.
وعلى هذا الجزء هوامش وتعديلات بخط الشيخ عبد

(١) يلاحظ أن هذه العبارة كتبت على طرة كل مجلد بعد ذكر رقمه، مع
اختلاف يسير في بعض الألفاظ، ففي طرة المجلد الثاني جاءت العبارة
هكذا: (المجلد الثاني من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن
لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبدالله بن سعدى غفر الله له ولوالديه
وللمسلمين... آمين) وفي المجلد الثالث: (المجلد الثالث من تيسير
الرحمن في تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن
سعدى). (٢) الكلمة غير واضحة في الأصل، والذي يبدو أنه شهر صفر
أو محرم، لأن الشيخ أتم هذا الجزء في نهاية شهر ربيع الأول.

هذه المقدمة، وعدد صفحات هذا المجلد (٢١٤) صفحة، في كل صفحة من صفحات هذا الجزء (٣٠) سطراً، أوله تفسير سورة الكهف، وآخره آخر تفسير سورة النمل، ثم بعدها أصول من أصول التفسير وتفسير الأسماء الحسنی.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ رحمه الله، وبدايته من أول سورة القصص ونهايته بنهاية تفسير سورة الصافات. وعدد صفحات هذا الجزء (١٥٤) صفحة، في كل صفحة ما بين (٢٥-٢٨) سطراً، وبدايته ونهايته كمثلها في النسخة الأخرى.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ: سليمان بن حمد العبدالله البسام رحمه الله، وعدد صفحات هذا الجزء (١٢٢) صفحة، في كل صفحة (٢٢) سطراً، وبداية الجزء ونهايته كمثلها في النسخة الأخرى.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ رحمه الله، وعدد صفحات هذا الجزء (٢٠١) صفحة.

ويبدأ من أول تفسير سورة الحجرات، وينتهي بتفسير سورة الناس.

وبهذا فإن هذه النسخة تحتوي على ثمانية أجزاء، بينما النسخة الأخرى على تسعة أجزاء.

هذا عن نسخ التفسير المخطوطة، وأما طباعته فقد كانت فاتحتها طباعة الجزء الخامس منه، إذ بعث الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله برسالة مدونة في خاتمة المجلد الخامس من النسخة (ب) مؤرخة في ٢/٣٠/١٣٧٤هـ. وقد نقلت من خط الشيخ بخط مغاير هذا نصها: بسم الله الرحمن الرحيم، حضرة محترم المقام الشيخ محمد نصيف حفظه الله أمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. سبق جواب كتابكم الآمل وصوله، ثم إننا نكلفكم حيث أرسلت لكم تفسيرنا الكبير المجلد الخامس منه، وقع النظر على الاقتصار على طبعه، فجعلنا له مقدمة وختمناه بأصول وكليات من أصول وكليات التفسير، ونريد أن يطبع منه خمسة آلاف نسخة، وأجبت أن يكون الاختيار لجنايبكم في اختيار من يتولى طبعه، إما محب الدين الخطيب، أو الشيخ حامد، أو من ترجح وتخته على العناية التامة فيه، ولو زاد علينا المصروف، وقد وصيت الشيخ: عبدالله المحمد العوهلي يسلم لكم كل الذي تطلبون لأجل طبعه، وأرجو الله أن يثيبكم الثواب

الصفحات ما بين الصفحة (٣٦) والصفحة (٩٦) فهي بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله - وبداية المجلد ونهايته كالنسخة الأولى.

المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ علي الحسن العلي الحسن البريكان، وبداية المجلد ونهايته مثل النسخة الأولى، وللشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله عليه تصويبات مما يدل على أنه قرأه ويقع في (١٧٧) صفحة، في كل صفحة (٣١) سطراً تقريباً.

المجلد الثالث:

وقد نسخ هذا المجلد ناسخان، بدأ الأول بنسخ اثنتي عشرة صفحة، ولكن خطه سقيم، وأخطاه كثيرة، ولذلك كتب الشيخ رحمه الله بخطه على الصفحة الثانية: (الصحائف الأولى من هذا الجزء خطها سقيم، الأمل الثاني فيها عند تصحيحها) ثم نسخت الصحائف التالية إلى آخر الجزء بخط مغاير أمثل من الخط الأول، ولم يكتب على هذا الجزء اسما الناسخين.

ويقع هذا الجزء في (١٥٢) صفحة، كل صفحة (٣١) سطراً. وبداية المجلد ونهايته كمثلها في النسخة الأولى.

المجلد الرابع:

وهذا الجزء بخط الشيخ سليمان الحمد البسام، وللشيخ عبد الرحمن السعدي عليه بعض تصويبات بخط يده رحمه الله، ويقع في (١٠٣) صفحات، في كل صفحة (٢٨) سطراً، وبداية المجلد ونهايته كما في النسخة الأولى:

المجلد الخامس:

وهذا المجلد هو الذي بعث به الشيخ رحمه الله للطباعة أول الأمر.

وكتب الشيخ بخط يده المقدمة التي طبعت مع هذا الجزء أول ما طبع، وهي مقدمة أثبتتها في هامش هذه الطبعة عند أول تفسير سورة الكهف، وهذا المجلد نقل عن خط الشيخ المؤلف رحمه الله، وليس عليه اسم كاتبه، وقد ألحق الشيخ رحمه الله به أصولاً من أصول التفسير، وتفسير ألفاظ عامة يكثر في القرآن ورودها، ويحتاج إلى معرفتها) وهي بخط الشيخ رحمه الله، وقد جعلتها ملحقة بهذه الطبعة في آخر التفسير.

وفي آخر الجزء فهرس لمحتوياته، ثم نقل للخطاب الموجّه من الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله، وقد أُرُخ في ٢/٣١/١٣٧٤هـ، ونص الخطاب تجده في

الشيخ - رحمه الله - إلى ذكر الآيات أحياناً، وأحياناً يقول إن الخ القصة، إذا كانت قصة من القصص وأحياناً يورد كلاماً في سياق التفسير لا يقصد به ذكر الآية، فيغير المصححون ذلك فيقومون بإيراد الآيات كاملة، ويغيرون كلامه ويشطبون في المخطوطة، ويضعون الآية أو الآيات بدلاً منه.

ومن أمثلة ذلك:

إن الشيخ رحمه الله أورد قصة فارون هكذا: (إن فارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) إلى آخر القصة، فشطب المصححون على قوله: (إلى آخر القصة)، وأوردوا الآيات كاملة، وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

وكذا عند إيراد قصة لوط في سورة العنكبوت حيث أورد الآيات من قوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ فأتوا الآيات إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ رَكَنَّا إِلَيْهَا آيَةً يَنْتَهُ لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾ وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

الملحظ الثاني:

التصرف في تقسيم الكتاب، حيث قسم الشيخ التفسير إلى ثمانية أجزاء في إحدى النسخ، وتسعة في الأخرى، وكانت النسخة التي اعتمدت عليها المطبعة السلفية في ثمانية أجزاء، ينتهي الأول منها بنهاية تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في سورة آل عمران (١٢٩) فجعلوا نهاية الجزء بنهاية تفسير سورة آل عمران، وكتبوا في نهاية الجزء (تم المجلد الأول من تفسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن عن نسخة مؤلفه العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ويليه المجلد الثاني، وأوله تفسير سورة النساء، والحمد لله رب العالمين)^(٥) وليس الأمر كما قالوا، بل تقسيم النسخة التي اعتمدها على خلاف ما ذكروا.

الملحظ الثالث:

الزيادات، لقد زاد القائمون على هذه الطبعة في التفسير زيادات، وإن كانت يسيرة إلا أنه لم يتم الإشارة إليها، لا في المقدمة، ولا في مواضع الزيادات، فمن ذلك:

١- زيادة رقم الجزء من أجزاء القرآن الكريم قبل بدايته،

الجزيل، ويشكر مساعيك، ويجزيك عنا أفضل الجزاء، فأنت طال عمرك عوض النفس في كل شيء، والله الموفق والسلام.

محبك^(١) عبد الرحمن الناصر السعدي

وتبه الطابع على طبع خاتمة

الأصول وكليات التفسير للحاجة الشديدة إليها.

وقد أبان الشيخ - رحمه الله - عن مقصوده من أفراد هذا الجزء بالطباعة في المقدمة التي كتبها لهذا الجزء^(٢) فقال: (وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه؛ وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً؛ لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا، وهو الاختصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه). وقد طبع هذا المجلد عام ١٣٧٥هـ، ثم بعث الشيخ - رحمه الله - ببقية أجزاء الكتاب للشيخ محب الدين الخطيب - رحمه الله - فأتم طباعة الكتاب كله، فطبع الكتاب في عام ١٣٧٦هـ، وقبل وفاته بشهر تقريباً بعث إلى شيخنا عبدالله بن عقيل رسالة قال فيها: (التفسير مثل ما ذكرت لك، وصلني منه الجزء الأول عدة ملازم من زمان، وبعد ذلك ما جاءنا عنه خبر)^(٣) وبعدها عشرة أيام بعث برسالة أخرى قال فيها: (أفيدكم وصلني ملازم أيضاً من الجزء الثاني، وبقية الجزء الأول من التفسير، ويذكر الشيخ نصيف أنهم إن شاء الله مجتهدون في إنجازهم، يسر الله ذلك وسهله)^(٤). وبهذا يتبين أن الشيخ رحمه الله لم ير الكتاب كاملاً، ويبدو أنه لم يد ملاحظات على ما طبع منه، إذ توفي بعد رسالته السابقة بشهر تقريباً.

وتتميز هذه الطبعة أولاً بالسبق الزمني فإنها أول الطباعات، وهي أصل جميع الطباعات السابقة، فليس هناك طبعة إلا وكان أصلها عائدًا إلى هذه الطبعة. وهي بذلك أسلم من غيرها، وأقل في الأخطاء والتصحيقات والتحريفات، وهذا لا يعني جودتها، وموافقتها للأصل، إذ ثم ملاحظ لا بد من بيانها:

الملحظ الأول:

التصرف في طريقة التفسير في الآيات، حيث يعمد

(١) تصحفت الكلمة في النسخة إلى: (محمد)، لأن الخطاب فيما يظهر منقول عن كتابه الشيخ - رحمه الله - فهو بخط مغاير لخط (٢) انظر نص المقدمة عند أول تفسير سورة الكهف من هذه الطبعة. (٣) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٦). (٤) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٨). (٥) (١/٢٨٨).

وقد تابعت كل الطبعات مقلدة هذا الخطأ .

٢- ومن التعديل ما يكون بدون مسوغ ظاهر أو بمسوغ من وجهة نظر المصحح دون إشارة للتعديل، ومثال ذلك: قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا زَلْنَا عَلَيْكَ عَبْدَانَا﴾ الآية، (وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فأناكم بكتاب زعم أنه من عند الله). غيرت كلمة (زعم) إلى: (أخبركم أنه من عند الله)^(٥).
الملحظ الخامس:

بعض الأخطاء الظاهرة مثل:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْعُدْ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.
(فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة) هكذا في المخطوطتين، وجاء في الطبعة السلفية (فالشرك لا يغفره الله بالتوبة)^(٦) وهذا خطأ شنيع، وعلى ذلك تابعت الطبعات^(٧).

وبعد ظهور هذه الطبعة بسنين، طبع التفسير طبعة أخرى عن طريق المؤسسة السعيدية، التي كلفت الأستاذ محمد زهري النجار بتصحيح الكتاب، والنجار يوصف بأنه من علماء الأزهر، وله بعض الأعمال الأخرى كتصحيحه لكتاب الأم للشافعي، وهذه الطبعة طبعة تميّزت بأنها أضحت الطبعة المعتمدة لسائر طبعات التفسير بعدها، بل اعتمدت طبعا الرئاسة العامة للإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، وقد كان ذلك لإحسانهم الظن في المؤسسة ومصححها، ولقد تبين لي جملة من الملاحظات تظهر عوار تلك الطبعة، أذكر هنا جملة منها:

الملحظ الأول:

اعتماد هذه الطبعة اعتمادًا كليًا على الطبعة السلفية، دون الإشارة إلى ذلك في مقدمة الطبعة، وهذا الاعتماد جعل الملاحظ المذكورة سابقًا على الطبعة السلفية تصدق على هذه الطبعة أيضًا، بل قد زادت طبعة النجار الأمر فجمعت إلى ذلك ملاحظ أخرى أشد وأخطر، ولو أن الطبعة السلفية صورت بدل أن يعهد بتصحيحها إلى النجار لكان الأمر أهون.

فقبل بداية الجزء الثالث كتبوا عنوانًا في وسط الصفحة (الجزء الثالث)^(١) وكذا عند الجزء الرابع، وليس في النسخة المخطوطة شيء من ذلك، ولم يسيروا إلى كونها ليست من كلام الشيخ رحمه الله.

٢- زيادة جملة: (قوله تعالى) أو: (قال تعالى) في مواضع كثيرة، ومن أمثلة ذلك زيادتها في أول سورة النساء، مع أن عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ الكلام بذكر الآيات المفسرة بعد السملة^(٢).

٣- زيادة قوله: من ديارهم، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ الآية، حيث قال الشيخ: (ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضًا، وإذا وجدوا أسيرًا منهم وجب عليهم فداؤه) فزادوا جملة (من ديارهم) فصار النص هكذا: (ولا يخرج بعضهم بعضًا من ديارهم).

٤- ومن أمثلة ذلك قال رحمه الله: (أي ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾ القبيلة المعروفة المشهورة ﴿شعبيًا﴾ فأمرهم).

فعدل النص حتى صار زيادته هكذا: (أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾ القبيلة المعروفة المشهورة أخاهم شعبيًا الذي أمرهم).

وبعدا بقليل قال الشيخ (فكذبوه) فأخذهم عذاب الله. فعدلت فصار (فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أي: عذاب الله^(٣).

وهذا كثيرًا جدًا، وبعض التصرف تصرف مقبول في الأصل؛ للحاجة إليه، أو لخطأ في سياق الكلام، إما بعود الضمير المذكور على مؤنث أو نحو ذلك، وإما بنقص أو نحوه، ولكن هذا التصرف وإن كان مقبولًا في الأصل إلا إنه لم ينبه عليه، ولم يشر المصحح إلى شيء من التغيير.

الملحظ الرابع:

التصحيح في بعض الجمل تصحيحًا خاطئًا - بل ظاهر الخطأ - ومن ذلك:

١- قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيدًا عنه عرفًا، فهذا الذي يجب عليه الهدى).

وقد جاء التعديل عجبًا من العجب حيث غيرت (عنه) إلى عند أو كلمة (عرفًا) إلى (عرفات) فجاء النص هكذا: (بأن كان عند مسافة قصر فأكثر، أو بعيدًا عند عرفات، فهذا الذي يجب عليه الهدى)^(٤).

(١) (١٤٩/١). (٢) المخطوطة ب (٢٣/٢) والطبعة السلفية (٣/٢).
(٣) ينظر الطبعة السلفية (٤٣/٦)، والمخطوطة ب (٣٣/٦). (٤)
المخطوطة ب (٨٢)، الطبعة السلفية، (١١٧/١). (٥) انظر ص ٢٨ من المخطوط (ب) من الطبعة السلفية (٢٧/١). (٦) (١٣٨/١). (٧) ينظر طبعة النجار (٢٨٧/١).

الملحظ الثاني:

التصرف في مواقع الآيات من التفسير:

يشر إلى التصرف، وظاهر من أسلوبه أنه ليس أسلوب الشيخ حيث أتى ببعض الإعرابات والمعاني اللفظية، ثم ذكر المعنى الإجمالي. ومن عجيب أمره أنه في الصفحة (٤٤٩) تصرف تصرفاً يسيراً بأن قدم كلمة على أخرى، وأشار في الهامش إلى ذلك التصرف، ولم يشر إلى تصرفه بزيادة ثلاث صفحات.

٣- في تفسير الآيتين (٥٠، ٥١) من سورة الحج سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم ٥٦ فجمع بينهما وبين هذه الآية فكتب (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم) ثم فسر الآية على وفق ما كتب، فعمد النجار إلى تغيير التفسير والزيادة زيادة طويلة يصل مجموعها إلى صفحة ونصف الصفحة تقريباً^(١) ولم يشر إلى شيء من التعديل.

٤- ومن الزيادات العجيبة أن الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - أورد قوله سبحانه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ من الآية رقم (٢٩) من سورة الدخان، في سياق تفسيره للآية رقم (٤١) من سورة المؤمنون، مستشهداً بها، ولكن يبدو أن النجار ظنّها من السورة نفسها ففسرها تفسيراً من عند نفسه ونسبه إلى الشيخ، ولم يعلق، ولم يبين أنه من كلامه، وهذه الزيادة تقع في صفحة تقريباً^(٢).

ومن عجيب حاله أنه يعلق أحياناً في الهامش على زياداته وكأنها تعليق على كلام الشيخ رحمه الله^(٣).

الملحظ الرابع:

الحواشي والتعقيبات:

لقد قام النجار بتعقب الشيخ رحمه الله في مواضع كثيرة من التفسير ووضع هوامش لتلك التعقيبات فتعدى (مهمته، وتجاوز طوره، فراح يعلق على هذا التفسير القيم بآراء بعدت عن الصواب، وجانبت الحق في أجلى معانيه مما شوّه به هذا الكتاب، وأساء إلى المؤلف، وغش القراء، وأضل الناشئة، كما أنه اعترض على المؤلف، ورد أقواله بآراء من عنده لم يوفق فيها إلى الحق والصواب، مع أنه ليس من حقه ذلك، ولا من مهمته أن يعترض على المؤلف فيما اختاره، وإنما مهمته هي تحقيق النصّ وتصحيحه^(٤).

(والذي في أول الكتاب من هذه التعقيبات اعتراضات بسيطة على عبارة، أو لفظة أو نحوها، أما الذي في وسطه

لقد جرت عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ فيذكر الآيات التي يريد تفسيرها كاملة، ثم يشرح في تفسيرها مجزأة عقب ذلك، وفي بعض الأحيان يقوم رحمه الله بذكر الآيات إذا كانت قصصاً للأنبياء، فيقول إلى آخر القصة، وفي أحيان قليلة يغفل ذكر الآيات كاملة فيشرح في تفسيرها مباشرة، وعلى ذلك يجري سياق التفسير، ولكن النجار عمد إلى جعل الآيات في أعلى الصفحة، وجعل بينها وبين التفسير خطأ، ثم حذف الآيات في التفسير، ومن هنا يأتي اضطراب السياق في بعض الأحيان فيضطر إلى حذف بعض الكلمات، أو الإضافة أو نحو ذلك.

الملحظ الثالث:

التصرف بالزيادة:

إن من أعجب ما عمل النجار أن زاد في التفسير، ففي بعض المواضع ترك الشيخ - رحمه الله - تفسير بعض الآيات سهواً، فيقوم النجار بتفسيرها من عنده.

وفي مواضع أخرى تكون النسخة التي اعتمدت عليها الطبعة السلفية ناقصة؛ لأن الناسخ تجاوز الآيات، فيقوم النجار من قبله بتفسير هذه الآيات. وهذه المواضع كثيرة جداً، تصل في بعض المواقع إلى صفحات، وفي بعضها إلى أسطر، وفي أخرى إلى كلمات، وهذه أمثلة لها:

١- سقط من النسخة الخطية (ب) تفسير الآية (٢٠٧) من سورة البقرة، وهي قول الله عز وجل: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ يَنْسَوْنَ فَنَسُوا بَآيَاتِ اللَّهِ وَمَآ تَرَوْهُ بِآلِيمَاتٍ﴾ وبناء على سقوطها من النسخة سقطت من الطبعة السلفية، فجاء النجار ففسر الآية من عنده، وبدأ بمعاني المفردات، ورجع إلى جملة مراجع؛ كالقاموس والصحاح، وتفسير ابن كثير، ولم يشر إلى أن الكلام من كلامه، وليس من كلام الشيخ - رحمه الله - وقد وقع هذا في صفحتين ونصف من طبعته ابتداء من منتصف الصفحة (٢٥٢) من المجلد الأول إلى نهاية ص (٢٥٤)، والقارئ للكلام يعلم أنه ليس من كلام الشيخ - رحمه الله - لأن الشيخ لا ينقل من مصادر، وإنما يفسر بما فتح الله عليه، كما قرر ذلك في أول الكتاب.

٢- ومن الزيادات الطويلة التي زادها النجار، زيادته في تفسير الآيات رقم (١٠٥-١٠٧) من سورة الأنعام، حيث تجاوزها الشيخ فلم يفسرها، ففسرها النجار في الصفحات ذوات الأرقام (٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢) من الجزء الثاني، ولم

(١) انظر طبعة النجار ٣٠٨/٥، ٣٠٩، وقارنه بما في هذه الطبعة. (٢)

ينظر طبعة النجار (٣٥٠/٥). (٣) ينظر طبعة النجار (٢٥٤/١). (٤)

الشيخ محمد سليمان السام: كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي (٧).

المفقودة». قال في الهامش قوله: «فالشكر فيه بقاء النعم.. الخ» عبر العلماء عن هذا المعنى بقولهم: «الشكر قيد للموجود، وصيد للمفقود»^(٦) فكأنه خطأ الشيخ في اختيار اللفظ، وليس هذا بخطأ، بل الأمر واسع في اختيار اللفظ المناسب.

الملحوظ الخامس:

سوء توزيع النص

حيث قام بإعادة توزيع النص إلى فقرات وعمد إلى أن تكون تلك الفقرات قصيرة جداً، وعليه فقد فرق أجزاء الجملة بين الأسطر، وقطع الكلام عن سياقه إذ نجد فعل الشرط في سطر وجوابه في آخر، والمعلول في سطر وتعليبه في آخر، ولذلك تضخم التفسير جداً مع أن صفحاته يمكن أن تكون أقل من ذلك بكثير، والله أعلم بالهدف من وراء ذلك التضخيم.

إنّ هذه الملاحظ ليست إلا أمثلة دالة على أن عمل النجار لم يكن عملاً أميناً على هذا التفسير.

وبمجمّل هذا العرض يتضح أن التفسير لم يخرج بصورته التي كتبها الشيخ - رحمه الله - إذ جميع الطبقات كانت نسخاً مكرورة عن طبعة النجار، التي اعتمد فيها صاحبها على الطبعة السلفية، والطبعة السلفية اعتمدت على النسخة الثانية التي لم تكن بخط الشيخ، وكان فيها بعض النقص وبعض التحريف من النساخ.

ولما كان الأمر بهذه الصورة التي تظهر الحاجة الماسة إلى إخراج هذا التفسير المبارك إخراجاً علمياً مصححاً كما أراه الشيخ رحمه الله، فقد عمدت إلى العمل ثلاث سنين في هذا الكتاب راجياً أن يكون العمل ساداً للثلمة ومبرئاً للذمة.

العمل الذي قمت به:

لقد منّ الله عليّ بأمر لم يتوفر لمن اعتنى بهذا التفسير من قبل، وهو الحصول على النسخة (أ) التي كانت بحوزة الشيخ - رحمه الله - وتحت نظره ومحل عنايته إلى أن توفي، وهي في الجملة أسلم من النسخة (ب) التي كانت أصل جميع الطبقات، ولما بدأت في العمل كان الهدف الذي سعيت إليه جاهداً هو: إخراج التفسير كما كتبه الشيخ - رحمه الله - دون تعديل أو تبديل، أو زيادة أو نقص، وعلى ذلك قمت بما يلي:

أولاً: نسخ التفسير كما هو، ويتضمن ذلك: إثبات الآيات

وآخره فهي اعتراضات وخيمة تحريف لكلام الله، وغلو في الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وتنقص للعلماء وكذب عليهم^(١).

ولقد كان في معظم تعليقاته متهماً للشيخ وأسلوبه، وهذه بعض تعبيراته التي تظهر ذلك قال: (والعبارة قلقة كما ترى)^(٢)، (العبارة مبهمة تحتاج إلى إيضاح)^(٣)، (العبارة فيها شيء من الاضطراب فالأوضح أن يقال)^(٤)، (وفي العبارة غموض كما ترى)^(٥).

ولقد أبان الشيخ محمد بن سليمان البسام عوار تلك التعقبات بياناً شافياً في رسالة مستقلة عنوانها: (كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي).

وذكر أمثلة كثيرة دالة على أخطاء النجار فيما زعمه من أخطاء وقع فيها الشيخ - رحمه الله - وأكفي بالإحالة على تلك الرسالة الماتعة، ففيها نقد علمي قوي لأخطاء ظاهرة وقع فيها النجار، وأشير هنا إلى ثلاث تعقبات فقط أبين من خلالها شيئاً يسيراً من سوء صنيع النجار، وأما التعقبات التي تحتاج إلى نقد علمي فأحيل فيها إلى رسالة الشيخ محمد البسام.

١- وقوع النجار في الخطأ ثم تخطئة الشيخ رحمه الله به: قال الشيخ - رحمه الله - في تفسيره قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَيْثُ تَرَكَهُ زَوْجًا عَيْرًا﴾ «أي نكاحاً صحيحاً ويطأها؛ لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق هكذا في النسختين، وفي الطبعة السلفية التي اعتمد عليها النجار، ولكنه أسقط (إلا) فصارت العبارة: «لأن النكاح الشرعي لا يكون صحيحاً» وهذا فعله، وليس فعل الشيخ - رحمه الله - ثم قال النجار في الهامش قوله: «لأن النكاح الشرعي الخ» في العبارة اضطراب، والصواب أن يقال: «لأن النكاح الشرعي الصحيح، يدخل فيه العقد والوطء بإجماع العلماء» فأخطأ النجار ثم خطأ الشيخ، وعدل خطأ الشيخ بزعمه.

٢- إقحام تعليقات لا محل لها، فمن ذلك: قال الشيخ - رحمه الله - «والظلم الذي بين العبد وربّه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة». قال النجار: (وفي هذا المعنى قال صاحب جوهره التوحيد:

ومن يمت ولم يتب من ذنبه

فأمره مفروض لربه

٣- الاستدراك في غير محله: قال الشيخ - رحمه الله - «الشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم

(١) المصدر السابق (٩). (٢) (١٠٤/١). (٣) (١٥٩/١). (٤) (٤) /١

(٥) (٢٤٠). (٦) (١٧٥/١). (٧) (٣٤٦/١).

المفسرة كما كتبها الشيخ - رحمه الله - فحين يورد الآيات كاملة، وأردها كاملة كما فعل، وحين يورد جزءاً منها ويقول: إلخ القصة، أثبتنا على هذا الوجه، وحين تفتقر النسختان أطبق قواعد المقابلة التي سأبينها لاحقاً بحول الله، وقد راعيت في النسخ ما يلي:

١- توزيع النص توزيعاً جيداً، بحيث يكون تقسيم فقرات الكلام وأجزائه متصلاً بمعانيه، واجتهدت ألا أقطع السياق الواحد بين فقرتين مختلفتين، وأن أبدأ تفسير الآية أو الآيات من أول السطر.

٢- ترقيم الآيات المفسرة في بداية تفسيرها، وهذا لم يكن من عمل الشيخ - رحمه الله - ولكن وجدته مهماً لأجل سهولة معرفة مواضع الآيات.

٣- تصحيح بعض الأخطاء الإملائية الظاهرة التي لا تخفى على الشيخ - رحمه الله - ولكنها سبق قلم.

ولقد حرصت على عدم التدخل في التفسير والتعديل فيه بأي وجه من الوجوه إلا في ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون الخطأ في الآيات، فهنا أثبت الصواب، ولا ألتفت إلى الخطأ، ولكن في بعض الأحيان يحدث أن يكون قلم الشيخ سبق إلى آيات في غير السورة، أو في السورة نفسها، وليست في ذلك الموضوع، ثم يفسر الآيات التي كتب، فأثبت الصواب في الآيات، وأبقي التفسير كما هو، وأشير إلى ما عملت في الهامش.

الثانية: أن يكون الخطأ ظاهراً، ولا يمكن أن يقبل به المؤلف - رحمه الله - فهنا أثبت التعديل الذي أراه صواباً، وأشير في الهامش إلى ما في الأصل من خطأ، أو سبق قلم.

الثالثة: أن يكون التعديل طفيفاً كأن يكون تعديلاً في ضمير فيقول: (خالقهما) والصواب (خالقها) أو العكس أو يقول (التي) والصواب (الذي) ونحو ذلك، فهنا أصوب الكلام، وأشير في أحيان يسيرة إلى ما عملت، خاصة وأن الشيخ - رحمه الله -: (كان سريع الكتابة، ويكتب بخط دقيق، وبدون نظارة، لكنه على قاعدة صحيحة^(١)) وكانت جل عنايته بالمعاني، ولذلك قال في رسالة للشيخ عبدالله بن عقيل - حفظه الله - (فحسن الإملاء والنجوى مع المعاني أولى من اعتبار حسن الخط، فذاك أهميته بالنسبة لحسن الإنشاء قليلة)^(٢).

ثانياً - المقابلة:

وابتغاء توضيح الأمر أبين ما قمت به في نقاط:

أولاً: اعتمدت النسخة (أ) وجعلتها أصلاً لأمر:

الأول: أن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله -

والثاني: أنها النسخة التي كانت بيد الشيخ - رحمه الله - إلى حين وفاته.

الثالث: أنها سالمة من التعديل والشطب للذين وقعا من النسخ أو الطابعين أو المصححين بعكس النسخة (ب)، فإن هذه النسخة سلمت للمطبعة السلفية، فكان المصححون للطبعة يعدلون عليها ويشطبون، بل تجد على هامشها أسماء (عمال الصف) فنجد اسم (محمود) أو فلان منهم، وذلك لتوزيع العمل عليهم، بينما النسخة (أ) لم تمسها الأيدي بشطب أو تعديل.

الرابع: سلامة هذه النسخة من الخروم والنقص، لأن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله - بينما النسخة (ب) كتب معظمها بخطوط النسخ فوق فيها بعض النقص والخروم.

الخامس: أنها أجود كثيراً من النسخة الأخرى في إملائها، بينما تجد في النسخة (ب) أخطاء ظاهرة.

ثانياً: يلاحظ أنني ذكرت في وصف النسختين أن معظم النسخة الأولى كان بخط الشيخ - رحمه الله - وأن النسخة الثانية في جملتها بخطوط النسخ، وهذا توضيح تفاوت الكتابة على التفصيل، مع بيان ما قمت به حيال ذلك التفاوت:

١- أجزاء كانت في النسختين بخط الشيخ - رحمه الله - وذلك مثل كثير من المجلد الأول، والمجلد الثامن، والتاسع، وفي هذه الأجزاء يلاحظ وجود الإشكالات الآتية:

(أ) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد فسر الآيات من قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي تَقُومُونَ﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٣٨، إلى نهاية تفسير قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ رَّحِيمٌ﴾ سورة آل عمران، الآية:

١٢٩ تفسيراً جيداً فليس ما في النسختين متوافقاً، بل هو متغاير من حيث الألفاظ والصياغة والأسلوب، وكأن الشيخ - رحمه الله - كتب ذلك مرتين، ولم يكن هناك احتمال لأن يكون الكلام ليس بكلامه، لأن ما في النسختين بخطه - رحمه الله - وروح الكلام وأسلوبه هو ذات أسلوب الشيخ - رحمه الله - وقد قلبت النظر بين خيارات عدة، وكان ما استقر الرأي عليه أن أجعل في صلب التفسير ما كان في النسخة (أ) وهي النسخة التي توفي الشيخ - رحمه الله - وهي في بيته، وأما ما

(١) الشيخ عبدالله بن عقيل: الأجوبة النافعة (المقدمة) (٧). (٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٦٧).

بقراءة الكتاب لمريد الاستفادة، وأما الفهارس التفصيلية للآيات والأحاديث والأعلام أو القبائل. ونحوها، فإن طبيعة التفسير لا تدل على الحاجة لذلك، وإن عمل على هذا التفسير فإنما هذا العمل نوع من التزويد والتبكر لا حاجة له.

وبعد فهذا الجهد الذي بذلت، وهو جهد استغرق ثلاثة أعوام قرأت فيها التفسير قراءة مقابلة ثلاث مرات، واجتهدت في إخراج التفسير على أتم الوجوه قدر الإمكان. وما كان لي أن أصل إلى هذا لولا فضل الله عز وجل، فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

ثم الشكر من بعد لمن كان عوناً لي في إخراج هذا التفسير بأي وجه من أوجه العون، وأخص بالذكر صاحبي الفضيلة العالمين الجليلين: الشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبدالله بن عبد العزيز بن عقيل. وفضيلة والدي الكريم الشيخ معلا اللويحق، والمشايخ الفضلاء: الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر الذي أعانني على الحصول على النسخة الثانية (ب) لمخطوط التفسير، وأبدى من جميل الملحوظات ما كان عوناً لي على ضبط العمل، والدكتور خالد السبت، الذي كانت مهاتفاته بداية حفز لإعادة العمل في التفسير، والشيخ صالح الهدان، والشيخ عبد الرحمن الراجحي، والشيخ محمد الخضيري، والإخوة الذين عملوا معي في المقابلة فأمضوا وقتاً طويلاً في سبيل ذلك، وبذلوا جهداً لا أنساه في إعانتني: الشيخ إدريس حامد محمد، والشيخ تراوري مامادو، والأخ فيصل بن طلع المطيري، فللجميع مني الشكر والعرفان والدعاء بالتوفيق والتسديد.

وأسال الله المغفرة عما وقع من تقصير، واستمد منه العون فهو وحده المستعان.
والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتب

عبد الرحمن بن معلا اللويحق المطيري

بعد عشاء ليلة الثامن والعشرين

من شهر ذي القعدة عام ١٤١٩ هـ

في النسخة (ب) وهو المطبوع في طبعات الكتاب السابقة فقد جعلته في ملحق في آخر التفسير.

(ب) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد الثامن من بداية سورة الحجرات وحتى نهاية التفسير نسخ التفسير بخطه نسخة ثانية، ولكنه كان يعدل في الألفاظ ويزيد في الكلمات وينقص منها، ولذلك تفاوت حجم المقابلة بين بعض أجزاء الكتاب بشكل واضح، حيث تجد فروقاً كبيرة بين النسختين في أجزاء، ولا تجد إلا اليسير من الفروق في أجزاء أخرى.

(ج) أن بعض الأجزاء كانت في النسخة (أ) بغير خط الشيخ - رحمه الله - وفي النسخة (ب) بخط الشيخ - رحمه الله - كما في المجلد السادس، وهنا كثرت الأخطاء في النسخة (أ) وقلت في (ب) فاستفدت من (ب) في المقابلة، وجعلت جل اعتمادادي عليها، إذ هي أصح لولا ما عابها من تعديلات مصححي المطبعة السلفية عليها.

ثالثاً: الزيادات: جاءت زيادات في إحدى النسختين عن الأخرى، وقد جعلت الزيادات بين قوسين مركنين [] وهي على ثلاثة أنواع:

الأول: الزيادات التي في الأصل على (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، دون إشارة في الهامش إلى شيء.

الثاني: الزيادات التي في (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، وأشرت إلى الزيادة في الهامش بقولي: زيادة في ب، وهذا النوع من الزيادات يكثر في الأجزاء التي كانت بخط الشيخ - رحمه الله - في النسختين كليهما.

الثالث: الزيادات التي جعلتها لاقضاء السياق وعدم استقامته بدونها، فقد جعلتها بين قوسين مركنين، وأشرت إلى الزيادة في الهامش بقولي: (زيادة يقتضيها السياق).

وبعد، فيلاحظ أنني لم أثبت تخريج الأحاديث في الكتاب، لأن ما في الكتاب من الأحاديث ليس بالكثير، ومعظم ما نقل - رحمه الله - هو من صحيح البخاري ومسلم، كما لم أفهرس فهرسة تفصيلية، لأن الفهرسة التي يمكن أن يستفاد منها هي الفهرسة الموضوعية للفوائد الإيمانية، والتربوية، والسلوكية، والعلمية، ونحوها التي في الكتاب، وإذا نظرنا إلى الفهرسة بهذا الاعتبار، فإن الكتاب يحتاج إلى فهرسة كبيرة وطويلة جداً، يمكن الاستغناء عنها

تنبيه

اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة، لأن الله وصف هذا الكتاب أنه (مثنوي) تنبئ فيه الأخبار والقصص والأحكام، وجميع المواضيع النافعة لحكم عظمة، وأمر بتدبره جميعه، لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها^(١).

(١) هذا التنبيه جعله الشيخ - رحمه الله - على غلاف المجلد الأول فصدرت به التفسير كما فعل - رحمه الله - .

مقدمة المؤلف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والاهتداء بها .

وكان حقيقاً بالبعد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك .

وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطوّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مُقْصِرٍ، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية . [يقطع النظر عن المراد^(٤) .

وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه . فينظر في سياق الكلام، وما سبق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سبق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يُعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها .

فمن وفق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه .

ولما منّ الباري عليّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللانقطة [بنا] أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر، وما منّ به الله علينا، ليكون تذكرة للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعونة للسالكين، ولاقيده خوف الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذي ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً .

والله أرجو، وعليه أعتد، أن يسر ما قصدت، وبذل ما أردت، فإنه إن لم يسره الله، فلا سبيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله .

وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم . اللهم صل على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا .

(١) في ب : وأسقامها . (٢) في ب : بيميز . (٣) في ب : وأنزله . (٤) زيادة من هامش ب، مشطوبة من أ .

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل .

وجعله برحمته هدىً للناس عمومًا، وللمتقين خصوصًا، من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم، وأنزله شفاءً للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات، وشفاءً للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وسقمها^(١) .

وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم في أخباره، وأوامره، ونواهيها، وأنزله مباركًا، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه، وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما يشهد له فهو الحق، وما ردّه فهو المردود، لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه :

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ فهو هادٍ لدار السلام، مبين لطريق الوصول إليها، وحاثٌ عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذّر عنها، وقال تعالى مخبرًا عنه : ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فبين آياته أكمل تبين، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتبيين^(٢) الحق من الباطل والرشد من الضلال، تفصيلًا كاشفًا للبس، لكونه صادرًا من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية .

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه «مجيد»، والمجد : سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها، ووصفه بأنه «ذو الذكر» أي : يُتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى .

وقال تعالى : ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فأنزله^(٣) بهذا اللسان لنعقله وتفهمه، وأمرنا بتدبره والتفكير فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار . فله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونورًا، وتبصرة وتذكرة، وبركة، وهدى وبشرى للمسلمين .

فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه

فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن

من بدائع الفوائد

لابن القيم رحمه الله تعالى^(١)

لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١﴾ .

وقد لا يعم كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾

فصل

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب، من ذمّه لمن خالفه، وتسميته إياه عاصياً، وترتيبه عليه العقاب بالعاجل أو الآجل .
ويستفاد كون النهي للتحريم، من ذمّه لمن ارتكبه، وتسميته عاصياً، وترتيبه العقاب على فعله .

ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتب، ولفظه «على»، ولفظه: حق على العباد وعلى المؤمنين .

ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل .
وقوله: «لا ينبغي» فإنها في لغة القرآن والرسول للممتنع عقلاً وشرعاً .

ولفظه «ما كان لهم كذا وكذا» و«لم يكن لهم»، وترتيب الحدّ على الفعل، ولفظه «لا يحل» و«لا يصلح»، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يحبّه ولا يرضاه لعباده، ولا يزيه فاعله ولا يكلمه ولا ينظر إليه ونحو ذلك .

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجناح والحرّج والإثم والمواخذة، والإخبار بأنه يعفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإلحاح على من حرّم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به، وإخباره عن فعل من قبلنا، غير ذام لهم عليه .

فإن اقترن بإخباره مدح، دلّ على رجحانه استحباباً أو وجوباً .

فصل

وكل فعل عظّمه الله ورسوله، أو مدحه، أو مدح فاعله

(١) جاءت هذه الفوائد في أ: بعد تفسير سورة الفاتحة، وقد كتب الشيخ - رحمه الله - في هامش النسخة: (حق هذه المقدمة أن تتقدم على الفاتحة). (٢) كتبت الكلمة مرتين مرة بالافراد، ومرة بالجمع، وجاء في هامش أ ما نصه: (قرأ أهل البصرة وحضص (وكتبه). وقرأ الآخرون (وكتابه) على التوحيد).

[فصل] التّكْرَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ تَعْمٌ، مُسْتَفَادٌ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَلَا يَطْلُبُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لِمَ سَخَبْنَا فِيهِ﴾ وفي الشرط من قوله: ﴿فَأَمَّا تَرِينٌ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾، ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ وفي النهي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَمِسْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ .

وفي سياق الإثبات، بعموم العلة والمقتضى كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ﴾ .

وإذا أضيف إليها «كل» نحو ﴿وَمَدَّتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَنَهَيْدٌ﴾ ومن عمومها بعموم المقتضى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾

فصل

ويستفاد عموم المفرد المحلّي باللام من قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَسِرٌ﴾ وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتٍ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾ (وكتابه)^(٢) .

وقوله: ﴿هَذَا كُنْتُمْ بَطَلٌ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم، وعموم الجمع المحلّي باللام من قوله: ﴿وَإِذَا أَرْسَلْنَا أَقْنَتَ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ يَمِينَهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخرها .
والمضاف من قوله: ﴿كُلُّ ءَامَنٍ بِاللَّهِ وَمَلَيْكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ .

وعموم أدوات الشرط من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَحَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ وقوله: ﴿فَنَنْزِلُ عَلَيْهِمْ مِقْطَالًا دَرَّةً حَيْرًا يَرْتَدُّ﴾ [وقال] ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ حَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿أَتَيْنَا تَكْوِينًا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾ وقوله: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَرْقًا﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آبَائِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ هذا إذا كان الجواب طلباً مثل هاتين الآيتين .

فإن كان خبراً ماضياً، لم يلزم العموم، كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا بَحْرَةَ أَوْ مَرَاً أَنْفَضُوا إِلَيْهَا﴾، ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الْمُتَنَفِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾

وإن كان مستقبلاً، فالتزموا ردّ العموم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَانُوا مِنْكُمْ أَوْ ذُرُوعُهُمْ يُحْشِرُونَ﴾ .

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُوا بِهِمْ يَنْغَارُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ

بين المسلمين، أو قيل لفاعله: «هل أنت منتو» أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاداً، أو طرداً، أو لفظة «قُتل من فعله»، أو «قاتل الله من فعله»، أو أخبر أن فاعله «لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزيكه»، أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نَبَّه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلاً، أو أخبر أن من فعله قِيض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سبباً لإزاعة الله قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آياته، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل «لم فعل» نحو: ﴿لَمْ تَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾، ﴿لَمْ تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَطْلِ﴾ ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾، ﴿لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ ما لم يقترون به جواب من المسؤول^(٦) فإذا قرن به جواب، كان بحسب جوابه.

فهذا ونحوه، يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرده من دلالته على مجرد الكراهة. وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروهه، فأكثر ما يستعمل في المحرّم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه. وأما لفظة «وأما أنا فلا أفعل» فالمتحقق^(٧) منه الكراهة كقوله: «أما أنا فلا أكل متكئاً».

وأما لفظة «ما يكون لك» و«ما يكون لنا» فاطرده استعمالها في المحرّم، نحو ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا﴾، ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا يَسَّرُ لِي بِحَيٍّ﴾.

فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، و«إن شئت فافعل» و«إن شئت فلا تفعل»، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: ﴿وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمَنْعًا إِلَى حِينٍ﴾ ونحو ﴿وَيَالْتَحِمَ هُمْ بِنُذُورِهِمْ﴾.

ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

فائدة

التعجبُ كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو «عَجِبَ رَيْكُ من شاب ليست له صبوة» ونحوه، قد يدل على بغض الفعل كقوله: ﴿وَإِنْ تَصَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ وقوله: ﴿بِكَلِّ عَجِبْتِ شَيْءٌ﴾ أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرَنَ بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنهما^(٥) بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء

لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحبَّ فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحسن، أو نصبه سبباً لمحبهته، أو لثواب عاجلٍ أو آجلٍ^(١)، أو نصبه سبباً لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله^(٢) بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفى الحُزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قرينة، أو أفسم به أو بفاعله، كالقسم بخيل المجاهدين وإغارتها^(٣)، أو ضحك الرب جل جلاله من فاعله، أو عجبه به، فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الجواب والندب.

فصل

وكل فعل طلب الشارع تركه، أو ذم فاعله، أو عيب عليه، أو مقت فاعله، أو لعنه، أو نفى محبته إياه، أو محبة فاعله، أو نفى الرضا به، أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهايم أو الشياطين، أو جعله مانعاً من الهدى، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سبباً لنفي الفلاح، أو لعذاب عاجلٍ أو آجلٍ، أو لدم أو لوم، أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بخبيث^(٤)، أو رجس، أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثماً، أو سبباً لإثم أو رجس، أو لعن أو غضب، أو زوال نعمة، أو حلول نقمة، أو حد من الحدود، أو قسوة، أو خزي، أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله أو محاربهته، أو الاستهزاء به وسخريته، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه، أو الصفح أو الحلم عنه، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخبث أو احتقار، أو نسبة إلى الشيطان وتزيينه، أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم، مثل كونه ظلماً أو بغيّاً، أو عدواناً أو إثماً، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سبباً لخبيث فاعله عاجلاً أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو الله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه: «لا ينبغي هذا» أو «لا يصلح» أو أمر بالثقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعله في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه «ليس من الله في شيء» أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرَنَ بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنهما^(٥) بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبغضاء

(١) في ب: أو لثواب عاجلاً أو آجلاً. (٢) في ب: فاعليه. (٣) في ب: وإثارتها. (٤) في ب: بالخبيث. (٥) في ب: عنه. (٦) في ب: من السؤال. (٧) في ب: فالمحقق.

وَيَسْخَرُونَ ﴿١﴾. وقوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنَالُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾.

وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه، كقوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾

ويدل على حسن المنع منه قدرًا، وأنه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾

فائدة

نفي التساوي في كتاب الله، قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: ﴿أَجْعَلْنَاهُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية.

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

وقد يأتي بين الجزأين كقوله: ﴿لَا يَسْتَوِي أَعْدَابُ النَّارِ وَأَعْدَابُ الْجَنَّةِ﴾.

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ○ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ﴾ الآيات.

فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور:

التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقريب، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبه للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر.

فائدة

السياق يرشد إلى بيان المفضل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم^(١) احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ كيف تجدد سياقه يدل على أنه الدليل الحقيق.

فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئةً وتقدمةً لإبطال ما بعده.

ومنها: أن يكون موعظةً وتذكير.

ومنها: أن يكون شاهدًا على ما أخبر به من توحيده،

وصدق رسوله،

وإحياء الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه.

وغير ذلك من الفوائد.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو في غاية النفاسة، والاشتمال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن، فجزاه الله خيرًا.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثبتت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير، تدل على محبة الله ورضاه وأنها محمودة، والصفات التي يوصف بها أهل الشر، تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أولياءه من الثناء الحسن بين عباده، فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة، فيكون عقابًا معجلًا.

ومنها: أن فيه حثًا للنفوس على الاقتداء بأهل الخير ومنافستهم، وتنشيط العمال على الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله.

وفيه الترهيب من أفعال أهل الشر، وتبغيض المعاصي التي أثمرت مع عاملها ما أثمرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم.

وقد حثَّ تعالى على الاعتبار، في غير موضع من كتابه. وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء، وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا رأى^(٢) أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها، أوجب له ذلك الإزراء على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساده، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله، وتقديسه عن

(١) كذا في ب، وفي أ: بعد. (٢) في ب: نظر إلى.

النقائص، وفي ذلك فوائد عظيمة:

منها: أن هذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق.

فلاشتغال بفهمه والبحث التام عنه، اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلى عباده، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعبده ويعرفوه، فهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فلاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له. وقبيح بعيد، لم تزل نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيمًا من كل وجه، أن يكون جاهلاً بربه معرضًا عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان بمجرد قوله: «أمنت بالله» من غير معرفة بربه.

بل حقيقة الإيمان، أن يعرف الرب الذي يؤمن به، ويبدل جهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه، وكلما نقص نقص.

وأقرب طريق يوصله إلى ذلك، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن.

والطريق في ذلك، إذا مر به اسم من أسماء الله، أثبت^(١) له ذلك المعنى وكماله وعمومه، ونزهه^(٢) عما يضاف ذلك.

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة.

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام، إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله.

فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة. وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينه عليه لوضوحه:

وكيف يصح في الأذهان شيء

إذا احتاج النهار إلى دليل

ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين، وما أرسلوا به، وما جرى لهم مع أممهم. وفي ذلك عدة فوائد:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم. وكلما كان المؤمن بذلك أعرف، كان أعظم إيمانًا بهم، ومحبةً لهم، وتعظيمًا لهم، وتعزيرًا وتوقيرًا.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا - خصوصًا النبي محمد ﷺ - معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولًا منهم يزيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المرابون للمؤمنين، الذين ما نال المؤمنون^(٣) مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على أيديهم وبسببهم.

فقيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيه ومزكيه ومعلمه. وإذا كان من المستنكر جعل الإنسان بحال أبويه ومباعدته لذلك، فكيف بحالة الرسول، الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي، الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى!!؟

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وجرى عليهم، تحصل للمؤمن^(٤) الأسوة والقدوة، وتخف عنه كثير من المقلقات والمزعجات، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

ومن أعظم الاقتداء بهم، الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ، معرفة الآيات القرآنية المنزلة عليه وفهم المعنى. والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافًا كثيرًا.

فلو أراد إنسان^(٥) أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من

(١) في ب: أن يثبت. (٢) في ب: وينزهه. (٣) كذا في ب، وفي أ: المؤمن. (٤) في ب: للمؤمنين. (٥) في ب: الإنسان.

المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر؛ كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المقطعة. وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والحيرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن، فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحسوب المطلوب، بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله، في المجازاة على الأعمال الصالحة والسيئة، الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله.

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب، يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة الثقلية.

وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين، والجهابذة الراسخين، والعقلاء المستبصرين، وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية، والقواطع البرهانية، ما لو جمع ما عند جميع المتكلمين من حق، لكان بالنسبة إليه كنفرة عصفور بالنسبة لماء البحر؛ ذلك بأن القرآن هو الحق، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح، فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقاً للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه، وكونه هو الطريق للهلاك، ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية، وحث على الآداب ومكارم الأخلاق، رأيته ينه العقول الثيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم، ما يجزم بأنه^(١) لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث، أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر، والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتزويجهم عنها، وتكريمهم

(١) في ب جاءت الجملة هكذا (ما في كثير من التفسير من الأغلاط التي ينزه عنها كلام الله) وقد شطبت هذه الجملة، وكتب الشيخ - رحمه الله - في الهامش بدلاً عنها ما يلي (كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوقع الخلل الكثير). (٢) زيادة من هامش ب. (٣) زيادة من هامش ب. (٤) في ب: إيمان العبد به. (٥) في ب: أن معرفة ذلك (٦) كذا في ب، وفي أ: به أنه.

دون معرفة منه لذلك، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله، وعلى مراد الله من كلامه، شيء كثير.

وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفاسير من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله^(١)، وغير ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك.

ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده؛ الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعلمها وتعليمها.

ولا سبيل إلى امتثالها، [أو اجتنابها]^(٢) إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها [أو تركها]^(٣) وذلك أن المكلف إذا أمر بأمر، وجب عليه أولاً معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل.

فإذا عرف ذلك استعان بالله، واجتهد في امتثاله بحسب القدرة والإمكان.

وكذلك إذا نهى عن أمر من الأمور، وجب عليه معرفة ذلك المنهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مستعيناً بربه على تركه، امتثالاً لأمر الله، واجتناباً لنهيه، وامتثال الأمر، واجتناب النهي، كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعو له، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه، أو أخبر به رسوله من أهوال الموت، والقبر والموقف، والجنة والنار، وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان الستة، التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله، ازداد إيمانه^(٤).

ومنها: أن العلم بذلك^(٥) حقيقة المعرفة، يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الانكشاف عن

وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء، فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة، إيجازاً غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة، إن شاء الله، ينبغي استقراؤها في [كل] مواردنا، والتنبيه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات، انتفع بها نفعاً عظيماً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وتعلية أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملات^(١) على الصلاح، والمحرمات مشتملات^(٢) على المفاسد.

وإن شرع في الحجاج للمبطلين، وتزييف شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحججة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت، تبينت هباءً منثوراً.

ورأيته يسوق البراهين العقلية، بأوضح عبارة وأوجزها

(١) في ب: مشتملة. (٢) في ب: مشتملة.

واعتبار.

﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بمالكيه بجميع أنواع التصرفات، وأضاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يُدان الناس فيه بأعمالهم، خيرا وشرها، لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق، حتى إنه] يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد والأحرار، كلهم مدعون لعظمته، خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم المعمول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور، ونفيه عما عداه، فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وقدم^(٢) العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتماما بتقديم حقه تعالى على حق عبده، و«العبادة» اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، و«الاستعانة» هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع، ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصودا بها وجه الله، فهذهين الأمرين تكون عبادة، وذكر «الاستعانة» بعد «العبادة» مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر، واجتناب النواهي.

ثم قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دُلْنَا وأرشدنا، ووقفنا إلى الصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط، لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا. فهذا الدعاء من أجمع الأدعية، وأنفعها للعبد،

(١) في ب: فله. (٢) في ب: وتقديم.

تفسير سورة الفاتحة

وهي مكية

(٧-١) ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ○ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ○ مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ ○ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ○ أِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ○ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي: أبتدئ بكل اسم الله تعالى، لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء [الحسنى] ﴿الله﴾ هو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة، لما اتصف به من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال، ﴿الْكَرِيمُ الرَّحِيمُ﴾ اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمتقين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهؤلاء لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم، فلهم^(١) نصيب منها.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً، بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالمرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء، يقال في العليم: إنه عليم ذو علم، يعلم [به] كل شيء، قدير: ذو قدرة يقدر على كل شيء.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [هو] الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه. ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الرب: هو المرابي جميع العالمين - وهم من سوى الله - بخلقه لهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى.

وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة. فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأولياته، فيرببهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم لهم ويدفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحققتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر، ولعل هذا [المعنى]، هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربيته الخاصة.

فدل قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على انفراده بالخلق والتدبير والنعم وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه، بكل وجه

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ①

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ②

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ⑦

ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك.

وهذا الصراط المستقيم هو: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿غَيْرِ﴾ صراط ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، وغير صراط ﴿الضَّالِّينَ﴾ الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وتوحيد الإلهية، وهو إفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: ﴿الله﴾ ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتتها لنفسه، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ ﴿الْحَمْدُ﴾ كما تقدم.

وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وأن الجزاء يكون بالعدل؛ لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافاً للقدرية والجبرية. بل تضمنت الردّ على جميع أهل البدع [والضلال] في قوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ لأنه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع [وضال] فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادةً، واستعانةً في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالحمد لله رب العالمين.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

تفسير سورة البقرة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى

لِّلْمُتَّقِينَ ۝ ١ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ٢ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ ٣

أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ

هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ٤

(٥-١) ۝ الْم ۝ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝
 الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝
 وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ
 هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝
 تقدم الكلام على البسملة، وأما الحروف المقطعة في أوائل
 السور، فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها [من غير
 مستند شرعي] مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثاً، بل
 لحكمة لا نعلمها.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ الْكِتَابُ﴾ أي: هذا الكتاب العظيم الذي
 هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه
 كتب المتقدمين، من العلم العظيم، والحق المبين ﴿لَا رَيْبَ
 فِيهِ﴾ ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه يستلزم
 ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على
 علم اليقين المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة أن النفي
 المقصود به المدح، لا بد أن يكون متضمناً لضده، وهو
 الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه.

فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا
 باليقين قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ والهدى: ما تحصل به الهداية
 من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة،
 وقال: ﴿هُدًى﴾ وحذف المعمول، فلم يقل: هدى للمصلحة
 الفلانية، ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنه هدى
 لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل
 الأصولية والفروعية، ومبين للحق من الباطل، والصحيح من
 الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في
 دنياهم وأخراهم.

وقال في موضع آخر: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ فعمم، وفي هذا
 الموضع وغيره ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ لأنه في نفسه هدى لجميع
 الخلق، فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً، ولم يقبلوا هدى الله،
 فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقاؤهم، وأما
 المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية، وهو
 التقوى التي حقيقتها: اتخاذ ما بقي سخط الله وعذابه، بامتثال
 أوامره، واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية

الانتفاع، قال تعالى: ﴿تَأْتِيهَا الْبُيُوتُ عَامِتُونَ إِنْ تَسْقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ
 لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية، والآيات
 الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق،
 فالمتقون حصلت لهم الهدايتان، وغيرهم لم تحصل لهم
 هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها، ليست
 هداية حقيقية [تامة].

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة، والأعمال
 الظاهرة، لتضمن التقوى لذلك، فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ
 بِالْغَيْبِ﴾، حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به
 الرسل، المتضمن لانتقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان
 بالأشياء المشاهدة بالحس، فإنه لا يتميز بها المسلم من
 الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم
 نشاهده، وإنما نؤمن به لخبر الله وخبر رسوله.

فهذا الإيمان الذي يميز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق
 مجرد لله ورسوله، فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر
 به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو

فالمتمقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بجحده أو تأويله على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من المبتدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً.

وقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يشمل الإيمان بالكتب^(٣) السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسول وبما اشتملت عليه، خصوصاً التوراة والإنجيل والزيور، وهذه خاصة المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب السماوية^(٤)، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: ﴿وَالْآخِرَةُ هُمْ يُوْقِنُونَ﴾، و«الآخرة» اسم لما يكون بعد الموت، وخصه بالذكر بعد العموم؛ لأن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، و«اليقين» هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: على هدى عظيم، لأن التنكير للتعظيم، وأيُّ هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة، وهل الهداية [الحقيقية] إلا هدايتهم، وما سواها [مما خالفها] فهو^(٥) ضلالة.

وأتى ب«على» في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي ب«في» كما في قوله: ﴿وَلَيْتَآ أَوْ لِيَأْكُمَّ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ لأن صاحب الهدى مستعل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محتقر.

ثم قال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح [هو] الفوز بالمطلوب والنجاة من المرهوب، حصر الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبيل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك، فلهذا، لما ذكر صفات المؤمنين حقاً، ذكر صفات الكفار المظهرين لكفرهم المعاندين للرسول، فقال:

(٧، ٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا، أي: اتصفوا بالكفر، وانصفوا به، وصار وصفاً لهم لازماً، لا يزدعهم عنه

لم يهتد إليه عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين للأمر الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تهتد إليها فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومرجت أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

ويدخل في الإيمان بالغيب، [الإيمان ب] جميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها، [وما أخبرت به الرسل من ذلك]، فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها وإن لم يفهموا كيفيتها.

ثم قال: ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطناً^(١) بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان^(٢) من صلاته، إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قرينة إلى الله، وأتى ب«من» الدالة على التبعية، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل يتنفعون هم بإنفاقه، ويتنفع به إخوانهم.

وفي قوله: ﴿رَزَقْنَاهُمْ﴾ إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملككم، وإنما هي رزق الله الذي خولكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفضلكم على كثير من عباده فاشكروهم بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين.

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾،

(١) كذا في ب، وفي أ: وباطنها. (٢) في ب: للبعد. (٣) في ب: بجميع الكتب. (٤) في ب: بالكتب السماوية كلها. (٥) في ب: فهي ضلالة.

بأوصاف يتميزون بها، لئلا يغتر بهم المؤمنون، ولينقموا أيضًا عن كثير من فجورهم، [قال تعالى]: ﴿يَحْذَرُ الْكُفْرَ أَنْ تُدْرَكَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، فوصفهم الله بأصل النفاق فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُوا بِالْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا مخادعة لله ولعباده المؤمنين.

والمخادعة: أن يُظهر المخادعُ لمن يخادعه شيئًا، ويبطن خلافه؛ لكي يتمكن من مقصوده ممن يخادع، فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، فإن^(٣) هذا من العجائب؛ لأن المخادع، إما أن ينتج خداعه ويحصل ما يريد^(٤)، أو يسلم، لا له ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكأنهم^(٥) يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم [شيئًا]، وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئًا، فلا يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة، ثم في الآخرة، لهم العذاب الأليم الموجه المفتح، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم - من جهلهم وحماتهم - لا يشعرون بذلك.

وقوله: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ والمراد بالمرض هنا: مرض الشك، والشبهات، والنفاق، لأن^(٦) القلب يعرض له مرضان يخرجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق، والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا، ومحبة [الفواحش] و[المعاصي] وفعالها من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿فَطَمَعَ الْبَطْرِ فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ وهي شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فزُقل في أبواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يتليهم بالمعاصي

رادع، ولا ينجع فيهم وعظ، إنهم مستمرين على كفرهم، فسواء عليهم أنذرتهم، أم لم تنذرهم لا يؤمنون، وحقيقة الكفر: هو الجحود لما جاء به الرسول، أو جحد بعضه، فهؤلاء الكفار لا تنفيهم الدعوة إلا إقامة الحجة عليهم، وكان في هذا قطعًا لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، وأنت لا تأس عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان فقال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾ أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها، فلا يعون ما ينفعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم.

﴿وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاةٌ﴾ أي: غشاء وغطاء وأكثة تمنعها عن النظر الذي ينفعهم، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم، ولا خير يُرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدّت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا أَكْبَابَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةً﴾، وهذا عقاب عاجل.

ثم ذكر العقاب الآجل فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر فقال:

(٨-١٠) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُوا بِالْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ○ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ○ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ○ واعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي والنفاق العملي، فالنفاق العملي كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أحلف، وإذا اتّمن خان»، وفي رواية: «وإذا خاصم فجر».

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجودًا قبل هجرة الرسول ﷺ [من مكة] إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة بدر^(١) وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذل^(٢) من في المدينة ممن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفًا ومخادعة، ولتحقن دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلّى أحوالهم ووصفهم

(١) في ب: ولا بعد الهجرة حتى كانت وقعة بدر. (٢) في ب: فذل.

(٣) في ب: ولهذا. (٤) في ب: ويحصل له مقصوده. (٥) في ب: عاد

خداعهم على أنفسهم فكانهم. (٦) في ب: وذلك أن.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٣

الْبَقَرَةِ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۖ مَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمِنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهَدَىٰ فَكَارِهَتْ يَسْحَرْتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

هم العقلاء أرباب الحجي والنهي.

فرد الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء الحقيقية، لأن حقيقة السفه^(٩) جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم وصداقة عليهم، كما أن العقل والحجا مُعرِّفَة الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما يضره، و[في] دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على [الصحابة و]المؤمنين وصداقة عليهم. فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوي المجردة، والأقوال الفارغة، ثم قال تعالى:

(١٤، ١٥) ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمِنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۗ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ هذا من قولهم بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، و[وذلك] أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين، أظهروا أنهم

(١) في ب: ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد تحريمها. (٢) كذا في ب، وفي أ: فسادا. (٣) في ب: لأنه سبب فساد. (٤) في ب: لما. (٥) في ب: التي سببها. (٦) في ب: عليهم. (٧) في ب: لزعهم. (٨) في ب: وفي ضمن ذلك. (٩) كذا في ب، وفي أ: الفسقة.

اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿وَقُلُوبٌ أَفْتَدَتْهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَعُوا أَرْزَاقَ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ فعقوبة المعصية، المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة، الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾.

(١٢، ١١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ أي: إذا نهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم وموالاتهم للكافرين ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس يفساد بل هو إصلاح، قلبا للحقائق وجمعًا بين فعل الباطل واعتقاده حقًا، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية مع اعتقاد أنها معصية^(١١) فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ حصر للإصلاح في جانبهم - وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ فإنه لا أعظم إفسادًا^(١٢) ممن كفر بآيات الله، وصد عن سبيل الله وخادع الله وأولياءه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم - مع ذلك - أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساد؟! ولكن لا يعلمون علمًا بضعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علمًا تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفسادًا، لأنه يتضمن فساد^(١٣) ما على وجه الأرض من الحبوب والثمار والأشجار، والنبات، بما^(١٤) يحصل فيها من الآفات بسبب^(١٥) المعاصي.

ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدبر لهم^(١٦) الأرزاق، ليستعينوا بها على طاعته [وعبادته]، فإذا عمل فيها بصدقه، كان سعيًا بالفساد فيها، وإخراجًا لها عما خلقت له.

(١٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: إذا قيل للمنافقين: آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهو الإيمان بالقلب واللسان، قالوا - بزعمهم الباطل - : أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبَّحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم، بزعمهم^(١٧) أن سفههم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعاداة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبوهم إلى السفه؛ وفي ضمنه^(١٨)، أنهم

عُمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ○ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَرِقْقٌ يُعْمَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي عَادَابِهِمْ مِنَ الصَّوَغِ حَذْرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُخِطٌ بِالْكَافِرِينَ ○ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْوًا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ عَلَن كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ○ أي: مثلهم المطابق لما كانوا عليه، كمثل

الذي استوفد نارًا، أي: كان في ظلمة عظيمة، وحاجة إلى النار شديدة فاستوفدها من غيره، ولم تكن عنده معدة، بل هي خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك، إذ ذهب الله بنوره، فذهب عنه النور، وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة، فذهب ما فيها من الإشراق، وبقي ما فيها من الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكذلك هؤلاء المنافقون، استوفدوا نار الإيمان من المؤمنين، ولم تكن صفة لهم، فانتفعوا بها^(٥) وحقت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمان في الدنيا، فبينما هم على ذلك^(٦)، إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر، وظلمة الكفر، وظلمة النفاق، وظلم^(٧) المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار، [وبس القرار].

فلهذا قال تعالى [عنهم]: ﴿صُمٌّ﴾ أي: عن سماع الخير ﴿بُكْمٌ﴾ [أي]: عن النطق به، ﴿عُمِي﴾ عن رؤية الحق، ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعًا منهم.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: أو مثلهم كصيب أي: كصاحب صيب من السماء، وهو المطر الذي يصب، أي: ينزل بكثرة، ﴿فِيهِ ظُلُمَاتٌ﴾ ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر ﴿وَرَعْدٌ﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب ﴿وَرِقْقٌ﴾ وهو الضوء [اللامع] المشاهد مع^(٨) السحاب ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمُ الْبَرْقُ فِي تِلْكَ الظُّلُمَاتِ مَشْوًا فِيهِ

على طريقتهم، وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي رؤسائهم وكبرائهم في الشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن مستهزونون بالمؤمنين بإظهارنا لهم، أنا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّهِ وَيُؤْتُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزأ بهم، أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين، لما لم يسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزأ بهم يوم القيامة أن يعطيهم مع المؤمنين نورًا ظاهرًا، فإذا مشى المؤمنون بنورهم طفئ نور المنافقين، وبقوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع، ﴿يَادُّونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرْتَضَوْنَ مَا نَزَّلْتُمْ﴾ الآية.

قوله: ﴿وَيُؤْتُهُمْ﴾ أي: يزيدهم ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: فجورهم وكفرهم، ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: حاثرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

ثم قال تعالى كاشفًا عن حقيقة أحوالهم:

(١٦) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ بِعَمَلِهِمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أولئك، أي: المنافقون الجوسفون بتلك الصفات ﴿الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ﴾ أي: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري بالسلمة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان^(١) النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلمة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبة عنه بالضلالة، رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبس التجارة، وبس الصفقة صفتهم^(٢).

وإذا كان من بذل^(٣) دينارًا في مقابلة درهم خاسرًا، فكيف من بذل جوهرة وأخذ عنها درهمًا؟ فكيف من بذل الهدى في مقابلة الضلالة، واختار الشقاء على السعادة، ورغب في سافل الأمور عن أعاليها^(٤)! فما ربحت تجارته، بل خسر فيها أعظم خسارة ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الَّذِينَ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ تحقيق لضلالهم، وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شيء، فهذه أوصافهم القبيحة.

ثم ذكر مثلهم الكاشف لها غاية الكشف، فقال:

(١٧-٢٠) ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْفَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَزَكَهَهُمْ فِي ظُلْمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ○ صُمٌّ بُكْمٌ

(١) في ب: الأموال. (٢) في ب: وهذه صفتهم فبس الصفقة. (٣) في ب: من يبذل. (٤) في ب: وترك عاليها. (٥) في ب: فاستضاءوا بها مؤقتًا وانتفعوا فحقت. (٦) في ب: هم كذلك. (٧) في ب: وظلمة. (٨) في ب: من:

وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ۗ أَي: وقفوا.

فَهَكَذَا حَالٌ^(١) الْمَنَافِقِينَ، إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَأَمْرَهُ وَنَوَاهِيهِ، وَوَعْدَهُ وَوَعِيدِهِ، جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ، وَأَعْرَضُوا عَنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ، فَيُرْوِعُهُمْ وَعِيدَهُ، وَتَرْعَجُهُمْ وَعُودَهُ، فَهَمَّ يَعْضُونَ عَنْهَا غَايَةً مَا يُمْكِنُهُمْ، وَيَكْرَهُونَهَا كِرَاهَةً صَاحِبِ الصَّيْبِ الَّذِي يَسْمَعُ الرَّعْدَ، وَيَجْعَلُ^(٢) أَصَابِعَهُ فِي أُذُنَيْهِ^(٣) خَشْيَةَ الْمَوْتِ، فَهَذَا تَمَكَّنَ لَهُ^(٤) السَّلَامَةُ.

وَأَمَّا الْمَنَافِقُونَ، فَأَنَّى لَهُمُ السَّلَامَةُ، وَهُوَ تَعَالَى مُحِيطٌ بِهِمْ قَدْرَةً وَعِلْمًا، فَلَا يَفُوتُونَهُ وَلَا يَعْجِزُونَهُ، بَلْ يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ، وَيَجَازِيهِمْ عَلَيْهَا أَمَّ الْجَزَاءِ.

وَلَمَّا كَانُوا مَبْتَلِينَ بِالصَّمِّ وَالْبِكْمِ، وَالْعَمَى الْمَعْنَوِي، وَمَسْدُودَةَ عَلَيْهِمْ طُرُقَ الْإِيمَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ۗ أَي: الْحَسِيَّةِ، فَفِيهِ تَحْذِيرٌ لَهُمْ وَتَخْوِيفٌ بِالْعُقُوبَةِ الدِّينِيَّةِ، لِيَحْذَرُوا، فَيُرْتَدِعُوا عَنْ بَعْضِ شِرْهِمْ وَنِفَاقِهِمْ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فَلَا يَعْجِزُهُ شَيْءٌ، وَمِنْ قُدْرَتِهِ أَنَّهُ إِذَا شَاءَ شَيْئًا فَعَلَهُ مِنْ غَيْرِ مَمْنَعٍ وَلَا مَعَارِضٍ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا رَدُّ عَلَى الْقَدْرِيَّةِ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ غَيْرَ دَاخِلَةٍ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّ أَعْمَالَهُمْ مِنْ جَمَلَةِ الْأَشْيَاءِ الدَّاخِلَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

(٢١، ٢٢) ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ أَعْتَادُوا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ هَذَا أَمْرٌ عَامٌ لِكُلِّ^(٥) النَّاسِ، بِأَمْرٍ عَامٍ، وَهُوَ الْعِبَادَةُ الْجَامِعَةُ لِامْتِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ، وَتَصَدِيقِ خَبْرِهِ، فَأَمْرُهُمْ تَعَالَى بِمَا خَلَقَهُمْ لَهُ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

ثُمَّ اسْتَدَلَّ عَلَىٰ وَجُوبِ عِبَادَتِهِ وَحُدُودِهِ، بِأَنَّهُ رَبُّكُمْ الَّذِي رَبَّاكُمْ بِأَصْنَافِ النِّعَمِ، وَخَلَقَكُمْ بَعْدَ الْعَدَمِ، وَخَلَقَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَأَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، فَجَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا تَسْتَقِرُّونَ عَلَيْهَا، وَتَنْتَفِعُونَ بِالْأَنْبِيَةِ، وَالزَّرْعَةَ، وَالْحِرَاثَةَ، وَالسَّلُوكَ مِنْ مَحَلٍّ إِلَىٰ مَحَلٍّ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ^(٦) الْإِنْتِفَاعِ بِهَا، وَجَعَلَ السَّمَاءَ بِنَاءً لِمَسْكِنِكُمْ، وَأَوْدَعَ فِيهَا مِنَ الْمَنَافِعِ مَا هُوَ مِنْ ضَرُورَاتِكُمْ وَحَاجَاتِكُمْ كَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنُّجُومِ.

﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وَالسَّمَاءُ: [هُوَ] كُلُّ مَا عَلَا فَوْقَكَ فَهُوَ سَمَاءٌ، وَلِهَذَا قَالَ الْمَفْسُورُونَ: الْمَرَادُ بِالسَّمَاءِ هُنَا،

السحاب، فَأَنْزَلَ مِنْهُ تَعَالَى مَاءً ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ كَالْحَبِوبِ وَالثَّمَارِ مِنْ نَخِيلٍ وَفَوَاكِهِ [أَوْزُوعٍ] وَغَيْرِهَا ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾ بِهِ تَرْتَزِقُونَ، وَتَقْوَتُونَ وَتَعِيشُونَ وَتَمْكُهُونَ.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أَي: نَظْرَاءً وَأَشْبَاهًا مِنْ الْمَخْلُوقِينَ، فَتَعْبُدُونَهُمْ كَمَا تَعْبُدُونَ اللَّهَ، وَتَحْبُونَهُمْ كَمَا تَحْبُونَ اللَّهَ، وَهُمْ مِثْلُكُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْزُوقُونَ مَدْبُورُونَ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا يَنْفَعُونَكُمْ وَلَا يَضُرُّونَ.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ، وَلَا نَظِيرٌ، لَا فِي الْخَلْقِ، وَالرِّزْقِ وَالتَّدْبِيرِ، وَلَا فِي الْعِبَادَةِ^(٧) فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ مَعَهُ آلِهَةً أُخْرَى مَعَ عِلْمِكُمْ بِذَلِكَ؟ هَذَا مِنْ أَعْجَابِ الْعَجَبِ، وَأَسْفَهِ السَّفَهِ.

وَهَذِهِ الْآيَةُ جَمَعَتْ بَيْنَ الْأَمْرِ بِعِبَادَةِ اللَّهِ وَحُدُودِهِ، وَالنَّهْيِ عَنِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهِ، وَبَيَانَ الدَّلِيلِ الْبَاهِرِ عَلَىٰ وَجُوبِ عِبَادَتِهِ، وَبَطْلَانِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهِ، وَهُوَ [ذَكَرَ] تَوْحِيدَ الرَّبُّوبِيَّةِ، الْمَتَضَمِّنِ لِانْفِرَادِهِ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالتَّدْبِيرِ، فَإِذَا كَانَ كُلُّ أَحَدٍ مَقْرًا بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي ذَلِكَ، فَكَذَلِكَ فَلْيَكُنْ إِقْرَارُهُ بِأَنَّ [اللَّهَ] لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ، وَهَذَا أَوْضَحَ دَلِيلَ عَقْلِيٍّ عَلَىٰ وَحْدَانِيَّةِ الْبَارِي، وَبَطْلَانِ الشَّرْكِ.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يَحْتَمِلُ أَنَّ الْمَعْنَى: أَنْكُمْ إِذَا عَبَدْتُمْ اللَّهَ وَحُدُودَهُ، اتَّقَيْتُمْ بِذَلِكَ سَخَطَهُ وَعَذَابَهُ؛ لِأَنَّكُمْ أَنْتُمْ بِالسَّبَبِ الدَّافِعِ لِذَلِكَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: أَنْكُمْ إِذَا عَبَدْتُمْ اللَّهَ، صَرْتُمْ مِنَ الْمُتَّقِينَ الْمُوصُوفِينَ بِالتَّقْوَى، وَكَلَامُ الْمَعْنِيِّينَ صَحِيحٌ، وَهُمَا مُتَلَاذِمَانِ، فَمَنْ أَتَى بِالْعِبَادَةِ كَامِلَةً كَانَ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَمَنْ كَانَ مِنَ الْمُتَّقِينَ حَصَلَتْ لَهُ النِّجَاةُ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى:

(٢٣، ٢٤) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ۚ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۚ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وَهَذَا دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ عَلَىٰ صِدْقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَصَحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ، فَقَالَ:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ﴾ - يَامَعْشَرَ الْمُعَانِدِينَ لِلرَّسُولِ، الرَّادِينَ دَعْوَتَهُ، الزَّاعِمِينَ كَذِبَهُ - فِي شُكِّ وَاشْتِبَاهِ، مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا، هَلْ هُوَ حَقٌّ أَوْ غَيْرُهُ؟ فَهُنَا أَمْرٌ نَصْفٌ، فِيهِ الْفِيصَلَةُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ، وَهُوَ أَنَّهُ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، لَيْسَ بِأَفْصَحَكُمْ وَلَا

(١) في ب: حالة (٢) في ب: فيجعل (٣) كذا في ب، وفي أ: أذنه. (٤) في ب: ربما حصلت له. (٥) في ب: لجميع. (٦) في ب: وجوه. (٧) في ب: ولا في الألوهية والكمال.

بِأَعْلَمِكُمْ^(١)، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم، لا يكتب ولا يقرأ، فأتاكم بكتاب، زعم أنه من عند الله، وقتلتم أنفسكم: إنه تقوله وافتراه.

فإن كان الأمر كما تقولون، فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعيانكم وشهادتكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً، وأنتم أهل الفصاحة والخطابة، والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم^(٢) على وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذا آية كبرى، ودليل واضح [جلي] على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه، واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة [والشدة]، أن كانت وقودها الناس والحجارة، ليست كمنار الدنيا، التي إنما تنقد بالحطب، وهذه النار الموصوفة معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسوله، فاحذروا الكفر برسوله، بعدما تبين لكم أنه رسول الله.

وهذه الآية ونحوها يسمونها آيات التحدي، وهو تعجيز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ لَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ وَكُلٌّ كَانَتْ بِعَظْمِهِمْ يُعْصِمُهُمْ ظُهُرًا﴾.

وكيف يقدر المخلوق من تراب، أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب؟ أم كيف يقدر الناقص الفقير من كل الوجوه، أن يأتي بكلام ككلام الكامل الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من كل الوجوه؟ هذا ليس في الإمكان، ولا في قدرة الإنسان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة [بأنواع] الكلام، إذا وزن هذا القرآن بغيره من كلام البلغاء، ظهر له الفرق العظيم.

وفي قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ آيَاتِنَا فَاعْبُدُوا﴾ دليل على أن الذي يربح له الهداية من الضلالة، [هو] الشاك الحائر الذي لم يعرف الحق من الضلال، فهذا الذي إذا بين له الحق فهو حري بالتوفيق^(٣)، إن كان صادقاً في طلب الحق.

وأما المعاند الذي يعرف الحق ويتركه، فهذا لا يمكن رجوعه، لأنه ترك الحق بعدما تبين له، لم يتركه عن جهل، فلا حيلة فيه.

وكذلك الشاك غير الصادق^(٤) في طلب الحق، بل هو معرض غير مجتهد في طلبه، فهذا في الغالب أنه لا يوفق.

وفي وصف الرسول بالعبودية في هذا المقام العظيم، دلالة

بِأَعْلَمِكُمْ^(١)، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم، لا يكتب ولا يقرأ، فأتاكم بكتاب، زعم أنه من عند الله، وقتلتم أنفسكم: إنه تقوله وافتراه.

فإن كان الأمر كما تقولون، فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعيانكم وشهادتكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً، وأنتم أهل الفصاحة والخطابة، والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم^(٢) على وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذا آية كبرى، ودليل واضح [جلي] على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه، واتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة [والشدة]، أن كانت وقودها الناس والحجارة، ليست كمنار الدنيا، التي إنما تنقد بالحطب، وهذه النار الموصوفة معدة ومهيأة للكافرين بالله ورسوله، فاحذروا الكفر برسوله، بعدما تبين لكم أنه رسول الله.

وهذه الآية ونحوها يسمونها آيات التحدي، وهو تعجيز الخلق عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ لَيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ وَكُلٌّ كَانَتْ بِعَظْمِهِمْ يُعْصِمُهُمْ ظُهُرًا﴾.

وكيف يقدر المخلوق من تراب، أن يكون كلامه ككلام رب الأرباب؟ أم كيف يقدر الناقص الفقير من كل الوجوه، أن يأتي بكلام ككلام الكامل الذي له الكمال المطلق، والغنى الواسع من كل الوجوه؟ هذا ليس في الإمكان، ولا في قدرة الإنسان، وكل من له أدنى ذوق ومعرفة [بأنواع] الكلام، إذا وزن هذا القرآن بغيره من كلام البلغاء، ظهر له الفرق العظيم.

وفي قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنْ آيَاتِنَا فَاعْبُدُوا﴾ دليل على أن الذي يربح له الهداية من الضلالة، [هو] الشاك الحائر الذي لم يعرف الحق من الضلال، فهذا الذي إذا بين له الحق فهو حري بالتوفيق^(٣)، إن كان صادقاً في طلب الحق.

وأما المعاند الذي يعرف الحق ويتركه، فهذا لا يمكن رجوعه، لأنه ترك الحق بعدما تبين له، لم يتركه عن جهل، فلا حيلة فيه.

وكذلك الشاك غير الصادق^(٤) في طلب الحق، بل هو معرض غير مجتهد في طلبه، فهذا في الغالب أنه لا يوفق.

وفي وصف الرسول بالعبودية في هذا المقام العظيم، دلالة

على أن أعظم أوصافه ﷺ قيامه بالعبودية التي لا يلحقه فيها أحد من الأولين والآخرين.

كما وصفه بالعبودية في مقام الإسراء، فقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ وفي مقام الإنزال فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيُكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَبِيرًا﴾.

وفي قوله: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ ونحوها من الآيات، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، أن الجنة والنار مخلوقتان خلافاً للمعتزلة، وفيها أيضاً، أن الموحدين - وإن ارتكبوا بعض الكبائر - لا يخلدون في النار، لأنه قال: ﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فلو كان [عصاة الموحدين] يخلدون فيها، لم تكن معدة للكافرين وحدهم، خلافاً للخوارج والمعتزلة.

وفيها دلالة على أن العذاب مستحق بأسبابه، وهو الكفر،

(١) هكذا في أ، وفي ب: شطب قوله: (بأفصحكم ولا بأعلمكم) وفي هامش النسخة بخط المؤلف جملة أخرى، وهي (من جنس آخر) فتكون الجملة هكذا (ليس من جنس آخر). (٢) هكذا وردت الكلمة في هامش أ، وهي ليست في ب، ويبدو أن المراد وهذا العرض. (٣) في ب: باتباعه. (٤) في ب: الذي ليس بصادق

وأنواع المعاصي على اختلافها .

(٢٥) ﴿وَيَسِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

لما ذكر جزاء الكافرين، ذكر جزاء المؤمنين، أهل الأعمال الصالحات، على طريقته تعالى في القرآن^(١)، يجمع بين الترغيب والترهيب، ليكون العبد راغباً راهباً، خائفاً راجياً، فقال:

﴿وَيَسِّرِ﴾ أي: [يا أيها الرسول، ومن قام مقامه]^(٢) ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم، فصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة .

ووصفت أعمال الخير بالصالحات، لأن بها تصلح أحوال العبد، وأمور دينه ودينه، وحياته الدنيوية والأخروية، ويزول بها عنه فساد الأحوال، فيكون بذلك من الصالحين، الذين يصلحون لمجاورة الرحمن في جنته .

فبشرهم ﴿أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾، أي: بساتين جامعة من الأشجار العجيبة، والثمار الأنيقة، والظل المديد، والأغصان والأفنان، وبذلك^(٣) صارت جنة، يجتن بها داخلها، وينعم فيها ساكنها .

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: أنهار الماء، واللبن، والعسل، والخمر، يفجرونها كيف شاءوا، ويصرفونها أين أرادوا، وتشرب^(٤) منها تلك الأشجار فتبت أصناف الثمار .

﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: هذا من جنسه، وعلى وصفه، كلها متشابهة في الحسن واللذة، ليس فيها ثمرة خاصة، وليس لهم وقت خال من اللذة، فهم دائماً متلذذون بأكلها .

وقوله: ﴿وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا﴾ قيل: متشابهة في الاسم، مختلف الطعوم^(٥)، وقيل: متشابهة في اللون، مختلفاً في الاسم، وقيل: يشبه بعضه بعضاً في الحسن واللذة والفكاهة، ولعل هذا هو الصحيح^(٦) .

ثم لما ذكر مسكنهم، وأقواتهم من الطعام والشراب وفواكههم، ذكر أزواجهم، فوصفهم بأكمل وصف وأوجزه، وأوضحه، فقال: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾ فلم يقل: «مطهرة من العيب الفلاني» ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن، أنهن عُرِّبَ متحبيات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعل، والأدب القولي

وَيَسِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنْ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَنُوتُوا بِهِ مُتَشَبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَبْعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

والفعلية، ومظهر خلقهن من الحيض والنفاس والمنى، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومظهرات الخلق أيضاً بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مظهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح .

ففي هذه الآية الكريمة، ذكر المبشِّر والمبشَّر، والمبشِّر به، والسبب الموصول لهذه البشارة، فالمبشِّر: هو الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمبشَّر: هم المؤمنون العاملون الصالحات، والمبشِّر به: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصول لذلك، هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة، إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق، بأفضل الأسباب .

(١) في ب: كما هي طريقته تعالى في كتابه . (٢) في أ: أي: يا محمد . (٣) في ب: المديد ما صارت به الجنة . (٤) في ب: وتسقى . (٥) في ب: مختلفاً في الطعم . (٦) في ب: أحسن .

وَاِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ اِنِّيْ جَاعِلٌ فِى الْاَرْضِ خَلِيْفَةً ۗ قَالُوْۤا اَجْعَلْ فِيْهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيْهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ سٰٓبِقٌ بِمِحْمَدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ اِنِّىْۤ اَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٣٥﴾ وَعَلَّمَ اٰدَمَ الْاَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ فَقَالَ اَنْبِئُوْنِىْ بِاَسْمَآءِ هٰٓؤُلَآءِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴿٣٦﴾ قَالُوْۤا سُبْحٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَاۤ اِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ ﴿٣٧﴾ قَالَ يٰۤاٰدَمُ اَنْبِئْهُمْ بِاَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ اَنْبَاَهُمْ بِاَسْمَآئِهِمْ قَالَ اَلَمْ اَقُلْ لَكُمْ اِنِّىْۤ اَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاَعْلَمُ مَا تُبْدُوْنَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُوْنَ ﴿٣٨﴾ وَاِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوْا لِاٰدَمَ فَسَجَدُوْۤا اِلَّاۤ اِبٰلِيْسَ اَبٰى وَاَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ ﴿٣٩﴾ وَقُلْنَا يٰۤاٰدَمُ اسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُوْنَا مِنَ الظّٰلِمِيْنَ ﴿٤٠﴾ فَاَزَلَهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَاَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيْهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوْۤا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْاَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ اِلٰى حِيْنَ ﴿٤١﴾ فَلَقِيَۤ اٰدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۤ اِنَّهٗ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ ﴿٤٢﴾

بعض المخلوقات والمأمورات فالواجب عليه التسليم، واتهام عقله، والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة، وإحسانه بهم، بتعليمهم ما جهلوا، وتنبههم على ما لم يعلموه. وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف لملائكته، بعلمه وحكمته، ومنها: أن الله عرفهم فضل آدم بالعلم، وأنه أفضل صفة تكون في العبد، ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراماً له، لما بان فضل علمه، ومنها: أن الامتحان للغير، إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة، فهو أكمل مما عرفه ابتداءً، ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان فضل آدم، وإفضال الله عليه، وعبادة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

(٣٦، ٣٥) ﴿ وَقُلْنَا يٰۤاٰدَمُ اسْكُنْ اَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُوْنَا مِنَ الظّٰلِمِيْنَ ۝ فَاَزَلَهُمَا الشَّيْطٰنُ عَنْهَا فَاَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيْهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوْۤا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى الْاَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ اِلٰى حِيْنَ ۙ ﴾

لما خلق الله آدم وفضلته، أتم نعمته عليه، بأن خلق منه زوجةً، ليسكن إليها، ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة،

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه ف ﴿ عَلَّمَ اٰدَمَ الْاَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ أي: أسماء الأشياء، ومن هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى، أي: الألفاظ والمعاني، حتى المكبر من الأسماء كالقصة والمصغر كالقصة.

﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ ﴾ أي: عرض المسميات ﴿ عَلَى الْمَلٰٓئِكَةِ ﴾ امتحاناً لهم، هل يعرفونها أم لا؟.

﴿ فَقَالَ اَنْبِئُوْنِىْ بِاَسْمَآءِ هٰٓؤُلَآءِ اِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِيْنَ ﴾ في قولكم وظنكم، أنكم أفضل من هذا الخليفة.

﴿ قَالُوْۤا سُبْحٰنَكَ ﴾ أي: نزهك عن الاعتراض منا عليك، ومخالفة أمرك ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ بوجه من الوجوه ﴿ اِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ﴾ إياه، فضلاً منك وجوداً ﴿ اِنَّكَ اَنْتَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ ﴾ العليم الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا يغيب عنه، ولا يعزب مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

الحكيم: من له الحكمة التامة، التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به، فأقروا، واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعترافهم بفضل الله عليهم، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

فحينئذ قال الله: ﴿ يٰۤاٰدَمُ اَنْبِئْهُمْ بِاَسْمَآئِهِمْ ﴾ أي: أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة فعجزوا عنها.

﴿ فَلَمَّآ اَنْبَاَهُمْ بِاَسْمَآئِهِمْ ﴾ تبين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة ﴿ قَالَ اَلَمْ اَقُلْ لَكُمْ اِنِّىْۤ اَعْلَمُ غَيْبَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ ﴾ وهو ما غاب عنا، فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب، فالشهادة من باب أولى، ﴿ وَاَعْلَمُ مَا تُبْدُوْنَ ﴾ أي: تظهرون ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُوْنَ ﴾.

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم، إكراماً له وتعظيماً، وعبودية لله تعالى، فامتثلوا أمر الله، وبادروا كلهم بالسجود ﴿ اِلَّاۤ اِبٰلِيْسَ اَبٰى ﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، قال: ﴿ اَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيْنًا ﴾ وهذا الإباء منه والاستكبار، نتيجة الكفر الذي هو منظو عليه، فتبينت حينئذ عداوته لله، ولآدم، وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات: إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكلماً، يقول ما شاء، ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في

وحده، أوجبت لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم.

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْسُؤُوا﴾ أي: تخلطوا ﴿الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ﴾ فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل، وكتمان بيان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم، تمييز الحق من الباطل، وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته، وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم، فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم.

ومن ليس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك، وكتم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو من دعاة جهنم، لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختراروا لأنفسكم إحدى الحالتين.

ثم قال: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ظاهراً وباطناً ﴿وَأَتُوا زَكَاةَ﴾ مستحقيها ﴿وَأَذْكُرُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾ أي: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله، فقد جمعت بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى عبيده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية.

وقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا مَعَ الزَّكَاةِ﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة؛ لأنه عبر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

(٤٤) ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ﴾ أي: بالإيمان والخير ﴿وَتَنْهَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تتركونها عن أمرها بذلك، والحال: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وأسمى^(١) العقل عقلاً لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة.

وهذه الآية، وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، لقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ

(١) في ب: وسمي.

وإقامة شرعه، ﴿أَوْفِي يَمَّيْكُمْ﴾ وهو المجازاة على ذلك.

والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ [وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي]﴾ إلى قوله: ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشيته، أوجبت له خشيته امتثال أمره، واجتتاب نهيه.

ثم أمرهم بالأمر الخاص، الذي لا يتم إيمانهم، ولا يصح إلا به، فقال: ﴿وَأَمَّاؤُا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ وهو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه.

وذكر الداعي لإيمانهم به فقال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ أي: موافقاً له لا مخالفاً ولا مناقضاً، فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب، غير مخالف لها، فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاءت به المرسلون، فأنتم أولى من آمن به وصدق به، لكونكم أهل الكتب والعلم.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ إشارة إلى أنكم إن لم تؤمنوا به، عاد ذلك عليكم، بتكذيب ما معكم، لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم.

وأيضاً، فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به، كذبتهم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب ببعض ما أنزل إليه، فقد كذب بجميعه، كما أن من كفر برسول، فقد كذب الرسل جميعهم.

فلما أمرهم بالإيمان به، نهاهم وحذرهم من ضده وهو الكفر به، فقال: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا أَوْلَىٰ كَافِرٍ بِدِينِهِ﴾ أي: بالرسول والقرآن.

وفي قوله: ﴿أَوْلَىٰ كَافِرٍ بِدِينِهِ﴾ أبلغ من قوله: (ولا تكفروا به)، لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم.

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِهَاتِي تَنًا قَلِيلًا﴾ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل، التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستحبوها، وآثروها.

﴿وَإِنِّي﴾ أي: لا غيري ﴿فَاتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله

وَأَذَقْنَا أذْقَانًا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ
وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فِدَالِ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنْ
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ
أثْنَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَد عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُتُوبًا
وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾
وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدْ لَنَا رَبًّاكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَاطِهَا وَفُؤُومِهَا
وَعَدَسِهَا وَبَصَلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَسْأَلَتَهُ
وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبِ رَبِّهِمْ
اللَّهُ ذَالِكُ يَوْمَئِذٍ إِنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ بَدَّلُوا الْحَقَّ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

المذكورة، ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ﴾ وهو المن والسلوى، فهذا غير
لائق بكم، فإن هذه الأطعمة التي طلبتم، أي مصر هبطتموه
وجدتموها، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم، فهو خير
الأطعمة وأشرفها، فكيف تطلبون به بدلاً؟.

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم
واحتقارهم لأوامر الله ونعمه، جازاهم من جنس عملهم،
فقال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ﴾ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم
﴿وَالْمَسْكَنَةُ﴾ بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم
عالية، بل أنفسهم أنفس مهينة، وهمهم أردأ الهمم.

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبِ رَبِّهِمْ﴾ أي: لم تكن غنيمتهم التي رجعوا
بها وفازوا، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم، فبست الغنيمة
غنيمتهم، وبست الحالة حالتهم.

﴿ذَالِكُ﴾ الذي استحقوا به غضبه ﴿يَأْتُهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾
بِآيَاتِ اللَّهِ الدلالات على الحق، الموضحة لهم، فلما كفروا
بها عاقبهم بغضبه عليهم، ﴿وَلَوْ﴾ بما كانوا ﴿يَقْتُلُونَ الَّذِينَ بَدَّلُوا
الْحَقَّ﴾

وقوله: ﴿يَقْتُلُ الْحَقُّ﴾ زيادة شناعة، وإلا فمن المعلوم أن

تكون لهم عزا ووطنًا ومسكنًا، ويحصل لهم فيها الرزق
الرغد، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل،
وهو دخول الباب ﴿سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين ذليلين، وبالقول،
وهو أن يقولوا: ﴿حِطَّةً﴾ أي: أن يحط عنهم خطاياهم
بسؤالهم إياه مغفرته.

﴿نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ﴾ بسؤالكم المغفرة ﴿وَسَتَزِيدُ
الْمُحْسِنِينَ﴾ بأعمالهم، أي: جزاء عاجلاً وأجلاً.

﴿فِدَالِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ منهم، ولم يقل: فبدلوا لأنهم لم
يكونوا كلهم بدلوا ﴿قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فقالوا بدل
حِطَّةً: حبة في حِطَّة، استهانة بأمر الله، واستهزاء، وإذا بدلوا
القول مع خفته فتبدلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا
دخلوا يزحفون على أديبارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر
سبب لوقوع عقوبة الله بهم، قال: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾
منهم ﴿رِجْزًا﴾ أي: عذابًا ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ بسبب فسقهم وبغيهم.

﴿٦٠﴾ ﴿وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ
الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَد عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ
كُتُوبًا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾،
﴿أَسْتَسْقَى﴾ أي: طلب لهم ماء يشربون منه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ
بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم
جنس، ﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ وقبائل بني إسرائيل
اثنا عشرة قبيلة، ﴿قَد عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ﴾ منهم ﴿مَّشْرِبَهُمْ﴾

أي: محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم
بعضهم بعضًا، بل يشربونه متعنين لا متكدرين، ولهذا قال:
﴿كُتُوبًا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ﴾ أي: الذي أتاكم من غير سعي ولا
تعب ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: تخربوا على وجه الإفساد.

﴿٦١﴾ ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدْ لَنَا رَبًّاكَ
يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَاطِهَا وَفُؤُومِهَا
وَعَدَسِهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا
مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَسْأَلَتَهُ مَا سَأَلْتُمْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةَ وَالْمَسْكَنَةَ وَبَاءُوا
بِغَضَبِ رَبِّهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ بَدَّلُوا الْحَقَّ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ أي:

واذكروا، إذ قلتم لموسى على وجه التملل لنعم الله والاحتقار
لها: ﴿لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاجِدْ﴾ أي: جنس من الطعام، وإن
كان كما تقدم أنواعاً لكنها لا تتغير ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّاكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا
تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا﴾ أي: نباتها الذي ليس بشجر يقوم على
ساقه، ﴿وَقِشَاطِهَا﴾ وهو الخيار ﴿وَفُؤُومِهَا﴾ أي: ثومها والعدس
والبصل معروف.

قال لهم موسى: ﴿أَسْتَبْدِلُوكَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ وهو الأطعمة

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

١٠

الْمِائَةُ الْاَلْفُ

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰرِئِينَ وَالصَّٰدِقِينَ
 مِن ءَٰمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
 عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِذْ
 أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَاكُمْ
 بِقُوَّةٍ وَّآذِكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِمَّنْ
 بَعَدَ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ ءَاعْتَدُوا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ
 فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقْبِلُوا لِنُحَاكِمِكُمْ ۚ فَمَا أَجَبُوا بِلِقَا
 رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا لَيُسْأَلُنَّ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِذْ قَالَ
 مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَنُحَدِّثُكَ
 هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْبَٰهِلِينَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا
 ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لِّفَارِصُ
 وَلَا يَكْرَهُونَ بَيْنَ ذَلِكَ فافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ
 لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْ نُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ
 إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُوْهُنَّ أَتَسْرَأُنَّ النَّظِيرَ ﴿٦٨﴾

والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف، من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ، وأن هذا مضمون أحوالهم.

وهذه طريقة القرآن إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام، فلا بد أن تجد ما يزيل ذلك الوهم، لأنه تنزيل من يعلم الأشياء قبل وجودها، ومن رحمته وسعت كل شيء.

وذلك - والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم، وذكر معاصيهم وقبائحهم، ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لم يلحقه الذم منهم بوصفه.

ولما كان أيضاً، ذكر بني إسرائيل خاصة بيوم الاختصاص بهم، ذكر تعالى حكماً عاماً يشمل الطوائف كلها، ليتضح الحق، ويوزل التوهم والإشكال، فسبحان من أودع في كتابه ما يبهر عقول العالمين.

ثم عاد تبارك وتعالى يوبخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم: ﴿٦٤، ٦٥﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا

قتل النبي لا يكون بحق، لكن لثلا يظن جهلهم وعدم علمهم. ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿وَكَانُوا يَمْتَدُون﴾ على عباد الله، فإن المعاصي يجر بعضها بعضاً، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك، فنسأل الله العافية من كل بلاء.

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال المذكورة خوطبوا بها وهي فعل أسلافهم، ونسبت إليهم لغرائد عديدة، منها: أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فبين الله من أحوال سلفهم التي قد تفررت عندهم، ما يبين به لكل أحد [منهم] أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق، ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم - مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم - فكيف الظن بالمخاطبين!؟

ومنها: أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصله إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم.

ومنها: أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحها، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثاً من الجميع؛ لأن ما يعمله بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمله من الشر يعود بضرر الجميع.

ومنها: أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للمعاصي، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله.

(٦٢) ثم قال تعالى حاكماً بين الفرق الكتابية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّٰرِئِينَ وَالصَّٰدِقِينَ مِن ءَٰمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة؛ لأن الصابئين، الصحيح أنهم من جملة فرق النصارى، فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة، واليهود والنصارى، والصابئين، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وصدقوا رسوله، فإن لهم الأجر العظيم، والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال، فعليه الخوف والحزن.

حين قتلتم قتيلًا، واداراتم فيه، أي: تدافعتم واختلقتم في قاتله، حتى تفاقم الأمر بينكم، وكاد - لولا تبيين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبيين القاتل: اذبحوا بقرة، وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره، وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: ﴿أَتَجِدْنَا هُرُورًا﴾ فقال نبي الله: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس.

وأما العاقل، فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزاءه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، فتفضيله يقتضي منه الشكر لربه، والرحمة لعباده، فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق، فقالوا:

﴿أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ﴾ أي: ما سنهنا؟ ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ﴾ أي: كبيرة ﴿وَلَا يَكْرُ﴾ أي: صغيرة ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ وارتكوا التشديد والتعنت. ﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بَيْنَ لَنَا مَا لَوْ هُنَّ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْ هُنَّ﴾ أي: شديد ﴿تَسْرُ الْأَنْطَرِينَ﴾ من حسنها.

﴿قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا﴾ فلم نهتد إلى ما تريد ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾، ﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ﴾ أي: مذللة بالعمل، ﴿تُخْرِجُ الْأَرْضَ﴾ بالحرارة، ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ أي: ليست بساقية، ﴿مُسْلِمَةً﴾ من العيوب أو من العمل ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ أي: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم.

﴿قَالُوا أَلَنْ جِئْتَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالبيان الواضح، ولهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشد الله عليهم، ولو لم يقولوا: «إن شاء الله» لم يهتدوا أيضًا إليها. ﴿فَدَجَّوْهَا﴾ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

فلما ذبحوها، قلنا لهم: اضربوا القاتل ببعضها، أي: بعضو منها، إما بعضو معين، أو أي عضو منها، فليس في تعيينه فائدة، فضربوه ببعضها فأحياه الله، وأخرج ما كانوا يكتمون، فأخبر بقاتله، وكان في إحيائه - وهم يشاهدون - ما يدل على إحياء الله الموتى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فتزجرون عن ما يضركم.

(١) كذا في ب، وفي أ: برفع الطور فوقكم.

مَاتَيْنَكُمْ يَقُولُ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ○ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: واذكروا ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ وهو العهد الثقيل المؤكد بالتخويف لهم، برفع الطور فوقهم^(١)، وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا مَاتَيْنَكُمْ﴾ من التوراة ﴿يَقُولُ﴾ أي: بجذ واجتهاد، وصبر على أوامر الله ﴿وَادْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي: ما في كتابكم، بأن تتلوه وتتعلموه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من أهل التقوى.

فبعد هذا التأكيد البليغ ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ وأعرضتم، وكان ذلك موجبًا لأن يحل بكم أعظم العقوبات، ولكن ﴿لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

(٦٥، ٦٦) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَلَقْنَا لَهُمْ كُتُوبًا فَزِدْهُ حَسِبِينَ ○ فَعَمَلْنَاهَا تَكْلَافًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: ولقد تقرر عندكم حالة ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ﴾ وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسوطة في سورة الأعراف في قوله: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْفَرَكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ الآيات.

فأوجب لهم هذا الذنب العظيم، أن غضب الله عليهم، وجعلهم ﴿زِدْهُ حَسِبِينَ﴾ حزينين ذليين.

وجعل الله هذه العقوبة ﴿تَكْلَافًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي: لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها، ممن هو في وقتهم، ﴿وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: من بعدهم، فقوم على العباد حجة الله، وليرتدغوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة ناعمة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات.

(٦٧-٧٤) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَجِدْنَا هُرُورًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ○ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ وَلَا يَكْرُ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ○ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بَيْنَ لَنَا مَا لَوْ هُنَّ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقْعُ لَوْ هُنَّ تَسْرُ الْأَنْطَرِينَ ○ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ○ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُخْرِجُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسْلِمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا فَاقْعُ لَوْ هُنَّ تَسْرُ الْأَنْطَرِينَ ○ قَالُوا أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بَيْنَ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ○ وَإِذْ قُلْتُمْ نَسَا فَاذْرَهُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ○ فَلَقْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُبْعَثُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ○ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَابَةِ أَوْ أَسَدِّ قَسْوَةٍ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَابَةِ لَمَا يَفْجَرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْقَى فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى،

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ﴾ أي: اشتدت وغلظت، فلم تؤثر فيها الموعظة ﴿وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد ما أنعم عليكم بالنعمة العظيمة، وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده.

ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار.

وقوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: إنها لا تقصر عن قساوة الأحجار، وليست «أو» بمعنى «بل».

ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَخَرَّجُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْقَى فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فبهذه الأمور فضلت قلوبكم. ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد، فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثنا عن بني إسرائيل ولا حرج».

والذي أرى أنه - وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه - تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»، فإذا كان مرتبتها أن تكون مشکوكاً فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به، والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها، أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعاً بها، ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق.

(٧٥-٧٨) ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ○ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمناً وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ○ أفلا تعلمون ○ أولاً يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ○ وممنهم أئيمون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ○ هذا قطع لأطعام المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطعموا في إيمانهم، وحالتهم ^(١) لا تقتضي الطمع فيهم،

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ﴾ أي: اشتدت وغلظت، فلم تؤثر فيها الموعظة ﴿وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد ما أنعم عليكم بالنعمة العظيمة، وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده.

ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كَالْحِجَارَةِ﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار.

وقوله: ﴿أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ أي: إنها لا تقصر عن قساوة الأحجار، وليست «أو» بمعنى «بل».

ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَخَرَّجُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَسْقَى فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ فبهذه الأمور فضلت قلوبكم. ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد، فقال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثنا عن بني إسرائيل ولا حرج».

والذي أرى أنه - وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه - تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»، فإذا كان مرتبتها أن تكون مشکوكاً فيها، وكان من المعلوم بالضرورة من دين الإسلام أن القرآن يجب الإيمان به، والقطع بألفاظه ومعانيه، فلا يجوز أن تجعل تلك القصص المنقولة بالروايات المجهولة، التي يغلب على الظن كذبها، أو كذب أكثرها، معاني لكتاب الله، مقطوعاً بها، ولا يستريب بهذا أحد، ولكن بسبب الغفلة عن هذا حصل ما حصل، والله الموفق.

(٧٥-٧٨) ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ○ وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمناً وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ○ أفلا تعلمون ○ أولاً يعلمون ○ وممنهم أئيمون لا يعلمون الكتاب إلا أماني وإن هم إلا يظنون ○ هذا قطع لأطعام المؤمنين من إيمان أهل الكتاب، أي: فلا تطعموا في إيمانهم، وحالتهم ^(١) لا تقتضي الطمع فيهم،

فإنهم كانوا يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وعلموه، فيضعون له معاني ما أَرادها الله، ليوهما الناس أنها من عند الله، وما هي من عند الله، فإذا كانت هذه حالهم في كتابهم الذي يرونه شرفهم ودينهم، يصدون به الناس عن سبيل الله، فكيف يرجي منهم إيمان لكم؟! فهذا من أبعد الأشياء.

ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ فأظهروا لهم الإيمان قولاً بالاستهتم، ما ليس في قلوبهم ﴿وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ فلم يكن عندهم أحد من غير أهل دينهم، قال بعضهم لبعض: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أنظفرون لهم الإيمان وتخبرونهم أنكم مثلهم، فيكون ذلك حجة لهم عليكم؟

يقولون: إنهم قد أقروا بأن ما نحن عليه حق، وما هم عليه باطل، فيحتجون عليكم بذلك عند ربهم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقل، فتتركون ما هو حجة عليكم؟ هذا يقوله بعضهم لبعض.

(١) في ب: وأخلاقهم.

مخالفه في الحق الذي يقوله .

وهذه الأمور كثيرة جداً في أهل الأهواء جملة كالرافضة، وتفصيلاً مثل كثير من المتسبين إلى الفقهاء .

(٨٠-٨٢) ﴿وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّكَ الْكَافِرُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ بَلْ كَسِبَ سَيِّئَةً وَأَخْطَأْتُ بِهِ خَطِئْتُكُمْ فَأَوْلِيكَ أَصْحَابُ الْكَافِرِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ذكر أفعالهم القبيحة، ثم ذكر - مع هذا - أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله، والفوز بثوابه، وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، أي: قليلة تعد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن .

ولما كان هذا مجرد دعوى، رد الله تعالى عليهم، فقال: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ أي: بالإيمان به وبرسله وبطاعته، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل ﴿أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؟ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقفة على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما:

إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً، فتكون دعواهم صحيحة .

وإما أن يكونوا متقولين عليه، فتكون كاذبة، فيكون أبلغ لخزيهم وعذابهم .

وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً، لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء، حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولتقولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق، فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون، قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم من أعظم المحرمات، وأشنع القبيحات .

ثم ذكر تعالى حكماً عاماً لكل أحد، يدخل به بنو إسرائيل وغيرهم، وهو الحكم الذي لا حكم غيره، لا أمانيتهم ودعوايتهم بصفة الهالكين والناجين، فقال: ﴿بَلْ كَسِبَ﴾ ليس الأمر كما ذكرتم، فإنه قول لا حقيقة له، ولكن ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ وهو نكرة في سياق الشرط، فيعم الشرك فما دونه، والمراد به - هنا - الشرك، بدليل قوله: ﴿وَأَخْطَأْتُ بِهِ خَطِئْتُكُمْ﴾ أي: أحاطت بعاملها، فلم تدع له منفذاً، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته .

﴿فَأَوْلِيكَ أَصْحَابُ الْكَافِرِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما

﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فهم وإن أسروا ما يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم بإسارهم لا يتطرق عليهم حجة للمؤمنين، فإن هذا غلط منهم وجهل كبير، فإن الله يعلم سرهم وعلنهم، فيظهر لعباده ما أنتم عليه .

﴿وَمِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أُمِّيُونَ﴾ أي: عوام، ليسوا من أهل العلم ﴿لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانًا﴾ أي: ليس لهم حظ من كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس عندهم خبر بما عند الأولين الذين يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم منهم .

فذكر في هذه الآيات علماءهم، وعوامهم، ومنافقيهم، ومن لم ينافق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم، لا بصيرة عندهم، فلا مطمع لكم في الطائفتين .

(٧٩) ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَيْسَتْأُ بِهِ نَمْنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ توعد تعالى المحرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون: ﴿هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكنم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿لَيْسَتْأُ بِهِ نَمْنًا قَلِيلاً﴾ والدنيا كلها - من أولها إلى آخرها - ثمن قليل، ففعلوا باطلهم شركاً يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلموهم من وجهين:

من جهة تلبيس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم بغير حق، بل بأبطل الباطل، أعظم ممن يأخذها غصباً وسرقة ونحوهما، ولهذا توعدهم بهذين الأمرين، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من التحريف والباطل ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ﴾ من الأموال، والويل: شدة العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد الشديد .

قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات من قوله: ﴿أَنفَتَمُومُونَ﴾ إلى ﴿يَكْتُمُونَ﴾ فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حمل الكتاب والسنة، على ما أصله من البدع الباطلة .

وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا أمانياً، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه، ومتناول لمن كتب كتاباً بيده، مخالفاً لكتاب الله، لينال به دنيا، وقال: إنه من عند الله، مثل أن يقول: هذا هو الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة، وهذا هو أصول الدين، الذي يجب اعتقاده على الأعيان والكفاية، ومتناول لمن كتبه ما عنده من الكتاب والسنة، لثلا يحتج به

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَوْ لَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٧﴾

وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنَّهُمْ

إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ

ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْرَ وَأَبْهَ ثُمَّ قَلِيلًا

فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ

﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ

أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ وَأَمْ تَقُولُونَ

عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً

وَأَحْطَتْ بِهِ هَخَطَيْتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ

أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ

إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا

لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ

تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بَاتِي حِيَّ أَحْسَنُ﴾.

ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به عباده، أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر الله، ورجاء لثوابه. ثم أمرهم بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله على عباده أن أمرهم بها، وتفضل بها عليهم، وأخذ المواثيق عليكم ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ على وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولى، وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فنعوذ بالله من الخذلان.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ﴾ هذا استثناء، لثلاث يوهم

تري، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطل يحتج بآية، أو حديث صحيح على قوله الباطل، فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعاً بها سنة رسوله، فحاصل هاتين الآيتين، أن أهل النجاة والفوز أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار المشركون بالله، الكافرون به.

(٨٣) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ وهذه الشرائع من أصول الدين، التي أمر الله بها في كل شريعة، لاشتمالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان، فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا الله بها في قوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى آخر الآية.

فقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به، استعصوا، فلا يقبلونه إلا بالآيمان الغليظة والعهد الموثقة.

﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ هذا أمر بعبادة الله وحده، ونهي عن الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، ثم قال:

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا يعم كل إحسان قولني وفعلني، مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة، لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهي عن ضده.

وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جرماً، وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى والمساكين، وتفصيل الإحسان لا تحصر بالعد، بل تكون بالحد، كما تقدم.

ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً، فقال: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب.

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون

أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم، عصمهم الله وثبتهم. (٨٤-٨٦) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا سَتِفُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ ۝ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْ دِيَارِهِمْ تَطْهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَةِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْتَدُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْمُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَسْخَى الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ وهذا الفعل المذكور في هذه الآية، فعل للذين كانوا في زمن الوحي بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة، فكانوا إذا اقتتلوا، أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم^(١) الفرق الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضاً.

والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا وجدوا أسيراً منهم، وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالآخر وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك، فقال: ﴿أَفْتَوْمُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ وهو فداء الأسير ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وهو القتل والإخراج.

وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر، واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان، قال تعالى: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ وقد وقع ذلك، فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسبى من سبى منهم، وأجلى من أجلى ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَسْخَى الْعَذَابِ﴾ أي: أعظمه ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب، والإيمان ببعضه، فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار، فاختراروا النار على العار، فلماذا قال: ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ بل هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا سَتِفُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ﴾ (٨٤) ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَطْهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمَةِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْتَدُوهُمْ وَهُوَ مُحْرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَوْمُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيْهِ أَسْخَى الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٥) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (٨٦) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (٨٧) ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَأْيُومُونَ﴾ (٨٨)

من الأوقات ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: يدفع عنهم مكروه. (٨٧) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كلمه موسى، وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسول الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليهم السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: قواه الله بروح القدس.

قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده.

ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم ﴿بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بهم ﴿فَرِيقًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فقدّمتم الهوى على الهدى، وآثرتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾

يَسْمَأُ أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِعَضْبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ يَفْقَهُ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْمَأُ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

على جميع رسل الله .

وأما التفريق بين الرسل والكتب، وزعم الإيمان ببعضها دون بعض، فهذا ليس بإيمان، بل هو الكفر بعينه، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفْرَقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ۝﴾ .

ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا ردا شافيا، وألزمهم إلزاما لا محيد لهم عنه، فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين، فقال: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات، والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم، فالكفر به - بعد ذلك - كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله .

ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي: موافقا له في كل ما دل عليه من الحق ومهيمنًا عليه، فلم يؤمنوا بما أنزل عليكم، وتكفروا بنظيره؟ هل هذا إلا تعصب، واتباع للهوى لا للهدى؟ وأيضا فإن كون القرآن مصدقا لما معهم، يقتضي أنه

(١) في ب: على أنهم إذا كان وقع .

(٨٨) ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه، يا أيها الرسول، بأن قلوبهم غلف، أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول، يعني، فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلهذا قال تعالى: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: أنهم مطرودون ملعونون بسبب كفرهم، فقليلًا المؤمن منهم، أو قليلًا إيمانهم، وكفرهم هو الكثير .

(٨٩، ٩٠) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ۝ يَسْمَأُ أَشْرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِعَضْبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: ولما جاءهم كتاب من عند الله على يد أفضل الخلق، وخاتم الأنبياء، المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به، وتيقنوه حتى إنهم كانوا إذا وقع (١) بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب، استنصروا بهذا النبي، وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عرفوا، كفروا به بعيا وحسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فلعنهم الله وغضب عليهم غضبا بعد غضب، لكثرة كفرهم، وتوالي شكهم وشركهم .

وله في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي: مؤلم موجه، وهو صلي الجحيم، وفوت النعيم المقيم، فيش الحال حالهم، وبش ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به، وبكتبه وبرسله، مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم .

(٩١-٩٣) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ۝ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَاءَ آتَيْنَاكُمْ يَفْقَهُ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَسْمَأُ يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله، وهو القرآن، استكبروا وعتوا، ﴿قَالُوا تَوْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمن بما أنزل الله مطلقا، سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، ولهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾
 وَلَنْ يَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾
 وَلَنَجْذِئَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلِيلًا بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّتَ بِيَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾
 مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾
 أَوْ كَلِمَاتٍ عَاهَدُوا عَاهِدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يياهلوا على ما هم عليه بأمر يسير عليهم، وهو تمنى الموت الذي يوصلهم إلى الدار التي هي خالصة لهم، فامتنعوا من ذلك.

فعلم كل أحد أنهم في غاية المعاندة والمحاداة لله ولرسوله، مع علمهم بذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصي، لأنهم يعلمون أنه طريق لهم إلى المجازاة بأعمالهم الخبيثة.

فالموت أكره شيء إليهم، وهم أحرص على الحياة من كل أحد من الناس، حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بأحد من الرسل والكتب.

ثم ذكر شدة محبتهم للعالم، فقال: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الحرص، تمنوا حالة هي من المحالات، والحال أنهم لو عمروا العمر المذكور، لم يغن عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم من العذاب شيئاً. ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ تهديد لهم على المجازاة بأعمالهم.

(١) في ب: وشربها.

حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وحجده، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينه، ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بينته، ثم يأتي هو لبيته وحجته، فيقدح فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن، كفراً بما في أيديهم ونقضاً له.

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ولقد جاءكم موسى بالبينات أي: بالادلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد مجيئه ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ في ذلك ليس لكم عذر.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا﴾ أي: سماع قبول وطاعة واستجابة ﴿فَقَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: صارت هذه حالتهم ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: صبغ حب العجل وحب عبادته في قلوبهم، وتشربها^(١) بسبب كفرهم.

﴿قُلْ يَسْمَأُ بِأُتْرُكِكُمْ بِهِ إِيْمَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنتم تدعون الإيمان وتمدحون بالدين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل إلهاً من دون الله، لما غاب عنكم موسى نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمتم بالقول، ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيتهم، وما هذا الدين؟

فإن كان هذا إيماناً على زعمكم، فبئس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان، والكفر برسل الله، وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير، وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم، وتبين تناقضهم.

(٩٤-٩٦) ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَلَنْ يَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَنَجْذِئَهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّزٍ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هودياً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ.

وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقة لهم بعد العناد منهم، إلا

مِنْهَا مَا يُفْرَقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْلَمُونَ مَا بُشِّرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكَرُوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ○ لَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ○ أي: ولما جاءهم هذا الرسول الكريم بالكتاب العظيم بالحق الموافق لما معهم، وكانوا يزعمون أنهم متمسكون بكتابتهم، فلما كفروا بهذا الرسول وبما جاء به ﴿بَدَأَ فِرْقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ﴾ الذي أنزل إليهم، أي: طرحوه رغبة عنه ﴿وَرَأَى ظُهُورَهُمْ﴾ وهذا أبلغ في الإعراض كأنهم في فعلهم هذا من الجاهلين، وهم يعلمون صدقه، وحقية^(٢) ما جاء به.

تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم به كفراً بكتابتهم من حيث لا يشعرون.

ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه، وأمكنه الانتفاع به فلم ينتفع، ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن، ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم يفتق ماله في طاعة الله، أفنقه في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه، ابتلي بالذل للعبيد، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل.

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا كتاب الله اتبعوا ما تلتو الشياطين وتخلقوا من السحر على ملك سليمان حيث أخرجت الشياطين للناس السحر، وزعموا أن سليمان عليه السلام كان يستعمله، وبه حصل له الملك العظيم.

وهم كذبة في ذلك، فلم يستعمله سليمان، بل نزهه الصادق في قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ﴾ أي: بتعلم السحر، فلم يتعلمه ﴿وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ بذلك.

﴿يَعْلَمُونَ أَنَّ النَّاسَ لِيَخْرَ﴾ من إضلالهم وحرصهم على إغواء بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أنزل عليهما السحر امتحاناً وابتلاءً من الله لعباده فيعلمانهم السحر.

﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى﴾ ينصحا، و ﴿يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: لا تتعلم السحر فإنه كفر، فينهانه عن السحر، ويخبرانه عن مرتبته، فتعليم الشياطين للسحر على وجه التدليس والإضلال، ونسبته وترويجه إلى من برأه الله منه

(١) في ب: التعجب. (٢) في ب: وحقية.

(٩٧، ٩٨) ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ ○ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ○ أي: قل لهؤلاء اليهود الذين زعموا أن الذي منهم من الإيمان أن وليك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة الله، لآمنوا بك وصدقوا: إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت، وتكبير على الله، فإن جبريل عليه السلام هو الذي نزل القرآن من عند الله على قلبك، وهو الذي ينزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره، وأرسله بذلك، فهو رسول محض.

مع أن هذا الكتاب الذي نزل به جبريل - مصدقاً لما تقدمه من الكتب - غير مخالف لها ولا مناقض، وفيه الهداية التامة من أنواع الضلالات، والبشارة بالخير الدنيوي والأخروي لمن آمن به، فالعداوة لجبريل الموصوف بذلك كفر بالله وآياته، وعداوة الله ولرسله وملائكته، فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من عند الله من الحق، على رسل الله، فيتضمن الكفر والعداوة للذي أنزله وأرسله، والذي أرسل به، والذي أرسل إليه، فهذا وجه ذلك.

(٩٩) ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ يقول لنبينا ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحججة على من عاند، وهي في الوضوح والدلالة على الحق، قد بلغت مبلغاً عظيماً، ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر.

(١٠٠) ﴿أَوْ كَلِمَاتٍ عَلَهُدًا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا فيه التعجب^(١) من كثرة معاهداتهم، وعدم صبرهم على الوفاء بها.

﴿كَلِمَاتٍ﴾ تعيد التكرار، فكلما وجد العهد ترتب عليه النقض. ما السبب في ذلك؟.

السبب أن أكثرهم لا يؤمنون، فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود، ولو صدق إيمانهم، لكانوا مثل من قال الله فيهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾.

(١٠١-١٠٢) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَأَى ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ○ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعْلَمُونَ النَّاسَ لِيَخْرَ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هُنُوتَ وَمُرُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ

وهو سليمان عليه السلام، وتعليم الملكين امتحانًا مع نصحتها لثلا يكون لهم حجة.

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلمه الملكان، فتركوا علم الأنبياء والمرسلين، وأقبلوا على علم الشياطين، وكل يصيب إلى ما يناسبه.

ثم ذكر مفاسد السحر، فقال: ﴿فَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ مع أن محبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما، لأن الله قال في حقهما: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضر بإذن الله، أي: بإرادة الله، والإذن نوعان: إذن قدري، وهو المتعلق بمشيئة الله، كما في هذه الآية، وإذن شرعي كما في قوله تعالى في الآية السابقة.

﴿فَإِنَّهُمْ زَكَّاءٌ عَلَىٰ قَلْبِكَ يَا ذُنَّ اللَّهِ﴾ وفي هذه الآية وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في قوة التأثير، فإنها تابعة للقضاء والقدر، ليست مستقلة في التأثير، ولم يخالف في هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير القدرية في أفعال العباد، زعموا أنها مستقلة غير تابعة للمشيئة، فأخرجوها عن قدرة الله، فخالفوا كتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة والتابعين.

ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة، ليس فيه منفعة لا دنيوية ولا دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية في بعض المعاصي، كما قال تعالى في الخمر والميسر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ فهذا السحر مضرة محضة، فليس له داع أصلاً، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة، أو شرها أكبر من خيرها؛ كما أن المأمورات، إما مصلحة محضة، أو خيرها أكثر من شرها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أي: اليهود ﴿لَمَنِ اشْتَرَاهُ﴾ أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة ﴿مَا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ حَلَقٍ﴾ أي: نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلاً، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ﴿وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ علماً يثمر العمل ما فعلوه.

(١٠٥، ١٠٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّوَلَوْا رِيعًا وَفُؤُولًا أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنَ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول عند تعلمهم أمر الدين: ﴿رِيعًا﴾ أي: راع أحوالنا، فيقصدون

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرُ سَلِيمًا وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا وَيَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَأَتَّقُوا لِمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّوَلَوْا رِيعًا وَفُؤُولًا أَنْظَرْنَا وَأَسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٦﴾ مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِنَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٧﴾

بها معنى صحيحاً.

وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة سداً لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائز، إذا كان وسيلة إلى محرم، وفيه الأدب، واستعمال الألفاظ التي لا تحتل إلا الحسن، وعدم الفحش، وترك الألفاظ القبيحة، أو التي فيها نوع تشويش أو احتمال لأمر غير لائق، فأمرهم بلفظة لا تحتل إلا الحسن، فقال: ﴿وَفُؤُولًا أَنْظَرْنَا﴾ فإنها كافية يحصل بها المقصود من غير محذور.

﴿وَأَسْمَعُوا﴾ لم يذكر المسموع، ليعم ما أمر باستماعه، فيدخل فيه سماع القرآن، وسماع السنة التي هي الحكمة، لفظاً ومعنى واستجابة، ففيه الأدب والطاعة.

ثم توعده الكافرين بالعذاب المؤلم الموجه، وأخبر عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، أنهم ما يودون ﴿أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ حسداً منهم، وبغضاً لكم أن يختصكم بفضله، فإنه ﴿ذُو

الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٦﴾.

ومن فضله عليكم إنزال الكتاب على رسولكم، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون، فله الحمد والمنة.

(١٠٦، ١٠٧) ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
النسخ، هو النقل، فحقيقة النسخ نقل المكلفين من حكم مشروع إلى حكم آخر، أو إلى إسقاطه وكان اليهود ينكرون النسخ، ويزعمون أنه لا يجوز، وهو مذكور عندهم في التوراة، فإنكارهم له كفر وهوى محض.

فأخبر الله تعالى عن حكمته في النسخ، وأنه ما ينسخ ﴿مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ أي: ننسها العباد، فنزلها من قلوبهم ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ وأنفع لكم ﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾.
فدل على أن النسخ لا يكون لأقل مصلحة لكم من الأول، لأن فضله تعالى يزداد، خصوصاً على هذه الأمة، التي سهل عليها دينها غاية التسهيل.

وأخبر أن من قذح في النسخ، فقد قذح في ملكه وقدرته، فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإذا كان مالكا لكم، متصرفا فيكم، تصرف المالك البر الرحيم في أقداره وأوامره ونواهي، فكما أنه لا حجر عليه في تقدير ما يقدره على عباده من أنواع التقادير، كذلك لا يعترض عليه فيما يشرعه لعباده من الأحكام.

فالعبد مدبر مسخر تحت أوامر ربه الدينية والقدرية، فما له والاعتراض؟ وهو أيضا، ولي عباده ونصيرهم، فيتولاهم في تحصيل منافعهم، وينصرهم في دفع مضارهم، فمن ولايته لهم أن يشرع لهم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بهم. ومن تأمل ما وقع في القرآن والسنة من النسخ، عرف بذلك حكمة الله ورحمته عباده، وإيصالهم إلى مصالحهم، من حيث لا يشعرون بلفظه.

(١٠٨-١١٠) ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَمَا آتَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَدُوا ۚ وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
ينهى الله المؤمنين أو اليهود، بأن

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

١٧

الْبَقَرَةِ

﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾
﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٠٦﴾
﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿١٠٧﴾
﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ ﴿١٠٨﴾
﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَمَا آتَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَدُوا ۚ وَأَصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٠٩﴾
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ ﴿١١٠﴾
﴿وَقَالُوا لَنْ نَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانِيًّا ۚ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١١١﴾
﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَلَاهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿١١٢﴾

يسألوا رسولهم: ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ والمراد بذلك أسئلة التعنت والاعتراض، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَاءِ ۚ إِنَّ شَيْئًا لَكُمْ تَسْوَمُ﴾ فهذه ونحوها هي المنهي عنها.

وأما سؤال الاسترشاد والتعلم، فهذا محمود قد أمر الله به، كما قال تعالى: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ويقرهم^(١) عليه، كما في قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ﴾ ونحو ذلك.

ولما كانت المسائل المنهي عنها مذمومة، قد تصل بصاحبها إلى الكفر، قال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

ثم أخبر عن حسد كثير من أهل الكتاب، وأنهم بلغت بهم الحال، أنهم ودوا ﴿لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَمَا آتَاكُمْ﴾

(١) في ب: ويقرهم.

يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٤﴾ وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد، إلى أن بعضهم ضلَّ بعضًا، وكفَّر بعضهم بعضًا، كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم، فكل فرقة تضلُّ الفرقة الأخرى، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، الذي أخبر به عباده، فإنه ^(١) لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدَّق جميع الأنبياء والمرسلين، وامتثل أوامر ربه، واجتنب نواهيه، ومن عداهم فهو هالك.

(١١٤) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ وَسَمَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ أي: لا أحد أظلم وأشد جرمًا، ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من أنواع الطاعات.

﴿وَسَمَىٰ﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه ﴿فِي خَرَابِهَا﴾ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها، وتقديرها، والخراب المعنوي، منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل، وقريش، حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين في خرابها، محادة لله، ومشاقة، فجازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعًا وقدرًا، إلا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيرًا، حتى أذن الله له في فتح مكة، ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِتْمًا مِّنْ شَرِكٍ فَلَا يُقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَاهِهِمْ هَكَذَا﴾.

وأصحاب الفيل قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى سلط الله عليهم المؤمنين فأجلوهم عنه. وهكذا كل من اتصف بوصفهم، فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها البارئ قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر.

واستدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد، لهم خزي في الدنيا أي: فضيحة كما تقدم، ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيمانًا ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة

وسعوا في ذلك، وأعملوا المكاييد، وكيدهم راجع عليهم، [كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَأَمِنُوا بِاللَّهِ آتِئًا عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجِئَ النَّهَارَ وَكَفَرُوا ءَاخِرَهُ لَعْنَهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وهذا من حسدهم الصادر من عند أنفسهم.

فأمرهم الله بمقابلة من أساء إليهم غاية الإساءة بالعفو عنهم، والصفح، حتى يأتي الله بأمره.

ثم بعد ذلك أتى الله بأمره إياهم بالجهاد، فشفى الله أنفس المؤمنين منهم، فقتلوا من قتلوا، واسترقوا من استرقوا، وأجلوا من أجلوا ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثم أمرهم [الله] بالاشتغال في الوقت الحاضر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وفعل كل القربات، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير، فإنه لا يضيع عند الله، بل يجدون عنده وافرًا موفرًا قد حفظه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيدٌ﴾.

(١١٢، ١١١) ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرًا تِلْكَ ءَأْمَانِيَّتُهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَكَرَهُ أُجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى.

فحكموا لأنفسهم بالجنة وهدمهم، وهذا مجرد أماني غير مقبولة، إلا بحجة وبرهان، فأتوا بها إن كنتم صادقين، وهكذا كل من ادعى دعوى، لا بد أن يقيم البرهان على صحة دعواه، وإلا، فلو قلبت عليه دعواه، وادعى مدع عكس ما ادعى بلا برهان، لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان، عُلم كذبهم بتلك الدعوى.

ثم ذكر تعالى البرهان الجلي العام لكل أحد، فقال: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس بأمانيتكم ودعاويكم، ولكن ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ أي: أخلص لله أعماله، متوجهًا إليه بقلبه ﴿وَهُوَ﴾ مع إخلاصه ﴿مُحْسِنٌ﴾ في عبادة ربه، بأن عبده بشرعه، فأولئك هم أهل الجنة وهدمهم، فلهم أجرهم عند ربهم وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فحصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب.

ويفهم منها أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

(١١٣) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَتَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَتَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكُتُبَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا

(١) كذا في ب، وفي أ: وأنه.

الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ ءَآخِرِ ﴾ بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها، فقال تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أُوذِيَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ .
وللمساجد أحكام كثيرة، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.
(١١٥) ﴿ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَؤُوا فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴾ أي: ﴿ وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ خصهما بالذكر، لأنهما محل الآيات العظيمة، فهما مطالع الأنوار ومغاريبها، فإذا كان مالكا لها، كان مالكا لكل الجهات.
﴿ فَأَيْنَمَا تُولَؤُوا ﴾ وجوهكم من الجهات، إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشبه القبلة، فيتحرى الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ، أو يكون معذورا بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور، إما أن يكون العبد فيها معذورا أو مأمورا.
وبكل حال، فما استقبل جهة من الجهات، خارجة عن ملك ربه ﴿ فَمِنْ وَجْهِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَسِعَ عَلَيْهِ ﴾ فيه إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهًا لا تشبهه الوجوه، وهو - تعالى - واسع الفضل والصفات عظيمها، عليهم بسرايركم ونياتكم فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.
(١١٦، ١١٧) ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ لَّمْ يَأْتِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمٍّ قٰنِتُونَ ۝ بَدِيعَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضٰى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: ﴿ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأسأوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم.
وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تقصهم إياه ﴿ سُبْحٰنَهُ ﴾ أي: تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله، فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعتربه نقص بوجه من الوجوه.
ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: ﴿ بَلْ لَّمْ يَأْتِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالممالك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبيده،

مفتقرين إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد، يكون له ولداً، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه.

والله تعالى المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا، يكون له ولداً؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه.

والقنوت نوعان: قنوت عام، وهو قنوت الخلق كلهم، تحت تدبير الخالق، وخاص، وهو قنوت العبادة، فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني: كما في قوله تعالى: ﴿ وَرُؤُوسًا لِلَّهِ قٰنِتِينَ ﴾ .

ثم قال: ﴿ بَدِيعَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي: خالقهما على وجه قد أتقهما وأحسنهما على غير مثال سبق ﴿ وَإِذَا قَضٰى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ فلا يستعصى عليه، ولا يتمتع منه.

(١١٨، ١١٩) ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ اِنَّا اَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ اَصْحٰبِ الْجَحِيْمِ ﴾ أي: قال الجهلة من

دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم، والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

قوله: ﴿بَشِيرًا﴾ أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية ﴿نَذِيرًا﴾ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي.

﴿وَلَا تَسْأَلُ عَنْ أَحْوَابِ الْحَيْرِ﴾ أي: لست مسؤولاً عنهم، إنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب.

(١٢٠) ﴿وَلَنْ رَضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هَذَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يخبر تعالى رسوله أنه لا يرضى منه اليهود ولا النصرى إلا باتباعه دينهم، لأنهم دعاة إلى الدين الذي هم عليه، ويزعمون أنه الهدى، فقل لهم: ﴿إِنَّ هَذَىٰ اللَّهُ﴾ الذي أرسلت به ﴿هُوَ الْهُدَىٰ﴾.

وأما ما أنتم عليه، فهو الهوى بدليل قوله: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يخص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فإن أمته داخلة في ذلك، لأن الاعتبار بعموم المعنى لا بخصوص المخاطب، كما أن العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب، ثم قال:

(١٢١-١٢٣) ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَافِرُونَ ۝ يَتَّبِعِ الَّذِينَ آتَىٰ آتَىٰ فَمَلَّكُوا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَأَتَوْقُوا يَوْمًا لَا يَجْرِي تَنْسَ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يخبر تعالى أن الذين آتاهم الكتاب، ومنهم عليهم به منة مطلقة أنهم ﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ أي: يتبعونه حق اتباعه، والتلاوة: الاتباع، فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه، ويؤمنون بمتشابهه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب، الذين عرفوا نعمة الله وشكروها، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم، فهؤلاء هم المؤمنون حقًا، لا من قال منهم: ﴿تُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾.

ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ ۖ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَافِرُونَ﴾ وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها.

(١٢٤، ١٢٥) ﴿وَإِذِ اتَّخَذْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ رَبُّنَا كَيْفَتَهُمْ فَأَنزَلْنَا إِلَيْنَا

أهل الكتاب وغيرهم: هلا يكلمنا كما كلم الرسل ﴿أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةً﴾ يعنون آيات الاقتراح، التي يقترحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله كقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهُ جَهَنَّمَ﴾، ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ الآية.

وقالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُنذِرُكَ إِلَيْهِ كَذِبًا أَوْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ والآيات، وقوله: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ الآيات.

فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعنت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاؤوا من الآيات بما يؤمن بمثله البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿فَدَّ بَيْنَنَا أَلَيْكُتِ لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ﴾.

فكل موافق، فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب.

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به، فقال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته، وهديه ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة. فالأول والثاني قد دخلا في قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ والثالث دخل في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾.

وبيان الأمر الأول وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ، وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصلبان، وتبديلهم للأديان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقضوا قبيل البعثة.

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملاً، لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته عبادة أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فبمجرد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله.

وأما الثاني: فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة، ونشوءه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للناظرين، فمن عرفها، وسر أحواله عرف أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر

جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۝
 وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَاً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ
 وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ
 وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝ يخبر تعالى عن عبده وخليله إبراهيم عليه
 السلام، المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف
 أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون: أن الله ابتلاه
 وامتنحه بكلمات، أي: بأوامر ونواهي، كما هي عادة الله في
 ابتلائه لعباده، ليبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء
 والامتحان من الصادق الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره،
 ويزكو عمله، ويخلص ذهبه، وكان من أجلهم في هذا المقام
 الخليل عليه السلام.

فَأْتَمَّ مَا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِهِ، وَأَكْمَلَهُ وَوَفَّاهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ،
 وَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ شُكْرًا، فَقَالَ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أَي:
 يَقْتَدُونَ بِكَ فِي الْهُدَى، وَيَمْشُونَ خَلْفَكَ إِلَى سَعَادَتِهِمُ الْأَبَدِيَّةِ،
 وَيَحْصُلُ لَكَ الشُّكْرُ الدَّائِمُ، وَالْأَجْرُ الْجَزِيلُ، وَالتَّعْظِيمُ مِنْ كُلِّ
 أَحَدٍ وَهَذِهِ - لَعَمْرُ اللَّهِ - أَفْضَلُ دَرَجَةٍ، تَنَافَسَ فِيهَا
 الْمُتَنَافِسُونَ، وَأَعْلَى مَقَامٍ شَمَّرَ إِلَيْهِ الْعَامِلُونَ، وَأَكْمَلُ حَالَةٍ
 حَصَلَهَا أَوْلُو الْعِزْمِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنْ كُلِّ صَدِيقٍ مُتَّبِعٍ
 لَهُمْ، دَاخٍ إِلَى اللَّهِ وَالْإِلَى سَبِيلِهِ.

فَلَمَّا اغْتَبَطَ إِبْرَاهِيمَ بِهَذَا الْمَقَامِ، وَأَدْرَكَ هَذَا، طَلَبَ ذَلِكَ
 لِذُرِّيَّتِهِ، لَتَعْلُو دَرَجَتُهُ وَدَرَجَةُ ذُرِّيَّتِهِ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ إِمَامَتِهِ،
 وَنُصْحِهِ لِعِبَادِ اللَّهِ، وَمَحَبَّتِهِ أَنْ يَكْثُرَ فِيهِمُ الْمُرْشِدُونَ، فَلِلَّهِ
 عِظْمَةُ هَذِهِ الْهَمَمِ الْعَالِيَةِ، وَالْمَقَامَاتِ السَّامِيَةِ.

فَأَجَابَهُ الرَّحِيمُ اللَّطِيفُ، وَأَخْبَرَ بِالْمَنْعِ مِنْ نَيْلِ هَذَا
 الْمَقَامِ، فَقَالَ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أَي: لَا يَنَالُ الْإِمَامَةَ
 فِي الدِّينِ مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَضَرَاهَا، وَحَطَّ قَدْرَهَا، لِمَنَافَاةِ الظُّلْمِ
 لِهَذَا الْمَقَامِ، فَإِنَّهُ مَقَامُ آتِهِ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، وَنَتِيجَتُهُ أَنْ يَكُونَ
 صَاحِبَهُ عَلَى جَانِبِ عَظِيمٍ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ،
 وَالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، وَالشَّمَائِلِ السَّدِيدَةِ، وَالْمَحَبَةِ التَّامَّةِ،
 وَالخَشْيَةِ وَالْإِنَابَةِ. فَأَيْنَ الظُّلْمُ وَهَذَا الْمَقَامُ؟

وَدَلُّ مَفْهُومِ الْآيَةِ أَنَّ غَيْرَ الظَّالِمِ سَيَنَالُ الْإِمَامَةَ، وَلَكِنْ مَعَ
 إِيْتَانِهِ بِأَسْبَابِهَا.

ولا يقضون منه وطراً ﴿و﴾ جعله ﴿أمناً﴾ يأمن به كل أحد،
 حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونهم أشد
 الاحترام، ويجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهجه، فلما
 جاء الإسلام، زاده حرمة وتعظيماً، وتشريفاً وتكريماً.

﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾ يحتتمل أن يكون المراد
 بذلك المقام المعروف الذي قد جعل الآن، مقابل باب
 الكعبة، وأن المراد بهذا: ركعتا الطواف، يستحب أن تكونا
 خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين، ويحتتمل أن
 يكون المقام مفرداً مضافاً، فيعم جميع مقامات إبراهيم في
 الحج، وهي المشاعر كلها: من الطواف، والسعي،
 والوقوف بعرفة، ومزدلفة، ورمي الجمار، والنحر، وغير
 ذلك من أفعال الحج.

فيكون معنى قوله: ﴿مُصَلِّينَ﴾ أي: معبداً، أي: اقتدوا به
 في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى، لدخول المعنى
 الأول فيه، واحتمال اللفظ له.

﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ﴾، أي: أوحينا

﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّينَ﴾
 ﴿وَعَهْدَنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ
 وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ يخبر تعالى عن عبده وخليله إبراهيم عليه
 السلام، المتفق على إمامته وجلالته، الذي كل من طوائف
 أهل الكتاب تدعيه، بل وكذلك المشركون: أن الله ابتلاه
 وامتنحه بكلمات، أي: بأوامر ونواهي، كما هي عادة الله في
 ابتلائه لعباده، ليبين الكاذب الذي لا يثبت عند الابتلاء
 والامتحان من الصادق الذي ترتفع درجته، ويزيد قدره،
 ويزكو عمله، ويخلص ذهبه، وكان من أجلهم في هذا المقام
 الخليل عليه السلام.

فَأْتَمَّ مَا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِهِ، وَأَكْمَلَهُ وَوَفَّاهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ،
 وَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ شُكْرًا، فَقَالَ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أَي:
 يَقْتَدُونَ بِكَ فِي الْهُدَى، وَيَمْشُونَ خَلْفَكَ إِلَى سَعَادَتِهِمُ الْأَبَدِيَّةِ،
 وَيَحْصُلُ لَكَ الشُّكْرُ الدَّائِمُ، وَالْأَجْرُ الْجَزِيلُ، وَالتَّعْظِيمُ مِنْ كُلِّ
 أَحَدٍ وَهَذِهِ - لَعَمْرُ اللَّهِ - أَفْضَلُ دَرَجَةٍ، تَنَافَسَ فِيهَا
 الْمُتَنَافِسُونَ، وَأَعْلَى مَقَامٍ شَمَّرَ إِلَيْهِ الْعَامِلُونَ، وَأَكْمَلُ حَالَةٍ
 حَصَلَهَا أَوْلُو الْعِزْمِ مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَأَتْبَاعِهِمْ مِنْ كُلِّ صَدِيقٍ مُتَّبِعٍ
 لَهُمْ، دَاخٍ إِلَى اللَّهِ وَالْإِلَى سَبِيلِهِ.

فَلَمَّا اغْتَبَطَ إِبْرَاهِيمَ بِهَذَا الْمَقَامِ، وَأَدْرَكَ هَذَا، طَلَبَ ذَلِكَ
 لِذُرِّيَّتِهِ، لَتَعْلُو دَرَجَتُهُ وَدَرَجَةُ ذُرِّيَّتِهِ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ إِمَامَتِهِ،
 وَنُصْحِهِ لِعِبَادِ اللَّهِ، وَمَحَبَّتِهِ أَنْ يَكْثُرَ فِيهِمُ الْمُرْشِدُونَ، فَلِلَّهِ
 عِظْمَةُ هَذِهِ الْهَمَمِ الْعَالِيَةِ، وَالْمَقَامَاتِ السَّامِيَةِ.

فَأَجَابَهُ الرَّحِيمُ اللَّطِيفُ، وَأَخْبَرَ بِالْمَنْعِ مِنْ نَيْلِ هَذَا
 الْمَقَامِ، فَقَالَ: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أَي: لَا يَنَالُ الْإِمَامَةَ
 فِي الدِّينِ مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَضَرَاهَا، وَحَطَّ قَدْرَهَا، لِمَنَافَاةِ الظُّلْمِ
 لِهَذَا الْمَقَامِ، فَإِنَّهُ مَقَامُ آتِهِ الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، وَنَتِيجَتُهُ أَنْ يَكُونَ
 صَاحِبَهُ عَلَى جَانِبِ عَظِيمٍ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ،
 وَالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ، وَالشَّمَائِلِ السَّدِيدَةِ، وَالْمَحَبَةِ التَّامَّةِ،
 وَالخَشْيَةِ وَالْإِنَابَةِ. فَأَيْنَ الظُّلْمُ وَهَذَا الْمَقَامُ؟

وَدَلُّ مَفْهُومِ الْآيَةِ أَنَّ غَيْرَ الظَّالِمِ سَيَنَالُ الْإِمَامَةَ، وَلَكِنْ مَعَ
 إِيْتَانِهِ بِأَسْبَابِهَا.

ثم ذكر تعالى نموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم، وهو:
 هذا البيت الحرام الذي جعل قصده ركناً من أركان الإسلام،
 حاطاً للذنوب والآثام.

وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت
 به حالته، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ أَي: مرجعاً
 يثوبون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه،

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٢٠

الْبَقَرَةِ

وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَنْ يَرْعَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ صَاطِفِي لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ أَبَاءُكُمْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

أعمال الحج كلها، كما يدل عليه السياق والمقام، ويحتمل أن يكون المراد: ما هو أعم من ذلك، وهو الدين كله، والعبادات كلها، كما يدل عليه عموم اللفظ، لأن النسك: التعبد، ولكن غلب على متعبدات الحج تغليباً عرفياً، فيكون حاصل دعائهما يرجع إلى التوفيق للعلم النافع، والعمل الصالح.

ولما كان العبد - مهما كان - لا بد أن يعتره التقصير، ويحتاج إلى التوبة، قالوا: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أي: في ذريتنا ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ليكون أرفع لدرجتها، ولينقادوا له، وليعرفوه حقيقة المعرفة ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ لفظاً، وحفظاً، وتحفيظاً ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ معنى.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ بالتربية على الأعمال الصالحة، والتبري من الأعمال الرديئة التي لا تزكو النفوس^(٢) معها.

(١) في ب: يجعل. (٢) في ب: النفس.

إليهما، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك، والكفر والمعاصي، ومن الرجس والنجاسات والأقدار، ليكون ﴿لِبَطَّالِينَ﴾ فيه ﴿وَالْمَكِيدِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: المصلين.

قدم الطواف لاختصاصه بالمسجد [الحرام]، ثم الاعتكاف؛ لأن من شرطه المسجد مطلقاً، ثم الصلاة، مع أنها أفضل، لهذا المعنى، وأضاف الباري البيت إليه لفوائد، منها: أن ذلك يقتضي شدة اهتمام إبراهيم وإسماعيل بتطهيره، لكونه بيت الله، فيبدلان جهدهما، ويستفرغان وسعهما في ذلك. ومنها: أن الإضافة تقتضي التشريف والإكرام، ففي ضمنها أمر عباده بتعظيمه وتكريمه.

ومنها: أن هذه الإضافة هي السبب الجاذب للقلوب إليه. (١٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: وإذ دعا إبراهيم لهذا البيت، أن يجعله الله بلداً آمناً، ويرزق أهله من أنواع الثمرات. ثم قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين، تأدباً مع الله، إذ كان دعاؤه الأول، فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيداً بغير الظالم.

فلما دعا لهم بالرزق، وقيد بالموئن، وكان رزق الله شاملاً للمؤمن والكافر والمعاصي والطائع، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: أرزقهم كلهم، مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، وأما الكافر فيمتنع فيها قليلاً ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أي: أجهته وأخرجه مكرهاً ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

(١٢٧-١٢٩) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ○ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ○ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: واذكر إبراهيم وإسماعيل في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس، واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما - مع هذا العمل - دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما، حتى يحصل^(١) فيه النفع العميم.

ودعوا لأنفسهما، وذريتهما بالإسلام، الذي حقيقته خضوع القلب، وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح. ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ أي: علِّمناها على وجه الإراءة والمشاهدة، ليكون أبلغ، يحتمل أن يكون المراد بالمناسك:

حضورًا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي: مقدماته وأسبابه، فقال لنيه على وجه الاختبار، ولتقرّ عينه في حياته بامثالهم ما وصاهم به: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِي﴾؟ فأجابوه بما قرّت به عينه، فقالوا: ﴿تَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابَاكَ إِبراهيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَجِدًا﴾ فلا نشرك به شيئًا، ولا نعدل به أحدًا ﴿وَتَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فجمعوا بين التوحيد والعمل.

ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصى نبيه بالحنيفية، لا باليهودية.

ثم قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: كل له عمله، وكل سيجازي بما فعله، لا يؤخذ^(١) أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحدًا إلا إيمانه وتقواه، فاشتغالكم بهم وادعائكم أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد القول أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟.

(١٣٥) ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارًا تَهْتَدُوا﴾ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبراهيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول في دينهم، زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال ﴿قُلْ﴾^(٢) له محييا جواريا شاقيا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مِلَّةَ إِبراهيمَ حَنِيفًا﴾ أي: مقبلا على الله، معرضا عما سواه، قائما بالتوحيد، تاركًا للشرك والتنديد فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

(١٣٦) ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِبراهيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَتَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ هذه الآية الكريمة قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به.

واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح، وهو - بهذا الاعتبار - يدخل فيه الإسلام، وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان، وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام، إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما كان الإيمان اسمًا لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسمًا للأعمال الظاهرة وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة.

فقوله تعالى: ﴿قُولُوا﴾ أي: بألسنتكم، متواطئة عليها، قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء،

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ أي: القاهر لكل شيء، الذي لا يتمتع على قوته شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فبِعزتك وحكمتك، ابعث فيهم هذا الرسول.

فاستجاب الله لهما، فبعث الله هذا الرسول الكريم، الذي رحم الله به ذريتهما خاصة، وسائر الخلق عامة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبراهيمَ».

ولما عظم الله إبراهيمَ هذا التعظيم، وأخبر عن صفاته الكاملة، قال تعالى:

(١٣٠-١٣٤) ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِلَّةِ إِبراهيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ○ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ○ وَوَصَّي بِهَا إِبراهيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الَّذِينَ فَلَا تَشْرِكُونَ ○ وَأَنشُرْ مُسْلِمُونَ ○ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَاللَّهُ عَابَاكَ إِبراهيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَجِدًا وَتَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ ○ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

أي: ما يرغب ﴿عَن مِلَّةِ إِبراهيمَ﴾ بعدما عرف من فضله ﴿إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ أي: جهلها وامتنعها، ورضي لها بالدون، وباعها بصفقة المغبون كما أنه لا أرشد وأكمل ممن رغب في ملة إبراهيم.

ثم أخبر عن حالته في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: اخترناه ووقفناه للأعمال، التي صار بها من المصطفين الأخيار ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم أعلى الدرجات.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ﴾ امتثالًا لربه: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إخلاصًا وتوحيدًا، ومعبة، وإنابة، فكان التوحيد نعتة.

ثم ورثه في ذريته، ووصاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه، وتوارثت فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوصى بها نبيه.

فأنتم - يا بني يعقوب - قد وصاكم أبوكم بالخصوص، فيجب عليكم كمال الانقياد، واتباع خاتم الأنبياء، قال: ﴿بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الَّذِينَ﴾ أي: اختاره وتخيرهم لكم رحمة بكم، وإحسانًا إليكم، فقوموا به، واتصفوا بشرائعه، وانصبغوا بأخلاقه، حتى تستمروا على ذلك فلا يأتيكم الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال تعالى منكرًا عليهم: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾ أي:

(١) في ب: لا يؤاخذ. (٢) في ب: قال له.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِثْلَ آبَائِكُمْ
 حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا
 أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا بَرَهْمًا وَسَمْعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ
 مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾
 فَإِنِ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَاءٍ آمَنَ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
 هُم فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
 ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ
 عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ
 وَلِنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ
 تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
 وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَوْ اللَّهُ
 وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ
 بِغَفِلٍ غَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ
 وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصًا محمدًا ﷺ، فإذا كذبوا محمدًا، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفرًا برسولهم.

وفي قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية. لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع، وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: ﴿مَنْ رَبِّهِمْ﴾ إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده، أن ينزل عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدى ولا هملا.

وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا للخير، ولا يهتدون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم يصدق الآخر، ويشهد له

فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب نفاق وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير، قليل الفائدة، وإن كان العبد يؤجر عليه، إذا كان خيرًا ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرد، والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله: ﴿قُولُوا﴾ إشارة إلى الإعلان بالعقيدة، والصدع بها، والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

وفي قوله: ﴿ءَامَنَّا﴾ ونحوه مما فيه صدور الفعل، منسوبًا إلى جميع الأمة إشارة إلى أنه يجب على الأمة، الاعتصام بحبل الله جميعًا، والحث على الائتلاف حتى يكون داعيهم واحدًا، وعملهم متحدًا، وفي ضمنه النهي عن الافتراق، وفيه أن المؤمنين كالجسد الواحد.

وفي قوله: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الخ، دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد، بل على وجوب ذلك، بخلاف قوله: «أنا مؤمن» ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقرونًا بالاستثناء بالمشيئة، لما فيه من تركية النفس، والشهادة على نفسه بالإيمان.

فقوله: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بأنه موجود واحد أحد، متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها، وعدم الإشراك به في شيء منها، بوجه من الوجوه.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فيدخل فيه الإيمان بما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبلية، والإيمان بما تضمنه ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء وغير ذلك.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا بَرَهْمًا وَسَمْعِيلَ﴾ إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عمومًا، وخصوصًا ما نص عليه في الآية لشرفهم، وإلتيانهم بالشرائع الكبار، فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل وجب الإيمان به مفضلًا.

وقوله: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي: بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من ادعى أنه على دين.

فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون بغيره، فيفرون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به،

بالحق، من غير تخالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾.

ولهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سبر أحوال الجميع، وعرف ما يدعون إليه.

فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به، عموماً وخصوصاً، وكان القول لا يغني عن العمل، قال: ﴿وَتَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: خاضعون لعظمته، منقادون لعبادته، بباطنا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو ﴿لَكُمْ﴾ على العامل، وهو ﴿مُسْلِمُونَ﴾.

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

واشتملت على الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل، بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة.

فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء، وهدياً ورحمة لقوم يؤمنون.

(١٣٧) ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ تَسْتَكْبِرُكُمْ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: فإن آمن أهل الكتاب ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ - يا معشر المؤمنين - من جميع الرسل، وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم، وأولى: خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ للضراط المستقيم، الموصل لجنت النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية، إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه.

والهدى هو العلم بالحق، والعمل به، وضده الضلال عن العلم، والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق: هو الذي يكون في شق، والله ورسوله في شق، ويلزم من المشاقة المحادة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها بذل ما يقدرون عليه من أذية الرسول، فلهدا وعد الله رسوله، أن يكفيه إياهم، لأنه السميع لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات،

والعلم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك، كفاك الله شرمهم. وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم، حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجلى بعضهم، وشردهم كل مشرد، ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوقع طبق ما أخبر.

(١٣٨) ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَتَحْنُ لَكُمْ عِبِيدُونَ﴾ أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً، بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة، وصفة من صفاتكم. فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحث الدين على مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ومعالي الأمور، فلهدا قال - على سبيل التعجيب المتقرر للعقول الزكية -: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ أي: لا أحسن صبغة من صبغته^(١).

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، فقس الشيء بضده.

فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتخلى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فوصفه: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعل، ومحبة الله وخشيته، وخوفه، ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبيده.

فقسه بعبد كفر بربه، وشرد عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين، فاتصف بالصفات القبيحة: من الكفر، والشرك، والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق، في أقواله، وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبده، فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقيح صبغة ممن انصغ بغير دينه.

وفي قوله: ﴿وَتَحْنُ لَكُمْ عِبِيدُونَ﴾ بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة؛ لأن «العبادة» اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال، والأقوال

(١) كذا في ب، وفي أ: من صبغه.

فإما أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه - من وضوحه - لم يحتج أن يقول: بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك؛ لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل حتى إنهم بأنفسهم. يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء، لم يكونوا هودًا ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ فيهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها، وأظهروا ضدها: جمعوا بين كتّم الحق، وعدم النطق به، وإظهار الباطل، والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة.

فلهذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد أحصى أعمالهم، وعدّها وادّخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار مثوى للظالمين.

وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها، فيفيد ذلك الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ويفيد أيضًا ذكر الأسماء الحسنى بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي، أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له.

(١٤١) ثم قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مآ كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ تقدم تفسيرها، وكرّرها لقطع التعلق بالمخلوقين، وأن المعول عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال.

(١٤٢، ١٤٣) ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبَلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ قد اشتملت الآية الأولى على معجزة، وتسليّة، وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض، وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعترض، وصفة المُسَلَّم لحكم الله ودينه.

الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك، حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده، في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحرص.

وقال: ﴿وَيَعْنُ لَمْ عَنِدُونَ﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار؛ ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازمًا.

(١٣٩) ﴿قُلْ أَتَمَّاجُونًا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا وَلكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَمْ نُخْلِصُونَ﴾ المحاجة هي: المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق في المسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله، وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقوم الحجة على المعاند، ويوضح الحق، ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت ممارسة، ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى، تفتقر إلى برهان ودليل.

فإذا كان رب الجميع واحدًا، ليس ربًّا لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوتينا نحن وإياكم^(١) بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفریق بين متمثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص.

فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية، التي يسلمها أهل العقول، ولا ينازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتمثلين، والفرق بين المختلفين.

(١٤٠) ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ أَن يَكْفُرَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ هذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين. فرد الله عليهم بقوله: ﴿ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ أَن يَكْفُرَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ فإله يقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَاجَةً مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهم يقولون: بل كان يهوديًا أو نصرانيًا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدَهُمْ عَن قِبَلِنَا إِنَّا كَانُوا عَلَيَّهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّا اللَّهُ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِن الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ وَلِئِن آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَتَّبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلِئِن آتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾

الهداية، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِوَاللَّهِ مِنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾. ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية، ومنة الله عليها، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ أي: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فأطراف داخله تحت الخطر.

فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين، وسطاً في الأنبياء، بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطاً في الشريعة لا تشديدات لليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً، ولا يحرمون شيئاً، بل أباحوا ما دب ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس، وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود والنصارى، ومن أشبههم من المعترضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلدين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة، ثم بعد الهجرة إلى المدينة نحو سنة ونصف؛ لما لله تعالى في ذلك من الحكم التي سيشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة.

فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: ﴿مَا وَلَدَهُمْ عَن قِبَلِنَا إِنَّا كَانُوا عَلَيَّهَا﴾ وهي استقبال بيت المقدس، أي: أي شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه، فسألهم وأخبر بوقوعه وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم، إذ قد علم مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالي باعتراض السفه، ولا يلقي له ذهنه.

ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفيه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمِئَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾، ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وقد كان في قوله: «السفهاء» ما يغني عن رد قولهم، وعدم المبالاة به، ولكنه تعالى - مع هذا - لم يترك هذه الشبهة، حتى أزالها وكشفها مما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قُلْ لَهُمْ مَجِيئًا﴾ ﴿لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله، ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة أبيكم إبراهيم، فلا شيء يعترض المعترض بتوليتكم قبلة داخله تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له؟ فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم، وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعترض عليكم معترض على فضل الله، حسداً لكم وبغيًا.

ولما كان قوله: ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمة الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب

الثواب والعقاب، أي: شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن ﴿مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ﴾ ويؤمن به، فيتبعه على كل حال، لأنه عبد مأمور مدبر، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة، فالمنصف الذي مقصوده الحق، مما يزيده ذلك إيماناً وطاعة للرسول، وأما من انقلب ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وأعرض عن الحق، واتبع هواه، فإنه يزداد كفرًا إلى كفره، وحيرةً إلى حيرته، ويدلي بالحجة الباطلة، المبنية على شبهة لا حقيقة لها.

﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ أي: صرفك عنها ﴿لِكَبِيرَةٍ﴾ أي: شاقة ﴿إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي هَدَىٰ اللَّهُ﴾ فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم، وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم، الذي فضله على سائر الأرض، وجعل قصده ركنًا من أركان الإسلام، وهادمًا للذنوب والآثام، فلماذا خف عليهم ذلك، وشق على من سواهم.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هو من الممتنعات عليه، فأخبر أنه ممتنع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن من الله عليهم بالإسلام والإيمان، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم، فلا يضيعه، وحفظه نوعان:

حفظ عن الضياع والبطلان بعصمته لهم عن كل مفسد ومزبل له، ومنقص من المحن المقلقة، والأهواء الصادة، وحفظ له بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم، بأن هداكم للإيمان، فسيحفظه لكم، ويتم نعمته بتنميته وتمية أجره وثوابه، وحفظه من كل مكدر. بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها، تبيين المؤمن الصادق من الكاذب، فإنها تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم.

وكأن في هذا احترازًا عما يقال: إن قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ قد يكون سببًا لترك بعض المؤمنين إيمانهم، فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله امتثال أمره في كل وقت بحسب ذلك، وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ أي: شديد الرحمة بهم عظيمها، فمن رأفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي

من المطاعم والمشارب والملابس والمناح، وحرم عليهم الخبائث من ذلك، فللهذه الأمة من الدين أكملها، ومن الأخلاق أجلها، ومن الأعمال أفضلها، وهبهم الله من العلم والحلم، والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [كاملين] ليكونوا ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول، فهو مقبول، وما شهدت له بالرد، فهو مردود.

فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم، والحال أن كل مختصمين غير مقبول قول بعضهم على بعض؟

قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامة، كما في هذه الأمة، فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل، وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها.

فإن شكَّ شكًّا في فضلها، وطلب مركزًا لها، فهو أكمل الخلق نبينهم ﷺ، فلماذا قال تعالى: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم استشهاد الأنبياء بهذه الأمة وزكاها نبيا.

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: ﴿وَسَطًا﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ، لم يكونوا وسطًا إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿لِنَكُونُوا﴾ ^(١) شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه فإنها معصومة في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم، والشهادة والفتيا، ونحو ذلك.

(١٤٣) يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَىٰ الَّذِي هَدَىٰ اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾ وهي استقبال بيت المقدس أولًا ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ﴾ أي: علمًا يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها.

ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثوابًا ولا عقابًا، لتمام عدله، وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها

(١) في الأصل: ولتكونوا.

ويحزن إذا لم يقادوا لأمر الله، فكان من الكفار من تمرد عن أمر الله، واستكبر على رسل الله، وترك الهدى عمداً وعدواناً، فمنهم: اليهود والنصارى، أهل الكتاب الأول، الذين كفروا بمحمد ﷺ عن يقين، لا عن جهل.

فلهذا أخبره الله تعالى أنك لو ﴿أَتَيْتَ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ يَكْفُرُوا بِآيَاتِهِ﴾ أي: بكل برهان ودليل، يوضح قولك، ويبين ما تدعو إليه ﴿مَا تَبِعُوا قَوْلَكَ﴾ أي: ما تبعوك، لأن اتباع القبله دليل على اتباعه، ولأن السبب هو شأن القبله، وإنما كان الأمر كذلك، لأنهم معاندون، عرفوا الحق وتركوه، فالآيات إنما تفيد ويتتبع بها من يتطلب الحق، وهو مشتبه عليه، فتوضح له الآيات البيّنات، وأما من جزم بعدم اتباع الحق، فلا حيلة فيه.

وأيضاً فإن اختلافهم فيما بينهم حاصل، وبعضهم غير تابع قبله بعض، فليس بغريب منهم - مع ذلك - أن لا يتبعوا قبلك يا محمداً! وهم الأعداء حقيقة الحسدة، وقوله: ﴿وَمَا آتَتْ بِرِجَالٍ يَخَابُؤْهُمْ﴾ أبلغ من قوله: ولا تتبع؛ لأن ذلك يتضمن أنه ﷺ انصف بمخالفتهم، فلا يمكن وقوع ذلك منه، ولم يقل: ﴿ولو أتوا بكل آية﴾ لأنهم لا دليل لهم على قولهم.

وكذلك إذا تبين الحق بأدلتة اليقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه، لأنه لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافي الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع.

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إنما قال: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾ ولم يقل «دينهم» لأن ما هم عليه مجرد أهوية^(١) نفس، حتى هم - في قلوبهم - يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى لا محالة، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾.

﴿وَمَنْ يَسِّرْ مَا يَسِّرْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ بأنك على الحق، وهم على الباطل، ﴿إِنَّكَ إِذَا﴾ أي: إن اتبعتهم، فهذا احتراز، لثلاث تنفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو في الأفهام، ﴿لَوْ أَنَّ أَكْفَالِيكُمُ﴾ أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فأثر الباطل على الحق، وهذا، وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخله في ذلك، وأيضاً، فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة حسناته^(٢)، فغيره من باب أولى وأحرى.

(١٤٦، ١٤٧) ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ﴾

ابتدأهم بها، وأن ميّز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحاناً زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجاتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت، وأجلها.

(١٤٤) ﴿قَدْ زَيَّ قَلْبَكَ فِي السَّمَاءِ فَلَوْلَيْتَكَ قِبَلَهُ رَضْنَهَا فَوَلَّ وَجْهَكَ سَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ قَوْلُوا بِجُوهِكُمْ سَطْرًا وَإِنَّ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ يقول الله لنبيه: ﴿قَدْ زَيَّ قَلْبَكَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كثرة تردده في جميع جهاته، شوقاً وانتظاراً لتزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وَجْهَكَ﴾ ولم يقل: «بصرك» لزيادة اهتمامه، ولأن قلب الوجه مستلزم لتقلب البصر.

﴿فَلَوْلَيْتَكَ﴾ أي: نوجهك لو لايتنا إياك ﴿قِبَلَهُ رَضْنَهَا﴾ أي: تحبها، وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع في رضاه، ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ سَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ أي: من بر وبحر، شرق وغرب، جنوب وشمال ﴿قَوْلُوا بِجُوهِكُمْ سَطْرًا﴾ أي: جهته، ففيها اشتراط استقبال الكعبة، للصلوات كلها، فرضها ونفلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشيء نهي عن ضده.

ولما ذكر تعالى - فيما تقدم - المعترضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم، وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق وأمر، لما يجدونه في كتبهم، فيعترضون عناداً وبغياً، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يخفه اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبهاً، وكان ممكناً أن يكون معه صواب، فأما إذا يقين أن الصواب والحق مع المعترض عليه، وأن المعترض معاند، عارف ببطلان قوله، فإنه لا محل للمبالاة، بل ينتظر بالمعترض العقوبة الدنيوية والأخروية، فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويجازيهم عليها، وفيها وعيد للمعترضين، وتسلية للمؤمنين.

(١٤٥) ﴿وَلَيْنِ آتَيْتَ الَّذِينَ أَوْثُوا الْكِتَابَ يَكْفُرُوا بِآيَاتِهِ وَمَا تَبِعُوا قَوْلَكَ وَمَا آتَتْ بِرِجَالٍ يَخَابُؤْهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِرِجَالٍ يَخَابُؤْهُمْ وَإِنَّكَ إِذَا لَوْنِ أَكْفَالِيكُمُ﴾ كان النبي ﷺ - من كمال حرصه على هداية الخلق - يبذل غاية ما يقدر عليه من النصيحة، ويتلطف بهدياتهم،

الَّذِينَ اتَّيْنَتْهُمْ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ
 فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُمُومٌ لِّهَا
 فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا
 إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ
 وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا
 اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ
 شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
 شَطْرَهُ إِلَّا لِمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَىٰكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا
 مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأْتِمَّ بِنِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ
 تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ
 يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
 وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأذْكُرُونِي
 أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا أَتَّبَعْتَهُمْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾

وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في
 الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات،
 فالسابقون أعلى الخلق درجة.

والخيرات تشمل جميع الفرائض والنوافل، من صلاة
 وصيام وزكوات^(١) وحج وعمرة، وجهاد، ونفع متعد وقاصر.
 ولما كان أقوى ما يحث النفوس على المسارعة إلى الخير
 وينشطها، ما رتب الله عليها من الثواب، قال: ﴿إِنَّ مَا تَكُونُوا
 يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيجمعكم ليوم
 القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله ﴿يَجْزِي الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا
 عَمِلُوا وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَىٰ﴾.

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف
 بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء
 الذمة: من الصيام، والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة،
 والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فله ما أجمعها وأنفعها من
 آية!!

(١) في ب: وزكاة.

كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝
 الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝

يخبر تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم، وعرفوا أن
 محمداً رسول الله، وأن ما جاء به حق وصدق، وتيقنوا ذلك
 كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم غيرهم، فمعرفتهم
 بمحمد ﷺ، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون.

لكن فريقاً منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به، كتموا
 هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ
 شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ وفي ضمن ذلك تسلية للرسول
 والمؤمنين، وتحذير لهم من شرهم وشبههم، وفريق منهم لم
 يكتنوا الحق وهم يعلمون، فمنهم من آمن [به]، ومنهم من
 كفر [به] جهلاً.

فالعالم عليه إظهار الحق وتبينه وترينه، بكل ما يقدر عليه
 من عبارة وبرهان ومثال، وغير ذلك، وإبطال الباطل وتمييزه
 عن الحق، وتشيينه وتقيحه للنفوس، بكل طريق مؤد لذلك،
 فهؤلاء الكاتمون عكسوا الأمر، فانعكست أحوالهم.

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى
 حقاً من كل شيء؛ لما اشتمل عليه من المطالب العالية
 والأوامر الحسنة، وتركية النفوس وحثها على تحصيل
 مصالحها، ودفع مفسادها، لصدوره من ربك، الذي من
 جملة تربيته لك، أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية
 العقول والنفوس، وجميع المصالح.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: فلا يحصل لك أدنى شك
 وريبة فيه، بل تفكر فيه، وتأمل، حتى تصل بذلك إلى اليقين،
 لأن التفكير فيه لا محالة دافع للشك، موصل لليقين.

(١٤٨) ﴿وَلِكُلِّ وُجْهٍ هُمُومٌ هُوَ مَوْلَاهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا
 يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: كل أهل
 دين وملة، له وجهة يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في
 استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة
 والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن
 الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله، والتقرب إليه، وطلب
 الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو
 الذي إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا
 والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الرابحة على الحقيقة،
 ولهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له
 الخلق، وأمرهم به.

والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل
 الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها،

منها: الأمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة، ومنها: أن المعهود، أن الأمر إما أن يكون للرسول، فتدخل فيه الأمة تبعاً، أو للأمة عموماً، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ﴾ والأمة عموماً في قوله: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾.

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردها أهل العناد، وأبطلها شبهةً شبهةً، كما تقدم توضيحها، ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبله أهل الكتاب، ومنها قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾.

ومنها: أنه أخبر - وهو العالم بالخفيات - أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتُمون هذه الشهادة مع العلم.

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة، قال: ﴿وَلَأْتِيَنَّكُمْ عَلَيَّكُمْ﴾ فأصل النعمة الهداية لدينه، بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

فله الحمد على فضله، الذي لا يبلغ له عدلاً، فضلاً عن القيام بشكره، ﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: تعلمون الحق وتعملون به، فالله تبارك وتعالى - من رحمته بالعباد - قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبين.

حتى إن من جملة ذلك أنه يقبض للحق المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما اتضح الحق اتضاحاً ظاهراً، فله الحمد على ذلك.

(١٥٢، ١٥١) ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُؤْمِنُكُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ

(١٤٩، ١٥٠) ﴿وَمِن حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ سَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ يَنْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ وَمِن حَيْثُ حَرَجْتَ قَوْلٌ وَجْهَكَ سَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ سَطْرَهُ إِلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْا وَلَا تَمَيَّنِي عَلَيْكُمْ وَلَكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: ﴿وَمِن حَيْثُ حَرَجْتَ﴾ في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم، ﴿قَوْلٌ وَجْهَكَ سَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: جهته، ثم خاطب الأمة عموماً، فقال: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ سَطْرَهُ﴾.

وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ أكد به «إن» واللام، لثلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولثلا يظن أنه على سبيل التشهي لا الامتثال ﴿وَمَا اللَّهُ يَنْفِلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم، فتأدبوا معه، وراقبوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون عليها أتم الجزاء، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقال هنا: ﴿إِلَّا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة، لينقطع عنكم احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركين، فإنه لو بقي مستقبلاً بيت المقدس، لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة البيت الحرام، والمشركون يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم، وأنه من ملة إبراهيم، وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟ فباستقبال الكعبة^(١) قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركين، وانقطعت حججهم عليه، إلا من ظلم منهم أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلاً يؤبه لها، ولا يلقي لها بال، فللهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ﴾ لأن حججهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، ولهذا بخلاف صاحب الحق، فإن للحق صولة وعزاً، يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته التي هي أصل^(٢) كل خير، فمن لم يخش الله، لم ينكف عن معصيته، ولم يمتثل أمره.

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة، مما حصلت فيها فتنة كبيرة، أشاعها أهل الكتاب، والمنافقون، والمشركون، وأكثروا فيها من الكلام والشبه، فللهذا بسطها الله تعالى، وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات التي تضمنتها هذه الآيات.

بالقلب إقرارًا بالنعم واعتراقًا، وباللسان ذكرًا وثناءً، وبالجوارح طاعة لله وانقيادًا لأمره، واجتنابًا لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وفي الإتيان بالأمر بالشكر، بعد النعم الدينية: من العلم وتركيبه الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر.

ولما كان الشكر ضده الكفر، نهى عن ضده، فقال: ﴿وَلَا تَكْفُرُوا﴾ المراد بالكفر هنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها، وعدم القيام بها. ويحتمل أن يكون المعنى عامًا، فيكون الكفر أنواعًا كثيرة، أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي، على اختلاف أنواعها وأجناسها، من الشرك فما دونه.

(١٥٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية ﴿بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ فالصبر هو: حبس النفس وكفها على ما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى تؤديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها.

فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، خصوصًا الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر، وتجرح المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئًا، وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم، وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار، وكذلك البلاء الشاق، خصوصًا إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية ويوجد مقتضاها - وهو التسخط - إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله، والتوكل عليه، واللجأ إليه، والافتقار على الدوام.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر في كل حالة من أحواله، فلهذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه ﴿مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: مع من كان الصبر لهم خلقًا وصفةً، وملكةً - بمعونته وتوفيقه وتسديده -، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره،

تَكُونُوا تَكْلُونَ ○ فَادْكُرُوا أَدْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُوا يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع، والنعم المتممة، ليس ذلك بيدع من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم وتماماتها، فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه، وأمانته وكماله ونصحه.

﴿يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات الميينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولًا على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله، ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة، والعلم اليقيني.

﴿وَرَبِّكُمْ﴾ أي: يظهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوadd، وغير ذلك من أنواع التزكية.

﴿وَمَعَكُمْ الْكِتَابُ﴾ أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، ﴿وَالْحِكْمَةُ﴾ قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة، معرفة أسرار الشريعة والفقهاء فيها، وتنزيل الأمور منازلها، فيكون - على هذا - تعليم السنة داخلًا في تعليم الكتاب؛ لأن السنة، تبين القرآن وتفسره، وتبعر عنه.

﴿وَمَعَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَكْلُونَ﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين، لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعلى يده ﷺ، وبسببه كان، فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، ولهي أكبر نعم ينعم بها على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها.

فلهذا قال تعالى: ﴿فَادْكُرُوا أَدْكُرْكُمْ﴾ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى على لسان رسوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملة ذكرته في ملة خير منهم».

وذكر الله تعالى أفضلها ما تواطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبه، وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصًا، ثم من بعده أمر بالشكر عموماً، فقال: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون

والرزق الروحي، وهو الفرح، والاستبشار^(٣)، وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية، أكمل من الحياة الدنيا. بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور^(٤) خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل معلقة بالعرش، وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله، وملازمة الصبر عليه.

فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب، لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي فتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم. لِمَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَاللَّهُ تَعَالَى قَد: ﴿أَشْرَفَىٰ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْحَنَّةُ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

فوالله! لو كان للإنسان ألف نفس، تذهب نفساً فنفساً في سبيل الله، لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنى الشهداء - بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه - إلا أن يردوا إلى الدنيا، حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة. وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص.

(١٥٥-١٥٧) ﴿وَلَنَبَلِّغُنَّكُمْ نَبَأَ شَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقِصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّرَّاتِ وَبَشِيرٍ الْصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ أخبر تعالى أنه لا بد أن يتبلي عبادَه بالمحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عبادَه؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان، ولم يحصل معها محنة، لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر.

هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنه سيبلي عبادَه ﴿بَشَاءٍ مِّنَ الْخُوفِ﴾ من الأعداء ﴿وَالْجُوعِ﴾ أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاه بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك.

﴿وَنَقِصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ﴾ وهذا يشمل جميع النقص المعترى للأموال: من جوائح سماوية، وغرق، وضياح، وأخذ الظلمة للأموال: من الملوك الظلمة، وقطاع الطريق، وغير ذلك. ﴿وَالْأَنْفُسِ﴾ أي: ذهاب الأحياء: من الأولاد،

وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة تقتضي محبته ومعونته، ونصره وقربه، وهذه [منقبة عظيمة]^(١) للصابرين.

فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله، لكفى بها فضلاً وشرقاً، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ وهذه عامة للخلق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين، ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه، موقف العبد الخادم المتأدب، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه - لا جرم أن هذه الصلاة من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر؛ ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه وصفاً وداعياً يدعوه إلى امتثال أوامر ربه، واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

(١٥٤) ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ لما ذكر تبارك وتعالى الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور^(٢)، ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية، وأشقها على النفوس، لمشقتها في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمتها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعي لها، ودفع لما يضاها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبيب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا غير ذلك من الأغراض، فإنه لم تفتت الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون.

فالشهداء ﴿أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۝ وَسَيَسْتَبِيرُونَ بِأَلَدِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَسْتَبِيرُونَ بِعَمَّةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدني من المأكولات والمشروبات اللذيذة،

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: الأحوال. (٣) في ب: وهو الاستبشار. (٤) في ب: طير.

وهو هنا صبرهم لله .

ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة والضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين، وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين!! فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطئ النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بضد حال الصابر، وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلقت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وبيان أنواع المصائب .

(١٥٨) ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ آلْبَيْتِ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ حَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى أن الصفا والمروة وهما معروفان ﴿مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ أي: أعلام دينه الظاهرة، التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره، فقال: ﴿وَمَن يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب .

والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة، كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية، وفعله النبي ﷺ وقال: «خذوا عني مناسككم» .

﴿فَمَنْ حَجَّ آلْبَيْتِ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تُعبد عندهما الأصنام، فنفي تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم .

ودل تقييد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسعي مفردًا إلا مع انضمامه لحج أو عمرة، بخلاف الطواف بالبيت، فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة .

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة، ورمي الجمار، فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة، ولهذا منه .

وقوله: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ﴾ أي: فعل طاعة مخلصاً بها لله تعالى ﴿حَيْرًا﴾ من حج، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم وغير

والأقارب، والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، ﴿وَالْمَرْوَةَ﴾ أي: الجبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر بيزد أو بيزد، أو حرق، أو آفة سماوية: من جراد^(١) ونحوه .

فهذه الأمور لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع حصلت له المصيبة، فوات المحبوب - وهو وجود هذه المصيبة - وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامثال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له] السخط الدال على شدة النقصان .

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن التسخط قولاً وفعلاً، واحتسب أجرها عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصبره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امتثل أمر الله وفاز بالثواب، فللهذا قال تعالى: ﴿وَيَسِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ أي: بشرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة .

ثم وصفهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ مُّصِيبَةٌ﴾ وهي كل ما يؤلم القلب، أو البدن أو كليهما مما تقدم ذكره .

﴿فَقَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها، فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكهم وأموالهم، فلا اعتراض عليه؛ بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي أرحم بعبد من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تدييره، لما هو خير لعبده، وإن لم يشعر بذلك .

ومع أننا مملوكون لله، فإننا إليه راجعون يوم المعاد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله، وراجع إليه، من أقوى أسباب الصبر .

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور ﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ثناء وتوبه بحالهم ﴿وَرَحْمَةٌ عَظِيمَةٌ﴾ ومن رحمته إياهم، أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر .

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَهَدِّونَ﴾ الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضوع علمهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون، وعملوا به،

(١) كذا في ب، معدلة في الهامش، وفي أ: جند .

ذُكِرَ ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهِ﴾ فدلَّ هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله، ازداد خيره وكماله، ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه.

ودل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شرًّا له إن كان متعمدًا عالمًا بعدم مشروعية العمل.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره، وامتل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نورًا وإيمانًا وسعة، وفي بدنه قوةً ونشاطًا، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الأجل عند ربه كاملاً موفراً، لم تنقصه هذه الأمور، ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئاً لله أعاضه خيراً منه، ومن تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي آتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة.

ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، ممن ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجودونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

(١٥٩-١٦٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَدَىٰ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنَةُ ۖ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۖ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ هذه الآية، وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتوموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿مِنَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على الحق المظهورات له ﴿وَالْهُدَىٰ﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم، بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتمونه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدين: كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك ﴿يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته.

﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهم جميع الخليفة، فتقع عليهم

وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمَاتٌ ۗ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٩﴾ وَنَبِّئُوهُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَأَلْجُوعِ وَنَقْصِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٦٠﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٦١﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٦٢﴾ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَابِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَدَىٰ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنَةُ ۖ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَثُوبٌ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٦﴾ وَاللَّهُ كَرِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَاللَّهُ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٨﴾

اللجنة من جميع الخليفة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير، يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق، وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله.

فالكاتم لما أنزل الله مصاد لأمر الله، مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها، ولهذا يطمسها ويعميها^(١) فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندمًا وإقلاعًا، وعزمًا على عدم المعاودة، ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن.

ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضًا، حتى يبين ما كتمه، ويبيد ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محجوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه، لأنه ﴿التَّوَّابُ﴾ أي: الرجاع على عباده بالعتو والصفح، بعد الذنب

(١) في ب: وهذا يسعى في طمسها وإخفائها.

بنيها عن غيره من المخلوقين، وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع [جميع] النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

(١٦٤) ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات، أي: أدلة على وحدانية الباري وإلهيته، وعظيم سلطانه، ورحمته، وسائر صفاته، ولكنها ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعلى حسب ما من الله على عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبره، ففي ﴿خَلْقِ السَّمَوَاتِ﴾ في ارتفاعها واتساعها، وإحكامها وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد، وفي خلق ﴿الْأَرْضِ﴾ مهادًا للخلق يمكنهم القرار عليها، والانتفاع بما عليها، والاعتبار، ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وبيان قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أتقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع أودع، من منافع الخلق ومصالحهم، وضروراتهم وحاجاتهم.

وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله، واستحقاقه أن يفرده بالعبادة، لانفراده بالخلق والتدبير، والقيام بشؤون عباده. ﴿و﴾ في ﴿أَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونوابت^(٣)، كل ذلك بانتظام وتدبير، وتسخير تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها، وعلمه وحكمته ورحمته الواسعة، ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره الذي تفرّد به، وعظمته وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يؤلّه ويُعبّد، ويفرّد بالمحبة والتعظيم، والخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

(١) في ب: وهما متلازمان. (٢) في ب: المخلوقين. (٣) جرى الشيخ في جمع نبات على نوابت، وذلك في مواضع متعددة، ولعل الصواب (نباتات).

إذا تابوا، وبالإحسان والنعم بعد المنع إذا رجعوا. ﴿الرَّحِيمِ﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإجابة، فتابوا وأتابوا، ثم رحمهم بأن قبِل ذلك منهم لطفًا وكرمًا، لهذا حكم النائب من الذنب.

وأما من كفر، واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه، ولم ينب إليه، ولم يتب عن قريب، فأولئك ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفًا ثابتًا، صارت اللعنة عليهم وصفًا ثابتًا لا تزول، لأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في اللعنة، أو في العذاب، والمعنيان^(١) متلازمان.

﴿لَا يَصِفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر، ﴿وَلَا لَهُمْ يُظَرِّقُونَ﴾ أي: يمهلون، لأن وقت الإمهال - وهو الدنيا - قد مضى، ولم يبق لهم عذر فيعتذرون.

(١٦٣) ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ﴾ وَجَدَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ يخبر تعالى - وهو أصدق القائلين - أنه ﴿إِلَهُ وَجَدَّ﴾ أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فليس له شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفؤ، ولا مثل ولا نظير، ولا خالق، ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك، فهو المستحق لأن يؤلّه ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يمانئها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء، وعمّت كل حي.

فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عرف عباده نفسه بصفاته وآلانه، وبيّن لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم، بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله، وأن أحدًا من المخلوقين لا ينفع أحدًا، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرّد بالمحبة والخوف، والرجاء والتعظيم، والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

وأن من أظلم الظلم، وأقبح القبيح، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوق^(٢) من تراب برب الأرباب، أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه مع الخالق المدبر القوي، الذي قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء.

ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري وإلهيته، وتقديرها

في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها. ﴿١٦٥﴾ في ﴿تَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾ باردة وحارة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً ودبوراً، وبين ذلك، وتارة تثير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلتقمه، وتارة تدره، وتارة تمزقه، وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب.

فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتصلح الأبدان والأشجار، والحبوب والنوابت، إلا العزيز الحكيم الرحيم، اللطيف بعباده، المستحق لكل ذل وخضوع، ومحبة وإنابة وعبادة؟.

وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض - على خفته ولطافته - يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والوهاد، وينزل على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرت، أمسكه عنهم، فينزله رحمة ولطفًا، ويصرفه عناية وعطفًا، فما أعظم سلطانه، وأغزر إحسانه، وألطف امتنانه!!

أليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه، ويعيشوا ببره، وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلًا على حلمه وصره، وعفوه وصفحته، وعميم لطفه؟ فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب دلالات، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها.

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

(١٦٥-١٦٧) ثم قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يُرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقَوْلَ لِلَّهِ جِيبًا وَأَنَّ اللَّهَ سَدِيدٌ الْعَذَابِ ○ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الذِّبْرِ أَنْتَبَهُوا وَرَأَوْا الْمَسْكَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ○ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرَأُ فَنَبْرَأُ مِنَّمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا

﴿١٦٦﴾ في ﴿الْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾ وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها، ثم سخر لها هذا البحر العظيم، والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال، والبضائع التي هي من منافع الناس، وبما تقوم مصالحهم وتنظم معاشهم، فمن الذي ألهمهم صنعها، وأقدرهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها البحر، تجري فيه بإذنه وتسخره، والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية، النار والمعادن المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال؟ فهل هذه الأمور حصلت اتفاقًا، أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز، الذي خرج من بطن أمه، لا علم له ولا قدرة؟ ثم خلق له ربه القدرة، وعلمه ما يشاء تعليمه، أم المسخر لذلك ربٌّ واحد حكيم عليم، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته، وخضعت لجبروته.

وغاية العبد الضعيف، أن جعله الله جزءًا من أجزاء الأسباب، التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة، والذل والتعظيم.

﴿وَمَا أُنزِلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ﴾ وهو المطر النازل من السحاب ﴿فَأَنحَا بِهٖ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فأظهرت من أنواع الأوقات، وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق التي لا يعيشون بدونها.

أليس ذلك دليلًا على قدرة من أنزله، وأخرج به ما أخرج، ورحمته ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ أليس ذلك دليلًا على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟.

﴿وَبَيْنَ يَدَيْهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِن كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع.

فمنها: ما يأكلون من لحمه، ويشربون من دمه، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم، ومنها: ما يعتبر به، ومع^(١) أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم، المتكفل بأقواتهم، فما من دابة

(١) في ب: ومنها أنه بث فيها.

هُم يَخْرِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٥﴾ .

ما أحسن اتصال هذه الآية بما قبلها، فإنه تعالى لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك، ذكر هنا أن ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ مع هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أندادا لله، أي: نظراء ومثلاء، يساويهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته، والتفكر في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حقت عليه كلمة العذاب، وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدونهم ليقربوهم إليه .

وفي قوله: ﴿اتَّخَذُوا﴾ دليل على أنه ليس لله ند، وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أندادا له، تسمية مجردة، ولفظاً فارغاً من المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبَهُمْ قُلْ إِنَّمَا يَتَّبِعُونَ مَا يَشَاءُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَاهِرُونَ مِنَ الْقَوْلِ﴾، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ .

فالمخلوق ليس نداً لله، لأن الله هو الخالق، وغيره مخلوق، والرب الرازق، ومن عداه مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضرر والأمر شيء، فعلم علماً يقيناً بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأندادا، سواء كان ملكاً أو نبياً، أو صالحاً، أو صنماً أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة، والذل التام، فلماذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً، ومحبته عين شقاء العبد وفساده، وتشتت أمره .

فلماذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَلَوْ رَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ باتخاذ الأنداد والانقياد لغير رب العباد، وظلموا الخلق بصددهم عن سبيل الله، وسعيهم فيما يضرهم .

﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ أي: يوم القيامة عياناً بأبصارهم، ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي: لعلموا علماً جازماً أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْمَلَائِكَةِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَمِيعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَنَضْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ رَىٰ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٧﴾ إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا لَنَا كَرَةٌ فَنَسْتَرَأْمَهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيدُهُمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسْرَتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٩﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٧٠﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾

شيء، فيتين لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا، وظنوا أن لها من الأمر شيئاً، وأنها تقربهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنهم، وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها، من حيث ظنوا نفعها .

وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوصل التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحللت أعمالهم، وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها، انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل، فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال بطلان متعلقها .

ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضرتهم غاية الضرر، ولهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق

تناول المأكولات المحرمة .

﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم، إلا غشكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتب ربنا بنهينا عن اتباع خطواته، حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوته الداعية للحذر منه، ثم لم يكتب بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقيح الأشياء، وأعظمها مفسدة فقال:

﴿ إِنَّمَا بِأَمْرِكُمْ بِالسُّوءِ ﴾ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي، فيكون قوله: ﴿ وَالْفَحْشَاءِ ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لأن الفحشاء من المعاصي، ما تناهى قبحه، كالزنا، وشرب الخمر، والقتل، والقذف، والبخل، ونحو ذلك مما يستفحشه من له عقل .

﴿ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم، في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبتته لنفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه، فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن الله نذًا، وأوثانًا تقرب من عبدها من الله، فقد قال على الله بلا علم. ومن قال: إن الله أحل كذا، أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله خلق هذا الصنف من المخلوقات لليلة الفلانية بلا برهان له بذلك، فقد قال على الله بلا علم.

ومن أعظم القول على الله بلا علم، أن يتأول المتأول كلامه، أو كلام رسوله على معانٍ اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشملها، وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويذلون مكرهم وخداهم على إغواء الخلق بما يقدرون عليه .

وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، فلينظر العبد نفسه، مع أيِّ الداعيين هو، ومن أيِّ الحزبين؟ أتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية والأخروية، الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملته المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، أم تتبع داعي الشيطان، الذي هو عدو الإنسان، الذي يريد لك الشر، ويسعى بجهده على إهلاكك في الدنيا والآخرة؟ الذي كل الشر في طاعته، وكل

المبين، وأخلص العمل لوجهه، ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقًا، لتعلقها بالحق، فجاز بتبتيجه عمله، ووجد جزاءه عند ربه غير منقطع، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَسَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَصَلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ كَذَرَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ ذَلِكَ يَأْتِي الَّذِينَ كَفَرُوا وَاتَّبَعُوا الْبَطْلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ .

وحينئذ يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرأوا من متبوعهم، بأن يتركوا الشرك بالله، ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيهات، فات الأمر، وليس الوقت وقت إمهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة، فلو رُودوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه، وأمانتي يتمنونها، حنقًا وغيظًا على المتبوعين لما تبرأوا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين على الشر إبليس، ومع هذا يقول لاتباعه لما قضي الأمر: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدُكُمْ فَاعْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ .

(١٦٨-١٧٠) ﴿ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ كُفُوا مِنِّي فِي الْأَرْضِ حَلَكًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ إِنَّمَا بِأَمْرِكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا قَالَنَا عَلَيْهِ ءَاتَانَا أَوْلَوْا كَاتِءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ سَيِّئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب وثمار وفواكه وحيوانات، حالة كونها ﴿ حَلَكًا ﴾ أي: محللاً لكم تناوله، ليس بغضب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه محرم، أو معيّنًا على محرم .

﴿ طَيِّبًا ﴾ أي: ليس بخبيث كالميتة والدم، ولحم الخنزير، والخبائث كلها، ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة، أكلاً وانتفاعاً، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال، وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأثم تاركه لظاهر الأمر .

ولما أمرهم بتابع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع ﴿ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي، من كفر وفسوق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السواائب، والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضًا

الخسران في ولايته، والذي لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير.

ثم أخبر تعالى عن حال المشركين، إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله - مما تقدم وصفه - رغبوا عن ذلك، وقالوا: ﴿بَلْ نَحْبِبُ مَا آفَقَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾ فآتفخوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا، فأبأوهم أجهل الناس، وأشدهم ضللاً، وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم، وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان منصفاً.

(١٧١) ثم قال [تعالى]: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَبْعُثُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دَعَاةً وَبِدَاةً صُمُّ بَعْضُهُمْ لآ يَسْمَعُونَ﴾ لَمَّا بين تعالى عدم انقيادهم لما جاءت به الرسل، وردهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق، ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخبر تعالى أن مثلهم - عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان - كمثل البهائم التي ينقح لها راعيها، وليس لها علم بما يقول داعيها ومناديها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً ينفعهم، فلماذا كانوا صُمًّا لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عُمياً لا ينظرون نظر اعتبار، بكما فلا ينطقون بما فيه خير لهم.

والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجهلاء فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وذيد عن الفساد، ونهي عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه، وفوزه ونعيمه، فعصى الناصح، وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتباع الباطل، ونبد الحق - أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء، فإنه من أسفه السفهاء.

(١٧٢، ١٧٣) ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ إِنَّ كُنتُمْ بِإِيَّاهُ تَشْكُرُونَ﴾ ○ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالذَّمَّ وَاللَّعْنَ الْخِزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي، بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه، باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به

المرسلين في قوله: ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾.

فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل «حلالاً»؛ لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق، خالصة من النبوة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له. وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ بِإِيَّاهُ تَشْكُرُونَ﴾ أي: فاشكروه. فدل على أن من لم يشكر الله، فلم يعبد وحده، كما أن من شكره فقد عبده، وأتى بما أمر به، ويدل أيضاً على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة.

ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، فقال: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ﴾ وهي: ما مات بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مضرّة، لرداءتها في نفسها، ولأن الأغلب أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرر^(١)، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد وسمك البحر، فإنه حلال طيب.

﴿وَالذَّمَّ﴾ أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى. ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: ذبح لغير الله، كالذي يذبح للأصنام والأوثان، من الأحجار، والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير حاصر للمحرمات، جيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: ﴿طَيِّبَاتٍ﴾ فعموم المحرمات تستفاد من الآية السابقة، من قوله: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ كما تقدم.

وإنما حرم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفاً بنا، وتزيتها عن المضر، ومع هذا ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي: ألجىء إلى المحرم بجوع وعدم، أو إكراه ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ أي: غير طالب للمحرم، مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيع له اضطراراً، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها ﴿فَلَا إِثْمَ﴾ [أي: جناح] ﴿عَلَيْهِ﴾.

وإذا ارتفع الجناح^(٢) رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهى أن يلقي يده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه.

فيجب إذاً عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى

(١) في ب: مرض. (٢) في أ: (وإذا ارتفع الجناح) وفوق كلمة الجناح كلمة (الإثم) وفي ب: وردت الجملة هكذا (وإذا ارتفع الإثم).

وَأَذِيقْ لَهُمْ أُذُنًا أَوْ لَوْ كَانَءَابَاءَهُمْ لَيَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٦﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَبْعُثُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَهَمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧٦﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطَرَّ بِغَيْرِ بَيْعٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنِ اتَّقَى اللَّهَ عَفْوَرٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٧﴾ إِنِ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنِ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ءَمْنًا قَلِيلًا أَوْلِيكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يَكْلَمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَسْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٩﴾ هَذَا عِيدٌ شَدِيدٌ لِمَن كَتَمَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسَلِهِ، مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ عَلَى أَهْلِهِ، أَن يَبِينُوا لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُوهُ، فَمَن تَعَوَّضَ عَنْهُ بِالْحَطَامِ الدُّنْيَوِيِّ، وَنَبَذَ أَمْرَ اللَّهِ، فَأَوْلِيكَ: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ لِأَنَّ هَذَا الثَّمَنَ الَّذِي اٰكْتَسَبُوهُ، إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بِأَقْبَحِ الْمَكَاسِبِ، وَأَعْظَمِ الْمُحْرَمَاتِ، فَكَانَ جَزَاؤُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ.

عباده، فلهاذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفْوَرٌ رَّحِيمٌ﴾.

ولما كان الحل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها - أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر له ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة. وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: «الضرورات تبيح المحظورات»، فكل محظور اضطر له الإنسان، فقد أباحه له الملك الرحمن، [فله الحمد والشكر أولاً وآخراً، وظاهرًا وباطنًا].

(١٧٦-١٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنِ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ءَمْنًا قَلِيلًا أَوْلِيكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكْلَمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَسْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ هذا عِيدٌ شَدِيدٌ لِمَن كَتَمَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسَلِهِ، مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي أَخَذَ اللَّهُ الْمِيثَاقَ عَلَى أَهْلِهِ، أَن يَبِينُوا لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُوهُ، فَمَن تَعَوَّضَ عَنْهُ بِالْحَطَامِ الدُّنْيَوِيِّ، وَنَبَذَ أَمْرَ اللَّهِ، فَأَوْلِيكَ: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ لِأَنَّ هَذَا الثَّمَنَ الَّذِي اٰكْتَسَبُوهُ، إِنَّمَا حَصَلَ لَهُمْ بِأَقْبَحِ الْمَكَاسِبِ، وَأَعْظَمِ الْمُحْرَمَاتِ، فَكَانَ جَزَاؤُهُمْ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِمْ.

﴿وَلَا يُكْلَمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ بل قد سحق عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار.

﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يظهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يذكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه.

فهؤلاء نبذوا كتاب الله، وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى، والعذاب على المغفرة، فهؤلاء لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها، وأنى لهم الجلد عليها؟!!

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور، وهو مجازاته بالعدل، ومنعه أسباب الهداية، ممن أباحها واختار سواها ﴿بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته وأيضاً ففي قوله: ﴿نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اٰخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه، أو الذين حرفوه وصرّفوه على أهوائهم ومراداتهم ﴿لِي شِقَاقٍ﴾ أي: محادة، ﴿بَعِيدٍ﴾ عن الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به، وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات الوعيد للكاتمين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يظهرهم بالتوفيق، ولا بالمغفرة، وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة.

ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملمهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه، وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه، فهو في غاية البعد عن الحق، والمنازعة والمخاصمة، والله أعلم.

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَتَيْهِ وَآلَتَيْنِ وَعَاقَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدِّءْ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ عَدَدِي بَعْدَ ذَلِكَ فَهَلْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾﴾ وَكُتِبَ فِي الْقِصَاصِ حَيٰوةٌ يٰٓأُولَى الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ فَمَنْ بَدَلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَنَّهُمَا آتَمَهُ عَلَىٰ لَيْتِنِ بَدَلُونَهُ وَإِن لَّهٗ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾

لم يفقد والديه، ولأن الجزء من جنس العمل، فمن رحم يتيمة غيره، رُحِمَ يتيمة.

﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ وهم الذين أسكتهم الحاجة، وأذلمهم الفقر فلهم حق على الأغنياء، بما يدفع مسكتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه، وبما يتيسر.

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المتقطع به في غير بلده، فحَثَّ اللهُ عباده على إعطائه من المال، ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته، وخوله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة، على حسب استطاعته، ولو بتزويده، أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال، كمن ابتلي بأرث جنانية، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد والمدارس والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنياً ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار، أو عند الظلمة.

(١٧٧) ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآلَتَيْهِ وَآلَتَيْنِ وَعَاقَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوَى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّادِقِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» ونحو ذلك.

﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ أي: بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص.

﴿وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت ﴿وَالْمُتَّقِينَ﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ ﴿وَالْكَاتِبِ﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسوله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام ﴿وَالْيَتِيمِ﴾ عموماً، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

﴿وَعَاقَى الْمَالَ﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيراً، أي: أعطى المال ﴿عَلَى حُبِّهِ﴾ أي: حب المال، يبين به أن المال محبوب للنفس، فلا يكاد يخرج منه العبد، فمن أخرجه مع حبه له تقريباً إلى الله تعالى، كان هذا برهاناً لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كانت أفضل، لأنه في هذه الحال، يحب إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر، وكذلك إخراج النفس من المال، وما يحبه من ماله كما قال تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ نُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ فكل هؤلاء ممن أتى المال على حبه.

ثم ذكر المنفق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك، من الأقارب الذين تتوجع لمصابهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاضدون، فمن أحسن البر وأوقفه تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم وحاجتهم.

ومن اليتامى الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته [تعالى] بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من قُفِدَ آباؤهم ليصيروا كمن

وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة، من الثواب الدنيوي والأخروي، مما لا يمكن تفصيله في [مثل] هذا الموضوع.

(١٧٨، ١٧٩) ﴿تَتَابَعًا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْبِ بِالْحَرْبِ وَالْعَبْدِ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَإِنِ بَاعَ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءً إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥ وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(١) الآية ٥. ﴿الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد.

وتوجيه الخطاب لعموم المؤمنين، فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل، حتى القاتل بنفسه إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص، وتمكينه^(١) من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحولوا بين هذا الحد، ويمنعوا الولي من الاقتصاص، كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين.

ثم بيّن تفصيل ذلك، فقال: ﴿الْحَرْبُ بِالْحَرْبِ﴾ يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر، ﴿وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى﴾ والأنتى بالذكر، والذكر بالأنثى، فيكون منطوقها مقدماً على مفهوم قوله: «الأنثى بالأنثى» مع دلالة السنة، على أن الذكر يقتل بالأنثى.

وخرج من عموم هذا الأبوان وإن علوا، فلا يقتلان بالولد، لورود السنة بذلك، مع أن في قوله: ﴿الْقِصَاصُ﴾ ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده، ولأن ما في قلب الوالد من الشفقة والرحمة، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله، أو أذية شديدة جداً من الولد له.

وخرج من العموم أيضاً الكافر بالسنة، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة.

وأيضاً فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعده ﴿وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾ ذكرًا كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت. ودلّ بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد، لكونه غير مساوٍ له، ﴿وَالْأَنْثَى بِالْأَنْثَى﴾ أخذ بمفهومها بعض أهل العلم، فلم يجز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل، وأن الدية بدل عنه، فلهذا قال: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية، أو عفا

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ قد تقدم مراراً أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات، وأكمل القربات، عبادات قلبية، وبدنية، ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان.

﴿وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ والعهد: هو الالتزام بالزام الله أو إلزام العبد لنفسه، فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجهاها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالأيمان والندور، ونحو ذلك.

﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ﴾ أي: الفقر؛ لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة، ما لا يحصل لغيره.

فإن تَعَمَّ الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم، وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعاماً غير موافق لهواه تألم، وإن عري أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم، فكلُّ هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها، والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

﴿وَالضَّرَّاءَ﴾ أي: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى وقروح، ورياح، ووجع عضو، حتى الضرس والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف، والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتساباً لثواب الله [تعالى].

﴿وَيَحِينَ الْيَأْسَ﴾ أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجَلَاد يشق غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل، أو الجراح، أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك احتساباً، ورجاء لثواب الله [تعالى]، الذي منه النصر والمعونة التي وعداها الصابرين.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة والأعمال التي هي آثار الإيمان، وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقته الإنسانية، فأولئك هم ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ لأنهم تركوا المحظور، وفعلوا المأمور؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير، تضمناً ولزوماً، لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهؤلاء الأبرار الصادقون المتقون.

(١) في ب: ويمكنه.

بأنه من ذوي الأبواب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلاً وشرافاً لقوم يعقلون.
وقوله: ﴿لَمَلَكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وذلك أن من عرف ربه، وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

(١٨٢-١٨٠) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَمَدَكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ٥ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَدَلًا سَمِعَ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ إِثْمُ الَّذِي يَبْدُلُوهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٦ فَمَنْ حَافٍ مِنْ مَوْسِ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْرَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: فرض الله عليكم، يا معشر المؤمنين ﴿إِذَا حَضَرَ أَمَدَكُمْ الْمَوْتُ﴾ أي: أسبابه، كالمرض المشرف على الهلاك، وحضور أسباب المهالك، وكان قد ﴿تَرَكَ خَيْرًا﴾ [أي: مالا] وهو المال الكثير عرفاً، فعليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف، على قدر حاله من غير سرف، ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب، بل يرتبهم على القرب والحاجة، ولهذا أتى فيه بأفعل التفضيل.

وقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ دل على وجوب ذلك، لأن الحق هو الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى.
واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية الموارث، وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل، والأحسن في هذا أن يقال: إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة، ردها الله تعالى إلى العرف الجاري.

ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات الموارث، بعد أن كان مجملاً، وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين الممنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء، وهم أحق الناس ببره، وهذا القول تنفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين، لأن كلاً من القائلين بهما كل منهم لحظ ملحظاً، واختلف المورد.

فهذا الجمع يحصل الاتفاق والجمع بين الآيات، لأنه^(٢) مهما أمكن الجمع، كان أحسن من ادعاء النسخ الذي لم يدل عليه دليل صحيح.

ولما كان الموصي قد يمتنع من الوصية، لما يتوهمه أن من

بعض الأولياء، فإنه يسقط القصاص، وتجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار الدية إلى الولي، فإذا عفا عنه، وجب على الولي [أي: ولي المقتول] أن يتبع القاتل ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ من غير أن يشق عليه، ولا يحمل ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يخرجه.

﴿وَعَلَى الْقَاتِلِ إِدَاءُ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ من غير مطل ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعتو إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق بالأداء بإحسان^(١).

وفي قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ﴾ تريق وحث على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجاناً، وفي قوله: ﴿أَخِيهِ﴾ دليل على أن القاتل لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلها، وإنما ينقص بذلك إيمانه.

وإذا عفا أولياء المقتول، أو عفا بعضهم، احتقن دم القاتل، وصار معصوماً منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَمَدَكَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد العفو ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم، لأنه قتل مكافئاً له، فيجب قتله بذلك.

وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء، والصحيح الأول؛ لأن جنائته لا تزيد على جنائية غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص، فقال: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ أي: تتحقق بذلك الدماء، وتقمع به الأَشْقِيَاءُ، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رُئي القاتل مقتولاً اندعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكر «الحياة» لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة، والأبواب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى يحب من عباده أن يعملوا أفكارهم وعقولهم، في تدبر ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحمده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح

(١) في ب: بالإحسان. (٢) في ب: فإنه.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٢٨

الْمَائِدَاتُ

فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٤﴾ أَيُّهَا مَعَدُونَ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٥﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِالْمُسْرِئِ وَالْمُسْرِئَاتِ أَنْ تَتَحَدَّثُوا فِيهِ أَرْبَعًا وَعَشْرًا وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾

والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان.

وفيه تشييط لهذه الأمة، بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمسارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصتكم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثال أمر الله، واجتناب نهيه.

فمما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقرباً بذلك إلى الله، راجياً بتركها ثوابه، فهذا من التقوى، ومنها: أن الصائم يدرّب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه، ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من

بعده قد يدل ما وصى به، قال تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ أي: الإيصال للمذكورين أو غيرهم ﴿بَعْدَمَا سَمِعَهُ﴾، [أي: بعد ما عقله، وعرف طرقة وتنفيذه، ﴿فَاتَّبَعْنَا أُمَّةً عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ﴾] وإلا فالموصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المتغير.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لمقالة الموصي ووصيته، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه، وأن لا يجوز في وصيته، ﴿عَلَيْمٌ﴾ بنبته، وعليم بعمل الموصي إليه، فإذا اجتهد الموصي، وعلم الله من نيته ذلك، أثابه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصي إليه من التبدل، فإن الله عليم به، مطلع على فعله، فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة.

وأما الوصية التي فيها حيف وجنف وإثم، فينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها، أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهائه عن الجور والجنف، وهو الميل بها عن خطأ من غير تعمد، والإثم: وهو التعمد لذلك.

فإن لم يفعل ذلك، فينبغي له أن يصلح بين الموصي إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بتبيرة ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفاً عظيماً، وليس عليه إثم، كما على مبدل الوصية الجائرة، ولهذا قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: يغفر جميع الزلات، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غصّ من نفسه، وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح سامحه الله، غفور لميتهم الجائر في وصيته، إذا احتسبوا بمسامحة بعضهم بعضاً لأجل براءة ذمته، رحيم بعباده، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون، فدلّت هذه الآيات على الحث على الوصية، وعلى بيان من هي له، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائرة.

(١٨٣-١٨٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ○ أَيُّهَا مَعَدُونَ ○ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ○ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِالْمُسْرِئِ وَالْمُسْرِئَاتِ أَنْ تَتَحَدَّثُوا فِيهِ أَرْبَعًا وَعَشْرًا وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ يخبر تعالى بما من به على عباده، بأنه فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع

إلى رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أشد^(٣) تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله. وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله، سهله تسهيلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات. وهذه جملة لا يمكن تفصيلها؛ لأن تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات.

﴿وَتُكْمِلُوا أَلَمَّةً﴾ وهذا - والله أعلم - لثلاثتهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، رفع هذا الوهم بالأمر بتكميل عدته، ويشكر الله [تعالى] عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده، وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد.

(١٨٦) ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ هذا جواب سؤال، سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله! أقرب ربنا فتناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ لأنه تعالى الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضاً من داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق.

فمن دعا ربه بقلب حاضر، ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب للاستجابة، فلماذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ أي: يحصل لهم الرشd الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة. ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره، سبب لحصول العلم، كما قال تعالى:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَفَّوْا أَنَّهُ جَعَلَ لَكُمُ فُرْقَانًا﴾.

(١٨٧) ثم قال تعالى: ﴿أَحْرَجَ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَقَةَ إِلَى سَيِّدِكُمْ مِنْ لِيَّاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُمْ وَأَنْتَعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَكُمْ وَأَسْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَبِطَ الْآيَاتِ مِنْ

خصال التقوى. ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام، أخبر أنه أيام معدودات، أي: قليلة في غاية السهولة.

ثم سهل تسهيلاً آخر فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وذلك للمشفقة في الغالب، رخص الله لهما في الفطر.

ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن، أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض، وانقضى السفر، وحصلت الراحة.

وفي قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان، كاملاً كان أو ناقصاً، وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس.

وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ﴾ أي: يطيقون الصيام ﴿فِدْيَةٌ﴾ عن كل يوم يفطرونه ﴿طَعَامٌ مِسْكِينٍ﴾ وهذا في ابتداء فرض الصيام، لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان فرضه حتماً، فيه مشقة عليهم، درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق، وخير المطبق للصوم بين أن يصوم - وهو أفضل - أو يطعم، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾.

ثم بعد ذلك جعل الصيام حتماً على المطيق، وغير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر.

[وقيل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ﴾ أي: يتكلفونه ويشق عليهم مشقة غير محتملة، كالشيخ الكبير، فدية عن كل يوم مسكين^(١)، وهذا هو الصحيح^(٢).

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة.

فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه أن يكون موسماً للعباد، مفروضاً فيه الصيام.

فلما قرره وبين فضيلته، وحكمة الله تعالى في تخصيصه، قال: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ أَنَّهُمْ فَيْصُمْتُمْ﴾ هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر.

ولما كان النسخ للتخيير بين الصيام والفداء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر، لثلاثتهم أن الرخصة أيضاً منسوخة [فقال]: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ﴾ أي: يريد الله تعالى أن يسر عليكم الطرق الموصلة

(١) ظاهر أن المراد عن كل يوم طعام مسكين. (٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: أبلغ تسهيل.

عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس.
وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف.

﴿تَبَّكَ﴾ المذكورات - وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر على غير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات ﴿حُدُّهُ اللهُ﴾ التي حدها لعباده، ونهاهم عنها، فقال: ﴿فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ أبلغ من قوله: «فلا تفعلوها» لأن القربان يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه.

والعبد مأمور بترك المحرمات، والبعد منها غاية ما يمكنه، وترك كل سبب يدعو إليها، وأما الأوامر فيقول الله فيها: ﴿تَبَّكَ حُدُّهُ اللهُ﴾ فلا تَعْتَدُوها﴾ فينهى عن مجاوزتها.

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: بَيَّنَّ [الله] لعباده الأحكام السابقة أتم تبين، وأوضحها لهم أكمل إيضاح:

﴿يَبَيَّنْتُ اللهُ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه، فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم، ولو علم تحريمه لم يفعله، فإذا بين الله للناس آياته، لم يبق لهم عذر ولا حجة، فكان ذلك سبباً للتقوى.

(١٨٨) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذُلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا قَرِيبًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ولا تأخذوا أموالكم، أي: أموال غيركم، أضافها إليهم؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويحترم ماله كما يحترم ماله؛ ولأن أكله لمال غيره يجرى غيره على أكل ماله عند القدرة.

ولما كان أكلها نوعين: نوعاً بحق، ونوعاً بباطل، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل، قيده تعالى بذلك.

ويدخل في ذلك أكلها على وجه الغضب والسرقة والخيانة في ودیعة أو عارية، أو نحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً أخذها على وجه المعاوضة، بمعاوضة محرمة، كعقود الربا والقمار كلها، فإنها من أكل المال بالباطل، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء، والإجارة، ونحوها، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء، وأكل أجرتهم، وكذلك أخذهم أجره على عمل، لم يقوموا بواجبه، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح، حتى يقصد بها وجه الله تعالى، ويدخل في

الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصِّيَامَ إِلَى الْبَيْلِ وَلَا تَبْشُرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لِيَتَّقُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

كان في أول فرض الصيام يحرم على المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع، فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك، وأباح في ليالي الصيام كلها، الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينم، لكنهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به.

﴿فَبَّكَ﴾ الله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأن وسع لكم أمراً كان - لولا توسعته - موجياً للإثم ﴿وَعَقَابَكُمْ﴾ ما سلف من التخون.

﴿فَأَلْفَنُ﴾ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿بَبْشُرُوهُنَّ﴾ وطناً وقبلة ولمسا وغير ذلك ﴿وَأَتُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ﴾ أي: انوا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح.

ومما كتب الله لكم ليلة القدر، الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تستغلوا بهذه اللذة عنها وتضيعوها، فاللذة مدركة، وليلة القدر - إذا فاتت - لم تدرك.

﴿وَأَكَلُوا وَأَشْرَبُوا حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْحَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْحَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ هذا غاية للأكل والشرب والجماع، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكاً في طلوع الفجر فلا بأس عليه.

وفيه دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخيره أحياناً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد.

وفيه أيضاً دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يغتسل، ويصح صيامه، لأن لازم إباحتها الجماع إلى طلوع الفجر، أن يدركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق حق.

﴿ثُمَّ﴾ إذا طلع الفجر ﴿أَتُوا الصِّيَامَ﴾ أي: الإمساك عن المفطرات ﴿إِلَى الْبَيْلِ﴾ وهو غروب الشمس.

ولما كان إباحتها الوطء في ليالي الصيام، ليست إباحتها^(١) عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثناء بقوله: ﴿وَلَا تَبْشُرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ أي: وأنتم متصفون بذلك.

ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله [تعالى]، وانقطاعاً إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد.

ويستفاد من تعريف المساجد، أنها المساجد المعروفة

(١) في ب: إباحتها.

ذُلك الأخذ من الزكوات والصدقات، والأوقاف، والوصايا لمن ليس له حق منها، أو فوق حقه.

فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع، وأدلى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة المحق، وحكم له الحاكم بذلك، فإن حكم الحاكم لا يبيح محرماً، ولا يحلل حراماً، إنما يحكم على نحو مما يسمع، وإلا فحقائق الأمور باقية، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة، ولا شبهة، ولا استراحة.

فمن أدلى إلى الحاكم بحجة باطلة، وحكم له بذلك، فإنه لا يحل له، ويكون أكلاً لمال غيره بالباطل والإثم، وهو عالم بذلك، فيكون أبلغ في عقوبته، وأشد في نكاله، وعلى هذا، فالوكيل إذا علم أن موكله مبطل في دعواه، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِبِينَ خَصِيماً﴾.

(١٨٩) ﴿سَأَلْنَاكَ عَنِ الْآهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ يقول^(١) تعالى: ﴿سَأَلْنَاكَ عَنِ الْآهْلِ﴾: جمع هلال، ما فائدتها وحكمتها؟ أو عن ذاتها.

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أي: جعلها الله تعالى بلفظه ورحمته، على هذا التدبير، يبدو الهلال ضعيفاً في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه، ثم يشرع في النقص إلى كماله، وهكذا يعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم، من الصيام، وأوقات الزكاة، والكفارات، وأوقات الحج.

ولما كان الحج يقع في أشهر معلومات، ويستغرق أوقاتاً كثيرة، قال: ﴿وَالْحَجِّ﴾ وكذلك تعرف بذلك أوقات الديون المؤجلات، ومدة الإجازات، ومدة العدد والحمل، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق، فجعله تعالى حساباً يعرفه كل أحد، من صغير وكبير، وعالم وجاهل، فلو كان الحساب بالسنة الشمسية، لم يعرفه إلا النادر من الناس.

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا﴾ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها، تعبدًا بذلك، وظنًا أنه بر، فأخبر الله أنه ليس ببر^(٢)، لأن الله تعالى لم يشرعه لهم، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله، فهو متعبد ببدعة، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، التي هي قاعدة من قواعد الشرع.

٢٩

أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِيَابِسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَابِسٌ لَهُنَّ عَلَّمَ اللَّهُ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَانْزِلُوا مِنْ بَشَرِهِمْ وَأَتَّعُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى الْيَلِّ وَلَا تَبْشُرُوا هُنَّ وَأَنْتُمْ عَدِكُمْ فِي الْمَسْجِدِ بِتَأْتِكُمْ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْمُكَّامِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتِنُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتية الإنسان من الطريق السهل القريب، الذي قد جعل له موصلاً، فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة، التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله، يحصل به مقصوده، وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وآتاه من أبوابه، وثابر عليه، فلا بد أن يحصل له المقصود بعون الملك المعبود.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ هذا هو البر الذي أمر الله به، وهو لزوم تقواه على الدوام، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإنه سبب للفلاح الذي هو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، فمن لم يتق الله تعالى لم يكن له سبيل إلى الفلاح، ومن اتقاه فاز بالفلاح والنجاح.

(١٩٠-١٩٣) ﴿وَقَتِّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْتِنُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ○ وَاتَّقُوا اللَّهَ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ

(١) في ب: فقله. (٢) في ب: ليس من البر.

عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٤﴾ أي: فليس عليهم منكم اعتداء، إلا من ظلم منهم، فإنه يستحق المعاقبة بقدر ظلمه.

(١٩٤) ﴿النَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنْ اعتدى عَلَيْكُمْ فَاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم وأتقوا الله وأعلموا أن الله مع المتقين﴾ يقول تعالى: ﴿النَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ يحتمل أن يكون المراد به ما وقع من صد المشركين للنبي ﷺ وأصحابه عام الحديبية عن الدخول لمكة، وقاضوهم على دخولها من قابل، وكان الصد والقضاء في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فيكون هذا بهذا، فيكون فيه تطيب لقلوب الصحابة بتمام نسكهم وكماله، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إن قاتلتموهم في الشهر الحرام^(١)، فقد قاتلوكم فيه، وهم المعتدون، فليس عليكم في ذلك حرج.

وعلى هذا فيكون قوله: ﴿وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ﴾ من باب عطف العام على الخاص، أي: كل شيء يحترم من شهر حرام، أو بلد حرام، أو إحرام، أو ما هو أعم من ذلك، جميع ما أمر الشرع باحترامه، فمن تجرأ عليها، فإنه يقتص منه، فمن قاتل في الشهر الحرام قوتل، ومن هتك البلد الحرام، أخذ منه الحد ولم يكن له حرمة، ومن قتل مكافئاً له قتل به، ومن جرحه أو قطع عضواً منه اقتص منه، ومن أخذ مال غيره المحترم أخذ منه بدله.

ولكن هل لصاحب الحق أن يأخذ من ماله بقدر حقه أم لا؟ خلاف بين العلماء، الراجح من ذلك أنه إن كان سبب الحق ظاهراً كالضيف إذا لم يقره غيره، والزوجة والقريب إذا امتنع من تجب عليه النفقة [من الإنفاق عليه]، فإنه يجوز أخذه من ماله، وإن كان السبب خفياً، كمن جحد دين غيره، أو خانه في دبيعة، أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له، جمعاً بين الأدلة، ولهذا قال تعالى تأكيداً وتقوية لما تقدم: ﴿فَمَنْ اعتدى عليكم فَاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾ هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هي المماثلة في مقابلة المعتدي.

ولما كانت النفوس - في الغالب - لا تقف على حدّها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها التشفي، أمر تعالى بلزوم تقواه، التي هي الوقوف عند حدوده، وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه ﴿مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق. ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه وخذله، فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه

(١) في ب: ويستدل في هذه. (٢) كذا في ب، وفي أ: بالشهر الحرام.

وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُفْتَلِحُوا بِكُمْ فِيهِ فَإِنِ قَاتَلُوكُمْ فَأَقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ○ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ○ وَقَبْلَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ هذه الآيات تتضمن الأمر بالقتال في سبيل الله، وهذا كان بعد الهجرة إلى المدينة، لما قوي المسلمون للقتال أمرهم الله به، بعد ما كانوا مأمورين بكف أيديهم، وفي تخصيص القتال ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حث على الإخلاص، ونهي عن الاقتتال في الفتن بين المسلمين.

﴿الَّذِينَ يُفْتَلِحُونَ﴾ أي: الذين هم مستعدون لقتالكم، وهم المكلفون الرجال، غير الشيوخ الذين لا رأي لهم ولا قتال. والنهي عن الاعتداء يشمل أنواع الاعتداء كلها، من قتل من لا يقاتل من النساء والمجانين والأطفال والرهبان ونحوهم، والتمثيل بالقتلى، وقتل الحيوانات، وقطع الأشجار [ونحوها] لغیر مصلحة تعود للمسلمين. ومن الاعتداء مقاتلة من تقبل منهم الجزية إذا بذلوا، فإن ذلك لا يجوز.

﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَتَّى يُفْتَنُوا﴾ هذا أمر بقتالهم أينما وجدوا، في كل وقت، وفي كل زمان، قتال مدافعة، وقتال مهاجمة. ثم استثنى من هذا العموم قتالهم ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وأنه لا يجوز إلا أن يبدأوا بالقتال، فإنهم يقاتلون جزاء لهم على اعتدائهم.

وهذا مستمر في كل وقت، حتى ينتهوا عن كفرهم فيسلموا، فإن الله يتوب عليهم، ولو حصل منهم ما حصل من الكفر بالله والشرك في المسجد الحرام، وصد الرسول والمؤمنين عنه، وهذا من رحمته وكرمه بعباده.

ولما كان القتال عند المسجد الحرام يتوهم أنه مفسدة في هذا البلد الحرام، أخبر تعالى أن المفسدة بالفتنة عنده بالشرك، والصد عن دينه، أشد من مفسدة القتل، فليس عليكم - أيها المسلمون - حرج في قتالهم.

ويستدل بهذه^(١) الآية على القاعدة المشهورة، وهي: أنه يرتكب أخف المفسدتين لدفع أعلاهما.

ثم ذكر تعالى المقصود من القتال في سبيله، وأنه ليس المقصود به سفك دماء الكفار، وأخذ أموالهم، ولكن المقصود به أن ﴿يَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾ تعالى فيظهر دين الله [تعالى] على سائر الأديان، ويدفع كل ما يعارضه من الشرك وغيره، وهو المراد بالفتنة، فإذا حصل هذا المقصود فلا قتل ولا قتال.

﴿وَإِنِ انْتَهَوْا﴾ عن قتالكم عند المسجد الحرام ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا

أقرب إليه من حبل الوريد.

(١٩٥) ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير من صدقة على مسكين، أو قريب، أو إنفاق على من تجب مؤنته.

وأعظم ذلك، وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهادٌ بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة: الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى توهية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعزازه، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد، وتسليط للأعداء، وشدة تكالبه، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ كالتعليل لذلك.

والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجباً أو مقارياً لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله، أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغريب الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو محل مسبعة أو حيات، أو يصعد شجرة، أو يبنائاً خطراً، أو يدخل تحت شيء فيه خطر، ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة^(١) الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض التي تركها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموماً، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيده بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.

ويدخل فيه الإحسان بالجاء بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم، وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جناتهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «أن

تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

فمن اتصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لَلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتْنِي وَزِيَادَةٌ﴾ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أمره.

ولما فرغ تعالى من [ذكر] أحكام الصيام [فالجهاد]، ذكر أحكام الحج فقال:

(١٩٦) ﴿وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَعِدْيَةٌ مِنْ صِيَامِهِ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ شُكْرٌ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَمَا لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَحَدٌ بِرَأْسِهِ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ يستدل بقوله [تعالى]:

أحدها: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما.

الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ وقوله: «خذوا عني مناسككم».

الثالث: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة.

الرابع: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلًا.

الخامس: الأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما.

السادس: وفيه الأمر بإخلاصهما لله تعالى.

السابع: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناه الله، وهو الحصر، فلهذا قال:

﴿إِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: منعتم من الوصول إلى البيت لتكميلهما، بمرض أو ضلالة أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر، الذي هو المنع ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدى، وهو سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر كما فعل النبي ﷺ وأصحابه، لما صددهم المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدى، فليصم بدله عشرة أيام كما في المتمتع، ثم يحل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ وهذا من محظورات الإحرام، إزالة الشعر بخلق أو غيره، لأن المعنى واحد، من الرأس، أو من البدن؛ لأن المقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته، وهو موجود في

(١) في ب: ومن ذلك.

بقية الشعر.

وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر، تقليم الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدى محله، وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر، كما تدل عليه الآية.

ويستدل بهذه الآية على أن المتمتع إذا ساق الهدى لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدى، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك؛ لما فيه من الذل والخضوع لله، والانكسار له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض، ينتفع بحلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك، فإنه يحل له أن يحلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية **﴿مِنْ صِيَامٍ﴾** ثلاثة أيام **﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾** على ^(١) ستة مساكين **﴿أَوْ سَكِّين﴾** ما يجزىء في أضحية، فهو مخير، والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

ومثل هذا، كل ما كان في معنى ذلك من تقليم الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو التطيب، فإنه يجوز عند الضرورة، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفه.

ثم قال تعالى: **﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾** أي: بأن قدرتם على البيت من غير مانع عدو وغيره **﴿فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعِمَّةِ إِلَى الْحَجِّ﴾** بأن توصل بها إليه، وانتفع بتمتعه بعد الفراغ منها **﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾** أي: فعليه ما تيسر من الهدى، وهو ما يجزىء في أضحية، ولهذا دم نسك، مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالتمتعة بعد فراغ العمرة، وقبل الشروع في الحج، ومثلها القرآن لحصول النسكين له.

ويدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على جواز بل فضيلة التمتع، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي: الهدى أو ثمنه **﴿فَصِيَامٌ تَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾** أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ«منى»، ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع والثامن والتاسع.

﴿رَسَمَهُ إِذَا جَمَعْتُمْ﴾ أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من وجوب الهدى على المتمتع **﴿لَمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرًا﴾** حاضري المسجد الحرام **﴿بأن كان عنه مسافة قصر**

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْمِنَنَةَ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْبَلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يَقْبَلُوكُمْ فِيهِ فَإِن فَنَلْتُمُوهُم فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِن أَنهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَبِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِئْتَهُ وَيَكُونَ الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِن أَنهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِن أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرًا الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَأَتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

فاكثر، أو بعيداً عنه عُرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدى، لحصول النسكين له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك.

﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم، بامثال أوامره، واجتناب نواهي، ومن ذلك امتثالكم لهذه المأمورات واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه، ولهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله، انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله، عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم وتجراً على ترك الواجبات.

(١٩٧) **﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ وُضِعَ فِيهَا الْحَجُّ فَلَا رَفَثَ وَلَا سَفُوفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَتْرٍ يَكْتُمَهُ اللَّهُ وَكَرَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الرَّادِّ النَّفْقَىٰ وَأَتَّقُوا بِأُولَىٰ الْأَلْبَابِ﴾** يخبر

(١) في ب: أو إطعام ستة مساكين.

تعالى أن ﴿الْحَجَّ﴾ واقع في ﴿أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ عند
المخاطبين، مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما
احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات
الصلوات الخمس .
وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في
ذريته، معروفة بينهم .
والمراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء: شوال،
وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام
بالحج غالباً .
﴿فَمَنْ وُضِعَ فِيهِ الْحَجُّ﴾ أي: أحرم به، لأن الشروع فيه
يصيره فرضاً، ولو كان نفلاً .
واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه على أنه لا يجوز
الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لو قيل: إن فيها دلالة لقول
الجمهور بصحة الإحرام [بالحج] قبل أشهره لكان قريباً، فإن
قوله: ﴿فَمَنْ وُضِعَ فِيهِ الْحَجُّ﴾ دليل على أن الفرض قد يقع في
الأشهر المذكورة، وقد لا يقع فيها، وإلا لم يقيد .
وقوله: ﴿فَلَا رَفْعَ وَلَا سُوقَ وَلَا حِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي:
يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في
أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه، من الرفث
وهو: الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء
بحضرتهن، والفسوق، وهو: جميع المعاصي، ومنها
محظورات الإحرام، والجدال، وهو: المماراة والمنازعة
والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة .
والمقصود من الحج: الذل والانكسار لله، والتقرب إليه
بما أمكن من القربات، والتزهد عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك
يكون مبروراً، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وهذه الأشياء
وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان، فإنها^(١) يتغلظ المنع
عنها في الحج .
واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل
الأوامر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ﴾
أتى بـ«ين» لتنصيص العموم، فكل خير وقرية وعبادة داخل في
ذلك، أي: فإن الله به عليم، وهذا يتضمن غاية الحث على
أفعال الخير، خصوصاً في تلك البقاع الشريفة والحرمت
المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها: من صلاة
وصيام وصدقة وطواف وإحسان قلبي وفعلية .
ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك، فإن التزود فيه
الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم، سؤالاً
واستشفاقاً، وفي الإكثار منه نفع وإعانة للمسافرين، وزيادة

قربة لرب العالمين، وهذا الزاد الذي المراد منه إقامة البنية:
بلغة ومتاع .

وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه
وأخراه، فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو
الموصل لأكمل لذة، وأجل نعيم دائم أبداً، ومن ترك هذا
الزاد فهو المتقطع به الذي هو عرضة لكل شر، وممنوع من
الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدح للتقوى .

ثم أمر بها أولي الأبواب فقال: ﴿وَأَتَّقُوا رَبَّ تَأْتُوا رَبَّكُمْ
أَي: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما
تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل، وفساد الرأي .

(١٩٨-٢٠٢) ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ
رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ
الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ
لَمَنِ الضَّالِّينَ ۝ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَأَسْتَفِرُّوا
اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مِنْ حَجِّكُمْ فَأَذْكُرُوا

من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد، في أداء عبادته وتقصيره فيها. وذكر الله شكرُ الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمئة الجسيمة.

وهكذا ينبغي للعبد، كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومنَّ بها على ربه، وجعلت له محلاً ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت، ورد العمل، كما أن الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمالٍ آخر.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم: ﴿مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته، وليس له في الآخرة من نصيب؛ لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودينه، وكل من هؤلاء وهؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم، وهِمَّاتهم ونياتهم، جزاء دائراً بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه. وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع، مسلماً أو كافراً أو فاسقاً، ولكن ليست إجابته دعاءً من دعاه دليلاً على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة، ومهمات الدين.

والحسنة المطلوبة في الدنيا، يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنيء واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقر به العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة.

وحسنة الآخرة هي السلامة من العقوبات في القبر، والموقف، والنار، وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاءً وأكمله، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، ويحثُّ عليه.

(٢٠٣) ﴿وَأَذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ مِمَّنْ مَعَّلَفَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافاً لله فيها، ولهذا حرم صيامها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيام التشريق، أيام أكل وشرب، وذكر الله».

اللَّهُ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ التَّكَاثُرِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ ○ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ○ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿

لما أمر تعالى بالتقوى، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله، لا منسوباً إلى حذق العبد، والوقوف مع السبب، ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه.

وفي قوله: ﴿فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ دلالة على أمور:

أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفاً أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات، لا تكون إلا بعد الوقوف.

الثاني: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام، وهو المزدلفة، وذلك أيضاً معروف، يكون ليلة النحر بائناً بها، وبعد صلاة الفجر يقف في المزدلفة داعياً حتى يسفر جداً، ويدخل في ذكر الله عنده إيقاع الفرائض والنوافل فيه.

الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة، كما تدل عليه الفاء والترتيب.

الرابع والخامس: أن عرفات ومزدلفة كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها.

السادس: أن مزدلفة في الحرم، كما قيده بالحرام.

السابع: أن عرفة في الحل، كما هو مفهوم التقييد بـ«مزدلفة».

﴿وَأَذْكُرُوا كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الطَّاغُوتِ﴾ أي: اذكروا الله تعالى، كما منَّ عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون، فهذه من أكبر النعم التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم بالقلب واللسان.

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي: ثم أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم، وهو: رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف، والسعي، والمبيت بـ«منى» ليالي التشريق، وتكميل باقي المناسك.

ولما كانت [هذه] الإفاضة يقصد بها ما ذكر، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها، باستغفاره والإكثار

ويدخل في ذكر الله فيها ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق، كالعشر، وليس بعيد.

﴿فَمَنْ تَجَلَّى فِي يَوْمَيْنِ﴾ أي: خرج من «منى» ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني ﴿فَلَا يَأْتِ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد ﴿فَلَا يَأْتِ عَلَيْهِ﴾ وهذا تخفيف من الله [تعالى] على عباده، في إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أبيع كلا الأمرين، فالتأخر أفضل، لأنه أكثر عبادة.

ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور، وفي غيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم والمتأخر فقط، قيده بقوله: ﴿لَيْنَ أَتَقَى﴾ أي: اتقى الله في جميع أموره وأحوال الحج، فمن اتقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء، كان الجزء من جنس العمل.

﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ بامتثال أوامره واجتناب معاصيه، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده، ومن لم يتقه عاقبه أشد العقوبة، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلهذا حث تعالى على العلم بذلك.

(٢٠٤-٢٠٦) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۖ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۚ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ إِلَيْهَا﴾ لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وخصوصاً في الأوقات الفاضلة، الذي هو خير ومصالحة وبر، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه، ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو يخفضه، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: إذا تكلم راق كلامه للسامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه ﴿يُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ﴾ بأن يخبر: أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك؛ لأنه يخالف قوله فعله.

فلو كان صادقاً لتوافق القول والفعل، كحال المؤمن غير المنافق، فلهذا قال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أي: إذا خاصمته، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك ما هو من مقابح الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين الذين جعلوا السهولة مركبهم، والالتقياد للحق وظيفتهم، والسماحة سبحانه.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ﴾ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك ﴿سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ أي: يجتهد على أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض ﴿وَيُهْلِكَ﴾ بسبب ذلك ﴿الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ فالزروع والثمار والمواشي تتلف وتنقص، وتقل بركتها، بسبب العمل في المعاصي.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ وإذا كان لا يحب الفساد، فهو يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً.

ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص، ليست دليلاً على صدق ولا كذب، ولا بر ولا فجور، حتى يوجد العمل المصدق لها، المزكي لها، وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والمحقق والمبطل من الناس بسبر أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتركبتهم أنفسهم.

ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف و ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر^(١) على الناصحين.

﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾ التي هي دار العاصين والمتكبرين ﴿وَلَيْسَ إِلَيْهَا﴾ أي: المستقر والمسكن، عذاب دائم، وهم لا يتقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب، ولا يرجون الثواب، جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياً بالله من أحوالهم.

(٢٠٧) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْهَاتٍ لِلَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْبَاسِقِ﴾ هؤلاء هم الموقفون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوا طلباً لمرضاة الله ورجاء لثوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي الرؤوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْحَيَاةَ﴾ إلى آخر الآية، وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوا، وأخبر برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم^(٢).

(٢٠٨، ٢٠٩) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي النَّارِ كَذَابًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۚ فَإِن زَلَلْتُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

(١) في ب: والتكبر. (٢) من أول الآية إلى هنا ساقط من: ب، وقد قام النجار بتفسير الآية من عند نفسه، انظر طبعة النجار (١/٢٥٢-٢٥٤)، ولم يبين أن هذا ليس من كلام الشيخ - رحمه الله -.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ ٣٢

﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَلْتَأَسَ مِنْ يُعْجِبِكُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ الَّذِي الْخَصَامُ ﴿٣٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْأَمَهُادُ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ أَلْتَأَسَ مِنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أُتْبِعَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْفَآءِ وَالْمَلَكِئِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٠﴾ هَذَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ وَالتَّهْدِيدِ مَا تَنَخَّلَ لَهُ الْقُلُوبُ، يَقُولُ تَعَالَى: هَلْ يَنْتَظِرُ السَّاعُونَ فِي الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ، الْمَتَّبِعُونَ لِحُطُوتِ الشَّيْطَانِ، النَّابِذُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِلَّا يَوْمَ الْجَزَاءِ بِالْأَعْمَالِ، الَّذِي قَدْ حَشَى مِنَ الْأَهْوَالِ وَالتَّشَدُّدِ وَالْفُطَاغِ مَا يَقْلِقُ قُلُوبَ الظَّالِمِينَ، وَيَحَقُّ بِهِ الْجَزَاءُ السَّيِّئِ عَلَى الْمُفْسِدِينَ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَطْوِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَتَشْرُ الْكَوَاكِبِ، وَتَكْوُرُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَتَنْزِلُ الْمَلَأَكَةُ الْكِرَامَ، فَتَحِيطُ بِالْخَلَائِقِ، وَيَنْزِلُ الْبَارِي [تَبَارَكَ وَ] تَعَالَى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْفَآءِ﴾ لِيَفْصَلَ بَيْنَ عِبَادِهِ بِالْقَضَاءِ الْعَدْلِ، فَتَوْضِعُ الْمَوَازِينِ، وَتَنْشُرُ الدَّوَابِّ، وَتَبْيِضُ وَجُوهَ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَتَسْوَدُ وَجُوهَ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَيَتَمَيِّزُ أَهْلَ الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ، وَكُلٌّ يَجَازِي بِعَمَلِهِ، فَهَنَالِكُ يَعْضُ الظَّالِمِ عَلَى يَدَيْهِ، إِذَا عَلِمَ حَقِيقَةَ مَا هُوَ عَلَيْهِ.

والأشعرية، ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول - لأجلها - الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدح في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب.

فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي.

أما النقلي، فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ظاهرها، بل صريحها، دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلائلها على مذهبهم الباطل أن تخرج عن ظاهرها، ويزاد فيها وينقص، ولهذا كما ترى، لا يرضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقلي، فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دل على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه، والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن

حَكِيمٌ ﴿ هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ أَي: فِي جَمِيعِ شَرَائِعِ الدِّينِ، وَلَا يَتْرَكُوا مِنْهَا شَيْئًا، وَأَنْ لَا يَكُونُوا مِمَّنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ، إِنْ وَافَقَ الْأَمْرَ الْمَشْرُوعَ هَوَاهُ فَعَلَهُ، وَإِنْ خَالَفَهُ تَرَكَهُ، بَلِ الْوَاجِبُ أَنْ يَكُونَ الْهَوَى تَبَعًا لِلدِّينِ، وَأَنْ يَفْعَلَ كُلَّ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ، وَمَا يَعْجِزُ عَنْهُ يَلْتَزِمُهُ وَيُنَوِّيه، فَيُدْرِكُهُ بِنَيْتِهِ.

ولما كان الدخول في السلم كافة، لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان، قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أَي: فِي الْعَمَلِ بِمَعَاصِي اللَّهِ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ وَالْعَدُوُّ الْمُبِينُ لَا يَأْمُرُ إِلَّا بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، وَمَا بِهِ الضَّرَرُ عَلَيْكُمْ.

ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، قال تعالى: ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ أَي: عَلَى عِلْمٍ وَبِقِيْنٍ ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر^(١) الحكيم، إذا عصاه العاصي، فقهه بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجنات.

(٢١٠) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْفَآءِ وَالْمَلَكِئِكَةِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ وَهَذَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ وَالتَّهْدِيدِ مَا تَنَخَّلَ لَهُ الْقُلُوبُ، يَقُولُ تَعَالَى: هَلْ يَنْتَظِرُ السَّاعُونَ فِي الْفُسَادِ فِي الْأَرْضِ، الْمَتَّبِعُونَ لِحُطُوتِ الشَّيْطَانِ، النَّابِذُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِلَّا يَوْمَ الْجَزَاءِ بِالْأَعْمَالِ، الَّذِي قَدْ حَشَى مِنَ الْأَهْوَالِ وَالتَّشَدُّدِ وَالْفُطَاغِ مَا يَقْلِقُ قُلُوبَ الظَّالِمِينَ، وَيَحَقُّ بِهِ الْجَزَاءُ السَّيِّئِ عَلَى الْمُفْسِدِينَ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَطْوِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَتَشْرُ الْكَوَاكِبِ، وَتَكْوُرُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ، وَتَنْزِلُ الْمَلَأَكَةُ الْكِرَامَ، فَتَحِيطُ بِالْخَلَائِقِ، وَيَنْزِلُ الْبَارِي [تَبَارَكَ وَ] تَعَالَى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِنَ الْفَآءِ﴾ لِيَفْصَلَ بَيْنَ عِبَادِهِ بِالْقَضَاءِ الْعَدْلِ، فَتَوْضِعُ الْمَوَازِينِ، وَتَنْشُرُ الدَّوَابِّ، وَتَبْيِضُ وَجُوهَ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَتَسْوَدُ وَجُوهَ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، وَيَتَمَيِّزُ أَهْلَ الْخَيْرِ مِنْ أَهْلِ الشَّرِّ، وَكُلٌّ يَجَازِي بِعَمَلِهِ، فَهَنَالِكُ يَعْضُ الظَّالِمِ عَلَى يَدَيْهِ، إِذَا عَلِمَ حَقِيقَةَ مَا هُوَ عَلَيْهِ.

وهذه الآية وما أشبهها دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، المثبتين للصفات الاختيارية، كالاستواء، والنزول، والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف ولا تعطيل، خلافاً للمعتلة على اختلاف أنواعهم: من الجهمية والمعتزلة،

الْبَقَرَةُ

٣٣

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا بَيْنَهُ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَرَزَقُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالتَّامَّةِ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

يصر ويحتسب، فيخفف الله عنه بإيمانه وصره ما لا يكون لغيره.

وإنما الشأن كل الشأن والتفضيل الحقيقي في الدار الباقية، فلماذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيكون المتقون في أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور، والبهجة والحبور، والكفار تحتهم في أسفل الدرجات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة، والشقاء السرمدي، الذي لا منتهى له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين ونعي على الكافرين، ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تتال إلا بمشيئة الله، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، ومحبة الله، وحشيته ورجائه، ونحو ذلك، فلا يعطيها إلا من يحب.

(٢١٣) ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا

لله ذاتاً لا تُشبهها الذوات، فله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها، ما يقتضي التشبيه بوجه.

ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات، ونفى بعضاً، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تُثبت الجميع كما أثبت الله لنفسه، وأثبت رسوله، وإما أن تنفي الجميع وتكون منكراً لرب العالمين، وأما إثباتك بعض ذلك، ونفيك لبعضه، فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبتته، وما نفيت، ولن تجد إلى الفرق سيلاً، فإن قلت: ما أثبتته لا يقتضي تشبيهاً، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيت لا يقتضي تشبيهاً، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيت إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبتته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة، أجابك به أهل السنة، لما نفيت.

الحاصل أن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً مما دل الكتاب والسنة على إثباته، فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمنقول.

(٢١١) ﴿سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يقول تعالى: ﴿سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ تدل على الحق، وعلى صدق الرسل، فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة، التي تقتضي القيام بها، بل كفروا بها، وبدلوا نعمة الله كفراً، فلماذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه، ويحرمهم من ثوابه، وسمى الله تعالى كفر النعمة تبديلاً لها، لأن من أنعم الله عليه بنعمة دينية أو دنيوية، فلم يشكرها، ولم يقم بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالى، وقام بحققها، فإنها تثبت وتستمر، ويزيده الله منها.

(٢١٢) ﴿زَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا بالله وآياته ورسله، ولم يتقادوا لشعره، أنهم زُيِّنَ لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها، واطمأنوا بها، فصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها، وعظموها من شاركهم في صنيعهم، واحترقوا المؤمنين، واستهزأوا بهم وقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟ وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا وإن ناله مكروه، فإنه

وتعالى أنه لا بد أن يمتحن عباده بالسراء والضراء والمشقة كما فعل بمن قبلهم، فهي سنته الجارية التي لا تتغير ولا تتبدل، أن من قام بدينه وشرعه لا بد أن يبتيه، فإن صبر على أمر الله، ولم يبال بالمكاره الواقعة في سبيله، فهو الصادق الذي قد نال من السعادة كما لها، ومن السيادة ألتها ومن جعل فتنة الناس كعذاب الله، بأن صدّته المكاره عما هو بصده، وثنته المحن عن مقصده، فهو الكاذب في دعوى الإيمان، فإنه ليس الإيمان بالتحلي والتمني، ومجرد الدعاوى، حتى تصدقه الأعمال أو تكذبه.

فقد جرى على الأمم الأقدمين ما ذكر الله عنهم ﴿مَسَّهُمُ الْبَاسَاءُ﴾ أي: الفقر ﴿وَالضَّرَّاءُ﴾ أي: الأمراض في أبدانهم ﴿وَزُلْزُلُوا﴾ بأنواع المخاوف من التهديد بالقتل، والنفي، وأخذ الأموال، وقتل الأحبة، وأنواع المضار حتى وصلت بهم الحال، وآل بهم الزلزال، إلى أن استبطأوا نصر الله مع يقينهم به، ولكن لشدة الأمر وضيقه قال ﴿الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرُ اللَّهَ﴾ فلما كان الفرج عند الشدة، وكلما ضاق الأمر اتسع، قال تعالى: ﴿آلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ فهكذا كل من قام بالحق فإنه يمتحن.

فكلما اشتدت عليه وصعبت إذا صبر وثابر على ما هو عليه انقلبت المحنة في حقه منحة، والمشقات راحت، وأعقبه ذلك الانتصار على الأعداء، وشفاء ما في قلبه من الداء، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ وقوله [تعالى]: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُبْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۗ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ فعند الامتحان، يكرم المرء أو يهان.

(٢١٥) ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي: يسألونك عن النفقة، وهذا يعم السؤال عن المنفق والمنفق عليه، فأجابهم عنهما، فقال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: مال قليل أو كثير، فأولى الناس به، وأحقهم بالتقديم، أعظمهم حقاً عليك، وهم الوالدان الواجب برهما، والمحرم عقوقهما، ومن أعظم برهما النفقة عليهما، ومن أعظم العقوق ترك الإنفاق عليهما، ولهذا كانت النفقة عليهما واجبة، على الولد الموسر.

يَهْدِي اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِآيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿أي: كان الناس﴾ [أي كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم، وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع وبعث الله الرسل ليفصلوا بين الخلائق، وقيموا الحجة عليهم، وقيل بل كانوا] ﴿مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ من أطاع الله بشمرات الطاعات: من الرزق والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة ﴿وَمُنذِرِينَ﴾ من عصى الله بشمرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف، والإهانة، والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار.

﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ هو الإخبارات الصادقة، والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب، فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، ولهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما.

لما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم، فأخبر تعالى أنهم بغى بعضهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف، فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاتجاه عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقنوه بالآيات البيّنات، والأدلة القاطعات، فضلوا بذلك ضلالاً بعيداً.

﴿فَهَدَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من هذه الأمة ﴿لِمَا اٰخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ فكل ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطأوا فيه الحق والصواب، هدى الله للحق فيه هذه الأمة ﴿بِآيَاتِهِ﴾ تعالى وتيسيره لهم ورحمته.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فعمّ الخلق تعالى بالدعوة إلى الصراط المستقيم، عدلاً منه تعالى، وإقامة حجة على الخلق، لئلا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ وهدى - بفضلله ورحمته، وإعانتة ولطفه - من شاء من عباده، فهذا فضلله وإحسانه، وذاك عدله وحكمته.

(٢١٤) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَاسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزُلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ آلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ يخبر تبارك

(١) زيادة من هامش ب، لم يحدد محلها، وبالنظر إلى السياق يظهر أن الأقرب أن هذا محلها، ولهذا وليتسق الكلام يكون آخره هكذا: (وقيل: بل كانوا مجتمعين على الكفر) ويكون قوله: (أي: كان الناس) مكرراً.

ومن بعد الوالدين، الأقربون على اختلاف طبقاتهم، الأقرب فالأقرب، على حسب القرب والحاجة، فالإنفاق عليهم صدقة وصلة.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ وهم الصغار الذين لا كاسب لهم، فهم في مظنة الحاجة، لعدم قيامهم بمصالح أنفسهم، وفقد الكاسب، فوصى الله بهم العباد، رحمة منه بهم ولطفًا.

﴿وَالسَّكِينِ﴾ وهم أهل الحاجات، وأرباب الضرورات الذين أسكتتهم الحاجة، فينفق عليهم لدفع حاجاتهم وإغنائهم.

﴿وَأَبَى السَّبِيلِ﴾ أي: الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعان على سفره بالنفقة التي توصله إلى مقصده.

ولما خصص الله تعالى هؤلاء الأصناف لشدة الحاجة، عمم تعالى، فقال: ﴿وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَيْرٍ﴾ من صدقة على هؤلاء وغيرهم، بل ومن جميع أنواع الطاعات والقربات، لأنها تدخل في اسم الخير ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فيجازيكم عليه، ويحفظه لكم، كل على حسب نيته وإخلاصه، وكثرة نفقته وقتلتها، وشدة الحاجة إليها، وعظم وقعها ونفعها.

(٢١٦) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذه الآية، فيها فرض القتال في سبيل الله، بعد ما كان المؤمنون مأمورين بتركه، لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وكثر المسلمون وقورا، أمرهم الله تعالى بالقتال، وأخبر أنه مكروه للنفوس، لما فيه من التعب والمشقة، وحصول أنواع المخاوف والتعرض للمتالف، ومع هذا، فهو خير محض، لما فيه من الثواب العظيم، والتحرز من العقاب الأليم، والنصر على الأعداء والظفر بالغانم، وغير ذلك مما هو مرب، على ما فيه من الكراهة.

﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ وذلك مثل القعود عن الجهاد لطلب الراحة، فإنه شر، لأنه يعقب الخذلان، وتسلب الأعداء على الإسلام وأهله، وحصول الذل والهوان، وفوات الأجر العظيم وحصول العقاب.

وهذه الآيات عامة مطردة في أن أفعال الخير التي تكرهها النفوس - لما فيها من المشقة - أنها خير بلا شك، وأن أفعال الشر التي تحب النفوس - لما توهمه فيها من الراحة واللذة - فهي شر بلا شك.

وأما أحوال الدنيا فليس الأمر مطردًا، ولكن الغالب على العبد المؤمن أنه إذا أحب أمرًا من الأمور، فقبض الله [له] من

الأسباب ما يصرفه عنه أنه خير له، فالأوفق له في ذلك أن يشكر الله، ويجعل الخير في الواقع، لأنه يعلم أن الله تعالى أرحم بالعبد من نفسه، وأقدر على مصلحة عبده منه، وأعلم بمصلحته منه، كما قال [تعالى]: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فاللائق بكم أن تمشوا مع أقداره، سواء سرتكم أو ساءتكم.

ولما كان الأمر بالقتال، لو لم يقيد، لشمّل الأشهر الحرم وغيرها، أستثنى تعالى القتال في الأشهر الحرم فقال:

(٢١٧) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ وَفِيهِ قُلُوبٌ فَتَأَلَّى فِيهِ كِبِيرٌ وَصَدٌّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَرَاؤُنَّ يَغْنَابُكُمْ حَتَّى تَرُدُّوهُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْطَلُّوْا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتٌ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الجمهور على أن تحريم القتال في الأشهر الحرم منسوخ بالأمر بقتال المشركين حيثما وجدوا، وقال بعض المفسرين: إنه لم ينسخ، لأن المطلق محمول على المقيد، وهذه الآية مقيدة، لعموم الأمر بالقتال مطلقًا؛ ولأن من جملة مزية الأشهر الحرم، بل أكبر مزاياها، تحريم القتال فيها، وهذا إنما هو في قتال الابتداء، وأما قتال الدفع، فإنه يجوز في الأشهر الحرم، كما يجوز في البلد الحرام.

ولما كانت هذه الآية نازلة بسبب ما حصل لسرية عبد الله بن جحش، وقتلهم عمرو بن الحضرمي، وأخذهم أموالهم، وكان ذلك - على ما قيل - في شهر رجب، غيرهم المشركون بالقتال بالأشهر الحرم، وكانوا في تعبيرهم ظالمين، إذ فهم من القبائح ما بعضه أعظم مما عيروا به المسلمين، قال تعالى في بيان ما فيهم: ﴿وَصَدٌّ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: صد المشركين من يريد الإيمان بالله وبرسوله، وفتنتهم من آمن به، وسعيهم في رددهم عن دينهم، وكفرهم الحاصل في الشهر الحرام والبلد الحرام، الذي هو بمجرده كاف في الشر، فكيف وقد كان في شهر حرام وبلد حرام؟!!

﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ﴾ أي: أهل المسجد الحرام، وهم النبي ﷺ وأصحابه، لأنهم أحق به من المشركين، وهم عماره على الحقيقة، فأخرجوهم ﴿مِنْهُ﴾ ولم يمكنوهم من الوصول إليه، مع أن هذا البيت سواء العاكف فيه والباد.

فهذه الأمور كل واحد منها ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ في الشهر الحرام، فكيف وقد اجتمعت فيهم؟! فعلم أنهم فسقة ظلمة في تعبيرهم المؤمنين.

ثم أخبر تعالى أنهم لن يزالوا يقاتلون المؤمنين، وليس غرضهم في أموالهم وقتلهم، وإنما غرضهم أن يرجعهم عن دينهم، ويكونوا كفاراً بعد إيمانهم، حتى يكونوا من أصحاب السعير، فهم باذلون قدرتهم في ذلك، ساعون بما أمكنهم ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُسَبِّحَ تُورِهِمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾.

وهذا الوصف عام لكل الكفار، لا يزالون يقاتلون غيرهم، حتى يردوهم عن دينهم، وخصوصاً أهل الكتاب من اليهود والنصارى، الذين بذلوا الجمعيات، ونشروا الدعاة، وبتوا الأطباء، وبنوا المدارس لجذب الأمم إلى دينهم، وتدخيلهم عليهم كل ما يمكنهم من الشبه التي تشككهم في دينهم.

ولكن المرجو من الله تعالى، الذي من على المؤمنين بالإسلام، واختار لهم دينه القيم، وأكمل لهم دينه - أن يتم عليهم نعمته بالقيام به أتم قيام-، وأن يخذل كل من أراد أن يظيء نوره، ويجعل كيدهم في نحورهم وينصر دينه، ويعلي كلمته، وتكون هذه الآية صادقة على هؤلاء الموجودين من الكفار، كما صدقت على من قبلهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُقِيمُونَ آمُورَهُمْ لِصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ سَيُفْقَرُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْرَجُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى أن من ارتد عن الإسلام، بأن اختار عليه الكفر واستمر على ذلك حتى مات كافرًا ﴿فَأُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ لعدم وجود شرطها، وهو الإسلام ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. ودلت الآية بمفهومها أن من ارتد ثم عاد إلى الإسلام، أنه يرجع إليه عمله الذي قبل رده، وكذلك من تاب من المعاصي، فإنها تعود إليه أعماله المتقدمة.

(٢١٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه الأعمال الثلاثة، هي عنوان السعادة وقطب رحى العبودية، وبها يعرف ما مع الإنسان من الريح والخسران.

فأما الإيمان فلا تسأل عن فضيلته، وكيف تسأل عن شيء هو الفاصل بين أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأهل الجنة من أهل النار؟ وهو الذي إذا كان مع العبد قبلت أعمال الخير منه، وإذا عدم منه لم يقبل له صرف ولا عدل، ولا فرض ولا نفل.

وأما الهجرة: فهي مفارقة المحبوب المألوف لرضا الله تعالى، فترك المهاجر وطنه، وأمواله، وأهله، وخلّانه، تقرّباً إلى الله، ونصرة لدينه.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قَاتَلُ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفْرٍ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقِتَالِ وَلَا يَرَاوُنَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ أَسْتَطَعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

وأما الجهاد، فهو بذل الجهد في مقارعة الأعداء، والسعي التام في نصره دين الله، وقمع دين الشيطان، وهو ذروة الأعمال الصالحة، وجزاؤه أفضل الجزاء، وهو السبب الأكبر لتوسيع دائرة الإسلام وخذلان عباد الأصنام، وأمن المسلمين على أنفسهم وأموالهم وأولادهم.

فمن قام بهذه الأعمال الثلاثة - على لأوائها ومشقتها - كان لغيرها أشد قياماً به وتكميلاً.

فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجين رحمة الله، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة، وفي هذا دليل على أن الرجاء لا يكون إلا بعد القيام بأسباب السعادة، وأما الرجاء المقارن للكسل، وعدم القيام بالأسباب، فهذا عجز وتمنٍّ وغرور، وهو دالٌّ على ضعف همة صاحبه، ونقص عقله، بمنزلة من يرجو وجود ولد بلا نكاح، ووجود الغلة بلا بذر وسقي، ونحو ذلك.

وفي قوله: ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ إشارة إلى أن العبد - ولو أتى من الأعمال بما أتى به - لا ينبغي له أن يعتمد عليها ويعول عليها، بل يرجو رحمة ربه، ويرجو قبول أعماله

ومغفرة ذنوبه، وستر عيوبه.

ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ أي: لمن تاب توبة نصوحًا ﴿رَجِيمٌ﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعمّ جوده وإحسانه كل حي.

وفي هذا دليل على أن من قام بهذه الأعمال المذكورة، حصل له مغفرة الله، إذ الحسنات يذهبن السيئات، وحصلت له رحمة الله.

وإذا حصلت له المغفرة، اندفعت عنه عقوبات الدنيا والآخرة، التي هي آثار الذنوب، التي قد غفرت واضمحلت آثارها، وإذا حصلت له الرحمة، حصل على كل خير في الدنيا والآخرة، بل أعمالهم المذكورة من رحمة الله بهم، فلولا توفيقه إياهم لم يريدوها، ولولا إقذارهم عليها لم يقدروا عليها، ولولا إحسانه لم يتمها ويقبلها منهم، فله الفضل أولاً وآخراً، وهو الذي من بالسبب والمسبب.

(٢١٩) ثم قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آثَرٌ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ أي: يسألك - يا أيها الرسول - المؤمنون عن أحكام الخمر والميسر، وقد كانا مستعملين في الجاهلية وأول الإسلام، فكأنه وقع فيهما إشكال، فلهذا سألوا عن حكمهما، فأمر الله تعالى نبيه أن يبين لهم منافعهما ومضارهما؛ ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما، وتحريم تركهما.

فأخبر أن إثمهما ومضارهما، وما يصدر منهما من ذهاب العقل والمال، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، والعداوة والبغضاء - أكبر مما يظنون من نفعهما، من كسب المال بالتجارة بالخمر وتحصيله بالقمار، والطرب للنفوس عند تعاطيها، وكان هذا البيان زاجراً للنفوس عنهما، لأن العاقل يرجع ما ترجحت مصلحته، ويجتنب ما ترجحت مضرته.

ولكن لما كانوا قد ألفوهما، وصعب التحريم بتركهما أول وهلة، قدم هذه الآية مقدمة للتحريم، الذي ذكره في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَسْبَابُ وَالْأَزْجَارُ رِجْسٌ مِنْ عِنْدِ الشَّيْطَانِ﴾ إلى قوله: ﴿مُنْهَوْنَ﴾ وهذا من لطفه ورحمته وحكمته، ولهذا لما نزلت قال عمر رضي الله عنه: انتهينا انتهينا.

فأما الخمر: فهو كل مسكر خامر العقل وغطّاه، من أي نوع كان، وأما الميسر: فهو كل المغالبات التي يكون فيها عوض من الطرفين، من النرد والشطرنج، وكل مغالبة قولية أو فعلية [بعوض] ^(١)، سوى مسابقة الخيل والإبل والسهام، فإنها مباحة؛ لكونها معينة على الجهاد، فلهذا رخص فيها الشارع.

(٢١٩، ٢٢٠) ﴿وَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُعْفُونَ قُلِ الْعَفْوُ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وهذا سؤال عن مقدار ما يتفقونه من أموالهم، فيسّر الله لهم الأمر، وأمرهم أن ينفقوا العفو، وهو المتيسر من أموالهم، الذي لا تتعلق به حاجتهم وضرورتهم، وهذا يرجع إلى كل أحد بحسبه، من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله، ولو شق تمره.

ولهذا أمر الله رسوله ﷺ، أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلفهم ما يشق عليهم، ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا، أو تكليفاً لنا [بما يشق] ^(٢)، بل أمرنا بما فيه سعادتنا، وما يسهل علينا، وما به النفع لنا وإلحواننا، فيستحق على ذلك أتم الحمد.

ولما بيّن تعالى هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه قال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي: الدلالات على الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضاً لكي تتفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها فترفضوها، وفي الآخرة وبقاتها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

(٢٢٠) ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَارْحَمُوهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَتْكُمْ أَنْتُمْ عَنْ عِبَرِ حِكْمِهِ﴾ لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ شق ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى، خوفاً على أنفسهم من تناولها، ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى، بحفظها وصيانتها والاتجار فيها، وأن خلطتهم إياهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر باليتامى، لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والمرجع في ذلك إلى النية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتامى، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء - من غير قصد - لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها، فذلك الذي حرج وأيم، و«الوسائل لها أحكام المقاصد».

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في

النافع، والعمل الصالح ﴿وَبَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: أحكامه، وحكمها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيوجب لهم ذلك التذكير لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامثال لما ضيعوه.

(٢٢٢، ٢٢٣) ثم قال تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ

○ نِسَاءَكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَأَتُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْقَوُهُ وَبَيَّرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يخبر تعالى عن سؤالهم عن المحيض وهل تكون المرأة بحالها بعد الحيض، كما كانت قبل ذلك، أم تجتنب مطلقاً كما يفعله اليهود؟.

فأخبر تعالى أن الحيض أذى، وإذا كان أذى، فمن الحكمة أن يمنع الله تعالى عباده عن الأذى وحده، فلهذا قال: ﴿فَأَعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ أي: مكان الحيض، وهو الوطء في الفرج خاصة، فهذا المحرم إجمالاً، وتخصيص الاعتزال في المحيض يدل على أن مباشرة الحائض وملاستها في غير الوطء في الفرج جائز.

لكن قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ يدل على أن المباشرة فيما قرب من الفرج، وذلك فيما بين السرة والركبة، ينبغي تركه كما كان النبي ﷺ إذا أراد أن يباشر امرأته وهي حائض، أمرها أن تأتزر، فيباشرها.

وحد هذا الاعتزال وعدم القربان للحَيْضِ ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ أي: ينقطع دمهن، فإذا انقطع الدم زال المنع الموجود وقت جريانه، الذي كان لعله شرطان: انقطاع الدم، والاعتزال منه فلما انقطع الدم، زال الشرط الأول، وبقي الثاني، فلهذا قال: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ أي: اغتسلن ﴿فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: في القبل لا في الدبر، لأنه محل الحرث. وفيه دليل على وجوب الاعتزال للحائض، وأن انقطاع الدم شرط لصحته.

ولما كان هذا المنع لطفاً منه تعالى بعباده، وصيانة عن الأذى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أي: من ذنوبهم على الدوام ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي: المنتزهين عن الآثام، وهذا يشمل التطهر الحسي من الأنجاس والأحداث.

ففيه مشروعية الطهارة مطلقاً، لأن الله تعالى يحب المتصف بها، ولهذا كانت الطهارة مطلقاً، شرطاً لصحة الصلاة والطواف، وجواز مس المصحف، ويشمل التطهر المعنوي عن الأخلاق الرذيلة، والصفات القبيحة، والأفعال

(١) في أ: لمع.

المآكل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله [تعالى] وإحسان، وتوسعة على المؤمنين.

وإلا ف﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَغْنَيْنَاكُمْ﴾ أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك، فخرجتم، وشق عليكم وأتمتم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: له القوة الكاملة، والقهر لكل شيء ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فجزته لا تنافي حكمته، فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئاً عبثاً، بل لا بد له من حكمة، عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجرداً عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة، أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، لتتام حكمته ورحمته.

(٢٢١) ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ حَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ حَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا﴾ النساء ﴿الْمُشْرِكَاتِ﴾ ما دمن على شركهن ﴿حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ لأن المؤمنة - ولو بلغت من الدمامة ما بلغت - خير من المشركة، ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ وهذا عام لا تخصيص فيه.

ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية، النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع، لأنه إذا لم يجز التزوج - مع^(١) أن فيه مصالح كثيرة - فالخلطة المجردة من باب أولى، وخصوصاً الخلطة التي فيها ارتفاع المشرك ونحوه على المسلم، كالخدمة ونحوها.

وفي قوله: ﴿وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ دليل على اعتبار الولي في [النكاح].

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع العقوبات، وذلك بالدعوة إلى أسبابهما من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم

الخشية.

﴿سَأَأْتِ لَكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ﴾ مقبلة ومدبرة، غير أنه لا يكون إلا في القبل، لكونه موضع الحرث، وهو الموضع الذي يكون منه الولد.

وفيه دليل على تحريم الوطء في الدبر، لأن الله لم يبح إتيان المرأة إلا في الموضع الذي منه الحرث، وقد تكاثرت الأحاديث عن النبي ﷺ في تحريم ذلك، ولعن فاعله.

﴿وَقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من التقرب إلى الله بفعل الخيرات، ومن ذلك أن يباشر الرجل امرأته ويجماعها على وجه القرية والاحتساب، وعلى رجاء تحصيل الذرية الذين ينفع الله بهم.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أحوالكم كونوا ملازمين لتقوى الله، مستعينين بذلك لعلمكم ﴿أَنْتُمْ مُلَفَّوهُ﴾ ومجازيكم على أعمالكم الصالحة وغيرها.

ثم قال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر المبشر به؛ ليدل على العموم، وأن لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وكل خير واندفاع كل ضير رتب على الإيمان، فهو داخل في هذه البشارة.

وفيهما محبة الله للمؤمنين، ومحبة ما يسرهم، واستحباب تشيطنهم وتشويقهم بما أعد الله لهم من الجزاء الدنيوي والأخروي.

(٢٢٤) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ المقصود من اليمين والقسم تعظيم المقسم به، وتأکید المقسم عليه، وكان الله تعالى قد أمر بحفظ الأيمان، وكان مقتضى ذلك حفظها في كل شيء، ولكن الله تعالى استثنى من ذلك، إذا كان البر باليمين، يتضمن ترك ما هو أحب إليه، فهى عباده أن يجعلوا أيمانهم عرضة، أي: مانعة وحائلة عن أن يبروا: أن^(١) يفعلوا خيراً، أو يتقوا شراً، أو يصلحوا بين الناس.

فمن حلف على ترك واجب وجب حنته، وحرّم إقامته على يمينه، ومن حلف على ترك مستحب استحبه له الحنث، ومن حلف على فعل محرم وجب الحنث، أو على فعل مكروه، استحبه الحنث، وأما المباح فينبغي فيه حفظ اليمين عن الحنث.

ويستدل بهذه الآية على القاعدة المشهورة، أنه «إذا تراحمت المصالح، قدم أهمها»، فهنا تميم اليمين مصلحة، وامتنال أوامر الله في هذه الأشياء مصلحة أكبر من ذلك، فقدمت لذلك.

ثم ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين، فقال: ﴿وَاللَّهُ

الْبَقَرَةُ

٣٥

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الَّتِي تَمْلِكُ قُلُوبَ أَصْحَابِ هَٰؤُلَاءِ حَيْرٌ وَإِنْ تُخَاطَبُهُمْ فَاجْهَرْ بِهَا وَاعْلَمْ أَنَّ الْمُنْفَسِدِينَ الْمُصْلِحَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّنْ مُّشْرِكٍ وَلَا يُعْجَبُكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢٦﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٧﴾ سَأَأْتِ لَكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَفَّوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْدِيكُمْ أَنْ تَبْرُوا وَتَتَّقُوا وَتُصَلِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٩﴾

سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالمقاصد والنيات، ومنه سماعه لأقوال الحالفين، وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده.

(٢٢٥) ثم قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْدِيكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: لا يؤاخذكم بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللأغوية التي يتكلم بها العبد من غير قصد منه ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه، كقول الرجل في عرض كلامه: «لا والله»، و«بلى والله»، وكحلفه على أمر ماض، يظن صدق نفسه، وإنما المؤاخذة على ما قصده القلب.

وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال.

والله ﴿عَفُورٌ﴾ لمن تاب إليه ﴿حَلِيمٌ﴾ بمن عصاه، حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه وستر، وصفح مع قدرته عليه.

(١) في ب: أي.

وكونه بين يديه .

(٢٢٦، ٢٢٧) ﴿لَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾
وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة، في أمر خاص، وهو حلف الزوج على ترك وطء زوجته مطلقاً، أو مقيداً، بأقل من أربعة أشهر أو أكثر.

فمن آلى من زوجته خاصة، فإن كان لدون أربعة أشهر، فهذا مثل سائر الأيمان، إن حث كَفَرُ، وإن أتم يمينه فلا شيء عليه، وليس لزوجه عليه سبيل، لأنه ملكه أربعة أشهر.
وإن كان أبداً، أو مدة تزيد على أربعة أشهر، ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه، إذا طلبت زوجته ذلك؛ لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالفيئة، وهو الوطاء، فإن وطىء فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع أجبر على الطلاق، فإن امتنع طلق عليه الحاكم.

ولكن الفيئة والرجوع إلى زوجته أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ فَاءُوا﴾ أي: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه، وهو الوطاء ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف، بسبب رجوعهم ﴿رَحِيمٌ﴾ حيث جعل لأيمانهم كفارة وتحلة، ولم يجعلها لازمة لهم، غير قابلة للانفكاك، ورحيم بهم أيضاً، حيث فاؤوا إلى زوجاتهم، وحنوا عليهن ورحموهن.

﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ أي: امتنعوا من الفيئة، فكان ذلك دليلاً على رغبتهم عنهن، وعدم إرادتهم لأزواجهن، وهذا لا يكون إلا عزمًا على الطلاق، فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة، وإلا أجبره الحاكم عليه، أو قام به. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فيه وعيد وتهديد لمن يحلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

ويستدل بهذه الآية على أن الإيلاء خاص بالزوجة، لقوله: ﴿مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ وعلى وجوب الوطاء في كل أربعة أشهر مرة، لأنه بعد الأربعة يجبر، إما على الوطاء، أو على الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجبًا.

(٢٢٨) ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَوَعُودُنَّ أَمَّا بِرِذْوَانِ مَا يَبْتَغِينَ وَالَّذِي عَلِمَ بِالْمَعْرُوفِ وَالرِّجَالِ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: النساء اللاتي طلقهن أزواجهن ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ أي: ينتظرن ويعتددن مدة ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ أي: حيض، أو أطهار على اختلاف العلماء في المراد بذلك، مع أن الصحيح أن القرء الحيض، ولهذا

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَوَعُودُنَّ أَمَّا بِرِذْوَانِ مَا يَبْتَغِينَ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلِمْنَ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَمَا سَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَشْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَمَّا آتَبْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُفْسِحَا حَدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُفْسِحَا حَدُودَ اللَّهِ فَالْجُنَاحُ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حَدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلْجُنَاحُ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

العدة عدة جكم، منها: العلم ببراءة الرحم، إذا تكررت عليها ثلاثة الأقرء، علم أنه ليس في رحمها حمل، فلا يفضي إلى اختلاط الأنساب.

ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عن ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ وحرّم عليهن كتمان ذلك من حمل أو حيض، لأن كتمان ذلك يفضي إلى مفسد كثيرة، فكتمان الحمل موجب أن تلحقه بغير من هو له، رغبة فيه واستعجالاً لانقضاء العدة، فإذا ألحقته بغير أبيه، حصل من قطع الرحم والإرث، واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، وربما تزوج ذوات محارمه، وحصل في مقابلة ذلك إلحاقه بغير أبيه، وثبتت توابع ذلك من الإرث منه وله، ومن جعل أقارب الملحق به أقارب له، وفي ذلك من الشر والفساد ما لا يعلمه إلا رب العباد، ولو لم يكن في ذلك إلا إقامتها مع من نكاحها باطل في حقه، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة - وهي الزنا - لكفى بذلك شراً.

وأما كتمان الحيض، بأن استعجلت وأخبرت به وهي كاذبة، ففيه من انقطاع حق الزوج عنها، وإباحتها لغيره، وما

موجب العقد المطلق، وأما مع الشرط، فعلى شرطهما، إلا شرطاً أحلَّ حراماً، أو حرَّم حلالاً.

﴿وَالرِّجَالُ عَلَيْهِمْ دَرَجَةٌ﴾ أي: رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ومنصب النبوة والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعفا ما لها في كثير من الأمور، كال ميراث ونحوه.

﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذي دانت له جميع الأشياء، ولكنه - مع عزته - حكيم في تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية الحوامل، فعدتهن وضع الحمل، واللاتي لم يدخل بهن فليس لهن عدة، والإماء فعدتهن حيطان، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآيات^(١) يدل على أن المراد بها الحرة.

(٢٢٩) ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَيْنِ فَإِن سَاكُنَا بِعُرْفِيٍّ أَوْ تَشْرِيحٍ يَأْخُذُ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْنَهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُفِيصَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُفِيصَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ كان الطلاق في الجاهلية، واستمر أول الإسلام، يطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضارعتها طلقها، فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها، وصنع بها مثل ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم.

فأخبر تعالى أن ﴿الطَّلَاقُ﴾ أي: الذي تحصل به الرجعة ﴿مَرَّتَيْنِ﴾ ليمكن الزوج - إن لم يرد المضارة - من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على الثلثين، فإما متجرىء على المحرم، أو ليس له رغبة في إساقها، بل قصده المضارة، فلها أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته ﴿بِعُرْفِيٍّ﴾ أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ ومن الإحسان، أن لا يأخذ على فراقها لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلها قال: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْنَهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُفِيصَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها، ولخلقه أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه.

يتفرع عن ذلك من الشر كما ذكرنا، وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض، لتطول العدة، فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه، بل هي سحت عليها محرمة من جهتين: من كونها لا تستحقه، ومن كونها نسبتها إلى حكم الشرع وهي كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدة، فيكون ذلك سفاحاً؛ لكونها أجنبية عنه، فلها قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر، وعرفن أنهن مجربات عن أعمالهن، لم يصدر منهن شيء من ذلك.

وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر به عن نفسها، من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها، كالحيض والحمل ونحوه^(١).

ثم قال تعالى: ﴿وَمَوْلَاهُنَّ أُمَّهُنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة، أن يردوهن إلى نكاحهن ﴿إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ أي: رغبة وألفة ومودة، ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصد المضارة لها، وتطويل العدة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان:

الجمهور على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك، كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكمة أخرى في هذا التبرص، وهي: أنه ربما أن زوجها ندم على فراقها لها، فجعلت له هذه المدة، ليتروى بها ويقطع نظره.

وهذا يدل على محبته تعالى للآلفة بين الزوجين، وكرهته للفراق، كما قال النبي ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»، وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس البعل بأحق برجعتها، بل إن تراضيا على التراجع، فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط.

ثم قال تعالى: ﴿وَكُنَّ مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: وللنساء على بعولتهن من الحقوق واللوازم مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة.

ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع إلى المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد، وذلك الزمان من مثلها لمثلها، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأحوال، والأشخاص، والعوائد.

وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والمسكن وكذلك الوطء - الكل يرجع إلى المعروف، فهذا

(١) في ب: ونحوهما. (٢) في ب: الآية.

وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان، إذا أراد أن يدخل في أمر من الأمور، خصوصًا الولايات الصغار والكبار، نظر في نفسه^(٢)، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها، أقدم وإلا أحجم.

ولما بين الله تعالى هذه الأحكام العظيمة، قال: ﴿وَتَرَاكَ حُدُودَ اللَّهِ﴾ أي: شرائعه التي حددها وبينها ووضحها ﴿يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم هم المستفوعون بها، النافعون لغيرهم. وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصًا بهم، وأنهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي: طلاقًا رجعيًا بواحدة أو اثنتين. ﴿فَلَنْ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: قاربن انقضاء عدتهن. ﴿فَأَسْكُوهُنَّ مِمَّا فِي أَرْحَامِكُمْ أَوْ سَرَّوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: إما أن تراجعوهن، ونيتمكم القيام بحقوقهن، أو تركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا﴾ أي: مضارة بهن ﴿لَتَعْدُوا﴾ في فعلكم هذا الحلال، إلى الحرام فالحلال: الإمساك بمعروف^(٣)، والحرام: المضارة.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا عَيْتَ اللَّهِ هُزُوًا﴾ لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل، والوقوف معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثًا، بل أنزلها بالحق والصدق والجد، نهى عن اتخاذها هزوءًا، أي: لعبًا بها، وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتثال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، والله - من رحمته - جعل له واحدة بعد واحدة، رفقًا به وسعيًا في مصلحته.

﴿وَأَذْكُرُوا بِعَمَلِ اللَّهِ عَمَلًا﴾ عموماً، باللسان حمداً وثناءً، وبالقلب اعترافاً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله. ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة، اللذين بين لكم بهما طرق الخير ورغبكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعرفكم نفسه ووقائعه في أولياته وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه،

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفِيَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْمَا فِيَافَتْ بِهِ﴾ لأنه عوض لتحصيل مقصودها من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

﴿تِلْكَ﴾ أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية ﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ أي: أحكامه التي شرعها لكم، وأمر بالوقوف معها. ﴿وَمَنْ يَعُدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدى منه إلى الحرام، فلم يسعه ما أحل الله؟.

والظلم ثلاثة أقسام: ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق، فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئاً، والظلم الذي بين العبد وربه فيما دون الشرك، تحت المشيئة والحكمة.

(٢٣١، ٢٣٠) ﴿فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُنَاحَ لَكُمْ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَ﴾ فَإِنْ طَلَقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ طَلَّقَا أَنْ يُفِيَا حُدُودَ اللَّهِ وَتَرَاكَ حُدُودَ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ○ وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجَلَهُنَّ فَأَسْكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرَّوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لَتَعْدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا عَيْتَ اللَّهِ هُزُوًا وَأَذْكُرُوا بِعَمَلِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ بِهَا وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَقَهَا﴾ أي: الطلقة الثالثة ﴿فَلَا جُنَاحَ لَكُمْ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَ﴾ أي: نكاحًا صحيحًا ويطؤها، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحًا، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق.

ويشترط^(١) أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح، ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء السيد، لأنه ليس بزواج، فإذا تزوجها الثاني راعيًا ووطئها، ثم فارقتها، وانقضت عدتها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْمَا﴾ أي: على الزوج الأول والزوجة ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ أي: يجتددا عقدًا جديدًا بينهما، لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضي.

ولكن يشترط في التراجع أن يظنا ﴿أَنْ يُفِيَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه، وذلك إذا ندما على عشرتهما السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبداها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما في التراجع.

ومفهوم الآية الكريمة، أنها إن لم يظنا أن يقيما حدود الله، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية، والعشرة السيئة غير زائلة، أن عليهما في ذلك جناحًا، لأن جميع الأمور إن لم يبق فيها أمر الله، ويسلك بها طاعته، لم يحل الإقدام عليها.

(١) في ب: ويتعين. (٢) في ب: أن ينظر. (٣) في ب: بالمعروف.

التَّائِبِينَ

٣٧

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلِعَنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ
 سَرَحوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضَرَارًا لِنَعْدُوهُنَّ وَمَنْ يَفْعَلْ
 ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتَ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا
 نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ
 يَعِظُكُمْ بِهِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣٦﴾
 وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلِعَنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ
 آرْوَاهُنَّ إِذَا تَرَضَوْنَ بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ
 مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٧﴾
 وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٨﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ
 حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ
 وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّرُ
 وَوَلَدَةٌ يَوْلَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يَوْلَدُهُ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ
 فَإِنْ أَرَادَ فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ
 أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا
 آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٩﴾

تَلْتَوُونَ شَهْرًا ﴿٢٣٦﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وأنه يمكن وجود
 الولد بها.

﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ أي: الأب ﴿رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾
 وهذا شامل لما إذا كانت في حباله أو مطلقة، فإن على الأب
 رزقها، أي: نفقتها وكسوتها، وهي الأجرة للرضاع.

ودل هذا على أنها إذا كانت في حباله، لا يجب لها أجرة
 غير النفقة والكسوة، وكل بحسب حاله، فهذا قال: ﴿لَا
 تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ فلا يكلف الفقير أن ينفق نفقة الغني،
 ولا من لم يجد شيئاً بالنفقة حتى يجد.

﴿لَا تُضَارَّرُ وَوَلَدَةٌ يَوْلَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يَوْلَدُهُ﴾ أي: لا يحل
 أن تضار الوالدة بسبب ولدها، إما أن تمتنع من إرضاعه، أو لا
 تعطى ما يجب لها من النفقة والكسوة أو الأجرة.

﴿وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يَوْلَدُهُ﴾ بأن تمتنع من إرضاعه على وجه
 المضارة له، أو تطلب زيادة عن الواجب، ونحو ذلك من
 أنواع الضرر.

(١) في ب: بعدم تزويجه.

وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي: بما
 أنزل عليكم، وهذا مما يقوي أن المراد بالحكمة أسرار
 الشريعة، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة، والترغيب أو
 التهيب، فالحكم به يزول الجهل، والحكمة مع الترغيب
 يوجب الرغبة، والحكمة مع التهيب يوجب الرهبة ﴿وَأَتَقُوا
 اللَّهَ﴾ في جميع أموركم ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهذا
 بين لكم هذه الأحكام بغاية الإقتان والإحكام، التي هي جارية
 مع المصالح في كل زمان ومكان [فله الحمد والمنة].

﴿٢٣٢﴾ ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلِعَنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ
 آرْوَاهُنَّ إِذَا تَرَضَوْنَ بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾
 هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثالث، إذا خرجت
 من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك، فلا يجوز
 لوليها من أب وغيره أن يعضلها، أي: يمنعها من التزوج به
 حنقاً عليه وغضباً، واشتمتزازاً لما فعل من الطلاق الأول.

وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإيمانه يمنعه من
 العضل، فإن ذلك أذى لكم وأظهر وأطيب مما يظن الولي أن
 عدم تزويجه هو الرأي واللاق، وأنه يقابل بطلاقة الأول بعدم
 التزويج له^(١)، كما هو عادة المترفعين المتكبرين.

فإن كان يظن أن المصلحة في عدم تزويجه، فإله ﴿يَعْلَمُ
 وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فامتثلوا أمر من هو عالم بمصالحكم، مرید
 لها، قادر عليها، ميسر لها من الوجه الذي تعرفون وغيره.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا بد من الولي في النكاح،
 لأنه نهى الأولياء عن العضل، ولا ينهاهم إلا عن أمر هو
 تحت تدبيرهم، ولهم فيه حق.

﴿٢٣٣﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ
 كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ
 لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّرُ وَوَلَدَةٌ يَوْلَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يَوْلَدُهُ
 وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ
 عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا
 آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا خبر
 بمعنى الأمر، تنزيلاً له منزلة المتقرر الذي لا يحتاج إلى أمر
 بأن ﴿يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ﴾.

ولما كان الحول يطلق على الكامل، وعلى معظم الحول،
 قال: ﴿كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ﴾ فإذا تم للرضيع حوران
 فقد تم رضاعه، وصار اللبن بعد ذلك بمنزلة سائر الأغذية،
 فلماذا كان الرضاع بعد الحولين غير معتبر لا يحرم.

ويؤخذ من هذا النص، ومن قوله تعالى: ﴿وَحَلَلَهُ وَفَصَّلَهُ﴾

ودل قوله: ﴿مَوْلُودٌ لَكُمْ﴾ أن الولد لأبيه، لأنه موهوب له، ولأنه من كسبه، فلذلك جاز له الأخذ من ماله، رضي أو لم يرض، بخلاف الأم.

وقوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ أي: على وارث الطفل إذا عدم الأب، وكان الطفل ليس له مال، مثل ما على الأب من النفقة للمرضع والكسوة، فدل على وجوب نفقة الأقارب المعسرين، على القريب الوارث الموسر.

﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أي: الأبوان ﴿فَصَلَا﴾ أي: فطام الصبي قبل الحولين ﴿عَنْ رَأْسِ مَهْمَا﴾ بأن يكونا راضيين ﴿وَشَاوِرًا﴾ فيما بينهما، هل هو مصلحة للصبي أم لا؟ فإن كان مصلحة ورضيًا ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ في فطامه قبل الحولين.

فدلت الآية بمفهومها على أنه إن رضي أحدهما دون الآخر، أو لم يكن مصلحة للطفل، أنه لا يجوز فطامه.

وقوله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ سَتَرْتُمْ عَنْ وُلْدِكُمْ﴾ أي: تطلبوا لهم المراضع غير أمهاتهم على غير وجه المضارة ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَ يَدَيْكُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: للمرضعات ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فمجازيكم على ذلك بالخير والشر.

(٢٣٤) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: إذا توفي الزوج مكثت زوجته متربضة أربعة أشهر وعشرة أيام وجوبًا، والحكمة في ذلك، ليتبين الحمل في مدة الأربعة، ويتحرك في ابتدائه في الشهر الخامس، وهذا العام مخصوص بالحوامل، فإن عدتهن بوضع الحمل، وكذلك الأمة عدتها على النصف من عدة الحرة، شهران وخمسة أيام.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ أي: انقضت عدتهن ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ أي: من مراجعتها للزينة والطيب ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: على وجه غير محرم ولا مكروه.

وفي هذا وجوب الإحداد مدة العدة على المتوفى عنها زوجها، دون غيرها من المطلقات والمفارقات، وهو مجمع عليه بين العلماء.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: عالم بأعمالكم، ظاهرها وباطنها، جليها وخفيها، فمجازيكم عليها.

وفي خطابه للأولياء بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ دليل على أن الولي ينظر على المرأة، ويمنها مما لا يجوز فعله، ويجبرها على ما يجب، وأنه مخاطب بذلك، واجب عليه.

(٢٣٥) ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ

سُورَةُ النِّسَاءِ

٣٨

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَّ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٥﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خُطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَدْرُكُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٦﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى التَّوَسُّعِ قَدْرَهُ، وَعَلَى الْمُقْتَرِفِ قَدْرَهُ، مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٧﴾ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنَصَفْ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٨﴾

أَكْتَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَدْرُكُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِضُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ هَذَا حُكْمُ الْمُعْتَدَةِ مِنْ وَفَاةٍ، أَوْ الْعِبَانَةِ فِي الْحَيَاةِ، فَيُحْرَمُ عَلَى غَيْرِ مَبِينَةٍ أَنْ يَصْرَحَ لَهَا فِي الْخُطْبَةِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ وَأَمَّا التَّعْرِيفُ فَقَدْ أَسْقَطَ تَعَالَى فِيهِ الْجُنَاحَ.

والفرق بينهما أن التصريح لا يحتمل غير النكاح، فلها حرم خوفًا من استعجالها، وكذبها في انقضاء عدتها رغبة في النكاح، ففيه دلالة على منع وسائل المحرم، وقضاء لحق زوجها الأول بعدم مواعدها لغيره مدة عدتها.

وأما التعريض، وهو الذي يحتمل النكاح وغيره، فهو جائز للبائن، كأن يقول لها: إني أريد التزوج، وإني أحب أن تشاوريني عند انقضاء عدتك، ونحو ذلك، فهذا جائز، لأنه ليس بمنزلة التصريح، وفي النفوس داع قوي إليه.

وكذا إضمار الإنسان في نفسه أن يتزوج من هي في عدتها إذا انقضت، ولهذا قال: ﴿أَوْ أَكْتَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ

أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ الواجب، وإعطاء الواجب، وإما فضل وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب، والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة، ولو في بعض الأوقات، وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة، أو مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل والكرم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

(٢٣٦، ٢٣٩) ثم قال تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۚ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَآءًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾.

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات عموماً، وعلى الصلوات الوسطى وهي العصر خصوصاً، والمحافظة عليها أداؤها بوقتها، وشروطها، وأركانها، وخشوعها، وجميع ما لها من واجب ومستحب وبالمحافظة على الصلوات تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتقيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ أي: ذليلين^(٢) خاشعين، فيه الأمر بالقيام والقنوت والنهي عن الكلام، والأمر بالخشوع، هذا مع الأمن والطمأنينة.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ لم يذكر ما يخاف منه ليشمل الخوف من كافر وظالم وسبع، وغير ذلك من أنواع المخاوف، أي: إن خفتم بصلواتكم على تلك الصفة فصلوها ﴿فِرَآءًا﴾ أي: على أقدامكم ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على الخيل والإبل وغيرها.

ويلزم على ذلك أن يكونوا مستقبلي القبلة وغير مستقبلها، وفي هذا زيادة التأكيد على المحافظة على وقتها، حيث أمر بذلك ولو مع الإخلال بكثير من الأركان والشروط، وأنه لا يجوز تأخيرها عن وقتها ولو في هذه الحالة الشديدة، فصلاتها على تلك الصورة أحسن وأفضل، بل أوجب من صلاحها مطمئناً خارج الوقت ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي: زال الخوف عنكم ﴿فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر، ومنه الصلاة على كمالها وتمامها ﴿كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

(١) جاء في هامش أ ما نصه: (هذا بحسب ما ظهر لي وقت كتابتي لهذا الموضوع، ثم بعد ذلك تبين لي أن القول بأن الذي بيده عقدة النكاح هو الولي الأقرب، وهو الأب، هو الأصح لمساعدة اللفظ له، والمعنى كما هو ظاهر للتبدير. وفي هامش ب زيادة بخط المؤلف هي: (وقيل: إنه الأب، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة). (٢) من هنا بدأ الاختلاف بين النسختين، وقد أشرت إليه في المقدمة بشيء من التفصيل، وقد أثبت التفسير المأخوذ من النسخة ب في ملحق في آخر التفسير.

أَنْتُمْ سَتَذْكُرُونَهُ﴾ هذا التفصيل كله في مقدمات العقد. وأما عقد النكاح فلا يحل ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ﴾ أي: تنقضي العدة.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: فانووا الخير، ولا تنووا الشر، خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن صدرت منه الذنوب فتاب منها، ورجع إلى ربه ﴿حَلِيمٌ﴾ حيث لم يعاجل العاصين على معاصيهم، مع قدرته عليهم.

(٢٣٦) ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمِمَّوهُنَّ عَلَى التُّوْبِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدْرُهُ مَتَعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ليس عليكم - يا معشر الأزواج - جناح وإثم، بتطليق النساء قبل المسيس وفرض المهر، وإن كان في ذلك كسر لها، فإنه ينجر بالمتعة، فعليك أن تمتعهن بأن تعطوهن شيئاً من المال، جبراً لخواطرهن ﴿عَلَى التُّوْبِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ﴾ أي: المعسر ﴿قَدْرُهُ﴾ هذا يرجع إلى العرف، وأنه يختلف باختلاف الأحوال، ولهذا قال: ﴿مَتَعًا بِالْمَعْرُوفِ﴾ فهذا حق واجب ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ ليس لهم أن يبخسوهن فكما تسبوا لتشوفهن واشتياقهن، وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبن فيه، فعليهم - في مقابلة ذلك - المتعة.

فله ما أحسن هذا الحكم الإلهي، وأدله على حكمة شارع ورحمته!! ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون!!، فهذا حكم المطلقات قبل المسيس، وقبل فرض المهر.

ثم ذكر حكم المفروض لهن، فقال: (٢٣٧) ﴿وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضَعْتُمْ عَلَيْهِنَّ أَوْ يَفْعُوْنَ أَوْ يَفْعُوْنَ الَّذِي يَكِدُّهُ عَقْدَةُ النِّكَاحِ وَإِنْ تَمَّوْا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: إذا طلقتم النساء قبل المسيس، وبعد فرض المهر، فللمطلقات من المهر المفروض نصفه، ولكم نصفه.

هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو ومسامحة، بأن تعفو عن نصفها لزوجها، إذا كان يصح عفوها ﴿أَوْ يَفْعُوْنَ الَّذِي يَكِدُّهُ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ وهو الزوج على الصحيح^(١)، لأنه الذي بيده حل عقده؛ ولأن الولي لا يصح أن يعفو عن ما وجب للمرأة، لكونه غير مالك ولا وكيل.

ثم رغب في العفو، وأن من عفا كان أقرب لتقواه، لكونه إحساناً موجباً لشرح الصدر، ولكون الإنسان لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان والمعروف، وينسى الفضل الذي هو

فإنها نعمة عظيمة ومنة جسيمة، تقتضي مقابلتها بالذكر والشكر ليقبلي نعمته عليكم ويزيدكم عليها، ثم قال تعالى:

(٢٤٠) ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَّأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: الأزواج الذين يموتون ويتركون خلفهم أزواجاً فعليهم أن يوصوا ﴿وصيةً لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج﴾ أي: يوصون أن يلزم من بيوتهم مدة سنة لا يخرج منها ﴿فإن خرجن﴾ من أنفسهن ﴿فلا جناح عليكم﴾ أيها الأولياء ﴿في ما فعلن في أنفسهن﴾ من معروفٍ والله عزيرٌ حكيمٌ. أي: من مراجعة الزينة والطيب ونحو ذلك، وأكثر المفسرين أن هذه الآية منسوخة بما قبلها، وهي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ وقيل: لم تنسخها، بل الآية الأولى دلت على أن أربعة أشهر وعشراً واجبة، وما زاد على ذلك فهي مستحبة ينبغي فعلها تكميلاً لحق الزوج، ومراعاة للزوجة، والدليل على أن ذلك مستحب أنه هنا نفى الجناح عن الأولياء إن خرجن قبل تكميل الحول، فلو كان لزوم المسكن واجباً لم ينف الحرج عنهم.

(٢٤١، ٢٤٢) ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ ○ كذلك بين الله لكم آيته لعلكم تعقلون. أي: لكل مطلقة متاع بالمعروف حقاً على كل متق، جبراً للخاطرها وأداء لبعض حقوقها، وهذه المتعة واجبة على من طلقت قبل المسيس، والفرص سنة في حق غيرها كما تقدم، هذا أحسن ما قيل فيها، وقيل: إن المتعة واجبة على كل مطلقة احتجاجاً بعموم هذه الآية، ولكن القاعدة أن المطلق محمول على المقيد، وتقدم أن الله فرض المتعة للمطلقة قبل الفرض والمسيس خاصة، ولما بين تعالى هذه الأحكام العظيمة المشتملة على الحكمة والرحمة امتن بها على عباده فقال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي حدوده، وحلاله وحرامه والأحكام النافعة لكم، لعلكم تعقلونها فتعرفونها وتعرفون المقصود منها، فإن من عرف ذلك أوجب له العمل بها، ثم قال تعالى:

(٢٤٣-٢٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُرُّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ○ وقيل: في سبيل الله وأعلموا أن الله سميعٌ عليمٌ ○ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضعبه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ يقص تعالى علينا قصة الذين خرجوا من ديارهم

حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٣٧٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٣٧٩﴾ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لَّأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨٠﴾ وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٣٨١﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُرُّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٨٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافاً كثيرةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٨٥﴾

على كثرتهم واتفاق مقاصدهم، بأن الذي أخرجهم منها حذر الموت من وباء أو غيره، يقصدون بهذا الخروج السلامة من الموت، ولكن لا ينبغي حذر عن قدر، ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ فماتوا ﴿ثم﴾ إن الله تعالى ﴿أحياهم﴾ إما بدعوة نبي أو بغير ذلك، رحمة بهم ولطفاً وحلماً، وبيانا لآياته لخلقه بإحياء الموتى، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُرُّ فَضْلٍ﴾ أي: عظيم ﴿على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ فلا تزيدهم النعمة شكراً، بل ربما استعانوا بنعم الله على معاصيه، وقليل منهم الشكور الذي يعرف النعمة ويقربها ويصرفها في طاعة المنعم، ثم أمر تعالى بالقتال في سبيله، وهو قتال الأعداء الكفار لإعلاء كلمة الله ونصر دينه فقال: ﴿وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: فأحسنوا نياتكم واقصدوا بذلك وجه الله، واعلموا أنه لا يفيدكم القعود عن القتال شيئاً، ولو ظنتم أن في القعود حياتكم وبقاؤكم، فليس الأمر كذلك، ولهذا ذكر القصة السابقة توطئة لهذا الأمر، فكما لم ينفع الذين خرجوا من ديارهم حذر الموت خروجهم، بل آتاهم ما حذروا من غير أن يحتسبوا، فاعلموا أنكم كذلك، ولما كان القتال في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٠

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أبعثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمَلَكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلَكِ مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَعَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من بينهم تعيين ملك يرضي الطرفين ويكون تعيينه خاصًا لعوائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة ﴿قَالَ﴾ لهم نبيهم: ﴿هَذَا عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ أي: لعلمكم تطلبون شيئًا وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ أي: أي شيء يمنعنا من القتال وقد أُلجئنا إليه، بأن أُخرجنا من أوطاننا وسييت ذرارينا، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة ولم يقو تولكلهم على ربهم ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا﴾ فجنبوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولى على أكثرهم الخور والجبن ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ فعصمهم الله وثبتهم، وقوى قلوبهم، فالتزموا

سبيل الله لا يتم إلا بالنفقة وبذل الأموال في ذلك، أمر تعالى بالإنفاق في سبيله ورغب فيه، وسماه قرصًا فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقرضُ اللَّهُ قَرصًا حَسَنًا﴾. فينفق ما تسر من أمواله في طرق الخيرات، خصوصًا في الجهاد، والحسن هو الحلال المقصود به وجه الله تعالى ﴿فِيضِعْفَهُ لَهُ أضعافًا كَثِيرَةً﴾ الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، بحسب حالة المنفق ونيته ونفع نفقته والحاجة إليها، ولما كان الإنسان ربما توهم أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالى هذا الوهم بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَقِضُ وَيَضَعُظُّ﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه عمن يشاء، فالتصرف كله بيديه، ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع على أهله، بل لهم يوم يجدون ما قدموه كاملاً موفرًا مضاعفًا، فهذا قال: ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ففي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تتفع مع القضاء والقدر، وخصوصًا الأسباب التي ترك بها أوامر الله، وفيها: الآية العظيمة بإحياء الموتى عيانًا في هذه الدار، وفيها: الأمر بالقتال والنفقة في سبيل الله، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحادثة عليه، من تسميته قرصًا، ومضاعفته، وأن الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون.

(٢٤٦-٢٤٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أبعثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾
 ○ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمَلَكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلَكِ مِنْهُ وَلَمْ يَأْتِ سَعَةَ مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ○ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَعَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾
 يقص تعالى على نبيه قصة الملأ من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخص الملأ بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فيتبعهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام فقالوا له: ﴿أبعثْ لَنَا مَلِكًا﴾ أي: عين لنا ملكًا ﴿نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ليجتمع متفرقنا ويقاوم بنا عدونا، ولعلمهم في

أَفَدَامَا وَأَضْرَبْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ○ فَهَكَزْتُمْ يَادْنَ اللَّهِ
 وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَتْهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مَا
 يَشَاءُ ○ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ
 وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ○ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
 تَنْزِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَالنَّكَاحِ لِمَنْ يُرِيدُ ○ أَي: لما تملك
 طالوت بني إسرائيل، واستقر له الملك تجهزوا لقتال
 عدوهم، فلما فصل طالوت بجنود بني إسرائيل، وكانوا عددًا
 كثيرًا وجمًّا غفيرًا، امتحنهم بأمر الله ليتين الثابت المطمئن
 ممن ليس كذلك فقال: **إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ
 مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي** ○ فهو عاص ولا يتبعنا لعدم صبره وثباته
 ولمعصيته **وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ** ○ أَي: لم يشرب منه فإنه مني **إِلَّا
 مَنْ أَغْرَقَ غُرْفَةً يَدِيهِ** ○ فلا جناح عليه في ذلك، ولعل الله أن
 يجعل فيها بركة فتكفيه، وفي هذا الابتلاء ما يدل على أن الماء
 قد قل عليهم ليتحقق الامتحان، فعصى أكثرهم وشربوا من
 النهر الشرب المنهي عنه، ورجعوا على أعقابهم ونكصوا عن
 قتال عدوهم، وكان في عدم صبرهم عن الماء ساعة واحدة
 أكبر دليل على عدم صبرهم على القتال الذي سيتناول
 وتحصل فيه المشقة الكبيرة، وكان في رجوعهم عن باقي
 العسكر ما يزداد به الثابتون توكلاً على الله، وتضرعًا واستكانة
 وتبرؤًا من حولهم وقوتهم، وزيادة صبر لقتلهم وكثرة عدوهم،
 فلماذا قال تعالى: **فَلَمَّا جَاوَزَهُ** ○ أَي: النهر **هُوَ** ○ أَي:
 طالوت **وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ** ○ وهم الذين أطاعوا أمر الله
 ولم يشربوا من النهر الشرب المنهي عنه فأروا... قلنهم
 وكثرة أعدائهم، قالوا أي: قال كثير منهم: **لَا طَاقَةَ لَنَا
 بِالْيَوْمِ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ** ○ لكثرتهم وعددهم وعُددهم **قَالَ
 الَّذِينَ يظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا اللَّهِ** ○ أَي: يستيقنون ذلك، وهم
 أهل الإيمان الثابت واليقين الراسخ، مثبتين لباقيهم ومطمئنين
 لخواطريهم، وأمري لهم بالصبر: **كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
 غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يِاذَنُ اللَّهِ** ○ أَي: بإرادته ومشيئته فالأمر لله
 تعالى، والعزيز من أعزه الله، والدليل من أذله الله، فلا تغني
 الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره **وَاللَّهُ مَعَ
 الصَّابِرِينَ** ○ بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة
 الله صبر العبد لله، فوعدت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم،
 ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده **قَالُوا** ○ جميعهم: **رَبَّنَا
 أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا** ○ أَي: قو قلوبنا، وأوزعنا الصبر، وثبت
 أقدامنا عن التزلزل والفرار، وانصرتنا على القوم الكافرين،
 من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفارًا، فاستجاب الله
 لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم

أمر الله، ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فجازوا شرف
 الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله،
 فلماذا قال: **وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ○ وقال لهم نبيهم **مُجِيبًا
 لطلبتهم** ○ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ○ فكان هذا
 تعيينًا من الله الواجب عليهم فيه القبول والالتقاد وترك
 الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فقالوا: **أَنَّى يَكُونُ
 لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةَ مِنَ
 الْمَالِ** ○ أَي: كيف يكون ملكًا وهو دوننا في الشرف والنسب
 ونحن أحق بالملك منه، ومع هذا فهو فقير ليس عنده ما يقوم
 به الملك من الأموال، وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو
 أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة
 المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم
 مقدمة عليها، فلماذا قال لهم نبيهم: **إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ
 عَلَيْكُمْ** ○ فلزمكم الانقياد لذلك **وَرَادَهُ** ○ الله **بَسْطَةً فِي
 الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ** ○ أَي: فضله عليكم بالعلم والجسم، أي:
 بقوة الرأي والجسم اللذين بهما تتم أمور الملك، لأنه إذا تم
 رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي المصيب، حصل بذلك
 الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرين اختل عليه الأمر، فلو
 كان قوي البدن مع ضعف الرأي، حصل في الملك خرق وقهر
 مخالفة للمشروع، قوة على غير حكمة، ولو كان عالمًا
 بالأمر وليس له قوة على تنفيذها لم يفده الرأي الذي لا يفذه
 شيئًا **وَاللَّهُ وَسِيعٌ الْفَضْلُ كَثِيرُ الْكَرَمِ**، لا يخص برحمته وبره
 العام أحدًا عن أحد، ولا شريفًا عن وضيع، ولكنه مع ذلك
عَلِيمٌ ○ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، فأزال بهذا الكلام ما
 في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبينه أن أسباب الملك
 متوفرة فيه، وأن فضل الله يؤتیه من يشاء من عباده، ليس له
 راد، ولا لإحسانه صاد، ثم ذكر لهم نبيهم أيضًا آية حسية
 يشاهدونها، وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زمانًا طويلًا،
 وفي ذلك التابوت سكينه تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها
 خواطريهم، وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فأنت به
 الملائكة حاملة له وهم يرونه عيانًا.

(٢٤٩-٢٥٢) **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ
 مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
 مِنِّي إِلَّا مَنْ أَغْرَقَ غُرْفَةً يَدِيهِ فَفَرَّقْنَا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا
 جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا بِالْيَوْمِ بِجَالُوتَ
 وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوُا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ
 غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً يِاذَنُ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ○ وَلَمَّا
 بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبَّتْ**

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

٤١

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ
 بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ
 مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا
 مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا
 لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ
 يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْكُوا اللَّهَ كَمَا مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ
 غَلَبَتْ فِتْنَةَ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٦﴾
 وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ
 عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ
 الْكَافِرِينَ ﴿٢٤٧﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ
 دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ
 وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ
 بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو
 فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٤٨﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ
 تَنْوَاهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٤٩﴾

نقصانها وضررها، ومنها أن الاتكال على النفس سبب الفشل
 والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب
 النصر، فالأول كما في قولهم لبيهم: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَقْتَاتِلَ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءَنَا﴾ فكانه نتيجة ذلك
 أنه لما كتب عليهم القتال تولوا، والثاني في قوله: ﴿وَلَمَّا
 بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ
 أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فهزموهم بإذن
 الله ﴿ومنها: أن حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب،
 والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليذر
 العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز ومنها: أن
 من رحمته وسننه الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين
 بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء
 الكفر وشعائره عليها، ثم قال تعالى:

(٢٥٣) ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ
 وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتِينَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ
 الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا
 جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فِيهِمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ

عليهم ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ﴾ عليه السلام، وكان
 مع جنود طالوت ﴿جَالُوتَ﴾ أي: باشر قتل ملك الكفار بيده
 لشجاعته وقوته وصبره ﴿وَأَاتَاهُ اللَّهُ﴾ أي: أتى الله داود
 ﴿الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: من عليه بتملكه على بني إسرائيل
 مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم
 والصراف المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَعَلَّمَهُ مَا يَشَاءُ﴾ من
 العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك
 والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك لغيرهم،
 فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين
 مطمئنين؛ لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله
 من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك، فلماذا
 قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
 الْأَرْضُ﴾ أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار
 وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها،
 وإقامتهم شعائر الكفر، ومنعهم من عبادة الله تعالى، وإظهار
 دينه ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حيث شرع لهم
 الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم، ومكنهم من
 الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها، ثم قال
 تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْوَاهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي:
 بالصدق الذي لا ريب فيها، المتضمن للاعتبار والاستبصار
 وبيان حقائق الأمور ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فهذه شهادة من
 الله لرسوله برسالته التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من
 أخبار الأمم السالفة، والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم، التي
 لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم، بل لم يكن في قومه
 من عنده شيء من هذه الأمور، فدل أنه رسول الله حقًا ونبيه
 صادقًا، الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله
 ولو كره المشركون.

وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو
 الألباب، فمنها: أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد،
 وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل
 به، أكبر سبب لارتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع
 لهؤلاء الملأ، حين راجعوا نبيهم في تعيين ملك تجتمع به
 كلمتهم ويلم متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم، ومنها: أن
 الحق كلما عورض وأوردت عليه الشبه ازداد وضوحًا وتميز
 وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء، لما اعترضوا على
 استحقاق طالوت للملك أجيوا بأجوبة حصل بها الإقناع
 وزوال الشبه والريب، ومنها: أن العلم والرأي مع القوة
 المنفذة بهما كمال الولايات، ويفقدهما أو فقد أحدهما

سورة البقرة

٤٢

سورة البقرة

﴿ تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفِيعَةً ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٨﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٩﴾ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمَرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخراً وأجرًا موفراً في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير، فلا بيع فيه ولو افتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولم ينفعه خليل ولا صديق، لا بوجاهة ولا بشفاعة، وهو اليوم الذي فيه يخسر المبطلون، ويحصل الخزي على الظالمين، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله، فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، فهذا قال تعالى: ﴿ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهذا من باب الحصر، أي الذين ثبت لهم الظلم التام، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَشَرِّكٌ لَظَلُمٌ عَظِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى:

(٢٥٥) ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۗ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۗ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ

شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض، بما خصهم من بين سائر الناس بإيحاته وإرسالهم إلى الناس، ودعائهم الخلق إلى الله، ثم فضل بعضهم على بعض، بما أودع فيهم من الأوصاف الحميدة والأفعال السديدة والنفع العام، فمنهم من كلمه الله كموسى بن عمران خصه بالكلام، ومنهم من رفعه على سائرهم درجات كنبينا ﷺ الذي اجتمع فيه من الفضائل ما تفرق في غيره، وجمع الله له من المناقب ما فاق به الأولين والآخرين ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ عَلَىٰ نُبُوته، وأنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ﴾ ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ أي: بالإيمان واليقين الذي أيده به الله وقواه على ما أمر به، وقيل: أيده بجبريل عليه السلام يلازمه في أحواله ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلْنَا الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ الموجبة للاجتماع على الإيمان ﴿ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ فكان موجب هذا الاختلاف التفرق والمعادة والمقاتلة، ومع هذا فلو شاء الله بعد هذا الاختلاف ما اقتتلوا، فدل ذلك على أن مشيئة الله نافذة غالبية للأسباب، وإنما تنفع الأسباب مع عدم معارضة المشيئة، فإذا وجدت اضمحل كل سبب، وزال كل موجب، فلهذا قال: ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ إفرادته غالبية ومشيئته نافذة، وفي هذا ونحوه دلالة على أن الله تعالى لم يزل يفعل ما اقتضته مشيئته وحكمته، ومن جملة ما يفعله ما أخبر به عن نفسه، وأخبر به عنه رسوله ﷺ من الاستواء والنزول والأقوال، والأفعال التي يعبرون عنها بالأفعال الاختيارية، فائدة: كما يجب على المكلف معرفته بربه، فيجب عليه معرفته برسله، ما يجب لهم ويمتنع عليهم ويجوز في حقهم، ويؤخذ جميع ذلك مما وصفهم الله به في آيات متعددة، منها: أنهم رجال لا نساء، من أهل القرى لا من أهل البوادي، وأنهم مصطفون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار، وأنهم سالمون من كل ما يقدح في رسالتهم من كذب وخيانة وكتمان وعيوب مزرية، وأنهم لا يقرون على خطأ فيما يتعلق بالرسالة والتكليف، وأن الله تعالى خصهم بوحيه، فلهذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم، ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله، ودلائل هذه الجمل كثيرة، من تدبر القرآن تبين له الحق، ثم قال تعالى:

(٢٥٤) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفِيعَةً ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وهذا

والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فهذا قال: ﴿وَلَا يُؤَدُّهُ﴾ أي: يتقله ﴿حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقره لجميع المخلوقات العلي بقره لكمال صفاته ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي تتضاءل عند عظمته جيروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة، والكبرياء الجسيمة، والقهر والغلبة لكل شيء، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمته وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العُلا، ثم قال تعالى:

(٢٥٧، ٢٥٦) ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ هُم مَأْلُومُونَ يُخْرِجُوهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفوس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبينت أعلامه للعقول، وظهرت طرقة، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فلموقف إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سيء القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس لله حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكره ليس إيمانه صحيحاً، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم تتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص آخر، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء، فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيماناً

الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلماذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها، وجعلها ورداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقاً أن يكون عبداً لربه، ممثلاً لأوامره محتجباً نواهيها، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة، وقوله: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمناً ولزوماً، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي تصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء، من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإمامة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ومن تمام حياته وقيوميته أنه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ والسنة: النعاس ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هو المالك وما سواه مملوك، وهو الخالق الرازق المدبر وغيره مخلوق مرزوق مدبر، لا يملك لنفسه ولا لغيره مقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، فهذا قال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه، فالشفاعة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده أذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يبتدىء الشافع قبل الإذن، ثم قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: ما مضى من جميع الأمور ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما يستقبل منها فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء، ولا من العلم مقال ذرة إلا ما علمهم تعالى، ولهذا قال: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهذا يدل على كمال عظمته وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسع السماوات والأرض على عظمتها وعظمة من فيهما،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

تَامًا أَوْجِبَ لَهُ عِبَادَةَ رَبِّهِ وَطَاعَتَهُ ﴿فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ
الْوُثْقَى﴾ أَي: بِالدِّينِ الْقَوِيمِ الَّذِي ثُبَّتْ قَوَاعِدُهُ وَرَسَخَتْ
أَرْكَانُهُ، وَكَانَ التَّمَسُّكُ بِهِ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَمْرِهِ، لِكَوْنِهِ اسْتِمْسَكَ
بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى الَّتِي ﴿لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ وَأَمَّا مِنْ عَكْسِ الْقَضِيَّةِ
فَكَفَرَ بِاللَّهِ وَأَمِنَ بِالطَّاغُوتِ، فَقَدْ أَطْلَقَ هَذِهِ الْعُرْوَةَ الْوُثْقَى الَّتِي
بِهَا الْعَصْمَةُ وَالنَّجَاةُ، وَاسْتِمْسَكَ بِكُلِّ بَاطِلٍ مَالَهُ إِلَى الْجَحِيمِ
﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فَيَجَازِي كُلًّا مِنْهُمَا بِحَسَبِ مَا عَلَّمَهُ مِنْهُمْ
مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَهَذَا هُوَ الْغَايَةُ لِمَنْ اسْتِمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ
الْوُثْقَى وَلِمَنْ لَمْ يَسْتِمْسَكَ بِهَا، ثُمَّ ذَكَرَ السَّبَبَ الَّذِي أَوْصَلَهُمْ
إِلَى ذَلِكَ فَقَالَ: ﴿اللَّهُ وَلى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وَهَذَا يَشْمَلُ وَلايَتَهُمْ
لِرَبِّهِمْ، بِأَنْ تَوَلَّوهُ فَلَا يَبْغُونَ عَنْهُ بَدَلًا وَلا يَشْرِكُونَ بِهِ أَحَدًا، قَدْ
اتَّخَذُوهُ حَيِّبًا وَوَلِيًّا، وَوَلَّوْا أَوْلِيَاءَهُ وَعَادَوْا أَعْدَاءَهُ، فَتَوَلَّاهُمْ
بِلُطْفِهِ وَمَنْ عَلَيْهِمْ بِإِحْسَانِهِ، فَأَخْرَجَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْكُفْرِ
وَالْمَعَاصِي وَالْجَهْلِ إِلَى نُورِ الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ وَالْعِلْمِ، وَكَانَ
جَزَاؤُهُمْ عَلَى هَذَا أَنْ سَلَّمَهُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْقَبْرِ وَالْحَشْرِ
وَالْقِيَامَةِ إِلَى النِّعَمِ الْمَقِيمِ وَالرَّاحَةِ وَالْفَسْحَةِ وَالسَّرُورِ
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَائُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ فَتَوَلَّوْا الشَّيْطَانَ وَحَزَبَهُ،
وَاتَّخَذُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَوَلِيًّا وَوَلَّوْهُ وَتَرَكَوْا وَلايَةَ رَبِّهِمْ وَسَيِّدِهِمْ،
فَسَلَطَهُمْ عَلَيْهِمْ عَقُوبَةً لَهُمْ فَكَانُوا يُؤْزَنُونَ إِلَى الْمَعَاصِي أَرْأَى،
وَيَزْجَعُونَهُمْ إِلَى الشَّرِّ إِزْجَاعًا، فَيَخْرُجُونَهُمْ مِنْ نُورِ الْإِيمَانِ
وَالْعِلْمِ وَالطَّاعَةِ إِلَى ظُلْمَةِ الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ وَالْمَعَاصِي، فَكَانَ
جَزَاؤُهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَنْ حَرَمُوا الْخَيْرَاتِ، وَفَاتَهُمُ النِّعَمِ
وَالْبَهْجَةُ وَالْمَسْرَاتِ، وَكَانُوا مِنْ حِزْبِ الشَّيْطَانَ وَأَوْلِيَائِهِ فِي
دَارِ الْحَسْرَةِ، فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ أَحْصَبُ النَّارَ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾.

(٢٥٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ
الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي
وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ
الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يَقُولُ
تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ﴾ أَي: إِلَى
جِرَائِهِ وَتَجَاهُلِهِ وَعِنَادِهِ وَمِحَاجَّتِهِ فِيمَا لَا يَقْبَلُ التَّشْكِيكَ، وَمَا
حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا ﴿أَنَّ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ فَطَغَى وَبَغَى وَرَأَى
نَفْسَهُ مَتْرُسًا عَلَى رِعِيَّتِهِ، فَحَمَلَهُ ذَلِكَ أَنْ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي
رَبِّيَّةِ اللَّهِ، فَزَعَمَ أَنَّهُ يَفْعَلُ كَمَا يَفْعَلُ اللَّهُ، فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴿رَبِّيَ
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَي: هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِأَنْوَاعِ التَّنَصُّفِ،
وَخَصَّ مِنْهُ الْإِحْيَاءَ وَالْإِمَاتَةَ لِكُونِهِمَا أَعْظَمَ أَنْوَاعِ التَّنَادِيرِ،
وَلِأَنَّ الْإِحْيَاءَ مَبْدَأَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَالْإِمَاتَةَ مَبْدَأَ مَا يَكُونُ فِي
الْآخِرَةِ، فَقَالَ ذَلِكَ الْمِحَاجَّ: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ أَنَا

الَّذِي أَحْيَى وَأُمِيتَ، لِأَنَّهُ لَمْ يَدْعِ الْإِسْتِقْلَالَ بِالتَّنَصُّفِ، وَإِنَّمَا
زَعَمَ أَنَّهُ يَفْعَلُ كَفَعَلِ اللَّهِ وَيَصْنَعُ صِنْعَهُ، فَزَعَمَ أَنَّهُ يَقْتُلُ شَخْصًا
فَيَكُونُ قَدْ أَمَاتَهُ، وَيَسْتَقِي شَخْصًا فَيَكُونُ قَدْ أَحْيَاهُ، فَلَمَّا رَأَى
إِبْرَاهِيمَ يَغَالِطُ فِي مَجَادَلَتِهِ وَيَتَكَلَّمُ بِشَيْءٍ لَا يَصِلِحُ أَنْ يَكُونَ
شَبَهَةً فَضْلًا عَنْ كَوْنِهِ حُجَّةً، اطْرَدَ مَعَهُ فِي الدَّلِيلِ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ
﴿فَأِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ أَي: عَيَانًا يَقْرَبُهُ كُلُّ أَحَدٍ
حَتَّى ذَلِكَ الْكَافِرُ ﴿فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ﴾ وَهَذَا الْإِزْمَامُ لَهُ بِطَرْدِ
دَلِيلِهِ إِنْ كَانَ صَادِقًا فِي دَعْوَاهُ، فَلَمَّا قَالَ لَهُ أَمْرًا لَا قُوَّةَ لَهُ فِي
شَبَهَةِ تَشْوِشِ دَلِيلِهِ، وَلا قَادِحًا يَقْدَحُ فِي سَبِيلِهِ ﴿فَبُهِتَ الَّذِي
كَفَرَ﴾ أَي: تَحْيِيرَ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيْهِ جَوَابًا وَانْقَطَعَتْ حُجَّتُهُ
وَسَقَطَتْ شَبَهَتُهُ، وَهَذِهِ حَالَةُ الْمَبْطَلِ الْمَعَانِدِ الَّذِي يَرِيدُ أَنْ
يَقَاوِمَ الْحَقَّ وَيَغَالِبَهُ، فَإِنَّهُ مَغْلُوبٌ مَقْهُورٌ، فَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى:
﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ بَلْ يَبْقِيهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ
وَضَلَالَتِهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ اخْتَارُوا لِأَنْفُسِهِمْ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَلَوْ كَانَ
قَصْدُهُمُ الْحَقَّ وَالْهُدَايَةَ لَهَدَاهُمْ إِلَيْهِ، وَيَسَّرَ لَهُمْ أَسْبَابَ
الْوَصُولِ إِلَيْهِ، فَفِي هَذِهِ الْآيَةِ بَرَهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى تَفَرُّدِ الرَّبِّ
بِالْخَلْقِ وَالتَّنْدِيرِ، وَيَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَفْرَدَ بِالْعِبَادَةِ وَالْإِنَابَةِ

والتوكل عليه في جميع الأحوال، قال ابن القيم رحمه الله: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جداً، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورها، فتضمن الدليلان اللذان استدلت بهما إبراهيم بإبطال إلهية تلك جُملةً بأن الله وحده هو الذي يحيى ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له رباً قادراً قاهرًا متصرفًا فيه إحياءً وإماتةً، ومن كان كذلك فكيف يكون إلهًا حتى يتخذ الصنم على صورته، ويبعد من دونه، وكذلك الكواكب أظهرها وأكبرها للحسن هذه الشمس، وهي مربوبة مدبرة مسخرة، لا تصرف لها بنفسها بوجه ما، بل ربها وخلقتها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتتقاد لأمره ومشيئته، فهي مربوبة مسخرة مدبرة، لا إله يعبد من دون الله. «من مفتاح دار السعادة»، ثم قال تعالى:

(٢٥٩) ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُعْجِبُ هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى جِوَارِكَ لِيُجِئَكَ وَإِنَّكَ إِلَىٰ آيَةِ النَّاسِ وَانظُرْ إِلَىٰ الْعُظَامِ كَيْفَ نُنشِئُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا أيضًا دليل آخر على توحيد الله بالخلق والتدبير والإماتة والإحياء، فقال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْبَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: قد باد أهلها وفني سكانها وسقطت حيطانها على عروشها، فلم يبق بها أنيس، بل بقيت موحشة من أهلها مفقرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجبًا و﴿قَالَ أَنَّى يُعْجِبُ هَٰذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ استبعادًا لذلك وجهلاً بقدرة الله تعالى، فلما أراد الله به خيرًا أراه آية في نفسه وفي حماره، وكان معه طعام وشراب، ﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ استقصارًا لتلك المدة التي مات فيها لكونه قد زالت معرفته وحواسه، وكان عهد حاله قبل موته، فقيل له: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغير بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه، فيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فسادًا و﴿انظُرْ إِلَى جِوَارِكَ﴾ وكان قد مات وتمزق لحمه وجلده وانتثر عظامه، وتفرقت أوصاله ﴿وَلِيُجِئَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ على قدرة الله وبعثه الأموات من قبورهم، لتكون أنموذجًا محسوسًا مشاهدًا بالآبصار، فيعلموا بذلك صحة ما أخبرت به الرسل ﴿وَانظُرْ إِلَى الْعُظَامِ كَيْفَ

ثم قال تعالى:

(٢٦٠) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ ثُبُورٌ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وهذا فيه أيضًا أعظم دلالة حسية على قدرة الله وإحيائه الموتى للبعث والجزاء، فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم أنه سأله أن يريه بصره كيف يحيى الموتى، لأنه قد تيقن ذلك بخبر الله تعالى، ولكنه أحب أن يشاهده عيانًا ليحصل له مرتبة عين اليقين، فلماذا قال الله له: ﴿أُولَٰئِكَ ثُبُورٌ﴾ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي وذلك أنه بتوارد الأدلة اليقينية مما يزداد به الإيمان، ويكمل به الإيقان، ويسعى في نيته أولوا العرفان، فقال له ربه: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: ضمنهن ليكون ذلك برأى منك ومشاهدة وعلى يدك ﴿ثُمَّ أَجْمَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ أي: مزقهن، اخلط أجزاءهن بعضها ببعض، واجعل على كل جبل، أي من الجبال التي في القرب منه، جزء من تلك الأجزاء ﴿ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ أي: تحصل لهن حياة كاملة، ويأتينك في هذه القوة وسرعة الطيران، ففعل إبراهيم عليه السلام ذلك وحصل له ما أراد، وهذا من ملكوت السماوات والأرض الذي أراه الله إياه في قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ ثم قال: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ذو قوة عظيمة سخر بها المخلوقات، فلم يستعص عليه شيء منها، بل هي متقادة لعزته خاضعة لجلاله، ومع ذلك فأفعاله

تعالى تابعة لحكمته، لا يفعل شيئاً عبثاً، ثم قال تعالى:

(٢٦١) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبًّا وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كَثِيرَةً﴾ وهنا قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في طاعته ومرضاته، وأولاها إنفاقها في الجهاد في سبيله ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبًّا﴾ وهذا إحضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصره فيشاهد هذه المضاعفة ببصيرته، فيقوى شاهد الإيمان مع شاهد العيان، فتتقاد النفس مدعنة للإنفاق سامحة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة، ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ﴾ هذه المضاعفة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: بحسب حال المنفق وإخلاصه وصدقه، وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها ووقوعها موقعها، ويحتمل أن يكون ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ﴾ أكثر من هذه المضاعفة ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فيعطهم أجرهم بغير حساب ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه نائل ولا يحفيه سائل، فلا يتوهم المنفق أن تلك المضاعفة فيها نوع مبالغة، لأن الله تعالى لا يتعاطمه شيء ولا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته.

(٢٦٢، ٢٦٣) ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ﴿وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ﴾ أي: الذين ينفقون أموالهم في طاعة الله وسبيله، ولا يتبعونها بما ينقصها ويفسدها من المن بها على المنفق عليه بالقلب أو باللسان، بأن يعدد عليه إحسانه، ويطلب منه مقابلته، ولا أدية له قولية أو فعلية، فهؤلاء لهم أجرهم اللاتق بهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فحصل لهم الخير واندفع عنهم الشر، لأنهم عملوا عملاً خالصاً لله سالماً من المفسدات ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾ أي: تعرفه القلوب ولا تنكره، ويدخل في ذلك كل قول كريم، فيه إدخال السرور على قلب المسلم، ويدخل فيه رد السائل بالقول الجميل والدعاء له ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لمن أساء إليك بترك مؤاخذته والعفو عنه، ويدخل فيه العفو عما يصدر من السائل مما لا ينبغي، فالقول المعروف والمغفرة خير من الصدقة التي يتبعها أذى، لأن القول المعروف إحسان قولي، والمغفرة

الْمُؤْمِنِينَ

٤٤

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تَوَمِّنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦١﴾

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبًّا وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٢﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٣﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ عَنِّي حَلِيمٌ ﴿٢٦٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُطْلَوْنَ صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٥﴾

إحسان أيضاً بترك المؤاخذه، وكلاهما إحسان ما فيه مفسد، فهما أفضل من الإحسان بالصدقة التي يتبعها أذى بمن أو غيره، ومفهوم الآية أن الصدقة التي لا يتبعها أذى أفضل من القول المعروف والمغفرة، وإنما كان المن بالصدقة مفسداً لها محرماً، لأن المنة لله تعالى وحده، والإحسان كله لله، فالعبد لا يمن بنعمة الله وإحسانه وفضله وهو ليس منه، وأيضاً فإن المان مستعبد لمن يمن عليه، والذل والاستعداد لا ينبغي إلا لله، والله غني بذاته عن جميع مخلوقاته، وكلها مفتقرة إليه بالذات في جميع الحالات والأوقات، فصدقتكم وإنفاقكم وطاعاتكم يعود مصلحتها إليكم ونفعها إليكم ﴿وَاللَّهُ عَنِّي﴾ عنها، ومع هذا فهو ﴿حَلِيمٌ﴾ على من عصاه، لا يعاجله بعقوبة مع قدرته عليه، ولكن رحمته وإحسانه وحلمه يمنعه من معاجلته للعاصين، بل يمهلهم ويصرف لهم الآيات لعلمهم يرجعون إليه وينيبون إليه، فإذا علم تعالى أنه لا خير فيهم، ولا تغني عنهم الآيات، ولا تفيد بهم المثلاث، أنزل بهم عقابه وحرهم جزيل ثوابه.

(٢٦٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُطْلَوْنَ صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَدَىٰ

النفس في إخراجها، وذلك أن النفقة يعرض لها آفتان: إما أن يقصد الإنسان بها محمداً الناس ومدحهم وهو الرياء، أو يخرجها على خور وضعف عزيمة وتردد، فهؤلاء سلموا من هاتين الآفتين فأنفقوا ابتغاء مرضات الله لا لغير ذلك من المقاصد، وتبشيراً من أنفسهم، فمثل نفقة هؤلاء ﴿كَمَثَلِ جَنَّتٍ﴾ أي: كثيرة الأشجار غزيرة الظلال، من الاجتنان وهو الستر، لستر أشجارها ما فيها، وهذه الجنة ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ أي: محل مرتفع ضاح للشمس في أول النهار ووسطه وآخره، فثماره أكثر الثمار وأحسنها، ليست بمحل نازل عن الرياح والشمس، ف﴿أَصَابَهَا﴾ أي: تلك الجنة التي بربوة ﴿وَأَبْلُ﴾ وهو المطر الغزير ﴿فَقَانَتْ أَكْثَلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: تضاعفت ثمراتها لطيب أرضها ووجود الأسباب الموجبة لذلك، وحصول الماء الكثير الذي ينمياها ويكملها ﴿فَإِنْ لَمْ يُسَبِّحْهَا وَأَبْلُ فَطَلَّ﴾ أي: مطر قليل يكفيها لطيب منبتها، فهذه حالة المنفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله، وكل ينمي له ما أنفق أتم تنمية وأكملها، والمُنْمِي لها هو الذي أرحم بك من نفسك، الذي يريد مصلحتك حيث لا تريدها، في الله لو قدر وجود بستان في هذه الدار بهذه الصفة لأسرعت إليه الهمم وتراحم عليه كل أحد، ولحصل الاقتال عنده، مع انقضاء هذه الدار وفنائها وكثرة آفاتنا وشدة نصبها وعنائها، وهذا الثواب الذي ذكره الله كأن المؤمن ينظر إليه بعين بصيرة الإيمان، دائم مستمر فيه أنواع المسرات والفرحات، ومع هذا تجد النفوس عنه راقدة، والعزائم عن طلبه خاملة، أترى ذلك زهداً في الآخرة ونعميها، أم ضعف إيمان بوعد الله ورجاء ثوابه؟! وإلا فلو يقن العبد ذلك حق اليقين وباشر الإيمان به بشاشة قلبه لانبعثت من قلبه مزعجات الشوق إليه، وتوجهت همم عزائمه إليه، وطوعت نفسه له بكثرة النفقات رجاء المثوبات، ولهذا قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيعلم عمل كل عامل ومصدر ذلك العمل، فيجازيه عليه أتم الجزاء ثم قال تعالى:

(٢٦٦) ﴿أَيُّودٌ أَمْذَكُمُ أَنْ تَكُونَ لَكُمْ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَكُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَابٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ وهذا المثل مضروب لمن عمل عملاً لوجه الله تعالى من صدقة أو غيرها، ثم عمل أعملاً لنفسه، فمثله كمثل صاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وخص منها النخل والعنب لفضلهما وكثرة منافعهما، لكونهما غذاءً وقوتاً وفاكهةً حلوى، وتلك الجنة

كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مَّوَّماً كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ينهى عباده تعالى لطفًا بهم ورحمة عن إبطال صدقاتهم بالمن والأذى، فيه أن المن والأذى يبطل الصدقة، ويستدل بهذا على أن الأعمال السيئة تبطل الأعمال الحسنة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فكما أن الحسنات يذهبن السيئات فالسيئات تبطل ما قابلها من الحسنات، وفي هذه الآية مع قوله تعالى ﴿وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ حث على تكميل الأعمال وحفظها من كل ما يفسدها لئلا يضعف العمل سدى، وقوله: ﴿كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: أنتم وإن قصدتم بذلك وجه الله في ابتداء الأمر، فإن المنه والأذى مبطلان لأعمالكم، فتصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمراعاة الناس ولا يريد به الله والدار الآخرة، فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود، لأن شرط العمل أن يكون لله وحده، وهذا في الحقيقة عمل للناس لا لله، فأعماله باطلة وسعيه غير مشكور، فمثله المطابق لحاله ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ﴾ وهو الحجر الأملس الشديد ﴿عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ﴾ أي: مطر غزير ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أي: ليس عليه شيء من التراب، فكذلك حال هذا المرابي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدفته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رآه الجاهل بحاله ظن أنه أرض زكية قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبين أن عمله بمنزلة السراب، وأن قلبه غير صالح لنبات الزرع وزكاته عليه، بل الرياء الذي فيه والإرادات الخبيثة تمنع من انتفاعه بشيء من عمله، فلهاذا ﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾ من أعمالهم التي اكتسبوها، لأنهم وضعوها في غير موضعها، وجعلوها لمخلوق مثلهم، لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً، وانصرفوا عن عبادة من تنفعهم عبادته، فصرف الله قلوبهم عن الهداية، فلهاذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

(٢٦٥) ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَشْبِيحًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّتٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَقَانَتْ أَكْثَلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُسَبِّحْهَا وَأَبْلُ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا مثل المنفقين أموالهم على وجه تزكوا عليه نفقاتهم وتقبل به صدقاتهم، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلِ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ أي: قصدهم بذلك رضى ربهم والفوز بقربه ﴿وَتَشْبِيحًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: صدر الإنفاق على وجه منشرحة له النفس سخية به، لا على وجه التردد وضعف

الْبَقَرَةِ

٤٥

سُورَةُ

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَمْسِيئًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَتَأْتَتْ أَكْطَافَهَا ضَعْفَتٌ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيُّدٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ
لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفَاءُ
فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ
بِتَّائِبِينَ إِلَّا أَنْ تُعْضُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ
وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾
يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

فيها^(١) الأنهار الجارية التي تسقيها من غير مؤنة، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته، ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن العمل وزاد حرصه، وكان له ذرية ضعفاء ما فيهم معاونة له، بل هم كلُّ عليه، ونفتته ونفتتهم من تلك الجنة، فبينما هو كذلك إذ أصابت تلك الجنة إعصار، وهو الريح القوية التي تستدير ثم ترتفع في الجوى، وفي ذلك الإعصار نار فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن، فلو قدر أن الحزن يقتل صاحبه لقتله الحزن، كذلك من عمل عملاً لوجه الله فإن أعماله بمنزلة البذر للزروع والثمار، ولا يزال كذلك حتى يحصل له من عمله جنة موصوفة بغاية الحسن والبهاء، وتلك المفسدات التي تفسد الأعمال بمنزلة الإعصار الذي فيه نار، والعبد أحوج ما يكون لعمله إذا مات، وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي يؤمل نفعه هباءً منثورًا، ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فلو علم الإنسان وتصور هذه الحال وكان له أدنى مسكة من عقل لم يقدم على ما فيه مضرته ونهاية حسرته، ولكن ضعف الإيمان والعقل وقلة البصيرة يصير صاحبه إلى هذه الحالة التي لو صدرت من مجنون لا يعقل لكان ذلك عظيمًا وخطره جسيمًا، فهذا أمر تعالى بالتفكير وحثَّ عليه، فقال ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾.

(٢٦٨، ٢٦٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِتَّائِبِينَ إِلَّا أَنْ تُعْضُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَمِيدٌ ۝ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، ومما أخرج لهم من الأرض، فكما منَّ عليكم بتسهيل تحصيله فأنفقوا منه شكرًا لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيرًا لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والمسامحة ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَنِّي حَمِيدٌ﴾ فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن تمتثلوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح، وإياكم أن تتبعوا عدوكم الشيطان الذي يأمركم بالإمساك، ويخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقتم، وليس هذا نصحًا لكم، بل هذا غاية الغش ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنَ الْمُصْحَبِ السَّعِيرِ﴾ بل أطيعوا

ربكم الذي يأمركم بالنفقة على وجه سهل عليكم ولا يضركم، ومع هذا فهو ﴿يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً﴾ لذنوبكم وتطهيرًا لعيوبكم ﴿وَفَضْلًا﴾ وإحسانًا إليكم في الدنيا والآخرة، من الخلف العاجل، وانشرح الصدر ونعيم القلب والروح والقبر، وحصول ثوابها وتوفيتها يوم القيامة، وليس هذا عظيمًا عليه، لأنه ﴿وَاسِعٌ﴾ الفضل عظيم الإحسان ﴿عَلِيمٌ﴾ بما يصدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه، فلينظر العبد نفسه إلى أيِّ الداعيين يميل، فقد تضمنت هاتان الآيتان أمورًا عظيمة منها: الحث على الإنفاق، ومنها: بيان الأسباب الموجبة لذلك، ومنها: وجوب الزكاة من التقدين وعروض التجارة كلها، لأنها داخلة في قوله: ﴿مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ ومنها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن، ومنها: أن الزكاة على من له الزرع والثمر لا على صاحب الأرض، لقوله: ﴿أَخْرَجْنَا لَكُمْ﴾ فمن أخرجت

(١) في النسختين: فيه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٦

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٧﴾ إِنْ تَبَدُّوا أَلْصَدَقَاتِ فَنِعْمَ هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ هُدُومُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نَفْسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٨٠﴾ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨١﴾

نفسه من المنذورات، أو قصد بذلك رضى المخلوقات، فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، واستحق العقوبة البليغة، ولم ينفعه أحد من الخلق ولم ينصره، فلهذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾.

(٢٧٧) ﴿إِنْ تَبَدُّوا أَلْصَدَقَاتِ فَنِعْمَ هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي: ﴿إِنْ تَبَدُّوا أَلْصَدَقَاتِ﴾ فظهرها وتكون علانية حيث كان القصد بها وجه الله ﴿فَنِعْمَ هِيَ﴾ أي: فنعم الشيء ﴿هِيَ﴾ لحصول المقصود بها ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا﴾ أي: تسروها ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ ففي هذا أن صدقة السر على الفقير أفضل من صدقة العلانية، وأما إذا لم تؤت الصدقات الفقراء فمفهوم الآية أن السر ليس خيرا من العلانية، فيرجع في ذلك إلى المصلحة، فإن كان في إظهارها إظهار شعائر الدين وحصول الافتداء ونحوه، فهو أفضل من الإسرار، ودل قوله: ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ﴾ على أنه ينبغي للمتصدق أن يتحرى بصدقته المحتاجين، ولا يعطي محتاجا وغيره أحوج منه، ولما ذكر تعالى أن الصدقة خير للمتصدق

له وجبت عليه، ومنها: أن الأموال المعدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الديون والغصوب ونحوهما إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربها على استخراجها منه، ليس فيها زكاة، لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي يحصل فيها النماء الخارج من الأرض، وأموال التجارة مواساة من نمائها، وأما الأموال التي غير معدة لذلك ولا مقدور عليها فليس فيها هذا المعنى، ومنها: أن الرديء ينهي عن إخراجه ولا يجزىء في الزكاة، ثم قال تعالى:

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَدْرِكُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم، وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن منَّ عليه وآتاه الله الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيرا كثيرا، وأي خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتها! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية، فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابتة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرتهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين: قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الأبواب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم، بل أجابوا ما عرض لفطرتهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الأبواب، فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَا يَدْرِكُ إِلَّا أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾.

(٢٧٠) ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وهذا فيه المجازاة على النفقات، واجبها ومستحبها، قليلها وكثيرها، التي أمر الله بها، والنذور التي ألزمها المكلف نفسه، وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيره، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازى عليها بالفضل العظيم والثواب الجسيم، وإن لم ينفق العبد ما وجب عليه من النفقات، ولم يوف ما أوجبه على

ويتضمن ذلك حصول الثواب قال: ﴿وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِّنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ ففيه دفع العقاب ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ من خير وشر، قليل وكثير، والمقصود من ذلك المجازاة.

(٢٧٢-٢٧٤) ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ نَّلَأْسِبُكُمْ وَمَا تَنْفِقُوا إِلَّا أَنْتَآءُ وَجَدَ اللَّهُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظَلَمُونَ ۝ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ۝ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يقول تعالى لئيبه ﷺ ليس عليك هدي الخلق، وإنما عليك البلاغ المبين، والهداية بيد الله تعالى، ففيها دلالة على أن النفقة كما تكون على المسلم تكون على الكافر ولو لم يهتد، فهذا قال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ أي: قليل أو كثير على أي شخص كان من مسلم وكافر ﴿لِنَأْسِبُكُمْ﴾ أي: نفعه راجع إليكم ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا أَنْتَآءُ وَجَدَ اللَّهُ﴾ هذا إخبار عن نفقات المؤمنين الصادرة عن إيمانهم أنها لا تكون إلا لوجه الله تعالى، لأن إيمانهم يمنعهم عن المقاصد الردية ويوجب لهم الإخلاص ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفِّ إِلَيْكُمْ﴾ يوم القيامة تستوفون أجوركم ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظَلَمُونَ﴾ أي: تنقصون من أعمالكم شيئاً ولا مقال ذرة، كما لا يزداد في سيئاتكم، ثم ذكر مصرف النفقات الذين هم أولى الناس بها، فوصفهم بست صفات: أحدها الفقر، والثاني قوله: ﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: قصرها على طاعة الله من جهاد وغيره، فهم مستعدون لذلك محبوسون له، الثالث عجزهم عن الأسفار لطلب الرزق فقال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سفراً للتكسب، الرابع قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ وهذا بيان لصدق صبرهم وحسن تعففهم. الخامس: أنه قال: ﴿تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ أي: بالعلامة التي ذكرها الله في وصفهم، وهذا لا ينافي قوله: ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ﴾ فإن الجاهل بحالهم ليس له فطنة يتفرد بها ما هم عليه، وأما الفطن المتفرد فمجرد ما يراه^(١) يعرفهم بعلامتهم، السادس قوله: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ أي: لا يسألونهم سؤال إلحاف أي: إلحاح، بل إن صدر منهم سؤال إذا احتاجوا لذلك لم يلحوا على من سألوا، فهؤلاء أولى الناس وأحقهم بالصدقات لما وصفهم به من جميل الصفات، وأما النفقة من حيث هي

على أي شخص كان، فهي خير وإحسان وبر يثاب عليها صاحبها ويؤجر، فهذا قال: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ثم ذكر حالة المتصدقين في جميع الأوقات على جميع الأحوال فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: طاعته وطريق مرضاته، لا في المحرمات والمكروهات وشبهات أنفسهم ﴿بِالْأَيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: أجر عظيم من خير عند الرب الرحيم ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ إذا خاف المقصرون ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إذا حزن المفرطون، فجازوا بحصول المقصود المطلوب، ونجوا من الشرور والمرهوب، ولما كمل تعالى حالة المحسنين إلى عباده بأنواع النفقات ذكر حالة الظالمين المسيئين إليهم غاية الإساءة فقال:

(٢٧٥-٢٨١) ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطِئُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَآتَنَّهُنَّ فَأَلْهُنَّ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الضَّعْفَتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَقْمَلُوا فَاذْنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبَسِّرْتُمْ فَلَكُمْ زُؤُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَطْلُمُونَ وَلَا تَطْلُمُونَ ۝ وَإِن كَانَتْ ذُو عُسْرِ فَنظَرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظَلَمُونَ﴾ يخبر تعالى عن أكلة الربا وسوء مآلهم وشدّة منقلبهم، أنهم لا يقومون من قبورهم ليوم نشورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطِئُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: يصرعه الشيطان بالجنون، فيقومون من قبورهم حيارى سكارى مضطربين، متوقعين لعظيم النكال وعسر الويال، فكما تقلبت عقولهم ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ وهذا لا يكون إلا من جاهل عظيم جهله، أو متجاهل عظيم عناده، جازاهم الله من جنس أحوالهم فصارت أحوالهم أحوال المجانين، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطِئُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أنه لما انسلبت عقولهم في طلب المكاسب الربوية خفت أحلامهم وضعفت أراؤهم، وصاروا في هيتهم وحركاتهم يشبهون المجانين في عدم

(١) في النسختين: يراه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي
يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ
مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ
فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ
اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الضَّيْقَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَءَاتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا
فَأَذْنُوبٌ يَحْرَبُ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ؕ وَإِن تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ
أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَتْ
ذُؤُوسَةٌ فَنظَرٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ
إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى
اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

منهم ما صدر، ذكر حالة المؤمنين وأجرهم، وخاطبهم بالإيمان، ونهاهم عن أكل الربا إن كانوا مؤمنين، وهؤلاء هم الذين يقبلون موعظة ربهم وينقادون لأمره، وأمرهم أن يتقوه، ومن جملة تقواه أن يذروا ما بقي من الربا أي: المعاملات الحاضرة الموجودة، وأما ما سلف، فمن اتعظ عفا الله عنه ما سلف، وأما من لم ينتجر بموعظة الله ولم يقبل نصيحته فإنه مشاق لربه محارب له، وهو عاجز ضعيف ليس له يدان في محاربة العزيز الحكيم الذي يمهل للظالم ولا يهمله، حتى إذا أخذه، أخذه أخذ عزيز مقتدر ﴿وَإِن تَبَتُّمْ﴾ عن الربا ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: أنزلوا عليها ﴿لَا تَظْلِمُونَ﴾ من عاملتموه بأخذ الزيادة التي هي الربا ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بنقص رؤوس أموالكم ﴿وَإِن كَانَتْ ذُؤُوسَةٌ﴾ المدين ﴿فَنظَرٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ لا يجد وفاء يوفي به ﴿وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿إِذَا بَسَّطْتُمْ أَوْ بَعْضَهَا﴾

﴿وَإِن كَانَتْ ذُؤُوسَةٌ فَنظَرٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ وهذا الآية من آخر ما نزل من القرآن،

انتظامها وانسلاخ العقل الأدبي عنهم، قال الله تعالى راداً عليهم ومبيناً حكمته العظيمة: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ أي: لما فيه من عموم المصلحة وشدة الحاجة وحصول الضرر بتحريمه، وهذا أصل في حل جميع أنواع التصرفات الكسبية حتى يرد ما يدل على المنع ﴿وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ لما فيه من الظلم وسوء العاقبة، والربا نوعان: ربا نسيئة كبيع الربا بما يشاركه في العلة نسيئة، ومنه جعل ما في الذمة رأس مال، سلم. وربا فضل، وهو بيع ما يجري فيه الربا بجنسه متفاضلاً، وكلاهما محرم بالكتاب والسنة، والإجماع على ربا النسيئة، وشذ من أباح ربا الفضل وخالف النصوص المستفيضة، بل الربا من كبائر الذنوب وموبقاتها ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي: وعظ وتذكير وترهيب عن تعاطي الربا على يد من قيضه الله لموعظته رحمة من الله بالموعوظ، وإقامة للحجة عليه ﴿فَأَنْتَهُنَّ﴾ عن فعله وانزجر عن تعاطيه ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ أي: ما تقدم من المعاملات التي فعلها قبل أن تبلغه الموعظة جزاء لقبوله للنصيحة، دل مفهوم الآية أن من لم ينته جوزي بالأول والآخر ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ في مجازاته وفيما يستقبل من أموره ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إلى تعاطي الربا ولم تنفعه الموعظة، بل أصر على ذلك ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ اختلف العلماء رحمهم الله في نصوص الوعيد التي ظاهرها تخليد أهل الكبائر من الذنوب التي دون الشرك بالله، والأحسن فيها أن يقال هذه الأمور التي رتب الله عليها الخلود في النار موجبات ومقتضيات لذلك، ولكن الموجب إن لم يوجد ما يمنعه ترتب عليه مقتضاه، وقد علم بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن التوحيد والإيمان مانع من الخلود في النار، فلولا ما مع الإنسان من التوحيد لصار عمله صالحاً للخلود فيها بقطع النظر عن كفره، ثم قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا﴾ أي: يذهب ويذهب بركته ذاتاً ووصفاً، فيكون سبباً لوقوع الآفات فيه ونزع البركة عنه، وإن أُنْفِقَ منه لم يؤجر عليه، بل يكون زاداً له إلى النار ﴿وَيُرِي الضَّيْقَ﴾ أي: ينميتها وينزل البركة في المال الذي أخرجت منه وينمي أجر صاحبها، وهذا لأن الجزء من جنس العمل، فإن المرابي قد ظلم الناس وأخذ أموالهم على وجه غير شرعي، فجوزي بذهاب ماله، والمحسن إليهم بأنواع الإحسان ربه أكرم منه، فيحسن عليه كما أحسن على عباده ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ نعم الله، لا يؤدي ما أوجب عليه من الصدقات، ولا يسلم منه ومن شره عباد الله ﴿أَثِيمٍ﴾ أي: قد فعل ما هو سبب لإثمه وعقوبته. لما ذكر أكلة الربا، وكان من المعلوم أنهم لو كانوا مؤمنين إيماناً ينفعهم لم يصدر

وجعلت خاتمة لهذه الأحكام والأوامر والنواهي، لأن فيها الوعد على الخير، والوعيد على فعل الشر، وأن من علم أنه راجع إلى الله فمجازيه على الصغير والكبير والجللي والخفي، وأن الله لا يظلمه مثقال ذرة، أوجب له الرغبة والرغبة، وبدون حلول العلم في ذلك في القلب لا سبيل إلى ذلك.

(٢٨٢) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُم بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاتَّكُوبُهُ وَيَكْتُوبُ بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بِيخْسَ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيحًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّاهِدَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشَّاهِدَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَلَّ تَكْتُوبُهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُوبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا بِيضَارَ كَاتِبٌ فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذه آية الدين، وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار، أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذاكراً أحكامها، وذلك يدل على الجواز، الثاني والثالث: أنه لا بد للسلم من أجل، وأنه لا بد أن يكون معيناً معلوماً فلا يصح حالاً ولا إلى أجل مجهول، الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات، إما وجوباً وإما استحباباً، لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم، الخامس: أمر الكاتب أن يكتب، السادس: أن يكون عدلاً في نفسه لأجل اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته، السابع: أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقرابة أو صداقة أو غير ذلك، الثامن: أن يكون الكاتب عارفاً بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ﴾ التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا، العاشر: قوله: ﴿وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ﴾ أي: لا يمتنع من من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتدائنين،

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنُم بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاتَّكُوبُهُ وَيَكْتُوبُ بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا بِيخْسَ مِنْهُ شَيْئًا وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيحًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّاهِدَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشَّاهِدَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَلَّ تَكْتُوبُهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُوبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا بِيضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَلَّحُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم، الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق، الثاني عشر: أن الذي يملي من المتعاقدين من عليه الدين، الثالث عشر: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يبخس منه شيئاً، الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يميل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجه ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطاً أو سهواً، الخامس عشر: أن من عليه حق من الحقوق التي البينة^(١) على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق، لأنه تعالى لم ينه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته، السادس عشر: أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئاً من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه

(١) الكلمة غير واضحة في الأصل، وأقرب ما يكون أنها على ما أثبت، والله أعلم.

المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقوله: ﴿وَلَا يَأْبِ الشُّهَدَاءُ إِذًا مَا دُعُوا﴾ السادس والثلاثون: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها، ولأنه ليس من الشهداء، السابع والثلاثون: النهي عن السامة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود، الثامن والثلاثون: بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه ﴿أَسْطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقترنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر، التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجز له الإقدام عليها، بل لا بد من اليقين، الأربعون: قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ بِحَضْرَةٍ تَدِيرُوهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرًا بحاضر، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة، الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع بالإشهاد لقوله: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا بَيَّعْتُمْ﴾ الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضًا، بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أذائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك، هذا على جعل قوله: ﴿وَلَا يُمْسِكُ كَيْتٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ مبنياً للمجهول، وأما على جعلها مبنياً للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجره شاقة ونحو ذلك، وهذان هما الرابع والأربعون والخامس والأربعون. السادس والأربعون: أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق، لقوله: ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ فِيهَا فَسَقَ﴾ السابع والأربعون: أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر، لقوله: ﴿فَأَنْتُمْ فِي سُوءٍ بِكُمْ﴾ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فساق. الثامن والأربعون: - وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه - اشتراط العدالة في الشاهد، لقوله: ﴿وَمَنْ رَضِيَ مِنْكُمْ﴾ التاسع والأربعون: أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضياً معتبراً عند الناس

ولوأحقه، السابع عشر: أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه منابه في الإملاء والإقرار، الثامن عشر: أنه يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم اليخس لقوله: ﴿يَلْكَدُلُ﴾ التاسع عشر: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق، العشرون: ثبوت الولاية في الأموال، الحادي والعشرون: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم، الثاني والعشرون: أن إقرار الصغير والسفيه والمجنون والمعنوه ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئاً لطفاً بهم ورحمةً، خوفاً من تلاف أموالهم، الثالث والعشرون: صحة تصرف الولي في مال من ذكر، الرابع والعشرون: فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتدينون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع، الخامس والعشرون: أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم، السادس والعشرون: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه الندب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان المتصرف ولي يتيماً أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجباً، السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضاً أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي، الثامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لمفهوم لفظ الرجل، التاسع والعشرون: أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال: إن الله أقام المرأتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها، وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات، والله أعلم. الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: ﴿وَأَسْتَشْهَدُوا شَهِدَيْنِ مِنْ بَنِيكُمْ﴾ والعبد البالغ من رجلنا، الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكورا كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل، الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المرأتين لقوة حفظه ونقص حفظها، الثالث والثلاثون: أن من نسي شهادته ثم دُكر فذكر فشهادته مقبولة لقوله: ﴿فَتَنَكَّرَ إِذْهُمَا الْأَخْرَىٰ﴾ الرابع والثلاثون: يؤخذ من

قبل شهادته، الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى، فهذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، والله في كلامه حكيم وأسرار يخص بها من يشاء من عباده. وقوله تعالى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كِتَابًا فَرِهْنُمْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنُ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الشَّاهِدِينَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي: إن كنتم مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كِتَابًا﴾ يكتب بينكم ويحصل به التوثق ﴿فَرِهْنُمْ مَقْبُوضَةً﴾ أي: يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق، ودل أيضًا على أن الراهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهنه به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضًا عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهنه به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان المقصود بالرهن التوثق جاز حضرًا وسفرًا، وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة إليه لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يجب أن يتوثق لحقه، فما كان صاحب الحق آمنًا من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن، فعلي من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملاً غير ظالم له ولا باخس حقه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في أداء الحق ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكنتمها من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وَجِبَ عليه من الخبر الصدق ويخبر بصدده وهو الكذب، ويترتب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حكيم عظمة ومصالح عميمة دلت على أن الخلق لو اهدوا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم، لاشتمالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، فلله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، لا نحصي ثناء عليه.

(٢٨٣) ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كِتَابًا فَرِهْنُمْ مَقْبُوضَةً فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنُ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الشَّاهِدِينَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي: إن كنتم مسافرين ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كِتَابًا﴾ يكتب بينكم ويحصل به التوثق ﴿فَرِهْنُمْ مَقْبُوضَةً﴾ أي: يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوضة لا يحصل منها التوثق، ودل أيضًا على أن الراهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهنه به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضًا عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهنه به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان المقصود بالرهن التوثق جاز حضرًا وسفرًا، وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة إليه لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يجب أن يتوثق لحقه، فما كان صاحب الحق آمنًا من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن، فعلي من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملاً غير ظالم له ولا باخس حقه ﴿وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ في أداء الحق ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكنتمها من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وَجِبَ عليه من الخبر الصدق ويخبر بصدده وهو الكذب، ويترتب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ إِثْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حكيم عظمة ومصالح عميمة دلت على أن الخلق لو اهدوا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم، لاشتمالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، فلله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، لا نحصي ثناء عليه.

(٢٨٤) ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُعَاجِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا إخبار من الله أنه له ما في السماوات وما في الأرض، الجميع خلقهم ورزقهم

(٢٨٥) ﴿ءَأَمِنَ الَّذِينَ سَمَّوُا سَمْعًا وَأَطَعُوا غُرَفًا لَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ يخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه، وانقيادهم وطاعتهم وسؤالهم مع ذلك المغفرة، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله على وجه الإجمال والتفصيل، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص، ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملة وتفصيلاً، وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، بل يؤمنون بجميعهم، لأنهم سائط بين الله وبين عباده، فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم، بل كفر بالله ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ ما أمرتنا به ونهيتنا ﴿وَأَطَعْنَا﴾ لك في ذلك، ولم يكونوا ممن قالوا سمعنا وعصينا، ولما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق الله تعالى وهو محتاج إلى مغفرته على الدوام، قالوا: ﴿غُرَفًا لَكَ رَبَّنَا﴾ أي: نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير والذنوب، ومحو ما اتصفنا به من العيوب ﴿وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع لجميع الخلائق فتجزئهم بما عملوا من خير وشر.

(٢٨٦) ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ نَسَاْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا إِنَّكَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ لما نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُعَاجِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ شق ذلك على المسلمين لما توهموا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المستقرة وغيرها مؤاخذون به، فأخبرهم بهذه الآية أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها أي: أمرًا تسعه طاقتها، ولا يكلفها

سُورَةُ الْبَقَرَةِ ٤٩

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ فأصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحمية عن الضرر، فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحساناً، ومع هذا إذا حصل بعض الأعذار التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم، ثم أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا تذهب حسنات العبد لغيره، وفي الإتيان بـ«كسب» في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه، بل بمجرد نية القلب وأتى بـ«اكتسب» في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعمله ويحصل سعيه، ولما أخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه، وأن كل عامل سبجazy بعمله، وكان الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطيق وتسعه قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قال: قد فعلت. إجابة لهذا الدعاء، فقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ والفرق بينهما: أن النسيان: ذهول القلب عن ما أمر به فيتركه نسياناً، والخطأ: أن يقصد شيئاً يجوز له قصده، ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله: فهذان قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحساناً، فعلى هذا من صلى في ثوب مغضوب، أو نجس، أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسياً، أو فعل مفضراً ناسياً، أو فعل محظوراً من محظورات الإحرام التي ليس فيها إتلاف ناسياً، فإنه مغفوع عنه، وكذلك لا يحث من فعل المحلوف عليه ناسياً، وكذلك لو أخطأ فأتلف نفساً أو مالاً فليس عليه إثم، وإنما الضمان مرتب على مجرد الإتلاف، وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسياً لم يضر. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ أي: تكاليف مشقة ﴿كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ وقد فعل تعالى فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ وقد فعل وله الحمد ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكارة والشور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ أي: ربنا ومليكننا وإلهنا الذي لم نزل ولايتك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا فَعَمَلُكَ دَارَةَ عَلَيْنَا متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا

بالنعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي جميع النعم تبع لها، فنسألك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصرتنا على القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك، وقاوموا أهل دينك ونبذوا أمرك، فانصرتنا عليهم بالحجة والبيان والسيف والسنان، بأن تمكن لنا في الأرض وتخذلهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر، والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه، وصلى الله على محمد وسلم.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ٢ نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ٤ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِن آيَاتٍ تُحْكِمُكَ مِنْ أُمَّ الْكِتَابِ وَأُخْرٌ مُتَشَبِهَةٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشْبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ٧ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِي الْقُلُوبِ غُرُوبًا وَلَا قُلُوبَنَا غُرُوبًا وَرَبَّنَا كُنَّا لِلنَّاسِ حَرِيمًا ٨ رَبَّنَا إِنَّا أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يُخْلِفُ الْعَاهِدَ ٩

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في مخاصمة النصراني وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام، كما نزل صدر البقرة في محاجة اليهود كما تقدم.

(٦-١) ﴿آلَهُ ۖ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَلَ عَلَيْكَ

الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ

وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

افتتحها تبارك وتعالى بالإخبار بالوحيته، وأنه الإله الذي لا إله إلا هو، الذي لا ينبغي التأنل والتعبد إلا

لوجهه، فكل معبود سواه فهو باطل، والله هو الإله الحق المتصف بصفات الألوهية التي مرجعها إلى الحياة والقيومية،

فالحق من له الحياة العظيمة الكاملة المستلزمة لجميع الصفات التي لا تتم ولا تكمل الحياة إلا بها، كالسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعز الذي لا يرام

﴿الْقَيُّومُ﴾ الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره فافتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد

والإمداد، فهو الذي قام بتدبير الخلائق وتصريفهم، تدبير للأجسام وللقلوب والأرواح، ومن قيامه تعالى بعباده ورحمته

بهم أن نزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب، الذي هو أجل الكتب وأعظمها المشتمل على الحق في إخباره وأوامره

ونواهيه، فما أخبر به صدق، وما حكم به فهو العدل، وأنزله بالحق ليقوم الخلق بعبادة ربهم ويتعملوا كتابه ﴿مُصَدِّقًا لِمَا

بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة، فهو المزكي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في

جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة له بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم

يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ﴾ أي: على موسى ﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ على عيسى ﴿مِن قَبْلُ﴾ إنزال القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ الظاهر أن

هذا راجع لكل ما تقدم، أي: أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال، فمن قبل هدى الله فهو

المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله ﴿وَأَنزَلَ الْقُرْآنَ﴾ أي: الحجج والبيئات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جليلة ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته، ولهذا قال: ﴿إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي بعدما بينها ووضحها وأزاح العلل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لا يُقَدَّرُ قدره، ولا يدرك وصفه ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي: قوي لا يعجزه شيء ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ ممن عصاه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها، جلليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، ومن جملة ذلك الأجنة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا ينالها علمهم، وهو تعالى يدبرها بألطف تدبير، ويقدرها بكل تقدير، ولهذا قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من كامل الخلق وناقصه، وحسن وقيح، وذكر وأنثى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعيينها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصراني الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام،

والوقوف على ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ لأن المتشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ [أَسْتَوَى]﴾^(١) فقال السائل: كيف استوى؟

فقال مالك: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة. فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيتها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة. وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيتها، فيجب علينا الوقوف على ما حد لنا، فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشتبهات تعرضاً لما لا يعني، وتكلفاً لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكفون المعنى إلى الله فيسلمون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ على «الله» فيكون الله قد أخبر أن تفسير المتشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى، والراسخون في العلم يعلمون أيضاً، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون: ﴿كُلٌّ﴾ من المحكم والمتشابه ﴿بَيْنَ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض، بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً، ويشهد بعضه لبعض^(٢)، وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المتشابه، علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. ولما رغب تعالى في التسليم والإيمان بأحكامه، وزجر عن اتباع المتشابه قال: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ أي: يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه إلا ﴿أُولَئِكَ الْأَكْبَبُ﴾ أي: أهل العقول الرزينة لب العالم، وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهمهم القشور التي لا حاصل لها ولا نتيجة تحتها^(٣) لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.

ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون

وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقيومته التامة، المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم، وإثبات الشرائع الكبار، وأنها رحمة وهداية للناس، وتقسيم الناس إلى مهتد وغيره، وعقوبة من لم يهتد بها، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته.

(٧-٩) ﴿هُوَ الَّذِي أَرْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَبِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولَئِكَ الْأَكْبَبُ ○ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ○ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ يُرَىٰ لِلرَّيْبِ أَنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ أَلَيْمًا ○ الْفِرَانَ الْعَظِيمُ كُلُّهُ مُحْكَمٌ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَيْتَبُ أَهْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُيَلَّتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ حَبِيرٍ﴾ فهو مشتمل على غاية الإتقان والإحكام والعدل والإحسان ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وكله متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقتها لفظاً ومعنى، وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله ﴿مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ﴾ أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره ﴿و﴾ منه آيات ﴿أُخْرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ أي: يلبس معناها على كثير من الأذهان لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالحاصل أن منها آيات بينة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد المتشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فهذه الطريق يصدق بعضه بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلى فرقتين ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال، وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ أي: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى المتشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على المتشابه ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ لمن يدعونهم لقولهم، فإن المتشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محلاً للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قصدته اتباعه، وقوله: ﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ للمفسرين في الوقوف على «الله» من قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ قولان: جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب

(١) سقطت كلمة (استوى) من الأصل وأضفتها؛ لأنها موضع الشاهد.

(٢) في هامش الأصل زيادة نصها: (وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل المتشابه، علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم وإن لم يفهموا وجه ذلك). ولم يبين لي محلها إلا أن الأقرب أنها هنا. (٣) في الأصل القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحتها، ولعل الصواب ما أثبت.

ويقولون: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي لا تملها عن الحق جهلاً وعناداً منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك، وعافنا مما^(١) ابتليت به الزائغين ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: عظيمة توفقتنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ﴾ فجازيهم بأعمالهم حسنها وسيئها، وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد: إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، المبين لأحكامه وشرائعه، الثانية: الرسوخ في العلم، وهذا قدر زائد على مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالماً محققاً، وعارفاً مدققاً، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علماً وحالاً وعملاً، الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه ورد لمتشابهه إلى محكمه، بقوله: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلى به الزائغون المنحرفون، الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمته المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب، السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الراعد عن الزلل، ثم قال تعالى:

(١٠-١٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ كَذَّابُونَ ۝ كَذَّابٌ أَلَّا يَفْرَقُونَ ۝ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ وَلَكِنْ سَعْتُهُمْ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ كُفْرَهُمْ وَلَا يُنصِرُهُمْ مِنْ يَسَاءِ إِنْ كُنَّ فِي ذَلِكَ لَئِيْمَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ۝ يَخِرُّ تَعَالَى أَنْ الْكُفْرَانَ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، الْجَاهِدِينَ بَدِينِهِ وَكِتَابِهِ، قَدْ اسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ وَشَدَّةَ الْعَذَابِ بِكُفْرِهِمْ وَذُنُوبِهِمْ، وَأَنَّهُ لَا يَغْنِي عَنْهُمْ مَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ شَيْئًا، وَإِنْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا يَسْتَدْفِعُونَ بِذَلِكَ النِّكَبَاتِ الَّتِي تَرِدُ عَلَيْهِمْ، وَيَقُولُونَ: ﴿تَحَنَّنْ رَبَّنَا حَتَّى نَمُوتَ وَأَوْلَادُنَا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَبْدُو لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا

أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ بِالَّتِي تُغْنِي عَنْهُمْ غِنًى لَدُنَّا إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْغَيْبِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُفْوَةِ آمِنُونَ﴾ وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، الملازمون لها دائماً أبداً، وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال والأولاد عن الكفار شيئاً، سنته الجارية في الأمم السابقة، كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا، أخذهم الله بذنوبهم عدلاً منه لا ظملاً، والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب، وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لِيَذِرْكُمُ الْكُفْرَ وَالسُّفْلِيَّاتُ وَتُحْشَرُونَ﴾ إلى جهنم ويقتلهم في هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود والنصارى، وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحس والعيان، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار البوار، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فبس المهاد مهادهم، وبس الجزء جزاؤهم ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أي: عبرة عظيمة ﴿فِي فَتْنِ الْفِتْنَةِ﴾ وهذا يوم بدر ﴿فَمَا تَتَّبِعُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﴿وَأَخْرَجُوا كَافِرًا﴾ أي: كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطراً وفخراً ورتاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين، فلماذا قال: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْآمِنِينَ﴾ أي: يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليها زيادة كثيرة، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها، وأكد هذا بقوله: ﴿رَأَى الْآمِنِينَ﴾ فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره فهزمهم، وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيراً منهم، وما ذلك إلا لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به، ففي هذا عبرة لأولي الأبصار، أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطائفة المنصورة معها الحق، والأخرى مبطله، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والعُدُد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان.

(١) في الأصل: ممن، ولعل الصواب ما أثبت.

بالله والتوكل على الله والثقة بكفايته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين.

(١٤-١٧) ﴿رُزِينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ۝ قُلْ أُوَيْسِكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مَعَ رَبِّهِمْ جَدَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَرْوَجُ مَطْهَرَةً وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا كُنَّا فَفُضِرْنَا لَنَا ذُؤُبُنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝ الضَّالِّينَ وَالضَّالِّينَ وَالْقَانِطِينَ وَالْمُفْسِدِينَ وَالْمُنْتَهِينَ بِالْأَسْحَارِ ۝ يخبر تعالى أنه زين للناس حب الشهوات الدنيوية، وخص هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم شهوات الدنيا وغيرها تبع لها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا ۖ فَلَمَّا زَيَّنَّا لَهُمْ هَذِهِ الْمَذْكُورَاتِ بِمَا فِيهَا مِنَ الدَّوَاعِي الْمَشْرِاتِ، تعلقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين: قسم: جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خلقوا لأجله، وصحبوها صحة البهائم السائمة، يتمتعون بلذاتها ويتناولون شهواتها، ولا يباليون على أي وجه حصلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادًا لهم إلى دار الشقاء والعناء والعذاب، والقسم الثاني: عرفوا المقصود منها وأن الله جعلها ابتلاء وامتحانًا لعباده، ليعلم من يقدم طاعته ومرضاته على لذاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقًا يتزودون منها لآخرتهم، ويتمتعون بما يتمتعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، وعلموا أنها كما قال الله فيها: ﴿ ذَلِكُمْ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ فَجَعَلُوهَا مَعْبَرًا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ وَمَتَجَرًّا يَرْجُونَ بِهَا الْفَوَائِدَ الْفَاخِرَةَ، فهؤلاء صارت لهم زادًا إلى ربهم. وفي هذه الآية تسلية للفقراء الذين لا قدرة لهم على هذه الشهوات التي يقدر عليها الأغنياء، وتحذير للمغتربين بها، وتزهيد لأهل العقول النيرة بها، وتمام ذلك أن الله تعالى أخبر بعدها عن دار القرار ومصير المتقين الأبرار، وأخبر أنها خير من ذلكم المذكور، ألا وهي الجنات العاليات ذات المنازل الأنيفة والغرف العالية، والأشجار المتنوعة المثمرة بأنواع الثمار، والأنهار الجارية على حسب مرادهم، والأزواج المطهرة من كل قدر وذنس وعيب ظاهر وباطن، مع الخلود الدائم الذي به تمام النعيم، مع الرضوان من الله الذي هو أكبر نعيم، فقس هذه الدار الجليلة بتلك الدار الحقيرة، ثم

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُخْفِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٤﴾ كَذَابٌ عَالٍ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۖ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٥﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتْغَلِبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْمُهَادُ ﴿١٦﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقُرْآنِ فَتُتَلِّفُ تُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأَى الْعَيْنِ ۖ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٧﴾ رُزِينَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أُوَيْسِكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مَعَ رَبِّهِمْ جَدَّتْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَرْوَجُ مَطْهَرَةً وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾

اختر لنفسك أحسنهما، واعرض على قلبك المفاضلة بينهما ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۖ أَي: عالم بما فيهم من الأوصاف الحسنة والأوصاف القبيحة، وما هو اللائق بأحوالهم، يوفق من شاء منهم ويخذل من شاء. فالجنة التي ذكر الله وصفها ونعتها بأكمل نعت وصف أيضًا المستحقين لها، وهم الذين اتقوه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه، وكان من دعائهم أن قالوا:

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا كُنَّا فَفُضِرْنَا لَنَا ذُؤُبُنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۖ تَوَسَّلُوا بِمَنَّةِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِتَوْفِيقِهِمُ لِلْإِيمَانِ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ وَيَقِيَهُمْ شَرَّ آثَارِهَا، وهو عذاب النار، ثم فصل أوصاف التتوَّى، فقال: ﴿ الضَّالِّينَ ۖ أَنفُسُهُمْ عَلَىٰ مَا يَحِبُّهُمُ اللَّهُ مِنْ طَاعَتِهِ، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، ﴿ الضَّالِّينَ ۖ فِي إِيْمَانِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ۖ وَالْمُنْفِقِينَ ۖ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ بِأَنْوَاعِ النَّفَقَاتِ عَلَىٰ الْمَحَاوِجِ مِنَ الْأَقْرَابِ وَغَيْرِهِمْ ۖ الضَّالِّينَ بِالْأَسْحَارِ ۖ لِمَا بَيْنَ صِفَاتِهِمُ الْحَمِيدَةِ ذَكَرَ احْتِقَارَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ، وَأَنَّهُمْ لَا يَرُونَ لِأَنْفُسِهِمْ حَالًا وَلَا مَقَامًا، بل يرون أنفسهم مذنبين مقصرين فيستغفرون ربهم، ويتوقعون أوقات

الإجابة وهي السحر، قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون ربهم. فتمت هذه الآيات حالة الناس في الدنيا وأنها متاع ينقضي، ثم وصف الجنة وما فيها من النعيم وفاضل بينهما، وفضل الآخرة على الدنيا تبييناً على أنه يجب إثباتها والعمل لها، ووصف أهل الجنة وهم المتقون، ثم فصل خصال التقوى، فبهذه الخصال يزن العبد نفسه، هل هو من أهل الجنة أم لا؟

(٢٠-١٨) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْآيَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ فَإِنْ حَاجَّكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهَ اللَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسَلْتُمْ إِنْ أَسَلْتُمْ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ هذا تقرير من الله تعالى للتوحيد بأعظم الطرق الموجبة له، وهي شهادته تعالى وشهادة خواص الخلق وهم الملائكة وأهل العلم، أما شهادته تعالى فيما أقامه من الحجج والبراهين القاطعة على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، فنوع الأدلة في الآفاق والأنفس على هذا الأصل العظيم، ولو لم يكن في ذلك إلا أنه ما قام أحد بتوحيده إلا ونصره على المشرك الجاحد المنكر للتوحيد، وكذلك إنعامه العظيم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، والخلق كلهم عاجزون عن المنافع والمضار لأنفسهم ولغيرهم، ففي هذا برهان قاطع على وجوب التوحيد وبطلان الشرك، وأما شهادة الملائكة بذلك فنستفيدها بإخبار الله لنا بذلك وإخبار رسله، وأما شهادة أهل العلم فلأنهم هم المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصاً في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها، وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك، ودعوا إليه وبيّنوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه، وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَعْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُتَّقَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُسْتَعْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجَّكَ فَقُلْ أَسَلْتُ وَجْهَ اللَّهِ وَمَنْ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسَلْتُمْ إِنْ أَسَلْتُمْ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ وَيَعْزِفُونَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ يُكْفَرُونَ أُولَئِكَ أَوْلِيَاءُ الشَّيْطَانِ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقِطَ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾

بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إظهاره تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم، وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه، ولما قرر توحيده قرر عدله، فقال: ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ أي: لم يزل متصفاً بالقسط في أفعاله وتدييره بين عباده، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه، وفيما خلقه وقدره، ثم أعاد تقرير توحيده فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراجه بالعبودية قد دلت عليه الأدلة الثقلية والأدلة العقلية، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس، فأما الأدلة الثقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقريره، ومحبة أهله وبغض من لم يحم به وعقوباتهم، وذم الشرك وأهله، فهو من الأدلة الثقلية على ذلك، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصوره للأمور فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير

منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه الخالق الرازق المدير لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه. ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره، انفراده بالنعم ودفع النقم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نعمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها، وإن أحدًا من الخلق لا يملك لنفسه - فضلًا عن غيره - جلب نعمة ولا دفع نعمة، تيقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل، وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار، فلهذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جدًّا، ومن الأدلة العقلية أيضًا على ذلك: ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفعًا ولا ضرًا، ولا تنصر غيرها ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئًا، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بالمخلوقات المُدَبَّرَات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون، ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلًا إلى كل خير، دافعًا لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سببًا للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم المطيعين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: لعلبة يعتبر بها المعتبرون، فيعلمون أن توحيدهم هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية الثقلية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى من حي عن بيته، ويهلك من هلك عن بيته، فله الحمد والشكر والثناء.

ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بين العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام

الله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحثت عليها كتبه، وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه، وهو متضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء ومتابعة رسوله في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو على طريقهم، وإنما اختلفت أهل الكتاب بعدما جاءتهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغيًا بينهم، وظلمًا وعدوانًا من أنفسهم، وإلا فقد جاءهم السبب الأكبر الموجب أن يتبعوا الحق ويتركوا الاختلاف، وهذا من كفرهم، فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بِغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، وخصوصًا من ترك الحق بعد معرفته، فهذا مستحق للوعيد الشديد والعقاب الأليم، ثم أمر تعالى رسوله ﷺ عند محاجة النصارى وغيرهم ممن يفضل غير دين الإسلام عليه، أن يقول لهم: قد ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ أي: أنا ومن اتبعني قد أقررنا وشهدنا وأسلمنا وجوهنا لربنا، وتركنا ما سوى دين الإسلام، وجزمنا ببطلانه، ففي هذا تأسيس لمن طمع فيكم، وتجديد لدينكم عند ورود الشبهات، وحجة على من اشتبه عليه الأمر، لأنه قد تقدم أن الله استشهد على توحيدهم بأهل العلم من عباده، ليكونوا حجة على غيرهم، وسيد أهل العلم وأفضلهم وأعلمهم هو نبينا محمد ﷺ، ثم من بعده أتباعه على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم، فلهم من العلم الصحيح والعقل الرجيح ما ليس لأحد من الخلق ما يساويهم أو يقاربهم، فإذا ثبت وتقرر توحيد الله ودينه بأدلتها الظاهرة، وقام به أكمل الخلق وأعلمهم، حصل بذلك اليقين، وانتفى كل شك وريب وقادح، وعرف أن ما سواه من الأديان باطل، فلهذا قال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من النصارى واليهود ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ من العرب وغيرهم ﴿ءَأَسْلَمْتُمْ إِنْ أَسْلَمُوا﴾ أي: بمثل ما آمتمت به ﴿فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ كما اهتديتم، وصاروا إخوانكم، لهم مالكم، وعليهم ما عليكم ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الإسلام، ورضوا بالأديان التي تخالفه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فقد وجب أجرك على ربك، وقامت عليهم الحجة، ولم يبق بعد هذا إلا مجازاتهم بالعقاب على جرمهم، فلهذا قال: ﴿وَاللَّهُ بِصِيْرِكُمْ بِالْعَبَادِ﴾

(٢١، ٢٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي أَرْضِنَا وَأَلْخَصِرَ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿هؤلاء الذين أخبر الله

عنه في هذه الآية، أشد الناس جرماً، وأي جرم أعظم من الكفر بآيات الله التي تدل دلالة قاطعة على الحق الذي من كفر بها فهو في غاية الكفر والعناد، ويقتلون أنبياء الله الذين قههم أوجب الحقوق على العباد بعد حق الله، الذين أوجب الله طاعتهم والإيمان بهم، وتعزيزهم وتوقيعهم، ونصرهم، وهؤلاء قابلوهم بصد ذلك، ويقتلون أيضاً الذين يأمرون الناس بالقسط الذي هو العدل، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي حقيقته إحسان إلى الأمور ونصح له، فقابلوهم شر مقابلة، فاستحقوا بهذه الجنایات المنكرات أشد العقوبات، وهو العذاب المؤلم البالغ في الشدة إلى غاية لا يمكن وصفها، ولا يقدر قدرها، المؤلم للأبدان والقلوب والأرواح، وبطلت أعمالهم بما كسبت أيديهم، وما لهم أحد ينصرهم من عذاب الله ولا يدفع عنهم من نعمته مقال ذرة، بل قد أيسوا من كل خير، وحصل لهم كل شر وضير، وهذه الحالة صفة اليهود ونحورهم، قبحهم الله، ما أجرأهم على الله وعلى أنبيائه وعباده الصالحين.

(٢٣-٢٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَمُوعَدُهُمْ أَنَّ لَهُمْ أُولَئِكَ لَا تَمَسُّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُقِّيتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب الذين أنعم الله عليهم بكتابه، فكان يجب أن يكونوا أقوم الناس به وأسرعهم انقياداً لأحكامه، فأخبر الله عنهم أنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تولى فريق منهم وهم يعرضون، تولوا بأبدانهم، وأعرضوا بقلوبهم، وهذا غاية الذم، وفي ضمنها التحذير لنا أن نعمل كفعالهم، فيصيبنا من الذم والعقاب ما أصابهم، بل الواجب على كل أحد إذا دعي إلى كتاب الله أن يسمع وطيع وينقاد، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ والسبب الذي غر أهل الكتاب بتجرئهم على معاصي الله هو قولهم: ﴿أَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ افتروا هذا القول فظنوه حقيقة، فعملوا على ذلك ولم ينزجروا عن المحارم، لأن أنفسهم متهم وغرتهم أن مآلهم إلى الجنة، وكذبوا في ذلك، فإن هذا مجرد كذب وافتراء، وإنما مآلهم شر مآل، وعاقبتهم عاقبة وخيمة، فلهذا قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: كيف يكون حالهم وخيم ما يقدمون عليه، حالة لا يمكن وصفها ولا يتصور قبحها، لأن ذلك اليوم يوم توفية النفوس ما

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ فَرِيقًا مِّنْهُمْ وَمُوعَدُهُمْ أَنَّ لَهُمْ أُولَئِكَ لَا تَمَسُّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُقِّيتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿تُؤْتِي الْآيِلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤْتِي الْآيِلَ فِي النَّهَارِ فِي الْآيِلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَنَّةً وَيَحذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ ﴿قُلْ إِن تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ بُدُّوا يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

كسبت، ومجازاتها بالعدل لا بالظلم، وقد علم أن ذلك على قدر الأعمال، وقد تقدم من أعمالهم ما يبين أنهم من أشد الناس عذاباً.

(٢٦، ٢٧) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُؤْتِي الْآيِلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤْتِي الْآيِلَ فِي الْآيِلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يقول لبيه ﷻ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ﴾ أي: أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك، والتصريف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد البارئ تعالى بها، فقال: ﴿تُؤْتِي الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقيصرة ومن تبعهم ويؤتية أمة محمد، وقد فعل والله الحمد، فحصول الملك ونزعه تبع لمشيئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله، لا

يوجد سبب مستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سبباً لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدرون عليها والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية، فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرٍ وَإِلْمُومِينَ ۝ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَتْ فِيكَ فَاذْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فأخبر أن اتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم، ثم قال تعالى: ﴿وَعِزُّكَ مِنَ تَشَاءُ﴾ بطاعتك ﴿وَوَكْدُكَ مِنَ تَشَاءُ﴾ بمعصيتك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتكم وقدرتك ﴿تُولِيهِ الْيَلَدَ فِي السَّمَاءِ وَتُولِيهِ السَّمَاءَ فِي الْيَلَدِ﴾ أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضياء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ مَوْتٍ﴾ كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزرع من بذره، وكالمؤمن من الكافر ﴿وَتُخْرِجُ الْيَتِيمَ مِنَ الْيَتِيمِ﴾ كاليهية من الطائر وكالنوى من الشجر وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، وهذا أعظم دليل على قدرة الله، وأن جميع الأشياء مسخرة مدبرة لا تملك من التدبير شيئاً، فخلقه تعالى الأضداد، والضد من ضده بيان أنها مقهورة ﴿وَتَرْزُقُكَ مِنَ تَشَاءُ بِعَبْرٍ حِسَابٍ﴾ أي: ترزق من تشاء رزقاً واسعاً من حيث لا يحسب ولا يكتسب، ثم قال تعالى:

يوجد سبب مستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سبباً لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدرون عليها والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية، فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِصَبْرٍ وَإِلْمُومِينَ ۝ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَيْسَتْ فِيكَ فَاذْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ فأخبر أن اتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم، ثم قال تعالى: ﴿وَعِزُّكَ مِنَ تَشَاءُ﴾ بطاعتك ﴿وَوَكْدُكَ مِنَ تَشَاءُ﴾ بمعصيتك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتكم وقدرتك ﴿تُولِيهِ الْيَلَدَ فِي السَّمَاءِ وَتُولِيهِ السَّمَاءَ فِي الْيَلَدِ﴾ أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضياء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ مَوْتٍ﴾ كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزرع من بذره، وكالمؤمن من الكافر ﴿وَتُخْرِجُ الْيَتِيمَ مِنَ الْيَتِيمِ﴾ كاليهية من الطائر وكالنوى من الشجر وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، وهذا أعظم دليل على قدرة الله، وأن جميع الأشياء مسخرة مدبرة لا تملك من التدبير شيئاً، فخلقه تعالى الأضداد، والضد من ضده بيان أنها مقهورة ﴿وَتَرْزُقُكَ مِنَ تَشَاءُ بِعَبْرٍ حِسَابٍ﴾ أي: ترزق من تشاء رزقاً واسعاً من حيث لا يحسب ولا يكتسب، ثم قال تعالى:

(١) جاء في هامش النسخة ما يلي: (قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «المنهاج» وأما قوله: ﴿إِلَّا أَنْ كَتَبْنَا وَنَهْنُهُ نَعْنَةً﴾ قال مجاهد: لا مصانعة، والثقة ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا نفاق، ولكن أفعَل ما أقدِر عليه كما في «الصحیح» عن النبي ﷺ: «من رأى منكُم منكرًا» إلخ، فالؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدكم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه وإلا فقلبه، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه، وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله، بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقاً لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتم إيمانه، وكنمان الدين شيء وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يبعه الله إلا لمن أكرهه إلخ.

(٣٠-٢٨) ﴿لَا يَجِدُ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰفِرِينَ اَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۗ وَنَنْفَعَلُ ذٰلِكَ فٰلِيسَ مِنْ اَللّٰهِ فِي شَيْءٍ اِلَّا اَنْ كَتَبْنَا وَنَهْنُهُ نَعْنَةً ۗ وَنَجْرُكُمْ اَللّٰهُ نَفْسُكُمْ ۗ وَاِلٰى اَللّٰهِ اَلْمَصِيْرُ ۗ قُلْ اِنْ تَحْفَضُوْا مَا فِيْ صُدُوْرِكُمْ اَوْ تَبْدُوْهُ يَعْلَمُهُ اَللّٰهُ وَيَعْلَمُ مَا فِيْ السَّمٰوٰتِ وَمَا فِيْ الْاَرْضِ ۗ وَاَللّٰهُ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ۗ ۝ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عٰوَدَتْ مِنْ حَبْرِ تَحْتَضَرُّ وَمَا عٰوَدَتْ مِنْ سُوْوٍ تُوُوْ لَوْ اَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ اَمْدًا بَعِيْدًا ۗ وَيَجْرُكُمْ اَللّٰهُ نَفْسُكُمْ ۗ وَاَللّٰهُ رَءُوْفٌ اَلْبٰبِدُ ۗ وَهٰذَا نَهٰى مِنْ اَللّٰهِ تَعَالٰى لِّلْمُؤْمِنِيْنَ عَنِ مٰوَاةِ الْكٰفِرِيْنَ بِالْحُبُوْبَةِ وَالنَّصْرَةِ وَالِاسْتِعَاْنَةِ بِهِمْ

القيامة، فهو الذي توفي به النفوس بأعمالها، فهذا قال: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْتَصَرًا﴾ أي: كاملاً موفراً لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدّة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن، وليتركها وقت الإمكان قبل أن يقول: ﴿بَحْسَرَتِي عَلَىٰ مَا فَطَرْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ ﴿يَوْمَ يَرَىٰ يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ ﴿وَيَوْمَ يَصُغُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۚ يَا لَيْتَنِي لَيْتَنِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا حَلِيلًا﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسَى الْقُرْآنَ﴾ فوالله لترك كل شهوة ولذة وإن عسر تركها على النفس في هذه الدار، أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفصائح، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور، فيقدم على ما ينفعه عاجلاً وأجلاً، ويحجم عن ما يضره عاجلاً وأجلاً، ثم أعاد تعالى تحذيرنا نفسه رافة بنا ورحمة لئلا يطول علينا الأمد فتفسو قلوبنا، وليجمع لنا بين الترغيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب، فقال: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ فَتَنَسَهُ اللَّهُ رَوْفًا بِالْعِبَادِ﴾ فسألنا أن يمن علينا بالحد منه على الدوام، حتى لا نفعل ما يسخطه ويغضبه.

(٣١) ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة، فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لا بد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسول الله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محباً لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاها، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول يكون إيمانهم وحبهم لله، وما

يَوْمَ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْتَصَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ فَتَنَسَهُ اللَّهُ رَوْفًا بِالْعِبَادِ ﴿٣١﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٤﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٧﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْزِيلُ مِنَ اللَّهِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾

نقص من ذلك نقص.

(٣٢) ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ وهذا أمر من الله تعالى لعباده بأعم الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهى عنه، لأن اجتنابه امتثالاً لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله ورسوله، فليس ثم أمر يرجعون إليه إلا الكفر وطاعة كل شيطان مرید ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فهذا قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكٰفِرِينَ﴾ بل يغضهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكان في هذه الآية الكريمة بياناً وتفسيراً لاتباع رسوله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي، ثم قال تعالى:

(٣٧-٣٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۚ ذُرِّيَّةً بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۚ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ

أحوالهم الموجبة لذلك فضلاً منه وكرماً .

ومن الفائدة والحكمة في قصة علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نجهم ونقتدي بهم، ونسال الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزي (١) أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضاً من لطفه بهم، وإظهاره الشاء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائده معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكاهم مخلدة ومناقهم مؤبدة لكفى بذلك فضلاً، ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى، وكيف لطف الله بها في تربيتها ونشأتها، فقال: ﴿إِذْ قَالَتْ أَمْرًا تُبْطِئُ فِي بَطْنِي مَحْرَجًا﴾ . أي: جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك، محرراً لخدمتك وخدمة بيتك ﴿فَقَبَّلَ مِنْهَا﴾ هذا العمل المبارك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ كأنها تشوقت أن يكون ذكرًا ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقفاً، ففي كلامها [نوع] (٢) ﴿عذر من ربه، فقال الله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرْيَمَ﴾ فيه دلالة على تفضيل الذكر على الأنثى، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للام تسمية الولد إذا لم يكره الأب ﴿وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ دعت لها ولذريتها أن يعيدهم الله من الشيطان الرجيم ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: جعلها نذيرة مقبولة، وأجارها وذريتها من الشيطان ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: بنتت نباتاً حسناً في بدنها وخلقتها وأخلاقها، لأن الله تعالى قبض لها زكريا عليه السلام ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ إياه، وهذا من رفقته بها ليربيها على أكمل الأحوال، فنشأت في عبادة ربه وفاقته النساء، وانقطعت لعبادة ربه، ولزمت محرابها أي: مصلاها فكان ﴿كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أي: من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فيقول لها زكريا ﴿أَنْ لَكَ هَذَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فضلاً وإحساناً ﴿إِنَّ اللَّهَ يُرِزُّ مَنْ يُشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من غير حسابان من العبد ولا كسب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك، خلافاً

(١) في الأصل: وممن (٢) في الأصل: نزدي. (٣) الكلمة غير واضحة في الأصل، ويبدو - والله أعلم - أنها كما أثبت.

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۖ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيدُهَا بِلَكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۖ فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنْ لَكَ هَذَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُرِزُّ مَنْ يُشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يخبر تعالى باختبار من اختاره من أوليائه وأصفياه وأحبابه، فأخبر أنه اصطفى آدم، أي اختاره على سائر المخلوقات، فخلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَجَعَلْنَاهُمْ فِي الدَّرَجَاتِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ .

واصطفى نوحاً فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبت الأوثان، ووفقه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاؤه واجتباؤه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن (١) معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه لليران وولده للقران وماله للضيفان، ودعا إلى ربه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده، لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ، فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم

واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلماذا قال تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَآخِئْتِهِمْ وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه، ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من

لمن نفى ذلك، فلما رأى زكريا عليه السلام ما من الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاها بغير سعي منها ولا كسب، طمعت نفسه بالولد، فلهذا قال تعالى:

(٤١-٣٨) ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝ فَدَاتَهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَآمَرَنِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ إِنَّكَ عَلَىٰ شَيْءٍ عَاقِرٌ فَلَا تَكَلِّمُنَّ نَارًا إِلَّا رَمْرًا وَذَكَرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَوَسَّحْنَا بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۝ أَي: دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم، فاستجاب له دعاءه، وبينما هو قائم في محرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: بعيسى عليه السلام، لأنه كان بكلمة الله ﴿وَسَيِّدًا﴾ أي: يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون به سيدًا يرجع إليه في الأمور ﴿وَحَصُورًا﴾ أي: ممنوعًا من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغالا بخدمة ربه وطاعته ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فأى بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، وبكونه نبيا من الصالحين، فقال زكريا من شدة فرحه ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَآمَرَنِي عَاقِرٌ﴾ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، وكيف وقد اجتمعا، فأخبره الله تعالى أن هذا خارق للعادة، فقال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ فكما أنه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجدهم من غير ما سبب فعل، لأنه لا يستعصي عليه شيء، فقال زكريا عليه السلام استعجالاً لهذا الأمر، وليحصل له كمال الطمأنينة ﴿رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أي: علامة على وجود الولد ﴿قَالَ عَائِثُكَ إِلَّا تُكَلِّمُنَّ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾ أي: ينحبس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة بالرمز، وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها، فإنه يوجد بدون أسبابها، ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من الحراب ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: أول النهار وآخره.

(٤٤-٤٢) ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَمْرِيمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَدَاتَهُ الْمَلَكُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَآمَرَنِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ إِنَّكَ عَلَىٰ شَيْءٍ عَاقِرٌ فَلَا تَكَلِّمُنَّ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَذَكَرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَوَسَّحْنَا بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَمْرِيمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلِكَةُ يَمْرِيمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٦﴾

وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝ يَمْرِيمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ ۝ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ينوه تعالى بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت: ﴿يَمْرِيمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ أي: اختارك ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الآفات المنقصة ﴿وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها على سائر نساء العالمين، إما على عالمي زمانها، أو مطلقاً، وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لم يناف الاصطفاء المذكور، فلما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله إياها وتطهيرها، كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ما يوجب لها القيام بشكرها، فلهذا قالت لها الملائكة: ﴿يَمْرِيمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ﴾ القنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع، ﴿وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ خص السجود والركوع لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع لله، ففعلت مريم ما أمرت به شكرًا لله تعالى وطاعة، ولما أخبر الله

سورة آل عمران

٥٦

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾
 قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ
 اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾
 وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾
 وَرَسُولًا إِنَّا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنَّا قَدْ جِئْتُمْكُم بِنَائِهِ مِّن رَّبِّكُمْ
 أَنَّىٰ أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ
 فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٤٩﴾ أَي: طيرًا له روح يطير بإذن الله ﴿٥٠﴾ وَأَرْبَىٰ
 الْأَكْمَمَةَ ﴿٥١﴾ وَهُوَ الَّذِي يُولَدُ أَعْمَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْأَنْبِيَاءُ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴿٥٣﴾ وَأَنبَى
 الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنثِيَتْكُمْ يَمًا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾ وَأَيُّ آيَةٍ أَكْبَرُ مِنْ جَعَلِ الْجَمَادَ
 حَيَوَانًا، وَإِبْرَاءَ ذَوِي الْعَاهَاتِ الَّتِي لَا قُدْرَةَ لِلْأَطْبَاءِ فِي
 مَعَالِجَتِهَا، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَالِإِخْبَارِ بِالْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ، فَكُلُّ
 وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ بِمُفْرَدِهَا، فَكَيْفَ بِهَا إِذَا
 اجْتَمَعَتْ وَصَدَقَ بَعْضُهَا بِبَعْضِهَا؟ فَإِنَّمَا مَوْجِبَةٌ لِلِإِقْبَانِ وَدَاعِيَةٌ
 لِلِإِيمَانِ ﴿٥٥﴾ وَمُصَدِّقَةٌ لِّمَا بَيَّنَّتْ يَدَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ ﴿٥٦﴾ أَي: آتَتْ
 بِجَنَسٍ مَا جَاءَتْ بِهِ التَّوْرَةُ وَمَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
 وَعَلَامَةٌ الصَّادِقِ أَنْ يَكُونَ خَبْرُهُ مِنْ جَنَسِ خَبْرِ الصَّادِقِينَ، يَخْبِرُ
 بِالصَّادِقِ، وَيَأْمُرُ بِالْعَدْلِ مِنْ غَيْرِ تَخَالُفٍ وَلَا تَنَاقُضٍ، بِخِلَافِ
 مَنْ ادَّعَىٰ دَعْوَىٰ كَاذِبَةٍ، خُصُوصًا أَكْبَرُ الدَّعَاوَىٰ وَهِيَ دَعْوَىٰ
 النُّبُوَّةِ، فَالْكَاذِبُ فِيهَا لَا يَدَّ أَنْ يَظْهَرَ لِكُلِّ أَحَدٍ كَذِبَ صَاحِبِهَا
 وَتَنَاقُضَهُ وَمُخَالَفَتَهُ لِأَخْبَارِ الصَّادِقِينَ وَمُوَافَقَتَهُ لِأَخْبَارِ
 الْكَاذِبِينَ، هَذَا مُوجِبٌ السَّنَنِ الْمَاضِيَةِ وَالْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةِ
 وَالرَّحْمَةَ الرَّبَّانِيَّةَ بَعْبَادِهِ، إِذْ لَا يَشْتَبِهُ الصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ فِي
 دَعْوَىٰ النُّبُوَّةِ أَبَدًا، بِخِلَافِ بَعْضِ الْأُمُورِ الْجَزْئِيَّةِ، فَإِنَّهُ قَدْ
 يَشْتَبِهُ فِيهَا الصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ، وَأَمَّا النُّبُوَّةُ فَإِنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا
 هِدَايَةُ الْخَلْقِ أَوْ ضَلَالَتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ وَشِقَاؤُهُمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ
 الصَّادِقَ فِيهَا مِنْ أَكْمَلِ الْخَلْقِ، وَالْكَاذِبَ فِيهَا مِنْ أَوْسَخِ الْخَلْقِ
 وَأَكْذَبِهِمْ وَأَظْلَمِهِمْ، فَحِكْمَةُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ بَعْبَادِهِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا
 مِنَ الْفُرُوقِ مَا يَتَبَيَّنُ لِكُلِّ مَنْ لَهُ عَقْلٌ، ثُمَّ أَخْبَرَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ أَنَّ شَرِيعَةَ الْإِنْجِيلِ شَرِيعَةٌ فِيهَا سَهُولَةٌ وَيَسْرَةٌ، فَقَالَ:
 ﴿وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿٥٧﴾ فَذَلِكَ عَلَىٰ أَنْ
 أَكْثَرَ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ لَمْ يَنْسَخْهَا الْإِنْجِيلُ، بَلْ كَانَ مَتَمِّمًا لَهَا
 وَمُقَرَّرًا

قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه
 وأطيعوني، فإن طاعة الرسول طاعة لله ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
 فَاعْبُدُوهُ﴾ استدلل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على
 توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي
 خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعمًا ظاهرة وباطنة، فليكن هو
 معبودنا الذي نألله بالحب والخوف والرجاء والدعاء
 والاستعانة وجميع أنواع العبادة، وفي هذا رد على النصارى
 القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه
 عبد مبدئ مخلوق، كما قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
 نَبِيًّا﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتُ لِلنَّاسِ
 اعْبُدُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ
 مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ إِلَىٰ قَوْلِهِ ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا
 مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وقوله ﴿هَذَا﴾ أي: عبادة
 الله وتقواه وطاعة رسوله ﴿صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الله
 وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم،
 ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ أي: رأى منهم عدم الانقياد
 له، وقالوا هذا سحر مبين، وهموا بقتله وسعوا في ذلك ﴿قَالَ﴾

بالحكمة معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها،
 فيكون ذلك امتنانًا على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة
 والعلم والحكمة، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه، ثم ذكر
 له كمالًا آخر وفضلًا زائدًا على ما أعطاه الله من الفضائل،
 فقال: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فأرسله الله إلى هذا الشعب
 الفاضل الذين هم أفضل العالمين في زمانهم يدعوهم إلى الله،
 وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقًا ونبية صدقًا،
 ولهذا قال: ﴿أَنَّىٰ قَدْ جِئْتُمْكُم بِنَائِهِ مِّن رَّبِّكُمْ أَنَّىٰ أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ
 الطِّينِ﴾ طيرًا، أي: صورته على شكل الطير ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ
 طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: طيرًا له روح يطير بإذن الله ﴿وَأَرْبَىٰ
 الْأَكْمَمَةَ﴾ وهو الذي يولد أعمى ﴿وَالْأَنْبِيَاءُ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وَأَنبَى
 الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنثِيَتْكُمْ يَمًا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٤﴾ وَأَيُّ آيَةٍ أَكْبَرُ مِنْ جَعَلِ الْجَمَادَ
 حَيَوَانًا، وَإِبْرَاءَ ذَوِي الْعَاهَاتِ الَّتِي لَا قُدْرَةَ لِلْأَطْبَاءِ فِي
 مَعَالِجَتِهَا، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَالِإِخْبَارِ بِالْأُمُورِ الْغَيْبِيَّةِ، فَكُلُّ
 وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ آيَةٌ عَظِيمَةٌ بِمُفْرَدِهَا، فَكَيْفَ بِهَا إِذَا
 اجْتَمَعَتْ وَصَدَقَ بَعْضُهَا بِبَعْضِهَا؟ فَإِنَّمَا مَوْجِبَةٌ لِلِإِقْبَانِ وَدَاعِيَةٌ
 لِلِإِيمَانِ ﴿٥٥﴾ وَمُصَدِّقَةٌ لِّمَا بَيَّنَّتْ يَدَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ ﴿٥٦﴾ أَي: آتَتْ
 بِجَنَسٍ مَا جَاءَتْ بِهِ التَّوْرَةُ وَمَا جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ،
 وَعَلَامَةٌ الصَّادِقِ أَنْ يَكُونَ خَبْرُهُ مِنْ جَنَسِ خَبْرِ الصَّادِقِينَ، يَخْبِرُ
 بِالصَّادِقِ، وَيَأْمُرُ بِالْعَدْلِ مِنْ غَيْرِ تَخَالُفٍ وَلَا تَنَاقُضٍ، بِخِلَافِ
 مَنْ ادَّعَىٰ دَعْوَىٰ كَاذِبَةٍ، خُصُوصًا أَكْبَرُ الدَّعَاوَىٰ وَهِيَ دَعْوَىٰ
 النُّبُوَّةِ، فَالْكَاذِبُ فِيهَا لَا يَدَّ أَنْ يَظْهَرَ لِكُلِّ أَحَدٍ كَذِبَ صَاحِبِهَا
 وَتَنَاقُضَهُ وَمُخَالَفَتَهُ لِأَخْبَارِ الصَّادِقِينَ وَمُوَافَقَتَهُ لِأَخْبَارِ
 الْكَاذِبِينَ، هَذَا مُوجِبٌ السَّنَنِ الْمَاضِيَةِ وَالْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةِ
 وَالرَّحْمَةَ الرَّبَّانِيَّةَ بَعْبَادِهِ، إِذْ لَا يَشْتَبِهُ الصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ فِي
 دَعْوَىٰ النُّبُوَّةِ أَبَدًا، بِخِلَافِ بَعْضِ الْأُمُورِ الْجَزْئِيَّةِ، فَإِنَّهُ قَدْ
 يَشْتَبِهُ فِيهَا الصَّادِقُ بِالْكَاذِبِ، وَأَمَّا النُّبُوَّةُ فَإِنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا
 هِدَايَةُ الْخَلْقِ أَوْ ضَلَالَتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ وَشِقَاؤُهُمْ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ
 الصَّادِقَ فِيهَا مِنْ أَكْمَلِ الْخَلْقِ، وَالْكَاذِبَ فِيهَا مِنْ أَوْسَخِ الْخَلْقِ
 وَأَكْذَبِهِمْ وَأَظْلَمِهِمْ، فَحِكْمَةُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ بَعْبَادِهِ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا
 مِنَ الْفُرُوقِ مَا يَتَبَيَّنُ لِكُلِّ مَنْ لَهُ عَقْلٌ، ثُمَّ أَخْبَرَ عِيسَىٰ عَلَيْهِ
 السَّلَامُ أَنَّ شَرِيعَةَ الْإِنْجِيلِ شَرِيعَةٌ فِيهَا سَهُولَةٌ وَيَسْرَةٌ، فَقَالَ:
 ﴿وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿٥٧﴾ فَذَلِكَ عَلَىٰ أَنْ
 أَكْثَرَ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ لَمْ يَنْسَخْهَا الْإِنْجِيلُ، بَلْ كَانَ مَتَمِّمًا لَهَا
 وَمُقَرَّرًا
 ﴿جِئْتُمْكُم بِنَائِهِ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدل على صدقي ووجوب
 اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات، والمقصود من ذلك كله

الْبُرْجَانِ

٥٧

سُورَةُ آلِ

رَبِّئِنَّآ أَمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتَسَبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمُكْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ
إِلَىٰ وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ
فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٩﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا فَأَعَذِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا
لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٦٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾
ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٦٢﴾
مِثْلَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِذْ نَسَبْنَاهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَنَسَبْنَا
لَهُ كُنُفْيًا لَمَّا كَفَرَ مِنَ رَبِّكَ فَلَنُفِّرَنَّ عَنْكَ سِوَاهُ
وَنُنَزِّلُكَ بِقُوَّةٍ مِّنَ السَّمَاءِ فَتَخَذِعُ لَهُ كُلُّ بَشَرٍ
مَّا يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ
الظَّالِمِينَ ﴿٦٤﴾

بالله وآياته ورسله ﴿فَأَعَذِبْنَاهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾
أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات
المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب
الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة
العظيمة، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم
ثواب الأبرار ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾ ينصرونهم من عذاب
الله، لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم
أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم
ينصرون، ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله
والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به
﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ القلبية والقولية والبدنية التي جاءت
بشرعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين ﴿فَيُوَفِّيهِمْ
أُجُورَهُمْ﴾ دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب
لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما
توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات
محضرًا موفرا، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من
فضله وكرمه ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بل يبغضهم ويحل عليهم

أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴿من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله
﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم الأنصار ﴿مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي انتدبوا
معه وقاموا بذلك، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ ﴿فَأَكْتَسَبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ﴾ أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله
وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر
دين الله وإقامة شرعه آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت
طائفة، فاقترنت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على
عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فلماذا قال تعالى هنا:
﴿وَمَكَرُوا﴾ أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره
﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ بهم جزاء لهم على مكروهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ
الْمُكْرِمِينَ﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين ﴿إِذْ
قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنِي مَرْيَمَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ
كَفَرُوا﴾ فرجع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على
غيره، فأخذوا من ألقى شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وباؤوا
بالإثم العظيم بنيتهم أنه رسول الله، قال الله ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا
صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شِئْنَهُمْ﴾ وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى
واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص
القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول
والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزًا قويًا قاهرًا، ومن عزته أن
كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل
عيسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ كَفَفْنَا بَنِي
إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا
إِلَّا إِسْرَافٌ مُّبِينٌ﴾ حكيم يضع الأشياء مواضعها، وله أعظم
حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل، فوقعوا في الشبه، كما
قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لَيُبَسِّرُنَّ مَا لَمْ يَأْمُرْ بِهِمْ
إِلَّا لِيَبْغِ الظَّالِمِينَ وَمَا قُلُوهُ يَفِيئًا﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ
فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وتقدم أن الله أيد المؤمنين
منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المتسبين لعيسى عليه
السلام لم يزلوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع
عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمدًا ﷺ فكان
المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم
على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض
الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين،
حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ ﴿ثُمَّ إِلَىٰ
مَرْجِعِكُمْ﴾ أي: مصير الخلاق كلها ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا
كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره
مخطيء، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر عن
حكمه بينهم بالقسط والعدل، فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي:

سخطه وعذابه ﴿ذَلِكَ تَتَلَوُوهُ عَلَيْهِمْ مِنَ آيَاتِنَا وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ﴾
وهذا منه عظمة على رسوله محمد ﷺ وعلى أمته، حيث أنزل
عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المتقن، المفصل
للأحكام والحلال والحرام وأخبار الأنبياء الأقدمين، وما
أجرى الله على أيديهم من الآيات البينات والمعزات
الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما ينفعنا من الأخبار
والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت القواد ما هو
من أعظم رحمة رب العباد، ثم قال تعالى:

(٥٩، ٦٠) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ
تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ أَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُنذَرِينَ﴾
يخبر تعالى محتجاً على النصرارى الزاعمين بعيسى عليه السلام
ما ليس له بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له
والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكاً لله في الربوبية،
وهذا ليس بشبهة فضلاً أن يكون حجة، لأن خلقه كذلك من
آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير، وأن جميع
الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، فهو على نقيض قولهم
أدل، وعلى أن أحدًا لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه
أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب
ولا من أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصرارى في
المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى
وأحرى، فإن صح ادعاء النبوة والإلهية في المسيح، فادعائها
في آدم من باب أولى وأحرى، فلماذا قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ
عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝
أَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح
عليه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من
ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قصص عليكم
ما قصص من أخبار الأنبياء عليهم السلام ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُنذَرِينَ﴾
أي الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذه الآية وما
بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه
حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن
يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي
فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه
عن حلها القدر فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل،
قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالَةُ﴾ وبهذه القاعدة
الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة بوردها المتكلمون
ويرتبتها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا
فوظيفته أن يبين الحق بأدلتها ويدعو إليه.

(٦١-٦٣) ﴿فَمَنْ حَاجَبَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ فَقُلْ

تَمَالَوْا نِعْمَ أَنْبَاءَنَا وَأَنْبَاءُكُمْ وَسَاءَ مَا وَصَّيْنَاكُمْ وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ
نَسْتَبِلُ فَتَجْعَلُ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكٰذِبِينَ ۝ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَصْحُ
الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَرْجِعُ الْحَكِيمُ ۝ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ
اللَّهَ عِيسَىٰ بِالْمَقْسُودِ ۝ أَي: ﴿فَمَنْ﴾ جادلك و﴿حَاجَبَكَ﴾ في عيسى
عليه السلام، وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق
منزله ﴿فَمَنْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْوَعْدِ﴾ بأنه عبدالله ورسوله
وبينت لمن جادلك ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم
الله عليه، دل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني،
فلم يبق في مجادلتك فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأن
الحق قد تبين، فجداله فيه جدال معاند مشاق لله ورسوله،
قصده اتباع هواه، لا اتباع ما أنزل الله، فهذا ليس فيه حيلة،
فأمر الله نبيه أن ينتقل إلى مباهلته وملاعبته، فيدعون الله
ويتهلون إليه أن يجعل لعنته وعقوبته على الكاذب من
الفرقيين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء،
فدعاهم النبي ﷺ إلى ذلك فتولوا وأعرضوا ونكلوا، وعلموا
أنهم إن لاعنوه رجعوا إلى أهلهم وأولادهم فلم يجدوا أهلاً
ولا مآلاً وعوجلوا بالعقوبة، فرضوا بدينهم مع جزمهم
ببطلانه، وهذا غاية الفساد والعناد، فلماذا قال تعالى: ﴿فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عِيسَىٰ بِالْمَقْسُودِ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة،
وأخبر تعالى ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي قصه الله على عباده هو ﴿الْفَصْحُ
الْحَقُّ﴾ وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل
﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهو المألوه المعبود حقاً الذي لا تنبغي
العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة ﴿وَإِلَى
اللَّهِ الْمَرْجِعُ﴾ الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء
﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة التامة في
ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقانلونهم ويجادلونهم
ويجاهدونهم بالقول والفعل^(١).

(٦٤) ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَتِهِ سَوَاءٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
أَلَّا نَسْبُدُ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا
مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: قل
لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿تَمَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَتِهِ سَوَاءٌ
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هلموا نجتمع عليها وهي الكلمة التي اتفق
عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون
والضالون، ليست مخصصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا
وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدل،
ثم فسرها بقوله: ﴿أَلَّا نَسْبُدُ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾ فنفرده

(١) في تفسير هذه الآيات تقديم وتأخير يسير، فقد أخرج تفسير قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقد أبقيتها على ما هي عليه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٨

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ

اِنَّ هٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ اِلٰهٍ اِلَّا اللَّهُ وَاِنَّ اللَّهَ لَهٗوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٦﴾ فَاِنْ تَوَلَّوْا فَاِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِيْنَ ﴿٦٧﴾
 قُلْ يٰٓاَهْلَ الْكِتٰبِ تَعَالَوْا اِلَى كَلِمَةٍ سَوِيٍّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ
 اَلَّا نَعْبُدَ اِلَّا اللَّهَ وَلَا نَتَّكِفُ بِهٖ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا
 بَعْضًا اَرْبَابًا مِنْ دُوْنِ اللَّهِ فَاِنْ تَوَلَّوْا فَقَوْلُوْا اَشْهَدُوْا بِاَنَّا
 مُسْلِمُوْنَ ﴿٦٨﴾ يٰٓاَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تُحَاجُّوْنَ فِيْ
 اِبْرٰهِيْمَ وَمَا اَنْزَلَتْ التَّوْرَةُ وَاَلْاِنْجِيْلَ اِلَّا مِنْ بَعْدِهِۦٓ اَفَلَا
 تَعْقِلُوْنَ ﴿٦٩﴾ هٰتٰنْتُمْ هٰتُوْلَآءُ حٰجِجْتُمْ فَيَمَّا لَكُمْ بِهٖ
 عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ فَيَمَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهٖ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَاَنْتُمْ
 لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٧٠﴾ مَا كَانَ اِبْرٰهِيْمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلٰكِنْ كَانَ
 حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ﴿٧١﴾ اِنَّ اَوَّلِي النَّاسِ
 بِاِبْرٰهِيْمَ لِلَّذِيْنَ اتَّبَعُوْهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَاللَّهُ وَبِيُّ
 الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿٧٢﴾ وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ لَوْ يُضِلُّوْكُمْ
 وَمَا يُضِلُّوْكُمْ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ﴿٧٣﴾ يٰٓاَهْلَ
 الْكِتٰبِ لِمَ تَكْفُرُوْنَ بِآيٰتِ اللَّهِ وَاَنْتُمْ تَشْهَدُوْنَ ﴿٧٤﴾

وناصرهم ومؤيدهم، وأما من نبذ ملته وراء ظهره كاليهود
 والنصارى والمشركين، فليسوا من إبراهيم وليس منهم، ولا
 ينفعهم مجرد الانتساب الخالي من الصواب. وقد اشتملت
 هذه الآيات على النهي عن المحاجة والمجادلة بغير علم،
 وأن من تكلم بذلك فهو متكلم في أمر لا يمكن منه ولا يسمح
 له فيه، وفيها أيضا حث على علم التاريخ، وأنه طريق لرد كثير
 من الأقوال الباطلة والدعاوى التي تخالف ما علم من
 التاريخ، ثم قال تعالى:

(٦٩-٧٤) ﴿وَدَّتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ لَوْ يُضِلُّوْكُمْ وَمَا
 يُضِلُّوْكُمْ اِلَّا اَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ﴾ ○ يٰٓاَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَكْفُرُوْنَ
 بِآيٰتِ اللَّهِ وَاَنْتُمْ تَشْهَدُوْنَ ○ يٰٓاَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تَلْبِسُوْنَ الْحَقَّ
 بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوْنَ الْحَقَّ وَاَنْتُمْ تَسْلُمُوْنَ ○ وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ
 ءَامِنُوْا بِالَّذِيْٓ اُنزِلَ عَلٰى الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَجِهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَ لَعَلَّهُمْ
 يَرْجِعُوْنَ ○ وَلَا تُؤْمِنُوْا اِلَّا لِمَنْ تَبِعَ وَبَيِّنَاتٍ قُلْ اِنَّ الْهُدٰى هٰذِيْ اَللَّهُ اَنْ
 يُؤْتِيَ أَحَدًا مِّثْلَ مَا اُوْتِيْتُمْ اَوْ يُعَاجِزُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ اِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ
 يُؤْتِيهِ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ○ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهٖ مَنْ يَّشَآءُ وَاللَّهُ ذُو
 الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن مكر هذه

الله بالعبادة، ونخصه بالحب والخوف والرجاء، ولا نشرك به
 نبيا ولا ملكا ولا وليا ولا صنما ولا وثنا ولا حيوانا ولا
 جمادا ﴿وَلَا يَتَّخِذُ بَعْضًا بَعْضًا اَرْبَابًا مِنْ دُوْنِ اللَّهِ﴾ بل تكون
 الطاعة كلها لله ولرسله، فلا نطيع المخلوقين في معصية
 الخالق، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية، فإذا
 دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك، فإن أجابوا كانوا
 مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن تولوا فهم
 معاندون متبعون أهواءهم، فأشهدوهم أنكم مسلمون، ولعل
 الفائدة في ذلك أنكم إذا قلمت لهم ذلك وأنتم أهل العلم على
 الحقيقة، كان ذلك زيادة على إقامة الحجة عليهم، كما
 استشهد تعالى بأهل العلم حجة على المعاندين، وأيضا فإنكم
 إذا أسلمتم وأنتم فلا يعبا الله بعدم إسلام غيركم لعدم
 زكائهم ولخبث طويتهم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامِنُوْا بِهٖ اَوْ لَا
 تُؤْمِنُوْا اِنَّ الَّذِيْنَ اُوْتُوْا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهٖٓ اِذَا يَتْلٰى عَلَيْهِمْ يُحْزِنُوْنَ لِذَلٰلٰتِ سَجْدَاكُمُ
 الْاَيَّةِ، وأيضا فإن في ورود الشبهات على العقيدة الإيمانية مما
 يوجب للمؤمن أن يجدد إيمانه ويعلن بإسلامه، إخبارا ببقائه
 وشكرا للعمة ربه.

(٦٥-٦٨) ﴿يٰٓاَهْلَ الْكِتٰبِ لِمَ تُحَاجُّوْنَ فِيْ اِبْرٰهِيْمَ وَمَا
 اَنْزَلَتْ التَّوْرَةُ وَاَلْاِنْجِيْلَ اِلَّا مِنْ بَعْدِهِۦٓ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ○ هٰتٰنْتُمْ هٰتُوْلَآءُ
 حٰجِجْتُمْ فَيَمَّا لَكُمْ بِهٖ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّوْنَ فَيَمَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهٖ عِلْمٌ وَاللَّهُ
 يَعْلَمُ وَاَنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ ○ مَا كَانَ اِبْرٰهِيْمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلٰكِنْ كَانَ
 حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ○ اِنَّ اَوَّلِي النَّاسِ بِاِبْرٰهِيْمَ لِلَّذِيْنَ
 اتَّبَعُوْهُ وَهٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِيْنَ ءَامَنُوْا وَاللَّهُ وَبِيُّ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ لما ادعى
 اليهود أن إبراهيم كان يهوديا، والنصارى أنه نصراني،
 وجادلوا على ذلك، رد تعالى محاجتهم ومجادلتهم من ثلاثة
 أوجه، أحدها: أن جدالهم في إبراهيم جدال في أمر ليس لهم
 به علم، فلا يمكن لهم ولا يسمح لهم أن يحتجوا ويجادلوا في
 أمر هم أجنب عنه، وهم جادلوا في أحكام التوراة
 والإنجيل، سواء أخطأوا أم أصابوا، فليس معهم المحاجة في
 شأن إبراهيم، الوجه الثاني: أن اليهود يتسبون إلى أحكام
 التوراة، والنصارى يتسبون إلى أحكام الإنجيل، والتوراة
 والإنجيل ما أنزلا إلا من بعد إبراهيم، فكيف يتسبون إبراهيم
 إليهم وهو قبلهم متقدم عليهم، فهل هذا: يعقل؟! فلهذا قال:
 ﴿اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ﴾ أي: فلو عقلتم ما تقولون لم تقولوا ذلك،
 الوجه الثالث: أن الله تعالى برأ خليله من اليهود والنصارى
 والمشركين، وجعله حنيفا مسلما، وجعل أولى الناس به من
 آمن به من أمته، وهذا النبي وهو محمد ﷺ ومن آمن معه، فهم
 الذين اتبعوه، وهم أولى به من غيرهم، والله تعالى وليهم

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٥٩

الْبَاطِلِ

يَتَّاهِلَ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُوتَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا
بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارَ وَكُفُّوا عَاجِرَهُ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنْ
الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوْكُمْ
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ
عِلْمُهُ ﴿٧٣﴾ يَخْضِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِعِقَابِ
يُودِهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا
مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ فَايْمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِ
سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾
بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنْ
الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا
خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

ديكر ﴿٧١﴾ أي: لا تتقوا ولا تطمئنوا ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، واكتموا^(١) أمركم، فإنكم إذا أخبرتم غيركم وغير من هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا مثلكم، أو حاجوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنها قامت عليكم الحجة، وتبين لكم الهدى فلم تتبعوه، فالحاصل أنهم جعلوا عدم إخبار المؤمنين بما معهم من العلم قطعاً عنهم العلم، لأن العلم بزعيمهم لا يكون إلا عندهم، وموجباً للحجة عليهم، فرد الله عليهم بأن ﴿الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ فمادة الهدى من الله تعالى لكل من اهتدى، فإن الهدى إما علم الحق، أو إثاره، ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، وأهل الكتاب لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه لخبث نياتهم وسوء مقاصدهم، وأما هذه الأمة فقد حصل لهم - والله الحمد - من هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به وبرزوا على كل أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهدون بأمر

(١) المراد - والله أعلم - : واكتموا أمركم عن غير من تبع دينكم.

الطائفة الخبيثة من أهل الكتاب، وأنهم يودون أن يضلوكم، كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كِفَارًا﴾ ومن المعلوم أن من ود شيئاً سعى بجهدته على تحصيل مراده، فهذه الطائفة تسعى وتبذل جهدها في رد المؤمنين وإدخال الشبه عليهم بكل طرق يقدرون عليه، ولكن من لطف الله أنه لا يحق المكر السيئ إلا بأهله، فلهاذا قال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾ فسيهم في إضلال المؤمنين زيادة في ضلال أنفسهم وزيادة عذاب لهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ بذلك أنهم يسعون في ضرر أنفسهم، وأنهم لا يضرونكم شيئاً ﴿يَتَّاهِلَ الْكِتَابَ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ يَا أَيُّهَا اللَّهُ وَأَنْتُمْ شَهِدُونَ ﴿أي: ما الذي دعاكم إلى الكفر بآيات الله مع علمكم بأن ما أنتم عليه باطل، وأن ما جاءكم به محمد ﷺ هو الحق الذي لا تشكون فيه، بل تشهدون به، ويسر به بعضكم إلى بعض في بعض الأوقات، فهذا نهيمهم عن ضلالهم، ثم وبخهم على إضلالهم الخلق، فقال: ﴿يَتَّاهِلَ الْكِتَابَ لِمَ تَلْسُوتَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فوبخهم على ليس الحق بالباطل وعلى كتمان الحق، لأنهم بهذين الأمرين يضلون من انتسب إليهم، فإن العلماء إذا لبسوا الحق بالباطل فلم يميزوا بينهما، بل أقبوا الأمر مبهماً، وكتموا الحق الذي يجب عليهم إظهاره، ترتب على ذلك من خفاء الحق وظهور الباطل ما ترتب، ولم يهتد العوام الذين يريدون الحق لمعرفة حتى يؤثره، والمقصود من أهل العلم أن يظهروا للناس الحق ويعلموا به، ويميزوا الحق من الباطل، ويظهروا الخبيث من الطيب، والحلال والحرام، والعقائد الصحيحة من العقائد الفاسدة، ليهتدي المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا كَتُمُونَهُ فَجَدَوْهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ ثم أخبر تعالى عن ما همت به هذه الطائفة الخبيثة، وإرادة المكر بالمؤمنين، فقال: ﴿وَقَالَتْ طَافِيَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهَ النَّهَارَ وَكُفُّوا عَاجِرَهُ﴾ أي: ادخلوا في دينهم على وجه المكر والكيد أول النهار، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن دينهم، فيقولون لو كان صحيحاً لما خرج منه أهل العلم والكتاب، هذا الذي أرادوه، عجباً بأنفسهم، وظناً أن الناس سيحسنون ظنهم بهم، ويتابعونهم على ما يقولونه ويفعلونه، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴿و﴾ قال بعضهم لبعض ﴿لَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ

الموضع، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى، سواء كانوا من الأئمين أو غيرهم، فمن قال ليس علينا في الأئمين سبيل، فلم يوف بعهده ولم يتق الله، فلم يكن ممن يحبه الله، بل ممن يبغضه الله، وإذا كان الأئميون قد عرفوا بوفاء العهود ويتقوا الله وعدم التجريء على الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف الذين يقولون ليس علينا في الأئمين سبيل، فإنهم داخلون في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئاً من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية، فهؤلاء ﴿لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ﴾ أي: لا نصيب لهم من الخير ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾ يوم القيامة غضباً عليهم وسخطاً، لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يطهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجه للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسأل الله العافية.

(٧٨) ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ آيَاتِنَاهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى أن من أهل الكتاب فريقاً يلون آياتهم بالكتاب، أي: يميلونه ويحرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل اللي والتحريف لألفاظه ومعانيه، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما تعريضاً وإما تصريحاً، فالتعريض في قوله: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي: يلون آياتهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله، وليس هو المراد، والتصريح في قولهم: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا أعظم جرماً ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتزليل اللفظ الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك.

(٧٩، ٨٠) ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نِعْمَ كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ ولا

الله، وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾ أي: الله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان ﴿يُوْتِيهِمْ مِنْ نَشَأَةٍ﴾ ممن أتى بأسبابه ﴿وَاللَّهُ رَاسِعٌ﴾ الفضل كثير الإحسان ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: برحمته المطلقة التي تكون في الدنيا متصلة بالآخرة، وهي نعمة الدين ومتمماته ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يصفه الواصفون، ولا يخطر بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً.

(٧٥-٧٧) ﴿وَمَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ ○ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْفِتْمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب في الوفاء والخيانة في الأموال، لما ذكر خيانتهم في الدين ومكرهم وكنتمهم الحق، فأخبر أن منهم الخائن والأمين، وأن منهم ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ﴾ وهو المال الكثير ﴿يُؤَدِّهِ﴾ وهو على أداء ما دونه من باب أولى، ومنهم ﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ وهو على عدم أداء ما فوقه من باب أولى وأخرى، والذي أوجب لهم الخيانة وعدم الوفاء إليكم بأنهم زعموا أنه ﴿لَيْسَ﴾ عليهم ﴿فِي الْأُمْنِ سَبِيلٌ﴾ أي: ليس عليهم إثم في عدم أداء أموالهم إليهم، لأنهم بزعمهم الفاسد ورأيهم الكاسد قد احتقروهم غاية الاحتقار، وأوا أنفسهم في غاية العظمة، وهم الأذلاء الأحقرون، فلم يجعلوا للأئمين حرمة، وأجازوا ذلك، فجمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حله، وكان هذا كذباً على الله، لأن العالم الذي يحلل الأشياء المحرمة قد كان عند الناس معلوم أنه يخبر عن حكم الله ليس يخبر عن نفسه، وذلك هو الكذب، ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا أعظم إثمًا من القول على الله بلا علم، ثم رد عليهم زعمهم الفاسد، فقال: ﴿بِكَلِّ﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه ليس عليكم في الأئمين حرج، بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم.

﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى﴾ والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جميع ما أوجه الله على العبد من حقه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، والتقوى تكون في هذا

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٦٠

الْمَلَأْنَا

يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلنَّفْسِ وَالْوَالِدَيْنِ أَرْبَابًا أَيُّمَرُكُمْ بِالنِّكْفَرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وهذه الآية نزلت ردًا لمن قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله، فقلوه: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَيْ: يمتنع ويستحيل على بشر من الله عليه بإنزال الكتاب وتعليمه ما لم يكن يعلم وإرساله للخلق أن﴾ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿٨٢﴾ فهذا من أمحل المحال صدره من أحد الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن هذا أفصح الأوامر على الإطلاق، والأنبياء أكمل الخلق على الإطلاق، فأوامرهم تكون مناسبة لأحوالهم، فلا يأمرهم إلا بعمالي الأمور، وهم أعظم الناس نهيًا عن الأمور القبيحة، فلماذا قال: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي علماء حكماء حلماء معلمين للناس ومربيهم، بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرهم بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، ويفوت شيء منها يحصل النقص والخلل، والباء في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ﴾ الخ، باء السببية، أي: بسبب تعليمكم لغيركم المتضمن لعلمكم ودرسكم لكتاب الله وسنة نبيه، التي بدرسها يرسخ العلم ويبقى، تكونون ربانيين ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلنَّفْسِ وَالْوَالِدَيْنِ أَرْبَابًا﴾ وهذا تعميم بعد تخصيص، أي: لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبين وغيرهم ﴿أَيُّمَرُكُمْ بِالنِّكْفَرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ هذا ما لا يكون، ولا يتصور أن يصدر من أحد من الله عليه بالنبوة، فمن قدح في أحد منهم بشيء من ذلك فقد ارتكب إنمًا عظيمًا وكفرًا وخيما.

﴿٨١، ٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَجْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

والسلام لو أدر كوه لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته، وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم، فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ، لما قرره تعالى: ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ أي: قبلنا ما أمرتنا به على الرأس والعين ﴿قَالَ﴾ الله لهم: ﴿فَاشْهَدُوا﴾ على أنفسكم وعلى أممكم بذلك، قال: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ ○ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ الْعَهْدَ وَالْمِيثَاقَ الْمُؤَكَّدَ بِالشَّهَادَةِ مِنْ اللَّهِ وَمِنْ رَسَلِهِ ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ فعلى هذا كل من ادعى أنه من أتباع الأنبياء كاليهود والنصارى ومن تبعهم، فقد تولوا عن هذا الميثاق الغليظ، واستحقوا الفسق الموجب للخلود في النار إن لم يؤمنوا بمحمد ﷺ.

﴿٨٣﴾ أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَجْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٤﴾ أي: يطلب الطالبون ويرغب الراغبون في غير دين الله؟ لا يحسن هذا ولا يليق، لأنه لا أحسن دينًا من دين الله ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: الخلق كلهم مقادون بتسخيره، مستسلمون له طوعًا واختيارًا، وهم المؤمنون

يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلنَّفْسِ وَالْوَالِدَيْنِ أَرْبَابًا أَيُّمَرُكُمْ بِالنِّكْفَرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وهذه الآية نزلت ردًا لمن قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله، فقلوه: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَيْ: يمتنع ويستحيل على بشر من الله عليه بإنزال الكتاب وتعليمه ما لم يكن يعلم وإرساله للخلق أن﴾ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿٨٢﴾ فهذا من أمحل المحال صدره من أحد الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن هذا أفصح الأوامر على الإطلاق، والأنبياء أكمل الخلق على الإطلاق، فأوامرهم تكون مناسبة لأحوالهم، فلا يأمرهم إلا بعمالي الأمور، وهم أعظم الناس نهيًا عن الأمور القبيحة، فلماذا قال: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي علماء حكماء حلماء معلمين للناس ومربيهم، بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرهم بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، ويفوت شيء منها يحصل النقص والخلل، والباء في قوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ﴾ الخ، باء السببية، أي: بسبب تعليمكم لغيركم المتضمن لعلمكم ودرسكم لكتاب الله وسنة نبيه، التي بدرسها يرسخ العلم ويبقى، تكونون ربانيين ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلنَّفْسِ وَالْوَالِدَيْنِ أَرْبَابًا﴾ وهذا تعميم بعد تخصيص، أي: لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبين وغيرهم ﴿أَيُّمَرُكُمْ بِالنِّكْفَرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ هذا ما لا يكون، ولا يتصور أن يصدر من أحد من الله عليه بالنبوة، فمن قدح في أحد منهم بشيء من ذلك فقد ارتكب إنمًا عظيمًا وكفرًا وخيما.

﴿٨١، ٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ أَفَعَيَّرَ دِينَ اللَّهِ يَجْعُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦١

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ

قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ رَّبِّهِمْ
وَاسْمِعُوا لِمَا يَحْكُمُ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَاتِهَا فَذِكْرٌ لَّكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٨٤﴾

قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ رَّبِّهِمْ
وَاسْمِعُوا لِمَا يَحْكُمُ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَاتِهَا فَذِكْرٌ لَّكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٨٥﴾

قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ رَّبِّهِمْ
وَاسْمِعُوا لِمَا يَحْكُمُ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَاتِهَا فَذِكْرٌ لَّكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٨٦﴾

قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ رَّبِّهِمْ
وَاسْمِعُوا لِمَا يَحْكُمُ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَاتِهَا فَذِكْرٌ لَّكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾

قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ رَّبِّهِمْ
وَاسْمِعُوا لِمَا يَحْكُمُ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَاتِهَا فَذِكْرٌ لَّكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٨٨﴾

قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ رَّبِّهِمْ
وَاسْمِعُوا لِمَا يَحْكُمُ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَاتِهَا فَذِكْرٌ لَّكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٨٩﴾

قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ رَّبِّهِمْ
وَاسْمِعُوا لِمَا يَحْكُمُ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَاتِهَا فَذِكْرٌ لَّكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٩٠﴾

قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ رَّبِّهِمْ
وَاسْمِعُوا لِمَا يَحْكُمُ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَاتِهَا فَذِكْرٌ لَّكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٩١﴾

بعد إيمانه، ثم ازداد كفراً إلى كفره بتماديته في الغي والضلال، واستمراره على ترك الرشد والهدى، أنه لا تقبل توبتهم، أي: لا يوفقون لتوبة تقبل، بل يمددهم الله في طغيانهم يعمهون، قال تعالى: ﴿وَتَقَبَّلْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصُرْهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَوْ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا زَأْرًا أَرْأَى اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ فالسيئات تنتج بعضها بعضاً، وخصوصاً لمن أقدم على الكفر العظيم وترك الصراط المستقيم، وقد قامت عليه الحجة، ووضح الله له الآيات والبراهين، فهذا هو الذي سعى في قطع أسباب رحمة ربه عنه، وهو الذي سد على نفسه باب التوبة، ولهذا حصر الضلال في هذا الصنف، فقال: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من ترك الطريق عن بصيرة، وهؤلاء الكفرة إذا استمروا على كفرهم إلى الممات تعين هلاكهم وشقاؤهم الأبدي، ولم ينفعهم شيء، فلو أنفق أحدهم ملاء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب الله ما نفعه ذلك، بل لا يزالون في العذاب الأليم، لا شافع لهم ولا ناصر ولا مغيث ولا مجبر ينقذهم من عذاب الله، فأيسوا من كل خير، وجزموا على الخلود الدائم في العقاب والسخط، فعياًداً بالله من حالهم.

المسلمون المتقادون لعبادة ربهم، وكرهاهم سائر الخلق، حتى الكافرون مستسلمون لقضائه وقدره لا خروج لهم عنه، ولا امتناع لهم منه، وإليه مرجع الخلائق كلها، فيحكم بينهم ويحازيهم بحكمه الدائر بين الفضل والعدل.

(٨٤) ﴿قُلْ ءَاَمَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا اُنزِلَ عَلَيْنَا مِنْ رَّبِّهِمْ وَاسْمِعُوا لِمَا يَحْكُمُ مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَاتِهَا فَذِكْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

تقدم نظير هذه الآية في سورة البقرة، ثم قال تعالى:

(٨٥) ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ عَيْرَ الْاِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْاٰخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِيْنَ﴾ أي: من يدين لله بغير دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، فعمله مردود غير مقبول، لأن دين الإسلام هو المتضمن للاستسلام لله، إخلاصاً وانقياداً لرسله، فما لم يأت به العبد لم يأت بسبب النجاة من عذاب الله والفوز بوابه، وكل دين سواه فباطل، ثم قال تعالى:

(٨٦-٨٨) ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللّٰهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ اِيْمَانِهِمْ وَشَهِدُوا اَنَّ الرَّسُوْلَ حَقٌّ وَّجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰلِمِيْنَ ۝ اُولٰٓئِكَ جزَاؤُهُمْ اَنَّ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللّٰهِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ وَالنّٰسِ اَجْمَعِيْنَ ۝ خَلدِيْنَ فِيْهَا لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُوْنَ﴾

هذا من باب الاستبعاد، أي: من الأمر البعيد أن يهدي الله قوماً اختاروا الكفر والضلال بعدما آمنوا وشهدوا أن الرسول حق بما جاءهم به من الآيات البيّنات والبراهين القاطعات ﴿وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰلِمِيْنَ﴾ فهؤلاء ظلموا وتركوا الحق بعدما عرفوه، واتبعوا الباطل مع علمهم ببطلانه ظلماً وبغيّاً واتباعاً لأهوائهم، فهؤلاء لا يوفقون للهداية، لأن الذي يرجى أن يهتدي هو الذي لم يعرف الحق وهو حريص على التماسه، فهذا بالحري أن ييسر الله له أسباب الهداية، ويصونه من أسباب الغواية، ثم أخبر عن عقوبة هؤلاء المعاندين الظالمين الدنيوية والأخروية، فقال: ﴿اُولٰٓئِكَ جزَاؤُهُمْ اَنَّ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللّٰهِ وَالْمَلٰٓئِكَةِ وَالنّٰسِ اَجْمَعِيْنَ ۝ خَلدِيْنَ فِيْهَا لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُوْنَ﴾ أي: لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا لحظة، لا يباله أو إزالة بعض شدته، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُوْنَ﴾ أي: يمهلون، لأن زمن الإمهال قد مضى، وقد أعذر الله منهم، وعمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، فلو كان فيهم من خير لوجد، ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه.

(٩٠، ٩١) ﴿اِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بَعْدَ اِيْمَانِهِمْ ثُمَّ اَزْدَادُوْا كُفْرًا لَّنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَاُولٰٓئِكَ هُمُ الضّٰلُّونَ ۝ اِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَمَاتُوْا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ اَحَدِهِمْ مِّلَّةٌ اِلَّا اَرْضٌ ذَهَبًا وَلَوْ اَفْتَدٰتْ بِهٖ ۝ اُولٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نّٰصِرِيْنَ﴾ يخبر تعالى أن من كفر

سُورَةُ آلِ اِنْتِمَانِ

٦٢

الْمُؤْمِنِينَ

لَنْ نَنسَأُكَ الْبَرِّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِّبْتُمْ ۗ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّكَ اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ ۖ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَائِلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ ۖ فَمَنْ أَفْرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ الْكُذْبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ ۖ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ ۖ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ۖ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَقَّامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ ۖ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ ۖ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصَدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ ۖ إِنَّكُمْ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ ۖ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿١٠٠﴾

من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وقيام الآيات والنبات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها، فلهذا قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي: فيما أخبر به وحكم، وهذا أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بالستهم: صدق الله، معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية، مقيمين هذه الشهادة على من أنكروها، ومن هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقاً لله أعظمهم علماً و يقيناً بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية، ثم أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالتوحيد وترك الشرك الذي هو مدار السعادة، وبتركة حصول الشقاوة، وفي هذا دليل على أن اليهود وغيرهم ممن ليس على ملة إبراهيم مشركون غير موحدين، ولما أمرهم باتباع ملة إبراهيم في التوحيد وترك الشرك أمرهم باتباعه بتعظيم بيته الحرام بالحج وغيره، فقال:

(٩٦، ٩٧) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۖ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا مَقَّامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

(٩٢) ﴿لَنْ نَنسَأُكَ الْبَرِّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِّبْتُمْ ۗ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّكَ اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ﴾ هذا حث من الله لعباده على الإنفاق في طرق الخيرات، فقال: ﴿لَنْ نَنسَأُكَ﴾ أي: تدركو وتبلغوا البر الذي هو كل خير من أنواع الطاعات وأنواع المشويات، الموصل لصاحبه إلى الجنة ﴿حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِّبْتُمْ﴾ أي: من أموالكم النفيسة التي تحبها نفوسكم، فإنكم إذا قدمتم محبة الله على محبة الأموال فبذلتموها في مرضاته، دل ذلك على إيمانكم الصادق وبر قلوبكم و يقين تقواكم، فيدخل في ذلك إنفاق نفائس الأموال، والإنفاق في حال حاجة المنفق إلى ما أنفقه، والإنفاق في حال الصحة، ودلت الآية أن العبد بحسب إنفاقه للمحوبات يكون بره، وأنه ينقص من بره بحسب ما نقص من ذلك، ولما كان الإنفاق على أي وجه كان مثاباً عليه العبد، سواء كان قليلاً أو كثيراً، محبوباً للنفس أم لا، وكان قوله: ﴿لَنْ نَنسَأُكَ الْبَرِّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبِّبْتُمْ﴾ مما يوهم أن إنفاق غير هذا المقيد غير نافع، احتراز تعالى عن هذا الوهم بقوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّكَ اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ﴾ فلا يضيق عليكم، بل يبيحك عليه على حسب نياتكم ونفعه.

(٩٣-٩٥) ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَائِلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۖ فَمَنْ أَفْرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۖ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا رد على اليهود بزعمهم الباطل أن النسخ غير جائز، فكفروا ب عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، لأنهما قد أتيا بما يخالف بعض أحكام التوراة بالتحليل والتحرير، فمن تمام الإنصاف في المجادلة إلزامهم بما في كتابهم التوراة من أن جميع أنواع الأطعمة محللة لبني إسرائيل ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ أي: من غير تحريم من الله تعالى، بل حرمه على نفسه لما أصابه عرق التنا نذر لئن شفاه الله تعالى ليحرم من أحب الأطعمة عليه، فحرم فيما يذكرون لحوم الإبل وألبانها، وتبعه بنوه على ذلك، وكان ذلك قبل نزول التوراة، ثم نزل في التوراة أشياء من المحرمات غير ما حرم إسرائيل مما كان حلالاً لهم طيباً، كما قال تعالى: ﴿فِيظَلُّونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيبَتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ ۖ وَأَمْرُ اللَّهِ رَسُولُهُ ۖ إِنَّ أَنْكَرَ مَا ذُكِرُوا عَلَيْهِمْ أَن يَأْمُرَهُمْ بِإِحْضَارِ التَّوْرَةِ، فاستمروا بعد هذا على الظلم والعناد، فلهذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَفْرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وأي ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه، فيمتنع من ذلك عناداً وتكبراً وتجبراً، وهذا

عَنِ الْكَافِرِينَ ﴿٩٦﴾ يخبر تعالى عن شرف هذا البيت الحرام، وأنه أول بيت وضعه الله للناس، يتعبدون فيه لربهم فتغفر أوزارهم، وتقال عثارهم، ويحصل لهم به من الطاعات والقربات ما ينالون به رضا ربهم والفوز بثوابه والنجاة من عقابه، ولهذا قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ أي: فيه البركة الكثيرة في المنافع الدينية والدنيوية، كما قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَفَعَهُ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾، ﴿وَهَدَىٰ لِلْمَسْجِدِ﴾ والهدى نوعان: هدى في المعرفة، وهدى في العمل، فالهدى في العمل ظاهر، وهو ما جعل الله فيه من أنواع التعبادات المختصة به، وأما هدى العلم فبما يحصل لهم بسببه من العلم بالحق بسبب الآيات البيئات التي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ أي: أدلة واضحات، وبراهين قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية والمطالب العالية، كالأدلة على توحيده ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله وكمال علمه وسعة جوده، وما منَّ به على أوليائه وأنبيائه، فمن الآيات ﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾ يحتمل أن المراد به المقام المعروف، وهو الحجر الذي كان يقوم عليه الخليل لبيان الكعبة لما ارتفع البنيان، وكان ملصقًا في جدار الكعبة، فلما كان عمر رضي الله عنه وضعه في مكانه الموجود فيه الآن، والآية فيه قيل: أثر قديم إبراهيم، قد أثرت في الصخرة، وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات، وقيل: إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه. ويحتمل أن المراد بمقام إبراهيم أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بيئات، كالطواف والسعي ومواضعهما، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر، والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها، وما في ضمنها من الأسرار البديعة والمعاني الرفيعة، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء بعضها، ومن الآيات البيئات فيها أن من دخله كان آمنًا شرعًا وقدرًا، فالشرع قد أمر الله ورسوله إبراهيم ثم رسوله محمد باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج، حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها، وقد استدلل بهذا الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وأما تأمينها قدرًا فلأن الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس، حتى نفوس

المشركين به الكافرين بربهم احترامه، حتى إن الواحد منهم مع شدة حميمتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه، ومن جعله حرمًا أن كل من أراده بسوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم، وقد رأيت لابن القيم ها هنا كلامًا حسنًا أحببت إيراده لشدة الحاجة إليه، قال: فائدة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ «حج البيت» مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله، والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله: «على الناس» لأنه وجوب، والوجوب يقتضي «على»، ويجوز أن يكون في قوله: «ولله» لأنه متضمن الوجوب والاستحقاق، ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير، فكان الأحسن أن يكون «ولله على الناس»، ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله: «حج البيت على الناس» أكثر استعمالًا في باب الوجوب من أن يقال: «حج البيت لله» أي: حق واجب لله، فتأمل.

وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان: إحداهما: أنه اسم للموجب للحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب، فنضمت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها: الموجب لهذا الفرض فبدأ بذكره، والثاني: مؤدي الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس، والثالث: النسبة، والحق المتعلق به إيجابًا وبهم وجوبًا وأداءً، وهو الحج.

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان اسمًا لله سبحانه، وجب الاهتمام بتقديمه تعظيمًا لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه، وتخفيفًا من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما يوجبه غيره.

وأما قوله: «مَنْ» فهي بدل، وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل بالمصدر، كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلًا، وهذا القول يضعف من وجوه، منها: أن الحج فرض عين، ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية، لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم، لأن المعنى يؤول إلى: والله على الناس حج البيت مستطيعهم، فإذا أدى المستطيعون الواجب لم يبق واجبًا على غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك، بل الحج فرض عين على كل أحد، حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطع بعجزه عن أداء الواجب، فلا يؤاخذ به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه، وليس حج

لأنه ضمير يعود على البيت، والبيت هو المقصود به الاعتناء، وهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم، وبيانه أعني هذا تقرير السهلي، وهذا بعيد جدًا، بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين، ولا يليق بالآية سواه، وهو الوجوب المفهوم من قوله «على الناس»، أي: يجب لله على الناس الحج، فهو حق واجب لله، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالًا منها، ففي غاية البعد فتأمل، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية، وهذا كما تقول: لله عليك الصلاة والزكاة والصيام.

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي، وهو الأكثر، ولفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو ﴿كَيْبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامَ﴾، ﴿حَرَمْتَ عَلَيْكُمْ الْيَتَةَ﴾، ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه: أحدها أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص، ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف «على» أبدل منه أهل الاستطاعة، ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذانًا بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت، من قوت أو مال، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلًا، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ أي: لعدم التزامه هذا الواجب وتركه، ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه، والله تعالى هو الغني الحميد، ولا حاجة به إلى حج أحد، وإنما في ذكر استغناؤه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه، ثم أكد ذلك بذكر اسم «العالمين» عمومًا، ولم يقل: فإن الله غني عنه، لأنه إذا كان غنيًا عن العالمين كلهم، فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجبه عليه، ثم أكد هذا المعنى بأداة «إن» الدالة على التأكيد، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد هذا الفرض العظيم.

وتأمل سر البديل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين، مرة بإسناده إلى عموم الناس، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين، وهذا من فوائد البديل تقوية المعنى وتأكيد بتكرار الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته.

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وخلتين، اعتناء به وتأكيدًا لشأنه، ثم تأمل كيف افتتح هذا

المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين، وإذا أردت زيادة إيضاح، فإذا قلت: واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعون للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب في غيرهم، وإذا قلت واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع، كان الوجوب متعلقًا بالجميع وعر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال: والله حج البيت على المستطيعين، هذه النكتة البديعة فتأملها.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول، ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول، فلو كان «مَنْ» هو الفاعل لأضيف المصدر إليه فكان يقال: «والله على الناس حج من استطاع» وحمله على باب «يعجبني ضرب زيد عمرًا» وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول، والظرف حمل على المكتوب المرجوح، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم)، فلا يصار إليه. وإذا ثبت أن «مَنْ» بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى «الناس» كأنه قيل: من استطاع منهم، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن، وحسنه ها هنا أمور منها: أن «من» واقعة على من لا يعقل، كالاسم المبدل منه فارتبطت به، ومنها: أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول، ولو كانت الصلة أعم لقبح حذف الضمير العائد، ومثال ذلك إذا قلت: رأيت إخوتك من ذهب إلى السوق منهم، كان قبيحًا، لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة، وكذلك لو قلت: البس الثياب ما حسن وجمل، يريد منها، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب.

وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه، فإذا كان أعم وأضيفته إلى ضمير أو قيده بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص، ومما حسن حذف المضاف في هذه أيضًا مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول.

وأما المجرور من قوله «الله» فيحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون في موضع من سبيل، كأنه نعت نكرة قدم عليها، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل، والثاني: أن يكون متعلقًا بسبيل، فإن قلت: كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل؟ قيل: السبيل لما كان عبارة ها هنا عن الموصول إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما، كان فيه رائحة الفعل، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق، فصلح تعلق المجرور به، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير،

إلجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعو النفوس إلى قصده وحجه، وإن لم يطلب ذلك منها، فقال: ﴿إِنَّ أَوْلَ بَيْتٍ﴾ الخ، فوصفه بخمس صفات: أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض، الثاني: أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه، ولا أكثر خيراً، ولا أدم، ولا أنفع للخلائق، الثالث: أنه هدى، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة، حتى كأنه نفس الهدى، الرابع: ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية، الخامس: الأمن الحاصل لداخله، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه، وإن شطت بالزائرين الديار وتناوت بهم الأقطار، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات، وهذا يدل على الاعتناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره، والتعظيم لشأنه، والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه، بقوله: ﴿وَلَطَّهَّرَ بَيْتِي﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرقاً، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حباله وشوقاً إلى رؤيته، فهذه المثابة للمحبين يثوبون إليه، ولا يقضون منه وطراً أبداً، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم، كما قيل:

أطوف به والنفس بعد مشوقة

إليه وهل بعد الطواف تداني
وألثم منه الركن أطلب برد ما

بقلبي من شوق ومن هيمان

فوالله ما أزداد إلا صباباً

ولا القلب إلا كثرة الخفقان

فيا جنة المأوى ويا غاية المنى

ويا منيتي من دون كل أمان

أبت غلبات الشوق إلا تقرباً

إليك فما لي بالبعاد يدان

وما كان صدي عنك صد ملالة

ولي شاهد من مقلتي ولسان

دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا

فلبي البكا والصبر عنك عصاني

وقد زعموا أن المحب إذا نأى

سبلى هواه بعد طول زمان

ولو كان هذا الزعم حقاً لكان ذا

دواء الهوى في الناس كل زمان

اتهى كلامه رحمه الله تعالى.

(٩٨-١٠١) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ

شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ

مِنَ ءَامَنٍ تَبَوَّأَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ ءَالَفْتُمْ كُفْرًا وَعَدَدٌ

مِنكُمْ كُفْرًا ۝ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ

وَيُحَكِّمُ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَمِدِ بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝

يوضح تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى على كفرهم بآيات الله

التي أنزلها الله على رسله، التي جعلها رحمة لعباده يهتدون

بها إليه، ويستدلون بها على جميع المطالب المهمة والعلوم

النافعة، فهؤلاء الكفرة جمعوا بين الكفر بها وصد من آمن بالله

عنها وتحريفها وتعويجها عما جعلت له، وهم شاهدون

بذلك، عالمون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم

العقوبة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ

الَّذِي عَلَيْهِمْ لِيَأْتِيَهُمْ كُفْرًا ۚ فَهُمْ كَمَا كَانُوا يُكْفَرُونَ﴾ فلماذا توعدهم هنا بقوله: ﴿وَمَا

اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل محيط بأعمالكم^(٢) ونياتكم ومكركم

السيء، فمجازيكم عليه أشر الجزاء لما توعدهم ووبخهم

عطف برحمته وجوده وإحسانه وحذر عباده المؤمنين منهم لئلا

يمكروا بهم من حيث يشعرون، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن

تَطِيعُوا قَرِيبًا مِّنَ الَّذِينَ ءَالَفْتُمْ كُفْرًا وَعَدَدٌ مِّنكُمْ كُفْرًا ۚ وَكَيفَ

تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَيُحَكِّمُ رَسُولُهُ ۚ وَمَن

يَعْتَمِدِ بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝

ثم ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب

الأكبر لثبات المؤمنين على إيمانهم، وعدم تزلزلهم عن

(١) في الهامش كتب: أي: الهوى. (٢) في الهامش: (لعل صواب هذا

البيت قوله:

بلى إنه يُبلى المحب وإنه

على حاله لم يبلى الملوان

وبمراجعة بدائع الفوائد (٤٦/٢) تبين أن البيت كما يلي:

بلى إنه يبلى المتصبر والهوى

على حاله لم يبلى الملوان

(٣) في الأصل: بأعمالهم، ولعل الصواب ما أثبت.

بذكرها، فقال: ﴿وَأَذْكُرُوا لَكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً﴾ يقتل بعضكم بعضاً، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضهم بعضاً، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والاقتيال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ فلما بعثه الله وآمنوا به، واجتمعوا على الإسلام، وتآلفت قلوبهم على الإيمان، كانوا كالشخص الواحد، من تألف قلوبهم وموالاته بعضهم لبعض، ولهذا قال: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَأَصْحَحَ بِمَعْبَرِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾ أي قد استحققتهم^(١) النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بما من عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي: يوضحها ويفسرهما، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال ﴿لَمَّا كَرِهْتُمْ النَّارَ﴾ بمعرفة الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكراً له ومحبة، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ، واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

(١٠٥، ١٠٤) ﴿وَلَنْتَنُكُمْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ولكن منكم أيها المؤمنون الذين من الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله ﴿أُمَّةٌ﴾ أي: جماعة ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ﴾ وهو ما عرف بالعقل والشرع حسنه ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو ما عرف بالشرع والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس، وإلزامهم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكتفقد المكاييل والموازين، وتفقد أهل الأسواق، ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات، كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله: ﴿وَلَنْتَنُكُمْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ الخ

(١) كذا في الأصل، ولعل الصواب: استحققتهم.

إيقانهم، وأن ذلك من أبعاد الأشياء، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ أي: الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت، وهي الآيات البيئات التي توجب القطع بموجها والحزم بمقتضاها وعدم الشك فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، خصوصاً والمبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه، فضلوات الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين، فلم يبق في نفوس القائلين مقالاً، ولم يترك لجائل في طلب الخير مجالاً، ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر، واستعان به على كل خير ﴿فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ موصل له إلى غاية المرغوب، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله، وبين الاعتصام بالله.

(١٠٢، ١٠٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ. وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا لَكُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ فَأَصْحَحَ بِمَعْبَرِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَمَّا كَرِهْتُمْ النَّارَ﴾ هذا أمر من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويثبتوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوماً لتقوى ربه وطاعته، منيباً إليه على الدوام، ثبته الله عند موته، ورزقه حسن الخاتمة، وتقوى الله حق تقواه، كما قال ابن مسعود: وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: ﴿فَأَلْفُوا اللَّهَ مَا أَسْطَعْتُمْ﴾ وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جداً، يجمعها فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه، ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى، وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، واتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم، وبالاجتماع يتمكون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عداها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالاتفاق والتعادي يختل نظامهم وتنقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ. وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠٦﴾
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ. وَلَا تَمُونُوا بِالْأَنْفُسِ الْمُسْلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا. وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٨﴾ وَلَسْتَ تَكُونَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٩﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١١١﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٢﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾

يليق بكم إلا النار، ولا تستحقون إلا العزري والفضيحة والعار ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضتْ وُجُوهُهُمْ ﴿١٠٧﴾ فيهنئون وأكمل تهنته، ويبشرون أعظم بشارة، وذلك أنهم يبشرون بدخول الجنات ورضا ربهم ورحمته ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وإذا كانوا خالدين في الرحمة، فالجنة أثر من آثار رحمته تعالى، فهم خالدون فيها بما فيها من النعيم المقيم والعيش السليم، في جوار أرحم الراحمين، لما بين الله لرسوله ﷺ الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا﴾ أي: نقصها ﴿عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ لأن أوامره ونواهيه مشتملة على الحكمة والرحمة وثوابها وعقابها، كذلك مشتمل على الحكمة والرحمة والعدل والخالي من الظلم، ولهذا قال: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ نفى إرادته ظلمهم فضلاً عن كونه يفعل ذلك، فلا يتقص أحدًا شيئاً من حسناته، ولا يزيد في ظلم الظالمين، بل يجازيهم بأعمالهم فقط، ثم قال تعالى:

(١٠٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: هو المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي خلقهم ورزقهم ويتصرف فيهم بقدره وقضائه، وفي

أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المتقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به، فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمور به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقرول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطلوب، الناجون من المهروب، ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ ومن العجائب أن اختلافهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الموجبة لعدم التفرق والاختلاف، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، فاستحقوا العقاب البليغ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

(١٠٦-١٠٨) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾
وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٢﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٣﴾ يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء، فقال: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفرقة والاختلاف، هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة، وأولئك ابيضت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة والسرور والنعيم والحبور الذي ظهرت آثاره على وجوههم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَنَّهُمْ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾ نصرة في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْسُلُهَا وَرَتَّبْنَاهُمْ لَذَّةً مِمَّا لَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ كَانُوا فِيهَا أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أي: كيف أثرت الكفر والضلال على الإيمان والهدى؟ وكيف تركتم سبيل الرشاد وسلكتم طريق الغي؟ ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ فليس

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١١٠﴾ كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿١١١﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى لَّآ يَنْصُرُونَ ﴿١١٢﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُ وَبَعْضٌ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْاَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٣﴾ يَمْدَحُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ وَيُخْبِرُ أَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَّةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ، وَذَلِكَ بِتَكْمِيلِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِالْإِيمَانِ الْمُسْتَلْزَمِ لِلْقِيَامِ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَبِتَكْمِيلِهِمْ لِغَيْرِهِمْ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ الْمَتَضَمِّنِ دَعْوَةَ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ، وَجِهَادِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَبِذَلِكَ الْمُسْتَطَاعِ فِي رَدِّهِمْ عَنِ ضَلَالِهِمْ وَغِيهِمْ وَعَصِيَانِهِمْ، فَبِهَذَا كَانُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، لَمَّا كَانَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةَ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أَمْرًا مِنْهُ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَالْأَمْرُ قَدْ يَمْتَثِلُهُ الْمَأْمُورُ وَيَقُومُ بِهِ، وَقَدْ لَا يَقُومُ بِهِ، أَخْبَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْأُمَّةَ قَدْ قَامَتْ بِمَا أَمَرَهَا اللَّهُ بِالْقِيَامِ بِهِ، وَامْتَثَلَتْ أَمْرَ رَبِّهَا، وَاسْتَحَقَّتِ الْفَضْلَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَّةِ ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ وَفِي هَذَا مِنْ دَعْوَتِهِ بِلُطْفِ الْخِطَابِ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَلَكِنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، وَأَكْثَرُهُمُ الْفٰسِقُونَ الْخَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، الْمَعَادُونَ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ بِأَنْوَاعِ الْعِدَاوَةِ، وَلَكِنْ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ رَدَّ كَيْدَهُمْ فِي نَحْوِهِمْ، فَلَيْسَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ ضَرَرٌ فِي أَدْيَانِهِمْ وَلَا أَبْدَانِهِمْ، وَإِنَّمَا غَايَةُ مَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَذَى أَذْيَةُ الْكَلَامِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى السَّلَامَةِ مِنْهَا مِنْ كُلِّ مَعَادِي، فَلَوْ قَاتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ لَوْلَا الْأَدْبَارُ فَرَارًا، ثُمَّ تَسْتَمِرُّ هَزِيمَتُهُمْ وَيَدُومُ ذَلَمُهُمْ، وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ عَاقِبَهُمْ بِالذِّلَّةِ فِي بَوَاطِنِهِمْ وَالْمَسْكَنَةَ عَلَى ظَوَاهِرِهِمْ، فَلَا يَسْتَقِرُّونَ وَلَا يَطْمَئِنُّونَ ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ عَهْدٌ ﴿مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ فَلَا يَكُونُ الْيَهُودُ إِلَّا تَحْتَ أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ وَعَهْدِهِمْ، تُوَخَّذُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ وَيَسْتَدْلُونَ، أَوْ تَحْتَ أَحْكَامِ النَّصَارَى، وَقَدْ ﴿وَبَآءُ﴾ مَعَ ذَلِكَ ﴿يَعْصِبُ مِنَ اللَّهِ﴾ وَهَذَا أَكْبَرُ الْعُقُوبَاتِ، وَالسَّبَبُ الَّذِي أَوْصَلَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ ذَكَرَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيٰتِ اللَّهِ﴾ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمَوْجِبَةَ لِلْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ، فَكَفَرُوا بِهَا بَغْيًا وَعِنَادًا ﴿وَيَقْتُلُونَ الْاَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾ أَي: يَقَابِلُونَ أَنْبِيَاءَ

شرعه وأمره، وإليه يرجعون يوم القيامة فيجازيهم بأعمالهم حسننها وسيئها.

(١١٠-١١٢) ﴿كُتِبَ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ ○ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذًى لَّآ يَنْصُرُونَ ○ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَآءُ وَبَعْضٌ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيٰتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْاَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٣﴾ يَمْدَحُ تَعَالَى هَذِهِ الْأُمَّةَ وَيُخْبِرُ أَنَّهَا خَيْرُ الْأُمَّةِ الَّتِي أَخْرَجَهَا اللَّهُ لِلنَّاسِ، وَذَلِكَ بِتَكْمِيلِهِمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِالْإِيمَانِ الْمُسْتَلْزَمِ لِلْقِيَامِ بِكُلِّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ، وَبِتَكْمِيلِهِمْ لِغَيْرِهِمْ بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ الْمَتَضَمِّنِ دَعْوَةَ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ، وَجِهَادِهِمْ عَلَى ذَلِكَ، وَبِذَلِكَ الْمُسْتَطَاعِ فِي رَدِّهِمْ عَنِ ضَلَالِهِمْ وَغِيهِمْ وَعَصِيَانِهِمْ، فَبِهَذَا كَانُوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، لَمَّا كَانَتِ الْآيَةُ السَّابِقَةَ وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أَمْرًا مِنْهُ تَعَالَى لِهَذِهِ الْأُمَّةِ، وَالْأَمْرُ قَدْ يَمْتَثِلُهُ الْمَأْمُورُ وَيَقُومُ بِهِ، وَقَدْ لَا يَقُومُ بِهِ، أَخْبَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْأُمَّةَ قَدْ قَامَتْ بِمَا أَمَرَهَا اللَّهُ بِالْقِيَامِ بِهِ، وَامْتَثَلَتْ أَمْرَ رَبِّهَا، وَاسْتَحَقَّتِ الْفَضْلَ عَلَى سَائِرِ الْأُمَّةِ ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ وَفِي هَذَا مِنْ دَعْوَتِهِ بِلُطْفِ الْخِطَابِ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ، وَلَكِنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ، وَأَكْثَرُهُمُ الْفٰسِقُونَ الْخَارِجُونَ عَنِ طَاعَةِ اللَّهِ، الْمَعَادُونَ لِأَوْلِيَاءِ اللَّهِ بِأَنْوَاعِ الْعِدَاوَةِ، وَلَكِنْ مِنْ لُطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهُ رَدَّ كَيْدَهُمْ فِي نَحْوِهِمْ، فَلَيْسَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُمْ ضَرَرٌ فِي أَدْيَانِهِمْ وَلَا أَبْدَانِهِمْ، وَإِنَّمَا غَايَةُ مَا يَصِلُونَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَذَى أَذْيَةُ الْكَلَامِ الَّتِي لَا سَبِيلَ إِلَى السَّلَامَةِ مِنْهَا مِنْ كُلِّ مَعَادِي، فَلَوْ قَاتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ لَوْلَا الْأَدْبَارُ فَرَارًا، ثُمَّ تَسْتَمِرُّ هَزِيمَتُهُمْ وَيَدُومُ ذَلَمُهُمْ، وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ، وَلِهَذَا أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ عَاقِبَهُمْ بِالذِّلَّةِ فِي بَوَاطِنِهِمْ وَالْمَسْكَنَةَ عَلَى ظَوَاهِرِهِمْ، فَلَا يَسْتَقِرُّونَ وَلَا يَطْمَئِنُّونَ ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ عَهْدٌ ﴿مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ فَلَا يَكُونُ الْيَهُودُ إِلَّا تَحْتَ أَحْكَامِ الْمُسْلِمِينَ وَعَهْدِهِمْ، تُوَخَّذُ مِنْهُمْ الْجِزْيَةُ وَيَسْتَدْلُونَ، أَوْ تَحْتَ أَحْكَامِ النَّصَارَى، وَقَدْ ﴿وَبَآءُ﴾ مَعَ ذَلِكَ ﴿يَعْصِبُ مِنَ اللَّهِ﴾ وَهَذَا أَكْبَرُ الْعُقُوبَاتِ، وَالسَّبَبُ الَّذِي أَوْصَلَهُمْ إِلَى هَذِهِ الْحَالِ ذَكَرَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيٰتِ اللَّهِ﴾ الَّتِي أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ الْمَوْجِبَةَ لِلْيَقِينِ وَالْإِيمَانِ، فَكَفَرُوا بِهَا بَغْيًا وَعِنَادًا ﴿وَيَقْتُلُونَ الْاَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾ أَي: يَقَابِلُونَ أَنْبِيَاءَ

الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشر مقابلة، وهو القتل، فهل بعد هذه الجراءة والمجانبة شيء أعظم منها، وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جرأهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله، ثم قال تعالى:

(١١٣-١١٥) ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيٰتِ اللَّهِ ءَانَّةً ءَلَيْلٌ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ ○ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ○ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٤﴾ لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى الْفَرْقَةَ الْفٰسِقَةَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَبَيَّنَّ أَعْمَالَهُمْ وَعُقُوبَاتِهِمْ، بَيَّنَّ هَاهُنَا الْأُمَّةَ الْمُسْتَقِيمَةَ، وَبَيَّنَّ أَعْمَالَهَا وَثَوَابَهَا، فَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَهُ، بَلْ بَيْنَهُمْ مِنَ الْفَرْقِ مَا لَا يُمْكِنُ وَصْفُهُ، فَمَا تِلْكَ الطَّائِفَةُ الْفٰسِقَةُ فَقَدْ مَضَى وَصْفُهُمْ، وَأَمَّا هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَالَ تَعَالَى مِنْهُمْ ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أَي: مُسْتَقِيمَةٌ عَلَى دِينِ اللَّهِ، قَائِمَةٌ بِمَا أَلْزَمَهَا اللَّهُ بِهِ مِنَ الْمَأْمُورَاتِ، وَمِنْ ذَلِكَ قِيَامُهَا بِالصَّلَاةِ ﴿يَتَّبِعُونَ آيٰتِ اللَّهِ ءَانَّةً ءَلَيْلٌ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ وَهَذَا بَيَانٌ لِصَلَاتِهِمْ فِي أَوْقَاتِ اللَّيْلِ وَطَوَّلِ تَهْجُدِهِمْ وَتِلَاوَتِهِمْ لِكِتَابِ رَبِّهِمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٦٥

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ
 مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٧﴾
 مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا
 صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا
 ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا
 وُدًّا وَمَاعِنتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي
 صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾
 هَآئِنْتُمْ أَوْلَاءُ بِحُبُوبِهِمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ
 وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ
 مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتَاوِنُكُمْ إِنَّا اللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾
 إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ سَوْهَمُمْ وَإِنْ نَصَبَكُمُ سَيِّئَةً يَبْغُرُوا
 بِهَا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
 إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ
 نَبِيَّ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
 سَيُفْئَرُونَ فِيهَا مَصْرِفًا وَمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ وَمَا ظَلَمَهُمُ
 اللَّهُ ﴿١١٧﴾ يبطل أعمالهم ﴿١١٧﴾ ولكن: كانوا ﴿أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث
 كفروا بآيات الله، وكذبوا رسوله، وحرصوا على إطفاء نور
 الله، هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم،
 ثم قال تعالى:

(١١٨-١٢٠) ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونِكُمْ
 لَا يَأُولُونَكُمْ خَبَالًا وُدًّا وَمَاعِنتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا
 تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾
 أَوْلَاءُ بِحُبُوبِهِمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لِقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا
 وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتَاوِنُكُمْ إِنَّا اللَّهُ عَلِيمٌ
 بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمَسَّكُمُ حَسَنَةٌ سَوْهَمُمْ وَإِنْ نَصَبَكُمُ سَيِّئَةً
 يَبْغُرُوا بِهَا وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
 بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ ينهي تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا
 بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم، يظهر ونهم على
 سرائرهم، أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية، وذلك أنهم
 هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء

وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: كإيمان المؤمنين إيمانًا يوجب لهم
 الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخص الإيمان
 باليوم الآخر، لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر يحث المؤمن
 به على ما يقربه إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل
 ما يعاقب عليه في ذلك اليوم ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنهَوْنَ عَنِ
 الْمُنْكَرِ﴾ فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوآزمه،
 وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن
 ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمحمد ﷺ، ثم
 وصفهم بالهمم العالية ﴿و﴾ أنهم ﴿يَسْرُرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾
 أي: يبادرون إليها فينتهزون الفرصة فيها، ويفعلونها في أول
 وقت وإمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير، ومعرفتهم
 بفوائده وحسن عوائده، فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه
 الصفات الجميلة والأفعال الجليلة ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين
 يدخلهم الله في رحمته؛ ويتخدهم بغفرانه، وينيلهم من فضله
 وإحسانه، وأنهم مهما فعلوا ﴿مِنَ خَيْرٍ﴾ قليلًا كان أو كثيرًا
 ﴿فَلَنْ يُكْفَرُوا﴾ أي: لن يحرموه ويفوتوا أجره، بل يشبههم الله
 على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم
 بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى، فهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ
 بِالْمُنْتَوِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَقَعَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

(١١٦، ١١٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا
 أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٧﴾
 مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ
 قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسُهُمْ
 يَظْلِمُونَ﴾ يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم
 ولا أولادهم من الله شيئًا، أي: لا تدفع عنهم شيئًا من عذاب
 الله، ولا تجدي عليهم شيئًا من ثواب الله، كما قال تعالى:
 ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ
 وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بل تكون أموالهم وأولادهم زادًا لهم إلى النار،
 وحجة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها،
 ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال:
 ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم ضرب مثلًا لما ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون
 بها عن سبيل الله، ويستعينون بها على إطفاء نور الله، بأنها
 تبطل وتضمحل، كمن زرع زرعًا يرجو نتيجته ويؤمل إدراك
 ريعه، فبينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صر، أي: برد
 شديد محرق، فأهلك زرع، ولم يحصل له إلا التعب
 والعناء وزيادة الأسف، فكذاك هؤلاء الكفار الذين قال الله

يحبون، فيخف عنهم البلاء ويشكروا الله على نعمه العظيمة التي إذا قوبلت بما ينالهم من المكروه الذي هو في الحقيقة خير لهم، كان المكروه بالنسبة إلى المحبوب نرًا سيرًا، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة في قوله: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلَهَا﴾ وحاصل قضية «أحد» وإجمالها أن المشركين لما رجع فلهم من «بدر» إلى مكة، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، استعدوا بكل ما يقدرون عليه من العدد بالأموال والرجال والعدد، حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم، ثم وجهوا من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، حتى نزلوا قرب المدينة، فخرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه بعد المراجعة والمشاورة حتى استقر رأيهم على الخروج، وخرج في ألف، فلما ساروا قليلاً رجع عبدالله بن أبي المنافق بثل الجيش ممن هو على مثل طريقته، وهمت طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا، وهم بنو سلمة وبنو حارثة فثبتهم الله، فلما وصلوا إلى أحد رتبهم النبي ﷺ في مواضعهم، وأسندوا ظهورهم إلى أحد، ورتب النبي ﷺ خمسين رجلاً من أصحابه في خلة في جبل «أحد» وأمرهم أن يلزموا مكانهم ولا يبرحوا منه ليأمنوا أن يأتيهم أحد من ظهورهم، فلما التقى المسلمون والمشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فلما رآهم الرماة الذين جعلهم النبي ﷺ في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة، ما يقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبدالله بن جبير عن المعصية فلم يلتفتوا إليه، فلما أخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفر يسير، منهم أميرهم عبدالله بن جبير، جاءت خيل المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المسلمين وقاتلت ساقتهم، فجال المسلمون جولة ابتلاههم الله بها وكفر بها عنهم، وأذاقهم فيها عقوبة المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قُتل منهم، ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل «أحد» وكف الله عنهم أيدي المشركين وانكفأوا إلى بلادهم، ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ والغدو هاهنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة ﴿تَبَوَّأُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ﴾ أي: تنزلهم وترتبهم كل في مقعده اللائق به، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة

فظهرت على أفواههم ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ مما يسمع منهم، فهذا ﴿لَا يَأْتُونَكُمْ حَبَآلًا﴾ أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة، وعمل الأسباب التي فيها ضرركم، ومساعدة الأعداء عليكم، قال الله للمؤمنين: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ أي: التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يجعل بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلى بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره، ولا يطلع من باطنه على شيء، ولو تملق له وأقسم أنه من أوليائه، قال الله مهيباً للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، ومميئاً شدة عداوتهم: ﴿هَآئِنُ أَوْلَآءُ يُخَيَّبُكُمْ وَلَا يُجُونُكُمْ وَتَوَمَّنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه، وهم لا يؤمنون بكتابكم، بل إذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْآثَامِلَ﴾ وهي أطراف الأصابع من شدة غيظهم عليكم ﴿قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضرون إلا أنفسهم، وإن غيظهم لا يقدرتون على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فينتقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

﴿إِنْ تَسْتَكْبِرُوا فَسَتَكْبِرُونَ﴾ كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم ﴿سَوْفَهُمْ﴾ أي: تغمهم وتحزنهم ﴿وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ نَصِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر - وهي الصبر والتقوى - لم يضركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم، لأنه محيط بهم علمه وقدرته، فلا منفذ لهم عن ذلك، ولا يخفى عليه منهم شيء.

(١٢٢، ١٢١) ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تَبَوَّأُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ فَتَنَلَا اللَّهَ وَلِيَهَا وَكَأَنَّ اللَّهَ فَيَلْتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ هذه الآيات نزلت في وقعة «أحد»، وقصتها مشهورة في السير والتواريخ، ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة «بدر» لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واتفقوا، نصرهم ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكماً عاماً ووعداً صادقاً لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجاً من هذا في هاتين القصتين، وأن الله نصر المؤمنين في «بدر» لما صبروا واتفقوا، وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر، ومن حكمة الجمع بين القصتين أن الله يحب من عباده إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما

صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع المسموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول المؤمنون والمنافقون، كل يتكلم بحسب ما في قلبه ﴿عَلِيمٌ﴾ بنبأت العبيد، فيجازيهم عليها أتم الجزاء، وأيضاً فالله سميع عليم بكم، يكلؤكم، ويتولى تدبير أموركم، ويؤيدكم بنصره، كما قال تعالى لموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مَسْمُوعٌ وَرَأَى﴾ ومن لطفه بهم وإحسانه إليهم أنه لما ﴿هَمَّتْ طَائِفَتَانِ﴾ من المؤمنين بالفشل، وهم بنو سلمة وبنو حارثة كما تقدم، ثبتهما الله تعالى نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين، فهذا قال ﴿وَاللَّهُ وَلِيَهُمَا﴾ أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما لما هما بهذه المعصية العظيمة، وهي الفشل والفرار عن رسول الله عصمهما، لما معهما من الإيمان، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَرَى الَّذِينَ آمَنُوا يَتُرَتِّبُهُمْ مِّنَ الْأُمَّلِكَةِ إِلَى الْوَتْرِ﴾ ثم قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَيَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ففيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وأن المؤمنين أولى بالتوكل على الله من غيرهم، وخصوصاً في موطن الشدة والقتال، فإنهم مضطرون إلى التوكل والاستعانة بربهم والاستنصار له، والتبري من حولهم وقوتهم، والاعتماد على حول الله وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلايا والمحن، ثم قال تعالى:

(١٢٣-١٢٦) ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ○ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ ○ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ○ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَإِلَّا بُشْرَىٰ يَوْمَ مَا أَنتُمْ إِلَّا مِنَ عِندِ اللَّهِ الْغَرِيبِ الْحَكِيمِ﴾ وهذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر وهم أذلة في قلة عددهم وعددهم مع كثرة عدد عدوهم وعددهم، وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، خرج النبي ﷺ من المدينة بثلاث مائة وبضعة عشر من أصحابه، ولم يكن معهم إلا سبعون بعيراً وقرسان طلب عير لقريش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهزوا من مكة لفكك غيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العدة الكاملة والسلاح العام والخيل الكثيرة، فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له «بدر» بين مكة والمدينة فاقتلوا، ونصر الله المسلمين نصراً عظيماً، فقتلوا من المشركين سبعين قتيلاً من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتوا على معسكرهم ستأتي - إن شاء الله

- القصة في سورة الأنفال، فإن ذلك موضعها، ولكن الله تعالى هنا أتى بها ليتذكر بها المؤمنون ليتقوا ربهم ويشكروه، فهذا قال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لأن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى فلم يشكره، إذ تقول يا محمد للمؤمنين يوم بدر مبشراً لهم بالنصر ﴿أَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ﴾ ○ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فُورِهِمْ هَذَا أَي: من مقصدهم هذا، وهو وقعة بدر ﴿يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلمين بعلامة الشجعان، فشرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد بانزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الشرطين الأولين كما تقدم في قوله: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ ○ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ أَي: إمداده لكم بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ تستبشرون بها وتفرحون ﴿وَإِلَّا لَطَمِينَ قُلُوبِكُمْ بِيَوْمِ مَا أَنتُمْ إِلَّا مِنَ عِندِ اللَّهِ﴾ فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم، وأما النصر الحقيقي الذي لا معارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلين لبيين لعباده أن الأمر كله بيديه، ومرجع الأمور إليه، ولهذا قال: ﴿عِندَ اللَّهِ الْغَرِيبِ الْحَكِيمِ﴾ فلا يمتنع عليه مخلوق، بل الخلق كلهم أذلاء مدبرون تحت تدبيره وقهره ﴿الْحَكِيمِ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾.

(١٢٧) ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبَ غَنِيماً أَوْ يُخْسِرَ مَالًا﴾ ○ يَخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنْ نَصَرَهُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ لِأَحَدٍ أَمْرِينَ: إما أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، أي: جانباً منهم وركناً من أركانهم، إما بقتل، أو أسر، أو استيلاء على بلد، أو غنيمة مال، فيقوى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وذلك لأن مقاومتهم ومحاربتهم للإسلام تتألف من أشخاصهم وسلاحهم وأموالهم وأرضهم فهذه الأمور تحصل منهم المقاومة والمقاتلة فقطع شيء من ذلك ذهاب لبعض قوتهم الأمر الثاني: أن يريد الكفار بقوتهم وكثرتهم، طمعاً في المسلمين، ويمنوا أنفسهم ذلك، ويحرصوا عليه غاية الحرص، ويذلوا قواهم وأموالهم في ذلك، فينصر الله المؤمنين عليهم ويردهم خائبين لم ينالوا مقصودهم، بل يرجعون بخسارة وغم وحسرة، وإذا تأملت الواقع رأيت نصر

إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهَا وَعَلَى
 اللَّهُ فَلَيْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلَقَدْ نَزَرَكُمُ اللَّهُ بَيْدَرٍ وَأَنْتُمْ
 أَذَلُّهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٩﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ
 أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ
 مُزَلَّيْنَ ﴿١٣٠﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ
 هَذَا يُؤْمِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ
 ﴿١٣١﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِنُظْمِينَ قُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا
 أَنْصَرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٣٢﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا
 مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمُهُمْ فَيَنْفِلُوا خَائِبِينَ ﴿١٣٣﴾ لَيْسَ لَكَ
 مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ
 ﴿١٣٤﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ
 وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٦﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ
 ﴿١٣٧﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٨﴾

الملك، وإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه،
 فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام فيغفر شركه ويمن عليه بترك
 العصيان فيغفر له ذنبه ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بأن يكله إلى نفسه
 الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر، فيعمل الشر ويعذبه
 على ذلك، ثم ختم الآية باسمين كريمين دالين على سعة
 رحمته وعموم مغفرته وسعة إحسانه وعميم إحسانه، فقال:
 ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت
 غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته، فالآية فيها الإخبار عن حالة
 الخلق، وأن منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذبه، فلم يختمها
 باسمين أحدهما دال على الرحمة، والثاني دال على النعمة،
 بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة، فله تعالى رحمة
 وإحسان سيرحم بها عباده لا تخطر ببال بشر، ولا يدرك لها
 وصف، ففسأله تعالى أن يتعدنا ويدخلنا برحمته في عباده
 الصالحين. تم السفر الأول من هذا التفسير المبارك ببسر من
 الله وإعانة، فله الحمد والشكر والثناء، وأسأله المزيد من
 فضله وكرمه وإحسانه، ويليهِ المجلد الثاني، وأوله قول الباري
 جل جلاله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا

الله لعباده المؤمنين دائراً بين هذين الأمرين، غير خارج
 عنهما، إما نصر عليهم أو خذل لهم.

(١٢٨، ١٢٩) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ
 يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ
 لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ لما جرى يوم
 «أحد» ما جرى، وجرى على النبي ﷺ مصائب، رفع الله بها
 درجته، فشح رأسه وكسرت رباعيته، قال: «كيف يفلح قوم
 شجوا نبيهم» وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي
 سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو،
 والحارث بن هشام، أنزل الله تعالى على رسوله نهياً له عن
 الدعاء عليهم باللعنة والطرده عن رحمة الله ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ
 شَيْءٌ﴾ إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على
 مصالحهم، وإنما الأمر لله تعالى هو الذي يدبر الأمور،
 ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تدع عليهم، بل أمرهم
 راجع إلى ربهم، إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم
 ويمن عليهم بالإسلام، فعل، وإن اقتضت حكمته إبقاءهم
 على كفرهم وعدم هدايتهم، فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم
 وضروها وتسبوا بذلك فعل، وقد تاب الله على هؤلاء
 المعينين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم، وفي هذه
 الآية مما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد،
 وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئاً وتكون
 الخيرة والمصلحة في غيره، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر
 شيء غيره من باب أولى، ففيها أعظم رد على من تعلق
 بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في
 العبادة، نقص في العقل، يتركون من الأمر كله له، ويدعون
 من لا يملك من الأمر مثقال ذرة، إن هذا لهو الضلال البعيد،
 وتأمل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم
 يذكر منهم سبباً موجباً لذلك، ليدل ذلك على أن النعمة محض
 فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة،
 ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتبه على العذاب بالفاء
 المفيدة للسببية، فقال: ﴿أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ ليدل ذلك
 على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها،
 ولم يظلم عبده، بل العبد هو الذي ظلم نفسه، ولما نفى عن
 رسوله أنه ليس له من الأمر شيء قرر من الأمر له فقال: ﴿وَاللَّهُ
 مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الملائكة والإنس والجن
 والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها، وجميع ما في
 السماوات والأرض، الكل ملك لله مخلوقون مدبرون،
 متصرف فيهم تصرف الممالك، فليس لهم مثقال ذرة من

عن جزاء أهلها، وعلى نواهي حث على تركها.

ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة «أحد» أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين، أنهم - إذا صبروا واتفقوا - نصرهم على أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَأَيُّكُمْ يُصْرُكُمْ كَيْدَهُمْ سَيَقُوعٌ﴾ ثم قال: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ﴾ الآيات.

فكانت النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى، التي يحصل بها النصر والفلاح، والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات، أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها، فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى.

ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ «التقوى» في هذه الآيات ثلاث مرات: مرة مطلقة، وهي قوله: ﴿أَعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ومرتين مقيدتين، فقال: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ﴾، ﴿وَأَتَّقُوا النَّارَ﴾. فقوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتنال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي؛ لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح.

فنهاهم عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وذلك هو ما اعتاده أهل الجاهلية، ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية من أنه إذا حل الدين على المعسر، ولم يحصل منه شيء، قالوا له: إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن تزيد في المدة، ويزيد ما في ذمتك، فيضطر الفقير، ويستدفع غريمه، ويلتزم ذلك، اغتناماً لراحته الحاضرة، فيزداد - بذلك - ما في ذمته أضعافاً مضاعفة، من غير نفع وانتفاع.

ففي قوله: ﴿أَضْعَفُوا مَضْعَفَهُ﴾ تبيينه على شدة شناعته بكثرته، وتبيينه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا، حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم، وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر، وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فلإلزامه بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعين على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه؛ لأن تركه من موجبات التقوى.

والفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال: ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وَأَتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿ بترك ما يوجب دخولها، من الكفر والمعاصي، على اختلاف

مُضْعَفَةً ﴿ الآية، وذلك في تسع وعشرين من شهر ربيع الأول من سنة ١٣٤٣ ثلث وأربعين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية، وصلى الله على محمد وسلّم تسليمًا كثيرًا. بقلم جامعه عبدالرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، غفر الله له ولوالديه وإخوانه المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

المجلد الثاني من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه الفقير إلى الله: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن سعدي، غفر الله له ولوالديه، وللمسلمين آمين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ تسليمًا كثيرًا، قال تعالى:

(١٣٠-١٣٦) ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم مِّنْكُمْ أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ○ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ○ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ○ وَسَارِعُوا إِلَيْكَ مَعْرِفَةً مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ○ الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظَيِّمِ الْعَنِيظِ وَالْمَسَافِينِ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ○ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ أَن يَأْتِيَهُمُ الْفَتْحُ وَإِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ○ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَعْمَ أَجْرُ الْعَمِلِينَ ﴿^(١) تقدم في مقدمة هذا التفسير، أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي في نفسه وفي غيره، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر، وجب عليه - أولاً - أن يعرف حده، وما هو الذي أمر به، ليتمكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد، واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره، بحسب قدرته وإمكانه، وكذلك إذا نهى عن أمر عرف حده، وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه.

وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي.

وهذه الآيات الكريمات، قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله [بها]، وحث على فعلها، وأخبر

درجاتها، فإن المعاصي كلها - وخصوصاً المعاصي الكبار - تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر، الذي أعد الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجي من النار، ويقي من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة، توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وحصول الرحمة.

ولهذا قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بفعل الأوامر امتثالاً، واجتناب النواهي ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الآيات.

ولهذا قال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بفعل الأوامر امتثالاً، واجتناب النواهي ﴿لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾ فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة، كما قال تعالى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الآيات.

ثم أمرهم تعالى، بالمسارعة إلى مغفرته، وإدراك جنته، التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها، التي أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها.

ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: في حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحتقروا من المعروف شيئاً، ولو قل.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في الأصل:

(السور) والمثبت من طبعة النجار. (الناشر)

سُورَةُ آلِ اِنۡجِيلٍ

٦٧

الْبُرْجَانِ

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٣٧) الَّذِينَ يَفْقَهُونَ
فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْعَظِيمَ وَالْعَافِينَ
عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا
فَعَلُوا فَحِشَّةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِدُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ الدُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوْا عَلَىٰ
مَآفَعُلَآءِهِمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٩﴾ أُولَٰئِكَ جَرَّأُوهُم مَّغْفِرَةٌ
مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿١٤٠﴾ قَدْ خَلتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ
﴿١٤١﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٤٢﴾
وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ
﴿١٤٣﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ
وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

بل شجعوا قلوبكم، وصبروها، وادفعوا عنها الحزن
وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق
بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر
الله وثوابه، فالؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي
والأخروي لا ينبغي منه ذلك.

ولهذا قال [تعالى]: ﴿ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

ثم سلّاهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبين الحكيم
العظيمة المترتبة على ذلك، فقال: ﴿ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ
مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾ فأنتم [وهم] (١) قد تساوتم في
القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى:
﴿ إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَإِنَّهُم بِأَلْمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ
مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ .

ومن الحكيم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن
والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم
لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى؛ لأن هذه الدار الدنيا

(١) في الأصل: (وإياهم) ولعل الصواب ما أثبت.

﴿ قَدْ خَلتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ
فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴾ هَذَا بَيَانٌ
لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٧﴾ وهذه الآيات الكريمة،
وما بعدها في قصة «أحد» يعزي تعالى عباده المؤمنين
ويسليهم، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة،
امتنحوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزالوا
في مداولة ومجاوله، حتى جعل الله العاقبة للمتقين، والنصر
لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين،
وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم.

﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ
عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴾ فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع
العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد
خسارهم، وذهب عزهم وملكهم، وزال بذخهم وفخرهم،
أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد على صدق ما جاءت
به الرسل؟!!

وحكمة الله التي يمتحن بها عباده، ليلوهم ويتبين صادقهم
من كاذبهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ أي: دلالة
ظاهرة، تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل
الشفاعة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين.

﴿ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ لأنهم هم المتفعون بالآيات
فتهديهم إلى سبيل الرشاد، وتعظهم وترجعهم عن طريق
الغي، وأما باقي الناس، فهي بيان لهم، تقوم [به] عليهم
الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بينة.

ويحتمل أن الإشارة في قوله: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ﴾ للقرآن
العظيم، والذكر الحكيم، وأنه بيان للناس عموماً، وهدى
وموعظة للمتقين خصوصاً، وكلا المعنيين حق.

(١٣٩-١٤٣) ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ
الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمُ
شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾ وَلِيَمِجِّنَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمِجِّنَ
الْكُفْرِيَّةَ ﴿١٤٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَلْعَبِ اللَّهُ الَّذِينَ
جَاهَلُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ ﴿١٤٦﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَتُّونَ السُّورَةَ مِن قَبْلِ
أَنْ تُلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿١٤٧﴾ يقول تعالى مشجعاً لعباده
المؤمنين، ومقوياً لعزائمهم، ومنهضاً لهممهم: ﴿ وَلَا تَهِنُوا
وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ أي: ولا تهنوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا
في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليتكم بهذه البلوى،
فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة
عليكم، وعون لعدوكم عليكم.

منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وَيَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا أيضًا من الحكم أنه يتبلى الله عباده بالهزيمة والابتلاء، ليتبين المؤمن من المنافق؛ لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريد، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء، تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام، في الضراء والسراء، واليسر والعسر، ممن ليس كذلك.

﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وهذا أيضًا من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله من أرفع المنازل، ولا سبيل لئبها إلا بما يحصل من وجود أسبابها، فهذا من رحمته بعباده المؤمنين، أن فيض لهم من الأسباب ما تكرهه النفوس، لينيلهم ما يجوبون من المنازل العالية والنعيم المقيم.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم، وتقاعدوا عن القتال في سبيله، وكان في هذا تعريضًا بدم المنافقين، وأنهم مبعوضون لله، ولهذا ثبطهم عن القتال في سبيله ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ لِعُنَاكِهِمْ فثَبَّتَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

﴿وَلِيَمِخَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا أيضًا من الحكم، أن الله يمحص بذلك المؤمنين، من ذنوبهم وعيوبهم، يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب، ويزيل العيوب، ويمحص الله أيضًا المؤمنين من غيرهم من المنافقين، فيتخلصون منهم، ويعرفون المؤمن من المنافق.

ومن الحكم أيضًا أنه يقدر ذلك، ليمحق الكافرين، أي: ليكون سببًا لمحققهم، واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا، بغوا، وازدادوا طغيانًا إلى طغيانهم، يستحقون به المعالجة بالعقوبة، رحمة بعباده المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّادِقِينَ﴾ هذا استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة، واحتمال المكاره في سبيل الله وانتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم.

ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمريتها عليها، ومعرفة ما توول إليه، تنقلب - عند أرباب البصائر - منحًا يسرون بها، ولا يبألون

وَلِيَمِخَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمِخَقَ الْكُفْرِينَ ﴿١٤٤﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٥﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمْوَهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرُدَّ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُفُوتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يَرُدَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُفُوتِهِ مِنْهَا وَسَجَّزَى الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٨﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ﴿١٤٩﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٥٠﴾ فَتَأْتِيهِمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥١﴾

بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم وبخهم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنون، ويرودون حصوله، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفَوْهُ﴾ وذلك أن كثيرًا من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاته بدر، يتمنون أن يحضرهم الله مشهدًا، يبذلون فيه جهدهم.

قال الله [تعالى] لهم: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمْوَهُ﴾ أي: رأيتم ما تمنيتم بأعينكم ﴿وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق، ولا تحسن، خصوصًا لمن تمنى ذلك، وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد، واستفراغ الوسع في ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمنى الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيته، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

(١٤٤، ١٤٥) ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا وَمَنْ يَرُدَّ ثَوَابَ

﴿وَسَخَّرَ الشُّكْرَ﴾ ولم يذكر جزاءهم، ليدل ذلك على كثرة وعظمتها، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر قلة وكثرة وحسناً.

(١٤٦-١٤٨) ﴿وَكَايَنَ مِن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ هذا تسليية للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدماً، لم تزل سنة الله جارية بذلك، فقال: ﴿وَكَايَنَ مِن نَّبِيٍّ﴾ أي: وكمن من نبي ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ﴾ أي: جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد ربّتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك.

﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا، أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ﴾. ثم ذكر قولهم، واستنصارهم لربهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ أي: في تلك المواطن الصعبة ﴿إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ هو مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها.

ثم إنهم لم يتكلوا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقات الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ من النصر والظفر والغنيمة ﴿وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ وهو الفوز برضا ربهم، والتعظيم المقيم، الذي قد سلم من جميع المنكذات.

وما ذلك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال، فجازاهم بأحسن الجزاء، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق، ومعاملة الخلق. ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء كفعل هؤلاء الموصوفين^(٢).

(١) في ب: فلو وقع. (٢) في ب: المؤمنين.

الدُّنْيَا ثَوَابَهُ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَخَّرَ الشُّكْرَ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم، وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أَفَأَمِنَ مَن مَّا أَوْ قُتِلَ أُنْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

قال [الله] تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنُصَرِّفَهُ اللَّهُ شَيْئًا﴾ إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما ويخ تعالى من انقلب على عقبه، مدح من ثبت مع رسوله، وامتلأ أمر ربه، فقال: ﴿وَسَخَّرَ اللَّهُ الشُّكْرَ﴾ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال.

وفي هذه الآية الكريمة، إرشاد من الله تعالى لعباده، أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم، أو عن بعض لوازمه فقد رتب ولو عظم، وما ذلك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين، بعدة أناس من أهل الكفاية فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين، قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضاً أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ، لأنهم هم سادات الشاكرين.

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بأجالها، بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت، مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه، فلو أتى^(١) من الأسباب كل سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن الله قضاه، وقدره، وكتبه إلى أجل مسمى: ﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفِيدُونَ﴾.

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة، ما تعلق به إراداتهم، فقال: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ قال الله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًا وَهُنُوًا مِن عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝ أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

سُورَةُ آلِ اِمْرَانٍ

٦٩

الْمُؤْمِنِينَ

يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اِنَّ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا
 يَرُدُّوْكُمْ عَلٰٓى اَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوْا خٰسِرِيْنَ ﴿١٤٩﴾
 بَلِ اللّٰهُ مَوْلٰٓئِكُمْ ۗ وَهُوَ خَيْرُ النَّصِيْرِيْنَ ﴿١٥٠﴾ سَلِّقْ
 فِي قُلُوْبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ۗ بِمَا اَشْرَكُوْا بِاللّٰهِ
 مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهٖ سُلْطٰنًا ۗ وَمَا وٰهَبْنٰهُمُ النَّارَ ۗ وَيَسَّ
 مَثُوٰى الظّٰلِمِيْنَ ﴿١٥١﴾ ۗ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ
 وَعَدُوْهُ ۗ اِذْ تَحْسَبُوْنَهُمُ بِاِذْنِهٖ ۗ حَتّٰى اِذَا فِشَلْتُمْ
 وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْاَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْۢ بَعْدِ مَا اَرٰنَكُمْ
 مَا تَحِبُّوْنَ ۗ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ
 مَّنْ يُرِيْدُ الْاٰخِرَةَ ۗ ثُمَّ صَرَفَكُمُ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ
 ۗ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللّٰهُ ذُو فَضْلٍ عَلٰى الْمُؤْمِنِيْنَ
 ﴿١٥٢﴾ ۗ اِذْ تَصْعَدُوْنَ وَلَا تَكُوْنُوْنَ عَلٰٓى اَحَدٍ
 وَالرُّسُوْلُ يَدْعُوْكُمْ فِيْ اٰخِرَتِكُمْ فَاَتَيْتَكُمْ
 عَمَّا يَغْمُرُ لِكَيْلًا تَحَزَنُوْا عَلٰٓى مَا فَاَتَكُمْ
 وَلَا مَا اَصَابَكُمْ ۗ وَاللّٰهُ خَبِيْرٌۢ بِمَا تَعْمَلُوْنَ ﴿١٥٣﴾

بالنصر، فنصركم عليهم، حتى ولوكم اكتافهم، وطفقتم فيهم قتلاً، حتى صرتم سبياً لأنفسكم، وعلونا لأعدائكم عليكم، فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف والخور ﴿وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الذي فيه ترك أمر الله بالائتلاف وعدم الاختلاف، فاختلقتم، فمن قائل: نقيم في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ، ومن قائل: ما مقامنا فيه وقد انهزم العدو، ولم يبق محذور؛ فعصيتم الرسول، وتركتم أمره من بعد ما أراكم الله ما تحبون وهو انخزال أعدائكم؛ لأن الواجب على من أنعم الله عليه بما أحب، أعظم من غيره، فالواجب في هذه الحال خصوصاً، وفي غيرها عموماً، امتثال أمر الله ورسوله. ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا﴾ وهم الذين أوجب لهم ذلك ما أوجب.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيْدُ الْآخِرَةَ﴾ وهم الذين لزموا أمر رسول الله ﷺ، وثبتوا حيث أمروا. ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمُ عَنْهُمْ﴾ أي: بعدما وجدت هذه الأمور

(١٤٩-١٥١) ثم قال تعالى: ﴿يَتَّيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اِنَّ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوْكُمْ عَلٰٓى اَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوْا خٰسِرِيْنَ ۗ بَلِ اللّٰهُ مَوْلٰٓئِكُمْ ۗ وَهُوَ خَيْرُ النَّصِيْرِيْنَ ۗ سَلِّقْ فِي قُلُوْبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ۗ بِمَا اَشْرَكُوْا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهٖ سُلْطٰنًا ۗ وَمَا وٰهَبْنٰهُمُ النَّارَ ۗ وَيَسَّ مَثُوٰى الظّٰلِمِيْنَ﴾.

ولهذا نهى من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين، من المنافقين والمشركين، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم [قصدهم] (١) ردهم إلى الكفر، الذي عاقبته الخيبة والخسران، ثم أخبر أنه مولاهم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور.

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده ولياً وناصرًا من دون كل أحد، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدهم أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذي يمنعه من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى، وذلك أن المشركين - بعدما انصرفوا من وقعة «أحد» - تشاوروا بينهم، وقالوا: كيف نصرنا، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا، وهزمتهم ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك، فألقى الله الرعب في قلوبهم، فانصرفوا خائبين.

ولا شك أن هذا من أعظم النصر؛ لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطع طرفًا من الذين كفروا، أو يكتبهم فيقبلوا خائبين، وهذا من الثاني. ثم ذكر السبب الموجب لإلقاء الرعب في قلوب الكافرين، فقال: ﴿بِمَا اَشْرَكُوْا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهٖ سُلْطٰنًا﴾ أي: ذلك بسبب ما اتخذوا من دونه من الأنداد والأصنام، التي اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم الفاسدة، من غير حجة ولا برهان، وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن.

فمن ثم كان المشرك مرعوبًا من المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق، وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق، لهذا حاله في الدنيا وأما في الآخرة، فأشد وأعظم، ولهذا قال: ﴿وَمَا وٰهَبْنٰهُمُ النَّارَ﴾ أي: مستقرهم الذي يأوون إليه، وليس لهم عنها خروج ﴿وَيَسَّ مَثُوٰى الظّٰلِمِيْنَ﴾ بسبب ظلمهم وعدوانهم صارت النار مثواهم.

(١٥٢) ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ وَعَدُوْهُ ۗ اِذْ تَحْسَبُوْنَهُمُ بِاِذْنِهٖ ۗ حَتّٰى اِذَا فِشَلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْاَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْۢ بَعْدِ مَا اَرٰنَكُمْ مَا تَحِبُّوْنَ ۗ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيْدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيْدُ الْاٰخِرَةَ ۗ ثُمَّ صَرَفَكُمُ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۗ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ ۗ وَاللّٰهُ ذُو فَضْلٍ عَلٰى الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللّٰهُ وَعَدُوْهُ﴾

منكم، صرف الله وجوهكم عنهم، فصار الوجه لعدوكم، ابتلاء من الله لكم وامتحاناً، لبتين المؤمن من الكافر، والطائع من العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه المصيبة ما صدر منكم، فلهاذا قال: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ذو فضل عظيم عليهم، حيث منَّ عليهم بالإسلام، وهداهم لشرائعه، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم على مصيبتاتهم.

ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر عليهم خيراً ولا مصيبة، إلا كان خيراً لهم، إن أصابهم سراء فشكروا، جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابهم ضراء فصبروا، جازاهم جزاء الصابرين.

(١٥٤، ١٥٣) ﴿إِذْ تُصَوِّرُونَ وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجْتُمْ فَأَنْتُمْ كَمَا يَكْفُرُونَ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ السَّمَاءِ مَاءً يَمْشِي طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ وَعَدِّ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يذكرهم تعالى حالهم، في وقت انهزامهم عن القتال، ويعاتبهم على ذلك، فقال: ﴿إِذْ تُصَوِّرُونَ﴾ أي: تجدون في الهرب ﴿وَلَا تَكُونُوا عَلَى أَحَدٍ﴾ أي: لا يلوي أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه، بل ليس لكم هم إلا الفرار، والنجاء عن القتال.

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير، إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء، وياشر الهيجاء، بل ﴿الرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَخْرَجْتُمْ﴾ أي: مما يلي القوم يقول: «إلي عباد الله»، فلم تلتفتوا إليه، ولا عرجتم عليه، فالفرار نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول الموجبة لتقدمه على النفس أعظم لوماً بتخلفكم عنها.

﴿فَأَنْتُمْ كَمَا يَكْفُرُونَ﴾ أي: جازاكم على فعلكم ﴿عَمَّا يَسُوءُ﴾ أي: عمماً يتبع غمماً: غم بفوات النصر وفوات الغنيمة، وغم بانهزامكم، وغم أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن محمداً ﷺ قد قتل.

ولكن الله - بلطفه، وحسن نظره لعباده - جعل اجتماع هذه الأمور لعباده المؤمنين خيراً لهم، فقال: ﴿لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ من النصر والظفر.

ويحتمل أن معنى قوله: ﴿لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ يعني: أنه قدر ذلك الغم والمصيبة عليكم، لكي تتوطن نفوسكم، وتمرنوا على الصبر على المصيبات، ويخف عليكم تحمل المشقات ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدِّ السَّمَاءِ مَاءً يَمْشِي طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ ولا شك أن هذا رحمة بهم، وإحسان وتثبيت لقلوبهم، وزيادة طمأنينة؛ لأن الخائف لا يأتيه النعاس، لما في قلبه من الخوف، فإذا زال الخوف عن القلب أمكن أن يأتيه النعاس.

وهذه الطائفة التي أنعم الله عليها بالنعاس هم المؤمنون الذين ليس لهم هم إلا إقامة دين الله، ورضا الله ورسوله، ومصالحة إخوانهم المسلمين.

وأما الطائفة الأخرى الذين ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ فليس لهم هم في غيرها، لنفاقهم، أو ضعف إيمانهم، فلهاذا لم يصبهم من النعاس ما أصاب غيرهم ﴿يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وهذا استفهام إنكاري، أي: ما لنا من الأمر - أي: النصر والظهور - شيء، فأسأوا الظن بربهم وبدينه وبنيبه، وظنوا أن الله لا يتم أمر رسوله، وأن هذه الهزيمة هي الفصلة والقاضية على دين الله.

قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الأمر يشمل الأمر القدري، والأمر الشرعي، فجميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وعاقبة^(١) النصر والظفر لأوليائه، وأهل طاعته، وإن جرى عليهم ما جرى.

﴿يُخْفُونَ﴾ يعني المنافقين ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ ثم بين الأمر الذي يخفونه، فقال: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لو كان لنا في هذه الواقعة رأي ومشورة ﴿مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾.

وهذا إنكار منهم، وتكذيب بقدر الله، وتسفيه منهم لرأي رسول الله ﷺ، ورأي أصحابه، وتركية منهم لأنفسهم، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ التي هي أبعد شيء

(١) في ب: وعاقبه.

عن مظان القتل ﴿لَبَّرَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾^{١٥٥}
 فالأسباب - وإن عظمت - إنما تنفع إذا لم يعارضها القدر
 والقضاء، فإذا عارضها القدر لم تنفع شيئاً، بل لا بد أن
 يمضي الله ما كتب في اللوح المحفوظ، من الموت والحياة.
 ﴿وَلَيَبْتَلِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: يختبر ما فيها من نفاق
 وإيمان وضعف إيمان ﴿وَلِيَمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ من وسوس
 الشيطان، وما تأثر عنها من الصفات غير الحميدة ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ
 بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها، وما أكتته، فاقضى علمه
 وحكمته أن قدر من الأسباب ما به تظهر مخبئات الصدور،
 وسرائر الأمور.

(١٥٥) ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى
 الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ
 عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا
 يوم «أحد» وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل
 الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم، فهم الذين أدخلوه
 على أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي، لأنها مركبة
 ومدخله، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من
 سلطان.

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ شُطُنٌ﴾ ثم أخبر أنه
 عفا عنهم بعدما فعلوا ما يوجب المؤاخظة، وإلا فلو واخذهم
 لاستأصلهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمذنبين الخطائين، بما يوفقه له من
 التوبة والاستغفار، والمصائب المكفرة، ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجل
 من عصاه، بل يستأني به، ويدعوه إلى الإنابة إليه، والإقبال
 عليه.

ثم إن تاب وأتاب قبل منه، وصبره كأنه لم يجر منه ذنب،
 ولم يصدر عنه عيب، فله الحمد على إحسانه.

(١٥٦-١٥٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا
 لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا
 وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكُمْ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يَخْتَارُ وَيُؤْتِي
 مَن يَشَاءُ مِمَّا يَخْتَارُ ۚ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ
 وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۚ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَىٰ اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾
 ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يشابهوا الكافرين الذين لا
 يؤمنون بربهم، ولا بقضائه وقدره، من المنافقين وغيرهم.

ينهاهم عن مشابهتهم في كل شيء، وفي هذا الأمر
 الخاص، وهو أنهم يقولون لإخوانهم في الدين أو في
 النسب: ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافروا للتجارة ﴿أَوْ كَانُوا
 غُرَىٰ﴾ أي: غزاة، ثم جرى عليهم قتل أو موت، يعارضون

﴿لَبَّرَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾
 ٧٠
 ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ آيَاتِهِ نِعَاسًا يُعَشِّئُ طَائِفَةً
 مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ
 الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ
 قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ
 يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ
 فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ
 وَلَيَبْتَلِي اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيَمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ
 وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ
 يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا
 كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾ يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا
 ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا
 قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكُمْ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يَخْتَارُ وَيُؤْتِي
 مَن يَشَاءُ مِمَّا يَخْتَارُ ۚ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾

القدر ويقولون: ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ ولهذا كذب
 منهم، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كَتَبَ
 عَلَيْهِمُ الْقَتْلَ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾.

ولكن هذا التكذيب لم يفدهم، إلا أن الله يجعل هذا
 القول، وهذه العقيدة، حسرة في قلوبهم، فتزداد مصيبتهم،
 وأما المؤمنون بالله فإنهم يعلمون أن ذلك بقدر الله، فيؤمنون
 ويسلمون، فيهدي الله قلوبهم، ويثبتها، ويخفف بذلك عنهم
 المصيبة.

قال الله رداً عليهم: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَارُ وَيُؤْتِي مَن يَشَاءُ مِمَّا يَخْتَارُ ۚ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾
 بذلك، فلا يغني حذر عن قدر ﴿وَاللَّهُ يَخْتَارُ﴾ أي: هو المنفرد
 فيجازيكم بأعمالكم وتكذيبكم.

ثم أخبر تعالى أن القتل في سبيله أو الموت فيه، ليس فيه
 نقص ولا محذور، وإنما هو مما ينبغي أن يتنافس فيه
 المتنافسون، لأنه سبب مفوض وموصل إلى مغفرة الله ورحمته،
 وذلك خير مما يجمع أهل الدنيا من دنياهم، وأن الخلق أيضاً

إذا ماتوا أو قتلوا بأي حالة كانت، فإنما مرجعهم إلى الله، وما لهم إليه، فيجازي كلاً بعمله.

فأين الفرار إلا إلى الله، وما للخلق عاصم إلا الاعتصام بحبل الله!!

(١٥٩) ﴿فِيمَا رَحِمْتُمْ مِنْ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ أي برحمة الله لك ولأصحابك، من الله عليك أن ألنت^(١) لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترقت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامثلوا أمرك.

﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فَظًا﴾ أي: سيء الخلق ﴿غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ أي: قاسيه، ﴿لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكُمْ﴾ لأن هذا يفرهم ويغضهم لمن قام به هذا الخلق السيء.

فالأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص، فهذا الرسول المعصوم يقول الله له ما يقول، فكيف بغيره؟!

ليس من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، الاقتداء بأخلاقه الكريمة، ومعاملة الناس بما يعاملهم به ﷺ، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالاً لأمر الله، وجذباً لعباد الله لدين الله؟.

ثم أمره الله تعالى بأن يعفو عنهم ما صدر منهم من التقصير في حقه ﷺ، ويستغفر لهم في التقصير في حق الله، فيجمع بين العفو والإحسان.

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: الأمور التي تحتاج إلى استشارة، ونظر، وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره.

منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطريهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس - إذا جمع أهل الرأي والفضل، وشاورهم في حادثة من الحوادث - اطمانت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمستبد^(٢) عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبدلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم. بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه، وإن أطاعوه، فطاعة غير تامة.

سُورَةُ آلِ اٰمِرَانِ

٧١

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وَلَيْنَ مَتَمَّ أَوْ قَاتِلْتُمْ لَا لِي اللَّهِ مُحْشَرُونَ ﴿١٥٩﴾ فِيمَا رَحِمْتُمْ مِنْ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنْ رَضِيَ عَنْ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمَ وَبَسَّ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرِهِمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٦٣﴾ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُرَكِّبُهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوْلَمَّا أَصَلَبْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ إِنَّ هَذَا الْقَوْلُ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب أعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد يخطيء في فعله، وإن أخطأ، أو لم يتم له مطلوب، فليس بملوم.

فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ - وهو أكمل الناس عقلاً، وأعزهم علماً، وأفضلهم رأياً: - ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فكيف بغيره؟!

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة، ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: اعتمد على حول الله وقوته، متبرئاً من حولك وقوتك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عليه، اللاجئين إليه.

(١٦٠) ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إن يمددكم الله بنصره ومعونته ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ فلو اجتمع عليكم

(١) في الأصل: لنت. (٢) في ب: يستبد.

توفيته وجزاءه، وكان الاقتصار على الغال يوهم - بالمفهوم - أن غيره من أنواع العاملين قد لا يوفون - أتى بلفظ عام جامع له ولغيره .

(١٦٢، ١٦٣) ﴿أَمَّنَ اتَّبَعَ ضَوْانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ يَسْحَطِ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَهُ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْأَصِيرُ ۝ هُمْ دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يخبر تعالى أنه لا يستوي من كان قصده رضوان ربه، والعمل على ما يرضيه، كمن ليس كذلك ممن هو مكب على المعاصي، مسخط لربه، هُذَان لا يستويان في حكم الله، وحكمة الله، وفي فطر عباد الله ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ .

ولهذا قال هنا: ﴿هُم دَرَجَتٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: كل هؤلاء متفاوتون في درجاتهم ومنازلهم بحسب تفاوتهم في أعمالهم . فالمتبعون لرضوان الله يسعون في نيل الدرجات العاليات، والمنازل والغرفات، فيعطيهم الله من فضله وجوده على قدر أعمالهم، والمتبعون لمساخت الله يسعون في النزول في الدرجات إلى أسفل سافلين، كل على حسب عمله، والله تعالى بصير بأعمالهم، لا يخفى عليه منها شيء، بل قد علمها، وأثبتها في اللوح المحفوظ، ووكل ملائكته الأمانة الكرام، أن يكتبوها ويحفظوها، ويضبطونها .

(١٦٤) ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَرُزِّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ هذه المنة التي امتن الله بها على عباده أكبر النعم، بل أصلها، وهي الامتنان عليهم بهذا الرسول الكريم، الذي أقدّمهم الله به من الضلالة، وعصمهم به من الهلكة، فقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعرفون نسبه، وحاله، ولسانه، من قومهم وقبيلتهم، ناصحاً لهم، مشفقاً عليهم، يتلو عليهم آيات الله، يعلمهم ألفاظها ومعانيها ﴿وَرُزِّيَهُمْ﴾ من الشرك، والمعاصي، والردائل، وسائر مساوئ الأخلاق .

و﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ إما جنس الكتاب الذي هو القرآن، فيكون قوله: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ المراد به الآيات الكونية، أو المراد بالكتاب - هنا - الكتابة، فيكون قد امتن عليهم بتعليم الكتاب والكتابة، التي بها تدرك العلوم وتحفظ .

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ هي: السنة، التي هي شقيقة القرآن، أو وضع الأشياء مواضعها، ومعرفة أسرار الشريعة، فجمع لهم بين تعليم الأحكام، وما به تنفذ الأحكام، وما به تدرك فوائدها

من في أقطارها، وما عندهم من العدد والعدد، لأن الله لا مغالب له، وقد قهر العباد، وأخذ بنواصيهم، فلا تتحرك دابة إلا بإذنه، ولا تسكن إلا بإذنه .

﴿وَإِن يَحْذَرُكُمُ﴾ ويكلكم إلى أنفسكم ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَضُرُّكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فلا بد أن تتخذوا ولو أعانكم جميع الخلق .

وفي ^(١) ضمن ذلك الأمر بالاستنصار بالله، والاعتماد عليه، والبراءة من الحول والقوة، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وتقديم المعمول يؤذن بالحصص، أي: على الله توكلوا، لا على غيره؛ لأنه قد علم أنه هو الناصر وحده، فالاعتماد عليه توحيد محصل للمقصود، والاعتماد على غيره شرك غير نافع لصاحبه، بل ضار .

وفي هذه الآية الأمر بالتوكل على الله وحده، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله .

(١٦١) ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ وَمَنْ يَمْلِكُ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الغلول: هو الكتمان من الغنيمة، [والخيانة في كل ما يتولاه الإنسان]^(٢)، وهو محرم إجمالاً، بل هو من الكبائر، كما تدل عليه هذه الآية الكريمة وغيرها من النصوص، فأخبر الله تعالى أنه ما ينبغي ولا يليق بنبي أن يغفل، لأن الغلول - كما علمت - من أعظم الذنوب وأشر العيوب .

وقد صان الله تعالى أنبياءه عن كل ما يدنسهم ويقدم فيهم، وجعلهم أفضل العالمين أخلاقاً، وأطهرهم نفوساً، وأزكاهم وأطيبهم، ونزههم عن كل عيب، وجعلهم محل رسالته، ومعدن حكمتهم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ .

فمجرد علم العبد بالواحد منهم، يجزم بسلاמתهم من كل أمر يقدح فيهم ولا يحتاج إلى دليل على ما قيل فيهم من أعدائهم؛ لأن معرفته بنبوتهم مستلزم لدفع ذلك، ولذلك أتى بصيغة يمتنع معها وجود الفعل منهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ﴾ أي: يمتنع ذلك، ويستحيل على من اختارهم الله لنبوته .

ثم ذكر الوعيد على من غل، فقال: ﴿وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يأت به حامله على ظهره، حيواناً كان أو متاعاً، أو غير ذلك، ليعذب به يوم القيامة .

﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ الغال وغيره، كل يوفى أجره ووزره، على مقدار كسبه ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: لا يزداد في سيئاتهم، ولا يهضمون شيئاً من حسناتهم .

وتأمل حسن هذا الاحتراز في هذه الآية الكريمة، لما ذكر عقوبة الغال، وأنه يأتي يوم القيامة بما غله، ولما أراد أن يذكر

وثمراتها، ففاقوا بهذه الأمور العظيمة جميع المخلوقين، وكانوا من العلماء الربانيين .
﴿وإن كانوا من قبلك﴾ بعثة هذا الرسول ﴿لقد صلكم مبین﴾ لا يعرفون الطريق الموصل إلى ربهم، ولا ما يزكي النفوس ويطهرها، بل ما زين لهم جهلهم فعلوه، ولو ناقض ذلك عقول العالمين .

﴿أو لَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا أَصَبْتُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانَ فَإِنَّ اللَّهَ وَلِعَلَّ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَلِعَلَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فِقْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ لَقَاتَلْنَا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۝ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُوا مَا قَاتَلُوا قُلْ قَادَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ هذا تسليية من الله تعالى لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم «أحد»، وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ﴾ من المشركين ﴿مِثْلَهَا﴾ يوم بدر فقتلتهم سبعين من كبارهم، وأسرتهم سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستون، أتمم وهم، فإن قتلاكهم في الجنة وقتلاكهم في النار .

﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمتنا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ حين تنازعتهم، وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعدودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم، ومصيبتكم ﴿ذَلِكَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنزِلَتْ مِنْهُمْ لُكِنِ لِيَلْبِغُوا بَعْضَكُمْ بَعْضًا﴾
ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان، جمع المسلمين، وجمع المشركين في «أحد» من القتل والهزيمة، أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مرد له، ولا بد من وقوعه .

والأمر القدري - إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المناق، الذين لما أمروا بالقتال ﴿وقيل لهم تعالوا فقتلوا في سبيل الله﴾ أي: دبا عن دين الله، وحماية له، وطلباً لمرضاة الله ﴿أو ادفعوا﴾ عن محارمكم وبلدكم، إن لم يكن لكم نية صالحة .
فأبوا ذلك واعتذروا بأن ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ لَقَاتَلْنَا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أي: لو تعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا، قد علموا وتيقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ فييديه لعباده المؤمنين، ويعاقبهم عليه .

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُوا مَا قَاتَلُوا قُلْ أَي: جمعوا بين التخلف عن الجهاد، وبين الاعتراض والتكذيب بقضاء الله وقدره، قال الله رداً عليهم: ﴿قُلْ قَادَرُوا﴾ أي: ادفعوا ﴿عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنهم لو أطاعوك ما قتلوا، لا تقدرتون على ذلك، ولا تستطيعونه .

وفي هذه الآيات دليل على أن العبد قد يكون فيه خصلة كفر، وخصلة إيمان، وقد يكون إلى إحداهما أقرب منه إلى الأخرى .

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَسَتَّشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَسْتَشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذه الآيات الكريمة^(١) فيها فضيلة^(٢) الشهداء وكرامتهم، وما من الله عليهم به من فضله وإحسانه، وفي

(١٦٥-١٦٨) ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتُمْ مِصْبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا أَصَبْتُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانَ فَإِنَّ اللَّهَ وَلِعَلَّ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَلِعَلَّ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فِقْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ لَقَاتَلْنَا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ۝ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُوا مَا قَاتَلُوا قُلْ قَادَرُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ هذا تسليية من الله تعالى لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم «أحد»، وقتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ﴾ من المشركين ﴿مِثْلَهَا﴾ يوم بدر فقتلتهم سبعين من كبارهم، وأسرتهم سبعين، فليهن الأمر ولتخف المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستون، أتمم وهم، فإن قتلاكهم في الجنة وقتلاكهم في النار .

﴿قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهزمتنا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ حين تنازعتهم، وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعدودوا على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتم الحكمة في ابتلائكم، ومصيبتكم ﴿ذَلِكَ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَأُنزِلَتْ مِنْهُمْ لُكِنِ لِيَلْبِغُوا بَعْضَكُمْ بَعْضًا﴾

ثم أخبر أن ما أصابهم يوم التقى الجمعان، جمع المسلمين، وجمع المشركين في «أحد» من القتل والهزيمة، أنه بإذنه وقضائه وقدره، لا مرد له، ولا بد من وقوعه .

والأمر القدري - إذا نفذ لم يبق إلا التسليم له، وأنه قدره لحكم عظيمة وفوائد جسيمة، وأنه ليتبين بذلك المؤمن من المناق، الذين لما أمروا بالقتال ﴿وقيل لهم تعالوا فقتلوا في سبيل الله﴾ أي: دبا عن دين الله، وحماية له، وطلباً لمرضاة الله ﴿أو ادفعوا﴾ عن محارمكم وبلدكم، إن لم يكن لكم نية صالحة .
فأبوا ذلك واعتذروا بأن ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ لَقَاتَلْنَا لَاتَّبَعْنَاكُمْ﴾

أي: لو تعلم أنكم يصير بينكم وبينهم قتال لاتبعناكم، وهم كذبة في هذا، قد علموا وتيقنوا وعلم كل أحد أن هؤلاء

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ

٧٢

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَمَا أَصْبَحْتُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانَ فَيَا ذِينَ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ
 ﴿١٧٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالَ لَا تَبْعَنَّاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ
 يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ
 فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٧٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ
 وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأْهُ وَأَعْنِ أَنْفُسَكُمْ
 أَلَمَوْتُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ﴿١٧٩﴾ فَرِحِينَ
 بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا
 بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٨٠﴾
 ﴿١٨١﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا
 أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨٣﴾
 الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
 فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٨٤﴾

ولرسوله، وطاعة لله ولرسوله، فوصلوا إلى «حمراء الأسد»،
 وجاءهم من جاءهم وقال لهم: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾
 وهموا باستصلاككم، تخويفاً لهم وترهيباً، فلم يزددهم ذلك إلا
 إيماناً بالله، واتكالا عليه.

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: كافينا كل ما أهمنا ﴿وَيَعْنَمُ
 الْوَكِيلُ﴾ المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم.
 ﴿فَانْقَلَبُوا﴾ أي: رجعوا ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ
 سُوءٌ﴾

وجاء الخبر المشركين، أن الرسول وأصحابه قد خرجوا
 إليكم، وندم من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم،
 واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله
 وفضل، حيث منَّ عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة
 والاتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة،
 فسيب إحسانهم بطاعة ربهم، وتقواهم عن معصيته، لهم أجر
 عظيم، وهذا فضل الله عليهم.

ضمنها تسلية الأحياء عن قتلاهم، وتعزيتهم، وتشيطهم
 للقتال في سبيل الله، والتعرض للشهادة، فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ
 الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: في جهاد أعداء الدين، قاصدين
 بذلك إعلاء كلمة الله ﴿أَمْوَاتًا﴾ أي: لا يخطر ببالك وحسابناك
 أنهم ماتوا وفقدوا، وذهبت عنهم لذة الحياة الدنيا، والتمتع
 بزهرتها، الذي يحذر من فواته، من جبن عن القتال، وزهد
 في الشهادة ﴿بَلْ﴾ قد حصل لهم أعظم مما يتنافس فيه
 المتنافسون، فهم ﴿أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ في دار كرامته. ولفظ:
 ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم.
 ﴿يُرْزُقُونَ﴾ من أنواع النعيم، الذي لا يعلم وصفه، إلا من
 أنعم به عليهم.

ومع هذا ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: مغتبطين
 بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك
 لحسنه، وكثرته، وعظمته، وكمال اللذة في الوصول إليه،
 وعدم المنغص.

فجمع الله لهم، بين نعيم البدن بالرزق، ونيعم القلب
 والروح، بالفرح بما آتاهم من فضله، فتم لهم ^(١) النعيم
 والسرور، وجعلوا ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ﴾
 أي: يبشرون بعضهم بعضاً، بوصول إخوانهم الذين لم يلحقوا
 بهم، وأنهم سينالون ما نالوا.

﴿أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: يستبشرون بزوال
 المحذور عنهم، وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور.
 ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أي: يهنئ بعضهم
 بعضاً، بأعظم مهناً به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه
 ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميه ويشكره، ويزيده من
 فضله، ما لا يصل إليه سعيهم، وفي هذه الآيات إثبات نعيم
 البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي
 أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً وتبشير بعضهم
 بعضاً.

(١٧٥-١٧٢) ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا
 أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾
 الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا
 اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٥﴾ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٦﴾
 الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٧﴾
 الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٨﴾
 الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾
 الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨٠﴾
 الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨١﴾
 الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨٢﴾
 الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨٣﴾
 الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٨٤﴾

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ

٧٣

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّٰهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوَةٌ وَّاتَّبَعُوا
رِضْوَانَ اللّٰهِ وَاللّٰهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٦﴾ اِنَّمَا ذٰلِكُمُ الشَّيْطٰنُ
يُخَوِّفُ اَوْلِيَآءَهُۥٓ ؕ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوْنِ اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ ﴿١٧٧﴾
وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِيْنَ يَسْرِعُوْنَ فِي الْكُفْرِ اِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوْا اللّٰهَ
شَيْئًا يَّرِيْدُ اللّٰهُ اَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطّٰٓءًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيْمٌ ﴿١٧٨﴾ اِنَّ الَّذِيْنَ اَشْرَوْا الْكُفْرَ بِالْاَيْمٰنِ لَنْ يَضُرُّوْا
اللّٰهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا
اَنَّمَا نُمَلِّىْ لَهُمْ خَيْرًا لَّا يُنْفِسُوْنَ اِنَّمَا نُمَلِّىْ لَهُمْ لِيْزَادُوْا اِثْمًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللّٰهُ لِيْذَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلٰى مَا
اَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّٰى يَمِيْرَ الْخَيْبِ مِنَ الطَّيْبِ وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيُطْلِعَكُمْ
عَلَى الْغَيْبِ وَلٰكِنَّ اللّٰهُ يَجْتَبِيْ مِنْ رُّسُلِهِۦ مَنْ يَّشَآءُ فَمَا مَثَلُ اللّٰهِ
وَرُسُلِهِۦٓ ؕ وَاِنْ تَوَلَّوْا فَتَوَلَّوْا فَلَكُمْ اَجْرٌ عَظِيْمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا
يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ يَبْخُلُوْنَ بِمَآءِ اٰتِهِمْ اللّٰهُ مِنْ فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا
لَّهُمْ بَلْ هُوَ سَرُّهُمْ سَيُطْرَفُوْنَ مَا يَخْلُوْا بِهٖ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ
وَلِلّٰهِ مِيْرٰثُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاللّٰهُ يَمَّا تَعْمَلُوْنَ خَبِيْرٌ ﴿١٨٠﴾

نُمَلِّىْ لَهُمْ لِيْزَادُوْا اِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٦﴾ أي: ولا يظن الذين
كفروا بربهم، ونابدوا دينه، وحاربوا رسوله أن تركنا إياهم في
هذه الدنيا، وعدم استئصالنا لهم، وإملاءنا لهم خير
لأنفسهم، ومحبة منا لهم، كلا، ليس الأمر كما زعموا، وإنما
ذلك لشر يريده الله بهم، وزيادة عذاب وعقوبة إلى عذابهم،
ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا نُمَلِّىْ لَهُمْ لِيْزَادُوْا اِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ فالله
تعالى يملي للظالم، حتى يزداد طغيانه، ويترادف كفرانه،
حتى إذا أخذه أخذه^(١) أخذ عزيز مقتدر. فليحذر الظالمون من
الإمهال، ولا يظنوا أن يفوتوا الكبير المتعال.

(١٧٩) ﴿مَا كَانَ اللّٰهُ لِيْذَرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلٰى مَا اَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتّٰى يَمِيْرَ
الْخَيْبِ مِنَ الطَّيْبِ وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلٰكِنَّ اللّٰهُ يَجْتَبِيْ مِنْ
رُّسُلِهِۦ مَنْ يَّشَآءُ فَمَا مَثَلُ اللّٰهِ وَرُسُلِهِۦٓ ؕ وَاِنْ تَوَلَّوْا فَتَوَلَّوْا فَلَكُمْ اَجْرٌ
عَظِيْمٌ﴾ أي: ما كان في حكمة الله أن يترك المؤمنين على ما
أنتم عليه من الاختلاط، وعدم التمييز^(٢)، حتى يميز الخبيث
من الطيب، والمؤمن من المنافق، والصادق من الكاذب.

(١) في ب: ثم أخذه. (٢) في ب: التمييز.

ثم قال تعالى: ﴿اِنَّمَا ذٰلِكُمُ الشَّيْطٰنُ يُخَوِّفُ اَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ أي: إن
ترهيب من رهب من المشركين، وقال: إنهم جمعوا لكم، داع
من دعاة الشيطان، يخوف أولياء الذين عدم إيمانهم، أو
ضعف.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوْنَ اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ﴾ أي: فلا تخافوا
المشركين أولياء الشيطان، فإن نواصيهم بيد الله، لا يتصرفون
إلا بقدره، بل خافوا الله الذي ينصر أولياء الخائفين له
المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من
لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد، يكون خوفه من الله،
والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

(١٧٦، ١٧٧) ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِيْنَ يَسْرِعُوْنَ فِي الْكُفْرِ اِنَّهُمْ لَنْ
يَضُرُّوْا اللّٰهَ شَيْئًا يَّرِيْدُ اللّٰهُ اَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطّٰٓءًا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيْمٌ ۝ اِنَّ الَّذِيْنَ اَشْرَوْا الْكُفْرَ بِالْاَيْمٰنِ لَنْ يَضُرُّوْا اللّٰهَ شَيْئًا وَلَهُمْ
عَذَابٌ اَلِيْمٌ﴾ كان النبي ﷺ حريصًا على الخلق، مجتهدًا في
هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا
يَحْزَنُكَ الَّذِيْنَ يَسْرِعُوْنَ فِي الْكُفْرِ﴾ من شدة رغبتهم فيه، وحرصهم
عليه ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوْا اللّٰهَ شَيْئًا﴾ فالله ناصر دينه، ومؤيد
رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم،
إنما يضرون، ويسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في
الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الآخرة، من هوانهم على
الله وسقوطهم من عينه، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيبًا في
الآخرة من ثوابه، خذلهم فلم يوقفهم، لما وفق له أولياءه،
ومن أراد به خيرًا، عدلًا منه وحكمة، لعلمه بأنهم غير زاكين
على الهدى، ولا قابلين للرشاد، لفساد أخلاقهم وسوء
قصدهم.

ثم أخبر أن الذين اختاروا الكفر على الإيمان، ورغبوا فيه
رغبة من بذل ما يحب من المال، في شراء ما يجب من السلع
﴿لَنْ يَضُرُّوْا اللّٰهَ شَيْئًا﴾ بل ضرر فعلهم يعود على أنفسهم، ولهذا
قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ﴾ وكيف يضرون الله شيئًا، وهم قد
زهّدوا أشد الزهد في الإيمان، ورغبوا كل الرغبة بالكفر
بالرحمن؟! فالله غني عنهم.

وقد قبض لدينه من عباده الأبرار الأذكيا سواهم، وأعدله
- ممن ارتضاه لنصرته - أهل البصائر والعقول، وذوي
الآلباب من الرجال الفحول، قال الله تعالى: ﴿قُلْ ءَايْتُوْا بِهٖٓ أَوْ
لَا تُوْمِنُوْا اِنَّ الَّذِيْنَ اٰتَوْا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِۦٓ اِذَا يَتْلٰى عَلَيْهِمْ يُحِزُّوْنَ لِاَلْدَقٰنِ
سُجْدًا﴾ الآيات.

(١٧٨) ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا اَنَّمَا نُمَلِّىْ لَهُمْ خَيْرًا لَّا يُنْفِسُوْنَ اِنَّمَا

ثم ذكر ثانيًا أن هذا الذي بيد العباد كلها ترجع إلى الله، ويرثها تعالى، وهو خير الوارثين، فلا معنى للبلخ بشيء هو زائل عنك، منتقل إلى غيرك.

ثم ذكر ثالثًا السبب الجزائي، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ فإذا كان خيرًا بأعمالكم جميعها - ويستلزم ذلك الجزاء الحسن على الخيرات، والعقوبات عن الشر - لم يتخلف من في قلبه مثقال ذرة من إيمان عن الإنفاق الذي يُجْزَى به الثواب، ولا يرضى بالإمساك، الذي به العقاب.

(١٨١، ١٨٢) ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَتَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ذلك يما قدمت آييتكم وأن الله ليس يظلام للعبيد﴾ يخبر تعالى عن قول هؤلاء المتمردين، الذين قالوا أقبح المقالة، وأشنعها، وأسمحها، فأخبر أنه قد سمع ما قالوه، وأنه سيكتبه ويحفظه مع أفعالهم الشنيعة، وهو: قتلهم الأنبياء الناصحين، وأنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأنه يقال لهم - بدل قولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء - ﴿دُوفُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ المحرق النافذ من البدن إلى الأفتدة، وأن عذابهم ليس ظلمًا من الله لهم، فإنه ﴿لَيْسَ يَظْلَمُ لِّلْعَبِيدِ﴾ فإنه منزه عن ذلك.

وإنما ذلك بما قدمت أيديهم من المخازي والقبايح، التي أوجبت استحقاقهم العذاب، وحرمانهم الثواب.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلموا بذلك، وذكروا منهم «فحاص بن عازوراء» من رؤساء علماء اليهود في المدينة، وأنه لما سمع قول الله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال - على وجه التكبر والتجرهم - هذه المقالة، قبحة الله، فذكرها الله عنهم، وأخبر أنه ليس يبدع من شنائعهم، بل قد سبق لهم من الشنائع ما هو نظير ذلك، وهو: قتلهم الأنبياء بغير حق، هذا القيد يراد به أنهم تجرأوا على قتلهم مع علمهم بشناعتهم، لا جهلاً وضلالاً، بل تمردًا وعنادًا.

(١٨٣، ١٨٤) ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِسْنًا آلَا نُؤْمِنُكَ رِسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قِبَلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَىٰ قَلْبِكُمْ فَلَمَّا قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فإن كذبوك فقد كذب رسول من قبلك جاءه بالبينات والرُّبْرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ يخبر تعالى عن حال هؤلاء المفترين القائلين: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِسْنًا﴾ أي: تقدم إلينا، وأوصى ﴿آلَا نُؤْمِنُكَ رِسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْآنٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ فجمعوا بين الكذب على الله،

ولم يكن في حكمته أيضًا، أن يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه من عباده، فاقتضت حكمته الباهرة أن يتبلي عباده، ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب، من أنواع الابتلاء والامتحان، فأرسل [الله] رسله، وأمر بطاعتهم، والالتقياد لهم، والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم، فانقسم الناس - بحسب اتباعهم للرسل - قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين، ومسلمين وكافرين، ليرتب على ذلك الثواب والعقاب، وليظهر عدله وفضله، وحكمته لخلق.

(١٨٠) ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ أي: ولا يظن الذين يبخلون، أي: يمنعون ما عندهم مما آتاهم الله من فضله، من المال والجاه والعلم، وغير ذلك مما منحهم الله، وأحسن إليهم به، وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فيخلوا بذلك، وأمسكوه، وضمنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم، بل هو شر لهم، في دينهم ودنياهم، وعاجلهم وأجلهم.

﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يجعل ما بخلوا به، طوقًا في أعناقهم، يعذبون به كما ورد في الحديث الصحيح: «إن البخيل يمثل له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع، له زبيبتان، يأخذ بلهزمتيه يقول: أنا مالك، أنا كنزك»، وتلا رسول الله ﷺ مصداق ذلك هذه الآية، فهوؤلاء حسبوا أن بخلهم نافعهم، ومجد عليهم، فانقلب عليهم الأمر، وصار من أعظم مضارهم، وسبب عقابهم.

﴿وَاللَّهُ مِيرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو تعالى مالك الملك، وترد جميع الأملاك إلى مالكها، ويتقلب العباد من الدنيا، ما معهم درهم ولا دينار، ولا غير ذلك من المال، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجِعُونَ﴾ وتأمل كيف ذكر السبب الابتدائي والسبب الغائي، الموجب كل واحد منهما أن لا يخل العبد بما أعطاه الله.

أخبر أولًا: أن الذي عنده وفي يده فضل من الله ونعمة، ليس ملكًا للعبد، بل لولا فضل الله عليه وإحسانه، لم يصل إليه منه شيء، فمنعه لذلك منع فضل الله وإحسانه؛ ولأن إحسانه موجب للإحسان إلى عبيده كما قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فمن تحقق أن ما بيده فضل من الله، لم يمنع الفضل الذي لا يضره، بل ينفعه في قلبه وماله، وزيادة إيمانه، وحفظه من الآفات.

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُفُوعِ الْعَذَابِ الْحَرِيقِ ﴿١٨٦﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٨٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بَقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ بَابِلَيْنِتِ وَيَأْتِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءَ وَيَأْتِي النَّبِيُّ وَالرُّبْرُ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٨﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن رَّحِمَ عَنِ النَّكَارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٩﴾ لَسْتَلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْتَمَعْتُمْ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِن تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّن عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٩٠﴾

انموذج مما أسلفوه، يفهم هذا من قوله: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: توفية الأعمال التامة، إنما يكون يوم القيامة، وأما ما دون ذلك فيكون في البرزخ. بل قد يكون قبل ذلك في الدنيا كقوله تعالى: ﴿وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾.

(١٨٦) ﴿لَسْتَلُوكَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْتَمَعْتُمْ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِن تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّن عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيتلون في أموالهم، من النفقات الواجبة والمستحبة، ومن التعريض لإتلافها في سبيل الله، وفي أنفسهم من التكليف بأعباء التكليف الثقيلة على كثير من الناس، كالجهاد في سبيل الله، والتعرض فيه للتعَب، والقتل، والأسر، والجراح، وكالأمراض التي تصيبه في نفسه، أو فيمن يجب.

﴿لَسْتَمَعْتُمْ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا﴾

(١) في ب: دعواكم. (٢) في ب: يأتيكم.

وحصر آية الرسل بما قالوه، من هذا الإفك المبين، وأنهم إن لم يؤمنوا برسول لم يأتيهم بقربان تأكله النار، فهم - في ذلك - مطيعون لربهم، ملتزمون وعهده وقد علم أن كل رسول يرسله الله يؤيده من الآيات والبراهين ما على مثله آمن البشر، ولم يقصرها على ما قالوه، ومع هذا فقد قالوا إفاكاً لم يلتزموه، وباطلاً لم يعملوا به.

ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ بَابِلَيْنِتِ﴾ الدالات على صدقهم ﴿وَيَأْتِي قُلْتُمْ﴾ بأن أتاكم بقربان تأكله النار ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي: في دعوهم^(١) الإيمان برسول يأتي^(٢) بقربان تأكله النار، فقد تبين بهذا كذبهم، وعنادهم، وتناقضهم.

ثم سلى رسوله ﷺ، فقال: ﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: هذه عادة الظالمين، ودأبهم الكفر بالله، وتكذيب رسل الله، وليس تكذيبهم لرسول الله عن قصور بما أتوا به، أو عدم تبين حجة، بل قد ﴿جَاءَهُ وَيَأْتِي النَّبِيُّ﴾ أي: الحجج العقلية، والبراهين النقلية.

﴿وَالرُّبْرُ﴾ أي: الكتب المزبورة المنزلة من السماء، التي لا يمكن أن يأتي بها غير الرسل.

﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ للأحكام الشرعية، وبيان ما اشتملت عليه من المحاسن العقلية، ومثير أيضاً للأخبار الصادقة، فإن كان هذا عادتهم في عدم الإيمان بالرسول، الذين هذا وصفهم، فلا يحزنك أمرهم، ولا يهمنك شأنهم.

(١٨٥) ثم قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن رَّحِمَ عَنِ النَّكَارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

هذه الآية الكريمة فيها التزهيد في الدنيا بفنائها وعدم بقائها، وأنها متاع الغرور، تفتن بزخرفها، وتخدع بغرورها، وتغر بمحاسنها، ثم هي منتقلة، ومنتقل عنها إلى دار القرار، التي توفى فيها النفوس ما عملت في هذه الدار، من خير وشر.

﴿فَمَن رَّحِمَ﴾ أي: أخرج ﴿عَنِ النَّكَارِ وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي: حصل له الفوز العظيم من العذاب الأليم، والوصول إلى جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ومفهوم الآية، أن من لم يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فإنه لم يفز، بل قد شقي الشقاء الأبدي، وابتلي بالعذاب السرمدي.

وفي هذه الآية إشارة لطيفة إلى نعيم البرزخ وعذابه، وأن العاملين يجزون فيه بعض الجزاء مما عملوه، ويقدم لهم

يعبأوا بها، فكتموا الحق، وأظهروا الباطل، تجرؤًا على محارم الله، وتهاونًا بحقوق الله، وحقوق الخلق، واشتروا بذلك الكتمان ثمنًا قليلًا، وهو ما يحصل لهم إن حصل من بعض الرياسات، والأموال الحقيرة، من سفلتهم المتبعين أهواءهم، المقدمين شهواتهم على الحق.

﴿فَيْتَسَّ مَا يَشْتَرُونَ﴾ لأنه أخس العوض، والذي رغبوا عنه - وهو بيان الحق الذي فيه السعادة الأبدية، والمصالح الدنيوية والدنيوية - أعظم المطالب وأجلها، فلم يختاروا الدنيء الخسيس ويتركوا العالي النفيس، إلا لسوء حظهم، وهوانهم، وكونهم لا يصلحون لغير ما خلقوا له.

ثم قال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرَحُونَ بِمَا آتَوْا﴾ أي: من القبائح، والباطل القولي والفعلية.

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ أي: بالخير الذي لم يفعلوه، والحق الذي لم يقولوه، فجمعوا بين فعل الشر وقوله، وفرح بذلك، ومحبة أن يحمدا على فعل الخير الذي ما فعلوه.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَقَارِفِ بَيْنِ الْعَذَابِ﴾ أي: بمحل نجوة منه وسلامة، بل قد استحقوه، وسيصيرون إليه، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم يتقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم أنه محق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمدا ويثنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَجَعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ وقال: ﴿سَلِّئْ عَلَيَّ نَوْجٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ○ إِنَّا كُنَّا لَمَجْرِي الْمَحْسِينِ ○ وقد قال عباد الرحمن: ﴿وَأَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ وهي من نعم الباري على عبده، ومنته التي تحتاج إلى الشكر.

(١٨٩) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو المالك للسموات والأرض وما فيهما من سائر أصناف الخلق، المتصرف فيهم، بكمال القدرة، وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا﴾ من الطعن فيكم، وفي دينكم، وكتابكم، ورسولكم. وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك، عدة فوائد:

منها: أن حكمته تعالى تقتضي بذلك؛ لتمييز المؤمن الصادق من غيره.

ومنها: أنه تعالى، يقدر عليهم هذه الأمور، لما يريد بهم من الخير ليعلي درجاتهم، ويكفر من سيئاتهم، ويزداد بذلك إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فإنه إذا أخبرهم بذلك ووقع كما أخبر ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَسُلِيمًا﴾.

ومنها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤنته، ويلجأون إلى الصبر والتقوى، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي: إن تصبروا على ما نالكم في أموالكم وأنفسكم، من الابتلاء، والامتحان، وعلى أذية الظالمين، وتتقوا الله في ذلك الصبر بأن تنووا به وجه الله، والتقرب إليه، ولم تتعدوا في صبركم، الحد الشرعي من الصبر في موضع لا يحل لكم فيه الاحتمال، بل وظيفتكم فيه الانتقام من أعداء الله.

﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها، وينافس فيها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم والهمم العالية كما قال تعالى: ﴿وَمَا يُقْنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقْنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾.

(١٨٧، ١٨٨) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ آتَوْا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَكُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَيْتَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ○ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّاهُمْ بِمَقَارِفِ بَيْنِ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ الميثاق هو العهد الثقيل المؤكد، وهذا الميثاق أخذه الله تعالى، على كل من أعطاه [الله] الكتاب، وعلمه العلم، أن يبين للناس ما يحتاجون إليه مما علمه الله، ولا يكتهم ذلك، ويخجل عليهم به، خصوصًا إذا سألوه، أو وقع ما يوجب ذلك، فإن كل من عنده علم يجب عليه في تلك الحال أن يبينه، ويوضح الحق من الباطل.

فأما الموفقون، فقاموا بهذا أتم القيام، وعلموا الناس مما علمهم الله ابتغاء مرضاة ربهم، وشفقة على الخلق، وخوفًا من إثم الكتمان.

وأما الذين آتوا الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم، فنبذوا هذه العهود والمواثيق وراء ظهورهم، فلم

﴿إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٠﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ أَنْ أَنْصَارُوا بِرَبِّكُمْ فَامْتَأَنَّ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا وَآئِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٢﴾

﴿إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٠﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ أَنْ أَنْصَارُوا بِرَبِّكُمْ فَامْتَأَنَّ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا وَآئِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٢﴾

﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ بأن تعصمنا من السيئات، وتوفقنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار، ويتضمن ذلك سؤال الجنة؛ لأنهم - إذا وقاهم الله عذاب النار - حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم دعوا الله بأهم الأمور عندهم.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ﴾ أي: لحصوله على السخط من الله، ومن ملائكته، وأوليائه، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها، ولا منقذ منها.

ولهذا قال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ينفذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ وهو محمد ﷺ، أي: يدعو الناس إليه، ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه ﴿فَآمَنَّا﴾ أي: أجبناه مبادرة، وسارعنا إليه، وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم، وتبجح بنعمته، وتوسل إليه بذلك أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي من عليهم بالإيمان، سيمن عليهم بالأمان التام.

﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل

(١٩٠-١٩٤) ﴿إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩٠﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ أَنْ أَنْصَارُوا بِرَبِّكُمْ فَامْتَأَنَّ رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا وَآئِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٢﴾ يخبر تعالى: ﴿إِنِّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكير فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها.

وأهم قوله: «آيات» ولم يقل: «على المطلب الفلاني» إشارة لكثرتها وعمومها؛ وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية.

فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته، وما فيها من الإحكام والانتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، يدل على حكمة الله، ووضعه الأشياء مواضعها، وسعة علمه، وما فيها من المنافع للمخلوق يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره.

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه، ممن لا يملك لنفسه ولا لغيره، مقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وخص الله بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المستفوعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

ثم وصف أولي الألباب بأنهم ﴿يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ في جميع أحوالهم: ﴿قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائمًا، فإن لم يستطع فقاعدًا، فإن لم يستطع فعلى جنب.

وأنهم ﴿يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكير عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثًا فيقولون: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق.

سُورَةُ آلِ اِمْرَانَ

٧٦

الْبَقَرَةِ

فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

لَا يَغْرِبُكَ ثَقَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْأَهَادِ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُرُؤًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَوْلَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

سُورَةُ النَّبَاِ

وعناء ومشقة، لكان هذا بالنسبة إلى النعيم المقيم والعيش السليم، والسرور والحبور، والبهجة نزرًا يسيرًا، ومنحة في صورة محنة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾ وهم الذين برت قلوبهم، فبرت أقوالهم وأفعالهم، فأنابهم البر الرحيم من بره أجرًا عظيمًا، وعطاء جسيمًا، وفوزًا دائمًا. (١٩٩، ٢٠٠) ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أَوْلَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ أي: وإن من أهل الكتاب طائفة موفقة للخير، يؤمنون بالله، ويؤمنون بما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، ولهذا الإيمان النافع، لا كمن يؤمن ببعض الرسل والكتب، ويكفر ببعض.

ولهذا - لما كان إيمانهم عامًا حقيقيًا - صار نافعًا، فأحدث لهم خشية الله، وخضوعهم لجلاله الموجب للانقياد لأوامره ونواهيه، والوقوف عند حدوده.

وهؤلاء أهل الكتاب والعلم على الحقيقة، كما قال

الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه، والثبات إلى الممات.

ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سأله الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على السنة رسله من النصر، والظهور في الدنيا، ومن الفوز برضوان الله وجنته في الآخرة، فإنه تعالى لا يخلف الميعاد، فأجاب الله دعاءهم، وقَبِلَ تضرعهم. فلهذا قال:

(١٩٥) ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ أي: أجاب الله دعاءهم، دعاء العبادة، ودعاء الطلب، وقال: إنني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر وأنثى، فالجميع سيلقون ثواب أعمالهم كاملاً موفراً، ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: كلكم على حد سواء في الثواب والعقاب.

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ فجمعوا بين الإيمان والهجرة، ومفارقة المحبوبات من الأوطان والأموال، طلبًا لمرضاة ربهم، وجاهدوا في سبيل الله.

﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ تَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ الذي يعطي عبده الثواب الجزيل على العمل القليل.

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمن أراد ذلك فليطلبه من الله بطاعته، والتقرب إليه، بما يقدر عليه العبد.

(١٩٦-١٩٨) ﴿لَا يَغْرِبُكَ ثَقَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْأَهَادِ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُرُؤًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿١٩٨﴾ وهذه الآية المقصود منها التسلية عما يحصل للذين كفروا من متاع الدنيا، وتنعمهم فيها، وتقلبهم في البلاد بأنواع التجارات والمكاسب واللذات، وأنواع العز، والغلبة في بعض الأوقات، فإن هذا كله ﴿مَتَّعٌ قَلِيلٌ﴾ ليس له ثبوت ولا بقاء، بل يتمتعون به قليلاً، ويعذبون عليه طويلاً، هذه أعلى حالة تكون للكافر، وقد رأيت ما توول إليه.

وأما المتقون لربهم، المؤمنون به - فمع ما يحصل لهم من عز الدنيا ونيعتها ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

فلو قدر أنهم في دار الدنيا، قد حصل لهم كل بؤس وشدة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْحَيْثُ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمُ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَتِلْكَ أَرْبَعَةٌ خِفْتُمْ أَنْ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَمْلُوكَةٌ أَوْ يَتِيمَةٌ فَإِنَّ أَعْيُنَكُمْ عَلَىٰهَا لَبِغَاتٌ وَلَكُمْ فِيهَا حِكْمَةٌ كَثِيرَةٌ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٣﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي مَتْلُبِكُمْ سَبِيلَ الْيَتَامَىٰ وَالنِّسَاءِ فَإِنَّ أَعْيُنَكُمْ عَلَىٰهَا لَبِغَاتٌ وَلَكُمْ فِيهَا حِكْمَةٌ كَثِيرَةٌ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٤﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي مَتْلُبِكُمْ سَبِيلَ الْيَتَامَىٰ وَالنِّسَاءِ فَإِنَّ أَعْيُنَكُمْ عَلَىٰهَا لَبِغَاتٌ وَلَكُمْ فِيهَا حِكْمَةٌ كَثِيرَةٌ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٥﴾ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي مَتْلُبِكُمْ سَبِيلَ الْيَتَامَىٰ وَالنِّسَاءِ فَإِنَّ أَعْيُنَكُمْ عَلَىٰهَا لَبِغَاتٌ وَلَكُمْ فِيهَا حِكْمَةٌ كَثِيرَةٌ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦﴾

والحث على عبادته، والأمر بصلة الأرحام، والحث على ذلك، وبين السبب الداعي الموجب لكل من ذلك، وأن الموجب لتقواه أنه ﴿رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ ورزقكم، ورباكم بنعمه العظيمة، التي من جعلتها خلقكم ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ليناسها، فيسكن إليها، وتتم بذلك النعمة، ويحصل به السرور.

وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم، توسلتم لها، بالسؤال بالله، فيقول من يريد ذلك لغيره: أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي أن لا يرد من سأله بالله، فكما عظمتوه بذلك، فلتعظموه بعبادته وتقواه.

وكذلك الإخبار بأنه رقيب، أي: مطلع على العباد، في حال حركاتهم وسكونهم، وسرهم وعلنهم، وجميع أحوالهم، مراقباً لهم فيها، مما يوجب مراقبته، وشدة الحياة

(١) في ب: هي. (٢) في النسختين: وهو، ولعل الصواب ما أثبت.

تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ ومن تمام خشيتهم لله، أنهم ﴿لَا يَشْكُرُونَ عِبَادَتِ اللَّهِ تَشْكُرًا قَلِيلًا﴾ فلا يقدمون الدنيا على الدين، كما فعل أهل الانحراف الذين يكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمنًا قليلاً.

وأما هؤلاء فعرفوا الأمر على الحقيقة، وعلموا أن من أعظم الخسران، الرضا بالدون عن الدين، والوقوف مع بعض حظوظ النفس السفلية، وترك الحق الذي هو أكبر حظ وفوز في الدنيا والآخرة، فأتوا الحق، وبينوه، ودعوا إليه، وحذروا عن الباطل، فأثابهم الله على ذلك، بأن وعدهم الأجر الجزيل، والثواب الجميل، وأخبرهم بقربه، وأنه سريع الحساب، فلا يستبطؤون ما وعدهم الله، لأن ما هو آت محقق حصوله، فهو قريب.

ثم حض المؤمنين على ما يوصلهم إلى الفلاح - وهو: الفوز والسعادة والنجاح، وأن الطريق الموصل إلى ذلك، لزوم الصبر، الذي هو جسد النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة على النفوس، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك. والمصابرة أي^(١): الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال.

والمرابطة وهي^(٢): لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم، لعلمهم يفلحون: يفوزون بالمحجوب الديني والدنيوي والأخروي، وينجون من المكروه كذلك.

فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمرابطة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحدًا الفلاح إلا بالإخلال بها أو ببعضها. والله الموفق، ولا حول ولا قوة إلا به.

تم تفسير «سورة آل عمران» والحمد لله على نعمته، ونسأله تمام النعمة.

تفسير سورة النساء

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه،

يتامى النساء، اللاتي تحت حجوركم وولايتكم، وخفتم أن لا تقوموا بحققهن؛ لعدم محبتكم إياهن - فاعدلوا إلى غيرهن، وانكحوا ﴿مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: ما وقع عليهن اختياركم: من ذوات الدين، والمال، والجمال، والحسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاختاروا على نظرهم.

ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين، كما قال النبي ﷺ: «تُنكح المرأة لأربع: لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يمينك».

وفي هذه الآية - أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح بل وقد أباح له الشارع النظر إلى من يريد تزوجها، ليكون على بصيرة من أمره ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء فقال: ﴿مَتَى وَتَلَكَ وَرَبِّكَ﴾ أي: من أحب أن يأخذ ثنتين فليفعل، أو ثلاثاً فليفعل، أو أربعاً فليفعل، ولا يزيد عليها، لأن الآية سيقت لبيان الامتتان، فلا يجوز الزيادة على غير ما سمي الله تعالى إجمالاً.

وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهوته بالواحدة، فأبيح له واحدة بعد واحدة، حتى يبلغ أربعاً، لأن في الأربع غنية لكل أحد إلا ما ندر، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم، ووثق بالقيام بحقوقهن.

فإن خاف شيئاً من هذا، فليقتصر على واحدة، أو على ملك يمينه، فإنه لا يجب عليه القسم، في ملك اليمين ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الاقتصار على واحدة، أو ما ملكت اليمين ﴿أَذَقَ آلَا تَعُولُوا﴾ أي: تظلموا.

وفي هذا أن تعرض العبد للأمر الذي يخاف منه الجور والظلم، وعدم القيام بالواجب - ولو كان مباحاً - أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطي العبد.

ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء، ويهضمونهن حقوقهن - خصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً، ودفعة واحدة، يشق دفعه للزوجة - أمرهم وحثهم على إيتاء النساء ﴿صَدَقَاتِينَ﴾ أي: مهورهن ﴿نَحْلَةً﴾ أي: عن طيب نفس، وحال طمأنينة، فلا تمطلوهن، أو تبحسوا منه شيئاً، وفيه: أن المهر يدفع إلى المرأة، إذا كانت مكلفة، وأنها تملكه بالعقد؛ لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التملك.

﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾ أي: من الصداق ﴿فَنَسَا﴾ بأن (١) في ب: وأوتى. (٢) كذا في ب، وفي أ: الذين فقدت آباؤهم الكافلون.

منه، بلزوم تقواه.

وفي الاخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بثهم في أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد - ليعطف بعضهم على بعض، ويرقق بعضهم على بعض، وقرن الأمر بتقواه، بالأمر ببر الأرحام، والنهي عن قطعها، ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصاً الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر الله به.

تأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام والأزواج عموماً، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل، من أول السورة إلى آخرها، فكانها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجمل منها، موضحة لما أبهم. وفي قوله: ﴿وَتَلَكَ مِنْهَا رُزُوجَهَا﴾ تنبيه على مراعاة حق الأزواج والزوجات والقيام به، لكون الزوجات مخلوقات من الأزواج فينبهن وأقرب نسب، وأشد اتصال، وأقرب (١) علاقة.

(٢) وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَلْيَنُكُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا تَدْبُرُوا الْخَيْبَ بِالْطَّبِيبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة، وهم يتامى الذين فقدوا آباءهم الكافلين (٢) لهم، وهم صغار ضعاف، لا يقومون بمصالحهم، فأمر الرؤوف الرحيم عبادة أن يحسنوا إليهم، وأن لا يقربوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم، إذا بلغوا، ورشدوا، كاملة موفرة.

وأن لا ﴿تَدْبُرُوا الْخَيْبَ﴾ الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق ﴿بِالطَّبِيبِ﴾ وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾ أي: مع أموالكم.

ففيه تنبيه لفتح أكل مالهم بهذه الحالة، التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله، فمن تجرأ على هذه الحالة، فقد أتى ﴿حُوبًا كَبِيرًا﴾ أي: إثماً عظيماً، ووزراً جسيماً، ومن استبدال الخيب بالطيب، أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس، ويجعل بدله من ماله الخسيس، وفيه الولاية على اليتيم، لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله، ثبوت ولاية المؤتي على ماله، وفيه الأمر بإصلاح مال اليتيم، لأن تمام إيتائه ماله، حفظه، والقيام به بما يصلحه وينمي، وعدم تعرضه للمخاوف والأخطار.

(٤، ٣) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكحوا ما طاب لكم مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَتَلَكَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَدْبُرُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَقَ آلَا تَعُولُوا ○ وَءَاتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِينَ نَحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَسَا فَلَوهُ هَيْبًا مَرْتَبًا﴾ أي: وإن خفتم ألا تعدلوا في

لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً. فإن تبين رشده وصلاحه في ماله، وبلغ النكاح ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ كاملة موفرة. ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم، من أموالكم إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم.

﴿وَيَذَارَا أَنْ يَكْبُرُوا﴾ أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم، التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوك منها، وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء، الذين ليس عندهم خوف من الله، ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال حال فرصة، فيغتنمونها، ويتعجلون ما حرم الله عليهم، فنهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

(٧) ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ كان العرب في الجاهلية - من جبروتهم^(١) وقسوتهم، لا يورثون الضعفاء كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء؛ لأنهم - بزعمهم - أهل الحرب والقتال، والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعاً، يستوي فيه رجالهم ونسأؤهم، وأقويأؤهم وضعفاؤهم، وقدم بين يدي ذلك أمراً مجملاً، لتتوطن على ذلك النفوس، فيأتي التفصيل بعد الإجمال، قد تشوفت له النفوس، وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة فقال: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ أي: قسط وحصص ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أي: خلف ﴿الْوَالِدَانِ﴾ أي: الأب والأم ﴿وَالْأَقْرَبُونَ﴾ عموم بعد خصوص ﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾.

فكأنه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف والعادة، وأن يرضخوا لهم ما يشاءون؟ أو شيئاً مقدراً؟ فقال تعالى: ﴿نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي: قد قدره العليم الحكيم، وسيأتي - إن شاء الله - تقدير ذلك.

وأيضاً فهائنا توهم آخر، لعل أحداً يتوهم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ فتبارك الله أحسن الحاكمين.

(٨) ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ فَأَرْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّرْفُوعًا﴾ وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة، الجابرة للقلوب، فقال: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾ أي: قسمة الموارث ﴿أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ أي: الأقارب

سمحن لكم عن رضا واختيار، بإسقاط شيء منه، أو تأخيره أو المعاوضة عنه ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ أي: لا حرج عليكم في ذلك ولا تبعة.

وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها - ولو بالتبرع - إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك فليس لعطيتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء، غير ما طابت به.

وفي قوله: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ دليل على أن نكاح الخبيثة، غير مأمور به، بل منهي عنه، كالمشركة، وكالفاجرة، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾ وقال: ﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

(٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَوَدُّوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالِكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَرْفُوعًا﴾ السفهاء، جمع «سفيه» وهو: من لا يحسن التصرف في المال، إما لعدم عقله كالمجنون والمعتهو، ونحوهما، وإما لعدم رشده، كالصغير وغير الرشيد، فنهى الله الأولياء أن يوتروا هؤلاء أموالهم، خشية إفسادها وإتلافها؛ لأن الله جعل الأموال قيماً لعباده، في مصالح دينهم ودنياهم، وهؤلاء لا يحسنون القيام عليها وحفظها.

فأمر الولي أن لا يوتيهم إياها بل يرزقهم منها ويكسوهم، ويبدل منها ما يتعلق بضرورتهم وحاجاتهم الدينية والدنيوية، وأن يقولوا لهم قولاً معروفاً، بأن يعدوهم - إذا طلبوها - أنهم سيدفعونها لهم بعد رشدهم، ونحو ذلك، ويلطفوا لهم في الأقوال جبراً لخواتمهم، وفي إضافته تعالى الأموال إلى الأولياء إشارة إلى أنه يجب عليهم أن يعملوا في أموال السفهاء، ما يفعلونه في أموالهم: من الحفظ، والتصرف، وعدم التعريض للأخطار.

وفي الآية دليل على أن نفقة المجنون والصغير والسفيه في مالهم، إذا كان لهم مال، لقوله: ﴿وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾ وفيه دليل على أن قول الولي مقبول فيما يدعيه من النفقة الممكنة، والكسوة؛ لأن الله جعله مؤتمناً على مالهم، فلزم قبول قول الأمين.

(٦) ﴿وَأَنْبِئُوا النِّسَاءَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمُ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ الابتلاء هو: الاختبار والامتحان؛ وذلك بأن يدفع لليتيم المقارب للرشد، الممكن رشده، شيئاً من ماله، ويتصرف فيه التصرف اللائق بحاله، فيتبين بذلك رشده من سفهه، فإن استمر غير محسن للتصرف،

(١) في النسختين: جبريتهم.

سورة النساء

٧٨

سورة النساء

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
 مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
 مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
 وَالْمَسْكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا
 ﴿٨﴾ وَيَحْشِشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا
 خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
 إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي
 بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ
 فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَىٰ إِنْ كُنَّ نِسَاءً
 فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا
 النِّصْفُ وَلِأَبْوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ
 كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ
 فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي
 بِهَا أَوْ دِينَءِ آبَائِهِمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ لَا تَنْدَرُونَ أَيْهِمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
 نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾

في بطونهم ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ أي: نارًا محرقة متوقدة، وهذا
 أعظم وعيد ورد في الذنوب، يدل على شناعة أكل أموال
 اليتامى وقبحها، وأنها موجبة لدخول النار، فدل ذلك أنها من
 أكبر الكبائر، نسأل الله العافية.

(١١، ١٢) ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ
 الْأُنثَىٰ إِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ
 وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبْوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ
 كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَتْهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ
 إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَءِ آبَائِهِمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ
 لَا تَنْدَرُونَ أَيْهِمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
 كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ○ ولَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَرْبَابُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ
 لَهُمْ ○ وَلَكِنْ إِنْ كَانَ لَهُنَّ وَأَنْتُمْ أَرْبَابُهُنَّ فَالْأَرْبَابُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ
 بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَءِ وَلَهُنَّ أَرْبَابُهُنَّ مِمَّا تَرَكَنَّ
 إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ إِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا
 تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دِينَءِ وَإِنْ كَانَتْ رَجُلًا

(١) في ب: يردونهم.

غير الوارثين، بقرينة قوله: ﴿الْقِسْمَةَ﴾ لأن الوارثين من
 المقسوم عليهم، و﴿الْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينُ﴾ أي: المستحقون من
 الفقراء ﴿فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾ أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال،
 الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، ولا عناء، ولا نصب، فإن
 نفوسهم متشوفة إليه، وقلوبهم متطلعة، فاجبروا خواطرهم،
 بما لا يضرهم، وهو نافعهم.

ويؤخذ من المعنى أن كل مَنْ له تطلع وتشوف إلى ما حضر
 بين يدي الإنسان، ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر، كما كان
 النبي ﷺ يقول: «إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه، فليجلسه
 معه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمة أو لقمتين» أو كما
 قال.

وكان الصحابة رضي الله عنهم - إذا بدأت باكورة
 أشجارهم - أتوا بها رسول الله ﷺ، فبرك عليها، ونظر إلى
 أصغر وليد عنده، فأعطاه ذلك، علمًا منه بشدة تشوفه لذلك،
 وهذا كله مع إمكان الإعطاء، فإن لم يمكن ذلك - لكونه حقًا
 سفهًا، أو ثمَّ أهم من ذلك - فليقولوا لهم ﴿قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾
 يردوهم (١) ردًا جميلًا، بقول حسن، غير فاحش، ولا قبيح.

(٩، ١٠) ﴿وَلْيَحْشِشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعْفًا
 خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ○ إِنَّ الَّذِينَ
 يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ
 سَعِيرًا﴾ قيل: إن هذا خطاب لمن يحضر، مَنْ حضره الموت
 وأجنت في وصيته، أن يأمره بالعدل في وصيته، والمساواة
 فيها بدليل قوله: ﴿وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: سدادًا، موافقًا
 للقسط والمعروف، وأنهم يأمرون مَنْ يريد الوصية على أولاده
 بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم.

وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء، من المجانين،
 والصغار، والضعاف، أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية
 والدنيوية، بما يحبون أن يعامل به مَنْ بعدهم من ذريتهم
 الضعاف ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾ في ولايتهم لغيرهم، أي: يعاملوهم
 بما فيه تقوى الله، من عدم إهانتهم، والقيام عليهم، وإلزامهم
 لتقوى الله.

ولما أمرهم بذلك، زجرهم عن أكل أموال اليتامى،
 وتوعد على ذلك أشد العذاب فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ
 الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ أي: بغير حق، وهذا القيد يخرج به ما تقدم،
 من جواز الأكل للفقير بالمعروف، ومن جواز خلط طعامهم
 بطعام اليتامى.

فَمَنْ أَكَلَهَا ظُلْمًا، ف ﴿إِنَّمَا يَكُونُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ أي:
 فإن الذي أكلوه نار تتأجج في أجوافهم وهم الذين أدخلوها

فالجواب أنه يستفاد من قوله: ﴿وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة، انتقل الفرض عن النصف، ولا ثم بعده إلا الثلثان.

وأيضًا فقوله: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ إذا خلف ابناً وبناتاً، فإن الابن له الثلثان، وقد أخبر الله أنه مثل حظ الأنثيين، فدل ذلك على أن للبتين الثلثين.

وأيضًا فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها - وهو أزيد ضرراً عليها من أختها - فأخذها له - مع أختها - من باب أولى وأحرى، وأيضًا فإن قوله تعالى في الأختين: ﴿وَإِنْ كَانَتَا أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ نص في الأختين الثلثين. فإذا كان الاختان الثلثان - مع بعدهما - تأخذان الثلثين، فالابنتان - مع قريهما - من باب أولى وأحرى، وقد أعطى النبي ﷺ ابنتي سعد الثلثين، كما في الصحيح.

بقي أن يقال: فما الفائدة في قوله: ﴿فَوْقَ أُخْتَيْنِ؟﴾ قيل: الفائدة في ذلك - والله أعلم - أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثلثان، لا يزيد بزيادتهن على الثلثين، بل من الثلثين فصاعدًا.

ودلت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة، وبنت ابن أو بنات ابن، فإن لبنت الصلب النصف، ويبقى من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات، أو بنات الابن السدس، فيعطى بنت الابن، أو بنات الابن، ولهذا يسمى هذا السدس، تكملة الثلثين، ومثل ذلك بنت الابن، مع بنات الابن، اللاتي أنزل منها.

وتدل الآية أنه متى استغرق البنات أو بنات الابن الثلثين، أنه يسقط من دونهن من بنات الابن؛ لأن الله لم يفرض لهن إلا الثلثين، وقد تم؛ فلو لم يسقطن لزم من ذلك أن يفرض لهن أزيد من الثلثين، وهو خلاف النص، وكل هذه الأحكام مجمع عليها بين العلماء، والله الحمد.

ودل قوله: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾ أن الوارثين يرثون كل ما خلف الميت، من عقار، وأثاث، وذهب، وفضة، وغير ذلك، حتى الدية التي لم تجب إلا بعد موته، وحتى الديون التي في الذم^(١).

ثم ذكر ميراث الأبوين فقال: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ﴾ أي: أبوه وأمه ﴿لِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: ولد صلب، أو ولد ابن، ذكراً كان أو أنثى، واحداً أو متعدداً فأما الأم فلا تزيد على السدس مع أحد من الأولاد.

يُورِثُ كَكَلَّةٍ أَوْ أَمْرَأَةٍ وَلَهُ: أَحٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا الشُّدُّ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوْصَى بِهَا أَوْ ذَيْنَ غَيْرِ مُصَاكِرٍ وَصِيَّتِهِ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ

هذه الآيات والآية التي هي آخر السورة هن آيات الموارث المتضمنة لها، فإنها - مع حديث عبد الله بن عباس، الثابت في صحيح البخاري «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر» - مشتملات على جل أحكام الفرائض، بل على جميعها، كما سترى ذلك، إلا ميراث الجدات، فإنه غير مذكور في ذلك.

لكنه قد ثبت في السنن عن المغيرة بن شعبة، ومحمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس، مع إجماع العلماء على ذلك.

فقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أي: أولادكم - يا معشر الوالدين - عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم، لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلمونهم وتؤدبونهم، وتكفونهم عن المفساد، وتأمرونهم بطاعة الله، وملازمة التقوى على الدوام كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَوُجُوهَ النَّاسِ وَالْجِبَابِ﴾ فالأولاد - عند والديهم - موصى بهم.

فإما أن يقوموا بتلك الوصية، وإما أن يضيعوها، فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب، وهذا مما يدل على أن الله تعالى أرحمُ بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين - مع كمال شفقتهم - عليهم.

ثم ذكر كيفية إرثهم فقال: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ أي: الأولاد للصلب، والأولاد للابن، للذكر مثل حظ الأنثيين، إن لم يكن معهم صاحب فرض، أو ما أبقى الفروض يقتسمونه كذلك.

وقد أجمع العلماء على ذلك، وأنه - مع وجود أولاد الصلب - فالميراث لهم، وليس لأولاد الابن شيء، حيث كان أولاد الصلب، ذكورا وإناثا، هذا مع اجتماع الذكور والإناث، وهنا حالتان: انفراد الذكور، وسيأتي حكمها، وانفراد الإناث، وقد ذكره بقوله:

﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ أُخْتَيْنِ﴾ أي: بنات صلب، أو بنات ابن، ثلاثا فأكثر ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثًا مِّمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً﴾ أي: بنتاً، أو بنت ابن ﴿فَلَهَا النِّصْفُ﴾ وهذا إجماع.

بقي أن يقال: من أين يستفاد أن للبتين الثلثين الثلثين بعد الإجماع على ذلك؟.

(١) في ب: الذمة.

الإخوة للأُم: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرُثُ كَعَلَّةٌ أَوْ أَمْرَأَةٌ وَكَلَّةٌ أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَجِدٍ يَنْهَمَا أَلْسُدُسُّ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهَمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَثِ﴾.

فأطلق لفظ الجمع، والمراد اثنان فأكثر، بالإجماع، فعلى هذا لو خلف أُمًا وأبًا وإخوة، كان للأُم السدس، والباقي للأب، فحجبوها عن الثلث، مع حجب الأب إياهم، [إلا على الاحتمال الآخر، فإن للأُم الثلث، والباقي للأب]^(١).

ثم قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوصِي بِهَا أَوْ ذَيْنَ﴾ أي: هذه الفروض والأنصبا، والموارث، إنما ترد وتستحق بعد نزع الديون التي على الميت لله، أو للآدميين، وبعد الوصايا التي قد أوصى الميت بها بعد موته، فالباقي عن ذلك هو التركة الذي يستحقه الورثة.

وقدم الوصية - مع أنها مؤخره عن الدين - للاهتمام بشأنها، لكون إخراجها، شاقًا على الورثة، وإلا فالديون مقدمة عليها، وتكون من رأس المال.

وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل، للأجنبي الذي هو غير وارث، وأما غير ذلك فلا يفيد إلا بإجازة الورثة، قال تعالى: ﴿ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

فلو رد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم، لحصل من الضرر ما الله به عليم؛ لنقص العقول، وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن، في كل زمان ومكان، فلا يدرون أيّ الأولاد أو الوالدين أنفع لهم وأقرب لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية.

﴿فَرِيضَةٌ مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: فرضها الله الذي قد أحاط بكل شيء علمًا، وأحكم ما شرعه، وقدر ما قدره على أحسن تقدير، لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ومكان وحال.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الأزواج ﴿فِي نِصْفِ مَا تَرَكَ أَرْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ مِنَ الرُّبْعِ وَمِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ يُوْصِي بِهَا أَوْ ذَيْنَ وَلَهُنَّ مِنَ الرُّبْعِ وَمِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّتِهِ تُوْصُونَ بِهَا أَوْ ذَيْنَ﴾.

ويدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه، ولد

وأما الأب فمع الذكور منهم، لا يستحق أزيد من السدس، فإن كان الولد أنثى أو إنثاء، ولم يبق بعد الفرض شيء - كأبوين وابنتين - لم يبق له تعصيب، وإن بقي بعد فرض البنت أو البنات شيء، أخذ الأب السدس فرضًا، والباقي تعصيبًا؛ لأننا ألحقنا الفروض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر، وهو أولى من الأخ والعم، وغيرهما.

﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ وَلَدٌ وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِأَبِيهِ الثَّلَثُ﴾ أي: والباقي للأب، لأنه أضاف المال إلى الأب والأم إضافة واحدة، ثم قدر نصيب الأم، فدل ذلك على أن الباقي للأب.

وعلم من ذلك أن الأب - مع عدم الأولاد - لا فرض له، بل يرث تعصيبًا المال كله، أو ما أبقى الفروض ولكن لو وجد مع الأبوين أحد الزوجين - ويعبر عنهما بالعمريتين - فإن الزوج أو الزوجة يأخذ فرضه، ثم تأخذ الأم ثلث الباقي والأب الباقي.

وقد دلّ على ذلك قوله: ﴿وَوَرِثَتُهُ أَبَوَاهُ فَلِأَبِيهِ الثَّلَثُ﴾ أي: ثلث ما ورثه الأبوان، وهو في هاتين الصورتين، إما سدس في زوج وأم وأب، وإما ربع في زوجة وأم وأب، فلم تدل الآية على إرث الأم، ثلث المال كاملاً، مع عدم الأولاد. حتى يقال: إن هاتين الصورتين قد استثنيتنا من هذا.

ويوضح ذلك أن الذي يأخذه الزوج أو الزوجة بمنزلة ما يأخذه الغرماء، فيكون من رأس المال، والباقي بين الأبوين. ولأننا لو أعطينا الأم ثلث المال، لزم زيادتها على الأب في مسألة الزوج، أو أخذ الأب في مسألة الزوجة زيادة عنها نصف السدس، وهذا لا نظير له، فإن المعهود مساواتها للأب، أو أخذه ضعف ما تأخذه الأم.

﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأَبِيهِ أَلْسُدُسُّ﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأُم، ذكورًا كانوا أو إنثاء، وارثين، أو محجوبين بالأب، أو الجدة، [لكن قد يقال: ليس ظاهره قوله: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ شاملًا لغير الوارثين؛ بدليل عدم تناولها للمحجوب بالنصف، فعلى هذا لا يحجبها عن الثلث من الإخوة، إلا الإخوة الوارثون.

ويؤيده أن الحكمة في حجبهما لها عن الثلث، لأجل أن يتوفر لهما شيء من المال، وهو معدوم، والله أعلم^(١). ولكن بشرط كونهم اثنين فأكثر، ويشكل على ذلك، إتيان لفظ «الإخوة» بلفظ الجمع، وأجيب عن ذلك، بأن المقصود مجرد التعدد لا الجمع، ويصدق ذلك باثنين.

وقد يطلق الجمع، ويراد به الاثنان، كما في قوله تعالى عن داود وسليمان: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ وقال في

(١) زيادة من هامش ب، وهناك زيادة أخرى في هامش أ، وإن لم يتبين محلها، لكنها ذات صلة بهذا الموضوع، وهي قوله: [وعند شيخ الإسلام إذا كان الإخوة غير وارثين فإنهم لا يحجبون الأم]. وبعد كلمة الأم كلمة غير واضحة في الأصل. (٢) زيادة من هامش ب.

في البنات وبنات الابن، وإن كان الإخوة رجالاً ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين.

فإن قيل: فهل يستفاد حكم ميراث القاتل، والرفيق، والمخالف في الدين، والمبعض، والخنثى، والجد مع الإخوة لغير أم، والعول، والرد، وذوي الأرحام، وبقية العصة، والأخوات لغير أم، مع البنات، أو بنات الابن، من القرآن أم لا؟

قيل: نعم، فيه تنبيهات وإشارات دقيقة، يعسر فهمها على غير المتأمل، تدل على جميع المذكورات؛ فأما (القاتل والمخالف في الدين) فيعرف أنهما غير وارثين من بيان الحكمة الإلهية في توزيع المال على الورثة، بحسب قربهم، ونفعهم الديني والدنيوي.

وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة بقوله: ﴿لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْسًا﴾. وقد علم أن القاتل قد سعى لمورثه^(٣) بأعظم الضرر، فلا يتنهض ما فيه من موجب الإرث أن يقاوم ضرر القتل، الذي هو ضد النفع الذي ترتب عليه الإرث، فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية، أن «من استعجل شيئاً قبل أوانه، عوقب بحرمانه».

وبهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا يرث له؛ وذلك أنه قد تعارض الموجب، الذي هو: اتصال النسب الموجب للإرث، والمانع الذي هو المخالفة في الدين، الموجبة للمباينة من كل وجه.

فقوي المانع، ومنع موجب الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل الموجب لقيام المانع، يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية، فإذا مات المسلم انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به، فيكون قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ إذا اتفقت أديانهم، وأما مع تباينهم، فالأخوة الدينية مقدمة على الأخوة النسبية المجردة.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»: «وتأمل هذا المعنى في آية الموارث، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة، دون المرأة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ إيداناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجية، المقترضة للتشاكل والتناسب. والمؤمن والكافر لا تشاكل

(١) في ب: الشريك. (٢) في النسختين: أخوات الأب، والصواب - والله أعلم - ما أثبتته، وظاهر أنه سبق قلم. (٣) في الأصل: لمورثه.

الصلب أو ولد الابن الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجمالاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَّةً أَوْ امْرَأَةً وَكَهْلًا أَوْ أَخًا أَوْ أُخْتًا﴾ أي: من أم، كما هي في بعض القراءات، وأجمع العلماء على أن المراد بالإخوة - هنا - الإخوة للأُم، فإذا كان يورث كلاله أي: ليس للميت والد ولا ولد، أي: لا أب، ولا جد، ولا ابن، ولا ابن ابن، ولا بنت، ولا بنت ابن وإن نزلوا، وهذه هي الكلاله، كما فسرنا بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد حصل على ذلك الاتفاق، والله الحمد.

﴿فَلِكُلِّ وَجِدٍ مِّنْهُمَا﴾ أي: من الأخ والأخت ﴿السُّدُسُ﴾. ﴿فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ أي: من واحد ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾ أي: لا يزيدون على الثلث، ولو زادوا عن اثنين، ودل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾ أن ذكرهم وأنتاهم سواء، لأن لفظ «التشريك»^(١) يقتضي التسوية.

ودل لفظ: ﴿الْكَلَّةُ﴾ على أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علوا، يسقطون أولاد الأم؛ لأن الله لم يورثهم إلا في الكلاله، فلو لم يكن يورث كلاله، لم يرثوا منه شيئاً اتفاقاً.

ودل قوله: ﴿فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثَّلَاثِ﴾ أن الإخوة الأشقاء يسقطون في المسألة المسماة بالحمايرية، وهي: زوج، وأم، وإخوة لأُم، وإخوة أشقاء. للزوج النصف؛ وللأم السدس؛ وللإخوة للأُم الثلث ويسقط الأشقاء؛ لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعاً لما فرق الله حكمه، وأيضاً فإن الإخوة للأُم أصحاب فروض، والأشقاء عصابات.

وقد قال النبي ﷺ: «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فأولى رجل ذكر»، وأهل الفروض هم: الذين قدر الله أنصباهم، ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء، فيسقط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك.

وأما ميراث الإخوة والأخوات الأشقاء، أو لأب، فمذكور في قوله: ﴿يَسْتَقْبَلُكَ فَاللَّهُ يُنَبِّئُكُمْ فِي الْكَلَّةِ﴾ الآية.

فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب، لها النصف، والثنتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب، أو الأخوات، تأخذ النصف، والباقي من الثلثين للأخت، أو الأخوات لأب^(٢)، وهو السدس تكملة الثلثين، وإذا استغرقت الشقيقات الثلثين سقط الأخوات للأب، كما تقدم

وَأَسْحَقُ وَيَعْقُوبُ ﴿١١﴾ .

فسمى الله الجد وجد الأب أباً، فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب مَنْ يحجبه .

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم، من بني الإخوة والأعمام وبينهم، وسائر أحكام^(٢) الموارث - فينبغي أيضاً أن يكون حكمه حكمه في حجب الإخوة لغير أم .

وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب، فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ، قد اتفق العلماء على أنه يحجبه، فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع مَنْ يرث الإخوة مع الجد، نص ولا إشارة، ولا تنبيه، ولا قياس صحيح .

وأما مسائل (العول) فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض، وقدر لأهل الموارث أنصاء، وهم بين حالتين: إما أن يحجب بعضهم بعضاً، أو لا .

فإن حجب بعضهم بعضاً، فالمحجوب ساقط لا يزاحم، ولا يستحق شيئاً، وإن لم يحجب بعضهم بعضاً فلا يخلو، إما أن لا تستغرق الفروض التركية، أو تستغرقها من غير زيادة ولا نقص، أو تزيد الفروض على التركية، ففي الحالتين الأوليين كلٌّ يأخذ فرضه كاملاً، وفي الحالة الأخيرة، وهي - ما إذا زادت الفروض على التركية - فلا يخلو من حالين:

إما أن تنقص بعض الورثة عن فرضه الذي فرضه الله له، ونكمل للباقيين منهم فروضهم، وهذا ترجيح بغير مرجح، وليس نقصان أحدهم بأولى من الآخر، فتعينت الحال الثانية، وهي: أننا نعطي كل واحد منهم نصيبه بقدر الإمكان، ونحاصص بينهم، كديون الغرما الزائدة على مال الغريم، ولا طريق موصل إلى ذلك إلا بالعول، فعلم من هذا أن العول في الفرائض قد بينه الله في كتابه .

وبعكس هذه الطريقة بعينها يعلم (الرد)، فإن أهل الفروض إذا لم تستغرق فروضهم التركية، وبقي شيء ليس له مستحق من عاصب قريب ولا بعيد، فإن رده على أحدهم ترجيح بغير مرجح، وإعطاؤه غيرهم ممن ليس بقريب للميت جنف وميل ومعارضة؛ لقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فتعين أن يرد على أهل الفروض، بقدر فروضهم .

ولما كان الزوجان ليسا من القرابة، لم يستحقا زيادة على فرضهم المقدر [هذا عند من لا يرث الزوجين بالرد، وهم

بينهما، ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث، وأسرار مفردات القرآن ومركباته، فوق عقول العالمين^(١) [انتهى].

وأما (الريق)، فإنه لا يرث ولا يرث .
أما كونه لا يرث فواضح، لأنه ليس له مال يرث عنه، بل كل ما معه فهو لسيدته، وأما كونه لا يرث، فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان لسيدته، وهو أجنبي من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَّيْنَ﴾، ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ﴾ ﴿فَلِكُلِّ وَاوَدَّ مَتَّهَمًا لِّلشُّدَّةِ﴾ ونحوها، لمن يتأتى منه التملك، وأما الرقيق، فلا يتأتى منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له .

وأما من بعضه حر وبعضه رقيق، فإنه تتبعض أحكامه فما فيه من الحرية يستحق بها ما رتبته الله في الموارث، لكون ما فيه من الحرية، قابلاً للتملك، وما فيه من الرق فليس يقابل لذلك، فإذا كان المبعض يرث ويورث، ويحجب بقدر ما فيه من الحرية، وإذا كان العبد يكون محموداً مذموماً، مثاباً ومعاقباً، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك .

وأما (الخثى) فلا يخلو إما أن يكون واضحاً ذكوريته أو أنوثيته، أو مشكلاً، فإن كان واضحاً، فالأمر فيه واضح .
إن كان ذكراً فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم .
وإن كان أنثى فله حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن .

وإن كان مشكلاً، فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما - كالإخوة للأم - فالأمر فيه واضح .

وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنوثيته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك، لم نعطه أكثر التقديرين؛ لاحتمال ظلم مَنْ معه من الورثة، ولم نعطه الأقل؛ لاحتمال ظلمنا له، فوجب التوسط بين الأمرين، وسلوك أعدل الطريقين، قال تعالى: ﴿عَدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ وليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور، ﴿وَلَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ .

وأما (ميراث الجد) مع الإخوة الأشقاء، أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دل كتاب الله على قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأم، كما يحجبهم الأب .

وبيان ذلك: أن الجد أب في غير موضع من القرآن كقوله تعالى: ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ الآية . وقال يوسف عليه السلام: ﴿وَأَتَّبَعْتُم مِّلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ

(١) في ب: العاقلين . (٢) كذا في ب، وفي أ: الأحكام .

الْحَرَامِ

٧٩

سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ تَرِيْنَ
لَهُنَّ وَلَدًا فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا
تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ
وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ
فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ
مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ
رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً أَوْ امْرَأَةً وَوَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ
وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ
فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا
أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ
﴿١٣﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٤﴾
وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَعْتَدِ حُدُودَهُ
يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿١٥﴾

وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ○ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَعْتَدِ
حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿١٥﴾ أي:
تلك التفاصيل التي ذكرها في الموارث حدود الله التي يجب
الوقوف معها، وعدم مجاوزتها، ولا القصور عنها، وفي ذلك
دليل على أن الوصية للوارث منسوخة بتقديره تعالى أنصاء
الوارثين.

ثم قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾^(١) فالوصية للوارث بزيادة
على حقه، يدخل في هذا التعدي، مع قوله ﷺ: «لا وصية
لوارث». ثم ذكر طاعة الله ورسوله، ومعصيتهما عمومًا،
ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض، أو ترك ذلك،
فقال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بامتثال أمرهما، الذي
أعظمه طاعتهما في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف

(١) ما بين القوسين زيادة من هامش أ، وقد جاء في ب بدل هذه الزيادة ما
نصه: [عند القائلين بعدم الرد عليهما. وأما على القول الصحيح أن حكم
الزوجين حكم باقي الورثة في الرد فالدليل المذكور شامل للجميع، كما
شملهم دليل العول]. (٢) هنا سبق قلم من الشيخ - رحمه الله - فالآية
﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ وأثبت الشيخ - زيادة ﴿فَلَا تَمْتَدُّعًا﴾ وليس هنا محلها،
وعلى مقتضى ما أثبت فسرًا فأبقيت الكلام كما هو، وعدلت الآية.

جمهور القائلين بالرد فعلى هذا تكون علة الرد كونه صاحب
فرض قريبًا، وعلى القول الآخر أن الزوجين كغيرهما من ذوي
الفروض يرد عليهما؛ فكما يتقصان بالعول فإنهما يزدان بالرد
كغيرهما فالعلة على هذا كونه وارثًا صاحب فرض، فهذا هو
الظاهر من دلالة الكتاب والسنة، والقياس الصحيح والله
أعلم^(١).

وبهذا يعلم أيضًا (ميراث ذوي الأرحام)، فإن الميت إذا
لم يخلف صاحب فرض ولا عاصبًا، وبقي الأمر دائرًا بين
كون ماله يكون لبيت المال، لمنافع الأجنب، وبين كون ماله
يرجع إلى أقربائه المدلين بالورثة المجمع عليهم، ويدل على
ذلك قوله تعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾
فصرفه لغيرهم ترك لمن هو أولى من غيره، فتعين توريث ذوي
الأرحام.

وإذا تعين توريثهم، فقد علم أنه ليس لهم نصيب مقدّر
بأعيانهم في كتاب الله، وأن بينهم وبين الميت وسائط،
صاروا - بسببها - من الأقارب، فيترلون منزلة من أدلوا به من
تلك الوسائط. والله أعلم.

وأما (ميراث بقية العصبه) كالبنوة والأخوة وبنينهم
والأعمام وبنينهم... إلخ فإن النبي ﷺ قال: «الْحَقُّوا
الْفَرَائِضَ بِأَهْلِهَا، فَمَا بَقِيَ فَلأُولَىٰ رَجُلٍ ذَكَرَ». وقال تعالى:
﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ فإذا أُلْحِقْنَا
الفروض بأهلها، ولم يبق شيء، لم يستحق العاصب شيئًا.
وإن بقي شيء أخذه أولى العصبه، وبحسب جهاتهم
ودرجاتهم.

فإن جهات العصبية خمس: البنوة، ثم الأبوة، ثم الأخوة
وبنوهم، ثم العمومة وبنوهم، ثم الولاء، فيقدم منهم الأقرب
جهة، فإن كانوا في جهة واحدة فالأقرب منزلة، فإن كانوا في
منزلة واحدة فالأقوى، وهو الشقيق، فإن تساوا من كل وجه
اشتركوا، والله أعلم.

وأما كون الأخوات لغير أم مع البنات، أو بنات الابن
عصابات، يأخذن ما فضل عن فروضهن، فلائنه ليس في
القرآن، ما يدل على أن الأخوات يسقطن بالبنات.

فإذا كان الأمر كذلك، وبقي شيء بعد أخذ البنات
فروضهن، فإنه يعطى للأخوات، ولا يعدل عنهن إلى عصبه
أبعد منهن، كابن الأخ والعم، ومن هو أبعد منهم. والله
أعلم.

(١٤، ١٣) ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٠

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَالَّتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَادَّهَمَّا فَإِنَّ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِمِغْلَابٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ أَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

فالحبس غاية إلى الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ تَابَا﴾ أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه، وندما عليه، وعزما أن لا يعودا ﴿وَأَصْلَحَا﴾ العمل الدال على صدق التوبة ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ أي: عن أذاهما ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان، الذي - من إحسانه - وفقهم للتوبة، وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بينة الزنا لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم؛ لأن الله تعالى شدد في أمر هذه الفاحشة، سترًا لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء منفردات، ولا مع الرجال، ولا ما دون أربعة.

ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة وتومئ إليه هذه الآية لما قال: ﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ لم يكتف بذلك حتى قال: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد

درجاتها، واجتناب نهيمها الذي أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها ﴿يُدْخِلُهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

فمن أدى الأوامر، واجتنب النواهي، فلا بد له من دخول الجنة، والنجاة من النار ﴿وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمَطِيءُ﴾ الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه، بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا كَلِيلًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائلين بكفر أهل المعاصي، فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته، وطاعة رسوله، ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب، ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه، دخل النار وخلد فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية، وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

(١٦، ١٥) ﴿وَالَّتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ مِنْ نِسَائِكَ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَتَادُهُمَا فَإِنَّ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ أي: النساء ﴿الَّتِي يَأْتِيَنَّكَ الْفَاحِشَةُ﴾ أي: الزنا، ووصفها بالفاحشة لشناعتها وقبحها.

﴿فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ﴾ أي: من رجالكم المؤمنين العدول، ﴿فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ﴾ احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضًا فإن الحبس من جملة العقوبات.

﴿حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ﴾ أي: هذا منتهى الحبس ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا غير الحبس في البيوت. وهذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي مغيية إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلا، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن.

﴿وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا﴾ أي: الفاحشة ﴿مِنْكُمْ﴾ من الرجال والنساء ﴿فَتَادُهُمَا﴾ بالقول والتوبيخ والتعيير، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة، فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يحسن ويؤذبن.

عيانًا، من غير تعريض ولا كناية.

ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل، والحبس، قد شرعه الله تعزيرًا للجنس المعصية، الذي يحصل به الزجر.

(١٧، ١٨) ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْثَىٰ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ توبة الله على عباده

نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، فأخبر هنا - أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرمًا منه وجودًا، لمن عمل السوء أي: المعاصي ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ أي: جهالة منه بعاقبتها، وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالمًا بالتحريم، بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية، معاقبًا عليها.

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ﴾ يحتمل أن يكون المعنى: ثم يتوبون قبل معاينة الموت، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعًا، وأما بعد حضور الموت، فلا يقبل من العاصين توبة، ولا من الكفار رجوع، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرَجُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ. يَتُوبُ إِلَىٰ رَبِّهِ﴾ الآية وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَأَمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدِيثِهِمْ قَدْ كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۝ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَتَّ اللَّهُ آلِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادَتِهِ﴾.

وقال هنا: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: المعاصي فيما دون الكفر.

﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُتْتُ الْأَنْثَىٰ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وذلك، أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار، لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار، ويحتمل^(١) أن يكون معنى قوله: «من قريب» أي: قريب من فعلهم للذنب، الموجب للتوبة.

فيكون المعنى: أن من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب، وأتاب إلى الله، وندم عليه فإن الله يتوب عليه، بخلاف من استمر على ذنوبه^(٢)، وأصر على عيوبه، حتى صارت فيه صفات راسخة، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة، والغالب أنه لا يوفق للتوبة، ولا ييسر لأسبابها، كالذي يعمل السوء على علم تام^(٣) ويقين، وتهاون^(٤) بنظر الله إليه، فإنه سد^(٥) على نفسه باب الرحمة.

نعم قد يوفق الله عبده المصير على الذنوب عن عمد ويقين لتوبة تامة^(٦)، [التي] يمحو بها ما سلف من سيئاته، وما تقدم من جنائياته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا ختم الآية الأولى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها، فيجازي كلًّا منهما بحسب ما يستحق بحكمته ومن حكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته، توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه، والله أعلم.

(١٩-٢١) ﴿يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَجِدُ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَضْلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَجَعَلَ اللَّهُ فِيهِ خِمَرًا كَثِيرًا ۝ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْتِدْآلَ زَوْجٍ مَكْرًا ذَوِّجْ وَءَاتَيْتُهُنَّ إِحْدَهُنَّ وَقَطَّارًا فَلَا تَأْخُذُوا بِهِنَّ شَيْئًا ءَاتَاخُذُونَهُنَّ هُنَّ تَنَاوُءٌ وَإِنَّمَا تُمِيزُوا ۝ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته، رأى قريبه، كأخيه، وابن عمه ونحوهما، أنه أحق بزوجه من كل أحد، وحماها عن غيره، أحبت أو كرهت، فإن أحبها تزوجها على صداق يحبه دونها، وإن لم يرضها عضلها، فلا يزوجه إلا من يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبدل له شيئًا من ميراث قريبه، أو من صداقها.

وكان الرجل أيضًا يعضل زوجته التي [يكون] يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها، فهي الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت، واختارت نكاح قريب زوجها الأول، كما هو مفهوم قوله: ﴿كَرْهًا﴾ وإذا أتيت بفاحشة مبينة، كالزنا، والكلام الفاحش، وأذيتها لزوجها، فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها، عقوبة لها على فعلها، لتفتدي منه إذا كان عضلاً بالعدل.

ثم قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف؛ من الصحة الجميلة، وكف الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة، والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجه، المعروف من مثله لمثلها، في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

(١) في هامش أ [ويؤيد هذا الاحتمال أن الله قال: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ الحاضرة، ولم يقل: [إنما يتوب الله، وبين اللفظين فرق ظاهر]. (٢) في ب: ذنبه. (٣) في ب: قائم. (٤) في ب: متهاون. (٥) في ب: يسد. (٦) في ب: للتوبة النافعة.

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

٨١

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ
 إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ
 بُهْتَنًا وَإِنَّمَا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى
 بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا
 غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ
 النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا
 وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ
 وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ
 الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْتُمْ
 وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
 وَرَبِّبَاتُكُمْ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمْ
 اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ
 فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبَائِكُمُ الَّذِينَ
 مِّنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ
 إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾

الابن أباه، والأب ابنه، مع الأمر بیره.

﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: بسس الطريق طريقًا لمن سلكه، لأن
 هذا من عوائد الجاهلية، التي جاء الإسلام بالنتزه عنها،
 والبراءة منها.

(٢٣، ٢٤) ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ
 وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي
 أَرْضَعْتُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ
 اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمْ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا
 دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ
 أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ
 اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ○ وَالنِّسَاءُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
 أَيْدِيكُمْ كَلَّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَن تَبْتَغُوا
 بِأَمْوَالِكُمْ مُّحْصِينَ عَرِّ مُّسْتَجِينَ فَمَا اسْتَمْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَاقْتُوهُنَّ
 أَجُورَهُنَّ وَبَيْضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ
 الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ هذه الآيات الكريمة

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَّ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا
 كَثِيرًا﴾ أي: ينبغي لكم - أيها الأزواج - أن تمسكوا
 زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيرًا كثيرًا، من ذلك
 امثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

ومنها أن إجباره نفسه - مع عدم محبته لها - فيه مجاهدة
 النفس، والتخلق بالأخلاق الجميلة، وربما أن الكراهة
 تزول، وتخلفها المحبة، كما هو الواقع في ذلك، وربما رزق
 منها ولدًا صالحًا، نفع والديه في الدنيا والآخرة، وهذا كله مع
 الإمكان في الإمساك، وعدم المحذور.

فإن كان لا بد من الفراق، وليس للإمساك محل، فليس
 الإمساك بلازم، بل متى ﴿أَرَدْتُمْ أَسْبَدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ﴾
 أي: تطليق زوجة، وتزوج أخرى، أي: فلا جناح عليكم في
 ذلك ولا حرج، ولكن إذا ﴿ءَاتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ﴾ أي: المفارقة، أو
 التي تزوجها ﴿قِنطَارًا﴾ أي: مالا كثيرًا ﴿فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ
 شَيْئًا﴾ بل وفروه لهن، ولا تمطلوا بهن.

وفي هذه الآية دلالة على عدم تحريم كثرة المهر، مع أن
 الأفضل واللائق الاقتداء بالنبي ﷺ في تخفيف المهر، ووجه
 الدلالة أن الله أخبر عن أمر يقع منهم، ولم ينكره عليهم، فدل
 على عدم تحريمه.

لكن قد ينهى عن كثرة الصداق، إذا تضمن مفسدة دينية،
 وعدم مصلحة تقاوم^(١)، ثم قال: ﴿أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَنًا وَإِنَّمَا
 مُبِينًا﴾ فإن هذا لا يحل، ولو تحيلتم عليه بأنواع الحيل، فإن
 إنمه واضح.

وقد بين تعالى حكمة ذلك بقوله: ﴿وَكَيفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ
 أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذَتْ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾
 وبيان ذلك: أن الزوجة قبل عقد النكاح محرمة على الزوج،
 ولم ترض بحلها له إلا بذلك المهر الذي يدفعه لها، فإذا دخل
 بها وأفضى إليها وباشرها المباشرة التي كانت حرامًا قبل
 ذلك، التي لم ترض ببذلها إلا بذلك العوض، فإنه قد استوفى
 المعوض، فثبت عليه العوض، فكيف يستوفي المعوض، ثم
 بعد ذلك يرجع على العوض؟ هذا من أعظم الظلم والجور،
 وكذلك أخذ الله على الأزواج ميثاقًا غليظًا بالعقد، والقيام
 بحقوقها ثم قال تعالى:

(٢٢) ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ
 سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: لا
 تزوجوا من النساء ما تزوجهن آباؤكم، أي: الأب وإن علا
 ﴿إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً﴾ أي: أمرًا قبيحًا يفضح ويفضح قبحه
 ﴿وَمَقْتًا﴾ من الله لكم ومن الخلق، بل يمقت بسبب ذلك

وحرّمه، وحرّم النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرّم، لو قدر إحداهما ذكراً، والأخرى أنثى، حرمت عليه، فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

ومن المحرمات في النكاح ﴿المُحَصَّنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ أي: ذوات الأزواج، فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج، حتى تطلق، وتنقضي عدتها ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: بالسبي، فإذا سببت الكافرة ذات الزوج، حلت للمسلمين بعد أن تستبرأ، وأما إذا بيعت الأمة المزوجة، أو وهبت، فإنه لا ينفسخ نكاحها لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بريرة، حين خيّرها النبي ﷺ.

وقوله: ﴿يَكْتَبُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: الزومه واهتدوا به، فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

ودخل في قوله: ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ كل ما لم يذكر في هذه الآية، فإنه حلال طيب فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر، لطفاً من الله ورحمة، وتيسيراً للعباد.

وقوله: ﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ أي: تطلبوا من وقع عليه نظرکم واختيارکم، من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونکم ﴿مُحْصِنِينَ﴾ أي: مستعفين عن الزنا، ومعفين نساءکم.

﴿غَيْرِ مُسْفِحِينَ﴾ والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته، لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصناً لزوجته، وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف، لقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾ أي: ممن تزوجتموها ﴿فَتَأْوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع، ولهذا إذا دخل الزوج بزوجته تقرر عليه صداقها.

﴿فَرِيضَةً﴾ أي: إيتاؤكم^(٢) إياهن أجورهن فرض فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه، وإن شاء رده، أو معنى قوله «فريضة» أي: مقدرة قد قدرتموها، فوجب عليكم، فلا تقصوا منها شيئاً.

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾ أي: بزيادة من الزوج، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس، [هذا قول كثير من المفسرين، وقال كثير منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالاً في أول الإسلام، ثم

(١) في ب: وأصولهما وفروعهما. (٢) في الأصل: (إيتانكم)، ولعل الصواب ما أثبت.

مشمولات على المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع، والمحرمات بالصهر، والمحرمات بالجمع، وعلى المحللات من النساء، فأما المحرمات في النسب، فهن السبع اللاتي ذكرهن الله: الأم، يدخل فيها كل من لها عليك ولادة، وإن بعدت، ويدخل في البنت كل من لك عليها ولادة، والأخوات الشقيقات، أو لأب أو لأم، والعمّة: كل أخت لأبيك، أو لجدك، وإن علا، والخالة: كل أخت لأمك، أو جدتك وإن علت، وارثة أم لا، وبنات الأخ، وبنات الأخت، أي: وإن نزلت.

فهؤلاء هن المحرمات من النسب بإجماع العلماء، كما هو نص الآية الكريمة، وما عداهن فيدخل في قوله: ﴿وَأَحَلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾، وذلك كبنت العمّة والعم، وبنت الخال والخالة.

وأما المحرمات بالرضاع فقد ذكر الله منهن الأم، والأخت، وفي ذلك تحريم الأم مع أن اللبن ليس لها، إنما هو لصاحب اللبن، دل بتبيينه على أن صاحب اللبن يكون أباً للمرضع، فإذا ثبت الأبوة والأمومة، ثبت ما هو فرع عنهما، كإخوتهما، وأصولهم، وفروعهم^(١).

وقال النبي ﷺ: «يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»، فينتشر التحريم من جهة المرضعة، ومن له اللبن، كما ينتشر في الأقارب، وفي الطفل المرتضع إلى ذريته فقط، لكن بشرط أن يكون الرضاع خمس رضعات في الحولين، كما بينت السنة.

وأما المحرمات بالصهر، فهن أربع: حلالل الآباء وإن علوا، وحلالل الأبناء وإن نزلوا، وارثين أو محجوبين، وأمّهات الزوجة وإن علون، فهؤلاء الثلاث يحرمن بمجرد العقد.

والرابعة: الربيبة، وهي بنت زوجته وإن نزلت، فهذه لا تحرم حتى يدخل بزوجه، كما قال هنا: ﴿وَرَبِّبْتُكُمْ إِلَيَّ فِي حُبُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ الآية.

وقد قال الجمهور: إن قوله: ﴿الَّتِي فِي حُبُورِكُمْ﴾ قيد خرج مخرج الغالب، لا مفهوم له، فإن الربيبة تحرم ولو لم تكن في حجره، ولكن للتقيد بذلك فائدتان:

إحداهما: فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربيبة، وأنها كانت بمنزلة البنت، فمن المستقبح إباحتها.

والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربيبة، وأنها بمنزلة من هي في حجره من بناته ونحوهن، والله أعلم.

وأما المحرمات بالجمع، فقد ذكر الله الجمع بين الأختين

حرمها النبي ﷺ، وأنه يؤمر بتوقيتها، وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما، ففرضاً بعد الفريضة، فلا حرج عليهما، والله أعلم^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: كامل العلم واسع، كامل الحكمة، فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحدد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

(٢٥) ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ بَعْضِ الْأُمَمِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكَحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَنَاحِشٍ فَمَلَيْتِهِنَّ نِصْفٌ مِمَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المؤمنات المومنات فمن ما ملكت أيمانكم من بعض الأمم والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسفحات ولا متخذات أخدانٍ فإذا أُحصن فإن أتيت بفناحشٍ فمليتهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم أي: ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات، أي: الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه العنت، أي: الزنا أو المشقة الكثيرة، فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات، وهذا بحسب ما يظهر، وإلا فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره، فأمر الدنيا مبنية على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن.

﴿فَانْكَحُوهُنَّ﴾ أي: المملوكات ﴿بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي: سيدهن، واحداً، أو متعدداً.

﴿وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي: ولو كن إماء، فإنه كما يجب المهر للحررة، وكذلك يجب للأمة.

ولكن لا يجوز نكاح الإماء، إلا إذا كن ﴿مُحْصَنَاتٍ﴾ أي: عفيفات عن الزنا ﴿غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ﴾ أي: زانيات علانية ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ أي: أخلاء في السر.

فالحاصل، أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة، إلا بأربعة شروط ذكرها الله: [إيمانهن]^(٢)، والعفة ظاهراً وباطناً، وعدم استطاعة طول الحررة، وخوف العنت فإذا تمت هذه الشروط جاز له نكاحهن.

ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل، لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب وهذا إذا أمكن الصبر، فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا بنكاحهن، وجب ذلك ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَ﴾ أي: تزوجن أو أسلمن، أي: الإماء ﴿فَمَلَيْتِهِنَّ نِصْفٌ مِمَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: الحرائر ﴿وَمِنَ الْعَذَابِ﴾.

وذلك، الذي يمكن تصفيفه، وهو: الجلد، فيكون عليهن

٨٢

﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾

﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَإِجْلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَسْتَعُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ﴾ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٦﴾

﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحِ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ بَعْضِ الْأُمَمِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكَحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَيْنَ بِفَنَاحِشٍ فَمَلَيْتِهِنَّ نِصْفٌ مِمَّا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذِينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

خمسون جلدة، وأما الرجم، فليس على الإماء رجم، لأنه لا ينتصف، فعلى القول الأول، إذا لم يتزوجن فليس عليهن حد، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة، وعلى القول الثاني: إن الإماء غير المسلمات إذا فعلن فاحشة أيضاً عزرن.

وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين «الغفور والرحيم» لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد، وكرماً، وإحساناً إليهم، فلم يضيع عليهم، بل وسع غاية السعة، ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده، كما ورد بذلك الحديث، وحكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة؛ لعدم الفارق بينهما.

(٢٦-٢٨) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذِينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ○ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُتَّبِعُوا مِثْلًا عَظِيمًا

(١) زيادة من هامش ب، والزيادة غير واضحة، وقد أتمتها من الطبعة السلفية. (٢) في الأصل: (الإيمان بهن) ولعل مراده قائم بهن، والاقرب ما أثبت.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وُحْلُقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ يخبر تعالى
بمنته العظيمة، ومنحته الجسيمة، وحسن تربيته لعباده
المؤمنين، وسهولة دينه، فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي:
جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل، والحلال
والحرام.

﴿وَيَهْدِيكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: الذين أنعم الله
عليهم من النبيين وأتباعهم، في سيرهم الحميدة، وأفعالهم
السديدة، وشمالهم الكاملة، وتوفيقهم التام، فلذلك نفذ ما
أراد، ووضع لكم، وبين بيانا ما بين لمن قبلكم، وهداكم
هداية عظيمة في العلم والعمل.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يلطف لكم في أحوالكم، وما شرعه
لكم، حتى تتمكنوا^(١) من الوقوف على ما حده الله، والاكتماء
بما أحله، فتقل ذنوبكم، بسبب ما يسر الله عليكم، فهذا من
توبته على عباده، ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا، فتح لهم
أبواب الرحمة، وأوزع قلوبهم الإنابة إليه، والتذلل بين يديه،
ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له فله الحمد والشكر على
ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: كامل الحكمة، فمن
علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء
والحدود، ومن حكمته أنه يتوب على من اقتضت حكمته
ورحمته التوبة عليه، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله، من لا
يصلح للتوبة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: توبة تلم
شعثكم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم.

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ أي: يميلون معها حيث
مالت، ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم، ويعبدون
أهواءهم، من أصناف الكفرة والعاصين، المقدمين لأهوائهم
على طاعة ربهم.

فهؤلاء يريدون ﴿أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي: [أن] تنحرفوا
عن الصراط المستقيم، إلى صراط المغضوب عليهم
والضالين، يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة
الشیطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال
أوامره، إلى من الشقاوة كلها في اتباعه، فإذا عرفتم أن الله
تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم، وسعادتكم، وأن
هؤلاء المتبعين لشهواتهم يأمرؤنكم، بما فيه غاية الخسار
والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعيين، وتخبروا أحسن
الطريقتين.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: بسهولة ما أمركم به، و[ما]

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: بسهولة ما أمركم به، و[ما]

(١) في ب: تتمكنوا.

نُصِيْبِهِ نَارًا ۗ أَي: عظيمة كما يفيد التأكيد ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

(٣١) ﴿إِنْ تَجَتَبْنَا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نُكْفِرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنَدْخُلَكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ وهذا من فضل الله وإحسانه على عباده المؤمنين، وعدمهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات، غفر لهم جميع الذنوب والسيئات، وأدخلهم مدخلًا كريمًا، كثير الخير وهو الجنة، المشتمة على ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ويدخل في اجتناب الكبائر فعل الفرائض التي يكون تاركها مرتكبًا كبيرة، كالصلوات الخمس، والجمعة وصوم رمضان، كما قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهما، ما اجتنبت الكبائر». وأحسن ما حدثت به الكبائر، أن الكبيرة ما فيه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، أو نفي إيمان، أو ترتيب لعنة، أو غضب عليه.

(٣٢) ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ ينهى تعالى المؤمنين عن أن يتمنى بعضهم ما فضل الله به غيره، من الأمور الممكنة، وغير الممكنة، فلا تتمنى النساء خصائص الرجال، التي بها فضلهم على النساء، ولا صاحب الفقر والنقص حالة الغنى والكمال، تمنيا مجردًا، لأن هذا هو الحسد بعينه، تمنى نعمة الله على غيرك أن تكون لك، ويسلب إياها.

ولأنه يقتضي السخط على قدر الله، والإخلاق إلى الكسل والأمانى الباطلة، التي لا يقترن بها عمل ولا كسب، وإنما المحمود أمران: أن يسعى العبد على حسب قدرته، بما ينفعه من مصالحه الدينية والدنيوية، ويسأل الله تعالى من فضله، فلا يتكل على نفسه، ولا على غير ربه، ولهذا قال تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبُوا ۗ أَي: من أعمالهم المنتجة للمطلوب.

﴿وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا أَكْتَسَبْنَ ۗ فكل منهم لا يناله غير ما كسبه وتعب فيه.

﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ۗ أَي: من جميع مصالحهم في الدين والدنيا، فهذا كمال العبد، وعنوان سعاده، لا من يترك العمل، أو يتكل على نفسه، غير مفتقر لربه، أو يجمع بين الأمرين، فإن هذا مخذول خاسر.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعطي من يعلمه أهلاً لذلك، ويمنع من يعلمه غير مستحق.

البطر والإسراف، لأن هذا من الباطل، وليس من الحق. ثم إنه - لما حرم أكلها بالباطل - أباح لهم أكلها بالتجارات، والمكاسب الخالية من الموانع، المشتمة على الشروط، من التراضي وغيره.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ۗ أَي: لا يقتل بعضكم بعضًا، ولا يقتل الإنسان نفسه، ويدخل في ذلك الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُم رَحِيمًا ۗ ومن رحمته أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتب من الحدود.

وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ ۗ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ كيف شمل أموال غيرك، ومال نفسك، وقتل نفسك، وقتل غيرك، بعبارة أخصر من قوله: ﴿لا يأكل بعضكم مال بعض﴾ و﴿لا يقتل بعضكم بعضًا﴾ مع قصور هذه العبارة على مال الغير، ونفس الغير فقط.

مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى عموم المؤمنين، فيه دلالة على أن المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، ومصالحهم، كالجسد الواحد، حيث كان الإيمان يجمعهم على مصالحهم الدينية والدنيوية.

ولما نهى عن أكل الأموال بالباطل، التي فيها غاية الضرر عليهم، على الآكل، ومن أخذ ماله - أباح لهم ما فيه مصلحتهم من أنواع المكاسب والتجارات، وأنواع الحرف والإجازات، فقال: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بِحَرَءٍ عَنْ تَرَاوٍ بَيْنَكُمْ ۗ أَي: فإنها مباحة لكم.

وشرط التراضي - مع كونها تجارة - لدلالة أنه يشترط أن يكون العقد غير عقد ربا، لأن الربا ليس من التجارة، بل مخالف لمقصودها، وأنه لا بد أن يرضى كل من المتعاقدين، ويأتي به اختيارًا.

ومن تمام الرضا أن يكون المعقود عليه معلومًا، لأنه إذا لم يكن كذلك لا يتصور الرضا مقدورًا على تسليمه، لأن غير المقدور عليه شبيه ببيع القمار، فبيع الغرر بجميع أنواعه خال من الرضا، فلا ينفذ عقده.

وفيها أنه تعقد العقود بما دل عليها من قول أو فعل، لأن الله شرط الرضا، فبأي طريق حصل الرضا انعقد به العقد، ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَكُم رَحِيمًا ۗ ومن رحمته أن عصم دماءكم وأموالكم، وصانها، ونهاكم عن انتهاكها.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ۗ أَي: أكل الأموال بالباطل، وقتل النفوس ۗ عَدُوْنَا وَظَلْمًا ۗ أَي: لا جهلاً ونسيانًا ۗ فَسَوْفَ

ولعل هذا سر قوله: ﴿يَمَّا أَنْفَقُوا﴾ وحذف المفعول، ليدل على عموم النفقة، فعلم من هذا كله أن الرجل كالوالي والسيد لامرأته، وهي عنده عانية أسيرة خادمة فوظيفته أن يقوم بما استرعاها الله به.

ووظيفتها، القيام بطاعة ربها، وطاعة زوجها، فلهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكَ عَلَىٰ مِمَّا قَدْ قَضَيْتَ لِنَفْسِكَ﴾ أي: مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب، تحفظ بعلمها بنفسها، وماله، وذلك بحفظ الله لهن، وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن، فإن النفس أمارة بالسوء، ولكن مَنْ توكَّل على الله، كفاه ما أهمه من أمر دينه ودنياه.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ تَخَوَّنَ سُكْرَهُمْ﴾ أي: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن، بأن تعصيه بالقول أو الفعل، فإنه يؤديها بالأسهل فالأسهل.

﴿فَيُظْهِرُ﴾ أي: ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها الزوج في المضجع، بأن لا يضاجمها، ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا ضربها ضرباً غير مبرح.

فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور، وأطعنكم ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: فقد حصل لكم ما تحبون، فاتركوا معاتبتهن على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ أي: له العلو المطلق بجميع الوجوه، والاعتبارات، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، الكبير الذي لا أكبر منه، ولا أجل، ولا أعظم كبير الذات والصفات.

(٣٥) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين، والمباعدة والمجانبة، حتى يكون كل منهما في شق ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا﴾ أي: رجلين مكلفين، مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق، وهذا مستفاد من لفظ «الحكم» لأنه لا يصلح حكماً، إلا مَنْ اتصف بتلك الصفات، فينظران ما ينجم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، قنعا الزوج الآخر بالرضا بما تيسر من الرزق والخلق.

ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح، فلا يعدلا عنه.

(٣٣) ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكَ عَلَىٰ مِمَّا قَدْ قَضَيْتَ لِنَفْسِكَ﴾ أي: ﴿ولِكُلِّ﴾ من الناس ﴿جَعَلْنَا مَوْلَىٰ﴾ أي: يتولونه ويتولاهم، بالتعزز والنصرة، والمعاونة على الأمور ﴿وَمِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ وهذا يشمل سائر الأقارب، من الأصول والفروع والحواشي، هؤلاء الموالى من القرابة.

ثم ذكر نوعاً آخر من الموالى فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَقَدْتَ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: حالتموهم بما عقدتم معهم من عقد المحالفة على النصرة والمساعدة، والاشتراك بالأموال، وغير ذلك، وكل هذا من نعم الله على عباده، حيث كان الموالى يتعاونون بما لا يقدر عليه بعضهم مفرداً.

قال تعالى: ﴿فَتَأْتُوهُمْ نَفْسِيهِمْ﴾ أي: أتوا الموالى نصيبهم، الذي يجب القيام به من النصرة والمعاونة، والمساعدة، على غير معصية الله، والميراث للأقارب الأدين من الموالى.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: مطلعاً على كل شيء، بعلمه لجميع الأمور، وبصره لحركات عباده، وسمعه لجميع أصواتهم.

(٣٤) ﴿الزَّجَالَ قَوْمًا عَلَىٰ أَثَرِ النَّسَاءِ﴾ أي: ﴿الزَّجَالَ قَوْمًا عَلَىٰ أَثَرِ النَّسَاءِ﴾ أي: قوامون عليهن بالزمامهن بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه، وكفهن عن المفاسد، والرجال عليهن أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضاً بالإفناق عليهن، والكسوة، والمسكن.

ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء فقال: ﴿يَمَّا فَضَلَ اللَّهُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي: بسبب فضل الرجال على النساء، وإفضالهم عليهن.

فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات، كالجهاد، والأعياد، والجمع.

وبما خصهم الله به من العقل، والرزانة، والصبر، والجِدَّة، الذي ليس للنساء مثله، وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات يختص بها الرجال، ويتميزون عن النساء.

سُورَةُ النِّسَاءِ

٨٤

سُورَةُ النِّسَاءِ

الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ
عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقَ لِحَاثِ
فَنَنْتُ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّي تَخَافُونَ
ذُورَهُنَّ فَعُظُوهُنَّ وَأَهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ
وَأَضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٦﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ
بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ
يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا
﴿٣٧﴾ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْحَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْحَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا ۝ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً
النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لِرَبِّ
قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۝ يَا مَعْزِلُ الْعِبَادَةِ مِنْهُ خِذُوا بِحُبِّ لَهْ
وَهُوَ الذُّخُولُ تَحْتَ رِيقِ عِبَادَتِهِ، وَالانْقِيَادُ لِأَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ،
مُحِبَّةٌ وَذَلًّا وَإِحْلَاصًا لَهُ، فِي جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ
وَالْبَاطِنَةِ، وَيَنْهَى عَنِ الشَّرِكِ بِهِ شَيْئًا، لَا شَرَكًا أَصْغَرَ وَلَا أَكْبَرَ،
لَا مَلَكًا، وَلَا نَبِيًّا، وَلَا وَلِيًّا وَلَا غَيْرَهُمْ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، الَّذِينَ
لَا يَمْلِكُونَ لَأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا
نَشُورًا، بَلِ الْوَاجِبِ الْمُتَعِينِ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِمَنْ لَهُ الْكَمَالُ
الْمَطْلُوقِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَهُوَ التَّدْبِيرُ الْكَامِلُ، الَّذِي لَا
يُشْرِكُهُ، وَلَا يَعْينُهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، ثُمَّ بَعْدَ مَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَالْقِيَامِ
بِحَقِّهِ، أَمَرَ بِالْقِيَامِ بِحَقُوقِ الْعِبَادِ، الْأَقْرَبِ فَلِأَقْرَبِ، فَقَالَ:
﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَي: أَحْسَنُوا إِلَيْهِمْ بِالْقَوْلِ الْكَرِيمِ،
وَالخَطَابِ اللَّطِيفِ، وَالْفِعْلِ الْجَمِيلِ، بِطَاعَةِ أَمْرِهِمَا،
وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِمَا، وَالِإِنْفَاقِ عَلَيْهِمَا، وَإِكْرَامِ مَنْ لَهُ تَعْلُقُ بِهِمَا،
وَصَلَةِ الرَّحْمِ الَّتِي لَا رَحْمَ لَكَ إِلَّا بِهِمَا.

فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما
وإصلاحهما، إلا على وجه المعادة والمقاطعة، ومعصية
الله، ورأيا أن التفريق بينهما أصلح، فرقا بينهما، ولا يشترط
رضا الزوج، كما يدل عليه، أن الله سماهما حكيمين.
والحكيم يحكم، ولو^(١) لم يرض المحكوم عليه.

ولهذا قال: ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أَي:
بسبب الرأي الميمون والكلام الذي يجذب القلوب، ويؤلف
بين القريتين.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أَي: عالمًا بجميع الظواهر
والبواطن، مطلعًا على خفايا الأمور وأسرارها، فمن علمه
وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة، والشرائع الجميلة.

(٣٦-٣٨) ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْحَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْحَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا ۝ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً
النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لِرَبِّ
قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۝ يَا مَعْزِلُ الْعِبَادَةِ مِنْهُ خِذُوا بِحُبِّ لَهْ
وَهُوَ الذُّخُولُ تَحْتَ رِيقِ عِبَادَتِهِ، وَالانْقِيَادُ لِأَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ،
مُحِبَّةٌ وَذَلًّا وَإِحْلَاصًا لَهُ، فِي جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ
وَالْبَاطِنَةِ، وَيَنْهَى عَنِ الشَّرِكِ بِهِ شَيْئًا، لَا شَرَكًا أَصْغَرَ وَلَا أَكْبَرَ،
لَا مَلَكًا، وَلَا نَبِيًّا، وَلَا وَلِيًّا وَلَا غَيْرَهُمْ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، الَّذِينَ
لَا يَمْلِكُونَ لَأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا
نَشُورًا، بَلِ الْوَاجِبِ الْمُتَعِينِ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِمَنْ لَهُ الْكَمَالُ
الْمَطْلُوقِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَهُوَ التَّدْبِيرُ الْكَامِلُ، الَّذِي لَا
يُشْرِكُهُ، وَلَا يَعْينُهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، ثُمَّ بَعْدَ مَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَالْقِيَامِ
بِحَقِّهِ، أَمَرَ بِالْقِيَامِ بِحَقُوقِ الْعِبَادِ، الْأَقْرَبِ فَلِأَقْرَبِ، فَقَالَ:
﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَي: أَحْسَنُوا إِلَيْهِمْ بِالْقَوْلِ الْكَرِيمِ،
وَالخَطَابِ اللَّطِيفِ، وَالْفِعْلِ الْجَمِيلِ، بِطَاعَةِ أَمْرِهِمَا،
وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِمَا، وَالِإِنْفَاقِ عَلَيْهِمَا، وَإِكْرَامِ مَنْ لَهُ تَعْلُقُ بِهِمَا،
وَصَلَةِ الرَّحْمِ الَّتِي لَا رَحْمَ لَكَ إِلَّا بِهِمَا.

ولهذا قال: ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أَي:
بسبب الرأي الميمون والكلام الذي يجذب القلوب، ويؤلف
بين القريتين.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ أَي: عالمًا بجميع الظواهر
والبواطن، مطلعًا على خفايا الأمور وأسرارها، فمن علمه
وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة، والشرائع الجميلة.

(٣٦-٣٨) ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْحَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَالْحَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ
أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا ۝ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ
وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۝ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيقَةً
النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لِرَبِّ
قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ۝ يَا مَعْزِلُ الْعِبَادَةِ مِنْهُ خِذُوا بِحُبِّ لَهْ
وَهُوَ الذُّخُولُ تَحْتَ رِيقِ عِبَادَتِهِ، وَالانْقِيَادُ لِأَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ،
مُحِبَّةٌ وَذَلًّا وَإِحْلَاصًا لَهُ، فِي جَمِيعِ الْعِبَادَاتِ الظَّاهِرَةِ
وَالْبَاطِنَةِ، وَيَنْهَى عَنِ الشَّرِكِ بِهِ شَيْئًا، لَا شَرَكًا أَصْغَرَ وَلَا أَكْبَرَ،
لَا مَلَكًا، وَلَا نَبِيًّا، وَلَا وَلِيًّا وَلَا غَيْرَهُمْ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، الَّذِينَ
لَا يَمْلِكُونَ لَأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا
نَشُورًا، بَلِ الْوَاجِبِ الْمُتَعِينِ إِخْلَاصَ الْعِبَادَةِ لِمَنْ لَهُ الْكَمَالُ
الْمَطْلُوقِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، وَهُوَ التَّدْبِيرُ الْكَامِلُ، الَّذِي لَا
يُشْرِكُهُ، وَلَا يَعْينُهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ، ثُمَّ بَعْدَ مَا أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَالْقِيَامِ
بِحَقِّهِ، أَمَرَ بِالْقِيَامِ بِحَقُوقِ الْعِبَادِ، الْأَقْرَبِ فَلِأَقْرَبِ، فَقَالَ:
﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أَي: أَحْسَنُوا إِلَيْهِمْ بِالْقَوْلِ الْكَرِيمِ،
وَالخَطَابِ اللَّطِيفِ، وَالْفِعْلِ الْجَمِيلِ، بِطَاعَةِ أَمْرِهِمَا،
وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِمَا، وَالِإِنْفَاقِ عَلَيْهِمَا، وَإِكْرَامِ مَنْ لَهُ تَعْلُقُ بِهِمَا،
وَصَلَةِ الرَّحْمِ الَّتِي لَا رَحْمَ لَكَ إِلَّا بِهِمَا.

ولهذا قال: ﴿إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقُ اللَّهُ بَيْنَهُمَا﴾ أَي:
بسبب الرأي الميمون والكلام الذي يجذب القلوب، ويؤلف
بين القريتين.

كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم، وبرهم، وجبر خواطرهم،
وتأديبهم، وتربيتهم أحسن تربية، في مصالح دينهم ودنياهم،
﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ وهم الذين أسكنتهم الحاجة والفقر، فلم
يحصلوا على كفايتهم، ولا كفاية من يمتنون، فأمر الله تعالى
بالإحسان إليهم بسد خلتهم، وبدفع فاقتهم، والحض على
ذلك، والقيام بما يمكن منه.

﴿وَالْحَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أَي: الجار القريب الذي له حقان:
حق الجوار، وحق القرابة، فله على جاره حق، وإحسان،
راجع إلى العرف ﴿و﴾ كذلك ﴿الْحَارِ الْجُنُبِ﴾ أَي: الذي
ليس له قرابة، وكلما كان الجار أقرب بابًا، كان أكد حقًا،
فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة، والدعوة،
واللطفة بالأقوال والأفعال، وعدم أذيته، بقول أو فعل.

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ قيل: الرفيق في السفر، وقيل:
الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقًا، ولعله أولى، فإنه يشمل
الصاحب في الحضر والسفر، ويشمل الزوجة.

(١) في ب: وإن. (٢) كذا في ب، وفي أ: الذين فقد آباؤهم.

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
 بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ
 قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا
 مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ
 مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ
 أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ
 وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا وَعَصَوُوا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
 اللَّهُ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ
 وَأَنْتُمْ سُكَرَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي
 سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْحَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ
 أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً
 فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ
 اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا ضَيْبًا مِنْ
 الْكُتُبِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾

خطوات الشيطان وأعماله، التي يدعو حزبه إليها، ليكونوا من أصحاب السعير، وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها، فلماذا قال: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي: بش المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك من قارنه، ويسعى فيه أشد السعي.

فكما أن من يخل بما آتاه الله، وكتم ما من به الله عليه، عاصي أمم، مخالف لربه، فكذلك من أنفق وتعبد لغير الله، فإنه أمم عاصي لربه، مستوجب للعقوبة؛ لأن الله إنما أمر بطاعته، وامتنال أمره، على وجه الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب، فلماذا حث تعالى عليه بقوله:

(٣٩) ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ أي: أي شيء عليهم، وأي حرج ومشقة تلحقهم، لو حصل منهم الإيمان بالله الذي هو

فعلی الصاحب لصاحبه حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه وديناه، والنصح له والوفاء معه، في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يجب له ما يجب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحة تأكد الحق وزاد.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة، أو لم يحتاج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته، وكونه في غير وطنه، بتبليغه إلى مقصوده، أو بعض مقصوده، [وبإكرامه، وتأنيسه] (١)، ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: من الأدميين والبهائم، بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم، فمن قام بهذه الأمور فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المتقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل، والثناء الجميل.

ومن لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير متقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه، فخور بقوله، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا﴾ أي: معجبًا بنفسه، متكبرًا على الخلق ﴿فَخُورًا﴾ يثني على نفسه ويمدحها على وجه الفخر والبطر على عباد الله.

فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر يمنعهم من القيام بالحقوق ولهذا ذمهم بذلك بقوله: ﴿الَّذِينَ يَخْتَلُونَ﴾ أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة، ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ بأقوالهم وأفعالهم.

﴿وَيَكْتُمُونَ مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: من العلم الذي يهتدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق، فجمعوا بين البخل بالمال، والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم، وخسارة غيرهم وهذه هي صفات الكافرين، فلماذا قال تعالى: ﴿وَأَعَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ أي: كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه، وتسببوا في منع غيرهم، من البخل، وعدم الاهتداء، أهانهم بالعذاب الأليم، والخزي الدائم، فعياذًا بك اللهم من كل سوء.

ثم أخبر عن النفقة الصادرة عن رياء وسمعة، وعدم إيمان به، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ أي: ليروهم، ويمدحوهم، ويعظموهم.

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ليس إنفاقهم صادرًا عن إخلاص وإيمان بالله، ورجاء ثوابه، أي: فهذا من

الصحة عن المؤذيات، والاستفراغ منها، والحماية عنها، وقد نبه تعالى عليها في كتابه العزيز .

أما حفظ الصحة والحماية من المؤذي، فقد أمر بالأكل والشرب، وعدم الإسراف في ذلك، وأباح للمسافر والمريض الفطر، حفظًا لصحتهما، باستعمال ما يصلح البدن، على وجه العدل، وحماية للمريض عمّا يضره .

وأما استفراغ المؤذي، فقد أباح تعالى للمُحرم المتأذي برأسه، أن يحلقه لإزالة الأبخرة المحققة فيه، ففيه تنبيه على استفراغ ما هو أولى منها، من البول، والغائط، والقيء، والمني، والدم، وغير ذلك، نبه على ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى .

وفي الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين، وأنه يجوز التيمم، ولو لم يضق الوقت، وأنه لا يخاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب، والله أعلم .

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا﴾ أي: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين، بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل، بحيث لا يشق على العبد امتثاله، فيحرج بذلك .

ومن عفوه ومغفرته، أن رحم هذه الأمة بشرح طهارة التراب بدل الماء، عند تعذر استعماله، ومن عفوه ومغفرته، أن فتح للمذنبين باب التوبة والإنابة، ودعاهم إليه، ووعدهم بمغفرة ذنوبهم . ومن عفوه ومغفرته، أن المؤمن لو أتاه بقراب الأرض خطايا، ثم لقيه لا يشرك به شيئًا، لأتاه بقرابها مغفرة .

(٤٤-٤٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُشْرِكُونَ الصَّلَاةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ۚ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنصَبْنَا وَأَطَعْنَا وَأَنزَلْنَا خَيْرًا مِّمَّا وَأَقْرَبَ وَلَكِن لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا ذم لمن ﴿أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ وفي ضمنه تحذير عباده عن الاغترار بهم، والوقوع في أشراكهم، فأخبر أنهم في أنفسهم ﴿يُشْرِكُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يحبونها محبة عظيمة، ويؤثرونها إثارة من يذل المال الكثير في طلب ما يحبه، فيؤثرون الضلال على الهدى، والكفر على الإيمان، والشقاء على السعادة، ومع هذا ﴿يُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ .

فهم حريصون على إضلالكم غاية الحرص، باذلون جهدهم في ذلك، ولكن لما كان الله ولي عباده المؤمنين، وناصرهم، بين لهم ما اشتملوا عليه من الضلال والإضلال،

﴿وَإِن كُنْتُمْ مَّرْجَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾ فأباح التيمم للمريض مطلقًا مع وجود الماء وعدمه، والعلة المرض الذي يشق معه استعمال الماء، وكذلك السفر، فإنه مظنة فقد الماء، فإذا فقدته المسافر، أو وجد ما يتعلق بحاجته، من شرب ونحوه، جاز له التيمم .

وكذلك إذا أحدث الإنسان ببول أو غائط، أو ملامسة النساء، فإنه يُباح له التيمم إذا لم يجد الماء، حضراً وسفراً، كما يدل على ذلك عموم الآية .

والحاصل: أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين: حال عدم الماء، وهذا مطلقاً في الحضر والسفر، وحال المشقة باستعماله، بمرض ونحوه .

واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ هل المراد بذلك: الجماع، فتكون الآية نصاً في جواز التيمم للجنب، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة؟ أو المراد بذلك: مجرد اللمس باليد، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة، فتكون الآية دالة على نقض الوضوء بذلك؟

واستدل الفقهاء بقوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت . قالوا: لأنه لا يقال: «لم يجد» لمن لم يطلب، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب، واستدل بذلك أيضاً على أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات، يجوز، بل يتعين التطهر به لدخوله في قوله: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ وهذا ماء، ونوزع في ذلك بأنه ماء غير مطلق، وفي ذلك نظر .

وفي هذه الآية الكريمة مشروعية هذا الحكم العظيم، الذي امتن به الله على هذه الأمة، وهو مشروعية التيمم، وقد أجمع على ذلك العلماء، والله الحمد .

وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض، سواء كان له غبار أم لا، ويحتمل أن يخص ذلك بذبي الغبار، لأن الله قال: ﴿فَأَمْسُحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنهُ﴾ وما لا غبار له لا يسمح به .

وقوله: ﴿فَأَمْسُحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ هذا محل المسح في التيمم: الوجه جميعه، واليدان إلى الكوعين، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة، كما دل على ذلك حديث عمار، وفيه أن تيمم الجنب، كتيمم غيره، بالوجه واليدين .

فائدة

اعلم أن قواعد الطب تدور على ثلاث قواعد: حفظ

الحق المبين .

فأما ما ورد من أن الكفار يكتمون كفرهم وجحودهم، فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم مغن عنهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق، وشهدت عليهم جوارحهم، حينئذ ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع، ولا نفع ولا فائدة.

(٤٣) ﴿يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوهً غَفُورًا﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، حتى يعلموا ما يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة كالمسجد، فإنه لا يمكن السكران من دخوله، وشامل لنفس الصلاة، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة؛ لاختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول، ولهذا حدد تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم، بما يقول السكران، وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقًا، فإن الخمر - في أول الأمر - كان غير محرّم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه، بقوله: ﴿يَسْأَلُكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعَةٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا آكَبَرٌ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾، ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة، كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرّمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَذْكَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوا﴾ الآية .

ومع هذا فإنه يشدد تحريمه وقت حضور الصلاة، لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة، الذي هو روحها ولبها، وهو الخشوع وحضور القلب، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخبثين، والتوق لطعام ونحوه، كما ورد في ذلك الحديث الصحيح.

ثم قال: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ أي: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنبًا إلا في هذه الحال، وهو عابر السبيل أي: تمرون في المسجد، ولا تمكثون فيه .
﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ أي: فإذا اغتسلتم فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب، فيحلب للجنب المرور في المسجد فقط .

الإخلاص، وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله، وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق .

ولما كان الإخلاص سرًا بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ .

(٤٠-٤٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ۝ يَوْمَئِذٍ يُؤَذُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ سَأَلُوا بِرَأْسِ الْأَرْضِ وَاللَّهُ حَدِيثًا﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عما يباد ذلك، من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ أي: ينقصها من حسنات عبده، أو يزيداها في سيئاته، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ .

﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضَعِفْهَا﴾ أي: إلى عشرة أمثالها إلى أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها، إخلاصًا ومحبة وكمالًا .

﴿وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه، من التوفيق لأعمال آخر، وإعطاء البر الكثير، والخير الغزير .

ثم قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ أي: كيف تكون تلك الأحوال، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم، الذي جمع أن من حكم به، كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة، بشهادة أركى الخلق، وهم الرسل على أممهم، مع إقرار المحكوم عليه؟! فهذا - والله - الحكم، الذي هو أعم الأحكام، وأعدلها، وأعظمها .

وهناك يبقى المحكوم عليهم مقرين له لكامل الفضل والعدل، والحمد والثناء، وهناك يسعد أقوام بالفوز والفلاح، والعز والنجاح، ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة، والعذاب المهين .

ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤَذُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله، ومعصية الرسول ﴿لَوْ سَأَلُوا بِرَأْسِ الْأَرْضِ﴾ أي: يتبعهم، ويكونون ترابًا وعدمًا، كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ .

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ أي: بل يقرون له بما عملوا، وتشهد عليهم ألسنتهم، وأيديهم، وأرجلهم، بما كانوا يعملون، يومئذ يوفيهم الله جزاءهم الحق، ويعلمون أن الله هو

سُورَةُ النِّسَاءِ

٨٦

الْمِائَةُ وَالسَّبْعُونَ

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾
 مِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَمِحْرَفُونَ أَلَكُمُ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ
 سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعَيْنَا لِيَا بِالسِّنِينَ
 وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا
 لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
 إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا
 مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا
 عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ
 اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَعْفُرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَعْفُو مَا دُونَ
 ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا
 ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ
 وَلَا يُظْلَمُونَ قَيْلًا ﴿٤٩﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
 وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
 مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَيِّبِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾

ولهذا قال: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: يتولى أحوال عباده، ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ ينصرهم على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم، فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر.

ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم، وإيثارهم الباطل على الحق فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ أي: اليهود، وهم علماء الضلال منهم.

﴿مِحْرَفُونَ أَلَكُمُ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعاً، فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم، التي لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد ﷺ، على أنه غير مراد بها، ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكتمانهم ذلك.

فهذا حالهم في العلم أشرحال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق، وأما حالهم في العمل والانقياد فإنهم ﴿يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: سمعنا قولك، وعصينا أمرك. وهذا غاية الكفر والعناد، والشرود عن الانقياد.

وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون: ﴿أَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ﴾ قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل مسمع ما تكره.

﴿وَرَاعَيْنَا﴾ قصدهم بذلك: الرعونة، بالعيب القبيح، ويظنون أن اللفظ - لما كان محتماً لغير ما أرادوا من الأمور - أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي يلوون به ألسنتهم، إلى الطعن في الدين، والعيب للرسول، ويصرحون بذلك فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿لِيَأْ بِالسِّنِينَ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ﴾.

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ﴾ وذلك لما تضمنه هذا الكلام، من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول، والدخول تحت طاعة الله، والانقياد لأمره، وحسن التلطف في طلبهم العلم، بسماع سؤالهم، والاعتناء بأمرهم.

فهذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه، ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية، أعرضوا عن ذلك، وطردهم الله، بكفرهم وعنادهم، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

(٤٧) ﴿يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا

مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ يأمر تعالى أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ، وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم، المهيمن على غيره من الكتب السابقة الذي قد صدقها، فإنها أخبرت به، فلما وقع المخبر به كان تصديقاً لذلك الخبر.

وأيضاً، فإنهم - إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً، فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض دعوى باطلة، لا يمكن صدقها.

وفي قوله: ﴿ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ حث لهم، وأنهم ينبغي أن يكونوا قبل غيرهم مبادرين إليه بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم، والكتاب الذي يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَمِحْرَفُونَ أَلَكُمُ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

جزاء من جنس ما عملوا، كما تركوا الحق، وآثروا الباطل، وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقاً، والحق باطلاً، جوزوا

من جنس ذلك، بطمس وجوههم، كما طمسوا الحق، وردھا على أدبارھا، بأن تجعل في أفئدتھم، وهذا أشنع ما يكون.

﴿أَوْ نَعْتَهُمْ كَمَا لَمَنَّا أَصْحَابَ النَّبِيِّ﴾ بأن يطردھم من رحمته، ويعاقبھم بجعلھم قردة، كما فعل بإخوانھم الذين اعتدوا في السبت ﴿فَقَلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ كقولہ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

(٤٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ يخبر تعالى أنه لا يغفر لمن أشرك به أحدًا من المخلوقين، ويغفر ما دون الشرك^(١) من الذنوب، صغائرھا وكبائرھا، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك، إذا اقتضت حكمته مغفرته.

فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسبابًا كثيرة، كالحسنات الماحية، والمصائب المكفرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعة الشافعين، ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

وهذا بخلاف الشرك، فإنَّ المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيده المصائب شيئًا وما لهم يوم القيامة ﴿مِن شَافِعِينَ﴾ ولا صديق حميم.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ أي: افترى جرماً كبيراً، وأي ظلم أعظم ممن سوى المخلوق - من تراب الناقص من جميع الوجوه، الفقير بذاته من كل وجه، الذي لا يملك لنفسه - فضلاً عمّن عبده - نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً - بالخالق لكل شيء، الكامل من جميع الوجوه، الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، الذي بيده النفع والضرر، والعطاء والمنع، الذي ما من نعمة بالمخلوقين إلا فحينه تعالى، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟

ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب ﴿إِنَّهُمْ مِّن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب.

وأما التائب، فإنه يغفر له الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجِبَادِ الَّذِينَ اسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْظُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ أي: لمن تاب إليه وأتاب.

(٤٩، ٥٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنفُسَهُمْ بِلِ اللَّهِ مُرْكِي مِّن يَشَاءُ وَلَا يظلمون قتيلاً﴾ أنظر كيف يقفرون على الله الكذب وكفى به إثمًا مبيناً﴾ هذا تعجب من الله لعباده، وتوبيخ للذين يزكون

فهؤلاء هم الذين زكاهم الله، ولهذا قال هنا: ﴿بِ اللَّهِ اللَّهُ يُرْكِي مِّن يَشَاءُ﴾ أي: بالإيمان والعمل الصالح، بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة، والتخلي بالصفات الجميلة.

وأما هؤلاء، فهم - وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء، وأن الثواب لهم وحدهم - فإنهم كذبة في ذلك، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب، بسبب ظلمهم وكفرهم، لا يظلم من الله لهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا يظلمون قتيلاً﴾ وهذا لتحقيق العموم، أي: لا يظلمون شيئاً، ولا مقدار القتل الذي في شق النواة، أو الذي يقتل من وسخ اليد وغيرها.

قال تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْرُونُ عَلَى اللَّهِ الْكَلْبَ﴾ أي: بتزكيتهم أنفسهم، لأن هذا من أعظم الافتراء على الله؛ لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم، الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقاً، وما عليه المؤمنون المسلمون باطلاً، وهذا أعظم الكذب، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً والباطل حقاً. ولهذا قال: ﴿وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ظاهرًا بيناً، موجباً للعقوبة البليغة، والعذاب الأليم.

(٥١-٥٧) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكُتُبِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ أولئك الذين لعنهم الله ومن لعن الله فلن يجد لهم نصيباً ◦ أم لهم نصيبٌ من آلئك فإذا لا يؤتون الناس نبيراً ◦ أم يحسدون الناس على ما ءاتاهم الله من فضله فقد ءاتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وءاتيناهم ملكاً عظيماً ◦ فيتهم من ءامن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً ◦ إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلنهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب إنك الله كان عزيزاً حكيماً ◦ والذين ءامنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظللاً ظليلاً﴾ وهذا من قبائح اليهود، وحسدهم للنبي ﷺ والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة، وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعويض عنه بالإيمان

(١) في ب: ذلك.

بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله.

فدخل في ذلك السحر والكهانة، وعبادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حملهم الكفر والحسد، على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله - عبدة الأصنام - على طريق المؤمنين فقال: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لأجلهم، تملقاً لهم ومداهنة، وبغضاً للإيمان: ﴿هَتَّؤَلَاءُ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ أي: طريقاً، فما أسمعهم، وأشد عنادهم، وأقل عقولهم!!

كيف سلخوا هذا المسلك الوحيم، والوادي الذميم!! هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء.

فهل يفضل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله، ورسله، وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله، في السر والإعلان والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان، والأنداد، والكاذبين، وعلى صلة الأرحام، والإحسان إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، والصدق في جميع الأقوال والأعمال فهل هذا إلا من الهديان.

وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس، وأضعفهم عقلاً، وإما من أعظمهم عناداً وتمرداً، ومرامغة للحق. وهذا هو الواقع، ولهذا قال تعالى عنهم: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَعْتَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: طردهم عن رحمته، وأحل عليهم نعمته. ﴿وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَعَلَّحْنَا لَهُ تَيْمِيرًا﴾ أي: يتولاه، ويقوم بمصالحه، ويحفظه عن المكاره، وهذا غاية الخذلان.

﴿أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ﴾ أي: فيفضلون من شاءوا على من شاءوا، بمجرد أهوائهم، فيكونون شركاء لله في تدبير المملكة، فلو كانوا كذلك لشحوا ويخلوا أشد البخل، ولهذا قال: ﴿فَإِذَا﴾ أي: لو كان لهم نصيب من الملك ﴿لَأَيُّوُونَ النَّاسَ نَصِيرًا﴾ أي: شيئاً، ولا قليلاً، وهذا وصف لهم، بشدة البخل، على تقدير وجود ملكهم المشارك لملك الله، وأخرج هذا مخرج الاستفهام المتقرر إنكاره عند كل أحد.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: هل الحامل لهم على قولهم كونهم شركاء لله، فيفضلون من شاءوا؟ أم الحامل لهم على ذلك، الحسد للرسول

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾
 أَمْ هُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمَلِكِ إِذَآ لَأَيُّوُونَ النَّاسَ نَصِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾
 فَمَنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِءَاتَيْنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا نَصَلَّبْتْ جُلُودَهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا هُمْ فِيهَا فِي أَرْوَاحٍ مُطَهَّرَةٍ وَنُدُّهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

وللمؤمنين، على ما آتاهم الله من فضله؟ وذلك ليس ببذع ولا غريب على فضل الله.

﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ وذلك ما أنعم الله به على إبراهيم وذريته، من النبوة، والكتاب، والملك الذي أعطاه من أعطاه، من أنبيائه كـ «داود» و «سليمان»، فإنعامه لم يزل مستمراً على عباده المؤمنين، فكيف ينكرون إنعامه، بالنبوة، والنصر، والملك، لمحمد ﷺ، أفضل الخلق، وأجلهم، وأعظمهم معرفة بالله، وأخشاهم له!!

﴿فَمَنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ بِهِ﴾ أي: بمحمد ﷺ، فنال بذلك السعادة الدنيوية، والفلاح الآخروي ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ﴾ عناداً، وبغياً، وحسداً، فحصل لهم من شقاء الدنيا ومصائبها ما هو بعض آثار معاصيهم.

﴿وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ تسعر على من كفر بالله، ووجد نبوة أنبيائه من اليهود والنصارى وغيرهم، من أصناف الكفرة. ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِءَاتَيْنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا﴾ أي: عظمة الوقود، شديدة الحرارة.

الأمر، وهم: الولاة على الناس، من الأمراء، والحكام، والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم، إلا بطاعتهم والانقياد لهم طاعة الله، ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط أن لا يأمرؤا بمعصية الله، فإن أمرؤا بذلك، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ولعل هذا هو السر في حذف الفعل، عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطيعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر، فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه؛ من أصول الدين وفروعه، إلى الله وإلى رسوله، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما، أو عمومهما؛ أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم، أو عموم معنى، يقاس عليه ما أشبهه؛ لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما، فالرد إليهما شرط في الإيمان، ولهذا قال: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها. ﴿ذَلِكَ﴾ أي: الرد إلى الله ورسوله ﴿حَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها، وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

(٦٠-٦٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَأْمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَسْحَكُمُوا إِلَى الظُّلْمِوتِ وَقَدْ أُرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَمَلَّوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءَهُمْ بِخَبْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ فَاغْرُضْ وَتُوفِيقًا ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِتْنَتُهُمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين ﴿الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ﴾ مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَسْحَكُمُوا إِلَى الظُّلْمِوتِ﴾ وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت.

والحال أنهم ﴿قَدْ أُرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن، واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك، وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ عن الحق.

﴿فَكَيْفَ﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿إِذَا أَصَابَتْهُمُ

﴿كَلِمًا نَضِغَتْ جُلُودُهُمْ﴾ أي: احترقت ﴿بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي: ليلغ العذاب منهم كل مبلغ، وكما تكرر منهم الكفر والعناد، وصار وصفًا لهم وسجية؛ كسر عليهم العذاب جزاء وفاقا، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَرِيبًا حَكِيمًا﴾ أي: له العزة العظيمة، والحكمة في خلقه وأمره، وثوابه وعقابه.

﴿وَالَّذِينَ ءَأْمَنُوا﴾ أي: بالله، وما أوجب الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والمستحبات ﴿سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ مَطَهَّرَةٌ﴾ أي: من الأخلاق الرذيلة، والخلق الذميم، ومما يكون من نساء الدنيا، من كل دنس وعبث ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾.

(٥٨، ٥٩) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَأْمَنُوا آطِيعُوا اللَّهَ وَآطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ الأمانات: كل ما أوثمن عليه الإنسان وأمر بالقيام به، فأمر الله عباده بأدائها أي: كاملة موفرة، لا منقوصة ولا مبخوسة، ولا ممطولا بها، ويدخل في ذلك أمانات الولايات والأموال، والأسرار؛ والمأمورات التي لا يطلع عليها إلا الله.

وقد ذكر الفقهاء أن من أوثمن أمانة؛ وجب عليه حفظها في حرز مثلها، قالوا: لأنه لا يمكن أداؤها إلا بحفظها؛ فوجب ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ دلالة على أنها لا تدفع وتؤدي لغير المؤمن، ووكيله بمنزلة؛ فلو دفعها لغير ربها لم يكن مؤديًا لها.

﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء، والأموال، والأعراض، القليل من ذلك والكثير، على القريب والبعيد، والبرِّ والفاجر، والولي والعدو، والمراد بالعدل الذي أمر الله بالحكم به، هو ما شرعه الله على لسان رسوله، من الحدود والأحكام، وهذا يستلزم معرفة العدل، ليحكم به، ولما كانت هذه أوامر حسنة عادلة، قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ وهذا مدح من الله لأوامره ونواهيها لاشتمالها على مصالح الدارين، ودفع مضارهما، لأن شارعها السميع البصير الذي لا تخفى عليه خافية، ويعلم بمصالح العباد ما لا يعلمون.

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامتثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما، وأمر بطاعة أولي

مُصِيبَةً يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴿٦٤﴾ من المعاصي، ومنها تحكيم الطاغوت؟

﴿ثُمَّ جَاءَ وَكَ﴾ معتردين^(١) لما صدر منهم، ويقولون: ﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ أي: ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كذبة في ذلك؛ فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾.

ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: من النفاق والقصد السيء ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقتروه ﴿وَعَظَّمَهُمْ﴾ أي: بين لهم حكم الله تعالى، مع الترغيب في الانقياد لله، والترهيب من تركه.

﴿وَقُلْ لَهُمْ فِتْنَةٌ أَنفُسُهُمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ أي: انصحهم سرًا بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغ في زجرهم وقمعهم عما كانوا عليه، وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي، وإن أعرض عنه، فإنه ينصح سرًا، ويبالغ في وعظه، بما يظن حصول المقصود به.

(٦٤، ٦٥) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَمًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ يخبر تعالى خبرًا، في ضمنه الأمر، والحث على طاعة الرسول، والانقياد له، وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين، يتقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به، ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين، تعظيم المطيع للمطاع^(٢).

وفي هذا إثبات عصمة الرسل، فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرهم به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقًا، فلولا أنهم معصومون لا يشرعون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقًا. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: الطاعة من المطيع صادرة بقضاء الله وقدره، ففيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستعانة بالله، وبيان أنه لا يمكن الإنسان - إن لم يعنه الله - أن يطيع الرسول.

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقترب السيئات - أن يعترفوا ويتوبوا، ويستغفروا الله فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ أي: معترفين بذنوبهم، باخعين بها.

﴿فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدُ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٥﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتُ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَعَظَّمَهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِتْنَةٌ أَنفُسُهُمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٩﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَمًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٧٠﴾

رَحِيمًا﴾ أي: لتاب عليهم بمغفرته ظلمهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها، والثواب عليها، وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ، مخصص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته، فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة. ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى يتنفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك^(٣)، حتى يسلموا لحكمه تسليمًا، بانسراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتهاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان، فمن استكمل هذه

(١) في النسختين: معتردين. (٢) في النسختين: تعظيم المطاع للمطيع، وهو سبق قلم، وقد عدلت في ب عن طريق المطبعة السلفية إلى: تعظيم المطاع من المطيع. (٣) في ب: هذا التحكيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٨٩

سُورَةُ النِّسَاءِ

وَلَوْ أَنَّا كُنِينَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلْمًا ﴿٧٠﴾ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اخْذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا أَثْبَاتًا أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ لَمَنْ لَبِطَاتٌ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبِغْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

المراتب، وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها، فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن تركه مع التزامه فله حكم أمثاله من العصيين.

(٦٦-٦٨) ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنِينَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا ۝ وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس، من قتل النفوس، والخروج من الديار، لم يفعله إلا القليل منهم والناذر، فليحمدوا ربهم، وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها.

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات؛ لتخف عليه العبادات، ويزداد حمداً وشكراً لربه.

ثم أخبر أنهم لو فعلوا ما يوعظون به، أي: ما وظف عليهم في كل وقت بحسبه، فبدلوا همهمهم، ووفروا نفوسهم للقيام به وتكميله، ولم تطمح نفوسهم لما لم يصلوا إليه، ولم يكونوا بصدده، وهذا هو الذي ينبغي للعبد أن ينظر إلى الحالة التي يلزمه القيام بها، فيكملها، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يصل إلى ما قدر له من العلم والعمل في أمر الدين والدنيا.

وهذا بخلاف من طمحت نفسه إلى أمر لم يصل إليه، ولم يؤمر به بعد، فإنه لا يكاد يصل إلى ذلك بسبب تفریق المهمة، وحصول الكسل، وعدم النشاط، ثم رتب ما يحصل لهم على فعل ما يوعظون به، وهو أربعة أمور:

(أحدها) الخيرية في قوله: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ أي: لكانوا من الأخيار المتصفين بأوصافهم، من أفعال الخير التي أمروا بها، أي: وانتفى عنهم بذلك صفة الأشرار؛ لأن ثبوت الشيء يستلزم نفي ضده.

(الثاني) حصول التثبيت والثبات وزيادته، فإن الله يثبت الذين آمنوا بسبب ما قاموا به من الإيمان، الذي هو القيام بما وعظوا به. فيثبتهم في الحياة الدنيا، عند ورود الفتن في الأوامر، والنواهي، والمصائب، فيحصل لهم ثبات، يوقفون لفعل الأوامر، وترك الزواجر، التي تقتضي النفس فعلها، وعند حلول المصائب، التي يكرها العبد، فيوقف للتثبيت بالتوفيق للصبر أو للرضا، أو للشكر.

فينزل عليه معونة من الله للقيام بذلك، ويحصل له الثبات على الدين، عند الموت وفي القبر.

وأيضاً فإن العبد القائم بما أمر به لا يزال يتمرن على

الأوامر الشرعية، حتى يألفها، ويشتاق إليها وإلى أمثالها، فيكون ذلك معونة له على الثبات على الطاعات.

(الثالث) قوله: ﴿وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: في العاجل والآجل، الذي يكون للروح والقلب، والبدن، ومن النعيم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(الرابع) الهداية إلى صراط مستقيم، وهذا عموم بعد خصوص، لشرف الهداية إلى الصراط المستقيم، من كونها متضمنة للعلم بالحق، ومحبه وإثارة به، والعمل به، وتوقف السعادة والفلاح على ذلك، فمن هدي إلى صراط مستقيم، فقد وفق لكل خير، واندفع عنه كل شر وضير.

(٦٩، ٧٠) ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ۝ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عِلْمًا﴾ أي: كل من أطاع الله ورسوله - على حسب حاله وقدر الواجب عليه من ذكر وأنتى وصغير وكبير ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: النعمة العظيمة التي تقتضي الكمال والفلاح، والسعادة

فإن الكفار من المشركين والمنافقين قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة، وأيضاً، فإن هذا هو الواقع، فإن المؤمنين على قسمين: صادقون في إيمانهم، وأوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد وضغفاء، دخلوا في الإسلام فصار معهم إيمان ضعيف، لا يقوى على الجهاد كما قال تعالى: ﴿تَأْتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنًا فَلَمْ تُوْثِقُوا وَلَكِنْ قَوْلًا أَسْمَلْنَا﴾ إلى آخر الآيات.

ثم ذكر غايات هؤلاء المتثاقلين، ونهاية مقاصدهم، وأن معظم قصدهم الدنيا وحطامها فقال: ﴿فَإِنْ أَصَبْتُمْ مِصْبِيَةً﴾ أي: هزيمة، وقتل، وظفر الأعداء عليكم في بعض الأحوال لما لله في ذلك من الحكم.

﴿قَالَ﴾ ذلك المتخلف ﴿فَقَدْ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَرَأَى كُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ رأى من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة، ولم يدر أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه الطاعة الكبيرة التي بها يقوى الإيمان، ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب، ورضا الكريم الوهاب، وأما القعود فإنه وإن استراح قليلاً، فإنه يعقبه تعب طويل، وآلام عظيمة، ويفوته ما يحصل للمجاهدين.

ثم قال: ﴿وَلَيْنَ أَصَبْتُمْ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: نصر وغنيمة ﴿لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبَسْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُورًا غَظِيماً﴾ أي: يتمنى أنه حاضر لينال من المغانم، ليس له رغبة، ولا قصد في غير ذلك، كأنه ليس منكم، يا معشر المؤمنين! ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية التي^(١) من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم، ودفع مضارهم، يفرحون بحصولها، ولو على يد غيرهم، من إخوانهم المؤمنين^(٢)، ويألمون بفقدائها، ويسعون جميعاً في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يتمنى الدنيا فقط، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

ومن لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته، ولا يغلق عنهم أبوابها، بل من حصل منه غير ما يليق، أمره ودعاه إلى جبر نقصه وتكميل نفسه، فلماذا أمر هؤلاء بالإخلاص، والخروج في سبيله فقال: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ هذا أحد الأقوال في هذه الآية، وهو أصحها.

وقيل: إن معناه، فليقاتل في سبيل الله، المؤمنون الكاملو الإيمان، الصادقون في إيمانهم ﴿الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ

﴿مِنَ الْآخِرَةِ﴾ الذين فضلهم الله بوحيه، واختصهم بتفضيلهم بإرسالهم إلى الخلق، ودعوتهم إلى الله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ وهم الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل فعملوا الحق، وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولاً وعملاً وحالاً ودعوة إلى الله، ﴿وَالشَّهَدَاءَ﴾ الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فقتلوا ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ الذين صلح ظاهرهم وباطنهم، فصلحت أعمالهم، فكل من أطاع الله تعالى كان مع هؤلاء وفي صحبتهم ﴿وَحَسَنَ أَوْلِيَاكَ رَفِيقًا﴾ بالاجتماع بهم في جنات النعيم، والأنس بقربهم في جوار رب العالمين ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ﴾ الذي نالوه ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ فهو الذي وفقهم لذلك وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ عِلْمًا﴾ يعلم أحوال عباده، ومن يستحق منهم الثواب الجزيل بما قام به من الأعمال الصالحة التي تواطأ عليها القلب والنجوارح.

(٧١-٧٤) ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا ۝ وَإِن مِّنْكُمْ لَمَنْ لَّيُطِئَنَّ فَإِن أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالْ قَدْ أَتَمَّ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَرَأَى كُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ۝ وَلَيْنَ أَصَبْتُمْ فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلْبَسْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُورًا غَظِيماً ۝ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۝ وَمَن يَفْتِنِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبِمَا قَاتَلَ أَوْ غَلَبَ فَمَوْفٍ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من أعدائهم الكافرين، وهذا يشمل الأخذ بجميع الأسباب التي بها يستعان على قتالهم ويستدفع مكرهم وقوتهم من استعمال الحصون والخنادق، وتعلم الرمي والركوب، وتعلم الصناعات التي تعين على ذلك وما به يعرف مداخلهم ومخارجهم ومكرهم والنفير في سبيل الله.

ولهذا قال: ﴿فَانفِرُوا ثُبَاتٍ﴾ أي: متفرقين بأن تنفر سرية أو جيش ويقيم غيرهم ﴿أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا﴾ وكل هذا تبع للمصلحة والنكاية والراحة للمسلمين في دينهم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾.

ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال: ﴿وَإِن مِّنْكُمْ ۝ أَي: أيها المؤمنون ﴿لَمَنْ لَّيُطِئَنَّ﴾ أي: يتناقل عن الجهاد في سبيل الله ضعفاً وخوراً وجبنًا، هذا الصحيح.

وقيل معناه: لبيطن غيره، أي يزهده عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون ولكن الأول أولى، لوجهين:

أحدهما: قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ والخطاب للمؤمنين.

والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كَأَن لَّمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾.

(١) في النسختين: الذي. (٢) في النسختين: على يد غيره من إخوانه.

الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ﴿٧٥﴾ أي: يبيعون الدنيا، رغبة عنها بالآخرة رغبة فيها.

فإن هؤلاء هم الذين يوجه إليهم الخطاب؛ لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم، ووطنوها على جهاد الأعداء لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك.

وأما أولئك المتثاقلون، فلا يعبا بهم، خرجوا أو قعدوا، فيكون هذا نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَمِنُوا بِهِمْ أَوْ لَا تَأْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِأَذْقَانِ سَجْدًا﴾ إلى آخر الآيات.

وقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُؤَلَاءُ فَقَدْ وُكِّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُو بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ وقيل: إن معنى الآية: فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، فيكون على هذا الوجه «الذين» في محل نصب على المفعولية.

﴿وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأن يكون جهادًا، قد أمر الله به ورسوله، ويكون العبد مخلصًا لله فيه، قاصدًا وجه الله ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ زيادة في إيمانه ودينه، وغنيمة، وثناء حسنًا، وثواب المجاهدين في سبيل الله الذين أعد الله لهم في الجنة، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(٧٥) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن دُنُنَا آلِيًا وَاجْعَل لَّنَا مِن دُنُنَا نَصِيرًا﴾ هذا حث من الله لعباده المؤمنين، وتيسيح لهم على القتال في سبيله وأن ذلك قد تعين عليهم، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ والحال أن المستضعفين من الرجال والنساء، والولدان، الذين لا يستطيعون حيلة، ولا يهتدون سبيلًا، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم.

فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك، وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة.

ويدعون الله أن يجعل لهم وليًا ونصيرًا، يستقذهم من هذه القرية الظالم أهلها، فصار جهادكم على هذا الوجه من باب القتال، والذب عن عيالتكم وأولادكم، ومحارمكم، لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكفار، فإنه وإن كان فيه فضل عظيم، ويلام المتخلف عنه أعظم لوم، فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجرًا، وأكبر فائدة بحيث يكون من باب دفع الأعداء.

(٧٦) ثم قال: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا

يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ الذي هو الشيطان، في ضمن ذلك عدة فوائد:

منها: أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله، وإخلاصه، ومتابعته، فالجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان، ومقتضياته ولوازمه، كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحسن منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون، وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك، كما قال تعالى في هذا المعنى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَإِنَّهُم بِأَتْمُونٍ كَمَا تَأْمِنُونَ وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ الآية.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله معتمد على ركن وثيق، وهو الحق، والتوكل على الله، فصاحب القوة، والركن الوثيق، يطلب منه من الصبر والثبات والنشاط ما لا يطلب ممن يقاتل عن الباطل، الذي لا حقيقة له، ولا عاقبة حميدة، فلهذا قال تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾.

والكيد: سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو، فالشيطان وإن بلغ مكره مهما بلغ، فإنه في غاية الضعف، الذي لا يقوم لأدنى شيء من الحق، ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

(٧٧، ٧٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخُونُوا النَّاسَ كَمَا كَفَرُوا أَوْ أَسَدُّ حَسْبِيَّةٍ وَفَأُولَٰئِكَ لَئِن لَّمْ يَكُتِبْ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ لَئِن لَّوَلَا أَخْرَجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنَعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝ أَلَيْسَ تَتَكُونُوا يَدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ كان المسلمون - إذ كانوا بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة، أي: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النصب والشروط، فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء، لعدة فوائد:

منها: أن من حكمة الباري تعالى أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق عليهم؛ ويبدأ بالأهم فالأهم، والأسهل فالأسهل.

ومنها: أنه لو فرض عليهم القتال - مع قلة عددهم وعددهم، وكثرة أعدائهم - لأدّى ذلك إلى اضمحلال الإسلام. فروعياً جانب المصلحة العظمى على ما دونها،

ولغير ذلك من الحكم.

وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال، غير اللائق فيها ذلك، وإنما اللائق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت، من التوحيد، والصلاة، والزكاة ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ حَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا﴾ فلما هاجروا إلى المدينة، وقوي الإسلام، كُتِبَ عليهم القتال في وقته المناسب لذلك.

فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك، خوفاً من الناس، وضعفاً وخوراً: ﴿يَبْنَؤُا لِرَ كُتِبَتْ عَلَيْنَا الِغَنَالُ﴾ ؟ وفي هذا تضجرهم، واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال - التسليم لأمر الله، والصبر على أوامره، فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا: ﴿لَوْلَا أَخَّرْنَا بِكَ أَجَلَ قَرِيبٍ﴾ أي: هلاً أخرت فرض القتال، مدة متأخرة عن الوقت الحاضر، وهذه الحال كثيراً ما تعرض لمن هو غير رزين، واستعجل في الأمور قبل وقتها، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها، ولا ينوء بحملها، بل يكون قليل الصبر.

ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال، التي فيها التخلف عن القتال فقال: ﴿قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى﴾ أي: التمتع بلذات الدنيا وراحتها قليل، فتحمل الأثقال في طاعة الله، في المدة القصيرة، مما يسهل على النفوس ويخف عليها؛ لأنها إذا علمت أن المشقة التي تتأهلها لا يطول لبثها، هان عليها ذلك، فكيف إذا وزنت بين الدنيا والآخرة، وأن الآخرة خير منها، في ذاتها، ولذاتها، وزمانها:

فذاها - كما ذكر النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه - «أن موضع سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها».

ولذاتها صافية عن المكدرات، بل كل ما خطر بالبال، أو دار في الفكر، من تصور لذة - فلذة الجنة فوق ذلك كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَمَلْمْ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ وقال الله على لسان نبيه: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» وأما لذات الدنيا فإنها مشوبة بأنواع التنغيص، الذي لو قوبل بين لذاتها، وما يقترن بها من أنواع الآلام، والهموم والغموم، لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه.

وأما زمانها، فإن الدنيا منقضية، وعمر الإنسان - بالنسبة إلى الدنيا - شيء يسير، وأما الآخرة، فإنها دائمة النعيم، وأهلها خالدون فيها، فإذا فكر العاقل في هاتين الدارين، وتصور حقيقتيهما حق التصور، عرف ما هو أحق بالإتيار، والسعي له، والاجتهاد لطلبه، ولهذا قال: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٠

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الظَّالِمِينَ فَاتَّبِعُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ إِنَّا كُنَّا بِمَا نُرِيدُ الَّذِينَ أَتَيْنَا الْقِتَالُ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَنْعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِن عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِن عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِن هُوَ إِلَّا الْقَوْلُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

اتَّقَى: أي: اتقى الشرك، وسائر المحرمات.

﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: فسعيكم للدار الآخرة، ستجدونه كاملاً موفراً، غير منقوص منه شيئاً.

ثم أخبر أنه لا يعني حذر عن قدر، وأن القاعد لا يدفع عنه قعوده شيئاً فقال: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُمُ الْمَوْتُ﴾ أي: في أي زمان، وأي مكان. ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ أي: قصور منيعة، ومنازل رفيعة.

وكل هذا حث على الجهاد في سبيل الله، تارة بالترغيب في فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أنه لا ينعق القاعدين قعودهم، وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها.

(٧٨-٨٠) ثم قال: ﴿وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِن عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصَبِّهْهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا هَٰذِهِ مِن عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِن هُوَ إِلَّا الْقَوْلُ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ ○ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ○ مَن يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ○ الآية. يخبر تعالى عن الذين لا يعلمون، المعرضين عما

فهي أكبر شهادة على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَىٰ شَيْءٌ أَكْبَرَٰ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾.

إذا علم أن الله تعالى كامل العلم، وتام القدرة، عظيم الحكمة، وقد أيد الله رسوله بما أيده، ونصره نصرًا عظيمًا، تفنن بذلك أنه رسول الله، وإلا فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين.

(٨١، ٨٠) ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبْشِرُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَلَّىٰ عَلَىٰ اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: كل من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه ﴿فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ تعالى، لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله وشرعه، ووحيه وتنزيله، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ؛ لأن الله أمر بطاعته مطلقًا، فلولا أنه معصوم في كل ما يبلغ عن الله، لم يأمر بطاعته مطلقًا، ويمدح على ذلك.

وهذا من الحقوق المشتركة، فإن الحقوق ثلاثة: حق الله تعالى، لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك، وقسم مختص بالرسول، وهو التعزير، والتوقير، والنصرة، وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله، ومحبتهما وطاعتهما كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وله من الثواب والخير ما ترتب على طاعة الله ﴿وَمَنْ تَوَلَّىٰ﴾ عن طاعة الله ورسوله، فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا.

﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ أي: تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلغًا ومبينًا وناصحًا، وقد أديت وظيفتك، ووجب أجرك على الله، سواء اهتموا أم لم يهتموا، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ۚ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ الآية.

ولا بد أن تكون طاعة الله ورسوله ظاهرًا وباطنًا، في الحضرة والمغيب، فأما من يظهر في الحضرة الطاعة والالتزام، فإذا خلا بنفسه، أو أبناء جنسه، ترك الطاعة، وأقبل على ضدها، فإن الطاعة التي أظهرها غير نافعة ولا مفيدة، وقد أشبه من قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ﴾ أي: يظهرون الطاعة إذا كانوا عندك ﴿فَإِذَا بَرَرُوا مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: خرجوا وخلوا في حالة لا يطلع فيها عليهم ﴿بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ أي: بيتوا ودبروا غير طاعتك، ولا ثم إلا المعصية.

جاءت به الرسل، المعارضين لهم: أنهم إذا جاءتهم حسنة، أي: خصب وكثرة أموال، وتوفر أولاد وصحة، قالوا: ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وأنهم إن أصابتهم سيئة أي: جذب، وفقير، ومرض، وموت أولاد وأحباب قالوا: ﴿هَٰذِهِ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: بسبب ما جئتنا به يا محمد.

تطيروا برسول الله ﷺ، كما تطير أمثالهم برسول الله، كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى: ﴿فَإِذَا جَاءَ نَهُدُ الْحَسَنَةِ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سِجْنًا يَطْرُقُوا مُوسَىٰ وَمِن مَّعْنَاهُ﴾ وقال قوم صالح: ﴿أَطْرَقْنَا بِكَ وَمِنْ مَعْنَا﴾ وقال قوم ياسين لرسولهم: ﴿إِنَّا نَطْرُقْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ نَنْتَهُوا لَنَرَجُكَمُ﴾ الآية. فلما تشابهت قلوبهم بالكفر، تشابهت أقوالهم وأعمالهم، وهكذا كل من نسب حصول الشر، أو زوال الخير، لما جاءت به الرسل أو لبعضه، فهو داخل في هذا الذم الوخيم.

قال الله في جوابهم: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ أي: من الحسنة والسيئة، والخير والشر. ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره وخلقه ﴿فَإِنَّ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمَ﴾ أي: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة ﴿لَا يَكَادُرُونَ بِفَعْلِهِمْ حَدِيثًا﴾ أي: لا يفهمون حديثًا بالكلية، ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهمًا ضعيفًا.

وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم، وفي ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك، وعلى الأسباب المعينة على ذلك، من الإقبال على كلاهما وتدبره، وسلوك الطرق الموصلة إليه، فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر، والحسنات والسيئات، كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك، وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكونون سببًا لشر يحدث، هم ولا ما جاؤوا به، لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين.

ثم قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ﴾ أي: في الدين والدنيا ﴿فَرِنَ اللَّهُ﴾ هو الذي من بها ويسرها بتيسير أسبابها ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ﴾ في الدين والدنيا ﴿فَرِنَ نَفْسِكَ﴾ أي: بذنوبك وكسبك، وما يعفو الله عنه أكثر.

فإنه تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه، وأمرهم بالدخول لبره وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه، فإنه المانع لنفسه عن وصول فضل الله وبره.

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد ﷺ فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أنك رسول الله حقًا بما أيدك بنصره، والمعجزات الباهرة، والبراهين الساطعة،

تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق، وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم، أن يتثبتوا، ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولي الأمر منهم، أهل الرأي والعلم والنصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها.

فإن رأوا في إداعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين، وسروراً لهم، وتحرراً من أعدائهم، فعلوا ذلك، وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة^(١)، أو فيه مصلحة، ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يولى من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ، وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقدم عليه الإنسان، أم لا فيحجم عنه؟ ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ﴾ أي: في توفيقكم، وتأديبكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿لَأَنْتَبَهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر، فإذا لجأ إلى ربه، واعتصم به، واجتهد في ذلك، لطف به ربه، ووقفه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

(٨٤) ﴿فَقَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُلُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِيصَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَلَ بِأَسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسَدًا تَنْكِيلًا﴾ هذه الحالة أفضل أحوال العبد، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله، من الجهاد وغيره، ويحرص غيره عليه، وقد يعدم في العبد الأمران أو أحدهما، فلهذا قال لرسوله: ﴿فَقَتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُلُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي: ليس لك^(٢) قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك.

﴿وَحَرِيصَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين، وقوة قلوبهم، من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء، وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال.

وفي قوله: ﴿بَيَّنَّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ﴾ دليل على أن الأمر الذي استقروا عليه غير الطاعة، لأن التبييت تدبير الأمر ليلاً على وجه يستقر عليه الرأي.

ثم توعدهم على ما فعلوا فقال: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ﴾ أي: يحفظه عليهم، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء، فقيه وعيد لهم.

ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض، وعدم التعنيف، فإنهم لا يضره شيئاً إذا توكل على الله، واستعان به في نصر دينه، وإقامة شرعه، ولهذا قال: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾.

(٨٢) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجِدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه ولوازم ذلك، فإن تدبر كتاب الله مفتاحٌ للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسخ شجرته.

فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال؛ وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة؛ والطريق الموصلة إلى العذاب؛ وصفة أهلها؛ وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأملاً فيه، ازداد علماً، وعملاً، وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك، وحث عليه، وأخبر أنه [هو] المقصود بإنزال القرآن، كما قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ بِإِنكَ مُبْرَكًا يُدَبَّرُونَ، آيَاتِهِ وَيَسْئَلُونَكَ أُولَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَفْقَالِهَاتٍ﴾.

ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً، فترى الحكم والقصة والإخبارات، تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا يتقضى بعضها بعضاً، فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند من أحاط علمه بجميع الأمور.

فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَوْجِدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: فلما كان من عند الله؛ لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

(٨٣) ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ لَأَنْتَبَهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هذا

(١) في ب: ما فيه مصلحة. (٢) في النسخين: ليس عليك.

عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٨٥﴾ أي: بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضاً ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسِّ﴾ أي: قوة وعزة ﴿وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ بالمذنب في نفسه وتنكيلاً لغيره، فلو شاء تعالى لانتصر من الكفار بقوته، ولم يجعل لهم باقية. ولكن - من حكمته - يبلو بعض عباده ببعض، ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع، إيمان الاختيار، لا إيمان الاضطرار والقهر الذي لا يفيد شيئاً.

(٨٥) ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ المراد بالشفاعة هنا: المعاونة على أمر من الأمور، فمن شفع غيره، وقام معه على أمر من أمور الخير - ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم - كان له نصيب من شفاعته، بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل والمباشر شيء.

وَمَنْ عَاوَنَ غَيْرَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ مِنَ الشَّرِّ، كَانَ عَلَيْهِ كِفْلٌ مِنَ الْإِثْمِ بحسب ما قام به وعاون عليه، ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان، وقرر ذلك بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ أي: شاهداً حفيظاً، جسيماً على هذه الأعمال، فيجازي كل ما يستحقه.

(٨٦) ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنِ مِمَّا أُرِدُّوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ التحية هي اللفظ الصادر من أحد المتفاعلين، على وجه الإكرام والدعاء، وما يقترن بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها.

وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع من السلام ابتداء ورداً، فأمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حيوا بأي تحية كانت، أن يردوها بأحسن منها لفظاً وبشاشة، أو مثلها في ذلك، ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكلية، أو ردها بدونها.

ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على ابتداء السلام والتحية من وجهين:

أحدهما: أن الله أمر بردها بأحسن منها أو مثلها، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعاً.

الثاني: ما يستفاد من أفعل التفضيل، وهو «أحسن» الدال على مشاركة التحية وردها بالحسن، كما هو الأصل في ذلك.

ويستثنى من عموم الآية الكريمة، مَنْ حَيَا بِحَالٍ غَيْرِ مَأْمُورٍ بِهَا، كـ «على مشغول بقراءة، أو استماع خطبة، أو مصلاً ونحو ذلك» فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك مَنْ أَمَرَ الشَّارِعُ بِهَجْرِهِ، وَعَدَمَ تَحِيَّتِهِ، وَهُوَ الْعَاصِي غَيْرُ

التائب الذي يرتدع بالهجر، فإنه يهجر ولا يحيا، ولا ترد تحيته، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى.

ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس، وهي غير محظورة شرعاً، فإنه مأمور بردها أو أحسن منها، ثم أوعد تعالى وتوعد على فعل الحسنات والسيئات بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ فيحفظ على العباد أعمالهم، حسناتها وسيئاتها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله، وحكمه المحمود.

(٨٧) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَيَاتًا﴾ يخبر تعالى عن انفرادة بالوحدانية، وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو، لكماله في ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير، والنعم الظاهرة والباطنة.

وذلك يستلزم الأمر بعبادته، والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية؛ لكونه المستحق لذلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته، أو تركوه منها، ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء - وهو يوم القيامة - فقال: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي:

أولكم وأحرمكم، في مقام واحد.

في ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: لا شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، بالدليل العقلي والدليل السمعي، فالدليل العقلي ما نشاهده من إحياء الأرض بعد موتها، ومن وجود النشأة الأولى التي وقوع الثانية أولى منها بالإمكان، ومن الحكمة التي يجزم بأن الله لم يخلق خلقه عبثاً، يحيون ثم يموتون، وأما الدليل السمعي، فهو إخبار أصدق الصادقين بذلك، بل إقسامه عليه، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

كذلك أمر رسوله ﷺ أن يقسم عليه في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَيُعْثُنَ ثُمَّ لَنَنْبُوَنَّ بِمَا عَمَلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ إخبار بأن حديثه وأخباره، وأقواله في أعلى مراتب الصدق، بل أعلاها، فكل ما قيل في العقائد [والعلوم] (١) والأعمال مما يناقض ما أخبر الله به، فهو باطل؛ لمناقضته للخبر الصادق اليقيني، فلا يمكن أن يكون حقاً.

(٨٨-٩١) ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَزَكُمْهُمْ بِمَا كَسَبُوا أُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۝ وَذُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهْجُرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلَا نَصِيرًا ۝ إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَهُمْ قَوْمٌ يَقْبَلُونَهُمْ فَلَقِنَا لَهُمْ آيَةً فَلَمْ يُغْنُوا عَنْهُمْ قَوْمَهُمْ فَذَلِكُمْ أَصْحَابُ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ وَأَلْفَاؤُهُمْ أَلَمِيَّةٌ فَاتَّخَذُوا الْأَلْفَاؤَ الْيَتِيمَ الَّذِينَ لَمْ يَمْنُوا بَرَاءَةً لَنَا وَلَا يَمْنُوا بَرَاءَةً لَكُمْ فَهُمْ كِلَابٌ مُتَمَنِّئِينَ يَوْتِنُوا بَوَالِحِ الْمُكَلَّفِينَ لِأَنْ يَكُونُوا قَوْمِ اللَّهِ يُضَوِّقُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِمْ لِيُذْهِبُوا عَنْهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَيَكْفُرُوا بَدْلَهُمْ فَيُتَّخِذُوا بِهِمْ فَهَذَا صِرَاطٌ عَلَيْنَا لَأُنْزِلَنَّ اللَّهُ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (٢)

المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات، المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيهم اشتباه، فبعضهم تخرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهروه من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم، فحكم بكفرهم.

فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون، قد تكرر كفرهم، وودوا - مع ذلك - كفرهم، وأن تكونوا مثلهم، فإذا تحققت ذلك منهم ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ وهذا يستلزم عدم محبتهم، لأن الولاية فرع المحبة.

سُورَةُ النِّسَاءِ
٩٢
اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرَزَكُمْهُمْ بِمَا كَسَبُوا أُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿وَذُوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يَهْجُرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءَهُمْ قَوْمٌ يَقْبَلُونَهُمْ فَلَقِنَا لَهُمْ آيَةً فَلَمْ يُغْنُوا عَنْهُمْ قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقِنَاكُمْ فَإِنْ آخَرْتُمْ لَكُمْ فَلَمْ يُغْنُوا عَنْكُمْ وَالْقَوْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَجَعَلْنَا اللَّهُ لِكُلِّ قَوْمٍ سَبِيلًا﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿سَتَجِدُونَ الْعَارِضِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يُمْنُوا بِكُمْ وَيَأْمِنُوا بِقَوْمِهِمْ كُلِّ مَارِدٍ وَاللَّذِينَ الْأَلْفَانَةُ أَرَكْسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْرَظُوا لَكُمْ وَيَلْفُوا لَكُمْ أَلَمِيَّةٌ وَسَلَّطْنَا مُبِينًا﴾ ﴿٩١﴾

ويستلزم أيضاً بغضهم وعداوتهم؛ لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر مؤقت بهجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، سواء كان مؤمناً حقيقة، أو ظاهر الإيمان.

وأنتهم إن لم يهاجروا، وتولوا عنها ﴿فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ أي: في أي وقت، وأي محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة، على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق: فرقتين أمر بتركهم، وحثم [على] ذلك.

(١) زيادة من هاشم ب. (٢) في هاشم أ: (وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، فانزل الله ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَتَيْنِ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد». وليس هناك علامة تدل على محل هذه الزيادة.

إحداهما^(١) من يصل إلى قوم، بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حق الدم والمال.

والفرقة الثانية قوم ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ﴾ أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضًا أمر بتركهم، وذكر الحكمة بذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَاقَلْتُمْ﴾ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام: إما أن يكونوا معكم، ويقالتوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحمدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك، فهؤلاء إن ﴿اعْتَزَلْتُمْ فَلَهُمْ يَفْعَلُوكُمْ وَأَلْقُوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾.

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ﴾ أي: من هؤلاء المنافقين، ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُامِنُوكُمْ﴾ أي: خوفًا منكم ﴿وَيَأْمُرُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوْا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا﴾ أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن، أعماهم، ونكسهم على رؤوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها، فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين احترامًا لهم، لا خوفًا على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفًا لا احترامًا، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فإنهم مستعدون^(٢) لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم، ويتضح انضاحًا عظيمًا، اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فإنهم يقاتلون، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ لَمْ يَعْزِلُواكُمْ وَفَلَّحُوا بِلِقَاؤِكُمْ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ﴾ أي: المسالمة والموادعة، ﴿وَيُكَلِّمُوا أَيْدِيَهُمْ فَمَا تَدْرُونَ مَا قَالُوا﴾ حيث تَفَقَّهُوهُمْ وَأَوَّلِيكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالمة، فلا يلومون إلا أنفسهم.

(٩٢) ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةً وَوَيْتُهُ مُسْلَمَةٌ إِلَى أَهْلِيهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنْ عَدَاوَةٍ إِلَى أَهْلِيهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَيْسِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا

حَكِيمًا﴾ هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمنع ويستحيل أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن أي: متعمدًا، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه، وأنه مناف للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك، إما من كافر أو من فاسق، قد نقص إيمانه نقصًا عظيمًا، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك.

فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية، التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي أذى أشد من القتل؟ وهذا يصدق قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض»، فعلم أن القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

ولما كان قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ لفظًا عامًا، لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: ﴿إِلَّا خَطَاً﴾ فإن الخطأ الذي لا يقصد القتل غير أثم، ولا متجرب على محارم الله.

ولكنه لما كان قد فعل فعلًا شنيعًا، وصورته كافية في قبحه، وإن لم يقصده أمر تعالى بالكفارة والدية فقال: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً﴾ سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، حرًا أو عبدًا، صغيرًا أو كبيرًا، عاقلاً أو مجنونًا، مسلمًا أو كافرًا، كما يفيد لفظ «مَنْ» الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ «مَنْ» في هذا الموضع؛ فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله «مَنْ».

وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، كما يفيد التذكير في سياق الشرط، فإن على القاتل ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء.

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزىء عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضع بعته، ويقاؤه في الرق أنفع له، فإنه لا يجزىء عتقه، مع أن في قوله: ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ ما يدل على ذلك، فإن التحرير: تخليص مَنْ استحققت منافعها لغيره، أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع، لم يتصور وجود التحرير، فتأمل ذلك، فإنه واضح.

وأما الدية، فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ، وشبه

(١) كذا في ب، وفي أ: أحدها. (٢) في ب: سيقدمون.

لتكون رادعة، وكافة عن كثير من القتل، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ بإجماع العلماء، لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك، من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة، والمساعدة على تحصيل المصالح، وكف المفساد، [ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل، حذرًا من تحميلهم]^(١)، ويخف عنهم^(٢) بسبب توزيعه عليهم، بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضًا بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

ومن حكمته وعلمه، أن جبر أهل القتل عن مصيبتهم، بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

(٩٣) ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَكَفَّرَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾
تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمدًا، وعيدًا ترجف له القلوب، وتتصدع له الأفئدة، وتزعج منه أولو العقول.

فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو الإخبار بأن جزاءه جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده، أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار، فعيادًا بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، على بعض الكبائر والمعاصي، بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة، الذين يخلدونهم في النار، ولو كانوا موحدين، والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق: شمس الدين بن القيم - رحمه الله - في «المدارج» فإنه قال - بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها فقال:

وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتضى لها.

العمد ﴿مُسَلَّمَةً إِلَيْكَ أَهْلِيهِ﴾ جبرًا لقلوبهم. والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما ترك، وللدية تفاصيل كثيرة المذكورة في كتب الفقه.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ أي: يتصدق ورثة القتل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو، لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت ﴿فَإِنْ كَانَ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ أي: من كفار حرييين ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ أي: وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم.

﴿وَإِنْ كَانَتْ﴾ المقتول ﴿مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فِدْيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَيْكَ أَهْلِيهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق، ﴿فَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسرًا بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَكَامِلَيْنِ﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر.

فإن أفطر لعذر، فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض، والحيض ونحوهما، وإن كان لغير عذر، انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم.

﴿تُوبَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: هذه الكفارة التي أوجبها الله على القاتل، توبة من الله على عباده، ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم، من تقصير، وعدم احتراز، كما هو واقع كثيرًا للقاتل خطأ.

﴿وَكَاتَ اللَّهُ عَلَيْهَا حَكِيمًا﴾ أي: كامل العلم، كامل الحكمة، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك، ولا أكبر، في أي وقت كان، وأي محل كان، ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه، فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته، أن أوجب على القاتل، كفارة مناسبة لما صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة، ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للبعد عن سعادته الأبدية، إلى التبعذ لله تعالى بتركها تقريبًا إلى الله، ومدّها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عدها، ووجوب التتابع فيها، ولم يشرع الإطعام في هذا الموضوع لعدم المناسبة، بخلاف الظهار، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأ،

(١) زيادة من هامش: ب (٢) في ب: عليهم.

وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ
 مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ
 أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ
 وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ
 مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ
 إِلَىٰ أَهْلِهِ، وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ
 فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ
 اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٤﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
 مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
 اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ يَأْتِيهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا
 لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
 عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ
 كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ آتَىٰكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِكُمْ
 فَبَيَّنُوا وَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٦﴾

قَبْلُ فَمَنْ آتَىٰكُمْ فَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين، إذا خرجوا جهاداً في
 سبيله، وابتغاء مرضاته أن يتبينوا، ويتثبتوا في جميع أمورهم
 المشبهة، فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة.

فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتبين؛ لأن ذلك
 تحصيل حاصل.

وأما الأمور المشككة غير الواضحة، فإن الإنسان يحتاج
 إلى التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟ فإن
 التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف
 لشرو عظمة، ما به يعرف دين العبد، وعقله، ورزاقته،
 بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها^(١)، قبل أن يتبين له
 حكمها، فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي.

كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآية، لما لم
 يتثبتوا، وقتلوا من سلم عليهم، وكان معه غنيمه له أو مال
 غيره، ظناً أنه يستكفي بذلك قتلهم، وكان هذا خطأ في نفس

وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع،
 وبعضها بالنص، فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع
 بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها، والحسنات العظيمة
 الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة
 الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه
 النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين، ومن هنا
 قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتباراً بمقتضى
 العقاب وموانعه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما، وعلى
 هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدرية، وهو مقتضى
 الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها،
 خلقاً وأمرًا.

وقد جعل الله سبحانه لكل ضدًا يدافعه، ويقاومه،
 ويكون الحكم للأغلب منهما، فالقوة مقتضية للصحة
 والعافية، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة وفعل
 القوة، والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية
 والأمراض، والعبد يكون فيه مقتض للصحة، ومقتض
 للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا
 ترجح عليه وقهره، كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى مَنْ يدخل الجنة، ولا
 يدخل النار، وعكسه، وَمَنْ يدخل النار ثم يخرج منها،
 ويكون مكته فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث، في سرعة
 الخروج، وبطئه، وَمَنْ له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله
 به في كتابه، من أمر المعاد وتفصيله، حتى كأنه يشاهده رأي
 عين.

ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته سبحانه، وربوبيته،
 وعزته، وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك
 إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته،
 كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات، كما تحرق
 النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل
 إصراره على السيئات، وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من
 نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في
 عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله، انتهى كلامه،
 قدس الله روحه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

(٩٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا
 تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ

(١) في السختين: بداوتها.

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٤

الْمُجَاهِدِينَ

لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنْ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمًا لِنَفْسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ نِسَاءٌ مِثْلُهَا إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسِعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عُذًّا وَإِنَّا لَآتِينَ ﴿١٠١﴾

غير عذر، فمن كان من أولي الضرر، راضياً بقعوده، لا يني الخروج في سبيل الله، لولا [وجود] المانع، ولا يحدث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر.

ومن كان عازماً على الخروج في سبيل الله لولا وجود المانع، يمتنى ذلك، ويحدث به نفسه، فإنه بمنزلة من خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترن بها مقدرها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة، أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر، والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في «الصحيحين» أن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله.

وهذا الثواب الذي رتبته الله على الجهاد، نظير الذي في سورة الصف في قوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرٍ لَكُمْ نُجِيكُمْ

الأمر، فهذا عاتبهم بقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ أَسْلَمْنَا لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبِعْتُمْ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَانِدٌ كَثِيرَةٌ﴾ أي: فلا يحملنكم العرض الفاني القليل، على ارتكاب ما لا ينبغي فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي، فما عند الله خير وأبقى.

وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له، إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى، وهي مضرة له - أن يذكرها ما أعده الله لمن نهى نفسه عن هواها، وقدم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن في ذلك ترغيباً للنفس في امتثال أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

ثم قال تعالى - مذكراً لهم بحالهم الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ آتَاكُمْ مِنْكُمْ﴾ أي: فكما هداكم بعد ضلالكم، فكذلك يهدي غيركم، وكما أن الهداية حصلت لكم شيئاً فشيئاً، فكذلك غيركم.

فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثلها، بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة - من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتبيين فقال: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾.

فإذا كان من خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأموراً بالتبيين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية، في أنه إنما سلم تهوداً من القتل، وخوفاً على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالتبيين والتثبت، في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيتثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر، ويبين الرشد والصواب.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيجازي كل ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عبادته ونياتهم.

(٩٦، ٩٥) ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: لا يستوي من جاهد من المؤمنين بنفسه وماله، ومن لم يخرج للجهاد، ولم يقاتل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكاثر، والقعود عنه من غير عذر.

وأما أهل الضرر، كالمرضى، والأعمى، والأعرج، والذي لا يجد ما يتجهز به، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين، من

المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير، والجهاد مع رسوله، والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم.

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة، وهم غير صادقين في ذلك، لأن الله وبخهم، وتوعدهم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها.

واستثنى المستضعفين حقيقة، ولهذا قالت لهم الملائكة: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: قد تقرر عند كل أحد أن أرض الله واسعة.

فحيثما كان العبد في محل، لا يتمكن فيه من إظهار دينه، فإن له متسعاً وفسحة من الأرض يتمكن فيها من عبادة الله، كما قال تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِدُونَ﴾ قال الله عن هؤلاء الذين لا عذر لهم: ﴿فَأُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ وهذا كما تقدم، فيه ذكر بيان السبب الموجب، فقد يترتب عليه مقتضاه، مع اجتماع شروطه، وانقضاء موانعه، وقد يمنع من ذلك مانع.

وفي الآية دليل على أن الهجرة من أكبر الواجبات، وتركها من المحرمات، بل من أكبر الكبائر، وفي الآية دليل على أن كل من توفي، فقد استكمل واستوفى ما قدر له من الرزق، والأجل، والعمل، وذلك مأخوذ من لفظ «التوفي» فإنه يدل على ذلك، لأنه لو بقي عليه شيء من ذلك، لم يكن متوفياً.

وفيه الإيمان بالملائكة ومدحهم، لأن الله ساق ذلك الخطاب لهم على وجه التقرير والاستحسان منهم، وموافقته لمحلّه.

ثم استثنى المستضعفين على الحقيقة، الذين لا قدرة لهم على الهجرة بوجه من الوجوه ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

فهؤلاء قال الله فيهم: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ و«عسى» ونحوها واجب وقوعها من الله تعالى، بمقتضى كرمه وإحسانه، وفي الترجية بالثواب لمن عمل بعض الأعمال فائدة، وهو أنه لا يوفيه حق توفيته، ولا يعمل على الوجه اللائق الذي ينبغي، بل يكون مقصراً، فلا يستحق ذلك الثواب. والله أعلم.

وفي الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن المأمور من واجب وغيره، فإنه معذور، كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ وقال في عموم الأوامر: ﴿فَأَقْضُوا لِلَّهِ مَا أَسْطَغْتُمْ﴾.

وقال النبي ﷺ: «إذا أمرتكم بأمر، فاتوا منه ما استطعتم»،

مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ○ تَوَمَّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ○ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِينٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْمَوْزِعُ الْعَظِيمُ﴾ إلى آخر السورة.

وتأمل حسن هذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات، وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح، أو النزول من حالة إلى ما دونها، عند القدر والذم - أحسن لفظاً، وأوقع في النفس.

وكذلك إذا فضل تعالى شيئاً على شيء، وكل منهما له فضل، احتزرت بذكر الفضل الجامع للأمرين؛ لثلاث يتوهم أحد ذم المفضل عليه كما قال هنا: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْمُسْتَضْعِفِينَ﴾.

وكما [قال تعالى] في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وَيَسِّرَ اللَّهُ الْوُمُيْنِينَ﴾ وكما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلًا﴾ أي: ممن لم يكن كذلك. ثم قال: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْمُسْتَضْعِفِينَ﴾ وكما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّلْنَا بِنَارِ حُكْمًا وَعَلَّمْنَا﴾ فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص، والطوائف، والأعمال، أن يتفطن لهذه النكتة.

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات، ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض، لثلاث يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال، كما إذا قيل: النصارى خير من المجوس، فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر.

والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرماها الله ورسوله وزجر عنها.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادقين عن اسميه الكريمين ﴿الْعَفْوُ الرَّجِيصُ﴾ ختم هذه الآية بهما فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

(٩٧-٩٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْسِنَتِهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ○ إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ○ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا﴾ هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه، يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم، وربما ظاهرتموهم على

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر للمؤمنين ما اقترفوه من الخطيئات، خصوصًا التائبين المنيبين إلى ربهم.

﴿رَحِيمًا﴾ بجميع الخلق، رحمة أوجدتهم وعافتهم، ورزقتهم من المال والبنين والقوة، وغير ذلك، رحيمًا بالمؤمنين، حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فנסأل الله أن لا يحرمنا خيره بشرًا ما عندنا.

(١٠١، ١٠٢) ﴿وَإِذَا صَرَفْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا ۝ وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ هاتان الآيتان أصل في رخصة القصر، وصلاة الخوف، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا صَرَفْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في السفر، وظاهر الآية، [أنه] يقتضي الترخيص^(١) في أي سفر كان، ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخيص^(٢) في سفر المعصية، تخصيصًا للآية بالمعنى والمناسبة، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده، إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفروه لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل؛ لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، كما تقدم ذلك في سورة البقرة، في قوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ وَالزُّكُوفَ مِنَ سَعَابِرِ اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية.

وإزالة الوهم في هذا الموضوع ظاهرة؛ لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه.

ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران: أحدهما:

(١) في ب: الترخيص. (٢) في ب: الترخيص.

ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده، وانسدت عليه أبواب الحيل، لقوله: ﴿لَا يَسْتَبِيحُونَ حِيلَةً﴾ وفي الآية تنبيه على أن الدليل في الحج والعمرة، ونحوهما - مما يحتاج إلى سفر - من شروط الاستطاعة.

(١٠٠) ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ هذا في بيان الحث على الهجرة، والترغيب، وبيان ما فيها من المصالح، فوعد الصادق في وعده أن مَنْ هاجر في سبيله ابتغاء مرضاته، أنه يجد مراغمًا في الأرض وسعة، فالمراعم مشتمل على مصالح الدين والسعة على مصالح الدنيا؛ وذلك أن كثيرًا من الناس يتوهم أن في الهجرة شتاتًا بعد الألفة، وفقراً بعد الغنى، ودلاً بعد العز، وشدة بعد الرخاء.

والأمر ليس كذلك، فإن المؤمن ما دام بين أظهر المشركين، فدينه في غاية النقص، لا في العبادات الفاصرة عليه، كالصلاة ونحوها، ولا في العبادات المتعدية، كالجهاد بالقول والفعل، وتوابع ذلك، لعدم تمكنه من ذلك، وهو بصدد أن يفتن عن دينه، خصوصًا إن كان مستضعفًا.

فإذا هاجر في سبيل الله تمكن من إقامة دين الله، وجهاد أعداء الله، ومرامتهم، فإن المراغمة اسم جامع لكل ما يحصل به إغاظة لأعداء الله من قول وفعل، وكذلك يحصل له سعة في رزقه، وقد وقع كما أخبر الله تعالى.

واعتبر ذلك بالصحابة رضي الله عنهم، فإنهم لما هاجروا في سبيل الله وتركوا ديارهم، وأولادهم، وأموالهم لله، كمل بذلك إيمانهم، وحصل لهم من الإيمان التام، والجهاد العظيم، والنصر لدين الله، ما كانوا به أئمة لمن بعدهم، وكذلك حصل لهم مما يترتب على ذلك من الفتوحات والغنائم، ما كانوا به أغنى الناس، وهكذا كل مَنْ فعل فعلهم حصل له ما يحصل لهم إلى يوم القيامة.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: قاصدًا ربه، ورضاه، ومحبة لرسوله، ونصرًا لدين الله، لا لغير ذلك من المقاصد ﴿ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ﴾ بقتل أو غيره ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: فقد حصل له أجر المهاجر الذي أدرك مقصوده بضمنان الله تعالى، وذلك لأنه نوى وجزم، وحصل منه ابتداء، وشروع في العمل، فمن رحمة الله به وبأمثاله أن أعطاهم أجرهم كاملاً، ولو لم يكملوا العمل وغفر لهم، ما حصل منهم من التقصير في الهجرة وغيرها.

ولهذا ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين فقال:

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِّنْهُمْ مَّعَكَ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن رَّأْيِكُمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلِيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَالدِّينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْعَتِكُمْ فَيُعْمِلُونَ عَلَيْكُمْ مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُودًا وَعَلَىٰ جُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٢﴾ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْمِنُونَ كَمَا تَأْمِنُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٣﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِبِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٤﴾

فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ ﴿١٠١﴾ أي: صليت بهم صلاة تقيمها، وتمم ما يجب فيها ويلزم، فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله. ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فَلَنْتُمْ طَائِفَةً مِّنْهُمْ مَّعَكَ﴾ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو، كما يدل على ذلك ما يأتي:

﴿فَإِذَا سَجَدُوا﴾ أي: الذين معك أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود؛ ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها.

﴿فَلْيَكُونُوا مِن رَّأْيِكُمْ وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ دل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى، منتظرًا للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته ثم جلس ينتظرهم، حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف.

فإنها صحت عن النبي ﷺ من وجوه كثيرة، كلها جازئة، وهذه الآية تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة،

ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره، والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه، كما يكره أن تؤتى معصيته.

وقوله: ﴿أَنْ تَقْرُؤُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ولم يقل أن تقصروا الصلاة، فيه فائدتان:

إحداهما: أنه لو قال: أن تقصروا الصلاة، لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة، وجعلها ركعة واحدة، لأجزأ، فإتيانه بقوله: ﴿مِنَ الصَّلَاةِ﴾ ليدل ذلك على أن القصر محدود مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه.

الثانية: أن «من» تفيد التبعض، ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضة، لا جميعها، فإن الفجر والمغرب لا يقصران، وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين.

فإذا تقرر أن القصر في السفر رخصة، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الذي يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأمرين كليهما، السفر مع الخوف، ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله: ﴿أَنْ تَقْرُؤُوا﴾ قصر العدد فقط؟ أو قصر العدد والصفة؟ فالإشكال، إنما يكون على الوجه الأول.

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله! ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ أي والله يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» أو كما قال.

فعلى هذا يكون هذا القيد آتى به نظرًا لغالب الحال التي كان النبي ﷺ، وأصحابه عليها، فإن غالب أسفارهم أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرى، وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر، فبين في هذه الآية أنه ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده، الذي هو مظنة المشقة.

وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر: قصر العدد والصفة، فإن القيد على بابه، فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد، وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز قصر الصفة.

ولذلك آتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ

وفي قوله: ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ﴾ دليل على أن الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى، وحكما في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم، حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا ظاهر للمتأمل.

(١٠٣) ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَمًا وَقُعودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أي: فإذا فرغتم من صلاتكم صلاة الخوف وغيرها، فادكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائد، منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته، بالإجابة إلى الله تعالى في المحبة، وامتلاء القلب من ذكره، والثناء عليه، وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة التي حقيقتها: أنها صلة بين العبد وبين ربه.

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان، ومعارف الإيقان، ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة، ومن المعلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن، والخوف، فأمر بجبرها بالذكر بعدها. ومنها: أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه من أعظم مقويات القلب.

منها: أن الذكر لله تعالى - مع الصبر والثبات - سبب للفلاح والظفر بالأعداء، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْبُيُوتُ مَأْمُونًا إِذَا لَبِستَ فِيكُ فَاثْبُتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فأمر بالإكثار منه في هذه الحال، إلى غير ذلك من الحكم.

وقوله: ﴿وَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: إذا أمتم من الخوف، واطمأنت قلوبكم وأبدانكم، فأتّموا صلاتكم على الوجه الأكمل ظاهرا وباطنا، بأركانها وشروطها، وخشوعها، وسائر مكملاتها.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ أي: مفروضا في وقته، فدل ذلك على فرضيتها، وأن لها وقتا لا تصح إلا به، وهو هذه الأوقات التي قد تقررت عند المسلمين، صغيرهم وكبيرهم، عالمهم وجاهلهم، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله: «صلوا كما رأيتموني أصلي».

ودل قوله: ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ على أن الصلاة ميزان

وقت اشتداد الخوف من الأعداء، وحذر مهاجمتهم، فإذا أوجها في هذه الحالة الشديدة، فإيجابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيرا من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبطله في غيرها، وما ذاك إلا لتأكد وجوب الجماعة، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلولا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد، ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء، لا يخل به لو صلوا بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم، وعدم تفرق كلمتهم، وليكون ذلك أوقع هيبه في قلوب أعدائهم، وأمر تعالى بأخذ السلاح، والحذر في صلاة الخوف.

وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة، فإن فيه مصلحة راجحة، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين، والميل عليهم وعلى أمتعتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَقَفَلْتُمْ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

ثم إن الله عذر من له عذر، من مرض أو مطر، أن يضع سلاحه، ولكن مع أخذ الحذر، فقال: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضِينَ أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

ومن العذاب المهين ما أمر الله به حزه المؤمنين، وأنصار دينه الموحدين، من قتلهم وقتالهم حيثما تفوهم، ويأخذوهم، ويحصرهم، ويقعدوا لهم كل مرصد، ويحذروهم في جميع الأحوال، ولا يغفلوا عنهم خشية أن ينال الكفار بعض مطلوبهم فيهم، فله أعظم حمد وثناء على ما من به على المؤمنين، وأيدهم بمعونته وتعاليمه التي لو سلكوها على وجه الكمال، لم تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو في وقت من الأوقات.

وفي قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ زُرَّائِكُمْ﴾ يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين، وأن الرسول ﷺ يثبت منتظرا للطائفة الأخرى قبل السلام، لأنه أولا ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبتهم له، ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه.

نَفِيءٌ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ○ وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرَوْهَا بَرِيئًا فَقَدْ أَحْمَلَهَا مَهْنَتًا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا ○ وَلَا فَضْلَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَمَسَتْ طَائِفَةً مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١٠٤﴾ يخبر تعالى أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق، أي: محفوظًا في إنزاله من الشياطين، أن يتطرق إليه منهم باطل، بل نزل بالحق، ومشملاً أيضًا على الحق، فأخبره صدق، وأوامره ونواهيه عدل ﴿وَوَكَّمْتُ كَلِمَتَكَ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾. وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس.

وفي الآية الأخرى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس، في مسائل النزاع والاختلاف، وتلك في تبيين جميع الدين، وأصوله وفروعه، ويحتمل أن الآيتين كلتيهما، معناهما واحد. فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد، وفي جميع مسائل الأحكام.

وقوله: ﴿يَا أَرْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: لا بهواك، بل بما علمك الله وألهمك. كقوله تعالى: ﴿وَمَا يَطِئُ عَنِ الْهَوَىٰ ○ إِنَّهُ هُوَ الْوَعْدِيُّ يُوْعَىٰ﴾ وفي هذا دليل على عصمته ﷺ، فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام وغيرها. وأنه يشترط في الحاكم^(١) العلم والعدل، لقوله: ﴿يَا أَرْبَكَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: بما رأيت.

ورتب أيضًا الحكم بين الناس على معرفة الكتاب، ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط، نهاه عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلظَّالِمِينَ حَاصِمًا﴾ أي: لا تخاصم عن من عرف خيانتته، من مدع ما ليس له، أو منكر حقًا عليه، سواء علم ذلك، أو ظنه.

ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبتل في الخصومات الدينية، والحقوق الدنيوية، ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم.

﴿وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ﴾ مما صدر منك، إن صدر.

﴿إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَجِيمًا﴾ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره، وتاب إليه وأتاب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ «الاختيان»

(١) في أ: الحكم.

الإيمان، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلواته، وتتم وتكمل، ويدل ذلك على أن الكفار - وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة، ولا يؤمرون بها، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم، وإن كانوا يعاقبون عليها، وعلى سائر الأحكام في الآخرة.

(١٠٤) ﴿وَلَا تَهَيَّؤْا فِي آيَتَاءِ الْقَوْمِ إِنْ كُنُوهُمْ قَالُوهُمْ فَإِنَّهُمْ يَأْتُوهُمْ كَمَا تَأْتُوهُمْ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ أي: لا تضعفوا ولا تسلسوا في ابتغاء عدوكم من الكفار، أي: في جهادهم، والمرابطة على ذلك، فإن وهن القلب مستدع لوهن البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء، بل كونوا أقوياء نشطين في قتالهم، ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أن ما يصيبكم من الألم، والتعب، والجراح ونحو ذلك، فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية، والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وهم قد تساوت فيما يوجب ذلك، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من تواتت عليه الآلام، وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يدال مرة، ويدال عليه أخرى.

الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه، والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية، وآمال رفيعة، من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين.

فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط، والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته، فسبحان من فاوت بين العباد، وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ كامل العلم، كامل الحكمة.

(١٠٥-١١٣) ﴿إِنَّمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ يَمَا أَرْبَكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلظَّالِمِينَ حَاصِمًا ○ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَجِيمًا ○ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَلُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَافًا أَشِيمًا ○ يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ○ هَتَأْتُهُ هَوَآءٌ جَدَلْتُهُ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلِ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ○ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَجِيمًا ○ وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَىٰ

سورة النساء

٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تَجِدُ
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَّانًا أَنِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ
اللَّهُ يَمَآعِمِلُونُ مِحْطًا ﴿١٠٨﴾ هَتَانَتْهُ هَتَوَآءَ جَدَلْتُمْ
عَنَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجِدِ اللَّهُ عَنَّهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ
سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُ عَلَىٰ نَفْسِهِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا
ثُمَّ يَمُرْ بِهِ بِرَبِّيًّا فَعَدِيَ أَحْمَلَ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا بُيِّنَّا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّت طَّائِفَةٌ مِّنْهُم أَن
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن
شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

الشهوات المحرمة، قال لها: هبك فعلت ما اشتبهت، فإن
لذته تقضي، ويعقبها من الهموم، والغوم، والحسرات،
وفوات الثواب، وحصول العقاب - ما بعضه يكفي العاقل في
الإحجام عنها.

وهذا من أعظم ما يفع العبد تديره، وهو خاصة العقل
الحقيقي بخلاف الذي (٣) يدعي العقل، وليس كذلك، فإنه -
بجهله وظلمه - يؤثر اللذة الحاضرة، والراحة الراهنة، ولو
ترتب عليها ما ترتب، والله المستعان.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ
اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: مَن تجرأ على المعاصي،
واقترح على الإثم، ثم استغفر الله استغفارًا تامًا، يستلزم
الإقرار بالذنب، والندم عليه، والإقلاع، والعزم على أن لا
يعود، فهذا قد وعده مَن لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة،
فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من
النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة،

وال«خيانة» بمعنى الجنابة والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي
عن المجادلة، عن مَن أذنب وتوجه عليه عقوبة، من حد أو
تعزير، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو
بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَنِيمًا﴾ أي: كثير الخيانة
والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده، وهو البغض، وهذا
كالتعليل للنهي المتقدم.

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا
يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ وهذا
من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق
عندهم أعظم من مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة
والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد
بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم، وهو
معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصًا في حال تبييتهم ما
لا يرضيه من القول، من تبرئة الجاني، ورمي البريء
بالجنابة، والسعي في ذلك للرسول ﷺ، ليفعل ما يتوه.

فقد جمعوا بين عدة جنایات، ولم يراقبوا رب الأرض
والسموات، المطلع على سرائرهم وضمايرهم، ولهذا
توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ يَمَآعِمِلُونُ مِحْطًا﴾ أي: قد
أحاط بذلك علما، ومع هذا لم يعالجهم بالعقوبة بل استأنى
بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم،
الموجب للعقوبة البليغة.

﴿هَتَانَتْهُ هَتَوَآءَ جَدَلْتُمْ عَنَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجِدِ
اللَّهُ عَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا﴾ أي: هبكم
جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالكم بعض
ما تحذرون (١) من العار والفضيحة عند الخلق، فماذا يعني
عنهم وينفعهم؟ ومَن يجادل الله عنهم يوم القيامة حين توجه
عليهم الحجة، وتشهد عليهم الستهم وأيديهم وأرجلهم بما
كانوا يعملون؟ ﴿يَوْمَ يُؤَيِّنُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ فَمَن يجادل عنهم مَن يعلم السر وأخفى، ومَن
أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟.

وفي هذه الآية إرشاد (٢) إلى المقابلة بين ما يتوهم من
مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله، أو فعل مناهيه وبين
ما يفوت من ثواب الآخرة، أو يحصل من عقوباتها، فيقول
مَن أمرته نفسه بترك أمر الله: ها أنت تركت أمره كسلا
وتفريطًا، فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب
الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحرامان
والخيبة والخسران؟ وكذلك إذا دعت نفسه إلى ما تشتهيه من

(١) في ب: ما يحذرون. (٢) في ب: الإرشاد. (٣) في ب: مَن.

الذنب، وإن كان مذنبًا ﴿فَقَدْ أَحْمَلَ بُهْتَنَا وَإِنَّمَا تُبَيِّنَا﴾ أي: فقد حمل فوق ظهره بهتانًا للبريء وإثماً ظاهراً بيئاً، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها.

فإنه قد جمع عدة مفاسد: كسب الخطيئة والإثم.

ثم رمي مَنْ لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع، بترتة نفسه واتهام البريء، ثم ما يترتب على ذلك من العقوبة الدنيوية، تندفع عمن وجبت عليه، وتقام على مَنْ لا يستحقها.

ثم ما يترتب على ذلك أيضاً من كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك من المفاسد التي نسال الله العافية منها، ومن كل شر.

ثم ذكر مته على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضلّه فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾ وذلك أن هذه الآيات الكريمة قد ذكر المفسرون أن سبب نزولها: أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على سرقتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم، فرموها ببيت مَنْ هو بريء من ذلك، واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ، ويطلبوا منه أن يبرئ أصحابهم على رؤوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق، وإنما الذي سرق مَنْ وجدت السرقه ببيته، وهو البريء، فهم رسول الله ﷺ أن يبرئ أصحابهم، فأنزل الله هذه الآيات تذكيراً، وتبييناً لتلك الواقعة، وتحذيراً للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين، فإن المخاصمة عن المبطل من الضلال، فإن الضلال نوعان: ضلال في العلم، وهو الجهل بالحق، وضلال في العمل، وهو العمل بغير ما يجب، فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال، [كما حفظه عن الضلال في الأعمال]^(١).

وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم، كحالة كل مكر، فقال: ﴿وَمَا يُضِلُّوكَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ لكون ذلك المكر، وذلك التحيل، لم يحصل لهم فيه مقصودهم، ولم يحصل لهم^(٢) إلا الخيبة والحزبان، والإثم والخسران.

وهذه^(٣) نعمة كبيرة على رسوله ﷺ، يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم.

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم، الذي فيه تبيان كل شيء، وعلم الأولين والآخرين.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في النسختين: له، وقد غيرتها للتوافق مع ما سبق من الضمائر. (٣) في النسختين: وهذا.

ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقه، لأنه قد غفره، وإذا غفره غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة، وسمي «سوءاً» لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه - في نفسه - سيئاً غير حسن.

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه، ولكن عند اقتران أحدهما بالآخر، قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دمائهم وأمورهم وأعراضهم.

ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده. وسمي ظلم النفس «ظلماً» لأن نفس العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى، قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بإلزامها للصراف المستقيم علماً وعملاً، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب. فسعى في غير هذا الطريق ظلم لنفسه، وخيانه، وعدول بها عن العدل الذي ضده الجور والظلم.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ وهذا يشمل كل ما يؤثم، من صغير وكبير، فمن كسب سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخرية على نفسه، لا تعداها إلى غيرها، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُزِدُ وَازِرَةً وَرَدَّ آخَرَى﴾.

لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر عمت عقوبتها، وشمل إثمها، فلا تخرج أيضاً عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن مَنْ ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة.

وفي هذا بيان عدل الله وحكمته، أنه لا يعاقب أحداً بذنب أحد، ولا يعاقب أحداً أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: له العلم الكامل، والحكمة التامة.

ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب، وما صدر منه، والسبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب، أنه إن صدر منه الذنب بغلبة دواعي نفسه الأمامة بالسوء، مع إنبته إلى ربه في كثير من أوقاته، أنه سيغفر له ويوفقه للتوبة.

وإن صدر منه بتجرئه على المحارم استخفافاً بنظر ربه، وتهاوناً بعقابه، فإن هذا بعيد من المغفرة، بعيد من التوفيق للتوبة.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً﴾ أي: ذنباً كبيراً ﴿أَوْ إِثْمًا﴾ ما دون ذلك، ﴿ثُمَّ يَرَوْهُ﴾ أي: يتهم بذنبه ﴿بَرِيئًا﴾ من ذلك

والحكمة: إما السنة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السنة تنزل عليه، كما ينزل القرآن، وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها، وترتيب كل شيء بحسبه.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى، فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ثم لم يزل يوحى الله إليه، ويعلمه، ويكمله، حتى ارتقى مقاماً من العلم، يتعذر وصوله على الأولين والآخرين.

فكان أعلم الخلق على الإطلاق، وأجمعهم لصفات الكمال، وأكملهم فيها، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فضله على الرسول محمد ﷺ أعظم من فضله على كل مخلوق^(١). وأجناس الفضل الذي قد فضله الله به لا يمكن استقضاؤها^(٢) ولا يتيسر إحصاؤها.

(١١٤) ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَرِّكَ النَّاسُ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون. وإذا لم يكن فيه خير، فإما لا فائدة فيه، كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة، كالكلام المحرم بجميع أنواعه.

ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنَ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ من مال، أو علم، أو أي نفع كان، بل لعله يدخل فيه العبادات القاصرة، كالتسبيح، والتحميد، ونحوه.

كما قال النبي ﷺ: ﴿إِن بَكَل تَسْبِيحَةَ صَدَقَةٍ، وَكُل تَكْبِيرَةَ صَدَقَةٍ، وَكُل تَهْلِيلَةَ صَدَقَةٍ، وَأَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٍ، وَنَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٍ، وَفِي بَضْعٍ أَحَدِكُمْ صَدَقَةً﴾ الحديث.

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وهو الإحسان والطاعة، وكل ما عرف في الشرع والعقل حسنه، وإذا أطلق الأمر بالمعروف من غير أن يقرن بالنهي عن المنكر، دخل فيه النهي عن المنكر؛ وذلك لأن ترك المنهيات من المعروف، وأيضاً لا يتم فعل الخير إلا بترك الشر.

وأما عند الاقتران، فيفسر المعروف بفعل المأمور، والمنكر بترك المنهي.

﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَرِّكَ النَّاسِ﴾ والإصلاح لا يكون إلا بين متنازعين متخاصمين والنزاع والخصام والتغاضب يوجب من الشر والفرقة ما لا يمكن حصره فلذلك حث الشارع على الإصلاح بين الناس في الدماء والأموال والأعراض، بل وفي الأديان، كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا

تَفَرَّقُوا﴾ وقال تعالى: ﴿وَلِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَلَوْا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى ففَعَلُوا أَلَّتِي تَبِغَى حَتَّى تَقِيَهُ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ الآية.

وقال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ والساعي في الإصلاح بين الناس أفضل من القانت بالصلاة والصيام والصدقة، والمصلح لا بد أن يصلح الله سعيه وعمله.

كما أن الساعي في الإفساد لا يصلح الله عمله، ولا يتم له مقصوده كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فهذه الأشياء حيثما فعلت فهي خير، كما دل على ذلك الاستثناء.

ولكن كمال الأجر وتمامه، بحسب النية والإخلاص، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

فلهذا ينبغي للعبد أن يقصد وجه الله تعالى، ويخلص العمل لله في كل وقت، وفي كل جزء من أجزاء الخير، ليحصل له بذلك الأجر العظيم، وليتعود الإخلاص، فيكون من المخلصين، وليتم له الأجر، سواء تم مقصوده أم لا، لأن النية حصلت، واقرن بها ما يمكن من العمل.

(١١٥، ١١٦) ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ عِبْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ أي: ومن يخالف الرسول ﷺ، ويعانده فيما جاء به ﴿مِنَ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ بالدلائل القرآنية، والبراهين النبوية.

﴿وَيَتَّبِعْ عِبْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وسبيلهم هو طريقهم في عقائدهم وأعمالهم.

﴿تَوَلَّىٰ مَا تَوَلَّى﴾ أي: نتركه وما اختاره لنفسه، ونخذله، فلا نوقفه للخير، لكونه رأى الحق وعلمه وتركه، فجزاؤه من الله عدلاً أن يبقيه في ضلاله حائرًا، ويزداد ضلالاً إلى ضلاله، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَنَقَلْنَا أَكْبَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَوْلَٰئِكَ مَرَقٌ﴾.

ويدل مفهومها على أن من لم يشاقق الرسول، ويتبع غير سبيل المؤمنين، بأن كان قصده وجه الله، واتباع رسوله، ولزوم جماعة المسلمين، ثم صدر منه من الذنوب أو الهم بها ما هو من مقتضيات النفوس، وغلبات الطباع، فإن الله لا يوليه نفسه وشيطانه، بل يتداركه بلطفه، ويمن عليه بحفظه، ويعصمه من سوء، كما قال تعالى عن يوسف عليه السلام:

(١) في ب: الخلق. (٢) في النسختين: استقصاؤه، وقد عدلت في ب، ولعل الصواب ما أثبت.

﴿كَذَلِكَ يُصَرِّفُ عَنْهُ الشَّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾
 أي: بسبب إخلاصه صرفنا عنه الشؤء، وكذلك كل مخلص،
 كما يدل عليه عموم التعليل.
 وقوله: ﴿وَتُصَلِّهِ جَهَنَّمَ﴾ أي: نعذبه فيها عذاباً عظيماً
 ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي: مرجعاً له ومآلاً.
 وهذا الوعيد المرتب^(١) على الشقاق، ومخالفة المؤمنين،
 مراتب لا يحصيها إلا الله، بحسب حالة الذنب صغراً وكبراً.
 فمنه ما يخلد في النار، ويوجب جميع الخذلان، ومنه ما هو
 دون ذلك، فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق.
 وهو: أن الشرك لا يغفره الله تعالى، لتضمنه القدر في رب
 العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك
 لنفسه ضرراً ولا نفعاً، بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من
 نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق
 من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبار.
 فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال، عدم إخلاص العبادة
 لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق، الذي
 ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى
 شيء، بل ليس له إلا العدم، عدم الوجود، وعدم الكمال،
 وعدم الغنى، والفقر من جميع الوجوه.
 وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي، فهو تحت
 المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب
 عليه، وعاقب بعذله وحكمته، وقد استدل بهذه الآية الكريمة،
 على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ.
 ووجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين
 بالخذلان والنار، و«سبيل المؤمنين» مفرد مضاف، يشمل
 سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال.
 فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، أو تحريمه،
 أو كراهته، أو إباحته - فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء
 من ذلك، بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم،
 ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ
 تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.
 ووجه الدلالة منها: أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه
 الأمة لا يأمرؤن إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء،
 أو استحبابه، فهو مما أمرؤا به، فيتعين بنص الآية أن يكون
 معروفاً، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا
 اتفقوا على النهي عن شيء فهو مما نهؤا عنه، فلا يكون إلا
 منكراً.

﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
 أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ
 ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١١٤) وَمَنْ
 يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ عَيْرَ
 سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
 مَصِيرًا (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ لِمَنْ يَشْرِكْ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
 ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا
 (١١٦) إِنْ يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا لِنَشَأٍ وَإِنْ يَدْعُونَكَ
 إِلَّا لِأَسْطِنَا مَرِيدًا (١١٧) لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَكَ لِأَسْطِنَا مَرِيدًا
 مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا (١١٨) وَلَا أَضَلُّهُمْ وَلَا مُتَّبِعُهُمْ
 وَلَا مَرْتَبُهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ أَذَاتُ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَبُهُمْ
 فَلْيُغَيِّرَتْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩)
 يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)
 أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ لَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)

شَهَادَةً عَلَى النَّاسِ﴾ فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطاً
 أي: عدلاً خياراً؛ ليكونوا شهداء على الناس، أي: في كل
 شيء، فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به، أو نهى عنه، أو
 أباحه، فإن شهادتهم معصومة؛ لكونهم عالمين بما شهدوا به
 عادلين في شهادتهم، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا
 عادلين في شهادتهم، ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ رُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ
 وَالرَّسُولِ﴾ يفهم منها أن ما لم يتنازعو فيه، بل اتفقوا عليه،
 أنهم غير مأمرين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا
 موافقاً للكتاب والسنة، فلا يكون مخالفاً.

فهذه الأدلة ونحوها تغيب القطع، أن إجماع هذه الأمة حجة
 قاطعة، ولهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله:

(١١٧-١٢١) ﴿إِنْ يَدْعُونَكَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا لِنَشَأٍ وَإِنْ
 يَدْعُونَكَ إِلَّا لِأَسْطِنَا مَرِيدًا ○ لَعْنَةُ اللَّهِ وَقَالَكَ لِأَسْطِنَا مَرِيدًا
 مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ○ وَلَا أَضَلُّهُمْ وَلَا مُتَّبِعُهُمْ وَلَا مَرْتَبُهُمْ فَلْيَبْتَئِكُنَّ
 أَذَاتُ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرْتَبُهُمْ فَلْيُغَيِّرَتْ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا
 مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا (١١٩) يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (١٢٠)
 أُولَئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ لَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا (١٢١)﴾

(١) في ب: المترتب.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا

عن الصراط المستقيم، ضلالاً في العلم، وضلالاً في العمل.

﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ﴾ أي: مع الإضلال، لأمنيتهم أن ينالوا ما ناله المهتدون، وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال، وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجبة للعقوبة، وحسبوا أنها موجبة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم كما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾، وكذلك زين لكل أُمَّةَ عَمَلَهُمْ، ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ الآية.

وقال تعالى عن المنافقين: إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ فَتِنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَضَّيْتُمْ وَأَبَيْتُمْ وَعَزَّيْتُمْ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّيْتُم بِاللَّهِ الْقُرْآنُ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ فَلْيَبْئُتْكُمْ أَذَاتُ الْأَنْفَالِ﴾ أي: بتقطع أذانها، وذلك كالبحيرة، والسائبة والوصيلة، والحام، فبعض ذلك على جميعه، وهذا نوع من الإضلال، يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة، ما هو من أكبر الضلال.

﴿وَلَا تُؤْمِنُ بِهِمْ فَلْيَبْئُتْكُمْ أَذَاتُ اللَّهِ﴾ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر، والنمص، والتفليج للحسن، ونحو ذلك، مما اغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

وذلك يتضمن التسخط من خلقته، والقدرح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدييره. ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة، فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء مفلطين على قبول الحق وإيثاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك، والكفر والفسوق والعصيان.

فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد؛ من توحيد، وحبه ومعرفته، فافتروا الشياطين في هذا الموضوع افتراس السبع والذئب للغنم المفردة.

لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين، لجرى عليهم ما جرى على هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم من

ءَاذَاتِ الْأَنْفَالِ وَالْأَمْمَاتِ فَلْيَبْئُتْكُمْ أَذَاتُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا ۝ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا ۝ أُولَٰئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَخْرُجُونَ عَنْهَا حَتَّىٰ يَمُوتُوا ۝

أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إناثاً، أي: أوثاناً وأصناماً، مسميات بأسماء الإناث، كـ «العزى» و «مناة» ونحوهما، ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى، فإذا كانت أسماؤها مؤنثة ناقصة، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقدتها لصفات الكمال، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه أنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدفع عن عابديها، بل ولا عن نفسها نفعاً ولا ضرراً، ولا تنصر أنفسها ممن يريد بها بسوء، وليس لها أسمع ولا أبصار ولا أفتدة، فكيف يُعبد من هذا وصفه، ويُترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنی، والصفات العليا والحمد والكمال، والمجد، والجلال، والعز، والجمال، والرحمة، والبر، والإحسان، والافتراء بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؟!!

هل هذا إلا من أقيح القبيح، الدال على نقص صاحبه، وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف؟! ومع ذلك^(١) فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة.

وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان، الذي هو عدوهم، الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنه الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته، يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسماً: ﴿لَا تَجِدَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا﴾ أي: مقدراً.

علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على من تولاها، وأثر طاعته على طاعة مولاه.

وأقسم في موضع آخر ليغيوهم ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ فهذا الذي ظنه الخبيث وجزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ لَيْلِسُ ظَنُّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وهذا النصيب المفروض الذي أقسم الله أنه يتخذهم^(٢)، ذكر ما يريد بهم، وما يقصده لهم بقوله: ﴿وَلَا ضَلَّيْتُمْ﴾ أي:

(١) في ب: ومع هذا. (٢) في النسختين: إنهم يتخذهم.

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سَنَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من أنواع المآكل والمشارب اللذيذة، والمناظر العجيبة، والأزواج الحسنة، والقصور، والغرف المزخرفة، والأشجار المتدلية، والفواكه المستغربة، والأصوات الشجية، والنعم السابعة، وتزاور الإخوان، وتذكرهم ما كان منهم في رياض الجنان. وأعلى من ذلك كله وأجل رضوان الله عليهم، وتمتع الأرواح بقربه، والعيون برويته، والأسماع بخطابه، الذي يسبيهم كل نعيم وسرور، ولولا الثبات من الله لهم لطاروا وماتوا من الفرح والحبور، فله ما أحلى ذلك النعيم، وما أعلى ما أنالهم الرب الكريم، وماذا حصل لهم من كل خير وبهجة لا يصفه الواصفون.

وتمام ذلك وكماله الخلود الدائم في تلك المنازل العاليات، ولهذا قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ فصدق الله العظيم الذي بلغ قوله وحديثه في الصدق أعلى ما يكون، ولهذا لما كان كلامه صدقًا، وخبره حقًا كان ما يدل عليه مطابقة، وتضمنًا، وملازمة، كل ذلك مراد من كلامه، وكذلك كلام رسوله ﷺ، لكونه لا يخبر إلا بأمره ولا ينطق إلا عن وحيه.

(١٢٣، ١٢٤) ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَمَلَّ سَوْءًا يُجْزَى بِهِ، وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ وَمَنْ يَمَلَّ مِنَ الْفُضْلِ مِمَّا بَدَّلْنَا بَدَلًا لَاحِقًا فَإِن كَانَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلَا يَبْطَلُونَ بِهَا نَفْسًا﴾ أي: ﴿لَيْسَ﴾ الأمر والنجاة والتزكية ﴿بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ والأمامي: أحاديث النفس المجردة عن العمل، المقترن بها دعوى مجردة، لو عورضت بمثلا لكانت من جنسها، وهذا عام في كل أمر، فكيف بأمر الإيمان والسعادة الأبدية؟! فإني أمانى أهل الكتاب قد أخبر الله بها، أنهم قالوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وغيرهم ممن ليس ينتسب لكتاب ولا رسول من باب أولى وأحرى.

وكذلك أدخل الله في ذلك مَنْ ينتسب إلى الإسلام، لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أي دين كان، لا يفيد شيئًا، إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه، فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ

وكذلك أدخل الله في ذلك مَنْ ينتسب إلى الإسلام، لكمال العدل والإنصاف، فإن مجرد الانتساب إلى أي دين كان، لا يفيد شيئًا، إن لم يأت الإنسان ببرهان على صحة دعواه، فالأعمال تصدق الدعوى أو تكذبها، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ

توليه من ربهم وفاطرمهم^(١)، وتوليهم لعدوهم المرید لهم الشر من كل وجه، فخرسوا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِمَّن دُونِ اللَّهِ فَكَدَّ حَسْرًا خُسْرًا مُبِينًا﴾ وأي خسار أبين وأعظم، ممن خسر دينه ودنياه، وأوقته معاصيه وخطاياها؟! فحصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدى.

كما أن مَنْ تولى مولاه، وأثر رضاه، ربح كل الريح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قير العين، فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت.

ثم قال: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُؤْتِيهِمْ﴾ أي: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم، والوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ فإنه يعدهم إذا أنفقوا في سبيل الله افترقوا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ الآية، ويخوفهم عند إيثار مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن، مما يدخله في عقولهم، حتى يكسلوا عن فعل الخير، وكذلك يمينهم الأمامي الباطلة؛ التي هي - عند التحقيق - كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۝ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مَنْ انقاد للشيطان، وأعرض عن ربه، وصار من أتباع إبليس وحزبه، مستقرهم النار، ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: مخلصًا ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الأباد.

(١٢٢) ولما بين مال الأشقياء أولياء الشيطان، ذكر مال السعداء أوليائه فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾^(٢) أي: ﴿آمَنُوا﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، على الوجه الذي أمروا به، علمًا وتصديقًا وإقرارًا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الناشئة عن الإيمان.

وهذا يشمل سائر المأمورات، من واجب ومستحب، الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح، كل له من الثواب المرتب على ذلك، بحسب حاله ومقامه، وتكميله للإيمان والعمل الصالح.

وفوته ما رتب على ذلك بحسب ما أخل به من الإيمان والعمل، وذلك بحسب ما علم من حكمة الله ورحمته، وكذلك وعده الصادق الذي يعرف من تتبع كتاب الله وشئته رسوله.

(١) كذا في ب، وفي أ: وفاطرمهم. (٢) في ب أورد الآية كاملة، بينما في أ، اقتصر على أولها.

سُورَةُ النِّسَاءِ

٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ
 جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ
 اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٥﴾ لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ
 وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ
 وَلَا يَحْدِلْهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٦﴾ وَمَنْ
 يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
 فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٧﴾ وَمَنْ
 أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ
 مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٨﴾ وَاللَّهُ مَا
 فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ
 مُخْبِرًا ﴿١٢٩﴾ وَاسْتَفْتَوْنَاكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ
 فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَّى النِّسَاءِ
 الَّتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
 وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ
 بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٣٠﴾

الوجه لله، الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله.

﴿وَهُوَ﴾ مع هذا الإخلاص والاستسلام ﴿مُحْسِنٌ﴾ أي: متبع لشريعة الله، التي أرسل الله بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقاً لخواص خلقه وأتباعهم.

﴿وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: دينه وشرعه ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ والخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين: محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، لأنه وفى بما أمر به، وقام بما ابتلي به، فجعله الله إماماً للناس، واتخذته خليلاً، ونوه بذكره في العالمين.

(١٢٦) ﴿وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخْبِرًا﴾ وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى

يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ وهذا شامل لجميع العاملين؛ لأن السوء شامل لأي ذنب كان^(١)، من صفات الذنوب وكبائرها، وشامل أيضاً لكل جزء، قليل أو كثير، ذنوبي أو أخروي.

والناس في هذا المقام درجات، لا يعلمها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فمن كان عمله كله سوءاً، وذلك لا يكون إلا كافراً، فإذا مات من دون توبة، جوزي بالخلود في العذاب الأليم، ومن كان عمله صالحاً، وهو مستقيم في غالب أحواله، وإنما يصدر منه بعض الأحيان بعض الذنوب الصغار، فما يصيبه من الهم والغم، والأذى، [وبعض]^(٢) الآلام، في بدنه، أو قلبه، أو حبيبه، أو ماله، ونحو ذلك - فإنها مكفرات للذنوب، وهي مما يجزى به على عمله، قيضها الله لطفاً بعباده، وبين هذين الحالين مراتب كثيرة.

وهذا الجزاء على عمل السوء العام مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، كما دلت على ذلك النصوص.

وقوله: ﴿وَلَا يَحْدِلْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن من استحق المجازاة على عمله، قد يكون له ولي، أو ناصر، أو شافع، يدفع عنه ما استحقه، فأخبر تعالى بانتفاء ذلك، فليس له ولي يحصل له المطلوب، ولا نصير يدفع عنه المرهوب، إلا ربه ومليكه.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ دخل في ذلك سائر الأعمال القلبية والبدنية، ودخل أيضاً كل عامل من إنس أو جن، صغير أو كبير، ذكر أو أنثى، ولهذا قال: ﴿مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وهذا شرط لجميع الأعمال لا تكون صالحة، ولا تقبل، ولا يترتب عليها الثواب، ولا يندفع بها العقاب، إلا بالإيمان.

فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها، وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس، والقاعدة التي يبني عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مقيد به.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ أي: الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ المشتملة على ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً مما عملوه من الخير، بل يجدونه كاملاً موفراً، مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

(١٢٥) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام

(١) كذا في ب، وفي أ: لأي سوء كان. (٢) زيادة من هامش ب.

فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجه الله . ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية بتنمية أموالهم، وطلب الأخط لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يحابون فيهم صديقاً ولا غيره، في تزوج وغيره، على وجه الهضم لحقوقهم، وهذا من رحمته تعالى بعباده، حيث حثَّ غاية الحث على القيام بمصالح مَنْ لا يقوم بمصلحة نفسه، لضعفه وفقد أبيه .

ثم حثَّ على الإحسان عموماً، فقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ الليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متعدياً أو لازماً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ أي: قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسناً وضده، فيجازي كلًّا بحسب عمله .

(١٢٨) ﴿وَإِنْ أَمْرًا حَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا وَاعْرَاصًا فَلَإِنَّ جُنَاحَ عَلَيْهَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: إذا خافت المرأة نشوز زوجها، أي ترفعه عنها، وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحاً، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها، على وجه تبقى مع زوجها، إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة، أو الكسوة، أو المسكن، أو القسم، بأن تسقط حقها منه، أو تهب يومها وليلتها لزوجها، أو لضررتها .

فإذا اتفقا على هذه الحالة، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى، أن الصلح بين مَنْ بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيه من الإصلاح، وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح .

وهو جائز في جميع الأشياء إلا إذا أحل حراماً، أو حرم حلالاً، فإنه لا يكون صلحاً، وإنما يكون جوراً .

واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل، إلا بوجود مقتضيه، وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك، ونبه على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه، ويرغب فيه، فإن كان - مع ذلك - قد أمر الله به، وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له، ورغبة فيه .

وذكر المانع بقوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾ أي: جبلت

بجميع الأشياء، فأخبر أن له ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعته بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسموات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء .

(١٢٧) ﴿وَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ الَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَرَغِبْنَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالسُّنْمَعِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسؤول عنه، فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ في حكم النساء المتعلق بهم، فتولى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء، من القيام بحقوقهن، وترك ظلمهن عموماً وخصوصاً .

وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهياً، في حق النساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار .

ثم خص - بعد التعميم - الوصية بالضعاف من اليتامى والوالدان، اهتماماً بهم، وزجرًا عن التفريط في حقوقهم، فقال: ﴿وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتِمَى النِّسَاءِ﴾ أي: ويفتيكم أيضاً بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن اليتامى من النساء ﴿الَّتِي لَا تُوْتُوهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل، بخسها حقها وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها أو بعضه، أو منعها من التزوج ليتنفع بمالها، خوفاً من استخراجها من يده إن زوجها، أو يأخذ من مهرها الذي تزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغباً عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال، ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: ﴿وَرَغِبْنَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ أي: ترغبن عن نكاحهن، أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيلاً .

﴿وَالسُّنْمَعِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ﴾ أي: ويفتيكم في المستضعفين من الوالدان الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث وغيره، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد .

﴿وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بالزامهم أمر الله، وما أوجهه على عباده،

الناس فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم.

﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحذور، والصبر على المقدور، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب، والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتهم.

(١٣٠) ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا يُمْنِ اللَّهُ كِلَا مِنْ سَعْيِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا تعذر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وَإِنْ يَفْرَقَا﴾ أي: بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك ﴿يُمْنِ اللَّهُ كِلَا﴾ من الزوجين ﴿مِنْ سَعْيِهِ﴾ أي: من فضله، وإحسانه الواسع الشامل، فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله، وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها على المتكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً منه.

﴿وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا﴾ أي: كثير الفضل، واسع الرحمة. وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه.

ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيمًا﴾ أي: يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة. فإذا اقتضت حكمته منع بعض عبادته من إحسانه، بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان، حرمة عدلاً وحكمة.

(١٣١، ١٣٢) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدييره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدرًا وشرعًا.

فصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين، أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالشواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها باليأس العذاب، ولهذا قال:

﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا﴾ بأن تركوا تقوى الله، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئاً، ولا تقتصون ملكه، وله عبيد خير منكم، وأعظم وأكثر، مطيعون له، خاضعون لأمره، ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ له الجود الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته، التي لا ينقصها الإنفاق، ولا

النفوس على الشح، وهو عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له. فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليك، والاتقناع ببعض الحق الذي لك.

فمتى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل - حيثئذ - عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب، بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا أَنَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: تحسبوا في عبادة الخالق، بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسبوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال، أو علم، أو جاه، أو غير ذلك ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظورات أو تحسبوا بفعل المأمور، وتقوا بترك المحذور ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ قد أحاط به علماً وخبراً، بظاهره وباطنه، فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

(١٢٩) ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ يخبر تعالى أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قدرهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك، وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطاع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً، بحيث لا تؤدودن حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.

فالنفقة والكسوة، والقسم ونحوها، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب، والوطف ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فستريح وتستعد للزوج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها.

﴿وَإِنْ تُصْلِحُوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تهواه النفس، احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين

يغنيها نفقة، سحاء الليل والنهار، لو اجتمع أهل السماوات، وأهل الأرض، أولهم وآخرهم، فسأل كل [واحد] منهم ما بلغت أمانيه، ما نقص من ملكه شيئاً؛ ذلك بأنه جواد واجد ماجد، عطاؤه كلام، وعذابه كلام، إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون.

ومن تمام غناه أنه كامل الأوصاف، إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له كل صفة كمال، ومن تلك الصفة كمالها، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولا شريكاً في ملكه، ولا ظهيراً، ولا معاوناً له على شيء من تدابير ملكه، ومن كمال غناه افتقار العالم العلوي والسفلي، في جميع أحوالهم وشؤونهم إليه، وسؤالهم إياه جميع حوائجهم الدقيقة والجليلة، فقام تعالى بتلك المطالب والأسئلة، وأغناهم وأقناهم، ومن عليهم بلطفه، وهداهم.

وأما الحميد فهو من أسماء الله تعالى الجليلة، الدال على أنه [هو] المستحق لكل حمد، ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النعم الجزال، فهو المحمود على كل حال.

وما أحسن اقتران هذين الاسمين الكريمين ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فإنه غني محمود، فله كمال من غناه، وكمال من حمده، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر.

ثم كرر إحاطة ملكه لما في السماوات وما في الأرض، وأنه على كل شيء وكيل، أي: عالم قائم بتدبير الأشياء على وجه الحكمة، فإن ذلك من تمام الوكالة، فإن الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، والقوة والقدرة على تنفيذه وتدبيره، وكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة، فما نقص من ذلك فهو لنقص بالوكيل، والله تعالى منزه عن كل نقص.

(١٣٣، ١٣٤) ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ أي: هو الغني الحميد الذي له القدرة الكاملة والمشئبة النافذة فيكم ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ غيركم، هم أطوع لله منكم وخير منكم، وفي هذا تهديد للناس على إقامتهم على كفرهم، وإعراضهم عن ربهم، فإن الله لا يعاب بهم شيئاً إن لم يطيعوه، ولكنه يمهمل ويملي، ولا يهمل.

ثم أخبر أن مَنْ كانت همته وإرادته دنية، غير متجاوزة ثواب الدنيا، وليس له إرادة في الآخرة، فإنه قد قصر سعيه

وَأِنْ أَمْرًا خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا ۖ أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۖ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ۗ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٣﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُوا هَآ كَالْمُعَلَّقَةِ ۗ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٣٤﴾ وَإِنْ يَنْفَرَا فَيُعِنَ اللَّهُ كَلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ وَسَّعًا حَكِيمًا ﴿١٣٥﴾ وَاللَّهُ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ ۗ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣٦﴾ وَاللَّهُ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ ۗ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٧﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٨﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿١٣٩﴾

ونظره، ومع ذلك فلا يحصل له من ثواب الدنيا، سوى ما كتب الله له منها، فإنه تعالى هو المالك لكل شيء، الذي عنده ثواب الدنيا والآخرة، فليطلبها منه، ويستعان به عليهما، فإنه لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا تترك الأمور الدينية والدنيوية إلا بالاستعانة به، والافتقار إليه على الدوام.

وله الحكمة تعالى في توفيق مَنْ يوفقه، وخذلان مَنْ يخذله، وفي عطائه ومنعه، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾.

(١٣٥) ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُوفًا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىَٰ أَنْ تَعْدِلُوا ۗ وَإِنْ تَلَوُّهُ أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا ﴿قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ والقوام صيغة مبالغة، أي: كونوا في كل أحوالكم قائمين بالقسط، الذي هو العدل في حقوق الله، وحقوق عباده، فالقسط في حقوق الله أن لا يستعان بنعمه على معصيته، بل تصرف في طاعته.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ
 وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا
 أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا وَإِنْ
 تَلَّوْهُ أَوْ نَعَرَ ضَوْا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٦﴾ يَأْتِيهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ
 عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ
 بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
 ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٧﴾ إِنْ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا
 ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
 سَبِيلًا ﴿١٣٨﴾ بَشَرًا مُنْتَفِقِينَ بِأَنْ لَهُمْ عَدَا بَابُ الْإِيمَانِ ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ
 يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنَعُوتَ
 عِنْدَهُمُ الْعُرَّةُ فَإِنَّ الْعُرَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي
 الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
 تَفْعَدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ءَأَنْتُمْ إِذَا مَاتَ مِنْكُمْ
 إِنْ اللَّهُ جَامِعُ الْمُنتَفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

(١٣٦) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي
 نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ
 وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾
 اعلم أن الأمر إما أن يوجه إلى مَنْ لم يدخل في الشيء ولم
 يتصف بشيء منه، فهذا يكون أمرًا له بالدخول فيه، وذلك
 كأمر مَنْ ليس بمؤمن بالإيمان، كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ
 ءَامِنُوا﴾ ءَامِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ ﴿الآية﴾.

وإما أن يوجه إلى مَنْ دخل في الشيء، فهذا يكون أمره
 ليصحح ما وجد منه ويحصل ما لم يوجد، ومنه ما ذكره الله في
 هذه الآية من أمر المؤمنين بالإيمان، فإن ذلك يقتضي أمرهم
 بما يصحح إيمانهم، من الإخلاص والصدق، وتجنب
 المفسدات والتوبة من جميع المنقصات.

ويقتضي أيضًا الأمر بما لم يوجد من المؤمن، من علوم
 الإيمان وأعماله، فإنه كلما وصل إليه نص، وفهم معناه
 واعتقده، فإن ذلك من الإيمان المأمور به. وكذلك سائر

(١) في النسختين: الذي عليك.

والقسط في حقوق آدميين أن تؤدي جميع الحقوق التي
 عليك^(١)، كما تطلب حقوقك، فتؤدي النفقات الواجبة،
 والديون، وتعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، من
 الأخلاق والمكافأة، وغير ذلك.

ومن أعظم أنواع القسط، القسط في المقالات والقائلين،
 فلا يحكم لأحد القولين، أو أحد المتنازعين، لانتسابه أو
 ميله لأحدهما، بل يجعل وجهه العدل بينهما، ومن القسط
 أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان، حتى على
 الأحياب، بل على النفس، ولهذا قال: ﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ
 أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ
 بِهِمَا﴾ أي: فلا تراعوا الغني لغناه، ولا الفقير - بزعمكم -
 رحمة له، بل اشهدوا بالحق على مَنْ كان.

والقيام بالقسط من أعظم الأمور، وأدل على دين القائم
 به، وورعه ومقامه في الإسلام، فيتعين على مَنْ نصح نفسه،
 وأراد نجاتها أن يهتم له غاية الاهتمام، وأن يجعله نصب
 عينيه، ومحل إرادته، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه
 عن إرادته القسط أو العمل به.

وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى، ولهذا نبه تعالى على إزالة
 هذا المانع بقوله: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدُوا﴾ أي: فلا تتبعوا
 شهوات أنفسكم المعارضة للحق، فإنكم - إن اتبعتموها -
 عدلتم عن الصواب، ولم توفقوا للعدل، فإن الهوى إما أن
 يعمي بصيرة صاحبه، حتى يرى الحق باطلاً، والباطل حقاً،
 وإما أن يعرف الحق ويتركه لأجل هواه، فمَنْ سلم من هوى
 نفسه، ووقَّ للحق، وهدى إلى الصراط المستقيم.

ولما بين أن الواجب القيام بالقسط، نهى عن ما يضاد
 ذلك، وهو لئى اللسان عن الحق في الشهادات وغيرها،
 وتحريف النطق عن الصواب المقصود من كل وجه، أو من
 بعض الوجوه، ويدخل في ذلك تحريف الشهادة وعدم
 تكميلها، أو تأويل الشاهد على أمر آخر، فإن هذا من اللئى؛
 لأنه الانحراف عن الحق.

﴿أَزَّ نَعْرُضُوا﴾ أي: تركوا القسط المنوط بكم، كترك
 الشاهد لشهادته وترك الحاكم حكمه، الذي يجب عليه القيام
 به.

﴿فَأَنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ أي: محيط بما
 فعلتم، يعلم أعمالكم، خفيها وجليها، وفي هذا تهديد شديد
 للذي يلوي أو يعرض، ومن باب أولى وأحرى الذي يحكم
 بالباطل، أو يشهد بالزور، لأنه أعظم جرماً، لأن الأولين
 تركا الحق، وهذا ترك الحق وقام بالباطل.

وهذا هو الواقع من أحوال المنافقين، ساء ظنهم بالله، وضعف يقينهم بنصر الله لعباده المؤمنين، ولحظوا بعض الأسباب التي عند الكافرين، وقصر نظرهم عما وراء ذلك، فاتخذوا الكافرين أولياء، يتعززون بهم ويستنصرون.

والحال أن العزة لله جميعاً، فإن نواصي العباد بيده، ومشيتته نافذة فيهم، وقد تكفل بنصر دينه وعباده المؤمنين، ولو تخلل ذلك بعض الامتحان لعباده المؤمنين، وإدالة العدو عليهم إدالة غير مستمرة، فإن العاقبة والاستقرار للمؤمنين، وفي هذه الآية الترهيب العظيم من موالاة الكافرين؛ وترك موالاة المؤمنين، وأن ذلك من صفات المنافقين، وأن الإيمان يقتضي محبة المؤمنين وموالاتهم، وبغض الكافرين وعداوتهم.

(١٤٠، ١٤١) ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مَنَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝ الَّذِينَ يَرِيضُونَ بِكُمْ فَيَنبَغِي أَنَّ اللَّهَ يَنْصَحُوا لَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْجُدْ لِعَبَادَتِكَ وَالنَّبِيِّينَ مِنَّا وَمَا نَكْفُرُ بِهِ لَكُم بِشَيْءٍ وَلَكِن نَرَاهُم فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا كَفَرُوا تَوَكَّلُوا بِالْغَيْبِ وَمَا هُم بِبَشِيرِينَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۚ﴾
 أنزل عليكم - حكمه الشرعي عند حضور مجالس الكفر والمعاصي ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾ أي: يستهان بها، وذلك أن الواجب على كل مكلف في آيات الله الإيمان بها، وتعظيمها وإجلالها وتفخيمها، وهذا هو المقصود بإنزالها، وهو الذي خلق الله الخلق لأجله، ففسد الإيمان الكفر بها، وضد تعظيمها الاستهزاء بها واحتقارها، ويدخل في ذلك مجادلة الكفار والمنافقين لإبطال آيات الله ونصر كفرهم.

وكذلك المبتدعون على اختلاف أنواعهم، فإن احتجاجهم على باطلهم يتضمن الاستهانة بآيات الله، لأنها لا تدل إلا على حق، ولا تستلزم إلا صدقاً، بل وكذلك يدخل فيه حضور مجالس المعاصي والفسوق، التي يستهان فيها بأوامر الله ونواهيها، وتقتحم حدوده التي حدها لعباده، ومنتهى هذا النهي عن القعود معهم ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ﴾ أي: غير الكفر بآيات الله والاستهزاء بها.

﴿إِنَّكُمْ إِذَا﴾ أي: إن قعدتم معهم في الحال المذكورة ﴿وَمَنَاهُمْ﴾ لأنكم رضيتم بكفرهم واستهزائهم، والراضي بالمعصية كالفاعل لها، والحاصل أن مَنْ حضر مجلساً يعصى الله به، فإنه يتعين عليه الإنكار عليهم، مع القدرة، أو القيام مع علمها.

الأعمال الظاهرة والباطنة، كلها من الإيمان، كما دلت على ذلك النصوص الكثيرة، وأجمع عليه سلف الأمة.

ثم الاستمرار على ذلك والثبات عليه إلى الممات، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُوا لِلْأَنْفُسِ الَّتِي كَفَرْتُمْ بِهَا وَاللَّذِينَ آمَنُوا أَهْلُ الْمَقَامَاتِ ۚ وَلَا تَتَّبِعُوا هَمَزَاتِهَا فَسَبَّ يَوْمَئِذٍ الْمَوْتَىٰ وَمَنْ سَبَّهَا فَسَبَّ اللَّهَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ مُّبِينٌ﴾ وأمر هنا بالإيمان به وبرسوله، وبالقرآن، وبالكتب المتقدمة، فهذا كله من الإيمان الواجب، الذي لا يكون العبد مؤمناً إلا به، إجمالاً فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلاً فيما علم من ذلك بالتفصيل، فمن آمن هذا الإيمان المأمور به، فقد اهتدى وأنجح.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وأي ضلال أبعد من ضلال مَنْ ترك طريق الهدى المستقيم، وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم!!؟

واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها، لتلازمها، وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض.

(١٣٧) ثم قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَرَادُوا كُفْرًا ثُمَّ يُكْفَى اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ أي: مَنْ تكرر منه الكفر بعد الإيمان، فاهتدى ثم ضل، وأبصر ثم عمي، وآمن ثم كفر واستمر على كفره، وازداد منه، فإنه بعيد من التوفيق والهداية لأقوم الطريق، وبعيد عن المغفرة؛ لكونه أتى بأعظم مانع يمنعه من حصولها، فإن كفره يكون عقوبة وطبعاً لا يزول، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿وَنَفَلْنَا لِعَدَّتِهِمْ وَأَبْصَرْتَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَىٰ مَرَّةً﴾.

ودلت الآية: أنهم إن لم يزدادوا كُفْرًا، بل رجعوا إلى الإيمان، وتركوا ما هم عليه من الكفران، فإن الله يغفر لهم، ولو تكررت منهم الردة، وإذا كان هذا الحكم في الكفر، فغيره - من المعاصي التي دونه - من باب أولى أن العبد لو تكررت منه، ثم عاد إلى التوبة، عاد الله له بالمغفرة.

(١٣٨، ١٣٩) ﴿بَشِيرِ الْمُتَّقِينَ ۚ إِنَّ مَن عَدَابَ أَلِيمًا ۝ الَّذِينَ يَجِدُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْنَعُوتُ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ البشارة تستعمل في الخير، وتستعمل في الشر بقيد، كما في هذه الآية، يقول تعالى: ﴿بَشِيرِ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر، بأفصح بشارة وأسوأها، وهو العذاب الأليم، وذلك بسبب محبتهم الكفار وموالاتهم ونصرتهم، وتركهم لموالاة المؤمنين، فأتي شيء حملهم على ذلك؟ أيتفون عندهم العزة؟

ظنوا أنه يروج على الله، ولا يعلمه، ولا يبيده لعباده، والحال أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم، ومشيهم عليها، خداع لأنفسهم، وأي خداع أعظم ممن يسعى سعياً يعود عليه بالهوان والذل والحرمان؟! وبدل بمجردة على نقص عقل صاحبه، حيث جمع بين المعصية، ورأها حسنة، وظنها من العقل والمكر، فله ما يصنع الجهل والخذلان بصاحبه!!

ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ تَوَكُّمٍ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَمْ يَأْتِ بَاطِنُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَهَرَ مِنْ فَتْكِهِ الْعَذَابُ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ إلى آخر الآيات.

ومن صفاتهم أنهم ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ - إن قاموا - التي هي أكبر الطاعات العملية ﴿قَامُوا كَسَالًا﴾ متناقلين لها، متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده، عادمة للإيمان، لم يصدر منهم الكسل.

﴿رِئَاءُونَ النَّاسِ﴾ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم، مراعاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم، ولا يخلصون لله، فلهذا ﴿لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لامتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته، لا يكون إلا من مؤمن ممتلىء قلبه بمحبة الله وعظمته.

﴿مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين، فلا من المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً، أعطوا باطنهم للكافرين، وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ مُضِلٌّ لَكُمْ سَيِّئًا﴾ أي: لن تجد طريقاً لهديته، ولا وسيلة لتترك غوايته، لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة.

فهذه الأوصاف المذمومة، تدل بتبنيها على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق، ظاهراً وباطناً والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم، وعباداتهم، وكثرة ذكرهم لله تعالى، وأنهم قد هداهم الله ووقفهم للضراط المستقيم، فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليختر أيهما أولى به، وبالله^(٤) المستعان.

(١) في ب: المنافقين. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في ب: فله.

(٤) في ب: والله.

﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ كما اجتمعوا على الكفر والموالات، ولا ينفع الكافرين^(١) مجرد كونهم - في الظاهر - مع المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسَبْ مِنْ تَوَكُّمٍ﴾ إلى آخر الآيات.

ثم ذكر تحقيق موالات المنافقين للكافرين، ومعاداتهم للمؤمنين فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَكُمْ﴾ أي: ينتظرون الحالة التي تصيرون عليها، وتنتهون إليها من خير أو شر، قد أعدوا لكل حالة جواباً بحسب نفاقهم.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ فَالْوَالُوا اللَّهَ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ فيظهرون أنهم مع المؤمنين ظاهراً وباطناً، ليسلوا من القدر والظعن عليهم، وليشركوهم في الغنيمة والفيء، ولينتصروا بهم.

﴿وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ﴾ ولم يقل: فتح، لأنه لا يحصل لهم فتح، يكون مبدأ لنصرتهم المستمرة، بل غاية ما يكون أن يكون لهم نصيب غير مستقر، حكمة من الله.

فإذا كان ذلك ﴿فَالْوَالُوا اللَّهَ نَسْتَحِذُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: نستولي عليكم ﴿وَتَمَنَعَكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يتصنعون عندهم بكف أيديهم عنهم مع القدرة، ومنعهم من المؤمنين، بجمع وجوه المنع من تفنيدهم، وتزهيدهم في القتال، ومظاهرة الأعداء عليهم، وغير ذلك مما هو معروف منهم.

﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيجازي المؤمنين ظاهراً وباطناً بالجنة، ويعذب المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات.

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ أي: تسلطاً واستيلاء عليهم، بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق منصوره، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم.

ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين، ودفع لتسلط الكافرين، ما هو مشهود بالعيان، حتى إن [بعض]^(٢) المسلمين الذين تحكمهم الطوائف الكافرة، قد بقوا محترمين لا يتعرضون لأديانهم، ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العز التام من الله، فله^(٣) الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

(١٤٢، ١٤٣) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِيعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَالًا يُرِئُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۚ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ مُضِلٌّ لَكُمْ سَيِّئًا﴾ يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى، أي: بما أظهروه من الإيمان، وأبطنوه من الكفران،

(١٤٤) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين، فإن ذلك موجب لأن ﴿تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي: حجة واضحة على عقوبتكم، فإنه قد أُنذرنا وحذرنا منها، وأخبرنا بما فيها من المفساد، فسلوكتها بعد هذا موجب للعقاب.

وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحدًا قبل قيام الحجة عليه، وفيها التحذير من المعاصي؛ فإن فعلها يجعل الله عليه سلطانًا مبينًا.

(١٤٥-١٤٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيرًا ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ يخبر تعالى عن مآل المنافقين، أنهم في أسفل الدرجات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب، فهم تحت سائر الكفار؛ لأنهم شاركوهم بالكفر بالله، ومعاودة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس، ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب.

وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق، إلا من من الله عليهم بالتوبة من السيئات ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ له الظواهر والبواطن ﴿وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ﴾ والتجأوا إليه، في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام، والإيمان والإحسان ﴿لِلَّهِ﴾.

فقصدوا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم كنهه إلا الله، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصًا في هذا المقام الحرج الذي تمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافيًا كل المنافاة للنفاق، فذكرهما

سُورَةُ النِّسَاءِ

١٠١

سُورَةُ النِّسَاءِ

الَّذِينَ يَرَبُّونَ عَلَيْكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ فَكُلُوا مِمَّا آتَاكُمْ مِنْهُمْ وَيَرْبُّونَ عَلَيْكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ فَأُولَٰئِكَ نَسْخَرُهُمْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤٦﴾

إِنَّ الْمُتَّقِينَ يُحَدِّثُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٧﴾ مُدْبِدِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلاَ يَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٥٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٥١﴾ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٥٢﴾

لفضلتهما، وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيتهم أجرًا عظيمًا، مع أن السياق فيهم، بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة - لم يزل الله يبدىء فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب^(١) عليه ثوابًا أو عقابًا وكان ذلك مشتركًا بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام، الذي تندرج تحته تلك القضية وغيرها، ولثلاثتهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين مع المؤمنين، وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه، ورحمته وإحسانه فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ والحال أن الله شاكر، عليم. يعطي المتحاملين

(١) في ب: يترتب.

سُورَةُ النِّسَاءِ

١٠٢

سُورَةُ النِّسَاءِ

﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ (١٤٨) **إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفَوُا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا** ﴿١٤٩﴾ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ مِنْ بَعْضٍ وَنَكْفُرُ مِنْ بَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا** ﴿١٥٠﴾ **أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا** ﴿١٥١﴾ **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴿١٥٢﴾ **يَسْتَأْذِنُ أَهْلَ الْكِنَابِ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرًا مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَعَاتَيْنَا مُوسَى سُلْطَانًا مُبِينًا** ﴿١٥٣﴾ **وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِهِمْ وَقَلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقَلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا** ﴿١٥٤﴾

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعلل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء، رتب على ذلك بأن أحوالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغنيها عن ذكر ثوابها الخاص:

(١٥٠-١٥٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ مِنْ بَعْضٍ وَنَكْفُرُ مِنْ بَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ○ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ○ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾.

هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله وبرسوله كلهم وكتبه، وكافر بذلك كله.

وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل

لأجله الأتقال، الدائنين في الأعمال جزيل الثواب وأوسع الإحسان، ومن ترك شيئاً لله أعطاه الله خيراً منه.

ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك، وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأبى شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا يتنفع بعقابكم. بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه. والشكر هو خضوع القلب، واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه.

(١٤٨، ١٤٩) ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ○ إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعْفَوُا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ يخبر تعالى أنه لا يحب الجهر بالسوء من القول، أي: ييغض ذلك ويمقتة ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم، والقذف، والسب ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي ييغضه الله.

ويدل مفهومها أنه يجب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه، ويتشكى^(١) منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك عفوه، وعدم مقابلته أولى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السيء، والحسن، والمباح، أخبر تعالى أنه سميع فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما ييغضب ربكم فيعاقبكم على ذلك.

وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم ومصدر أقوالكم.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ بُدُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ وهذا يشمل كل خير قولي وفعلي، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

﴿أَوْ تُعْفَوُا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: عمن أساءكم في أبدانكم، وأموالكم، وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزاء من جنس العمل، فمن عفا الله عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، فلهاذا قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوًا قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم سترة، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

(١) في ب: ويشتكى.

دون بعض، وأن هذا سبيل ينجيه من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أماني، فإن هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسله.

فإن من تولى الله حقيقة تولى جميع رسله؛ لأن ذلك من تمام تولىه، ومن عادى أحداً من رسله فقد عادى الله، وعادى جميع رسله، كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ الآيات.

وكذلك من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ وذلك لثلاث يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر.

ووجه كونهم كافرين - حتى بما زعموا الإيمان به - أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به، موجود هو أو مثله، أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به، موجود مثلها، أو أعظم منها، فيمن آمنوا به.

فلم يبق بعد ذلك إلا الشهي والهوى، ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها، ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقاً، ذكر عقاباً شاملاً لهم، ولكل كافر فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ كما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام. ﴿وَلَمْ يُفِرُّوْا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من رسله، بل آمنوا بهم كلهم، فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان.

﴿أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ﴾ أي: جزاء إيمانهم، وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كل على حسب حاله، ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يغفر السيئات ويتقبل الحسنات.

(١٥٣-١٦١) ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَرْزُقَهُمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنِ ذَلِكَ وَإِنَّا بِمُوسَىٰ سَاطِنًا فِيهِمْ﴾ ﴿وَرَفَعْنَا قُورَيْشَهُمُ الْأَطْوَرَ بِيَنبِئِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ يَثِمًا بَشِيفًا عَلِيًّا﴾ ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ بَيْعَتَهُمْ وَمَكُرْتُمْ عَلَيْهَا وَإِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ مَنَاجِيَ لعلَّكُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَلَوْنَ كَيْدَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ فَذَلَّلْنَاهُمْ وَمَا جَدُّوا عَلَيْهِمْ وَإِن جَاءَكَ مِنْهُمْ مَّغْرِبٌ فَلَا يَأْتِيكَ بِهِمْ نَبَأٌ مِّنْ دُونِ اللَّهِ يُبَشِّرُكَ بِهِمْ وَلَا تُغْنِيكَ عَنْهُمْ جُنْدُكَ وَمَا جَدُّكَ﴾ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ فَسَلَوْنَ كَيْدَهُمْ مِن دُونِ اللَّهِ فَذَلَّلْنَاهُمْ وَمَا جَدُّوا عَلَيْهِمْ وَإِن جَاءَكَ مِنْهُمْ مَّغْرِبٌ فَلَا يَأْتِيكَ بِهِمْ نَبَأٌ مِّنْ دُونِ اللَّهِ يُبَشِّرُكَ بِهِمْ وَلَا تُغْنِيكَ عَنْهُمْ جُنْدُكَ وَمَا جَدُّكَ﴾

لهم به من غير إلا اتباع الظن وما قلوه يقيناً ○ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ○ وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيمة يكون عليهم شهيداً ○ فيظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ويصدهم عن سبيل الله كثيراً ○ وأخذهم الزبواً وقد هبوا عنه وأكفهم أموال الناس بالباطل وأعدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً ○ هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والافتراء، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم، وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة، كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل، فإن الرسول بشر عبد مدبر، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد ﷺ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا نَشْرًا رَسُولًا﴾.

وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقاً، مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقاً فلا تؤمنوا به، ولا تصدقوه؟

بل نزول القرآن مفرقاً بحسب الأحوال مما يدل على عظمتها، واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ○ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْوِيماً﴾

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلكوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به، من سؤالهم له رؤية الله عياناً، واتخاذهم العجل إليها يعبدونه، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم.

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم، وهو التوراة، حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض، والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري.

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين، فخالفوا القول والفعل، ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة. وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم، فنبذوه وراء ظهورهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا رسله بغير حق، ومن قولهم: إنهم

﴿سُورَةُ النِّسَاءِ﴾ ١٠٣ ﴿الْبِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ﴾
 فَمَا نَقِضْهُمْ مِّثْقَهُمْ وَكَفِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللّٰهِ وَقُلْهِمُ الْاَنْبِيَاءَ
 بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّٰهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
 فَلَا يُؤْمِنُونَ اِلَّا قَلِيْلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ
 بِهَتْنًا عَظِيْمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ اِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيْحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ
 رَسُوْلَ اللّٰهِ وَمَا قَتَلُوْهُ وَمَا صَلَّوْهُ وَلٰكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَاِنَّ الَّذِيْنَ
 اَخْتَلَفُوْا فِيْهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ اِلَّا اَنْبَاعُ الظَّنِّ
 وَمَا قَتَلُوْهُ يَقِيْنًا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللّٰهُ اِلَيْهِ وَكَانَ اللّٰهُ عَزِيْزًا حَكِيْمًا
 ﴿١٥٨﴾ وَاِنْ مِنْ اَهْلِ الْكِتٰبِ اِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِ وَاِيَوْمَ
 الْقِيٰمَةِ يَكُوْنُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظَلَمِ مَنْ اَلَّذِيْنَ هَادُوا
 حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبٰتٍ اُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنِ سَبِيْلِ اللّٰهِ
 كَثِيْرًا ﴿١٦٠﴾ وَاَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هُمُوْا عٰتِهٖ وَاَكْتُمُوْا اَمْوَالَ النَّاسِ
 بِالْبٰطِلِ وَاَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِيْنَ مِنْهُمْ عَذٰبًا اَلِيْمًا ﴿١٦١﴾ لٰكِنِ
 الرَّاسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا اُنزِلَ اِلَيْكَ وَمَا
 اُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيْمِيْنَ الصَّلٰوةَ وَالْمُوْنُوْنَ الزَّكٰوةَ
 وَالْمُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ اُولٰٓئِكَ سَنُوْتِيْهِمْ اَجْرًا عَظِيْمًا ﴿١٦٢﴾

قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه، بل شبه لهم غيره، فقتلوا غيره وصلبوه. وادعائهم أن قلوبهم غلغ لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه، وبصدهم الناس عن سبيل الله، فصدوهم عن الحق، ودعوهم إلى ما هم عليه من الضلال والغي، وبأخذهم السحت والربا، مع نهي الله لهم عنه، والتشديد فيه.

فالذين فعلوا هذه الأفاعيل؛ لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحااجة الخصم المبطل.

وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل، ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق، أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة، ما هو من أقبح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل هذا معها.

وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ، يمكن أن يقابل بمثله، أو ما هو أقوى منه، في نبوة من يدعون إيمانهم به، ليكتفي بذلك شرهم، وينقمع باطلهم. وكل حجة سلكوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا به، فإنها ونظيرها وما هو أقوى منها، دالة ومقررة لنبوة محمد ﷺ.

ولما كان المراد من تعديد ما عدد الله من قبائحهم هذه المقابلة، لم يبسطها في هذا الموضوع، بل أشار إليها، وأحال على مواضعها، وقد بسطها في غير هذا الموضوع في المحل اللائق ببسطها.

وقوله: ﴿وَأِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾
 يحتمل أن الضمير هنا في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعود إلى أهل الكتاب. فيكون - على هذا - كل كتابي يحضره الموت، ويعاين الأمر حقيقة، فإنه يؤمن بعيسى عليه السلام، ولكنه إيمان لا ينفع لأنه إيمان اضطرار. فيكون مضمون هذا التهديد لهم والوعيد، وأن لا يستمروا على هذه الحال التي سيندمون عليها قبل مماتهم، فكيف يكون حالهم يوم حشرهم وقيامهم!!

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ راجع إلى عيسى عليه السلام، فيكون المعنى: وما من أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بالمسيح عليه السلام قبل موت المسيح، وذلك يكون عند اقتراب الساعة، وظهور علاماتها الكبار. فإنه تكاثرت الأحاديث الصحيحة في نزوله عليه السلام في آخر هذه الأمة. يقتل الدجال، ويضع الجزية، ويؤمن به أهل الكتاب مع المؤمنين. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً،

يشهد عليهم بأعمالهم، وهل هي موافقة لشرع الله أم لا؟
 وحيث لا يشهد إلا بطلان كل ما هم عليه، مما هو مخالف لشرعة القرآن ولما دعاهم إليه محمد ﷺ، علمنا بذلك، لعلمنا بكمال عدالة المسيح عليه السلام وصدقه، وأنه لا يشهد إلا بالحق، إلا أن ما جاء به محمد ﷺ، هو الحق، وما عداه فهو ضلال وباطل.

ثم أخبر تعالى أنه حرم على أهل الكتاب كثيراً من الطيبات التي كانت حلالاً عليهم، وهذا تحريم عقوبة، بسبب ظلمهم واعتدائهم، وصددهم الناس عن سبيل الله، ومنعهم إياهم من الهدى، وبأخذهم الربا وقد نهوا عنه. فمنعوا المحتاجين ممن يباعونه عن العدل، فعاقبهم الله من جنس فعلهم، فمنعهم من كثير من الطيبات التي كانوا بصددهم حلها، لكونها طيبة. وأما التحريم الذي على هذه الأمة، فإنه تحريم تنزيه لهم عن الخبائث التي تضرهم في دينهم ودنياهم.

(١٦٢) ﴿لٰكِنِ الرَّاسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا اُنزِلَ اِلَيْكَ وَمَا اُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيْمِيْنَ الصَّلٰوةَ وَالْمُوْنُوْنَ الزَّكٰوةَ وَالْمُؤْمِنُوْنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ اُولٰٓئِكَ سَنُوْتِيْهِمْ اَجْرًا عَظِيْمًا﴾ لما ذكر

ولما ذكر اشتراكهم بوحية، ذكر تخصيص بعضهم، فذكر أنه أتى داود الزبور، وهو الكتاب المعروف، الزبور الذي خص الله به داود عليه السلام، لفضله وشرفه. وأنه كلم موسى تكليماً، أي: مشافهة منه إليه، لا بواسطة، حتى اشتهر بهذا عند العالمين، فيقال: «موسى كلمه الرحمن».

وذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله، ومنهم من لم يقصه عليه، وهذا يدل على كثرتهم، وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم، بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصى الله وخالفهم بشقاوة الدارين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾.

فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل تترى، بينون لهم أمر دينهم، ومراضى ربهم ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار. فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضاً من فضله وإحسانه، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء، أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطراب، فله الحمد وله الشكر. ونسأله كما ابتدأ عليه نعمته بإرسالهم، أن ينمها بالتوفيق لسلوك طريقهم، إنه جواد كريم.

(١٦٦) ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ وَاللَّاتِيكَاتُ بِشُهُورٍ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ، كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين، أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ﴾. يحتمل أن يكون المراد، أنزله مشتملاً على علمه، أي: فيه من العلوم الإلهية، والأحكام الشرعية، والأخبار الغيبية، ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده.

ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادراً عن علمه، ويكون في ذلك إشارة وتنبية على وجه شهادته. وأن المعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك، ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدقه كان وليه، ومن كذبه وعاداه كان عدوه، واستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه، ويوالي نصره، ويجب دعواته، ويخذل أعداءه وينصر أوليائه.

فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟!!

ولا يمكن القدح في هذه الشهادة، إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته، وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله، لكمال إيمانهم، ولجلالة هذا المشهود عليه.

معايير أهل الكتاب، ذكر الممدوحين منهم، فقال: ﴿لَكِنَّ الرَّاْسِيْحُوْنَ فِي أَلْبَابِهِمْ﴾ أي: الذين ثبت العلم في قلوبهم، ورسخ الإيقان في أفئدتهم، فأثمر لهم الإيمان التام العام ﴿بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ وأثمر لهم الأعمال الصالحة من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، للذين هما أفضل الأعمال. وقد اشتملتا على الإخلاص للمعبود، والإحسان إلى العبيد. وآمنوا باليوم الآخر فخافوا الوعيد، ورجوا الوعد.

﴿أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأنهم جمعوا بين العلم، والإيمان، والعمل الصالح، والإيمان بالكتب، والرسل السابقة واللاحقة.

(١٦٣-١٦٥) ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَمَا أَنْزَلْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ۚ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ۝ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ يخبر تعالى أنه أوحى إلى عبده ورسوله: من الشرع العظيم، والأخبار الصادقة، ما أوحى إلى هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وفي هذا عدة فوائد:

منها: أن محمداً ﷺ، ليس ببدع من الرسل، بل أرسل الله قبله من المرسلين العدد الكثير والجسم الغفير، فاستغراب رسالته لا وجه له إلا الجهل أو العناد.

ومنها: أنه أوحى إليه كما أوحى إليهم من الأصول والعدل الذي اتفقوا عليه، وأن بعضهم يصدق بعضاً، ويوافق بعضهم بعضاً.

ومنها: أنه من جنس هؤلاء الرسل، فليعتبره المعترف بإخوانه المرسلين، فدعوته دعوتهم؛ وأخلاقهم متفقة؛ ومصدرهم واحد؛ وغايتهم واحدة. فلم يقرنه بالمجهولين؛ ولا بالكذابين، ولا بالملوك الظالمين.

ومنها: أن في ذكر هؤلاء الرسل وتعدادهم، من التنويه بهم، والثناء الصادق عليهم، وشرح أحوالهم، مما يزداد به المؤمن إيماناً بهم، ومحبة لهم، واقتداء بهديهم، واستئناً بستهم، ومعرفة بحقوقهم، ويكون ذلك مصداقاً لقوله: ﴿سَلِّمْ عَلَى نُوحٍ فِي الْآلَمِينَ﴾، ﴿سَلِّمْ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، ﴿سَلِّمْ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾، ﴿سَلِّمْ عَلَى إِيْيَسَى ۝ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾.

فكل محسن، له من الثناء الحسن بين الأنام بحسب إحسانه، والرسل - خصوصاً هؤلاء المسنون - في المرتبة العليا من الإحسان.

فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وكفى بالله شهيداً.

(١٦٧-١٦٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا ۝ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ لما أخبر عن رسالة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم، وأخبر برسالة خاتمهم محمد، وشهد بها، وشهدت ملائكته - لزم من ذلك ثبوت الأمر المقرر، والمشهود به، فوجب تصديقهم، والإيمان بهم واتباعهم.

ثم توعد من كفر بهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسهم، وصددهم الناس عن سبيل الله. وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من ضل بنفسه، وأضل غيره، فباء بالإنمين، ورجع بالخسارتين، وفاتته الهدياتان، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا﴾ وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا فالكفر - عند إطلاق الظلم - يدخل فيه.

والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه. فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصرط المستقيم. ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا ۝ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾.

وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية، لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم^(١)، فطبع على قلوبهم، وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: لا يبالي الله بهم ولا يعبأ، لأنهم لا يصلحون للخير، ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

(١٧٠) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرًا بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ حَكِيمًا﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ. وذكر السبب الموجب للإيمان به، والفائدة من الإيمان به، والمضرة من عدم الإيمان به. فالسبب الموجب هو إخباره بأنه جاءهم بالحق. أي فمجيئه نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق.

فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق - في جهلهم بعمهون،

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ إِنَّا أَنْزَلْنَا دَاوُدَ زُورًا﴾ ﴿١٦٦﴾ ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْوِيمًا﴾ ﴿١٦٧﴾ ﴿رُسُلًا مُبْتَلِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٦٨﴾ ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿١٦٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿١٧٠﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا﴾ ﴿١٧١﴾ ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ ﴿١٧٢﴾ ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَ كُفْرًا مِنَ الرَّسُولِ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمَنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿١٧٣﴾

وفي كفرهم يترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم - غير لائق بحكمة الله ورحمته. فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرفهم الهدى من الضلال، والغي من الرشد. فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته. وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم، والصرط المستقيم، فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يُعرف إلا بالوحي والرسالة. وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد، وعدل، وإحسان، وصدق، وبر، وصلة، وحسن خلق. ومن النهي عن الشر والفساد، والبغي والظلم، وسوء الخلق، والكذب، والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله، وكلما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه وبقائه، فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان، فأخبر أنه خير لكم والخير ضد الشر. فالإيمان خير للمؤمنين، في أبدانهم، وقلوبهم،

(١) في ب: كفرهم.

سُورَةُ النِّسَاءِ

١٠٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَّاهِلَ الْكَتَبَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ
وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ

وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ
الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ
إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

فِيؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ
اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَتَّيَّمُوا النَّاسَ
فَدَجَاءَكُمْ بِرَهْنٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ
فِي رَحْمَتِهِ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾

خلقها، وكملمها بالصفات الفاضلة، والأخلاق الكاملة.
أرسل الله روحه جبريل عليه السلام ففتح في فرج مريم عليها
السلام. فحملت بإذن الله، بعيسى عليه السلام.
فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب
بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة،
أحدهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى، فحبهم
الله.

فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي
يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه
نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي:
هو المنفرد بالالوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له.
﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي: تنزهه وتقدس ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ لأن
﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فالكل مملوكون له،
مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.
ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي، أخبر أنه
قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم
عليها تعالى.

وأرواحهم، ودنياهم، وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من
المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وأجل، فمن ثمرات
الإيمان، فالنصر، والهدى، والعلم، والعمل الصالح،
والسرور، والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه من النعيم،
كل ذلك مسبب عن الإيمان. كما أن الشفاء الدنيوي
والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه.

وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ، فيعرف بضد ما يترتب على
الإيمان به. وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه،
لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ﴾ أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه
﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمًا﴾ في خلقه وأمره. فهو
العليم بمن يستحق الهداية والغواية. الحكيم في وضع الهداية
والغواية موضعهما.

(١٧١) ﴿يَتَّاهِلَ الْكَتَبَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى
اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ
أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ
انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ
لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ ينهى تعالى
أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدر
المشروع، إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في
غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعهم عن مقام النبوة والرسالة
إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله.

فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك.
ولهذا قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهذا الكلام
يتضمن ثلاثة أشياء: أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب
على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله،
وشرعه، ورسله. والثالث: مأموره، وهو قول الحق في هذه
الأمر.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن
عيسى عليه السلام، نصّ على قول الحق فيه، المخالف
لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومنتهاى ما يصل
إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي
درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات، وأجل المثوبات.

﴿و﴾ أنه ﴿كَلِمَتُهُ﴾ التي ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي: كلمة
تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما
كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم.
وكذلك قوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: من الأرواح التي

الراحمين، وتركهم في عذابهم خالدين. وما حكم به تعالى فلا راد لحكمه، ولا مغير لقضائه.

(١٧٤، ١٧٥) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾
تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة، والأنوار الساطعة، وقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: حجج قاطعة على الحق، تبينه وتوضحه، وتبين ضده.

وهذا يشمل الأدلة العقلية والقلبية، والآيات الأفقية والنفسية ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُم أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

وفي قوله: ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم الذي رباكم التربية الدينية والدنيوية. فمن تربيته لكم التي يحمد عليها ويشكر، أن أوصل إليكم البيّنات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم.

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ وهو هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم، إن لم يقتبسوا من خيره.

ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن، والانتفاع به - قسمين:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: اعترفوا بوجوده، واتصافه بكل وصف كامل، وتزويجه من كل نقص وعيب.

﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: لجأوا إلى الله، واعتمدوا عليه، وتبرأوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم.

﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي: فستعدهم بالرحمة الخاصة، فيوفقهم للخيرات، ويجزل لهم المثوبات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا﴾ أي: يوفقهم للعلم والعمل، معرفة الحق والعمل به.

أي: ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به، ويتمسك بكتابه، منعمهم من رحمته، وحرهمهم من فضله، وخلق بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالاً مبيناً، عقوبة لهم على تركهم الإيمان، فحصلت لهم الخيبة والحرمان. نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة.

(١٧٢، ١٧٣) ﴿أَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَن عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾
تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها لا هو ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ فتزههم عن الاستنكاف، وتزويهم عن الاستكبار من باب أولى. ونفي الشيء فيه إثبات ضده. أي: يعيسى والملائكة المقربون، قد رغبوا في عبادة ربهم، وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم، والفوز العظيم، فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق، فوق مرتبته التي أنزله الله فيها، وترفعه عن العبادة كمالاً، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَن عِبَادَتِهِ وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ أي: فسيحشر الخلق كلهم إليه، المستنكفين والمستكبرين، وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل.

ثم فصل حكمه فيهم فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالمأمور به، وعمل الصالحات، من واجبات، ومستحبات، من حقوق الله وحقوق عباده.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ أي: الأجور التي رتبها على الأعمال، كل بحسب إيمانه وعمله.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يخطر على قلوبهم. ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المأكول والمشروب، والمناجح، والمناظر، والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن. بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي، رتب على الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عن عبادة الله تعالى ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ وهو سخط الله وغضبه، والنار الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: لا يجدون أحداً من الخلق يتولاهاهم، فحصل لهم المطلوب، ولا من ينصرهم، فيدفع عنهم المرهوب، بل قد تخلى عنهم أرحم

(١٧٦) ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أَمْرٌ هَاكَ لَيْسَ لَكُمْ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ إِنْ كَانَتْ أَنْثَىٰ فَلَهَا مِثْلُ مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَصَلُّوا وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله ﷺ أي: في الكلاله بدليل قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وهي الميت يموت، وليس له ولد صلب، ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد، ولهذا قال: ﴿إِنْ أَمْرٌ هَاكَ لَيْسَ لَكُمْ وَلَدٌ ذَاي: لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صلب، ولا ولد ابن.

وكذلك ليس له والد، بدليل أنه ورث فيه الإخوة، والإخوة بالإجماع لا يرثون مع الوالد. فإذا هلك وليس له ولد، ولا والد ﴿وَلَهُ أُخْتٌ﴾ أي: شقيقة، أو لأب، لا أم، فإنه قد تقدم حكمها.

﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾ أي: نصف متروكات أخيها، من نفود وعقار وأثاث، وغير ذلك، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدم.

﴿وَهُوَ﴾ أي: أخوها الشقيق، أو الذي للأب ﴿يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ﴾ ولم يقدر له إرثاً لأنه عاصب، فيأخذ مالها كله، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض.

﴿إِنْ كَانَتْ﴾ أي الأختان ﴿أَنْثَىٰ﴾ أي: فما فوق ﴿فَلَهَا مِثْلُ الْثُلَاثِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً﴾ أي: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث ﴿فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَىٰ﴾ فيسقط فرض الإناث، ويعصبن إخوتهن.

﴿بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَصَلُّوا﴾ أي: يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها، ويوضحها، ويشرحها لكم، فضلاً منه وإحساناً، لكي تهتدوا ببيانه، وتعملوا بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم، بسبب جهلكم وعدم علمكم.

﴿وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ أي: عالم بالغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبلية، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه، فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم على الدوام، في جميع الأزمنة والأمكنة.

آخر تفسير سورة النساء. فله الحمد والشكر.

تفسير سورة المائدة

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين، بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها.

وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول بطاعته واتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم. والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر، والبسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ بالتناصر على الحق، والتعاون عليه، والتألف بين المسلمين، وعدم التقاطع.

فهذا الأمر شامل لأصول الدين وفروعه، فكلها داخله في العقود التي أمر الله بالقيام بها^(١). ثم قال ممتناً على عباده ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ﴾ أي لأجلكم، رحمة بكم ﴿بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ﴾ من الإبل والبقر والغنم. بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها، والظباء، وحمر الوحش ونحوها من الصيد.

واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمه بعدما تذبح.

﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ تحريمه منها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلَيْبَتُهُ وَأَلْدُمُ وَحَلْمُ الْغَنَزِيرِ﴾ إلى آخر الآية. فإن هذه المذكورات، وإن كانت من بهيمة الأنعام، فإنها محرمة.

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال والأوقات، استثنى منها الصيد في حال الإحرام فقال: ﴿غَيْرَ مُحِلِّ الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال، إلا حيث كنتم متصفيين بأنكم غير محللي الصيد وأنتم

(١) في هامش ما نصه (ويستدل بهذه الآية أن الأصل في العقود والشروط الإباحة، وأنها تنعقد بما دل عليها من قول أو فعل لإباحتها) وليس هناك علامة تدل على موضع الزيادة. ويبدو أن موضعها هنا - والله أعلم -.

حرم، أي: متجرؤون على قتله في حال الإحرام، وفي الحرم فإن ذلك لا يحل لكم، إذا كان صيدًا، كالطباء ونحوه.

والصيد: هو الحيوان المأكول المتوحش.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ أي: فمهما أَرَادَهُ تَعَالَى حَكَمَ بِهِ حَكْمًا مُوَافِقًا لِحُكْمَتِهِ، كَمَا أَمَرَكُم بِالْوَفَاءِ بِالْعُقُودِ، لِحُصُولِ مَصَالِحِكُمْ وَدَفْعِ الْمَضَارِعِ عَنْكُمْ.

وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم، وحرم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض، من الميتة ونحوها، صوتًا لكم واحترامًا، ومن صيد الإحرام، احترامًا للإحرام وإعظامًا.

(٢) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُلْجَأُوا شَعْبِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْمَدَى وَلَا الْفَلَكَيْدَ وَلَا آيَاتِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَائِنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُلْجَأُوا شَعْبِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْمَدَى وَلَا الْفَلَكَيْدَ وَلَا آيَاتِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَائِنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: محرماته التي أمركم بتعظيمها وعدم فعلها. والنهي يشمل النهي عن فعلها، والنهي عن اعتقاد حلها؛ فهو يشمل النهي عن فعل القبيح، وعن اعتقاده.

ويدخل في ذلك النهي عن محرمات الإحرام، ومحرمات الحرم. ويدخل في ذلك ما نص عليه بقوله: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ أي: لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الَّذِينَ الْفَعِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾.

والجمهور من العلماء على أن القتال في الأشهر الحرم منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وغير ذلك من العمومات التي فيها الأمر بقتال الكفار مطلقًا، والوعيد في التخلف عن قتالهم مطلقًا. وبأن النبي ﷺ، قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحرم، غير منسوخ لهذه الآية وغيرها، مما فيه النهي عن ذلك بخصوصه. وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك، وقالوا: المطلق يحمل على المقيد.

وفصل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكميله، إذا كان أوله في غيرها، فإنه يجوز.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١٠٦

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلْبَةِ إِنَّ أَمْرًا لَهُمْ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ بِرِثَتِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا أُتْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَلَا نِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلَ حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ

يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرِ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُلْجَأُوا شَعْبِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْمَدَى وَلَا الْفَلَكَيْدَ وَلَا آيَاتِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمُكُمْ شَتَائِنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

وحملوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف على ذلك، لأن أول قتالهم في «حنين» في «شوال». وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع.

فأما قتال الدفع إذا ابتداء الكفار المسلمين بالقتال فإنه يجوز للمسلمين القتال، دفعًا عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره، بإجماع العلماء.

وقوله: ﴿وَلَا الْمَدَى وَلَا الْفَلَكَيْدَ﴾ أي: ولا تحلوا الهدى الذي يهدى إلى بيت الله في حج، أو عمرة، أو غيرهما، من نعم وغيرها، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها، ولا تقصروا به، أو تحملوه ما لا يطيق، خوفًا من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء به.

﴿وَلَا الْفَلَكَيْدَ﴾ هذا نوع خاص من أنواع الهدى، وهو الهدى الذي يقتل له فلان أو عرى، فيجعل في أعناقهم إظهارًا لشعائر الله، وحملًا للناس على الاقتداء، وتعليمًا لهم للسنة، ويعرف أنه هدى فيحترم، ولهذا كان تقليد الهدى من السنن والشعائر المسنونة.

يأثم صاحبها، ويحرج ﴿وَالْمُذْرَبِينَ﴾ وهو التعدي على الخلق في دمائهم وأموالهم وأعراضهم. فكل معصية وظلم يجب على العبد كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من عصاه، وتجرا على محارمه. فاحذروا المحارم، لئلا يحل بكم عقابه العاجل والأجل.

(٣) ﴿حَرَمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّيْتَهُ وَأَدَمُ وَلَمْ يَلْحِزْزِرِ وَمَا أَهْلَ لِعَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْحَنِقَةَ وَالْمَوْوَدَةَ وَالْمُرْدِيَةَ وَالنَّطِيعَةَ وَمَا أَكَلَ السَّبْعَ إِلَّا مَا ذَكَّبْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْقُطُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ مَنَاقِبُ﴾ هذا الذي حولنا الله عليه في قوله: ﴿إِلَّا مَا يَلِيَّ عَلَيْكُمْ﴾ واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يحرم ما يحرم، إلا صيانة لعباده، وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات، وقد بين للعباد ذلك، وقد لا بين.

فأخبر أنه حرم ﴿الْأَيْتَةَ﴾ والمراد بالميتة: ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية، فإنها تحرم لضرها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضر بآكلها. وكثيراً ما تموت بعلة تكون سبباً لهلاكها، فتضرب بالآكل. ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسملك فإنه حلال.

﴿وَالدَّمَ﴾ أي: المسفوح، كما قيد في الآية الأخرى. ﴿وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ﴾ وذلك شامل لجميع أجزائه. وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع، لأن طائفة من أهل الكتاب من النصارى، يزعمون أن الله أحله لهم. أي: فلا تغتروا بهم، بل هو محرم من جملة الخبائث. ﴿وَمَا أَهْلَ لِعَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ أي: ذكر عليه اسم غير الله، من الأصنام والأولياء والكواكب، وغير ذلك من المخلوقين. فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة، فذكر اسم غيره عليها، يفيد خبثاً معنوياً، لأنه شرك بالله تعالى ﴿وَالْمُنْحَنِقَةَ﴾ أي: الميتة بخنق، بيد، أو حبل، أو إدخالها رأسها بشيء ضيق، فتعجز عن إخراجها حتى تموت ﴿وَالْمَوْوَدَةَ﴾ أي: الميتة بسبب الضرب بعصاً، أو حصى، أو خشبة، أو هدم شيء عليها، بقصد أو بغير قصد ﴿وَالْمُرْدِيَةَ﴾ أي: الساقطة من علو، كجبل، أو جدار، أو سطح ونحوه، فموت بذلك ﴿وَالنَّطِيعَةَ﴾ وهي التي تنطحها غيرها فموت ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعَ﴾ من ذئب، أو أسد، أو نمر، أو من الطيور التي تفرس الصيد، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع، فإنها لا تحل. وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّبْتُمْ﴾ راجع لهذه المسائل، من منخقة، وموقودة، ومردية، ونطيحة، وأكلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها. ولهذا قال الفقهاء: «لو أبان السبع أو غيره حشوتها، أو قطع

﴿وَلَا ءَايِينَ أَلَيْتَ الْحَرَامِ﴾ أي: قاصدين له ﴿يَنْتَفُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أي: من قصد هذا البيت الحرام، وقصده فضل الله بالتجارة، والمكاسب المباحة، أو قصده رضوان الله بحجه وعمرته، والطواف به، والصلاة، وغيرها من أنواع العبادات، فلا تتعرضوا له بسوء، ولا تهينوه، بل أكرموه، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم.

ودخل في هذا الأمر، الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك.

وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿تَبَاتُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الشُّرُكُوتَ يَحْسُ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ فالمشرك لا يمكن من الدخول إلى الحرم.

والتخصيص في هذه الآية، بالنهي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه - يدل على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصي، فإن من تمام احترام الحرم صد من هذه حاله، عن الإفساد ببيت الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْكَافِرِ يَغْلِبْهُ تِغْلِبُهُ مِنْ عَذَابِ آلِهَةٍ﴾.

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام قال: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أي: إذا حللتم من الإحرام بالحج والعمرة، وخرجتم من الحرم حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم. والأمر بعد التحريم، يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم، واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن المسجد، على الاعتداء عليهم، طلباً للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جُنِّي عليه أو ظلم واعتدي عليه، فلا يحل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يخون من خانه.

﴿وَصَاوُوا عَلَى الْإِبْرَةِ وَالنَّقْوَى﴾ أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر. وهو اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿وَلَا تَمَآوُوا عَلَى الْإِثْمِ﴾ وهو التجرؤ على المعاصي التي

وإحكامهم، إلى علوم غير علم الكتاب والسنة: من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه. وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله.

﴿وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ الظاهرة والباطنة ﴿وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أي: اخترته واصطفيته لكم دينا، كما ارتضيتكم له. فقوموا به شكراً لربكم، واحمدوا الذي منَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها.

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾ أي: ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات السابقة، في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلَيْتُهُ﴾ (في مَحْصَصَةٍ) أي: مجاعة ﴿غَيْرِ مُتَجَانِفٍ﴾ أي: مائل ﴿لِإِثْمٍ﴾ بأن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَزُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث أباح له الأكل في هذه الحال. ورحمه بما يقبض به بينته، من غير نقص يلحقه في دينه.

(٤) ﴿سَتَلُونَا مَاذَا أَجَلُ لَهْمٍ قُلْ أَجَلُ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمُ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَقْنُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿سَتَلُونَا مَاذَا أَجَلُ لَهْمٍ﴾ من الأطعمة؟ ﴿قُلْ أَجَلُ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل. فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري. ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والخبثات منها.

ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبثات، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ﴾.

﴿وَمَا عَلَّمْتُمُ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ أي: أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية. دلت هذه الآية على أمور: أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكره مما صادته الجوارح. والمراد بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقر، ونحو ذلك، مما يصيد بناه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة، بما يعد في العرف تعليماً، بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم. وما أكل منه الجارح (١) كذا في ب، وفي أ: كدمه. (٢) كذا في السختين: ولعل الأقرب: فحرم.

حلقومها، كان وجود حياتها كعدمه، لعدم فائدة الذكاة فيها. [وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة، فإذا ذكأها وفيها حياة حلت، ولو كانت مبانة الحشوة، وهو ظاهر الآية الكريمة] (١). ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْآزَلِ﴾ أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. ومعنى الاستقسام: طلب ما يقسم لكم ويقدر بها. وهي قدام ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل» والثالث غفل لا كتابة فيه.

فإذا همَّ أحدهم بسفر أو عرس أو نحوهما، أجال تلك القدامح المتساوية في الجرم، ثم أخرج واحداً منها. فإن خرج المكتوب عليه «افعل» مضى في أمره. وإن ظهر المكتوب عليه «لا تفعل» لم يفعل ولم يمض في شأنه. وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القدحين فيعمل به. فحرمه (٢) الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه، وعرضهم عنه، بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم. ﴿ذَلِكُمْ فَسْقُ﴾ الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات، التي حرمها الله صيانة لعباده، وأنها ﴿فَسْقُ﴾ أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

ثم امتنَّ على عباده بقوله:

(٣) ﴿الْيَوْمَ نَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَحْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَزُورٌ رَحِيمٌ﴾

واليوم المشار إليه يوم عرفة؛ إذ أتم الله دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذالاً بليغاً، بعدما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك.

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره، يسوا كل اليأس من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون. ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي ﷺ - سنة عشر - حجة الوداع لم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

ولهذا قال: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ أي: فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع. ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه. فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم

فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: ﴿مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ مع ما تقدم من تحريم المنخفة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بثقله، لم يبيح. [هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنبياهها، أو مخالبيها. والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواكب أي: المحصلات للصيد، والمدركات لها^(١). فلا يكون فيها على هذا دلالة. والله أعلم^(٢)].

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه، جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد، لأن الله أباحه، ولم يذكر له غسلاً، فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم - بسبب العلم - يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذمومًا، وليس من العبث والباطل. بل هو أمر مقصود، لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمدًا، لم يبيح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا. وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة، فإنه لا يباح إلا بها.

ثم حث تعالى على تقواه، وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

(٥) ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيْبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلْلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾. كرر تعالى إحلل الطيبات لبيان الامتتان، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَكُمْ﴾ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم - يا معشر المسلمين - دون باقي

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١٠٧

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

حَرَمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَحَلَّمَ الْخَنزِيرَ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَةَ وَالْمَوْفُودَةَ وَالْمُرْدِيَةَ وَالطَّيْحَةَ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْكَرِ لَكُمْ فَسُقْ الْيَوْمَ بِبَيْسِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْسَبُوهُمْ وَآخِشُونَ الْيَوْمَ أَكَلْتُمْ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦﴾

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيْبُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٧﴾

الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيْبُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْلٌ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلْلٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٨﴾

الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين. وذلك لأن أهل الكتاب، ينتسبون إلى الأنبياء والكتب. وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك. فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم.

والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم، أن الطعام الذي ليس من الذبائح، كالحبوب والثمار، ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك، ولو كان من طعام غيرهم. وأيضًا فإنه أضاف الطعام إليهم. فدل ذلك على أنه كان طعامًا، بسبب ذبحهم. ولا يقال: إن ذلك للتملك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون. لأن هذا لا يباح على وجه الغضب، ولا من المسلمين.

﴿وَطَعَامُكُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿حَلْلٌ لَهُمْ﴾ أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه. ﴿و﴾ أحل لكم ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ أي: الحرائر العفيفات ﴿مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ والحرائر العفيفات ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا

(١) في ب: له. (٢) زيادة من هامش ب.

عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ بِكُمْ عَلَيْكُمْ لِمَلَكِكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ هذه آية عظيمة قد اشتملت على أحكام كثيرة، نذكر منها ما يسره الله وسهله:

أحدها: أن هذه المذكورات فيها، امتثالها والعمل بها من لوازم الإيمان، الذي لا يتم إلا به، لأنه صدرها بقوله: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إلى آخرها. أي: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بمقتضى إيمانكم، بما شرعناه لكم.

الثاني: الأمر بالقيام بالصلاة لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾.

الثالث: الأمر بالنية للصلاة لقوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي: بقصدها ونيتها.

الرابع: اشتراط الطهارة لصحة الصلاة، لأن الله أمر بها عند القيام إليها، والأصل في الأمر الوجوب.

الخامس: أن الطهارة لا تجب بدخول الوقت، وإنما تجب عند إرادة الصلاة.

السادس: أن كل ما يطلق عليه اسم الصلاة، من الغرض والفضل، وفرض الكفاية، وصلاة الجنائز، تشتترط له الطهارة، حتى السجود المجرد عند كثير من العلماء، كسجود التلاوة والشكر.

السابع: الأمر بغسل الوجه، وهو ما تحصل به المواجهة من منابت شعر الرأس المعتاد، إلى ما انحدر من اللحيين والذقن طولاً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً.

ويدخل فيه المضمضة والاستنشاق بالسُّنَّة، ويدخل فيه الشعور التي فيه. لكن إن كانت خفيفة فلا بد من إصصال الماء إلى البشرة. وإن كانت كثيفة اكتفي بظاها.

الثامن: الأمر بغسل اليدين، وأن حدهما إلى المرفقين. و«إلى» كما قال جمهور المفسرين بمعنى «مع»، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ ولأن الواجب لا يتم إلا بغسل جميع المرفق.

التاسع: الأمر بمسح الرأس.

العاشر: أنه يجب مسح جميعه، لأن الباء ليست للتبعيض، وإنما هي للملاصقة، وأنه يعم المسح بجميع الرأس.

الحادي عشر: أنه يكفي المسح كيفما كان، بيديه أو إحداهما، أو خرقة أو خشبة أو نحوهما، لأن الله أطلق المسح، ولم يقيد بصفة، فدل ذلك على إطلاقه.

الثاني عشر: أن الواجب المسح. فلو غسل رأسه، ولم يمر يده عليه لم يكف، لأنه لم يأت بما أمر الله به.

الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكُمْ ﴿٦﴾ أي: من اليهود والنصارى.

وهذا مخصص لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكُحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُ﴾. ومفهوم الآية، أن الأرقاء من المؤمنات لا يباح نكاحهن للأحرار، وهو كذلك.

وأما الكتابيات فعلى كل حال لا يباحن، ولا يجوز نكاحهن للأحرار مطلقاً، لقوله تعالى: ﴿مِن فِتْنَتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ﴾. وأما المسلمات إذا كن رقيقات فإنه لا يجوز للأحرار نكاحهن إلا بشرطين، عدم الطول، وخوف العنت.

وأما الفاجرات غير العفيفات عن الزنا فلا يباح نكاحهن، سواء كن مسلمات أو كتابيات، حتى يثبتن لقوله تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً﴾ الآية.

وقوله: ﴿إِذَا بَلَغَتُمُوهُنَّ أَرْبَعِينَ﴾ أي: أباحنا لكم نكاحهن، إذا أعطيتن من مهورهن. فمن عزم على أن لا يؤتيها مهرها فإنها لا تحل له. وأمر بإيتائها، إذا كانت رشيدة تصلح للإيتاء، وإلا أعطاه الزوج لوليها.

وإضافة الأجور إليهن دليل على أن المرأة تملك جميع مهرها، وليس لأحد منه شيء، إلا ما سمحت به لزوجها، أو وليها أو غيرهما.

﴿مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسْفِحِينَ﴾ أي: حالة كونكم - أيها الأزواج - محصنين لنسائكم، بسبب حفظكم لفروجكم عن غيرهن.

﴿غَيْرِ مُسْفِحِينَ﴾ أي: زانين مع كل أحد ﴿وَلَا مُتَّحِدِينَ أَهْلَانِ﴾. وهو: الزنا مع العشيقات، لأن الزناة في الجاهلية، منهم من يزني مع من كان، فهذا المسافح. ومنهم من يزني مع خدنه ومحبه. فأخبر الله تعالى أن ذلك كله ينافي العفة. وأن شرط التزوج أن يكون الرجل عفيفاً عن الزنا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾ أي: ومن كفر بالله تعالى، وما يجب الإيمان به من كتبه ورسله أو شيء من الشرائع، فقد حبط عمله، بشرط أن يموت على كفره، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي: الذين خسروا أنفسهم، وأموالهم، وأهلبيهم يوم القيامة، وحصلوا على الشقاوة الأبدية.

(٦) ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ

الثالث عشر: الأمر بغسل الرجلين إلى الكعبين، ويقال فيهما ما يقال في اليدين.

الرابع عشر: فيها الرد على الرافضة، على قراءة الجمهور بالنصب. وأنه لا يجوز مسحهما ما دامتا مكشوفتين.

الخامس عشر: فيه الإشارة إلى مسح الخفين، على قراءة الجري في ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ وتكون كل من القراءتين محمولة على معنى. فعلى قراءة النصب فيها، غسلهما إن كانتا مكشوفتين.

وعلى قراءة الجري فيها، مسحهما إذا كانتا مستورتين بالخف.

السادس عشر: الأمر بالترتيب في الوضوء، لأن الله تعالى ذكرها مرتبة. ولأنه أدخل ممسوحًا - وهو الرأس - بين مغسولين، ولا يعلم لذلك فائدة غير الترتيب.

السابع عشر: أن الترتيب مخصوص بالأعضاء الأربعة المسميات في هذه الآية.

وأما الترتيب بين المضمضة والاستنشاق والوجه، أو بين اليمنى واليسرى من اليدين والرجلين، فإن ذلك غير واجب.

بل يستحب تقديم المضمضة والاستنشاق على غسل الوجه. وتقديم اليمنى على اليسرى من اليدين والرجلين. وتقديم مسح الرأس على مسح الأذنين.

الثامن عشر: الأمر بتجديد الوضوء عند كل صلاة، لتوجد صورة الأمور به.

التاسع عشر: الأمر بالغسل من الجنابة.

العشرون: أنه يجب تعميم الغسل للبدن، لأن الله أضاف التطهر للبدن، ولم يخصه بشيء دون شيء.

الحادي والعشرون: الأمر بغسل ظاهر الشعر وباطنه في الجنابة.

الثاني والعشرون: أنه يندرج الحدث الأصغر في الحدث الأكبر، ويكفي من هما عليه، أن ينوي، ثم يعمم بدنه، لأن الله لم يذكر إلا التطهر، ولم يذكر أنه يعيد الوضوء.

الثالث والعشرون: أن الجنب يصدق على مَنْ أنزل المنى، يقظة أو منامًا، أو جامع ولو لم ينزل.

الرابع والعشرون: أن مَنْ ذكر أنه احتلم ولم يجد بللًا، فإنه لا غسل عليه، لأنه لم تتحقق منه الجنابة.

الخامس والعشرون: ذكر منة الله تعالى على العباد، بمشروعية التيمم.

السادس والعشرون: أن من أسباب جواز التيمم وجود المرض الذي يضره غسله بالماء، فيجوز له التيمم.

السابع والعشرون: أن من جملة أسباب جوازه، السفر والإتيان من البول والغائط إذا عدم الماء. فالمرض يجوز

التيمم مع وجود الماء، لحصول الضرر به. وبأقيها يجوزه العدم للماء، ولو كان في الحضر.

الثامن والعشرون: أن الخارج من السيلين من بول وغائط، يتقض الوضوء.

التاسع والعشرون: استدلل بها مَنْ قال: لا يتقض الوضوء إلا هذان الأمران. فلا يتقض بلمس الفرج ولا غيره.

الثلاثون: استحباب التكنية عمًا يستقدر التلفظ به^(١)، لقوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾.

الحادي والثلاثون: أن لمس المرأة بلذة وشهوة، ناقض للوضوء.

الثاني والثلاثون: اشتراط عدم الماء لصحة التيمم.

الثالث والثلاثون: أنه مع وجود الماء ولو في الصلاة، يبطل التيمم، لأن الله إنما أباحه مع عدم الماء.

الرابع والثلاثون: أنه إذا دخل الوقت، وليس معه ماء، فإنه يلزمه طلبه في رحله، وفيما قرب منه، لأنه لا يقال «لم يجد» لمن لم يطلب.

الخامس والثلاثون: أن مَنْ وجد ماء لا يكفي بعض طهارته، فإنه يلزمه استعماله، ثم يتيمم بعد ذلك.

السادس والثلاثون: أن الماء المتغير بالطهارات، مقدم على التيمم، أي يكون طهورًا، لأن الماء المتغير ماء، فيدخل في قوله: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً﴾.

السابع والثلاثون: أنه لا بد من نية التيمم لقوله: ﴿تَتِيمُوا﴾ أي: اقصدوا.

الثامن والثلاثون: أنه يكفي التيمم بكل ما تصاعد على وجه الأرض، من تراب وغيره. فيكون على هذا قوله: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ إما من باب التغليب، وأن الغالب أن يكون له غبار يمسح منه، ويعلق بالوجه واليدين.

وإما أن يكون إرشادًا للأفضل، وأنه إذا أمكن التراب الذي فيه غبار فهو أولى.

التاسع والثلاثون: أنه لا يصح التيمم بالتراب النجس، لأنه لا يكون طيبًا، بل خبيثًا.

الأربعون: أنه يمسح في التيمم، الوجه واليدين فقط، دون بقية الأعضاء.

الحادي والأربعون: أن قوله: ﴿بِوُجُوهِكُمْ﴾ شامل لجميع الوجه وأنه يعممه^(٢) بالمسح، إلا أنه معفو عن إدخال التراب في الفم والأنف، وفيما تحت الشعور، ولو خفيفة.

(١) كذا في ب، وفي أ: فيه. (٢) في ب: يعمه.

الثاني والأربعون: أن اليدين تمسحان إلى الكوعين فقط، لأن اليدين عند الإطلاق كذلك.

فلو كان يشترط إيصال المسح إلى الذراعين، لقيده الله بذلك، كما قيده في الوضوء.

الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن، لأن الله جعلها بدلاً عن طهارة الماء، وأطلق في الآية، فلم يقيد. [وقد يقال: إن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم، لأن السياق في الأحداث. وهو قول جمهور العلماء^(١)].

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان، التيمم عنهما، فإنه يجزئ، أخذًا من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان، بيده أو غيرها، لأن الله قال: ﴿فَامْسَحُوا﴾ ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء. ولأن الله بدأ بمسح الوجه، قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى - فيما شرعه لنا من الأحكام - لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر. وإنما هو رحمة منه بعباده، ليطهرهم، وليتم نعمته عليهم.

وهذا هو التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح. الخمسون: أن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة، تدرك بالحس والمشاهدة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله في الطهارة وغيرها، ليزداد معرفة وعلماً، ويزداد شكرًا لله ومجبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

(٧) ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم. فإن في استدامة ذكرها، داعيًا لشكر الله تعالى ومحبه، وامتلاء القلب من إحسانه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٨

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾

وفيه زوال للعجب من النفس، بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه. و﴿مِيثَقَهُ﴾ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ﴾ أي: عهده الذي أخذه عليكم.

وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق. وإنما المراد بذلك، أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهما. ولهذا قال: ﴿إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان واتباع. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويحرصون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص.

﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أحوالكم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار

(١) زيادة من هامش ب.

والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم، على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته، ومحبتة، والنصح لعباده. فإنكم - إن كنتم كذلك - غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم.

(٨) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا ﴿قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾، بأن تنشط للقيام بالقسط، حرركاتكم الظاهرة والباطنة. وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية. وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، في أقوالكم ولا في أفعالكم. وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصديق والعدو.

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ أي: يحملنكم بغض ﴿قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط. بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم، فاشهدوا له، ولو كان كافرًا أو مبتدعًا. فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله. ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق.

﴿أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي: كلما حرصتم على العدل، واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى.

﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلاً، وأجلاً.

(٩، ١٠) ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ هُمْ مَقْرُونَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ الذي لا يخلف الميعاد، وهو أصدق الفاتلين - المؤمنين به، وكتبته، ورسله، واليوم الآخر.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من واجبات ومستحبات - بالمغفرة لذنوبهم، بالغفو عنها وعن عواقبها، وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها، بعد ما أبانت الحقائق ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ الملازمون لها ملازمة الصاحب لصاحبه.

(١١) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ

هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان. وأنهم - كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسيبهم نعمة - فليعدوا أيضًا إنعامه عليهم، بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة. فإنهم الأعداء، قد هموا بأمر، وظنوا أنهم قادرون عليه، فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله لعباده المؤمنين، ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعبدوه ويذكروه. وهذا يشمل كل من هم بالمؤمنين بشر، من كافر ومناقف وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية.

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم، وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدنيوية والدنيوية، ويتبرأوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون. وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتفق عليها.

(١٢، ١٣) ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: ﴿فِيمَا نَقَضْتُم مِّيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهَا وَسُوءًا حَقًّا وَمَا يَذْكُرُونَ﴾ ولا يزال تطلع على خبايئة قلوبهم إلا فيلداً منهم فأعف عنهم وأصفح إن الله يحب المتحسين﴾ يخبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد. وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به، وإثمهم إن لم يقوموا به. ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: عهدهم المؤكد الغليظ ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ أي: رئيساً وعريقاً على من تحته، ليكون ناظرًا عليهم، حاثًا لهم على القيام بما أمروا به، مطالبًا يدعوهم.

﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ للنباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي: بالعون والنصر، فإن المعونة بقدر المؤنة.

ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ﴾ ظاهرًا وباطنًا، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على ذلك ﴿وَأَتَيْتُمُ الزَّكَاةَ﴾ لمستحقها ﴿وَأَمَنْتُمْ بِرُسُلِي﴾ جميعهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٠٩

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
 الْجَحِيمِ ﴿١٠٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ
 اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ
 فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
 الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١٠﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي
 إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ
 إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَءَاتَيْتُمُ الزَّكَاةَ
 وَءَامَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا
 حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ
 ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١١١﴾ فِيمَا
 نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً
 يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا
 ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ
 فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٢﴾

عظيمة. وهذه الخصال الذميمة حاصلة لكل من اتصف بصفتاتهم.

فكل من لم يقم بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ مما ذكر به. وأنه لا بد أن يتلى بالخيانة. نسأل الله العافية.

وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظًا، لأنه هو أعظم الحظوظ، وما عداه فإنما هي حظوظ دنيوية. كما قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا لِلَّهِ لَنَّا كَافِرُونَ مَا أَوْفَقُوا قَدَرُونَ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وقال في الحظ النافع: ﴿وَمَا يُقْلِبْهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقْلِبْهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ أي: فإنهم وفوا بما عاهدوا الله عليهم فوقهم، وهداهم للصراط المستقيم.

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾ أي: لا تؤاخذهم بما يصدر منهم من الأذى الذي يقتضي أن يعفى عنهم واصفح. فإن ذلك من الإحسان ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ والإحسان: هو أن تعبد الله

الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ ﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ أي: عظمتموهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو الصدقة والإحسان، الصادر عن الصدق والإخلاص، وطيب المكسب. فإذا قمت بذلك ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات.

﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ العهد والميثاق المؤكد بالآيمان والالتزامات، المقرون بالترغيب بذكر ثوابه.

﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب، وحصول العقاب. فكانه قيل: ليت شعري ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه، أم نكثوا؟

فبين أنهم نقضوا ذلك فقال: ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات:

الأولى: أنا ﴿لَعْنَتُهُمْ﴾ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي هو سببها الأعظم.

الثانية: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيد الهدى والخير إلا شرًا.

الثالثة: أنهم ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما أراد الله ولا رسوله.

الرابعة: أنهم ﴿نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾. فإنهم ذكروا بالتوراة وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظًا منه. وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه، وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أنساهم الله إياه، عقوبة منه لهم. وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به. ويستدل بهذا على أهل الكتاب، بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم، أو وقع في زمانهم، أنه مما نسوه.

الخامسة: الخيانة المستمرة التي ﴿لَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ﴾ أي: خيانة الله وعباده المؤمنين.

ومن أعظم الخيانة منهم، كتمهم [عن] من يعظهم، ويحسن فيهم الظن الحق، وإيقاظهم على كفرهم، فهذه خيانة

كانك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

وفي حق المخلوقين: بذل النفع الديني والدنيوي لهم.

(١٤) ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّةٌ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَسُوا حَتَّىٰ تَمَّ ذُكْرُنَا بِهِ فَاغْرَبْنَا بِيَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي:

وكما أخذنا على اليهود العهد والميثاق، فكذلك أخذنا على ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّةٌ﴾ لعيسى ابن مريم، وزكوا أنفسهم بالإيمان بالله ورسله وما جاؤوا به، فنقضوا العهد ﴿فَسُوا حَتَّىٰ تَمَّ ذُكْرُنَا بِهِ﴾ نسياناً علمياً، ونسياناً عملياً.

﴿فَاغْرَبْنَا بِيَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: سلطنا بعضهم على بعض، وصار بينهم من الشرور والإحسان ما يقتضي بغض بعضهم بعضاً ومعاداة بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة. وهذا أمر مشاهد، فإن النصراري لم يزالوا ولا يزالون في بغض وعداوة وشقاق ﴿وَسَوْفَ يُنْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ فيعاقبهم عليه.

(١٥، ١٦) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

لما ذكر تعالى ما أخذه الله على أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأنهم نقضوا ذلك إلا قليلاً منهم، أمرهم جميعاً أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، واحتج عليهم بأية قاطعة دالة على صحة نبوته، وهي: أنه بين لهم كثيراً مما يخفون عن الناس، حتى عن العوام من أهل ملتهم. فإذا كانوا هم المشار إليهم في العلم، ولا علم عند أحد في ذلك الوقت إلا ما عندهم، فالحريص على العلم لا سبيل له إلى إدراكه إلا منهم.

فإتيان الرسول ﷺ بهذا القرآن العظيم الذي بين به ما كانوا يتكاثرونه بينهم، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب - من أدل الدلائل على القطع برسالته، وذلك مثل صفة محمد في كتبهم، ووجود البشائر به في كتبهم، وبيان آية الرجم ونحو ذلك.

﴿وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أي: يترك بيان ما لا تقتضيه الحكمة.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ﴾ وهو القرآن، يستضاء به في ظلمات الجهالة، وعماية الضلالة.

﴿وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ لكل ما يحتاج الخلق إليه من أمور دينهم ودنياهم، من العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيَّةٌ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَسُوا حَتَّىٰ تَمَّ ذُكْرُنَا بِهِ فَاغْرَبْنَا بِيَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنْتَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾

العلم بأحكامه الشرعية وأحكامه الجزائية.

ثم ذكر من الذي يهتدي بهذا القرآن وما هو السبب الذي من العبد لحصول ذلك، فقال: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ الظُّلُمَاتِ﴾ أي: يهدي به من اجتهد وحرص على بلوغ مرضاة الله، وصار قصده حسناً - سبيل السلام التي تسلم صاحبها من العذاب، وتوصله إلى دار السلام، وهو العلم بالحق والعمل به، إجمالاً وتفصيلاً.

﴿وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ ظلمات الكفر والبِدعة والمعصية، والجهل والغفلة إلى نور الإيمان والسنة، والطاعة، والعلم، والذكر.

وكل هذه الهداية بإذن الله، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(١٧، ١٨) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقالت اليهود والنصارى نحن آتينا الله وأجبتوه

﴿وَلِلَّهِ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾
أي: فأي شيء خصكم بهذه الفضيلة، وأنتم من جملة الممالك، ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

(١٩) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين ﴿فَتَرَوْا مِنَ الرُّسُلِ﴾ وشدة حاجة إليه.

وهذا مما يدعو إلى الإيمان به، وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية، وقد قطع الله بذلك حججهم، لئلا يقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ يبشر بالثواب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها. وينذر بالعقاب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ انقادت الأشياء طوعاً وإذعاناً لقدرته، فلا يستعصي عليه شيء منها. ومن قدرته أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأنه يثيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم.

(٢٠-٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ آخِذًا مِنَ الْعَالَمِينَ ○ يُقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ إِلَى آخِرِ الْقصة (٢٠).

لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه، وأسره واستعبادهم، ذهبوا قاصدين لأوطانهم ومسكنهم، وهي بيت المقدس وما حواليه، وقاربوا وصول بيت المقدس. وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم، ليخرجوه من ديارهم. فوعظهم موسى عليه السلام؛ وذكرهم ليفقدوا على الجهاد فقال لهم: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بقلوبكم وألستكم. فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة ﴿إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ يدعونكم إلى الهدى، ويحذرونكم من الردى ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في ب: كتب الآيات إلى قوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ النَّصِيفِ﴾

قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ لما ذكر تعالى أخذ الميثاق على أهل الكتابين، وأنهم لم يقوموا به بل نقضوه، ذكر أقوالهم الشنيعة.

فذكر قول النصراري، القول الذي ما قاله أحد غيرهم، بأن الله هو المسيح ابن مريم. ووجه شبهتهم أنه ولد من غير أب، فاعتقدوا فيه هذا الاعتقاد الباطل. مع أن حواء نظيره، خلقت بلا أم. وآدم أولى منه، خلقت بلا أب ولا أم. فهلا ادعوا فيهما الإلهية، كما ادعوا في المسيح؟

فدل على أن قولهم اتباع هوى من غير برهان ولا شبهة. فرد الله عليهم بأدلة عقلية واضحة فقال: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. فإذا كان المذكورون لا امتناع عندهم يمنعه لو أراد الله أن يهلكهم، ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك.

﴿و﴾ من الأدلة أَنَّ ﴿لِلَّهِ﴾ وحده ﴿مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون. فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إلهًا معبودًا غنيًا من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال.

ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب، فإن الله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم، كحواء. وإن شاء من أم بلا أب كعيسى. وإن شاء من غير أب ولا أم، [كآدم]^(١). فنوع خلقته تعالى بمشيئته النافذة التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلا منهما ادعى دعوى باطلة، يركون بها أنفسهم، بأن قال كل منهما: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾.

والابن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدوا النبوة الحقيقية، فإن هذا ليس من مذهبهم إلا مذهب النصراري في المسيح.

قال الله رداً عليهم، حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ؟﴾ فلو كنتم أحبابه ما عذبكم، [لكون الله لا يحب إلا من قام بمراضيه]^(٢).

﴿بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾ تجرى عليكم أحكام العدل والفضل.

﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١١

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قَوْلَهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَعْزُبُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١١٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرَّسُلِ أَنَّ تَقْوَلُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١١١﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَائِمًا تَمُوتُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ يَا قَوْمِ أَدْخَلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَنْ آدَابِ رَبِّكُمْ فَنَنْقَلِبُوكُمْ خَسِرِينَ ﴿١١٣﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَإِنَّا لَنَدَخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿١١٤﴾ وَهَذَا مِنَ الْجِبْنِ وَقَلَّةُ الْيَقِينِ، وَإِلَّا فَلَوْ كَانَ مَعَهُمْ رَشْدُهُمْ، لَعَلِمُوا أَنَّهُمْ كُلُّهُمْ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَأَنَّ الْقُرْيَ مِنْ أَعَانِهِ اللَّهُ بِقُوَّةٍ مِنْ عِنْدِهِ، فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. وَلَعَلِمُوا أَنَّهُمْ سَيَنْصِرُونَ عَلَيْهِمْ، إِذْ وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِذَلِكَ، وَعَدًّا خَاصًّا.

نصرة نبيهم، وإعزاز أنفسهم.

وبهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم وأمة محمد ﷺ، حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ - حين شاورهم في القتال يوم «بدر» مع أنه لم يحتم عليهم: يا رسول الله! لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد. ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾. ولكن اذهب أنت وربك فقاتل إنا معك مقاتلون، من بين يديك ومن خلفك، وعن يمينك وعن يسارك.

فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أي: فلا يدان لنا بقتالهم، ولست بجبار على هؤلاء.

﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: احكم بيننا وبينهم، بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك. ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

﴿قَالَ﴾ الله حجيبيا لدعوة موسى: ﴿فَإِنهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ

﴿وَأَتَانَكُمْ﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى. وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم.

فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباته، وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال: ﴿يَقَوْمِ أَدْخَلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ﴾ أي: المطهرة ﴿الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾.

فأخبرهم خبرا تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله. وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم.

﴿وَلَا تَرْتُدُّوا﴾ أي: ترجعوا ﴿عَنْ آدَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَسِرِينَ﴾ قد خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم. وأخرتكم بما فاتكم من الثواب، وما استحققتكم - بمعصيتكم - من العقاب. فقالوا قولا يدل على ضعف قلوبهم، وخور نفوسهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ﴾ شديدي القوة والشجاعة، أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها.

﴿وَإِنَّا لَنَدَخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا فلو كان معهم رشدهم، لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أعانه الله بقوة من عنده، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله. ولعلموا أنهم سينصرون عليهم، إذ وعدهم الله بذلك، وعدًّا خاصًّا.

﴿قَالَ رَبُّكَ إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم ﴿أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بالتوفيق، وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين.

﴿أَدْخَلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَالِكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزموا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سينهزمون. ثم أمراهم بعدة هي أقوى العدد فقالوا: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن في التوكل على الله - وخصوصا في هذا الموطن - تيسيرا للأمر، ونصرا على الأعداء. ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله.

فلم ينجع فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنَدَخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾.

فما أشنع هذا الكلام منهم، ومواجهتهم لنبيهم فيه في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى

سَكَنَتْ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ أَي: إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم، مدة أربعين سنة. وتلك المدة أيضًا يتيهون في الأرض، لا يهتدون إلى طريق، ولا يبقون مطمئنين. وهذه عقوبة دنيوية، لعل الله تعالى كفر بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها. وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر. ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة، الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات. بل قد ألفت الاستعباد لعدوها، ولم تكن لها همم ترقية إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوها. ولتظهر ناشئة جديدة تربي عقولهم على طلب قهر الأعداء، وعدم الاستعباد، والذل المانع من السعادة.

ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق، خصوصًا قومه، وأنه ربما رق لهم، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العقوبة، أو الدعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتمها، قال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم، لا ظلمًا منا.

(٢٧-٣١) ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: قص على الناس وأخبرهم بالقضية التي جرت على ابني آدم بالحق، تلاوة يعتبر بها المعتبرون، صدقًا لا كذبًا، وجدًا لا لعبًا. والظاهر أن ابني آدم هما ابناه لصلبه، كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين. أي: اتل عليهم بأهما في حال تقريبهما للقربان، الذي أداهما إلى الحال المذكورة.

﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ أي: أخرج كل منهما شيئًا من ماله، لقصد التقرب إلى الله ﴿فَقَبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ﴾ بأن عُلِمَ ذلك بخبر من السماء، أو بالعادة السابقة في الأمم: أن علامة تقبل الله للقربان، أن تنزل نار من السماء فتحرقه.

﴿قَالَ﴾ الابن، الذي لم يقبل منه للآخر حسدًا وبغيًا ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ فقال له الآخر - مترققًا له في ذلك - ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فأني ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني؟ إلا أنني اتقيت الله تعالى، الذي تقواه واجبة عليّ وعليك، وعلى كل أحد. وأصح الأقوال في تفسير المتقين هنا، أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملهم خالصًا لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ.

ثم قال له مخبرًا أنه لا يريد أن يتعرض لقتله، لا ابتداء ولا

سورة المائدة ١١٢

قَالُوا يَتِيمُونَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ
أَنْتَ وَرَبُّكَ فَفَتَنَّا إِيَّاهُمْ فَاقْعُدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ
إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ
الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا
فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ
قَالَ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لِيَنْبَسُطَ إِلَيْكَ
لِنُقَلِّبِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ
رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوَ آيَاتِي وَإِنَّمَا فَتَكُونَ
مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ
لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾
فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِرَبِّيهِ كَيْفَ يُوَارِي
سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُؤَيِّلَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا
الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾

مدافعة فقال: ﴿لِيَنْبَسُطَ إِلَيْكَ لِنُقَلِّبِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ وليس ذلك جبنًا مني ولا عجزًا. وإنما ذلك لأنني ﴿أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ والخائف لله لا يقدم^(١) على الذنوب، خصوصًا الذنوب الكبار.

وفي هذا تخويف لمن يريد القتل، وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتخافه.

﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوَ آيَاتِي﴾ أي: ترجع ﴿إِيَّائِي وَإِنَّمَا﴾ أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلًا أو تقتلني، فإني أؤثر أن تقتلني، فتبوء بالوزرين ﴿فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ دل هذا على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجب لدخول النار.

فلم يرتدع ذلك الجاني ولم ينجر، ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها، حتى طوعت له قتل أخيه الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه ﴿فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ دنياهم وأخرتهم، وأصبح قد سن هذه السنة لكل قاتل. «ومن سرَّ

(١) في ب: كتب الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾. (٢) في ب: لا يقوم.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١١٣

الْحَمْدُ لِلَّهِ

مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ
نَفْسًا يَعْتَرِفْ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ
النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ
جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثُرُوا
مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا
جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ
لَهُمْ حِزْبٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ
﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْطَبْعَ
أَنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا
أَتَقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ
لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ
لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمثَلَهُمْ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ
عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

(٣٣، ٣٤) ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ

فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ
وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ حِزْبٌ فِي
الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ○ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ
أَنْ تَقْرَأُ عَلَيْهِمُ الْطَبْعَ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ المحاربون لله
ورسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض،
بالكفر والقتل، وأخذ الأموال، وإخافة السبل.

والمشهور أن هذه الآية الكريمة في أحكام قطع الطريق،
الذين يعرضون للناس في القرى والبادي، فيغصبونهم
أموالهم، ويقتلونهم، ويخيفونهم، فيمتنع الناس من سلوك
الطريق التي هم بها، فتقطع بذلك.

فأخبر الله أن جزاءهم ونكالهم - عند إقامة الحد عليهم -
أن يفعل بهم واحد من هذه الأمور.

واختلف المفسرون: هل ذلك على التخيير، وأن كل قاطع
طريق يفعل به الإمام أو نائبه، ما رآه المصلحة من هذه الأمور
المذكورة؟ وهذا ظاهر اللفظ. أو أن عقوبتهم تكون بحسب
جرائمهم، فكل جريمة لها قسط يقابلها، كما تدل عليه الآية

سُنَّة سَيِّئَةٌ، فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة». ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه «ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول شطر من دمه، لأنه أول مَنْ سَنَّ القتل». فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: يثيرها ليدفن غرابًا آخر ميتًا ﴿لِيُرِيَهُمْ﴾ بذلك ﴿كَيْفَ يُؤَارَى سَوْءَةَ أَخِيهِ﴾ أي: بدنه، لأن بدن الميت يكون عورة ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.

(٣٢) ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَعْتَرِفْ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثُرُوا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمْسِرُونَ ﴾ يقول تعالى: ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ ﴾ الذي ذكرناه في قصة بني آدم، وقتل أحدهما أخاه، وسنَّه القتل لمن بعده، وأن القتل عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أهل الكتب السماوية ﴿ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا يَعْتَرِفْ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: بغير حق ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾؛ لأنه ليس معه داع يدعو إلى التبيين، وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق. فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل، علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره. وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء. فتجرؤه على قتله كأنه قتل الناس جميعًا.

وكذلك مَنْ أَحْيَا نَفْسًا أَوْ فَسَادًا، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من قتله، فهذا كأنه أحيا الناس جميعًا. لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل مَنْ لا يستحق القتل.

ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين: إما أن يقتل نفسًا بغير حق، متعمدًا في ذلك، فإنه يحل قتله، إن كان مكلفًا مكافئًا، ليس بوالد للمقتول. وإما أن يكون مفسدًا في الأرض، بإفساده لأذيان الناس، أو أبدانهم، أو أموالهم، كالكفار المرتدين والمحاربين، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرمهم إلا بالقتل. وكذلك قطع الطريق ونحوهم، ممن يصول على الناس لقتلهم، أو أخذ أموالهم.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ التي لا يبقى معها حجة لأحد ﴿ثُمَّ إِنْ كَثُرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: من الناس ﴿بَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا﴾ البيان القاطع للحجة، الموجب للاستقامة في الأرض ﴿لُمْسِرُونَ﴾ في العمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاؤوا بالبينات والحجج.

بحكمتها وموافقتها لحكمة الله تعالى. وأنهم إن قتلوا وأخذوا مالا تحتم قتلهم وصلبهم، حتى يشتهروا ويختزوا، ويرتدع غيرهم. وإن قتلوا ولم يأخذوا مالا تحتم قتلهم فقط. وإن أخذوا مالا ولم يقتلوا، تحتم أن تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، اليد اليمنى والرجل اليسرى. وإن أخافوا الناس ولم يقتلوا ولا أخذوا مالا، نفوا من الأرض، فلا يتركون يأوون في بلد حتى تظهر توبتهم. وهذا قول ابن عباس رضي الله عنه، وكثير من الأئمة، على اختلاف في بعض التفاصيل.

﴿ذَلِكَ﴾ النكال ﴿لَهُمْ جَزَاءٌ فِي أَلْدُنْيَا﴾ أي: فضيحة وعار ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فدل هذا أن قطع الطريق من أعظم الذنوب، موجب لفضيحة الدنيا وعذاب الآخرة. وأن فاعله محارب لله ولرسوله. وإذا كان هذا شأن عظم هذه الجريمة، علم أن تطهير الأرض من المفسدين، وتأمين السبل والطرق، عن القتل، وأخذ الأموال، وإخافة الناس، من أعظم الحسنات وأجل الطاعات، وأنه إصلاح في الأرض، كما أن ضده إفساد في الأرض.

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرُؤُوا عَلَيْهِمْ﴾ أي: من هؤلاء المحاربين. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ رَحِيمٌ﴾ أي: فيسقط عنه ما كان الله، من تحتم القتل، والصلب، والقطع، والنفي. ومن حق الآدمي أيضا، إن كان المحارب كافرا ثم أسلم. فإن كان المحارب مسلما، فإن حق الآدمي لا يسقط عنه من القتل، وأخذ المال. ودل مفهوم الآية على أن توبة المحارب - بعد القدرة عليه - أنها لا تسقط عنه شيئا. والحكمة في ذلك ظاهرة.

﴿إِنَّا الَّذِينَ كَفَرْنَا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَ مَا كَفَرُوا لَوَ أَنَّا لَمُنْهَرُونَ﴾ أي: لو أن الكافرين بالله ما كفوهم الفطوح، وأنهم لو افتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبًا ومثله معه ما نُقِبَلْ منهم، ولا أفاد، لأن محل الافتداء قدفات، ولم يبق إلا العذاب الأليم، الموجع الدائم الذي لا يخرجون منه أبداً، بل هم ماكثون فيه سرمدًا.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: فمن تاب من بعد ظنبيه وأصلح فإن الله يتوب عليه. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَظِيمٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ألم تعلم أن الله لهم مثل السموات والأرض يعذب من يشاء ويعفو لمن يشاء والله على كل شئ قدير. ﴿السارق﴾ أي: السارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضاه. وهو من كبائر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى، كما هو في قراءة بعض الصحابة.

﴿وَأَبْتَعُوا إِلَيْهِ الْأَوْسِيَّةَ﴾ أي: القرب منه، والحظوة لديه، والحب له. وذلك بأداء فرائضه القلبية، كالحب له وفيه، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل. والبدنية: كالزكاة

﴿وَأَبْتَعُوا إِلَيْهِ الْأَوْسِيَّةَ﴾ أي: القرب منه، والحظوة لديه، والحب له. وذلك بأداء فرائضه القلبية، كالحب له وفيه، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل. والبدنية: كالزكاة

﴿وَأَبْتَعُوا إِلَيْهِ الْأَوْسِيَّةَ﴾ أي: القرب منه، والحظوة لديه، والحب له. وذلك بأداء فرائضه القلبية، كالحب له وفيه، والخوف والرجاء، والإنابة والتوكل. والبدنية: كالزكاة

منها: الحرز، فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال: ما يحفظ به عادة. فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه.

ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصاباً، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدهما. فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه.

ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها. فإن لفظ «السرقة» أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز منه. وذلك أن يكون المال محرزاً. فلو كان غير محرز لم يكن ذلك سرقة شرعية.

ومن الحكمة أيضاً أن لا تقطع اليد في الشيء النزر التافه. فلما كان لا بد من التقدير، كان التقدير الشرعي مخصصاً للكتاب.

والحكمة في قطع اليد في السرقة، أن ذلك حفظ للأموال، واحتياط لها، ولقطع العضو الذي صدرت منه الجناية. فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى. فإن عاد، فقبل: تقطع يده اليسرى، ثم رجله اليمنى، وقيل: يحبس حتى يموت.

وقوله: ﴿جَزَاءُ يَمَا كَسَبَا﴾ أي: ذلك القطع جزاء للسارق بما سرقه من أموال الناس.

﴿تَكَالَا مِنَ اللَّهِ﴾ أي: تنكياً وترهيباً للسارق ولغيره، ليرتدع السارق - إذا علموا - أنهم سيقطعون إذا سرقوا.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عز وحكم فقطع السارق.

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيغفر لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب. وذلك أن الله^(١) ملك السموات والأرض، يتصرف فيهما بما شاء من التصاريف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته.

(٤١-٤٤) ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْتَرْعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمِعُونَ لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَمْ يَفْعَلْ فِي الدُّنْيَا حِزْباً وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ○ سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّخَةِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرَضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَصُورُكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ○ وَكَفَىٰ بِمُحْكِمِكَ وَعَدُهُمُ التَّوْبَةَ

يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ وَمَاهُمْ يُخْرِجُونَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٧﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ * يَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْتَرْعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَسَمِعُونَ لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَمْ يَفْعَلْ فِي الدُّنْيَا حِزْباً وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾

فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ○ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبِّييُونَ وَالْأَحْبَارُ يَمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوُا وَلَا تَتَشَرُّوا بِيَاكِبِكُمْ إِنَّمَا تَتَشَرُّوا بِلَيْدِكُمْ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ○ كان الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان، ثم يرجع إلى الكفر. فأرشده الله تعالى، إلى أنه لا يأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء. فإن هؤلاء لا في العير ولا في النفير. إن حضروا لم ينفعوا، وإن غابوا لم يفتقدوا.

ولهذا قال مبيتا للسب للموجب لعدم الحزن عليهم فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ فإن الذين^(٢) يؤسى ويحزن عليهم، مَنْ كان معدوداً من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهراً وباطناً.

وحاشا لله، أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويرتدوا، فإن

(١) في ب: الله له. (٢) كذا في ب، وفي أ: الذي.

﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فأت مخير في ذلك. وليست هذه منسوخة، فإنه - عند تحاكم هذا الصنف إليه - يخير بين أن يحكم بينهم، أو يعرض عن الحكم بينهم، بسبب أنه لا قصد لهم في الحكم الشرعي، إلا أن يكون موافقاً لأهوائهم.

وعلى هذا فكل مستفت ومتحاكم إلى عالم، يعلم من حاله أنه إن حكم عليه لم يرض، لم يجب الحكم ولا الإفتاء لهم. فإن حكم بينهم وجب أن يحكم بالقسط، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضُرُّكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ حتى ولو كانوا ظلمة وأعداء، فلا يمتنع ذلك من العدل في الحكم بينهم. وفي هذا بيان فضيلة العدل والقسط في الحكم بين الناس، وأن الله تعالى يحبه.

ثم قال متعجباً لهم^(١): ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُونَكَ وَعِنْدَهُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنهم - لو كانوا مؤمنين عاملين بما يقتضيه الإيمان ويوجبه - لم يصدفوا عن حكم الله الذي في التوراة التي بين أيديهم، لعلمهم أن يجدوا عندك ما يوافق أهواءهم.

وحين حكمت بينهم بحكم الله الموافق لما عندهم أيضاً، لم يرضوا بذلك، بل أعرضوا عنه، فلم يرتضوه أيضاً. قال تعالى: ﴿وَمَا أُولَئِكَ﴾ الذين هذا صنيعهم ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليس هذا دأب المؤمنين، وليسوا حريين بالإيمان. لأنهم جعلوا آلهتهم أهواءهم، وجعلوا أحكام الإيمان تابعة لأهوائهم.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾ على موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ﴿فِيهَا هُدًى﴾ يهدي إلى الإيمان والحق، ويعصم من الضلالة ﴿وَنُورٌ﴾ يستضاء به في ظلم الجهل والحيرة والشكوك، والشبهات والشهوات، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْفُرْقَانَ وَضِيَآءَ وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمَا﴾ بين الذين هادوا، أي: اليهود في القضايا والفتاوى ﴿الَّتِي تَوَلَّوْنَ الَّذِينَ آسَلَمُوا﴾ الله، وانقادوا لأوامره، الذين إسلامهم أعظم من إسلام غيرهم، وهم صفوة الله من العباد.

فإذا كان هؤلاء النبيون الكرام والسادة للأنام، قد اقتدوا بها واثموا ومشوا خلفها، فما الذي منع هؤلاء الأراذل من اليهود، من الاقتداء بها؟ ما الذي أوجب لهم أن يبنذوا أشرف

الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب، لم يعدل به صاحبه غيره، ولم يبع به بدلاً.

﴿وَمَنْ أَلَدَيْنَ هَادُوا﴾ أي: اليهود ﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوهُمْ﴾ أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم على الكذب والضلال والغبي. وهؤلاء الرؤساء المتبوعون ﴿لَمْ يَأْتُوهُمْ﴾ بل أعرضوا عنك، وفرحوا بما عندهم من الباطل، وهو تحريف الكلم عن مواضعه، أي جلب معانٍ للالفاظ، ما أرادها الله ولا قصدتها، لإضلال الخلق، ولدفع الحق. فهؤلاء المتقادون للدعاة إلى الضلال، المتبعين للمحال، الذين يأتون بكل كذب، لا عقول لهم ولا همم. فلا تبال أيضاً إذا لم يتبعوك، لأنهم في غاية النقص، والناقص لا يؤبه له، ولا يبالي به.

﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَحَدُّهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ أي: هذا قولهم عند محاكمتهم إليك، لا قصد لهم إلا اتباع الهوى.

يقول بعضهم لبعض: إن حكم لكم محمد بهذا الحكم الذي يوافق أهواءكم، فاقبلوا حكمه. وإن لم يحكم لكم به، فاحذروا أن تتابعوه على ذلك. وهذا فتنة واتباع ما تهوى الأنفس.

﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ كقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: فلذلك صدر منهم ما صدر. فدل ذلك على أن مَنْ كان مقصوده بالتحاكم إلى الحكم الشرعي، اتباع هواه، وأنه إن حكم له رضي، وإن لم يحكم له سخط، فإن ذلك من عدم طهارة قلبه. كما أن مَنْ حاكم وتحاكم إلى الشرع، ورضي به، وافق هواه أو خالفه، فإنه من طهارة القلب. ودل على أن طهارة القلب سبب لكل خير، وهو أكبر داع إلى كل قول رشيد وعمل سديد.

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: فضيحة وعار ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هو النار وسخط الجبار.

﴿سَمِعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ والسمع ههنا، سمع استجابة أي: من قلة دينهم وعقلهم، أن استجابوا لمن دعاهم إلى القول الكذب.

﴿أَكْتَلُونَ لِلشَّحْتِ﴾ أي: المال الحرام، بما يأخذونه على سفلتهم وعوامهم من المعلومات والرواتب التي بغير الحق. فجمعوا بين اتباع الكذب، وأكل الحرام.

(١) في ب: منهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَمِعْتُمْ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلْسُّحْرِ فَإِنْ جَاءَكُمْ وَكَ
فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ
يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ
التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٦﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا
هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ
هَادُوا وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ
اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ
وَأَخْشَوْنَ وَلَا تُشْرِكُوا بِإِيتِي تَمْنَا قَلِيلًا وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ
بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ
فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ
بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ
قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ
لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٨﴾

المال على فتاويه، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة.

فهذا قد منَّ الله عليه بمنة عظيمة، كفرها، ودفع حظاً
جسيماً، محروماً منه غيره. ففسألك اللهم علماً نافعاً، وعملاً
مقبلاً، وأن ترزقنا العفو والعافية، من كل بلاء يا كريم.

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الحق المبين، وحكم
بالباطل الذي يعلمه، لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر،
وقد يكون كفرًا ينقل عن الملة، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه.
وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب، ومن أعمال الكفر، قد
استحق من فعله العذاب الشديد.

(٤٥) ﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ
وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَاللِّسْنَ بِاللِّسَنِ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ
فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ هذه الأحكام من جملة الأحكام التي
في التوراة، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا،

(١) في الأصل: (فتكتمون الحق وتظهرون الباطل) ولعل الصواب ما
أثبت. (٢) في ب: بما.

ما فيها من الإيمان بمحمد ﷺ، الذي لا يقبل عمل ظاهر
وياطن، إلا بتلك العقيدة؟ هل لهم إمام في ذلك؟ نعم لهم
أئمة دأبهم التحريف، وإقامة رياستهم ومناصبهم بين الناس،
والتأكل بكتمان الحق، وإظهار الباطل، أولئك أئمة الضلال
الذين يدعون إلى النار.

وقوله: ﴿وَالرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ﴾ أي: وكذلك يحكم بالتوراة
للذين هادوا أئمة الدين من الربانيين أي: العلماء العاملين
المعلمين، الذين يربون الناس بأحسن تربية، ويسلكون معهم
مسلك الأنبياء المشفقين.

والأحبار أي: العلماء الكبار الذين يقتدى بأقوالهم،
وترمق آثارهم، ولهم لسان الصدق بين أممهم.

وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق ﴿بِمَا اسْتَحْفَظُوا
مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ أي: بسبب أن الله
استحفظهم على كتابه، وجعلهم أمناء عليه، وهو أمانة
عندهم، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان،
وتعليمه لمن لا يعلمه.

وهم شهداء عليه، بحيث إنهم المرجوع إليهم فيه، وفيما
اشتبه على الناس منه. فالله تعالى قد حمل أهل العلم ما لم
يحملة الجهال، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا. وأن لا
يقتدوا بالجهال، بالإخلاق إلى البطالة والكسل. وأن لا
يقتصروا على مجرد العبادات الفاصرة، من أنواع الذكر،
والصلاة، والزكاة، والحج، والصوم، ونحو ذلك من الأمور
التي إذا قام بها غير أهل العلم، سلموا ونجوا.

وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم
أنفسهم، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهوهم على ما
يحتاجون إليه من أمور دينهم، خصوصاً الأمور الأصولية،
والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم،
ولهذا قال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْشَوْنَ وَلَا تُشْرِكُوا بِإِيتِي
تَمْنَا قَلِيلًا﴾ فتكتموا الحق، وتظهروا الباطل، لأجل متاع
الدنيا القليل. وهذه الآفات إذا سلم منها العالم، فهو من
توفيقه، وسعادته، بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم،
ويعلم أن الله قد استحفظه ما^(٢) أودعه من العلم، واستشده
عليه، وأن يكون خائفًا من ربه، ولا يمنعه خوف الناس
وخشيته من القيام بما هو لازم له. وأن لا يؤثر الدنيا على
الدين.

كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون مخلدًا للبطالة، غير
قائم بما أمر به، ولا مبال بما استحفظ عليه. قد أهمله
وأضاعه، قد باع الدين بالدنيا، قد ارتشى في أحكامه، وأخذ

والربايون والأخبار. إن الله أوجب عليهم فيها أن النفس - إذا قتلت - تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافأة. والعين تقتل بالعين، والأذن تؤخذ بالأذن، والسن يتزع بالسن. ومثل هذه ما أشبهها، من الأطراف التي يمكن الاقتصاص منها بدون حيف.

﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ والاقتصاص: أن يفعل به كما فعل. فمن جرح غيره عمدًا، اقتص من الجرح جرحًا مثل جرحه للمجروح، حدًا، وموضعًا، وطولًا، وعرضًا وعمقًا. وليعلم أن شرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد شرعنا بخلافه.

﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي: بالقصاص، في النفس وما دونها من الأطراف والجروح، بأن عفا عن جنى، وثبت له الحق قبله.

﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ أي: كفارة للجاني، لأن الآدمي عفا عن حقه. والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه. وكفارة أيضًا عن العافي، فإنه كما عفا عن جنى عليه، أو على من يتعلق به، فإن الله يعفو عن زلاته وجنباياته.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ قال ابن عباس، كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق. فهو ظلم أكبر، عند استحلاله، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له.

(٤٦، ٤٧) ﴿وَقَفِينَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ يَعْسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَاتِنَا الَّتِي نُنزِلُ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَيَحْكُمُ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: وأتبعنا هؤلاء الأنبياء والمرسلين، الذين يحكمون بالتوراة، بعدنا ورسولنا عيسى ابن مريم، روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم. بعثه الله مصدقًا لما بين يديه من التوراة، فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة، بالحق والصدق، ومؤيد لدعوته، وحاكم بشريعته، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية.

وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام، كما قال تعالى عنه أنه قال لبني إسرائيل: ﴿وَلَا حُدُودَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿وَآيَاتِنَا الَّتِي نُنزِلُ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة ﴿وَبِهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ بشيئها والشهادة لها والموافقة ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم الذين يتفهمون بالهدى، ويتعظون بالمواعظ، ويرتدعون عما لا يليق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَقَفِينَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ يَعْسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآيَاتِنَا الَّتِي نُنزِلُ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝ وَيَحْكُمُ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاؤُا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَقْتُنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۝ أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ یَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ یُوفُونَ ۝﴾

﴿وَيَحْكُمُ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ أي: يلزمهم التقيد بكتابهم، ولا يجوز لهم العدول عنه. ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

(٤٨-٥٠) ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاؤُا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ وَأَن أَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَن يَقْتُنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِن كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ۝ أَفَحُكْمَ الْجَهْلِیَّةِ یَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ یُوفُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها.

﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: إنزالًا بالحق، ومشتتملاً على الحق في أخباره وأوامره ونواهيهِ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ لأنه شهد لها، ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها. وأخبرت به فصار وجوده مصداقًا لخبرها.

الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيء.

﴿وَأَنَّ أَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَزَلَّ اللَّهُ﴾ هذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخة لقوله: ﴿فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ والصحيح أنها ليست بناسخة، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ مخير بين الحكم بينهم، وبين عدمه، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق.

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة. وهو القسط الذي تقدم أن الله قال: ﴿وَأَنَّ حَكَمْتَ فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ ودل هذا على بيان القسط، وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام، فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ كسر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها. ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده. وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال: ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أي: إياك والاعتراض بهم، وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل [الله] إليك، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب والفرض اتباعه.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن اتباعك واتباع الحق ﴿فَاتَّعَتْ﴾ أن ذلك عقوبة عليهم وأن الله يريد ﴿أَنْ يُبَيِّنَهُمْ بَعْضَ ذُنُوبِهِمْ﴾ فإن للذنوب عقوبات عاجلة وآجلة، ومن أعظم العقوبات أن يتلى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول، وذلك لفسقه ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أي: طبعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ أي: أيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنك حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغي، ولهذا أضافه الله للجاهلية. وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل، والقسط، والنور، والهدى.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوفُونَ﴾ فالموقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكمين ويميز - بإيقانه - ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه.

واليقين: هو العلم التام الموجب للعمل.

(٥١-٥٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

﴿وَمُهَمِّمِينَ عَلَيْهِ﴾ أي: مشتتملاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين. وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه.

﴿فَأَحْكَمَ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ أي: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق، بدلاً عما جاءك من الحق، فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿لِكُلِّ جَمَلًا بَيْنَهُمْ﴾ أيها الأمم جعلنا ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أي: سبيلاً وسنة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها. وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان، فإنها لا تختلف، فتشرع في جميع الشرائع.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ تبعاً لشرعة واحدة، لا يختلف متأخرها ولا [متقدمها].

﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويتلى كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم. فكل أمة تحرص على سبق غيرها، ولهذا قال: ﴿فَأَسْتَفِيقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ أي: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقاً لغيره، مستولياً على الأمر، إلا بأمرين:

المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها، ويعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به. ويستدل بهذه الآية على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول وقتها، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزئ في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة. بل ينبغي أن يأتي بالمستحبات التي يقدر عليها لتتم وتكمل، ويحصل بها سبق.

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه ﴿فَيُنْفِخُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ من الشرائع والأعمال، فيثيب أهل الحق والعمل

يَقْوِي بُيُوتَهُمْ وَيُجِزُّهُمْ أَذْلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعَزُّوْا عَلَى الْكٰفِرِينَ يُجْهِدُوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُوْنَ لَوْمَةَ لٰعِبٍ ذٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيْمٌ ﴿٥٤﴾ يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه، وأن لله عبداً مخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهدياتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقواهم نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً، أجل صفاتهم أن الله ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّوْنَهُمْ﴾ فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووقفه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّوْنَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾.

كما أن من لازم^(١) محبة الله للعبد أن يكثُر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، ولا يزال [عبدي] يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألتني ل أعطينه، ولئن استعاذني لأعيذه».

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى، والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة، وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً قبل منه اليسير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم ﴿أَذْلًا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعَزُّوْا عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ فهم للمؤمنين أدلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورقفهم ورافتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم، وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله - أعزة قد اجتمعت همهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْجَحْلِ تُرْهِبُوْهُمْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا مِنْ بَيْنِهِمْ اٰلِيًّا﴾.

وقال تعالى: ﴿أَيُّدِيَهُمْ عَلَى الْكٰفِرِ رَحْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ فالغلظة

الظاليتين ○ فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسْتَعْرَبُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ خَشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَأُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْبِيرِمْ ○ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَؤُلَآءِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خٰسِرِينَ ﴿٥٤﴾ يرشد تعالى عباده المؤمنين حين يبين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء. فإن بعضهم أولياء بعض يتناصرون فيما بينهم ويكونون يداً على من سواهم. فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة. ولا يبالون بضركم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم. والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبد منهم.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعولون. فلو جتتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك. ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم، أخبر أن ممن يدعي الإيمان، طائفة تواليهم، فقال: ﴿فَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق، وضعف إيمان، يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة فإننا ﴿خَشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى، فإذا كانت الدائرة لهم، فإذا لنا معهم يد يكافئونها عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، قال تعالى - راداً لظنهم السيء-: ﴿فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ يئأس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم، ﴿فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرَأُوا﴾ أي: أضمروا ﴿فِي أَنْفُسِهِمْ تَدْبِيرِمْ﴾ على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأدل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿أَهْلَؤُلَآءِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ﴾ أي: حلفوا وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات: إنهم لمعكم في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبة والمواولة.

ظهر ما أضمره، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله - باطلاً، فطل كيدهم وطلت ﴿أَعْمَلُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿فَأَصْبَحُوا خٰسِرِينَ﴾ حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب.

(٥٤) ﴿يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ سَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ

(١) في ب: لوازم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصْرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ فَيَنْصُرْهُمْ فَإِنَّهُ يَنْصُرُ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ وَأُورِثَ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبُ حَوْعًا عَلِيمًا مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ تَدْمِينًا ﴿٥٧﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلُوا الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَعَمْرُكُم حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَسِرِينَ ﴿٥٨﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ إِنَّمَا وَدَّعْتُمُوهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ تَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٦١﴾﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُرُوعًا وَلَا عِلْبَانًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾

ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال: ﴿وَمَنْ تَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ أي: فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون، الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ جُنْدًا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾.

وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله، وصار من حزبه وجنده، أن له الغلبة. وإن أدبل عليه في بعض الأحيان لحكمة يريد بها الله تعالى، فأحر أمره الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قولا.

(٥٨، ٥٧) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُرُوعًا وَلَا عِلْبَانًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ○ وإذا ناديتهم إلى الصلوة اتخذاها هرواً وعلباناً ذلك إنهم قوم لا يعقلون ﴿ينهى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء، يحبونهم، ويتولونهم، ويدعون لهم﴾^(١) أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض

والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي بالتي هي أحسن، فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة همهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقص عزيمته عند لوم اللاتمين، وتفترق قوته عند عدل العاذلين، وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقدير رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

ولما مدحهم تعالى بما من به عليهم من الصفات الجليلة، والمناقب العالية، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير - أخطر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه؛ لثلا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي من عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليلعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمّت رحمته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله، ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

(٥٦، ٥٥) ﴿إِنَّمَا وَدَّعْتُمُوهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ ○ وَمَنْ تَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مال توليهم أنه الخسران المبين، أخبر تعالى من يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: ﴿إِنَّمَا وَدَّعْتُمُوهُمُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ﴾ فولاية الله تترك بالإيمان والتقوى، فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، ومن كان ولياً لله فهو ولي لرسوله، ومن تولى الله ورسوله كان تمام ذلك تولى من تولاها، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود بإقامتهم الصلاة، بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للخلق، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقيها منهم.

وقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ أي: خاضعون لله ذليلون، فأداة الحصر في قوله: ﴿إِنَّمَا وَدَّعْتُمُوهُمُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين، والتبري من ولاية غيرهم.

(١) كذا في ب، وفي أ: ويدعون إليهم.

أمرهم، التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم، ويحثهم على معاداتهم. وكذلك التزامهم لتقوى الله، التي هي امتثال أوامره، واجتناب زواجره مما تدعوهم إلى معاداتهم.

وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين، من قدهم في دين المسلمين، واتخاذهم إياه هزواً ولعباً، واحتقاره واستصغاره، خصوصاً الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين، وأجل عباداتهم.

إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزواً ولعباً، وذلك لعدم عقلمهم، ولجهلمهم العظيم، وإلا فلو كان لهم عقول لخضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس.

فإذا علمت - أيها المؤمنون! حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولدينكم - فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قده فيه، أو قده بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء.

فكيف تدعي لنفسك ديناً قيماً، وأنه الدين الحق؛ وما سواه باطل، وترضى بموالاته من اتخذته هزواً ولعباً، وسخر به وبأهله، من أهل الجهل والحمق؟ وهذا فيه من التهيج على عداوتهم، ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم.

(٥٩-٦٣) ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ هَلْ تَتَّقُونَ ۚ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَأِن كُنْتُ لَسَآءِدًا فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۗ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْثَرُكُمْ فَسِقُونَ ۗ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّن ذَٰلِكَ مُتَّبِعَةً عِندَ ٱللَّهِ مِن لَّعْنَةِ ٱللَّهِ وَعِضْبٍ مِّنْهُمُ ٱلْقِرَدَةُ ۗ وَٱلْخَنَازِيرُ وَعِبدٌ ٱلطَّغُوتِ ۗ أُوٓلَٓئِكَ شَرٌّ مَّكَآناً وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوا ۖ ءَمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا ۖ بِٱلْكَفْرِ وَهُمْ قَدَّحَرُجُوا ۖ بِهِ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا ۖ يَكْتُمُونَ ۗ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسَّحْتِ ۗ لَيْسَ مَا كَانُوا ۖ يَعْمَلُونَ ۗ لَوْلَا يُنَبِّئُهُمُ ٱلرَّسُولُونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا ۖ يَصْنَعُونَ ۗ أَي: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول: ﴿يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ﴾ ملزماً لهم، إن دين الإسلام هو الدين الحق، وإن قدهم فيه قده بأمر ينبغي المدح عليه: ﴿هَلْ تَتَّقُونَ ۚ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَأِن كُنْتُ لَسَآءِدًا فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۗ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْثَرُكُمْ فَسِقُونَ ۗ أَي: هل لنا عندكم من العيب إلا إيماننا بالله، وكتبه السابقة واللاحقة، وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين، وبأننا نجزم أن من لم يؤمن كهذا الإيمان، فإنه كافر فاسق؟ فهل تتقون منا بهذا الذي هو أوجب الواجبات على جميع المكلفين!!

ومع هذا فكأنكم فاسقون، أي: خارجون عن طاعة الله، متجرئون على معاصيه، فأولى لكم - أيها الفاسقون -

﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ ۖ إِن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ ٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۗ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَن أَكْثَرُكُمْ فَسِقُونَ ۗ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّن ذَٰلِكَ مُتَّبِعَةً عِندَ ٱللَّهِ مِن لَّعْنَةِ ٱللَّهِ وَعِضْبٍ مِّنْهُمُ ٱلْقِرَدَةُ ۗ وَٱلْخَنَازِيرُ وَعِبدٌ ٱلطَّغُوتِ ۗ أُوٓلَٓئِكَ شَرٌّ مَّكَآناً وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوا ۖ ءَمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا ۖ بِٱلْكَفْرِ وَهُمْ قَدَّحَرُجُوا ۖ بِهِ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا ۖ يَكْتُمُونَ ۗ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسَّحْتِ ۗ لَيْسَ مَا كَانُوا ۖ يَعْمَلُونَ ۗ لَوْلَا يُنَبِّئُهُمُ ٱلرَّسُولُونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسَّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا ۖ يَصْنَعُونَ ۗ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَعْلُومَةٌ ۗ عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا ۖ بِمَا قَالُوا ۖ بَلْ يَدَا ٱللَّهِ مَبْسُوطَتَانِ يُغْفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلِيُزِيدَكُمْ كَيْثَرًا مِّنْهُمْ ۗ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طَعِينًا وَكُفْرًا ۗ وَٱلْقَيْنَا يُنَبِّئُهُمُ ٱلْعُدْوَةَ وَٱلْبَعْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ۗ كَلَّمَآ أَوْ قَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ ۗ أَطْفَآءَ ٱللَّهِ وَسِعُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۗ﴾

السكوت، فلو كان عيبكم، وأنتم سالمون من الفسق - وهيات ذلك - لكان الشر أخف من قدهكم فينا مع فسقكم.

ولما كان قدهم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم على شر، قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ لهم، مخبراً عن شناعة ما كانوا عليه ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي نقمتم فيه علينا، مع التنزل معكم ﴿مِن لَّعْنَةِ ٱللَّهِ﴾ أي: أبعد عن رحمته ﴿وَعِضْبٍ عَلَيْهِ﴾ وعاقبه في الدنيا والآخرة ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمْ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعِبدٌ ٱلطَّغُوتِ﴾ وهو الشيطان، وكل ما عُدَّ من دون الله فهو طاغوت.

﴿أُوٓلَٓئِكَ﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿شَرٌّ مَّكَآناً﴾ من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم، ورضي الله عنهم، وأثابهم في الدنيا والآخرة، لأنهم أخلصوا له الدين، وهذا النوع من باب استعمال أفعل التفضيل في غير بابه، وكذلك قوله: ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وأبعد عن قصد السبيل.

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوا ۖ ءَمَنَّا﴾ نفاقاً ومكرًا ﴿وَهُمْ قَدَّحَرُجُوا ۖ بِهِ﴾ فمدخلهم ومخرجهم بالكفر وهم يزعمون أنهم مؤمنون، فهل أشر من هؤلاء،

يتعرضوا لنفحات جوده، وأن لا يسدوا على أنفسهم أبواب إحصانه بمعاصيهم.

فيده^(١) سحاء الليل والنهار، وخيره في جميع الأوقات مدار، يفرح كربًا، ويزيل غمًا، ويغني فقيرًا، ويفك أسيرًا، ويجبر كسيرًا، ويجيب سائلًا، ويعطي فقيرًا عائلًا، ويجيب المضطرين، ويستجيب للسائلين، وينعم على من لم يسأله، ويعافي من طلب العافية، ولا يحرم من خيره عاصيًا، بل خيره يرتع فيه البر والفاجر، ويوجد على أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال، ثم يحمدهم عليها، ويضيفها إليهم، وهي من جوده وثيبهم عليها من الثواب العاجل والأجل ما لا يدركه الوصف، ولا يخطر على بال العبد، ويلطف بهم في جميع أمورهم، ويوصل إليهم من الإحسان، ويدفع عنهم من النقم ما لا يشعرون بكثير منه، فسبحان من كل النعم التي بالعباد فمنه، وإليه يجأرون في دفع المكاره، وتبارك من لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أتى على نفسه، وتعالى من لا يخلو العباد من كرمه طرفة عين، بل لا وجود لهم ولا بقاء إلا بجوده.

وقبح الله من استغنى بجهله عن ربه، ونسبه إلى ما لا يليق بجلاله، بل لو عامل الله اليهود القائلين تلك المقالة، ونحوهم ممن حاله كحالهم، ببعض قولهم، لهلكوا، وشقوا في دنياهم، ولكنهم يقولون تلك الأقوال، وهو تعالى يحلم عنهم، ويصفح، ويمهلهم، ولا يمهلمهم.

وقوله: ﴿وَلَزِيدَكَ كَيْرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وهذا أعظم العقوبات على العبد^(٢)، أن يكون الذكر الذي أنزله الله على رسوله، الذي فيه حياة القلب والروح، وسعادة الدنيا والآخرة، وفلاح الدارين، الذي هو أكبر منة امتن الله بها على عباده، توجب عليهم المبادرة إلى قبولها، والاستسلام لله بها، وشكرًا لله عليها، أن تكون لمثل هذا زيادة غي إلى غيه، وطغيان إلى طغيانه، وكفر إلى كفره، وذلك بسبب إغراضه عنها، وردة لها، ومعادته إياها، ومعارضته لها بالشبه الباطلة.

﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَابْتَعْصَمَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ فلا يتألفون، ولا يتناصرون، ولا يتفقون على حالة فيها مصلحتهم، بل لم يزالوا متباغضين في قلوبهم، متعادين بأفعالهم إلى يوم القيامة.

﴿كَلَّمَ أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ﴾ ليكيدوا بها الإسلام وأهله،

(١) في ب: فيده. (٢) في ب: وهذا أعظم من العقوبات على العبد.

وأفصح حالًا منهم!!؟

﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ فيجازيهم بأعمالهم، خيرها وشرها.

ثم استمر تعالى يعدد معايهم، انتصارًا لقدحهم في عباده المؤمنين، فقال: ﴿وَرَزَى كَثِيرًا مِنْهُمْ﴾ أي: من اليهود ﴿يَسْتَرْعُونَ فِي الْإِنْتِزَاعِ وَالْعُدْوَانِ﴾ أي: يحرصون، ويبادرون المعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان على المخلوقين.

﴿وَأَكْبَهُمُ الشُّحْتَ﴾ الذي هو الحرام، فلم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه، وهذا يدل على خبثهم وشرهم، وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم، هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية ﴿لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَمَلُونَ﴾ وهذا في غاية الذم لهم، والقدح فيهم. ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبِّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِ الْإِنَّمِ وَأَكْبَهُمُ الشُّحْتَ﴾ أي: هلا ينهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس، الذين من الله عليهم بالعلم والحكمة - عن المعاصي التي تصدر منهم، ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم.

فإن العلماء عليهم أمر الناس ونبيهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعي، ويرغبونهم في الخير ويرهبونهم من الشر ﴿لَيْتَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾.

(٦٤-٦٦) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَرْغُولَةٌ عَلَتْ أَيْدِيَهُمْ وَأُوتُوا بِمَا قَالُوا﴾ بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء ولزيدتك كيرًا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانًا وكفرًا وألقينا بينهم العُدَّةَ وَابْتَعْصَمَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَلَّمَ أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَفْطَاهُ اللَّهُ وَيَسْمَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ○ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكُنَّا لَهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَاكَفَلْنَاهُمْ جَنَّتِ النَّعِيمِ ○ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنْمِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْفَلُوا مِنْ قَوْلِهِمْ وَمِنْ نَحْتِ أَجْوَلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يخبر تعالى عن مقالة اليهود الشنيعة، وعقيدتهم الفظيعة، فقال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَرْغُولَةٌ﴾ أي: عن الخير والإحسان، والبر.

﴿عَلَتْ أَيْدِيَهُمْ وَأُوتُوا بِمَا قَالُوا﴾ وهذا دعاء عليهم بجنس مقالتهم، فإن كلامهم متضمن لوصف الله الكريم بالبخل وعدم الإحسان، فجازاهم بأن كان هذا الوصف منطبقًا عليهم.

فكانوا أبخل الناس، وأقلهم إحسانًا، وأسوأهم ظنًا بالله، وأبعدهم الله عن رحمته التي وسعت كل شيء، وملأت أقطار العالم العلوي والسفلي، ولهذا قال: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ لا حجر عليه، ولا مانع يمنعه مما أراد، فإنه تعالى قد بسط فضله، وإحصانه الديني والدنيوي، وأمر العباد أن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١١٩

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِذَا بَلَغَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقِينَ وَالصَّرِيَّاتِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَ هُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾

﴿وَأَنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي: فما امتثلت أمره.

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ هذه حماية وعصمة من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يشيك عنه خوف من المخلوقين؛ فإن نواصبيهم بيد الله، وقد تكفل بعصمتك، فانت إنما عليك البلاغ المبين، فمن اهتدى لنفسه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم، ولا يوفقهم للخير بسبب كفرهم.

(٦٥) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَئِذَا بَلَغَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَيْنًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: قل لأهل الكتاب منادياً على ضلالهم، ومعلناً بباطلهم: ﴿لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ من الأمور الدينية، فإنكم لا بالقرآن ومحمد أمتم، ولا بنبيكم وكتابتكم صدقتهم، ولا بحق تمسكتهم، ولا على

وأبدوا، وأعادوا، وأجلبوا بخيلهم ورجلهم ﴿أَطَقَا مَا اللَّهُ﴾ بخذلانهم، وتفرق جنودهم، وانتصار المسلمين عليهم.

﴿وَسَمِعُونَ فِي الْأَرْضِ قَسَادًا﴾ أي: يجتهدون ويجلدون، ولكن بالفساد في الأرض، بعمل المعاصي، والدعوة إلى دينهم الباطل، والتعويق عن الدخول في الإسلام.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم على ذلك.

[ثم قال تعالى]: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدَخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وهذا من كرمه وجوده، حيث لما ذكر قبائح أهل الكتاب ومعاييبهم، وأقوالهم الباطلة، دعاهم إلى التوبة، وأنهم لو آمنوا بالله وملائكته وجميع كتبه، وجميع رسله، واتقوا المعاصي، لكفر عنهم سيئاتهم، ولو كانت ما كانت، ولادخلهم جنات النعيم، التي فيها ما تشبهه الأنفس وتلذ الأعين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي: قاموا بأوامرها ونواهيها، كما نذبهم الله وحثهم، ومن إقامتهما الإيمان بما [دعوا] (١) إليه، من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن، فلو قاموا بهذه النعمة العظيمة التي أنزلها ربهم إليهم، أي: لأجلهم وللاعتناء بهم ﴿لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي: لأدر الله عليهم الرزق، ولأمطر عليهم السماء، وأثبت لهم الأرض، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾.

﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ﴾ أي: عاملة بالتوراة والإنجيل، عملاً غير قوي ولا نشيط ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: والمسيء منهم الكثير، وأما السابقون منهم، فقليل ما هم.

(٦٧) ﴿يَأْتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ، بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ، من العقائد، والأعمال، والأقوال، والأحكام الشرعية، والمطالب الإلهية، فبلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا، وأنذر، وبشر، وعلم الجهال الأميين، حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ، بقوله، وفعله، وكتبه، ورسله.

فلم يبق خير إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرنا عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة، فمن بعدهم من أئمة الدين، ورجال المسلمين.

(١) في الأصل (دعياً) ولعل الصواب ما أثبت، والله أعلم.

(٧٢-٧٥) ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ

ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ۝ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ يَسْتَغْفِرُونَ ۗ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِكُلَّانِ الْعُلَمَاءِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ نَنْظُرُ أَنَّنَّ يُؤْفِكُونَ ۗ يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف المعهود من الخلقة الإلهية.

والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، وقال لهم: ﴿يَسْبِقُ إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق.

﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أحدًا من المخلوقين، لا عيسى ولا غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له - وهو العبادة الخالصة - لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ يفقدونهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا أن الله ثالث ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا. وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى. كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء، والعقيدة القبيحة؟ كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوقين^(٣)؟! كيف خفي عليهم رب العالمين؟

قال تعالى - رادًا عليهم وعلى أشباههم -: ﴿وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحِدٌ﴾ متصف بكل صفة كمال، منزه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه، فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

ثم توعدهم بقوله: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم، ويين أنه يقبل التوبة عن عباده، فقال: ﴿أَفَلَا

أصل اعتمدتم.

﴿حَتَّىٰ تَقِيُوا التَّوْبَةَ وَالْإِنجِيلَ﴾ أي: تجعلوهما قائمين بالإيمان بهما واتباعهما، والتمسك بكل ما يدعوان إليه.

﴿و﴾ تقيموا ﴿مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الرِّبَا﴾ الذي رباكم، وأنعم عليكم، وجعل أجل إنعامه إنزال الكتب إليكم، فالواجب عليكم أن تقوموا بشكر الله، وتلتزموا أحكام الله، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده.

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

(٦٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالصَّارِعُونَ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتب^(١)، من أهل القرآن والتوراة والإنجيل، أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد، وأصل واحد، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر، [والعمل الصالح]^(٢). فمَن آمن منهم بالله واليوم الآخر، فله النجاة، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة، ولا هم يحزنون على ما خلفوا منها، وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأزمنة.

(٧٠، ٧١) ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرَسُولْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝ وَحَسِبُوا أَنَّا لَنَكُونُ مِنكُمْ قَدْ نَزَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْكِتَابَ ثُمَّ غَمَوْا وَصَمُّوا كَثِيرًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: عهدهم الثقيل بالإيمان بالله، والقيام بواجباته، التي تقدم الكلام عليها في قوله: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ إلى آخر الآيات.

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ رُسُلًا﴾ يتوالون عليهم بالدعوة، ويتعاهدونهم بالإرشاد ولكن ذلك لم ينجح فيهم ولم يقد.

﴿كَمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ﴾ من الحق كذبه، وعاندوه، وعاملوه أقبح المعاملة.

﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ۝ وَحَسِبُوا أَنَّا لَنَكُونُ مِنكُمْ﴾ أي: ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجر عليهم عذابًا ولا عقوبة، واستمروا على باطلهم، ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا﴾ عن الحق ﴿ثُمَّ﴾ نعشهم و ﴿نَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ حين تابوا إليه، وأتابوا ﴿ثُمَّ﴾ لم يستمروا على ذلك، حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة، ﴿فَعَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرًا مِّنْهُمْ﴾ بهذا الوصف، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

(١) في ب: الكتاب. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في ب: المخلوق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢٠

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَحَسِبُوا الْأَلْتَكُونُ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ يَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٩﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَي: هَذَا غَايَتُهُ، وَنَمَتَتْهُ أَمْرُهُ، أَنَّهُ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ الْمُرْسَلِينَ، الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ مِنَ الْأَمْرِ، وَلَا مِنَ التَّشْرِيعِ، إِلَّا مَا أَرْسَلَهُمْ بِهِ اللَّهُ، وَهُوَ مِنْ جِنْسِ الرُّسُلِ قَبْلَهُ، لَا مَزِيَّةَ لَهُ عَلَيْهِمْ، تَخْرُجُهُ عَنِ الْبَشَرِيَّةِ إِلَى مَرْتَبَةِ الرُّبُوبِيَّةِ.

﴿وَأُمَّهُ﴾ مَرْيَمُ ﴿صِدِّيقَةٌ﴾ أَي: هَذَا أَيْضًا غَايَتُهَا، أَنَّ كَانَتْ مِنَ الصِّدِّيقِينَ، إِذْ لَمْ يَكُنْ هُمْ أَعْلَى الْخَلْقِ رَتْبَةً بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ، وَالصِّدِّيقِيَّةُ، هِيَ: الْعِلْمُ النَّافِعُ الْمُشْتَرِكُ لِلْيَقِينِ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ، وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَرْيَمَ لَمْ تَكُنْ نَبِيَّةً، بَلْ أَعْلَى أَحْوَالِهَا الصِّدِّيقِيَّةُ، وَكَفَى بِذَلِكَ فَضْلًا وَشَرَفًا.

وَكَذَلِكَ سَائِرُ النِّسَاءِ، لَمْ يَكُنْ مِنْهُنَّ نَبِيَّةٌ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ النُّبُوَّةَ فِي أَكْمَلِ الصَّنَفِينَ، فِي الرِّجَالِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِيَ إِلَيْهِمْ﴾.

فَإِذَا كَانَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ جِنْسِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ مِنْ قَبْلِهِ، وَأُمَّهُ صَدِيقَةٌ، فَلَا يَشِيءُ اتِّخَاذُهُمَا النَّصَارَى إِلَهَيْنِ مَعَ اللَّهِ؟.

وَقَوْلُهُ: ﴿كَأَنَّا يَاكُلَانِ الْأَطْعَامَ﴾ دَلِيلٌ ظَاهِرٌ عَلَى أَنَّهُمَا عِبْدَانُ فَقِيرَانِ، مُحْتَاجَانِ كَمَا يَحْتَاجُ بَنُو آدَمَ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَلَوْ كَانَا إِلَهَيْنِ لَاسْتَعْنَيْنَا عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَلَمْ يَحْتَاجَا إِلَى شَيْءٍ، فَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

وَلَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى الْبِرْهَانَ قَالَ: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْأَيَاتِ﴾ الْمَوْضُحَةُ لِلْحَقِّ، الْكَاشِفَةُ لِلْيَقِينِ، وَمَعَ هَذَا لَا تَفِيدُ فِيهِمْ شَيْئًا، بَلْ لَا يَزَالُونَ عَلَى إِفْكَهْمِ وَكُذْبِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ، وَذَلِكَ ظَلَمٌ وَعِنَادٌ مِنْهُمْ.

(٧٦) ﴿قُلْ أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أَي: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ: ﴿أَعْبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ الْفُقَرَاءِ الْمُحْتَاجِينَ مِنَ اللَّهِ، وَلَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَتَدْعُونَ مِنْ أَنْفَرِدِ بِالضَّرِّ وَالنَّفْعِ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ.

﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لِجَمِيعِ الْأَصْوَاتِ بِاخْتِلَافِ اللُّغَاتِ

على تفنن الحاجات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبله فالكامل تعالى الذي هذه أوصافه، هو الذي يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة، ويخلص له الدين.

(٧٧-٨١) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ ○ ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ ○ ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ○ ﴿كَرِهَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُتُولَتُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ○ ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أَي: لَا تَتَجَاوَزُوا وَتَتَعَدُوا الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ، وَذَلِكَ كَقَوْلِهِمْ فِي الْمَسِيحِ مَا تَقَدَّمَ حِكَايَتُهُ عَنْهُمْ، وَكَقَوْلِهِمْ فِي بَعْضِ الْمَشَائِخِ، اتِّبَاعًا لـ ﴿أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا﴾

ين قَبْلَ ﴿ أَي: تقدم ضلالهم.

﴿ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ﴾ من الناس، بدعوتهم إياهم إلى الدين الذي هم عليه، ﴿ وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ أي: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم، وعن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة، ثم قال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ أي: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها ﴿ ذَلِكَ ﴾ الكفر واللعن ﴿ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَتَدُونُ ﴾ أي: بعضيانهم الله، وظلمهم لعباد الله، صار سببًا لكفرهم، وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات.

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثالات، وأوقعت بهم العقوبات أنهم: ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ أي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضًا، فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك.

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجبًا للعقوبة، لما فيه من المفساد العظيمة:

منها: أن مجرد السكوت فعل معصية، وإن لم يباشرها الساكت فإنه - كما يجب اجتناب المعصية - فإنه يجب الإنكار على مَنْ فعل المعصية.

ومنها: ما تقدم، أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكتراث بها.

ومنها: أن ذلك يجرى العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعظم المصيبة الدينية والدينية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرين على ما كانوا يقدرين عليه أولًا.

ومنها: [أنه بترك^(١)] الإنكار للمنكر يندرس العلم، ويكثر الجهل؛ فإن المعصية مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله حلالًا؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقًا؟!!!

ومنها: أن بالسكوت^(٢) على معصية العاصين ربما تزينت

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَلِيدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا آلِيَاءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ لَبِئْسَ الْيَوْمَئِزُّ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾

المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالاعتداء بأضرابه، وبني جنسه، ومنها ومنها.

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة، نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم، ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٧٧﴾ بالمحبة والموالاة والنصرة.

﴿ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ هذه البضاعة الكاسدة، والصفقة الخاسرة. وهي: سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء، والخلود الدائم في العذاب العظيم. فقد ظلمتهم أنفسهم، حيث قدمت لهم هذا النزول غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوا النعيم المقيم.

﴿ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا آلِيَاءَ ﴾ فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه؛ يوجب على العبد موالاة ربه، وموالاة أوليائه، ومعاداة مَنْ

(١) كذا في ب، وفي أ: أن في ترك. (٢) كذا في ب، وفي أ: السكوت.

كفر به وعاداه، وأوضع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء.

وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل على انتفاء المشروط ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَسَقُوا﴾ أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي ومن فسقهم موالة أعداء الله، ثم قال تعالى:

(٨٦-٨٢) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ فَيَقْسِمُونَ وَيُهْبِئُونَ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فأكتبنا مع الشهداء وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القويم الصالحين ﴿فَأَنبَهُهُمُ اللَّهُ يَمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ والذين كفروا وكذبوا يأتينا أولئك أصحاب الجحيم.

يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين، وإلى ولايتهم، ومحبتهم، وأبعدهم من ذلك: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم، بغيًا وحسدًا وعنادًا وكفرًا.

﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ﴾ وذكر تعالى لذلك عدة أسباب:

منها: أن ﴿مِنْهُمْ قَيْسِيَّةٌ وَرُهْبَانَا﴾ أي: علماء متزهدين، وعبادًا في الصوامع متعبدين، والعلم مع الزهد وكذلك العبادة؛ مما يلطف القلب ويرققه، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود، وشدة المشركين.

ومنها: ﴿أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ليس فيهم تكبر ولا عتو، عن الانقياد للحق، وذلك موجب لقبهم من المسلمين، ومن محبتهم، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر.

ومنها: أنهم ﴿إِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ﴾ محمد ﷺ، أثر ذلك في قلوبهم وخشعوا له، وفاضت أعينهم بحسب ما سمعوا من الحق الذي يتقوه، فلذلك آمنوا، وأقروا به فقالوا: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَأَكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وهم أمة محمد ﷺ، يشهدون لله بالتوحيد، ولرسله بالرسالة، وصحة ما جاؤوا به، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب.

وهم عدول، شهداتهم مقبولة، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

١٢٢

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٢﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَأَنبَهُهُمُ اللَّهُ يَمَا قَالُوا جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٨٥﴾ بَيَّأِنًا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٦﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ بِإِطْعَامِ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَطَعْتُمْ مِنْ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتِهِمْ أَوْ تحْرِيرِ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٨﴾

جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ فكأنهم ليموا على إيمانهم، ومسارعتهم فيه، فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ أي: وما الذي يمنعنا، من الإيمان بالله، والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا، الذي لا يقبل الشك والريب، ونحن إذا آمننا واتبعنا الحق، طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين، فأى مانع يمنعنا؟ أليس ذلك موجبًا للمسارعة والانقياد للإيمان، وعدم التخلف عنه؟

قال الله تعالى: ﴿فَأَنبَهُهُمُ اللَّهُ يَمَا قَالُوا﴾ أي: بما تفوهوا به من الإيمان، ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذه الآيات نزلت في النصارى الذين آمنوا بمحمد ﷺ، كالتنجاشي وغيره، ممن آمن منهم.

وكذلك لا يزال يوجد فيهم من يختار دين الإسلام، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه، وهم أقرب من اليهود والمشركين إلى دين الإسلام.

ولما ذكر ثواب المحسنين ذكر عقاب المسيئين فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾^(١) كفروا بالله، وكذبوا بآياته المبينة للحق.

(٨٨، ٨٧) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ○ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَتَقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْزَمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ من المطاعم والمشارب، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم، فاحمدوه إذ أحلها لكم، واشكروه، ولا تردوا نعمته بكفرها، أو عدم قبولها، أو اعتقاد تحريمها.

فجمعون بذلك بين القول على الله الكذب، وكفر النعمة، واعتقاد الحلال الطيب حرامًا خبيثًا، فإن هذا من الاعتداء. والله قد نهى عن الاعتداء فقال: ﴿وَلَا تَعْسَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ بل يبغضهم ويمقتهم، ويعاقبهم على ذلك. ثم أمر بضد ما عليه المشركون، الذين يحرمون ما أحل الله فقال: ﴿وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي: كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم، بما يسره من الأسباب، إذا كان حلالًا، لا سرقة، ولا غصبًا، ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق.

وكان أيضًا طيبًا، وهو الذي لا خبث فيه، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث.

﴿رَأَقُوا اللَّهَ﴾ في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه ﴿الَّذِي أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه فإنه لا يتم إلا بذلك ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالًا عليه من طعام، وشراب، وسرية، وأمة، ونحو ذلك، فإنه لا يكون حرامًا بتحريمه، لكن لو فعله، فعليه كفارة يمين، كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَّحْمَةٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظهار.

ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات، ويحرمها نفسه، بل يتناولها، مستعينًا بها، على طاعة ربه.

(٨٩) ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾^(٢) أي: في إيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه فبان بخلاف ذلك.

﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَدْتُمُ الْآيْمَانَ﴾ أي: بما عزمتم عليه، وعقدت عليه قلوبكم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

﴿فَكَفَّرْنَاهُ﴾ أي: كفارة اليمين التي عقدتموها بقصدكم

﴿إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾.

وذلك الإطعام ﴿وَمِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كَسْوَتَهُمْ﴾ أي: كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة.

﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع، فمتى فعل واحدًا من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه.

﴿فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾ واحدًا من هذه الثلاثة ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿كَفَّارَةٌ لِّأَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ تكفرها، وتمحوها، وتمنع من الإثم.

﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ عن الحلف بالله كاذبًا، وعن كثرة الأيمان، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها، إلا إذا كان الحنث خيرًا، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير.

﴿كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ الميمنة للحلال من الحرام، الموضحة للأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله، حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون.

فعلى العباد، شكر الله تعالى على ما منَّ به عليهم، من معرفة الأحكام الشرعية وتبينها.

(٩٠، ٩١) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ○ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ يذم تعالى هذه الأشياء القبيحة، ويخبر أنها من عمل الشيطان، وأنها رجس ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصًا هذه الفواحش المذكورة، وهي الخمر، وهي: كل ما خامر العقل أي: غطاه بسكره.

والميسر: وهو جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبيين، كالمراهنة ونحوها.

والأنصاب التي هي: الأصنام والأنداد ونحوها، مما ينصب ويعبد من دون الله.

والأزلام التي يستقسمون بها. فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر، وأخبر عن مفسادها الداعية إلى تركها، واجتنابها.

فمنها: أنها رجس، أي: خبث، نجس معنى، وإن لم تكن نجسة حسًا والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها، وعدم التدنس

(١) كذا في ب، وفي أ: لأنه. (٢) في ب كتب الآية كاملة.

بأضرارها .

ومنها: أنها من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان، ومن المعلوم أن العدو يُحذر منه، وتحذر مصايده وأعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها، ليقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالحزم كل الحزم البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها .

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للبعد إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو: الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح، ومعوقة له .

ومنها: أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بثها، خصوصاً الخمر والميسر، ليقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء، فإن في الخمر من انغلاب العقل، وذهاب حجاه، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصاً إذا اقترن بذلك من السباب، ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل، وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء .

ومنها: أن هذه الأشياء تصد القلب، ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصلاة، اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعاده، فالخمر والميسر يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشتغل قلبه، ويذهل لبه في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو .

فأي معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشباكه، فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراععها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة!!؟ فهل فوق هذه المفاصد شيء أكبر منها؟!؟

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها، عرضاً بقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ﴾ لأن العاقل - إذا نظر إلى بعض تلك المفاصد - انزجر عنها، وكفت نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير، ولا زجر بليغ .

(٩٢) ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلِّغُ الْمُبِينُ﴾ طاعة الله وطاعة رسوله واحدة، فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتهاز عما نهى الله ورسوله عنه

الْمَائِدَةُ

١٢٣

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يَرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلِّغُ الْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُغَكُمْ اللَّهُ ذِكْرًا مِّنَ الصِّدْقِ تَنَزَّلَ بِهِ عَلَيْكُمْ وَرَمَّا حَكْمٌ لِّعِبَادِ اللَّهِ مِّنْ خَافِهِ بِاللَّيْلِ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصِّدْقَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ مِّنْ قَوْلِهِ، مِنْكُمْ مَّتَّعِدًا فَجْرَاءٌ مِّثْلَ مَا قَتَلْتُمْ مِنَ النَّعْمِ يُحْكَمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هُدًىٰ يَبْلُغُ الْكُفْبَةَ أَوْ كَفْرَةَ طَعَامٍ مَّسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيًّا مَا لِيَذُوقَ وَبِالْأَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٥﴾

كذلك . وهذا الأمر أهم الأوامر، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن .

وقوله: ﴿وَأَحْذَرُوا﴾ أي: من معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبين ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ عما أمرتم به، ونهيتم عنه ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلِّغُ الْمُبِينُ﴾ وقد أدى ذلك، فإن اهتديتم فلا تنفسم، وإن أسأتم فعليها، والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه، وما حمل به .

(٩٣) ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ لما نزل تحريم الخمر، والنهي الأكيد والتشديد فيه؛ تمنى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها، فأنزل الله هذه الآية، وأخبر تعالى أنه ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما .

ولما كان نفى الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: بشرط أنهم

الحج والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي عن مقدمات القتل، وعن المشاركة في القتل، والدلالة عليه، والإعانة على قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله، وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم، أنه يحرم على المحرم، قتل وصيد ما كان حلالاً له قبل الإحرام. وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا﴾ أي: قتل صيداً عمدًا ﴿ف﴾ عليه ﴿جَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ﴾ أي: الإبل، أو البقر، أو الغنم، فينظر ما يشبه شيئاً من ذلك، فيجب عليه مثله، يذبحه ويتصدق به.

والاعتبار بالمماثلة أن ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ أي: عدلان يعرفان الحكم، ووجه الشبه، كما فعل الصحابة رضي الله عنهم، حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة بدنة، وفي بقر الوحش - على اختلاف أنواعه - بقرة.

وهكذا كل ما يشبه شيئاً من النعم فيه مثله، فإن لم يشبه شيئاً ففيه قيمته، كما هو القاعدة في المتلفات، وذلك الهدى لا بد أن يكون ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَمْبَةِ﴾ أي: يذبح في الحرم. ﴿أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أي: يجعل مقابل المثل من النعم، طعام يطعم المساكين.

قال كثير من العلماء: يُقَوِّمُ الجزاء، فيُشْتَرَى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مُدَّ بَرٍّ أو نصف صاع من غيره ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ﴾ الطعام ﴿صِيَامًا﴾ أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يوماً ﴿لِيُدْفَقَ﴾ بإيجاب الجزاء المذكور عليه ﴿وَوَإِلَّا أَمْرِي﴾ ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد ذلك ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد، مع أن الجزاء يلزم المتعمد والمخطيء، كما هو القاعدة الشرعية - أن المتلف للنفوس والأموال المحترمة، فإنه يضمنها على أي حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق، لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمد، وأما المخطيء فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء، [هذا جواب الجمهور من هذا القيد الذي ذكره الله، وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزاء بالمتعمد، وهو ظاهر الآية، والفرق بين هذا وبين التضمنين في الخطأ في النفوس والأموال في هذا الموضع الحق فيه لله، فكما لا إثم لا جزاء لإتلافه نفوس الأدميين وأموالهم^(١).

ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري، استثنى

تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك، وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر، فلا يكفي حتى يكون كذلك، حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في عبادة الخالق، المحسنين في نفع العبيد.

ويدخل في هذه الآية الكريمة من طعم المحرم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وآمن وعمل صالحاً، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

(٩٤-٩٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَبِئْسَ اللَّهُ بِشِيءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُمُ يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ مَخَافَتِهِ بِالْغَيْبِ فَمَنْ أَعَدَّكَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعِدًّا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَمْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيُدْفَقَ بِأَلِّ أَمْرِهِ عَقَابَ اللَّهِ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُمْ مَتَاعًا لَكُمْ وَاللِّسْيَارَةُ وَحَرَمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَأَنْشَأُوا اللَّهَ الذِّكْرَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ هذا من منن الله على عباده، أن أخبرهم بما سيفعل قضاء وقدرًا، ليطيعوه، ويقدموا على بصيرة، ويهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لا بد أن يختبر الله إيمانكم.

﴿لَبِئْسَ اللَّهُ بِشِيءٍ مِنَ الصَّيْدِ﴾ أي: بشيء غير كثير، فتكون محنة سيرة، تخفيفاً منه تعالى ولطفًا، وذلك الصيد الذي يتليكم الله به ﴿تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاكُمُ﴾ أي: تتمكنون من صيده؛ لئتم بذلك الابتلاء، لا غير مقدور عليه بيد ولا رمح، فلا يبقى للابتلاء فائدة.

ثم ذكر الحكمة في ذلك الابتلاء فقال: ﴿يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ علمًا ظاهرًا للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب ﴿مَنْ مَخَافَتُهُ بِالْغَيْبِ﴾ فيكف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وتمكنه، فيشبه الثواب الجزيل، ممن لا يخافه بالغيب، فلا يرتد عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه.

﴿فَمَنْ أَعَدَّكَ﴾ منكم ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ البيان الذي قطع الحجج، وأوضح السبيل ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم موجه، لا يقدر على وصفه إلا الله، لأنه لا عذر لذلك المعتدي، والاعتبار بمن يخافه بالغيب، وعدم حضور الناس عنده، وأما إظهار مخافة الله عند الناس، فقد يكون ذلك لأجل مخافة الناس، فلا يتاب على ذلك.

ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد في حال الإحرام فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ أي: محرمون في

(١) ما بين القوسين زيادة من هامش أ، وجاء في هامش ب بدلاً منها بخط المؤلف: (هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرح به الآية أنه لا جزاء على غير المعتد كما لا إثم عليه).

الْبَيْتِ الْحَرَامِ

١٢٤

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

تعالى الصيد البحري فقال: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾^(٩٧)
 أي: أحل لكم - في حال إحرامكم - صيد البحر وهو الحيوانات، وطعامه وهو الميت منها، فدل ذلك على حل ميتة البحر ﴿مَتَمًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾ أي: الفائدة في إباحته لكم أنه لأجل انتفاعكم، وانتفاع رفقتمك الذين يسرون معكم ﴿وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمَّ حُرْمًا﴾ ويؤخذ من لفظ «الصيد» أنه لا بد أن يكون وحشيًا؛ لأن الإنسي ليس بصيد، وماكولًا؛ فإن غير المأكول لا يصاد، ولا يطلق عليه اسم الصيد ﴿وَأَقْفُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: اتقوه بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون، فيجازيكم، هل قتمت بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل، أم لم تقوموا بها، فيعاقبكم؟
 (٩٧-٩٩) ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَّ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٩٧) أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَسْيَافٍ إِنَّ تَبَدُّدَ لَكُمْ تَسْؤُكُمْ وَإِنْ سَأَلْتُمُوهُنَّ لَيَبْذُلَنَّ اللَّهُ الْفَرَةَ أَنْ تَبَدُّدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامِرٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾

واليقين، تعلمون أنه شديد العقاب - العاجل والآجل - على من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه، فيشمر لكم هذا العلم الخوف من عقابه، والرجاء لمغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

ثم قال تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ﴾ وقد بلغ كما أمر، وقام بوظيفته، وما سوى ذلك، فليس له من الأمر شيء ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ فيجازيكم بما يعلمه - تعالى - منكم.

(١٠٠) ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ للناس - محذراً عن الشر ومرغباً في الخير -: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ من كل شيء، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الخبيثة والأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال.

(١) في ب: وتقتحم.

وقوله: ﴿وَالْهَدْيَ وَالْقَلْبَدَّ﴾ أي: وكذلك جعل الهدى والقلائد - التي هي أشرف أنواع الهدى - قياماً للناس، يتفعنون بهما، ويثابون عليهما.
 ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام، لما يعلمه من مصالح الحكم الدينية والدنيوية.
 ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ليكن هذان العلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم

بقصده - العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير، وبسببه تنفق الأموال، وتتقحم^(١) - من أجله - الأهوال، ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفون، ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتتعدد بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيوية.

قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ومن أجل كون البيت قياماً للناس قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة، فلو ترك الناس حجه لأثم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم، وقامت القيامة.

﴿وَلَوْ أَعَجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً، بل يضره في دينه ودنياه.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فامر أولي الألباب، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب، وهم الذين يؤبه لهم، ويرجى أن يكون فيهم خير.

ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران، وفاتته الأرباح.

(١٠١، ١٠٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدِّ لَكُمْ سؤُوكُمْ وَإِن سَأَلْتُمَا عَنهَا جِئَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدِ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنَّا وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ۝ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بينت لهم ساءتهم وأحزنتهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آباءهم، وعن حالهم في الجنة أو النار فهذا ربما أنه لو بين للسائل لم يكن له فيه خير، وكسؤالهم للأمور غير الواقعة.

وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع، ربما أخرجت الأمة، وكالسؤال عملاً لا يعني، فهذه الأسئلة وما أشبهها هي المنهي عنها.

وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء من ذلك، فهذا (١) مأمور به، كما قال تعالى: ﴿تَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿وَإِن سَأَلْتُمَا عَنهَا جِئَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدِ لَكُمْ﴾ أي: وإذا وافق سؤالكم محلها، فسألتم عنها حين ينزل عليكم القرآن، فتسألون عن آية أشكلت، أو حكم خفي وجهه عليكم في وقت يمكن فيه نزول الوحي من السماء، تبذل لكم، أي: تبين لكم وتظهر، وإلا، فاسكتوا عما سكت الله عنه.

﴿عَفَا اللَّهُ عَنَّا﴾ أي: سكت معافياً لعباده منها، فكل ما سكت الله عنه فهو مما أباحه، وعفا عنه ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ أي: لم يزل بالمغفرة موصوفاً، وباللحم والإحسان معروفاً، فتعرضوا لمغفرته وإحسانه، واطلبوه من رحمته ورضوانه.

وهذه المسائل التي نهيتهم عنها ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي: جنسها وشبهها، سؤال تمنعت لا استرشاد، فلما بينت لهم وجاءتهم ﴿أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم، واختلافهم على أنبيائهم».

(١٠٣، ١٠٤) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَمُوا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُ مَا كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَسْتَدْرُونَ﴾ هذا ذم للمشركين الذين شرعوا في الدين ما لم يأذن به الله، وحرّموا ما أحله الله، فجعلوا بآرائهم الفاسدة شيئاً من مواشيهم محرّماً، على حسب اصطلاحاتهم التي عارضت ما أنزل الله، فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ﴾ وهي: ناقة يشقون أذنّها، ثم يحرمون ركوبها، ويرونها محترمة ﴿وَلَا سَائِبَةٍ﴾ وهي: ناقة، أو بقرة، أو شاة، إذا بلغت شيئاً (٢) اصطلاحاً عليه، سببها، فلا تركب، ولا يحمل عليها، ولا تؤكل، وبعضهم ينذر شيئاً من ماله، يجعله سائبة ﴿وَلَا حَامٍ﴾ أي: جمل يحمى ظهره عن الركوب والحمل، إذا وصل إلى حالة معروفة بينهم، فكل هذه مما جعلها المشركون محرمة بغير دليل ولا برهان، وإنما ذلك افتراء على الله، وصادرة من جهلهم، وعدم عقلهم، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ فلا نقل فيها ولا عقل، ومع هذا فقد أعجبوا بآرائهم، التي بنيت على الجهالة والظلم.

فإذا دعوا ﴿إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ﴾ أعرضوا، فلم يقبلوا، و﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من الدين، ولو كان غير سديد، ولا ديناً ينجي من عذاب الله.

ولو كان في آباءهم كفاية ومعرفة ودراية، لهان الأمر، ولكن آباءهم لا يعقلون شيئاً، أي: ليس عندهم من المعقول شيء، ولا من العلم والهدى شيء، فتباً لمن قلّد من لا علم عنده صحيح، ولا عقل رجيح، وترك اتباع ما أنزل الله، واتباع رسله، الذي يملأ القلوب علماً وإيماناً وهدى وإيقاناً.

(١٠٥) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَعْزُبُوا عَنْهَا وَإِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: اجتهدوا في إصلاحها، وكمالها، وإلزامها سلوك الصراط المستقيم، فإنكم إذا صلحت لا يضركم من ضل عن الصراط المستقيم، ولم يهتد إلى الدين القويم، وإنما يضر نفسه.

ولا يدل هذا على أن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يضر العبد تركهما وإهمالهما، فإنه لا يتم هده إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نعم، إذا كان عاجزاً عن إنكار المنكر، بيده،

(١) في ب: فهو. (٢) كذا في الأصل، وفي النسخ المطبوعة (سأ) ولعله المراد - والله أعلم -

سُورَةُ الْمَائِدَةِ

الْمَائِدَةِ

١٢٥

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا
حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ عِبَادَةً أُولَٰئِكَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ
لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَالٍ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مِنْ جَمِيعٍ
فِي نَبِيِّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ
بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا
عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ عَاهِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ
فَأَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةً الْمَوْتُ يُحْسِنُ تَحْسِينَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْوَصِيَّةِ
فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آرَبْتُمْ لَهُمْ لَمْ يَشْرُوا بِهِ مَتًى وَلَا كَانُوا قُرْبَىٰ وَلَا
نَكَحًا شَهَدَةُ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيُّمِينَ ﴿١٠٨﴾ فَإِنْ عَدَّ عَلَىٰ
أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمَا فَاقْرَأْهُمَا مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ
الْأَوْلِيَيْنَ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ
مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ذَلِكَ
أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُهُمْ
بَعْدَ آيَتِهِمْ وَأَنْتُمْ أَعْيُنٌ عَلَىٰ آلَيْهِمْ فَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا اللَّهَ لَيْدِي الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿١١٠﴾

ولسانه، وأنكره بقلبه، فإنه لا يضره ضلال غيره.

وقوله: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مالكم يوم القيامة، واجتماعكم بين يدي الله تعالى، ﴿فِي نَبِيِّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خيرٍ وشرٍ.

(١٠٦-١٠٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ عَاهِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةً الْمَوْتُ يُحْسِنُ تَحْسِينَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْوَصِيَّةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ آرَبْتُمْ لَهُمْ لَمْ يَشْرُوا بِهِ مَتًى وَلَا كَانُوا قُرْبَىٰ وَلَا نَكَحًا شَهَدَةُ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيُّمِينَ ﴿١٠٧﴾ فَإِنْ عَدَّ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّ إِنَّمَا فَاقْرَأْهُمَا مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَيْنَ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٨﴾ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُهُمْ بَعْدَ آيَتِهِمْ وَأَنْتُمْ أَعْيُنٌ عَلَىٰ آلَيْهِمْ فَأَقْرَأُوا اللَّهَ وَأَسْمَعُوا اللَّهَ لَيْدِي الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يخبر تعالى خبراً متممًا للأمر، بإشهاد اثنين على الوصية، إذا حضر الإنسان مقدمات الموت وعلائمه، فينبغي له أن يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل، ممن يعتبر شهادتهما.

﴿أَوْ عَاهِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أي: من غير أهل دينكم، من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرها من المسلمين.

﴿إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: سافرتم فيها ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مُصِيبَةً الْمَوْتُ﴾ أي: فأشهدوهما، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما، بأن يحبسا ﴿مِنْ بَعْدِ الْوَصِيَّةِ﴾ التي يعظمونها.

﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ أي: فبشهادتهما، وما غيرا، ولا بدلا، هذا ﴿إِنْ آرَبْتُمْ لَهُمْ﴾ في شهادتهما، فإن صدقتموها، فلا حاجة إلى القسم بذلك.

ويقولان: ﴿لَمْ يَشْرُوا بِهِ﴾ أي: بأيماننا ﴿تَبْنَا﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض من الدنيا ﴿وَلَوْ كَانُوا قُرْبَىٰ﴾ فلا نراعيه لأجل قربه منا ﴿وَلَا نَكَحًا شَهَدَةُ اللَّهِ﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ﴾ أي: إن كتمانها ﴿لَمِنَ الْأَيُّمِينَ﴾.

﴿فَإِنْ عَدَّ عَلَىٰ أَنَّهُمَا﴾ أي: الشاهدين ﴿اسْتَحَقَّ إِنَّمَا﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما، وأنها خانا ﴿فَاقْرَأْهُمَا مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَيْنَ﴾ أي: فليقم رجلا من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا﴾ أي: أنها كذبا، وغيرا، وخانا ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: إن ظلمنا واعتدنا، وشهدنا بغير الحق.

قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة، وتأكيدها،

وردها على أولياء الميت، حين تظهر من الشاهدين الخيانة: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ﴾ أي: أقرب ﴿أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهٍ﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانُهُمْ بَعْدَ آيَتِهِمْ﴾ أي: أن لا تقبل أيمانهم، ثم ترد على أولياء الميت.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الفسق، فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم.

وحاصل هذا، أن الميت - إذا حضره الموت في سفر ونحوه، مما هو مظنة قلة الشهود المعبرين - أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين، فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين، جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فإنهم يحلفونهما^(١) بعد الصلاة أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيرا، ولا بدلا، فيبرأ بذلك من حق يتوجه إليهما، فإن لم يصدقهما، ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين فإن شاء أولياء الميت، فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين،

(١) في النسخين: يحلفونهم.

وأنها خانا وكذبا، فيستحقون منها ما يدعون .

وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة «تميم الداري» و «عدي بن بدء» المشهورة حين أوصى لهما العدوي، والله أعلم .

ويستدل بالآيات الكريمات على عدة أحكام:

منها: أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت، أن يوصي .

ومنها: أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتاً .

ومنها: أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين .

ومنها: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد، وزعم كثير من أهل العلم: أن هذا الحكم منسوخ. وهذه دعوى لا دليل عليها .

ومنها: أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه، أن شهادة الكفار - عند عدم غيرهم، حتى في غير هذه المسألة - مقبولة، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية .

ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر، إذا لم يكن محذور .

ومنها: جواز السفر للتجارة .

ومنها: أن الشاهدين - إذا ارتبب منهما، ولم تبد قرينة تدل على خيانتها، وأراد الأولياء - أن يؤكدوا عليهم اليمين، يجسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى .

ومنها: أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما، وتأكيده اليمين عليهما .

ومنها: تعظيم أمر الشهادة، حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها، والقيام بها بالقسط .

ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الرية منهما، وتفريقهما لينظر عن شهادتهما .

ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة قام اثنان من أولياء الميت، فأقسما بالله: أن أيماننا أصدق من أيمانها، ولقد خانا وكذبا .

ثم يدفع إليهما ما ادعياه، فتكون القرينة - مع أيمانها - قائمة مقام البيعة .

(١٠٩، ١١٠) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقُتُوبِ ۚ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ

وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَزْمَكُ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جَاهَتَهُمُ الْبَابِيْنَتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَّهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٩﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة وما فيه من الأحوال العظام، وأن الله يجمع به جميع الرسل فيسألهم: ﴿مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي: ماذا أجابتمكم به أممكم؟ .

ف ﴿قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ وإنما العلم لك، يا ربنا، فأنت أعلم منا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقُتُوبِ﴾ أي: تعلم الأمور الغائبة والحاضرة .

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ أي: اذكرها بقلبك ولسانك، وقم بواجبها شكرًا لربك، حيث أنعم عليك نعمًا، ما أنعم بها على غيرك .

﴿إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي: إذ قويتك بالروح والوحي، الذي طهرك وزكاك، وصار لك قوة على القيام بأمر الله والدعوة إلى سبيله، وقيل: إن المراد «روح القدس» جبريل عليه السلام، وأن الله أعانه به، وبملازمته له، وتثبيته في المواطن المشقة .

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا﴾ المراد بالتكليم هنا غير التكليم المعهود الذي هو مجرد الكلام، وإنما المراد بذلك التكليم الذي ينتفع به المتكلم والمخاطب، وهو الدعوة إلى الله .

ولي عيسى عليه السلام من ذلك، ما لإخوانه من أولي العزم من المرسلين، من التكليم في حال الكهولة، بالرسالة والدعوة إلى الخير، والنهي عن الشر. وامتاز عنهم بأنه كلم الناس في المهد، فقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَأَتْنِي الْكِتَابَ وَحَجَّتِي نَبِيًّا ۚ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ الآية .

﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فالكتاب يشمل الكتب السابقة، وخصوصًا التوراة، فإنه من أعلم أنبياء بني إسرائيل - بعد موسى - بها . ويشمل الإنجيل الذي أنزله الله عليه .

والحكمة: هي معرفة أسرار الشرع، وفوائده وحكمه، وحسن الدعوة والتعليم، ومراعاة ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي .

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي: طيرًا مصورًا لا روح فيه، فتنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، وتبرئ الأكمه الذي لا بصر له ولا عين ﴿وَالْأَزْمَكُ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ فهذه آيات بينات، ومعجزات باهرات، يعجز عنها الأطباء وغيرهم، أيد الله بها عيسى، وقوى بها دعوته .

﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ ﴿١١١﴾ لِمَا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مَوِيدًا بِالْبَيِّنَاتِ الْمَوْجِبَةِ لِلْإِيمَانِ بِهِ ﴿١١٢﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَهَمُّوا بِعَيْسَى أَنْ يَقْتُلُوهُ، وَسَعَوْا فِي ذَلِكَ، فَكَفَّ اللَّهُ أَيْدِيَهُمْ عَنْهُ، وَحَفِظَهُ مِنْهُمْ، وَعَصَمَهُ.

فهذه ممن امتنَّ الله بها على عبده ورسوله عيسى ابن مريم، ودعاه إلى شكرها، والقيام بها، فقام بها عليه السلام أتم القيام، وصبر كما صبر إخوانه من أولي العزم.

(١١١-١٢٠) ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا ﴿١١٤﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ. (١) أَي: واذكر نعمتي عليك إذ يسرت لك أتباعًا وأعاونًا، فأوحيت إلى الحواريين أَي: ألهمتهم، وأوزعت قلوبهم الإيمان بي وبرسولي، أو أوحيت إليهم على لسانك، أَي: أمرتهم بالوحي الذي جاءك من عند الله، فأجابوا لذلك وانقادوا، وقالوا: آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون.

فجمعوا بين الإسلام الظاهر، والانقياد بالأعمال الصالحة والإيمان الباطن المخرج لصاحبه من النفاق ومن ضعف الإيمان.

والحواريون: هم الأنصار كما قال تعالى: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴿١١٥﴾﴾

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْجَسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴿١١٦﴾﴾ أَي: مائدة فيها طعام، وهذا ليس منهم عن شك في قدرة الله، واستطاعته على ذلك، وإنما ذلك من باب العرض والأدب منهم.

ولما كان سؤال آيات الاقتراح منافيًا للانقياد للحق، وكان هذا الكلام الصادر من الحواريين ربما أوهم ذلك، وعظهم عيسى عليه السلام فقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٧﴾﴾ فإن المؤمن يحمل ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى، وأن يتقاد لأمر الله، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئًا.

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى، وإنما لهم مقاصد صالحة، ولأجل الحاجة إلى ذلك ف ﴿قَالُوا رَبُّدُنَا أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ ﴿١١٨﴾﴾ أَي: يكون وقت نزولها عيدًا وموسمًا، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات، وتكرر السنين.

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكروا لآياته، ومنبها على سنن المرسلين وطرقهم القويمه، وفضله وإحسانه عليهم ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ أَي: اجعلها لنا رزقًا.

فسأل عيسى عليه السلام نزولها أن تكون لهاتين المصلحتين، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة (١) في بأكمل الآيات إلى قوله: ﴿وَمَوْعِدًا عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فَهِيَ عَلَيْهَا﴾ (٢) في ب: حتى يكون.

الدنيا، وهي أن تكون رزقاً.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْزُقُكُمْ فَأَيَّ آعِذِيهِ عَدَاكَ لَا آعِذِيهِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ لأنه شاهد الآية الباهرة، وكفر عناداً وظلماً، فاستحق العذاب الأليم، والعقاب الشديد. واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها، وتوعدهم - إن كفروا - بهذا الوعيد، ولم يذكر أنه أنزلها، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك.

ويدل على ذلك أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى، ولا له وجود، ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله، والله لا يخلف الميعاد، ويكون عدم ذكرها في الأناجيل التي بأيديهم، من الحظ الذي ذكروا به فسوه.

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً، وإنما ذلك كان متوارثاً بينهم، ينقله الخلف عن السلف، فاكفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل، ويدل على هذا المعنى قوله: ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ والله أعلم بحقيقة الحال.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، فيقول الله هذا الكلام لعيسى، فيتبرأ عيسى ويقول: ﴿سُبْحٰنَكَ﴾ عن هذا الكلام القبيح، وعمّا لا يليق بك.

﴿مَا يَكُونُ لِيَ أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيَ بِحَقِّهِ﴾ أي: ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم، له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية، وإنما الجميع عباد مديرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون.

﴿إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ فأنت أعلم بما صدر مني. و﴿أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾ وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: «لم أقل شيئاً من ذلك». وإنما أخبر بكلام يفتي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيهه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل فقال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجرى على عظمتك. ﴿أَن آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي: ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أنني عبد مربوب، فكما أنه

التوبة

١٢٧

سورة التوبة

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنَّا وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْزُقُكُمْ فَأَيَّ آعِذِيهِ عَدَاكَ لَا آعِذِيهِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَن أَقُولَ مَا لَيْسَ لِيَ بِحَقِّهِ إِن كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغَيْبِ﴾ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَن آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿١١٧﴾ إِن تَعَذَّبْتُمْ فَاتُّمَّ عِبَادُكُمْ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿١٢٠﴾

ربكم فهو ربي.

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أشهد على من قام بهذا الأمر ممن لم يقم به ﴿لَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: المطلع على سرائرهم وضمايرهم ﴿وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ علماً وسمعاً وبصراً، فعلمك قد أحاط بالمعلومات، وسمعك بالمسموعات، وبصرك بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك، بما تعلمه فيهم من خير وشر.

﴿إِن تَعَذَّبْتُمْ فَاتُّمَّ عِبَادُكُمْ﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم، وأعلم بأحوالهم، فلولا أنهم عباد متمردون، لم تعذبهم ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدرة، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة، الحكيم: حيث كان من مقتضى حكمتك، أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قَالَ اللَّهُ﴾ مبيناً لحال عبادهم يوم القيامة، ومن الفائز منهم ومن الهالك، ومن الشقي، ومن السعيد: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم، ونياتهم على الصراط المستقيم، والهدى القويم،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢٨

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ

وَالنُّورِ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ

تَمُرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ

وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ

آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ

لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ

يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهِمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ

نُعْزِلْ لَهُمْ كُرْسِيًّا وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا

آخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمْسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ

لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْحَابٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ

عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْلَا أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَفِئِصَةُ الْأُمَمِ لَيَنْظُرُونَ ﴿٨﴾

﴿يَسْئَلُكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ويعمركم ما يتذكر فيه من

تذكر ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ﴾ وهي: الدار الآخرة، التي يتقل

العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر.

﴿ثُمَّ﴾ مع هذا البيان التام وقطع الحججة ﴿أَنْتُمْ تَمُرُونَ﴾

أي: تشكون في وعد الله ووعيده، ووقوع الجزاء يوم القيامة.

وذكر الله الظلمات بالجمع؛ لكثرة موادها، وتنوع طرقها؛

ووحد النور؛ لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة، لا تعدد

فيها، وهي الصراط المتضمنة للعلم بالحق، والعمل به، كما

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

﴿٣﴾ ﴿هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ

مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي: وهو المألوه المعبود في السماوات وفي

الأرض، فأهل السماء والأرض متعبدون لربهم، خاضعون

لعظمته، مستكينون لعزه وجلاله، الملائكة المقربون،

والأنبياء، والمرسلون، والصديقون، والشهداء،

(١) في الأصل (إلهم) ولعل الصواب ما أثبت.

فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال: ﴿لَمْ يَجْعَلْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَلْدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم وافتراءهم، وثمره أعمالهم الفاسدة.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك بحكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته، ومسخرة بأمره.

تم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الأنعام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢، ١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ

وَالنُّورِ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ

ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمُرُونَ﴾ هذا إخبار عن

حمده والثناء عليه بصفات الكمال، ونعوت العظمة والجلال

عمومًا، وعلى هذه المذكورات خصوصًا. فحمد نفسه على

خلقه السماوات والأرض، الدالة على كمال قدرته، وسعة

علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير،

وعلى جعله الظلمات والنور.

وذلك شامل للحسي من ذلك، كالليل والنهار، والشمس

والقمر، والمعنوي كظلمات الجهل والشك، والشرك

والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان، واليقين والطاعة.

وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة،

وإخلاص الدين له.

ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ

يَعْدِلُونَ﴾ أي: يعدلون به سواء. يسوونهم به في العبادة

والتعظيم، مع أنهم لم يساواوا الله في شيء من الكمال، وهم

فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ وذلك بخلق مادتكم وأبيكم آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا﴾ أي: ضرب لمدة إقامتكم في هذه الدار أجلًا، تتمتعون به وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل [إليكم] ^(١) به رسله.

والصالحون.

وهو تعالى يعلم سرهم وجهركم ويعلم ما تكسبون، فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه، وتدنيكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته.

(٤-٦) ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ هذا إخبار منه تعالى عن إغراض المشركين، وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحل بهم المثلات، فقال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ لا يلقون لها بالاً، ولا يصغون لها سمعاً، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، وولوها أديارهم.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ والحق حقه أن يتبع، ويشكر الله على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: فسوف يرون ما استهزأوا به، أنه الحق والصدق، وبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم، وكانوا يستهزؤون بالبعث والجنة والنار، فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذبين: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَعْصِي اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَسَىٰ عَلَيْهِمْ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُحْتَفِلُونَ فِيهِ وَلِعَلِّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ثم أمرهم أن يعتبروا بالأسم السالفة فقال:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: كم تابع إهلاكنا للأسم المكذبين، وأمهلتناهم قبل ذلك الإهلاك، بأن ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ﴾ لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية.

﴿وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾ فبينت لهم بذلك ما شاء الله، من زروع وثمار، يتمتعون بها، ويتناولون منها ما يشتهون. فلم يشكروا الله على نعمه، بل أقبلوا على الشهوات، وألهتهم أنواع اللذات.

فجاءتهم رسلهم بالبينات، فلم يصدقوها، بل ردوها وكذبوها، فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأ ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾.

فهذه سُنة الله ودأبه في الأمم السابقين واللاحقين، فاعتبروا بمن قص الله عليكم نبأهم.

(٧-٩) ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ۝ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَوَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جنتهم به، ولا لجهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي، لا حيلة لكم فيه، فقال: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ وتيقنوه ﴿لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظلماً وعلواً: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

فأي بيعة أعظم من هذه البيعة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس، الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل دفعه!!!

﴿وَقَالُوا﴾ أيضاً تعنتاً مبنياً على الجهل، وعدم العلم بالمعقول: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ أي: هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة الله لا تكون إلا على أيدي الملائكة.

قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم، وبصيرة، وغيب: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ﴾ برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق ولكان إيماناً بالشهادة الذي لا ينفع شيئاً وحده. هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضي الأمر بتعجيل الهلاك عليهم، وعدم إنظارهم، لأن هذه سُنة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها.

فإرسال الرسول البشري إليهم بالآيات البينات، التي يعلم الله أنها أصلح للعباد، وأرفق بهم، مع إمهال الله للكافرين والمكذبين خير لهم وأنفع.

فطلبهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم وأرسل، لم يطيقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقته قواهم الفانية.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك، ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ أي: وكان الأمر مختلطاً عليهم وملبوساً، وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وعدم بيان الحق.

فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة، وقواعده التي هي قواعده، لم يكن ذلك هداية لهم، إذا اهتدى بذلك غيرهم،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا

يَلْبَسُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسُلِي مِّن قَبْلِك فَحَقَّ بِالذِّينِ

بِالذِّينِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ

الْمُكْذِبِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ

كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ

لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

﴿١٣﴾ ﴿١٤﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

﴿١٥﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُوا لِيَا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ

وَلَا يُطْعَمُهُمْ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا

تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ

رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾ مَن يَصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَ ذَقْنَاهُ

رَحْمَةً. وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ

فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٢٠﴾

والذنب ذنبهم حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال.

(١٠، ١١) ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسُلِي مِّن قَبْلِك فَحَقَّ بِالذِّينِ

سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ

انظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ يقول تعالى - مسلماً

لرسوله ومصبراً ومتهدداً أعداءه، ومتوعداً: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ

بُرْسُلِي مِّن قَبْلِك﴾ لما جاؤوا أممهم بالبينات، كذبوهم

واستهزأوا بهم، وبما جاؤوا به، فأهلكهم الله بذلك الكفر

والتكذيب، ووفى لهم من العذاب أكمل نصيب ﴿فَحَقَّ

بِالذِّينِ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فاحذروا - أيها

المكذبون - أن تستمروا على تكذيبكم، فيصيبكم ما أصابهم.

فإن شككتهم في ذلك، أو ارتبتم، فسيروا في الأرض ثم

انظروا كيف كان عاقبة المكذبين، فلن تجدوا إلا قوماً

مهلكين، وأمماً في المثلث تالفين.

قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل

متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان بناؤهم

عبرة لأولي الأبصار، وهذا السير المأمور به سير القلوب

والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار، وأما مجرد النظر من غير

اعتبار، فإن ذلك لا يفيد شيئاً.

(١٢) ﴿قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ

الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا

أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى لنبية ﷺ: ﴿قُلْ لَهُوَاءَ

المشركين بالله، مقررًا لهم وملزماً بالتوحيد: ﴿لِمَن مَّا فِي

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من الخالق لذلك، المالك له،

المتصرف فيه؟

﴿قُلْ لَهُمْ: لِلَّهِ﴾ وهم مقرون بذلك لا ينكرونه، أفلا

حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير أن يعترفوا له

بالإخلاص والتوحيد؟! وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ أي: العالم العلوي

والسفلي تحت ملكه وتدييره، وهو تعالى قد بسط عليهم

رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه

كتاباً أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع،

وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا

عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها، إن لم تمنعهم من طلبها

معاصيهم وعبوبهم، وقوله: ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ

فِيهِ﴾ وهذا قسم منه، وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على

ذلك من الحجج البينة والبراهين ما يجعله حق اليقين.

ولكن أبي الظالمون إلا جحوداً، وأنكروا قدرة الله على

بعث الخلائق، فأوضعوا في معاصيه، وتجرأوا على الكفر به، ففسروا ديناهم وأخراهم، ولهذا قال: ﴿الذِّينِ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(١٣-٢٠) ﴿وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَخَذُوا لِيَا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُهُمْ وَلَا يُطْعَمُهُمْ قُلْ إِنِّي

أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قُلْ

إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ مَن يَصْرَفْ عَنْهُ

يَوْمَ ذَقْنَاهُ رَحْمَةً. وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾ وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ

فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ

الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ قُلْ أَنَّى تَعْبُدُونَ قُلْ لِلَّهِ

شَهَادَةُ بَيْنِي وَبَيْنِكُمْ وَأُرْسِي إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ لِأَتَذَرَكُمْ بِهِ. وَمَنْ بَلَغَ إِلَيْكُمْ

لِتَشْهَدُونَ أَنِّي مَعَ اللَّهِ. وَاللَّهَ أُخْرِئُ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُي وَعَسَدُ

وَأَنِّي بَرِيءٌ. إِنَّمَا تَشْرِكُونَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ

أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اعلم أن هذه السورة

الكريمة قد اشتملت على تقرير التوحيد بكل دليل عقلي

ونقلي، بل كادت أن تكون كلها في شأن التوحيد، ومجادلة

المشركين بالله المكذبين لرسوله.

فهذه الآيات ذكر الله فيها ما يبين به الهدى، ويتقمع به الشرك.

فذكر أن ﴿لَمْ﴾ تعالى ﴿مَا سَكَنَ فِي أَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾ وذلك هو المخلوقات كلها، من آدميها، وجنّها، وملانكتها، وحيواناتها وجماداتها.

فالكل خلق مدبرون، وعبيد مسخرون لربهم العظيم، القاهر المالك.

فهل يصح في عقل ونقل، أن يعبد من هؤلاء الممالك، الذي لا نفع عنده ولا ضرر؟ ويترك الإخلاص للخالق، المدبر المالك، الضار النافع؟

أم العقول السليمة، والفطر المستقيمة، تدعو إلى إخلاص العبادة، والحب، والخوف، والرجاء لله رب العالمين؟!

﴿النَّسِيعِ﴾ لجميع الأصوات على اختلاف اللغات بتفنن الحاجات ﴿أَلْقَمِي﴾ بما كان، وما يكون، وما لم يكن، لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهر والبواطن.

﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين بالله: ﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وِلِيًّا﴾ من هؤلاء المخلوقات العاجزة، يتولاني، وينصرني؟ فلا أتخذ من دونه تعالى وليًا لأنه فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومدبرهما ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ أي: وهو الرزاق لجميع الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم، فكيف يليق أن أتخذ وليًا غير الخالق الرزاق، الغني، الحميد؟!

﴿قُلْ إِنِّي أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَدُّ﴾ لله بالتوحيد، وأتقاد له بالطاعة. لأنني أولى من غيري، بامتثال أوامري.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: ونهيت أيضًا عن أن أكون من المشركين، لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض عليّ، وأوجب الواجبات.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فإن المعصية في الشرك، توجب الخلود في النار، وسخط الجبار، وذلك اليوم هو اليوم الذي يخاف عذابه، ويحذر عقابه؛ لأنه مَنْ صُرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم، وَمَنْ نجا فيه فهو الفائز حقًا، كما أن مَنْ لم ينج منه، فهو الهالك الشقي.

ومن أدلة توحيده أنه تعالى المنفرد بكشف الضراء، وجلب الخير والسراء. ولهذا قال: ﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من فقر، أو مرض، أو عسر، أو غم، أو همٍّ أو نحوه، ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِبُخْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. فإذا كان وحده النافع الضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية

والإلهية.

﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ فلا يتصرف منهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون، فإذا كان هو القاهر، وغيره مقهورًا، كان هو المستحق للعبادة.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ فيما أمر به ونهى، وأثاب، وعاقب، وفيما خلق وقدر، ﴿الْخَبِيرُ﴾ المطَّلِع على السرائر والضمائر، وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد.

﴿قُلْ﴾ لهم - لما بينا لهم الهدى، وأوضحنا لهم المسالك -: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ على هذا الأصل العظيم؟ ﴿قُلْ اللَّهُ أَكْبَرُ شَهَادَةً﴾ فهو ﴿شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فلا أعظم منه شهادة، ولا أكبر، وهو يشهد لي بإقراره وفعله، فيقرني على ما قلت لكم. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِلِ ○ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ○ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾.

فالله حكيم قدير، فلا يليق بحكمته وقدرته أن يقر كاذبًا عليه، زاعمًا أن الله أرسله ولم يرسله، وأن الله أمره بدعوة الخلق، ولم يأمره، وأن الله أباح له دماء مَنْ خالفه، وأموالهم ونساءهم، وهو مع ذلك يصدق به بإقراره وبفعله، فيؤيده على ما قال بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة، وينصره، ويخذل مَنْ خالفه وعاداه، فأبي شهادة أكبر من هذه الشهادة!!

وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ هَذِهِ الْقُرْآنَ لِأَتَذَكَّرَ بِهِ وَمَنْ يَلْعَلْ﴾ أي: وأوحى الله إلي هذا القرآن، لمنفعتكم ومصالحكم، لأنذركم به من العقاب الأليم، والندارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به، من الترغيب، والترهيب، وبيان الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، التي مَنْ قام بها فقد قبل الندارة.

فهذا القرآن فيه الندارة لكم أيها المخاطبون، وكل مَنْ بلغه القرآن إلى يوم القيامة، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بيّن تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيده، قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله، والمكذبين لرسله: ﴿أَيُّكُمْ لَتَمْبُدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ﴾ أي: إن شهدوا فلا تشهد معهم.

فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين، وشهادة أذكى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة، على توحيد الله وحده لا شريك له، وشهادة أهل الشرك الذين مرجت عقولهم وأديانهم، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء.

بل خالفوا بشهادة فطرهم، وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى، مع أنه لا يقوم على ما قالوه^(١) أدنى شبهة، فضلاً عن الحجج.

واختر لنفسك أي الشهادتين، إن كنت تعقل ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه، الذي أمرنا الله بالافتداء به، فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير.

﴿وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به من الأوثان، والأنداد، وكل ما أشرك به مع الله فهذا حقيقة التوحيد، إثبات الإلهية لله وفيها عماد عداه.

لما بين شهادته، وشهادة رسوله على التوحيد، وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ أي: يعرفون صحة التوحيد ﴿كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ أي: لا شك عندهم فيه بوجه، كما أنهم لا يشبهون بأولادهم، خصوصاً البنين الملازمين في الغالب لأبائهم.

ويحتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشبهون بصحة رسالته، ولا يمترون بها، لما عندهم من البشارات به، ونعوته التي تنطبق عليه، ولا تصلح لغيره، والمعنيان متلازمان.

قوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ أي: فوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك المجيد ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإذا لم يوجد الإيمان منهم، فلا تسأل عن الخسار والشر الذي يحصل لهم.

(٢١) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا أعظم ظلماً وعناداً، ممن كان فيه أحد الوصفين، فكيف لو اجتماعا، افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته التي جاءت بها المرسلون، فإن هذا أظلم الناس، والظالم لا يفلح أبداً.

ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بادعاء^(٢) الشريك له والوعين، أو [زعم] أنه ينبغي أن يعبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولداً، وكل من رد الحق الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم.

(٢٢-٢٤) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ ثم لئلا تكون فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ○ أنظر كيف كذبوا على أنفسهم وصلى عنهم ما كانوا يفترون ○ يخبر تعالى عن مال أهل الشرك يوم القيامة، وأنهم يسألون ويوبخون فيقال لهم: ﴿إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: إن

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ أُذِكرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ إِلَيْكُمْ لِتُشْهِدُونَ أَنِّي مَعَ اللَّهِ هِيَ الْهَيَّةُ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ اللَّهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنِّي سُرَّكَاؤُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَئِنْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَبْهَتُونَ عَنْهُ وَيَنْوُونَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء ﴿ثُمَّ لَئِنْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ﴾ أي: لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين ﴿أَنْظِرْ﴾ متعجباً منهم ومن أحوالهم ﴿كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم - والله - غاية الضر ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٢٥) ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ومن هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعض الأوقات، بعض الدواعي إلى الاستماع لما تقول، ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا يتفقون بذلك الاستماع لعدم إرادتهم للخير.

(١) في ب: على ما خالفوه. (٢) كذا في ب، وفي أ: الدعاء.

حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب. فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهوموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان.

وأما الآخرة، فإنها ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ في ذاتها وصفاتها، وبقائتها ودوامها، وفيها ما تشتهي النفس، وتلد الأعين، من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح.

ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين الذين يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيه وزواجره.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تدركون أي الدارين أحق بالإثارة.

(٣٣-٣٥) ﴿قَدْ نَعَلِمَ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ○ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرًا وَلَا مَبْدِلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُرْسَلِينَ ○ وَإِنْ كَانَ كَرَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنِيَنَّ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: قد نعلم أن الذي يقول المكذبون فيك يحزنك ويسوءك، ولم نأمرك بما أمرك به من الصبر، إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية، فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك، وشك فيك.

﴿فَأِنَّهُمْ لَا يَكَذِبُونَكَ﴾ لأنهم يعرفون صدقك، ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك، حتى إنهم كانوا يسمونه - قبل البعثة - الأمين، ﴿وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ أي: فإن تكذيبهم لآيات الله التي جعلها الله على يديك (١).

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كَذَّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرًا﴾ فاصبر كما صبروا، تظفر كما ظفروا. ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْأُرْسَلِينَ﴾ ما به يثبت فؤادك، ويطمئن به قلبك.

﴿وَإِنْ كَانَ كَرَّ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي: شق عليك من حرصك عليهم، ومحبتك لإيمانهم، فابدل وسعك في ذلك، فليس في مقدورك أن تهدي من لم يرد الله هدايته.

﴿فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْنِيَنَّ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي: فافعل ذلك، فإنه لا يفيدهم شيئاً. وهذا قطع لطمعه في هداية أشباه هؤلاء المعاندين.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ ولكن حكمته تعالى اقتضت أنهم يبقون على الضلال، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا يزلونها على منازلها.

(٣٧، ٣٦) ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ

إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ○ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُزِلَّ آيَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى لنبينا ﷺ: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ﴾ لدعوتك، ويولي رسالتك، وينقاد لأمرك ونهيك ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ بقلوبهم ما ينفهم، وهم أولو الأبواب والأسماع.

والمراد بالسمع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر، فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر في عدم القبول.

﴿وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ يحتمل أن المعنى، مقابل للمعنى المذكور، أي: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم، فإنهم لا يستجيبون لك، ولا يتقادون، وموعدهم القيامة، يبعثهم الله ثم إليه يرجعون.

ويحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون.

ويكون هذا متضمنًا للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: المكذبون بالرسول تعنتًا وعنادًا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح، التي يقرحونها بعقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة.

كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْزِلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ○ أَوْ تَكُونَ لَكِ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَنْزِلُ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا فَتَسْقِيهَا ○ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَزَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِلِأَلِهٍ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا﴾ الآيات.

﴿قُلْ﴾ مجيبًا لقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُزِلَّ آيَةَ﴾ فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء متفاداة لعزته، مذعنة لسلطانه؟.

ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فهم - لجهلهم وعدم علمهم - يطلبون ما هو شر لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها - لعوجلوا بالعقاب، كما هي سنة الله التي لا تبدل لها، ومع هذا فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق، وتوضح السبيل.

فقد أتى محمد ﷺ بكل آية قاطعة، وحجة ساطعة، دالة على ما جاء به من الحق، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من

(١) السياق يقتضي أن يأتي بخبر إن، ومقصود الشيخ - رحمه الله - فإن تكذيبهم... جحد منهم لما علموه حقًا.

سورة الأنعام

١٣٢

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُوبَكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ نِسَاءِ اللَّهِ يُضِلُّهُنَّ وَمَنْ يُشَأْ يَجْعَلُهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةَ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٧٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٧٤﴾

فضله وحكمته .

(٤٠، ٤١) ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةَ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٧١﴾ يقول تعالى لرسوله: ﴿ قُلْ لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ، الْعَادِلِينَ بِهِ غَيْرُهُ ﴾: ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةَ أَغَيَّرَ اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أي: إذا حصلت هذه المشقات، وهذه الكروب، التي يضطر إلى دفعها، هل تدعون آلهتكم وأصنامكم، أم تدعون ربكم الملك الحق المبين .

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ فإذا كانت هذه حالكم مع أندادكم عند الشدائد، تتسولهم، لعلمكم أنهم لا يملكون لكم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً .

وتخلصون لله الدعاء، لعلمكم أنه هو النافع الضار، المجيب لدعوة المضطر، فما بالكم في الرخاء تشركون به،

(١) في ب: بالباطل .

مسائل الدين، أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية ونقلية، بحيث لا تبقى في القلوب أدنى شك وارتياب .

فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأيده بالآيات البينات ليهلك مَنْ هلك عن بينة، ويحيى مَنْ حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم .

(٣٨) ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَيْرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ أي: جميع الحيوانات الأرضية والهوائية، من البهائم والوحوش والطيور، كلها أمم أمثالكم خلقناها كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا، كما كانت نافذة فيكم .

﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي: ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من الأشياء، بل جميع الأشياء، صغيرة وكبيرها، مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم .

وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب:

علم الله الشامل لجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الموجودات، ومشيئته وقدرته النافذة العامة لكل شيء، وخلقته لجميع المخلوقات، حتى أفعال العباد .

ويحتمل أن المراد بالكتاب هذا القرآن، وأن المعنى كالمعنى في قوله تعالى: ﴿ وَرَزَقْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ نَبِيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ .

وقوله: ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ أي: جميع الأمم تحشر وتجمع إلى الله في موقف القيامة، في ذلك الموقف العظيم الهائل، فيجازيهم بعدله وإحسانه، ويمضي عليهم حكمه الذي يحمد عليه الأولون والآخرون، أهل السماء وأهل الأرض .

(٣٩) ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُوبَكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَأِ يَجْعَلُهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله المكذبين لرسوله، أنهم قد سدوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا باب الردى، وأنهم ﴿ مُتَّم ﴾ عن سماع الحق ﴿ وَبِكُمْ ﴾ عن النطق به، فلا ينطقون إلا بباطل (١) .

﴿ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ أي: منغمسون في ظلمات الجهل، والكفر، والظلم، والعناد، والمعاصي، وهذا من إضلال الله إياهم، ف ﴿ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلُّهُ وَمَنْ يَشَأِ يَجْعَلُهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ لأنه المنفرد بالهداية والإضلال، بحسب ما اقتضاه

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ يَحْكُمُ الَّذِينَ يُنَادُونَ لِلَّهِ لِيُقَضِّعَ أَعْيُنَهُمْ فَذَبَحُوا عَنْهُمْ قُلُوبَهُمْ وَهُمْ لَا يَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾^(٤٢) هل يهلك إلا القوم الظالمون الذين صاروا سبباً لوقوع العذاب بهم، بظلمهم وعنادهم، فاحذروا أن تقيموا على الظلم، فإنه الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدى.

﴿وَمَا يُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤٣) والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يكفرون^(٤٤) يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين، أنه البشارة والندارة، وذلك مستلزم لبيان المبشر والمبشر به، والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة، والمنذر والمنذر به، والأعمال التي من عملها حقت عليه الندارة، ولكن الناس انقسموا - بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها - إلى قسمين:

﴿فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ﴾^(٤٥) أي: آمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾^(٤٦) فيما يستقبل ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٤٧) على ما مضى. ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ﴾^(٤٨) أي: ينالهم، ويدوقونه ﴿بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾^(٤٩).

(٥٠) ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنِّي أَنْتَبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٥٠) يقول تعالى لنبينا ﷺ المقترحين^(٥١) عليه الآيات أو القائلين له: إنما تدعوننا لتتخذك إلهًا مع الله:

﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾^(٥٢) أي: مفاتيح رزقه ورحمته ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾^(٥٣) وإنما ذلك كله عند الله، فهو الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يُمسك فلا مرسل له من بعده، وهو - وحده - عالم الغيب والشهادة، ﴿فَلَا يَظْهَرُ عَلَيَّ غَيْبِيهِ أَحَدًا﴾^(٥٤) إلا من أرصن من رسول.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ﴾^(٥٥) فأكون نافذ التصرف قويًا، فلست أدعي فوق منزلتي التي أنزلني الله بها ﴿إِنِّي أَنْتَبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾^(٥٦) أي: هذا غايته ومنتهاى أمري وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إليّ، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كلهم إلى ذلك. فإذا عُرفت منزلتي، فلاي شيء يبحث الباحث معي، أو يطلب مني أمرًا لست أدعيه، وهل يلزم الإنسان، بغير ما هو بصدهه؟.

ولأي شيء - إذا دعوتكم، بما يوحى إليّ - تلزموني أي (١) في ب: أم (٢) زاد هنا في الطبعة السلفية قبل كلمة المقترحين: (ان يخاطب) المقترحين.

وتجعلون له شركاء؟ هل ذلكم على ذلك عقل أو نقل، أم عندكم من سلطان بهذا؟ بل^(٥٧) تفترون على الله الكذب؟

(٤٢-٤٥) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَاعْتَدْتَهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾^(٥٨) فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن ست قلوبهم وزيين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^(٥٩) فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴿يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾^(٦٠) من الأمم السالفين، والقرون المتقدمين، فكذبوا رسلنا، وجحدوا آياتنا ﴿فَاعْتَدْتَهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾^(٦١) أي: بالفقر والمرض والآفات والمصائب، رحمة منا بهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾^(٦٢) إلينا، ويلجأون عند الشدة إلينا.

﴿فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَّرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾^(٦٣) أي: استحجرت فلا تلتن للحق ﴿وَزَيَّنَّ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٦٤) فظنوا أن ما هم عليه دين الحق فتمتعوا في باطلهم برهة من الزمان، ولعب بعقولهم الشيطان.

﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾^(٦٥) من الدنيا ولذاتها وغفلاتها ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾^(٦٦) أي: أيسون من كل خير، وهذا أشد ما يكون من العذاب، أن يؤخذوا على غرة، وغفلة وطمأنينة، ليكون أشد لعقوبتهم، وأعظم لمصيبتهم.

﴿فَقُطِعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾^(٦٧) أي: اصطلموا بالعذاب، وتقطعت بهم الأسباب ﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٦٨) على ما قضاه وقدره من هلاك المكذبين، فإنه بذلك تبين آياته، وإكرامه لأولياته، وإهانته لأعدائه، وصدق ما جاءت به المرسلون.

(٤٦، ٤٧) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَحَمَّ عَلَي قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَّرَ الْأَيْدِي ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾^(٦٩) قل أراءيتكم إن أنكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ﴿يخبر تعالى أنه كما أنه المتفرد بخلق الأشياء وتدبيرها، فإنه المتفرد بالوحدانية والإلهية فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَحَمَّ عَلَي قُلُوبِكُمْ﴾^(٧٠) فبقية بلا سمع ولا بصر ولا عقل ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾^(٧١) فإذا لم يكن غير الله يأتي بذلك، فلم عبديتم معه من لا قدرة له على شيء إلا إذا شاء الله.

وهذا من أدلة التوحيد وبطلان الشرك، ولهذا قال: ﴿أَنْظَرُ كَيْفَ نَصَّرَ الْأَيْدِي﴾^(٧٢) أي: ننوعها، ونأتي بها من كل فن، ولنتير الحق، وتبين سبيل المجرمين ﴿ثُمَّ هُمْ﴾^(٧٣) مع هذا البيان التام ﴿يَصْدِفُونَ﴾^(٧٤) عن آيات الله، ويعرضون عنها.

سورة الأنعام

١٣٣

سورة الأنعام

فَقُطِعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٥﴾

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ

مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفَ الْآيَاتِ

ثُمَّ هُمْ يَصِدْقُونَ ﴿٥٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابَ اللَّهِ

بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا

رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ أَمَنَ وَأَصْلَحَ

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ

عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ

إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا

إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِئَاءٌ وَلَا شَفِيعٌ عَلَيْهِمْ يَنْفِقُونَ

﴿٦١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ

عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾

﴿٥٥﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِئَاءٌ وَلَا شَفِيعٌ عَلَيْهِمْ يَنْفِقُونَ

﴿٥٦﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِئَاءٌ وَلَا شَفِيعٌ عَلَيْهِمْ يَنْفِقُونَ

﴿٥٧﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِئَاءٌ وَلَا شَفِيعٌ عَلَيْهِمْ يَنْفِقُونَ

﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ

﴿٥٩﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ

إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ

أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا

إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِئَاءٌ وَلَا شَفِيعٌ عَلَيْهِمْ يَنْفِقُونَ

﴿٦١﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ

وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ

عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٦٢﴾

﴿٥٥﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِئَاءٌ وَلَا شَفِيعٌ عَلَيْهِمْ يَنْفِقُونَ

﴿٥٦﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِئَاءٌ وَلَا شَفِيعٌ عَلَيْهِمْ يَنْفِقُونَ

﴿٥٧﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِئَاءٌ وَلَا شَفِيعٌ عَلَيْهِمْ يَنْفِقُونَ

﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمْ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ

أدعي لنفسي غير مرتبتي، وهل هذا إلا ظلم منكم، وعناد، وتمرد؟ قل لهم في بيان الفرق بين مَنْ قَبِلَ دَعْوَتِي، وانقاد لما أُوْحِيَ إِلَيَّ وبين مَنْ لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ - ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ فتنزلون الأشياء منازلها، وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيتار؟ .

(٥٥-٥١) ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وِئَاءٌ وَلَا شَفِيعٌ عَلَيْهِمْ يَنْفِقُونَ﴾ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّكِرِينَ﴾ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ نَفْسَهُ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْآيَاتِ وَلِتَسْتبين سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ هذا القرآن نذارة للخلق كلهم، ولكن إنما ينتفع به ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار، فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدعون ما يضرهم .

﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ﴾ أي: لا من يتولى أمرهم؛ فيحصل لهم المطلوب، ويدفع عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم، لأن الخلق كلهم، ليس لهم من الأمر شيء .

﴿عَلَيْهِمْ يَنْفِقُونَ﴾ الله بامتنال أو امره، واجتناب نواهيهِ، فإن الإنذار موجب لذلك، وسبب من أسبابهِ .

﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: لا تطرد عنك، وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص، رغبة في مجالسة غيرهم، من الملازمين لدعاء ربهم، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة، في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل .

فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل هم مستحقون لموالاتهم ومحبتهم، وإدنائهم وتقريبهم، لأنهم الصفة من الخلق وإن كانوا فقراء، الأجزاء في الحقيقة وإن كانوا عند الناس أذلاء .

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: كل له حسابه، وله عمله الحسن، وعمله القبيح . ﴿فَطَرَدَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء من المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألان لهم جانبه، وحسن خلقه،

وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم .

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن أناساً [من قريش، أو]

من أجلاف العرب، قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن تؤمن لك

وتتبعك، فاطرد فلاناً وفلاناً، أناساً من فقراء الصحابة، فإننا

نستحيي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء .

فحمله حبه لإسلامهم واتباعهم له، فحدثته نفسه بذلك،

فعاتبه الله بهذه الآيات ونحوها .

﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: هذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم

غنياً؛ وبعضهم فقيراً، وبعضهم شريفاً، وبعضهم ضيعاً، فإذا

مَنَّ اللهُ بالإيمان على الفقير، أو الوضيع؛ كان ذلك محل محنة

للغني والشريف .

فإن كان قصده الحق واتباعه آمن وأسلم، ولم يمنعه من

ذلك مشاركة الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن

صادقاً في طلب الحق، كانت هذه عقبة ترده عن اتباع الحق .

وقالوا محتقرين لمن يرونهم دونهم: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ

عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ فمنعهم هذا من اتباع الحق، لعدم زكائهم،

قال الله - مجيباً لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء، وعدم هدايتهم هم: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقومون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومثته عليهم، دون من ليس بشاكر.

فإن الله تعالى حكيم، لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف بخلاف من الله عليهم بالإيمان، من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون، ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين، أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: وإذا جاءك المؤمنون، فحييهم، ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلاماً، وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم، من رحمة الله، وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق يوصل لذلك.

ورهبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي، لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ﴾ أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإفلاع والندم عليها، من إصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة.

فإذا وجد ذلك كله ﴿فَأَنذِرْ عَفُورًا رَّجِيمًا﴾ أي: صب عليهم من مغفرتهم ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به.

﴿وَكَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغبي والرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون، ويتبين الحق الذي ينبغي سلوكه.

﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾ الموصلة إلى سحق الله وعذابه، فإن سبيل المجرمين إذا استبان وتوضحت، أمكن اجتنابها، والتباعد منها، بخلاف ما لو كانت مشتبهة ملتبس، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.

(٥٦-٥٨) ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لَّا أُنَبِّئُكُمْ بِهِمْ قَدْ صَلَّيْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَبِينَ﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عَنِيدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَصِّلِينَ﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفَضَيْتُ الْأُمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: ﴿إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإن هذا باطل، وليس لكم فيه حجة ولا

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٣٤

الْحَمْدُ لِلَّهِ

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهْتُولَاءُ مِن اللَّهِ

عَلَيْهِمْ مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَإِذَا

جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ

رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا

بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنذِرْ عَفُورًا رَّجِيمًا ﴿٥٧﴾

وَكَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِيَتَسَبَّحُوا بِسَمِيٍّ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُلْ لَّا أُنَبِّئُكُمْ

أَهْوَاءَكُمْ قَدْ صَلَّيْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَبِينَ ﴿٥٩﴾

قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عَنِيدِي مَا

تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ

الْفَصِّلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفَضَيْتُ

الْأُمْرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَعِلْمُهُ مَا فِي

الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ رِّقَّةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةَ

فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَأْسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾

شبهة، إلا اتباع الهوى الذي اتباعه أعظم الضلال.

ولهذا قال: ﴿قُلْ لَّا أُنَبِّئُكُمْ بِهِمْ قَدْ صَلَّيْتُ إِذَا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَبِينَ﴾ بوجه من الوجوه، وأما ما أنا عليه من توحيد الله، وإخلاص العمل له، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة.

وأنا ﴿عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: على يقين مبين، بصحته، وبطلان ما عداه، وهذه شهادة من الرسول جازمة، لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود من الخلق على الإطلاق، فصدق بها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها، بحسب ما من الله به عليهم.

﴿و﴾ لكنكم أيها المشركون - ﴿كَذَّبْتُم بِهِ﴾ وهو لا يستحق هذا منكم، ولا يليق به إلا التصديق، وإذا استمررتم^(١) على تكذيبكم، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة وهو عند الله، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء، وكيف شاء، وإن استعجلتم به فليس بيدي من الأمر شيء ﴿إِنَّ الْحُكْمَ

(١) كذا في ب، وفي أ: استمررتم.

الشهيد، المحيط.

وجل من إله لا يحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، فهذه الآية دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط، بجميع الحوادث.

(٦٠-٦٢) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُوَفِّيكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِقَاضٍ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدِكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ۝ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ هذا كله تقرير لالوهيته، واحتجاج على المشركين به، وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، فأخبر أنه وحده المتفرد بتدبير عباده، في يقظتهم ومنامهم، وأنه يتوفاهم بالليل وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم، وتستريح أبدانهم، ويعتهم في اليقظة من نومهم، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية.

وهو - تعالى - يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال، ثم لا يزال تعالى هكذا يتصرف فيهم، حتى يستوفوا آجالهم، فيقضى بهذا التدبير أجل مسمى، وهو: أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ لا إلى غيره ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر. ﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيئته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحركون، ولا يسكنون إلا بإذنه.

ومع ذلك فقد وكل بالعباد حفظة من الملائكة، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَبِيرِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾، ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قُدُودٌ ۝ مَا يَلْفِطُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ فهذا حفظه لهم في حال الحياة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدِكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح، ﴿وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾ في ذلك، فلا يزيدون ساعة مما قدره الله وقضاه، ولا ينقصون، ولا ينفذون من ذلك، إلا بحسب المراسيم الإلهية، والتقادير الربانية.

﴿ثُمَّ﴾ بعد الموت والحياة البرزخية، وما فيها من الخير والشر ﴿رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ أي: الذي تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب.

ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويثيبهم على ما

إِلَّا لِلَّهِ﴾ فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي، فأمر ونهى، فإنه سيحكم بالحكم الجزائي، فيثيب ويعاقب بحسب ما تقتضيه حكمته، فالاعتراض على حكمه مطلقاً مدفوع، وقد أوضح السبيل، وقص على عباده الحق قصاً، قطع به معاذيرهم، وانقطعت له حججهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة.

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ بين عباده في الدنيا والآخرة، فيفصل بينهم فصلاً، يحمده عليه حتى من قضي عليه، ووجه الحق نحوه.

﴿قُلْ﴾ للمستعجلين بالعذاب، جهلاً وعناداً وظلماً: ﴿لَوْ أَنِّي عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَفُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فأوقعته بكم، ولا خير لكم في ذلك.

ولكن الأمر عند الحليم الصبور، الذي يعصيه العاصون، ويتجرأ عليه المتجربون، وهو يعافهم، ويرزقهم، ويسدي عليهم نعمه، الظاهرة والباطنة. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يمهلهم.

(٥٩) ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْوَعْدِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ رِزْقِهِ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً، لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار، من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك، مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنَ رِزْقِهِ﴾ من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة، إلا يعلمها ﴿وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ مِنَ الْأَرْضِ﴾ من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذر الخلق؛ وبذور النواكب البرية التي ينشأ منها أصناف النباتات.

﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَأْسٌ﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ، قد حواها واشتمل عليها، وبعض هذا المذكور يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته، في أوصافه كلها.

وأن الخلق - من أولهم إلى آخرهم - لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة، ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع العليم، الحميد، المجيد،

الْبَاطِلَاتِ

١٣٥

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُم الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ مَنْ يُحْيِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُوهُ، تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٩﴾ قُلِ اللَّهُ يَتَحَيَّرُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْأَيْمَانَ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٧١﴾ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٧٢﴾ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٧٤﴾

بَعْضٌ ﴿٧١﴾ أي: في الفتنة، وقتل بعضكم بعضًا.

فهو قادر على ذلك كله، فاحذروا من الإقامة على معاصيه، فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك، ولكن من رحمته أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم، والحصب، ونحوه، ومن تحت أرجلهم بالخسف.

ولكن عاقب من عاقب منهم، بأن أذاق بعضهم بأس بعض، وسلط بعضهم على بعض، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون، ويشعر بها العالمون^(١).

﴿أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: نوعها، ونأتي بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق ﴿لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ أي: يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية، والمطالب الإلهية.

﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ أي: بالقرآن ﴿قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتبره ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أحفظ أعمالكم،

(١) في ب: العالمون.

عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبتته في اللوح المحفوظ، ثم أثبتته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم.

فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدري، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، فأين للمشركين العدول عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة مَنْ لَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، ولا عنده مقال ذرة من النفع، ولا له قدرة وإرادة!!

أما والله! لو علموا حلم الله عليهم، وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزون بالشرك والكفران، ويتجرؤون على عظمتهم بالإفك والبهتان، وهو يعافيههم ويرزقهم لانجذبت دواعيهم إلى معرفته، وذهلت عقولهم في حبه. ولمقتوا أنفسهم أشد المقت، حيث اتقادوا للداعي الشيطان، الموجب للخزي والخسران، ولكنهم قوم لا يعقلون.

(٦٣، ٦٤) ﴿قُلْ مَنْ يُحْيِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ تَدْعُوهُ تَضَرَّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ○ قُلِ اللَّهُ يَتَحَيَّرُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٠﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله، الداعين معه آلهة أخرى، ملزمًا لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، على ما أنكروا من توحيد الإلهية: ﴿مَنْ يُحْيِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ أي: شداثدهما ومشقاتهما، وحين يتعدرو أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدعون ربكم تضرعًا بقلب خاضع، ولسان لا يزال يلهج بحاجته في الدعاء، وتقولون - وأنتم في تلك الحال: ﴿لَّئِنْ أَجَبْنَا مِنْ هَذِهِ﴾ الشدة التي وقعنا فيها ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لله أي: المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يبذلوها في معصيته.

﴿قُلِ اللَّهُ يَتَحَيَّرُكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ أي: من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكروب العامة ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ لا تفون لله بما قاتم، وتسنون نعمه عليكم فأب برهان أوضح من هذا؛ على بطلان الشرك، وصحة التوحيد!!

(٦٥-٦٧) ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرْتُ الْأَيْمَانَ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾ ○ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ○ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ أي: هو تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة: ﴿مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ﴾ أي: يخلطكم ﴿شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ

وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ.

﴿لِكُلِّ بَلٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: وقت يستقر فيه، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر، ﴿وَسَوْفَ نَقَامُونَ﴾ ما توعدون به من العذاب.

اللَّهُ وَلِيُّ وَلَا سَفِيحٌ وَإِنْ تَمَدَّلْ كُلٌّ عَدَلٍ لَا يُؤَخِّدُ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿المقصود من العباد أن يخلصوا لله الدين، بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويبدلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه، وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه، وكون سعي العبد نافعاً، وجدّاً لا هزلاً، وإخلاصاً لوجه الله، لا رياء وسمعة.

هذا هو الدين الحقيقي الذي يقال له دين، فأما من زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعباً ولهواً، بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه يبدنه، لأن العمل والسعي إذا كان لغير الله فهو لعب. فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويحذر، ولا يعتز به، وتنتظر حاله، ويحذر من فعّاله، ولا يعتز بتعويقه عمّا يقرب إلى الله.

﴿وَذَكَّرَ بِهِ﴾ أي: ذكر بالقرآن ما ينفع العباد، أمراً، وتفصيلاً، وتحسيناً له، بذكر ما فيه من أوصاف الحُسن، وما يضر العباد نهياً عنه، وتفصيلاً لأنواعه، وبيان ما فيه من الأوصاف القبيحة الشنيعة، الداعية لتركه.

وكل هذا لثلاث تسبل نفس بما كسبت، أي: قبل اقتحام العبد للذنوب وتجرئه على علام الغيوب، واستمراره على ذلك المرهوب، فذكرها، وعظها؛ لترتدع وتزجر، وتكف عن فعلها.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا سَفِيحٌ﴾ أي: قبل [أن] تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون الله أحد، ولا يشفع لها شافع.

﴿وَإِنْ تَمَدَّلْ كُلٌّ عَدَلٍ﴾ أي: تفندي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهباً ﴿لَا يُؤَخِّدُ مِنْهَا﴾ أي: لا يقبل ولا يفيد. ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿الَّذِينَ أُبْسِلُوا﴾ أي: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك ﴿بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء حار، قد انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

(٧١-٧٣) ﴿قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا اللَّهُ كَالَّذِي أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُمْ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ أُوْتَيْنَا قُلْ هُدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُزْمِنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَأَن أَمِينُوا الصَّلَاةَ وَأَتَقَوْهُ

(٦٨، ٦٩) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي ءَايَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِتُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِن حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله. فأمر الله رسوله أصلاً، وأتمه تبعاً، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل والاستمرار على ذلك، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره. فإذا كان في كلام غيره زال النهي المذكور.

فإن كان مصلحة كان مأموراً به، وإن كان غير ذلك كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل حث على البحث والنظر والمناظرة بالحق.

ثم قال: ﴿وَإِمَّا يُنسِتُكَ الشَّيْطَانُ﴾ أي: بأن جلست معهم، على وجه النسيان والغفلة ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ يشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمحرّم، أو فاعل لمحرّم، فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر، الذي لا يقدر على إزالته.

هذا النهي والتحريم لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم، فيتربط على ذلك زوال الشر أو تخفيفه - فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَنْقُوتُ مِن حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: ولكن ليذكرهم، ويعظهم، لعلهم يتقون الله تعالى.

وفي هذا دليل على أنه ينبغي أن يستعمل المذكور من الكلام ما يكون أقرب إلى حصول مقصود التقوى، وفيه دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ، مما يزيد الموعوظ شراً إلى شره، إلى أن تركه هو الواجب^(١)، لأنه إذا ناقض المقصود، كان تركه مقصوداً.

(٧٠) ﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَمِبًا وَلَهُمْ وَعَرَتَهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِمْ أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ

(١) في ب: كان تركه هو الواجب

الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ

١٣٦

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لِلْمُشْرِكِينَ بِاللَّهِ، الدَّاعِينَ مَعَهُ غَيْرِهِ، الَّذِينَ يَدْعُونَكُمْ إِلَى دِينِهِمْ، مَبِينًا وَشَارِحًا لَوْصَفِ آلِهَتِهِمْ، الَّتِي يَكْتَفِي الْعَاقِلُ بِذِكْرِ وَصْفِهَا، عَنِ النَّهْيِ عَنْهَا، فَإِنَّ كُلَّ عَاقِلٍ إِذَا تَصَوَّرَ مَذْهَبَ الْمُشْرِكِينَ جَزَمَ بِبَطْلَانِهِ قَبْلَ أَنْ تَقَامَ الْبُرَاهِينُ عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾.

وهذا وصف يدخل فيه كل من عبد من دون الله، فإنه لا ينفع ولا يضر، وليس له من الأمر شيء، إن الأمر لإله الله.

﴿وَتُرَدُّ عَلَيَّ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهَ﴾ أي: ونقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم، إلى الطرق التي تفضي بسالكها إلى العذاب الأليم.

فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد، وصاحبها ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه، الموصل إلى مقصده، بقبي ﴿حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعين حائرًا.

وهذه حال الناس كلهم، إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي^(١) متعارضة، ودواعي^(٢) الرسالة والعقل الصحيح، والفتنة المستقيمة ﴿يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾ والصعود إلى أعلى عِلين.

ودواعي^(٣) الشيطان، ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة بالسوء، يدعونه إلى الضلال، والتزول إلى أسفل سافلين، فمن الناس من يكون مع داعي الهدى، في أموره كلها أو أغلبها.

ومنهم من بالعكس من ذلك.

ومنهم من يتساوى لديه الداعيان، ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ أي: ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداه فهو ضلال وردى وهلاك ﴿وَأْمُرْنَا لِلسُّلْمِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بأن نقاد لتوحيده، ونستسلم لأوامره ونواهيها، وندخل تحت رق عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية وأصلها إليهم.

﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها ﴿وَأَتَّقُوا﴾ بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنه نهى ﴿وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ليأمر العباد وينهاهم، ويشبههم ويعاقبهم ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه ولا مثوية، ولا يقول شيئًا عبثًا ﴿وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ أي: يوم القيامة، خصه بالذكر - مع أنه مالك كل شيء - لأنه تقطع فيه الأملاك، فلا يبقى ملك إلا لله الواحد القهار ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ الذي له الحكمة التامة، والنعمة السابعة، والإحسان العظيم، والعلم المحيط بالسرائر والبواطن والخفايا، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

(٧٤-٨٣) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ اعْبُدْ مَا عَٰبَدُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾

(١) كذا في ب، وفي أ: دواع. (٢) كذا في ب، وفي أ: داع. (٣) كذا في ب، وفي أ: داعي.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ رَأَى أَنَّهُ اتَّخَذَ أَصْنَامًا ۗ اللَّهُ إِنِّي بَرُّكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْفَوِرَ فِي بَرٍّ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۖ قَالَ أَتُحْجُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۖ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ ۚ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۖ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾

﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فترا من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان، [وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة، من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها، وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفولته، فليس عليه دليل^(١).

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۖ قَالَ أَتُحْجُونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ﴾ أي فائدة لمحااجة من^(٢) لم يتبين له الهدى؟ فأما من هداه الله، ووصل إلى أعلى درجات اليقين، فإنه - هو بنفسه - يدعو الناس إلى ما هو عليه.

﴿وَلَا أَخَافُ مَا تَشْرِكُونَ بِهِ﴾ فإنها لن تضرنني، ولن تمنع عني من النفع شيئاً ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۖ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أنه - وحده - المعبود المستحق للعبودية.

﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ﴾ وحالها حال العجز، وعدم النفع ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ

(١) زيادة من هامش ب، وهي بخط الشيخ - رحمه الله - . (٢) كذا في ب، وفي أ: المحااجة لمن.

﴿إِنِّي أَرَى أَنَّكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ إلى آخر القصة، يقول تعالى: واذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، مثنياً عليه ومعظماً في حال دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك، إذ قال لأبيه أزر:

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ۗ اللَّهُ أَي: لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء، ﴿إِنِّي أَرَى أَنَّكَ وَفَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيث عدتم من لا يستحق من العبادة شيئاً، وتركتهم عبادة خالقكم، ورازقكم، ومدبركم.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ حين وفقناه للتوحيد والدعوة إليه ﴿نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليرى ببصيرته ما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾. فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإيقان، والعلم التام، بجميع المطالب.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ أي: أظلم ﴿رَأَى كَوْكَبًا﴾ لعله من الكواكب المضئية، لأن تخصيصه بالذكر يدل على زيادته عن غيره؛ ولهذا - والله أعلم - قال من قال: إنه الزهرة.

﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ أي: على وجه النزول مع الخصم أي: هذا ربي، فهل منظر، هل يستحق الربوبية؟ وهل يقوم لنا دليل على ذلك؟ فإنه لا ينبغي لعاقل أن يتخذ إلهه هواه بغير حجة ولا برهان.

﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي: غاب ذلك الكوكب ﴿قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفَلِينَ﴾ أي: الذي يغيب ويختفي عمن عبده، فإن المعبود لا بد أن يكون قائماً بمصالح من عبده، ومدبراً له في جميع شؤونه.

فأما الذي يمضي وقت كثير وهو غائب، فمن أين يستحق العبادة؟ وهل اتخاذه إلهاً إلا من أسفه السفه، وأبطل الباطل؟

﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ أي: طالعا، رأى زيادته على نور الكواكب ومخالفته لها ﴿قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ تنزلاً ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ فافتقر غاية الافتقار إلى هداية ربه، وعلم أنه إن لم يهده الله فلا هادي له، وإن لم يعنه على طاعته فلا معين له.

﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً ۖ قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ﴾ من الكوكب ومن القمر، ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ﴾ تقرر حينئذ الهدى، وازمحل الردى ف ﴿قَالَ يَنْفَوِرَ فِي بَرٍّ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ حيث قام البرهان الصادق الواضح على بطلانه.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أي: لله وحده، مقبلاً عليه، معرضاً عن من سواه ﴿وَمَا أَنَا

سَلَطْنَا ۖ أَي: إلا بمجرد اتباع الهوى ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ﴾
 إن كنتم تعلمون .

قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَّابُوا﴾
 بَلِّغُوا ۖ أَي: يبلغوا ﴿إِيْمَانَهُمْ يَبْلُغُوا أَوْلِيَّتِكَ لِمَنْ أَلْمَنُوا وَهُمْ
 مُتَّهَدُونَ﴾ الأمن من المخاوف، والعذاب والشقاء، والهداية
 إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم
 مطلقاً، لا بشرك، ولا بمعاصي، حصل لهم الأمن التام،
 والهداية التامة .

وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم
 يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن،
 وإن لم يحصل لهم كمالها .

ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمان،
 لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء .
 ولما حكم لإبراهيم عليه السلام بما بين به من البراهين
 القاطعة قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أَي:
 علا بها عليهم، وפלجهم بها .

﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ شَأْنٍ﴾ كما رفعا درجات إبراهيم عليه
 السلام في الدنيا والآخرة، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق
 العباد درجات، خصوصاً العالم العامل المعلم، فإنه يجعله
 الله إماماً للناس بحسب حاله، ترمق أفعاله، وتفتى آثاره،
 ويستضاء بنوره، ويمشى بعلمه في ظلمة ديجوره .

قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
 دَرَجَاتٍ﴾ .

﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فلا يضع العلم والحكمة، إلا في
 المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل، وبما ينبغي له .

(٨٤-٩٠) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا
 وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ
 وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ
 وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُصَلِّينَ ۝ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا
 وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ۝ وَمِن ءَابَائِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ
 وَأَجْنِبَتِهِمْ وَهَدَيْنَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ
 مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ أُولَٰئِكَ
 الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هُنَّآءَ فَقَدْ
 كَفَرُوا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْتِهِمْ
 أَقْتَدَ ۚ قُلْ لَّا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ لما ذكر
 الله تعالى عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، وذكر ما من الله
 عليه به من العلم والدعوة والصبر، ذكر ما أكرمه الله به من
 الذرية الصالحة، والنسل الطيب، وأن الله جعل صفوة الخلق

الْبَرَاءَةِ

١٣٨

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ
 وَهُمْ مُّهِتَدُونَ ﴿٨٤﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا ءَاتَيْنَهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ
 قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ شَأْنٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٥﴾
 وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا
 هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ
 وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٦﴾
 وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٨٧﴾
 وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَىٰ
 الْعَالَمِينَ ﴿٨٨﴾ وَمِن ءَابَائِهِمْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ
 وَاجْنِبَتِهِمْ وَهَدَيْنَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٩﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي
 بِهِ مَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ
 فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هُنَّآءَ فَقَدْ كَفَرُوا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ
 ﴿٩١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْتِهِمْ أَقْتَدَ ۚ قُلْ لَّا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِن هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٢﴾

من نسله، وأعظم بهذه المنقبة والكرامة الجسيمة، التي لا
 يدرك لها نظير فقال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابنه،
 الذي هو إسرائيل، أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين .
 ﴿كُلًّا﴾ منهما ﴿هَدَيْنَا﴾ الصراط المستقيم، في علمه
 وعمله .

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا﴾ ﴿مِن قَبْلُ﴾ وهدايته من أنواع الهدايات
 الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم؛ وهم أولو العزم
 من الرسل، الذي هو أحدهم .

﴿مِن ذُرِّيَّتِهِ﴾ يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح، لأنه
 أقرب مذكور، لأن الله ذكر مع من ذكر لوطاً، وهو من ذرية
 نوح، لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه .

ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم؛ لأن السياق في
 مدحه والثناء عليه،

ولوط - وإن لم يكن من ذريته - فإنه ممن آمن على يده،
 فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك أبلغ من كونه مجرد ابن له .

﴿قُلْ﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِمْ أَجْرًا﴾ أي: لا أطلب منكم مغرمًا ومالًا، جزاء عن إبلاغي إياكم، ودعوتي لكم فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على الله ﴿إِنَّهُ هُوَ إِلَهُ الْكَرِيمِ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم في ذنوبهم، ويتذكرون به معرفة ربهم، بأسمائه، وأوصافه، ويتذكرون به الأخلاق الحميدة، والطرق الموصلة إليها، والأخلاق الرذيلة، والطرق المفضية إليها، فإذا كان ذكرى للعالمين، كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم، فعليهم قبولها والشكر عليها.

(٩١) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْمَعُونَهُ قَرَأْتُمُ بُدُونَهَا وَمُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُهُ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ تَعَزَّاهُمْ فِي حَوَاضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ هذا تشنيع على من نفى الرسالة، [من اليهود والمشركين،] ^(١) وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء، فمن قال هذا، فما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق عظمته، إذ هذا قدح في حكمته، وزعم أنه يترك عباده هملاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفى لأعظم منة، امتن الله بها على عباده، وهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة، والكرامة، والفلاح، إلا بها، فأبي قدح في الله أعظم من هذا؟!!

﴿قُلْ﴾ لهم - ملزمًا بفساد قولهم وقرهرهم، بما به يقرون - : ﴿مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ لِيَجْمَعُونَهُ قَرَأْتُمُ بُدُونَهَا وَمُخْفُونَ كَثِيرًا وَعَلَّمْتُهُ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ تَعَزَّاهُمْ فِي حَوَاضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ وهو التوراة العظيمة ﴿نُورًا﴾ في ظلمات الجهل ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة، وهاديًا إلى الصراط المستقيم علمًا وعملاً، وهو الكتاب الذي شاع وذاع، وملاً ذكره القلوب والأسماع، حتى إنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس، ويتصرفون فيه بما شاءوا، فما وافق أهواءهم منه أبدوه وأظهروه، وما خالف ذلك أخفوه وكنموه، وذلك كثير.

﴿وَعَلَّمْتُهُ﴾ من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا ءَابَاؤُكُمْ﴾ فإذا سألتهم عن من أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات فأجب عن هذا السؤال ﴿قُلِ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَهُ، فحينئذ يتضح الحق، وينجلي مثل الشمس، وتقوم عليهم الحجة، ثم إذا ألزمتهم بهذا الإلزام ﴿ذَرَهُمْ فِي حَوَاضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: اتركهم يخوضوا في الباطل، ويلعبوا بما لا فائدة فيه، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

(٩٢) ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ

﴿دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ بن داود ﴿وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ﴾ بن يعقوب ﴿وَمُوسَى وَهَارُونَ﴾ ابني عمران ﴿وَكَذَلِكَ﴾ كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل، لأنه أحسن في عبادة ربه، وأحسن في نفع الخلق ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ بأن نجعل لهم من الثناء الصدق، والذرية الصالحة بحسب إحسانهم.

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى﴾ ابنه ﴿وَعِيسَى﴾ ابن مريم ﴿وَالِيسَى كُلٌّ﴾ من هؤلاء ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم، وأمتهم.

﴿وَأِسْمَاعِيلَ﴾ بن إبراهيم أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، والوالد سيد ولد آدم محمد ﷺ ﴿وَيُوسُفَ﴾ بن متى ﴿وَلُوطًا﴾ بن هاران، أخي إبراهيم ﴿وَكُلًّا﴾ من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ لأن درجات الفضائل أربع - وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق.

فالرسل الذين قصهم الله في كتابه، أفضل ممن لم يقص علينا نبأهم بلا شك.

﴿وَمِنَ ءَابَائِهِمْ﴾ أي: آباء هؤلاء المذكورين ﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ أي: وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم. ﴿وَأَخِيَّتِهِمْ﴾ أي: اخترناهم ﴿وَهَدَيْتَهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ الهدى المذكور ﴿هُدًى اللَّهِ﴾ الذي لا هدى إلا هداة. ﴿يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مَن يَّعَادِهِ﴾ فاطلبوا منه الهدى فإنه إن لم يهدكم، فلا هادي لكم غيره، وممن شاء هدايته هؤلاء المذكورون.

﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾ فإن الشرك محبط للعمل، موجب للخلود في النار، فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار، لو أشركوا - وحاشاهم - لحبطت أعمالهم، فغيرهم أولى.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ المذكورون ﴿الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ فَأَتَدِبُهُمْ﴾ أي: امش - أيها الرسول الكريم - خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار، واتبع ملتهم.

وقد امتثل ﷺ، فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم. فاجتمعت لديه فضائل وخصائص، فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين، وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وبهذا الملحظ استدل بهذه من استدل من الصحابة، أن رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم.

الْحَقِّ وَالْحَقِّ

١٣٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۗ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعِلْمِمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاءُكُمْ قُلِ اللَّهُ شَرَّ ذَرَاهِمَ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٣﴾

وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مَبْرُوكٌ مُّصَدِّقٌ لِّلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٤﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمَا خَوْلَانِكُمْ وَرَأَىٰ ظُهُورَكُمُ الْيَوْمَ جُجُرُونَ ﴿٩٦﴾ وَالَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٧﴾

الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٣﴾ أي: وهذا القرآن الذي (أنزلناه) إليك ﴿مُبْرَكٌ﴾ أي: وصفه البركة، وذلك لكثرة خيراته، وسعة مبراته ﴿مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: موافق للكتب السابقة، وشاهد لها بالصدق.

﴿وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: وأنزلناه أيضًا؛ لننذر أم القرى، وهي مكة المكرمة، ومن حولها من ديار العرب، بل ومن سائر البلدان، فتحذر الناس عقوبة الله، وأخذة الأمم، وتحذرهم مما يوجب ذلك.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ لأن الخوف إذا كان في القلب، عمرت أركانها، وانتقد لمراضي الله.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يداومون عليها، ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وأدابها، ومكملاتها، جعلنا الله منهم.

(٩٤، ٩٣) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ ولقد جئتمونا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُمَا خَوْلَانِكُمْ وَرَأَىٰ ظُهُورَكُمُ الْيَوْمَ جُجُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَالَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٦﴾ يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلماً، ولا أكبر جرماً، ممن كذب [على] الله، بأن نسب إلى الله قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق، لأن فيه من الكذب، وتغيير الأديان، أصولها، وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله - ما هو من أكبر المفاسد.

ويدخل في ذلك ادعاء النبوة، وأن الله يوحى إليه، وهو كاذب في ذلك، فإنه - مع كذبه على الله، وجرأته على عظمته وسلطانه - يوجب على الخلق أن يتبعوه، ويجاهدهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.

ويدخل في هذه الآية كل من ادعى النبوة، كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والمختار، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف.

﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ أي: ومن أظلم ممن زعم أنه يقدر على ما يقدر الله عليه، ويجاري الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع كما شرعه الله؟ ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله.

وأى ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات، الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته!!

ولما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ﴾ أي: شدائده وأهواله الفظيعة، وكرهه الشنيعة - لرأيت أمراً هائلاً، وحالة لا يقدر الواصف أن يصفها.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ إلى أولئك الظالمين المحترضين بالضرب، والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعصيبها للخروج من الأبدان: ﴿أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويدلكم، والجزاء من جنس العمل.

فإن هذا العذاب ﴿بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ من كذبكم عليه، ورددكم للحق، الذي جاءت به الرسل ﴿وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: ترفعون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها، وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب، والعذاب الموجه إليهم إنما هو عند

وعظمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ اللَّحْمِ﴾ شامل لسائر الحبوب، التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها، كالحبوب التي يبثها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت، على اختلاف أنواعها، وأشكالها، ومنافعها.

وفلق النوى عن الأشجار، من النخيل، والفواكه، وغير ذلك، فيتنفع الخلق من الآدميين والأنعام والدواب، ويرتعون فيما فلق الله، من الحب، والنوى، ويقتاتون، ويتنفعون بجميع أنواع المنافع، التي جعلها الله في ذلك.

ويريهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول، ويذهل الفحول، ويريهم من بدائع صنعته، وكمال حكمته، ما به يعرفونه ويوحّدونه، ويعلمون أنه هو الحق، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج من المني حيواناً، ومن البيضة فرخاً، ومن الحب والنوى زرعاً وشجراً.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح ﴿يَنْزِلُ الْحَبَّ﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع والنوى والحب، ويخرج من الطائر بيضاً ونحو ذلك.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتبديرها ﴿اللَّهُ﴾ ربكم أي: الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربّى جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه ﴿فَأَنْزَلَ نُورَهُ﴾ أي: فأنى تصرفون، وتصدون عن عبادة مَنْ هذا شأنه، إلى عبادة مَنْ لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً!!

ولما ذكر تعالى مادة خلق الأقوات، ذكر منته بتهيئة المساكن، وخلق كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ أي: كما أنه فالق الحب والنوى، كذلك هو فالق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئاً فشيئاً، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ومعاشهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم إلا بوجود النهار والنور ﴿جَمَلَ اللَّهُ﴾ ﴿أَيْلَ سَكَا﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ونامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك بالضياء، وهكذا أبداً إلى يوم القيامة.

الاحتضار، وقبيل الموت وبعده، وفيه دليل على أن الروح جسم، يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد، ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ.

وأما يوم القيامة، فإنهم إذا وردوها، وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال، ولا أولاد ولا جنود، ولا أنصار، كما خلقهم الله أول مرة، عارين من كل شيء، فإن الأشياء إنما تتمول وتحصل بعد ذلك بأسبابها، التي هي أسبابها.

وفي ذلك اليوم تقطع جميع الأمور التي كانت مع العبد في الدنيا، سوى العمل الصالح، والعمل السيئ، الذي هو مادة الدار الآخرة، الذي تنشأ عنه، ويكون حسنها وقبحها، وسرورها وغمومها، وعذابها ونعيمها، بحسب الأعمال، فهي التي تنفع أو تضر، وتساء أو تسر، وما سواها من الأهل والولد، والمال والأنصار، فعواري خارجية، وأوصاف زائلة، وأحوال حائلة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَبِّكُمْ مَا حَوَّلْنَكُمْ﴾ أي: أعطيناكم، وأنعمنا به عليكم ﴿وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ لا يغنون عنكم شيئاً ﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾.

فإن المشركين يشركون بالله، ويعبدون معه الملائكة، والأنبياء والصالحين، وغيرهم، وهم كلهم لله، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم، وشركة في عبادتهم، وهذا زعم منهم وظلم، فإن الجميع عبيد لله، والله مالِكهم، والمستحق لعبادتهم، فشرِكهم في العبادة، وصرَفها لبعض العبيد، تنزيل لهم منزلة الخالق المالك، فيويخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة.

﴿وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾ لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ﴾ أي: تقطعت الوصل والأسباب بينكم وبين شركائكم، من الشفاعة وغيرها. فلم تنفع ولم تُجِد شيئاً.

﴿وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ من الربح، والأمن، والسعادة، والنجاة، التي زينها لكم الشيطان، وحسنها في قلوبكم، فنقطت بها ألسنتكم. واغتررت بهذا الزعم الباطل، الذي لا حقيقة له، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم، وأهلكم، وأموالكم.

(٩٥-٩٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ اللَّحْمِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمْ اللَّهُ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَمَلَ أَيْلَ سَكَا وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَبْتَذَرُوا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ يخبر تعالى عن كماله،

﴿و﴾ جعل تعالى ﴿السَّمَسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتضبط بذلك أوقات العبادات، وأجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر، وتناوبهما، واختلافهما - لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

﴿ذلك﴾ التقدير المذكور ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ الذي - من عزته - انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مذلة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر.

﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر.

ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه تسخير هذه المخلوقات العظيمة، على تقدير، ونظام بديع، تحير العقول في حسنه وكماله وموافقته للمصالح والحكم.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهْرِ﴾ حين تشبه عليكم المسالك، ويحير في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم، وتجاراتهم، وأسفارهم.

منها: نجوم لا تزال ترى، ولا تسير عن محلها.

ومنها: ما هو مستمر السير، يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بينها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب، بخلاف أهل الجهل والجفاء، المعرضين عن آيات الله، وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئاً، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبساً، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم عليه السلام. أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد ملأ الأرض، ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوت في أخلاقه وخلقته، وأوصافه تفاوتاً لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه.

وجعل الله لهم مستقراً، أي: منتهى ينتهون إليه، وغاية

التَّائِبِينَ

١٤٠

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَ اللَّهُ فَالِقُ الْفُجَاءِ ﴿١٤٠﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٤١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٢﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿١٤٣﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مُخْرِجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٤٤﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٤٥﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٤٦﴾

يساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكنائها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمر بها.

وأودعهم الله في أصلاب آبائهم، وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك على وجه الوديعة، التي لا تستقر ولا تثبت، بل ينتقل منها، حتى يوصل إلى الدار التي هي المستقر وأما هذه الدار، فإنها مستودع وممر.

﴿قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبياناته.

(٩٩) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مُخْرِجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا من أعظم منته العظيمة التي يضطر إليها الخلق، من الآدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعاً، وقت حاجة الناس إليه، فأثبت الله به كل شيء، مما يأكل

المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها: التفكير في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه عقلاً وفطرة وشرعاً.

(١٠٠-١٠٤) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُم بَيْنَ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ يَغْتِرُ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ ○ ﴿يَبْعَثُ الْجِنَّ وَالْأَنْبِيَاءَ أَنَّى يَكُونُ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ○ ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ○ ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ○ ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَلَإِنَّا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ يخبر تعالى أنه مع إحسانه لعباده، وتعرفه إليهم بآياته البينات، وحججه الواضحات - أن المشركين به، من قريش وغيرهم، جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجن والملائكة، الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك «خرق المشركون» أي: اتفكوا، وافتروا من تلقاء أنفسهم لله، بين وبنات بغير علم منهم.

ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافتري عليه أشنع النقص، الذي يجب تنزيه الله عنه!!

ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص وآفة وعيب.

﴿يَبْعَثُ الْجِنَّ وَالْأَنْبِيَاءَ﴾ أي: خالقهما، ومتقن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الأبواب مثله، وليس له في خلقهما مشارك.

﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُمْ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ صَاحِبَةٌ﴾ أي: كيف يكون لله الولد، وهو الإله السيد الصمد الذي لا صاحبة له، أي: لا زوجة له، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه، مضطرة في جميع أحوالها إليه.

والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء، وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه.

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها فقال: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفي ذكر العلم بعد الخلق، إشارة إلى الدليل العقلي إلى ثبوت علمه، وهو هذه المخلوقات، وما

الناس والأنعام، فرتع الخلق بفضل الله، وانبسطوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجذب واليأس والقحط، ففرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون، وبه يرتعون، ما يوجب لهم أن يبذلوا جهدهم في شكر من أسدى النعم، وعبادته والإجابة إليه، والمحبة له.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس فقال: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْجًا وَمِنَّهُ﴾ أي: من ذلك النبات الخضر.

﴿جَبًا مَّزَكَّابًا﴾ بعضه فوق بعض، من بر، وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك من أصناف الزروع.

وفي وصفه بأنه مترابك، إشارة إلى أن حبوه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار.

﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾ أخرج الله ﴿مِنْ طَلْعِهَا﴾ وهو الكفري، والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء ﴿قَتَوَانٌ دَائِبَةً﴾ أي: قريبة سهلة التناول، متدلية على من أرادها، بحيث لا يعسر التناول من النخل وإن طالت، فإنه يوجد فيها كرب ومرق، يسهل صعودها.

﴿و﴾ أخرج تعالى بالماء ﴿حَبَّتِ مِنْ أَعْتَابِ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَانَ﴾ فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عم جميع الأشجار والنوابت.

وقوله: ﴿مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ﴾ يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي: مشتبهاً في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبه، يشبه بعضه بعضاً، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابهة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد، ويتفكهن، ويقناتون، ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال: ﴿انظُرُوا﴾ نظر فكر واعتبار ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾ أي: الأشجار كلها، خصوصاً: النخل، إذا أثمر.

﴿وَيَعْبُودُونَ﴾ أي: انظروا إليه وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإن في ذلك عبراً، وآيات، يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده.

ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل من تفكر أدرك

السرائر والخفايا، والخبايا والبواطن.

ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد، ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية، والفلاح السرمدى، من حيث لا يحتسب، حتى إنه يقدر عليه الأمور، التي يكرهها العبد، ويتألم منها، ويدعو الله أن يزيلها، لعلمه أن دينه أصلح، وأن كماله متوقف عليها، فسبحان اللطيف لما يشاء، الرحيم بالمؤمنين.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾.

لما بين تعالى من الآيات البيّنات، والأدلة الواضحات، الدالة على الحق في جميع المطالب والمقاصد، نبه العباد عليها، وأخبر أن هدايتهم وضدها لأنفسهم، فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: آيات تبين الحق، وتجعله للقلب بمنزلة الشمس للابصار، لما اشتملت عليه من فصاحة اللفظ، وبيانه، ووضوحه، ومطابقته للمعاني الجليلة، والحقائق الجميلة، لأنها صادرة من الرب الذي ربّى خلقه بصنوف نعمه الظاهرة والباطنة، التي من أفضلها وأجلها تبين الآيات، وتوضيح المشكلات.

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ﴾ بتلك الآيات مواقع العبرة، وعمل بمقتضاها ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ فإن الله هو الغني الحميد.

﴿وَمَنْ عَمِيَ﴾ بأن بصر فلم يتبصر، وزجر فلم يتزجر، وبيّن له الحق فما انقاده ولا تواضع، فإنما عماء مضرته عليه.

﴿وَمَا أَنَا﴾ أيها الرسول ﴿عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ أعمالكم وأراقبها على الدوام، إنما عليّ البلاغ المبين، وقد أدبته، وبلغت ما أنزل الله إليّ، فهذه وظيفتي، وما عدا ذلك فلست موظفًا فيه^(١).

(١٠٨) ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَلَيْهِمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ينهى الله المؤمنين عن أمر كان جائزًا، بل مشروعًا في الأصل، وهو سب آلهة المشركين، التي اتخذت أوثانًا وآلهة مع الله، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها.

ولكن لما كان هذا السب طريقًا إلى سب المشركين لرب

اشتملت عليه من النظام التام، والخلق الباهر، فإن في ذلك دلالة على سعة علم الخالق، وكمال حكمته، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي خلق ما خلق، وقدّر ما قدّر ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: المألوه المعبود، الذي يستحق نهاية الذل، ونهاية الحب، الرب الذي ربّى جميع الخلق بالتّعم، وصرف عنهم صنوف النّعم.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ﴾ أي: إذا استقر وثبت أنه الله الذي لا إله إلا هو، فاصرفوا له جميع أنواع العبادة، وأخلصوها لله، واقصدوا بها وجهه، فإن هذا هو المقصود من الخلق الذي خلقوا لأجله ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي: جميع الأشياء تحت وكالة الله وتديبره، خلقًا وتدبيرًا وتصريفًا.

ومن المعلوم أن الأمر المتصرف فيه يكون استقامته، وتمامه، وكمال انتظامه، بحسب حال الوكيل عليه، ووكالته تعالى على الأشياء ليست من جنس وكالة الخلق، فإن وكالتهم وكالة نيابة، والوكيل فيها تابع لموكله.

وأما البارى تبارك وتعالى، فوكالته من نفسه لنفسه، متضمنة لكمال العلم، وحسن التدبير والإحسان فيه والعدل، فلا يمكن لأحد أن يستدرك على الله، ولا يرى في خلقه خللاً، ولا فطورًا، ولا في تديبره نقصًا وعيبًا.

ومن وكالته: أنه تعالى توكل ببيان دينه، وحفظه عن المزيلات والمغريات، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عمّا يزيل إيمانهم ودينهم.

﴿لَا تَدْرِكُهُ الْآبْصَارُ﴾ لعظمته وجلاله وكماله، أي: لا تحيط به الأبصار، وإن كانت تراه وتفرح بالنظر إلى وجهه الكريم، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية، بل يشتهها بالمفهوم، فإنه إذا نفى الإدراك الذي هو أخص أوصاف الرؤية، دلّ على أن الرؤية ثابتة.

فإنه لو أراد نفي الرؤية، لقال: «لا تراه الأبصار» ونحو ذلك، فعلم أنه ليس في الآية حجة لمذهب المعطلة، الذين ينفون رؤية ربهم في الآخرة، بل فيها ما يدل على نقيض قولهم.

﴿وَهُوَ يَدْرِكُ الْآبْصَارَ﴾ أي: هو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، وسمعه بجميع الأصوات الظاهرة والخفية، وبصره بجميع المبصرات، صغارها وكبارها، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبرته، ودق حتى أدرك

(١) انتقل الشيخ - رحمه الله - بعد تفسير هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا﴾ فلم يفسر الآيات من قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأَيْتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ذات الأرقام (١٠٥-١٠٧) فقام النجار بتفسيرها دون الإشارة إلى أنها ليست من كلام الشيخ - رحمه الله - انظر طبعة النجار (٢/٤٥٠-٤٥٢).

ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٩﴾ لَا تَدْرِكُهُ
الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١١٠﴾
فَدَجَاءَكُمْ بِبَصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ
فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ نَضْرِبُ
الْآيَاتِ لِيُقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١٢﴾
أَتَبِعَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَعْرَضَ عَنِ
الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٣﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ
حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١١٤﴾ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ
يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا
لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١١٥﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ
لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١١٦﴾ وَنُقَلِّبُ أَقْدَانَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ
وَكَلَّمَهُمُ النَّوَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١٨﴾ أَي: وأقسم المشركون المكذبون
للسلطان محمد ﷺ ﴿اللَّهُ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: قسمًا اجتهدوا
فيه، وأكدوه.

العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب، وآفة،
وسب، وقدح - نهى الله عن سب آلهة المشركين، لأنهم
يحمون لدينهم، ويتعصبون له، لأن كل أمة زين الله لهم
عملهم، فرأوه حسنًا، وذبوا عنه، ودافعوا بكل طريق، حتى
إنهم ليسبون الله رب العالمين، الذي رسخت عظمته في قلوب
الأبرار والفجار، إذا سب المسلمون آلهتهم.

ولكن الخلق كلهم، مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة،
يعرضون عليه، وتعرض أعمالهم، فينبئهم بما كانوا يعملون
من خير وشر.
وفي هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية، وهي أن
الوسائل تعتبر بالأمر التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم
ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تفضي إلى الشر.

﴿١٠٩-١١١﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ
لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ ○ ﴿وَنُقَلِّبُ أَقْدَانَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ○ ﴿لَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْكِتَابَ
وَكَلَّمَهُمُ النَّوَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لَيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أي: وأقسم المشركون المكذبون
للسلطان محمد ﷺ ﴿اللَّهُ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: قسمًا اجتهدوا
فيه، وأكدوه.

﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ﴾ تدل على صدق محمد ﷺ ﴿لَيُؤْمِنُنَّ
بِهَا﴾. وهذا الكلام الذي صدر منهم، لم يكن قصدهم فيه
الرشاد، وإنما قصدهم دفع الاعتراض عليهم، ورد ما جاء به
الرسول قطعًا، فإن الله أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات،
والأدلة الواضحات، التي - عند الالتفات لها - لا تبقى أدنى
شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به.

فطلبهم - بعد ذلك - للآيات من باب التعنت الذي لا يلزم
إيجابته، بل قد يكون المنع من إيجابته أصلح لهم.

فإن الله جرت سنته في عباده، أن المقترحين للآيات على
رسلهم، إذا جاءتهم، فلم يؤمنوا بها - أنه يعاجلهم بالعقوبة،
ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: هو الذي يرسلها
إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء.

فطلبكم مني الآيات ظلم، وطلب لما لا أملك، وإنما
توجهون إلي توضيح ما جتكم به وتصديقه، وقد حصل، ومع
ذلك فليس معلومًا أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون،
بل الغالب ممن هذه حاله أنه لا يؤمن، ولهذا قال: ﴿وَمَا
يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَنُقَلِّبُ أَقْدَانَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ

في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة
يأتيهم فيه الداعي، وتقوم عليهم الحجة بتقليب القلوب،
والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط
المستقيم.

وهذا من عدل الله، وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على
أنفسهم، وفتح لهم الباب فلم يدخلوا، وبَيَّن لهم الطريق فلم
يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق، كان مناسبًا
لأحوالهم.

وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم، ومشيئتهم وحدهم،
وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط، فإنهم لو جاءتهم
الآيات العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم، يشهدون للرسول
بالرسالة، وتكليم الموتى، وبعثهم بعد موتهم، وحشر كل
شيء إليهم حتى يكلمهم^(١) ﴿قُبُلًا﴾ ومشاهدة، ومباشرة،
بصدق ما جاء به الرسول ما حصل منهم الإيمان، إذا لم يشأ
الله إيمانهم، ولكن أكثرهم يجهلون، فلذلك رتبوا إيمانهم

(١) في ب: وحشرنا عليهم كل شيء حتى يكلمهم.

على مجرد إتيان الآيات.

وإنما العقل والعلم، أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق، ويطلبه بالطرق التي بينها الله، ويعمل بذلك، ويستعين ربه في اتباعه، ولا يتكل على نفسه، وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيه.

(١١٢، ١١٣) ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ۝ وَلِصَّغَىٰ إِلَيْهِ أَقْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْتَوْهُ وَيَقْتَرُوا مَا هُمْ مُفْتَرُونَ﴾ يقول تعالى - مسلماً لرسوله محمد ﷺ - وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك، ويحسدونك، فهذه سنتنا، أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء، من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل.

﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ أي: يزين بعضهم لبعض، الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات، حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني.

بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق باطلاً والباطل حقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِصَّغَىٰ إِلَيْهِ﴾ أي: ولنميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أَقْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحملهم على ذلك.

﴿وَلِيَرْتَوْهُ﴾ بعد أن يصفوا إليه، فيصغون إليه أولاً، فإذا مالوا إليه، ورأوا تلك العبارات المستحسنة، رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة.

ثم ينتج من ذلك أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة.

فهذه حال المغترين بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم.

وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية، والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التموهيات، بل همتهم مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة.

فإن كانت حقاً قبلوها، وانقادوا لها، ولو كسيت عبارات ردية، وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً ردها على من قالها، كائناً من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة،

﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتُ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيَوْمِنَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ﴿١١٣﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٤﴾ وَلِصَّغَىٰ إِلَيْهِ أَقْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْتَوْهُ وَلِيَقْتَرُوا مَا هُمْ مُفْتَرُونَ ﴿١١٥﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّبَعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٦﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٧﴾ وَإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٨﴾ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾

ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته أن في ذلك بيانا للحق، وتوضيحا له، فإن الحق يستتير ويتضح، إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه، فإنه - حينئذ - يتبين من أدلة الحق، وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وطلانه، ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيها المتنافسون.

(١١٤، ١١٥) ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّبَعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: قل يا أيها الرسول: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّبَعِي حَكَمًا﴾ أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه، فإن غير الله محكوم عليه، لا حاكم، وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص والعيب

ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور، أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً، الأعظمون - عند الله - قدرًا وأجرًا، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه.

(١١٨، ١١٩) ﴿فَكُلُوا وَمِمَّا ذَكَرَ أَمْرُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِنَا مُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ أَسْرَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَلْغُلُوبِ بِأَهْوَابِهِمْ يَغَيِّرُ عَلَيْهِ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان، وأنهم إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها، ولا يفعلوا كما فعله الجاهلية، من تحريم كثير من الحلال، ابتداءً من عند أنفسهم، وإضلالاً من شياطينهم.

فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية، في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أي شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه، وقد فضل الله لعباده ما حرّم عليهم، وبينه ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفاً من الوقوع في الحرام.

ودلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باق على الإباحة، فما سكت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فصله الله، فما لم يفصله الله، فليس بحرام.

ومع ذلك فالحرام الذي قد فصله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمخضمة، كما قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَنَحْمُ الْجَنْزِيرِ﴾ إلى أن قال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَلْغُلُوبِ بِأَهْوَابِهِمْ﴾ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿يَغَيِّرُ عَلَيْهِمْ﴾ ولا حجة، فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتهم - كما وصفهم الله لعباده - أن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبه بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة.

فهؤلاء معتدون على شرع الله، وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين.

بخلاف الهادين المهتمدين، فإنهم يدعون إلى الحق

والجور. وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكماً، فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

﴿الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ أي: موضحاً فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجلى من برهانه، ولا أحسن منه حكماً، ولا أقوم قيلاً، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى يعترفون بذلك ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ ولهذا تواطت الإخبارات ﴿فَلَا تَشْكُنْ فِي ذَلِكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ النَّمُوتِينَ﴾.

ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿وَوَكَّمتْ كَيْمَتْ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأمر والنهي، فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [حيث حفظها وأحكامها بأعلى أنواع الصدق، وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها، ولا اقتراح أحسن منها]^(١).

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لساثر الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والماضي والمستقبل.

(١١٦، ١١٧) ﴿وَإِنْ طُغِيَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بِيُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ، محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿وَإِنْ طُغِيَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بِيُضْلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم، وأعمالهم، وعلومهم، فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق.

بل غايتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، ويتخرصون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة، فحري أن يحذر الله منه عباده، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا - وإن كان خطاباً للنبي ﷺ - فإن أمته أسوة له في سائر الأحكام، التي ليست من خصائصه.

والله تعالى أصدق قيلاً، وأصدق حديثاً، و﴿هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وأعلم بمن يهتدي ويهدي، فيجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله،

(١) زيادة من هامش: ب بظ الشيخ - رحمه الله -.

والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم، والقرب منه.

(١٢٠) ﴿وَذَرُوا ظَهْرَ الْأَثَمِ وَبِاطِنَهُ إِنَّ الْأَثَمَ يَكْسِبُونَ الْأَثَمَ سَجَزُونَ يَمَا كَانُوا يَقْرَؤُونَ﴾ المراد بالإثم جميع المعاصي التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والحرج، من الأثماء المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده، فنهى الله عباده عن اقرار الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب.

ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها، ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك، واجباً متعيماً على المكلف.

وكثير من الناس، تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب، كالكبر، والعجب، والرياء، ونحو ذلك. حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم، وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزاء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

(١٢١) ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ أَسْمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ يَكُونُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُمْ يُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ ويدخل تحت هذا المنهي عنه ما ذكر عليه اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام والهة، فإن هذا مما أهل لغير الله به، المحرم بالنص عليه خصوصاً.

ويدخل في ذلك متروك التسمية مما ذبح لله، كالضحايا والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمداً ترك التسمية، عند كثير من العلماء.

ويخرج من هذا العموم الناسي بالنصوص الأخرى، الدالة على رفع الحرج عنه، ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه.

ونص الله عليها بخصوصها في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلَيْتُهُمْ وَلَعَلَّهَا سَبَبُ نَزُولِ الْآيَةِ، لقوله: ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ يَكُونُ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُمْ يُجَادِلُوكُمْ﴾ بغير علم.

فإن المشركين - حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة - قالوا -

معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة وبرهان - أتأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة.

وهذا رأيٌ فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند

إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها، لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

فتباً لمن قدّم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة، والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ في شركهم، وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، وافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل بمجرداها على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.

فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب. لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن، ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان. وبعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال، ما لا يحصيه إلا الله.

(١٢٢-١٢٤) ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّتَلَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْثَرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مَآ أُوْتِيَ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّهُ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِجِّينَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ يقول تعالى:

﴿أَوْ مَن كَانَ﴾ من قبل هداية الله له ﴿مَيِّتًا﴾ في ظلمات الكفر والجهل والمعاصي.

﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ بنور العلم والإيمان والطاعة، فصار يمشي بين الناس في النور، متبصراً في أموره، مهتدياً لسبيله، عارفاً للخير، مؤثراً له، مجتهداً في تنفيذه في نفسه وغيره، عارفاً بالشر، مبغضاً له، مجتهداً في تركه وإزالته عن نفسه وعن غيره. أفيستوي هذا بمن هو في الظلمات، ظلمات الجهل والغبي، والكفر والمعاصي؟

﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ قد التبست عليه الطرق، وأظلمت عليه المسالك، فحضره الهم والغم والحزن والشقاء. فنهى تعالى

العقول بما تدركه وتعرفه، أنه لا يستوي هذا ولا هذا، كما لا

يستوي الليل والنهار، والضيء والظلمة، والأحياء والأموات.

فكانه قيل: كيف يؤثر مَنْ له أدنى مسكة من عقل، أن يكون بهذه الحالة، وأن يبقى في الظلمات متحيراً؟! فأجاب بأنه ﴿زَيْنَ الْكٰفِرِيْنَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ﴾ فلم يزل الشيطان يحسن لهم أعمالهم، ويزينها في قلوبهم، حتى استحسوها، وراوها حقاً. وصار ذلك عقيدة في قلوبهم، وصفة راسخة ملازمة لهم. فلذلك رضوا بما هم عليه من الشر والقباح. وهؤلاء الذين في الظلمات يعمهون، وفي باطلهم يترددون غير متساوين.

فمنهم: القادة، والرؤساء، والمتبعون، ومنهم: التابعون المرؤسون. والأولون منهم الذين فازوا بأشقى الأحوال، ولهذا قال: ﴿وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا فِيْ كُلِّ قَوْمٍ مَّجْرِمِيْهَا﴾ أي: الرؤساء الذين قد كبر جرمهم، واشتد طغيانهم ﴿يَتَكَبَّرُوْا فِيْهَا﴾ بالخديعة والدعوة إلى سبيل الشيطان، ومحاربة الرسل وأتباعهم بالقول والفعل.

وإنما مكرهم وكيدهم يعود على أنفسهم، لأنهم يمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

وكذلك يجعل الله كبار أئمة الهدى وأفاضلهم، يناضلون هؤلاء المجرمين، ويردون عليهم أقوالهم ويجاهدونهم في سبيل الله، ويسلكون بذلك السبل الموصلة إلى ذلك، ويعينهم الله ويسدد رأيهم، ويثبت أقدامهم، ويداول الأيام بينهم وبين أعدائهم، حتى يدول الأمر في عاقبته، بنصرهم وظهورهم، والعاقبة للمتقين.

وإنما ثبت أكابر المجرمين على باطلهم، وقاموا برد الحق الذي جاءت به الرسل، حسداً منهم وبغياً، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ﴾ من النبوة والرسالة. وفي هذا اعتراض منهم على الله، وعجب بأنفسهم، وتكبر على الحق الذي أنزله على أيدي رسله، وتحجر على فضل الله وإحسانه.

فرد الله عليهم اعتراضهم الفاسد، وأخبر أنهم لا يصلحون للخير، ولا فيهم ما يوجب أن يكونوا من عباد الله الصالحين، فضلاً عن أن يكونوا من النبيين والمرسلين، فقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ فمن علمه يصلح لها، ويقوم بأعبائها، وهو متصف بكل خلق جميل، ومتبرؤ من كل خلق دنيء، أعطاه الله منها ما تقتضيه حكمته أصلاً وتبعاً، ومن لم يكن كذلك، لم يضع أفضل مواهبه عند مَنْ لا يستأهله، ولا يتركه عنده.

وفي هذه الآية دليل على كمال حكمة الله تعالى، لأنه وإن

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ عَلَيْكُمْ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيَظُنُّوْنَ بِأَهْوَابِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِيْنَ ﴿١١٦﴾
وَذَرُوا ظَهْرَ الْاِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِيْنَ يَكْسِبُوْنَ الْاِثْمَ سَيَحْرَبُوْنَ بِمَا كَانُوْا يَفْتَرُوْنَ ﴿١١٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوْا مِمَّا لَمْ يَذْكُرْ اَسْمَاءُ عَلَيْهِ وَاِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطٰنَ لِيُوْحُوْنَ اِلَيْكُمْ اَوْلِيَاۤءِهِمْ لِيُجَدِّدُوْكُمْ وَاِنْ اَطَعْتُمْوَهُمْ اِنَّكُمْ لَمُشْرِكُوْنَ ﴿١١٨﴾
اَوْ مَن كَانَ مِيْثَاقًا حَيْنَتُهُ وَجَعَلْنٰهُ نُورًا يَمْشِيْ بِهٖ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهٗ فِي الظُّلُمٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذٰلِكَ زَيْنَ لِّلْكَافِرِيْنَ مَا كَانُوْا يَعْمَلُوْنَ ﴿١١٩﴾ وَكَذٰلِكَ جَعَلْنَا فِيْ كُلِّ قَوْمٍ مَّجْرِمِيْهَا لِيَمْكُرُوْا فِيْهَا وَمَا يَمْكُرُوْنَ اِلَّا اِيْنَ اَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُوْنَ ﴿١٢٠﴾ وَاِذَا جَآءَتْهُمْ اٰيَةٌ قَالُوْا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اَللَّهُ اَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِيْنَ اٰجَرُوْا صَعَارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيْدٌ بِمَا كَانُوْا يَمْكُرُوْنَ ﴿١٢١﴾

كان تعالى رحيمًا، واسع الجود، كثير الإحسان، فإنه حكيم لا يضع جوده إلا عند أهله.

ثم توعد المجرمين فقال: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِيْنَ اٰجَرُوْا صَعَارًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: إهانة وذل، كما تكبروا على الحق أذلهم الله. ﴿وَعَذَابٌ شَدِيْدٌ بِمَا كَانُوْا يَمْكُرُوْنَ﴾ أي: بسبب مكرهم، لا ظلمًا منه تعالى.

(١٢٥) ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْاِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرْمًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ﴾ يقول تعالى: - مبيّنًا لعباده علامة سعادة العبد وهدايته، وعلامة شقاوته وضلاله - إن من انشرح صدره للإسلام، أي: اتسع وانفسح، فاستنار بنور الإيمان، وحيي بضوء اليقين، فاطمأنت بذلك نفسه، وأحب الخير، وطوعت له نفسه فعله، متلذذًا به - غير مستقل - فإن هذا علامة على أن الله قد هداه، ومنّ عليه بالتوفيق، وسلوك أقوم الطريق.

وإن علامة من يرد الله أن يضلّه، أنه يجعل صدره ضيقًا حرمًا أي: في غاية الضيق عن الإيمان والعلم واليقين، قد

انغمس قلبه في الشبهات والشهوات، فلا يصل إليه خير، لا ينشرح قلبه لفعل الخير كأنه من ضيقه وشدته يكاد يصعد في السماء، أي: كأنه يكلف الصعود إلى السماء الذي لا حيلة له فيه.

وهذا سببه عدم إيمانهم هو الذي أوجب أن يجعل الله الرجس عليهم، لأنهم سدوا على أنفسهم باب الرحمة والإحسان. وهذا ميزان لا يعول، وطريق لا يتغير، فإن من أعطى واتقى وصدق بالحسنى، يسهره الله لليسر. ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى، فسيهره للعسرى.

(١٢٦، ١٢٧) ﴿وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ لَمْ دَارُ السَّلَاطِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿أي: معتدلاً، موصلاً إلى الله، وإلى دار كرامته، قد بينت أحكامه، وفضلت شرائعه، وميز الخير من الشر. ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ فإنهم الذين علموا، فانتفعوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزاء الجزيل، والأجر الجميل. فلهذا قال: ﴿لَمْ دَارُ السَّلَاطِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ وسميت الجنة دار السلام، لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، وهم وغم، وغير ذلك من المنغصات.

ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها في غاية الكمال، ونهاية التمام، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنى فوقه المتمنون، من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشبهه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ﴾ الذي يتولى تديريهم وتربيتهم، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعته، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم، بخلاف من أعرض عن مولاه واتبع هواه، فإنه سَلَطَ عليه الشيطان فتولاه، فأفسد عليه دينه ودنياه.

(١٢٨-١٣٥) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرُ الْجِنُّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيُّ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءِايَاتِي وَيُذَرُّوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّهْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرَهُ، ضَيِّقًا حَرَجًا كَمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴿لَمْ دَارُ السَّلَاطِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرُ الْجِنُّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا آجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَيُّ بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَمَعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنْسُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءِايَاتِي وَيُذَرُّوكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّهْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾

يَشَاءُ كَمَا أَنفَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ قَوْمَ عَادٍ ﴿إِنَّ مَا تُؤَدُّونَ لَآيَاتٍ وَمَا أَنتَ بِمُعْجِزٍ﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَايِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزروهم إلى المعاصي: ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنُّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ أي: من إضلالهم، وصددهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجرأتم على معاندة رسلي؟ وقمت محاربين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟.

فاليوم حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي، وستزيدكم من العذاب بحسب كفركم، وإضلالكم لغيركم. وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجأون، ولا شافع يشفع، ولا دعاء يسمع. فلا تسأل حينئذ، عما يحل بهم من النكال والخزي والوبال، ولهذا لم يذكر الله لهم اعتذاراً.

وأما أوليائهم من الإنس، فأبدوا عذراً غير مقبول، فقالوا: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أي: تمتع كل من الجنّي

والإنسي بصاحبه، وانتفع به.

فالجني يستمتع بطاعة الإنسي له، وعبادته، وتعظيمه، واستعاذته به. والإنسي يستمتع بنيل أغراضه، وبلوغه بحسب خدمة الجني له بعض شهواته. فإن الإنسي يعبد الجني، فيخدمه الجني، ويحصل له منه بعض الحوائج الدنيوية. أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن رد ذلك.

﴿وَبَلَّغْنَا آلِهَتَنَا الْوَيْءَ أَجَلَتْ لَنَا﴾ أي: وقد وصلنا المحل الذي تجازي فيه بالأعمال. فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، فقد انقطعت حجتنا، ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك. وكأن في هذا الكلام منهم نوعٌ تضرع وترقق، ولكن في غير أوانه. ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جور فيه، فقال: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه، ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمتها، فحكيمته الغاية شملت الأشياء وعمتها وسعتها.

﴿وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: وكما ولينا الجن المردة، وسلطانهم على إضلال أوليائهم من الإنس، وعقدنا بينهم عقد الموالاة والموافقة، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك.

كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالمًا مثله، يؤزه إلى الشر ويحثه عليه، ويزهده في الخير ويفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها، البليغ خطرهما.

والذنب ذنب الظالم، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى نفسه جنى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم، ومنعهم الحقوق الواجبة، ولئى عليهم ظلمة يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور أضعاف ما منعوا من حقوق الله، وحقوق عباده، على وجه غير ما جورين فيه ولا محتسبين.

كما أن العباد إذا صلحوا واستقاموا، أصلح الله رعاهم، وجعلهم أمة عدل وإنصاف، لا ولاة ظلم واعتساف. ثم ويخ الله جميع من أعرض عن الحق ورده، من الجن والإنس، وبين خطأهم، فاعترفوا بذلك، فقال:

﴿يَمَعْتَرُ الْبَيْنَ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتَّبِعُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي﴾ الواضحات البينات، التي فيها تفاصيل الأمر والنهي، والخير والشر، والوعد والوعيد.

﴿وَسَيَذُرُّنَّكَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ ويعلمونكم أن النجاة فيه،

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مَّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾ وَرَبُّكَ الْعَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَاءُ يَدْهَبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ ﴿١٢٩﴾ إِنْ مَا تُوَعَّدُونَ لَا تِ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٠﴾ قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِرِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣١﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَكَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ وَيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٣﴾

والفوز إنما هو بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن الشقاء والخسران في تضييع ذلك، فأقروا بذلك واعترفوا، فـ ﴿قَالُوا﴾ بلى ﴿شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَرَّيْنَاهُمْ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا﴾ بزيتها وزخرفها، ونعيمها، فاطمأنوا بها ورضوا، وألهتهم عن الآخرة.

﴿وَسَيَذُرُّنَّكَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ فقامت عليهم حجة الله، وعلم حينئذ كل أحد، حتى هم بأنفسهم عدل الله فيهم، فقال لهم حاكمًا عليهم بالعذاب الأليم: ﴿أَذْخَلُوا فِي﴾ جملة ﴿أَمْرٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ صنعوا كصنيعكم، واستمتعوا بخلافهم كما استمتعتم، وخاضوا بالباطل كما خضتم، إنهم كانوا خاسرين. أي: الأولون من هؤلاء والآخرون. وأئى خسران أعظم من خسران جنات النعيم، وحرمان جوار أكرم الأكرمين؟! ولكنهم وإن اشتركوا في الخسران، فإنهم يتفاوتون في مقداره تفاوتًا عظيمًا.

﴿وَلِكُلِّ﴾ منهم ﴿دَرَجَةٍ مَّمَّا عَمِلُوا﴾ بحسب أعمالهم، لا يجعل قليل الشر منهم ككثيره، ولا التابع كالمتبوع، ولا المرؤوس كالرئيس، كما أن أهل الثواب والجنة، وإن

﴿تَسَوَّفَ تَعَلَّمُوا مِمَّنْ تَكُونُ لَهُ عَقِبَةُ الدَّارِ﴾ أنا أو أئتم .
وهذا من الإنصاف بموضع عظيم، حيث بين الأعمال
وعاملها، وجعل الجزاء مقرونًا بنظر البصير، ضاربًا فيه
صفحةً عن التصريح الذي يغني عنه التلويح. وقد علم أن
العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة للمتقين، وأن المؤمنين لهم
عقبى الدار، وأن كل معرض عن ما جاءت به الرسل، عاقبته
سوء وشر، ولهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فكل ظالم،
وإن تمتع في الدنيا بما تمتع به، فنهايته [فيه] الاضمحلال
والتلف «إن الله يلتمي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته».

(١٤٠-١٣٦) ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ
وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا
كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ
يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ○ وَكَذَلِكَ زُفَّتْ
لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَسْرٌ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ لِيُرْدُوهُمْ
وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا
يَفْعَلُونَ ○ وَقَالُوا هَذِهِ أَمْعَانُ وَحَرَّتْ حَجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ
نَشَأَ بِرِزْقِهِمْ وَأَنْعَمُوا حُرْمَتَ ظُهُورِهَا وَأَنْعَمُوا لَا يَذْكُرُونَ أَسْرَ اللَّهِ
عَلَيْهَا أَفْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ○ وَقَالُوا مَا
فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَفْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الَّذِينَ
وَأَنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ
حَكِيمٌ عَلِيمٌ ○ فَذُحِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ﴾ يخبر تعالى عما عليه المشركون المكذبون للنبي
ﷺ، من سفاهة العقل، وخفة الأحلام، والجهل البليغ،
وعدد تبارك وتعالى شيئًا من خرافاتهم، لينبه بذلك على
ضلالهم والحذر منهم، وأن معارضة أمثال هؤلاء السفهاء
للحق الذي جاء به الرسول، لا تقدر فيه أصلاً، فإنهم لا
أهلية لهم في مقابلة الحق، فذكر من ذلك أنهم ﴿جَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا
ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ ولشركائهم من ذلك
نصيبًا، والحال أن الله تعالى هو الذي ذراه للعباد، وأوجده
رزقًا، فجمعوا بين محذورين محظورين، بل ثلاثة محاذير:
متهم على الله في جعلهم له نصيبًا، مع اعتقادهم أن ذلك
منهم تبرع.

وإشراك الشركاء الذين لم يرزقوهم، ولم يوجدوا لهم شيئًا
في ذلك.
وحكمهم الجائر في أن ما كان لله لم يبالوا به ولم يهتموا،
ولو كان واصلاً إلى الشركاء.
وما كان لشركائهم اعتنوا به واحتفظوا به، ولم يصل إلى

اشتركوا في الربح والفلاح ودخول الجنة، فإن بينهم من
الفرق، ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم قد رضوا بما آتاهم
مولاهم، وقعوا بما جباهم.

ففسأله تعالى أن يجعلنا من أهل الفردوس الأعلى التي
أعدها الله للمقربين من عباده، والمصطفين من خلقه، وأهل
الصفوة من أهل وداذه.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَمْكُرُونَ﴾ فيجازي كلاً بحسب
عمله، وبما يعلمه من مقصده، وإنما أمر الله العباد بالأعمال
الصالحة، ونهاهم عن الأعمال السيئة، رحمة بهم وقصدًا
لمصالحهم. وإلا فهو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، فلا
تنفعه طاعة الطائعين، كما لا تضره معصية العاصين.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ بالإهلاك ﴿وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا
يَشَاءُ كَمَا أَنْتُمْ مِنَ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ مُّكَرِينَ﴾.

فإذا عرفتم بأنكم لا بد أن تنتقلوا من هذه الدار كما انتقل
غيركم، وترحلون منها، وتخلونها لمن بعدكم، كما رحل
عنها من قبلكم وخلوها لكم، فلم اتخذتموها قرارًا؟ وتوطنتم
بها، ونسيتم أنها دار ممر لا دار مقر، وأن أمامكم دارًا، هي
الدار التي جمعت كل نعيم وسلمت من كل آفة ونقص؟.

وهي الدار التي يسعى إليها الأولون والآخرون، ويرحل
نحوها السابقون واللاحقون، التي إذا وصلوها، فثم الخلود
الدائم، والإقامة اللازمة، والغاية التي لا غاية وراءها،
والمطلوب الذي ينتهي إليه كل مطلوب، والمرغوب الذي
يضمحل دونه كل مرغوب.

هنالك، والله! ما تشهيه الأنفس، وتلذ الأعين، ويتنافس
فيه المتنافسون، من لذة الأرواح وكثرة الأفراح، ونعيم
الأبدان والقلوب، والقرب من علام الغيوب.

فله همة تعلقت بتلك الكرامات، وإرادة سمت إلى أعلى
الدرجات، وما أبخس حظ من رضي بالدون، وأدنى همة من
اختار صفقة المغبون! ولا يستبعد المعرض الغافل، سرعة
الوصول إلى هذه الدار.

﴿إِنَّكَ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ فارين
من عقابه، فإن نواصيكم تحت قبضته، وأنتم تحت تدبيره
وتصرفه.

﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لقومك إذا دعوتهم إلى الله، وبيّنت
لهم ما لهم وما عليهم من حقوقه، فامتنعوا من الانقياد لأمره،
واتبعوا أهواءهم، واستمروا على شركهم: ﴿يَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى
مَكَاتِبِكُمْ﴾ أي: على حالتكم التي أنتم عليها، ورضيتموها
لأنفسكم ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾ على أمر الله، ومتبع لمراضي الله.

بِدَعًا وَأَقْوَالًا مِنْ تَلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ.

فَعِنْدَهُمْ اصطلاح في بعض الأنعام [والحرث] أنهم يقولون فيها: ﴿هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرْتُ جَبْرٌ﴾ أي: محرم ﴿لَا يَطْعُمَهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ﴾ أي: لا يجوز أن يطعمه أحد، إلا مَنْ أُرِدْنَا أَنْ يطعمه، أو وصفناه بوصف - من عندهم - .

وكل هذا بزعمهم لا مستند لهم ولا حجة، إلا أهويتهم وآراءهم الفاسدة.

وأنعام ليست محرمة من كل وجه، بل يحرمون ظهورها، أي: بالركوب والحمل عليها، ويحرمون ظهرها، ويسموننها الحام.

وأنعام لا يذكر اسم الله عليها، بل يذكرون اسم أصنامهم وما كانوا يعبدون من دون الله عليها، وينسبون تلك الأفعال إلى الله، وهم كذبة فجار في ذلك.

﴿سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْرَوْنَ﴾ على الله من إحلال الشرك، وتحريم الحلال من الأكل والمنافع.

ومن آرائهم السخيفة أنهم يجعلون بعض الأنعام ويعينونها - محرماً ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأُنثَى خَالِصَةٌ لِدُكُونِنَا﴾ أي: حلال لهم، لا يشاركون فيها النساء.

﴿وَمُحَرَّمٌ عَلَيْكَ أَرْوَاتِكُنَّ﴾ أي: نسائنا، هذا إذا ولد حيًّا. وإن يكن ما [في] بطنها يولد ميتًا، فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

﴿سَيَجْزِيهِمْ﴾ الله ﴿وَصَفَّهُمْ﴾ حيث وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله.

﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال. ﴿عَلِيمٌ﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه واقتروه، وهو يعافهم ويرزقهم جل جلاله.

ثم بين خسراتهم وسفاهة عقولهم فقال: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردي والضلال.

﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقًا لهم، فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أحل الحلال.

وكل هذا ﴿أَفْتَرَاءٌ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: كذبًا يكذب به كل معاند كفار. ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي: قد ضلوا ضلالًا

الله منه شيء. وذلك أنهم إذا حصل لهم - من زروعهم وثمارهم وأنعامهم التي أوجدها الله لهم - شيء، جعلوه قسامين:

قسماً قالوا: هذا لله بقولهم وزعمهم، وإلا فالله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه، ولا يقبل عمل مَنْ أشرك به.

وقسماً جعلوه حصة شركائهم من الأوثان والأنداد.

فإن وصل شيء مما جعلوه لله، واختلط بما جعلوه لغيره، لم يبالوا بذلك. وقالوا: الله غني عنه، فلا يردونه، وإن وصل شيء مما جعلوه لأنفسهم إلى ما جعلوه لله، ردوه إلى محلّه، وقالوا: إنها فقراء، لا بد من رد نصيبها.

فهل أسوأ من هذا الحكم وأظلم؟! حيث جعلوا ما للمخلوق، يجتهد فيه وينصح ويحفظ، أكثر مما يفعل بحق الله.

ويحتمل أن تأويل الآية الكريمة، ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال عن الله تعالى أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَنْ أشرك معي شيئاً تركته وشركه».

وأن معنى الآية أن ما جعلوه وتقربوا به لأوثانهم، فهو تقرب خالص لغير الله، ليس لله منه شيء، وما جعلوه لله - على زعمهم - فإنه لا يصل إليه لكونه شركاً، بل يكون حظ الشركاء والأنداد، لأن الله غني عنه، لا يقبل العمل الذي أشرك به معه أحد من الخلق.

ومن سفه المشركين وضلالهم أنه زين لكثير من المشركين شركاؤهم - أي: رؤساؤهم وشياطينهم - قتل أولادهم، وهو: الواد، الذين يدفنون أولادهم خشية الافتقار، والإناث خشية العار.

وكل هذا من خدع الشياطين، الذين يريدون أن يردوهم بالهلاك، ويلبسوا عليهم دينهم، فيفعلون الأفعال التي في غاية القبح.

ولا يزال شركاؤهم يزينونها لهم، حتى تكون عندهم من الأمور الحسنة والخصال المستحسنة، ولو شاء الله أن يمنعهم، ويحول بينهم وبين هذه الأفعال، ويمنع أولادهم عن قتل الأبوين لهم، ما فعلوه. ولكن اقتضت حكمته، التخليّة بينهم وبين أفعالهم، استدراجاً منه لهم، وإمهالاً لهم، وعدم مبالاة بما هم عليه، ولهذا قال: ﴿قَدَرَهُمْ وَمَا يَفْرَوْنَ﴾ أي: دعهم مع كذبهم وافتراءهم، ولا تحزن عليهم، فإنهم لن يضروا الله شيئاً.

ومن أنواع سفاهتهم أن الأنعام التي أحلها الله لهم عموماً، وجعلها رزقاً ورحمة، يتمتعون بها ويتفتنون، قد اخترعوا فيها

بعيداً، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

(١٤١) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ لما ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام، ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك، ووظفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ أَيْ: بساتين، فيها أنواع الأشجار المتنوعة، والنباتات المختلفة.

﴿مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أَيْ: بعض تلك الجنات، مجعول له عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونها في النهوض عن الأرض، وبعضها خال من العروش، تنبت على ساق، أو تفرش في الأرض.

وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علم

العباد كيف يعرشونها وينمونها.

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتَ مُتَشَابِهًا﴾ أَيْ: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل.

وخص تعالى النخل والزروع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها، ولكونها هي القوت لأكثر الخلق. ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتَ مُتَشَابِهًا﴾ في شجره ﴿وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ﴾ في ثمره وطعمه. كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات، وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ أَيْ: النخل والزروع ﴿إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾ أَيْ: أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأضواء المقدرة في الشرع.

أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حولان الحول. لأنه الوقت الذي تشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذ إخراجه على أهل الزروع، ويكون الأمر فيها ظاهراً لمن أخرجها، حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج.

وقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع، بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرامه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله، بل يبغضه ويمقت عليه.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١٤٦

الْبَقَرَاتِ

وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرِّثْ حَجْرًا لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِزْعِهِمْ وَأَنْعَمُ حَرَمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمُ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَاءَ عَلَيْهَا أَفِرَاءَ عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كُونُوا وَمَحْرَمٌ عَلَيْنَا وَإِنْ يَكُن مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٨﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَفِرَاءَ عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٣٩﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّاتَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤٠﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا وَمَا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤١﴾

وفي هذه الآية دليل على وجوب الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها في الزروع، وجذاذ النخيل. وأنه لا تتكرر فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة، إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده.

وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر، أنه لا يضمناها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزروع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكى المال الذي يبقى بعده.

وقد كان النبي ﷺ، يبعث خارصاً يحرص للناس ثمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع، بحسب ما يعترها من الأكل وغيره من أهلها، وغيرهم.

(١٤٢-١٤٤) ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ تَمَنِّيَةٌ أَرْوَجُ مِنْ أَلْبَانِ أُنثَى وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ أَنَا أَسْمَكْتُ عَلَيْهِ أَرْحَامَ الْأَنْثَى نَبُوِيٌّ بَعْدِي إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ أَلَّذِينَ حَرَّمَ

﴿سُورَةُ الْاَنْعَامِ﴾ ١٤٧ ﴿الْبَقَرِ﴾
 ثَمَنِيَّةٌ اَرْوَجُ مِنْ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ
 قُلْ اَلَّذِكْرَيْنِ حَرَّمَ اَمْرَ الْاُنثِيَيْنِ اَمَّا اَسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ
 اَرْحَامَ الْاُنثِيَيْنِ نَبِيُّنِي يَعْلَمُ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٦﴾
 وَمِنَ الْاِبِلِ اِثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ اَلَّذِكْرَيْنِ
 حَرَّمَ اَمْرَ الْاُنثِيَيْنِ اَمَّا اَسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ اَرْحَامَ الْاُنثِيَيْنِ
 اَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ اِذْ وَّصَدَّكُمْ اَللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ
 اَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اَللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ اِنْ اَللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٧﴾ قُلْ لَا اُجِدُ
 فِي مَا اُوْحِيَ اِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ اِلَّا اَنْ يَكُونَ
 مَيْتَةً اَوْ دَمًا مَسْفُوحًا اَوْ لَحْمَ خنزيرٍ فَاِنَّهُ رَجَسٌ اَوْ
 فُسْقًا اَهْلٌ لغيرِ اَللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَاِنَّ
 رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَعَلَى الَّذِيْنَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ
 كُلِّ ذِي ظْفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ
 سُحُومَهُمَا اِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا اَوْ الْحَوَايَا اَوْ مَا
 اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبِعْثِهِمْ وَاِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٩﴾

ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك. فلما بين بطلان قولهم وفساده، قال لهم قولاً لا حيلة لهم في الخروج من تبعته، إلا في اتباع شرع الله. ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ اِذْ وَّصَدَّكُمْ اَللَّهُ بِهَذَا﴾ أي: لم يبق عليكم إلا دعوى، لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها. وهي أن تقولوا: إن الله وضانا بذلك، وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله، بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً لما دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب. وهذا افتراء لا يجمله أحد، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اَللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: مع كذبه وافتراءه على الله، قصده بذلك إضلال عباد الله عن سبيل الله، بغير بينة منه ولا برهان، ولا عقل ولا نقل ﴿إِنَّ اَللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين لا إرادة لهم في غير الظلم والعجز، والافتراء على الله.

(١٤٦، ١٤٧) ﴿قُلْ لَا اُجِدُ فِي مَا اُوْحِيَ اِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ اِلَّا اَنْ يَكُونَ مَيْتَةً اَوْ دَمًا مَسْفُوحًا اَوْ لَحْمَ خنزيرٍ فَاِنَّهُ رَجَسٌ اَوْ فُسْقًا اَهْلٌ لغيرِ اَللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَاِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَعَلَى الَّذِيْنَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ كُلِّ ذِي ظْفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ سُحُومَهُمَا اِلَّا مَا حَمَلَتْ

أَمِ الْاُنثِيَيْنِ اَمَّا اَسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ اَرْحَامَ الْاُنثِيَيْنِ اَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ اِذْ وَّصَدَّكُمْ اَللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اَللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ اِنَّ اَللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ﴿و﴾ خلق وأنشأ ﴿مِنَ الْاَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي: بعضها تحملون عليه وتركبونه، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها، لصغرها كالفضلان ونحوها، وهي الفرش، فهي من جهة الحمل والركوب، تنقسم إلى هذين القسمين.

وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع، فإنها كلها تؤكل، ويتنفع بها. ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَمِمَّا رَزَقَكُمُ اَللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُلُوطَ الشَّيْطٰنِ﴾ أي: طرقة وأعماله التي من جملتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فلا يأمركم إلا بما فيه مضرتهكم وشقاؤكم الأبدية.

وهذه الأنعام التي امتن الله بها على عباده، وجعلها كلها حلالاً طيباً، فصلها بأنها: ﴿ثَمَنِيَّةٌ اَرْوَجُ مِنْ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ﴾ ذكر وأنتى ﴿وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ﴾ كذلك. فهذه أربعة، كلها داخلة فيما أحل الله، لا فرق بين شيء منها.

فقل لهؤلاء المتكلمين الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء، أو يحرمون بعضها على الإناث دون الذكور، ملزماً لهم بعدم وجود الفرق، بين ما أباحوا منها وحرموا: ﴿اَلَّذِكْرَيْنِ﴾ من الضأن والمعز ﴿حَرَّمَ﴾ الله، فليست تقولون بذلك وتطردونه، ﴿أَمِ الْاُنثِيَيْنِ﴾ حرم الله من الضأن والمعز، فليس هذا قولكم، لا تحريم الذكور الخالص، ولا الإناث الخالص من الصنفين.

بقي إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأنتى، أو على مجهول فقال: ﴿أَمْ﴾ تحرمون ما ﴿اَسْتَمَلْتَ عَلَيْهِ اَرْحَامُ الْاُنثِيَيْنِ﴾ أي: أنتى الضأن وأنتى المعز، من غير فرق بين ذكر وأنتى، فليست تقولون أيضاً بهذا القول.

فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة، التي حصرتها الأقسام الممكنة في ذلك، فالى أي شيء تذهبون؟ ﴿نَبِيُّنِي يَعْلَمُ اِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم ودعواكم.

ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغاً في العقل، إلا واحداً من هذه الأمور الثلاثة. وهم لا يقولون بشيء منها. إنما يقولون: إن بعض الأنعام التي يصطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم، حرام على الإناث دون الذكور، أو محرمة في وقت من الأوقات، أو نحو ذلك من الأقوال، التي يعلم علماً لا شك فيه، أن مصدرها من الجهل المركب، والعقول المختلفة المنحرفة، والآراء الفاسدة، وأن الله ما أنزل - بما قاله - من سلطان، ولا لهم عليه حجة ولا برهان.

ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمِ ذَلِكَ جَرْنَهُمْ بِعَيْبِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿١٤٥﴾ لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا من الحلال، ونسبوه إلى الله، وأبطل قولهم، أمر تعالى رسوله أن يبين للناس ما حرمه الله عليهم، ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال. مَنْ نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل، لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله، وقد قال لرسوله:

﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ أَوْ مَحْرَمًا أَكَلَهُ، بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه. ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيسَةً﴾ والميته: ما مات بغير ذكاة شرعية، فإن ذلك لا يحل. كما قال تعالى: ﴿حَرَمْتَ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَقَدْ لَخِّنَّا لَهَا ذُرِيَّتًا﴾.

﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكاتها، فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن، فإذا خرج من البدن زال الضرر بأكل اللحم. ومفهوم هذا اللفظ، أن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح، أنه حلال طاهر.

﴿أَوْ لَحْمِ خَيْزِرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ أي: فإن هذه الأشياء الثلاثة رجس، أي: خبث نجس مضر، حرمه الله لطفًا بكم، ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث.

﴿أَوْ﴾ إلا أن يكون ﴿فَسَقًا أَهْلًا لِعَيْرِ اللَّهِ بِدْيَةً﴾ أي: إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله، من الأوثان والآلهة التي يعبدها المشركون، فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته.

أي: ومع هذا، فهذه الأشياء المحرمات، من اضطر إليها، أي: حملته الحاجة والضرورة إلى أكل شيء منها، بأن لم يكن عنده شيء، وخاف على نفسه التلف.

﴿عَيْرٌ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ أي: ﴿عَيْرٌ بَاغٍ﴾ أي: مرید لأكلها، من غير اضطرار، ولا متعد أي: متجاوز للحدد، بأن يأكل زيادة عن حاجته ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ عَيْرٌ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: فالله قد سامح مَنْ كان بهذه الحال.

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الحصر المذكور في هذه الآية، مع أن ثم محرمات لم تذكر فيها كالسباع، وكل ذي مخلب من الطير ونحو ذلك. فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد، على ما ذكر فيها، فلا ينافي هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحى إليه في ذلك الوقت.

وقال بعضهم: إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات،

بعضها صريحًا، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة. فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير، أو الأخير منها فقط: ﴿فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ وصف شامل لكل محرم، فإن المحرمات كلها رجس وخبث، وهي من الخبائث المستفجرة التي حرمها الله على عباده، صيانة لهم، وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس.

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من السنة، فإنها تفسر القرآن، وتبين المقصود منه. فإذا كان الله تعالى لم يحرم من المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم لا يكون مصدره إلا شرع الله - دل ذلك على أن المشركين الذين حرموا ما رزقهم الله، مفترون على الله، متقولون عليه ما لم يقل.

وفي الآية احتمال قوي، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة، في تحريمهم ما أحله الله، وخوضهم بذلك، بحسب ما سولت لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة. وليس منها محرم إلا ما ذكر في الآية: الميتة منها، وما أهل لغير الله به، وما سوى ذلك، فحلال.

ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال، أن بعض الجهال قد يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع الغنم، كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم، فيمنونها كما ينمون المواشي، ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام، فهذا المحرم على هذه الأمة، كله^(١) من باب التنزيه لهم والصيانة.

وأما ما حرم على أهل الكتاب، فبعضه طيب، ولكنه حرم عليهم عقوبة لهم، ولهذا قال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَكُلِّ ذِي ظُفْرٍ﴾ وذلك كالإبل، وما أشبهها. وحرمت عليهم ﴿مِنَ الْبَقَرِ وَالْفَرَسِ﴾ بعض أجزائها، وهو ﴿شُحُومُهُمَا﴾.

وليس المحرم جميع الشحوم منها، بل شحم الألية والثرث، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك فقال: ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا﴾ أي: الشحم المخالط للأعضاء ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ التحريم على اليهود ﴿جَرْنَهُمْ بِعَيْبِهِمْ﴾ أي: ظلّمهم وتعديهم في حقوق الله وحقوق عباده، فحرم الله عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالًا. ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ في كل ما نقول ونفعل ونحكم به، ومن أصدق من الله حديثًا، ومن

(١) في ب: كلها.

أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

(١٤٧) ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: فإن كذبت هؤلاء المشركون، فاستمر على دعوتهم بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن الله ﴿ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ أي: عامة شاملة [الجميع] المخلوقات كلها، فسارعوا إلى رحمته بأسبابها، التي رأسها وأساسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به.

﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين كثر إجرامهم وذنوبهم، فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله، التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ.

(١٤٨، ١٤٩) ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُنَا لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم، ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر، حجة لهم في دفع اللوم عنهم.

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية.

فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل، ويحتجون بها، فلم تجد فيهم شيئاً ولم تنفعهم، فلم يزل هذا دأبهم حتى أهلكهم الله وأذاقهم بأسه.

فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه. فعلم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة، لم تحل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان.

فأما إذا كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذي لا يُعني من الحق شيئاً، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُنَا لَنَا﴾ فلو كان لهم علم - وهم خصوم الداء - لأخرجوه، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم.

﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ ومن بنى حججه على الخرص والظن، فهو مبطل خاسر. فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟.

سورة الأنعام

١٤٨

سورة الأنعام

﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُنَا لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿قُلْ هَلْ هُمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفٌّ عَنِ الْآثِرِ كُوفِيهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ تَحْنُ تَرْتَفِكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطُنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ كُرْهُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾

ومنها: أن الحجة لله البالغة التي لم تبق لأحد عذراً، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة.

فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة^(١) القاطعة باطل، لأن نقيض الحق لا يكون إلا باطلاً.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة، يتمكن بها من فعل ما كُلف به. فلا أوجب الله على^(٢) أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن من تركه. فالاحتجاج - بعد هذا - بالقضاء والقدر، ظلم محض، وعناد صرف.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم، فإن شاءوا فعلوا، وإن شاءوا كفوا. وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات.

فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة

(١) في ب: الآية (٢) في الأصل: (على) ولعل الصواب ما أثبت. (٣) في ب: من الكلام المصيب عندهم والمخطيء.

القسرية، وإن كان الجمع داخلًا في مشيئة الله، ومندرجًا تحت إرادته .

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر، يتناقضون في ذلك. فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك، بل لو أساء إليهم مسيء بضرب، أو أخذ مال، أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدر، لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب.

فيا عجبًا كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم؟! .

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدر ليس مقصودًا، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل، فهم يدفعونه بكل ما يخطر بالهمم من الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ^(١).

(١٥٠) ﴿قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شَهِدَةٌ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنْ اللَّهُ حَرَّمَ هَذَا إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَيْبِهِمْ يَدُولُونَ﴾ أي: قل لمن حرم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا. فإذا قيل لهم هذا الكلام، فهم بين أمرين:

إما أن لا يحضروا أحدًا يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذا باطلة، خالية من الشهود والبرهان.

وإما أن يحضروا أحدًا يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أئيم، غير مقبول الشهادة. وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول؛ ولهذا قال تعالى - ناهيًا نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة -: ﴿إِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَيْبِهِمْ يَدُولُونَ﴾ أي: يسوون به غيره من الأنداد والأوثان.

فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر، غير موحدين لله، كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق. فحري بهوى هذا شأنه، أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حينئذ أن تحريمهم لما أحل الله، صادر عن تلك الأهواء المضلة.

(١٥١-١٥٣) ﴿قُلْ مَكَالُوا آتَلُوا مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ تَحْتَنُّ رِزْقَكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ولا تقرَّبوا مالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَيَهْدِ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين حَرَّمُوا ما أحل الله: ﴿تَمَكَّلُوا أَتَلُوا مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ تحريمًا عامًّا شاملًا لكل أحد، محتويًا على سائر المحرمات، من المأكَل، والمشرب، والأقوال، والأفعال.

﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ أي: لا قليلًا ولا كثيرًا.

وحقيقة الشرك بالله: أن يُعبد المخلوق كما يُعبد الله، أو يُعظم كما يُعظم الله، أو يُصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية. وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحدًا، مخلصًا لله في جميع أحواله، فهذا حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا.

ثم بدأ بأكّد الحقوق بعد حقه فقال: ﴿وَالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة، فكل قول وفعل، يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ من ذكور وإنات ﴿مَنْ إِمْلَاقٍ﴾ أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجودًا في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا منهيين عن قتلهم في هذه الحال وهم أولادهم، فنهيههم عن قتلهم لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم، من باب أولى وأحرى.

﴿تَحْتَنُّ رِزْقَكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فليست الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ وهي الذنوب العظام المستفحشة ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: لا تقربوا الظاهر منها والخفي، أو المتعلق منها بالظاهر، والمتعلق بالقلب والباطن.

والنهي عن قربان الفواحش أبلغ من النهي عن مجرد فعلها، فإنه يتناول النهي عن مقدماتها ووسائلها الموصلة إليها.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهي: النفس المسلمة من ذكرٍ وأُنثى، صغيرٍ وكبير، برٍ وفاجر، والكافرة التي قد عصمت بالعهد والميثاق. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالزاني المحصن، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة.

﴿ذَلِكَُمْ﴾ المذكور ﴿وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَقُولُونَ﴾ عن الله

وصيته، ثم تحفظونها، ثم تراعونها وتقومون بها.

ودلت الآية على أنه بحسب عقل العبد يكون قيامه بما أمر الله به.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ بأكل، أو معاوضة على وجه المحاباة لأنفسكم، أو أخذ من غير سبب. ﴿إِلَّا بِأْتِي هِيَ أَحْسَنَ﴾ أي: إلا بالخال التي تصلح بها أموالهم، ويتفعون بها. فدل هذا على أنه لا يجوز قربانها والتصرف بها، على وجه يضر اليتامى، أو على وجه لا مضرة فيه ولا مصلحة. ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْيَتِيمَ أَشَدُّهُ﴾ أي: حتى يبلغ ويرشد، ويعرف التصرف. فإذا بلغ أشده أعطي حيثنذ ماله، وتصرف فيه على نظره.

وفي هذا دلالة على أن اليتيم - قبل بلوغ الأشد - محجور عليه، وأن وليه يتصرف في ماله بالأحظ، وأن هذا الحجر ينتهي ببلوغ الأشد.

﴿وَأَوْفُوا بِالْكَفْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل والوفاء التام. فإذا اجتهدتم في ذلك، ف﴿لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: بقدر ما تسعه، ولا تضيق عنه. فمن حرص على الإيفاء في الكيل والوزن، ثم حصل منه تقصير، لم يفرط فيه ولم يعلمه، فإن الله عفو غفور^(١).

وبهذه الآية ونحوها استدلل الأصوليون، بأن الله لا يكلف أحدا ما لا يطيق، وعلى أن من اتقى الله فيما أمر، وفعل ما يمكنه من ذلك، فلا حرج عليه فيما سوى ذلك.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ قَوْلًا تَحْكُمُونَ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ، وَتَفْصِلُونَ بَيْنَهُمُ الْخِطَابَ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِهِ عَلَى الْمَقَالَاتِ وَالْأَحْوَالِ﴾ ﴿فَأَعْدِلُوا﴾ في قولكم بمرعاة الصدق فيمن تحبون ومن تكرهون، والإنصاف وعدم كتمان ما يلزم بيانه. فإن الميل على من تكره بالكلام فيه، أو في مقالته من الظلم المحرم.

بل إذا تكلم العالم على مقالات أهل البدع، فالواجب عليه أن يعطي كل ذي حق حقه، وأن يبين ما فيها من الحق والباطل، ويعتبر قربها من الحق، وبعدها منه.

وذكر الفقهاء أن القاضي يجب عليه العدل بين الخصمين في لحظة ولطفه.

﴿وَيَعْتَدِ اللَّهُ أَوْفُواً﴾ وهذا يشمل العهد الذي عاهده عليه العباد، من القيام بحقوقه والوفاء بها، ومن العهد الذي يقع التعاهد به بين الخلق. فالجميع يجب الوفاء به، ويحرم نقضه والإخلال به.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الأحكام المذكورة ﴿وَصَنَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما بيته لكم من الأحكام، وتقومون بوصية الله لكم

الْبَيْتِ

١٤٩

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا بِالْكَفْلِ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿١٥١﴾
 ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿١٥٢﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِهِمْ لِيَقَاءَ رَبَّهُمْ بِرُؤْمُونٍ﴾ ﴿١٥٣﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ ﴿١٥٤﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ ﴿١٥٥﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجِرِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ﴾ ﴿١٥٦﴾

حق القيام، وتعرفون ما فيها من الحكم والأحكام.

ولما بين كثيراً من الأوامر الكبار، والشرائع المهمة، أشار إليها وإلى ما هو أعم منها، فقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ أي: هذه الأحكام وما أشبهها، مما بيته الله في كتابه، ووضحه لعباده، صراط الله الموصل إليه وإلى دار كرامته، المعتدل السهل المختصر.

﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ لتناولوا الفوز والفلاح، وتدرخوا الآمال والأفراح. ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ أي: الطرق المخالفة لهذا الطريق. ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: تضللكم عنه وتفرقكم يميناً وشمالاً، فإذا ضللتكم عن الصراط المستقيم، فليس ثم إلا طرق توصل إلى الجحيم.

﴿ذَلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإنكم إذا قمتم بما بينه الله لكم علماً وعملاً، صرتم من المتقين وعباد الله المفلحين. ووجد الصراط، وأضافه إليه، لأنه سبيل واحد موصل إليه، والله هو المعين للسالكين على سلوكه.

(١) في ب: غفور رحيم.

أجمع، ولا أوضح، ولا أبين منه.

﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا [بعدم] كمالها وتامها، فحصل لكم بكتابكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وهذا اسم جنس، يدخل فيه كل ما يبين الحق.

﴿وَهُدَىٰ﴾ من الضلالة ﴿وَرَحْمَةً﴾ أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم. فهذا يوجب لكم الاقبياد لأحكامه، والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأساً وكذب به، فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي: أعرض ونأى بجانبه.

﴿سَجَزَىٰ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه. ﴿يَمَّا كَانُوا يَصُدُّونَ﴾ لأنفسهم ولغيرهم، جزاء لهم على عملهم السيء ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تخصص المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخريين.

وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين، [من] اليهود والنصارى. فهم أهل الكتاب عند الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف، لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه: ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن، من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب، الذين عندهم مادة العلم، وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

(١٥٨) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَوْ تَكَّنْ أَمَانَتٌ مِّن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انظُرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم ﴿إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ﴾ مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة، بأن تأتيهم ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم، فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال لم ينفعهم الإيمان، ولا صالح الأعمال. ﴿أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين. ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الدالة على قرب الساعة.

﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن

(١٥٤-١٥٧) ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا فَآتَيْتُمُوهُ وَأَتَقُوا لِمَلَكِكُمْ رُحُومًا ۝ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِّن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَجَزَىٰ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ يَمَّا كَانُوا يَصُدُّونَ﴾ ثم في هذا الموضوع، ليس المراد منها الترتيب الزمني، فإن زمن موسى عليه السلام متقدم على تلاوة الرسول محمد ﷺ هذا الكتاب، وإنما المراد الترتيب الإخباري. فأخبر أنه أتى ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو: التوراة ﴿تَمَامًا﴾ لنعمته، وكمالاً لإحسانه. ﴿عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ﴾ من أمة موسى، فإن الله أنعم على المحسنين منهم يتعم لا تحصى. من جملتها وتامها إنزال التوراة عليهم، فتمت عليهم نعمة الله، ووجب عليهم القيام بشكرها.

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجون إلى تفصيله، من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والعقائد ونحوها ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي: يهديهم إلى الخير، ويعرفهم بالشر، في الأصول والفروع ﴿وَرَحْمَةً﴾ يحصل به لهم السعادة والرحمة، والخير الكثير ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بسبب إنزالنا الكتاب والبيانات عليهم ﴿بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنه اشتمل من الأدلة الفاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، ما يوجب لهم الإيمان بقاء ربهم والاستعداد له.

﴿وَهَذَا﴾ القرآن العظيم، والذكر الحكيم ﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا﴾ أي: فيه الخير الكثير والعلم الغزير، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحت عليه، وما من شر إلا وقد نهى عنه وحذّر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله، وعواقبها الوخيمة ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ فيما يأمر به وينهى، وابتوا أصول دينكم وفروعه عليه ﴿وَاتَّقُوا﴾ الله تعالى أن تخالفوا له أمراً ﴿لَمَلِكِكُمْ﴾ إن اتبعتموه ﴿رُحُومًا﴾ فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً.

﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَيَّ طَائِفَتَيْنِ مِّن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعاً لحجبتكم، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، أي: اليهود والنصارى.

﴿وَإِن كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفْلِينَ﴾ أي: تقولون لم تنزل علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتاباً، لم ينزل من السماء كتاب

الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت.

﴿لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانًا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ أي: إذا وجد بعض آيات الله، لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير المرجو قبل أن يأتي بعض الآيات.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيمانًا بالغيب، وكان اختيارًا من العبد، فأما إذا وجدت الآيات، صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أقطع عمدًا هو فيه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ فلم ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنت الله التي قد حلت في عباده.

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويغلق حينئذ باب التوبة. ولما كان هذا وعيدًا للمكذبين بالرسول ﷺ منظرًا، وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور، قال: ﴿قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ﴾ فستعلمون أننا أحق بالأمن.

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى، كالاستواء، والنزول، والإتيان لله تبارك وتعالى من غير تشبيهه بصفات المخلوقين.

وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير. وفيه أن من جملة أشرط الساعة طلوع الشمس من مغربها، وأن الله تعالى حكيم، قد جرت عادته وسنته أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختياريًا لا اضطراريًا، كما تقدم.

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه. فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو، إذا كان مع العبد الإيمان. فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك.

(١٥٩، ١٦٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسنة فلا يجزيه إلا مثلها وهم لا يظلمون يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيبًا من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئًا، كاليهودية والنصرانية والمجوسية، أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئًا، ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل

سورة الأنعام

١٥٠

سورة الأنعام

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانًا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنْظِرُونَ ﴿١٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٦٠﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَهُ بِرَبِّهِمْ خَيْرًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦٢﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٣﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٤﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ﴿١٦٥﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَسْأَلُكُمْ فِي مَاءِ آتَانِكُمْ إِنْ رَبُّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

البدع والضلال والمفرقين للأمة.

ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر بالاجتماع والاتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية.

وأمره أن يتبرأ ممن فرقوا دينهم فقال: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ يردون إليه، فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

ثم ذكر صفة الجزاء فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله، أو حق خلقه ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

(١٦١-١٦٥) ﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَهُ بِرَبِّهِمْ خَيْرًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ

تَخْلِفُونَ ﴿٧﴾ من خير وشر، ويجازيكم على ذلك أوفى الجزاء .
﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَلَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ﴾ أي: يخلف بعضكم بعضاً، واستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاككم؛ لينظر كيف تعملون .

﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ في القوة والعافية، والرزق، والخلق والخلق ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ﴾ فتفاوتت أعمالكم ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه وكذب بآياته ﴿وَأَنْذَرُ لَكُمْ لَعْنَةَ رَجِيمٍ﴾ لمن آمن به، وعمل صالحاً، وتاب من الموبقات .

آخر تفسير سورة الأنعام، فله الحمد والشأن .
وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد [وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين] (٢) .

المجلد الثالث من تيسير الرحمن في تفسير القرآن
لجامعه الفقير إلى الله: عبدالرحمن بن ناصر السعدي .

تفسير سورة الأعراف

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿التَّصَّ﴾ ○ كُنْتُ أَنْزِلُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِنُذِيرٍ بِهِ وَذَكَرَى لِلنَّاسِينَ ○ أَنْتَعِمُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَسْتَعِمُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ○ وَكَمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَاءٍ بَيْنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ○ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَاءٍ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ○ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ الْأُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ○ فَلَنَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ عِقَابَهُمْ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ، مبيّناً له عظمة القرآن: ﴿كُنْتُ أَنْزِلُ إِلَيْكَ﴾ أي: كتاب جليل، حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكمًا

(١) في ب: بذلك . (٢) زيادة من ب، وقد جاء بعدها قول الناسخ: (وكان الفراغ من كتابته، في يوم الجمعة، الموافق لخمسة وعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٥ هـ . بقلم الفقير إلى ربه المنان علي الحسن العلي الحسن البريكاني . وقد نسخته على نسخة المؤلف، غفر الله له، وأثابه على ذلك، الثواب الجزيل . وجزاه الله عتاً، وعن جميع المسلمين، أفضل الجزاء، في دار الجزاء . وأدخله الله - برحمته - فسيح الجنان، ووقانا وإياه، عذاب النيران، بفضل وكرمه، إنه قريب مجيب . وصلّى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين - آمين ثم آمين . يا رب العالمين .

النَّاسِينَ ○ قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا نُزِرَ وَإِزْرَةٌ وَزَرَّ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ مَرَجِعُكُمْ فَيُنشِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْلِفُونَ ○ وَهُوَ الَّذِي جَمَلَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ رَفَعَ بِبَعْضِكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا ءَاتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَأَنْذَرُ لَكُمْ لَعْنَةَ رَجِيمٍ ﴿٧﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ، أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم، الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصاً إمام الحنفاء، ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم، من أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشركين .

وهذا عموم، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ أي: ذبحي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها، وهو الله تعالى .

ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله .

وقوله: ﴿وَحَيَاتِي وَمَمَاتِي﴾ أي: ما أتيت في حياتي، وما يجريه الله عليّ، وما يقدر عليّ في مماتي، الجميع ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير . ليس هذا الإخلاص لله ابتداءً مني، وبدعاً أتيت من تلقاء نفسي، بل ﴿بِذَلِكَ أُبْرِتُ﴾ أمراً حتمًا، لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله ﴿وَأَنَا أَوَّلُ النَّاسِينَ﴾ من هذه الأمة .

﴿قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ﴾ من المخلوقين ﴿أَبْنِي رَبًّا﴾ أي: أيحسن ذلك ويليق بي، أن أتخذ غيره مربياً ومدبراً والله رب كل شيء! فالخلق كلهم داخلون تحت ربوبيته، متقادون لأمره .

فتعين عليّ وعلى غيري أن يتخذ الله ربًّا، ويرضى به، وألا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين .

ثم رغب ورهب بذكر (١) الجزاء فقال: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير وشر ﴿إِلَّا عَلَيْهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ .

﴿وَلَا نُزِرَ وَإِزْرَةٌ وَزَرَّ أُخْرَىٰ﴾ بل كلُّ عليه وزر نفسه . وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره ووزره، فإنه عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشر شيء .

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ مَرَجِعُكُمْ﴾ يوم القيامة ﴿فَيُنشِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَصِّ ۝ كَيْتُ أَنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ
لِتُنذِرَ بِهِ ۖ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم
مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝
وَكَمْ مِّن قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْتَأْنِيْتَا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ
۝ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذ جَاءَهُمْ بِأَسْتَأْنِيْتَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ۝ فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأْذِنَ
الْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَرَمَّا كُنَّا غَائِبِينَ ۝
وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ۝ وَلَقَدْ مَكَرْتُمْ
فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝
وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَوَيْسَ لَوْ كَانَ مِنَ السَّاجِدِينَ ۝

﴿فَلَنَقْصِنَّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الخلق كلهم ما عملوا ﴿بِعِلْمٍ﴾
منه تعالى لأعمالهم ﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ في وقت من
الأوقات، كما قال تعالى: ﴿أَخْصَنَّا اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ وقال تعالى:
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَرَمَّا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾.

(٩، ٨) ثم ذكر الجزاء على الأعمال فقال: ﴿وَالْوَزْنَ يَوْمَئِذٍ
الْحَقُّ ۚ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ
مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ أي:
والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط، الذي لا جور فيه
ولا ظلم بوجه.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت كفة حسناته على سيئاته
﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الناجون من المكروه،
المدركون للمحبوب الذين حصل لهم الريح العظيم،
والسعادة الدائمة.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته، وصار الحكم لها
﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ إذ فاتهم النعيم المقيم، وحصل

(١) في ب: فلا يشابهونهم.

مفصلاً. ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: ضيق وشك
واشتباه. بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وأنه أصدق
الكلام، فلينشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدق
بأوامره ونواهيها، ولا تخش لائمًا ومعارضًا.

﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ الخلق، فتعظهم، وتذكرهم، فتقوم الحجة
على المعاندين. ﴿وَوَيْلٌ لِّكُم مِّنَ الْيَوْمِ الَّذِي تَكْفُرُونَ﴾ كما قال
تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يتذكرون به الصراط
المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد،
وبين سلوكه.

ثم خاطب الله العباد، وألفهم إلى الكتاب فقال: ﴿اتَّبِعُوا
مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم،
وهو ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فانزل
عليكم هذا الكتاب الذي إن اتبعتموه، كملت تربيتكم، وتمت
عليكم النعمة، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق،
ومعاليتها.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: تتولونهم وتتبعون
أهواءهم، وتركون لأجلها الحق.
﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ فلو تذكرتم وعرفتم المصلحة، لما آثرتم
الضار على النافع، والعدو على الولي.

ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءتهم به
رسلهم، لثلا يشابهوهم^(١) فقال: ﴿وَكَمْ مِّن قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا
بِأَسْتَأْنِيْتَا﴾ أي: عذابنا الشديد ﴿بَيْنَمَا هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: في حين
غفلتهم، وعلى غرتهم غافلون، لم يخطر الهلاك على
قلوبهم. فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا
أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا
يفعلونه من الظلم والمعاصي.

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذ جَاءَهُمْ بِأَسْتَأْنِيْتَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرِيْبَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا
بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۝ فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسْتَأْنِيْتَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكَبُونَ ۝ لَا
تَرْكَبُونَهَا وَأَرْجَعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَسَكَرْتُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْتَلُونَ ۝ قَالُوا
يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَانَهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا
خَائِدِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: لنسألن الأمم
الذين أرسل الله إليهم المرسلين، عما أجابوا به رسلهم ﴿وَيَوْمَ
يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ الآيات.

﴿وَلَنَسْتَأْذِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعما
أجابتهم به أمهم.

ومنها: أن قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ بمجرد ما كافية لنقص إبليس الخبيث. فإنه برهن على نقصه بإعجابه بنفسه، وتكبره، والقول على الله بلا علم. وأي نقص أعظم من هذا؟!
ومنها: أنه كذب في تفضيل مادة النار على مادة الطين والتراب، فإن مادة الطين فيها الخشوع والسكون والرزانة، ومنها تظهر بركات الأرض من الأشجار وأنواع النبات، على اختلاف أجناسه وأنواعه. وأما النار ففيها الخفة والطيش والإحراق.

ولهذا لما جرى من إبليس ما جرى، انحط من مرتبته العالية إلى أسفل السافلين، فقال الله له: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ لأنها دار الطيبين الطاهرين، فلا تلبق بأخبث خلق الله وأشرفهم.

﴿فَأَخْرَجَ إِيَّاكَ مِنَ الصَّغِيرِ﴾ أي: المهانين الأدلين، جزاء على كبره وعجبه، بالإهانة والذل.
فلما أعلن عدو الله بعبادة الله، وعداوة آدم وذريته، سأل الله النظرة والإمهال إلى يوم البعث، ليتمكن من إغواء ما يقدر عليه من بني آدم.

ولما كانت حكمة الله مقتضية لابتلاء العباد واختبارهم، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن يطيعه ممن يطيع عدوه، أجابه لما سأل فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾.

(١٦، ١٧) ﴿قَالَ فِيمَا أُوتِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: لآتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا يحيد أكثرهم شكرين ﴿أي: قال إبليس - لما أبلس وأيس من رحمة الله - ﴿فِيمَا أُوتِيَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ أي: للخلق ﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: لألزم الصراط ولأسعى غاية جهدي، على صد الناس عنه، وعدم سلوكهم إياه.

﴿ثُمَّ لَآتِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: من جميع الجهات والجوانب، ومن كل طريق يتمكن فيه، من إدراك بعض مقصوده فيهم.

ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه فقال: ﴿وَلَا يَحِدُّ أَكْثَرُهُمْ شُكْرِينَ﴾ فإن القيام بالشكر، من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حَرِيْبًا لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله، لتأخذ منه حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا بالطرق التي يأتي منها، ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

لهم العذاب الأليم ﴿يَمَّا كَانُوا يَجَازِبُونَ﴾ فلم يتقادوا لها، كما يجب عليهم ذلك.

(١٠) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشًا قَلِيلًا مَا نَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى ممتناً على عباده بذكر المسكن والمعيشة ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: هيأناها لكم، بحيث تتمكنون من البناء عليها وحرثها، ووجوه الانتفاع بها. ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشًا﴾ مما يخرج من الأشجار والنبات، ومعادن الأرض، وأنواع الصنائع والتجارات، فإنه هو الذي هيأها، وسخر أسبابها.

﴿قَلِيلًا مَا نَشْكُرُونَ﴾ الله، الذي أنعم عليكم بأصناف النعم، وصرف عنكم النعم.

(١١-١٥) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ قال ما ممك ألا تسجد إذ أمرت قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ قال أنظرني إلى يوم أبعثون ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ يقول تعالى مخاطباً لبني آدم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ بخلق أصلكم ومادنتكم التي منها خرجتم: أيكم آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ في أحسن صورة وأحسن تقويم، وعلمه الله تعالى ما به تكمل صورته الباطنة، أسماء كل شيء.

ثم أمر الملائكة الكرام أن يسجدوا لآدم، إكراماً واحتراماً، وإظهاراً لفضله، فامتثلوا أمر ربهم ﴿فَسَجَدُوا﴾ كلهم أجمعون ﴿إِلَّا إِبْلِسَ﴾ أي أن يسجد له، تكبراً عليه، وإعجاباً بنفسه، فوبخه الله على ذلك وقال:

﴿مَا مَمَكَ إِلَّا تَسْجُدُ﴾ لما خلقت بيدي، أي: شرفته وفضلته بهذه الفضيلة التي لم تكن لغيره، فعصيت أمري، وتهاوت بي؟

﴿قَالَ﴾ إبليس معارضاً لربه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ ثم برهن على هذه الدعوى الباطلة بقوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ وموجب هذا أن المخلوق من نار أفضل من المخلوق من طين، لعلو النار على الطين وضعودها. وهذا القياس من أفسد الأقيسة، فإنه باطل من عدة أوجه:

منها: أنه في مقابلة أمر الله له بالسجود، والقياس إذا عارض النص، فإنه قياس باطل، لأن المقصود بالقياس أن يكون الحكم الذي لم يأت فيه نص، يقارب الأمور المنصوص عليها، ويكون تابعاً لها.

فأما قياس يعارضها، ويلزم من اعتباره إلغاء النصوص، فهذا القياس من أشنع الأقيسة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥٢

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قَالَ مَا مَنَّكَ الْأَسْجُدُ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ
وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ قَالَ فَاهْطِ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٤﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٥﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتِي لِأَقْعُدَ لَهُمْ
صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَيَسَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
أَخْرَجْ مِنْهَا مَذْمُومًا وَمَا مُدْحُورًا لَمَنْ يَتَّبِعْ مِنْهُمْ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَتَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ
لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ
مَا نَهَيْتُمَا بِرَبِّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا
مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّهُمَا بِعُرْوَةٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا
بِخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رِزْقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا
عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا أَنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾

(١٨) ﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا مُدْحُورًا لَمَنْ يَتَّبِعْ مِنْهُمْ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: قال الله لإبليس لما قال ما قال: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ خروج صغار واحترقار، لا خروج إكرام، بل ﴿مَذْمُومًا﴾ أي: مذمومًا ﴿مُدْحُورًا﴾ مبعدا عن الله، وعن رحمته، وعن كل خير. ﴿لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ﴾ منك ومن تبعك منهم ﴿أَجْمَعِينَ﴾ وهذا قسم منه تعالى، أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

ثم حذر آدم شره وفتنته فقال:

(١٩-٢٣) ﴿وَيَتَادَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِ تَيْهَمَا وَقَالَ مَا نَهَيْتُمَا بِرَبِّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّهُمَا بِعُرْوَةٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا بِيَخِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رِزْقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾

أي أمر الله تعالى، آدم وزوجته حواء التي أنعم الله بها عليه، ليسكن إليها، أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعا فيها بما أرادا، إلا أنه عين لهما شجرة، ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا. وحرم عليهما أكلها، بدليل قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فلم يزالا ممثلين لأمر الله، حتى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره، فوسوس لهما وسوسة، خدعتهما بها، وموه عليهما وقال:

﴿مَا نَهَيْتُمَا بِرَبِّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: من جنس الملائكة ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿هَلْ أَذُكُّ عَلَى شَجَرَةِ الْجَنَّةِ وَمُلْكُ لَا يَبْلُغُ﴾. ومع قوله هذا أقسم لهما بالله: ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ أي: من جملة الناصحين، حيث قلت لكما ما قلت.

فاغترا بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل. ﴿فَدَلَّهُمَا﴾ أي: نزلهما عن رتبتهما العالية التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوصارها، فأقدا على أكلها.

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا﴾ أي: ظهرت عورة كل منهما بعدما كانت مستورة، فصار العربي الباطن من التقوى في هذه الحال، أثر في اللباس الظاهر، حتى انخلع فظهرت عوراتهما، ولما ظهرت عوراتهما خجلا، وجعلا يخصفان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة، ليستترا بذلك. ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ وهما بتلك الحال موبخا ومعاتبأ: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنِ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا أَنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٢﴾ فلم اقترفتما المنهي، وأطعتما عدوكما؟

فحينئذ من الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرته فقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أي: قد فعلنا الذنب الذي نهيتنا عنه، وضررنا أنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا، بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافاة من أمثال هذه الخطايا. فغفر الله لهما ذلك ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ ثُمَّ اجْبَنَهُ رَبُّهُ فَقَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿٢٣﴾

هذا، وإبليس مستمر على طغيانه، غير مقلع من عصيانه، فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتباه ربه وهداه.

ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب، لا يزال يزداد من المعاصي - فإنه لا يزداد من الله إلا بعدا.

(٢٥، ٢٦) ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِمَّا تَخْرُجُونَ﴾ يَبْيَئُ آدَمَ قَدْ أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ لِيَأْسَا بِوَرَى سَوْءِ رَبِّكُمْ وَرِيشًا وَلِيَأْسَا الْقَفْوَ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ أي: لما أهبط الله آدم

وزوجته وذريتهما إلى الأرض، أخبرهما بحال إقامتهما فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة يتلوهما الموت، مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه، حتى يأتيهم الموت، فيدفنون فيها. ثم إذا استكملوا بعثهم الله، وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة.

ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري، واللباس الذي المقصود منه الجمال، وهكذا سائر الأشياء، كالطعام والشراب والمراكب، والمناجح ونحوها. قد يسر الله للعباد ضرورياتها، ومكمل ذلك، وإبين لهم^(١) أن هذا ليس مقصودًا بالذات، وإنما أنزله الله ليكون معونة لهم على عبادته وطاعته، ولهذا قال:

﴿وَلِبَاسٍ الْقَوِيِّ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ من اللباس الحسي، فإن لباس التقوى يستمر مع العبد، ولا يبلى ولا يبيد، وهو جمال القلب والروح.

وأما اللباس الظاهري، فغاياته أن يستر العورة الظاهرة في وقت من الأوقات. أو يكون جمالًا للإنسان، وليس وراء ذلك منه نفع.

وأيضًا، فيبتدئ عدم هذا اللباس، تنكشف عورته الظاهرة التي لا يضره كشفها مع الضرورة، وأما بتقدير عدم لباس التقوى، فإنها تنكشف عورته الباطنة، وينال الخزي والفضيحة.

وقوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ أي: ذلك المذكور لكم من اللباس، مما تذكرون به ما ينفعكم ويضركم، وتشبهون^(٢) باللباس الظاهر على الباطن.

(٢٧) ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْتَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَبِيئِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَمَعْنَا الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى محذرًا لبني آدم، أن يفعل بهم الشيطان كما فعل بأبيهم: ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْتَكُمُ الشَّيْطَانُ﴾ بأن يزين لكم العصيان، ويدعوكم إليه، ويرغبكم فيه، فتتقادون له ﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ وأنزلهما من المحل العالي إلى أنزل منه.

فأنتم يريد أن يفعل بكم كذلك، ولا يألو جهده عنكم، حتى يفتنكم إن استطاع. فعليكم أن تجعلوا الحذر منه في بالكم، وأن تلبسوا لأمة الحرب بينكم وبينه، وأن لا تغفلوا عن المواضع التي يدخل منها إليكم.

ف ﴿إِنَّهُ﴾ يراقبكم على الدوام، و ﴿يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ من شياطين الجن ﴿وَمِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَمَعْنَا الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا

﴿وَلِبَاسٍ الْقَوِيِّ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ ١٥٣ ﴿وَلِبَاسٍ الْقَوِيِّ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾

﴿فَلَا رِبَاسًا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَعْفِرْنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٢٧) ﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾ (٢٨) ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٢٩) ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ تَبِيئِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِمَّنْ لَّا يَشْكُرُونَ﴾ (٣٠) ﴿أَيُّتَ اللَّهُ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ (٣١) ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْتَكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَبِيئِهِمَا إِنَّهُ يَرِيكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَمَعْنَا الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٢) ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا أَمْرُ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٣٣) ﴿قُلْ أَمْرُ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٣٤) ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٥)

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فعدم الإيمان هو الموجب لعقد الولاية بين الإنسان والشيطان ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ إنما سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿

(٢٨-٣٠) ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّمَا أَمْرُ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قُلْ أَمْرُ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ يقول تعالى مبيّنًا لقباح حال المشركين الذين يفعلون الذنوب، وينسبون أن الله أمرهم بها ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ وهي كل ما يستفحش ويستفحج، ومن ذلك طوافهم بالبيت عراة.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ وصدقوا في هذا ﴿وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ وكذبوا في هذا، ولهذا رد الله عليهم هذه النسبة فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَمْرُ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يليق بكماله وحكمته، أن

(١) زيادة من هامش ب. (٢) هكذا في أ، وفي ب: وتستعينون.

مشوهاً .

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس
المنظف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة،
وباستعمال التجميل فيها، ونظافة السترة من الأذناس
والأنجاس .

ثم قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: مما رزقكم الله من الطيبات
﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ في ذلك . والإسراف إما أن يكون بالزيادة على
القدر الكافي، والشرة في المأكولات الذي يضر بالجسم،
وإما أن يكون بزيادة الترفه والتتوق في المآكل والمشارب
واللباس، وإما بتجاوز الحلال إلى الحرام .

﴿إِنَّكُمْ لَا تُحِبُّونَ السُّرْفَةَ﴾ فإن السرف يبغضه الله، ويضر
بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن
يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة،
الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن
الإسراف فيهما .

(٣٢، ٣٣) ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ
مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلذَّيْنِ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ
نُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَّنَ وَأَلْبَاسًا وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَنًا
وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى: - منكرًا على من
تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات - ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ
الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه،
والطيبات من الرزق، من مآكل ومشرب بجميع أنواعه، أي:
من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد،
ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسعه الله!!؟

وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا
به على عبادته، فلم يبحه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال:
﴿قُلْ هِيَ لِلذَّيْنِ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لا
تبعة عليهم فيها .

ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على
معاصيه، فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها
وعلى التمتع بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة .

﴿كَذَلِكَ نُفِصِلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نوضحها ونبينها ﴿لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم الذين ينتفعون بما فصله الله من الآيات،
ويعلمون أنها من عند الله، فيعملونها ويفهمونها .

ثم ذكر المحرمات التي حرمها الله في كل شريعة من
الشرائع فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ﴾ أي: الذنوب الكبار
التي تستفحش وتستقبح، لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا

يأمر عباده بتعاطي الفواحش، لا هذا الذي يفعله المشركون
ولا غيره ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وأي افتراء أعظم من
هذا .

ثم ذكر ما يأمر به فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ بِإِلْفِطِّ﴾ أي: بالعدل
في العبادات والمعاملات، لا بالظلم والجور .

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: توجهوا لله،
واجتهدوا في تكميل العبادات، خصوصاً «الصلاة» أقيموها
ظاهرًا وباطنًا، ونقوها من كل نقص ومفسد ﴿وَأَذْعُوهُ مُخْلِصِينَ
لَهُ الِذِينَ﴾ أي: قاصدين بذلك وجهه وحده لا شريك له .

والدعاء يشمل دعاء المسألة ودعاء العبادة، أي: لا تراءوا
ولا تقصدوا من الأغراض في دعائكم، سوى عبودية الله
ورضاه .

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ﴾ أول مرة ﴿تَعُودُونَ﴾ للبعث، فالقادر على بدء
خلقكم، قادر على إعادته، بل الإعادة أهون من البداية .

﴿فَرِيقًا﴾ منكم ﴿هَدَى﴾ الله، أي: وفقهم للهداية، ويسر
لهم أسبابها، وصرف عنهم موانعها ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ
الضَّلَاةُ﴾ أي: وجبت عليهم الضلالة، بما تسببوا لأنفسهم،
وعملوا بأسباب الغواية .

ف ﴿إِنَّهُمْ أَتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ﴿وَمَن يَتَّخِذِ
الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ .

فحين انسلخوا من ولاية الرحمن، واستحبوا ولاية
الشیطان، حصل لهم النصيب الوافر من الخذلان، ووكلوا
إلى أنفسهم فخرسوا أشد الخسران . وهم يحسبون أنهم
مهتدون، لأنهم انقلبت عليهم الحقائق، فظنوا الباطل حقًا،
والحق باطلًا .

وفي هذه الآيات دليل على أن الأوامر والنواهي تابعة
للحكمة والمصلحة، حيث ذكر تعالى أنه لا يتصور أن يأمر بما
تستفحشه وتنكره العقول، وأنه لا يأمر إلا بالعدل
والإخلاص، وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومثمه، وأن
الضلالة بخذلانه للعبد، إذ تولى - بجعله وظلمه - الشيطان،
وتسبب لنفسه بالضلال . وأن من حسب أنه مهتد وهو ضال،
أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أتاه حسبانته من
ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى .

(٣١) ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ خُدُوًا زَيْنَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا
سُرْفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ السُّرْفَةَ﴾ يقول تعالى - بعدما أنزل على بني
آدم لباسًا يوارى سواتهم وربسًا -: ﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ خُدُوًا زَيْنَتَكَ عِنْدَ
كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: استروا عوراتكم عند الصلاة كلها، وفرضها
ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحًا

واللواط ونحوهما .

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر والعجب والرياء والنفاق، ونحو ذلك ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: الذنوب التي تؤثم، وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغي على الناس، في دمائهم وأموالهم وأعراضهم، فدخل في هذا، الذنوب المتعلقة بحق الله، والمتعلقة بحق العباد.

﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك: هو أن يشرك مع الله في عبادته، أحد من الخلق. وربما دخل في هذا، الشرك الأصغر كالرياء، والحلف بغير الله، ونحو ذلك.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه. فكل هذه قد حرّمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها، لما فيها من المفساد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجري على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه.

(٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي: وقد أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلاً مسمى، لا تقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى، ولا تتأخر، لا الأمم المجتمعة، ولا أفرادها.

(٣٦، ٣٥) ﴿يَنْبِئُ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لما أخرج الله بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب عليهم، يقصون عليهم آيات الله، ويبينون لهم أحكامه. ثم ذكر فضل من استجاب لهم، وخسار من لم يستجب لهم فقال: ﴿فَمَنْ اتَّقَى﴾ ما حرّم الله، من الشرك، والكبائر، والصغائر.

﴿وَأَصْلَحَ﴾ أعماله الظاهرة والباطنة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من الشر الذي قد يخافه غيرهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى، وإذا انتفى الخوف والحزن، حصل الأمن التام، والسعادة، والفلاح الأبدي.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾ أي: لا آمنت بها قلوبهم، ولا انقادت لها جوارحهم، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها، أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

سورة الأعراف

١٥٤

سورة الأعراف

﴿يَنْبِئُ آدَمَ خُذْ وَزِينَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَنْبِئُ آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ أُولَئِكَ يَنْهَكُمُ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ مِنَ الْكُذِّبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آئِينَ مَا كُنْتُمْ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٣٧﴾

(٣٧) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۗ أُولَئِكَ يَنْهَكُمُ عَنْ أَنْبِيَائِهِمْ مِنَ الْكُذِّبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا آئِينَ مَا كُنْتُمْ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾ أي: لا أحد أظلم ﴿مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ بنسبة الشريك له، أو النقص له، أو التقول عليه ما لم يقل ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ الواضحة المبيّنة للحق المبين، الهادية إلى الصراط المستقيم. فهؤلاء، وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوباً لهم في اللوح المحفوظ، فليس ذلك بمغن عنهم شيئاً، يتمتعون قليلاً، ثم يعذبون طويلاً.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم، واستيفاء آجالهم. ﴿قَالُوا﴾ لهم في تلك الحالة - توبيخاً وعتاباً - ﴿آئِينَ مَا كُنْتُمْ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأوثان، فقد جاء وقت الحاجة، إن كان فيها منفعة لكم، أو دفع مضرة.

﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شيء.

﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾ مستحقين

للعذاب المهين الدائم.

(٣٨) فقالت لهم الملائكة: ﴿ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي: في جملة أمم. ﴿فَدَخَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ أي: مضوا على ما مضيت عليه، من الكفر والاستكبار، فاستحق الجميع الخزي والبوار.

كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار ﴿لَعَنَّتْ أُمَّهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾، ﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: اجتمع في النار جميع أهلها، من الأولين والآخرين، والقادة والرؤساء، والمقلدين الأتباع. ﴿قَالَتْ أَخْرَبْتُهُمْ﴾ أي: متأخروهم، المتبعون للرؤساء ﴿وَأَوْلَيْتُهُمْ﴾ أي: لرؤسائهم، شاكين إلى الله إضلالهم إياهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصَلُّونَا فَتَابْتُمْ عَلَيْنَا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي: عذبهم عذابًا مضاعفًا لأنهم أصلونا، وزينوا لنا الأعمال الخبيثة.

(٣٩) ﴿وَقَالَتْ أَوْلَيْتُهُمْ لِأَخْرَبْتُهُمْ﴾ أي: الرؤساء، قالوا لأتباعهم: ﴿فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ أي: قد اشتركنا جميعًا في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب، فأئى فضل لكم علينا؟ ﴿قَالَ اللَّهُ لِكُلٍِّ مِّنْكُمْ ضِعْفٌ﴾ ونصيب من العذاب.

﴿فَدَوَّوْا أَلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال، أبلغ وأشنع من عذاب الأتباع، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأتباع.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾، فهذه الآيات ونحوها، دلَّت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله، مخلدون في العذاب، مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره، بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافتراءهم، وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعة.

(٤٠، ٤١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَبِيعَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ لهم من جهنم مهادٌ ومن فوقهم عواشٍ ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يخبر تعالى عن عقاب من كذب بآياته، فلم يؤمن بها، مع أنها آيات بينات، واستكبر عنها فلم ينقد لأحكامها، بل كذب وتولى، أنهم آيسون من كل خير، فلا تفتح أبواب السماء لأرواحهم إذا ماتوا وصعدت تريد العروج إلى الله، فتستأذن، فلا يؤذن لها. كما لم تصعد في الدنيا إلى

١٥٥

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ فَدَخَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَبْتُهُمْ لَأَوْلَيْتُهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصَلُّونَا فَتَابْتُمْ عَلَيْنَا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾

وَقَالَتْ أَوْلَيْتُهُمْ لِأَخْرَبْتُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَدَوَّوْا أَلْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَبِيعَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ عَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا تَكْفُفُ نَفْسًا إِلَّا أَوْسَعَهَا أَوْ لَتَبَتْكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولَ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ أَوْرَشْتُمْوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

الإيمان بالله ومعرفته ومحبته، كذلك لا تصعد بعد الموت، فإن الجزاء من جنس العمل.

ومفهوم الآية، أن أرواح المؤمنين المنقادين لأمر الله، المصدقين بآياته، تفتح لها أبواب السماء، حتى تخرج إلى الله، وتصل إلى حيث أراد الله من العالم العلوي، وتبتهج بالقرب من ربها، والحظوة برضوانه.

وقوله عن أهل النار: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَبِيعَ الْجَمَلُ﴾ وهو البعير المعروف ﴿فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: حتى يدخل البعير الذي هو من أكبر الحيوانات جسمًا، في خرق الإبرة الذي هو من أضيق الأشياء، وهذا من باب تعليق الشيء بالمحال.

أي فكما أنه محال دخول الجمل في سم الخياط، فكذلك المكذبون بآيات الله، محال دخولهم الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مَن يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَكَفَّ حَرَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾، وقال هنا: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: فراش من تحتهم ﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ عَوَاشٍ﴾ أي: ظلل من العذاب، تغشاهم. ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي

وخيرات ليس لها حد محدود.

﴿وَلَهُذَا لَمَّا رَأَوْا مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَكْرَمَهُمْ بِهِ﴾ قَالُوا
لَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا ﴿بأن من علينا، وأوحى إلى قلوبنا
فأمنت به، وانقادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار، وحفظ
الله علينا إيماننا وأعمالنا، حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار،
فنعلم الرب الكريم الذي ابتدأنا بالنعمة، وأسدَى من النعم
الظاهرة والباطنة، ما لا يحصيه المحصون، ولا يعده
العادون.﴾

﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي: ليس في نفوسنا
قابلية للهدى، لولا أنه تعالى من بهدائته واتباع رسله.

﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: حين كانوا يتمتعون بالنعيم
الذي أخبرت به الرسل، وصار حق يقين لهم، بعد أن كان
علم يقين [لهم]، قالوا لقد تحققنا، ورأينا ما وعدتنا به
الرسل، وأن جميع ما جاؤوا به حق اليقين، لا مرية فيه ولا
إشكال ﴿وَوُودُوا﴾ تهنته لهم، وإكراماً، وتحية، واحتراماً ﴿أَنْ
يَلِكُمْ الْجَنَّةَ أَوْرِثْتُمُوهَا﴾ أي كنتم الوارثين لها، وصارت إقطاعاً
لكم، إذ كان إقطاع الكفار النار، أو رثتموها ﴿بِمَا كُنْتُمْ
تَمْعَلُونَ﴾.

قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله،
وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها
بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع
رحمته.

(٤٤، ٤٥) ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا
رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّهُمْ لَمُنْذَرُونَ أَلَمْ يَكُنْ
اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ
كَافِرُونَ﴾ يقول تعالى - لما ذكر استقرار كل من الفريقين في
الدارين، ووجدوا ما أخبرت به الرسل، ونظقت به الكتب،
من الثواب والعقاب، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن
قالوا: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ حين وعدنا على الإيمان
والعمل الصالح، الجنة، فأدخلناها، وأرانا ما وصفه لنا
﴿فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ﴾ على الكفر والمعاصي ﴿حَقًّا قَالُوا
نَعَمْ﴾ قد وجدناه حقاً، فتبين للخلق كلهم، بياناً لا شك فيه،
صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قبلاً، وذهبت عنهم
الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون
بوعد الله واعتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على
أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب.

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين أهل النار وأهل الجنة، بأن
قال: ﴿أَنْ لَقِّنَهُ اللَّهُ﴾ أي: بعده وإقصاده عن كل خير ﴿عَلَى

الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم، جزاء وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

(٤٢، ٤٣) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا
إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي
صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا لِمَ كُنَّا هُنَا
لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَوَدُّوا
أَنْ يَلِكُمْ الْجَنَّةَ أَوْرِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَمْعَلُونَ﴾ لما ذكر الله تعالى
عقاب العاصين الظالمين، ذكر ثواب المطيعين فقال:
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم،
فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال
الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان
قوله: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ لفظاً عاماً يشمل جميع
الصالحات، الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير
مقدور للعبد، قال تعالى:

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها،
ولا يعسر على قدرتها، فعلها في هذه الحال، أن تتقي الله
بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي
يقدر عليها غيرها سقطت عنها، كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ
اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾، ﴿مَا
جَعَلَ عَلَيْكُمُ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ فلا
واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة.

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح
﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: لا يحولون عنها،
ولا يبغون بها بدلاً، لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات،
وأصناف المشتبهات، ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب
أعلى منه.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾ وهذا من كرمه وإحسانه،
على أهل الجنة، أن الغل الذي كان موجوداً في قلوبهم،
والتنافس الذي بينهم، أن الله يقلعه ويزيله، حتى يكونوا
إخواناً متحابين، وأخلاء متصافين.

قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ إِحْوَانًا عَلَى سُرُرٍ
مُنْفَكِلِينَ﴾ ويخلق الله لهم من الكرامة، ما به يحصل لكل
واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من
النعيم نعيم، فهذا يأمنون من التحاسد والتباغض، لأنه قد
فقدت أسبابه.

وقوله: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ أي يفجرونها تفجيراً،
حيث شاءوا، وأين أرادوا، إن شاءوا في خلال القصور، أو
في تلك الغرف العاليات، أو في رياض الجنات، من تحت
تلك الحدائق الزاهرات، أنهار تجري في غير أخدود،

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

١٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ النَّارَ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَإِنَّ مُؤَدِّينَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَسْعَوْنَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَنُرِيدَ حُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لِمَ جَعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْتَوْلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا يَخُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا لَئِن لَّمْ يَأْتِكُمْ مَاءٌ فَسَاءَ يَوْمَ يُؤْتَوْنَ بِهِمْ مَاءً غَدِيقًا ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُهُمْ كَمَا نَسَوُا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾

استبكاركم على الحق، وعلى من جاء به، وعلى من اتبعه. ثم أشاروا لهم، إلى أناس من أهل الجنة، كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار، فقالوا لأهل النار: ﴿أَهْتَوْلَاءَ﴾ الذين أدخلهم الله الجنة ﴿الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ احتقاراً لهم، وازدراء، وإعجاباً بأنفسكم، قد حشتم في أيامكم، وبدا لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب. ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾ بما كنتم تعملون، أي: قيل لهؤلاء الضعفاء، إكراماً واحتراماً: ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة. ﴿لَا يَخُوفٌ عَلَيْهِمْ﴾ فيما يستقبل من المكاره ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى، بل آمنون مطمئنون، فرحون بكل خير.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ وإذا مرؤا بهم يتفاخرون ﴿إلى أن قال: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ على الأرايك يظرون﴾ واختلف أهل العلم والمفسرون، من هم أصحاب الأعراف، وما أعمالهم؟

الظَّالِمِينَ﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته، فصدفوا أنفسهم عنها ظلمًا، وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم، وصدوا غيرهم، فضلوا وأصلوا.

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة، ويعتدل سير السالكين إليه، ﴿وَ﴾ هؤلاء يريدونها ﴿عِوَجًا﴾ منحرفة صادة عن سواء السبيل، ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾.

وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط، والإقبال على شهوات النفوس المحرمة، عدم إيمانهم بالبعث، وعدم خوفهم من العقاب، ورجائهم للثواب. ومفهوم هذا النداء، أن رحمة الله على المؤمنين، وبره شامل لهم، وإحسانه متواتر عليهم.

(٤٦-٤٩) ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَنُرِيدَ حُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ وإذا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لِمَ جَعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٥﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْتَوْلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا يَخُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ أي: وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له: ﴿الْأَعْرَافِ﴾ لا من الجنة ولا من النار، يشرف على الدارين، وينظر من عليه حال الفريقين، وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كلًّا من أهل الجنة والنار، ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ أي: علاماتهم التي بها يعرفون ويميزون. فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ﴿أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا﴾ أي: يحيونهم، ويسلمون عليهم، وهم - إلى الآن - لم يدخلوا الجنة، ولكنهم يطمعون في دخولها ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم، إلا لما يريد بهم من كرامته.

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ورأوا منظراً شنيعاً، وهو لا فظيماً ﴿قَالُوا رَبَّنَا لِمَ جَعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. فأهل الجنة [إذا رآهم أهل الأعراف] يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة، ويحيونهم ويسلمون عليهم، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار، يستجرون بالله من حالهم، هذا على وجه العموم.

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ وهم من أهل النار، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف، وأموا وأولاد، فقال لهم أصحاب الأعراف، حين رآهم متفردين في العذاب، بلا ناصر ولا مغيث ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ في الدنيا، الذي تستدفعون به المكاره، وتتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا، فاليوم اضمحل، ولا أغنى عنكم شيئاً، وكذلك، أي شيء نفعكم

والصحيح في ذلك، أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة، فصاروا في الأعراف ما شاء الله، ثم إن الله تعالى يدخلهم - برحمته - الجنة، فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه، ورحمته وسعت كل شيء.

﴿وَأَذَىٰ أَصْحَابِ النَّارِ أَصْحَابِ الْجَنَّةِ أَنْ أَيْضُوا عَلَيْكَ مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ○ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَأَلْيَوْمَ نَسْتَهُمُ كَمَا سَأُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا يَتَنَبَّأُونَ ○ وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِقَوْمِهِمْ يُؤْمِنُونَ ○ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ الَّذِينَ سَأُوا مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة، حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ، وحين يمسهم الجوع المفرط، والظما الموجه، يستغيثون بهم، فيقولون: ﴿أَيْضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الطعام، فأجابهم أهل الجنة بقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا﴾ أي: ماء الجنة وطعامها ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله، واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه.

﴿لَهُوًا وَلَعِبًا﴾ أي: لهت قلوبهم، وأعرضت عنه، ولعبوا واتخذوه سخرية، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب، واستعاضوا بذلك عن الدين القيم.

﴿وَعَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ بزيئها وزخرفها، وكثرة دعائها، فاطمأنوا إليها، ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها.

﴿فَالْيَوْمَ نَسْتَهُمُ﴾ أي: تركهم في العذاب ﴿كَمَا سَأُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء.

﴿وَمَا كَانُوا يَتَنَبَّأُونَ بِجَهَنَّمَ﴾ والحال أن جحودهم هذا، لا عن قصور في آيات الله وبيانه، بل قد ﴿جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ أي بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿عَلَىٰ غَيْرِ﴾ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمر، ففجعله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء.

﴿وَمَا كَانُوا يَتَنَبَّأُونَ بِجَهَنَّمَ﴾ والحال أن جحودهم هذا، لا عن قصور في آيات الله وبيانه، بل قد ﴿جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ أي بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿عَلَىٰ غَيْرِ﴾ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمر، ففجعله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء.

﴿وَمَا كَانُوا يَتَنَبَّأُونَ بِجَهَنَّمَ﴾ والحال أن جحودهم هذا، لا عن قصور في آيات الله وبيانه، بل قد ﴿جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ أي بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿عَلَىٰ غَيْرِ﴾ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمر، ففجعله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء.

﴿وَمَا كَانُوا يَتَنَبَّأُونَ بِجَهَنَّمَ﴾ والحال أن جحودهم هذا، لا عن قصور في آيات الله وبيانه، بل قد ﴿جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ﴾ أي بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿عَلَىٰ غَيْرِ﴾ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمر، ففجعله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء.

ما على وجه الأرض، ويسكن الآدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب، الذي حصل لهم في النهار.

﴿يَطَّلُبُهُ حَيْثُ كَانَ﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب الليل، وهكذا أبدًا على الدوام، حتى يطوي الله هذا العالم، وينتقل العباد إلى دار غير هذه الدار.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي بتسخيره وتديبته، الدال على ما له من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمتها دال على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته، وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي: له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعيانها، وأوصافها، وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات.

فالخلق يتضمن أحكامه الكونية القدورية، والأمر يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، ثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء.

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: عظم وتعالى، وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه، لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل، والبر الكثير، فكل بركة في الكون فمن آثار رحمته، ولهذا قال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

ولما ذكر من عظمته وجلاله، ما يدل ذوي الألباب على أنه وحده، المعبود المقصود في الحوائج كلها، أمر بما يترتب على ذلك، فقال:

(٥٦، ٥٥) ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

الدعاء يدخل فيه دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فأمر بدعائه ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: إلحاحًا في المسألة، ودؤوبًا في العبادة ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: لا جهرًا وعلانية يخاف منها الرباء، بل خفية وإخلاصًا لله تعالى.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء: كون العبد يسأل الله مسائل، لا تصلح له، أو يتنطع في السؤال، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء، فكل هذا داخل في الاعتداء المنهي عنه.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بعمل المعاصي ﴿بَعْدَ

سورة الأعراف

١٥٧

المؤمنون

وَلَقَدْ جِئْتَهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ

يُؤْمِنُونَ ﴿٥٦﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ

الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا

مِن شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ

قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٧﴾

إِن رَّبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ

أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ

وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ

وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٨﴾ أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا

وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٩﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي

الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۗ إِنَّ رَحْمَتَ

اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ

الرِّيحَ بُشْرًا لِّبَنَاتٍ يَدْعُوهُنَّ بِذِي رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا

ثِقًا لَّا سُقْنَهُ لِبَنَاتِهِ لَمَّ نَسَاهُ فَاخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ

الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمُؤْمِنِينَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٦١﴾

إِصْلَاحِهَا﴾ بالطاعات، فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق، والأعمال، والأرزاق، وأحوال الدنيا والآخرة.

﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا من عقابه، وطمعًا في ثوابه، طمعًا في قبولها، وخوفًا من ردها، لا دعاء عبد مدل على ربه، قد أعجبته نفسه، ونزل نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو غافل لاه.

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده، لأن ذلك يتضمنه الخفية، وإخفاؤه وإسراره، وأن يكون القلب خائفًا طامعًا لا غافلًا، ولا آمنًا ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء، فإن الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلما كان العبد أكثر إحسانًا، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريبًا منه برحمته، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى.

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِثَالِغٍ لِّسْفَتِهِ لِكَيْ يَمِيتَ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُومَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٥٨﴾
 ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ٥٩﴾
 ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩﴾
 ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنِّي لَأَنْذِرُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٦٠﴾
 ﴿يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٦١﴾
 ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦٢﴾
 ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٦٣﴾
 ﴿فَأَجْمِنْتُمْ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّمَا كَانُوا قَوْمًا مَّعِينِينَ ٦٤﴾
 ﴿وَالَّذِينَ عَادُوا إِخْلَافَهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾
 ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكُمْ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكُمْ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٦٦﴾
 ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٦٧﴾

مادة الحيا، فإن القلوب الطيبة حين يجيئها الوحي، تقبله وتعلمه، وتثبت بحسب طيب أصلها، وحسن عنصرها.

وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها، فإذا جاءها الوحي لم يجد محلاً قابلاً، بل يجدها غافلة معرضة، أو معارضة، فيكون كالظلم الذي يمر على السباح والرمال والصخور، فلا يؤثر فيها شيئاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ الآيات.

(٥٩-٦٤) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ إلى آخر القصة^(١). لما ذكر تعالى من أدلة توحيد حجة صالحة، أي ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى توحيد مع أممهم المنكرين لذلك، وكيف أيد الله أهل التوحيد، وأهلك من عانداهم ولم ينقد لهم، وكيف اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد، ومعتقد واحد، فقال عن نوح - أول المرسلين -:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان، ﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾

(١) في ب، ذكر الآيات كاملة.

(٥٨، ٥٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا بِثَالِغٍ لِّسْفَتِهِ لِكَيْ يَمِيتَ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُومَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ٥٨﴾
 ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ٥٩﴾
 ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩﴾
 ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنِّي لَأَنْذِرُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٦٠﴾
 ﴿يَقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٦١﴾
 ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ٦٢﴾
 ﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٦٣﴾
 ﴿فَأَجْمِنْتُمْ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّمَا كَانُوا قَوْمًا مَّعِينِينَ ٦٤﴾
 ﴿وَالَّذِينَ عَادُوا إِخْلَافَهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾
 ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكُمْ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكُمْ مِنَ الْكَاذِبِينَ ٦٦﴾
 ﴿لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ٦٧﴾

ونفحة من نفحات رحمته فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: الرياح المشرقات بالغيث التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ﴾ الرياح ﴿سَحَابًا بِثَالِغٍ﴾ قد أثاره بعضها، وألفه ربح أخرى، وألقحه ربح أخرى ﴿سْفَتُهُ لِكَيْ يَمِيتَ﴾ قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن يياسوا من رحمة الله.

﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ﴾ أي: بذلك البلد الميت ﴿الْمَاءَ﴾ الغزير من ذلك السحاب، وسخر الله له ريحاً تدره، وتفرقه بإذن الله.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين بخير الله.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتُومَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: كما أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات، كذلك نخرج الموتى من قبورهم، بعدما كانوا رفاتاً متمزقين، وهذا استدلال واضح، فإنه لا فرق بين الأميين، فمنكر البعث استبعاداً له - مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب العناد، وإنكار المحسوسات.

وفي هذا الحث على التذكر والتفكير في آلاء الله، والنظر إليها بعين الاعتبار والاستدلال، لا بعين الغفلة والإهمال.

ثم ذكر تفاوت الأراضي التي ينزل عليها المطر فقال: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ أي: طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه مطر ﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ الذي هو مستعد له ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي: بإرادة الله ومشيئته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء، حتى يأذن الله بذلك.

﴿وَالَّذِي خَبثَ﴾ من الأراضي ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: إلا نباتاً خاساً لا نفع فيه ولا بركة.

﴿أَوْ عَجِزْتُمْ أَنْ جَاءَكُمُ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ نَجْوَىٰ مِّنكُمْ﴾ أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أن جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله؟

فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر، وقوله: ﴿لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لينذركم العذاب الأليم، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهرًا وباطنًا، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة.

فلم يفد فيهم، ولا نجح ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَجَعَلْنَاهُ سَلْبًا مَّعَهُ فِي الْفُلِّ﴾ أي: السفينة التي أمر الله نوحًا عليه الصلاة والسلام بصنعها، وأوحى إليه أن يحمل من كل صنف من الحيوانات، زوجين اثنين، وأهله، ومن آمن معه، فحملهم فيها ونجاهم الله بها.

﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَائِدِينَ﴾ عن الهدى، أصرروا الحق، وأراهم الله - على يد نوح - من الآيات البيّنات، ما بهم يؤمن أولو الألباب، فسخرها منه، واستهزؤوا به، وكفروا.

(٧٢-٦٥) ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ عَادٍ﴾ الأولى، الذين كانوا في أرض اليمن ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودًا﴾ عليه السلام، يدعوهم إلى التوحيد، وينهاهم عن الشرك والطغيان في الأرض.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَتَقَوُّوا عِبَادُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ سخطه وعذابه، إن أقمتم على ما أنتم عليه، فلم يستجيبوا ولا انقادوا.

ف ﴿قَالَ أَلَمَلَأْتُ الدِّينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِي﴾ رادين لدعوته، قادحين في رأيه: ﴿إِنَّا لَنُرْسِلُكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: ما تراك إلا سفيها غير رشيد، ويغلب على ظننا أنك من جملة الكاذبين.

وقد انقلبت عليهم الحقيقة، واستحکم عماهم، حيث رموا نبيهم عليه السلام بما هم متصفون به، وهو أبعد الناس عنه، فإنهم السفهاء حقًا، الكاذبون.

وأي سفه أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقالبه لكل شيطان مرید، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبد من لا يغني عنه شيئًا من الأشجار والأحجار؟.

(١) في ب، كتب الآيات كاملة.

أي: وحده ﴿مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ لأنه الخالق الرازق المدبّر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبر، ليس له من الأمر شيء، ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام، وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء السرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أقبح رد.

﴿قَالَ أَلَمَلَأْتُ مِن قَوْمِي﴾ أي: الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق، وعدم انقيادهم للرسول، ﴿إِنَّا لَنُرْسِلُكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ فلم يكفهم - قبحهم الله - أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال. ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالًا مبيّنًا واضحًا لكل أحد.

وهذا من أعظم أنواع المكابرة التي لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاؤوا إلى أصنام، قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئًا، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرّفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات.

فلولا أن لهم أذهانًا تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأ عقل، فرد نوح عليهم ردًا لطيفًا، وترقق لهم، لعلمهم ينقادون له، فقال:

﴿يَتَقَوُّوا لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ﴾ أي: لست ضالًا في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه، أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها، وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: ﴿وَلِكَيْنِي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربي جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً، تأمرهم بالأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، والعقائد الحسنة، وتنهاهم عن أضدادها.

ولهذا قال: ﴿أَتْلَفْتُمْ رَسُولَاتِي رَّبِّي وَأَصْحَحْتُ لَكُمْ﴾ أي: وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيد، وأوامره، ونواهي، على وجه النصيحة لكم، والشفقة عليكم.

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فالذي يتعين أن تطيعوني وتتقادوا لأمري إن كنتم تعلمون.

وأى كذب أبلغ من كذب من نسب هذه الأمور إلى الله تعالى؟.

﴿قَالَ يَقْوَمُ لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ بوجه من الوجوه، بل هو الرسول المرشد الرشيد ﴿وَالِكُنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أَيْفُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ.

فالواجب عليكم أن تتلقوا ذلك بالقبول والالتقياد، وطاعة رب العباد.

﴿أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْكُرُ لَكُمْ يُنذِرُكُمْ﴾ أي: كيف تعجبون من أمر لا يتعجب منه، وهو أن الله أرسل إليكم رجلاً منكم تعرفون أمره، يذكركم بما فيه مصالحكم، ويحثكم على ما فيه النفع لكم، فتعجبتم من ذلك تعجب المنكرين.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: واحمدوا ربكم واشكروه، إذ مكن لكم في الأرض، وجعلكم تخلفون الأمم الهالكة الذين كذبوا الرسل، فأهلكهم الله وأبقاكم، لينظر كيف تعملون، واحذروا أن تقيموا على التكذيب كما أقاموا، فيصيبكم ما أصابهم.

﴿وَإِذْ كَرِهَ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَدْرِكُوا نِسَاءَ آبَائِكُمْ﴾ التي خصكم بها، وهي أن ﴿زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ في القوة، وكبر الأجسام، وشدة البطش ﴿فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمه الواسعة، وأياديه المتكررة ﴿لَمَّا كُنتُمْ﴾ إذا ذكروها بشكرها، وأداء حقها ﴿فَلْيُحْسِنُوا﴾ أي: تفوزون بالمطلوب، وتنجون من المرهوب، فوعظهم، وذكرهم، وأمرهم بالتوحيد، وذكر لهم وصف نفسه، وأنه ناصح أمين، وحذرهم أن يأخذهم الله كما أخذ من قبلهم، وذكرهم نعم الله عليهم وإدراك الأرزاق إليهم، فلم ينقادوا، ولا استجابوا.

ف ﴿قَالُوا﴾ متعجبين من دعوته، ومخبرين له أنهم من المحال أن يطيعوه: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ فحبهم الله، جعلوا الأمر الذي هو أوجب الواجبات، وأكمل الأمور من الأمور التي لا يعارضون بها، ما وجدوا عليه آباءهم، فقدموا ما عليه الآباء الضالون، من الشرك وعبادة الأصنام، على ما دعت إليه الرسل، من توحيد الله وحده لا شريك له، وكذبوا نبيهم، وقالوا: ﴿فَأَيْنَا يَمَّا تَدْعَانَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ وهذا استفتاح منهم على أنفسهم.

فقال لهم هود عليه السلام: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ﴾ أي: لا بد من وقوعه، فإنه قد انعقدت أسبابه، وحان وقت الهلاك.

سورة الأعراف

١٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٥﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يَنْكُرُ لَكُمْ يُنذِرُكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَمَّا كُنتُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحَدُّهُ وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاَيْنَا يَمَّا تَدْعَانَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أَتَجِدَلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٦٨﴾ فَأَجِئْتَهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٩﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ إِخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ تَكْوِينُ بَنِيَّةٍ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا إِسْوَاءَ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٧٠﴾

﴿أَتَجِدَلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ﴾ أي: كيف تجادلون على أمور، لا حقائق لها، وعلى أصنام سميتموها آلهة، وهي لا شيء من الإلهية فيها، ولا مثقال ذرة و﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ فإنها لو كانت صحيحة لأنزل الله بها سلطاناً.

فعدم إنزاله له دليل على بطلانها، فإنه ما من مطلوب ومقصود - وخصوصاً الأمور الكبار - إلا وقد بين الله فيها من الحجج ما يدل عليها، ومن السلطان ما لا تخفى معه. ﴿فَانظُرُوا﴾ ما يقع بكم من العقاب الذي وعدتكم به ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ وفرق بين المنتظرين، انتظار من يخشى وقوع العقاب، ومن يرجو من الله النصر والثواب، ولهذا فتح الله بين الفريقين.

فقال: ﴿فَأَجِئْتَهُ﴾ أي: هوداً ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ آمنوا ﴿مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ فإنه الذي هداهم للإيمان، وجعل إيمانهم سبباً ينالون به رحمته فأنجاهم برحمته.

﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: استأصلناهم بالعذاب الشديد الذي لم يبق منهم أحداً، وسلط الله عليهم

﴿وَنَجِّئُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ كما هو مشاهد إلى الآن، من أعمالهم التي في الجبال، من المساكن والحجر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال.

﴿فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعمه، وما خولكم من الفضل والرزق والقوة، ﴿وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تخربوا الأرض بالفساد والمعاصي، فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع، وقد أحلت ديارهم منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ أي: الرؤساء والأشراف، الذين تكبروا عن الحق ﴿لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا﴾ ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين، قالوا ﴿لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَلَّوْتُ أَنْتَ صَاحِبًا مَرْسَلًا مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: أهو صادق أم كاذب؟

فقال المستضعفون: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ من توحيد الله، والخبر عنه، وأمره ونهيه.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ حملهم الكبر أن لا يتقادوا للحق الذي انقاده الضعفاء.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ التي توعدهم إن مسوها بسوء، أن يصيبهم عذاب أليم، ﴿وَعَكَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: قسوا عنه، واستكبروا عن أمره الذي من عتاه أذاقه العذاب الشديد، لا جرم، أحل الله بهم من النكال ما لم يحل بغيرهم.

﴿وَقَالُوا﴾ مع هذه الأفعال متجرين على الله، معجزين له، غير مباينين بما فعلوا، بل مفتخرين بها: ﴿يَصْلِحُ أَمْرَنَا بِمَا نَعِدْنَا﴾ إن كنت من الصادقين من العذاب فقال: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدُ غَيْرِ مَكْدُوبٍ﴾.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا﴾ على ركبهم، قد أبادهم الله، وقطع دابرهم.

﴿قَوْلَىٰ عَنَّهُمْ﴾ صالح عليه السلام حين أحل الله بهم العذاب ﴿وَقَالَ﴾ مخاطبًا لهم، توبيخًا وعتابًا، بعدما أهلكهم الله: ﴿يَقُولُ لَقَدْ أُنْفِئْتُكُمْ رَسُولًا رَبِّي وَصَحَّتْ لَكُمْ﴾ أي: جميع ما أرسلني الله به إليكم، قد أبلغتكم به، وحرصت على هدايتكم، واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم، والدين القويم ﴿وَلَكِنْ لَا تُجِيبُونَ النَّصِيحَاتِ﴾ بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم.

واعلم أن كثيرًا من المفسرين يذكرون في هذه القصة، أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على

الريح العقيم، ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالريم، فأهلكوا فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم فانظر كيف كان عاقبة المنذرين الذين أقيمت عليهم الحجج، فلم يتقادوا لها، وأمروا بالإيمان، فلم يؤمنوا فكان عاقبتهم الهلاك، والخزي، والفضيحة.

﴿وَأَتَمَّوْا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بَعْدًا لِغَادٍ قَوْمِ هُوزٍ﴾.

وقال هنا: ﴿وَطَعْنَا دَائِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ بوجه من الوجوه، بل وصفهم التكذيب والعدا، ونعتهم الكبر والفساد.

(٧٣-٧٩) ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ إلى آخر قصتهم^(١). أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ ثَمُودَ﴾ القبيلة المعروفة الذين كانوا يسكنون الحجر وما حوله من أرض الحجاز، وجزيرة العرب.

أرسل الله إليهم ﴿أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ نبيًا يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد، وينهاهم عن الشرك والتنديد.

﴿فَ قَالَ يَقُولُ ابْعُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ دعوته عليه الصلاة والسلام من جنس دعوة إخوانه من المرسلين: الأمر بعبادة الله، وبيان أنه ليس للعباد إله غير الله.

﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي خارق من خوارق العادات التي لا تكون إلا آية سماوية، لا يقدر الناس عليها، ثم فسرها بقوله: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لِلَّهِ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي: هذه ناقة شريفة فاضلة لإضافتها إلى الله تعالى إضافة تشریف، لكم فيها آية عظيمة.

وقد ذكر وجه الآية في قوله: ﴿هَٰذَا شَرِبٌ وَلَكُرٌ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ﴾ وكان عندهم بئر كبيرة، وهي المعروفة ببئر الناقة، يتناولونها هم والناقة، للناقة يوم تشربها، ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يردونها، وتصدر الناقة عنهم.

وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ فلا عليكم من مؤنتها شيء ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يُسُوءُ﴾ أي: يعقر أو غيره ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خَلْقًا﴾ في الأرض تمتعون بها وتدركون مطالبكم ﴿مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ الذين أهلكهم الله، وجعلكم خلفاء من بعدهم ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مكن لكم فيها، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا﴾ أي: الأراضي السهلة التي ليست بجبال، تتخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة

(١) في ب، كتب الآيات كاملة.

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
 فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سَهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ
 الْجِبَالَ بَيُوتًا فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْشَوْا فِي الْأَرْضِ
 مُفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ
 قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
 أَنَّ صَلَاحًا مِمَّنْ سَلَّ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ
 مُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي
 آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٨﴾ فَعَقَبُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ
 أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ اتِّخَانًا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتُمْ
 الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٩﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ
 جِثْمِينَ ﴿٨٠﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
 رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ
 ﴿٨١﴾ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ
 بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٢﴾ إِنَّكُمْ لَأَتَأُونَ الرَّجَالَ
 شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٣﴾

النِّسَاءِ ﴿٨٣﴾ أي: كيف تذرون النساء اللاتي خلقهن الله لكم،
 وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والبطرة، وتقبلون على أدبار
 الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث، محلٌّ
 تخرج منه الأنتان والأخبث، التي يستحي من ذكرها فضلًا
 عن ملامستها وقربها.
 ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: متجاوزون لما حده الله
 متجرثون على محارمه.

﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ
 رَبِّكُمْ إِنَّهُمْ نَأَسُّ بِظَهْرُونَ﴾ أي: يتزهون عن فعل الفاحشة
 ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾
 ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي:
 الباقين المعذبين، أمره الله أن يسري بأهله ليلاً، فإن العذاب
 مصبح قومه، فسرى بهم، إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي: حجارة حارة شديدة من
 سجيل، وجعل الله عاليها سافلها ﴿فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابُهُ

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب، أورد الآيات كاملة.

صالح، وأنها تمخضت تمخض الحامل، فخرجت الناقه وهم
 ينظرون، وأن لها فصلاً حين عقروها، رعى ثلاث رغيات،
 وانفلق له الجبل، ودخل فيه، وأن صالحًا عليه السلام قال
 لهم: آية نزول العذاب بكم أن تصبحوا في اليوم الأول من
 الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني: محمرة،
 والثالث: مسودة، فكان كما قال.

وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير
 كتاب الله، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من
 الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى، لأن فيها من
 العجائب والعبر والآيات ما لا يهمله تعالى، ويدع ذكره، حتى
 يأتي من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه
 المذكورات، فإن صالحًا قال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ
 أَيَّامٍ﴾ أي: تعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جدًا، فإنه
 ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا.

وأي لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم ووقع العذاب، وذكر
 لهم وقوع مقدماته، فوعدت يومًا فيومًا، على وجه يعمهم
 ويشملهم [احمرار وجوههم واصفرارها واسودادها من
 العذاب] (١).

هل هذا إلا مناقض للقرآن، ومضاد له؟ فالقرآن، فيه
 الكفاية والهداية، عن ما سواه.

نعم لو صح شيء عن رسول الله ﷺ، مما لا يناقض كتاب
 الله، فعلى الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن باتباعه ﴿وَمَا
 آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار
 الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمور التي لا
 يجزم بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا
 تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما.

(٨٠-٨٤) ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ
 بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ إلى آخر القصة (٢). أي: ﴿و﴾ اذكر
 عبدنا ﴿لَوْطًا﴾ عليه الصلاة والسلام، إذ أرسلناه إلى قومه،
 يأمرهم بعبادة الله وحده، وبنهاهم عن الفاحشة، التي ما
 سبقهم بها أحد من العالمين، فقال: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ﴾ أي:
 الخصلة التي بلغت - في العظم والشناعة - إلى أن استغرقت
 أنواع الفحش.

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فكونها فاحشة من
 أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها، وابتكروها، وسنوها لمن
 بعدهم، من أشنع ما يكون أيضًا.

ثم بيئنا بقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَأَتَأُونَ الرَّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ

سورة الأعراف

١٦١

سورة الأعراف

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَجَبْتَهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ، كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، قَدْ جَاءَ تَكْذِيبُكُمْ بِئِنَّهُ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا عَلَى الْغُرُوبِ فَتَذُكُرُ النَّاسَ أَنْ يَقْعُدُوا عَلَيْكُمْ فَتَنْصَرُوا مِنْهُمْ فَمَا مَثَلُ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ هَارُونَ وَقَارُونَ وَقُتَيْبَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ بَيْنَنَا بَيِّنَاتٌ أَنْذَرْنَاهُمْ أَنَّكُمْ مَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَا تَقْعُدُوا عَلَى الْغُرُوبِ فَتَذُكُرُ النَّاسَ أَنْ يَقْعُدُوا عَلَيْكُمْ فَتَنْصَرُوا مِنْهُمْ فَمَا مَثَلُ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٧﴾

المستضعفين: ﴿لَخُرِجَكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتُؤَدَّبَنَّ فِي مَلِيَّتًا﴾ استعملوا قوتهم السبعية في مقابلة الحق، ولم يراعوا دينًا، ولا ذمة، ولا حقًا، وإنما راعوا، واتبعوا أهواءهم، وعقولهم السفهية التي دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجكم من قريتنا.

ف «شعيب» عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعًا في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم، حتى توعده إن لم يتابعهم بالجلاء عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجبًا من قولهم: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ أي: أننا بكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها لعلمنا ببطانها، فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف يدعى إليها؟.

﴿قَدْ أَفْتَرْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ

(١) في ب، أورد الآيات كاملة.

الْمُجْرِمِينَ﴾ الهلاك والخزي الدائم.

(٨٥-٩٣) ﴿وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ إلى آخر القصة (١) أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدينة ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾ يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وأن لا يبخسوا الناس أشياءهم، وأن لا يعثوا في الأرض مفسدين، بالإكثار من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فإن ترك المعاصي امتثالًا لأمر الله وتقربًا إليه خير، وأنفع للعبد، من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب النار.

﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ للناس ﴿يَكُلُّ صِرْطٌ﴾ أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها، تحذرون الناس منها و﴿تَوْعِدُونَ﴾ من سلكها و﴿وَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ من أراد الاهتداء به و﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: تبغون سبيل الله تكون معوجة، وتميلونها اتباعًا لأهوائكم.

وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليلسلكوها إلى مرضاته، ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها، والدعوة إليها، والذب عنها، لا أن تكونوا أتم قطع طريقها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله، ومحادة لله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشعون على من سلكها.

﴿وَأَذْكُرُوا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا كَذَكَّرَكُمُ﴾ أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات، والنسل، والصحة وأنه ما ابتلاك بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا سلط عليكم عدوا يجتاحكم ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدراج الأرزاق، وكثرة النسل.

﴿وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُفْسِدِينَ﴾ فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشتات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبثات، ولم يورثوا ذكرًا حسنًا، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة أشد خزيًا وفضيحة.

﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ وهم الجمهور منهم ﴿فَأَصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ وهم الأشراف، والكبراء منهم، الذين اتبعوا أهواءهم، ولهوا بلذاتهم، فلما أتاهم الحق، ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة، ردوه، واستكبروا عنه، فقالوا لبنيهم شعيب، ومن معه من المؤمنين

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

١٦٢

الْحَمْدُ لِلَّهِ

﴿٨٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِنُخْرَجَنَّكَ يَسْعِيْبُ
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْلَعْتُوْدُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوْلُوْ
كُنَّا كَرِهِيْنَ ﴿٨٦﴾ قَدْ أَقْرَبْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ
بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُوْنُ لَنَا أَنْ نَعُوْدَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا أَفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِيْنَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ
الَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَبِئْسَ شُعْبًا إِنَّا كُنَّا إِذَا الْخَبِيرُونَ ﴿٨٨﴾
﴿٨٩﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيْمِيْنَ ﴿٩٠﴾
الَّذِيْنَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَأَنْ لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِيْنَ كَذَّبُوا شُعْبًا
كَأَنَّهُمُ الْخَبِيرِيْنَ ﴿٩١﴾ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ
أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَتِي ربي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَأُ
عَلَى قَوْمٍ كَافِرِيْنَ ﴿٩٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا
أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ ﴿٩٣﴾ ثُمَّ
بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ
آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٤﴾

﴿٨٥﴾ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِمْ لِنُخْرَجَنَّكَ يَسْعِيْبُ ﴿٨٥﴾ هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة، في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال.

﴿٨٦﴾ قَدْ أَقْرَبْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴿٨٦﴾ أي: الزلزلة الشديدة ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثِيْمِيْنَ﴾ أي: صرعى ميتين، هامدين.

قال تعالى ناعياً حالهم: ﴿الَّذِيْنَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَأَنْ لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتعوا في عرصاتها، ولا تفتيوا في ظلالتها، ولا غنوا في مسارج أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، حين فاجأهم

العذاب، فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات، إلى مستقر الحزن والشقاء والعقاب والدركات، ولهذا قال: ﴿الَّذِيْنَ كَذَّبُوا شُعْبًا كَأَنَّهُمْ الْخَبِيرِيْنَ﴾ أي: الخسار محصور فيهم؛ لأنهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهلبيهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين، لا من قالوا لهم: ﴿لَبِئْسَ شُعْبًا إِنَّا كُنَّا إِذَا الْخَبِيرُونَ﴾

(١) في ب: فأخذهم العذاب.

﴿٨٥﴾ أي: شهدوا علينا، أننا إن عدنا إليها بعدما نجانا الله منها، وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء ممن جعل الله شريكاً، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ ولداً ولا صاحبة، ولا شريكاً في الملك.

﴿وَمَا يَكُوْنُ لَنَا أَنْ نَعُوْدَ فِيهَا﴾ أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها فإن هذا من المحال، فأيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها، مبعوضون لما هم عليه من الشرك، ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه، فإنهم كاذبون. ومنها: اعترافهم بمئة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها: أن عودهم فيها - بعدما هداهم الله - من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى، والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن آلهة المشركين أبطل الباطل، وأمحل المحال.

وحيث إن الله من عليهم بعبول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله، وإرادته النافذة في خلقه التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب، وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، ولهذا استثنى ﴿وَمَا يَكُوْنُ لَنَا أَنْ نَعُوْدَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا، الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿وسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فيعلم ما يصلح للعباد وما يديرهم عليه.

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم، فإن من توكل على الله كفاه، ويسر له أمر دينه ودنياه.

﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: انصر المظلوم وصاحب الحق، على الظالم المعاند للحق ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِيْنَ﴾ وفتحته تعالى لعباده نوعان:

فتح العلم بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومن هو من المستقيمين على الصراط، ممن هو منحرف عنه.

والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصالحين.

فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آياته وعبره، ما يكون فاصلاً بين الفريقين.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ﴾ محذرين عن اتباع شعيب:

إِذَا لَحِصِرُونَ ﴿٩٤﴾ .

فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام
﴿وَقَالَ﴾ معاتباً وموبخاً ومخاطباً بعد موتهم: ﴿يَقُولُوا لَقَدْ
أَتَيْنَاكَ بِرِسَالَتٍ بَيِّنَةٍ﴾ أي: أوصلتها إليكم، وبينتها حتى بلغت
منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه، وخالطت أفئدتكم
﴿وَنَضَحْتُمْ لَكُمْ﴾ فلم تقبلوا نصحي ولا انقدتم لإرشادي، بل
فسقتم وطغيتم.

﴿فَكَيْفَ ءَأْتَى عَلَى قَوْمٍ كَفِيرِينَ﴾ أي: فكيف أحزن على
قوم لا خير فيهم؟ أتاهم الخير فردوه، ولم يقبلوه، ولا يلبق
بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح
بإهلاكهم ومحقتهم، فعباداً بك اللهم من الخزي والفضيحة،
وأي شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة تبرأ منهم أنصح
الخلق لهم؟ .

(٩٤، ٩٥) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا
بِالْأَسَاءِ وَالْفُضْرَةِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ ثم بدلنا مكان السينة الحسنة
حتى عفا وقالوا قد مسك آباءنا الفطرة والكفر فآخذناهم بغنة وهم
لا يشعرون يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾
يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر، فلم
يقادوا له، إلا ابتلاهم الله ﴿بِالْأَسَاءِ وَالْفُضْرَةِ﴾ أي: بالفقر،
والمرض، وأنواع البلى.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إذا أصابتهم، أخضعت نفوسهم فضرعوا إلى
الله، واستكانوا للحق.

﴿ثُمَّ﴾ إذا لم ينفذ فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد
طغيانهم ﴿بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيْنَةِ الْحَسَنَةِ﴾ فآذرت عليهم الأرزاق،
وعافى أبدانهم، ورفع عنهم البلاء.

﴿حَتَّىٰ عَفَا﴾ أي: كثروا، وكثرت أرزاقهم وانسطوا في
نعمة الله وفضله، ونسوا ما مر عليهم من البلاء ﴿وَقَالُوا قَدْ
مَسَكَ ءَابَاؤُنَا الضَّرَّةَ وَالسَّرَّةَ﴾ أي: هذه عادة جارية، لم تزل
موجودة في الأولين واللاحقين، تارة يكونون في سراء وتارة
في ضراء، وتارة في فرح، ومرة في ترح، على حسب تقلبات
الزمان، وتداول الأيام، وحسبوا أنها ليست للموعظة
والتذكير، ولا للاستدراج والتكبير.

حتى إذا اغتطوا، وفرحوا بما أوتوا، وكانت الدنيا أسرماً
كانت إليهم، أخذناهم بالعذاب ﴿بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾ أي: لم
يخطر لهم الهلاك على بال، وظنوا أنهم قادرون على ما آتاهم
الله، وأنهم غير زائلين ولا منتقلين عنه.

(٩٦-٩٩) ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنًا عَلَيْهِم
بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

١٦٣

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنًا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ
مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا
وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا
ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ
مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ
يَرْتَابُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْنُسَاءَ أَصْبَنَاهُمْ
بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَّبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾
﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقِصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ
كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿وَمَا وَجَدْنَا
لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفٰسِقِينَ﴾ ﴿١٠٢﴾
﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ قُرْعَوْنَ وَمَلَإِيئِهِ
فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ ﴿١٠٣﴾
﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يُرْعَوُونَ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٠٤﴾

يَكْسِبُونَ ○ أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بيئاً وهم نائمون ○
أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحياً وهم يلعبون ○ أفأمنوا
مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ○ لما ذكر
تعالى أن المكذبين للرسول يتلون بالضراء موعظة وإنذاراً،
وبالسراء استدراجاً ومكراً، ذكر أن أهل القرى لو آمنوا
بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله
تعالى ظاهراً وباطناً، بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم
بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدراراً،
وأثبت لهم من الأرض ما به يعيشون، وتعيش بهائمهم، في
أخصب عيش، وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد
ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ﴾ بالعقوبات والبلى، ونزع البركات، وكثرة
الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو واخذهم بجميع
ما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ
بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ .

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ﴾ أي: المكذبة، بقرينة السياق ﴿أَن

المكذبين رسلهم، تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم، وأيدهم الله بالمعجزات الظاهرة، والبيئات المبينات للحق، بيانا كاملاً، ولكنهم لم يفدهم هذا، ولا أغنى عنهم شيئاً.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بسبب تكذيبهم، وردهم الحق أول مرة، ما كان الله ليهديهم للإيمان، جزاء لهم على ردهم الحق، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِّبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصُرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿كَذَلِكَ يَطَّعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ عقوبة منه، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ أي: وما وجدنا لأكثر الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من عهد، أي: من ثبات والتزام، لوصية الله التي أوصى بها جميع العالمين، ولا انقادوا لأوامره التي ساقها إليهم على ألسنة رسله.

﴿وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتَقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله، متبعين لأهوائهم بغير هدى من الله، فالله تعالى امتحن العباد بإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمرهم باتباع عهده وهداه، فلم يمتثل لأمره إلا القليل من الناس الذين سبقت لهم من الله سابقة السعادة.

وأما أكثر الخلق فأعرضوا عن الهدى، واستكبروا عما جاءت به الرسل، فأحل الله بهم من عقوباته المتنوعة ما أحل. ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٠٣-١٧٠) إلى آخر قصته^(٢)، أي: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل موسى الكليم، الإمام العظيم، والرسول الكريم، إلى قوم عتاة جبارة، وهم فرعون وملؤه، من أشرافهم وكبرائهم، فأراهم من آيات الله العظيمة ما لم يشاهد له نظير ﴿فَقَالُوا يَا هَذَا لِمَ لَمْ يَنْقَادُوا لِحَقِّهَا، الَّذِي مِنْ لَمْ يَنْقَدُ لَهُ فَهُوَ ظَالِمٌ، بَلِ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ كيف أهلكهم الله، وأتبعهم الذم واللعنة في الدنيا ويوم القيامة، بشس الرفد المرفود، وهذا مجمل فصله بقوله:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ حين جاء إلى فرعون يدعوه إلى الإيمان ﴿يَفِرْعَوْنَ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إني رسول من مرسل عظيم، وهو رب العالمين، الشامل للعالم العلوي والسفلي، مربّي جميع خلقه بأنواع التدابير الإلهية؛ التي من جملتها أنه

(١) في ب: فإنه. (٢) في هامش ب في بيان معنى كلمة الغابرين المتكررة ما يلي: الغابرين: الباقين، الغابرين: الماضين. (٣) في ب، أورد الآيات كاملة.

يَأْتِيهِمْ بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا الشديد ﴿بَيْنَمَا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ أي: في غفلتهم، وغرتهم، وراحتهم.

﴿أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: أي شيء يؤمنهم من ذلك، وهم قد فعلوا أسبابه، وارتكبوا من الجرائم العظيمة، ما يوجب بعضه الهلاك!؟

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم، إن كيده متين ﴿فَلَا يَأْمُرُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْفُقُومُ الْخَاسِرُونَ﴾ فإن من آمن من عذاب الله، فهو^(١) لم يصدق بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسول حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمناً، على ما معه من الإيمان.

بل لا يزال خائفاً وجالاً أن يتلبى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، وأن يعمل ويسعى في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة.

(١٠٠-١٠٢) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُوبَتِ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ يَاكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبِيَآءٍ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطَّعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَتَقِينَ﴾ يقول تعالى منبهاً للأمم الغابرين بعد هلاك الأمم الغابرين^(٢): ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُوبَتِ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أو لم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك المهلكين؟

أو لم يهتدوا أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم، فإن هذه سنته في الأولين والآخرين.

وقوله: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: إذا نههم الله فلم ينتهوا، وذكرهم فلم يتذكروا، وهداهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا، فإن الله تعالى يعاقبهم، ويطبع على قلوبهم، فيعلوها الران والندس، حتى يختم عليها، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، ولا يسمعون ما ينفعهم، وإنما يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم.

﴿يَاكَ الْقُرَىٰ﴾ الذين تقدم ذكرهم ﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبِيَآءٍ﴾ ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للظالمين، وموعظة للمتقين.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: ولقد جاءت هؤلاء

سورة الأعراف

١٦٤

سورة الأعراف

حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ
بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِنْ كُنْتَ
حِجَّتْ بِثَابِتَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْفَى
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ
لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ
عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾
قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَا تُوَكُّ
يَكْلُ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَاءَ السَّحْرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَن تُلْفَى وَإِنَّمَا أَن
تَكُونُ نَحْنُ الْمُتَلَفِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ الْفُقَاةُ فَلَمَّا الْفُقَاةُ سَحَرُوا
أَعْيَتِ النَّاسِ وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَ وَيَسْحَرِ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَعُلبُوا
هَنَالِكَ وَأَنْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاحِدِينَ ﴿١٢٠﴾

غلبوا ف ﴿قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ؟ .

ف ﴿قَالَ﴾ فرعون: ﴿نَعَمْ﴾ لكم اجر ﴿وَإِنَّكُمْ لَيَنَّ
الْمُقَرَّبِينَ﴾ فوعدهم الأجر والتقريب، وعلو المنزلة عنده؛
ليجتهدوا ويبدلوا وسعهم وطاقته في مغالبة موسى، فلما
حضروا مع موسى بحضرة الخلق العظيم ﴿قَالُوا﴾ على وجه
التألي وعدم المبالاة، بما جاء به موسى: ﴿يَكُونُ إِنَّمَا أَن
تُلْفَى﴾ ما معك ﴿وَإِنَّمَا أَن تَكُونُ نَحْنُ الْمُتَلَفِينَ﴾ .
ف ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿الْفُقَاةُ﴾ لأجل أن يرى الناس ما
معهم، وما مع موسى .

﴿فَلَمَّا الْفُقَاةُ﴾ حبالهم وعصيمهم، إذا هي من سحرهم،
كانها حيات تسعى، ف ﴿سَحَرُوا أَعْيَتِ النَّاسِ وَأَسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءَهُ
بِيسْحَرٍ عَظِيمٍ﴾ لم يوجد له نظير من السحر .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فآلقها ﴿فَإِذَا هِيَ﴾ حية
تسعى، ف ﴿تَلْقَفُ﴾ جميع ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي: يكذبون به
ويموهون .

(١) كذا في ب، وفي أ: يريد ليجليكم من .

لا يتركهم سدى، بل يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين،
وهو الذي لا يقدر أحد أن يتجرأ عليه، ويدعي أنه أرسله، ولم
يرسله .

فإذا كان هذا شأنه، وأنا قد اختارني واصطفاني لرسالته،
فحقيق علي أن لا أكذب عليه، ولا أقول عليه إلا الحق، فإني
لو قلت غير ذلك لعاجلني بالعقوبة، وأخذني أخذ عزيز
مقتدر .

فهذا موجب لأن ينقادوا له ويتبعوه، خصوصاً وقد جاءهم
ببينة من الله واضحة على صحة ما جاء به من الحق، فوجب
عليهم أن يعملوا بمقصود رسالته، ولها مقصودان عظيمان:
إيمانهم به، واتباعهم له، وإرسال بني إسرائيل، الشعب الذي
فضله الله على العالمين، أولاد الأنبياء، وسلسلة يعقوب عليه
السلام، الذي موسى عليه الصلاة والسلام واحد منهم .

فقال له فرعون: ﴿إِنْ كُنْتَ حِجَّتْ بِثَابِتَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ﴾ قالني ﴿موسى﴾ ﴿عَصَاهُ﴾ في الأرض ﴿فَإِذَا هِيَ
ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: حية ظاهرة تسعى، وهم يشاهدونها .

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ من غير
سوء، فهاتان آيتان كبيرتان، دالتان على صحة ما جاء به موسى
وصدقه، وأنه رسول رب العالمين، ولكن الذين لا يؤمنون لو
جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم .

فلهذا ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ﴾ حين بهرهم ما رأوا من
الآيات، ولم يؤمنوا، وطلبوا لها التأويلات الفاسدة: ﴿إِنَّ
هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ أي: ماهر في سحره .

ثم خوفوا ضعفاء الأحلام، وسفهاء العقول، بأنه ﴿يُرِيدُ﴾
موسى بفعله هذا ﴿أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي: يريد أن
يجليكم^(١) عن أوطانكم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أي: إنهم تشاوروا
فيما بينهم ما يفعلون بموسى، وما يندفع به ضرره بزعمهم
عنهم، فإن ما جاء به، إن لم يقابل بما يبطله ويدحضه، وإلا
دخل في عقول أكثر الناس، فحينئذ انعقد رأيهم إلى أن قالوا
لفرعون:

﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي احبسهما، وأمهلهما، وابعث في
المدائن أناسا يحشرون أهل المملكة ويأتون بكل سحار
عليم، أي: يجيئون بالسحرة المهرة، ليقابلوا ما جاء به
موسى، فقالوا: يا موسى اجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه
نحن ولا أنت مكاناً سوى .

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ صُحًى﴾ فَوَقَعَ فِرْعَوْنُ
فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿

وقال هنا: ﴿وَجَاءَ السَّحْرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ طالبين منه الجراء إن

رَبَّنَا مُقْلَبُونَ ﴿١٠٣﴾ أي: فلا نبالي بعقوبتك، فالله خير وأبقى، فاقض ما أنت قاض.

﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنََّا﴾ أي: وما تعيب منا على إنكارك علينا، وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿إِلَّا أَنْتَ أَمَّا﴾ [يَا بَيْتَ] رَبَّنَا [لَمَّا جَاءَتْنَا] ﴿١٠٤﴾ (١) فإن كان هذا ذنباً يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنبنا.

ثم دعا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ﴾ أي: أفض ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: عظيماً، كما يدل عليه التنكير، لأن هذه محنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه، ويزول عنه الانزعاج الكثير.

﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي: متقادين لأمرك، متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان.

هذا، وفرعون وملؤه وعامتهم المتبعون للملأ قد استكبروا عن آيات الله، وجحدوا بها ظلمًا وعلوًا، وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أَنْذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بالدعوة إلى الله، وإلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكن الظالمين لا يباليون بما يقولون.

﴿وَيَذَرُكَ وَآلِهَتِكَ﴾ أي: يدعك أنت وآلهتك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك.

ف ﴿قَالَ﴾ فرعون مجيباً لهم، بأنه سيدع بني إسرائيل مع موسى، بحالة لا ينمون فيها، ويأمن (٢) فرعون وقومه - بزعمه - من ضرهم: ﴿سَنُقَلِّبُ أَهْلَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ أي: نستبقيهن فلا نقتلن، فإذا فعلنا ذلك أمنا من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقيهم، ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال.

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ لا خروج لهم عن حكمنا، ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة.

ف ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾ موصياً لهم في هذه الحالة، التي لا يقدرון معها على شيء، ولا مقاومة بالمقاومة الإلهية، والاستعانة الربانية: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ﴾ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم، وثقوا بالله أنه سيتم أمركم ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ أي: الزموا الصبر على ما يحل بكم، منتظرين للفرج.

(١) زيادة من هامش ب، وهي في أ: أمنا برئنا. (٢) كذا في ب، وفي أ: ويؤمن.

﴿فَوَقَّعَ الْخَلْقُ﴾ أي: تبين وظهر، واستعلن في ذلك المجمع ﴿وَبَطَّلَ مَا كَانُوا يَمَعُونَ﴾ ﴿فَقِيلُوا هَذَا﴾ أي في ذلك المقام ﴿وَأَقْبَلُوا صَغِيرِينَ﴾ أي: حقيرين، قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر الذين يعرفون من أنواع السحر وجزئياته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله، لا يدان لأحد بها.

﴿وَأَتَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ﴾ ﴿قَالُوا أَمَّا رَبِّي فَأَعْلَمِينَ﴾ ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿فِرْعَوْنُ﴾ متهدداً على الإيمان: ﴿ءَأَمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَّا لَكُمْ﴾ كان الخبيث حاكماً مستبداً على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه.

وبهذه الحالة تنحط الأمم، وتضعف عقولها ونفوذها، وتعجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فَأَسْحَفَ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ وقال هنا: ﴿ءَأَمِنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَّا لَكُمْ﴾ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجروء عليّ، ثم موه على قومه وقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُرْهُ مَكْرَهُهُ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا﴾ أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تغلبوا له، فيظهر، فتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فتخرجوا منها أهلها.

وهذا كذب يعلم هو، ومن سبر الأحوال، أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية الهيّة، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا، وتبين لهم الحق، فاتبعوه.

ثم توعدهم فرعون بقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما أحل بكم من العقوبة.

﴿لَأَطْفَنَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِمَّنْ خَلْفِي﴾ زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالمفسدين، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى.

﴿ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ﴾ في جذوع النخل، لتختزوا بزعمه ﴿أَجْمَعِينَ﴾ أي: لا أفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكم سيذوق هذا العذاب.

فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إِنَّا إِلَىٰ

قَالُوا أَمْ آتَانَا رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُنْتُمْ بِهِ قَبْلِ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لُخْرَجُوا مِنْهَا أَهْلُهَا فَسَوْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٦٨﴾ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لَأُسَلِّسَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٦٩﴾ قَالُوا إِنَّا إِلَّا إِلٰهِنَا مَنْقُلُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْتَ أُمَّنَا يَا ابْنَتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارِنَا أْفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٧١﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُمُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُوعًا أَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَاتٌ أَنْ يَسُبُّوا رَبَّهُمْ فِئْتَانِ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ يُحِثُّنَا ﴿١٧٢﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٧٣﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٧٤﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٧٥﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٧٦﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٧٧﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٧٨﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٧٩﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٨٠﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٨١﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٨٢﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٨٣﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٨٥﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٨٦﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٨٧﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٨٨﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٨٩﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٩٠﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٩١﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٩٢﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٩٣﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٩٤﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٩٥﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٩٦﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٩٧﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٩٨﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿١٩٩﴾ قَالُوا لِمَ نُسَبِّحُكَ بِمَا لَا تَعْمَلُ الْبِحَقِّ وَإِنَّكَ لَكَاذِبٌ ﴿٢٠٠﴾

سواء نزلت عليهم الآيات، أم لم تنزل.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ أي: الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم، وأضر بهم ضرراً كثيراً ﴿وَالجُرَادَ﴾ فأكل ثمارهم، وزروعهم، ونباتهم، ﴿وَالقُمَّلَ﴾ قيل: إنه اللبأ، أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف، ﴿وَالصَّفَّارَ﴾ فملاأت أوعينهم، وأقلقتهم، وأذتةم أذية شديدة ﴿وَالدَّمَ﴾ إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين، أن ماءهم الذي يشربون انقلب دمًا، فكانوا لا يشربون إلا دمًا، ولا يطبخون إلا بدم.

﴿يَا ابْنَتِ مُفْلِحَتِ﴾ أي: أدلة وبيانات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق.

﴿فَأَسْتَكْبَرُوا﴾ لما رأوا الآيات ﴿وَكَاذَبُوا﴾ في سابق أمرهم ﴿قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى، بأن أباقهم على الغي والضلال.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي: العذاب، يحتمل أن المراد

﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ﴾ ليست لفرعون ولا لقومه، حتى يتحكموا فيها، ﴿يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يداولها بين الناس، على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتقين، فإنهم - وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة - فإن النصر لهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ الحميدة لهم على قومهم.

وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير ما يقدر عليه، وعند العجز أن يصبر ويستعين بالله، وينتظر الفرج.

﴿قَالُوا﴾ لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون، وأذيتة: ﴿أُودِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ فإنهم يسومونا سوء العذاب، يذبجون أبناءنا ويستحيون نساءنا ﴿وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ كذلك.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم موسى، مرجبًا [لهم] ﴿الفرج والخلص من شرهم:﴾ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض ﴿أي:﴾ يمكنكم فيها، ويجعل لكم التدبير فيها ﴿فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ هل تشكرون أم تكفرون؟. وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أرادته الله.

(١٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه المدة الأخيرة، أنها على عادته وستته في الأمم، أن يأخذهم بالبأساء والضراء، لعلهم يضرعون، الآيات.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ أي: بالدهور والجذب ﴿وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم، لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ﴾ أي: الخصب وإدرار الرزق ﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي: نحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها ﴿وَإِنْ نُصِبَتْ سَيْبَةٌ﴾ أي: قحط وجذب ﴿يَنْظُرُوا بِمُؤْسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي: يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجيء موسى، واتباع بني إسرائيل له.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ظَلَمْتُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك، بل ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿وقالوا﴾ مبينين لموسى أنهم لا يزالون، ولا يزالون عن باطلهم: ﴿مَهْمَا تَأْتَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِيَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: قد تقرر عندنا أنك ساحر، فمهما جئت بأية جزمنا أنها سحر، فلا نؤمن لك، ولا نصدق، وهذا غاية ما يكون من العناد، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات،

به: الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، فإنها رجز وعذاب، وأنهم كلما أصابهم واحد منها ﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي: تشفعوا بـموسى بما عهد الله عنده، من الوحي والشرع ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا أنه إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلُغُوهِ﴾ أي: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفًا مؤبدًا، وإنما هو مؤقت ﴿إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى، ووعدهه بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل، فلا آمنوا به، ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمروا على كفرهم يعمهون، وعلى تعذيب بني إسرائيل دائبين.

﴿فَانقَمْنَا مِنْهُمُ﴾ أي: حين جاء الوقت المؤقت لهلاكهم، أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أن فرعون سيبتعهم هو وجنوده.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدْيَنَ حَاشِرِينَ﴾ يجمعون الناس؛ ليتبعوا بني إسرائيل، وقالوا لهم:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَوَأَنَّهُمْ لَنَا لَغَايِطُونَ ○ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ ○ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ○ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ○ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ○ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ○ فَلَمَّا تَرَاكَ الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمَدْرُكُونَ ○ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ○ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ○ وَأَرْسَلْنَا نَمَّ الْأَخْرِينَ ○ وَأَوْحَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ○ ثُمَّ أَضْرَقْنَا الْأَخْرِينَ﴾.

وقال هنا: ﴿فَأَعْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنَّا غَافِلِينَ﴾ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ في الأرض، أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدما لآل فرعون، يسومونهم سوء العذاب أورثهم الله ﴿مَسْكُورَ الْأَرْضِ وَمَكْرَهَيْهَا﴾ والمراد بالأرض ههنا، أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين، أدلين أي: ملكهم الله جميعها، ومكنهم فيها التي باركنا فيها ﴿وَوَكَّمَتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ حين قال لهم موسى: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَتْ يَصْغَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ﴾ من الأبنية

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَئِن كَثُرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٣٦﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتَانَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٧﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلُغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٤٠﴾ فَاثَقَمْنَا مِنْهُمُ فَاغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنَّا غَافِلِينَ ﴿١٤١﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرَهَيْهَا الَّتِي بَسْرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْغَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٤٢﴾

الهائلة، والمسكن المزخرفة ﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَجَوْرَتَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ بعدما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه، وأهلكهم الله، وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿فَأَنزَلْنَا﴾ أي: مروا ﴿عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَانٍ لَهُمْ﴾ أي: يقيمون عندها ويتبركون بها، وبعيدونها.

ف ﴿قَالُوا﴾ من جهلهم وسفههم لبنيهم موسى بعدما أراهم الله من الآيات ما أراهم: ﴿يَمْوَسَىٰ آجَعَلْنَا إِلَهًا كَمَا هُمُ الْإِلَهُةُ﴾ أي: اشرح لنا أن نتخذ أصنامًا آلهة، كما اتخذها هؤلاء.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم موسى: ﴿إِن كُفَّ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ أي جهل أعظم من جهل من جهل ربه وخالفه وأراد أن يسوي به غيره، ممن لا يملك نفعًا ولا ضرًا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا؟.

ولهذا قال لهم موسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُمْ فِيهِ وَغُلِبُوا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لأن دعاءهم إياها باطل، وهي باطلة بنفسها،

فالعامل باطل، وغايته باطلة.

﴿قَالَ أَعْبَرُ اللَّهُ أَبْعِيكُمْ إِلَهَهَا﴾ أي: أطلب لكم إلها غير الله المألوه، الكامل في ذاته، وصفاته، وأفعاله؟
 ﴿وَهُوَ فَضْلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فيقتضي أن تقابلوا فضله، وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، والكفر بما يدعى من دونه.

ثم ذكرهم بما امتن الله به عليهم فقال: ﴿وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: من فرعون وآله ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا ﴿يَقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لَكُمْ﴾ النجاة من عذابهم ﴿بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي: نعمة جليلة، ومنحة جزيلة، أو وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم، فلما ذكرهم موسى ووعظهم، انتهوا عن ذلك. ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم، وتمكينهم في الأرض، أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة، ليستعد موسى، ويتهيأ لوعده الله، ويكون لنزولها موقع كبير لديهم، وتشوق إلى إنزالها.

ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه قال لهارون موصياً له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي﴾ أي: كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل، ﴿وَأَصْلِحْ﴾ أي: اتبع طريق الصلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهم الذين يعملون بالمعاصي.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب ﴿وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ بما كلمه، من وحيه، وأمره، ونهيه، تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حباً لربه ومودةً لرؤيته.

فـ ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ﴾ الله ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ أي: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يشنون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة.

فإنه قد دلّت النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية، على أن أهل الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى.

ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال - مقتعاً لموسى في عدم إجابته للرؤية - ﴿وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَفْرَمَكَ﴾ إذا تجلّى الله له ﴿فَسَوْفَ تَرِنِي﴾.

﴿وَجَوْرَ نَابِئِ اسْرَاءِيلَ الْبَحْرَفَانُوًّا عَلَى قَوْمٍ يَّعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَّجْهَلُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ سُبْرَاتُهُمْ فِيهِ وِطْلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٨﴾ قَالَ أَعْبَرُ اللَّهُ أَبْعِيكُمْ إِلَهَهَا وَهُوَ فَضْلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِّن آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يَقُولُونَ أَبْنَاءُكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٣٠﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِّمَّقَتِ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٣١﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَفْرَمَكَ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ الأصم الغليظ ﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ أي: انهار مثل الرمل، انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها^(١) ﴿وَخَرَّ مُوسَى﴾ حين رأى ما رأى ﴿صَعِقًا﴾.

فتبين له حينئذ أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية الله، فموسى أولى أن لا يثبت لذلك، واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال، الذي لم يوافق موضعاً و[لذلك]^(٢) ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك.

﴿بُنْتُ إِلَيْكَ﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك، ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه، بما كمل الله له، مما كان يجمله قبل ذلك، فلما منعه الله من رؤيته - بعدما كان متشوقاً إليها - أعطاه خيراً كثيراً فقال:

﴿يَمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي: اخترتك واجتبيتك، وفضلتك، وخصصتك بفضائل عظيمة، ومنافق جليلة، ﴿يَسْأَلْنِي﴾ التي لا أجعلها، ولا أخص بها إلا أفضل الخلق. ﴿وَيَكْفِي﴾ إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها

(١) كذا في ب، وفي أ: وعدم ثبوت. (٢) زيادة من هامش ب.

الْبُرْجَانِ

١٦٨

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

قَالَ يَمْوَسِيٰٓ إِلَىٰٓ أَصْطَفَيْتُكَ عَلَىٰ النَّاسِ بِرِسَالَتِيٰ وَبِكَلْمِيٰ فَخُذْ مَاءً مَّا آتَيْتُكَ مِنَ النِّعَمِ، وَخُذْ مَا آتَيْتُكَ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِانْشِرَاحِ صَدْرِي، وَتَلْقَهُ بِالْقَبُولِ وَالْإِنْقِيَادِ، ﴿وَكُن مِّنَ الشُّكْرِيْنَ﴾ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَآ سَآؤِرِيكُمُ دَارَ الْفَاسِقِيْنَ ﴿١٤٥﴾ سَآصِرُفٌ عَنَّا إِنِّي الْذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كَلَّآءَ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَّا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِن جُلُوهِمَا عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ لَّا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَّا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

فلذلك اضمحلت وبطلت.

﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِن جُلُوهِمَا عَجَلًا جَسَدًا﴾ صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ وصوت فعبده، واتخذوه لها.

وقال: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ موسى، وذهب يطلبه، وهذا من سفههم، وقلة بصيرتهم، كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسموات، بعجل من أنقص المخلوقات؟.

ولهذا قال مبيّنًا أنه ليس فيه من الصفات الذاتية، ولا الفعلية، ما يوجب أن يكون لها، ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَّا يُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد الذي لا يتكلم ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ أي: لا يدلهم طريقًا دينيًا، ولا يحصل لهم مصلحة دينية، لأن من المتقرر في العقول والفطر، أن اتخاذه إله لا يتكلم، ولا ينفع، ولا يضر، من أبطل الباطل، وأسمح السفه، ولهذا قال:

﴿أَتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا، وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله، فقد أنكر خصائص إلهية الله

موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين، ﴿فَخُذْ مَاءً مَّا آتَيْتُكَ﴾ من النعم، وخذ ما آتيتك من الأمر والنهي بانشرح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد، ﴿وَكُن مِّنَ الشُّكْرِيْنَ﴾ ﴿١٤٤﴾ ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه العباد

﴿وَمَوْعِظَةً﴾ ترغيب النفوس في أفعال الخير، وترهيبهم من أفعال الشر، ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأحكام الشرعية، والعقائد والأخلاق، والآداب.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد واجتهاد على إقامتها، ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَآ﴾ وهي الأوامر الواجبة، والمستحبة، فإنها أحسنها، وفي هذا دليل على أن أوامر الله - في كل شريعة - كاملة، عادلة، حسنة.

﴿سَآؤِرِيكُمُ دَارَ الْفَاسِقِيْنَ﴾ بعدما أهلكهم الله، وأبقى ديارهم عبرة بعدهم، يعتبر بها المؤمنون الموقفون المتواضعون.

وأما غيرهم، فقال عنهم: ﴿سَآصِرُفٌ عَنَّا إِنِّي﴾ أي عن الاعتبار في الآيات الأقفية، والنفسية، والفهم لآيات الكتاب ﴿الذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أي: يتكبرون على عباد الله، وعلى الحق، وعلى من جاء به، فمن كان بهذه الصفة حرمة الله خيرًا كثيرًا، وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما يتفهم به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح.

﴿وَإِن يَرَوْا كَلَّآءَ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ لإعراضهم، واعتراضهم، ومحادثهم الله ورسوله، ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته.

﴿لَّا يَتَّخِذُوهُ﴾ أي: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغِيِّ﴾ أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء ﴿يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾، والسبب في انحرافهم هذا الانحراف ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، فردهم لآيات الله، وغفلتهم عما يراد بها، واحتقارهم لها - هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق الغي، وترك طريق الرشاد، ما أوجب.

﴿وَالذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا، ﴿وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ لأنها على غير أساس، وقد فقد شرطها وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق بجزائه.

﴿هَلْ يُجْرُونَ﴾ في بطلان أعمالهم، وحصول ضد مقصودهم ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فإن أعمال من لا يؤمن باليوم الآخر، لا يرجو فيها ثوابًا، وليس لها غاية تنتهي إليها،

المائدة

١٦٩

سورة الأعراف

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي
 مِنْ بَعْدِي أَعْيَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
 أَخِيهِ يُجْرِمُهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا
 يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي
 رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا
 الْعِجْلَ سَيْنَا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ
 تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ
 ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي
 نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخْبَارَ
 مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا رِجَالًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
 قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَإِنِّي أَتَّبِعُكَ مَا فَعَلَ
 السُّفَهَاءُ مِمَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فَنَنَّاكَ نُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي
 مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿١٥٠﴾ كما أغضبوا ربهم واستهانوا بأمره .

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ فكل مفتر على الله كاذب على شرعه، متقول عليه ما لم يقل، فإن له نصيباً من الغضب من الله، والذل في الحياة الدنيا، وقد نالهم غضب الله، حيث أمرهم أن يقتلوا أنفسهم، وأنه لا يرضى الله عنهم إلا بذلك . فقتل بعضهم بعضاً، وانجلت المعركة عن كثير من القتلى^(١)، ثم تاب الله عليهم بعد ذلك، ولهذا ذكر حكماً عاماً يدخلون فيه هم وغيرهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ من شرك، وكبائر، وصغائر ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا﴾ بأن ندموا على ما مضى، وأقلعوا عنها، وعزموا على أن لا يعودوا ﴿وَأَمْنُوا﴾ بالله، وبما أوجب الله من الإيمان به، ولا يتم الإيمان إلا بأعمال القلوب، وأعمال الجوارح المترتبة على الإيمان ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: بعد هذه الحالة، حالة التوبة من السيئات والرجوع إلى الطاعات ﴿لَغَفُورٌ﴾ يغفر السيئات ويمحوها، ولو كانت قراب الأرض ﴿رَحِيمٌ﴾ بقبول التوبة، والتوفيق

(١) في النسخين: قتلى كثيرة .

تعالى، لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية .

﴿وَلَمَّا﴾ رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضلالهم، ندموا و﴿سُحِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من الهم والندم على فعلهم، ﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ فتنصلوا إلى الله وتضرعوا و﴿قَالُوا لَيْن لَمْ يَرْحَمْنَا رَبَّنَا﴾ فبدلنا عليه، وبرزقنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال ﴿وَيَغْفِرَ لَنَا﴾ ما صدر منا من عبادة العجل، ﴿لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة .

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ أي: ممتلئاً غضباً وغيظاً عليهم، لتنام غيرته عليه الصلاة والسلام، وكما نصحه وشفقته ﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي: بس الحالة التي خلفتموني بها من بعد ذهابي عنكم، فإنها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدى .

﴿أَعْيَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ حيث وعدكم بإنزال الكتاب، فبادرتم - برأيكم الفاسد - إلى هذه الخصلة الفبيحة ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ﴾ أي: رامها من الغضب ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ﴾ هارون ولحيته ﴿يُجْرِمُهُ إِلَيْهِ﴾ وقال له: ﴿مَا مَعَكَ إِذْ كَانْتُمْ ضَالُّونَ ۚ أَلَا تَتَّبِعُونَ أَفْعَصَيْتُمْ أَمْرِي﴾ لك بقولي: ﴿اتْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ .

ف ﴿قَالَ يَبْنَوتُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ إني خشيت أن تقول فرقت بين بيني وإسراءيل ولم ترقت قولي ﴿و﴾ قال ﴿هنا: ﴿ابْنَ أُمَّ﴾ هذا تريق لأخيه، بذكر الأم وحدها، وإلا فهو شقيقه لأمه وأبيه ﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي﴾ أي: احتقروني حين قلت لهم: ﴿يَغْفِرُوا لِمَا فَعَسَوْا مِنْ بَعْدِ وَإِنَّ رَبَّكُمْ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾، ﴿وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ أي: فلا تظن بي تقصيراً ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ بنهرك لي، ومسك إياي بسوء، فإن الأعداء حريصون على أن يجدوا عليّ عثرة، أو يطلعوا لي على زلة ﴿وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فتعاملني معاملتهم .

فندم موسى عليه السلام على ما استعجل من صنعه بأخيه قبل أن يعلم براءته، مما ظنه فيه من التقصير، و﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَإِخِي﴾ هارون ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ﴾ أي: في وسطها، واجعل رحمتك تحيط بنا من كل جانب، فإنها حصن حصين، من جميع الشرور، وثم كل خير وسرور .

﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: أرحم بنا من كل راحم، أرحم بنا من أبائنا، وأمهاتنا، وأولادنا، وأنفسنا .

قال الله تعالى مبيناً حال أهل العجل الذين عبدوه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا الْعِجْلَ﴾ أي: إليها ﴿سَيْنَا لَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ

لأفعال الخير وقبولها.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: سكن غضبه، وتراجعت نفسه، وعرف ما هو فيه، اشتغل بأهم الأشياء عنده، ﴿فَأَخَذَ الْأَلْوَابِحَ﴾ التي ألغافها، وهي ألواح عظيمة المقدار، جليلة ﴿وَفِي نُحُوتِهَا﴾ أي: مشتملة ومتضمنة ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ أي: فيها الهدى من الضلالة، وبيان الحق من الباطل، وأعمال الخير، وأعمال الشر، والهدى لأحسن الأعمال، والأخلاق، والآداب، ورحمة وسعادة لمن عمل بها، وعلم أحكامها ومعانيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك وينقاد له، ويتلقاه بالقبول الذين [هم] ^(١) ﴿لِيَرْبِيَهُمْ بِرِهَابٍ﴾ أي: يخافون منه ويخشونه.

وأما من لم يخف الله، ولا المقام بين يديه، فإنه لا يزداد بها إلا عتواً ونفوراً، وتقوم عليه حجة الله فيها.

﴿وَلَمَّا تَابَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَتَرَاجَعُوا إِلَىٰ رُشْدِهِمْ﴾ اختار موسى ﴿منهم﴾ سبعين رجلاً من خيارهم؛ ليعتذروا لقومهم عند ربهم، ووعدهم الله ميقاتاً يحضرون فيه، فلما حضروا قالوا: يا موسى ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾ فتجرؤوا على الله جراءة كبيرة، وأسأوا الأدب معه، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ فصعقوا وهلكوا.

فلم يزل موسى عليه الصلاة والسلام يتضرع إلى الله ويتبتل، ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِن قَبْلُ﴾ أن يحضروا ويكونوا في حالة يعتذرون فيها لقومهم، فصاروا هم الظالمين.

﴿أَتَمَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ أي: ضعفاء العقول، سفهاء الأحلام، فتضرع إلى الله، واعتذر بأن المتجرئين على الله ليس لهم عقول كاملة، تردعهم عما قالوا وفعلوا، وبأنهم حصل لهم فتنة يخطر بها الإنسان، ويخاف من ذهاب دينه فقال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن شَاءَ وَتَهْدِي مَن شَاءَ أَنتَ وَلَيْتَآ فَاعْرِفْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ أي: أنت خير من غفر، وأولى من رحم، وأكرم من أعطى، وتفضل.

فكان موسى عليه الصلاة والسلام قال: المقصود يا رب بالقصد الأول لنا كلنا، هو التزام طاعتك، والإيمان بك، وأن من حضره عقله ورشده، وتم على ما وهبته من التوفيق، فإنه لم يزل مستقيماً، وأما من ضعف عقله، وسفه رأيه، وصرفته الفتنة، فهو الذي فعل ما فعل، لذيتك السبيين، ومع هذا فانت أرحم الراحمين، وخير الغافرين، فاغفر لنا وارحمنا.

(١٥٦) فأجاب الله سؤاله، وأحياهم من بعد موتهم، وغفر لهم ذنوبهم، وقال موسى في تمام دعائه: ﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح،

سورة الأعراف

١٧٠

الجزء التاسع

﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا نَايِبُكَ﴾ قَالَ عِدَايَ أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءَ وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ حسنة، وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب.

﴿إِنَّا هُنَا نَايِبُكَ إِلَيْكَ﴾ أي: رجعنا مقرين بتقصيرنا، منبئين في جميع أمورنا، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿عِدَايَ أُصِيبُ بِهِ مِنْ أَشَاءَ﴾ ممن كان شقياً، متعرضاً لأسبابه ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي، صغارها، وكبارها.

﴿يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الواجبة مستحقيها ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾، ومن تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، في أصول الدين وفروعه.

(١٥٧) ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ احتراز عن

سائر الأنبياء، فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ.

والسياق في أحوال بني إسرائيل وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين هم أهل الرحمة المطلقة التي كتبها الله لهم، ووصفه بالأمي؛ لأنه من العرب، الأمة الأمية التي لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب.

﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ باسمه وصفته التي من أعظمها وأجلها، ما يدعو إليه وينهى عنه، وأنه ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه، ونفعه.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول، والفطر، فأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول، والفطر، فأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول، والفطر، فأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول، والفطر، فأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول، والفطر، فأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول، والفطر، فأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول، والفطر، فأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول، والفطر، فأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول، والفطر، فأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول، والفطر، فأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو كل ما عرف قبحه في العقول، والفطر، فأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار، والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِطًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ
 إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ
 فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
 مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَمْنَا عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ
 وَالسَّلْوَىٰ كُلًّا مِنْ طَبَقَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا
 ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِذْ
 قِيلَ لَهُمْ اسْكُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ
 شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَعْفِرْ
 لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٧﴾
 فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ
 فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَا كَانُوا
 يَظْلِمُونَ ﴿١٦٨﴾ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ
 حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذ تَأْتِيهِمْ
 حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ
 لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُوهُمْ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٩﴾

كامنًا في نفوسهم .

﴿ وَسَأَلَهُمْ ﴾ أي: أسأل بني إسرائيل ﴿ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ ﴾ أي: على ساحله، في حال تعديهم وعقاب الله إياهم .

﴿ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ ﴾ وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموا ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاههم الله، وامتنعهم، فكانت الحيتان تأتيتهم ﴿ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا ﴾ أي: كثيرة طافية على وجه البحر .

﴿ وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ﴾ أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿ لَا تَأْتِيهِمْ ﴾ أي: تذهب في البحر، فلا يرون منها شيئًا ﴿ كَذَلِكَ نَبِّئُوهُمْ يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ فسقمهم، هو الذي أوجب أن يبتليهم ^(١) الله، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا، لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر، فتحلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفرةً، وينصبون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت، ووقعت في تلك الحفرة

يشمل أي حجر كان، فضربه ﴿ فَأَنبَجَسَتْ ﴾ أي: انفجرت من ذلك الحجر ﴿ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ جارية سارحة .

﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ﴾ أي: قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتي عشرة، وجعل لكل منهم عينًا، فعلموها، واطمأنوا، واستراحوا من التعب والمزاحمة، والمخاضمة، وهذا من تمام نعمة الله عليهم .

﴿ وَظَلَمْنَا عَلَيْهِمُ الْعَذَابَ ﴾ فكان يستريحون من حر الشمس ﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ ﴾ وهو الحلوى ﴿ وَالسَّلْوَى ﴾ وهو لحم طير، من أحسن أنواع الطيور، والذها، فجمع الله لهم بين الظلال، والشراب، والطعام الطيب، من الحلوى واللحوم، على وجه الراحة والطمأنينة .

وقيل لهم: ﴿ كُلُّوا مِنْ طَبَقَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾ حين لم يشكروا الله، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم .

﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث فوتوا كل خير، وعرضوها للشر والنفمة، وهذا كان مدة لبثهم في التيه .

(١٦٦) ﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ ﴾ أي: ادخلوها لتكون وطنًا لكم ومسكنًا، وهي «إيلياء» ﴿ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ ﴾ أي: قرية كانت كثيرة الأشجار، غزيرة الثمار، رغيدة العيش، فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاؤوا .

﴿ وَادْخُلُوا ﴾ حين تدخلون الباب: ﴿ حِطَّةٌ ﴾ أي: احفظ عنا خطايانا، واعف عنا .

﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ﴾ أي: خاضعين لربكم، مستكينين لعزته، شاكرين لنعمته، فأمرهم بالخضوع، وسؤال المغفرة، ووعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والآجل، فقال: ﴿ نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ من خير الدنيا والآخرة، فلم يمثلوا هذا الأمر الإلهي، بل بدَّلَ ﴿ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ﴾ أي: عصوا الله واستهانوا بأمره ﴿ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾ فقالوا، بدل طلب المغفرة، وقولهم: ﴿ حِطَّةٌ ﴾ (حبة في شعيرة)، وإذا بدلوا القول - مع يسره وسهولته - فتبدلهم للفعل من باب أولى، ولهذا دخلوا وهم يزحفون على أستاههم .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ ﴾ حين خالفوا أمر الله وعصوه ﴿ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي: عذابًا شديدًا، إما الطاعون وإما غيره، من العقوبات السماوية .

وما ظلمهم الله بعقابه، وإنما كان ذلك ﴿ يَمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾ أي: يخرجون من طاعة الله إلى معصيته، من غير ضرورة ألجأتهم ولا داع دعاهم سوى الخبث والشر الذي كان

(١) كذا في ب، وفي أ: يبلهم .

الْمُرْسَلِينَ

١٧٢

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَعَلَيْهِمْ نِقْمَةٌ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ اتَّبَعَ أَلْبَانًا الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنِ السُّوءِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾
فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾
وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبُّكَ لِبَيْعَتِنَا عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّمَاتَهُمْ
الضَّالِّحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَظَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ
وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيَعْفَرُنَا
وَإِنِّي أَنبَأُهُمْ عَرَضَ مِثْلَهُ يَأْخُذُونَ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ
أَن لَّا يَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارِ الْأُخْرَىٰ
خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يَمَسُكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

والشباك، لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد،
أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق:
معظمهم اعتدوا وتجرؤوا، وأعلنوا بذلك.
وفرقة أعلنت بنهيهم، والإنكار عليهم.

وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهم وقالوا
لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كأنهم
يقولون: لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ
للنصيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن
يعاقبهم الله، إما بهلاك، أو عذاب شديد.

فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم ﴿مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، أي:
لنعذر فيهم.

﴿وَعَلَيْهِمْ نِقْمَةٌ﴾ أي: يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا
نيأس من هدايتهم، فربما نجح فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم.
وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر؛ ليكون معذرة،
وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه، فيعمل
بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا ما ذكروا به،
واستمروا على عيهم واعتدائهم.

﴿اتَّبَعْنَا﴾ من العذاب ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَنِ السُّوءِ﴾ وهكذا سنة
الله في عبادته، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الأمور
بالمعروف والناهون عن المنكر.

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت
﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي: شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ وأما الفرقة
الأخرى التي قالت للناهين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾
فاختلف المفسرون في نجاتهم، وهلاكهم، والظاهر أنهم
كانوا من الناجين، لأن الله خص الهلاك بالظالمين، وهو لم
يذكر أنهم ظالمون.

فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن
الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به
البعض سقط عن الآخرين، فاكتفوا بإنكار أولئك، ولأنهم
أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأبدوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم
كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشد
العقوبة.

(١٦٦) ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: فسوا فلم يلينوا،
ولا اتعظوا ﴿فَلَمَّا نَسُوا﴾ قولاً قدرياً ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فانقلبوا
بإذن الله قرده، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة
والصغار على من بقي منهم فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبُّكَ﴾ أي:

أعلم إعلاماً صريحاً: ﴿لِبَيْعَتِنَا عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: يهينهم، ويدلهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، حتى إنه يجعل له
العقوبة في الدنيا ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب إليه وأتاب، يغفر
له الذنوب، ويستر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه
الطاعات، ويشبه عليها بأنواع المثوبات. وقد فعل الله بهم ما
أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وإهانة تحت حكم غيرهم، لا
تقوم لهم راية، ولا ينصر لهم علم.

(١٦٨) ﴿وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّمَاتَهُمْ﴾ أي: فرقناهم
ومزقناهم في الأرض، بعدما كانوا مجتمعين ﴿مِنْهُمْ
الضَّالِّحُونَ﴾ القائمون بحقوق الله، وحقوق عبادته، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ
ذَلِكَ﴾ أي: دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما ظالمون
لأنفسهم ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ﴾ على عادتنا وسنتنا ﴿بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: بالعسر والبسر.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى،
يراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح،
وطالح، ومقتصد، حتى خلف من بعدهم خلف؛ زاد شرهم

وهذه الآية وما أشبهها دلّت على أن الله بعث رسله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالمنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين، فكل من كان أصلح كان أقرب إلى اتباعهم.

(١٧١) ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِ امْضُوا إِلَىٰ آلِهِمْ فِي طَافِيئِكُمْ وَقُولُوا لِمَا أَتَيْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْغُلَامَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَمَّا عَضَّ بِهِنَّ السُّنَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ يَدْعُوهُم إِلَىٰ عِبَادَةِ اللَّهِ أَنْ يَلْبَسُوا آلِهَاتِهِمْ لِيَكُونَ لَهُمْ عِزٌّ بآلِهَاتِهِمْ وَعِبَادَةُ اللَّهِ لَا يَبْلُغُونَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾

فألزمهم الله العمل وتفق فوق رؤوسهم الجبل، فصار فوقهم ﴿كَانَهُمْ ظُلُمَةٌ وَّطَنُوا أَنَّهُ وَقَعَ عَلَيْهِمُ رَيْبٌ﴾ وقيل لهم: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجِد واجتهاد.

﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ دراسة ومباحثة، واتصافاً بالعمل به ﴿لَمَلَكْتُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذا فعلتم ذلك.

(١٧٢-١٧٤) ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَيْهِمْ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۖ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُنَبِّئُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ۖ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ الْقِصَّةَ لِقَوْمٍ وَعَلَّمَهُمْ رِبِّهِمْ﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: أخرج من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون، ويتوالدون قرناً بعد قرن.

﴿و﴾ حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿أَشْهَدَهُمْ عَلَيْهِمْ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ أي: قررهم بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فطرتهم من الإقرار، بأنه ربهم وخالقهم، ومليكنهم.

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ قد أقرنا بذلك، فإن الله تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم.

فكل أحد فهو مفطور على ذلك، ولكن الفطرة قد تغير، وتبدل، بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة، ولهذا ﴿قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾.

أي: إنما امتحناكم، حتى أقررتم بما تقرر عندكم، من أن الله تعالى ربكم، وخشية أن تكفروا يوم القيامة، فلا تقروا بشيء من ذلك، وترعمون أن حجة الله ما قامت عليكم، ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون عنها لا هون.

فاليوم قد انقطعت حججتكم، وثبتت الحجة البالغة لله عليكم، أو تحتجون أيضاً بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ فحدونا حدوهم، وتبعناهم في باطلهم.

﴿أَفَتُنَبِّئُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ فقد أودع الله في فطرتكم ما يدلكم على أن ما مع آبائكم باطل، وأن الحق ما جاءت به الرسل، وهذا يقاوم ما وجدتم عليه آباءكم، ويعلو عليه.

﴿وَرَبُّوهُمُ﴾ بعدهم ﴿الْكَتَّابُ﴾ وصار المرجع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبدل لهم الأموال، ليفتوا ويحكموا بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة.

﴿يَاخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ﴾ مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿سَعَفَرْنَا لَنَا﴾ وهذا قول خال من الحقيقة، فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة، فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا، وعزموا على أن لا يعودوا، ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى - يأخذوه.

فاشترى آيات الله ثمناً قليلاً، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

قال الله [تعالى] في الإنكار عليهم، وبيان جراتهم: ﴿أَلَمْ يُوَدِّعْ عَلَيْهِم مِيثَاقَ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق، اتباعاً لأهوائهم، وميلاً مع مطامعهم.

﴿و﴾ الحال أنهم قد ﴿دَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهذا أعظم للذنب، وأشد للوم، وأشنع للعقوبة، وهذا من نقص عقولهم، وسفاهة رأيهم، يائس الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَالدُّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِدَيْنِكُمْ إِن يَقُولُونَ﴾ ما حرّم الله عليهم، من المآكل التي تصاب، وتوكل رشوة على الحكم، بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من أنواع المحرمات.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره، فخاصية العقل النظر للعواقب. وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيماً عظيماً باقياً فأنى له العقل والرأي؟.

وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يُتَسَكَّبُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي: يتمسكون به علماً وعملاً، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم.

ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون، وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.

ومن أعظم ما يجب التمسك به من المأمورات، إقامة الصلاة ظاهراً وباطناً، ولهذا خصها الله بالذكر لفضلها، وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحاً، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ في أقوالهم وأعمالهم، ونياتهم، ومصالحين لأنفسهم، ولغيرهم.

الْمُبْطَلُونَ

١٧٣

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

وَإِذْ نَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ﴿١٧٣﴾
 خذوا ماءً آتيناكم بقوةً واذكروا ما فيه لعلكم تنتفون ﴿١٧٤﴾
 وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَىٰ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ
 عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٥﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ
 آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
 الْمُبْطَلُونَ ﴿١٧٦﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
 ﴿١٧٧﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا
 فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٨﴾ وَلَوْ شِئْنَا
 لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ
 كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ
 يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مِثْلُ الْقَوْرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ
 الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٩﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ
 كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسِهِمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ﴿١٨٠﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ
 فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا تِلْكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٨١﴾

نفسه، فلهذا قال تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ بأن نوقفه للعمل بها، فيرتفع في

الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه.

﴿وَلَكِنَّهُ﴾ فعل ما يقتضي الخذلان، فأخلد إلى الأرض، أي: إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ وترك طاعة مولاه، ﴿فَمَثَلُهُ﴾ في شدة حرصه على الدنيا، وانقطاع قلبه إليها ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ﴾ أي: لا يزال لاهثًا في كل حال، وهذا لا يزال حريصًا حرصًا قاطعًا قلبه، لا يسد فاقته شيء من الدنيا.

﴿ذَٰلِكَ مِثْلُ الْقَوْرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها، وردوها، لهوانهم على الله، واتباعهم لأهوائهم بغير هدى من الله.

﴿فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في ضرب الأمثال، وفي العبر والآيات، فإذا تفكروا علموا، وإذا علموا عملوا.

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسِهِمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ أي: ساء وقبح مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي، فإن مثلهم مثل السوء، وهذا الذي آناه الله آياته،

نعم، قد يعرض للبعد من أقوال آبائه الضالين، ومذاهبهم الفاسدة، ما يظنه هو الحق، وما ذاك إلا لإعراضه عن حجج الله وبيناته، وآياته الألفية، والنفسية، فأعراضه عن ذلك، وإقباله على ما قاله المبطلون، ربما صيره بحالة يفضل بها الباطل على الحق، هذا هو الصواب في تفسير هذه الآيات.

وقد قيل: إن هذا يوم أخذ الله الميثاق على ذرية آدم، حين استخرجهم من ظهره، وأشهدهم على أنفسهم، فشهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أقروا به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم، وعنادهم في الدنيا والآخرة، ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهد بذلك.

فإن هذا العهد والميثاق الذي ذكروا، أنه حين أخرج الله ذرية آدم من ظهره، حين كانوا في عالم كالذر، لا يذكره أحد، ولا يخطر ببال آدمي فكيف يحتاج الله عليهم بأمر ليس عندهم به خير، ولا له عين ولا أثر؟.

ولهذا لما كان هذا أمرًا واضحًا جليًا، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: نبينها ونوضحها ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى ما أودع الله في فطرهم، وإلى ما عاهدوا الله عليه، فيرتدون عن القبائح.

(١٧٥-١٧٨) ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَٰلِكَ مِثْلُ الْقَوْرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسِهِمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا تِلْكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يقول تعالى لنتبيه ﷺ: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا﴾ أي: علمناه علم كتاب الله، فصار العالم الكبير، والحبر النحرير.

﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: انسلخ من الانصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك يصير صاحبه متصفًا بمكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس.

فلما انسلخ منها أتبعه الشيطان، أي: تسلط عليه، حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فأزه إلى المعاصي أزا ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ بعد أن كان من الراشدين المرشدين، وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

١٧٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ
بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾
وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي
أَسْمَائِهِ سَيِّئُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً
يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمَلِّ لَهُمْ آيَاتٍ
كَيْدِي مَتِينٍ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ
هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فِي آيٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا
هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ
أَيَّانَ مَرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا مَن قَلَّتْ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ الْبَغْثَةُ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ
عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِن أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

بالإيمان بالله ومحبه، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء أهل الجنة،
وبأعمال أهل الجنة يعملون.

(١٨٠) ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي
أَسْمَائِهِ سَيِّئُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ هذا بيان لعظيم جلاله وسعة
أوصافه، بأن له الأسماء الحسنى، أي: له كل اسم حسن،
وضابطه أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك
كانت حسنى، فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علمًا
محضًا، لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست
بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة منقسمة إلى المدح
والقذح، لم تكن حسنى، فكل اسم من أسمائه دال على جميع
الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو «العلم» الدال على أن له علمًا محيطًا عامًا
لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا
في السماء.

و«الرحيم» الدال على أن له رحمة عظيمة، واسعة لكل
شيء.

و«الكافير» الدال على أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء،

يحتمل أن المراد به شخص معين، قد كان منه ما ذكره الله،
فقص الله قصته تنبيهًا للعباد، ويحتمل أن المراد به بذلك أنه
اسم جنس، وأنه شامل لكل من آتاه الله آياته، فانسلك منها.
وفي هذه الآيات الترويب في العمل بالعلم، وأن ذلك
رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، والترهيب من
عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسلط
للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى وإخلاد العبد إلى
الشهوات، يكون سببًا للخذلان.

ثم قال تعالى - مبيّنًا أنه المنفرد بالهداية والإضلال -
﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾ بأن يوفقه للخيرات، ويعصمه من
المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم ﴿فَهُوَ أَلْمُهَيْدِيُّ﴾ حقًا
لأنه آثر هدايته تعالى ﴿وَمَنْ يَضِلِّ﴾ فيخذه ولا يوفقه للخير
﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ لأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك
هو الخسران المبين.

(١٧٩) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ
بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ يقول تعالى مبيّنًا كثرة
أنشأنا وبثنا ﴿لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ صارت البهائم
أحسن حالة منهم.

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم،
إلا مجرد قيام الحجة.

﴿وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ ما ينفعهم، بل فقدوا منفعتها
وفائدتها.

﴿وَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ سماعًا يصل معناه إلى قلوبهم.
﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كَالْأَنْعَامِ﴾ أي:
البهائم التي فقدت العقول، وهؤلاء آثروا ما يفنى على ما
يبقى، فسلبوا خاصية العقل.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما
خلقت له، ولها أذهان تدرك بها مضرتها من منفعتها، فلذلك
كانت أحسن حالًا منهم ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الذين غفلوا
عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله، وطاعته، وذكره.

خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار، لتكون عونًا لهم
على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا
المقصد.

فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا ممن ذرأ الله لجهنم وخلقهم
لها، فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها يعملون.

وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله، وانصبغ قلبه

ونحو ذلك.

ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب عليّ يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطف ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَرَدُّوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ سَوْجِدًا مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائهم، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له. إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لألهتهم، وإما بنفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى، ما أَرَادَهُ اللهُ ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها. فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملمحدون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: «أن الله تسعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة».

(١٨١) وقوله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة، كاملة في نفسها، مكملة لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق، فيعلمون الحق، ويعملون به، ويعلمونه، ويدعون إليه وإلى العمل به.

﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ بين الناس في أحكامهم، إذا حكموا في الأموال، والدماء والحقوق، والمقالات، وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصايح الدجى، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله، وعلو منزلته، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١٨٦-١٨٧) ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ○ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ○ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ○ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ○ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ هَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ○ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسَاءَ حَافِيَّتُهُ ○ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَسَاءَ مَقَادِيرُهُمْ ○ وَمَنْ يَكْفُرْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ○ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ○ وَلَوْ

به محمد ﷺ من الهدى فردوها ولم يقبلوها.

﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن يدر لهم الأرزاق، ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم، حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون، ولا يعاقبون، فيزدادون كفرًا وطغيانًا، وشرًا إلى شرهم. وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث

لا يشعرون، ولهذا قال: ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: قوي بليغ. ﴿أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ محمد ﷺ ﴿مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي: أو لم يعملوا أفكارهم، وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فليظنوا في أخلاقه وهديه، ودلته وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا أتمها، ولا من العقل والرأي إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعوا إلا لكل خير، ولا ينهوا إلا عن كل شر.

أفبهذا يا أولي الألباب من جنه؟ أم هو الإمام العظيم، والناصح المبين، والماجد الكريم، والروؤف الرحيم؟.

ولهذا قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب. ﴿أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهم إذا نظروا إليها، وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها، وعلى ما له من صفات الكمال.

﴿و﴾ كذلك لينظروا إلى جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإن جميع أجزاء العالم يدلّ أعظم دلالة على علم الله وقدرته، وحكمته، وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة على تفرد الخلق، والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، المسيح الموحد المحبوب.

وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقرب أجلمهم، ويفجأهم الموت، وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط.

﴿هَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأي حديث يؤمنون به؟ أبكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟.

ولكن الضال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسَاءَ حَافِيَّتُهُ ○ فَسَاءَ حَافِيَّتُهُ ○ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَسَاءَ حَافِيَّتُهُ ○ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَسَاءَ مَقَادِيرُهُمْ ○ وَمَنْ يَكْفُرْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ○ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ○ وَلَوْ

(١٨٨، ١٨٧) ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ○ أَبَانَ مَرْسَهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي ○ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقَيْهَا ○ إِلَّا هُوَ تَنَزَّلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ○ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَنَةٌ يُسْتَلُونَكَ ○ كَأَنَّكَ حَتَّىٰ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ ○ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ○ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ○ وَلَوْ

الموصلة إليه، والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والندارة، وإنما يتنفع بذلك، ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريمة مبينة جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع، أو دفع ضرر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضرر، عمن لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به، من البشارة والندارة، وعمل بذلك، فهذا نفعه ﷺ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان، بما حث العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.

(١٨٩-١٩٣) ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١﴾ فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَمْ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَعَعَلَّ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢﴾ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ ﴿٣﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَىٰ طُرُقِهِمْ لَا يَنْتَعِمُوا سِوَاهُ عَلَيْكَ أَدْعُوهُمْ أَمْ أَنْتَ صَمِيمٌ ﴿٥﴾ أَي: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفردكم. ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ.

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة، ما يقتضي سكن أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمام الشهوة.

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي تجللتها مجامعاً لها قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة، وذلك الجماع النسل، [وحينئذ] ﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾ وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنتى، ولا يتقلاها.

﴿فَلَمَّا﴾ استمرت به و ﴿أَفَلَتْ﴾ به حين كبر في بطنها، فحينئذ صار في قلبهما الشفقة على الولد، وعلى خروجه حياً صحيحاً سالمًا لا آفة فيه. [كذلك] ﴿٢﴾ فدعوا ﴿اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ ولذا ﴿صَالِحًا﴾ أي: صالح الخلقة تامها، لا نقص فيه ﴿لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَالِحًا﴾ على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه ﴿جَعَلَا لَمْ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ أي: جعل الله شركاء في ذلك الولد، الذي انفرد الله بإيجاده، والنعمة به، وأقر به عين والديه، فعبداه لغير الله.

كُنْتُ أَتْلُمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبِرُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ أي: المكذوبون لك، المتعتنون ﴿عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ أي: متى وقتها الذي تجيء به، ومتى تحل بالخلق؟.

﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ أي: إنه تعالى مخصص بعلمها ﴿لَا يَجْلِبُهَا لُوقُهَا إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو.

﴿فَلَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خفي علمها على أهل السماوات والأرض، واشتد أمرها أيضاً عليهم، فهم من الساعة مشفقون.

﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي: فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيؤوا لقيامها.

﴿يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَافِيٌ عَلَيْهَا﴾ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة، المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب، وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته، وسعة علمه.

﴿قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم، ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ فإني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى.

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَتْلُمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبِرُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكروه، لعلمي بالأشياء قبل كونها، وعلمي بما تنضي إليه.

ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أنني لا أعلم لي بالغيب.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذر العقوبات الدينية والدينية والأخرية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك، وأحذر منها. ﴿وَبَشِيرٌ﴾ بالشواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٧٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ
 أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا اسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ
 أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٧٥﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ
 مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا
 تَعَاشَرَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَتَقَلَّتْ دَعَا
 اللَّهُ رَبَّهُمَا لِئِنَّا آتَيْنَا صَالِحًا لَنَكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٧٦﴾
 فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَفَعَلَى
 اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٧٧﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ
 ﴿١٧٨﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَبْصُرُونَ ﴿١٧٩﴾
 وَإِن دَعَوْهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوهُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَاوَهُمْ
 أَمْ أَنْتُمْ صٰلِحُونَ ﴿١٨٠﴾ إِن الَّذِينَ دَعَوْتَ مِنَ دُونِ اللَّهِ
 عِبَادًا أَنتَ الَّتِي لَكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُم إِن
 كُنْتُمْ صٰدِقِينَ ﴿١٨١﴾ أَلَمْ أَرْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ
 يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ
 يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴿١٨٢﴾

استجابوا لكم، وحصلوا مطلوبكم وإلا تبين أنكم كاذبون في
 هذه الدعوى، مفترتون على الله أعظم الفرية.

وهذا لا يحتاج إلى التبيين فيه، فإنكم إذا نظرتم إليها
 وجدتم صورتها دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء، فليس
 لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها،
 ولا أذان تسمع بها، فهي عادية لجميع الآلات والقوى
 الموجودة في الإنسان.

فإذا كانت لا تتجيبكم إذا دعوتوها، وهي عباد أمثالكم،
 بل أنتم أكمل منها، وأقوى على كثير من الأشياء، فلا شيء
 عبدتموها.

﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ﴾ أي: اجتمعوا أنتم
 وشركاؤكم، على إيقاع السوء والمكروه بي، من غير إهمال
 ولا إ انتظار^(٢١)، فإنكم غير بالغيين لشيء من المكروه بي.
 لأن وليي الله الذي يتولاني فيجلب لي المنافع ويدفع عني
 المضار.

إما أن يسمياه بعبد غير الله ك «عبد الحارث» و «عبد
 العزيز»^(٢١) و «عبد الكعبة» ونحو ذلك، أو يشركا بالله في
 العبادة، بعدما من الله عليهما بما من من النعم التي لا يحصيها
 أحد من العباد.

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام في آدم
 وحواء، ثم انتقل إلى الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا
 موجود في الذرية كثيرًا، فذللك قررهم الله على بطلان
 الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم، سواء كان الشرك
 في الأقوال، أم في الأفعال، فإن الخالق لهم من نفس
 واحدة، الذي خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم
 أزواجًا، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة، ما يسكن بعضهم
 إلى بعض، ويألفه، ويلتذ به، ثم هداهم إلى ما به تحصل
 الشهوة واللذة، والأولاد والنسل.

ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات، وقتًا موقتًا، تشوف
 إليه نفوسهم ويدعون الله أن يخرجهم سويًا صحيحًا، فأتى الله
 عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم.

أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا به في عبادته أحدًا،
 ويخلصوا له الدين، ولكن الأمر جاء على العكس، فأشركوا
 بالله من لا ﴿يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ ولا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ ﴿أَي:﴾
 لعابديها ﴿نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَبْصُرُونَ﴾.

فإذا كانت لا تخلق شيئًا، ولا مثقال ذرة، بل هي مخلوقة،
 ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها، بل ولا عن
 أنفسها، فكيف تتخذ مع الله آلهة؟ إن هذا إلا أظلم الظلم،
 وأسفه السفه.

وإن تدعوا، أيها المشركون هذه الأصنام التي عبدتم من
 دون الله ﴿إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ
 صٰلِحُونَ﴾، فصار الإنسان أحسن حالة منها، لأنها لا تسمع
 ولا تبصر، ولا تهدي ولا تهدى، وكل هذا إذا تصورته اللبيب
 العاقل تصورًا مجردًا، جزم ببطلان إلهيتها وسفاهاة من عبدها.

(١٩٤-١٩٦) ﴿إِن الَّذِينَ دَعَوْتَ مِنَ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَنتَ الَّتِي لَكُمْ
 فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُم إِن كُنْتُمْ صٰدِقِينَ﴾ أَلَمْ أَرْجُلُ يَمْشُونَ
 بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ
 آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴿١٨٢﴾
 وَالَّذِي يَأْتِيكَ مِنَ التَّنْذِيرِ ۖ هُوَ نَزْلُ الْكَتٰبِ وَهُوَ يُتَوَلَّى الصَّلٰوٰتِ ۖ وَهٰذَا مِنْ نَوْعِ التَّنْذِيرِ
 لِلْمَشْرِكِينَ الْعٰبِدِينَ لِلْآوْتٰنِ ۗ يَقُولُ تَعٰلٰى ۖ ﴿١٨٣﴾ وَإِن الَّذِينَ دَعَوْتَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَنتَ الَّتِي لَكُمْ ﴿١٨٤﴾ أَي: لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم
 عبيد الله مملوكون، فإن كنتم كما تزعمون صادقين، في أنها
 تستحق من العبادة شيئًا ﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُم﴾ فإن

(١) في ب: العزي. (٢) كذا في ب، وفي أ: إنظار.

﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ الذي فيه الهدى، والشفاء، والنور، وهو من توليته وترتيبه لعباده الخاصة الدينية.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ الذين صلحت نياتهم وأعمالهم، وأقوالهم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَبِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ فالمؤمنون الصالحون - لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى، ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع، ولا يضر - تولاهم الله، ولفظ بهم، وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم، في دينهم ودنياهم، ودفع عنهم بإيمانهم كل مكروه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُفِيعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

(١٩٧، ١٩٨) ﴿وَالَّذِينَ نَدَعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمُ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ﴾ وإن تدعوهم إلى الهدى لا يستمعوا وترتهم يظنون إليك وهم لا يبصرون وهذا أيضاً في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لشيء من العبادة، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار، في نصر أنفسهم، ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة، فلو دعوتها إلى الهدى لم تهتد، وهي صور لا حياة فيها.

فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون حقيقة، لأنهم صوروها على صور الحيوانات، من الأدميين أو غيرهم، وجعلوا لها أبصاراً وأعضاء، فإذا رأيتها قلت: هذه حية، فإذا تأملتها عرفت أنها جمادات لا حراك بها، ولا حياة، فبأي رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله؟ وأي مصلحة أو نفع عكفوا عندها، وتقربوا لها بأنواع العبادات؟.

فإذا عرف هذا، عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها، ولو اجتمعوا وأرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر الأرض والسموات، متولي أحوال عباده الصالحين، لم يقدرُوا على كيد بمشقال ذرة من الشر، لكمال عجزهم وعجزها، وكمال قوة الله واقتداره، وقوة من احتُمى بجلاله، وتوكل عليه.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أن الضمير يعود إلى المشركين المكذابين لرسول الله ﷺ، فتحسبهم ينظرون إليك يا رسول الله! نظر اعتبار، يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك، وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

(١٩٩) ﴿حَذِّ الْعَفْوَ وَأَمُرٌ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبعتهم، بل يشكر من كل أحد ما قابله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز

١٧٦
 ﴿إِن وَّلَّى اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾
 وَالَّذِينَ نَدَعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمُ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ حَذِّ الْعَفْوَ وَأَمُرٌ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضُ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ قَائِلًا فَالْوَالُوا لَا أَجْبَتِهَا قُلْ إِنَّمَا اتَّبِعُ مَا بُوْحَىٰ إِلَىٰ مِن رَّبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَأَذْكُرْتِكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْجُدُونَ لَهُ، وَهُمْ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

عن تقصيرهم، ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال، وتنشرح له صدورهم.

﴿وَأَمُرٌ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بكل قول حسن، وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو برٍّ والدين، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي مصيب، أو معاونة على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية، أو دنوية.

ولما كان لا بد من أدية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل بالإعراض عنه، وعدم مقابلته بجهله فمن أذاك بقوله أو فعله لا تؤذ، ومن حرملك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن، فقال تعالى:

(٢٠٠-٢٠٢) ﴿وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ

تعاقب الأوقات، وحجة لا تبطل في جميع الآنات.

فهذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم ﴿بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يستبصر به في جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول، فمن تفكر فيه وتدبره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون. وإلا فمن آمن، فهو ﴿هُدًى﴾ له من الضلال ﴿وَرَحْمَةً﴾ له من الشقاء، فالؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه.

وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي، في الدنيا والآخرة.

(٢٠٤) ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين، حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً، وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدى متزايدًا، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلى عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

(٢٠٥، ٢٠٦) ﴿وَأذْكَرَ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْفِعْلِ وَالْأَصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴿الذكر لله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمداً أصلاً، وغيره تبعاً، بذكر ربه في نفسه أي: مخلصاً خالياً.

﴿تَضَرَعًا﴾ أي: متضرعاً بلسانك، مكرراً لأنواع الذكر ﴿وَخِيفَةً﴾ في قلبك بأن تكون خائفاً من الله، وجَلَّ القلب منه خوفاً أن يكون عملاً غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به. و﴿دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: كن متوسطاً، لا تجهر

إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ○ إِنَّكَ الَّذِي أَنْقَضُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَلِيفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ○ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْبِرُونَ﴾.

أي: أي وقت، وفي أي حال ﴿يَبْرَزَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَرَعٌ﴾ أي: تحس منه بوسوسة، وتثبيط عن الخير، أو حث على الشر، وإيعاز إليه. ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: التجيء واعتمص بالله، واحتم بحماه فإنه ﴿سَمِيعٌ﴾ لما تقول.

﴿عَلِيمٌ﴾ بينتك وضعفك، وقوة التجانك له، فسيحملك من فتنته، ويقبك من وسوسته، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْآتِيسِ﴾ إلى آخر السورة.

ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان الذي لا يزال مرابطاً، ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذنب، ومسّه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي باب أتى، ومن أي مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح، والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين، وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الغي ذنباً بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك. فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القيادة لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

(٢٠٣) ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد، ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد. فإذا جنتهم بشيء من الآيات الدالة على صدقك، لم ينفادوا.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ﴾ من آيات الاقتراح، التي يعينونها ﴿قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: هلا اخترت الآية، فصارت الآية الفلانية، أو المعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات، المدير لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو أن المعنى: لولا اخترعتها من نفسك.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَيْتُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ فإنا عبد متبع مدير، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده وطلبته حكمته البالغة، فإن أردتم آية لا تضمحل على

بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴿بِالْفِدْوِ﴾
أول النهار ﴿وَالْأَصَالِ﴾ آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما
مزية وفضيلة على غيرهما .

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم،
فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة
والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة
والخيبة، في الاشتغال به .

وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها،
وهي الإكثار من ذكر الله آناء الليل والنهار، خصوصاً طرفي
النهار، مخلصاً خاشعاً متضرعاً، متذلاً، ساكناً وتواطئاً عليه
قلبه ولسانه بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر،
وإحضار له بقلبه، وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من
قلب غافل لاو .

ثم ذكر تعالى أن له عبادةً مستديمين لعبادته، ملازمين
لخدمته وهم الملائكة، فلتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر
بعبادتكم من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع
أنفسكم، وأن تريحوا عليه أضعاف ما عملتم، فقال:

﴿إِذَا الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة المقربين، وحملة
العرش والكروبيين ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ بل يدعون لها،
وينقادون لأوامر ربهم ﴿وَيَسْبُحُونَ﴾ الليل والنهار، لا يفترون .
﴿وَأُكْرِمُوا﴾ وحده لا شريك له ﴿يَسْجُدُونَ﴾ فليقتد العباد بهؤلاء
الملائكة الكرام، وليداوموا [على] عبادة الملك العلام .

تم تفسير سورة الأعراف، والله الحمد والشكر والثناء،
وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم .

تفسير سورة الأنفال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خافت ورهبت،
فأوجبت لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن
خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب .

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾، ووجه ذلك أنهم
يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد
إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين
لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو
يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم،
أو وجلًا من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصي، وكل هذا
مما يزداد به الإيمان .

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي:
يعتمدون في قلوبهم على ربهم، في جلب مصالحهم، ودفع
مضارهم الدينية، والدنيوية، ويشقون بأن الله تعالى سيفعل
ذلك .

والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل

(٤-١) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ
وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ○
إِنَّمَا الْأَمْثَالُ لِلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ○ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ○ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الأنفال: هي الغنائم التي ينفلها
الله لهذه الأمة، من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه
السورة قد نزلت في قصة «بدر» أول غنيمة كبيرة غنمها

إلا به.

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ من فرائض، ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولبها، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقِيمُونَ﴾ النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة على الزوجات والأقارب، وما ملكت أيماهم، والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين اتصفوا بتلك الصفات ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة، والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله، وحقوق عباده.

وقدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح، وأفضل منها، وفيها دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة، وينقص بضعها.

وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينمي، وإن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى، والتأمل لمعانيه.

ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: عالية بحسب علو أعمالهم، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان - وإن دخل الجنة - فلن ينال ما نالوا، من كرامة الله التامة.

(٨-٥) ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ ○ ﴿يُحَدِّثُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ○ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ○ ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ ○ قدم تعالى - أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة - الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها، لأن من قام بها، استقامت أحواله، وصلحت أعماله التي من أكبرها الجهاد في سبيله.

فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي، وجزاءهم هو الحق الذي وعدهم الله به، كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في «بدر» بالحق الذي يحبه الله تعالى، وقد قدره وقضاه.

وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أن يكون بينهم وبين عدوهم قتال.

فحين تبين لهم أن ذلك واقع، جعل فريق من المؤمنين

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

١٧٧

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُحَدِّثُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧﴾

يجادلون النبي ﷺ في ذلك، ويكرهون لقاء عدوهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

والحال أن هذا لا ينبغي منهم، خصوصاً بعدما تبين لهم أن خروجهم بالحق، ومما أمر الله به، ورضيه، فهذه الحال ليس للجدال محل [فيها] ^(١)، لأن الجدال محل وفائدته عند اشتباه الحق، والتباس الأمر، فأما إذا وضح وبان، فليس إلا الانقياد والإذعان.

هذا وكثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء، ولا كرهوا لقاء عدوهم، وكذلك الذين عانبتهم الله، انقادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله، وقيض لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها.

وكان أصل خروجهم يتعرضون لغير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام، قافلة كبيرة.

فلما سمعوا برجوعها من الشام، ندب النبي ﷺ الناس، فخرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً، معهم سبعون بعيراً،

(١) زيادة من هامش ب.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ
 مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
 وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
 عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ
 عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ
 الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾
 إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا
 سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ
 الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ
 شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ
 عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ
 دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ
 بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبئسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾

ومن ذلك أنه أنزل عليكم من السماء مطرًا ليطهركم به من
 الحدث والخبث، وليطهركم من وساوس الشيطان ورجزه.
 ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي: يثبتها، فإن ثبات القلب أصل
 ثبات البدن، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ فإن الأرض كانت سهلة
 دهسة فلما نزل عليها المطر، تلبدت، وثبتت به الأقدام.
 ومن ذلك أن الله أوحى إلى الملائكة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بالعون
 والنصر والتأييد.

﴿فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ألقوا في قلوبهم، وألهمهم
 الجراءة على عدوهم، ورغوبهم في الجهاد وفضله.
 ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ الذي هو أعظم
 جند لكم عليهم، فإن الله إذا ثبت المؤمنين، وألقى الرعب في
 قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم، ومنحهم
 الله أكتافهم.

﴿فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: على الرقاب ﴿وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ
 كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: مفصل.
 وهذا خطاب، إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يشتوا
 الذين آمنوا، فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر،

يعتقون عليها، ويحملون عليها متاعهم، فسمعت بخبرهم
 قريش، فخرجوا لمنع غيرهم، في عدد كثير وعدوة وافرة من
 السلاح، والخيال والرجال، يبلغ عددهم قريبًا من الألف.
 فوعد الله المؤمنين إحدى الطائفتين، إما أن يظفروا بالغير،
 أو بالغير، فأحبوا الغير لقلّة ذات يد المسلمين، ولأنها غير
 ذات الشوكة، ولكن الله تعالى أحب لهم، وأراد أمرًا أعلى
 مما أحبوا.

أراد أن يظفروا بالغير الذي خرج فيه كبراء المشركين
 وصناديدهم ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ فينصر أهله
 ﴿وَيُقَطِّعُ ذَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ أي يستأصل أهل الباطل، ويربي عباده
 من نصره للحق أمرًا لم يكن يخطر ببالهم.

﴿لِيُخَيِّقَ الْحَقَّ﴾ بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته
 وصدقه، ﴿وَيُبَيِّطُ الْبَاطِلَ﴾ بما يقيم من الأدلة والشواهد على
 بطلانه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ فلا يبالي الله بهم.

(٩-١٤) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ
 بِالْفِ مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفِينَ ○ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
 وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ○ إِذْ
 يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسُ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهِّرَكُم بِهِ
 وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ
 الْأَقْدَامَ ○ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا
 سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ
 وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ○ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ
 يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ○ ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ
 لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ○ أي: اذكروا نعمة الله عليكم، لما
 قارب التقاؤكم بعدوكم، استعنتهم بربكم، وطلبتهم منه أن
 يعينكم وينصركم ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وأعانكم بعدة أمور:

منها: أن الله أمدهم ﴿بِالْفِ مِّنَ الْمَلَكَةِ مُرَدِّفِينَ﴾ أي:
 يردف بعضهم بعضًا، ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ أي إنزال الملائكة ﴿إِلَّا
 بُشْرَىٰ﴾ أي: لتستبشر بذلك نفوسكم، ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾
 وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد ولا عدد.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، بل هو القهار الذي يخذل
 من بلغوا من الكثرة، وقوة العدد والآلات ما بلغوا.

﴿حَكِيمٌ﴾ حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء
 مواضعها.

ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاسًا
 ﴿يُغَشِّيكُمْ﴾ [أي:] فيذهب ما في قلوبكم من الخوف
 والوجل، ويكون ﴿أَمَنَةً﴾ لكم، وعلامة على النصر
 والطمأنينة.

فإنه لا بأس بذلك، لأنه لم يول دبره فأراً، وإنما ولى دبره ليستعلي على عدوه، أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته، أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك من مقاصد المحاربين، وأن المتحيز إلى فئة تمنعه وتعيه على قتال الكفار، فإن ذلك جائز، فإن كانت الفئة في العسكر، فالأمر في هذا واضح.

وإن كانت الفئة في غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز، ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمد عاقبة، وأبقى عليهم.

أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم، فيبعد - في هذه الحال - أن تكون من الأحوال المرخص فيها، لأنه - على هذا - لا يتصور الفرار المنهي عنه، وهذه الآية مطلقة، وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

(١٧-١٩) ﴿فَلَمَّ تَقَاتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِئِذَا نَضَىٰ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ذَالِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ ۝ وَإِن تَسْتَعِينُوا فَكَذَّابَةٌ جَاءَتْكُمْ مِنَ الْفَتْحِ وَإِن تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُدُّوا نَعْدًا لَّنْ تَعْنَىٰ عَنْكُمْ فِئْتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى - لما انهزم المشركون يوم بدر، وقتلهم المسلمون - : ﴿فَلَمَّ تَقَاتَلُوا﴾ بحولكم وقوتكم ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَاتَلَهُمْ﴾ حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ وذلك أن النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش، وجعل يدعو الله، ويناشده في نصرته، ثم خرج منه، فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه، وفمه، وعينه منها، فحينئذ انكسر حدهم، وفتر زندهم، وبان فيهم الفشل والضعف، فانهزموا.

يقول تعالى لنبيه: لست بقوتك - حين رميت التراب - أوصلته إلى أعينهم، وإنما أوصلناه إليهم بقوتنا واقتدارنا ﴿وَلِئِذَا نَضَىٰ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ أي: إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجرًا حسنًا، وثوابًا جزيلاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع تعالى ما أسر به العبد، وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدها، فيقدر على العباد أقدارًا موافقة لعلمه وحكمته، ومصالحة عباده، ويجزي

أو للمؤمنين يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونهم.

وذلك لأنهم ﴿سَأَلُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: حاربوهما، وبارزوهما بالعداوة، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ ومن عقابه تسليط أوليائه على أعدائه، وقتيلهم.

﴿ذَالِكُمْ﴾ العذاب المذكور ﴿فَدَوَّفُوهُ﴾ أيها المشاققون لله ورسوله عذابًا معجلًا ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾.

وفي هذه القصة من آيات الله العظيمة، ما يدل على أن ما جاء به محمد ﷺ رسول الله حق.

منها: أن الله وعدهم وعدًا، فأنجزهموه.

ومنها: ما قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ الْأَلْتَمَاتِ فِئَةٌ تَقَاتَلَتْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيًا الْعَيْنِ﴾ الآية.

ومنها: إجابة دعوة الله للمؤمنين لما استغاثوه بما ذكره من الأسباب، وفيها الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين، وتقييض الأسباب، التي بها ثبت إيمانهم، وثبتت أقدامهم، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية.

ومنها: أن من لطف الله بعبده أن يسهل عليه طاعته، ويسرها بأسباب داخلية وخارجية.

(١٥، ١٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُلُوهُمُ الْأَدْبَارَ ۝ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِعَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية، والقوة في أمره، والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار، إذا التقى الزحفان فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ أي: في صف القتال، وتزاحف الرجال، واقتراب بعضهم من بعض ﴿فَلَا تُلُوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ بل اثبتوا لقتالهم، واصبروا على جلادهم، فإن في ذلك نصره لدين الله، وقوة لقلوب المؤمنين، وإرهاقًا للكافرين.

﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدْ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ﴾ أي: رجع ﴿بِعَضْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾ أي: مقره ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وهذا يدل على أن الفرار من الزحف من غير عذر من أكبر الكبائر، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة، وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد.

ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال، وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى، ليكون أمكن له في القتال، وأنكى لعدوه،

كلًا بحسب نيته وعمله.

﴿ذَلِكَ﴾ النصر من الله لكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكٰفِرِينَ﴾ أي: مضعف كل مكر وكيد، يكيدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محققًا بهم.

﴿إِنْ سْتَفْتِحُوا﴾ أيها المشركون، أي: تطلبوا من الله أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ حين أوقع الله بكم من عقابه ما كان نكالًا لكم، وعبرة للمتقين ﴿وَأَنْ تَنْهَبُوا﴾ عن الاستفتاح ﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾ لأنه ربما أمهلتهم، ولم يجعل لكم النقمة ﴿وَأِنْ تَعُدُّوا﴾ إلى الاستفتاح وقاتل حزب الله المؤمنين ﴿تَعُدُّ﴾ في نصرهم عليكم.

﴿وَلَنْ نُعْزِزَ عِتْقَكَ﴾ أي: أعوانكم وأنصاركم الذين تحاربون وتقاتلون، معتمدين عليهم شيئًا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

ومن كان الله معه فهو المنصور وإن كان ضعيفًا قليلًا عدده، وهذه المعية التي أخبر الله أنه يؤيد بها المؤمنين، تكون بحسب ما قاموا به من أعمال الإيمان.

فإذا أذبل العدو على المؤمنين في بعض الأوقات، فليس ذلك إلا تفریطًا من المؤمنين وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه وإلا فلو قاموا بما أمر الله به من كل وجه، لما انهزم لهم راية [انهزامًا مستقرًا] (١) ولا أذبل عليهم عدوهم أبدًا.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَآسَأْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ولا تكونوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿لما أخبر تعالى أنه مع المؤمنين، أمرهم أن يقوموا بمقتضى الإيمان الذي يدركون به معيته فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بامثال أمرهما واجتنب نهيهما.

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ أي: عن هذا الأمر الذي هو طاعة الله، وطاعة رسوله، ﴿وَأَسَأْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ما يتلى عليكم من كتاب الله، وأوامره، ووصاياه، ونصائحه، فتوليكم في هذه الحال من أفتح الأحوال.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا تكتفوا بمجرد الدعوى الخالية التي لا حقيقة لها، فإنها حالة لا يرضاها الله ولا رسوله، فليس الإيمان بالتمني والتحلي، ولكنه ما وفر في القلوب، وصدقته الأعمال.

﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ إِلَيْكُمْ وَالَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ولَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿يقول تعالى: ﴿إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ﴾ من لم تفد فيهم الآيات والنذر، وهم ﴿الضُّمُّ﴾ عن استماع الحق ﴿إِلَيْكُمْ﴾

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

١٧٩

سُورَةُ الْاَنْفَالِ

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ سْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَبُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدُ وَلَنْ نُعْزِزَ عَنَّا فِعْتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَآسَأْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ إِلَيْكُمْ وَالَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَٰهٌ مُّحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَأَتَّقُوا فِتْنَةَ الْأَصْحَابِ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

عن النطق به ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ما ينفعهم، ويؤثرونه على ما يضرهم، فهؤلاء شر عند الله، من جميع (٢) الدواب؛ لأن الله أعطاهم أسماعا وأبصارًا وأفئدة، ليستعملوها في طاعة الله، فاستعملوها في معاصيه وعدموا - بذلك - الخير الكثير، فإنهم كانوا يصدد أن يكونوا من خيار البرية، فأبوا هذا الطريق، واختاروا لأنفسهم أن يكونوا من شر البرية.

والسمع الذي نفاه الله عنهم سمع المعنى المؤثر في القلب، وأما سمع الحجة، فقد قامت حجة الله تعالى عليهم بما سمعوه من آياته، وإنما لم يسمعهم السماع النافع، لأنه لم يعلم فيهم خيرًا يصلحون به لسماع آياته.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ على الفرض والتقدير ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ عن الطاعة ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ لا التفات لهم إلى الحق بوجه من الوجوه، وهذا دليل على أن الله تعالى لا يمنع الإيمان والخير، إلا لمن لا خير فيه، الذي لا يتركو لديه، ولا يثمر عنده، وله الحمد تعالى والحكمة في هذا.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: من شرار.

﴿لَمَلَكْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على منته العظيمة، وإحسانه التام، بأن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً.

(٢٧، ٢٨) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا وَالرَّسُولَ وَخَوَلَا أَمْنَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَسْلَمُونَ ○ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آتَاكُم مِّن قَبْلِهِ فَتَنَةً وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما اتتمنهم الله عليه من أوامره ونواهيه، فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً، فمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها، استحق العقاب الويبيل، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته، منقصاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة، مفوتاً لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

ولما كان العبد ممتحناً بأمواله وأولاده، فربما حمله محبة^(٢٦) ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يبتيلى الله بهما عباده، وأنها عارية، ستؤدى لمن أعطاها، وترد لمن استودعها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

فإن كان لكم عقل ورأي، فأثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة، فالعقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

(٢٩) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنفَرُوا اللَّهُ يَجْعَل لَّكُمْ قُرْآنًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ امثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان، وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع، يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبار.

الرابع: الأجر العظيم، والثواب الجزيل لمن اتقاه، وأثر رضاه على هوى نفسه ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

(١) هكذا في النسختين، والمراد ظاهر، وهو أن اتقاء هذه الفتنة يكون بالنهي عن المنكر. (٢) في ب: محبته.

(٢٤، ٢٥) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ○ وَأَتَقُوا فِتْنَةَ الَّذِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان منهم وهو الاستجابة لله وللرسول، أي: الانقياد لما أمرا به والمبادرة إلى ذلك، والدعوة إليه، والاجتناب لما نهاها عنه، والانكفاف عنه، والنهي عنه.

وقوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ وصف ملازم لكل ما دعا الله ورسوله إليه، وبيان لفائدته وحكمته، فإن حياة القلب والروح بعبودية الله تعالى، ولزوم طاعته، وطاعة رسوله على الدوام.

ثم حذر عن عدم الاستجابة لله وللرسول فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فإياكم أن تردوا أمر الله أول ما يأتيكم، فيحال بينكم وبينه إذا أردتموه بعد ذلك، وتختلف قلوبكم فإن الله يحول بين المرء وقلبه، يقلب القلوب حيث شاء، ويصرفها أنى شاء.

فليكثر العبد من قول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، يا مصرف القلوب، اصرف قلبي إلى طاعتك».

﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: تجمعون ليوم لا ريب فيه، فيجازى المحسن بإحسانه، والمسيء بعصيانه.

﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ بل تصيب فاعل الظلم وغيره، وذلك إذا ظهر الظلم فلم يغير، فإن عقوبته تعم الفاعل وغيره. وتقوى^(١) هذه الفتنة بالنهي عن المنكر، وقمع أهل الشر والفساد، وأن لا يمكنوا من المعاصي والظلم مهما أمكن.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن تعرض لِمساخطه، وجانب رضاه.

(٢٦) ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَمَلَكْتُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى ممتناً على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة:

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: مقهورون تحت حكم غيركم ﴿تَخَافُونَ أَن يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾ أي: يأخذونكم.

﴿فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصَرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ فجعل لكم بلداً تأوون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.

﴿٣٠﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾ وَيَوْمَ تَذُكُرُ بِهَا الرِّسَالُ مَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ، إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٣١﴾ حِينَ تَشَاوُرُ الْمُشْرِكُونَ فِي دَارِ النَّدْوَةِ، فِيمَا يَصْنَعُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ، إِمَّا أَنْ يَثْبُتُوهُ عِنْدَهُمْ بِالْحَبْسِ، وَيَوْتِقُوهُ. وَإِمَّا أَنْ يَقْتُلُوهُ فَيَسْتَرْجِعُوهُ - بِرِزْمِهِمْ - مِنْ شَرِّهِ. وَإِمَّا أَنْ يَخْرِجُوهُ وَيَجْلُوهُ مِنْ دِيَارِهِمْ. فَكُلُّ أَيْدِي مِنْ هَذِهِ الْأَرْأَاءِ رَأْيًا رَأَاهُ. فَاتَّفَقَ رَأْيُهُمْ عَلَى رَأْيِ رَأَاهُ شَرِيهِمْ أَبُو جَهْلٍ - لِعَنَةِ اللَّهِ - وَهُوَ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ مِنْ قِبَائِلِ قُرَيْشٍ فَتَى، وَيَعْطُوهُ سَيْفًا صَارِمًا، وَيَقْتُلُهُ الْجَمِيعُ قَتْلَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، لِيَتَفَرَّقَ دَمُهُ فِي الْقِبَائِلِ، فَيَرْضَى بِنُوحِ هَاشِمٍ [نَمَّ] بِدَيْتِهِ، فَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى مَقَاوِمَةِ سَائِرِ (٣١) قُرَيْشٍ، فَتَرَصَّدُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي اللَّيْلِ لِيُوقِعُوا بِهِ إِذَا قَامَ مِنْ فِرَاشِهِ.

فَجَاءَهُ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ وَخَرَجَ عَلَيْهِمْ، فَذَرَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ التَّرَابَ وَخَرَجَ، وَأَعْمَى اللَّهُ أَبْصَارَهُمْ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا اسْتَبْطَوْهُ، جَاءَهُمْ آتٌ وَقَالَ: خَيِّبَكُمْ اللَّهُ، قَدْ خَرَجَ مُحَمَّدٌ وَذَرَّ عَلَى رُؤُوسِكُمُ التَّرَابَ. فَفَنَفَسَ كُلُّ مَنْهُمْ التَّرَابَ عَنْ رَأْسِهِ، وَمَنْعَ اللَّهُ رَسُولَهُ مِنْهُمْ، وَأَذَنَ لَهُ فِي الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ. فَهَاجَرَ إِلَيْهَا، وَأَيْدِي اللَّهِ بِأَصْحَابِهِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلَمْ يَزَلْ أَمْرُهُ يَلْعُو حَتَّى دَخَلَ مَكَّةَ عَنُودًا، وَقَهَرَ أَهْلَهَا، فَأَذَعْنَاهُ، وَصَارُوا تَحْتَ حُكْمِهِ، بَعْدَ أَنْ خَرَجَ مُسْتَخْفِيًا مِنْهُمْ، خَائِفًا عَلَى نَفْسِهِ. فَسَبَّحَانَ اللَّطِيفَ بَعْدَهُ، الَّذِي لَا يَغَالِبُهُ مَغَالِبٌ.

﴿٣١﴾ وَقَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا نَثَلْنَا عَلَيْهِمْ أَيْدِينَا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأُولِينَ﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأُولِينَ ۝ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأُولِينَ ۝ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَمَا لَهُمْ إِلَّا يَعُدُّبَهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَضُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۗ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّفُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ يَقُولُ تَعَالَى فِي بَيَانَ عُنَادِ الْمَكْذِبِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ: ﴿وَإِذَا نَثَلْنَا عَلَيْهِمْ أَيْدِينَا﴾

الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ.

﴿٣٢﴾ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأُولِينَ﴾ وَهَذَا مِنْ عُنَادِهِمْ وَظُلْمِهِمْ، وَإِلَّا فَقَدْ تَحَدَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَيَدْعُوا مِنْ اسْتِطَاعَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، وَتَبَيَّنَ عَجْزُهُمْ.

فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى، كذبه

الواقع، وقد علم أنه ﷺ أمي، لا يقرأ ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأُولِينَ﴾ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمِطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا يُعَذِّبُ أَيْدِيَهُمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝ وَمَا لَهُمْ إِلَّا يَعُدُّبَهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَضُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ ۗ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّفُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ يَقُولُ تَعَالَى فِي بَيَانَ عُنَادِ الْمَكْذِبِينَ لِلرَّسُولِ ﷺ: ﴿وَإِذَا نَثَلْنَا عَلَيْهِمْ أَيْدِينَا﴾

الدَّالَّةُ عَلَى صِدْقِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ.

﴿٣٢﴾ قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأُولِينَ﴾ وَهَذَا مِنْ عُنَادِهِمْ وَظُلْمِهِمْ، وَإِلَّا فَقَدْ تَحَدَاهُمْ اللَّهُ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ، وَيَدْعُوا مِنْ اسْتِطَاعَا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى ذَلِكَ، وَتَبَيَّنَ عَجْزُهُمْ.

فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتمويهات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه، قالوا لمن ناظرهم وادعى أن الحق معه: إن كان هذا هو الحق من عندك، فاهدنا له، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم.

فمد قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية، علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء، الجهلة الظالمون، فلو عاجلهم الله بالعقاب لما أبقى منهم باقية،

ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب، بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال:

﴿وَمَا كَانَتْ أَلِهَةٌ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فوجوده ﷺ بين

أظهرهم أمنة لهم من العذاب.

وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رؤوس الأشهاد، يدرون بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله [تعالى] فهذا] قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلِهَةٌ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعدما انعقدت أسبابه.

ثم قال: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أي شيء يمنعهم من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصاً صدمه النبي ﷺ وأصحابه الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانُوا﴾ أي: المشركون ﴿أَوْلِيَاءَ﴾. يحتمل أن الضمير يعود إلى الله، أي: أولياء الله، ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أي: وما كانوا أولى به من غيرهم، ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾ وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمراً، غيرهم أولى به.

(٣٥) ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يعني أن الله تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذين يصدون عنه، فما كان صلاتهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات ﴿إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ أي صغيراً وتصفيقاً، فعل الجهلة الأغبياء الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام لأفضل البقاع وأشرفها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف ببقية العبادات!؟

فيأي شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة، والأفعال السديدة.

لا جرم، أورثهم الله بيته الحرام، ومكنهم منه، وقال لهم - بعدما مكن لهم فيه -: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وقال هنا: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

(٣٦، ٣٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ

سورة الأنفال

١٨١

الأنفال

وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاءُؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٩﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعَفِّرْ لَهُمُ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٤٠﴾ وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِبَلَاءٍ إِنْ أَنْتَهُوا قَاتِلَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤١﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نَعِمَ الْمَوْلَىٰ وَنَعِمَ النَّصِيرُ ﴿٤٢﴾

كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ○ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يقول تعالى مبيناً لعداوة المشركين، وكيدهم، ومكرهم، ومبارزتهم لله ولرسوله، وسعيهم في إطفاء نوره، وإخماد كلمته، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ليطلوا الحق، وينصروا الباطل، ويطلوا توحيد الرحمن، ويقوم دين عبادة الأوثان.

﴿سَيُنْفِقُونَهَا﴾ أي: فيصددون هذه النفقة، وتخف عليهم، لتمسكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ولكنها ستكون ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ أي: ندامة، وخزياً، ودلاً. ﴿وَيُغْلَبُونَ﴾ فتذهب أموالهم، وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد العذاب، ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ أي: يجمعون إليها، ليدوقوا عذابها، وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء، والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب، ويجعل كل واحدة على حدة، وفي دار تخصصه، فيجعل

الخيث بعضه على بعض، من الأعمال والأموال والأشخاص.

﴿فِرْكَمُكُمْ جَمِيعًا يَجْعَلُ فِي جَهَنَّمَ أَوْلِيَّكُمْ هُمْ الْخَائِرُونَ﴾
الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

(٣٨-٤٠) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ ○ وَقَالُوا هُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ قَائِمًا فَاتَى اللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ ○ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَعْمَ أَلْمَوْلَىٰ وَيَعْمَ النَّصِيرُ﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده لا يمنعه كفر العباد، ولا استمرارهم في العناد، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردى، فقال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن كفرهم، وذلك بالإسلام لله وحده لا شريك له.

﴿يَغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ منهم من الجرائم ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ إلى كفرهم وعنادهم ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ بإهلاك الأمم المكذبة، فلينتظروا ما حل بالمعاندين، فسوف يأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزئون.

فهذا خطابه للمكذبين، وأما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين فقال:

﴿وَقَالُوا هُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أي: شرك، وصد عن سبيل الله ويذعنوا لأحكام الإسلام ﴿وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان.

﴿إِنِ انْتَهَوْا﴾ عن ما هم عليه من الظلم ﴿فَأَنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ بِصِيرٍ﴾ لا تخفى عليه منهم خافية.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الطاعة وأوضاعوا في الإضاعة ﴿فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ يَعْمَ أَلْمَوْلَىٰ﴾ الذي يتولى عباده المؤمنين، ويوصل إليهم مصالحهم، ويسر^(١) لهم منافعهم الدينية والدنيوية ﴿وَيَعْمَ النَّصِيرُ﴾ الذي ينصرهم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالب الأشرار.

ومن كان الله مولاة وناصره فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه فلا عز له، ولا قائمة له.

(٤١، ٤٢) ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمَهُ وَالرَّسُولِ وَاللَّذِي أَلْفَرَقُوا وَاللَّذِينَ وَالْمَسْكِينِ وَالْبَنِي السَّبِيلِ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْفُرْقَانِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْفُرْقَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ○ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْأَقْصَىٰ

وَالرَّكْبِ اسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنَّ لِيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَتْ مَعُودًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَرَحِمَىٰ مَنْ حَمَىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: أخذتم من مال الكفار قهراً بحق، قليلاً كان أو كثيراً، ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ حُكْمَهُ﴾ أي: وباقية لكم أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها، فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله ﷺ للراجل سهم، وللفارس سهمان لفرسه، وسهم له.

وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ورسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ورسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله، فإذا لم يعين الله له مصرفاً، دل على أن مصرفه للمصالح العامة.

والخمس الثاني لذي القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم، وبني المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنتاهم.

والخمس الثالث لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم.

والخمس الرابع للمساكين، أي: المحتاجين الفقراء، من صغار، وكبار، ذكور، وإناث.

والخمس الخامس لابن السبيل، وهو^(٢) الغريب المنقطع به في غير بلده.

[وبعض المفسرين يقول: إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف، ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء، بل ذلك تبع للمصلحة، وهذا هو الأولى]^(٣).

وجعل الله أداء الخمس على وجه شرطاً للإيمان فقال: ﴿إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْفُرْقَانِ وَاللَّهُ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ وهو يوم «بدر» الذي فرق الله به بين الحق والباطل، وأظهر الحق، وأبطل الباطل.

﴿يَوْمَ اتَّخَفَى الْجَمْعَانِ﴾ جمع المسلمين، وجمع الكافرين، أي: إن كان إيمانكم بالله، وبالحق الذي أنزله الله على رسوله يوم الفرقان، الذي حصل فيه من الآيات والبراهين، ما دل على أن ما جاء به هو الحق ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا (١) كذا في ب، وفي أ: وتيسر. (٢) في ب: وهم. (٣) زيادة من هامش ب.

يغالبه أحد إلا غلبه.

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بعدوة الوادي القريبة من المدينة، وهم بعدوته أي: جانبه البعيد من المدينة، فقد جمعكم واد واحد.

﴿وَالرَّكْبُ﴾ الذي خرجتم لطلبه، وأراد الله غيره ﴿أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ مما يلي ساحل البحر.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم وإياهم على هذا الوصف، وبهذه الحال ﴿لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾ أي: لا بد من تقدم أو تأخر، أو اختيار منزل، أو غير ذلك، مما يعرض لكم، أو لهم، يصدفكم عن ميعادكم^(١).

﴿وَلَكِنْ﴾ الله جمعكم على هذه الحال ﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: مقدرًا في الأزل، لا بد من وقوعه.

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَتِهِ﴾ أي ليكون حجة وبينه للمعاند، فيختار الكفر على بصيرة وجزم بطلانه، فلا يبقى له عذر عند الله.

﴿وَيَجِيءُ مَنْ حَمَىٰ عَن بَيْنَتِهِ﴾ أي: يزداد المؤمن بصيرة و يقينًا، بما أرى الله الطائفتين من أدلة الحق وبراهينه، ما هو تذكرة لأولي الأبواب.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ سمع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات.

عليم بالظواهر، والضمائر، والسرائر، والغيب، والشهادة (٤٤، ٤٣) ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْنَكُمُ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَلَتَنْرَعُنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الضُّدُورِ﴾ وإذ يُرِيكُمُ اللَّهُ إِذِ التَّقِيَمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلَلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ وكان الله قد أرى رسوله المشركين في الرؤيا عددًا قليلًا، فبشر بذلك أصحابه، فاطمأنت قلوبهم، وثبتت أفئدتهم.

ولو أراكم الله إياهم كثيرًا فأخبرت بذلك أصحابك ﴿لَفَاشَلْتُمْ وَلَتَنْرَعُنَّ فِي الْأَمْرِ﴾ فمنكم من يرى الإقدام على قتالهم، ومنكم من لا يرى ذلك، فوقع من الاختلاف والتنازع ما يوجب الفشل.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ لطف^(٢) بكم ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الضُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من ثبات وجزع، وصدق وكذب، فعلم الله من قلوبكم ما صار سببًا لطفه وإحسانه بكم، وصدق الله رؤيا رسوله، فأرى الله المؤمنين عدوهم، قليلًا في أعينهم، ويقللكم - يا معشر المؤمنين - في أعينهم، فكل من الطائفتين ترى الأخرى قليلة، لتقدم كل منهما على الأخرى.

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

١٨٢

الْمِيعَادِ

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّفْيِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٤١) ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَتِهِ وَيَجِيءُ مَنْ حَمَىٰ عَن بَيْنَتِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢) ﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْنَكُمُ كَثِيرًا لَفَاشَلْتُمْ وَلَتَنْرَعُنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَدَاتِ الضُّدُورِ﴾ (٤٣) ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ إِذِ التَّقِيَمِ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقْلَلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ (٤٤) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبَنُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٤٥)

﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ من نصر المؤمنين، وخذلان الكافرين وقتل قادتهم، ورؤساء الضلال منهم، ولم يبق منهم أحد، له اسم يذكر، فيتيسر بعد ذلك انقيادهم إذا دعوا إلى الإسلام، فصار أيضًا لطفًا بالباقيين الذين آمنوا بالله عليهم بالإسلام.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: جميع أمور الخلائق ترجع إلى الله، فيميز الخبيث من الطيب، ويحكم في الخلائق بحكمه العادل الذي لا جور فيه، ولا ظلم.

(٤٥-٤٩) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبَنُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ○ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَسْرِعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِجَالُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ○ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِفَاقَةَ النَّاسِ وَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ○ وَإِذْ زَيْنٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَّا يَا نَاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي نَرِيَّ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا

(١) في ب: عن ميعادهم. (٢) في ب: أي لطف.

الْبَقَرَةُ

١٨٣

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتزَوَّعُوا فَنفَشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ
وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَآعِمَلُونُ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ
الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لِغَالِبٍ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ
النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفُتَاتَانَ نَكَصَ
عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ
إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينَهُمْ
وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾
وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمَلَتِكَهُ يَصْرُوتُونَ
وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ
بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْتَ اللَّهُ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾
كَذَّابٌ آلَ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾

لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ٥ إِذْ يَقُولُ
الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينَهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
ءَامِنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فِتْنَةً﴾ أي: طائفة من الكفار تقاتلكم.

﴿فَاتَّبِعُوا﴾ لقتالها، واستعملوا الصبر، وحبس النفس على
هذه الطاعة الكبيرة التي عاقبتها العز والنصر.

واستعينوا على ذلك بالإكثار من ذكر الله ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾
أي: تدركون ما تطلبون من الانتصار على أعدائكم، فالصبر
والثبات، والإكثار من ذكر الله من أكبر الأسباب للنصر.

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في استعمال ما أمرا به، والمشي
خلف ذلك في جميع الأحوال.

﴿وَلَا تَتَزَوَّعُوا﴾ تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقها،
﴿فَنَفَشَلُوا﴾ أي: تجبنوا ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ أي: تنحل
عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على
طاعة الله ورسوله.

﴿وَأَصْبِرُوا﴾ نفوسكم على طاعة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾
بالعون والنصر والتأييد، واخشعوا لربكم، واخضعوا له.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ
رِصْدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه،
وهذا الذي أبرزهم من ديارهم، لقصد الأشر والبطر في
الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم.

والمقصود الأعظم: أنهم خرجوا لصدوا عن سبيل الله من
أراد سلوكه، ﴿وَاللَّهُ يَمَآعِمَلُونُ مُحِيطٌ﴾ فلذلك أخبركم
بمقاصدهم، وحذركم أن تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبهم على
ذلك أشد العقوبة.

فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى، وإعلاء دين
الله، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه،
وجذب الناس إلى سبيل الله القويم، الموصل لجنات النعيم.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ حسنها في قلوبهم
وخدعهم، ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ﴾، فإنكم
في عَدَدٍ وَعُدَدٍ، وهيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه.

﴿وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾ من أن يأتيكم أحد، ممن تحشون
غائلتها، لأن إبليس قد تبدى لقريش في صورة سراقه بن مالك
ابن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة
كانت بينهم.

فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم، فاطمأنت نفوسهم،
وأثروا على حرد قادرين.

﴿فَلَمَّا تَرَآتِ الْفُتَاتَانَ﴾ المسلمون والكافرون، فرأى

الشیطان جبریل علیه السلام یزع الملائكة خاف خوفاً شديداً
﴿وَنَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾ أي: ولى مدبراً، ﴿وَقَالَ﴾ لمن خدعهم
وغرهم: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: أرى
الملائكة الذين لا يدان، لأحد بقتالهم.

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في
الدنيا ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ومن المحتمل أن يكون الشيطان قد سؤل لهم، ووسوس
في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأنه جار
لهم. فلما أوردتهم مواردهم، نكص عنهم، وتبرأ منهم، كما
قال تعالى: ﴿كَذَّبَ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرُوا فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ
إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ٥ فَكَانَ عَقِبَتُهُمَا
أَنْهَمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاؤُ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: شك
وشبهة، من ضعفاء الإيمان، للمؤمنين، حين أقدموا - مع
قلتهم - على قتال المشركين مع كثرتهم.

﴿غَرَّ هَوَاهُ دِينَهُمْ﴾ أي: أوردتهم الدين الذي هم عليه هذه
الموارد التي لا يدان لهم بها، ولا استطاعة لهم بها، يقولونه

من الطاعة إلى المعصية، فيكفروا نعمة الله، ويبدلوها كفرًا، فيسلبهم إياها، ويغيرها عليهم، كما غيروا ما بأنفسهم.

ولله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى (٢) عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به، ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته.

﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ حين جاءتهم ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُوبِينَ﴾ كل بحسب جرمه.

﴿وَأَعْرَفْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ﴾ من المهلكين المعذبين ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله، ولا أخدمهم بغير جرم اقترفوه، فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

(٥٧-٥٥) ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْصُوتُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرْوَةٍ وَهُمْ لَا يُنْفِقُونَ ﴿فَإِنَّمَا تَنفِقْتُمْ فِي الْحَرْبِ فَتَرَدُّ بِهِمْ مَن خَلَفْتُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث: الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه، ولا قول قائلوه، هم شر الدواب عند الله، فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها، لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم، فإذا هاء هؤلاء ومحققهم هو المتعين، لتلا يسري داوهم لغيرهم ولهذا قال:

﴿فَإِنَّمَا تَنفِقْتُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي: تجدنهم في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق.

﴿فَتَرَدُّ بِهِمْ مَن خَلَفْتُمْ﴾ أي: نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون [به] (٣) عبرة لمن بعدهم ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي: من خلفهم ﴿يَذْكُرُونَ﴾ صنيعهم، لتلا يصيبهم ما أصابهم، وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجرًا لمن عملها أن لا يعاودها.

ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر - أنه إذا أُعطي عهدًا لا يجوز خيانتته وعقوبته.

(١) في ب: المكذبة. (٢) كذا في ب، وفي أ: على. (٣) زيادة يقتضيتها السياق ليست في النسختين.

احتقارًا لهم، واستخفافًا لعقولهم، وهم - والله - الأخفاء عقولًا، الضعفاء أعلامًا.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام. فإن المؤمن المتوكل على الله، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان وثقًا بربه، مطمئن القلب لا فزعًا ولا جبانًا، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَيْرُ عَزِيزٍ﴾ لا يغالب قوته قوة ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما قضاه وأجره.

(٥٢-٥٠) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ يَظْلِمُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ يَذُوبِينَ﴾ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ يقول تعالى: ولو ترى الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكولون بقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق، وعظم كربهم، و﴿الْمَلَائِكَةُ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم متمتعة مستعصية على الخروج، لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم.

ولهذا قال: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: العذاب الشديد المحرق، ذلك العذاب حصل لكم غير ظلم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت، وهذه سنة الله في الأولين والآخرين، فإن دأب هؤلاء المكذبين أي: سنتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم.

﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم المكذبة ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ بالعقاب ﴿يَذُوبِينَ﴾ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ لا يعجزه أحد يريد أخذه ﴿مَنْ مَن دَابَّتْ إِلَّا هُوَ ءَأَخِذٌ بِأَصَابِعِهَا﴾.

(٥٤، ٥٣) ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُمْ مَغْرِبًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُعْرِضُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ يَذُوبِينَ﴾ ﴿وَأَعْرَفْنَا ءَالِ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ﴾ ﴿ظَالِمِينَ﴾. ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبين (١)، وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم، وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن ﴿اللَّهُ لَمْ يَكْ مُعِيرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّىٰ يُعْرِضُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من نعم الدين والدنيا، بل يبقياها، ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكرًا، ﴿حَتَّىٰ يُعْرِضُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾

سورة الأنفال

١٨٤

سورة الأنفال

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا تَعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْزِرُوا مَا يَأْتُسِيهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾ كَذَابٍ أَلْفِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَقْضُونَ عَنْهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٦١﴾ فَمَا تَتَّقُنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِنَّمَا تَخَافَنْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ ﴿٦٣﴾ وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا أَنْهُمْ لَا يُعْزِرُونَ ﴿٦٤﴾ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٦﴾

(٥٨) ﴿وَإِنَّمَا تَخَافَنْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٌ فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فخفت منهم خيانة بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة.

﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ عهدهم، أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك وبينهم ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد، حتى تخبرهم بذلك.

﴿إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، فلا بد من أمرين، يبرئكم من الخيانة.

وَدَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّهُ إِذَا وَجَدْتَ الْخِيَانَةَ الْمُحَقَّقَةَ^(١) مِنْهُمْ لَمْ يَحْتَجْ أَنْ يَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ، لِأَنَّهُ لَمْ يُخَفْ مِنْهُمْ، بَلْ عِلْمُ ذَلِكَ، وَلِعَدَمِ الْفَائِدَةِ وَلِقَوْلِهِ: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾، وَهَذَا قَدْ كَانَ مَعْلُومًا عِنْدَ الْجَمِيعِ غَدْرَهُمْ.

وَدَلَّ مَفْهُومُهَا أَيْضًا أَنَّهُ إِذَا لَمْ يُخَفْ مِنْهُمْ خِيَانَةً، بِأَنَّ لَمْ يَوْجَدْ مِنْهُمْ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، أَنَّهُ لَا يَجُوزُ نَبْذُ الْعَهْدِ إِلَيْهِمْ، بَلْ يَجِبُ الْوَفَاءُ إِلَى أَنْ تَمَّ مَدَّتُهُ.

(٥٩) ﴿وَلَا يُحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا أَنْهُمْ لَا يُعْزِرُونَ﴾ أي: لا يحسب الكافرون بربهم المكذوبون بآياته، أنهم سبقوا الله وفاتوه، فإنهم لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد.

وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم، وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جملتها ابتلاء عباده المؤمنين، وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه، ما يصلون به إلى المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغيها، فلهذا قال لعباده المؤمنين:

(٦٠) ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾.

أي: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم، وإبطال دينكم، ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أي: كل ما تقدر عليه من القوة العقلية والبدنية، وأنواع الأسلحة ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع، والرشاشات، والبنادق، والطائرات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع، والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلّم الرمي، والشجاعة والتدبير.

ولهذا قال النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرمي»، ومن ذلك الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾، وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته.

فإذا كان شيء موجود^(٢) أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلّم الصناعة وجب ذلك؛ لأن «ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب».

وقوله: ﴿تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ممن تعلمون أنهم أعداؤكم. ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ ممن سيقاثلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار.

(١) في ب: المحقة. (٢) في النسخين: إذا كان موجوداً شيئاً.

ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُؤْتِكُمْ إِلَيْكُمْ﴾ أجره يوم القيامة مضاعفاً أضعافاً كثيرة، حتى إن النفقة في سبيل الله تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ أي: لا تنقصون من أجرها وثوابها شيئاً.

(٦١-٦٤) ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَيَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ ○ وَاللَّفْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُمْ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ○ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا﴾ أي: الكفار المحاربون، مالوا لِلسَّلْمِ أي: الصلح وترك القتال.

﴿فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجمالاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف، فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق، والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه، والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم.

﴿فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجمالاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف، فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق، والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه، والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم.

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجمالاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف، فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق، والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه، والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم.

فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره فقال: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق [لك] من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك.

فد ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَيَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أعانك بمعونة سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك.

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا واثتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجمالاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف، فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق، والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه، والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم.

فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره فقال: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق [لك] من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك.

فد ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَيَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أعانك بمعونة سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك.

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا واثتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجبهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجمالاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتم وأمن بعضكم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف، فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق، والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه، والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم.

فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره فقال: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق [لك] من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك.

فد ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَيَأْمُرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أعانك بمعونة سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة بالمؤمنين بأن قيضهم لنصرك.

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا واثتلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله

وحكمته التخفيف، ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٦٧) بعونه وتأيبه.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين، يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحقيقتها الأمر، وأن الله أمر المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة، والعشرة من المائة، والمائة من الألف.

ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثليهم من الكفار، فإن زادوا على مثليهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران:

أحدهما: أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على بابه، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثليهم، [إذا غلب على ظنهم الضرر]^(٦٨)، كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاب عن الأول بأن قوله: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى آخرها، دليل على أن هذا أمر^(٦٩) لازم، وأمر محتتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد، فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر.

وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر نكتة بديعة، لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاب عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين، أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك، [فإذا فعلوها، صارت الأسباب الإيمانية، والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به، من النصر لهذا العدد القليل]^(٧٠).

(٦٧-٦٩) ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَرَّجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَوْلَا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝﴾ هذه معاتبه من الله لرسوله وللمؤمنين يوم «بدر» إذ أسروا المشركين، وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في

﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بِئْسَ قُلُوبُهُمْ وَلَا كُنَّ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾^(٦٦) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٨﴾ الْفَن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٩﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَرَّجَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٠﴾ لَوْلَا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧١﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٢﴾

هذه الحال، قتلهم واستئصالهم.

فقال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُتَخَرَّجَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ما ينبغي، ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويسعوا لإخماد دينه، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإبقائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم، وإبطال شرهم، فما دام لهم شر وضرورة، فالأوفق أن لا يؤسروا.

فإذا أئخنوا، وبطل شرهم، واضمحل أمرهم، فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم، وإبقائهم.

يقول تعالى: ﴿تُرِيدُونَ﴾ بأخذكم الفداء وإبقائهم. ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمرهم بما يوصل إلى ذلك.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: كامل العزة، لو شاء أن ينتصر من

الْمُؤْمِنِينَ

١٨٦

سُورَةُ الْأَنْفَالِ

يَتَّيِبُهَا لِلنَّاسِ أَنْ يَقُولُوا هِيَ حَرَامٌ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيُعْضِلَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَاعَظِلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٨٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٨٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٨٥﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٨٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٨٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٨٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٩٠﴾

الكفار من دون قتال لفضل لكنه حكيم، يتبلي بعضكم بعض. ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ به القضاء والقدر، أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم - أيها الأمة - العذاب ﴿لَسَكُمْ فِيهَا مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وفي الحديث: «لو نزل عذاب يوم بدر، ما نجا منه إلا عمر».

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن أحل لها الغنائم، ولم يحلها لأمة قبلها.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ في جميع أموركم، ولازموها شكرًا لنعم الله عليكم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئًا جميع المعاصي.

﴿رَحِيمٌ﴾ بكم، حيث أباح لكم الغنائم، وجعلها حلالًا طيبًا.

(٧٠، ٧١) ﴿يَتَّيِبُهَا لِلنَّاسِ أَنْ يَقُولُوا هِيَ حَرَامٌ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيُعْضِلَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم. وهذه نزلت في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ. فلما طلب منه الفداء، ادعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبرًا لخاطره، ومن كان على مثل حاله: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلنَّاسِ أَنْ يَقُولُوا هِيَ حَرَامٌ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ﴾ أي: من المال، بأن ييسر لكم من فضله خيرًا وأكثر^(١) مما أخذ منكم.

﴿وَيُعْضِلُكُمْ﴾ ذنوبكم، ويدخلكم الجنة ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقد أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له - بعد ذلك - من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطبق حملة، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حملة.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾ في السعي لحريك، ومنابدتك، ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَنْكَبُوا مِنْكُمْ﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم، وهم تحت قبضته.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشهرهم إن أرادوا خيانه.

(٧٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي

الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ يَمَاعَظِلُونَ بَصِيرٌ﴾ هذا عقد مولاة ومحبة، عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوهم في ديارهم وأموالهم وأنفسهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، لكامل إيمانهم وتمام اتصال بعضهم ببعض.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا﴾ فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم، في وقت شدة الحاجة إلى الرجال، فلما لم يهاجروا، لم يكن لهم من ولاية المؤمنين شيء.

لكنهم ﴿إِنْ أَسْتَضَرُّوكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي: لأجل قتال من قاتلهم لأجل دينهم ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ والقتال معهم، وأما من قاتلوهم لغير ذلك من المقاصد فليس عليكم نصرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي: عهد (١) في ب: كثيرًا. (٢) في ب: وقد تكفل.

المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله ﴿وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصابات، وأصحاب الفروض، فإن لم يكونوا، فأقرب قراباته من ذوي الأرحام، كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة، وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه وشرعه. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ومنه ما يعلمه من أحوالكم التي يجري من شرائعها الدينية عليكم ما يناسبها.

تم تفسير سورة الأنفال والله الحمد.

تفسير سورة براءة ويقال: سورة التوبة

وهي مدنية

(١، ٢) ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۚ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخَيِّرُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: هذه براءة من الله ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاهدين، أن لهم أربعة أشهر، يسبحون في الأرض على اختيارهم، آمنين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم ولا ميثاق.

وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر، أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر، بزيادة على أربعة أشهر، فإنه يتعين أن يتم له عهده، إذا لم يخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد.

ثم أئذ المعاهدين في مدة عهدهم أنهم وإن كانوا آمنين، فإنهم لن يعجزوا الله، ولن يفوتوه، وأنه من استمر منهم على شركه فإن الله لا بد أن يخزيه، فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام، إلا من عاند وأصر، ولم يبال بوعيد الله له.

(٣) ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ۚ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ۚ إِن تَسْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾ هذا ما وعد الله به المؤمنين، من نصر دينه، وإعلاء كلمته، وخذلان أعدائهم، من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومن معه من مكة، من بيت الله الحرام، وأجلوهم مما لهم التسلط عليه من أرض الحجاز.

نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة، وأذل

بترك القتال، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم عليهم؛ لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يعلم ما أتمت عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

(٧٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنَّ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين، أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء لبعض^(١)، فلا يواليه إلا كافر مثلهم.

وقوله: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: موالاتة المؤمنين، ومعاودة الكافرين، بأن واليتموهم كلهم أو عاديتموهم كلهم، أو واليتم الكافرين، وعاديتم المؤمنين.

﴿تَكُنَّ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار، كالجهاد، والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين، التي تقوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

(٧٤، ٧٥) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ الآيات السابقات في ذكر عقد الموالاتة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار.

وهذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ﴾ أي: المؤمنون من المهاجرين والأنصار ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ لأنهم صدقوا إيمانهم بما قاموا به من الهجرة والنصرة والموالاتة بعضهم لبعض، وجهادهم لأعدائهم من الكفار والمنافقين.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من الله، تمحى بها سيئاتهم، وتضمحل بها زلاتهم، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم.

وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقر به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم، وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، ممن اتبعهم بإحسان فأمن وهاجر وجاهد في سبيل الله ﴿فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم^(٢).

فهذه الموالاتة الإيمانية - وقد كانت في أول الإسلام - لها وقع كبير، وشأن عظيم، حتى إن النبي ﷺ آخى بين

(١) في ب: بعض. (٢) كذا في ب، وفي أ: له ما لكم وعليه ما عليكم.

سُورَةُ الْبُرُوءَةِ

بِرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾
 فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ عَيْرٌ مُعْجِزِي
 اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ
 إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
 وَرَسُولُهُ. فَإِنْ بُئْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا
 أَنَّكُمْ عَيْرٌ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
 ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ
 شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى
 مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ
 فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوا حُرْمَهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ
 وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾
 وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ
 كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلِغْهُ مَا مَنَعَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾

فهؤلاء ليسوا أهلاً لسكنائها، ولا يستحقون منها شيئاً، لأن الأرض أرض الله، وهم أعداؤه المنابذون له ولرسوله، المحاربة الذين يريدون أن يخلوا الأرض من دينه، وبأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: كل ثنية وموضع يمرّون عليه، وربطوا في جهادهم، وابدلوا غاية مجهودكم في ذلك، ولا تزالوا على هذا الأمر، حتى يتوبوا من شركهم.

ولهذا قال: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ من شركهم ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوها بحقوقها ﴿وَآتَوْا الزَّكَاةَ﴾ لمستحقها ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي: اتركوهم، وليكونوا مثلكم، لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم.

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر الشرك فما دونه للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة، ثم قبولها منهم.

وفي هذه الآية دليل على أن من امتنع من أداء الصلاة أو الزكاة، فإنه يقاتل حتى يؤديهما، كما استدل بذلك أبو بكر

المشركين، وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار. فأمر النبي ^(١) مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس، مسلمهم وكافرهم، من جميع جزيرة العرب، أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين، فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأينما وجدوا قتلوا، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة.

وحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأذن ببراءة - يوم النحر - ابن عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة، ورهبهم من الاستمرار على الشرك فقال: ﴿فَإِنْ بُئْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَيْرٌ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

أي: فاتتبه، بل أنتم في قبضته، قادر أن يسلط عليكم عبادة المؤمنين.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم منقطع في الدنيا بالقتل، والأسر، والجلاء، وفي الآخرة بالنار، وبس الفرار.

(٤) ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي هذه البراءة التامة المطلقة من جميع المشركين

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ واستمروا على عهدهم، ولم يجر منهم ما يوجب النقض، فلا نقصوكم شيئاً، ولا عاونوا عليكم أحداً، فهؤلاء أتموا لهم ^(٢) عهدهم إلى مدتهم، قلت أو كثرت، لأن الإسلام لا يأمر بالخيانة وإنما يأمر بالوفاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين أدوا ما أمروا به، واتقوا الشرك والخيانة، وغير ذلك من المعاصي.

(٥) ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوا حُرْمَهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ﴾ أي: التي حرم فيها قتال المشركين المعاهدين، وهي أشهر التيسير الأربعة، وتمام المدة لمن له مدة أكثر منها، فقد برئت منهم الذمة.

﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في أي مكان وزمان ﴿وَحُذِرُوا وَأَحْضُرُوا﴾ أي: ضيقوا عليهم، فلا تدعوهم يتوسعوا في بلاد الله وأرضه التي جعلها [الله] معبداً لعباده.

(١) كذا في ب، وفي أ: الله. (٢) في ب: إليهم.

الصديق رضي الله عنه .

(٦) ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْلُغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لما كان ما تقدم من قوله: ﴿فَإِذَا اسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ أمراً عاماً في جميع الأحوال، وفي كل الأشخاص منهم، ذكر تعالى أن المصلحة إذا اقتضت تقرب بعضهم جاز، بل وجب ذلك، فقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ أي: طلب منك أن تجيره، وتمنعه من الضرر، لأجل أن يسمع كلام الله، وينظر حالة الإسلام.

﴿فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ ثم إن أسلم فذاك، وإلا فأبلغه مأمنه، أي: المحل الذي يأمن فيه والسبب في ذلك أن الكفار قوم لا يعلمون، فربما كان استمرارهم على كفرهم لجهل منهم، إذا زال اختاروا عليه الإسلام، فلذلك أمر الله رسوله، وأمته أسوته في الأحكام، أن يجيروا من طلب أن يسمع كلام الله.

وفي هذا حجة صريحة لمذهب أهل السنة والجماعة، القائلين بأن القرآن كلام الله غير مخلوق، لأنه تعالى هو المتكلم به، وأضافه إلى نفسه إضافة الصفة إلى موصوفها، وبطلان مذهب المعتزلة، ومن أخذ بقولهم: إن القرآن مخلوق.

وكم من الأدلة الدالة على بطلان هذا القول، ليس هذا محل ذكرها.

(٧) ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْمُفْتِينِ﴾ هذا بيان للحكمة الموجبة لأن يتبرأ الله ورسوله من المشركين، فقال: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ هل قاموا بواجب الإيمان، أم تركوا رسول الله والمؤمنين من أديتهم؟ أما حاربوا الحق ونصروا الباطل؟

أما سعوا في الأرض فساداً؟ فيحق لهم أن يتبرأ الله منهم، وأن لا يكون لهم عهد عنده، ولا عند رسوله.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ من المشركين ﴿عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ فإن لهم في العهد وخصوصاً في هذا المكان الفاضل حرمة أوجب أن يراعوا فيها.

﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْمُفْتِينِ﴾ ولهذا قال:

(٨-١١) ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْمُفْتِينِ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيفُونَ ﴿٨﴾ أَسْرَرُوا بِعَيْتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا آيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُكُمْ وَأُولَئِكَ مَرَرُوا أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّفَهُمُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

﴿وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيفُونَ﴾ ○ ﴿أَسْرَرُوا بِعَيْتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ○ ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ ○ ﴿إِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

أي: ﴿كَيْفَ﴾ يكون للمشركين عند الله عهد وميثاق ﴿و﴾ الحال أنهم ﴿إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ بالقدرة والسلطة، لا يرحمكم، و ﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: لا ذمة ولا قرابة، ولا يخافون الله فيكم، بل يسومونكم سوء العذاب، فهذه حالكم معهم لو ظهروا.

ولا يغرنكم منهم ما يعاملونكم به وقت الخوف منكم، فإنهم ﴿يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ الميل والمحبة لكم، بل هم الأعداء حقاً، المبعضون لكم صدقاً ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِيفُونَ﴾ لا ديانة لهم، ولا مروءة.

﴿أَسْرَرُوا بِعَيْتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلاً﴾ أي: اختاروا الحظ العاجل الخسيس في الدنيا على الإيمان بالله ورسوله، والالتقاء بآيات الله .

﴿فَصَدَّوْاْ بِأَنفُسِهِمْ، وَصَدَّوْاْ غَيْرَهُمْ ﴿عَنْ سَبِيلِهِ﴾ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿لَا يَرْجِعُونَ فِي مَوِّمِينَ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أَي: لأجل عداوتهم للإيمان وأهله.

فالوصف الذي جعلهم^(١) يعادونكم لأجله ويغضونكم هو الإيمان، فذبوا عن دينكم، وانصروه واتخذوا من عاداه لكم عدوًّا، ومن نصره لكم وليًّا، واجعلوا الحكم يدور مع وجودًا وعدمًا، لا تجعلوا الولاية والعداوة طبيعية^(٢) تميلون بهما حيثما مال الهوى، وتتبعون فيهما النفس الأمارة بالسوء، ولهذا: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن شركهم، ورجعوا إلى الإيمان ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَنَزْنَاكُمْ فِي الْإِيمَانِ﴾ وتناسوا تلك العداوة إذ كانوا مشركين، لتكونوا عباد الله المخلصين، وبهذا يكون العبد عبدًا حقيقه.

لما بين من أحكامه العظيمة ما يبين، ووضع منها ما وضع، أحكامًا وحكمًا، وحكمًا، وحكمة قال: ﴿وَتَقْضَى الْآيَاتِ﴾ أَي: نوضحها ونميزها ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فالإيهام سياق الكلام، وبهم تعرف الآيات والأحكام، وبهم عرف دين الإسلام وشرائع الدين.

اللهم اجعلنا من القوم الذين يعلمون، ويعملون بما يعلمون، برحمتك وجودك، وكرمك [وإحسانك، يا رب العالمين].

(١٢-١٥) ﴿وَإِنْ كَثُرُوا أَتَيْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَتَنَّبَلُوا آيَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُرُوا ﴿أَلَا نُنَبِّئُكَ قَوْمًا تَكْفُرُوا أَتَيْنَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَوْكُمْ أُولَئِكَ مَرَّوْا أَتَيْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿فَتَلَوَّهُمْ يَعْذِيبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْنَ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يقول تعالى بعدما ذكر أن المعاهدين من المشركين إن استقاموا على عهدهم فاستقيموا لهم على الوفاء: ﴿وَإِنْ كَثُرُوا أَتَيْنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أَي: نقضوها وحلوا، فقاتلوكم أو أعانوا على قتالكم، أو نقضوكم، ﴿وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أَي: عابوه، وسخروا منه.

ويدخل في هذا جميع أنواع الطعن الموجهة إلى الدين، أو إلى القرآن.

﴿فَتَنَّبَلُوا آيَةَ الْكُفْرِ﴾ أَي: القادة فيه، الرؤساء الطاعنين في دين الرحمن، الناصرين لدين الشيطان، وخصهم بالذكر لعظم جنابيتهم، ولأن غيرهم تبع لهم. وليلد على أن من طعن في الدين وتصدى للرد عليه، فإنه من أئمة الكفر.

﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أَي: لا عهد ولا موثيق يلازمون على الوفاء بها، بل لا يزالون خائنين، ناكثين للعهد، لا يوثق منهم.

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ في قتالكم إياهم ﴿يَنْتَهُرُوا﴾ عن الطعن في دينكم، وربما دخلوا فيه، ثم حث على قتالهم، وهيج المؤمنين بذكر الأوصاف التي صدرت من هؤلاء الأعداء، والتي هم موصوفون بها، المقترضة لقتالهم فقال: ﴿أَلَا نُنَبِّئُكَ قَوْمًا تَكْفُرُوا أَتَيْنَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ الذي يجب احترامه وتوقيره وتعظيمه؟ وهم هموا أن يجلوه ويخرجه من وطنه، وسعوا في ذلك ما أمكنهم، ﴿وَهُمْ بَدَّوْكُمْ أُولَئِكَ مَرَّوْا﴾ حيث نقضوا العهد، وأعانوا عليكم، وذلك حيث عاونت^(٣) قريش - وهم معاهدون - بني بكر حلفاءهم، على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ، وقاتلوا معهم كما هو مذكور مبسوط في السيرة.

﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ في ترك قتالهم ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فإنه^(٤) أمركم بقتالهم، وأكد ذلك عليكم غاية التأكيد.

فإن كنتم مؤمنين فامثلوا لأمر الله، ولا تخشوهم فتركوا أمر الله ثم أمر بقتالهم وذكر ما يترتب على قتالهم من الفوائد وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم فقال: ﴿فَتَلَوَّهُمْ يَعْذِيبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ بالقتل ﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، ﴿وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ فإن في قلوبهم من الحق والغيب عليهم، ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والهَم، إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله، ساعين في إطفاء نور الله، وزوال الغيظ الذي في قلوبهم، وهذا يدل على محبة الله للمؤمنين، واعتناؤه بأحوالهم، حتى إنه جعل - من جملة المقاصد الشرعية - شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

ثم قال: ﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْنَ مَنْ يَشَاءُ﴾ من هؤلاء المحاربين، بأن يوقفهم للدخول في الإسلام، ويزينه في قلوبهم، ويكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه، ومن لا يصلح فيبقه في غيه وطغيانه.

(١) في النسختين: جعلوهم، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) في ب: طبيعية. (٣) في ب: أعانت. (٤) في ب: فالله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٨٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرَمُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ غِيظُ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَمِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾

أُمرها الصلاة والزكاة، وبخشية الله التي هي أصل كل خير، فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها. ﴿فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ و «عسى» من الله واجبة، وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا عنده خشية لله، فهذا ليس من عمار مساجد الله، ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه.

(١٩-٢٢) ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْمَكْرَمِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُسَبِّحُهُمْ رَبُّهُمْ يَرْحَمُونَهُمْ وَرَضُوا فِيهَا نَفْسَهُمْ مُقِيمًا ﴿٢١﴾ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ لما اختلف بعض المسلمين، أو بعض المسلمين وبعض المشركين، في تفضيل عمارة المسجد الحرام، بالبناء، والصلاة والعبادة فيه، وسقاية الحاج، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله، أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما، فقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ﴾ أي: سقيهم الماء من زمزم، كما هو المعروف إذا أطلق هذا

(١٦) ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين - بعدما أمرهم بالجهاد -: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا﴾ من دون ابتلاء وامتحان، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب.

﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي: علماً يظهر مما في القوة إلى الخارج، ليرتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ﴾ أي: ولياً من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء.

فشرح الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله، من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولائج والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين.

﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فينتليكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويجازيكم على أعمالكم خيرا وشرها.

(١٧، ١٨) ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ﴾ أي ما ينبغي ولا يليق ﴿لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ بالعبادة، والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر، بشهادة حالهم وفطرم، وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل.

فإذا كانوا ﴿شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ وعدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال، فكيف يزعمون أنهم عمار مساجد الله، والأصل منهم مفقود، والأعمال منهم باطلة؟! ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت وضلت ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾.

ثم ذكر من هم عمار مساجد الله فقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ الواجبة والمستحبة، بالقيام بالظاهر منها والباطن.

﴿وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ لأهلها ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة. فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي

الاسم، أنه المراد ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْمَقَرِّ كَمَا آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

فالجهد والإيمان بالله، أفضل من سقاية الحاج، وعمارة
المسجد الحرام، بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين،
وبه تقبل الأعمال وتركو الخصال.

وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، به يحفظ
الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام، وسقاية الحاج، فهي وإن
كانت أعمالاً صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها
من المصالح ما في الإيمان والجهاد، فلذلك قال: ﴿لَا يَسْتَوُونَ
عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم
الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق
بهم إلا الشر.

ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُهُمْ بِالنَّفَقَةِ فِي الْجِهَادِ، وَتَجْهِيزِ الْغَزَاةِ
﴿وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بالخروج بالنفس ﴿أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأَوْلَيْكَ هُرُ
الْقَارُونَ﴾ أي: لا يفوز بالمللوب، ولا ينجو من المرهوب،
إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ﴾ جوداً منه، وكرماً وبراً بهم، واعتناء
ومحبة لهم، ﴿يَرْحَمَهُمُ مِنْهُ﴾ أزال بها عنهم الشورور، وأوصل
إليهم [بها] كل خير، ﴿وَرِضْوَانٌ﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو
أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط
عليهم أبداً.

﴿وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا قِيَمَةٌ ثَمِيمَةٌ﴾ من كل ما اشتتهه الأنفس،
وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي
منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة، ما بين كل
درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة
واحدة منها لوسعتهم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً﴾ لا ينتقلون عنها، ولا ييغون عنها جوداً
﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لا تستغرب كثرته على فضل الله،
ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للنبي: كن
فيكون.

(٢٤، ٢٣) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ
أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّ
فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ○ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ
وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ كَسَدْتُمْ
مِنْهَا وَرِضْوَانٌ مِمَّنْ لَدُنَّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ
فَرِيقٌ يَأْتِي اللَّهَ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يقول

تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن
توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به.

و ﴿لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ﴾ الذين هم أقرب الناس
إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى، فلا تتخذوهم ﴿أَوْلِيَاءَ
إِنْ اسْتَحَبُّوا﴾ أي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة
﴿الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم تجرأوا
على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل
الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء موجب
لتقديم طاعتهم على طاعة الله، ومحبتهم على محبة الله
ورسوله.

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة الله
ورسوله يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع
الأشياء تابعة لهما فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ
الْأَمْهَاتُ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ في النسب والعشرة^(١)
﴿وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي: قراباتكم عموماً ﴿وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا﴾
أي: اكتسبتموها، وتعبتم في تحصيلها.

خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد
حرصاً عليها، ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كد.

﴿وَيَتَّخِذُوا تَحْسَبُونَ كَسَادَهَا﴾ أي: رخصها ونقصها، وهذا
شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض
التجارات، من الأثمان، والأواني، والأسلحة، والأمتعة،
والحبوب، والحروث، والأنعام، وغير ذلك.

﴿وَمَسْكِنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ من حسنها وزخرفتها، وموافقتها
لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ فأنتم فسقة ظلمة.

﴿فَرِيقٌ يَأْتِي اللَّهَ بِأَمْرٍ﴾ الذي لا مرد له.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله،
المقدمين على محبة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله
ورسوله، وعلى تقديمهما على محبة كل شيء، وعلى الوعيد
الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من المذكورات
أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله.

وعلامة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله
ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتِ لَهُمْ فِيهَا
 فَيْعِمُ مَقْعَهُ ﴿٢١﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ
 عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ
 وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ
 وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ
 كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ
 وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبُيُوتٌ تَبْنُونَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ
 تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ
 فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ
 كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ
 تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ
 بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْرِيينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ
 عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا
 وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾

يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل، والمفطعات،
 مما يشتها ويسكنها، ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله
 العظيمة على العباد.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة
 للمسلمين يوم حنين، يشنونهم ويشرونهم بالنصر.
 ﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء
 المسلمين على نساءهم وأولادهم وأموالهم.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم
 في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَنَ مِنْ يَشَاءُ﴾ فتاب الله على
 كثير ممن كانت الوقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين
 تائبين، فرد عليهم نساءهم، وأولادهم.

﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة،
 يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة
 والطاعة، والصفح عن جرائمهم، وقبول توباتهم، فلا يأسن
 أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما
 فعل.

ولكنه يُفَوِّتُ عليه محبوبًا لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم
 ما تهواه نفسه على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم، تارك
 لما يجب عليه.

(٢٧-٢٥) ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ
 إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ
 الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْرِيينَ﴾ ○ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى
 رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ○ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَنَ
 مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ○ يمتن تعالى على عباده المؤمنين
 بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواقع
 الحروب والهيحاء، حتى في يوم «حنين» الذي اشتدت عليهم
 فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به
 الأرض على رحبها وسعتها.

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا
 لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وبمن
 أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفًا،
 والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم،
 وقال بعضهم: لن نُغلب اليوم من قلة.

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة
 واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول
 الله ﷺ إلا نحو مئة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون
 المشركين، وجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو المشركين
 ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد
 المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع
 الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة! يا أهل سورة
 البقرة!

فلما سمعوا صوته عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع
 المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على
 معسكرهم، ونساءهم، وأموالهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ
 وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الوقعة بين مكة
 والطائف.

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لم
 تفدكم شيئًا، قليلاً ولا كثيراً ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ﴾
 بما أصابكم من الهم والغم، حين انهزمتكم ﴿بِمَا رَحَبَتْ﴾ أي
 على رحبها وسعتها، ﴿ثُمَّ وَلَيْتُمْ مُدْرِيينَ﴾ أي منهزمين.
 ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ والسكينة ما

الْحَرَامَاتُ

١٩١

الْحَرَامَاتُ

ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ شَاءَ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ
 نجسٌ فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا
 وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنْ
 شَاءَ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ فَنِلُوا الَّذِينَ
 لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ
 اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا
 الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ
 ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
 الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ
 يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَنَلَهُمُ
 اللَّهُ أَن يَتُوفَّكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ
 وَرَهَبَتْهُمْ أَزْكَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
 مَرْيَمَ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا ليعْبُدُوا اللَّهَ وَاحِدًا
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

الْحَرَامَاتُ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴿٢٧﴾ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ بَعْدَمَا كَانُوا هُمْ
 الملوك والرؤساء بالبيت، ثم صار بعد الفتح الحكم لرسول
 الله ﷺ والمؤمنين، مع إقامتهم في البيت، ومكة المكرمة، ثم
 نزلت هذه الآية.

ولما مات النبي ﷺ، أمر أن يجلووا من الحجاز، فلا يبقى
 فيها دينان، وكل هذا لأجل بُعد كل كافر عن المسجد الحرام،
 فيدخل في قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ
 هَذَا﴾.

﴿فَنِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا
 يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ
 أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ هذه
 الآية أمر بقتال الكفار من اليهود والنصارى من ﴿الَّذِينَ لَا
 يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ إيمانًا صحيحًا يصدقونه
 بأفعالهم وأعمالهم.

ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله، فلا يتبعون شرعه في

(١) الجملة غير واضحة في أ، وأقرب ما تكون أنها: (ولم يأمر أن يغسل
 مما أصاب).

(٢٨) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجسٌ فَلَا يَقْرَبُوا
 الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ
 يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنْ شَاءَ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يقول
 تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ﴾ بالله الذين
 عبدوا معه غيره ﴿نجس﴾ أي: خبثاء في عقائدهم وأعمالهم،
 وأني نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر،
 ولا تغني عنه شيئًا!؟

وأعمالهم ما بين محاربة لله، وصد عن سبيل الله، ونصر
 للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض لا في
 الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو سنة
 تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث
 النبي ﷺ ابن عمه عليًا، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ «براءة»،
 فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.
 وليس المراد هنا نجاسة البدن، فإن الكافر - كغيره -
 طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية
 ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب^(١) منها.

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل
 عنهم أنهم تقدروا منها، تقدرهم من النجاسات، وإنما المراد
 - كما تقدم - نجاستهم المعنوية بالشرك، فكما أن التوحيد
 والإيمان طهارة، فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها المسلمون ﴿عَيْلَةً﴾ أي: فقرًا
 وحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن
 تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية ﴿فَسَوْفَ
 يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فليس الرزق مقصورًا على باب
 واحد، ومحل واحد، بل لا ينغلق باب إلا وفتح غيره أبواب
 كثيرة، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصًا لمن ترك
 شيئًا لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين.

وقد أنجز الله وعده، فإن الله أغنى المسلمين من فضله،
 وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿إِنْ شَاءَ﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في
 الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا
 علقه الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا
 يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: علمه واسع، يعلم من
 يليق به الغنى، ومن لا يليق، ويضع الأشياء مواضعها،
 وينزلها منازلها.

وتدل الآية الكريمة، وهي قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ

الإسلام، أو أداء الجزية، أو السيف، من غير فرق بين كِتَابِي وغيره.

(٣٠-٣٣) ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمُ اللَّهُ أَنفُؤَهُم لِيُفَكُّوْنَ ۖ أَتَنَحَدُوا

أَحْبَارَهُمْ وَرَضُّهُمْ أَزْكَبَا مِن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمْرًاوًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَهًا أَن يَسْمَهُ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۗ هُوَ الَّذِي

أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ لما أمر تعالى بقتال أهل الكتاب، ذكر من

أقوالهم الخبيثة ما يهيج المؤمنين الذين يغارون لربهم ولدينه،

على قتالهم، والاجتهاد وبذل الوسع فيه فقال: ﴿وَقَالَتِ

الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ وهذه المقالة، وإن لم تكن مقالة لعامتهم

فقد قالها فرقة منهم، فبدل ذلك على أن في اليهود من الخبث

والشر ما أوصلهم إلى أن قالوا هذه المقالة التي تجرأوا فيها

على الله، وتقصوا عظمته وجلاله.

وقد قيل: إن سب ادعائهم في «عزير» أنه ابن الله، أنه لما

سلط الله الملوك^(٢) على بني إسرائيل، ومزقوهم كل ممزق،

وقتلوا حَمَلَةَ التوراة، وجدوا عزيرًا بعد ذلك حافظًا لها أو

لأكثرها، فأملأها عليهم من حفظه، واستنسخوها، فادعوا فيه

هذه الدعوى الشنيعة.

﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ابْنُ اللَّهِ﴾

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ القول الذي قالوه ﴿قَوْلُهُمْ

بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهانًا.

ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي قول

يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام.

ولهذا قال: ﴿يُضَاهُونَ﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا

﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: قول المشركين الذين

يقولون: «الملائكة بنات الله» تشابهت أقوالهم في البطلان.

﴿قَسَلْنَا لَهُمُ اللَّهُ أَنفُؤَهُم لِيُفَكُّوْنَ﴾ أي: كيف يصرفون عن

الحق الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين.

وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة، أن تنفق

على قول - يدل على بطلانه أدنى تفكير وتسليط للعقل عليه -

فإن لذلك سببًا وهو أنهم: ﴿أَتَنَحَدُوا أَحْبَارَهُمْ﴾ وهم

علماءهم ﴿وَرَضُّهُمْ﴾ أي: العُبد المتجردين للعبادة.

تحريم المحرمات، ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ أي: لا يدينون

بالدين الصحيح، وإن زعموا أنهم على دين، فإنه دين غير

الحق، لأنه ما بين دين مبدل، وهو الذي لم يشرعه الله أصلًا،

وإما دين منسوخ قد شرعه الله، ثم غيره بشرية محمد ﷺ،

فيبقى التمسك به بعد النسخ غير جائز.

فأمره بقتال هؤلاء، وحث على ذلك، لأنهم يدعون إلى ما

هم عليه، ويحصل الضرر الكثير منهم للناس، بسبب أنهم

أهل كتاب.

وغنى ذلك القتال ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ أي: المال الذي

يكون جزاء لترك المسلمين قتالهم، وإقامتهم آمنين على

أنفسهم وأموالهم بين أظهر المسلمين، يؤخذ منهم كل عام،

كل على حسب حاله، من غني وفقير ومتوسط، كما فعل ذلك

أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وغيره من أمراء المؤمنين.

وقوله: ﴿عَنْ يَدَيْ﴾ أي: حتى يبذلوها^(١) في حال ذلهم،

وعدم اقتدارهم، ويعطونها بأيديهم، فلا يرسلون بها خادمًا

ولا غيره، بل لا تقبل إلا من أيديهم، ﴿وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾.

فإذا كانوا بهذه الحال، وسألوا المسلمين أن يقرؤهم

بالجزية، وهم تحت أحكام المسلمين وقهرهم، وحال الأمن

من شرهم وفتنتهم، واستسلموا للشروط التي أجزاها عليهم

المسلمون، مما ينفي عزهم وتكبرهم، وتوجب ذلهم

وصغارهم، وجب على الإمام أو نائبه أن يعقدها لهم.

وإلا بأن لم يفوا، ولم يعطوا الجزية عن يد وهم

صاغرون، لم يجز إقرارهم بالجزية، بل يقاتلون حتى

يسلموا.

واستدل بهذه الآية الجمهور الذين يقولون: لا تؤخذ

الجزية إلا من أهل الكتاب، لأن الله لم يذكر أخذ الجزية إلا

منهم.

وأما غيرهم فلم يذكر إلا قتالهم حتى يسلموا، وألحق

بأهل الكتاب في أخذ الجزية، وإقرارهم في ديار المسلمين،

المجوس، فإن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، ثم

أخذها أمير المؤمنين عمر من الفرس المجوس.

وقيل: إن الجزية تؤخذ من سائر الكفار، من أهل الكتاب

وغيرهم؛ لأن هذه الآية نزلت بعد الفراغ من قتال العرب

المشركين، والشروع في قتال أهل الكتاب ونحوهم، فيكون

هذا القيد إخبارًا بالواقع، لا مفهوم له.

ويدل على هذا أن المجوس أخذت منهم الجزية، وليسوا

أهل كتاب، ولأنه قد تواتر عن المسلمين من الصحابة ومن

بعدهم أنهم يدعون من يقاتلونهم إلى إحدى ثلاث: إما

(١) كذا في ب، وفي أ: يبذلونها. (٢) في ب: أنه لما تسلط الملوك.

وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، والأعمال الصالحة، والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يضاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة، المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة.

فأرسله الله بالهدى ودين الحق ﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغوا له الغوائل، ومكروا مكروهم، فإن المكر السيء لا يضر إلا صاحبه، فوعد الله لا بد أن ينجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

(٣٥، ٣٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَيُكْرَمُونَ بِهَا شَبَابُهُمْ وَيُجْرَمُونَ بِهَا كَثْرَتُهُمْ لَأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأجبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم، فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هداهم وهدايتهم، وهؤلاء يأخذونها، ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتًا وظلمًا، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم.

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق، أن يعطوهم ليفتوهم، أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله. فهؤلاء الأجبار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصدتهم عن سبيل الله. ﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ أي: يمسكونها ﴿وَلَا يُفْقِدُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كأن يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا﴾ أي: على أموالهم، ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ فيحرق كل دينار أو درهم على حدته.

(١) في الأصل (ومن ضاهوه) ولعل الصواب ما أثبت.

﴿أَيُّهَا يٰٓمَن دُونِ اللَّهِ﴾ يُجَلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُونَهُ، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المناقبة لدين الرسل فيتعنونهم عليها.

وكانوا أيضًا يغفلون في مشايخهم وعبادهم، ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثانًا تعبد من دون الله، وتقصد بالذبائح والدعاء والاستغاثة.

﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ اتخذوه إلهًا من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على السنة رسله، فما ﴿أُورُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبدوا أمر الله، وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا.

﴿سُبْحَانَكَ﴾ وتعالى ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزهه وتقدس، وتعالى عظمته عن شركهم وافترائهم، فإنهم يتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العالی في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، مما ينافي كماله المقدس.

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أضلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه، وافتراء افتروه، أخبر أنهم ﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا ﴿أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾.

ونور الله: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماه الله نورًا، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والآديان الباطلة. فإنه علم بالحق، وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضده. فهؤلاء اليهود والنصارى ومن [ضاهاهم]^(١) من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلاً.

﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَن يُنِيرَ نُورُهُ﴾ لأنه النور الباهر الذي لا يمكن لجميع الخلق، لو اجتمعوا على إطفائه، أن يطفئوه، والذي أنزله، جميع نواصي العباد بيده. وقد تكفل بحفظه من كل من يريد بسوء، ولهذا قال: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَن يُنِيرَ نُورُهُ﴾ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ وسعوا ما أمكنهم في رده وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئًا.

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ الذي هو العلم النافع ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الذي هو العمل الصالح، فكان ما بعث الله به محمداً ﷺ مشتتملاً على بيان الحق من الباطل، في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٩٢

سُورَةُ الْبُرَاجِ

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَا
 أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ. وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي
 أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ
 كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ
 أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
 وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَبْفُقُونَهَا
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى
 عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ
 وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا كُنْتُمْ
 تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ
 شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ
 أَنفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا
 يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

نحو قوله تعالى: ﴿وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ
 كَافَّةً﴾ أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب
 العالمين.

ولا تخصوا أحدًا منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم
 كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك، قد اتخذوا أهل
 الإيمان أعداء لهم، لا يألونهم من الشر شيئًا.
 ويحتمل أن ﴿كَافَّةً﴾ حال من الواو فيكون معنى هذا:
 وقاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب التفير على
 جميع المؤمنين.

وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ
 الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَافَّةً﴾ الآية. ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾
 بعونه ونصره وتأييده. فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في
 سركم وعلنكم، والقيام بطاعته، خصوصًا عند قتال الكفار،
 فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في
 معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

(١) في ب: الحُرْم.

﴿تُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ في يوم القيامة
 كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة،
 ويقال لهم تويخًا ولومًا: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُقُوا مَا
 كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم،
 وعذبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله،
 وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعًا، بل لا
 يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في
 المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها
 للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجة في الواجبات، والنهي
 عن الشيء، أمر بضده.

(٣٦) وقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي
 كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ
 ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ
 كَافَّةً كَمَا يَقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يقول
 فيها: ﴿إِنَّ عَذَابَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: في قضائه وقدره ﴿اثْنَا
 عَشَرَ شَهْرًا﴾ وهي هذه الشهور المعروفة ﴿في كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي:
 في حكمه القدري ﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وأجرى ليلها
 ونهارها، وقدر أوقاتها فقسمها على هذه الشهور الاثني عشر
 [شهرًا].

﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ وهي: رجب الفرد، وذو القعدة،
 وذو الحجة، والمحرم، وسميت حُرْمًا، لزيادة حرمتها،
 وتحريم القتال فيها.

﴿فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى
 الاثني عشر شهرًا، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير
 للعباد، وأن تعمر بطاعته، ويشكر الله تعالى على مَنِّهِ
 بها، وتقيضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم
 فيها.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا
 نهى لهم عن الظلم فيها، خصوصًا مع النهي عن الظلم
 كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في
 غيرها.

ومن ذلك النهي عن القتال فيها، على قول من قال: إن
 القتال في الأشهر الحرام^(١) لم ينسخ تحريمه عملاً بالنصوص
 العامة في تحريم القتال فيها.

ومنهم من قال: إن تحريم القتال فيها منسوخ، أخذًا بعموم

الجزء العاشر

١٩٣

سورة البقرة

﴿٣٧﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلِّقُونَ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾ هُوَ مَا كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ يَسْتَعْمَلُونَهُ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ، وَكَانَ مِنْ جُمْلَةِ بَدْعِهِمُ الْبَاطِلَةَ، أَنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا - بأرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا. فإذا جعلوه مكانه أحلوا القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حرامًا، فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المحاذير.

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حرامًا، والحرام حلالًا.

ومنها: أنهم مَوَّهوا على الله بزعمهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبحها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلِّقُونَ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِّفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حرم الله.

﴿زَيْنَ لَهُمْ سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فأوها حسنة، بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: الذين انصغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا.

(٣٩، ٣٨) قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعَ الْأَخِرَةَ فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ إِلَّا أَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَنْصُرُوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ اعلم أن كثيرًا من هذه السورة الكريمة، نزلت في غزوة تبوك، إذ نذب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حارًا، والزاد قليلًا، والمعيشة عسرة، فحصل من بعض المسلمين من التثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي^(١) اليقين من المبادرة لأمر الله، والمسارعة إلى رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم. فـ ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم، وملتتم إلى الأرض، والدعة، والسكون فيها.

﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا، وسعى لها، ولم يبال بالآخرة، فكانه ما آمن بها.

﴿فَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أفليس قد جعل الله لكم عقولًا، تزنون بها الأمور، وأبها أحق بالإتيار؟ أفليست الدنيا - من أولها إلى آخرها - لا نسبة لها في الآخرة؟

فما مقدار عمر الإنسان القصير جدًا من الدنيا، حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته

(١) في ب: ودواعي.

وتأييده.

﴿فَأَسْرَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾ أي: الثبات والطمأنينة، والسكون المثبتة للفؤاد، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾.

﴿وَأَيَّدُوا يَحْضُوا لَمْ تَرَوْهَا﴾ وهي الملائكة الكرام الذين جعلهم الله حرساً له، ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا﴾ أي: الساقطة المخذولة، فإن الذين كفروا قد كانوا على حرد قادرين، في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذه، حقيقين عليه، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم، بل ولا أدركوا شيئاً منه.

ونصر الله رسوله بدفعه عنه، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع. فإن النصر على قسمين: نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم، بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا، ويستولوا على عدوهم، ويظهروا عليهم.

والثاني: نصر المستضعف الذين طمع فيه عدوه القادر، فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه، ويدافع عنه، ولعل هذا النصر أنفع النصرين، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع.

وقوله: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ أي كلماته القدرية وكلماته الدينية، هي العالية على كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾، ﴿وَأَنَّا جُنْدَنَا لَهْمُ النَّالِيُونَ﴾، فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان، بالحجج الواضحة، والآيات الباهرة والسلطان الناصر.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يغالبه مغالب، ولا يفوته هارب. ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وقد يؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية.

وفي هذه الآية الكريمة، فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة، وهي الفوز بهذه المنقبة الجليلة، والصحة الجميلة. وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافراً؛ لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها.

وفيها فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأفتدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته.

(١) في أ: (إلى غار حراء)، وفي ب: عدلت إلى: (غار ثور) وهو الصحيح، فيبدو - والله أعلم - أنه سبق فلم.

لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالأخطار.

فبأي رأي رأيتم إثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلد الأعين، وأنتم فيها خالدون؟! فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وفر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُد من أولي الألباب، ثم توعدهم على عدم النفيير فقال:

﴿إِلَّا تَنْفِرُوا بَعْدَ نِكْمٍ عَدَاكًا إِلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفيير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيه من المضار الشديدة. فإن المتخلف قد عصى الله تعالى وارتكب لنهييه، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما قَتَّ في أعضاد من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد، فقال: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا بَعْدَ نِكْمٍ عَدَاكًا إِلِيمًا وَيَسْتَبَدِلُ قَوْمًا بِغَيْرِكُمْ﴾ ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿وَلَا تَصْرُوهُ شَيْئًا﴾ فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه وراءكم ظهرياً.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه شيء أراد، ولا يغالبه أحد.

(٤٠) ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِينَ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدُوا بِحُضْرٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: إلا تنصروا رسوله محمداً ﷺ، فالله غني عنكم، لا تصرونه شيئاً، فقد نصره في أقل ما يكون وأذله ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة لما هموا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرصوا أشد الحرص، فألجأوه إلى أن يخرج.

﴿ثَانِينَ اثْنَيْنِ﴾ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي: لما هربا من مكة، لجأ إلى غار ثور^(١) في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال.

﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أبي بكر لما حزن واشتد قلقه، ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بعونه ونصره

الْمُؤْمِنِينَ ١٩٤

أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكُمْ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ الْبَالِغِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ ابْتِغَاءَهُمْ فَبَطَلَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ هَمُّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ٥ لَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ الْبَالِغِينَ ٥ إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ أي: سامحك وغفر لك ما أجزيت. ﴿لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ في التخلف ﴿حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾، بأن تمتحنهم، ليتبين لك الصادق من الكاذب، فتعذر من يستحق العذر ممن لا يستحق ذلك. ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم، لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان، يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم عليه، فصاروا عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْتَفِينَ﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه. ومن علمه بالمتقين، أنه أخبر، أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد. ﴿إِنَّمَا يَسْتَعِذُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: ليس لهم إيمان تام، ولا يقين صادق، فلذلك

وفيها أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين، مع أن الأولى - إذا نزل بالبعد - أن يسعى في ذهابه عنه، فإنه مضعف للقلب، موهن للعزيمة.

(٤١، ٤٢) ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٥ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكُمْ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين - مهيجًا لهم على النفير في سبيله - فقال: ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والحر والبرد، وفي جميع الأحوال.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ابدلوا جهدكم في ذلك، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس، وفي هذا دليل على أنه - كما يجب الجهاد في النفس - يجب الجهاد في المال، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: الجهاد في النفس والمال، خير لكم من التقاعد عن ذلك، لأن فيه رضا الله تعالى، والفوز بالدرجات العاليات عنده، والنصر لدين الله، والدخول في جملة جنده وحزبه.

﴿لَوْ كَانَ﴾ خروجهم لطلب العرض القريب، أي منفعة دنيوية، سهلة التناول ﴿وَ﴾ كان السفر ﴿سَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي: قريبًا سهلًا.

﴿لَاتَّبَعُوكُمْ﴾ لعدم المشقة الكثيرة، ﴿وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ﴾ أي: طالت عليهم المسافة، وصعب عليهم السفر، فلذلك تناقلوا عنك، وليس هذا من أمارات العبودية، بل العبد حقيقة هو المتعب لربه في كل حال، القائم بالعبادة السهلة والشاقة، فهذا العبد لله على كل حال.

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج، أن لهم عذرًا، وأنهم لا يستطيعون ذلك.

﴿يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في «غزوة تبوك» وأبدوا من الأعذار الكاذبة ما أبدوا، فغفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم، من غير أن يمتحنهم، فيتبين له الصادق من الكاذب، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى عذرهم فقال:

(٤٣-٤٥) ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ

الأنكار، وأعملوا الحيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقصروا في ذلك. ﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ فبطل كيدهم واضمحل باطلهم. فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنون بتخلفهم عنهم.

(٤٩) ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَكْفُرُ أَتَدْنُ لِي وَلَا تَقْتَتِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف، ويعتذر بعذر آخر عجيب فيقول: ﴿أَتَدْنُ لِي﴾ في التخلف ﴿وَلَا تَقْتَتِي﴾ في الخروج. فإني إذا خرجت، فرأيت نساء بني الأصفر، لا أصبر عنهن، كما قال ذلك «الجد بن قيس». ومقصوده - بقبحه الله - الرياء والنفاق، بأن مقصودي مقصود حسن، فإن في خروجي فتنة وتعرضاً للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفا عن الشر.

قال الله تعالى - مبيناً كذب هذا القول - : ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾.

فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده، [فإن] في التخلف مفسدة كبرى، وفتنة عظمى محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله، والتجرؤ على الإثم الكبير، والوزر العظيم. وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاك، ولا خلاص.

(٥١، ٥٠) ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسَبِّحْهُنَّ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِن قَبْلٍ وَكَانُوا فِيهَا مِن قَرِحُونَ﴾ قل لئن يُصِيبَنَّكُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى مبيناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبعوضون للدين صرفاً: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿سُبِّحْنَهُنَّ﴾ أي: تحزنهم وتغمهم ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ كإدالة العدو عليك ﴿يَقُولُوا﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك.

﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِن قَبْلٍ﴾ أي: قد حذرنا وعملنا بما ينبجنا من الوقوع في مثل هذه المصيبة.

﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَكَبَرُوهَا كِبَارًا﴾ فيفرحون بمصيبتك، ويعمد مشاركتهم إياك فيها.

قال تعالى - راداً عليهم في ذلك - : ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَّكُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: قدره وأجراه في اللوح المحفوظ.

﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي: متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره، وليس في أيدينا من الأمر شيء.

قلت رغبتهم في الخير، وجنبوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال. ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: لا يزالون في الشك والحيرة.

(٤٦-٤٨) ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ لَهُمْ قَاعِدُوا مَعَ الْمُقَدِّينَ ۚ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلْفَكُم بَيْنَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۚ لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَبِلُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ يقول تعالى مبيناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعدارهم التي اعتدروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع، إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج.

﴿وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿ثَبَّطَهُمْ﴾ قدراً وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعاتتهم، بل خذلهم وبططهم ﴿وَقِيلَ لَهُمْ قَاعِدُوا مَعَ الْمُقَدِّينَ﴾ من النساء والمعدورين.

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي: نقصاً ﴿وَلَأَوْضَعُوا خِلْفَكُم﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين ﴿بَيْنَكُمْ وَالْفِتْنَةَ﴾ أي: هم حريصون على فتنكم، وإلقاء العداوة بينكم. ﴿وَفِيكُمْ﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سَمْعُونُ لَهُمُ﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم. فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتبيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم؟

فلله أتم الحكمة حيث ثبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفاً من أن يداخلهم ما لا ينفعهم، بل يضرهم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم.

ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال: ﴿لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي: حين هاجرتهم إلى المدينة، بذلوا الجهد. ﴿وَقَبِلُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ أي: أداروا

سُورَةُ الْبُرَاجِ

١٩٥

الْبُرَاجِ

لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ
 جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿١٨﴾
 وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنُّ لِي وَلَا تَنْفِيئِي إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ
 سَقَطُوا وَإِ رِبِّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾
 ﴿٢٠﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ
 مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا
 وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ
 اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
 ﴿٢٢﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ
 نَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ
 أَوْ يَأْتِيَنَا فَرَبِّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ
 أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ
 إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
 إِلَّا وَهُمْ كَسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٢٥﴾

يُعَذِّبُهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٢٥﴾
 وَيَعْلَمُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِبِنِكْرٍ وَلَكِنَّمْ قَوْمٌ
 بَصُرَتْ ﴿٢٥﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَعْرَجًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ
 وَهُمْ يَجْحَدُونَ ﴿٢٥﴾ يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين
 ولا أولادهم، فإنه لا غبطة فيها. وأول بركاتها عليهم أن
 قدموها على مرضى ربهم، وعصوا الله لأجلها.
 ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ والمراد
 بالعذاب هنا، ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي
 الشديد في ذلك، وهم القلب فيها، وتعب البدن.
 فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم، لم يكن لها نسبة إليها،
 فهي - لما ألتهتم عن الله وذكره - صارت وبالاً عليهم، حتى
 في الدنيا. ومن وبالها العظيم الخطر، أن قلوبهم تتعلق بها،
 وإرادتهم لا تتعدها فتكون منتهى مطلوبهم، وغاية مرغوبهم،
 ولا يبقى في قلوبهم للأخرة نصيب، فيوجب ذلك أن ينتقلوا
 من الدنيا ﴿وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.
 فأى عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم،
 والحسرة الملازمة.

﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ وحده ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: يعتمدوا
 عليه في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، ويقفوا به في
 تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه. وأما من توكل
 على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل.

(٥٢) ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ
 نَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا
 فَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ أي: قل للمنافقين الذين
 يتربصون بكم الدوائر: أي شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا
 تربصون بنا إلا أمرًا فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسنين، إما
 الظفر بالأعداء والنصر عليهم، ونيل الثواب الأخرى
 والديوي. وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق،
 وأرفع المنازل عند الله.

وأما تربصنا بكم - يا معشر المنافقين - فنحن نتربص بكم
 أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، لا سبب لنا فيه، أو بأيدينا،
 بأن يسלטنا عليكم ففتلكم.

﴿فَرَبَّصُوا﴾ بنا الخير ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ بكم الشر.
 (٥٣، ٥٤) ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ
 كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا
 أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَىٰ
 وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٢٥﴾ يقول تعالى - مبينًا بطلان نفقات
 المنافقين، وذاكرًا السبب في ذلك -:

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَنْفِقُوا طَوْعًا﴾ من أنفسكم ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ على
 ذلك، بغير اختياركم.
 ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ شيء من أعمالكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا
 فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله. ثم بين صفة فسقهم
 وأعمالهم، فقال:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ
 وَرَسُولِهِ﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا
 إيمان لهم، ولا عمل صالح. حتى إن الصلاة التي هي أفضل
 أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالى، قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ
 الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَىٰ﴾ أي: متثاقلون، لا يكادون
 يفعلونها من ثقلها عليهم.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ من غير انشراح صدر
 ونبات نفس. ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه
 ينبغي للبعد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب
 إليها، ولا يتفق إلا وهو منشراح الصدر، ثابت القلب، يرجو
 ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.

(٥٥-٥٧) ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

الْحَيَاتِ

١٩٦

سُورَةُ الْبُرَاجِ

فَلَا تَعْبَجْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
 بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾
 وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ
 قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا
 أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ
 فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا
 هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
 وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ
 لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ
 وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ
 فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ
 الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ
 لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ
 ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

فيهم، وهم ثمانية أصناف:

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان: فالفقر أشد حاجة من المسكين، لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئاً، أو يجد بعض كفايته دون نصفها.

والمسكين: الذي يجد نصفها فأكثر، ولا يجد تمام كفايته، لأنه لو وجدها لكان غنياً، فيعطون من الزكاة، ما يزول به فقرهم ومسكنتهم.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل وشغل فيها، من حافظ لها، أو جاب لها من أهلها، أو راع، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عملاتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

والرابع: المؤلفة قلوبهم. والمؤلف قلبه: هو السيد المطاع في قومه، ممن يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى بعطيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها ممن لا يعطيها. فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَصْدَهُمْ فِي حَلْفِهِمْ هَذَا أَنَّهُمْ «قَوْمٌ يَفْرُقُونَ» أي: يخافون الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم، فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تبتروا منهم، فيتخطفهم الأعداء من كل جانب.

وأما حال قوي القلب، ثابت الجنان، فإنه يحمله ذلك على بيان حاله، حسنة كانت أو سيئة. ولكن المنافقين خلغ عليهم خلعة الجبن، وحلوا بحلية الكذب.

ثم ذكر شدة جبنهم فقال: «لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا» يلجأون إليه عندما تنزل بهم الشدائد. «أَوْ مَغْرَبًا» يدخلونها فيستقرون فيها «أَوْ مَدْخَلًا» أي: محلاً يدخلونه فيتحصنون فيه «لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ» أي: يسرعون ويهرعون، فليس لهم ملكة يقتدرون بها على الثبات.

(٥٩، ٥٨) «وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ» وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ» أي: ومن هؤلاء المنافقين، من يعيبك في قسمة الصدقات، وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعييبهم لقصد صحيح، ولا لرأي رجيح، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها.

«إِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ» وهذه حالة لا ينبغي للعبد أن يكون رضاء وغضبه، تابعاً لهوى نفسه الدنيوي ورضاه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعاً لمرضاة ربه، كما قال النبي ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

وقال هنا: «لَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» أي: أعطاهم من قليل وكثير. «وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ» أي: كافينا الله، فرضى بما قسمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: «سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ» أي: متضرعون في جلب منافعنا، ودفع مضارنا، لسلموا من النفاق ولهدوا إلى الإيمان والأحوال العالية.

ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال:

(٦٠) «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغُرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» يقول تعالى: «إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ» أي: الزكوات الواجبة، بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد، لا يخص بها أحد دون أحد. أي: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم، لأنه حصروا

الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مَن يُكَادِرُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَن لَّهُنَّ نَارُ جَهَنَّمَ خَلِيلًا
فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦١﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين
﴿الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ بالأقوال الرديئة، والعيب له ولدينه.
﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ﴾ أي: لا يبالون بما يقولون من الأذية
للنبي، ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك، جئنا نعتذر إليه،

فيقبل منا، لأنه أذن، أي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين
صالح وكاذب. وقصدهم - قبحهم الله - فيما بينهم، أنهم
غير مكترئين بذلك، ولا مهتمين به، لأنه إذا لم يبلغه فهذا
مطلوبهم، وإن بلغه اكتفوا بمجرد الاعتذار الباطل.

فأساءوا كل الإساءة من أوجه كثيرة، أعظمها أذية نبيهم
الذي جاء لهدايتهم، وإخراجهم من الشقاء والهلاك، إلى
الهدى والسعادة.

ومنها: عدم اهتمامهم أيضًا بذلك، وهو قدر زائد على
مجرد الأذية.

ومنها: قدهم في عقل النبي ﷺ، وعدم إدراكه وتفريقه
بين الصادق والكاذب، وهو أكمل الخلق عقلاً، وأتمهم
إدراكًا، وأثقفهم رأياً وبصيرة، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَدُّنُ
خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: يقبل من قال له خيراً وصدقاً. وأما
إعراضه وعدم تعنيفه لكثير من المنافقين المعتذرين بالأعذار
الكذب، فلسعة خلقه، وعدم اهتمامه بشأنهم^(٢)، وامتناله
لأمر الله في قوله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ
لِيُتْرَضُوا عَنْهُمْ فَاعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّمَا رَبُّنَا﴾.

وأما حقيقة ما في قلبه ورأيه، فقال عنه: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ
لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ الصادقين المصدقين، ويعلم الصادق من الكاذب،
وإن كان كثيراً يعرض عن الذين يعرف كذبهم وعدم صدقهم.

﴿وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا وَنُكَرًا﴾ فإنهم به يهتدون، وبأخلاقه
يقتدون.

وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة، بل
ردوها، فخرسوا دنياهم وآخرتهم. ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾
بالقول أو الفعل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة، ومن
العذاب الأليم أنه يتحتم قتل مؤذيه وشاتميه.

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ﴾ فيتراو مما صدر منهم من
الأذية وغيرها. فغايتهم أن ترضوا عليهم. ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَعْلَمُ أَنَّ يَرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ لأن المؤمن لا يقدم شيئاً
على رضا ربه. فدل هذا على انتفاء إيمانهم، حيث قدموا رضا
غير الله ورسوله.

(١) زيادة من هامش: ب. (٢) في النسختين: بشأنه.

أنفسهم من ساداتهم. فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم،
فيعانون على ذلك من الزكاة. وفك الرقبة المسلمة التي في
حسب الكفار داخل في هذا، بل أولى. ويدخل في هذا أنه
يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالاً، لدخوله في قوله: ﴿وَفِي
أَرْقَابٍ﴾.

السادس: الغارمون، وهم قسمان: أحدهما: الغارمون
لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر
وقتته، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهما، بما يلذ له لأحدهم أو
لهم كلهم. فجعل له نصيب من الزكاة، ليكون أنشط له وأقوى
لعزمه، فيعطى ولو كان غنياً. والثاني: من غرم لنفسه ثم
أعسر، فإنه يعطى ما يُؤَوِّي به دينه.

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم الغزاة المتطوعة
الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على
غزاهم، من ثمن سلاح، أو دابة، أو نفقة له ولعيله، ليتوفر
على الجهاد، ويطمئن قلبه.

وقال كثير من الفقهاء: إن نفرغ القادر على الكسب لطلب
العلم، أعطي من الزكاة، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل
الله.

وقالوا أيضًا: يجوز أن يعطى منها الفقير، لحج فرضه،
[وفيه نظر]^(١).

والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير
بلده. فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده. فهؤلاء الأصناف
الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه
﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾.

واعلم أن هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين:
أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه، كالفقير والمسكين
ونحوهما.

والثاني: من يعطى للحاجة إليه، وانتفاع الإسلام به.
فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات
الخاصة والعامّة للإسلام والمسلمين. فلو أعطى الأغنياء زكاة
أموالهم على الوجه الشرعي لم يبق فقير من المسلمين.
ولحصل من الأموال ما يسد الثغور، ويجاهد به الكفار،
وتحصل به جميع المصالح الدينية.

(٦١-٦٣) ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أذُنٌ قُلْ
أَدُّنُ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا
وَنُكَرًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ○ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ
لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ أَنَّ يَرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ○

وهذا محادة لله ومشاققة له، وقد توعد من حاده بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي (١): يكون في حد وشق مبعد عن الله ورسوله بأن تهاون بأوامر الله، وتجراً على محارمه.

﴿فَأَن تَلَمَّ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا خزي أشنع ولا أفظع منه، حيث فاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على عذاب الجحيم عياداً بالله من أحوالهم (٢).

(٦٤-٦٦) ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ نُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَزَهَرُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ ○ ولين سألتهم ليقولوا ﴿لَقَوْلِكَ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَكَلَّمُ قُلْ أَيْلَهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ○ لا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَن طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَدْتَ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ كانت هذه السورة الكريمة تسمى «الفاضحة» لأنها بينت أسرار المنافقين، وهتكت أسرارهم، فما زال الله يقول: ومنهم ومنهم، ويذكر أوصافهم، إلا أنه لم يعين أشخاصهم لفائدتين:

إحداهما: أن الله سَيِّئٌ، يحب الستر على عباده.

والثانية: أن الذم على من اتصف بذلك الوصف من المنافقين، الذين توجه إليهم الخطاب وغيرهم إلى يوم القيامة، فكان ذكر الوصف أعم وأنسب، حتى خافوا غاية الخوف.

قال الله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنلِكِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثَرَدٌ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا مَّنَعُونِي مَتَىٰ نَقُودُوا أَجْدَاؤًا وَقَتِلُوا نَفْسِيًّا﴾.

وقال هنا: ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ نُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: تخبرهم وتفضحهم، وتبين أسرارهم، حتى تكون علانية لعباده، ويكونوا عبرة للمعتبرين.

﴿قُلْ اسْتَزَهَرُوا﴾ أي: استمروا على ما أنتم عليه من الاستهزاء والسخرية. ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ وقد وفى تعالى بوعده، فأنزل هذه السورة التي بينتهم وفضحتهم، وهتكت أسرارهم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ عما قالوه من الطعن في المسلمين وفي دينهم، يقول طائفة منهم في غزوة تبوك: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء - يعنون النبي ﷺ وأصحابه - أرغب بطوناً [أو كذب أسناً]» (٣)، وأجبن عند اللقاء» ونحو ذلك.

ولما بلغهم أن النبي ﷺ قد علم بكلامهم، جاؤوا يعتذرون إليه ويقولون: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَكَلَّمُ﴾ أي نتكلم بكلام لا قصد لنا به، ولا قصدنا الطعن والعيب.

سُورَةُ الْبُرَاجِ
١٩٧
يَحْذَرُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحْسَنُ
أَنْ يَرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٦﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ
مَنْ يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَن تَلَمَّ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا
ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿١٧﴾ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ
أَنْ نُنزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَزَهَرُوا
إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿١٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ
لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلَعَبُ قُلْ أَيْلَهُ وَآيَاتِهِ
وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٩﴾ لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ
بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَن طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعَدْتَ طَائِفَةً
بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٢٠﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ
بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٢١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْكٰفِرَاتُ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ
فِيهَا هِيَ حٰسِبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٢٢﴾

قال الله تعالى - مبيناً عدم عذرهم وكذبهم في ذلك - : ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَيْلَهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ○ لا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ○ فإن الاستهزاء بالله ورسوله كفر مخرج عن الدين، لأن أصل الدين مبني على تعظيم الله، وتعظيم دينه ورسوله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل، ومنافض له أشد المناقضة.

ولهذا لما جاؤوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة، والرسول لا يزيدهم على قوله: ﴿أَيْلَهُ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ○ لا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿إِنْ نَعَفَ عَن طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم، ﴿نَعَدْتَ طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾ أي بسبب أنهم ﴿كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة، خصوصاً السريرة التي يمكر فيها بدينه، ويستهزئ به وبآياته ورسوله، فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشد العقوبة.

(١) في ب: بأن. (٢) في ب: حالهم. (٣) زيادة من هامش: ب.

وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقصه، أو استهزأ بالرسول، أو تنقصه، أنه كافر بالله العظيم، وأن التوبة مقبولة من كل ذنب، وإن كان عظيماً.

(٦٨، ٦٧) ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيحُهُمْ إِنَّتِ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ۝ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكٰفِرَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّهُمَّ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضاً، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم.

ثم ذكر وصف المنافقين العام الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير، فقال: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ وهو الكفر والفسوق والعصيان.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهو الإيمان، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب الحسنة ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الصدقة، وطرق الإحسان، فوصفهم بالبخل. ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ فلا يذكرونه إلا قليلاً ﴿فَنَسِيحُهُمْ﴾ من رحمته، فلا يوفقههم لخير، ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار، خالدين فيها مخلدين.

﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ حصر الفسق فيهم، لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكٰفِرَ نَارَ جَهَنَّمَ خٰلِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّهُمَّ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾ جمع المنافقين والكفار في النار، واللعنة والخلود في ذلك، لاجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعادة لله ورسوله، والكفر بآياته.

(٧٠، ٦٩) ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِحُلُقِبِهِمْ فَاستَمْتَعْتُمْ بِحُلُقِبِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِحُلُقِبِهِمْ وَخَضْتُمْ كَالَّذِينَ خَاضُوا أَوْلِيَّتِكُمْ حَاطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَوْلِيَّتِكُمْ هُمُ الْخٰسِرُونَ ۝ أَلَمْ يَأْتِيَهُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرٰهِيمَ وَأَصْحٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَطٰظِمُهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

يقول تعالى محذراً للمنافقين، أن يصيبهم ما أصاب من قبلهم من الأمم المكذبة ﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرٰهِيمَ

سُورَةُ الْبٰرَةِ

١٩٨

سُورَةُ الْبٰرَةِ

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِحُلُقِبِهِمْ فَاستَمْتَعْتُمْ بِحُلُقِبِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِحُلُقِبِهِمْ وَخَضْتُمْ كَالَّذِينَ خَاضُوا أَوْلِيَّتِكُمْ حَاطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَوْلِيَّتِكُمْ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ يَأْتِيَهُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرٰهِيمَ وَأَصْحٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَطٰظِمُهُمْ وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٦٩﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَيَطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَوْلِيَّتِكُمْ سِرْمَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧١﴾

وَأَصْحٰبِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ أي: قري قوم لوط.

فكلهم ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: بالحق الواضح الجلي، المبين لحقائق الأشياء، فكذبوا بها، فجرى عليهم ما قص الله علينا فاتم أعمالكم شبيهة بأعمالهم. استمتعتم بخلافكم أي: بنصيبتكم من الدنيا، فتناولتموه على وجه اللذة والشهوة، معرضين عن المراد منه، واستعتمت به على معاصي الله، ولم تعد همتكم وإرادتكم ما خولتكم من النعم، كما فعل الذين من قبلكم ﴿وَخَضْتُمْ كَالَّذِينَ خَاضُوا﴾ أي: وخضتم بالباطل والزور، وجادلتهم بالباطل لتدحضوا به الحق. فهذه أعمالهم وعلومهم، استمتع بالخلاق، وخوض بالباطل، فاستحقوا من العقوبة والإهلاك، ما استحق من قبلهم، من فعلوا كفعلهم.

وأما المؤمنون فهم وإن استمتعوا بنصيبتهم وما خولوا من الدنيا فإنه على وجه الاستعانة به على طاعة الله.

وأما علومهم فهي علوم الرسل، وهي الوصول إلى اليقين في جميع المطالب العالية، والمجادلة بالحق، لإدحاض الباطل.

عدن، أي: إقامة لا يظنون عنها، ولا يتحولون منها. ﴿وَرِضْوَتٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يحله على أهل الجنة ﴿أَكْبَرُ﴾ مما هم فيه من النعيم. فإن نعيمهم لم يطب إلا برؤية ربهم، ورضوانه عليهم، ولأنه الغاية التي أمها العابدون، والنهاية التي سعى نحوها المحبون، فرضا رب الأرض والسماوات أكبر من نعيم الجنات.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ حيث حصلوا على كل مطلوب، وانتفى عنهم كل محذور، وحسنت وطابت منهم جميع الأمور، فنسأل الله أن يجعلنا معهم بجوده.

(٧٤، ٧٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ ○ ﴿يَلْفُوفٌ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمًا يُنَالُونَ وَمَا نَعْمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبْنَهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ جَاهَدُوا الْكُفْرَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ أي: بالغ في جهادهم والغلظة عليهم حيث اقتضت الحال الغلظة عليهم.

وهذا الجهاد يدخل فيه الجهاد باليد، والجهاد بالحجة واللسان، فمن بارز منهم بالمحاربة فيجاهد باليد، واللسان، والسيف، والبيان.

ومن كان مدعياً للإسلام، بذمة أو عهد، فإنه يجاهد بالحجة والبرهان، ويبين له محاسن الإسلام، ومساوىء الشرك والكفر، فهذا ما لهم في الدنيا.

﴿وَ﴾ أما في الآخرة، ﴿فَمَا وَهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مقرهم الذي لا يخرجون منها ﴿وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾.

﴿يَلْفُوفٌ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي: إذا قالوا قولاً لا تقبل من قال منهم: «ليخرجن الأعز منها الأذل» والكلام الذي يتكلم به الواحد بعد الواحد، في الاستهزاء بالدين، وبالرسول.

فإذا بلغهم أن النبي ﷺ، قد بلغه شيء من ذلك، جاءوا إليه يحلفون بالله ما قالوا.

قال تعالى مكدباً لهم: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾. فإسلامهم السابق - وإن كان ظاهره أنه أخرجهم من دائرة الكفر - فكلامهم الأخير يتقضى إسلامهم، ويدخلهم بالكفر.

﴿وَهُمْ يَوْمًا يُنَالُونَ﴾ وذلك حين هموا بالفتك برسول الله

قوله: ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيث تجرأوا على معاصيه، وعصوا رسلهم، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

(٧٢، ٧١) ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْتِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ○ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لما ذكر أن المنافقين بعضهم أولياء بعض^(١)، ذكر أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، ووصفهم بضد ما وصف به المنافقين فقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ﴾ أي: ذكورهم وإناثهم ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في المحبة والموالاة، والانتماء والنصرة ﴿يَأْتِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو اسم جامع لكل ما عرف حسنه من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو: كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة. ﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي لا يزالون ملازمين لطاعة الله ورسوله على الدوام.

﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يدخلهم في رحمته، ويشملهم بإحسانه.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: قوي قاهر، ومع قوته فهو حكيم، يضع كل شيء موضعه اللائق به الذي يحمد على ما خلقه وأمر به.

ثم ذكر ما أعد الله لهم من الثواب فقال: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ جامعة لكل نعيم وفرح، خالية من كل أذى وترح، تجري من تحت قصورها ودورها، وأشجارها الأنهار الغزيرة، المروية للبياتين الأنيقة التي لا يعلم ما فيها من الخيرات والبركات إلا الله تعالى.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يبغون عنها جِوَالاً ﴿وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّتِ عَدْنٍ﴾ قد زخرت وحسنت وأعدت لعباد الله المتقين، قد طاب مرآها، وطاب منزلها ومقبلها، وجمعت من آلات المساكن العالية ما لا يتمنى فوقه المتمنون، حتى إن الله تعالى قد أعد لهم غرقاً في غاية الصفاء والحسن، يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها.

فهذه المساكن الأنيقة التي حقيق بأن تسكن إليها النفوس، وتترع إليها القلوب، وتشتاق لها الأرواح، لأنها في جنات

(١) في ب: من بعض.

﴿فَإِنَّ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ﴾ فقص الله عليه نبأهم، فأمر من يصددهم عن قصدهم.

﴿وَالْحَالِ أَنَّهُمْ﴾ مَا نَقَمُوا ﴿وَعَابُوا﴾ من رسول الله ﷺ ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بعد أن كانوا فقراء معوزين. وهذا من أعجب الأشياء، أن يستهينوا بمن كان سبباً لإخراجهم من الظلمات إلى النور، ومغنياً لهم بعد الفقر. وهل حقه عليهم إلا أن يعظموه ويؤمنوا به ويجلوه؟! فاجتمع الداعي الديني وداعي المروءة الإنسانية.

ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَكُمْ﴾ لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة.

﴿وَإِنْ يَتُوبُوا﴾ عن التوبة والانابة ﴿يَعِدُّهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم، والحزن على نصرة الله لدينه، وإعزاز نبيه، وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة في عذاب السعير.

﴿وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ لِيٍّ﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى، فتم أصناف الشر والخسران، والشقاء والحرمان.

(٧٥-٧٨) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْتَ ءَأْتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ

لِنُصَدِّقَ وَلِنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فَلَمَّا ءَأْتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ جَلَّوْا بِهِ. وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه ﴿لَيْتَ ءَأْتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الدنيا فبسطها لنا ووسعها ﴿لِنُصَدِّقَ وَلِنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فنصل الرحم، ونفري الضيف، ونعين على نواب الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

﴿فَلَمَّا ءَأْتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿جَلَّوْا بِهِ وَتَوَلَّوْا﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ أي: غير ملتفتين إلى الخير.

فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، عاقبهم ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ مستمرًا ﴿إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾.

فليحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني، ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفني بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد

سُورَةُ الْبُرَاجِ

١٩٩

سُورَةُ الْبُرَاجِ

يَتَّيْمًا الَّتِي جَاهَدَ الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَخْلَفَ عَلَيْهِمْ وَعَٰهَدَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٦﴾ يَخْلُفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ وَايْمَانًا لَمْ يَبَالُوا وَمَا نَفَعُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ. فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبُهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ لِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَيْتَ ءَأْتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لِنُصَدِّقَ وَلِنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا ءَأْتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ جَلَّوْا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

أخلف.

فهذا المنافق الذي وعد الله وعاهدته، لئن أعطاه الله من فضله، ليصدق وليكون من الصالحين، حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبُ﴾، وسيجازيهم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى، وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له: «ثعلبة»، جاء إلى النبي ﷺ وسأله أن يدعو الله له، أن يعطيه من فضله، وأنه إن أعطاه ليصدقن، ويصل الرحم، ويعين على النواب، فدعا له النبي ﷺ، فكان له غنم، فلم تزل تنامي حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعدها، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعدها، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة.

ففقده النبي ﷺ، فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية. فلما لم يعطهم، جاؤوا، فأخبروا بذلك

النبي ﷺ فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» ثلاثاً. فلما نزلت هذه الآية فيه وفي أمثاله، ذهب بها بعض أهله فبلغه إياها، فجاء بركاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها لأبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر إلى عمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان^(١).

(٧٩، ٨٠) ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ اسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۝ كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِإِلَهِهِمْ وَرَسُولِهِ﴾، والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: الذين صار الفسق لهم وصفاً، بحيث لا يختارون عليه سواه ولا يبغون به بدلاً، يأتهم الحق الواضح، فيردونه، فيعاقبهم الله تعالى، بأن لا يوفقهم له بعد ذلك.

(٨١-٨٣) ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَسْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْنَوْكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ يقول تعالى مبيناً تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاتهم بذلك، الدال على عدم الإيمان، واختيار الكفر على الإيمان.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف، فإن هذا تخلف محرّم، وزيادة رضا بفعل المعصية، وتبجح به.

﴿وَكَرِهُوا أَنْ يَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا - ولو لعذر - حزنوا على

(١) قصة ثعلبة هذه ذكرها كثير من المفسرين، وقد ضَعَفَهَا جِهَابُذَةُ أَهْلُ الْحَدِيثِ كَابِنِ حَزْمٍ، وَابِيهِقِي، وَالْقُرْطُبِيُّ، وَابِيهِمِي، وَالْعِرَاقِيُّ، وَابْنُ حَجْرٍ وَالسُّبُوْتِيُّ وَالْمَنَاوِيُّ وَغَيْرُهُمْ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ -، وَبِنَاوٍ أَنَّ فِي إِسْنَادِهَا عَلِيَّ بْنَ يَزِيدٍ، وَهُوَ ضَعِيفٌ، كَمَا أَنَّ مِنْ رَوَاتِهَا: مَعَانُ بْنُ رِفَاعَةَ، وَالْقَاسِمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَهُمَا ضَعِيفَانِ، وَذَكَرَ ابْنُ حَزْمٍ تَضَعِيفَهَا مِنْ جِهَةِ مَتْنِهَا أَيْضًا. يَنْظُرُ الْمُحَلِّي: (٢٠٨/١١)، وَالْإِصَابَةُ: تَرْجُمَةُ ثَعْلَبَةَ، وَمَجْمَعُ الزُّوَانِدِ (٣٢/٧)، وَالْجَامِعُ لِأَحْكَامِ الْقُرْآنِ (٢١٠/٨)، وَفِيضُ الْقَدِيرِ (٤/٢٥٧)، وَفَتْحُ الْبَارِي (٨/٣)، وَلِبَابِ النُّقُولِ لِلسُّبُوْتِيِّ (١٢١) وَتَخْرِيجُ الْإِحْيَاءِ لِلْعِرَاقِيِّ (٣٢٣٨/٣).

النبي ﷺ فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» ثلاثاً. فلما نزلت هذه الآية فيه وفي أمثاله، ذهب بها بعض أهله فبلغه إياها، فجاء بركاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها لأبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر إلى عمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان^(١).

(٧٩، ٨٠) ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ اسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِإِلَهِهِمْ وَرَسُولِهِ ۝ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ وهذا أيضاً من مخازي المنافقين، فكانوا - قبحهم الله - لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً، إلا قالوا وطعنوا بغياً وعدواناً. فلما حثَّ الله ورسوله على الصدقة، بادر المسلمون إلى ذلك، وبدلوا من أموالهم، كل على حسب حاله، منهم الكثير، ومنهم المقل، فيلمزون الكثير منهم، بأن قصده بنفقته الرياء والسمعة، وقالوا للمقل الفقير: إن الله غني عن صدقة هذا، فأنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ أي: يعيبون ويطعنون ﴿الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ فيقولون: مراءون، قصدهم الفخر والرياء.

﴿و﴾ يلمزون ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون: الله غني عن صدقاتهم ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾. فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير.

منها: تبعهم لأحوال المؤمنين، وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم، والله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفِتْنَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ومنها: طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم، كفر بالله تعالى، وبغض للدين.

ومنها: أن اللمز محرّم، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا، وأما اللمز في أمر الطاعة، فأقبح وأقبح.

ومنها: أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير، فإن الذي ينبغي [هو] إعانتة وتنشيطه على عمله، وهؤلاء قصدوا تشييطهم بما قالوا فيهم وعابوهم عليه.

ومنها: أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه مرء، غلط فاحش، وحكم على الغيب، ورجم بالظن، وأيُّ شر أكبر من هذا؟!.

ومنها: أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة: (الله غني عن صدقة هذا)، كلام مقصوده باطل، فإن الله غني عن صدقة

تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، لما في قلوبهم من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: المنافقون ﴿لَا نَفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ أي: قالوا: إن النفير مشقة علينا بسبب الحر، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة.

وحذروا من الحر الذي يقي منه الظلال، ويذهبه البكر^(١) والآصال، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره، وهو النار الحامية.

ولهذا قال: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ لما آثروا ما يفي على ما يبقی، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية، إلى المشقة الشديدة الدائمة.

قال الله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ أي: فليمتنعوا في هذه الدار المنقضية، ويفرحوا بلذاتها، ويلهوا بلعبها، فسيكون كثيرًا في عذاب أليم ﴿جَزَاءَ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والنفاق، وعدم الانقياد لأوامر ربهم.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر، ولم يحزنوا على تخلفهم. ﴿فَأَسْتَدْتُوكَ لِلخُرُوجِ﴾ لغير هذه الغزوة، إذا رأوا السهولة. ﴿تَقُلُّ﴾ لهم عقوبة ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ فسيغني الله عنكم.

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوْلَ مَرَّةٍ فَأَقْدَمُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ﴾ وهذا كما قال تعالى: ﴿وَتَقَلَّبَ أَلْبَابَهُمْ وَاصْطَبَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ﴾ فإن المثاقيل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة، لا يوفق له بعد ذلك، ويحال بينه وبينه.

وفيه أيضًا تعزير لهم، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من الممنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم، كان ذلك توبيخًا لهم، وعارًا عليهم ونكالًا أن يفعل أحد كفعلهم.

(٨٤) ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ من المنافقين ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ بعد الدفن لتدعو له، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعته منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعته.

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ ومن كان كافرًا ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعته الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصلح عليه.

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ يفعل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٥﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا نَفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨٦﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءَ يَمَا كَانُوا يُكْسِبُونَ ﴿٨٧﴾ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَدْتُوكَ لِلخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوْلَ مَرَّةٍ فَأَقْدَمُوا مَعَ الْخُلَفَاءِ ﴿٨٨﴾ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ ﴿٨٩﴾ وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْعَامٍ أَوْ بَالَةَ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ ﴿٩١﴾

ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين، يدل على أنه قد كان متقررًا في المؤمنين.

(٨٥) ﴿وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهنون بها.

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى يتنقلوا من الدنيا ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأندتهم عليها متحرقة.

(٨٧، ٨٦) ﴿وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْعَامٍ أَوْ بَالَةَ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنَكَ أُولُو الطُّولِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَمَحَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يقول

(١) في ب، عدلت الكلمة إلى البكور.

تعالى في بيان استمرار المنافقين على التناقل عن الطاعات،
وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾
يؤمرون فيها بالإيمان بالله، والجهاد في سبيل الله. ﴿اسْتَنْذَكَ
أَوْلُوا الظُّلْمَ مِنْهُمْ﴾ يعني: أولي الغنى والأموال الذين لا عذر
لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبينين، أفلا يشكرون الله
ويحمدونه، ويقومون بما أوجبه عليهم، وسهل عليهم أمره،
ولكن أبوا إلا التكاثر والاستئذان في القعود ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا
نَكُنْ مَعَ الْقَاعِيِّينَ﴾.

قال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ كيف رضوا
لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد، هل
معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا
تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟
فهم لا يفقهون مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه، لم يرضوا
لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

(٨٨، ٨٩) ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّتِكُمْ هُمْ الْخَيْرَاتُ وَأَوْلِيَّتِكُمْ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ﴾ يقول تعالى: إذا تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد،
فإنه سيغني عنهم، والله عباد وخواص من خلقه اختصهم
بفضله، يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿الرَّسُولُ﴾ محمد ﷺ
﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ غير متناقلين
ولا كسلين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿وَأَوْلِيَّتِكُمْ هُمْ
الْخَيْرَاتُ﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة ﴿وَأَوْلِيَّتِكُمْ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
الذين ظفروا بأعلى المطالب، وأكمل الرغائب.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فتباً لمن لم يرغب بما رغبوا فيه، وخسر دينه
ودنياه وأخراه، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَمِيرًا بِهِ أَوْ لَا
تُؤْمِنُونَ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَجِرُونَ لِالْأَدْقَانِ
سُجَّدًا﴾.

وقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِئَلَّا يَكْفُرُوا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا
بِكُفْرِيَّةٍ﴾.

(٩٠-٩٣) ﴿وَمَا الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ
الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا
يُفْقَهُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ
وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ
لَا أَحِجُّدُ مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ حَرْحًا
أَلَّا يَجِدُوا مَا يُفْقَهُونَ﴾. إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَسْتَأْذِنُونَكَ

الجزء العاشر

٢٠١

سورة البقرة

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهَمْ
لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ
جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّتِكُمْ هُمْ الْخَيْرَاتُ
وَأَوْلِيَّتِكُمْ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّتٍ تَجْرَى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ
الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا
اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ
﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ
لَا يَجِدُونَ مَا يُفْقَهُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ
مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾
وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِجُّدُ
مَا أَحْمَلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضٌ مِنَ الدَّمْعِ
حَرْحًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُفْقَهُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى
الَّذِينَ يَسْتَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا
مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهَمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ
لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾. أي: جاء الذين تهاونوا، وقصروا منهم في
الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، غير مباليين في
الاعتذار لجفائهم وعدم حياتهم، وإيتانهم بسبب ما معهم من
الإيمان الضعيف.

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، ففقدوا وتركوا
الاعتذار بالكلية، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿الْمُعَذَّرُونَ﴾ أي:
الذين لهم عذر، أتوا إلى الرسول ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن
يعذر من له عذر.

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في دعواهم بالإيمان،
المقتضي للخروج، وعدم عملهم بذلك، ثم توعدهم بقوله:
﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.
لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين، قسم معذور في
الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله:

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ فِي أَبْدَانِهِمْ وَأَبْصَارِهِمُ الَّذِينَ لَا قُوَّةَ
لَهُمْ عَلَى الْخُرُوجِ وَالْقِتَالِ﴾. ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ وهذا شامل

لجميع أنواع المرض الذي^(١) لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد، من عرج، وعمى، وحمى، وذات الجنب، والفالج، وغير ذلك.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُثُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ أي: لا يجدون زادا، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم. فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا الله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم، أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم - بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد - أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره، في [نفسه]^(٢)، أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن - وهو المسيء - كالمفرط، أن عليه الضمان.

﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ من مغفرته ورحمته، عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا آتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ فلم يصادفوا عندك شيئا ﴿فَلْتَكُنْ لَهُمْ مَعْتَدًا﴾ لا أحد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون ﴿فإنهم عاجزون، باذلون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والشقة، ما ذكره الله عنهم.

فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلى أصله، وهو أن من نوى الخير، واقترب بنيتة الجازمة سعي فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ يتوجه واللوم يتناول الذين^(٣) يستأذنون وهم أغنياء قادرين على الخروج لا عذر لهم، فهؤلاء ﴿رضوا﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿يَأْنِ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ كالنساء والأطفال ونحوهم.

﴿و﴾ إنما رضوا بهذه الحال، لأن الله طبع على قلوبهم

أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية ﴿فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عقوبة لهم على ما اقترفوا.

(٩٤-٩٦) ﴿يَعْتَدُونَ لَكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَدُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ

ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عَنَابِ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿لما ذكر تخلف المنافقين الأغنياء، وأنهم لا عذر لهم، أخبر أنهم ساء يعتدرون إيتكم إذا رجعتهم إليهم﴾ من غزاتكم.

﴿قُلْ لَهُمْ﴾ لَا تَعْتَدُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴿أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب.

﴿قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ وهو الصادق في قوله، فلم يبق للاعتذار فائدة، لأنهم يعتدرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق.

﴿وسرى الله عملكم ورسوله﴾ في الدنيا، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال فلا دلالة فيها على شيء من ذلك.

﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَىٰ عَنَابِ الْعَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو فضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

واعلم أن المسيء المذنب له ثلاث حالات: إما يقبل قوله وعذره ظاهرا وباطنا، ويعفى عنه، بحيث يبقى كأنه لم يذنب، [فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقررت أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة]^(٤)، وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم، وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية. وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أي: لا توبخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم. ﴿إِنَّهُمْ رَجِسٌ﴾ أي: إنهم قدر خبيثاء، ليسوا بأهل لأن يبالي بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيدا فيهم، ﴿و﴾ تكفيهم عقوبة جهنم ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي: ولهم أيضا هذا المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، بل يحبون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئا.

(١) في النسختين: التي. (٢) زيادة من هامش: ب. (٣) في ب: واللوم يتأكد على الذين. (٤) ما بين المعقوفين موجود في النسختين، مشطوب في ب بخط مغاير، وقد حذف من المطبوع، والسياق يحتاج إلى تأمل - والله أعلم -.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٢

سورة البقرة

يَعْتَذِرُونَ لِيَاكُمُ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ وَسِيرَى
 اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ
 وَالشَّهَادَةِ فَيُنْشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ
 بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
 عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَا وَهُمْ بِجَهَنَّمَ جَزَاءً يَمَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ
 تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
 ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا
 حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمَنْ
 الْأَعْرَابُ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَابِرَ
 عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمَنْ
 الْأَعْرَابُ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ
 مَا يُنْفِقُ قُرْبَانًا غَيْرَ تَرْبِطِ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ
 لَهُمْ سَيَذِخَبُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

﴿فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾
 أي: فلا ينبغي لكم - أيها المؤمنون - أن ترضوا عن من لم
 يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغيظه.
 وتأمل كيف قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾
 ولم يقل: «فإن الله لا يرضى عنهم» ليدل ذلك على أن باب
 التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله يتوب
 عليهم ويرضى عنهم.
 وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عليهم، لوجود
 المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضيه الله لهم من
 الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك والنفاق
 والمعاصي.

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد
 من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعداء
 في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم،
 وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم
 فلا حياء ولا كرامة لهم.
 وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم
 عن الأمور الردية والرجس.

وفي هذه الآيات إثبات الكلام لله تعالى في قوله: ﴿قَدْ نَبَأْنَا
 اللَّهُ مِنْ أَنْبَارِكُمْ﴾. وإثبات الأفعال الاختيارية لله، الواقعة
 بمشيئته [تعالى] وقدرته في هذا، وفي قوله: ﴿وسيرى الله
 عملكم ورسوله﴾ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه. وفيها إثبات
 الرضا لله عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين.
 (٩٧-٩٩) ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا
 حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ ○ وَمَنْ
 يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَابِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ
 سَمِيعٌ عَلِيمٌ ○ وَمَنْ الْأَعْرَابُ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
 وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَانًا غَيْرَ تَرْبِطِ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ
 لَهُمْ سَيَذِخَبُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول تعالى:
 ﴿الْأَعْرَابُ﴾ وهم سكان البادية والبراري ﴿أَشَدُّ كُفْرًا
 وَنِفَاقًا﴾ من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب
 كثيرة:

منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية، والأعمال
 والأحكام، فهم آخري ﴿وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ
 رَسُولِهِ﴾ من أصول الإيمان، وأحكام الأوامر والنواهي،
 بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله
 على رسوله، فيحدث لهم - بسبب هذا العلم - تصورات
 حسنة، وإرادات للخير الذي يعلمون ما لا يكون في البادية.

وفيهم من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في
 البادية. ويجالسون أهل الإيمان، ويخالطونهم أكثر من أهل
 البادية. فلذلك كانوا آخري للخير من أهل البادية، وإن كان
 في البادية والحاضرة كفار ومنافقون، ففي البادية أشد وأعظم
 مما في الحاضرة. ومن ذلك أن الأعراب أحرص على
 الأموال، وأشح فيها.

فمنهم: ﴿مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ﴾ من الزكاة والنفقة في سبيل الله
 وغير ذلك، ﴿مَغْرَمًا﴾ أي: يراها خسارة ونقصا، لا يحسب
 فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرها.
 ﴿ويترصد بكم الدوابر﴾ أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم
 لهم، أنهم يودون ويتنظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع
 الزمان، وهذا سينعكس عليهم، فعليهم دائرة السوء.

وأما المؤمنون فلهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم
 العقبي الحسنة، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم نيات العباد، وما
 صدرت عنه الأعمال من إخلاص وغيره.

وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فيسلم بذلك من الكفر والنفاق، ويعمل

بمقتضى الإيمان.

﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: يحتسب نفقته، ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه ﴿و﴾ يجعلها وسيلة لـ ﴿صَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ أي: دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالى مبيهاً لنفع صلوات الرسول: ﴿أَلَا إِنَّا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ تبريهم إلى الله، وتنمي أموالهم، وتحل فيها البركة.

﴿سَيُجْزِيهِمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ في جملة عباد الصالحين إنه ﴿عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عباده برحمته التي وسعت كل شيء، ويخص عباده المؤمنين برحمة يوفقههم فيها إلى الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع الثواب.

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم الممدوح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تعريضهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص، ويغلظ ويخف بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر ممن يعرفه، لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفرًا ونفاقًا، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان والإسلام والإحسان، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والزنا، والخمر، والربا، ونحو ذلك، فإن في معرفتها يتمكن من فعلها إن كانت مأمورًا بها^(١)، أو تركها إن كانت محظورة، ومن الأمر بها أو النهي عنها.

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشرح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنمًا، ولا تكون مغرمًا.

(١٠٠) ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة، وبدروها إلى الإيمان والهجرة، والجهاد، وإقامة دين الله.

﴿مِنَ الْمُهَاجِرِينَ﴾، ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَصْرُونَ اللَّهُ رِسُولَهُ أَوْلِيَّكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

﴿و﴾ من ﴿الْأَنْصَارِ﴾ ﴿الَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِثُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء هم الذين سلموا من الدم، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله.

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ﴿وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ الجارية التي تساق إلى سقي الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ لا ييغون عنها حولًا، ولا يطلبون منها بدلًا، لأنهم مهما تمنوه أدركوه، ومهما أرادوه وجدوه.

﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور.

(١٠١) ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَّفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ تَحْنُ تَعْلَمُهُمْ سَعَدَ بِهِمْ مَّرَاتٍ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُتَّفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ أيضًا منافقون ﴿مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ﴾ أي: تمرنوا عليه، واستمروا وازدادوا فيه طغيانًا.

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة.

﴿تَحْنُ تَعْلَمُهُمْ سَعَدَ بِهِمْ مَّرَاتٍ﴾ يحتمل أن التثنية على بابها، وأن عذابهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة.

ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن^(٢)، والكراهة لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبئس القرار.

ويحتمل أن المراد سغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم ونكرهه.

(١٠٢، ١٠٣) ﴿وَالْآخِرُونَ الْأَخِرُونَ يَذُوبُهُمْ خَطَرًا عَمَلًا صَالِحًا وَآخِرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيتهم بها وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم والله سميع عليم﴾ يقول تعالى: ﴿وَالْآخِرُونَ﴾ ممن بالمدينة ومن حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلامية، ﴿أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها.

(١) في ب: إن كانت مأمورة. (٢) في ب: والغم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٣

سُورَةُ الْبُرَاةِ

وَالسَّافِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَجْرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ
 اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ
 لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ
 مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ
 نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنَعْدُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَى عَذَابِ
 عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَأَخْرُوجُ أَعْرَابًا يَدْخُلُونَهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا
 وَأَخْرَسَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾
 خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ
 إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَتَعْلَمُوا
 أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ
 اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرَّيَ اللَّهُ عَمَلِكُمْ
 وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 فَيُنشِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَأَخْرُوجُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ
 اللَّهِ إِمَّا يَبْعُدُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال تنمي
 ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء، بأداء ما
 أوجب الله فيها من الزكاة.

وما عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمي، كالحبوب
 والثمار والماشية المتخذة للنماء، والدر، والنسل، فإنه تجب
 فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها، لأنها إذا كانت للقنية، لم
 تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة مالا
 يتمول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية
 بالقنية ونحوها.

وفيها: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج
 زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة
 والتطهير متوقف على إخراجها.

وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه، لمن أدى
 زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهرا، بحيث يسمعه
 المتصدق فيسكن إليه.

(١) في ب: دالة.

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ ولا يكون العمل صالحا،
 إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن
 الكفر والشرك الذي هو شرط لكل عمل صالح. فهؤلاء
 خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجرد على
 بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع
 الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهؤلاء ﴿عَنِ اللَّهِ
 أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ وتوبته على عبده نوعان:

الأول: التوفيق للتوبة. والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم.
 ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة،
 اللتان لا يخلو مخلوق منهما. بل لا بقاء للعالم العلوي
 والسفلي إلا بهما، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على
 ظهرها من دابة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ
 أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

ومن مغفرته: أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا
 أعمارهم بالأعمال السيئة، إذا تابوا إليه وأنابوا، ولو قبيل
 موتهم بأقل القليل، فإنه يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم،
 فهذه الآية دلت^(١) على أن المخلط المعترف النادم، الذي لم
 يتب توبة نصوحا، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى
 السلامة أقرب.

وأما المخلط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل
 لا يزال مصرا على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف.

قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه، أمرا له بما يطهر
 المؤمنين، ويتمم إيمانهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾ وهي الزكاة
 المفروضة، ﴿تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ أي: تطهرهم من الذنوب
 والأخلاق الرذيلة.

﴿وَتُزَكِّيهِمْ﴾ أي: تنميههم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة،
 وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والآخروي،
 وتنمي أموالهم.

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عموما،
 وخصوصا عندما يدعون إليك زكاة أموالهم.

﴿إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار
 لهم، ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لدعائك، سمع إجابة وقبول.

﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله،
 وعلى قدر نيته. فكان النبي ﷺ يمثل لأمر الله، ويأمرهم
 بالصدقة، ويبعث عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقته، دعا
 له وبرك.

ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة في جميع

وحكمته أن يخذلهم ولا يوفهم للتوبة، فعل ذلك .

(١٠٧-١١٠) ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَّكًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا

بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ

إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ لَا تَقْعُ فِيهِ أَبَدًا

لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ رَبِّهِ رِجَالٌ

يُحْسِنُونَ أَنْ يَطْهَرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ۝ أَمَعَنْ أَسْسَكَ

بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى

سَفَا حَرْبٍ هَارٍ فَاتَّهَرَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الظَّالِمِينَ ۝ لَا يَرَالُ بِنْتِنُهُمُ الَّذِي بَوَّأَ رِبِّيَ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ

تَقَطَّ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ كان أناس من المنافقين من

أهل قباء، اتخذوا مسجدًا إلى جنب مسجد قباء، يريدون به

المضارة والمشاققة بين المؤمنين، ويعدون له لمن يرجونه من

المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصنًا عند الاحتياج إليه،

فبين تعالى خزيبهم، وأظهر سرهم فقال:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضُرَّكًا﴾ أي: مضارة للمؤمنين

ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه ﴿وَكُفْرًا﴾ أي: قصدهم فيه

الكفر، إذا قصد غيرهم الإيمان .

﴿وتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليتشعبوا ويتفرقوا

ويختلفوا، ﴿وَإِرْصَادًا﴾ أي: إعدادًا ﴿لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

مِنْ قَبْلُ﴾ أي: إعاونة للمحاربين لله ورسوله الذين تقدم

حربهم، واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب،

الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى

المدينة، كفر به، وكان متعبدًا في الجاهلية، فذهب إلى

المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ .

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قيصر، بزعمه أنه

ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد ومائلة،

هو والمنافقون . فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل

الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه، ويحرقه، فهدم

وحرق، وصار بعد ذلك مزيلة .

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم الفاسدة في ذلك

المسجد ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا﴾ في بنائنا إياه ﴿إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي:

الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير .

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ شهادة الله عليهم أصدق من

حلفهم .

﴿لَا تَقْعُ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي

بني ضرارًا أبدًا، فالله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه .

ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن

بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة،

وسكون لقلبه .

وأنه ينبغي تشييط من أنفق نفقة وعمل عملاً صالحًا بالدعاء

له والثناء، ونحو ذلك .

(١٠٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ

الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: أما علموا سعة

رحمة الله، وعموم كرمه وأنه ﴿يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ التائبين

من أي ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب، أعظم

فرح يقدر .

﴿وَأَخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ منهم، أي يقبلها ويأخذها بيمينه،

فيربها لأحدهم كما يربي الرجل فلوه، حتى تكن التمرة

الواحدة كالجبل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك .

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة على التائبين، فمن

تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه [المعصية] ^(١) مرارًا . ولا

يمل الله من التوبة على عباده، حتى يملوا هم، ويأبوا إلا

النفار والشرود عن بابه، وموالاتهم عدوهم .

﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين

يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله .

(١٠٥) ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ

وَسَرُّدُونَ إِلَىٰ عَلِيِّ النَّبِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْتَشَرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يقول

تعالى: ﴿وَقُلْ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿أَعْمَلُوا﴾ ما ترون من

الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك

سيخفي .

﴿فَسِرِّي اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا بد أن يتبين

عملكم ويتضح، ﴿وَسَرُّدُونَ إِلَىٰ عَلِيِّ النَّبِيِّ وَالشَّهَادَةُ فَيُنْتَشَرُ بِمَا

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر . ففي هذا التهديد والوعيد الشديد

على من استمر على باطله وطغيانه، وغيه وعصيانه .

ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن

الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على

أعمالكم، ولو كانت باطنة .

(١٠٦) ﴿وَالْآخِرُونَ مَرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: ﴿وَالْآخِرُونَ﴾ من المخلفين مؤخرون

﴿لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ففي هذا، التخويف

الشديد للمخلفين، والحث لهم على التوبة والندم .

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال العباد ونياتهم ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع

الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن

يغفر لهم ويتوب عليهم، غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت

﴿لَمَسْجِدَ أُسَسِّ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ ظهر فيه الإسلام في «قباة»، وهو مسجد «قباة»، أسس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائره دينه، وكان قديمًا في هذا، عريقًا فيه، فهذا المسجد الفاضل ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ وتتعبد، وتذكر الله تعالى فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنَ الذُّنُوبِ، وَيَتَطَهَّرُوا مِنَ الْأَوْسَاحِ، وَالنَّجَاسَاتِ، وَالْأَحْدَاثِ.

ومن المعلوم أن من أحب شيئًا لا بد أن يسعى له ويجتهد فيما يحب، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث. ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، وممن كانوا يتحززون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه من الشرك، والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

ثم فاضل بين المساجد، بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال: ﴿أَفَمَنْ أُسَسِّ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ﴾ أي: على نية صالحة، وإخلاص ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بأن كان موافقًا لأمره، فجمع في عمله بين الإخلاص والمتابعة، ﴿خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسَسِّ بُيُوتَهُ عَلَى شِقَا﴾ أي: على طرف ﴿جُرْفٍ هَارٍ﴾ أي: بال، قد تداعى للانهدام، ﴿فَأَتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ لما فيه مصالح دينهم ودنياهم.

﴿لَا يَزَالُ يُبَيِّنُهُمُ الَّذِي بَنُوا رَبِّهِ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شكًا وريبًا مآكثًا في قلوبهم. ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ بأن يندموا غاية الندم، ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبيناهم لا يزيدهم إلا ريبًا إلى ربهم، ونفاقًا إلى نفاقهم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء، ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسره العباد، وأعلنوه.

﴿حَكِيمٌ﴾ لا يفعل، ولا يخلق، ولا يأمر ولا ينهى، إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به، فلله الحمد^(١).

وفي هذه الآيات فوائد عدة:

منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرار لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار الذي

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَفِرْقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ شَهِدٌ لِمَن لَكَذُوبٌ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسَسِّ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنَ الذُّنُوبِ وَأَلَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أُسَسِّ بُيُوتَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسَسِّ بُيُوتَهُ عَلَى شِقَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ يُبَيِّنُهُمُ الَّذِي بَنُوا رَبِّهِ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ إِنْ اللَّهُ أَشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْحَيَاةُ يَقْتُلُونَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّ عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنَيْبِكُمُ الَّذِي بَايَعَكُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

اطلع على مقصود أصحابه.

منها: أن العمل وإن كان فاضلاً بغيره النية، فينقلب منها عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها.

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار، بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه. وكذلك الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قباة» حتى قال

(١) كذا في ب، وفي أ: وأمر به: الحمد.

الله فيه: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾. ولهذا كان لمسجد قباء من الفضل ما ليس لغيره حتى كان

يُزَوَّرُ قِبَاءَ كُلِّ سَبْتٍ، يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه. ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنْكُمْ اللَّهُ فَأَسْتَبْرَأُ﴾ أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله، ﴿يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي: لتفروحا بذلك، وليبشر بعضكم بعضًا، ويحث بعضكم بعضًا. ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز أكبر منه ولا

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات. وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال الذي هو أحب الأشياء للإنسان، وإلى من جرى على يديه عقد هذا التبائع، وهو أشرف الرسل، وبأي الكتب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزل على أفضل الخلق.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبعدة لفاعلها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات. ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجدًا أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة، وعمل فيه، واختاره الله له، من باب أولى وأحرى.

(١١٢) ﴿الْمُؤْمِنُونَ الْمُؤْمِنَاتُ الْغَائِبُونَ الْمُهَيَّبُونَ الْمُنْتَهُونَ الْمَكْرَهُونَ الْمَكْرَهُونَ الْمَكْرَهُونَ الْمَكْرَهُونَ الْمَكْرَهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْمُحْفِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات، ونيل الكرامات؟ فقال: هم ﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم. والعمل المبني على سوء القصد، وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿الْمُهَيَّبُونَ﴾ أي: المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباء مسجدًا أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة، وعمل فيه، واختاره الله له، من باب أولى وأحرى.

﴿الْمُنْتَهُونَ﴾ الله في السراء والضراء، والبسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، المثنون على الله بذكرها وبذكره في آناء الليل وآناء النهار.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم. والعمل المبني على سوء القصد، وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿الْمَكْرَهُونَ﴾ فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات، كالحج والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والمتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم. والعمل المبني على سوء القصد، وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿الْمَكْرَهُونَ الْمَكْرَهُونَ﴾ أي: المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود.

(١١١) ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنْكُمْ اللَّهُ فَأَسْتَبْرَأُ﴾ أي: ببيعكم الله الذي بآبَعْتُمْ بِهِ، وذلك هو الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. يخبر تعالى خبرًا صدقًا، ويعد وعدًا حقًا بمبايعة عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه ﴿اشْتَرَىٰ﴾ بنفسه الكريمة

﴿الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ فهي المثلث والسلعة المبيعة.

﴿بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات، والأفراح، والمسرات، والحدود الحسان، والمنازل الأنيقات.

﴿الْمَكْرَهُونَ الْمَكْرَهُونَ﴾ أي: المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود.

﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: أموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته، وإظهار دينه ﴿بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ في سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ. فهذا العقد والمبايعة قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

﴿وَالْمَكْرَهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.

﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: أموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته، وإظهار دينه ﴿بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ في سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ. فهذا العقد والمبايعة قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: أموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته، وإظهار دينه ﴿بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ في سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ. فهذا العقد والمبايعة قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

﴿وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي: أموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته، وإظهار دينه ﴿بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ في سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ. فهذا العقد والمبايعة قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً.

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا، والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنين وإيمانهم، قوةً وضعفاً، وعملاً بمقتضاه.

(١١٣، ١١٤) ﴿مَا كَانَتِ اللَّيْلِ وَالذَّيْنِ ءَامِنًا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به ﴿أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: لمن كفر به، وعبد معه غيره ﴿وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾، فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين، لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

وأيضاً، فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه، ويوالوا من والاه الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار منافٍ لذلك، مناقض له. ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه ﴿عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ في قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيظًا﴾ وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه. فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ موافقة لربه وتأديباً معه.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي: رجأع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء، والاستغفار، والإجابة إلى ربه.

﴿حَلِيمٌ﴾ أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستغزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له: ﴿لَا رَحْمَتَ لَكَ﴾ وهو يقول له: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾.

فعليكم أن تقتدوا به، وتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ كما نهىكم الله عليها وعلى غيرها، ولهذا قال:

التَّيْبُونَ الْعَكِيدُونَ الْحَمِيدُونَ السَّيِّئُونَ
الرَّكِعُونَ السَّجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ مَا كَانَتِ اللَّيْلِ وَالذَّيْنِ ءَامِنًا أَنْ
يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ
مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَتْ
أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ
فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ
حَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ
وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ
إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ
لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ
عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

(١١٥، ١١٦) ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ يعني أن الله تعالى إذا من على قوم بالهداية، وأمرهم بسلك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية، بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وَمَا كَانَتْ أَسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم يتقادوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على ردهم الحق المبين، والأول أولى.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المالك لذلك، المدبر لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير

الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري فكيف يخل بتدبيره الديني، المتعلق بإلهيته، ويترك عباده سُدىً مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده!؟

فلهذا قال: ﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ ذُرِّئٍ مِّنْ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو ﴿نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار.

(١١٧، ١١٨) ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْهَرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَهْؤُفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أي: أذن في توبتهم، ووقفهم لها وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أذن في توبتهم، ووقفهم لها ﴿لِيَتُوبُوا﴾ أي لتقع منهم، فيتوب الله عليهم. ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان.

﴿الرَّحِيمُ﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية. وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد، أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتنَّ عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم، وثبتتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب، ولا يحرص إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقاً تاماً، وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن وسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: ﴿خَلَفُوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، [أو خلفوا عن من بُتُّ في قبول عذرهم، أو في رده] (٢)، وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: «تخلفوا».

ومنها: أن الله تعالى منَّ عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالافتداء بهم فقال:

(١١٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ أي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى،

﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ حزنوا حزناً عظيماً، و ﴿صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: على سعتها ورحبتها ﴿وَصَافَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاقت عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا

﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ ذُرِّئٍ مِّنْ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو ﴿نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار.

(١١٧، ١١٨) ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْهَرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ بِهِمْ رَهْؤُفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يخبر تعالى أنه من لطفه وإحسانه ﴿تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورفاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات، ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْمُنْهَرَةِ﴾ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة «تبوك» (١) وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف.

فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: تنقلب قلوبهم، ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم، وأيدهم وقواهم. وزيغ القلب، هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفراً، وإن كان في شرائعه، كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

وقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: قبل توبتهم ﴿إِنَّهُمْ بِهِمْ رَهْؤُفٌ رَّحِيمٌ﴾ ومن رافته ورحمته أن منَّ عليهم بالتوبة، وقبلها منهم، وثبتهم عليها.

﴿و﴾ كذلك لقد تاب الله ﴿عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: «كعب بن مالك» وصاحبه، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن.

﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ حزنوا حزناً عظيماً، و ﴿صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: على سعتها ورحبتها ﴿وَصَافَتْ أَنْفُسُهُمْ﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاقت عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا

(١) في ب: غزوة تبوك. (٢) زيادة من هامش: ب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٦

سُورَةُ الْبُرَاجِ

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ
 بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّمْ يَجَأْ
 مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ
 الرَّحِيمُ ﴿١٧٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ
 الصَّادِقِينَ ﴿١٧٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مَنَّ حَوْلَهُمْ
 مِنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ
 عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ
 وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ
 الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِن عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ
 عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨٠﴾
 وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ
 وَادِيًا إِلَّا لَكَيْبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ ﴿١٨١﴾ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً
 فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ
 وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٨٢﴾

فيها. ففي هذه الآيات أشد ترغيب، وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

(١٢٢) ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ يقول تعالى منها لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً﴾ أي: جميعاً لقتال عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، ويفوت به كثير من المصالح الأخرى ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ من البلدان والقبائل والأفخاذ ﴿طَائِفَةٌ﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى.

ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم، وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتهم، فقال: ﴿لِيَتَفَقَّهُوا﴾ أي: القاعدون ﴿فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارها، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

باجتناب ما نهى الله عنه، والبعد عنه. ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خلية من الكسل والفطور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ الآية.

(١٢٠، ١٢١) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مَنَّ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِن عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى - حاثاً لأهل المدينة المنورة من المهاجرين، والأنصار، ومن حولهم من الأعراب الذين أسلموا، فحسن إسلامهم - ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مَنَّ حَوْلَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ﴾ في بقائها وراحتها، وسكونها ﴿عَن نَّفْسِهِ﴾ الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه ويقدمه عليها. فعلامة تعظيم الرسول ﷺ ومحبته والإيمان التام به، أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ أي: المجاهدين في سبيل الله ﴿لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ أي: تعب ومشقة ﴿وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: مجاعة.

﴿وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ﴾ من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِن عَدُوِّ نِيْلًا﴾ كالظفر بجيش، أو سرية، أو الغنيمة لمال ﴿إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال، آثار من آثار عملهم.

ثم قال: ﴿وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

ومن ذلك، هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها لله، ونصحوا

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علماً، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه، فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأى منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علماً ومنحه فهمًا.

وفي هذه الآية أيضًا دليل وإرشاد وتبنيه لطيف، لفائدة مهمة، وهي أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة، من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق، وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

(١٢٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قِيلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وهذا أيضًا إرشاد آخر، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال، أرشدهم إلى أنهم يبدؤون بالأقرب فالأقرب من الكفار، والغلظة عليهم، والشدة في القتال، والشجاعة والثبات.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ولكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى، فلازموا على تقوى الله، يُعِنِّكُمْ وينصركم على عدوكم.

وهذا العموم في قوله: ﴿قِيلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ مخصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا، وأنواع المصالح كثيرة جدًا.

(١٢٤-١٢٦) ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ۝ أَوَّلًا يَرُونَ أَنََّّهُمْ يُقْتَلُونَ فِي كُلِّ عَاِمَةٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ يقول تعالى مبينًا حال المنافقين، وحال المؤمنين عند نزول القرآن، وتفاوت ما بين الفريقين فقال: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر والنهي، والخبر عن نفسه الكريمة، وعن الأمور الغائبة، والحث على الجهاد.

﴿فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ أي: حصل

بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا قِيلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾
وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَّلًا يَرُونَ أَنََّّهُمْ يُقْتَلُونَ فِي كُلِّ عَاِمَةٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفُوا صَرْفَ قُلُوبِهِمْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَقْفَهُونَ ﴿١٢٧﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

سُورَةُ بَرَاءَةِ

الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها، من الطائفتين.

قال تعالى - مبينًا الحال الواقعة -: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ بالعلم بها، وفهمها واعتقادها، والعمل بها، والرغبة في فعل الخير، والانكفاف عن فعل الشر.

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: يبشر بعضهم بعضًا، بما من الله عليهم من آياته، والتوفيق لفهمها والعمل بها. وهذا دال على انشراح صدورهم لآيات الله، وطمأنينة قلوبهم، وسرعة انقيادهم لما تحثهم عليه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي: شك ونفاق ﴿فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي: مرضًا إلى مرضهم، وشكًا إلى شكهم، من حيث إنهم كفروا بها، وعاندوها وأعرضوا عنها، فازداد لذلك مرضهم، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿و﴾ الطبع على قلوبهم، حتى ﴿مَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وهذا عقوبة لهم، لأنهم كفروا بآيات الله، وعصوا رسوله، فأعقبهم نفاقًا في قلوبهم إلى يوم يلقونه.

قال تعالى - موبخًا لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق -: ﴿أَوَّلًا يَرُونَ أَنََّّهُمْ يُقْتَلُونَ فِي كُلِّ عَاِمَةٍ

مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴿٢٠﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم.

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم عليه من الشر ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ما ينفعهم، فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه.

ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيزه، وتوقيره ﴿إِن آمَنُوا، فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تنزل في دعوتك، وقل: ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافي في جميع ما أهمني ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق سواه.

فالله تعالى يتبليهم - كما هي سنته في سائر الأمم - بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي، ليرجعوا إليه، ثم لا يتوبون، ولا هم يذكرون.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أعظم المخلوقات.

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده، فيجدده وينمي، ليكون دائماً في صعود.

وإذا كان ربُّ العرش العظيم الذي وسع المخلوقات، كان رباً لما دونه من باب أولى وأحرى.

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه، فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

(١٢٧) وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا نَسُوا نَصْرَهُمْ إِلَىٰ بَعْضِ هَذِهِ أُمَّمَاتِكُمْ مِن بَيْنِ أَ يَمَانِكُمْ أَنْصُرُوا﴾ أي: أن المناقضين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ جازمين على ترك العمل بها، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين، ويقولون: ﴿هَلْ يَرِيكُمْ يَوْمَ يَأْتِيكُم مِّن بَيْنِ أُمَّمَاتِكُمْ أَنْصُرُوا﴾ متسللين، وانقلبوا معرضين، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صَرَكَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ أي: صدها عن الحق وخذلها.

تفسير سورة يونس

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠، ١) ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ۝ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ يقول تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وهو هذا القرآن، المشتمل على الحكمة والأحكام الدالة آياته على الحقائق الإيمانية، والأوامر والنواهي الشرعية، الذي على جميع الأمة تلقيه بالرضا والقبول والانقياد.

﴿يَأْتِيهِمْ يَوْمَ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ فقها ينفعهم، فإنهم لو فقهوا، لكانوا - إذا نزلت سورة - آمنوا بها، وانقادوا لأمرها.

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان، كما قال تعالى عنهم: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا سُورَةَ تُحْكَمَةَ وَاذْكُرْ فِيهَا الْفِتَالَ رَأَيْتِ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْنَمِ عَلَيْهِ مِن الْمَوْتِ﴾.

ومع هذا فأعرض أكثرهم فهم لا يعلمون، فتعجبوا ﴿أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ عذاب الله، وخوفهم نقم الله، وذكرهم بآيات الله.

(١٢٩، ١٢٨) ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ يمتن [تعالى] على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم، يعرفون حاله، ويتمكنون من الأخذ عنه، ولا يأنفون عن الانقياد له، وهو ﷺ في غاية النصح لهم، والسعي في مصالحهم.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إيماناً صادقاً ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم جزاء موفور^(١)، وثواب مذخور عند ربهم، بما قدموه، وأسلفوه من الأعمال الصالحة الصادقة.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعتكم.

فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجباً حملهم على الكفر به، ف﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ عنه ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تفيركم عنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾

(١) كذا في ب، وفي أ: موفور.

أي: بينُ السحر، لا يخفى - بزعمهم - على أحد، وهذا من سفههم وعنادهم، فإنهم تعجبوا من أمر ليس مما يتعجب منه ويستغرب، وإنما يتعجب من جهالتهم وعدم معرفتهم بمصالحهم.

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول الكريم الذي بعثه الله من أنفسهم، يعرفونه حق المعرفة، فردوا دعوته، وحرصوا على إبطال دينه، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

(٤، ٣) ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ عِندِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ يقول تعالى - مبيّنًا لربوبيته، وإلهيته، وعظمته - : ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة. ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله.

ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة.

﴿ثُمَّ﴾ بعد خلق السموات والأرض ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بعظمته.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ في العالم العلوي والسفلي، من الإمامة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداداة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضرورين، وإجابة سؤال السائلين.

فأنواع التدابير نازلة منه، وصاعدة إليه، وجميع الخلق مذنون لعزه^(١)، خاضعون لعظمته وسلطانه.

﴿مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ عِندِهِ﴾ فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله، ولا يأذن إلا لمن ارتضى، ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص والتوحيد له.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي هذا شأنه ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال. ووصف الربوبية، الجامع لصفات الأفعال.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أي: أفردوه بجمع ما تقدرون عليه من أنواع العبودية ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.

فلما ذكر حكمه القدري، وهو التدبير العام، وحكمه الديني، وهو شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادته وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: سيجمعكم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٠٨

سُورَةُ يُونُسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّبِّكَ ءَآيَاتِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ عِندِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

بعد موتكم لميقات يوم معلوم.

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق، ثم يُنكر إعادته للخلق، فهو فاقد العقل، منكر لأحد المثليين مع إثبات ما هو أولى منه، فهذا دليل عقلي واضح على المعاد.

ثم ذكر الدليل القلبي فقال: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي: وعده صادق، لا بد من إتمامه.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به. ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم، من واجبات ومستحبات. ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي: بإيمانهم وأعمالهم، جزاء قد بينه لعباده، وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة عين ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بآيات الله، وكذبوا رسل الله ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء حار، يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء ﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من سائر أصناف العذاب ﴿يَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

(١) في ب: لعزته.

مرامهم^(٢)، ونهاية قصدهم. فسعوا لها، وأكجوا على لذاتها وشهواتها، بأي طريق حصلت حصولها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إراداتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها.

فكانهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست بدار ممر، يتزود منها المسافرون، إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموقنون.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة، عن المدلول المقصود.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَذَا صَفَهُمْ ﴿مَا وَهَرُ النَّارُ﴾ أي: مقرهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها.

﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والشرك وأنواع المعاصي. فلما ذكر عقابهم، ذكر ثواب المطيعين فقال:

(١٠،٩) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَ اللَّهِ مُحَمَّسِينَ فِيهَا سَلَامٌ ۗ وَأَخْرَجَ دَعْوَاهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان. والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتمة على أعمال القلوب، وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان، يشيهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الجارية على الدوام ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام. نعيم القلب بالفرح والسرور، والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاعتباط برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنعنات المشجيات، والمناظر المفرجات. ونعيم البدن بأنواع المآكل والمشرب، والمناكح، ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

(٦،٥) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ سَجًّا وَالنَّجْمَ نُورًا وَقَدَرِ مَنَازِلَ لِيَعْلَمُوا عَدَدَ اللَّيْلِ وَالنَّجْمَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ﴾ لما قرر ربوبيته وإلهيته، ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته: من الشمس والقمر، والسموات والأرض وجميع ما خلق فيها من سائر أصناف المخلوقات، وأخير أنها آيات ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ و ﴿لِقَوْمٍ يَعْتَقُونَ﴾.

فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها، وكيفية استنباط الدليل^(١) على أقرب وجه، والتقوى تُحدث في القلب الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين، وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة، دال على كمال قدرة الله تعالى، وعلمه، وحياته، وقبوميته، وما فيها من الإحكام، والإتقان، والإبداع والحسن، دال على كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه. وما فيها من أنواع المنافع والمصالح - كجعل الشمس ضياء، والقمر نورًا، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل - يدل ذلك على رحمة الله تعالى واعتنائه بعباده وسعة بره وإحسانه. وما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله، وإرادته النافذة.

وذلك دال على أنه وحده المعبود، المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرغبة إلا إليه، ولا يصرف خالص الدعاء إلا له، لا غيره من المخلوقات المرئيات، المفتقرات إلى الله في جميع شؤونها.

وفي هذه الآيات الحث والترغيب على التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار. فإن بذلك تفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القرينة. وفي إهمال ذلك تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزياة الإيمان، وجمود للذهن والقرينة.

(٨،٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤمنون، بل عرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بدلًا عن الآخرة.

﴿وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا﴾ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية

(١) في ب: الدلائل. (٢) في ب: أمرهم.

سورة يونس

٢٠٩

سورة يونس

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا
بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ
أَنْتَارِيْمَا كَأَنْوَاعِكَيْمُوتَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ
اللَّهُمَّ وَحَيْثُ هُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجَ دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ * وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ
اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَذَرَّ الَّذِينَ
لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ
الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا
عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لِمُدْعَاؤِنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ
لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ
مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا
لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ
خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

قضاء غرضه، فإذا أتته إياه، لم ينظر إلى حق ربه، وكأنه ليس عليه حق. وهذا تزيين من الشيطان، زين له ما كان مستهجنًا مستحبًا في العقول والفطر.

﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد ﴿مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾.

(١٣، ١٤) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل تبين الحق، فلم يتقادوا لها ولم يؤمنوا. فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم، متجرى على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن

(١) كذا في ب، وفي أ: عقوبة منه.

﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي عبادتهم فيها لله، أولها تسبيح لله وتزييه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألد عليهم من المآكل اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النَّفْسِ، من دون كلفة ومشقة.

﴿و﴾ أما ﴿حَيْثُ هُمْ﴾ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه ﴿سَلَامٌ﴾، وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ﴾ إلى آخر الآية، أن أهل الجنة - إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما - قالوا: سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال.

فإذا فرغوا قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

(١١) ﴿وَلَوْ يَعْلَمُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَذَرَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر، إذا أتوا بأسبابه، وبأدبرهم بالعقوبة على ذلك، كما يجعل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه ﴿لَقَضَى إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ﴾ أي لمحقتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم، ولا يمهلهم ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم، ما ترك على ظهرها من دابة، ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده، أو أهله، أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة، لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حلِيم حكيم.

وقوله: ﴿فَذَرَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ أي: باطلهم الذي جاوزوا به الحق والحد.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ يترددون حائرِين، لا يهتدون السبيل، ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم^(١) على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

(١٢) ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لِمُدْعَاؤِنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيْنٌ لِّلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضرر، من مرض أو مصيبة، اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، قائمًا وقاعدًا، ومضطجعًا، وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لِمُدْعَاؤِنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾ أي: استمر في غفلته معرضًا عن ربه، كأنه ما جاءه ضره، فكشفه الله عنه، فأبى ظلم أعظم من هذا الظلم؟! يطلب من الله

قبلكم واتبعتم آيات الله، وصدقتم رسله، نجوتم في الدنيا والآخرة.

وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم، ومن أذرت فقد أعدرت.

(١٥-١٧) ﴿وَإِذَا تَنَادَى عَلَيْهِمْ أَيُّهَا النَّبِيُّ قَالَ أَلَيْسَ لِي بِرَجُونَ لِقَاءَ نَا أَنْتِ بِشَرِّءٍ إِنْ عَرَّيْتَهُ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَايَ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيَّكُمْ وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْسَوْنَ اللَّهَ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّنَا فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٠﴾

يذكر تعالى تعنت المكذبين لرسوله محمد ﷺ، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق، أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت فقالوا، جراءة منهم وظلمًا: ﴿أَنْتِ بِشَرِّءٍ إِنْ عَرَّيْتَهُ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ﴾ فقبجهم الله، ما أجرأهم على الله، وأشدهم ظلمًا، وردًا لآياته.

فإذا كان الرسول العظيم، يأمره الله أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي﴾ أي ما ينبغي ولا يليق ﴿أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَايَ نَفْسِي﴾ فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء ﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: ليس لي غير ذلك، فإني عبد مأمور.

﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فهذا قول خير الخلق، وأدبه مع أوامر ربه ووحيه، فكيف بهؤلاء السفهاء الضالين الذين جمعوا بين الجهل والضلال، والظلم والعناد، والتعنت والتعجيز لرب العالمين، أفلا يخافون عذاب يوم عظيم؟! لحكمته الربانية، ورحمته بعباده.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيَّكُمْ وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا طَوِيلًا﴾ أي: قبل تلاوته، وقبل درايتكم به، وأنا ما خطر على بالي، ولا وقع في ظني.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي حيث لم أتقوله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك، فكيف أتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمرًا طويلًا، تعرفون حقيقة حالي، بأني أمي لا أقرأ ولا أكتب، ولا أدرس ولا أتعلم من أحد؟! فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز الفصحاء، وأعيا العلماء، فهل يمكن - مع هذا - أن يكون من تلقاء نفسي، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من حكيم حميد؟.

﴿وَإِذَا تَنَادَى عَلَيْهِمْ أَيُّهَا النَّبِيُّ قَالَ أَلَيْسَ لِي بِرَجُونَ لِقَاءَ نَا أَنْتِ بِشَرِّءٍ إِنْ عَرَّيْتَهُ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَايَ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيَّكُمْ وَلَا أَدْرِكُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْسَوْنَ اللَّهَ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا آيَةً مِنْ رَبِّنَا فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٢٠﴾

فلو عملتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزتم جزماً لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذ ﴿أبيتم إلا التكذيب والعناد، فأنتم لا شك أنكم ظالمون.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾!؟

فلو كنت متقولاً لكنت أظلم الناس، وفاتني الفلاح، ولم تخف عليكم حالي، ولكني جنتكم بآيات الله، فكذبتهم بها، فتعين فيكم الظلم، ولا بد أن أمركم سيضمحل، ولن تنالوا الفلاح ما دمت كذلك.

ودل قوله: ﴿قَالَ أَلَيْسَ لِي بِرَجُونَ لِقَاءَ نَا﴾ الآية، أن الذي حملهم على هذا التعنت الذي صدر منهم هو عدم إيمانهم بقاء الله، وعدم رجائه، وأن من آمن بقاء الله فلا بد أن يقاد لهذا الكتاب ويؤمن به، لأنه حسن القصد.

(١٨) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ

وقولون هؤلا شفوتنا عند الله قل أنتيتوت الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحنم وتعالى عما يشركون يقول تعالى: ﴿ويعبدون﴾ أي: المشركون المكذبون لرسول الله ﷺ.

﴿من دوت الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم﴾ أي: لا تملك لهم مقال ذرة من النفع، ولا تدفع عنهم شيئاً. ﴿ويقولون﴾ قولاً خالياً من البرهان ﴿هؤلا شفوتنا عند الله﴾ أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام ابتكروه هم، ولهذا قال تعالى - مبطلاً لهذا القول -: ﴿قل أنتيتوت الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض﴾ أي: الله تعالى هو العالم الذي أحاط علماً بجميع ما في السموات والأرض، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه، أفأنتم - يا معشر المشركين - تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء؟، أفنتخرونه بأمر خفي عليه، وعلمتوه؟ أنتم أعلم أم الله؟ فهل يوجد قول أظلم من هذا القول، المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء، أعلم من رب العالمين؟.

فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول، فإنه يجزم بفساده وبطلانه. ﴿سبحنم وتعالى عما يشركون﴾ أي: تقديس وتنزه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد الذي لا إله في السموات والأرض إلا هو، وكل معبود في العالم العلوي والسفلي سواه، فإنه باطل عقلاً وشرعاً وفطرة. ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأنت ما يدعون من دونه هو البطل وأنت الله هو العلي الأكبر﴾. ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون﴾ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما العيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه. ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ بإمهال العاصين، وعدم معاجلتهم بذنوبهم ﴿لقضى بينهم﴾ بأن نجي المؤمنين، ونهلك الكافرين المكذبين، وصار هذا فارقاً بينهم ﴿فيمافيه يختلفون﴾ ولكنه أراد امتحانهم، وابتلاء بعضهم ببعض، ليتبين الصادق من الكاذب. ﴿ويقولون﴾ أي: المكذبون المتعتون، ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾. يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها،

﴿فانظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي: كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له، فانظروا لمن تكون العاقبة. ﴿وإذا أدقنا الناس رمة من بعد ضرة مسنهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرًا إن رسلنا يكتبون ما تمكرون﴾ يقول تعالى: ﴿وإذا أدقنا الناس رمة من بعد ضرة مسنهم﴾ كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم. ولهذا قال: ﴿إذا لهم مكر في آياتنا﴾ أي يسعون بالباطل، ليطلوا به الحق.

﴿قل الله أسرع مكرًا﴾ فإن المكر السيء لا يحق إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصيه الله عليهم، ثم يجازيهم [الله] عليه أوفر الجزاء.

﴿هو الذي يسيركو في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الذين لن أجبتنا من هذيه لتكونن من الشكرين﴾ فلما أجبتهم إذا هم يبعون في الأرض غير الحق يأتيا الناس إنما بعيتكم عن أنفسكم منع الحكوة الدنيا ثم إنا مرجعكم فنبتنكم بما كنتم تعملون﴾ لما ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ذكر حالة تويد ذلك وهي حالهم في البحر عند اشتداده، والخوف من عواقبه، فقال: ﴿هو الذي يسيركو في البر والبحر﴾ بما يسر لكم من الأسباب المسيرة^(١) لكم فيها، وهداكم إليها.

﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾ أي: السفن البحرية ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ موافقة لما يهوونه، من غير انزعاج ولا مشقة. ﴿وفرحوا بها﴾ واطمأنوا إليها، فينما هم كذلك، إذ ﴿جاءتها ريح عاصف﴾ شديدة الهبوب ﴿وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا

(١) في ب: المسيرة.

أَتَمُّ أَحْيَطَ بِهِمْ أَي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذٍ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدعوه مخلصين له الدين ووعدوا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لَئِن أُنجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ○ فَمَا أَجْنَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أَي: نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموا أنفسهم، فأشركوا بالله من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد، ولا يدفع عنهم المضايق. فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء، كما أخلصوها في الشدة؟!

ولكن هذا البغي يعود وباله عليهم، ولهذا قال: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أَي: غاية ما تؤملون ببغيتكم، وشروءكم عن الإخلاص لله، أن تتلوا شيئاً من حطام الدنيا وجاهها، التزر اليسير الذي سينقضي سريعاً، ويمضي جميعاً، ثم تتقلون عنه بالرغم.

﴿ثُمَّ إِنَّا مَرَجَعَكُمُ﴾ في يوم القيامة ﴿فَنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

(٢٤) ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَّتْ وَظَلَّتْ أَمْثَلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَمْثَلًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها، ونحو ذلك يزهر لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلىء القلب من همها وحزنها وحسرتها.

فذلك ﴿كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أَي: نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج ﴿مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ﴾ كالحبوب والثمار ﴿وَمَا تَأْكُلُ﴾ الأنعام ﴿كأنواع العشب، والكلا المختلف الأصناف.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَّتْ﴾ أَي: تزخرت في منظرها، واكتست في زيتها، فصارت بهجة للناظرين، وترفة للمتفرجين، وآية للمتبصرين، فصرت ترى لها منظرًا عجيبيًا ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

﴿وَظَلَّتْ أَمْثَلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا﴾ أَي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إراداتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه.

فبينما هم في تلك الحالة ﴿أَتَمُّهَا أَمْثَلًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا

سورة يونس

٢١١

سورة يونس

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرَفٌ ؕ أَيْ تَأْتِيهِمْ قَلِيلٌ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَبِّحُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَاحِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنجِيتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَمَا أَجْنَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّا مَرَجَعَكُمُ فَنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَّتْ وَظَلَّتْ أَمْثَلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَمُّهَا أَمْثَلًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ أَي: كأنها ما كانت، فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء.

﴿كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أَي: نبينها ونوضحها، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال ﴿لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ أَي: يعملون أفكارهم فيما يفهمهم.

وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشكَّ البيان.

ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها، شَوَّقَ إِلَى الدَّارِ الْبَاقِيَةِ فَقَالَ:

(٢٦، ٢٥) ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ○ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنَاسِقَةٍ وَرِيسَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

عمَّ تعالى عباده بالدعوة إلى دار السلام، والحث على ذلك والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه. فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة، بعد البيان والرسل.

وسمى الله الجنة «دار السلام» لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكامل نعيمها، وتمامه، وبقائه، وحسنه من كل وجه.

ولما دعا إلى دار السلام، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لَسُنِّيْ وَرِيَادَةٌ﴾ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبده على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدرون عليه من الإحسان القولي والفعلية، من بذل الإحسان المالي، والإحسان البدني، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهلين، ونصيحة المعرضين، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان.

فهؤلاء الذين أحسنوا لهم ﴿لَسُنِّيْ﴾ وهي الجنة الكاملة في حسنها و ﴿رِيَادَةٌ﴾ وهي النظر إلى وجه الله الكريم، وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، فهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه الممتنون، ويسأله السائلون.

ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال: ﴿وَلَا يَزَهُوْ وَجُوهُهُمْ قَرَّ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي: لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه، لأن المكروه إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدر.

وأما هؤلاء - فهم كما^(١) قال الله عنهم - : ﴿تَعْرِوْ فِي وُجُوْهُهُمْ نَضْرَةٌ النَّعِيْمِ﴾، «أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ» الملازمون لها ﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يحولون، ولا يزولون، ولا يتغيرون.

(٢٧) ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِدٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ آتِلٍ مُّظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي.

فجزاؤهم سيئة مثلها أي: جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم.

﴿وَتَرْهَقُهُمْ﴾ أي تغشاهم ﴿ذِلَّةٌ﴾ في قلوبهم وخوف من عذاب الله، لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سوادًا في الوجوه^(٢).

﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنْ آتِلٍ مُّظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق، ويا بعد ما بينهما من التفاوت؟!

﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ إلى ريبها ناطرة ﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ﴾ نَظُّوْ أَنْ يُعْقَلَ بِهَا قَائِرَةٌ، ﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَشِيرَةٌ ﴿وَجُوهُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ تَرْهَقُهَا قَرَّةٌ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجِرَةُ﴾.

(٢٨-٣٠) ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ فَكَلَّمَ اللَّهُ سَمِيحًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَيْبَاتٍ ﴿هُنَالِكَ تَبْلَوْنَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَصَلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا﴾ أي: نجتمع جميع الخلاق لميعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين وما كانوا يعبدون من دون الله.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا، خالص المحبة وَصَفَوْا الْوُدَادَ، فانقلبت تلك المحبة والولاية، بغضًا وعداوة. وتبرأ شركاؤهم منهم وقالوا: ﴿مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ فإننا نزه الله أن يكون له شريك أو نديد.

﴿فَكَلَّمَ اللَّهُ سَمِيحًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَيْبَاتٍ﴾ ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْتَدَ لِلْجَنَّةِ يَنْبَغِيْ عَادِمٌ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرٌّ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

وقال: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُوا إِيَّاكُمْ كَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ قالوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَبَيْنَنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُّؤْمِنُونَ﴾.

فالملائكة الكرام، والأنبياء، والأولياء ونحوهم يتبرأون ممن عبدتهم يوم القيامة ويتصلون من دعائهم إليهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك. فحيثئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

ولهذا قال تعالى: ﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك اليوم ﴿تَبْلَوْنَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي: تتفقد أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتجازى بحسبه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

وَصَلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْعَرُونَ من قولهم بصحة ما هم عليه

(١) في ب: فكما. (٢) في ب: في وجوههم.

من الشرك، وأن ما يعبدون من دون الله تفتهم وتدفع عنهم العذاب.

(٣١-٣٣) ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنَّ تَضَرُّوتَ ۝ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً - محتجاً عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية - ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ بإنزال الأرزاق من السماء، وإخراج أنواعها من الأرض، وتيسير أسبابها فيها؟.

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ أي: من هو الذي خلقهما وهو مالكما؟ وخصهما بالذكر من باب التنبيه على المفضول بالفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما.

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة، ونحو ذلك ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ عكس هذه المذكورات.

﴿وَمَنْ يُدِيرُ الْأُمْرَ﴾ في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك ﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات.

﴿فَقُلْ﴾ لهم إلزاماً بالحجة: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتخلصون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان.

﴿فَذَلِكُمْ﴾ الذي وصف نفسه بما وصفها به ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: المألوه المعبود المحمود، المرابي جمع الخلق بالنعم وهو ﴿الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾.

فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام.

﴿فَأَنَّ تَضَرُّوتَ﴾ عن عبادة مَنْ هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شركة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه. فتباً لمن أشرك به، ووبحاً لمن كفر به، لقد عدمو عقولهم بعد أن عدمو أديانهم،

٢١٢ ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَيُرْفَعُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعَانٌ لَّيْلٍ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٣٨﴾ فَكْفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفَابِينَ﴾ ﴿٣٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقِّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٤٠﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٤١﴾ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَإِنَّ تَضَرُّوتَ﴾ ﴿٤٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤٣﴾

بل فقدوا دنياهم وأخراهم.

ولهذا قال [تعالى] عنهم: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعد ما أراهم^(١) الله من الآيات، البيئات والبراهين النيرات ما فيه عبرة لأولي الألباب، وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

(٣٦-٣٧) ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْ تُوَفَّقُونَ ۝ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُبْعَثَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ قُلْ لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ وَمَا يُبْعَثُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ يقول تعالى - مبيّناً عجز آلهة المشركين، وعدم اتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله - : ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَن يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ أي يتدبه ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز ﴿قُلِ اللَّهُ

(١) في ب: بعد أن أراهم.

يَسْبُدُوا فَالْفَاقُ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ من غير مشارك، ولا معاون له على ذلك.

﴿فَأَنْفُ تُؤْفَكُونَ﴾ أي: تصرفون، وتحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء والإعادة، إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يُخلَقون.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ بيانه وإرشاده أو بالهامه وتوفيقه.

﴿قُلْ اللَّهُ﴾ وحده ﴿يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق.

﴿أَمْ لَمْ يَهْدِ﴾ أي: لا يهتدي ﴿إِلَّا أَنْ يُهْدَى﴾ لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تُهْدَى ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ أي: أي شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل، بصحة عبادة أحد مع الله، بعد ظهور الحجة والبرهان، أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده.

فإذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله، أو صافٍ معنوية، ولا أو صافٍ فعلية، تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقص الموجبة لبطان إلهيتها، فلا شيء جعلت مع الله آلهة؟

فالجواب: أن هذا من تزوين الشيطان للإنسان، أقيح البهتان، وأضل الضلال، حتى اعتقد ذلك وألفه، وظنه حقاً، وهو لا شيء.

ولهذا قال: ﴿وَمَا يَنْبَغُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء الله، فإنه ليس لله شريك أصلاً، عقلاً ولا نقلاً، وإنما يتبعون الظن و﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يَأْتِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً﴾. فسموها آلهة، وعبدوها مع الله، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة.

(٣٧-٤١) ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ نَصَدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
 ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأَنزَلْنَاهُ سُورَةَ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ولما يأتهم تأويله،
 كذلك كذب الذين من قبلهم فأنظر كيف كانت عقوبة الظالمين
 ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾
 ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيغُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: غير ممكن ولا متصور، أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى، لأنه الكتاب العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ

٢١٣

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، فَإِنِّي تَوْفِئُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُنْبِغَ أَنْ يَهْدِي إِلَا أَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ الْأَطْمَانِ إِنَّ الظَّنَّ لَا يَفْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَارِيبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأَنزَلْنَاهُ سُورَةَ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيغُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَسْمَعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الضَّمَمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٥﴾

الْبَطْلُ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً. وهو كتاب الله الذي تكلم به [رب العالمين]، فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟!

فإن كان أحد يماثل الله في عظمته وأوصاف كماله، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فتقول أحد على رب العالمين، لعاجله بالعقوبة وبادره بالنكال.

﴿ولكن﴾ الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين.

أنزله ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها وصدقها بما شهدت به، وبشرت بزوله، فوقع كما أخبرت.

﴿وتفصيل الكتاب﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة.

جاء به ﴿و﴾ أن ﴿مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ﴾ إلى النبي ﷺ وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب، وتَطَلَّبُ^(١) العثرات، وهذا استماع غير نافع، ولا مُجِدُّ على أهله خيراً، لا جرم انسد عليهم باب التوفيق، وحرموا من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَكَلُوا كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾. وهذا الاستفهام بمعنى النفي المتقرر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يسمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً.

فإذا كان من المحال إسماع الأصم الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذبون كذلك ممتنع إسماعك إياهم إسماعاً ينتفعون به.

وأما إسماع الحجة فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسد عليهم، وهو طريق السموعات المتعلقة بالخبر.

ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو طريق النظر فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ فلا يفيد نظره إليك، ولا سبر أحوالك شيئاً، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصل لهم إلى الحق؟

ودل قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهدية، وأخلاقه، وأعماله، وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه، وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ النَّاسَ شَيْئاً﴾ فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم. ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يجيئهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختم على أسماعهم وأبصارهم.

(٤٥) ﴿يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ فِيهَا﴾ قد حشر الذين كذبوا بلفظه الله وما كانوا مهتدين يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس، وهم يتعارفون بينهم، كحالهم في الدنيا. ففي هذا اليوم يربح المتقون، ويخسر

(١) كذا في ب، وفي أ: وتطلب.

﴿لَا رَبَّ فِيهِ مِنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين: تنزيل من رب العالمين الذي ربى جميع الخلق بنعمه.

ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدنيوية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ أي: المكذبون به عناداً وبغياً: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ محمد على الله، واختلقه ﴿قُلْ﴾ لهم - ملزماً لهم بشيء - إن قدروا عليه، أمكن ما ادَّعوه، وإلا كان قولهم باطلاً.

﴿فَأَنؤُا يُسُورَةُ يَتْلُوهُ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكناً لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله.

ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطل، لا حظَّ له من الحجة. والذي حملهم على التكذيب بالقرآن، المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه، أنهم لم يحيطوا به علماً.

فلو أحاطوا به علماً، وفهموه حق فهمه، لادعونا بالتصديق به. وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال، وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ وهو الهلاك الذي لم يبق منهم أحداً.

فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل بالأمم المكذبين، والقرون المهلكين.

وفي هذا دليل على الثبوت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده، قبل أن يحيط به علماً.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: بالقرآن وما جاء به ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه العناد والظلم، والفساد، فسيجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ﴾ فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله ﴿فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾.

(٤٤-٤٢) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتُمْ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَكَلُوا كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ و﴿مِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتُمْ تَهْدِي الصَّمَّ وَكَلُوا كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ولما

سورة يونس

٢١٤

سورة يونس

وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَجْرُونَ ﴿٤٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لُّوبُؤًا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِمَارَتِكَ بِعَظْمِ الَّذِينَ نَعَدْتُمْ أَن تُنْفِقْتَكُم فَإِتِنَا مَرْجِعَهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٩﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ قَضَىٰ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ ﴿٥٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥١﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْرِضُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن اتَّكَمْتُمْ عَذَابِي بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا اسْتَعْجَلْتُمْ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٣﴾ أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ عَامِنكُمْ بِهِ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٤﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا لِيَأْكُمُ تَكْسِبُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٦﴾ أَحَقُّ هُوَ قَوْلِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقِّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٧﴾

يَسْتَعْجَلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٣﴾ أي: أي بشارة استعجلوا بها، وأي عقاب ابتدروه؟

﴿أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ عَامِنكُمْ بِهِ﴾ فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم توبيخًا وعتابًا - في تلك الحال التي زعموا أنهم يؤمنون -:

﴿ءَأَلْتَنَ﴾ تؤمنون في حال الشدة والمشقة؟ ﴿وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فإن سنة الله في عباده أنه يعذبهم إذا استعجبه قبل وقوع العذاب، فإذا وقع العذاب لا ينفع نفسًا إيمانها، كما قال تعالى عن فرعون، لما أدركه الغرق: ﴿قَالَ أَمْسَتْ أَنفِي لَوْلَا إِلَهُ إِلَّا اللَّهُ ءَأَمْسَتْ يَدِي يُؤْتَىٰ يَسْرِيلَ وَآتَانَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وأنه يقال له: ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾، وقال هنا: ﴿أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ عَامِنكُمْ بِهِ ءَأَلْتَنَ﴾ تدعون الإيمان^(٢)، ﴿وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ فهذا ما عملت أيديكم، وهذا ما استعجلتم به.

(١) في ب: ينزل. (٢) كنا في ب، وفي أ: للإيمان.

الذين كذبوا بقاء الله، وما كانوا مهتدين إلى الصراط المستقيم والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

(٤٦) ﴿وَأَمَّا رَبُّنَا كَبُورٌ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلَمْ يَكُنُوا يَتَّقُونَ﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب.

إما في الدنيا فتراه بعينك، وتقرُّ به نفسك. وإما في الآخرة بعد الوفاة، فإن مرجعهم إلى الله، وسينتهم بما كانوا يعملون، أحصاه الله ونسوه، والله على كل شيء شهيد، فيه الوعيد الشديد لهم، والتسلي للرسول الذي كذبه قومه وعاندوه.

(٤٧-٤٩) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ قَضَىٰ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صَادِقِينَ ﴿٤٧﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْرِضُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٨﴾ يقول تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية ﴿رَسُولٌ﴾ يدعوهم إلى توحيد الله ودينه.

﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ﴾ هم ﴿رَسُولُهُمْ﴾ بالآيات، صدقه بعضهم، وكذبه آخرون، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين، وإهلاك المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ﴾ بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة، أو يعذبوا بغير جرمهم. فليحذر المكذبون لك من مشابهة الأمم المهلكين، فيحل بهم ما حل بأولئك.

ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، فإن هذا ظلم منهم، حيث طلبوه من النبي ﷺ، فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس. وأما حسابهم وإنزال العذاب عليهم، فمن الله تعالى، ينزله^(١) عليهم إذا جاء أجل الذي أجله فيه، والوقت الذي قدره فيه، الموافق لحكمته الإلهية.

فإذا جاء ذلك الوقت لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فليحذر المكذبون من الاستعجال بالعذاب، فإنهم مستعجلون بعذاب الله الذي إذا نزل، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ولهذا قال:

(٥٠-٥٢) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن اتَّكَمْتُمْ عَذَابِي بَيْنَنَا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أَمْ إِذَا مَا وَقَعَ عَامِنكُمْ بِهِ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا يَمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥١﴾ يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن اتَّكَمْتُمْ عَذَابِي بَيْنَنَا﴾ وقت نومكم بالليل ﴿أَوْ نَهَارًا﴾ في وقت غفلتكم ﴿مَاذَا

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ حين يوفون أعمالهم يوم القيامة ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: العذاب الذي تخلدون فيه، ولا يفر عنكم ساعة ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والتكذيب والمعاصي.

(٥٣-٥٦) ﴿وَسَيُنْزِلُ عَلَيْكَ آحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ﴾ وُلُو أَنْ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَسَيُنْزِلُ عَلَيْكَ آحَقُّ هُوَ﴾ أي: يستخبرك المكذوبون على وجه التعنت والعناد، لا على وجه التبين والرشاد^(١).

﴿آحَقُّ هُوَ﴾ أي: أصحح حشر العباد، وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؟.

﴿قُلْ﴾ لهم مقسماً على صحته، مستدلاً عليه بالدليل الواضح والبرهان: ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه.

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ﴾ الله أن يعيثكم، فكما ابتدأ خلقكم، ولم تكونوا شيئاً، كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم.

﴿و﴾ إذا كانت القيامة ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالكفر والمعاصي جميع ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من ذهب وفضة وغيرهما، لتفتدي به من عذاب الله ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ ولما نفعها ذلك، وإنما النفع والضرر، والثواب والعقاب، على الأعمال الصالحة والسيئة.

﴿وَأَسْرُوا﴾ [أي:] الذين ظلموا ﴿النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ ندموا على ما قدموا، ولات حين مناص ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي. ولهذا قال: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعية والبراهين النقلية والعقلية.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، وسائر أنواع التدبير^(٢)، لا شريك له في ذلك.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

(١) في ب: الاسترشاد. (٢) في ب: التداير.

﴿يُنْزِلُ عَلَيْكَ آحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ﴾ وُلُو أَنْ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلُمُونَ ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَسَيُنْزِلُ عَلَيْكَ آحَقُّ هُوَ﴾ أي: يستخبرك المكذوبون على وجه التعنت والعناد، لا على وجه التبين والرشاد^(١).

﴿آحَقُّ هُوَ﴾ أي: أصحح حشر العباد، وبعثهم بعد موتهم ليوم المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؟.

﴿قُلْ﴾ لهم مقسماً على صحته، مستدلاً عليه بالدليل الواضح والبرهان: ﴿إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه.

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُعْجِزٍ﴾ الله أن يعيثكم، فكما ابتدأ خلقكم، ولم تكونوا شيئاً، كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم.

﴿و﴾ إذا كانت القيامة ﴿لَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالكفر والمعاصي جميع ﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من ذهب وفضة وغيرهما، لتفتدي به من عذاب الله ﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ ولما نفعها ذلك، وإنما النفع والضرر، والثواب والعقاب، على الأعمال الصالحة والسيئة.

﴿وَأَسْرُوا﴾ [أي:] الذين ظلموا ﴿النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ ندموا على ما قدموا، ولات حين مناص ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي. ولهذا قال: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعية والبراهين النقلية والعقلية.

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، وسائر أنواع التدبير^(٢)، لا شريك له في ذلك.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

يوجب انبساط النفس ونشاطها، وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للازدياد منها، وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم كما قال [تعالى عن] قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ .

وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل المناقض لما جاءت به الرسل: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ .

(٥٩، ٦٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ يقول تعالى - منكرًا على المشركين الذين ابتدعوا تحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم (١) -: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ﴾ يعني أنواع الحيوانات المحللة التي جعلها الله رزقًا لهم ورحمة في حقهم .

قل لهم - موبخًا على هذا القول الفاسد -: ﴿ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ؟ ومن المعلوم أن الله لم يأذن لهم فعملهم مفترون .

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أن يفعل الله بهم من النكال، ويحل بهم من العقاب، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ كثير، وذو إحسان جزيل، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، إما ألا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يُحرموا منها، ويردوا ما من الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويشني بها على الله، ويستعين بها على طاعته .

ويستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة، الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده .

(٦١) ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ يخبر تعالى عن عموم مشاهدته، واطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم، وفي ضمن هذا، الدعوة لمراقبته على الدوام فقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ أي: حالٍ من أحوالك الدينية والدنيوية ﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ﴾ أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك .

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَارًا وَأَوَّالِ الْعَذَابِ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٩) ﴿إِنَّا إِنَّا لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِنَّا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥) هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٦) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ فَجَدَاءً تَكُمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءً لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَاللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ (٥٩) ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦٠) ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٦١)

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ صغير أو كبير ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: وقت شروءكم فيه، واستمراركم على العمل به .

فراقبوا الله في أعمالكم، وأدوها على وجه النصيحة والاجتهاد فيها، وإياكم وما يكره الله تعالى، فإنه مطلع عليكم، عالم بظواهركم وبواطنكم .

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ﴾ أي: ما يغيب (٢) عن علمه وسمعته وبصره ومشاهدته ﴿مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه .

وهاتان المرتبتان من مراتب القضاء والقدر، كثيرًا ما يقرن الله بينهما، وهما العلم المحيط بجميع الأشياء، وكتابته المحيطة بجميع الحوادث، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ .

(١) في ب: ما حرّمه . (٢) في النسختين: ما يغاب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٦

الَّذِينَ آمَنُوا

الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ يخبر تعالى عن أوليائه وأحبابه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم، وثوابهم، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا يبدل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ۝ فيما يستقبلونه، مما أمامهم من المخاوف والأحوال ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى، بامتنال الأمر واجتناب النواهي. فكل من كان مؤمناً تقياً، كان لله [تعالى] ولياً، و﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

أما البشارة في الدنيا، فهي النناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عنه مساوئ الأخلاق.

وأما في الآخرة فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَّبِعُ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾. فكل من كان مؤمناً تقياً، كان لله [تعالى] ولياً، و﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

أما البشارة في الدنيا، فهي النناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عنه مساوئ الأخلاق.

وأما في الآخرة فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَّبِعُ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾.

تُعْزَمُهُمْ، ولا تضرك شيئاً ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ يؤتيها من يشاء، ويمنعها ممن يشاء.

قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً﴾ أي: فليطلبها بطاعته، بدليل قوله بعده: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾.

ومن المعلوم أنك على طاعة الله، وأن العزة لك ولاتباعك من الله ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: سمعه قد أحاط بجميع الأصوات، فلا يخفى عليه شيء منها.

وعلمه قد أحاط بجميع الظواهر والبواطن، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

وهو - تعالى - يسمع قولك وقول أعدائك فيك، ويعلم ذلك تفصيلاً، فاكتف بعلم الله وكفايته، فمن يتق الله فهو

حسبه.

﴿٦٦، ٦٧﴾ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا يبدل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ۝ يخبر تعالى عن أوليائه وأحبابه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم، وثوابهم، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا يبدل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ۝ فيما يستقبلونه، مما أمامهم من المخاوف والأحوال ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا يبدل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ۝ يخبر تعالى عن أوليائه وأحبابه، ويذكر أعمالهم وأوصافهم، وثوابهم، فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا يبدل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ۝ فيما يستقبلونه، مما أمامهم من المخاوف والأحوال ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما أسلفوا، لأنهم لم يسلفوا إلا صالح الأعمال، وإذا كانوا لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، ثبت لهم الأمن والسعادة، والخير الكثير الذي لا يعلمه إلا الله تعالى.

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وصدقوا إيمانهم باستعمال التقوى، بامتنال الأمر واجتناب النواهي. فكل من كان مؤمناً تقياً، كان لله [تعالى] ولياً، و﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

أما البشارة في الدنيا، فهي النناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عنه مساوئ الأخلاق.

وأما في الآخرة فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَّبِعُ لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾. فكل من كان مؤمناً تقياً، كان لله [تعالى] ولياً، و﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

وفي القبر، ما يبشره من رضا الله تعالى، والنعيم المقيم. وفي الآخرة، تمام البشري بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

﴿لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ بل ما وعد الله فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبدله، لأنه الصادق في قوله، الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب. وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشري شاملة لكل خير وثواب، رتبته الله في الدنيا والآخرة على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك فلم يقيد.

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَا يَحْزَنُونَ﴾ أي: ولا يحزنون قول المكذبين فيك من الأقوال التي يتوصلون بها إلى القدر فيك، وفي دينك، فإن أقوالهم لا

ولدا إلا لنقص في غناه.

البرهان الثاني، قوله: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السموات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد ممالك.

ومن المعلوم أن هذا الوصف العام، ينافي أن يكون له منهم ولد، فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقاً ولا مملوكاً. فملكه لما في السموات والأرض عموماً، تنافي الولادة.

البرهان الثالث، قوله: ﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ هَذَا﴾ أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن الله ولداً، فلو كان لهم دليل لأبدوه. فلما تحداهم وعجزهم عن إقامة الدليل، علم بطلان ما قالوه. وأن ذلك قول بلا علم، ولهذا قال: ﴿أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فإن هذا من أعظم المحرمات.

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: لا ينالون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى الله، ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

(٧١-٧٣) ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرَ اللَّهِ وَأَطِيعُوا أَمْرَ رَسُولِهِ وَأَقْرَبُوا بِاللَّهِ مَنَاجِدَ الَّذِينَ نَدُّوا أَنَّ إِلَهُاتِهِمْ إِلَهٌ مَعَهُ وَلَا تُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ فَرَجًا وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأَنزَلْنَا عَلَيْهِ الْعَذَابَ لَمَّا كَذَبَ إِنَّ إِلَهُاتِهِمْ لَشُرٌّ مِمَّا يُشْرِكُونَ﴾

يقول تعالى لنيه: ﴿وَأَتْلُ﴾ على قومك ﴿نَبَأَ نُوحٍ﴾ في دعوته لقومه، حين دعاهم إلى الله مدة طويلة، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يزداهم دعاؤه إياهم إلا طغياناً فتملأوا منه وسموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل ولا متوان في دعوته، فقال لهم: ﴿يَقُولُونَ إِنْ كَانَ رَبُّنَا اللَّهُ لَمَا نَمْلِكُ لَهُ عَدُوًّا وَلَا جَبَلًا مَعَهُ﴾ أي: إن كان ربنا الله عندكم وتذكيري إياكم ما ينفعكم^(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الصَّالِفِينَ﴾ الأداة الواضحة البيّنة، قد شق عليكم، وعظم لديكم، وأردتم أن تتألوني بسوء أو تردوا الحق ﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت على الله في دفع كل شر يراد بي، وبما أَدْعُو إليه، فهذا جندي وعُدَّتِي. وأنتم فأتوا بما قدرتم عليه من أنواع العَدَدِ والعُدَدِ.

(١) في ب: بما يشاء. (٢) في النسختين: ما ينفعهم.

إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ○ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿يخبر تعالى أن له ما في السموات والأرض، خلقاً وملكاً وعبداً، يتصرف فيهم بما شاء^(١) من أحكامه. فالجميع ممالك لله، مسخرون مدبرون، لا يستحقون شيئاً من العبادة، وليسوا شركاء لله بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَشْعُرُ أَذْرَبًا بِدُعْوَى رَبِّهِ إِنَّ أَوَّلَ شُرَكَائِهِمْ هُوَ إِلَّا ظَنًّا﴾ الذي لا يغني من الحق شيئاً ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ في ذلك خرص كذب وإفك وبهتان.

فإن كانوا صادقين، في أنها شركاء لله، فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة، فلن يستطيعوا. فهل منهم أحد يخلق شيئاً أو يرزق، أو يملك شيئاً من المخلوقات، أو يدبر الليل والنهار الذي جعله الله قياماً للناس؟.

و ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ في النوم والراحة بسبب الظلمة التي تغشى وجه الأرض، فلو استمر الضياء لما قرأوا، ولما سكنوا.

﴿وَجَعَلَ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِيزَانَ﴾ أي: مضيئاً، يصبر به الخلق، فيتصرفون في معاشهم، ومصالح دينهم ودنياهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ﴾ عن الله سمع فهم وقبول واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد، فإن في ذلك آيات لقوم يسمعون، يستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرؤوف الرحيم العليم الحكيم.

(٦٨-٧٠) ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ هَذَا﴾ ﴿أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ○ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ○ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّا رَمَجْنَاهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ يقول تعالى - مخبراً عن بهت المشركين لرب العالمين - ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فنزه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: تنزه عما يقول الظالمون، في نسبة النقائص إليه علواً كبيراً، ثم برهن عن ذلك بعدة براهين:

أحدها: قوله: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستغرقة فيه، فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه، فإذا كان غنياً من كل وجه، فلا شيء يتخذ الولد؟

ألحاجة منه إلى الولد، فهذا مناف لغناه، فلا يتخذ أحد

في أقطار الأرض ﴿وَأَعْرَفْنَا الْأَرْضَ﴾ ﴿وَأَعْرَفْنَا الْأَرْضَ كَذَبُوا بِبَيِّنَاتٍ﴾ بعد ذلك البيان، وإقامة البرهان.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُذْرِبِينَ﴾ وهو الهلاك المخزي، واللعنة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لومًا، ولا ترى إلا قدحًا وذمًا.

فليحذر هؤلاء المكذوبون أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقسام المكذبين، من الهلاك والخزي والنكال.

(٧٤) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ المكذبين، يدعونهم إلى الهدى، ويحذرونهم من أسباب الردى.

﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: كل نبي أئد دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني: أن الله تعالى عاقبهم، حيث جاءهم الرسول، فبادروا بتكذيبه، طبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكنين منه، كما قال تعالى: ﴿وَنُقِلَبَ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي: نختم عليها، فلا يدخلها خير. وما ظلمهم [الله]، ولكنهم ظلموا أنفسهم بردهم الحق لما جاءهم، وتكذيبهم الأول.

(٧٥) ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمُ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ إلى آخر القصة. (٣) أي: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾ من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين المهلكين.

﴿مُوسَى﴾ بن عمران كليم الرحمن، أحد أولي العزم من المرسلين، وأحد الكبار المقتردي بهم، المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة.

﴿وَوَجَعْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ﴾ وزيرًا، بعثناهما ﴿إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: كبار دولته ورؤسائهم، لأن عامتهم تبع للرؤساء.

﴿بَيِّنَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به من توحيد الله، والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا﴾ عنها ظلمًا وعلوًا، بعدما استيقنوها.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ أي: وصفهم الإجرام والتكذيب.

(١) في النسختين: ولا تذخرون. (٢) في النسختين: بادي. (٣) في بأكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ﴾ كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تذخروا^(١) من مجهودكم شيئًا.

﴿وَأَحْضَرُوا﴾ ﴿شُرَكَاءَكُمُ﴾ الذين كنتم تعبدونهم وتوالونهم من دون الله رب العالمين.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرِكُمْ عَلَيْكُمْ غَنَةً﴾ أي: مشتبهًا خفيًا، بل ليكن ذلك ظاهرًا علانية.

﴿ثُمَّ أَقْضَوْا إِلَيْكَ﴾ أي: اقضوا عليّ بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، ﴿وَلَا تُنظَرُونَ﴾ أي: لا تتهلون ساعة من نهار. فهذا برهان قاطع، وآية عظيمة على صحة رسالته، وصدق ما جاء به، حيث كان وحده لا عشيرة تحميه، ولا جنود تؤويه.

وقد بادأ^(٢) قومه بتسفيه آرائهم، وفساد دينهم، وعيب آلهتهم. وقد حملوا من بغضه وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسلطنة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدرُوا على شيء من ذلك.

فعلم أنه الصادق حقًا، وهم الكاذبون فيما يدعون، ولهذا قال:

﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ عن ما دعوتكم إليه، فلا موجب لتوليكم، لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته، إلى باطل قامت الأدلة على فساده.

ومع هذا ﴿فَمَا سَأَلْتَكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ على دعوتي، وعلى إجابتكم فتقولوا: هذا جانا لياخذ أموالنا، فتمتنعون لأجل ذلك ﴿إِن آجَرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا أريد الثواب والجزاء إلا منه ﴿وَأَيْضًا فَإِنِّي مَا أَمَرْتُمْ بِأَمْرٍ وَأَخَافُكُمْ إِلَى ضِدِّهِ، بَلْ أَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ فانا أول داخل، وأول فاعل لما أمرتكم به.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ بعدما دعاهم ليلاً ونهارًا، وسرًا وجهارًا، فلم يزداهم دعاؤه إلا فرارًا، ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلَيْنِ﴾ الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقلنا له إذا فار التور: ﴿فَأَجْمَلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾ ففعل ذلك.

فأمر الله السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيونًا، فالتقى الماء على أمر قد قُدر: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسْرٍ﴾ تجري بأعيننا ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ حَلَائِفَ﴾ في الأرض، بعد إهلاك المكذبين.

ثم بارك الله في ذريته، وجعل ذريته هم الباقين، ونشرهم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٧

سورة يونس

﴿٧٦﴾ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَائِجٌ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوَّمُونَ وَإِنْ كَانَ كِبْرًا عَلَيْكُمْ
مَقَامِي وَتَذَكَّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا
أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غَمَةً ثُمَّ اقْضُوا
إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ
أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٧﴾
فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ
وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَكَبِّرِينَ
﴿٧٨﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
فَمَا كَانُوا لِلْيَوْمِئَاتِ بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ
الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٩﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى
فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٨٠﴾
فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُؤْتَمِنٌ ﴿٨١﴾
قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ
السَّاحِرُونَ ﴿٨٢﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عِوَابًا وَعَدَّا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا
وَتَكُونُ لَكُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨٣﴾

وهارون، ولا لاشتباه فيه، ولا لغير ذلك من المعاني، سوى
الظلم والعدوان، وإرادة العلو الذي رما به موسى وهارون.
﴿٧٩﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴿٧٩﴾ معارضاً للحق الذي جاء به موسى
مغالطاً^(٢) لملكه وقومه: ﴿أَتَأْتُونَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيِّرٍ﴾ أي: ماهر
بالسحر، متقن له.

فأرسل في مدائن مصر من أتاه بأنواع السحرة، على
اختلاف أجناسهم وطبقاتهم.

﴿٨٠﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ﴾ للمغالبة مع موسى^(٣) ﴿قَالَ لَهُمْ
مُوسَى الْقَوْلُ مَا أُنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ أي: أي شيء أردتم، لا أعين لكم
شيئاً، وذلك لأنه جازم بغلبته، غير مبال بهم، وبما جاءوا به.

﴿٨١﴾ ﴿فَلَمَّا الْقَوْلُ﴾ جبالهم وعصبيهم، إذا هي كأنها حيات
تسعى، ﴿فَقَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ﴾ أي: هذا السحر
الحقيقي العظيم، ولكن مع عظمته ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيُبْلِغُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا
يُضِلُّ عَمَلِ الْمُتَّقِينَ ﴿فإنهم يريدون بذلك نصر الباطل على
الحق، وأي فساد أعظم من هذا؟!﴾

(١) في ب: وقوله. (٢) في ب: ومغالبا. (٣) في ب: للمغالبة
لموسى.

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ الذي هو أكبر أنواع
الحق وأعظمها، وهو من عند الله الذي خضعت لعظمته
الرقاب، وهو رب العالمين، المرابي جميع خلقه بالنعيم.

فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى ردوه فلم
يقبلوه، و﴿قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُؤْتَمِنٌ﴾ لم يفهمهم - فبحهم الله -
إعراضهم ولا ردهم إياه، حتى جعلوه أبطل الباطل، وهو
السحر الذي حقيقته التمويه، بل جعلوه سحراً مبيئاً ظاهراً،
وهو الحق المبين.

﴿٧٧﴾ ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿مُؤْتَمِنٌ﴾ - موبخاً لهم عن ردهم
الحق الذي لا يرده إلا أظلم الناس -: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا
جَاءَكُمْ﴾ أي: أ تقولون إنه سحر مبين؟.

﴿أَسِحْرٌ هَذَا﴾ أي: فانظروا وصفه وما اشتمل عليه،
فبمجرد ذلك يجزم بأنه الحق. ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ لا في
الدنيا ولا في الآخرة، فانظروا لمن تكون له العاقبة، ولمن له
الفلاح، وعلى يديه النجاح. وقد علموا بعد ذلك، وظهر لكل
أحد أن موسى عليه السلام هو الذي أفلح، وفاز بظفر الدنيا
والآخرة.

﴿٧٨﴾ ﴿قَالُوا﴾ لموسى رادين لقوله بما لا يرده: ﴿أَجِئْتَنَا
لِنَلْفِنَا عِوَابًا وَعَدَّا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي: أجتنا لتصدنا عما وجدنا
عليه آباءنا من الشرك وعبادة غير الله، وتأمرنا بأن نعبد الله
وحده لا شريك له؟ ففعلوا قول آباؤهم الضالين حجة، يردون
بها الحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام.

وقولهم^(١): ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: وجتتمونا
لتكونوا أتم الرؤساء، ولتخرجونا من أرضنا. وهذا تمويه
منهم، وترويج على جهالهم، وتهيج لعوامهم على معاداة
موسى، وعدم الإيمان به.

وهذا لا يحتج به من عرف الحقائق وميز بين الأمور، فإن
الحجج لا تدفع إلا بالحجج والبراهين.

وأما من جاء بالحق فرد قوله بأمثال هذه الأمور، فإنها تدل
على عجز موردها عن الإتيان بما يرد القول الذي جاء به
خصمه، لأنه لو كان له حجة لأوردها، ولم يلجأ إلى قوله:
قصدك كذا، أو مرادك كذا، سواء كان صادقاً في قوله وإخباره
عن قصد خصمه أم كاذباً، مع أن موسى عليه الصلاة
والسلام، كل من عرف حاله وما يدعو إليه، عرف أنه ليس له
قصد في العلو في الأرض. وإنما قصده كقصد إخوانه
المرسلين: هداية الخلق، وإرشادهم لما فيه نفعهم.

ولكن حقيقة الأمر كما نطقوا به بقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ
بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تكبراً وعناداً، لا لبطان ما جاء به موسى

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَقْتَوِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ
 قَال لَّهُمْ مُوسَى الْقَوَا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا الْقَوَا قَال
 مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطٌ لَهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ
 عَمَلُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٨﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ
 الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى إِلا ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ عَلَى
 خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ
 فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٠﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ
 ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨١﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ
 تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٢﴾ وَنَحْنَا
 بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ
 أَن تَوَجَّءَا لِقَوْمِكَمَا بَيَّضَرْتُمَا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبَلَةَ
 وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَقَالَ مُوسَى
 رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ
 وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٥﴾

(٨٧) ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ ﴾ حين اشتد الأمر على
 قومه من فرعون وقومه، وحرصوا على فتنهم عن دينهم.
 ﴿ أَن تَوَجَّءَا لِقَوْمِكَمَا بَيَّضَرْتُمَا ﴾ أي: مروهم أن يجعلوا لهم
 بيوتًا، يتمكنون [به] من الاستخفاء فيها.
 ﴿ وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبَلَةَ ﴾ أي: اجعلوها محلًا تصلون
 فيها، حيث عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس، والبيع
 العامة.

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ فإنها معونة على جميع الأمور، ﴿ وَبَشِّرِ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بالنصر والتأييد، وإظهار دينهم، فإن مع العسر
 يسرًا، إن مع العسر يسرًا، وحين اشتد الكرب وضاق الأمر،
 فرَّج الله ووسعه، فلما رأى موسى القسوة والإعراض من
 فرعون وملئه^(١) دعا عليهم، وأمن هارون على دعائه، فقال:

(٨٨) ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً ﴾ يتزينون بها
 من أنواع الحلبي والثياب، والبيوت المزخرقة، والمراكب
 الفاخرة، والخدام، ﴿ وَأَمْوَالًا ﴾ عظيمة ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا

(١) في النسختين: وملئهم، ولعل الصواب ما أثبت.

وهكذا كل مفسدٍ عمل عملاً، واحتال كيدًا، أو أتى
 بمكر، فإن عمله سيظل ويضمحل، وإن حصل لعمله روجانٌ
 في وقت ما، فإن ماله الاضمحلال والمحق.

وأما المصلحون الذين قصدهم بأعمالهم وجه الله تعالى،
 وهي أعمال ووسائل نافعة مأمور بها، فإن الله يصلح أعمالهم
 ويرقيها، وينميها على الدوام، فألقى موسى عصاه، فتلقف
 جميع ما صنعوا، فظل سحرهم، واضمحل باطلهم.

(٨٢) ﴿ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ فألقي
 السحرة سجداً، حين تبين لهم الحق، فتوعدهم فرعون
 بالصلب، وتقطيع الأيدي والأرجل، فلم يبالوا بذلك وثبتوا
 على إيمانهم.

وأما فرعون وملؤه وأتباعهم، فلم يؤمن منهم أحد، بل
 استمروا في طغيانهم يعمهون، ولهذا قال:

(٨٣) ﴿ فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى إِلا ذُرِّيَّتُهُ مِّن قَوْمِهِ ﴾ أي: شباب من
 بني إسرائيل، صبروا على الخوف، لما ثبت في قلوبهم
 الإيمان.

﴿ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴾ عن دينهم ﴿ وَإِنَّ
 فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: له القهر والغلبة فيها، فحقيق بهم
 أن يخافوا من بطشه.

﴿ وَ ﴾ خصوصاً ﴿ إِنَّهُ ﴾ كان ﴿ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي:
 المتجاوزين للحد في البغي والعُدوان.

والحكمة - والله أعلم - بكونه ما آمن لموسى إلا ذرية من
 قومه، أن الذرية والشباب أقبَلُ للحق، وأسرع له انقيادًا،
 بخلاف الشيوخ ونحوهم، ممن تربى على الكفر فإنهم -
 بسبب ما مكث في قلوبهم من العقائد الفاسدة - أبعد من الحق
 من غيرهم.

(٨٤) ﴿ وَقَالَ مُوسَى ﴾ موصياً لقومه بالصبر، ومذكراً لهم ما
 يستعينون به على ذلك فقال: ﴿ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ ﴾ فقوموا
 بوظيفة الإيمان.

﴿ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ أي: اعتمدوا عليه، والنجأوا
 إليه واستنصروه.

(٨٥) ﴿ فَقَالُوا ﴾ ممثلين لذلك: ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا
 فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: لا تسلطهم علينا فيفتنونا، أو
 يغلبونا فيفتنونا بذلك، ويقولون: لو كانوا على حق لما
 غلبوا.

(٨٦) ﴿ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ لنسلم من شرهم،
 ولنقيم [على] ديننا على وجه تتمكن به من إقامة شرائعه،
 وإظهاره من غير معارض، ولا منازع.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ فَمَا فَسَّخِمْمَا وَلَا تَتَّبِعَان سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْكَنَّ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِيَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمْبُؤًا صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعَمَلُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِءَايَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّى بَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ﴿٨٩﴾ أي: إن أموالهم لم يستعينوا بها إلا على الإضلال في سبيلك، فَيُضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: أتلفها عليهم إما بالهلاك، وإما بجعلها حجارة غير متففع بها.

﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: فسَّخِمْمَا ﴿فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى بَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

قال ذلك غضبًا عليهم، حيث تجرأوا على محارم الله، وأفسدوا عباد الله، وصدوا عن سبيله، ولكمال معرفته بربه، بأن الله سيعاقبهم على ما فعلوا، بإغلاق باب الإيمان عليهم.

(٨٩) ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ﴾ هذا دليل على أن موسى [كان] يدعو، وهارون يؤمن على دعائه، وأن الذي يؤمن يكون شريكًا للداعي في ذلك الدعاء.

﴿فَمَا فَسَّخِمْمَا﴾ على دينكما، واستمرا على دعوتكما ﴿وَلَا تَتَّبِعَان سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تتبعان سبيل الجهال الضلال، المنحرفين عن الصراط المستقيم، المتبعين لطرق الجحيم. فأمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أنهم يُتبعون، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين، يقولون: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ أي: موسى وقومه ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ وَوَلَهُمْ لَنَا لَعَاطِفُونَ ﴿وَلَنَا لَجِيعٌ حَذِرُونَ﴾.

فجمع جنوده، قاصيهم ودانيهم، فأتبعهم بجنوده بغيًا وعدوًا، أي: خروجهم باغين على موسى وقومه، ومعتدين في الأرض. وإذا اشتد البغي، واستحكم الذنب، فانتظر العقوبة.

(٩٠) ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ وذلك أن الله أوحى إلى موسى لما وصل البحر، أن يضربه بعصاه فضربه، فانلق اثني عشر طريقًا، وسلكه بنو إسرائيل. وساق فرعون وجنوده خلفه (١) داخلين.

فلما استكمل موسى وقومه خارجين من البحر، وفرعون وجنوده داخلين فيه، أمر الله البحر فالتطم على فرعون وجنوده، فأغرقهم، وبنو إسرائيل ينظرون.

حتى إذا أدرك فرعون العرق، وجزم بهلاكه ﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ﴾ وهو الله الإله الحق الذي لا إله إلا هو ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المتقادين لدين الله، ولما جاء به موسى.

(٩١) قال الله تعالى - مبيِّنًا أن هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع له -: ﴿ءَأَلْكَنَّ﴾ تؤمن، وتقر برسول الله ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ أي: بارزت بالمعاصي، والكفر والتكذيب ﴿وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فلا ينفعك الإيمان كما جرت عادة الله، أن

الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم، لأن إيمانهم صار إيمانًا مشاهدًا كإيمان من ورد القيامة، والذي ينفع إنما هو الإيمان بالغيب.

(٩٢) ﴿فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِيَتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ ءَايَةً﴾ قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من الرعب العظيم من فرعون، كأنهم لم يصدقوا بإغراقه، وشكوا في ذلك. فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة مرتفعة ببدنه، ليكون لهم عبرة وآية.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ فلذلك تمر عليهم وتكرر فلا ينتفعون بها، لعدم إقبالهم عليها.

وأما من له عقل وقلب حاضر، فإنه يرى من آيات الله ما هو أكبر دليل على صحة ما أخبرت به الرسل.

(٩٣) ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ يَمْبُؤًا صِدْقٍ﴾ أي: أنزلهم الله وأسكنهم في مساكن آل فرعون، وأورثهم أرضهم وديارهم.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المطاعم والمشارب وغيرها

(١) في أ: وجنودهم خلفهم، وفي ب عدلت إلى: وجنوده خلفه.

ومن بعده^(١) وكعب الأخبار وغيرهما .

ومنها: أن شهادة أهل الكتاب للرسول ﷺ مبنية على كتابهم التوراة الذي ينتسبون إليه، فإذا كان موجوداً في التوراة ما يوافق القرآن ويصدق، ويشهد له بالصحة، فلو اتفقوا من أولهم لآخرهم^(٢) على إنكار ذلك، لم يقدح بما جاء به الرسول .

ومنها: أن الله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاءه، وأظهر ذلك وأعلنه على رؤوس الأشهاد .

ومن المعلوم أن كثيراً منهم من أحرص الناس على إبطال دعوة الرسول محمد ﷺ . فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله، لأبدوه وأظهروه وبينوه . فلما لم يكن شيء من ذلك، كان عدم رد المعادي، وإقرار المستجيب من أدل الأدلة على صحة هذا القرآن وصدقه .

ومنها: أنه ليس أكثر أهل الكتاب رد دعوة الرسول، بل أكثرهم استجاب لها، وانقاد طوعاً واختياراً، فإن الرسول بعث وأكثر أهل الأرض المتدينين أهل كتاب^(٣) .

فلم يمكث دينه مدة غير كثيرة، حتى انقاد للإسلام أكثر أهل الشام، ومصر، والعراق، وما جاورها من البلدان التي هي مقر دين أهل الكتاب، ولم يبق إلا أهل الرياسات الذين آثروا رياستهم على الحق، ومن تبعهم من العوام الجهلة، ومن تدين بدينهم اسماً لا معنى: كالإفرنج الذين حقيقة أمرهم أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل . وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويحاً لملكهم، وتمويهاً لباطلهم، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البيئة الظاهرة .

وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ﴾ أي: الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ولهذا قال: ﴿مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ كقوله تعالى: ﴿كَيْتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ .

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين: الشك في هذا القرآن والامتراء فيه .

وأشد من ذلك التكذيب به، وهو آيات الله البيئات التي لا تقبل التكذيب بوجه، ورتب على هذا الخسار وهو عدم الربح أصلاً، وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة، والنهي عن الشيء أمر بضده،

(١) زيادة من هامش ب، بخط المؤلف، وقد شطبت في ب الجملة التالية، وهي قوله: (وكعب الأخبار وغيرهما) . (٢) في النسختين: وآخرهم، ولعل الصواب ما أثبت . (٣) في ب: أهل الكتاب .

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا﴾ في الحق ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ الموجب لاجتماعهم واتلافهم، ولكن بغى بعضهم على بعض، وصار لكثير منهم أهوية وأغراض تخالف الحق، فحصل بينهم من الاختلاف شيء كثير .

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بحكمه العدل الناشء عن علمه التام، وقدرته الشاملة، وهذا هو الداء الذي يعرض لأهل الدين الصحيح وهو: أن الشيطان إذا أعجزوه أن يطيعوه في ترك الدين بالكلية، سعى في التحريش بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، فحصل من الاختلاف ما هو موجب ذلك، ثم حصل من تضليل بعضهم لبعض، وعداوة بعضهم لبعض، ما هو قوة عين اللعين .

وإلا فإذا كان ربهم واحداً، ورسولهم واحداً، ودينهم واحداً، ومصالحهم العامة متفقة، فلا شيء يختلفون اختلافاً يفرق شملهم، ويشتت أمرهم، ويحل رابطتهم ونظامهم، فيفوت من مصالحهم الدينية والدنيوية ما يفوت ويموت من دينهم بسبب ذلك ما يموت؟ .

فنسألك اللهم لطفاً بعبادك المؤمنين، يَجْمَعْ شملهم ويرأب صدعهم، ويرُدُّ قاصيهم على دانيهم، يا ذا الجلال والإكرام .

(٩٤، ٩٥) ﴿فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ بَيْنِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ولا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَإِن كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ هل هو صحيح أم غير صحيح؟

﴿فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ بَيْنِكَ﴾ أي: أسأل أهل الكتاب المنصفين، والعلماء الراسخين، فإنهم سيقرون لك بصدق ما أخبرت به، وموافقته لما معهم . فإن قيل: إن كثيراً من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، بل ربما كان أكثرهم ومعظمهم كذبوا برسول الله وعاندوه، وردوا عليه دعوته .

والله تعالى أمر رسوله أن يستشهد بهم، وجعل شهادتهم حجة لما جاء به، وبرهاناً على صدقه، فكيف يكون ذلك؟ فالجواب عن هذا من عدة أوجه:

منها: أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، أو أهل مذهب، أو بلد ونحوهم، فإنها إنما تتناول العدول الصادقين منهم .

وأما من عداهم، فلو كانوا أكثر من غيرهم فلا عبرة فيهم، لأن الشهادة مبنية على العدالة والصدق، وقد حصل ذلك بإيمان كثير من أحبارهم الربانيين، كـ «عبد الله بن سلام» [وأصحابه، وكثير ممن أسلم في وقت النبي ﷺ، وخلفائه،

فيكون أمرًا بالصدق التام بالقرآن، وطمأنينة القلب إليه، والإقبال عليه علمًا وعملاً.

فبذلك يكون العبد من الراحين الذين أدركوا أجل المطالب، وأفضل الرغائب، وأتم المناقب، وانفض عنهم الخسار.

(٩٧، ٩٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: إنهم من الضالين الغاوين أهل النار، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه، فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية، فلا تزيدهم الآيات إلا طغيانًا، وغيًا إلى غيهم، وما ظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به.

فحينئذ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق. ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئًا، فيؤمنون لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم، ولا هم يستعتبون، وأما الآيات فإنها تنفع من له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

(٩٨) ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُنْسَىٰ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءِعَذَابَ الْآخِرِي فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ يقول تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ من قرى المكذبين ﴿ءَامَنَتْ﴾ حين رأت العذاب ﴿فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ أي: لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريبًا، لما قال: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ، بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ف قيل له: ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ۖ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سَتَّ اللَّهُ الَّذِي قَدْ حَلَّتْ فِي عِبَادِهِ﴾.

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْحَمْنِي ۖ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإن الإيمان الاضطراري ليس بإيمان حقيقة، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان، لرجع إلى الكفران.

وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمٌ يُنْسَىٰ لَمَّا ءَامَنُوا﴾ بعدما رأوا العذاب ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءِعَذَابَ الْآخِرِي فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فهم مستثنون من العموم السابق. ولا بد لذلك من حكمة لعالم

الغيب والشهادة لم تصل إلينا، ولم تدرکہا أفهامنا. قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُوسُفَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ بَنَاتِ آلِ فِرْعَوْنَ أَن يُبْدِيَنَّ لَهُنَّ آيَاتِنَا فَهَرَّجْنَ بِهَا يَاقُوتَ بْنَ إِسْحَاقَ ۖ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفُ الْأُولَىٰ رَجَعْنَ إِلَيْهِ وَكَلِمَتُهُ لَهُنَّ كَالْحِجَابِ ۖ وَإِنَّهُنَّ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين، لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر، [بل قد استمر فعلاً وثبتوا عليه]^(١)، والله أعلم.

(٩٩، ١٠٠) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَىٰ لَأْمَانَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا ۖ فَأَنتَ تَكْذِبُ ۗ النَّاسُ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۖ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآتَىٰ لَأْمَانَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ بأن يلهمهم الإيمان، ويوزع قلوبهم للتقوى، فقدرته صالحة لذلك، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين، وبعضهم كافرين.

﴿فَأَنتَ تَكْذِبُ ۗ النَّاسُ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تقدر على ذلك، وليس في إمكانك، ولا قدرة لغير الله^(٢) [على]^(٣) شيء من ذلك.

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بإرادته ومشيته، وإذنه القدري الشرعي، فمن كان من الخلق قابلاً لذلك، يزكو عنده الإيمان، وفقه وهده.

﴿وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ﴾ أي: الشر والضلال ﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ عن الله وأمره ونواهيته، ولا يلقون بالآ لنصائحه ومواعظه.

(١٠١-١٠٣) ﴿قُلِ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْبَىٰ الْآلِهَةِ ۖ وَالَّذِينَ عَنِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۖ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِمُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلِ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنظِرِينَ ۖ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَجِجَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يدعو تعالى عباده إلى النظر لما في السموات والأرض، والمراد بذلك: نظر الفكر والاعتبار والتأمل، لما فيها وما تحتوي عليه، والاستبصار، فإن في ذلك آيات لقوم يؤمنون، وعبرًا لقوم يوقنون، تدل على أن الله وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأسماء والصفات العظام.

﴿وَمَا تُعْبَىٰ الْآلِهَةِ ۖ وَالَّذِينَ عَنِ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم لا ينتفعون بالآيات لإعراضهم وعنادهم.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِمُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: فهل ينتظر هؤلاء الذين لا يؤمنون بآيات الله بعد وضوحها ﴿إِلَّا مِثْلَ آبَائِهِمُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من الهلاك

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في النسختين: غير الله، وكان لا بد من زيادة اللام لتستقيم العبارة. (٣) زيادة يقتضيا السياق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا لَأَقْوَمَ بُوُسٌ لَمَّا
ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ
إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُفُومَهُمْ
جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾ وَمَا
كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ
عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٨﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا نَعْنِي بِالْآيَاتِ وَالنَّذْرُوعِن قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ
قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿١١٠﴾ ثُمَّ نُنَجِّي
رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نَسِجَ الْمُؤْمِنِينَ
﴿١١١﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا
تَعْبُدُون مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنِ اعْبُدِ اللَّهَ الَّذِي تَتَوَفَّكُم وَآمُرْتُ
أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ وَأَنْ أَمُرَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٣﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ ﴿١١٤﴾

غيره، لكان من الظالمين المشركين فكيف بغيره!؟

(١٠٧) ﴿وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ
وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ هذا من أعظم الأدلة على أن الله وحده
المستحق للعبادة، فإنه النافع الضار، المعطي المانع، الذي
إذا مسَّ بضر: كقفر ومرض، ونحوها ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا
هُوَ﴾ لأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوا بشيء لم ينفعوا إلا
بما كتبه الله، ولو اجتمعوا على أن يضروا أحدًا لم يقدروا على
شيء من ضرره، إذا لم يردّه الله.

ولهذا قال: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أي: لا
يقدر أحد من الخلق، أن يرد فضله وإحسانه، كما قال تعالى:
﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ
مِن بَعْدِهِ﴾.

﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: يختص برحمته من
شاء من خلقه، والله ذو الفضل العظيم ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لجميع

(١) في ب: أي.

والعقاب، فإنهم صنعوا كصنيعهم، وسنة الله جارية في
الأولين والآخرين.

﴿قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ فستعلمون لمن
تكون له العاقبة الحسنة، والنجاة في الدنيا والآخرة، وليست
إلا للرسول وأتباعهم.

ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ من مكاره
الدنيا والآخرة، وشدائدهما.

﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾
وهذا من دفعه عن المؤمنين فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإنه
- بحسب ما مع العبد من الإيمان - تحصل له النجاة من
المكاره.

(١٠٦-١٠٧) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا
اعْبُدِ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنِ اعْبُدِ اللَّهَ الَّذِي تَتَوَفَّكُم وَأَمُرْتُ أَنْ
أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَأَنْ أَمُرَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ
فإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ، سيد
المرسلين، وإمام المتقين وخير الموقنين:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي﴾ أي: في ريب
واشتباه، فإني لست في شك منه، بل لدي العلم اليقيني أنه
الحق، وأن ما تدعون من دون الله باطل، ولي على ذلك الأدلة
الواضحة، والبراهين الساطعة. ولهذا قال: ﴿فَلَا اعْبُدِ الَّذِينَ
تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ من الأنداد والأصنام وغيرها، لأنها لا
تخلق ولا ترزق، ولا تدبر شيئًا من الأمور، وإنما هي مخلوقة
مسخرة، ليس فيها ما يقتضي عبادتها.

﴿وَلَكِنِ اعْبُدِ اللَّهَ الَّذِي تَتَوَفَّكُم﴾ أي: هو الله الذي خلقكم،
وهو الذي يمتيتكم ثم يبعثكم، ليجازيكم بأعمالكم، فهو الذي
يستحق أن يعبد، ويصلى له ويخضع ويسجد.

﴿وَأَمُرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَأَنْ أَمُرَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا
أي: أخلص أعمالك الظاهرة والباطنة لله، وأقم جميع شرائع
الدين حنيفًا، أي: مقبلًا على الله، معرضًا عما سواه ﴿وَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا في حالهم، ولا تكن معهم.

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ وهذا وصف
لكل مخلوق، أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع الضار، هو
الله تعالى.

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ بأن^(١) دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا
يضرك ﴿فإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الضارين أنفسهم
بإهلاكها. وهذا الظلم هو الشرك كما قال تعالى: ﴿إِنَّ
الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، فإذا كان خير الخلق، لو دعا مع الله

الزلات، الذي يوفق عبده لأسباب مغفرته، ثم إذا فعلها العبد، غفر الله ذنوبه كبارها وصغارها.

﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى جميع الموجودات، بحيث لا تستغني عن إحسانه طرفة عين. فإذا عرف العبد بالدليل القاطع أن الله هو المنفرد بالنعم، وكشف النقم، وإعطاء الحسنات، وكشف السيئات والكربات، وأن أحدًا من الخلق ليس بيده من هذا شيء إلا ما أجراه الله على يده، جزم بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ولهذا، لما بين الدليل الواضح قال بعده:

(١٠٨، ١٠٩) ﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِلنَّاسِ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول، لما تبين البرهان ﴿يَتَّيِبُهَا لِلنَّاسِ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: الخبر الصادق المؤيد بالبراهين، الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربكم، الذي من أعظم تربيته لكم أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية، والأخلاق المرضية، ما فيه أعظم تربية لكم وإحسان منه إليكم، فقد تبين الرشد من الغي، ولم يبق لأحد شبهة.

﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ﴾ بهدى الله: بأن علم الحق وتفهمه، وآثره على غيره فلنفسه والله تعالى غني عن عباده، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم.

﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق، أو عن العمل به، ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ ولا يضر الله شيئًا، فلا يضر إلا نفسه.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسيبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل. فانظروا لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال.

﴿وَاتَّبِعْ﴾ أيها الرسول ﴿مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ علمًا وعملاً وحالًا، ودعوة إليه، ﴿وَأَصْبِرْ﴾ على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة، فلا تكسل ولا تضجر، بل دُم على ذلك وأثبت، ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ بينك وبين من كذبك ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ فإن حكمه مشتمل على العدل التام، والقسط الذي يحمد عليه.

وقد امتثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه

وَأَن يَسْسَسَكَ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَتَّيِبُهَا لِلنَّاسِ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

سُورَةُ هُودٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّكِنُ أَحْكَمَتْ أَيْنَهُ ثُمَّ قُضِلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾
الْأَتَقِدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ صُدُورَهُمْ لَيْسَتْ خُفُوفًا مِنْهُ أَلَا حِينًا يَسْتَعْشُونَ شِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

بالسيف والسنان بعدما نصره [الله] عليهم بالحجة والبرهان. فله الحمد، والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

تم تفسير سورة يونس - والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤-١) ﴿الرَّكِنُ أَحْكَمَتْ أَيْنَهُ ثُمَّ قُضِلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝ أَلَا تَقْدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝ وَأَن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُعْطِكُمْ مَنَّاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ۝ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول تعالى: هذا ﴿رَكِنٌ﴾ عظيم، ونزل كريم ﴿أَحْكَمَتْ أَيْنَهُ﴾ أي: اتقنت وأحسنت، صادقة أخبارها،

عادلة وأمرها ونواهيها، فصيحة ألفاظه بهية معانيه.

﴿ثُمَّ قِيلَتْ﴾ أي: ميزت وبينت بياناً في أعلى أنواع البيان، ﴿وَمِن لَّدُنَّ حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته ﴿خَيْرٍ﴾ مطلع على الظواهر والبواطن.

فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير، فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة، وسعة الرحمة. وإنما أنزل الله كتابه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يشرك به أحد من خلقه.

﴿إِنِّي لَكَرُّ﴾ أيها الناس ﴿مِنَهُ﴾ أي: من الله ربكم ﴿نَذِيرٌ﴾ لمن تجرأ على المعاصي، بعقاب الدنيا والآخرة ﴿وَبَشِيرٌ﴾ للمطيعين لله، بثواب الدنيا والآخرة.

﴿وَإِن أَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه، بالإجابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه.

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يُنَبِّئُكُمْ مِّنَّا حَسَنًا﴾ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به وتتفنون.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿وَيُؤْتِي﴾ منكم ﴿كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل عرضتم عنه، وربما كذبتم به ﴿فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ وهو يوم القيامة، الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالدليل على إحياء الله الموتى، فإنه قدير على كل شيء^(١)، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين، فيجب وقوع ذلك عقلاً ونقلاً.

(٥) ﴿أَلَّا إِلَهُمَّ يُتُونُ صُدُورُهُمْ لِيَسْتَخَفُوا مِنْهُ أَلَّا حِينَ يَسْتَعْسِفُونَ يُنَابِهَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين، وشدة ضلالهم أنهم ﴿يَتُونُ صُدُورَهُمْ﴾ أي: يميلونها ﴿لِيَسْتَخَفُوا﴾ من الله، فتقع صدورهم حاجبة لعلم الله بأحوالهم، وبصره لهيئاتهم.

قال تعالى - مبيناً خطأهم في هذا الظن - ﴿أَلَّا حِينَ يَسْتَعْسِفُونَ يُنَابِهَهُمْ﴾ أي يتخطفون بها، يعلمهم في تلك الحال التي هي من أخفى الأشياء.

بل ﴿يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ﴾ من الأقوال والأفعال ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ منها، بل ما هو أبلغ من ذلك، وهو: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها من الإرادات، والوساوس، والأفكار التي لم ينطقوا بها، سرّاً ولا جهراً، فكيف تخفى عليه حالكم، إذا ثبت صدوركم لستخفوا منه.

ويحتمل أن المعنى في هذا، أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول، الغافلين عن دعوته، أنهم - من شدة إعراضهم - ﴿يَتُونُ صُدُورَهُمْ﴾ أي: يحدودبون، حين يرون الرسول ﷺ لثلا يراهم، ويسمعهم دعوته، ويعظمهم بما ينفعهم، فهل فوق هذا الإعراض شيء؟!

ثم توعدهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم، وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

(٦) ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جميع ما دب على وجه الأرض، من آدمي أو حيوان بري أو بحري، فالله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فرزقها^(٢) على الله.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه، وتستقر فيه، وتأوي إليه، ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها ومجيئها، وعوارض أحوالها.

﴿كُلٌّ﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السموات والأرض. الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، ووسعها رزقه. فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها، وصفاتها.

(٨،٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ يَلْبَسُكُمْ مِنْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَكِن قُلْتَ إِنَّكُمْ مَعْرُوفُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولُنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَكِن آخِرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِنَّ أُمَّتَهُمْ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وأولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة ﴿و﴾ حين خلق السموات والأرض ﴿كَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فوق السماء السابعة.

فبعد أن خلق السموات والأرض، استوى عليه، يدبر

(١) في ب: فإنه على كل شيء قدير. (٢) في ب: فرزقهم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٢

سُورَةُ هٰودٍ

﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
 وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ
 عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ
 إِنَّا لَنَكْفُرُ بِمَبْعُوثَاتِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُكُمْ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخْرَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى
 أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْسِبُهُ الْيَوْمَ بِآيَاتِهِمْ لَيْسَ
 مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾
 وَلَئِنْ أذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ
 لَيَكْفُرُ بِكَفُورٍ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ
 مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ﴿١٠﴾
 إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ
 وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إَيْتِكَ
 وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْجَاءَ
 مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾

الصَّلَاحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ يخبر تعالى عن
 طبيعة الإنسان، أنه جاهل ظالم، بأن الله إذا ذاقه منه رحمة،
 كالصحة والرزق والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزعها منه، فإنه
 يستسلم لليأس، ويتقاد للقتوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا
 يخطر بباله أن الله سيردها أو مثلها أو خيرا منها عليه.

وأنه إذا ذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويطير،
 ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير، ويقول: ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي
 إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا﴾ أي: فرح^(٢) بما أوتي مما يوافق هوى نفسه،
 فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشر والبطر
 والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق، واحتقارهم
 وازدرائهم، وأي عيب أشد من هذا؟!.

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله
 وأخرجه من هذا الخلق الذميمة إلى ضده، وهم الذين صبروا
 أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا، وعند السراء فلم يبطروا،
 وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات.

(١) كذا في ب، وفي أ: أشد الكذب. (٢) في ب: يفرح.

الأمر، ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدريّة، والأحكام
 الشرعيّة.

ولهذا قال: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي:
 ليمتحنكم، إذ خلق لكم ما في السموات والأرض بأمره
 ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملا.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «أخلصه وأصوبه».

قيل: يا أبا علي: «ما أخلصه وأصوبه»؟. فقال: إن العمل
 إذا كان خالصا، ولم يكن صوابا، لم يقبل. وإذا كان صوابا،
 ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا.

والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون
 متبعا فيه الشرع والسنة. وهذا كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ
 الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ
 يَتَزَلَّى الْأَمْثِرَ بَيْنَهُنَّ لِيُعَلِّمَهُنَّ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فالله تعالى خلق الخلق لعبادته، ومعرفة
 بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك. فمن انقاد وأدى ما أمر به،
 فهو من المفلحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم
 الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما
 أمرهم به ونهاهم.

ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال: ﴿وَلَئِنْ
 قُلْتُمْ إِنَّا لَنَكْفُرُ بِمَبْعُوثَاتِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا
 إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

أي: ولئن قلت لهؤلاء، وأخبرتهم بالبعث بعد الموت، لم
 يصدقوك، بل كذبوك أشد التكذيب^(١)، وقدحوا فيما جئت
 به، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ألا وهو الحق
 المبين.

﴿وَلَئِنْ أَخْرَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ أي: إلى وقت
 مقدر فبتأطوه، لقالوا من جهلهم وظلمهم ﴿مَا يَحْسِبُهُ﴾
 ومضمون هذا تكذيبهم به، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم
 عاجلا، على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد
 هذا الاستدلال

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ فيتمكنون
 من النظر في أمرهم.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من
 العذاب، حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.

(٩-١١) ﴿وَلَئِنْ أذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ
 إِنَّهُ لَيَكْفُرُ بِكَفُورٍ﴾ وَلَئِنْ أذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَسَّتَهُ
 لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا ○ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا

كان القدر لا مستند له، ولا يقدح فيما دعا إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضياً على أمره، مقبلاً على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يختارونها، بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض، على جميع المسائل والمطالب.

وفيها أن هذا القرآن معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله، لأن الأعداء البلغاء الفصحاء تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن مما يطلب فيه العلم، ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

(١٦، ١٥) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَزَقَهَا نَوْفٍ إِنْهَامٍ أَصْلَمَلَهُمْ فِيهَا وَهَرَفَ فِيهَا لَا يُحْسِنُونَ﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَزَقَهَا﴾ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زيتها من النساء والبنين والقناطير المقنطرة، من الذهب، والفضة، والخيل المسومة، والأنعام والحرث، قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئاً، فهذا لا يكون إلا كافراً، لأنه لو كان مؤمناً لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال، أثر من آثار إرادته الدار الآخرة.

ولكن هذا الشقي الذي كأنه خلق للدنيا وحدها ﴿نَوْفٍ إِنْهَامٍ أَصْلَمَلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: نعطيهم ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا.

﴿وَهَرَفَ فِيهَا لَا يُحْسِنُونَ﴾ أي: لا يتقصون شيئاً مما قدر لهم، ولكن هذا انتهى نعيمهم.

﴿أَوْلَيْكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ خالد بن فيها أبداً، لا يُفْتَر عنهم العذاب؛ وقد حرموا جزيل الثواب.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ أي: في الدنيا، أي: بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها، وهو الإيمان.

(١٧) ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَبِينَةٍ مِنْ رَبِّهِ. وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كُتِبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أَوْلَيْكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ. وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ

(١) في ب: أي أنه قد افتراه. (٢) في ب: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ من عند الله. والجملة الأخيرة قد شطبت في أ.

﴿أَوْلَيْكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، يزول بها عنهم كل محذور ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الفوز بجنت النعيم التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلد الأعين.

(١٢-١٤) ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَصَاقِبُ بِهِ صَدْرَكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرِيَّهُ قُلْ فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَغَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يقول تعالى - مسلماً لنبه محمد ﷺ عن تكذيب المكذبين - : ﴿فَلَمَّا تَرَكَ تَارِكًا بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِيَّاكَ وَصَاقِبُ بِهِ صَدْرَكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ﴾، أي: لا ينبغي هذا لملك، أن قولهم يؤثر فيك، ويصدق عما أنت عليه، فترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعتهم بقولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾. فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة. فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه، ولا يضق لذلك صدرك.

فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً يؤثر فيه، ويتقص قدره، فيضيق صدرك لذلك؟.

أم عليك حسابهم، ومطالب بهدائهم جبراً؟. ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ فهو الوكيل

عليهم، يحفظ أعمالهم، ويجازيهم بها أتم الجزاء. ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَرِيَّهُ﴾ أي: افتري محمد هذا القرآن؟.

فأجابهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَأَتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَغَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه قد افتراه^(١)، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقاً، الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال دعوته، فإن كنتم صادقين فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

﴿وَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ على شيء من ذلكم ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَنْزَلَ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ [من عند الله]^(٢)، لقيام الدليل والمقتضى، وانتفاء المعارض.

﴿وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو أي: هو وحده المستحق للألوهية والعبادة ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته.

وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصدده اعتراض المعارضين، ولا قدح القادحين، خصوصاً إذا

الحَمْدُ لِلَّهِ

٢٢٣

سُورَةُ هُودٍ

أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَرْتَهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ
وَأَدْعُوا مَنْ أَسْتَعْطَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾
فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ
الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ
﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ
مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ
عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ يَشَاهِدُ مِنْهُ وَمَنْ قَبْلَهُ كُتِبَ
مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدَهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ
مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ
عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلْأَشْهَدُ هَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى
رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾

الناس ظلمًا ﴿أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ﴾ ليجازيهم
بظلمهم، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد ﴿يَقُولُ
الْأَشْهَدُ﴾ أي: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم:
﴿هَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾
أي: لعنة لا تقطع، لأن ظلمهم صار وصفاً لهم ملازماً، لا
يقبل التخفيف.

ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فصدوا
بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل التي دعوا الناس
إليها، وصدوا غيرهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار.
﴿وَيَبْغُونَهَا﴾ أي: سبيل الله ﴿عِوَجًا﴾ أي: يجتهدون في
ميلها، وتشيينها، وتهجينها، لتصير عند الناس غير مستقيمة،
فيحسون الباطل ويقبحون الحق، قبحهم الله ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
كَافِرُونَ﴾.

﴿أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ليسوا فاتنين الله،
لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه.

(١) كذا في ب، وفي أ: أنزل.

مِنَ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدَهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿﴾ يذكر تعالى حال رسوله
محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القائمين بدينه، وحججه
الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد
مثلهم، فقال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ بالوحي الذي
أنزل ﴿الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة، فتيقن تلك
البينة.

﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر ﴿شَاهِدٌ
مِنْهُ﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح، حين
شهد حقيقة ما أوحاه الله وشرعه، وعلم بعقله حسنه، فازداد
بذلك إيماناً إلى إيمانه.

﴿و﴾ ثم شاهد ثالث وهو ﴿كُتِبَ مُوسَى﴾ التوراة التي
جعلها الله ﴿إِمَامًا﴾ للناس ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن
بالصدق، ويوافقه فيما جاء به من الحق.

أي: أفمن كان بهذا الوصف، قد تواردت عليه شواهد
الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات
والجهالات ليس بخارج منها؟!

لا يستتون عند الله، ولا عند عباد الله ﴿أُولَئِكَ﴾ أي:
الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن حقيقة،
فيشمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة.

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ﴾ أي: القرآن ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: سائر
طوائف أهل الأرض، المتحزبة على رد الحق ﴿فَأَلْتَارُ
مَوْعِدَهُ﴾ لا بد من وروده إليها ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي: في
أدنى شك ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ﴾ إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلمًا وعنادًا وبغياً،
وإلا فمن كان قصده حسناً، وفهمه مستقيماً، فلا بد أن يؤمن
به، لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه.

(١٨-٢٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ
يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ أَلْأَشْهَدُ هَهُؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى
رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ○ أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي
الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ مَا
كَانُوا يَسْتَبْشِرُونَ أَسْعَى وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ ○ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ○ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ
الْخَاسِرُونَ ﴿﴾ يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾

ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بنسبة الشريك له، أو
وصفه بما لا يليق بجلاله، أو الإخبار عنه بما لم يقل، أو
ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله، فهو لاء أعظم

٢٢٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ هُودٍ

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فيدفعون عنهم المكروه، أو يحصلون لهم ما ينفعهم، بل تقطعت بهم الأسباب.

﴿يَضَعُ لَهُمُ الْعَذَابَ﴾ أي: يغلظ ويزداد، لأنهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ﴾ أي: من بغضهم للحق ونفورهم عنه، ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا آيات الله سماعاً يتفنون به ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ الذِّكْرِ مُعْرِضِينَ﴾ كأنهم حُرٌّ مُشْتَفِرَةٌ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾، ﴿وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ أي: ينظرون نظر عبرة وتفكر، فيما ينفعهم، وإنما هم كالصم والبكم الذين لا يعقلون.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ حيث فوتوا ما أعظم الثواب، واستحقوا أشد العذاب، ﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي اضمحل دينهم الذي يدعون إليه ويحسنونه، ولم تغن عنهم آلهتهم التي يعبدون من دون الله، لما جاء أمر ربك.

﴿لَا جِرْمَ﴾ أي: حقاً وصدقاً ﴿أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْآخِرُونَ﴾ حصر الخسار فيهم، بل جعل لهم منه أشده، لشدة حسرتهم وحرمانهم وما يعانون من المشقة من العذاب، نستجير بالله من حالهم.

ولما ذكر حال الأشقياء، ذكر أوصاف السعداء وما لهم عند الله من الثواب، فقال:

(٢٣، ٢٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مثل الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ يقول تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم، أي: صدقوا واعترفوا، لما أمر الله بالإيمان به من أصول الدين وقواعده.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ المشتملة على أعمال القلوب والجوارح وأقوال اللسان، ﴿وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي: خضعوا له واستكانوا لعظمته، وذلوا لسلطانه، وأناخوا إليه بمحبته وخوفه ورجائه والتضرع إليه.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا تلك الصفات ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لأنهم لم يتركوا من الخير مطلباً إلا أدركوه، ولا خيراً إلا سبقوا إليه.

﴿مِثْلَ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: فريق الأشقياء وفريق السعداء ﴿كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى﴾ هؤلاء الأشقياء ﴿وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ﴾ مثل السعداء.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ لا يستويان مثلاً، بل بينهما من الفرق ما لا يأتي عليه الوصف ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الأعمال التي تنفعكم

أفعلونها، والأعمال التي تضركم فتتركونها.

(٢٥-٤٩) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذِي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ولقد أرسلنا رسولنا نوحاً أول المرسلين ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ يدعوهم إلى الله وينهاهم عن الشرك فقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: بينت لكم ما أنذرتكم به بيانياً زال به الإشكال.

﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: أخلصوا العبادة لله وحده، واتركوا كل ما يعبد من دون الله ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الِيسْرِ﴾ إن لم تقوموا بتوحيد الله، وتطيعوني.

(٢٧) ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي: الأشراف والرؤساء، رادين لدعوة نوح عليه السلام، كما جرت العادة لأمثالهم، أنهم أول من رد دعوة المرسلين.

﴿مَا نَرْنَكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ وهذا مانع - بزعمهم - عن اتباعه، مع أنه - في نفس الأمر - هو الصواب الذي لا ينبغي غيره، لأن البشر يتمكن البشر أن يتلقوا عنه، ويراجعوه في كل

(١) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾.

أمر، بخلاف الملائكة.

﴿وَمَا زِلْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَن كَفُرُوا﴾ أي: ما نرى اتبعك منا إلا الأراذل والسفلة بزعمهم.

وهم - في الحقيقة - الأشراف وأهل العقول الذين انقادوا للحق، ولم يكونوا كالأراذل الذين يقال لهم الملائ، الذين اتبعوا كل شيطان مريد، واتخذوا آلهة من الحجر والشجر، يتقربون إليها ويسجدون لها، فهل ترى أراذل من هؤلاء وأخس؟.

وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي: إنما اتبعوك من غير تفكر وروية، بل بمجرد ما دعوتهم اتبعوك، يعنون بذلك أنهم ليسوا على بصيرة من أمرهم، ولم يعلموا أن الحق المبين تدعو إليه بداهة العقول، وبمجرد ما يصل إلى أولي الألباب يعرفونه ويتحققونه، لا كالأمر الخفية التي تحتاج إلى تأمل وفكر طويل.

﴿وَمَا زَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي: لستم أفضل منا فنقاد لكم ﴿بَلْ نُنَظِّمُ كَذِبَاتٍ﴾ وكذبوا في قولهم هذا، فإنهم رأوا من الآيات التي جعلها الله مؤيدة لنوح، ما يوجب لهم الجزم التام على صدقه.

ولهذا ﴿قَالَ﴾ لهم نوح مجاباً: ﴿يَقُولُ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيْتِنَا مِنَ رَبِّكَ عَلَىٰ يَقِينٍ وَجِزْمٍ، يعني وهو الرسول الكامل القدوة، الذي يقاد له أولو الألباب، ويضمحل في جنب عقله عقول الفحول من الرجال، وهو الصادق حقاً، فإذا قال: إني على بينة من ربي، فحسبك بهذا القول شهادة له وتصديقاً.

﴿وَأَنبِئِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِي﴾ أي: أوحى إلي وأرسلني، ومنّ علي بالهداية، ﴿فَمُيِّتْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: خفيت عليكم، وبها تفاقمت.

﴿أَنزَلْنَاهُمْ﴾ أي: أنكرهمكم على ما تحققناه، وشككتكم أنتم فيه؟ ﴿وَأَنزَلْنَا لَهُمُ الْكُفْرَ﴾ حتى حرصتم على رد ما جئت به، ليس ذلك ضارنا، وليس بقادح من يقيننا فيه، ولا قولكم وافتراؤكم علينا صادراً لنا عما كنا عليه.

وإنما غايته أن يكون صادراً لكم أنتم، وموجباً لعدم انقيادكم للحق، الذي تزعمون أنه باطل، فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية، فلا تقدر على إكراهكم على ما أمر الله، ولا إلزامكم ما نفرتم عنه، ولهذا قال: ﴿أَنزَلْنَاهُمْ﴾ و﴿أَنزَلْنَا لَهُمُ الْكُفْرَ﴾.

﴿وَيَقُولُ لَا آتَانَاكُم بِآيَةٍ﴾ أي: على دعوتي إياكم ﴿مَّا لَّا فَسْتَسْتَقِلُّونَ الْمَغْرَمَ﴾.

﴿إِن جَآءَكَ مِنَ اللَّهِ آيَةٌ﴾ وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ما ينبغي لي ولا يليق بي ذلك، بل ألتقاهم بالرحب والإكرام، والإعزاز والإعظام ﴿إِنَّهُمْ مُّكْفَرُونَ﴾ فمسيبهم على إيمانهم وتقواهم بجنات النعيم.

﴿وَلِكَيْتَ أُرِيكُمْ قَوْمًا مَّجْهُلُونَ﴾ حيث تأمروني بطرد أولياء الله وإبعادهم عني، وحيث رددتم الحق لأنهم أتباعه، وحيث استدلتهم على بطلان الحق بقولكم إني بشر مثلكم وإنه ليس لنا عليكم من فضل.

﴿وَيَقُولُ مَن يَبْصُرُ مِنِ اللَّهِ إِن طَرَدْتُمْ﴾ أي: من يمنعني من عذابه، فإن طردهم موجب للعذاب والنكال الذي لا يمنعه من دون الله مانع.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما هو الأنفع لكم والأصلح، وتدبرون الأمور.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: غايته أي رسول الله إليكم، أبشركم وأندركم، وأما ما عدا ذلك فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا، وأعطي من أشاء وأحرم من أشاء ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فأخبركم بسرائركم وبواطنكم ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ والمعنى: أنني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي أنزلني الله بها، ولا أحكم على الناس بظني.

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِجَ أَعْيُنُكُمْ﴾ أي: ضعفاء المؤمنين الذين يحتقرهم الملائ الذين كفروا: ﴿لَن يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ فإن كانوا صادقين في إيمانهم فلمهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك فحسابهم على الله.

﴿إِنِّي إِذًا﴾ أي: إن قلت لكم شيئاً مما تقدم ﴿لَيِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا تأييس منه عليه الصلاة والسلام لقومه، أن ينبذ فقراء المؤمنين أو يمقتهم، وتقنع لقومه بالطرق المنقعة للمنصف.

فلما رأوه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم، ولم يدركوا منه مطلوبهم ﴿قَالُوا يَبْسُوحُ قَدْ جَدَلْنَاكَ فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فما أجهلهم وأضلهم، حيث قالوا هذه المقالة لنبيهم الناصح، فهلا قالوا إن كانوا صادقين: يا نوح قد نصحتنا وأشفقت علينا، ودعوتنا إلى أمر لم يتبين لنا فزريد منك أن تبينه لنا لنقادك، وإلا فأنت مشكور في نصحك، لكان هذا الجواب المنصف، الذي قد دعي إلى أمر خفي عليه، ولكنهم في قولهم كاذبون،

وَعَلَىٰ نبيهم متجرؤون، ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة، فضلاً عن أن يردوه بحجة.

ولهذا عدلوا - من جهلهم وظلمهم - إلى الاستعجال بالعذاب، وتعجيز الله، ولهذا أجابهم نوح عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم، فعل ذلك ﴿وَمَا أَشَدُّ بِمُجْرِمِينَ﴾ الله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

﴿وَلَا يَفْعَلُوا نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إن إرادة الله غالبية، فإنه إذا أراد أن يغويكم لردكم الحق، فلو حرصت غاية مجهودي، ونصحت لكم أتم النصح - وهو قد فعل عليه السلام - فليس ذلك بنافع لكم شيئاً ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يفعل بكم ما يشاء، ويحكم فيكم بما يريد ﴿وَالِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّنَا﴾ هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى أن قومه يقولون: افترى على الله كذباً، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَبْتُمْ فَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ﴾ أي: كلٌ عليه وزره ﴿وَلَا نُزِدُ وَرَازِدَةً وَرَدًّا أُخْرَىٰ﴾.

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه، لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصتها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته، ذكر تكذيب قومه له مع البيان التام، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّنَا﴾ أي: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه، أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب، ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.

فإذا زعموا - مع هذا - أنه افتراه، علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ أَفَرَبْتُمْ فَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: ذنبي وكذبي ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يُجْرِمُونَ﴾ أي: فلم تستلجوا في تكذبي.

وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ ءَامِنٌ﴾ أي: قد فسوا ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: فلا تحزن، ولا تبال بهم وبأفعالهم، فإن الله قد مقتهم، وأحق عليهم عذابه الذي لا يرد.

﴿وَأَصْنَعُ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا﴾ أي: بحفظنا، ومرأى منا،

وعلی مرضاتنا ﴿وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تراجعني في إهلاكهم ﴿إِنَّهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي: قد حق عليهم القول، ونفذ فيهم القدر.

فامتثل أمر ربه، وجعل يصنع الفلك ﴿وَكَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ﴾ وأوا ما يصنع ﴿سَجَرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا﴾ الآن ﴿وَأَنَا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ فسوف تعلمون من بآييه عذابٌ يُجْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِمٌّ ﴿نحن أم أتم، وقد علموا ذلك حين حل بهم العقاب.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي قدرنا بوقت نزول العذاب بهم ﴿وَقَارَ السَّمْوُورُ﴾ أي: أنزل الله السماء بالماء المنهمر، وفجر الأرض كلها عيوناً حتى التنانير التي هي محل النار في العادة، وأبعد ما يكون عن الماء، تفجرت، فالتقى الماء على أمر قد قدر.

﴿فَلَمَّا﴾ لنوح: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَوَاتٍ أَنْتَيْنِ﴾ أي: من كل صنف من أصناف المخلوقات، ذكر وأُنثى، لتبقى مادة سائر الأجناس، وأما بقية الأصناف الزائدة عن الزوجين، فلأن السفينة لا تطيق حملها ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾

ممن كان كافراً، كاتبه الذي غرق .

﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ ﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ ﴿مَاءَ ءَامَنَ مَعَهُ﴾ إِلَّا قَلِيلٌ .

﴿وَقَالَ﴾ نوح لمن أمره الله أن يحملهم: ﴿أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِيدَهَا وَرُسُهَا﴾ أي: تجري على اسم الله، وترسو على اسم الله، وتجري بتسخيره وأمره .

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ حيث غفر لنا ورحمنا، ونجانا من القوم الظالمين .

ثم وصف جريانها كأنها نشاهدها فقال: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ﴾ أي: بنوح ومن ركب معه ﴿فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ والله حافظها وحافظ أهلها ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ لما ركب، ليركب معه ﴿وَكَانَ﴾ ابنه ﴿فِي مَعْرَلٍ﴾ عنهم حين ركبوا، أي: مبتعداً وأراد منه أن يقرب ليركب، فقال له: ﴿يَبْنَى أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ فيصيبك ما يصيبهم .

﴿فَقَالَ﴾ ابنه مكذباً لأبيه أنه لا ينجو إلا من ركب معه السفينة .

﴿سَآوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ أي: سأرتقي جبلاً، أمتنع به من الماء، ﴿فَقَالَ﴾ نوح ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ فلا يعصم أحداً جبل ولا غيره، ولو تسبب بغاية ما يمكنه من الأسباب، لما نجا إن لم ينجاه الله ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ﴾ الابن ﴿مِنَ الْمَعْرُوفِينَ﴾ .

فلما أغرقهم الله، ونجى نوحاً ومن معه ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ الذي خرج منك، والذي نزل إليك، أي: ابلعي الماء الذي على وجهك ﴿وَنَسَمَاءَ أَقْلِي﴾ فامتلتنا لأمر الله، فابتلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء، فغضب الماء من الأرض ﴿وَوَقَى الْأَمْرُ﴾ بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين .

﴿وَأَسْوَتَ﴾ السفينة ﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ أي: أرسدت على ذلك الجبل المعروف في أرض الموصل . ﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: أتبعوا بعد هلاكهم لعنة وبعداً وسحقاً لا يزال معهم .

﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ أي: وقد قلت لي: ﴿فَأَحْمَلُ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ ولن تخلف ما وعدتني به .

لعله عليه الصلاة والسلام حملته الشفقة، وأن الله وعده بنجاة أهله، ظن أن الوعد لعمومهم، من آمن ومن لم يؤمن، فلذلك دعا ربه بذلك الدعاء، ومع هذا ففوض الأمر لحكمة الله البالغة .

﴿فَقَالَ﴾ الله له: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ الذين وعدتكم بإنجائهم ﴿إِنَّهُمْ عَمَلٌ عَرِضٌ صَالِحٌ﴾ أي: هذا الدعاء الذي دعوت^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيَصْنَعُ الْفُلَكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَتْ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٢٨﴾

فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُغْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُثْقِمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورَ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَاءَ ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا لَاقِيلٌ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَرِيدَهَا وَرُسُهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْرَلٍ يَبْنَى أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾

فَقَالَ سَآوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمَعْرُوفِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسَمَاءَ أَقْلِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾

بِه، لنجاة كافر لا يؤمن بالله ولا رسوله .

﴿فَلَا تَسْتَكِنَنَّ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: ما لا تعلم عاقبته وماله، وهل يكون خيراً أو غير خير .

﴿إِنِّي أعْظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: أني أعظك وعظما تكون به من الكاملين، وتتجو به من صفات الجاهلين .

فحينئذ ندم نوح عليه السلام ندامة شديدة على ما صدر منه و ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْكَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

فبالعفوة والرحمة ينجو العبد من أن يكون من الخاسرين، ودل هذا على أن نوحاً عليه السلام لم يكن عنده علم بأن سؤاله لربه في نجاة ابنه محرم، داخل في قوله: ﴿وَلَا تَحْطَبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَبُونَ﴾ بل تعارض عنده الأمران، وظن دخوله في قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ .

وبعد ذلك تبين له أنه داخل في المنهي عن الدعاء لهم، والمراجعة فيهم .

(١) في النسختين: دعيت، ولعل الصواب ما أثبت .

قَالَ يَنْفُخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْتَأْذِنُ
 مَالِيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَعْظَمَكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾
 قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا
 تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَنْفُخُ
 أَهْطُ بِسَلَامٍ مَتَا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أَمْرٍ مِمَّنْ مَعَكَ
 وَأَمْرٌ سَمِعْتَهُمْ ثُمَّ يَمْسَهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ
 مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ
 مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِلَى عَادٍ
 أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْفُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ
 غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَنْفُورُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ
 أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾
 وَيَنْفُورُ أَسْتَغْفِرُ وَأَرْبُكُم ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ
 عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا
 مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ
 بِسَارِكِيهِ الْهَيْخَانِ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

﴿قَالُوا﴾ رادين لقوله: ﴿يَهُودُ مَا جِئْنَاكَ بِبَيِّنَةٍ﴾ إن كان قصدهم بالبيئنة، البيئنة التي يقرحونها، فهذه غير لازمة للحق، بل اللازم أن يأتي النبي بآية تدل على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم أنه لم يأتهم ببيئنة تشهد لما قاله بالصحة، فقد كذبوا في ذلك، فإنه ما جاء نبي لقومه إلا وبعث الله على يديه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر.

ولو لم يكن له آية، إلا دعوته إياهم لإخلاص الدين لله وحده لا شريك له، والأمر بكل عمل صالح وخلق جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من الشرك بالله، والفواحش والظلم، وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل عليه هود عليه السلام من الصفات التي لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم، لكفى بها آيات وأدلة على صدقه.

بل أهل العقول وأولو الأبواب يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد الخوارق التي يراها بعض الناس، هي المعجزات فقط، ومن آياته وبيناته الدالة على صدقه، أنه شخص واحد، ليس له

﴿قِيلَ يَنْفُخُ أَهْطُ بِسَلَامٍ مَتَا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أَمْرٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي حملها معه، فبارك الله في الجميع، حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها. ﴿وَأَمْرٌ سَمِعْتَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿ثُمَّ يَمْسَهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: هذا الإنجاء ليس بمانع لنا من أن من كفر بعد ذلك، أحللتنا به العقاب، وإن متعوا قليلاً، فسيؤخذون بعد ذلك.

قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قص عليه هذه القصة المبسوطة التي لا يعلمها إلا من من عليه برسالته.

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ فيقولوا: إنه كان يعلمها، فاحمد الله واشكره، واصبر على ما أنت عليه من الدين القويم، والصراف المستقيم، والدعوة إلى الله ﴿إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتقون الشرك وسائر المعاصي، فستكون لك العاقبة على قومك، كما كانت لنوح على قومه.

(٥٠-٦٠) ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَى عَادٍ﴾ وهم القبيلة المعروفة في الأحقاف، من أرض اليمن ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودًا﴾ ليمكنوا من الأخذ عنه والعلم بصدقه.

﴿قَالَ﴾ لهم ﴿يَنْفُورُ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ أي: أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم عما هم عليه من عبادة غير الله، وأخبرهم أنهم قد افتروا على الله الكذب في عبادتهم لغيره، وتجويزهم لذلك، ووضح لهم وجوب عبادة الله، وفساد عبادة ما سواه.

ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد فقال: ﴿يَنْفُورُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أي: غرامة من أموالكم على ما دعوتكم إليه، فتقولوا: هذا يريد أن يأخذ أموالنا، وإنما أذعوكم وأعلمكم مجاناً.

﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما أذعوكم إليه، وأنه موجب لقبوله، مُنتَفِ المانع عن رده.

﴿وَيَنْفُورُ أَسْتَغْفِرُ وَأَرْبُكُم﴾ عما مضى منكم ﴿ثُمَّ نُوبُوا إِلَيْهِ﴾ فيما تستقبلونه بالتوبة النصوح والإجابة إلى الله تعالى.

﴿فإنكم إذا فعلتم ذلك﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿بكترة الأمطار التي تخضب بها الأرض، ويكثر خيرها.

﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ فإنهم كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾ فوعدهم أنهم إن آمنوا زادهم قوة إلى قوتهم.

﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا﴾ عنه، أي: عن ربكم ﴿مُجْرِمِينَ﴾ أي: مستكبرين عن عبادته، متجرئين على محارمه.

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا بَعْدُ لِعَادٍ قَوْمٍ هُودٍ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٨

سُورَةُ هُودٍ

١٠٠ إِن نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَبْنَا بَعْضَ الْهَيْئَاتِ بِسُوِّهِ قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ
 وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٠٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُوْنِي
 جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا
 مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِن رَّبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ
 ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ
 رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا إِن رَّبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ
 ﴿١٠٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةِ
 مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿١٠٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ
 رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٠٩﴾ وَاتَّبَعُوا
 فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا
 بَعْدَ الْعَادِ قَوْمُ هُودٍ ﴿١١٠﴾ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ
 يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ، هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ
 وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ تَتَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَإِن رَّبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ
 ﴿١١١﴾ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ
 نَعْبُدَ مَا يَعْبُدَ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١١٢﴾

حَفِيظٌ ﴿١١٢﴾ .

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ أي: عذابنا بإرسال الريح العقيم، التي
﴿مَا نَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَلَّامٍ﴾ .

﴿نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ
غَلِيظٍ﴾ أي: عظيم شديد، أحله الله بعد، فأصبحوا لا يرى إلا
مساكنهم .

﴿وَتِلْكَ عَادٌ﴾ الذين أوقع الله بهم ما أوقع بظلم منهم، لأنهم
﴿جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ ولهذا قالوا لهود: ﴿مَا جِئْنَاكَ بِبَيِّنَةٍ﴾
فتبين بهذا أنهم متيقنون لدعوته، وإنما عاندوا وجحدوا
﴿وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ لأن من عصى رسولاً فقد عصى جميع
المرسلين، لأن دعوتهم واحدة .

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ﴾ أي: متسلط على عباد الله
بالجبروت ﴿عَنِيدٍ﴾ أي: معاند لايات الله، فعصوا كل ناصح

(١) كذا في الأصل، وهو غير صحيح . لأن (إياكم) ضمير منصوب
منفصل، وقد عطفه على الضمير المجرور (نا) في (مدبرنا) والضمير
المنصوب لا يجوز عطفه على الضمير المجرور، فلو قال: ومدبرنا
ومدبركم، لكان صحيحاً . والله أعلم . (الناشر) (٢) ف: ب: الطائعين .

أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في قومه ويناديهم، ويعجزهم،
ويقول لهم: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ .

﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من دُونِهِ
فَكَيْدُوْنِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾ وهم الأعداء الذين لهم السطوة
والغلبة، ويريدون إطفاء ما معه من النور، بأي طريق كان وهو
غير مكثر منهم، ولا مبال بهم، وهم عاجزون لا يقدر أن
ينالوه بشيء من السوء، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون .

وقولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهِنَا عَنْ تَوَكُّلِكِ﴾ أي: لا
نترك عبادة آلهتنا لمجرد قولك الذي ما أقمت عليه بيعة بزعمهم
﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا تأييس منهم لنبيهم هود عليه
السلام في إيمانهم، وأنهم لا يزالون في كفرهم يعمهون .

﴿إِن نَقُولُ﴾ فيك ﴿إِلَّا اعْتَرَبْنَا بَعْضَ الْهَيْئَاتِ بِسُوِّهِ﴾ أي:
أصابتك بخبال وجنون، فصرت تهذي بما لا يعقل، فسبحان
من طبع على قلوب الظالمين، كيف جعلوا أصدق الخلق
الذي جاء بأحق الحق، بهذه المرتبة التي يستحي العاقل من
حكايتها عنهم لولا أن الله حكاهما عنهم .

ولهذا بين هود عليه الصلاة والسلام أنه واثق غاية الوثوق
أنه لا يصيبه منهم، ولا من آلهتهم أذى فقال: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ
وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من دُونِهِ فَكَيْدُوْنِي جَمِيعًا﴾ أي:
اطلبوا لي الضرر كلكم، بكل طريق تتمكنون بها مني ﴿ثُمَّ لَا
تُنظِرُونَ﴾ أي: لا تمهلون .

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: اعتمدت في أمري كله على الله
﴿رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي: هو خالق الجميع، ومدبرنا وإياكم^(١)،
وهو الذي ربانا .

﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ فلا تتحرك ولا تسكن
إلا بإذنه، فلو اجتمعتم جميعاً على الإيقاع بي، والله لم
يسلطكم عليّ، لم تقدرُوا على ذلك، فإن سلطكم، فلحكمة
أرادها .

﴿إِن رَّبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: على عدل، وقسط،
وحكمة، وحمد في قضائه وقدره، في شرعه وأمره، وفي
جزائه وثوابه وعقابه، لا تخرج أفعاله عن الصراط المستقيم،
التي يحمد ويثنى عليه بها .

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عما دعوتكم إليه ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾
﴿إِلَيْكُمْ﴾ فلم يبق عليّ تبعة من شأنكم .

﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يقومون بعبادته ولا يشركون به
شَيْئًا ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾ فإن ضرركم إنما يعود عليكم، فالله لا
تضره معصية العاصين، ولا تنفعه طاعة المطيعين^(٢) ﴿مَنْ عَمِلَ
صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾، ﴿إِن رَّبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه.

ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك [قد] كنت كاملاً، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير.

وذنبه ما قالوه عنه، وهو قولهم: ﴿أَتَهْتَكُنَّ أَنْ تُبَدَّ مَا بَعُدَّ ۚ أَبَاؤُنَا﴾ وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح، كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالين، وكيف ينهاتهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئاً من الأحجار والأشجار ونحوها.

وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم الذي لم تزل نعمه عليهم ترى، وإحسانه عليهم دائماً ينزل، الذي ما بهم من نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو.

﴿وَاتِنَّا لِنَفِي سَلَكٍ وَمَا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرْسِي﴾ أي: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكاً مؤثراً في قلوبنا الرب، وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه، وهم كذبة في ذلك، ولهذا بين كذبهم في قوله: ﴿قَالَ يَقْوَرُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ يَمِينٍ مِّن رَّبِّي﴾ أي: برهان ويقين مني ﴿وَأَنَا نَسِيٌّ مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ أي: من عليّ برسالته ووجهه، أي: أفأتابكم على ما أنتم عليه، وما تدعونني إليه؟

﴿فَمَنْ يَصْرُفُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونِي غَيْرَ تَحْسِيرٍ﴾ أي: غير خسار وتباب وضرر.

﴿وَيَقْوَرُ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾ لها شرب من البئر يوماً، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم.

﴿فَدَرَوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾ أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء، ﴿وَلَا تَسْهَوْهَا يَسْهَوٌ﴾ أي: بعقر ﴿فَأَعْدُّكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ فَعَرَّوْهَا فَقَالَ لَهُمْ صَالِحٌ ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٌ مَّكَذُوبٌ﴾ بل لا بد من وقوعه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أُمَّنَا﴾ بوقوع العذاب ﴿بَجَّيْنَا صَلِيلًا وَالذِّبْتِ ۚ أَسْمَأُ مَعَهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي: نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم، ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ العظيمة فقطعت قلوبهم، ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيًّا﴾ أي: خامدين لا حراك لهم.

ومشفق عليهم، واتبعوا كل غاش لهم يريد إهلاكهم لا جرم أهلكتهم الله.

﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ فكل وقت وجيل، إلا ولأبائهم القبيحة وأخبارهم الشنيعة، ذكر يذكرون به، وذم يلحقهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لهم أيضاً لعنة.

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: جحدوا من خلقهم ورزقهم ورباهم ﴿أَلَا بَعْدَ عَادٍ قَوْمٌ هُودٌ﴾ أي: أبعدهم الله عن كل خير وقربهم من كل شر.

(٦١-٦٨) ﴿وَإِلَىٰ تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ إلى آخر قصتهم^(١). أي ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ تَمُودَ﴾ وهم عاد الثانية، المعروفون الذين يسكنون الحجر، ووادي القرى، ﴿أَخَاهُمْ﴾ في النسب ﴿صَالِحًا﴾ عبد الله ورسوله ﷺ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ﴿قَالَ يَقْوَرُ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: وحدوه، وأخلصوا له الدين ﴿مَا لَكُمْ مِّنَ اللَّهِ عِذَّةٍ﴾ لا من أهل السماء، ولا من أهل الأرض.

﴿هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم فيها ﴿وَأَسْتَمِرُّكُمْ فِيهَا﴾ أي: استخلفكم فيها، وأنعم عليكم بالنعمة الظاهرة والباطنة، ومكنكم في الأرض، تبنون، وتغرسون، وتزرعون، وتحثون ما شئتم، وتتفعون بمنافعها، وتستغلون مصالحها، فكما أنه لا شريك له في جميع ذلك، فلا تشركوا به في عبادته.

﴿فَأَسْتَغْفِرُوهُ﴾ مما صدر منكم من الكفر والشرك والمعاصي، وأقلعوا عنها، ﴿ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ أي: ارجعوا إليه بالتوبة النصوح والإجابة ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ أي: قريب ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، يجيبه بإعطائه سؤله، وقبول عبادته، وإثابته عليها أجل الثواب، واعلم أن قربه تعالى نوعان: عام، وخاص. فالقرب العام: قربه بعلمه من جميع الخلق، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَتَعْنُ أَرْبُؤَ إِلَيْهِ مَنِ حَبَلِ الْوَرِيدِ﴾ والقرب الخاص: قربه من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَسْجِدُ وَقَرِيبٌ﴾.

وفي هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾ وهذا النوع، قرب يقتضي إلفاطه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «المجيب».

فلما أمرهم بنبيهم صالح عليه السلام، ورغبهم في الإخلاص لله وحده، ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة.

﴿قَالُوا يَصْلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لنبينهم

(١) في ب ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿أَلَا بَعْدَ تَمُودَ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٢٩

سُورَةُ هٰودٍ

قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيْنَتٍ مِّن رَّبِّي وَءَاتَنِي
 مِنهُ رَحْمَةً فَمَن يَبْصُرُ مِنِ اللَّهِ إِن عَصَيْتُهُ هَٰذَا تَرِيدُونَ
 غَيْرَ تَخْصِيرٍ ﴿١٣﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَافَةٌ لِّكُم آيَةٌ
 فَذُرُّوهَُا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَُا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ
 عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَعَقَرُوهَُا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ
 ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدُّ غَيْرِ مَكْذُوبٍ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ
 أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا
 وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِن رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٦﴾ وَأَخَذَ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ
 ﴿١٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْإِن تَمُودًا كَفَرُوا وَرَأَيْتُمُ اللَّابُدَّ
 لِّتَمُودٍ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا
 سَلَمًا قَالَ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ فَمَا لِيَتْ أَن جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيزٍ ﴿١٩﴾ فَلَمَّا
 رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
 قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٢٠﴾ وَأَمْرًا تَهُ قَائِمَةً
 فَضَحَّكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٢١﴾

الأفعال، لأن أفعاله إحسان، وجود، وبر، وحكمة، وعدل، وقسط.

مجيد، والمجد: هو عظمة الصفات وسعتها، فله صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أكملها وأتمها وأعمها.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَن إِبْرَاهِيمَ الرَّوْحُ﴾ الذي أصابه من خيفة أضيافه ﴿وَجَاءَتْهُ الْبَشْرَىٰ﴾ بالولد، التفت حنينًا إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: ﴿إِن فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَكْمَرُ يَمَن فِيهَا لَتُنَجِّيَنَّ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَاتَهُ﴾.

﴿إِن إِبْرَاهِيمَ لَكَلِيمٌ﴾ أي: ذو خلق حسن وسعة صدر، وعدم غضب عند جهل الجاهلين.

﴿أَوَّجَسَ﴾ أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات ﴿سَلِيمٌ﴾ أي: رجَّاع إلى الله بمعرفته ومحبته، والإقبال عليه، والإعراض عن سواه، فلذلك كان يجادل عن من حتم الله بهلاكهم.

فقيل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَن هَٰذَا﴾ الجدال ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ

(١) في ب: فيها. (٢) في ب أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ بِأَنْظَلِيْبَتٍ يَّسِيْدٍ﴾.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ أي: كأنهم - لما جاءهم العذاب - ما تمتعوا في ديارهم، ولا أنسوا بها^(١)، ولا تمتعوا بها يوماً من الدهر، قد فارقهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمدي الذي لا يقطع، الذي كأنه لم يزل.

﴿أَلَا إِن تَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية المصرة، ﴿أَلَا بَعْدُ لِيَمُودَ﴾ فما أشقاهم وأذلهم، نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

(٨٣-٦٩) ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ﴾ إلى آخر القصة^(٢). أي: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ من الملائكة الكرام، رسولنا ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿بِالْبَشْرَىٰ﴾ أي: بالبشارة بالولد، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم، فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه ﴿قَالُوا سَلَمًا قَالَ سَلِّمُوا﴾ أي: سلموا عليه، ورد عليهم السلام.

ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية. ﴿فَمَا لِيَتْ﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿أَن جَاءَ بِعَجَلٍ حَنِيزٍ﴾ أي: بادر لبيته، فاستحضر لأضيافه عجلًا مشويًا على الرضف سمينًا، فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون؟

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى تلك الضيافة ﴿نَكَرَهُمْ وَأَوَّجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ وظن أنهم أتوه بشرًا ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم.

﴿فَقَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ أي: إنا رسل الله، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط.

وامرأة إبراهيم ﴿قَائِمَةً﴾ تخدم أضيافه ﴿فَضَحَّكَتْ﴾ حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به تعجبًا.

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ فتعجبت من ذلك و ﴿قَالَتْ يَوْتَلِيَنَّ ءَأَيْدِي وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي سَيْحًا﴾ فهذا مانعان من وجود الولد ﴿إِن هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

﴿قَالُوا أَتَجِدُ مِن أَمْرِ اللَّهِ﴾ فإن أمره لا عجب فيه، لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء، فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصًا فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك.

﴿رَحِمَتْ اللَّهُ وِرَكْنَهُ عَلَيْكَوَأَهْلَ الْبَيْتِ﴾ أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي الزيادة من خيره وإحسانه، وحلول الخير الإلهي على العبد ﴿عَلَيْكَوَأَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَيِّدٌ مَّجِيدٌ﴾ أي: حميد الصفات، لأن صفاته صفات كمال، حميد

رَبِّكَ ﴿٦٦﴾ بِهَلَاكِهِمْ ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ عَذَابَ عَذَابٍ غَيْرِ مَرْدُودٍ﴾ فلا فائدة في جدالك .

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا﴾ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا ﴿لُوطًا بِسَيِّئَةِ بَيْتِهِ﴾ أي: شق عليه مجيئهم ﴿وَصَافٍ بَيْتِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أي: شديد حرج، لأنه علم أن قومه لا يتركونهم، لأنهم في صور شباب جرد، مرد في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله .

﴿فَجَاءَهُ قَوْمُهُ يَهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ أي: يسرعون ويبادرون، يريدون أضيافه بالفاحشة التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ قَتَلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الفاحشة التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين .

﴿قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ من أضيافي، لوهذا كما عرض لسليمان ﷺ على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه، لاستخراج الحق، ولعلمه أن بناته ممتنع منالهن، ولا حق لهم فيهن، والمقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى^(١).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونُوا فِي ضَيْفِي﴾ أي: إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيفي، ولا تحزون عندهم .
﴿الَّذِينَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة .

﴿فَقَالُوا﴾ له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتِ مَا لَنَا مِنْ بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء، فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام، و ﴿قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رَبِّي سَدِيدٍ﴾ كقبيلة مانعة لمعتكم .

وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأوي إلى أقوى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر متناه واشتد الكرب ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ أي: أخبروه بحالهم، ليطمئن قلبه، ﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ بسوء، ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتوعدون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله ﴿يَقْطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير، ليتمكنوا من البعد عن قريتهم .

﴿وَلَا يَلْتَمِسُ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاء، ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم .
﴿إِلَّا أَمْرًا نَكُنُّ مَصِيبَهَا﴾ من العذاب ﴿مَا أَصَابَهُمْ﴾ لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف .
﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾ فكان لوطاً استعجل ذلك، فقيل له:

قَالَتْ يَوْتِلَيْكَ آءُ الْوَالِدِ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخَانٌ هَذَا لَشِقْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦٧﴾ قَالُوا أَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجِدُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٦٩﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ لَخَلِيمٌ آوَاهُ مُنِيبٌ ﴿٧٠﴾ يَتَابِرْهُمْ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رَبِّيكَ وَإِنَّهُمْ عَذَابٌ عَذَابٌ غَيْرَ مَرْدُودٍ ﴿٧١﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٢﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمَنْ قَتَلَ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونُوا فِي ضَيْفِي الَّذِي مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٣﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتِ مَا لَنَا مِنْ بَنَاتِكَ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَنَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٤﴾ قَالَ لَوْ أَنِّي لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَىٰ رَبِّي سَدِيدٍ ﴿٧٥﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِبْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعِ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَمِسُ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا نَكُنُّ مَصِيبَهَا مَا أَصَابَهُمْ إِلَّا مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ الَّذِي الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٧٦﴾

﴿الَّذِينَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ .

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بنزول العذاب وإحلاله فيهم ﴿جَعَلْنَا﴾ ديارهم ﴿عَلَيْهَا سَافِلَهَا﴾ أي: قلبناها عليهم ﴿وَأَنْظَرْنَا عَلَيْهِمَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة ﴿مَنْضُورٍ﴾ أي متتابعة، تتبع من شد عن القرية .

﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: معلمة، عليها علامة العذاب والغضب ﴿رَمَاهُنَّ مِنَ الظَّلِيلَاتِ﴾ الذين يشابهون لفعل قوم لوط ﴿بِغَيْبٍ﴾ فليحذر العباد أن يفعلوا كفعالهم لئلا يصيبهم ما أصابهم .

(٨٤-٩٥) ﴿وَالِإِي مَدْيَنَ أَخَاهُ شُعَيْبًا﴾ إلى آخر القصة^(٢) .
أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ القبيلة المعروفة الذين يسكنون مدين، في أدنى فلسطين، ﴿أَخَاهُ﴾ في النسب ﴿شُعَيْبًا﴾ لأنهم يعرفونه، وليتمكنوا من الأخذ عنه .

﴿قَالَ﴾ لهم: ﴿يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة، فإنهم كانوا يشركون به، وكانوا - مع

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَالِإِي مَدْيَنَ كَمَا بَدَأْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣١

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا
حِجَارَةً مِّن سِجِيلٍ مَّنصُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُ
شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ
وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ
وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَنْقُورُ
أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوْفُوا الْأَرْضَ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِخَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ
تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُ
إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ
كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَدَكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

والغواية، أي: أن المعنى كيف تكون أنت الحليم الرشيد،
وأباؤنا هم السفهاء الغاؤون!!؟

وهذا القول الذي أخرجه بصيغة التهكم، وأن الأمر
بعكسه، ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه، إن صلته تأمره
أن ينهاهم عما كان يعبد آباؤهم الضالون، وأن يفعلوا في
أموالهم ما يشاؤون، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر،
وأني فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق
عباد الله، أو سرقها بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة
والسلام الحليم الرشيد.

﴿قَالَ﴾ لهم شعيب: ﴿يَنْقُورُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنتُمْ عَلَىٰ يَدَيْهِ مِن رَّبِّي﴾
أي: يقين وطمأنينة في صحة ما جئت به ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا
حَسَنًا﴾ أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني.

﴿و﴾ أنا لا ﴿أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَدَكُم عَنْهُ﴾ فلست
أريد أن أنهاكم عن البخس في المكيال والميزان، وأفعله أنا،
حتى تتطرق إلي التهمة في ذلك، بل ما أنهاكم عن أمر، إلا
وأنا أول مبتدئ لتركه.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أي: ليس لي من

شركهم - يبخسون المكيال والميزان، ولهذا نهاهم عن ذلك
فقال: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ بل أوفوا الكيل
والميزان بالقسط.

﴿إِنِّي أُرِيدُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ أي: بنعمة كثيرة وصحة، وكثرة
أموال وبنين، فاشكروا الله على ما أعطاكم، ولا تكفروا نعمة
الله فيزيها عنكم.

﴿وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي: عذابًا يحيط
بكم، ولا يبقئ منكم باقية.

﴿وَيَنْقُورُ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل
الذي ترضون أن تعطوه، ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ أي:
لا تنقصوا من أشياء الناس، فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال
والميزان.

﴿وَلَا تَعْتَوْفُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ فإن الاستمرار على
المعاصي، يفسد الأديان، والعقائد، والدين، والدنيا،
ويهلك الحرث والنسل.

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: يكفيكم ما أبقى الله لكم من
الخير، وما هو لكم، فلا تطعموا في أمر لكم عنه غنية، وهو
ضار لكم جدًا.

﴿إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فاعملوا بمقتضى الإيمان ﴿وَمَا أَنَا
عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾ أي: لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها،
وإنما الذي يحفظها الله تعالى، وأما أنا فأبلغكم ما أرسلت
به.

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْنَاكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾
أي: قالوا ذلك على وجه التهكم ببنيتهم، والاستبعاد لإجابتهم
له.

ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا، إلا أنك تصلي
الله، وتتعد له، أفإن كنت كذلك، أفوجب لنا أن نترك ما يعبد
آباؤنا، لقول ليس عليه دليل، إلا أنه موافق لك، فكيف
تبتلع، ونترك آباءنا الأقدمين، وأولي العقول والألباب!؟

وكذلك لا يوجب قولك لنا ﴿أَنْ نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا﴾ ما قلت
لنا من وفاء الكيل والميزان، وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل
لا نزال نفعل فيها ما شئنا، لأنها أموالنا، فليس لك فيها
تصرف.

ولهذا قالوا في تهكمهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾
أي: أنت الذي الحلم والوقار لك خلق، والرشد لك
سجية، فلا يصدر عنك إلا رشد، ولا تأمر إلا برشد، ولا
تنهى إلا عن غي، أي: ليس الأمر كذلك.

وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٣٢

سُورَةُ هُودٍ

وَيَنْقُورٍ لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ
 قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ
 بِعَيْدٍ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي
 رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ
 وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ
 عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَنْقُورُ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ
 اللَّهِ وَاللَّهُ خَدُّهُمُ وَرَأَى كُمْ ظَهْرًا إِنِّي رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
 مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَنْقُورُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ
 سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ
 كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَهُ
 أَمْرًا نَجَحْتَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثِيمٍ ﴿٩٤﴾
 كَأَن لَّمْ يَعْنُوا فِيهَا الْآبَعْدَ الْمَدِينِ كَمَا بَعَدَتْ سُودٌ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
 وَمَلَائِيهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

عملتم أتم الجزاء .

﴿٩٥﴾ لما أعياه وعجز عنهم قال: ﴿يَنْقُورُ أَعْمَلُوا عَلَيَّ
 مَكَانِكُمْ﴾ أي: على حالتكم ودينكم .
 ﴿إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ ويحل
 عليه عذاب مقيم أنا أم أنتم، وقد علموا ذلك حين وقع عليهم
 العذاب .
 ﴿وَأَرْتَقِبُوا﴾ ما يحل بي ﴿إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ما يحل
 بكم .
 ﴿وَلَمَّا جَاءَهُ أَمْرًا﴾ يهلك قوم شعيب ﴿نَجَحْتَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ
 جِثِيمٍ﴾ لا تسمع لهم صوتًا، ولا ترى منهم حركة ﴿كَأَن لَّمْ
 يَعْنُوا فِيهَا﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، ولا تنعموا فيها
 حين أتاهم العذاب .
 ﴿أَلَا بَعْدَ الْمَدِينِ﴾ إذ أهلكها الله وأخزاها ﴿كَمَا بَعَدَتْ
 سُودٌ﴾ أي: قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد
 والهلاك .

وشعيب عليه السلام كان يسمى خطيب الأنبياء، لحسن

المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم، وتستقيم منافعكم، وليس
 لي من المقاصد الخاصة لي وحدي، شيء بحسب
 استطاعتي .

ولما كان هذا فيه نوع تركية للنفس، دفع هذا بقوله: ﴿وَمَا
 تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير
 والانتفك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي .

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت في أموري، ووثقت في
 كفايته ﴿وَالَّذِي أُنَبِّئُ﴾ في أداء ما أمرني به من أنواع العبادات،
 وفي [هذا] التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات .

وبهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه
 والإجابة إليه، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ وقال:
 ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُ﴾ .

﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمُكُمْ شِقَاقِي﴾ أي: لا تحملنكم مخالفتي
 ومشاقتي ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ﴾ من العقوبات ﴿مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ
 قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمٌ لَوْطٍ مِنْكُمْ بِعَيْدٍ﴾ لا في الدار
 ولا في الزمان .

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ عما اقترفت من الذنوب ﴿ثُمَّ تُوْبُوا
 إِلَيْهِ﴾ فيما يستقبل من أعماركم، بالتوبة النصوح، والإجابة إليه
 بطاعته، وترك مخالفته .

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ لمن تاب وأناب، يرحمه فيغفر له،
 ويتقبل توبته ويحبه، ومعنى الودود من أسماؤه تعالى، أنه
 يحب عباده المؤمنين ويحبونه، فهو «فعل» بمعنى «فاعل»
 ومعنى «مفعول» .

﴿قَالُوا يَشْعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ أي: تضجروا من
 نصائحه ومواعظه لهم، فقالوا: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾
 وذلك لبغضهم لما يقول، ونفرتهم عنه .

﴿وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أي: في نفسك لست من الكبار
 والرؤساء، بل من المستضعفين ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ أي:
 جماعتك وقبيلتك ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي: ليس
 لك قدر في صدورنا، ولا احترام في أنفسنا، وإنما احترمتنا
 قبيلتك بتركتنا إياك .

﴿فَقَالَ﴾ لهم مترققًا لهم: ﴿يَنْقُورُ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ
 اللَّهِ﴾ أي: كيف تراعوني لأجل رهطي، ولا تراعوني لله،
 فصار رهطي أعز عليكم من الله .

﴿وَأَخَذَتُّهُمُ وَرَأَى كُمْ ظَهْرًا﴾ أي: نبذتم أمر الله وراء
 ظهوركم، ولم تبالوا به، ولا خفتم منه .

﴿إِنِّي رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم
 مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، فسيجازيكم على ما

ومنها: أن وظيفة الرسل وستهم وملتهم، إرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، وبدفع المفسد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة. وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح، لم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه، وفي غيره ما يقدر عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه، متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق، فلينسبه لمولاه ومسديه، ولا يعجب بنفسه لقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

ومنها: الترهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر. كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه، ويعفى عنه فإن الله تعالى يحبه ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: (إن التائب إذا تاب، فحسبه أن يغفر له، ويعود عليه العفو، وأما عود الود والحب فإنه لا يعود)، فإن الله قال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾.

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، أو أهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين، لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك، لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية، يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية، لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحرص على إبادتها، وجعلهم عملاً وخدمًا لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين، وهم الحكام، فهو المتعين. ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا، مقدمة، والله أعلم.

(٩٦-١٠١) وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِكَائِنَاتَا

مراجعتة لقومه، وفي قصته من الفوائد والعبر شيء كثير: منها: أن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام، فكذلك بشرائعه وفروعه، لأن شعبيًا دعا قومه إلى التوحيد، وإلى إيفاء المكيايل والميزان، وجعل الوعيد مرتبًا على مجموع ذلك.

ومنها: أن نقص المكيايل والموازين من كبائر الذنوب، وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك، وأن ذلك من سرقة أموال الناس، وإذا كان سرقهم في المكيايل والموازين موجبة للوعيد، فسرقهم - على وجه القهر والغلبة - من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن الجزاء من جنس العمل، فمن بخش أموال الناس يريد زيادة ماله، عوقب بنقيض ذلك، وكان سببًا لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله: ﴿إِنِّي أَرْزُقُكُمْ بَخِيرٍ﴾ أي: فلا تسبوا إلى زواله بفعلكم.

ومنها: أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله ويقنع بالحلال عن الحرام وبالمكاسب المباحة عن المكاسب المحرمة، وأن ذلك خير له لقوله: ﴿بَقِيَ اللَّهُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق، ما ليس في التكاليف على الأسباب المحرمة من المحق، وضد البركة.

ومنها: أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره، فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل، فالإيمان ناقص أو معدوم.

ومنها: أن الصلاة لم تزل مشروعة للأنبياء المتقدمين، وأنها من أفضل الأعمال، حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها، وتقديمها على سائر الأعمال، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي ميزان للإيمان وشرائعه، فبقايتها تكمل أحوال العبد، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية.

ومنها: أن المال الذي يرزقه الله للإنسان - وإن كان الله قد خوله إياه - فليس له أن يصنع فيه ما يشاء، فإنه أمانة عنده، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق، والامتناع من المكاسب التي حرماها الله ورسوله، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاؤون ويختارون، سواء وافق حكم الله أو خالفه.

ومنها: أن من تكلمة دعوة الداعي وتماها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به، وأول منته عما ينهى غيره عنه، كما قال شعيب عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكَكُمْ إِلَّا مَا أَمْلِكُكُمْ عَنْهُ﴾ ولقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَأْمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾

سورة هود

٢٣٣

سورة هود

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّ الْوُرْدُ
 الْمُرْوَدُ ﴿١٠٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسَّ
 الرِّقْدَ الْمَرْفُودُ ﴿١٠٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ
 مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١١٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا
 أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ عَيْرَ تَنْبِيهِ ﴿١١١﴾
 وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ
 أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١١٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ
 ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَسْهُودٌ ﴿١١٣﴾ وَمَا
 نُوحِرُهُ إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ ﴿١١٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ
 إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُقَىٰ وَسَعِيدٌ ﴿١١٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي
 النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهيقٌ ﴿١١٦﴾ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ
 ﴿١١٧﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ
 السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُودٍ ﴿١١٨﴾

﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَسْهُودٌ﴾ أي: يشهده الله وملائكته وجميع المخلوقين.

(١٠٤) ﴿وَمَا نُوحِرُهُ﴾ أي: إتيان يوم القيامة ﴿إِلَّا لِأَجْلِ مَعْدُودٍ﴾ إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق، فحينئذ ينقلهم إلى الدار الأخرى، ويجري عليهم أحكامه الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامه الشرعية.

(١٠٥) ﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك اليوم، ويجتمع الخلق ﴿لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ حتى الأنبياء والملائكة الكرام، لا يشفعون إلا بإذنه، ﴿فَمِنْهُمْ﴾ أي: الخلق ﴿سُقَىٰ وَسَعِيدٌ﴾، فالأشقياء هم الذين كفروا بالله، وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم المؤمنون المتقون.

(١٠٦) وأما جزاؤهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا﴾ أي: حصلت لهم الشقاوة، والخزي والفضيحة، ﴿فَفِي النَّارِ﴾ منغمسون في عذابها، مشدد عليه عقابها، ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ من شدة ما هم فيه ﴿زَفِيرٌ وَشَهيقٌ﴾ وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

(١١) في ب أورد الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا زَادَهُمْ عَيْرَ تَنْبِيهِ﴾

وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ إلى آخر القصة (١). يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدق ما جاء به، كالعصا واليد ونحوهما من الآيات التي أجراها الله على يدي موسى عليه السلام.

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة ظاهرة بينة، ظهرت ظهور الشمس ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ أي: أشراف قومه لأنهم المتبعون وغيرهم تبع لهم، فلم يتقادوا لما مع موسى من الآيات التي أراهم إياها كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ولكنهم ﴿فَأَتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ بل هو ضالٌ غاوي، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض، لا جرم - لما اتبعه قومه - أرداهم وأهلكهم.

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّ الْوُرْدُ الْمُرْوَدُ﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ ﴿أي: في الدنيا﴾ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿أي: يلعنهم الله وملائكته والناس أجمعون في الدنيا والآخرة.﴾

﴿يَسَّ الرِّقْدَ الْمَرْفُودُ﴾ أي: يس ما اجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة.

ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم، قال الله تعالى لرسوله: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ﴾ لتندربه، ويكون آية على رسالتك، وموعظة وذكرى للمؤمنين.

﴿وَمِنَّا قَائِمٌ﴾ لم يتلف، بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم ﴿و﴾ منها ﴿حَصِيدٌ﴾ قد تهدمت مساكنهم، واضمحلت منازلهم، فلم يبق لها أثر ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بأخذهم بأنواع العقوبات ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالشرك والكفر والعناد.

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وهكذا كل من التجأ إلى غير الله، لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد.

﴿وَمَا زَادَهُمْ عَيْرَ تَنْبِيهِ﴾ أي: خسار ودمار، بالصد مما خطر بالهيم.

(١٠٢) ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أي: يقصمهم بالعذاب ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء.

(١٠٣) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور من أخذه للظالمين بأنواع العقوبات ﴿لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: لعبرة ودليلاً على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية، والعقوبة الآخروية، ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة فقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ﴾ أي: جمعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة، وليظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة.

التوراة، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهي، والاجتماع، ولكن مع هذا فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضر بعقائدهم، وبيجامعتهم الدينية.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴿١٠٧﴾ بِتَأخِيرِهِمْ وَعَدَمِ مَعَالَجَتِهِمْ بِالْعَذَابِ ﴿١٠٨﴾ لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ ﴿١٠٩﴾ بِإِحْلَالِ الْعُقُوبَةِ بِالظَّالِمِ، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أُخَّرَ القضاء بينهم إلى يوم القيامة، ويقوا في شك منه مريب.

وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود، أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مريب.

﴿وَإِنَّ كَلِمَةً لَمَّا يُؤَيِّدُكُمْ رَبُّكُمْ أَصَمَلَهُمْ ﴿١١٠﴾ أَي: لا بد أن الله يقضي بينهم^(١) يوم القيامة بحكمه العدل فيجازي كلًّا بما يستحقه.

﴿إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١١١﴾ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ حَسِيرٌ ﴿١١٢﴾﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم، دقيقها وجليلها.

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي أوجبت اختلافهم وافتراقهم، أمر نبيه محمداً ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يستقيموا كما أمروا، فيسلوكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك يمناً ولا يسرة، ويدوموا على ذلك، ولا يطغوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٣﴾﴾ أَي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها، ففيه ترغيب لسلوك الاستقامة وترهيب من ضدها، ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة فقال: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا ﴿١١٤﴾﴾ أَي: لا تميلوا إلى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴿١١٥﴾﴾ فإنكم إذا ملت إليهم وافقتموهم على ظلمهم، أو رضيت ما هم عليه من الظلم ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴿١١٦﴾﴾ إن فعلتم ذلك ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴿١١٧﴾﴾ يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئاً من ثواب الله.

﴿ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ ﴿١١٨﴾﴾ أَي: لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم. ففي هذه الآية التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقته على ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم.

وإذا كان هذا الرعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة بأنفسهم!!؟ نسأل الله العافية من الظلم.

(١١٤، ١١٥) ﴿وَإِقْرَأْ أَلْفَلُكَةَ طَرْفِي النَّهَارِ وَذُلْفًا مِنْ أَلْبِيلٍ إِنَّ

(١) في ب: لا بد أن يقضي الله بينهم.

(١٠٧) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا ﴿١٠٧﴾﴾ أَي: في النار التي هذا عذابها ﴿مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴿١٠٨﴾﴾ أَي: خالدين فيها أبداً، إلا المدة التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، كما قاله جمهور المفسرين، فلا استثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها.

﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٩﴾﴾ فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته، فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

(١٠٨) ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُئِلُوا ﴿١٠٨﴾﴾ أَي: حصلت لهم السعادة، والفلاح والفوز ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ ﴿١٠٩﴾﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُورٍ ﴿١١٠﴾﴾ أَي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية، فإنه دائم مستمر، غير منقطع بوقت من الأوقات، نسأل الله الكريم من فضله.

(١٠٩) ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ ﴿١١١﴾﴾ يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ ﴿١١٢﴾﴾ المشركون، أَي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل، فليس لهم عليه دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ ﴿١١٣﴾﴾.

ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة، فضلاً عن أن يكون دليلاً، لأن أقوال ما عدا الأنبياء يحتج لها لا يحتج بها، خصوصاً أمثال هؤلاء الضالين الذين كثر خطأهم وفساد أقوالهم في أصول الدين، فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها، فإنها خطأ وضلال.

﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ ﴿١١٤﴾﴾ نصييهم عن مرفوض ﴿أَي: لا بد أن ينالهم نصييهم من الدنيا، مما كتب لهم وإن كثر ذلك النصيب، أو راق في عينك، فإنه لا يدل على صلاح حالهم، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب، والحاصل أنه لا يعتر بافتراق الضالين على قول الضالين من آباؤهم الأقدمين، ولا على ما خولهم الله وآتاهم من الدنيا.

(١١٣-١١٠) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ ﴿١١٣﴾﴾ كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيِبٍ ﴿١١٤﴾﴾ كَلِمَةً لَمَّا يُؤَيِّدُكُمْ رَبُّكُمْ أَصَمَلَهُمْ رَبُّكُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ حَسِيرٌ ﴿١١٥﴾﴾ فَاسْتَمْتُمْ كَمَا أَمَرْتُمْ وَمَنْ تَابَ مَعَكُمْ وَلَا تَظْهَرُوا إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٦﴾﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴿١١٧﴾﴾ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ﴿١١٨﴾﴾ ثُمَّ لَا تَنْصُرُونَ ﴿١١٩﴾﴾ يخبر تعالى أنه أتى موسى الكتاب الذي هو

الحزب الثاني عشر

٢٣٤

سورة هود

فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْْبُدُونَ هَاتُوا لَهُم مَّا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ
 آبَاءَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُم نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١١٦﴾
 وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفَقَضَى إِلَيْهِمْ وَاوْتَاهُمْ لِمَنْ شَاءَ مِنْهُ مُرِيبٍ
 ﴿١١٧﴾ وَإِن كُنَّا لَلْأَبْوَابِمْ رَبِّكَ أَعْمَلُهَا إِنَّهُمْ بِمَاعْمَلُونَ
 خَيْرٍ ﴿١١٨﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا
 إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٩﴾ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
 فَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ
 لَا تُنصَرُونَ ﴿١٢٠﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ
 أَيْلَانِ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ
 ﴿١٢١﴾ وَأَصِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٢﴾ فَلَوْلَا
 كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُودٍ عَنْ فَسَادِ
 فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٢٣﴾ وَمَا كَانَ
 رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٢٤﴾

قاموا به من دينهم، ويكون حجة الله أجراها على أيديهم،
 ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة^(١).

﴿١١٦﴾ لكن ﴿١١٦﴾ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ ﴿١١٦﴾ أي: اتبعوا
 ما هم فيه من النعيم والترف، ولم يغيروا به بدلاً.

﴿١١٧﴾ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٧﴾ أي: ظالمين باتباعهم ما أترفوا فيه،
 فلذلك حَقَّ عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب، وفي هذا
 حث لهذه الأمة أن يكون فيهم بقايا مصلحون لما أسفد
 الناس، قائمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى،
 ويصبرون منهم على الأذى، ويصرونهم من العمى.

وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها
 يكون إماماً في الدين، إذا جعل عمله خالصاً لرب العالمين.

﴿١١٧﴾ ﴿١١٧﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا

(١) جاء في هامش أ ما نصه: (والمعروف في تفسيرها غير هذا المعنى
 الذي ذكر هنا، وهو أن هذا بمعنى النبي، أي: إنه لم يكن في القرون
 السالفة أولو بقية... إلخ) ﴿١١٧﴾ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ﴿١١٧﴾ أي: لكن بقى قليل
 بهذه الصفة، وهو قريب من المعنى الذي ذكرنا، لكن ما ذكرنا في
 الأصل (...). ثم لم يوضح باقي الكلام لإصابته بالبل، وهو يسير.

أَحْسَنَتْ يُدْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١٢١﴾ وَأَصِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا
 يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٢﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿طَرَفِي
 النَّهَارِ﴾ أي: أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر
 وصلاتا الظهر والعصر ﴿وَزُلْفَا مِنْ أَيْلَانِ﴾ ويدخل في ذلك
 صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الليل، فإنها مما
 تُزَلِّفُ العبد وتقربه إلى الله تعالى.

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبَنَّ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: فهذه الصلوات
 الخمس، وما ألحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات،
 وهي - مع أنها حسنات - تقرب إلى الله، وتوجب الثواب،
 فإنها تذهب السيئات وتمحوها، والمراد بذلك الصغائر، كما
 قيدها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ مثل قوله:
 «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى
 رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر»، بل كما
 قيدها الآية التي في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿إِن
 تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا نُهَوْنَ عَنْهُ نَكَفَرْنَا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ
 مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

ذلك لعل الإشارة لكل ما تقدم من لزوم الاستقامة على
 الصراط المستقيم وعدم مجاوزته وتعديه، وعدم الركون إلى
 الذين ظلموا، والأمر بإقامة الصلاة، وبيان أن الحسنات
 يذهبن السيئات الجميع ﴿ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾ يفهمون بها ما
 أمرهم الله به ونهاهم، ويمتثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة
 للخيرات، الدافعة للشرور والسيئات، ولكن تلك الأمور
 تحتاج إلى مجاهدة النفس، والصبر عليها، ولهذا قال:

﴿وَأَصِرْ﴾ أي: احبس نفسك على طاعة الله، وعن
 معصيته، وإلزامها لذلك، واستمر ولا تضجر.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل يتقبل الله عنهم أحسن
 الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، وفي
 هذا ترغيب عظيم، للزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة إلى
 ثواب الله كلما ونت وقترت.

﴿١١٦﴾ ﴿١١٦﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَهُودٍ عَنْ
 فَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٧﴾ لما ذكر تعالى إهلاك الأمم
 المكذبة للرسل، وأن أكثرهم منحرفون، حتى أهل الكتب
 الإلهية، وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب
 والاضمحلال، ذكر أنه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا
 من أهل الخير يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد والردى،
 فحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان، ولكنهم قليلون جداً.
 وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما

مُخْلِطِينَ ﴿١١٨﴾ أَي: وما كان الله ليهلك أهل القرى بظلم منه لهم، والحال أنهم مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح، مستمرين عليه، فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا، وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يغفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

(١١٨، ١١٩) ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالوا مختلفين، مخالفين للضوابط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله، والضلال في قول غيره.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ فهداهم إلى العلم بالحق والعمل به، والاتفاق عليه، فهو لاء سبقت لهم سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.

وأما من عداهم فهم مخذولون موكولون إلى أنفسهم.

وقوله: ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله، والفريق الذين حقت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء.

﴿و﴾ لأنه ﴿تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فلا بد أن ييسر للنار أهلاً، يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

(١٢٠-١٢٣) ﴿وَلَا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ۝ وَانظُرُوا أَنَا مُنظَرُونَ ۝ وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاغْبِئْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَنَّا تَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر ذلك فقال: ﴿وَلَا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي، قلبك ليطمئن وثبت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالافتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به.

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لِأَمَلَانِ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝ وَلَا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِن أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ۝ وَانظُرُوا أَنَا مُنظَرُونَ ۝ وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ فَاغْبِئْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَنَّا تَعْمَلُونَ﴾

سُورَةُ الْاِنشَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَةِ الَّتِي آتَيْتَ الْكِتَابَ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾

﴿وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ﴾ السورة ﴿الْحَقُّ﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس.

﴿وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويتذكرون الأمور المحبوبة لله، فيفعلونها. وأما من ليس من أهل الإيمان، فلا تفهم المواظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بعدما قامت عليهم الآيات ﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾ أي: حالتكم التي أنتم عليها ﴿إِنَّا عَمِلُونَ﴾ على ما كنا عليه ﴿وَانظُرُوا﴾ ما يحل بنا ﴿إِنَّا مُنظَرُونَ﴾ ما يحل بكم.

وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

﴿وَاللَّهُ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ما غاب فيهما من الخفيا، والأمور الغيبية.

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهُ﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب.

﴿فَاغْبِئْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص، وأنها أحسن القصص على الإطلاق، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن، ذكر قصة يوسف وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة، فقال:

(٤-٦) ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝ قَالَ يَبْنَؤُ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ بِمِصْرَ عَلَيْهِمْ وَعَلَىٰ مَالٍ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ وَإِصْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝﴾

واعلم أن الله ذكر أنه يقص على رسوله أحسن القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها، فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة، فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر في الإسرائيليات التي لا يعرف لها سند ولا ناقل، وأغلبها كذب، فهو مستدرِك على الله، ومكمل لشيء يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي إلى هذا الحد قبحًا، فإن تضاعف هذه السورة قد ملئت في كثير من التفاسير، من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة لما قصه الله تعالى بشيء كثير.

فعلى العبد أن يفهم عن الله ما قصه، ويدع ما سوى ذلك، مما ليس عن النبي ﷺ ينقل.

فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ فكانت هذه الرؤيا مقدمة لما وصل إليه يوسف عليه السلام من الارتفاع في الدنيا والآخرة.

وهكذا إذا أراد الله أمرًا من الأمور العظام، قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلًا لأمره، واستعدادًا لما يرد على العبد من المشاق، لطفًا بعبده، وإحسانًا إليه، فأولها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكرامًا وإعظامًا، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتناء الله له، وإصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعلم والعمل، والتمكين في الأرض.

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب الذين سجدوا له، وصاروا تبعًا له فيها، ولهذا قال:

أمر الله به مما تَقَدَّرُ عليه، وتوكل على الله في ذلك.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم. [وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت في ٢١ من شهر ربيع الآخر ١٣٤٧هـ^(١)].

المجلد الرابع من تيسير الكريم الرحمن من تفسير كلام الرب الصنان لجامعه الفقير إلى الله عبدالرحمن بن ناصر السعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، آمين.

تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ تَحَنَّنْ نَفْسُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ يخبر تعالى أن آيات القرآن هي ﴿آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أي: البين الواضحة الفاظه ومعانيه، ومن بيانه وإيضاحه: أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الألسنة، وأبينها، [المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة]^(٢) وكل هذا الإيضاح والتبيين ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه، وأوامره ونواهيه.

فإذا عقلت ذلك بإيقانكم، واتصفت قلوبكم بمعرفتها، أثمر ذلك عمل الجوارح والالتقياد إليه، و ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تزداد عقولكم بتكرر المعاني الشريفة العالية على أذهانكم، فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

﴿تَحَنَّنْ نَفْسُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ وذلك لصدقها وسلاسة عابرتها ورونق معانيها ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذلك محض ميثم من الله وإحسان.

﴿وَإِن كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ أي: ما كنت تدري ما الكتاب، ولا الإيمان، قبل أن يوحى الله إليك، ولكن جعلناه نورًا نهدي به من نشاء من عبادنا.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْزِيكَ رَبُّكَ﴾ أي: يصطفيك ويختارك بما يمنُّ به عليك من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: من تفسير الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية ونحوها ﴿وَرَبُّهُ نِعْمَتُهُ عَلَيْكَ﴾ في الدنيا والآخرة، بأن يؤتيت في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة ﴿كَمَا أَنْهَىٰ عَلَىٰ آبَائِكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ﴾ حيث أنعم الله عليهما، بنعم عظيمة واسعة، دينية ودنيوية. ﴿إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: علمه محيط بالأشياء، وبما احتوت عليه ضمائر العباد من البر وغيره، فيعطي كلاً ما تقتضيه حكمته وحمده، فإنه حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها.

ولما بان تعبيرها ليوسف، قال له أبوه:

﴿يَبْنَؤُ لَا تَقْصُصْ رُءُوكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ أي: حسداً من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً، ولا سراً ولا جهاراً، فالبعد عن الأسباب التي تسلط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتبتها عنهم.

(٧-٩) ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْمُتَسَابِلِينَ﴾ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلينا مما نحنُ وعصبته إن أبانا لفي ضلالٍ مبينٍ ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ﴾ أي: عيّر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة ﴿لِلْمُتَسَابِلِينَ﴾ أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا [بالقصص] (١)

والبيئات.

﴿إِذْ قَالُوا﴾ فيما بينهم ﴿لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ﴾ بنيامين، أي: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة ﴿أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة، فكيف يفضلهما علينا بالمحبة والشفقة ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لفي خطأ بين، حيث فضلها علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أي: غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها.

فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ أي: يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرغ لكم ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ﴾

أي: من بعد هذا الصنيع ﴿قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ أي: تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم.

فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلاً لفعله، وإزالة لشغاعته، وتنشيطاً من بعضهم لبعض.

(١٠) ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: ﴿قَالَ قَائِلٌ﴾ من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبيده: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ فإن قتله أعظم إثماً وأشنع، والمقصود يحصل بتبعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبيده بأن تلقوه ﴿فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ وتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك أتى منكم، لأجل أن ﴿يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ الذين يريدون مكاناً بعيداً، فيحفظون فيه.

وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل. فلما اتفقوا على هذا الرأي.

(١) في الأصل (في القصص) ولعل الصواب ما أثبت.

لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر. فيه بشارة له بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته، على وجه العز والتمكين له في الأرض. ﴿وَمَا وَرَّأَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ليكون إيتانهم متأخراً عن عادتهم، وبكاؤهم دليلاً لهم، وقرينة على صدقهم، فقالوا - معذرين^(١) بَعْدُ كاذب - ﴿يَتَأَنَّى إِنَّا ذَهَبًا نَسْتَبِينُ﴾ إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال ﴿وَوَرَكْنَا يُوْسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا﴾ توفيراً له وراحة ﴿فَأَكَلَهُ الذُّبُّ﴾ في حال غيبتنا عنه في استباقنا ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ أي: تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف، والرقة الشديدة عليه.

ولكن عدم تصديقك إيانا، لا يمنعنا أن نتعذر بالعدر الحقيقي، وكل هذا تأكيد لعدرهم ﴿و﴾ مما أكدوا به قولهم، أنهم ﴿جَاءُوا عَلَى قَيْصِهِ بِدَرٍ كَذِبٍ﴾ زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم أبوهم بذلك، و ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي: زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في التفريق بيني وبينه، لأنه رأى من القرائن والأحوال، لومن رؤيا يوسف التي قصها عليه^(٢)، ما دلل على ما قال.

﴿فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ أي: أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أنني أصبر على هذه المحنة، صبراً جميلاً، سالمًا من السخط والتشكي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِيِّ وَحُرَّتِي إِلَى اللَّهِ﴾ لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل، لأن النبي إذا وعد وقى.

(١٩، ٢٠) ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ يَضَعَنَّ وَاللَّهُ عَلَيْهِ يَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ و﴿وَسَرُّهُ بِمَنْ يَخْسِ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ أي: مكث يوسف في الجب ما مكث، حتى ﴿جَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ أي: قافلة تريد مصر ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ أي: فرطهم ومقدمهم الذي يعس لهم المياه، ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الحياض ونحو ذلك ﴿فَأَدْلَى﴾ ذلك الوارد ﴿دَلْوَهُ﴾ فترلق فيه يوسف عليه السلام وخرج ﴿قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلْمٌ﴾ أي: استبشر وقال: هذا غلام نفيس ﴿وَأَسْرُوهُ يَضَعَنَّ﴾ وكان إخوته قريباً منه، فاشتره السيارة منهم ﴿بِمَنْ يَخْسِ﴾ أي: قليل جداً، فسره بقوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

(١) في الأصل متعذرين، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) زيادة من هامش ب.

(١١-١٤) ﴿قَالُوا يَتَأَنَّى مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ أرسله ممناً عداك يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذَهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَيْرُونَ﴾.

أي: قال إخوة يوسف، متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم: ﴿يَتَأَنَّى مَا لَكَ لَا تَأْتِنَا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ أي: لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف، من غير سبب ولا موجب؟ ﴿و﴾ الحال ﴿إِنَّا لَهُ لَنَصْحُونَ﴾ أي: مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا، وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا: ﴿أَرْسَلَهُ مَمْنًا عَدَاكَ يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾ أي: يتنزه في البرية ويستأنس ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي: سراعيه، ونحفظه من أذى يريده.

فأجابهم بقوله: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنَّ تَذَهَبُوا بِهِ﴾ أي: مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق عليّ، لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله ﴿و﴾ مانع ثان، وهو أنني ﴿أَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذُّبُّ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ أي: في حال غفلتكم عنه، لأنه صغير لا يمتنع من الذئب.

﴿قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذُّبُّ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة حريصون على حفظه، ﴿إِنَّا إِذًا لَخَيْرُونَ﴾ أي: لا خير فينا ولا نفع يرجى منا، إن أكله الذئب وغلبنا عليه.

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع، سمح حينئذ بإرساله معهم لأجل أنسه.

(١٥-١٨) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَآخَعُوا أَنْ يَعْمَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْبَيْتِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وَجَاءَ وَرَأَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿قَالُوا يَتَأَنَّى إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِينُ وَوَرَكْنَا يُوْسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَأَكَلَهُ الذُّبُّ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ وَجَاءَهُ عَلَى قَيْصِهِ بِدَرٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبَّرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه، وعزموا على أن يجعلوه في غيابة الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحرجة ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: سيكون منك معاتبه

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٣٧

سُورَةُ يُوسُفَ

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُعْجِلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءَ وَآبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا نَأْذِهُنَا نَسْتَفِيحُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءَ وَعَلَى قَيْصِيضِهِ يَدْمِرُ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبشُرِي هَذَا عِلْمٌ وَأَسْرُوهُ بِيضَعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَسَرَّوهُ يُخِيبُ يَحْسِبُ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

مَا جَزَاءَ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ○ قَالَ هِيَ رُودَتِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصِيضَهُ فَدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ○ وَإِنْ كَانَتْ قَيْصِيضَهُ فَدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ○ فَلَمَّا رَأَى قَيْصِيضَهُ فَدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ○ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ لِيُذْنِكَ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْخَاطِئِينَ ○ هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبه عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختيار مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبه صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعا أو كارها، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرما في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن ﴿رَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر فيه إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر.

﴿و﴾ زادت المصيبة، بأن ﴿غَلَقَتْ الْأَتْرَابَ﴾ وصار المحل

لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغييره وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه. والمعنى في هذا: أن السيارة لما وجدوه، عزموا أن يُسْرِوْا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبق منهم، فاشتروه منهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

(٢١) ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لِأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتراه عزيز مصر، فلما اشتراه أعجب به، ووصى عليه امرأته وقال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي: إما ينفعنا كنعف العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كما يسرنا له أن يشتريه عزيز مصر، ويكرمه هذا الإكرام، جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق.

﴿وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ إذا بقي لا شغل له ولا هم سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علما كثيرا، من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ أي: أمره تعالى نافذ، لا يظلمه مبطل، ولا يغلبه مغالب، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فلذلك يجري منهم ويصدر ما يصدر، في مغالبة أحكام الله القدرية، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: ﴿لَمَّا بَلَغَ﴾ يوسف ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: كمال قوته المعنوية والحسية، وصلح لأن يتحمل الأحمال الثقيلة، من النبوة والرسالة ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: جعلناه نبيا رسولا، وعالما ربانيا ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم علما نافعا.

ودل هذا على أن يوسف وفي مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير والنبوة.

(٢٣-٢٩) ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَتْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ○ وَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَصَوَّرَ عَنْهُ الشَّيْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُتَّخِصِنِينَ ○ وَاسْتَفْتَى الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصِيضَهُ مِنْ دُبُرٍ وَالْقِيَا سَدَّهَا لَهَا الْبَابُ قَالَتْ

سورة يوسف

٢٣٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ. وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ
 وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ
 إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ. وَهَمَّ بِهَا
 لَوْلَا أَنَّ رَجُلًا بَرَّهَانَ رَبِّيَ. كَذَلِكَ لِنُصْرَفَ عَنْهُ السُّوءُ
 وَالْفَحْشَاءُ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا
 الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيْتَ سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ
 قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ
 أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي. وَشَهِدْتُ شَاهِدًا مِنْ
 أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ. قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ. وَهُوَ مِنَ
 الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ. قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ. وَهُوَ
 مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ. قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ
 مِنْ كَيْدِكُنَّ. إِنْ كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ
 هَذَا. وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكُ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ
 ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرْوَدُ فَتَدْفَعُهَا
 عَنْ نَفْسِهِ. قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾

تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمن الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئة لنبية وصفيه يوسف عليه السلام، فانبعث شاهد من أهل بيتها، يشهد بقرينة من وجدت معه، فهو الصادق، فقال: ﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراد لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب.

﴿وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ﴾ عرف بذلك صدق يوسف وبرأته، وأنها هي الكاذبة فقال لها سيدها: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنْ كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

وهل أعظم من هذا الكيد الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام، ثم إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا﴾ أي: اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلباً للستر على أهله ﴿وَأَسْتَغْفِرُ﴾ أيها المرأة ﴿لِدُنْيِكُ إِنَّكَ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾

خالياً، وهما أمانان من دخول أحد عليهما، بسبب تغلق الأبواب، وقد دعتة إلى نفسها ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إلي، ومع هذا فهو غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدهته، وفيها من الجمال ما يدعو إلى ما هنالك، وهو شاب عذب، وقد توعدته إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم.

فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها همًّا تركه الله، وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهانه ربه - وهو ما معه من العلم والإيمان، الموجب لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد والانكفاف، عن هذه المعصية الكبيرة، و﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي.

فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلاح.

والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلاح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهانه الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه.

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المرادة الشديدة، وذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرت إليه، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال، ألفتها سيدها، أي زوجها لدى الباب، فرأى امرأة شق عليه، فبادرت إلى الكذب، أن المرادة قد كانت من يوسف، وقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ ولم تقل (من فعل بأهلك سوءاً) تبرئة لها وتبرئة له أيضاً من الفعل.

وإنما النزاع عند الإرادة والمرادة ﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: أو يعذب عذاباً أليماً.

فبرأ نفسه مما رمته به، وقال: ﴿هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي﴾ فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما، ولم يعلم أيهما.

ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات

فأمر يوسف بالإعراض، وهي ^(١) بالاستغفار والتوبة.

(٣٥-٣٠) ﴿وَقَالَ يَسُوهُ فِي الْمَدِينَةِ أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تَرُودُ فَنَهَا عَنْ

نَفْسِيهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرْنَهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ

أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ

أَخْرِجْ عَلَيْنَ فُلْمَا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتُهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ

هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ۝ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْتُهُ عَنْ

نَفْسِيهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَسْجُنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ

الصَّغِيرِينَ ۝ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا نَصْرَفُ

عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۝ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ فَصَرَفَ

عَنَّهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا

الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ يعني: أن الخبر اشتهر وشاع في

البلد، وتحدث به النسوة، فجعطن يلمنها، ويقلن: ﴿أَمْرَاتُ

الْعَزِيزِ تَرُودُ فَنَهَا عَنْ نَفْسِيهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: هذا أمر

مستقبح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا

لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه،

ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغًا عظيمًا.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو

باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب ﴿إِنَّا لَنَرْنَهَا

فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تبغي

منها، وهي حالة تحط قُدرها وتضعه عند الناس.

وكان هذا القول منهن مكرًا، ليس المقصود به مجرد اللوم

لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية

يوسف الذي فتنن به امرأة العزيز، لتحتق امرأة العزيز،

وتريهن إياه ليعذرنها، ولهذا سماه مكرًا، فقال:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ تدعوهن إلى منزلها

للضيافة.

﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا﴾ أي: محلاً مهياً بأنواع الفرش

والوسائد، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في

جملة ما أتت به وأحضرتة في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى

سكين، إما أترج، أو غيره ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾

ليقطعن فيها ذلك الطعام ﴿وَقَالَتْ لِيُوسُفُ: ﴿أَخْرِجْ عَلَيْنَ﴾ في

حالة جماله وبهائه.

﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتُهُ﴾ أي: أعظمته في صدورهن، ورأين

منظرًا فاتقًا، لم يشاهدن مثله ﴿وَقَطَّعْنَ﴾ من الدهش ﴿أَيْدِيَهُنَّ﴾

بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ أي: تنزيهاً لله

﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ وذلك أن يوسف أعطي من

الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آيةً للناظرين، وعبرة

للمتأملين.

الجزء الثاني عشر

٢٣٩

سورة يوسف

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَآتَتْ

كُلَّ وَجِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيْنَ فُلْمَا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتُهُ

وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ

كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْتُهُ عَنْ

نَفْسِيهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَسْجُنَّ وَلَيَكُونَا

مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي

إِلَيْهِ وَإِلَّا نَصْرَفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ

﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنَّهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ

الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ

حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا

إِنِّي أُرَىٰ أَنِّي أَصْبُرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أُرَىٰ أَنِّي أَحْمِلُ فَوْقَ

رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبْتًا بِنَاءُ وَيْلَهُ إِنَّا لَنَرْنَكَ مِنَ

الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَا بُدَّ كَيْدَهُمَا تَزْرُقَانِي وَإِنَّا لَنَبْتًا كَمَا

بِنَاءُ وَيْلَهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ

مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يَبُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية،

وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز شيء كثير - أرادت أن

تريهن جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك، ومبينة

لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة:

﴿وَلَقَدْ رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِيهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ أي: امتنع وهي مقيمة على

مراودته، لم يزدها مرور الأوقات إلا قلقًا ومجبة وشوقًا

لوصاله وتوقًا.

ولهذا قالت له بحضرتهن: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيَسْجُنَّ

وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ لتلجئه بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها

منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن،

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ وهذا يدل على أن

النسوة، جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيده، وجعلن

يكذبه في ذلك.

فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة

توجب العذاب الشديد ﴿وَإِلَّا نَصْرَفُ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾

(١) كذا في الأصل، والمراد: وإياها.

إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ۗ أَي: فلتطمئن قلوبكما،
فإني سأبأدر إلى تعبير رؤياكما، فلا يأتيكما غداؤكما أو
عشاؤكما، أول ما يجيء إليكما، إلا نبأْتُكُمَا بتأويله قبل أن
يأتيكما.

ولعل يوسف عليه الصلاة والسلام قصد أن يدعوها إلى
الإيمان في هذه الحال التي بدت حاجتهما إليه، ليكون أنجع
لدعوته، وأقبل لهما.

ثم قال: ﴿ذَلِكُمْ﴾ التعبير الذي سأعبره لكم ﴿مِمَّا عَلَّمَنِي
رَبِّي﴾، أي: هذا من علم الله علمنيه وأحسن إليَّ به، وذلك
﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾
والترك كما يكون للداخل في شيء ثم ينتقل عنه، يكون لمن لم
يدخل فيه أصلاً.

فلا يقال: إن يوسف كان من قبل على غير ملة إبراهيم
﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِرْهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ثم فسر تلك
الملة بقوله: ﴿مَا كَانُوا لَنَا﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق بنا ﴿أَنْ
شُرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ بل نفرد الله بالتوحيد، ونخلص له الدين
والعبادة.

﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَكَانَ النَّاسُ﴾ أي: هذا من أفضل
منته وإحسانه وفضله علينا، وعلى من هداه الله كما هدانا، فإنه
لا أفضل من ملة الله على العباد بالإسلام والدين القويم، فمن
قبله وانقاد له فهو حظه، وقد حصل له أكبر النعم وأجل
الفضائل.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ فلذلك تأتيهم المنة
والإحسان، فلا يقبلونها ولا يقومون لله بحقه، وفي هذا من
الترغيب للطريق التي هو عليها ما لا يخفى. فإن الفتيين - لما
تقرر عنده أنهما رأياه بعين التعظيم والإجلال، وأنه محسن
معلم - ذكر لهما أن هذه الحالة التي أنا عليها، كلها من فضل
الله وإحسانه، حيث مَنَّ عَلَيَّ بترك الشرك واتباع ملة آبائي
فهذا وصلت إلى ما رأيتم، فينبغي لكم أن تسلكا ما
سلكت.

ثم صرح لهما بالدعوة فقال: ﴿يَصْصِحِي السِّجْنَ ۗ أَرَبَابُ
مُتَّفَوِّتٍ خَيْرٌ أَرِ اللَّهُ الْوَجْدُ الْفَهَارُ﴾ أي: أرباب عاجزة ضعيفة
لا تنفع ولا تضر، ولا تعطي ولا تمنع، وهي متفرقة ما بين
أشجار وأحجار وملائكة وأموات، وغير ذلك من أنواع
المعبودات التي يتخذها المشركون، أترك ﴿خَيْرٌ أَرِ اللَّهُ﴾
الذي له صفات الكمال، ﴿الْوَجْدُ﴾ في ذاته وصفاته وأفعاله،
فلا شريك له في شيء من ذلك.

﴿الْفَهَارُ﴾ الذي انقادت الأشياء لقهره وسلطانه، فما شاء

أي: أمل إليهن، فإني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني سوء
﴿وَأَكُنَّ﴾ إن صبوئت إليهن ﴿مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾ فإن هذا جهل، لأنه أثر
لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في
جنات النعيم، ومن أثر هذا على هذا، فمن أجهل منه!! فإن
العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين، وأعظم
اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ حين دعاه ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ فلم
تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى
أيسها، وصرف الله عنه كيدها، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لدعاء
الداعي ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيته الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية
لإمداده بمعونته ولطفه، فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه
الفتنة الملمة والمحنة الشديدة، وأما أسياده فإنه لما اشتهر
الخبر وبان، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح.

﴿بَدَأَ لَهُمْ﴾ أي: ظهر لهم ﴿مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ﴾ الدالة
على براءته، ﴿لِيَسْجُنْتَهُ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: لينقطع بذلك الخبر
ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر، ويشاع مع
وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نسي، فرأوا أن هذا مصلحة
لهم، فأدخلوه في السجن.

(٣٦-٤٠) ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَدْتُ
أَقْصِرُ حَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَدْتُ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ
مِنْهُ نَبْتَنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ
تُرْفَاهُ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي
تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝ وَاتَّبَعْتُ
مِلَّةَ آبَائِي إِرْهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَكَانَ النَّاسُ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا
يَشْكُرُونَ ۝ يَصْصِحِي السِّجْنَ ۗ أَرَبَابُ مُتَّفَوِّتٍ خَيْرٌ أَرِ اللَّهُ الْوَجْدُ
الْفَهَارُ ۝ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ
مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
ذَلِكَ الدِّينُ الْقَدِيمُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ﴿و﴾ لما

دخل يوسف السجن، كان في جملة من ﴿دَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ
فَتَيَانٍ﴾ أي: شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصها على
يوسف ليعبرها، ف ﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَدْتُ أَقْصِرُ حَمْرًا وَقَالَ
الْآخَرُ إِنِّي أَرَدْتُ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا﴾ وذلك الخبز ﴿تَأْكُلُ الطَّيْرُ
مِنْهُ نَبْتَنَا بِتَأْوِيلِهِ﴾ أي: بتفسيره، وما يؤول إليه أمرهما،
وقولهما: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: من أهل الإحسان
إلى الخلق، فأحسن إلينا في تعبيرك لرؤيانا، كما أحسنت إلى
غيرنا، فتوسلا ليوسف بإحسانه.

ف ﴿قَالَ﴾ لهما مجيباً لطلبتهما: ﴿لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْفَاهُ ۗ﴾

الْبُرُوكِ

٢٤٠

سُورَةُ يُوسُفَ

وَاتَّبَعَتْ مَلَّةً ؕ أَبَاءَ يَٰٓإِبْرَاهِيمَ ۖ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَتْ لِنَاسٍ نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْهِ ۚ وَعَلَى النَّاسِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَصْحَجِي السَّجْنَ ؕ أَرْبَابٌ مُتَّفِقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَالِحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ۚ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ ۖ وَءَابَاؤُكُمْ ۚ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّلْطَانِ ۚ وَإِذَا لَمْ يَنْزِلِ اللَّهُ بِهَا سُلْطَانًا، لَمْ يَكُنْ طَرِيقٌ وَلَا وَسِيلَةٌ، وَلَا دَلِيلٌ لَهَا.

لأن الحكم لله وحده، فهو الذي يأمر وينهى، ويشرع الشرائع ويسن الأحكام، وهو الذي أمركم ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا يَأَهُ ذَلِكُ الَّذِينَ الْقَيْمِ﴾ أي: المستقيم الموصل إلى كل خير، وما سواه من الأديان فإنها غير مستقيمة، بل معوجة توصل إلى كل شر.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ حقائق الأشياء، وإلا فإن الفرق بين عبادة الله وحده لا شريك له، وبين الشرك به، أظهر الأشياء وأبينها.

ولكن لعدم العلم من أكثر الناس بذلك، حصل منهم ما حصل من الشرك، فيوسف عليه السلام دعا صاحبي السجن لعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، فيحتمل أنهما استجابا وانقادا، فتمت عليهما النعمة، ويحتمل أنهما لم يزالا على شركهما، فقامت عليهما - بذلك - الحجة، ثم إنه عليه السلام شرع يعبر رؤياهما بعد ما وعدهما ذلك، فقال:

(٤١) ﴿يَصْحَجِي السَّجْنَ ؕ أَمَّا أَحَدُكُمَا﴾ وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا، فإنه يخرج من السجن ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ أي: يسقي سيده الذي كان يخدمه خمرا، وذلك مستلزم لخروجه من السجن ﴿وَأَمَّا الْآخَرُ﴾ وهو الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزا تأكل الطير منه.

﴿فَيَصْلُبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ فإنه عبر [عن] الخبز الذي تأكله الطير، بلحم رأسه وشحمه، وما فيه من المخ، وأنه لا يقبر ويستتر عن الطيور، بل يصلب ويجعل في محل، تتمكن الطيور من أكله، ثم أخبرهما بأن هذا التأويل الذي تأوله لهما، أنه لا بد من وقوعه فقال: ﴿فُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ أي: تسألان عن تعبيره وتفسيره.

(٤٢) ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَإِنَّهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبَّهُ فَلَيْتَ فِي السَّجَنِ يَضَعُ سِنِينَ﴾ أي: ﴿وَقَالَ﴾ يوسف عليه السلام ﴿لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾

وهو الذي رأى أنه يعصر خمرا ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي: اذكر له شأني وقصتي، لعله يرق لي، فيخرجني مما أنا فيه، ﴿فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبَّهُ﴾ أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه، ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي يستحق أن يجازى بأتم الإحسان، وذلك ليتم الله أمره وقضاه.

﴿فَلَيْتَ فِي السَّجَنِ يَضَعُ سِنِينَ﴾ والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا قيل: إنه لبث سبع سنين، ولما أراد الله أن يتم أمره، ويأذن بإخراج يوسف من السجن، قدر لذلك سببا كان سببا لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء قدره، وهو رؤيا الملك.

(٤٣-٤٩) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٌ فِي رُبْعِي إِن كُنتُمْ لِلرُّبْعِيَاءِ قَاعُونَ ۖ قَالُوا أَضَعَتْ أَطْلَقَتْ وَمَا نَحْنُ بِبَاطِلِينَ ۖ وَالَّذِي نَجَىٰ مِنْهَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ۖ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتَىٰ فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ

المقام المحمود الذي يغطيه به الأولون والآخرون.

فسبحان من خفيت ألطافه، ودقت في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص أصفيائه وأوليائه.

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِتْمًا﴾ أي: من الفتين، وهو الذي رأى أنه يعصر خمرًا، وهو الذي أوصاه يوسف أن يذكره عند ربه ﴿وَأَذَكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: وتذكر يوسف، وما جرى له في تعبيره لرؤياهما، وما وصاه به، وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد مدة من السنين فقال: ﴿أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ إلى يوسف لأسأله عنها.

فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابته عن ذلك، فقال:

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، ﴿أَفَسْنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ حُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فإنهم متشوقون لتعبيرها، وقد أهمتهم.

فعبّر يوسف السبع البقرات السمان، والسبع السنبلات الخضرة، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات العجاف، والسبع السنبلات اليابسات، بأنهن سنين مجدبات، ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجذب لما كان الحرث مبنياً عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحرث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجذب بالعكس من ذلك.

وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحرث في الغالب. والسنبلات هي أعظم الأفوات وأفضلها، عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب إلى سني الجذب، فقال:

﴿تَرْزَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا﴾ أي: متتابعات. ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ﴾ من تلك الزروع ﴿فَذَرُوهُ﴾ أي: اتركوه ﴿فِي سُنبُلِهِ﴾ لأنه أبقى له وأبعد عن الالتفات إليه ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ أي: دبروا أيضًا أكلكم في هذه السنين الخصبية، وليكن قليلاً، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: مجدبات جدًا ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾ أي: يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيرًا ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ﴾ أي: تمنعونه من التقديم لهن.

يَأْسَبْتِ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ○ قَالَ تَرْزَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ ○ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ○ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصُونَ ○ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُعَاتِي النَّاسُ فِيهِ وَيَعَصِرُونَ﴾ لما أراد الله تعالى أن يخرج يوسف من السجن، أرى الله الملك هذه الرؤيا العجيبة التي تأويلها يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين من علمه ما يكون له رفعة في الدارين، ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها، لارتباط مصالحها به.

وذلك أنه رأى رؤيا هائلته، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي منهم، وقال: ﴿إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ﴾ أي: سبع من البقرات ﴿عِجَافٌ﴾ وهذا من العجب، أن السبع العجاف الهزيلات اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كُنَّ نهاية في القوة.

﴿و﴾ رأيت ﴿سَبْعَ سُنبُلَاتٍ حُضْرٍ﴾ يأكلن سبع سنبلات ﴿يَابِسَتٍ﴾ ﴿يَأْتِيهَا النَّوَالُ أَتَوْنِي فِي رُبْعِي﴾ لأن تعبير الجميع واحد، وتأويله شيء واحد ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّبُوبِيَّةِ فَعْبِرُونَ﴾ فتحيروا، ولم يعرفوا لها وجهًا. ﴿وَقَالُوا أَضْغَثٌ أَحْلَمٌ﴾ أي: أحلام لا حاصل لها، ولا لها تأويل.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون، وتعذر منهم، إما ليس بعدرًا^(١)، ثم قالوا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِبِائِبِينَ﴾ أي: لا نعبر إلا الرؤيا، وأما الأحلام التي هي من الشيطان، أو من حديث النفس، فإننا لا نعبرها.

فجمعوا بين الجهل والجزم، بأنها أضغاث أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا، وهذا أيضًا من لطف الله بيوسف عليه السلام، فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتمًا لها غاية، فعبّر بها يوسف - وقعت عندهم موقعًا عظيمًا، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا، ثم سأل آدم فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمدًا ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها»، فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد السبع الشداد ﴿عَامٌ فِيهِ يَأْتُنَّ النَّاسَ فِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أفواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه، زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، لأنه فهم من التقدير^(١) بالسبع الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجذب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخضب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة. فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.

(٥٠-٥٧) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِينِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رِبْكَ فَسَتَلَهُ مَا بِآلِ الْيَسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاودْتُنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِي قُلْتُ حَشَّ لِلَّهِ مَا عَمِلْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاودَتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ۝ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعَا رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِينِي بِهِ؟ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ۝ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَا نُجْزِ الْأَخْرَجَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لمن عنده ﴿أَتُؤْتِينِي بِهِ؟﴾ أي: بيوسف عليه السلام، بأن يخرجوه من السجن ويحضره إليه، فلما جاء يوسف الرسول، وأمره بالحضور عند الملك، امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام.

ف ﴿قَالَ﴾ للرسول ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رِبْكَ﴾ يعني به الملك ﴿فَسَتَلَهُ مَا بِآلِ الْيَسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أي: أسأله ما شأنهن وقصتهن، فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾. فأحضرهن الملك، وقال: ﴿مَا خَطْبُكَ؟﴾ أي: شأنكن ﴿إِذْ رَاودْتُنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِي﴾ فهل رأيتن منه ما يريب؟.

فبرأته و ﴿قُلْتُ حَشَّ لِلَّهِ مَا عَمِلْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السبب الذي تنبني عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز ف ﴿قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ﴾ أي: تمحض وتبين، بعد ما كنا ندخل معه من السوء والتهمة، ما أوجب له السجن^(٢) ﴿أَنَا رَاودَتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في أقواله وبراءته.

﴿ذَلِكَ﴾ الإقرار الذي أقرت، [أنني راودت يوسف]

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أي: بعد السبع الشداد ﴿عَامٌ فِيهِ يَأْتُنَّ النَّاسَ فِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ أي: فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أفواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه، زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، لأنه فهم من التقدير^(١) بالسبع الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجذب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخضب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة. فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.

(٥٠-٥٧) ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِينِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَيَّ رِبْكَ فَسَتَلَهُ مَا بِآلِ الْيَسُوءِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ۝ قَالَ مَا خَطْبُكَ إِذْ رَاودْتُنِّي يُوسُفُ عَنْ نَفْسِي قُلْتُ حَشَّ لِلَّهِ مَا عَمِلْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتْ أَمْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاودَتُهُ عَنْ نَفْسِي وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ ۝ وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعَا رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِينِي بِهِ؟ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدِينَا مَكِينٌ أَمِينٌ ۝ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْهَا ۝ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَا نُجْزِ الْأَخْرَجَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ﴾ لمن عنده ﴿أَتُؤْتِينِي بِهِ؟﴾ أي: بيوسف عليه السلام، بأن يخرجوه من السجن ويحضره إليه، فلما جاء يوسف الرسول، وأمره بالحضور عند الملك، امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام.

﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾.

يحتمل أن مرادها بذلك زوجها، أي: ليعلم أنني حين أقرت أنني راودت يوسف، أنني لم أخنه بالغيب، أي: لم يجزئني إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك، ذلك ليعلم يوسف حين أقرت أنني الذي راودته، وأنه صادق، أنني لم أخنه في حال غيبته عني ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ فإن كل خائن لا بد أن تعود خيافته ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تركية لنفسها، وأنه لم يجزئ منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت:

﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي﴾ أي: من المراودة والهَمِّ، والحرص الشديد، والكيد في ذلك ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة وسائر الذنوب، فإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿إِلَّا مَا رَجَعَا رَبِّي﴾ فنجاه من نفسه الأمانة، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى

(١) في ب: التعيير. (٢) كذا في ب، وفي أ: لسجن يوسف.

سورة يوسف

٢٤٢

المائدة

﴿ وَمَا أَرَىٰ نَفْسِي إِلَّا نَفْسًا لَّامِنَةً بِاللَّسْوَةِ إِلَّا مَا رَجِمَ رَبِّي أَنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٧﴾ قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٩﴾ وَلَا جَزَاءَ لِلْآخِرَةِ حَيْرٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾ وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٦١﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُؤْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنَ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٣﴾ قَالُوا سَتَرُوا عَنْهُ آيَاتِهِ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِيظُونَ ﴿٦٦﴾

تَرَوْتَ أَنِّي أَوْفِي الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ○ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ○ قَالُوا سَتَرُوا عَنْهُ آيَاتِهِ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ○ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ أَجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ○ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِيظُونَ ○ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِيظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ○ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْنَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبُغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَبَعِيرٌ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ آخَانَ وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ○ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنِّي اللَّهُ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ○ إِلَّا أَنْ يَمَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتُوهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ○ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابِ رَبِّدٍ وَادْخُلُوا مِن أَبْوَابٍ مُّتَّفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ○ إِنْ أَلْحَمَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَتَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ○ وَلَمَّا دَخَلُوا مِن حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ○ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوُّ عَلِيمٍ ○ لَمَّا عَلِمْتُ لِمَا نَعَمْتُمْ ○ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ○ أَي: لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض، دبرها أحسن تدبير، فزرع في أرض مصر

رَبِّهَا، مَنَادَةٌ لِدَاعِي الْهَدْيِ، مَتَعَاصِيَةٌ عَنِ الدَّاعِي الرَّدِيِّ، فَذَلِكَ لَيْسَ مِنَ النَّفْسِ، بَلْ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ بَعْدَهُ.

﴿إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أَي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب ﴿رَحِيمٌ﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر.

فلما تحقق الملك والناس ببراءة يوسف التامة، أرسل إليه الملك وقال: ﴿أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ أَي: أجعل له حصبة لي، ومقرّبًا لديّ، فاتّوه به مكرّمًا محترمًا، ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أعجبه كلامه، وزاد موقعه عنده فقال له: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا أَي: عندنا ﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ أَي: متمكن، أمين على الأسرار.

ف﴿قَالَ﴾ يوسف طلبًا للمصلحة العامة ﴿أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ أَي: على خزائن جبايات الأرض وغلّالها، وكيلاً حافظًا مدبرًا.

﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ أَي: حفيظ للذي أتولاه، فلا يضع منه شيء في غير محله، وضابط للدخل والخارج، عليم بكيفية التدبير، والإعطاء، والمنع، والتصرف في جميع أنواع التصرفات، وليس ذلك حرصًا من يوسف على الولاية، وإنما هو رغبة منه في النفع العام، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه.

فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة، ﴿مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ في عيش رغد ونعمة واسعة، وجاء عريض، ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ أَي: هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها، وقدرها له، وليست مقصورة على نعمة الدنيا.

﴿وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ولهذا قال: ﴿وَلَا جَزَاءَ لِلْآخِرَةِ حَيْرٍ﴾ من أجر الدنيا ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أَي: لمن جمع بين التقوى والإيمان. فبالتقوى ترك الأمور المحرمة من كباير الذنوب وصغائرهما، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب، بما أمر الله بالتصديق به، وتتبعه أعمال القلوب وأعمال الجوارح، من الواجبات والمستحبات.

(٥٨-٦٨) ﴿وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ○ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُؤْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنَ أَبِيكُمْ أَلَا

جميعها في السنين المخصة زرعًا هائلة، واتخذ لها المحلات الكبار، وجبى من الأطعمة شيئًا كثيرًا، وحفظه، وضبطه ضبطًا تامًا، فلما دخلت السنون المجدبة، وسرى الجذب حتى وصل إلى فلسطين، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر، ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أي: لم يعرفوه.

﴿وَلَمَّا جَهَرَهُم بِجَهَارِهِمْ﴾ أي: كال لهم كما كان يكيل لغيرهم، وكان من تديبره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير، وكان قد سألهم عن حالهم، فأخبروه أن لهم أخًا عند أبيه، وهو بنيامين.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿آتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ ثم رغبهم في الإتيان به فقال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أَرْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ في الضيافة والإكرام.

ثم رهبهم بعدم الإتيان به، فقال: ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ﴾ وذلك لعلمه باضطرارهم إلى الإتيان إليه، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به.

ف ﴿قَالُوا سَرَوْهُ عَنْهُ أَبِيَّهُ﴾ دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولدًا به لا يصبر عنه، وكان يتسلى به بعد يوسف، فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم ﴿وَرِئًا لَنَعْلُونَ﴾ لما أمرت بها.

﴿وَقَالَ﴾ يوسف ﴿لِفِتْيَانِهِ﴾ الذين في خدمته: ﴿اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ﴾ أي: الثمن الذي اشتروا به من الميرة.

﴿فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: بضاعتهم إذا رآوها بعد ذلك في رحالهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لأجل الترحج من أخذها على ما قيل، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلًا وافيًا، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها، ولا يشعرون لما يأتي، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن.

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مِيعًا وَمِنَّا الْكَيْلُ﴾ أي: إن لم ترسل معنا أخانا، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلُ﴾ أي: ليكون ذلك سببًا لكي لنا، ثم التزموا له بحفظه، فقالوا: ﴿وَأِنَّا لَمُحْفِظُونَ﴾ من أن يعرض له ما يكره.

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب عليه السلام: ﴿هَلْ ءَامَنْتُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد، فلا أتق بالتزامكم وحفظكم، وإنما أتق بالله تعالى.

﴿قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: يعلم حالي،

قَالَ هَلْ ءَامَنْتُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ۗ قَالَ اللَّهُ خَيْرَ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ ۖ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَبِيرٌ أَهْلْنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزَدَادٌ كَيْلٌ بِعِيرِ ذَلِكَ كَيْلٌ بِسِيرٍ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لِيَأْتِنِي بِهِ ۖ وَإِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَأَتَدَخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ۚ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُوْعُهُمْ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَخِيهِ قَالَ إِخْوَتِي إِنَّا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَآكَانَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

وأرجو أن يرحمني، فيحفظه ويرده عليّ، وكأنه في هذا الكلام قد لان لإرساله معهم.

ثم إنهم ﴿لَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ هذا دليل على أنه قد كان معلومًا عندهم أن يوسف قد ردها عليهم بالقصد، وأنه أراد أن يملكهم إياها، ف ﴿قَالُوا﴾ لأبيهم - ترغيبًا في إرسال أخيه معهم - ﴿يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أي: أي شيء نطلب بعد هذا الإكرام الجميل، حيث وفّى لنا الكيل، ورد علينا بضاعتنا على الوجه الحسن، المتضمن للإخلاص ومكارم الأخلاق؟.

﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَبِيرٌ أَهْلْنَا﴾ أي: إذا ذهبنا بأخيها صار سببًا لكي له لنا، فَمِرْنَا^(١) أهلنا، وأتينا^(٢) لهم بما هم مضطرون إليه من القوت، ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزَدَادٌ كَيْلٌ بِعِيرٍ﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير، ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ بِسِيرٍ﴾ أي: سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت.

(١) في ب: فنبير. (٢) في ب: وناتى.

ف ﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ﴾ أي: عهدًا ثقیلاً، وتحلفون بالله ﴿لَأَنْتُمْ بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قيل لكم به، ولا تقدرون دفعه ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ على ما قال وأراد ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: تكفينا شهادته علينا، وحفظه وكفاته، ثم لما أرسله معهم وصّاهم إذا هم قدموا مصر، أن ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء^(١) رجل واحد، وهذا سبب.

﴿وَ﴾ إلا ف ﴿مَا أَضَى عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فالمقدر لا بد أن يكون ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: القضاء قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْ﴾ أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصّيتكم به من السبب ﴿وَعَلَيْهِ فليتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإنه بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب.

﴿وَلَمَّا﴾ ذهبوا و ﴿دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ﴾ ذلك الفعل ﴿بِعَنِيَّتِهِمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَيْهَا﴾ وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره.

وليس هذا قصوراً في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وَأَنَّهُ لَدُوِّ عَلِيمٍ﴾ أي: لصاحب علم عظيم ﴿لَمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدرکه، بل بفضل الله وتعليمه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء، وكذلك أهل العلم منهم، يخفي عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

(٦٩-٧٩) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَهَرَهُمْ بِجَهَارِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِبرَةُ إِنَّكُمْ لَسَّرْتُمْ ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُورَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿قَالُوا جَزَاؤُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ. وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَتَصِفُّونَ ﴿قَالُوا بَلَىٰ أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ. وَإِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ﴾ أي: عهدًا ثقیلاً، وتحلفون بالله ﴿لَأَنْتُمْ بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قيل لكم به، ولا تقدرون دفعه ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ على ما قال وأراد ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: تكفينا شهادته علينا، وحفظه وكفاته، ثم لما أرسله معهم وصّاهم إذا هم قدموا مصر، أن ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء^(١) رجل واحد، وهذا سبب.

﴿وَلَمَّا﴾ ذهبوا و ﴿دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ﴾ ذلك الفعل ﴿بِعَنِيَّتِهِمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَيْهَا﴾ وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره.

وليس هذا قصوراً في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وَأَنَّهُ لَدُوِّ عَلِيمٍ﴾ أي: لصاحب علم عظيم ﴿لَمَّا عَلَّمْنَاهُ﴾ أي: لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدرکه، بل بفضل الله وتعليمه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء، وكذلك أهل العلم منهم، يخفي عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير.

(٦٩-٧٩) ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَهَرَهُمْ بِجَهَارِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِبرَةُ إِنَّكُمْ لَسَّرْتُمْ ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ ﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُورَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ ﴿قَالُوا جَزَاؤُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفَ فِي نَفْسِهِ. وَلَمْ يَبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَتَصِفُّونَ ﴿قَالُوا بَلَىٰ أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدًا مَكَانَهُ. وَإِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾

﴿قَالَ﴾ لهم يعقوب: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ﴾ أي: عهدًا ثقیلاً، وتحلفون بالله ﴿لَأَنْتُمْ بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قيل لكم به، ولا تقدرون دفعه ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ على ما قال وأراد ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أي: تكفينا شهادته علينا، وحفظه وكفاته، ثم لما أرسله معهم وصّاهم إذا هم قدموا مصر، أن ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَجِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء^(١) رجل واحد، وهذا سبب.

(١) كذا في ب، وفي أ: ابن.

هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا.

وفي هذا من الغض عليهما ما فيه، ولهذا أسرها يوسف في نفسه ﴿وَلَمْ يَبْدُهَا لَهُمْ﴾ أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسّر الأمر في نفسه، و ﴿قَالَ﴾ في نفسه: ﴿أَنْتُمْ سَرَّ مَكَانًا﴾ حيث ذمتمونا بما أتمتم على أشر منه ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها، ثم سلخوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيه.

ف ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه ﴿فَبَدَأَ حَدِيثًا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك. ف ﴿قَالَ﴾ يوسف ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعًا عِنْدَهُ﴾ أي: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذن من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل: «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب ﴿إِنَّا إِذَا﴾ أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله ﴿نَطَّلِمُوهُ﴾ حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

(٨٠-٨٣) ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ حَكْصُوا يَحِيًّا قَالَ كَبُرْتُمْ أَتُمْ تَلْمِزُونَ أَنْتَ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ آئِنَ أَوْ يَحْكَمَ اللَّهُ لىَ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ۝ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقْتَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ۝ وَسَوَّلَ الْقَرِيْبَةَ الَّتى كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتى أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيْلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنى بِهِمْ جَمِيْعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيْمُ الْحَكِيْمُ﴾ أي: فلما استيسس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيه ﴿حَكْصُوا يَحِيًّا﴾ أي: اجتمعوا وهدموا، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم ف ﴿قَالَ كَبُرْتُمْ أَتُمْ تَلْمِزُونَ أَنْتَ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم ﴿وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ فاجتمع عليكم الأمران، تفريطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أبى.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ أي: سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ آئِنَ أَوْ يَحْكَمَ اللَّهُ لىَ﴾ أي: يقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ثم وصاهم بما يقولون لأبيهم، فقال: ﴿أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ سَرَقْتَ﴾ أي: وأخذ بسرقتي، ولم يحصل لنا أن تأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك، والحال أنا ما شهدنا بشيء لم

لتسلم له سرقتي، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم هم إلا إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: ﴿مَاذَا نَفْعُوكَ﴾ ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا» لجزمهم بأنهم براء من السرقة.

﴿قَالُوا نَفْعُ صُوعِ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ أي: أجرة له، على وجدانه ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ أي: كفيل، وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُشِيدَ فِي الْأَرْضِ﴾ بجميع أنواع المعاصي، ﴿وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ﴾ فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبروا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم بعلم من اتهموهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: «تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق».

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ﴾ أي: جزاء هذا الفعل ﴿إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ بأن كان معكم؟ ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ﴾ أي: الموجود في رحله ﴿جَزَاؤُهُ﴾ بأن يتملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبت عليه السرقة، كان ملكاً لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾.

﴿فَبَدَأَ﴾ المفتش ﴿بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ وذلك لتزول الريبة التي يظن أنها فعلت بالقصد، فلما لم يجد في أوعيتهم شيئاً ﴿اسْتَحْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ ولم يقل «وجدناها» أو سرقها أخوه» مراعاة للحقيقة الواقعة.

فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَدْنَا يُوسُفَ﴾ أي: يسرنا له هذا الكيد الذي توصل به إلى أمر غير مذموم ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ لأنه ليس من دينه أن يملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلو ردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، ليتيم له ما أراد.

قال تعالى: ﴿زُفِعَ دَرَجَتٍ مِّنْ شَأْنِهِ﴾ بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعا درجات يوسف، ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذى عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾ فكل عالم، فوفاً من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة.

فلما رأى إخوة يوسف ما رأوا ﴿قَالُوا إِنْ يَسَّرَ﴾ هذا الأخ، فليس هذا غريباً منه ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لِّىَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم، وأن

سُورَةُ يُوسُفَ

٢٤٥

الْحَمْدُ لِلَّهِ

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ؛ إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا أَسْتَيْفَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَيَّ أَيُّكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّكَ ابْنُكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَأَلَ الْقَرِيبَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾ لَمْ نَكْذِبْ، وَلَمْ نَغَيِّرْ، وَلَمْ نَبْدَلْ، بَلْ هَذَا الْوَاقِعُ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ وَأَخْبَرُوهُ بِهَذَا الْخَبَرِ، اشْتَدَّ حَزْنُهُ وَتَضَاعَفَ كَمَدُهُ، وَاتَّهَمَهُمْ أَيْضًا فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، كَمَا اتَّهَمَهُمْ فِي الْأُولَى، وَ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أَي: الْجَأُ فِي ذَلِكَ إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ الَّذِي لَا يَصْحَبُهُ تَسَخُّطٌ وَلَا جَزَعٌ، وَلَا شَكْوَى لِلخَلْقِ، ثُمَّ لَجَأَ إِلَى حِصُولِ الْفَرَجِ، لَمَّا رَأَى أَنَّ الْأَمْرَ اشْتَدَّ، وَالْكُرْبَةَ انْتَهَتْ فَقَالَ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أَي: يَوْسُفَ وَ«بَنِيَامِينَ»، وَأَخُوهُمُ الْكَبِيرَ الَّذِي أَقَامَ فِي مِصْرَ.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الَّذِي يَعْلَمُ حَالِي، وَاحْتِيَاجِي إِلَى تَفْرِيجِهِ وَمِثَّتِهِ، وَاضْطِرَارِي إِلَى إِحْسَانِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ الَّذِي جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَتَهَى، بِحَسَبِ مَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ الرَّبَّانِيَّةُ.

(٨٤-٨٦) ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفِي عَلَى يُوسُفَ وَأَبِيضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْنَا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَتْ حَرَضًا أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

الكلام ﴿وَحَزَنِي﴾ الذي في قلبي ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شتمتم ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه سيردهم عليّ ويفر عيني بالاجتماع بهم.

(٨٧، ٨٨) ﴿بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَحَسَسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الْفُرُّ وَجَسْنَا يَبْضَعُهُ مُرْجَحَةً فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أَي: قَالَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِبَنِيهِ: ﴿بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَحَسَسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾، أَي: احْرُصُوا واجتهدوا على التفتيش عنهما ﴿وَلَا تَأْتِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾، فَإِنَّ الرِّجَاءَ يَوْجِبُ لِلْعَبْدِ السَّعْيَ وَالاجْتِهَادَ فِيمَا رَجَاهُ، وَالْإِيَّاسَ يَوْجِبُ لَهُ التَّنَاقُلَ وَالتَّبَاطُؤَ، وَأُولَى مَا رَجَا الْعِبَادَ فَضَلَ اللَّهُ وَإِحْسَانَهُ وَرَحْمَتَهُ وَرُوحَهُ، ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ فَإِنَّهُمْ - لِكُفْرِهِمْ - يَسْتَبْعِدُونَ رَحْمَتَهُ، وَرَحْمَتَهُ بَعِيدَةٌ مِنْهُمْ، فَلَا تَتَشَبَّهُوا بِالْكَافِرِينَ.

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة

الله وروحه.

نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا، لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ أَي: لَوْ كُنَّا نَعْلَمُ الْغَيْبَ لَمَّا حَرَصْنَا وَبَدَلْنَا الْمَجْهُودَ فِي ذَهَابِهِ مَعْنَا، وَلَمَّا أَعْطَيْنَاكَ عَهْدَنَا وَمَوَاقِينَا، فَلَمْ نَنْظُرْ أَنَّ الْأَمْرَ سَيَبْلُغُ مَا بَلَغَ.

﴿وَسَأَلَ﴾ إِنْ شَكَّكَتْ فِي قَوْلِنَا ﴿الْقَرِيبَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ فَقَدْ اطَّلَعُوا عَلَى مَا أَخْبَرْنَاكَ بِهِ ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ لَمْ نَكْذِبْ، وَلَمْ نَغَيِّرْ، وَلَمْ نَبْدَلْ، بَلْ هَذَا الْوَاقِعُ.

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه وتضاعف كمده، واتهمهم أيضًا في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، و﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أَي: الْجَأُ فِي ذَلِكَ إِلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ الَّذِي لَا يَصْحَبُهُ تَسَخُّطٌ وَلَا جَزَعٌ، وَلَا شَكْوَى لِلخَلْقِ، ثُمَّ لَجَأَ إِلَى حِصُولِ الْفَرَجِ، لَمَّا رَأَى أَنَّ الْأَمْرَ اشْتَدَّ، وَالْكُرْبَةَ انْتَهَتْ فَقَالَ: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أَي: يَوْسُفَ وَ«بَنِيَامِينَ»، وَأَخُوهُمُ الْكَبِيرَ الَّذِي أَقَامَ فِي مِصْرَ.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الَّذِي يَعْلَمُ حَالِي، وَاحْتِيَاجِي إِلَى تَفْرِيجِهِ وَمِثَّتِهِ، وَاضْطِرَارِي إِلَى إِحْسَانِهِ ﴿الْحَكِيمُ﴾ الَّذِي جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا، وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَتَهَى، بِحَسَبِ مَا اقْتَضَتْهُ حِكْمَتُهُ الرَّبَّانِيَّةُ.

(٨٤-٨٦) ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفِي عَلَى يُوسُفَ وَأَبِيضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوْنَا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَتْ حَرَضًا أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحَزَنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من ذلك.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أَي: مَمْتَلِئُ الْقَلْبِ مِنَ الْحُزْنِ الشَّدِيدِ ﴿وَقَالَ يَا سَفِي عَلَى يُوسُفَ﴾ أَي: ظَهَرَ مِنْهُ مَا كَمُنَ مِنَ الْهَمِّ الْقَدِيمِ وَالشُّوقِ الْمَقِيمِ، وَذَكَرَتْهُ هَذِهِ الْمَصِيبَةُ الْخَفِيفَةُ بِالنِّسْبَةِ لِلأُولَى، الْمَصِيبَةُ الْأُولَى، فَقَالَ لَهُ أَوْلَادُهُ - مُتَعَجِّبِينَ مِنْ حَالِهِ -

﴿تَاللَّهِ تَفْتَوْنَا تَذَكَّرُ يُوسُفَ﴾ أَي: لَا تَزَالُ تَذَكَّرُ يَوْسُفَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ ﴿حَتَّى تَكُونَتْ حَرَضًا﴾ أَي: فَانِيًا لَا حَرَكَ فَيْكَ، وَلَا قُدْرَةَ عَلَى الْكَلَامِ.

﴿أَوْ تَكُونُ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أَي: لَا تَتْرِكُ ذِكْرَهُ مَعَ قُدْرَتِكَ عَلَى ذِكْرِهِ أَبَدًا.

﴿قَالَ﴾ يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِيَّ﴾ أَي: مَا أَبْثَ مِنْ

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٤٦

سُورَةُ يُوسُفَ

يَبْنِي أَذْهَبُوا فَحَسَسُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا
 مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ
 ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرَّ
 وَحَسْنَا بِيضَعَةَ مُرْجَحَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا
 إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُصْدِقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ
 يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوَإِنَّكَ
 لَأَنْتَ يَوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ
 عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنَّ مِنِّي وَيَصِيرُ فَايَتِ اللَّهِ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا
 وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ
 الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾
 أَذْهَبُوا بِمِصْبِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا
 وَأَتُوفَى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ
 الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن
 تُفِيدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾

الخلق، وخيار المصطفين .

(٩٣-٩٨) ﴿٩٣﴾ أَذْهَبُوا بِمِصْبِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ
 بَصِيرًا وَأَتُوفَى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ○ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ
 أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفِيدُونِ ○ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي
 ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ○ فَلَمَّا أَنَّ جَاءَ الْبَشِيرَ أَلْقَنَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَازْتَدَّ
 بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ○ قَالُوا
 يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ○ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ
 رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ○ أي: قال يوسف عليه السلام
 لإخوته: ﴿٩٣﴾ أَذْهَبُوا بِمِصْبِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا ○
 لأن كل داء يداوى بوضده، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح
 يوسف الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم
 - أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتراجع إليه نفسه،
 ويرجع إليه بصره، والله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها
 العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر .
 ﴿٩٤﴾ وَأَتُوفَى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ○ أي: أولادكم وعشيرتكم
 وتوابعكم كلهم، ليحصل تمام اللقاء، ويزول عنكم نكد
 المعيشة، وضنك الرزق .

فذهبوا ﴿٩٢﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ○ أي: على يوسف ﴿قَالُوا﴾
 متضرعين إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضَّرَّ وَحَسْنَا بِيضَعَةَ
 مُرْجَحَةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أي: قد اضطررنا نحن
 وأهْلنا ﴿وَحَسْنَا بِيضَعَةَ مُرْجَحَةٍ﴾ أي: مدفوعة مرغوب عنها
 لقلتها، وعدم وقوعها الموقع ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي: مع عدم
 وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب ﴿إِنَّ اللَّهَ
 يَجْزِي الْمُصْدِقِينَ﴾ بثواب الدنيا والآخرة .
 فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رقى لهم يوسف رقة شديدة،
 وعرفهم بنفسه، وعاتبهم .

(٨٩-٩٢) ﴿٩٢﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ
 جَاهِلُونَ ○ قَالُوا أَوَإِنَّكَ لَأَنْتَ يَوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي
 قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنَّ مِنِّي وَيَصِيرُ فَايَتِ اللَّهِ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُحْسِنِينَ ○ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا
 لَخَاطِئِينَ ○ قَالَ لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ
 الرَّاحِمِينَ ○ ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أما يوسف
 فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فلعله - والله أعلم - قولهم:
 ﴿إِن يَسْرِفَ فَقَدْ سَرَفَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أو أن الحادث الذي
 فرق بينه وبين أبيه، هم السبب فيه، والأصل الموجب له،
 ﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ
 لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم .

فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: ﴿أَوَإِنَّكَ
 لَأَنْتَ يَوْسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾
 بالإيمان والتقوى، والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر
 والتقوى ﴿إِنَّهُ مَنَّ مِنِّي وَيَصِيرُ﴾ أي: يتقي فعل ما حرم الله،
 ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها ﴿فَايَتِ
 اللَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فإن هذا من الإحسان، والله لا
 يضيع أجر من أحسن عملاً .
 ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرْنَاكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي: فضلك علينا
 بمكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية
 الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتباعد لك عن
 أيبك، فأثرك الله تعالى، ومكنت مما تريد ﴿وَإِن كُنَّا
 لَخَاطِئِينَ﴾ وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم
 على يوسف .

ف ﴿قَالَ﴾ لهم يوسف عليه السلام كرماً وجوداً: ﴿لَا
 تَتْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ﴾ أي: لا أثرب عليكم ولا ألومكم ﴿يَغْفِرُ
 اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فسمح لهم سماحاً تاماً، من غير
 تعبير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة
 والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص

سُورَةُ يُوسُفَ

٢٤٧

الْحَمْدُ لِلَّهِ

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ
 أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ قَالُوا
 يَا بَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿١٠١﴾ قَالَ سَوْفَ
 أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا
 دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَبِيهِ وَقالِ ادْخُلُوا مِصْرَ
 إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَرَفَعَ أَبِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُوا
 لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
 رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم
 مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ
 رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٤﴾ رَبِّ
 قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي
 مُسْلِمًا وَالْحَقِيقُ بِالصِّلِحِينَ ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ
 نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
 ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٧﴾

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ عن أرض مصر مقبله إلى أرض فلسطين، سَمَّ يعقوب ربح القميص فقال: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُون﴾ أي: تسخرون مني، وترعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول، فوقع ما ظنه بهم، فقالوا: ﴿اللَّهُ إِنَّكَ لَمِنَ ضَلَالِكِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا تزال تائها في بحر الحب، لا تدري ما تقول.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ بقرب الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم ﴿أَلْفَهُ﴾ أي: القميص ﴿عَلَى وَجْهِهِ﴾ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ﴿أي: رجع على حاله الأولى بصيرًا، بعد أن ابضت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفتدون رأيه، ويتعجبون منه منتصرًا عليهم، متبجحًا بنعمة الله عليه: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ حيث كنت مترجيًا للقاء يوسف، مترقبًا لزوال الهم والغم والحزن. فأقروا بذنبهم ونجعوا بذلك و ﴿قَالُوا يَا بَانَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا.

ف ﴿قَالَ﴾ مجيبًا لطلبتهم، ومسرعًا لإجابتهم: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته، وقد قيل: إنه آخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل، ليكون أتم للاستغفار، وأقرب للإجابة.

(١٠٠، ٩٩) ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَبِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ وَرَفَعَ أَبِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿أي: ﴿فَلَمَّا﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنها، فلما وصلوا إليه، و﴿دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَىٰ أَبِيهِ﴾ ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام^(١) والتبجيل والإعظام شيئًا عظيمًا ﴿وَقَالَ﴾ لجميع أهله: ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ من جميع المكاره والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

﴿وَرَفَعَ أَبِيهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ أي: على سرير الملك، ومجلس العزيز، ﴿وَخَرُوا لَهُ سُجَّدًا﴾ أي: أبوه، وأمه، وإخوته، سجدوا على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام ﴿وَقَالَ﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجودهم له: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ

رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ﴾ حين رأى أحد عشر كوكبًا والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ إحسانًا جسيمًا ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِنَ الْبَدْوِ﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الجب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إيتانكم من البادية من إحسان الله إليّ.

فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: «أحسن بكم» بل قال: ﴿أحسن بِي﴾ جعل الإحسان عائدًا إليه، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويهب لهم من لدنه رحمة، إنه هو الوهاب.

﴿مِن بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ فلم يقل: «نزع الشيطان إخوتي» بل كأن الذنب والجهل صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك

(١) في ب: والإحسان.

الفرقة الشاقة.

فاسدة، فلا ينفعهم حرص الناصحين عليهم ولو عدت الموانع بأن كانوا يعلمونهم ويدعونهم إلى ما فيه الخير لهم، ودفع الشر عنهم، من غير أجر ولا عوض، ولو أقاموا لهم من الشواهد والآيات الدالات على صدقهم ما أقاموا، ولهذا قال:

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾

يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم لتركه.

﴿وَكَايْنٍ﴾ أي: وكم ﴿مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ دالة لهم على توحيد الله ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

ومع هذا إن وجد منهم بعض الإيمان فلا ﴿يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده، فهؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفجأهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال:

﴿أَفَأَمِنُوا﴾ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ﴾ أي: عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: فإنهم قد استوجبوا لذلك، فليتوبوا إلى الله، ويتروكا ما يكون سبباً في عقابهم.

(١٠٨، ١٠٩) ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعْتِي وَسِحْنٌ اللهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَذَارِ الْأَخْزَرِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَمْ لَا تَتَّقُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ لِلنَّاسِ: ﴿هَذِهِ سَبِيلِي﴾ أي: طريقي التي أدعو إليها، وهي السبيل الموصلة إلى الله وإلى دار كرامته، المتضمنة للعلم بالحق والعمل به وإيثاره، وإخلاص الدين لله وحده لا شريك له ﴿أَدْعُوا إِلَى اللهِ﴾ أي: أحث الخلق والعباد إلى الوصول إلى ربهم، وأرغبهم في ذلك، وأرهبهم مما يعدهم عنه.

ومع هذا فأنا ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ من ديني، أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية ﴿وَو﴾ كذلك ﴿مَنِ اتَّبَعْتَنِي﴾ يدعو إلى الله كما أدعو على بصيرة من أمره ﴿وَسِحْنٌ اللهُ﴾ عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله.

﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في جميع أموري، بل أعبد الله مخلصاً له الدين.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا﴾ أي: لم

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها ﴿إِنَّهُمْ هُوَ الْعَلِيمُ﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

(١٠١) ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ لما أتم الله ليوسف ما أتم من التمكين في الأرض والملك، وأقر عينه بأبويه وإخوته وبعد العلم العظيم الذي أعطاه الله إياه، قال مقرّاً بنعمة الله شاكراً لها داعياً بالثبات على الإسلام:

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ﴾ وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتديبرها ووزيراً كبيراً للملك ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي: من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ أي: أدم عليّ الإسلام وثبتني عليه حتى توفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت ﴿وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار.

(١٠٢) ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ لما قص الله هذه القصة على محمد ﷺ قال الله له: ﴿ذَلِكَ﴾ الإنباء الذي أخبرناك به ﴿مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ﴾ الذي لولا إباحاؤنا إليك، لما وصل إليك هذا الخبر الجليل، فإنك لم تكن حاضرّاً لديهم ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ أي: إخوة يوسف ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به، حين تعاهدوا على التفريق بينه وبين أبيه، في حالة لا يطلع عليها إلا الله تعالى، ولا يمكن أحداً أن يصل إلى علمها، إلا بتعليم الله له إياها.

كما قال تعالى لما قص قصة موسى وما جرى له، ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرْشِ إِذْ فَضَيْتَنَا إِلَى مَوْسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الآيات، فهذا أدل دليل على أن ما جاء به رسول الله ﷺ حق

(١٠٣-١٠٧) ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿وَكَايْنٍ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ فإن مداركهم ومقاصدهم، قد أصبحت

سُورَةُ يُوسُفَ

٢٤٨

الْبَقَرَةُ

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾
 وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا
 وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١١٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا
 وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١١٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ
 أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١٧﴾ قُلْ هَذِهِ
 سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ
 اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
 إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَا يَسِيرُونَ ﴿١١٩﴾
 فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
 وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢٠﴾ حَتَّىٰ
 إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ
 نَصْرُنَا فَنُجِيَ مِنَ النَّشْأَةِ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانٍ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ
 ﴿١٢١﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
 حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
 وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾

كُلِّ شَيْءٍ ﴿١٢٢﴾ يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، ومن الأدلة والبراهين.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من العلم بالحق وإيثاره - يحصل لهم الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب العاجل والأجل، تحصل لهم الرحمة.

فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة، التي قال الله في أولها: ﴿تَحْنُ نَفْسُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ النَّصِصِ﴾ وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلسَّالِطِينَ﴾ وقال في آخرها: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ غير ما تقدم في مطاوبها من الفوائد.

فمن ذلك، أن هذه القصة من أحسن القصص وأوضحها وأبينها، لما فيها من أنواع التقلات من حال إلى حال، ومن محنة إلى محنة، ومن محنة إلى محنة ومِنَّة، ومن ذل إلى عز، ومن رق إلى ملك، ومن فرقة وشتات إلى اجتماع واتلاف، ومن حزن إلى سرور، ومن رخاء إلى جذب، ومن جذب إلى رخاء، ومن ضيق إلى سعة، ومن إنكار إلى إقرار، فتبارك من

نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق، فلا تبي شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة ﴿وَوَجَّحْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى الذين هم أكمل عقولاً، وأصح آراء، ولتبين أمرهم ويتضح شأنهم.

﴿أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إذا لم يصدقوا لقولك ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كيف أهلكهم الله بتكذيبهم، فاحذروا أن تقيموا على ما أقاموا عليه، فيصيكم ما أصابهم ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ أي: الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الله في امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن نعيم الدنيا منغص منكذ منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل، لا يفسى أبداً، بل هو على الدوام، في تزايد وتواصل ﴿عَطَاةٌ غَيْرَ مَجْدُوزَةٍ﴾، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تكون لكم عقول تؤيِّر الذي هو خير على الأذنى.

(١١٠، ١١١) ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِيَ مِنَ النَّشْأَةِ وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانٍ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللثام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل.

حتى إن الرسل - على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعده الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِيَ مِنَ النَّشْأَةِ﴾ وهم الرسل وأتباعهم ﴿وَلَا يَرُدُّ بِأَسْنَانٍ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: ولا يرد عذابنا عن اجترم، وتجراً على الله ﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ﴾ أي: قصص الأنبياء والرسل مع قومهم ﴿عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ أي: يعتبرون بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً ما لله من صفات الكمال والحكمة العظيمة، وأنه الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ﴾ أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله به عليكم من أنباء الغيب ما قص من الأحاديث المفتراة المختلفة ﴿وَلَٰكِن﴾ كان ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب السابقة، يوافقها ويشهد لها بالصحة، ﴿وَتَفْصِيلَ

قصها فأحسنها، ووضحها وبيّنها.

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحدًا.

يراه قومه بين أظهرهم صباحًا ومساءً، وهو أمّي لا يخط ولا يقرأ، وهي موافقة لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرتة، لقول يعقوب ليوسف: ﴿يَسْتَحْيُ لَا تُفَصِّصْ زُجْرًا لَكَ عَلَيَّ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾.

ومنها: أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته، وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ﴾ ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض، والسرور والغبطة، ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وأثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيهم.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوبًا متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الحيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء ييكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب وأثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن

العلوم المهمة التي يعطيها الله من يشاء من عباده، وإن أغلب ما تبنى عليه المناسبة والمشابهة في الاسم والصفة، فإن رؤيا يوسف التي رأى أن الشمس والقمر، وأحد عشر كوكبًا له ساجدين، وجه المناسبة فيها: أن هذه الأنوار هي زينة السماء وجمالها، وبها منافعتها، فكذلك الأنبياء والعلماء زينة للأرض وجمال، وبهم يهتدى في الظلمات، كما يهتدى بهذه الأنوار ولأن الأصل أبوه وأمه، وإخوته هم الفرع، فمن المناسب أن يكون الأصل أعظم نورًا وجرمًا، لما هو فرع عنه، فلذلك كانت الشمس أمه، والقمر أباه، والكواكب إخوته.

ومن المناسبة أن الشمس لفظ مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر والكواكب مذكرات، فكانت لأبيه وإخوته، ومن المناسبة، أن الساجد معظم محترم للمسجود له، والمسجود [له] معظم محترم، فلذلك دل ذلك على أن يوسف يكون معظمًا محترمًا، عند أبويه وإخوته.

ومن لازم ذلك أن يكون مجتبي مفضلًا في العلم والفضائل الموجبة لذلك، ولذلك قال له أبوه: ﴿وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أنه أول رؤيا، الذي رأى أنه يعصر خمرا، أن الذي يعصر في العادة يكون خادما لغيره، والعصر يقصد لغيره، فلذلك أوّلها بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن.

وأوّل الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزًا تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه، وما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمله، وأنه سيرز للطيور، بمحل تمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأوّل رؤيا الملك للبقرات والسنيلات، بالسنين المخضبة، والسنين المجذبة، ووجه المناسبة أن الملك، به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه.

وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقى عليها الماء، وإذا أخضبت السنة سمت، وإذا أجدبت صارت عجافًا، وكذلك السنابل في الخصب تكثر وتخضر، وفي الجذب تقل وتيبس وهي أفضل غلال الأرض.

حقه، فالله خير الراحمين.

ولهذا - في أصح الأقوال - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِذْهَبْ بِرَبِّكَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ وهم: أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، ومما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف، أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة.

ومنها: ما من الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه، وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به، وتمم ذلك بأن لا يثرب عليهم ولا يعيرهم به.

ثم بره العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق. ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضاً، وقال قائل منهم: ﴿لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَقْرَبَهُ فِي غَيْبَتِ الْجُمُوعِ﴾ كان قوله أحسن منهم وأخف، وبسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال، ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه لا إثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة، أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته بيعاً حراماً لا يجوز. ثم ذهبت به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً، وسماه الله شراء^(١)، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء اللاتي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توخدها بيوسف، وجبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن - بسببها - مدة طويلة.

ومنها: أن اللهم الذي هم به يوسف بالمرأة، ثم تركه الله، مما يقربه إلى الله زلفى، لأن اللهم داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم «رجل دعت امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله»، وإنما اللهم الذي يلام عليه العبد، اللهم الذي يساكنه، ويصير عزماً، ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببهان إيمانه، وصدق إخلاصه، من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي، ما هو جزاء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿وَهُمْ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَصَوَّرَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُتْلِحِينَ﴾ على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح فإنه من إخلص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله الله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام - لما راودته التي هو في بيتها - فرَّ هارباً، يطلب الباب ليتخلص من شرها.

ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينه، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بيته، والعمل بالقافة في الأشباه والأثر من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقده من دبره على صدق يوسف وكذبها.

ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقة، من غير بيته شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقة، فإنه يحكم عليه بالسرقة، وهذا أبلغ من الشهادة، وكذلك وجود الرجل يتقيأ الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد، حاملاً فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمي الله هذا الحكم شاهداً فقال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتن حين لُمتها على ذلك أن تقطن أيديهن وقلن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾. وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿وَلَقَدْ زُوِّدْتُهُ مِنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ﴾.

(١) كذا في أ، وفي ب: سيّدًا، ويبدو والله أعلم أن مراد الشيخ - رحمه الله - أن الله قال: ﴿وَسُرْرَةٌ﴾ فسمى الله فعلهم شراء مع كونه حراماً.

العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض، ولهذا قال يوسف للذي ظن أنه ناج من الفتيين: ﴿أَذْكُرْتَنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ .
ومنها: أنه ينبغي ويتأكد على المعلم استعمال الإخلاص

التام في تعليمه وأن لا يجعل تعليمه وسيلة لمعاوضة أحد في مال، أو جاه، أو نفع، وأن لا يمتنع من التعليم، أو لا ينصح فيه، إذا لم يفعل السائل ما كلفه به المعلم، فإن يوسف عليه السلام قد قال، ووصى أحد الفتيين أن يذكره عند ربه، فلم يذكره ونسئى، فلما بدت حاجتهم إلى سؤال يوسف أرسلوا ذلك الفتى، وجاءه سائلاً مستفتياً عن تلك الرؤيا، فلم يعفنه يوسف، ولا ويخه، لتركه ذكراً بل أجابه عن سؤاله جواباً تاماً من كل وجه .

ومنها: أنه ينبغي للمسؤول أن يدل السائل على أمر يفعله مما يتعلق بسؤاله، ويرشده إلى الطريق التي ينتفع بها في دينه وديناه، فإن هذا من كمال نصحه وفطنته، وحسن إرشاده، فإن يوسف عليه السلام لم يقتصر على تعبير رؤيا الملك، بل دلهم - مع ذلك - على ما يصنعون في تلك السنين المخصبات من كثرة الزرع، وكثرة جباته .

ومنها: أنه لا يلام الإنسان على السعي في دفع التهمة عن نفسه، وطلب البراءة لها، بل يحمد على ذلك، كما امتنع يوسف عن الخروج من السجن حتى تتبين لهم براءته بحال النسوة اللاتي قطعن أيديهن .

ومنها: فضيلة العلم، علم الأحكام والشرع، وعلم تعبير الرؤيا، وعلم التدبير والتربية؛ وأنه أفضل من الصورة الظاهرة، ولو بلغت في الحسن جمال يوسف، فإن يوسف - بسبب جماله - حصلت له تلك المحنة والسجن، وبسبب علمه حصل له العز والرفعة والتمكين في الأرض، فإن كل خير في الدنيا والآخرة من آثار العلم وموجباته .

ومنها: أن علم التعبير من العلوم الشرعية، وأنه يثاب الإنسان على تعلمه وتعليمه، وأن تعبير المرآئي داخل في الفتوى، لقوله للفتيين: ﴿فَضَى الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ سَتَعْنِيَانِ﴾ وقال الملك: ﴿أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ﴾ وقال الفتى ليوسف: ﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ﴾ الآيات، فلا يجوز الإقدام على تعبير الرؤيا من غير علم .

ومنها: أنه لا بأس أن يخبر الإنسان عما في نفسه، من صفات الكمال من علم أو عمل، إذا كان في ذلك مصلحة، ولم يقصد به العبد الرياء، وسلم من الكذب، لقول يوسف: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَوِيظٌ عَلَيْكُمْ﴾ وكذلك لا تدم الولاية، إذا كان المتولي فيها يقوم بما يقدر عليه من حقوق الله

وقالت بعد ذلك: ﴿الَّذِينَ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رُودْتُمْ عَنْ نَفْسِهِمْ وَإِنَّمَا لَكُمْ الصَّيْرِيقَ﴾ وقالت النسوة: ﴿حَسَّ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ .

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين - إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية - أن يختار العقوبة الدنيوية على مواجهة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة .
ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار .

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ .

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأن الجهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضاراً لصاحبه .

ومنها: أنه كما على العبد عبودية لله في الرخاء، فعليه عبودية له في الشدة، ف«يوسف» عليه السلام لم يزل يدعو إلى الله، فلما دخل السجن استمر على ذلك، ودعا الفتيين إلى التوحيد، ونهاهما عن الشرك، ومن فطنته عليه السلام أنه لما رأى فيهما قابلية لدعوته، حيث ظنا فيه الظن الحسن وقال له: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وأتياه لأن يعبر لهما رؤياهما، فأرهما متشوفين لتعبيرها عنده - رأى ذلك فرصة فانتهرها، فدعاها إلى الله تعالى قبل أن يعبر رؤياهما ليكون أنجح لمقصوده، وأقرب لحصول مطلوبه، وبين لهما أولاً، أن الذي أوصله إلى الحال التي رأياها فيها من الكمال والعلم، إيمانه، وتوحيده، وتركه ملة من لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وهذا دعاء لهما بالحال، ثم دعاها بالمقال، وبين فساد الشرك وبرهن عليه، وحقيقة التوحيد وبرهن عليه .

ومنها: أنه يبدأ بالأهم فالأهم، وأنه إذا سئل المقتي، وكان السائل حاجته في غير سؤاله أشد أنه ينبغي له أن يعلمه ما يحتاج إليه قبل أن يجيب سؤاله، فإن هذا علامة على نصح المعلم وفطنته، وحسن إرشاده وتعليمه، فإن يوسف - لما سأله الفتیان عن الرؤيا - قدم لهما قبل تعبيرها دعوتهما إلى الله وحده لا شريك له .

ومنها: أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق، فإن هذا من الأمور العادية التي جرى

تَدْحُلُوا مِنْ بَابٍ رَجِدٍ وَادْحُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ ﴿١١٠﴾ .

ومنها: جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها مما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يجب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعارض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصُّوع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهماً أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنًا عِنْدَهُ﴾ ولم يقل: «من سرق متاعنا» وكذلك لم يقل: «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأن يبقى عند أخيه^(٢)، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبين الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه وتحققه، إما بمشاهدة، أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ .

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن خمس عشرة سنة، ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة ﴿وَأَيَّضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ .

ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفى بما وعد به، ولا ينافي ذلك قوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بِنِيِّ وَحُرَّتِي إِلَى اللَّهِ﴾ فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب؛ وأن مع العسر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنهى ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراباً، فتم بذلك الأجر، وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يبتلي أوليائه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر (١) في الأصل (كفاية) ولعل الصواب ما أثبت. (٢) لعل المراد والله أعلم: (وأن يبقى عنده أخوه).

وحقوق عباده، وأنه لا بأس بطلبها، إذا كان أعظم كفاءة من غيره، وإنما الذي يذم، إذا لم يكن فيه [كفاءة]^(١)، أو كان موجوداً غيره مثله، أو أعلى منه، أو لم يرد بها إقامة أمر الله، فهذه الأمور ينهى عن طلبها، والتعرض لها.

ومنها: أن الله واسع الجود والكرم، بوجود على عبده بخير الدنيا والآخرة، وأن خير الآخرة له سببان: الإيمان والتقوى، وأنه خير من ثواب الدنيا وملكتها، وأن العبد ينبغي له أن يدعو نفسه، ويشوقها لثواب الله، ولا يدعها تحزن، إذا رأت أهل الدنيا ولذاتها، وهي غير قادرة عليها، بل يسليها بثواب الله الأخرى، وفضله العظيم لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْرُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ .

ومنها: أن جباية الأرزاق - إذا أريد بها التوسعة على الناس من غير ضرر يلحقهم - لا بأس بها، لأن يوسف أمرهم بجباية الأرزاق والأطعمة في السنين المخصبات، للاستعداد للسنين المجدبة، وأن هذا غير مناقض للتوكل على الله، بل يتوكل العبد على الله، ويعمل الأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جداً، حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته: ﴿أَلَا تَرَوُنَّ أَنَّ أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ .

ومنها: أن سوء الظن - مع وجود القرائن الدالة عليه - غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده - بعد ما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عالجوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مفرطين - فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال، من غير إثم عليه ولا حرج.

ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين وغيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر، لأمر يعقوب، حيث قال لبنيه: ﴿يَبْنَئِي لَأَ

ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفانهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿يَأْتِيهَا الْعَزِيزُ مَسْنًا وَأَهْلَهَا الضَّرُّ﴾ ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب، لقوله: ﴿قَدْ مَرَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَى وَصَيْرَ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكرًا حاله الأولي، ليحدث لذلك شكرًا كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾.

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف، حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملق إلى الله دائمًا في تثبيت إيمانه، ويعمل الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله حسن الخاتمة، وتمام النعمة لقول يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرَبِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر في هذه القصة المباركة، ولا بد أن يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك.

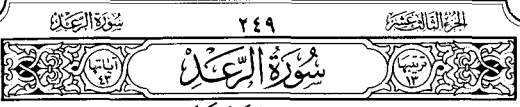
فسأله تعالى علمًا نافعًا وعملاً متقبلًا، إنه جواد كريم. تم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته عليهم الصلاة والسلام، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الرعد

وهي مدنية، وقيل: مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿الرَّءْيَاءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى أن هذا القرآن هو آيات



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّءْيَاءُ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأُمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَتَّجِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَحِيلٌ صِنَوَانٌ وَعُثْرٌ صِنَوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْمَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءَاكُفَاتُ بَاءٌ نَأْلُفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أَوْلَاتِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَاتِكَ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَاتِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾

الكتاب الدالة على كل ما يحتاج إليه العباد من أصول الدين وفروعه، وأن الذي أنزل إلى الرسول من ربه هو الحق المبين، لأن أخباره صدق، وأوامره ونواهيه عدل، مؤيدة بالأدلة والبراهين القاطعة، فمن أقبل عليه وعلى علمه، كان من أهل العلم بالحق الذي يوجب لهم علمهم، العمل بما أحب الله. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بهذا القرآن، إما جهلاً وإعراضاً عنه، وعدم اهتمام به، وإما عنادًا وظلمًا، لذلك أكثر الناس غير متفتحين به، لعدم السبب الموجب للاتفاق.

(٢-٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوْسًا وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ۝ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَتَّجِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَحِيلٌ صِنَوَانٌ وَعُثْرٌ صِنَوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْمَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يخبر تعالى عن انفراده بالخلق والتدبير، والعظمة

لا ثبوت لها ولا استقرار إلا بالجبال الرواسي التي جعلها الله أوتادًا لها .

﴿و﴾ جعل فيها ﴿أَنْهَرًا﴾ تسقي الآدميين وبهائمهم وحرورهم، فأخرج بها من الأشجار والزروع والثمار خيرًا كثيرًا، ولهذا قال: ﴿وَمِنْ كُلِّ الشَّرَايِطِ جَعَلْنَا فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: صنفين مما يحتاج إليه العباد .

﴿يُعْشَىٰ آيَاتِ النَّهَارِ﴾ فتظلم الآفاق، فيسكن كل حيوان إلى مأواه، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قضوا مأربهم من النوم، غشي النهار الليل، فإذا هم مصبحون منتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار .

﴿وَمِنْ رَحْمَتِي جَعَلْنَا لِكُلِّ آيَةٍ لَّيْلًا وَالنَّهَارَ لِيَشْكُرُوا فِيهِ وَلِيَسْتَعْمُوا مِنْ فَضْلِي ۖ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ على المطالب الإلهية ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، وينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن الذي خلقها ودبرها، وصرفها، هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وأنه عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، وأنه القادر على كل شيء، الحكيم في كل شيء، المحمود على ما خلقه وأمر به تبارك وتعالى .

ومن الآيات على كمال قدرته، وبدع صنعته، أن جعل ﴿فِي الْأَرْضِ قَطْعًا مِّنْجُورَاتٍ وَجَنَّاتٍ﴾ فيها أنواع الأشجار ﴿مِنْ أَنْعَابٍ وَرَزَعٍ وَيَخِيلٌ﴾ وغير ذلك، والتخيل التي بعضها ﴿صِنَوَانٌ﴾ أي: عدة أشجار في أصل واحد، ﴿وَعَبْرٌ صِنَوَانٌ﴾ بأن كان كل شجرة على حداثها، والجميع ﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَجِدٍ﴾ وأرضه واحدة ﴿وَنُفُصٌ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ لونا، وطعمًا، وشفاء، ولذة؛ فهذه أرض طيبة، تنبت الكلا والعشب الكثير، والأشجار والزروع، وهذه أرض تلاصقتها، لا تنبت كلا، ولا تمسك ماء، وهذه تمسك الماء، ولا تنبت الكلا، وهذه تنبت الزروع والأشجار، ولا تنبت الكلا، وهذه الثمرة حلوة، وهذه مرة، وهذه بين ذلك .

فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟ .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدهم ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيها، وأما أهل الإعراض، وأهل البلادة فهم في ظلماتهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، لا يهتدون إلى ربهم سبيلا، ولا يعون له قبيلا .

(٥) ﴿وَإِن تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذْ ذَا كُنَّا تَرَابًا إِنَّا لَنَحْنُ خَلْقٌ جَدِيدٌ ۖ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَعْلَىٰ ۗ فِي أَنْعَابِهِمْ وَأُولَٰئِكَ

والسلطان الدال على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ على عظمها واتساعها بقدرته العظيمة ﴿بِعَبْرِ عَمْدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: ليس لها عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد لرأيتموها ﴿ثُمَّ﴾ بعد ما خلق السماوات والأرض ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ العظيم الذي هو أعلى المخلوقات، استواء يليق بجلاله ويناسب كماله .

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ لمصالح العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم، ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ بتدبير العزيز العليم ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يسير منتظم، لا يفتران ولا يتيان، حتى يجيء الأجل المسمى وهو طي الله هذا العالم، ونقلهم إلى الدار الآخرة التي هي دار القرار، فعند ذلك يطوي الله السماوات ويبدلها، ويغير الأرض ويبدلها، فتكور الشمس والقمر، ويجمع بينهما، فيلقيان في النار، ليرى من عبدهما أنهما غير أهل للعبادة؛ فيتحسر بذلك أشد الحسرة، وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين .

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر، أي: قد استوى الله العظيم على سرير الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني ويفقر، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقيل العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه، وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته الكرام، لتدبير ما جعلهم على تدبيره .

وينزل الكتب الإلهية على رسله، ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع، والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية التفصيل بيانها، وإيضاحها وتمييزها، ﴿لِمَنَّكُمْ﴾ بسبب ما أخرج لكم من الآيات الأفقية، والآيات القرآنية ﴿بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ يُؤْتُونَ﴾ فإن كثرة الأدلة وبيانها ووضوحها، من أسباب حصول اليقين في جميع الأمور الإلهية، خصوصًا في العقائد الكبار، كالبعث والنشور والإخراج من القبور .

وأيضًا، فقد علم أن الله تعالى حكيم لا يخلق الخلق سدى، ولا يتركهم عبثًا، فكما أنه أرسل رسله، وأنزل كتبه لأمر العباد ونهيمهم، فلا بد أن ينقلهم إلى دار يحل فيهم جزاؤه، فيجازي المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي المسيئين بإساءتهم .

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي: خلقها للعباد، ووسعها، وبارك فيها، ومهداها للعباد، وأودع فيها من مصالحهم ما أودع ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالًا عظامًا، لئلا تميد بالخلق، فإنه لولا الجبال لمادت بأهلها، لأنها على تيار ماء،

أَفْسِهِمْ لَا تَقْطُلُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ .

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من لم يزل مصرًا على
الذنوب، قد أبى التوبة والاستغفار والالتجاء إلى العزيز
الغفار، فليحذر العباد من عقوباته بأهل الجرائم، فإن أخذه
أليم شديد .

(٧) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنْ مَا أَتَ
مُذِرٌّ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: ويقترح الكفار عليك من الآيات
التي يعينونها ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾
ويجعلون هذا القول منهم، عذرًا لهم في عدم الإجابة إلى
الرسول، والحال أنه منذر، ليس له من الأمر شيء، والله هو
الذي ينزل الآيات .

وقد أيدته بالأدلة البيّنات التي لا تخفى على أولي الألباب،
وبها يهتدي من قصده الحق، وأما الكافر الذي - من ظلمه
وجعله - يقترح على الله الآيات، فهذا اقتراح منه باطل وكذب
واقتراف (٢) .

فإنه لو جاءته أي آية كانت، لم يؤمن ولم يتقد، لأنه لم
يمتنع من الإيمان، لعدم ما يدل على صحته، وإنما ذلك لهوى
نفسه، واتباع شهوته ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: داع يدعوهم إلى
الهدى من الرسل وأتباعهم، ومعهم من الأدلة والبراهين ما
يدل على صحة ما معهم من الهدى .

(٨-١١) ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ
وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِعِقْدَارٍ ۝ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝ سَوَاءٌ يَنْكُرُ مِنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ
هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝ لَمْ تُعْقِبَتْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ
خَلْفَهُ يَحْفَظْنَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا
بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ
وَالٍ﴾ يخبر تعالى بعموم علمه، وسعة اطلاعه، وإحاطته بكل
شيء فقال: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ﴾ من بني آدم
وغيرهم ﴿وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ﴾ أي: تنقص مما فيها، إما أن
يهلك الحمل، أو يتضاءل أو يضمحل ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ الأرحام
وتكبر الأجنة التي فيها ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِعِقْدَارٍ﴾ لا يتقدم
عليه ولا يتأخر، ولا يزيد ولا ينقص إلا بما تقتضيه حكمته
وعلمه .

فإنه ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ﴾ في ذاته وأسمائه
وصفاته ﴿الْمُتَعَالِ﴾ على جميع خلقه، بذاته وقدره وقهره .

(١) في ب: شركهم . (٢) كذا في ب، وفي أ: واقترافه .

أَصْحَبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ يحتمل أن معنى قوله: ﴿وَإِنْ
تَعَجَّبَ﴾ من عظمة الله تعالى وكثرة أدلة توحيده، فإن العجب -
مع هذا - إنكار المكذبين، وتكذيبهم بالبعث، وقولهم: ﴿أَإِذَا
كُنَّا تُرَابًا أَوْ آتَا لَنَا حَلْقٌ جَدِيدٌ﴾ أي: هذا بعيد في غاية الامتناع
بزعمهم، أنهم بعد ما كانوا ترابًا، أن الله يعيدهم، فإنهم - من
جهلهم - قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق .

فلما رأوا هذا ممتنعًا في قدرة المخلوق، ظنوا أنه ممتنع
على قدرة الخالق، ونسوا أن الله خلقهم أول مرة، ولم يكونوا
شيئًا .

ويحتمل أن معناه: وإن تعجب من قولهم وتكذيبهم
للبعث، فإن ذلك من العجائب، فإن الذي توضح له الآيات،
ويرى من الأدلة الفاطعة على البعث ما لا يقبل الشك
والريب، ثم ينكر ذلك، فإن قوله من العجائب .

ولكن ذلك لا يستغرب على ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾
وجحدوا وحدانيته، وهي أظهر الأشياء وأجلاها ﴿وَأُولَئِكَ
الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ حيث دُعوا إلى
الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض عليهم الهدى فلم يهتدوا، فقلبت
قلوبهم وأفندتهم، عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة،
﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها
أبدًا .

(٦) ﴿وَيَسْتَعْلِمُونَكَ بِاللَّيْلِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ
الْمَثَلُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ
الْعِقَابِ﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله، المشركين
به، الذين وعظوا فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم
ينقادوا لها، بل جاهروا بالإنكار، واستدلوا بحلم [الله]
الواحد القهار عنهم، وعدم معاجلتهم بذنوبهم، أنهم على
حق، وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم:
﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً
مِنَ السَّمَاءِ أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ .

﴿وَالْحَالُ أَنَّهُ﴾ قد خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلُ﴾ أي: وقائع
الله وأيامه في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في حالهم
ويتركون جهلهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي:
لا يزال خيره إليهم، وإحسانه وبره وعفوه نازلًا إلى العباد،
وهم لا يزال شرهم (١)، وعصيانهم إليه صاعدًا .

يعصونه فيدعوهم إلى بابه، ويجرمون فلا يخرمهم خيره
وإحسانه، فإن تابوا إليه فهو حبيبهم، لأنه يحب التوابين
ويحب المتطهرين، وإن لم يتوبوا فهو طيبهم، يبتليهم
بالمصائب، ليظهرهم من المعاييب ﴿فَلْيَبْغَادِ الَّذِينَ آسَرُوا عَلَىٰ

﴿سَوَاءٌ مَنكُمُ﴾ في علمه وسمعه، وبصره.

﴿مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أي: مستقر بمكان خفي فيه ﴿وَسَارِيًّا بِالنَّهَارِ﴾ أي: داخل سره في النهار، والسرب هو ما يخفي فيه الإنسان، إما جوف بيته، أو غار، أو مغارة، أو نحو ذلك.

﴿لَهُ﴾ أي: للإنسان ﴿مُعَقَّبَاتٌ﴾ من الملائكة، يتعاقبون في الليل والنهار.

﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: يحفظون بدنه وروحه من كل من يريد بسوء، ويحفظون عليه أعماله، وهم ملازمون له دائماً، فكما أن علم الله محيط به، فالله قد أرسل هؤلاء الحفظة على العباد، بحيث لا تخفى أحوالهم ولا أعمالهم، ولا ينسى منها شيء ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ﴾ من النعمة والإحسان، ورغد العيش ﴿حَتَّى يَبْغُزُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾ بأن يتنقلوا من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها، فيسلبهم الله عند ذلك إياها.

وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله، غيّر الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة، ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا﴾ أي: عذاباً وشدّة، وأمراً يكرهونه، فإن إرادته لا بد أن تنفذ فيهم.

﴿ف﴾ إنه ﴿لَا مَرَدَ لَهُ﴾ ولا أحد يمنعهم منه ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ يتولى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم المكروه، فليحذروا من الإقامة على ما يكره الله، خشية أن يحل بهم من العقاب ما لا يرد عن القوم المجرمين.

(١٢، ١٣) ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ حَوَاقٍ وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ وَيَسِيحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلٰئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَدِّلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ سَدِيدُ الْحٰكِمِ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ حَوَاقٍ وَطَمَعًا﴾ أي: يخاف منه الصواعق والهدم، وأنواع الضرر على بعض الثمار ونحوها، ويطمع في خيره ونفعه ﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ بالمطر الغزير الذي به نفع العباد والبلاد.

﴿وَيَسِيحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب المزعج للعباد، فهو خاضع لربه، مسبح بحمده ﴿و﴾ تسبح ﴿الْمَلٰئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: خشعاً لربهم، خائفين من سطوته ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ وهي هذه النار التي تخرج من السحاب ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده، بحسب ما شاء وأراده ﴿وَهُوَ سَدِيدُ الْحٰكِمِ﴾ أي: شديد الحول والقوة، فلا يريد شيئاً إلا فعله، ولا يتعاصى عليه شيء، ولا يفوته هارب.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

٢٥٠

سُورَةُ الرَّعْدِ

وَلَسْتَ تَجْلُوْنَاكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِمَ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرَ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مَنكُمُ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِيًّا بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُبَدِّلُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ حَوَاقٍ وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسِيحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلٰئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَدِّلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ سَدِيدُ الْحٰكِمِ ﴿١٣﴾

فإذا كان هو وحده، الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبر الأمور، وتخضع له المخلوقات العظام التي يخاف منها، وتزعج العباد، وهو شديد القوة - فهو الذي يستحق أن يعبد وحده ولا شريك له، ولهذا قال:

(١٤) ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطُ كَتِّبِهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَلْبَغُوا مَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دَعَا الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ أي: لله وحده ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ وهي عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العباد، ودعاء المسألة له تعالى. أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف والرجاء، والحب، والرغبة، والرغبة، والرهبة، والإلانة، لأن ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره باطلة، ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأوثان، والأنداد التي جعلوها شركاء لله.

﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ﴾ أي: لمن يدعوها ويعبدها، بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا، ولا من أمور الآخرة، ﴿إِلَّا فِي كَبْسِطِ كَتِّبِهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ الذي لا تتاله كفاه لبعده، ﴿لِيَلْبَغُوا﴾ يسيط كفيه إلى الماء ﴿فَالْبَاقُ﴾، فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول

بِيَدِهِ وَيَسْطُهَا إِلَى الْمَاءِ الْمَمْتَنِعِ وَصَوْلَهَا إِلَيْهِ، فَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ .
 كَذَلِكَ الْكُفَّارُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مَعَ آلِهَةٍ، لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا
 بِشَيْءٍ وَلَا يَنْفَعُونَهُمْ فِي أَشَدِّ الْأَوْقَاتِ إِلَيْهِمْ حَاجَةٌ، لِأَنَّهُمْ
 فُقَرَاءٌ، كَمَا أَنَّ مَنْ دَعَاهُمْ فُقَرَاءٌ، لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي
 الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ، وَمَا لَهُ مِنْهُمْ
 مِنْ ظَهِيرٍ .
 ﴿وَمَا دَعَا الْكُفَرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ لِبَطْلَانِ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ، فَبَطَلَتْ عِبَادَاتُهُمْ وَدَعَاؤُهُمْ، لِأَنَّ الْوَسِيلَةَ تَبْطُلُ بِبَطْلَانِ
 غَايَتِهَا، وَلَمَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَلِكُ الْحَقُّ الْمُبِينُ، كَانَتْ
 عِبَادَتُهُ حَقًّا مُتَّصِلَةً لِنَفْعِ لِسَابِحِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .
 وَتَشْبِيهُ دَعَا الْكَافِرِينَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِالَّذِي يَسْطُ كَفِيهِ إِلَى الْمَاءِ
 لِيَلْبِغَ فَاهُ مِنْ أَحْسَنِ الْأَمْثَلَةِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ تَشْبِيهُ بِأَمْرِ مَحَالٍ، فَكَمَا
 أَنَّ هَذَا مَحَالٌ، فَالْمُشَبَّهِ بِهِ مَحَالٌ، وَالتَّعْلِيقُ عَلَى الْمَحَالِ مِنْ
 أَبْلَغِ مَا يَكُونُ فِي نَفْيِ الشَّيْءِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ
 كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا فَتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
 حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلَ فِي سِرِّ الْخَيْطِ﴾ .
 (١٥) ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلْمُهُمْ
 بِالْقُدْرَةِ وَالْأَصَالِ﴾ أَي جَمِيعِ مَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ السَّمَاوَاتُ
 وَالْأَرْضُ كُلُّهَا خَاضِعَةٌ لِرَبِّهَا، تَسْجُدُ لَهُ ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾
 فَالطَّوْعُ لِمَنْ يَأْتِي بِالسُّجُودِ وَالْخُضُوعِ اخْتِيَارًا كَالْمُؤْمِنِينَ،
 وَالْكَرْهُ لِمَنْ يَسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَحَالَهُ وَفَطْرَتَهُ تَكْذِبُهُ فِي
 ذَلِكَ، ﴿وَظِلْمُهُمْ بِالْقُدْرَةِ وَالْأَصَالِ﴾ أَي: وَيَسْجُدُ لَهُ ذِلَالٌ
 الْمَخْلُوقَاتِ أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ، وَسُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِ
 حَالِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا
 تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ .
 فَإِذَا كَانَتْ الْمَخْلُوقَاتُ كُلُّهَا تَسْجُدُ لِرَبِّهَا طَوْعًا وَكَرْهًا،
 كَانَ هُوَ الْإِلَهَ حَقًّا، الْمَعْبُودَ الْمَحْمُودَ حَقًّا، وَالْهَيْبَةَ غَيْرَهُ بَاطِلَةً،
 وَلِهَذَا ذَكَرَ بَطْلَانَهَا وَبَرَهَنَ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ:

وحده، وعبادة المشركين به، كما لا يستوي الأعمى والبصير
 وكما لا تستوي الظلمات والنور؟ .

فإن كان عندهم شك واشتباه، وجعلوا له شركاء، زعموا
 أنهم خلقوا كخلقه، وفعلوا كفعله، فأزل عنهم هذا الاشتباه
 واللبس، بالبرهان الدال على تفرد الإله بالوحدانية، فقل لهم:
 ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فإنه من المحال أن يخلق شيء من الأشياء
 نفسه .

ومن المحال أيضًا أن يوجد من دون خالق، فتعين أن لها
 إلهًا خالقًا، لا شريك له في خلقه، لأنه الواحد القهار، فإنه لا
 توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده، فالمخلوقات كل مخلوق
 فوَقَهُ مَخْلُوقٌ يَقْهَرُهُ، ثُمَّ فَوْقَ ذَلِكَ الْقَاهِرُ قَاهِرٌ أَعْلَى مِنْهُ، حَتَّى
 يَنْتَهِيَ الْقَهْرُ لِلوَاحِدِ الْقَهَارِ، فَالْقَهْرُ وَالتَّوْحِيدُ مُتَلَازِمَانِ،
 مَتَعَيَّنَ اللَّهُ وَحْدَهُ، فَتَبَيَّنَ بِالذَّلِيلِ الْعَقْلِيِّ الْقَاهِرِ، أَنَّ مَا يُدْعَى
 مِنْ دُونِ اللَّهِ لَيْسَ لَهُ شَيْءٌ مِنْ خَلْقِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبِذَلِكَ كَانَتْ
 عِبَادَتُهُ بَاطِلَةً .

(١٧) ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّنْبُلُ
 رَبْدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُؤْتُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ رَبْدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ

﴿١٦﴾ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ
 أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى
 وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي
 سَسَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشْبِهُهُ
 الظُّلُمَاتُ عَلَى الْمُطَّافِ﴾
 ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهْرُ﴾ (١٦) أَنْزَلَ مِنَ
 السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّنْبُلُ رَبْدًا رَابِيًا
 وَمِمَّا يُؤْتُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ رَبْدٌ مِثْلَهُ
 كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَجَاءَ وَأَمَّا مَا
 يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)
 لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ
 لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُ، لَأَفْتَدَوْا بِهِ
 أَوْلِيَاءَهُمْ لَمْ يَسُوءَ الْحِسَابَ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمَ وَنِيسَ الْهَادِ (١٨)

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلْمُهُمْ
 بِالْقُدْرَةِ وَالْأَصَالِ﴾ أَي جَمِيعِ مَا احْتَوَتْ عَلَيْهِ السَّمَاوَاتُ
 وَالْأَرْضُ كُلُّهَا خَاضِعَةٌ لِرَبِّهَا، تَسْجُدُ لَهُ ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾
 فَالطَّوْعُ لِمَنْ يَأْتِي بِالسُّجُودِ وَالْخُضُوعِ اخْتِيَارًا كَالْمُؤْمِنِينَ،
 وَالْكَرْهُ لِمَنْ يَسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَحَالَهُ وَفَطْرَتَهُ تَكْذِبُهُ فِي
 ذَلِكَ، ﴿وَظِلْمُهُمْ بِالْقُدْرَةِ وَالْأَصَالِ﴾ أَي: وَيَسْجُدُ لَهُ ذِلَالٌ
 الْمَخْلُوقَاتِ أَوَّلِ النَّهَارِ وَآخِرِهِ، وَسُجُودِ كُلِّ شَيْءٍ بِحَسَبِ
 حَالِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ، وَلَكِنْ لَا
 تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ .

فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد لربها طوعًا وكرهًا،
 كان هو الإله حقًا، المعبود المحمود حقًا، والهيبة غيره باطلة،
 ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله:

(١٦) ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ
 أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى
 وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي
 سَسَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشْبِهُهُ
 الظُّلُمَاتُ عَلَى الْمُطَّافِ﴾
 ﴿قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهْرُ﴾ أَي: قُلْ لَهُوَلَاءَ الْمَشْرِكِينَ
 بِهِ أَوْلِيَاءًا وَأَنْدَادًا، يَحْبُونَهَا كَمَا يَحْبُونَ اللَّهَ، وَيَبْذُلُونَ لَهَا أَنْوَاعَ
 التَّقَرُّبَاتِ وَالْعِبَادَاتِ: أَفَتَاهَتْ عَقُولُكُمْ حَتَّى اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ
 أَوْلِيَاءَ، تَتَوَلَّوْنَهُمْ بِالْعِبَادَةِ، وَلَيْسُوا بِأَهْلٍ لِذَلِكَ؟ .

فإنهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وتتركون ولاية من هو
 كامل الأسماء والصفات، المالك للأحياء والأموات، الذي
 بيده الخلق والتدبير، والنفع والضرر؟ فما تستوي عبادة الله

وَحَقَّقَ عِبَادَهُ قَدْ كَتَبَ ذَلِكَ، وَسَطَرَ عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: ﴿يُؤَيِّنَانَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَعِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ .

﴿١٧﴾ بعد هذا الحساب السيء ﴿مَا وَنَّهْتُمْ جَهَنَّمَ﴾ الجامعة لكل عذاب، من الجوع الشديد، والعطش الوجع، وال نار الحامية، والزقوم، والزمهرير، والضريع، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب ﴿وَيَسَّ لِهَذَا﴾ أي: المقر والمسكن مسكنهم .

(١٩-٢٤) ﴿أَفَنَنْتَ بِعَلَىٰ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَتُولُوا الْأَلْبَابَ ۚ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ الْيَمِينَةَ ۚ وَالَّذِينَ يَبِطُلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ۚ وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْعُونَ إِلَى الْحَسَنَةِ أُولَٰئِكَ لِمُ عَقِبِ الدَّارِ ۚ جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۚ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فِعْمَ عَقِبِ الدَّارِ﴾ يقول تعالى مفرقاً بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: ﴿أَفَنَنْتَ بِعَلَىٰ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ ففهم ذلك وعمل به ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ﴾ لا يعلم الحق ولا يعمل به، فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض، فحقيق بالبعد أن يتذكر ويتفكر، أي الفريقين أحسن حالاً، وخير مآلاً، فيؤثر طريقها، ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره .

﴿إِنَّمَا يَنْذَرُكَ أَتُولُوا الْأَلْبَابَ﴾ أي: أولو العقول الرزينة، والآراء الكاملة الذين هم لب العالم، وصفوة بني آدم، فإن سألت عن وصفهم، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله:

﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ الذي عهده إليهم، والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة، فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها، والنصح فيها، ﴿و﴾ من تمام الوفاء بها أنهم ﴿لَا يَتَّقُونَ الْيَمِينَةَ﴾ أي: العهد الذي عاهدوا عليه الله، فدخل في ذلك جميع المواثيق والعهود، والأيمان والنذور التي يعقدها العباد، فلا يكون العبد من أولي الأبواب الذين لهم الثواب العظيم، إلا بأدائها كاملة، وعدم نقضها وبخسها .

﴿وَالَّذِينَ يَبِطُلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله، من الإيمان به وبرسوله، ومحبه ومحبة رسوله، والانقياد لعبادته وحده لا شريك له، ولطاعة رسوله، ويصلون آباءهم وأمهاتهم، يبرهم بالقول والفعل، وعدم عقوبهم، ويصلون الأقارب والأرحام، بالإحسان إليهم قولاً وفعلًا، ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والمماليك، بأداء حقهم كاملاً موفراً، من الحقوق الدينية والدنيوية .

يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبِطْلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَبْتَغِ النَّاسَ فَيَمُكُّ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ شبه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله لحياة القلوب والأرواح، بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح، وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد، بما في المطر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها، بالأودية التي تسيل فيها السيول، فوادٍ كبير يسع ماء كثيراً، كقلب كبير يسع علماً كثيراً، ووادٍ صغير يأخذ ماء قليلاً، كقلب صغير يسع علماً قليلاً وهكذا .

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات، عند وصول الحق إليها، بالزبد الذي يعلو الماء، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له، حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة . كذلك الشهوات والشهوات، لا يزال القلب يكرهها، ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة، حتى تذهب وتضمحل، ويبقى القلب خالصاً صافياً، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإثاره، والرغبة فيه، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إِنَّ الْبِطْلَ كَانَ زَهُوْقًا﴾ وقال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال .

(١٨) ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهَا لَوَ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِثْلَهُ مَعَهُمْ لَأَفْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ سُوءَ الْحِسَابِ وَمَا وَنَّهْتُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ لِلْهَادِ﴾ لما بين تعالى الحق من الباطل، ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه، وذكر ثوابه، وغير مستجيب، فذكر عقابه فقال: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربهم فيما يريد منهم، فلمهم ﴿الْحُسْنَىٰ﴾ أي: الحالة الحسنة، والثواب الحسن .

فلهم من الصفات أجلها، ومن المناقب أفضلها، ومن الثواب العاجل والأجل، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهَا﴾ بعد ما ضرب لهم الأمثال، وبين لهم الحق، لهم الحالة غير الحسنة ف ﴿لَوَ أَنَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من ذهب وفضة وغيرها، ﴿مِثْلَهُ مَعَهُمْ لَأَفْتَدَوْا بِهِ﴾ من عذاب يوم القيامة، ما تقبل منهم، وأتى لهم ذلك؟! .

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ سُوءَ الْحِسَابِ﴾، وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيء، وما ضيعوه من حقوق الله

سُورَةُ الرَّعْدِ

٢٥٢

سُورَةُ الرَّعْدِ

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذُرُ
 أُولَئِكَ الْأَلْبَابِ ﴿١٦﴾ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَتَّقُونَ اللَّهَ أَلَيْسَتْ
 ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا مَأْتَاهُم بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
 وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرُسُونَ
 بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿١٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
 وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٠﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ
 ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا
 أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ
 وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا
 بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَمْتَعَةٌ ﴿٢٣﴾ وَقَوْلُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ
 مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنَاقِبُ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
 قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٥﴾

المنازل العالية، والجنان الغالية ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ .

فحقيق بمن نصح نفسه، وكان لها عنده قيمة، أن يجاهدها، لعلها تأخذ من أوصاف أولى الألباب بنصيب، لعلها تحظى بهذه الدار التي هي منية النفوس، وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح، فلمثلها فليعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

(٢٥) ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ لما ذكر حال أهل الجنة، ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به فقال عنهم: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ أي: من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله، وغلظه عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابلوه بالإعراض والنقض ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصد عن سبيل الله، وابتغائها عوجًا ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: البعد والذم، من الله وملائكته وعباده المؤمنين ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾

والسبب الذي يجعل العبد واصلًا ما أمر الله به أن يوصل، خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يخافونه، فيمنعهم خوفهم منه، ومن القدم عليه يوم الحساب، أن يتجرأوا على معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله به، خوفًا من العقاب، ورجاءً للثواب. ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على المأمورات بالامتثال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلمة بعدم تسخطها.

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ﴿ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلبًا لمرضاة ربه، ورجاءً للقرب منه، والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد، ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها، وشروطها، ومكملاتها، ظاهرًا وباطنًا، ﴿وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ دخل في ذلك النفقات الواجبة، كالزكوات والكفارات، والنفقات المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سرًا وعلانية، ﴿وَيَدْرُسُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: من أساء إليهم بقول أو فعل، لم يقابلوه بفعله، بل قابلوه بالإحسان إليه.

فيقطعون من حرمهم، ويعفون عن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويحسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان، فما ظنك بغير المسيء!؟

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين وصفت صفاتهم الجليلة، ومناقبهم الجميلة ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾، فسرها بقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة لا يزولون عنها، ولا يبعثون عنها جوارًا، لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم والسرور الذي تنتهي إليه المطالب والغايات.

ومن تمام نعيمهم وقرة أعينهم، أنهم ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ﴾ من الذكور والإناث ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: الزوج أو الزوجة، وكذلك النظراء والأشباه، والأصحاب والأحباب، فإنهم من أزواجهم وذرياتهم ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ يهتنونهم بالسلامة، وكرامة الله لهم، ويقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: حلت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه

وهي الجحيم، بما فيها من العذاب الأليم. (٢٦) ﴿اللَّهُ يَسُطُّ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ أي: هو وحده يوسع الرزق

ويبسطة على من يشاء، ويقدره ويضيقه على من يشاء ﴿وَفَرِحُوا﴾ أي: الكفار ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فرحاً، أوجب لهم أن يطمئنوا بها، ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ أي: شيء حقير، يتمتع به قليلاً، ويفارق أهله وأصحابه، ويعقبهم ويلاً طويلاً.

(٢٧-٢٩) ﴿يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّيَّ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَرَادَ ۖ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۝ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، يتعنتون على رسول الله، ويقترحون ويقولون: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّيَّ﴾ ويزعمهم أنها لو جاءت لآمنوا، فأجابهم الله بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن أَرَادَ﴾ أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم، حتى يجعلوا ذلك متوقفاً على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون ﴿وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَتَلَكَّةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قَبْلًا مَا كَانُوا يَلْمِئُونَنَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِن كُنَّا لَأَكْثَرَهُمْ يَلْمُونَ﴾.

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق، كفى ذلك، وحصل المقصود، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها، فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا، فلم يؤمنوا بها، لعاجلهم العذاب، ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفرحها ولذاتها. ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أي: حقيق بها، وحرى أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء أذل للقلوب ولا أشهى ولا أحلى، من محبة خالقها، والأنس به ومعرفته، وعلى قدر معرفتها بالله ومحبتها له يكون ذكرها له، هذا على القول بأن ذكر الله ذكر العبد لربه، من تسبيح وتهليل وتكبير وغير ذلك.

وقيل: إن المراد بذكر الله كتابه الذي أنزله ذكرى للمؤمنين، فعلى هذا معنى طمأنينة القلوب بذكر الله: أنها حين تعرف معاني القرآن وأحكامه تطمئن لها، فإنها تدل على الحق المبين، المؤيد بالأدلة والبراهين، وبذلك تطمئن القلوب، فإنها لا تطمئن إلا باليقين والعلم، وذلك في كتاب

والحال أن قومك يكفرون بالرحمن، فلم يقابلوا رحمته وإحسانه - التي أعظمها أن أرسلناك إليهم رسولا، وأنزلنا عليك كتابا - بالقبول والشكر، بل قابلوها بالإنكار والرد، أفلا يعتبرون بمن خلا من قبلهم من القرون المكذبة، كيف أخذهم الله بذنوبهم؟ ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ وهذا متضمن للتوحيدين، توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية.

فهو ربي الذي رباني بنعمه منذ أوجدني، وهو إلهي الذي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري ﴿وَالَيْهِ مَتَابٌ﴾ أي: أرجع في جميع عباداتي، وفي حاجاتي.

(٣١) ﴿وَلَوْ أَن فَرَأَيْنَا سِирَتَ بِهِ الْجِبَالِ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُفِّرُوا بِهِ الْمَوْتِ بَل لَّيْلَهُ الأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَن لَّو يَشَاءَ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَرِئَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا تَصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الأَيعَادَ﴾ يقول تعالى - مبيّنا فضل القرآن الكريم على سائر

الكتب المنزلة - : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ من الكتب الإلهية ﴿سُيِّرَتْ
 بِهِ الْجِبَالُ﴾ عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ جنائنا وأنهارًا
 ﴿أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ﴾ لكان هذا القرآن ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾
 فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين
 يقترحون من الآيات ما يقترحون؟ فهل لهم أو لغيرهم من
 الأمر شيء؟
 ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنِيسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ
 جَمِيعًا﴾ فليعلموا أنه قادر على هدايتهم جميعًا، ولكنه لا يشاء
 ذلك، بل يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا﴾ على كفرهم، لا يعتبرون ولا يتعظون، والله تعالى
 يوالي عليهم القوارع التي تصيبهم في ديارهم، أو تحل قريبًا
 منها، وهم مصرون على كفرهم ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ﴾ الذي
 وعدهم به، لنزول العذاب المتصل الذي لا يمكن رفعه ﴿إِنَّ
 اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْأَعْيَادَ﴾ وهذا تهديد لهم وتخويف من نزول ما
 وعدهم الله به على كفرهم، وعنادهم، وظلمهم.
 (٣٢) ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَمَلَأْتُمْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا نَمْرًا
 أَخَذْتُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي﴾ يقول تعالى لرسوله - مثبًا له
 ومسلبًا - : ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ﴾ فلست أول رسول
 كُذِّبَ وأوذى ﴿فَمَلَأْتُمْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برسلمهم، أي أمهلتهم مدة
 حتى ظنوا أنهم غير معذيين ﴿نَمْرًا أَخَذْتُمْ﴾ بأنواع العذاب
 ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي﴾ كان عقابًا شديدًا وعذابًا أليمًا، فلا
 يغتر هؤلاء الذين كذبوك، واستهزأوا بك بإيماننا، فلهم أسوة
 فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل
 بأولئك.
 (٣٣، ٣٤) ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ
 شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظْهَرُونَ مِنَ الْقَوْلِ
 بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ
 مِنْ هَادٍ ۝ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ
 اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا
 كَسَبَتْ﴾ بالجزاء العاجل والآجل، بالعدل والقسط، وهو الله
 تبارك وتعالى، كمن ليس كذلك؟
 ولهذا قال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ وهو الله الأحد الفرد
 الصمد، الذي لا شريك له، ولا يد ولا نظير ﴿قُلْ﴾ لهم، إن
 كانوا صادقين: ﴿سَمُّوهُمْ﴾ لتعلم حالهم ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ
 فِي الْأَرْضِ﴾ فإنه إذا كان عالم الغيب والشهادة، وهو لا يعلم
 له شريكًا، علم بذلك بطلان دعوى الشريك له، وأنكم بمنزلة
 الذي يُعَلِّمُ اللهُ أَنَّ لَهُ شَرِيكًا، وهو لا يعلمه، وهذا أبطل ما
 يكون، ولهذا قال: ﴿أَمْ يَظْهَرُونَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: غاية ما يمكن

من دعوى الشريك له تعالى، أنه بظاهر أقوالكم.
 وأما في الحقيقة فلا إله إلا الله، وليس أحد من الخلق
 يستحق شيئًا من العبادة، ولكن ﴿زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ﴾
 الذي مكروه، وهو كفرهم، وشركهم، وتكذيبهم لآيات الله
 ﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: عن الطريق المستقيمة الموصلة إلى
 الله وإلى دار كرامته ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأنه ليس
 لأحد من الأمر شيء.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ من عذاب
 الدنيا، لشدته ودوامه، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ﴾ يقيهم من
 عذاب الله، فعذابه إذا وجهه إليهم، لا مانع منه.

(٣٥) ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلْمُهَا تِلْكَ عَظِيمُ الَّذِينَ أَتَوْا وَشَقِيَ الْكَافِرِينَ
 النَّارُ﴾ يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ الذين
 تركوا ما نهاهم الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي:
 صفتها وحقيقتها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أنهار العسل،
 وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير
 أخدود، فتسقي تلك البساتين والأشجار، فتحمل من جميع

أنواع شمار.

﴿أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظُلْمُهَا﴾ دائم أيضًا ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ أَتَفَوْا﴾ أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!

(٣٦) ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابُ﴾ يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ﴾ أي: منّا عليهم به وبمعرفة ﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ فيؤمنون به ويصدقونه، ويفرحون بموافقة الكتب بعضها لبعض، وتصديق بعضها بعضًا، وهذه حال من آمن من أهل الكتابين ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي: ومن طوائف الكفار المنحرفين عن الحق، من ينكر بعض هذا القرآن ولا يصدقه.

﴿فَمَنْ أَهْتَكَمَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَنِّي﴾ إنما أنت يا محمد مندر، تدعو إلى الله ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ أي: بإخلاص الدين لله وحده ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابُ﴾ أي: مرجعي الذي أرجع به إليه، فيجازيني بما قمت به من الدعوة إلى دينه، والقيام بما أمرت به.

(٣٧) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب حكمًا عربيًا، أي: محكمًا متقنًا، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات، لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون.

ولهذا توعد رسوله - مع أنه معصوم - ليمتن عليه بعصمته، ولتكون أمته أسوته في الأحكام، فقال: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم، ﴿مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ﴾ يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك من الأمر المكروه.

(٣٨، ٣٩) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: لست أول رسول أرسل إلى الناس، حتى يستغربوا رسالتك ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فلا يعيبك أعداؤك بأن يكون لك أزواج وذرية، كما كان لإخوانك المرسلين، فلا شيء يقدحون فيك بذلك وهم يعلمون أن الرسل قبلك كذلك؛ إلا لأجل أغراضهم الفاسدة وأهوائهم؟ وإن طلبوا منك آية اقترحوها، فليس لك من الأمر شيء.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ والله لا يأذن فيها

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾
﴿أَكَلُهَا دَائِمٌ وَظُلْمُهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ أَتَفَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ ﴿٣٦﴾
﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابُ﴾ ﴿٣٦﴾
﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَّلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ ﴿٣٧﴾
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ﴿٣٨﴾
﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ﴿٣٨﴾
﴿وَإِنْ مَا تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَفِّيْتِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ ﴿٤٠﴾
﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٤١﴾
﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلْمُ الْكُفْرِ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ﴿٤٢﴾

إلا في وقتها الذي قدره وقضاه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لا يتقدم عليه ولا يتأخر عنه، فليس استعجالهم بالآيات أو بالعذاب موجبًا لأن يقدم الله ما كتب أنه يؤخر، مع أنه تعالى فعال لما يريد.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الأقدار ﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما يشاء منها، وهذا المحو والتغيير، في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير، لأن ذلك محال على الله، أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله ثبوتها أسبابًا، ولمحوها أسبابًا، لا تتعدى تلك الأسباب ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان، من أسباب طول العمر، وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سببًا لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سببًا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببًا

للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

(٤٠، ٤١) ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۚ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُضُهَا مِن آطْرَافِهَا وَأَلَّهَ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۗ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصابتهم ما يوعدون به من العذاب، فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم، فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به ﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ إياه في الدنيا، فتقر بذلك عينك ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل إصابتهم، فليس ذلك شغلاً لك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ﴾ والتبيين للخلق. ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ فنحاسب الخلق على ما قاموا به مما عليهم وضيعوه، ونثيبهم أو نعاقبهم.

ثم قال - متوعداً للمكذبين - : ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُضُهَا مِن آطْرَافِهَا﴾ قيل: بإهلاك المكذبين، واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال.

والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك، أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويحتاجها، ويحلل القوارع بأطرافها، تنبيهاً لهم قبل أن يحتاجهم النقص، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يرده أحد، ولهذا قال: ﴿وَأَلَّهَ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾. ويدخل في هذا حكمه الشرعي، والقدري، والجزائي.

فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها، بخلاف حكم غيره، فإنه قد يوافق الصواب، وقد لا يوافقهُ ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هو آت، فهو قريب.

(٤٢، ٤٣) ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَلَهُ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعَعِلُّ الْكَفْرُ لِمَن عَقِيَ الدَّارِ ۚ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ يقول تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلمهم، وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئاً، فإنهم يحاربون الله وبيارزونه ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه، فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم، فإن الله ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾

أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة.

والمكر لا بد أن يكون من كسها، فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرًا يضر الحق وأهله، ويفيدهم شيئاً ﴿وَسِعَعِلُّ الْكَفْرُ لِمَن عَقِيَ الدَّارِ﴾ أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين للكفر وأعماله.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي: يكذبونك، ويكذبون ما أرسلت به ﴿قُلْ﴾ لهم - إن طلبوا على ذلك شهيداً: ﴿كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ وشهادته بقوله وفعله وإقراره، أما قوله فيما أوحاه الله إلى أصدق خلقه، مما ثبت به رسالته.

وأما فعله، فلأن الله تعالى أيد رسوله، ونصره نصرًا خارجًا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه، وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.

وأما إقراره، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط، وحل له ماله ودمه، والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول، من آمن واتباع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك، فأخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة، لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة.

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب، لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله، ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالألميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم، لعدم خبرتهم ومعرفتهم. والله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ
شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿١٤﴾

سُورَةُ اِبْرَاهِيمَ
الْاِيَاتُ ٢٥٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّكِيْبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ
لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عَوَجًا أَوْ لِيْكَ فِي ضَلٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا
مِن رَّسُوْلٍ إِلَّا يَلْسٰنًا قَوْمِهِ لِیُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ
قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكَرَهُمْ بِآيَاتِنَا
اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُوْرٍ ﴿٥﴾

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين ذكر وصفهم ﴿في ضَلَلٍ بَعِيدٍ﴾ لأنهم
ضلوا وأضلوا وشاقوا الله ورسوله، وحاربوهما، فأى ضلال
أبعد من هذا؟!، وأما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء، يؤمنون
بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل
الله ويحسنونها، مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها.

﴿٤﴾ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُوْلٍ إِلَّا يَلْسٰنًا قَوْمِهِ لِیُبَيِّنَ لَهُمْ
فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾
وهذا من لطفه بعباده أنه ما أرسل رسولاً ﴿إِلَّا يَلْسٰنًا قَوْمِهِ
لِیُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من تعلم ما أتى به،
بخلاف ما لو كان على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن
يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين
لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه، وقامت عليهم حجة الله
﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾، ممن لم ينقد للهدى، ويهدي من
يشاء، ممن اختصه برحمته.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي - من عزته - أنه انفراد
بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته
أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

(١-٣) ﴿الرَّكِيْبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ الله الَّذِي لَهُ مَا
فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ
الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَيَبْغُونَهَا عَوَجًا أَوْ لِيْكَ فِي ضَلٰلٍ بَعِيدٍ يخبر تعالى أنه أنزل كتابه
على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق ليخرج الناس من ظلمات
الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي إلى نور
العلم والإيمان والأخلاق الحسنة، وقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾
أي: لا يحصل منهم المراد المحبوب لله، إلا بإرادة من الله
ومعونة، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم.

ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: ﴿إِلَى
صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: الموصل إليه وإلى دار كرامته،
المشتمل على العلم بالحق والعمل به، وفي ذكر ﴿الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ﴾ بعد ذكر الصراط الموصل إليه، إشارة إلى أن من
سلكه فهو عزيز بعز الله قوي، ولو لم يكن له أنصار إلا الله،
محمود في أموره، حسن العاقبة.

وليدل ذلك على أن صراط الله من أكبر الأدلة على ما لله
من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده
عزيز السلطان، حميد في أقواله، وأفعاله، وأحكامه، وأنه
مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه
كما أن له ملك السماوات والأرض، خلقاً ورزقاً وتدبيراً، فله
الحكم على عباده بأحكامه الدينية، لأنهم ملكه، ولا يليق به
أن يتركهم سدى، فلما بين الدليل والبرهان، توعد من لم ينقد
لذلك، فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ لا يقدر
قدره، ولا يوصف أمره، ثم وصفهم بأنهم ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ فرضوا بها واطمأنوا، وغفلوا عن
الدار الآخرة.

﴿وَصُدُّونَ﴾ الناس ﴿عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ التي نصبها لعباده،
وبينها في كتبه، وعلى السنة رسله، فهؤلاء قد نابذوا مولاها
بالمعاداة والمحاربة ﴿وَيَبْغُونَ﴾ أي: سبيل الله ﴿عَوَجًا﴾ أي:
يحرصون على تهجينها وتبنيها، للتغيير عنها، ولكن بأبي الله
إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

٢٥٦

سُورَةُ الْاِبْرَاهِيمَ

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ لِمَنْ رَزَيْكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكُمْ وَلَنْ تُنْفَكُوا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ إِنَّكُمْ لَعِنْدَ رَبِّكُمْ لَشَرِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ غَنِيذٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلَتْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾

النعمة ضد ذلك .

﴿ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فلن تضروا الله شيئاً ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ غَنِيذٌ ﴾ فالطاعات لا تزيد في ملكه، والمعاصي لا تنقصه، وهو كامل الغنى، حميد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، ليس له من الصفات إلا كل صفة حمد وكمال، ولا من الأسماء إلا كل اسم حسن، ولا من الأفعال إلا كل فعل جميل .

(٩-١٢) ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلَتْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَنْزِلُ عَلَيْنَا مِنْ سَمَاءٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ مِنْ بَشَرٍ مِثْلُكُمْ وَإِنَّا لَنَنْتَهِزُكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ لِمَنْ رَزَيْكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكُمْ وَلَنْ تُنْفَكُوا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ إِنَّكُمْ لَعِنْدَ رَبِّكُمْ لَشَرِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ غَنِيذٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلَتْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٩﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَتْ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٠﴾

ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه وكلام رسوله، أمور مطلوبة، محبوبة لله، لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها، إلا إذا كان الناس في حالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا تمرنوا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم، وصارت طبيعة لهم، فحينئذ قد اكتفوا المؤنة وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء، كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم .

(٥-٨) ﴿ وَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَنْتُمْ لِلَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدْعُونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ لِمَنْ رَزَيْكُمْ عَظِيمٌ ﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكُمْ وَلَنْ تُنْفَكُوا مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ إِنَّكُمْ لَعِنْدَ رَبِّكُمْ لَشَرِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ غَنِيذٌ ﴿٨﴾ يخبر تعالى أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به رسوله محمداً ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم ﴿ أَنْتَ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه ﴿ وَذَكِّرْهُمْ بِأَنْتُمْ لِلَّهِ ﴾ أي: بنعمه عليهم، وإحسانه إليهم وبأيامه في الأمم المكذبين، ووقائعه بالكافرين، ليذكروا نعمه، وليحذروا عقابه ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي: في أيام الله على العباد ﴿ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي: صبار في الضراء والعسر والضيق، شكور على السراء والنعمة .

فإنه يستدل بأيامه على كمال قدرته، وعميم إحسانه، وتمام عدله وحكمته، ولهذا امتل موسى عليه السلام أمر ربه، فذكرهم نعم الله فقال: ﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ أي: بقلوبكم وألستكم ﴿ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ ﴾ أي: يولونكم ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾ أي: أشده، وفسر ذلك بقوله: ﴿ وَيَدْعُونَ آبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ أي: ييقنون فلا يقتلونهم ﴿ وَفِي ذَلِكَ ﴾ الإنجاء ﴿ بَلَاءٌ لِمَنْ رَزَيْكُمْ عَظِيمٌ ﴾ أي: نعمة عظيمة، أو وفي ذلكم العذاب الذي ابتليتم به من فروع وملأه ابتلاء من الله عظيم لكم، لينظر هل تصبرون أم لا؟ .

وقال لهم - حائناً على شكر نعم الله - : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِجْسُكُمْ ﴾ أي: أعلم ووعد ﴿ لَنْ شَكْرْتُمْ لَأَرْزِيَنَّكُمْ ﴾ من نعمي ﴿ وَلَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ومن ذلك أن يزيل عنهم النعمة التي أنعم بها عليهم، والشكر: هو اعتراف القلب بنعم الله، والشناء على الله بها، وصرافها في مرضاة الله تعالى، وكفر

الله فضله، ويمنعه من تفضله.

فانظروا ما جئناكم به، فإن كان حقاً فاقبلوه، وإن كان غير ذلك فردوه، ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ فإن هذا ليس بأيدينا، وليس لنا من الأمر شيء.

﴿وَمَا كُنَّا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به، وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته، ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، لعلمهم بتمام كفايته، وكمال قدرته، وعميم إحسانه، ويتقون به في تيسير ذلك، وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾. أي: أي شيء يمنعنا من التوكل على الله، والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى، فإن هداه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامناً على الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.

وفي هذا كإشارة من الرسل عليهم الصلاة والسلام لقومهم، بآية عظيمة، وهو أن قومهم - في الغالب - لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدثهم رسلهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع [كيدهم ومكرهم]^(١)، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يَقُولُوا إِن كَانَ كِبَرُ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَقُلْ اللَّهُ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ عُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون﴾ الآيات.

وقول هود عليه السلام قال: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ﴾ من دُونِهِ فَيَكْفُرُوا بِجَمِيعَةٍ ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾.

﴿وَلَقَصِيرَةً عَلَى مَا ءَاذَيْتُمُونَا﴾ أي: ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإننا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى، احتساباً للأجر، ونصحاً لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾

(١) في الأصل (كيدكم ومكرهم) ولعله سبق قلم.

اللَّهُ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلًا وَلَقَصِيرَةً عَلَى مَا ءَاذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ يقول تعالى - مخوفاً عباده - ما أحله بالأمم المكذبة حين جاءتهم الرسل، فكذبوهم، فعاقبهم بالعقاب العاجل الذي رآه الناس وسمعوه فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ﴾ وقد ذكر الله قصصهم في كتابه، وبسطها ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ من كثرتهم، وكون أخبارهم اندرست.

فهؤلاء كلهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالأدلة الدالة على صدق ما جاؤوا به، فلم يرسل الله رسولاً إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، فحين أتتهم رسلهم بالبينات لم يتقادوا لها، بل استكبروا عنها ﴿فَرُدُّوْا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: لم يؤمنوا بما جاؤوا به، ولم يتفوهوا بشيء مما يدل على الإيمان كقوله: ﴿يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصُّوَءِ حَذَرَ الْعَوْمِ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ صريحاً لرسولهم: ﴿إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ مِرْيَبٍ﴾ أي: موقع في الريبة، وقد كذبوا في ذلك وظلموا.

ولهذا ﴿قَالَتْ﴾ لهم ﴿رُسُلُهُمْ أِنِّي أَشْكُ﴾ أي: فإنه أظهر الأشياء وأجلاها، فمن شك في الله ﴿فَاطِرِ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾ الذي وجود الأشياء مستند إلى وجوده، لم يكن عنده ثقة بشيء من المعلومات، حتى الأمور المحسوسة، ولهذا خاطبهم الرسل خطاب من لا يشك فيه ولا يصلح الرب فيه ﴿يَدْعُوَكُمْ﴾ إلى منافعكم ومصالحكم ﴿لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: ليشيكم على الاستجابة لدعوته، بالثواب العاجل والأجل، فلم يدعكم ليتفجع بعبادتكم، بل النفع عائد إليكم.

فردوا على رسلهم رد السفهاء الجاهلين ﴿قَالُوا﴾ لهم: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ أي: فكيف تفضلوننا بالنبوة والرسالة ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا﴾ فكيف تترك رأي الآباء وسيرتهم لرأيكم؟ وكيف تطيعكم وأنتم بشر مثلنا؟.

﴿فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة وبينة ظاهرة، ومرادهم بينة يقرحونها هم، وإلا فقد تقدم أن رسلهم جاءتهم بالبينات.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ مجيبين عن اقتراحهم واعتراضهم: ﴿إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: صحيح وحقيقة، أننا بشر مثلكم ﴿وَلَكِن﴾ ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق، فإن ﴿اللَّهُ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فإذا منَّ الله علينا بوحيه ورسالته، فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على

وحده لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير .

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام، توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب، وهو التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده، وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل .

(١٣-١٧) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ۝ وَلَسَخِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ۝ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ۝ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَسُقِيَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ ۝ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على ذلك، وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ﴾ متوعدين لهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وهذا أبلغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدهم بالإخراج من ديارهم ونسبوا إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض، وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها، يستعينون بها على عبادته .

فمن استعان بذلك على عبادة الله، حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي، لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة، ليس لهم شيء من الأرض التي توعدها الرسل بإخراجهم منها، وإن رجعنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلا يسيء شيء يمنعهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟! هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟ .

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسل إلى هذه الحال، ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره، وينصر أوليائه ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ بأنواع العقوبات .

﴿وَلَسَخِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ﴾ أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسل ومن تبعهم، جزاء ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِي﴾ عليه في الدنيا، وراقب الله مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ أي: ما توعدت به من عصاني، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله، والمبادرة إلى ما يحبه الله .

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: الكفار، أي: هم الذين طلبوا،

الْمُرْسَلِينَ وَالْمُرْسَلِينَ

٢٥٧

سُورَةُ الْاِبْرَاهِيمَ

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَنْ نَنُوكِلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنَا وَلَنَصِيرَبَ عَلَىٰ مَاءٍ أَذِيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَسَخِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَسُقِيَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ ۝ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمًا اسْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوه به، وإلا فالله حلِيم، لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: تجبر على الله وعلى الحق وعلى عباد الله، واستكبر في الأرض، وعاند الرسل، وشاقهم .

﴿مِّنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي: جهنم لهذا الجبار العنيد بالمرصاد، فلا بد له من ورودها، فيذاق حينئذ العذاب الشديد ﴿وَسُقِيَ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ في لونه وطعمه ورائحته الخبيثة، وهو في غاية الحرارة .

﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ من العطش الشديد ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ فإنه إذا قرب إلى وجهه شواه، وإذا وصل إلى بطنه قطع ما أتى عليه من الأمعاء ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ أي: يأتيه العذاب الشديد من كل نوع من أنواع العذاب، وكل نوع منه من شدته يبلغ إلى الموت، ولكن الله قضى أن لا يموتوا، كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَمِوْتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ۝ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ .

﴿وَيَوْمَ ذُرِّيَّتِهِ﴾ أي: الجبار العنيد ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: قوي شديد لا يعلم وصفه وشدته إلا الله تعالى.

(١٨) ﴿سَمَلُ الذُّرِّيَّةِ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كِرَامًا اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَيْهِ شَيْءٌ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْدُ الْبَعِيدُ﴾ يخبر تعالى عن أعمال الكفار التي عملوها: إما أن المراد بها الأعمال التي عملوها لله، بأنها في ذهابها وبطلانها واضمحلالها كاضمحلال الرماد، الذي هو أدق الأشياء وأخفها، إذا اشتدت به الريح في يوم عاصف شديد الهبوب، فإنه لا يبقى منه شيئاً، ولا يقدر منه على شيء يذهب ويضمحل، فكذلك أعمال الكفار ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ ولا على مثقال ذرة منه، لأنه مبني على الكفر والتكذيب.

﴿ذَلِكَ هُوَ الصَّلْدُ الْبَعِيدُ﴾ حيث بطل سعيهم، واضمحل عملهم. وإما أن المراد بذلك أعمال الكفار التي عملوها، ليكيدوا بها الحق، فإنهم يسعون ويكدحون في ذلك، ومكرهم عائد عليهم، ولن يضروا الله ورسله وجنده وما معهم من الحق شيئاً.

(١٩-٢١) ﴿الَّذِينَ تَرَى آيَاتَ اللَّهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَلْقَوْنَ إِيَّاهُ بِذَهَابِكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿ وَيَبْرُؤُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْتُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنَ مَحْجِصٍ ﴿ يَنْبَهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَنَّهُ ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَلْقَوْنَ﴾ أي: ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم، وليستدلوا بهما وما فيهما، على ما له من صفات الكمال، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض - على عظمهما وسعتهما - قادر على أن يعيدهم خلقاً جديداً، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك، ولهذا قال: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُدْهِبِكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم، يكونون أطوع لله منكم، ويحتمل أن المراد أنه: إن يشأ يُفنيكم ثم يُعْذِبُكم بالبعث خلقاً جديداً، ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده، من أحوال القيامة.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع بل هو سهل عليه جداً ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفَيْسٍ وَاحِدَةً﴾، ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

﴿وَيَبْرُؤُوا﴾ أي: الخلائق ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ حين ينفخ في الصور، فيخرجون من الأحداث إلى ربهم، فيقفون في أرض

الَّذِينَ تَرَى آيَاتَ اللَّهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَلْقَوْنَ إِيَّاهُ بِذَهَابِكُمْ وَيَأْتِي بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَيَبْرُؤُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْتُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا أَمْ صَبْرُنَا مَا لَنَا مِنَ مَحْجِصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَ أَقْبَضْتُمُ الْأَمْرَ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ النَّاسُ فَخَلَفْتُمْ بَيْنَ يَدَيْكُمْ وَمَا كَانُوا لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُواوَنِي وَلَوْ مَوْأَأَنفُسِكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي إِيَّايَ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾

مستوية قاع صصاف، لا ترى فيها عوجاً ولا أمثلاً، ويبرزون له، لا يخفى [عليه] منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك؟

فيقول ﴿الضُّعَفَاءُ﴾ أي: التابعون والمقلدون ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم المتبوعون الذين هم قادة في الضلال ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: في الدنيا، أمرتمونا بالضلال، وزينتموه لنا فأغويتمونا ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: ولو مثقال ذرة ﴿قَالُوا﴾ أي: المتبوعون والرؤساء «أغويناكم كما غوينا» و﴿لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهْدَيْتُكُمْ﴾ فلا يغني أحد أحداً ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُنَا﴾ من العذاب ﴿أَمْ صَبْرُنَا﴾ عليه ﴿مَا لَنَا مِنْ مَحْجِصٍ﴾ أي: من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله.

(٢٢، ٢٣) ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَ أَقْبَضْتُمُ الْأَمْرَ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَّ النَّاسُ وَوَعَدُ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْمُواوَنِي وَلَوْ مَوْأَأَنفُسِكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِحِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِحِي إِيَّايَ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ

وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ ﴿خَلْدِينَ فِيهَا يَأْتِينَ رَبَّهُمْ﴾ أَي: لَا بِحَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ بَلْ بِحَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أَي: يُحَيِّي بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالسَّلَامِ، وَالتَّحِيَّةِ، وَالكَلَامِ الطَّيِّبِ.

(٢٤-٢٦) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ يَأْتِيَنَّ رَبُّهَا وَتُضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ وَمَثَلٌ كَلِمَةٌ حَيِّثُهَا كَشَجَرَةٍ حَيِّثُهَا أَجْتَمَعَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ وَهِيَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَفُرُوعُهَا ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ وَهِيَ النَّخْلَةُ ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ فِي الْأَرْضِ ﴿وَفَرْعُهَا﴾ مُنْتَشِرٌ فِي السَّمَاءِ وَهِيَ كَثِيرَةُ النِّفْعِ دَائِمًا.

﴿تُؤْتِي أُكْلَهَا﴾ أَي ثَمَرَتِهَا ﴿كُلَّ حِينٍ يَأْتِيَنَّ رَبُّهَا﴾ فَكَذَلِكَ شَجَرَةُ الْإِيمَانِ، أَصْلُهَا ثَابِتٌ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ عِلْمًا وَاعْتِقَادًا، وَفُرُوعُهَا مِنَ الْكَلِمِ الطَّيِّبِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالْأَخْلَاقِ الْمَرْضِيَّةِ، وَالْأَدَابِ الْحَسَنَةِ، فِي السَّمَاءِ دَائِمًا، يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ الَّتِي تَخْرُجُهَا شَجَرَةُ الْإِيمَانِ، مَا يَنْتَفِعُ بِهِ الْمُؤْمِنُ وَيَنْفَعُ غَيْرَهُ ﴿وَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ مَا أَمْرَهُمْ بِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْهُ، فَإِنَّ فِي ضَرْبِ الْأَمْثَالِ تَقْرِيبًا لِلْمَعَانِي الْمَعْقُولَةِ مِنَ الْأَمْثَالِ الْمَحْسُوسَةِ، وَيَتَبَيَّنُ الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ غَايَةَ الْبَيَانِ، وَيَتَضَعُ غَايَةَ الْوَضُوحِ، وَهَذَا مِنْ رَحْمَتِهِ وَحَسَنِ تَعْلِيمِهِ، فَلِلَّهِ أَتَمُّ الْحَمْدِ وَأَكْمَلُهُ وَأَعْمَهُ، فَهَذِهِ صِفَةُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَثَبَاتِهَا فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ.

ثُمَّ ذَكَرَ ضِدَّهَا وَهِيَ كَلِمَةُ الْكُفْرِ وَفُرُوعُهَا فَقَالَ: ﴿وَمَثَلٌ كَلِمَةٌ حَيِّثُهَا كَشَجَرَةٍ حَيِّثُهَا الْمَأْكُلِ وَالْمَطْعَمِ، وَهِيَ شَجَرَةُ الْحَنْظَلِ وَنَحْوُهَا ﴿أَجْتَمَعَتْ﴾ هَذِهِ الشَّجَرَةُ ﴿مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ أَي: مِنْ ثُبُوتِ، فَلَا عُرُوقَ تَمْسِكُهَا، وَلَا ثَمْرَةَ صَالِحَةَ تَنْتَجِهَا، بَلْ إِنْ وَجَدَ فِيهَا ثَمْرَةَ، فَهِيَ ثَمْرَةُ حَيِّثُهَا، كَذَلِكَ كَلِمَةُ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي، لَيْسَ لَهَا ثُبُوتٌ نَافِعٌ فِي الْقَلْبِ، وَلَا ثَمْرٌ إِلَّا كُلُّ قَوْلٍ حَيِّثُهَا، وَعَمَلٌ حَيِّثُهَا، يَسْتَضَرُّ بِهِ صَاحِبُهُ وَلَا يَنْتَفِعُ، فَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ عَمَلٌ صَالِحٌ، وَلَا يَنْفَعُ نَفْسَهُ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ غَيْرَهُ.

(٢٧) ﴿يَشِيتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّهُ يَشِيتُ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، أَي: الَّذِينَ قَامُوا بِمَا عَلَيْهِمْ مِنْ إِيْمَانِ الْقَلْبِ التَّامِ الَّذِي يَسْتَلْزِمُ أَعْمَالَ الْجَوَارِحِ وَيَشْمُرُهَا، فَيَشِيتُهُمْ اللَّهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، عِنْدَ وَرُودِ الشَّبَهَاتِ بِالْهَدَايَةِ إِلَى

عَدَابِ اللَّهِ ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَأْتِيَنَّ رَبُّهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أَي: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ الَّذِي هُوَ سَبَبٌ لِكُلِّ شَرِّ يَفِيعُ وَوَقِعَ فِي الْعَالَمِ، مَخَاطِبًا لِأَهْلِ النَّارِ، وَمِتْرَبًا مِنْهُمْ ﴿لَمَّا فُصِّحَ الْأَمْرُ﴾ وَدَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَّ الْحَقُّ﴾ عَلَى أَلْسِنَةِ رَسَلِهِ، فَلَمْ تَطِيعُوهُ، فَلَوْ أَطَعْتُمُوهُ، لَأَدْرَكْتُمْ الْفَوْزَ الْعَظِيمَ، ﴿وَعَدَدْتُمْ﴾ الْخَيْرَ ﴿فَأَخْلَفْتُمْ﴾ أَي: لَمْ يَحْصُلْ وَلَنْ يَحْصُلَ لَكُمْ مَا مَنِيتُمْ بِهِ مِنَ الْأَمَانِيِّ الْبَاطِلَةِ.

﴿وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أَي: مِنْ حِجَّةٍ عَلَى تَأْيِيدِ قَوْلِي ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُمْ فَلَا تَسْتَجِيبُونَ لِي﴾ أَي: هَذَا نَهَايَةَ مَا عِنْدِي، أَنِّي دَعَوْتُمْ إِلَى مَرَادِي وَزِينَتِهِ لَكُمْ، فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، أَتْبَاعًا لِأَهْوَانِكُمْ وَشَهَوَاتِكُمْ، فَإِذَا كَانَتْ الْحَالُ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ﴿لَا تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتُؤْمِرُونَ بِالنَّفْسِ الْكَافِرَةِ﴾ فَاتَّمَّ السَّبَبُ، وَعَلَيْكُمْ الْمَدَارُ فِي مَوْجِبِ الْعِقَابِ، ﴿مَا أَنَا بِمُعْجِزٍ﴾ أَي: بِمُغَيِّبِكُمْ مِنَ الشَّدَةِ الَّتِي أَنْتُمْ بِهَا ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ كُلُّ لَهْ قَسَطٍ مِنَ الْعَذَابِ.

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ أَي: تَبَرَّأْتُ مِنْ جَعَلِكُمْ لِي شَرِيكًا مَعَ اللَّهِ، فَلَسْتُ شَرِيكًا لَكُمْ، وَلَا تَجِبُ طَاعَتِي ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ لَأَنْفُسَهُمْ بِطَاعَةِ الشَّيْطَانِ ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ خَالِدِينَ فِيهِ أَبَدًا.

وَهَذَا مِنْ لَطْفِ اللَّهِ بِعِبَادِهِ، أَنْ حَذَرَهُمْ مِنْ طَاعَةِ الشَّيْطَانِ وَأَخْبَرَ بِمُدَاخَلِهِ الَّتِي يَدْخُلُ مِنْهَا عَلَى الْإِنْسَانِ وَمَقَاصِدِهِ فِيهِ، وَأَنَّهُ يَقْصِدُ أَنْ يَدْخُلَهُ النَّارَ، وَهَذَا بَيِّنٌ لَنَا أَنَّهُ إِذَا دَخَلَ النَّارَ وَحَزَبَهُ^(١)، أَنَّهُ يَتَبَرَّأُ مِنْهُمْ هَذِهِ الْبِرَاءَةِ، وَيَكْفُرُ بِشُرْكِهِمْ ﴿وَلَا يُبَيِّنُكَ مِثْلَ حَبِيبٍ﴾.

وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ، وَقَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ فَالسُّلْطَانُ الَّذِي نَفَاهُ عَنْهُ هُوَ سُلْطَانُ الْحِجَّةِ وَالذَّلِيلِ، فَلَيْسَ لَهُ حِجَّةٌ أَصْلًا عَلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا نَهَايَةُ ذَلِكَ أَنْ يَقِيمَ لَهُمْ مِنَ الشَّبَهِ وَالتَّرْزِيئَاتِ، مَا بِهِ يَتَجَرَّأُونَ عَلَى الْمَعَاصِي.

وَأَمَّا السُّلْطَانُ الَّذِي أُثْبِتَهُ، فَهُوَ التَّسَلُّطُ بِالْإِعْرَاءِ عَلَى الْمَعَاصِي لِأَوْلِيَائِهِ يُؤَزِّدُهُمْ إِلَى الْمَعَاصِي أَرْأَا، وَهَمُّ الَّذِينَ سَلَطُوهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِمَوَالِيهِهِ وَالتَّحْقَاقِ بِحَزْبِهِ، وَلِهَذَا لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ.

وَلَمَّا ذَكَرَ عِقَابَ الظَّالِمِينَ، ذَكَرَ ثَوَابَ الطَّائِعِينَ فَقَالَ: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أَي: قَامُوا بِالذَّلِيلِ، قَوْلًا، وَعَمَلًا، وَاعْتِقَادًا ﴿جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فِيهَا مِنَ اللَّذَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أَذْنَ سَمِعَتْ،

(١) فِي ب: وَجَنْدَهُ.

اليقين، وعند عروض الشهوات بالإرادة الجازمة، على تقديم ما يحبه الله على هوى النفس ومراداتها.

وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي، والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت: (من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟) هداهم للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن: (الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبيي).

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ، في الفتنة وصفتها، ونيعم القبر وعذابه.

(٢٨-٣٠) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ جهنم يصلونها وبئس القرار ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار ﴿يَقُولُ تَعَالَى - مَبِينًا حَالِ الْمَكِيدِينَ لِرَسُولِهِ مِنْ كَفَارِ قَرِيشٍ، وَمَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا﴾ ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصد عنها بأنفسهم.

﴿و﴾ صلدهم غيرهم حتى ﴿أَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ وهي النار، حيث تسبوا لإضلالهم، فصاروا وبالأعلى قومهم، من حيث يظن نفعهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم «بدر» ليحاربوا الله ورسوله، فجرى عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الواقعة.

﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا﴾ أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: نظراء وشركاء ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله، بسبب ما جعلوا الله من الأنداد، ودعوهم إلى عبادتها، ﴿قُلْ﴾ لهم متوعداً: ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً، فليس ذلك بِنافعكم، ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ أي: مالكم ومقرمكم وما واكم فيها، وبئس المصير.

(٣١) ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِمَّا بَيْنَ يَدَيْ يَوْمٍ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَافٌ﴾ أي: قل لعبادي المؤمنين أمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم، أن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ظاهراً وباطناً ﴿وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم، قليلاً أو كثيراً ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وهذا يشمل النفقة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

٢٥٩

سُورَةُ الْاِبْرَاهِيمِ

تَوَقَّعْ أَكْلَهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣٢﴾ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴿يَثِبْتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كَفْرًا وَأَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِمَّا بَيْنَ يَدَيْ يَوْمٍ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَافٌ﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّرَابِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ﴿٣٩﴾

الواجبة، كالزكاة ونفقة من تجب [عليه] نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها.

﴿وَمَنْ قِيلَ أَنْ يَأْتِ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَافٌ﴾ أي: لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك ما فات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

(٣٢-٣٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّرَابِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرٍ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشَّرَابِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ ﴿٣٩﴾

الْبَحْرِ بِأَمْرٍ ۖ فَهُوَ الَّذِي يَسِّرْ لَكُمْ صَنْعَتَهَا، وَأَقْدِرْكُمْ عَلَيْهَا، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجارتكم وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه. **﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ﴾** لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ﴾ لا يفتران، ولا ينيان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزمجتكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم **﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ﴾** لتسكنوا فيه **﴿وَالنَّهَارَ﴾** مبصرًا، لتبتغوا من فضله.

﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كَيْلٍ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي: أعطاكم من كل ما تعلقت به أمانيتكم وحاجتكم، مما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك. **﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾** فضلًا عن قيامكم بشكرها **﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾** أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجرى على المعاصي، مقصر في حقوق ربه، كَفَّارٌ لنعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها، إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، مجمل ومفصل، يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه أثناء الليل والنهار، كما أن نعمته تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ أي: **﴿و﴾** اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة إذ قال: **﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾** أي: الحرم **﴿آمِنًا﴾** فاستجاب الله دعاءه شرعًا وقدرًا، فحرمه الله في الشرع، ويسر من أسباب حرمة قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب القيل وغيرهم.

ولما دعا له بالأمن، دعا له ولبنيه بالأمن فقال: **﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾** أي: اجعلني وإياهم، جانبًا بعيدًا عن عبادتها، والإلمام بها، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه، بكثرة من افتتن وابتلي بعبادتها، فقال:

﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ أي: ضلوا بسببها **﴿فَمَنْ يَتَّبِعْنِي﴾** على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين **﴿فَإِنَّهُ مَعِيَ﴾** لتمام الموافقة ومن أحب قومًا وتبعهم، التحق بهم.

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام حيث دعا للعاصين بالمغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كَيْلٍ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ **﴿٣٥﴾** وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ **﴿٣٦﴾** رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ يَتَّبِعْنِي فَإِنَّهُ مَعِيَ **﴿٣٧﴾** رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ **﴿٣٨﴾** الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ الدُّعَاءِ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي **﴿٣٩﴾** رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ **﴿٤٠﴾** وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ **﴿٤١﴾**

تمرد عليه.

﴿٣٧﴾ **﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾** وذلك أنه أتى به -هاجر- أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وهو في الرضاع، من الشام، حتى وضعهما في مكة، وهي - إذ ذاك - ليس فيها سكن، ولا داع ولا موجب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء، فقال متضرعًا متوكلاً على ربه: **﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾** أي: لا كل ذريتي، لأن إسحاق في الشام، وباقي بنيه كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته، وقوله: **﴿بُوَادٍ غَيْرَ ذِي زَرْعٍ﴾** أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة.

﴿رَبَّنَا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة، لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيمًا لدينه، **﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾** أي: تحبهم، وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه.

فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمدًا ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي، وإلى ملة أبيهم إبراهيم،

فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص، ولا ملجأ ﴿مُقْبِعِي رُؤُوسِهِمْ﴾ أي: رافعيها قد غلَّتْ أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: أفئدتهم فارغة من قلوبهم، قد صدعت إلى الحناجر، لكنها مملوءة من كل هم وغم، وحزن وقلق.

(٤٤-٤٦) ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَايَهُمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا

رَبَّنَا أَخْرَجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ مِّنْ دَعْوَتِكَ وَتَشِيعَ الرُّسُلُ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ۚ وَسَكَنتُمْ فِي مَسْكَانٍ

الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ۚ وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ﴾ يقول تعالى لنبية محمد

ﷺ: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَايَهُمُ الْعَذَابُ﴾ أي: صف لهم صفة تلك الحال، وحذّرهم من الأعمال الموجبة للعذاب، الذي حين يأتي في شدائده وقلاقله ﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر

والتكذيب، وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها: ﴿رَبَّنَا أَخْرَجْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: ردنا إلى الدنيا، فإننا قد أبصرنا، ﴿مِّنْ دَعْوَتِكَ﴾ والله يدعو إلى دار

السلام ﴿وَتَشِيعَ الرُّسُلُ﴾ وهذا كله لأجل التخلص من العذاب، وإلا فهم كذّبة في هذا الوعد ﴿رَبُّوْا رُدُّوْا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾.

ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ عن الدنيا، وانتقال إلى الآخرة، فهذا قد تبين جنتكم في إقسامكم وكذبكم فيما تدعون.

﴿و﴾ ليس عليكم قاصرٌ في الدنيا من أجل الآيات البينات، بل ﴿سَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ من أنواع العقوبات؟ وكيف أحلّ الله بهم العقوبات، حين كذبوا بالآيات البينات، وضربنا لكم

الأمثال الواضحة التي لا تدع أدنى شك في القلب إلا أزالته، فلم تنفع فيكم تلك الآيات، بل أعرضتم، ودمتم على باطلكم، حتى صار ما صار، ووصلتم إلى هذا اليوم الذي لا ينفع فيه اعتذار من اعتذر بباطل.

﴿وَقَدْ مَكْرُوا﴾ أي: المكذبون للرسول ﴿مَكْرَهُمْ﴾ الذي وصلت إراداتهم، وقدر لهم عليه، ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: هو محيط به علماً وقدره، فإنه عاد مكرهم عليهم ﴿وَلَا يَبْحِثُ الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلُوا مِنْهُ الْجِبَالَ﴾ أي: ولقد كان

وافترض الله حج هذا البيت، الذي أسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سرّاً عجيباً، جاذباً للقلوب، فهي تحجه، ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه، وعظم ولعه وتوقُّفه، وهذا سر إضافته تعالى إلى نفسه المقدسة.

﴿وَأَرْزُقَهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فأجاب الله دعاءه، فصار يجيئ إليه ثمرات كل شيء، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت، والثمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

(٣٨) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمْ مَا تُخْفِي وَمَا تُعْلِنُ﴾ أي: أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تديبرك وتريتبنا لنا، أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها، والتي لا نعلمها، ما هو مقتضى علمك ورحمتك ﴿وَمَا يُخْفِي عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير، وكثرة الشكر لله رب العالمين.

(٣٩) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ فهبتهم من أكبر النعم، وكونهم على الكبر، في حال الإياس من الأولاد، نعمة أخرى، وكونهم أنبياء صالحين

أجل وأفضل ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: لقريب الإجابة ممن دعاه، وقد دعوته فلم يخيب رجائي، ثم دعا لنفسه ولذريته.

(٤٠، ٤١) فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ۚ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ فاستجاب الله له في ذلك كله، إلا أن دعاءه لأبيه، إنما كان عن موعدة وعده إياه، فلما تبين له أنه عدو الله، تبرأ منه.

(٤٢، ٤٣) ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ۚ مَهْطِعِينَ مُقْبِعِي رُؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ هذا وعيد شديد للظالمين، وتسلية للمظلومين، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث أمهلهم وأدّر عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين، فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم، فإن الله يُملي للظالم

ويمهله، ليزداد إنثماً، حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَشَدُّ شِدْدًا﴾ والظلم -

هنا - يشمل الظلم فيما بين العبد وربّه، وظلمه لعباد الله ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: لا تطرف من شدة ما ترى من الأحوال، وما أزعجها من القلاقل.

الْبُرْجِ النَّارِ

٢٦١

سُورَةُ الْاِبْرٰهِيْمِ

مَهْطَعِينَ مُقْبِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدَاهُمْ
 هَوَاءٌ ﴿٤٧﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا لِيَجْزِيَ قَرِيبٍ مِمَّا نَحِبُّ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعُ
 الرُّسُلَ أُولَئِكَ تَكُونُوا آفَئِسْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ
 مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٨﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّا لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
 لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٩﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ
 مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ
 ﴿٥٠﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
 ذُو انْتِقَامٍ ﴿٥١﴾ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ
 وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٥٢﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
 مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٣﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغَشَّى
 وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٤﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ
 إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٥﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا
 بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدِ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٦﴾

مكر الكفار المكذبين للرسول بالحق، وبمن جاء به - من عظمة
 - لتزول الجبال الراسيات بسببه عن أماكنها، أي: ﴿مَكْرُوا
 مَكْرًا كَبْرًا﴾ لا يقادر قدره ولكن الله رد كيدهم في نحورهم.
 ويدخل في هذا كل من مكر من المخالفين للرسول، لينصر
 باطلاً، أو يبطل حقاً، والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئاً،
 ولم يضروا الله شيئاً، وإنما ضروا أنفسهم.

(٤٧-٥٢) ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
 ذُو انْتِقَامٍ﴾ يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَبَرَزُوا لِلَّهِ
 الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٥٢﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٥٣﴾
 سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغَشَّى وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٤﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ
 مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥٥﴾ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ
 وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدِ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٦﴾ يقول تعالى: ﴿فَلَا
 تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ بنجاتهم، ونجاة أتباعهم
 وسعادتهم، وإهلاك أعدائهم وخذلانهم في الدنيا، وعقابهم
 في الآخرة، فهذا لا بد من وقوعه، لأنه وعد به الصادق قولاً،
 على السنة أصدق خلقه، وهم الرسل، وهذا أعلى ما يكون
 من الأخبار، خصوصاً وهو مطابق للحكمة الإلهية، والسنن
 الربانية، وللعقول الصحيحة، والله تعالى لا يعجزه شيء، فإنه
 ﴿عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

أي: إذا أراد أن ينتقم من أحد، فإنه لا يفوته ولا يعجزه،
 وذلك في يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾
 تبدل غير السماوات، وهذا التبديل تبدل صفات، لا تبديل
 ذات، فإن الأرض يوم القيامة تسوى وتمد كمد الأديم، ويلقى
 ما على ظهرها من جبل ومعلم، فتصير قاعاً صافصفاً، لا ترى
 فيه عوجاً ولا أمناً، وتكون السماء كالمهل، من شدة أهوال
 ذلك اليوم، ثم يطويها الله تعالى يمينه.

﴿وَبَرَزُوا﴾ أي: الخلائق من قبورهم إلى يوم بعثهم،
 ونشورهم في محل لا يخفى منهم على الله شيء ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ
 الْقَهَّارِ﴾ أي: المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته، وأفعاله
 العظيمة، وقهره لكل العوالم فكلها تحت تصرفه وتدييره، فلا
 يتحرك منها متحرك، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم بالإجرام، وكثرة
 الذنوب، في ذلك اليوم ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي: يسلسل
 كل أهل عمل من المجرمين، بسلاسل من نار، فيقادون إلى
 العذاب، في أذل صورة وأشنعها، وأبشعها.

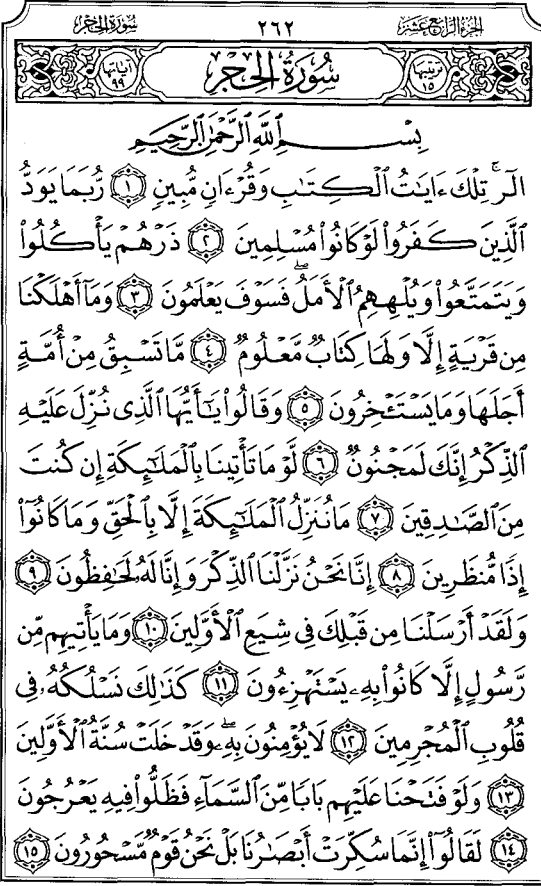
﴿سَرَابِلُهُمْ﴾ أي: ثيابهم ﴿مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ وذلك لشدة اشتعال
 النار فيهم وحرارتها، وتتن ريحها ﴿وَتَغَشَّى وُجُوهُهُمْ﴾ التي هي
 أشرف ما في أبدانهم ﴿النَّارُ﴾ أي: تحيط بها، وتصلها من

كل جانب، وغير الوجوه من باب أولى وأحرى، وليس هذا
 ظلماً من الله لهم، وإنما هو جزاء لما قدموا وكسبوا، ولهذا
 قال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ من خير وشر،
 بالعدل والقسط الذي لا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ كقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ
 حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ويحتمل أن معناه: سريع
 المحاسبة، فيحاسب الخلق في ساعة واحدة كما يرزقهم
 ويديرهم بأنواع التدابير في لحظة واحدة، لا يشغله شأن عن
 شأن، وليس ذلك بعسير عليه.

فلما بين البيان المبين في هذا القرآن، قال في مدحه:
 ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾ أي: يتبلغون به، ويتزودون إلى الوصول إلى
 أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من
 الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد.

﴿وَلِيُنذِرُوا بِهِ﴾ لما فيه من الترهيب من أعمال الشر، وما
 أعد الله لأهلها من العقاب ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهُ الْوَاحِدِ﴾ حيث
 صرف فيه من الأدلة والبراهين، على ألوهيته ووحدانيته، ما
 صار ذلك حق اليقين.



من وقوع أثرها وإن تأخر.

(٦-٩) ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ ○ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ○ مَا نُنزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنظَرِينَ ○ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ○ أي: وقال المكذوبون لمحمد ﷺ استهزاء وسخرية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ على زعمك ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ إذ تظن أنا ستبعلك، وترك ما وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك.

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ﴾ يشهدون لك بصحة ما جئت به ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فلما لم تأت بالملائكة فلست بصادق، وهذا من أعظم الظلم والجهل.

أما الظلم فظاهر، فإن هذا تجرؤ على الله وتعنّت بتعيين الآيات التي لم يخترها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة، الدالة على صحة ما جاء به، وأما الجهل، فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرته، فليس في إنزال الملائكة خير لهم، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إهمال على من لم يتبعه ويقبل له.

﴿وَمَا كَانُوا إِذَا﴾ أي: حين تنزل الملائكة، إن لم يؤمنوا،

﴿وَلَيَذَّكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: العقول الكاملة، ما ينفعهم فيفعلونه وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الأبواب والبصائر، إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم، لما أخذوه غصًا طريًا، فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها. وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي، لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة. والحمد لله رب العالمين.

تم تفسير سورة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام.

تفسير سورة الحجر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿الرَّتَّكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ ○ رَبَّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ○ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ ○ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ○ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾ يقول تعالى معظماً لكتابه، مادحاً له: ﴿تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ﴾ أي: الآيات الدالة على أحسن المعاني، وأفضل المطالب ﴿وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾ للحقائق، بأحسن لفظ وأوضحه، وأدله على المقصود، وهذا مما يوجب على الخلق الانقياد إليه، والتسليم لحكمه وتلقيه بالقبول، والفرح والسرور.

فأما من قابل هذه النعمة العظيمة بردها، والكفر بها، فإنه من المكذبين الضالين الذين سيأتي عليهم وقت يتمنون أنهم مسلمون، أي: متقادون لأحكامه، وذلك حين ينكشف الغطاء، وتظهر أوائل الآخرة، ومقدمات الموت، فإنهم في أحوال الآخرة كلها يتمنون أنهم مسلمون، وقد فات وقت الإمكان، ولكنهم في هذه الدنيا مغترون.

ف ﴿ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾ بلذاتهم ﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي: يؤملون البقاء في الدنيا، فيلهيهم عن الآخرة ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أن ما هم عليه باطل، وأن أعمالهم ذهبت خسراً عليهم، ولا يغتروا بإمهال الله تعالى، فإن هذه سنته في الأمم. ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ﴾ كانت مستحققة للعذاب ﴿إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ﴾ مقدر لإهلاكها.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾ وإلا فالذنوب لا بد

ملن يؤمنوا بـ ﴿مُنْظِرِينَ﴾ أي: بممهلين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلاً لأنفسهم بالهلاك والدمار، فإن الإيمان ليس في أيديهم، وإنما هو بيد الله ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَائِكَةَ وَكَمْهُمْ أَلْوَنٌ وَحَمْرُنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ويكفيهم من الآيات، إن كانوا صادقين، هذا القرآن العظيم ولهذا قال هنا:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء، من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من أراد التذكر ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي: في حال إنزاله، وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبِينَ لِلنَّظِيرِينَ﴾ ﴿وَحَافِظِينَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ ﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رُوسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشَ وَمَنْ أَسْتَمْتُمْ لَكُمْ بَرْزُقِينَ﴾.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى لبيته إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الظلم والبهت، عاقبتهم لما اشتبهت قلوبهم بالكفر والتكذيب، تشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسولهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: عادة الله فيهم، بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

يقول تعالى مبيناً كمال اقتداره ورحمته بخلقه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ أي: نجومًا كالأبراج، والأعلام العظام يهتدى بها في ظلمات البر والبحر ﴿وَرَازِبِينَ لِلنَّظِيرِينَ﴾، فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي، والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها، والاستدلال بها على باريها.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وفيه يتذكر من أراد التذكر ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ أي: في حال إنزاله، وبعد إنزاله، ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم. واستودعه فيها ثم في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها، والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يحرف محرف معنى من معانيه، إلا وقض الله له من يبين الحق المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين، ومن حفظه: أن الله يحفظ أهله من أعدائهم، ولا يسلب عليهم عدواً يحتاجهم.

﴿وَحَافِظِينَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ إذا استرق السمع، أتبعته الشهب الثواقب، فبقيت السماء، ظاهرها مجملًا بالنجوم النيرات، وباطنها محروسًا ممنوعًا من الآفات.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى لبيته إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: فرقهم وجماعتهم رسلاً.

﴿إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ أي: في بعض الأوقات، قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس، ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ أي: بين منير يقتله أو يخبله.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الذين وصفهم الظلم والبهت، عاقبتهم لما اشتبهت قلوبهم بالكفر والتكذيب، تشابهت معاملتهم لأنبيائهم ورسولهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: عادة الله فيهم، بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها، على الامتداد بأرجائها، والتناول من أرزاقها، والسكون في نواحيها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى لبيته إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: فرقهم وجماعتهم رسلاً.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها، على الامتداد بأرجائها، والتناول من أرزاقها، والسكون في نواحيها.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى لبيته إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: فرقهم وجماعتهم رسلاً.

﴿وَالْقِيَامَةَ فِيهَا رَبُّنَا﴾ أي: جبالاً عظيماً، تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد، وتثبتها أن تزول ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي: نافع متقوم، يضطر إليه العباد والبلاد، ما بين نخيل وأعناب، وأصناف الأشجار، وأنواع النبات.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى لبيته إذ كذبه المشركون: لم يزل هذا دأب الأمم الخالية والقرون الماضية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: فرقهم وجماعتهم رسلاً.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْيَشًا﴾ من الحرث، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب والحرف، ﴿وَمَنْ أَسْتَمْتُمْ لَكُمْ بَرْزُقِينَ﴾ أي: أنعمنا عليكم بعبود وإماء، وأنعام، لنفعكم، ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها، وتكفل بأرزاقها.

﴿وَرَانَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خِزْيُئُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار، لا يملكها أحد إلا الله، فخرائتها بيده، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته الواسعة ﴿وَمَا نُنزِّلُهُ﴾ أي: المقدر من كل شيء، من مطر وغيره ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ فلا يزيد على ما

قدره الله، ولا ينقص منه.

(٢٢) ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاذْرَانَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي: وسخرنا الرياح، رياح الرحمة، تلقح السحاب، كما يلقي الذكر الأنثى، فنبشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد، ومواسيهم، وأرضهم، ويبقى في الأرض مدخرًا لحاجاتهم وضروراتهم، ما هو مقتضى قدرته ورحمته ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي: لا قدرة لكم على خزنه وادخاره، ولكن الله يخزنه لكم، ويسلكه يبايع في الأرض، رحمة بكم، وإحسانًا إليكم.

(٢٣-٢٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ۝ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي: هو وحده لا شريك له، الذي يحيي الخلق من العدم، بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا ويميتهم لأجلهم، التي قدرها ﴿وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجَعُونَ﴾ وليس ذلك بعزيز، ولا ممتنع على الله، فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمستأخرين منهم، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، وما تفرق من أجزائهم، وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقًا جديدًا، ويحشرهم إليه.

﴿إِنَّهُمْ حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كل عامل بعمله، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

(٢٦-٤٤) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ ۝ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ۝ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ۝ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝ قَالَ رَبِّ يَا أَهْوَيْتَنِي لِأُرْسِنَهُ لِي فِي الْأَرْضِ وَأَلْعَنِي مِنْهُمْ أَلْمُخْلِصِينَ ۝ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ أَمَرَكَ مِنَ الْعَالَمِينَ ۝ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبنينا آدم عليه السلام، وما جرى من عدوه إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وقتته، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: آدم عليه السلام ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ أي: من طين قد يبس، بعدما خمر حتى صار له صلصلة

الجزء الرابع عشر

٢٦٣

سورة الحجر

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٦٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَفَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ﴿٦٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿٦٩﴾ وَجَعَلْنَا الْكُوفَ فِيهَا مَعَاشٍ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرِزْقَيْنَ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِلُ إِلَّا بِالْقَدَرِ مَعْلُومٍ ﴿٧١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاذْرَانَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٧٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَخْرِينَ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِحَشْرِهِمْ إِنَّهُمْ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٧٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُورِ ﴿٧٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٧٨﴾ فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٨٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٨١﴾

وصوت، كصوت الفخار، والحمأ المسنون: الطين المتغير لونه وريحه، من طول مكثه.

﴿وَالْجَانَّ﴾ وهو أبو الجن أي: إبليس ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ خلق آدم ﴿مِنْ نَارِ السَّمُورِ﴾ أي: من النار الشديدة الحرارة، فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة:

﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ۝ فإِذَا سَوَّيْتُهُ جسدًا تامًا ۝ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فامتثلوا أمر ربهم.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ تأكيد بعد تأكيد، ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيمًا لأمر الله، وإكرامًا لآدم، حيث علم ما لم يعلموا.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ ابْنُ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ وهذه أول عداوته لآدم وذريته، قال الله: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ۝ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ فاستكبر على أمر الله، وأبدى العداوة لآدم وذريته، وأعجب بعنصره وقال: أنا خير من آدم.

﴿قَالَ﴾ الله معاقبًا له على كفره واستكباره: ﴿فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ

رَجِيمٌ ﴿٤٥﴾ أَي: مطرود مبعد من كل خير ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾
 أَي: الذم، والعيب، والبعد عن رحمة الله ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾
 ففيها وما أشبهها، دليل على أنه سيستمر على كفره، وبعده من
 الخير.
 ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي﴾ أَي: أمهلي ﴿إِلَى يَوْمِ بَعثُونَ﴾ قَالَ
 ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿وَلَيْسَ إِجَابَةَ اللَّهِ
 لدعائه كرامة في حقه، وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له
 وللعباد، ليتبين الصادق الذي يطيع مولاة دون عدوه، ممن
 ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما
 يريدنا منا.
 ﴿قَالَ رَبِّ يَا أَعْيُنِي لِأُرَيْتَنَّهُ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: أزين لهم
 الدنيا، وأدعوهم إلى إيثارها على الأخرى، حتى يكونوا
 متفادين لكل معصية.
 ﴿وَلَأَعْيُنُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَي: أصددهم كلهم عن الصراط
 المستقيم ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَّحِلِينَ﴾ أَي: الذين أخلصتهم
 واجتبتهم، لإخلاصهم وإيمانهم، وتوكلهم.
 قال الله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أَي: معتدل
 موصل إلي، وإلى دار كرامتي.
 ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ تميلهم به إلى ما تشاء
 من أنواع الضلالات، بسبب عبوديتهم لربهم، وانقيادهم
 لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان.
 ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَكَ﴾ فرضي بولايتك وطاعتك، بدلاً من طاعة
 الرحمن، ﴿وَمِنَ الْغَاوِينَ﴾ والغاوي: ضد الراشد، فهو الذي
 عرف الحق وتركه، والضال الذي تركه من غير علم منه به.
 ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أَي: إبليس وجنوده ﴿لَهَا سَبْعَةُ
 أَبْوَابٍ﴾ كل باب أسفل من الآخر ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ أَي: من
 أتباع إبليس ﴿جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ بحسب أعمالهم، قال الله
 تعالى: ﴿فَكَبِّكُوا بِهَا هُمْ وَالْقَاوُونَ﴾ وَحُودٌ يُلَاسِ أَجْمَعُونَ .
 ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه، أتباع إبليس، من النكال
 والعذاب الشديد، ذكر ما أعد لأولياؤه من الفضل العظيم،
 والنعيم المقيم فقال:
 (٥٠-٤٥) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أَدْخَلُوها بِسَلْوَةٍ
 ءَامِينَ ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾
 لَا يَسْهَمُهُ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿وَمَا أَنَا
 الْعَاقِرُ الرَّحِيمُ﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ .
 يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين اتقوا طاعة الشيطان،
 وما يدعوهم إليه، من جميع الذنوب والعصيان ﴿فِي جَنَّاتٍ
 وَعُيُونٍ﴾ قد احتوت على جميع الأشجار، وأنبعت فيها جميع

الثمار اللذيذة، في جميع الأوقات.

ويقال لهم حال دخولها: ﴿أَدْخَلُوها بِسَلْوَةٍ ءَامِينَ﴾ من
 الموت، والنوم والنصب، واللغوب، وانقطاع شيء من
 النعيم، الذي هم فيه أو نقصانه، ومن المرض، والحزن،
 والهجم، وسائر المكدرات ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾ فبقى
 قلوبهم سالمة من كل دغل^(١) وحسد، متصافية متحاببة ﴿إِخْوَانًا
 عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾.

دل ذلك على تزاورهم، واجتماعهم، وحسن أدهبهم فيما
 بينهم، في كون كل منهم مقابلاً للآخر لا مستدبراً له، متكتين
 على تلك السرر المزينة، بالفرش واللؤلؤ، وأنواع الجواهر.

﴿لَا يَسْهَمُهُ فِيهَا نَصَبٌ﴾ لا ظاهر ولا باطن، وذلك لأن
 الله ينشئهم نشأةً وحياةً كاملة، لا تقبل شيئاً من الآفات ﴿وَمَا
 هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ على سائر الأوقات.

ولما ذكر ما يوجب الرغبة والرغبة، من مفعولات الله، من
 الجنة، والنار، ذكر ما يوجب ذلك من أوصافه تعالى فقال:

(١) في ب: غل.

﴿يَعْنِي عِبَادِي﴾ أي: أخبرهم خبرًا جازمًا، مؤيدًا بالأدلة ﴿أَنِّي أَنَا الْعَافِرُ الرَّحِيمُ﴾ فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته ومغفرتهم، سعوا في الأسباب^(١) الموصلة لهم إلى رحمته، وأقلعوا عن الذنوب، وتابوا منها، لينالوا مغفرتهم.

ومع هذا، فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فبينهم ﴿أَنْ عَدَايَ هُوَ الْعَذَابُ الْآلِيَمُ﴾ أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله، الذي لا يقادر قدره، ولا يبلغ كنهه، نعوذ به من عذابه، فإنهم إذا عرفوا أنه ﴿لَا يَدْرِي عَذَابُهُ أَحَدٌ﴾ وَلَا يُوقِنُ وَقَفَّهُ أَحَدٌ ﴿حذروا، وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب، فالعبد ينبغي أن يكون قلبه دائمًا بين الخوف والرجاء، والرغبة والرهبه، فإذا نظر إلى رحمة ربه ومغفرتهم، وجوده وإحسانه، أحدث له ذلك الرجاء والرغبة، وإذا نظر إلى ذنوبه وتقصيره في حقوق ربه، أحدث له الخوف والرهبه والإفلاق عنها.

(٥٦-٥٧) ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نَبِّشُرُكَ بِعَلْمٍ عَلِيمٍ﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ نَبِّشُرُونَ ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِينَ﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الصَّالِتُونَ ﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ﴾ ﴿وَنَبِّئُهُمْ عَنْ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: عن تلك القصة العجيبة، فإن في قصصك عليهم أنباء الرسل، وما جرى لهم، مما يوجب لهم العبرة، والاعتقاد بهم، خصوصًا إبراهيم الخليل الذي أمرنا الله أن نتبع ملته، وضيفه هم الملائكة الكرام، أكرمهم الله بأن جعلهم أضيافه.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا﴾ أي: سلموا عليه، فرد عليهم ﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون، لأنه لما دخلوا عليه، وحسبهم ضيوقًا، ذهب مسرعًا إلى بيته، فأحضر لهم ضيافتهم، عجلًا حينًا فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل إليه، خاف منهم أن يكونوا لصوصًا أو نحوهم.

ف ﴿قَالُوا﴾ له: ﴿لَا نَوْجَلُ إِنَّا نَبِّشُرُكَ بِعَلْمٍ عَلِيمٍ﴾ وهو: إسحاق عليه الصلاة والسلام، تضمنت هذه البشارة، بأنه ذكر لا أنثى، عليم، أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرى ﴿وَنَبِّئُونَهُ بِأَسْحَقٍ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فقال لهم متعجبًا من هذه البشارة: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي بِالْوَلَدِ عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ وصار نوع إياس منه ﴿فِيمَ نَبِّشُرُونَ﴾ أي: على أي وجه تبشرون وقد عدمت الأسباب؟.

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه، لأن الله على كل شيء قدير، وأنتم بالخصوص - يا أهل هذا البيت - رحمة الله

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ ﴿قَالُوا لَا نَوْجَلُ إِنَّا نَبِّشُرُكَ بِعَلْمٍ عَلِيمٍ﴾ ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ نَبِّشُرُونَ﴾ ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِينَ﴾ ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الصَّالِتُونَ﴾ ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿إِلَّا آءَالَ لُوطٍ﴾ ﴿إِنَّا الْمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لَوْنُ الْغَيْرِينَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾ ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَآتَيْنَهُمْ آدْبُرَهُمْ وَلَا يَلْتَمِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَانَ دَابِرَهُمْ وَأَنزَلْنَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّ هَذِهِ لَأَهْلِي ضَرِيحِي فَلَا تَفْضَحُونَّ وَانْقُؤُوا إِلَهُه وَلَا تُخْزَوْنَّ﴾ ﴿قَالُوا أَوْلَمْ نَسْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

وبركاته عليكم، فلا يستغرب فضل الله وإحسانه إليكم.

﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِينَ﴾ الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزل راجيًا لفضل الله وإحسانه، وبره وامتنانه، فأجابهم إبراهيم بقوله:

﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الصَّالِتُونَ﴾ الذين لا علم لهم بربهم، وكمال اقتداره، وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه، لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق، لرحمة الله، شيئًا كثيرًا، ثم لما بشروه بهذه البشارة، عرف أنهم مرسلون لأمرهم.

(٥٧-٧٧) ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿إِلَّا آءَالَ لُوطٍ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَ آءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنْكَرُونَ﴾ ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿فَأَسْرَبْنَا بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَآتَيْنَهُمْ آدْبُرَهُمْ وَلَا يَلْتَمِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾

أندر فقد أعذر، ف ﴿قَالَ﴾ لهم لوط من شدة الأمر الذي أصابه: ﴿هُؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ﴾، فلم يبالوا بقوله، ولهذا قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ وهذه السكره، هي سكرة محبة الفاحشة التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم.

فلما بينت له الرسل حالهم، زال عن لوط ما كان يجده من الضيق والكرب، فامتثل أمر ربه وسرى بأهله ليلاً، فنجوا، وأما أهل القرية ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُثْرِقِينَ﴾ أي: وقت شروق الشمس، حين كانت العقوبة عليهم أشد، ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا﴾ أي: قلنا عليهم مدينتهم ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾، تتبع فيها من شذ من البلد منهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَّوِّبِينَ﴾ أي: المتأملين المتفكرين الذين لهم فكر وروية وفراصة، يفهمون بها ما أريد بذلك، من أن من تجرأ على معاصي الله، خصوصاً هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرؤوا على أشنع السيئات.

﴿وَإِنَّا﴾ أي: مدينة قوم لوط ﴿لَنَسِيبِلِمْ مُقِيمٍ﴾ للسالكين، يعرفه كل من تردد في تلك الديار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي هذه القصة من العبر: عنايته تعالى بخليته إبراهيم، فإن لوطاً عليه السلام من أتباعه، وممن آمن به فكأنه تلميذ له، فحين أراد الله إهلاك قوم لوط، حين استحقوا ذلك، أمر رسله أن يمرؤا على إبراهيم عليه السلام، كي يبشروه بالولد، ويخبروه بما بعثوا له، حتى إنه جادلهم عليه السلام في إهلاكهم، حتى أقتعه، فطابت نفسه.

وكذلك لوط عليه السلام، لما كانوا أهل وطنه، فربما أخذته الرقة عليهم والرافة بهم، قدر الله من الأسباب، ما به يشتد غيظه وحقه عليهم، حتى استبطل إهلاكهم لما قيل له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أن يهلك قرية، [أزاد] شرهم وطغيانهم، فإذا انتهى، أوقع بهم من العقوبات ما يستحقونه.

(٧٩، ٧٨) ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَطَالِبِينَ﴾ ○ فَنَنْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَارٍ مُّبِينٍ ○ وهؤلاء هم قوم شعيب، نعمتهم الله وأضافهم إلى الأيكة، وهو البستان كثير الأشجار، ليذكر نعمته عليهم، وأنهم ما قاموا بها، بل جاءهم نبيهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد، وترك ظلم الناس في المكابيل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد المعالجة فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق، وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم ﴿فَنَنْقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ فأخذهم عذاب يوم الظلة، إنه كان

وَصَصَبْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحَبٍ ○ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ○ قَالَ إِنَّ هُوْلَاءِ صَبِيٌّ فَلَا تَفْضَحُونَ ○ وَأَقْرَأُوا أَنَّهُ وَلَا تَخْزُونَ ○ قَالُوا أَوْلَمْ تَسْهَلْ عَنِ الْعَالَمِينَ ○ قَالَ هُوْلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَعَلِينَ ○ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ○ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُثْرِقِينَ ○ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ○ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَّوِّبِينَ ○ وَإِنَّا لَنَسِيبِلِمْ مُقِيمٍ ○ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ○ أَي: ﴿قَالَ﴾ الخليل عليه السلام للملائكة: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾، أي: ما شأنكم، ولأي شيء أرسلتم؟

﴿قَالُوا إِنَّا آتِينَا إِيَّكَ قَوْمٍ كُفْرًا أَكْثَرًا مِنْهُمْ﴾، وعظم شرهم، لنعذبهم ونعاقبهم ﴿إِلَّا آءَال لُّوطٍ﴾ أي: إلا لوطاً، وأهله ﴿إِلَّا أَمْرًا تَدْرَأُونَ﴾ أي: الباقين بالعذاب، وأما لوط فسنخرجه وأهله، وننجيهم منها، فجعل إبراهيم يجادل الرسل في إهلاكهم، ويراجعهم، فقيل له: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ مَرْدُودٌ﴾ فذهبوا منه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آءَال لُّوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ ○ قَالَ ﴿لَهُمْ لُوطٌ﴾ ○ ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّشْكِرُونَ﴾ ○ أَي: لا أعرفكم ولا أدري من أنتم.

﴿قَالُوا بَلْ جَنَّاتِكُمْ بِنَا كَانُوا فِيهِ يَمْشُونَ﴾ ○ أَي: جناتك بعذابهم الذي كانوا يشكون فيه، ويكذبونك حين تعدهم به ﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ﴾ الذي ليس بالهزل ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما قلنا لك.

﴿فَأَثَرٌ بِأَحْثَرٍ﴾ ○ بَقِطْعٍ مِّنَ الْأَيْلِ ○ أَي: في أثنائه حين تنام العيون، ولا يدري أحد عن مسراك ﴿وَلَا يَلْفُتُ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ ○ أَي: بل بادروا وأسرعوا ﴿وَأَمْسُوا حَيْثُ تَوَمَّرُونَ﴾ ○ كان معهم دليلاً يدلهم إلى أين يتوجهون.

﴿وَصَصَبْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ﴾ ○ أَي: أخبرناه خبراً لا مثوية فيه ﴿أَنَّ دَابِرَ هُوْلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْحَبٍ﴾ ○ أَي: سيصبحهم العذاب الذي يجتاحهم ويستأصلهم ﴿وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾ ○ أَي: المدينة التي فيها لوط ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ○ أَي: يبشرون بعضهم بعضاً، بأضياف لوط، وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم، وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم، فجاؤوا حتى وصلوا إلى بيت لوط، فجعلوا يعالجون لوطاً على أضيافه، ولوط يستعيز منهم ويقول:

﴿إِنَّ هُوْلَاءِ صَبِيٌّ فَلَا تَفْضَحُونَ ○ وَأَقْرَأُوا أَنَّهُ وَلَا تَخْزُونَ﴾ ○ أَي: راقبوا الله أول ذلك، وإن كان ليس فيكم خوف من الله، فلا تفضحوا في أضيافي، وتستهكوا منهم الأمر الشنيع.

ف ﴿قَالُوا﴾ له جواباً عن قوله: ولا تخزون فقط: ﴿أَوْلَمْ تَسْهَلْ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ○ أن تضيفهم، فنحن قد أندرنك، ومن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٦٦

سُورَةُ الْحَجَرِ

قَالَ هَتُولَاءِ بَنَاتٍ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنهَا لَلسَّبِيلُ مَقِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَانقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ
الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَايَتْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُجَادِلُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا ءَامِينِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذْتَهُمُ
الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِرَادٍ
السَّاعَةِ لِأَنِيبَةٍ فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَنِيِّ وَالْقُرْآنَ
الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَآتَمَدَنَّ عَيْنُكَ إِلَىٰ مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ
وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي
أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾

وهو: أن المأمور به هو الصفح الجميل، أي: الحسن الذي قد سلم من الحقد، والأذية القولية والفعلية، دون الصفح الذي ليس بجميل، وهو الصفح في غير محله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ لكل مخلوق ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

(٨٧-٩٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَنِيِّ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ لا تَمَدَّنَّ عَيْنَكَ إِلَىٰ مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنَ عَلَيْهِمْ وَخَفَضْنَا جَنَاحَكَ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٨﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٨٩﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩٠﴾ فَوَرَبِّكَ لَسَخَّطْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩١﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٢﴾ يَقُولُ تَعَالَىٰ مُتَمَتِّتًا عَلَىٰ رَسُولِهِ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَنِيِّ﴾ وهن - على الصحيح - السور السبع الطوال: «البقرة» و «آل عمران» و «النساء» و «المائدة» و «الأنعام» و «الأعراف» و «الأنفال» مع «التوبة». أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات، فيكون عطف ﴿الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾

عذاب يوم عظيم ﴿وَإِنَّهَا﴾ أي: ديار قوم لوط، وأصحاب الأيكة ﴿لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لبطريق واضح، يمر بهم المسافرون كل وقت، فَيَبِينُ من آثارهم ما هو مشاهد بالأبصار، فيعتبر بذلك أولو الأبواب.

(٨٠-٨٤) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ وءَايَتْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨٠﴾ وَكَانُوا يُجَادِلُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا ءَامِينِينَ ﴿٨١﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ ﴿٨٢﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٣﴾ يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح الذين يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز، أنهم كذبوا المرسلين، أي: كذبوا صالحًا، ومن كذب رسولًا فقد كذب سائر الرسل، لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به ﴿وَأَيَّتْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق، التي من جملتها تلك الناقاة، التي هي من آيات الله العظيمة.

﴿فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كبرًا وتجبُّرًا على الله ﴿وَكَانُوا﴾ - من كثرة إنعام الله عليهم - ﴿يُجَادِلُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَبُوتًا ءَامِينِينَ﴾ من المخاوف مطمئنين في ديارهم، فلو شكروا النعمة، وصدقوا نبيهم صالحًا عليه السلام، لأدَّرَ اللهُ عليهم الأرزاق، ولأكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم - لما كذبوا، وعقروا الناقاة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا: ﴿يَنْصَلِحُ آتَيْنَا يَمَا تَوَدَّعْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ مُصْبِحِينَ﴾ فتفتحت قلوبهم في أجوافهم، وأصبحوا في دارهم جاثمين هلكى، مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعة المستمرة ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لأن أمر الله إذا جاء، لا يرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار، ولا غزارة أموال.

(٨٥، ٨٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِرَادٍ السَّاعَةِ لِأَنِيبَةٍ فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ أي: ما خلقناهما عبثًا وباطلاً، كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناهما ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي منه، أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته وحكمته، وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، ﴿وَإِرَادٍ السَّاعَةِ لِأَنِيبَةٍ﴾ لا ريب فيها ﴿لِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ ﴿فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ وهو الصفح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران، لتنال من ربك جزيل الأجر والثواب، فإن كل ما هو آت فهو قريب، وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا.

على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، لكثرة ما في المثاني من التوحيد، وعلوم الغيب، والأحكام الجليلة، وتثنيها فيها.

وعلى القول بأن «الفاتحة» هي السبع المثاني، معناها: أنها سبع آيات، تنى في كل ركعة، وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع المثاني، كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما فرح به المؤمنون ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ ولذلك قال بعده:

﴿لَا تَمَدَّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أي: لا تعجب إعجابًا يحملك على إشغال فكري، بشهوات الدنيا التي تتمتع بها المترفون، واغتر بها الجاهلون، واشتغلن بما آتاك الله، من المثاني والقرآن العظيم ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ فإنهم لا خير فيهم يُرجى، ولا نفع يُرتقب.

فلك في المؤمنين عنهم أحسن البدل، وأفضل العوض ﴿وَأَخْفِضْ جَانِحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أرن لهم جانبك، وحسن لهم خلقك، محبة وإكرامًا وتوددًا.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْبَيِّنُ﴾ أي: قم بما عليك من النذارة، وأداء الرسالة، والتبليغ للقریب والبعيد، والعدو والصدیق، فإنك إذا فعلت ذلك فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء.

وقوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُتَسِمِينَ﴾ أي: كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئت به، الساعين لصد الناس عن سبيل الله.

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي: أصنافًا وأعضاء وأجزاء، يصرفونه بحسب ما يهونونه، فمنهم من يقول: سحر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مُفْتَرَى إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ من أقوال الكفرة المكذبين به الذين جعلوا قدهم فيه، ليصدوا الناس عن الهدى.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: جميع من قدح فيه وعابه، وحرفه وبدله ﴿عَمَّا كَانُوا يَمَلُونُ﴾ وفي هذا أعظم ترهيب، وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا عليه^(١).

(٩٤، ٩٥) ثم أمر الله رسوله أن لا يبالي بهم، ولا بغيرهم، وأن يصدع بما أمر الله، ويعلن بذلك لكل أحد ولا يُعَوِّقَهُ عن أمره عائق ولا تُصَدِّهُ أقوال المتهاوكين ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي لا تبالي بهم، وارك مشاقتهم ومسابتهم، مقبلًا على شأنك ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِبِينَ﴾ بك وبما جئت به، وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة.

سُورَةُ الْحَجَرِ

٢٦٧

سُورَةُ الْحَجَرِ

الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩٤﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٥﴾ عَمَّا كَانُوا يَمَلُونُ ﴿٩٦﴾ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِبِينَ ﴿٩٨﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٩﴾ وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٠٠﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٠١﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٠٢﴾

سُورَةُ الْحَجَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنزَلَ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ نَزَلَ الْمَلَكُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونَ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنفُسَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفْعٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾

(٩٦) وقد فعل تعالى، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به، إلا أهلكه الله، وقتله شر قتلة.

ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله، فإنهم أيضًا يؤذون الله ويجعلون معه ﴿إِلَهًا آخَرَ﴾ وهو ربهم وخالقهم، ومدبرهم ﴿سَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ غيب أفعالهم إذا وردوا القيامة.

(٩٧) ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ يَمَا يَقُولُونَ﴾ لك من التكذيب والاستهزاء. فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب، والتعجيل لهم بما يستحقون، ولكن الله يمهلهم ولا يمهلهم.

(٩٨) فأنت يا محمد ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: أكثر من ذكر الله، وتسيبحة، وتحميده، والصلاة، فإن ذلك يوسع الصدر، ويشرحه، ويعينك على أمورك.

(٩٩) ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: الموت، أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع

(١) في ب: يعملون.

العبادات، فامتثل ﷺ أمر ربه، فلم يزل دائبًا في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه ﷻ، تسليمًا كثيرًا.

تم تفسير سورة الحجر .

تفسير سورة النحل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢، ١) ﴿أَنزَلَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٥ ﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ يقول تعالى - مقربًا لما وعد به محققًا لوقوعه -: ﴿أَنزَلَ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فإنه أت، وما هو أت فإنه قريب ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ من نسبة الشريك، والولد والصاحبة والكفاء، وغير ذلك مما نسبه إليه المشركون، مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله، ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه، ذكر الوحي الذي ينزله على أنبيائه، مما يجب اتباعه في ذكر ما ينسب لله، من صفات الكمال فقال:

﴿يُنزِلُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ممن يعلمه صالحًا، لتحمل رسالته.

وزيادة دعوة المرسلين كلهم ومدارها، على قوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي: على معرفة الله تعالى وتوحيده في صفات العظمة التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل الله بها كتبه، وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحت وتجاهد من حاربها، وقام بضدها، ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك، فقال:

(٩-٣) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ٥ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ ٥ ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ٥ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ ٥ ﴿وَتَحْمِلُ أُنْفُسَكُمْ إِلَىٰ يَدِئِكُمْ﴾ ٥ ﴿وَتَكُونُوا بِلَبَيْبِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأُنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ٥ ﴿وَالنَّجِيلَ وَالْبَعَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ٥ ﴿وَعَلَىٰ اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَاءَ الَّذِي لَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ الْجَمْعِينَ﴾ هذه السورة تسمى سورة النعم، فإن الله ذكر في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه خلق

وبدأ بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ لم يزل يدبرها، ويريقها، وينميتها، حتى صارت بشرًا تامًا، كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم، فخر بنفسه وأعجب بها ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ يحتمل أن المراد: فإذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته ونسي خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به من النعم، فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ الآدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور، حتى صار عاقلاً متكلمًا، ذا ذهن ورأي، يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال، التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ أي: لأجلكم، ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة أن لكم ﴿فِيهَا دِفْءٌ﴾ مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الثياب، والفرش، والبيوت.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: في وقت راحتها وسكونها، ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء، فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بثيابكم، وأولادكم، وأموالكم، وتعجبون بذلك ﴿وَتَحْمِلُ أُنْفُسَكُمْ﴾ من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم ﴿إِلَىٰ يَدِئِكُمْ تَكُونُوا بِلَبَيْبِهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأُنْفُسِ﴾ ولكن الله ذلها لكم.

فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاؤون من الأثقال إلى البلدان البعيدة، والأقطار الشاسعة ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه، فله الحمد، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وسعة جوده وبره.

﴿وَالنَّجِيلَ وَالْبَعَالَ وَالْحَمِيرَ﴾ سخرناها لكم ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾

الْحَمِيرُ

٢٦٨

سُورَةُ النَّحْلِ

وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِلَيْغِهِ إِلَّا بِشِقِّ
 الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلُ وَالْإِغَالُ
 وَالْحَمِيرُ لِرَكْبِهَا وَزِينَةٍ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾
 وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
 أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ
 شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ
 بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ
 الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾
 وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ
 مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
 ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانَهُ إِنَّ
 فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي
 سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا
 مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازٍ فِيهِ
 وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

وبالنهار تنتشرون في معاشكم ومنافع دينكم ودنياكم،
 وبالشمس والقمر، من الضياء، والنور، والإشراق، وإصلاح
 الأشجار والثمار، والنبات، وتجفيف الرطوبات، وإزالة
 البرودة الضارة للأرض وللأبدان، وغير ذلك من الضروريات
 والحاجيات، التابعة لوجود الشمس والقمر.

وفيها وفي النجوم من الزينة للسماء، والهداية في ظلمات
 البر والبحر، ومعرفة الأوقات، وحساب الأزمنة، ما تتنوع
 دلالاتها، وتتصرف آياتها، ولهذا جمعها في قوله: ﴿إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لمن لهم عقول يستعملونها
 في التدبر والتفكر، فيما هي مهياة له مستعدة، تعقل ما تراه،
 وتسمعه، لا كنظر الغافلين الذين حظهم من النظر حظ البهائم
 التي لا عقل لها.

﴿١٣﴾ ﴿وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانَهُ إِنَّ فِي
 ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: فيما ذرأ الله ونشر للعباد،
 من كل ما على وجه الأرض، من حيوان، وأشجار، ونبات،
 وغير ذلك، مما تختلف ألوانه، وتختلف منافعه آية على كمال
 قدرة الله، وعميم إحسانه، وسعة بره، وأنه الذي لا تنبغي

أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل
 الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل، لأن البغال والحمير محرمة
 أكلها، والخيل لا تستعمل - في الغالب - للأكل، بل ينهى
 عن ذبحها لأجل الأكل خوفاً من انقطاعها، وإلا فقد ثبت في
 الصحيحين أن النبي ﷺ، أذن في لحوم الخيل.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من
 الأشياء التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو،
 ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها
 بأعيانها، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد،
 أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير فإنه لو ذكر لم يعرفوه،
 ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما
 يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة، وسمى منه ما
 نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجمل ما
 لا نعرف له نظيراً في قوله: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ ذَيَّابٍ﴾.

فكذلك هنا، ذكر ما نعرفه من المراكب، كالخيل،
 والبغال، والحمير، والإبل، والسفن، وأجمل الباقي في
 قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ولما ذكر تعالى الطريق الحسي،
 وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها، ذكر
 الطريق المعنوي الموصل إليه فقال:

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم الذي هو
 أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله.

وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله، وهو كل ما خالف
 الصراط المستقيم، فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار
 الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل
 الغاؤون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
 أَجْمَعِينَ﴾ ولكنه هدى بعضاً كرمًا وفضلاً، ولم يهد آخرين
 حكمة منه وعدلاً.

﴿١٠، ١١﴾ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ
 وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ
 وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾
 بذلك على كمال قدرة الله الذي أنزل هذا الماء من السحاب
 الرقيق اللطيف، ورحمته، حيث جعل فيه ماء غزيراً منه
 يشربون، وتشرب مواشيهم، ويسقون منه حروثهم، فتخرج
 لهم الثمرات الكثيرة، والنعيم الغزيرة.

﴿١٢﴾ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ
 مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: سخر
 لكم هذه الأشياء لمنافعكم، وأنواع مصالحكم، بحيث لا
 تستغنون عنها أبداً، فبالليل تسكنون وتنامون، وتستريحون،

العبادة إلا له وحده لا شريك له ﴿لَقَوْمٍ يَدْعُونَ﴾ أي: يستحضرون في ذاكرتهم، ما ينفعهم من العلم النافع، ويتأملون ما دعاهم الله إلى التأمل فيه، حتى يتذكروا بذلك ما هو دليل عليه.

﴿مُسْتَكْبِرُونَ﴾ لا حَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُوتَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿لما ذكر تعالى ما خلقه من المخلوقات العظيمة، وما أنعم به من النعم العظيمة، ذكر أنه لا يشبهه أحد ولا كفاء له ولا ند له، فقال: ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ﴾ جميع المخلوقات، وهو الفعال لما يريد ﴿كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ شيئاً، لا قليلاً، ولا كثيراً ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فتعرفون أن المنفرد بالخلق، أحق بالعبادة كلها، فكما أنه واحد في خلقه وتدبيره، فإنه واحد في إلهيته وتوحيده وعبادته.

وكما أنه ليس له مشارك إذ أنشأكم وأنشأ غيركم، فلا تجعلوا له أنداداً في عبادته، بل أخلصوا له الدين ﴿وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ عدداً مجرداً عن الشكر ﴿لَا تُحْصَوْهَا﴾ فضلاً عن كونكم تشكرونها، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد، بعدد الأنفاس واللحظات، من جميع أصناف النعم، مما يعرف العباد، ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم فأكثر من أن تحصى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يرضى منكم باليسير من الشكر، مع إنعامه الكثير.

وكما أن رحمته واسعة، وجوده عميم، ومغفرته شاملة للعباد، فعلمه محيط بهم ﴿يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بخلاف من عبد من دونه، فإنهم ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾ قليلاً ولا كثيراً ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ فكيف يخلقون شيئاً مع افتقارهم في إيجادهم إلى الله تعالى!!

ومع هذا، ليس فيهم من أوصاف الكمال شيء، لا علم، ولا غيره ﴿أَمْزُتَ غَيْرَ أَحْيَاءٍ﴾ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئاً، أفتتخذ هذه آلهة من دون رب العالمين، فنبأ لعقول المشركين، ما أضلها، وأفسدها! حيث ضلت في أظهر الأشياء فساداً، وسورا بين الناقص من جميع الوجوه، فلا أوصاف كمال، ولا شيء من الأفعال، وبين الكمال من جميع الوجوه الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أكملها وأعظمها، فله العلم المحيط بكل الأشياء، والقدرة العامة، والرحمة الواسعة التي ملأت جميع العوالم، والحمد والمجد والكبرياء والعظمة، التي لا يقدر أحد من الخلق أن يحيط ببعض أوصافه، ولهذا قال:

﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وهو الله الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فأهل الإيمان والعقول، أجلته قلوبهم وعظمتهم، وأحبه حباً عظيماً، وصرخوا له كل ما استطاعوا من القربات البدنية والمالية، وأعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأثنوا عليه بأسمائه الحسنى، وصفاته، وأفعاله المقدسة ﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ لهذا

(١٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَسْتَوُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ولعلكم تشكروا ﴿أي: هو وحده لا شريك له ﴿الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ وهياً لمنافعكم المتنوعة، ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك، والحوث الذي يصطادونه منه ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلْبَسُونَهَا﴾ فتزيدكم جمالاً وحسناً إلى حسنكم ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿مَوَاجِرَ فِيهِ﴾ أي: تمخر البحر العجاج الهائل، بمقدمها، حتى تسلك فيه من قطر إلى آخر، تحمل المسافرين وأرزاقهم، وأمتعتهم، وتجاراتهم التي يطلبون بها الأرزاق وفضل الله عليهم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الذي يسر لكم هذه الأشياء وهياًها، وتثنون على الله الذي من بها، فله تعالى الحمد والشكر والثناء، حيث أعطى العباد من مصالحهم ومنافعهم فوق ما يطلبون، وأعلى مما يتمنون، وآتاهم من كل ما سألوه، لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه.

(١٥، ١٦) ﴿وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ رَوًى أَنْ يَبْعِدَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وَعَلَمَتِكُمْ وَيَالْتَجِمُ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿أي: ﴿وَالَّذِينَ﴾ الله تعالى لأجل عباده ﴿فِي الْأَرْضِ رَوًى﴾ وهي الجبال العظام؛ لئلا تميد بهم وتضطرب بالخلق، فيتمكنون من حرث الأرض والبناء، والسير عليها، ومن رحمته تعالى أن جعل فيها أنهاراً، يسوقها من أرض بعيدة إلى أرض مضطرة إليها لسقيهم وسقي مواشهم وحرثهم، أنهاراً على وجه الأرض، وأنهاراً في بطنها يستخرجونها بحفرها، حتى يصلوا إليها فيستخرجونها بما سخر الله لهم من الدوالي والآلات ونحوها، ومن رحمته أن جعل في الأرض سبلاً أي: طرقاً توصل إلى الديار المتناحية، ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ السبيل إليها، حتى إنك تجد أرضاً مشتبكة بالجبال، مسلسلة فيها، وقد جعل الله فيما بينها منافذ ومسالك للسالكين.

(١٧-٢٣) ﴿أَمَّنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وإن تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿أَمْزُتَ غَيْرَ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ

الأمر العظيم الذي لا ينكره إلا أعظم الخلق جهلاً وعناداً، وهو توحيد الله ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن عبادته.

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً لا بد ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُرْسُونَ وَمَا يُمْلُونَ﴾ من الأعمال القبيحة ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ بل يبغضهم أشد البغض، وسيجازيهم من جنس عملهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَدِّخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

(٢٤-٢٩) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رِجَالُهُمْ قَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ **○** لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ **○** قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ **○** ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَائِكِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ **○** الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمْ الْمَلَأَتْكُمْ طَالِبِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَوْلَا السَّلَامَةُ كُنَّا نَمْعَلُ مِنْ سُوءِ بَلِّهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ **○** فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فليس مَتَوَى الْمُسْتَكْبِرِينَ يقول تعالى مخبراً عن شدة تكذيب المشركين بآيات الله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رِجَالُهُمْ﴾ أي: إذا سئلوا عن القرآن والوحي الذي هو أكبر نعمة أنعم الله بها على العباد، فماذا قولكم به؟ وهل تشكرون هذه النعمة وتعترفون بها، أم تكفرون وتعاندون؟.

فيكون جوابهم أقيح جواب وأسعجه، فيقولون عنه: إنه ﴿أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: كذب اختلقه محمد على الله، وما هو إلا قصص الأولين التي يتناقلها الناس جيلاً بعد جيل، منها الصدق ومنها الكذب، فقالوا هذه المقالة، ودعوا أتباعهم إليها، وحملوا وزرهم، ووزر من انقاد لهم إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: من أوزار المقلدين الذين لا علم عندهم إلا ما دعوهم إليه، فيحملون إثم ما دعوهم إليه، وأما الذين يعلمون، فكلُّ مستقلٍّ بجرمه، لأنه عرف ما عرفوا ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾ أي: بس ما حملوا من الوزر المثقل لظهورهم، من وزرهم، ووزر من أضلوه.

﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ برسلمهم، واحتالوا بأنواع الحيل على رد ما جاؤوهم به، وبنوا من مكروهم قصوراً هائلة ﴿فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ أي: جاءها الأمر من أساسها وقاعدتها ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ فصار ما بنوه عذاباً، عذبوا به ﴿وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وذلك أنهم ظنوا أن هذا البنيان سيفنفعهم، ويقيهم العذاب، فصار عذابهم فيما بنوه وأصلوه.

سورة النحل

٢٦٩

سورة النحل

وَالَّذِينَ فِي الْأَرْضِ رَوَّسُوا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢٤﴾ وَعَلَّمْتُمْ نَبَأَهُمْ بِمَنْ يَسْتَدُونَ ﴿٢٥﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٩﴾ أَمْ مَوْتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٣٠﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِلهًا وَاحِدًا فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٣١﴾ لَأَجْرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رِجَالُهُمْ قَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٣﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ ﴿٣٤﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٣٥﴾

وهذا من أحسن الأمثال في إبطال الله مكر أعدائه فإنه فكروا وقدروا فيما جاءت به الرسل لما كذبوهم، وجعلوا لهم أصولاً وقواعد من الباطل، يرجعون إليها، ويردون بها ما جاءت [به] الرسل، واحتالوا أيضاً على إيقاع المكروه والضرر بالرسل ومن تبعهم، فصار مكروهم وبألا عليهم، فصار تديبرهم فيه تدميرهم، وذلك لأن مكروهم سيء ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ هذا في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ﴾ أي: يفضحهم على رؤوس الخلائق، ويبين لهم كذبهم، وافتراءهم على الله. ﴿وَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَائِكِ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾ أي: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم، وتزعمون أنهم شركاء لله، فإذا سألهم هذا السؤال، لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون: ﴿ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنَّهُمْ أَنْتُمْ كَانُوا كُفْرِينَ﴾، ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: العلماء الربانيون ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَالسُّوءَ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾.

وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه

الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتبارًا عند الله وعند خلقه.

ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة، وفي القيامة فقال: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَالِيَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: توفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم، وقد علم ما يلقي الظلمة في ذلك المقام، من أنواع العذاب والخزي والإهانة.

﴿فَأَلْفَوْا السَّعَةَ﴾ أي: استسلموا، وأنكروا ما كانوا يعبدونها من دون الله وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ فيقال لهم: ﴿بَلْ كُنتُمْ تَعْمَلُونَ السُّوءَ﴾، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئًا، وهذا في بعض مواقف القيامة، ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظنًا أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم، وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار، حتى يعترفوا بذنوبهم.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كلُّ أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم ﴿فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ نار جهنم، فإنها مَثْوَى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يُعْتَرَّ عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يومًا من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

(٣٠-٣٢) ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾
جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ○ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَالِيًا يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا أَدْخَلْنَا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعملوا لها ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله، فلهم ﴿فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ رزق واسع، وعيشة هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من هذه الدار، وما فيها من أنواع اللذات والمشتهيات، فإن هذه نعيمها قليل، محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَلَنِعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي: مهما تمتته أنفسهم، وتعلقت به إرادتهم، حصل لهم على أكمل الوجوه وأنمها، فلا يمكن أن يطلبوا

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِ الَّذِينَ كُنتُمْ تَشْفِقُونَ﴾ فِيهِمْ قَالِ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْآخِرَى لَيْسَ كَالْأُولَى سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَالِيًا أَنفُسِهِمْ قَالُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ طَالِيًا يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا أَدْخَلْنَا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

نوعًا من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب، وسرور الأرواح، إلا وهو حاضر لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه حتى إنه يُدْكَرُهُمْ أشياء من النعيم، لم تخطر على قلوبهم. فتبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده، الذي ليس كمثل شيء في صفات ذاته، وصفات أفعاله، وآثار تلك النعوت، وعظمة الملك والملكوت، ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ لسخط الله وعذابه، بأداء ما أوجبه عليهم، من الفروض، والواجبات المتعلقة بالقلب، والبدن، واللسان، من حقه، وحق عباده، وترك ما نهاهم الله عنه.

﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ مستمرين على تقواهم ﴿طَالِيًا﴾ أي: طاهرين مطهرين من كل نقص وندس يتطرق إليهم، ويخل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته، وألستهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه.

﴿يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا﴾ أي: التحية الكاملة، حاصلة لكم، والسلامة من كل آفة. وقد سلمتم من كل ما تكرهون ﴿أَدْخَلْنَا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله، والانقياد

سُورَةُ النَّحْلِ

٢٧١

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الظُّلُمَاتِ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ تَحْرِيصَ عَلَيَّ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيْسَ لَهُمْ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَا جَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَنَّمُوا لَنُؤْتِيَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

عليهم بالقدر، فليس للرسول من الأمر شيء، وإنما حسابهم على الله عز وجل.

(٣٧، ٣٦) ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الظُّلُمَاتِ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾
 إن تحريص علي هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا، وكلهم متفقون على دعوة واحدة، ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ﴿أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَجْتَنِبُوا الظُّلُمَاتِ﴾ فانقسمت الأمم بحسب استجابتها لدعوة الرسل وعدمها قسمين ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فاتبعا المرسلين علما وعملا، ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ فاتبع سبيل العي.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ فإنكم سترون من ذلك العجائب، فلا تجدون

(١) كذا في ب: وفي أ: على.

لأمره، فإن العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنتهم عليهم، لا يحولهم وقوتهم.

(٣٣، ٣٤) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فأصابهم سيات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستزيون يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا، وذكروا فلم يتذكروا ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ لقبض أرواحهم ﴿أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ بالعذاب الذي سيحل بهم، فإنهم قد استحقوا لوقوعه فيهم ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا، حتى نزل بهم العذاب.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ﴾ إذ عذبهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فإنها مخلوقة لعبادة الله، ليكون مالها إلى كرامة الله، فظلموها، وتركوا ما خلقت له، وعرضوها للإهانة الدائمة، والشقاء الملازم.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا﴾ أي: عقوبات أعمالهم وأثارها ﴿وَمَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ فإنهم كانوا إذا أخبرتهم رسلهم بالعذاب، استهزؤوا به، وسخروا ممن أخبر به فحل بهم ذلك الأمر الذي سخروا منه.

(٣٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي: احتج المشركون على شركهم بمشيئة الله، وأن الله لو شاء ما أشركوا، ولا حرموا شيئا من [الأنعام] التي أحلها كالبحيرة، والوصيلة والحام، ونحوها، من دونه، وهذه حجة باطلة، فإنها لو كانت حقا ما عاقب الله الذين من قبلهم، حيث أشركوا به، فعاقبهم أشد العقاب، فلو كان يجب ذلك منهم لما عذبهم، وليس قصدهم بذلك إلا رد الحق الذي جاءت به الرسل، وإلا فعندهم علم أنه لا حجة لهم على الله.

فإن الله أمرهم ونهاهم، ومكنهم من (١) القيام بما كلفهم، وجعل لهم قوة ومشية تصدر عنها أفعالهم، فاحتجاجهم بالقضاء والقدر من أبطل الباطل، هذا، وكل أحد يعلم بالحس قدرة الإنسان على كل فعل يريد، من غير أن ينازعه منازع، فجمعوا بين تكذيب الله وتكذيب رسله، وتكذيب الأمور العقلية، والحسية ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي: البين الظاهر الذي يصل إلى القلوب، ولا يبقى لأحد على الله حجة، فإذا بلغت الرسل أمر ربهم ونهيه، واحتجوا

مكذبًا إلا كان عاقبته الهلاك .

﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ﴾ وتبذل جهدك في ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ﴾ ولو فعل كل سبب لم يهده إلا الله، ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ تَصْوِيرٍ﴾ ينصرونهم من عذاب الله ويقونهم بأسه .

﴿أَكْبُرُ﴾ من أجر الدنيا كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَلَجُوا وَجَدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَأْمُرُونَ وَأَنْفُسُهُمْ أَغْلَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَيْمٌ مُقِيمٌ ○ خَلِيلِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ، وقوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان لهم علم ويقين بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد .

ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على أوامر الله وعن نواهيهِ، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذى فيه، والمحن ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابته، لا على أنفسهم . وبذلك تنجح أمورهم، وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحدًا شيء من الخير إلا لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله .

(٤٣، ٤٤) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ○ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفْكَرُونَ﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ أي: لست ببعث من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة، بل رجالًا كاملين لا نساء ﴿نُوحِيَ إِلَيْهِمْ﴾ من الشرائع والأحكام، ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم ﴿فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ نأ الأولين، وشككتم: هل بعث الله رجالًا؟ .

فاسألوا أهل العلم بذلك الذين نزلت عليهم الزبر والبيانات، فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرر عندهم أن الله ما بعث إلا رجالًا يوحي إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل .

فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم، وتركية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأنه بذلك يخرج الجاهل من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال .

وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد، من أمور دينهم ودنياهم، الظاهرة والباطنة ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين

(٣٨-٤٠) ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلْ وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ○ إِيَّانَ لَهُمْ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِعَلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ○ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يخبر تعالى عن المشركين المكذبين لرسوله، أنهم ﴿أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: حلفوا أيمانًا مؤكدة مغلظة على تكذيب الله، وأن الله لا يبعث الأموات، ولا يقدر على إحيائهم بعد أن كانوا ترابًا، قال تعالى مكذبًا لهم: ﴿بَلَىٰ﴾ سبعتهم، وجمعهم ليوم لا ريب فيه ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ لا يخلفه ولا يغيره ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ومن جهلهم العظيم إنكارهم للبعث والجزاء .

ثم ذكر الحكمة في الجزاء والبعث فقال: ﴿إِيَّانَ لَهُمْ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ﴾ من المسائل الكبار والصغار، يبين حقائقها ويوضحها .

﴿وَلِعَلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ حين يرون أعمالهم حسرات عليهم، وما نفعتهم آلهتهم التي يدعون مع الله من شيء، لما جاء أمر ربك، وحين يرون ما يعبدون حطبا لجحهم، وتكور الشمس والقمر، وتتناثر النجوم، ويتضح لمن يعبدها أنها عبيد مسخرات، وأنهن مفتقرات إلى الله في جميع الحالات، وليس ذلك على الله بصعب ولا شديد، فإنه إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون، من غير منازعة ولا امتناع، بل يكون على طبق ما أراه وشاءه .

(٤١، ٤٢) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ○ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ يخبر تعالى بفضل المؤمنين الممتحنين ﴿الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ﴾ أي: في سبيله، وابتغاء مرضاته ﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا﴾ بالأذية والمحنة من قومهم، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين، ثوابًا عاجلًا في الدنيا من الرزق الواسع، والعيش الهنيء الذي راوه عيانًا، بعدما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان، وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتملوا، وآتاهم الله في الدنيا حسنة .

﴿وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله

معانيه ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلومه، بحسب استعدادهم، وإقبالهم عليه.

(٤٧-٤٥) ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ○ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٥﴾ هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب، وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غرة، وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال تَقْلِبِهِمْ وشغلهم، وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تَخَوُّفِهِمْ من العذاب، فليسوا بمعجزين لله، في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته، ونواصيهم بيده.

ولكنه رؤوف رحيم، لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيههم ويرزقهم، وهم يؤذونه ويؤذون أوليائه، ومع هذا يفتح لهم^(١) أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإفلاج من السيئات التي تضرهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب، فَلْيَسْتَحِجْ المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع اللحظات^(٢)، ومعاصيه صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، وَلْيَعْلَمْ أن الله يمهل ولا يمهل، وأنه إذا أخذ العاصي، أخذه أخذ عزيز مقتدر، فَلْيَتُبْ إليه، وَلْيَرْجِعْ في جميع أموره إليه، فإنه رؤوف رحيم.

فالبدار البدار إلى رحمته الواسعة، وبره العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه، والعمل بما يحبه ويرضاه.

(٤٨-٥٠) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُوا ظُلُمَاتُ الْعِمْيَنِ وَالشَّمَالِ سُجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ○ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ بِحَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوَّتِهِ وَيَتَعَلَّوْنَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٤٨﴾ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله ﴿إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: إلى جميع مخلوقاته، وكيف تنفياً أظلتها ﴿عَنِ الْعِمْيَنِ﴾ وعن ﴿الشَّمَالِ سُجْدًا لِلَّهِ﴾ أي: كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته وجلاله ﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله، وتدبيره عنده.

﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة ﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام، خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهذا قال: ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي: عن عبادته، على كثرتهم، وعظمة أخلاقهم

سُورَةُ النُّحْلِ

٢٧٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَتَشَاءُ أَهْلَ الَّذِينَ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ يَا لَيْتَنِي وَالرُّبُرُ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٨﴾ أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٠﴾ أَوْ يَأْخُذُهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُوا ظُلُمَاتُ الْعِمْيَنِ وَالشَّمَالِ سُجْدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٥٣﴾ بِحَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوَّتِهِ وَيَتَعَلَّوْنَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَخَّرُوا فِي الْهَيْبِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ وَحْدًا فَيَأْتِي فَأَرْهَبُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفْعَبَ اللَّهُ نَفَقُونَ ﴿٥٦﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَيُّ كَيْفَاتِهِ يَنصُرُكُمْ ﴿٥٧﴾ ثُمَّ إِذَا كُفِيَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٨﴾

وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

﴿بِحَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ قُوَّتِهِ﴾ لما مدحهم بكثرة الطاعة، والخضوع لله، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره.

﴿وَيَتَعَلَّوْنَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: مهما أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره طوعاً واختياراً، وسجود المخلوقات لله تعالى قسماً: سجدوا اضطراراً، ودلالة على ما له من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق، من مؤمن وكافر، وير وفاجر، وحيوان ناطق وغيره، وسجود اختياراً يختص بأوليائه وعباده المؤمنين، من الملائكة وغيرهم من [المخلوقات].

(٥٥-٥١) ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَذَخَّرُوا فِي الْهَيْبِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ وَحْدًا فَيَأْتِي فَأَرْهَبُونَ ○ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا أَفْعَبَ اللَّهُ نَفَقُونَ ○ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضَّرُّ فَأَيُّ كَيْفَاتِهِ يَنصُرُكُمْ ○ ثُمَّ إِذَا كُفِيَ الضَّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ○

(١) كذا في ب، وفي أ: عليهم. (٢) في ب: الحالات.

لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا بِسَوْفٍ تَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾ يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، ويستدل على ذلك بانفراذه بالنعيم والوحدانية فقال: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلْهَيْئِ اتِّبَانٍ﴾ أي: تجعلون له شريكاً في إلهيته، وهو ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَحِيدٌ﴾ متوحد في الأوصاف العظيمة، متفرد بالأفعال كلها.

فكما أنه الواحد في ذاته، وأسمائه، ونعوته، وأفعاله، فلتوحدوه في عبادته، ولهذا قال: ﴿فَأَيُّ قَوْمٍ هَؤُلَاءِ﴾ أي: خافوني، وامتلوا أمري، واجتنبوا نهيي، من غير أن تشركوا بي شيئاً من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالى مملوكة. ﴿وَلَمْ يَأْتِ فِي السُّورَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَذَلِكَ الْبَيْنُ وَابِصَابٌ﴾ أي: الدين، والعبادة، والذل في جميع الأوقات، لله وحده، على الخلق أن يخلصوه لله، وينصبغوا بعبوديته.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ نَعْبُدُ﴾ من أهل الأرض أو أهل السماوات، فإنهم لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً، والله المتفرد بالعباءة والإحسان، ﴿وَمَا يَكُم مِّن تَعَمُّقٍ﴾ ظاهرة وباطنة ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ إِيَّاهُ شُكْرًا إِذَا سَأَلْتُمُوهُم مِّن مَّاءٍ حَرًّا﴾ أي: تصجون بالدعاء والتضرع، لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو الذي لا تتبغي العبادة إلا له وحده.

ولكن كثيراً من الناس يظلمون أنفسهم، ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة، فصاروا في حال الرخاء أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا قال:

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ﴾ أي: أعطيتناهم، حيث نجيناهم من الشدة، وخلصناهم من المشقة ﴿فَتَمْتَعُوا﴾ في دنياكم قليلاً ﴿بِسَوْفٍ تَعْمَلُونَ﴾ عاقبة كفركم.

(٥٦-٦٠) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتَّىٰ عَمَّا كُنْتُمْ تَقْرُونَ﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ النَّبْتَ سَبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ○ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ○ يَنْزَوِي مِّنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسِيكُهُمْ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ○ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ النُّعْتِ وَاللَّهُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين، وظلمهم، وافترائهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر - نصيباً مما رزقهم الله، وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَعْنَابِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِهِمْ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ﴾

سورة النحل ٢٧٣
لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا بِسَوْفٍ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَشَتَّىٰ عَمَّا كُنْتُمْ تَقْرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ النَّبْتَ سَبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَنْزَوِي مِّنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسِيكُهُمْ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ النُّعْتِ وَاللَّهُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِّن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَنَصِفُ أَسِنَّتَهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لِأَجْرِمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَوَلَهُمُ الْعَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

الآية ﴿لَشَتَّىٰ عَمَّا كُنْتُمْ تَقْرُونَ﴾ ويقال: ﴿ءَالله أذنت لكم أم على الله تَقْرُونَ﴾ ○ وَمَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفَكَّرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ النَّبْتَ﴾ حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله، ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة، فكان أحدهم ﴿إِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا﴾ من الغم الذي أصابه ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: كاظم على الحزن والأسف، إذ بُشِّرَ بأنثى، وحتى إنه يفضح عند أبناء جنسه، ويتوارى منهم من سوء ما بشر به.

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد، فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها ﴿أَيَسِيكُهُمْ عَلَىٰ هُونٍ﴾ أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل ﴿أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ أي: يدفنها وهي حية، وهو الواد الذي ذم الله به المشركين ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله، من نسبة الولد إليه.

ثم لم يكفهم هذا، حتى نسبوا له أزدًا القسامين، وهو الإناث، اللاتي يأفون بأنفسهم عنها، ويكرهونها، فكيف

ينسبونها لله تعالى؟ فبئس الحكم حكمهم.

ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوَةِ﴾ أي: المثل الناقص والعيب التام، ﴿وَاللَّهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود فالله أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال، والمحبة والإناابة والمعرفة.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل، إلا ما يحمد عليه، ويثنى على كماله فيه.

(٦١) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّىٰ فِإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعْتِدُونَ﴾ لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه، ذكر كمال حلمه وصبره فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ﴾ من غير زيادة ولا نقص ﴿مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: لأهلك المباشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحيوانات، فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل.

﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ﴾ عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة ﴿فِإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَعْتِدُونَ﴾ فليخدروا ما داموا في وقت الإمهال، قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه.

(٦٢، ٦٣) ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَنَصِفُوا أَسِنَّةَهُمُ الْكُذْبَ أَنْ لَهُمُ الْمُسْتَهْيَ لَاجِرَمٌ أَنْ هُمْ النَّارُ وَأَنْهُمْ مُّقْرَّبُونَ﴾ تَأَنَّهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَعُوًّا وَلِيَهُمْ أَيُّومٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يخبر تعالى أن المشركين ﴿يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ من البنات، ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك، بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عبيد الله، فكما أنهم يكرهون، ولا يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله، فكيف يجعلون له شركاء من عبده!!؟

﴿وهم﴾ مع هذه الإساءة العظيمة - ﴿نَصِفُوا أَسِنَّةَهُمُ الْكُذْبَ أَنْ لَهُمُ الْمُسْتَهْيَ﴾ أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، رد عليهم بقوله: ﴿لَاجِرَمٌ أَنْ هُمْ النَّارُ وَأَنْهُمْ مُّقْرَّبُونَ﴾ مقدمون إليها، ما تكون فيها، غير خارجين منها أبداً.

يبين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِّبَ فقال [تعالى]: ﴿تَأَنَّهُ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ رسلاً يدعونهم إلى التوحيد ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه هو الحق المنجي من كل مكروه، وأن

ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم صار وليهم في الدنيا، فأطاعوه واتبعوه وتولوه ﴿أَفَنَتَّخِذُوهُ وَرَثَةً أَوْلِيَاءَ مِّن دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة، حيث تولوا عن ولاية الرحمن، ورضوا بولاية الشيطان، فاستحقوا لذلك عذاب الهوان.

(٦٥) ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَأَ بِهِ الْأَرْضَ بِعَدْوَمَاتٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ عن الله مواعظه وتذكيره، فيستدلون بذلك على أنه وحده المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لأنه المنعم بإنزال المطر، وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات، وأن الذي نشر هذا الإحسان لذورحمة واسعة، وجود عظيم.

(٦٦، ٦٧) ﴿وَإِنَّ لِكُلِّ فِي الْأَنْفَةِ لَعِبْرَةً لِّتُفَكَّرَ بِمَا فِي بُطُونِهِمْ مِّن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا وورقًا حسناً إن في ذلك لآية لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: ﴿إِنَّ لِكُلِّ فِي الْأَنْفَةِ﴾ التي سخرها الله لمنافعكم ﴿لَعِبْرَةً﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله، وسعة إحسانه، حيث أسقاكم من بطونها المشتملة على الفرت والدم، فأخرج من بين ذلك لبنًا خالصًا من الكدر سائغًا للشاربين، لذته، ولأنه يسقي ويغذي، فهل هذه إلا قدرة إلهية، لا أمور طبيعية.

فأي شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة، والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح، لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح، من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد، طريًا ونضيجًا، وحاضرًا ومدخرًا، وطعامًا وشرابًا يتخذ من عصيرها ونبيدها، ومن السكر الذي كان حلالًا قبل ذلك، ثم إن الله نسخ حلال المسكرات، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة، وأنواع الأشرية اللذيذة المباحة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله كمال اقتداره، حيث أخرجها من أشجار شبيهة بالحطب، فصارت ثمرة لذيدة وفاكهة طيبة، وعلى شمول رحمته، حيث عم^(١) بها عباده ويسرها لهم، وأنه الإله المعبود وحده، حيث إنه المنفرد بذلك.

(١) كذا في ب، وفي أ: عم.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٧٤

سُورَةُ النَّحْلِ

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِيُفَكِّرُمَا فِي بُطُونِهِمْ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَنَاخًا لِصَاسِغِ اللَّشَّرِيِّينَ ﴿٦٩﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٧٠﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٧١﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُوفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَعْمُرٍ لِكَى لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ كُلِي مِنَ الثَّمَرَاتِ وَأَنْزَلَ اللَّهُ الرِّزْقَ فَتَأْكُلُونَ مِنْهُ وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴿٧٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُوفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَعْمُرٍ لِكَى لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنًا وَحَدَّةً وَرِزْقًا مِنْ بَيْنِ الْأَيْدِي وَالْأَنْفِ وَالطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٨﴾

أَزْوَاجَكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةٍ وَرِزْقًا مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٨﴾ يخبر تعالى عن منية العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجًا ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولادًا تقرُّ بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، ويتفجعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات، من جميع المأكَل، والمشارب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئًا مذكورًا، ثم أوجده الله، وليس له من وجوده سوى العدم، فلا تخلق، ولا ترزق، ولا تدبر من الأمر شيئًا، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله، فإنها باطلة، فكيف يتخذها المشركون من دون الله!!؟

﴿وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ يجعلونها، ويستعينون بها على معاصي الله والكفر به، هل هذا إلا من أظلم الظلم، وأفجر الفجور، وأسفه السفه؟

(٧٣-٧٦) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ رَبِّقًا مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ فلا تقربوا لله الأشثال إنَّ

(٦٨، ٦٩) ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ ثم كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَنْفَكِرُونَ ﴿٦٩﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها وهدايته لها، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان، بحسب اختلاف أرضها ومراعيتها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة، فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعى سواه.

(٧٠) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُوفِّقُكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَعْمُرٍ لِكَى لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧١﴾ يخبر تعالى أنه الذي خلق العباد، ونقلهم في الخلقة طورًا بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم يتوفاهم، ومنهم من يعمره حتى ﴿يُرَدُّ إِلَى أَعْمُرٍ لِكَى﴾ أي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة، حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان يزيد ضعفه، حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الصبي، ولهذا قال: ﴿لِكَى لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٢﴾ أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذلك ما ينقل به الأدمي من أطوار الخلقة، خلقًا بعد خلق، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

(٧١) ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ وهذا من أدلة توحيده، وقبح الشرك به، يقول تعالى: كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون مرزوقون، إلا أنه تعالى ﴿فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فجعل منكم أحرارًا، لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم، لا يملكون شيئًا من الدنيا، فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا ﴿بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ ويرون هذا من الأمور الممتنعة، وكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبث ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء لله تعالى!؟

هل هذا إلا من أعظم الظلم، والجحود لنعم الله!!؟ ولهذا قال: ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فلو أقروا بالنعمة ونسبوا إلى من أولاهها، لما أشركوا به أحدًا.

(٧٢) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٧٥

سُورَةُ النَّحْلِ

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٧﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا
فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِيَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَا أَبْيَكُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ غَيْبُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨١﴾ وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِّن بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَتَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ
لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿٨٢﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ
مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٣﴾

الله، وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولا قيام الله بها
لم يستطع شيئاً منها، لا يكون كفواً وناداً، لمن لا يقول إلا
الحق، ولا يفعل إلا ما يحمده عليه.

(٧٧) ﴿وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ
الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو
تعالى المنفرد بغيب السموات والأرض، فلا يعلم الخفايا
والبواطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة، فلا يدري
أحد متى تأتي إلا الله، فإذا جاءت وتجلت، لم تكن ﴿إِلَّا
كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ من ذلك، فيقوم الناس من قبورهم
إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتفتت الفرص لمن يريد الإمهال
﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فلا يستغرب على قدرته الشاملة،
إحياؤه للموتى.

(٧٨) ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِّن بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَتَعْلَمُونَ شَيْئًا
وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: هو
المنفرد بهذه النعم حيث ﴿أَخْرَجَكُمْ مِّن بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَتَعْلَمُونَ
شَيْئًا﴾ ولا تقدرون على شيء، ثم إنه ﴿جَعَلَ لَكُمْ
السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ خص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها

اللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ○ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى
شَيْءٍ وَمَن رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يَنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ
يَسْتَوِيَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ○ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا
رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْيَكُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى
مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ
وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٧﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين
وظلمهم، أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله،
والحال أنهم لا يملكون لهم رزقاً من السموات والأرض، فلا
يتزلون مطراً ولا رزقاً، ولا ينتبون من نبات الأرض شيئاً، ولا
يملكون مثقال ذرة في السموات والأرض، ولا يستطيعون لو
أرادوا، فإن غير المالك للشيء، ربما كان له قوة واقتدار على
ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدرون.

فهذه صفة آلهتهم، كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك
الأرض والسموات، الذي له الملك كله، والحمد كله،
والقوة كلها؟!

ولهذا قال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ المتضمنة للتسوية بينه
وبين خلقه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فعلينا أن لا نقول عليه
بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال، فهذا ضرب
تعالى مثلين له ولمن يعبد من دونه، أحدهما عبد مملوك،
أي: رقيق لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدنيا شيئاً،
والثاني حُرٌّ غَنِيٌّ قد رزقه الله منه رزقاً حسناً، من جميع أصناف
المال، وهو كريم محب للإحسان، فهو ينفق منه سراً وجهراً،
هل يستوي هذا وذاك؟ لا يستويان، مع أنهما مخلوقان، غير
محال استواؤهما.

فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي
ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع
الوجوه، بالربِّ الخالق المالك لجميع الممالك، القادر على
كل شيء!!!

ولهذا حمد نفسه، واختص بالحمد بأنواعه، فقال:
﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سؤى
المشركون آلهتهم بالله؟ قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلو
علموا حقيقة العلم، لم يتجرأوا على الشرك العظيم.

والمثل الثاني مثل ﴿رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْيَكُ﴾ لا يسمع
ولا ينطق و﴿لَمْ يَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير و﴿وَهُوَ كَلٌّ
عَلَى مَوْلَاهُ﴾ أي: يخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم
نفسه، فهو ناقص من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن كان يأمر
بالعدل، وهو على صراط مستقيم، فأقواله عدل، وأفعاله
مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان، فلا يستوي من عبده من دون

وفضلها، ولأنها مفتاح لكل علم، فلا وصل للعبد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فسائر الأعضاء، والقوى الظاهرة والباطنة، هو الذي أعطاهم إياها، وجعل ينميها فيهم، شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللاتقة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك، كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المقابلة.

(٧٩) ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الظَّيْرِ مُسْحَرَاتٍ فِي جَوْ السَّكَاةِ مَا يُمِصُّنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لأنهم المتشفعون بآيات الله، المتفكرون فيما جعلت آية عليه، وأما غيرهم، فإن نظرهم نظر لهو وغفلة. ووجه الآية فيها، أن الله تعالى خلقها بخلفة تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف، ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك، وذلك دليل على كمال حكمته، وعلمه الواسع، وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره، تبارك الله رب العالمين.

(٨٠-٨٣) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْعًا إِلَى جِئِينَ ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ اللَّهُ آيَاتِهِ لِقَوْمٍ يُدْرِكُونَ﴾ أي: من مخلوقاته التي لا تبعد عنكم، وتستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ في الدور والقصور ونحوها، تُكِنُّكُمْ من الحر والبرد، وتستركم أنتم (١) وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت (٢) التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرمتكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ إما من الجلد نفسه، أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: خفيفة الحمل، تكون لكم في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَصْوَابِهَا﴾ أي: الأنعام ﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْعًا إِلَى جِئِينَ﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها، من الأتية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك. ﴿وَمِثْعًا إِلَى جِئِينَ﴾ أي: تتمتعون بذلك في هذه الدنيا، وتتفجعون بها، فهذا مما سخر الله للعباد لصنعتة وعمله.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْعًا إِلَى جِئِينَ ۝ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَلًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَأْسَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ اللَّهُ آيَاتِهِ لِقَوْمٍ يُدْرِكُونَ﴾ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثَمَرًا لَا يُؤْذِنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَإِلَهُمُ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ ﴿وَإِذْ آرَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَاهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿وَإِذْ آرَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَشْرَكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْهَا خَلْقَ ظِلَلًا﴾ أي: من مخلوقاته التي لا تبعد عنكم، وتستدعي منهم شكرها والاعتراف بها، فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ في الدور والقصور ونحوها، تُكِنُّكُمْ من الحر والبرد، وتستركم أنتم (١) وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت (٢) التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرمتكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ إما من الجلد نفسه، أو مما نبت عليه، من صوف وشعر ووبر ﴿بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: خفيفة الحمل، تكون لكم في السفر والمنازل التي لا قصد لكم في استيطانها، فتقيكم من الحر والبرد والمطر، وتقي متاعكم من المطر، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَصْوَابِهَا﴾ أي: الأنعام ﴿وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِثْعًا إِلَى جِئِينَ﴾ وهذا شامل لكل ما يتخذ منها، من الأتية والأوعية والفرش والألبسة والأجلة، وغير ذلك. ﴿وَمِثْعًا إِلَى جِئِينَ﴾ أي: تتمتعون بذلك في هذه الدنيا، وتتفجعون بها، فهذا مما سخر الله للعباد لصنعتة وعمله.

(١) كذا في الأصل، والاستغناء عن هذا الضمير هو السائغ في اللغة.

(٢) في الأصل (البيوت والغرف والبيوت).

عليكم.

فحينئذ استسلموا لله، وخضعوا لحكمه، وعلموا أنهم مستحقون للعذاب.

﴿وَصَدَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ فدخلوا النار، وقد امتلأت قلوبهم من مقت أنفسهم، ومن حمد ربهم، وأنه لم يعاقبهم إلا بما كسبوا.

(٨٨) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَنْدَنَهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ حيث كفروا بأنفسهم، وكذبوا بآيات الله، وحاربوا رسله، وصدوا الناس عن سبيل الله، وصاروا دعاة إلى الضلال، فاستحقوا مضاعفة العذاب، كما تضاعف جرمهم، وكما أفسدوا في أرض الله.

(٨٩) ﴿يَوْمَ نَبِّئُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ لما ذكر فيما تقدم أنه يعتب ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ ذكر ذلك أيضًا هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: على أمتك تشهد عليهم بالخير والشر. وهذا من كمال عدل الله تعالى أن كل رسول يشهد على أمته، لأنه أعظم إطلاعًا من غيره على أعمال أمته، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ يومئذ يودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ سَوَّيْتُمْ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾.

وقوله: ﴿وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبين، بألفاظ واضحة، ومعان جلية.

حتى إنه تعالى ينبي في الأمور الكبار التي يحتاج القلب لمروها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبيدها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة، لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر، بحسب ثبوتها في القلب. وحتى إنه تعالى

يجمع في اللفظ القليل الواضح، معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس. واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى.

فلما كان هذا القرآن تبيانًا لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم. فانقطع به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم، يهتدون به إلى أمر دينهم

الأسباب الجالبة من العباد مزيد الشكر، والثناء بها على الله تعالى، ولكن أبا الظالمون إلا تمردًا وعنادًا.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿إِن تَوَلَّوْا﴾ عن الله وعن طاعته، بعد ما ذكروا بنعمه وآياته ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ أي: ليس عليك من هدايتهم وتوفيقهم شيء، بل أنت مطالب بالوعظ والتذكير، والإنذار والتحذير، فإذا أدت ما عليك، فحسابهم على الله، فإنهم يرون الإحسان، ويعرفون نعمة الله، ولكنهم ينكرونها ويجحدونها ﴿وَأَكْذَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ لا خير فيهم، وما ينفعهم توالي الآيات، لفساد مشاعرهم وسوء قصدهم، وسيرون جزاء الله لكل جبار عنيد، كفور للنعم، متمرد على الله وعلى رسله.

(٨٤-٨٧) ﴿يَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذِنُ لَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ وإذا رآ الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ وإذا رآ الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ قَالُوا لِلَّهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ وألقوا إلى الله يومئذ السهم وصلَّ عنهم مَّا كَانُوا يَقْتَرُونَ﴾ يخبر تعالى عن حال الذين كفروا في يوم القيامة، وأنه لا يقبل لهم عذر، ولا يرفع عنهم العقاب، وأن شركاءهم تبرأ منهم، ويقرون على أنفسهم بالكفر والافتراء على الله، فقال: ﴿يَوْمَ نَبِّئُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ يشهد عليها بأعمالهم، وماذا أجابوا به الداعي إلى الهدى، وذلك الشهيد الذي يبعثه الله، أزكى الشهداء وأعدلهم، وهم الرسل الذين إذا شهدوا تم عليهم الحكم.

﴿لَا يُؤْذِنُ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الاعتذار، لأن اعتذارهم بعدما علم يقينًا بطلان ما هم عليه، اعتذار كاذب، لا يفيدهم شيئًا، وإن طلبوا أيضًا الرجوع إلى الدنيا، ليستردكوا لم يجابوا ولم يعتبروا، بل يادهم العذاب الشديد، الذي لا يخفف عنهم من غير إنظار ولا إمهال من حين يرونه، لأنهم لا حساب عليهم، لأنهم لا حسنة لهم، وإنما تعد أعمالهم وتحصى، ويوقفون عليها ويقرون بها، ويفتضحون.

﴿وَإِذَا رآ الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ يوم القيامة وعلموا بطلانها، ولم يمكنهم الإنكار.

﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ﴾ ليس عندها نفع ولا شفع، فتوهوا بأنفسهم بطلانها، وكفروا بها، وبدت البغضاء والعداوة بينهم وبينها ﴿قَالُوا لِلَّهِ الْقَوْلَ﴾ أي: ردت عليهم شركاؤهم قولهم، فقالت لهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حيث جعلتمونا شركاء الله، وعبدتمونا معه، فلم نأمركم بذلك، ولا زعمنا أن فينا استحقاقًا للألوهية، فاللوم

ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالهedy ما نالوه به من علم نافع وعمل صالح والرحمة، ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره، وطمانينته، وتمام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر على الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالى، وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

(٩٠) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾
فالعدل الذي أمر الله به، يشمل العدل في حقه، وفي حق عباده. فالعدل في ذلك، أداء الحقوق كاملة موفرة، بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية، والمركبة منهما، في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل وال ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء ونواب الخليفة، ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات، أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاوضات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقاً، ولا تعشهم، ولا تخدعهم وتظلمهم.

فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحب، وذلك كتفيع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع، حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى - وإن كان داخلاً في العموم - لتأكد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك. ويدخل في ذلك جميع الأقارب، قريهم وبعيدهم، لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

وقوله: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقة، والعجب، والكبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى. وبالبغي، كل عدوان على الخلق، في الدماء والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع المأمورات والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَيَّ هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يُلْوَكُمْ اللَّهُ بِهٖ وَلِيَبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَسْتَ لَنْ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

الجزئيات. فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى، فهي مما أمر الله به. وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي، فهي مما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به، وقبح ما نهى الله عنه. وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال، وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل من كلامه، الهدى، والشفاء، والنور، والفرقان بين جميع الأشياء.

ولهذا قال: ﴿يَعِظُكُمْ﴾ به أي: بما بينه لكم في كتابه، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم، ونهيكم عما فيه مضرتمكم ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يعظكم به، فتفهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا تذكروتموه وعقلتموه، عملتم بمقتضاه، فسعدتم سعادة لا شقاوة معها.

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع، أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال:

(٩٢، ٩١) ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا

تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله، من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته. يعطي الهداية من يستحقها فضلاً، ويمنعها من لا يستحقها عدلاً ﴿وَلَشَتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، فيجازيكم عليها، أتم الجزاء وأعدله. (٩٤) ﴿وَلَا تَنجِدُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرُلُ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ﴿وَلَا تَنجِدُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ وعهودكم ومواثيقكم تبعاً لأهوائكم، متى شتمت وفتم بها، ومتى شتمت نقضتموها. فإنكم إذا فعلتم ذلك، نزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم ﴿وَتَذُوقُوا الشَّوْءَ﴾ أي: العذاب الذي يسوءكم ويحزنكم ﴿بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ حيث ضللتكم وأضللتكم غيركم ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ مضاعف.

(٩٥-٩٧) ﴿وَلَا تَشْرُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ما عندكم يفد وما عند الله باقٍ ولنجزيت الذين صدروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ○ من عمل صلحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيته حيوه طيبه ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴿يحذر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان، لأجل متاع الدنيا وحطامها، فقال: ﴿وَلَا تَشْرُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا﴾ تناولونه بالنقض وعدم الوفاء. ﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب العاجل والأجل، لمن أثار رضاه، وأوفى بما عاهد عليه الله ﴿هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ﴾ من حطام الدنيا الزائلة ﴿إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

فأثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الذي عندكم ولو كثر جداً، لا بد أن ﴿يَفْدَ﴾ ويفنى ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ باقٍ﴾ ببقائه، لا يفنى ولا يزول. فليس يعاقل من أثار الفاني الخسيس على الباقي النفيس، وهذا كقوله تعالى: ﴿بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ○ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾ وفي هذا، الحث والترغيب على الزهد في الدنيا. خصوصاً الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضرراً على العبد، ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه، وتقديمه على حق الله، فإن هذا الزهد واجب.

ومن الدواعي للزهد، أن يقابل العبد لذات الدنيا وشهواتها بخيرات الآخرة، فإنه يجد من الفرق والتفاوت، ما يدعوه إلى إثارة أعلى الأمورين. [وليس الزهد الممدوح، هو الانقطاع للعبادات القاصرة كالصلاة والصيام والذكر ونحوها. بل لا يكون العبد زاهداً زهداً صحيحاً، حتى يقوم بما يقدر عليه، من الأوامر الشرعية الظاهرة والباطنة، ومن الدعوة إلى الله وإلى دينه بالقول والفعل. فالزهد الحقيقي هو

تَنَجِدُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ ۖ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه، من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها، إذا كان الوفاء بها براً. ويشمل أيضاً ما تعاهد عليه هو وغيره، كالعهود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره، ويؤكده على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتميمها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها فقال: ﴿وَلَا تَنفُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ بعقدها على اسم الله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ﴾ أيها المتعاقدان ﴿كَيْفِيًّا﴾ فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلاً، فيكون ذلك ترك تعظيم لله، واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين، والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلاً. فكما اتتمت وأحسن ظنه فيك، فلتتب له بما قلت وأكدته.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ﴾ يجازي كل عامل بعمله، على حسب نيته ومقصده.

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في نقضكم للعهود بأسوأ الأمثال وأقبحها وألها على سفه متعاطيها، وذلك ﴿كَلَّيْ﴾ تغزل غزلاً قوياً، فإذا استحکم وتم ما أريد منه نقضته فجعله ﴿أَنْكَا﴾ تعبت على الغزل، ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء، وسفاهة العقل، ونقص الرأي، فكذاك من نقض ما عاهد عليه، فهو ظالم جاهل سفیه، ناقص الدين والمروءة.

وقوله: ﴿تَنَجِدُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم، تعقدون الأيمان المؤكدة، وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفاً غير قادر على الآخر، أتمها، لا لتعظيم العقد واليمين، بل لعجزه. وإن كان قوياً، يرى مصلحته الدنيوية في نقضها، نقضها غير مبال بعهد الله وبمينه.

كل ذلك دوراناً مع أهوية النفوس، وتقديمها لها على مراد الله منكم، وعلى المروءة الإنسانية، والأخلاق المرضية، لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوة من الأخرى.

وهذا ابتلاء من الله وامتحان يبتليكم الله به حيث قبض من أسباب المحن الذي يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي.

﴿وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فيجازي كلاً بما عمل، ويخزي الغادر.

(٩٣) ﴿رَبُّوْا شَاءَ اللَّهِ لِعَمَلِكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَشَتَلْنَ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: ﴿رَبُّوْا شَاءَ اللَّهِ﴾ لجمع الناس على الهدى، وجعلهم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ ولكنه

الزهد فيما لا ينفع في الدين والدنيا، والرغبة والسعي في كل ما ينفع^[١].

﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على طاعة الله، وعن معصيته، وفظموا أنفسهم عن الشهوات الدنيوية المضرة بدينهم ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ الحسنة عشر أمثالها، إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولهذا ذكر جزاء العاملين في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فإن الإيمان شرط في صحة الأعمال الصالحة وقبولها، بل لا تسمى أعمالاً صالحة إلا بالإيمان، والإيمان مقتض لها، فإنه التصديق الجازم، المشر لأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات. فمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فَلَنَجْزِيَنَّهُ حَيَوَةً طَيِّبَةً﴾ وذلك بطمأنينة قلبه، وسكون نفسه، وعدم التفاته لما يشوش عليه قلبه، ويرزقه الله رزقاً حلالاً طيباً، من حيث لا يحتسب.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ في الآخرة ﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من أصناف اللذات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فيؤتيه الله في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة.

(٩٨-١٠٠) ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَكَ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ أي: فإذا أردت القراءة لكتاب الله، الذي هو أشرف الكتب وأجلها، وفيه صلاح القلوب، والعلوم الكثيرة، فإن الشيطان أحرص ما يكون على العبد، عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها.

فالطريق إلى السلامة من شره الالتجاء إلى الله، والاستعاذة به من شره، فيقول القارئ: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» متدبراً لمعناها، معتمداً بقلبه على الله، في صرفه عنه، مجتهداً في دفع وساوسه وأفكاره الرديئة، مجتهداً على السبب الأقوى في دفعه، وهو التَّحَلِّي بِحَلِيَةِ الْإِيمَانِ والتوكل.

فإن الشيطان ﴿لَيْسَ لَكَ سُلْطَانٌ﴾ أي: تسلط ﴿عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ وحده لا شريك له ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، فيدفع الله عن المؤمنين المتوكلين عليه، شر الشيطان، ولا يبقى له عليهم سبيل.

﴿وإنَّمَا سُلْطَانُكَ﴾ أي تسلطه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ أي:

﴿وَلَا تَنْجِدُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ دَخَلَا بَيْنَكُمْ فَتَرِلْ قَدَمٌ بَعْدَ نَبْوَتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنَجْزِيَنَّهُ حَيَوَةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَكَ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُكَ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

يجعلونه لهم ولياً. وذلك بتخليهم عن ولاية الله، ودخولهم في طاعة الشيطان وانضمامهم لحزبه. فهم الذين جعلوا له ولاية على أنفسهم، فازَّهم إلى المعاصي أژاً، وقادهم إلى النار قَوْدًا.

(١٠١، ١٠٢) ﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ يذكر تعالى أن المكذبين بهذا القرآن، يتبعون ما يرونه حجة لهم، وهو أن الله تعالى هو الحاكم الحكيم الذي يشرع الأحكام، ويبدل حكماً مكان آخر، لحكمته ورحمته، فإذا رآه كذلك، قدحوا في الرسول وبما جاء به، و﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ قال الله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهم جهال لا علم لهم بربهم ولا بشرعه. ومن المعلوم أن قدح الجاهل بلا علم لا عبرة به، فإن القدح في الشيء فرع عن العلم به، وما يشتمل عليه مما يوجب

المدح أو القدرح .

ولهذا ذكر تعالى حكمته في ذلك فقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل الرسول، المقدس المنزه عن كل عيب وخيانة وآفة .

﴿يَلْقَى﴾ أي: نزوله بالحق، وهو مشتمل على الحق في أخباره، وأوامره ونواهيه، فلا سبيل لأحد أن يقدر فيه قدحا صحيحا، لأنه إذا علم أنه الحق، علم أن ما عارضه وناقضه باطل .

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ عند نزول آياته وتواردها عليهم، وقتا بعد وقت، فلا يزال الحق يصل إلى قلوبهم شيئا فشيئا، حتى يكون إيمانهم أثبت من الجبال الرواسي، وأيضا فإنهم يعلمون أنه الحق . وإذا شرع حكما [من الأحكام]، ثم نسخه، علموا أنه أبده بما هو مثله، أو خير منه لهم، وأن نسخه، هو المناسب للحكمة الربانية، والمناسبة العقلية .

﴿وَهُدَىٰ وَبَشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: يهديهم إلى حقائق الأشياء، ويبين لهم الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويشيرهم أن لهم أجرا حسنا، ماكين فيه أبدا . وأيضا، فإنه كلما نزل شيئا فشيئا، كان أعظم هداية وبشارة لهم، مما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكما وبشارة [أكثر] (١)، فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه وترووا منه، أنزل نظيره وهكذا . ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغا عظيما، وتغيرت أخلاقهم وطبائعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال، فاقوا بها الأولين والآخرين .

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم، أن يتربوا بعلومه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيئوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات، ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية .

(١٠٣-١٠٥) ﴿وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۚ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يخبر تعالى عن قيل المشركين المكذبين لرسوله ﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ﴾ هذا الكتاب الذي جاء به ﴿بَشَرٌ﴾ وذلك البشر الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان ﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ هل هذا القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب يكذب، ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض

سُورَةُ النَّحْلِ

٢٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۚ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ۝ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَن أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمِ أَبْصَارُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَصِيفُونَ ۝ لَا جْرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخٰسِرُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝

والفساد، ما يوجب رده بمجرد تصوره .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها ﴿لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ﴾ حيث جاءهم الهدى، فردوه، فعوقبوا بحرمانه، وخذلان الله لهم ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

﴿إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَذِبَ﴾ أي: إنما يصدر افتراء الكذب من الذين لا يؤمنون بآيات الله كالمعاندين لرسوله، من بعد ما جاءتهم البينات ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: الكذب منحصر فيهم، وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم . وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله، الخاضع لربه، فمحال أن يكذب على الله، ويتقول عليه ما لم يقل . فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم فأظهر الله خزيبهم، وبين فضائحهم، فله تعالى الحمد .

(١٠٦-١٠٩) ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَن أُكْرِهَ وَأَكْرهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٢٨٠

سُورَةُ النَّحْلِ

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجْدِلَةٌ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهَمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفَ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُفْرَكُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزِرِ وَمَا أَهْلٌ لَّعَيْرٍ اللَّهُ بِهِ ءَعْلَمٌ مَنْ أَضْطَرَّ عَرِيْبًا وَلَا عَادٍ فَاتَّقُوا اللَّهَ عَفْوَ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا، وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب، صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم، واستقامت أمور دينهم ودنياهم. فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة حين ﴿تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجْدِلَةٌ عَنْ نَفْسِهَا﴾ كلٌ يقول: نفسي نفسي، لا يهيمه سوى نفسه. ففي ذلك اليوم يفتر العبد إلى حصول مقال ذرة من الخير.

﴿وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ من خير وشر ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُلْطَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْرَزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿١١٢، ١١٣﴾ ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفَ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ وهذه القرية هي مكة المشرفة التي كانت آمنة مطمئنة، لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والنصرة

فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١١١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعْتَهُمْ أَبْصِرُهُمْ وَأُوتِيَتْهُمْ أَلْوَانًا لَهُمْ الْفِتْنَةُ ﴿١١٢﴾ لَا جَرَيمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ فعمي بعد ما أبصر، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر، راضيًا به مطمئنًا، أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وغضب عليهم كل شيء ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: في غاية الشدة، مع أنه دائم أبدًا.

﴿وَذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ حيث ارتدوا على أديبارهم، طمعًا في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه، وزهدًا في خير الآخرة. فلما اختاروا الكفر على الإيمان، منعهم الله الهداية، فلم يهدمهم، لأن الكفر وصفهم، فطبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم، فلا ينفذ منها ما ينفعهم، ويصل إلى قلوبهم. فسملتهم الغفلة، وأحاط بهم الخذلان، وحرموا رحمة الله التي وسعت كل شيء. وذلك أنها أتتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

﴿لَا جَرَيمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة، وفاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على العذاب الأليم.

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر، عند الإكراه عليها.

ودل ذلك، على أن كلام المكروه على الطلاق، أو العتاق، أو البيع، أو الشراء، أو سائر العقود، أنه لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها، فغيرها من باب أولى وأحرى.

﴿١١٠، ١١١﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّنَا لِأَنَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فَرَسُوا ثَمَّ جَهْدًا وَصَبْرًا إِنَّ رَبَّنَا مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجْدِلَةٌ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهَمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: ثم إن ربك الذي ربى عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلقى دياره وأمواله، طلبًا لمرضاة الله، وفقن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين. ثم جاهد أعداء الله، ليدخلهم في دين الله، بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة، على أكثر الناس.

العربية، فحصل لها من الأمن التام، ما لم يحصل لسواها وكذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم، يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

(١١٤-١١٨) ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾. إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَالْحَمَّ الْخَنِزِيرِ وَمَا أَهْلَ لِعَيْبٍ اللَّهُ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ○ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ○ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهَمَّ عَذَابٌ أَلِيمٌ ○ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَا فَضَّصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات، والحبوب، والثمار، وغيرها ﴿حَلَلًا طَيِّبًا﴾ أي: حالة كونها متصفة بهذين الوصفين بحيث لا تكون مما حرم الله، أو أثرًا عن غصب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تعدٍّ ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرافها في طاعة الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا النعم.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾ الأشياء المضرة تنزيهاً لكم وذلك: كـ ﴿الْمَيْتَةَ﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة. ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك.

﴿وَالدَّمَ﴾ المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر ﴿وَالْحَمَّ الْخَنِزِيرِ﴾ لقذارته وخبثه، وذلك شامل للحمة وشحمه وجميع أجزائه ﴿وَمَا أَهْلَ لِعَيْبٍ اللَّهُ بِهِ﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها، لأنه مقصود به الشرك.

﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ إلى شيء من المحرمات - بأن حملته الضرورة، وخاف إن لم يأكل أن يهلك - فلا جناح عليه إذا لم يكن باغياً أو عادياً، أي: إذا لم يرد أكل المحرم، وهو غير مضطر، ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا

حَرَامٌ﴾ أي: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذباً وافتراء على الله وتقولوا عليه.

﴿لِيُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيمهم، وإن تمتعوا في الدنيا فإنه ﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ﴾ ومصيرهم إلى النار ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

فالله تعالى ما حرم علينا إلا الخيئات، تفضلاً منه وصيانةً عن كل مستفذر.

وأما الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم، كما قصه في سورة الأنعام في قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا كَلَّ ذِي ظُفْرِ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْفَنَنِ حَرَمًا عَلَيْهِمْ شُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ طُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَائِصَ أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ حَرِمْنَاهُمْ بِعَيْبِهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾.

(١١٩) ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّنَا لِلَّذِينَ ائْتَمَرُوا أَمْرًا سَوِيًّا لَكُمْ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّنَا مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا حصٌّ منه لعباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءاً بجهالة، بعاقبة ما تجني عليه، ولو كان متعمداً للذنب، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم، وقت مقارفة الذنب. فإذا تاب وأصلح، بأن ترك الذنب وندم عليه^(١) وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه، ويتقبل توبته، ويعيده إلى حالته الأولى، أو أعلى منها.

(١٢٠-١٢٣) ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ○ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ○ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّمَا فِي الآخِرَةِ لَئِنِ الصَّالِحِينَ ○ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يخبر تعالى عما فضل به خليله عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال:

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي: إماماً جامعاً لخصال الخير، هادياً مهتدياً ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ أي: مديماً لطاعة ربه، مخلصاً له الدين ﴿حَنِيفًا﴾ مقبلاً على الله بالمحبة، والإنابة، والعبودية، معرضاً عن سواه ﴿وَلَا يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله، لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها. فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ واختصه بخلته، وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(١) كذا في ب، وفي أ: عزم.

في علمه وعمله، فعلم بالحق وأثره على غيره.

﴿وَأَتَيْنَتْهُ فِي الذُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ رزقا واسعا، وزوجة حسنة، وذرية صالحين، وأخلاقا مرضية ﴿وَأِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من الله تعالى.

ومن أعظم فضائله، أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم، أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمه.

(١٢٤) ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ﴾ أي: فرضا ﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ حين ضلوا عن يوم الجمعة، وهم اليهود، فصار اختلافهم سببا لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة الذي هدى الله هذه الأمة إليه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيبين لهم المحق من المبطل، والمستحق للثواب ممن استحق العقاب^(١).

(١٢٥) ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِيْنَ﴾ أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم، إلى سبيل ربك المستقيم، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح ﴿بِالْحُكْمَةِ﴾ أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه، وقبوله وانقياده.

ومن الحكمة، الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين. فإن انقاد بالحكمة، وإلا فيتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها. وإما بذكر إكرام من قام بدين الله، وإهانة من لم يقم به. وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد للعاصيين من العقاب العاجل والآجل. فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق، أو كان داعية إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلا ونقلا.

ومن ذلك، الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقددها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّرُوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٢٦)

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٢٧)

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَيْنَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (١٢٨)

﴿وَأَتَيْنَتْهُ فِي الذُّنْيَا حَسَنَةٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٢٩)

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٣٠)

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٣١)

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّ لَّهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِيْنَ﴾ (١٣٢)

﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُمْ لَعَاقِبَتُ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا لَهُمْ خَيْرٌ لِّالصَّابِرِينَ﴾ (١٣٣)

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (١٣٤)

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (١٣٥)

ونحوها.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ علم السبب الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلالته، وسبجازه عليها.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُنْتَهِيْنَ﴾ علم أنهم يصلحون للهداية، فهداهم، ثم من عليهم فاجتباهم.

(١٢٦-١٢٨) ﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُمْ لَعَاقِبَتُ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا لَهُمْ خَيْرٌ لِّالصَّابِرِينَ﴾ ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ يقول تعالى - مبيحا للعدل، ونادبا للفضل والإحسان -: ﴿وَإِنَّ عَاقِبَتَهُمْ﴾ من أساء إليكم بالقول والفعل ﴿فَعَاقِبَتُهُمْ لَعَاقِبَتُ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا لَهُمْ خَيْرٌ لِّالصَّابِرِينَ﴾ من غير زيادة منكم، على ما أجراه معكم.

﴿وَلَيْنَ صَبْرُهُمْ﴾ عن المعاقبة، وعفوتهم عن جرمهم ﴿لَهُمْ خَيْرٌ لِّالصَّابِرِينَ﴾ من الاستيفاء، وما عند الله خير لكم، وأحسن

وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السموات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين.

ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمسين بالفعل، وخمسين بالأجر والثواب، وحاز من المفاجر تلك الليلة، هو وأمه، ما لا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه. وقوله: ﴿الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخشب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلاة فيه، وأن الله اختصه محلاً، لكثير من أنبيائه وأصفيائه.

(٢-٨) ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكُتُبَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا ۝ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ وَفَضَّلْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكُتُبِ لَنُفِئِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرْثَتَيْنِ وَلَنَقُلَّنَّ عَلْوًا كَبِيرًا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّقْفُولًا ۝ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَفَرَةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝ إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۝ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسْطَوْا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلُوا النَّبِيرًا ۝ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُرَحِّمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ كثيرًا ما يقرن الباري بين نبوة محمد ﷺ، ونبوة موسى ﷺ، وبين كتابيهما وشريعتيهما، لأن كتابيهما أفضل الكتب، وشريعتيهما أكمل الشرائع، ونبوتيهما أعلى النبوات، وأتباعهما أكثر المؤمنين، ولهذا قال هنا: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكُتُبَ﴾ الذي هو التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يهتدون به في ظلمات الجهل إلى العلم بالحق.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكَيْلًا﴾ أي: وقلنا لهم ذلك، وأنزلنا إليهم الكتاب لذلك، ليعبدوا الله وحده، وبنبوا إليه، ويتخذوه وحده وكيلًا ومدبرًا لهم، في أمر دينهم ودنياهم، ولا يتعلقوا بغيره من المخلوقين الذين لا يملكون شيئًا، ولا ينفعونهم بشيء.

﴿ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: يا ذرية من مننا عليهم، وحملناهم مع نوح ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ فيه التنويه بالثناء

عاقبة كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَسْلَحَ فَأَجْرِ عَلَى اللَّهِ﴾، ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله، والاستعانة بالله على ذلك، وعدم الاتكال على النفس، فقال:

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ هو الذي يعينك عليه ويثبتك ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ إذا دعوتهم، فلم تر منهم قبولًا لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئًا ﴿وَلَا تَكُ فِي صَبْتِكَ﴾ أي: شدة وحرج ﴿مِمَّا بَمَكُورُونَ﴾ فإن مكروهم عائد إليهم، وأنت من المتقين المحسنين.

والله مع المتقين المحسنين، بعونه، وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم. والإحسان إلى الخلق يبذل النفع لهم من كل وجه.

نسأل الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

تم تفسير سورة النحل والحمد لله.

تفسير سورة بني إسرائيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها، لأن له الأفعال العظيمة والمنز الجسيمة، التي من جملتها أن ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ ورسوله محمد ﷺ ﴿مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء.

فأسري به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جدًا، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته، ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتًا وفرقانًا. وهذا من اعتنائه تعالى به، ولطفه، حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوله نعمًا فاق بها الأولين والآخرين. وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من نفس المسجد الحرام. لكن ثبت في الصحيح، أنه أسري به من بيت أم هانئ. فعلى هذا، تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم، فكله تتضاعف فيه العبادة كتضاعفها في نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معًا، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء،

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

٢٨٢

الْمَكِّيَّةُ

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحْنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا لَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْاِسْمَاءِ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ لِيَلَّاتَنَاجِدُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا ﴿٢﴾
ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾
وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَ فِي الْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلِنَعْلُنَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عَبْدًا لَّنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ
وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْأَوْجُوهُكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٧﴾

وجعل لهم الدولة.

وتوعدهم على المعاصي فقال: ﴿وَإِنْ عُدْتُمْ﴾ إلى الإفساد في الأرض ﴿عُدْنَا﴾ إلى عقوبتكم. فعادوا لذلك، فسلط الله عليهم رسوله محمدًا ﷺ، فانتقم الله به منهم، فهذا جزاء الدنيا، وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ يصلونها ويلازمونها، لا يخرجون منها أبدًا. وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة، من العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل. فسنة الله واحدة، لا تبدل ولا تغير.

ومن نظر إلى تسليط الكفرة على المسلمين والظلمة عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم، عقوبة لهم، وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله، مكَّن لهم في الأرض، ونصرهم على أعدائهم.

(١٠، ٩) ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ۝ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

على نوح عليه السلام، بقيامه بشكر الله، واتصافه بذلك، والحث لذريته أن يقتدوا به في شكره ويتابعوه عليه، وأن يتذكروا نعمة الله عليهم، إذ ﴿أَبَاقَهُمْ وَاسْتَخْلَفَهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَأَغْرَقَ غَيْرَهُمْ.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم، وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلهم يرجعون فيتذكرون.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ بعثنا قديرا، وسلطنا عليكم تسليطا كونيا جزائيا ﴿عِبَادًا لَّنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة فنصرهم الله عليكم، فقتلوكم وسبوا أولادكم، ونهبوا أموالكم، وجاسوا خلال دياركم فهتكوا الدور، ودخلوا المسجد الحرام، وأفسدوه ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ لا بد من وقوعه، لوجود سببه منهم.

واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء السلاطين، إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار، إما من أهل العراق، أو الجزيرة، أو غيرها، سلطهم الله على بني إسرائيل، لما كثرت فيهم المعاصي، وتركوا كثيرا من شريعتهم، وطغوا في الأرض.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء الذين سلطوا عليكم، فأجلبتموهم من دياركم ﴿وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي: أكثرنا أرزاقكم، وكثرتناكم، وقويتناكم عليهم ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ منهم، وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله.

﴿إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ﴾ لأن النفع عائد إليكم، حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ أي: فلا أنفسكم يعود الضرر كما أراكم الله، من تسليط الأعداء.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: المرة الآخرة^(٢) التي تفسدون فيها في الأرض، سلطنا أيضا عليكم الأعداء.

﴿لِيَسْتَوْأَوْجُوهُكُمْ﴾ بانتصارهم عليكم وسيبكم، وليدخلوا المسجد الحرام كما دخلوه أول مرة، والمراد بالمسجد، مسجد بيت المقدس.

﴿وَلِيُتَبِّرُوا﴾ أي: يخرّبوا ويدمروا ﴿مَا عَلَوْا﴾ عليه ﴿تَتْبِيرًا﴾

فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحرّوتكم.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ فيدليل لكم الكرة عليهم. فرحمهم

(١) في النسختين: إذا. (٢) في ب: الأخرى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٣

سُورَةُ الْاَنْعَامِ

عَسَىٰ رَبُّكُمْ اَنْ يَّرْحَمَكُمْ وَاِنْ عَدَّكُمْ عَدًّا وَّجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ اِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ الَّذِيْ يُرَدُّ لِيَّ هِيَ اَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِيْنَ الَّذِيْنَ يَعْمَلُوْنَ الصّٰلِحٰتِ اَنْ لَهُمْ اَجْرًا كَبِيْرًا ﴿٩﴾ وَاَنْ الَّذِيْنَ لَا يُؤْمِنُوْنَ بِالْاٰخِرَةِ اَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا اَلِيْمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْاِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاۗهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْاِنْسَانُ مُجۗوَلًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا الْاَيْلَ وَالنَّهَارَ اٰيٰتِيْنَ فَمَحَوْنَا اٰيَةَ الْاَيْلِ وَجَعَلْنَا اٰيَةَ النَّهَارِ مُبۗصِرَةً لِّتَبۗتَعُوْا فَضَلًا مِّنْ رَّبِّكُمْ وَلِتَعۗلَمُوْا عَدَدَ السِّنِّيْنَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلۡنَاهُ تَقۗصِيْلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ اِنْسَانٍ رَّزَقۡنَاهُ طَيِّبَةً فِىٓ عُنُقِهٖ وَنُخۗرِجُهٗ لَهٗ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ كِتٰبًا يَلۡقَاهُ مِنْشُورًا ﴿١٣﴾ اَقْرَأْ كِتٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيْبًا ﴿١٤﴾ مِّنۢ مَّا اَهۡتَدَىٰ فَاَتَمَّ يَهۡتَدِيْ لِنَفْسِهٖ وَمَنۢ ضَلَّ فَاِنۡمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا وَلَا نُرۗزُّ وَاِزۗرَةً وَّزُرًا اٰخَرٰى وَمَا كُنَّا مُعۗذِبِيْنَ حَتّٰى نَبۗعَثَ رَسُوْلًا ﴿١٥﴾ وَاِذَا اَرۡدْنَا اَنْ نُّهۡلِكَ قَرِيۡةً اَمۡرًا مَّتَرَفِيۡهَا فَفَسَقُوۡا فِيۡهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا الْقَوَلُ فَمَدۡمَرۡنَاهَا تَدۗمِيْرًا ﴿١٦﴾ وَكَمۡ اَهۡلَكۡنَا مِنْ الْقُرُوۡنِ مِمَّ بَعۡدَنۡوَجۡ وَكَفٰى بِرَبِّكَ بِذُنُوۡبِ عِبَادِهٖ خَبِيْرًا مُّۢبۗصِرًا ﴿١٧﴾

بِالْآخِرَةِ اَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا اَلِيْمًا ﴿٨﴾ يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته، وأنه ﴿يَهْدِي لِيَّ هِيَ اَقْوَمُ﴾ أي: اعدل وأعلى، من العقائد، والأعمال، والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس، وأقومهم، وأهداهم في جميع أموره.

﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ من الواجبات والسنن ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أعداه الله لهم في دار كرامته، لا يعلم وصفه إلا هو.

﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ اَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا اَلِيْمًا﴾ فالقرآن مشتمل على البشارة والتذارة، وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة، وهو الإيمان، والعمل الصالح، والتي تستحق بها التذارة وهو ضد ذلك.

(١١) ﴿وَيَدْعُ الْاِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاۗهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْاِنْسَانُ مُجۗوَلًا﴾ وهذا من جهل الإنسان وعجلته، حيث يدعو على نفسه وأولاده وماله بالشر عند الغضب، ويبادر بذلك الدعاء، كما يبادر بالدعاء في الخير، ولكن الله - بطلفه (١) - يستجيب له في الخير، ولا يستجيب له بالشر ﴿وَلَوْ يَعۗجَلُ اللّٰهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسۡتَعۗجَلَهُمۡ بِالْخَيْرِ لَفۡضٰى اِلَيْهِمۡ اٰجَلَهُمۡ﴾.

(١٢) ﴿وَجَعَلْنَا الْاَيْلَ وَالنَّهَارَ اٰيٰتِيْنَ فَمَحَوْنَا اٰيَةَ الْاَيْلِ وَجَعَلْنَا اٰيَةَ النَّهَارِ مُبۗصِرَةً لِّتَبۗتَعُوْا فَضَلًا مِّنْ رَّبِّكُمْ وَلِتَعۗلَمُوْا عَدَدَ السِّنِّيْنَ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلۡنَاهُ تَقۗصِيْلًا﴾ يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الْاَيْلَ وَالنَّهَارَ اٰيٰتِيْنَ﴾ أي: دالتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له ﴿فَمَحَوْنَا اٰيَةَ الْاَيْلِ﴾ أي: جعلناه مظلماً، للسكون فيه، والراحة ﴿وَجَعَلْنَا اٰيَةَ النَّهَارِ مُبۗصِرَةً﴾ أي: مضيئة ﴿لِّتَبۗتَعُوْا فَضَلًا مِّنْ رَّبِّكُمْ﴾ في معاشكم، وصنائعكم، وتجاراتكم، وأسفاركم.

﴿وَلِتَعۗلَمُوْا﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر ﴿عَدَدَ السِّنِّيْنَ وَالْحِسَابِ﴾ فتبنون عليها ما تشاؤون من مصالحكم. ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلۡنَاهُ تَقۗصِيْلًا﴾ أي: بينا الآيات وصرفناه، لتمييز الأشياء، ويستبين الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿مَا قَرۡطَنَّا فِي الْكِتٰبِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

(١٣، ١٤) ﴿وَكُلَّ اِنْسَانٍ رَّزَقۡنَاهُ طَيِّبَةً فِىٓ عُنُقِهٖ وَنُخۗرِجُهٗ لَهٗ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ كِتٰبًا يَلۡقَاهُ مِنْشُورًا﴾ اَقْرَأْ كِتٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيْبًا وهذا إخبار عن كمال عدله، أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه، أي: ما عمل من خير وشر، يجعله الله ملازماً له، لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره ولا يحاسب غيره بعمله.

﴿وَنُخۗرِجُهٗ لَهٗ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ كِتٰبًا يَلۡقَاهُ مِنْشُورًا﴾ فيه ما عمله من

الخير والشر حاضراً، صغيره وكبيره، ويقال له: ﴿اَقْرَأْ كِتٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيْبًا﴾. وهذا من أعظم العدل والإنصاف، أن يقال للعبد: حاسب نفسك، ليعترف بما عليه من الحق الموجب للعقاب.

(١٥) ﴿مَّنۢ مَّا اَهۡتَدَىٰ فَاَتَمَّ يَهۡتَدِيْ لِنَفْسِهٖ وَمَنۢ ضَلَّ فَاِنۡمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَا وَلَا نُرۗزُّ وَاِزۗرَةً وَّزُرًا اٰخَرٰى وَمَا كُنَّا مُعۗذِبِيْنَ حَتّٰى نَبۗعَثَ رَسُوْلًا﴾ أي: هداية كل أحد وضلاله لنفسه، لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر، والله تعالى اعدل العادلين، لا يعذب أحداً حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة، ثم يعاند الحجة. وأما من انقاد للحجة، أو لم تبلغه حجة الله تعالى، فإن الله تعالى لا يعذبه.

واستدل بهذه الآية على أن أهل الفترات، وأطفال المشركين، لا يعذبهم الله، حتى يبعث إليهم رسولاً، لأنه منزه عن الظلم.

(١٦، ١٧) ﴿وَاِذَا اَرۡدْنَا اَنْ نُّهۡلِكَ قَرِيۡةً اَمۡرًا مَّتَرَفِيۡهَا فَفَسَقُوۡا فِيۡهَا فَحَقَّ

عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا ۝ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ
 بِرَبِّكَ يُدْتُوِبِ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴿٢١﴾ يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك
 قرية من القرى الظالمة، ويستأصلها بالعذاب، أمر مترفها
 أمرًا قدرًا، ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾
 أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.
 وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب، من بعد قوم نوح،
 كعاد وثمود، وقوم لوط، وغيرهم، ممن عاقبهم الله لما كثر
 بغيهم، واشتد كفرهم، أنزل [الله] بهم عقابه العظيم.
 ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ يُدْتُوِبِ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ فلا يخافوا منه ظلمًا،
 وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

(١٨-٢١) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ
 نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ
 وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ۝ كَلَّا
 نُمِدُّ هُنُوَآءَ وَهُنُوَآءَ مِنْ عَطَاؤِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝
 أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَللْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ
 تَفْضِيلًا﴾ يخبر تعالى أن ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ الدنيا ﴿الْعَاجِلَةَ﴾،
 المنقضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ والمنتهى،
 أن الله يُعجل له من حطامها ومتاعها ما يشاؤه ويريده، مما
 كتب [الله] له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غير نافع ولا
 دائم له.

ثم يجعل له في الآخرة ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا﴾ أي: يباشر عذابها
 ﴿مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من
 الله، ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله، فيجمع له بين العذاب
 والفضيحة.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ فرضيها وآثرها على الدنيا ﴿وَسَعَىٰ لَهَا
 سَعْيَهَا﴾ الذي دعت إليه الكتب السماوية، والآثار النبوية،
 فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وملائكته،
 وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

﴿فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ أي: مقبولًا مُنْمَى،
 مدخرًا، لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم. ومع هذا، فلا يفوتهم
 نصيبهم من الدنيا، فكلًا يمدد الله منها، لأنه عطاؤه وإحسانه
 ﴿وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ أي: ممنوعًا من أحد، بل جميع
 الخلق راتعون بفضلته وإحسانه.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في الدنيا، بسعة
 الأرزاق وقتلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل
 والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم
 على بعض بها.

﴿وَللْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا

٢٨٤

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

سُورَةُ الْاِنشَاءِ

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ
 جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلُّهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَرَادَ
 الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ
 سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ كَلَّا نُمِدُّ هُنُوَآءَ وَهُنُوَآءَ مِنْ عَطَاؤِ
 رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٣﴾ أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا
 بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَللْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا
 ﴿٢٤﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٥﴾
 ﴿وَفَضَىٰ رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا يَاہُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِنَّمَا
 يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا
 أَفٍّ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٦﴾ وَأَخْفِضْ
 لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي
 صَغِيرًا ﴿٢٧﴾ رَبِّكُمُ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ
 فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّلِينَ عَفْوًا ﴿٢٨﴾ وَعَاتَ ذَا الْقُرْنَىٰ حَقَّهُ
 وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبْدِرْ بِنَدْرِكٍ ﴿٢٩﴾ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ
 كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٣٠﴾

ولذاتها، إلى الآخرة، بوجه من الوجوه. فكم بين من هو في
 الغرف العاليات، واللذات المتنوعات، والسرور والخيرات
 والأفراح، ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب
 الأليم وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين
 بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحدًا عدّه.

(٢٢) ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ أي:
 لا تعتقد أن أحدًا من المخلوقين يستحق شيئًا من العبادة، ولا
 تشرك بالله أحدًا منهم، فإن ذلك داع للذم والخذلان. فالله،
 وملائكته، ورسله، قد نهوا عن الشرك، وذموا من عمله أشد
 الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف
 المقبوحة، ما كان به متعاطيه، أشنع الخلق وصفًا، وأقبحهم
 نعتًا.

وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه، بحسب ما تركه من
 التعلق بربه. فمن تعلق بغيره فهو مخذول، قد وكل إلى من
 تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع أحدًا إلا بإذن الله. وكما أن
 من جعل مع الله إلهاً آخر، له الذم والخذلان. فمن وحده،
 وأخلص دينه لله، وتعلق به دون غيره، فإنه محمود معان في

جميع أحواله .

سرايركم من خير وشر، وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر .

﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ بأن تكون إراداتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله .

﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأُولِيَاءِ﴾ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غُفُورًا﴾ . فمن اطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإجابة إليه ومحبته، ومحة ما يقرب إليه، فإنه، وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية، فإن الله يعفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة .

(٢٦-٣٠) ﴿وَأَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتِيمَ الْإِنْسَانَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۚ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ۚ وَإِنَّا مُرْسِنُونَ عَنْهُمْ اتِّعَاقَهُ رَمَحًا مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ۚ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۚ إِنَّ رَبَّكَ بِسَبْطِ الرِّزْقِ لَمَن يَسَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ من البر والإكرام، الواجب والمستون، وذلك الحق يتفاوت بتفاوت الأحوال، والأقارب، والحاجة وعدمها، والأزمة .

﴿وَالْيَتِيمَ﴾ آته حقه من الزكاة ومن غيرها، لتزول مسكنته ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائداً على المقدار اللائق، فإن ذلك تبذير، وقد نهى الله عنه وأخبر:

﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك، فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير . والله تعالى إنما يأمر بأعدل الأمور وأقسطها، ويمدح عليه، كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ .

وقال هنا: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ فتفتق فيما لا ينبغي، أو زيادة على ما ينبغي .

﴿فَتَقْعُدَ﴾ إن فعلت ذلك ﴿مَلُومًا﴾ أي: تلام على ما فعلت ﴿مَحْسُورًا﴾ أي: حاسر اليد فارغها، فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء .

وهذا الأمر يباين ذي القربى، مع القدرة والغنى . فأما مع العدم، أو تعسر النفقة الحاضرة، فأمر تعالى أن يُرَدُّوا رداً جميلاً فقال: ﴿وَإِنَّا مُرْسِنُونَ عَنْهُمْ اتِّعَاقَهُ رَمَحًا مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي:

(٢٣، ٢٤) ﴿وَقَصَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تُعْبَدُوا إِلَّا يَأْتَهُ وَيَالُوذَيْنِ بِحَسَنَاتٍ ۖ إِنَّمَا يَلْبَعْنُ عَبْدَكَ أَلْكَبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا وَلَا نَهْيَهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۚ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا﴾ لما نهى تعالى عن الشرك به، أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وَقَصَىٰ رَبُّكَ﴾ قضاء ديننا، وأمر أمراً شرعياً ﴿أَنَّ لَا تُعْبَدُوا﴾ أحداً من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات .

﴿إِلَّا يَأْتَهُ﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعمة الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور، فهو المتفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء . ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَيَالُوذَيْنِ بِحَسَنَاتٍ﴾ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان، القولي والفعلية، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب، ما يقتضي تأكيد الحق ووجوب البر .

﴿إِنَّمَا يَلْبَعْنُ عَبْدَكَ أَلْكَبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ أي: إذا وصلا إلى هذا السن، الذي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطف والإحسان، ما هو معروف ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَمْرًا﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نبه به على ما سواه . والمعنى لا تؤذهما أدنى أذى .

﴿وَلَا نَهْيَهُمَا﴾ أي: ترجمهما، وتكلم لهما كلاماً حسناً ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ بلفظ يحبانه، وتأدب، وتلطف بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان .

﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ أي: تواضع لهما، ذلاً لهما ورحمة، واحتساباً للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤثر عليها العبد .

﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا﴾ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتاً جزاء على تربيتكما إياك صغيراً .

وفهم من هذا، أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق . وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودينه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباها حق التربية .

(٢٥) ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي قُلُوبِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأُولِيَاءِ غُفُورًا﴾ أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكتنه

تعرض عن إعطائهم إلى وقتٍ آخر، ترجو فيه من الله تيسير الأمر.

﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي: لطيِّفًا برفق، ووعد بالجميل، عند سئوحي الفرصة، واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم، كما قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعَهَا أَذًى﴾.

وهذا أيضًا من لطف الله تعالى بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه، لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وعدهم بالصدقة والمعروف عند التيسر، عبادة حاضرة، لأن الهم بفعل الحسنة حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه، ليثاب على ذلك، ولعل الله ييسره له [بسبب رجائه] (١).

ثم أخبر تعالى أنه ييسر الرزق لمن يشاء من عباده، ويقدره ويضيقه على من يشاء، حكمة منه ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ فيجزئهم على ما يعلمه صالحًا لهم، ويدبرهم، بلطفه وكرمه. (٣١) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ وهذا من رحمته بعباده، حيث كان أرحم بهم من والديهم، فهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفًا من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع. وأخبر أن قتلهم كان خطأ كبيرًا، أي: من أعظم كبائر الذنوب، لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم، والتجرؤ على قتل الأطفال، الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية.

(٣٢) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ والنهي عن قربانه أبلغ من النهي عن مجرد فعله، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، خصوصًا هذا الأمر، الذي في كثير من النفوس أقوى دواعيه.

ووصف الله الزنى وقبحه بأنه ﴿كَانَ فَحِشَةً﴾ أي: إنمَّا يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنه التجرؤ على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد. وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: بسئ السبيل، سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

(٣٣) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ وهذا شامل لكل نفس ﴿حَرَّمَ اللَّهُ﴾ قتلها من صغير وكبير، وذكر وأُنثى، وحر وعبد، ومسلم وكافر له عهد. ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كالنفس بالنفس، والزاني المحصن،

﴿وَمَا تَعْرَضْنَ عَنْهُمْ إِبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ (٣٨) ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ (٣٩) ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِسِطِّ الرِّزْقِ لَمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ (٤٠) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (٤١) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ (٤٢) ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ (٤٣) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْيَقِينِ إِلَّا الْيَتِيمَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ. وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ (٤٤) ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كَلَّمْتُمْ نَوْزًا بِالْقِسْطِ أَسْمَأُ بِنْتُ أَبِي ذَلَّاحٍ كَانَتْ تَعْمَلُ الْكَيْلَ بِالْقِسْطِ﴾ (٤٥) ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ (٤٦) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ (٤٧) ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٤٨)

والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغيه، إذا لم يندفع إلا بالقتل.

﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ أي: بغير حق ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ﴾ وهو أقرب عصباته وورثته إليه ﴿سُلْطَانًا﴾ أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل وجعلنا له أيضًا تسلطًا قدرًا على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص، كالعمد والعدوان، والمكافأة.

﴿فَلَا يَسْرِفُ﴾ الولي ﴿فِي الْقَتْلِ﴾ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿وَالْإِسْرَافُ﴾ مجاوزة الحد، إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل.

وفي هذه الآية، دليل إلى أن الحق في القتل للولي، فلا يقتص إلا بإذنه، وإن عفا سقط القصاص. وأن وليَّ المقتول يعينه الله على القاتل ومن أعانته حتى يتمكن من قتله.

(٣٤) ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْيَقِينِ إِلَّا الْيَتِيمَ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ وهذا من لطفه ورحمته

(١) زيادة من هامش ب.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخَرَ﴾ والنهي عن عقوق الوالدين وما عطف على ذلك ﴿كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة ﴿مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ فإن الحكمة، الأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق، والنهي عن أراذل الأخلاق، وأسوأ الأعمال.

وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات، من الحكمة العالية، التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين، في أشرف الكتب، ليأمر بها أفضل الأمم، فهي من الحكمة التي من أوتيتها فقد أوتي خيراً كثيراً.

ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله، كما افتتحها بذلك فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخَرَ فَلْتَلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾ أي: خالداً مخلداً، فإنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

﴿مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي: قد لحقتك اللاتمة واللعنة والذم من الله، وملائكته، والناس أجمعين.

(٤٠) ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحُومًا بَالِيغِينَ وَأَتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكَ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ وهذا إنكار شديد على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات، فقال: ﴿أَفَأَصْفَكَ رُحُومًا بَالِيغِينَ﴾ أي: اختار لكم الصفوة والقسم (٢) الكامل، واتخذ لنفسه من الملائكة إناثاً، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله.

﴿إِنَّكَ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ فيه أعظم الجراءة على الله، حيث نسبتهم له الولد المتضمن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكموا له بأردأ القسمين، وهن الإناث، وهو الذي خلقكم، واصطفاكم بالذكر، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

(٤١-٤٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ قل لو كان مع الله إلهة كما يقولون إذا لاتبغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴿سُبْحٰنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عَلُوًّا كَبِيرًا﴾ ﴿سُبْحٰنَهُ لَهٗ الشُّكُورُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ يخبر تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن، أي: نوع الأحكام ووضحها، وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكر، لأجل أن يتذكروا ما ينفعهم فيسلوكه، وما يضرهم فيدعوه. ولكن أبى أكثر الناس إلا نفوراً عن آيات الله، لبغضهم للحق، ومحبتهم ما كانوا

تعالى باليتيم الذي فقد والده، وهو صغير، غير عارف بمصلحة نفسه، ولا قائم بها، أن أمر أوليائه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه، وأن لا يقربوه ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ من التجارة فيه، وعدم تعريضه للأخطار، والحرص على تسميته، وذلك ممتد إلى أن ﴿يَبْلُغَ﴾ اليتيم ﴿أَشُدَّهُ﴾ أي: بلوغه، وعقله، ورشدته، فإذا بلغ أشده، زالت عنه الولاية، وصار ولي نفسه، ودفع إليه ماله.

كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ مَآسَأْتُمْ بِهِمْ مُّشَدًّا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي: مسؤولين عن الوفاء به وعدمه. فإن وفيتم، فلکم الثواب الجزيل، وإن لم تفوا (١)، فعليكم الإثم العظيم.

(٣٥) ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِذَا كُنْتُمْ بِرِثَةً أَوْ قِسْطًا أَوْ مِثْقَالًا ذَرَّةً خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ وهذا أمر بالعدل وإيفاء المكاييل والموازن بالقسط، من غير بخس ولا نقص. ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كل غش في ثمن، أو مثن، أو معقود عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ من عدمه ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.

(٣٦) ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ أي: ولا تتبع ما ليس لك به علم، بل تبت في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته، أن يُعَدَّ للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه الله تعالى.

(٣٧-٣٩) ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ كل ذلك كان سيئاً عند ربك مكروهاً ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَآخَرَ فَلْتَلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي: كبراً وتبهاً وبطراً، متكبراً على الحق، ومتعاطماً على الخلق.

﴿إِنَّكَ﴾ في فلكك ذلك ﴿لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ في تكبرك بل تكون حقيراً عند الله ومحقرًا عند الخلق، مغبوضاً ممقوتاً، قد اكتسبت أشر الأخلاق، واكتسبت أزدلها، من غير إدراك لبعض ما تروم.

﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدم من قوله:

(١) في ب: تفعلوا. (٢) في ب: النصب.

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴿٢٨﴾ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمُ
 بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَنَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٣٠﴾
 قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَبْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا
 ﴿٣١﴾ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٣٢﴾ تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوٰتُ
 السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يسبِّحُ بحمدهِ وَلَكِن
 لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٣٣﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ
 الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا
 مَّسْتُورًا ﴿٣٤﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
 وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ، وَلَوَّاعِلٌ أَذْبَرَهُمْ نُفُورًا ﴿٣٥﴾
 تَحْنُ أَعْمَىٰ مِمَّا سَمِعْتُمْ بِهِ إِذْ يَسْمَعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ
 إِذ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٣٦﴾ أَنْظِرْ
 كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٣٧﴾
 وَقَالُوا إِيَّذَا كُنَّا عِظْمًا وَّرَفْنَا إِيَّانَا الْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٣٨﴾

والتدبير، وفقر من جهة الاضطرار، إلى أن يكون معبودهم
 ومحبوبهم، الذي إليه يتقربون، وإليه في كل حال يفزعون،
 ولهذا قال:

﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوٰتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ مِّن
 حَيْوَانٍ نَّاطِقٍ وَغَيْرِ نَاطِقٍ، وَمِنَ الشَّجَرِ، وَنَبَاتٍ، وَجَامِدٍ،
 وَحَيٍّ وَمَيِّتٍ﴾ إِلَّا يسبِّحُ بحمدهِ ﴿لسان الحال، ولسان المقال
 ﴾ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴿أي: تسبيح باقي المخلوقات التي
 على غير لغتكم، بل يحيط بها عِلَامُ الْغَيْبِ.

﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيث لم يعاجل بالعقوبة من قال فيه
 قولًا تكاد السموات والأرض تنفطر منه وتخر له الجبال،
 ولكنه أمهلهم، وأنعم عليهم، وعافاهم، ورزقهم، ودعاهم
 إلى بابه، ليتوبوا من هذا الذنب العظيم، ليعطيهم الثواب
 الجزيل، ويغفر لهم ذنبهم، فلولا حلمه ومغفرته، لسقطت
 السموات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة.

(٤٥-٤٨) ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

(٧) في ب: يدعون.

عليه من الباطل، حتى تعصبوا لباطلهم، ولم يعيروا آيات الله
 لهم سمعًا، ولا ألقوا لها بالًا.

ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة، التوحيد الذي هو
 أصل الأصول، فأمر به، ونهى عن ضده، وأقام عليه من
 الحجج العقلية والنقلية شيئًا كثيرًا، بحيث من أصغى إلى
 بعضها، لا تدع في قلبه شكًا ولا ريبًا.

ومن الأدلة على ذلك، هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا،
 فقال: ﴿قُلْ﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر: ﴿أَتُورُ
 كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: على موجب زعمهم واقترانهم
 ﴿إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَيْكَ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لاتخذوا سبيلاً إلى الله
 بعبادته والإناابة إليه، والتقرب وابتغاء الوسيلة، فكيف يجعل
 العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه، إلهاً مع الله؟!
 هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؟!.

فعلى هذا المعنى، تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَتُلْبِكُ
 الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَعُونَ إِلَيْكَ رَبَّهُمْ أَلْوَسِيلَةً أَيْهِمْ أَقْرَبُ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَبْتَدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
 فَيَقُولُ مَا أَنشَأَ ضَلَالَتَنَا عِبَادِي هَذِهِ أَمْ هُمْ سَلَوكُوا السَّبِيلَ﴾ ○ قَالُوا
 سُبْحٰنَكَ مَا كَانَ يُنْبِئُنَا لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِن أَوْلِيَاءَ﴾.

ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا
 يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَعُوا إِلَيْكَ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لطلبوا السبيل، وسعوا
 في مغالبة الله تعالى، فيما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقهر،
 هو الرب الإله. فأما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم التي
 يعبدون^(١) من دون الله مقهورة مغلوبة، ليس لها من الأمر
 شيء، فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟ فيكون هذا كقوله
 تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِّنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ
 كُلُّ إِلَهٍ مِّمَّا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾.

﴿سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ﴾ أي: تقدر وتتره وعلت أوصافه
 ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك به، واتخاذ الأنداد معه ﴿عُلُوًّا
 كَبِيرًا﴾ فعلا قدره وعظم، وجلت كبرياؤه التي لا تقادر أن
 يكون معه آلهة، فقد ضل من قال ذلك ضلالاً مبيهاً، وظلم
 ظلمًا كبيرًا.

لقد تضاءلت لعظمتها المخلوقات العظيمة، وصغرت لدى
 كبرياته السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن
 فيهن ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَالسَّمَوٰتُ مَطْوِيٰتٌ
 بِيَمِينِهِ﴾.

واقترع إليه العالم العلوي والسفلي فقرًا ذاتيًا، لا ينفك عن
 أحد منهم في وقت من الأوقات.

هذا الفقر بجميع وجوهه، فقر من جهة الخلق والرزق

إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ۝ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٩﴾ يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث، وتكذيبهم به، واستبعادهم بقولهم: ﴿أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا﴾ أي: أجسادًا بالية ﴿أَوَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: لا يكون ذلك، وهو محال بزعمهم، فجهلوا أشد الجهل، حيث كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السموات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة، فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدرين عليه، جعلوا قدرة الله كذلك.

فسبحان من جعل خلقًا من خلقه، يزعمون أنهم أولو العقول والألباب، مثالًا في جهل أظهر الأشياء وأجلها، وأوضحها براهين وأعلاها، ليرى عباده أنه ما ثم إلا توفيقه وإعانه، أو الهلاك والضلال.

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء المنكرين للبعث استبعادًا:

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ﴾ أي: يعظم ﴿فِي صُورِكُمْ﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم، من أن تنالكم قدرة الله، أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزى الله، في أي حالة تكونون، وعلى أي وصف تتحولون. وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات.

فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط. ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ حين تقييم عليهم الحجة في البعث: ﴿مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما فطركم، ولم تكونوا شيئًا مذكورًا، فإنه سيعيدكم خلقًا جديدًا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُعِيدُهُ﴾.

﴿فَسَيَقُولُونَ إِلَيْكَ رُؤُسَهُمْ﴾ أي: يهزونها إنكارًا وتعجبًا مما قلت. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقرارًا منهم لأصل البعث، بل ذلك سفة منهم، وتعجيز ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار، على تقريره، والإقرار به، وإثباته، وإلا فكل ما هو آت، فإنه قريب.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ للبعث والنشور، وينفخ في الصور ﴿فَسَتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ أي: تنقادون لأمره، ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿بِحَمْدِهِ﴾ أي: هو المحمود تعالى، على ما يفعله، ويجزي به العباد، إذا جمعهم ليوم التناد.

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى آية أخرى فكتب: فلا يهتدون وعلى ذلك فترها، فأبقيت التفسير كما هو، وصوبت الآية.

بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ۝ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحَدَّثُمُ وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَرَهُمْ نُفُورًا ۝ تَعْنُ أَكْمَرُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ مُخَوِّتُونَ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝ أَنْظَرَ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين زدوه، وأعرضوا عنه، أنه يحول بينهم وبين الإيمان، فقال:

﴿وَإِذَا قُرَأَتْ الْقُرْآنُ﴾ الذي فيه الوعظ والتذكير، والهدى والإيمان، والخير والعلم الكثير.

﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ يسترهم عن فهمه حقيقة، وعن التحقق بحقائقه، والانقياد لما يدعو إليه من الخير.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ أي: أعطية وأغشية، لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعونهم سماعًا تقوم به عليهم الحجة ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمما عن سماعه ﴿وَإِذَا ذُكِرْتُ بِرَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ﴾ داعيًا لتوحيده، ناهيًا عن الشرك به ﴿وَلَوْ أَعْلَىٰ أَدْبَرَهُمْ نُفُورًا﴾ من شدة بغضهم له، ومحبتهم لما هم عليه من الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

﴿تَعْنُ أَكْمَرُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ﴾ أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن، لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة، يريدون أن يعثروا على أقل شيء ليقدحوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم متعمدون على عدم اتباعه. ومن كان بهذه الحالة، لم يفده الاستماع شيئًا، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ مُخَوِّتُونَ﴾ أي: متناجين ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ﴾ في مناجاتهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بنوها على أنه مسحور، فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي، لا يدري ما يقول.

قال تعالى: ﴿أَنْظَرَ﴾ متعجبًا ﴿كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ التي هي أصل الأمثال، وأبعدها عن الصواب ﴿فَضَلُّوا﴾ في ذلك، أو فصارت سببًا لضلالهم، لأنهم بنوا عليها أمرهم، والمبني على فاسد، أفسد منه.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ (١) أي: لا يهتدون أي اهتداء، فنصيبيهم الضلال المحض، والظلم الصرف.

(٥٢-٤٩). ﴿وَقَالُوا أَوَدَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْنَا أَوَنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۝ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْفُرُ فِي صُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيَقُولُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٧

سُورَةُ الْاِسْرَاءِ

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حِيداً ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْفُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُ أَقْلَ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قَدْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيباً ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقْتُلُونَ إِن لَّيْتُمُ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٥٢﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِن الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِيناً ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴿٥٥﴾ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرِيبَةٍ إِلَّا لَنَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْكَمَةِ أَوْ مَعَذْبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴿٥٨﴾

﴿ وَتَقْتُلُونَ إِن لَّيْتُمُ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ من سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعيم، كأنه ما كان. فهذا الذي يقول عنه المنكرون: ﴿ مَتَى هُوَ ؟ ﴾ يندمون غاية الندم عند وروده، ويقال لهم: ﴿ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴾ .

(٥٣-٥٥) ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِن الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِيناً ﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً ﴾ وهذا من لطفه بعباده، حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال، والأقوال الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة، فقال: ﴿ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله، من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف، مع الخلق، على اختلاف مراتبهم ومنازلهم. وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين، فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما، إن لم يمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن من ملك لسانه، ملك جميع أمره. وقوله: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي: يسعى بين العباد، بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.

فدواء هذا، أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوهم إليها، وأن يلينوا فيما بينهم، لينتقم الشيطان الذي ينزع بينهم، فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه، فإنه يدعوهم ﴿ لِيَكُونُوا مِن أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

وأما إخوانهم، فإنهم وإن نزح الشيطان فيما بينهم، وسعى في العداوة، فإن الحزم كل الحزم، السعي في ضد عدوهم، وأن يقمعوا أنفسهم الأمانة بالسوء، التي يدخل الشيطان من قِبَلِهَا، فبذلك يطيعون ربهم، ويستقيم أمرهم، ويهدون لرشدهم.

﴿ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ﴾ من أنفسكم، فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئاً الخير في عكسه.

﴿ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ فيوفى من شاء لأسباب الرحمة، ويخذل من شاء، فيضل عنها، فيستحق العذاب.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً ﴾ تدبر أمرهم، وتقوم بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت مبلغ هاد إلى صراط مستقيم.

﴿ وَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ من جميع أصناف الخلاق، فيعطي كلًّا منهم ما يستحقه، وتقتضيه حكمته، ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال الحسية والمعنوية، كما فضل بعض النبيين المشركين بوجهه على بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما منَّ به عليهم، من الأوصاف الممدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة، وكثرة الاتباع، ونزول الكتب على بعضهم، المشتملة على الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية كما أنزل على داود زبوراً، وهو الكتاب المعروف.

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض، وآتى بعضهم كتباً، فلم ينكر المكذبون لمحمد ﷺ، ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب.

(٥٦، ٥٧) ﴿ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ قُلْ ﴾ للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه

من وقوعه، فليبادر المكذبون بالإجابة إلى الله وتصديق رسله، قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.

(٥٩، ٦٠) ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ وَآيَاتُنَا تَمُودُ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ۝ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرِّهَابَ آيَةً لِرَبِّكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُوحُفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ يذكر تعالى رحمته، بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوف من تكذيبهم لها. فإذا كذبوا بها، عاجلهم العقاب، وحل بهم من غير تأخير، كما فعل بالأولين الذين كذبوا بها.

ومن أعظم الآيات، الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه. وهؤلاء كذلك، لو جاءتهم الآيات الكبار، لم يؤمنوا، فإنه ما منعه من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباها، هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة، ما دل على صحة ما جاء به، الموجب لهداية من طلب الهداية غيرها مثلها، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه، خير لهم وأنفع.

وقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجبة للإيمان الذي لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها، التخويف والترهيب، ليرتدعوا عن ما هم عليه.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ علماً وقدره، فليس لهم ملجأ يلجأون إليه، ولا ملاذ يلوذون به عنه. وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس. ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرِّهَابَ آيَةً لِرَبِّكَ إِلَّا فِتْنَةً﴾ أكثر المفسرين على أنها في ليلة الإسراء.

﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾ التي ذكرت ﴿فِي الْقُرْآنِ﴾ وهي شجرة الزقوم التي تنبت في أصل الجحيم.

والمعنى، إذا كان هذان الأمران، قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم، وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفاً، رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كان خارقاً للعادة.

والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضاً، من الخوارق، فهذا الذي أوجب لهم التكذيب، فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة؟! أليس ذلك أولى أن

أنداداً يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه، ملزماً لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين:

﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَانظُرُوا هَلْ يَنْفَعُونَكُمْ، أَوْ يَدْفَعُونَ عَنْكُمْ الضَّرَّ، فَإِنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ مِنْ مَرَضٍ، أَوْ قَفَرٍ، أَوْ شِدَّةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَلَا يَدْفَعُونَ بِالْكَلِمَةِ وَلَا﴾ يملكون أيضاً تحويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها.

فإذا كانوا بهذه الصفة فلا شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم، ولا فعال نافعة، فاتخاذهم نقص في الدين والعقل، وسفه في الرأي. ومن العجب، أن السفه عند الاعتياد والممارسة، وتلقفه عن الآباء الضالين بالقبول، يراه صاحبه، هو الرأي السديد، والعقل المفيد.

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة، هو السفه، والأمر المتعجب منه، كما قال المشركون: ﴿جَعَلَ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَفِئَةٌ بِجِبَابٍ﴾.

ثم أخبر أيضاً، أن الذين يعبدونهم من دون الله، في شغل شاغل عنهم، باهتمامهم بالافتقار إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه فقال:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْمَلَائِكَةَ يَبْنُونَ لِكُلِّ رِبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبدلون ما يقدر عليهم من الأعمال الصالحة، المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه، فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة، الخوف، والرجاء، والمحبة، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، هي الأصل والمادة في كل خير. فمن تمت له، تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها، ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور. وعلامة المحبة ما ذكره الله، أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله، وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدر عليها. فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك، فهو كاذب.

(٥٨) ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْنٍ إِلَّا تَحْنُ مَهْلِكُومًا قَبْلَ يَوْمِ الْيَكْمَةِ أَوْ مُعَذِّبُومًا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسول، إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله، وقضاء أبرمه، لا بد

يزداد بسببه شرهم؟ فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم.

ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة، يذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة، أولى وأحسن، لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيرًا، ربما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ريبًا في قلوب بعض المؤمنين، ومانعًا يمنع من لم يدخل الإسلام، ومنفردًا عنه. بل ذكر الله ألفاظًا عامة، تتناول جميع ما يكون.

﴿وَتُخَوِّفُهُمْ﴾ بالآيات ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التخويف ﴿إِلَّا طَعْنَانَا كَبِيرًا﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التملي بالشر ومحبه، وبغض الخير وعدم الانقياد له.

(٦١-٦٥) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَ ۖ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ جَاءَهَا مُؤَفِّرًا ۖ وَاسْتَغْفَرَ مِنَ اسْتَفْزَرَ ۖ مَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَقْتُلَنَّكَ ۚ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ أَتَاكَ عِزٌّ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ أَتَاكَ الْفُلُكُ ۚ قَالَ أَتَى اللَّهُ الْبَشَرَ الْبَغْيَ إِذْ يَنْهَى عَنْ الْبَغْيِ وَأَنْ يُعْتَدَى الْبَغْيَ ۚ وَمَنْ يُعْتَدِ الْبَغْيَ إِنَّهَ أَعْتَدَ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ۚ﴾

فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه.

فلما تبين لإبليس تفضيل الله لآدم ﴿قَالَ﴾ مخاطبًا لله: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَ ۚ﴾ أي: لاستأصلهم بالإضلال، ولأغوينهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ عرف الخبيث، أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

فقال الله له: ﴿أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ واختارك على ربه ووليه الحق. ﴿فَأَنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ جَاءَهَا مُؤَفِّرًا﴾ أي: مدخرًا لكم، موفرًا جزاء على أعمالكم.

ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: ﴿وَاسْتَغْفَرَ مِنَ اسْتَفْزَرَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية.

﴿وَأَجَلَبَ عَلَيْهِمْ بِحِيلِكَ وَرَجَلِكَ﴾ ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله.

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين، الداعي لهم إلى معصية الله، بأقواله وأفعاله.

﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وذلك شامل لكل معصية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٨

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوْلَادُ ۖ وَءَاتَيْنَا مُوسَى التَّافَةَ مُجَصَّرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٦٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَىٰ نَبِيِّكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَتُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٦﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦٧﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَ ۚ ذَرَيْتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٨﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْ جَاءَهَا مُؤَفِّرًا ﴿٦٩﴾ وَاسْتَغْفَرَ مِنَ اسْتَفْزَرَ مَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَقْتُلَنَّكَ ۚ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ أَتَاكَ عِزٌّ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ أَتَاكَ الْفُلُكُ ۚ قَالَ أَتَى اللَّهُ الْبَشَرَ الْبَغْيَ إِذْ يَنْهَى عَنْ الْبَغْيِ وَأَنْ يُعْتَدَى الْبَغْيَ ۚ وَمَنْ يُعْتَدِ الْبَغْيَ إِنَّهَ أَعْتَدَ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٧٠﴾

تعلقت بأموالهم وأولادهم، من منع الزكاة والكفارات، والحقوق الواجبة وعدم تأديب الأولاد، وتربيتهم على الخير، وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقها، أو وضعها بغير حقها، أو استعمال المكاسب الردية.

بل ذكر كثير من المفسرين، أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع. وأنه إذا لم يسم الله في ذلك، شارك فيه الشيطان، كما ورد فيه الحديث.

﴿وَعِدَّهُمْ﴾ الوعود^(١) المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: باطلاً مضمحلًا، كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعدهم عليها الأجر، لأنهم يظنون أنهم على الحق. وقال تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمُ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾.

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد، وذكر ما

(١) في النسختين: الأوعاد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٢٨٩

سُورَةُ الْاِنْسَانِ

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ فَلَمَّا جَاءَكُمْ
إِلَى الْبَرِّ اعْرِضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٧٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ
بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ
وَكِيلًا ﴿٧٨﴾ أَمْ آمَنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا
لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى
كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٨٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ
بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ بِإِيمَانِهِ فَآوَلْتَبَاكَ يَوْمَ تَصِفُّ
كَتَبَهُمْ وَلَا يُظَلِّمُونَ تَفِيلًا ﴿٨١﴾ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ
أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٨٢﴾ وَإِنْ كَادُوا
لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً
وَإِذَا لَا تَجِدُوا خَلِيلًا ﴿٨٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ تَبَسَّنَّاكَ لَقَدْ كَدَّتْ
تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٨٤﴾ إِذَا لَاذَقْنَاكَ ضِعْفَ
الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٨٥﴾

ولهذا ذكرهم الله ذلك بقوله: ﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ
الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: فهو على كل شيء قدير،
إن شاء أنزل عليكم عذابًا، من أسفل منكم بالخسف، أو من
فوقكم بالحاصب، وهو العذاب الذي يحصبهم، فيصبحوا
هالكين، فلا تظنوا أن الهلاك لا يكون إلا في البحر.
وإن ظننتم ذلك، فأنتم آمنون^(١) من ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ﴾ في البحر
﴿تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ﴾ أي: ريحًا شديدة
جداً تقصف ما أتت عليه.

﴿فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ أي:
تبعه ومطالبة، فإن الله لم يظلمكم مثقال ذرة.
(٧٠) ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ
مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ وهذا من
كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقادر قدره، حيث كرم بني آدم
بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل، وإرسال
الرسول، وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء،

(١) مراد الشيخ - رحمه الله - الاستفهام. والله أعلم.

يعتصم به من فتنته، وهو عبودية الله، والقيام بالإيمان
والتوكل، فقال: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ﴾ أي:
تسلط وإغواء، بل الله يدفع عنهم - بقيامهم بعبوديته - كل
شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفائتهم.
﴿وَكَفَرُوا بِرَبِّكَ وَكَيْبَلًا﴾ لمن توكل عليه، وأدى ما أمر به.

(٦٦-٦٩) ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَنَبَّأَ
مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُمْ كَانَتْ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ وإذا مسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ
مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ فَلَمَّا جَاءَكُمْ إِلَى الْبَرِّ اعْرِضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا
﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا
تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ أَمْ آمَنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ
تَبِيعًا﴾ يذكر تعالى نعمته على العباد، بما سخر لهم من
الفلك، والسفن، والمراكب، والأهمهم كيفية صنعها، وسخر
لها البحر الملتطم، يحملها على ظهره، ليتفع العباد بها في
الركوب والحمل للمتعة والتجارة. وهذا من رحمته بعباده،
فإنه لم يزل بهم رحيمًا رؤوفًا، يؤتيهم من كل ما تعلقت به
إرادتهم ومنافعهم.

ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود، دون ما سواه،
أنهم إذا مسهم الضر في البحر، فخافوا من الهلاك، لتراكم
الأمواج، ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله، في حال
الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في
وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء، عاجزون عن كشف
الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات الذي
تستغيث به في شدائدها جميع المخلوقات، وأخلصوا له
الدعاء والتضرع في هذه الحال.

فلما كشف الله عنهم الضر، ونجاهم إلى البر، نسوا ما
كانوا يدعون إليه من قبل، وأشركوا به، من لا ينفع ولا يضر،
ولا يعطي ولا يمنع، وأعرضوا عن الإخلاص لربهم
ومليكيهم. وهذا من جهل الإنسان وكفره، فإن الإنسان كفور
للنعم، إلا من هدى الله، فمن عليه بالعقل السليم، واهتدى
إلى الصراط المستقيم. فإنه يعلم، أن الذي يكشف الشدائد،
وينجي من الأهوال، هو الذي يستحق أن يفرد وتخلص له
سائر الأعمال في الشدة والرخاء، واليسر والعسر.

وأما من خذل، ووكّل إلى عقله الضعيف، فإنه لم يلحظ
وقت الشدة إلا مصلحته الحاضرة، وإنجاءه في تلك الحال.
فلما حصلت له النجاة، وزالت عنه المشقة، ظن بجعله، أنه
قد أعجز الله، ولم يخطر بقله شيء من العواقب الدنيوية،
فضلاً عن أمور الآخرة.

وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة .

﴿وَمَحَلَّتْهُمْ فِي الْبَرِّ﴾ على الركاب، من الإبل، والبغال، والحمير، والمراكب البرية ﴿و﴾ في ﴿الْبَحْرِ﴾ في السفن والمراكب ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الْطَيِّبَاتِ﴾ من المأكَل والمشارب، والملابس، والمناخ. فما من طيب تتعلق به حوائجهم، إلا وقد أكرمهم الله به، ويسره لهم غاية التيسير .

﴿وَصَلَّيْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بما خصهم به من المناقب، وفضلهم به من الفضائل التي ليست لغيرهم من أنواع المخلوقات .

أفلا يقومون بشكر من أولى النعم، ودفع النقم، ولا تحجبهم النعم عن المنعم فيشتغلوا بها عن عبادة ربهم، بل ربما استعانوا بها على معاصيه .

(٧٢، ٧١) ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَٰ كِتَابِهِ يَمِيسِرْهُ فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَالًا وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَنَ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَنَ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يخبر تعالى عن حال الخلق يوم القيامة، وأنه يدعو كل أناس، معهم إمامهم وهاديهم إلى الرشد، وهم الرسل ونوابهم، فتعرض كل أمة، ويحضرها رسولهم الذي دعاهم، وتعرض أعمالهم على الكتاب الذي يدعو إليه الرسول، هل هي موافقة له أم لا؟ فينقسمون بهذا قسمين :

﴿فَمَنْ أُوْفِيَٰ كِتَابِهِ يَمِيسِرْهُ﴾ لكونه اتبع إمامه، الهادي إلى صراط مستقيم، واهتدى بكتابه، فكثرت حسناته، وقلت سيئاته ﴿فَأُولَٰئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ﴾ قراءة سرور وبهجة، على ما يرون فيها مما يفرحهم ويسرهم .

﴿وَلَا يَظْلُمُونَ فِتْيَالًا﴾ مما عملوه من الحسنات . ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَنَ﴾ عن الحق، فلم يقبله، ولم يتقبله، بل اتبع الضلال ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَنَ﴾ عن سلوك طريق الجنة كما لم يسلكه في الدنيا ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ فإن الجزء من جنس العمل، وكما تدين تدان .

وفي هذه الآية دليل على أن كل أمة تدعى إلى دينها وكتابها، وهل عملت به أم لا؟ .

وأنهم لا يؤخذون بشرع نبي لم يؤمروا باتباعه، وأن الله لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحججة عليه، ومخالفته لها .

وأن أهل الخير، يعطون كتبهم بأيمانهم ويحصل لهم من الفرح والسرور شيء عظيم، وأن أهل الشر بعكس ذلك، وأنهم لا يقدرّون على قراءة كتبهم، من شدة غمهم وحزنهم وثبورهم .

(٧٣-٧٧) ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَٰنَا إِلَيْكَ

لَيَفْتَرِي عَلَيْكَ غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ حِيلًا ۝ وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدَتْ تَرِكَنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ۝ إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِطْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ سُنَّةٌ مِّن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ وحفظه له من أعدائه الحريصين على فتنته بكل طريق، فقال: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَٰنَا إِلَيْكَ لَيَفْتَرِي عَلَيْنَا﴾ أي: قد كادوا لك أمرًا لم يدركوه، وتحيلوا لك، على أن تفتري على الله غير الذي أنزلنا إليك، فتجني بما يوافق أهواءهم، وتدع ما أنزل الله إليك .

﴿وَإِذَا﴾ لو فعلت ما يهون ﴿لَأَخَذُوكَ حِيلًا﴾ أي: حيلًا صفيًا، أعز عليهم من أحبابهم، لما جبلك الله عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الآداب، المحببة للقريب والبعيد، والصادق والعدو .

ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك، وينابذوك العداوة، إلا للحق الذي جئت به، لا لذاتك، كما قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَعَّمْنَا إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتُوا اللَّهَ يَحْمَدُونَ﴾ .

﴿و﴾ مع هذا ﴿لَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ﴾ على الحق، وامتننا عليك بعدم الإجابة لداعيهم ﴿لَقَدْ كِدَتْ تَرِكَنَ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ من كثرة المعالجة، ومحبتك لهديتهم .

﴿إِذَا﴾ لو ركنت إليهم بما يهون ﴿لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: لأصيناك بعذاب مضاعف، في الدنيا والآخرة، وذلك لكمال نعمة الله عليك، وكمال معرفتك .

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ ينفذك مما يحل بك من العذاب، ولكن الله تعالى عصمك من أسباب الشر، ومن البشر، فثبتك وهداك الصراط المستقيم، ولم تترك إليهم بوجه من الوجوه، فله عليك أتم نعمة، وأبلغ منحة .

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ أي: من بغضهم لمقامك بين أظهرهم، قد كادوا أن يخرجوك من الأرض، ويجلوك منها .

ولو فعلوا ذلك، لم يلبثوا بعدك فيها إلا قليلًا، حتى تحل بهم العقوبة، كما هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في جميع الأمم، كل أمة كذبت رسولها وأخرجته، عاجلها الله بالعقوبة .

ولما مكر به الذين كفروا، وأخرجوه، لم يلبثوا إلا قليلًا،

حتى أوقع الله بهم بـ «بدر» وقتل صناديدهم، وفض بيضتهم، فله الحمد.

وفي هذه الآيات، دليل على شدة افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه، وأنه ينبغي له أن لا يزال متملقاً لربه، أن يبثه على الإيمان، ساعياً في كل سبب موصل إلى ذلك، لأن النبي ﷺ وهو أكمل الخلق، قال الله له: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تَبَنَّكَ لَقَدْ كِدْتُ تَرَكُّنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ فكيف بغيره؟!

وفيها تذكير الله لرسوله ﷺ عليه، وعصمته من الشر. فدل ذلك على أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا لإعامه عليهم - عند وجود أسباب الشر - بالعصمة منه، والثبات على الإيمان.

وفيها: أنه بحسب علو مرتبة العبد، وتواتر النعم عليه من الله يعظم إثمه، ويتضاعف جرمه، إذا فعل ما يلام عليه، لأن الله ذكّر رسوله لو فعل - وحاشاه من ذلك - بقوله: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْهَا نَصِيرًا﴾.

وفيها أن الله إذا أراد إهلاك أمة، تضاعف جرمها، وعظم وكبر، فيحق عليها القول من الله، فيوقع بها العقاب، كما هي سنته في الأمم، إذا أخرجوا رسولهم.

(٧٨-٨١) ﴿أَفَمِ الْصَّلَاةِ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنِ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ۝ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْ مُدْخَلَ صِدْقِي وَأَخْرِجْ مَخْرَجَ صِدْقِي وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ۝ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ۝ يَأْمُرُ تَعَالَى نَبِيَهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ تامة، ظاهرًا وباطنًا في أوقاتها ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي: ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال، فيدخل في ذلك صلاة الظهر وصلاة العصر.

﴿إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ أي: ظلمته، فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة العشاء ﴿وَقُرْآنِ الْفَجْرِ﴾ أي: صلاة الفجر، وسميت قرآنًا، لمشروعية إطالة القراءة فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة حيث يشهدها الله وملائكة الليل وملائكة النهار.

ففي هذه الآية ذكر الأوقات الخمسة للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيها فرائض، لتخصيصها بالامر.

وفيها أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها، لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات. وأن الظهر والعصر يجمعان، والمغرب والعشاء كذلك، للعدر، لأن الله

جمع وقتها جميعًا.

وفيه: فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها، دل على فرضية ذلك.

وقوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ أي: صل به في سائر أوقاته ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ أي: لتكون صلاة الليل، زيادة لك في علو القدر، ورفع الدرجات بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، لكرامتك على الله أن جعل وظيفتك أكثر من غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمد فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى. وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم، ليرحبهم الله من هم الموقف وكربه. فيشفع عند ربه، فيشفعه، ويقيم مقامًا، يغبطه به الأولون والآخرون. وتكون له المنة على جميع الخلق.

وقوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْ مُدْخَلَ صِدْقِي وَأَخْرِجْ مَخْرَجَ صِدْقِي﴾ أي: اجعل مداخلي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص، وموافقة الأمر. ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ أي: حجة ظاهرة، وبرهانًا قاطعًا على جميع ما أتبه وما أذره.

وهذا أعلى حالة، ينزلها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيرًا، ومقربة له إلى ربه، وأن يكون له - على كل حالة من أحواله - دليلًا ظاهرًا، وذلك متضمن للعلم النافع، والعمل الصالح، للعلم بالمسائل والدلائل.

وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، فأمره الله أن يقول ويعلم، قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل أي: اضمحل وتلاشى.

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان، إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل، فلا يبقى له حراك. ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الخالية من العلم بآيات الله وبياناته.

(٨٢) وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَمِيمًا وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ فالقرآن مشتمل على الشفاء

والرحمة. وليس ذلك لكل أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العالمين به. وأما الظالمون بعدم التصديق به، أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً، إذ به تقوم عليهم الحجة.

فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة والانحراف السيء، والقصود السيئة^(١). فإنه مشتمل على العلم اليقيني الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، وشفاء الأبدان من الآمها وأسقامها.

وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يحث عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والآجل.

(٨٣) ﴿وَإِذْ آتَيْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ آعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ هذه طبيعة الإنسان، من حيث هو إلا من هداه الله. فإن الإنسان - عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعم، ويبطر بها، ويعرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره، ولا يذكره ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ كالمرض ونحوه ﴿كَانَ يَئُوسًا﴾ من الخير، قد قطع عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبداً.

وأما من هداه الله، فإنه - عند النعم - يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضراء يتضرع، ويرجو من الله عافيته، وإزالة ما وقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

(٨٤) ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ أي: ﴿قُلْ كُلٌّ﴾ من الناس ﴿يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ﴾ أي: على ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار، لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين. ومن كان من غيرهم من المخذولين لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم.

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا﴾ فيعلم من يصلح للهداية، فيهديه، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه.

(٨٥) ﴿وَسْتَلْزِمُوا عَنِ الرُّوحِ قُلُوبَ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفية كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد.

ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكون فكانت. فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم

سورة الأنبياء

٢٩٠

سورة الأنبياء

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكُمْ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكُمْ مِنْهَا وَإِذْ لَا يَلْبَثُونَ خِطْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سِنَّةً مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَقْبَرُ الصَّلَاةُ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى عَسْقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَتْ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنْ آيَاتِ فَتْحِجْدِي بِهِ نَافِلَةٌ لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْءَانِ إِنْ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَوْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَسْتَلْزِمُوا عَنِ الرُّوحِ قُلُوبَ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لِهَذَا عِلْمًا وَكَيْلًا ﴿٨٦﴾

بغيرها.

وفي هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر، الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه.

(٨٦، ٨٧) ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عِلْمًا وَكَيْلًا﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَتْ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله، رحمة منه عليه وعلى عباده، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله، فإن فضل الله عليه كبير، لا يقادر قدره. فالذي تفضل به عليك، قادر على أن يذهب به، ثم لا تجد راداً يردّه، ولا وكيلاً يتوجه عند الله فيه. فَتَعْتَبُ بِهِ، وَتَقَرُّ بِهِ عَيْنِكَ، ولا يحزنك تكذيب المكذبين، واستهزاء الضالين، فإنهم عرضت عليهم أجل النعم، فردوها لهوانهم على الله، وخذلانه لهم.

(٨٨) ﴿قُلْ لِيْنَ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسَانُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِبَيِّنَةٍ هَذَا

الْقُرْءَانَ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ. وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٩﴾ وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، على صحة ما جاء به الرسول وصدقه. حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدرُوا عليه.

ووقع كما أخبر الله، فإن دواعي أعدائه المكذبين به، متوفرة على رد ما جاء به بأي وجه كان، وهم أهل اللسان والنصاحة. فلو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن من ذلك، لفعلوه.

فعلم بذلك، أنهم أذعنوا غاية الإذعان، طوعًا وكرهًا، وعجزوا عن معارضته.

وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة، ولا إرادة ولا مشيئة، ولا كلام ولا كمال، إلا من ربه، أن يعارض كلام رب الأرض والسماوات، المطلع على سائر الخفيات الذي له الكمال المطلق، والحمد المطلق، والمجد العظيم، الذي لو أن البحر يمدّه من بعده سبعة أبحر مدادًا، والأشجار كلها أقلامًا، لنفد المداد، وفنيت الأقلام، ولم تنفد كلمات الله.

فكما أنه ليس أحد من المخلوقين مماثلاً لله في أوصافه، فكلامه من أوصافه، التي لا يماثله فيها أحد. فليس كمثله شيء، في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله تبارك وتعالى.

فتباً لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمداً ﷺ افتراه على الله واختلقه من نفسه.

(٨٩-٩٦) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَلَّا أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٠﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَنْجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٢﴾ أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِلِلِّهِ وَالْمَلَكِ كَيْفِيًّا ﴿٩٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْبِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَرْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكَاتٍ رَسُولًا ﴿٩٦﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

أي: نوعنا فيه المواعظ والأمثال، وثبنا فيه المعاني التي يضطر إليها العباد، لأجل أن يتذكروا ويتقوا، فلم يتذكر إلا القليل منهم الذين سبق لهم من الله سابقة السعادة، وأعانهم الله بتوفيقه. وأما أكثر الناس فأبوا إلا كفورًا لهذه النعمة التي هي أكبر من جميع النعم، وجعلوا يتعتنون عليه [باقترح] (١)

﴿٩٠﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ. وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٩﴾

﴿٩١﴾ لَنْ أَجْتَمَعَتْ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ. وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

﴿٩٢﴾ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَلَّا أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٠﴾ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَنْبٌ فَتَنْجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَافَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٢﴾ أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِلِلِّهِ وَالْمَلَكِ كَيْفِيًّا ﴿٩٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْبِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾ قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَرْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكَاتٍ رَسُولًا ﴿٩٦﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٧﴾

آيات غير آياته، يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة. فيقولون لرسول الله ﷺ الذي أتى بهذا القرآن المشتمل على كل برهان وآية: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَنْجِرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا﴾ أي: أنهارًا جارية.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَعَنْبٌ﴾ فنستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء.

﴿أَوْ تَسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا﴾ أي: قطعًا من العذاب ﴿أَوْ تَأْتِي بِلِلِّهِ وَالْمَلَكِ كَيْفِيًّا﴾ أي: جميعًا، أو مقابلة ومعابنة، يشهدون لك بما جئت به.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ﴾ أي: مزخرف بالذهب وغيره ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ رقبًا حسبًا ﴿و﴾ مع هذا ف ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لِرُقَيْبِكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ﴾.

ولما كانت هذه تمننات، وتعجيزات، وكلام أسفهِ الناس وأظلمهم، متضمنة لرد الحق، وسوء الأدب مع الله، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات - أمره الله أن ينزله فقال:

(١) زيادة يقتضها السياق.

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَهُمْ أَوْلِيَاءَ
 مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبِكَمَا
 وَصَّامًا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿١٧﴾
 ذَلِكَ جَزَاءُ هُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا
 وَرَفْتًا أَوْ نَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٨﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
 الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
 وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَإِنِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٩﴾
 قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
 الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿٢٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ
 آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
 إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿٢١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ
 هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ
 يَفِرْعَوْنَ مُتَّبِعًا ﴿٢٢﴾ فَآرَادَ أَنْ يَنْفِرْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ
 فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿٢٣﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ
 اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذْ جَاءَهُمْ وَعَدُّ الْأَخِرَةِ جُنَاكِم بِكُم لَيْفِيْنَا ﴿٢٤﴾

خلق الناس. ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ بلى، إنه على ذلك قدير.

﴿و﴾ لكنه قد ﴿جَعَلَ﴾ لذلك ﴿أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شك، وإلا فلو شاء لجاءهم به بغتة، ومع إقامة الحجج والأدلة على البعث ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ ظلمًا منهم وافتراء.

﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ التي لا تنفذ ولا تبعد ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أي: خشية أن ينفذ ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفذ خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

(١٠١-١٠٤) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفِرْعَوْنَ مُتَّبِعًا ﴿٢١﴾ فَآرَادَ أَنْ يَنْفِرْهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿٢٢﴾ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَدُّ الْأَخِرَةِ جُنَاكِم بِكُم لَيْفِيْنَا ﴿٢٣﴾ أي: لست أيها الرسول المؤيد بالآيات، أول رسول كذبه الناس، فلقد أرسلنا قبلك موسى ابن عمران الكليم، إلى فرعون وقومه، وآتيناه ﴿تِسْعَ آيَاتٍ

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ عما تقولون علوًا كبيرًا، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة ﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ليس بيدي شيء من الأمر.

وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشرًا. وهذا من رحمته بهم، أن أرسل إليهم بشرًا منهم، فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.

فلو ﴿كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَكَةٌ يَمَشُورَةٌ مُطْمَئِنِّينَ﴾ يثبتون على رؤية الملائكة، والتلقي عنهم ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ ليمكنهم التلقي عنه.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِيَالِهَةِ شُهَدَاءٍ يُبَيِّنُ وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾، فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات، وما أنزله عليه من الآيات، ونصره على من عاداه وناواه. فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين. فإنه خبير بصير، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

(٩٧-١٠٠) ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبِكَمَا وَصَّامًا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ هُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا أَوْ نَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٨﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَإِنِ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿١٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴿٢٠﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال. فمن يهده، فيسيره لليسرى ويجنبه العسرى، فهو المهتدي على الحقيقة. ومن يضلله، فيخذله، ويكله إلى نفسه، فلا هادي له من دون الله. وليس له ولي ينصره من عذاب الله، حين يحشرهم الله على وجوههم خزيًا وإهانة، عميًا وبكمًا، لا يبصرون، ولا ينطقون.

﴿مَأْوَاهُمْ﴾ أي: مقرهم ودارهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ التي جمعت كل هم، وغم، وعذاب.

﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾ أي: تهيأت للانطفاء ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: سعرتها بهم لا يفتّر عنهم العذاب ولا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، ولم يظلمهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذي أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم وأنكروا تمام قدرته.

﴿وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرَفْتًا أَوْ نَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ أي: لا يكون هذا لأنه في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة.

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وهي أكبر من

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ ٢٩٣

وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾
 وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةَ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿١٠٦﴾
 قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْئَلُ
 عَلَيْهِمْ يَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن كَانَ
 وَعَدْرُنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَزِيدُهُم
 خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ
 الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ
 بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ
 لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلٰلِ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴿١﴾
 فَيَمًا يَلْتَنِدِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
 يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَكِينٍ
 فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَنَذِيرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾

غاية التأثر، ويخضعون له .
 ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا ﴾ عما لا يليق بجلاله، مما نسبه إليه
 المشركون ﴿ إِن كَانَتْ وَعْدَ رَبِّنَا ﴾ بالبعث والجزاء بالأعمال
 ﴿ لَمَفْعُولًا ﴾ لا تخلف فيه ولا شك .
 ﴿ وَيَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: على وجوههم ﴿ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ ﴾
 القرآن ﴿ خُشُوعًا ﴾ وهؤلاء كالذين آمن بالله عليهم من مؤمني أهل
 الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره، ممن آمن^(١) في وقت النبي
 ﷺ، وبعد ذلك .
 (١١٠، ١١١) ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ
 الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ
 سَبِيلًا ﴾ ○ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ
 وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلٰلِ وَكِبْرُهُ تَكْبِيرًا ﴿ يقول تعالى لعباده: ﴿ ادْعُوا
 اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمٰنَ ﴾ أي: أيهما شئتم . ﴿ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ
 الْحُسْنَىٰ ﴾ أي: ليس له اسم غير حسن، حتى ينهي عن دعائه به،
 بل أي اسم دعوتومه به، حصل به المقصود، والذي ينبغي:

يَنْتَبِهُ ﴿ كل واحدة منها تكفي لمن قضده اتباع الحق: كالحية،
 والعصا، والظوفان والجراد، والقمل والضفادع، والدم،
 والرَّجَز، وقلق البحر. فإن شككت في شيء من ذلك ﴾ فَسْتَلِ
 بَيْتَ إِسْرٰوِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فِرْعَوْنُ ﴿ مع هذه الآيات ﴾ إِنِّي
 لَأُظُنُّكُمْ بِمُؤَسَىٰ مَسْحُورًا .
 ف ﴿ قَالَ ﴾ له موسى ﴿ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ يا فرعون ﴿ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ ﴾
 الآيات ﴿ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ ﴾ منه لعباده، فليس
 قولك هذا بالحقيقة، وإنما قلت ذلك ترويجًا على قومك،
 واستخفافًا لهم ﴿ وَإِنِّي لَأُظُنُّكُمْ بِمُؤَسَىٰ مَسْحُورًا ﴾ أي: ممقوتًا
 ملقى في العذاب، لك الويل والذم واللعنة .
 ﴿ فَارَادَ ﴾ فرعون ﴿ أَن يَسْتَفْزِمَهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ ﴾ أي: يجلبهم
 ويخرجهم منها . ﴿ فَاعْرِفْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴾ وأورثنا بني إسرائيل
 أرضهم وديارهم .
 ولهذا قال: ﴿ وَقُلْنَا مِمَّن بَعْدِهِ بَيْتُ إِسْرٰوِيلَ أَسْكَنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا
 جَاءَ وَعْدَ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ أي: جميعًا، ليجازي كل عامل
 بعمله .
 (١٠٥) ﴿ وَالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾
 أي: وبالحق أنزلنا هذا القرآن الكريم، لأمر العباد، ونهيهم،
 وثوابهم، وعقابهم ﴿ وَالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ أي: بالصدق والعدل،
 والحفظ من كل شيطان رجيم .
 ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا ﴾ من أطاع الله بالثواب العاجل
 والآجل ﴿ وَنَذِيرًا ﴾ لمن عصى الله، بالعقاب العاجل والآجل،
 ويلزم من ذلك، بيان ما بشر به وأنذر .
 (١٠٦-١٠٩) ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةَ وَنَزَلْنَاهُ
 نَزِيلًا ﴾ ○ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُسْئَلُ
 عَلَيْهِمْ يَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدَ رَبِّنَا
 لَمَفْعُولًا ﴾ وَيَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿ أي:
 وأنزلنا هذا القرآن مفرقًا فارقًا بين الهدى والضلال، والحق
 والباطل ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مَكَّةَ ﴾ أي: على مهل، ليتدبروه،
 ويتفكروا في معانيه، ويستخرجوا علومه .
 ﴿ وَنَزَلْنَاهُ نَزِيلًا ﴾ أي: شيئًا فشيئًا، مفرقًا في ثلاث وعشرين
 سنة .
 ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ . فإذا
 تبين أنه الحق الذي لا شك فيه ولا ريب، بوجه من الوجوه ف:
 ﴿ قُلْ ﴾ لمن كذب به، وأعرض عنه: ﴿ ءَامِنُوا بِهِ ءَوْ لَا
 تُؤْمِنُوا ﴾ فليس لله حاجة فيكم، ولستم بضاربه شيئًا، وإنما ضرر
 ذلك عليكم . فإن الله عبادًا غيركم، وهم الذين آتاهم الله العلم
 النافع: ﴿ إِذَا يُسْئَلُ عَلَيْهِمْ يَحْزَنُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي: يتأثرون به

(١) في ب: أسلم .

وَمُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَثُرَتْ كَلِمَةٌ تَنْجِيهِمْ مِنْ أَوْفِيهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۚ فَلَمَّا بَلَغْ نَحْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۚ الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته التي هي كلها صفات كمال، وبتعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية وأجل نعمه على الإطلاق: إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله، محمد ﷺ، فحمد نفسه، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمده على إرسال الرسول إليهم، وإنزال الكتاب عليهم. ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين، على أنه الكامل من جميع الوجوه، وهما نفي العوج عنه، وإثبات أنه قيم^(١) مستقيم، فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب، ولا في أوامره ونواهيه ظلم ولا عبث.

وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجلّ الإخبارات وهي الأخبار التي تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعقلاً، كالإخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومنها الغيوب

(١) كان الشيخ - رحمه الله - قد طلب في ١٣٧٤/٢/٣١ من الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - أن يختار من يتولى طباعة خمسة الآف نسخة من المجلد الخامس من التفسير، وذكر محب الدين الخطيب والشيخ حامد الفقي - رحمهما الله - فبعث الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - بالكتاب إلى الأستاذ محب الدين الخطيب لطباعته، وطبع بالفعل عام ١٣٧٥هـ، وقد جعل الشيخ - رحمه الله - لهذا الجزء مقدمة، وأتبعه بخاتمة فيها أصول وكميات من أصول وكميات التفسير، وهذه هي مقدمة الشيخ لهذا الجزء، وأما الخاتمة فقد جعلتها في آخر التفسير، قال - رحمه الله -:

(بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه. أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه، لكونه تنزيلًا من حكيم حميد، أنزله هدى ورحمة للعباد وتبينًا لكل شيء، وتفصيلًا لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة، ويوجه العباد إلى كل خير، ويحذرهم من كل شر، ويعيد تقرير هذه الأمور وينديها بأساليب متنوعة وتصاريف مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه. وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه والنحو لما يرونه من الفائدة الكبيرة، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جدًا لأنه مبسوط، وأيضًا في هذه الأوقات قلّت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحسبت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا، وهو الاقتصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه. وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه، نافعًا لنا ولإخواننا، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه، إنه جواد كريم رءوف رحيم. وأتبعته بكميات وأصول من كميات التفسير لاستدراك ما لعله يفوت القارئ في غير هذا الجزء، فإن الأصول والكميات تبني عليها الفروع والجزئيات، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل، وهو حسبننا ونعم الوكيل. (٢) في ب: مقيم.

أن يدعى في كل مطلوب، بما يناسب ذلك الاسم. ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي: قراءتك ﴿وَلَا تَخَافَتْ بِهَا﴾ فإن في كل من الأمرين محذورًا. أما الجهر، فإن المشركين المكذبين به إذا سمعوه، سبّوه، وسبّوا من جاء به.

وأما المخافتة، فإنه لا يحصل المقصود لمن أراد استماعه مع الإخفاء. ﴿وَأَبْتَجْ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: بين الجهر والإخفات ﴿سَبِيلًا﴾ أي: توسط فيما بينهما.

﴿وَقُلْ لِمَنْدُ لِلَّهِ الَّذِي﴾ له الكمال، والثناء، والحمد، والمجد من جميع الوجوه، المنزه عن كل آفة ونقص. ﴿الَّذِي لَمْ يَخُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ﴾ بل الملك كلّه الله الواحد القهار. فالعالم العلوي والسفلي، كلهم مملوكون لله، ليس لأحد من الملك شيء.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ الدَّلِّ﴾ أي: لا يتولى أحدًا من خلقه، ليتعزز به ويعاونه. فإنه الغني الحميد الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات، في الأرض ولا في السماوات، ولكنه يتخذ أولياء إحسانًا منه إليهم ورحمة بهم ﴿اللَّهُ وَوَيْلٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾.

﴿وَكِبْرَةٌ تَكْبِيرًا﴾ أي: عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة، وبالثناء عليه، بأسمائه الحسنى، وبتمجيدته بأفعاله المقدسة، وبتعظيمه وإجلاله بعبادته وحده، لا شريك له، وإخلاص الدين كله له.

تم تفسير سورة الإسراء، والله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامعه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا وذلك في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٤.

المجلد الخامس من تيسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المنان لجامعه الفقير إلى الله عبدالرحمن بن ناصر السعدي^(١).

تفسير سورة الكهف

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَمْ عِجَابًا ۚ فِيمَا كُنْتُمْ بَاسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُنشِرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَمْشُونَ الْمَسْلُوحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۚ مَّنْ كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ ولهذا قال هنا: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي: كذبًا محضًا ما فيه من الصدق شيء، وتأمل كيف أبطل هذا القول بالتدرج والانتقال من شيء إلى أبطل منه، فأخبر أولًا: أنه ﴿مَا لَكُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ والقول على الله بلا علم، لا شك في منعه وبطلانه، ثم أخبر ثانيًا، أنه قول قبيح شنيع فقال: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ثم ذكر ثالثًا مرتبته من القبح، وهو الكذب المنافي للصدق.

ولما كان النبي ﷺ، حريصًا على هداية الخلق، ساعيًا في ذلك أعظم السعي، فكان ﷺ، يفرح ويسر بهداية المهتدين، ويحزن ويأسف على المكذبين الضالين، شفقة منه ﷺ عليهم، ورحمة بهم، أرشده الله أن لا يشغل نفسه بالأسف على هؤلاء الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، كما قال في الآية الأخرى.

﴿لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، حَرِيصًا عَلَىٰ هِدَايَةِ الْخَلْقِ، سَاعِيًا فِي ذَلِكَ أَعْظَمَ السَّعْيِ، فَكَانَ ﷺ، يَفْرَحُ وَيَسُرُّ بِهِدَايَةِ الْمُهْتَدِينَ، وَيَحْزَنُ وَيَأْسَفُ عَلَى الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ، شَفَقَةً مِنْهُ ﷺ عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، أَرَشَدَهُ اللَّهُ أَنْ لَا يَشْغُلَ نَفْسَهُ بِالْأَسْفِ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَىٰ.

﴿لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، حَرِيصًا عَلَىٰ هِدَايَةِ الْخَلْقِ، سَاعِيًا فِي ذَلِكَ أَعْظَمَ السَّعْيِ، فَكَانَ ﷺ، يَفْرَحُ وَيَسُرُّ بِهِدَايَةِ الْمُهْتَدِينَ، وَيَحْزَنُ وَيَأْسَفُ عَلَى الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ، شَفَقَةً مِنْهُ ﷺ عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، أَرَشَدَهُ اللَّهُ أَنْ لَا يَشْغُلَ نَفْسَهُ بِالْأَسْفِ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَىٰ.

﴿لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، حَرِيصًا عَلَىٰ هِدَايَةِ الْخَلْقِ، سَاعِيًا فِي ذَلِكَ أَعْظَمَ السَّعْيِ، فَكَانَ ﷺ، يَفْرَحُ وَيَسُرُّ بِهِدَايَةِ الْمُهْتَدِينَ، وَيَحْزَنُ وَيَأْسَفُ عَلَى الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ، شَفَقَةً مِنْهُ ﷺ عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، أَرَشَدَهُ اللَّهُ أَنْ لَا يَشْغُلَ نَفْسَهُ بِالْأَسْفِ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَىٰ.

﴿لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، حَرِيصًا عَلَىٰ هِدَايَةِ الْخَلْقِ، سَاعِيًا فِي ذَلِكَ أَعْظَمَ السَّعْيِ، فَكَانَ ﷺ، يَفْرَحُ وَيَسُرُّ بِهِدَايَةِ الْمُهْتَدِينَ، وَيَحْزَنُ وَيَأْسَفُ عَلَى الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ، شَفَقَةً مِنْهُ ﷺ عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، أَرَشَدَهُ اللَّهُ أَنْ لَا يَشْغُلَ نَفْسَهُ بِالْأَسْفِ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَىٰ.

﴿لَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ، حَرِيصًا عَلَىٰ هِدَايَةِ الْخَلْقِ، سَاعِيًا فِي ذَلِكَ أَعْظَمَ السَّعْيِ، فَكَانَ ﷺ، يَفْرَحُ وَيَسُرُّ بِهِدَايَةِ الْمُهْتَدِينَ، وَيَحْزَنُ وَيَأْسَفُ عَلَى الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ، شَفَقَةً مِنْهُ ﷺ عَلَيْهِمْ، وَرَحْمَةً بِهِمْ، أَرَشَدَهُ اللَّهُ أَنْ لَا يَشْغُلَ نَفْسَهُ بِالْأَسْفِ عَلَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْقُرْآنِ، كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْآخِرَىٰ.

المتقدمة والمتأخرة، وأن أوامره ونواهيه تركي النفوس، وتطهرها وتميها وتكملها، لاشتمالها على كمال العدل والقسط، والإخلاص، والعبودية لله رب العالمين، وحده لا شريك له. وحقيق بكتاب موصوف بما ذكر، أن يحمد الله نفسه على إنزاله، وأن يتمدح إلى عبادته به.

وقوله: ﴿يَسْتَذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾ أي: لينذر بهذا القرآن الكريم، عقابه الذي عنده، أي: قدره وقضاه، على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا، وعقاب الآخرة، وهذا أيضًا من نعمه أن خَوَّفَ عباده، وأنذرهم، ما يضرهم ويهلكهم، كما قال تعالى - لما ذكر في هذا القرآن وصف النار - قال: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُمْ يَعْبَاوُ فَاتَّقُونَ﴾ فمن رحمته بعباده، أن يقض العقوبات الغليظة على من خالف أمره، وبينها لهم، وبين لهم الأسباب الموصلة إليها.

﴿وَيَسِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ أي: وأنزل الله على عبده الكتاب، ليبشر المؤمنين به، ويرسله، وكتبه، الذين كمل إيمانهم، فأوجب لهم عمل الصالحات، وهي الأعمال الصالحة، من واجب، ومستحب، التي جمعت الإخلاص والمتابعة.

﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو الثواب الذي رتبته الله على الإيمان والعمل الصالح، وأعظمه وأجله الفوز برضا الله ودخول الجنة، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وفي وصفه بالحسن دلالة على أنه لا مكدر فيه، ولا منغص بوجه من الوجوه، إذ لو وجد فيه شيء من ذلك، لم يكن حسنه تامًا.

ومع ذلك فهذا الأجر الحسن ﴿تَكْتَسِبُونَ فِيهِ أَبَدًا﴾ لا يزول عنهم، ولا يزولون عنه، بل نعيمهم في كل وقت متزايد، وفي ذكر التبشير ما يقتضي ذكر الأعمال الموجبة للمبشر به. وهو أن هذا القرآن قد اشتمل على كل عمل صالح، موصل لما تستبشر به النفوس، وتفرح به الأرواح.

﴿وَيَسْتَذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ من اليهود والنصارى، والمشركين الذين قالوا هذه المقالة الشنيعة، فإنهم لم يقولوها عن علم ولا يقين، لا علم منهم، ولا علم من آبائهم الذين قلدهم واتبعوهم، بل إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: عظمت شناعتها واشتدت عقوبتها، وأي شناعة أعظم من وصفه، بالاتخاذ للولد^(١)، الذي يقتضي نقصه، ومشاركة غيره له في خصائص الربوبية، والإلهية، والكذب عليه!!

(١) كذا في ب، وفي: الولد. (٢) في ب: ملايس.

سورة الكهف

٢٩٤

سورة الكهف

مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعلَّكَ بَخِعٌ بِفَسَاكٍ عَلَيَّ أَتْرَهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيصَ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا لَهُمْ إِبْرَاهِيمَ الْحَزِينِ أَحْصِيَ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ تَحَنَّنْ رَحْمَتُكَ عَلَيْهِمْ يَا حَقُّ إِنَّهُمْ فَتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبِّطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهَا لَقَدْ قَلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَتُولَاءِ قَوْمًا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنه واختبارًا.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة، وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيدًا جرزًا قد ذهب لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأيي عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورغبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا. فاعتر بزخرف الدنيا وزينتها من نظر إلى ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وتمتعوا بها تمتع السوائم، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفة، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة انفتحت، فهؤلاء إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يدها، من التفريط والسيئات.

وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه، فإنه تناول منها، ما يستعين به على ما خلق له، وانتهز الفرصة في عمره الشريف، فجعل الدنيا منزل عبور لا محل حبور، وشقة سفر لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه، وتفيد أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا، حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لأخرته، حين عمل البطال لذنيه، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين!!

(٩-١٢) ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيصِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ ○ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ○ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ○ ثُمَّ بَعَثْنَا لَهُمْ إِبْرَاهِيمَ الْحَزِينِ أَحْصِيَ لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا ○ وهذا الاستفهام بمعنى النفي، والنهي. أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف وما جرى لهم، غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل لله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته في أصحاب الكهف، وأعظم منها، فلم يزل الله يُري عباده من الآيات في الآفاق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي عن أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة. وإنما المراد، أن جنسها كثير جدًا، فالوقوف معها

وحدها، في مقام العجب والاستغراب، نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان. وأضافهم إلى الكهف الذي هو الغار في الجبل؛ والرقيص، أي: الكتاب الذي قد رقت فيه أسماؤهم وقصتهم، لملازمتهم له دهرًا طويلًا.

ثم ذكر قصتهم مجملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ﴾ أي: الشباب، ﴿إِلَى الْكَهْفِ﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم. ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ أي: تبتنا بها وتحفظنا من الشر وتوفقتنا للخير ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشd، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه؛ وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم؛ وعدم اتكالهم على أنفسهم، وعلى الخلق.

فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ﴾ أي: أنماهم

عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۗ لَمَا ذَكَرُوا مَا مَنَّ اللَّهُ بِهِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْهُدَى، التفتوا^(١) إلى ما كان عليه قومهم، من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال فقالوا: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَكَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ۗ أَيُّ: بحجة وبرهان، على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله، وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۗ﴾.

(١٦) ﴿رَادَ اعْتَرَلْتُهُمْ وَمَا يَبْدُورُ إِلَّا اللَّهُ فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۗ أَيُّ: قال بعضهم لبعض، إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المفضية لذلك، لأنه لا سبيل لهم إلى قتالهم ولا بقائهم^(٢) بين أظهرهم، وهم على غير دينهم.

﴿فَأَوَّا إِلَى الْكَهْفِ ۗ أَيُّ: انضموا إليه واختفوا فيه﴾ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ۗ. وفيما تقدم، أخبر أنهم دعوه بقولهم: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۗ﴾ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهياً لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الشاء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال:

(١٧، ١٨) ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزُورُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ عَدَايَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ۗ وَحَسْبِهِمْ أَنْفُسُهُمْ أَفَكُنَّا لَمْ نُؤْمَرْ بِتَقْرِضِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَسِطَ زِدَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلِمَاتٍ مِنْهُمْ رُعبًا ۗ أَيُّ: حفظهم الله من الشمس، فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس، تميل عنه يميناً، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها فتفسد أديانهم بها.

﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ۗ أَيُّ: من الكهف أي: مكان متسع، وذلك ليطرقهم الهواء والسيب، ويوزل عنهم الوحم، والتأذي بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول المكث، وذلك من آيات

﴿سَبِيحٌ عُدَدًا ۗ﴾ وهي ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم وليكون آية بيته.

﴿فَعَرَّ بِمَنْتَهُمْ ۗ أَيُّ: من نومهم﴾ لِيَعْلَمَ أَنَّ الْجَزِيْنَ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ۗ أَيُّ: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ۗ﴾ الآية، وفي العلم بمقدار لبثهم ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى، وحكمته، ورحمته. فلو استمروا على نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك، من قصتهم.

(١٣، ١٤) ﴿حَتَّى نَفُصَّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذْنَهُمْ هُدًى ۚ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ۗ﴾ هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق، الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ ۗ﴾ وهذا من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة، ﴿آمَنُوا﴾ بالله وحده لا شريك له، من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اهتدائهم إلى الإيمان زادهم الله من الهدى، الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ أَحْتَدَوْا هُدًى ۗ﴾.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ ۗ أَيُّ: صبرناهم وثبتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبيته، أن وفقهم للإيمان والهدى، والصبر والثبات، والطمأنينة.

﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَيُّ: الذي خلقنا ورزقنا، وديرنا وربانا، هو خالق السموات والأرض، المنفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبية، على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا:

﴿لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا ۗ أَيُّ: من سائر المخلوقات﴾ لَقَدْ قُلْنَا إِذًا ۗ أَيُّ: إن دعونا معه آلهة، بعد ما علمنا أنه الرب الإله، الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شَطَطًا ۗ أَيُّ: ميلاً عظيماً عن الحق، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتزام ذلك، وبيان أنه الحق، وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

(١٥) ﴿هُنَالِكَ قَوْمًا ائْتَدُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَوْلَا يَأْتُونَ

(١) في ب: والتقوى، وهو تصحيف. (٢) في النسخين: ولا بقاؤهم.

سورة الكهف

٢٩٥

سورة الكهف

وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوْا إِلَى الْكَهْفِ
يَنْشُرْ لَكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا
﴿١٧﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرُورَعْنَ كَهْفَهُمْ ذَاتَ
الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرُّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ
مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِي اللَّهُ فَمَا لَهُ الْهُدَى وَمَنْ
يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيْقَاطًا
وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ
بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ
فِرَارًا وَلَمِ لَمْتٌ مِنْهُمْ رُعبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ
لَيْسَاءَ لَوِا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالُوا لَبِثْنَا
يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا
أَحَدَكُمْ بِرُوقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى
طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

طول مدتهم، فهذا ﴿قَالُوا رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾. فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلاً. ولعل الله تعالى - بعد ذلك - أطلعهم على مدة لبثهم، لأنه بعثهم لَيْسَاءَ لَوِا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه. فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً. ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: ﴿وَكَذَلِكَ اعْتَرَلْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾. فلولا أنه حصل العلم بحالهم، لم يكونوا دليلاً على ما ذكر، ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بورقهم، أي: بالدرهم التي كانت معهم، ليشتري لهم طعاماً يأكلونه، من المدينة التي خرجوا منها، وأمره أن يتخير من الطعام أزكاه، أي: أطيبه وألذه، وأن يتلف في ذهابه وشرائه، وإيابه، وأن يخفي في

الله الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم، حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين.

﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ أي: لا تجد من يتولاه ويدبره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والفلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ آيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: تحسبهم أيها الناظر إليهم [كانهم] (١) أيقاظ، والحال أنهم نيام.

قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتوحة، لثلاث تفسد، فلناظر إليهم، يحسبهم أيقاظاً، وهم رقود.

﴿وَنُقِلَبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها، أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم، يميناً وشمالاً، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير قلب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

﴿وَكَلْبُهُمْ بَسِيطٌ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه بالوصيد، أي: الباب، أو فئانه، هذا حفظهم من الأرض. وأما حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه حماهم بالرعب، الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد، لامتلأ قلبه رعباً، وولى منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، وهم لم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة جداً. والدليل على قربهم، أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم، يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

(٢٠، ١٩) ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لَيْسَاءَ لَوِا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِرُوقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ○ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ يقول تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ من نومهم الطويل ﴿لَيْسَاءَ لَوِا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وهذا مبني على ظن القائل، وكانهم وقع عندهم اشتباه في

(١) في النسختين: كأنه.

على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية.

وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم و﴿قَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا﴾ الله أعلم بحالهم ومآلهم.

وقال من غلب على أمرهم - وهم الذين لهم الأمر: ﴿لَتَنخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ أي: نعبد الله تعالى فيه، وتذكر به أحوالهم، وما جرى لهم. وهذه الحالة محظورة، نهى عنها النبي ﷺ وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجدًا بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة، دليل على أن من فرَّ بدينه من الفتن، سلمه الله منها. وأن من حرص على العافية عافاه الله، ومن أوى إلى الله، آواه الله، وجعله هداية لغيره. ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبته، العزَّ العظيم، من حيث لا يحتسب ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ﴾.

(٢٢) ﴿سَقُولُونَ ثَلَاثَةَ رِيبَهُمْ لِكَبْهَمُ وَيَقُولُونَ حَمْسَةَ سَادِسْتُمْ كَلْبَهُمْ رَجْمًا بِالْقَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةَ وَثَامْتُمْ كَلْبَهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَحَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهْرًا وَلَا تَسْقَفِ فِيهِمْ مَنَهُمْ أَحَدًا﴾ يخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب في عدة أصحاب الكهف، اختلافًا صادرًا عن رجمهم بالغيب، وتقوُّلهم بما لا يعلمون، وأنهم فيهم على ثلاثة أقوال:

منهم من يقول: ثلاثة، رابعهم كلبهم. ومنهم من يقول: خمسة، سادسهم كلبهم. وهذا القولان، ذكر الله بعدهما، أن هذا رجم منهم بالغيب، فدل على بطلانها.

ومنهم من يقول: سبعة، وثامنهم كلبهم، وهذا - والله أعلم - الصواب، لأن الله أبطل الأولين، ولم يطله، فدل على صحته. وهذا من الاختلاف الذي لا فائدة تحته، ولا يحصل بمعرفة عددهم مصلحة للناس، دينية، ولا دنيوية، ولهذا قال تعالى:

﴿قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وهم الذين أصابوا الصواب وعلموا إصابتهم ﴿فَلَا تَحَارِ﴾ أي: تجادل وتحتاج ﴿فِيهِمْ إِلَّا مِرَّةً ظَهْرًا﴾ أي: منيًّا على العلم واليقين، ويكون أيضًا فيه فائدة، وأما المماراة المبنية على الجهل والرجم بالغيب، أو التي لا فائدة فيها. إما أن يكون الخصم معانداً، أو تكون المسألة لا أهمية فيها، ولا تحصل فائدة دينية بمعرفتها، كعدد أصحاب الكهف ونحو ذلك، فإن في كثرة

ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعرون بهم أحدًا. وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم؛ وظهورهم عليهم، أنهم بين أمرين، إما الرجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قتلة، لحققتهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتتوهم عن دينهم، ويردوهم في ملتهم. وفي هذه الحال، لا يفلحون أبدًا، بل يخسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم، وقد دلت هاتان الآياتان، على عدة فوائد:

منها: الحث على العلم، وعلى المباحثة فيه، لكون الله بعثهم لأجل ذلك.
ومنها: الأدب فيمن اشبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.
ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه لقوله: ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيًّا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾. وخصوصًا إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك. ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين، القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك، لكونهم أمره بأزكى الأطعمة التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم، وتركهم أوطانهم في الله.

ومنها: ذكر ما اشتمل عليه الشر، من المضار والمفاسد، الداعية لبغضه، وتركه. وأن هذه الطريقة، هي طريقة المؤمنين المتقدمين، والمتأخرين لقولهم: ﴿وَلَنْ تَقْبَلُوا إِذَا أُنكَبَا﴾.

(٢١) ﴿وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَسْتَرْضَوْنَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رُبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ عَلِمُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَتَنخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ يخبر الله تعالى أنه أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعامًا، وأمره بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمرًا، فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو: أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا بُعد، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن نافي لذلك، فجعل قصتهم، زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

٢٩٦

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

وَكَذَلِكَ اعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا
أَبْنَاؤُا عَلَيْهِمْ بِبَيْنَاتٍ نَرُجُّهُمْ وَعِلْمُهُمْ عَلَيْهِمُ قَالِ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَيَّ
أَمْرَهُمْ لَنْتَخِذَكَ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ
رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا
بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ
بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمُ الْإِمْرَاءَ ظَهْرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ
إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكَرُ رَبِّكَ
إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا
﴿٢٤﴾ وَلَيْسُوا فِي كُفْرِهِمْ تَلَكَّ مِائَةً سِنِينَ وَازْدَادُوا تَسَعًا
﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَبْصُرُ بِهِ وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ
رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحِدًا ﴿٢٧﴾

(٢٦، ٢٥) ﴿وَلَيْسُوا فِي كُفْرِهِمْ تَلَكَّ مِائَةً سِنِينَ وَازْدَادُوا
تَسَعًا﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا لَهُ غِيبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصُرُ بِهِ
وَأَسْمَعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ لما
نهاه الله عن استفتاء أهل الكتاب، في شأن أهل الكهف -
لعدم علمهم بذلك، وكان الله عالم الغيب والشهادة، العالم
بكل شيء - أخبره بمدّة لبثهم، وأن علم ذلك عنده وحده،
فإنه من غيب السموات والأرض، وغيبها مختص به، فما
أخبر به عنها على السنة رسله، فهو الحق اليقين، الذي لا
يشك فيه، وما لا يطلع رسله عليه، فإن أحدًا من الخلق لا
يعلمه.

وقوله: ﴿أَبْصُرُ بِهِ وَأَسْمَعُ﴾ تعجب من كمال سمعه
وبصره، وإحاطتهما بالمسموعات والمبصرات، بعدما أخبر
بإحاطة علمه بالمعلومات. ثم أخبر عن انفراده بالولاية العامة
والخاصة، فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، الولي
لعباده المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور ويسرهم

المنافشات فيها والبحوث المتسلسلة، تضييعًا للزمان، وتأثيرًا
في مودة القلوب بغير فائدة.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ﴾ أي: في شأن أهل الكهف ﴿وَمِنْهُمْ﴾
أي: من أهل الكتاب ﴿أَحَدًا﴾ وذلك لأن مبنى كلامهم فيهم
على الرجم بالغيب والظن الذي لا يعني من الحق شيئًا، فيها
دليل على المنع من استفتاء من لا يصلح للفتوى، إما لقصوره
في الأمر المستفتى فيه، أو لكونه لا يبالي بما تكلم به، وليس
عنده ورع يحجزه. وإذا نهى عن استفتاء هذا الجنس، ففيه
هو عن الفتوى، من باب أولى وأحرى.

وفي الآية أيضًا، دليل على أن الشخص، قد يكون منهيًا
عن استفتاءه في شيء دون آخر. فيستفتى فيما هو أهل له،
بخلاف غيره، لأن الله لم ينه عن استفتاءهم مطلقًا، إنما نهى
عن استفتاءهم في قصة أصحاب الكهف، وما أشبهها.

(٢٤، ٢٣) ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ عَدَا﴾ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ وَآذُكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبٍ
مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ هذا النهي كغيره، وإن كان لسبب خاص وموجهًا
للسؤلوس ﷺ، فإن الخطاب عام للمكلفين، ففيه الله أن يقول
العبد في الأمور المستقبلية ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ﴾ من دون أن يقرنه
بمشيئة الله، وذلك لما فيه من المحذور، وهو الكلام على
الغيب المستقبل الذي لا يدري، هل يفعله أم لا؟ وهل يكون
أم لا؟.

وفيه رد الفعل إلى مشيئة العبد استقلالًا، وذلك محذور
محظور، لأن المشيئة كلها لله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ
الْعَالَمِينَ﴾ ولما في ذكر مشيئة الله، من تيسير الأمر وتسهيله،
وحصول البركة فيه، والاستعانة من العبد لربه؛ ولما كان
العبد بشرًا، لا بد أن يسهو^(١) فيترك ذكر المشيئة، أمره الله أن
يستثني بعد ذلك إذا ذكر، ليحصل المطلوب ويندفع
المحذور.

ويؤخذ من عموم قوله: ﴿وَآذُكَرُ رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الأمر
بذكر الله عند النسيان، فإنه يزيله، ويُذَكِّرُ العبد ما سها عنه.
وكذلك يؤمر الساهي الناسي لذكر الله، أن يذكر ربه، ولا
يكونن من الغافلين. ولما كان العبد مفتقرًا إلى الله في توفيقه
للإصابة، وعدم الخطأ، في أقواله وأفعاله، أمره الله أن
يقول: ﴿عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾، فأمره أن
يدعو الله ويرجوه، ويتق به أن يهديه لأقرب الطرق الموصلة
إلى الرشده. وحرِيَّتُ بعبد تكون هذه حاله، ثم يبذل جهده،
ويستفرغ وسعه في طلب الهدى والرشده، أن يوفق لذلك، وأن
تأتيه المعونة من ربه، وأن يسدده في جميع أموره.

(١) كذا في ب، وفي أ: يسهو.

فتصير الأفكار والهواجس فيها وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناس، وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله ويُقْبَل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبديّة، والندامة السرمديّة ولهذا قال: ﴿وَلَا تُطِيع مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره.

﴿وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ﴾ أي: صار تبعاً لهواه، حيث ما اشتتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكه وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآية.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُ﴾ أي: مصالح دينه ودنياه ﴿فُرْطًا﴾ أي: ضائعة معطلة. فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا لما هو متصف به. ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماماً للناس، من امتلأ قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مرضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه. فحقيق بذلك، أن يتبع ويجعل إماماً، والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام.

وفي الآية استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرّف في النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دل ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه.

(٢٩-٣١) ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا بِهَمِّ شَرَادِفُهَا وَإِن يَسْتَعِثُوا يَعْثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَتَوَلَّىٰ الْوُجُوهُ بِسُكِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۝ إِن الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَن أَحْسَنَ عَمَلًا ۝ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِن سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّرَاوِبُ وَحَسَنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ أي: قل للناس يا محمد: هذا الحق من ربكم. أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله، فإذا بان واتضح، ولم يبق فيه شبهة.

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقتين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة، بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر. فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة،

لليسرى، ويجنبهم العسرى، ولهذا قال: ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يكلمهم إلى أحد من الخلق.

﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ وهذا يشمل الحكم الكوني القدري، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه، قضاءً وقدراً، وخلقاً وتديراً والحاكم فيهم بأمره ونهيه، وثوابه وعقابه.

ولما أخبر أنه تعالى له غيب السموات والأرض، فليس لمخلوق إليها طريق، إلا من الطريق التي يخبر بها عباده - وكان هذا القرآن قد اشتمل على كثير من الغيوب - أمر تعالى بإقبال عليه فقال:

(٢٧) ﴿وَأَنذِرْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن يَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ التلاوة هي الاتباع، أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامثال أوامره ونواهيه، فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته، أي: لا تغير ولا تبدل لصدقها وعدلها، وبلوغها من الحسن فوق كل غاية ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ فلتمامها استحالة عليها التغير والتبديل. فلو كانت ناقصة، لعرض لها ذلك، أو شيء منه. وفي هذا تعظيم للقرآن، في ضمنه، الترغيب على الإقبال عليه.

﴿وَلَن يَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ أي: لن تجد من دون ربك، ملجأً تلجأ إليه، ولا معاداً تعوذ به، فإذا تعين أنه وحده، الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون هو المألوه المعبود المرغوب إليه، في السراء والضراء، المفترق إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.

(٢٨) ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْعَدْوَةِ وَالشَّيْبِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوْنَهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ - وغيره أسوته - في الأوامر والنواهي - أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيين ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْعَدْوَةِ وَالشَّيْبِ﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله. فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء، فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فإن هذا ضار غير نافع، قاطع عن المصالح الدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا،

وليس بمكره على الإيمان، كما قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ وليس في قوله: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين. ثم ذكر تعالى مآل الفريقين فقال: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ بالكفر والفسوق والعصيان ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهَا سُرَادِقُهَا﴾ أي: سورها المحيط بها. فليس لهم منفذ، ولا طريق، ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية.

﴿وَإِنْ يَسْتَعْجِلُوهُ﴾ أي: يطلبوا الشراب، ليطفىء ما نزل بهم من العطش الشديد ﴿يَعْنَاؤُا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته ﴿يَشْوَى الْجُودُ﴾ أي: فكيف بالأعضاء والبطون، كما قال تعالى: ﴿يُضَهَّرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ وَهُمْ مَقْتَعُونَ مِنْ حَيْدٍ.

﴿يُنَسَّ السَّرَابُ﴾ الذي يراد ليطفىء العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقًا﴾ وهذا ذمٌ لحالة النار، أنها ساءت المحل، الذي يرتفق به. فإنها ليس فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق الذي لا يُقْتَرَّ عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب، كما نسوه.

ثم ذكر الفريق الثاني فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وعمل الصالحات: من الواجبات والمستحبات ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أجرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعا في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضيعه الله، ولا شيئا منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيههم من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة. وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو ما رق منه. متكئين فيها على الأرائك وهي السرر المزينة، المجملة بالثياب الفاخرة، فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك. وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم

سورة الكهف

٢٩٧

سورة الكهف

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ. وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ قُرْطًا ﴿٣٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعْجِلُوهُا يُعْجِلُوهَا إِنَّهُمْ لَشَائِرَةُ أَلْوَجْهِهٖ يَنْسُ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٤٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٤١﴾ وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٤٢﴾ كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلُهُمَا وَلَمْ تُظَلِّمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٤٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴿٤٤﴾

بما يشتهون، وتماثل ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية. فهذه الدار الجليلية ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ للعاملين ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها: مما تشبهه الأنفس، وتلذذ الأعين، من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة. وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه، ونعيمه، وقصوره، وبساتينه ألقي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأمانى. ومع ذلك، فنعيمهم على الدوام، مترايد في أوصافه وحسنه. فنسأل الله الكريم، أن لا يحرمنا خير ما عنده، من الإحسان، بِسْرًا ما عندنا من التقصير والعصيان.

ودلت الآية الكريمة، وما أشبهها، على أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة، لأنه أطلقها في قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ وكذلك الحرير ونحوه.

(٣٢-٣٤) ﴿وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا﴾ ○ كَلَّا الْجَنَّتَيْنِ ءَأَنْتَ أَكْلُهُمَا وَلَمْ تُظَلِّمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ○ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ ﴿يقول تعالى

بها، وأنكر البعث، فقال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَلْجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أي: ليعطيني خيراً من هاتين الجنتين، وهذا لا يخلو من أمرين. إما أن يكون عالماً بحقيقة الحال، فيكون كلامه هذا على وجه التهكم والاستهزاء فيكون زيادة كفر إلى كفره، وإما أن يكون هذا ظنه في الحقيقة، فيكون من أجهل الناس، وأبخسهم حظاً من العقل، فأى تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أُعْطِيَ في الدنيا أُعْطِيَ في الآخرة. بل الغالب، أن الله تعالى يَرُوي الدنيا عن أولياته وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه، الذين ليس لهم في الآخرة نصيب، والظاهر أنه يعلم حقيقة الحال، ولكنه قال هذا الكلام على وجه التهكم والاستهزاء، بدليل قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾. فإثبات: أن وصفه الظلم في حال دخوله، الذي جرى منه من القول ما جرى، يدل على تمرده وعناده.

(٣٧-٣٩) ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْطٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ۚ لَيْكَأَ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ۚ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: قال له صاحبه المؤمن - ناصحاً له، ومذكراً له حاله الأولى، التي أوجده الله فيها في الدنيا ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَفْطٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ فهو الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد والإمداد، وواصل عليك النعم، ونقلك من طور إلى طور، حتى سواك رجلاً، كامل الأعضاء والجوارح المحسوسة والمعقولة، وبذلك يسر لك الأسباب، وهياً لك ما هياً، من نعم الدنيا. فلم تحصل لك الدنيا بحولك وقوتك، بل بفضل الله تعالى عليك، فكيف يليق بك أن تكفر بالله الذي خلقك من تراب، ثم من نطفة ثم سواك رجلاً وتجدد^(١) نعمته، وتزعم أنه لا يعنك، وإن بعثك أنه يعطيك خيراً من جنتك، هذا مما لا ينبغي ولا يليق.

ولهذا لما رأى صاحبه المؤمن حاله واستمراره على كفره وطغيانه، قال مخبراً عن نفسه، على وجه الشكر لربه، والإعلان بدينه، عند ورود المجادلات والشبه: ﴿لَيْكَأَ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ فأقر بربوبيته لربه، وانفراده فيها، والتزم^(٢) طاعته وعبادته، وأنه لا يشرك به أحداً من المخلوقين.

ثم أخبره أن نعمة الله عليه، بالإيمان والإسلام ولو مع قلة

لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والآجل والثواب، ليعتبروا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي زمان أو مكان هما فيه، فائدة أو نتيجة. فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك، من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجليلة، جعل الله له جنتين أي: بستانين حسنين، من أعتاب. ﴿وَحَفَّظْنَاهَا بِنَخْلٍ﴾ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوفاً أشرف الأشجار: العنب، والنخل. فالعنب في وسطها، والنخل قد حف بذلك، ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح التي تكمل بها الثمار، وتضج وتتجوهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعاً. فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء كيفيهما؟.

فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت أكلها أي: ثمرها وزرعها ضعفين أي: متضاعفاً ﴿و﴾ أنها ﴿لَمْ تَظَلِرْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء. ومع ذلك، فالأنهار في جوانبها سارحة، كثيرة غزيرة.

﴿وَكَاثِلَةٌ﴾ أي: لذلك الرجل ﴿نَرٌّ﴾ أي: عظيم كما يفيد التثنية أي: قد استكملت جنته ثمارهما، وارجحت أشجارهما، ولم تعرض لهما آفة أو نقص، فهذا غاية منتهى زينة الدنيا في الحرث، ولهذا اغتر هذا الرجل بهما، وتبجح وافتخر، ونسي آخرته.

(٣٤-٣٦) ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۚ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ۚ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَلْجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أي: فقال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن، وهما يتحاوران، أي: يتراجعان بينهما في بعض الماكرجات المعتادة، مفتخرًا عليه.

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره، من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأى افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأمانى التي لا حقائق تحتها.

ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم بجهله وظلمه، وظن لما دخل جنته. ف ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ﴾ أي: تقطع وتضمحل ﴿هَذِهِ أَبَدًا﴾ فاطمأن إلى هذه الدنيا، ورضي

(١) في ب: وتجهل. (٢) في ب: والتزام.

ماله وولده - أنها هي النعمة الحقيقية، وأن ما عداها مُعْرَضٌ للزوال والعقوبة عليه والنكال، فقال:

(٣٩-٤٤) ﴿إِنْ سَرَنْتَ أَنْتَ أَقْلَ مِنْكَ مَالًا وَّوَلَدًا ۝ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَنُصِيعَ صَعِيدًا زَلْقًا ۝ أَوْ يُصِيعَ مَائِهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَكُمْ طَلْبًا ۝ وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِبَةٌ عَلَىٰ غُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ۝ وَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ فِتْنَةً يَبْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْظَرًا ۝ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ۝﴾.

أي: قال للكافر صاحبه المؤمن: أنت - وإن فخرت عليّ بكثرة مالك وولدك، ورأيتني أقل منك مالاً وولداً - فإن ما عند الله خير وأبقى، وما يرجي من خيره وإحسانه أفضل من جميع الدنيا، التي يتنافس فيها المتنافسون.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أي: على جنتك التي طغيت بها وغرتك ﴿حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: عذاباً، بمطر عظيم أو غيره.

﴿فَنُصِيعَ﴾ بسبب ذلك ﴿صَعِيدًا زَلْقًا﴾ أي: قد اقتلعت أشجارها، وتلفت ثمارها، وغرق زرعها، وزال نفعها. ﴿أَوْ يُصِيعَ مَائِهَا﴾ الذي مادتها منه ﴿غُورًا﴾ أي: غائراً في الأرض ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَكُمْ طَلْبًا﴾ أي: غائراً لا يستطيع الوصول إليه، بالمعاول ولا بغيرها. وإنما دعا على جنته المؤمن، غضباً لربه، لكونها غرته وأطغته، واطمأن إليها، لعله ينب، ويراجع رشده، ويصبر في أمره.

فاستجاب الله دعاءه ﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾ أي: أصابه عذاب، أحاط به، واستهلكه، فلم يبق منه شيء، والإحاطة بالثمر يستلزم تلف جميع أشجاره، وثمارها، وزرعه، فندم كل الندامة، واشتد لذلك أسفه ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ أي: على كثرة نفقاته الدنيوية عليها، حيث اضمحلت وتلاشت، فلم يبق لها عوض، وندم أيضاً على شركه، وشره، ولهذا قال: ﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَكُمْ فِتْنَةً يَبْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْظَرًا﴾ أي: لما نزل العذاب بجنته، ذهب عنه ما كان يفتخر به من قوله لصاحبه: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فلم يدفعا عنه من هذا العذاب شيئاً، أشد ما كان إليهم حاجةً، وما كان بنفسه منتصراً، وكيف ينتصر - أي: يكون له أنصار - على قضاء الله وقدره الذي إذا أمضاه وقدره: لو اجتمع أهل السماء والأرض على إزالة شيء منه، لم يقدروا!!!

ولا يستبعد من رحمة الله ولطفه، أن صاحب هذه الجنة التي أحيط بها، تحسنت حاله، ورزقه الله الإجابة إليه، وراجع

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ

أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودَتْ إِلَىٰ رَبِّي

لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ

أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا

﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَا يَأِذُ

دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَاقُوهُ إِلَّا قُوَّةً إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنَّ أَنَا

أَقْلَ مِنْكَ مَا لَوْ وُلِدْنَا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ

جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَنُصِيعَ صَعِيدًا

زَلْقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصِيعَ مَائِهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلْبًا ﴿٤١﴾

وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِبَةٌ

عَلَىٰ غُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ

فِتْنَةً يَبْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْظَرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ

لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَأَصْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

رشده، وذهب تمرده وطغيانه، بدليل أنه أظهر الندم على شركه بربه، وأن الله أذهب عنه ما يطغيه، وعاقبه في الدنيا، وإذا أرادا الله بعبد خيراً عجل له العقوبة في الدنيا. وفضل الله لا تحيط به الأوهام والعقول، ولا ينكره إلا ظالم جهول.

﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ أي: في تلك الحال التي أجرى الله فيها العقوبة على من طغى، وآثر الحياة الدنيا. والكرامة لمن آمن، وعمل صالحاً، وشكر الله، ودعا غيره لذلك، تبين وتوضح، أن الولاية لله الحق، فمن كان مؤمناً به تقياً، كان له ولياً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشورور والمثلات، ومن لم يؤمن بربه ويتولاه، خسر دينه ودنياه، فتوابه الدنيوي والأخروي خير^(١) ثواب يرجى ويؤمل.

ففي هذه القصة العظيمة، اعتبار بحال الذي أنعم الله عليه نعماً دنيوية، فألتهته عن آخرته وأطغته، وعصى الله فيها، أن

(١) في الجملة إشكال دفع إلى جعلها في بعض الطبقات (شر ثواب) وهي في السنخيتين (خير ثواب) وظاهر أن المقصود بذلك من كان مؤمناً تقياً، فهو الذي ثوابه خير ثواب.

سعى أعماله؛ هنالك بعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا، لا ليستكمل الشهوات بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات بالتوبة والأعمال الصالحات.

فالعاقل الحازم الموفق، يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قَدَّرِي أَنْكَ قَدْ مِتَّ، ولا بد أن تموتي، فأبي الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأعمام السارحة أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما تشتهيهِ الأُنْس وتلد الأعين؟، فهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وريحه من خسرانه.

ولهذا أخبر تعالى، أن المال والبنين زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأن الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات. وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة: من حقوق الله، وحقوق عباده من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلة رحم، وبر والدين، وقيام بحق الزوجات والماليك والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، كل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثواباً وخيراً أملاً، فتوابها يبقى، ويتضاعف على الآباد، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس بها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجدُّ في تحصيلها المجتهدون.

وتأمل، كيف لما ضرب الله مثل الدنيا وحالها واضمحلالها، ذكر أن الذي فيها نوعان: نوع من زيتها، يتمتع به قليلاً، ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربما لحقته مضرته وهو المال والبنون. ونوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام، وهي الباقيات الصالحات.

(٤٧-٤٩) ﴿وَيَوْمَ نُسِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَتَرْنَاهُمْ فَلَمْ تَوَدَّرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝ وَوَضَعْنَا عَلَى رِجْلَيْكَ صِغَارًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمُو أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۝ وَوَضِعْنَا كِتَابًا فَعَرَى الْمُجْرِمِينَ مُسْفِفِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبْدِلْنَا مَالَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾
يخبر تعالى عن حال يوم القيامة، وما فيه من الأهوال المقلقة، والشدائد المزعجة فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسِّرُ الْجِبَالَ﴾ أي: يزيلها عن أماكنها، يجعلها كتيلاً، ثم يجعلها كالعهن المنفوش، ثم تضمحل وتتلشى، وتكون هباءً منبثاً، وتبرز الأرض، فتصير

مألها الانقطاع والاضمحلال، وأنه وإن تمتع بها قليلاً، فإنه يحرمها طويلاً.

وأن العبد، ينبغي له - إذا أعجبه شيء من ماله أو ولده - أن يضيف النعمة إلى موليتها ومسديها، وأن يقول: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله» ليكون شاكرًا لله متسببًا لبقاء نعمته عليه، لقوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ .
وفيها: الإرشاد إلى التسلي عن لذات الدنيا وشهواتها، بما عند الله من الخير لقوله: ﴿إِنْ كَرِهْنَا نَأْتِيَنَّكَ مَا لَا تَدْرِي ۚ فَكَسَىٰ رَبِّي أَنْ يُوَيِّبَ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ﴾ .

وفيها: أن المال والولد لا ينفعان إن لم يعينا على طاعة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُفَرِّقُونَ عِندَ رُفْقَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ .
وفيه الدعاء بتلف مال من كان ماله سبب طغيانه وكفره وخسرانه، خصوصًا إن فضّل نفسه بسببه على المؤمنين، وفخر عليهم.

وفيها: أن ولاية الله وعدمها، إنما تتضح نتيجتها، إذا انجلى الغبار وحق الجزاء، ووجد العاملون أجرهم ف﴿هَذَا كَلِمَةُ الْوَلِيَّةِ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقَابًا﴾ أي: عاقبة ومآلاً.
(٤٥، ٤٦) ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا الْحَيَوَاتِ الْأُنثَىٰ كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝ أَمْوَالٌ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ أصلاً، ولمن قام بوراثته بعده تبعًا: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا، ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار، وأن مثل هذه الحياة الدنيا كمثل المطر، ينزل على الأرض فيختلط نباتها، تثبت من كل زوج بهيج، فيبنا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين، وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين، إذ أصبحت هشيماً تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء تراباً، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب.

كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهما ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه؛ إذ أصابه الموت أو التلف لماله. فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو

قاعًا صفصفًا، لا عوج فيه ولا أمتًا. ويحشر الله جميع الخلق على تلك الأرض، فلا يغادر منهم أحدًا.

بل يجمع الأولين والآخريين من بطون الفلوات، وقعور البحار، ويجمعهم بعدما تفرقوا، ويعيدهم بعد ما تمزقوا، خلقًا جديدًا، فيعرضون عليه صفًا، ليستعرضهم، وينظر في أعمالهم، ويحكم فيهم بحكمه العدل، الذي لا جور فيه ولا ظلم، ويقول لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي: بلا مال، ولا أهل، ولا عشيرة، ما معهم إلا الأعمال التي عملوها، والمكاسب في الخير والشر، التي كسبوها. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكُم مَّا حَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ﴾.

وقال هنا، مخاطبًا للمنكرين للبعث، وقد شاهدوه عيانًا: ﴿بَلْ زَعَمْتَ أَنَّ نَجْعَل لَّكَ مَوْعِدًا﴾ أي: أنكرتم الجزاء على الأعمال، ووعد الله ووعدته فيها قد رأيتموه وذقموه، فحينئذ تحضر كُتُبُ الأعمال التي كتبتها الملائكة الكرام^(١)، فتطير لها القلوب، وتعظم من وقعها الكروب، وتكاد لها الصم الصلاب تذوب، ويشفق منها المجرمون، فإذا راوها مسطرة عليهم أعمالهم، مُحْصَى عليهم أفعالهم وأفعالهم، قالوا: ﴿يَوَلِّئْنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: لا يترك خطيئة صغيرة ولا كبيرة، إلا وهي مكتوبة فيه، محفوظة لم ينس منها عمل سر ولا علانية، ولا ليل ولا نهار. ﴿وَوَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ لا يقدرون على إنكاره ﴿وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فحينئذ يجازون بها، ويقررون بها، ويخزون، ويحق عليهم العذاب ذلك بما قدمت أيديهم وأن الله ليس بظلام للعبيد بل هم غير خارجين عن عدله وفضله.

(٥٠) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ يخبر تعالى عن عداوة إبليس لآدم وذريته، وأن الله أمر الملائكة بالسجود لآدم، إكرامًا وتعظيمًا، وامتثالًا لأمر الله، فامتثلوا ذلك ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ وقال: ﴿ءَأَسْمُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ فبين بهذا، عداوته لله ولإيكم ولكم، فكيف تتخذونه وذريته، أي: الشياطين ﴿أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، أي: بس ما اختاروا لأنفسهم من ولاية الشيطان - الذي لا يأمرهم إلا بالفحشاء والمنكر - عن ولاية الرحمن، الذي كل السعادة والفلاح والسرور في ولايته.

٢٩٩ ﴿الْمَالِ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرًا مِمَّا﴾ ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسِرَ الْجِبَالُ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّنِي جَعَل لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُسْتَفْضِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّئْنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّا أَشْهَدْتُم خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخَذِينَ الْمَصَلِينَ عَضًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرَفًا ﴿٥٣﴾

وفي هذه الآية، الحث على اتخاذ الشيطان عدوًا، والإغراء بذلك، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنه لا يفعل ذلك إلا ظالم، وأي ظلم أعظم من ظلم من اتخذ عدوه الحقيقي وليًا، وترك الولي الحميد؟! قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاءُهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَخَذُوا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

(٥١، ٥٢) ﴿مَّا أَشْهَدْتُم خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَخَذِينَ الْمَصَلِينَ عَضًا﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا﴾ يقول تعالى: ما أشهدت الشياطين [وهؤلاء المصلين] ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ما أحضرتهم ذلك، ولا شاورتهم عليه، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك؟! بل المنفرد بالخلق والتدبير، والحكمة والتقدير، هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته، فكيف يجعل له شركاء

بِهِ الْحَقُّ ﴿٥٣﴾ ولهذا قال:

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ أي: مجادلة ومنازعة فيه، مع أن ذلك، غير لائق بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعناد، لا لقصور في بيانه وحجته وبرهانه، وإلا فلو جاءهم العذاب، وجاءهم ما جاء قبلهم، لم تكن هذه حالهم، ولهذا قال:

(٥٥) ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ أي: ما منع الناس من الإيمان، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق بين الهدى والضلال، والحق والباطل قد وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا، عوجلوا بالعذاب، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعينة، أي: فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له.

(٥٦) ﴿وَمَا تَرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجْعَلُ اللَّهُ لِكُلِّ فِرْقٍ بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَالتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُذِرُوا هُرُوقًا﴾ أي: لم نرسل الرسل عبثًا، ولا ليتخذهم الناس أربابًا، ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير، ويهتدون عن كل شر، ويشرونهم على امتثال ذلك، بالشواب العاجل والآجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون، إلا المجادلة بالباطل ليدحضوا به الحق، فسعوا في نصر الباطل، مهما أمكنهم، وفي دحض الحق وإبطاله، واستهزؤوا برسول الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم، وآبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ويظهر الحق على الباطل ﴿بَلْ تَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ ومن حكمة الله ورحمته، أن تقيضه المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلتها، وتبين الباطل وفساده، فبضدها تتبين الأشياء.

(٥٧-٥٩) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ۗ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْتُمْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ۗ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلمًا ولا

من الشياطين، يوالون ويطاعون، كما يطاع الله، وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقًا، ولم يعاونوا الله تعالى؟! ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتَ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ أي: معاونين، مظاهرين لله على شأن من الشؤون، أي: ما ينبغي ولا يليق بالله أن يجعل لهم قسطًا من التدبير، لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم، فاللائق أن يقصهم ولا يدينهم.

ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفهه، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله يقول لهم: ﴿تَادُوا شُرُكَاؤِي﴾ بزعمكم أي: على موجب زعمكم الفاسد، وإلا، فبالحقيقة، ليس لله شريك في الأرض ولا في السماء، أي: نادوهم، لينفعوكم ويخلصوكم من الشدائد ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المشركين وشركائهم ﴿مَوْبِقًا﴾ أي: مهلكًا، يفرق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم من بعض، ويتبين حينئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبريهم منهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كافرين﴾.

(٥٣) ﴿وَرَاءَ الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِنُوهَا وَكَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحقت كلمة العذاب على المجرمين، فرأوا جهنم قبل دخولها، فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها، وهذا الظن قال المفسرون: إنه بمعنى اليقين، فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿وَكَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ أي: معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه، وفي هذا من التخويف والترهيب، ما ترعد له الأفتدة والقلوب.

(٥٤) ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن وجلالته وعمومه، وأنه صرّف فيه من كل مَثَلٍ، أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقادًا وطمأنينة ونورًا، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له، في أمر من الأمور، ومع ذلك، كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين، ويجادلون بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠٠

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْعَ النَّاسِ أَنْ يُؤْمِنُوا
 إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا أَنْ تَأْتِيهِمْ سُنَّةٌ
 الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فُبُلًا ﴿٥٧﴾ وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ
 إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ
 لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُولًا ﴿٥٨﴾ وَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ آيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَا
 إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
 وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٩﴾ وَرَبِّكَ
 الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ
 الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجُدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٦٠﴾
 وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَمَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ
 مَوْعِدًا ﴿٦١﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَتْنَهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ
 أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
 مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦٣﴾

أي: وقتًا مقدراً، لا يتقدمون عنه، ولا يتأخرون.

(٦٠-٨٢) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَتْنَهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ
 مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۖ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا
 حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ فَلَمَّا جَاوَرَا قَالَ لِقَتْنُهُ إِنَّا نَسِينَا
 لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي
 نَسِيتُ الْهَوْتَ وَمَا أَنْسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي
 الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۖ
 فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ءَاتِيَهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا
 عِلْمًا ۖ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلِ اتَّبَعَكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِنَّا عَلِيمًا رَشَدًا ۖ قَالَ
 إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ وَكَفَّ نَصْرَ عَلَّامًا لَوْ تُحِطُ بِهِ خَيْرًا ۖ قَالَ
 سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي
 فَلَا تَسْتَفِئِنِّي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَخْبِرَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۖ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا
 فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ
 صَبْرًا﴾ يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام، وشدة رغبته
 في الخير وطلب العلم، أنه قال لفتاه، أي: خادمه الذي
 (١) في ب: فإنه أشد، والسياق يدل على ما أتته. (٢) في الأصل:
 واخذ.

أكبر جرماً من عبدٍ ذُكرَ بآيات الله ويُنَّ له الحق من الباطل،
 والهدى من الضلال، وحُوفٌ ورُهْبٌ ورُعْبٌ، فأعرض عنها،
 فلم يتذكر بما ذُكر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما
 قدمت يده من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا
 أعظم ظلماً، من المعرض الذي لم تأته آيات الله، ولم يذكر
 بها، وإن كان ظالماً، فإنه أخف^(١) ظلماً من هذا، لكون
 العاصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك.

ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه
 لذنوبه، ورضاه لنفسه حالة الشر مع علمه بها أن سد عليه
 أبواب الهداية، بأن جعل على قلبه أكنة، أي: أغطية محكمة
 تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعها فليس في إمكانه الفقه الذي
 يصل إلى القلب.

﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ أي: صمماً يمنعهم من وصول الآيات،
 ومن سماعها على وجه الانتفاع وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس
 لهدايتهم سبيل.

﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ لأن الذي
 يرجى أن يجيب الداعي للهدى، من ليس عالماً. وأما هؤلاء،
 الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق حقاً فتركوه،
 وطريق الضلال ضلالاً فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب
 والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق. وفي هذه
 الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، وأن يحال بينهم
 وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرهب وزاجر
 عن ذلك.

ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر
 الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله
 بإحسانه، وأنه لو أخذ^(٢) العباد على ما قدمت أيديهم من
 الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل
 بالعقوبة، بل يمهل، ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع
 آثارها، وإن تأخر عنها مدة طويلة، ولهذا قال:

﴿بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجُدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا﴾ أي: لهم موعد،
 يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه،
 ولا ملجأ، ولا محيد عنه.

وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم
 بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأتوا،
 غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا، فإن استمروا
 على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم،
 أنزل بهم بأسه، ولهذا قال: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا
 ظَمَمُوا﴾ أي: بظلمهم، لا بظلم منا ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠١

سُورَةُ الْكَافِرِينَ

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ء إِنَّا غَدَاةٌ نَأْتِيكَ لَقِينًا مِّن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسِنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَارْتَدَّ عَلَیْءٌ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ء أَنِيتَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدْنَا عَلِيمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلِمَنَ مِمَّا عَلِمْتَ رُسْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنْ كُنْ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلْخِئْ عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا أَمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لِرَأْسِكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي سَآءَ زَكَاةٍ يُغْفَرُ لَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴿٧٤﴾

بها زاد علمه، وحسن عمله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾^(١) ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ أي: عندنا [﴿عَلَّمَ﴾] وكان قد أعطي من العلم، ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصًا في العلوم الإيمانية، والأصولية، لأنه من أولي العزم من المرسلين الذين فضلهم الله على سائر الخلق، بالعلم، والعمل، وغير ذلك، فلما اجتمع به موسى، قال له على وجه الأدب والمشاورة، والإخبار عن مطلبه:

﴿هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلِمَنَ مِمَّا عَلِمْتَ رُسْدًا﴾ أي: هل أتيتك على أن تعلمني مما علمك الله، ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر، قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة، ما به يحصل له الاطلاع، على مواطن كثير من الأشياء، التي خفيت، حتى على موسى عليه السلام، فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي، لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه، من الأمور التي

يلازمه في حضره وسفره، وهو «يوشع بن نون» الذي نبأه الله بعد ذلك: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي: لا أزال مسافرًا وإن طالت عليّ الشقة، ولحقتني المشقة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبدًا من عباد الله العالمين، عنده من العلم، ما ليس عندك.

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي: مسافة طويلة، المعنى: أن الشوق والرغبة، حمل موسى أن قال لفتاه هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا﴾ أي: هو وفتاه ﴿يَجْمَعُ بَيْنَهُمَا نِسِيًا حُرْتُهُمَا﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الحوت فتمّ ذلك العبد، الذي قصدته، فاتخذ ذلك الحوت سبيله، أي: طريقه في البحر سربًا، وهذا من الآيات.

قال المفسرون: إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه، لما وصلا إلى ذلك المكان، أصابه بلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حيًا.

فلما جاوز موسى وفتاه مجمع البحرين، قال موسى لفتاه: ﴿ء إِنَّا غَدَاةٌ نَأْتِيكَ لَقِينًا مِّن سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ أي: لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل، الذي وصلا به إلى مجمع البحرين، لم يجدا مس التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضًا، فإن الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان، سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما، وجدا مس التعب، فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة، قال له فتاه:

﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ﴾ أي: ألم تعلم حين أوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما ﴿فَأِنِّي نَسِيتُ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسِنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾ لأنه السبب في ذلك ﴿وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ أي: لما انسرب في البحر، ودخل فيه، كان ذلك من العجائب.

قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سربًا، ولموسى وفتاه عجبًا، فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الحوت، وجد الخضر، فقال موسى:

﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾ أي: نطلب ﴿فَارْتَدَّ﴾ أي: رجعا ﴿عَلَيَّ ء آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ أي: رجعا يقصان أثرهما، الذي نسيا فيه الحوت، فلما وصلا إليه، وجدا عبدًا من عبادنا، وهو الخضر، وكان عبدًا صالحًا، لا نبيًا، على الصحيح.

آتيانه [﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾] أي: أعطاه الله رحمة خاصة،

(١) زيادة من هامش ب.

ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك، ولهذا قال: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أي: كيف تصبر على أمر، ما أحطت بباطنه وظاهره وعلمت المقصود منه ومآله؟! فقال موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ وهذا عزم منه، قبل أن يوجد الشيء الممتحن به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر.

فحينئذ قال له الخضر: ﴿إِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحَدِّثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ أي: لا تبدئي بسؤال منك وإنكار، حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله، في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاه عن سؤاله، ووعده أن يوفقه على حقيقة الأمر.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ أي: اقتلع الخضر منها لوحًا، وكان له مقصود في ذلك، سيبينه، فلم يصبر موسى عليه السلام، لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسبب لغرق أهلها، ولهذا قال موسى:

﴿أَخْرَقَهَا لِنُجُوقِ أَهْلِهَا لَأَنْدَجْتَنِي مَعَهُمْ وَإِنِّي لَأَكُونُ مِنَ الْخَالِينَ﴾ أي: عظيمًا شنيعًا، وهذا من عدم صبره عليه السلام، فقال له الخضر:

﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أي: فوقع كما أخبرتك، وكان هذا من موسى نسيانًا فقال: ﴿لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا﴾ أي: لا تعسر علي الأمر، واسمح لي، فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة. فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر، الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا قَرَّبَا قَرْبًا فَسَأَلَا أَنَّىٰ بُدِئَ الْخَيْبُ بِمَا نَصَرْنَا﴾ أي: صغيرًا ﴿فَقَتَلَهُمَا﴾ الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، حين قتل غلامًا صغيرًا، لم يذنب.

﴿قَالَ أَقْبَلْتُمْ نَفْسًا رَّكِيَةً يَغِيْرُ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا كَرِيحًا﴾ أي: نكر مثل قتل الصغير الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحدًا؟! وكانت الأولى من موسى نسيانًا، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر، فقال له الخضر، معاتبًا ومذكّرًا: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

فقال [له] موسى: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ فَلَا تُصَلِّحْنِي﴾ أي: فأنت معذور بذلك، وبترك صحبتي ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: أعذرت مني، ولم تقصر.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمُوا أَهْلَهَا﴾ أي: استضافهم فلم يضيفوهما ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ أي: قد عاب واستهدم ﴿فَأَقَامَهُمَا﴾ الخضر أي: بناه وأعادته جديدًا. فقال له موسى: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَمَخَّدْتَ عَلَيْهِ جُرْحًا﴾ أي:

أهل هذه القرية، لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجره، وأنت تقدر عليها؟! فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر الخضر منه، فقال له: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحبة.

﴿سَأَتِيكَ بِأَوْبِلٍ مَّا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ أي: سأخبرك بما أنكرت علي، وأنبئك بأن لي في ذلك من المآرب، وما يؤول إليه الأمر.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ﴾ التي خرقها ﴿فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرافة بهم ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَثَتُهُمْ مِلًّا فَاخَذُ كُلُّ شَيْءٍ غَصْبًا﴾ أي: كان مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكل سفينة صالحة تمر عليه، ما فيها عيب، غصبها وأخذها ظلمًا، فأردت أن أخرقها، ليكون فيها عيب، فتسلم من ذلك الظالم.

﴿وَأَمَّا الْكَلْبُ﴾ الذي قتله ﴿فَكَانَ أَبُوًّا لِلْمُؤْمِنِينَ فَخَشِيًّا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ وكان ذلك الغلام، قد قدر عليه، أنه لو بلغ، لأرهب أبويه طغيانًا وكفرًا. أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهما إياه، أو للحاجة إليه أو يحدهما على ذلك، أي: فقتلته، لاطلاعي على ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة؟ وهو وإن كان فيه إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال: ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُمْ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ أي: ولدًا صالحًا، زكيًا، واصلًا لرحمه، فإن الغلام الذي قتل، لو بلغ لعقهما أشد العقوق، بحملهما على الكفر والطغيان.

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ﴾ الذي أقمته ﴿فَكَانَ لِفُلْمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ أي: حالهما تقتضي الرافة بهما ورحمتهما، لكونهما صغيرين، عدما أباهما، وحفظهما الله أيضًا، بصلاح والدهما.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ أي: فلهذا هدمت الجدار، واستخرجت ما تحته من كنزهما، وأعدته مجانًا.

﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله، آتاه الله عبده الخضر ﴿وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي﴾ أي: أتيت شيئًا من قبل نفسي، ومجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره.

(١) كذا في النسختين، ومراد المؤلف - رحمه الله - النفي، أي: ما أتيت.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾
وفي هذه القصة العجيبة الجليلة من الفوائد، والأحكام،
والقواعد، شيء كثير، ننبه على بعضه بعون الله.
فمنها فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه أهم الأمور،
فإن موسى عليه السلام رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في
طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم،
واختار السفر لزيادة العلم على ذلك.
ومنها: البداية بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم - علم
الإنسان أهم من ترك ذلك - والاشتغال بالتعليم من دون تزود
من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.
ومنها: جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر لكفاية
المؤن، وطلب الراحة، كما فعل موسى.
ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا
اقتضت المصلحة الإخبار بطلبه، وأين يريده، فإنه أكمل من
كتمه، فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان
الأمر على بصيرة، وإظهارًا لشرف هذه العبادة الجليلة، كما
قال موسى: ﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَتْلُعَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ
حُقُفًا﴾ وكما أخبر النبي ﷺ، أصحابه - حين غزا تبوك -
بوجهه، مع أن عاداته التوربية، وذلك تبع للمصلحة.
ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه
التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول فتى
موسى: ﴿وَمَا أَسْنِينِي إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾.
ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة
النفس، من نصب أو جوع، أو عطش، إذا لم يكن على وجه
التسخط وكان صدقًا، لقول موسى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا
نَصَبًا﴾.
ومنها: استحباب كون خادم الإنسان، ذكيًا فطنًا كيسًا،
ليتم له أمره الذي يريده.
ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله،
وأكلهما جميعًا، لأن ظاهر قوله: ﴿ءَايِنَا غَدَاءَنَا﴾ إضافة إلى
الجميع، أنه أكل هو، وهو جميعًا.
ومنها: أن المعونة تنزل على العبد على حسب قيامه
بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره
لقوله: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ والإشارة إلى السفر
المجاوز، لمجتمع البحرين.
وأما الأول، فلم يشك منه التعب مع طوله، لأنه هو السفر
على الحقيقة. وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم
فقدوا الحوت حين أووا إلى الصخرة. فالظاهر أنهم باتوا

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

﴿ذَلِكَ﴾ الذي فسرت له ﴿تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

على الشيء، حتى يعرف ما يراد منه، وما هو المقصود.
ومنها: تعليق الأمور المستقبلية - التي من أفعال العباد -
بالمشيئة، وأن لا يقول الإنسان للشيء: إني فاعل ذلك في
المستقبل، إلا أن يقول «إن شاء الله».

ومنها: أن العزم على فعل الشيء ليس بمنزلة فعله، فإن
موسى قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ فوطن نفسه على
الصبر ولم يفعل.

ومنها: أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم،
أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء، حتى يكون
المعلم هو الذي يوقفه عليها، فإن المصلحة تتبع: كما إذا كان
فهمه قاصرًا. أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها
أهم منها. أو لا يدركها ذهنه. أو يسأل سؤالًا، لا يتعلق في
موضع البحث.

ومنها: جواز ركوب البحر، في غير الحالة التي يخاف
منها.

ومنها: أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، لا في حق الله، ولا
في حقوق العباد لقوله: ﴿لَا تُؤَاخِذُنِي بِمَا نَسِيتُ﴾.

ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس
ومعاملاتهم العفو منها، وما سمحت به أنفسهم. ولا ينبغي له
أن يكلفهم ما لا يطيقون، أو يشق عليهم ويرهقهم، فإن هذا
مدعاة إلى النفور منه والسامة، بل يأخذ المتيسر، ليتيسر له
الأمر.

ومنها: أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها، وتعلق
بها الأحكام الدنيوية، في الأموال، والدماء وغيرها، فإن
موسى عليه السلام أنكر على الخضر خرقة السفينة، وقتل
الغلام، وأن هذه الأمور ظاهرها، أنها من المنكر، وموسى
عليه السلام لا يسعه السكوت عنها، في غير هذه الحال التي
صحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام، وبادر إلى
الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض، الذي
يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه «يدفع الشر الكبير
بارتكاب الشر الصغير» ويراعى أكبر المصلحتين، بتفويت
أدناهما، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن
دينهما أعظم شرًا منه. وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته،
وإن كان يظن أنه خير، فالخير بقاء دين أبويه، وإيمانهما،

(١) في ب: لطريق. (٢) بدلًا من الجملة: (أنه يفوته... كثير من العلم)
جاء في ب: (أنه ليس بأهل لتلقي العلم) وجاءت هذه الجملة في: أ
مشطوبة.

خطاب، لقول موسى عليه السلام: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي
مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاطفة والمشاورة،
وأنت هل تأذن لي في ذلك أم لا، وإقراره بأنه يتعلم منه،
بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبير، الذي لا يظهر للمعلم
افتقاره إلى علمه بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه، بل ربما ظن أنه
يعلم معلمه، وهو جاهل جدًا، فالذل للمعلم، وإظهار الحاجة
إلى تعليمه، من أنفع شيء للمتعلم.

ومنها: تواضع الفاضل للتعليم ممن دونه فإن موسى - بلا
شك - أفضل من الخضر.

ومنها: تعلم العالم الفاضل، للعلم الذي لم يتمهر فيه،
ممن مهر فيه، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة. فإن
موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين، الذين
منتهم الله، وأعظامهم من العلم، ما لم يعط سواهم، ولكن
في هذا العلم الخاص، كان عند الخضر ما ليس عنده، فلهذا
حرص على التعلم منه. فعلى هذا، لا ينبغي للفقهاء المحدث،
إذا كان قاصرًا في علم النحو، أو الصرف، أو نحوه من
العلوم، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه وإن لم يكن محدثًا ولا
فقيهاً.

ومنها: إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى، والإقرار
بذلك، وشكر الله عليها لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ﴾ أي: مما
علمك الله تعالى.

ومنها: أن العلم النافع، هو العلم المرشد إلى الخير،
فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطرق^(١) الخير، وتحذير عن
طريق الشر، أو وسيلة لذلك، فإنه من العلم النافع، وما سوى
ذلك، فإما أن يكون ضارًا، أو ليس فيه فائدة لقوله: ﴿أَنْ تُعَلِّمَنِي
مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾.

ومنها: أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم
والعلم، وحسن الثبات على ذلك، أنه يفوته بحسب عدم
صبره كثير من العلم^(٢)، فمن لا صبر له، لا يدرك العلم، ومن
استعمل الصبر ولازمه، أدرك به كل أمر سعى فيه، لقول
الخضر - يعتذر عن موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ
عنه: إنه لا يصبر معه.

ومنها: أن السبب الكبير لحصول الصبر، إحاطة الإنسان
علمًا وخبرة، بذلك الأمر، الذي أمر بالصبر عليه، وإلا فالذي
لا يدريه، أو لا يدري غايته ولا نتيجته، ولا فائدته وثمرته
ليس عنده سبب الصبر لقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ
خَيْرًا﴾ فجعل الموجب لعدم صبره، عدم إحاطته خبرًا بالأمر.
ومنها: الأمر بالتأني والثبوت، وعدم المبادرة إلى الحكم

وخير من ذلك، فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد، ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها، داخل في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضًا وهي أن «عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز، ولو بلا إذن حتى ولو ترتب على عمله، إتلاف بعض مال الغير»، كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غضب الملك الظالم. فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما، في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار، فيه سلامة للباقي، جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظًا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال، افتداء للباقي، جاز ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل بجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: ﴿وَعَمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين، لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب لقوله في قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

ومنها: أن القتل قصاصًا غير منكر لقوله: ﴿يَعْبَرِ نَفْسٍ﴾.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، بأن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَمْلِكَهَا﴾. وأما الخير، فأضافه إلى الله تعالى لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وقالت الجن: ﴿وَأَنْتَ لَا تَدْرِي أَشْرُّ أَرِيدُ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته، حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة، وسبب لبقاء الصحة، وتأكدها، كما أن عدم الموافقة، سبب لقطع المرافقة.

﴿وَمَنْ لَوْ بَلَإِ إِذْنٍ حَتَّىٰ لَوْ تَرْتَبَ عَلَىٰ عَمَلِهِ، إِتْلَافَ بَعْضِ مَالِ الْغَيْرِ﴾، كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غضب الملك الظالم. فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما، في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار، فيه سلامة للباقي، جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظًا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال، افتداء للباقي، جاز ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل بجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: ﴿وَعَمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين، لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب لقوله في قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

ومنها: أن القتل قصاصًا غير منكر لقوله: ﴿يَعْبَرِ نَفْسٍ﴾.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، بأن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَمْلِكَهَا﴾. وأما الخير، فأضافه إلى الله تعالى لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وقالت الجن: ﴿وَأَنْتَ لَا تَدْرِي أَشْرُّ أَرِيدُ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته، حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة، وسبب لبقاء الصحة، وتأكدها، كما أن عدم الموافقة، سبب لقطع المرافقة.

ومنها: أن هذه القضايا التي أجزاها الخضر هي قدر محض أجزاها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح، ليستدل العباد بذلك على لطفه في أفضيته، وأنه يقدر على العبد أمورًا يكرهها جدًا، وهي صلاح دينه: كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه، كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجًا من لطفه وكرمه، ليعرفوا ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكرهه.

(٨٣-٨٨) ﴿وَمَنْ لَوْ بَلَإِ إِذْنٍ حَتَّىٰ لَوْ تَرْتَبَ عَلَىٰ عَمَلِهِ، إِتْلَافَ بَعْضِ مَالِ الْغَيْرِ﴾، كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غضب الملك الظالم. فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما، في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار، فيه سلامة للباقي، جاز للإنسان بل شرع له ذلك، حفظًا لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال، افتداء للباقي، جاز ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل بجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: ﴿وَعَمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكنة، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين، لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب لقوله في قتل الغلام: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾.

ومنها: أن القتل قصاصًا غير منكر لقوله: ﴿يَعْبَرِ نَفْسٍ﴾.

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، بأن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه بقوله: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَمْلِكَهَا﴾. وأما الخير، فأضافه إلى الله تعالى لقوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وقالت الجن: ﴿وَأَنْتَ لَا تَدْرِي أَشْرُّ أَرِيدُ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته، حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة، وسبب لبقاء الصحة، وتأكدها، كما أن عدم الموافقة، سبب لقطع المرافقة.

ومنها: أن موافقة الصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة، وسبب لبقاء الصحة، وتأكدها، كما أن عدم الموافقة، سبب لقطع المرافقة.

مغربها قوماً .

﴿قُلْنَا يَا الْقَارِئِينَ إِنَّمَا أَنْتُمْ مُنذَرُونَ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ مُنذَرُونَ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ مُنذَرُونَ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ مُنذَرُونَ﴾ أي : إما أن تعذبهم ، بقتل ، أو ضرب ، أو أسر ونحوه ، وإما أن تحسن إليهم فخير بين الأمرين ، لأن الظاهر أنهم إما كفار ، أو فساق ، أو فيهم شيء من ذلك ، لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق ، لم يُرخص له في تعذيبهم ، فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ، ما استحق به المدح والثناء ، لتفوق الله له لذلك ، فقال : سأجعلهم قسمين :

﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ بالكفر ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا﴾ أي : تحصل له العقوبتان ، عقوبة الدنيا ، وعقوبة الآخرة .

﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ﴾ أي : فله الجنة والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة .

﴿وَسَتَقُولُ لَمْ يَنْ أَمْرًا سِرًّا﴾ أي : وسنحسن إليه ، ونلطف له بالقول ، ونيسر له المعاملة ، وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين والأولياء العادلين العالمين ، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد ، بما يليق بحاله .

(٨٩-٩٨) ﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَبًا﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا﴾ ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَبًا ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ قَالُوا يَا الْقَارِئِينَ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَيْرًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ ﴿٩٥﴾ وَأَتَوَيْبُ زَيْرَ الْحَلِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

لما وصل إلى مغرب الشمس كَرَّ راجعًا ، قاصدًا مطلعها ، متبعًا للأسباب التي أعطاه الله ، فوصل إلى مطلع الشمس ف ﴿وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ أي : وجدها تطلع على أناس ليس لهم ستر من الشمس ، إما لعدم استعدادهم في المساكن ، وذلك لزيادة همجيتهم وتوحشهم ، وعدم تمدنهم ، وإما لكون الشمس دائمة عندهم ، لا تغرب غروبًا يذكر ، كما يوجد ذلك في شرقي أفريقيا الجنوبي ، فوصل إلى موضع انقطع عنه علم أهل الأرض ، فضلًا عن وصولهم إياه بأبدانهم ، ومع هذا ، فكل هذا بتقدير الله له ، وعلمه به ، ولهذا قال : ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا﴾ أي : أحطنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة وعلمنا معه ، حينما توجه وسار .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠٣

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ

إِنَّمَا كُنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَأْتَيْنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ فَأَنْبَأَ سَبَبًا ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا الْقَارِئِينَ إِنَّمَا أَنْتُمْ مُنذَرُونَ وَإِنَّمَا أَنْتُمْ مُنذَرُونَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٩١﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نَّكَرًا ﴿٩٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحَسَنَىٰ وَسَنُقَدِّمُ لَهُ مِنْ أَمْرِ نَائِسِرًا ﴿٩٨﴾ ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَبًا ﴿٩٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٥﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا ﴿٩٦﴾ ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَبًا ﴿٩٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٧﴾ قَالُوا يَا الْقَارِئِينَ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَيْرًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٨﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ وَأَتَوَيْبُ زَيْرَ الْحَلِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ ءَأَتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

﴿ثُمَّ أَنْبَأَ سَبَبًا﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴿قال المفسرون : ذهب متوجهًا من المشرق ، قاصدًا للشمال ، فوصل إلى ما بين السدين ، وهما سدان ، كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان ، سدًا بين يأجوج ومأجوج وبين الناس ، وجد من دون السدين قوماً ، لا يكادون يفقهون قولًا ، لعجمة ألسنتهم ، واستعجاب أذهانهم وقلوبهم ، وقد أعطى الله ذا القرنين ، من الأسباب العلمية ، ما فقه به ألسنة أولئك القوم ، وفقههم ، وراجحهم ، وراجعوه ، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج ، وهما : أمتان عظيمتان من بني آدم فقالوا :

﴿إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك ﴿فَهَلْ يَجْعَلُ لَكَ خَيْرًا﴾ أي : جُعلاً ﴿عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنبان السد ، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه ، فبذلوا له أجرة ليفعل ذلك ، وذكروا له السبب الداعي ، وهو : إفسادهم في الأرض . فلم يكن ذو القرنين ذا طمع ، ولا رغبة في الدنيا ، ولا تاركًا لإصلاح أحوال الرعية . بل كان قصده الإصلاح ، فلذلك أجاب طلبتهم ، لما فيها من المصلحة ، ولم يأخذ منهم

حشرهم، وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم والآخريين، والكافرين والمؤمنين، ليسألوا ويحاسبوا ويجزون بأعمالهم، فأما الكافرون - على اختلافهم - فإن جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبدًا.

(١٠١، ١٠٠) ولهذا قال: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَوَيَّرَّتْ الْجَحِيمَ لِلْغَاوِينَ﴾^(١) أي: عرضت لهم لتكون مأواهم ومنزلهم، وليتمتعوا بأغلالها وسعيرها، وحميمها، وزمهريرها، وليذوقوا من العقاب، ما تبكم له القلوب، وتصم الآذان، وهذا آثار أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في الدنيا ﴿كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ أي: معرضين عن الذكر الحكيم، والقرآن الكريم، وقالوا: ﴿فَلَوْلَا فِي أَكْثَنِ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْكَ﴾ وفي أعينهم أعطية تمنعهم من رؤية آيات الله النافعة كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ أُنُوسِهِمْ غِشْوَةٌ﴾.

﴿وَكَاوُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ أي: لا يقدرُونَ على سماع آيات الله الموصلة إلى الإيمان، لبغضهم القرآن والرسول، فإن المبغض لا يستطيع أن يلقى سمعه إلى كلام من أبغضه، فإذا انحجبت عنهم طرق العلم والخير، فليس لهم^(٢) سماع ولا بصر، ولا عقل نافع، فقد كفروا بالله، وجحدوا آياته، وكذبوا رسالة، فاستحقوا جهنم، وساءت مصيرًا.

(١٠٢) ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ ^{إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا} وهذا برهان وبيان، لبطلان دعوى المشركين الكافرين الذين اتخذوا بعض الأنبياء والأولياء، شركاء لله يعبدونهم، ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء، ينجونهم من عذاب الله، وينيلونهم ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسله.

يقول الله لهم على وجه الاستفهام الإنكاري المتقرر بطلانه في العقول: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ أي: لا يكون ذلك، ولا يوالي وليُّ الله، معاديًا لله أبدًا، فإن الأولياء موافقون لله، في محبته، ورضاه، وسخطه، وبغضه، فيكون على هذا المعنى، مشابهًا لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْمُرُهُمْ جِيعًا تَمُوتُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلَآءَ إِيَّاكَ كَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ قالوا: ﴿سُبْحٰنَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِن دُونِهِمْ﴾.

فمن زعم أنه يتخذ وليُّ الله وليًّا له، وهو معاد لله، فهو كاذب، ويحتمل - وهو الظاهر - أن المعنى: أفحسب الكفار بالله، المنابذون لرسله، أن يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم، وينفعونهم من دون الله، ويدفعون عنهم الأذى؟

(١) في النسختين: (وإذا الجحيم برزت) وهو سبق قلم. (٢) في النسختين: له.

أجرة، وشكره على تمكنه واقتداره، فقال لهم:

﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ أي: مما تبدلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم ﴿أَجْعَلِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ أي: مانعًا من عبورهم عليكم.

﴿آتَوَيْنِي زَبْرًا لِّحَدِيدٍ﴾ أي: قطع الحديد، فأعطوه ذلك ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد ﴿قَالَ أَنْفِضُوا﴾ النار أي: أوقدوها إيقادًا عظيمًا، واستعملوا لها المنافيخ، لتشتد، فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس، الذي يريد أن يلقصه بين زبر الحديد ﴿قَالَ آتَوَيْنِي أَفْرَغَ عَلَيْهِ قَطْرًا﴾ أي: نحاسًا مذابًا، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكامًا هائلًا، وامتنع به من وراءه من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿فَمَا اسْطَعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ أي: فما لهم استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه، لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه وقوته، فلما فعل هذا الفعل الجميل والآخر الجليل، أضاف النعمة إلى موليتها وقال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي﴾ أي: من فضله وإحسانه عليّ.

وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا منَّ الله عليهم بالنعم الجليلة، ازداد شكرهم وإقارهم، واعترفوا بنعمة الله، كما قال سليمان عليه السلام، لما حضر عنده عرش ملكة سبأ، مع البعد العظيم قال: ﴿هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ بخلاف أهل التجبر والتكبر، والعلو في الأرض فإن النعم الكبار، تزيدهم أشترًا وبطرًا. كما قال قارون - لما آتاه الله من الكنوز، ما إن مفاتحه لتتوء بالعصبة أولي القوة قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

وقوله: ﴿إِذَا جَاءَ وَعَدُ رَبِّي﴾ أي: لخروج يأجوج ومأجوج ﴿جَعَلَهُ﴾ أي: ذلك السد المحكم المتقن ﴿دَكَّةً﴾ أي: دكة فانهدم، واستوى هو والأرض ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

(٩٩) ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ يحتمل أن الضمير يعود إلى يأجوج ومأجوج. وأنهم إذا خرجوا على الناس - من كثرتهم واستيعابهم للأرض كلها - يموج بعضهم ببعض، كما قال تعالى: ﴿حَوَّتْ إِذَا فُجِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ ويحتمل أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم القيامة، وأنهم يجتمعون فيه فيكثرون ويموج بعضهم ببعض، من الأهوال والزلازل العظام، بدليل قوله: ﴿وَيَفْجَعُ فِي الصُّورِ جَمْعَهُمْ جَمًّا﴾ ^{وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا} ^{الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا} أي: إذا نفخ إسرافيل في الصور، أعاد الله الأرواح إلى الأجساد، ثم

هذا حسابا باطل، وظن فاسد، فإن جميع المخلوقين، ليس يدهم من النفع والضر شيء، ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَقْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا جُرْحًا﴾، ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفْعَةَ﴾ ونحو ذلك من الآيات التي يذكرها: فيها، أن المتخذ من دونه وليًا ينصره ويواليه، ضال خائب الرجاء، غير نائل لبعض مقصوده.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ لِلْكَافِرِينَ تَزْلًا﴾ أي: ضيافة وقرى، فبئس النزول نزلهم، وبئست جهنم ضيافتهم.

(١٠٣-١٠٦) ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيْبُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيَتِ رَبَّهُمْ وِلْقَائِهِمْ حَتَّىٰ أُعْمَلَهُمْ فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِهِمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُرُوفًا ﴿ أَي: قل يا محمد، للناس - على وجه التحذير والإنذار -: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالًا على الإطلاق؟

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيْبُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بطل واضمحل كل ما عملوه، من عمل، يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها محادة لله ورسله، ومعاداة؟ فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، فخسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة؟ ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيَتِ رَبَّهُمْ وِلْقَائِهِمْ﴾ أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانة، الدالة على وجوب الإيمان به، وبملائكته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر.

﴿حَتَّىٰ﴾ بسبب ذلك ﴿أَعْمَلَهُمْ فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا﴾ لأن الوزن فائده: مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء، لا حسنات لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ مِنْ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِرٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، لكن تعد أعمالهم، وتحصى، ويقروون بها، ويخزون بها على رؤوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ﴾ أي: حبوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة ﴿وَزَنًا﴾ لحقارتهم وخستهم، بكفرهم بآيات الله، واتخاذهم آياته ورسله، هزواً يستهزؤون بها، ويسخرون^(١) منها، مع أن الواجب في آيات الله ورسله، الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية فانعكس أمرهم، وتسعوا وانتكسوا في العذاب.

ولما بين مآل الكافرين وأعمالهم، بين أعمال المؤمنين ومآلهم فقال:

سُورَةُ الْكَافِرَاتِ ٣٠٤

قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿١٨﴾ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَعْنَاهُمْ مَجْعًا﴾ ﴿١٩﴾ وَعَرْضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَظَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿٢١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿٢٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيْبُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٢٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيَتِ رَبَّهُمْ وِلْقَائِهِمْ حَتَّىٰ أُعْمَلَهُمْ فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِهِمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُرُوفًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿٢٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغَوْنَ عَنْهَا جَوْلًا ﴿٢٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿٢٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ نُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ رَاقِبًا لِقَاءِ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿٣٠﴾

(١٠٧، ١٠٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغَوْنَ عَنْهَا جَوْلًا ﴿أي: إن الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم، وشمل هذا الوصف جميع الدين، عقائده، وأعماله، أصوله، وفروعه الظاهرة، والباطنة، فهؤلاء - على اختلاف طبقاتهم من الإيمان، والعمل الصالح - لهم جنات الفردوس.

يحتمل أن المراد بجنات الفردوس، أعلى الجنة، وأوسطها، وأفضلها، وأن هذا الثواب، لمن كمل الإيمان، والعمل الصالح، وهم الأنبياء والمقربون.

ويحتمل أن يراد بها، جميع منازل الجنان، فيشمل هذا الثواب، جميع طبقات أهل الإيمان، من المقربين، والأبرار، والمقتصدین، كُلٌّ بحسب حاله، وهذا أولى المعنيين لعمومه، ولذكر الجنة بلفظ الجمع المضاف إلى الفردوس، ولأن الفردوس يطلق على البستان، المحتوي على الكرم، أو الأشجار الملتفة، وهذا صادق على جميع الجنة.

(١) في النسختين: ويستخرون.

وأما كلام الله، فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأبى سعة وعظمة تصورتها القلوب، فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السموات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم، أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمتقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى.

(١١٠) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۚ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَمْ أَكْفَرُ بِأَنَّ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۚ قُلْ يَا مُحَمَّدٌ لِلْكَفَّارِ وَغَيْرِهِمْ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ أي: لست بآله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزائن الله.

﴿وإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ عبد من عبيد ربي ﴿يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي: فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحى الله إلي، الذي أجله الإخبار لكم: أنما إلهكم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه. ولهذا قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ وهو الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَمْ أَكْفَرُ بِأَنَّ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ لا يراني بعمله، بل يعمله خالصاً لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه، ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف، والله الحمد.

فجنة الفردوس تُزَلُّ وضيافة لأهل الإيمان والعمل الصالح، وأي ضيافة أجل، وأكبر، وأعظم، من هذه الضيافة، المحتوية على كل نعيم، للقلوب، والأرواح، والأبدان، وفيها ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، من المنازل الأنيقة، والرياض الناضرة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة المشجية، والمآكل اللذيذة، والمشارب الشهية، والنساء الحسان، والخدم، والولدان، والأنهار السارحة، والمناظر الرائقة، والجمال الحسي والمعنوي، والنعمة الدائمة.

وأعلى ذلك وأفضله وأجله، التمتع بالقرب من الرحمن ونيل رضاه، الذي هو أكبر نعيم الجنان، والتمتع برؤية وجهه الكريم، وسماع كلام الرؤوف الرحيم.

فلله تلك الضيافة، ما أجلها وأجملها، وأدومها، وأكملها!! وهي أعظم من أن يحيط بها وصف أحد من الخلائق، أو تخطر على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علماً حقيقياً، يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالأشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحدانا، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منغصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاتها، تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب، آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفذت^(١) فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقوله: ﴿خَلَّيْنِ فِيهَا﴾ هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع ﴿لَا يَغْوَنَ عَنَّا حَوْلًا﴾ أي: تحولاً ولا انتقالاً، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه.

(١٠٩) ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَنفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ أي: قل لهم مخبراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: ﴿لَوْ كَانَ الْبَحْرُ﴾ أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ أي: وأشجار الدنيا، من أولها إلى آخرها، من أشجار البلدان والبراري، والبحار أقلام ﴿لَنَفَذَ الْبَحْرُ﴾ وتكسرت الأقلام ﴿قَبْلَ أَنْ نَنفَذَ كَلِمَاتِ رَبِّي﴾ وهذا شيء عظيم، لا يحيط به أحد.

وفي الآية الأخرى ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية منتهية،

(١) كذا في أ، وفي ب: وهت.

تفسير سورة مريم

وهي مدنية (١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿كَهَيْعَصَ ١﴾ ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا ١ ○ إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَاءً حَفِيًّا ٢ ○ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ٣ ○ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَأَىٰ وَكَانَتِ أُمَّرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٤ ○ بَرِيئُ وَبَرِيئُ مِنِّي وَرَأَىٰ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٥ ○ هَذَا ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا﴾ ستقصه عليك، ونفصله تفصيلاً، يعرف به حالة نبيه زكريا، وآثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة، فإن في قصها عبرة للمعتبرين، وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمته لأولياته، وبأي سبب حصلت لهم، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره ومعرفته، والسبب الموصل إليه، وذلك أن الله تعالى اجتبى واصطفى زكريا عليه السلام لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته، كإخوانه من المرسلين ومن اتبعهم، فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحد يتوب منابه في دعوة الخلق إلى ربهم والنصح لهم، شكا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداءً خفياً، ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصاً فقال:

﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ أي: وهى وضُعت، وإذا ضعف العظم الذي هو عماد البدن، ضعف غيره.

﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾ لأن الشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت، ورائده ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله، لأنه يدل على التبرُّي من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: لم تكن يا رب تردني خائباً ولا محروماً من الإجابة، بل لم تزل بي حفيئاً ولدعائي مجيباً، ولم تزل أظافك تتوالى عليّ، وإحسانك واصلاً إليّ، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقاً، أن يتم إحسانه لاحقاً.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَأَىٰ﴾ أي: وإنني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك، وظاهر هذا أنه لم ير فيهم

سُورَةُ مَرْيَمَ

٣٠٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ١ ﴿ذَكَرَ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُهُ زَكَرِيَّا ١﴾
 إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَاءً حَفِيًّا ٢ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ
 مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ
 شَقِيًّا ٣﴾ وَ إِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَأَىٰ وَكَانَتِ
 أُمَّرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ٤ ﴿بَرِيئُ وَبَرِيئُ
 مِن آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ٥﴾ يَنْزَكَرِيَّا ٦
 إِنَّا نَبِّئُكَ بِمَا لَمْ يَحْصِي لَمْ يَحْصِلْ لَهُ، مِن قَبْلُ سَمِيًّا ٧
 ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ أُمَّرَأَتِي
 عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ
 قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَٰئِنٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
 شَيْئًا ٩ ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ أَلَّا
 تَكَلِّمَ النَّاسَ لِيَالٍ سَوِيًّا ١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ
 مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ١١

أحدًا فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحها، وأن طلبه للولد ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك.

وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولدًا يقوم بالدين من بعده، واشتكى أن امرأته عاقرة، أي: ليست تلد أصلًا، وأنه قد بلغ من الكبر عتياً، أي: عمراً يندر معه وجود الشهوة والولد ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ وهذه الولاية ولاية الدين، وميراث النبوة والعلم والعمل.

ولهذا قال: ﴿بَرِيئُ وَبَرِيئُ مِن آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ أي: عبدًا صالحًا ترضاه، وتحببه إلى عبادك، والحاصل أنه سأل الله ولدًا ذكرًا صالحًا يبقى بعد موته، ويكون وليًا من بعده، ويكون نبياً مرضياً عند الله وعند خلقه، وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده أن

(١) لعل الصواب أنها مكية، والله أعلم.

يرزقه ولدًا صالحًا جامعًا لمكارم الأخلاق، ومحامد الشيم، فرحمه ربه، واستجاب دعوته فقال:

(٧-١١) ﴿يَرْكَرِبْنَا إِنَّا نُنِيرُكَ بِقَلْبِكَ أَسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۚ قَالَ رَبِّ أُنِّي بُكُوتٌ لِي غَلْمٌ وَكَانَتْ أَمْرًا قِيًّا عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۚ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْنَاكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۚ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَاتُكَ الْأَتُكَلِّمُ النَّاسَ تِلْكَ لَيْسَالِ سَوِيًّا ۚ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْحَرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۚ أَي: بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ «يحيى» وسماه الله له «يحيى»، وكان اسمًا موافقًا لمساماه: يحيى حياة حسية، فتمت به المنه، ويحيى حياة معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين.

﴿لَمْ نَجْعَلْ لَمْ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۚ أَي: لم يسم هذا الاسم قبله أحد، ويحتمل أن المعنى: لم نجعل له من قبل مثيلاً ومساميًا، فيكون ذلك بشارة بكامله، واتصافه بالصفات الحميدة، وأنه فاق من قبله، ولكن على هذا الاحتمال، هذا العموم لا بد أن يكون مخصوصًا بإبراهيم، وموسى، ونوح عليهم السلام، ونحوهم، ممن هو أفضل من يحيى قطعًا، فحينئذ لما جاءت البشارة بهذا المولود الذي طلبه، استغرب وتعجب وقال:

﴿رَبِّ أُنِّي يَكُونُ لِي غَلْمٌ ۚ وَالْحَالُ أَن الْمَانِعُ مِنْ وَجُودِ الْوَلَدِ، موجود بي وبزوجتي؟ وكأنه وقت دعائه، لم يستحضر هذا المانع لقوة الوارد في قلبه، وشدة الحرص العظيم على الولد وفي هذه الحال، حين قبلت دعوته، تعجب من ذلك، فأجابه الله بقوله:

﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ ۚ أَي: الأمر مستغرب في العادة، وفي سنة الله في الخليقة، ولكن قدرة الله تعالى صالحة لإيجاد الأشياء بدون أسبابها فذلك هين عليه، ليس بأصعب من إيجاده قبْل، ولم يكن شيئًا.

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۚ أَي: يطمنن بها قلبي، وليس هذا شكًا في خبر الله، وإنما هو كما قال الخليل عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطْمَئِنَّ قَلْبِي ۚ فَطَلَبَ زِيَادَةَ الْعِلْمِ، والوصول إلى عين اليقين بعد علم اليقين، فأجابه الله إلى طلبته رحمة به.

﴿قَالَ آيَاتُكَ الْأَتُكَلِّمُ النَّاسَ تِلْكَ لَيْسَالِ سَوِيًّا ۚ وفي الآية الأخرى ﴿أَلَّا تُكَلِّمُ النَّاسَ تِلْكَ لَيْسَالِ سَوِيًّا ۚ والمعنى واحد، لأنه تارة يعبر بالليالي، وتارة بالأيام ومؤداها واحد، وهذا من الآيات العجيبة، فإن منعه من الكلام مدة ثلاثة أيام، وعجزه عنه من غير خرس ولا آفة، بل كان سويًا، لا نقص فيه - من الأدلة على قدرة الله الخارقة للعوائد - ومع هذا، ممنوع من الكلام الذي يتعلق بالآدميين وخطابهم، وأما التسبيح والنهليل، والذكر ونحوه، فغير ممنوع منه، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَأَذْكُرُ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحُ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ۚ فاطمأن قلبه، واستبشر بهذه البشارة العظيمة، وامتلل لأمر الله له بالشكر بعبادته وذكره، فعكف في محرابه، وخرج على قومه منه ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ ۚ أَي: بالإشارة والرمز ﴿أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۚ لأن البشارة بـ «يحيى» في حق الجميع مصلحة دينية.

(١٢-١٥) ﴿يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآيَاتُنَا لَكُمْ صَيًّا ۚ وَحَنَاتًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَتْ تَقِيًّا ۚ وَيَرَىٰ يَوْلَادَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبْرًا عَصِيًّا ۚ وَسَلَّمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۚ دل الكلام السابق على ولادة يحيى، وشبابه، وترتيبه، فلما وصل إلى حالة يفهم فيها الخطاب، أمره الله أن يأخذ الكتاب بقوة، أي: بجهد واجتهاد، وذلك بالاجتهاد في حفظ ألفاظه، وفهم معانيه، والعمل بأوامره ونواهي، هذا تمام أخذ الكتاب بقوة، فامتثل أمر ربه، وأقبل على الكتاب، فحفظه وفهمه، وجعل الله فيه من الذكاء واللفظة، ما لا يوجد في غيره ولهذا قال: ﴿وَآيَاتُنَا لَكُمْ صَيًّا ۚ أَي: معرفة أحكام الله والحكم بها، وهو في حال صغره وصباه.

﴿و﴾ آتيانه أيضًا ﴿حَنَاتًا مِّنْ لَّدُنَّا ۚ أَي: رحمة ورافة، تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله.

﴿وَزَكَاةً ۚ أَي: طهارة من الآفات والذنوب، فطهر قلبه، وتزكى عقله، وذلك يتضمن زوال الأوصاف المذمومة، والأخلاق الرديئة، وزيادة الأخلاق الحسنة، والأوصاف المحمودة، ولهذا قال:

﴿وَكَانَتْ تَقِيًّا ۚ أَي: فاعلًا للمأمور، تاركًا للمحظور، ومن كان مؤمنًا تقيا كان لله وليًا، وكان من أهل الجنة التي أعدت للمتقين، وحصل له من الثواب الدنيوي والأخروي، ما رتبته الله على التقوى.

﴿و﴾ كان أيضًا ﴿بِرًّا يَوْلَادَيْهِ ۚ أَي: لم يكن عاقًا، ولا مسيئًا إلى أبيه، بل كان محسنًا إليهما بالقول والفعل.

﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبْرًا عَصِيًّا ۚ أَي: لم يكن متجبرًا متكبرًا عن عبادة الله، ولا مترفعًا على عباد الله، ولا على والديه، بل كان متواضعًا، متذللًا، مطيعًا، وأبًا لله على الدوام، فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها.

فَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾
 وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشّر، والعقاب في هذه
 الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن
 أهل دار السلام، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى والده،
 وعلى سائر المرسلين، وجعلنا الله من أتباعهم، إنه جواد كريم.
 (٢١-١٦) ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا
 شَرِيحًا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ
 لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۚ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۚ قَالَ
 إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۚ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي
 غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۚ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ
 عَلِيُّ هَيْنَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۙ
 لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة، وانتقل
 منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجًا من الأدنى إلى الأعلى
 فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ مَرْيَمَ﴾ عليها السلام،
 وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي
 يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه
 بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها
 الكامل، أي: واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة،
 حين ﴿انْتَبَذَتْ﴾ أي: تباعدت عن أهلها ﴿مَكَانًا شَرِيحًا﴾ أي:
 مما يلي الشرق عنهم.

فَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾
 وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشّر، والعقاب في هذه
 الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأهوال، ومن
 أهل دار السلام، فصلوات الله وسلامه عليه، وعلى والده،
 وعلى سائر المرسلين، وجعلنا الله من أتباعهم، إنه جواد كريم.
 (٢١-١٦) ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا
 شَرِيحًا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ
 لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۚ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۚ قَالَ
 إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۚ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي
 غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۚ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ
 عَلِيُّ هَيْنَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۙ
 لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة، وانتقل
 منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجًا من الأدنى إلى الأعلى
 فقال: ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ الْكَرِيمِ مَرْيَمَ﴾ عليها السلام،
 وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي
 يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه
 بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها
 الكامل، أي: واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة،
 حين ﴿انْتَبَذَتْ﴾ أي: تباعدت عن أهلها ﴿مَكَانًا شَرِيحًا﴾ أي:
 مما يلي الشرق عنهم.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ أي: سترًا ومانعًا، وهذا
 التباعد منها، واتخاذ الحجاب، لتعتزل، وتنفرد بعبادة ربها،
 وتقتت له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى،
 وذلك امتثال منها لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ اللَّائِكَةُ يَمْرِمُ إِنَّ اللَّهَ
 اصْطَفَىٰ لَكَ وَطَهَّرَكَ عَلَىٰ سِنَاءِ الْعَالَمِينَ ۝ يَمْرِمُ أَقْبَىٰ
 لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرُّكْعَيْنِ﴾.

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وهو جبريل عليه السلام
 ﴿تَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ أي: كاملاً من الرجال، في صورة
 جميلة، وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا
 تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رآته في هذه الحال، وهي
 معتزلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتخذت الحجاب عن
 أعز الناس عليها، وهم أهلها، خافت أن يكون رجلاً قد
 تعرض لها بسوء، وطمع فيها، فاعتصمت بربها، واستعاذت
 منه فقالت له:

﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ أي: ألتجئ به وأعتصم برحمته،
 أن تتلاني بسوء، ﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ أي: إن كنت تخاف الله،
 وتعمل بتقواه، فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام
 بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهي في

تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في
 ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم ينطق لها
 بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها، وهذا أبلغ ما
 يكون من العفة، والبعد عن الشر وأسبابه.

وهذه العفة - خصوصًا مع اجتماع الدواعي، وعدم المانع
 - من أفضل الأعمال، ولذلك أثنى الله عليها فقال: ﴿وَمَرْيَمَ
 ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا ۗ وَالَّتِي
 أَحْصَيْنَا فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا
 ءَايَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

فأعاضها الله بعفتها ولدًا من آيات الله، ورسولًا من رسله،
 فلما رأى جبريل منها الروح والخيفة، قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ
 رَبِّكِ﴾ أي: إنما وظيفتي وشغلي تنفيذ رسالة ربي فيك ﴿لَأَهَبَ
 لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾، وهذه بشارة عظيمة بالولد وزكاته، فإن
 الزكاء يستلزم تطهيره من الخصال الذميمة، وانصافه بالخصال
 الحميدة، فتعجب من وجود الولد من غير أب فقالت: ﴿أَنَّى
 يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ والولد لا يوجد إلا
 بذلك!!!

وأما من جهة قالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر، أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي: سكوتاً ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ أي: لا تخاطبهم بكلام، لتستريح من قولهم وكلامهم، وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها لأن الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهد، أعظم شاهد على براءتها.

فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج، ودعواها أنه من غير أحد، من أكبر الدعاوي، التي لو أقيم عدة من الشهود، لم تصدق بذلك، فجعلت بينة هذا الخارق للعادة، أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جداً. ولهذا قال تعالى:

(٢٧-٣٣) ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيْلًا قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ بِتَأَخُّتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَعِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكُتُبَ وَجَعَلْنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ أي: فلما تعلقت مريم من نفاسها، أتت بعيسى قومها تحمله، وذلك، لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأنت غير مبالية ولا مكترثة، فقالوا: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي: عظيماً وخيماً، وأرادوا بذلك البغاء^(١) حاشاها من ذلك.

﴿بِتَأَخُّتِ هَرُونَ﴾ الظاهر أنه أخ لها حقيقي، فنسبها إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قرابة كثيرة ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَعِيًّا﴾ أي: لم يكن أبوك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصاً هذا الشر الذي يشيرون إليه، وقصدتهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأتيت بما لم يأتيها؟ وذلك أن الذرية - في الغالب - بعضها من بعض، في الصلاح وضده، فتعجبوا - بحسب ما قام بقلوبهم - كيف وقع منها.

فأشارت لهم إليه، أي: كلموه، وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها أن تقول: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾، فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ لأن ذلك لم تجر به عادة، ولا حصل من أحد في

(١) كذا في ب، وفي أ: البغي، وما في ب يبدو أنه معدل من البغي، فصار (البغاء) هو الأقرب المتوافق مع القصة.

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَنَجَعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ تدل على كمال قدرة الله تعالى، وعلى أن الأسباب جميعها لا تستقل بالتأثير، وإنما تأثيرها بتقدير الله.

فيري عباده خرق العوائد في بعض الأسباب العادية، لئلا يقفوا مع الأسباب، ويقطعوا النظر عن مقدرها ومسيبها ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ أي: ولنجعل رحمة منا به، وبوالدته، وبالناس.

أما رحمة الله به، فلما خصه الله بوحيه ومنَّ عليه بما منَّ به على أولي العزم، وأما رحمته بوالدته، فلما حصل لها من الفخر، والثناء الحسن، والمنافع العظيمة، وأما رحمته بالناس، فإن أكبر نعمه عليهم أن بعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيؤمنون به، ويطيعونه، وتحصل لهم سعادة الدنيا والآخرة.

﴿وَكَانَ﴾ أي: وجود عيسى عليه السلام على هذه الحالة ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ قضاء سابقاً، فلا بد من نفوذ هذا التقدير والقضاء، فنفع جبريل عليه السلام في جيها.

(٢٦-٢٢) ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنَعِ النَّخْلِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا ﴿٢٧﴾ مَنِيًّا ﴿٢٨﴾ فَانْدَبَهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٩﴾ وَهَرَوَى إِلَيْكَ يَجْعَلُ النَّخْلَ سُقُوطَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٣٠﴾ وَفَرَى عَيْنًا فَإِنَّمَا تَرِي مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ أي: لما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾، فلما قرب ولادها، ألاجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما ألمها وجع الولادة، ووجع الافراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من قالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمتت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسيًا منسيًا، فلا تذكر.

وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل، فحينئذ سكن الملك روعها وثبت جأشها وناداهما من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تجزعي ولا تهتمي، فـ ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي: نهرًا تشرين منه.

﴿وَهَرَوَى إِلَيْكَ يَجْعَلُ النَّخْلَ سُقُوطَ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ أي: طرباً للذيذا نافعاً ﴿فَكُلِي﴾ من التمر ﴿وَأَشْرَبِي﴾ من النهر ﴿وَفَرَى عَيْنًا﴾ بعيسى، فهذا طمأنينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول المأكَل والمشرب الهنيء.

ذلك السن .

فحينئذ قال عيسى عليه السلام، وهو في المهد صبي: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، فخاطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهًا، أو ابنًا لإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى - في قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ ومدعون موافقته.

﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ أي: قضى أن يؤتيني الكتاب ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ فأخبرهم بأنه عبد لله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من جماله لنفسه.

ثم ذكر تكميله لغيره فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أي: في أي مكان، وأي زمان، فالبركة جعلها الله في من تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه، التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده، التي أجلها الزكاة، مدة حياتي، أي: فأنا ممثل لوصية ربي، عامل عليها، منفذ لها.

ووصاني أيضًا أن أبر والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدة، لها حق الولادة وتوابعها.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ أي: متكبرًا على الله، مترفعًا على عباده ﴿سَقِيًّا﴾ في دنياي أو أخراي، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعًا له خاضعًا خاشعًا متذللاً، متواضعًا لعباد الله، سعيدًا في الدنيا والآخرة، أنا ومن اتبعني.

فلما تم له الكمال، ومحامد الخصال قال: ﴿وَأَسَلَمْتُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُعْتُ حَيًّا﴾ أي: من فضل ربي وكرمه، حصلت لي السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي - من الشر، والشيطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامته من الأهوال، ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان باهر، على أنه رسول الله، وعبد الله حقًا.

(٣٤-٣٦) ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ وَإِنَّ لِلَّهِ رَبِّ وَرَبِّكَ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات عيسى ابن مريم من غير شك ولا مرية، بل قول الحق، وكلام الله، الذي لا أصدق منه قبلاً، ولا أحسن منه حديثاً، فهذا الخبر اليقيني عن

الْبُرُوقِ

٣٠٧

سُورَةُ مَرْيَمَ

فَكُلِّ وَأَشْرِي وَقَرِي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٣٦﴾ فَآتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ، قَالُوا لِمَ يَمُرِّمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٣٧﴾ يَتَّخِذُ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا ﴿٣٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٣٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٤٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٤١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا سَقِيًّا ﴿٤٢﴾ وَأَسَلَمْتُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أُمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٤٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّ لِلَّهِ رَبِّ وَرَبِّكَ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤٦﴾ فَأَخْلَفَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٤٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَ تَنَاوُلًا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٨﴾

عيسى عليه السلام، وما قيل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع بطلانه، وغايته أن يكون شكًا من قائله لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكون فيمارون بشكهم، ويجادلون بخرصهم، فمن قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكهم وتقولهم علواً كبيراً.

ف ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق، لأن ذلك من الأمور المستحيلة، لأنه الغني الحميد، المالك لجميع الممالك، فكيف يتخذ من عباده ومماليكه ولداً؟! ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ أي: تنزهه وتقدس عن الولد والنقص ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ أي: من الأمور الصغار والكبار، لم يمتنع عليه ولم يستصعب ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فإذا كان قدره ومشيئته نافذاً في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا كان إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ فكيف يستبعد إيجاد عيسى من غير أب؟!

ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مريبوب كغيره فقال: ﴿وَإِنَّ لِلَّهِ رَبِّ وَرَبِّكَ﴾ الذي خلقنا، وصورنا، ونفذ فينا تدييره، وصرفنا تقديره.

به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير داخلين في هذا الوعيد، فلهذا خص الله بالوعيد الكافرين.

(٣٩، ٤٠) ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجِعُونَ﴾ الإنذار هو: الإعلام بالمخوف على وجه التهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع رسله، سعد وسعادة لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله واتبع رسله شقى شقاوة لا سعادة^(١) بعدها، وخسر نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر ويندم ندامة تقطع منها القلوب، وتتصدع منها الأفئدة، وأي حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته، واستحقاق سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟!!

فهذا قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يخطر بقلوبهم، ولو خطر فعلى سبيل الغفلة، قد عمتهم الغفلة وشملتهم السكرة، فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون رسله، قد ألهمتهم دنياهم، وحالت بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية الفانية، فالدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها ستذهب عن أهلها، ويذهبون عنها، وسيروا الله الأرض ومن عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما عملوا فيها، وما خسروا فيها أو ربحوا، فمن فعل خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

(٤١-٥٠) ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ كَأَنْتُمْ صِدْقًا نَبِيًّا ۝ إِذْ قَالَ لِأبيه يَتَّبِعِ لِمَ تَتَّبِعُونَ مَا لَا تَسْمَعُونَ وَلَا تَبْصُرُونَ أَلَيْسَ لَكُمْ عِلْمٌ شَيْئًا ۝ يَتَّبِعُونَ لِيَّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُسَكِّنَ عَذَابِي مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ لِيَاءًا ۝ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْ تَنْتَهَى عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهَ لَأَرْجِمَنَّكَ وَاهْجُرَّنِي مَلِيًّا ۝ قَالَ سَلِّمْ عَلَيَّ وَسَلِّمْ عَلَىٰ مَنْ تَعْبُدُونَ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَقِّيًّا ۝ وَأَنْتَ رَبِّي سَقِيًّا ۝ فَلَمَّا أَغْرَقَهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ دُونِهَا مَا نَحْنُ بِمُعْطِيهَا وَإِنَّا بِعَدْلٍ لَدِينًا ۝ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا﴾ أجل الكتب وأفضلها وأعلاها هذا الكتاب المبين، والذكر الحكيم، فإن ذُكر فيه الأخيار، كانت أصدق الأخبار، وأحقها، وإن ذُكر فيه الأمر والنهي، كانت أجل

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ أي: أخلصوا له العبادة، واجتهدوا في الإنابة، وفي هذا، الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والاستدلال بالأول على الثاني، ولهذا قال: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: طريق معتدل، موصل إلى الله، لكونه طريق الرسل وأتباعهم، وما عدا هذا، فإنه من طرق الغي والضلال.

(٣٨، ٣٧) ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ أَتَمَعْتُمْ يَوْمَ وَأَنْصَرْتُمْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لما بين تعالى حال عيسى ابن مريم الذي لا يُشكُّ فيها ولا يمتري، أخبر أن الأحزاب، أي: فرق الضلال، من اليهود والنصارى وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم - اختلفوا في عيسى عليه السلام، فمن غالٍ فيه وجافٍ.

فمنهم من قال: إنه الله، ومنهم من قال: إنه ابن الله، ومنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة، ومنهم من لم يجعله رسولا، بل رماه بأنه ولد يَتَمَعَّى كاليهود.

وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وآراؤهم فاسدة، مبنية على الشك والعناد، والأدلة الفاسدة، والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله، وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر.

﴿مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرون، أهل السماوات، وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلئ بالزلازل والأحوال المشتمل على الجزاء بالأعمال، فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون، وما كانوا يكتُمون.

﴿أَتَمَعْتُمْ يَوْمَ وَأَنْصَرْتُمْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم؟ فيفرون بكفرهم وشركهم، وأقوالهم ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ففي القيامة، يستيقنون حقيقة ما هم عليه.

﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وليس لهم عذر في هذا الضلال، لأنهم بين معاند ضال على بصيرة عارف بالحق صادف عنه، وبين ضال عن طريق الحق متمكن من معرفة الحق والصواب، ولكنه راض بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساع في معرفة الحق من الباطل، وتأمل كيف قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعد قوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾، ولم يقل «فويل لهم» ليعود الضمير إلى الأحزاب، لأن من الأحزاب المختلفين طائفة أصابت الصواب، ووافقت الحق فقالت في عيسى: «إنه عبد الله ورسوله» فأمنوا

(١) في ب: لا يسعد.

وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ بِهِمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نُرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا يُرْجِعُونَ ﴿٤٠﴾ وَأَذْكَرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِ يَا إِبْرَاهِيمُ لِمَ لَمْ تَتَّبِعْ لِأَرْحَمِنَا وَأَهْجُرِنِي مِثْلًا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُّكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا أَعْتَزَلْتَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُمُ اسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلَّجَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيمًا ﴿٥٠﴾ وَأَذْكَرَ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥١﴾

من لطف الخطاب ولينه ما لا يخفى، فإنه لم يقل: «يا أبت أنا عالم، وأنت جاهل» أو «ليس عندك من العلم شيء»، وإنما أتى بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علمًا، وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك، ولم يأتك، فينبغي لك أن تتبع الحجة، وتتقاعدها.

﴿يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ﴾ لأن من عبد غير الله فقد عبد الشيطان، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْبُدِ إِلَيْكُمْ يَتَّبِعِ عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُمْ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ فمن اتبع خطواته فقد اتخذه وليًا وكان عاصيًا لله بمنزلة الشيطان، وفي ذكر إضافة العصيان إلى اسم الرحمن إشارة إلى أن المعاصي تمنع العبد من رحمة الله، وتغلق عليه أبوابها، كما أن الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته، ولهذا قال:

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ أي: بسبب إصرارك على الكفر، وتماديك في الطغيان ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ أي: في الدنيا والآخرة، فتنزل بمنزلة الذميمة، وترتع في مراتع الوخيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه

الأوامر والنواهي، وأعدلها وأسطها، وإن ذكر فيه الجزاء، والوعد والوعيد، كان أصدق الأنبياء وأحقها وأدلها على الحكمة والعدل والفضل، وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون، كان المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيرًا ما يبدى ويعيد في قصص الأنبياء، الذين فضلهم على غيرهم، ورفع قدرهم، وأعلى أمرهم، بسبب ما قاموا به من عبادة الله ومحبة، والإنابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية.

فذكر الله في هذه السورة جملة من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن يذكرهم، لأن في ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم، وفيه الحث على الإيمان بهم، ومحبتهم، والافتداء بهم، فقال: ﴿وَأَذْكَرَ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ جمع الله له بين الصديقية والنبوة.

فالصديق: كثير الصدق، فهو الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله، المصدق بكل ما أمر بالتصديق به، وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين، والعمل الصالح الكامل، وإبراهيم عليه السلام هو أفضل الأنبياء كلهم بعد محمد ﷺ.

وهو الأب الثالث للطوائف الفاضلة، وهو الذي جعل الله في ذريته النبوة والكتاب، وهو الذي دعا الخلق إلى الله، وصبر على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا القريب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه، مهما أمكنه.

وذكر الله مراجعته إياه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ مَهْجَأًا لِه عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ﴾ ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، أي: لِمَ تعبد أصنامًا ناقصة في ذاتها، وفي أفعالها؟ فلا تسمع، ولا تبصر، ولا تملك لعابدها نفعًا ولا ضرًا، بل لا تملك لأنفسها شيئًا من النفع، ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا برهان جلي دال على أن عبادة الناقص في ذاته وأفعاله مستقيح عقلاً وشرعًا.

ودل بتنبهه وإشارته أن الذي يجب ويحسن عبادة من له الكمال، الذي لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعُلَمَاءِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ أي: يا أبت لا تحقرني وتقول: إني ابنك، وإن عندك ما ليس عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما لم يعطك، والمقصود من هذا قوله: ﴿فَاتَّبَعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ أي: مستقيمًا معتدلًا، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في جميع الأحوال، وفي هذا

أشق شيء على النفس، لأمر كثيرة معروفة، ومنها انفراده
عمن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً
منه، واعتزل إبراهيم قومه، قال الله في حقه:

﴿فَلَمَّا أَعْرَضْتُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَكُلًّا مِّنْ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴿٣١﴾ جَمَلًا نَبِيًّا ﴿٣٢﴾ فَحَصَلَ لَهُ هَبَةٌ هَؤُلَاءِ
الصَّالِحِينَ ﴿٣٣﴾ الْمُرْسَلِينَ إِلَى النَّاسِ، الَّذِينَ خَصَّهُمُ اللَّهُ بِوَحْيِهِ،
واختارهم لرسالته واصطفاهم من العالمين.

﴿وَهَبْنَا لَهُمُ ﴿٣٤﴾ أَي: لإبراهيم وابنيه ﴿مِن رَّحْمَتِنَا﴾ وهذا يشمل
جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة،
والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر
فيهم الأنبياء والصالحون.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٣٥﴾ وهذا أيضاً من الرحمة التي
وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن أن ينشر له ثناء صادقاً
بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء
الحسن الصادق غير الكاذب العالي غير الخفي، فذكرهم ملاً
الخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلأت بها القلوب،
وقاضت به الألسنة فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين،
ولا تزال أذكراهم في سائر العصور متجددة، وذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

(٥١-٥٣) ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا
نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَدْبَتَهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَوَرَيْتَهُ يَمِينًا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن
رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى
ابن عمران، على وجه التبجيل له والتعظيم، والتعريف بمقامه
الكريم، وأخلاقه الكاملة.

﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا ﴿٥٤﴾ قرىء بفتح اللام، على معنى أن الله
تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين، وقرىء
بكسرهما، على معنى أنه مخلص لله تعالى في جميع أعماله
وأقواله ونياته، فوصفه بالإخلاص في جميع أحواله،
والمعنيين متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه
موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد الإخلاص
منه والاستخلاص من ربه.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٥﴾ أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة،
فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به
من الشرع، دقة وجله، والنبوة تقتضي إحياء الله إليه
وتخصيصه بإنزال الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة
بينه وبين الخلق، بل خصه الله من أنواع الوحي بأجل أنواعه

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب. من رتبة إلى رتبة. (٣) في ب:
فحصل له ولهؤلاء الصالحين.

بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك
إياي وأنت إن أطعني اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن
عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب
الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان، فلم
ينجح هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال:
﴿أَرَأَيْتُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْئَةِ يَنَابِرُهُمْ ﴿٥٦﴾ فَتَبَجَّحَ بِآلِهَتِهِ [التي
هي] (١) من الحجر والأصنام، ولام إبراهيم عن رغبته عنها،
وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوخيم، يتمدح بعبادة
الأوثان، ويدعو إليها.

﴿لَئِن لَّمْ نَنفَخْ ﴿٥٧﴾ أَي: عن شتم آلهتي، ودعوتي إلى عبادة الله
﴿لَأَرْجُمَنَّكَ ﴿٥٨﴾ أَي: قتلاً بالحجارة ﴿وَأَهْبِئُ مِنِّيًّا ﴿٥٩﴾ أَي: لا
تكلمني زماناً طويلاً.

فأجابه الخليل، جواب عباد الرحمن عند خطاب
الجاهلين، ولم يشتمه بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره،
وقال: ﴿سَلِّمْ عَلَيَّ ﴿٦٠﴾ أَي: ستسلم من خطايي إياك بالشم
والسب، وبما تكره.

﴿سَأَسْتَغْفِرَ لَكَ رَبِّي ﴿٦١﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي حَقِّي ﴿٦٢﴾ أَي: لا أزال أدعو
الله لك بالهداية والمغفرة بأن يهديك للإسلام الذي تحصل به
المغفرة.

ف ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي حَقِّي ﴿٦٣﴾ أَي: رحيماً رؤوفاً بحالي، معتنياً
ببي، فلم يزل يستغفر الله له، رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له
أنه عدو الله وأنه لا يفيد فيه شيئاً، ترك الاستغفار له، وتبرأ
منه.

وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم، فمن اتباع ملته سلوك
طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق العلم والحكمة، واللين
والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى مرتبة (٢)، والصبر على
ذلك، وعدم السأمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى
الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل
بالإحسان القول والفعل.

فلما أيس من قومه وآبيه قال: ﴿وَأَعْرَضْتُكُمْ ﴿٦٤﴾ وَمَا نَدَعُونَ مِن
دُونِ اللَّهِ ﴿٦٥﴾ أَي: أنتم وأصنامكم ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي ﴿٦٦﴾ وهذا شامل
لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿عَسَىٰ ﴿٦٧﴾ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي سَجِيًّا ﴿٦٨﴾
أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالتي،
وهذه وظيفة من أيس ممن دعاهم، - فاتبعوا أهواءهم، فلم
تنجح فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون -، أن
يشغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر
وأهله.

ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومآله وأهله وقومه، من

وأفضلها، وهو تكليمه تعالى وتقريبه مناجيًا لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء بأنه كليم الرحمن، ولهذا قال:

﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ بَيْنِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأيمن أي: الأبرك من «الأيمن» والبركة، ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَنْ بُرِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي: رفع الله ذكره في العالمين، ومنزله بين المقربين، فكان عالي الذكر، عالي المنزلة.

﴿وَفَرَّقْنَاهُ نَجِيًّا﴾ والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذا إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه من النداء والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوهم.

(٥٨) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين، وخواص المرسلين، وذكر فضائلهم ومراتبهم قال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومئة لا تسبق، من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين [أنعم] (٤) عليهم، وأن من أطاع الله كان ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ الآية، وأن بعضهم ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: من ذريته ﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ فهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد.

وقوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه، ونصحه لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك ووهب له من رحمته أخاه هارون نبياً. فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعدته على أمره وأعانه عليه.

(٥٤، ٥٥) ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكَنْبِ إِتِمِمْنَا إِلَهُكَ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ أي: واذكر في القرآن الكريم هذا النبي العظيم الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذين منهم سيد ولد آدم.

(٥٤، ٥٥) ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكَنْبِ إِتِمِمْنَا إِلَهُكَ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ۝ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ أي: واذكر في القرآن الكريم هذا النبي العظيم الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذين منهم سيد ولد آدم.

﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أي: لا يعد وعداً إلا وفى به، وهذا شامل للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه [له] (١) وقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ الصَّادِقِينَ﴾ وفى بذلك ومكّن أباه من الذبح، الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان، ثم وصفه بالرسالة والنبوة التي [هي] أكبر منن الله على عبده، وأهلها (٢) من الطبقة العليا من الخلق.

(٥٩-٦٣) ﴿خَلَفَ مِنْ بَدْرِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا ۝ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَمُونَ شَيْئًا ۝ جَنَّتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْعَدْوِيِّ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً إِلَّا سَلَامًا وَهُمْ فِيهَا رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةٌ وَعِشْيَاءٌ ۝ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء، المخلصون (٥) المتبعون لمراضي

﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه، ورضي [هو] عن ربه.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: وجعله. (٣) في ب: في الكتاب. (٤) في الأصل (أنعمت عليهم) ولعل الصواب ما أثبت. (٥) جعل الشيخ هذه الكلمات بالرفع، وجعل فوق كلمة (المخلصون) بخط صغير كلمة (قطع) وفي هذا إشارة إلى أنه من باب القطع في النعت، فلما نص الشيخ - رحمه الله - على ذلك أبقيتها كما هي.

(٥٧، ٥٦) ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكَنْبِ إِدْرِيْسُ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ۝ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ أي: اذكر في الكتب (٣) على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال ﴿إِدْرِيْسُ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٠٩

سُورَةُ مَرْيَمَ

وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٩﴾ وَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمِنَا أَحَاهُ هَرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٩﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ اسْمِعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٩﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٩﴾ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٩﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذِ اتَّخَذُوا عَالِمًا ﴿٥٩﴾ أَلَيْسَتْ الرَّحْمَنُ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٩﴾ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٥٩﴾ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٥٩﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ بَاطِنٌ ﴿٥٩﴾ وَأَمَّا الْجِنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٥٩﴾ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفُنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٥٩﴾

الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وَعَدَ الرَّحْمَنُ﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعدًا غائبًا لم يشاهدوه ولم يروه، فأمنوا بها، وصدقوا غيبها وسعوا لها سعيًا مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلبًا، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا، ويكون في هذا مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع، ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه.

فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حبًا، وأجل شوقًا، ويحتمل أيضًا أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدرکها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجمل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والمعاني كلها

رهبهم، المنيون إليه، ذكر من أتى بعدهم، وبدلوا ما أمروا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهانوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين التي هي أكد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض والسبب الداعي لذلك أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت همهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله فنشأ من ذلك التضييع لحقوقة، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم حصولها، وعلى أي وجه اتفقت تناولوها ﴿فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ أي: عذابًا مضاعفًا شديدًا.

ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعاودها ﴿وَأَمَّنَ﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ﴿وَمَكَرَ صَالِحًا﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على السنة رسله، إذا قصد به وجهه.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ المشتملة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة موفرة أجورها، مضاعفًا عددها.

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا جَوْلَ ولا زوال، وذلك لسعتها وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والحبور.

﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى اسمه ﴿الرَّحْمَنُ﴾ لأنها فيها من الرحمة والإحسان ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر]. وسماها تعالى رحمته فقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْتَصَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وأيضًا ففي إضافتها إلى رحمته، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية ببقاء رحمته التي هي أثرها وموجبها.

«والعباد» في هذه الآية المراد عباد إلهيته الذين عبدوه والتمزوا شرائعه، فصارت العبودية وصفًا لهم كقوله: ﴿وَيَسَاءُ لِمَنْ يَكْفُرْ بِالْحَقِّ﴾ بخلاف عباده المماليك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيدًا لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم، وديرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته، العبودية

الجميلة، أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد، فلا يحزنك ذلك، ولا يهملك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما له من الحكمة فيه.

ثم علل إحاطة علمه، وعدم نسيانه، بأنه ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فربوبيته للسموات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكملة، ليس فيه غفلة ولا إهمال، ولا سُدى، ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل، فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلبها بما ينفعك، ويعود عليك طائله، وهو عبادته وحده، لا شريك له.

﴿وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي: اصبر نفسك عليها، وجاهدها، وقم عليها أتم القيام وأكملها بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعباد عن جميع التعلقات والمشتبهات، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ﴾ إلى أن قال: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ الآية.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَمِيًّا﴾ أي: هل تعلم لله مسامياً، ومشابهاً، ومماثلاً من المخلوقين، وهذا استفهام بمعنى النفي، المعلوم بالعقل. أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً، لأنه الرب وغيره مربوب، الخالق وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده، بالعظمة، والأسماء الحسنى.

(٦٧، ٦٦) ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِثَّ لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا ۝ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا ۝ المراد بالإنسان هنا كل منكر للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول - مستهتماً على وجه النفي والعناد والكفر - ﴿إِذَا مَا مِثَّ لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا﴾ أي: كيف يعيدني الله حياً بعد الموت، وبعد ما كنت رميمًا؟! هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد، ومقصده السيء، وعناده لرسول الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر، وتأمل أدنى تأمل، لرأى استبعاده للبعث في غاية السخافة، ولهذا ذكر تعالى برهاناً قاطعاً، ودليلاً واضحاً، يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال:

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْئًا﴾ أي: أو لا يلفت نظره، ويستذكر حالته الأولى، وأن الله خلقه أول مرة، ولم يك شيئاً، فمن قدر على خلقه من العدم، ولم يكن

صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعَدُهُ مَأْتِيًّا﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: كلاماً لا غنياً لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتماً، ولا عيباً، ولا قولاً فيه معصية لله، أو قولاً مكدرًا.

﴿إِلَّا سَلَامًا﴾ أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر الله، وتحية، وكلام سرور، وبشارة، ومطارحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجية، من الحور، والملائكة، والولدان، والنعيمات المطربة، والألنفاظ الرخيمة، لأن الدار دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه.

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي: أرزاقهم من المآكل والمشرب، وأنواع اللذات، مستمرة حيثما طلبوا، وفي أي وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها أن تكون في أوقات معلومة.

﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ ليعظم وقعها ويتم نفعها، فتلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ بَرًّا قَبْلَ﴾ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يطعنون عنه، ولا يبعون عنه جواراً كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

(٦٤، ٦٥) ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا ۝ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَمْ سَمِيًّا﴾ استبطأ النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: «لو أتينا أكثر مما أتينا، تشوقاً إليه، وتوحشاً لفراقه، وليطمئن قلبه بنزوله.

فأنزل الله تعالى على لسان جبريل ﴿وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا، ابتدروا أمره، ولم نعص له أمراً، كما قال عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فنحن عبيد مأمورون.

﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي: له الأمور الماضية والمستقبلية والحاضرة، في الزمان والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأنا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائراً بين، هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟ ولهذا قال:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ شَيْئًا﴾ أي: لم يكن الله لينسك ويهملك، كما قال تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾ بل لم يزل معتنياً بأمورك، مجرباً لك على أحسن عوائده الجميلة، وتدابيره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١٠

سُورَةُ مَرْيَمَ

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٧٥﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجَ حَيًّا ﴿٧٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْتَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٧٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ حَيًّا ﴿٧٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا ﴿٧٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٨٠﴾ أَقْسَمُ اللَّهُ تَعَالَىٰ وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ - بربوبيته، ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث، هم وشياطينهم فيجمعهم لميقات يوم معلوم.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ حَيًّا﴾ أي: جاثين على ركبهم من شدة الأهوال، وكثرة الزلزال، وفضاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال:

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عَيْنًا﴾ أي: ثم لنزعن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر، والعُتُو، أشدهم عتوًا، وأعظمهم ظلماً، وأكبرهم كفرًا، فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم إلى العذاب الأغلظ إثمًا فالأغلظ، وهم في تلك الحال متلاعنون، يلعن بعضهم بعضًا، ويقول أخراهم لأولاهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَجَازِنَهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِمَّنْ نَارًا قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَقَالَتْ أُولَهُنَّ لِأَخْرَجْنَهُنَّ فَمَا كَانَتْ لَكُنَّ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ وكل هذا تابع لعدله وحكمته وعلمه الواسع ولهذا قال:

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ أي: علمنا محيط بمن هو أولى صليًا بالنار، قد علمناهم وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

(٧٦، ٧٧) ﴿وَإِنْ مَنَعَكَ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ثُمَّ نَسِجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد إلا سيرد النار، حكمًا حتمه الله على نفسه، وأوعد به عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه.

واختلف في معنى الورد قليل: ورودها، حضورها للخلائق كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بعدُ، ينجي الله المتقين، وقيل: ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين بردًا وسلامًا، وقيل: الورد هو المرور على الصراط الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كلمح البصر، وكالريح، وكأجاويد

الخيال، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يزحف زحفًا، ومنهم من يخطف فيلقى في النار، كُلٌّ بحسب تقواه، ولهذا قال:

﴿ثُمَّ نَسِجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الله تعالى بفعل المأمور، واجتباب المحظور ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم ^(١) الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

(٧٣، ٧٤) ﴿وَإِذَا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَنْتَدِي قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ وَكَرَّ أَهْلَكُنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيًّا﴾ أي: وإذا تنادى هؤلاء الكفار آياتنا بينات، أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله، وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان، وشدة الإيقان - قابلوها بصد ما يجب لها، واستهزؤوا بها وبمن آمن بها واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، على أنهم خير من المؤمنين فقالوا معارضين للحق:

(١) كذا في ب، وفي أ: له.

منه وسهله عليه ويسره له، ووهب له أمورًا آخر، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾، ﴿وَإِذَا نُفِثَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

ويدل عليه أيضًا الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور أعظم تفاوت.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ أَصْلَحْتُ﴾ أي: الأعمال الباقية التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل، هي الصالحات منها، من صلاة وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقراءة، وتسبيح، وتكبير، وتحميد، وتهليل، وإحسان إلى المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية.

فهذه الأعمال ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ أي: خير عند الله ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها ورددها، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل في غير بابه، فإنه ما تم غير الباقيات الصالحات، عمل ينفع ولا يبقى لصاحبه ثوابه، ولا ينجح.

ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات، - والله أعلم - أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة، ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

(٧٧-٨٠) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَالًا وَّوَلَدًا ۖ أَلَطَعُ الْعَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَنصُرُكَ لَمْ يَنْفَعَكَ مِنَ الْعَذَابِ مَدَدًا ۖ وَنُرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِنَا فَرْدًا﴾ أي: أفلا تتعجب من حالة هذا الكافر الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة، أنه سيؤتى في الآخرة مالًا وولدًا، أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمنًا بالله وادعى هذه الدعوى، لسهل الأمر.

وهذه الآية وإن كانت نازلة في كافر معين، فإنها تشمل كل كافر زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة. قال الله توبيخًا له وتكذيبًا: ﴿أَلَطَعُ الْعَيْبَ﴾ أي: أحاط علمه بالغيب حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون أنه يؤتى يوم القيامة مالًا وولدًا؟.

﴿أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أنه نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه متقول، قائل ما لا علم له به، وهذا التقسيم والترديد في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحججة، فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة، لا

﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: نحن والمؤمنون ﴿خَيْرٌ مَقَامًا﴾ أي: في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي مجلسًا: أي: فاستتجوا من هذه المقدمة الفاسدة، أنهم أكثر مالًا وأولادًا وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديهم مزخرقة مزوقة، والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد، وحسن المنظر، كثيرًا ما يكون سببًا لهلاك صاحبه وشقائه وشره، ولهذا قال تعالى:

﴿وَكَلَّ أَهْلَكَ مَا بَلَغَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا﴾ أي: متاعًا، من أوان وفرش، وبيوت، وزخارف، وأحسن رثيًا، أي: أحسن مرأى ومنظرًا، من غضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور، فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثنًا ورثيًا، ولم يمنعمهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء وهم أقل منهم وأذل، معتصمين من العذاب ﴿أَكْفَرُكُمْ سِرًّا مِنَ أَوْلِيَّكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾؟ وعلم من هذا أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا، من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

(٧٥) ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا ۖ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِنَّمَا الْعَذَابُ وَبِمَا السَّاعَةِ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ لما ذكر دليلهم الباطل الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه، وسعى فيها، فإن الله يمددها، ويزيدها فيها جبا، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُمُ آرَاءَ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ﴾ ﴿وَنُقِلَبِ أَعْيُنُهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُونَ بِهِمْ أَوْلَ مَرَرٍ وَنَدَرَهُمْ فِي طَعْنِهِمْ يَعْهَوْنَ﴾.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾ أي: القائلون: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾، ﴿مَا يُوعَدُونَ إِنَّمَا الْعَذَابُ﴾ بقتل أو غيره ﴿وَبِمَا السَّاعَةِ﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضمحلة، ويتقنون أنهم أهل الشر.

﴿وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئًا، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول.

(٧٦) ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالَّذِينَ هُمْ أَصْلَحْتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا﴾ لما ذكر أنه يمد للظالمين في ضلالهم، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع والعمل الصالح، فكل من سلك طريقًا في العلم والإيمان، والعمل الصالح، زاده الله

يخلو:

إما أن يكون قوله صادراً عن علم بالغيوب المستقبلية، وقد علم أن هذا لله وحده، فلا أحد يعلم شيئاً من المستقبلات الغيبية، إلا ما أطلعه الله إليه من رسله.

وإما أن يكون متخذاً عهداً عند الله بالإيمان به واتباع رسله، الذي عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، الناجون الفائزون، فإذا انتفى هذان الأمران علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى:

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، فليس للقاتل اطلاع على الغيب، لأنه كافر ليس عنده من علم الرسل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً، لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تقوله، وأن قوله مكتوب محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب ولهذا قال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي: نزيده من أنواع العقوبات، كما ازداد من الغي والضلال.

﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾ أي: نرثه ماله وولده، فينتقل من الدنيا فرداً، بلا مال ولا أهل ولا أنصار، ولا أعوان ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ فيرى من وخيم العذاب وأليم العقاب ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

(٨٣، ٨٤) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْذُهُمْ أَرَّاكَ﴾
 ○ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عذاباً وهذا من عقوبة الكافرين أنهم - لما لم يعصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به ووالوا أعداءه من الشياطين - سلطهم عليهم، وقبضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤذهم إلى المعاصي أراً، وترعجهم إلى الكفر إزعاجاً، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزينون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم، ويتشربها فيسعى فيه سعي المحق في حقه فينصره بجده، ويحارب عنه، ويجاهد أهل الحق في سبيل الباطل.

وهذا كله جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه، جعل له عليه سلطاناً. وإلا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ○ إِنَّمَا سُلْطَانُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ أي: أن لهم أياماً معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نهملهم ونحلهم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز

أَفْرَيْتَ الَّذِي كَفَرْنَا بِأَيَّتِنَا وَقَالَ لَاؤْتِيكَ مَا لَوْ وُلِدَا
 ﴿٧٧﴾ أَطْعَمَ الْغَيْبَ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا
 سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ
 مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَأَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً
 لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
 عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ
 تَؤْذُهُمْ أَرَّاكَ ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا ﴿٨٤﴾
 يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ
 إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اخْتَدَ عِنْدَ
 الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ
 جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ
 وَتَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا
 ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمُ
 وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

مقدر.

(٨٥-٨٧) ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ○ وَسَوْفَ
 الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًّا ○ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اخْتَدَ عِنْدَ
 الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٩١﴾ يخبر تعالى عن تفاوت الفريقين، المتقين
 والمجرمين، وأن المتقين له - باتقاء الشرك والبدع والمعاصي
 - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين، وأن
 مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفوداً إليه، والوافد لا بد
 أن يكون في قلبه من الرجاء وحسن الظن بالوافد [إليه] (٩١)، ما
 هو معلوم.

فالمتقون يقدون إلى الرحمن، راجين منه رحمته، وعميم
 إحسانه، والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما
 قدموه من العمل بتقواه، واتباع مرضيه، وأن الله عهد إليهم
 بذلك الثواب على السنة رسله فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به،
 واثقين بفضله.

وأما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم ورداً، أي:

أعمالهم، فلا يضل ولا ينسى، ولا تخفى عليه خافية.

﴿وَكَلَّمَهُم بِآيِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ أي: لا أولاد ولا مال ولا أنصار، ليس معه إلا عمله، فيجازيه الله، ويوفيه حسابه، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرْدًا كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

(٩٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وِدًّا﴾ هذا من نعمه على عباده الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، أن وعدهم أنه يجعل لهم وداً أي: محبة ووداداً في قلوب أوليائه، وأهل السماء والأرض، وإذا كان لهم في القلوب وداً يسر لهم كثير من أمورهم وحصل لهم من الخيرات والدعوات والإرشاد والقبول والإمامة ما حصل، ولهذا ورد في الحديث الصحيح: «إن الله إذا أحب عبداً، نادى جبريل: إني أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض». وإنما جعل الله لهم وداً، لأنهم^(١) ودوه، فوددهم إلى أوليائه وأحبابه.

(٩٧، ٩٨) ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ لِتَشِيرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ وكم أهلكنا قبلكم من قرون هل تحس منهم من أحدٍ أو سمع لهم كذباً يخبر تعالى عن نعمته تعالى، وأن الله يسر هذا القرآن الكريم بلسان الرسول محمد ﷺ، يسر ألفاظه ومعانيه، ليحصل المقصود منه، والانتفاع به.

﴿لِيُشِيرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ﴾ بالترغيب في المبرر به من الثواب العاجل والآجل، وذكر الأسباب الموجبة للشارة.

﴿وَنُذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ أي: شديدين في باطلهم أقوياء في كفرهم، فتذرهم، فتقوم عليهم الحجة وتبين لهم المحجة فيهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، ثم توعدهم بإهلاك المكذبين قبلهم فقال:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودٍ وَفِرْعَوْنَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُكذِبِينَ﴾ لما استمروا في طغيانهم، أهلكهم الله فليس لهم من باقية.

﴿هَلْ تُحِشُّ مُتَمِّمٌ مِنْ أَحَدٍ أَوْ سَمِعَ لَهُمْ كِبْرًا﴾ والركز: الصوت الخفي، أي: لم يبق منهم عين ولا أثر، بل بقيت أخبارهم عبرة للمعتبرين، وأسمارهم عظة للمتعتلين.

تم تفسير سورة مريم، والله الحمد والشكر.

عطاشاً، وهذا أشجع ما يكون من الحالات، سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأظنع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمأهم ونصبهم، يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال:

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾ أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفْعَةُ جَمِيعًا﴾ وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم لم يتخذوا عنده عهداً بالإيمان به وبرسله، وإلا فمن اتخذ عنده عهداً فأمن به وبرسله، واتبعهم، فإنه ممن ارتضاه الله، وتحصل له الشفاعة كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ وسمى الله الإيمان به، واتباع رسله عهداً، لأنه عهد في كتبه وعلى السنة رسله بالجزاء الجميل لمن اتبعهم

(٨٨-٩٥) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا
 ○ نَكَادَ السَّمَوَاتِ يَنْقَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ○
 أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ○ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ○ إِنْ كُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عَائِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ○ لَقَدْ أَحْضَنُمُ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ○ وَكَلَّمَهُمْ آيَاتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ○ وهذا تقييد وتنشيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولداً كقول النصارى: «المسيح ابن الله» واليهود: «عزير بن الله» والمشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ أي: عظيماً وخيماً.

من عظيم أمره أنه ﴿نَكَادَ السَّمَوَاتِ﴾ على عظمتها وصلابتها ﴿يَنْقَطَرْنَ مِنْهُ﴾ أي: من هذا القول ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ منه، أي: تتصدع وتنفطر ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا﴾ أي: تنكد الجبال.

﴿أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: من أجل هذه الدعوى القبيحة تكاد هذه المخلوقات، أن يكون منها ما ذكر، والحال أنه: ﴿مَّا يَنْبَغِي﴾ أي: لا يليق ولا يكون ﴿لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ وذلك لأن اتخاذه الولد يدل على نقصه واحتياجه، وهو الغني الحميد، والولد أيضاً من جنس والده، والله تعالى لا شبيه له ولا مثل ولا سمي.

﴿إِنْ كُنْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عَائِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ أي: ذليلاً متقاداً، غير متعاص ولا ممتنع، الملائكة، والإنس، والجن وغيرهم، الجميع ممالك، متصرف فيهم، ليس لهم من الملك شيء، ولا من التدبير شيء، فكيف يكون له ولد، وهذا شأنه وعظمته ملكه!!

﴿لَقَدْ أَحْضَنُمُ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي: لقد أحاط علمه بالخلائق كلهم، أهل السماوات والأرض، وأحصاهم وأحصى

(١) في أ: لأنه.

تفسير سورة طه

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨-١) طه ○ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ○ إِلَّا نَذْكُرُهُ لِمَنْ يَخْشَى ○ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ○ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ○ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ○ وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ○ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ○ طه ○ من جملة الحروف المقطعة، المفتوح بها كثير من السور، وليست اسمًا للنبي ﷺ.

﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ أي: ليس المقصود بالوحي، وإنزال القرآن عليك، وشرع الشريعة، لتشقى بذلك، ويكون في الشريعة تكليف يشق على المكلفين وتعجز عنه قوى العاملين، وإنما الوحي والقرآن والشرع، شرعه الرحيم الرحمن، وجعله موصولًا للسعادة، والفلاح، والفوز، وسهله غاية التسهيل، ويسر كل طرفه وأبوابه، وجعله غذاء للقلوب والأرواح، وراحة للأبدان، فقلته الفطر السليمة والعقول المستقيمة بالقبول والإذعان، لعلمها بما احتوى عليه، من الخير في الدنيا والآخرة، ولهذا قال:

﴿إِلَّا نَذْكُرُهُ لِمَنْ يَخْشَى﴾ إلا ليتذكر به من يخشى الله تعالى، فيتذكر ما فيه من الترغيب إلى أجل المطالب، فيعمل بذلك، ومن الترهيب عن الشقاء والخسران، فيهرب منه، ويتذكر به الأحكام الحسنة الشرعية المفصلة التي كانت مستقرًا في عقله حسنًا مجملًا، فوافق التفصيل ما يجده في فطرته وعقله، ولهذا سماه الله ﴿نَذْكُرُهُ﴾.

والتذكرة لشيء كان موجودًا، إلا أن صاحبه غافل عنه، أو غير مستحضر لتفصيله، وخص بالتذكرة ﴿مَنْ يَخْشَى﴾ لأن غيره لا ينتفع به، وكيف ينتفع به من لم يؤمن بجنه ولا نار، ولا في قلبه من خشية الله متقال ذرة؟ هذا ما لا يكون، ﴿سَيَذْكُرُ مَنْ يَخْشَى ○ وَنَجِّنَاهُ الْأَشْقَى ○ الَّذِي بَصُلَ النَّارَ الْكُبْرَى﴾.

ثم ذكر جلالة هذا القرآن العظيم، وأنه تنزيل خالق الأرض والسموات، المدبر لجميع المخلوقات، أي: فاقبلوا تنزيهه، بغاية الإذعان، والمحبة، والتسليم، وعظموه نهاية التعظيم.

وكثيرًا ما يقرون بين الخلق والأمر كما في هذه الآية، وكما في قوله: ﴿أَلَا لَا إِلَهَ إِلَّا الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ وفي قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣١٢
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٦٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٦٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمُ
مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِنُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٦٨﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
طه ﴿١﴾ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا نَذْكُرُهُ
لِمَنْ يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾
الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴿٦﴾ وَإِنْ يَجْهَرُ بِالْقَوْلِ
فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴿٩﴾ إِذْ رَأَى نَارًا
فَقَالَ لَهَا هِلْ أَمْكُونِ إِنَِّّي أَسَأْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ أَجْدُعُ لِنَارٍ هَدَى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَنْهَا نُودِيَ بِمُوسَى ﴿١١﴾
إِنَِّّي أَنَا رَبُّكَ فَاحْلَعْ تَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾

سَوَّرَتْ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمَنْهَا نَزَّلُ الْأَمْرَ بَيْنَهُنَّ ○ وذلك أنه الخالق
الأمير الناهي، فكما أنه لا خالق سواه، فليس على الخلق
إلزام، ولا أمر، ولا نهي إلا من خالقهم، وأيضًا فإن خلقه
للخلق، فيه التدبير القدري الكوني، وأمره فيه التدبير الشرعي
الديني، فكما أن الخلق لا يخرج عن الحكمة، فلم يخلق شيئًا
عبثًا، فكذلك لا يأمر ولا ينهى إلا بما هو عدل، وحكمة،
وإحسان.

فلما بين أنه الخالق المدبر الأمر الناهي أخبر عن عظمته
وكبريائه، فقال:

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي هو أرفع المخلوقات وأعظمها
وأوسعها ﴿اسْتَوَى﴾ استواء يليق بجلاله، ويناسب عظمته
وجماله، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من مَلِكٍ وإنسي
وجني، وحيوان، وجماد، ونبات.

﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ أي: الأرض، فالجميع ملك لله تعالى،

عبيد مدبرون مسخرون تحت قضائه وتدبيره، ليس لهم من
الملك شيء، ولا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا

ولا حياة ولا نشورًا.

﴿وَإِنْ نَجَّهَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ﴾ الكلام الخفي ﴿وَأَخْفَى﴾ من السر الذي في القلب، ولم ينطق به، أو السر ما خطر على القلب ﴿وَأَخْفَى﴾ ما لم يخطر، يعلم تعالى أنه يخطر في وقته، وعلى صفته.

المعنى: أن علمه تعالى محيط بجميع الأشياء، دقيقها، وجليلها، خفيها، وظاهرها، فسواء جهرت بقولك أو أسرته، فالكل سواء بالنسبة لعلمه تعالى.

فلما قرر كماله المطلق بعموم خلقه، وعموم أمره ونهيه، وعموم رحمته، وسعة عظمته، وعلوه على عرشه، وعموم ملكه، وعموم علمه نتج من ذلك أنه المستحق للعبادة، وأن عبادته هي الحق التي يوجبها الشرع والعقل والفترة، وعبادة غيره باطلة، فقال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الْإِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق، ولا مألوه بالحب والذل، والخوف والرجاء، والمحبة والإنابة والدعاء إلا هو.

﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: له الأسماء الكثيرة الكاملة الحسنى، من حسنها أنها كلها أسماء دالة على المدح، فليس فيها اسم لا يدل على المدح والحمد، ومن حسنها أنها ليست أعلامًا محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف، ومن حسنها أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها، وأعمها، وأجلها، ومن حسنها أنه أمر العباد أن يدعوه بها، لأنها وسيلة مقربة إليه يحبها ويحب من يحبها، ويحب من يحفظها، ويحب من يبحث عن معانيها ويتعبد له بها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾.

(٩-١٢) ﴿وَهَلْ أُنْتَكُ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ ○ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُتُوا إِنِّي نَأْسَتْ نَارًا لَعَلَّيْ عَلَيْكُمْ مِنْهَا يَقْبِسُونَ أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى ○ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ بِمُوسَىٰ ○ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ على وجه الاستفهام التقريري والتعظيم لهذه القصة والتفخيم لها: ﴿هَلْ أُنْتَكُ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ في حاله التي هي مبدأ سعادته ومنشأ نبوته، أنه رأى نارا من بعيد، وكان قد ضل الطريق وأصابه البرد ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره.

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُتُوا إِنِّي نَأْسَتْ﴾ أي: أبصرت ﴿نَارًا﴾ وكان ذلك في جانب الطور الأيمن.

﴿لَعَلَّيْ عَلَيْكُمْ مِنْهَا يَقْبِسُونَ﴾ تصطلون به ﴿أَوْ أُجِدُّ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أي: من يهديني الطريق، وكان مطلبه النور الحسي والهداية الحسية، فوجد ثمَّ النور المعنوي، نور الوحي الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية، هداية

الصرراط المستقيم، الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه، ولا خطر بهاله.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا﴾ أي: النار التي آتتها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نورًا، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، فلما وصل إليها نودي منها أي: ناداه الله كما قال: ﴿وَنَادَيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَوَرَيْتَهُ يَمِينًا﴾.

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستعد وتهيأ لمناجاته ويهتم لذلك، ويلقي نعليه لأنه بالوادي المقدس المطهر المعظم، ولو لم يكن من تقديسه إلا أن الله اختاره لمناجاته كلمته موسى لكفى.

وقد قال كثير من المفسرين: «إن الله أمره أن يلقي نعليه، لأنهما من جلد حمار» فالله أعلم بذلك.

(١٣) ﴿وَأَنَا أَعْتَرُكَ﴾ أي: تخيرتك واصطفتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه، تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: ﴿فَأَسْتَبِيعُ لِمَا يُرِجَى﴾ أي: ألق سمعك للذي أوحى إليك فإنه حقيق بذلك، لأنه أصل الدين ومبدأه، وعماد الدعوة الإسلامية.

(١٤) ثم بين الذي يوحى إليه بقوله: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ أي: الله المستحق الألوهية المتصف بها، لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المنفرد بأفعاله الذي لا شريك له، ولا مثل، ولا كفو، ولا سمي.

﴿فَاعْبُدْنِي﴾ بجميع أنواع العبادة ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب، واللسان، والجوارح.

وقوله: ﴿لِلذِّكْرِ﴾ اللام للتعليل أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي، لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وهو عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن ذكر الله معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصًا الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِيمُ الصَّلَاةَ وَآتِي الصَّلَاةَ تَتَهَنَّى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيه عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له توحيد الألوهية، وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده.

(١٥) ﴿إِنَّ السَّكَاتَةَ آيَةٌ﴾ أي: لا بد من وقوعها ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾، أي: عن نفسي كما في بعض القراءات، كقوله

تعالى: ﴿يَسْأَلُ النَّاسَ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فعلمها قد أخفاه عن الخلائق كلهم، فلا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل.

والحكمة في إتيان الساعة ﴿لِتَجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا سَعَى﴾ من الخير والشر، فهي الباب لدار الجزاء ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بَيْنَا عَمَلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ﴾.

(١٦) ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ أي: فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة والجزاء والعمل لذلك، من كان كافراً بها غير معتقد لوقوعها، يسعى في الشك فيها والتشكيك، ويجادل فيها بالباطل، ويقيم من الشبه ما يقدر عليه، متبعاً في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاره اتباع هواه، فإياك أن تصغي إلى من هذه حاله، أو تقبل شيئاً من أقواله وأعماله الصادرة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها، وإنما حذر الله تعالى عن هذه حاله، لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله^(١)، وكون النفوس مجبولة على التشبه، والافتداء بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل يصد عن الإيمان الواجب، أو عن كماله، أو يوقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتملة على ذلك، وذكر في هذا الإيمان به، وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان، وركن الدين، وإذا تمت تم أمر الدين، ونقصه أو فقدته بنقصها، أو نقص شيء منها، وهذه نظير قوله تعالى في الإخبار عن ميزان سعادة الفرق الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَى مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقوله: ﴿فَتَرْدَى﴾ أي: تهلك وتشقى، إن اتبعت طريق من يصد عنها وقوله تعالى:

(١٧-٢٣) ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى ○ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَآرِبُ أُخْرَى ○ قَالَ أَلَيْهَا يَمُوسَى ○ فَالْقَنَاقِطُ إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ○ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَمِعِيهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ○ وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بِيضًا مِثْلَ غَيْرِ سَوْءِ آيَةِ أُخْرَى ○ لِزَيْدِكَ مِن ءَايَتِنَا الْكُبْرَى ○ لَمَّا بَيْنَ اللَّهُ لِمُوسَى أَصْلَ الْإِيمَانِ، أَرَادَ أَنْ يَبَيِّنَ لَهُ، وَيُرِيَهُ مِنْ آيَاتِهِ مَا يَطْمَئِنُّ بِهِ قَلْبُهُ، وَتَقَرُّ بِهِ عَيْنُهُ، وَيَقْوَى إِيمَانُهُ بِتَأْيِيدِ اللَّهِ لَهُ عَلَى عَدُوهِ، فَقَالَ: ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى﴾ هذا مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضع أخرج الكلام بطريق الاستفهام.

﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَنَآرِبُ أُخْرَى ○ قَالَ أَلَيْهَا يَمُوسَى ○ فَالْقَنَاقِطُ إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ○ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَمِعِيهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ○ وَأَضْمَمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بِيضًا مِثْلَ غَيْرِ سَوْءِ آيَةِ أُخْرَى ○ لِزَيْدِكَ مِن ءَايَتِنَا الْكُبْرَى ○ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ○ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ○ وَسِّرْ لِي أَمْرِي ○ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِن لِسَانِي ○ يَقْفُوهَا قَوْلِي ○ وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ○ هَلْزُونَ أُخْرَى ○ شُدِّدْ بِهِ أَزْرِي ○ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ○ كَيْ سُسِّحَكَ كَثِيرًا ○ وَتَذَكَّرُكَ كَثِيرًا ○ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَاصِرًا ○ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ○ وَقَدْ مَنَّآ عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ○

فقال موسى: ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي﴾ ذكر فيها هاتين المنفعتين، منفعة لجنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة، ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه هش بها، أي: ضرب الشجر ليتساقط ورقه، فيرعاها الغنم.

هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام الذي من آثاره، حسن رعاية الحيوان البهيم، والإحسان إليه، دل على عناية من الله له واصطفاء، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته. ﴿وَلِيَ فِيهَا مَنَآرِبُ﴾ أي: مقاصد ﴿أُخْرَى﴾ غير هذين الأمرين.

ومن أدب موسى عليه السلام أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها، أو منفعتها أجاهه بعينها، ومنفعتها.

فقال الله له: ﴿أَلَيْهَا يَمُوسَى ○ فَالْقَنَاقِطُ إِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ○

(١) كذا في ب، وفي أ: وتدخيله.

ودعوتهم.

قال الله لنبية محمد ﷺ: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطًّا غَلِيظًا أَلْقَيْتَ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشراحه عليهم.

﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ أي: سهّل عليّ كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهوّن عليّ ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن ييسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿وَاحْتَلِّ عُقْدَةَ مِنِّي لِسَانِي﴾ ○ ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام كما قاله المفسرون، كما قال الله عنه أنه قال: ﴿وَأَخِي هَكَوْتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ فسأل الله أن يحل منه عقدة يفقهوا ما يقول، فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ أي: معيّنًا^(٢) يعاونني، ويؤازرنني، ويساعدني على من أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله، لأنه من باب البر، وأحق ببر الإنسان قرابته، ثم عينه بسؤاله فقال: ﴿هَزُونَ أَخِي﴾ ○ ﴿أَشَدُّ بِهِ أَرْزِي﴾ أي: قوني به وشد به ظهري، قال الله: ﴿سَكَدْتُ عَضْدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلْتُ لَكُمَا سُلْطَنًا﴾.

﴿وَأَشْرِكْ فِي أَمْرِي﴾ أي: في النبوة، بأن تجعله نبيًا رسولًا، كما جعلتني.

ثم ذكر الفائدة في ذلك فقال: ﴿كَيْ سَجَحَ كَثِيرًا﴾ ○ ﴿وَنَذَرَكْ كَثِيرًا﴾ علم عليه الصلاة والسلام أن مدار العبادات كلها والدين على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه، يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع العبادات.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ تعلم حالنا، وضعفنا، وعجزنا، وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم، فَمَنْ عَلَيْنَا بِمَا سَأَلْنَاكَ، وأجب لنا فيما دعوناك.

فقال الله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰمُوسَى﴾ أي: أعطيت جميع ما طلبت، فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك، يفقهوا قولك، ونشد عضدك بأخيك هارون ﴿وَجَعَلْتُ لَكُمَا سُلْطَنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أَننَا وَمَنْ أَتَّبَعَكُمَا أَغْلِبُونَ﴾.

وهذا السؤال من موسى عليه السلام يدل على كمال معرفته

انقلبت بإذن الله ثعبانًا عظيمًا، فولى موسى هاربًا خائفًا، ولم يعقب، وفي وصفها بأنها تسعى إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يظن أنها تخييل لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

فقال الله لموسى: ﴿حَذَاهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أي: ليس عليك منها بأس.

﴿سَعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أي: هيئتها وصفتها، إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيمانًا به وتسليمًا، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها هذه، آية.

ثم ذكر الآية الأخرى فقال: ﴿وَأَضْمُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ﴾ أي: أدخل يدك في جيبك، وضم عليك عضدك الذي هو جناح الإنسان ﴿تَخْرُجُ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أي: بياضًا ساطعًا، من غير عيب ولا برص ﴿أَيُّهُ أُخْرَى﴾ قال الله: ﴿فَلَذَانِكَ بُرْهَانِي مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

﴿لِرَبِّكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ أي: فعلنا ما ذكرنا من انقلاب العصا حية تسعى، ومن خروج اليد بيضاء للناظرين، لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى، الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك ويزداد علمك، وتثق بوعد الله لك بالحفظ والنصرة، ولنكون حجة وبرهانًا لمن أرسلت إليهم.

(٢٤-٣٦) ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ ○ ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ ○ ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ ○ ﴿وَاحْتَلِّ عُقْدَةَ مِنِّي لِسَانِي﴾ ○ ﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ ○ ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ○ ﴿هَزُونَ أَخِي﴾ ○ ﴿أَشَدُّ بِهِ أَرْزِي﴾ ○ ﴿وَأَشْرِكْ فِي أَمْرِي﴾ ○ ﴿كَيْ سَجَحَ كَثِيرًا﴾ ○ ﴿وَنَذَرَكْ كَثِيرًا﴾ ○ ﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ ○ ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يٰمُوسَى﴾ لما أوحى الله إلى موسى ونبأه وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون، ملك مصر فقال:

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أي: تمرد وزاد على الحد في الكفر والفساد، والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية - قبحه الله - أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة بالرسول، فحينئذ علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملًا عظيمًا، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشراح والقبول، وسأله المعونة، وتيسير الأسباب التي [هي]^(١) من تمام الدعوة فقال:

﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ أي: وسعه وأفسحه، لأتحمل الأذى القولي والفعلية، ولا يتكدر قلبي بذلك ولا يضيّق صدري، فإن الصدر إذا ضاق لم يصلح صاحبه لهداية الخلق،

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في النسختين: عويتا.

بِاللَّهِ، وكمال فطنته ومعرفته للأمور، وكمال نصحه، وذلك أن الداعي إلى الله المرشد للخلق، خصوصًا إذا كان المدعو من أهل العناد، والتكبر، والطغيان^(١)، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم تام، على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح، يتمكن من التعبير به عن ما يريد ويقصده.

بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام من أئزم ما يكون، لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق، وترتيبه بما يقدر عليه، ليحببه إلى النفوس، وإلى تقييح الباطل وتهجينه، لينفر عنه.

ويحتاج مع ذلك أيضًا، أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلًّا بحسب حاله، وتمام ذلك أن يكون لمن هذه صفته، أعوان ووزراء، يساعده على مطلوبه، لأن الأصوات إذا كثرت لا بد أن تؤثر، فلذلك سأل عليه الصلاة والسلام هذه الأمور، فأعطيه.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم، خصوصًا خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

(١) كذا في ب، وفي أ: عناد وتكبر وطغيان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١٤

تِلْكَ آيَاتُهَا

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَائُونًا ﴿٣٨﴾ أَنْ أَقْذِفِهِ فِي النَّارِ وَقَدْ فِيهِ
 فِي الْيَوْمِ فَلْيُلْقِهِ الْيَوْمَ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ وَعِدْوَةٌ وَالْقَيْتُ
 عَلَيْكَ مَحِيَّةٌ مِنِّي وَلِنُصِصَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ
 فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ
 عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلْتُمْ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا
 فَلَمِنتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَمْسُو ﴿٤٠﴾
 وَأَصْطَنَعْتَكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنبَأُ
 فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَانَا
 لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا
 أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾
 فَأَنبَأَهُ فِقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
 وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ تَابِعِ
 الْهَدْيِ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذِّبِ
 وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمْسُو ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ
 كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٥١﴾

وَأَرَىٰ ﴿٥١﴾ أي: أنتم بحفظي ورعايتي، أسمع أقوالكم، وأرى
 جميع أحوالكم، فلا تخافا منه، فزال الخوف عنهما،
 واطمأن قلبوهما بوعدي بهما.

(٤٧، ٤٨) ﴿فَأَنبَأَهُ فِقَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ
 وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ تَابِعِ الْهَدْيِ﴾
 إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذِّبِ وَتَوَلَّىٰ ﴿٥١﴾ أي: فأنبأه
 بهذين الأمرين، دعوته إلى الإسلام، وتخليص هذا الشعب
 الشريف، بني إسرائيل، من قيده وتعبه لهم، ليتحرروا
 ويملكوا أمرهم، ويقم فيهم موسى شرع الله ودينه.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَاتٍ﴾ تدل على صدقتنا ﴿فَأَلْفَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ
 ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ ونزع يدهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلظُّلْمِ ﴿٥١﴾ إلى آخر ما ذكر
 الله عنهما.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ تَابِعِ الْهَدْيِ﴾ أي: من اتبع الصراط
 المستقيم، واهتدى بالشرع المبين، حصلت له السلامة في
 الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا﴾ أي: خبرٌ من عند الله، لا من عند
 أنفسنا ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذِّبِ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي: كذب بأخبار الله

بصنائع الرب القادر الكريم، وما تحسبه يفعل بمن أراده
 لنفسه، واصطفاه من خلقه؟!!

(٤٢-٤٦) ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾
 أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَانَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾
 قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي
 مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ لما امتن الله على موسى بما امتن به من
 النعم الدينية والدنيوية قال له: ﴿أَذْهَبَ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ هارون
 ﴿بِآيَاتِي﴾ أي: الآيات التي مني الدالة على الحق وحسنه،
 وقبح الباطل، كاليد، والعصا ونحوها، في تسع آيات إلى
 فرعون وملئه.

﴿وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي﴾ أي: لا تفترا، ولا تكسلا عن مداومة
 ذكري بل استمرا عليه، والزماء كما وعدتما بذلك ﴿كَيْ سَمِعَكَ
 كَثِيرًا﴾ و﴿تَذَكَّرَكَ كَثِيرًا﴾ فإن ذكر الله فيه معونة على جميع
 الأمور، يسهلها ويخفف حملها.

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ أي: جاوز الحد في كفره
 وطمغانه، وظلمه وعدوانه.

﴿فَقَوْلَا لَهُ قَوْلَانَا﴾ أي: سهلا لطيفا، برفق ولين وأدب في
 اللفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في المقال، أو
 فظاظة في الأفعال.

﴿لَعَلَّهُ﴾ بسبب القول اللين ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ ما ينفعه فيأتيه ﴿أَوْ
 يَخْشَىٰ﴾ ما يضره فيتبركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول
 الغليظ منفر عن صاحبه، وقد فسر القول اللين في قوله: ﴿نَقُلْ
 هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ﴾ وأهديك إلى ربك فتخشى ﴿فإن في هذا الكلام
 من لطف القول، وسهولته، وعدم بشاعته، ما لا يخفى على
 المتأمل، فإنه أتى بـ«هل» الدالة على العرض والمشاورة التي
 لا يشتمر منها أحد، ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس
 التي أصلها التطهر عن الشرك، الذي يقبله كل عقل سليم،
 ولم يقل: «أزكيك» بل قال: «تزكي» أنت بنفسك.

ثم دعاه إلى سبيل ربه الذي رباه، وأنعم عليه بالنعم
 الظاهرة والباطنة، التي ينبغي مقابلتها بشكرها، وذكرها
 فقال: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ فلما لم يقبل هذا الكلام اللين
 الذي يأخذ حسنه بالقلوب، علم أنه لا ينجح فيه تذكير، فأخذه
 الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّا نَتَخَفُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا﴾ أي: يبادرنا بالعقوبة
 والإيقاع بنا قبل أن نبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة ﴿أَوْ أَنْ
 يَطْغَىٰ﴾ أي: يتمرد عن الحق ويطغى بملكه، وسلطانه،
 وجنده، وأعوانه.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا﴾ أن يفرط عليكما ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ

كان الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات التي أريناها، قد تحققت صدقها وبقيتها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدل بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيته غير مستقيمة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن تجد لذلك سبيلاً ما دام الملوان.

كيف وقد أخبر الله عنه، أنه جحداه مع استيقانها، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ وقال موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنزَلْتَهُنَّ مِن آتٍ مِّن رَّبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ﴾ فعلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض.

ثم استطرد في هذا الدليل القاطع بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضروري، فقال:

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي: فراشا بحالة تتمكنون من السكن فيها، والقرار، والبناء، والغراس، وإثارها للزادراغ وغيره، وذلكها لذلك، ولم يجعلها ممتعة عن مصلحة من مصالحكم.

﴿وَسَلَّكُمُ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان الآدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، ويتنفعون بأسفارهم أكثر مما ينتفعون بإقامتهم.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ أي: أنزل المطر ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وأثبت بذلك جميع أصناف النوبات على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها، وتباين أحوالها، فساقه، وقدره، ويسره، رزقاً لنا ولأنعامنا، ولولا ذلك لهلك من عليها من آدمي وحيوان.

ولهذا قال: ﴿كُلُوا وَارْضَعُوا أَنْتُمْ كَرِيمٌ﴾ وسياقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النوبات الإباحة، فلا يحرم منهم إلا ما كان مضرًا، كالسموم ونحوه. ﴿وَإِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى﴾ أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة على فضل الله، وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتام عنايته، وعلى أنه الرب المعبود، المالك المحمود الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والثناء، إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى.

وخص الله أولي النهى بذلك، لأنهم المتنفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة

وأخبار رسله، وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك، ولكن لم ينفذ فيه هذا الوعظ والتذكير، فأنكر ربه وكفر، وجادل في ذلك ظلمًا وعنادًا.

(٤٩-٥٥) ﴿قَالَ فَمَنْ رَّبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴾ قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ إِلَى رَبِّي وَلَا يَسْمَعُ ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَّكُمُ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴾ ﴿ كُلُوا وَارْضَعُوا أَنْتُمْ كَرِيمٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴾ ﴿ مِنهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ أي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح فقال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة^(١) المشاهدة في جميع المخلوقات، فكل مخلوق تجده يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن^(٢) به من ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾، فالذي خلق المخلوقات، وأعطاهما خلقها الحسن الذي لا تقترح العقول فوق حسنه، وهاداهما لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجودًا، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان أنكر من الأمور المعلومه ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك.

ولهذا لما لم يمكن فرعون أن يعاند هذا الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة وحاد عن المقصود، فقال لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾، أي: ما شأنهم، وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم أسوة؟.

فقال موسى: ﴿عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ إِلَى رَبِّي وَلَا يَسْمَعُ﴾ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علمًا وخبرًا فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها.

ومضمون ذلك أنهم قدموا إلى ما قدموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فتلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، فإن

(١) في ب: الكاملة. (٢) كذا في ب، وفي أ: ما يتمكن.

على حقاقتها، ما لا يحصل في غيره.

﴿فَتَوَكَّلْ فِرْعَوْنَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾ أي: جميع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائه من يحشر السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك متوفراً، وعلمه علماً مرغوباً فيه، فجمع خلقاً كثيراً من السحرة، ثم أتى كل منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد.

فكان الجمع حافلاً، حضره الرجال والنساء، والملا، والأشراف، والعوام، والصغار، والكبار، وحضوا الناس على الاجتماع وقالوا للناس: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ لَقَلْنَا نَبْعُ أَسْحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ.

فحين اجتمعوا من جميع البلدان، وعظم موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجة، وقال لهم: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحِرَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ أي: لا تتصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحرهم وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويخيب سعيكم وافتراءكم، فلا تدركون ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلمون من عذاب الله.

وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب، لا جرم ارتفاع الخصام والنزاع بين السحرة، لما سمعوا كلام موسى، وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم الاشتباه في موسى، هل هو على الحق أم لا؟ ولكن هم إلى الآن ما تم أمرهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، فحينئذ أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك الناس بديهم.

والنجوى التي أسروها فسرنا بقوله: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا لَسِحْرَانٌ بُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكَ بِسِحْرِهِمَا﴾ كمقالة فرعون السابقة، فإما أن يكون ذلك توافقاً من فرعون والسحرة على هذه المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقيناً منه لهم مقالته التي صمم عليها، وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: ﴿وَيَذَّهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُتَّوَلَّيْنَ﴾ أي: طريقة السحر حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم الذي أشغلتكم زمانكم فيه ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض، على الاجتهاد في مغالته، ولهذا قالوا:

﴿فَأَجْمَعُوا كَيْدَهُمْ﴾ أي: أظهروه دفعة واحدة، متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقاً رأيكم وكلمتكم.

البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم، يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية، وأجسادهم معرضة ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

ولما ذكر كرم الأرض، وحسن شكرها لما ينزله الله عليها من المطر، وأنها ياذن ربها تخرج النبات المختلف الأنواع - أخبر أنه خلقنا منها، وفيها يعيدنا إذا متنا فدفنا فيها، ومنها يخرجنا تارة أخرى، فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك، وتحققناه، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا، ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها.

وهذان دليان على الإعادة عقليان واضحان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

(٥٦-٦١) ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ قَالَ أَجِئْنَا بِتُخْرُجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْوَسَىٰ ۖ فَلِنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ ۖ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ۖ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ ضُجَىٰ ۖ فَتَوَكَّلْ فِرْعَوْنَ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ۖ قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَقْرَأُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحِرَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ﴾ يخبر تعالى أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع، جميع أنواعها العيانة، والألفية والنفسية، فما استقام ولا ارعوى، وإنما كذب وتولى.

كذب الخير، وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، وجادل بالباطل، ليضل الناس فقال: ﴿أَجِئْنَا بِتُخْرُجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ﴾ زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى، سحر وتمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم، والاستيلاء عليها، ليكون كلامه مؤثراً في قلوب قومه، فإن الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها.

فأخبرهم أن موسى هذا قصده، ليعضوه، ويسعوا في محاربه، فلنأتينك بسحرٍ مثل سحرِك فأعلمنا، واجعل لنا ﴿مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ أي: مستو علمنا وعلمك به، أو مكاناً مستويًا معتدلاً ليتمكن من رؤية ما فيه.

فقال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾ وهو عيدهم، الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم.

﴿وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ ضُجَىٰ﴾ أي: يجمعون كلهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى منه، يحصل فيه من كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١٥

سُورَةُ طه

قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٦﴾
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَقَى ﴿٥٧﴾ كَلُوا
 وَأَرْعَوْا وَاعْلَمُوا أَنَّ فِي ذَلِكَ لَأَيَاتٍ لَأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٨﴾ وَمِنْهَا
 خَلَقْنَاكُمْ وَمِنْهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٩﴾ وَلَقَدْ
 أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَإِنِّي ﴿٦٠﴾ قَالَ أَجِئْتُنَا تَنْخَرِحُنَا
 مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمْؤُوسِي ﴿٦١﴾ فَلَنَأَيُّتِنَا بِسِحْرِ مِثْلِهِ
 فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا
 سَوِيًّا ﴿٦٢﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى
 ﴿٦٣﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى ﴿٦٤﴾ قَالَ لَهُمُ
 مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذَّابًا فَيسْحِرْكُمْ بِعَذَابٍ
 وَقَدْ خَابَ مِنْ أَفْتَرِي ﴿٦٥﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَأُوا
 النَّجْوَى ﴿٦٦﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لَسِحْرَانِ يَرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ
 مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى ﴿٦٧﴾ فَأَجْمَعُوا
 كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتَوُا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٦٨﴾

المكر منه، وظنوه صدقًا ﴿فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتْسِقِينَ﴾.

مع أن هذه المقالة التي قالها، لا تدخل عقل من له أدنى مسكة من عقل ومعرفة بالواقع، فإن موسى أتى من مدين وحيداً، وحين أتى لم يجتمع بأحد من السحرة ولا غيرهم، بل بادر إلى دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات، فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به موسى، فسعى ما أمكنه، وأرسل في مدائنه من يجمع له كل ساحر عليهم، فجاءوا إليه، ووعدهم الأجر والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية الحرص، وكادوا أشد الكيد، على غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان، فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن يكونوا دبوا هم وموسى، واتفقوا على ما صدر؟ هذا من أمحل المحال.

ثم توعد فرعون السحرة فقال: ﴿فَلَا تَقِطِعَنَّ أَيديكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفِي﴾ كما يفعل بالمحارب الساعي بالفساد، بقطع يده اليمنى، ورجله اليسرى.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ أي: لأجل أن تشبهوا وتختزوا.

﴿ثُمَّ أَتَيْنَا صَفًّا﴾ ليكون أمكن لعلكم، وأهيب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضكم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره، فإنه المفلح الفاتر، فهذا يوم له ما بعده من الأيام.

فله ذرهم ما أصلبهم في باطلهم، وأشدهم فيه، حيث أتوا بكل سبب، ووسيلة وممكن، ومكيدة يكيدون بها الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل، فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل ﴿قَالُوا يَمْؤُوسِي إِمَّا أَنْ نُلْقَى﴾ عصاك ﴿وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَى مِنَ الْغَى﴾ خيروه، موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه، بأي حالة كانت.

فقال لهم موسى: ﴿بَلْ أَلْقُوا﴾ فألقوا حبالهم وعصيهم ﴿فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيَّتُهُمْ بِخَيْلٍ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى موسى ﴿مِنْ سِحْرِهِمُ﴾ البليغ ﴿أَنَّا نَسْتَعِي﴾ أي: أنها حيات تسعى فلما خيل إلى موسى ذلك ﴿أَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره.

﴿قُلْنَا﴾ له تشبهاً وتطميناً: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ عليهم، أي: ستعلو عليهم وتقهروهم، ويدلوا لك ويخضعوا. ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي: عصاك ﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ أي: كيدهم ومكرهم ليس بمشمر لهم، ولا ناجح فإنه من كيد السحرة الذين يموهون على الناس، ويلبسون الباطل ويخيلون أنهم على الحق، فألقى موسى عصاه، فتلقت ما صنعوا كله، وأكلته، والناس ينظرون لذلك الصنيع.

فعلم السحرة علماً يقيناً، أن هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا للإيمان.

﴿قَالَتِ السَّحَرَةُ سَجِدِينَ﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ فوقع الحق وظهر وسطع، وبطل السحر والمكر والكيد في ذلك المجمع العظيم.

فصارت بيته ورحمة للمؤمنين، وحجة على المعاندين فـ ﴿قَالَ﴾ فرعون للسحرة: ﴿آمَنْتُمْ لَكُمْ قَبْلَ أَنْ آدَنَّاكُمْ لَكُمْ﴾ أي: كيف أقدمتم على الإيمان من دون مراجعة مني ولا إذن؟.

استغرب ذلك منهم، لأدبهم معه، وذلهم، وانقيادهم له في كل أمر من أمورهم، وجعل هذا من ذاك، ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه بعد هذا البرهان، واستخف عقول قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من موسى للسحرة، ليس لأن الذي معه الحق، بل لأنه تمالأ هو والسحرة، ومكروا، ودبروا أن يخرجوا فرعون وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣١٦

سُورَةُ طه

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى ﴿١٥﴾ قَالَ
 بَلِ الْقَوْمُ آذَاءٌ جَاهِلُهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يُخَلُّ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنهَاتَسَعَى
 ﴿١٦﴾ فَأَوْحَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ﴿١٧﴾ فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ
 أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿١٨﴾ وَالْقَى مَا فِي يَمِينِكَ نَلَقَفَ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا
 كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿١٩﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُبْحَانًا
 قَالُوا أَمْ تَأْتِرِبَ هَرُونَ وَمُوسَى ﴿٢٠﴾ قَالُوا أَمْ نَكْفُلُ أَنْ نَأْذَنَ
 لَكُمْ إِنَّهُ لَكَيْدِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُطْعَمُونَ أَيَدِيكُمْ
 وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلَبْتِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلِنَعْلَمَنَّ
 أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٢١﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ
 الْبَلِيْبَتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَعْبَى هَذِهِ
 الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ﴿٢٢﴾ إِنَّمَا أَمْتَارِبْنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيْبَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا
 عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٢٣﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ بِحَسَنَةٍ
 فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٢٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ
 عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٢٥﴾ جَنَّتٌ عَدْنٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٢٦﴾

فعل ذلك، ولم يأت في ذلك حديث صحيح، والعجزم بوقوعه
 أو عدمه يتوقف على الدليل، والله أعلم بذلك وغيره، ولكن
 توعدوه إياهم بذلك مع اقتداره دليل على وقوعه، ولأنه لو لم
 يقع لذكره الله، ولا اتفاق الناقلين على ذلك.

(٧٤-٧٦) ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ بِحَسَنَةٍ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا
 وَلَا يَحْيَى ۝ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ
 الْعُلَى ۝ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ
 تَزَكَّى ۝ يخبر تعالى أن من أتاه وقدم عليه مجرمًا - أي: وصفه
 الجرم من كل وجه، وذلك يستلزم الكفر - واستمر على ذلك
 حتى مات، فإن له نار جهنم، الشديد نكالها، العظيمة
 أغلالها، البعيد قعرها، الأليم حرها وقرها، التي فيها من
 العقاب ما يذيب الأكباد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعذب
 فيها لا يموت ولا يحيى، لا يموت فيستريح، ولا يحيى حياة
 يتلذذ بها، وإنما حياته، محشوة بعذاب القلب، والروح،
 والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يفتر عنه ساعة، يستغيث فلا
 يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم إذا استغاث أغيث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإن

﴿ وَلِنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ يعني بزعمه هو أو الله، وأنه
 أشد عذابًا من الله وأبقى، قلبًا للحقائق، وترهيبًا لمن لا عقل
 له.

ولهذا لما عرف السحرة الحق، ورزقهم الله من العقل ما
 يدركون به الحقائق، أجاوبه بقولهم: ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا
 مِنَ الْبَلِيْبَتِ ﴾ أي: لن نختارك وما وعدتنا به من الأجر
 والتقريب، على ما أرانا الله من الآيات البينات الدالات على
 أن الله هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل وحده، وأن
 ما سواه باطل، ونؤثرك على الذي فطرنا وخلقتنا، هذا لا يكون
 ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ مما أوعدتنا به، من القطع، والصلب،
 والعذاب.

﴿ إِنَّمَا تَعْبَى هَذِهِ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا ﴾ أي: إنما توعدنا به غاية ما
 يكون في هذه الحياة الدنيا، يتقضي ويوزل ولا يضرنا،
 بخلاف عذاب الله لمن استمر على كفره، فإنه دائم عظيم.
 وهذا كأنه جواب منهم لقوله: ﴿ وَلِنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا
 وَأَبْقَى ﴾ وفي هذا الكلام من السحرة دليل على أنه ينبغي للعاقل
 أن يوازن بين لذات الدنيا ولذات الآخرة، وبين عذاب الدنيا
 وعذاب الآخرة.

﴿ إِنَّمَا أَمْتَارِبْنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيْبَتَنَا ﴾ أي: كفرنا ومعاصينا، فإن
 الإيمان مكفر للسيئات، والتوبة تجب ما قبلها.

وقولهم: ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ الذي عارضنا به
 الحق، هذا دليل على أنهم غير مختارين في عملهم المتقدم،
 وإنما أكرههم فرعون إكراهًا.

والظاهر - والله أعلم - أن موسى لما وعظهم كما تقدم في
 قوله: ﴿ وَيَلِكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَركُمْ بِعَذَابٍ ﴾ أثر
 معهم، ووقع منهم موقعًا كبيرًا، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام
 والموعظة، ثم إن فرعون ألزهم ذلك، وأكرههم على المكر
 الذي أجره، ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل إتيانهم، حيث
 قالوا: ﴿ إِنْ هَذَا لَسِحْرٌ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِكُمْ
 بِسِحْرِهِمَا ﴾ فجروا على ما سنَّه لهم، وأكرههم عليه.

ولعل هذه النكتة التي قامت بقلوبهم، من كراهتهم
 لمعارضة الحق بالباطل وفعلهم ما فعلوا على وجه الإغماض،
 هي التي أثرت معهم، ورحمهم الله بسببها، ووقفهم للإيمان
 والتوبة ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ ﴾ مما وعدتنا من الأجر والمنزلة والجاه
 ﴿ وَأَبْقَى ﴾ ثوابًا وإحسانًا، لا ما يقول فرعون: ﴿ وَلِنَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ
 عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ يريد أنه أشد عذابًا وأبقى، وجميع ما أتى من
 قصص موسى مع فرعون، يذكر الله فيه إذا أتى على قصة
 السحرة، أن فرعون توعدهم بالقطع والصلب، ولم يذكر أنه

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَاهَدَى ﴿٧٩﴾ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجْنَحْتَكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ بِجَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّلْوى ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴿٨٢﴾ وَمَا أَعْجَلَكُ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبِّكُمْ وَعَدَّ أَحْسَنَ أَفْطَالٍ عَلَيْكُمْ أَلْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَا كُنَّا جَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْ فَتَنَّاكَ بِكُلِّ بَأْسٍ كَرِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾

الطرق ويسارها، وأيسس الله طرقهم التي انفرق عنها الماء، وأمرهم الله أن لا يخافوا من إدراك فرعون، ولا يخشوا من الغرق في البحر فسلكوا في تلك الطرق، فجاء فرعون وجنوده، فسلكوا وراءهم، حتى إذا تكامل قوم موسى خارجين وقوم فرعون داخلين، أمر الله البحر، فالتطم عليهم، وغشيه من اليم ما غشيه، وغرقوا كلهم، ولم ينجح منهم أحد، وبنو إسرائيل ينظرون إلى عدوهم، قد أقر الله أعينهم بهلاكه^(٣).

وهذا عاقبة الكفر والضلال، وعدم الاهتداء بهدى الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه إياهم، وما هداهم في وقت من الأوقات، فأوردتهم موارد الغي والضلال، ثم أوردتهم مورد العذاب والنكال.

(٨٠-٨٢) ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَجْنَحْتَكَ مِنْ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ بِجَانِبِ

(١) هنا زيادة في ب: أن يواعد بني إسرائيل، ويبدو أنها مشطوبة في أ.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الكلمة غير واضحة. (٣) كذا في ب، وفي أ:

بهلاكهم.

دعا أجيب ب ﴿أَخْشَوْا فِيهَا وَلَا تُكْمِنُوا﴾ ومن يأت ربه مؤمناً به مصداقاً لرسله، متبعاً لكتبه ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ الواجبة والمستحبة ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَرِهَتْ أَعْيُنُ﴾ أي: المنازل العاليات، وفي الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وَذَلِكَ﴾ الثواب، ﴿جَزَاءٌ مِمَّنْ تَزَكَّى﴾ أي: تطهر من الشرك والكفر، والفسوق، والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضاً نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للتزكية معنيين، التنقية، وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة لهذين الأمرين.

(٧٧-٧٩) ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَحْشَى﴾ ○ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ○ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَاهَدَى﴾ لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل، ويريه الله من الآيات والعبر ما قصه الله علينا في القرآن.

وبنو إسرائيل لا يقدر أن يظهر أو إيمانهم ويعلنوه، قد اتخذوا بيوتهم مساجد، وصبروا على فرعون وأذاه، فأراد الله تعالى أن ينجيهم من عدوهم، ويمكن لهم في الأرض، ليعبدهو جهراً، ويقيموا أمره.

فأوحى إلى نبيه موسى^(١)، أن سير أو سيروا أول الليل، ليتمادوا^(٢) في الأرض، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، فخرجوا أول الليل، جميع بني إسرائيل، هم ونساؤهم وذريتهم، فلما أصبح أهل مصر إذا ليس فيها منهم داع ولا مجيب، فحقن عليهم عدوهم فرعون، وأرسل في المدائن من يجمع له الناس ويحضهم على الخروج في أثر بني إسرائيل، ليوقع بهم وينفذ غيظه، والله غالب على أمره، فتكاملت جنود فرعون فسار بهم يتبع بني إسرائيل ﴿فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ ○ فَلَمَّا تَرَاكَ الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٧٧﴾ وقلقوا وخافوا، البحر أمامهم، وفرعون من ورائهم، قد امتلأ عليهم غيظاً وحقاً، وموسى مطمئن القلب، ساكن البال، قد وثق بوعد ربه فقال: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَدِينُ﴾.

فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه، فانفرد اثني عشر طريقاً، وصار الماء كالجبال العالية، عن يمين

بعشر، فلما تم الميقات بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعد شوقاً لربه، وحرصاً على موعوده، فقال الله له: ﴿وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ أي: ما الذي قدمك عليهم؟ ولم لم تصبر حتى تقدم أنت وهم؟ قال: ﴿هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَى﴾ أي: قريباً مني، وسيصلون في أتري، والذي عجلني إليك يا رب طلبٌ لقربك، ومسارةٌ في رضاك، وشوقٌ إليك.

فقال الله له: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ أي: بعبادتهم للعجل، ابتليناهم، واختبرناهم، فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة كفروا ﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾. ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً﴾ وصاغه فصار ﴿لَهُمْ حُورًا فَقَالُوا﴾ لهم: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَى﴾ ففسيه موسى، فافتتن به بنو إسرائيل، فعبده، ونهاهم هارون فلم ينتهوا.

فلما رجع موسى إلى قومه وهو غضبان أسف، أي: ممتلىء غيظاً وحنقاً وغماً، قال لهم موبخاً ومقبحاً لفعالهم: ﴿يَقُولُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَبًا﴾ وذلك بإنزال التوراة.

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أي: المدة، فتناولتم غيبي وهي مدة قصيرة؟ هذا قول كثير من المفسرين، ويحتمل أن معناه: أفضال عليكم عهد النبوة والرسالة، فلم يكن لكم بالنبوة علم ولا أثر، واندرست آثارها، فلم تقفوا منها على خير، فانمحت آثارها لبعث العهد بها، فعبدتم غير الله لغلبة الجهل، وعدم العلم بآثار الرسالة؟ أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم، والعلم قائم، والعذر غير مقبول؟ أم أردتم بفعالكم أن يحل عليكم غضب من ربكم؟ أي: فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه، وهذا هو الواقع.

﴿فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي﴾ حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت بكم هارون، فلم ترقبوا غائباً، ولم تحترموا حاضراً.

(٨٧-٨٩) ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدَتْهَا فَمَا كُنَّا نَمْلِكُهَا وَكُنَّا حَمَلًا أَوْزَارًا جَسَداً لَمْ حُورًا فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِنَّهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ ○ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ صَرْفاً وَلَا نَقْصاً﴾ أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا، وملك منا لأنفسنا، ولكن السبب الداعي لذلك، أننا تأمنا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا - فيما يذكرون - استعاروا حلياً كثيراً من القبط، فخرجوا وهو معهم، وألقوه، وجمعوه حين ذهب موسى، ليراجعوه فيه، إذا رجع.

وكان السامري قد بصر يوم الغرق بأثر الرسول، فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره، وأنه إذا ألقاها على شيء حيي، فتنة وامتحاناً، فألقاها على ذلك العجل الذي صاغه بصورة

الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى ○ كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحل علي غضبي فقد هوى ○ وإني لعفار لمن تاب وآمن وصلياً ثم اهتدى ○
يذكر تعالى بني إسرائيل منته العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم، ومواعده لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن، لينزل عليه الكتاب الذي فيه الأحكام الجليلة، والأخبار الجميلة، فتم عليهم النعمة الدينية، بعد النعمة الدنيوية، ويذكر منته أيضاً عليهم في التيه، بإنزال المن والسلوى، والرزق الرغد الهني، الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم:

﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ أي: واشكروه على ما أسدى إليكم من النعم ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ أي: في رزقه، فتستعملونه في معاصيه، وتبطلون النعمة، فإنكم إن فعلتم ذلك، حل عليكم غضبي أي: غضبت عليكم، ثم عذبتكم.

﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ أي: ردى وهلك، وخاب وخسر، لأنه عديم الرضا والإحسان، وحل عليه الغضب والخسران.

ومع هذا فالنوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فهذا قال: ﴿وَإِنِّي لَعَفَّارٌ﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة لمن تاب من الكفر والبدعة والفسوق، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعمل صالحاً من أعمال القلب والبدن، وأقوال اللسان.

﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابع الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره، لأنه أتى بالسبب الأكبر للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء، فإن التوبة تجب ما قبلها، والإيمان والإسلام، يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات يذهب السيئات، وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها، من تعلم علم، وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة إلى دين الحق، ورد بدعة أو كفر، أو ضلالة، وجهاد، وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية، كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب.

(٨٣-٨٦) ﴿وَمَا أَعَجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ ○ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَتْرَى وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ○ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ○ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقُولُونَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَبًا أَطَفَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْلِلَ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ○ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ وَاَعَدَ مُوسَى أَنْ يَأْتِيَهُ، لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتتها

عَجَلٌ فَتَحْرِكُ الْعَجَلُ، وصار له خوار وصوت، وقالوا: إن موسى ذهب يطلب ربه، وهو ههنا، فنسيه، وهذا من بلادتهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جمادًا، فظنوه إله الأرض والسموات. **﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾** أن العجل لا **﴿يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾** أي: لا يتكلم ويراجعهم ويراجعونه، ولا يملك لهم ضرًا ولا نفعًا، فالعادم للكمال والكلام والفعال، لا يستحق أن يعبد وهو أنقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدرون على بعض الأشياء، من النفع والدفع، بإقدار الله لهم.

(٩٠-٩٤) **﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾** **﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾** **﴿قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾** **﴿أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَقْصَيْتَ أَمْرِي﴾** **﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾** **﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾** **﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾** **﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ أَخْلِفَنَّكَ﴾** **﴿وَإِنَّكَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا﴾** **﴿وَنَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾** **﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ اللَّهُ الَّذِي قَدْ مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾** **﴿أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَقْصَيْتَ أَمْرِي﴾** **﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾** **﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾** **﴿إِنْ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ﴾** **﴿لَيْسُوا مَعْدُورِينَ فِيهِ﴾** **﴿فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَتْ عَرْضَتْ لَهُمُ الشُّبُهَةُ فِي أَصْلِ عِبَادَتِهِ﴾** **﴿فَإِنَّ هَارُونَ قَدْ نَهَاكَ عَنْهُ﴾** **﴿وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ فِتْنَةٌ﴾** **﴿وَأَنَّ رِبِّهَمُ الرَّحْمَنُ﴾** **﴿الَّذِي مِنْهُ النِّعَمُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ﴾** **﴿الدَّافِعُ لِلنِّعَمِ﴾** **﴿وَأَنَّهُ أَمْرُهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ﴾** **﴿وَيَعْتَرِلُوا الْعَجَلَ﴾** **﴿فَأَبَوْا وَقَالُوا﴾** **﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾**.

فأقبل موسى على أخيه لاثمًا له وقال: **﴿يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾** **﴿أَلَا تَتَّبِعُنَّ﴾** فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم؟ **﴿أَقْصَيْتَ أَمْرِي﴾** في قولي: **﴿أَخْلَفْتَنِي فِي قَوْلِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾**.

فأخذ موسى برأس هارون ولحيته، يجره من الغضب والعتب عليه، فقال هارون: **﴿يَبْنَؤُمْ﴾** تريق له، وإلا فهو شقيقه **﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾** **﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾**.

فإنك أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تبعتك لترك ما أمرتني بلزومه وخشيت لاثمتك، و **﴿أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾** حيث تركتهم، وليس عندهم راع ولا خليفة، فإن هذا يفرقهم ويشت شملهم، فلا تجعلني مع القوم الظالمين، ولا تشتم فينا الأعداء.

فندم موسى على ما صنع بأخيه، وهو غير مستحق لذلك ف **﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** ثم أقبل على السامري.

(٩٥-٩٧) ف **﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمُرِي﴾** **﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾**

و **﴿كَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾** **﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾** أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك قلت له: لا تمسني، ولا تقرب مني، عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمسه غيره، وأجرى ما لم يُجره أحد. **﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ أَخْلِفَنَّكَ﴾** فتجازى بعملك، من خير وشر. **﴿وَإِنَّكَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا﴾** **﴿وَنَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾** **﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ اللَّهُ الَّذِي قَدْ مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾** أي: العجل **﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ﴾** **﴿فِي الْيَوْمِ نَسْفًا﴾** ففعل موسى ذلك، فلو

و **﴿كَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾** **﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ أَخْلِفَنَّكَ﴾** **﴿وَإِنَّكَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا﴾** **﴿وَنَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾** **﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ اللَّهُ الَّذِي قَدْ مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾** **﴿أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَقْصَيْتَ أَمْرِي﴾** **﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾** **﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾** **﴿إِنْ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ﴾** **﴿لَيْسُوا مَعْدُورِينَ فِيهِ﴾** **﴿فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَتْ عَرْضَتْ لَهُمُ الشُّبُهَةُ فِي أَصْلِ عِبَادَتِهِ﴾** **﴿فَإِنَّ هَارُونَ قَدْ نَهَاكَ عَنْهُ﴾** **﴿وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ فِتْنَةٌ﴾** **﴿وَأَنَّ رِبِّهَمُ الرَّحْمَنُ﴾** **﴿الَّذِي مِنْهُ النِّعَمُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ﴾** **﴿الدَّافِعُ لِلنِّعَمِ﴾** **﴿وَأَنَّهُ أَمْرُهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ﴾** **﴿وَيَعْتَرِلُوا الْعَجَلَ﴾** **﴿فَأَبَوْا وَقَالُوا﴾** **﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾**.

و **﴿كَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾** **﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ أَخْلِفَنَّكَ﴾** **﴿وَإِنَّكَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا﴾** **﴿وَنَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾** **﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ اللَّهُ الَّذِي قَدْ مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾** **﴿أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَقْصَيْتَ أَمْرِي﴾** **﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾** **﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾** **﴿إِنْ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ﴾** **﴿لَيْسُوا مَعْدُورِينَ فِيهِ﴾** **﴿فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَتْ عَرْضَتْ لَهُمُ الشُّبُهَةُ فِي أَصْلِ عِبَادَتِهِ﴾** **﴿فَإِنَّ هَارُونَ قَدْ نَهَاكَ عَنْهُ﴾** **﴿وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ فِتْنَةٌ﴾** **﴿وَأَنَّ رِبِّهَمُ الرَّحْمَنُ﴾** **﴿الَّذِي مِنْهُ النِّعَمُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ﴾** **﴿الدَّافِعُ لِلنِّعَمِ﴾** **﴿وَأَنَّهُ أَمْرُهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ﴾** **﴿وَيَعْتَرِلُوا الْعَجَلَ﴾** **﴿فَأَبَوْا وَقَالُوا﴾** **﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾**.

و **﴿كَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾** **﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ أَخْلِفَنَّكَ﴾** **﴿وَإِنَّكَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا﴾** **﴿وَنَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾** **﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ اللَّهُ الَّذِي قَدْ مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾** **﴿أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَقْصَيْتَ أَمْرِي﴾** **﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾** **﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾** **﴿إِنْ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ﴾** **﴿لَيْسُوا مَعْدُورِينَ فِيهِ﴾** **﴿فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَتْ عَرْضَتْ لَهُمُ الشُّبُهَةُ فِي أَصْلِ عِبَادَتِهِ﴾** **﴿فَإِنَّ هَارُونَ قَدْ نَهَاكَ عَنْهُ﴾** **﴿وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ فِتْنَةٌ﴾** **﴿وَأَنَّ رِبِّهَمُ الرَّحْمَنُ﴾** **﴿الَّذِي مِنْهُ النِّعَمُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ﴾** **﴿الدَّافِعُ لِلنِّعَمِ﴾** **﴿وَأَنَّهُ أَمْرُهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ﴾** **﴿وَيَعْتَرِلُوا الْعَجَلَ﴾** **﴿فَأَبَوْا وَقَالُوا﴾** **﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾**.

و **﴿كَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾** **﴿قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ أَخْلِفَنَّكَ﴾** **﴿وَإِنَّكَ عَلَىٰ أَعْيُنِنَا﴾** **﴿وَنَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾** **﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ اللَّهُ الَّذِي قَدْ مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾** **﴿أَلَا تَتَّبِعُنَّ أَقْصَيْتَ أَمْرِي﴾** **﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾** **﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾** **﴿إِنْ اتَّخَذْتُمُ الْعَجَلَ﴾** **﴿لَيْسُوا مَعْدُورِينَ فِيهِ﴾** **﴿فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَتْ عَرْضَتْ لَهُمُ الشُّبُهَةُ فِي أَصْلِ عِبَادَتِهِ﴾** **﴿فَإِنَّ هَارُونَ قَدْ نَهَاكَ عَنْهُ﴾** **﴿وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ فِتْنَةٌ﴾** **﴿وَأَنَّ رِبِّهَمُ الرَّحْمَنُ﴾** **﴿الَّذِي مِنْهُ النِّعَمُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ﴾** **﴿الدَّافِعُ لِلنِّعَمِ﴾** **﴿وَأَنَّهُ أَمْرُهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوهُ﴾** **﴿وَيَعْتَرِلُوا الْعَجَلَ﴾** **﴿فَأَبَوْا وَقَالُوا﴾** **﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾**.

والهجران.

﴿خَلْدَيْنِ فِيهِ﴾ أي: في وزرهم، لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذابًا على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها.

﴿وَسَاءَ هُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَمَلًا﴾ أي: بشس الحمل الذي يحملونه، والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة، ثم استطرده، فذكر أحوال يوم القيامة وأهواله فقال:

(١٠٢-١٠٤) ﴿يَوْمَ يُفْعَخُ فِي الصُّورِ وَتَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا
 ○ يَخْفَتُونَ يَنبَغُومًا ○ مَنَ أَعْمَى ○ تَحَنُّنًا مِمَّا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
 أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لِّئِنَّهُمْ إِنَّا يَلْتَهُمُ الْيَوْمَ﴾ أي: إذا فنعخ في الصور،
 وخرج الناس من قبورهم كل على حسب حاله، فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفدًا، والمجرمون يحشرون زُرْقًا
 ألوانهم من الخوف والقلق، والعطش، يتناجون بينهم، ويتخافتون في قصر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿إِذْ يَقُولُ آمَنَّا هُمُ لَطِيفَةٌ﴾ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير: ﴿إِن لِّئِنَّهُمْ إِنَّا يَلْتَهُمُ الْيَوْمَ﴾ والمقصود من هذا الندم العظيم، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوها ساهين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم، فها قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم والدعاء بالويل والثبور.

كما قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ عَمَلٌ سَيِّئٌ ○ قَالُوا إِنَّا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَنُكَفِّرُنَا بِهِ ○ قُلْ إِن لِّئِنَّهُمْ إِنَّا يَلْتَهُمُ الْيَوْمَ﴾

(١٠٥-١١٢) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ○ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ○ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ○ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ○ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّجْمِ فَلَا تُسْمَعُ ○ إِلَّا هَمْسًا ○ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ○ وَرِضِيَ لَهُ قَوْلًا ○ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ○ وَمَا خَلْفَهُمْ ○ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ ○ عِندَهُ ○ وَمَنْ يَعْصِ ○ مِّنَ أَوْجُوهُ لِغِيٍّ ○ فَتُؤْتُهُمُ ○ قَدَحًا ○ مِّنَ حَمَلٍ ظُلْمًا ○ وَمَنْ يَعْصِ ○ مِّنَ الصَّالِحِينَ ○ فَهُوَ مُؤْتٍ ○ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا ○ وَلَا هَضْمًا ○ يخبر تعالى عن أهوال القيامة، وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟

﴿فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ أي: يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعهن، وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثًا، فتضمحل وتتلشى، ويسويها بالأرض، ويجعل الأرض قاعًا صَفْصَفًا، مستويًا لا ترى فيه أيها الناظر عوجًا، هذا من تمام

كان إلهًا لا تمتع ممن يريد به بأذى، ويسعى له بالإتلاف، وكان قد أُشْرِبَ العجل في قلوب بني إسرائيل.

فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون، على وجه لا تمكن إعادته - بالإحراق والسحق وذريه في اليم، ونَسْفِهِ، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى دافع إلى الباطل.

فلما تبين لهم بطلانه أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

(٩٨) ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الكريم، فلا يؤله، ولا يُحَبَّ، ولا يُرْجَى ولا يُخَافُ، ولا يُدْعَى إلا هو، لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد، إلا منه، ولا يدفع السوء إلا هو، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

(٩٩-١٠١) ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِمَّا فَعَلُوا لَدَىٰ آلِ لَيْسَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ○ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ○ خَلْدَيْنِ فِيهِ ○ وَسَاءَ هُمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ جَمَلًا﴾ يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ، بما قصه عليه من أبناء السابقين، وأخبار السالفين، كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب، فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم ممن دراهم، فإخبارك بالحق اليقين من أخبارهم دليل على أنك رسول الله حقًا، وما جئت به صدق.

ولهذا قال: ﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا﴾ أي: عطية نفيسة ومنحة جزيلة من عندنا ﴿ذِكْرًا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، ذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما الله تعالى من الأسماء، والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء.

وهذا مما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها، وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها.

وإذا كان القرآن ذكرًا للرسول ولأمته، فيجب تلقيه بالقبول والتسليم، والانقياد، والتعظيم، وأن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم.

وأما مقابلته بالإعراض، أو ما هو أعظم منه من الإنكار فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك فهو مستحق للعقوبة ولهذا قال: ﴿مَن أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ فلم يؤمن به، أو تهاون بأوامره ونواهي، أو بتعلم معانيه الواجبة ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن وأولاه الكفر

﴿وَلَا أَمَّا﴾ أي: أودية وأماكن منخفضة، أو مرتفعة، فبرز الأرض، وتوسع للخلائق ويمدها الله مدّ الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعون الداعي، وينفذهم البصر، ولهذا قال:

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم، ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يعرجون يمنة ولا يسرة.

وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَهُمْ﴾ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقاً وصدقاً لجميع الخلق، يسمعون جميعهم، ويصبح بهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن.

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ أي: إلا وطء الأقدام، أو المخافتة سرّاً بتحرك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون، والإنصات، انتظاراً لحكم الرحمن فيهم، وتعتو وجوههم أي: تذلل وتخضع، فترى في ذلك الموقف العظيم، الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا يفعل به، قد اشتغل كلُّ نفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحبيه ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ فحينئذ يحكم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يري الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعتو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار.

ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه [فيختص المؤمنون به ورسله بالرحمة^(١)]، فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، ومما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا، من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصاً في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾، ﴿إِلَّا مَنْ أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ﴾ مع قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ يَوْمَئِذٍ أَلْحَقَ لِلرَّحْمَنِ﴾ مع قوله ﷺ: «إن الله مائة رحمة أنزل لعباده رحمة، بها يتراحمون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع حافرها عن ولدها، خشية أن تطأه، - أي - من الرحمة المودعة في قلبها، فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة، فرحم بها

كذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَّا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٠٩﴾ مَن أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ﴿١١٠﴾ خَلْدَيْنَ فِيهِ وَسَاءَ لِمُهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴿١١١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١١٢﴾ يَخْفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١١٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيفَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١١٤﴾ وَتَسْتَوُونَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ نَبِسْفَهَارٍ رَبِّي سَفًّا ﴿١١٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١١٦﴾ لَا تَبْقَى فِيهَا جَمَادٍ وَلَا أُخْتًا ﴿١١٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١١٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ إِلَّا مَن أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١١٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ ﴿١٢٠﴾ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَن حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١٢١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١٢٣﴾

العباد.

مع قوله ﷺ: «الله أرحم عباده من الوالدة بولدها»، فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصور ما شئت، فإنها فوق ذلك، فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته.

وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجلَّ من غيَّب عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه، طرفة عين.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا نَنْفَعُ الشَّفِيعَةَ إِلَّا مَن أذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ أي: لا يشفع أحد عنده من الخلق، إلا إذا أذن في الشفاعة^(٢)، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله، أي: شفاعته، من الأنبياء والمرسلين، وعباده المقربين، فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص، فإذا اختل واحد من هذه الأمور، فلا سبيل لأحد إلى شفاعته من أحد.

وينقسم الناس في ذلك الموقف قسمين: ظالمين بكفرهم

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: إلا من أذن له في الشفاعة.

لَتَعْلَمَنَّ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانصَبْ قُرْآنَهُ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ ۝

ولما كانت عجلته ﷺ على تلقف الوحي ومبادرته إليه تدل^(١) على محبته التامة للعلم، وحرصه عليه، أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد، والشوق للعلم، وسؤال الله، والاستعانة به، والافتقار إليه في كل وقت.

ويؤخذ من هذه الآية الكريمة الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأنى ويصبر، حتى يفرغ المملي والمعلم من كلامه، المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال، وقطع كلام مُلقِي العلم، فإنه سبب للحرمان، وكذلك المسؤول، ينبغي له أن يستملي سؤال السائل، ويعرف المقصود منه قبل الجواب، فإن ذلك سبب لإصابة الصواب.

(١١٥) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُحْدِثْ لَهُ عَزْمًا﴾ أي: ولقد وصّينا آدم، وأمرناه، وعهدنا إليه عهداً ليقوم به، فالتزمه، وأذعن له، وانقاد، وعزم على القيام به ومع ذلك نسي ما أمر به، وانتقضت عزيمته المحكمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدم فنسيت ذريته، وخطيء فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقرّ بها واعترف، فغفرت له، ومن يشابه أباه فما ظلم. ثم ذكر تفصيل ما أجمله فقال:

(١١٦-١٢٢) ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِ أَنَسُجِدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ۝ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَارْتَدَّ بِكَ فَلَاحِرْجَتِكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشَقَّى ۝ إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۝ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ ۝ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةٍ أَخْلَدُ وَمِنْهَا لَا بَيْتٌ ۝ فَأَصْكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لهُمَا سَوْءَ ثَمَرِهِمَا وَطَفِقَا يَخْصِمَانِ عَلَيْنَا مِن رَّوْقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ۝ ثُمَّ أَخْبَنَهُ رَبُّهُ فَنَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ أي: لما أكمل خلق آدم بيده، وعلمه الأسماء، وفضله، وكرمه، أمر الملائكة بالسجود له إكراماً وتعظيماً وإجلالاً، فبادروا بالسجود ممثلين، وكان بينهم إبليس، فاستكبر عن أمر ربه، وامتنع من السجود لآدم وقال:

﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ فتبينت حينئذ عداوته البليغة لآدم وزوجه، لما كان عدواً لله، وظهر من

وشرهم، فهؤلاء لا ينالهم إلا الخيبة والحرمان والعذاب الأليم في جهنم، وسخط الديان.

والقسم الثاني: من آمن بالإيمان المأمور به، وعمل صالحاً من واجب ومستنون ﴿فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ أي: زيادة في سيئاته ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ أي: نقصاً من حسناته، بل تغفر ذنوبه، وتطهر عيوبه، وتضاعف حسناته ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(١١٣) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب، باللسان الفاضل العربي الذي تفهمونه وتفقهونه، ولا يخفى عليكم لفظه، ولا معناه.

﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي: نوّعناها أنواعاً كثيرة، تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارة بذكر المثالات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة، وتارة بذكر آثار الذنوب، وما تكسبه من العيوب، وتارة بذكر أهوال القيامة، وما فيها من المزعجات، والمقلقات، وتارة بذكر جهنم، وما فيها من أنواع العقاب، وأصناف العذاب، كل هذا رحمة بالعباد، لعلهم يتقون الله فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم.

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ فيعملون من الطاعات والخير ما ينفعهم، فكونه عربياً، وكونه مصرفاً فيه [من] الوعيد، أكبر سبب، وأعظم داع للتقوى والعمل الصالح، فلو كان غير عربي أو غير مصرف فيه، لم يكن له هذا الأثر.

(١١٤) ﴿فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكَ الْحَقَّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ لما ذكر تعالى حكمه الجزائي في عبادته، وحكمه الأمري الديني، الذي أنزله في كتابه وكان هذا من آثار ملكه قال: ﴿فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ﴾ أي: جلّ وارفع، وتقدس عن كل نقص وأفة ﴿الملك﴾ الذي الملك وصفه، والخلق كلهم مماليك له، وأحكام الملك القدرية والشرعية نافذة فيهم ﴿الحق﴾ أي: وجوده، وملكه، وكماله حق، فصفت الكمال، لا تكون حقيقة، إلا لذي الجلال، ومن ذلك: الملك، فإن غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات، على بعض الأشياء، فإنه ملك قاصر باطل يزول، وأما الرب، فلا يزال ولا يزول ملكاً حياً قيوماً جليلاً.

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي: لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، واصبر حتى يفرغ منه، فإذا فرغ منه فاقراه، فإن الله قد ضمن لك جمعه في صدرك، وقراءتك إياه، كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾

(١) في النسختين: يدل.

الْحَقُّ وَالْحَقَّ

٣٢٠

تَوَلَّى

فَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١٢٤﴾ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا لِآدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ يجدْ لَهُ عِزْمًا ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١٢٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا تَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى ﴿١٢٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٢٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴿١٢٩﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةٍ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَآبِلٍ ﴿١٣٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لهُمَا سَوءُ تَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رِيقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَحْبَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٣٢﴾ قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ مَنِي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْفَى ﴿١٣٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٣٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٣٥﴾

نهي عنه، فإنه لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يشقى فيهما، بل قد هدي إلى صراط مستقيم، في الدنيا والآخرة، وله السعادة والأمن في الآخرة.

وقد نفى عنه الخوف والحزن في آية أخرى لقوله: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ واتباع الهدى بتصديق الخير، وعدم معارضته بالشبه، وامتنال الأمر بأن لا يعارضه بشهوة.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ أي: كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه، أو ما هو أعظم من ذلك، بأن يكون على وجه الإنكار له، والكفر به ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ أي: فإن جزاءه أن نجعل معيشته ضيقة مشقة، ولا يكون ذلك إلا عذابًا.

وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه، ويعذب، جزاء لإعراضه عن ذكر ربه، وهذه إحدى الآيات الدالة على عذاب القبر، والثانية: قوله

حسده ما كان سبب العداوة، فحذر الله آدم وزوجه منه، وقال: لا ﴿يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْفَى﴾ إذا خرجت منها، فإن لك فيها الرزق الهنيء والراحة التامة.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا يَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ أي: تصيبك الشمس بحرًا، فضمن له استمرار الطعام والشراب، والكسوة، والماء، وعدم التعب والنصب، ولكنه نهاه عن أكل شجرة معينة فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فلم يزل الشيطان يسول لهما، ويزين أكل الشجرة، ويقول: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ﴾ أي: الشجرة التي من أكل منها خُلد في الجنة.

﴿وَمُلْكٍ لَآبِلٍ﴾ أي: لا يقطع، إن أكلت منها، فاتاه بصورة ناصح، وتلطف له في الكلام، فآغتر به آدم، وأكلا من الشجرة فَسَقَطَ في أيديهما، وسقطت كسوتهما، واتضحت معصيتهما، وبدا لكل منهما سؤا الآخر، بعد أن كانا مستورين، وجعلا يخصفان على أنفسهما من ورق أشجار الجنة، ليسترا بذلك، وأصابهما من الخجل ما الله به عليم.

﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ فبادرا إلى التوبة والإجابة، وقالوا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فاجتبه ربه، واختاره، ويسر له التوبة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾ فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها، ورجع كيد العدو عليه، وبطل مكروه، فتمت النعمة عليه، وعلى ذريته، ووجب عليهم القيام بها والاعتراف، وأن يكونوا على حذر من هذا العدو المرابط الملازم لهم، ليلاً ونهاراً ﴿يَبْنَى آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكَ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوءَ جَمَاهُ إِذْ مَرَّ بِرَبِّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوُهُمْ إِنَّ جَمَلَةَ الشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

(١٢٣-١٢٧) ﴿قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنْ مَنِي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْفَى﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَعْيَنَّا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نَسِي ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَعَلَذَابُ الْآخِرَةِ أَشدُّ وَأَبْقَى﴾ يخبر تعالى أنه أمر آدم وإبليس أن يهبطا إلى الأرض، وأن يتخذوا [آدم وبنوه] الشيطان عدوًّا لهم، فيأخذوا الحذر منه، ويُعدُّوا له عُدته ويحاربوه، وأنه سينزل عليهم كتبًا، ويرسل إليهم رسلاً يبينون لهم الطريق المستقيم الموصلة إليه وإلى جنته، ويحذرونهم من هذا العدو المبين، وأنهم أي وقت جاءهم ذلك الهدى، الذي هو الكتب والرسول، فإن من اتبعه اتبع ما أمر به، واجتنب ما

كقوم هود، وصالح، ولوط وغيرهم، وأنهم لما كذبوا رسلنا، وأعرضوا عن كتبنا، أصبناهم بالعذاب الأليم؟.

فما الذي يؤمن هؤلاء أن يحل بهم ما حل بأولئك؟ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيَّتِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ○ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ لا شيء من هذا كله فليس هؤلاء الكفار خيراً من أولئك، حتى يدفع عنهم العذاب بخيرهم، بل هم شر منهم، لأنهم كفروا بأشرف الرسل، وخير الكتب، وليس لهم براءة مزبورة، وعهد عند الله، وليسوا كما يقولون، أن جمعهم ينفعهم ويدفع عنهم، بل هم أذل وأحق من ذلك.

فإهلاك القرون الماضية بذنوبهم، من أسباب الهداية، لكونها من الآيات الدالة على صحة رسالة الرسل الذين جاءوهم، وبطلان ما هم عليه، ولكن ما كل أحد يتنفع بالآيات، إنما يتنفع بها أولو النهى، أي: العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي.

(١٢٩، ١٣٠) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى ○ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ هذا تسلية للرسول، وتصبير له عن المبادرة إلى إهلاك المكذبين، المعرضين، وأن كفرهم وتكذيبهم سبب صالح لحلول العذاب بهم، ولزومه لهم، لأن الله جعل العقوبات، سبباً وناشئاً عن الذنوب، ملازمًا لها.

وهؤلاء قد أتوا بالسبب، ولكن الذي أخره عنهم كلمة ربك المتضمنة لإمهالهم وتأخيرهم، وضرب الأجل المسمى، فالأجل المسمى ونفوذ كلمة الله، هو الذي أخر عنهم العقوبة إلى إبان وقتها، ولعلمهم يراجعون أمر الله، فيتوب عليهم، ويرفع عنهم العقوبة، إذا لم تحق عليهم الكلمة.

ولهذا أمر الله رسوله بالصبر على أذيتهم بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك، ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه في هذه الأوقات الفاضلة، قبل طلوع الشمس وغروبها، وفي أطراف النهار، أوله وآخره، عموم بعد خصوص، وأوقات الليل وساعاته، لعلك إن فعلت ذلك، ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل والآجل، وليطمئن قلبك، وتقر عينك بعبادة ربك، وتسلمى بها عن أذيتهم، فيخف حينئذ عليك الصبر.

(١٣١) ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ذَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِيَفْتَنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُوا رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَقْبَىٰ﴾ أي: لا تمد عينيك معجباً، ولا تكرر النظر مستحسناً إلى أحوال الدنيا والممتعنين بها، من المآكل والمشرب اللذيذة، والملابس الفاخرة،

تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْقُلُوبُومَنَ فِي عَمَزَتِ النَّوْتِ وَالْمَلَكِيَّةَ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية، والثالثة: قوله: ﴿وَلْيَذِيقْنَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذَىٰ ذُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾، والرابعة: قوله عن آل فرعون: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ الآية.

والذي أوجب لمن فسرها بعذاب القبر فقط من السلف، وقصرها على ذلك - والله أعلم - آخر الآية، وأن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة.

وبعض المفسرين يرى أن المعيشة الضنك عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم، والغموم، والآلام التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك، وعدم تقيدها. ﴿وَتَحْتَشُرُّهُ﴾ أي: هذا المعرض عن ذكر ربه ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ البصر على الصحيح، كما قال تعالى: ﴿وَتَحْتَشُرُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمَيَّا وَكَمَا وَصَلْنَا﴾.

قال على وجه الذل، والمراجعة، والتألم، والضجر من هذه الحالة: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ فِي دَارِ الدُّنْيَا بَصِيرًا﴾ فما الذي صيرني إلى هذه الحالة الشعة. ﴿قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ إِذْ نَسِيتَ الْيَوْمَ نَسِيًّا﴾ أي: ترك في العذاب.

فأجيب، بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك، وعشيت عنه، ونسيته، ونسيت حظك منه، أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى، أصم، أبكم، وأعرض عنك، ونسيك في العذاب.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: هذا الجزاء ﴿نَجْزِيهِ﴾ من أشرفه بأن تعدى الحدود، وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له ﴿وَلَمْ يُؤْمَرْ بِتَايِبَةٍ رَبِيَّةٍ﴾ الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة، فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها، وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه.

﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَشَدُّ﴾ من عذاب الدنيا أضغافاً مضاعفة ﴿وَأَقْبَىٰ﴾ لكونه لا ينقطع، بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع، فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة.

(١٢٨) ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ﴾ أي: أفلم يهد هؤلاء المكذبين المعرضين، ويدلهم على سلوك طريق الرشاد، وتجنب طريق الغي والفساد، ما أحل الله بالمكذبين قبلهم، من القرون الخالية، والأمم المتتابعة الذين يعرفون قصصهم، ويتناقلون أسماهم، وينظرون بأعينهم مساكنهم من بعدهم،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتَانَا فَسَيُبَيِّنُهَا اللَّهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَلِكَ
 نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ
 وَأَبْقَى ﴿١٣٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ
 فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لَأُولِي النُّهَى ﴿١٣٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ
 سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَامِ وَاجِلٍ مَسْمُومٍ ﴿١٣٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَى
 مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
 وَمِنْ أَنْ بَآءَ أَيْلٍ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٤٠﴾ وَلَا
 تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٤١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ
 وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٤٢﴾
 وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ ؎ أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي
 الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٤٣﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ
 لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ
 قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ وَنَخْزِيكَ ﴿١٤٤﴾ قُلْ كُلُّ مُرْتَبِعٍ فَرَبِّصُوا
 فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٤٥﴾

مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ٠ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا
 رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْزِلَ
 وَنَخْزِيكَ ٠ قُلْ كُلُّ مُرْتَبِعٍ فَرَبِّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ
 الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ٠ أي: قال المكذوبون للرسل ﷺ:
 هلا يأتينا بآية من ربه؟ يعنون آيات الاقتراح كقولهم: ﴿ وَقَالُوا
 لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ
 مِنْ نَحِيلِ وَعَنْبٍ فَتَفْجُرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَجْجِرًا ٠ أَوْ تَسْقُطَ السَّمَاءُ
 كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا لَحَسْبًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قِيْلًا ٠

وهذا تعنت منهم، وعناد وظلم، فإنهم هم والرسل بشر
 عبيد لله، فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي
 يزيلها، ويختار منها ما يختار بحسب حكمته، هو الله.

ولأن^(١) قولهم: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْتَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ يقتضي
 أنه لم يأتهم بآية على صدقه، ولا بينة على حقه، وهذا كذب
 وافتراء، فإنه أتى من المعجزات الباهرات، والآيات
 القاهرات، ما يحصل ببعضه المقصود، ولهذا قال: ﴿أَوْلَمْ

والبيوت المزخرقة، والنساء المجملة فإن ذلك كله زهرة
 الحياة الدنيا، تبتهج بها نفوس المغترين، وتأخذ إعجابًا
 بأبصار المعرضين، ويتمتع بها - بقطع النظر عن الآخرة -
 القوم الظالمون، ثم تذهب سريعًا، وتضمي جميعًا، وتقتل
 محبيها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما
 هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنه واختبارًا،
 ليعلم من يقف عندها، ويغتر بها، ومن هو أحسن عملاً كما
 قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ
 عَمَلًا ٠ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ٠

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق
 الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم، والعيش
 السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خَيْرٌ﴾ مما متعنا به أزواجًا،
 في ذاته وصفاته ﴿وَأَبْقَى﴾ لكونه لا ينقطع، أكلها دائم وظلها،
 كما قال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٠ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ
 وَأَبْقَى ٠

وفي هذه الآية إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه،
 طموحًا إلى زينة الدنيا، وإقبالًا عليها، أن يذكرها ما أمامها
 من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.
 (١٣٢) ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ
 نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: حث أهلك على الصلاة وأزعجهم
 إليها من فرض ونفل، والأمر بالشيء أمر بجمع ما لا يتم إلا
 به، فيكون أمرًا بتعليمهم ما يصلح الصلاة، ويفسدها،
 ويكملها.

﴿وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها،
 وأركانها، وأدابها، وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس،
 ولكن ينبغي إكراهها وجهادها على ذلك، والصبر معها دائمًا،
 فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما
 سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها
 أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام
 به عن إقامة دينه فقال:

﴿نَحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ أي: رزقك علينا، قد تكفلنا به، كما تكفلنا
 بأرزاق الخلائق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا، واشتغل
 بذكرنا؟ ورزق الله عام للمتقي وغيره، فينبغي الاهتمام بما
 يجلب السعادة الأبدية، وهو التقوى، ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾
 في الدنيا والآخرة ﴿لِلتَّقْوَى﴾ التي هي فعل المأمور وترك
 المنهي، فمن قام بها كان له العاقبة، كما قال تعالى:
 ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقِيَّةِ﴾

(١٣٣-١٣٥) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؎ أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ

(١) في ب: ولما كان.

تَأْتِيهِمْ ﴿١﴾ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ فِي قَوْلِهِمْ، وَأَنْهُمْ يَطْلُبُونَ الْحَقَّ بِدَلِيلِهِ .

﴿بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ أي: هذا القرآن العظيم المصدق لما في الصحف الأولى، من التوراة والإنجيل، والكتب السابقة المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضاً مذكور فيها، ومبشر بالرسول بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فالآيات تنفع المؤمنين، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم، وأما المعرضون عنها المعارضون لها، فلا يؤمنون بها، ولا يتفنعون بها، ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۚ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، وإنما الفائدة في سوقها إليهم ومخاطبتهم بها، لتقوم عليهم حجة الله، ولئلا يقولوا حين ينزل بهم العذاب: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنذِرَ لَكَ وَتَحْزَنَ﴾ بالعقوبة، فما قد جاءكم رسولي ومعه آياتي وبراهيني، فإن كنتم كما تقولون فصدقوه .

قل يا محمد! مخاطباً للمكذبين لك الذين يقولون: تربصوا به رب المنون ﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ﴾ فتربصوا بي الموت، وأنا أتربص بكم العذاب ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُوتَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ أي: الظفر أو الشهادة ﴿وَتَحْنُ تَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ .

﴿فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي المستقيم، ﴿وَمَنْ أَهْتَدَىٰ﴾ يسلكه، أنا أم أنتم؟ فإن صاحبه هو الفائز الراشد، الناجي المفلح، ومن حاد عنه خاسر خائب معذب . وقد علم أن الرسول هو الذي بهذه الحالة، وأعداؤه بخلافه، والله أعلم .

تفسير سورة الأنبياء عليهم السلام

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۚ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۚ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۚ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ هذا تعجب من حالة

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٢٢

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

١

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۚ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۚ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ۚ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۚ بَلْ قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَمَ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ۝ ٥ مَاءَ أَمْنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۚ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۚ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَيًّا كَالَّذِينَ الْأَطْعَامُ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝ ٨ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَشَاءٍ وَأَهْلَكْنَا الْأُسْرَفِينَ ۚ ١٠ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ ١٠﴾

الناس، وأنهم لا ينجح فيهم تذكير، ولا يرفعون إلى نذير، وأنهم قد قرب حسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الصالحة والطالحة، والحال أنهم في غفلة معرضون، أي: غفلة عما خلقوا له، وإعراض عما زجروا به، كأنهم للدنيا خلقوا، ولتمتع بها ولدوا، وأن الله تعالى لا يزال يجدد لهم التذكير والوعظ، ولا يزالون في غفلتهم وإعراضهم، ولهذا قال:

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ﴾ يذكرهم ما ينفعهم، ويحنتهم عليه، وما يضرهم، ويرهبهم منه ﴿إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ﴾ سماعاً تقوم عليهم به الحجة .

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۚ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ أي: قلوبهم غافلة معرضة لاهية بمطالبها الدنيوية وأبدانهم لاعبة، قد اشتغلوا بتناول الشهوات، والعمل بالباطل، والأقوال الرديئة، مع أن الذي ينبغي لهم أن يكونوا بغير هذه الصفة، تقبل قلوبهم على أمر الله ونهيه، وتستمعه استماعاً تفقه المراد منه، وتسعى جوارحهم في عبادة ربهم التي خلقوا لأجلها، ويجعلون القيامة والحساب والجزاء منهم على بال، فبذلك يتم لهم أمرهم وتستقيم أحوالهم، وتزكو أعمالهم .

ليعارضوا مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته، فلم يقدرُوا على شيء من معارضته، وهم يعلمون ذلك، وإلا فما الذي أقامهم، وأعدهم؟ وأقضى مضاجعهم، وبلبل ألسنتهم إلا الحق الذي لا يقوم له شيء؟ وإنما يقولون هذه الأقوال فيه - حيث لم يؤمنوا به - تفتيرًا عنه لمن لم يعرفه، وهو أكبر الآيات المستمرة، الدالة على صحة ما جاء به الرسول ﷺ، وصدقه، وهو كاف شاف.

فمن طلب دليلاً غيره، أو اقترح آية من الآيات سواه، فهو جاهل ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه، وطلبوا من آيات الاقتراح ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة لأنهم إن كان^(٣) قصدهم معرفة الحق إذا تبين دليله، فقد تبين دليله بدونها، وإن كان قصدهم التعجيز وإقامة العذر لأنفسهم، إن لم يأت بما طلبوا، فإنهم بهذه الحالة - على فرض إتيان ما طلبوا من الآيات - لا يؤمنون قطعاً، فلو جاءتهم كل آية لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال الله عنهم: ﴿فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ﴾ أي: كناية صالح، وعصا موسى، ونحو ذلك. قال الله: ﴿مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِن قُرْبَىٰ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: بهذه الآيات المقترحة، وإنما سنته تقتضي أن من طلبها، ثم حصلت له فلم يؤمن أن يعاجله بالعقوبة، فالأولون ما آمنوا بها، أفيؤمن هؤلاء بها؟ ما الذي فضلهم على أولئك؟ وما الخير الذي فيهم، يقتضي الإيمان عند وجودها؟

وهذا الاستفهام بمعنى النفي، أي: لا يكون ذلك منهم أبداً.

(٧-٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ۝ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمِنْ نَّشَاءِ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ هذا جواب لشبه المكذبين للرسول القائلين: هلاً كان ملكاً لا يحتاج إلى طعام وشراب، وتصرف في الأسواق؟ وهلاً كان خالداً؟ فإذا لم يكن كذلك دل على أنه ليس برسول.

وهذه الشبه ما زالت في قلوب المكذبين للرسول، تشابهوا في الكفر، فتشابهت أقوالهم، فأجاب تعالى عن هذه الشبه لهؤلاء المكذبين للرسول، المقرين بإثبات الرسل قبله - ولو لم يكن إلا إبراهيم عليه السلام الذي قد أقر بنبوته جميع الطوائف، والمشركون يزعمون أنهم على دينه وملته - بأن

(١) في ب: بما يشاهدون. (٢) في ب: تقولوه فيه. (٣) كذا في ب، وفي أ: كانوا.

وفي معنى قوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ قولان: أحدهما: أن هذه الأمة هي آخر الأمم، ورسولها آخر الرسل، وعلى أمته تقوم الساعة، فقد قرب الحساب منها بالنسبة لما قبلها من الأمم، لقوله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وقرن بين إصبعيه، السبابة والتي تليها. والقول الثاني: أن المراد بقرب الحساب الموت، وأن من مات قامت قيامته، ودخل في دار الجزاء على الأعمال، وأن هذا تعجب من كل غافل معرض، لا يدري متى يفجأه الموت، صباحاً أو مساءً، فهذه حالة الناس كلهم إلا من أدركته العناية الربانية، فاستعد للموت وما بعده.

ثم ذكر ما يتناجى به الكافرون الظالمون على وجه العناد، ومقابلة الحق بالباطل، وأنهم تناجوا، وتواطأوا فيما بينهم، أن يقولوا في الرسول ﷺ: إنه بشر مثلكم، فما الذي فضله عليكم، وخصه من بينكم، فلو ادعى أحد منكم مثل دعواه لكان قوله من جنس قوله، ولكنه يريد أن يتفضل عليكم، ويرأس فيكم، فلا تطيعوه، ولا تصدقوه، وإنه ساحر، وما جاء به من القرآن سحر، فانفروا عنه، ونفروا الناس، وقولوا: ﴿أَفَأَتُورِكُ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ هذا وهم يعلمون أنه رسول الله حقاً بما شاهدوا^(١) من الآيات الباهرة ما لم يشاهد غيرهم، ولكن حملهم على ذلك الشقاء والظلم والعناد، والله تعالى قد أحاط علماً بما تناجوا به، وسيجازيهم عليه، ولهذا قال:

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ أي: الخفي والنجلي ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: في جميع ما احتوت عليه أقطارهما ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات باختلاف اللغات على تفضن الحاجات ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما في الضمائر، وأكثته السرائر.

(٥، ٦) ﴿بَلْ قَالُوا أَضَعَفْتُ أَحَلِيمٌ بَلْ أَفْتَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بَيِّنَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ ۝ مَا ءَامَنَتْ قَبْلَهُمْ مِن قُرْبَىٰ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُوْمِنُونَ﴾ يذكر تعالى اتفان المكذبين بمحمد ﷺ، وبما جاء به من القرآن العظيم، وأنهم سفهوه^(٢)، وقالوا فيه الأقاويل الباطلة المختلفة، فتارة يقولون: ﴿أَضَعَفْتُ أَحَلِيمٌ﴾ بمنزلة كلام النائم الهادي، الذي لا يحس بما يقول، وتارة يقولون: ﴿أَفْتَرْتَهُ﴾ واختلعه وتقولوه من عند نفسه، وتارة يقولون: إنه شاعر وما جاء به شعر.

وكل من له أدنى معرفة بالواقع، من حالة الرسول، ونظر في هذا الذي جاء به، جزم جزمًا لا يقبل الشك، أنه أجل الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحدًا من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه، كما تحدى الله أعداءه بذلك،

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا ترضون ولا تعملون على ما فيه ذكركم، وشرفكم في الدنيا والآخرة؟ فلو كان لكم عقل، لسلكتم هذا السبيل.

فلما لم تسلكوه، وسلكتم غيره من الطرق، التي فيها ضَعُفُكُمْ وَخِسَّتْكُمْ في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما، علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي رجيح.

وهذه الآية مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول الذين تذكروا بالقرآن من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم، والشرف على الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأساً، ولم يهتد به ويتزكَّ به، من المقت والضعف، والتدسية، والشقاوة، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة، إلا بالتذكر بهذا الكتاب.

(١١-١٥) ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيبٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ○ فَمَا أَحْسَأُوا بِأَسَآ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْضُونَ ○ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ ○ قَالُوا يَبُودُنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ○ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَلِيبِينَ يقول تعالى - محذراً لهؤلاء الظالمين المكذبين للرسول، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل - : ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكتنا بعداب مستأصل ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ تلفت عن آخرها ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وأن هؤلاء المهلكين، لما أحسوا بعداب الله وعقابه، وباشرهم نزوله، لم يمكن لهم الرجوع ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم ندمًا وقلقًا، وتحسراً على ما فعلوا وهربوا من وقوعه.

ف قيل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْتَلُونَ﴾ أي: لا يفيدكم الركض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار، فارجعوا إلى ما أترفتم فيه من اللذات والمشتبهات، ومساكنكم المزخرفات، ودنياكم التي غرتكم وألهتكم، حتى جاءكم أمر الله، فكونوا فيها متمكنين، ولذاتها جانين، وفي منازلكم مطمئنين معظمين، لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم، كما كنتم سابقًا، مسؤولين من مطالب الدنيا، كحالكم الأولى، وهيات، أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزهم، وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرتهم؟.

الرسول قبل محمد ﷺ كلهم من البشر الذين يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، وتطرأ عليهم العوارض البشرية من الموت وغيره، وأن الله أرسلهم إلى قومهم وأمهم، فصدقهم من صدقهم، وكذبهم من كذبهم، وأن الله صدقهم ما وعدهم به من النجاة، والسعادة لهم، ولاتباعهم، وأهلك المسرفين المكذبين لهم.

فما بال محمد ﷺ، تقام الشبه الباطلة على إنكار رسالته؛ وهي موجودة في إخوانه المرسلين، الذين يترُّ بهم المكذبون لمحمد؟ فهذا إزام لهم في غاية الوضوح، وأنهم إن أقروا برسول من البشر، ولن يقرؤا برسول من غير البشر، إن شبههم باطلة، قد أبطلوها هم بإقرارهم بفسادها، وتناقضهم بها، فلو قدر انتقالهم من هذا إلى إنكار نبوة البشر رأساً، وأنه لا يكون نبي إن لم يكن ملكاً مُخَلَّدًا لا يأكل الطعام، فقد أجاب [الله] تعالى عن هذه الشبهة بقوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَوَأَنْزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِّيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ○ وَوَوُجَعْنَا مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيْسُونَ﴾.

وأن البشر لا طاقة لهم بتلقي الوحي من الملائكة ﴿قُلْ لَوْ كَانَتْ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَسْمَعُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ مَلَكًَا رَسُولًا﴾، فإن حصل معكم شك وعدم علم بحالة الرسل المتقدمين ﴿تَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ من الكتب السالفة، كأهل التوراة والإنجيل، يخبروكم بما عندهم من العلم، وأنهم كلهم بشر من جنس المرسل إليهم.

وهذه الآية وإن كان سببها خاصاً بالسؤال عن حالة الرسل المتقدمين لأهل الذكر^(١)، وهم أهل العلم، فإنها عامة في كل مسألة من مسائل الدين، أصوله وفروعه، إذا لم يكن عند الإنسان علم منها، أن يسأل من يعلمها، ففيه الأمر بالتعلم والسؤال لأهل العلم، ولم يؤمر بسؤالهم، إلا لأنه يجب عليهم التعليم والإجابة عما علموه.

وفي تخصيص السؤال بأهل الذكر والعلم، نهى عن سؤال المعروف بالجهل، وعدم العلم، ونهى له أن يتصدى لذلك، وفي هذه الآية دليل على أن النساء ليس منهن نبية، لا مريم ولا غيرها، لقوله: ﴿إِلَّا رَجُلًا﴾.

(١٠) ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ لقد أنزلنا إليكم - أيها المرسل إليهم، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب - كتاباً جليلاً، وقرآناً مبيناً ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: شرفكم وفخركم، وارتفاعكم، إن تذكرتم به ما فيه من الأخبار الصادقة، فاعتقدتموها، وامثلتم ما فيه من الأوامر، واجتبتم ما فيه من النواهي، ارتفع قدركم، وعظم أمركم.

ولهذا ﴿قَالُوا يُونُسَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ٥ فَمَا زَلَّتْ تِلْكَ دَعْوَتُهُمْ ٥﴾
أي: الدعاء بالويل والثبور، والندم، والإقرار على أنفسهم
بالظلم، وأن الله عادل فيما أحل بهم.

﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدًا﴾ أي: بمنزلة النبات الذي قد
حصد وأنيب، قد خمدت منهم الحركات، وسكنت منهم
الأصوات، فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تستمروا على
تكذيب أشرف الرسل، فيحل بكم حل بأولئك.

(١٧، ١٦) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ٥ لَوْ
أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ اللَّحْدَنَةَ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ يخبر تعالى
أنه ما خلق السماوات والأرض عبثاً، ولا لعباً من غير فائدة،
بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق
العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال
كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قيله، الصادقة
رساله فيما تخبر عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما
وعظمتها، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي
المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ اللَّحْدَنَةَ﴾ على الفرض والتقدير المحال
﴿لَا تَخَذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ ولم
نطلعكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء، لا
نحب أن نريه إياكم.

فالسماوات والأرض اللذان برأى منكم على الدوام، لا
يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللغو، كل هذا تنزل مع
العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقنعة، فسبحان
الحليم الرحيم، الحكيم في تنزيهه الأشياء منازلها.

(٢٠-١٨) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ٥
وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَفْسُونَ ٥ وَلَكُمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ٥ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ٥ يُسْحِقُونَ الْيَتِيمَ وَالنَّهَارَ لَا
يَفْقَرُونَ﴾ يخبر تعالى أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل،
وأن كل باطل قيل و جودل به، فإن الله ينزل من الحق والعلم
والبيان، ما يدمغه فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فَإِذَا هُوَ
زَاهِقٌ﴾ أي: مضمحل فإن، وهذا عام في جميع المسائل
الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية في إحقاق باطل أو
رد حق، إلا وفي أدلة الله من القواطع العقلية والنقلية، ما
يذهب ذلك القول الباطل ويقمعه فإذا هو متبين بطلانه لكل
أحد، وهذا يتبين باستقراء المسائل، مسألة مسألة، فإنك
تجدها كذلك.

ثم قال: ﴿وَلَكُمْ﴾ أيها الواصفون الله بما لا يليق به، من
اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنداد والشركاء، حظكم من

الأنبياء

٣٢٣

سورة الأنبياء

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَبْرَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا

ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَبَاسًا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾

لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أَنْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِكُمْ لَعَلَّكُمْ

تَسْتَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يُونُسَ إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَلَّتْ تِلْكَ

دَعْوَتُهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا أَخْمِيدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا

السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَكُمُ

لَا تَخَذَنَّهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ

عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا نَفْسُونَ

﴿١٨﴾ وَلَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ

عَنْ عِبَادَتِهِ ٥ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسْحِقُونَ الْيَتِيمَ وَالنَّهَارَ

لَا يَفْقَرُونَ ﴿٢٠﴾ أَوْ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِنْ دُونِ اللَّهِ هُمْ بَشِيرُونَ

﴿٢١﴾ لَوْ كَانُ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَخَّنَ اللَّهُ رَبُّ الْعَرْشِ

عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يَسْتَلِ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ

أَتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِمَّا

وَدَّ كُرْ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

ذلك، ونضيبكم الذي تدركون ﴿الْوَيْلُ﴾ والندامة والخسران،
ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها،
وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها، إلا عكس
مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان.

ثم أخبر أنه له ملك السموات والأرض وما بينهما، فالكل
عيده وماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك،
ولا معاونة عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله، فكيف يتخذ من
هؤلاء آلهة؟ وكيف يجعل الله منها ولد؟.

فتعالى وتقدس المالك العظيم، الذي خضعت له الرقاب،
وذلك له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأدعوا
له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون.

ولهذا قال: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾ أي: من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ
عَنْ عِبَادَتِهِ ٥ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي: لا يملون ولا يسأمونها، لشدة
رغبتهم، وكمال محبتهم، وقوة أبدانهم.

﴿يُسْحِقُونَ الْيَتِيمَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْقَرُونَ﴾ أي: مستغرقين في العبادة
والتسبيح في جميع أوقاتهم فليس في أوقاتهم وقت فارغ منها
ولا خالٍ منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من

ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَاتَّبَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۝ سَبَّحْتَهُ وَتَعَلَّىٰ عَنَّا يَقُولُونَ لَعَلَّآ كَبِيرًا ﴿٢١﴾ .

ولهذا قال هنا: ﴿فَسَبَّحْتَ اللَّهَ﴾ أي: تنزهه وتقديسه عن كل نقص لكمالته وحده، ﴿رَبِّ الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها، وأعظمها، فربوبية^(١) ما دونه من باب أولى، ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه.

﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لعظمته وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا بقول، ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضع الأشياء مواضعها وإتقانها، أحسن كل شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

﴿وَهُمْ﴾ أي: المخلوقون كلهم ﴿يُسْئَلُونَ﴾ عن أفعالهم وأقوالهم، لعجزهم وفقرهم، ولكونهم عبيداً، قد استحققت أفعالهم وحركاتهم، فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم، ولا في غيرهم مثقال ذرة.

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخاً ومقرعاً: ﴿أُرِيتُمْ مِمَّنْ دُونِهِ ءَالِهَةٌ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حججتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾ أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم، من إبطال الشرك، فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء، بأدلتها العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة، كلها برهان وأدلة لما قلت.

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه، علم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع يجزم أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعياً، وإن وجد معارضات، فإنها شبه لا تغني من الحق شيئاً.

وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لَعَلَّآ﴾ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليداً لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم الحق لخفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات، تبين لهم الحق من الباطل تبيناً واضحاً جلياً، ولهذا قال: ﴿فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾.

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة، بينها أتم تبين في قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن

بيان عظمتته وجلالته وسلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تُصْرَفَ العبادة لغيره.

(٢١-٢٥) ﴿أُرِيتُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةٌ مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبَشِّرُونَ ۝ لَوْ كَانُوا فِيهَا ءَالِهَةً إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحْتَ اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ۝ أُرِيتُمْ مِمَّنْ دُونِهِ ءَالِهَةٌ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ لَعَلَّآ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمتته، وخضوع كل شيء له، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة ﴿هُم يُبَشِّرُونَ﴾ استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرون على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شَوْعًا﴾، ﴿وَأَتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ ۝ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحَضَّرُونَ﴾ فالمشرك يعبد المخلوق الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع الإخلاص لله، الذي له الكمال كله ويده الأمر والنفع والضر.

وهذا من عدم توفيقه، وسوء حظّه، وتوفّر جهله، وشدة ظلمه، فإنه لا يصلح الوجود إلا على إله واحد، كما أنه لم يوجد إلا برب واحد، ولهذا قال: ﴿لَوْ كَانُوا فِيهَا﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿ءَالِهَةً إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما من المخلوقات.

وبيان ذلك: أن العالم العلوي والسفلي على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانتظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا مانعة، ولا معارضة، فدل ذلك على أن مدبره واحد، وربّه واحد، وإلهه واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر، وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن.

فإذاً، يتعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير ممانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل

التمانع في قوله:

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلِيٍّ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِن إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ مِّمَّا خَلَقَ وَلَمَّا لَبَّثَهُمْ عَلَىٰ بَعْضِ سَبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾.

ومنه - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ

(١) في النسختين: فربوبيته.

قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٦﴾ فكل الرسل الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما سواه باطلة.

(٢٦-٢٩) ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٧﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلْنَنْجِزْهُ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسل، وأنهم زعموا - قبحهم الله - أن الله اتخذ ولداً فقالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم.

وأخبر عن وصف الملائكة، بأنهم (١) عبيد مربيون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامتنال لأوامره.

ف ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي: لا يقولون قولاً مما يتعلق بتدبير المملكة، حتى يقول الله، لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه.

﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي: مهما أمرهم امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله، ومع هذا، فإله قد أحاط بهم علمه.

فعلم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: أمورهم الماضية والمستقبلية، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره.

ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم، وارتضى من يشفعون فيه، شفّعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل، إلا ما كان خالصاً لوجهه، متبعاً فيه الرسول، وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون.

﴿وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلّون، قد خضعوا لجلاله، وعتت وجوههم لعزه وجماله.

فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئاً من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك - ذكر أيضاً أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: ﴿إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ﴾ على سبيل الفرض والتنزل

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٦﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٧﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنَ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَلْنَنْجِزْهُ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣٢﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَفَافًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِلشِّرْكِ مِنْ قَبْلِكَ خَلْقًا أَفَّا يَرَىٰ مَنْ دُونَهُمْ أَنَّهُ لَمَّا خَلَدُوا فَآيٰتِنَا مِتَّ فَهُمْ الْخٰلِدُونَ ﴿٣٥﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذٰئِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبِّئُوهُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾﴾

﴿فَذٰلِكَ نَجْزِي جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: ظلّم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى الله من جميع الوجوه، مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية؟

(٣٠) ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، على أنه الرب المحمود الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض، فيجدونهاما رتقاً، هذه ليس فيها سحب ولا مطر، وهذه هامة ميتة، لا نبات فيها، ففتقناهما: السماء بالمطر، والأرض بالنبات، أليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافياً لا قزعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت؛ قد اغبرت أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فأطره فيها، فاهتزت، وتحركت، وربت، وأنبئت من كل زوج بهيج، مختلف الأنواع، متعدد المنافع، [ليس ذلك] (٢) دليلاً على

(١) في النسختين: بأنه. (٢) زيادة من هامش ب.

الذي أوجدها، ويسكنها الذي حركها .
ويتنقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملاً موفراً ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة .

(٣٤، ٣٥) ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ ○ كل نفس ذائقة الموت وتلوكم بالشتر والخير فتنة وإيننا نرجعون ﴿ لما كان أعداء الرسول يقولون^(١): تربصوا به رب المنون، قال الله تعالى: هذا طريق مسلك ومعبد منهوك، فلم نجعل لبشر ﴿من قبلك﴾ يا محمد ﴿الخلد﴾ في الدنيا، فإذا مت فسيبيل أمثالك من الرسل والأنبياء والأولياء وغيرهم .

﴿أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ أي: فهل إذا مت خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذا إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فإن، ولهذا قال: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالبعد المدى، وعمر سنين .

ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل، والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو .

﴿وَإِنَّا نُرْجِعُونَ﴾ فنجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلْمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ .
وهذه الآية تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه مخلد في الدنيا، فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية .

(٣٦-٤١) ﴿وَإِذْ رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِتَّخَذُواكَ إِلاَّ هُزُوًا اهْتدأ الَّذِينَ يَذُكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذُكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ﴾ ○ خلق الإنسان من عجل ساوريكم آياتي فلا تستعجلون ○ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ○ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفرون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم يضررون ○ بل تأتيهم بغتة فتبهم فلا يستطيعون ردها ولا هم يظنون ○ ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذي سبق سخرأ منهم ما كانوا به يستهزئون ﴿ وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا رسول الله ﷺ، استهزؤوا به، وقالوا: ﴿اهتدأ الذي يذكُر ءالِهتكم﴾ أي: أهذا المحقر بزعمهم، الذي يسب آلهتكم ويذمها، ويقع فيها، أي: فلا

أنه الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إيماناً صحيحاً، ما فيه شك ولا شرك .

ثم عدد تعالى الأدلة الألفية فقال:

(٣١-٣٣) ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ○ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ○ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ .

أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته، ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتدها، لئلا تميد بالعباد، أي: لئلا تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها .

فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل، ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تتصل اتصالاً كثيراً جداً، فلو بقيت بحالها جبالاً شامخات، وقللاً باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان .

فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاً سبلاً، أي: طرقاً سهلة لا حزنّة، لعلهم يهتدون إلى الوصول، إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان .

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَفَافًا﴾ للارض التي أنتم عليها ﴿مَحْفُوظًا﴾ من السقوط ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسَكِّنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ محفوظاً أيضاً من استراق الشياطين للسمع .

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ أي: غافلون لاهون، وهذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها، وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثوابت، والسيارات، وشمسها، وقمرها النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائماً في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم .

فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم، ويهدأون ويسكنون، ويتشرون في نهارهم، ويسعون في معاشهم .

كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم جزماً لا شك فيه، أن الله جعلها مؤقّفة في وقت معلوم، إلى أجل محتوم، يقضي العباد منها مآربهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمعوا ويتفكروا، ثم بعد هذا استزول وتضمحل، ويفنيها

(١) في النسختين: يقولون قل تربصوا .

تبالوا به، ولا تحتفلوا به.

هذا استهزاءهم واحترارهم له، بما هو من كماله، فإنه الأكمل الأفضل الذي من فضائله ومكارمه إخلاص العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر محله ومكانته، ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق ذميب، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب، وجحدهم لرسله فصاروا بذلك من أحسن الخلق وأردلهم، ومع هذا فذكرهم للرحمن، الذي هو أعلى حالاتهم، كافرون بها، لأنه لا يذكرونه ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون، فذكرهم كفر وشرك، فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟ ولهذا قال: ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ وفي ذكر اسمه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ هنا، بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مسدي النعم كلها، ودافع التقم، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا [هو] ^(١) - بالكفر والشرك.

﴿حَلِقِ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي: خلق عجولاً، يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين، ويتباطأونها، والكافرون يتولون ^(٢) ويستعجلون بالعذاب، تكديباً وعناداً، ويقولون:

﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ والله تعالى يهمل ولا يهمل ويحلم، ويجعل لهم أجلاً مؤقتاً إذا ﴿جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ﴾ ولهذا قال: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ أي: في انتقامي ممن كفر بي وعصاني ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ ذلك، وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ قالوا هذا القول اغتراراً، ولما يحق عليهم العقاب، وينزل بهم العذاب.

ف ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حالهم الشنيعة ﴿حِينَ لَا يَكْفُورُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ﴾ إذ قد أحاط بهم من كل جانب، وغشيبهم من كل مكان ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصرهم غيرهم، فلا نصروا ولا انتصروا.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمُ النَّارُ بَغْتَةً فَبَتَّهِمُ﴾ من الانزعاج والذعر والخوف العظيم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ إذ هم أذل وأضعف من ذلك.

﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة، لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم، قالوا ما قالوا، ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَدَّكَرْنَا إِلَيْكَ﴾ سلاه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم فقال:

سورة الأنبياء

٣٢٥

سورة الأنبياء

وَإِذْ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَسْخَرُونَكَ لِأَهْرَؤًا
أَهَذَا الَّذِي بَدَّكَرْنَا إِلَيْكَ هُمْ يَذْكُرُونَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ حَلِقِ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ
آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ
لَا يَكْفُورُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُمُ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزَأَ
رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ
الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ
هُمْ أَلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مَتَّائِضِحُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَنَعَهَا هَؤُلَاءِ
وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي
الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَأَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: نزل بهم ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب، وتقطعت عنهم الأسباب، فليحذر هؤلاء أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

(٤٢-٤٤) ﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ أَمْ هُمْ أَلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مَتَّائِضِحُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَنَعَهَا هَؤُلَاءِ وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ يقول تعالى - ذاكراً عجز هؤلاء الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحمته شملت البرِّ والفاجر، في لييلهم ونهارهم - فقال:

﴿قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ﴾ أي: يحرسكم ويحفظكم ﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ وقت كنتم نائمين على فرشكم، وذهبت حواسكم ﴿وَالنَّهَارِ﴾ وقت (١) في الأصل (إياه) ولعل الصواب ما أثبت. (٢) في الكلمة أقرب إلى أن تكون (يقولون)، وفي ب غير واضحة، وكلمة (يقولون) أقرب مناسبة للسياق.

سورة الأنبياء

٣٢٦

سورة الأنبياء

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِن مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَلِينَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِنْكُمُ الْحَبِيبُ مِنْ خَدَائِلِنَا إِنَّمَا يَنْهَاجُهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيصِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ تُمَكِّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ حَافِظُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ هَٰذَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَشْرَكَاءَ مَا شَرِكُوا لِي وَلَا يَخِفُّونَنِي فِي أَشْرِكِنِي إِن يَبْتَغِ الْوَأْدَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٤﴾ أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

انتشاركم وغفلتكم ﴿مَنْ الرَّحْمَنُ﴾ أي: بدله غيره، أي: هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو.

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ فلماذا أشركوا به، وإلا فلو أقبلوا على ذكر ربهم، وتلقوا نصائحه، لهدوا لرشدهم، ووقفوا في أمرهم.

﴿أَمْ هُمْ بِالْهَيْبَةِ تَمَنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾ أي: إذا أردناهم بسوء هل من ألهتهم من يقدر على منعهم من ذلك السوء، والشر النازل بهم؟! لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم مَنَّا يصحبون﴾ أي: لا يعانون على أمورهم من جهتنا، وإذا لم يعانون من الله فهم مخذولون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع مضرة.

والذي أوجب لهم استمرارهم على كفرهم، وشركهم قوله: ﴿بَلْ مَتَعْنَا هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهوأ بها عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد، فقسفت قلوبهم، وعسا طغيانهم، وتغلظ كفرانهم، فلو ألفتوا أنظارهم إلى مَنْ عن يمينهم، وعن يسارهم من الأرض، لم يجدوا إلا هالكًا، ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك، وقد نصب الموت في كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك.

ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ نَارَ الْأَرْضِ تَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَفَيْهَا﴾ أي: بموت أهلها وفنائهم شيئًا فشيئًا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فلو رأوا هذه الحالة لم يغتروا، ويستمروا على ما هم عليه.

﴿أَفَهُمْ الْقَلِيلُونَ﴾ الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله؟ وبطاعتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم لقبض أرواحهم، أذعنوا، وذلوا، ولم يظهر منهم أدنى ممانعة؟

(٤٦، ٤٥) ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ولكن مسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَلِينَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، للناس كلهم: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ أي: إنما أنا رسول، لا آتيكم بشيء من عندي، ولا عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه الله لي، فإن استجبتم فقد استجبتم لله، وسيبئكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله.

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ أي: الأصم لا يسمع صوتًا، لأن سمعه قد فسد وتعطل، وشرط السماع مع الصوت، أن يوجد محل قابل لذلك، كذلك الوحي سبب لحياة القلوب والأرواح، وللفقه عن الله، ولكن إذا كان القلب غير قابل لسماع الهدى، كان بالنسبة للهدى والإيمان، بمنزلة الأصم، بالنسبة إلى الأصوات، فهؤلاء المشركون صم عن الهدى، فلا يستغرب عدم اهتدائهم، خصوصًا في هذه الحالة التي لم يأتهم العذاب، ولا مسَّهم ألمه.

فلو مسَّهم ﴿نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ أي: ولو جزء يسير، ولا يسير من عذابه.

﴿لَيَقُولُنَّ يَوَلِينَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي: لم يكن قولهم إلا الدعاء بالويل والثبور، والندم، والاعتراف بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم للعذاب.

(٤٧) ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِنْكُمُ الْحَبِيبُ مِنْ خَدَائِلِنَا إِنَّمَا يَنْهَاجُهَا وَكَفَى بِنَا حَسِيصِينَ﴾ يخبر تعالى عن حكمه العدل، وقضائه القسط بين عباده إذا جمعهم في يوم القيامة، وأنه يضع لهم الموازين

وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء، والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكراً، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً، وكونه ﴿مُبَارَكًا﴾ يقتضي كثرة خيراته^(١) ونمائها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية، أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكراً مباركاً وجب تلقيه بالقبول والانقياد، والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابلته بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحاً، وإنكاره، وعدم الإيمان به فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى، على من أنكره فقال: ﴿أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُكْرَبُونَ﴾.

(٥١-٧٣) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ إلى آخر هذه القصة، وهو قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ لما ذكر تعالى موسى ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم، وكتابتيهما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد، ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحدًا من العالمين غير محمد، وأضاف الرشد إليه، لكونه رشدًا بحسب حاله، وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان.

﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ أي: أعطيناه رشده، واختصنا به بالرسالة والخلة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة، لعلمنا أنه أهل لذلك، وكفاء له، لذكائه وذكائه، ولهذا ذكر محاجته لقومه، ونهيمهم عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة.

فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ﴾ التي مثلتموها ونحتتموها بأيديكم، على صور بعض المخلوقات ﴿الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَابِدُونَ﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك، فما هي؟ وأي فضيلة تثبت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفنيتم أوقاتكم بعبادتها؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتتموها بأيديكم، فهذا من أكبر العجائب، تعبدون ما تنحتون.

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز الذي ليس بيده أدنى

العادلة التي يبين فيها مثاقيل الذر، التي توزن بها الحسنات والسيئات.

﴿فَلَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ مَسْلَمَةً أَوْ كَافِرَةً﴾ شَيْئًا﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزداد في سيئاتها.

﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْفَعَالٍ حَبِئَةً مِنْ حَرْدَلٍ﴾ التي [هي] أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها، كقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾. وقالوا: ﴿يُوَلِّدُنَا مَا لَمْ يَكُنْ لَنَا كِتَابٌ إِلَّا غَيْرُ صَغِيرَةٍ وَلَا كَبِيرَةٍ إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾.

﴿وَلَقَدْ بِنَا حَسْبِي﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسبًا، أي: عالمًا بأعمال العباد، حافظًا لها، مثبتًا لها في الكتاب، عالمًا بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلًا للعمال جزاءها.

(٤٨-٥٠) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءَهُ وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿ وَهَذَا ذِكْرُ مُبَارَكِ أَرْزَلْتَهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُكْرَبُونَ﴾ كثيرًا ما يجمع تعالى، بين هذين الكتابين الجليلين، اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما، ولا أعظم ذكراً، ولا أبرك، ولا أعظم هدى وبيانًا، [وهما التوراة والقرآن]^(٢)، فأخبر أنه أتى موسى أصلاً، وهارون تبعًا ﴿الْفُرْقَانَ﴾ وهو التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأنها ﴿ضِيَاءٌ﴾ أي: نور يهتدي به المهتدون، ويأتهم به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبدع والغواية.

﴿وَذَكَرْنَا لِلْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر، وخص المتقين بالذكر، لأنهم المنتفعون بذلك، علماء وعملاً، ثم فسر المتقين فقال:

﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما أُلزم.

﴿وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا، من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد، وموصوف واحد.

﴿وَهَذَا﴾ أي: القرآن ﴿ذِكْرُ مُبَارَكِ أَرْزَلْتَهُ﴾ فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكراً يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء

(١) زيادة يقتضها السياق. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في النسخين خيره، وغيرت الكلمة لتتوافق مع الضمائر التي بعدها.

أسكرها على وجه الكيد ﴿بَعْدَ أَنْ تَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ عنها إلى عيد من أعيادهم، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا﴾ أي: كَسْرًا وَقَطْعًا، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرهما كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا هُمْ﴾ أي: إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سيبينه.

وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند الله لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: «إلى عظيم الفرس» «إلى عظيم الروم» ونحو ذلك، ولم يقل: «إلى العظيم».

وهنا قال تعالى: ﴿إِلَّا كَبِيرًا هُمْ﴾ ولم يقل: «كبيرًا من أصنامهم». فهذا ينبغي التنبيه^(٢) له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا؛ لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾.

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي ﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فرموا إبراهيم بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرهما ولم يدروا أن تكسيه لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَذُكُرُهُمْ﴾ أي: يعيهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرهما، أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها ﴿يَقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ﴾ أي: بإبراهيم ﴿عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ أي: بمرأى منهم ومسمع ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشاهدوا الحق وتقوم عليهم الحججة، كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾.

فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾ أي: التكسير ﴿بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾؟ وهذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

فقال إبراهيم والناس شاهدون: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أي: كسرهما غضبًا عليها، لما عبدت معه، وأراد أن تكون

شبهه، فقالوا: ﴿وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ كذلك يفعلون، فسلكتنا سبيلهم، وتبعناهم على عبادتها.

ومن المعلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل، ليس بحجة، ولا تجوز به القدوة، خصوصًا في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم - مضللًا للجميع: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ضلال بين واضح، وأي ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد؟ أي: فليس ما قلتم يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وهم^(١) في الضلال الواضح، البين لكل أحد.

﴿قَالُوا﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيهم، وتسفيه آباءهم - ﴿أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّائِيينَ﴾ أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلامك لنا كلام لاعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما رددوا الكلام بين الأمرين، لأنهم نزلوه منزلة المتقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفیه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم ردًا بين به وجه سفههم، وقلة عقولهم فقال:

﴿بَلْ زُكْرٌ رُبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّٰكِكِينَ﴾ فجمع لهم بين الدليل العقلي، والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسموات، والأرض، المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفظورًا مدبرًا مُتصرفًا فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله، أفيلق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقًا متصرفًا فيه، لا يملك نفعًا، ولا ضرًا، ولا موتًا، ولا حياة، ولا نشورًا، ويدع عبادة الخالق الرازق المدبر؟.

وأما الدليل السمعي، فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاء به معصوم لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلماذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: أن الله وحده المعبود، وأن عبادة ما سواه باطل ﴿مِنَ الشَّٰكِكِينَ﴾ وأي شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصًا أولي العزم منهم، خصوصًا خليل الرحمن.

ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها، وليكيد كيدًا يحصل به إقراهم بذلك فلماذا قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أي:

(١) في الأصل: وإياهم، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) في الأصل (التنبيه) ولعل الصواب ما أثبت.

العبادة منكم لصلصمكم الكبير وحده .

وهذا الكلام من إبراهيم، القصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿فَسْتَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾، وأراد: الأصنام المكسرة، أسألوها لم كسرت؟ والصلصم الذي لم يكسر، أسأله لأي شيء كسرها؟ إن كان عندهم نطق فسجيبونكم إلى ذلك، وأنا وأتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها ممن يريد بها بأذى .

﴿فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك ﴿فَقَالُوا إِنَّا كُنَّا نَسْتَدُ الظَّالِمُونَ﴾ فحصل بذلك المقصود، ولزمتهم الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم .

ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن ﴿كُتِبَ عَلَيْهِمْ عَنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: انقلب الأمر عليهم، وانكست عقولهم وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ فكيف تهكم بنا وتستهزئ بنا وتأمرا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟ .

فقال إبراهيم - موبخاً لهم ومعلنًا بشرتهم على رؤوس الأشهاد، ومبينًا عدم استحقاق آلهتهم للعبادة - : ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ فلا نفع ولا دفع .

﴿أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: ما أضلكم وأخسر صفقتكم! وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله! إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدتم العقل، وارتكبتم الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم أحسن حالاً منكم .

فحينئذ لما أفحمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، ﴿فَقَالُوا حَرْقُوهُ وَأَنْصُرُوا آلِهِتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ أي: اقلوه أشنع القتلات، بالإحراق، غضباً لآلهتكم، ونصرة لها، فتعسا لهم تعسا، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم، واتخذوه إلهًا،

فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار وقال لها: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبراهيم﴾ فكانت عليه بردًا وسلامًا، لم ينله فيها أذى، ولا أحس بمكروه .

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ حيث عزموا على إحراقه ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَخْسَرِينَ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليله وأتباعه هم الرابحين المفلحين .

﴿وَجَعَلْنَاهُ وِلْدَانًا﴾ وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط

سورة الأنبياء

٣٢٧

سورة الأنبياء

فَجَعَلْنَاهُمْ جُرَدًا إِلَّا أَكْبَرَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذِهِ بَاتِلَتْنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾

قَالُوا سَمِعْنَا فِي يَدِكُمْ يَوْمَ إِبراهيم﴾ قَالُوا فَأَتَيْنَاهُ

عَلَىٰ آعِينِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ

هَذِهِ بَاتِلَتْنَا يَوْمَ إِبراهيم﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ

هَذَا فَسْتَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٢﴾ فَرَجَعُوا إِلَىٰ

أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّا كُنَّا نَسْتَدُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ تَكْسَبُوا عَلَيَّ

رَبُّهُم لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ

أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا

يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِي لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا

تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرْقُوهُ وَأَنْصُرُوا آلَهُتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ فَلَمَّا بَيَّنَّا لَكُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبراهيم﴾

وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَجَعَلْنَاهُ

وِلْدَانًا إِلَىٰ الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا

لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكَلَّمْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

عليه السلام قيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله، وهاجر ﴿إلى الأرض التي بركنا فيها للعالمين﴾ أي: الشام، فغادر قومه في «بابل» من أرض العراق .

﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ومن بركة الشام، أن كثيرًا من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجرًا لخليله، وفيها أحد بيوته الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ حين اعتزل قومه ﴿إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ابن إسحاق ﴿نافلة﴾ بعدما كبر، وكانت زوجته عاقراً، فبشرته الملائكة بإسحاق .

﴿وَمَنْ وَرَاءَ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ويعقوب هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والآخرين .

﴿وَكَلَّمْنَا﴾ من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ أي: قائمين بحقوقه، وحقوق عبادته، ومن صلاحهم أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إمامًا يهتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون،

وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرون بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات، من حقوق الله وحقوق العباد.

﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾ هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن منكملهما كما أمر كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه.

﴿وَكَاوْنَا نَسَا﴾ أي: لا لغيرنا ﴿عَبِيدِينَ﴾ أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدنية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

(٧٤، ٧٥) ﴿وَلَوْطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ فَاسِقِينَ ۝ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس بالصواب والساد، وأن الله أرسله إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم لأنهم ﴿قَوْمٌ سَوَاءٌ فٰسِقِينَ﴾ كذبوا الداعي، وتوعدوه بالإخراج، ونجى الله لوطاً وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً، ليعبدوا عن القرية، فسروا ونجوا من فضل الله عليهم وميته.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا﴾ التي من دخلها كان من الآمنين من جميع المخاوف، الناقلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.

(٧٦، ٧٧) ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝ وَنَضَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوَاءٌ فَاعْرِضْهُمْ أجمعين﴾ أي: واذكر

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

٣٢٨

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ ﴿٧٦﴾ وَلَوْطًا ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَحْشَىٰ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوَاءٌ فَاسِقِينَ ﴿٧٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٤﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَضَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمٌ سَوَاءٌ فَاعْرِضْهُمْ أجمعين ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلَّ ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٨﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عٰلِمِينَ ﴿٨١﴾

عبدنا ورسولنا نوحاً عليه السلام، مثنياً مادحاً، حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويبيدي فيهم ويعيد، ويدعوهم سرّاً وجهاراً، وليلاً ونهاراً.

فلما رآهم لا ينجع فيهم الوعظ، ولا يفيد لديهم الزجر، نادى ربه وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝ إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يَفْسُقُوا عِبَادَكَ وَلَا يُدْرَأُونَ إِلَّا فٰجِرًا كَفَّارًا﴾ فاستجاب الله له، فأغرقهم، ولم يبق منهم أحداً، ونجى الله نوحاً وأهله ومن معه من المؤمنين في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، ونصره الله على قومه المستهزئين.

(٧٨-٨٢) ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ۝ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلَّ ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ۝ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ۝ وَسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عٰلِمِينَ ۝ وَمِنَ السَّيِّئِينَ مَن يُغْوِسُ لَهٗ وَيَعْمَلُتُ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حٰفِظِينَ﴾

إذابة له على النار .

ويحتمل أن تعليم الله له على جاري العادة، وأن إلانة الحديد له، بما علمه الله من الأسباب المعروفة الآن لإذابتها، وهذا هو الظاهر، لأن الله اثتنَّ بذلك على العباد وأمرهم بشكرها، ولولا أن صنعته من الأمور التي جعلها الله مقدورة للعباد، لم يمتن عليهم بذلك، ويذكر فائدتها، لأن الدروع التي صنع داود عليه السلام متعذر أن يكون المراد أعيانها، وإنما الميتة بالجنس، والاحتمال الذي ذكره المفسرون لا دليل عليه إلا قوله: ﴿وَأَنَّ لَهُ الْحَدِيدَ﴾ وليس فيه أن الإلانة من دون سبب، والله أعلم بذلك .

﴿وَسَلَيْمَنَ الرَّجَمِ﴾ أي: سخرناها ﴿عَاصِفَةً﴾ أي: سريعة في مرورها .

﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ حيث دُبِّرَتْ امتثلت أمره، غدوها شهر ورواحها شهر ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكَتْنَا فِيهَا﴾ وهي أرض الشام، حيث كان مقره، فيذهب على الريح شرقاً وغرباً، ويكون مأواها ورجوعها إلى الأرض المباركة، ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ قد أحاط علمنا بجميع الأشياء، وعلمنا من داود وسليمان، ما أوصلناهما به إلى ما ذكرنا .

﴿وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَغْوُصُّوكُمْ لَمْ يَعْمَلُوا عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ﴾ وهذا أيضاً من خصائص سليمان عليه السلام، أن الله سخر له الشياطين والعمارة، وسلطه على تسخيرهم في الأعمال التي لا يقدر على كثير منها غيرهم، فكان منهم من يغوص له في البحر، ويستخرج الدر، واللؤلؤ، وغير ذلك، ومنهم من يعمل له ﴿تَحْرِيْبَ وَتَمْثِيْلَ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ﴾ وسخر طائفة منهم لبناء بيت المقدس، ومات وهم على عمله، ويقوا بعده سنة، حتى علموا موته، كما سيأتي إن شاء الله تعالى .

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِيظِينَ﴾ أي: لا يقدرون على الامتناع منه وعصيانه، بل حفظهم الله له، بقوته وعزته وسلطانه .

(٨٤، ٨٣) ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ○ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمَثَلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَعَدْنَاهُ لَلْعَبِيدِينَ﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا أيوب - مثيلاً معظماً له، رافعاً لقدره - حين ابتلاه ببلاء شديد، فوجده صابراً راضياً عنه، وذلك أن الشيطان سلط على جسده، ابتلاء من الله وامتحاناً، فنفخ في جسده، ففترح قروحاً عظيمة ومكث مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات أهله، وذهب ماله، فنادى ربه: رب ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .

أي: واذكر هذين النبيين الكريمين «داود» و«سليمان» مثيلاً مبعلاً، إذ آتاهما الله العلم الواسع، والحكم بين العباد، بدليل قوله: ﴿إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْخُرُوبِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ﴾ أي: إذ تحاكم إليهما صاحب حرث، نفست فيه غم القوم الآخرين، أي: رعت ليلاً، فأكلت ما في أشجاره، ورعت زرعه، ففضى فيه داود عليه السلام، بأن الغنم تكون لصاحب الحرث، نظراً إلى تفریط أصحابها، فعاقبهم بهذه العقوبة .

وحكم فيها سليمان بحكم موافق للصواب، بأن أصحاب الغنم يدفعون غنمهم إلى صاحب الحرث فينتفع بدرّها وصوفها، ويقومون على بستان صاحب الحرث، حتى يعود إلى حاله الأولي، فإذا عاد إلى حاله، تراداً، ورجع كل منهما بماله، وكان هذا من كمال فهمه وفطنته عليه السلام، ولهذا قال:

﴿فَفَهَّمَهَا سَلِيمَنَّ﴾ أي: فهمناه هذه القضية، ولا يدل ذلك أن داود لم يفهمه الله في غيرها، ولهذا خصها بالذكر بدليل قوله: ﴿وَكَلَّمَ﴾ من داود وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وهذا دليل على أن الحاكم قد يصيب الحق والصواب وقد يخطئ ذلك، وليس بملوم إذا أخطأ مع بذل اجتهاده .

ثم ذكر ما خص به كلا منهما فقال: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾، وذلك أنه كان من أعبد الناس وأكثرهم لله ذكراً وتسيباً، وتمجيداً، وكان قد أعطاه [الله]، من حسن الصوت ورقته ورخامته، ما لم يؤته أحدًا من الخلق، فكان إذا سبح وأثنى على الله، جاوبته الجبال الصم، والطيور البهيم، وهذا فضل الله عليه وإحسانه فلماذا قال: ﴿وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ .

﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ أي: علم الله داود عليه السلام صنعة الدروع، فهو أول من صنعها وعلمها، وسرت صناعته إلى من بعده، فالأن الله له الحديد، وعلمه كيف يسردها والفائدة فيها كبيرة .

﴿لِيُخَصِّمَكُمُ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي: هي وقاية لكم، وحفظ عند الحرب واشتداد البأس .

﴿فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ نعمة الله عليكم، حيث أجزاها على يد عبده داود كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ سَرِيْلَ تَقِيْكُمُ الْحَرَّ وَسَرِيْلَ تَقِيْكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ .

ويحتمل أن تعليم الله لداود صنعة الدروع، وإلانتها أمر خارق للعادة، وأن يكون - كما قاله المفسرون - إن الله لأن له الحديد، حتى كان يعملها كالعجين والطين، من دون

فتوسل إلى الله بالإخبار عن حال نفسه - وأنه بلغ الضر منه كل مبلغ - وبرحمة ربه الواسعة العامة، فاستجاب الله له، وقال له:

﴿رَكَضَ بِرِكَكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَتَرَايُكَ﴾ فركض برجله، فخرجت من ركضته عين ماء باردة، فاغتسل منها وشرب، فأذهب الله ما به من الأذى.

﴿وَأَتَيْنَهُ أَهْلُهُ﴾ أي: رددنا عليه أهله وماله ﴿وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ﴾ بأن منحه الله - مع العافية - من الأهل والمال شيئاً كثيراً.

﴿رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا﴾ به، حيث صبر ورضي، فأثابه الله ثواباً عاجلاً قبل ثواب الآخرة، ﴿وَذَكَرَى لِلْعَبِيدِ﴾ أي: جعلناه عبداً للعبادين، الذين يتفنون بالعبر، فإذا رأوا ما أصابه من البلاء، ثم ما أثابه الله بعد زواله، ونظروا السبب، وجدوه الصبر، ولهذا أثنى الله عليه به في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدَ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ فجعلاه أسوة وقدوة عندما يصيهم الضر.

(٨٦، ٨٥) ﴿وَأَسْمِعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾ واذكرناهم في رحمتنا إنهم من الصالحين ﴿أي: واذكرناهم المصطفين، وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثنى عليهم أبلغ الثناء: إسماعيل بن إبراهيم، وإدريس، وذا الكفل، نبين من أنبياء بني إسرائيل﴾ ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، والصبر هو حبس النفس ومنعها، مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يستحق العبد اسم الصبر التام، حتى يوفي هذه الثلاثة حقها.

فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قد وصفهم الله بالصبر، فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضاً بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلوب بمعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان بأن يكون رطباً من ذكر الله، وصلاح الجوارح باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي، فبصبرهم وصلاحتهم أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والآجل، ولو لم يكن من ثوابهم إلا أن الله تعالى نوره بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

(٨٨، ٨٧) ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فاستجبنا لهم ونجيتهم من الغم وكذلك ننجي

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

٣٢٩

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَغْوُصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا

دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ

نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٧﴾

فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ

وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا عِنْدَنَا وَذَكَرَى لِلْعَبِيدِ ﴿٨٨﴾

وَأَسْمِعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ

﴿٨٥﴾ وَآذَخْنَاهُمُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ

﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ

فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي

كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ

مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَذَكَرْنَا

إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ

﴿٨٩﴾ فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ رِجْحًا وَأَصْلَحْنَا

لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

وَيَدْعُونَكَ أَرْعَابًا وَرُهْبَانًا وَكَانُوا لِلْأُنَاسِ شِعِينَ ﴿٩٠﴾

الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: واذكرناهم ورسولنا ذا النون وهو يونس، أي: صاحب النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل، والثناء الحسن، فإن الله تعالى أرسله إلى قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم بنزول العذاب بأمد سماه لهم.

[فجاءهم العذاب] ورأوه عياناً، فجعوا إلى الله،

وضجوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب كما قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤْتُونَ سَلًا ءَامَنُوا

كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾.

وقال: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِرُؤُوسِهِمْ قَائِمًا فَتَسْتَغِيثُمْ إِلَىٰ

حِينٍ﴾ وهذه الأمة العظيمة الذين آمنوا بدعوة يونس من أكبر

فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضباً، وأبق عن

ربه لذنب من الذنوب التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا

حاجة لنا إلى تعيينها [لقوله: ﴿إِذْ أَتَىٰ إِلَىٰ الْفُلْكِ . . . وَهُوَ

مُؤْمِنٌ﴾ أي: فاعل ما يلام عليه^(١)، والظاهر أن^(٢) عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في الأصل: أنه.

قرينه، فصار يحيى مشتركاً بين الوالدين .

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين، كُلاً على انفراد،
أثنى عليهم عموماً فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُدْعَوْنَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: يبادرون إليها
ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق
الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها، إلا انتهزوا
الفرصة فيها .

﴿وَيَدْعُونَكَ رَجَاءً وَرَهْبًا﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوب
فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعوذون بنا من الأمور
المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون لا
غافلون، لاهون ولا مدلون .

﴿وَكَانُوا لَنَا خُشِعِينَ﴾ أي: خاضعين متذللين
متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم ببرهم .

(٩١-٩٤) ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجْحًا فَفَخَّخْنَا فِيهَا مِنْ
رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ○ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ
أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون ○ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ
كُلَّ إِلَهَاتِنَا لِيَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ ○ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَلَا كُفْرَانَ لِسْمِيهِ وَإِنَّا لَكُم كَارِهُونَ﴾ أي: واذكر مرهم عليها
السلام، مثبثاً عليها ميثباً لقدرها، شاهراً لشرفها، فقال:
﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرَجْحًا﴾ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل
ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق وقتها
بالخدمة لربها .

وحين جاءها جبريل في صورة بشر سوي تام الخلق
والحسن ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ فجازاها
الله من جنس عملها، ورزقها ولداً من غير أب، بل نفخ فيها
جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله .

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ حيث حملت به،
ووضعته من دون مسيس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبرأها
مما ظن بها المتهمون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة،
وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم،
فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر
بها المعتبرون .

ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام، قال مخاطباً للناس:
﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ أي: هؤلاء الرسل
المذكورون، هم أمتكم وأمتكم الذين بهم تأتمون، ويهديهم
تقتدون، كلهم على دين واحد، وصرط واحد، والرب أيضاً
واحد .

ولهذا قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ الذي خلقتكم، وربيتكم

بذلك، وظن أن الله لا يقدر عليه، أي: يضيّق عليه في بطن
الحوت، أو ظن أنه سيفوت الله تعالى، ولا مانع من عروض
هذا الظن للكُمَل من الخلق على وجه لا يستقر، ولا يستمر
عليه، فركب في السفينة مع أناس، فاقترعوا، مَنْ يلقون منهم
في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصاب القرعة
يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فنادى
في تلك الظلمات: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ
الظَّالِمِينَ﴾ فأقر الله تعالى بكمال الألوهية، ونزّهه عن كل نقص
وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنابته، قال الله تعالى:
﴿فَلَوْلَا أَنْتُمْ كَانُوا مِنَ الْمَسْحُورِينَ ○ لَلَيْتَ فِي بَطْنِهِ إِذْ يَبْعُثُونَ﴾ .
ولهذا قال هنا: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُمُ وَخِشِينَاهُ مِنَ الْعَذَابِ﴾ أي:
الشدة التي وقع فيها .

﴿وَكَذَلِكَ نُنشِئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن
وقع في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه
ويخفف، لإيمانه كما فعل بـ«يونس» عليه السلام .

(٨٩، ٩٠) ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا
وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ○ فَأَسْتَجِبْنَا لَهُمُ وَوَهَبْنَا لَهُمُ يَحْيَى
وَأَصْلَحْنَا لَهُمُ زَوْجَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا يُدْعَوْنَ فِي الْخَيْرَاتِ
وَيَدْعُونَكَ رَجَاءً وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خُشِعِينَ﴾ أي: واذكر
عبدنا ورسولنا زكريا، منوهاً بذكره، ناشراً لمناقبه وفضائله
التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحته للخلق،
ورحمة الله إياه، وأنه ﴿نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أي:
﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَأَشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ
يَدْعَايَكَ رَبِّ شَيْئًا ○ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَثَتِي وَكَانَتِ
أَمْرًائِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ○ يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ أَالِ
بِعْقُوبٍ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ .

من هذه الآيات علمنا أن قوله: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ أنه
لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة
إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فرداً، ولا
يخلف من يشفعه ويعينه، على ما قام به .

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: خير الباقين، وخير من خلفني
بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكني أريد ما يطمئن به
قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازني ثوابه .

﴿فَأَسْتَجِبْنَا لَهُمُ وَوَهَبْنَا لَهُمُ يَحْيَى﴾ النبي الكريم الذي لم
يجعل الله له من قبل سميّاً .

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُمُ زَوْجَهُمْ﴾ بعدما كانت عاقراً، لا يصلح
رحمها للولادة فأصلح الله رحمها للحمل، لأجل نبيه زكريا،
وهذا من فوائد الجليس والقرين الصالح، أنه مبارك على

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

٣٣٠

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

وَالَّتِي أَحْصَيْتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا
 وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّ هَذِهِ
 أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٨﴾
 وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كَلَّ الْيَتَارِعُوتِ ﴿٩٩﴾
 فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿١٠٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ
 لَسَعِيهِمْ وَإِنَّا لَهُمْ كَاتِبُونَ ﴿١٠١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَى قَرَبِيِّ
 أَهْلِكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٠٢﴾ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ
 يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿١٠٣﴾
 وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ
 كَفَرُوا يُنْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي عَفْوَهِمْ هَذَا بَلَّ كُنَّا
 ظَلِيمِينَ ﴿١٠٤﴾ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿١٠٥﴾ لَوْ كَانَ
 هَؤُلَاءِ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٦﴾
 لَهُمْ فِيهَا زَوْجٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ
 سَبَقَتْ لَهُمْ مَتَا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُعْدُونٌ ﴿١٠٨﴾

شكبي إليه إفسادهم في الأرض.

وفي آخر الزمان يفتح السد عنهم، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف، الذي ذكره الله، من كل مكان مرتفع، وهو الحدب، ينسلون أي: يسرعون. وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما بدواتهم، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلمون عليهم في الدنيا، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم.

﴿وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ أي: يوم القيامة الذي وعد الله بإتيانه، ووعده حق وصدق، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاحصة، من شدة الأفزع والأهوال المزعجة، والقلقل المفضعة، وما كانوا يعرفون من جناباتهم وذنوبهم، وأنهم يدعون بالويل والثبور، والندم والحسرة على ما فات ويقولون:

لـ ﴿قَدْ كُنَّا فِي عَفْوَهِمْ مِنْ هَذَا﴾ اليوم العظيم، فلم نزل فيها مستغرقين، وفي لهو الدنيا متمتعين، حتى أتانا اليقين، ووردنا القيامة، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة،

بنعمتي، في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحداً، والني واحدًا، والدين واحدًا، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم، والواجب عليكم، القيام بها، ولهذا قال: ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء، ترتيب المسبب على سببه.

وكان اللائق الاجتماع على هذا الأمر، وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء، أبا إلا الافتراق والتقطع، ولهذا قال: ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لأتباع الأنبياء فرقا، وتشتتوا، كَلَّ يَدْعِي أَنْ الْحَقُّ مَعَهُ، والباطل مع الفريق الآخر، ﴿كَلَّ جَزِبَ يَمَّا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾.

وقد علم أن المصيب منهم، من كان سالكا للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتمنا بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كَلَّ﴾ من الفرق المتفرقة وغيرهم ﴿إِنَّا رَجِعُونَ﴾ أي: فنجازيهم أتم الجزاء.

ثم فصل جزاءه فيهم، منطوقا ومفهوما، فقال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ أي: الأعمال التي شرعتها الرسل، وحثت عليها الكتب ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ بالله وبرسله، وما جاؤوا به ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعِيهِ﴾ أي: لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافا كثيرة.

﴿وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي مع الحفظة. أي: ومن لم يعمل من الصالحات، أو عملها وهو ليس بمؤمن، فإنه محروم، خاسر في دينه ودنياه.

(٩٥) ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَى قَرَبِيِّ أَهْلِكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: يمتنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستردكوا ما فرطوا فيه، فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب. فليحذر المخاطبون أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم، فلا يمكن رفعه، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك.

(٩٧، ٩٨) ﴿حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْوِلُنَا قَدْ كُنَّا فِي عَفْوَهِمْ هَذَا بَلَّ كُنَّا ظَلِيمِينَ ﴿ هذا تحذير من الله للناس، أن يقيموا على الكفر والمعاصي، وأنه قد قرب افتتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سد عليهم ذو القرنين، لما

على الكافرين والعاصين فيفزع الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم، لعلمهم بما يقدمون عليه، وأن الله قد أمتهم مما يخافون ﴿وَنَلَقَهُمُ الْمَلٰٓئِكَةُ﴾ إذا بعثوا من قبورهم، وأتوا على النجائب وفدًا لنشورهم، مهتئين لهم قائلين: ﴿هٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فليهننكم ما وعدكم الله، وليعظم استبشاركم، بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فرحكم وسروركم، بما أمكنكم الله من المخاوف والمكاره.

(١٠٤، ١٠٥) ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۗ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا ۗ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ۝ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ يخبر تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظمها واتساعها - كما يطوي الكاتب للسجل أي: الورقة المكتوب فيها، تنتشر نجومها، ويكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أي: إعادتنا للخلق مثل ابتدائنا لخلقهم، فكما ابتدأنا خلقهم، ولم يكونوا شيئًا، كذلك نعيدهم بعد موتهم.

﴿وَعَدًا عَلَيْنَا ۗ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ نفذ ما وعدنا، لكمال قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ وهو الكتاب المزبور، والمراد: الكتب المنزلة، كالتوراة ونحوها ﴿مِنۢ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي: كتبناه في الكتب المنزلة، بعد ما كتبنا في الكتاب السابق، الذي هو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والمكتوب في ذلك: ﴿أَنَّ الْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة ﴿يَرْثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات، فهم الذين يورثهم الله الجنات، كقول أهل الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْثَقْنَا الْأَرْضَ نَبْرًا مِّنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾.

ويحتمل أن المراد: الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الآية.

(١٠٦-١١٢) ﴿إِنَّ فِي هٰذَا لَلْآيَاتِ لِقَوْمٍ عٰبِدِينَ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعٰلَمِينَ ۝ قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُهُ وَجِدُّهُ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَادَّبْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِن أَدْرَيْتْ أَقْرَبُ أَمْ يُعِيدُ مَا تُوعَدُونَ ۝ وَإِنِّي لَعَلَّمُ الْبَشَرَ مَا نَحْسَبُونَ ۝ وَإِن أَدْرَىٰ لَعَلَّمُهُ فَسَنَةَ لَكُمْ وَمَنْعَ إِلَيَّ جِبِينَ ۝ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمٰنُ

لماتوا ﴿بَلْ كُنَّا ظٰلِمِينَ﴾ اعترفوا بظلمهم، وعدل الله فيهم، فحيثما يؤمر بهم إلى النار، هم وما كانوا يعبدون، ولهذا قال:

(٩٨-١٠٣) ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ ۝ لَوْ كَانَتْ هٗنَالَهُ ءَالِهَةٌ مَّا رَدُّوهُآ وَكُلٌّ فِيهَا خٰلِدُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا زَوْجُرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَ الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَةً وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خٰلِدُونَ ۝ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقَ الْأَكْبَرُ ۗ وَنَلَقَهُمُ الْمَلٰٓئِكَةُ هٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي: إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: وقودها وحطبها ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾ وأصنامكم.

والحكمة في دخول الأصنام النار، وهي جماد لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم، فلماذا قال:

﴿لَوْ كَانَتْ هٗنَالَهُ ءَالِهَةٌ مَّا رَدُّوهُآ﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿لَئِن لَّهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِعَلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كٰذِبِينَ﴾ وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون، لا يخرجون منها، ولا يتنقلون عنها.

﴿لَهُمْ فِيهَا زَوْجُرٌ﴾ من شدة العذاب ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ صم بكم عمي، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها، لشدة غليانها واشتداد زفيرها وتغيظها.

ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عُبد وهوراض بعبادته.

وأما المسيح، وعزير، والملائكة ونحوهم، ممن عبد من الأولياء، فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَ الْحُسْنَىٰ﴾ أي: سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله، وفي اللوح المحفوظ، وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة.

﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا﴾ أي: عن النار ﴿مُبْعَدُونَ﴾ فلا يدخلونها، ولا يكونون قريبًا منها، بل يبعدون عنها غاية البعد، حتى لا يسمعوها حسيستها، ولا يروا شخصها.

﴿وَهُمْ فِي مَا أَشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خٰلِدُونَ﴾ من المآكل، والمشارب، والمناجح والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب.

﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَقَ الْأَكْبَرُ﴾ أي: لا يقلقهم إذا فرغ الناس أكبر فرغ، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار، تغيظ

الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٠٦﴾ يثني الله تعالى على كتابه العزيز «القرآن»، ويبين كفايته التامة عن كل شيء، وأنه لا يستغنى عنه فقال: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَلْبَلَاغَ لِقَوْمٍ عَصِيدٍ﴾ أي: يتبلغون به في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته، فيوصلهم إلى أجل المطالب، وأفضل الرغائب، وليس للعابدین الذين هم أشرف الخلق وراءه غاية، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم، بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبالإخبار بالغيوب الصادقة، وبال دعوة لحقائق الإيمان، وشواهد الإيقان، المبين للمأمورات كلها، والمنهيات جميعاً، المعرف بعيوب النفس والعمل، والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتحذير من طرق الشيطان، وبيان مداخلة على الإنسان. فمن لم يغنه القرآن فلا أغناه الله، ومن لا يكفيه فلا كفاه الله.

ثم أثنى على رسوله الذي جاء بالقرآن، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، فهو رحمته المهداة لعباده، فالمؤمنون به قبلوا هذه الرحمة، وشكروها، وقاموا بها، وغيرهم [كفروها]^(١)، وبدلوا نعمة الله كفرًا، وأبوا رحمة الله ونعمته.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيْكَ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما منَّ عليهم بهذه النعمة التي فاقت المنن.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم حلول المثلثات، ونزول العقوبة.

﴿فَقُلْ ءَأَذْنُكُمُ﴾ أي: أعلمتكم بالعقوبة ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: علمي وعلمكم بذلك مستو، فلا تقولوا: - إذا نزل بك المذاب - ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾. بل الآن، استوى علمي وعلمكم، لما أذنتكم وحذرتكم، وأعلمتكم بمآل الكفر، ولم أكنم عنكم شيئاً.

﴿وَإِن أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب، لأن علمه عند الله، وهو بيده، ليس لي من الأمر شيء.

﴿وَإِن أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنَعٌ إِلَيَّ حِينَ﴾ أي: لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم، وأن تتمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بيننا وبين القوم الكافرين، فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل

الآخرة، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة «بدر» وغيرها.

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: نسأل ربنا الرحمن، ونستعين به على ما تصفون من قولكم؛ سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم، فنحن في هذا لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته، وقد فعل، والله الحمد.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيْكَ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما منَّ عليهم بهذه النعمة التي فاقت المنن.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم حلول المثلثات، ونزول العقوبة.

﴿فَقُلْ ءَأَذْنُكُمُ﴾ أي: أعلمتكم بالعقوبة ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: علمي وعلمكم بذلك مستو، فلا تقولوا: - إذا نزل بك المذاب - ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾. بل الآن، استوى علمي وعلمكم، لما أذنتكم وحذرتكم، وأعلمتكم بمآل الكفر، ولم أكنم عنكم شيئاً.

﴿وَإِن أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب، لأن علمه عند الله، وهو بيده، ليس لي من الأمر شيء.

﴿وَإِن أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنَعٌ إِلَيَّ حِينَ﴾ أي: لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم، وأن تتمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بيننا وبين القوم الكافرين، فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل

الآخرة، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة «بدر» وغيرها.

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ أي: نسأل ربنا الرحمن، ونستعين به على ما تصفون من قولكم؛ سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم، فنحن في هذا لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته، وقد فعل، والله الحمد.

﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيْكَ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما منَّ عليهم بهذه النعمة التي فاقت المنن.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم حلول المثلثات، ونزول العقوبة.

﴿فَقُلْ ءَأَذْنُكُمُ﴾ أي: أعلمتكم بالعقوبة ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي: علمي وعلمكم بذلك مستو، فلا تقولوا: - إذا نزل بك المذاب - ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾. بل الآن، استوى علمي وعلمكم، لما أذنتكم وحذرتكم، وأعلمتكم بمآل الكفر، ولم أكنم عنكم شيئاً.

﴿وَإِن أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ﴾ أي: من العذاب، لأن علمه عند الله، وهو بيده، ليس لي من الأمر شيء.

﴿وَإِن أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَنَعٌ إِلَيَّ حِينَ﴾ أي: لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم، وأن تتمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بيننا وبين القوم الكافرين، فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل

(١) في الأصل (كفروها) ولعل الصواب ما أثبت.

تفسير سورة الحج

قيل مكية، وقيل: مدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠١) ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ يخاطب الله الناس كافة، بأن يتقوا ربهم الذي رباهم بالنعمة الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه، بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمثلوا أمره مهما استطاعوا.

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى، ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأحوال القيامة، فقال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض وارتجت، وزلزلت زلزالها، وتصدعت الجبال واندكت، وكانت كثيبًا مهيلاً، ثم كانت هباء منبثًا، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج.

فهاك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتثر النجوم، ويكون من القلائق والبلابل ما تنصدع له القلوب، وتجل منه الأفئدة، وتشيب منه الولدان، وتدوب له الصم الصلاب، ولهذا قال:

﴿يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصًا في هذه الحال، التي لا يعيش إلا بها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا﴾ من شدة الفزع والهول.

﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ﴾ أي: تحسبهم - أيها الرائي لهم - سكارى من الخمر، وليسوا سكارى ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾: فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملأها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، وفي ذلك اليوم لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا. ويومئذ ﴿يَعْرِى الْأَرْضَ مِنَ الْأُبُيِّ ۝ وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَجِيئِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ أُمَّرِيٍّ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُنَبِّئُهُ﴾^(١).

وهناك ﴿يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَتَوَلَّىٰ لَيْتَنِي لَوْ اتَّخَذْتُ حَالِيًّا﴾ وتسود حينئذ وجوه وتبيض وجوه. وتنصب الموازين التي يوزن بها مناقيل الدر، من الخير والشر، وتشر صحائف الأعمال، وما فيها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣٢

يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرْوُنَهَا تَدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَآتَهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَا كُرْسِيًّا مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُّخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُؤَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدِّدُ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ رَوْحٍ بِهِيجٌ ﴿٥﴾

من جميع الأعمال والأقوال والنيات، من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم، وتزلف الجنة للمتقين، وبرزت الجحيم للغاوين ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَبَعُوا لَهَا تَعْطَفًا وَكُفْرًا ۝ وَإِذَا الْأَنْفُسُ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّبِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ ويقال لهم: ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ وإذا نادوا ربهم، ليخرجهم منها، قال: ﴿أَنْخَسُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾ قد غضب عليهم الرب الرحيم، وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يفقدوا منها نقيراً ولا قطميراً.

هذا، والمتقون في روضات الجنات يجبرون، وفي أنواع اللذات يتفكحون، وفيما اشتهدت أنفسهم خالدون.

فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه، أن يُعَدَّ له عُدَّتَهُ، وأن لا يلهيه الأمل، فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دناره، ومحبة الله وذكره، روح أعماله.

(٤، ٣) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ﴾ (١) صار في هذه الآيات خطأ وتداخل بين آيات سورة المعارج وآيات سورة عبس، فأثبت آيات سورة عبس.

﴿لَيْسَ لَكُمْ﴾ أصل نشأتكم، مع قدرته تعالى على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن ليبين لنا كمال حكمته، وعظيم قدرته، وسعة رحمته.

﴿وَقَفَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَأَ إِلَيْكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي: ونقر أي: نبي في الأرحام من الحمل، الذي لم تقذفه الأرحام، ما نشأ إبقاءً إلى أجل مسمى، وهو مدة الحمل.

﴿ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طِفْلاً﴾ لا تعلمون شيئاً، وليس لكم قدرة. وسخرنا لكم الأمهات، وأجرنا لكم في ثديها الرزق، ثم تنتقلون طوراً بعد طور، حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُوَفِّقُ﴾ من قبل أن يبلغ سن الأشد، ومنكم من يتجاوزه فيرد إلى أرذل العمر، أي: أخسه وأرذله، وهو سن الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحل، كما زالت باقي القوة، وضعت.

﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي: لأجل أن لا يعلم هذا المعمر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف عقله. ففوة الآدمي محفوفة بضعفين: ضعف الطفولية ونقصها، وضعف الهرم ونقصه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾.

والدليل الثاني، إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ أي: خاشعة مغبرة لا نبات فيها، ولا خضر.

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ أي: ارتفعت بعد خشوعها وذلك لزيادة نباتها، ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: صنف من أصناف النبات ﴿بِهَيْجٍ﴾ أي: يبهج الناظرين، ويسر المتأملين، فهذان الدليلان القاطعان يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي أنشأ الآدمي من ما وصف لكم، وأحيا الأرض بعد موتها ﴿يَا أَيُّهَا اللَّهُ هُوَ الْمُنْقُذُ﴾ أي: الرب المعبود، الذي لا تبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة.

﴿وَأَنْتَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ كما ابتدأ الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما أشهدكم من بديع قدرته، وعظيم صنعته، ما أشهدكم.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ فلا وجه لاستبعادها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ فيجازيكم بأعمالكم حسننها وسيئها.

﴿كَيْبَ عَلَيْهِ أَنْتُمْ مِنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي: ومن الناس طائفة وفرقة، سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق، يريدون إحقاق الباطل، وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل، ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم، تقليد أئمة الضلال من كل شيطان مرید، متمرد على الله وعلى رسله، معاند لهم، قد شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين يدعون إلى النار.

﴿كَيْبَ عَلَيْهِ﴾ أي: قدر على هذا الشيطان المرید ﴿أَنْتُمْ مِنْ تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه ﴿فَأِنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ عن الحق، ويجنبه الصراط المستقيم ﴿وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾. وهذا نائب إبليس حقاً، فإن الله قال عنه: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَحْبَابِ السَّعِيرِ﴾.

فهذا الذي يجادل في الله، قد جمع بين ضلاله بنفسه، وتصديه إلى إضلال الناس، وهو متبع، ومقلد لكل شيطان مرید، ظلّمات بعضها فوق بعض، ويدخل في هذا جمهور أهل الكفر والبدع، فإن أكثرهم مقلدة، يجادلون بغير علم.

(٥-٧) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْتِ فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَيْسَ لَكُمْ وَفِيهِ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَأَ إِلَيْكَ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُوَفِّقُ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرْذِلُ إِلَيْكَ أُرْذُلَ الْعَمْرُ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتُمْ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنْتُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَيْتِ﴾ أي: شك واشتباه، وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم، وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب، فهاكم دليلين عقليين تشهدونهما، كل واحد منهما يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب.

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سعيده، فقال فيه: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام. ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي: مني، وهذا ابتداء أول التخليق ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ أي: تنقلب تلك النطفة بإذن الله دماً أحمر ﴿ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ﴾ أي: ينتقل الدم مضغاً، أي: قطعة لحم، بقدر ما يبيض. وتلك المضغة تارة تكون ﴿مُخَلَّقَةً﴾ أي: مصور منها خلق الآدمي ﴿وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ تارة، بأن تقذفه الأرحام قبل تخليقها.

(٩، ٨) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ۖ ثَانِي عَظِيمِهِ ۖ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المرید، الداعي إلى البدع، فأخبر أنه ﴿مُجَادِلٌ فِي اللَّهِ﴾ أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ صحيح ﴿وَلَا هُدًى﴾ أي: غير متبع في جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد ﴿وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ﴾ أي: واضح بين، أي: فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات، يوحيا إليه الشيطان ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِكُفْرًا كَذِبًا أُولِيَاءَهُمْ لِيَجِدُوا لَهُمْ سُبُلًا﴾.

ومع هذا ﴿ثَانِي عَظِيمِهِ﴾ أي: لأوَي جانبه وعقته، وهذا كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق. فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق، وما معهم من الحق، ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس أي: ليكون من دعاة الضلال، ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال.

ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال: ﴿لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ أي: يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من آيات الله العجيبة، فإنك لا تجد داعيًا من دعاة الكفر والضلال، إلا وله من المقت بين العالمين، واللعة، والبغض، والدم، ما هو حقيق به، وكلٌّ بحسب حاله.

﴿وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: نذيقه حرًّاها الشديد، وسعيرها البليغ، وذلك بما قدمت يداها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾.

(١١-١٣) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْعُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ۖ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَبْعَهُ ۚ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ۖ يَدْعُوا لَمَن ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ۚ أَيُّهَا النَّاسُ مَن هُوَ ضَعِيفُ الْإِيمَانِ، لَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ، وَلَمْ تَخَالَطْهُ بِشَاشَتِهِ، بَلْ دَخَلَ فِيهِ، إِمَا خَوْفًا، وَإِمَا عَادَةً عَلَىٰ وَجْهِهِ لَا يَثْبُتُ عِنْدَ الْمُحَنِّ.

﴿فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ﴾ أي: إن استمر رزقه رغدًا، ولم يحصل له من المكاراه شيء، اطمأن بذلك الخير، لا بإيمانه. فهذا، ربما أن الله يعاقبه، ولا يقبض له من الفتن، ما ينصرف به عن دينه.

﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ من حصول مكروه، أو زوال محبوب ﴿انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ﴾ أي: ارتد عن دينه.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴿٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ﴿٨﴾ ثَانِي عَظِيمِهِ ۖ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَمَّا فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَبْعُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَبْعَهُ ۚ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا لَمَن ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ ۚ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّنْ يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ۖ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾

﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ أما في الدنيا، فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذي جعل الردة رأسًا لماله، وعضوًا عما يظن إدراكه فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له.

وأما الآخرة، فظاهر، حرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي: الواضح البين.

﴿يَدْعُوا﴾ هذا الراجع على وجهه ﴿مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نَبْعَهُ﴾ وهذا صفة كل مدعو ومعبود من دون الله، فإنه لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا.

﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ الذي قد بلغ في البعد إلى حد النهاية، حيث أعرض عن عبادة النافع الضار، الغني المغني، وأقبل على عبادة مخلوق مثله أو دونه، ليس بيده من الأمر شيء، بل هو إلى حصول ضد مقصوده أقرب، ولهذا قال:

﴿يَدْعُوا لَمَن ضُرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ﴾ فإن ضرره في العقل والبدن، والدنيا والآخرة، معلوم ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ أي: هذا المعبود ﴿لَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ أي: القرين الملازم على صحبته، فإن المقصود من المولى والعشير، حصول النفع، ودفع

الضرر، فإذا لم يحصل شيء من هذا، فإنه مذموم ملوم.

(١٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حَنَّتِ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ لما ذكر تعالى
المجادل بالباطل، وأنه على قسمين: مقلد، وداع، ذكر أن
المسمى بالإيمان أيضًا على قسمين: قسم لم يدخل الإيمان
قلبه كما تقدم. والقسم الثاني: المؤمن حقيقة، صدق ما معه
من الإيمان بالأعمال الصالحة، فأخبر تعالى أنه ^(١) يدخلهم
جنات تجري من تحتها الأنهار. وسميت الجنة جنة،
لاشتمالها على المنازل والقصور والأشجار والنوابت التي
تُجَنُّ من فيها، ويستتر بها من كثرتها.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فما أَرَادَهُ تعالى فعله من غير ممانع
ولا معارض، ومن ذلك إيصال أهل الجنة إليها، جعلنا الله
منهم بمنه وكرمه.

(١٥) ﴿مَنْ كَانَتْ يَدُهُ عُزًا أَوْ لَمْ يَصِرْهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ
يَسَبَّ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾
أي: من كان يظن أن الله لا ينصر رسوله، وأن دينه
سيضمحل، فإن النصر من الله ينزل من السماء ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾
ذلك الظان ﴿يَسَبَّ﴾ أي: جمل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ وليرقى إليها
﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ النصر النازل عليه من السماء ^(٢).

﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدُهُ﴾ أي: ما يكيد به الرسول،
ويعمله من محاربتة، والحرص على إبطال دينه، ما يغيظه من
ظهور دينه، وهذا استفهام بمعنى النفي، [وأنه] لا يقدر على
شقاء غيظه، بما يعمله من الأسباب.

ومعنى هذه الآية الكريمة: يا أيها المعادي للرسول محمد
ﷺ، الساعي في إطفاء دينه الذي يظن بجعله، أن سعيه سيفيده
شيئًا، اعلم أنك مهما فعلت من الأسباب، وسعيت في كيد
الرسول، فإن ذلك لا يذهب غيظك، ولا يشفي كمدك، فليس
لك قدرة في ذلك، ولكن سنشير عليك برأيي، تتمكن به من
شقاء غيظك، ومن قطع النصر عن الرسول - إن كان ممكنًا -
اثت الأمر مع بابه، وارتق إليه بأسبابه، اعمد إلى جبل من
ليف أو غيره، ثم علقه في السماء، ثم اصعد به، حتى تصل
إلى الأبواب التي ينزل منها النصر، فسدها، وأغلقها،
واقطعها، فبهذه الحال تشفي غيظك. فهذا هو الرأي
والمكيدة، وأما ما سوى هذه الحال فلا يخطر ببالك أنك
تشفي بها غيظك ولو ساعدك من ساعدك من الخلق.

وهذه الآية الكريمة، فيها من الوعد والبشارة بنصر الله
لدينه، ولرسوله، وعباده المؤمنين ما لا يخفى، ومن تأيسس
الكافرين، الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، والله

الْحَجُّ الْمَكْرُمُ

٣٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ

(١٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصْرِيَّ

وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ

يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدُّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ

وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ

إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَذَا خِطَبَانِ أَخْضَمُوا

فِي رِيحٍ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قَطَعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ

مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ

وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَهُمْ مَقْتَمِعٌ مِنْ حديدٍ ﴿٢١﴾ كَلِمًا أَرَادُوا

أَنْ يُخْرِجُوا مِنْهَا مَنْ عَمِرَ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ

﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

حَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحْكَمُونَ فِيهَا مِنْ

أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾

تم نوره ولو كره الكافرون، أي: وسعوا مهما أمكنهم.

(١٦) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾

أي: وكذلك لما فصلنا في هذا القرآن ما فصلنا، جعلنا آيات
بينات واضحات دلالات على جميع المطالب والمسائل
النافعة، ولكن الهداية بيد الله، فمن أراد الله هدايته، اهتدى
بهذا القرآن، وجعله إمامًا له وقدره، واستضاء بنوره، ومن لم
يرد الله هدايته، فلو جاءته كل آية ما آمن، ولم ينفعه القرآن
شيئًا، بل يكون حجة عليه.

(١٧-٢٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصْرِيَّ

وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ

اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ○ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ

وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدُّوَابُّ

وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ

مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ○ هَذَا خِطَبَانِ أَخْضَمُوا فِي

رِيحٍ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ يخبر تعالى عن

(١) في النسختين: أنهم. (٢) في هامش ب (فليمدد بسبب إلى السماء ثم
ليقطع) النصر عن الرسول.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٥﴾
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ
 الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ
 وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَاكِدِ يُغْلِبْ نُذُقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾
 وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي
 شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ
 السُّجُودِ ﴿٢٧﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا أُولِي الْأَرْحَامِ
 كُلِّ صَاغِرِ يُأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٨﴾ لِيَشْهَدُوا
 مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ
 عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكُونُوا مِنْهَا
 وَالْأَنْعَامِ الْبَاسِ الْفَقِيرِ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ لَيَقْبَسُوا نَفْسَهُمْ وَلِيُوفُوا
 نَذْرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٠﴾ ذَلِكَ وَمَنْ
 يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلَّتْ
 لَكُمْ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا بَتَلْنَا عَلَيْكُمْ فَأَجْتَنِبُوا
 الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣١﴾

هَدَيْنَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ .

واعترض تعالى بين هذه الآيات، بذكر سجود المخلوقات له، جميع من في السماوات والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، الذي يشمل الحيوانات كلها، وكثير من الناس، وهم المؤمنون .

﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي: وجب وكتب، لكفره وعدم إيمانه، فلم يوفقه الله للإيمان، لأن الله أهانه .

﴿وَمَنْ يُهِنَ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ ولا راد لما أراد، ولا معارض لمشيئته، فإذا كانت المخلوقات كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته، مستكينه لعزته، عانية لسلطانه، دل على أنه وحده الرب المعبود، والملك المحمود، وأن من عدل عنه إلى عبادة سواه، فقد ضل ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيحاً .

(٢٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَاكِدِ يُغْلِبْ نُذُقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربه، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله، وبين الصد عن سبيل الله، ومنع الناس من الإيمان،

طوائف أهل الأرض، من الذين أوتوا الكتاب، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، ومن المجوس، ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم بأعمالهم، التي حفظها وكتبها، وشهداها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ .

ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله: ﴿هَذَانِ حَصَمَانِ أَخْصَمُوا فِي رَيْبِهِمْ﴾ كل يدعي أنه المحق .

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يشمل كل كافر، من اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، والمشركين . ﴿فَقَطَعَتْ لَهُمْ شِيَابٌ مِنْ نَارٍ﴾ أي: يجعل لهم ثياب من قطران، وتشعل فيها النار، ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ الماء الحار جداً، يصهر به ما في بطونهم من اللحم والشحم والأمعاء، من شدة حره، وعظيم أمره .

﴿وَكَمْ مَقْتَبِعٍ مِنَ حَيْدٍ﴾ بيد الملائكة الغلاظ الشداد، تضربهم فيها وتقمعهم .

﴿كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فلا يُفْتَرُّ عنهم العذاب، ولا هم ينظرون، ويقال لهم توبيخاً: ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أي: المحرق للقلوب والأبدان .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ حَتَّىٰ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾، ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب، وجميع الرسل .

﴿يَحْمِلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي: يُسَوِّرُونَ فِي أَيْدِيهِمْ، رجالهم ونساؤهم أساور الذهب .

﴿وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ فتم نعيمهم بذكر أنواع المأكولات اللذيذات المشتمل عليها، لفظ الجنات، وذكر الأنهار السارحات، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وأنواع اللباس، والحلي الفاخر، وذلك بسبب أنهم ﴿هُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ الذي أفضله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة، التي فيها ذكر الله، أو إحسان إلى عباد الله .

﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي: الصراط المحمود . وذلك، لأن جميع الشرع كله محتو على الحكمة والحمد، وحسن الأمور به، وقبح المنهي عنه، وهو الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح . أو: هُدوا إلى صراط الله الحميد، لأن الله كثيراً ما يضيف الصراط إليه، لأنه يوصل صاحبه إلى الله .

وفي ذكر ﴿الْحَمِيدِ﴾ هنا، ليعين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم ومته عليهم، ولهذا يقولون في الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

المساجد.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي: أعلمهم به، وادعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم، فرضه وفضيلته، فإنك إذا دعوتهم، أتوك حجاجًا وعمارًا، رجالًا، أي: مشاة على أرجلهم من الشوق.

﴿وَعَلَىٰ كُلِّ صَبَّامٍ﴾ أي: ناقة ضامر، تقطع المهامه والمفاوز. وتواصل السير، حتى تأتي إلى أشرف الأماكن.

﴿مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ﴾ أي: من كل بلد بعيد، وقد فعل الخليل عليه السلام، ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبديا في ذلك وأعادا، وقد حصل ما وعد الله به، أتاه الناس رجالًا وركبانًا من مشارق الأرض ومغاربها، ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام، مرغبا فيه فقال:

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ أي: لينالوا بيت الله منافع دينية، من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية، من التكسب، وحصول الأرباح الدنيوية، وكل هذا أمر مشاهد كل يعرفه.

﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية أي: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا، شكرًا لله على ما رزقهم منها، ويسرها لهم، فإذا ذبحتموها ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ أي: شديد الفقر.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ أي: يقضوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى، الذي لحقهم في حال الإحرام. ﴿وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ التي أوجبها على أنفسهم، من الحج، والعمرة والهدايا.

﴿وَلِيَسْطُوفُوا بِآيَاتِ الْعَزِيزِ﴾ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق. المعتقد من تسلط الجبارة عليه. وهذا أمر بالطواف، خصوصًا بعد الأمر بالمناسك عمومًا لفضله وشرفه، ولكونه المقصود، وما قبله وسائل إليه.

ولعله - والله أعلم أيضًا - لفائدة أخرى، وهو أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعًا لنسك، أم مستقلًا بنفسه.

(٣١، ٣٠) ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعِظْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ حَيْرٌ لَّهُمْ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَجَلْتُ لَكُمْ الْأَنْهَامَ إِلَّا مَا يَتَلَطَّفُ عَلَيْكُمْ فَأَجْتَكِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْلَيْنِ وَاجْتَكِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُنْزِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ السَّمَاءَ فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ أَوْ

(١) كذا في ب، وفي أ: ظنهم.

والصد أيضًا عن المسجد الحرام الذي ليس ملكًا لهم ولا لأبائهم، بل الناس فيه سواء، المقيم فيه، والطارئ إليه. بل صدوا عنه أفضل الخلق محمدًا وأصحابه، والحال أن هذا المسجد الحرام، من حرمة واحترامه وعظمته، أن من يرد فيه بالحاد يظلم، ندقه من عذاب أليم.

فمجرد إرادة الظلم والإلحاد في الحرم موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم، فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم، من الكفر والشرك، والصد عن سبيله ومنع من يريده بزيارة، فما ظنكم^(١) أن يفعل الله بهم؟! وفي هذه الآية الكريمة وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه، وفعلها.

(٢٦-٢٩) ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾
﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تَوَكَّلْ بِحِجَالِكَ وَعَلَىٰ كُلِّ صَبَّامٍ يَأْتِيكَ مِنْ كُلِّ فِجٍّ عَمِيقٍ﴾
﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾
﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَسْطُوفُوا بِآيَاتِ الْعَزِيزِ﴾ يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمة بانيه وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ﴾ أي: هيأناه له، وأنزلناه إياه، وجعل قسمًا من ذريته من سكانه، وأمره الله ببنائه، فبناه على تقوى الله، وأسس على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره أن لا يشرك به شيئًا، بأن يخلص لله أعماله، وبينه على اسم الله.

﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس. وأضافه الرحمن إلى نفسه، لشرفه، وفضله، ولتعظيم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأئمة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب للطائفين به والعاكفين عنده، المقيمين لعبادة من العبادات من ذكر، وقراءة، وتعلم علم وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب.

﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي: المصلين، أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته، والتقرب إليه عند بيته، فهؤلاء لهم الحق ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم، ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية والمرتفعة التي تشوش على المتعبدين بالصلاة والطواف، وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة، لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجنس

تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ ﴿٣٢﴾. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا لكم من تلکم الأحكام، وما فيها من تعظيم حرمت الله وإجلالها، وتكريمها، لأن تعظيم حرمت الله من الأمور المحبوبة لله، المقربة إليه، التي من عظمها وأجلها، أثابه الله ثوابًا جزيلاً، وكانت خيراً له في دينه ودنياه وأخراه عند ربه .

وحرمت الله: كل ماله حرمة، وأمر باحترامه، وعبادة أو غيرها، كالمناسك كلها، وكالحرم والإحرام، وكالهدايا، وكالعبادات التي أمر الله العباد بالقيام بها. فتعظيمها وإجلالها بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون، ولا متكاسل، ولا متناقل، ثم ذكر منته وإحسانه، بما أحله لعباده من بهيمة الأنعام، من إبل وبقرة وغنم، وشرعها من جملة المناسك التي يتقرب بها إليه، فعظمت منته فيها من الوجهين .

﴿إِلَّا مَا بَيْنَكَ عَلَيْهِمْ﴾ في القرآن تحريمه من قوله: ﴿حَرَمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَتَهُ وَالْدَّمَ وَلَقَدْ لَخِزِيرٍ﴾ الآية . ولكن الذي من رحمته بعباده، أن حرمه عليهم، ومنعهم منه، تزكية لهم، وتطهيراً من الشرك به، وقول الزور، ولهذا قال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾ أي: الخبث القدر ﴿مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ أي: الأنداد، التي جعلتموها آلهة مع الله، فإنها أكبر أنواع الرجس .

والظاهر أن ﴿مِنَ﴾ هنا ليست لبيان الجنس، كما قاله كثير من المفسرين، وإنما هي للتبعض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون منهياً عنها عموماً، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصاً .

﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ أي: جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور الذي هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور. فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور، أمرهم أن يكونوا ﴿حُقَقَاءَ لِلَّهِ﴾ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه .

﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ فمثلته ﴿فَكُنَّا حَرَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: سقط منها ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾ بسرعة ﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ أي: بعيد، كذلك المشرك، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة .

ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبلبات، فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه .

(٣٣، ٣٢) ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ لَكُرِّ فِيهَا مَنَعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ جِئَهَا إِلَى الْبَيْتِ

الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ أي: ذلك الذي ذكرنا لكم، من تعظيم حرماته وشعائره، والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْفَا وَالتَّمْرَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ ومنها الهدايا والقربان للبيت .

وتقدم أن معنى تعظيمها، إجلالها، والقيام بها، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها الهدايا، فتعظيمها، باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكملة من كل وجه، فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالمعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه، لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله .

﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: [في] الهدايا ﴿مَنَعُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا في الهدايا المسوقة، من البدن ونحوها، يتنفع بها أربابها، بالركوب، والحلب ونحو ذلك، مما لا يضرها ﴿إِلَّا أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مقدر موقت، وهو ذبحها، إذا وصلت محلها وهو البيت العتيق أي: الحرم كله «منى» وغيرها، فإذا ذبحت، أكلوا منها وأهدوا، وأطعموا البائس الفقير .

(٣٥، ٣٤) ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّتَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهَا كَالْبَهيمَةِ وَالْبَهيمَةِ وَالْمُخَيَّطِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُم وَالْمُقْسِمِينَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ أي: ولكل أمة من الأمم السالفة جعلنا منسكاً، أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولنظر أيكم أحسن عملاً، والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكاً، لإقامة ذكره، والالتفات لشكره، ولهذا قال:

﴿لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهَا كَالْبَهيمَةِ وَجِدُّ﴾، وإن اختلفت أجناس الشرائع، فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو ألوهية الله، وإفراده بالعبودية، وترك الشرك به، ولهذا قال: ﴿فَلَهُ سُلْطَانٌ﴾ أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيره، فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام

﴿وَبَشِّرِ الْمُخَيَّطِينَ﴾ بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده .

ثم ذكر صفات المخبتين فقال: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّت قُلُوبُهُمْ﴾ أي: خوفاً وتعظيماً، فتركوا لذلك المحرمات، لخوفهم ووجلهم من الله وحده .

﴿وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ من البأساء والضراء، وأنواع الأذى فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربهم، محتسبين ثوابه، مرتقين أجره. ﴿وَالْمُقْسِمِينَ الصَّلَاةَ﴾ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة، بأن أدوا

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ
 حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ. وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ
 السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣٦﴾
 ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْبَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٧﴾
 لَكَرْ فِيهَا مَنْفَعٌ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحَاهُ إِلَى الْبَيْتِ
 الْعَتِيقِ ﴿٣٨﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ
 اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ لِأَنْعَمَ فَإِنَّهَا لِلَّهِ وَمِجْدُ
 فَهَذَا أَسْلَمُوا وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرُوا اللَّهَ وَجِلَّتْ
 قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا
 رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٤٠﴾ وَالْبَدَنُ جَعَلْنَاهَا لَكَرٍ مِنْ شَعْبِ
 اللَّهِ لَكَرٍ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِئْتَ
 جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا
 لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤١﴾ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا
 وَلَكِنْ بِنَالِ اللَّهِ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا
 اللَّهُ عَلَى مَا هَدَنَكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٢﴾ إِنَّ اللَّهَ
 يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٤٣﴾

والاحساب، والنية الصالحة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ بِنَالِهِ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾.

ففي هذا حثٌّ وترغيب على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده، لا فخراً ولا رياءً ولا سمعةً، ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات، إن لم يقترب بها الإخلاص وتقوى الله، كان [كالقشر] (١) الذي لا لبَّ فيه، والجسد، الذي لا روح فيه.

﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي: تعظموه وتجلوه ﴿عَلَى مَا هَدَنَكُمْ﴾ أي: مقابلة لهديته إليكم، فإنه يستحق أكمل الشاء وأجل الحمد، وأعلى التعظيم.

﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ عبادة الله بأن يعبدوا الله، كأنهم يرونه، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة، فليعبدوه معتقدين وقت عبادتهم اطلاعاً عليهم، ورؤيته إليهم. والمحسنيين لعباد الله بجميع وجوه الإحسان من نفع مال، أو علم، أو جاه، أو نصح، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو كلمة طيبة ونحو ذلك.

(١) في الأصل (كالقشور) ولعل الصواب ما أثبت.

اللازم فيها والمستحب، وعبوديتها الظاهرة والباطنة. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة، كالزكاة، والكفارة، والنفقة على الزوجات والمماليك، والأقارب. والنفقات المستحبة، كالصدقات بجميع وجوهها.

وأتى بـ ﴿مِنْ﴾ المفيدة للتبعض، ليعلم سهولة ما أمر الله به، ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له، ورزقه إياه. فيا أيها المرزوق من فضل الله، أنفق مما رزقك الله بنفق الله عليك، ويزدك من فضله.

﴿وَالْبَدَنُ جَعَلْنَاهَا لَكَرٍ مِنْ شَعْبِ اللَّهِ لَكَرٍ فِيهَا خَيْرٌ فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِئْتَ جُنُوبَهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا وَلَكِنْ بِنَالِ اللَّهِ التَّقْوَى مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَنَكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ هذا دليل أن الشعائر عام في جميع أعلام الدين الظاهرة. وتقدم أن الله أخبر أن من عظم شعائره فإن ذلك من تقوى القلوب، وهنا أخبر أن من جملة شعائره، البدن، أي: الإبل، والبقر، على أحد القولين، فتعظم وتستنمن، وتستحسن.

﴿لَكَرٍ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي: المهدي وغيره، من الأكل، والصدقة، والانتفاع، والثواب، والأجر. ﴿فَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي: عند ذبحها قولوا: «بسم الله» واذبحوها. ﴿صَوَافٍ﴾ أي: قائمات، بأن تقام على قوائمها الأربع، ثم تعقل يدها اليسرى، ثم تحرر.

﴿فَإِذَا وَجِئْتَ جُنُوبَهَا﴾ أي: سقطت في الأرض جنوبها، حين تسليخ، ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض، فحينئذ قد استعدت لأن يؤكل منها.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ وهذا خطاب للمهدي، فيجوز له الأكل من هديه.

﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾ أي: الفقير الذي لا يسأل تقنعاً وتعففاً، والفقير الذي يسأل، فكل منهما له حق فيها.

﴿كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله على تسخيرها، فإنه لولا تسخيرها لها، لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذللها لكم وسخرها، رحمة بكم وإحساناً إليكم فاحمدوه.

وقوله: ﴿لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهَا وَلَا دِمَائِهَا﴾ أي: ليس المقصود منها ذبحها فقط. ولا ينال الله من لحومها ولا دماؤها شيء، لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها،

الله، وذُبح الكفار المؤذنين للمؤمنين، البادئين لهم بالاعتداء، عن ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة، ولهذا قال:

﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين ﴿هُدًى مَتَّ صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ﴾ أي: لهدمت هذه المعابد الكبار، لطوائف أهل الكتاب، معابد اليهود والنصارى، والمساجد للمسلمين.

﴿يُذَكِّرُ فِيهَا﴾ أي: في هذه المعابد ﴿اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ تقام فيها الصلوات، وتلى فيها كتب الله، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر، فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لاستولى الكفار على المسلمين، فخربوا معابدهم، وقتلوا دينهم، فدل هذا أن الجهاد مشروع، لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره.

ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله، وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها، من فضائل المجاهدين وبيروتهم، دفع الله عنها الكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾.

فإن قلت: نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة، وحكومة غير منظمة، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج. بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون، مع قدرة ولاتهم من الكفار على هدمها، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعا.

أجيب، بأن هذا السؤال والاستشكال، داخل في عموم هذه الآية، وفرد من أفرادها. فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها، وداخل في حكمها، تعتبره عضواً من أعضاء المملكة، وجزءاً من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة مقتدرة بحددها أو عُددها، أو مالها، أو عملها، أو خدمتها.

فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب الدينية والدنيوية، وتخشى إن لم تفعل ذلك أن يختل نظامها، وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصاً المساجد، فإنها - والله الحمد - في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار.

فالمحسنون لهم البشارة من الله، بسعادة الدنيا والآخرة، وسيحسن الله إليهم، كما أحسنوا في عبادته وعبادته ﴿هَلْ جَرَّاءَ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمَتَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

(٣٨) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ هذا إخبار ووعد وبشارة من الله، للذين آمنوا، أن الله يدافع عنهم كل مكروه. ويدفع عنهم كل شر - بسبب إيمانهم - من شر الكفار، وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف. كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل، ومستكثر.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أي: خائن في أمانته، التي حمله الله إياها، فيخس حقوق الله عليها، ويخونها، ويخون الخلق.

﴿كَفُورٍ﴾ نعم الله، يوالي عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان. فهذا لا يحبه الله، بل يبغضه ويمقتة، وسيجازيه على كفره وخيائته، ومفهوم الآية، أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته، شكور لمولاه.

(٣٩-٤١) ﴿أَذِنَ لِّلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هُدًى مَتَّ صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوْتُ وَمَسَجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَقِيبَةُ الْأُمُورِ﴾ كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، وأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية. فلما هاجروا إلى المدينة وأذوا، وحصل لهم منعة وقوة، أذن لهم بالقتال، قال تعالى: ﴿أَذِنَ لِّلَّذِينَ يُقْتَلُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلون، وإنما أذن لهم، لأنهم ظلموا، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فليستنصروه، وليستعينوا به.

ثم ذكر صفة ظلمهم فقال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي: أُلجئوا إلى الخروج، بالأذية والفتنة ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا﴾ أن ذنبهم الذي نقم منهم أعداؤهم ﴿أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ أي: إلا أنهم وحدوا الله، وعبدوه مخلصين له الدين، فإن كان هذا ذنباً، فهو ذنبهم كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.

وهذا يدل على حكمة الجهاد، وأن المقصود منه إقامة دين

أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٤٦﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٧﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَیْبِ الْأُمُورِ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٩﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٥٠﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٥١﴾ فَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَفَصَّرِ مَسِيدِ ﴿٥٢﴾ أَلَمْ تَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٥٣﴾

الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب مقدر شرعاً، أو غير مقدر، كأنواع التعزير، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصددين له لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا به.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَیْبِ الْأُمُورِ﴾ أي: جميع الأمور ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للتقوى. فمن سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبروت، وأقام فيهم هوى نفسه، فإنه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشؤومة، وعاقبته مذمومة.

(٤٦-٤٧) ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ۖ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ۖ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ۗ فَكَايِنٍ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلَةٍ وَفَصَّرِ مَسِيدِ ۗ أَلَمْ تَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ

(١) زيادة من هامش ب. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في أ: وعدتكم، وهو سبق قلم - والله أعلم - .

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصرى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة التي لا تقدر تدافع عن نفسها، سالمة من [كثيراً] ضررهم، لقيام الحسد عندهم، فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها خوفاً من احتمائها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يري عباده من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعد به في كتابه.

وقد ظهرت - والله الحمد - أسبابه، [بشعور المسلمين بضرورة رجوعهم إلى دينهم، والشعور مبدأ العمل] فنحمده ونسأله أن يتم نعمته. ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ أي: يقوم بنصر دينه، مخلصاً له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: كامل القوة، عزيز لا يرام، قد قهر الخلاق، وأخذ بنواصيرهم فابشروا يا معشر المسلمين! فإنكم وإن ضعف عددكم، وعددكم وقوي عدد عدوكم وعدتهم^(٣)، فإن ركنكم القوي العزيز، ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون، فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلا بد أن ينصركم.

﴿تَنَادَى الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ نَضَرُوا اللَّهَ يَضُرُّكُمْ وَيَتَّيْتُ أَقَامِكُمْ﴾ وقوموا أيها المسلمون! بحق الإيمان والعمل الصالح، فقد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف أن من ادعى أنه ينصر الله، وينصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب، فقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض ﴿أَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ في أوقاتها وحدودها وأركانها وشروطها في الجمعة والجماعات.

﴿وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ التي عليهم خصوصاً وعلى رعيتهم عموماً، آتوها أهلها، الذين هم أهلها.

﴿وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعاً وعقلاً، من حقوق الله، وحقوق الآدميين.

﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كل منكر شرعاً وعقلاً، معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا

أَصْدُورٌ ﴿٤٧﴾ أي: هذا العمى الضار في الدين، عمى القلب عن الحق، حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرثيات، وأما عمى البصر، فغايته بلغة ومنفعة دنيوية.

(٤٧، ٤٨) ﴿رَسَّخْنَا لَكُمْ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يخَلْفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ أي: يستعجلك هؤلاء المكذبون بالعذاب لجهلهم وظلمهم، وعنادهم وتعجزوا لله، وتكذيبًا لرسله، ولن يخلف الله وعده، فما وعدهم به من العذاب، لا بد من وقوعه، ولا يمنعهم منه مانع. وأما عجلته والمبادرة فيه، فليس ذلك إليك يا محمد، ولا يستفزتك عجلتهم وتعجزهم إيانا. فإن أمامهم يوم القيامة، الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ من طوله، وشدته، وهوله، فسواء أصابهم عذاب في الدنيا، أم تأخر عنهم العذاب، فإن هذا اليوم، لا بد أن يدركهم.

ويحتمل أن المراد: أن الله حليم، ولو استعجلوا العذاب، فإن يومًا عنده كألف سنة مما تعدون. فالمدة، وإن تطاولتموها، واستبطأتم فيها نزول العذاب، فإن الله يمهل المدد الطويلة، ولا يهمل، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه لم يفلتهم.

﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَيْتُ لَهَا﴾ أي: أمهلتها مدة طويلة ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مع ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم، موجبًا لمبادرتنا بالعقوبة.

﴿ثُمَّ أَخَذْنَا بِالْعَذَابِ﴾ أي: مع عذابها في الدنيا، سترجع إلى الله، فيعذبها بذنوبها. فلْيَحْذَرُ هؤلاء الظالمون من حلول عقاب الله، ولا يغتروا بالإمهال.

(٤٩-٥١) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَإِنِّي كُنْتُ مِنَ الْغَافِلِينَ ۝ أَصْحَابُ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ أَخَذْنَا عِلْمَهُمْ وَنَحْنُ عَايِنُ الْغَافِلِينَ ۝ وَإِنِّي لَأَمْرٌ بِالْمُتَّبِعِينَ ۝ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾﴾ (١) يأمر تعالى عبده ورسوله محمدًا ﷺ أن يخاطب الناس جميعًا، بأنه رسول الله حقًا، مبشرًا للمؤمنين بنواب الله، منذرًا للكافرين والظالمين من عقابه.

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم (٥٦) من هذه السورة فجمع بينها وبين هذه الآية فكتب (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم) ثم فسرها بما يوافق الذي كتب، فعدلت الآية وصوبتها، وأبقيت التفسير كما هو.

يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ ءَادَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الْأَصْدُورِ ﴿٤٧﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كُذِّبَ، وليسوا بأول أمة كذبت رسولها، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَشُعُوبٌ ۝ وَقَوْمٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ﴾ أي: قوم شعيب.

﴿وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ المكذبين، فلم أعاجلهم بالعقوبة بل أمهلتهم، حتى استمروا في طغيانهم يعمهون، وفي كفرهم وشركهم يزدادون.

﴿ثُمَّ أَخَذْنَاهُمُ بِالْعَذَابِ﴾ أخذ عزيز مقتدر ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاره عليهم كفرهم، وتكذيبهم كيف حاله، كان أشد العقوبات، وأظع المثالات، فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصبحة، ومنهم من أهلك بالريح العقيم. ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة، فليعتبر بهم هؤلاء المكذبون، أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم ليسوا خيرًا منهم، ولا كتب لهم براءة في الكتب المنزلة من الله، وكم من المعذبين المهلكين أمثال هؤلاء كثير، ولهذا قال:

﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ أي: وكم من قرية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ بالعذاب الشديد والخزي الدنيوي ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، لم يكن عقوبتها لها ظلمًا منا، ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ أي: فديارهم متهدمة، قصورها وجدرانها، قد سقطت عروشها، فأصبحت خرابًا بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت أهلة بأهلها آتسة، ﴿وَبَثْرٌ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ﴾ أي: وكم من بئر، قد كان يزدهم عليه الخلق لشربهم، وشرب مواشيتهم، ففقد أهله، وعدم منه الوارد والصادر. وكم من قصر، تعب عليه أهله، فشيده ورفعوه وحصنوه وزخرفوه، فحين جاءهم أمر الله، لم يغن عنهم شيئًا، وأصبح خاليًا من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبر، ومثالًا لمن فكر ونظر.

ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض، لينظروا ويعتبروا، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانهم وقلوبهم ﴿فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره ﴿أَوْ ءَادَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أخبار الأمم الماضين، وأنباء القرون المعذبين، وإلا فمجرد نظر العين، وسماع الأذن، وسير البدن الخالي من التفكير والاعتبار، غير مفيد، ولا موصل إلى المطلوب.

ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي

سُورَةُ الْحَجِّ

٣٣٨

الْحَجُّ الْمَكْرُمُ

وَسْتَغْلِبُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا
عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ
قَرْيَةٍ أَمَلْتُمْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْنَا مِنَ النَّاسِ مَا يَلْتَمِسُونَ ﴿٤٨﴾
﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾
﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى
أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ
يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِيَجْعَلَ
مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ
لِقُلُوبِهِمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ
فَتُخَيِّتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ
السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ أَلَمْ تَلِكْ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ
يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ
التَّعْوِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُهِينٌ ﴿٥٧﴾

يبالي الله بهم، وهم الذين ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: ضعف وعدم إيمان تام وتصديق جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة تطرأ عليها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، داخلهم الريب والشك، فصار فتنة لهم.

﴿وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به وشاقوا الله ورسوله، ولهذا قال:

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي: مشاققة الله، ومعاندة للحق، ومخالفة له، بعيد من الصواب، فما يلقى الشيطان، يكون فتنة لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم من الخبث الكامن فيها، وأما الطائفة الثالثة، فإنه يكون رحمة في حقها، وهم المذكورون بقوله:

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ ولأن الله منحهم من العلم ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي ينسخه الله، بما على كل منهما من

وقوله: ﴿مُبِينٌ﴾ أي: بين الإنذار، وهو التخويف مع الإعلام بالمخوف، وذلك لأنه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذرهم به.

ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة فقال: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يقبلوهم إيماناً صحيحاً صادقاً ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿فِي جَنَّاتِ التَّعْوِيمِ﴾ أي: الجنات التي يتعم بها بأنواع النعيم من المآكل والمشرب والمناجح والصور والأصوات والتنعم برؤية الرب الكريم وسماع كلامه ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا نعمة ربهم وكذبوا رسله وآياته فأولئك أصحاب الجحيم أي: الملازمون لها المصاحبون لها في كل أوقاتهم، فلا يخفف عنهم من عذابها ولا يفتر عنهم لحظة من عقابها.

(٥٧-٥٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ لِقُلُوبِهِمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخَيِّتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ أَلَمْ تَلِكْ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ التَّعْوِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ يخبر تعالى بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأن الله ما أرسل قبل محمد ﴿مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم.

﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي: في قراءته، من طرقه ومكايده ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشته، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي: يزيله ويذهب ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته. و﴿يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ أي: يتقنها ويحررها ويحفظها، تبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: كامل القوة والاعتدال. فبكمال قوته يحفظ وحيه، ويزيل ما تلقه الشياطين ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأشياء مواضعها، فمن كمال حكمته مكن الشياطين من الإلقاء المذكور، ليحصل ما ذكره بقوله:

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فَتْنَةً لِّلَّذِينَ لَطَافَتَيْنِ مِنَ النَّاسِ، لَا

بالعذاب.

(٥٨، ٥٩) ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ○ لِيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ هذه بشارة كبرى، لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله، فهذا قد وجب أجره على الله، سواء مات على فراشه، أو قتل مجاهدًا في سبيل الله.

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان، والحسن والإحسان، ونعيم القلب والبدن، ويحتمل أن المعنى^(١): أن المهاجر في سبيل الله، قد تكفل برزقه في الدنيا، رزقًا واسعًا حسنًا، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه، أو يقتل شهيدًا، فكلهم مضمون له الرزق. فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله، سيفتقر ويحتاج، فإن رازقه هو خير الرازقين، وقد وقع كما أخبر، فإن المهاجرين السابقين، تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم، نصرته لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيرًا، حتى فتح الله عليهم البلاد، ومكنهم من العباد فاجتبا من أموالها، ما كانوا به من أغنى الناس، ويكون على هذا القول، قوله: ﴿لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِ﴾، إما ما يفتحه الله عليهم من البلدان، خصوصًا فتح مكة المشرفة، فإنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، وإما المراد به رزق الآخرة، وأن ذلك دخول الجنة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين رزق الدنيا، ورزق الآخرة، واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح، فلا مانع من إرادة الجميع.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ بالأمر، ظاهرها، وباطنها، متقدمها، ومتأخرها. ﴿حَلِيمٌ﴾ يعصيه الخلاق، وبيارزونه بالعظام، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله.

(٦٠) ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُؤٌ غَفُورٌ﴾ ذلك بأن من جُنِّي عليه وظلم، فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنائته، فإن فعل ذلك، فليس عليه سبيل، وليس بملوم، فإن بُغِيَ عليه بعد هذا، فإن الله ينصره، لأنه مظلوم، فلا يجوز أن يُبَغَى عليه، بسبب أنه استوفى حقه. وإذا كان المجازي غيره بإساءته إذا ظلم بعد ذلك، نصره الله، فالذي بالأصل لم يعاقب أحدًا إذا

(١) كذا في ب، وفي أ: شفاعتهم. (٢) في النسختين: وأنه. (٣) في ب: المراد.

الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم، يقضي بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كمانت النفوس الخيرة والشريرة.

﴿فَيُؤْتُونَا بِهِ﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم، عند دفع المعارض والشبه.

﴿فَفَتِحَتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشع وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من هدايته إياهم، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بسبب إيمانهم ﴿إِنَّكَ صِرْطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا النوع من تثبيت الله لعبده.

وهذه الآيات، فيها بيان أن للرسول ﷺ، أسوة بإخوانه المرسلين، لما وقع منه عند قراءته ﷻ، ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فلما بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْمُرْزِيَّ﴾ وَمَوَازِي الْأَخْرَجِيَّ ﴿لقى الشيطان في قراءته تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن^(١) لترتجى﴾ فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة، كما ذكر الله، فانزل الله هذه الآيات: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مَرِيضٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ ○ الْمَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ بِحَكْمٍ بَيْنَهُمْ فَكَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ○ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿ يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأنهم لا يزالون في شك مما جنتهم به يا محمد، لعنادهم، وإعراضهم، وأنهم لا يبرحون مستمرين على هذه الحال ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: مفاجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أي: لا خير فيه، وهو يوم القيامة.

فإذا جاءتهم الساعة، أو آتاهم ذلك اليوم، علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وأبلسوا وأيسوا من كل خير، وودوا لو آمنوا بالرسول، واتخذوا معه سبيلًا. ففي هذا تحذيرهم من إقامتهم على مريتهم وفريتهم.

﴿الْمَلَأْتُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿لِلَّهِ﴾ تعالى، لا غيره ﴿بِحَكْمٍ بَيْنَهُمْ﴾ بحكمه العدل، وقضائه الفصل.

﴿كَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ورسله، وما جاءوا به ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ نعيم القلب والروح والبدن، مما لا يصفه الواصفون، ولا تدركه العقول.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسله، وكذبوا بآياته الهداية للحق والصواب فأعرضوا عنها، أو عاندوها.

﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ لهم من شدته وألمه، وبلوغه للأفئدة كما استهانوا برسله وآياته، أهانهم الله

ظلم، وجُني عليه، فالنصر إليه أقرب.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ أي: يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويعفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم. فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة.

فينبغي لكم أيها المظلومون المجني عليهم، أن تغفوا وتصفحوا وتغفروا ليعاملكم الله كما تعاملون عباده ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

(٦١، ٦٢) ﴿ذَلِكَ يَأْتِكَ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ○ ذَلِكَ يَأْتِكَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿ذَلِكَ الَّذِي شَرَعَ لَكُمْ تِلْكَ الْأَحْكَامَ الْحَسَنَةَ الْعَادِلَةَ، هُوَ حَسَنَ التَّصَرُّفِ فِي تَقْدِيرِهِ وَتَدْبِيرِهِ الَّذِي ﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ أي: يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا. فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه في الآخر، ثم بالعكس، فيترتب على ذلك قيام الفصول ومصالح الليل والنهار، والشمس والقمر، التي هي من أجل نعمه على العباد، وهي من الضروريات لهم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿بَصِيرٌ﴾ يرى ديب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ﴿سَوَاءٌ يَتَكَبَّرُ مَنْ أَسَرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ صاحب الحكم والأحكام ﴿يَأْتِكَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: الثابت، الذي لا يزال ولا يزول، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق وبقاؤه حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق، النافعة الباقية على الدوام.

﴿وَأَنْتَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد، من الحيوانات والجمادات. ﴿هُوَ الْبَاطِلُ﴾ الذي هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة، لأنها متعلقة بمضمحل فان، فتبطل تبعاً لغايتها ومقصودها.

﴿وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ العلي في ذاته، فهو عال على جميع المخلوقات وفي قدره، فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه، أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه. ومن كبريائه، أن كرسيه وسع السموات والأرض، ومن عظمته وكبريائه، أن نواصي

سُورَةُ الْحَجِّ

٣٣٩

سُورَةُ الْحَجِّ

الْمَلِكِ يَوْمَئِذٍ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥١﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَسِّرَنَّ اللَّهُ لَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيَدْخُلْتَهُمْ مُدْخِلًا لَازِمًا لِرِضْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عَاقَبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ يَأْتِكَ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ يَأْتِكَ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٤﴾

العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون، إلا بإرادته.

وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه أن العبادات كلها الصادرة من أهل السماوات والأرض، كلها المقصود منها، تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه. ولهذا كان التكبير شعاراً للعبادات الكبار، كالصلاة وغيرها.

(٦٤، ٦٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ○ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٣﴾ هذا حث منه تعالى، وترغيب في النظر بآياته الدالات على وحدانيته، وكماله، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وبصيرتك ﴿أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهو المطر فينزل على أرض خاشعة مجدبة، قد اغبرت أرجاؤها، وبيس ما فيها، من شجر ونبات.

فتصبح مخضرة قد اكتست من كل زوج كريم، وصار لها

الحميد في غناه.

(٦٦، ٦٥) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ۝ أَي: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابعة، وأيديه الواسعة، و ﴿إِنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ﴾ من حيوانات، ونبات، وجمادات، فجميع ما في الأرض، مسخر لبني آدم، حيواناتها لركوبه، وحمله وأعماله، وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها يقتاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها، ويتنفع بها.

﴿وَالْفَلَكَ﴾ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن ﴿تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ تحملكم، وتحمل تجارتكم، وتوصلكم من محل إلى محل، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها. ومن رحمته بكم أنه ﴿يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ فلولا رحمته وقدرته، لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها ﴿إِنَّ اللَّهَ بِسَيْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَسْكُمَا مِنْ آخِرٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أرحم بهم من والديهم، ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشر والضر. ومن رحمته، أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء. ﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أوجدكم من العدم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ بعد أن أحياكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بعد موتكم، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ أي: جنسه، إلا من عصمه الله ﴿لَكَفُورٌ﴾ لنعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدرته ربه.

(٦٧-٧٠) ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُبْدِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ ۝ وَإِنْ جَدَلْتَهُ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ۝ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ۝ إِنَّ ذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ بخير تعالى أنه جعل لكل أمة ﴿مَنْسَكًا﴾ أي: معبدًا وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ الآية.

(١) في ب: (عباده الخير، ويدفع عنهم الشر).

بذلك منظر بهيج، إن الذي أحيها بعد موتها وهمودها لمحبي الموتى، بعد أن كانوا رميمًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ اللطيف الذي يدرك بواطن الأشياء وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر^(١)، بطرق لطيفة تخفى على العباد، ومن لطفه، أنه يري عبده عزته في انتقامه وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك. ومن لطفه، أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، وبذور الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر الذي خفي على علم الخلائق فينبت منه أنواع النبات.

﴿خَبِيرٌ﴾ بسرائر الأمور، وخبايا الصدور، وخبايا الأمور.

﴿لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ خلقًا وعبيدًا، يتصرف فيهم بملكه وحكمته، وكمال اقتداره، ليس لأحد غيره من الأمشيء.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ بذاته الذي له الغنى المطلق التام، من جميع الوجوه. ومن غناه، أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يوالههم من ذلة، ولا يتكثر بهم من قلة. ومن غناه، أنه ما اتخذ صاحبة ولا ولدا، ومن غناه، أنه صمد، لا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق، بوجه من الوجوه، فهو يُطْعَمُ ولا يُطْعَمُ، ومن غناه، أن الخلق كلهم مفتقرون إليه، في إيجادهم وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم وديانهم، ومن غناه، أنه لو اجتمع من في السموات ومن في الأرض، الأحياء منهم والأموات، في صعيد واحد، فسأل كل منهم ما بلغت أمتيته، فأعطاهم فوق أمانتهم، ما نقص ذلك من ملكه شيء، ومن غناه أن يده سحَاء بالخير والبركات، الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس. ومن غناه وكرمه، ما أودعه في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿الْحَمِيدُ﴾ أي: المحمود في ذاته، وفي أسمائه لكونها حسنى، وفي صفاته لكونها كلها صفات كمال، وفي أفعاله لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة. وفي شرعه لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، الذي له الحمد، الذي يملأ ما في السماوات والأرض وما بينهما، وما شاء بعدها، الذي لا يحصي العباد ثناء على حمده، بل هو كما أننى على نفسه، وفوق ما يشي عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وهو الغني في حمده،

﴿هُم نَاسِكُونَ﴾ أي: عاملون عليه، بحسب أحوالهم، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصًا من الأمين أهل الشرك والجهل المبين. فإنه إذا ثبت رسالة الرسول بأدلتها، وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول والتسليم، وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَنْزِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ أي: لا ينزعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جنتهم به، بقولهم الفاسدة، مثل منازعتهم في حل الميتة، بقياسهم الفاسد يقولون: «تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله». وكقولهم: «إنما البيع مثل الربا» ونحو ذلك من اعتراضاتهم التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحاجة بانفرادها، بل لكل مقام مقال.

فصاحب هذا الاعتراض، المنكر لرسالة الرسول، إذا زعم أنه يجادل ليسترشد، يقال له: الكلام معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلا فالإقتصار على هذه دليل على أن مقصوده التعتن والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي على ذلك، سواء اعترض المعترضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء، لأنك على ﴿هُدَى مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: معتدل موصل للمقصود، متضمن علم الحق والعمل به، فأنت على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك، ولست على أمر مشكوك فيه، أو حديث مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم وأرائهم، ويوقفت اعتراضهم. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ مع أن في قوله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَّ هُدَى مُسْتَقِيمٍ﴾ إرشادًا لأجوبة المعترضين، على جزئيات الشرع، بالعقل الصحيح، فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول.

والهدى ما تحصل به الهداية من مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يعرف حسننها وعدلها وحكمتها بالعقل والفترة السليمة، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات والمنهيات.

ولهذا أمره الله بالعدل عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وَإِنْ جَدَلْتُمْ فَقُلْ اللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: هو عالم بمقاصدكم ونياتكم، فمجازيكم عليها في يوم القيامة الذي يحكم الله بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، فمن وافق الصراط المستقيم، فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه، فهو من أهل الجحيم، ومن تمام حكمه، أن يكون حكمًا بعلم، فلذلك ذكر إحاطة علمه، وإحاطة كتابه فقال:

﴿الْقُرْآنَ اللَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ. وَمِمَّا سَخَّرَ اللَّهُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧٥﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٧٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَّ هُدَى مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٧﴾ وَإِنْ جَدَلْتُمْ فَقُلْ اللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ تَخْتَلِفُونَ ﴿٧٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٨٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٨١﴾ وَإِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا بَيَّنَّتْ نَعْرُفَ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّاهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٨٢﴾

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه منها خافية، من ظواهر الأمور وبواطنها خفيها وجليها، متقدمها ومتأخرها، أن ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض قد أثبتته الله في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم قال له: «اكتب قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة».

﴿وَإِنْ جَدَلْتُمْ فَقُلْ اللَّهُ أَغْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وإن كان تصوره عندكم لا يحاط به، فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علمًا بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

(٧٦، ٧٧) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ وإذا نتلى عليهم آياتنا بيَّنت نعرُف في وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّاهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ يذكر تعالى حالة المشركين به، والعادلين به غيره، وأن حالهم أقيح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه، فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد، تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون

الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو - في نفس الأمر - له حجة ما علمها .

فأخبر هنا، أن الله لم ينزل في ذلك سلطاناً، أي: حجة تدل عليه وتجوزة، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فساده وبطلانه، ثم توعد الظالمين منهم المعاندين للحق فقال: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصرهم من عذاب الله، إذا نزل بهم وحل . وهل هؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قضد في اتباع الآيات والهدى إذا جاءهم؟ أم هم راضون بما هم عليه من الباطل؟ .

ذكر ذلك بقوله: ﴿وَإِذَا نُنزلُ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ التي هي آيات الله الجليلة المستلزمة لبيان الحق من الباطل، لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأساً، بل ﴿تَعَرَّفُوا فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾ من بغضها وكراتها ترى وجوههم مُعْبَسَةً، وأبشارهم مكفهرة .

﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾ أي: يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البليغ من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته، فهذه الحالة من الكفار بشس الحالة، وشرها بشس الشر، ولكن ثم ما هو شر منها، حالتهم التي يؤولون إليها، فلها قال: ﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشِرِّ مِنَ ذَلِكَُمْ أَنْتَارُ وَعَدَّاهُ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيُبْسِ الْأَصْصِيرُ﴾ فهذه شرها طويل عريض، ومكروها وآلامها تزداد على الدوام .

(٧٤، ٧٣) ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَأَسْتَفِذُّهُ مِنْهُ ضَعُفَ الظَّالِمُ وَالْمَطْلُوبُ مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ هذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عبدها، وضعف الجميع، فقال: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ﴾ هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة، ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي: ألقوا إليه أسماعكم وتفهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلباً لاهية، وأسماعاً معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ شمل كل ما يُدعى من دون الله ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب أولى .

﴿وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ بل أبلغ من ذلك لو ﴿يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَأَسْتَفِذُّهُ مِنْهُ﴾ وهذا غاية ما يصير من العجز .

سُورَةُ الْحَجِّ
٣٤١

يَتَّبِعُهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْأَلُهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَأَسْتَفِذُّهُ مِنْهُ ضَعُفَ الظَّالِمُ وَالْمَطْلُوبُ مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٣﴾

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنِ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾

يَتَّبِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَسَجَدُوا وَعَابَدُوا رَبَّهُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾

وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَثَلًا بَيْنَ الَّذِينَ هُمْ أَشْرَكُوا وَمَثَلًا بَيْنَ الَّذِينَ هُمْ أَتَمَّوْنَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَعِمْ مَوَالِيكُمْ وَبِعَمَلِ الصَّيْرِ ﴿٧٨﴾

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

﴿ضَعُفَ الظَّالِمُ﴾ الذي هو المعبود من دون الله ﴿وَالْمَطْلُوبُ﴾ الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف وأضعف منهما، من يتعلق بهذا الضعيف، وينزله منزلة رب العالمين .

فهذا ما قدر ﴿اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه، سوى من لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: كامل القوة، كامل العزة، من كمال قوته وعزته، أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإرادته ومشئته، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن . ومن كمال قوته أنه يمسك السموات والأرض أن تزولا، ومن كمال قوته، أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم، بصيحة واحدة . ومن كمال قوته، أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية بشيء يسير، وسوط من عذابه .

(٧٦، ٧٥) ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِمَّنِ النَّاسِ

ووعظ، وغير ذلك.

﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ﴾ أي: اختاركم - يا معشر المسلمين - من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل. فقابلوا هذه المنحة العظيمة، بالقيام بالجهاد فيه حق القيام. ولما كان قوله: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق، أو تكليف ما يشق، احتراز منه بقوله:

﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة، فأولا ما أمر وألزم إلا بما هو سهل على النفوس، لا يثقلها، ولا يؤدها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف، خفف ما أمر به، إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه. ويؤخذ من هذه الآية، قاعدة شرعية، وهي أن «المشقة تجلب التيسير» و«الضرورات تبيح المحظورات»، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية شيء كثير معروف في كتب الأحكام.

﴿مِثْلَ أَبِيكُمْ إِزْهِيمٌ﴾ أي: هذه الملة المذكورة، والأوامر المزبورة، ملة أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها، فالزموها واستمسكوا بها.

﴿هُوَ سَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: في الكتب السابقة، المذكورون ومشهورون.

﴿وَفِي هَذَا﴾ أي: هذا الكتاب، وهذا الشرع. أي: ما زال هذا الاسم لكم قديما وحديثا.

﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بأعمالكم خيرها وشرها ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لكونكم خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطا عدلا خيارا. تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه ﴿فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وشروطها وحدودها، وجميع لوازمها ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ المفروضة لمستحقها شكرا لله، على ما أولاكم.

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي: امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك، ولا تتكلموا على حولكم وقوتكم ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ الذي يتولى أموركم، فيدبركم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره ﴿فَعِمْ مَوْلَاكُمْ وَبِعَمِّ النَّصِيرِ﴾ أي: نعم المولى لمن تولاه، فحصل له مطلوبه ﴿وَبِعَمِّ النَّصِيرِ﴾ لمن استنصره فدفع عنه المكروه.

تم تفسير سورة الحج، والحمد لله رب العالمين.

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ○ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ لما بين تعالى كماله وضعف الأصنام، وأنه المعبود حقا، بين حالة الرسل، وتميزهم عن الخلق، بما تميزوا به من الفضائل فقال:

﴿اللَّهُ يَصْطَلِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ أي: يختار ويختبى من الملائكة رسلا، ومن الناس رسلا، يكونون أركى ذلك النوع، وأجمعه لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء. فالرسل لا يكونون إلا صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واصطفاهم^(١) ليس جاهلا بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئا دون شيء، وإنما المصطفى لهم السميع البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء، فاخياره إياهم عن علم منه أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ أي: هو يرسل الرسل، يدعون الناس إلى الله، فمنهم المجيب، ومنهم الراد لدعوتهم، ومنهم العامل، ومنهم الناكل، فهذا وظيفة الرسل، وأما الجزء على تلك الأعمال فمصيورها إلى الله، فلا تعدم منه فضلا وعدلا.

(٧٨، ٧٧) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ○ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ أَحَبُّكُمْ وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِثْلَ أَبِيكُمْ إِزْهِيمٌ هُوَ سَنَكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِمْوْا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَبِعَمِّ الْمَوْلَى وَبِعَمِّ النَّصِيرِ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع والسجود، لفضلهما وركنيتهما، وعبادته التي هي قرة العيون، وسلوة القلب المحزون، وأن ربوبيته وإحسانه على العباد، يقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة، ويأمرهم بفعل الخير عموما.

وعلق تعالى الفلاح على هذه الأمور، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾. أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتتجون من المكروه المرهوب، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق، والسعي في نفع عبده، فمن وفق لذلك، فله القدر الموعود، من السعادة والنجاح والفلاح.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب. فالجهاد في الله حق جهاده، هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر

وقال: «كُفَّ عليك هذا».

فالمؤمنون من صفاتهم الحميدة، كُفَّ ألسنتهم، عن اللغو والمحرمات.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ أي: مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال، مزمين لأنفسهم من أذناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ عن الزنا، ومن تمام حفظها تجنَّب ما يدعو إلى ذلك كالنظر واللمس ونحوهما. فحفظوا فروجهم من كل أحد ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من الإماء المملوكات ﴿فَأَيْمَانُ غَيْرَ مُلْمَأَاتٍ﴾ بقربيهما، لأن الله تعالى أحلهما.

﴿فَمَنْ أَبْغَىٰ ذَكَرًا﴾ غير الزوجة والسرية ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرئون على محارم الله. وعموم هذه الآية يدل على تحريم نكاح المتعة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصودًا بقاؤها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك.

ويدل قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أنه يشترط في حل المملوكة، أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها^(٢) ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾، أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها. وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ﴾، فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما.

فعلى العبد مراعاة الأمرين وأداء الأمانتين ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُوَدُّوا الْأَمْنَتَ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾، وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء

(١) في أ: المؤمنين. (٢) في أ: لأنه، وفي ب: لأن، ولعل الصواب ما أثبت.

تفسير سورة المؤمنون^(١)

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ○ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ○ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلْمَأَاتٍ ○ فَمَنْ أَبْغَىٰ ذَكَرًا فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ○ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ○ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ هذا تنويه من الله، بذكر عبادة المؤمنين، وذكر فلاحهم وسعادتهم، وبأي شيء وصلوا إلى ذلك، وفي ضمن ذلك الحث على الاتصاف بصفاتهم، والترغيب فيها. فليزِن العبد نفسه وغيره على هذه الآيات، يعرف بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان زيادةً ونقصًا، كثرةً وقلةً.

فقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: قد فازوا وسعدوا ونجحوا، وأدركوا كل ما يرام. المؤمنون الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين الذين من صفاتهم الكاملة أنهم ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾.

والخشوع في الصلاة هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متادباً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوسواس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد.

فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثاباً عليها، فإن الثواب على حسب ما يعقل القلب منها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة ﴿مُعْرِضُونَ﴾ رغبة عنه، وتزويهاً لأنفسهم، وترفعاً عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فأعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى. وإذا ملك العبد لسانه وخزنه - إلا في الخير - كان مالكاً لأمره، كما قال النبي ﷺ، لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه

بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشراطها وأركانها، فمدحهم بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص.

﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بتلك الصفات ﴿هُمْ الْوَارِثُونَ﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين، على درجاتهم ^(١) مراتبهم، كل بحسب حاله.

﴿هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يظنون عنها، ولا يبغون عنها جولا، لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله، وأتمه، من غير مكدر ولا منغص.

(١٢-١٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ○ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا نطفة في قرار مكين ○ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضعفة فخلقنا المضعفة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ○ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ○ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ ذكر الله في هذه الآيات أطوار الأدمي وتقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فذكر ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه من سُلالة من طين ○ أي: قد سلت، وأخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض: منهم الطيب والنخيث وبين ذلك، والسهل والحزن، وبين ذلك.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ﴾ أي: جنس الأدميين ﴿نطفة﴾ تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر ﴿في قرار مكين﴾ وهو الرحم محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة﴾ التي قد استقرت قبل ﴿علقة﴾ أي: دما أحمر، بعد مضي أربعين يوما من النطفة. ﴿فخلقنا العلقة﴾ بعد أربعين يوما ﴿مضعفة﴾ أي: قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يمضغ من صغرها. ﴿فخلقنا المضعفة﴾ اللينة ﴿عظاما﴾ صلبة، قد تخللت اللحم، بحسب حاجة البدن إليها. ﴿فكسونا العظام لحما﴾ أي: جعلنا اللحم كسوة للعظام، كما جعلنا العظام عمادا للحم، وذلك في الأربعين الثالثة.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جمادا، إلى أن صار حيوانا.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي: تعالى وتعاظم، وكثر خيره ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٣٤٢

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ زَوْجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمِمَّنْ أَعْنَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نطفة في قرار مكين ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضعفة فخلقنا المضعفة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴿١٤﴾ ثم إنكم بعد ذلك لميتون ﴿١٥﴾ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴿١٦﴾ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غفلين ﴿١٧﴾

○ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ○ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ. وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ○ فَخَلَقَهُ كُلَّهُ حَسَنًا، والإنسان من أحسن مخلوقاته، بل هو أحسنها على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها. ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ الخلق، ونفخ الروح ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ في أحد أطواركم وتقلاتكم، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ فتجازون بأعمالكم، حسنها وسيئها. قال تعالى: ﴿يُحَسِّبُ الْإِنْسَانُ أَن يُؤْتَلَ سُدًى ○ أَلَمْ يَكُنْ نطفة من مَّاءٍ يَمِينٍ ○ ثُمَّ كَانَ علقة مخلوق فسوى ○ فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ○ أليس ذلك يقدر على أن يحيى الموتى ○﴾.

(١٧-٢٠) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ○ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَسْكَنَتْ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ○ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّتٍ مِّنْ تَحْتِهَا وَأَعْنَبَ لَكُمْ فِيهَا فَوْكَةً كَثِيرَةً وَمِمَّا تَأْكُلُونَ ○ وَسَجَّرَهُ خَرَجٌ مِّنْ طَوْرِ سَيْنَاءَ تَنَبُّثٌ بِالذَّهْنِ

(١) في ب: في مراتبهم.

وَصَبَّحَ لِلْأَكْلَيْنِ ﴿٢١﴾ لما ذكر تعالى خلق الآدمي، ذكر سكنه، وتوفّر النعم عليه من كل وجه، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ ﴿٢١﴾ سَفَافًا لِلْبِلَادِ، ومصلحة للعباد ﴿سَبَّحَ طَرَائِقَ﴾ أي: سبع سموات طباقًا، كل طبقة فوق الأخرى، قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق، فعلمنا أيضًا محيط بما خلقنا، فلا نغفل مخلوقًا، ولا ننساه، ولا نخلق خلقًا فضيعة، ولا نغفل عن السماء فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرة في ليجح البحار وجوانب الفلوات، ولا دابة إلا سقنا إليها رزقها ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَعَلَىٰ سُوءِهَا وَسَوْءِهَا﴾.

وكثيرًا ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه كقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، ﴿بَلْ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ لأن خلق المخلوقات، من أقوى الأدلة العقلية، على علم خالقها وحكمته.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴿٢٢﴾ يَكُونُ رِزْقًا لِّكُمْ وَلَا تَعْمَلُونَ﴾ بقدر ما يكفيكم، فلا ينقصه، بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود، ولا يزيده زيادة لا تحتمل بحيث يتلف المساكن، ولا تعيش معه النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لتزوله، ثم صرفه عند الضرر من دوامه.

﴿فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقدرته منزله، جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضًا معدًا في خزائن الأرض بحيث لم يذهب نازلًا حتى لا يوصل إليه ولا يبلغ قعره.

﴿وَوَيْلًا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهٖ لَقَدَرُونَ﴾ إما بأن لا تنزله، أو تنزله فيذهب نازلًا، لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده، أن يشكروه على نعمته، ويقدرُوا عدمها، ماذا يحصل به من الضرر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنِ اصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ﴾.

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ ﴿٢٣﴾ أَعْنَابًا﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين ﴿مِّن تَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾.

خص تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشئ منه غيرهما من الأشجار، لفضلهما ومنافعهما التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات ﴿فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من تين وأترج ورمان، وتفاح وغيرها.

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ وهي شجرة الزيتون، أي: جنسها.

وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَتْهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهٖ لَقَدَرُونَ ﴿٢١﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّن تَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٢﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبَّحَ لِلْأَكْلَيْنِ ﴿٢٣﴾ وَإِن لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّشَيْكُم مِّمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٤﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ ﴿٢٧﴾ إِن هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهٖ جَنَّةٌ فَرَوَّضًا يُوبِئُهُ حَقَّ حِينٍ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كُنْتُ دُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَن اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحِينَآ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ مِّنْ نَّسَبٍ وَأَهْلِكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تَخْطِئْ بِنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٠﴾

خصت بالذكر، لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها التي ذكر بعضها في قوله: ﴿تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبَّحَ لِلْأَكْلَيْنِ﴾ أي: فيها الزيت الذي هو دهن يستعمل^(١) استعماله من الاستصباح به، واصطباغ الأكلين، أي: يجعل إدامًا للأكلين، وغير ذلك من المنافع.

(٢٢، ٢١) ﴿وَإِن لَّكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّشَيْكُم مِّمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وعليها وعلى الفلك تحمّلون ﴿٢٤﴾ أي: ومن نعمه عليكم، أن سخر لكم الأنعام؛ الإبل، والبقرة، والغنم، فيها عبرة للمعتبرين، ومنافع للمتفتحين ﴿شَيْكُم مِّمَّا فِي بَطُونِهَا﴾ من لبن، يخرج من بين فرت ودم خالص سائغ للشاربين ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتًا، تستخفونها يوم ظعنكم، ويوم إقامتكم ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أفضل المأكّل من لحم وشحم.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَىٰ الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: جعلها سفنًا لكم في البر،

(١) كذا في النسختين، وقد شطبت كلمة (يستعمل) في ب، وكتب فوقها بخط مغاير: يكثر، وهي كذلك في الطبقات المختلفة للتفسير.

وقولهم: ﴿مَا سَعَيْنَا يَهَذَا﴾ أي: بإرسال رسول ﴿فِي آيَاتِنَا الْأُولَى﴾ وأي حجة في عدم سماعهم إرسال رسول في آياتهم الأولين؟ لأنهم لم يحيطوا علمًا بما تقدم، فلا يجعلوا جهلهم حجة لهم. وعلى تقدير أنه لم يرسل فيهم رسولًا، فإما أن يكونوا على الهدى، فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا على غيره، فليحمدوا ربهم، ويشكروه أن خصهم بنعمة لم تأت آباءهم، ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سببًا لكفرهم للإحسان إليهم.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ﴾ أي: مجنون ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ أي: انتظروا به ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ إلى أن يأتيه الموت.

وهذه الشبهة التي أوردها^(١)، معارضة لنبوة نبيهم، دالة على شدة كفرهم وعنادهم، وعلى أنهم في غاية الجهل والضلال، فإنها لا تصلح للمعارضة، بوجه من الوجوه، كما ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة متعارضة.

فقوله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أثبتوا أن له عقلًا يكيدهم به، ليعلوهم ويسودهم ويحتاج - مع هذا - أن يحذر منه لئلا يغتر به.

فكيف يلتئم مع قولهم: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ﴾ وهل هذا إلا من مشبه ضال، منقلب عليه الأمر، قصده الدفع بأي طريق اتفق له، غير عالم بما يقول؟! وبأي الله إلا أن يظهر خزي من عاداه وعادى رسله.

فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فرارًا ﴿قَالَ رَبِّ اصْرِفْ مِنِّي مَا كَذَّبُون﴾ فاستنصر ربه عليهم غضبًا لله، حيث ضيعوا أمره، وكذبوا رسوله وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا﴾ ○ ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَفْسُدُوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَجْرًا كَفَّارًا﴾ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ﴾ عند استجابتنا له سببًا ووسيلة للنجاة، قبل وقوع أسبابه.

﴿أَنْ اصْصَعْ الْفُلْكَ﴾ أي: السفينة ﴿بِأَعْيُنِنَا وَوَحَّيْنَا﴾ أي: بأمرنا لك، ومعونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا﴾ بإرسال الطوفان الذي عذبوا به ﴿وَفَارَ الْفُلُ﴾ أي: فارت الأرض، وتفجرت عيونًا، حتى محل النار، الذي لم تجر العادة إلا ببعده عن الماء ﴿فَأَسْلَفَتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَئِيْنٍ﴾ أي: أدخل في الفلك من كل جنس من الحيوانات، ذكراً وأنثى، تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات،

(١) كذا في ب وفي أ: أوردها.

تحملون عليها أفعالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، كما جعل لكم السفن في البحر تحملكم، وتحمل متاعكم، قليلاً [كان] أو كثيراً.

فالذي أنعم بهذه النعم، وصنف أنواع الإحسان، وأدر علينا من خيره المدرار، هو الذي يستحق كمال الشكر، وكمال الثناء، والاجتهاد في عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على معاصيه.

(٢٣-٣٠) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّي غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إلى آخر القصة وهي قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِن كُنَّا لَلْبُتَيْنِ﴾ يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله نوح عليه السلام، أول رسول أرسله لأهل الأرض فأرسله إلى قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم بعبادة الله وحده فقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: أخلصوا له العبادة، لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها، ﴿مَا لَكُمْ مِنِّي إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فيه إبطال ألوهية غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالى، لأنه الخالق الرازق الذي له الكمال كله، وغيره بخلاف ذلك ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام التي صورت على صور قوم صالحين، فعبدها مع الله، فاستمر على ذلك، يدعوهم سرًا وجهاً، وليلاً ونهاراً، ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهم لا يزدادون إلا عتواً ونفوراً.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ﴾ من قومه الأشراف والسادة المتبوعون - على وجه المعارضة لنبيهم نوح، والتحذير من اتباعه - : ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ما هذا إلا بشر مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن يزيد عليكم فضيلة، ليكون متبوعاً، وإلا فما الذي يفضله عليكم، وهو من جنسكم؟ وهذه المعارضة، ما زالت موجودة في مكذبي الرسل.

وقد أجاب الله عنها بجواب شاف، على السنة رسله كما في قوله: ﴿قَالُوا﴾ أي: لرسلم ﴿إِن أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ نُصَدِّقَكَ عَمَّا كَانَتْ يَمِينُ آبَائِنَا فَإِنَّا نَحْنُ بِسُلْطَانِ مُّؤْمِنِينَ﴾ ○ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ فأخبروا أن هذا فضل الله ومته، فليس لكم أن تحجروا على الله، وتمنعوه من إيصال فضله علينا.

وقالوا هنا: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلْنَا مَلَكًا﴾ وهذه أيضاً معارضة بالمشبهة باطلة، فإنه وإن كان لو شاء لأنزل ملائكة، فإنه حكيم رحيم، حكمته ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من جنس الآدميين، لأن الملك لا قدرة لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل ثم يعود اللبس عليهم كما كان.

التي اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في الأرض.

﴿وَأَهْلَكَ﴾ أي: أدخلهم ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ كاتبه.

﴿وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي: لا تدعني أن أنجيهم،

فإن القضاء والقدر قد حتم أنهم مغرورون.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ﴾ أي: علوتم عليها،

واستقلت بكم في تيار الأمواج، ولجج اليم، فاحمدوا الله

على النجاة والسلامة ﴿فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

وهذا تعليم منه له ولمن معه، أن يقولوا هذا شكرًا له، وحمدًا

على نجاتهم، من القوم الظالمين في عملهم وعذابهم.

﴿وَقُلِ رَبِّ أَنْزَلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ أي: وبقيت

عليكم نعمة أخرى، فادعوا الله فيها، وهي أن ييسر الله لكم

منزلًا مباركًا، فاستجاب الله دعاءه، قال الله: ﴿وَوَيْلَى الْأَمْرِ

وَاسْتَوَتْ عَلَى الْمُجْرِمِيِّ وَوَيْلٌ بَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ إلى أن قال: ﴿قِيلَ

يَنْجُحْ أَيْقُطُ يَسْلُكُو مِنَّا وَبَرَكَّتْ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمُومٍ وَمَنْ مَعَكَ﴾

الآية.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في هذه القصة ﴿لَايَةً﴾ تدل على أن

الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحًا صادق، وأن قومه

كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده، حيث حملهم في صلب

أبيهم نوح، في الفلك لما غرق أهل الأرض.

والفلك أيضًا من آيات الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً

فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ولهذا جمعها هنا لأنها تدل على عدة آيات

ومطالب ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾.

(٣١-٤١) ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ فآرسلنا فيهم رسولًا

يُنَبِّئُهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ وقال المَلَأُ مِنْ

قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا

إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ ولكن

أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَبِيرُونَ﴾ أَيْبَعْدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ

رَبَابًا وَعِظَلُمْ أَنْكُمْ تُخْرِجُونَ﴾ هِيَآت هِيَآت لِمَا تُوعَدُونَ﴾ إِنَّ هِيَ إِلَى

حِكَايَاتِنَا الدُّنْيَا تَمُوتُ وَتَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى

عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا

كَذَّبْتُمْ﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ فَلَاخَذْتُمُ الصَّبْحَةَ بِالْحَقِّ

فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ لما ذكر نوحًا وقومه،

وكيف أهلكتهم قال: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ﴾ الظاهر

أنهم «ثمود» قوم صالح عليه السلام لأن هذه القصة تشبه

قصتهم.

﴿فَآرسلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ من جنسهم، يعرفون نسبه وحسبه

وصدقه، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم، إذا كان منهم، وأبعد

عن اشمزازهم، فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أممهم ﴿أَنْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا

مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُلِ رَبِّ أَنْزَلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ

الْمُنْزِلِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا

مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤١﴾ فَآرسلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا

اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٤٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةَ وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا

تَشْرَبُونَ ﴿٤٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَبِيرُونَ

﴿٤٤﴾ أَيْبَعْدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ رَبَابًا وَعِظَلُمْ أَنْكُمْ تُخْرِجُونَ

﴿٤٥﴾ هِيَآت هِيَآت لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٤٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حِكَايَاتُنَا

الَّذِينَ تَمُوتُ وَتَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٤٧﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ

افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٤٨﴾ قَالَ رَبِّ

أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتُمْ ﴿٤٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٥٠﴾

فَلَاخَذْتُمُ الصَّبْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُصَاءً فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ

الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٥٢﴾

اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ فكلمهم اتفقوا على هذه الدعوة،

وهي أول دعوة يدعو بها أممهم، الأمر بعبادة الله، والإخبار

أنه المستحق لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار

ببطلان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ربكم،

فنجبتوا هذه الأوثان والأصنام.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَآتَرَفْنَاهُمْ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر

والمعاندة، وأطغاهم ترفهم في الحياة الدنيا، معارضة لنيبهم،

وتكذيبًا وتحذيرًا منه:

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي: من جنسكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ

مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ فما الذي يفضله عليكم؟ فهلا كان

ملكًا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَبِيرُونَ﴾ أي: إن تبعتموه

وجعلتموه لكم رئيسًا، وهو مثلكم إنكم لمسلوبو العقل،

(١) كتب الشيخ هذه الآية فقال: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ يَوْهَ جَنَّةً فَدَرَّصُوا بِهِ حَقِّ

جِنِّ﴾ وهذا سبق قلم منه - رحمه الله - وسيفسرهما فيما يلي على نحو مما

أُتيت، وقد تركت تفسيره للآيات كما هو.

﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصِحُّنَّ نَارِيَيْنِ ۖ فَاذْهَبْتُمْ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۗ لَا بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ، بل بالعدل وظلمهم، أخذتهم الصيحة، فأهلكتهم عن آحرهم.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ عُثْقًا ۗ أَي: هشيماً يسباً بمنزلة غشاء السبل الملقى في جنبات الوادي، وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمٍ الْمَخْتَلِّ ۗ﴾.

﴿فَبَعَدْنَا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۗ أَي: أتبعوا مع عذابهم البعد واللعة والذم من العالمين ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ۗ﴾.

(٤٢-٤٤) ﴿ثُمَّ أُنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ۖ مَا تَنبِئُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَجِزُونَ ۖ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا ثَمَرًا كُلِّ مَا جَاءَهُ أُمَّةٌ رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ فَبِعَدَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۗ أَي: ثم أنشأنا من بعد هؤلاء المكذبين المعاندين قروناً آخرين، كل أمة في وقت مسمى، وأجل محدود، لا تتقدم عنه ولا تتأخر، وأرسلنا إليهم رسلاً متتابعة، لعلمهم يؤمنون وبينون.

فلم يزل الكفر والتكذيب دأب الأمم العصاة، والكفرة البغاة، كلما جاء أمة رسولها كذبوه، مع أن كل رسول يأتي من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، بل مجرد دعوة الرسل وشرعهم، يدل على حقية ما جاءوا به.

﴿فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا ۗ بِالْهَلَاكِ، فلم يبق منهم باقية، وتعطلت مساكنهم من بعدهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آحَادِيثَ ۗ يتحدث بهم من بعدهم، ويكونون عبرة للمتقين، ونكالا للمكذبين، وخزياً عليهم مقروناً بعذابهم، ﴿فَبَعَدْنَا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ۗ ما أشقاهم!! وتعسا لهم، ما أخسر صفقتهم!!

(٤٥-٤٩) ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَنٍ مُّبِينٍ ۖ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۖ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ۖ فَقَالُوا أَأَنْزَلُنَا لِسْرَيْنِ وَمِثْلَنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِيدُونَ ۖ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ۖ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَمَّا هَمَّ بِهَدْيُونِ ۗ مر عليّ منذ زمان طويل، كلام لبعض العلماء لا يحضرني الآن اسمه، وهو أنه بعد بعث موسى ونزول التوراة، رفع الله العذاب عن الأمم، أي: عذاب الاستئصال، وشرع للمكذبين المعاندين الجهاد، ولم أدر من أين أخذه، فلما تدرت هذه الآيات، مع الآيات التي في سورة القصص، تبين لي وجهه، أما هذه الآيات، فلأن الله ذكر الأمم المهلكة المتتابعة على الهلاك، ثم أخبر أنه أرسل موسى بعدهم، وأنزل عليه التوراة فيها الهداية

نادمون على ما فعلتم، وهذا من العجب، فإن الخسارة والندامة حقيقة، لمن لم يتابعه، ولم يتقدم له، والجهل والسفه العظيم، لمن تكبر عن الانقياد لبشر خصه الله بوحيه، وفضله برسالته، وابتلي بعبادة الشجر والحجر.

وهذا نظير قولهم: ﴿فَقَالُوا أَبَشْرًا مِثَّا وَجِدًا نَبِيعُهُ ۗ إِنَّا إِذَا لَبِئْنَا سَبَلًا لَسَعُرٍ ۖ أَهْلَقِيَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ۗ فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال فقالوا:

﴿أَبِيدُكُمُ الْكُفْرَ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ ۖ هَيَّاتَ هَيَّاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ۗ أَي: بعيد بعيد ما يعدكم به، من البعث، بعد أن تمزقتم، وكنتم تراباً وعظاماً، فنظروا نظراً قاصراً، ورأوا هذا بالنسبة إلى قدرهم غير ممكن، فقاسوا قدرة الخالق بقدرهم، تعالى الله، فأنكروا قدرته على إحياء الموتى وعجزوه غاية التعجيز، ونسوا خلقهم أول مرة، وأن الذي أنشأهم من العدم، فإعادته لهم بعد البلى أهون عليه، وكلاهما هين لديه، فلم لا ينكرون أول خلقهم، ويكابرون المحسوسات، ويقولون: إننا لم نزل موجودين حتى يسلم لهم إنكارهم للبعث، ويتقلوا معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود المخلوق العظيم؟.

وهنا دليل آخر، وهو أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحبي الموتى، إنه على كل شيء قدير، وتمّ دليل آخر، وهو ما أجاب به المنكرين للبعث في قوله: ﴿بَلْ يَجْعَلُونَ أُنُفُسَهُمْ مُنْتَدِبَةً فَمَا أَكْفَرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۖ أَوَدَا مِثَّا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۗ فقال في جوابهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ۗ أَي: في البلى ﴿وَعِدْنَا كُنْتُ حَفِظُ ۗ﴾.

﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الْأَدْنَىٰ نَمُوتُ وَنَحْيَا ۗ أَي: يموت أناس، ويحيا أناس ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ۗ﴾، ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ حِجَّةٌ ۗ﴾^(١) فهذا أتى بما أتى به، من توحيد الله، وإثبات المعاد ﴿فَتَرِيضُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ۗ أَي: ارفعوا عنه العقوبة بالقتل وغيره، احتراماً له، ولأنه مجنون غير مؤاخذ بما يتكلم به، أي: فلم يبق بزعمهم الباطل مجادلة معه لصحة ما جاء به، فإنهم قد عرفوا^(٢) بطلانه، وإنما بقي الكلام، هل يوقعون به أم لا؟ فيزعمهم أن عقولهم الرزينة اقتضت الإبقاء عليه، وترك الإيقاع به مع قيام الموجب، فهل فوق هذا العناد والكفر غاية؟!

ولهذا لما اشتد كفرهم، ولم ينفع فيهم الإنذار، دعا عليهم نبيهم فقال: ﴿رَبِّ أَصْرِي يَمَا كَذَّبُونُ ۗ أَي: ياهلاكهم، وخزيهم الدنيوي، قبل الآخرة ﴿قَالَ ۗ﴾ الله مجيباً لدعوته:

(١) ينظر التعليق السابق. (٢) في ب: زعموا.

للناس، ولا يرد على هذا إهلاك فرعون، فإنه قبل نزول التوراة، وأما الآيات التي في سورة القصص، فهي صريحة جداً، فإنه لما ذكر هلاك فرعون قال:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بِصَآئِرٍ لِلنَّاسِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فهذا صريح أنه آتاه الكتاب بعد هلاك الأمم الباغية، وأخبر أنه أنزله بصائر للناس، وهدى ورحمة.

ولعل من هذا، ما ذكر الله في سورة "يونس" من قوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد نوح ﴿رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ لِيَأْتِيَهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْعُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْمُتَعَمِّينَ﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿الآيات، والله أعلم.

فقوله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ﴾ بن عمران، كليم الرحمن ﴿وَأَخَاهُ هَارُونَ﴾ حين سأل ربه أن يشركه في أمره فأجاب سؤله.

﴿بِآيَاتِنَا﴾ الدالة على صدقهما وصحة ما جاء به ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة بيّنة، من قوتها أن تقهر القلوب، وتتسلط عليها لقوتها فتتقاد لها قلوب المؤمنين، وتقوم الحجة البيّنة على المعاندين وهذا كقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ ولهذا رئيس المعاندين عرف الحق وعاند ﴿فَسَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أي: بتلك الآيات البيّنات ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ف ﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءُ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنِ مَسْحُورًا﴾ وقال تعالى: ﴿وَجحدُوا بِهَا وَاسْتَقْبَلْنَهَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾.

وقال هنا: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ إلى فرعون وملايئنه ﴿ك همامان﴾ وغيره من رؤسائهم ﴿فَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: تكبروا عن الإيمان بالله، واستكبروا على أنبيائه.

﴿وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ أي: وصفهم العلو والقهر والفساد في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غير مستكثر منهم.

﴿فَقَالُوا﴾ كبراً وتبهاً، وتحذيراً لضعفاء العقول، وتمويهاً: ﴿أَنْزِينُ لِبَشَرِينَ مِثْلِكَ﴾ كما قاله من قبلهم سواء بسواء، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا منه الله عليهما بالرسالة.

﴿وَقَوْمَهُمَا﴾ أي: بنو إسرائيل ﴿لَنَا عِيدُونَ﴾ أي: معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاهُمْ مِنْ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

٣٤٥

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

مَآسِيقٍ مِنْ أُمَّةٍ أَدْبَاهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلَّ مَآجَاءٍ أُمَّةٍ رَّسُولًا كَذِبُوهَ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعَدَ الْقَوْمَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٩﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٥٠﴾ فَقَالُوا أَنْزِينُ لِبَشَرِينَ مِثْلَنَا وَقَوْمَهُمَا لِنَاعِيدُونَ ﴿٥١﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٤﴾ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَإِنْ هَدَيْتُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَالْقَوْمُ ﴿٥٦﴾ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٧﴾ فَذَرَهُمْ حَتَّىٰ تَسْمُرَتْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٨﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ ﴿٥٩﴾ نَسْرَعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَشَاءُتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يُرْبِحُونَ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٣﴾

عَالٍ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعِقَابِ يُدَبِّحُونَ أَنبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟ وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟!

ونظير قولهم، قول قوم نوح: ﴿أَنْزِينُ لَكَ وَأَتَّبِعَكَ الْأَرْدَلُونَ﴾ ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بُدَىٰ الْأَرَىٰ﴾ من المعلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق، وأنه تكذيب ومعاندة. ولهذا قال: ﴿تَكذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ في الغرق في البحر، وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ﴾ بعدما أهلك الله فرعون وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى، وتمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم، وإظهار شعائره، وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة، فذهب لمبقات ربه، قال الله تعالى: ﴿وَكُتِبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةٌ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

(٥٠) ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ أي: وامتتنا على عيسى ابن مريم، وجعلناه وأمه من

الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، لأنهم بهم يقتدون، وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كَلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَشْكُرُونَ﴾ فالواجب من كل المتسبين إلى الأنبياء وغيرهم، أن يمتثلوا هذا، ويعملوا به، ولكن أبى الظالمون المفترون إلا عصياناً، ولهذا قال:

﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: تقطع المتسبون إلى اتباع الأنبياء ﴿أَمْرَهُمْ﴾ أي: دينهم ﴿بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ أي: قطعاً ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ أي: بما عندهم من العلم والدين.

﴿فَرِحُوا﴾ يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق، مع أن المحق منهم من كان على طريق الرسل، من أكل الطيبات، والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطلون. ﴿فَدَرَّعُهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ﴾ أي: في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم^(١) المحقون ﴿حَتَّىٰ جِئَ﴾ أي: إلى أن ينزل العذاب بهم، فإنهم لا ينفع فيهم وعظ، ولا يفيدهم زجر، وكيف يفيد من يزعم أنه على الحق، ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُوَدِّعُهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنَ﴾ أي: أظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد، دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟ وهذا مقدم لهم، ليس الأمر كذلك.

﴿بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنما نملي لهم، ونمهلم، ونمدهم بالنعم، ليزدادوا إثماً، وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليغبطوا بما أوتوا ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً﴾.

(٥٧-٦٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ حَشِيَّةٍ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يَوْمُونَ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَزَنِ لَهُمْ سُخْرُونٌ﴾ وَلَا تَكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَذِينَ كَتَبَ يَلْحَقُ بِهِمْ رَبُّهُمْ أَيُّهَا الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِسَاءَةِ وَالْأَمْنِ، الَّذِينَ يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ حَشِيَّةٍ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ﴾ أي: وجلون، مشفقة قلوبهم كل ذلك من خشية ربهم، خوفاً أن يضع عليهم عدله، فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم بربهم، وما يستحقه من الإجلال والإكرام،

آيات الله العجيبة، حيث حملته وولده من غير أب، وتكلم في المهد صبيّاً، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى.

﴿وَأَوْسَيْنَهُمَا إِلَىٰ زَيْبٍ﴾ أي: مكان مرتفع، وهذا - والله أعلم - وقت وضعها.

﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ أي: مستقر وراحة ﴿وَمَوْبٍ﴾ أي: ماء جار، بدليل قوله: ﴿فَدَّ جَمَلَ رَبِّكَ تَحَاكِي﴾ أي: تحت المكان الذي أنت فيه، لارتفاعه، ﴿سَرِيًّا﴾ أي: نهراً وهو المعين ﴿وَهُرَيْرِيٰ إِلَيْكَ يَجْعَلُ النَّخْلَةَ شَفِيطَةً عَلَيْكَ رَطْبًا حَيْثَا﴾ فكلِّي وَأَشْرِي وَفَرِي عَيْتًا.

(٥١-٥٦) ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَءَامَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ وَجِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿فَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ فَدَرَّعُهُمْ فِي عَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ جِئَ ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُوَدِّعُهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَيْنَ﴾ سَأَرِعُ لَهُمْ فِي الْحَزَنِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات، التي هي الرزق الطيب الحلال، وشكر الله بالعمل الصالح، الذي به يصلح القلب والبدن، والدنيا والآخرة، ويخبرهم أنه بما يعملون عليهم، فكل عمل عملوه، وكل سعي اكتسبوه، فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله، فدل هذا على أن الرسل كلهم متفقون على إباحة الطيبات من المآكل وتحريم الخبائث منها، وأنهم متفقون على كل عمل صالح وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات، واختلفت بها الشرائع، فإنها كلها عمل صالح ولكن تتفاوتت بتفاوت الأزمنة.

ولهذا، الأعمال الصالحة التي هي صلاح في جميع الأزمنة قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع، كالأمر بتوحيد الله، وإخلاص الدين له ومحبته وخوفه ورجائه، والبر، والصدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الضعفاء والمساكين، واليتامى، والحنو والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم والكتب السابقة والعقل حين بعث الله محمداً ﷺ، يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به، وينهى عنه.

كما جرى له رقل وغيره، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء الذين من قبله، ونهى عما نهوا عنه، دل على أنه من جنسهم، بخلاف الكذاب، فلا بد أن يأمر بالشر، وينهى عن الخير.

ولهذا قال تعالى للرسول: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ جَمَاعَتِكُمْ - يَا مَعْشَرَ الرُّسُلِ - جَمَاعَةٌ وَجِدَةٌ﴾ متفقة على دين واحد، وربكم واحد.

﴿فَاتَّقُونِ﴾ بامثال أوامري، واجتتاب زواجري، وقد أمر

(١) في النسختين: هو.

وقت إليه.

﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَتْلُقُ بِالْحَقِّ﴾ وهو الكتاب الأول، الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون، فلذلك كان حَقًّا. ﴿وَهُمْ لَا يَتْلُونَ﴾ ينقص من إحسانهم، أو يزداد في عقوبتهم وعصيانهم.

(٦٧-٦٣) ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرٍ مِّنْ هَذَا وَهُمْ أَعْمَلُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عِلْمُونَ﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ ○ لَا يَجْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تَصُرُونَ ○ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنزلُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ نَنكَبُونَ ○ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْتَجِرُونَ﴾ يخبر تعالى أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا، أي: وسط غمرة من الجهل والظلم والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن، فلا يهتدون به، ولا يصل إلى قلوبهم منه شيء، ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ○ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ فلما كانت قلوبهم في غمرة منه، عملوا بحسب هذا الحال، من الأعمال الكفرية، والمعاندة للشرع، ما هو موجب لعقابهم.

﴿و﴾ لكن ﴿لَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ﴾ هذه الأعمال ﴿هُم لَهَا عِلْمُونَ﴾ أي: فلا يستغربوا عدم وقوع العذاب فيهم، فإن الله يمهلهم، ليعملوا هذه الأعمال التي بقيت عليهم، مما كتب عليهم، فإذا عملوها واستوفوها انتقلوا بشر حالة إلى غضب الله وعقابه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ أي: متعميهم الذين ما اعتادوا إلا الترف والرفاهية والنعيم، ولم تحصل لهم المكاره، فإذا أخذناهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ ووجدوا مَسَّهُ ﴿إِذَا هُمْ يَجْتَرُونَ﴾ يصرخون ويتوجعون، لأنه أصابهم أمر خالف ما هم عليه. ويستغيثون، فيقال لهم: ﴿لَا يَجْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تَصُرُونَ﴾، وإذا لم تأتهم النصرة من الله، وانقطع عنهم^(١) الغوث من جانبه لم يستطيعوا نصر أنفسهم، ولم ينصرهم أحد.

فكأنه قيل: ما السبب الذي أوصلهم إلى هذا الحال؟ قال: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنزلُ عَلَيْكُمْ﴾ لتؤمنوا بها وتقبلوا عليها، فلم تفعلوا ذلك، بل كنتم ﴿عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ نَنكَبُونَ﴾ أي: راجعين القهقري إلى الخلف، وذلك لأن باتباعهم القرآن يتقدمون، وبالإعراض عنه يتأخرون وينزلون إلى أسفل سافلين. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْتَجِرُونَ﴾ قال المفسرون: معناه:

(١) كذا في ب، وفي أ: عنه.

وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَتْلِبُ رَبَّهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: إذا تلبت عليهم آياته، زادتهم إيمانًا، ويتفكرون أيضًا في الآيات القرآنية، ويتدبرونها، فيبين لهم من معاني القرآن وجلالته واتفاقه، وعدم اختلافه وتناقضه، وما يدعو إليه من معرفة الله، وخوفه ورجائه وأحوال الجزاء، فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان، ما لا يعبر عنه اللسان.

ويتفكرون أيضًا في الآيات الأفقية، كما في قوله: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إلى آخر الآيات.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ أي: لا شركًا جليًا، كاتخاذ غير الله معبودًا، بدعوه ويرجوه، ولا شركًا خفيًا كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله في أقوالهم وأعمالهم، وسائر أحوالهم.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ أي: يعطون من أنفسهم مما أمروا به، ما آتوا من كل ما يقدرون عليه، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك.

﴿و﴾ مع هذا ﴿قُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أي: خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾. أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله، لعلمهم بربهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

﴿أُولَٰئِكَ يَجْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي: في ميدان التسارع في أفعال الخير، همهم ما يقربهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه، انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه، أمامهم، ويمنة، ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم، فنافسواهم، ولما كان المسابق لغيره المسارع، قد يسبق لجده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال:

﴿وَهُمْ لَمَّا﴾ أي: للخيرات ﴿سَبِقُونَ﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعيّل الأول، ومع هذا قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون، ولما ذكر مسارعتهم إلى الخيرات وسبقهم إليها، ربما وهم واهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر، أخبر تعالى أنه لا يكلف ﴿نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: بقدر ما تسعه، ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها، رحمة منه وحكمة، لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمير جادة السالكين في كل

مستكبرين به، الضمير يعود إلى البيت، المعهود عند المخاطبين، أو الحرم، أي: متكبرين على الناس بسببه، تقولون: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا وأعلى ﴿سَمِرًا﴾ أي: جماعة يتحدثون بالليل حول البيت ﴿تَهَجُّرُونَ﴾ [أي: تقولون الكلام الهُجْر، الذي هو القبيح في^(١) هذا القرآن، فالمكذبون كانت طريقتهم في القرآن الإعراض عنه، ويوصي بعضهم بعضًا بذلك ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْعَوَّا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وقال الله عنهم: ﴿أَوَلَيْسَ هَذَا الْكَلِمَ تَعْبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ۝ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ﴾، ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾.

فلما كانوا جامعين لهذه الرذائل، لا جرم حقت عليهم العقوبة، ولما وقعوا فيها، لم يكن لهم ناصر ينصرهم، ولا مغيب يفتدhem، ويوبخون عند ذلك بهذه الأعمال الساقطة ﴿أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ﴾ أي: أفلا يتفكرون في القرآن ويتأملونه ويتدبرونه، أي: فإنهم لو تدبروه، لأوجب لهم الإيمان، ولمنعهم من الكفر، ولكن المصيبة التي أصابتهم بسبب إعراضهم عنه، ودل هذا على أن تدبر القرآن يدعو إلى كل خير، ويعصم من كل شر، والذي منعهم من تدبره أن على قلوبهم أفعالها.

﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أو منعهم من الإيمان، أنه جاءهم رسول وكتاب، ما جاء آباءهم الأولين، فرضوا بسلوك طريق آبائهم الضالين، وعارضوا كل ما خالف ذلك، ولهذا قالوا، هم ومن أشبههم من الكفار، ما أخبر الله عنهم: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ فأجابهم بقوله: ﴿قُلْ أَوْلُو حِجَّتِكُمْ بَاهِدَىٰ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ فهل تتبعون إن كان قصدكم الحق. فأجابوا بحقيقة أمرهم ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا﴾ أي: أو منعهم من اتباع الحق أن رسولهم محمداً ﷺ غير معروف عندهم، فهم منكرون له؟.

يقولون: لا نعرفه، ولا نعرف صدقه، دعونا حتى ننظر حاله، ونسأل عنه مَنْ له به خبرة، أي: لم يكن الأمر كذلك، فإنهم يعرفون الرسول ﷺ معرفة تامة، صغيرهم وكبيرهم يعرفون منه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه، وأمانته، حتى كانوا يسمونه قبل البعثة «الأمين»، فلم لا يصدقونه حين جاءهم بالحق العظيم والصدق المبين؟.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي: جنون، فلهذا قال ما قال،

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿١٦﴾
 أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَرَةِ وَهُمْ لَمَّاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَنْكَلِفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَبْنَا كُنْتَ بِنَطْقِ بِالْحَقِّ وَهَرَّ لَا يَظْمُونَ ﴿١٨﴾
 بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ لَمْ أَعْمَلْ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ ﴿٢٠﴾
 لَا تَجْعَرُوا أَلَيْسَ الْيَوْمَ إِنَّا لَنُصْرُونَ ﴿٢١﴾ فَكَانَتْ آيَاتِي تُنْتَلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تُنْكِرُونَ ﴿٢٢﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَمِرًا تَهَجُّرُونَ ﴿٢٣﴾ أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ يُنْكِرُوا ﴿٢٥﴾
 أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرْهُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٧﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خُرَاجًا فَخَرَجَ رِبْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِنَّا لَنَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٩﴾
 وَإِنَّا لَنَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ وَإِنَّا لَنَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣١﴾ وَإِنَّا لَنَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٢﴾

والمجنون غير مسموع منه، ولا عبرة بكلامه، لأنه يهذي بالباطل، والكلام السخيف.

قال الله في الرد عليهم في هذه المقالة: ﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ﴾ أي: بالامر الثابت الذي هو صدق وعدل، لا اختلاف فيه ولا تناقض، فكيف يكون من جاء به، به جنة؟! وهلا يكون إلا في أعلى درج الكمال، من العلم والعقل ومكارم الأخلاق، وأيضًا فإن في هذا الانتقال مما تقدم، أي: بل الحقيقة التي منعتم من الإيمان أنه ﴿جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرْهُونَ﴾ وأعظم الحق الذي جاءهم به إخلاص العبادة لله وحده، وترك ما يعبد من دون الله وقد علم كراهتهم لهذا الأمر، وتعجبهم منه، فكون الرسول أتى بالحق، وكونهم كارهين للحق بالأصل، هو الذي أوجب لهم التكذيب بالحق، لا شكًا ولا تكديبًا للرسول، كما قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَ بِكُلِّ ظَالِمٍ يَبْتَاطِ اللَّهُ يَحْجِدُونَ﴾.

فإن قيل: لِمَ لَمْ يكن الحق موافقًا لأهوائهم لأجل أن

يؤمنوا ويسرعوا الانقياد؟.

أجاب تعالى بقوله: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ ووجه ذلك أن أهواءهم متعلقة بالظلم والكفر والفساد من الأخلاق والأعمال، فلو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض لفساد التصرف والتدبير، المبني على الظلم وعدم العدل، فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل.

﴿بَلْ آتَيْنَهُمْ بَدْرِهِمْ﴾ أي: بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم، حين يقومون به، ويكونون به سادة الناس.

﴿فَهَرَّ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ شقاوة منهم، وعدم توفيق ﴿سَأَلُوا اللَّهَ فَفَسِحْرَهُمْ﴾ ﴿سَأَلُوا اللَّهَ فَأَسْتَسْأَلَهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فالقرآن ومن جاء به أعظم نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض، فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟ وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران؟.

(٧٢) ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَيْرًا فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ مِنَ الرَّزْقِينَ﴾ أي: أو منعهم من اتباعك يا محمد، أنك تسألهم على الإجابة أجراً ﴿فَهُمْ بَيْنَ مَقَرٍّ مُمَقَّلُونَ﴾ يتكلفون من اتباعك، بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك ﴿فَخَرَجَ رَيْكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّزْقِينَ﴾ وهذا كما قال الأنبياء لأممهم: ﴿يَقُولُوا لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾، ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ليسوا يدعون الخلق طمعاً فيما يصيبهم منهم من الأموال، وإنما يدعون نصحاً لهم، وتحصيلاً لمصالحهم، بل كان الرسل أنصح للخلق من أنفسهم، فجزاهم الله عن أمتهم خير الجزاء، ورزقنا الاقتداء بهم في جميع الأحوال.

(٧٣، ٧٤) ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّتُونَ﴾ ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمات كل سبب موجب للإيمان، وذكر الموانع، وبين فسادها واحداً بعد واحد، فذكر من الموانع أن قلوبهم في غمرة، وأنهم لم يدبروا القول، وأنهم اقتدوا بأبائهم، وأنهم قالوا: برسولهم جنه، كما تقدم الكلام عليها.

وذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم: تدبر القرآن، وتلقى نعمة الله بالقبول، ومعرفة حال الرسول محمد ﷺ، وكمال صدقه وأمانته، وأنه لا يسألهم عليه أجراً، وإنما سعيه لنفعهم ومصالحتهم، وأن الذي يدعوهم إليه صراط مستقيم، سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود من قرب حنيفة سمحة، حنيفة في التوحيد، سمحة في العمل، فدعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم، موجب لمن يريد الحق أن

يتبعك، لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه، وموافقته للمصالح، فأين يذهبون إن لم يتابعوك؟ فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك، لأنهم ﴿عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّتُونَ﴾ متجنبون منحرفون عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات.

وهكذا كل من خالف الحق، لا بد أن يكون منحرفاً في جميع أموره، قال تعالى: ﴿إِنَّ لَّكَ لَمَنْ يَسْتَحْسِبُ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُيَعِّتُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَعْتَرِ هُدَىٰ تَرْتُّبِ اللَّهِ﴾.

(٧٥-٧٧) ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَثَفْنَا مَا يَبِيحُ مِنْ ضَرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ○ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَصْرِفُونَ﴾ ○ ﴿حَقَّ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ﴾ هذا بيان لشدة تمردهم وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضر دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه، إن الله إذا كشف الضر عنهم لجأوا، أي: استمروا في طغيانهم يعمهن، أي: يجولون في كفرهم، حائرين مترددين.

كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك، وأنهم يدعونه مخلصين له الدين، وينسون ما يشركون به، فلما أنجاهم إذا هم يغيغون في الأرض بالشرك وغيره. ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ﴾ قال المفسرون: المراد بذلك الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاهم بذلك ليرجعوا إليه بالذلل والاستسلام، فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد.

﴿فَمَا اسْتَعَاذُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: خضعوا وذلوا ﴿وَمَا يَصْرِفُونَ﴾ إليه ويفتقرون، بل مرَّ عليهم ذلك، ثم زال، كأنه لم يصبهم، لم يزالوا في غيهم وكفرهم، ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، وهو قوله:

﴿حَقَّ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ كالقتل يوم بدر وغيره ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ﴾ آيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فليحذروا قبل نزول عذاب الله الشديد الذي لا يرد، بخلاف مجرد العذاب، فإنه ربما أطلع عنهم، كالعقوبات الدنيوية التي يؤدب الله بها عباده.

قال تعالى فيها: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(٧٨-٨٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ○ ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ○ ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يخبر تعالى

بمنته على عباده الداعية^(١) لهم إلى شكره، والقيام بحقه فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ لتدركوا به المسموعات فتنتفعوا في دينكم وديانكم.

﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ لتدركوا بها المبصرات، فتنتفعوا بها^(٢) في مصالحكم.

﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: العقول التي تدركون بها الأشياء، وتتميزون بها عن البهائم، فلو عدمتم السمع والأبصار والعقول بأن كنتم صمًا عميًا بكما ماذا تكون حالكم؟ وماذا تفقدون من ضرورياتكم وكما لكم؟.

أفلا تشكرون الذي منّ عليكم بهذه النعم، فتقومون بتوحيده وطاعته؟ ولكنكم قليل شكركم مع توالي النعم عليكم.

﴿وَهُوَ﴾ تعالى ﴿الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بئكم في أقطارها، وجهاتها، وسلطكم على استخراج مصالحها ومنافعها، وجعلها كافية لمعايشكم، ومساكنكم.

﴿وَالَّذِي يُخْرِجُ النَّخْلَ﴾ بعد موتكم، فيجازيكم بما عملتم في الأرض من خير وشر، وتحدث الأرض التي كنتم فيها بأخبارها.

﴿وَهُوَ﴾ تعالى وحده ﴿الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: المتصرف في الحياة والموت، هو الله وحده.

﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي: تعاقبهما وتناوبهما، فلو شاء أن يجعل النهار سرمدًا، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه؟ ولو شاء أن يجعل الليل سرمدًا، من إله غير الله، يأتيكم بضياء أفلا تبصرون؟ ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتعرفون أن الذي وهب لكم من النعم، السمع والأبصار والأفئدة، والذي نشركم في الأرض وحده، والذي يحيي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده، أن ذلك موجب لكم أن تخلصوا له العبادة، وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يتصرف بشيء، بل هو عاجز من كل وجه، فلو كان لكم عقل لم تفعلوا ذلك.

(٨١-٨٣) ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ قَالُوا أَوْدًا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: بل سلك هؤلاء المكذوبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعده غاية الاستبعاد وقالوا: ﴿أَوْدًا مِثْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: هذا لا يتصور، ولا يدخل العقل، بزعمهم.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

٣٤٧

الْمُؤْمِنُونَ

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ اللَّجْوَافِ طَغَيْنَاهُمْ يَعْمُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَاثُوا لِلرَّحْمَةِ وَمَا يَنْضَرَعُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذْ هُمْ فِيهِ مُبَسِّئُونَ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ ﴿٨١﴾ ﴿قَالُوا أَاءَ دَامِنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِزُكَ﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ ﴿٨٩﴾

﴿لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: ما زلنا نوجد بأن البعث كائن، نحن وآبائنا، ولم نره، ولم يأت بعد.

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: قصصهم وأسمارهم التي يتحدث بها وتلهي، وإلا فليس لها حقيقة، وكذبوا - فبجهم الله -، فإن الله أراهم من آياته أكبر من البعث، ومثله ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ الآيات ﴿وَدَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فِإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْبَرَّتْ وَرَبَّتْ﴾ الآيات.

(٨٤-٨٩) ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
 ○ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ○ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ○ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نُنْقِزُكَ ○ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ○ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ○ أي: قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره، محتجًا عليهم بما أبتوه، وأقروا به من توحيد الربوبية، وانفراد الله بها - على ما (١) كذا في ب، وفي أ: الداعي. (٢) كذا في ب، وفي أ: لتدركوا به المبصرات، فتنتفعون به.

الوجوه، وتركتهم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدير لجميع الأمور، فالعقول التي دلتكم على هذا لا تكون إلا مسحورة، وهي - بلا شك - قد سحرها الشيطان، بما زين لهم، وحسن لهم، وقلب الحقائق لهم، فسحر عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

(٩٠-٩٢) ﴿بَلْ أَنْتَنَّهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كُنَّا مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ۝ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول تعالى: بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق، المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع؟ وليس عندهم ما يعرضهم عنه، إلا الكذب والظلم، ولهذا قال: ﴿وَلَهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كُنَّا مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ كذب يعرف بخبر الله، وخبر رسله، ويعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي، على امتناع إلهين فقال: ﴿إِذَا﴾ أي: لو كان معه آلهة كما يقولون ﴿لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ أي: لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبتها.

﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فالغالب يكون هو الإله، وإلا فمع التمانع لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن يتنظم هذا الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر، والكواكب الثابتة والسيارة، فإنها منذ خلقت، وهي تجري على نظام واحد، وترتيب واحد، كلها مسخرة بالقدرة، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة على مصلحة أحد دون أحد، ولن ترى فيها خللاً ولا تناقضاً ولا معارضة في أدنى تصرف، فهل يتصور أن يكون ذلك، تقدير إلهين ربين؟! ﴿رَبِّينَ؟﴾

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ قد نطقت بلسان حالها، وأفهمت ببديع أشكالها، أن المدير لها إله واحد، كامل الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات في ربوبيته لها وفي إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته، كذلك لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة، ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط.

فقال: ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ﴾ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا

أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة، على ما أنكروه من إعادة الموتى، الذي هو أسهل من ذلك:

﴿لَمِنَ الْأَرْضِ وَمَنْ فِيهَا﴾ أي: مَنْ هو الخالق للأرض، ومن عليها من حيوان، ونبات، وجماد، وبحار، وأنهار، وجبال، المالك لذلك، المدير له؟ فإنك إذا سألتهم^(١) عن ذلك، لا يد أن يقولوا: الله وحده، فقل لهم إذا أقروا بذلك: ﴿أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به، مما هو معلوم عندهم، مستقر في فطركم، قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات.

والحقيقة أنكم إن رجعتم إلى ذاكرتكم، بمجرد التأمل علمتم أن مالك ذلك، هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو مملوك أبطل الباطل، ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال:

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَكَاتِ السَّجِيعِ﴾ وما فيها من الثيرات، والكواكب السيارات، والثوابت ﴿وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فمن الذي خلق ذلك، ودبره، وصرفه بأنواع التدبير؟ ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: سيقرون بأن الله رب ذلك كله.

قل لهم حين يقرون بذلك: ﴿أَفَلَا نُنَقِّوْنَ﴾ عبادة المخلوقات العاجزة، وتتقون الرب العظيم، كامل القدرة، عظيم السلطان؟ وفي هذا من لطف الخطاب، من قوله: ﴿أَفَلَا نَذَكَّرُونَ﴾، ﴿أَفَلَا نُنَقِّوْنَ﴾ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، ما لا يخفى، ثم انتقل إلى إقارهم بما هو أعم من ذلك كله فقال:

﴿قُلْ مَنْ يَبْدؤُا مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: ملك كل شيء، من العالم العلوي، والعالم السفلي، ما نبصره، وما لا نبصره؟. و«الملكوت» صيغة مبالغة، بمعنى الملك ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ عبادة من الشر، ويدفع عنهم المكاره، ويحفظهم مما يضرهم.

﴿وَلَا يُجَاكِرُ عَلَيْهِ﴾ أي: لا يقدر أحد أن يجير على الله، ولا يدفع الشر الذي قدره الله. بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ أي: سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير الذي لا يجار عليه.

﴿قُلْ﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزماً لهم: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي: فأين تذهب عقولكم، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع

(١) في أ: سألتهم.

من الواجبات والمستحيلات والممكنات .

﴿وَالشَّهَادَةَ﴾ وهو ما نشاهد من ذلك ﴿فَتَعَلَى﴾ أي: ارتفع وعظم .

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ به، من لا علم عنده إلا ما علمه الله (٩٣-٩٥) ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُ مَا يُوعَدُونَ ○ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ○ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيدَ مَا نَعُدُّهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة، فلم يلتفتوا لها، ولم يدعوا لها، حق عليهم العذاب، ووعدوا بنزوله، وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُ مَا يُوعَدُونَ﴾ أي: أي وقت أريتني عذابهم، وأحضرتني ذلك .

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: اعصمني واحمني، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم، واحمني أيضًا من العذاب الذي ينزل بهم، لأن العقوبة العامة تعم - عند نزولها - العاصي وغيره .

قال الله في تقرب عذابهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيدَ مَا نَعُدُّهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ ولكن إن أحرناه فلحكمة، وإلا فقدرتنا صالحة لإيقاعه فيهم .

(٩٦-٩٨) ﴿أَدْفَعْ بِآلِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ○ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ○ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ هذا من مكارم الأخلاق التي أمر الله رسوله بها، فقال: ﴿أَدْفَعْ بِآلِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ أي: إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاينة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء .

ومن مصالح ذلك أنه تخف الإساءة عنك، في الحال، وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل .

وليتصف العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الثواب من الرب، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِآلِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ○ وَمَا يُلْقِنَهَا أَي: ما يوفق لهذا الخلق الجميل ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَرَفُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ .

وقوله: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ أي: بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر، والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم، وأمهلناهم، وصبرنا عليهم، والحق لنا، وتكذيبهم لنا، فأنت - يا محمد - ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون، وتقابلهم بالإحسان، هذه (٢) وظيفة العبد في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٤٨

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ

بَلْ آتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٦﴾ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ اللَّهِ إِذَا الذَّهَبُ كُلُّهُ يَمَاحِقُ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿٩٧﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٩﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٠﴾ وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ تُرِيدَ مَا نَعُدُّهُمْ لَقَدِيرُونَ ﴿١٠١﴾ أَدْفَعْ بِآلِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٠٢﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ﴿١٠٣﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿١٠٤﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٠٥﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْحٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٦﴾ فَإِذَا نْفَخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا تَسَاءَلُونَ ﴿١٠٧﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٩﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُم نَارًا وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١١٠﴾

مقابلة المسيء من البشر .

وأما المسيء من الشياطين، فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير .
فالوظيفة في مقابله أن يسترشد ما أرشد الله إليه رسوله، فقال:

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ﴾ أي: اعتصم بحولك وقوتك متبرئًا من حولي وقوتي ﴿مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ○ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ أي: أعوذ بك من الشر الذي يصيني بسبب مباشرتهم، وهمزهم ومستمهم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه (٣) استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان، ومن مسه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه، سلم من كل شر، ووفق لكل خير .

(٩٩، ١٠٠) ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ○

(١) في ب شطب حرف الجر (من) وغيرت الجملة فصارت (ولا علم عندهم إلا ما علمه الله) . (٢) في النسختين: هذا . (٣) في النسختين: هذا .

كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل، ما له وما عليه، وتبين فيه ماثقيل الذر من الخير والشر.

﴿فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته ﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ كل خسارة غير هذه الخسارة، فإنها - بالنسبة إليها - سهلة.

ولكن هذه خسارة صعبة، لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فائتها، خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة، التي يتمكن بها من السعادة الأبدية فقوتها هذا النعيم المقيم، في جوار الرب الكريم.

﴿فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها أبد الآبدين، وهذا الوعيد، إنما هو كما ذكرنا، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافرًا، فعلى هذا، لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تُعدُّ أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها، ويقرون بها، ويخزون بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى سوء مصير الكافرين فقال: ﴿تَلَفَّحَ وَجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي: تغشاهم من جميع جوانبهم، حتى تصيب أعضاهم الشريفة، ويقطع لهابها عن وجوههم.

﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ قد عبست وجوههم، وقلصت شفاههم، من شدة ما هم فيه، وعظيم ما يلقونه.

فيقال لهم - توبيخًا ولومًا -: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ﴾ تدعون بها لتؤمنوا، وتعرض عليكم لتنتظروا ﴿فَكَذَّبُوا بِهَا﴾ تكذَّبوا ﴿ظَلَمًا مِنْكُمْ وَعَدَاةً﴾ وهي آيات بينات، دالات على الحق والباطل، مبيئات للمحق والمبطل.

فحينئذ أقروا بظلمهم، حيث لا ينفع الإقرار ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ أي: غلبت علينا الشقاوة الناشئة عن الظلم والإعراض عن الحق، والإقبال على ما يضر، وترك ما ينفع.

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ في عملهم، وإن كانوا يدرون أنهم ظالمون، أي: فعلنا في الدنيا فعل التائه، الضال السفية، كما قالوا في الآية الأخرى ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

(١) في النسختين وقع تداخل بين آيات سورة عبس وآيات سورة المعارج، فكانت أقرب إلى آيات سورة عبس فأثبتتها منها.

لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يخبر تعالى عن حال من حضره الموت، من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال إذا رأى ماله، وشاهد قبح أعماله، فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك يقول:

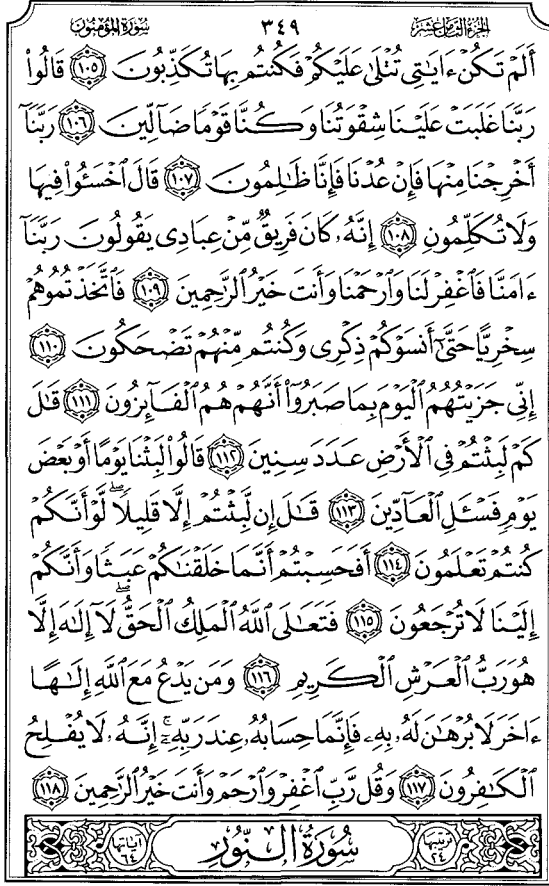
﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله ﴿كَلَّا﴾ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون ﴿إِنَّمَا﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضًا غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدَّ لعاد لما نُهي عنه.

﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيتين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة.

وفي هذا البرزخ يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، أي: فليُعدوا له عُذَّتَهُ، وليأخذوا له أُهْبَتَهُ.

(١٠١-١١٤) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَسْأَلُونَ﴾ وَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ○ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ○ تَلَفَّحَ وَجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ○ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُنَالُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ○ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ○ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ○ قَالَ أَهْسَبُ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ○ إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ○ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرًا حَتَّى أَنْسَوَكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ○ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ○ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ○ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسَلِّ الْعَازِينَ ○ قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون لميقات يوم معلوم، أنه يصيبهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم التي هي أقوى الأسباب، فغير الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحدًا عن حاله، لا اشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَبُرُّ الْبُرَّةُ مِنْ أَعْيُنِهِ ○ وَأَبْهَةٌ وَأَبْهَةٌ ○ وَصَحْبِهِ وَبَيْنَهُ ○ لِكُلِّ أُمَّةٍ يَوْمَئِذٍ نَّاسٌ يُعَذِّبُهُ﴾^(١)

وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها،



عده، فقال لهم: ﴿إِنْ لِيَشْتَرِيَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ سواء عيتم عدده، أم لا ﴿لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(١١٥، ١١٦) ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَشْيًا وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ﴾
 ﴿تَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ أي: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ﴾ أيها الخلق ﴿أَنْتُمْ خَلَقْتُمْ عَشْيًا﴾ أي: سدى وباطلاً، تأكلون وتشربون وتمرحون، وتمتعون بلدات الدنيا، وترككم لا نأمركم، ولا [ننهاكم، ولا نثيبكم، ونعاقبكم؟ ولهذا قال: ﴿وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ﴾ لا يخطر هذا ببالكم.

﴿فَتَعَلَّى اللَّهُ﴾ أي: تعاطم وارتفع عن هذا الظن الباطل الذي يرجع إلى القدر في حكمته.

﴿الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ فكونه مَلِكًا للخلق كلهم حقاً في صدقه ووعده ووعيدته، مألوهها معبوداً، لما له من الكمال ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ﴾ فما دونه من باب أولى، يمنع أن يخلقكم عبثاً.

(١) كذا في ب، وفي أ: كلمة غير واضحة كأنها: متاعل.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ وهم كاذبون في وعدهم هذا، فإنهم كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ ولم يبق الله لهم حجة، بل قطع أعذارهم، وعمّرهم في الدنيا، ما يتذكر فيه [من] المتذكر، ويرتدع فيه المجرم، فقال الله جواباً لسؤالهم.

﴿أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ وهذا القول - نسأله تعالى العافية - أعظم قول على الإطلاق يسمعه المجرمون في التخييب، والتوبيخ، والذل، والخسار، والتأيس من كل خير، والبشرى بكل شر، وهذا الكلام والغضب من الرب الرحيم، أشد عليهم وأبلغ في نكابتهم من عذاب الجحيم.

ثم ذكر الحال التي أوصلتهم إلى العذاب، وقطعت عنهم الرحمة فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فَرِيقًا مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَتًا قَاعِفِرْنَا وَإِرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ فجمعوا بين الإيمان المقتضي لأعماله الصالحة، والدعاء لربهم بالمغفرة والرحمة، والتوسل إليه بربوبيته، ومنتته عليهم بالإيمان، والإخبار بسعة رحمته، وعموم إحسانه، وفي ضمنه ما يدل على خضوعهم وخشوعهم، وانكسارهم لربهم وخوفهم ورجائهم.

فهؤلاء سادات الناس وفضلاؤهم ﴿فَأَتَّخَذْنَاهُمْ﴾ أيها الكفرة الأندال ناقصو العقول والأحلام ﴿سِخْرِيًّا﴾ تهزؤون بهم، وتحقرونهم، حتى اشتغلتم بذلك السفه.

﴿حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ وهذا الذي أوجب لهم نسيان الذكر، اشتغالهم بالاستهزاء بهم، كما أن نسيانهم للذكر يحثهم على الاستهزاء، فكل من الأمرين يمد الآخر، فهل فوق هذه الجراءة جراءة؟!

﴿إِنِّي جَزَيْتَهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعتي، وعلى أذاكم، حتى وصلوا إلي ﴿أَنَّه هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ بالنعيم المقيم، والنجاة من الجحيم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالِیَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ الْكُفَّارِ يُضْحَكُونَ﴾ الآيات.

﴿قَالَ﴾ لهم على وجه اللوم، وأنهم سفهاء الأحلام، حيث اكتسبوا في هذه المدة اليسيرة، كل شر أوصلهم إلى غضبه وعقوبته، ولم يكتسبوا ما اكتسبه المؤمنون [من] الخير الذي يوصلهم إلى السعادة الدائمة، ورضوان ربهم.

﴿كَمْ لِيَشْتَرِيَ الْأَرْضَ عِدَّةَ سِنِينَ﴾ قَالُوا لَيْسَ بِشَيْءٍ مِنْ يَوْمِ قَسَلِ الْعَادِينَ ﴿١٢٣﴾ قُلْ إِنْ لِيَشْتَرِيَ إِلَّا قَلِيلًا لَوِئَلَّا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَشْيًا وَأَنْتُمْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ ﴿١٢٥﴾ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقَّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿١٢٦﴾ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٢٧﴾ وَقُلْ رَبِّ أَعْرِفُوا رَحْمَتِي وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ ﴿١٢٨﴾

وأما هم، ففي شغل شاغل^(١)، وعذاب مذهل عن معرفة

القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب.
وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانيين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين ليشتهر، ويحصل بذلك العزري والارتداد، وليشاهدوا الحد فعلاً، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوى بها العلم، ويستقر بها الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزداد فيه ولا ينقص. والله أعلم.

(٣) ﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا بيان لرديلة الزنا، وأنه يندس عرض صاحبه، وعرض من قارنه ومازجه، ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخبر أن الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء، إلا أنثى زانية، تناسب حاله حالها، أو مشركة بالله لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله.

والزانية كذلك، لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿وَحَرِّمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: حرم عليهم أن ينكحوا زانياً، أو ينكحوا زانية.

ومعنى الآية: أن من اتصف بالزنا، من رجل أو امرأة، ولم يتب من ذلك، أن المقدم على نكاحه مع تحريم الله لذلك لا يخلو إما أن لا يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فذاك لا يكون إلا مشركاً، وإما أن يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه، فإن هذا النكاح زنا، والناكح زان مسافح، فلو كان مؤمناً بالله حقاً لم يقدم على ذلك، وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك إنكاح الزاني حتى يتوب، فإن مقارنة الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، أشد الاقترانات والازدواجات.

وقد قال تعالى: ﴿أَحْسِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: قراءهم، فحرم الله ذلك لما فيه من الشر العظيم، وفيه من قلة الغيرة، والحق الأولاد الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعفها بسبب اشتغاله بغيرها، مما بعضه كاف للتحريم^(١)، وفي هذا دليل: أن الزاني ليس مؤمناً، كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فهو وإن لم يكن مشركاً، فلا يطلق عليه اسم المدح، الذي هو الإيمان المطلق.

(٤، ٥) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءٍ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿لما عظم تعالى أمر الزاني^(٢) بوجود جلده وكذا رجمه إن كان محصناً، وأنه لا تجوز مقارنته، ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من (١) في ب: كاف في التحريم. (٢) في أ: الزنا، وفي ب الكلمة مشطوبة.

(١١٧، ١١٨) ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ أي: ومن دعا مع الله آلهة غيره، بلا بينة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً، فهذا سيقدم على ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئاً، لأنه كافر.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ فكفرهم منهم من الفلاح. ﴿وَقُلْ﴾ داعياً لربك مخلصاً له الدين ﴿رَبِّ اغْفِرْ﴾ لنا حتى نتجنبنا من المكروه، وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبد من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه. تم تفسير سورة المؤمنین، من فضل الله وإحسانه.

تفسير سورة النور

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: هذه ﴿سُورَةٌ﴾ عظيمة القدر ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ أي: قدرنا فيها ما قدرنا من الحدود والشهادات وغيرها.

﴿وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: أحكاماً جليلة، وأوامر وزواجر وحكمات عظيمة ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:
(٢) ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مائة جلدة، وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم، ونهانا تعالى أن تأخذنا رافة [بهما] في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهم، سواء رافة طبيعية أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرافة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة بإقامة حد الله عليه، فنحن وإن رحمناه لجرمان

سُورَةُ النُّورِ

٣٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ لِيُنذِرَ بَيْنْتَ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ

بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلِشَهِدِ

عَدَا بِيْهَامَا يَفِيءُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ

مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءِ

فَاجْلِدُوهُنَّ مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ

الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ

فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾

وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ

عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ

﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾

وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

المفقودة في غيره فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: الحرائر (١) لا المملوكات.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ على رميهم بذلك «شهادة» إلا أنفسهم» بأن لم

يقموا شهداء، على ما رموهم به «فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ

إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ» سماها شهادة، لأنها نائبة مناب الشهود،

بأن يقول: «أشهد بالله، إني لمن الصادقين، فيما رميتها به».

﴿وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: يزيد

في الخامسة مع الشهادة المذكورة، مؤكداً تلك الشهادات،

بأن يدعو على نفسه باللعة إن كان كاذباً، فإذا تم لعانه سقط

عنه حد القذف.

ظاهر الآيات، ولو سمي الرجل الذي رماها به، فإنه يسقط

حقه تبعاً لها، وهل يقام عليها الحد بمجرد لعان الرجل

ونكولها أم تحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدل عليه الدليل

أنه يقام عليها الحد بدليل قوله: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ﴾

إلى آخره، فلولا أن العذاب وهو الحد قد وجب بلعانه، لم

الشر، بين تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمي بالزنا

فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: النساء الحرائر العفاف،

وكذاك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالرمي الرمي

بالزنا، بدليل السياق.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ على ما رموا به «بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءِ﴾ أي: رجال

عدول، يشهدون بذلك صريحاً.

﴿فَاجْلِدُوهُنَّ مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ بسوط متوسط يؤلم فيه، ولا يبالغ

بذلك حتى يتلفه، لأن القصد التأديب، لا الإتلاف، وفي هذا

تقرير حد القذف، ولكن بشرط أن يكون المقدوف كما قال

تعالى محصناً مؤمناً، وأما قذف غير المحصن، فإنه يوجب

التعزير.

﴿وَلَا يَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أي: لهم عقوبة أخرى، وهو أن

شهادة القاذف غير مقبولة، ولو حُدَّ على القذف، حتى يتوب

كما يأتي.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله،

الذين قد كثر شرهم، وذلك لانتهاك ما حرم الله، وانتهاك

عرض أخيه، وتسليط الناس على الكلام بما تكلم به وإزالة

الأخوة التي عقدها الله بين أهل الإيمان، ومحبة أن تشيع

الفاحشة في الذين آمنوا، وهذا دليل على أن القذف من كبائر

الذنوب.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ

رَحِيمٌ﴾ فالتوبة في هذا الموضوع، أن يكذب القاذف نفسه،

ويقرب أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه أن يكذب نفسه ولو

تيقن وقوعه، حيث لم يأت بأربعة شهداء. فإذا تاب القاذف

وأصلح عمله، بدل إساءته إحساناً، زال عنه الفسق، وكذلك

تقبل شهادته على الصحيح، فإن الله غفور رحيم يغفر الذنوب

جميعاً لمن تاب وأتاب، وإنما يجلد القاذف إذا لم يأت بأربعة

شهداء إذا لم يكن زوجاً، فإن كان زوجاً، فقد ذكر بقوله:

(١٠-٦) ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ

فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ○ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ

لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ○ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ

شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ○ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ

كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ○ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ

حَكِيمٌ﴾ وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته دائرة عنه

الحد، لأن الغالب أن الزوج لا يقدم على رمي زوجته، التي

يدنسها ما يدنسها إلا إذا كان صادقاً، ولأن له في ذلك حقاً،

وخوفاً من إلحاق أولاد ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم

(١) في النسختين: الأحرار، ولعل الصواب ما أثبت.

يكن لعانها دارئًا له .

ويدرأ عنها، أي: يدفع عنها العذاب، إذ قابلت شهادات الزوج بشهادات من جنسها .

﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وتزيد في الخامسة، مؤكدة لذلك، أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان بينهما فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاعن عليه .

وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان، منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وأن لا ينقص منها شيء، ولا يبذل شيء بشيء، وأن اللعان مختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبارة به، كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو .

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ وجواب الشرط محذوف، يدل عليه سياق الكلام أي: لأحل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما، ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين، لشدة الحاجة إليه، وأن بين لكم شدة الزنا وفضاعته، وفضاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها .

(١١-٢٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُوا لَمْ يَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ إلى آخر الآيات، وهو قوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لما ذكر فيما تقدم تعظيم الرمي بالزنا عموماً، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات نزلت في قصة الإفك المشهورة الثابتة في الصحاح والسنن والمسائيد .

وحاصلها أن النبي ﷺ في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدها فانجست في طلبه ورحلوا جملها وهودجها، فلم يفقدوها ثم استقل الجيش راحلاً، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها رجعوا إليها، فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي، من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها ففرعها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعد ما نزل الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال أشاع ما أشاع، ووشى الحديث، وتلففته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانجس الوحي مدة طويلة عن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٥١

سُورَةُ النُّورِ

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ يَنْكُرُوا لَمْ يَحْسِبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَوْهُ بَالِغِ أَلْسِنَةٍ وَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيَسِّنُّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

الرسول ﷺ .

وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة، فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أي: الكذب الشنيع، وهو رمي أم المؤمنين ﴿عُصْبَةٌ يَنْكُرُوا﴾ أي: جماعة متسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق [في إيمانه، ولكنه اغتر بترويج المنافقين] (١)، ومنهم المنافق .

﴿لَمْ يَحْسِبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لما تضمن ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، ولذلك جعل الخطاب عاماً مع المؤمنين كلهم، وأخبر أن قلدح بعضهم ببعض، كقدح في

﴿وَتَقُولُونَ يَا قَوَاهِرُكَ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم ﴿وَتَحَسَّبُونَهُ هَيْئًا﴾ فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك ﴿وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ وهذا فيه الزجر البالغ عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها، فإن العبد لا يفيد حسابه شيئاً، ولا يخفف من عقوبة الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقفته مرة أخرى.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَعَيْتُمْوَهُ أَي: وهلا إذ سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإفك ﴿فَلْتَمَنَّ﴾ منكرين لذلك، معظمين لأمره: ﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا﴾ أي: ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام بهذا الإفك المبين، لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح ﴿هَذَا بَيِّنَةٌ﴾ أي: كذب عظيم.

﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِيَلْبِسَهُ﴾ أي: لنظيره من رُفِي المؤمنين بالفجور، فالله يعظكم وينصحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربنا، فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان، والتسليم والشكر له على ما بين لنا، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْئُتُكُمْ بِرَبِّهِ﴾.

﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات.

﴿وَيَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ الْمَشْتَمَلَةَ عَلَى بَيَانِ الْأَحْكَامِ وَالْوَعظِ، والزجر والترغيب والترهيب، يوضحها لكم توضيحاً جلياً ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: كامل العلم عام الحكمة، فمن علمه وحكمته أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ﴾ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة المستعظمة، فيحبون أن تشتهر الفاحشة ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ أمثوا لهم عذاب ألمٍ﴾ أي: موجع للقلب والبدن، وذلك لعنه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراءته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك من إظهاره ونقله؟! وسواء كانت الفاحشة صادرة أو غير صادرة.

وكل هذا من رحمة الله بعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلذلك علمكم، ويبين لكم ما تجهلونه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ قد أحاط بكم من كل جانب

أنفسهم، فيه أن المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم واجتماعهم على مصالحهم كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كالنيان يشد بعضه بعضاً، فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه، فليكره من كل أحد أن يقدح في أخيه المؤمن الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة، فإنه من نقص إيمانه، وعدم نصحه.

﴿لِكُلِّ أَرَبٍ مَنَّهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِنْتِرَةِ﴾ وهذا وعيد للذين جاءوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا من ذلك، وقد حد النبي ﷺ منهم جماعة.

﴿وَالَّذِي قَوْلُكَ كِبَرٌ﴾ أي: معظم الإفك، وهو المناق الخبيث، عبد الله بن أبي ابن سلول، لعنه الله ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَعَيْتُمْوَهُ طَرَفَ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَأْقِسُهُمْ خَيْرًا﴾ أي: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة مما رموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل.

﴿وَقَالُوا﴾ بسبب ذلك الظن: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عن كل سوء، وعن أن تبغى أصفياءك بالأمور الشنيعة.

﴿هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ أي: كذب وبهت، من أعظم الأشياء وأبينها فهذا من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن، مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ أي: هلا جاء الرامون على ما رموا به بأربعة شهداء، أي: عدول مرضيين.

﴿وَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله، لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك من دون أربعة شهود، ولهذا قال: ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾، ولم يقل: «فأولئك هم الكاذبون». وهذا كله من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه من دون نصاب الشهادة بالصدق.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ بحيث شملكم إحسانه فيهما، في أمر دينكم ودنياكم ﴿لَسَكَّرَ فِي مَا أَفَضْتُمْ﴾ أي: خضتم ﴿فِيهِ﴾ من شأن الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لاستحقاقكم ذلك بما قلتم ولكن من فضل الله عليكم ورحمته أن شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسَّتِينِ﴾ أي: تلقفونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض وتستوشون حديثه، وهو قول باطل.

سورة النور

٣٥٢

سورة النور

﴿وَرَحْمَتُهُ﴾ عليكم ﴿وَأَنَّ اللَّهَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لَمَا بَيْنَ لَكُمْ هَذِهِ الْأَحْكَامِ وَالْمَوَاعِظِ، وَالْحُكْمَ الْجَلِيلَةَ، وَلَمَّا أَهْمَلَ مِنْ خَالَفَ أَمْرَهُ، وَلَكِنْ فَضَلَهُ وَرَحْمَتَهُ، وَأَنَّ ذَلِكَ وَصَفَهُ اللَّازِمَ أَثَرَ لَكُمْ مِنَ الْخَيْرِ الدُّنْيَوِيِّ وَالْآخِرِيِّ، مَا لَنْ تَحْصُوهُ، أَوْ تَعْدُوهُ.

ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه، نهى عن الذنوب عموماً فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طرقة وسواسه، وخطوات الشيطان، يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب واللسان والبدن.

ومن حكمته تعالى أن بين الحكم، وهو النهي عن اتباع خطوات الشيطان، والحكمة وهو بيان ما في المنهي عنه من الشر المقتضى، والداعي لتركه فقال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ﴾ أي: الشيطان ﴿يَأْتِرْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع من الذنوب العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه. ﴿وَالذُّكْرُ﴾ وهو ما تنكره العقول ولا تعرفه، فالمعاصي التي هي خطوات الشيطان لا تخرج عن ذلك، فنهى الله عنها العباد نعمة منه عليهم، أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالردائل والقبائح.

فمن إحسانه عليهم أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ أَحَدٌ أَبَدًا﴾ أي: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى، هو وجنده في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أمانة به، والنقص مُسْتَوَلٌّ على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خَلِيَ وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالنظر من الذنوب والسيئات، والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء. ولكن فضله ورحمته أوجب أن يتزكى منكم من تزكى.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها» ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ من يعلم منه أن يزكى بالتزكية، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

﴿وَلَا يَأْتَلُ﴾ أي: لا يحلف ﴿أَوْلُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَن يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيَعْتَمُوا وَيَصْتَمُوا﴾.

كان من جملة الخائضين في الإفك «مسطح بن أثانة» وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، لقوله الذي قال.

فزلت هذه الآية، ينهاهم^(١) عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعدّه بمغفرة الله، إن غفر له فقال: ﴿أَلَا يُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إذا عاملتم عبيده بالعفو والصفح عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية - بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع النفقة إلى مسطح.

وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم.

ثم ذكر الوعيد الشديد على رمي المحصنات فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: العفاف عن الفجور ﴿الْعَفْلَاتِ﴾ اللاتي لم يخطر ذلك بقلوبهن ﴿الْمُؤْمِنَاتِ لَعْنًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ واللعنة، لا تكون إلا على ذنب كبير.

وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين ﴿وَالَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحل

(١) كذا في النسختين.

بهم شدة نقمته .

وذلك العذاب يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَآيَاتُهُمْ وَآرِئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فكل جارحة تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسهم .

﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ أي: جزاءهم على أعمالهم، الجزاء الحق الذي بالعدل والقسط، يجدون جزاءها موفراً، لم يفقدوا منها شيئاً .

﴿وَيَقُولُونَ يَا لَيْسَ لَنَا مَالٌ هَذَا أَكَنَّا لَآبَاءِ صَغِيرَةٍ وَلَا كِبِيرَةٍ إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ويعلمون في ذلك الموقف العظيم أن الله هو الحق المبين، فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى .

فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعدته ووعيدته وحكمه الديني والجزائي حق، ورسله حق، فلا تم حق إلا في الله، وما من الله .

﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ لِلخَيْثِ وَالخَيْثِ وَالخَيْثِ لِلخَيْثِ﴾ أي: كل خيثة من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسب للخيث، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء والكلمات والأفعال مناسب للطيب، وموافق له، ومقترن به، ومشاكل له .

فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته أن الأنبياء خصوصاً وأولي العزم منهم، خصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق، لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء .

فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ، وهو المقصود بهذا الإفك، من قصد المناققين، فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة، من هذا الأمر القبيح .

فكيف وهي هي؟! صديقة النساء، وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها .

ثم صرح بذلك بحيث لا يبقى لمبطل مقالاً، ولا لشك وشبهة مجالاً فقال: ﴿أُولَئِكَ مَرَّةٌ وَمَا يَقُولُونَ﴾ والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً ﴿هُنَّ مَفْوَرَةٌ﴾ تستغرق الذنوب ﴿وَرَزَقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة صادر من الرب الكريم .

(٢٧-٢٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَلَسَلِمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ يرشد الباري عباده المؤمنين أن لا يدخلوا بيوتاً غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفساد:

منها ما ذكره الرسول ﷺ، حيث قال: «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»، فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده .
ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حتى يستأمنوا أي: يستأذنوا، سمي الاستئذان استئناساً، لأنه به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة .

﴿وَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ وصفة ذلك ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أَدْخَلَ؟» .

﴿ذَلِكَ﴾ أي: الاستئذان المذكور ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن دخل المستأذن .

﴿فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آرْجِعُوا فَآرْجِعُوا﴾ أي: فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تغضبوا منه، فإن صاحب المنزل لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبر والاشمئزاز من هذه الحال .

﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أي: أشد لتطهيركم من السيئات، وتتميتكم بالحسنات، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن، وعدمه .

هذا الحكم في البيوت المسكونة، سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة التي لا متاع فيها للإنسان .

وأما البيوت التي ليس فيها أهلها، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه، وذلك كبيوت الكراء وغيرها، فقد ذكرها بقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم، وفيه حرج، «أن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ وهذا من احترازاات القرآن العجيبة، فإن قوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾

سورة النور

٣٥٣

سورة النور

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ أَوْ فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُوَدِّنَ لَكُمْ وَإِنْ
 قِيلَ لَكُمْ أَنْجِعُوا فَأَنْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ
 عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
 فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٣٩﴾
 قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَحْفَظُوا أَرْوَاحَهُمْ
 ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ
 يَعْضُضْنَ مِنْ أَيْدِيهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ
 زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ
 وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ
 آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ
 أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ
 الرِّجَالِ وَالطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ
 وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا
 إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤١﴾

جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤١﴾ لما أمر المؤمنين بغض
 الأبصار، وحفظ الفروج، أمر المؤمنات بذلك فقال: ﴿وَقُلِ
 لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَيْدِيهِنَّ﴾ عن النظر إلى العورات
 والرجال، بشهوة ونحو ذلك من النظر الممنوع.

﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ من التمكن من جماعها، أو مسها،
 أو النظر المحرم إليها.
 ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ كالثياب الجميلة والحلي، وجميع
 البدن كله من الزينة.

ولما كانت الثياب الظاهرة، لا بد لها منها قال: ﴿إِلَّا مَا
 ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي: الثياب الظاهرة التي جرت العادة بلبسها إذا
 لم يكن في ذلك ما يدعو إلى الفتنة بها.

﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾ وهذا لكمال الاستتار، ويدل
 ذلك على أن الزينة التي يحرم إبدائها، يدخل فيها جميع
 البدن، كما ذكرنا، ثم كرر النهي عن إبداء زينتهن، ليستثني منه
 قوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ أي: أزواجهن ﴿أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ

لفظ عام في كل بيت ليس ملكاً للإنسان، أخرج منه تعالى
 البيوت التي ليست ملكه، وفيها متاعه، وليس فيها ساكن،
 فأسقط الحرج في الدخول إليها.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ أحوالكم الظاهرة
 والخفية، وعلم مصالحكم، فلذلك شرع لكم ما تحتاجون إليه
 وتضطرون، من الأحكام الشرعية.

(٣٠) ﴿قُلِ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾
 ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٤٠﴾ أي: أزيد المؤمنين،
 وقل لهم الذين معهم إيمان، يمنعهم من وقوع ما يخل
 بالإيمان: ﴿يَعْضُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ﴾ عن النظر إلى العورات وإلى
 النساء الأجنبية، وإلى المردان الذين يخاف بالنظر إليهم
 الفتنة، وإلى زينة الدنيا التي تفتن، وتوقع في المحذور.

﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ عن الوطء الحرام في قُبُلٍ أَوْ دُبُرٍ أَوْ مَا
 دُونَ ذَلِكَ، وعن التمكن من مسها والنظر إليها ﴿ذَلِكَ﴾
 الحفظ للأبصار والفروج ﴿أَزْكَى لَهُمْ﴾ أطهر، وأطيب، وأنى
 لأعمالهم، فإن من حفظ فرجه وبصره، طهر من الخبث الذي
 يتدنس به أهل الفواحش، وزكت أعماله، بسبب ترك المحرم
 الذي ^(١) تطمع إليه النفس وتدعو إليه، فمن ترك شيئاً لله عوضه
 الله خيراً منه، ومن غض بصره عن المحرم أثار الله بصيرته،
 ولأن العبد إذا حفظ فرجه وبصره عن الحرام ومقدماته مع
 داعي الشهوة، كان حفظه لغيره أبلغ، ولهذا سماه الله حفظاً،
 فالشيء المحفوظ إن لم يجتهد حافظه في مراقبته وحفظه،
 وعمل الأسباب الموجبة لحفظه، لم ينحفظ، كذلك البصر
 والفروج، إن لم يجتهد العبد في حفظهما أوقعا في بلايا
 ومحن.

وتأمل كيف أمر بحفظ الفرج مطلقاً، لأنه لا يباح في حالة
 من الأحوال، وأما البصر فقال: ﴿يَعْضُوا مِنْ أَيْدِيهِمْ﴾ أتى
 بأداة «من» الدالة على التبعض، فإنه يجوز النظر في بعض
 الأحوال لحاجة، كنظر الشاهد والعامل والخطاب، ونحو
 ذلك، ثم ذكرهم بعلمه بأعمالهم، ليجتهدوا في حفظ أنفسهم
 من المحرمات.

(٣١) ﴿وَقُلِ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضْنَ مِنْ أَيْدِيهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ
 وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ
 وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ
 آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ
 أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ
 أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ أُولِي
 الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ وَالطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ
 وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتَوْبُوا إِلَى اللَّهِ

وجبه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء، وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

(٣٣، ٣٢) ﴿وَأَنْكَحُوا الْأَيَّمَانَ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ ۝ وَلِيَسْتَوِيَفَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ كَيْفًا حَتَّىٰ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْغُونَ الْكِنَابَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْتُكُمْ وَلَا تَكْرَهُوا فَيُنْكِحَ عَلَى الْبَغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ نَحْصًا لِيَبْنُوْا عَرْضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ بِأَمْرِ تَعَالَى الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَسْيَادِ بِانْكَاحِ مَنْ تَحْتَ وَلَا يَتِيهِمْ مِنَ الْأَيَامَىٰ وَهُمْ: مَنْ لَا أَزْوَاجَ لَهُمْ، مِنْ رِجَالٍ، وَنِسَاءٍ تَيْبٍ، وَأَبْكَارٍ، فَيَجِبُ عَلَى الْقَرِيبِ، وَوَلِيِّ الْيَتِيمِ، أَنْ يَزُوجَ مَنْ يَحْتَاجُ لِلزَّوْجِ، مِمَّنْ تَجِبُ نَفَقَتُهُ عَلَيْهِ، وَإِذَا كَانُوا مَأْمُورِينَ بِانْكَاحِ مَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، كَانَ أَمْرُهُمُ بِالنِّكَاحِ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ بَابِ أَوْلَىٰ.

﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ يحتتمل أن المراد بالصالحين، صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء، وهو الذي لا يكون فاجراً زانياً، مأمور سيده بإنكاحه، جزاء له على صلاحه، وترغيباً له فيه، ولأن الفاسد بالزنا منهى عن تزوجه، فيكون مؤيداً للمذكور في أول السورة، أن نكاح الزاني والزانية محرم حتى يتوب، ويكون التخصيص بالصالح في العبيد والإماء دون الأحرار، لكثرة وجود ذلك في العبيد عادة، ويحتمل أن المراد بالصالحين، الصالحون للزوج المحتاجون إليه^(١)، من العبيد والإماء.

يؤيد هذا المعنى، أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه قبل حاجته إلى الزواج، ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ أي: الأزواج والمتروجين ﴿يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فلا يمنعكم ما توهمون، من أنه إذا تزوج، افتقر بسبب كثرة العائلة ونحوه، وفيه حث على التزوج، ووعده للمتروج بالغبني بعد الفقر.

﴿وَاللَّهُ وَسِيعٌ﴾ كثير الخير عظيم الفضل ﴿عَلِيمٌ﴾ بمن يستحق فضله الديني والدنيوي، أو أحدهما، ممن لا يستحق، فيعطي كلاً ما علمه واقضاه حكمه.

﴿وَلِيَسْتَوِيَفَ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ كَيْفًا حَتَّىٰ يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ هذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستعفف، أن يكف عن المحرم، ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، من صرف دواعي

بُعُولَتِهِمْ﴾ يشمل الأب بنفسه، والجد وإن علا ﴿أَوْ أَنْكَاحِهِمْ أَوْ أَنْكَاءَ بُعُولَتِهِمْ﴾ ويدخل فيه الأبناء وأبناء البعولة مهما نزلوا.

﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنَاتِ إِخْوَانِهِنَّ﴾ أشقاء، أو لأب، أو لأم ﴿أَوْ بَنَاتِ أَخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ﴾ أي: يجوز للنساء أن ينظر بعضهن إلى بعض مطلقاً، ويحتمل أن الإضافة تقتضي الجنسية، أي: النساء المسلمات اللاتي من جنسكم، ففيه دليل لمن قال: إن المسلمة لا يجوز أن تنظر إليها الذميمة.

﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ فيجوز للمملوك إذا كان كله للأثني، أن ينظر لسيدته، ما دامت مالكة له كله، فإن زال الملك أو بعضه، لم يجز النظر.

﴿أَوْ التَّالِبِيكَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ﴾ أي: أو الذين يتبعونكم، ويتعلقون بكم من الرجال الذين لا إربة لهم في هذه الشهوة؛ كالمعتوه الذي لا يدري ما هنالك، وكالعنين الذي لم يبق له شهوة، لا في فرجه، ولا في قلبه، فإن هذا لا محذور من نظره.

﴿أَوْ الطِّفْلَ الذَّيْبَ لَمْ يَطْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ﴾ أي: الأطفال الذين دون التمييز، فإنه يجوز نظرهم للنساء الأجانب، وعلل تعالى ذلك، بأنهم لم يظهرها على عورات النساء، أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد، ودل هذا أن المميز تستتر منه المرأة لأنه يظهر على عورات النساء.

﴿وَلَا يَصْرِيحَنَّ بِأَرْبَلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ أي: لا يصرين الأرض بأرجلهن، ليصوت ما عليهن من حلي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زيتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة، ويؤخذ من هذا ونحوه قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه.

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالصواب المستحسنة وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك - أمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ فلا سبيل إلى الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً، ودل هذا أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة، في قوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: لا لمقصد غير

(١) في النسختين: الصالحين للزوج المحتاجين إليه.

ذلك كَلَّا على الناس ضائعًا وإما أن يخاف إذا عُتق، وصار في حرية نفسه، أن يتمكن من الفساد، فهذا لا يؤمر بكتابه، بل ينهى عن ذلك لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُكْرَهُوا فَتَيَاتِكُمْ﴾ أي: إماءكم ﴿عَلَى الْبَغَاءِ﴾ أي: أن تكون زانية ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم ترد تحصنًا فإنها تكون بغيًا، يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهي لما كانوا يستعملونه في الجاهلية، من كون السيد يجبر أمته على البغاء، ليأخذ منها أجرة ذلك، ولهذا قال:

﴿لِيَتَّبِعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فلا يليق بكم أن تكون إماءكم خيرًا منكم، وأعف عن الزنا، وأنتم تفعلون بهن ذلك، لأجل عرض الحياة، متاع قليل يعرض، ثم يزول.

فكسبكم النزاهة والنظافة والمروءة - بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها - أفضل من كسبكم العرض القليل، الذي يكسبكم الرذالة والخسة.

ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة فقال: ﴿وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فليُتَّبَعْ إلى الله وليُتَّلَعْ عما صدر منه، مما يغضبه، فإذا فعل ذلك غفر الله ذنوبه، ورحمه كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ هذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات التي تلاها على عباده، ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحققها فقال: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ﴾ أي: واضحات الدلالة على كل أمر تحتاجون إليه من الأصول والفروع، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ أَيْضًا مَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكَ﴾ من أخبار الأولين، الصالح منهم والطالح، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم، وجرى عليهم تعتبرونه مثالًا ومعتبرًا، لمن فعل مثل أفعالهم أن يجازى مثل ما جوزوا.

﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين، من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، يتعظ بها المتقون، فينكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

(٣٥) ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ

قلبه بالأفكار التي تخطر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضًا، كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يقدرُونَ نِكَاحًا إما لفقرهم أو فقر أوليائهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم، [وليس لهم] ^(١) من قدرة على إجبارهم على ذلك، وهذا التقدير أحسن من تقدير من قدر «لا يجدون مهر نكاح». وجعلوا المضاف إليه نائبًا مناب المضاف، فإن في ذلك محذورين:

أحدهما: الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف. والثاني: كون المعنى قاصرًا على من له حالان، حالة غنى بماله، وحالة عدم، فيخرج العبيد والإماء ومن إنكاحه على وليه، كما ذكرنا.

﴿حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ وعد للمستعفف أن الله سيغنيه، ويسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج، لئلا يشق عليه ما هو فيه.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكُتُبَ وَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاكْتُبُوهُمُ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتابة، وأن يشتري نفسه، من عبيد وإماء، فأجيبوه إلى ما طلب، وكاتبوه.

﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خَيْرًا﴾ أي: قدرة على التمسك، وصلاحًا في دينه، لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين، مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذل في فداء نفسه، وربما جد واجتهد، وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال، ما لا يحصل في رقه، فلا يكون ضرر على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد، فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب، كما هو الظاهر، أو أمر استحباب على القول الآخر، وأمر

بمعاونتهم على كتابتهم، لكونهم محتاجين لذلك، بسبب أنهم لا مال لهم فقال: ﴿وَأَنْتُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه، أن يعطيه من كتابته، أو يسقط عنه منها، وأمر الناس بمعاونتهم.

ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطًا من الزكاة، ورغب في إعطائه بقوله: ﴿مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ أي: فكما أن المال مال الله، وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منة، فأحسنوا لعباد الله، كما أحسن الله إليكم.

ومفهوم الآية الكريمة أن العبد إذا لم يطلب الكتابة، لا يؤمر سيده أن يبتدىء بكتابه، وأنه إذا لم يعلم منه خيرًا، بأن علم منه عكسه، إما أنه يعلم أنه لا كسب له، فيكون بسبب

(١) زيادة من ب بخط مغاير، وقد حذف بعدها حرف (من).

تَمَسَّسَهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ
 الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَاللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ ﴿٣٥﴾ الْحَسْبِيَ وَالْمَعْنَوِي، وذلك أنه تعالى بذاته نور،
 وحجابه - الذي لولا لطفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى
 إليه بصره من خلقه - نور، وبه استنار العرش، والكرسي،
 والشمس، والقمر والنور، وبه استنارت الجنة، وكذلك النور
 المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان
 والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور، فلولا نوره
 تعالى لتراكمت الظلمات، ولهذا كل محل يفقد نوره فمَّ
 الظلمة والحصر.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في
 قلوب المؤمنين، ﴿كَيْشِكْوَرٍ﴾ أي: كوة ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ لأن
 الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق، ذلك ﴿الْمِصْبَاحُ فِي
 زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ﴾ من صفاتها وبهائها ﴿كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي:
 مضيء إضاءة الدر.

﴿يُوقَدُ﴾ ذلك المصباح الذي في تلك الزجاجاة الدرية ﴿مِنَ
 شَجَرَةٍ مُّبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي ناره
 من أنور ما يكون ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر
 النهار.

﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس، [أول] النهار،
 وإذا انتفى عنها الأمان، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون
 الشام، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب،
 ويكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا﴾ من صفاته
 ﴿يُضَوِّيُّ وَكَوْزٌ لَمْ تَمَسَّسَهُ نَارٌ﴾ فإذا مسته النار، أضاء إضاءة
 بليغة ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي: نور النار، ونور الزيت.

ووجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالة
 المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة
 الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية
 والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتعل
 ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك
 المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم
 عن الله، إذا وصل إليه الإيمان أضاء إضاءة عظيمة، لصفاته
 من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاجاة الدرية، فيجتمع
 له نور الفطرة ونور الإيمان ونور العلم وصفاء المعرفة، نور
 على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له
 ذلك قال: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ ممن يعلم زكاه
 وطهارته، وأنه يزكو معه، وينمو.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ ليعقلوا عنه، ويفهموا، لطفاً
 منه بهم، وإحساناً إليهم، وليتضح الحق من الباطل، فإن
 الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها
 العباد علماً واضحاً.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فعلمه محيط بجميع الأشياء،
 فَلَتَعَلَّمُوا أَن ضَرَبَهُ الْأَمْثَالَ، ضَرْبٌ مِّنْ يَعْلَمُ حَقَاقِ الْأَشْيَاءِ
 وتفصيلها وأنها مصلحة للعباد، فَلْيَكُنْ اشْتِغَالِكُمْ بِتَدْبِيرِهَا
 وتعلُّمها لا بالاعتراض عليها ولا بمعارضتها، فإنه يعلم وأتم
 لا تعلمون.

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في
 المساجد، ذكرها منوهاً بها فقال:

(٣٦-٣٨) ﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ
 لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ ○ رجالٌ لَا لُتْهِمِهِمْ بَعْدَهُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ
 وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ بِمَعَانٍ يَوْمًا تَلَقَّبَ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ
 ○ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ

(١) في النسختين: آخر النهار، ولعل الصواب ما أثبتته، ثم إن الكلمة معدلة
 من آخر إلى أول في ب، بقلم مغاير لما كتبت به النسخة.

الْحَسْبُ اللَّهُ

٣٥٥

سُورَةُ النُّورِ

رِجَالٌ لَا لَّهُمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾
 لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ
 مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ
 بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا
 وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾
 أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن
 فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ
 يَكِدْ بِرِجْلَيْهِ مِّن لَّيْلِ لِيَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَالَهُ مِّن نُورٍ ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
 اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَزُولَ ۖ إِنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ كَانُوا
 فِي يَدَيْهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَشَدِيدُ الْقُوَى ﴿٤١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ
 السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَالْجِبَالَ وَالنُّجُومَ ۚ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ يُصَوِّرُ
 سَحَابًا لَّمْ يُؤَلَّفْ يَدَهُ ۗ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ
 خِلَالِهِ ۗ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِزَابًا فِيمَا مَن بَرَدٍ فَيَصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ
 وَيَصْرِفُهُ ۗ عَن مَن يَشَاءُ يَكَادُ سُنْبُوتُهُ يَدَّهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٢﴾

﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ والمراد بأحسن ما عملوا: أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا، لأنهم يعملون المباحات وغيرها، فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن كقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيََهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم، ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عدِّ ولا كيل، وهذا كناية عن كثرته جدًا.

(٤٠، ٣٩) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ بِرِجْلَيْهِ مِّن لَّيْلِ لِيَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَالَهُ مِّن نُورٍ ﴿٤٠﴾ هذان مثلان ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عاملها منها فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ برهبهم وكذبوا رسله ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ﴾ أي: بقاع؛ لا شجر فيه ولا نبت.

بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يتعبد لله ﴿فِي بُيُوتٍ﴾ عظيمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد ﴿أَذْنُ اللَّهِ﴾ أي: أمر ووصى ﴿أَن تَرْفَعَ وَيَذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها بناؤها وكنسها وتظيفها من النجاسة والأذى، وصونها عن المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله.

﴿وَيَذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها، ونقلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتهليل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلُّم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات، التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بinaan، وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله، من الصلاة وغيرها وهذا أشرف القسمين.

ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد وجوباً عند أكثر العلماء، أو استحباباً عند آخرين، ثم مدح تعالى عُمَّارَهَا بِالْعِبَادَةِ فقال: ﴿سَبِّحْ لَهُ﴾ إخلاصاً ﴿بِالْقُدُوسِ﴾ أول النهار ﴿وَالْأَصْلَاحِ﴾ آخره ﴿رِجَالٌ﴾ خص هذين الوقتين، لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته.

ويدخل في ذلك التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء، وأورادهما عند الصباح والمساء، أي: يسبح فيها لله رجال، وأي رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب مشغلة عنه.

﴿لَا لَّهُمْ تِجَارَةٌ﴾ وهذا يشمل كل تكسُّب يقصد به العوض، فيكون قوله: ﴿وَلَا بَيْعٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال، وإن اتجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك لا محذور فيه، لكنه لا تلهيهم تلك بأن يقدموها ويؤثروها على ﴿ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوباً لها، ويشق عليها تركه في الغالب، وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك، ذكر ما يدعوها إلى ذلك ترغيباً وترهيباً - فقال:

﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل، وترك ما يشغل عنه.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ بينه تعالى عباده على عظمتهم، وكمال سلطانه، وافتقار جميع المخلوقات له في ربوبيتها، وعبادتها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَكُمْ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من حيوان وجماد ﴿وَالظَّالِمِينَ صَفَّنَا﴾ أي: صافات أجنحتها في جو السماء، تسيح ربهما ﴿كُلٌّ﴾ من هذه المخلوقات ﴿فَدَعَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي: كل له صلاة وعبادة بحسب حاله اللائقة به، وقد ألهمه الله تلك الصلاة والتسبيح، إما بواسطة الرسل، كالجن والإنس والملائكة، وإما بإلهام منه تعالى، كسائر المخلوقات غير ذلك، وهذا الاحتمال أرجح، بدليل قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: علم جميع أفعالها، فلم يخف عليه منها^(١) شيء، وسيجازيهم بذلك فيكون على هذا قد جمع بين علمه^(٢) بأعمالها، وذلك بتعليمه، وبين علمه بأعمالهم المتضمن للجزاء.

ويحتمل أن الضمير في قوله: ﴿فَدَعَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ يعود إلى الله، وأن الله تعالى قد علم عباداتهم، وإن لم تعلموا - أيها العباد - منها، إلا ما أطلعكم الله عليه، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَيْسَ بِحُدُودِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

فلما بين عبوديتهم وافتقارهم إليه - من جهة العبادة والتوحيد - بين افتقارهم، من جهة الملك والتربية والتدبير فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما^(٣)، ورازقهما، والمتصرف فيهما، في حكمه الشرعي [القدري]^(٤)، في هذه الدار، وفي حكمه الجزائي، بدار القرار بدليل قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: مرجع الخلق ومآلهم، ليجازيهم بأعمالهم. (٤٤، ٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يُجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدَّكَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنْ جَلْبَابٍ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ مِنْ بَرْدٍ فَيُوَسِّطُ بِهِ مَنْ يُشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يُشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ○ بَقِيَتْ لَهُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: ألم تشاهد بصرك عظيم قدرة الله، وكيف ﴿يُرْسِلُ﴾، أي: يسوق ﴿سَحَابًا﴾ قطعًا متفرقة ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ﴾ بين تلك القطع، فيجعلها سحابًا متراكمًا، مثل الجبال.

﴿فَتَرَى الْوَدَّكَ﴾ أي: الوابل والمطر، يخرج من خلال السحاب، قطعًا متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتتملىء بذلك الغدران، وتتدفق الخلجان، وتسيل الأودية، وتنبت الأرض من كل زوج كريم، وتارة ينزل الله من ذلك السحاب بردًا يُؤَلِّفُ ما يصيبه.

(١) في النسخين منه. (٢) كذا في ب، وفي أ: علمها. (٣) في النسخين: خالقها، ولعل الصواب ما أثبت. (٤) زيادة من هامش ب.

﴿يَسْبِيهِ الظَّمَانُ مَاءً﴾ شديد العطش الذي يتوهم ما لا يتوهم غيره، بسبب ما معه من العطش، وهذا حسبان باطل، فيقصده ليزيل ظمأه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لُتْرٌ مَجْدُهُ شَيْئًا﴾ فندم ندمًا شديدًا، وازداد ما به من الظمأ، بسبب انقطاع رجائه.

كذلك أعمال الكفار بمنزلة السراب، تُرى ويظنها الجاهل الذي لا يدري الأمور أعمالًا نافعة، فيغره صورتها، ويخبله خيالها، ويحبسها هو أيضًا أعمالًا نافعة لهواه، وهو أيضًا محتاج إليها بل مضطر إليها، كاحتياج الظمآن للماء، حتى إذا قدم على أعماله يوم الجزاء، وجدها ضائعة، ولم يجدها شيئًا، والحال إنه لم يذهب، لا له ولا عليه، بل ﴿وَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُمْ حِسَابًا﴾ لم يخف عليه من عمله تغير ولا قطمير، ولن يعدم منه قليلًا ولا كثيرًا.

﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ فلا يستطيع الجاهلون ذلك الوعد، فإنه لا بد من إتيانه، ومثلها الله بالسراب الذي بقية، أي: لا شجر فيه ولا نبات، وهذا مثال لقلوبهم، لا خير فيها ولا بر، فتزكو فيها الأعمال وذلك للسبب المانع، وهو الكفر.

والمثل الثاني لبطلان أعمال الكفار ﴿كَظَلَمْتِ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ﴾ بعيد قعره، طويل مداه ﴿بَعَثْنَهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظَلَمْتُ بَعْضًا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ ظلمة البحر اللجج، ثم فوقه ظلمة الأمواج المترامية، ثم فوق ذلك ظلمة السحب المدلهمة، ثم فوق ذلك ظلمة الليل البهيم، فاشتدت الظلمة جدًّا، بحيث إن الكائن في تلك الحال ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ مع قربها إليه، فكيف غيرها، كذلك الكفار، تراكت على قلوبهم الظلمات، ظلمة الطبيعة التي لا خير فيها، وفوقها ظلمة الكفر، وفوق ذلك ظلمة الجهل، وفوق ذلك ظلمة الأعمال الصادرة عما ذكر، فبقوا في الظلمة متحيرين وفي غمرتهم يعمهون، وعن الصراط المستقيم مدبرين، وفي طرق الغي والضلال يترددون، وهذا لأن الله تعالى خذلهم، فلم يعطهم من نوره.

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ لأن نفسه ظالمة جاهلة، فليس فيها من الخير والنور إلا ما أعطاها مولاها، ومنحها ربهما، يحتمل أن هذين المثالين لأعمال جميع الكفار، كل منهما منطبق عليها، وعددهما لتعدد الأوصاف، ويحتمل أن كل مثال لطائفة وفرقة: فالأول للمتبعين، والثاني للتابعين، والله أعلم.

(٤٢، ٤١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْخَرُ لَكُمْ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالظَّالِمِينَ صَفَّنَا كُلٌّ فَدَعَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ○

أي: واضحات الدلالة على جميع المقاصد الشرعية، والآداب المحمودة، والمعارف الرشيدة، فاتضحت بذلك السبل، وتبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال، فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب، لأنها تنزيل من كَمَل علمه، وكملت رحمته، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان ﴿لَيْهَالِكُ﴾ بعد ذلك ﴿مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَكَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ .
﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن سبقت لهم سابقة الحسنی، وقدم الصدق .

﴿إِنَّ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته، متضمن العلم بالحق وإثاره، والعمل به .

عمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء، فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون وذاك عدله، وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه .

(٤٧-٥٠) ﴿وَيَقُولُونَ ءَأَمَنَا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ۝ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِبِينَ ۝ أُولَئِكَ قُلُوبُهُمْ مَّرْضَةٌ أَوْ أَرْبَابًا أَوْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالة الظالمين، ممن في قلبه مرض وضعف إيمان، أو نفاق وريب وضعف علم، أنهم يقولون بألسنتهم، ويلتزمون بالإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة تَوَلَّى عَظِيمًا، بدليل قوله: ﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ فإن المتولي قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا المتولي معرض، لا التفات له، ولا نظر لما تولى عنه، وتجده هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدعي الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان، تجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصًا العبادات، التي تشق على كثير من النفوس، كالزكوات، والنفقات الواجبة والمستحبة، والجهاد في سبيل الله ونحو ذلك .

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: إذا صار بينهم، وبين أحد حكومة ودعوا إلى حكم الله ورسوله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ يريدون أحكام الجاهلية، ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية، لعلمهم أن الحق عليهم، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع .

﴿وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ﴾ أي: إلى حكم الشرع

﴿يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، وحكمته التي يحمدها عليها .

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقٍ﴾ أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته ﴿يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾، ليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفترقين، وأنزلهما على وجه يحصل به النفع ويتنفي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟
﴿يَقْبُ اللَّهُ أَيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، ومن ليل إلى نهار، ونهار إلى ليل، ويُدِيلُ الأيام بين عباده .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمر المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية، فالبصير ينظر إلى هذه المخلوقات نظر اعتبار وتفكر، وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعروض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم .

(٤٥) ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بنيه عباده على ما يشاهدونه، أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض ﴿مِنْ مَّاءٍ﴾ أي: مادتها كلها الماء، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ .
فالحيوانات التي تتوالد، مادتها ماء النطفة، حين يلقح الذكر الأنثى، والحيوانات التي تتولد من الأرض، لا تتولد إلا من الرطوبات المائية، كالحشرات لا يوجد منها شيء، يتولد من غير ماء أبدًا .

فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة ﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ كالحية ونحوها ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ كالآدميين، وكثير من الطيور ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ كبهيمة الأنعام ونحوها .

فاختلافها - مع أن الأصل واحد - يدل على نفوذ مشيئة الله، وعموم قدرته، ولهذا قال: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: من المخلوقات، على ما يشاؤه من الصفات .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَّجِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَرِزْقٌ وَجَيْلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٌ يُسْقَى بِمَاءٍ وَجِدٍ وَنُفُضًا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

(٤٦) ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِنَّ صِرَاطَ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: لقد رحمنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات بينات،

﴿مُذْعِنِينَ﴾ وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم، فليسوا بمدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين، لأن العبد حقيقة من يتبع الحق فيما يحب ويكره، وفيما يسره ويحزنه، وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته، ويقدم الهوى على الشرع، فليس بعبد على الحقيقة.

قال الله في لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي: علة، أخرجت القلب عن صحته وأزالت حساسته، فصار بمنزلة المريض الذي يعرض عما ينفعه، ويقبل على ما يضره.

﴿أَمْ أَرَأَيْتُمْ أَنِّي أَشْكُرُ﴾ أي: شكروا، وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله، واتهموه أنه لا يحكم بالحق.

﴿أَمْ يَخْفَوْنَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً، وإنما هذا وصفهم ﴿بَلْ أَوْلَيْتَكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾.

وأما حكم الله ورسوله، ففي غاية العدالة والقسط، وموافقة الحكمة ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُؤْتُونَ﴾ وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان ليس هو مجرد القول، حتى يقترن به العمل، ولهذا نفى الإيمان عن تولى عن الطاعة، ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كل حال، وأن من لم يتقده دل على مرض في قلبه، وريب في إيمانه، وأنه يحرم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة.

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حالة المؤمنين الممدوحين فقال:

(٥٢، ٥١) ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقوه فأولئك هم الفائزون ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سواء وافق أهواءهم أو خالفها ﴿أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج:

﴿وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حصر الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حَكَّم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله.

ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصاً، ذكر فضلها عموماً في جميع الأحوال، فقال:

سُورَةُ النُّورِ
٣٥٦
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَقُلِبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٥٢﴾
وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٣﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ
وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَيَقُولُونَ
أَمَّا بِإِلَهِهِ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ اطعنا ثم تولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴿٥٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٥٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أَرَأَيْتُمْ أَنَّهُمْ يَخَفُونَ
أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أَوْلَيْتَكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٥﴾
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٦﴾
﴿٥٦﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَأَنْفُسِي وَأَطَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيصدق خبرهما ويمثل أمرهما.

﴿وَيَخْشِ اللَّهَ﴾ أي: يخافه، خوفاً مقروناً بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ بترك المحذور، لأن التقوى - عند الإطلاق - يدخل فيها فعل المأمور، وترك المنهي عنه، وعند اقترانها بالبر أو الطاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتوقفي عذاب الله بترك معاصيه.

﴿فَأَوْلَئِكَ﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله، وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه، ﴿هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم، فإنه يفوته من الفوز، بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة.

واشتملت هذه الآية على الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو الخشية والتقوى، وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير، كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُعَزِّدُوهُ

وَنُورُهُ وَسَمِعُوهُ بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا ﴿٥٤، ٥٣﴾

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنِ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ٥٤﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُنِيبُ ﴿٥٣﴾ يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين، ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله: ﴿لَئِنِ أَمَرْتَهُمْ﴾ فيما يستقبل، أو لئن نصصت عليهم حين خرجت ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾، والمعنى الأول أولى.

قال الله - راداً عليهم - : ﴿قُلْ لَا تُفْسِمُوا﴾ أي: لا نتحاج إلى إقسامكم ولا إلى أعداركم، فإن الله قد نبأنا من أخباركم، وطاعتكم معروفة، لا تخفي علينا، قد كنا نعرف منكم التناقل والكسل من غير عذر، فلا وجه لعذركم وقسمكم، إنما يحتاج إلى ذلك من كان أمره محتملاً، وحاله مشتبهة، فهذا ربما يفيد العذر براءة، وأما أنتم فكلنا ولما، وإنما ينتظر بكم ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيجازيكم عليها أتم الجزاء، هذه حالهم في نفس الأمر.

وأما الرسول عليه الصلاة والسلام، فوظيفته أن يأمركم وينهاكم، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنِ امْتَثَلُوا، كان حظكم وسعادتكم^(١)﴾، وإن ﴿تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ من الرسالة، وقد أداها، ﴿وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ﴾ من الطاعة، وقد بانت حالكم وظهرت، فبان ضلالكم وغيكم واستحقاقكم العذاب ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ إلى الصراط المستقيم قولاً وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك لا يمكن، بل هو محال.

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُنِيبُ﴾ أي: تبليغكم البين الذي لا يُبْقِي لأحد شكاً ولا شبهة، وقد فعل ﷺ، بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يحاسبكم، ويجازيكم هو الله تعالى، فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

﴿٥٥﴾ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هذا من أوعاده^(٢) الصادقة التي شوهد تأويلها ومخبرها، فإنه وَعَدَ من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يُمَكِّنُ لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو

سُورَةُ النُّورِ

٣٥٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُنِيبُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا وَنَهُم النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَذِنبَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾

دين الإسلام الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماه أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله، ولا يشركون به شيئاً، ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنتهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات

(١) في ب: كان حظهم وسعادتهم. (٢) كذا في النسخين، ولعل الصواب: ووعده.

يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ أمر المؤمنين أن يستأنذهم مما يليكهم، والذين لم يبلغوا الحلم منهم، قد ذكر الله حكمته وأنه ثلاث عورات للمستأذن عليهم، وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتباههم قبل صلاة الفجر، فهذا - في الغالب - أن النائم يستعمل للنوم في الليل ثوبًا غير ثوبه المعتاد، وأما نوم النهار، فلما كان في الغالب قليلًا، قد ينام فيه العبد بشابه المعتادة، قيده بقوله: ﴿وَجِئْنَا نَقَضُونَ ثِيَابَكُمْ مِمَّنْ أَظْهَرَهُمْ﴾ أي: للقائلة وسط النهار.

ففي ثلاثة هذه الأحوال يكون المماليك والأولاد الصغار كغيرهم، لا يُمْكِنُونَ من الدخول إلا بإذن، وأما ما عدا هذه الأحوال الثلاثة فقال: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾ أي: ليسوا كغيرهم، فإنهم يحتاج إليهم دائمًا، فيشق الاستئذان منهم في كل وقت، ولهذا قال: ﴿طَرَفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي: يترددون عليكم في قضاء أشغالكم وحوادثكم.

﴿كَذَلِكَ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ بيانا مقرونا بحكمته، ليتأكد ويتقوى ويعرف به رحمة شارعه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ له العلم المحيط بالواجبات، والمستحبات، والممكنات، والحكمة التي وضعت كل شيء موضعه، فأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، وأعطى كل حكم شرعي حكمه اللائق به، ومنه هذه الأحكام التي بيّنها وبين مآخذها وحسنها.

(٥٩) ﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ﴾ وهو إنزال المني يقظة أو منامًا، ﴿فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: في سائر الأوقات، والذين من قبلهم، هم الذين ذكروهم الله بقوله: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ الآية.

﴿كَذَلِكَ يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ ويوضحها، ويفصل أحكامها ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وفي هاتين الآيتين فوائد، منها: أن السيد وولي الصغير مخاطبان بتعليم عبيدهم، ومن تحت ولايتهم من الأولاد، العلم والآداب الشرعية، لأن الله وجه الخطاب إليهم بقوله: ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنُوا الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبَسُوا الْحُلُمَ﴾ الآية، ولا يمكن ذلك إلا بالتعليم والتأديب، ولقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾.

ومنها: الأمر بحفظ العورات، والاحتياط لذلك من كل وجه، وأن المحل والمكان الذي مظنة لرؤية عورة الإنسان فيه، أنه منهى عن الاغتسال فيه، والاستنجاء، ونحو ذلك.

الله العجبية الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويُدبِلُهُمْ في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

﴿وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ التمكين والسلطنة التامة لكم، يا معشر المسلمين ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا لصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير، لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره، وعدم وجود الأسباب المانعة منه، يدل على فساد نيته، وخبث طوبته، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك.

ودلت هذه الآية أن الله قد مكن من قبلنا، واستخلفهم في الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿وَيَسْتَخِفُّكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً وَجَعَلْنَاهُمْ الْوَارِثِينَ﴾ و﴿وَنُمَكِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾.

(٥٧، ٥٦) ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض وما أمرهم أن نأز ولئس المصير ﴿يأمر تعالى بإقامة الصلاة، بآركانها وشروطها وآدابها، ظاهرًا وباطنًا، وبيئاتها الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد، وأعطاهم إياها، بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم، ممن ذكروهم الله لمصرف الزكاة، فهذان أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى العبيد، ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿وَاطِيعُوا الرُّسُولَ﴾ وذلك بامتثال أوامره، واجتنب نواهيه ﴿مَنْ يُطِيعِ الرُّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ حين تقومون بذلك ﴿تُرْحَمُونَ﴾ فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو مُتَمَنَّ كاذب، وقد منته نفسه الأمانى الكاذبة.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ فلا بغررك ما مُتَعَوَّا به في الحياة الدنيا، فإن الله وإن أمهلهم فإنه لا يهملهم ﴿نَعِظُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَّرَّهُمْ إِلَيْ عَذَابٍ عَلِيطٍ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿وَمَا أُوْنَهُمُ النَّارُ وَلَيْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: بشس المال مال الكافرين، مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

(٥٨) ﴿يَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنُوا الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبَسُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَصْعَقُونَ ثِيَابَكُمْ مِنْ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَرَفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ﴾

فهؤلاء، يجوز لهن أن يكشفن وجوههن، لأن المحذور منها وعليها، ولما كان نَفْيُ الحرج عنهن في وضع الثياب، ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شيء، دفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿عَيْرَ مَسْرُوحَاتٍ بِرِزْقَةٍ﴾ أي: غير مظهرات للناس زينة، من تجمل بثياب ظاهرة، وتستر وجهها، ومن ضرب الأرض برجلها، ليعلم ما تخفي من زيتها، لأن مجرد الزينة على الأنتى، ولو مع تسترها، ولو كانت لا تشتهي - يفتن فيها، ويوقع الناظر إليها في الحرج.

﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ حَيْرَ لَهَيْتُمْ﴾ والاستعفاف: طلب العفة بفعل الأسباب المقتضية لذلك، من تزوج وتزكَّ لما يُخشَى منه الفتنة.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات ﴿عَلِيمٌ﴾ بالنيات والمقاصد، فَلْيَحْذَرْنَ من كل قول وقصد فاسد، ويعلمن أن الله يجازي على ذلك.

(٦١) ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ حَمَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيبًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى عن مَنِّهِ على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج، بل يسره غاية التيسير، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ أي: ليس على هؤلاء جناح في ترك الأمور الواجبة التي تتوقف على واحد منها، وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر للأعمى، أو سلامة للأعرج، أو صحة للمريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكرناه، أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد، كما قيد قوله: ﴿وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: حرج ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ أي: بيوت أولادكم، وهذا موافق للحديث الثابت «أنت ومالك لأبيك» والحديث الآخر: «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم، وإن أولادكم من كسبكم».

وليس المراد من قوله: ﴿مِنْ بُيُوتِكُمْ﴾ بيت الإنسان نفسه، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي يتزه عنه كلام الله، ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم، من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه، فليس فيه أدنى توهم.

(١) كذا في النسختين، ولعل في الكلام قلبًا فالأقرب أن يقال: (عجوزًا لا تُشْتَهَى ولا تُشْتَهَى، أو دميعة الخلق لا تُشْتَهَى).

ومنها: جواز كشف العورة لحاجة، كالحاجة عند النوم، وعند البول والغائط ونحو ذلك.

ومنها: أن المسلمين كانوا معتادين للقبولة وسط النهار، كما اعتادوا نوم الليل، لأن الله خاطبهم ببيان حالهم الموجودة.

ومنها: أن الصغير الذي دون البلوغ، لا يجوز أن يُمَكَّن من رؤية العورة، ولا يجوز أن تُرَى عورته، لأن الله لم يأمر باستئذانهم إلا عن أمر ما يجوز.

ومنها: أن المملوك أيضًا لا يجوز أن يرى عورة سيده، كما أن سيده لا يجوز أن يرى عورته، كما ذكرنا في الصغير.

ومنها: أنه ينبغي للواعظ والمعلم ونحوهم، ممن يتكلم في مسائل العلم الشرعي، أن يقرن بالحكم، بيان مأخذه ووجهه، ولا يلقه مجردًا عن الدليل والتعليل، لأن الله - لما بيَّن الحكم المذكور - علله بقوله: ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾.

ومنها: أن الصغير والعبد مخاطبان، كما أن وليهما مخاطب لقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ﴾.

ومنها: أن ريق الصبي طاهر، ولو كان بعد نجاسة، كالقيء لقوله تعالى: ﴿طَرَفُوتَ عَلَيْكُمْ﴾ مع قول النبي ﷺ، حين سئل عن الهرة «إنها ليست بنجس»، إنها من الطوافين عليكم والطوافات».

ومنها: جواز استخدام الإنسان من تحت يده، من الأطفال على وجه معتاد، لا يشق على الطفل لقوله: ﴿طَرَفُوتَ عَلَيْكُمْ﴾.

ومنها: أن الحكم المذكور المفصل، إنما هو لما دون البلوغ، فأما ما بعد البلوغ، فليس إلا الاستئذان.

ومنها: أن البلوغ يحصل بالإنزال، فكل حكم شرعي رتب على البلوغ، حصل بالإنزال، وهذا مجمع عليه، وإنما الخلاف، هل يحصل البلوغ بالسن، أو الإنبات للعاثة، والله أعلم.

(٦٠) ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ عَيْرَ مَسْرُوحَاتٍ بِرِزْقٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ حَيْرَ لَهَيْتُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والقواعد من النساء أي: اللاتي قعدن عن الاستمتاع والشهوة ﴿الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ أي: لا يطمعن في النكاح، ولا يُطْمَعُ فيهن، وذلك لكونها عجوزًا لا تُشْتَهَى، أو دميعة الخلق، لا تُشْتَهَى ولا تُشْتَهَى^(١) ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم ﴿أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ أي: الثياب الظاهرة، كالخمار ونحوه، الذي قال الله فيه للنساء: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُوهِهِنَّ﴾.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٥٨

سُورَةُ النُّورِ

وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَالْفَوَاحِشُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٥٦﴾

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة قال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عنه، فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم، ولتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد به العقل، وينمو به اللب، لكون معانيها أجل المعاني، وأدائها أجل الآداب، ولأن الجزء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك.

وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهي «أن العرف والعادة مخصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ». فإن الأصل أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.

وفيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال (١) في ب: من. (٢) مراد الشيخ - رحمه الله - فإن بيوت هؤلاء المسمين، كما يبدو - والله أعلم -

﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾ وهؤلاء معروفون. ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ أي: البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة، أو ولاية ونحو ذلك، وأما تفسيرها بالمملوك، فليس بوجه، لوجهين:

أحدهما: أن المملوك لا يقال فيه «ملكت مفاتحه»، بل يقال: «ما ملكتموه» أو «ما ملكت أيمانكم» لأنهم مالكون له جملة، لا لمفاتيحه فقط.

والثاني: أن بيوت المماليك غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه، لأن المملوك وما ملكه لسيده، فلا وجه لتفي الحرج عنه.

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وهذا الحرج المنفي عن الأكل^(١)، من هذه البيوت كل ذلك، إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق، فإن هؤلاء المسمين^(٢)، قد جرت العادة والعرف بالمسامحة في الأكل منها، لأجل القرابة القريبة، أو التصرف التام، أو الصداقة، فلو قدر في أحد من هؤلاء عدم المسامحة والشح في الأكل المذكور، لم يجز الأكل، ولم يرتفع الحرج، نظرًا للحكمة والمعنى.

وقوله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ فكل ذلك جائز، أكل أهل البيت الواحد جميعًا، أو أكل كل واحد منهم وحده وهذا نفي للحرج، لا نفي للفضيلة، وإلا فالأفضل الاجتماع على الطعام.

﴿إِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا﴾ نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا، فإذا دخلها الإنسان ﴿فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: فليسلم بعضكم على بعض، لأن المسلمين كأنهم شخص واحد، من تواددهم، وتراحمهم، وتعاطفهم.

فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت، من غير فرق بين بيت وبيت، والاستئذان تقدم أن فيه تفصيلًا في أحكامه، ثم مدح هذا السلام فقال: ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ أي: سلامكم بقولكم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» أو «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» إذ تدخلون البيوت.

﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم، ﴿مُبْرَكَةٌ﴾ لاشتمالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة ﴿طَيِّبَةٌ﴾ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومعجة وجلب مودة.

ولده ما لا يضره، لأن الله سمي بيته بيتاً للإنسان .

وفيها دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، وزوجته، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد .

وفيها دليل على جواز المشاركة في الطعام، سواء أكلوا مجتمعين، أو متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض .

(٦٢-٦٤) ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا

مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ إِكْرَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ۗ رَجِيمٌ ۝ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْئُونَ مِنْكُمْ لِيُحَذِّرَ الَّذِينَ يَخْلِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ٦٣ ۝ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ٦٤

أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع، أي: من ضرورته أو من مصلحته، أن يكونوا فيه جميعاً، كالجهاد، والمشاورة، ونحو ذلك من الأمور التي يشترك فيها المؤمنون، فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه، وعدم تفرقهم، فالؤمن بالله ورسوله حقاً، لا يذهب لأمر من الأمور، لا يرجع لأهله، ولا يذهب لبعض الحوائج التي يشذ بها عنهم، إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده، فجعل موجب الإيمان عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا، وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَلَكِنْ هَلْ يَأْذِنُ لَهُمْ أَمْ لَا ؟ ذَكَرَ لِأَذْنِهِمْ شَرْطِينَ :

أحدهما: أن يكون لشأن من شؤونهم، وشغل من أشغالهم، فأما من يستأذن من غير عذر فلا يؤذن له .

والثاني: أن يشاء الإذن له فقتضيه المصلحة، من دون مضرة بالأذن قال: ﴿ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ۗ ﴾، فإذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم ذهابه، مصلحة برأيه، أو شجاعته، ونحو ذلك، لم يأذن له .

ومع هذا إذا استأذن، وأذن له بشرطيه، أمر الله رسوله أن يستغفر له، لما عسى أن يكون مقصراً في الاستئذان، ولهذا قال: ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ إِكْرَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ۗ رَجِيمٌ ۗ ﴾ يغفر لهم الذنوب ويرحمهم، بأن جوز لهم الاستئذان مع العذر .

سُورَةُ النُّورِ

٣٥٩

سُورَةُ النُّورِ

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوا ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّكَ إِكْرَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ۗ رَجِيمٌ ۝ ٦٢ ۝ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْئُونَ مِنْكُمْ لِيُحَذِّرَ الَّذِينَ يَخْلِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ٦٣ ۝ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ٦٤

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ١ ۝ الَّذِي لَهُ الْمُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ مِقْدِيرًا ۝ ٢ ۝

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۗ ﴾ أي: لا تجعلوا دعاء الرسول إياكم ودعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فإذا دعاكم فأجيبوه وجوباً، حتى إنه تجب إجابة الرسول ﷺ في حال الصلاة، وليس أحد إذا قال قولاً، يجب على الأمة قبول قوله والعمل به، إلا الرسول، لعصمته، وكوننا مخاطبين باتباعه، قال تعالى:

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۗ ﴾ وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول كدعاء بعضكم بعضاً، فلا تقولوا: «يا محمد» عند نداءكم، أو «يا محمد بن عبد الله» كما يقول ذلك بعضكم لبعض، بل من شرفه وفضله وتميزه ﷺ عن غيره، أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله .

﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلْئُونَ مِنْكُمْ لِيُحَذِّرَ الَّذِينَ يَخْلِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ٦٣ ۝ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ ٦٤

وحده، وجميع من فيها ممالك وعبيد له، مذعنون لعظمته، خاضعون لرؤيته، فقراء إلى رحمته، الذي ﴿لَمْ يَخْذْ لَدَا وَكَوْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ﴾.

وكيف يكون له ولد أو شريك، وهو المالك، وغيره مملوك، وهو القاهر، وغيره مقهور، وهو الغني بذاته من جميع الوجوه، والمخلوقون مفتقرون إليه، فقراء ذاتياً من جميع الوجوه!!

وكيف يكون له شريك في الملك، ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا يتحركون أو يسكنون، ولا يتصرفون إلا بإذنه، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فلم يقدره حق قدره من قال فيه ذلك، ولهذا قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ شمل العالم العلوي والعالم السفلي، من حيواناته، ونباتاته، وجماداته.

﴿فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ أي: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به، ويناسبه من الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك، بحيث صار كل مخلوق، لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد، لا يناسبه غير محله الذي هو فيه، قال تعالى: ﴿سَبَّحَ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ○ الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ ○ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدًا ○ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

ولما بين كماله وعظمته، وكثرة إحسانه، كان ذلك مقتضياً لأن يكون وحده المحبوب المألوه المعظم، المفرد بالإخلاص وحده، لا شريك له - ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه، فقال:

(٣) ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ أي: من أعجب العجائب، وأدل الدليل على سفههم، ونقص عقولهم، بل أدل على ظلمهم وجراءتهم على ربهم، أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة في كمال العجز، أنها لا تقدر على خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، لأنه نكرة في سياق النفي.

﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ أي: بعثاً بعد الموت، فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها، وفسادها وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء للخالق لسائر المخلوقات، من غير مشارك له في ذلك، الذي بيده النفع والضر، والعطاء والمنع، الذي يحيي ويميت، ويبعث من في القبور،

وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شؤونهم!!! وإنما ترك أمر الله من دون شغل له ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: شرك وشر ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبداً، يتصرف فيهم بحكمه القدري، وحكمه الشرعي.

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْشَأَ عَلَيْهِ﴾ أي: قد أحاط علمه بما أنتم عليه من خير وشر، وعلم جميع أعمالكم، أحصاها علمه، وجرى بها قلمه، وكتبها عليكم الحفظ الكرام الكاتبون.

﴿يَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ في يوم القيامة ﴿فَيُنْفِثُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ يخبرهم بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها، إخباراً مطابقاً لما وقع منهم، ويستشهد عليهم أعضاءهم، فلا يعدمون منه فضلاً أو عدلاً.

ولما قيد علمه بأعمالهم، ذكر العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

تفسير سورة الفرقان

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢، ١) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ○ الَّذِي لَمْ يَلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْذْ لَدَا وَكَوْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ هذا بيان لعظمته الكاملة، وتفردة [بالوحدانية]^(١) من كل وجه، وكثرة خيراته وإحسانه، فقال: ﴿تَبَارَكَ﴾ أي: تعاضم، وكملت أوصافه، وكثرت خيراته، الذي من أعظم خيراته ونعمه، أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام، والهدى والضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاوة ﴿عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمد ﷺ الذي كمل مراتب العبودية، وفاق جميع المرسلين ﴿لِيَكُونَ﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ينذرهم بأس الله ونقمه، ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن من قبل نذارته وعمل بها، كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية، والملك السرمدي، فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟ فتبارك الذي هذا من بعض إحسانه وبركاته.

﴿الَّذِي لَمْ يَلِكْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له التصرف فيها

(١) زيادة من هامش ب.

ويجمعهم ليوم النشور، وقد جعل لهم دارين، دار الشقاء والحزني والنكال، لمن اتخذ معه آلهة أخرى، ودار الفوز والسعادة والتعيم المقيم، لمن اتخذه وحده معبوداً.

ولما قرر بالدليل القاطع الواضح صحة التوحيد وبطلان ضده، قرر صحة الرسالة، وبطلان قول من عارضها واعترضها فقال:

(٤-٦) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ آفَرْتَهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ ○ وقالوا أساطير الأولين ○ فقل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان عفوراً رحيمًا ○ أي: وقال الكافرون بالله، الذي أوجب لهم كفرهم أن قالوا في القرآن والرسول: إن هذا القرآن كذب، كذبه محمد، وإفك افتراه على الله، وأعانه على ذلك قوم آخرون.

فرد الله عليهم ذلك، بأن هذا مكابرة منهم، وإقدام على الظلم والزور، الذي لا يمكن أن يدخل عقل أحد، وهم أشد الناس معرفة بحالة الرسول ﷺ، وكمال صدقه، وأمانته، وبره التام، وأنه لا يمكنه، لا هو ولا سائر الخلق أن يأتوا بهذا القرآن، الذي هو أجل الكلام وأعلاه، وأنه لم يجتمع بأحد يعينه على ذلك، فقد جاءوا بهذا القول ظلماً وزوراً.

ومن جملة أقاويلهم فيه، أن قالوا: هذا الذي جاء به محمد ﴿أَسَاطِيرُ الْأُولِينَ﴾ ○ أي: هذا قصص الأولين وأساطيرهم التي تلقاها الأفواه، وينقلها كل أحد، استنسخها محمد ﴿فِي تَمَلُّ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ○ وهذا القول منهم فيه عدة عظام:

منها: رميهم الرسول الذي هو أبر الناس وأصدقهم، بالكذب والجرأة العظيمة.

ومنها: إخبارهم عن هذا القرآن - الذي هو أصدق الكلام وأعظمه وأجله - بأنه كذب وافتراء.

ومنها: أن في ضمن ذلك، أنهم قادرون أن يأتوا بمثله، وأن يضاهي المخلوق الناقص من كل وجه، للمخالف الكامل من كل وجه، بصفة من صفاته، وهي الكلام.

ومنها: أن الرسول قد علمت حالته، وهم أشد الناس علماً بها، أنه لا يكتب ولا يجتمع بمن يكتب له، وهم قد زعموا ذلك.

فلذلك رد عليهم ذلك بقوله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ○ أي: أنزله من أحاط علمه بما في السماوات وما في الأرض، من الغيب والشهادة، والجهر والسر، كقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ○ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ ○ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً ○ وقالوا أساطير الأولين ○ أكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ○ فقل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان عفوراً رحيمًا ○ وقالوا ما لهدى الرسول إذا كمل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ○ أو يلقى إليه كزاً أو تكون له جنة يأكل منها ○ وقال الظالمون إن تتبععون إلا رجلاً مسحوراً ○ انظر كيف ضربوا لك الأمثل فضلاً فلا تستطيعون سبيلاً ○ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنت تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ○ بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ○

○ عَلَى قَلْبِكَ لَيَكُونُ مِنَ الْمُنذِرِينَ ○

وجه إقامة الحجة عليهم، أن الذي أنزله هو المحيط علمه بكل شيء، فيستحيل ويمتنع أن يقول مخلوق ويقول عليه هذا القرآن، ويقول: هو من عند الله، وما هو من عنده، ويستحل دماء من خالفه وأمواله، ويزعم أن الله قال له ذلك، والله يعلم كل شيء، ومع ذلك فهو يؤيده وينصره على أعدائه، ويمكنه من رقابهم وبلادهم، فلا يمكن أحداً أن ينكر هذا القرآن، إلا بعد إنكار علم الله، وهذا لا تقول به طائفة من بني آدم، سوى الفلاسفة الدهرية.

وأيضاً، فإن ذكر علمه تعالى العام، ينبههم ويحضهم على تدبر القرآن، وأنهم لو تدبروا لرأوا فيه من علمه وأحكامه، ما يدل دلالة قاطعة على أنه لا يكون إلا من عالم الغيب والشهادة. ومع إنكارهم للتوحيد والرسالة من لطف الله بهم، أنه لم يدعهم وظلمهم، بل دعاهم إلى التوبة والإنابة إليه، ووعدهم بالمغفرة والرحمة، إن هم تابوا ورجعوا، فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا عُفُورًا﴾ ○ أي: وصفه المغفرة، لأهل الجرائم والذنوب، إذا فعلوا أسباب المغفرة، وهي الرجوع عن

جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية، بل ولا في شيء منها أدنى شبهة تقدح في الرسالة، فبمجرد النظر إليها وتصورها، يجزم العاقل ببطلانها، ويكفيه عن ردها، ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها، والنظر هل توجب التوقف عن الجزم للرسول بالرسالة والصدق؟.

ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيراً كثيراً في الدنيا فقال: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ أَي: خَيْرًا مما قالوا، ثم فسره بقوله: ﴿جَدَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا﴾ مرتفعة مزخرفة، فقدرتة ومشيئته لا تقصر عن ذلك، ولكنه تعالى - لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحفارة - أعطى منها أولياءه ورسله، ما اقتضته حكمته منها، واقتراح أعدائهم بأنهم، هلا رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً، ظلم وجرأة.

ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد، أخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق، ولا لاتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعنتاً وظلماً، وتكديباً بالحق، فقالوا ما بقلوبهم من ذلك، ولهذا قال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالنَّاصَةِ وَالْمَكْدُوبِ﴾ المتعنت الذي ليس له قصد في اتباع الحق، لا سبيل إلى هدايته، ولا حيلة في مجادلته، وإنما له حيلة واحدة، وهي نزول العذاب به، فلهذا قال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالنَّاصَةِ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً عظيمة، قد اشتد سعيها، وتغيظت على أهلها، واشتد زفيرها.

﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: قبل وصولهم ووصولها إليهم ﴿سَمِعُوا لَهَا تَهَيُّطًا﴾ عليهم ﴿رُفِيرًا﴾ تعلق منهم الأفئدة، وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها، وذعراً، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لهبها، لزيادة كفرهم وشرهم.

﴿وَإِذَا أَلْفَا مِنْهَا مَكَّانًا مَقَرًّا مَقَرَّيْنِ﴾ أي: عذابهم، وهم في وسطها، جمع في مكان بين ضيق المكان، وتراحم السكان، وتقربهم بالسلاسل والأغلال، فإذا وصلوا لذلك المكان النحاس، وحسبوا في أشر حبس ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق، حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم، ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم: ﴿لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَدَعَوْا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه، ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن.

لما بين جزاء الظالمين، ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال:

معاصيه، والتوبة منها ﴿حَيًّا﴾ بهم، حيث لم يعاجلهم بالعقوبة، وقد فعلوا مقتضاها، وحيث قبل توبتهم بعد المعاصي، وحيث محا ما سلف من سيئاتهم، وحيث قبل حسناتهم، وحيث أعاد الراجع إليه بعد شروده، والمقبل عليه بعد إعراضه، إلى حالة المطيعين المنيبين إليه.

(٧-١٤) ﴿وَقَالُوا مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَبْسِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكًا فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ۝ أَوْ يُنْفِثَ إِلَيْهِ كِتَابًا أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ۝ أَنْظِرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَدَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِالنَّاصَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالنَّاصَةِ سَعِيرًا ۝ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَّانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَهَيُّطًا وَرُفِيرًا ۝ وَإِذَا أَلْفَا مِنْهَا مَكَّانًا مَقَرًّا مَقَرَّيْنِ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ۝ لَا نَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَجِدًا وَدَعَوْا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ هذا من مقالة المكذبين للرسول التي قدحوا بها في رسالته، وهو أنهم اعترضوا بأنه هلا كان ملكاً أو ملكاً، أو يساعده ملك، فقالوا: ﴿مَا لِيَ هَذَا الرَّسُولِ﴾ أي: ما لهذا الذي ادعى الرسالة؟ تهكمًا منهم واستهزاء ﴿يَأْكُلُ الطَّعَامَ﴾ وهذا من خصائص البشر، فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر.

﴿وَيَبْسِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ للبيع والشراء، وهذا - بزعمهم - لا يليق بمن يكون رسولاً، مع أن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَسْخَرُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾. ﴿لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مَلَكًا﴾ أي: هلا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه ﴿فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ وبزعمهم أنه غير كاف للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها.

﴿أَوْ يُنْفِثَ إِلَيْنَا كِتَابًا﴾ أي: مال مجموع من غير تعب ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ فيستغني بذلك عن مشيه في الأسواق لطلب الرزق.

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ﴾ حملهم على القول، ظلّمهم لا اشتباه منهم ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ هذا، وقد علموا كمال عقله، وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن.

ولما كانت هذه الأقوال منهم، عجيبة جداً، قال تعالى: ﴿أَنْظِرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ وهي: أنه هلا كان ملكاً، وزالت عنه خصائص البشر؟ أو معه ملك، لأنه غير قادر على ما قال، أو أنزل عليه كنز، أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان مسحوراً.

﴿فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ قالوا أقوالاً متناقضة، كلها

﴿قُلْ أَذِلَّةٌ خَيْرٌ أَمْ جِنَّةٌ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُومًا ۝ أَيُّ قَوْمٍ لَمْ يَكُن لَّهُمْ مِنَ الْمُنْقُوتِينَ خَيْرٌ أَمْ جِنَّةٌ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُومًا ۝ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مِنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۝ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝﴾

عَذَابًا كَبِيرًا ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۝ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝ يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة، وتبريهم منهم، وبطالان سعيهم فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: المكذبين المشركين ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ﴾ الله مخاطبًا للمعبودين على وجه التقرير لمن عبدهم: ﴿أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ هل أمرتموهم بعبادتكم، وزينت لهم ذلك، أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ زهوا الله عن شرك المشركين به، وبرؤوا أنفسهم من ذلك. ﴿مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا﴾ أي: لا يليق بنا، ولا يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم، ونعبدهم وندعوهم، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك، مُتَبَرِّئِينَ من عبادة غيرك، فكيف نأمر أحدا بعبادتنا؟ هذا لا يكون. أو، سبحانه عن ﴿أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ وهذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَا أَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخُذُونِي وَأُنِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ

(١٦، ١٥) ﴿قُلْ أَذِلَّةٌ خَيْرٌ أَمْ جِنَّةٌ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُومًا ۝ أَيُّ قَوْمٍ لَمْ يَكُن لَّهُمْ مِنَ الْمُنْقُوتِينَ خَيْرٌ أَمْ جِنَّةٌ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُومًا ۝ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مِنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۝ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝﴾

﴿قُلْ أَذِلَّةٌ خَيْرٌ أَمْ جِنَّةٌ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُومًا ۝ أَيُّ قَوْمٍ لَمْ يَكُن لَّهُمْ مِنَ الْمُنْقُوتِينَ خَيْرٌ أَمْ جِنَّةٌ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ۝ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَتْ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُومًا ۝ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مِنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لِيَأْكُلُوا الطَّعَامَ وَيَشْرَبُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۝ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ۝﴾

وأعلى من ذلك كله، التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم، وسماع كلامه، والحظوة بقربه، والسعادة برضاه، والأمن من سخطه، واستمرار هذا النعيم ودوامه، وزيادته على ممر الأوقات، وتعاقب الآتات ﴿كَانَ﴾ دخولها والوصول إليها ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُومًا﴾ يسأله إياها، عباده المتقون بلسان حالهم، ولسان مقالهم، فأَيُّ الدارين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟ وأيُّ العاملين، عمال دار الشقاء، أو عمال دار السعادة، أولى بالفضل والعقل والفخر، يا أولى الألباب؟

لقد وضح الحق، واستنار السبيل، فلم يبق للمفطر عذر في تركه الدليل، فترجوك يا من قضيت على أقوام بالشقاء، وأقوام بالسعادة، أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة، ونستغيث بك اللهم! من حالة الأشقياء، ونسألك المعافاة منها.

(٢٠ - ١٧) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَءَابَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ۝ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا نَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مِنْكُمْ نَذِقْهُ

سائر أصناف الخلق في هذه الدار، دار الفتن والابتلاء والاختبار.

والقصد من تلك الفتنة ﴿أَنْصِرُونَ﴾ فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتبية، فيشيكم مولاكم^(٣)، أم لا تصبرون فتستحقون المعاقبة؟.

﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ يعلم أحوالكم ويصطفي من يعلمه يصلح لرسالته، ويختصه بتفضيله، ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

(٢٣-٢١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا نُلَوَّا نُولَا أُنُولُ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ۝ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَّحْجُورًا ۝ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ أي: قال المكذبون للرسول، المكذبون بوعد الله ووعيده، الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد، ولا رجاء لقاء الخالق.

﴿نُلَوَّا نُولَا عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾ أي: هلا نزلت الملائكة، تشهد لك بالرسالة، وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلاً مستقلين، أو نرى ربنا فيكلمننا، ويقول: هذا رسولي فاتبعوه؟ وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض، بل بالتكبر والعلو والعتو.

﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجروا هذه الجرأة، فمن أنتم يا فقراء، ويا مساكين، حتى تطلبوا رؤية الله، وترجعوا أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأي كبر أعظم من هذا؟.

﴿وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ أي: قسوا وصلبوا عن الحق قسوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار، وأصلب من الحديد، لا تلين للحق، ولا تصغي للناصحين، فلذلك لم ينجع فيهم وعظ ولا تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم، وآيات الله البيّنات، بالإعراض والتكذيب والمعارضة، فأى عتو أكبر من هذا العتو؟! ولذلك بطلت أعمالهم واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، وحرموا غاية الحرمان.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ التي اقترحوا نزولها ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾ وذلك أنهم لا يرونها، مع استمرارهم على جرمهم وعتادهم، إلا لعقوبتهم، وحلول البأس بهم، فأول ذلك عند الموت، إذا تنزلت عليهم الملائكة، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرَجُوا﴾

(١) في ب: للمعاندين. (٢) كذا في ب، وفي أ: المعاصي. (٣) كذا في ب، وفي أ: مولاهم.

سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَيٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْضُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهؤلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنُونَ﴾، ﴿وَإِذَا حِشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير الله، أو يكونوا أضلّوهم، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَوَأْتَاهُمُ﴾ في لذات الدنيا وشهواتها، ومطالبها النفسية ﴿حَتَّىٰ نَسُوا آلَ الْبُتْرِ﴾ اشتغالا في لذات الدنيا، وإكباباً على شهواتها، فحافظوا على دنياهم، وضيعوا دينهم ﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي: بائرين لا خير فيهم، ولا يصلحون لصالح، لا يصلحون إلا للهلاك والبوار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى، وهو التمتع في الدنيا، الذي صرفهم عن الهدى، وعَدَمَ المقتضي للهدى، وهو: أنهم لا خير فيهم، فإذا عدم المقتضي، ووجد المانع، فلا تشاء من شر وهلاك، إلا وجدته فيهم، فلما تبرأوا منهم، قال الله توبيخاً وتقريماً للعابدين^(١): ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم أمرؤم بعبادتهم، ورضوا فعلكم وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبتكم في ذلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب.

﴿فَمَا سَتَطِيعُونَ صِرْفًا﴾ للعذاب عنكم بفعلكم، أو بفداء، أو غير ذلك، ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لعجزكم، وعدم ناصركم. هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين، كما رأيت، أسوأ حكم، وأشر مصير.

وأما المعاند منهم، الذي عرف الحق وصدف عنه، فقال في حقه: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ مَنكُمُ﴾ بترك الحق ظلماً وعتاداً ﴿نُؤْفَقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يقادر قدره، ولا يبلغ أمره.

ثم قال تعالى جواباً لقول المكذبين: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ فما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام، وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة.

وأما الغنى والفقر، فهو فتنة، وحكمة من الله تعالى، كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ الرسول فتنة للمرسل إليهم، واختبار للمطيعين من العاصين^(٢)، والرسول فتانهم بدعوة الخلق، والغنى فتنة للفقير، والفقير فتنة للغني، وهكذا

التي تليها صفًا وهكذا.

القصد أن الملائكة - على كثرتهم وقوتهم - ينزلون محيطين بالخلق، مذعنين لأمر ربهم، لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، فما ظنك بالآدمي الضعيف، خصوصًا الذي بارز مالكة بالعظام، وأقدم على مساحطه، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الحق، بالحكم الذي لا يجور، ولا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾ لصعوبته الشديدة، وتعسر أمره عليه، بخلاف المؤمن، فإنه يسير عليه، خفيف الحمل ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا ۝ وَسَوْفَ الْمَجْرِبِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرَدًا﴾.

وقوله: ﴿الْمَلَأْتُ يَوْمِيذًا﴾ أي: يوم القيامة ﴿الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين، ملك ولا صورة ملك، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم، والأحرار والعبيد، والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس، وينشرح له الصدر، أن أضاف الملك في يوم القيامة، لاسمه ﴿الرَّحْمَنِ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، وعمت كل حي، وملأت الكائنات، وعمرت بها الدنيا والآخرة، وتم بها كل ناقص، وزال بها كل نقص، وغلبت الأسماء الدالة عليه، الأسماء الدالة على الغضب، وسبقت رحمته غضبه وغلبته، فلها السبق والغلبة.

وخلق هذا الآدمي الضعيف، وشرفه وكرمه، ليطمئنه عليه نعمته، وليتغمده برحمته.

وقد حضروا في موقف الذل والخضوع والاستكانة بين يديه، ينتظرون ما يحكم فيهم، وما يجري عليهم، وهو أرحم بهم من أنفسهم والديهم، فما ظنك بما يعاملهم به، ولا يهلك على الله إلا هالك، ولا يخرج من رحمته إلا من غلبت عليه الشقاوة، وحققت عليه كلمة العذاب.

﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ﴾ بشركه وكفره، وتكذيبه للرسول ﴿عَلَىٰ يَدَيْهِ﴾ تأسفًا، وتحسرًا، وحرنا، وأسفًا ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ أي: طريقًا بالإيمان به، وتصديقه واتباعه. ﴿يَتَوَلَّىٰ لِيَتَىٰ لَرَأَىٰ أَنَّهُ أَخَذَ فَلَاتًا﴾ وهو الشيطان الإنسي أو الجني ﴿خَلِيلًا﴾ أي: حبيبًا مضافًا، عادت أنصح الناس لي، وأبرهم بي، وأرفقهم بي، وواليت أعدى عدولي، الذي لم تفدني ولايته، إلا الشقاء والخسار والخزي والبوار ﴿لَقَدْ أَصَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ حيث زين له ما هو عليه من الضلال، بخدعه وتسويله.

﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ يزين له الباطل،

أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْرُونَ عَذَابَ الْهُونِ يَمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَىٰ اللَّهِ عَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾.

ثم في القبر، حيث يأتيهم منكر ونكير، فيسألهم عن ربهم ونبيهم ودينهم، فلا يجيبون جوابًا ينجيهم، فيحلون بهم النقمة، وتزول عنهم بهم الرحمة، ثم يوم القيامة، حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم، ويباشرون عقابهم، فهذا الذي اقترحوه، وهذا الذي طلبوه، إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحينئذ يعوذون من الملائكة، ويفرون، ولكن لا مفر لهم.

﴿وَيَقُولُونَ جَعَلْنَا جَنَّةَ مَحْجُورًا﴾، ﴿يَمَعَشَرُ الْمَيْنَ وَالْإِنْسَ إِنْ أَسْتَفَعْتُمْ أَنْ تَفْعُدُوا مِنْ أَطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاغْدُوا لَا تَفْعُدُونَ إِلَّا يَسْلُطِينَ﴾. ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ أي: أعمالهم التي رجوا أن تكون خيرًا، وتعجوا فيها ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبْآةً نَسْفُورًا﴾ أي: باطلا مضمحلًا، قد خسروه، وحرموا أجره، وعوقبوا عليه، وذلك لفقدته الإيمان، وصدروه عن مكذب الله ورسله، فالعمل الذي يقبله الله، ما صدر عن المؤمن المخلص، المصدق للرسول المتبع لهم فيه.

(٢٤) ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: في ذلك اليوم الهائل، كثير البلبال ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ الذين آمنوا بالله، وعملوا صالحًا، واتفقوا ربهم ﴿خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ من أهل النار ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ أي: مستقرهم في الجنة، وراحتهم التي هي القيلولة، هو المستقر النافع، والراحة التامة، لاشتغال ذلك على تمام النعيم، الذي لا يشوبه كدر، بخلاف أصحاب النار، فإن جهنم ساءت مستقرًا ومقيلًا، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، لأنه لا خير في مقيل أهل النار ومستقرهم، كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَا يَشْكُرُونَ﴾.

(٢٥-٢٩) ﴿وَيَوْمَ نَسْفَقُ الْأَسْمَاءَ بِالْغَمِّمْ وَزِلَ اللَّيْلِيكَةُ تَنْزِيلًا ۝ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَىٰ الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ۝ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَتَوَلَّىٰ لِيَتَىٰ لَرَأَىٰ أَنَّهُ أَخَذَ فَلَاتًا خَلِيلًا ۝ لَقَدْ أَصَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَدُولًا﴾ يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة، وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب فقال: ﴿وَيَوْمَ نَسْفَقُ الْأَسْمَاءَ بِالْغَمِّمْ﴾ وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه، ينزل من فوق السماوات، فتفطر له السماوات وتشقق، وتنزل الملائكة كل سماء، فيقفون صفًا صفًا، إما صفًا واحدًا محيطًا بالخلائق، وإما كل سماء يكونون صفًا، ثم السماء

ويقبح له الحق، ويعده الأمامي، ثم يتخلى عنه، ويتبرأ منه، كما قال لجميع أتباعه، حين قضي الأمر، وفرغ الله من حساب الخلق ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ الآية .

فلينظر العبد لنفسه وقت الإمكان، وليتدارك الممكن قبل أن لا يمكن، وليؤال من ولايته فيها سعادته، ويعادي من تنفعه عداوته، وتضره صداقته، والله الموفق .

(٣٠، ٣١) ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ۝ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ . ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ منادياً لربه، وشاكياً عليه إعراض قومه عما جاء به، ومتأسفاً على ذلك منهم: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي الَّذِينَ أَرْسَلْتَنِي لَهَادِيَتِهِمْ وَتَبْلِيغِهِمْ﴾ اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿أي: قد أعرضوا عنه، وهجروه، وتركوه، مع أن الواجب عليهم الانقياد لحكمه، والإقبال على أحكامه، والمشي خلفه .

قال الله مسلماً لرسوله، ومخبراً أن هؤلاء الخلق لهم سلف صنعوا كصنيعهم، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: من الذين لا يصلحون للخير، ولا يزكون عليه، يعارضونهم ويردون عليهم، ويجادلونهم بالباطل .

من بعض فوائد ذلك، أن يعلو الحق على الباطل، وأن يتبين الحق، ويتضح انضاحاً عظيماً، لأن معارضة الباطل للحق، مما تزيده وضوحاً وبياناً وكمال استدلال، وأن يتبين ما يفعل الله بأهل الحق من الكرامة، وبأهل الباطل من العقوبة، فلا تحزن عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات .

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا﴾ يهديك، فيحصل لك المطلوب، ومصالح دينك ودنياك ﴿وَنَصِيرًا﴾ ينصرك على أعدائك، ويدفع عنك كل مكروه، في أمر الدين والدنيا، فاكْتَفِ به، وتوكل عليه .

(٣٢، ٣٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ هذا من جملة مقترحات الكفار، الذي توحيه إليهم أنفسهم فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ أي: كما أنزلت الكتب قبله، وأني محذور من نزوله على هذا الوجه؟ بل نزوله على هذا الوجه أكمل وأحسن، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ﴾ أنزلناه متفرقاً ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ لأنه

سورة الفرقان

٣٦٢

سورة الفرقان

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُ أَتُنزِلُ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ (٣١) **يَوْمَ بَرُونَ الْمَلَكُ لَا بَشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا** (٣٢) **وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا** (٣٣) **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا** (٣٤) **وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمِ وَنَزَلَ الْمَلَكُ تَنْزِيلًا** (٣٥) **الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَىٰ الْكَافِرِينَ عَسِيرًا** (٣٦) **وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا** (٣٧) **يَتَوَلَّىٰ لِيَتَنِي لِمَ اتَّخَذْتُ فُلَانًا خَلِيلًا** (٣٨) **لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا** (٣٩) **وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** (٤٠) **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا** (٤١) **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا** (٤٢)

كلما نزل عليه شيء من القرآن، ازداد طمأنينة وثباتاً، وخصوصاً عند ورود أسباب القلق، فإن نزول القرآن عند حدوته، يكون له موقع عظيم، وتثبيت كثير، أبلغ مما لو كان نازلاً قبل ذلك، ثم تذكره عند حلول سببه .

﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ أي: مهلناه، ودرجناك فيه تدريجاً، وهذا كله يدل على اعتناء الله بكتابه القرآن، وبرسوله محمد ﷺ، حيث جعل إنزال كتابه جارياً على أحوال الرسول ومصالحه الدينية، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ يعارضون به الحق، ويدفعون به رسالتك .

﴿إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ أي: أنزلنا عليك قرآناً جامعاً للحق في معانيه، والوضوح والبيان التام في ألفاظه، فمعانيه كلها حق وصدق، لا يشوبها باطل ولا شبهة بوجه من الوجوه، وألفاظه وحدوده للأشياء أوضح ألفاظاً، وأحسن تفسيراً، مبين للمعاني بياناً كاملاً .

وفي هذه الآية دليل على أنه ينبغي للمتكلم في العلم، من محدث، ومعلم، وواعظ، أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم يدبر أمر الخلق، فكلما حدث موجب،

أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمواظ على الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلمين، من الجهمية ونحوهم، ممن يرى أن كثيرًا من نصوص القرآن محمولة على غير ظاهرها، ولها معان غير ما يفهم منها، فإذا - على قولهم - لا يكون القرآن أحسن تفسيرًا من غيره، وإنما التفسير الأحسن - على زعمهم - تفسيرهم الذي حرفوا له المعاني تحريفًا.

(٣٤) ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُحُورٌ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله، وسوء مآلهم وأنهم ﴿يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أشنع مرأى، وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب، ويجرونهم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ الجامعة لكل عذاب وعقوبة.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ الذين بهذه الحالة ﴿سُحُورٌ مَّكَانًا﴾ ممن آمن بالله وصدق رسله.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن المؤمنين حسن مكانهم ومستقرهم، واهتدوا في الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى جنات النعيم.

(٣٥-٤٠) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَحَمَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَيْرًا﴾ فقلنا أذهبنا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم ندميرًا ○ وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آيةً وأعدنا للظالمين عذابًا أليمًا ○ وعادا وحمودًا وأصحب الريس وفرعونًا بين ذلك كثيرًا ○ وكلاً ضربنا له الأمتل وكلاً تبرنا تنبيرًا ○ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفكتم يَكُفُّوا بِرُؤْسِهِمْ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا﴾ أشار تعالى إلى هذه القصص، وقد بسطها في آيات آخر، ليحذر المخاطبين، من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين [كانوا] قريبا منهم، ويعرفون قصصهم بما استفاض واشتهر عنهم.

ومنهم من يرون آثارهم عيانًا، كقوم صالح في الحجر، وكالقرية التي أمطرت مطر السوء، بحجارة من سجيل، يمرون عليهم مصبحين، وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك الأمم ليسوا شرًا منهم، ورسلمهم ليسوا خيرًا من رسول هؤلاء.

﴿أَكْفَارًا خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاهَةٌ فِي الْأُزْبُرِ﴾. ولكن الذي منع هؤلاء من الإيمان - مع ما شاهدوا من الآيات - أنهم كانوا لا يرجون بعثًا ولا نشورًا، فلا يرجون لقاء ربهم، ولا يخشون نكاله، فلذلك استمروا على عنادهم، وإلا فقد جاءهم من الآيات ما لا يبقى معه شك ولا شبهة، ولا إشكال، ولا

وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾
الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُحُورٌ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٤﴾
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَحَمَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزَيْرًا ﴿٣٥﴾
فَقُلْنَا أَهَذَا إِلَىٰ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدمَرْنَاهُمْ تدمِيرًا ﴿٣٦﴾
وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آيةً وأعدنا للظالمين عذابًا أليمًا ﴿٣٧﴾
وعادا وحمودًا وأصحب الريس وفرعونًا بين ذلك كثيرًا ﴿٣٨﴾
وكلاً ضربنا له الأمتل وكلاً تبرنا تنبيرًا ﴿٣٩﴾
ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفكتم يَكُفُّوا بِرُؤْسِهِمْ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ شُورًا ﴿٤٠﴾
وإذا رآوك إن ينخدوونك إلا هزؤا وهذا الذي بعث الله رسولا ﴿٤١﴾
إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ﴿٤٢﴾
أرأيت من اتخذ إلهه هونه هونه أفانت تكون عليه وكيلا ﴿٤٣﴾

ارتباب.

(٤١-٤٤) ﴿وإذا رآوك إن ينخدوونك إلا هزؤا وهذا الذي بعث الله رسولا ○ إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا ○ أرأيت من اتخذ إلهه هونه هونه أفانت تكون عليه وكيلا ○ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعم بل هم المعاندون لآيات [الله]﴾، المستكبرون في الأرض، استهزؤوا بك واحترقوك، وقالوا - على وجه الاحتقار والاستصغار - : ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ أي: غير مناسب ولا لائق، أن يبعث الله هذا الرجل، وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم، وقلبهم الحقائق، فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول - حاشاه - في غاية الخسة والحقارة، وأنه لو كانت الرسالة لغيره، لكان أنسب.

﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجلٍ من القريتين عظيم﴾ فهذا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٦٤

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا
 كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
 الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا
 ﴿٤٧﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٨﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
 لَكُمْ الَيْلَ لِيَأْسَوا وَالنُّومَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٩﴾
 وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٥٠﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ
 وَمَا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْآسٍ كَثِيرًا ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا بَيْنَهُمْ
 لِيَذَّكُرُوا فَأَيُّ الْفِرْعَوْنِ إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا
 لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٥٣﴾ فَلَا تَطِيعُ الْكٰفِرِينَ
 وَجَهَنَّهُمْ بِهِ جَهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٤﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَّ
 الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
 وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٥٥﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ
 نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٦﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
 مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٧﴾

فتبين بهذا أن الرامي للرسول بالضللال أحق بهذا الوصف،
 وأن كل حيوان بهيم فهو أهدى منه.

(٤٦، ٤٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ
 سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾
 أي: ألم تشاهد بصرك وبصيرتك كمال قدرة ربك، وسعة
 رحمته، أنه مدَّ على العباد الظل، وذلك قبل طلوع الشمس
 ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ ۝ أَي: على الظل ﴿دَلِيلًا﴾ فلولا وجود
 الشمس لما عرف الظل، فإن الضد يعرف بضده.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ فكلمة ارتفعت الشمس،
 تقلص الظل شيئًا فشيئًا، حتى يذهب بالكلية، فتوالي الظل
 والشمس على الخلق الذي يشاهدونه عيانًا، وما يترتب على
 ذلك من اختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وتعاقب الفصول،
 وحصول المصالح الكثيرة بسبب ذلك من أدل دليل على كمال
 قدرة الله وعظمته، وكمال رحمته، وعنايته بعباده، وأنه وحده
 المعبود المحمود، المحبوب المعظم، ذو الجلال والإكرام.

(١) المراد: (وتغيريرًا بضعفاء العقول). (٢) زيادة يقتضيها السياق، مع
 العلم أن كلمة هواء كتبت في ب بدلًا عن معبوده ثم شطبت.

الكلام لا يصدر إلا من أجهل الناس وأصلهم، أو من
 أعظمهم عنادًا، وهو متجاهل، قصده ترويح ما معه من
 الباطل، بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا فمن تدبر أحوال
 محمد بن عبد الله ﷺ، وجده رجل العالم، وهمامهم،
 ومقدمهم في العقل، والعلم، واللب، والرزانة، ومكارم
 الأخلاق، ومحاسن الشيم، والعفة، والشجاعة، والكرم،
 وكل خُلُقٍ فاضلٍ، وأن المحقر له، والشانيء له، قد جمع من
 السفه والجهل، والضللال، والتناقض، والظلم، والعدوان،
 ما لا يجمعه غيره، وحسبه جهلًا وضلالًا، أن يقدح بهذا
 الرسول العظيم، والهمام الكريم.

والقصد من قدحهم فيه واستهزائهم به، تَصْلِيْهِمْ عَلَى
 باطلهم، وغرورًا لضعفاء العقول^(١)، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ
 كَادَ هَذَا الرَّجُلُ ﴿لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ بأن يجعل الآلهة إلها
 واحدًا ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لأضلنا، زعموا - فيجهم
 الله - أن الضلال هو التوحيد، وأن الهدى ما هم عليه من
 الشرك، فلهذا تواصوا بالصبر عليه، ﴿وَإِن طَلَّقْنَا أَلْمَأُ مِنْهُمْ إِنْ آمَنُوا
 وَأَصْبَرُوا عَلَى آلِهَتِنَا﴾.

وهنا قالوا: ﴿لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ والصبر يحمد في
 المواضع كلها، إلا في هذا الموضوع، فإنه صبر على أسباب
 الغضب، وعلى الاستكثار من حطب جهنم، وأما المؤمنون،
 فهم كما قال الله عنهم: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

ولما كان هذا حكمًا منهم، بأنهم المهتدون والرسول
 ضال، وقد تقرر أنهم لا حيلة فيهم، توعدهم بالعذاب،
 وأخبر أنهم في ذلك الوقت ﴿حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾ يعلمون
 علمًا حقيقيًا ﴿مَنْ﴾ هو ﴿أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ و﴿يَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى
 يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ الآيات.

وهل فوق ضلال من جعل إلهه معبوده [هواه]^(٢)، فما هويه
 فعله، فلهذا قال: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اخْتَدَى إِلَهُهُ هَوْنَهُ﴾ ألا تعجب من
 حاله، وتنظر ما هو فيه من الضلال؟ وهو يحكم لنفسه
 بالمنازل الرفيعة؟.

﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكَيْلًا﴾ أي: لست عليه بمسيطر
 مسلط، بل إنما أنت منذر، وقد قمت بوظيفتك، وحسابه على
 الله.

ثم سجل تعالى على ضلالهم البليغ، بأن سلبهم العقول
 والأسماع، وشبههم في ضلالهم بالأنعام السائمة التي لا
 تسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون، بل هم
 أضل من الأنعام، لأن الأنعام يهديها راعيها فتهتدي، وتعرف
 طريق هلاكها فتجتنبه، وهي أيضًا أسلم عاقبة من هؤلاء،

﴿وَجَاهِدْهُمْ﴾ بالقرآن ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ أي: لا تبق من مجهودك في نصر الحق وفتح الباطل، إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجرأة ما رأيت، فابذل جهدك، واستفرغ وسعك، ولا تياس من هدايتهم، ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم.

(٥٣) ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي: وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان، البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ أي: حاجزًا يحجز من اختلاط أحدهما بالآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منهما ﴿وَجِجْرًا مَحْجُورًا﴾ أي: حاجزًا حصينًا. (٥٤) ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ أي: وهو الله وحده لا شريك له، الذي خلق الآدمي من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنسابًا وأصهارًا، متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهين، فهذا يدل على كمال اقتداره، لقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾.

ويدل على أن عبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة لقوله: (٥٥) ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أي: يعبدون أصنامًا وأمواتًا لا تضر ولا تنفع، ويجعلونها أندادًا لمالك النفع والضرر، والعتاء والمنع، مع أن الواجب عليهم أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم، ذابن عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية.

﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ فالباطل الذي هو الأوثان والأنداد أعداء الله، فالكافر عاونها وظهرها على ربها، وصار عدوًا لربه، مبارزًا له في العداوة والحرب.

هذا وهو الذي خلقه ورزقه، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو - بجعله - مستمر على هذه المعادة والمبارزة.

(٥٦-٦٠) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ○ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مِن سَاءةٍ أَن يَتَّخِذَ إِلَهًا لِّذِيهِ سَبِيلًا ○ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ○ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَبِيرًا ○ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ يخبر تعالى: أنه ما

(٤٧) ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ أي: من رحمته بكم ولطفه، أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتى تستقروا فيه، وتهذؤوا بالنوم، وتسبت حرركاتكم، أي: تقطع عند النوم، فلولوا الليل لما سكن العباد، ولا استمروا في تصرفهم، فضرهم ذلك غاية الضرر، ولو استمر أيضًا الظلام لتعطلت عليهم معاشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نشورًا ينتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم، فقوم بذلك ما يقوم من المصالح.

(٤٨-٥٠) ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيِّنَاتٍ بِيَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ○ لِيُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَشُقِيحًا وَمِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاقِيًا كَثِيرًا ○ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ أي: هو وحده الذي رحم عباده، وأدر عليهم رزقه، بأن أرسل الرياح مبشرات بين يدي رحمته، وهو المطر، فثار بها السحاب وتألف، وصار كسفًا، وألقفته، وأدرته بإذن أمرها والمتصرف فيها، ليقع استبشار العباد بالمطر قبل نزوله، وليستعدوا له قبل أن يفاجئهم دفعة واحدة.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ يطهر من الحدث والخبث، ويطهر من الغش والأدناس، وفيه بركة من بركته، أنه أنزله ليحيي به بلدة ميتًا، فتختلف أصناف النوابت، والأشجار فيها، مما يأكل الناس والأنعام.

﴿وَشُقِيحًا مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَأُنَاقِيًا كَثِيرًا﴾ أي: نسقيكموه، أنتم وأنعامكم، ليس الذي أرسل الرياح المبشرات، وجعلها في عملها متنوعات، وأنزل من السماء ماء طهورًا مباركًا، فيه رزق العباد ورزق بهائمهم، هو الذي يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك معه غيره؟.

ولما ذكر تعالى هذه الآيات العيانية المشاهدة، وصرفها للعباد ليعرفوه ويشكروه ويذكروه، مع ذلك أبى أكثر الخلق إلا كفورًا، لفساد أخلاقهم وطبائعهم.

(٥١، ٥٢) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَعَنَّاهُ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ○ فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ يخبر تعالى عن نفوذ مشيئته، وأنه لو شاء لبعث في كل قرية نذيرًا، أي: رسولًا ينذرهم ويحذرهم، فمشيئته غير قاصرة عن ذلك، ولكن اقتضت حكمته ورحمته بك وبالعباد - يا محمد - أن أرسلك إلى جميعهم، أحمرهم وأسودهم، عربيهم وعجميهم، إنسهم وجنهم.

﴿فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ﴾ في ترك شيء مما أرسلت به، بل ابذل جهدك في تبليغ ما أرسلت به.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٦٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٦٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٦٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا ﴿٦٩﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٧١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٧٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٧٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٧٧﴾

لكثرة أوصافه، وتعدد كماله، فكل واحد منها دل على صفة كمال.

﴿اسْجُدُوا لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: لمجرد أمرك إيانا، وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول، واستكبارهم عن طاعته، ﴿وَزَادَهُمْ﴾ دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿نُفُورًا﴾ هربًا من الحق إلى الباطل، وزيادة كفر وشقاء.

(٦٢، ٦١) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٧٢﴾ كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله: ﴿تَبَارَكَ﴾ ثلاث مرات، لأن معناها كما تقدم، أنها تدل على عظمة الباري، وكثرة أوصافه، وكثرة خيراته وإحسانه. وهذه السورة، فيها من الاستدلال على عظمتها، وسعة سلطانه، ونفوذ مشيئته، وعموم علمه وقدرته، وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته. وفيها، ما يدل على سعة رحمته، وواسع جوده، وكثرة خيراته، الدينية والدنيوية، ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن فقال:

أرسل رسوله محمدًا ﷺ مسيطرًا على الخلق، ولا جعله ملكًا، ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله ﴿مُبَشِّرًا﴾ يبشر من أطاع الله بالثواب العاجل والآجل ﴿وَنَذِيرًا﴾ ينذر من عصى الله، بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة، وما تحصل به النذارة، من الأوامر والنواهي، وإنك - يا محمد - لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجزاء، حتى يمنهم ذلك من اتباعك، ويتكلفون من الغرامة.

﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ أي: إلا من شاء أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسبيله، فهذا وإن رغبتكم فيه، فلست أجبركم عليه، وليس أيضًا أجزاء لي عليكم، وإنما هو راجع لمصلحتكم، وسلوكم للسبيل الموصلة إلى ربكم.

ثم أمره أن يتوكل عليه، ويستعين به فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ﴾ الذي له الحياة الكاملة المطلقة ﴿الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ أي: عبده وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك، والمتعلقة بالخلق.

﴿وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ يعلمها، ويجازي عليها، فأنت ليس عليك من هداهم شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم.

وإنما ذلك كله بيد الله ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ﴾ بعد ذلك ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، وأعلىها، وأوسعها، وأجملها ﴿الرَّحْمَنُ﴾ استوى على عرشه الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء فاستوى على أوسع المخلوقات، بأوسع الصفات.

فأثبت بهذه الآية خلقه للمخلوقات، وإطلاعه على ظاهريهم وباطنهم، وعلوه فوق العرش، ومبايئته إياهم.

﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمتها، ما تسعدون به من معرفته، فعرفه العارفون، وخضعوا لجلاله.

واستكبر عن عبادته الكافرون، واستكفوا عن ذلك، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ أي: وحده الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم، ﴿قَالُوا﴾ جحدًا وكفرًا ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ بزعمهم الفاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول، أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو مع إليها آخر، يقول: ﴿يا رحمن﴾ ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا دَعَوْا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ فأسماؤه تعالى كثيرة،

عبودية أنبيائه وأوليائه، وهي المراد هنا، ولهذا أضافها إلى اسمه «الرحمن» إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات، ونعوتهم أفضل النعوت، فوصفهم بأنهم ﴿بِعَشْوَنَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ أي: ساكنين متواضعين لله وللخلق، فهذا وصف لهم بالوقار، والسكينة، والتواضع لله، وعباده.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي: خطاب جهل، بدليل إضافة الفعل وإسناده لهذا الوصف، ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾ أي: خاطبهم خطابًا يسلمون فيه من الإثم، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله، وهذا مدح لهم، بالحلم الكثير، ومقابلة المسيء بالإحسان، والعفو عن الجاهل، ورزاة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أي: يكثرون من صلاة الليل، مخلصين فيها لربهم، متذللين له، كما قال تعالى: ﴿وَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ○ فَمَا عَلِمَ نَفْسٌ مَّا أَخْفَى لَكُمْ مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: ادفعه عنا، بالعصمة من أسبابه، ومغفرة ما وقع منا، مما هو مقتض للعذاب ﴿إِنَّكَ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ أي: ملازمًا لأهلها، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه.

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ وهذا منهم على وجه التضرع لربهم، وبيان شدة حاجتهم إليه، وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب، وليتذكروا مِنَّةَ الله عليهم، فإن صرف الشدة، بحسب شدتها وفظاعتها، يعظم وقَّعها ويشد الفرح بصرفها.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿لَمْ يَسْرِفُوا﴾ بأن يزيدوا على الحد، فيدخلوا في قسم التبذير، وإهمال الحقوق الواجبة، ﴿وَلَمْ يَقْتَرُوا﴾ فيدخلوا في باب البخل والشح ﴿وَكَانَ﴾ إنفاقهم ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ بين الإسراف والتقتير ﴿قَوْمًا﴾ يبذلون في الواجبات من الزكوات، والكفارات، والنفقات الواجبة، وفيما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، من غير ضرر ولا ضرار، وهذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بل يعبدونه وحده مخلصين له الدين حنفاء، مقبلين عليه معرضين عما سواه. ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ وهو نفس المسلم، والكافر المعاهد، ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ قتل النفس بالنفس، وقتل

﴿نَبَاكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ رُجُومًا﴾ وهي النجوم عمومها، أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجعولة للحراسة فإنها رجوم للشياطين.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رِيحًا﴾ فيه النور والحرارة، وهو الشمس ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ فيه النور، لا الحرارة، وهذا من أدلة عظمتها، وكثرة إحسانه، فإن ما فيها من الخلق الباهر، والتدبير المنتظم، والجمال العظيم، دال على عظمة خالقها في أوصافه كلها، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع، دليل على كثرة خيراته.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ أي: يذهب أحدهما، فيخلفه الآخر، هكذا أبدًا، لا يجتمعان، ولا يرتفعان.

﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ أي: لمن أراد أن يتذكر بهما ويعتبر، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية، ويشكر الله على ذلك، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره، وله وزد من الليل أو النهار، فمن فاته وزده من أحدهما، أدركه في الآخر، وأيضًا فإن القلوب تتقلب وتنقل في ساعات الليل والنهار، فيحدث لها النشاط والكسل، والذكر والغفلة، والقبض والبسط، والإقبال والإعراض، فجعل الله الليل والنهار، يتوالى على العباد ويتكرران، ليحدث لهم الذكر والنشاط، والشكر لله في وقت آخر، ولأن أوراد العبادات تتكرر بتكرر الليل والنهار، فكلما تكررت الأوقات، أحدث للعبد همة غير همته التي كسلت في الوقت المتقدم، فزاد في تذكرها وشكرها، فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمدده، فلولا ذلك لذوى غرس الإيمان ويسس. فلله أتم حمد، وأكمله على ذلك.

ثم ذكر من جملة كثرة خيره، منته على عباده الصالحين، وتوفيقهم للأعمال الصالحات التي أكسبتهم المنازل العاليات، في غرف الجنات فقال:

(٧٧-٦٣) ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾ ○ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ○ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّكَ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ○ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

العبودية لله نوعان: عبودية لربوبيته، فهذه يشترك فيها سائر الخلق، مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، فكلهم عبيد الله مربيون مديرون ﴿إِنْ كُفِّرْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عَائِدِ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ وعبودية لألوهيته، وعبادته، ورحمته، وهي

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

٣٦٦

سُورَةُ الْفُرْقَانِ

وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ
أَثَامًا ﴿١٨﴾ يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْلُدُ فِيهِ
مُهَانًا ﴿١٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا
فَأُولَئِكَ يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿٢٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ
مَتَابًا ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ
مَرُّوا كِرَامًا ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا يَدْرَأَتْ رِيحُهُمْ
لَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا
هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فَرَةً أَعْيَبَ وَاجْعَلْنَا
لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٢٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا
صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا حَبِيبَةً وَسَلَامًا ﴿٢٥﴾ حَلِيدِينَ
فِيهَا حَسُنَتْ مَسَاقِرُهُمْ وَمَقَامًا ﴿٢٦﴾ قُلْ مَا يَعْجَبُوكُمْ رَبِّي
لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ﴿٢٧﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ أي: لا يحضرون الزور، أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس المشتعلة على الأقوال المحرمة، أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الحرير، والصور، ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى، أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخلية في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولوية، ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ وهو الكلام الذي لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: نزهوا أنفسهم، وأكرموا عن الخوض فيه، ورأوا الخوض فيها، وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفه ونقص للإنسانية والمرءة، فربوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون

الزاني المحصن، والكافر الذي يحل قتله ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾ أي: الشرك بالله، أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أو الزنا، فسوف ﴿يَلْقَىٰ أَثَامًا﴾.

ثم فسره بقوله: ﴿يُضْعَفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَحْلُدُ فِيهِ﴾ أي: في العذاب ﴿مُهَانًا﴾ فالوعيد بالخلود، لمن فعلها كلها، ثابت لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها، إما شرك، وإما من أكبر الكبائر.

وأما خلود القتال والزاني في العذاب، فإنه لا يتناوله الخلود، لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية، أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة، لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ عن هذه المعاصي وغيرها، بأن أقبل عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود ﴿وَآمَنَ﴾ بالله إيمانًا صحيحًا، يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات ﴿وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ مما أمر به الشارع، إذا قصد به وجه الله.

﴿فَأُولَئِكَ يَبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ أي: تبدل أفعالهم وأقوالهم التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيمانًا، ومعصيتهم طاعة، وتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة، تبدل حسنات، كما هو ظاهر الآية.

وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعددها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: «يا رب، إن لي سيئات لا أراها هنا» والله أعلم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن تاب، يغفر الذنوب العظيمة ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده، حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وقفهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ أي: فَلْيَعْلَمْ أن توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فَلْيَحْلِصْ فِيهَا، وَلْيُخَلِّصْهَا مِنْ شَوَائِبِ الْأَعْرَاضِ الْفَاسِدَةِ.

فالمقصود من هذا الحث على تكميل التوبة، وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها، ليقدم على من تاب إليه، فيوفيه (١) أجره، بحسب كمالها.

(١) في ب: فيوفيه.

﴿أُولَئِكَ يُجْرُؤْنَكَ الْغُرُكَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: المنازل الرفيعة، والمسكن الأنيقة الجامعة لكل ما يشتهي، وتلذذ العين، وذلك بسبب صبرهم، نالوا ما نالوا، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّيْكَةُ يَدْخُلُونُ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَّمَ عَلَيْكَ بِمَا صَبَرْتُمْ فَعِمَّ عَقْبَى الدَّارِ﴾ ولهذا قال هنا: ﴿وَلَقَوْلِكَ فِيهَا حَيَّةٌ وَسَلَامًا﴾ من ربهم، ومن ملائكته الكرام، ومن بعض على بعض، ويسلمون من جميع المنغصات والمكدرات.

والحاصل: أن الله وصفهم بالوقار والسكينة، والتواضع له وعباده، وحسن الأدب، والحلم، وسعة الخلق، والعفو عن الجاهلين والإعراض عنهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، وقيام الليل، والإخلاص فيه، والخوف من النار، والنزوع لربهم، أن ينجيهم منها، وإخراج الواجب والمستحب في النفقات، والاقتصاد في ذلك - وإذا كانوا مقتصدین في الإنفاق الذي جرت العادة بالتفريط فيه أو الإفراط، فاقصدهم وتوسطهم في غيره من باب أولى -.

والسلامة من كبائر الذنوب والاتصاف بالإخلاص لله في عبادته، والعفة عن الدماء والأعراض، والتوبة عند صدور شيء من ذلك، وأنهم لا يحضرون مجالس المنكر، والفسوق القولية والفعلية، ولا يفعلونها بأنفسهم، وأنهم ينتزهون من اللغو والأفعال الردية التي لا خير فيها، وذلك يستلزم مروءتهم وإنسانيتهم وكمالهم، ورفعة أنفسهم عن كل خسيس، قولي وفعلي، وأنهم يقابلون آيات الله بالقبول لها، والتفهم لمعانيها، والعمل بها، والاجتهاد في تنفيذ أحكامها، وأنهم يدعون الله تعالى بأكمل الدعاء في الدعاء الذي يتفجعون به ويتفجع به من يتعلق بهم، ويتفجع به المسلمون من صلاح أزواجهم وذريتهم، ومن لوازم ذلك سعيهم في تعليمهم، ووعظهم، ونصحهم، لأن من حرص على شيء ودعا الله فيه، لا بد أن يكون متسبباً فيه، وأنهم دعوا الله ببلوغ أعلى الدرجات الممكنة لهم، وهي درجة الإمامة والصدقية.

فله، ما أعلى هذه الصفات، وأرفع هذه الهمم، وأجل هذه المطالب، وأزكى تلك النفوس، وأطهر تلك القلوب، وأصفى هؤلاء الصفرة، وأتقى هؤلاء السادة!!
والله، فضل الله عليهم ونعمته، ورحمته التي جلتهم، ولطفه الذي أوصلهم إلى هذه المنازل.

والله، مئة الله على عباده، أن بين لهم أوصافهم، ونعت لهم هياتهم، وبين لهم همهم، وأوضح لهم أجورهم، ليشاقوا إلى الاتصاف بأوصافهم، ويبدلوا جهدهم في ذلك، ويسألوا الذي منَّ عليهم وأكرمهم الذي فضله في كل زمان ومكان،

حضوره، ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد، يكرمون أنفسهم عنه.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها ﴿لَمْ يَجْرُؤْا عَلَيْهَا سُتْمًا وَغَمِيَانًا﴾ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعل من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ يقابلونها بالقبول والافتقار إليها، والانقياد والتسليم لها.

وتجد عندهم أذاناً سامعة، وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيقانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واغتراباً.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ أي: قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات ﴿وَذُرِّيَّتِنَا فَرَةً أَعْيُنٍ﴾ أي: تفرُّ بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم، عرفنا من همهم وعلو مرتبتهم، أنهم لا تفر أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم، عالمين عاملين، وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم، لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم، فقالوا: ﴿هَبْ لَنَا﴾ بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين، لأن بصلاح من ذكر، يكون سبباً لصلاح كثير ممن يتعلق بهم، ويتفجع بهم.

﴿وَأَجَعَلْنَا لِلتَّقِيَّينَ إِمَامًا﴾ أي: أوصلنا يا ربنا إلى هذه الدرجة العالية، درجة الصديقين والكمّل من عباد الله الصالحين، وهي درجة الإمامة في الدين، وأن يكونوا قدوة للمتقين في أقوالهم وأفعالهم، يقتدى بأفعالهم ويطمأن لأقوالهم، ويسير أهل الخير خلفهم، فيهدون ويهدتون.

ومن المعلوم، أن الدعاء ببلوغ شيء، دعاء بما لا يتم إلا به، وهذه الدرجة - درجة الإمامة في الدين - لا تتم إلا بالصبر واليقين، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فهذا الدعاء يستلزم من الأعمال، والصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وأقداره المؤلمة، ومن العلم التام الذي يوصل صاحبه إلى درجة اليقين - خيراً كثيراً، وعطاء جزيلاً، وأن يكونوا في أعلى ما يمكن من درجات الخلق بعد الرسل.

ولهذا - لما كانت همهم ومطالبهم عالية - كان الجزء من جنس العمل، فجازاهم بالمنازل العاليات فقال:

وفي كل وقت وأوان، أن يهديهم كما هداهم، ويتولاهم بربيته الخاصة، كما تولاهم.

فاللهم، لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك، لا نملك لأنفسنا نفعاً ولا ضرراً، ولا نقدر على مثقال ذرة من الخير، إن لم تيسر ذلك لنا، فإننا ضعفاء عاجزون من كل وجه.

نشهد أنك إن وكلتنا إلى أنفسنا طرفة عين، وكلتنا إلى ضعف وعجز وخطيئة، فلا نتق يا ربنا إلا برحمتك التي بها خلقتنا ورزقتنا، وأنعمت علينا بما أنعمت من النعم الظاهرة والباطنة، وصرفت عنا من النقم، فارحمتنا رحمة تغنينا بها عن رحمة من سواك، فلا خاب من سألك ورجاك، ولما كان الله تعالى، قد أضاف هؤلاء العباد إلى رحمته، واختصهم بعبوديته لشرفهم وفضلهم، ربما توهم متوهم أنه وأيضاً غيرهم، فلم لا يدخل في العبودية؟.

فأخبر تعالى أنه لا يبالي ولا يعاب بغير هؤلاء، وأنه لولا دعاؤكم إياه دعاء العبادة ودعاء المسألة، ما عبأ بكم ولا أحبكم فقال: ﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزِمَامِ﴾ أي: عذاباً يلزمكم، لزوم الغريم لغريمه، وسوف يحكم الله بينكم وبين عباده المؤمنين.

تم تفسير سورة الفرقان، فله الحمد والشاء والشكر أبداً.

تفسير سورة الشعراء

وهي مكية عند الجمهور

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩-١) ﴿طَسَّرَ ١ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَنِعْجٌ نَّفْسَكَ ٣ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٤ إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٥ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٦ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لِمَنْ أَنْبَأُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٧ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ ٨ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٠﴾ يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح، الدال على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به، لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني، وارتباط الأحكام بحكمها، وتعلقها بمناسبتها، فكان رسول الله ﷺ ينذر به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهتدي بذلك عباد الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
طَسَّرَ ١ تِلْكَ آيَاتِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ٢ لَعَلَّكَ بَنِعْجٌ نَّفْسَكَ ٣ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ٤ إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ٥ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ ٦ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لِمَنْ أَنْبَأُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ٧ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّمْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زوجٍ كَرِيمٍ ٨ وَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ٩ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ١٠ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ١١ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ ١٢ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ١٣ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَرُونَ ١٤ وَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ١٥ قَالَ كَلَّا فَادْهَابًا بِأَسْمَانَا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ١٦ فَآتَا فِرْعَوْنَ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٧ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ١٨ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَمَّا نَسْنَا مِنْ عَمْرِكَ سِنَّينَ ١٩ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ آتَى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ٢٠

المتقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم، حرصاً منه على الخير، ونصحاً لهم.

فلهذا قال تعالى عنه: ﴿لَعَلَّكَ بَنِعْجٌ نَّفْسَكَ﴾ أي: مهلكها وشاقاً عليها ﴿أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الهداية بيد الله، وقد أدبت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى نزلها ليؤمنوا [بها] فإنه كاف شاف لمن يريد الهداية، ولهذا قال:

﴿إِنْ شَأْ نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ﴾ أي: من آيات الاقتراح ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ﴾ أي: أعناق المكذبين ﴿لَهَا خَاضِعِينَ﴾ ولكن لا حاجة إلى ذلك، ولا مصلحة فيه، فإنه إذ ذاك الوقت يكون الإيمان غير نافع وإنما الإيمان النافع، الإيمان بالغيب، كما قال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِشْرَاقُهَا﴾ الآية.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدِّثٍ﴾ يأمرهم وينهاهم، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ بقلوبهم

يصدقوني.

﴿وَلَمَّا عَلَىٰ ذَنْبٌ﴾ أي: في قتل القبطي ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾. ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي: لا يتمكنون من قتلك، فإننا سنجعل لكما سلطاناً، ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِأَيِّتِنَا أُنْتَمَا وَمَنْ أَتَعَكُمَا الْعَالِيُونَ﴾ ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى، مع منابذته له غاية المنابذة، وتسفيه رأيه، وتضليله وقومه.

﴿فَأَذْهَبَا بِأَيِّتِنَا﴾ الدالة على صدقكما، وصحة ما جئتما به ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ أحفظكما وأكلؤكما.

﴿فَاتَّبَعْنَا بِعُرْوَةٍ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أرسلنا إليك لتؤمن به وبنا، وتتقاد لعبادته، وتدع لتوحيد.

﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فكف عنهم عذابك، وارف عنهم يدك ليعبدوا ربهم، وقيموا أمر دينهم.

فلما جاء فرعون، وقال له ما قال الله لهما، لم يؤمن فرعون ولم يلبس، وجعل يعارض موسى ف: ﴿قَالَ أَلَمْ تُرِيدِكُمْ فِينَا وَلِيدًا﴾ أي: ألم نعلم عليك، ونقم بتريبتك، منذ كنت وليداً في مهدك، ولم تزل كذلك.

﴿وَلَيْسَتْ فِينَا مِنْ عَمَلِكُمْ سِينَةٌ﴾ وفعلت فعلتك التي فعلت وهي قتل موسى للقبطي، حين استغائه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴿فَوَكَّرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ الآية.

﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: وأنت إذ ذاك طريقك طريقنا، وسيلك سبيلنا في الكفر، فأقر على نفسه بالكفر من حيث لا يدري.

فقال موسى: ﴿فَعَلَّهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: عن غير كفر، وإنما كان عن ضلال وسفه، فاستغفرت ربي فغفر لي. ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خَفَّكُمُ﴾ حين تراجعتم بقتلي، فهربت إلى مدين، ومكثت سنين، ثم جئتمكم ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

فالحاصل أن اعتراض فرعون على موسى، اعتراض جاهل أو متجاهل، فإنه جعل المانع من كونه رسولاً، أن جرى منه القتل، فبين له موسى أن قتله على وجه الضلال والخطأ الذي لم يقصد نفس القتل، وأن فضل الله تعالى غير ممنوع منه أحد، فلم منعتم ما منحني الله من الحكم والرسالة؟ بقي عليك يا فرعون إدلاؤك بقولك: ﴿أَلَمْ تُرِيدِكُمْ فِينَا وَلِيدًا﴾ وعند التحقيق يتبين أن لا منة لك فيها، ولهذا قال موسى:

﴿وَلَيْكَ بِعَمَلٍ تَمَنَّا عَلَىٰ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: تدلي علي بهذه المنة لأنك سخرت بني إسرائيل، وجعلتهم لك بمنزلة العبيد، وأنا قد أسلمتني من تعبيدك وتسخيرك، وجعلتها علي نعمة، فعند التصور يتبين أن الحقيقة أنك ظلمت هذا الشعب

وأبدانهم، هذا إعراضهم عن الذكر المحدث الذي جرت العادة أنه يكون موقعه أبلغ من غيره، فكيف بإعراضهم عن غيره، وهذا لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجع فيهم المواعظ، ولهذا قال:

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا﴾ أي: بالحق، وصار التكذيب لهم سجية، لا تغيير ولا تبدل ﴿فَسَيَاتِبُهُمْ أَنْتَوُا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: سيقع بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به، فإنهم قد حققت عليهم كلمة العذاب.

قال الله منبهاً على التفكير الذي ينفغ صاحبه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَرَّ أَنْبَتًا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ على إحياء الله الموتى بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

(١٠-٦٨) ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ إلى آخر القصة قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ أعاد الباري تعالى قصة موسى وثناها في القرآن ما لم يثن غيرها، لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن فقال: واذكر حالة موسى الفاضلة وقت نداء الله إياه، حين كلمه ونباه وأرسله فقال: ﴿أَنْ أَنْتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين تكبروا في الأرض، وعلوا على أهلها، وادعى كبيرهم الربوبية.

﴿قَوْمٌ فَرَعُونَ إِلَّا يَنْفَعُونَ﴾ أي: قل لهم بلين قول ولطف عبارة ألا تتقون الله الذي خلقكم ورزقكم، فتركون ما أنتم عليه من الكفر.

فقال موسى عليه السلام معتذراً من ربه، ومبيناً لعذره، وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَبْسُطُ لِسَانِي﴾ فقال: ﴿رَبِّ أَسْرَجْ لِي صَدْرِي﴾ وَيَبِّرْ لِي أَمْرِي﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي﴾ يَقْفَهُوا قَوْلِي﴾ وَأَجْعَلْ لِي وَرِيكًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَرُونَ أَخِي﴾.

﴿فَأَرْسِلْ لِي هَرُونَ﴾ فأجاب الله طلبته، ونبا أخاه هارون، كما نبأه ﴿فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا﴾ أي: معاوناً لي على أمري أن

سورة الشعراء

٣٦٨

سورة الشعراء

قَالَ فَعَلْنَهَا إِذْ أَوْأَنَا مِنَ الصَّالِينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُمْ
فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتَكَ نِعْمَةً تَنْمُنَا
عَلَىٰ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَاءَ بَلِ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ
﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ
﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ
الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾
قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ
لَئِن أَخَذتَّ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ
أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعُ يَدَهُ
فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ
عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا
تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ
﴿٣٦﴾ يَا تُولَكُ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ
لَيْقَلَّتْ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

ومن معه على بصيرة من أمرهم.

فقال له موسى: ﴿أَوْ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ أي: آية ظاهرة جلية على صحة ما جئت به، من خوارق العادات.

﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ○ قَالَتْ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ ﴿أي: ذكر الحيات﴾ مُّبِينٌ ﴿ظاهر لكل أحد، لا خيال، ولا تشبيه.

﴿وَنَزَعُ يَدَهُ﴾ من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ أي: لها نور عظيم، لا نقص فيه لمن نظر إليها.

﴿قَالَ﴾ فرعون ﴿لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ﴾ معارضًا للحق ومن جاء به ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ○ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ﴿مؤة عليهم لعلمه بضعف عقولهم، أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة، لأنه من المتقرر عندهم، أن السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدر عليه الناس، وخَوْفُهُمْ أن قصده بهذا السحر التوصل إلى إخراجهم من وطنهم، ليجلدوا ويجهتدوا في معاداة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ أن نفعل به؟.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخرهما ﴿وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾

الفاضل، وعذبتهم، وسخرتهم بأعمالك، وأنا قد سلمني الله من أذاك، مع وصول أذاك لقومي، فما هذه المنة التي تبت بها وتدلي بها؟.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ وهذا إنكار منه لربه، ظلماً وعلواً، مع تيقن صحة ما دعاه إليه موسى، قال:

﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: الذي خلق العالم العلوي والسفلي، ودبره بأنواع التدبير، ورباه بأنواع التربية، ومن جملة ذلك أنتم أيها المخاطبون، فكيف تنكرون خالق المخلوقات، وفاطر الأرض والسموات ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ فقال فرعون متجرهماً، ومعجباً لقومه: ﴿أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ما يقول هذا الرجل، فقال موسى: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ تعجبتم أم لا، استكبرتم أم أذعنتم؟.

فقال فرعون معانداً للحق، قادحاً بمن جاء به: ﴿إِنَّ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ حيث قال خلاف ما نحن عليه، وخالفنا فيما ذهبنا إليه، فالعقل عنده وأهل العقل، من زعموا أنهم لم يخلقوا، أو أن السماوات والأرض ما زالتا موجودتين من غير موجد، وأنهم بأنفسهم خلقوا من غير خالق، والعقل عنده أن يعبد المخلوق الناقص من جميع الوجوه، والجنون عنده أن يثبت الرب الخالق للعالم العلوي والسفلي، والمنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، ويدعو إلى عبادته، وزين لقومه هذا القول، وكانوا سفهاء الأحلام، خفيفي العقول ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ فقال موسى عليه السلام مجيباً لإنكار فرعون وتعطيله لرب العالمين: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من سائر المخلوقات ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فقد أدبت لكم من البيان والبيان، ما يفهمه كل من له أدنى مسكة من عقل، فما بالكم تتجاهلون فيما أخطابكم به؟ وفيه إيماء وتنبه إلى أن الذي رميتم به موسى من الجنون، أنه داؤكم فرميتم أركي الخلق عقلاً، وأكملهم علماً بالجنون، والحال أنكم أنتم المجانين، حيث ذهبت عقولكم لإنكار أظهر الموجودات، خالق الأرض والسماوات وما بينهما، فإذا جحدتموه، فأبي شيء تثبتون؟ وإذا جهلتموه، فأبي شيء تعلمون؟ وإذا لم تؤمنوا به وبآياته، فأبي شيء - بعد الله وآياته - تؤمنون؟ تالله! إن المجانين الذين بمنزلة الهائم أ عقل منكم، وإن الأنعام السارحة أهدي منكم.

فلما خفقت فرعون الحجة، وعجزت قدرته وبيانه عن المعارضة ﴿قَالَ﴾ متوعداً لموسى بسلطانه: ﴿لَئِن أَخَذتَّ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ زعم - قبحه الله - أنه قد طمع في إضلال موسى، وأن لا يتخذ إلهاً غيره، وإلا فقد تقرر أنه هو

سورة الشعراء

٣٦٩

سورة الشعراء

لَعَلْنَا نَبْعِثَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ
 قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُ إِيَّاكَ إِنَّا كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ
 وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ
 ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِجَابَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
 الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
 ﴿٤٥﴾ فَأَلْفَى السَّحْرَةَ سَاحِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا يَا مَرْيَمُ الْقَائِلِينَ
 رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٧﴾ قَالَ أَمْسِرْ لَهٗ قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ
 لَكَبِيرٌ كُفٍّ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعَالِمُونَ لَا فِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ
 وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صِلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا لَاصِرٌ لَنَا
 إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٤٩﴾ إِنَّا نَنْطَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا إِنَّ كُنَّا
 أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكَ
 مُتَّبَعُونَ ﴿٥١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٢﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ
 لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِبُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ
 ﴿٥٥﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٦﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٧﴾
 كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٨﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٥٩﴾

﴿فَأَلْفَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ﴾ تتبلع وتأخذ ﴿مَا يَأْفِكُونَ﴾
 فالنتفت جميع ما ألقوا من الحبال والعصي، لأنها أفك وكذب
 وزور، وذلك كله باطل، لا يقوم للحق ولا يقاومه.
 فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة تيقنوا - لعلمهم - أن
 هذا ليس بسحر، وإنما هو آية من آيات الله، ومعجزة تنبئ
 بصدق موسى، وصحة ما جاء به. ﴿فَأَلْفَى السَّحْرَةَ سَاحِدِينَ﴾
 لربهم، ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ رَبِّ الْمَدَائِنِ﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ، وانقمع
 الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤساؤه ببطلانه، ووضح الحق
 وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم، ولكن أبي فرعون
 إلا عتوا وضللاً، وتمادياً في غيه وعناداً، فقال للسحرة:
 ﴿أَمْسِرْ لَهٗ قَبْلَ أَنْ يَأْذَنَ لَكُمْ﴾ يتعجب، ويعجب قومه من
 جراتهم عليه، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامراته
 ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُفٍّ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ﴾ هذا، وهو الذي جمع
 السحرة وملاه، الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد
 علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم
 جاءوا من السحر بما يحير الناظرين ويهلبهم، ومع ذلك،
 فراج عليهم هذا القول الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه،

جامعين للناس، ﴿يَأْتُوكَ﴾ أولئك الحاشرون ﴿يَكْفُلُ﴾
 سَحَّارٍ عَلَيْهِمْ أَي: ابعت في جميع مدتك التي هي مقر العلم
 ومعدن السحر، من يجمع لك كل ساحر ماهر، عليم في
 سحره، فإن الساحر يُقابَلُ بسحر من جنس سحره.

وهذا من لطف الله أن يري العباد بطلان ما موه به فرعون
 الجاهل الضال المضل، أن ما جاء به موسى سحر، قبضهم
 أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، ليتعقد المجلس عن حضرة
 الخلق العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم
 وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر،
 فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة،
 واجتهد في ذلك وجد.

﴿فَجُمِعَ السَّحْرَةُ لِيَقْدَتَ يَوْمَ مَعَاوِرٍ﴾ قد واعدهم إياه موسى،
 وهو يوم الزينة الذي يفرعون فيه من أشغالهم.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُخْتَمِعُونَ﴾ أي: نودي بعموم الناس
 بالاجتماع في ذلك اليوم الموعد ﴿لَعَلْنَا نَبْعِثَ السَّحْرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ
 الْغَالِبِينَ﴾ أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتنظروا غلبة السحرة
 لموسى، وأنهم ماهرين في صناعتهم، فنتبعهم ونعظمهم،
 ونعرف فضيلة علم السحر، فلو وفقوا للحق لقالوا: لعلنا نتبع
 المحق منهم، ولتعرف الصواب، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك إلا
 قيام الحجة عليهم.

﴿لَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ﴾ ووصلوا لفرعون قالوا له: ﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرٌ
 إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ لموسى؟ ﴿قَالَ نَعَمْ﴾ لكم أجر وثواب
 ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي، وعدهم الأجر والقربة منه،
 ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به
 موسى.

فلما اجتمعوا للموعد، هم وموسى، وأهل مصر، وعظهم
 موسى وذكرهم وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
 فَيَسْجُرَكُمْ بِعِبَابٍ وَفَدَّ حَابٍ مِنْ أَفْتَرَى﴾ فتنازعوا وتخاصموا، ثم
 شجعهم فرعون، وشجع بعضهم بعضاً.

﴿قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾ أي: ألقوا كل ما
 في خواطركم إلفاؤه، ولم يقيده بشيء دون شيء، لجزمه
 بطلان ما جاءوا به من معارضة الحق.

﴿فَأَلْقَوْا حِجَابَهُمْ وَعَصِيَّتَهُمْ﴾ فإذا هي حيات تسعى، وسحروا
 بذلك أعين الناس. ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾
 فاستعانوا بعزة عبد ضعيف عاجز من كل وجه، إلا أنه قد
 تجبر، وحصل له صورة ملك وجنود، فغرتهم تلك الأبهة،
 ولم تنفذ بصائرهم إلى حقيقة الأمر، أو أن هذا قَسَمٌ منهم بعزة
 فرعون والمقسم عليه أنهم غاليون.

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي: هذه البساتين والعيون، والزرع، والمقام الكريم ﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في أعمالهم الشاقة، فسبحان من يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ أي: اتبع قوم فرعون قوم موسى، وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم محثين، على غيظ وحقن قادين.

﴿فَلَمَّا تَرَىٰ الْجَمْعَانَ﴾ أي: رأى كل منهما صاحبه ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ﴾ شاكين لموسى وحزينين ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾، ف ﴿قَالَ﴾ موسى مثبتاً لهم، ومخبراً لهم بوعد ربه الصادق: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، أنكم مدركون ﴿إِن مَّعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَن أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه ﴿فَانْفَلَقَ﴾ اثني عشر طريقاً ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ﴾ أي: الجبل ﴿الْعَظِيمِ﴾ فدخله موسى وقومه.

﴿وَرَأَيْنَا تَمَمٌ﴾ في ذلك المكان ﴿الْآخِرِينَ﴾ أي: فرعون وقومه، قربانهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق الذي سلك منه موسى وقومه.

﴿وَأَنْبِئْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمِينَ﴾ استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ﴾ لم يتخلف منهم عن الغرق أحد. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ عظيمة على صدق ما جاء به موسى عليه السلام، وبطلان ما عليه فرعون وقومه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ مع هذه الآيات المقتضية للإيمان، لفساد قلوبكم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

(٦٩-١٠٤) ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ إِبْرَاهِيمَ﴾ ○ إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿إلى آخر هذه القصة﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: واتل يا محمد على الناس، نبأ إبراهيم الخليل، وخبره الجليل، في هذه الحالة بخصوصها، وإلا فله أبناء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها هذا النبأ المتضمن لرسالته ودعوته قومه، ومحاجته إياهم، وإبطاله ما هم عليه، ولذلك قيده بالظرف فقال:

﴿إِذْ قَالَ لِأَيِّهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ○ فَأَلَوْا متبجحين بعبادتهم: ﴿تَعْبُدُونَ أَشْأَمًا﴾ ننحتها ونعملها بأيدينا ﴿فَنَنْظِلُ هُنَا عَنَّا كَيْفَ﴾ أي: مقيمين على عبادتها في كثير من أوقاتنا، فقال لهم إبراهيم، مبيناً لعدم استحقاتها للعبادة: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ

فلا يستنكر على أهل هذه العقول، أن لا يؤمنوا بالحق الواضح والآيات الباهرة، لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان، إنه على خلاف حقيقته، صدقوه.

ثم توعد السحرة فقال: ﴿لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، كما يفعل بالمفسد في الأرض ﴿وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمِينَ﴾ لتختزوا وتذلوا.

فقال السحرة - حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته - : ﴿لَا صَبْرَ﴾ أي: لا نبالي بما توعدتنا به ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُتَقَلِّبُونَ﴾ ○ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا ﴿من الكفر والسحر وغيرهما﴾ ﴿أَنْ كُنَّا أَوْلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بموسى، من هؤلاء الجنود، فثبتهم الله وصبرهم.

فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به، لسלטانه واقتداره إذ ذلك، ويحتمل أن الله منعه منهم، ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم، يأتيهم موسى بالآيات البيّنات، وكلما جاءتهم آية، وبلغت منهم كل مبلغ، وعدوا موسى وعاهدوه لئن كشف الله عنهم، ليؤمنن به وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم ينكثون، فلما يش موسى من إيمانهم، وحققت عليهم كلمة العذاب، وأن لبني إسرائيل أن ينجيهم الله من أسرهم، ويمكن لهم في الأرض، أوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: اخرج بني إسرائيل أول الليل، ليتمادوا ويتمهلوا في ذهابهم ﴿إِنْ كَرِهْتَ مُتَّبِعُونَ﴾ أي: سيتبعكم فرعون وجنوده.

ووقع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يجمعون الناس، ليقع ببني إسرائيل، ويقول مشجعاً لقومه: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلَةٌ﴾ ○ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ﴿ونريد أن ننفذ غيظنا في هؤلاء العبيد الذين أبغوا منا.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ﴾ أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم، ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعدار الذين منعهم العجز.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: بساتين مصر وجنانها الفاخرة، وعيونها المتدفقة، وزرع قد ملأت أراضيه، وعمرت بها حاضرتهم وبواديهم.

﴿وَمَقَارٍ كَبِيرَةٍ﴾ يعجب الناظرين، ويلهي المتأملين، تمتعوا به دهرًا طويلاً، وقضوا بلداته وشهواته عمراً مديداً، على الكفر والعناد، والتكبر على العباد والته العظيم.

تَدْعُونَ ﴿٦٩﴾ فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم، ويزيلون عنكم كل مكروه؟.

﴿أَوْ يَبْقَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها، فلا تسمع دعاء، ولا تنفع، ولا تضر، ولهذا لما كسرهما وقال: ﴿بَلْ يَفْكُهُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا فَتَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ قالوا له: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ أي: هذا أمر مقرر من حالها، لا يقبل الإشكال والشك، فلجأوا إلى تقليد آباءهم الضالين، فقالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾، فبجناهم على ذلك، وسلكننا سبيلهم، وحافظنا على عاداتهم.

فقال لهم إبراهيم: أنتم وآباؤكم، كلكم خصوم في هذا الأمر، والكلام مع الجميع واحد.

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ أنتم وآباؤكم الأقدمون ﴿فَاتَّبَعْتُمْ عِدْوِي﴾ فليضروني بأدنى شيء من الضرر، وليكيدوني فلا يقدرون.

﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿هو المنفرد بنعمة الخلق ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية، ثم خصص منها بعض الضروريات فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ وَالَّذِي يُبْرِئُنِي ثُمَّ يُجْبِنُنِي﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

فهذا هو وحده المنفرد بذلك، فيجب أن يفرد بالعبادة والطاعة، وترك هذه الأصنام التي لا تخلق، ولا تهدي، ولا تمرض، ولا تشفي، ولا تطعم، ولا تسقي، ولا تميمت، ولا تحيي، ولا تنفع عابديها، بكشف الكروب، ولا مغفرة الذنوب.

فهذا دليل قاطع، وحجة باهرة، لا تقدر أنتم وآباؤكم على معارضتها، فدل على اشتراككم في الضلال، وترككم طريق الهدى والرشد، قال الله تعالى: ﴿وَحَاجُّهُمْ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحِبُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِي﴾ الآيات.

ثم دعا عليه السلام ربه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ أي: علمًا كثيرًا، أعرف به الأحكام والحلال والحرام، وأحكم به بين الأنام، ﴿وَالْحَقِّي بِالصَّدِيقِينَ﴾ من إخوانه الأنبياء والمرسلين.

﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: اجعل لي ثناء صدق، مستمر إلى آخر الدهر، فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوبًا مقبولًا، معظمًا مثني عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

٣٧٠

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

فَلَمَّا تَرَأَىٰ الْجَمْعَانَ قَالِ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٨﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٩﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿٧٠﴾ وَأَجْمِنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٧١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ ﴿٧٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِظٌ لِلرَّجِيمِ ﴿٧٤﴾ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٧٥﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلْهَا عَنْكُمُ إِنَّا كُنَّا بِهَذَا عَدُوًّا لَّيًّا ﴿٧٧﴾ فليضروني بأدنى شيء من الضرر، وليكيدوني فلا يقدرون. ﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿هو المنفرد بنعمة الخلق ونعمة الهداية للمصالح الدينية والدنيوية، ثم خصص منها بعض الضروريات فقال: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ وَالَّذِي يُبْرِئُنِي ثُمَّ يُجْبِنُنِي﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّارِ﴾ أي: من أهل الجنة التي يورثهم الله إياها، فأجاب الله دعاءه، فرفع منزلته في جنات النعيم.

﴿وَأَنْفِرْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: اجعل لي ثناء صدق، مستمر إلى آخر الدهر، فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوبًا مقبولًا، معظمًا مثني عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ

﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ أي: اجعل لي ثناء صدق، مستمر إلى آخر الدهر، فاستجاب الله دعاءه، فوهب له من العلم والحكم، ما كان به من أفضل المرسلين، وألحقه بإخوانه المرسلين، وجعله محبوبًا مقبولًا، معظمًا مثني عليه، في جميع الملل، في كل الأوقات.

الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبه تابعة لمحبة الله، وهواه، تبعاً لما جاء عن الله .

ثم ذكر من صفات ذلك اليوم العظيم، وما فيه من الثواب والعقاب فقال: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ أَي: قربت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ربهم، الذين امثلوا أومره، واجتنبوا زواجره، واتقوا سخطه وعقابه .

﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ﴾ أي: برزت، واستعدت بجميع ما فيها من العذاب، ﴿لِلْغَاوِينَ﴾ الذين أوضاعوا في معاصي الله، وتجروا على محارمه، وكذبوا رسله، وردوا ما جاءهم به من الحق ﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ من دون الله هل ينصرونكم أو ينصرون بأنفسهم أي: فلم يكن من ذلك من شيء، وظهر كذبهم وخزيهم، ولاحت خسارتهم وفضيحتهم، وبان ندمهم، وضل سعيهم ﴿فَكَذَّبُوا بِهَا﴾ أي: ألقوا في النار ﴿هُمْ﴾ أي: ما كانوا يعبدون ﴿وَالْغَاوُونَ﴾ العابدون لها ﴿وَيَحْجُودُ إِبْلِيسُ أَجْمَعُونَ﴾ من الإنس والجن الذين أزههم إلى المعاصي أزا، وتسלט عليهم بشركهم وعدم إيمانهم، فصاروا من دعائه، والساعين في مرضاته، وهم ما بين داع لطاعته، ومحجيب لهم، ومقلد لهم على شركهم .

﴿قَالُوا﴾ أي: جنود إبليس الغاؤون، لأصنامهم وأوثانهم التي عبدوها: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿إِذْ سَأَلْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ في العبادة والمحبة، والخوف والرجاء، وندعوكم كما ندعوه، فتبين لهم حينئذ ضلالهم، وأقروا بعدل الله في عقوبتهم، وأنها في محلها، وهم لم يسووهم برب العالمين إلا في العبادة، لا في الخلق، بدليل قولهم: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إنهم مقرون أن الله رب العالمين كلهم، الذين من جملتهم أصنامهم وأوثانهم .

﴿وَمَا أَضَلْنَا﴾ عن طريق الهدى والرشد، ودعانا إلى طريق الغي والفسق، ﴿إِلَّا الْمَجْرُمُونَ﴾ وهم الأئمة الذين يدعون إلى النار .

﴿فَمَا لَنَا﴾ حينئذ ﴿مِن سَفِينٍ﴾ يشفعون لنا، لينقذونا^(١) من عذابه ﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ أي: قريب مصاف، ينفعنا بأدنى نفع، كما جرت العادة بذلك في الدنيا . فأيسوا من كل خير، وأبلسوا بما كسبوا، وتمنوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً .

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ﴾ أي: رجعة إلى الدنيا، وإعادة إليها ﴿فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لنسلم من العقاب، ونستحق الثواب، هيئات هيئات، قد حيل بينهم وبين ما يشتهون، وقد غلقت منهم الرهون .

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا لكم ووصفنا ﴿لَايَةً﴾ لكم

بِالْحَمْدِ لِلَّهِ

٣٧١

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ

وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَأَعْفِرْ لِي يَا إِلَهَ كَانِ مِنَ الصَّالِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكَبَّوْا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَحِجُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ سَأَلْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلْنَا إِلَّا الْمَجْرُمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ سَفِينٍ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعَزُّ رَحِيمٌ ﴿١٠٤﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوْحَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَنْتَقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١١٠﴾ قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مع نزول الآيات .

(١٠٥-١٢٢) ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوْحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة .

يذكر تعالى تكذيب قوم نوح لرسولهم نوح، وما رد عليهم وردوا عليه، وعاقبة الجميع فقال: ﴿كَذَبَتْ قَوْمٌ نُوْحَ الْمُرْسَلِينَ﴾ جميعهم، وجعل تكذيب نوح كتكذيب جميع المرسلين، لأنهم كلهم اتفقوا على دعوة واحدة، وأخبار واحدة، فتكذيب أحدهم تكذيب بجميع ما جاءوا به من الحق، كذبوه ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ﴾ في النسب ﴿نُوْحٌ﴾ وإنما ابتهت الله الرسل من نسب من أرسل إليهم، لئلا يشتمروا من الانقياد له، ولأنهم يعرفون حقيقته، فلا يحتاجون أن يبحثوا عنه، فقال لهم مخاطباً بالطف خطاب - كما هي طريقة الرسل، صلوات الله وسلامه عليهم - ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، فتركون ما أنتم مقيمون عليه من عبادة الأوثان، وتخلصون العبادة لله وحده .

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فكونه رسولاً إليهم بالخصوص، يوجب لهم تلقي ما أرسل به إليهم، وإيمان به، وأن يشكروا

(١) في النسختين: لينقذنا .

الله تعالى على أن خصهم بهذا الرسول الكريم، وكونه أمينًا، يقتضي أنه لا يتقول على الله، ولا يزيد في وحيه ولا ينقص، وهذا يوجب لهم التصديق بخبره والطاعة لأمره.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ فيما أمركم به، وأنهاكم عنه، فإن هذا هو الذي يترتب على كونه رسولاً إليهم، أمينًا، فلذلك رتبته بالفاء الدالة على السبب. فذكر السبب الموجب، ثم ذكر انتفاء المانع فقال: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتكفلون من المغموم الثقيل ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أرجو بذلك القرب منه، والثواب الجزيل. وأما أتم فمنيته، ومنتهى إرادتي منكم، النصح لكم، وسلوكم الصراط المستقيم.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ كرر ذلك عليه السلام لتكثيره دعوة قومه، وطول مكثه في ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا حَشِيصَةً عَامًا﴾ وقال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمَّ يَذُكَّرْهُمْ ذَعَاءً إِلَّا فِرَارًا﴾ الآيات. فقالوا ردًا لدعوته، ومعارضة له بما ليس يصلح للمعارضة.

﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ أي: كيف نتبعك ونحن لا نرى أتباعك إلا أسافل الناس وأرذلهم وسقطهم. بهذا يعرف تكبرهم عن الحق، وجهلهم بالحقائق، فإنهم لو كان قصدهم الحق، لقالوا - إن كان عندهم إشكال وشك في دعوته - بين لنا صحة ما جئت به بالطرق الموصلة إلى ذلك.

ولو تأملوا حق التأمل، لعلموا أن أتباعه، هم الأعلون، خيار الخلق، أهل العقول الرزينة، والأخلاق الفاضلة، وأن الأردل من سلب خاصية عقله، فاستحسن عبادة الأحجار، ورضي أن يسجد لها ويدعوها، وأبى الانقياد لدعوة الرسل الكمل. وبمجرد ما يتكلم أحد الخصمين في الكلام الباطل، يعرف فساد ما عنده، بقطع النظر عن صحة دعوى خصمه.

فقوم نوح لما سمعنا عنهم، أنهم قالوا في ردهم دعوة نوح: ﴿أَتُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ فبنوا على هذا الأصل الذي كل أحد يعرف فساد، رد دعوته، - عرفنا أنهم ضالون مخطئون، ولو لم نشاهد من آيات نوح ودعوته العظيمة، ما يفيد الجزم واليقين بصدقه وصحة ما جاء به.

فقال نوح عليه السلام: ﴿وَمَا عَلِيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ﴾ أي: أعمالهم وحسابهم على الله، إنما عليّ التبليغ، وأتم دعوهم عنكم، إن كان ما جئتكم به الحق، فانقادوا له، وكل له عمله.

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُتُؤِمِّنِينَ﴾ كأنهم - قبحهم الله - طلبوا منه أن يطردهم عنه، تكبرًا وتجبرًا، ليؤمنوا، فقال: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُتُؤِمِّنِينَ﴾ فإنهم لا يستحقون الطرد والإهانة، وإنما يستحقون

﴿قَالَ وَمَا عَلِيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٠٦) ﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ﴾ (١٠٧) ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُتُؤِمِّنِينَ﴾ (١٠٨) ﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (١٠٩) ﴿قَالُوا لَنْ نَمُنَّ بِكَ بِرَبِّكَ إِنَّكَ كَلِمَةٌ تَنْتَهِي بِشَيْءٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (١١٠) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ (١١١) ﴿فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَبَجَحِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١١٢) ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ﴾ (١١٣) ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْآيَاتِ﴾ (١١٤) ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَتْ أَكْثَرَهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١١٥) ﴿وَإِنْ رَبِّكَ لَهَوَّ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ (١١٦) ﴿كَذَبَتْ عَادَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١١٧) ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (١١٨) ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١١٩) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ وَاطِيعُونَ﴾ (١٢٠) ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٢١) ﴿أَتَنْتَبَهُنَّ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ (١٢٢) ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصْنَعَ لَعَلِكُمْ يُخْلَدُونَ﴾ (١٢٣) ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ (١٢٤) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاللَّهُ وَاطِيعُونَ﴾ (١٢٥) ﴿وَأَتَقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٢٦) ﴿أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ أَيْدِيكُمْ أَعْيُنٌ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٢٧) ﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ (١٢٨)

الإكرام القولي والفعلي، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾.

﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ما أنا إلا منذر ومبلغ عن الله، ومجتهد في نصح العباد، وليس لي من الأمر شيء، إن الأمر لإلا الله.

فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام على دعوتهم ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، فلم يزدادوا إلا نفورًا، و﴿قَالُوا لَنْ نَمُنَّ بِكَ بِرَبِّكَ إِنَّكَ كَلِمَةٌ تَنْتَهِي بِشَيْءٍ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ أي: لتقتلك شر قتلة، بالرمي بالحجارة، كما يقتل الكلب.

فبئس لهم، ما أفيح هذه المقابلة، يقابلون الناصح الأمين الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم، بشر مقابلة.

لا جرم لما انتهى ظلمهم، واشتد كفرهم، دعا عليهم نبينهم بدعوة أحاطت بهم، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا﴾ الآيات.

وهنا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ۝ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ أي:

أي: أعطاكم ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: أمدمكم بما لا يجهل ولا ينكر من الإناعام ﴿أَمَدُّكُمْ بِأَنْعَامٍ﴾ من إبل وبقر وغنم ﴿وَوَيْبِكُمْ﴾ أي: وكثرة نسل، كثر أموالكم، وكثر أولادكم، خصوصاً الذكور، أفضل القسمين.

هذا تذكيرهم بالنعم، ثم ذكروهم حلول عذاب الله، فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ أي: إني - من شفقتي عليكم وبيري بكم - أخاف أن ينزل بكم عذاب عظيم، إذا نزل لا يرد، إن استمررتم على كفركم وبغيتكم.

فقالوا معاندين للحق مكذبين لبيهم: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعظت أم لم تكن من الواعظين﴾ أي: الجميع على حد سواء. وهذا غاية العتو، فإن قوماً بلغت بهم الحال إلى أن صارت مواعظ الله التي تذيب الجبال الصم الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي الألباب، وجودها وعدمها - عندهم - على حد سواء، لقوم انتهى ظلمهم، واشتد شقاؤهم، وانقطع الرجاء من هدايتهم ولهذا قالوا: ﴿إِن هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: هذه الأحوال والنعم، ونحو ذلك، عادة الأولين، تارة يستغنون، وتارة يفترقون. وهذه أحوال الدهر، لا أن هذه محن ومنح من الله تعالى، وابتلاء لعباده ﴿وَمَا تَحْنُ يَمْدِينِ﴾ وهذا إنكار منهم للبعث، أو تنزل مع نبيهم وتهكم به. إننا على فرض أننا نبعث، فإننا كما أدرت علينا النعم في الدنيا، كذلك لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: صار التكذيب سجية لهم وخلقاً، لا يردعهم عنه رادع. ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾، ﴿بِرِيحٍ صَوَّارٍ عَاتِيَةٍ﴾ سَخَرَهَا عَلَيْهِمْ سَبَّحَ لَيَالٍ وَنَهْيَةً آيَاتٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَابُ غَحَلٍ حَاوِيَةٍ﴾.

﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةٍ﴾ على صدق نبينا هود عليه السلام، وصحة ما جاء به، وبطلان ما عليه قومه، من الشرك والجبروت ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ مع وجود الآيات المقضية للإيمان.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي أهلك بقوته قوم هود، على قوتهم وبطشهم. ﴿الرَّحِيمُ﴾ بنبيه هود، حيث نجاه ومن معه من المؤمنين.

(١٤١-١٥٩) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ القبيلة المعروفة في مدائن الحجر ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ كذبوا صالحاً عليه السلام، الذي جاء بالتحديد الذي دعت إليه المرسلون، فكان تكذيبهم له تكديماً للجميع ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ﴾ في النسب، برفق ولين: ﴿أَلَا لَنْفُوسٍ﴾ الله تعالى، وتدعون الشرك والمعاصي ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ﴾ من الله ربكم،

أهلك الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة الظلمة، ولهذا قال: ﴿وَنَجَى وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿فَلَنْفُوسَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ﴾ أي: السفينة ﴿الْمَشْحُونِ﴾ من الخلق والحيوانات ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدُ﴾ أي: بعد نوح، ومن معه من المؤمنين ﴿الْبَاقِينَ﴾ أي: جميع قومه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: نجاة نوح وأتباعه، وإهلاك من كذبه ﴿لَآيَةً﴾ دالة على صدق رسلنا، وصحة ما جاءوا به، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون بهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر بعزه أعداءه، فأغرقهم بالطوفان ﴿الرَّحِيمُ﴾ بأوليائه، حيث نجى نوحاً ومن معه، من أهل الإيمان.

(١٢٣-١٤٠) ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة. أي: كذبت القبيلة المسماة عاداً، رسولهم هوداً، وتكذيبهم له تكذيب لغيره، لاتفاق الدعوة.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ﴾ في النسب ﴿هُودٌ﴾ بلطف وحسن خطاب: ﴿أَلَا لَنْفُوسٍ﴾ الله، ففتركون الشرك وعبادة غيره ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: أرسلني الله إليكم رحمة بكم، واعتناء بكم، وأنا أمين تعرفون ذلك مني، رتب على ذلك قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي: أدوا حق الله تعالى، وهو التقوى، وأدوا حقي بطاعتي فيما أمركم به، وأنهاكم عنه، فهذا موجب لأن تتبعوني وتطيعوني، وليس ثم مانع يمنعكم من الإيمان، فلست أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم أجراً، حتى تستقلوا ذلك المغرم ﴿إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الذي رباهم بنعمه، وأدر عليهم فضله وكرمه، خصوصاً ما ربي به أوليائه وأنبياؤه.

﴿اتَّبَعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ﴾ أي: مدخل بين الجبال ﴿ءَايَةً﴾ أي: علامة ﴿فَتَّبِعُونَ﴾ أي: تفعلون ذلك عبثاً لغير فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم.

﴿وَتَتَخَذُونَ مَصَانِعَ﴾ أي: بركاً ومجايب للمياه ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْذَرُونَ﴾ والحال أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد.

﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ﴾ بالخلق ﴿بَطَشْتُمْ جَبَارِينَ﴾ قتلاً وضرباً، وأخذ أموال. وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة عظيمة، وكان الواجب عليهم أن يستعينوا بقوتهم على طاعة الله، ولكنهم فخرُوا واستكبروا، وقالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ واستعملوا قوتهم في معاصي الله، وفي العبث والسفه، فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ واتركوا شرككم وبطركم ﴿وَأَطِيعُوا﴾ حيث علمتم أني رسول الله إليكم، أمين ناصح ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَمَدَّكُمْ﴾

أرسلني إليكم، لطفًا بكم ورحمةً، فتلقوا رحمته بالقبول، وقابلوها بالإذعان ﴿أَمِينٌ﴾ تعرفون ذلك مني، وذلك يوجب عليكم أن تؤمنوا بي وبما جئت به.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ فتقولون: يمنعنا من اتباعك أنك تريد أخذ أموالنا ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: لا أطلب الثواب إلا منه.

﴿أَتُرْكُونَ فِي مَا هُمْنَا ءَامِينَ﴾ في جَنَّتِ وَعُيُونٍ ○ وَزُرُوعٍ وَتَحْلِيلِ طَلْعِهَا هَضِيمٌ﴾ أي: نضيد كثير. أي: أحسبون أنكم تتركون في هذه الخيرات والنعمة سُدًى، تتعمون وتمتعون، كما تتمتع الأنعام، وتتركون سدى، لا تؤمرون ولا تنهون، وتستعينون بهذه النعمة على معاصي الله.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا لِذُرِّيَّتِكُمْ﴾ أي: بلغت بكم الفراحة والحدق إلى أن اتخذتم بيوتًا من الجبال الصم الصلاب.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ○ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين تجاوزوا الحد ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: الذين وصفهم ودأبهم، الإفساد في الأرض، بعمل المعاصي، والدعوة إليها، إفسادًا لا إصلاح فيه، وهذا أضر ما يكون، لأنه شر محض.

وكان أناسًا عندهم مستعدون لمعارضة نبيهم، موضعون في الدعوة لسبيل الغي، فنهاهم صالح عن الاغترار بهم. ولعلمهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ بَعَثَ رَهْطًا يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ فلم يفد فيهم هذا النهي والوعظ شيئًا، فقالوا للصالح: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ أي: قد سحرت، فأنت تهذي بما لا معنى له.

﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فأى فضيلة فُتقنا بها، حتى تدعونا إلى اتباعك؟ ﴿فَأَتِ بِتَايَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ هذا، مع أن مجرد اعتبار حالته وحالة ما دعا إليه، من أكبر الآيات البينات على صحة ما جاء به وصدقه، ولكنهم^(١) من قسوتهم، سألوا آيات الاقتراح التي في الغالب لا يفلق من طلبها، لكون طلبه مَبِينًا على التعت، لا على الاسترشاد.

فقال صالح: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ﴾ تخرج من صخرة صماء ملساء ترونها وتشاهدونها بأجمعكم ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ أي: تشرب ماء البئر يومًا، وأنتم تشربون لبنها، ثم تصدر عنكم اليوم الآخر، وتشربون أنتم ماء البئر.

﴿وَلَا تَسْؤُهَا بِسُوءٍ﴾ يعقر أو غيره ﴿فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ فخرجت واستمرت عندهم بتلك الحال، فلم يؤمنوا، واستمروا على طغيانهم.

﴿مَعْرُوهَا فَاصْبِرُوا نَدِيمِينَ﴾ ○ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ وهي صيحة

٣٧٣

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا آخِلٌ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٧٧﴾ ﴿وَمَنْ يَمْعَدِينَ﴾ ﴿١٧٨﴾ ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ ﴿١٧٩﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٨٠﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿١٨١﴾ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿١٨٢﴾ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَالَتُنْقُونَ﴾ ﴿١٨٣﴾ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ ﴿١٨٤﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿١٨٥﴾ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٨٦﴾ ﴿أَتُرْكُونَ فِي مَا هُمْنَا ءَامِينَ﴾ ﴿١٨٧﴾ ﴿فِي جَنَّتِ وَعُيُونٍ﴾ ﴿١٨٨﴾ ﴿وَزُرُوعٍ وَتَحْلِيلِ طَلْعِهَا هَضِيمٌ﴾ ﴿١٨٩﴾ ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا لِذُرِّيَّتِكُمْ﴾ ﴿١٩٠﴾ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ ﴿١٩١﴾ ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿١٩٢﴾ ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ ﴿١٩٣﴾ ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ ﴿١٩٤﴾ ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَتِ بِتَايَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٩٥﴾ ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ ﴿١٩٦﴾ ﴿وَلَا تَسْؤُهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿١٩٧﴾ ﴿مَعْرُوهَا فَاصْبِرُوا نَدِيمِينَ﴾ ﴿١٩٨﴾ ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ﴾ ﴿١٩٩﴾ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٢٠٠﴾ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ ﴿٢٠١﴾

نزلت عليهم، فدمرتهم أجمعين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ على صدق ما جاءت به رسلنا، وبطلان قول معارضيههم ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ○ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ.

(١٧٥-١٦٠) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ إلى آخر القصة. قال لهم وقالوا كما قال من قبلهم، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم. وكانوا - مع شركهم - يأتون فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من العالمين، يختارون نكاح الذكران، المستقذر الخبيث، ويرغبون عما خلق لهم من أزواجهم، لإسرافهم وعدوانهم، فلم يزل ينهاهم حتى ﴿قَالُوا﴾ له ﴿لَيْنَ لَرِّ نَتْنِهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ أي: من البلد، فلما رأى استمرارهم عليه ﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ أي: المبغضين له، الناهين عنه، المحذرين.

﴿رَبِّ نَجِيٍّ وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ من فعله وعقوبته، فاستجاب الله له ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ ○ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَائِبِينَ﴾ أي: الباقيين في العذاب، وهي امرأته.

(١) في النسختين: ولكنه.

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي: حجارة من سجيل ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أهلكتهم عن آخرهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ .

(١٧٦-١٩١) ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ أَخْرَجْنَا مِنْ دَارِهِمْ لِمَا كَفَرُوا﴾ أصحاب الأيكة: أي: البساتين الملتفة أشجارها^(١)، وهم أصحاب مدين، فكذبوا نبيهم شعيبًا، الذي جاء بما جاء به المرسلون ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، فتركوا ما يسخطه ويغضبه، من الكفر والمعاصي ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يترتب على ذلك، أن تتقوا الله وتطيعون. وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكابيل والموازين، فلذلك قال لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ﴾ أي: أنموه وأكملوه ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها، يبخس المكيل والميزان. ﴿وَرَبُّوْا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ أي: بالميزان العادل الذي لا يميل ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْحِجَةَ الْأُولَى﴾ أي: الخليقة الأولين، فكما انفرد بخلقكم، وخلق من قبلكم من غير مشارك له في ذلك، فافردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعيم، فقابلوه بشكره.

قالوا له، مكذبين له، رادين لقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَخَّرِينَ﴾ فأنت تهذي وتكلم كلام المسحور، الذي غابته أن لا يؤاخذ به.

﴿وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ فليس فيك فضيلة اختصاصت بها علينا، حتى تدعونا إلى اتباعك. وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، ممن عارضوا الرسل بهذه الشبهة التي لم يزالوا يدلون بها ويصولون، ويتفقون عليها، لاتفاقهم على الكفر، وتشابه قلوبهم. وقد أجابت عنها الرسل بقولهم: ﴿إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ .

﴿وَإِنْ تَنْظُرْكَ لِمَنِ الْكَافِرِينَ﴾ وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور، قد انطوا على خلافة، فإنه ما من رسول من الرسل، واجه قومه ودعاهم، وجادلهم وجادلوه، إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات، ما به يتقنون صدقه وأمانته، خصوصًا شعيبًا عليه السلام، الذي يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، فإن قومه قد يتقنوا صدقه، وأن ما جاء به حق، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم.

﴿فَأَسْفِطْ عَلَيْنَا كَيْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: قطع عذاب تستأصلنا ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ كقول إخوانهم ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتِنَا بِعَذَابِ إِلَهِمْ﴾ أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح التي

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ۝ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾
 كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْتَلِكُمْ عَلَيْهِ مِنْ جُرْئِينَ آجِرِينَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٨١﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مِنْ أَنْوَابِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٨٢﴾ قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٨٣﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٨٤﴾ رَبِّ بِنَحْيِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٥﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٨٦﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٨٧﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ ﴿١٨٨﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ أَخْرَجْنَا مِنْ دَارِهِمْ لِمَا كَفَرُوا ﴿١٩٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٩٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٩٤﴾ وَمَا أَسْتَلِكُمْ عَلَيْهِ مِنْ جُرْئِينَ آجِرِينَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٥﴾ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٩٦﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَسْمَانَ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٩٧﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٩٨﴾

لا يلزم تنميم مطلوب من سألها.

﴿قَالَ﴾ شعيب عليه السلام: ﴿رَبِّ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: نزول العذاب، ووقوع آيات الاقتراح، لست أنا الذي أتى بها وأنزلها بكم، وليس عليّ إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت، وإنما الذي يأتي بها ربّي، العالم بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ أي: صار التكذيب لهم وصفًا، والكفر لهم ديدنًا، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب.

﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْرَ الظُّلَّةِ﴾ أظلمتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذنين، لظلمها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين.

﴿إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا كرة لهم إلى الدنيا فيستأنفوا العمل، ولا يفتّر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون.

(١) كذا في ب، وفي أ: أشجاره.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ دالة على صدق شعيب، وصحة ما دعا إليه، وبطلان رد قومه عليه ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ مع رؤيتهم الآيات، لأنهم لا زكاء فيهم، ولا خير لديهم ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي امتنع بقوته عن إدراك أحد، وقهر كل مخلوق ﴿الرَّحِيمُ﴾ الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما نهاية له. ومن عزته أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته أن نجى أوليائه ومن اتبعهم من المؤمنين.

(١٩٢-٢٠٣) ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيرٌ لِلْأَوَّلِينَ﴾ أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿لَمَّا ذَكَرَ قِصَصَ الْأَنْبِيَاءِ مَعَ أَمِّهِمْ، وَكَيْفَ دَعَوْهُمْ، وَكَيْفَ رَدُّوا عَلَيْهِمْ بِهِ، وَكَيْفَ أَهْلَكَ اللَّهُ أَعْدَاءَهُمْ، وَصَارَتْ لَهُمُ الْعَاقِبَةُ. ذَكَرَ هَذَا الرَّسُولُ الْكَرِيمُ، وَالنَّبِيُّ الْمَصْطَفَى الْعَظِيمُ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْكِتَابِ الَّذِي فِيهِ هِدَايَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ فَقَالَ: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فالذي أنزله، فاطر الأرض والسموات، المرئي جميع العالم، العلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهدائيتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم، فإنه يريهم أيضاً بهدائيتهم لمصالح دينهم وأخراهم. ومن أعظم ما رباهم به، إنزال هذا الكتاب الكريم الذي اشتمل على الخير الكثير، والبر الغزير. وفيه من الهداية لمصالح الدارين، والأخلاق الفاضلة، ما ليس في غيره، وفي قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله، لا من غيره، مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم.

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقواهم، ﴿الْأَمِينُ﴾ الذي قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص.

﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ يا محمد ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ تهدي به إلى طريق الرشاد، وتذره عن طريق الغي.

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ﴾ وهو أفضل الألسنة، بلغة من بُعث إليهم، وبإشراحتهم أصلاً، اللسان البين الواضح.

وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعه فيه وهي قلبه، على

سورة الشعراء

٣٧٥

سورة الشعراء

وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِيلَةَ الْأُولِينَ ﴿١٨٥﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَنَزِيرٌ لِلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفِعْدَابًا نَّاسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَبَّتْ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾

أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفضحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيرٌ لِلْأَوَّلِينَ﴾ أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل طبق ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿أَوْ لَوْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الذين قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف، فإن كل شيء يحصل به اشتباه، يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم. كما عرف السحرة الذين مهروا في علم السحر، صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر. فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدر على التعبير لهم كما ينبغي ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُّؤْمِنِينَ﴾ يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندرى ما يدعو

﴿ذَكَرْتَنِي﴾ لهم وإقامة حجة عليهم ﴿وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾
فنهلك القرى قبل أن نذرهم، وتأخذهم وهم غافلون عن
النذر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ بَعَثَ رَسُولًا﴾،
﴿رُسُلًا مُّبْتَلِينَ وَمُنذِرِينَ لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ
الرُّسُلِ﴾.

ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته، نزهه عن كل صفة
نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن
والإنس، فقال: ﴿وَمَا نَزَّلْنَا بِهِ الشَّيَاطِينَ﴾ ○ ﴿وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ﴾ أي:
لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ ذلك ﴿إِنَّهُمْ عَنِ
السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ قد أبعدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه،
ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن
يقربه، أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَاطِطُونَ﴾.

(٢١٦-٢١٣) ﴿فَلَا نُبْعَثُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾
○ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ○ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ○ فَإِنَّ عَصَاكَ قُلٌّ لِّىَ بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ينهى تعالى
رسوله أصلاً، وأمته أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من
جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب
السرمدى، لكونه شركاً ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ والنهي عن الشيء أمرٌ بضده، فالنهي عن الشرك
أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، محبةً، وخوفاً،
ورجاءً، ودلاً، وإثابةً إليه في جميع الأوقات.

ولما أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره، فقال:
﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الذين هم أقرب الناس إليك،
وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي، وهذا لا ينافي أمره
بإنذار جميع الناس. كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم
قيل له: «أحسن إلى قرابتك»، فيكون هذا خصوصاً^(١)، دالاً
على التأكيد، وزيادة الحق.

فامثل ﷺ، هذا الأمر الإلهي، فدعا سائر بطون قريش،
فعمم وخصص، وذكرهم وعظهم، ولم يبق ﷺ من مقدوره
شيئاً، من نصحهم وهدايتهم، إلا فعله، فاهتدى من اهتدى،
وأعرض من أعرض.

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بلين جانبك،
ولطف خطابك لهم، وتوددك وتحبيك إليهم، وحسن خلقك
والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك، قال تعالى: ﴿فِيمَا
رَحِمْنَا مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَّكَ فُطْرًا لَّعَلَّ الْقَلْبَ لَآتِفٌ وَمِنْ حَوْلِكَ

إليه، فليحمدوا ربهم، أن جاءهم على لسان أفصح الخلق،
وأقدرهم على التعبير عن المقاصد، بالعبارات الواضحة،
وأنصحهم. وليبادروا إلى التصديق به، وتلقيه بالتسليم
والقبول. ولكن تكذيبهم له عن غير شبهة، إن هو إلا محض
الكفر والعناد، وأمر قد توارثته الأمم المكذبة، فلهذا قال:
﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُتَكِبِينَ﴾ أي: أدخلنا التكذيب،
وأظمناه في قلوب أهل الإجمام، كما يدخل السلك في
الإبرة، فشربته، وصار وصفاً لها. وذلك بسبب ظلمهم
وجرمهم، فلذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ على
تكذيبهم ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: يأتيهم على
حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون
أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم ﴿فَيَقُولُوا﴾ إذ ذاك: ﴿هَلْ نَحْنُ
مُنظَرُونَ﴾ أي: يطلبون أن يُنظَرُوا ويمهلوا، والحال أنه قد فات
الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يُفْتَرُ
ساعة.

(٢٠٤-٢٠٧) ﴿أَفِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ ○ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ
سِنِينَ ○ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ○ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا
يُمْتَعُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿أَفِعَذَابِنَا﴾ الذي هو العذاب الأليم
العظيم، الذي لا يستهان به، ولا يحتقر ﴿يَسْتَعْجِلُونَ﴾ فما
الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟ أم عندهم قوة
يقدرون على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يُعجزوننا، ويظنون
أننا لا نقدر على ذلك.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ أي: أفرايت إذا لم نستعجل
عليهم بإنزال العذاب، وأمهلتناهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا
﴿ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ من العذاب.
﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ من اللذات والشهوات،
أي: أي شيء تغني عنهم وتفيدهم، وقد مضت وبطلت،
واضحلت، وأعقت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند
طول المدة. القصد الحذر، من وقوع العذاب، واستحقاقهم
له. وأما تعجيله أو تأخيره، فلا أهمية تحته، ولا جدوى
عنده.

(٢٠٨-٢١٢) ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ﴾ ○ ذَكَرْتَنِي وَمَا
كُنَّا ظَالِمِينَ ○ وَمَا نَزَّلْنَا بِهِ الشَّيَاطِينَ ○ وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا
يَسْتَطِيعُونَ ○ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ﴾ يخبر تعالى عن كمال
عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكاً وعذاباً،
إلا بعد أن يعذر منهم، ويبعث فيه النذر بالآيات البيئات،
ويدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرونهم
بآيات الله، وينهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

فَأَتَتْ عَنْهُمْ وَأَسْتَعْفِرَ لَهُمْ وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴿٢١٧﴾ فهذه أخلاقه ﷺ أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد.

فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والافتداء به، أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعة؟ [وإن رأى منهم معصية أو سوء أدب، هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق. قد حصل من هذه المعاملة من المفساد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تجده محترماً لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، قد رماه بالنفاق والمداهنة، وقد كمل نفسه ورفعها، وأعجب بعمله. فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فَإِنَّ عَصْرَكَ﴾ في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم، بخفض الجناح ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعضهم عليه وانصحهم، وابدل قدرتك في ردهم عنه، وتوبتهم منه.

وهذا لدفع احتراز وهم من يوتهم، أن قوله: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ﴾ للمؤمنين، يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا، والله أعلم.

(٢١٧-٢٢٠) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ ○ الَّذِي يَرِيكَ جِبْنَ نَقُومٍ ○ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجِدِينَ ○ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ○ أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه، فقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به يفعل ذلك. ثم نهه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان فقال: ﴿الَّذِي يَرِيكَ جِبْنَ نَقُومٍ ○ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجِدِينَ﴾ أي: يراك في هذه العبادة العظيمة التي هي الصلاة، وقت قيامك وتقلبك راکعاً وساجداً.

خصها بالذكر، لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه، خضع وذل، وأكملها، وبتكميلها يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لسائر الأصوات، على اختلافها وتشتتها وتنوعها ﴿الْعَلِيمُ﴾ الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة.

﴿مَّا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾ ○ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيبَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ○ ذَكَرْنِي وَمَا كُنَّا نَظْلِمِينَ ○ وَمَا نَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ○ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَظِيلُونَ ○ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعزُونَ ○ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ ○ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ○ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ○ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ ○ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ○ الَّذِي يَرِيكَ جِبْنَ نَقُومٍ ○ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجِدِينَ ○ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ○ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ○ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ○ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَذِبُوتٌ ○ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوُونَ ○ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ○ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ○ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا ○ مِن بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ○ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ○

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

فاستحضر العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه، من الهم والعزم والنيات، مما يعينه على منزلة الإحسان.

(٢٢١-٢٢٧) ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ ○ نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ○ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْتَرُهُمْ كَذِبُوتٌ ○ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْفَاوُونَ ○ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ○ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ○ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا ○ مِن بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ○ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ هذا جواب لمن قال من مكذبي الرسول: إن محمداً ينزل عليه شيطان، وقول من قال: إنه شاعر، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: أخبركم الخبر الحقيقي، الذي لا شك فيه ولا شبهة، على من تنزل الشياطين، أي: بصفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين.

﴿نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ﴾ أي: كذاب، كثير القول للزور، والإفك بالباطل، ﴿أثِيمٍ﴾ في فعله، كثير المعاصي، هذا الذي تنزل عليه الشياطين، وتناسب حاله حالهم؟.

﴿يُلْقُونَ﴾ عليه ﴿السَّمْعَ﴾ الذي يسترقونه من السماء،

الداهرين، الذي ليس بشاعر، ولا ساحر، ولا مجنون، ولا يليق به إلا كل كمال.

ولما وصف الشعراء بما وصفهم به، استثنى منهم من آمن بالله ورسوله، وعمل صالحًا، وأكثر من ذكر الله، وانتصر من أعدائه المشركين من بعد ما ظلموهم.

فصار شعرهم من أعمالهم الصالحة، وأثار إيمانهم، لاشتماله على مدح أهل الإيمان، والانتصار من أهل الشرك والكفر، والدُّبُّ عن دين الله، وتبيين العلوم النافعة، والحث على الأخلاق الفاضلة، فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسِعَعُوا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْ يَنْقَلِبَ يَقْبَلُونُ﴾ يتقبلون إلى موقف وحساب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا حقًا إلا استوفاه. والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦١-٦٠) ﴿طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ۝ هَذِهِ نُسُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لَهُمْ آعَنَاهُمْ فَمَنْ يَمُنُّهُمْ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِرُونَ ۝ وَإِنَّكَ لَللَّغَى الْقُرْآنَاتِ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ ينه تعالى عباده على عظمة القرآن، ويشير إليه إشارة دالة على التعظيم، فقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ أي: هي أعلى الآيات، وأقوى البينات، وأوضح الدلالات، وأبينها على أجل المطالب، وأفضل المقاصد، وخير الأعمال، وأزكى الأخلاق. آيات تدل على الأخبار الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل عمل وخيم، وخلق ذميم. آيات بلغت في وضوحها وبيانها للبصائر النيرة، مبلغ الشمس للأبصار. آيات دلت على الإيمان، ودعت للوصول إلى الإيقان، وأخبرت عن الغيوب الماضية والمستقبلية، على طبق ما كان ويكون. آيات دعت إلى معرفة الرب العظيم، بأسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الكاملة. آيات عرفتنا برسله وأوليائه، ووصفتهم حتى كأننا ننظر إليهم بأبصارنا، ولكن مع هذا لم يتنفع بها كثير من العالمين، ولم يهتد بها جميع المعاندين، صوتًا لها عن من لا

﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ أي: أكثر ما يلقون إليه كذب^(١)، فيصدق واحدة، ويكذب معها مائة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه. فهذه^(٢) صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيهم له.

وأما محمد ﷺ فحالها مبينة لهذه الأحوال أعظم مبينة، لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين برِّ القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال من المحرم.

والوحي الذي ينزل عليه من عند الله، ينزل محروسًا محفوظًا، مشتملاً على الصدق العظيم، الذي لا شك فيه ولا ريب. فهل يستوي - يا أهل العقول - هذا وأولئك؟ وهل يشتهان إلا على مجنون لا يميز، ولا يفرق بين الأشياء؟

فلما نزهه عن نزول الشياطين عليه، برّاه أيضًا من الشعر فقال: ﴿وَالشُّعْرَاءُ﴾ أي: هل أنبئكم أيضًا عن حالة الشعراء، ووصفهم الثابت، فإنهم ﴿يَتَّبِعُهُمُ الْفَأْوَنُ﴾ عن طريق الهدى، المقبولون على طريق الغي والردى. فهم في أنفسهم غاوون، وتجد أتباعهم كل غاو ضال فاسد.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ غوايتهم وشدة ضلالهم ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ﴾ من أودية الشعر ﴿يَهَيِّئُونَ﴾ فتارة في مدح، وتارة في قبح، وتارة في صدق، وتارة في كذب، وتارة يتغزلون، وأخرى يسخرون، ومرة يمرحون، وأونة يحزنون، فلا يستقر لهم قرار، ولا يثبتون على حال من الأحوال.

﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ أي: هذا وصف الشعراء، أنهم تخالف أقوالهم أفعالهم. فإذا سمعت الشاعر يتغزل بالغزل الرقيق، قلت هذا أشد الناس غرامًا، وقلبه فارغ من ذلك، وإذا سمعته يمدح أو يذم، قلت: هذا صدق، وهو كذب. وتارة يتمدح بأفعال لم يفعلها، وتروك لم يتركها، وكرم لم يحم حول ساحته، وشجاعة يعلو بها على الفرسان، وتراه أحيانًا من كل جبان، هذا وصفهم.

فانظر، هل يطابق حالة الرسول محمد ﷺ، الراشد البار، الذي يتبعه كل راشد ومهتد، الذي قد استقام على الهدى، وجانب الردى، ولم تتناقض أفعاله، ولم تخالف أقواله أفعاله؟، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، ولا أخبر بشيء إلا صدق، ولا أمر بشيء إلا كان أول الفاعلين له، ولا نهى عن شيء إلا كان أول التاركين له.

فهل تناسب حاله حالة الشعراء، أو يقاربه؟ أم هو مخالف لهم من جميع الوجوه؟ فصلوات الله وسلامه على هذا الرسول الأكمل، والهمام الأفضل، أبد الأبدين، ودهر

(١) في النسختين: كذبًا. (٢) في النسختين: هذا.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٧٧

سُورَةُ النَّمْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى
 لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
 بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
 أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ
 وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنَ
 لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَائِغًا
 مِنِّي بِخَيْرٍ وَأَوَّاتِكُمْ بِشَهَابٍ مِقْسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
 جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مِنَ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ
 الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ نَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ
 فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى وَعَقِبَ يُنمُوسَى لَا تَخَفْ
 إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمَرْسُولِ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بَعْدَ
 سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ يَصْفَاءً
 مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَفِرْعَوْنَهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ
 ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾

خير فيه ولا صلاح، ولا زكاء في قلبه، وإنما اهتدى بها من
 خصمهم الله بالإيمان، واستنارت بذلك قلوبهم، وصفت
 سرائرهم.

فلهذا قال: ﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تهديهم إلى سلوك
 الصراط المستقيم، وتبين لهم ما ينبغي أن يسلكوه أو يتركوه،
 وتبشرهم بثواب الله المرتب على الهداية لهذا الطريق.

ربما قيل: لعله يكثر مدعو الإيمان، فهل يقبل من كل أحد
 ادعى أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من دليل؟ وهو الحق،
 فلذلك بين تعالى صفة المؤمنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾
 فرضها ونفلها، فيأتون بأفعالها الظاهرة، من أركانها،
 وشروطها، وواجباتها، بل ومستحباتها، وأفعالها الباطنة،
 وهو الخشوع الذي روحها ولها، باستحضار قرب الله، وتدبر
 ما يقول المصلي ويفعله.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ المفروضة لمستحقيها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
 يُوقِنُونَ﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى أن وصل إلى درجة
 اليقين، وهو العلم التام الواصل إلى القلب، الداعي إلى
 العمل. ويقينهم بالآخرة يقتضي كمال سعيهم لها، وحذرهم
 من أسباب العذاب وموجبات العقاب، وهذا أصل كل خير.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ويكذبون بها، ويكذبون من
 جاء بإثباتها ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ حائرين مترددين،
 مؤثرين سخط الله على رضاه، قد انقلبت عليهم الحقائق،
 فرأوا الباطل حقًا، والحق باطلاً.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي: أشده وأسوأه وأعظمه
 ﴿وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ﴾ حصر الخسار فيهم، لكونهم
 خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان الذي
 دعتهم إليه الرسل.

﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنَ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي: وإن هذا
 القرآن الذي ينزل عليك، وتلقفه وتتلقته، ينزل من عند
 ﴿حَكِيمٍ﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها ﴿عَلِيمٍ﴾
 بأسرار الأمور^(١)، وبواطنها كظواهرها. وإذا كان من عند
 ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾^(٢) علم أنه كله حكمة ومصالح للعباد، من الذي
 هو [أعلم] بمصالحهم منهم؟

(٧-١٤) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ إلى آخر قصته،
 يعني: اذكر هذه الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال موسى بن
 عمران، ابتداء الوحي إليه واصطفائه برسالته، وتكليم الله
 إياه. وذلك أنه لما مكث في مدين عدة سنين، وسار بأهله من
 مدين متوجهًا إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق ضل، وكان
 في ليلة مظلمة باردة، فقال لهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي:

أبصرت نارا من بعيد ﴿سَائِغًا مِنِّي بِخَيْرٍ﴾ عن الطريق ﴿أَوْ آيَاتِكُمْ
 بِشَهَابٍ مِقْسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي: تستدفنون، وهذا دليل على
 أنه تائه، ومشتد برده، هو وأهله.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُورٌ أَنْ يُورِكَ مِنَ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: ناداه الله
 تعالى وأخبره، أن هذا محل مقدس مبارك. ومن بركته أن
 جعله الله موضعًا لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله.

﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عن أن يُظن به نقص أو سوء، بل
 هو الكامل في وصفه وفعله.

﴿نَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: أخبره الله أنه الله
 المستحق للعبادة وحده لا شريك له، كما في الآية الأخرى
 ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾،
 ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر جميع الأشياء، وأذعنت له كل
 المخلوقات ﴿الْحَكِيمُ﴾ في أمره وخلقه. ومن حكمته أن أرسل
 عبده موسى بن عمران، الذي علم الله منه أنه أهل لرسالته
 ووحيه وتكليمه. ومن عزته أن تعتمد عليه، ولا تستوحش من

(١) في ب: الأحوال. (٢) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فكتب (حكيم
 خير) فصححتها، وأبقت التفسير كما هو.

انفردك، وكثرة أعدائك وجبروتهم، فإن نواصيهم بيد الله، وحركاتهم وسكونهم بتديره.

﴿وَأَنقِ عَصَاكَ﴾ فألقها ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ وهو ذكر الحيات، سريع الحركة ﴿وَلَيْ مُدْرِكُهَا وَلَئِن مُّبَعَّثٌ﴾ ذعراً من الحياة التي رأى، على مقتضى الطبائع البشرية. فقال الله له: ﴿يَتُوسَمِّنُ لَآ تَخَفْ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿أَقِيلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾، ﴿إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة في قضائه وقدره وتصريفه وأمره. فالذين اختصهم الله برسالته، واصطفاهم لوحيه، لا ينبغي لهم أن يخافوا غير الله، خصوصاً عند زيادة القرب منه، والحظوة بتكليمه.

﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ أي: فهذا الذي هو محل الخوف والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم، وما تقدم له من الجرم، وأما المرسلون فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا، من ظلم نفسه بمعاصي الله، ثم تاب وأناب، فبدل سيئاته حسنات، ومعاصيه طاعات، فإن الله غفور رحيم. فلا ييأس أحد من رحمته ومغفرته، فإنه يغفر الذنوب جميعاً، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

﴿وَأَنزَلْ بِكَ فِي جَبِّكَ تَخْرُجَ يُضَاءَ مِنْ عَيْرِ سُورٍ﴾ لا يبرص ولا نقص، بل بياض يبهر الناظرين شعاعه ﴿فِي تَبَعِ آيَاتِي إِلَى رِضْوَانٍ وَقَوْمَةٍ﴾ أي: هاتان الآيتان، انقلاب العصا حية تسعى، وإخراج اليد من الجيب، فتخرج بياض في جملة تسع آيات، تذهب بها وتدعو فرعون وقومه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾، فسقوا بشركهم وعتوهم وعلوهم على عباد الله، واستكبارهم في الأرض بغير الحق.

فذهب موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، ودعاهم إلى الله تعالى، وأراهم الآيات ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً﴾ مضيئة، تدل على الحق، ويصير بها كما تبصر الأبصار بالشمس ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لم يكفهم مجرد القول بأنه سحر، بل قالوا: ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر لكل أحد. وهذا من أعجب العجائب، الآيات المبصرات، والأنوار الساطعات تجعل من أبين الخزعبلات وأظهر السحرا! هل هذا إلا من أعظم المكابرة، وأوقع السفسطة.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي كفروا بآيات الله، جاحدين لها ﴿وَأَسْقَفَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ أي: ليس جحدهم مستنداً إلى الشك والريب، وإنما جحدهم مع علمهم، ويقينهم^(١) بصحتها ﴿ظَلَمُوا﴾ منهم لحق ربهم ولأنفسهم ﴿وَعَلُوا﴾ على الحق وعلى العباد، وعلى الانقياد للرسول ﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ أسوأ عاقبة، مدمرهم الله وغرقتهم في البحر،

وأخزاهم، وأورث مساكنهم المستضعفين من عباده.

(١٥-٤٤) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَ الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴿إِلَىٰ آخِرِ الْقِصَّةِ. يذكر في هذا القرآن، وبنوه بمتته على داود وسليمان ابنه، بالعلم الواسع الكثير، بدليل التنكير، كما قال تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْخُرُثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ عَنَمُ الْقَوْمِ وَكَأَنَّ لِكُلِّهِمْ شَهِيدٌ﴾ فَفَهَمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَايَاتِنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿الآية.

﴿وَقَالَ﴾ شاكرين لربهما منته الكبرى بتعليمهما: ﴿الْخَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فحمداً الله على جعلهما من المؤمنين، أهل السعادة، وأنهم كانوا من خواصهم. ولا شك أن المؤمنين أربع درجات: الصالحون، ثم فوقهم الشهداء، ثم فوقهم الصديقون، ثم فوقهم الأنبياء.

وداود وسليمان من خواص الرسل، وإن كانوا دون درجة أولي العزم [الخمسة]. لكنهم من جملة الرسل الفضلاء الكرام، الذين نوه الله بذكرهم، ومدحهم في كتابه مدحاً عظيماً، فحمداً الله على بلوغ هذه المنزلة. وهذا عنوان سعادة العبد، أن يكون شاكرًا لله على نعمه الدينية والدنيوية، وأن يرى جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها ولا يعجب بها، بل يرى أنها تستحق عليه شكرًا كثيرًا.

فلما مدحهما مشتركين، خص سليمان بما خصه به، لكون الله أعطاه ملكًا عظيمًا، وصار له من الماجريات ما لم يكن لأبيه، صلى الله عليهما وسلم، فقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أي: ورث علمه ونبوته، فانضم علم أبيه إلى علمه، فعمله تعلم من أبيه ما عنده من العلم، مع ما كان عليه من العلم وقت أبيه، كما تقدم من قوله فهمنهاها سليمان. وقال: شكرًا لله، وتبجحًا بإحسانه، وتحدثًا بنعمته: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ عُذْمًا مَطْوًى الظِّلِّ﴾ فكان عليه الصلاة [والسلام]، يفقه ما تقول وتتكلم به، كما راجع الهدهد وراجع، وكما فهم قول النملة للنمل كما يأتي، وهذا لم يكن لأحد غير سليمان عليه الصلاة والسلام.

﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: أعطانا الله من النعم، ومن أسباب الملك، ومن السلطنة والقهر، ما لم يؤته أحدًا من الآدميين، ولهذا دعا ربه فقال: ﴿وَهَبْ^(٢) لِي مَلَكًا لَا يُبَدِّلُ لِاحِدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ فسخر الله له الشياطين، يعملون له كل ما شاء من الأعمال التي يعجز عنها غيرهم، وسخر له الريح، غدوها

(١) في ب: يتقنهم. (٢) في النسختين: قال: (رب هب) وهو خطأ.

شهر، ورواحها شهر.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي أعطانا الله وفضلنا واختصنا به ﴿هُوَ أَفْضَلُ الْمُنِينِ﴾ الواضح الجلي، فاعترف أكمل اعتراف بنعمة الله تعالى.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودٌ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة، من بني آدم، ومن الجن والشياطين، ومن الطيور فهم يوزعون، يدبرون، ويرد أولهم على آخرهم، وينظمون غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم، وحلهم وترحالهم قد استعد لذلك، وأعد له عدته. وكل هذه الجنود مؤتمرة بأمره، لا تقدر على عصيانه، ولا تتمرد عنه، قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ أي: أعط بغير حساب، فسار بهذه الجنود الضخمة في بعض أسفاره^(١).

﴿حَتَّىٰ إِذَا اتَّوَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ منبهة لرفقتها وبني جنسها: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. فنصحت هذه النملة، وأسمنت النمل، إما بنفسها، ويكون الله قد أعطى النمل أسماعا خارقة للعادة، لأن التنبيه للنمل، الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة، من أعجب العجائب. وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل، ثم سري الخبر من بعضهن لبعض، حتى بلغ الجميع، وأمرتهن بالحذر، والطريق في ذلك، وهو دخول مساكنهن.

وعرفت حالة سليمان وجنوده، وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم، أنهم إن حطموكم، فليس عن قصد منهم ولا شعور، فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه.

﴿فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا﴾ إعجابا منه بفصاحتها^(٢)، ونصحها، وحسن تعبيرها. وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم. كما كان الرسول ﷺ جُلُّ ضحكه التبسم، فإن الفقهية تدل على خفة العقل وسوء الأدب. وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه، يدل على شراسة الخلق والجبروت. والرسل منزهون عن ذلك.

وقال شاكرًا لله الذي أوصله إلى هذه الحال: ﴿رَبِّ أَوْزَعَيْتَنِي﴾ أي: ألهمني ووفقني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي﴾ فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد. فسأل ربه التوفيق للقيام بشكر نعمته الدينية والدنيوية، عليه وعلى والديه ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ أي: ووفقني أن أعمل صالحًا ترضاه، لكونه موافقا لأمره، مخلصا فيه، سالما من المفسدات والمنقصات ﴿وَأَدْخُلَنِي بِرَحْمَتِكَ﴾ التي منها الجنة

وَحَدِّدْ أَرْبَابَهَا وَأَسْتَفِئْتَهَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا

وَقَالَ أَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ

وَأُوَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا هُوَ أَفْضَلُ الْمُنِينِ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾

حَتَّىٰ إِذَا اتَّوَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتَأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾

فَنَبَسَّ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزَعَيْتَنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَتِي وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا

تَرْضَاهُ وَأَدْخُلَنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرِ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ

الْعَابِثِينَ ﴿٢٠﴾ لَأَعَذَّبَنَّكَ وَعَذَابًا شَدِيدًا أَوَّلًا أَذْبَحْتَهُ أَوْ لِيَأْتِنِي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ يُحِطْ بِهِ وَحِشْتُكَ مِنْ سَبَإِ بَنِي إِدْرِيسَ ﴿٢٢﴾

﴿في﴾ جملة ﴿عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ فإن الرحمة مجعولة للصالحين، على اختلاف درجاتهم ومنازلهم. فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماع خطاب النملة ونداءها.

ثم ذكر نموذجًا آخر من مخاطبته للطير، فقال: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرُ﴾ دل هذا على كمال عزمه وحزمه، وحسن تنظيمه لجنوده، وتديريه بنفسه للأمر الصغار وال كبار. حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطيور، والنظر هل هي موجودة كلها، أم مفقود منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية. ولم يصنع شيئًا من قال: إنه تفقد الطير لينظر أين الهدهد منها^(٣)، ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد، أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه.

أما العقلي فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والمشاهدات، أن هذه الحيوانات كلها، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان

(١) في أ: في بعض في. (٢) في ب: نبصحت أمتها. (٣) في ب: منه.

كذلك لذكره الله، لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي فلو أريد هذا المعنى، لقال: «وطلب الهدهد لينظر له الماء، فلما فقدته قال ما قال» أو «فتش عن الهدهد» أو «بحث عنه» ونحو ذلك من العبارات. وإنما تفقد الطير لينظر الحاضر منها والغائب، ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وأيضاً فإن سليمان عليه السلام لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء، بحيث يحتاج لهندسة الهدهد. فإن عنده من الشياطين والعفاريث، ما يحضرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح، غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف - مع ذلك - يحتاج إلى الهدهد؟! وهذه التفاسير التي توجد، وتشتهر بها أقوال، لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة، ويغفل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة، وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل، وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم، حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الرديئة في التفاسير ما يقع.

واللييب الفطن يعرف أن هذا القرآن الكريم العربي المبين، الذي خاطب الله به الخلق كلهم، وعالمهم وجاهلهم، وأمرهم بالتفكير في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني، التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ، ردها إلى هذا الأصل. فإن وافقته قبلها، لكون اللفظ دالاً عليها، وإن خالفته لفظاً ومعنى، أو لفظاً أو معنى، ردها وجزم بطلانها، لأن عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد أن تفقد سليمان عليه السلام للطير، وفقدته الهدهد، يدل على كمال حزمه وتديبه الملك بنفسه، وكمال فطنته، حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَأَ أَرَى الْهُدُودَ أَتَمَّ كَانَ مِنَ الْكَاثِبِينَ﴾ أي: هل عدم رؤيتي إياه، لقلّة فطنتي به، لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها، بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري؟.

فحينئذ تعيظ عليه وتوعده، فقال: ﴿لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون القتل، ﴿أَوْ لَأَذْبَعَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنِّي سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾ أي: حجة واضحة على تخلفه. وهذا من كمال ورعه وإنصافه، أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل، لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب. وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح، فلذلك استثناه لورعه وفطنته.

﴿فَمَكَتْ عِرْبٌ بَعِيدٌ﴾ ثم جاء، وهذا يدل على هيبه^(١) جنوده

منه، وشدة ائتمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد الذي خلفه العذر الواضح، لم يقدر على التخلف زمناً كثيراً ﴿فَقَالَ﴾ لسليمان ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ﴾ أي: عندي من العلم، علم ما أحطت به، على علمك الواسع، وعلو درجتك فيه ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَا﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿بِنَبِيٍّ يَقِينٍ﴾ أي: خير متيقن.

ثم فسر هذا النبأ فقال: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُكُمْ﴾ أي: تملك قبيلة سبأ، وهي امرأة ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يؤتاه الملوك، من الأموال، والسلاح، والجنود، والحصون، والقلاع ونحو ذلك ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ أي: كرسي ملكها، الذي تجلس عليه، عرش هائل. وعظم العروش يدل على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى.

﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: هم مشركون يعبدون الشمس ﴿وَرَبِّينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ فأروا ما هم عليه هو الحق ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ لأن الذي يرى أن الذي عليه حق، لا مطمع في هدايته حتى تتغير عقيدته.

ثم قال: ﴿أَلَا﴾ أي: هلا ﴿يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: يعلم الخفي الخبيء، في أقطار السموات، وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات، وبذور النباتات، وخفايا الصدور. ويخرج خبء الأرض والسماء، بإنزال المطر، وإنبات النبات، ويخرج خبء الأرض عند النفخ في الصور، وإخراج الأموات من الأرض، ليجازيهم بأعمالهم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا تنبغي العبادة، والإنابة، والذل، والحب، إلا له، لأنه المألوه، لما له من الصفات الكاملة، والنعم الموجبة لذلك ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات وسبع الأرض والسموات. فهذا الملك عظيم السلطان، كبير الشأن، هو الذي يدل له ويخضع، ويسجد له ويركع، فسلم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبأ العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي عليه.

وقال مثبِتاً لكمال عقله ورزاقته: ﴿سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أذهب بكنيتي هكذا ﴿وسياتي نصه﴾ ﴿فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ قَوْلَ لَوْلَى لَعَنَهُمْ﴾ أي: استأخر غير بعيد ﴿فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ إليك وما يتراجعون به.

فذهب به فألقاه عليها، فقالت لقومها: ﴿إِنِّي أُلْقِيَنَّ إِلَيْكَ كَرِيمًا﴾ أي: جليل المقدار، من أكبر ملوك الأرض.

(١) كذا في ب، وفي أ: هيبته.

ثُمَّ بَيَّنَّتْ مَضْمُونَهُ فَقَالَتْ: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ
 الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ أَي: لَا تَكُونُوا
 فَوْقِي، بَلْ اخْضَعُوا تَحْتَ سُلْطَانِي، وَانْقَادُوا لِأَمْرِي،
 وَأَقْبِلُوا إِلَيَّ مُسْلِمِينَ.
 وَهَذَا فِي غَايَةِ الْوَجَازَةِ مَعَ الْبَيَانِ التَّامِ، فَإِنَّهُ تَضَمَّنَ نَهْيَهُمْ
 عَنِ الْعُلُوِّ عَلَيْهِ، وَالْبَقَاءِ عَلَى حَالِهِمْ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا، وَالِانْقِيَادِ
 لِأَمْرِهِ، وَالِدُخُولِ تَحْتَ طَاعَتِهِ، وَمَجِيئِهِمْ إِلَيْهِ، وَدَعْوَتِهِمْ إِلَى
 الْإِسْلَامِ. وَفِيهِ اسْتِحْبَابُ ابْتِدَاءِ الْكُتُبِ بِالْبِسْمَلَةِ كَامِلَةً،
 وَتَقْدِيمِ الْاسْمِ فِي أَوَّلِ عِنْوَانِ الْكِتَابِ.
 فَمَنْ حَزَمَهَا وَعَقَلَهَا، أَنْ جَمَعْتَ كِبَارَ دَوْلَتِهَا، وَرِجَالَ
 مَمْلَكَتِهَا وَقَالَتْ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْئُونِي فِي أَمْرِي﴾ أَي: أَخْبِرُونِي،
 مَاذَا نَجِيهِي بِهِ؟ وَهَلْ نَدْخُلُ تَحْتَ طَاعَتِهِ، وَنُنْقَادُ؟ أَمْ مَاذَا
 نَفْعَلُ؟ ﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونَ﴾ أَي: مَا كُنْتُ مُسْتَبِدَّةً
 بِأَمْرِ دُونَ رَأْيِكُمْ وَمَشُورَتِكُمْ.
 فِ ﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأَوْلُوْا بِأَيِّ شَيْدٍ﴾ أَي: إِنْ رَدَدْتَ عَلَيْهِ
 قَوْلَهُ، وَلَمْ تَدْخُلِي فِي طَاعَتِهِ، فَإِنَّا أَقْوِيَاءُ عَلَى الْقِتَالِ، فَكَأَنَّهُمْ
 مَالُوا إِلَى هَذَا الرَّأْيِ، الَّذِي لَوْ تَمَّ لَكَانَ فِيهِ دِمَارُهُمْ. وَلَكِنَّهُمْ
 أَيْضًا لَمْ يَسْتَقِرُّوا عَلَيْهِ، بَلْ قَالُوا: ﴿الْأَمْرُ إِلَيْكَ﴾ أَي: الرَّأْيُ مَا
 رَأَيْتَ، لَعَلَّهُمْ بَعَقَلُهَا، وَحَزَمَهَا، وَنَصَحَهَا لَهُمْ ﴿فَانظُرِي نَظْرًا
 فَكِرًا وَتَدَبَّرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾.

فَقَالَتْ لَهُمْ - مَقْنَعَةً لَهُمْ عَنِ رَأْيِهِمْ، وَمَبِينَةً سَوَاءَ مَغْبَةِ الْقِتَالِ
 - ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ قِتْلًا، وَأَسْرًا، وَنَهَبًا
 لِأَمْوَالِهَا، وَتَخْرِيبًا لِذُبَابِهَا ﴿وَجَعَلُوا أَهْلَهَا أَذِلَّةً﴾ أَي:
 جَعَلُوا الرُّؤَسَاءَ السَّادَةَ أَشْرَافَ النَّاسِ مِنَ الْأَذْلِينَ، أَي: فَهَذَا
 رَأْيِي غَيْرَ سَلِيدٍ. وَأَيْضًا فَلَسْتُ بِمَطْبِيعَةٍ لَهُ قَبْلَ الْاِخْتِبَارِ،
 وَإِرْسَالِ مَنْ يَكْشِفُ عَنْ أَحْوَالِهِ وَيَتَدَبَّرُهَا. وَحِينَئِذٍ نَكُونُ عَلَى
 بَصِيرَةٍ مِنْ أَمْرِنَا، فَقَالَتْ: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظَرْتُ بِمِ
 يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ مِنْهُ. هَلْ يَسْتَمِرُّ عَلَى رَأْيِهِ وَقَوْلِهِ؟ أَمْ تَخْذَعُهُ
 الْهَدِيَّةُ، وَتَبْدِلُ فِكْرَتَهُ، وَكَيْفَ أَحْوَالُهُ وَجُنُودُهُ؟

فَارْسَلْتُ لَهُ هَدِيَّةً، مَعَ رَسَلٍ مِنْ عِقْلَاءِ قَوْمِهَا، وَذَوِي الرَّأْيِ
 مِنْهُمْ ﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ﴾ أَي: جَاءَهُ الرِّسَالُ بِالْهَدِيَّةِ ﴿قَالَ﴾ مُنْكَرًا
 عَلَيْهِمْ وَمَتَغَيِّظًا عَلَى عَدَمِ إِجَابَتِهِمْ: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِمَالٍ فَمَا ءَاتَيْنَهُ
 اللَّهُ خَيْرًا مِمَّا ءَاتَيْتُمْكُمْ﴾ فَلَيْسَتْ تَقَعُ عِنْدِي مَوْقِعًا، وَلَا أَفْرَحُ بِهَا،
 قَدْ أَغْنَانِي اللَّهُ عَنْهَا، وَأَكْثَرَ عَلَيَّ النِّعَمَ ﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾
 لِحُبِّكُمْ لِلدُّنْيَا، وَقَلَّةِ مَا بِأَيْدِيكُمْ بِالنِّسْبَةِ لِمَا أَعْطَانِي اللَّهُ.

ثُمَّ أَوْصَى الرَّسُولَ مِنْ غَيْرِ كِتَابٍ، لِمَا رَأَى مِنْ عَقْلِهِ، وَأَنَّهُ
 سَيَنْقَلُ كَلَامَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: ﴿أَتَجِيعُ إِلَيْهِمْ﴾ أَي: بِهَدِيَّتِكَ
 ﴿فَلَمَّا أَيْدَيْتَهُمْ بِجُنُودٍ لَا يَفْقَهُ لَهْمُ﴾ أَي: لَا لَطَاقَةَ لَهُمْ ﴿بِهَا وَلَخَّرْتَهُمْ

سُورَةُ النَّمْلِ

٣٧٩

الْمَلِكِ الْعَظِيمِ

إِنِّي وَجَدْتُ أَمْرَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ
 عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ
 فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٨﴾ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ
 فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٩﴾ اللَّهُ
 لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّبُّ الْعَظِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ سَنَنْظُرُ
 أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣١﴾ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا
 فَالِقَةَ الْيَمِّ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٣٢﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا
 الْمَلَأُوْا إِنِّي أَتِيْتُ إِلَى كِتَابِ كَرِيمٍ ﴿٣٣﴾ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ
 اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٤﴾ أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأَتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٥﴾
 قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْا أَفْئُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى
 تَشْهَدُونَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأَوْلُوْا بِأَيِّ شَيْدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ
 فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً
 أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَهْلَهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾
 وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظَرْتُ بِمِ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٩﴾

نَبَهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَغِيرُونَ﴾ فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ، وَأَبْلَغَهُمْ مَا قَالَ سُلَيْمَانَ،
 وَتَجَهَّزُوا لِلْمَسِيرِ إِلَى سُلَيْمَانَ. وَعَلِمَ سُلَيْمَانَ أَنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ
 سِيرُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ:

﴿إِنَّكُمْ يَا بَنِي إِعْرَافِيَّةَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَنِي سُلَيْمَانٌ﴾ أَي: لِأَجْلِ أَنْ
 تَتَصَرَّفَ فِيهِ قَبْلَ أَنْ يَسْلَمُوا، فَتَكُونَ أَمْوَالُهُمْ مُحْتَرَمَةً ﴿قَالَ
 عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ﴾ وَالْعَفْرِيْتُ هُوَ الْقَوِيُّ الشَّيْطَانُ جَدًّا.

﴿أَنَا إِلَيْكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾
 وَالظَّاهِرُ أَنَّ سُلَيْمَانَ إِذَا ذَاكَ فِي الشَّامِ، فَيَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَبَأٍ
 نَحْوَ مَسِيرَةِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ، شَهْرَانِ ذَهَابًا، وَشَهْرَانِ إِيَابًا، وَمَعَ
 ذَلِكَ يَقُولُ هَذَا الْعَفْرِيْتُ: أَنَا أَلْتَزِمُ بِالْمَجِيءِ بِهِ، عَلَى كِبَرِهِ
 وَثِقَلِهِ وَبُعْدِهِ، قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَجْلِسِكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ.
 وَالْمَعْتَادُ مِنَ الْمَجَالِسِ الطَّوِيلَةِ، أَنْ تَكُونَ مَعْظَمُ الضَّحَى، نَحْوَ
 ثَلَاثِ يَوْمٍ، هَذَا نِهَآيَةُ الْمَعْتَادِ، وَقَدْ يَكُونُ دُونَ ذَلِكَ، أَوْ أَكْثَرَ.

وَهَذَا الْمَلِكُ الْعَظِيمُ، الَّذِي عِنْدَ أَحَادِ رِعْيَتِهِ هَذِهِ الْقُوَّةُ
 وَالْقُدْرَةُ، وَأَبْلَغَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ﴾
 قَالَ الْمَفْسُورُونَ: هُوَ رَجُلٌ عَالِمٌ صَالِحٌ عِنْدَ سُلَيْمَانَ يُقَالُ لَهُ:
 «أَصْفَ بْنَ بَرَخِيَا» كَانَ يَعْرِفُ اسْمَ اللَّهِ الْأَعْظَمِ، الَّذِي إِذَا دُعِيَ

الْمَلِكُ وَالْمَلَكُوتُ

٣٨٠

سُورَةُ النَّامِلِ

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَيْبَتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِخِزْيُودٍ لَا يَفِيضُ لَهَا وَلَخَرَجْنَاهُمْ مِنْهَا آذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَتَأَيَّمُوا الْمَلَائِكَةَ يَا تَبِيبِي بِعَرِّشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْيَاقِينِ أَنَا أَنَا إِيَّاكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتَاكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴿٤٠﴾ أَي: لِيختبرني بذلك. فلم يغير عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته، كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة.

ثم بين أن الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ غني عن أعماله، كريم، كثير الخير، يعم به الشاكر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للمزيد منها، وكفرها داع لزوالها.

ثم قال لمن عنده: ﴿تَكْرُؤًا لَهَا عَرَشَهَا﴾ أي: غيرهه بزيادة ونقص، ونحو ذلك ﴿نَنْظُرًا﴾ مختبرين لعقلها ﴿أَنْهَدِي﴾ للضواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها ﴿أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ﴾ قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عهدا به، قد خلفته في بلدها. و ﴿قِيلَ﴾ لها ﴿أَمْ كَذَبْتَ﴾ أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشاً عظيماً، فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟ ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ وهذا من ذكائها وفطنتها، لم تقل «هو» لوجود التغيير فيه والتنكير، ولم تنف أنه هو، لأنها عرفته. فأنت بلفظ محتمل للأمرين، صادق على الحالين. فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاه أعظم منها: ﴿وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ بِنِهَايَةِهَا﴾ أي: الهداية، والعقل، والحزم، من قبل هذه الملكة، ﴿وَكُنَّا مُسْتَبِينَ﴾ وهي الهداية النافعة الأصلية.

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ: ﴿وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ عَنْ مَلِكِ سُلَيْمَانَ وَسُلْطَانِهِ، وَزِيَادَةَ اقْتِدَارِهِ، مِنْ قَبْلِ هَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي رَأَيْنَا فِيهَا قُدْرَتَهُ عَلَى إِحْضَارِ الْعَرْشِ مِنَ الْمَسَافَةِ الْبَعِيدَةِ، فَأَذَعْنَا لَهُ، وَجَنَّا مُسْلِمِينَ لَهُ، خَاضِعِينَ لِسُلْطَانِهِ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: عن الإسلام وإلا فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إِنَّمَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين، والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم

نَقِيٍّ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ .

فهذا ما قصه الله علينا من قصة ملكة سبأ، وما جرى لها مع سليمان، وما عدا ذلك من الفروع المولدة، والقصص الإسرائيلية، فإنه لا يتعلق بالتفسير لكلام الله، وهو من الأمور التي يتوقف^(١) الجزم بها، على الدليل المعلوم المعصوم. والمنقولات في هذا الباب كلها أو أكثرها، ليس كذلك. فالحزم كل الحزم، الإعراض عنها، وعدم إدخالها في التفاسير، والله أعلم.

(٤٥-٥٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ إلى آخر القصة. يخبر تعالى أنه أرسل إلى ثمود القبيلة المعروفة، أخاهم في النسب صالحًا، وأنه أمرهم أن يعبدوا الله وحده، ويتركوا الأنداد والأوثان ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ منهم المؤمن، ومنهم الكافر، وهم معظمهم.

﴿قَالَ يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: لم تبادرون فعل السيئات وتحرصون عليها، قبل فعل الحسنات التي بها تحسن أحوالكم وتصلح أموركم الدينية والدنيوية؟ والحال أنه لا موجب لكم إلى الذهاب لفعل السيئات؟ ﴿لَوْلَا سَتَعْفِرُونَ اللَّهَ﴾ بأن تتوبوا من شرككم وعصيانكم، وتدعوه أن يغفر لكم ﴿لَمَلَكُمْ تَرْحُمُونَ﴾ فإن رحمة الله تعالى قريب من المحسنين، والتائب من الذنوب، هو من المحسنين.

﴿قَالُوا﴾ لنبيهم صالح، مكذبين ومعارضين: ﴿أَطَّيْرْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكُ﴾ زعموا - فبجهم الله - أنهم لم يروا على وجه صالح خيرا، وأنه هو ومن معه من المؤمنين، صاروا سببا لمنع بعض مطالبهم الدنيوية. فقال لهم صالح: ﴿طَائِرِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ما أصابكم إلا بذنوبكم ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّفْتَنُونَ﴾ بالسراء والضراء، والخير والشر، لينظر هل تقبلون وتتوبون، أم لا؟ فهذا دأبهم في تكذيب نبيهم وما قابلوه به.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ التي فيها صالح، الجامعة لمعظم قومه ﴿سِنَّةٌ رَّهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: وصفهم الإفساد في الأرض، ولا لهم قصد ولا فعل بالإصلاح، قد استعدوا لمعاداة صالح، والظعن في دينه، ودعوة قومه إلى ذلك، كما قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَ الْمُرْتَدِينَ﴾ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

فلم يزالوا بهذه الحال الشنيعة، حتى إنهم من عداوتهم ﴿تَقَاسَمُوا﴾ فيما بينهم، كل واحد أقسم للآخر ﴿لَنُبَيِّتَنَّكَ وَأَهْلَكَ﴾ أي: نأتيه^(٢) ليلا، هو وأهله، فلنقتلنهم ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْلِيكَ﴾ إذا قام علينا، وادّعى علينا أننا قتلناه، ننكر ذلك،

سُورَةُ النَّمْلِ
٣٨١
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَنْقُورِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطَّيْرْنَا بِكَ وَيَمْنُ مَعَكَ قَالَ طَائِرِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّكَ وَأَهْلَكَ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لَوْلِيكَ مَا شَاءْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَادَرْتَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فِتْلِكَ يُوْتُهُمْ حَاوِيَةً يَمَاظَلُمُوا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَجْمِعْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا سِنْفًا لِّأُولِي الْأُلْبَانِ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِمْ أَتَأْتُونَ الْفُلْحَشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٣﴾ أَيْنَكُمْ لِنَاتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النَّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴿٥٤﴾

ونفيه ونحلف ﴿إِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فتواطؤوا على ذلك ﴿وَمَكْرًا مَكْرًا﴾ دبروا أمرهم على قتل صالح وأهله، على وجه الخفية، حتى [من] قومهم، خوفاً من أوليائه ﴿وَمَكْرًا مَكْرًا﴾ بنصر نبينا صالح عليه السلام، وتيسير أمره، وإهلاك قومه المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ﴾ هل حصل مقصودهم؟ وأدركوا بذلك المكر مطلوبهم، أم انتقض عليهم الأمر. ولهذا قال: ﴿أَنَا دَرَرْتُهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أهلكتناهم، واستأصلنا شافتهم. فجاءتهم صيحة عذاب، فأهلكوا عن آخرهم.

﴿فِتْلِكَ يُوْتُهُمْ حَاوِيَةً﴾ قد تهدمت جدرانها على سقفها، وأوحشت من ساكنيها، وعطلت من نازلها ﴿يَمَا ظَلُمُوا﴾ أي: هذا عاقبة ظلمهم وشركهم بالله، وبغيرهم في الأرض.

﴿إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ الحقائق، ويتدبرون

(١) في الأصل: يقف. (٢) في ب: لناتينهم.

دونهم، واشتد الأمر عليه. ثم أخبرته الملائكة عن جلية الحال، وأنهم جاءوا لاستنقاذه وإخراجه من بين أظهرهم، وأنهم يريدون إهلاكهم، وأن موعدهم الصبح. وأمروه أن يسري بأهله ليلاً، إلا امرأته، فإنه سيصيها ما أصابهم، فخرج بأهله ليلاً فنجوا، وصححهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك.

ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ النَّارِينَ﴾ أي: وبس المطر مطرهم، وبس العذاب عذابهم، لأنهم أئذروا وخوفوا، فلم ينجروا ولم يرتدعوا، فأحل الله بهم عقابه الشديد.

(٥٩) ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرُ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ أي: قل ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي يستحق كمال الحمد والملح والثناء، لكامل أوصافه، وجميل معرفته، وهباته وعدله، وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين. وسلم أيضاً على عباده الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين، من الأنبياء والمرسلين، وصفوة الله من العالمين. وذلك لرفع ذكرهم، وتوبهاً بقدرهم، وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قالوه في ربه من النقاوس والعيوب.

﴿اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ﴾ وهذا استفهام قد تقرر وعرف. أي: الله الرب العظيم، كامل الأوصاف، عظيم الألفاظ، خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه، وهي ناقصة من كل وجه، لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها مثقال ذرة من الخير، فالله خير مما يشركون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف، ويتعين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق، وعبادة [ما] سواه هي الباطل فقال:

(٦٠) ﴿إِنَّمَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ شَجَرَةٍ أَوْلَكُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي: من خلق السموات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم والملائكة والأرض وما فيها، من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك؟

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾ أي: لأجلكم ﴿مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ﴾ أي: بساتين ﴿ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾ أي: حسن منظر، من كثرة أشجارها وتنوعها، وحسن ثمارها ﴿مَا كَانَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ شَجَرَةٍ أَوْلَكُ مَعَ اللَّهِ﴾ فذهب إلى آية الأعراف فكتب: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ وفسرها على هذا، فصححت الآية وأقيمت التفسير كما هو.

وقانع الله في أوليائه وأعدائه، فيعتبرون بذلك، ويعلمون أن عقابة الظلم الدمار والهلاك، وأن عقابة الإيمان والعدل، النجاة والفوز.

ولهذا قال: ﴿وَأَيَّبْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أي: أنجينا المؤمنين بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وكانوا يتقون الشرك بالله والمعاصي، ويعملون بطاعته وطاعة رسله.

(٥٤-٥٨) ﴿رُؤُوسًا إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَئِيَةٌ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر القصة. أي: واذكر عبدنا ورسولنا لوطاً، ونبأه الفاضل، حين قال لقومه - داعياً لهم إلى الله وناصحاً -: ﴿إِنَّا بُرُئُونَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الفعل الشعاء التي تستفحشها العقول والفطر، وتستقبحها الشرائع ﴿وَأَنْتُمْ بُرُئُونَ﴾ ذلك، وتعلمون قبحه، فعاندم، وارتكبتم ذلك، ظلماً منكم وجرأة على الله.

ثم فسر تلك الفاحشة فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي: كيف توصلتم إلى هذه الحال، صارت شهوتكم للرجال، وأديارهم محل الغائط والتجو والخبث، وتركتهم ما خلق الله لكم من النساء، من المحال الطيبة التي جبلت النفوس إلى الميل إليها، وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستقبحتم الحسن ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ بِجَهَلُونَ﴾^(١) متجاوزون لحدود الله، متجرؤون على محارمه.

﴿فَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ قبول ولا انزجار، ولا تذكر وادكار، إنما كان جوابهم المعارضة والمناقضة، والتوعد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين، بالإجلاء عن وطنه، والتشريد عن بلده. فما كان جواب قومه ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ﴾.

فكانه قيل: ما نعمتم منهم، وما ذنبهم الذي أوجب لهم الإخراج، فقالوا: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْظَهُرُونَ﴾ أي: ينتزهون عن اللواط وأدبار الذكور. فقبحهم الله، جعلوا أفضل الحسنات بمنزلة أقبح السيئات، ولم يكتفوا بمعصيتهم لنبيهم فيما وعظهم به، حتى وصلوا إلى إخراجه، والبلاء موكل بالمنطق، فهم قالوا: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْظَهُرُونَ﴾.

ومفهوم هذا الكلام «وأنتم متلوثون بالخبث والقدر، المقتضي لنزول العقوبة بقريتهم، ونجاة من خرج منها».

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَجْبَيْنُوهُ وَأَهْلَهُ ۖ إِلَّا أُمَّرَأَتُهَا قَدَرْنَا مِنْ آلِ قَوْمِهِ﴾ وذلك لما جاءته الملائكة في صورة أضياف، وسمع بهم قومه، فجاءوا إليه يريدونهم بالشر، وأغلق الباب

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فذهب إلى آية الأعراف فكتب: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّشْرِكُونَ﴾ وفسرها على هذا، فصححت الآية وأقيمت التفسير كما هو.

الْمُرْسَلِينَ

٣٨٢

سَبِّحْ لِلَّهِ

﴿٦١﴾ فَكَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُو آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْطَهُرُونَ ﴿٦٢﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَقَدَرْنَا مِنْ الغَيْرِيبِ ﴿٦٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذِرِينَ ﴿٦٤﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ۗ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يَشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾

﴿٦٦﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حُدُبًا قَدِيقًا ۗ ذَٰلِكَ بِهَيْجَةِ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنَبِّئُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿٦٧﴾

﴿٦٨﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَرَوَسًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾

﴿٧٠﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمُ خَلْفَاءَ الْأَرْضَ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ ﴿٧١﴾

﴿٧٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْيَوْمِ مِنَ الرِّيحِ ۗ بُشْرًا لِّبَنِي إِدْرِيصَ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ ۗ إِنَّكُمْ لَشُرَكَاءُ

تُنَبِّئُوا شَجَرَهَا ﴿٦١﴾ لولا مَنَّهُ الله عليكم بإنزال المطر ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ فعل هذه الأفعال، حتى يعبد معه ويشرك به؟.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ﴾ به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزل الرزق.

(٦١) ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَسًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: هل الأصنام والأوثان الناقصة من كل وجه، التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع، خير؟ أم الله الذي ﴿جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى، والحرث، والبناء، والذهاب، والإياب ﴿وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا﴾ أي: جعل في خلال الأرض أنهارًا يتنفع بها العباد في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيمهم، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَسًا﴾ أي: جبالًا ترسيها وتبنتها، لئلا تמיד، وتكون أوتادًا لها، لئلا تضطرب ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ﴾ البحر المالح والبحر العذب ﴿حَاجِزًا﴾ يمنع من اختلاطهما، فتفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزًا من الأرض، جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار، فيحصل منها مقاصدها ومصالحها ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ فعل ذلك، حتى يعدل به الله ويشرك به معه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركون بالله تقليدًا لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم، لم يشركوا به شيئًا.

(٦٢) ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمُ خَلْفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ أي: هل يجيب المضطر الذي أفلقتة الكروب، وتعسر عليه المطلوب، واضطر للخلاص مما هو فيه، إلا الله وحده؟. ومن يكشف السوء، أي: البلاء والشر والنقمة، إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء من قبلكم، كما أنه سيميتكم، ويأتي بقوم بعدكم، إله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئًا من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر، دعوا الله مخلصين له الدين، لعلمهم أنه وحده المقدر على دفعه وإزالته ﴿قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ أي: قليل تذكركم وتدبركم للأمر التي إذا تذكرتموها اذكرتم ورجعتم إلى الهدى. ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما اروعيتم، ولا اهتديتم.

(٦٣) ﴿أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْيَوْمِ مِنَ الرِّيحِ ۗ بُشْرًا لِّبَنِي إِدْرِيصَ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ ۗ إِنَّكُمْ لَشُرَكَاءُ

أي: من هو الذي يهديكم، حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل، ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها ﴿وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا لِّبَنِي إِدْرِيصَ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ ۗ إِنَّكُمْ لَشُرَكَاءُ﴾ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تولفه، ثم تجمعها، ثم تلقحها، ثم تدره، فيستشتر بذلك العباد قبل نزول المطر ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده الذي انفرد به؟ فلم أشركتم معه غيره، وعبدتم سواه؟ ﴿تَعَالَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعاضم وتزده وتقدس عن شركهم، وتسويتهم به غيره.

(٦٤) ﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْفَعُ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذْكُرُونَ﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق، وينشئ المخلوقات، ويبتدئ خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرفعكم من السماء والأرض بالمطر والنبات؟ ﴿أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل ذلك، ويقدر عليه؟ ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حججتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وإلا، فبتقدير أنكم تقولون: إن

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 ٣٨٣
 سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ
 أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦٤﴾
 قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
 أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ
 فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَاَبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا
 هَذَا نَحْنُ وَاَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ
 ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾
 وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى
 أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ
 رَبَّكَ لَبَعْلَمٌ مَا تَكْنُ صُدُورُهُمْ وَمَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ وَمِنْ عَاقِبَةِ
 فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ
 يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾

فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عسى، ثم الإخبار
 بإنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه. أي: وبسبب هذه
 الأحوال ترحل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على
 معاصي الله، وسهل عليهم تكذيب الحق، والتصديق
 بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، فخرسوا
 دنياهم وأخراهم.

(٦٩) ثم نههم على صدق ما أخبرت به الرسل، فقال:
 ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فلا
 تجدون مجرماً قد استمر على إجرامه، إلا وعاقبته شرُّ عاقبه،
 وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

(٧٠-٧٢) ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾
 ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ
 لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء
 المكذبين، وعدم إيمانهم! فإنك لو علمت ما فيهم من الشر،
 وأنهم لا يصلحون للخير، لم تأس ولم تحزن، ولا يضق
 صدرك، ولا تقلق نفسك بمكرهم، فإن مكرهم سيعود عاقبته
 عليهم ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾

الأصنام لها مشاركة له في شيء من ذلك، فذلك مجرد
 دعوى، صدقوها ببرهان، وإلا فاعرفوا أنكم مبطلون، لا
 حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة اليقينية والبراهين القطعية
 الدالة على أن الله هو المتفرد بجميع التصرفات، وأنه
 المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

(٦٥-٦٨) ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ
 وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ﴾ ﴿بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي
 شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا
 وَاَبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ ﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَاَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ
 هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بعلم غيب
 السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا
 يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا
 يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ
 مُبِينٍ﴾ وكقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ
 مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ إلى آخر السورة.

فهذه الغيوب ونحوها، اختص الله بعلمها، فلم يعلمها
 ملك مقرب، ولا نبي مرسل. وإذا كان هو المتفرد بعلم ذلك،
 المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا، فهو الذي لا تبغي
 العبادة إلا له، ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين
 بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال: ﴿وَمَا
 يَشْعُرُونَ﴾ أي: وما يدرون ﴿أَيَّانَ يَبْعَثُونَ﴾ أي: متى البعث
 والنشور، والقيام من القبور، أي: فلذلك لم يستعدوا ﴿بَلِ
 أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: بل ضعف وقُلْ ولم يكن يقيناً،
 ولا علماً واصلاً إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم،
 ضعفه ووهائه، بل ليس عندهم علم، ولا ضعيف، وإنما هُم
 في شَكٍّ مِنْهَا﴾ أي: من الآخرة، والشك زال به العلم، لأن
 العلم بجميع مراتبه، لا يجامع الشك ﴿بَلْ هُمْ مِنْهَا﴾ أي: من
 الآخرة ﴿عَمُونَ﴾ قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في
 قلوبهم من وقوعها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها.
 ولهذا قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَاَبَاؤُنَا أَئِنَّا
 لَمُخْرَجُونَ﴾ أي: هذا بعيد غير ممكن، فاسوا قدرة كامل
 القدرة، بقدرهم الضعيفة.

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا﴾ أي: البعث ﴿نَحْنُ وَاَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ﴾ أي:
 فلم يجتنا، ولا رأينا منه شيئاً ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي:
 قصصهم وأخبارهم التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل،
 ولا صدق فيها.

فانتقل في الإخبار عن أحوال هؤلاء المكذبين بالإخبار
 أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم

حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين، لخفاء الدليل، أو لبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع، حين يحكم الله فيها ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الخلائق فأذعنوا له ﴿الْعَلِيمُ﴾ بجميع الأشياء ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلًا بما علمه فيه.

(٧٩-٨١) ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ۝ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْغَوَاقِبَ وَلَا تَشْعُرُ أَلْطَمَ الْأُدْءَاءِ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ۝ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ﴾
 أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار، وفي تبليغ الرسالة، وإقامة الدين، وجهاد الأعداء ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ الواضح، والذي على الحق، يدعو إليه، ويقوم بنصرته، أحق من غيره بالتوكل، فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مرية. وأيضًا، فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه. وإذا قمت بما حملت، وتوكلت على الله في ذلك، فلا يضررك ضلال من ضل، وليس عليك هدام، فهذا قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْغَوَاقِبَ وَلَا تَشْعُرُ أَلْطَمَ الْأُدْءَاءِ﴾ أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصًا ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَن ضَلَالَتِهِمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، ﴿إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْمِعُونَ﴾ أي: هؤلاء الذين ينقادون لك، الذين يؤمنون بآيات الله، وينقادون لها بأعمالهم واستسلامهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

(٨٢) ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا وقع على الناس القول الذي حتمه الله، وفرض وقته ﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً﴾ خارجة ﴿مِّنَ الْأَرْضِ﴾ أو دابة من دواب الأرض، ليست من السماء، وهذه الدابة ﴿تُكَلِّمُهُمْ﴾ أي: تكلم العباد أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون، أي: لأجل أن الناس ضعف علمهم و يقينهم بآيات الله. فأظهر الله هذه الدابة، من آيات الله العجيبة، ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون.

وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراف الساعة، كما تكاثرت بذلك الأحاديث، [ولم يأت دليل يدل على كفيته، ولا من أي نوع هي، وإنما دلت الآية الكريمة على أن الله يخرجها للناس، وأن هذا التكليم منها خارق للعوائد المألوفة، وأنه من الأدلة

ويقول المكذبون بالمعاد، وبالحق الذي جاء به الرسول، مستعجلين للعذاب: ﴿مَنْ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم، فإن وقوعه ووقته، قد أجله الله بأجله، وقدره بقدره، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم.

ولكن - مع هذا - قال تعالى محذرًا لهم وقوع ما استعجلوه: ﴿قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَّكُمْ﴾ أي: قرب منكم، وأوشك أن يقع بكم ﴿بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ من العذاب.

(٧٥-٧٣) ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾
 ابنه عباده على سعة جوده، وكثرة أفضاله، ويحشمهم على شكرها، ومع هذا فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعيم عن النعم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ﴾ أي: تنطوي عليه ﴿صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خفية، وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي، ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فكل حادث يحدث جلبي أو خفي إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

(٧٧، ٧٦) ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۝ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا خبر عن هيمنة القرآن على الكتب السابقة، وتفصيله وتوضيحه لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فقضيه هذا القرآن قضا زال به الإشكال وبيّن الصواب من المسائل المختلف فيها. وإذا كان بهذه المثابة من الجلالة والوضوح، وإزالة كل خلاف، وفصل كل مشكل، كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر.

ولهذا بيّن أن نفعه ونوره وهدهد مخصص بالمؤمنين، فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ لَهْدَىٰ﴾ من الضلالة والغي والشبه و﴿رَحْمَةً﴾ تتلج له صدورهم، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ به، المصدقين له، المتلقين له بالقبول، المقبلين على تدبره، المتفكرين في معانيه، فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

(٧٨) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾
 أي: إن الله تعالى سيفصل بين المختلفين، وسيحكم بين المختلفين، بحكمه العدل، وقضائه القسط. فالأمور وإن

على صدق ما أخبر الله به في كتابه، والله أعلم^(١).

(٨٣-٨٥) ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ ○ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تَحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا أَنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ○ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿يخبر تعالى عن حالة المكذبين في موقف القيامة، وأن الله يجمعهم، ويحشر من كل أمة من الأمم فوجًا وطائفة ﴿مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يجمع أولهم على آخرهم، وآخرهم على أولهم، ليعمهم السؤال والتوبيخ واللوم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ﴾ وحضروا، قال لهم موبخًا ومقرعًا: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تَحِيطُوا بِهَا﴾ العلم، أي: الواجب عليكم التوقف، حتى ينكشف لكم الحق، وأن لا تتكلموا إلا بعلم، فكيف كذبتهم بأمر لم تحيطوا به علمًا؟ ﴿أَمَّا أَنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يسألهم عن علمهم وعن عملهم، فيجد علمهم تكديباً بالحق، وعملهم لغير الله، أو على غير سنة رسولهم.

﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب بسبب ظلمهم الذي استمروا عليه، وتوجهت عليهم الحجة ﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ لأنه لا حجة لهم.

(٨٦) ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آيَاتٍ لِّيَسْكَنُوا فِيهَا وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: ألم يشاهدوا هذه الآية العظيمة، والنعمة الجسيمة، وهو تسخير الله لهم الليل والنهار. هذا بظلمته، ليسكنوا فيه ويستريحوا من التعب، ويستعدوا للعمل، وهذا بضيائه، لينتشروا فيه في معاشهم وتصرفاتهم ﴿إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ على كمال وحدانية الله وسبوغ نعمته.

(٨٧-٩٠) ﴿وَيَوْمَ يُفْخَعُ فِي الْأُصُورِ فَفَرَجَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَخِيرِينَ ○ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَازِمَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّعَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ○ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَهُمْ مِنْ فَرَجٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ○ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَنُكِبَتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُحْزَنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يخوف تعالى عباده، ما أمامهم من يوم القيامة، وما

فيه من المحن والكروب، ومزعجات القلوب، فقال: ﴿يَوْمَ يُفْخَعُ فِي الْأُصُورِ فَفَرَجَ﴾ بسبب النفخ فيه ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: انزعجوا وارتاعوا، وماج بعضهم ببعض، خوفًا مما هو مقدمة له ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ممن أكرمه الله، وثبته، وحفظه من الفزع ﴿وَكُلُّ أَتَوْهُ دَخِيرِينَ﴾ من الخلق عند النفخ في الصور ﴿أَتَوْهُ دَخِيرِينَ﴾ صاغرين ذليلين، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ ففي ذلك اليوم يتساوى الرؤساء والمرؤوسون في الذل والخضوع لمالك الملك.

وَأَنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ○ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمُوتِينَ وَلَا تَسْمَعُ الضَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَىٰ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ○ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ تَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يَكْذِبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تَحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّا أَنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آيَاتٍ لِّيَسْكَنُوا فِيهَا وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُفْخَعُ فِي الْأُصُورِ فَفَرَجَ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَخِيرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَازِمَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّعَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

ومن هوله أنك ﴿تَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَازِمَةً﴾ لا تفقد [شيئًا] منها، وتظنها باقية على الحال المعهودة، وهي قد بلغت منها الشدائد والأهوال كل مبلغ، وقد تفتت، ثم تضحل، وتكون هباء منبثًا، ولهذا قال: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّعَابِ﴾ من خفتها، وشددة ذلك الخوف، وذلك ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

ثم بين كيفية جزائه فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ اسم جنس يشمل كل حسنة قولية أو فعلية أو قلبية ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا فِيهَا﴾ هذا أقل التفضيل^(٢).

﴿وَهُمْ مِنْ فَرَجٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ أي: من الأمر الذي فرج الخلق لأجله آمنون، وإن كانوا يفرعون معهم.

(١) ما بين القوسين المرتكين زيادة من هامش أبخط الشيخ - رحمه الله -، وفي ب زيادة أخرى، يبدو أنها بخطه - رحمه الله - هي: (لم يذكر الله ورسوله، كيفية هذه الدابة. وإنما ذكر أثرها والمقصود منها وأنها من آيات الله، تكلم الناس كلاماً خارقاً للعادة، حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات الله، فتكون حجة وبرهاناً للمؤمنين، وحجة على المعاندين). (٢) سبق قلم الشيخ إلى آية الأنعام ﴿لَكُمْ عَشْرُ أَثْقَالًا﴾ وعليه فسرها.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ اسم جنس، يشمل كل سيئة ﴿فَكُتِبَتْ لَهُمْ فِي النَّارِ﴾، أي: ألقوا في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

(٩١-٩٣) ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبَّدَ رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةَ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِرِّيكَ مَا بَيْنَهُ فَعَرَفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: قل لهم يا محمد ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ عَبَّدَ رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةَ﴾ أي: مكة المكرمة التي حرّمها وأنعم على أهلها، فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾ من العلويات والسفليات، أتى به لئلا يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده ﴿وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١) أي: أبادر إلى الإسلام. وقد فعل ﷺ، فإنه أول هذه الأمة إسلامًا، وأعظمها استسلامًا.

﴿و﴾ أمرت أيضًا ﴿أَنْ أَتْلُوا﴾ عليكم ﴿الْقُرْآنَ﴾ لتهدتوا به وتقتدوا وتعلموا ألفاظه ومعانيه، فهذا الذي عليّ وقد أدبته. ﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ نفعه يعود عليه، وثمرته عائدة إليه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ وليس بيدي من الهداية شيء.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق. خصوصًا أهل الاختصاص والصفوة من عباده، فإن الذي ينبغي أن يقع منهم من الحمد والثناء على ربهم، أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم، وكمال قربهم منه، وكثرة خيراته عليهم.

﴿سِرِّيكَ مَا بَيْنَهُ فَعَرَفُونَهَا﴾ معرفة تدلكم على الحق والباطل. فلا بد أن يريكم من آياته ما تستتيرون به في الظلمات ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال، وسيحكم بينكم حكمًا تحمدونه عليه، ولا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعانه وتيسيره.

ونسأله تعالى أن لا تزال ألفاظه ومعونه مستمرة علينا، وواصله منه إلينا. فهو أكرم الأكرمين، وخير الراحمين، وموصل المنقطعين، ومجيب السائلين، ميسر الأمور العسيرة، وفتاح أبواب بركاته، ومجزئ في جميع الأوقات

سورة النمل
٣٨٥
سورة النمل
من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ﴿٨٩﴾
ومن جاء بالسئنة فكبت وجوههم في النار هل تجزوت
إلا ما كنتم تعملون ﴿٩٠﴾ إنما أمرت أن أعبد رب هذه
البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من
المسلمين ﴿٩١﴾ وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى
لنفسه ومن ضلّ فقل إنّما أنا من المنذرين ﴿٩٢﴾ وقول الحمد
لله سريكم ما بينه فعرّفونها وما ربك بغفيل عما تعملون ﴿٩٣﴾

سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طس ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُوا عَلَيْكَ
مِنْ نَّبَأِ مُوسَىٰ وَقُرْعَانَ بِالْحَقِّ لَقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ
طَائِفَةً مِنْهُمْ يَتَّبِعُ أَبْنَاءَ هُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَرَبُّدَانِ تُنَمُّ عَلَى الذَّنْبِ أَسْتَضِعُّوهُ
فِي الْأَرْضِ وَبَجَعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَبَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾

هباته، ميسر القرآن للمتذكرين، ومسهل طرقه وأبوابه للمقبلين، وممد مائدة خيراته وميراثه للمتفكرين، والحمد لله رب العالمين. وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

على يد جامعه وممليه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين. وذلك في ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣ هـ.

المجلد السادس من تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، من متن الله على العبد الفقير إلى المعيد المبدى، عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له. آمين.

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فكتب: (وأمرت أن أكون أول المسلمين) وعلى هذا فسر الآية.

تفسير سورة القصص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ للأرض، الذين لهم العاقبة في الدنيا قبل الآخرة ﴿وَتُكَنَّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فهذه الأمور كلها، قد تعلقت بها إرادة الله، وجرت بها مشيئته.

﴿و﴾ كذلك نريد أن ﴿نُبْرَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَارُونَ﴾ وزيره ﴿وَجُودُهُمَا﴾ التي بها صالوا وجالوا، وعلوا وبغوا ﴿وَنُهُمُ﴾ أي: من هذه الطائفة المستضعفة ﴿تَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ من إخراجهم من ديارهم، ولذلك كانوا يسعون في قمعهم، وكسر شوكتهم، وتقتيل أبنائهم الذين هم محل ذلك. فكل هذا قد أَرَادَهُ اللهُ، وإذا أراد أمرًا، سهَّلَ أسبابه، ونهَجَ طريقه. وهذا الأمر كذلك، فإنه قَدَّرَ وأجرى من الأسباب - التي لم يشعر بها لا أولياؤه ولا أعداؤه - ما هو سبب موصل إلى هذا المقصود. فأول ذلك، لما أوجد الله رسوله موسى الذي جعل استنقاذ هذا الشعب الإسرائيلي على يديه وبسببه، وكان في وقت تلك المخافة العظيمة التي يذبحون بها الأبناء، وأوحى إلى أمه أن ترضعه، ويمكث عندها.

﴿فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ﴾ بأن أحسست أحدًا تخافين عليه منه أن يوصله إليهم ﴿فَكَأْتِيهِ فِي الْبَيْتِ﴾ أي: نيل مصر، في وسط تابوت معلق ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فبشرها بأنه سيرده عليها، وأنه سيكبر ويسلم من كيدهم، ويجعله الله رسولًا.

وهذا من أعظم البشائر الجليلة، وتقديم هذه البشارة لأُم موسى، ليطمئن قلبها، ويسكن روعها، فإنها خافت عليه، وفعلت ما أمرت به، ألقته في اليم، فساقه الله تعالى حتى التقطه آل فرعون فصار من لقطهم، وهم الذين باشروا وجدانه ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ أي: لتكون العاقبة والمآل من هذا الالتقاط، أن يكون عدوًّا لهم وحزنًا يحزنهم، بسبب أن الحذر لا ينفع من القدر، وأن الذي خافوا منه من بني إسرائيل، قَبِضَ اللهُ أَنْ يَكُونَ زَعِيمَهُمْ، يتربى تحت أيديهم، وعلى نظرهم وبكفالتهم.

وعند التدبر والتأمل، تجد في طي ذلك من المصالح لبني إسرائيل، ودفع كثير من الأمور الفادحة بهم، ومنع كثير من التعديات قبل رسالته، بحيث إنه صار من كبار المملكة.

وبالطبع إنه لا بد أنه يحصل منه مدافعة عن حقوق شعبه هذا، وهو هو ذو الهمة العالية والغيرة المتوقدة، ولهذا وصلت الحال بذلك الشعب المستضعف - الذي بلغ بهم الذل والإهانة إلى ما قص الله علينا بعضه - أن صار بعض أفرادها، يَنَازِعُ ذَلِكَ الشَّعْبَ الْقَاهِرَ الْعَالِيَّ فِي الْأَرْضِ، كما سيأتي بيانه.

(٥١-١) ﴿طَسَّرَ﴾ تَأَكَّ أَيْتُ الْكُتُبِ الْمُبِينِ ○ تَتَلَوُ عَلَيْكَ مِنْ نَبِيِّ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى آخر القصة ﴿وَتِلْكَ﴾ الآيات المستحقة للتعظيم والتفخيم ﴿أَيْتُ الْكُتُبِ الْمُبِينِ﴾ لكل أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال، فهذا القرآن قد بينها غاية التبيين، وجلًّا للعباد ووضوحًا.

من جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون، فإنه أبداها، وأعادها في عدة مواضع، وبسطها في هذا الموضع فقال: ﴿تَتَلَوُ عَلَيْكَ مِنْ نَبِيِّ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ فإن نأهما غريب، وخبرهما عجيب.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فإليهم يساق الخطاب، وبوجه الكلام، حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك، وتلقيه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر، ويزدادون إيمانًا و يقينًا، وخيرًا إلى خيرهم. وأما من عداهم فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحججة عليهم، وصانته الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجابًا أن يفقهوه.

فأول هذه القصة ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلين فيها، ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي: طوائف متفرقة، يتصرف فيهم بشهوته، وينفذ فيهم ما أراد من قهره وسطوته.

﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ﴾ وتلك الطائفة، هم بنو إسرائيل الذين فضلهم الله على العالمين الذين له أن يكرمهم ويجلهم، ولكنه استضعفهم، بحيث إنه رأى أنهم لا منعة لهم تمنعهم مما أَرَادَهُ فِيهِمْ، فصار لا يبالي بهم، ولا يهتم بشأنهم، وبلغت به الحال إلى أنه ﴿يَدْبِئُ بِنَبَأِهِمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ خوفًا من أن يكثروا، فيغمروه في بلاده، ويصير لهم الملك.

﴿إِنَّهُ كَانَتْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين لا قصد لهم في إصلاح الدين، ولا إصلاح الدنيا، وهذا من إفساده في الأرض.

﴿وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَىٰ إِلَهِكَ أَسْتَضْعِفُ فِي الْأَرْضِ﴾ بأن نزيل عنهم مواد الاستضعاف، ونهلك من قاومهم، ونخذل من ناوأهم ﴿وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً﴾ في الدين، وذلك لا يحصل مع الاستضعاف، بل لا بد من تمكين في الأرض، وقدرة تامة

الْقَصَصُ

٣٨٦

سُورَةُ الْقَصَصِ

وَمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَرِثَى فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجُنُودَهُمَا
 مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ
 أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
 وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾
 فَالْقِطْعَةُ أَل فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ
 فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ ﴿٨﴾
 وَقَالَتْ أُمَّاتٌ مِّنْ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ
 أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ
 فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَدَرًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ
 رَبَّنَا عَلَّمَ قَلْبَهَا لَتَكُونُ مِنَ الْمُنْكَرِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ
 لِأُخْتِهِ قُصِّبِيهٖ فَبَصَّرْتِ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
 ﴿١١﴾ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
 عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾
 فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ كِي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
 أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾

ومن لطف الله بموسى وأمه، أن منعه من قبول ثدي امرأة، فأخرجه إلى السوق رحمة به، ولعل أحدًا يطلبه، فجاءت أخته، وهو بتلك الحال ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

وهذا جُلُّ غرضهم، فإنهم أحبوه حبًا شديدًا، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة المشتملة على التريغيب في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالتة والنصح له، بادروا إلى إيجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت.

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ﴾ كما وعدناها بذلك ﴿كِي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ بحيث إنه تربي عندها على وجه تكون فيه أمانة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك.

﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فأريناها بعض ما وعدناها به عيانًا، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه، ورسالته ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فإذا

(١) كذا في ب، وفي أ: ناعقهما على خطئهما.

وهذا مقدمة للظهور، فإن الله تعالى من سنته الجارية، أن جعل الأمور تمشي على التدرج شيئًا فشيئًا، ولا تأتي دفعة واحدة.

وقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ﴾ أي: فأردنا أن نعاقبهم على خطئهم^(١)، ونكيدهم جزاء على مكرهم وكيدهم.

فلما التقطه آل فرعون، حنَّ الله عليه امرأة فرعون الفاضلة الجليلة، المؤمنة «أسية» بنت مزاحم ﴿وَقَالَتْ﴾: هذا الولد ﴿قُرَّتْ عَيْنَ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ﴾ أي: أبقه لنا، ليقرَّ به أعيننا، ونستر به في حياتنا.

﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا﴾ أي: لا يخلو، إما أن يكون بمنزلة الخدم الذين يسعون في نفعنا وخدمتنا أو تربيته منزلة أعلى من ذلك، نجعله ولدًا لنا، ونكرمه ونجمله.

فقدَّر الله تعالى، أنه نفع امرأة فرعون التي قالت تلك المقالة، فإنه لما صار قرّة عين لها، وأحبت حبًا شديدًا، فلم يزل لها بمنزلة الولد الشفيق حتى كبر ونبأه الله وأرسله، فبادرت إلى الإسلام والإيمان به، رضي الله عنها وأرضاها.

قال الله تعالى عن هذه المراجعات [والمقالات] في شأن موسى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه. وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا لكان لهم وله شأن آخر.

ولما فقدت موسى أمه، حزنت حزناً شديدًا، وأصبح فؤادها فارغًا من القلق الذي أزعجها، على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده.

﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي: بما في قلبها ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَّمَ قَلْبَهَا﴾ فثبتناها فبصرت، ولم تبد به ﴿لَتَكُونُ﴾ بذلك الصبر والثبات ﴿وَمِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد دليل على ضعف إيمانه.

﴿وَقَالَتْ﴾ أم موسى: ﴿لِأُخْتِهِ قُصِّبِيهٖ﴾ أي: اذهبي [فقصي الأثر عن أخيك، وابحثي عنه من غير أن يحس بك أحد، أو يشعروا بمقصودك. فذهبت تقصه] ﴿فَبَصَّرْتِ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: أبصرت على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه.

وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرت، وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألقته، وربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهلها.

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٣٨٧

سُورَةُ الْقَصَصِ

وَمَا بَلَغَ أَشُدَّهُ، وَأَسْوَىءَ آيَاتِهِ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْرِي

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا

فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا مِنْ شِيعِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ

فَاسْتَعْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ

فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالِ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ

﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ

الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَن أَكُونَ

ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا

الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَعَوِيُّ

مُؤْمِنٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ

يَمُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا

أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّكَ الْأَمَلَاءُ

يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِتَقْتُلَنَّهُ فَاخْرُجْ إِنِّي لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾

فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾

وهذا وعد من موسى عليه السلام، بسبب مئة الله عليه، أن لا يعين مجرمًا، كما فعل في قتل القبطي. وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير، وترك الشر.

﴿١٤﴾ لما جرى منه قتل الذي هو من عدوه ﴿أَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ هل يشعر به آل فرعون أم لا؟ وإنما خاف، لأنه قد علم أنه لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال سوى موسى من بني إسرائيل.

فيبينما هو على تلك الحال ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ﴾ على عدوه ﴿يَسْتَصْرِخُهُ﴾ على قبطي آخر ﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ مَوْيَحًا لَهُ عَلَىٰ حَالِهِ﴾ إِنَّكَ لَعَوِيُّ مُؤْمِنٌ ﴿١٨﴾ أي: بين الغواية، ظاهر الجراءة ﴿فَلَمَّا أَن أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ﴾ موسى ﴿بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا﴾ أي: له وللمخاصم المستصرخ، أي: لم يزل اللجاج بين القبطي والإسرائيلي، وهو يستغيث بموسى، فأخذته الحمية، حتى هم أن يبطش بالقبطي ﴿قَالَ﴾ له القبطي زاجرًا له عن قتله: ﴿أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ﴾ لأن من أعظم آثام الجبار في الأرض، قتل النفس بغير حق.

رأوا السبب متشوشًا، شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل، أن الله تعالى يجعل المحن الشاقة والعقبات الشاقة بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة. فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون، يتربى في سلطانهم، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها، وحنوها عليه.

وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبيه موسى من الكذب في منقطه، وتيسير الأمر الذي صار به التعلق بينه وبينها الذي بان للناس أنه هو الرضاع الذي بسببه يسميها أمًا، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقًا وحقًا.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب ﴿وَأَسْوَىءَ﴾ كملت فيه تلك الأمور ﴿وَأَيُّهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ أي: حكمًا يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلما كثيرا.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْرِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الله، المحسنين لخلق الله، نعظهم علما وحكما بحسب إحسانهم، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ إما وقت الفائلة أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ أي: يتخاصمان ويتضاربان ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ القبط.

﴿فَاسْتَعْنَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ لأنه قد اشتهر، وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثه لموسى، دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغًا يخاف منه، ويرجى من بيت المملكة والسلطان.

﴿فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ﴾ أي: وكز الذي من عدوه، استجابة لاستغاثته الإسرائيلي ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: أماته من تلك الوكزة، لشدها وقوة موسى.

فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و ﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ أي: من تزيينه ووسوسته ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ﴾ فلذلك أجريت ما أجريت بسبب عداوته البينة، وحرصه على الإضلال.

ثم استغفر ربه ف ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ خصوصًا للمخبتين، المبادرين للإنبابة والتوبة، كما جرى من موسى عليه السلام.

ف ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ﴾ بالتوبة والمغفرة، والنعم الكثيرة. ﴿فَلَن أَكُونَ ظَهِيرًا﴾ أي: معيّنًا ومساعدًا ﴿لِلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: لا أعين أحدًا على معصية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٨٨

الْبَقَرَةُ

وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ
 السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ
 النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ
 قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا
 شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ
 رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا
 تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ
 أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ
 لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا
 يَا أَبَتِ اسْتَجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ
 ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِإِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَنْ
 تَأْجُرَنِي ثُمَّ نَحْمِيحَ فَإِنِ اتَّمَمْتَ عِشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ
 وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَلَيْهِ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ
 الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ
 قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿تَمْشِي عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ﴾ وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياة من الأخلاق الفاضلة، وخصوصًا في النساء.

ويدل على أن موسى عليه السلام لم يكن فيما فعله من السقي لهما بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يستحي منه عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأت من حسن خلقه ومكارم أخلاقه، ما أوجب لها الحياة منه، ف ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: لا ليمنَّ عليك، بل أنت الذي ابتدأنا بالإحسان، وإنما قصده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ من ابتداء السبب الموجب لهربه، إلى أن وصل إليه ﴿قَالَ﴾ له مسكتًا روعه، جابرًا قلبه: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ليذهب خوفك وروعك، فإن الله نجاك منهم، حيث وصلت إلى هذا المحل الذي ليس لهم عليه سلطان.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا﴾ أي: إحدى ابنتيه ﴿يَتَّجِرْهُ﴾ أي: اجعله أجيرًا عندك، يرعى الغنم ويسقيها ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ

﴿وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ وإلا، فلو أردت الإصلاح لعلت بيني وبينه، من غير قتل أحد، فانكفَّ موسى عن قتله، وارعوى لوعظه وزجره. وشاع الخبر بما جرى من موسى في هاتين القضيتين، حتى تراود ملا فرعون، وفرعون على قتله، وتشاوروا على ذلك. وقيض الله ذلك الرجل الناصح، وبادهم إلى الإخبار لموسى بما اجتمع عليه رأي ملئهم، فقال: ﴿وَجَاءَهُ جُلٌّ مِّنَ الْأَمَّةِ يَأْتِرُونَ بِكَ﴾ أي: ركضًا على قدميه من نصحه لموسى، وخوفه أن يوقعوا به قبل أن يشعر، ف ﴿قَالَ يَمْوَسَّىٰ إِنَّكَ أَلَمَلًا يَا تَمْرُونَ بِكَ﴾ أي: يتشاورون فيك ﴿لِيَقْتُلُوكَ فَأَخْرُجَ﴾ عن المدينة ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فامتثل نصحه ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّى﴾ أن يوقع به القتل، ودعا الله. و ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه قد تاب من ذنبه، وفعله غضبًا من غير قصد منه للقتل، فتوَعَّدَهُمْ له ظلم منهم وجراءة.

﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ﴾ أي: قاصدًا بوجهه مدين، وهو جنوبي فلسطين، حيث لا ملك لفرعون ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أي: وسط الطريق المختصر، الموصل إليها بسهولة ورفق، فهدها الله سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ﴾ أي: من دون تلك الأمة ﴿امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ غنهما عن حياض الناس، لعجزهما عن مزاحمة الرجال، ويخلهم وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿قَالَ﴾ لهما موسى ﴿مَا خَطْبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما بهذه الحالة ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ﴾ أي: قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقي حتى يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقينا ﴿وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا قوة تقتدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء. فرَّق لهما موسى عليه السلام ورحمهما ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله تعالى. فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حر وسط النهار، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ مستريحًا لذلك الظلال بعد التعب.

﴿فَقَالَ﴾ في تلك الحالة، مستزفًا ربه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ أي: إني مفتقر للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسره لي، وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال فلم يزل في هذه الحالة داعيًا ربه متملِّقًا.

وأما المرأتان فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتا بما جرى.

عنده ويكون خادماً له، وهو أفضل منه، وأعلى درجة، والله أعلم [إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة، وعلى كل حال، لا يعتمد على أنه شعيب النبي، بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ] (١).

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ يحتمل أنه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفائه، اشتاق إلى الوصول إلى أهله والذئته وعشيرته ووطنه، وعلم من طول المدة، أنهم قد تناسوا ما صدر منه، ﴿سَارَ بِأَهْلِيهِ﴾ قاصداً مصر ﴿وَأَنَّكَ﴾ أي: أبصر ﴿مِن جَانِب الطُّورِ نَارًا﴾ قَالَ لِأَهْلِهِ ﴿أَنْكُورًا﴾ إِنَّي مَأْسُورٌ نَارًا لَعَلِّي مَعَكُمْ مِّنْهَا يَحْبِرُ أَوْ جَدْوَرٌ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ وكان قد أصابهم البرد، وتاهوا الطريق.

(٣٠) فلما أتاهها نودي ﴿يَمْوَسَّىٰ إِنَّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ فأخبره بألوهيته وربوبيته، ويلزم من ذلك أن يأمره بعبادته وتأله، كما صرح به في الآية الأخرى ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾.

﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾ تسعى سعياً شديداً، ولها صورة مهيبة ﴿كَأَنَّهَا جَانٌ﴾ ذَكَرُ الْحَيَاتِ الْعَظِيمِ. ﴿وَلَىٰ مُدِيرٌ وَكَرْبَعْبٌ﴾ أي: يرجع لاستيلاء الروع على قلبه، فقال الله له: ﴿يَمْوَسَّىٰ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التأمين وعدم الخوف.

فإن قوله: ﴿أَقْبَلْ﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم يزل الأمر المخوف، فقال: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ أمر له بشئتين إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ فحينئذ اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئنًا، واثقًا بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون (٢) أجرًا له، وأقوى وأصلب.

ثم أراه الآية الأخرى فقال: ﴿أَسْأَلُكَ بِدَعْوَةِ رَبِّكَ﴾ أي: أدخلها ﴿فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ عَيْرٍ سُوءٍ﴾ فسلكها وأخرجها، كما ذكره الله تعالى.

﴿وَأَضْمُوكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ أي: ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك يزول عنك الرهب والخوف ﴿فَذَانِكَ﴾

(١) زيادة من هامش ب. (٢) كذا في ب، وفي أ: ليكون.

أَسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ أي: إن موسى أولى من استؤجر، فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر، من جمعهما، أي القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة. وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولى للإنسان عملاً، بإجارة أو غيرها.

فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد إحداهما، وأما اجتماعهما فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك، لأنها شاهدت من قوة موسى عند السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى.

﴿قَالَ﴾ صاحب مدين لموسى ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَي هَتِّيَ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي﴾ أي: تصير أجيراً عندي ﴿ثُمَّ نَبِيَّ جِجَّجٍ﴾ أي: ثماني سنين ﴿وَإِنِّي أَنْتَمَتَ عَشْرًا فَمَنْ عِنْدِكَ﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلُكَ عَلَيْهِ﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكفلك أعمالاً شاقّة، وإنما أستأجرك، لعمل سهل يسير لا مشقة فيه ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة. وهذا يدل على أن الرجل الصالح ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه، أبلغ من غيره.

﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام - مجيباً له فيما طلب منه - : ﴿ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ أي: هذا الشرط الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك ﴿أَيُّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ﴾ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقدا عليه.

وهذا الرجل، أبو المرأتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيباً عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين؟.

وأيضاً، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟ ولو كان ذلك الرجل شعيباً لذكره الله تعالى، ولسمته المرأتان، وأيضاً فإن شعيباً عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم، بمنعها عن الماء، وصد ما شئتهما، حتى يأتيهما رجل غريب فيحسن إليهما، ويسقي ما شئتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى

الْقَصَصِ

٣٨٩

سُورَةُ الْقَصَصِ

﴿بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: حجتان قاطعتان من الله ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿فَلَا يَكْفِيهِمْ مَجْرَدُ الْإِنذَارِ وَأَمْرَ الرَّسُولِ إِياَهُمْ، بَلْ لَا بَدَّ مِنَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ، إِنْ نَفَعَتْ.﴾
 ف ﴿قَالَ﴾ موسى عليه السلام معتذرًا من ربه، وسائلًا له المعونة على ما حمله، وذاكرًا له الموانع التي فيه، ليزيل ربه ما يحذره منها ﴿رَبِّ إِيَّيْ قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ أي: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ وأخي هُروثُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا ﴿أي: معاونًا ومساعدًا﴾ يُصِدِّقُنِي ﴿فإنه مع تضايف الأخبار يقوى الحق، فأجابه الله إلى سؤاله، فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نعاونك به وتقويك.
 ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَنًا﴾ أي: تسلطًا وتمكنًا من الدعوة بالحجة والهيبة الإلهية من عدوهما لهما ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ وذلك بسبب آياتنا، وما دلت عليه من الحق، وما أزججت به من باشرها ونظر إليها، فهي التي بها حصل لكما السلطان، واندفع بها عنكم كيد عدوكم^(١)، وصارت لكم أبلغ من الجنود، أولي العدو والعدو.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾ أَنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ كَذُوبَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢١﴾

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْسُكْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رآَهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمْسُكُ أَقْبَلَ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ ﴿٢٣﴾ أَسَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بِيضًا مِنْ غَيْرِ سَوْءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَكَرَكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٢٥﴾ وَأَخِي هُروثُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصِدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِإِذْنِنَا إِنَّمَا مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْعَابِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿رَبِّ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَهُ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ، وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي: إذا لم تقد المقابلة معكم، وتبين الآيات البينات، وأبيتم إلا التماذي في غيكم واللجاج على كفركم، فإله تعالى العالم بالمهتدي وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار، نحن أم أنتم ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه، والفلاح والغور، وصار لأولئك الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متعجّرًا على ربه، ومموهاً على قومه السفهاء، أخفاء العقول: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّمْلُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أي: أنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثم إله غيري لعلمته، فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون، حيث لم يقل: «ما لكم من إله غيري» بل تورع وقال: «ما علمت لكم من إله غيري». وهذا، لأنه عندهم العالم الفاضل الذي مهما قال فهو الحق، ومهما أمر أطاعوه.

﴿أَتَمْنَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْفَالِقُونَ﴾ وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت، وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده بعدما كان شريداً، فلم تزل الأحوال تتطور، والأمور تنتقل، حتى أنجز الله له موعوده، ومكنه من العباد والبلاد، وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

فذهب موسى برسالة ربه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على ما قاله لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء ﴿قَالُوا﴾ على وجه الظلم والعلو والعداوة: ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسِحْرٌ مُّتَمَرِّئٌ﴾ كما قال فرعون في تلك الحالة التي ظهر فيها الحق، واستعلى على الباطل، وضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور ﴿إِنَّهُمْ لَكَايِبُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ هذا، وهو الذكي غير الزكي الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصه الله علينا، وقد علم ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءَ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولكن الشقاء غالب.

﴿وَمَا سِعَعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾ وقد كذبوا في ذلك، فإن الله أرسل يوسف عليه السلام قبل موسى، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي سَكِّ وَمَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

(١) كذا في ب، وفي أ: عنكم كيد عدوهم.

سورة القصص

٣٩٠

سورة القصص

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَبْتَغِي قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا آسِحْرٌ مُّفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَهُ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأْتِيهَا الْمَلَآمَ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمُنُنَّ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَحُجُوذُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا لَآيُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظُنُّوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النُّكْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَآيُصْرُونَ ﴿٤١﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾

أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى ﴿٤٣﴾ الذين كان خاتمتهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده، وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف. ﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: كتاب الله الذي أنزله على موسى، فيه بصائر للناس، أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، فتقوم الحجة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه، وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ولما قص الله على رسوله ما قص من هذه الأخبار الغيبية، نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتُ بِجَانِبِ الْقَرِينِ﴾ أي: بجانب الطور الغربي وقت قضائنا لموسى الأمر ﴿وَمَا كُنْتُ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ على ذلك، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق.

﴿وَلَكِنَّا أَشْنَا فَرُونَا فَطَوَّلَ عَلَيْهِمُ النُّحْرُ﴾ فاندرس العلم

(١) كذلك في ب، وفي أ: كذلك.

فلما قال هذه المقالة التي قد تحتل أن ثمَّ لها غيره، أراد أن يحقق النفي الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لـ«هامان»: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْمُنُنَّ عَلَى الطِّينِ﴾ ليجعل له ليثا من فخار ﴿فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ أي: بناء ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ولكن سنحقق هذا الظن، ونريك كذب موسى، فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله التي ما بلغها آدمي، كذب موسى، وادَّعى أنه إله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل الأسباب ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويح، ولكن العجب من هؤلاء الملأ الذين يزعمون أنهم كبار المملكة، المدبرون لشؤونها، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم.

فسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم، فنسألك اللهم الثبات على الإيمان، وأن لا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وتهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَحُجُوذُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ استكبروا على عباد الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله، وما جاؤوهم به من الآيات فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل.

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا لَآيُرْجَعُونَ﴾ فلذلك تجرؤوا، وإلا فلو علموا، أو ظنوا أنهم يرجعون إلى الله، لما كان منهم ما كان.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظُنُّوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ كانت أشر العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النُّكْرِ﴾ أي: جعلنا فرعون وملأه من الأئمة الذين يقتلوا بهم، ويمشوا خلفهم إلى دار الخزي والشقاء ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَآيُصْرُونَ﴾ من عذاب الله، فهم أضعف شيء، عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

[﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي:] وأتبعناهم زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة يلعون، ولهم عند الخلق الشئ القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ المبعدين، المستقدرة أفعالهم، الذين اجتمع عليهم مقت الله ومقت خلقه ومقت أنفسهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِ إِذْ قَضَيْتَ إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَنشَأْنَا فِرْعَوْنَ وَفَأَفْطَاوَلْ عَلَيْهِمْ أَلْعُرُومَ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءآيَاتِنَا وَلَكِنَّا وَكُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَا أَن نُّصِيبَهُمْ مُّصِيبَةً يُمِيطُ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ ءآيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفِي مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ مِّن قَبْلُ فَآتُوا بِكِتَابٍ مِّن عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ فَإِن لَّمْ يَرْتُدَّوْا فَسُجِّدُوا لَكَ فَاعْلَم أَنَّمَا يُتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾

عليه كتاب من السماء جملة واحدة، أي: فأما ما دام ينزل متفرقا، فإنه ليس من عند الله، وأي دليل في هذا؟ وأي شبهة أنه ليس من عند الله حين نزل مفرقا؟.

بل من كمال هذا القرآن، واعتناء الله بمن أنزل عليه، أن نزل متفرقا، ليثبت الله به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَقْوِيمًا﴾.

وأيضا، فإن قياسهم على كتاب موسى قياس قد نقضوه، فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ولم يؤمنوا؟ ولهذا قال: ﴿أَوْلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: القرآن والتوراة، تعاونا في سحرهما وإضلال الناس ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَفْرٍ﴾.

فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافر، ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين، ولكن هل كفرهم بهما طلبا للحق واتباعا لأمر عندهم خير منهما، أم مجرد هوى؟.

قال تعالى ملزما لهم بذلك: ﴿فَاتَّوَا بِكِتَابٍ مِّن عِنْدِ اللَّهِ هُوَ

ونسبت آياته، فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك وإلى ما علمناك وأوحينا إليك ﴿وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا﴾ أي: مقيما ﴿فَت أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءآيَاتِنَا﴾ أي: تعلمهم وتتعلم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين.

﴿وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ أي: ولكن ذلك الخبر الذي جئت به عن موسى، أثر من آثار إرسالنا إياك، ووحي لا سبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا.

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ موسى، وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين، ويلغهم رسالتنا، ويريهم من آياتنا وعجايبنا ما قصصنا عليك، والمقصود أن الماجرديات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصناها كما هي، من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن تكون حضرتها وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها، فحينئذ قد لا يدل ذلك على أنك رسول الله، إذ الأمور التي يخبر بها عن شهادة ودراسة، من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد علم وثيقن أنه ما كان وما صار، فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك.

فتعين الأمر الثاني، وهو أن هذا جاءك من قبل الله ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك، ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قال: ﴿وَلَكِن رَّحِمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: العرب وقريش، فإن الرسالة [عندهم]، لا تعرف وقت إرسال الرسول وقبلة بأزمان متطاولة، ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه، فإذا كنت بهذه المتزلة، كان الواجب عليهم المبادرة إلى الإيمان بك، وشكر هذه النعمة التي لا يقادر قدرها، ولا يدرك شكرها.

وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلًا لغيرهم، فإنه عربي، والقرآن الذي أنزل عليه عربي، وأول من باشر بدعوته العرب، فكانت رسالته إليهم أصلا، ولغيرهم تبعا، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَن أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَن أَنذِرِ النَّاسَ﴾، ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾.

﴿وَلَوْلَا أَن نُّصِيبَهُمْ مُّصِيبَةً يُمِيطُ أَيْدِيَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتَّبِعَ ءآيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: فأرسلناك يا محمد، لدفع حاجتهم، وقطع مقالتهم.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه ﴿مِّن عِنْدِنَا﴾ وهو القرآن الذي أوحيناه إليك ﴿قَالُوا﴾ مكذبين له ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾ أي: أنزل

إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم فلا يعبا الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمراً هياً أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدرج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإيأس من ارتقاها إلى أعلى الأمور، خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم ببلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها [ولا دنياها]^(١)، ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأمر موسى، وتهوينه عليها المصيبة بالبشارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يقدّر على عبده بعض المشاق، لينيله سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه، كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والههم البليغ الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها، على وجه تظمن به نفسها، وتقر به عينها وترداد به غبطة وسروراً.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق، لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأمر موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات، والثبوت من الله عند المقلقات، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليزداد إيمانها بذلك ويطمئن قلبها.

ومنها أن من أعظم نعم الله على عبده [وأعظم] معونة للعبد على أموره، تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه، فإنه يضيع فكره، ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد - ولو عرف أن القضاء والقدر ووعده الله نافذ لا بد منه - فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي أمر بها، ولا يكون ذلك منافياً لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أم موسى

(١) كذا في ب، وفي أ: لغيره حق. (٢) كذا في ب، وفي أ: الشقاق.

(٣) زيادة من هامش ب.

أَهْدَىٰ مِنْهُمَا﴾ أي: من التوراة والقرآن ﴿اتَّبَعَهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولا سبيل لهم، ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلهما، فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله، مثل هذين الكتابين، علماً، وهدى، وبيانا، ورحمة للخلق.

وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك، الموافق لكتاب موسى، فيجب علينا جميعاً الإذعان لهما واتباعهما، من حيث كونهما هدى وحقاً، فإن جتتموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعته، وإلا فلا أترك هدى وحقاً قد علمته لغير هدى وحق^(١).

﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُبْعِثُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ يَتَّبِعِ هُدَىٰ مَرَكِ اللَّهِ﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراف المستقيم، الموصول إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء^(٢)، فاتبعه، وترك الهدى.

فهل أحد أضل ممن هذا وصفه؟! ولكن ظلمه وعدوانه وعدم محبته للحق، هو الذي أوجب له أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله، فلهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذي صار الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقائهم وهلاكهم يترددون.

وفي قوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُبْعِثُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا هُمُ الْقَوْلَ﴾ أي: تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئاً فشيئاً، رحمة بهم ولطفاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها، فصار نزوله متفرقاً رحمة بهم، فلم اعتراضوا بما هو من مصالحهم؟.

فصل

في ذكر بعض الفوائد والعبر في هذه القصة العجيبة فمنها: أن آيات الله تعالى وعبره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلى حسب

لا يعرف، من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالمًا بها؛ لأنه تعالى يحب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكته، كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾.

ومنها أن الحياء - خصوصًا من الكرام - من الأخلاق الممدوحة.

ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول، أنه لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين، عن معرفه الذي لم يبتغ له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يقدر العمل، وإنما مرده العرف.

ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضاعًا.

ومنها: أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخيرها، لا يلام عليه.

ومنها: أن خير أجير وعامل [يعمل] للإنسان، أن يكون قويًا أمينًا.

ومنها: أن من مكارم الأخلاق أن يُحَسِّن خلقه لأجيريه وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل لقلوه: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُثَقِّ عَلَيْكَ سَتِيرَاتٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّلَاتِ﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود، من دون إشهاد لقلوه: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا نَقُولُ وَكَفِيلٌ﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون، من فرعون، ومن الغرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إمامًا في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبيناته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إمامًا في الخير هاديًا مهديًا.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ، حيث

أن يرده عليها، ومع ذلك اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرجال من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على مَنْ يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يريه من آياته، ويشهده من بيناته، ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى على أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عُرف لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عدَّ قتله القبطي الكافر ذنبًا، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق، يُعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن مَنْ قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتهيب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي: ﴿إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ على وجه التقرير له، لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شريع فيه، لا يكون ذلك نسيمة - بل قد يكون واجبًا - كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحًا له ومحذرًا.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، لا يلتقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تزاحم المفسدتين، إذا كان لا بد من ارتكاب إحداها ما أنه ترتكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى لما دار الأمر بين بقاءه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب^(١) إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل [يد] له غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، فتبعها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب مَنْ هذه حاله، كما خرج موسى تلقاء مدين فقال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق، والإحسان على مَنْ يعرف وَمَنْ

(١) كذا في ب، وفي أ: ويذهب.

سورة القصص

٣٩٢

سورة القصص

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١) الَّذِينَ
 ءَايَنْتَهُمْ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ يُنَادِيهِمْ
 قَالُوا ءَأَمَّا بِنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾
 أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ
 السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ
 أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلُنَا وَعَلَيْكُمْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ
 لَا نَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنْ
 اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الْإِن
 تَبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ تَخَطَّفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ تُمْكِنْ لَهُمْ
 حَرَمًا ءَأَمَّا يُجِيبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رَزَقْنَا مِنْ لَدُنَّا وَلَئِنْ
 أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِكَ
 بَطَرَتْ مَعِيشتَهَا فَنَلِكْ مَسَاكِنَهُمْ لَمْ تَكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ
 إِلَّا قَلِيلًا وَكَانَ غُنَى الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ
 الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَارِئِلسُوا عَلَيْنِهِمْ ءَأَيِّنَّا وَمَا
 كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ ۚ إِلَّا وَأَهْلَاهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

أو متجاهل معاند للحق .

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَمَّا بِنَاكُمْ أَوْ لَا تَقُولُونَ إِنَّ الَّذِينَ آوَأُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذْ يُنَادِي عَلَيْهِمْ يُحْزِنُونَ لَلَّذِينَ سَجَدَا﴾ الآيات .

وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ فلذلك ثبتنا على ما من الله به علينا من الإيمان، فصدقنا بهذا القرآن، آمننا بالكتاب الأول والكتاب الآخر، وغيرنا ينقض تكذيبه بهذا الكتاب، إيمانه بالكتاب الأول .

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين آمنوا بالكتابين ﴿يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ أجرًا على الإيمان الأول، وأجرًا على الإيمان الثاني، ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ على الإيمان، وثبتوا على العمل، فلم ترعزهم^(١) عن ذلك شبهة، ولا ثناهم عن الإيمان رياسة ولا شهوة .

﴿و﴾ من خصلاتهم الفاضلة التي من آثار إيمانهم الصحيح، أنهم ﴿يَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: دأبهم وطريقتهم الإحسان لكل أحد، حتى للمسيء إليهم بالقول والفعل، يقابلونه بالقول الحميد والفعل الجميل، لعلمهم بفضيلة هذا

(١) في ب: الخبرة . (٢) كذا في ب، وفي أ: يزعزعهم من .

آخر بذلك تفصيلًا مطابقًا، وتأصيلًا موافقًا، قصة قصًا، صدق به المرسلين؛ وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع؛ ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضيع؛ ولا تلاوة درس فيها شيئًا من هذه الأمور؛ ولا مجالسة أحد من أهل العلم؛ إن هو إلا رسالة الرحيم الرحمن؛ ووحى أنزله عليه الكريم المنان؛ لينذر به قومًا جاهلين؛ وعن النذر والرسول غافلين .

فصلوات الله وسلامه؛ على من مجرد خبره ينبيء أنه رسول الله؛ ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة؛ أنه من عند الله، كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدقته خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جيل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة؛ والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ الليل والنهار؛ وفتحت أمته معظم بلدان الأمصار؛ بالسيف واللسان، وقلوبهم بالعلم والإيمان .

ولم تزل الأمم المعاندة؛ والملوك الكفرة المتعاضدة ترميه بقوس واحدة؛ وتكيد له المكاييد؛ وتمكر لإفطائه وإخفائه وإخماده من الأرض، وهو قد بهرها وعلاها، لا يزداد إلا نموًا، ولا آياته وبراهينه إلا ظهورًا، وكل وقت من الأوقات يظهر من آياته ما هو عبرة للعالَمين، وهداية للعالَمين، ونور وبصيرة للمتوسمين، والحمد لله وحده .

(٥٥-٥٢) ﴿الَّذِينَ ءَايَنْتَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ وَإِذْ يُنَادِي عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَّا بِنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ○ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ○ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَّا أَعْمَلُنَا وَعَلَيْكُمْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَا نَبْغِي الْجَاهِلِينَ﴾ يذكر تعالى عظمة القرآن وصدقته وحقه، وأن أهل العلم بالحقيقة يعرفونه، ويؤمنون به، ويقرون بأنه الحق، فقال: ﴿الَّذِينَ ءَايَنْتَهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ وهم أهل التوراة والإنجيل، الذين لم يغيروا ولم يبدلوا ﴿هُم بِهِ﴾ أي: بهذا القرآن ومن جاء به ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ .

﴿وَإِذْ يُنَادِي عَلَيْهِمْ﴾ استمعوا له وأذعنوا و﴿قَالُوا ءَأَمَّا بِنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ لموافقته ما جاءت به الرسل، ومطابقته لما ذكر في الكتب، واشتماله على الأخبار الصادقة، والأوامر والنواهي الموافقة لغاية الحكمة .

وهؤلاء الذين تفيد شهادتهم، وينفع قولهم، لأنهم لا يقولون ما يقولون إلا عن علم وبصيرة، لأنهم أهل الصنف^(١)، وأهل الكتب، وغيرهم لا يدل ردهم ومعارضتهم للحق على شبهة، فضلًا عن الحججة، لأنهم ما بين جاهل فيه

ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق.

قال الله مبيّناً لهم حالة هم بها دون الناس وأن الله اختصهم بها، فقال: ﴿أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ أي: أو لم نجعلهم متمكنين، [ممكنين] في حرم، يكثره المتأبون، ويقصده الزائر، قد احترمه البعيد والقريب، فلا يهاج أهله، ولا ينتقصونه بقليل [ولا كثير].

والحال أن كل ما حولهم من الأماكن، قد حف بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين، فليحمدوا ربهم على هذا الأمن التام، الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير الذي يجيء إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما به يرتزقون ويتوسعون.

وليتبعوا هذا الرسول الكريم، ليلم لهم الأمن والرجد، وإبائهم وتكذيبه، والبطر بنعمة الله، فيبدلوا من بعد أمنهم خوفاً، وبعد عزهم ذلاً، وبعد غناهم فقراً، ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبلمهم، فقال:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْبِكَمِ بَطَرْتِمْ مَيْسَتَهُمْ﴾ أي: فخرت بها وألقتها، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحل بهم النعمة ﴿فَلَيْكَ مَسْكَنُهُمْ لَئِنْ شِئْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَيْلًا﴾ لتوالي الهلاك والتلف عليهم، وإيحاشها من بعدهم.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ للعباد، نُميتهم، ثم يرجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم^(١) إلينا فنجازيهم بأعمالهم.

ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهَيْبًا الْقُرْآنِ﴾ أي: بكفرهم وظلمهم ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمَةٍ﴾ أي: في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها يتجمعها، ولا تخفى عليه أخبارها. ﴿رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم، بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة، والأطراف النائية، فإن ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرْآنِ إِلَّا وَأَهْلَاهَا ظَلِمُوتٌ﴾ بالكفر

(١) كذا في ب، وفي أ: ثم نعيدهم إلينا فنجازيهم، وهو خطأ ظاهر من الناسخ.

الخلق العظيم، وأنه لا يوفق له إلا ذو حظ عظيم. ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ﴾ من جاهل خاطبهم به، ﴿قَالُوا﴾ مقالة عباد الرحمن أولي الألباب: ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا﴾ أي: كلٌّ سَيُجَازَىٰ بعمله الذي عمله وحده، ليس عليه من وزر غيره شيء، ولزم من ذلك أنهم يتبرءون مما عليه الجاهلون من اللغو والباطل، والكلام الذي لا فائدة فيه.

﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا تسمعون منا إلا الخير، ولا نخاطبكم بمقتضى جهلكم، فإنكم وإن رضيتم لأنفسكم هذا المرتع اللئيم، فإننا ننزه أنفسنا عنه، ونصونها عن الخوض فيه ﴿لَا يَنْبَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ من كل وجه.

(٥٦) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يخبر تعالى أنك يا محمد - وغيرك من باب أولى - لا تقدر على هداية أحد، ولو كان من أحب الناس إليك، فإن هذا أمر غير مقدور للخلق هداية التوفيق، وخلق الإيمان في القلب، وإنما ذلك بيد الله سبحانه وتعالى، يهدي مَنْ يَشَاءُ، وهو أعلم بمن يصلح للهداية فيهديه، ممن لا يصلح لها فيقيه على ضلاله.

وأما إثبات الهداية للرسول في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ فتلك هداية البيان والإرشاد، فالرسول يبين الصراط المستقيم ويرغب فيه، ويبدل جهده في سلوك الخلق له، وأما كونه يخلق في قلوبهم الإيمان، ويوفقه بالفعل، فحاشا وكلا.

ولهذا لو كان قادراً عليها، لهدى مَنْ وصل إليه إحسانه، ونصره ومنعه من قومه، عمه أبا طالب، ولكنه أوصل إليه من الإحسان بالدعوة للدين والنصح التام، ما هو أعظم مما فعله معه عمه، ولكن الهداية بيد الله تعالى.

(٥٧-٥٩) ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ○ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْبِكَمِ بَطَرْتِمْ مَيْسَتَهُمْ فَلَيْكَ مَسْكَنُهُمْ لَئِنْ شِئْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَيْلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ ○ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهَيْبًا الْقُرْآنِ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمَةٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرْآنِ إِلَّا وَأَهْلَاهَا ظَلِمُوتٌ﴾ يخبر تعالى أن المكذبين من قريش وأهل مكة، يقولون للرسول ﷺ: ﴿إِن نَّبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نَخْطَفُ مِنْ أَرْضِنَا﴾ بالقتل والأسر ونهب الأموال، فإن الناس قد عادوك وخالفوك، فلو تابعتك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة.

وهذا الكلام منهم يدل على سوء الظن بالله تعالى، وأنه لا

والمعاصي، مستحقون للعقوبة، والحاصل أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه، وإقامة الحجة عليه.

(٦٠، ٦١) ﴿وَمَا أُرِيدُ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَئِقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾
هذا حض من الله لعباده على الزهد في الدنيا، وعدم الاعتزاز بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيه الخلق، من الذهب، والفضة، والحيوانات، والأمتعة، والنساء، والبنين، والمآكل، والمشارب، واللذات، كلها متاع الحياة [الدنيا] وزينتها، أي: يتمتع به وقتاً قصيراً، متاعاً قاصراً، محشوراً بالمنغصات، ممزوجاً بالغصص.

ويزين به زماناً يسيراً، للفخر والرياء، ثم يزول ذلك سريعاً، وينقضي جميعاً، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم، والخيبة والحرمان.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من النعيم المقيم، والعيش السليم ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي: أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبداً، مستمر سرمداً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تزنون أي الأمور^(١) أولى بالإتيار، وأي الدارين أحق للعمل لها، فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما آثر أحد الدنيا إلا لتقص في عقله، ولهذا نبه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة، فقال: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَئِقِيهِ﴾ أي: هل يستوي مؤمن ساع للآخرة سعيها قد عمل على وعد ربه له بالثواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من النعيم العظيم، فهو لائقه من غير شك ولا ارتياب، لأنه وعد من كريم صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، ليعد قام بمرضاته، وجانب سخطه.

﴿كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بديناه عن آخرته، ولم يرفع بهدى الله رأساً، ولم ينقد للمرسلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيراً لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال، فما ظنكم إلى ما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه، ما هو أولى بالاختيار، وأحق الأمرين بالإتيار.

(٦٦-٦٧) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ

سورة القصص

٣٩٣

المرسلين

وَمَا أُرِيدُ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّا لَهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعَدَا حَسَنًا فَهُوَ لَئِقِيهِ كَمَنْ مَنَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَحَاسِبُنَا أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخُصْمُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

تَزْعُمُونَ ۝ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ۝ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦٦﴾ هذا إخبار من الله تعالى عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء، وعن عبادة الله وإجابة رسله، فقال: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: ينادي من أشركوا به شركاء يعبدونهم، ويرجون نفعهم، ودفع الضرر عنهم، فيناديهم، ليبين لهم عجزها، وضلالهم. ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ﴾ وليس لله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم وافتراءهم ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ فأين هم، بدواتهم، وأين نفعهم وأين دفعهم؟

ومن المعلوم أنه^(١) يتبين لهم في تلك الحال، أن الذي عبدوه ورجوه باطل، مضمحل في ذاته، وما رجوا منه، فيقرون على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ

(١) في ب: الأمرين. (٢) في ب: أنهم.

وانفراده باختيار مَنْ يختاره ويختصه، من الأشخاص، والأوامر [والأزمان]، والأماكن، وأن أحداً^(١) ليس له من الأمر والاختيار شيء.

وأنة تعالى منزه عن كل ما يشركونه به، من الشريك، والظهير والوعين، والولد، والصاحبة، ونحو ذلك، مما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتته الصدور وما أعلنوه.

وأنة وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة، على ما له من صفات الجلال والإفضال، وأنه هو الحاكم في الدارين، في الدنيا بالحكم القدري، الذي أثره جميع ما خلق وذراً، والحكم الديني الذي أثره جميع الشرائع، والأوامر والنواهي.

وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال:

﴿وَاللَّهِ تُرْجِمُونَ﴾ فيجازي كلًّا منكم بعمله، من خير وشر.

(٧١-٧٣) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى

يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِآيَاتِكُمْ بِضْيَاكُمْ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ

إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِآيَاتِكُمْ لَيْلٍ تَسْكُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

﴿وَمَنْ رَحِمَهُ جَعَلَ لَكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذا امتنان من الله على عباده، يدعوهم به إلى

شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أنه جعل لهم من رحمته النهار

ليبتغوا من فضل الله، ويتشروا لطلب أرزاقهم ومعاشهم في

ضياته، والليل ليهدأوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم

وأنفسهم من تعب التصرف في النهار، فهذا من فضله ورحمته

بعباده، فهل أحد يقدر على شيء من ذلك؟ فلو جعل

﴿عَلَيْكُمْ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِآيَاتِكُمْ

بِضْيَاكُمْ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ مواعظ الله وآياته سماع فهم وقبول

وانقياد، ولو جعل ﴿عَلَيْكُمْ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ

إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِآيَاتِكُمْ لَيْلٍ تَسْكُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ مواقع

العبر، ومواضع الآيات فتستنير بصائرهم، وتسلكون الطريق

المستقيم.

وقال في الليل: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ وفي النهار: ﴿أَفَلَا

تُبْصِرُونَ﴾ لأن سلطان السمع أبلغ في الليل من سلطان

البصر، وعكسه النهار.

وفي هذه الآيات تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله

عليه، ويتبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وزن بين

عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ الرؤساء والقادة في الكفر والشر، مقرين بغوايتهم وإخوانهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ﴾ التابعون ﴿الَّذِينَ آغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا

آغَوَيْنَا﴾ أي: كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة

العذاب.

﴿فَبَرَأْنَا إِلَيْكَ﴾ من عبادتهم، أي نحن برآء منهم ومن

عملهم ﴿مَا كَانُوا بِإِيْنَاكَ بِعَدُونَ﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿وَقِيلَ﴾ لهم: ﴿ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ على ما أملت فيهم من

النفع، فأمرُوا بدعائهم في ذلك الوقت الحرج، الذي يضطر

فيه العابد إلى مَنْ عبده.

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ لينفعوهم، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من

شيء ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين

مستحقين للعقوبة ﴿وَرَأَوْا الْمَكَّابَ﴾ الذي سيحل بهم عياناً،

بأبصارهم بعدما كانوا مكذبين به، منكرين له.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ أي: لما حصل عليهم ما حصل،

ولهتوا إلى صراط الجنة، كما اهتدوا في الدنيا، ولكن لم

يهتدوا، فلم يهتدوا.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ هل صدقتموهم

[واتبعتموهم] أم كذبتموهم وخالفتموهم؟.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ أي: لم

يحيروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب.

ومن المعلوم أنه لا ينبغي في هذا الموضع إلا التصريح

بالجواب الصحيح، المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم

بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم

لأمرهم، لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا

بينهم، في ماذا يجيبون به، ولو كان كذباً.

(٦٧) ﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَسَمِعَ أَنَّ يَكُونُ مِنْ

الْمُفْلِحِينَ﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن

رسلهم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى،

وأنة لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي،

وآمن بالله فعبده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحاً متبعاً

فيه للرسول ﴿فَسَمِعَ أَنَّ يَكُونُ﴾ مَنْ جمع هذه الخصال ﴿وَمِنْ

الْمُفْلِحِينَ﴾ الناجحين بالمطلوب، الناجين من المرهوب، فلا

سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

(٦٨-٧٠) ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمْ

الْغَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَكْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في

الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾ هذه الآيات، فيها

عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات،

(١) في هامش أ: كل.

حالة وجودها وبين حالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنة، بخلاف مَنْ جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمراً، ولا يزال، وعمي قلبه عن الثناء على الله، بنعمه، ورؤية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكراً، ولا ذكراً.

(٧٥، ٧٤) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۚ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: ويوم ينادي الله المشركين به، والعادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء يستحقون أن يعبدوا، وينفعون ويضرون، فإذا كان يوم القيامة أراد الله أن يظهر جراتهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم^(١) لأنفسهم ف﴿يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي: بزعمهم، لا بنفس الأمر، كما قال: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَدْعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا بِخُصُوفٍ﴾.

إذا حضروا وإياهم^(٢)، نزع ﴿وَمِن كُلِّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم المكذبة ﴿شَهِيدًا﴾ يشهد على ما جرى في الدنيا، من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المتخيين.

أي: انتخبنا من رؤساء المكذبين مَنْ يتصدى للخصومة عنهم، والمجادلة عن إخوانهم، ومن هم وإياهم^(٣) على طريق واحد، فإذا برزوا للمحاكمة ﴿فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ حججتكم ودليلكم على صحة شرككم، هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتيبي؟ هل فيهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم، أو يدفعون عنكم من عذاب الله، أو يغنون عنكم؟ فليفعلوا إذا [إن] كان فيهم أهلية^(٤)، وليروكم، إن كان لهم قدرة. ﴿فَعَلِمُوا﴾ حينئذ بطلان قولهم وفساده، و﴿أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾ تعالى، قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حجبتهم، وأفلجت حجة الله، ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب والإفك، اضمحل وتلاشى وعدم، وعلّموا أن الله قد عدل فيهم، حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها.

(٧٦-٨٢) ﴿إِنَّ قَدْرُونَ كَانَتْ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۗ إِلَىٰ آخِرِ الْقِصَّةِ. يخبر تعالى عن حالة قارون وما [فعل]، وفعل به ونُصِحَ ووُعِظَ، فقال: ﴿إِنَّ قَدْرُونَ كَانَتْ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ أي: من بني إسرائيل، الذين فُضِّلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتَنَّ الله عليهم بما امتَنَّ به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا، بغى على قومه وطغى، بما أوتيته من الأموال العظيمة المطغية، ﴿وَعَائِنَتُهُ مِنَ الْكُؤُورِ﴾ أي:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِن لَّدُنَّ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَضِيئًا أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ (٧٤)
﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِن لَّدُنَّ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيكُم بَلِيْلًا تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٥) ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٧٦) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ (٧٧) ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٧٨) ﴿إِن قَدْرُونَ كَانَتْ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَعَائِنَتُهُ مِنَ الْكُؤُورِ مَا إِنَّا مَفَاتِحُهَا لَنَسُوءُ بِالْعِصْبَةِ أَوْلَىٰ الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ (٧٩) ﴿وَاتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨٠)

كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿مَا إِنَّا مَفَاتِحُهَا لَنَسُوءُ بِالْعِصْبَةِ﴾ [أولى القوة] والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك. أي: حتى إن مفاتيح خزائن أمواله لتشكل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المكبين على محبتها.

﴿وَاتَّبَعَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: لا تأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لأخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر

(١) كذا في ب، وفي أ: وتكذيب. (٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب (فإذا حضروا هم وأولئك). (٣) كذا في الأصل، ولعل الصواب (وهم) على طريق واحد. (٤) كذا في ب، وفي أ: فيهم إلهية.

الزينة

٣٩٥

سورة القصص

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن قَبْلِهِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لِيَلْبِثُنَا بِمِثْلِ مَا أَوْفَ قَدْرُونَ إِنَّمَا لَدُوْحُ حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِن عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَافُهُ لَا يَفْلِحُ الْكٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الْأَدْرَارُ الْآخِرَةُ يَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾

ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر^(١) أولئك إلى ظاهرها: ﴿وَيَلِكُمْ﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثنين لحالهم، منكبين لمقالمهم ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ العاجل من لذة العبادة ومحبه، والإنبابة إليه، والإقبال عليه، والآجل من الجنة وما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ﴿خَيْرٌ﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه، فهذا حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يلقى ذلك ويوفق له ﴿إِلَّا الصَّادِقُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية. فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وأزيت الدنيا عنده، وكثر بها إعجاب، بغته العذاب ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ جزء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عبادة الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثائه، ومتاعه.

بآخرتك ﴿وَأَحْسِنَ﴾ إلى عبادة الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ﴾ عليك بهذه الأموال ﴿وَلَا تَبِغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

ف ﴿قَالَ﴾ قارون - راداً لنصيحتهم، كافراً لنعمة ربه - : ﴿إِنَّمَا أُوتِيَتْهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ أي: إنما أدرت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي، أو على علم من الله بحالي، يعلم أني أهل لذلك، فلم تصحوني على ما أعطاني الله تعالى؟. قال تعالى مبيهاً أن عطائه ليس دليلاً على حسن حالة المعطي: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ فما المانع من إهلاك قارون، مع مُضِيِّ عادتنا وسنتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم، إذ فعل ما يوجب الهلاك؟.

﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بل يعاقبهم الله، ويعذبهم على ما يعلمه منهم، فهم، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة، وشهدوا لها بالنجاة، فليس قولهم مقبولاً، وليس ذلك دافعاً عنهم من العذاب شيئاً، لأن ذنوبهم غير خفية، فإنكارهم لا محل له، فلم يزل قارون مستمراً على عناده وبغيه، وعدم قبول نصيحة قومه، فرحاً بطراً قد أعجبت نفسه، وغره ما أُوتيه من الأموال ﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿فِي زِينَتِهِ﴾ أي: بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه، قد كان له من الأموال ما كان، وقد استعد وتجهل بأعظم ما يمكنه، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها، فرمقتها في تلك الحالة العيون، وملأت بيزته القلوب، واختلبت زينته النفوس، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة.

ف ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: الذين تعلقت إرادتهم فيها، وصارت منتهى رغبتهم، ليس لهم إرادة في سواها: ﴿يَلْبِثُ لَنَا بِمِثْلِ مَا أَوْفَ قَدْرُونَ﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها ﴿إِنَّهُ لَدُوْحُ حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وصدقوا إنه لذو حظ عظيم، لو كان الأمر منتهياً إلى رغباتهم، وأنه ليس وراء الدنيا دار أخرى، فإنه قد أعطي منها ما به غاية التنعم^(١) بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك على جميع مطالبه، فصار هذا الحظ العظيم بحسب همتهم، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها، ومنتهى مطلبها، لمن أدنى الهمم وأسفلها وأدناها، وليس لها أدنى صعود إلى المراتب العالية، والمطالب الغالية.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء،

(١) كذا في ب، وفي أ: التنعيم. (٢) كذا في ب، وفي أ: نظروا.

فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها، ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه، أو يطلها، فهذا لم يجيء بالحسنة.

والحسنة، اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى، وحق (٢) عباده ﴿فَلَمْ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ [أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى ﴿فَلَمْ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا﴾] (٣).

هذا التضعيف للحسنة لا بد منه، وقد يقترن بذلك من الأسباب ما يزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ بحسب حال العامل وعمله، ونفعه، ومحلّه، ومكانه، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبِيحَةِ﴾ وهي كل ما نهى الشارع عنه، نَهَى تحريم، ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّبِيحَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبِيحَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا بِمِثْلِهَا وَمَنْ لَا يظلمون﴾.

(٨٥-٨٨) ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدَكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيرًا لِّلْكَافِرِينَ ۝ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الشُّرَكِيِّينَ ۝ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا مَّآخَرًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبيّن فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لأحكام جميع المكلفين، لا يليق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد، يجازى فيه المحسنون بإحسانهم، والمسئون بمعصيتهم.

وقد بيّنت لهم الهدى، وأوضحت لهم المنهج، فإن تبعوك، فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أبوا إلا عصيانك، والقدر بما جئت به من الهدى، وتفصيل ما معهم من الباطل على الحق، فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة، والمحق والمبطل، ولهذا قال: ﴿قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المضلون.

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ أي: لم تكن متحرراً لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصدياً، ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ بك وبالعباد، فأرسلك بهذا (١) في ب: حظ. (٢) في ب: بحقوق العباد. (٣) زيادة من هامش ب.

﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ أي: جماعة، وعصبة، وخدم، وجنود ﴿يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُتَصَرِّينَ﴾ أي: جاءه العذاب، فما نصر ولا انتصر.

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿بَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجعين ومعتبرين، وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيَكَاكَ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيّق الرزق على مَنْ يشاء، فعلمنا حينئذ أن بسطه لقارون، ليس دليلاً على خير فيه، وأنا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُ لَدُوٌّ حَظٌّ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول. ﴿وَيَكَاكَ لَا يَفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(٨٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا زِينَتَكُمْ لِيُذَكَّرَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ لما ذكر تعالى قارون وما أوتيه من الدنيا، وما صارت إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ﴿تَوَابٌ اللَّهُ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا رَغِبَ تَعَالَى فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، وأخبر بالسبب الموصل إليها فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت [بها] رسله، التي [قد] جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، ﴿تَجَمَّعَهَا﴾ داراً وقراراً ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فُسَادًا﴾ أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق ﴿وَلَا فُسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي.

فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض، والإفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانتقياد للحق والعمل الصالح.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ أي: حالة الفلاح والنجاح التي تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم - وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب، وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها نصيب (١).

(٨٤) ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبِيحَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّبِيحَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يخبر تعالى عن مضاعفة فضله، وتمام عدله، فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ شرط

الكتاب الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

فإذا علمت أنه أنزله إليك رحمة منه، [علمت] أن جميع ما أمر به ونهى عنه فإنه رحمة وفضل من الله، فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ﴾ أي: معيّنًا لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرتهم، أن يقال في شيء منه، إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة.

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُزِّلْتَ إِلَيْكَ﴾ بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم ولا يخدعك عنها، ولا تتبع أهواءهم.

﴿وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: اجعل الدعوة إلى ربك تنتهي قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك فافرضه، من رياء، أو سمعة، أو موافقة أغراض أهل الباطل، فإن ذلك داع إلى الكون معهم، ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه التي هي جميع المعاصي.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ بل أخلص لله عبادتك، فإنه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا أحد يستحق أن يؤله ويحب ويعبد، إلا الله الكامل الباقي الذي ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وإذا كان كل شيء هالكًا مضمحلًا سواه، فعبادة الهالك الباطل باطلة، يبطلان غايتها، وفساد نهايتها ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿وَالْيَوْمِ﴾ لا إلى غيره ﴿تَرْجِعُونَ﴾ فإذا كان ما سوى الله باطلًا هالكًا، والله هو الباقي، الذي لا إله إلا هو، وله الحكم في الدنيا والآخرة، وإليه مرجع الخلائق كلهم، يجازيهم بأعمالهم، تعيّن على من له عقل أن يعبد الله وحده لا شريك له، ويعمل لما يقربه ويدينه، ويحذر من سخطه وعقابه، وأن يقدم على ربه غير تائب، ولا مقلع عن خطئه وذنوبه.

تم تفسير سورة القصص - والله الحمد والثناء والمجد دائماً أبداً - .

تفسير سورة العنكبوت

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ ٣٩٦

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُزِّلْتَ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَعَادِ ﴿١﴾ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

يُفْتَنُونَ ○ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢﴾ يخبر تعالى عن تمام [حكيمته] وأن حكمته لا تقتضي أن كل من قال: «إنه مؤمن» وادعى لنفسه الإيمان، أن يقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، والمنشط والمكره، والغنى والفقر، وإدالة الأعداء عليهم في بعض الأحيان، ومجاهدة الأعداء بالقول والعمل، ونحو ذلك من الفتن التي ترجع كلها إلى فتنة الشبهات المعارضة للعقيدة، والشهوات المعارضة للإرادة.

فَمَنْ كَانَ عِنْدَ رُؤُودِ الشَّهَاتِ ثَبَتَ إِيمَانَهُ وَلَا يَتَزَلُّزَلْ، ويدفعها^(١) بما معه من الحق، وعند ورود الشهوات الموجبة والداعية إلى المعاصي والذنوب، أو الصارفة عن ما أمر الله به

(١) كذا في ب، وفي أ: ويدفعه.

(٣-١) ﴿الْمَعَادِ ○ أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا

ورسوله، يعمل بمقتضى الإيمان، ويجاهد شهوته، دلّ على صدق إيمانه وصحته.

ومَنْ كان عند ورود الشبهات تؤثر في قلبه شكًا وريبًا، وعند اعتراض الشهوات تصرفه إلى المعاصي أو تصدّفه عن الواجبات، دلّ ذلك على عدم صحة إيمانه وصدقه.

والناس في هذا المقام درجات، لا يحصيها إلا الله، فمستقل ومستكثر، فنسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمنزلة الكبر، يخرج خبيثها وطيبها.

(٤) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: أحسب الذين همهم فعل السيئات وارتكاب الجنائيات، أن أعمالهم ستهمل، وأن الله سيغفل عنهم، أو يفوتونه، فلذلك أقدموا عليها، وسهل عليهم عملها؟.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساء حكمهم، فإنه حكم جائر، لتضمنه إنكار قدرة الله وحكمته، وأن لديهم قدرة يمتنعون بها من عقاب الله، وهم أضعف شيء وأعجزه.

(٦، ٥) ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ومن جهده فإنما يجهد لنفسه إن الله لعني عن العليمين يعني: يا أيها المحب لربه المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقائه، وسر نحوه، مستصحبًا الرجاء، مؤملًا الوصول إليه، ولكن ما كل مَنْ يدّعي يُعطى بدعواه، ولا كل مَنْ تمنى يعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقًا في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذبًا لم تتفع دعواه، وهو العليم بمن يصلح لوجهه ومن لا يصلح.

﴿وَمَنْ جَاهَدْ﴾ نفسه وشيطانه، وعدوه الكافر ﴿فَإِنَّمَا يَجْهَدُ لِغَيْبٍ﴾ لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه، والله غني عن العالمين لم يأمرهم بما أمرهم به ليتنفع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلاف عليهم.

وقد علم أن الأوامر والنواهي يحتاج المكلف فيها إلى جهاد، لأن نفسه تتناقل بطبعها عن الخير، وشيطانه ينهأ عنه، وعدوه الكافر يمنعه من إقامة دينه كما ينبغي، وكل هذا معارضات تحتاج إلى مجاهدات وسعي شديد.

(٧) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يعني أن الذين من الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، سيكفر الله عنهم سيئاتهم،

لأن الحسنات يذهبن السيئات ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وهي أعمال الخير، من واجبات ومستحبات، ففي أحسن ما يعمل العبد، لأنه يعمل بالمباحات أيضًا، وغيرها.

(٨) ﴿وَرَوَّيْنَا لِلْإِنْسَانِ بُولَدِهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: وأمرنا الإنسان، ووصيناه بوالديه حسنًا، أي: ببرهما، والإحسان إليهما، بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعلمه.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأجازيكم بأعمالكم، فبروا والديكم وقدموا طاعتهما، إلا على طاعة الله ورسوله، فإنها مقدمة على كل شيء.

(٩) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ أي: من آمن بالله وعمل صالحًا، فإن الله وعده أن يدخله الجنة في جملة عباده الصالحين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه، وأنه من أهل الرحمن، والصالحين من عباد الله تعالى.

(١٠، ١١) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ إِلَهُ وَإِنَّ جَاءَهُ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ ويعلمن الله الذين آمنوا ويعلمن المنفيين ﴿لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادّعى الإيمان، ليظهر الصادق من الكاذب، بين تعالى أن من الناس فريقًا لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ﴾ بضرب، أو أخذ مال، أو تعبير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل ﴿جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَذَّابٌ إِلَهُ﴾ أي: يجعلها صادة له عن الإيمان والثبات عليه، كما أن العذاب صاّد عما هو سببه.

﴿وَإِنَّ جَاءَهُ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ لأنه موافق للهوى، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

﴿أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ حيث خبركم بهذا الفريق الذي حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه

الَّذِينَ

٣٩٧

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ
 وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ
 بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
 فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكَمْ فإِنَّكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ﴿٩﴾
 وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ
 فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ
 إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾
 وَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا
 وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ
 شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا
 مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيْسَتُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعُرُونَ ﴿١٣﴾
 وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ
 إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾

وسعة حكمته ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾
 أي: فلذلك قدرَ مَحَنًا وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم
 بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجردة، لأنهم قد يحتجون على
 الله، أنهم لو ابتلوا لثبوا.

(١٣، ١٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا
 وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ
 لَكَاذِبُونَ﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيْسَتُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
 عَمَّا كَانُوا يَفْعُرُونَ﴾ يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم
 للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك تحذير المؤمنين من
 الاغترار بهم والوقوع في مكرهم، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا﴾ فاتركوا دينكم أو بعضه، واتبعونا
 في ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر ﴿وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ﴾. وهذا
 الأمر ليس بأيديهم، فلهذا قال: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ
 مِنْ شَيْءٍ﴾ لا قليل ولا كثير، فهذا التحمل، ولو رضي به
 صاحبه، فإنه لا يفيد شيئًا، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن
 العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، وحكمه ﴿أَلَّا نُرِّ
 وَرَدًّا وَرَزًّا أُخْرَى﴾.

ولما كان قوله: ﴿وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ قد
 يتوهم منه أيضًا، أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم
 ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبه،
 دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسبين فيه، قال
 [مخبرًا عن هذا الوهم: (١١)] ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أي: أثقال
 ذنوبهم التي عملوها ﴿وَأَنْفَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وهي الذنوب التي
 بسببهم ومن جرائمهم، فالذنب الذي فعله التابع، [لكل من
 التابع] والمتبوع حصته منه، هذا لأنه فعله وباشره، والمتبوع؛
 [لأنه] تسبب في فعله ودعا إليه، كما أن الحسنة إذا فعلها
 التابع له أجرها بالمباشرة، وللداعي أجره بالتسبب،
 ﴿وَلَيْسَتُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعُرُونَ﴾ من الشر وتزيينه،
 [وقولهم: (١٢)] ﴿وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ﴾.

(١٥، ١٤) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ
 إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ فَأَجْبَيْنَهُ
 وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يخبر تعالى عن
 حكمه وحكمته، في عقوبة (١٣) الأمم المكذبة، وأن الله أرسل
 عبده ورسوله نوحًا عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم
 إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والنهي عن الأنداد والأصنام
 ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ﴾ نبيًا داعيًا ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ وهو لا
 يَبْنِي بدعوتهم، ولا يفتر في نصحهم، يدعوهم ليلاً ونهارًا
 وسرًا وجهارًا، فلم يرشدوا، ولم يهتدوا، بل استمروا على

كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيهم نوح عليه الصلاة
 والسلام، مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ
 عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكُفْرِينَ دَيَارًا﴾، ﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ أي: الماء
 الذي نزل من السماء بكثرة، ونبع من الأرض بشدة ﴿وَهُمْ
 ظَالِمُونَ﴾ مستحقون للعذاب.

﴿فَأَجْبَيْنَهُ وَأَصْحَبَ السَّيْفِينَةَ﴾ الذين ركبوا معه، أهله ومن
 آمن به، ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً﴾ أي: السفينة، أو قصة نوح ﴿آيَةً
 لِلْعَالَمِينَ﴾ يعتبرون بها، على أن من كذب الرسل، آخر أمره
 الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجًا، ومن
 كل ضيق مخرجًا.

وجعل الله أيضًا السفينة، أي: جنسها آية للعالمين،
 يعتبرون بها رحمة ربهم، الذي قيض لهم أسبابها، ويسر لهم
 أمرها، وجعلها تحملهم، وتحمل متاعهم، من محل إلى
 محل، ومن قطرٍ إلى قطر.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) كذا في ب، وفي أ: وقوله. (٣) في ب: عقوبات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٣٩٨

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

فَأَجْنَحْنَهُ وَاصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِذْ هَمِمَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَا يَلْمِزُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ وَأَعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكْفُرُونَ وَمَا كَفَرُوا إِلَّا أَنْهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٢٣﴾

ويندفع من النقم عنهم، فهو الدافع لها.

﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يجازيكم على ما عملتم، وينبئكم بما أسررتهم وأعلنتهم، فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم، وارغبوا فيما يقرّبكم إليه، وشيكم - عند القدوم - عليه.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ يوم القيامة ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾. ﴿قُلْ﴾ لهم، إن حصل معهم ريب وشك في الابتداء: ﴿سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بأبدانكم وقلوبكم ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ فإنكم ستجدون أمما من آدميين والحيوانات، لا تزال توجد شيئا فشيئا، وتجدون النبات والأشجار، كيف تحدث وقتا بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها مستمرة في تجدها، بل الخلق دائما في بدء وإعادة.

فانظر إليهم وقت موتهم الصغرى - النوم - وقد هجم

(١٦-٢٢) ﴿وَإِذْ هَمِيَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَا يَلْمِزُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ وَأَعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. ﴿وَإِنْ تَكْذَبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ﴾. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى الله، فقال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي: وحدوه، وأخلصوا له العبادة، وامثلوا ما أمركم به ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ أن يغضب عليكم فيعذبكم، وذلك بترك ما بغضبه من المعاصي ﴿ذَلِكُمْ﴾ أي: عبادة الله وتقواه ﴿خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق «أفعل التفضيل» بما ليس في الطرف الآخر منه شيء.

فإن ترك عبادة الله وترك تقواه، لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيرا للناس، لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكل خير يوجد في الدنيا والآخرة، فإنه من آثار عبادة الله وتقواه، ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فاعلموا الأمور، وانظروا ما هو أولى بالإشارة.

فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه، نهاهم عن عبادة الأصنام، وبين لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية، فقال: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾. تحتونها وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتخلقون الكذب بالأمر بعبادتها والتمسك بذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فِي نَقْصِهِ، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته﴾ ﴿لَا يَلْمِزُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ فكانه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة، لا تملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، وأن من هذا وصفه، لا يستحق أدنى أدنى مثقال مثقال مثقال ذرة من العبادة والتأله، والقلوب لا بد أن تطلب معبودا تألهه وتسأله حوائجها، فقال - حائئا لهم على من يستحق العبادة -: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقَ﴾ فإنه هو الميسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه ودنياه^(١).

﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ وحده لا شريك له، لكونه الكامل النافع الضار، المتفرد بالتدبير ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ وحده، لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم، فمنه. وجميع ما اندفع

عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم ومأواهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم، حتى انفلق الإصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبعثوا من موتهم قائلين: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور» ولهذا قال: ﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾ بعد الإعادة ﴿يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ وهي النشأة التي لا تقبل موتاً ولا نوماً، وإنما هو الخلود والدوام في إحدى الدارين.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته تعالى لا يعجزها شيء، وكما قدر بها على ابتداء الخلق، فقدرته على الإعادة من باب أولى وأحرى.

﴿بِعَذَابٍ مِّنْ يَسَاءٍ وَرِجْمٍ مِّنْ يَسَاءٍ﴾ أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيب العاصين والتنكيل بهم ﴿وَالَّذِينَ تَقُولُونَ﴾ أي: ترجعون إلى الدار التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته، فاكتمسوا في هذه الدار ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابه، وهي المعاصي.

﴿وَمَا أَنشَأَ الْمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: يا هؤلاء المكذوبون، المتجربون على المعاصي، لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض، ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فليست بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وَمَا لَكُمْ مِّنْ ذُرِّيَّةٍ مِّنْ اللَّهِ مِّنْ وَرَثَةٍ﴾ يتولاكم، فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم، ﴿وَلَا تَصِيرُ﴾ ينصركم، فيدفع عنكم المكارة.

(٢٣) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَاسِرُونَ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخير، وحصل لهم الشر، وأنهم الذين كفروا به وبرسله، وبما جاء وهم به، وكذبوا بقاء الله، فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك قدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي، لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يَاسِرُونَ رَحْمَتِي﴾ أي: فلذلك لم يعملوا سبباً واحداً يحصلون به الرحمة، وإلا لو طمعوا في رحمته، لعملوا لذلك أعمالاً، والإيأس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان:

إيأس الكفار منها، وتركهم جميع سبب يقربهم منها.

وإيأس العصاة، بسبب كثرة جنایاتهم وأوحشتهم، فملكت قلوبهم، فأحدث لها الإيأس.

﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم موجه، وكأن هذه

الآيات معترضات بين كلام إبراهيم عليه السلام لقومه، وردد هم عليه، والله أعلم بذلك.

(٢٤، ٢٥) ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ لِّبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ أي: فما كان مجاوبة قوم إبراهيم إبراهيم، حين دعاهم إلى ربه، قبول دعوته، والاهتداء بنصحه، ورؤية نعمة الله عليهم بإرساله إليهم، وإنما كان مجاوبتهم له شر مجاوبة.

﴿قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ أشنع القتلات، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فألقوه في النار ﴿فَأَنجَاهُ اللَّهُ﴾ منها. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل، وبرههم ونصحهم، وبطلان قول من خالفهم وناقضهم، وأن المعارضين للرسل كأنهم تواصلوا وحث بعضهم بعضاً على التكذيب.

﴿وَقَالَ﴾ لهم إبراهيم في جملة ما قاله من نصحه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: غاية ذلك، مودة في الدنيا ستقطع وتضمحل ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي: يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر ﴿وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه يتبرأ من عابديه ويلعنهم؟.

﴿وَأَنْ مَّأْوَىٰ الْجَمِيعِ، الْعَابِدِينَ وَالْمَعْبُودِينَ﴾ النَّارُ﴾

وليس أحد ينصرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم عقابه.

(٢٦، ٢٧) ﴿فَمَنْ لَّهُ لُوطٌ﴾ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ○ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَعَاقِبَتُهُ أَجْرًا فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَكِنُ الْقَائِلِينَ﴾ أي: لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه، وهم مستمرون على عنادهم، إلا أنه آمن له بدعوته لوط الذي نبأه الله، وأرسله إلى قومه كما سيأتي ذكره.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئاً: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ أي: هاجر أرض السوء، ومهاجر إلى الأرض المباركة، وهي الشام.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم، ولكنه حكيم ما اقتضت حكمته ذلك، ولما اعتزلهم وفارقهم، وهم بحالهم، لم يذكر الله عنهم أنه أهلكتهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إليهم، وهجرته من بين أظهرهم.

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ

٣٩٩

الْحَمْدُ لِلَّهِ

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَفَتَلُوهُ أُوحِرَ قُوهُ
فَأَجْنَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ
﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم
بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ
وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَمَا مَن لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ
إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَهَبْنَا
لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
وَأَيَّدْنَاهُ بِآجُرِهِ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ
﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَحِشَةَ
مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾
أَيِّنْكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ
فِي نَكَاحِكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا
أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ
﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرني عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾

بين فعل الفاحشة في الذكور، وتقطع السبيل، وفشو المنكرات في مجالسهم، فصحبهم لوط عن هذه الأمور، وبين لهم قبائحها في نفسها، وما تؤول إليه من العقوبة البليغة، فلم يعرفوا ولم يذكرها ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾.

فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم و﴿قَالَ رَبِّ انصُرني عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل، وبشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب.

ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ فقالوا له: ﴿لَتَنجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا آمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ثم مضوا حتى أتوا لوطًا، فساء معيهم، وضاق بهم ذرعًا، بحيث إنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة أبناء السبيل

(١) في ب: بانه.

فأما ما يذكر في الإسرائيليات، أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم، فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد، فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة.

ولكن لعل من أسرار ذلك أن الخليل عليه السلام، من أرحم الخلق وأفضلهم [وأحلهمهم] وأجلهم، فلم يدع على قومه كما دعا غيره، ولم يكن الله ليجري بسببه عذابًا عامًا. ومما يدل على ذلك، أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه، والله أعلم بالحال.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ أي: بعدما هاجر إلى الشام ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد ﷺ، وعليهم أجمعين.

وهذا [من] أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلاح الصالحون ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِآجُرِهِ فِي الدُّنْيَا﴾ من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد الذين بهم قرت عينه، ومعرفة الله ومحبته، والإجابة إليه.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بل هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم، أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعلاهما منزلة، فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

(٢٨-٣٥) ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ أَيِّنْكُمْ لَأَتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَكَاحِكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ○ قَالَ رَبِّ انصُرني عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ○ إلى آخر القصة. تقدم أن لوطًا عليه السلام آمن لإبراهيم، وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخي إبراهيم.

فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ وإن كان عامًا، فلا يناقض كون لوط نبيًا رسولًا وهو ليس من ذريته، لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أن لوطًا اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادي، والله أعلم.

فأرسل الله لوطًا إلى قومه، وكانوا مع شركهم قد جمعوا

الضيوف، فخاف عليهم من قومه، فقالوا له: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ وأخبروه أنهم رسل الله، ﴿إِنَّا مَنجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ ○ إِنَّمَا مُزَلُّوكَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا أَي: عذابًا ﴿مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فأمروه أن يسري بأهله ليلاً، فلما أصبحوا قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم، فصاروا سَمَرًا من الأسمار، وعبرة من العبر.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أَي: تركنا من ديار قوم لوط آثارًا بينة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم [فيستفهمون بها]. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصِحِّينَ ○ وَإِلَّيْلٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

(٣٦، ٣٧) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُوا اللَّهِ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ○ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ أَي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ القبيلة المعروفة المشهورة ﴿شُعَيْبًا﴾ فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه، والعمل له، ونهاهم عن الإفساد في الأرض، ببخس المكائيل والموازين والسعي بقطع الطرق، فكذبوه فأخذهم عذاب الله ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾.

(٣٨-٤٠) ﴿وَكَادَا وَتَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِنِهِمْ وَرَزَقَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ○ وَقُرُونِ وَفِرْعَوْنَ وَهَمْدَانَ وَقَدْ جَاءَهُمْ مُّوَسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً ○ فَكَلَّمْنَا هَذَانَا يَدْيَيْهِ فَمِنْتُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ أَي: وكذلك ما فعلنا بعباد وتمود، وقد علمتم قصصهم، وتبين لكم بشيء تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم وآثارهم التي بانوا عنها، وقد جاءتهم رسلهم بالآيات البينات، المفيدة للبصيرة فكذبوهم، وجادلوهم.

﴿وَرَزَقَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾ حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به الرسل، وكذلك قارون، وفرعون، وهامان، حين بعث الله إليهم موسى بن عمران بالآيات البينات، والبراهين الساطعات، فلم يتقادوا، واستكبروا في الأرض، [على عباد الله، فأذلوهم، وعلى الحق فردوه، فلم يقدروا على النجاء حين نزلت بهم العقوبة.] ﴿وَمَا كَانُوا سَاقِيَةً﴾ الله، ولا فاتنين، بل سلموا واستسلموا.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا إِنَّمَا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (٣٦) قَالَ إِن فِيهَا لُوطًا قَالُوا لَوْحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا النَّجِيَّةُ وَأَهْلُهُ إِلَّا أُمَّرَأَتُهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٦) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِوَىٰ بِهِمْ وَضَافَ بِهِمْ ذُرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مَنجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أُمَّرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٧) إِنَّمَا مُزَلُّوكَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٦) وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٦) وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوَّمُ عِبَادُوا اللَّهِ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْتَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ (٣٧) وَكَادَا وَتَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْجِنِهِمْ وَرَزَقَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨)

﴿فَكَلَّمَا﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة ﴿أَخَذْنَا يَدْيَيْهِ﴾ على قدره، وبعقوبة مناسبة له ﴿فَمِنْتُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ أَي: عذابًا يحصهم، كقوم عاد، حين أرسل الله عليهم الريح العقيم، و ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَنَعًا لَيَالٍ وَكُنُوزًا آيَاتٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَجْعَالٌ خَلَّيَ حَاوِيَةً﴾. ﴿وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كقوم صالح ﴿وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ كقارون ﴿وَمِنْهُمْ مَن أَعْرَقْنَا﴾ كفرعون وهامان وجنودهما.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ﴾ أَي: ما ينبغي ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال عدله، وغناه التام عن جميع الخلق ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ منعوها حقها، التي هي بصدها، فإنها مخلوقة لعبادة الله وحده، فهؤلاء وضعوها في غير موضعها، وأشغلوها بالشهوات والمعاصي، فضروها غاية الضرر، من حيث ظنوا أنهم يتفنونها.

(٤١-٤٣) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنْ أَوْهَتْ الْبُيُوتُ لَبِثَ الْعَنكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ○ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ

شَيْءٌ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٠﴾ هذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزز والتقوى والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت، اتخذت بيتاً يقيها من الحر والبرد والآفات ﴿وَأَنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ﴾ أضعفها وأوهاها ﴿لَبِثَ الْعَنْكَبُوتُ﴾ فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذها إلا ضعفاً. كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم، ويستصرونهم، ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم، ووهناً إلى وهنهم، فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوا عليهم، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلهم فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل.

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم، حالهم وحال من اتخذوهم، لم يتخذوهم، ولتبرأوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده، وتوكل عليه، كفاه مؤونة دينه وديناه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله.

ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه، وأنها ليست بشيء، بل هي مجرد أسماء سموها، وظنون اعتقدها، وعند التحقيق يتبين للعاقل بطلانها وعدمها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: إنه تعالى يعلم - وهو عالم الغيب والشهادة - أنهم ما يدعون من دون الله شيئاً موجوداً، ولا إلهاً له حقيقة، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَجِيبُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي له القوة جميعاً، التي قهر بها جميع المخلوقات ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، الذي أحسن كل شيء خلقه، وأتقن ما أمره.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس.

﴿وَمَا يَعْقِلُهَا﴾ بفهمها وتدبرها، وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب ﴿إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ أي: أهل

﴿٤٠﴾ ﴿وَقَرُّونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِينَ ﴿٤١﴾ ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴿مِثْلَ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبِثَ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٤﴾ ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٦﴾ أَتُلُّ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْبِرَ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٧﴾

العلم الحقيقي، الذين وصل العلم إلى قلوبهم. وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين. والسبب في ذلك، أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن، إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها، لا اعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبدلون جهدهم في معرفتها.

وأما من لم يعقلها مع أهميتها، فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم، لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة، فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى، ولهذا أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها.

(٤٤) ﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: هو تعالى المنفرد بخلق السماوات، على علوها وارتفاعها وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس والقمر والكواكب والملائكة، والأرض وما فيها من الجبال والبحار

أكمل الجزاء وأوفاه.

(٤٦) ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ينهى تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة من المجادل، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة، وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق، وهداية الخلق.

إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع.

﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ أي: ولتكن مجادلتكم لأهل الكتاب مبنية على الإيمان بما أنزل إليكم وأنزل إليهم، وعلى الإيمان برسولكم ورسولهم، وعلى أن الإله واحد، ولا تكن مناظرتكم إياهم، [على وجه] يحصل به^(٢) القدح في شيء من الكتب الإلهية، أو بأحد من الرسل، كما يفعله الجاهل عند مناظرة الخصوم، يقدح بجميع ما معهم، من حق وباطل، فهذا ظلم وخروج عن الواجب وآداب النظر، فإن الواجب أن يرد ما مع الخصم من الباطل، ويقبل ما معه من الحق، ولا يرد الحق لأجل قوله، ولو كان كافراً.

وأيضاً فإن بناء مناظرة أهل الكتاب على هذا الطريق، فيه إلزام لهم بالإقرار بالقرآن، وبالرسول الذي جاء به، فإنه إذا تكلم في الأصول الدينية، التي اتفقت عليها الأنبياء والكتب وتقررت عند المتناظرين، وثبتت حقائقها عندهما، وكانت الكتب السابقة والمرسلون مع القرآن ومحمد ﷺ، قد بيئتها، ودلت عليها وأخبرت بها، فإنه يلزم التصديق بالكتب كلها، والرسل كلهم، وهذا من خصائص الإسلام.

فأما أن يقال: نؤمن بما دلَّ عليه الكتاب الفلاني دون الكتاب الفلاني، وهو الحق الذي صدق ما قبله، فهذا ظلم وجور، وهو يرجع إلى قوله بالتكذيب؛ لأنه إذا كذب القرآن الدال عليها، المصدق لما بين يديه من التوراة، فإنه مكذب لما زعم أنه به مؤمن.

(١) في ب: العباد. (٢) في أ: بها.

والبراري والفقار، والأشجار ونحوها، وكل ذلك خلقه بالحق، أي لم يخلقها عبثاً، ولا سدى، ولا لغير فائدة، وإنما خلقها ليقوم أمره وشرعه، ولتتم نعمته على عباده، وليروا من حكمته وقهره وتدبيره، ما يدلهم على أنه وحده، محبوبهم ومحبوهم وإلههم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ على كثير من المطالب الإيمانية، إذا تدبرها المؤمن رأى ذلك فيها عياناً.

(٤٥) ﴿أَنْتَ لِمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقْرَبَ الصَّلَاةِ وَأَنْتَ أَلْبَسْتَهُ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ يأمر تعالى بتلاوة وحيه وتنزيله، وهو هذا الكتاب العظيم، ومعنى تلاوته، اتباعه، بامثال ما يأمر به، واجتناب ما ينهى عنه، والاهتداء بهداه، وتصديق أخباره، وتدبر معانيه، وتلاوة ألفاظه، فصار تلاوة لفظه جزء المعنى وبعضه.

وإذا كان هذا معنى تلاوة الكتاب، علم أن إقامة الدين كله، داخلة في تلاوة الكتاب، فيكون قوله: ﴿وَأَقْرَبَ الصَّلَاةِ﴾ من باب عطف الخاص على العام، لفضل الصلاة وشرفها، وآثارها الجميلة، وهي ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

والفحشاء: كل ما استعظم واستفحش من المعاصي التي تشهتها النفوس.

والمنكر: كل معصية تكرها العقول والفطر.

وجوه كون الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، أن العبد المقيم لها، المتمم لأركانها وشروطها وخشوعها، يستتير قلبه، ويتطهر فؤاده، ويزداد إيمانه، وتقوى رغبته في الخير، وتقل أو تعدم رغبته في الشر، فبالضرورة، مداومتها والمحافظة عليها على هذا الوجه، تنهى عن الفحشاء والمنكر، فهذا من أعظم مقاصدها وثمراتها.

وتمَّ في الصلاة مقصود أعظم من هذا وأكبر، وهو ما اشتملت عليه من ذكر الله، بالقلب واللسان والبدن، فإن الله تعالى إنما خلق الخلق^(١) لعبادته، وأفضل عبادة تقع منهم الصلاة، وفيها من عباديات الجوارح كلها، ما ليس في غيرها، ولهذا قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾.

ويحتمل أنه لما أمر بالصلاة ومدحها، أخبر أن ذكره تعالى خارج الصلاة أكبر من الصلاة كما هو قول جمهور المفسرين، لكن الأول أولى، لأن الصلاة أفضل من الذكر خارجها، ولأنها - كما تقدم - بنفسها من أكبر الذكر.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ذلك

وأيضًا فإن كل طريق تثبت به^(١) نبوة أي نبي كان، فإن مثلها وأعظم منها، دالة على نبوة محمد ﷺ، وكل شبهة يقدم بها في نبوة محمد ﷺ، فإن مثلها أو أعظم منها، يمكن توجيهها إلى نبوة غيره، فإذا ثبت بطلانها في غيره فثبوت بطلانها في حقه ﷺ أظهر وأظهر.

وقوله: ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي: متقادون مستسلمون لأمره، ومن آمن به، واتخذها إلهاً، وآمن بجميع كتبه ورسله، وانقاد لله واتبع رسله، فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق، فهو الشقي.

(٤٧، ٤٨) ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانْتَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ۝ وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُرُ بِسَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابُ الْمَطْلُونُ﴾ أي: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمد، هذا ﴿الْكِتَابَ﴾ الكريم، المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل، وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون.

﴿فَالَّذِينَ ءَانْتَهُمُ الْكِتَابَ﴾ فعرفوه حق معرفته، ولم يداخلهم حسد وهوى، ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ لأنهم يتقنوا صدقه، بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقيح، والصدق والكذب.

﴿وَمِنْ هَؤُلَاءِ﴾ الموجودين ﴿مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ إيمانًا على بصيرة، لا عن رغبته ولا رهبته ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ﴾ الذين دأبهم الجحود للحق والعناد له، وهذا حصر لمن كفر به، أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق، وإلا فكل من له قصد صحيح، فإنه لا بد أن يؤمن به، لما اشتمل عليه من البينات، لكل من له عقل، أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومما يدل على صحته، أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه، وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، ولا يقرأ خطأ مكتوبًا، فإتيانه به في هذه الحال من أظهر البينات القاطعة التي لا تقبل الارتياب، أنه من عند الله العزيز الحميد، ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا﴾ أي: تقرأ ﴿مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُرُ بِسَمِينِكَ إِذَا﴾ لو كنت بهذه الحال ﴿لَأَزْتَابُ الْمَطْلُونُ﴾ فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها.

فأما وقد نزل على قلبك كتابًا جليلًا تحديت به الفصحاء والبلغاء، الأعداء الألداء أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثهم أنفسهم بالمعارضة،

﴿وَلَا تَجْحَدُوا بِآيَاتِنَا إِذْ أَنْزَلْنَاهَا عَلَيْكُمْ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَانْتَهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ۝ وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُرُ بِسَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابُ الْمَطْلُونُ﴾ بل هو ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْزِلُ فِي صُورِ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتٌ فِي ذِكْرِهِمْ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأن كلام أحد من البشر لا يبلغ أن يكون مجاريًا له أو على منواله، ولهذا قال:

(٤٩) ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَنْزِلُ فِي صُورِ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾، أي: ﴿بَلْ﴾ هذا القرآن ﴿آيَاتٌ يَنْزِلُ﴾ لا خفيات ﴿فِي صُورِ الَّذِينَ أُوْتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الأبواب منهم، والأكمل منهم.

فإذا كان آيات بينات، في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلمًا، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ لأنه لا يجحدها إلا جاهل تكلم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقته، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

(٥٠-٥٢) ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتٌ فِي ذِكْرِهِمْ لِقَوْمٍ لِّقَوْمٍ﴾

بـحيث لا تصلح الأمور إلّا به^(٤).

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه خير له^(٥)، فلذلك قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرًا لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ فأنا قد استشهدته، فإن كنت كاذبًا أحلّ بي ما به تعتبرون وإن كان إنما يؤيدني وينصرنى ويسر لي الأمور، فلتكفكم هذه الشهادة الجليلة من الله، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنتم لم تسمعه ولم تروه - لا تكفي دليلًا، فإنه ﴿يَسْأَلُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، ومن جملة معلوماته حالي وحالك، ومقالي لكم^(٦)، فلو كنت متقولاً عليه، مع علمه بذلك وقدرته على عقوبتي - لكان [قدحاً في علمه وقدرته وحكمته] كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ○ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ○ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْآرِئِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث هم خسروا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

(٥٥-٥٣) ﴿وَسَتَجِدُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ○ سَتَجِدُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنْ جِهْتُمْ لَمُجِيطَةً بِالْكَافِرِينَ ○ يَوْمَ يَعْسَبُهُمُ الْعَذَابُ مِنْ قَوْفِهِمْ وَإِنَّ تَحْتَهُمْ لَأَنْجُلُهُمْ وَيَقُولُ دُورُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون - استعجالاً للعذاب، وزيادة تكذيب - : ﴿مَنْ هَذَا الَّذِي أَعَدَّ لَنَا كُفْرًا صَدِيقِينَ﴾؟

يقول تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ مضروب لنزوله، ولم يأت بعد ﴿لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ بسبب تعجزهم لنا، وتكذيبهم الحق، فلو أخذناهم بجهلهم، لكان كلامهم أسرع لبلاتهم وعقوبتهم. ولكن - مع ذلك - فلا يستبطون^(٧) نزوله، فإنه

يُؤْمِنُونَ ○ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ○ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينها، كقولهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَكَ لَكَ حَقٌّ نَحْنُ نَقْرَأُ مَا مِنَ الْأَرْضِ بِأَعْيُنِنَا ○ قُلْ الْآيَاتُ فَتَعِينِ الْآيَاتُ لَيْسَ عِنْدَهُمْ، وَلَا عِنْدَ الرَّسُولِ ﷺ، فَإِنْ فِي ذَلِكَ تَدْبِيرًا مَعَ اللَّهِ، وَأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ، وَيَنْبَغِي^(١) أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمُورِ شَيْءٌ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَلْيَيْتُ عِنْدَ اللَّهِ ○ إِنْ شَاءَ أَنْزَلَهَا أَوْ مَنَعَهَا ○ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة.

وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل، فإذا حصل المقصود - بأي طريق - كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلمًا وجورًا، وتكبرًا على الله وعلى الحق.

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات، ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلّا بها، كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فأمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات، فأبي فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟

ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ ○ فِي عِلْمِهِمْ بِصَدَقَتِكَ، وَصَدَقَ مَا جِئْتَ بِهِ ○ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ○. وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البيّنات والدلالات الباهرات، شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرد، وهو أُمي، من أكبر الآيات على صدقه.

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه بإياه^(٢) آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهراً علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قلّ فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يشن ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي.

فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟ ثم إخباره عن قصص الأولين، وأبناء السابقين^(٣)، والغيوب المتقدمة والمتأخرة مع مطابقتها للواقع، ثم هيئته على الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونقضي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل: «ليته لم يأمر به»، ولا نهى عن شيء فقال العقل: «ليته لم ينه عنه»، بل هو مطابق للعقل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول، لثم مسaire إرشاداته، وهدايته، وأحكامه لكل حال وكل زمان،

(١) كذا في ب، وفي أ: وينبغي. (٢) في ب: وتحديه بإياه. (٣) في ب: السالفين. (٤) زيادة من هامش ب. (٥) في ب: فإنه رحمة له وخير. (٦) كذا في ب، وفي أ: ومقالكم. (٧) كذا في ب، وفي أ: يستعجلون.

سَيَاتِهِمْ ﴿بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ﴾.

فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا لـ «بدر» بطرين مفاخرين، طائنين أنهم قادرون على مقصودهم، فأهانهم الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشراهم، ولم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون.

هذا، وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي، فإن أمامهم العذاب الآخروي، الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا، أو أمهل.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ ليس لهم عنها معدل ولا متصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب، هو العذاب الشديد.

﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُو قُوَّةٍ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذاباً، وشملكم العذاب، كما شملكم الكفر والذنوب.

(٥٦-٥٩) ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِدُونَ﴾ كل نفس ذائقة الموت ثم إلتنا ترجعون ○ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لبئس ما كنتم من الجنة عرفاً تجري من تحيتها الأنهر خالدين فيها نعم أجر العاملين ○ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون يقول تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بي وصدقوا رسولي ﴿إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِدُونَ﴾ فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا منها إلى أرض أخرى، حيث كانت العبادة لله وحده، فأماكن العبادة ومواضعها واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية، والمنازل الأنيفة الجامعة لما تشبهه الأنفس، وتلد الأعين، وأنتم فيها خالدون.

﴿فِ نِعْمٍ﴾ تلك المنازل، في جنات النعيم ﴿أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ لله ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على عبادة الله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ في ذلك، فصبرهم على عبادة الله يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك.

وتوكلهم يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها، ونص على التوكل، وإن كان داخلاً في الصبر؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأثور به، ولا يتم إلا به.

(٦٠) ﴿وَكَايْنٍ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ

سَبَّحُونَ ﴿٤٠٣﴾

وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَعْتَهُ وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُو قُوَّةٍ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٩﴾ يَعْبَادِي الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعِدُونَ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مِنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الباري تبارك وتعالى قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم، قويهم، وعاجزهم فكم ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ في الأرض ضعيفة القوى، ضعيفة العقل ﴿لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ ولا تدخره، بل لم تزل، لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها الرزق في كل وقت وبوقته.

﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ فكلكم عيال الله، القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتديبركم ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فلا يخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَىٰ اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقْرَفًا مِمَّا تُسْتَوْدَعُهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾.

(٦١-٦٣) ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ○ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ○ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ هذا استدلال على المشركين

(١) في النسختين: فأحياهم، ولعلها كما أثبت، والله أعلم.

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار الله واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا، لما يعلمونه من حالة الدارين.

ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله تعالى، في حالة (١) الشدة عند ركوب البحر، وتلاطم أمواجه، وخوفهم الهلاك، يتركون إذا أُنذروا، ويخلصون الدعاء الله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى (٢) مَنْ أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال (٣) عنهم مشقة. فهلا أخلصوا الله الدعاء في حال الرخاء والشدة، واليسر والعسر، ليكونوا مؤمنين به حقاً، مستحقين ثوابه، مندفعاً عنهم عقابه.

ولكن شركهم هذا بعد نعمتنا عليهم، بالنجاة من البحر، ليكون عاقبته كفر ما آتيناهم، ومقابلة النعمة بالإساءة، وليكملوا تمتعهم في الدنيا الذي هو كتمتع الأنعام، ليس لهم همٌ إلا بطونهم وفروجهم.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حين ينتقلون من الدنيا إلى الآخرة، شدة الأسف، وأليم العقوبة.

ثم امتنَّ عليهم بحرمة الآمن، وأنهم أهله في أمن وسعة ورزق، والناس من حولهم يتخطفون ويخافون، أفلا يعبدون الذي أطعمهم من جوع، وآمنهم من خوف.

﴿أَفِيَا لِبَطْلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو ما هم عليه من الشرك، والأقوال، والأفعال الباطلة، ﴿وَيَنْعَمَ اللَّهُ﴾ هم ﴿يَكْفُرُونَ﴾ فأين ذهبت عقولهم، وانسلخت أحلامهم حيث آثروا الضلال على الهدى، والباطل على الحق، والشقاء على السعادة، وحيث كانوا أظلم الخلق.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فنسب ما هو عليه من الضلال والباطل إلى الله ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾ على يد رسوله محمد ﷺ.

ولكن هذا الظالم العنيد، أمامه جهنم ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ يؤخذ بها منهم الحق، ويخزون بها، وتكون منزلهم الدائم الذين لا يخرجون منه.

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا﴾ وهم الذين هاجروا في سبيل الله، وجاهدوا أعداءهم، وبدلوا مجهودهم في اتباع مرضاته

المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية فأنت لو سألتهم مَنْ خلق السماوات والأرض، وَمَنْ نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وَمَنْ بيده تدبير جميع الأشياء؟ ﴿يَقُولُونَ اللَّهُ﴾ وحده، وَلَا عَتَرُوا بعجز الأوثان ومن عبده مع الله على شيء من ذلك.

فأعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى مَنْ أقروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئاً، وسَجَّل عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء، ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلاً وأقل بصيرة، ممن أتى إلى حجر أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، الخالق الرازق، النافع الضار.

وقل: الحمد لله الذي بيّن الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذرهم الموقنون.

وقل: الحمد لله الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم، ورزقهم، وبسط الرزق على مَنْ يشاء، وضيقة على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم.

(٦٤-٦٩) ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُمْ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ

الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ

دَعَاؤُ اللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا جَحْتَهُمْ إِلَى النَّارِ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ۝

يَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ وَيَسْتَعْمَلُوا فِسْقًا يَعْلَمُونَ ۝ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا

حَرَمًا ءَامِنًا وَنَحْنُظُّفُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفِيَا لِبَطْلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ

يَكْفُرُونَ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ يَأْلَحُ لَمَّا

جَاءَهُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ۝ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ

سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يخبر تعالى عن حالة الدنيا

والآخرة، وفي ضمن ذلك التهديد في الدنيا والتشويق

للآخرة، فقال: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ في الحقيقة ﴿إِلَّا لَهُمْ

وَلَعِبٌ﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل

الله فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالية للقلوب

المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفس المطلة

الباطلة، ثم تزول سريعاً، وتنقضي جميعاً، ولم يحصل منها

محبها، إلا على الندم والحسرة والخسران.

وأما الدار الآخرة فإنها دار ﴿الْحَيَاةُ﴾ أي: الحياة الكاملة

التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة،

وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة،

وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به

اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من

المأكل، والمشرب، والمناكح، وغير ذلك، مما لا عين

(١) في ب: حال. (٢) كذا في ب، وفي أ: نجاهم. (٣) كذا في ب، وفي أ: زال.

﴿لَتَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ أي: الطرق الموصلة إلينا، وذلك، لأنهم محسنون.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بالعون، والنصر والهداية، دل هذا على أن أحرى الناس بموافقة الصواب أهل الجهاد، وعلى أن من أحسن فيما أمر به أعانه الله، ويسر له أسباب الهداية، وعلى أن من جد واجتهد في طلب العلم الشرعي، فإنه يحصل له من الهداية والمعونة على تحصيل مطلوبه أمور إلهية، خارجة عن مدرك اجتهاده، ويسر له أمر العلم، فإن طلب العلم الشرعي من الجهاد في سبيل الله، بل هو أحد نوعي الجهاد، الذي لا يقوم به إلا خواص الخلق، وهو الجهاد بالقول واللسان، للكفار والمنافقين، والجهاد على تعليم أمور الدين، وعلى رد نزاع المخالفين للحق، ولو كانوا من المسلمين.

تم تفسير سورة العنكبوت - بحمد الله وعونه -

تفسير سورة الروم

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿الرَّ - غَلَبَتِ الرُّومُ - فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَعِيلُونَ - فِي يَضَعُ سِينَتُكَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَ مِنْ بَعْدِ وَيَوْمَ يُنْفِخُ الْمُؤْمِنُونَ - يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ - وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ - يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ كانت الفرس والروم في ذلك الوقت من أقوى دول الأرض، وكان يكون بينهما من الحروب والقتال، ما يكون بين الدول المتوازنة.

وكانت الفرس مشركين يعبدون النار، وكانت الروم أهل كتاب ينتسبون إلى التوراة والإنجيل، وهم أقرب إلى المسلمين من الفرس، فكان المؤمنون يحبون غلبتهم وظهورهم على الفرس، وكان المشركون - لاشتراكهم والفرس في الشرك - يحبون ظهور الفرس على الروم.

فظهر الفرس على الروم، فغلبوهم غالبًا لم يحط بملكهم، بل بأدنى أرضهم، ففرح بذلك مشركو مكة، وحزن المسلمون، فأخبرهم الله ووعدهم^(١) أن الروم ستغلب الفرس.

﴿فِي يَضَعُ سِينَتُكَ﴾ تسع، أو ثمان، ونحو ذلك، مما لا يزيد على العشر، ولا يتقص عن الثلاث، وأن غلبة الفرس

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ ٤٠٤
وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَئِهَا الْحَيَاةُ نَوْكَ أَنْوَاعِلَمُونَ ﴿١٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي أَفْئِكَ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿١٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَاءً آمِنًا وَيُخَطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِأَبْطِلَ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ ١٦٤
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ
الرَّ - غَلَبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي آدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَعِيلُونَ ﴿٢﴾ فِي يَضَعُ سِينَتُكَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَ مِنْ بَعْدِ وَيَوْمَ يُنْفِخُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾

لروم، ثم غلبة الروم للفرس، كل ذلك بمشيئته وقدره، ولهذا قال: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَ مِنْ بَعْدِ﴾ فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لا بد أن يقترن بها القضاء والقدر.

﴿وَيَوْمَ يُنْفِخُ﴾ أي: يوم يغلب الروم الفرس ويقهرونها ﴿يَنْفِخُ الْمُؤْمِنُونَ - يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يفرحون بانتصارهم على الفرس، وإن كان الجميع كفارًا، ولكن بعض الشر أهون من بعض، ويحزن يومئذ المشركون. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة التي قهر بها الخلائق أجمعين، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ﴿الرَّحِيمُ﴾ بعباده المؤمنين، حيث قيض لهم من الأسباب التي تسعدهم وتنصرهم، ما لا يدخل في الحساب.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ تفتيقوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

(١) كذا في ب، وفي أ: بوعدة.

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

٤٥

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَحْفَظُ اللَّهُ وَعَدَّهُ. وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ

﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ

بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا

كَيْفَ كَانَ عِقَابَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً

وَأَنَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ

رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلِّمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا

أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عِقَابَ الَّذِينَ آسَأُوا السُّؤَالَ

أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ

يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ يَقُومُ

السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ

شُفَعَاتٌ وَكَانُوا يُشْرِكُوا بِهِمْ كَفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ

تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِدُ بِنَفْسِهِمْ قَوْمٌ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾

فلما نزلت هذه الآيات التي فيها هذا الوعد، صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عينوها، فلما جاء الأجل الذي ضربه الله، انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها، من المسلمين والمشركين ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعقدت أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المقتضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها، المتصرف فيها.

﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتخشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب.

وأظهروا من العجائب الذرية^(١)، والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية، والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك أبلد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رأهم أهل البصائر النافذة في جهلهم يتخبطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون^(٢)، نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ثم^(٣) نظروا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه، من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظاهرها، و[ما] حرموا من العقل العالي، فغفروا^(٤) أن الأمر لله، والحكم له في عبادته، وإن هو إلا توفيقه وخذلانه، فخافوا^(٥) ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه، ويحلوا بساحته، [وهذه الأمور لو قارنها بالإيمان وبنيت عليه، لأثمرت الرُّقِيَّ

العالي، والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير منها على الإلحاد، لم تثمر إلا هبوط الأخلاق، وأسباب الفناء والتدمير^(٦).

(٨-١٠) ﴿أَوَلَمْ يَنْفَكُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكٰفِرُونَ﴾ ○ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عقاب الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ○ ثم كان عقاب الذين آسأوا السؤَالَ أن كذبوا بآياتِ الله وكانوا بها يستهزءون ○ أي: أفلم يتفكر هؤلاء المكذبون لرسول الله ولقائه ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ فإن في أنفسهم آيات يعرفون^(٧) بها، أن الذي أوجدهم من العدم سعيدهم بعد

(١) كذا في ب، وفي أ: النارية. (٢) كذا في ب، وفي أ: يتردون. (٣) هكذا في النسختين، وقد شطبت الكلمة في ب، وجعل بدلها (ولو). (٤) في ب عدلت إلى: لعرفوا. (٥) في ب عدلت إلى: ولخافوا. (٦) زيادة من هامش ب، لم يتضح أولها، وقد نقلت من الطبعة السلفية. (٧) كذا في ب، وفي أ: يعرف.

يبأسون من كل خير، وذلك أنهم ما قدموا لذلك اليوم إلا لإجرام، وهي الذنوب، من كفر، وشرك، ومعاصي.

فلما قدموا أسباب العقاب، ولم يخلطوها بشيء من أسباب الثواب، أسوا وألبسوا وأفلسوا، وضل عنهم ما كانوا يفترونه، من نفع شركائهم، وأنهم يشفعون لهم.

ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ﴾ التي عبدوها مع الله ﴿شَفَعَتُوا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾. تبرأ المشركون ممن أشركوهم مع الله، وتبرأ المعبودون، وقالوا: ﴿بَرَأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾، والتعنوا وابتعدوا، وفي ذلك اليوم يفترق أهل الخير والشر، كما افتترقت أعمالهم في الدنيا.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ آمنوا بقلوبهم، وصدقوا ذلك بالأعمال الصالحة ﴿فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ فيها سائر أنواع النبات وأصناف المشتبهات، ﴿يُحْبَرُونَ﴾ أي: يسرون، وينعمون بالمآكل اللذيذة، والأشربة، والحدود، والحوران، والحسان، والخدم، والولدان، والأصوات المطربات، والسماع المشجي، والمناظر العجيبة، والروائح الطيبة، والفرح والسرور واللذة والحبور، مما لا يقدر أحد أن يصفه.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا نعمه، وقابلوها بالكفر ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ التي جاءتهم بها رسلنا ﴿فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَصَّرُونَ﴾ فيه، قد أحاطت بهم جهنم من جميع جهاتهم، وأطلع العذاب الأليم على أفئدتهم، وشوى الحميم وجوههم وقطع أمعاءهم، فأين الفرق بين الفريقين، وأين التساوي بين المنعمين والمعدبين؟!!

(١٧-١٩) ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ ولله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ هذا إخبار عن تزهره عن السوء والنقص، وتقده عن أن يماثله أحد من الخلق، وأمر للعباد أن يسبحوه حين يمسون وحين يصبحون، ووقت العشي، ووقت الظهيرة.

فهذه الأوقات الخمسة، أوقات الصلوات الخمس، أمر الله عباده بالتسبيح فيها والحمد، ويدخل في ذلك الواجب منه، كالمشتملة عليه الصلوات الخمس، والمستحب كأذكار الصباح والمساء وأدبار الصلوات، وما يقترن بها من النوافل؛ لأن هذه الأوقات التي اختارها الله [لأوقات المفروضات هي] أفضل من غيرها.

فالتسبيح والتحميد فيها، والعبادة فيها، أفضل من

ذلك، وأن الذي نقلهم أطواراً من نطفة إلى علقه، إلى مضغة، إلى آدمي، قد نفخ فيه الروح، إلى طفل، إلى شاب، إلى شيخ، إلى هرم، غير لائق أن يتركهم سدئ مهملين، لا يتهون ولا يؤمرون، ولا يثابون ولا يعاقبون.

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [أي: ليلوكم أيكم أحسن عملاً، ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: مؤقت بقاؤهما إلى أجل تقضي به الدنيا، وتجيء به القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسموات.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَائِي رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ﴾ فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة قد دلت على البعث والجزاء، ولهذا نبههم على السير في الأرض، والنظر في عاقبة الذين كذبوا رسلهم، وخالفوا أمرهم، ممن هم أشد من هؤلاء قوة، وأكثر آثاراً في الأرض، من بناء قصور ومصانع، ومن غرس أشجار، ومن زرع، وإجراء أنهار، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا نفعتهم آثارهم، حين كذبوا رسلهم الذين جاءوهم بالبينات الدالات على الحق، وصحة ما جاءوهم به، فإنهم حين ينظرون في آثار أولئك، لم يجدوا إلا أمماً بائدة، وخلقاً مهلكين، ومنازل بعدهم موحشة، وذم من الخلق عليهم متتابع، وهذا جزاء معجل، نموذج للجزاء الأخروي، ومبتدأ له.

وكل هذه الأمم المهلكة، لم يظلمهم الله بذلك الإهلاك، وإنما ظلموا أنفسهم، وتسببوا في هلاكها.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا السُّوٓءُ﴾ أي: الحالة السيئة الشنيعة، وصار ذلك داعياً لهم لأن ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فهذا عقوبة لسؤتهم وذنوبهم.

ثم ذلك الاستهزاء والتكذيب، يكون سبباً لأعظم العقوبات، وأعضل المثالات.

(١١-١٦) ﴿اللَّهُ يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ويوم تقوم الساعة يبليس المجرمون ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شَفَعَتُوا وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾ ويوم تقوم الساعة يومئذ يفرقون ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ﴾ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَائِي الْأٰخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَصَّرُونَ﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بإبداء المخلوقات، ثم يعيدهم، ثم إليه يرجعون بعد إعادتهم، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا ذكر جزاء أهل الشر، ثم جزاء أهل الخير، فقال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي: يقوم الناس لرب العالمين، ويردون القيامة عياناً، يومئذ ﴿يُبٰلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي:

غيرها^(١) بل العبادة، وإن لم تشمل على قول: «سبحان الله» فإن الإخلاص فيها تنزيه لله بالفعل، أن يكون له شريك في العبادة، أو أن يستحق أحد من الخلق، ما يستحقه من الإخلاص والإناابة.

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ كما يخرج النبات من الأرض الميتة، والسنبلة من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك.

﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ بعكس المذكور ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾. فينزل عليها المطر، وهي ميتة هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبت من كل زوج بهيج ﴿وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ﴾ من قبوركم.

فهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، فإنه يحيي الأموات.

فلا فرق في نظر العقل بين الأمرين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

(٢٠، ٢١) ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ۝ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفراده بالإلهية، وكمال عظمته، ونفوذ مشيئته، وقوة اقتداره، وجميل صنعه، وسعة رحمته وإحسانه، فقال: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ وذلك بخلق أصل النسل، آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة]^(٢) وبثكم في أقطار الأرض [وأرجائها، ففي ذلك آيات على أن الذي أنشأكم من هذا الأصل، وبثكم في أقطار الأرض]^(٣) هو الرب المعبود، الملك المحمود، والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ تناسبكم وتناسبونهن، وتشاكلكم وتشاكلونهن.

﴿لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب، مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ﴾ يُعْمَلُونَ أفكارهم، ويتدبرون آيات الله، ويتنقلون من شيء إلى شيء.

(٢٢) ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِنَابَ السِّنِّيَّةِ﴾

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِنَابَ السِّنِّيَّةِ﴾ ٤٠٦
 وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْأَخْرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسَيَحْنُ اللَّهُ حِينَ تُمَسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَهُوَ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ ﴿١٩﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِنَابَ السِّنِّيَّةِ وَالْوَيْزُكَرَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ مَا مَأْكُمُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنَ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

وَالْوَيْزُكَرَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ والعالمون: هم أهل العلم الذين يفهمون العبر، ويتدبرون الآيات، والآيات في ذلك كثيرة، فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيهما، أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، وكمال حكمته، لما فيها من الإلتقان، وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ وعموم رحمته وفضله، لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد الذي يختار ما يشاء، لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده الذي يستحق أن يعبد ويوحده؛ لأنه المنفرد بالخلق، فيجب أن يفرد بالعبادة.

فكل هذه أدلة عقلية، نبه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكير واستخراج العبرة منها.

﴿و﴾ كذلك في ﴿اجْتِنَابَ السِّنِّيَّةِ وَالْوَيْزُكَرَ﴾ على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد، ومخارج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه، ولا لونين

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة بخط المؤلف من هامش أ. (٣) زيادة من ب.

﴿وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أُولَىٰ بِإِعَادَةِ الْخَلْقِ﴾^(١) بعد موتهم ﴿أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرون به، كانت^(٢) قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى.

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به يعتبر المعبرون، ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهتدون، ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير، فقال: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو كل صفة كمال.

والكمال من تلك الصفة، والمحبة، والإنابة التامة الكاملة، في قلوب عباده المخلصين، والذكر الجليل، والعبادة منهم، فالمثل الأعلى، هو وصفه الأعلى، وما ترتب عليه.

ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات، فخالقتها أحق بالاتصاف بها، على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه، فتزبه الخالق عنه من باب أولى وأحرى.

﴿وَهُوَ الْمُرَبِّبُ الْحَكِيمُ﴾ أي: له العزة الكاملة، والحكمة الواسعة، فعزته أوجد بها المخلوقات وأظهر المأمورات وحكمته أتقن بها ما صنعه، وأحسن فيها ما شرعه.

(٢٨، ٢٩) ﴿صَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ بَلْ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مِّنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى لقبح الشرك وتهجينه، مثلاً من أنفسكم، لا يحتاج إلى حل وترحال، وإعمال الجمال.

﴿هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ﴾ أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء.

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين يخاف من قسمه، واختصاص كل شيء بحاله؟.

ليس الأمر كذلك، فإنه ليس أحد مما ملكت أيمانكم

متشابهين من كل وجه، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز. وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته. [ومن]^(١) عنايته بعباده ورحمته بهم أن قدر ذلك الاختلاف لثلا يقع التشابه فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

(٢٣) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَافِكُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي سماع تدبر وتعقل للمعاني والآيات في ذلك.

إن ذلك دليل على رحمة الله تعالى، كما قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. وعلى تمام حكمته، إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت ليستريحوا به^(٢) ويستجموا^(٣) وانتشارهم في وقت، لمصالحهم الدينية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك هو المستحق للعبادة.

(٢٤) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۗ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: ومن آياته أن ينزل عليكم المطر الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريكم قبل نزوله مقدماته من الرعد والبرق، الذي يخاف ويطمع فيه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [دالة] على عموم إحسانه، وسعة علمه، وكمال إنقائه، وعظيم حكمته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لهم عقول تعقل بها ما تسمعه، وتراه وتحفظه، وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه.

(٢٥-٢٧) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ۝ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَمْ قَلْبُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي يَدْعُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُمْ وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ ۗ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي: ومن آياته العظيمة أن قامت السماوات والأرض واستقرتا، وثبتتا بأمره، فلم تنزلزا، ولم تسقط السماء على الأرض، فقدرته العظيمة التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض، إذا هم يخرجون ﴿لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِمَّنْ خَلَقَ النَّاسِ﴾.

﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الكل خلقه ومماليكه، المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض، وكلهم قانتون لجلاله، خاضعون لكماله.

(١) زيادة يقتضيه السياق. (٢) زيادة من أ. (٣) الكلمة غير واضحة في النسخين وكانها (ويجموا)، وقد زيد عليها في نسخة ب حرفان فصارت يستجموا. (٤) في النسختين: كان.

شريكاً لكم فيما رزقكم الله تعالى .

هذا، ولستم الذين خلقتهم ورزقتهم، وهم أيضاً مماليك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكاً من خلقه، وتجعلونه بمنزلة، وعديلاً له في العبادة، وأنتم لا ترضون مساواة مماليككم لكم؟ .

هذا من أعجب الأشياء، ومن أدل شيء على [سفه^(١)] من اتخذ شريكاً مع الله، وأن ما اتخذه باطل مضمحل، ليس مساوياً لله، ولا له من العبادة شيء .

﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِيَتَذَكَّرَ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿لَقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ الحقائق ويعرفون، وأما مَنْ لا يعقل، فلو فَضِّلَتْ له الآيات، وبيئت له البيئات، لم يكن له عقل يبصر به ما تبين، ولا لُبَّ يعقل به ما توضح، فأهل العقول والألباب، هم الذين يساق إليهم الكلام، ويوجه الخطاب .

وإذا علم من هذا المثال، أن مَنْ اتخذ من دون الله شريكاً بعده ويتوكل عليه في أموره، فإنه ليس معه من الحق شيء، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل، توضح له بطلانه، وظهر برهانه؟ [لقد]^(٢) أوجب لهم ذلك اتباع الهوى، فلهذا قال: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ هويت أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصانها، ما تعلق به هواها، أمراً يجزم العقل بفساده، والفطر برده، بغير علم دلهم عليه، ولا برهان قادم إليه .

﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ أي: لا تعجبوا من عدم هدايتهم، فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهداية من أضل الله؛ لأنه ليس أحد معارضاً لله، أو منازعاً له في ملكه .

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ تَصْوِيرَةٍ﴾ ينصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب، وتقطع بهم الوصل والأسباب .

(٣٠-٣٢) ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِن كَرِهَ النَّاسَ النَّكِيثَ الَّذِي لَئِي وَتَقْوَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال، وإقامة دينه، فقال: ﴿فَأَقْوَ وَجْهَكَ﴾ أي:

انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تتوجه بقلبك، وقصدك، وبدنك إلى^(٣) إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ونحوها، وشرائعه الباطنة، كالمحبة، والخوف، والرجاء، والإنابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٠٧

سُورَةُ الرَّحْمٰنِ

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿٣٦﴾ وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَاتٌ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْتَكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٩﴾ فَأَقْوَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَوِيمُ وَلَكِن كَرِهَ النَّاسَ النَّكِيثَ الَّذِي لَئِي وَتَقْوَهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلٌّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

وخص الله إقامة الوجه، لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترتب على الأمرين سعي البدن، ولهذا قال: ﴿حَنِيفًا﴾ أي: مقبلاً على الله في ذلك، معرضاً عما سواه .

وهذا الأمر الذي أمرناك به، هو ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ووضع في عقولهم حسننها، واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع، الظاهرة والباطنة، قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة .

ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» .

﴿لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد يبدل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أمرنا به ﴿الَّذِينَ الْقَوِيمُ﴾ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله، وإلى كرامته، فإن مَنْ أقام وجهه للدين حنيفاً فإنه سالك

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة من ب. (٣) كذا في ب، وفي أ: على .

سبيل الله، وأفضل الأعمال المقربة إلى الله؟.

ولما أمر تعالى بالإجابة إليه - وكان المأمور بها، هي الإجابة الاختيارية التي تكون في حالي العسر واليسر، والسعة والضيق - ذكر الإجابة الاضطرارية، التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكرهه، فإذا زال عنه الضيق، نبذها وراء ظهره، وهذه غير نافعة، فقال:

(٣٣-٣٥) ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۚ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ۚ﴾

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ مرض، أو خوف من هلاك ونحوه ﴿دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال، لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله.

﴿ثُمَّ إِذَا أَذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً﴾ شفاهم من مرضهم، وأمّنهم من خوفهم ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ﴾ ينقضون تلك الإجابة التي صدرت منهم، ويشركون به من لا دفع عنهم ولا أغنى، ولا أفقر ولا أغنى، وكل هذا كفر بما آتاهم الله، ومنّ به عليهم، حيث أنجاهم وأنقذهم من الشدة، وأزال عنهم المشقة، فهلّا قابلوا هذه النعمة الجليلة بالشكر والدوام على الإخلاص له في جميع الأحوال؟.

﴿أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ أي: حجة ظاهرة ﴿فَهُوَ﴾ أي: ذلك السلطان، ﴿يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ ويقول لهم: اثبتوا على شرككم، واستمروا على شككم، فإن ما أنتم عليه هو الحق، وما دعوتكم المرسل إليه باطل.

فهل ذلك السلطان موجود عندهم، حتى يوجب لهم شدة التمسك بالشرك؟ أم البراهين العقلية والسمعية، والكتب السماوية، والرسل الكرام، وسادات الأنام، قد نهوا أشد النهي عن ذلك، وحذروا من سلوك طرقه الموصلة إليه، وحكموا بفساد عقل ودين من ارتكبه؟.

فشرك هؤلاء بغير حجة ولا برهان، وإنما هو أهواء النفوس، ونزغات الشيطان.

(٣٦، ٣٧) ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا فَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ۚ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى عن طبيعة أكثر الناس، في حالي الرخاء والشدة، أنهم إذا أذاقهم الله منه رحمة، من صحة، وغنى، ونصر ونحو ذلك، فرحوا

الصراف المستقيم، في جميع شرائعه وطرقه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه.

﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَأَنْقُوهُ﴾ وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن الإجابة إجابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى.

ويلزم من ذلك حمل^(١) البدن بمقتضى ما في القلب، فشمّل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة، فلذلك قال: ﴿وَأَنْقُوهُ﴾ فهذا يشمل فعل المأمورات، وترك المنهيات.

وخص من المأمورات الصلاة لكونها تدعو إلى الإجابة والتقوى، لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ فهذا إعادتها على التقوى، ثم قال: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فهذا حثها على الإجابة.

وخص من المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل، وهو الشرك فقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لكون الشرك مضاداً للإجابة التي روحها الإخلاص من كل وجه.

ثم ذكر حالة المشركين مهجّتا لها ومقبّحا فقال: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَزَعُوا بِرَبِّهِمْ﴾ مع أن الدين واحد، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود، ومنهم نصارى.

ولهذا قال: ﴿وَكَاذِبًا شَيْعًا﴾ أي: كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت، على نصر ما معها من الباطل، ومنازعة غيرهم ومحاربتهم.

﴿كُلُّ حَزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فَرِحُوا﴾ به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشبههم وتفرقهم فرقا، كل فريق يتعصب لما معهم من حق وباطل، فيكونون مشابهين بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد.

وأكثر الأمور الدينية وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية قد عقدها الله وربطها أتم ربط، فما بال ذلك كله يُلغى، ويبنى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية، أو فروع خلافية، يضلل بها بعضهم بعضا، ويتميز بها بعضهم عن بعض؟.

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده، التي كاد بها للمسلمين؟.

وهل السعي في جمع كلمتهم، وإزالة ما بينهم من الشقاق المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في

بذلك فرح بطر، لا فرح شكر وتبجح بنعمة الله .

﴿وَأَنْ تُصْبِحَهُمْ سَيِّئَةً﴾ أي: حال تسوؤهم، وذلك ﴿يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من المعاصي، ﴿إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ يياسون من زوال ذلك الفقر والمرض، ونحوه، وهذا جهل منهم وعدم معرفة .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ فالقنوط بعدما علم أن الخير والشر من الله، والرزق، سعته وضيقة من تقديره، ضائع ليس له محل، فلا تنظر أيها العاقل لمجرد الأسباب، بل اجعل نظرك لمسببها، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فهم الذين يعتبرون بسط الله الرزق لمن يشاء وقبضه، ويعرفون بذلك حكمة الله ورحمته وجوده، وجذب القلوب لسؤاله، في جميع مطالب الرزق .

(٣٩، ٣٨) ﴿فَاتَى ذَا الْقَرْفَى حَقْمٌ وَالْمَسْكِينِ وَأَنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وَمَا آتَيْتَهُ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتَهُ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي: فأعط القريب منك - على حسب قربه وحاجته - حقه الذي أوجبه الشارع، أو حض عليه، من النفقة الواجبة، والصدقة، والهدية، والبر، والسلام، والإكرام، والعفو عن زلته، والمسامحة عن هفوته، وكذلك [أت] المسكين الذي أسكنه الفقر والحاجة، ما تزيل به حاجته، وتدفع به ضرورته، من إطعامه وسقيه وكسوته .

﴿وَأَنَّ السَّبِيلَ﴾ الغريب المنقطع به في غير بلده الذي في مظنة شدة الحاجة، لأنه لا مال معه، ولا كسب قد دبر نفسه به [في] سفره، بخلاف الذي في بلده، فإنه وإن لم يكن له مال، ولكن لا بد - في الغالب - أن يكون في حرقة، أو صناعة ونحوها تسد حاجته، ولهذا جعل الله في الزكاة حصة للمسكين وابن السبيل .

﴿ذَلِكَ﴾ أي: إيتاء ذي القربى والمسكين وابن السبيل ﴿خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ بذلك العمل ﴿وَجْهَ اللَّهِ﴾ أي: خير غزير، وثواب كثير؛ لأنه من أفضل الأعمال الصالحة، والنفع المتعدي، الذي وافق محله المقرون به الإخلاص .

فإن لم يرد به وجه الله، لم يكن خيراً لِمُعْطِي، وإن كان خيراً ونفعاً لِمُعْطَى كما قال تعالى: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ مفهومها، أن هذه المثبتات خير لنفعها المتعدي، ولكن مَنْ يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله، فسوف نؤتيه أجراً عظيماً .

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الذين عملوا هذه الأعمال وغيرها لوجه الله ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بثواب الله، الناجون من

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٠٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذَا مَنَّ النَّاسُ ضُرْدَ عَوَارِهِمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِحُوا بِمَنْزِلِهِمْ بِرَيْبِهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَسْمَعُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتَى ذَا الْقَرْفَى حَقَّهُ، وَالْمَسْكِينِ وَأَنَّ السَّبِيلَ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتَهُمْ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتَهُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ لَكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفُسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

عقابه .

ولما ذكر العمل الذي يقصد به وجهه [من النفقات]، ذكر العمل الذي يقصد به مقصد دنيوي فقال:

﴿وَمَا آتَيْتَهُ مِنْ رَبِّا لِيَرْبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ أي: ما أعطيتكم من أموالكم الزائدة عن حوائجكم، وقصدكم بذلك أن يربو، أي: يزيد في أموالكم، بأن تعطوها لمن تطمعون أن يعاوضكم عنها بأكثر منها، فهذا العمل لا يربو أجره عند الله، لكونه معدوم الشرط الذي هو الإخلاص، ومثل ذلك العمل، الذي يراد به الزيادة في الجاه والرياء عند الناس، فهذا كله لا يربو عند الله .

﴿وَمَا آتَيْتَهُ مِنْ زَكَاةٍ﴾ أي: مال يظهركم من الأخلاق الرذيلة، ويظهر أموالكم من البخل بها، ويزيد في دفع حاجة المُعْطَى ﴿تُرِيدُونَ﴾ بذلك ﴿وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ أي: المضاعف لهم الأجر الذين تربو نفقاتهم عند الله، ويربونها الله لهم، حتى تكون شيئاً كثيراً .

ودلّ قوله: ﴿وَمَا آتَيْتَهُ مِنْ زَكَاةٍ﴾ أن الصدقة مع اضطرار من يتعلق بالمنفق، أو مع دين عليه لم يقضه، ويقدم عليه

القيامة، الذي إذا جاء لا يمكن رده، ولا يرجأ العاملون أن يستأنفوا^(٣) العمل، بل فرغ من الأعمال، لم يبق إلا أجزاء العمال ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ﴾ أي: يتفرون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين، ليروا أعمالهم.

﴿مَنْ كَفَرَ﴾ منهم ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ من الحقوق التي لله، أو التي للعباد، الواجبة والمستحبة ﴿فَلَا نُنْفِيسُهُمْ﴾ لا لغيرهم ﴿يَمَّهَدُونَ﴾ أي: يهيئون، ولأنفسهم يعمرون آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنزلها وغرفاتها، ومع ذلك جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود، وكرمه غير المحدود، ما لا تبلغه أعمالهم، وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبداً صب عليه الإحسان صباً، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعمة الظاهرة والباطنة.

وهذا بخلاف الكافرين، فإن الله لما أبغضهم ومقتهم، عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم، فهذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾.

(٤٦) ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ مَبَشِّرَاتٍ وَيُذِيقُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلَ لَكَ الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ وَيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى، وأنه الإله المعبود، والملك المحمود ﴿أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ﴾ أمام المطر ﴿مُبَشِّرَاتٍ﴾ ياتارتها للسحاب، ثم جمعها، فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله.

﴿وَيُذِيقُكَ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ فينزل عليكم من رحمته مطراً، تحيا به البلاد والعباد، وتدقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد والنجالبة لأرزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، الفاتحة لخزائن الرحمة.

﴿وَيَجْعَلَ لَكَ الْفَلَكَ﴾ في البحر ﴿بِأَمْرِهِ﴾ القدري ﴿وَلَتَسْتَعْمُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ بالتصرف في معاشكم ومصالحكم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ من سخر لكم الأسباب، وسير لكم الأمور، فهذا المقصود من التعم، أن تقابل بشكر الله تعالى، ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم.

وأما مقابلة التعم بالكفر والمعاصي، فهذه حال من بدل نعمة الله كفراً، ونعمته محنة، وهو معرض لها للزوال، والانتقال منه إلى غيره.

(٤٧) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ جَرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي:

(١) في ب: وباله. (٢) كذا في ب، وفي أ: في الأبدان. (٣) في ب: ليستأنفوا.

الصدقة، أن ذلك ليس بزكاة، يؤجر عليه العبد، ويرد تصرفه شرعاً، كما قال تعالى في الذي يمدح: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ فليس مجرد إيتاء المال خيراً، حتى يكون بهذه الصفة، وهو أن يكون على وجه يتزكى به المؤتي.

(٤٠) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم ورزقكم، وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء الذين يدعوهم المشركون من يشارك الله في شيء من هذه الأشياء، فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور، من ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟ فسبحانه وتعالى، وتقدس وتنزه، وعلا عن شركهم، فلا يضره ذلك، وإنما وبالهم^(١) عليهم.

(٤١) ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ آيَاتِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: استعلن الفساد في البر والبحر، أي: فساد معاشهم ونقصها، وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء، وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة المفسدة بطبعها.

هذه المذكورة ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن أعمالهم، التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت فتصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم.

فسبحان من أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وإلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة.

(٤٢) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلَ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ والأمر بالسير في الأرض، يدخل فيه السير بالأبدان^(٢)، والسير في القلوب، للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين.

﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ تجدون عاقبتهم شر العواقب، ومآلهم شر مآل، عذاب استأصلهم، وذم ولعن من خلق الله يتبعهم، وخزي متواصل، فاحذروا أن تفعلوا فعالهم، يُحذَى بكم حذوهم، فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

(٤٣-٤٥) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ﴾ من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهّدون ○ ليَجْرِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ○ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ○ أي: أقبل بقلبك، وتوجه بوجهك، واسع ببدنك، لإقامة الدين القيم المستقيم، فنقد أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك ○ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدٍّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ○ وهو يوم

سورة الروم

٤٠٩

سورة الروم

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ
 كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٨﴾ فَأَقْرَجَهُكَ لِلَّذِينَ الْقَيْمِ مِنْ
 قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ يَوْمَ لَا مَرَدَ لَهُ، مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ ﴿٤٩﴾ مَنْ
 كَفَرَ فَلَيْتَهُ كُفْرَهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُ يَمَّهْدُونَ ﴿٥٠﴾
 لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
 الْكَافِرِينَ ﴿٥١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِّقَكُمْ
 مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُوكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ فَأَنْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِسَاحًا فَيَسْطُفُ فِي
 السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا
 أَصَابَ بِهِ، مِنْ سُحَابٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ○ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ
 يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ ○ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ
 كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْعَى الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٤﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام نعمته، أنه
 ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِسَاحًا﴾ من الأرض ﴿فَيَسْطُفُ فِي السَّمَاءِ﴾
 أي: يمدده ويوسعها ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: على أي حالة أرادها
 من ذلك ثم ﴿يَجْعَلُهُ﴾ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كِسْفًا﴾
 أي: سحابًا ثخينًا، قد طبق بعضه فوق بعض.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ في الأمم السابقين ﴿رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾
 حين جحدوا توحيد الله، وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسلهم
 يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص، والتصديق بالحق،
 وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجاءهم بالبينات
 والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا، ولم يزولوا عن غيرهم ﴿فَأَنْتَقَمْنَا
 مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل.
 ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أوجبنا ذلك على
 أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة ووعدناهم به، فلا
 بد من وقوعه.

فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ، إن بقيتم على تكذيبكم،
 حلت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

(٤٨-٥٠) ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِسَاحًا فَيَسْطُفُ فِي
 السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا
 أَصَابَ بِهِ، مِنْ سُحَابٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ○ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ
 يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ ○ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ
 كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْعَى الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ
 شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٤﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام نعمته، أنه
 ﴿يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُبْرِسَاحًا﴾ من الأرض ﴿فَيَسْطُفُ فِي السَّمَاءِ﴾
 أي: يمدده ويوسعها ﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أي: على أي حالة أرادها
 من ذلك ثم ﴿يَجْعَلُهُ﴾ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كِسْفًا﴾
 أي: سحابًا ثخينًا، قد طبق بعضه فوق بعض.

﴿فَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ أي: السحاب، نطقًا
 صغائرًا متفرقة، لا تنزل جميعًا، فتنفسد ما أنت عليه.
 ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ﴾ بذلك المطر ﴿مِنْ سُحَابٍ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ
 يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشر بعضهم بعضًا بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم،
 وضرورتهم إليه، فلماذا قال:

﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْسِلِينَ﴾ أي:
 آيسين قانطين، لتأخر وقت مجيئه، أي: فلما نزل في تلك
 الحال، صار له موقع عظيم [عندهم]^(١)، وفرح واستبشار.
 ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾
 فاهتزت ورببت، وأثبتت من كل زوج كريم.

﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لَمُنْعَى الْمَوْتَى﴾
 وهو على كل شيء قديرٌ ﴿فقدرته تعالى لا يتعاضى عليها شيء، وإن
 تعاضى على قدر خلقه، ودق عن أفهامهم، وحارت فيه
 عقولهم.

(٥١-٥٣) ﴿وَإِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ
 يَكْفُرُونَ ○ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا لَوَّأُ
 مُدْبِرِينَ ○ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ

بِتَابِعَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالة الخلق، وأنهم مع
 هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها، ونشر رحمة الله
 تعالى، لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر، وعلى
 زروعهم، ريحًا مضرة متلفة أو منقصة ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ قد
 تداعى إلى التلف ﴿ظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ فينسبون النعم
 الماضية، ويبادرون إلى الكفر.

وهؤلاء لا ينفخ فيهم وعظ ولا زجر ﴿وَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى
 وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ﴾ وبالأولى ﴿إِذَا لَوَّأُ مُدْبِرِينَ﴾ فإن الموانع
 قد توفرت فيهم عن الانقياد والسماع النافع كتوفر هذه الموانع
 المذكورة عن سماع الصوت الحسي.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ لأنهم لا يقبلون
 الإبصار بسبب عما هم فليس منهم^(٢) قابلة له.

﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِتَابِعَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فهؤلاء الذين
 ينفخ فيهم إسماع الهدى، المؤمنون بآياتنا بقلوبهم، المتقادون
 لأوامرنا، المسلمون لنا؛ لأن معهم الداعي القوي لقبول

(١) زيادة من ب. (٢) في ب: فهم.

سورة الروم

٤١٠

سورة الروم

وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥٤﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا تَسْمِعُ الضُّعْفَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيَّ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ سَمِعْتَهُمْ إِلَّا مِنْ يَوْمٍ يُبَيِّنُنَا لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٦﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٧﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثَوَّأَ عِزَّ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطَلُونَ ﴿٦١﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ فَأَصْبِرْ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَا يَسْتَحْفَتُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ﴿٦٣﴾

قولهم مطابقًا للواقع، مناسبًا لأحوالهم.

فلهذا قالوا الحق: ﴿لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في قضائه وقدره، الذي كتبه الله عليكم، وفي حكمه ﴿إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ أي: عمرتم عمرًا يتذكر فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر، ويعتبر فيه المعبر، حتى صار البعث، ووصلتم إلى هذه الحال.

﴿فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أنكروتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتًا تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثاره من التكذيب والخسار دثاركم.

﴿فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ﴾ فإن كذبوا وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة، أو ما تمكنوا من الإيمان، ظهر كذبهم، بشهادة أهل العلم والإيمان، وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار وأنهم يردون ولا يعودون لما نهوا عنه، لم يُمكنوا، فإنه فات وقت الإعذار، فلا تقبل معذرتهم. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: يزال عتبهم، والعتاب عنهم.

النصائح والمواعظ، وهو استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرون عليه من أوامر الله ونواهيه.

(٥٤) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه، وعظيم اقتداره، وكمال حكمته، ابتداء خلق آدميين من ضعف، وهو الأطوار الأول من خلقه، من نطفة إلى علقة، إلى مضغة إلى أن صار حيوانًا في الأرحام، إلى أن وُلد، وهو في سن الطفولية، وهو إذ ذاك في غاية الضعف، وعدم القوة والقدرة. ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئًا فشيئًا، حتى بلغ سن الشباب، واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور، ورجع إلى الضعف والشيبة والهرم.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ بحسب حكمته، ومن حكمته أن يري العبد ضعفه، وأن قوته محضوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة، لطغى وبغى وعتا. وليلعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة، يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء، ولا ضعف، ولا نقص بوجه من الوجوه.

(٥٥-٥٧) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لِيُثَوَّأَ عِزَّ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة، وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة ﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بالله أنهم ﴿مَا لِيُثَوَّأَ﴾ في الدنيا إلا ﴿سَاعَةً﴾ وذلك اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا.

ولما كان قولهم كذبًا لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي: ما زالوا - وهم في الدنيا - يؤفكون عن الحقائق، ويأتفكون الكذب، ففي الدنيا كذبوا الحق الذي جاءتهم به المرسلون، وفي الآخرة أنكروا الأمر المحسوس، وهو البعث الطويل في الدنيا، فهذا خلقهم القبيح، والعبد يبعث على ما مات عليه.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ﴾ أي: من الله عليهم بهما، وصارا وصفًا لهم، العلم بالحق، والإيمان المستلزم إثبات الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق، مؤثرين له، لزم أن يكون

تفسير سورة لقمان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥-١) ﴿أَلَمْ يَكُنْ لَكَ آيَاتُ الْكُنُوزِ الْحَكِيمِ ۝ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يشير تعالى إشارة دالة على التعظيم إلى ﴿آيَاتُ الْكُنُوزِ الْحَكِيمِ﴾ أي: آياته محكمة، صدرت من حكيم خبير.

من إحكامها أنها جاءت بأجل الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على أجل المعاني وأحسنها. ومن إحكامها أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف.

ومن إحكامها أن جميع ما فيها من الأخبار^(٥) السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها مطابقة للواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء، [ولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح، يناقض ما دلت عليه]^(٦).

ومن إحكامها أنها ما أمرت بشيء إلا وهو خالص المصلحة، أو راجحها، ولا نهت عن شيء إلا وهو خالص المفسدة، أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء، مع ذكر [حكيمته]^(٧) فائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

ومن إحكامها أنها جمعت بين الترغيب والترهيب، والوعظ البليغ، الذي تعتدل به النفوس الخيرة وتحتكم، فتعمل بالحزم.

ومن إحكامها أنك تجد آياته المتكررة، كالقصص، والأحكام ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف، فكلما ازداد بها البصير تدبراً، وأعمل فيها العقل تفكيراً، انبهر عقله، وذهل لبه من التوافق والتواطؤ، وجزم جزماً لا يمتري فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن - مع أنه حكيم - يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى

(٦٠-٥٨) ﴿وَلَقَدْ صَرَّبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ يَقُولُوا الذِّينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنْتَ إِلَّا مُبْطَلُونَ ۝ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ صَرَّبْنَا لِأَجْلِ عَنَابِتِنَا وَرَحْمَتِنَا وَلَطْفِنَا وَحُسْنِ تَعْلِيمِنَا﴾ لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴿تَضَحُّ بِه الحقائق، وتعرف به الأمور، وتقطع به الحجج، وهذا عام في الأمثال التي يضرها الله في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة، وفي الإخبار بما سيكون، وجلاء حقيقته، [حتى]^(١) كأنه وقع.

ومنه في هذا الموضوع، ذكر الله تعالى ما يكون يوم القيامة وحالة المجرمين فيه وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب.

ولكن أبقى الظالمون الكافرون إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ﴾ أي: أي آية تدل على صحة ما جئت به ﴿يَقُولُوا الذِّينَ كَفَرُوا إِنَّ أَنْتَ إِلَّا مُبْطَلُونَ﴾ أي: قالوا للحق: إنه باطل.

وهذا من كفرهم وجراءتهم، وطبع الله على قلوبهم، وجعلهم المفرط، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلا يدخلها خير، ولا تترك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

﴿فَاصْبِرْ﴾ على ما أمرت به، وعلى دعوتهم إلى الله، ولو رأيت منهم إعراضاً، فلا يصدك ذلك.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع، بل سيجده كاملاً، هان عليه ما يلقاه من المكاره، ويسر عليه كل عسير، واستقل من عمله كل كثير.

﴿وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْفِقُونَ﴾ أي: قد ضعف إيمانهم وقلل يقينهم، فخفت لذلك أحلامهم، وقلل صبرهم، فإياك أن يستخفك هؤلاء، فإنك إن لم تجعلهم^(٢) منك على بال، وتحذر منهم، وإلا استخفوك وحملوك على عدم الثبات على الأوامر والنواهي، والنفس تساعدهم على هذا، وتطلب التشبه والموافقة^(٣). وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن، رزين العقل، يسهل عليه الصبر. وكل ضعيف اليقين، ضعيف [العقل]^(٤) خفيفه.

فالأول بمنزلة اللب، والآخر بمنزلة القشور. فالله المستعان.

(١) زيادة من ب. (٢) كذا في ب وفي أ: تجعل. (٣) كذا في ب وفي أ: والمراقبة. (٤) زيادة من ب. (٥) في أ: الأحكام، والتصويب من ب. (٦) زيادة من ب. (٧) زيادة من ب.

سُورَةُ لُقْمَانَ

٤١١

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

سُورَةُ لُقْمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَعْرِ ١ تَلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ٢ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّلْمُحْسِنِينَ ٣ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ
بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ٤ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُفْلِحُونَ ٥ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ
لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ٦ وَإِذَا نُنزِلْنَا وَلَوْ مُسْتَكْبِرًا
كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّطَ بَعْضُ
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي
خِلَالِهَا فِيهَا وَعُدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٧ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَن تَمِيدَ
بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ٨ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرَوْهُ مَاذَا
خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ٩

أجل مطلوب، فدخل في هذا كل كلام محرم، وكل لغو وباطل، وهذيان من الأقوال المرغبة في الكفر والفسوق والعصيان، ومن أقوال الرادين على الحق، المجادلين بالباطل ليدحضوا به الحق، ومن غيبة، ونميمة، وكذب، وشتم، وسب، ومن غناء ومزامير شيطان، ومن الماجريات الملهية التي لا نفع فيها في دين ولا دنيا.

فهذا الصنف من الناس يشتري لهو الحديث عن هدي الحديث ﴿لِيُضِلَّ﴾ الناس ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: بعدما ضل بفعله أضل غيره، لأن الإضلال ناشئ عن الضلال.

وإضلاله في هذا الحديث صده عن الحديث النافع، والعمل النافع، والحق المبين، والصرط المستقيم.

ولا يتم له هذا، حتى يقدح في الهدى والحق، ويتخذ آيات الله هزواً، ويسخر بها وبمن جاء بها، فإذا جمع بين مدح الباطل والترغيب فيه، والقدح في الحق والاستهزاء به وبأهله، أضل من لا علم عنده وخدعه بما يوحيه إليه، من القول الذي لا يميزه ذلك الضال، ولا يعرف حقيقته.

﴿أُولَئِكَ هُمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ بما ضلوا وأضلوا، واستهزأوا

عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا مَنْ وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق.

فإنه ﴿هُدًى﴾ لهم، يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويحذرهم من طرق الجحيم ﴿وَرَحْمَةً﴾ لهم، تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة، والخير الكثير، والثواب الجزيل، والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخص من العمل عمليين فاضلين: الصلاة المشتملة على الإخلاص ومناجاة الله تعالى، والتعبد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة على سائر الأعمال، والزكاة التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم، وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال، فيخرجه محبوبه من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

ف ﴿أُولَئِكَ﴾ هم المحسنون، الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿عَلَى هُدًى﴾ أي: عظيم، كما يفيد التكرير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾ الذي لم يزل يريهم بالنعم، ويدفع عنهم النقم.

وهذا الهدى الذي أوصله إليهم، من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضل أنواع التربية ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين أدركوا رضا ربهم، وثوابه الدنيوي والأخروي، وسلموا من سخطه وعقابه، وذلك لسلوكلهم طريق الفلاح الذي لا طريق له غيرها.

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن، المقبلين عليه، ذكر من أعرض عنه، ولم يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك، بأن تعوض عنه كل باطل من القول، فترك أعلى الأقوال، وأحسن الحديث، واستبدل به أسفل قول وأقبحه، فلذلك قال:

(٦-٩) ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥ وَإِذَا نُنزِلْنَا وَلَوْ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّطَ بَعْضُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي خِلَالِهَا فِيهَا وَعُدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٧﴾

أي ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن﴾ هو محروم مخذول ﴿يَشْتَرِي﴾ أي: يختار ويرغب ورغبة من يبذل الثمن في الشيء ﴿لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ أي: الأحاديث الملهية للقلب، الصادة لها عن

شريك له، كل مقر بذلك حتى أتمت يا معشر المشركين .

﴿فَأَرْوِفُ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: الذين جعلتموهم له شركاء، تدعونهم وتعبدونهم، يلزم على هذا أن يكون لهم خلق كخلقه، ورزق كرزقه، فإن كان لهم شيء من ذلك فأرونيه، ليصح ما ادعيتم فيهم من استحقاق العبادة .

ومن المعلوم أنهم لا يقدرُونَ أن يروه شيئاً من الخلق لها، لأن جميع المذكورات قد أقرُوا أنها خلق الله وحده، ولا تَمَّ شيء يعلم غيرها، فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد .

ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جليي واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للخالق الرازق المالك لكل الأمور .

(١٢-١٩) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَمِيدٌ ۝ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إلى آخر القصة . يخبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان بالحكمة، وهي العلم [بالحق]^(٣) على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالمًا ولا يكون حكيماً، وأما الحكمة فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع، والعمل الصالح .

ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة، أمره أن يشكره على ما أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين يعود نفعه عليهم، وأن مَنْ كفر فلم يشكر الله، عاد وبال ذلك عليه، والله غني [عنه]^(٣) حميد فيما يقدره ويقضيه على مَنْ خالف أمره، فغناه تعالى من لوازم ذاته، وكونه حميداً في صفات كماله، حميداً في جميل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال .

واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبياً أو عبداً صالحاً؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر أصول الحكمة وقواعدها الكبار فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾

أو قال له قولاً به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب

[بآيات الله]^(١)، وكذبوا الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ أي: ليؤمن بها وينقاد لها ﴿وَلَىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: أدبر إدبار مستكبر عنها، راداً لها، ولم تدخل قلبه ولا أثرت فيه، بل أدبر عنها ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ بل ﴿كَأَن فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي: صمماً لا تصل إليه الأصوات، فهذا لا حيلة في هدايته .

﴿فَبَشِّرْهُ﴾ بشارة تؤثر في قلبه الحزن والغم، وفي بشرته السوء والظلمة والغبرة ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ مؤلم لقلبه ولبدنه، لا يقادر قدره، ولا يدري بعظيم أمره . وهذه بشارة أهل الشر، فلا نِعَمَتِ البشارة .

وأما بشارة أهل الخير فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ جمعوا بين عبادة الباطن بالإيمان، والظاهر بالإسلام، والعمل الصالح ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ بشارة لهم بما قدموه، وقرى لهم بما أسلفوه .

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي، في جنات النعيم، نعيم القلب والروح والبدن ﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ لا يمكن أن يخلف، ولا يغير، ولا يتبدل ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كامل العزة، كامل الحكمة، من عزته وحكمته وفق مَنْ وفق، وخذل مَنْ خذل، بحسب ما اقتضاه علمه فيهم، وحكمته .

(١٠، ١١) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَآلَتْنِي فِي الْأَرْضِ رَوَيْتِي أَنْ تَسِيدَ بِكُمْ وَبِتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ هَذَا خَلْقَ اللَّهِ فَأَرْوِفُ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ بل الظالمُونَ في ضلالٍ مُّبِينٍ يتلو تعالى على عباده آثاراً من آثار قدرته، وبدائع من بدائع حكمته، ونعمًا من آثار رحمته، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ﴾ السبع على عظمها، وسعتها، وكثافتها، وارتفاعها الهائل ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: ليس لها عمد، ولو كان لها عمد لرؤيت، وإنما استقرت واستمسكت بقدرة الله تعالى .

﴿وَآلَتْنِي فِي الْأَرْضِ رَوَيْتِي﴾ أي: جبالاً عظيمة، ركزها في أرجائها وأنحائها، لثلا ﴿تَسِيدَ بِكُمْ﴾ فلولا الجبال الراسيات لمادت الأرض، ولما استقرت بساكنيتها .

﴿وَبِتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي: نشر في الأرض الواسعة من جميع أصناف الدواب، التي هي مسخرة لبني آدم، ولمصالحهم ومنافعهم، ولما بثها في الأرض، علم تعالى أنه لا بد لها من رزق تعيش به، فأنزل من السماء ماء مباركاً، ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ المنظر، نافع مبارك، فترعت فيه الدواب المنبثة، وسكن إليه كل حيوان .

﴿هَذَا﴾ أي: خلق العالم العلوي والسفلي، من جماد، وحيوان، وسوق أرزاق الخلق إليهم ﴿خَلَقَ اللَّهُ﴾ وحده لا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١٢

سُورَةُ لُقْمَانَ

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ شَكَرَ لِلَّهِ وَمِنْ شُكْرِهِ أَنْتَمَا
 يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ
 لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يُعَلِّمُهُ يَبْنِيُّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ
 لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ
 وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَمَإِنٍ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ
 إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ
 لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا
 وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ
 بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِيُّ إِنَّا إِنَّا تَكَ وَتُقَالُ حَبَّةٌ مِّنْ
 خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ
 بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِيُّ أَقْرِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ
 بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ
 مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ
 مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
 وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

ولم يقل: «إن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فعهما»؛ بل قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: بالشرك، وأما برهما فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صحبة إحصان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما، وهما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما.

﴿وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وهم المؤمنون بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، المستسلمون لربهم، المنيبون إليه.

واتبع سبيلهم أن يسلك مسلكهم في الإجابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه.

﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ الطائع والعاصي والمنيب وغيره ﴿فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفي على الله من أعمالهم خافية.

﴿يَبْنِيُّ إِنَّا إِنَّا تَكَ وَتُقَالُ حَبَّةٌ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أي: في وسطها ﴿أَوْ فِي

والترهيب، فأمره بالإحصان، ونهاه عن الشرك، وبين له السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ووجه كونه عظيمًا، أنه لا أفضع وأبشع ممن سوى المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوى الذي لا يملك من الأمر شيئًا بمن له الأمر كله، وسوى الناقص الفقير من جميع الوجوه، بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوى من لم يُعَمِّرْ بمقتال ذرة [من النعم] ^(١)، والذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم، وأخراهم، وقلوبهم، وأبدانهم، إلا منه، ولا يصرف السوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟!!

وهل أعظم ظلمًا ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، [فجعلها في أحسن المراتب]؟! ^(٢) جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئًا، فظلم نفسه ظلمًا كبيرًا.

ولما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ أي: عهدنا إليه، وجعلناه وصية عنده، سنسأله عن القيام بها، وهل حفظها أم لا؟ فوصيائه ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾ وقلنا له: ﴿اشْكُرْ لِي﴾ بالقيام بعبوديتي، وأداء حقوقي، وأن لا تستعين بنعمي على معصيتي، ﴿وَلِوَالِدَيْكَ﴾ بالإحصان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما، [وإكرامهما] ^(٣)، وإجلالهما، والقيام بمؤنتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيائه بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي: سترجع أيها الإنسان إلى من وصاك، وكلفك بهذه الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الويليل؟.

ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من الوحوم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

ثم ﴿فِصْلُهُ فِي عَمَإِنٍ﴾ وهو ملازم لحضانة أمه وكفالتها ورضاعها، أفما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد، مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحصان إليه؟.

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ولا تظن أن هذا داخل في الإحصان إليهما، لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، و«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

محل برهما وامثال أو امرهما، ما لم يأمر بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطعمهما إذا جاهدها على الشرك، وأمره بمراقبة الله، وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والمرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى، فحقيق بمن أوصى بهذه الوصايا، أن يكون مخصوصاً بالحكمة، مشهوراً بها، ولهذا من منة الله عليه وعلى سائر عباد، أن قص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة.

(٢١، ٢٠) ﴿الَّذِي تَرَوْنَا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرًا وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلًا ۗ كَانَتُنظُنُّ يُدْعُوهُم إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١) يمتن تعالى على عبادته بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها، وعدم الغفلة عنها، فقال: ﴿الَّذِي تَرَوْنَا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرًا وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلًا ۗ كَانَتُنظُنُّ يُدْعُوهُم إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(١) تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم، وقلوبكم ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرًا وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلًا ۗ كَانَتُنظُنُّ يُدْعُوهُم إِلَىٰ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع العباد.

﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والأشجار والزرع، والأهوار والمعادن ونحوها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عمّم وغمركم نعمة الظاهرة والباطنة التي تعلم بها، والتي تخفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة المنعم والخضوع له، وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿و﴾ لكن مع توالي هذه النعم ﴿مِنَ النَّاسِ مَن﴾ لم يشكرها، بل كفرها، وكفر بمن أنعم بها، وجحد الحق الذي أنزل به كتبه، وأرسل به رسله، فجعل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير

السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أي جهة من جهاتهما ﴿يَأْتِي بِهَا اللَّهُ﴾ لسعة علمه، وتمام خبرته وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلاع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والمقصود من هذا، الحث على مراقبة الله، والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قَلَّ أَوْ كَثُرَ.

﴿يَتَّبِعُوا أَمْرَ الصَّلَاةِ﴾ حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية ﴿وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه. والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كإفَّا لما ينهى عنه، فتضمن هذا تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهيه.

ولما علم أنه لا بد أن يتلى إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۗ إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿وَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿وَلَا تُصَبِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تملأ وتعبس بوجهك للناس، تكبراً عليهم وتعاضماً.

﴿وَلَا تَمَنَّيْ فِي الْأَرْضِ مَرْمًا﴾ أي: بطراً، فخرًا بالنعم، ناسياً المنعم، معجباً بنفسك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾^(١) في نفسه وهيئته وتعاضمه ﴿فَخُورٍ﴾ بقوله.

﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش متواضعاً مستكيناً، لا مشي البطر والتكبر، ولا مشي التماوت.

﴿وَأَغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ أدباً مع الناس ومع الله ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ﴾ أي: أفظعها وأبشها ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت حسه وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً.

وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة، أنها العلم بالأحكام وحكمها ومناسباتها.

فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبيّن له الموجب لتركه، وأمره ببر الوالدين، وبيّن له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احتزر بأن

(١) كذا في ب، وزاد في أ قوله تعالى: فنخور.

ووصلت إليه عواقبهم، فليستعدوا لذلك الأمر .

﴿وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ﴾ لأنك أدبت ما عليك من الدعوة والبلاغ، فإذا لم يهتد، فقد وجب أجرك على الله، ولم يبق للحزن موضع على عدم اهتدائه، لأنه لو كان فيه خير لهداه الله .

ولا تحزن أيضًا، على كونهم تجرأوا عليك بالعداوة، ونابدوك المحاربة، واستمروا على غيهم وكفرهم، ولا تحترق عليهم بسبب أنهم ما بوردوا بالعذاب .

﴿إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ من كفرهم وعداوتهم، وسعيهم في إطفاء نور الله، وأذى رسله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ التي ما نطق بها الناطقون، فكيف بما ظهر، وكان شهادة!!؟

﴿تُنَبِّئُهُمْ قَلِيلًا﴾ في الدنيا، ليزداد إثمهم، ويتوفر عذابهم، ﴿ثُمَّ نَنْظُرُهُمْ﴾ أي: [نلجئهم] (٣) ﴿إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: انتهى في عظمه وكبره وفضاعته وألمه وشدته .

(٢٥-٢٨) ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسٍ وَجِدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء المشركين المكذابين بالحق ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لعلموا أن أصنامهم ما خلقت شيئًا من ذلك ولبادروا بقولهم: الله الذي خلقهما وحده .

﴿قُلِ﴾ لهم ملزمًا لهم، ومحتجًا عليهم بما أقروا به، على ما أنكروا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ الذي بين النور، وأظهر الاستدلال عليكم من أنفسكم، فلو كانوا يعلمون، لجزموا أن المنفرد بالخلق والتدبير، هو الذي يفرد بالعبادة والتوحيد. ولكن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك أشركوا به غيره، ورضوا بتناقض ما ذهبوا إليه، على وجه الحيرة والشك، لا على وجه البصيرة .

ثم ذكر في هاتين الآيتين نموذجًا من سعة أوصافه، ليدعو عباده إلى معرفته ومحبته وإخلاص الدين له .

فذكر عموم ملكه، وأن جميع ما في السماوات والأرض - وهذا شامل لجميع العالم العلوي والسفلي - أنه ملكه، يتصرف فيهم بأحكام الملك القدريّة، وأحكامه الأمرية،

بصيرة، فليس جداله عن علم، فيترك وشأنه، ويسمح له في الكلام ﴿وَلَا هُدًى﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [غير مُبِينٍ للحق، فلا معقول، ولا منقول، ولا اقتداء بالمهتدين] (١). وإنما جداله في الله، مبني على تقليد آباء غير مهتدين، بل ضالين مضلين .

ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ على أيدي رسله، فإنه الحق، وبينت لهم أدلته الظاهرة ﴿قَالُوا﴾ معارضين ذلك: ﴿بَلْ تَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ فلا نترك ما وجدنا عليه آباءنا لقلول أحد، كائنًا مَنْ كَانَ .

قال تعالى في الرد عليهم وعلى آبائهم: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ فاستجاب له آباؤهم، ومشوا خلفه، وصاروا من تلاميذ الشيطان، واستولت عليهم الحيرة . فهل هذا موجب لاتباعهم لهم ومشيمهم على طريقته، أم ذلك يرههم من سلوك سبيلهم، وينادي على ضلالهم وضلال مَنْ اتبعهم .

وليس دعوة الشيطان لآبائهم ولهم، محبة لهم ومودة، وإنما ذلك عداوة لهم ومكر بهم، وبالحقيقة أتباعه من أعدائه، الذين تمكن منهم، وظفر بهم، وقرت عينه باستحقاقهم عذاب السعير، بقبول دعوته .

(٢٢-٢٤) ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ۝ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ﴾ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝ تَنْبِئُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَنْظُرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: يخضع له ويتقاد له بفعل الشرائع مخلصًا له دينه، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في ذلك الإسلام بأن كان عمله مشروعًا، قد اتبع فيه الرسول ﷺ، أو ومن يسلم وجهه إلى الله بفعل جميع العبادات، وهو محسن فيها بأن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإنه يراه، أو ومن يسلم وجهه إلى الله بالقيام بحقوقه، وهو محسن إلى عباد الله، قائم بحقوقهم . والمعاني متلازمة، لا فرق بينها إلا من جهة [اختلاف] (٢) مورد اللفظتين، وإلا فكلها متفقة على القيام بجميع شرائع الدين، على وجه تقبل به وتكمل، فمن فعل ذلك فقد أسلم و ﴿اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ أي: بالعروة التي مَنْ تمسك بها، توثق ونجا، وسلم من الهلاك، وفاز بكل خير .

وَمَنْ لم يسلم وجهه لله أو لم يحسن، لم يستمسك بالعروة الوثقى، وإذا لم يستمسك بالعروة الوثقى لم يكن نَمَّ إِلَّا الهلاك والبوار ﴿وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ أي: رجوعها وموئلتها ومنتهأها فيحكم في عباده، ويجازيهم بما آلت إليه أعمالهم،

وأحكامه الجزائية .

فكلهم عبيد ممالك، مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق، ﴿مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾ .
وأن أعمال النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه أن أغناهم وأقتانهم في دنياهم وأخراهم .
ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه يحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه يحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، يحمد عليه .

ثم أخبر عن سعة كلامه، وعظمة قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتبهر له العقول، وتبهر فيه الأفتدة، وتسبح في معرفته أولو الألباب والبصائر، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾ يكتب بها ﴿وَالْبَحْرِ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ ماذا يستمد بها، لتكسرت تلك الأقلام ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ ﴿كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ تعالى .

وهذا ليس مبالغة لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تتقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصولها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى تبييناً تستر به قلوبهم، وتشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه: «لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك» . وإلا، فالأمر أجل من ذلك وأعظم .

وهذا التمثيل من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأنفهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدت^(١) بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفادها وانقضاؤها، لكونها مخلوقة .

وأما كلام الله تعالى فلا يتصور نفاذه، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي على أنه لا نفاذ له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا البارئ وصفاته ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ .

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وأخريته، وأنه كل ما

﴿سُورَةُ لُقْمَانَ﴾ ٤١٣
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَيَاطِنُهُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢٦﴾ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٧﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنُكَ كُفْرُهُ إِنَّنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٨﴾ تَمَنِّعَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضَهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٩﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ لِلَّهِ مِمَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٣١﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرِ يَمْدُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٢﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَبْعَثُكُمْ إِلَّا كَفَنَسٍ وَجَدَةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٣٣﴾

فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية .

والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئاً منه، وإلا، فالأمر أعظم وأجل .

ثم ذكر جلاله عزته وكمال حكمته فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة جميعاً، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاهم للخلق، فلا حول ولا قوة إلا به، وبعزته قهر الخلق كلهم، وتصرف فيهم ودبرهم، وبحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة،

(١) في ب: مدت .

وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره.

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسٍ وَجِدَةً﴾ وهذا شيء يحير العقول، إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لمحة واحدة - كخلقه نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور، والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته.

ثم ذكر عموم سمعه لجميع المسموعات، وبصره لجميع المبصرات، فقال: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾.

(٢٩، ٣٠) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُؤَيِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَيِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَجْرَى إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العليُّ الأكبر ﴿ وهذا فيه أيضاً، انفراد بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر.

وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما، ليقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم، في دينهم ودنياهم، ما به يعتبرون ويتفتنون.

و ﴿كُلُّ﴾ منهما ﴿يَجْرَى إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جريانهما، وتعطل سلطانهما، وذلك في يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدىء الدار الآخرة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر ﴿خَبِيرٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من ذلك، وسيجازيكم على تلك الأعمال، بالثواب للمطيعين، والعقاب للعاصين.

وذلك الذي بين لكم من عظمته وصفاته، ما بين ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسله حق، ووعدته حق، ووعيدته حق، وعبادته هي الحق.

﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ﴾ في ذاته وصفاته، فلولا إيجاد الله له لما وجد، ولولا إمداده لما بقي، فإذا كان باطلاً، كانت عبادته أبطل وأبطل.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته أن يقاس بها صفات أحدٍ من الخلق، وعلا على الخلق فقهرهم ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

(٣١، ٣٢) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفَلَكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ

٤١٤ ﴿الْفَلَكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ يَنْعَمَتِ اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ وإذا غشيهم موج كالأظلل دعوا الله مخلصين له الذين فلما تجنهم إلى البر فيمنهم مقتصد وما يجحد بتأيننا إلا كل ختار كفور ﴿تَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقَارًاكُمْ وَأَخْشَاءُ يَوْمًا لَا تَجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازِعٌ عَنِ الْوَالِدِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليه خبر ﴿

سُورَةُ السَّجْدَةِ

لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا جَنَّهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَيُنْهَمُ مَقْتَصِدًا وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي: ألم تر من آثار قدرته ورحمته وعنايته بعباده، أن سخر البحر، تجري فيه الفلك، بأمره القدري، [ولطفه وإحسانه ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ فيها الانتفاع والاعتبار] (١).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فهم المستفوعون بالآيات، صبار على الضراء، شكور على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقداره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية.

وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر، وغشيان الأمواج كالظلل (٢) فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء [لله] (٣) والعبادة: ﴿فَلَمَّا جَنَّهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ انقسموا فريقين:

فرقة مقتصدة، أي: لم تقم بشكر الله على وجه الكمال، بل هم مذنبون ظالمون لأنفسهم.

(١) زيادة من ب. (٢) في ب: كالظلل. (٣) زيادة من ب.

نبي مرسل، ولا ملك مقرب، فضلاً عن غيرهما، فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: يعلم متى مرساها، كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفِيًّا إِلَّا هُوَ تَنَزَّلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً﴾ الآية.

﴿وَيُرْسِلُ الْعَبَقَاتِ﴾ أي: هو المنفرد بإنزاله، وعلم وقت نزوله.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ فهو الذي أنشأ ما فيها، وعلم ما هو، هل هو ذكر أم أنثى، ولهذا يسأل الملك الموكل بالأرحام ربه: هل هو ذكر أم أنثى؟ فيفضي الله ما يشاء.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من كسب دينها وديناها.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه.

ولما خصص هذه الأشياء، عمم علمه بجميع الأشياء فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ محيط بالظواهر والبواطن، والخفايا والخبائيا والسرائر، ومن حكمته التامة، أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد؛ لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك.

تم تفسير سورة لقمان بفضل الله وعونه، والحمد لله.

تفسير سورة السجدة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿الرَّحْمٰنُ ۝ نَزَّلَ الْكِتٰبَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْمَلٰٓئِكِۦنَ ۝ اَمْ يَقُوْلُوْنَ اَنْزَلْنٰهُ اِلَّا هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لِشٰذِرٌ قَوْلًا مَّا اٰتٰهُمْ مِنْ نَّذِيْرٍ ۝ اِنَّ كَيْدَ لِعٰلِمِهِمْ يَهْدُوْنَ ۝﴾ يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم، أنه تنزيل نزل من رب العالمين، الذي رباهم بنعمته.

ومن أعظم ما رباهم به، هذا الكتاب الذي فيه كل ما يصلح أحوالهم، ويتمم أخلاقهم، وأنه لا ريب فيه ولا شك ولا امتراء، ومع ذلك قال المكذبون للرسول الظالمون في ذلك: افتراه محمد، واختلقه من عند نفسه، وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله، ورمي محمد ﷺ بأعظم الكذب، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق، وكل واحد من هذه من الأمور العظائم.

(١) كذا في ب، وزاد في أ قوله تعالى: ﴿كفور﴾. (٢) زيادة من ب.

وفرقه كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْمَعُ بَيْنَانِنَا إِلَّا كُلُّ خَسَارٍ﴾^(١) أي: غدار، ومن غدره أنه عاهد ربه، لئن أنجيتنا من البحر وشدته، لنكونن من الشاكرين، فغدر ولم يف بذلك ﴿كفور﴾ بنعم الله، فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم الله؟.

(٣٣) ﴿يٰۤاَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوْا رَبَّكُمۡ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْرِيۤ اِلَّا عَنۡ وَّلَدِيْهِ وَلَا مَوْلُوْدٌ هُوَ جَازٍ عَنۡ وَّلَدِيْهِ شَيْئًا اِنَّكَ وَعَدَّ اللّٰهُ حَقًّا فَلَآ تَعْرٰزُكُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْزٰزُكُمۡ بِاللّٰهِ الْفَرُوْرُ ۝ يٰۤاَمْرُ تَعَالٰى النَّاسِ بِتَقْوَاهِ، التي هي امتثال أوامره وترك زواجره، ويستلقتهم لخشية يوم القيامة، اليوم الشديد الذي فيه كل أحد لا يهمه إلا نفسه ف ﴿لَا يَجْرِي وَالِدٌ عَنِ وَّلَدِيْهِ وَلَا مَوْلُوْدٌ هُوَ جَازٍ عَنۡ وَّلَدِيْهِ شَيْئًا﴾ لا يزيد في حسناته ولا ينقص من سيئاته، قد تم على كل عبد عمله، وتحقق عليه جزاؤه.

فلفت النظر في هذا لهذا اليوم المهيل، مما يقوي العبد ويسهل عليه تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد، يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم، ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من العقاب، ويزعجهم بالمواعظ والمخوفات، فلك الحمد يا رب العالمين.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فلماذا قال: ﴿فَلَا تَعْرٰزُكُمُ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا﴾ بزيتها وزخارفها، وما فيها من الفتن والمحن.

﴿وَلَا يَعْزٰزُكُمۡ بِاللّٰهِ الْفَرُوْرُ﴾ الذي هو الشيطان، الذي ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات، فإن الله على عباده حقاً، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه، أم قصروا فيه.

وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته التي يسعى إليه.

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع دونه، الدنيا الفتانة، والشيطان الموسوس المُسَوَّل، فنهى تعالى عباده أن تغرهم الدنيا، أو يغرهم بالله الغرور ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمَيِّنُهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطٰنُ اِلَّا غُرُوْرًا﴾.

(٣٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْعَبَقَاتِ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة، والظواهر والبواطن، وقدطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية، وهذه [الأمور]^(٢) الخمسة، من الأمور التي طوى علمها عن جميع المخلوقات، فلا يعلمها

قال الله - رادًا على مَنْ قال: افتراه: ﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ أنزله رحمة للعباد ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي: هم في حال ضرورة وفاقه لإرسال الرسول وإنزال الكتاب، لعدم النذير، بل هم في جهلهم يعمهون، وفي ظلمة ضلالهم يترددون. فأنزلنا الكتاب عليك ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ من ضلالهم، فيعرفون الحق فيؤثرونه.

وهذه الأشياء التي ذكرها الله، كلها مناقضة لتكذيبهم له، وإنها تقتضي منهم الإيمان والتصديق التام به، وهو كونه ﴿مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وأنه ﴿الْحَقُّ﴾ والحق مقبول على كل حال، وأنه ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ بوجه من الوجوه، فليس فيه ما يوجب الريبة، لا بخبر لا يطابق للواقع^(١)، ولا بخفاء واشتباه معانيه، وأنهم في ضرورة وحاجة إلى الرسالة، وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان.

(٤-٩) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴿ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿فَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن خالق الأرض والسموات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتوليكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة.

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ الذي هو سقف المخلوقات، استواء يليق بجلاله، ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاكم في أموركم فينفعكم ﴿وَلَا شَفِيعٍ﴾ يشفع لكم إن توجه عليكم العقاب.

﴿فَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أن خالق الأرض والسموات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفرد بتدبيركم وتوليكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة.

﴿يُدَبِّرُ الْأُمْرَ﴾ القدري والأمر الشرعي، الجميع هو المنفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند المليك القدير ﴿مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فيسعدُ بها ويُشقي، ويُغني ويُفقر، ويُعزِّزُ ويُذلُّ، ويُكرِّمُ، ويُهينُ، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين، ويُزَلُّ الأرزاق.

﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ أي: الأمر ينزل من عنده ويعرج إليه ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ وهو يعرج إليه ويصله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٤١٥
سُورَةُ السَّجْدَةِ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٥﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَءَأْتَا لَنَّا خَلْقَ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ قُلْ يَتُوبُ لَكُمْ مَلِكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿٨﴾

في لحظة.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدبير في المملكة ﴿عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾. فبسعة علمه، وكمال عزته، وعموم رحمته، أوجدها، وأودع فيها من المنافع ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها.

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ أي: كل مخلوق خلقه الله، فإن الله أحسن خلقه، وخلقها خلقًا يليق به ويوافقها، فهذا عام ثم خص الآدمي لشرفه وفضله فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ وذلك بخلق آدم عليه السلام أبي البشر.

﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ﴾ أي: ذرية آدم ناشئة ﴿مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ وهو

الظنفة المستفجرة الضعيفة.

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه بالمحل الذي لا يليق به غيره ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُّوحِهِ﴾ بأن أرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح،

(١) في ب: بخبر غير مطابق للواقع.

فيعود بإذن الله حيوانًا، بعد إذ كان جمادًا .

وقت الإمهال .

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ أي: ما زال يعطيكم من المنافع شيئًا فشيئًا، حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الذي خلقكم وصوركم .

(١٠، ١١) ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَيَّ رَيْبُكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ أي: قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿أَوَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بليتنا وتمزقتنا، وتفرقتنا في المواضع التي لا نَعْلَمُ .

﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: لمبعوثون بعثًا جديدًا . بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء، وذلك لقياسهم قدرة الخالق بقدرهم .

وكلامهم هذا ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلم وعناد، وكفر بقاء ربهم ووجد، ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ فكلامهم عُلِمُ^(١) مصدره وغايته، وإلا، فلو كان قصدهم بيان الحق، لَبَيَّنْ لَهُمْ من الأدلة القاطعة على ذلك، ما يجعله مشاهدة للبصيرة، بمنزلة الشمس للبصر .

ويكفهم أنهم معهم علم أنهم قد ابتدئوا من العدم، فالإعادة أسهل من الابتداء، وكذلك الأرض الميتة، ينزل الله عليها المطر، فتحيا بعد موتها، وينبت به متفرق بذورها .

﴿قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ أي: جعله الله وكيلًا على قبض الأرواح، وله أعوان، ﴿ثُمَّ إِلَيَّ رَيْبُكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث، فانظروا ماذا يفعل الله بكم .

(١٢-١٤) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُنْجِرُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَكَلَّمْنَا بِمَا نَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة، ذكر حالهم في مقامهم [بين يديه]^(٢) فقال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُنْجِرُونَ﴾ الذين أصروا على الذنوب العظيمة .

﴿نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ خاشعين خاضعين أذلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة قائلين: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: بان لنا الأمر، ورأيناه عيانًا، فصار عين يقين .

﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: صار عندنا الآن يقين بما [كنا]^(٣) نكذب به، أي: لرأيت أمرًا فظيماً، وحالاً مزعجة، وأقوامًا خاسرين، وسؤلاً غير مجاب، لأنه قد مضى

وكل هذا بقضاء الله وقدره، حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصي، فلهذا قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ أي: لهدينا الناس كلهم، وجمعناهم على الهدى، فمشتيتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة تأتي أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ حَقَّ الْقَوْلِ مِنِّي﴾ أي: وجب، وثبت ثبوتًا لا تغير فيه .

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه، فلا بد من تقدير أسبابه من الكفر والمعاصي .

﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليستدركوا ما فاتهم: قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا . وهذا النسيان نسيان ترك، أي: بما عرضتم عنه، وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه .

﴿إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ أي: تركناكم بالعذاب، جزاء من جنس عملكم، فكما نَسِيتُمْ نُسِينَاكُمْ ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ أي: العذاب غير المنقطع، فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية، كان فيه بعض التنفيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعادنا الله منه - فليس فيه روح راحة، ولا انقطاع لعذابهم فيها ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والفسوق والمعاصي .

(١٥-١٧) ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا حُرُوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا﴾ [أي:]^(٤) إيمانًا حقيقيًا، من يوجد منه شواهد الإيمان .

وهم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا﴾ بآيات ربهم فتليت عليهم آيات القرآن، وأتهم النصائح على أيدي رسل الله، ودَعُوا إِلَى التذکر، سمعوها قبلوها، وانقادوا، و ﴿حُرُوا سُجَّدًا﴾ أي: خاضعين لها خضوع ذكر الله، وفرح بمعرفته .

﴿وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ لا بقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد

(١) كذا في ب، وفي أ: ظلم، ولعل الصواب ما أثبت . (٢) زيادة من ب .
(٣) زيادة من ب . (٤) زيادة من ب .

تلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانشراح والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ أي: ترتفع جنوبهم، وتزج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو الأذ عندهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: جامعين بين الوصفين، خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في قبولها، خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من الرزق، قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُنْفِقُونَ﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خير مطلقاً، سواء وافق غنياً أو فقيراً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

وأما جزاؤهم، فقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي، أي: فلا يعلم أحد ﴿مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(١٨-٢٠) ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ۚ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۚ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ كَمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُفُّوْا فِي عَذَابِ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكذِّبُونَ﴾^(١) ابنه تعالى العقول على ما تقرر فيها من عدم تساوي المتفاوتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما فقال: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا﴾ قد عسر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته، من ترك مساخط الله، التي^(١) يضر وجودها بالإيمان.

﴿كَمَن كَانَ فَاسِقًا﴾ قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم، من كل إثم ومعصية، وخرج بفسقه عن طاعة الله،

وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٨﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًىٰ وَلَٰكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٩﴾ فَذُوقُوا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ هَذَا أَنَا نَسِيْتُكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِشَآئِنَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ تَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ ﴿٢٥﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۚ كَمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ دُفُّوْا فِي عَذَابِ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهِ تَكذِّبُونَ ﴿٢٧﴾

أفيستوي هذان الشخصان؟

﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾ عقلاً وشرعاً، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من فروض ونوافل ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ﴾ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه، والنظر إلى وجهه، وسماع خطابه.

﴿نُزُلًا﴾ لهم أي: ضيافة وقرى ﴿يَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل العالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلاً، سوى الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي: مقرهم ومحل

(١) كذا في ب، وفي أ: الذي.

خلودهم النار التي جمعت كل عذاب وشفاء، ولا يُقتر عنهم العقاب ساعة.

﴿كَلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ فكلما حدثهم إرادتهم بالخروج، لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ، ردوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ دُؤُوفُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكَذُّبُونَ﴾ فهذا عذاب النار، الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ، فقد ذكر بقوله:

(٢١) ﴿وَلِنُذِقْنَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَأَعْلَمَهُمْ بِرَجْحَتِهِ﴾ أي: ولنذيقن الفاسقين المكذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا، إما بعذاب بالقتل ونحوه، كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الْقُلُوبُ حَمِلَتْ فِي عَرْصَةِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرَزُونَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ ثم يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلائنها ظاهرة، فإنه قال: ﴿وَلِنُذِقْنَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى﴾ أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثمَّ عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار.

ولما كانت الإذاعة من العذاب الأدنى في الدنيا، قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلمهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(٢٢) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ أي: لا أحد أظلم وأزهد تعدياً، ممن ذكر بآيات ربه، التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته عليه على يد رسله، تأمره وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهاه عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم، والالتقاد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد العقاب، ولهذا قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾.

(٢٣-٢٥) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ

سُورَةُ السَّجْدَةِ

٤١٧

سُورَةُ السَّجْدَةِ

وَلِنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ بَيِّنَاتٍ رَبِّهِ ثُمَّ

أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا

مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ

هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ

بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بَيِّنَاتٍ يَوْفُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ

هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ

يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ

﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ

بِهِ زُرْعَاتًا كُلُّ مِنْهُ أُنْعَمُ لَهُمْ وَانْفُسَهُمْ أَفَلَا يَبْصُرُونَ ﴿٢٧﴾

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾

قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ

﴿٢٩﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَانظُرْ إِلَيْهِمْ مُنْتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

سُورَةُ الْاِنْشِرَاقِ

لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ○ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بَيِّنَاتٍ يَوْفُونَ ○ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ بِفَصْلِ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢١﴾ لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده، وهو القرآن، الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس بيدع من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل.

فقد أتى الله الكتاب الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، التي قد صدقها القرآن، فتطابق حقهما، وثبت برهانهما، ﴿فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والمرية محل.

﴿وَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الكتاب الذي آتينا موسى ﴿هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يهتدون به في أصول دينهم وفروعه^(١)، وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل.

وأما هذا القرآن الكريم، فجعله الله هداية للناس كلهم، لأنه هداية للخلق في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة،

(١) في النسختين: وفروعهم ولعل الصواب - والله أعلم - ما أثبت.

ولهم سمع صحيح وعقل رجيح، لم يقيموا على حالة^(١) يجزم بها بالهلاك.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ أي: علماء بالشرع وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول، أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن جماحها في المعاصي، واسترسالها في الشهوات.

﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعلمًا صحيحًا، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتى وصلوا لذلك، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

وتم مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأه خطأ أو عمدًا، والله تعالى ﴿يَقْضِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه، فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين، فهو الحق، وما عداه مما خالفه باطل.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أولم يروا أننا سئوئنا أئمة إلى الأرض الجُرُزِ فَخَرَجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنفُسُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ يعني: أو لم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول، ويهدمهم إلى الصواب ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ الذين سلكوا مسلكهم ﴿يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ فيشاهدونها عيانًا، كقوم هود وصالح، وقوم لوط.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشر، وعلى أن من فعل مثل فعلهم، فُعل بهم كما فُعل بأشباعه من قبل.

وعلى أن الله تعالى مجازي العباد، وباعثهم للحشر والتناد.

﴿أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ آيات الله فيعونها فيفتنعون بها، فلو كان

(١) كذا في ب، وفي أ: على حالة لم يجزم. والصواب - والله أعلم - حذف (لم).

وخطوب تهون، وكروب تنزل، وأحوال وحوائج تقضى، وبركات تنزل، ونقم تدفع وشرور ترفع. وهناك ترى العبد الضعيف الذي فوض أمره لسيده، قد قام بأمر لا يقوم بها أمة من الناس، وقد سهل الله [عليه]^(١) ما كان يصعب على فحول الرجال وبالله المستعان.

تفسير سورة الأحزاب

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤، ٥) ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ أَلْفِي تَطْلَهْرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝﴾ يعاتب تعالى [عباده]^(٢) عن التكلم بما لا حقيقة له من الأقوال، ولم يجعله الله تعالى كما قالوا، فإن ذلك القول منكم كذب وزور، يترتب عليه منكرات من الشرع. وهذه قاعدة عامة في التكلم في كل شيء، والإخبار بوقوع وجود ما لم يجعله الله تعالى.

ولكن خص هذه الأشياء المذكورة لوقوعها، وشدة الحاجة إلى بيانها فقال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ﴾ هذا لا يوجد، فإياكم أن تقولوا عن أحد: إن له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلقة الإلهية.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ أَلْفِي تَطْلَهْرُونَ مِنْهُنَّ﴾ بأن يقول أحدكم لزوجته: «أنت علي كظهر أمي أو كأمي» فما جعلهن الله ﴿أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أمك من ولدتك، وصارت أعظم النساء^(٣) عليك حرمة وتحريمًا، وزوجتك أحل النساء لك، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالأخر؟

هذا أمر لا يجوز، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْتُهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾.

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ والأدعياء الولد الذي كان الرجل يدعيه، وهو ليس له، أو يدعى إليه بسبب تبنيه إياه، كما كان الأمر بالجاهلية وأول الإسلام.

فأراد الله تعالى أن يظله ويزيله، فقدم بين يدي ذلك بيان قبحه، وأنه باطل وكذب، وكل باطل وكذب لا يوجد في شرع الله، ولا يتصف به عباد الله.

يقول تعالى: فالله لم يجعل الأدعياء الذين تدعونهم، أو يدعون إليكم، أبناءكم، فإن أبناءكم في الحقيقة من ولدتموهم وكانوا منكم. وأما هؤلاء الأدعياء من غيركم، فلا جعل الله

(١-٣) ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ۝﴾ أي: يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق، اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه، التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك، فامتثل أوامره ونواهيها، وبلغ رسالته، وأد إلى عباده وحيه، وابدل النصيحة للخلق.

ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد، ولا يردك عنه راد، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ورسوله، ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده.

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة، فلا تطعمهم في بعض الأمور التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم، يضلوك عن الصواب.

﴿و﴾ لكن ﴿اتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنه هو الهدى والرحمة، وأزج بذلك ثواب ربك، فإنه بما تعملون خبير، يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر.

فإن وقع في قلبك، أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلة، حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق، فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله، بأن تعتمد على ربك اعتماد من لا يملك لنفسه ضررًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، في سلامتك من شرهم، وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده، من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه، من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه ومن والديه، وأرأف به من كل أحد، خصوصًا خواص عبده الذين لم يزل يريهم ببره، ويُدِّرُ عليهم بركاته الظاهرة والباطنة، خصوصًا وقد أمره بإلقاء أمره إليه ووعد.

فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر، وصعب يسهل،

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة من ب. (٣) كذا في ب وفي أ: الناس.

هذا كهذا.

﴿ذَلِكُمْ﴾ القول الذي تقولون في الدعوى: إنه ابن فلان الذي ادعاه، أو والده فلان ﴿قَوْلِكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ﴾ أي: قول لا حقيقة له ولا معنى له.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ أي: اليقين والصدق، فلذلكم أمركم باتباعه على قوله وشرعه، فقوله حق، وشرعه حق، والأقوال والأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته؛ لأنه لا يهدي إلا إلى السبيل المستقيمة، والطرق الصادقة.

وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته، فمشيئته عامة لكل ما وجد من خير وشر.

ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى، المتضمنة للقول الباطل فقال: ﴿ادْعُوهُمْ﴾ أي: الأديعاء ﴿لأبيائهم﴾ الذين ولدوهم ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: أعدل وأقوم وأهدى.

﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ الحقيقيين ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ أي: إخوانكم في دين الله ومواليكم في ذلك، فادعوهم بالأخوة الإيمانية الصادقة، والموالاتة على ذلك، فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم لا يجوز فعلها.

وأما دعاؤهم لأبائهم، فإن علموا، دعوا إليهم، وإن لم يعلموا اقتصر على ما يعلم منهم، وهو أخوة [الدين]^(١) والموالاتة، فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بأبائهم عذر في دعوتهم إلى من تبناهم، لأن المحذور لا يزول بذلك.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ﴾ بأن سبق على لسان أحدكم، دعوته إلى من تبناه، فهذا غير مؤاخذ به، أو علم أبوه ظاهراً، [فدعوتوه إليه]^(٢) وهو في الباطن غير أبيه، فليس^(٣) عليكم في ذلك حرج، إذا كان خطأ.

﴿وَلَكِنْ﴾ يؤاخذكم بما ﴿تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ من الكلام بما لا يجوز. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ غفر لكم ورحمكم، حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم ودنياكم، فله الحمد تعالى.

(٦) ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَرْوَاحُهُمْ أَمْهَاتُهُمْ وَأُولَٰئِ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ يخبر تعالى المؤمنين خبيراً يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أقرب ما للإنسان، وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى به من نفسه، لأنه عليه الصلاة

سورة الأحزاب

الجزء الحادي والعشرون

٤١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَّيْمِنُهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِغِ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جُوفِهِ ۖ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ الَّتِي تَظْهَرُونَ مِنْهُنَّ أَمْهَاتِكُمْ ۖ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَائِكُمْ أَسَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ۖ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَرْوَاحُهُمْ أَمْهَاتُهُمْ وَأُولَٰئِ الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

والسلام، بذل لهم من النصح والشفقة والرأفة، ما كان به أرحم الخلق وأرأفهم، فرسول الله أعظم الخلق منه عليهم من كل أحد، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على يديه وبسببه.

فلذلك وجب عليه أنه إذا تعارض مراد النفس، أو مراد أحد من الناس، مع مراد الرسول ﷺ، أن يقدم مراد الرسول ﷺ، وأن لا يعارض قول الرسول ﷺ بقول أحد، كائناً من كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على محبة الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يتقدموا بين يديه.

وهو ﷺ أب للمؤمنين، كما في قراءة بعض الصحابة، يريهم كما يربي الوالد أولاده.

فترتب على هذه الأبوة أن كان نساؤه أمهاتهم، أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكان هذا مقدمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة الذي كان قبل

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة من ب. (٣) في أ وقعت هنا زيادة حرف (في) ولا محل له.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤١٩

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ
 وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾
 لِيَسْئَلِ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا
 ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ
 جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ
 بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
 مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
 وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
 زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
 مَّرَضٌ مَآءُ عَدْنًا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَلَا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ
 مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ
 مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا
 فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ
 لَأَنفَكُوا وَمَا نَلَبَسُوا بِهَا إِلَّا لَيْسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا
 اللَّهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُؤْتُوا الْآدْبُرَ وَكَانَ عَاهِدَ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾

(٩-١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ
 جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 بَصِيرًا﴾ ○ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ
 وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ○ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ
 الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين نعمته
 عليهم، ويحثهم على شكرها، حين جاءتهم جنود أهل مكة
 والحجاز من فوقهم، وأهل نجد من أسفل منهم، وتعاقدوا
 وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابه، وذلك في وقعة
 الخندق. وما لأتاهم [طوائف] (٣) اليهود الذين حوالي المدينة،
 فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة.
 وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحصرها المدينة،
 واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من
 كثير من الناس كل مبلغ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة،
 والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة،
 والأمر كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ
 (١) في ب: كما يصيرح بذلك. (٢) زيادة من ب. (٣) زيادة من ب.

يُدْعَى «زيد بن محمد» حتى أنزل الله ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّنْ
 رِّجَالِكُمْ﴾ فقطع نسبه وانتسابه منه.

فأخبر في هذه الآية، أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول،
 فلا مزية لأحد عن أحد. وإن انقطع عن أحدهم انتساب
 الدعوة، فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه، فلا يحزن ولا
 بأسف.

وترتب على أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين، أنهن لا
 يحللن لأحد من بعده، كما الله صرح (١) بذلك: ﴿وَلَا أَنْ
 تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾.

﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ أي: الأقارب، قربوا أو بعدوا ﴿بَعْضُهُمْ
 أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [أي: ٢] في حكمه، فيرث بعضهم
 بعضًا، ويبر بعضهم بعضًا، فهم أولى من الحلف والنصرة.

والأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون بهذه الأسباب، دون
 ذوي الأرحام، فقطع تعالى التوارث بذلك، وجعله للأقارب،
 لطفًا منه وحكمة، فإن الأمر لو استمر على العادة السابقة
 لحصل من الفساد والشر والتحيل لحرمان الأقارب من
 الميراث شيء كثير.

﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين
 مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في
 ذلك. وهذه الآية حجة على ولاية ذوي الأرحام في جميع
 الولايات، كولاية النكاح والمال وغير ذلك.

﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا لَكُمْ مَعْرُوفًا﴾ أي ليس لهم حق
 مفروض، وإنما هو بإرادتكم، إن شئتم أن تبرعوا لهم تبرعًا
 وتعطوهم معروفًا منكم، ﴿كَانَ﴾ ذلك الحكم المذكور ﴿فِي
 الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي: قد سطر وكتب وقدره الله، فلا بد من
 تفوذه.

(٨، ٧) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ
 وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ ○ لِيَسْئَلِ الصَّادِقِينَ
 عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يخبر تعالى أنه أخذ من
 النبيين عمومًا، ومن أولي العزم - وهم هؤلاء الخمسة
 المذكورون - خصوصًا، ميثاقهم الغليظ وعهدهم الثقيل
 المؤكد، على القيام بدين الله والجهاد في سبيله، وأن هذا
 سبيل قد مشى الأنبياء المتقدمون، حتى ختموا بسيدهم
 وأفضلهم محمد ﷺ، وأمر الناس بالافتداء بهم.

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن هذا العهد الغليظ، هل
 وفوا فيه وصدقوا؟ فيثيبهم جنات النعيم؟ أم كفروا، فيعذبهم
 العذاب الأليم؟ قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا
 اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

- ﴿ثُمَّ﴾ سئل هؤلاء ﴿أَلْفِئْتَةٌ﴾ أي: الانقلاب عن دينهم، والرجوع إلى دين المستولين المتغلبين ﴿لَا نُوَافِرُ﴾ أي: لأعطوها مبادرين.

﴿وَمَا تَشْتَأُوْنَ بِهَا إِلَّا يَسِيرًا﴾ أي: ليس لهم منعة ولا تصلب على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء، يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم، هذه حالهم.

(١٥) والحال أنهم قد ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يَرْجِعُونَ الْآيَاتِ﴾ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿سِيسَأَلَهُمْ عَنْ ذَلِكَ الْعَهْدِ، فيجدهم قد نقضوه، فما ظنهم إذا برهم؟

(١٦) ﴿قُلْ﴾ لهم لا تمنا على فرارهم، ومخبرًا أنهم لا يفيدهم ذلك شيئًا ﴿إِنَّ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوْ الْقَتْلِ﴾ فلو كنتم في بيوتكم، لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم.

والأسباب تنفع، إذا لم يعارضها القضاء والقدر، فإذا جاء القضاء والقدر، تلاشى كل سبب، وبطلت^(٤) كل وسيلة ظنها الإنسان تنجي.

﴿وَإِذَا﴾ حين فررتم لتسلموا من الموت والقتل، ولتنعما في الدنيا فإنكم ﴿لَا تَمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ متاعًا لا يسوى فراركم وترككم أمر الله، وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدي، في النعيم السرمدى.

(١٧) ثم بين أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئًا، إذا أَرَادَهُ اللَّهُ سُوءًا، فقال: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكَ﴾ أي: يمنعكم ﴿مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أي: شرًا ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يتولاهم، فيجلب لهم النفع^(٥) ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ينصرهم، فيدفع عنهم المضار.

فَلْيَمْتَسِلُوا طاعة المنفرد بالأمر كلها، الذي نفذت مشيئته، ومضى قدره، ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته وليًّا ولا ناصر.

(١٨) ثم توعد تعالى المخذلين المعوقين، وتهتدهم فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعْوِينَ مِنْكُمْ﴾ عن الخروج، لمن [لم]^(٦) يخرجوا ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ الذين خرجوا ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ أي: ارجعوا، كما تقدم من قولهم: ﴿يَتَّأَهَلُّ يَرْبُ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾.

وهم مع تعويقهم وتخذيلهم ﴿لَا يَأْتُونَ الْبَاسَ﴾ القتال والجهاد بأنفسهم ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ فهم أشد الناس حرصًا على

الْحَسْبُ وَالظُّنُونُ بِاللَّهِ الظُّنُونُ﴾ أي: الظنون السيئة، أن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته.

﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بهذه الفتنة العظيمة ﴿وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ بالخوف والقلق والجوع، ليتبين إيمانهم ويزيد إيقانهم، فظهر - والله الحمد - من إيمانهم وشدة يقينهم، ما فاقوا فيه الأولين والآخرين.

وعندما اشتد الكرب، وتفاقت الشدائد، صار إيمانهم عين اليقين ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

وهنالك تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون، قال تعالى:

(١٢) ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر إلى الحالة القاصرة^(١)، ويصدق ظنه.

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ﴾ من المنافقين، بعدما جزعوا وقلَّ صبرهم، صاروا أيضًا من المخذلين، فلا صبروا بأنفسهم، ولا تركوا الناس من شرهم، فقالت هذه الطائفة: ﴿يَتَّأَهَلُّ يَرْبُ﴾ يريدون «يا أهل المدينة». فنادوهم باسم الوطن المنبئ [عن التسمية]^(٢) فيه إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية، ليس له في قلوبهم قدر، وأن الذي حملهم على ذلك مجرد الخور الطبيعي.

﴿يَتَّأَهَلُّ يَرْبُ لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أي: في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى المدينة، فهذه الطائفة تخذل عن الجهاد، وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم، ويأمرونهم بترك القتال، فهذه الطائفة أشر الطوائف وأضرها.

وطائفة أخرى دونهم، أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينخلزوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعداء الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَسْتَغِدُّنَّ فِرْقًا مِنْهُمْ الَّتِي يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: عليها الخطر، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء، ونحن غيبٌ عنها، فأذن لنا نرجع إليها فنحرسها، وهم كذبة في ذلك.

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ﴾ أي: ما قصدهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعدرا [لهم]^(٣). فهو لاء قلَّ إيمانهم، وليس له ثبوت عند اشتداد المحن.

(١٤) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمُ الْمَدِينَةُ﴾ مِنْ أَقْفَارِهَا﴾ أي: لو دخل الكفار إليها من نواحيها، واستولوا عليها - لا كان ذلك

(١) في ب: الحاضرة. (٢) زيادة من ب. (٣) زيادة من ب. (٤) كذا في ب، وفي أ: بطل. (٥) في ب: المنافع. (٦) زيادة من ب.

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْنَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهْمَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَيَأْتِيَنَّكُمْ نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ عَلِمَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشْحَةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورًا عَيْنَهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ بِأَلْسِنَةٍ أَيْ: خاطبوكم، وتكلموا معكم بكلام حديد، ودعاوى غير صحيحة.

وحين تسمعهم، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام ﴿أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحًا بما أمر به، شحيحًا بما له أن ينفقه في وجهه، شحيحًا في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحًا بجاهه، شحيحًا بعلمه ونصيحته ورأيه.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين بتلك الحالة ﴿لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ بسبب عدم إيمانهم أحبط الله أعمالهم ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وأما المؤمنون، فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووقفهم لبذل ما أمروا به، من بذل لأبدانهم في القتال في سبيله، وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم.

﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي: يظنون أن هؤلاء الأحزاب الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسابهم.

﴿وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ مرة أخرى ﴿يُودُّوْا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُوا فِي الْأَعْرَابِ يَسْتُلُوتُ عَنْ أَنبِيَائِهِمْ﴾ أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة، ودَّ هؤلاء المنافقون، أنهم ليسوا في المدينة ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم ويسألون عن أنبئانكم، ماذا حصل عليكم؟

فتبأ لهم وبعدا، فليسوا ممن يبالي^(١) بحضورهم ﴿وَلَوْ كُنَّا فِيكُمْ مَا قَتَلْنَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿٢١﴾ ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ حيث حضر الهيحاء بنفسه الكريمة، وياشر موقف الحرب، وهو الشريف الكامل، البطل الباسل، فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ بنفسه فيه؟! فتأسوا به في هذا الأمر وغيره.

واستدل الأصوليون في هذه الآية، على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل، أن أمته أسوته في الأحكام، إلا ما

دلَّ الدليل الشرعي على الاختصاص به.

فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ فإن المتأسّي به سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم.

وأما الأسوة بغيره إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة، كقول الكفار^(٢) حين دعتهم الرسل للتأسّي [بهم]^(٣): ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ مَنَاسِكٍ وَمَا نَدْعُهُمْ إِلَّا لِأَيْمَانٍ وَتَسْلِيمًا﴾.

وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها، مَنْ كان يرجو الله واليوم الآخر، فإن ما معه^(٤) من الإيمان، وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسّي بالرسول ﷺ.

(٢٢) لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف، ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ الذين تحزبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهى الخوف ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ في قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ﴾

(١) في ب: يغالي. (٢) في ب: المشركين. (٣) زيادة من ب. (٤) في ب: فإن ذلك ما معه.

غرتهم جمعهم، وأعجبوا بتحزيبهم، وفرحوا بَعَدِهِمْ وَعَدَدِهِمْ.

فأرسل الله عليهم ريحاً عظيمة، وهي (٣) ريح الصبا، فزعزت مراكزهم، وقوّضت خيامهم، وكفأت قدورهم وأزعجتهم، وضربهم الله بالرب، فانصرفوا بغیظهم، وهذا من نصر الله لعباده المؤمنين.

﴿وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ بما صنع لهم من الأسباب العادية والقدرية ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ لا يغالبه أحد إلا غلب، ولا يستنصره أحد إلا غلب، ولا يرفع أهل القوة والعزة قوتهم وعزتهم، إن لم يُعْنِهِمُ اللهُ بقوته وعزته.

(٢٦) ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ أي: عاونوهم ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي: اليهود ﴿مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي: أنزلهم من حصونهم، نزولاً مظفوراً بهم، مجعولين تحت حكم الإسلام ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ فلم يقووا على القتال، بل استسلموا وخضعوا وذلوا ﴿فَرِيقًا تَقَاتَلُوا﴾ وهم الرجال المقاتلون ﴿وَأُخْرَىٰ قَرِيبًا﴾ من عداهم من النساء والصبيان.

(٢٧) ﴿وَأُورَثَكُمْ﴾ أي: غنمكم ﴿أَرْضَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّهَا﴾ أي: أرضاً كانت من قبل، من شرفها وعزتها عند أهلها، لا تتمكنون من وطئها، فمكّنكم الله وخذلهم، وغنمتم أموالهم، وقتلتموهم، وأسرتموهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لا يعجزه شيء، ومن قدرته قدر لكم ما قدر. وكانت هذه الطائفة من أهل الكتاب، هم بنو قريظة من اليهود، في قرية خارج المدينة غير بعيد. وكان النبي ﷺ [حين^(٤)] هاجر إلى المدينة، ووادعهم وهادنهم، فلم يقاتلهم ولم يقاتلوه، وهم باقون على دينهم، لم يغير عليهم شيئاً.

فلما رأوا يوم الخندق الأحزاب الذين تحزبوا على رسول الله وكرتهم، وقلة المسلمين، وظنوا أنهم سيستأصلون الرسول والمؤمنين، وساعد على ذلك، [تدجيل^(٥)] بعض رؤسائهم عليهم، فنقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وما لأوا المشركين على قتاله.

فلما خذل الله المشركين، تفرغ رسول الله ﷺ لقتالهم، فحاصرهم في حصنهم، فنزلوا على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم فيهم، أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتغنم أموالهم.

(١) في أ: وما عداهم، ولعل الصواب ما أثبت. (٢) زيادة من ب. (٣) في أ: وهو، ولعل الصواب ما أثبت. (٤) زيادة من ب. (٥) زيادة من ب.

الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَوَرِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصَرَ اللَّهُ ءَلَا إِنَّ نَصَرَ اللَّهِ قَرِيبٌ.

﴿وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾، فإننا رأينا ما أخبرنا به ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ ذلك الأمر ﴿إِلَّا إِيمَانًا﴾ في قلوبهم ﴿وَسَلِيمًا﴾ في جوارحهم، وانقياداً لأمر الله.

(٢٣) ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله، لا يولون الأوبار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ أي: وفوا به، وأتموه وأكملوه فبدلوا مهجهم في مرضاته، وسبّلوا أنفسهم في طاعته.

﴿فِيئْتُهُمْ مِّنْ قَضَىٰ نَجَبٍ﴾ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله، أو مات مؤدياً لحقه لم ينقصه شيئاً.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ﴾ تكميل ما عليه، فهو شارع في قضاء ما عليه، ووفاء نجه ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله، ساعٍ في ذلك مجد.

﴿وَمَا بَدَلُوا تَبَدُّلاً﴾ كما بدل غيرهم، بل لم يزالوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون، فهؤلاء هم الرجال على الحقيقة، ومن^(١) عداهم فصورهم صور رجال، وأما الصفات فقد قصرت عن صفات الرجال.

(٢٤) ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ أي: بسبب صدقهم في أقوالهم وأحوالهم ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالى: ﴿هَلَّا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَمَّا جَنَّتْ جَرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ الآية.

أي: قدرنا ما قدرنا من هذه الفتن والمحن والزلازل، ليتبين الصادق من الكاذب، فيجزى الصادقين بصدقهم ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ﴾ الذين تغيرت قلوبهم وأعمالهم عند حلول الفتن، ولم يفوا بما عاهدوا الله عليه.

﴿إِنْ سَاءَ﴾ تعذيبهم، بأن لم يشأ هدايتهم، بل علم أنهم لا خير فيهم فلم يوفقهم ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ بأن يوفقهم للتوبة والإنابة، وهذا هو الغالب على كرم الكريم، ولهذا ختم الآية باسمين دالين على المغفرة والفضل والإحسان، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ غفوراً للذنوب المسرفين على أنفسهم، ولو أكثروا من العصيان، إذا أتوا بالمتاب ﴿رَحِيمًا﴾ بهم حيث وفقهم للتوبة، ثم قبلها منهم، وستر عليهم ما اجترحوه.

(٢٥) ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَلَاؤُوا خَيْرًا﴾ أي: ردهم خائبين، لم يحصل لهم الأمر الذي كانوا حقيقين عليه، مغتاطين قادرين [عليه]^(٢) جازمين، بأن لهم الدائرة، قد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٢١

سُورَةُ الْاِحْزَابِ

مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبَدُّلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنْفِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَيْثِهِمْ لَمْ يَأْتُوا آخِرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوا مِنْهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن صَيَّا صِيهِمْ وَقَدَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرَّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطْعُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبَّتْهَا فَنَعَالَيْكَ أُمْتِعْكَ وَأُسْرِحْكَ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَنْسَاءُ النَّبِيُّ مَن يَأْتُ مِنكُنَّ بِفَلْحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ سِيرًا ﴿٣٠﴾

ومنها: سلامة زوجاته رضي الله عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله.

فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول، الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه.

ومنها: إظهار رفعتهن وعلو درجتهن، وبيان علو همهن، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن، دون الدنيا وحطامها.

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار، للأمر الخيار، للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يكنَّ زوجاته في الدنيا والآخرة.

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن، فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه^(٢) كاملات مكملات، طيبات مطيبات ﴿الطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾.

ومنها: أن هذا التخيير داع، وموجب للقناعة التي يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه، وهمه وغمه.

(١) في: أ: يخيرهن. (٢) في: أ: نساء.

فأتم الله لرسوله والمؤمنين المنة، وأسبغ عليهم النعمة، وأقر أعينهم بخذلان من انخذل من أعدائهم، وقتل من قتلوا، وأسر من أسروا، ولم يزل لطف الله بعباده المؤمنين مستمرًا.

(٢٩، ٢٨) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَرَبَّتْهَا فَنَعَالَيْكَ أُمْتِعْكَ وَأُسْرِحْكَ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝ وَإِن كُنتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لما اجتمع نساء رسول الله ﷺ عليه في الغيرة، وطلبن منه النفقة والكسوة، طلبن منه أمرًا لا يقدر عليه في كل وقت، ولم يزلن في طلبهن متفقات، وفي مرادهن متعنتات، فسق ذلك على الرسول، حتى وصلت به الحال إلى أنه ألقى منهن شهرًا.

فأراد الله أن يسهل الأمر على رسوله، وأن يرفع درجة زوجاته، ويذهب عنهن كل أمر ينقص أجرهن، فأمر رسوله أن يخيرهن^(١) فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: ليس لكن في غيرها مطلب، وصرتن ترضين لوجودها، وتغضبن لفقدائها، فليس لي فيكن أرب وحاجة، وأنتن بهذه الحال.

﴿فَنَعَالَيْكَ أُمْتِعْكَ﴾ شيئًا مما عندي من الدنيا ﴿وَأُسْرِحْكَ﴾ أي: أفرقكن ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من دون مغاضبة ولا مشامة، بل بسعة صدر، وانشرح بال قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينبغي.

﴿وَإِن كُنتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: هذه الأشياء مرادكن، وغاية مقصودكن، وإذا حصل لكنَّ الله ورسوله والجنة، لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها، ويسرها وعسرها، وقتعن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبين منه ما يشق عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ رب الأجر على وصفهن بالإحسان، لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجات للرسول، فإن مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئًا مع عدم الإحسان، فخيرهن رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة كلهن، ولم يتخلف منهن واحدة، رضي الله عنهن.

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

منها: الاعتناء برسوله وغيرته عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية.

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه، إن شاء أعطى، وإن شاء منع ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾.

ومنها: تزويجه عن لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله، والدار الآخرة، عنها وعن مقارنتها.

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا، سبباً لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يَكُنَّ بمرتبة ليس فيها أحد من النساء، ولهذا قال:

(٣١، ٣٠) ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ مَن يَأْت مِنكُنَّ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝ وَمَن يَفْعَلْ مِنكُنَّ بِلَائِنَاءٍ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ يُعَذِّبُ مَن يَفْعَلْ فِي قَلْبِهِ مَرَضًا وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝ وَأذْكَرَتْ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝﴾

لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ذكر مضاعفة أجرهن، ومضاعفة وزرهن وإثمهن لو جرى منهن، ليزداد حذرهن، وشكرهن الله تعالى، فجعل من أتى منهن بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين.

﴿وَمَن يَفْعَلْ مِنكُنَّ﴾ أي: تطيع ﴿اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَتَعْمَلْ صَدِيقًا قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا﴾. ﴿تُؤْتِيهَا أَجْرًا مَّرْتَيْنِ﴾ أي: مثل ما نعطي غيرها مرتين ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ وهي الجنة، فقتن الله ورسوله، وعملن صالحًا، فعلم بذلك أجرهن.

(٣٢-٣٤) ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ يُعَذِّبُ مَن يَفْعَلْ فِي قَلْبِهِ مَرَضًا وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝ وَأذْكَرَتْ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝﴾

يقول تعالى: ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ﴾ خطاب لهن كلهن ﴿لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ الله، فإنكن بذلك تُقَفِّنُ النساء، ولا يلحقكن أحد من النساء، فكلمن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها.

فلهذا أرشدهن إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون فقلن في ذلك، وتتكلمن بكلام رقيق يدعو ويطمع ﴿الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ أي: مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرك يحركه، لأن قلبه غير صحيح، [فإن القلب الصحيح] (١) ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تُبْمِلُهُ ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد، يدعو إلى الحرام، يجيب دعوته، ولا يتعاصى عليه. فهذا دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد. فإن الخضوع بالقول واللين فيه، في الأصل مباح. ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلين لهم

﴿وَمَن يَفْعَلْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَدِيقًا قَلِيلًا ۝ وَأَجْرًا مَّرْتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ۝﴾ (٣١) ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ يُعَذِّبُ مَن يَفْعَلْ فِي قَلْبِهِ مَرَضًا وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝ وَأذْكَرَتْ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝﴾ (٣٢) ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ يُعَذِّبُ مَن يَفْعَلْ فِي قَلْبِهِ مَرَضًا وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝ وَأذْكَرَتْ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝﴾ (٣٣) ﴿يَسَاءَ النَّبِيُّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ يُعَذِّبُ مَن يَفْعَلْ فِي قَلْبِهِ مَرَضًا وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝ وَأذْكَرَتْ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ۝﴾ (٣٤)

القول.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فرما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: غير غليظ ولا جاف، كما أنه ليس بليِّن خاضع.

وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ولم يقل: «فلا تلين بالقول» وذلك لأن المنهي عنه القول اللين الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده. والخاضع هو الذي يطمع فيه بخلاف من تكلم كلاماً ليناً، ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ﴾ وقال لموسى وهارون: ﴿أَذْهَبْنَا إِلَيْكَ فَرَعُونَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝ فَقَوْلَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

ودلَّ قوله: ﴿فَيُطَمِّعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونهيه عن قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه

(١) زيادة من ب، لا يستقيم الكلام بدونها.

ويعضمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقاً [له] (٥) إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

(٣٥) ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَنَاطِئِينَ وَالْقَنَاطِئَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَاللَّحْفَظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لما ذكر تعالى ثواب زوجات الرسول ﷺ وعقابهن [لو قدر عدم الامتثال] (٦) وأنه ليس مثلهن أحد من النساء، ذكر بقية النساء غيرهن.

ولما كان حكمهن والرجال واحداً، جعل الحكم مشتركاً، فقال: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ وهذا في الشرائع الظاهرة، إذا كانوا قائمين بها ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وهذا في الأمور الباطنة، من عقائد القلب وأعماله.

﴿وَالْقَنَاطِئِينَ﴾ أي: المطيعين لله ولرسوله ﴿وَالْقَنَاطِئَاتِ وَالصَّادِقِينَ﴾ في مقالهم وفعالهم ﴿وَالصَّادِقَاتِ﴾، ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ على الشدائد والمصائب ﴿وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ﴾ في جميع أحوالهم، خصوصاً في عباداتهم، خصوصاً في صلواتهم ﴿وَالْخَاشِعَاتِ﴾، ﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ﴾ فرضاً ونفلاً ﴿وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ﴾ شمل ذلك الفرض والنفل ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ﴾ عن الزنا ومقدماته ﴿وَالْحَافِظَاتِ﴾، ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي: [٧] في أكثر الأوقات، خصوصاً أوقات الأوراد المقيدة، كالصباح والمساء، وأدبار الصلوات المكتوبات ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة التي هي ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر الذي من قام بهن، فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان.

فجازاهم على عملهم بالمغفرة لذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يقدر قدره إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم.

(٣٦) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ

يهش (١) لفعل المحرم عندما يرى، أو يسمع كلام مَنْ يهواه، ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام. فَلْيَعْرِفْ أَنَّ ذَلِكَ مَرَضٌ. فَلْيَجْتَهِدْ فِي إِضْعَافِ هَذَا الْمَرَضِ وَحَسْمِ الْخَوَاطِرِ الرَّدِيَةِ، وَمَجَاهَدَةِ نَفْسِهِ عَلَى سَلَامَتِهَا مِنْ هَذَا الْمَرَضِ الْخَطِرِ، وَسؤالِ اللَّهِ الْعِصْمَةَ وَالتَّوْفِيقَ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ حِفْظِ الْفَرَجِ الْمَأْمُورِ بِهِ.

﴿وَقَرَنَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ أي: اقرن فيها، لأنه أسلم وأحفظ لَكُمُّ ﴿وَلَا تَبْرَحُوا نَبْرَجَ الْجَهَنَّمِ الْأُولَى﴾ أي: لا تكثرون الخروج متجملات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للشر وأسبابه.

ولما أمرهن بالتقوى عموماً، وبجزئيات من التقوى، نص عليها [لحاجة] (٢) النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة، اللتان يحتاجهما ويضطر إليهما كل أحد، وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهن بالطاعة عموماً، فقال: ﴿وَاطِيعَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ﴾ يدخل في طاعة الله ورسوله، كل أمر أمراً به أمر إيجاب أو استحباب.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ﴾ بأمركن بما أمرَكُنَّ به، ونهيكن بما (٣) نهاكُنَّ عنه ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي: الأذى والشر والخبث، يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ حتى تكونوا طاهرين مطهرين.

أي: فاحمدوا ربكم واشكروه على هذه الأوامر والنواهي، التي أخبركم بمصلحتها وأنها محض مصلحتكم، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجاً ولا مشقة، بل لتزكى نفوسكم، ولتطهر أخلاقكم، وتحسن أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.

ولما أمرهن بالعمل الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم وبين لهن طريقه فقال: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يُشْكِلُ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ والمراد بآيات الله: القرآن، والحكمة: أسراره، أو سننه رسوله. وأمرهن بذكره، يشمل ذكر لفظه، بتلاوته، وذكر معناه، بتدبره والتفكير فيه، واستخراج أحكامه وحكمه، وذكر العمل به وتأويله ﴿إِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ يدرك أسرار (٤) الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تبين وتسري.

فلفظه وخبرته يقتضي حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال.

ومن معاني «اللطيف» الذي يسوق عبده إلى الخير،

(١) كذا في ب، وفي أ: يشتهي، والأقرب ما أثبتته. (٢) زيادة من ب.

(٣) في ب: عمًا. (٤) في ب: سرائر. (٥) زيادة من ب. (٦) زيادة

من ب. (٧) زيادة من ب.

خاصة، فإن التقوى تحت على الصبر وتأمربه.

﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ والذي أخفاه، أنه لو طلقها زيد، لتزوجها ﷺ ﴿وَتَخْفَى النَّاسُ﴾ في عدم إيداء ما في نفسك ﴿وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ (٣) وأن لا تباليهم شيئاً.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مَنَآ وَطَرًا﴾ أي: طابت نفسه، ورجب عنها، وفارقها ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ وإنما فعلنا ذلك لفائدة عظيمة وهي: ﴿لِيَكُنِيَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَجٌّ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ حيث رأوك تزوجت زوج زيد بن حارثة، الذي كان من قبل يتسبب إليك.

ولما كان قوله: ﴿لِيَكُنِيَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَجٌّ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ﴾ عامًا في جميع الأحوال، وكان من الأحوال ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا قَضَوْا مِنِّي وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: لا بد من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات على هذه القصة فوائد:

منها: الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين: أحدهما: أن الله سماه في القرآن، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره. والثاني: أن الله أخبر أنه أنعم عليه أي: بنعمة الإسلام والإيمان، وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، لو لا أن المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أن المُعْتَقَ في نعمة المُعْتَقِ.

ومنها: جواز تزوج زوجة الدَّعِيِّ، كما صرح به.

ومنها: أن التعليم الفعلي أبلغ من القول، خصوصًا إذا اقترن بالقول، فإن ذلك نور على نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب العبد، لغير زوجته ومملوكته ومحارمه، إذا لم يقترن بها محذور، لا يَأْتُمُّ عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمينته، أن لو طلقها زوجها لتزوجها من غير أن يسعى في فُرْقَةٍ بينهما، أو يتسبب بأي سبب كان، لأن الله أخبر أن الرسول ﷺ أخفى ذلك في نفسه.

ومنها: أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئاً مما أوحى إليه إلا وبلغه، حتى هذا الأمر الذي فيه عتابه. وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحى إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

ومنها: أن المستشار مؤتمن، يجب عليه - إذا استشير في

يَكُونُ لَهُمُ الْخَيْرُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ أي: لا ينبغي ولا يليق ممن اتصف بالإيمان إلا الإسراع في مرضاة الله ورسوله، والهرب من سخط الله ورسوله، وامتنال أمرهما واجتناب نهيهما.

فلا يليق بمؤمن ولا مؤمنة ﴿إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ من الأمور، وحثًا به وألزامًا به ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أي: الخيار، هل يفعلونه أم لا؟ بل يعلم المؤمن والمؤمنة أن الرسول أولى به من نفسه فلا يجعل بعض أهواء نفسه حجابًا بينه وبين أمر الله ورسوله.

﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ أي: بينًا؛ لأنه ترك الصراط المستقيم الموصلة إلى كرامة الله، إلى غيرها من الطرق الموصلة للعذاب الأليم، فذكر أولاً، السبب الموجب لعدم معارضته أمر الله ورسوله، وهو الإيمان، ثم ذكر المانع من ذلك، وهو التخويف بالضلال الدال على العقوبة والنكال.

(٣٧) ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مَنَآ وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِيَكُنِيَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَجٌّ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنِّي وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ وكان سبب نزول هذه الآيات أن الله تعالى أراد أن يشرع شرعًا عامًا للمؤمنين، أن الأدعياء ليسوا في حكم الأبناء حقيقة من جميع الوجوه، وأن أزواجهم لا جناح على من تبناهم نكاحهن.

وكان هذا من الأمور المعتادة التي لا تكاد تزول إلا بحادث كبير، فأراد أن يكون هذا الشرع قولًا من رسوله وفعالًا، وإذا أراد الله أمرًا جعل له سببًا.

وكان زيد بن حارثة يدعى «زيد بن محمد» قد تبناه النبي ﷺ، فصار يدعى إليه حتى نزل: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ﴾ فقيل له: «زيد بن حارثة».

وكانت تحت زينب بنت جحش، ابنة عمه رسول الله ﷺ، وقد كان قد وقع في قلب الرسول ﷺ، لو طلقها زيد لتزوجها. فقدر الله أن يكون بينها وبين زيد ما اقتضى أن جاء زيد بن حارثة يستأذن النبي ﷺ في فراقها.

قال الله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالعق (١) حين جاءك مشاورًا في فراقها: فقلت له: ناصحًا ومخيرًا بمصلحته (٢) مع وقوعها في قلبك: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: لا تفارقها، واصبر على ما جاءك منها ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ تعالى في أمورك عامة، وفي أمر زوجك

(١) في هامش ب: والإرشاد والتعليم. (٢) في هامش ب: مقدمًا لها على رغبتك. (٣) في هامش ب: فإن خشية جالبة لكل خير، [مانعة] من كل شر (مع أن كلمة مانعة غير واضحة في الأصل).

سورة الأحزاب

٤٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٨﴾ وَإِذْ نَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا وَحَنَّكُمَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَمُحْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنْ بِأَلِلَّةِ حَسْبِيبًا ﴿٤١﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أذكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤٣﴾ وَسِيحُوا بِكُرَّةٍ وَأَصِيلًا ﴿٤٤﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٥﴾

وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٢﴾ أي: لم يكن الرسول ﴿مُحَمَّدٌ﴾ ﴿أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أيها الأمة. قطع انتساب زيد بن حارثة منه، من هذا الباب.

ولما كان هذا النفي عامًا في جميع الأحوال، إن حمل ظاهر اللفظ على ظاهره، أي: لا أبوة نسب، ولا أبوة ادعاء، وقد كان تقرر فيما تقدم أن الرسول ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ أب للمؤمنين كلهم، وأزواجه أمهاتهم، فاحتز أن يدخل في هذا النوع بعموم النهي المذكور فقال: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ أي: هذه مرتبة مرتبة المطاع المتبوع، المهتدى به، المؤمن له الذي يجب تقديم محبته على محبة كل أحد، الناصح الذي لهم، أي: للمؤمنين، من بره [ونصحه] ﴿٣٩﴾ كأنه أب لهم.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح لفضله ومن لا يصلح.

(٤١-٤٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أذكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ وسِيحُوا

أمر من الأمور - أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير^(١)، ولو كان له حظ نفس، فتقدم مصلحة المستشار على هوى نفسه وغرضه.

ومنها: أن من الرأي الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإسماها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفُرقة.

ومنها: [أنه يتعين]^(٢) أن يقدم العبد خشية الله على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.

ومنها: فضيلة زينب رضي الله عنها أم المؤمنين، حيث تولى الله تزويجها من رسوله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سموات.

ومنها: أن المرأة إذا كانت ذات زوج، لا يجوز نكاحها، ولا السعي فيه وفي أسبابه، حتى يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره حتى تنقضي عدتها، لأنها قبل انقضاء عدتها، وهي في عصمتها، أو في حقه الذي له وطر إليها، ولو من بعض الوجوه.

(٣٨، ٣٩) ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَيُحْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكُنْ بِأَلِلَّةِ حَسْبِيبًا ﴿٤٠﴾ هذا دفع لظعن من ظعن في الرسول ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ في كثرة أزواجه، وأنه ظعن بما لا مظعن فيه، فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: إثم وذنوب ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: قدر له من الزوجات، فإن هذا قد أباحه الله للأنبياء قبله، ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ أي: لا بد من وقوعه.

ثم ذكر من هم الذين من قبل قد خلوا، وهذه سنتهم

وعاداتهم، وأنهم

﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ فيتلون على العباد آيات الله وحججه وبراهينه، ويدعونهم إلى الله ﴿وَيُحْشَوْنَهُ﴾ وحده لا شريك له ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾ إلا الله.

فإذا كان هذا سُنَّةَ فِي الْأَنْبِيَاءِ الْمُعْصُومِينَ الَّذِينَ وَظِيفَتْهُمْ قَدْ أَدَوْهَا وَقَامُوا بِهَا أتم القيام، وهو دعوة الخلق إلى الله، والخشية منه وحده التي تقتضي فعل كل مأمور، وترك كل محظور، دل ذلك على أنه لا نقص فيه بوجه.

﴿وَكَانَ بِاللَّهِ حَسْبِيبًا﴾ محاسبًا عباده، مراقبًا أعمالهم. وعلم

من هذا، أن النكاح من سنن المرسلين.

(٤٠) ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ

(١) كذا في ب، وفي أ: للمستشار، ولعل الصواب ما أثبت - والله أعلم.

(٢) زيادة من ب. (٣) زيادة من ب.

سُورَةُ الْاِحْزَابِ

٤٢٤

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَةٌ لِّيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمٰتِ إِلَى النُّوْرِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيْمًا ۝ يَخَيَّبُهُمْ يَوْمَ يَقُوْنُهُ سَلٰمٌ ۙ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيْمًا ﴿٤٥﴾

النَّبِيِّ ۖ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيْرًا ﴿٤٦﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللّٰهِ بِإِذْنِهِ ۖ وَسِرَاجًا مُّبِيْرًا ﴿٤٧﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللّٰهِ فَضْلًا كَبِيْرًا ﴿٤٨﴾ وَلَا تُطِيعِ الْكٰفِرِيْنَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ ۚ وَدَعِ أَذْنَهُمْ ۚ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ وَكَفَىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلًا ﴿٤٩﴾

يٰٓأَيُّهَا الَّذِيْنَ ءَامَنُوا ۖ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنٰتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِّن قَبْلِ أَنْ تَمْسُوْهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوَّةٍ تَعْتَدُوْنَهَا ۚ فَمَتَّعُوْهُنَّ وَسَرَحُوْهُنَّ سَرَاحًا جَمِيْلًا ﴿٥٠﴾ يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ ۖ إِنَّا أَعْلَمْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِيْ ءَاتَيْتَ أَجُوْرَهُنَّ ۚ وَمَا مَلَكَتْ يَمِيْنُكَ مِمَّا ءَفَاءَ اللّٰهُ عَلَيْكَ ۚ وَبَنَاتِ عَمِكَ ۚ وَبَنَاتِ عَمَتِكَ ۚ وَبَنَاتِ خَالَكَ ۚ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِيْ هَاجَرْنَ مَعَكَ ۚ وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً ۖ إِن وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ۖ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ ۖ مِنْ دُوْنِ الْمُؤْمِنِيْنَ ۚ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِيْ أَزْوَاجِهِمْ ۚ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ ۚ لِكَيْلَا يَكُوْنَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۚ وَكَانَ اللّٰهُ غَفُوْرًا رَّحِيْمًا ﴿٥١﴾

بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَةٌ لِّيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمٰتِ إِلَى النُّوْرِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيْمًا ۝ يَخَيَّبُهُمْ يَوْمَ يَقُوْنُهُ سَلٰمٌ ۙ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيْمًا ﴿٤٥﴾

كثيراً، من تهليل وتحميد وتسبيح وتكبير وغير ذلك، من كل قول فيه قرينة إلى الله، وأقل ذلك أن يلزم الإنسان أوراد الصباح والمساء، وأدبار الصلوات الخمس، وعند العوارض والأسباب.

وينبغي مداومة ذلك في جميع الأوقات على جميع الأحوال، فإن ذلك عبادة يسبق بها العامل، وهو مستريح، وداع إلى محبة الله ومعرفته، وعون على الخير، وكف اللسان عن الكلام القبيح.

﴿وَسَيُخَوِّئُكُمْ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أي: أول النهار وآخره، لفضلهما وشرفهما، وسهولة العمل فبهما.

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَةٌ لِّيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمٰتِ إِلَى النُّوْرِ ۚ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيْمًا﴾ أي: من رحمته بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من صلواته عليهم وثائمه، وصلاح ملائكته ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات الذنوب والجهل إلى نور الإيمان والتوفيق والعلم والعمل. فهذه أعظم نعمة أنعم بها على العباد الطائعين، تستدعي منهم شكرها، والإكثار من ذكر الله الذي لطف بهم ورحمهم، وجعل حملة عرشه أفضل الملائكة، ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين ءَامَنُوا فيقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِيْنَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيْلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيْمِ ۚ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ الَّتِيْ وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ ۚ وَقِهِمُ السَّخٰتَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّخٰتَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُمْ وَذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيْمُ﴾. فهذه رحمته ونعمته عليهم في الدنيا.

وأما رحمته بهم في الآخرة، فأجل رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا ربهم وتحيته، واستماع كلامه الجليل، ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر الكبير الذي لا يدري ولا يعرف كنهه إلا مَنْ أعطاهم إياه، ولهذا قال: ﴿يَخَيَّبُهُمْ يَوْمَ يَقُوْنُهُ سَلٰمٌ ۙ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيْمًا﴾.

(٤٥-٤٨) ﴿يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ ۖ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيْرًا ۚ وَدَاعِيًا إِلَى اللّٰهِ بِإِذْنِهِ ۖ وَسِرَاجًا مُّبِيْرًا ۚ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِّنَ اللّٰهِ فَضْلًا كَبِيْرًا ۚ وَلَا تُطِيعِ الْكٰفِرِيْنَ وَالْمُنٰفِقِيْنَ ۚ وَدَعِ أَذْنَهُمْ ۚ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ وَكَفَىٰ بِاللّٰهِ وَكِيلًا﴾ هذه الأشياء التي وصف الله بها رسوله محمداً ﷺ، هي المقصود من رسالته وزبدتها وأصولها التي اختص بها، وهي خمسة أشياء:

أحدها: كونه ﴿شَهِدًا﴾ أي: شاهداً على أمته بما عملوه من خير وشر، كما قال تعالى: ﴿لِنُكَبِّرُنَا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُوْنُ الرَّسُوْلُ عَلَيْكُمْ شَهِدًا﴾ ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ فهو ﷺ شاهد عدل مقبول.

الثاني والثالث: كونه ﴿مُبَشِّرًا وَنَذِيْرًا﴾ وهذا يستلزم ذكر المبشر والمنذر، وما يبشر به وينذر بالأعمال الموجبة لذلك. فالمبشِّر، هم المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وترك المعاصي، لهم البشرية في الحياة الدنيا، بكل ثواب دنيوي وديني، رتب على الإيمان والتقوى، وفي الآخرة بالنعيم المقيم.

وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل المذكور من تفاصيل الأعمال وخصال التقوى وأنواع الثواب. والمنذَر هم المجرمون الظالمون، أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية المرتبة على الجهل والظلم. وفي الآخرة بالعقاب الويل والعذاب الطويل.

سبيل الله .

ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، [بل لا تطعمهم ﴿وَدَعَ أَدْنَهُمْ﴾] (٣) فإن ذلك، جالب لهم، وداع إلى قبول الإسلام، وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله .
﴿وَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ في إتمام أمرك، وخذلان عدوك ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ وَكَيْلًا﴾ توكل إليه الأمور المهمة، فيقوم بها، ويسهلها على عبده .

(٤٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدْوٍ تَعْدُونَهَا فَمَعُوهُنَّ وَسِرَّوهُنَّ سَرَامًا جَمِيلًا﴾ يخبر تعالى المؤمنين، أنهم إذا نكحوا المؤمنات، ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة يعتدها (٤) أزواجهن عليهن . وأمرهم بتمتعهن (٥) بهذه الحالة، بشيء من متاع الدنيا، الذي يكون فيه جبر لخواطرهن، لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقًا جميلًا من غير مخاصمة، ولا مشاتمة، ولا مطالبة، ولا غير ذلك .

ويستدل بهذه الآية، على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح، فلو طلقها قبل أن ينكحها، أو علق طلاقها على نكاحها، لم يقع، لقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ فجعل الطلاق بعد النكاح . فدل على أنه قبل ذلك لا محل له .
وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة، وتحريم تام، لا يقع قبل النكاح، فالتحريم الناقص، لظهار أو إيلاء ونحوه، من باب أولى وأحرى، أن لا يقع قبل النكاح، كما هو أصح قولي العلماء .

ويدل على جواز الطلاق، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، على وجه لم يلهم عليه ولم يؤنبهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين . وعلى جوازه قبل المسيس، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ﴾ وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدة لها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج، حيث لا مانع، وعلى أن عليها العدة بعد الدخول .

وهل المراد بالدخول والمسيس الوطء، كما هو مُجْمَع عليه؟ -أو- وكذلك الخلوة، ولو لم يحصل معها وطاء، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح . فمن دخل عليها، وطئها أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العدة .
وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع، على الموسع قدره،

(١) في ب: يشوقهم . (٢) كذا في ب، وفي أ: جهاتها . (٣) زيادة من ب . (٤) كذا في السخين، ولعل الصواب: تعتدها . (٥) كذا في ب، وفي أ: بتمتعن .

وهذه الجملة تفصيلها ما جاء به ﴿كَلِمَةً مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الْمُشْتَمَلِ عَلَى ذَلِكَ﴾ .

الرابع: كونه ﴿ذَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ أي: أرسله الله يدعو الخلق إلى ربه، ويسوقهم (١) لكرامته، ويأمرهم بعبادته التي خلقوا لها . وذلك يستلزم استقامته على ما يدعو إليه، وذكر تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لرهبهم بصفاته المقدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام . وذلك كله بإذن الله تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره .

الخامس: كونه ﴿سِرَاجًا مُنِيرًا﴾ وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يهتدي به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها (٢) . حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضلًا إلى الصراط المستقيم .

فأصبح أهل الاستقامة قد وضع لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة .

وقوله: ﴿وَيَسِّرَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ ذكر في هذه الجملة المبشر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة .

وذكر المبشر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكروب، وكثرة الأرزاق الدائرة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه .

وهذا مما ينشط العاملين، أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم، ما به يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع، كما أن من حكمه، أن يذكر في مقام التهيب، العقوبات المترتبة على ما يرهب منه، ليكون عونًا على الكف عما حرم الله .

ولما كان ثم طائفة من الناس، مستعدة للقيام بصد الداعين إلى الله، من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون، الذين أظهروا الموافقة في الإيمان، وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهرًا وباطنًا، نهى الله رسوله عن طاعتهم، وحذره ذلك، فقال: ﴿وَلَا تَطِيعُ الْكٰفِرِينَ وَالتَّنٰفِقِيْنَ﴾ أي: في كل أمر يصد عن

وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر، فإن كان لها مهر مفروض، فإنه إذا طلق قبل الدخول، تَنَصَّفَ المهر، وكفى عن المتعة. وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده، أن يكون الفراق جميلاً، يحمد فيه كل منهما الآخر. ولا يكون غير جميل، فإن في ذلك من الشر المرتب عليه، من قذح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدة حق للزوج لقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدْوٍ﴾ دل مفهومه، أنه لو طلقها بعد المسيس، كان له عليها عدة. [وعلى أن المفارقة بالوفاة تعدد مطلقاً، لقوله: ﴿ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ﴾ الآية^(١)]. وعلى أن من عدا غير المدخول بها، من المفارقات من الزوجات، بموت أو حياة، عليهن العدة.

(٥٠) ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَايَتَ أُجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ وَنِسَاءَ عَمِكَ وَنِسَاءَ عَمَّتِكَ وَنِسَاءَ خَالَكِ وَنِسَاءَ خَلْنِكَ الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ وَأَدْرَأَهُ مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يقول تعالى مبتثلاً على رسوله بإحلاله له ما أحل، مما يشترك هو والمؤمنون، وما يفرد به ويختص: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَايَتَ أُجْرَهُنَّ﴾ أي: أعطيتهن مهورهن، من الزوجات. وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين، [فإن المؤمنين]^(٢) كذلك، يباح لهم ما^(٣) أتوهن أجورهن من الأزواج.

﴿و﴾ كذلك أحللتنا لك ﴿مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: الإماء التي ملكت ﴿مِمَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ﴾ من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، ومن لا زوج لهن، وهذا أيضاً مشترك.

وكذلك من المشترك، قوله: ﴿وَنِسَاءَ عَمِكَ وَنِسَاءَ عَمَّتِكَ وَنِسَاءَ خَالَكِ وَنِسَاءَ خَلْنِكَ﴾ شمل العم والعمة، والخال والخالة، القريبين والبعيدين، وهذا حصر المحللات.

يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب، غير محلل، كما تقدم في سورة النساء، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء، غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، فروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح.

وقوله: ﴿الَّتِي هَاجَرَ مَعَكَ﴾ قيد لحل هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية. وأما غيره عليه

الصلاة والسلام، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة. ﴿و﴾ أحللتنا لك ﴿امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ بمجرد هبتها نفسها ﴿إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا﴾ أي: هذا تحت الإرادة والرغبة ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: إباحة الموهبة^(٤). وأما المؤمنون، فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: قد علمنا ما على المؤمنين، وما يحل لهم، وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين. وقد علمناهم بذلك، وبيننا فرائضه.

فما في هذه الآية، مما يخالف ذلك، فإنه خاص لك، لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده بقوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنْ أَحَلَّلْنَا لَكَ﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [أي: ^(٥) وأبنا لك يا أيها النبي ما لم نبح لهم، ووسعنا لك ما لم نوسع على غيرك ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ أي: لم يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجوده وإحسانه، ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

(٥١) ﴿تُرْجَىٰ مِنْ نِسَاءِ مَنَّهُنَّ وَتَوَوَّىٰ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءِ وَمَنْ أَبْنَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَرَضِيَتْ يَمًا أَبْيَتَهُنَّ كَلِهِنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته، على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك، فهو تبرع منه. ومع ذلك، فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك».

فقال هنا: ﴿تُرْجَىٰ مِنْ نِسَاءِ مَنَّهُنَّ﴾ [أي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبيت عندها]^(٦) ﴿وَتَوَوَّىٰ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ﴾ أي: تضمها وتبيت عندها.

﴿و﴾ مع ذلك لا يتعين هذا الأمر ﴿مَنْ أَبْنَيْتَ﴾ أي: تؤويها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله.

لوقال كثير من المفسرين: إن هذا خاص بالواهبات، له أن يرجي من يشاء، ويؤوي من يشاء. أي: إن شاء قبل من

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة من ب. (٣) كذا في أ، وفي ب: من.

(٤) في ب: الموهوبة. (٥) زيادة يقتضيها السياق. (٦) زيادة من ب.

وهبت نفسها له، وإن شاء لم يقبلها، والله أعلم^(١).

ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ﴾ أي: التوسعة عليك، وكون الأمر راجعاً إليك ويبدك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك ﴿أَدَّى أَنْ تَقْرَأَ عَيْتَهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُنَّ﴾ لعلمهن أنك لم تترك واجباً، ولم تفرط في حق لازم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: ما يعرض لها عند أداء الحقوق الواجبة والمستحبة، وعند المزاحمة في الحقوق، فلذلك شرع لك التوسعة يا رسول الله، لتطمئن قلوب زوجاتك.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ أي: واسع العلم، كثير الحلم. ومن علمه أن شرع لكم ما هو أصلح لأموركم، وأكثر لأجوركم. ومن حلمه أن لم يعاقبكم بما صدر منكم، وما أصرت عليه قلوبكم من الشر.

(٥٢) ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَرْوَاحٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ وهذا شكر من الله، الذي لم يزل شكوراً لزوجات رسوله، رضي الله عنهن، حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، أن رحمهن، وقصر رسوله عليهن فقال: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ زوجاتك الموجودات ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَرْوَاحٍ﴾ أي: ولا تطلق بعضهن، فتأخذ بدلهما.

فحصل بهذا، أمنهن من الضرائر، ومن الطلاق، لأن الله قضى أنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، لا يكون بينه وبينهن فرقة.

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي: حسن غيرهن، فلا يحلن لك ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ أي: السراري، فذلك جائز لك، لأن المملوكات في كراهة الزوجات، لسن بمنزلة الزوجات في الإضرار للزوجات ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ أي: مراقباً للأمر وعالمًا بما إليه تؤول، وقائماً بتدبيرها على أكمل نظام، وأحسن إحكام.

(٥٣، ٥٤) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَدْخُلُوا بِيُوتِ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِ بْنِ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِجِدِيَّتِ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيِّ فَيَسْتَجِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِي مِنْ الْعَقَىٰ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَرْوَاحَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ۝ إِنَّ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين، بالتأدب مع

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

٤٢٥

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

﴿تُرْجَىٰ مِنْ نَشَأٍ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَىٰ إِلَيْكَ مِنْ نَشَأٍ وَمَنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدَّى أَنْ تَقْرَأَ عَيْتَهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُنَّ﴾ لعلمهن والله يعلم ما في قلوبكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾ ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَرْوَاحٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَدْخُلُوا بِيُوتِ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرِ بْنِ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِجِدِيَّتِ إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيِّ فَيَسْتَجِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِي مِنْ الْعَقَىٰ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَرْوَاحَهُنَّ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

رسول الله ﷺ، في دخول بيوته فقال: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَدْخُلُوا بِيُوتِ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ أي: لا تدخلوها بغير إذن للدخول فيها لأجل الطعام. وأيضا لا تكونوا ﴿نَظِيرِ بْنِ إِنَّهُ﴾ أي: منتظرين، ومتأنين لا انتظار نضجه، أو سعة صدر بعد الفراغ منه.

والمعنى: أنكم لا تدخلوا بيوت النبي إلا بشرطين: الإذن لكم بالدخول، وأن يكون جلوسكم بمقدار الحاجة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ لِجِدِيَّتِ﴾ أي: قبل الطعام وبعده.

ثم بين حكمة النهي وفائدته فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ أي: انتظاركم الزائد على الحاجة ﴿كَانَ يُؤْذَى النَّبِيِّ﴾ أي: يتكلف منه ويشق عليه حبسكم إياه عن شؤون بيته، واشتغاله فيه ﴿فَيَسْتَجِي مِنْكُمْ﴾ أن يقول لكم: «اخرجوا» كما هو جاري العادة، أن الناس - وخصوصاً أهل الكرم منهم - يستحيون أن يخرجوا الناس من مساكنهم.

(١) زيادة من هامش ب وفي بعض الكلمات عدم وضوح، وتم تصويبها من الطبعة السلفية.

﴿و﴾ لكن ﴿اللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي﴾ مِنْ الْحَقِّ^١.
فالأمر الشرعي، ولو كان يتوهم أن في تركه أدبًا وحياءً، فإن الحزم كل الحزم، اتباع الأمر الشرعي، وأن يجزم أن ما خالفه، ليس من الأدب في شيء. والله تعالى لا يستحي أن يأمركم بما فيه الخير لكم، والرفق لرسوله كائنًا ما كان.

فهذا أدبهم في الدخول في بيوتهم، وأما أدبهم معه في خطاب زوجاته، فإنه إما أن يحتاج إلى ذلك، أم لا يحتاج إليه، فإن لم يحتج إليه، فلا حاجة إليه، والأدب تركه، وإن احتج إليه، كأن يسألن متاعًا، أو غيره من أواني البيت أو نحوها، فإنهن يسألن ﴿مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: يكون بينكم وبينهن ستر يستر عن النظر، لعدم الحاجة إليه.

فصار النظر إليهن ممنوعًا بكل حال، وكلامهن فيه التفصيل الذي ذكره الله. ثم ذكر حكمة ذلك بقوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَظْهَرَ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبَهُنَّ﴾ لأنه أبعد عن الريبة. وكلما بعد الإنسان عن الأسباب الداعية إلى الشر، فإنه أسلم له، وأظهر لقلبه.

فلهذا، من الأمور الشرعية التي بين الله كثيرًا من تفاصيلها، أن جميع وسائل الشر وأسبابه ومقدماته، ممنوعة، وأنه مشروع البعد عنها بكل طريق.

ثم قال كلمة جامعة وقاعدة عامة: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ يا معشر المؤمنين، أي: غير لائق ولا مستحسن منكم، بل هو أقبح شيء. ﴿أَنْ تُزْوَا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي: أذية قولية أو فعلية، بجميع ما يتعلق به ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا زَوْجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ هذا من جملة ما يؤديه، فإنه ﷺ له مقام التعظيم والرفعة والإكرام، وتزوج زوجاته [بعده]^(١)، مخل بهذا المقام.

أيضًا، فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجية باقية بعد موته، ولذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده، لأحد من أمته ﴿إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، والله الحمد والشكر.
ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا﴾ أي: تظهروه ﴿أَوْ تَخْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَتْ يَكْفُلُ شَيْئًا عَلِيمًا﴾ يعلم ما في قلوبكم، وما أظهرتموه، فيجازيكم عليه.

(٥٥) ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِ أَخْوَانِهِمْ وَلَا نِسَائِهِمْ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَأَقْرَبِينَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ كَانَتْ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لما ذكر أنهم لا يسألن متاعًا إلا من وراء حجاب، وكان اللفظ عامًا لكل أحد^(٢) احتج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون من المحارم، وأنه ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ في عدم الاحتجاب عنهم.

ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال، لأنهم إذا لم يحتجبن عمن هن عماتهن ولا (٣) خالاتهن، من أبناء الإخوة والأخوات، مع رفعتهن عليهم، فعدم احتجابهن عن عمهن وخالهن من باب أولى، ولأن منطوق الآية الأخرى، المصرحة بذكر العم والخال مقدمة، على ما يفهم من هذه الآية.

وقوله: ﴿وَلَا نِسَائِهِمْ﴾ أي: لا جناح عليهن ألا يحتجبن عن نساتهن أي: اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك مخرجًا لنساء الكفار. ويحتمل أن المراد جنس النساء، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ ما دام العبد في ملكها جميعه.

ولما رفع الجناح عن هؤلاء، شرط فيه وفي غيره، لزوم تقوى الله، وأن لا يكون في محذور شرعي فقال: ﴿وَأَقْرَبِينَ اللَّهُ﴾ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ يشهد أعمال العباد، ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم، ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

(٥٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ ورفعة درجته، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره. و ﴿إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَمَلَائِكَتُهُ يُصَلُّونَ﴾ عليه أي: ينشي الله عليه بين الملائكة، وفي الملائكة الأعلى، لمحبته تعالى له، وتشي عليه الملائكة المقربون، ويدعون له ويتضرعون.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلًا لإيمانكم، وتعظيمًا له ﷺ، ومحبة وإكرامًا، وزيادة في حسناتكم، وتكفيرًا من سيئاتكم.

وأفضل هيئات الصلاة عليه - عليه الصلاة والسلام - ما علم به أصحابه «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد». وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجه كثير من العلماء في الصلاة.

(١) زيادة من ب. (٢) زيادة من ب. (٣) في ب: بدون (لا) وهو الأقرب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٢٦

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَسْتَبَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا مَمْلُوكَاتٍ أَيْمَنْتُمْ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَبْنَا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْبِرْنَ عَلَيْكُمْ مَن جَلَسِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ لَئِن لَّرَبِّنَا لَمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تَقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْبِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾

بأن يبين لكم الأحكام، وأوضح الحلال والحرام، فهذا سد للباب من جهتهم.

وأما من جهة أهل الشرف فقد توعدهم بقوله: ﴿لَئِن لَّرَبِّنَا لَمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي: مرض شك أو شهوة ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ أي: المخوفون المرهبون الأعداء، المُحَدَّثُونَ^(٤) بكثرتهم وقوتهم، وضعف المسلمين.

ولم يذكر المعمول الذي ينتهون عنه، ليعم ذلك كل ما توحى به أنفسهم إليهم وتوسوس به وتدعو إليه من الشر، من التعريض بسبب الإسلام وأهله، والإرجاف بالمسلمين، وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة، وغير ذلك من المعاصي الصادرة من أمثال هؤلاء.

﴿لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم، ونسلطك عليهم. ثم إذا فعلنا ذلك، لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً، بأن تقتلهم أو تنفيهم.

(١) زيادة من ب. (٢) في ب: يتحتم. (٣) زيادة من هامش ب. (٤) في ب: المتحدثون.

أذيته، وتوعد عليها فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا يشمل كل أذية، قولية أو فعلية، من سب وشتم، أو تنقص له، أو لدننه، أو ما يعود إليه بالأذى ﴿لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا﴾ أي: أبعدهم وطردهم، ومن لعنهم [في الدنيا]^(١)، أنه يحتمل^(٢) قتل من شتم الرسول ﷺ وآذاه.

﴿وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ جزاء له على آذاه، أن يؤذى بالعذاب الأليم، فأذية الرسول ليست كأذية غيره، لأنه - ﷺ - لا يؤمن العبد بالله، حتى يؤمن برسوله ﷺ. وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان، ما يقتضي ذلك أن لا يكون مثل غيره.

وإن كانت أذية المؤمنين عظيمة، وإثمها عظيمًا، ولهذا قال فيها: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَتَبْنَا﴾ أي: بغير جنابة منهم موجبة للأذى ﴿فَقَدِ احْتَمَلُوا﴾ على ظهورهم ﴿بُهْتَانًا﴾ حيث آذوهم بغير سبب ﴿وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ حيث تعدوا عليهم، وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها. ولهذا كان سب أحاد المؤمنين موجبًا للتعزير، بحسب حالته وعلو مرتبته، فتعزير من سب الصحابة أبلغ، وتعزير من سب العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم.

(٥٩-٦٢) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْبِرْنَ عَلَيْكُمْ مَن جَلَسِيهِنَّ ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ لَئِن لَّرَبِّنَا لَمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٩﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تَقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَقْبِيلًا ﴿٦٠﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦١﴾ هذه الآية التي تسمى آية الحجاب، فأمر الله نبيه، أن يأمر النساء عموماً، ويبدأ بزوجاته وبناته، لأنهن أكد من غيرهن، ولأن الأمر [لغيره]^(٣) ينبغي أن يبدأ بأهله قبل غيرهم، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾.

أن ﴿يُدْبِرْنَ عَلَيْكُمْ مَن جَلَسِيهِنَّ﴾ وهن اللاتي يكن فوق الثياب من ملحفة وخمار ورداء ونحوه، أي: يغطين بها وجوههن وصدورهن.

ثم ذكر حكمة ذلك فقال: ﴿ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ﴾ دل على وجود أذية، إن لم يحتجبن، وذلك لأنهن إذا لم يحتجبن، ربما ظن أنهن غير عفيفات، فيتعرض لهن من في قلبه مرض فيؤذيهن، وربما استهين بهن، وظن أنهن إماء، فتهاون بهن من يريد الشر. فالاحتجاب حاسم لمطامع الطامعين فيهن.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ حيث غفر لكم ما سلف ورحمكم،

العذاب، واستحققنا - كالمطيعين - جزيل الثواب. ولكن أمنية فات وقتها، فلم تقدمهم إلا حسرةً وندماً، وهماً، وغماً، وألماً.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا وَقُلَدْنَاهُمْ عَلَىٰ ضَلَالِهِمْ ﴿٦٣﴾ فَاصْبِرْنَا لِسَيِّئَاتِنَا﴾ كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ لِرَبِّكَ أَتَّخِذُ فَلَانًا خَلِيلًا ۝ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾ الآية.

ولما علموا أنهم هم وكبراءهم مستحقون للعقاب، أرادوا أن يشفوا ممن أضلهم، فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِثْرًا مِّمَّا أَكْرَمْتَ لِيُنظَرُوا فِي الْعَذَابِ وَالْعَنْتِمْ لَعْنَا كَبِيرًا﴾ فيقول الله: لكل ضعف، فكلكم اشتركتم في الكفر والمعاصي، فتشتركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

(٦٩) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ، النبي الكريم، الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران، كليم الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية، أي أظهر الله لهم براءته. والحال أنه عليه الصلاة والسلام، ليس محل التهمة والأذية، فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عباده المخلصين؛ فلم يجرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره، فاحذروا أيها المؤمنون، أن تتشبهوا بهم في ذلك.

والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى (٧)، لَمَّا رَأَوْا شِدَّةَ حَيَاتِهِ وَتَسْتَرَهُ عَنْهُمْ: «إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه أدر» أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاعتسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأهورى موسى عليه السلام في طلبه، فمرّ به على مجالس بني إسرائيل، فأراه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به.

(٧٠، ٧١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، في جميع أحوالهم، في السر والعلانية، ويخص منها، ويندب للقول السديد، وهو

وهذا فيه دليل، لنفي أهل الشر، الذين يتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر وأبعد منه، ويكونون ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تَقِفُوا أَخْذُوا وَقِيلُوا تُحْتَبَلًا﴾ أي: مبعدين، أين (١) ووجدوا، لا يحصل لهم أمن، ولا يقر (٢) لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يُجسبوا، أو يعاقبوا.

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾ أن من تمادى في العصيان، وتجراً على الأذى، ولم ينته منه، فإنه يعاقب عقوبة بليغة ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: تغييراً، بل سنّة الله تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها (٣).

(٦٣-٦٨) ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِكُ لَمَلِ السَّاعَةِ تَكُونُ قَرِيبًا ۝ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ يَوْمَ تَقَلَّبَ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۝ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَصْحَبْنَا السَّيِّئَاتِ ۝ رَبَّنَا آتِنَاهُمْ مِثْرًا مِّمَّا أَكْرَمْتَ لِيُنظَرُوا فِي الْعَذَابِ وَالْعَنْتِمْ لَعْنَا كَبِيرًا﴾ أي يستخبرك الناس عن الساعة استعجالاً لها، وبعضهم تكديباً لوقوعها، وتعمييراً للذي أخبر بها ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: لا يعلمها إلا الله، فليس لي ولا لغيري بها علم. ومع هذا، فلا (٤) تستبطنوها.

﴿وَمَا يُدْرِكُ لَمَلِ السَّاعَةِ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ ومجرد مجيء الساعة، قرباً وبعداً، ليس تحته نتيجة ولا فائدة، وإنما النتيجة، والخسار والربح، والشقاوة (٥) والسعادة، هل يستحق العبد العذاب، أو يستحق الثواب؟ فهذه سأخبركم بها، وأصف لكم مستحقها.

فوصف مستحق العذاب، ووصف العذاب، لأن الوصف المذكور منطبق على هؤلاء المكذبين بالساعة، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكٰفِرِينَ﴾ [أي: (١)] الذين صار الكفر دأبهم وطريقتهم الكفر بالله وبرسوله، وبما جاءوا به من عند الله، فأبعدهم في الدنيا والآخرة من رحمته، وكفى بذلك عقاباً.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ أي: ناراً موقدة، تسعر في أجسامهم، ويبلغ العذاب إلى أفئدتهم، ويخلدون في ذلك العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يُغْفَرُ عنهم ساعة. ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ لهم ﴿وِلِيًّا﴾ فيعطيهما ما طلبوه ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم العذاب.

بل قد تخلى عنهم الولي والنصير، وأحاط بهم عذاب السعير، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تَقَلَّبَ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ فيذوقون حرها، ويشتد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا.

﴿يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ فسلمنا من هذا

(١) في ب: حيث. (٢) كذا في ب، وفي أ: ولا يقر. (٣) كذا في النسخين، ولعله - والله أعلم - المقتضية لمسبأها. (٤) كذا في ب، وفي أ: قد. (٥) في ب: والشقاوة. (٦) زيادة من ب. (٧) في ب: عن موسى.

القول الموافق للصواب، أو المقارب له، عند تعذر اليقين، من قراءة، وذكر، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وتعلم علم وتعليمه، والحرص على إصابة الصواب، في المسائل العلمية، وسلوك كل طريق موصل لذلك، وكل وسيلة تُعين عليه.

ومن القول السديد، لين الكلام ولطفه في مخاطبة الأنام، والقول المتضمن للصح والإشارة بما هو الأصلح.

ثم ذكر ما يترتب على تقواه وقول القول السديد فقال: ﴿يُصَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ﴾ أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها، وطريقاً لقبولها؛ لأن استعمال التقوى، تتقبل به الأعمال، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال [أيضاً]، بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفته، كما أن الإحلال بالتقوى والقول السديد سبب لفساد الأعمال، وعدم قبولها، وعدم ترتب آثارها عليها.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أيضاً ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾ التي هي السبب في هلاككم، فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

(٧٣، ٧٢) ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾
﴿يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يعظم تعالى شأن الأمانة، التي اتتمن الله عليها المكلفين، التي هي امثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السموات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحميم، وأنتك إن قمت بها وأدبتيها على وجهها، فلك الثواب، وإن لم تقومي بها، [ولم تؤدبها]، فعليك العقاب.

﴿فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي خوفاً أن لا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصياناً لربهن، ولا زهداً في ثوابه.

وعرضها الله على الإنسان، على ذلك الشرط المذكور، لقبيلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل. فانقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه - إلى ثلاثة أقسام: منافقون: أظهروا أنهم قاموا بها ظاهراً لا باطناً، ومشركون: تركوها ظاهراً وباطناً، ومؤمنون: قائمون بها ظاهراً وباطناً.

فذكر الله تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة، وما لهم من

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ

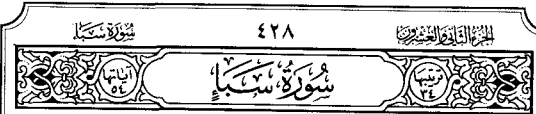
٤٢٧

سُورَةُ الْأَحْزَابِ

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكُفْرِينَ وَاعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وِلْيَةً وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تَقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالنَّهْمِ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

الثواب والعقاب، فقال: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. فله الحمد تعالى، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه.

تم تفسير سورة الأحزاب بحمد الله وعونه.



تفسير سورة سبأ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفُورٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ هُمْ هُمُ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ ﴿٥﴾ وَبَرَىٰ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِقْتُمْ كُلٌّ مَزِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

(١، ٢) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿١﴾ الحمد: الثناء بالصفات الحميدة، والأفعال الحسنة، فله تعالى الحمد، لأن جميع صفاته يحمد عليها، لكونها صفات كمال، وأفعاله يحمد عليها، لأنها دائرة بين الفضل الذي يحمد عليه ويشكر، والعدل الذي يحمد عليه ويعترف بحكمته فيه.

وحمد نفسه هنا، على أن ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ملكاً وعبداً، يتصرف فيهم بحمده ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَخِرَةِ﴾ لأن في الآخرة، يظهر من حمده والثناء عليه ما لا يكون في الدنيا. فإذا قضى الله تعالى بين الخلائق كلهم، ورأى الناس والخلق كلهم ما حكم به، وكمال عدله وقسطه، وحكمته فيه، حمدوه كلهم على ذلك. حتى أهل العقاب ما دخلوا النار، إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم.

وأما ظهور حمده في دار النعيم والثواب، فذلك شيء قد تواردت به الأخبار، وتوافق عليه الدليل السمعي والعقلي. فإنهم في الجنة، يرون من توالي نعم الله، وإدراك خيره، وكثرة بركاته، وسعة عطاياه، التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية، ولا إرادة، إلا وقد أعطي فوق ما تمنى وأراد، بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيتهم، ولم يخطر بقلوبهم.

فما ظنك بحمدهم لربهم في هذه الحال، مع أن في الجنة تضمحل العوارض والقواطع، التي تقطع عن معرفة الله ومحبته، والثناء عليه، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم، وألذ عليهم من كل لذة.

ولهذا إذا رأوا الله تعالى، وسمعوا كلامه عند خطابه لهم، أذهلهم ذلك عن كل نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة كالتفلس، متواصلًا في جميع الأوقات.

هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة، في الجنة كل وقت، من عظمة ربهم وجلاله وجماله وسعة كماله، ما يوجب لهم كمال الحمد والثناء عليه.

﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ في ملكه وتدييره، الحكيم في أمره ونهيه ﴿الْخَبِيرُ﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفاياها. ولهذا فصل علمه بقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِيحُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: من مطر، وبذر، وحيوان ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من أنواع النباتات، وأصناف الحيوانات ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الأملاك والأرزاق والأقدار ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ من الملائكة والأرواح وغير ذلك.

ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها، وعلمه بأحوالها، ذكر مغفرته ورحمته لها، فقال: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ أي: الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تنزل آثارهما تنزل على عباده كل وقت بحسب ما قاموا به من مقتضياتهما.

(٣-٥) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفُورٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ هُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ ﴿٢﴾ لما بين تعالى، عظمته بما وصف به نفسه، وكان

فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

﴿و﴾ يرون أيضًا أنه في أوامره ونواهيهِ ﴿يَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة:

من جهة علمهم، بصدق من أخبر به.

ومن جهة موافقته للأمر الواقعة، والكتب السابقة.

ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها التي تقع عياناً.

ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق، وفي أنفسهم.

ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تركي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره كالصدق والإخلاص وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنتهي عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال، والأعراض.

وهذه منقبة لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيهِ، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها.

(٧-٩) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَغِيكَمْ إِذَا مُرِفْتُمْ كُلِّ مُمْرِقٍ لِنَاكُمْ لَنِي خَلْقِي جَدِيدٍ ۚ أَفَرَأَيْتَ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ حِفْظٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۚ أَفَرَأَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِمَّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأُ نَحْصِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَسُفِّطَنَّاهُمْ كَيْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۚ أَيْ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد وذكر وجه الاستبعاد. أَيْ: قال بعضهم لبعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكَ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَغِيكَمْ إِذَا مُرِفْتُمْ كُلِّ مُمْرِقٍ لِنَاكُمْ لَنِي خَلْقِي جَدِيدٍ﴾ يعنون بذلك الرجل، رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار - بزعمهم - فرجة يفرجون عليه، وأعجوبة يستخرون منه، وأنه كيف يقول: «إنكم مبعوثون» بعد ما مزقكم البلى، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟!

فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل ﴿أَفَرَأَيْتَ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا﴾

هذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به، ذكر أن من أصناف الناس، طائفة لم تقدر ربها حق قدره، ولم تعظمه حق عظمتها، بل كفروا به، وأنكروا قدرته على إعادة الأموات، وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ: بالله وبرسله، وبما جاءوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ أَيْ: ما هي، إلا هذه الحياة الدنيا، نموت ونحيا. فأمر الله رسوله، أن يرد قولهم ويبطله، ويقسم على البعث، وأنه سيأتيهم، واستدل على ذلك بدليل من أقر به، لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام فقال: ﴿عَلَيْهِ الْعَيْبُ﴾ أَيْ: الأمور الغائبة عن ألبصارنا وعن علمنا، فكيف بالشهادة!

ثم أكد علمه فقال: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ أَيْ: لا يغيب عن علمه ﴿وَمِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أَيْ: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها.

﴿وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أَيْ: قد أحاط به علمه، وجرى به قلمه، وتضمنه الكتاب المبين، الذي هو اللوح المحفوظ. فالذي لا يخفى عن علمه مثقال الذرة فما دونه، في جميع الأوقات، ويعلم^(١) ما تنقص الأرض من الأموات، وما يبقى من أجسادهم، قادر على بعثهم، من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

ثم ذكر المقصود من البعث، فقال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم، صدقوا الله، وصدقوا رسله تصديقاً جازماً ﴿وَوَكَّلُوا أَمْثَلِيحَاتٍ﴾ تصديقاً لإيمانهم ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم، يندفع بها كل شر وعقاب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ بإحسانهم، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا عَلَيْنَا مَغْجِرِينَ﴾ أَيْ: سعوا فيها كفراً بها، وتعجيزاً لمن جاء بها، وتعجيزاً لمن أنزلها، كما عمزوه في الإعادة بعد الموت ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْحِ أَلِيمٍ﴾ أَيْ: مؤلم لأبدانهم، وقلوبهم.

(٦) ﴿وَيُرَىٰ الَّذِينَ أَوْفُوا أَلْعَلَمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ لما ذكر تعالى إنكار مَنْ أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموقنين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق أي: الحق منحصراً فيه، وما خالفه وناقضه

فتجرأ عليه وقال ما قال، ﴿أَمْ بِهِ جِنَّةٌ﴾؟ فلا يستغرب منه، فإن الجنون فنون.

وكل هذا منهم على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم، أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبدلوا أنفسهم وأموالهم، في صد الناس عنه؛ فلو كان كاذبًا مجنونًا لم ينبغ لكم - يا أهل العقول غير الزاكية - أن تصغوا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون، لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره، أو يبلغ قوله منه كل مبلغ. ولولا عنادكم وظلمكم، لبادرتم لإجابته، ولتبيتم دعوته، ولكن «ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ ومنهم الذين قالوا تلك المقالة ﴿فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ أي: في الشقاء العظيم، والضلال البعيد، الذي ليس بقريب من الصواب. وأي شقاء وضلال أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزائهم به، وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق، فرأوا الحق باطلاً، والباطل والضلال حقًا وهدى.

ثم نبههم على الدليل العقلي، الدال على عدم استبعاد البعث، الذي استبعده، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فرأوا من قدرة الله فيهما، ما يبهر العقول، ومن عظمتها ما يذهل العلماء الفحول، وأن خلقهما وعظمتها وما فيهما من المخلوقات، أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم، فما الحامل لهم على ذلك التكذيب، مع التصديق بما هو أكبر منه؟ نعم، ذلك خبر غيبي إلى الآن، ما شاهدوه، فلذلك كذبوا به.

قال الله: ﴿إِنْ نَشَأْ نُخَيِّفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ أي: من العذاب، لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا، فإن أمرناهما لم يستعصيا، فاحذروا إصراركم على تكذيبكم، فتعاقبكم أشد العقوبة ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: خلق السموات والأرض، وما فيهما من المخلوقات ﴿لَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ﴾.

فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله، كان انتفاعه بالآيات أعظم، لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار قريبًا من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمرضاته، فيكون نظره للمخلوقات، نظر فكرة وعبرة، لا نظر غفلة غير نافعة.

(١٠، ١١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَلُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرَ

الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا ۗ إِنَّكَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٤٢٩﴾

أَفَتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ شَأْنَهُمْ خَفِيفٌ عَلَيْهِمْ أَوْ سَقَطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّبِينٍ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجْعَلُ أَوْبَىٰ مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صِلْحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَسَلَّمْنَا الرِّيحَ غَدًا هَاشِرًا وَرَوَّاحًا شَهْرًا وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَّحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا فَضَّيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خِرَّ تَتِبَتْ الْجَنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

وَأَنَّا لَهُ الْحَدِيدُ ۝ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صِلْحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٨﴾ أي: ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلًا من العلم النافع، والعمل الصالح، والتَّعَمُّدَ الدِّينِيَّةَ وَالدُّنْيَوِيَّةَ. ومن نَعَمه عليه، ما خصه به من أمره تعالى الجمادات، كالجبال، والحيوانات من الطيور، أن تُؤَوَّبَ معه، وتُرْجَعَ التَّسْبِيحَ بِحَمْدِ رَبِّهَا مَجَاوِبَةً له.

وفي هذا من النعمة عليه، أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منحصراً له ولغيره على التسبيح إذا رآوا هذه الجمادات والحيوانات، تتجاوب بتسبيح ربها، وتحميده، وتكبيره، وتحميدته، كان ذلك مما يهيج على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك كما قال كثير من العلماء، أنه طرب لصوت داود، فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رَجَعَ التَّسْبِيحَ وَالتَّهْلِيلَ وَالتَّحْمِيدَ بِذَلِكَ الصوت الرخيم الشجي المطرب، طرب كل مَنْ سمعه من الإنس والجن، حتى الطيور والجبال، وسبحت بحمد ربها.

ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسيبها، لأنه سبب ذلك، وتسيح تبعاً له.

ومن فضله عليه، أن ألان له الحديد، ليعمل الدروع والسباغات، وعلمه تعالى كيفية صنعته، بأن يقدره في السرد، أي: يقدره حلقاً، ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض.

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِيُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ ولما ذكر ما امتنَّ به عليه وعلى آله، أمره بشكره، وأن يعملوا صالحاً، ويراغبوا الله تعالى فيه، بإصلاحه وحفظه من المفسدات، فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه منها شيء.

(١٢-١٤) ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوْحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظْرِ وَمِنَ الْجَبِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُدْخِلُ رِيحَهُ وَمِنْ تَرْبِيعِهِمْ عَنَ أَمْرِنَا نُدْفِعُهُ مِنَ الْعَذَابِ السَّعِيرِ ۝ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ۝ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّو كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ لما ذكر فضله على داود عليه السلام، ذكر فضله على ابنه سليمان، عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره وتحمله، وتحمل جميع ما معه، وتقطع المسافة البعيدة جداً، في مدة يسيرة، فتسير في اليوم مسيرة شهرين.

﴿غُدُوها شَهْرٌ﴾ أي: أول النهار إلى الزوال ﴿وَرَوْحُها شَهْرٌ﴾ من الزوال، إلى آخر النهار ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَظْرِ﴾ أي: سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له الأسباب، في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها.

وسخر الله له أيضاً الشياطين والجن، لا يقدر أن يستعصوا عن أمره، ﴿وَمِنَ تَرْبِيعِهِمْ عَنَ أَمْرِنَا نُدْفِعُهُ مِنَ الْعَذَابِ السَّعِيرِ﴾ وأعمالهم^(١)، كل ما شاء سليمان عمله ﴿مِنَ مَحْرِبٍ﴾ وهو كل بناء يعقد وتحكم به الأبنية، فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة.

﴿وَتَمَثِيلٍ﴾ أي: صور الحيوانات والجمادات، من إتيان صنعتهم، وقدرتهم على ذلك وعملهم لسليمان ﴿وَجَفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ أي: كالبرك الكبار، يعملونها لسليمان للطعام، لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره ﴿وَو﴾ يعملون له قدوراً راسيات لا تزول عن أماكنها من عظمها.

فلما ذكر منته عليهم، أمرهم بشكرها، فقال: ﴿أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ﴾ وهم داود وأولاده وأهله، لأن المِنَّة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم ﴿شُكْرًا﴾ لله على ما

أعطاهم، ومقابلة لما أولاهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من نعمه، ودفع عنهم من النعم.

والشكر: اعتراف القلب بمنه الله تعالى، وتلقيها افتقاراً إليها، وصرافها في طاعة الله تعالى، وصورها عن صرفها في المعصية.

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان عليه الصلاة والسلام، كل بناء، وكانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب، ويطلعون على المكنونات. فأراد الله تعالى أن يُرِيَّ العباد كذبهم في هذه الدعوى، فمكثوا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، وائتأ على عصاه وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حياً، وهابوه.

فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاها، حتى بادت وسقطت فسقط سليمان - عليه السلام - وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الجن ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ وهو العمل الشاق عليهم، فلو علموا الغيب، لعلوا موت سليمان، الذي هم أحرص شيء عليه، ليسلموا مما هم فيه.

(١٥-٢١) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسُلَيْمَانَ فِي مَسْكِئِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُم بَلَدَهُ طَيِّبَةً وَرَبِّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ وَيَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّاتِهِمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتِ أَكْشَلٍ حَمِطٍ وَأَثَلٍ وَمَشَىٰ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ ۝ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا فَرْقًا بَاطِنًا فَذَرْنَا فِيهَا السَّبْزَ سَيْرًا فِيهَا لِيَالِي وَأَيَّامًا آمِنِينَ ۝ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ مِنْ إِيلَاسَ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لَنَعْلَمَ مَنْ يُوَفِّيهِ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبِّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظٌ ۝ سَبَأٌ قَبِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ فِي آدَانِي الْيَمَنِ، وَمَسْكِنُهُمْ بَلَدَةٌ يُقَالُ لَهَا «مَأْرَب».

ومن نِعَمِ الله ولطفه بالناس عمومًا، وبالعرب خصوصًا، أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب، ويشاهد آثاره، ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ

(١) كذا في ب، وفي أ: وأعماله.

لَيْسَ فِي مَسْكِنِهِمْ أَي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿ءَايَةٌ﴾ .

والآية هنا: ما أدر الله عليهم من النعم، وصرف عنهم من النعم، الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ وكان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سدًا محكمًا، يكون مجمعًا للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، ففرفونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله، وتعلل لهم تلك الجنات العظيمتان، من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه، التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة:

منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أقاتهم منهما.

ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله تعالى وعدهم - إن شكروه - أن يغفر لهم ويرحمهم، ولهذا قال: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ .

ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم، إلى الأرض المباركة - الظاهر أنها [قرى صنعاء، قاله غير واحد من السلف، وقيل: إنها] الشام - هيا لهم من الأسباب، ما به يتيسر وصولهم إليها، بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة يحمل الزاد والمزاد.

ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرًا وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: [سيرًا] مقدرًا يعرفونه ويحكمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه ﴿لَيْلًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي: مطمئنين في السير، في تلك الليالي والأيام، غير خائفين. وهذا من تمام نعمة الله عليهم، أن أمنهم من الخوف.

فأعرضوا عن المنعم، وعن عبادته، ويطروا النعمة، وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا، أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسرًا.

﴿وظلموا أنفسهم﴾ بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطفئهم، فأبأدها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم، أي: السيل المتوعر، الذي خرب سددهم، وأتلف جناتهم، وخرَّب بساتينهم.

فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وَيَدُلُّنَّهُمْ بَحْتِنِيَّتِهِمْ جَنَّاتٍ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ﴾ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعا ﴿خَمَطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ

الْحَقِّيقِ وَالزَّيْتُونِ

٤٣٠

سُورَةُ سَبْأٍ

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّاتٍ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ
كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ خَمَطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ
﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ ﴿١٧﴾
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرَى ظَهْرًا
وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَقٍ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِلَهٌ أَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ سُلْطَانٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مِنْ يَوْمِنَا بِالْآخِرَةِ مَنَ هُوَ مِنْهَا فِي شَاكٍ وَرَبِّكَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ
اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِّنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾

قَلِيلٍ﴾ وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم.

فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح، بدلوا تلك النعمة بما ذكر، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَافِرِينَ﴾ أي: وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - إلا من كفر بالله ويطر النعمة.

فلما أصابهم ما أصابهم، تفرقوا وتمزقوا، بعدما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم، وأسما را للناس، وكان يضرب بهم المثل، فيقال: «تفرقوا أيدي سبأ» فكل أحد يتحدث بما جرى لهم.

ولكن لا ينتفع بالعبارة فيهم إلا من قال الله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صبار على المكارة والشدائد، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها بل يصبر عليها، شكور لنعمة الله تعالى يُقَرُّ بها ويعترف، ويشي على من أولاهها، ويصرفها في طاعته.

فهذا إذا سمع بقصتهم، وما جرى منهم وعليهم، عرف بذلك أن تلك العقوبة، جزاء لكفرهم نعمة الله، وأن من فعل مثلهم، ففعل به كما فعل بهم. وأن شكر الله تعالى حافظ

أي: لا شرك قليل ولا كثير، فليس لهم ملك، ولا شركة ملك.

بقي أن يقال: ومع ذلك، فقد يكونون أعوانًا للمالك، ووزراء له، فدعاؤهم يكون نافعًا، لأنهم - بسبب حاجة الملك إليهم - يقضون حوائج من تعلق بهم، فنفى تعالى هذه المرتبة فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: الله تعالى الواحد القهار ﴿مِنْهُمْ﴾ أي: من هؤلاء المعبودين ﴿مِنْ ظَهْرٍ﴾ أي: معاون وزير، يساعده على الملك والتبوير.

فلم يبق إلا الشفاعة، فنفاها بقوله: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾. فهذه أنواع التعلقات، التي يتعلق بها المشركون بأناداهم وأوثانهم من البشر والشجر وغيرهم، قطعها الله وبيّن بطلانها تبيينًا حاسمًا لمواد الشرك، قاطعًا لأصوله.

لأن المشرك إنما يدعو ويعبد غير الله، لما يرجو منه من النفع، فهذا الرجاء هو الذي أوجب له الشرك، فإذا كان من يدعو [غير الله]، لا مالكا للنفع والضرر، ولا شريكا للمالك، ولا عونًا وظهيرًا للمالك، ولا يقدر أن يشفع بدون إذن المالك، كان هذا الدعاء وهذه العبادة، ضلالًا في العقل، باطلة في الشرع.

بل ينعكس على المشرك مطلوبه ومقصوده، فإنه يريد منها النفع، فبيّن الله بطلانه، وعدمه، وبيّن في آيات أخر ضرره على عابديه^(١)، وأنه يوم القيامة، يكفر بعضهم ببعض، وبعضهم بعضًا، وأماهم النار ﴿وَإِذَا حُيِّرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾.

والعجب، أن المشرك استكبر عن الانقياد للرسول، بزعمه^(٢) أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر، والحجر، استكبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي عبادة من ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدوله وهو الشيطان. وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشركين، لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر، أن تعود إلى أقرب مذكور.

ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفزع عن قلوب المشركين، أي: زال الفزع، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم، عن حالهم في الدنيا، وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، أنهم يقولون أن ما هم عليه من الكفر والشرك

(١) في ب: ضررها على عابديها. (٢) في النسختين: بزعمهم، ولعل الأقرب - والله أعلم - ما أثبت.

للنعمة، دافع للنعمة، وأن رسل الله صادقون فيما أخبروا به، وأن الجزاء حق، كما رأى أنموذجه في دار الدنيا.

ثم ذكر أن قوم سبأ من الذين صدّق عليهم إبليس ظنه، حيث قال لربه: ﴿فَعَرَّيْكَ لَأَتَّوْبَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾. وهذا ظن من إبليس، لا يقين؛ لأنه لا يعلم الغيب، ولم يأتيه خبر من الله أنه سيغيّبهم أجمعين، إلا من استثنى.

فهؤلاء وأمثالهم، ممن صدق عليه إبليس ظنه، ودعاهم وأعوانهم ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَرِيضًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن لم يكفر بنعمة الله، فإنه لم يدخل تحت ظن إبليس.

ويحتمل أن قصة سبأ، انتهت عند قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

ثم ابتدأ فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على جنس الناس، فتكون الآية عامة في كل من اتبعه.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ﴾ أي: لإبليس ﴿عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: تسلط، وقهر، وقسر على ما يريد منهم، ولكن حكمة الله تعالى اقتضت تسليطه وتسويله لبني آدم.

﴿لِيُعَلِّمَ مَنْ يَزُومُنُ بِالْآخِرَةِ وَمَنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي: ليقوم سوق الامتحان، ويعلم به الصادق من الكاذب، ويعرف من كان إيمانه صحيحًا، يثبت عند الامتحان والاختبار، وإلقاء شبهة الشيطانية، ممن إيمانه غير ثابت، يتزلزل بأدنى شبهة، ويزول بأقل داع يدعو إلى ضده، فالله تعالى جعله امتحانًا، يمتحن به عباده، ويظهر الخبيث من الطيب.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ يحفظ العباد، ويحفظ عليهم أعمالهم، ويحفظ تعالى جزاءها، فيوفيهم إياها كاملة موفرة.

(٢٢، ٢٣) ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ۝ وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول، للمشركين بالله غيره من المخلوقات، التي لا تنفع ولا تضر، ملزمًا لهم بعجزها، ومبينًا لهم بطلان عبادتها: ﴿أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: زعمتموهم شركاء الله، إن كان دعاؤكم ينفع، فإنهم قد توفرت فيهم أسباب العجز، وعدم إجابة الدعاء من كل وجه.

فإنهم ليس لهم أدنى ملك ف ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ على وجه الاستقلال، ولا على وجه الاشتراك، ولهذا قال: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أي: لتلك الآلهة الذين زعمتم ﴿فِيهَا﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿مِنْ شِرْكٍ﴾

باطل، وأن ما قال الله، وأخبرت به عنه رسله، هو الحق فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، وقهره لهم، وعلو قدره، بما له من الصفات العظيمة جليلة المقدار ﴿الْكَبِيرُ﴾ في ذاته وصفاته. ومن علوه، أن حكمه تعالى يعلو، وتدعن له النفوس، حتى نفوس المتكبرين والمشركين، وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي سمعته الملائكة، فصعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، فإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفرع فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: قال الحق، إما إجمالاً، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقاً، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق.

فيكون المعنى على هذا: أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة، التي وصفنا لكم عجزها ونقصها، وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدفوا وصرفوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم، العلي الكبير، الذي - من عظمته وجلاله - أن الملائكة الكرام، والمقربين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقرون كلهم لله، أنه لا يقول إلا الحق.

فما بال هؤلاء المشركين، استكبروا عن عبادة من هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه، فتعالى العلي الكبير عن شرك المشركين وإفكهم وكذبهم.

(٢٧-٢٤) ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَابَّأَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا سَأَلَ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ۝ قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَنْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن حجة شركه: ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهم لا بد أن يقرؤا أنه الله.

ولئن لم يقرؤا ف ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ فإنك لا تجد من يدفع هذا القول. فإذا تبين أن الله وحده الذي يرزقكم من السماوات والأرض، وينزل لكم المطر، ونبئت لكم النبات، ويفجر لكم الأنهار، ويطلع لكم من ثمار الأشجار، وجعل لكم الحيوانات جميعها، لنفعمكم ورزقكم، فلم تعبدوا معه من لا

يرزقكم شيئاً، ولا يفيدكم نفعاً؟.

وقوله: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: إحدى الطائفتين منا ومنكم على الهدى، مستعلية عليه، أو في ضلال مبين، منغمرة فيه، وهذا الكلام بقوله من تبين له الحق، واتضح له الصواب، وجزم بالحق الذي هو عليه، وبطلان ما عليه خصمه.

أي: قد شرحنا من الأدلة الواضحة، عدنا وعندكم، ما به يعلم علماً يقيناً لا شك فيه، من المحق منا، ومن المبطل، ومن المهتدي ومن الضال؟ حتى إنه يصير التعيين بعد ذلك لا فائدة فيه.

فإنك^(١) إذا وازنت بين من يدعو إلى عبادة الخالق، لسائر المخلوقات المتصرف فيها بجميع أنواع التصرفات، المسدي جميع النعم، الذي رزقهم، وأوصل إليهم كل نعمة، ودفع عنهم كل نقمة، الذي له الحمد كله والملك كله، وكل أحد من الملائكة فما دونهم، خاضعون لهيبته، متذللون لعظمته، وكل الشفعاء تخافه، لا يشفع أحد منهم عنده إلا بإذنه العلي الكبير، في ذاته وأوصافه وأفعاله، الذي له كل كمال وكل جلال وكل جمال، وكل حمد وثناء ومجد، يدعو إلى التقرب لمن هذا شأنه، وإخلاص العمل له، وينهى عن عبادة من سواه، وبين من يتقرب إلى أوثان وأصنام وقبور، لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك لأنفسها، ولا لمن عبدها، نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل هي جمادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته ما استجابت لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويتبرأون منهم، ويتلاعنون بينهم، ليس لهم قسط من الملك، ولا شركة فيه، ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله.

فهو يدعو من هذا وصفه، ويتقرب إليه مهما أمكنه، ويعادي من أخلص الدين لله ويحاربه، ويكذب رسل الله الذين جاءوا بالإخلاص لله وحده. تبين^(٢) لك أي الفريقين، المهتدي من الضال، والشقي من السعيد؟ ولم يحتج إلى أن يعين لك ذلك، لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال.

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تَسْأَلُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي: كل منا ومنكم، له عمله، أنتم لا تسألون عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم، فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحقائق وسلوك طريق الإنصاف، ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعاً لكم من اتباع الحق،

(١) ورد في الهامش هنا: فعل الشرط. (٢) ورد في الهامش هنا: جواب الشرط.

فإن أحكام الدنيا تجري على الظواهر، ويتبع فيها الحق ويجتنب الباطل، وأما الأعمال، فلها دار أخرى، يحكم فيها أحكم الحاكمين، ويفصل بين المختصمين أعدل العادلين. ولهذا قال: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ أي: يحكم بيننا حكماً، يتبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للثواب من المستحق للعقاب، وهو خير الفاتحين.

﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول، ومن ناب منابك: ﴿أُرْوِيَ الَّذِينَ أَحَقَّهُمْ بِهِ شُرَكَاءُ﴾ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض، أم في السماء؟ فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك، ﴿وَيَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبَهُونَ اللَّهُ يَمَا لَا يَعْلَمُ﴾ الآية ﴿وَمَا يَسْتَعِجِ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَجِيبُوا لِلَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا بَخْرٌ صَوْتٌ﴾.

وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين، لا يعلمون له شريكاً، فيا أيها المشركون أروني الذين أحقتم بزعمكم الباطل بالله ﴿شُرَكَاءَ﴾.

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس لله شريك، ولا ند، ولا ضد ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ﴾ الذي لا يستحق التأله والتعبد إلا هو.

﴿الْقَرِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء فكل ما سواه، فهو مقهور مسخر مدبر.

﴿الْحِكْمُ﴾ الذي أتقن ما خلقه، وأحسن ما شرعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنه أمر بتوحيده، وإخلاص الدين له، وأحب ذلك، وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به، واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك، لكفى^(١) بذلك برهاناً على كمال حكمته، فكيف، وجميع ما أمر به ونهى عنه، مشتمل على الحكمة؟!!

(٢٨-٣٠) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ○ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ○ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ إلا يبشر جميع الناس بثواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له، فليس لك من الأمر شيء، وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد، فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال أو معاندون لم يعملوا بعلمهم، فكأنهم لا علم

﴿٢٧﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْيَاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتَ الَّذِينَ أَحَقَّهُمْ بِهِ شُرَكَاءُ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٣﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَوَرَّتْ عَٰدُ الظَّالِمِينَ مَوْفُوتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِّلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾

لهم، ومن عدم علمهم جعلهم عدم الإجابة لما اقترحوه على الرسول، موجباً لرد دعوته.

فما اقترحوه، استعجالهم العذاب الذي أنذرهم به فقال: ﴿يَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا ظلم منهم، فأى ملازمة بين صدقه، وبين الإخبار بوقت وقوعه؟ وهل هذا إلا رد للحق، وسفه في العقل؟ أليس النذير [في أمر] في أحوال الدنيا، لو جاء قوماً يعلمون صدقه ونصحه، ولهم عدو ينتهز الفرصة منهم ويعد لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار، يريد اجتياحكم واستئصالكم، فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً، فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا، وأين مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القائل عاقلاً، أم يحكم بسفهه وجنونه؟.

هذا، والمخبر يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم، وقد تنحل عزمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم، فكيف بمن كذب أصدق الخلق، المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى، بالعذاب اليقين، الذي

(١) كذا في ب، وفي أ: يكفي، ولعل الصواب ما أثبت.

لا مدفع له ولا ناصر منه؟! أليس رد خبره، بحجة عدم بيانه وقت وقوعه من أسفه السفه!!
﴿قُلْ﴾ لهم - مخبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه - :
﴿لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ﴾ فاحذروا ذلك اليوم، وأعدوا له عدته .

(٣١-٣٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نَرَىٰ فِي الْفُلْجَمِ مَوْفُوتٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ بَرَجِعْ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَمِيمٍ ۝ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلُ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُعْزِرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب، لا بد من وقوعه عند حلول أجله؛ ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنك لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأتباع في الكفر والضلال، لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ورأيت كيف يتراجع ويرجع بعضهم إلى بعض القول .

﴿يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ وهم القادة : ﴿لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ ولكنكم حلّتم بيننا وبين الإيمان، وزيتتم لنا الكفر[ان] فتبعناكم على ذلك، ومقصودهم بذلك، أن يكون العذاب على الرؤساء، دونهم .

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا﴾ مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم : ﴿أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ كُنْتُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ﴾ أي: بقوتنا وقهرنا لكم ﴿بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَمِيمٍ﴾ أي: مختارين للإجرام، لستم مهوورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم، فما كان لنا عليكم من سلطان .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا﴾ أي: بل الذي دهانا منكم، ووصل إلينا من إضلالكم، ما دبرتموه من المكر في الليل والنهار، إذ تُحَسِّنُونَ لنا الكفر، وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقذحون في الحق، وتهجنونه، وترعمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا، وكيدكم إيانا، حتى أغويتمونا وقتتمونا .

فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تبيري بعضهم من بعض، والندامة العظيمة، ولهذا قال : ﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا أَنْتُمْ صَدَدْتُمْ كُنْتُمْ عَنْ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ شُرَكَمِيمٍ﴾ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلُ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُعْزِرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا أَنْتُمْ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَكْثَر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ لِّصَعْفٍ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَتْنَةً أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ ﴿٣٧﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ﴿٣٨﴾

بعضهم على بعض لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وتمنى أن لو كان على الحق، [وأنه] ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سرّاً في أنفسهم، لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم .

وفي بعض مواقف القيامة، وعند دخولهم النار يظهرون ذلك الندم جهراً . ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الْفُلْجَمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ۝ يُؤْتِيكَ لَيْتِي لَوْ أَخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ الآيات ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِّقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ .

﴿وَجَعَلْنَا الْأَعْتَلُ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يغلون كما يغل المسجون، الذي سيهان في سجنه كما قال تعالى : ﴿إِذْ الْأَعْتَلُ فِي أَصْنَافِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ۝ فِي الْحَمِيرِ تُرَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ الآيات .

﴿هَلْ يُعْزِرُونَ﴾ في هذا العذاب والنكال، وتلك الأغلال الثقال ﴿إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الكفر والفسوق والعصيان .

(٣٤-٣٩) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيْبَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا

كَانُوا يَعْبُدُونَ ○ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَإِنَّا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ○ قَالُوا لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَقْعَبُونَ لَأَبْلَأُنَّ بِهِمْ نَارًا مِّنَ النَّارِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تَكْذُوبٌ ﴿٤٠﴾ ، ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: العابدين لغير الله والمعبودين من دونه، من الملائكة ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ الله ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على وجه التوبيخ لمن عبدهم: ﴿أَهْلُولَاءِ إِنَّا كَرُّ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ففترأوا من عبادتهم.

و ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيها لك وتقديسا، أن يكون لك شريك أو ند ﴿أَنْتَ وَإِنَّا مِنْ دُونِهِمْ﴾ فنحن مفتقرون إلى ولايتك، مضطرون إليها، فكيف ندعو غيرنا إلى عبادتنا؟ أم كيف تصلح لأن نتخذ من دونك أولياء وشركاء؟!!

ولكن هؤلاء المشركون ﴿كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ﴾ أي: الشياطين يأمرون^(١) بعبادتنا أو عبادة غيرنا، فيطيعونهم بذلك.

وطاعتهم هي عبادتهم؛ لأن العبادة الطاعة، كما قال تعالى مخاطبا لكل من اتخذ معه آلهة ﴿أَلَمْ نَأْتِكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ أَنْتُمْ لَآ تَعْبُدُونَ إِلَّا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُرْهُوٌّ مُّبِينٌ ○ وَإِنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

﴿أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ أي: مصدقون للجن، متقادون لهم؛ لأن الإيمان هو التصديق الموجب للانقياد.

فلما تبرأوا منهم، قال تعالى [مخاطبا] لهم: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَقْعَبُونَ لَأَبْلَأُنَّ بِهِمْ نَارًا مِّنَ النَّارِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تَكْذُوبٌ﴾ بعدما ندخلهم النار - ﴿ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تَكْذُوبٌ﴾ فاليوم عاينتموها ودخلتموها جزاء لتكذيبكم، وعقوبة لما أحدثه ذلك التكذيب، من عدم الهرب من أسبابها.

(٤٣-٤٥) ﴿وَإِذَا تَلَّى عَلَيْهِنَّ ءَايَاتِنَا يَنْتَدِبْنَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ○ وَمَا ءَايَاتُنَّهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ○ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مَعْشَارَ مَا ءَايَاتُنَّهُمْ فَكَذَّبُوا رَسُولِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يخبر تعالى عن حالة المشركين، عندما تلى عليهم آيات الله البينات، وحججه الظاهرات، وبراهينه القاطعات، الدالة على كل خير، الناهية عن كل شر، التي هي أعظم نعمة جاءتهم، وميته وصلت إليهم، الموجبة لمقابلتها بالإيمان والتصديق والانقياد والتسليم، أنهم يقابلونها بضد ما

يَمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ○ قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ○ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ○ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِأَلْيِ تَقَرُّبِكُمْ عِنْدَنَا زَلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَضْعَافٍ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ○ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَايَاتِنَا مُتَّعِزِينَ ○ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ ○ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم، وفخروا بها.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾ أي: ممن اتبع الحق ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ أي: أولًا، لسنا بمبعوثين، فإن بعثنا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا.

فأجابهم الله تعالى، بأن بسط الرزق وتضييقه ليس دليلا على ما زعمتم، فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه.

وليست الأموال والأولاد بالتقرب إلى الله زلفى وتدني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاءت به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفا، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله.

﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ أي: في المنازل العاليات المرتفعتا جدا، ساكنين فيها، مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنغصات، لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتهيات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها. وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا، ولرسلنا، والتكذيب، ف﴿أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ﴾.

ثم أعاد تعالى أنه ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ﴾ ليرتب عليه قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أو مستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، وغير ذلك ﴿فَهُوَ﴾ تعالى ﴿يُخْلِفُهُ﴾ فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمتفق، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

(٤٠-٤٢) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُولَاءِ إِنَّا كَرُّ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾

(١) في ب: يأمرونهم.

ينبغي، ويكذبون مَنْ جاءهم بها ويقولون: ﴿مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنَّا كَأَنْ يَبْدَأَ بِآبَائِكُمْ﴾ أي: هذا قصده، حين يأمركم بالإخلاص لله، لتتركوا عوائد آباءكم الذين تعظمون وتمشون خلفهم، فردوا الحق بقول الضالين، ولم يوردوا^(١) برهاناً ولا شبهة.

فأي شبهة إذا أمرت الرسل بعض الضالين باتباع الحق، فادعوا أن إخوانهم الذين على طريقتهم لم يزالوا عليه؟

وهذه السفاهة، ورد الحق بأقوال الضالين، إذا تأملت كل حق رد، فإذا هذا ماله، لا يرد إلا بأقوال الضالين من المشركين، والدهريين، والفلاسفة، والصابئين، والملحدن في دين الله المارقين، فهم أسوة كل مَنْ رد الحق إلى يوم القيامة.

ولما احتجوا بفعل آبائهم، وجعلوها دافعة لما جاءت به الرسل، طعنوا بعد هذا بالحق ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرَى﴾ أي: كذب افتراه هذا الرجل الذي جاء به.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: سحر ظاهر بين لكل أحد، تكذيباً بالحق، وترويجاً على السفهاء.

ولمَّا بين ما ردوا به الحق، وأنها أقوال دون مرتبة الشبهة، فضلاً عن أن تكون حجة، ذكر أنهم وإن أراد أحد أن يحتج لهم، فإنهم لا مستند لهم، ولا لهم شيء يعتمدون عليه أصلاً، فقال: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ حتى تكون عمدة لهم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ حتى يكون عندهم من أقواله وأحواله، ما يدفعون به ما جتهد به، فليس عندهم علم، ولا إثارة من علم.

ثم خوفهم ما فعل بالأمم المكذبين [قبلهم] فقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا﴾ أي: ما بلغ هؤلاء المخاطبون ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ ﴿فَكَذَّبُوا﴾ أي: الأمم الذين من قبلهم ﴿رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم، وعقوبي إيهاهم.

قد أعلمنا ما فعل بهم من النكال، وأن منهم من أغرقه، ومنهم مَنْ أهلكه بالريح العقيم، وبالصيحة، وبالرجفة، وبالخسف بالأرض، وبإرسال الحاصب من السماء، فاحذروا يا هؤلاء المكذبون، أن تدوموا على التكذيب، فإخذكم كما أخذ من قبلكم، ويصيبكم ما أصابهم.

(٤٦-٥٠) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قَوْمِ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَا يَصْحِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُمْ مِنْ جَرِّ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُوا لَكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِسَانٌ مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤٧﴾ قَالُوا لِمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُم لِبَعْضٍ نَفَعًا وَلَا ضِرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُتِبَ بِهَا تَكْدِيرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذَا نَتَلَى عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَسْتَكْبِرُ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَنَّا كَأَنْ يَبْدَأَ بِآبَائِكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرَى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كِتَابٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٥٠﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلًا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٥١﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قَوْمِ آلِ فِرْعَوْنَ وَمَا يَصْحِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٥٢﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُمْ مِنْ جَرِّ فَهُوَ لَكُمْ إِنَّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْدِرُ بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغُيُوبِ ﴿٥٤﴾

عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ○ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْدِرُ بِالْحَقِّ عِلْمَ الْغُيُوبِ ○ قُلْ جَاءَ أَلْفٌ وَمَا يَبْدَأُ الْبَيْتُ وَالْمَاءُ يُعِيدُ ○ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُرِيدُ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ○ أي ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول، لهؤلاء المكذبين المعاندين، المتصددين لرد الحق وتكذيبه، والقذح بمن جاء به: ﴿إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: بخصلة واحدة، أشير عليكم بها وأنصح لكم في سلوكها. وهي طريق نصف، لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك، وهي ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قَوْمِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ أي: تنهضوا بهمة ونشاط، وقصد لاتباع الصواب، وإخلاص لله، مجتمعين، ومتباحثين في ذلك، ومتناظرين، وفرادى، كل واحد يخاطب نفسه بذلك.

فإذا قمتم لله مثنى وفرادى، استعملتم فركم وأجلموه، وتدبرتم أحوال رسولكم: هل هو مجنون، فيه صفات المجانين من كلامه، وهيبته، وصفته؟ أم هو نبي صادق، منذر

(١) كذا في ب، وفي أ: ولم يوردوا.

لكم ما يضركم، مما أمأكم من العذاب الشديد؟. فلو قبلوا هذه الموعظة، واستعملوها، لتبين لهم أكثر من غيرهم، أن رسول الله ﷺ ليس بمجنون، لأن هيئاته^(١) ليست كهيئات المجانين، في خفتهم، واختلاجهم، ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات، وحركاته أجمل الحركات، وهو أكمل الخلق، أدباً، وسكينة، وتواضعاً، ووقاراً، لا يكون [إلا] لأرزن الرجال عقلاً.

ثم [إذا] تأملوا كلامه الفصيح، ولفظه المليح، وكلماته التي تملأ القلوب أمناً وإيماناً، وتزكي النفوس، وتظهر القلوب، وتبعث على مكارم الأخلاق، وتحث على محاسن الشيم، وترهب^(٢) عن مساوئ الأخلاق وردائلها. إذا تكلم، رمته العيون هيبه وإجلالاً وتعظيمًا.

فهل هذا يشبه هديان المجانين وعريبتهم، وكلامهم الذي يشبه أحوالهم!!!

فكل من تدبر أحواله؛ ومقصده استعلام هل هو رسول الله أم لا؟ سواء تفكر وحده، أو مع غيره، جزم بأنه رسول الله حقاً، ونبه صدقاً، خصوصاً المخاطبين، الذي هو صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره.

وكم مانع للنفوس آخر، من اتباع الداعي إلى الحق، وهو أنه يأخذ أموال من يستجيب له، ويأخذ أجرة على دعوته، فبين الله تعالى نزاهة رسوله ﷺ عن هذا الأمر فقال: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ أَيْ: على اتباعكم للحق ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أَيْ: فأشهدكم أن ذلك الأجر - على التقدير - أنه لكم ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَيْ: محيط علمه بما أَدْعُو إليه، فلو كنت كاذباً، لأخذني بعقوبته، وشهيد أيضاً على أعمالكم، سيحفظها عليكم، ثم يجازيكم بها.

ولما بين البراهين الدالة على صحة الحق وطلان الباطل، أخبر تعالى أن هذه سنته وعادته أن ﴿يَقْدِرُ الْيَاقُوتَ﴾ على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق؛ لأنه بين من الحق في هذا الموضوع، ورد به أقوال المكذبين، ما كان عبرة للمعتبرين، وآية للمتأملين.

فإنك كما ترى، كيف اضمحلت أقوال المكذبين، وتبين كذبهم وعنادهم، وظهر الحق وسطع، وبطل الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ الذي يعلم ما تنطوي عليه القلوب، من الوسوس والشبه، ويعلم ما يقابل ذلك، ويدفعه من الحجج.

فيعلم بها عباده، وبيئها لهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أَيْ: ظهر وبان، وصار بمنزلة الشمس، وظهر سلطانه ﴿وَمَا

يَدِيءُ الْبَاطِلُ وَمَا يُمِيدُ﴾ أَيْ: اضمحل وبطل أمره، وذهب سلطانه، فلا يبدىء ولا يعيد.

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول، وكان المكذبون له يرمونه بالضلال، أخبرهم بالحق ووضحه لهم، وبيّن لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم أن رميمهم له بالضلال، ليس بضائر الحق شيئاً، ولا دافع ما جاء به، وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك، لكن على سبيل التنزل في المجادلة - فإنما يضل على نفسه، أي: ضلاله قاصر على نفسه، غير متعدٍ إلى غيره.

﴿وَإِنْ أَهْتَدَيْتُمْ﴾ فليس ذلك من نفسي وحولي وقوتي، وإنما هدايتي بما ﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ رَبِّي﴾ فهو مادة هدايتي، كما هو مادة هداية غيري، إن ربي ﴿يَسْمِعُ﴾ للأقوال والأصوات كلها ﴿قَرِيبٌ﴾ ممن دعاه وسأله وعبده.

(٥٤-٥١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزَعُوا فَلَا قُوَّةَ وَأُخْذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ وَقَالُوا ءَأَمَّا بِنَا وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ أيها الرسول، ومن قام مقامك، حال هؤلاء المكذبين ﴿إِذْ فَزَعُوا﴾ حين رأوا العذاب، وما أخبرتهم به الرسل وما كذبوا به، لرأيت أمراً هائلاً، ومنظراً مفضعاً، وحالة منكرة، وشدة شديدة، وذلك حين يحق عليهم العذاب، فليس لهم عنه مهرب ولا فوت ﴿وَأُخْذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أَيْ: ليس بعيداً عن محل العذاب، بل يؤخذون ثم يقذفون في النار.

﴿وَقَالُوا﴾ في تلك الحال: ﴿ءَأَمَّا﴾ بالله وصدقنا ما به كذبنا ﴿و﴾ لكن ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ﴾ أَيْ: تناول الإيمان ﴿مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ قد حيل بينهم وبينه، وصار من الأمور المحالة في هذه الحالة، فلو أنهم آمنوا وقت الإمكان، لكان إيمانهم مقبولاً.

ولكنهم ﴿كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِفُونَ﴾ أَيْ: يرمون ﴿بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ بقذفهم الباطل، ليدحضوا به الحق، ولكن لا سبيل إلى ذلك، كما لا سبيل للرامي من مكان بعيد إلى إصابة الغرض، فكذلك الباطل، من المحال أن يغلب الحق أو يدفعه، وإنما يكون له صولة وقت غفلة الحق عنه، فإذا برز الحق وقارم الباطل قمعه.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الشهوات واللذات،

(١) في ب: هيئته. (٢) في ب: وترهب.

والأولاد، والأموال، والخدم والجنود، وقد انفردوا بأعمالهم، وجاءوا فرادى كما خلّفوا، وتركوا ما خولوا وراء ظهورهم.

﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ من الأمم السابقين، حين جاءهم الهلاك، حيل بينهم وبين ما يشتهون، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ﴾ أي: محدث الريبة وقلق القلب، فلذلك لم يؤمنوا، ولم يعتبوا حين استعتبوا.

تم تفسير سورة سبأ - والله الحمد والمئة والفضل، ومنه العون، وعليه التوكل، وبه الثقة.

تفسير سورة فاطر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢، ١) ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَ رُسُلًا أُولِي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير﴾ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك لهم من بعده وهو العزيز الحكيم ﴿يَمْدَحُ اللهُ تَعَالَى نَفْسَهُ الْكَرِيمَةَ الْمُقَدَّسَةَ، عَلَى خَلْقِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، لِأَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَسَعَةِ مُلْكِهِ، وَعُمُومِ رَحْمَتِهِ، وَبَدِيعِ حِكْمَتِهِ، وَإِحَاطَةِ عِلْمِهِ.

ولما ذكر الخلق، ذكر بعده ما يتضمن الأمر، وهو: أنه ﴿جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَ رُسُلًا﴾ في تدبير أوامره القدريّة، ووسائط بينه وبين خلقه، في تبليغ أوامره الدينيّة.

وفي ذكره أنه جعل الملائكة رسلًا، ولم يستثن منهم أحدًا، دليل على كمال طاعتهم لربهم، وانقيادهم لأمره، كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

ولما كانت الملائكة مديرات بإذن الله، ما جعلهم الله موكلين فيه، ذكر قوتهم على ذلك، وسرعة سيرهم، بأن جعلهم ﴿أُولِي أجنحة﴾ تطير بها، فتسرع تنفيذ ما أمرت به ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ أي: منهم من له جناحان، وثلاثة، وأربعة، بحسب ما اقتضته حكمته، ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ أي: يزيد بعض مخلوقاته على بعض، في صفة خلقها، وفي القوة، وفي الحسن، وفي زيادة الأعضاء المعهودة، وفي حسن الأصوات، ولذة النعمات.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقدرته تعالى تأتي على ما

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٤٣٤
قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَطْلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤١﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٤٢﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ فَرَغُوا فَلَافُونَ وَأَجْذُوًا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤٣﴾ وَقَالُوا أَمْ نَأْتِيهِ مِنْ آتٍ لَّهُمُ التَّنَافُوسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْأَغْيَابِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٥﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكِّ مُرِيبٍ ﴿٤٦﴾

سُورَةُ الْفَاتِرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَ رُسُلًا أُولِي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير ﴿٤١﴾ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل لهم من بعده وهو العزيز الحكيم ﴿٤٢﴾ يتأبها الناس أذكروا ونعمت الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو فأنفثون ﴿٤٣﴾

يشاؤه، ولا يستعصي عليها شيء، ومن ذلك زيادة مخلوقاته بعضها على بعض.

ثم ذكر انفراده تعالى بالتدبير والعتاء والمنع فقال: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ مِنْهُمْ﴾ من رحمته عنهم ﴿فَلَا مَرْسِلَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فهذا يوجب التعلق بالله تعالى، والافتقار إليه من جميع الوجوه، وأن لا يدعى إلا هو، ولا يخاف ويرجى إلا هو ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء كلها ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها وينزلها منازلها.

(٤، ٣) ﴿يَتَأَبَّهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنْفُثُوكُمْ وَابْرَأَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامِ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتْفُتُّوكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْزُقَكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتْفُتُّوكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَرْزُقَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿٤٣﴾

ولما كان من المعلوم، أنه ليس أحد يخلق ويرزق إلا الله،

نتج من ذلك أن كان ذلك دليلاً على ألوهيته وعبوديته، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَالَتْ تَوَفَّكُونَ﴾ أي: تصرفون عن عبادة الخالق الرازق لعبادة المخلوق المرزوق.

﴿وَإِن يَكْفُرْكَ﴾ يا أيها الرسول، فلك أسوة بمن قبلك من المرسلين، ﴿فَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ فأهلك المكذبون، ونجى الله الرسل وأتباعهم، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾.

(٥-٧) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْهَيْوَةُ الَّتِي كُنْتُمْ لَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾ بالبعث، والجزاء على الأعمال ﴿حَقٌّ﴾ أي: لا شك فيه، ولا مرية، ولا تردد، قد دلت على ذلك الأدلة السمعية، والبراهين العقلية، فإذا كان وعده حقاً، فتهيئوا له وبادروا أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة، ولا يقطعكم عن ذلك قاطع.

﴿فَلَا تَغُرَّكُمْ الْهَيْوَةُ الَّتِي كُنْتُمْ﴾ بلذاتها وشهواتها ومطالبها النفسية، فتلهيككم عما خلقتم له ﴿وَلَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ الذي هو: ﴿الشَّيْطَانُ﴾ الذي هو عدوكم في الحقيقة ﴿فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي: لتكن منكم عداوته على بال، ولا تهملوا محاربتة كل وقت، فإنه يراكم وأنتم لا ترونه، وهو دائماً لكم بالمرصاد.

﴿إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ هذا غايته ومقصوده فمن تبعه، أن يهان غاية الإهانة، بالعذاب الشديد.

ثم ذكر أن الناس انقسموا بحسب طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين، وذكر جزاء كل منهما فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا ما جاءت به الرسل، ودلت عليه الكتب ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في نار جهنم، شديد في ذاته ووصفه، وأنهم خالدون فيها أبداً.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم، بما دعا الله إلى الإيمان به ﴿وَعَمِلُوا﴾ بمقتضى ذلك الإيمان، بجوارحهم، الأعمال ﴿الصَّالِحَاتِ﴾ لهم مغفرة ﴿لذنبهم﴾، يزول بها عنهم الشر والمكروه ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ يحصل به المطلوب.

(٨) ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنِ اللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ﴾ عمله السيء القبيح، زينه له الشيطان، وحسنه في عينه، ﴿فَرَآهُ حَسَنًا﴾ أي: كمن هداه الله إلى الصراط المستقيم، والدين القويم، فهل يستوي هذا وهذا؟.

﴿وَإِن يَكْفُرْكَ فَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْهَيْوَةُ الَّتِي كُنْتُمْ لَا يَغُرُّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُودٌ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ۝ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنِ اللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِّي رِجَابًا فَسَقَنَّهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ۝ مَن كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مَن أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمِرُ مَن مُّعَمَّرٌ وَلَا يُنْقِصُ مَن عُمرُهُ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝﴾

فالأول: عمل السيء، ورأى الحق باطلاً، والباطل حقاً. والثاني: عمل الحسن، ورأى الحق حقاً، والباطل باطلاً.

ولكن الهداية والإضلال بيد الله تعالى، ﴿فَإِنِ اللَّهُ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم، وصددهم الشيطان عن الحق ﴿حَسْرَتٌ﴾ فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم شيء، والله [هو] الذي يجازيهم بأعمالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

(٩) ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِّي رِجَابًا فَسَقَنَّهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾ يخبر تعالى عن كمال اقتداره، وسعة جوده، وأنه ﴿أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِّي رِجَابًا فَسَقَنَّهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ فأنزله الله عليها ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ فحييت البلاد والعباد، وارتزقت الحيوانات، ورتعت في تلك الخيرات.

﴿كَذَلِكَ﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها، ينشر الأموات من قبورهم، بعدما مزقههم البلى، فيسوق إليهم مطراً، كما

والمعنى: أن طول العمر وقصره، بسبب وبغير سبب، كله بعلمه تعالى، وقد أثبت ذلك ﴿فِي كِتَابٍ﴾ حوى ما يجري على العبد في جميع أوقاته وأيام حياته.

﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه فيها، فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور، كلها عقلية، نبه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأن الذي أحيائها سيحيي الموتى، وتقلل الآدمي في تلك الأطوار.

فالذي أوجده ونقله، طبقًا بعد طبق، وحالًا بعد حال، حتى بلغ ما قدر له، فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر، وهو أهون عليه، وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم، العلوي والسفلي، دقيقها، وجليلها، الذي في القلوب، والأجنّة التي في البطون، وزيادة الأعمار ونقصها، وإثبات ذلك كله في كتاب، فالذي كان هذا [نعته]^(١) يسيرًا عليه، فإعادته للأموات أيسر وأيسر. فتبارك من كثر خيره، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم، في معاشهم، ومعادهم.

(١٢-١٤) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَيْلَهُ تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِيَتَنَفَّسَ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ○ يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْكُوتُونَ مِن فَطْمِيرٍ ○ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَلَا يُسْمِعُوا كَلْمَكُمْ وَلَا يَسْمَعُوا كَلْمَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِكُمْ لَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يَبْنِيكَ مِثْلَ خَبِيرٍ﴾ هذا إخبار عن قدرته، وحكمته، ورحمته أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسو بينهما، لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فراتًا، سائغًا شرابها، ليتنفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحًا أجاجًا، لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض، بروائح ما يموت في البحر، من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغيير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ، ولهذا قال: ﴿وَمِن كُلِّ﴾ من البحر الملح والعذب ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك المتيسر صيده في البحر، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حَيْلَهُ تَلْبَسُونَهَا﴾ من لؤلؤ ومرجان وغيرهما، مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد.

ومن المصالح أيضًا والمنافع في البحر، أن سخره الله (١) هنا جاءت كلمة (نعته) في الهامش، ولم يتضح لي محلها بدقة، والأقرب أنه هنا.

ساقه إلى الأرض الميتة، فينزله عليهم فتحيا الأجساد والأرواح من القبور ويأتون للقيام بين يدي الله ليحكم بينهم، ويفصل بحكمه العدل.

(١٠) ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْبُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ﴾ أي: يا مَنْ يريد العزة، اطلبها ممن هي بيده، فإن العزة بيد الله، ولا تنال إلا بطاعته، وقد ذكرها بقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلْبُ الطَّيِّبُ﴾ من قراءة وتسييح وتحميد وتهليل، وكل كلام حسن طيب، فيرفع إلى الله ويعرض عليه، ويشي الله على صاحبه، بين الملا الأعلى ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ﴾ من أعمال القلوب وأعمال الجوارح ﴿يَرْفَعُهُ﴾ الله تعالى إليه أيضًا، كالكلم الطيب.

وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له عمل صالح، لم يرفع له قول إلى الله تعالى، فهذه الأعمال التي تُرفع إلى الله تعالى، ويرفع الله صاحبها ويعزه.

وأما السيئات فإنها بالعكس، يريد صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا إهانة ونزولًا، ولهذا قال: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ يهانون فيه غاية الإهانة.

﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورٌ﴾ أي: يهلك ويضمحل، ولا يفيدهم شيئًا، لأنه مكر بالباطل، لأجل الباطل.

(١١) ﴿وَاللَّهُ خَفِيكٌ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نَّفْثَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ وَمَا يُعْمَرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يذكر تعالى خلقه الآدمي، ونقله في هذه الأطوار، من تراب إلى نطفة وما بعدها، ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي: لم يزل ينقلكم طورًا بعد طور، حتى أوصلكم إلى أن كنتم أزواجًا، ذكرًا يتزوج أنثى، ويراد بالزواج، الذرية والأولاد، فهو وإن كان النكاح من الأسباب فيه، فإنه مقترن بقضاء الله وقدره وعلمه.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾ وكذلك أطوار الآدمي كلها، بعلمه وقضائه.

﴿وَمَا يُعْمَرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَضُ مِنْ عُمْرِهِ﴾ أي: عمر الذي كان معمّرًا عمرًا طويلًا ﴿إِلَّا﴾ بعلمه تعالى، أو وما يتقص من عمر الإنسان الذي هو بصدد أن يصل إليه، لولا ما سلكه من أسباب قصر العمر، كالزنا، وعقوق الوالدين، وقطيعة الأرحام، ونحو ذلك مما ذكر أنها من أسباب قصر العمر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٦

تَبَارَكَ الَّذِي

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذَبَ فِرَاتٌ سَابِغٌ شَرَابَهُ، وَهَذَا
 مَلْحٌ أَجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لِحَمَاطٍ طِرِيًا وَتَسْتَخْرِجُونَ
 حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ فِيهِ مَوَازِيرَ تَلْبَغُونَ مِنْ فَضْلِهِ
 وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ
 النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ
 لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ
 تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَا وَسِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ
 وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَمَا لَا يَنْبُتُكَ مِثْلَ خَيْرِ
 ﴿١٤﴾ يَتَّيَبَأُ النَّاسُ أَنتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
 الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾
 وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ
 تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
 إِنَّمَا نُذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
 وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

الذي لا يستحق شيئاً من العبادة سواه، وأن عبادة ما سواه
 باطلة متعلقة بباطل، لا تفيد عابده شيئاً.

(١٥-١٨) ﴿يَتَّيَبَأُ النَّاسُ أَنتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
 الْحَمِيدُ﴾ ○ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ○ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
 بِعَزِيزٍ ○ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمَلٍهَا لَا
 يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا نُذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
 بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ
 الْمَصِيرُ﴾ يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم
 ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم، لم يوجدوا.
 فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا
 إعداده إياهم [بها] لما استعدوا لأي عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات، والأرزاق والنعم الظاهرة
 والباطنة. فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل
 [لهم] من الرزق والنعم، شيء.

(١) كذا في ب، وفي أ: وتخفيف ما يخفف.

تعالى يحمل الفلك من السفن والمراكب، فتراها تمخر البحر
 وتشقه، فتسلك من إقليم إلى إقليم آخر، ومن محل إلى محل،
 فتحمل السائرين وأثقالهم وتجاراتهم، فيحصل بذلك من
 فضل الله وإحسانه شيء كثير، ولهذا قال: ﴿وَلْيَسْتَعْتُوا مِنْ
 فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ومن ذلك أيضاً إيلاجه تعالى الليل بالنهار، والنهار
 بالليل، يدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، كلما أتى
 أحدهما ذهب الآخر، ويزيد أحدهما وينقص الآخر،
 ويتساويان، فيقوم بذلك ما يقوم من مصالح العباد في
 أبدانهم، وحيواناتهم وأشجارهم وزروعهم.

وكذلك ما جعل الله في تسخير الشمس والقمر، الضياء
 والنور والحركة والسكون، وانتشار العباد في طلب فضله،
 وما فيهما من تنضيج الثمار وتخفيف ما يخفف^(١)، وغير ذلك
 مما هو من الضروريات، التي لو فقدت للحق الناس الضرر.

وقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: كل من الشمس
 والقمر يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا، فإذا جاء
 الأجل، وقرب انقضاء الدنيا، انقطع سيرهما، وتعطل
 سلطانهما، وخسف القمر، وكورت الشمس، وانتشرت
 النجوم.

فلما بين تعالى ما بين من هذه المخلوقات العظيمة، وما
 فيها من العبر الدالة على كماله وإحسانه، قال: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ
 رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي: الذي انفراد بخلق هذه المذكورات
 وتسخيرها، هو الرب المألوه المعبود، الذي له الملك كله.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأوثان والأصنام ﴿مَا
 يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ أي: لا يملكون شيئاً، لا قليلاً ولا
 كثيراً؛ حتى ولا الفطمير الذي هو أحقر الأشياء، وهذا من
 تنصيص النفي وعمومه، فكيف يُدْعَوْنَ، وهم غير مالكين
 لشيء، من ملك السماوات والأرض؟.

ومع هذا ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ لا يسمعوكم لأنهم ما بين جماد
 وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم، ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على
 وجه الفرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يملكون
 شيئاً، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ
 الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ﴾ أي: يتبرأون منكم؛ ويقولون:
 ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَإِنَّا مِنْ دُونِهِمْ﴾.

﴿وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلَ خَيْرِ﴾ أي: لا أحد ينبتك؛ أصدق من الله
 العليم الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر، الذي نبأ به؛ كأنه رأي
 عين، فلا تشك فيه ولا تمتز، فتضمنت هذه الآيات الأدلة
 والبراهين الساطعة، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود،

فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا، يساعد الحميم حميمه، والصديق صديقه، بل يوم القيامة يمتنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه وأقاربه.

﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَحْتَشِرُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة ويتفنون بها، أهل الخشية لله بالغيب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها، وأركانها وواجباتها، وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر.

﴿وَمَنْ كَرِهَ فَإِنَّمَا يَتَرَكَ لِنَفْسِهِ﴾ أي: وَمَنْ زَكِيَ نَفْسَهُ بِالْتَّقَى مِنَ الْعِيوبِ، كالرياء والكبر، والكذب والغش، والمكر والخداع والنفاق، ونحو ذلك من الأخلاق الرذيلة، وتحلّى بالأخلاق الجميلة، من الصدق، والإخلاص، والتواضع، ولين الجانب، والنصح للعباد، وسلامة الصدر، من الحقد والحسد، وغيرها من مساوئ الأخلاق، فإن تركيته يعود نفعها إليه، ويصل مقصودها إليه، ليس يضيع من عمله شيء.

﴿وَاللَّهُ الْمَصِيرُ﴾ فيجازي الخلائق على ما أسلفوه، ويعاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

(١٩-٢٤) ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ○ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ○ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ○ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ○ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعُ مَن فِي الْقُبُورِ ○ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ○ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ○ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله، وفيما أودعه في فطر عباده ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى﴾ فاقد البصر ﴿وَالْبَصِيرُ ○ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ○ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ○ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾. فكما أنه من المتقرر عندكم، الذي لا يقبل الشك، أن هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنوية أولى وأولى.

فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذا علمت المراتب، وميزت الأشياء، وبان الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده، فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحقها بالإيثار.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد، فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير. فقراء إليه في تألههم له وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يوفقههم لذلك لهلكوا، وفسدت أرواحهم، وقلوبهم، وأحوالهم.

فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه لم يتعلموا، ولولا توفيقه لم يصلحوا. فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا.

ولكن الموفق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، وسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفه عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتر إلى شيء مما يفترق إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال، ونعوت جلال.

ومن غناه تعالى، أن أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، ﴿الْحَمِيدُ﴾ في ذاته وأسمائه لأنها حسنى، وأوصافه لكونها عليا، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه، [الغني في حمده].

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس، أطوع الله منكم، ويكون في هذا، تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك، ويحتمل أن المراد بذلك إثبات البعث والشور، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وفي إعادتكم بعد موتكم خلقًا جديدًا، ولكن لذلك الوقت أجل قدره الله، لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ عَزِيزٌ﴾ أي: بممتنع، ولا معجز له. ويدل على المعنى الأخير ما ذكره بعده في قوله: ﴿وَلَا نُزِرُ وَأَرْزُ وَنَزَّ وَنَزَّ﴾ أي: في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد، ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة بالخطايا والذنوب تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها، ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ فإنه لا يحمل عن قريب،

تَبْرَأَظَلَّ

٤٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١٩﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ﴿٢٣﴾ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٥﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٦﴾ وَإِن يَكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٩﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْتَعْمَرُ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴿٣٠﴾ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجْرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٣٢﴾ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٣﴾

فمن ذلك: أن الله تعالى أنزل من السماء ماء، فأخرج به من الثمرات المختلفة، والنباتات المتنوعة، ما هو مشاهد للناظرين، والماء واحد، والأرض واحدة.

ومن ذلك: الجبال التي جعلها الله أوتادا للأرض، تجدها جبلا مشتبكة، بل جبلا واحدا، وفيها ألوان متعددة، فيها جدد بيض أي: طرائق بيض، وفيها طرائق صفر وحمرة، وفيها غرابيب سود أي: شديدة السواد جدا.

ومن ذلك: الناس والدواب والأنعام، فيها من اختلاف الألوان والأوصاف والأصوات والهيئات، ما هو مرئي بالأبصار، مشهود للنظار، والكل من أصل واحد ومادة واحدة.

فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى، التي خصصت ما خصصت منها، بلونه، ووصفه، وقدره الله تعالى حيث أوجدها كذلك، وحكمته ورحمته، حيث كان ذلك الاختلاف وذلك التفاوت، فيه من المصالح والمنافع، ومعرفة الطرق، ومعرفة الناس بعضهم بعضا ما هو معلوم.

وذلك أيضا دليل على سعة علم الله تعالى، وأنه يعيتم من

﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾ سماع فهم وقبول، لأنه تعالى هو الهادي الموفق ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أموات القلوب، أو كما أن دعاءك لا يفيد سكان القبور شيئا، كذلك لا يفيد المعرض المعاند شيئا، ولكن وظيفتك النذارة، وإبلاغ ما أرسلت به، قُبِل منك أم لا.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ ○ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ ○ أي: مجرد إرسلنا إياك بالحق، لأن الله تعالى بعثك على حين فترة من الرسل، وطموس من السبل، واندراس من العلم، وضرورة عظيمة إلى بعثك، فبعثك الله رحمة للعالمين.

وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم والصراط المستقيم، حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به من هذا القرآن العظيم، وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم حق وصدق ﴿بَشِيرًا﴾ لمن أطاعك بثواب الله العاجل والآجل، و﴿نَذِيرًا﴾ لمن عصاك، بعقاب الله العاجل والآجل، ولست بيدع من الرسل.

فما ﴿مَن أُمَّةٍ﴾ من الأمم الماضية والقرون الخالية ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يقيم عليهم حجة الله ﴿لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَن حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

(٢٦، ٢٥) ﴿وَإِن يَكذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ○ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ○ أي وإن يكذبك أيها الرسول، هؤلاء المشركون، فلست أول رسول كُذِّبَ ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالات على الحق، وعلى صدقهم فيما أخبروهم به ﴿وَبِالزُّبُرِ﴾ أي: الكتب المكتوبة، المجموع فيها كثير من الأحكام ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: المضيء في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة فلم يكن تكذيبهم إياهم ناشئا عن اشتباه، أو قصور بما جاءتهم به الرسل، بل بسبب ظلمهم وعنادهم.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنواع العقوبات ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ عليهم؟ كان أشد النكير وأعظم التنكيل، فإياكم وتكذيب هذا الرسول الكريم، فيصيبكم كما أصاب أولئك، من العذاب الأليم والخزي الوخيم.

(٢٨، ٢٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ وَغَرَابِيبُ سُودٌ ○ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ أَلْتَعْمَرُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف، ليدل العباد على كمال قدرته وبيدع حكمته.

حَرِيْرٌ ۝ وَقَالُوا لَمَعُدُّ لِيَهْ أَلَّذِي أَدَهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّكَ رَبَّنَا لَعَفُوْرٌ
شَكُوْرٌ ۝ أَلَّذِي أَمَلْنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا
يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوْبٌ ﴿ يَذْكُرُ تَعَالَى أَنْ الْكِتَابَ الَّذِي أَوْحَاهُ إِلَى
رَسُولِهِ ﴿ هُوَ الْحَقُّ ﴾ من كثرة ما اشتمل عليه من الحق كأن
الحق منحصر فيه، فلا يكن في قلوبكم حرج منه، ولا تبرموا
منه، ولا تستهينوا به، فإذا كان هو الحق، لزم أن كل ما دل
عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها، مطابق لما في
الواقع، فلا يجوز أن يراد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه.

﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّتْ يَدَايِي ﴾ من الكتب والرسول، لأنها
أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها، فهي بشرت به
وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحدًا أن يؤمن
بالكتب السابقة، وهو كافر بالقرآن أبدًا، لأن كفره به ينقض
إيمانه بها، لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن
أخبارها مطابقة لأخبار القرآن.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْبَادُهُ لَخَيْرٌ بِصِيرٌ ﴾ فيعطي كل أمة، وكل
شخص، ما هو اللائق بحاله، ومن ذلك، أن الشرائع السابقة
لا تليق إلا بوقتها وزمانها، ولهذا، ما زال الله يرسل الرسل
رسولًا بعد رسول، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء بهذا
الشرع الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل
بما هو الخير في كل وقت.

ولهذا لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولًا، وأحسنهم
أفكارًا، وأرقهم قلوبًا وأزكاهم أنفسًا، اصطفاها الله تعالى،
واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على
سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ
عِبَادِنَا ﴾ وهم هذه الأمة.

﴿ فَيَنْهَاهُمْ طَلْعَ لِنَفْسِهِ ﴾ بالمعاصي [التي] هي دون الكفر،
﴿ وَمَنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ ﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم،
﴿ وَمَنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق
غيره، وهو المؤدي للفرائض، المكثّر من النوافل، التارك
للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاها الله تعالى، لوراثته هذا الكتاب، وإن
تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم. فلكل منهم قسط من
وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان،
وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثته الكتاب.

لأن المراد بوراثته الكتاب، وراثته علمه وعمله، ودراسة
ألفاظه، واستخراج معانيه.

(١) في ب: الإخلاص.

في القبور، ولكن الغافل ينظر في هذه الأشياء وغيرها نظر
غفلة، لا تحدث له التذكر، وإنما ينتفع بها من يخشى الله
تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها.

ولهذا قال: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فكل من
كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجب له خشية الله
الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء من يخشاه، وهذا
دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته
هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾.

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ كامل العزة، ومن عزته خلق هذه
المخلوقات المتضادات، ﴿ عَفُوْرٌ ﴾ لذنوب التائبين.

(٢٩، ٣٠) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ
وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تَجْدَةً لَّنْ كَسْبُورٌ ۝
لِيُؤْتِيَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ عَفُوْرٌ شَكُوْرٌ ﴿
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ ﴾ أي: يتبعونه في أوامره
فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها
ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون
أيضًا ألفاظه، بدراسته، ومعانيه، بتبعتها واستخراجها.

ثم خص من التلاوة بعدما عمّ الصلاة التي هي عماد
الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق
الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم،
من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات ﴿ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾
في جميع الأوقات.

﴿ يَرْجُونَ ﴾ [بذلك] ﴿ تَجْدَةً لَّنْ كَسْبُورٌ ﴾ أي: لن تكسد
وتفسد، بل تجارة، هي أجل التجارات وأعلاها وأفضلها،
ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه
وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون^(١) بأعمالهم، وأنهم لا
يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئًا.

وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال: ﴿ لِيُؤْتِيَهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾
أي: أجور أعمالهم على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها
وعدمه ﴿ وَيزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ زيادة عن أجورهم ﴿ إِنَّهُ
عَفُوْرٌ شَكُوْرٌ ﴾ غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من
الحسنات.

(٣١-٣٥) ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا
لِمَا بَيْنَ يَدَايِي إِنَّ اللَّهَ يَعْبَادُهُ لَخَيْرٌ بِصِيرٌ ۝ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ
اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَيَنْهَاهُمْ طَلْعَ لِنَفْسِهِ وَمَنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَنْهُمْ
سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ يُأْتِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝ جَنَّتٌ
عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٣٨

تَبَارَكَ الَّذِي

وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣٦﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْ ذُنَّ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٧﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٨﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَإِيَّسْنَا فِيهَا نَضَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٤١﴾ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ التَّنْذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٤٢﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

بحيث لا يمسه نصب ولا لغوب، ولا هم ولا حزن.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة؛ لأن النوم فائده زوال التعب، وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

(٣٦، ٣٧) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾
 وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوْ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ التَّنْذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٤١﴾ لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم، ذكر حال أهل النار وعذابهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا ما جاءتهم به رسلم من الآيات، وأنكروا لقاء ربهم.

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها أشد العذاب، وأبلغ العقاب ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحوا ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ فشددة العذاب وعظمه، مستمر عليهم في جميع الآيات واللحظات.

وقوله: ﴿يَا ذُنَّ اللَّهُ﴾ راجع إلى السابق بالخيرات، لثلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ أي: وراثة الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده، هو الفضل الكبير، الذي جميع النعم بالنسبة إليه كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق، وأكبر الفضل، وراثة هذا الكتاب.

ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال: ﴿جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: جنات مشتملات على الأشجار، والظل، والظليل، والحدائق الحسنة، والأنهار المتدفقة، والقصور العالية، والمنازل المزخرفة، في أبد لا يزول، وعيش لا ينفد.

والعدن «الإقامة» فجنات عدن أي: جنات إقامة، أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو الحلبي الذي يجعل في اليدين، على ما يحبون، ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ﴿وَيُحَلَّوْنَ فِيهَا لُؤْلُؤًا﴾ ينظم في ثيابهم وأجسادهم ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ من سندس، ومن إستبرق أخضر.

﴿وَمَا تَم نَعِيمُهُمْ﴾ وكملت لذتهم ﴿قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهذا يشمل كل حزن، فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص في جمالهم، ولا في طعامهم وشرابهم، ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم، ولا في دوام لبثهم.

فهم في نعيم ما يرون عليه مزيدًا، وهو في تزايد أبد الآباد. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ حيث غفر لنا الزلات ﴿شَكُورٌ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانينا؛ فبمغفرته نجوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب.

﴿الَّذِي أَلْهَنَّا﴾ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار ﴿دَارَ الْمَقَامَةِ﴾ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها.

وذلك الإحلال ﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ علينا وكرمه، لا بأعمالنا؛ فلولوا فضله لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَضَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة التمتع، وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، ويهيئ لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما يكونون بهذه الصفة،

خلقه، والحرمان.

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْوِي مَاذَا حَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَاتٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ عَيْدَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ يقول تعالى مُعْجِزًا لآلهة المشركين، ومبينًا نقصها، وبطالان شركهم من جميع الوجوه ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ أي أخبروني عن شركائكم ﴿الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، ف ﴿أَرْوِي مَاذَا حَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ هل خلقوا بحرا، أم خلقوا جبالا، أو خلقوا حيوانا، أو خلقوا جمادا؟ سيقرن أن الخالق لجميع الأشياء، هو الله تعالى، أم لشركائكم شركة ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ في خلقها وتديرها؟ سيقولون: ليس لهم شركة.

فإذا لم يخلقوا شيئا، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدتموهم، ودعوتموهم مع إقراركم بعجزهم؟ فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضا منتف، فلهذا قال: ﴿أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان ﴿فَهُمْ﴾ في شركهم ﴿عَلَىٰ بَيِّنَاتٍ﴾ من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟.

ليس الأمر كذلك؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ. ولو قدر نزول كتاب إليهم، وإرسال رسول إليهم، وزعموا أنه أمرهم بشركهم، فإننا نجزم بكذبهم، لأن الله قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾، فالرسل والكتب، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى ﴿وَمَا أَمَرُوا إِلَّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والتقلي، قد دلا على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك، وفيهم ذو العقول والذكاء والفلطنة؟ أجاب تعالى بقوله: ﴿بَلْ إِنَّ عَيْدَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة، فإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالمتقدم الضال، وأمانتي مَنَّاها الشيطان، وزين لهم [سوء] أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها، وتعسر انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر، والشرك الباطل المضمحل.

(١) كذا في ب، وفي أ: مدينا.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ۝ وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا﴾ أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها.

فيقال لهم: ﴿أَوَلَمْ نُعْزِمِكُمْ مَآءً﴾ أي: دهرًا وعمرا ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ﴾ أي: يتمكن فيه مَنْ أَرَادَ التَّذَكُّرَ مِنَ الْعَمَلِ، متعتاكم في الدنيا، وأدرنا عليكم الأرزاق، وقبضنا لكم أسباب الراحة، ومددنا^(١) لكم في العمر، وتابعا عليكم الآيات، وأوصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء، لتبينوا إلينا وترجعوا إلينا.

فلم ينجع فيكم إنذار، ولم تند فيكم موعظة، وأخرنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم وتمت أعماركم، ورحلتم عن دار الإمكان بأشرف الحالات، ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال، سألتهم الرجعة.

هيئات هيئات، فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكثوا فيها خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين، ولهذا قال: ﴿تَذَوُّرًا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ ينصرهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

(٣٨) ﴿إِنَّمَا اللَّهُ عَلَيْهِ غِيبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين، أخبر تعالى عن سعة علمه تعالى، واطلاعه على غيب السماوات والأرض، التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم، وأنه عالم بالسرائر، وما تنطوي عليه الصدور، من الخير والشر والزكاء وغيره، فيعطي كل ما يستحقه، وينزل كل أحد منزلته.

(٣٩) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا حَسْرًا﴾ يخبر تعالى عن كمال حكمته، ورحمته بعباده، أنه قدر بقضائه السابق، أن يجعل بعضهم يخلف بعضا في الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم النذر، فينظر كيف يعملون؛ فَمَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، وبما جاءت به رسله، فإن كفره عليه، وعليه إثمه وعقوبته، ولا يحمل عنه أحد، ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت ربه له، وبغضه إياه، وأي عقوبة أعظم من مقت الرب الكريم؟.

﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا حَسْرًا﴾ أي: يخسرون أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة، فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران، والحزني عند الله وعند

﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتْ إِذْ
 أَسْكَهْمَا مِنْ أَمْرٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٢﴾ يخبر تعالى عن
 كمال قدرته، وتمام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى
 يمسك السماوات والأرض عن الزوال، فإنهما لو زالتا ما
 أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنهما.
 ولكنه تعالى قضى أن يكونا كما وجدنا، ليحصل للخلق
 القرار، والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه، وقوة
 قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالاً وتعظيماً، ومحبة
 وتكريماً، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته بإمهال المذنبين،
 وعدم معاجلته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم، ولو
 أذن للأرض لابتلعتهن، ولكن وسعتهم مغفرته، وحلمه،
 وكرمه ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.
 ﴿٤٣، ٤٤﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ
 أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ۝ اسْتَكْبَارًا
 فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ
 يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ فَلَنْ يُجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۚ وَلَنْ يُجِدَ لِسُنَّتِ
 اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٥﴾ أي: وأقسم هؤلاء الذين كذبوك يا رسول الله،
 قسماً اجتهدوا فيه بالآيمان الغليظة: ﴿لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ
 أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي: أهدى من اليهود والنصارى [أهل
 الكتب]، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود.
 ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى
 الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿مَّا
 زَادَهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ زيادة ضلال وبغي وعناد.
 وليس إقسامهم المذكور لقصد حسن، وطلب للحق، وإلا
 لوفقوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق
 وعلى الحق، وبهجة في كلامهم هذا، يريدون به المكر
 والخداع، وأنهم أهل الحق، الحريصون على طلبه، فيعتر بهم
 المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون.
 ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ﴾ الذي مقصوده، مقصود سيء،
 وماله وما يرمي إليه سيء باطل ﴿إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾، فمكرهم إنما
 يعود عليهم، وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات، وتلك
 الإقسامات، أنهم كذبة في ذلك مزورون، فاستبان خزيمهم،
 وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيء، فعاد مكرهم في
 نحورهم، ورد الله كيدهم في صدورهم.
 فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو
 سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار
 في الظلم والعناد، والاستكبار على العباد، أن يحل به نقمته،
 وتسلب عنه نعمته، فَلْيَتَرَقَّبْ هؤلاء، ما فعل بأولئك.

﴿٤٤﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن
 جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ
 مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٥﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ
 وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ
 الْأُولَىٰ فَلَنْ يُجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۚ وَلَنْ يُجِدَ لِسُنَّتِ
 اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٦﴾ أَوْلَىٰ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ
 فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٧﴾
 ﴿٤٤﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن
 جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ
 مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٥﴾ اسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ
 وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ
 الْأُولَىٰ فَلَنْ يُجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۚ وَلَنْ يُجِدَ لِسُنَّتِ
 اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٦﴾ أَوْلَىٰ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ
 فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٧﴾

﴿٤٥، ٤٤﴾ ﴿أَوْلَىٰ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
 مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي
 السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝ وَلَوْ يَوَاحِدُ اللَّهُ
 النَّاسَ يَمَّا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَيْكَ ظَهْرِيهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ
 يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَهُمْ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ
 بَصِيرًا﴾ يحض تعالى على السير في الأرض، في القلوب
 والأبدان، للاعتبار لا لمجرد النظر والغفلة، وأن ينظروا إلى
 عاقبة الذين من قبلهم ممن كذبوا الرسل، وكانوا أكثر منهم
 أموالاً وأولاداً وأشد قوة، وعمروا الأرض^(١) أكثر مما عمرها
 هؤلاء، فلما جاءهم العذاب، لم تنفعهم قوتهم، ولم تغن
 عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، ونفذت فيهم قدرة
 الله ومشيئته.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾
 لكمال علمه وقدرته ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾.

ثم ذكر تعالى كمال حلمه، وشدة إمهاله وإنظاره أرباب

(١) كذا في ب، وفي أ: وعمروها.

الجرائم والذنوب فقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا﴾ من الذنوب ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أي: لاستوعبت العقوبة، حتى الحيوانات غير المكلفة. ﴿وَلَكِنْ﴾ يمهلهم تعالى ولا يمهلهم و ﴿يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ فإذا جاء أجلهم فإن الله كان يعادهم بصيراً ﴿فِي جِزَائِهِمْ﴾ بحسب ما علمه منهم، من خير وشر. تم تفسير سورة فاطر، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة يس

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٢) ﴿يَسَّ ١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣﴾ عَلَيَّ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ ﴿تَنْزِيلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥﴾ لِنَسْئِرٍ قَوْمًا مَّا أَنْذَرْنَا عَنْ آبَائِهِمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ غُلًّا فَلَا يَبْصُرُونَ ٨ ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩﴾ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَيَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ١٢ ﴿هذا قسم من الله تعالى بالقرآن الحكيم، الذي وصفه بالحكمة، وهي وضع كل شيء موضعه: وضع الأمر والنهي في الموضع (١) اللائق بهما، ووضع الجزاء بالخير والشر في محلها اللائق بهما، فأحكامه الشرعية والجزائية كلها مشتملة على غاية الحكمة. ومن حكمة هذا القرآن، أنه يجمع بين ذكر الحكم وحكمته، فينبه العقول على المناسبات والأوصاف المقتضية لترتيب الحكم عليها. ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ هذا المقسم عليه، وهو رسالة محمد ﷺ، وإنك من جملة المرسلين، فلست ببدع من الرسل، وأيضاً فحجت بما جاء به الرسل من الأصول الدينية. وأيضاً فمن تأمل أحوال (٢) المرسلين، وأوصافهم، وعرف الفرق بينهم وبين غيرهم، عرف أنك من خيار المرسلين، بما فيك من الصفات الكاملة، والأخلاق الفاضلة.

ولا يخفى ما بين المقسم به، وهو القرآن الحكيم، وبين المقسم عليه، [وهو] رسالة الرسول محمد ﷺ من الاتصال،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٤٤٠
﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ٤٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَسَّ ١ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَيَّ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٤ تَنْزِيلِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِنَسْئِرٍ قَوْمًا مَّا أَنْذَرْنَا عَنْ آبَائِهِمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَيَّ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ غُلًّا فَلَا يَبْصُرُونَ ٨ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ٩ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ١١ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتِ وَيَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ ١٢

وأنه لو لم يكن لرسالته دليل ولا شاهد إلا هذا القرآن الحكيم، لكفى به دليلاً وشاهداً على رسالة محمد ﷺ، بل القرآن العظيم أقوى الأدلة المتصلة المستمرة على رسالة الرسول، فأدلة القرآن كلها أدلة لرسالة محمد ﷺ.

ثم أخبر بأعظم أوصاف الرسول ﷺ، الدالة على رسالته، وهو أنه ﴿عَلَيَّ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ معتدل موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وذلك الصراط المستقيم مشتمل على أعمال، وهي الأعمال الصالحة، المصلحة للقلب والبدن، والدنيا والآخرة، والأخلاق الفاضلة المزكية للنفس المطهرة للقلب، المنمية للأجر، فهذا الصراط المستقيم، الذي هو وصف الرسول ﷺ، ووصف دينه الذي جاء به، فتأمل جلالة هذا القرآن الكريم، كيف جمع بين القسم بأشرف الأقسام، على أجل مقسم عليه، وخبر الله وحده كاف، ولكنه تعالى أقام من الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة في هذا الموضع على صحة ما أقسم عليه، من رسالة رسوله ما نبهنا عليه، وأشرنا

(١) في ب: في المحل. (٢) كذا في ب، وفي أ: أصول.

إشارة لطيفة لسلوك طريقه.

وهذا الصراط المستقيم ﴿تَزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ فهو الذي أنزل به كتابه، وأنزله طريقاً لعباده، موصلاً لهم إليه، فحماه بعزته عن التغيير والتبديل، ورحم به عباده رحمة اتصلت بهم، حتى أوصلتهم إلى دار رحمته.

ولهذا ختم الآية بهذين الاسمين الكريمين: العزيز، الرحيم.

فلما أقسم تعالى على رسالته وأقام الأدلة عليها، ذكر شدة الحاجة إليها واقتضاء الضرورة لها فقال:

﴿لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرُوا بِأَبَائِهِمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴾ وهم العرب الأميون، الذين لم يزالوا خالين من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم الجهالة، وغمرتهم الضلالة وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول العالمين، فأرسل الله إليهم رسولاً من أنفسهم، يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فينذر العرب الأميين، ومن لحق بهم من كل أمة، ويذكر أهل الكتب بما عندهم من الكتب، فتنعمة الله به على العرب خصوصاً، وعلى غيرهم عموماً.

ولكن هؤلاء الذين بُعِثَتْ فيهم لإنذارهم، بعدما أنذرتهم انقسموا قسمين: قسم رد لما جئت به، ولم يقبل النذارة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: نفذ فيهم القضاء والمشيئة، أنهم لا يزالون في كفرهم وشركهم، وإنما حق عليهم القول بعد أن عرض عليهم الحق فرفضوه، فحينئذ عوقبوا بالطبع على قلوبهم.

وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ غُمَّةً﴾ وهي جمع «غل»، و «الغل» ما يغل به العنق، فهو للعتق بمنزلة القيد للرجل.

وهذه الأغلال التي في الأعناق^(١) عظيمة، قد وصلت إلى أذقانهم ورفعت رؤوسهم إلى فوق ﴿فَهُمْ مُّقْمَحُونَ﴾ أي: رافعوا رؤوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها.

﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ أي: حاجزاً يحجزهم عن الإيمان ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تفد فيهم النذارة.

﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وكيف يؤمن من طبع على قلبه، ورأى الحق باطلاً، والباطل حقاً؟!.

والقسم الثاني: الذين قبلوا النذارة، وقد ذكرهم بقوله: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ﴾ أي: إنما تنفع نذارتك، ويتعظ بنصحك ﴿مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [أي: من قصده اتباع الحق وما ذكر به

﴿وَحِثَّى الرَّحْمَنَ بِالْعَيْبِ﴾ أي: من اتصف بهذين الأمرين، القصد الحسن في طلب الحق، وخشية الله تعالى، فهم الذين ينتفعون برسالتك، ويزكون بتعليمك، وهذا الذي وفق لهذين الأمرين ﴿بَيِّنَتُهُ بَعْفَرَفٍ﴾ لذنوبه ﴿وَأَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ لأعماله الصالحة، ونبته الحسنة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازيهم على الأعمال ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا﴾ من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وباشروها في حال حياتهم.

﴿وَأَنذَرْتَهُمْ﴾ وهي آثار الخير وآثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد، وتعليمه ونصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيهِ عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً، من صلاة أو زكاة، أو صدقة أو إحسان، فاقتدى به غيره، أو عمل مسجداً، أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس، وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر، ولهذا «مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَلَعَلَّه زُرَّهَا وَوزر مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وهذا الموضوع يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله، والهداية إلى سبيله، بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة، وأشدهم جرماً، وأعظمهم إثماً.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من الأعمال والنيات وغيرها ﴿أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ أي: كتاب هو أم الكتب وإليه مرجع الكتب، التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

(١٣-٣٠) ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ مَثَلًا مِّثْلًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ إلى آخر القصة. أي: واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك، الرادين لدعوتك، مثلاً يعتبرون به، ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير وذلك المثل: أصحاب القرية، وما جرى منهم من التكذيب لرسول الله، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله، وتعيين تلك القرية، لو كان فيه فائدة، لعينها الله، فالتعرض لذلك، وما أشبهه من باب التكلف، والتكلم بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذا تجد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار، ما تعرف به، أن طريق

(١) كذا في ب، وفي أ: الأذقان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤١

الْقُرْيَةِ

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقُرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
 إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا
 إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَمَا أَنْزَلَ
 الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا عَلِّمْنَا
 لَنَا لِكَلِمَةٍ أَلْمِيَّةٍ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا بِلُغَةِ الْعَرَبِ وَلَئِنَّا لَكَنَّا
 قَالُوا إِنَّا نَطَّيَّرُ بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ
 مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَرَفُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ
 بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ
 يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَنْ
 لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَالِيَ لَا أَعْبُدُ إِلَّا
 فَطَرَنِي وَالَّذِي تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَتَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ
 يُرِيدُ الْرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْكَ شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا
 يُنْقِدُونَ ﴿٢٣﴾ إِنْ إِذْ لَفِيَ ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنْ تَأْمَنْتُمْ
 بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُوا لَكُمْ قَوْلَ الْحَنَافَةِ قَالَ بَلَيْتَ قَوْمِي
 يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

العلم الصحيح، الوقوف مع الحقائق، وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس، ويزيد العلم، من حيث يظن الجاهل، أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها، ولا حجة عليها ولا يحصل منها من الفائدة، إلا تشويش الذهن، واعتياد الأمور المشكوك فيها.

والشاهد أن هذه القرية جعلها الله مثلاً للمخاطبين ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ من الله تعالى يأمرهم بعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له، وينهونهم عن الشرك والمعاصي.

﴿١٥﴾ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ ﴿١٦﴾ أي: قوبناهما بثالث، فصاروا ثلاثة رسل، اعتناء من الله بهم، وإقامة للحجة بتوالي الرسل إليهم ﴿١٧﴾ فَقَالُوا ﴿١٨﴾ لَيْسَ لَنَا إِلَهُ سِوَاكُمْ فَأَجَابُوهُمْ بِالْجَوَابِ، الذي ما زال مشهوراً عند من رد دعوة الرسل.

﴿١٩﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَي: فما الذي فضلكم علينا، وخصكم من دوننا؟ قالت الرسل لأمرهم: ﴿٢٠﴾ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُنَزِّلُ الْوَحْيَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴿٢١﴾.

﴿٢٢﴾ وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ أَي: أنكروا عموم الرسالة، ثم أنكروا أيضاً المخاطبين لهم، فقالوا: ﴿٢٣﴾ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ. فقالت هؤلاء الرسل الثلاثة: ﴿٢٤﴾ رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَنَا لِكَلِمَةٍ أَلْمِيَّةٍ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ فلو كنا كاذبين، لأظهر الله^(١) خزينا، ولبادرنا بالعقوبة.

﴿٢٦﴾ وَمَا عَلَّمْنَا إِلَّا بِلُغَةِ الْعَرَبِ أَي: البلاغ المبين الذي يحصل به توضيح الأمور المطلوب بيانها، وما عدا هذا من آيات الاقتراح، ومن سرعة العذاب، فليس إلينا، وإنما وظيفتنا - التي هي البلاغ المبين - قمنا بها، وبينها لكم، فإن اهتديتم فهو حظكم وتوفيقكم، وإن ضللتكم فليس لنا من الأمر شيء.

فقال أصحاب القرية لرسولهم: ﴿٢٧﴾ إِنَّا نَطَّيَّرُ بِكُمْ أَي: لم نر على قدمكم علينا، واتصالكم بنا، إلا الشر، وهذا من أعجب العجائب، أن يجعل من قدم عليهم بأجل نعمة يُنعم الله بها على العباد وأجل كرامة يكرمهم بها، وضرورتهم إليها فوق كل ضرورة: قد قدم بحالة شر، زادت على الشر الذي هم عليه، واستشأموا بها!! ولكن الخذلان وعدم التوفيق، يصنع بصاحبه أعظم مما^(٢) يصنع به عدوه.

ثم توعدهم فقالوا: ﴿٢٨﴾ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ. فقالت لهم رسولهم: ﴿٢٩﴾ طَرَفُكُمْ مَعَكُمْ وهو ما معهم من الشرك والشر، المقضي لوقوع المكروه والنقمة، وارتفاع

المحبوب والنعمة، ﴿٣٠﴾ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ أَي: بسبب أننا ذكرناكم ما فيه صلاحكم وحظكم، قلتم لنا ما قلتم، ﴿٣١﴾ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ متجاوزون للحد، متجرهون في قولكم، فلم يزدكم [دعاؤهم] إلا نفورا واستكباراً.

﴿٣٢﴾ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى حرساً على نصيح قومه حين سمع ما دعت إليه الرسل وآمن به، وعلم ما رد به قومه عليهم فقال [لهم]: ﴿٣٣﴾ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ فَأمرهم باتباعهم ونصحهم على ذلك، وشهد لهم بالرسالة.

ثم ذكر تأييداً لما شهد به ودعا إليه، فقال: ﴿٣٤﴾ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا أَي: اتبعوا من نصيحتكم نصيحاً يعود عليكم بالخير، وليس يريد منكم أموالكم، ولا أجراً على نصيحة لكم، وإرشاده إياكم، فهذا موجب لاتباع من هذا وصفه.

بقي [أن يقال]: فلهذا يدعو ولا يأخذ أجره، ولكنه ليس على الحق، فدفع هذا الاحتراز بقوله: ﴿٣٥﴾ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ لأنهم لا يدعون إلا لما يشهد العقل الصحيح بحسنه، ولا ينهون إلا

(١) كذا في ب، وفي أ: لظهر خزينا. (٢) كذا في ب، وفي أ: ما.

بما يشهد العقل الصحيح بقبحه .

الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركة، ولا حياة بعد ذلك العتو والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح، وتجبرهم عليهم .

قال الله متوجعاً للعباد: ﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: ما أعظم شقاءهم، وأطول عناءهم، وأشد جهلهم، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة، التي هي سبب لكل شقاء وعذاب ونكال!!

(٣١، ٣٢) ﴿الَّذِينَ يَرَوْنَ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وإن كل لما جميع لدينا محضرون يقول تعالى: ألم ير هؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكتها الله تعالى، وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها .

وسيعيد الله الجميع خلقاً جديداً، ويعثنهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى، ليحكم بينهم بحكمه العدل، الذي لا يظلم مثقال ذرة ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

(٣٣-٣٦) ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي آمَنَتْهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْتِجُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ﴾ على البعث والنشور، والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال، هذه ﴿الْأَرْضُ الَّتِي آمَنَتْهَا﴾ أنزل الله عليها المطر، فأحياها (٢) بعد موتها ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ من جميع أصناف الزروع، ومن جميع أصناف النبات، التي تأكله أنعامهم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ أي: في تلك الأرض الميتة ﴿جَنَّاتٍ﴾: بساتين، فيها أشجار كثيرة، وخصوصاً النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار ﴿وَفَجْرْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِنَ الْعُيُونِ﴾ .

جعلنا في الأرض تلك الأشجار، والنخيل، والأعناب ﴿لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ﴾ قوتاً وفاكهة، وأذماً ولذة ﴿وَو﴾ الحال أن تلك الثمار ﴿مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ [وليس لهم فيه صنع ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين، وخير الرازقين، وأيضاً فلم تعمله أيديهم] لطبخ ولا غيره، بل أوجد الله هذه الثمار، غير محتاجة لطبخ ولا شيء، تؤخذ من أشجارها، فتؤكل في الحال، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ من ساق لهم هذه النعم،

فكان قومه لم يقبلوا نصحه، بل عادوا لاثمين له على اتباع الرسل، وإخلاص الدين لله وحده فقال: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: وما المانع لي من عبادة مَنْ هو المستحق للعبادة؛ لأنه الذي فطرني، وخلقني ورزقني، وإليه مآل جميع الخلق، فيجازيهم بأعمالهم، فالذي بيده الخلق والرزق، والحكم بين العباد، في الدنيا والآخرة، هو الذي يستحق أن يُعبد، ويشى عليه ويمجد، دون مَنْ لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا عطاءً ولا منعاً، ولا حياةً، ولا موتاً، ولا نشوراً ولهذا قال:

﴿أَتَجِدُ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا إِنْ يُرِيدُ الرَّحْمَنُ بِصِرٍّ أَنْ تُغْنِيَ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ﴾ لأنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذنه، فلا تغني شفاعتهم عني شيئاً، ولا هم ينقذون من الضر الذي أَرادَه الله بي .

﴿إِنِّي إِذَا﴾ أي: إن عبدت آلهة هذا وصفها ﴿لَنُفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ فجمع في هذا الكلام، بين نصحهم، والشهادة للرسل بالرسالة، والاهتداء والإخبار بتعين (١) عبادة الله وحده، وذكر الأدلة عليها، وأن عبادة غيره باطلة، وذكر البراهين عليها، والإخبار بضلال من عبدها، والإعلان بإيمانه جهراً، مع خوفه الشديد من قتلهم فقال:

﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ فقتله قومه، لما سمعوا منه وراجعهم بما راجعهم به .

ف ﴿قِيلَ﴾ له في الحال ﴿أَنْتَ خَلِّ لِحَبَّتِكَ﴾ فقال مخبراً بما وصل إليه من الكرامة على توحيده، وإخلاصه، وناصرحاً لقومه بعد وفاته، كما نصح لهم في حياته: ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾ أي: بأي شيء غفر لي، فأزال عني أنواع العقوبات ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ بأنواع المثوبات والمسرات: أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم، لم يقيموا على شركهم .

قال الله في عقوبة قومه: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِمَّنْ أَسْمَأُ﴾ أي: ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم، فنزل جنداً من السماء لإتلافهم، ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم .

﴿إِنْ كَانَتْ﴾ أي: ما كانت عقوبتهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ أي: صوتاً واحداً، تكلم به بعض ملائكة الله ﴿فَإِذَا هُمْ كَارِهُونَ﴾ قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك

(١) كذا في ب، وفي أ: بتعيين . (٢) كذا في ب، وفي أ: فأصابها .

سُبْحَانَ

٤٤٢

سُبْحَانَ

﴿٣٧﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴿٣٨﴾ إِنَّ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَمِدُونَ ﴿٣٩﴾ يَحْسِرُونَ عَلَى أَعْبَادٍ مَا يَاْتُهُمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٠﴾ الرَّبِيرُ ﴿٤١﴾ كَمَا أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ كُلُّ لَمَّا جَمِعَ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٤٣﴾ وَءَايَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٤٤﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرَانٍ فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٤٥﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا يَخْلُقُهَا وَخُلُقُهَا وَأَوْصَافُهُمُ الظَّاهِرَةُ وَالْبَاطِنَةُ، ﴿رُمَّنًا لَا يَمْلُونَ﴾ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ، الَّتِي قَدْ خَلَقْتَ وَغَابَتْ عَنْ عَلَمِنَا، وَالَّتِي لَمْ تَخْلُقْ بَعْدَ.

فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك، أو ظهير، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سمي، أو شبيه، أو مثيل في صفات كماله، ونعوت جلاله، أو يعجزه شيء يريد.

(٤٠-٣٧) ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَيْلٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ إِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿أَي: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ﴾ عَلَى نَفْوِذٍ مُشَبَّهَةِ اللَّهِ، وَكَمَالِ قَدْرَتِهِ، وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى بَعْدَ مَوْتِهِمْ ﴿أَيْلٌ نَسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ أَي: نَزِيلِ الضِّيَاءِ الْعَظِيمِ، الَّذِي طَبَقَ الْأَرْضَ، فَجَبَلَهُ بِالظَّلْمَةِ، وَنَحَلَهَا مَحَلَهُ ﴿إِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾.

وكذلك نزيل هذه الظلمة التي عمتهم وشملتهم، فتطلع الشمس، فتضيء الأفطار، وينتشر الخلق لمعاشهم ومصالحهم، ولهذا قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾ [أَي: دَائِمًا تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا] قَدْرَهُ اللَّهُ لَهَا، لَا تَعْدَاهُ، وَلَا تَقْصُرُ عَنْهُ، وَلَيْسَ لَهَا تَصَرُّفٌ فِي نَفْسِهَا، وَلَا اسْتِعْصَاءٌ عَلَى قَدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الَّذِي بَعَزْتَهُ دَبَّرَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةَ، بِأَكْمَلِ تَدْبِيرٍ، وَأَحْسَنِ نِظَامٍ ﴿الْعَلِيمِ﴾ الَّذِي بَعَلَّمَهُ جَعَلَهَا مُصَالِحَ لِعِبَادِهِ، وَمُنَافِعٍ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾ يَنْزِلُ بِهَا، كُلُّ لَيْلَةٍ يَنْزِلُ مِنْهَا وَاحِدَةٌ ﴿حَتَّىٰ﴾ يَصْغُرُ جَدًّا فَيَعُودُ ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ﴾ أَي: عَرَجُونَ النَّخْلَةَ، الَّذِي مِنْ قَدَمِهِ نَشٌّ وَصَغُرُ حَجْمِهِ وَانْحَنَى، ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ مَا زَالَ يَزِيدُ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّىٰ يَتِمَّ [نُورُهُ] وَيَتَسَّقُ ضِيَائُهُ.

﴿وَكُلٌّ﴾ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، قَدْرَهُ [اللَّهُ] تَقْدِيرًا لَا يَتَعْدَاهُ، وَكُلٌّ لَهُ سُلْطَانٌ وَوَقْتُ، إِذَا وَجَدَ عَدَمَ الْآخِرِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾

أَي: فِي سُلْطَانِهِ الَّذِي هُوَ اللَّيْلِ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَوْجِدَ الشَّمْسُ فِي اللَّيْلِ ﴿وَلَا أَيْلٌ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ فَيَدْخُلُ عَلَيْهِ قَبْلَ انْقِضَاءِ سُلْطَانِهِ ﴿وَكُلٌّ﴾ مِنَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجْمِ ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أَي: يَتَرَدَّدُونَ عَلَى الدَّوَامِ، فَكُلُّ هَذَا دَلِيلٌ ظَاهِرٌ، وَبِرْهَانٌ بَاهِرٌ عَلَى عَظَمَةِ الْخَالِقِ وَعَظْمَةِ أَوْصَافِهِ، خُصُوصًا وَصَفِ الْقَدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ، وَالْعِلْمِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.

(٤١-٥٠) ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ نَفْسِهِمْ مَا يَشَاءُونَ ﴿وَإِنْ شَاءَ تَعْرِفُهُمْ فَلَا صَرِيحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمِمَّا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وَمِمَّا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اطَّلِعْ مِنْ لَوْ بَشَاءَ اللَّهُ لَطَمَعْتُمْ مِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿أَي: دَلِيلٌ لَهُمْ وَبِرْهَانٌ، عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ الْمَعْبُودُ، لِأَنَّهُ الْمُنْعَمُ بِالنِّعَمِ، الصَّارِفُ لِلنِّعَمِ، الَّذِي مِنْ جُمْلَةِ نِعَمِهِ ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قَالَ كَثِيرٌ مِنْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٤٣

الْمَشْحُونِ

وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِنْ شَأْنُ نَعْرِقَهُمْ فَلَا صِرَاحَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ نَشَاءُ اللَّهُ أَنْطَعِمَهُ إِنْ أَسْتَمِرُّ الْآفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فِإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا يَا بُولُؤْنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فِإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَأَلْيَوْمَ لَا تَنْظُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَحْزَنُ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾

فحملهم الله تعالى، ونجاهم بالأسباب التي علمهم الله بها من الغرق، ولهذا [ينبهم على نعمته عليهم، حيث أنجاهم مع قدرته على ذلك فقال: ﴿وَإِنْ شَأْنُ نَعْرِقَهُمْ فَلَا صِرَاحَ لَهُمْ﴾ أي: لا أحد يصرخ لهم، فيعانونهم على الشدة، ولا يزيل عنهم المشقة ﴿وَلَا هُمْ يُقَدَّرُونَ﴾ مما هم فيه.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾ حيث لم نغرقهم، لطفًا بهم وتمييعًا لهم إلى حين، لعلمهم يرجعون أو يستردكون ما فرط منهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ أي: من أحوال البرزخ والقيامة، وما في الدنيا من العقوبات ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

أعرضوا عن ذلك، فلم يرفعوا به رأسًا، ولو جاءتهم كل آية، ولهذا قال: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، وفي إضافة الآيات إلى ربهم دليل على كمالها ووضوحها، لأنه ما أبين من آية من آيات الله، ولا أعظم بيانًا.

(١) كذا في ب، وفي أ: في. (٢) كذا في ب، وفي أ: حين.

المفسرين: المراد بذلك: أبواهم ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ﴾ أي: للموجودين من^(١) بعدهم ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾ أي: من مثل ذلك الفلك، أي: جنسه ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ به، فذكر نعمته على الآباء بحملهم في السفن، لأن النعمة عليهم نعمة على الذرية، وهذا الموضوع من أشكال المواضع علي في التفسير.

فإن ما ذكره كثير من المفسرين، من أن المراد بالذرية الآباء، مما لا يعهد في القرآن إطلاق الذرية على الآباء، بل فيها من الإبهام، وإخراج الكلام عن موضوعه، ما يباه كلام رب العالمين، وإرادته البيان والتوضيح لعباده.

وتم احتمال أحسن من هذا، وهو أن المراد بالذرية الجنس، وأنهم هم بأنفسهم، لأنهم هم من ذرية [بني] آدم، ولكن ينقض هذا المعنى قوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ إن أريد: وخلقنا من مثل ذلك الفلك، أي لهؤلاء المخاطبين، ما يركبون من أنواع الفلك، فيكون ذلك تكريرًا للمعنى، تأباه فصاحة القرآن.

فإن أريد بقوله: ﴿وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ﴾ الإبل التي هي سفن البر، استقام المعنى واتضح.

إلا أنه يبقى أيضًا، أن يكون الكلام فيه تشويش، فإنه لو أريد هذا المعنى، لقال: وآية لهم أننا حملناهم في الفلك المشحون، وخلقنا لهم من مثله ما يركبون، فأما أن يقول في الأول: وحملنا ذريتهم، وفي الثاني: حملناهم، فإنه لا يظهر المعنى، إلا أن يقال: الضمير عائد إلى الذرية، والله أعلم بحقيقة الحال.

فلما وصلت في الكتابة إلى هذا الموضوع، ظهر لي معنى ليس ببعيد من مراد الله تعالى، وذلك أن من عرف جلاله كتاب الله، وبيانه التام من كل وجه، للأمر الحاضرة والماضية، والمستقبل، وأنه يذكر من كل معنى أعلاه وأكمل ما يكون من أحواله، وكانت الفلك من آياته تعالى، ونعمه على عباده، من حين أنعم عليهم، بتعلمها إلى يوم القيامة، ولم تزل موجودة في كل زمان، إلى زمان المواجهين بالقرآن.

فلما خاطبهم الله تعالى بالقرآن، وذكر حالة الفلك، وعلم تعالى أنه سيكون أعظم آيات الفلك في غير وقتهم، وفي غير زمانهم، حين يعلمهم [صنعة] الفلك [البحرية]، والشراعية منها والنارية، والجوية السابحة في الجو، كالطيور ونحوها، [والمراكب البرية] مما كانت الآية العظمى فيه لم توجد إلا في الذرية، نبه في الكتاب على أعلى نوع من أنواع آياتها فقال: ﴿وَأَيَّةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْحُونِ﴾ أي: المملوءة ركبًا وأمتعة.

ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع، لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا يخطر على الظنون، ولا حسب به الحاسبون، كقوله: ﴿أَتَمَلُّكَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾، ﴿وَحَسَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾ ونحو ذلك، مما يذكر اسمه الرحمن في هذا.

﴿إِن كَانَتْ﴾ البعثة من القبور ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً﴾ ينفخ فيها إسرافيل في الصور، فتحيا الأجساد ﴿فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخَضَّرُونَ﴾ الأولون والآخرون، والإنس والجن ليحاسبوا على أعمالهم.

﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ لا ينقص من حسناتها، ولا يزداد في سيئاتها ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من خير أو شر، فمن وجد خيراً فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

(٥٥-٥٨) ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ ۝ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَآئِكِ مُتَّكِفُونَ ۝ لَهُمْ فِيهَا فَنَكَّهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ۝ سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ [لما ذكر تعالى] أن كل أحد لا يجازى إلا ما عمله، ذكر جزاء الفريقين، فبدأ بجزء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم ﴿فِي شُغْلٍ فَكَّهُونَ﴾ أي: في شغل مفكه للنفس، مُلِّدٌ لها، من كل ما تهواه النفوس، وتلذذه العيون، ويتمناه المتمنون.

ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات، كما قال: ﴿هُمُ وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ من الحور العين، اللاتي قد جمعن حسن الوجوه والأبدان، وحسن الأخلاق ﴿فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرَآئِكِ﴾ أي: على السرر المزينة، باللباس المزخرف الحسن، ﴿مُتَّكِفُونَ﴾ عليها، اتكاء على كمال الراحة، والطمأنينة، واللذة. ﴿لَهُمْ فِيهَا فَنَكَّهَةٌ﴾ كثيرة، من جميع أنواع الثمار اللذيذة، من عنب وتين، ورمان، وغيرها ﴿وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾ أي: يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه.

ولهم أيضاً ﴿سَلَّمَ﴾ حاصل لهم ﴿مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة، وسلامه عليهم، وأكده بقوله: ﴿قَوْلًا﴾ وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية، التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها، فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

فلولا أن الله تعالى قدر أن لا يموتوا، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح، والبهجة، والسرور، لحصل ذلك، فترجو

وإن من جملة تربية الله لعباده، أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما ينفعهم، في دينهم ودنياهم.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ أي: من الرزق الذي من الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ معارضين للحق، محتجين بالمشيئة: ﴿أَنظِعُمْ مِّن لَّوْءِ شَيْءٍ اللَّهُ أَطْعَمَهُ ۖ إِنَّ أَنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيث تأمرونا بذلك.

وهذا مما يدل على جهلهم العظيم، أو تجاهلهم الوخيم، فإن المشيئة ليست حجة لعاصي أبداً، فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعالى مكن العباد، وأعطاهم من القوة ما يقدرون على فعل الأمر، واجتناب النهي، فإذا تركوا ما أمروا به، كان ذلك اختياراً منهم، لا جبراً لهم وقهراً.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ ۖ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: لا يستعدوا ذلك، فإنه [عن] قريب ﴿مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً﴾ وهي نفخة الصور ﴿تَأْخُذُهُمْ﴾ أي: تصيبهم ﴿وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ أي: وهم لاهون عنها، لم تخطر على قلوبهم في حال خصومتهم، وتشاجرهم بينهم، الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة.

وإذا أخذتهم وقت غفلتهم، فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَوْصِبَةً﴾ أي: لا قليلة ولا كثيرة ﴿وَلَا إِلِكْ أَهْلِيهِمْ يَرْجِعُونَ﴾.

(٥١-٥٤) ﴿وَيُنْفِخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلِكِ رَبِّهِمْ يَسْلُونَ ۝ قَالُوا بَيِّنَاتًا مِّن بَعَثْنَا مِن مَّرْقَدَاتِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ۝ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُخَضَّرُونَ ۝ فَالْيَوْمَ لَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النفخة الأولى: هي نفخة الفزع والموت، وهذه نفخة البعث والنشور. فإذا نفخ في الصور، خرجوا من الأجداث والقبور، ينسلون إلى ربهم أي: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأني والتأخر.

وفي تلك الحال يحزن المكذبون، ويظهرون الحسرة والندم، ويقولون: ﴿بَيِّنَاتًا مِّن بَعَثْنَا مِن مَّرْقَدَاتِنَا﴾ أي: من رقدتنا في القبور، لأنه ورد في بعض الأحاديث، أن لأهل القبور رقدة قبيل النفخ في الصور.

فيجابون، فيقال [لهم]: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي: هذا الذي وعدكم الله به، ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقهم رأياً عين.

ربنا أن لا يحرمنا ذلك النعيم، وأن يمتعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

(٥٩-٦٧) ﴿وَأَمْتَرُوا أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ ۝ أَلَمْ يَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِتَّعَىٰ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۝ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِثَلًا كَثِيرًا ۝ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۝ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝ أَصَلَوْهَا أَيُّومَ يَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ أَيُّومَ نَخِئْتُمْ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتُمْ يُبْصِرُونَ ۝ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَضَلُّوا مَضِيًّا وَلَا يُرْجِعُونَ﴾ لما ذكر تعالى جزاء المتقين، ذكر جزاء المجرمين ﴿و﴾ أنهم يقال لهم يوم القيامة: ﴿امْتَرُوا أَيُّومَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ﴾ أي: تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، ليوبخهم ويقرعهم على رؤوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم:

﴿أَلَمْ يَعْبُدُوا إِلَيْنَا﴾ أي: أمركم وأوصيكم، على السنة رسلي، [وأقول لكم]: ﴿يَبْنِي عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ أي: لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي، لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له. ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأندرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه، ﴿و﴾ أمرتكم ﴿أَنْ أَعْبُدُونِي﴾ بامثال أوامري وترك زواجري ﴿هَذَا﴾ أي: عبادتي وطاعتي، ومعصية الشيطان ﴿صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ فعلوم الصراط المستقيم وأعماله، ترجع إلى هذين الأمرين.

أي: فلم تحفظوا عهدي، ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم، ف ﴿أَضَلَّ مِنْكُمْ جِثَلًا كَثِيرًا﴾ أي: خلقًا كثيرًا، ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أي: فلا كان لكم عقل يأمركم بموالاة ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ولبًا، فلو كان لكم عقل صحيح لما فعلتم ذلك.

فإذ أطمعت الشيطان، وعاديتكم الرحمن، وكذبتكم بلقائه، ووردتم القيامة دار الجزاء، وحق عليكم القول بالعذاب ف ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ وتكذبون بها، فانظروا إليها عيانًا، فهناك تنزع منهم القلوب، وتزوغ الأبصار، ويحصل الفرع الأكبر.

ثم يكمل ذلك، بأن يؤمر بهم إلى النار، ويقال لهم: ﴿أَصَلَوْهَا أَيُّومَ يَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ادخلوها على وجه تَصْلَاكم، ويحيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل مبلغ، بسبب كفركم بآيات الله، وتكذيبكم لرسول الله.

٤٤٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ يَسٍ

إِنَّا صَحَبَ الْجَنَّةَ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكُنْهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظُلْمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِبُونَ ﴿٥٦﴾ لَمْ يَمَسَّ فِيهَا فَكْهَةٌ وَهُمْ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَّمَ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَرُوا أَيُّومَ أَيُّهَا الْمَجْرُمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ يَعْبُدُوا إِلَيْنَا عَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِثَلًا كَثِيرًا ۝ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَصَلَوْهَا أَيُّومَ يَمَّا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ أَيُّومَ نَخِئْتُمْ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتُمْ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ فَمَا اسْتَضَلُّوا مَضِيًّا وَلَا يُرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

قال الله تعالى في بيان وصفهم الفظيع، في دار الشقاء: ﴿أَيُّومَ نَخِئْتُمْ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾ بأن نجعلهم خرسًا، فلا يتكلمون، فلا يقدرّون على إنكار ما عملوه، من الكفر والتكذيب ﴿وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء. ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ﴾ بأن نذهب أبصارهم، كما طمسنا على نطقهم ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ أي: فبادروا إليه؛ لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة ﴿فَأَنْتُمْ يُبْصِرُونَ﴾ وقد طمست أبصارهم.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَاتَتِهِمْ﴾ أي: لأذهبنا حركتهم ﴿فَمَا اسْتَضَلُّوا مَضِيًّا﴾ إلى الأمام ﴿وَلَا يُرْجِعُونَ﴾ إلى ورائهم ليعبدوا عن النار، والمعنى: أن هؤلاء الكفار، حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم.

وفي ذلك الموطن، ما تمَّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء، فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار.

وأشعارها وأصوافها أثنائاً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها .
﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة ولا يتمتعون بها تمتعاً خالياً من العبرة والفكرة .

(٧٤، ٧٥) ﴿وَأَتَّخِذُوا مِن دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً لِّعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ﴾ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُم جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ ﴿ هذا بيان لبطلان آلهة المشركين، التي ^(١) اتخذوها مع الله تعالى، ورجوا نصرها وشفعها .

فإنها في غاية العجز ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ ولا أنفسهم ينصرون، فإذا كانوا لا يستطيعون نصرهم، فكيف ينصرونهم؟ والنصر له شرطان: الاستطاعة، [والقدرة]^(٢)، فإذا استطاع يبقى: هل يريد نصرة من عبده أم لا؟ فنقضي الاستطاعة ينفي الأمرين كليهما .

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُّحْضَرُونَ﴾ أي: محضرون هم، وهم في العذاب، ومتبرئ بعضهم من بعض، أفلا تبرأوا في الدنيا من عبادة هؤلاء، وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضرر، والعتاء والمنع، وهو الولي النصير؟ .

(٧٦) ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ﴾ وما يُعْلِنُونَ ﴿ أي: فلا يحزنك، يا أيها الرسول، قول المكذبين، والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، كل قول يقدحون فيه في الرسول، أو فيما جاء به .

أي: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ﴾ وما يُعْلِنُونَ ﴿ فنجازيهم على حسب علمنا بهم، وإلا فقولهم لا يضرنا شيئاً .

(٧٧-٨٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَاصِيَةٌ مِّمَّنْ ۚ وَصَرَبًا لِّنَّا مِثْلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۚ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۚ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنشَأْتُمُ التُّرُودَ ۚ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ ۚ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ۚ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ فَسُبْحَانَ الَّذِي يَبْدُؤُا مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَوَالَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ هذه الآيات الكريمات، فيها [ذكر] شبهة منكري البعث، والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانَ﴾ المنكر للبعث والشاك فيه، أمراً

فإن شاء طمس أعينهم، وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم، فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر، المقصود: أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة .

(٦٨) ﴿وَمَن نُّعِذِرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَن نُّعِذِرْهُ﴾ من بني آدم ﴿نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ﴾ أي: يعود إلى الحالة التي ابتدا، حالة الضعف، ضعف العقل، وضعف القوة. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أن الآدمي ناقص من كل وجه، فيتداركوا قوتهم وعقولهم، فيستعملونها في طاعة ربهم .

(٦٩، ٧٠) ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۚ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ينزه تعالى نبيه محمداً ﷺ عما رماه به المشركون، من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أن يكون شاعراً، أي: هذا من جنس المحال أن يكون شاعراً؛ لأنه رشيد مهتد، والشعراء غاؤون، يتبعهم الغاؤون، ولأن الله تعالى حسم جميع الشبه التي يتعلّق بها الضالون على رسوله .

فحسم أن يكون يكتب أو يقرأ، وأخبر أنه ما علمه الشعر وما ينبغي له ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أي: ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الأبواب، جميع المطالب الدينية، فهو مشتمل عليها أتم اشتمال وهو يذكر العقول، ما ركز الله في فطرها من الأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح .
﴿وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مبين لما يطلب بيانه، ولهذا حذف المعمول، ليدل على أنه مبين لجميع الحق، بأدلته التفصيلية والإجمالية، والباطل وأدلة بطلانه أنزله الله كذلك على رسوله .

﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ أي: حي القلب واعي، فهو الذي يركز على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية ﴿وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لأنهم قامت عليهم به حجة الله، وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يُدْلُونَ بها .

(٧١-٧٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَلَكَوْنَ ۚ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنهَا يَأْكُلُونَ ۚ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ وَمِمَّا يَرْبُؤْنَ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذلّلها، وجعلهم مالكين لها، مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم، وحمل أثقالهم، ومحايلهم، وأمتعتهم من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفء، ومن أوبارها

(١) كذا في ب وفي أ: الذي . (٢) زيادة من هامش ب، ويبدو - والله أعلم - أن الشرطين هما: الاستطاعة والإرادة، وبقية كلام الشيخ - رحمه الله - يدل على ذلك .

يُفِيدُهُ الْيَقِينَ التَّامَ بِوَقْعِهِ، وَهُوَ: ابْتِدَاءُ خَلْقِهِ ﴿مِنْ نُطْفَةٍ﴾ ثُمَّ تَنَقَّلَهُ فِي الْأَطْوَارِ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى كَبُرَ وَشَبَّ، وَتَمَّ عَقْلَهُ وَاسْتَبْتَبَ ﴿فَإِذَا هُوَ حَاصِمٌ ثَبِيثٌ﴾ بَعْدَ أَنْ كَانَ ابْتِدَاءَ خَلْقِهِ مِنْ نُطْفَةٍ، فَلْيَنْظُرِ التَّفَاوُتَ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ الَّذِي أَنْشَأَهُ مِنَ الْعَدَمِ، قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَعِيدَهُ بَعْدَمَا تَفَرَّقَ وَتَمَزَّقَ، مِنْ بَابِ أَوْلَى.

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَضْرِبَهُ، وَهُوَ قِيَاسُ قُدْرَةِ الْخَالِقِ بِقُدْرَةِ الْمَخْلُوقِ، وَأَنَّ الْأَمْرَ الْمُسْتَبْعَدَ عَلَى قُدْرَةِ الْمَخْلُوقِ مُسْتَبْعَدٌ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ.

فَسَرَّ هَذَا الْمَثَلَ [بِقَوْلِهِ]: ﴿قَالَ﴾ ذَلِكَ الْإِنْسَانُ ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ أَي: هَلْ أَحَدٌ يَحْيِيهَا؟ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارٌ، أَي: لَا أَحَدٌ يَحْيِيهَا بَعْدَمَا بَلِيَتْ وَتَلَاشَتْ.

هَذَا وَجْهُ الشَّبْهِةِ وَالْمَثَلِ، وَهُوَ أَنَّ هَذَا أَمْرًا فِي غَايَةِ الْبَعْدِ عَلَى مَا يَعْبُدُ مِنْ قُدْرَةِ الْبَشَرِ، وَهَذَا الْقَوْلُ الَّذِي صَدَرَ مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ غَفْلَةٌ مِنْهُ، وَنَسِيَانٌ لِابْتِدَاءِ خَلْقِهِ، فَلَوْ فَطَنَ لَخَلَقَهُ، بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا فَوُجِدَ عَيَانًا، لَمْ يَضْرِبْ هَذَا الْمَثَلَ.

فَأَجَابَ تَعَالَى عَنْ هَذَا الْاسْتِبْعَادِ بِجَوَابِ شَافٍ كَافٍ فَقَالَ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وَهَذَا بِمَجْرَدِ تَصْوَرِهِ، يَعْلَمُ بِهِ عُلَمَاءٌ يَقِينًا لَا شَبْهَةَ فِيهِ، أَنَّ الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى الْإِعَادَةِ ثَانِي مَرَّةً، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَى الْقُدْرَةِ، إِذَا تَصَوَّرَهُ الْمُتَصَوِّرُ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِيَانَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلَائِكُونَ ﴿٧٦﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُمْ فِيهَا مِنْ مَنفَعٍ وَمَشَارِبٍ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ ﴿٧٩﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٨١﴾ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ حَاصِمٌ ثَبِيثٌ ﴿٨٢﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٨٣﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٨٤﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٥﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٧﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

وَأَنَّهُ لَا يَسْتَعِصِي عَلَيْهِ مَخْلُوقٌ أَرَادَ خَلْقَهُ.

فَاعَادَتُهُ لِلْأَمْوَاتِ، فَرَدَّ مِنْ أَفْرَادِ [آثَارِ] خَلْقِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ، فَتَعْمُ كُلِّ شَيْءٍ ﴿أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أَي: فِي الْحَالِ مِنْ غَيْرِ تَمَانِعٍ.

﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وَهَذَا دَلِيلٌ سَادِسٌ، فَإِنَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمَلِكُ الْمَالِكُ لِكُلِّ شَيْءٍ، الَّذِي جَمِيعُ مَا سَكَنَ فِي الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ مَلِكٌ لَهُ، وَعَبِيدٌ مَسْخُورُونَ وَمُدَبَّرُونَ، يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِأَقْدَارِهِ الْحَكْمِيَّةِ، وَأَحْكَامِهِ الشَّرْعِيَّةِ، وَأَحْكَامِهِ الْجَزَائِيَّةِ.

فَاعَادَتُهُ إِيَّاهُمْ بَعْدَ مَوْتِهِمْ، لِيَنْفِذَ فِيهِمْ حُكْمَ الْجَزَاءِ، مِنْ تَمَامِ مَلِكِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مِنْ غَيْرِ امْتِرَاءٍ وَلَا شَكٍّ، لِتَوَاتُرِ الْبَرَاهِينِ الْقَاطِعَةِ وَالْأَدْلَةِ السَّاطِعَةِ عَلَى ذَلِكَ، فَتَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي كَلَامِهِ الْهُدَى وَالشِّفَاءَ وَالنُّورَ.

تَمَّ تَفْسِيرَ سُورَةِ يَسٍ، فَلِلَّهِ [تَعَالَى] الْحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلَالِهِ، وَلَهُ الثَّنَاءُ كَمَا يَلِيْقُ بِكَمَالِهِ، وَلَهُ الْمَجْدُ كَمَا تَسْتَدْعِيهِ عَظَمَتُهُ وَكِبْرِيَائُهُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

هَذَا أَيْضًا دَلِيلٌ ثَانٍ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُوَ أَنَّ عِلْمَهُ تَعَالَى مُحِيطٌ بِجَمِيعِ مَخْلُوقَاتِهِ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا، فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَيَعْلَمُ مَا تَنْقُصُ مِنَ الْأَرْضِ مِنْ أَجْسَادِ الْأَمْوَاتِ، وَمَا يَبْقَى، وَيَعْلَمُ الْغَيْبَ وَالشَّهَادَةَ، فَإِذَا أَقْرَعَ الْعَبْدُ بِهَذَا الْعِلْمِ الْعَظِيمِ، عَلِمَ أَنَّهُ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ مِنْ إِحْيَاءِ اللَّهِ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ.

ثُمَّ ذَكَرَ دَلِيلًا ثَالثًا ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ﴾ فَإِذَا أُخْرِجَ [النَّارُ] الْيَابِسَةُ، مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ، الَّذِي هُوَ فِي غَايَةِ الرُّطُوبَةِ، مَعَ تَضَادِمَا وَشِدَّةِ تَخَالُفِهِمَا، فِإِخْرَاجِهِ الْمَوْتَى مِنْ قُبُورِهِمْ مِثْلَ ذَلِكَ.

ثُمَّ ذَكَرَ دَلِيلًا رَابِعًا فَقَالَ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ عَلَى سَعْتِهِمَا وَعَظَمَتِهِمَا ﴿بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أَي: [أَنْ يَعِيدَهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ].

﴿بِكُلِّ﴾ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ وَهَذَا دَلِيلٌ خَامِسٌ، فَإِنَّهُ تَعَالَى الْخَالِقُ، الَّذِي جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، مُتَقَدِّمَاتُهَا وَمَتَأَخَّرَاتُهَا، صَغِيرَاتُهَا وَكَبِيرَاتُهَا - كُلُّهَا أَثَرٌ مِنْ آثَارِ خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ،

ثُمَّ ذَكَرَ دَلِيلًا رَابِعًا فَقَالَ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ عَلَى سَعْتِهِمَا وَعَظَمَتِهِمَا ﴿بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أَي: [أَنْ يَعِيدَهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ].

﴿بِكُلِّ﴾ قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ، فَإِنَّ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴿وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ وَهَذَا دَلِيلٌ خَامِسٌ، فَإِنَّهُ تَعَالَى الْخَالِقُ، الَّذِي جَمِيعُ الْمَخْلُوقَاتِ، مُتَقَدِّمَاتُهَا وَمَتَأَخَّرَاتُهَا، صَغِيرَاتُهَا وَكَبِيرَاتُهَا - كُلُّهَا أَثَرٌ مِنْ آثَارِ خَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ،

تفسير سورة الصافات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالَّذِينَ جَزَعْنَا مِنَّا أَرْضًا ﴿٢﴾ فَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا فِيهَا
 مَنَازِلَ يُؤْتَوْنَ مِنْهَا مِمَّا مَرَرْنَا بِهِ وَلَمْ يَكُن لَكُمْ فِيهَا آسَافٌ وَلَا أُكُلٌ ﴿٣﴾
 إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ
 الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيْنًا أَلْتَمِسُ زِينَةَ الدُّنْيَا زِينَةَ الْكُوكُبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا
 مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ
 مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ حَفِظَ
 الْحَفِظَةَ فَأَلْبَسَهُ شَهَابٌ ثَائِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتَيْهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا
 أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ
 وَيَسْحَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً سَتَسَخَرُونَ
 ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا أَسْحَابٌ مَبِينٌ ﴿١٥﴾ آءِ دَامِنَا وَكَانُوا آبَاءَ عِظَمَاءِ
 آءِ نَا الْمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ آءِ وَأَنَا وَالْأَلْوَانُ ﴿١٧﴾ قُلْ نِعْمَ وَأَنْتُمْ دَخَرُونَ
 ﴿١٨﴾ فَأَمَّا هِيَ رَجْرَجَةٌ وَاحِدَةٌ فَأِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ بَدَّلْنَا هَذَا
 يَوْمَ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَكْذِيبُونَ ﴿٢١﴾
 أَحْسَرُوا الَّذِينَ ظَنَّمُوا أَن رَوْسُوجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ
 اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقَفُّوهُمْ أَسْفَلَ مَسْجُودًا ﴿٢٤﴾

(١-١١) ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ فَالَّذِينَ جَزَعْنَا مِنَّا أَرْضًا ﴿٢﴾ فَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا فِيهَا مَنَازِلَ يُؤْتَوْنَ مِنْهَا مِمَّا مَرَرْنَا بِهِ وَلَمْ يَكُن لَكُمْ فِيهَا آسَافٌ وَلَا أُكُلٌ ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ الْمَشْرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيْنًا أَلْتَمِسُ زِينَةَ الدُّنْيَا زِينَةَ الْكُوكُبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيُقَدِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ حَفِظَ الْحَفِظَةَ فَأَلْبَسَهُ شَهَابٌ ثَائِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتَيْهِمْ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴿١١﴾ هذا قسم منه تعالى بالملائكة الكرام، في حال عبادتها وتديبها ما تدبره بإذن ربها، على ألوهيته تعالى وربوبيته، فقال: ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴾ أي: صافوفا في خدمة ربهم، وهم الملائكة.

﴿ فَالَّذِينَ جَزَعْنَا مِنَّا أَرْضًا ﴾ وهم الملائكة، يزعرون السحاب وغيره بأمر الله.

﴿ فَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا فِيهَا مَنَازِلَ يُؤْتَوْنَ مِنْهَا مِمَّا مَرَرْنَا بِهِ ﴾ وهم الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى. فلما كانوا متألّهين لربهم، ومتعبدين في خدمته، ولا يعصونه طرفه عين، أقسم بهم على ألوهيته فقال: ﴿ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴾ ليس له شريك في الإلهية، فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء، وسائر أنواع العبادة.

﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ ﴾ أي: هو الخالق لهذه المخلوقات، والرازق لها، والمدبر لها، فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها، فكذلك لا شريك له في ألوهيته، وكثيرا ما يقرر تعالى توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية؛ لأنه دالٌّ عليه، وقد أقرّ به أيضا المشركون في العبادة، فليزهم بما^(١) أقرّوا به على ما أنكروه.

وخص الله المشارق بالذكر، لدلالاتها على المغارب، أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها، فلهذا قال: ﴿ إِنَّا زَيْنًا أَلْتَمِسُ زِينَةَ الدُّنْيَا زِينَةَ الْكُوكُبِ ﴾ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى ﴿٦﴾ ذكر الله في الكواكب هاتين الفائدتين العظيمتين:

إحدهما: كونها زينة للسماء، إذ لولاها لكانت السماء جرمًا مظلمًا لا ضوء فيها، ولكن زيناها لتستنير أرجاؤها، وتحسن صورتها، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل.

والثانية: حراسة السماء عن كل شيطان مارد، يصل بتمرده

إلى استماع الملائكة الأعلى، وهم: الملائكة، فإذا استمعت قدفتها بالشهب الثواقب ﴿ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴾ طردا لهم، وإبعادا عن استماع ما يقول الملائكة الأعلى.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴾ أي: دائم، معد لهم، لتمردهم عن طاعة ربهم.

ولولا أنه [تعالى] استثنى، لكان ذلك دليلا على أنهم لا يسمعون شيئا أصلا، ولكن قال: ﴿ إِلَّا مَنْ حَفِظَ الْحَفِظَةَ ﴾ أي: إلا من تلقف من الشياطين المردة، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقة ﴿ فَأَلْبَسَهُ شَهَابٌ ثَائِبٌ ﴾ تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه، فيقطع خبر السماء وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مائة كذبة، يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.

ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال: ﴿ فَاسْتَفْتَيْهِمْ ﴾ أي: أسأل منكري خلقهم بعد موتهم ﴿ أَهْمُ أَشَدُّ خَلْقًا ﴾ أي: إيجادهم بعد موتهم، أشد خلقا وأشق؟ ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ من

(١) كذا في ب، وفي أ: ما.

[هذه] المخلوقات؟ فلا بد أن يقرؤا أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

فليزهم إذا الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها، لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب، أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ﴾ أي: قوي شديد كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.

(٢١-٢٢) ﴿بِكَلِّ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ○ وَإِن دُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ○ وَإِن رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ ○ وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ○ أَوَءَا مَنَا وَكُنَّا نُرَايَا ○ وَعَطَلْنَا إِنَّا شَاعِرُونَ ○ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ○ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ○ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ○ وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الْبَرِّ ○ هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ○﴾ بَكَلِّ عَجِبْتَ ﴿﴾ يأيها الرسول، أو أيها الإنسان، من تكذيب مَنْ كَذَّبَ بالبعث، بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة، والأدلة المستقيمة، وهو حقيقة، محل عجب واستغراب؛ لأنه مما لا يقبل الإنكار، ﴿و﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه، أنهم ﴿يَسْتَسْخَرُونَ﴾ ممن جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار، حتى زادوا السخرية بالقول الحق.

﴿و﴾ من العجب أيضًا أنهم ﴿إِن دُكِّرُوا﴾ ما يعرفون في فطرتهم وعقولهم، وفطنوا له، وألفت نظرهم إليه ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ ذلك، فإن كان جهلاً فهو من أدلِّ الدلائل على شدة بلاذتهم العظيمة، حيث ذكروا ما هو مستقر في الفطر، معلوم بالعقل، لا يقبل الإشكال، وإن كان تجاهلاً وعناداً، فهو أعجب وأغرب.

ومن العجب [أيضاً] أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة، وذكروا الآيات التي يخضع لها فحول الرجال، وألباب الألباء، يسخرون منها ويعجبون.

ومن العجب أيضًا، قولهم للحق لما جاءهم: ﴿إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها، وهو الحق في رتبة أحسن الأشياء وأحقها.

ومن العجب أيضًا، قياسهم قدرة رب الأرض والسماوات، على قدرة آدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعاداً وإنكاراً: ﴿أَوَءَا مَنَا وَكُنَّا نُرَايَا ○ وَعَطَلْنَا إِنَّا شَاعِرُونَ ○ أَوْ ءَابَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾.

ولما كان هذا منتهى ما عندهم، وغاية ما لديهم، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترويضهم^(١) فقال: ﴿قُلْ نَعَمْ ○ سَتَبْعُونَ، أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَوَّلُونَ ○ وَأَنْتُمْ كَاذِبُونَ ○ ذَلِيلُونَ صَاغِرُونَ، لَا تَمْتَنِعُونَ، وَلَا تَسْتَعِصُونَ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ.

﴿فَأِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ينفخ إسرافيل فيها في الصور ﴿وَإِذَا هُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ ○ يَنْظُرُونَ﴾ كما ابتدئ خلقهم بعثوا بجميع أجزائهم، حفاة عراة غرلا، وفي تلك الحال يظهرون الندم والخزي والخسار، ويدعون بالويل والثبور.

﴿وَقَالُوا يَوَيْلَنَا هَذَا يَوْمَ الْبَرِّ ○﴾ فقد أقرؤا بما كانوا في الدنيا به يستهزؤون.

فيقال لهم: ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق، وفيما بينهم وبين غيرهم من المخلوق.

(٢٢-٢٦) ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْجَاهُمْ ○ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ○ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ○ وَفَقَّوهُمْ إِنَّمَا مَسْئُولُونَ ○ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ ○ بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ○﴾ أي: إذا أحضروا يوم القيامة، وعانوا ما به يكذبون، ورأوا ما به يستسخرون، يؤمر بهم إلى النار، التي بها كانوا يكذبون، فيقال: ﴿أَخْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا ○﴾ أنفسهم بالكفر والشرك، والمعاصي ﴿وَأَزْجَاهُمْ﴾ الذين من جنس عملهم، كل يُضم إلى مَنْ يجانسه في العمل.

﴿وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ○ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأصنام والأنداد التي زعموها، فاجمعوهم جميعاً ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ أي: سوقوهم سوقاً عنيقاً إلى جهنم ﴿و﴾ بعدما يتعين أمرهم إلى النار، ويعرفون أنهم من أهل دار البوار، يقال: ﴿فَقَّوهُمْ﴾ قبل أن توصلوهم إلى جهنم ﴿إِنَّمَا مَسْئُولُونَ﴾ عما كانوا يفترونه في الدنيا، ليظهر على رؤوس الأشهاد كذبتهم وفضيحتهم.

فيقال لهم: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ﴾ أي: ما الذي جرى عليكم اليوم؟ وما الذي طرقتكم حتى لا ينصر بعضكم بعضاً، ولا يغيث بعضكم بعضاً، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا، أن ألهتكم ستدفع عنكم العذاب، وتغنيكم، وتشفع لكم عند الله، فكأنهم لا يجيبون على هذا السؤال، لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا لعذاب النار، وخشعوا وخضعوا وأبلسوا، فلم ينطقوا. ولهذا قال: ﴿بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾.

(٢٧-٣٩) ﴿وَأَقْبَل بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ○ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ نَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ○ قَالُوا بَل لَّوْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ○ وَمَا كُنَّا لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ○ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَافِينَ ○ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِبُونَ ○ فَأَغْوَيْتَكُمْ ○ إِنَّا كُنَّا عَدْوِينَ ○ فَإِنَّهُمْ بِوَيْدِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ○ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ○ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ○ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَيْنَا لِشَاعِرٍ مُتَجَنِّبٍ ○ بَلْ جَاءَهُ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ ○ إِنَّكُمْ لَنَدَاهُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ○ وَمَا تَحْزَنُونَ ○ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ○﴾ لما جمعوا هم وأزواجهم وألهتهم، وهدوا إلى

(١) كذا في ب وفي أ: تربيتهم.

إما أنها قصرت طرفها على زوجها، لعفتها وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها وكماله، بحيث لا تطلب في الجنة سواه، ولا ترغب إلا به، وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها، وذلك يدل على كمالها وجمالها الفائق، الذي أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها، وقصر الطرف أيضًا يدل على قصر النفس والمحبة عليها، وكلا المعنيين محتمل، وكلاهما صحيح.

[كل] هذا يدل على جمال الرجال والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم بعضًا، محبة لا يطمح إلى غيره، وشدة عفتهم كلهم، وأنه لا حسد فيها ولا تباعض، ولا تشاحن وذلك لانتفاء أسبابه.

﴿عَيْنٌ﴾ أي: حسان الأعين جميلاتها، ملاح الحدق ﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ أي: الحور ﴿بِضٌ مَّكُونٌ﴾ أي: مستور، وذلك من حسنهن وصفائهن، وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهائها، ليس فيه كدر ولا شين.

(٥٠-٦١) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿يَقُولُ أَهْلَكَ لِمَنِ الْمَصْدِقِينَ ﴿أَهْدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا أَهْدَا لِمَدِينُونَ ﴿قَالَ هَلْ أُشْرِكُ مُظْلِمُونَ ﴿فَأَطَّلَعَ قَرَاهُ فِي سِوَاهِ الْجَحِيمِ ﴿قَالَ تَأَلَّفُ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿وَلَوْلَا رِغْمَةُ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿أَمَّا نَحْنُ بِحَبِيبَتَيْنِ ﴿إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿لما ذكر تعالى نعيمهم، وتمام سرورهم، بالمآكل والمشرب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطاراتهم للأحاديث عن الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل، حتى أفضى ذلك بهم، إلى أن قال قائل منهم: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ في الدنيا ينكر البعث، ويلومني على تصديقي به و ﴿يَقُولُ﴾ لي ﴿أَهْلَكَ لِمَنِ الْمَصْدِقِينَ ﴿أَهْدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَظْمًا أَهْدَا لِمَدِينُونَ﴾ أي: مجازون بأعمالنا؟

أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، الذي في غاية الاستعراب، وهو أننا إذا تمزقنا، فصرنا ترابًا وعظامًا، أننا نُبعث ونُعاد، ثم نحاسب ونُجازى بأعمالنا!!

أي: يقول صاحب الجنة لإخوانه: هذه قصتي، وهذا خبري أنا وقريبي، ما زلت أنا مؤمنًا صادقًا، وهو ما زال مكذبًا منكرًا للبعث، حتى متنا، ثم بعثنا، فوصلت أنا إلى ما ترون من النعيم الذي أخبرتنا به الرسل، وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب.

﴿هَلْ أُشْرِكُ مُظْلِمُونَ﴾ لننظر إليه فنزداد غبطة وسرورًا بما نحن فيه، ويكون ذلك رأْيَ عين؟

الأيام، لأنهم أخلصوا لله الأعمال، فأخلصهم، واختصهم برحمته، وجاد عليهم بلطفه.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ أي: غير مجهول، وإنما هو رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره، ولا يبلغ كنهه.

فسره بقوله: ﴿فَوَكَاةٌ﴾ من جميع أنواع الفواكه التي تنفكه بها النفس، للذتها في لونها وطعمها ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ لا مهانون محقرون، بل معظمون مجلون موقرون.

قد أكرم بعضهم بعضًا، وأكرمتهم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب، ويهتئونهم ببلوغ أنها الثواب، وأكرمهم أكرم الأكرمين، وجاد عليهم بأنواع الكرامات، من نعيم القلوب والأرواح والأبدان.

﴿فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ أي: الجنات التي النعيم وصفها، والسرور نعتها، وذلك لما جمعته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلمت من كل مخلٍّ بنعيمها، من جميع المكدرات والمنغصات.

ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام بعضهم بعضًا، أنهم على ﴿سُرُرٍ﴾ وهي المجالس المرتفعة، المزينة بأنواع الأكسية الفاخرة، المزخرفة المجملة، فهم متكئون عليها على وجه الراحة والطمانية والفرح ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ فيما بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض، فإن مقابلة وجوههم تدل على تقابل قلوبهم، وتآدب بعضهم مع بعض فلم يستدبره أو يجعله إلى جانبه بل من كمال السرور والأدب ما دل عليه ذلك التقابل.

﴿يُطَاقُ عَلَيْهِمْ يُكَايِنُ تَيْنَ مَعِينٍ﴾ أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم، بالأشربة اللذيذة، بالكأسات الجميلة المنظر، المترعة من الرحيق المختوم بالمسك، وهي كأسات الخمر.

وتلك الخمر تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فإنها في لونها ﴿بِضَاءً﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لَذَّةً لِلشَّارِبِينَ﴾ يلتذ شاربها بها وقت شربها وبعده.

وأنها سالمة من غول العقل وذهابه ونزفه ونزف مال صاحبها، وليس فيها صلداع ولا كدر، فلما ذكر طعامهم وشرابهم ومجالسهم، وعموم النعيم وتفصيله داخله في قوله: ﴿جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾.

لكن فصل هذه الأشياء لتعلم فتشاقق النفوس إليها، ذكر أزواجهم فقال: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَصْرَاتُ الْأَطْرَافِ عِوَانٌ﴾ أي: وعند أهل دار النعيم، في محلاتهم القريبة، حور حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف.

والظاهر من حال أهل الجنة، وسرور بعضهم ببعض، وموافقة بعضهم بعضاً، أنهم أجابوه لما قال، وذهبوا تبعاً له، للاطلاع على قرينه ﴿فَاطَّلَع﴾ فرأى قرينه ﴿فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ﴾ أي: في وسط العذاب وغمراته، والعذاب قد أحاط به.

ف ﴿قَالَ﴾ له لا تثمنا على حاله، وشاكراً لله على نعمته أن نجاه من كيدہ ﴿تَأْتَلَهُ إِنْ كِدَتْ لَتَزِيدِينَ﴾ أي: تهلكني بسبب ما أدخلت علي من الشبهة بزعمك.

﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ على أن ثبتني على الإسلام ﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَحْزِرِينَ﴾ في العذاب معك ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِبَيْتِينَ﴾ إلا مؤنثنا الأولى ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [أي: يقوله المؤمن، مبتهجاً بنعمة الله، على أهل الجنة بالخلود الدائم فيها، والسلامة من العذاب، استفهام بمعنى الإثبات والتقرير]. أي يقول لقرينه المعذب: أفتزعم أننا لسنا نموت سوى الموتة الأولى، ولا بعث بعدها ولا عذاب؟^(١)

وقوله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَظْمًا بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وحذف المعمول، والمقام مقام لذة وسرور، فدل ذلك على أنهم يتساءلون بكل ما يلتذون بالتحدث به، والمسائل التي وقع فيها النزاع والإشكال.

ومن المعلوم أن لذة أهل العلم بالتساؤل عن العلم والبحث عنه، فوق اللذات الجارية في أحداث الدنيا، فلهم من هذا النوع النصيب الوافر، ويحصل لهم من انكشاف الحقائق العلمية في الجنة ما لا يمكن التعبير عنه.

فلما ذكر تعالى نعيم الجنة، ووصفه بهذه الأوصاف الجميلة، مدحه، وشوق العاملين، وحثهم على العمل فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي حصل لهم به كل خير، وكل ما تهوى النفوس وتشتهي، واندفع عنهم به كل محذور ومكروه، فهل فوز يطلب فوقه؟ أم هو غاية الغايات، ونهاية النهايات، حيث حل عليهم رضا رب الأرض والسموات، وفرحوا بقربه، وتعموا بمعرفته واستروا برويته، وطربوا لكلامه؟

﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَيَلْعَمَ الْعَمَلُونَ﴾ فهو أحق ما أنفقت فيه نفائس الأنفاس، وأولى ما شمر إليه العارفون الأكياس، والحسرة كل الحسرة، أن يمضي على الحازم وقت من أوقاته وهو غير مشغول بالعمل الذي يقرب لهذه الدار، فكيف إذا كان يسير بخطاياها إلى دار البوار؟!!

(٦٢-٧٤) ﴿أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ سَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ إِنْآ جَعَلْتَهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿إِنَّهَا سَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿فَأَنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنهَا فَمَالَتُونَ مِنهَا الْبُطُونَ﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهَا عَلَيْهِمْ لَشَوَابًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِأَيِّ الْجَحِيمِ﴾ إِنَّهُمْ أَفْقَا

سورة الصافات

٤٤٨

سورة الصافات

يَقُولُ أَهْلُكَ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ إِنْآ دَامِنَا وَكَتَّارًا وَعِظْمًا إِنْآ لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُطْعَمُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءٍ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَأَلَّهُ إِنْ كِدَتْ لَتَزِيدِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْزِرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِبَيْتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتِنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ سَجَرَةُ الزَّقُومِ ﴿٦٢﴾ إِنْآ جَعَلْتَهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا سَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيْطَانِ ﴿٦٥﴾ فَأَنَّهُمْ لَا كَلُونَ مِنهَا فَمَالَتُونَ مِنهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهَا عَلَيْهِمْ لَشَوَابًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِأَيِّ الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَفْقَا أَبَاءَهُمْ ضَالِينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يَهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٧٤﴾ وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلْيَعْمَلِ الْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجِّنِيْنَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾

ءَابَاءَهُمْ ضَالِينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يَهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذِرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿٧٤﴾ أَذَلَّكَ خَيْرٌ نَزَلًا أَمْ سَجَرَةُ الزَّقُومِ ﴿٧٥﴾ إِنْآ جَعَلْتَهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾

النعيم الذي وصفناه لأهل الجنة خير، أم العذاب الذي يكون في الجحيم من جميع أصناف العذاب؟ فأَي الطعامين أولى؟ الذي وصف في الجنة ﴿أَمْ﴾ طعام أهل النار؟ وهو ﴿سَجَرَةُ الزَّقُومِ﴾ إِنْآ جَعَلْتَهَا فِتْنَةً ﴿أي: عذاباً ونكالاً﴾ لِلظَّالِمِينَ أنفسهم بالكفر والمعاصي.

﴿إِنَّهَا سَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ أي: وسطه فهذا مخرجها، ومعدنها أشر المعادن وأسوؤها، وشر المغرس يدل على شر الغراس وخسته، ولهذا نبهنا الله على شرها بما ذكر أين تثبت به؟ وبما ذكر من صفة ثمرتها.

وأنها ك ﴿رِئُوسِ الشَّيْطَانِ﴾ فلا تسأل بعد هذا عن طعمها، وما تفعل في أجوافهم وبطونهم، وليس لهم عنها مندوحة ولا معدل^(٢).

(١) ما بين الحاصرتين زيادة من ب، وما بعد الحاصرة الثانية شطب عليه فيها، ورأيت إبقاء لعدم شطبه في أ. (٢) كذا في ب، وفي أ: معدن.

والعظيم، وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله وذريته متسلسلين، فجميع الناس من ذرية نوح عليه السلام، وجعل له ثناء حسناً مستمراً إلى وقت الآخرين، وذلك لأنه محسن في عبادة الخالق، محسن إلى الخلق، وهذه سُنَّتُه تعالى في المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء على حسب إحسانهم.

ودلّ قوله: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ أن الإيمان أرفع منازل العباد، وأنه مشتمل على جميع شرائع الدين وأصوله وفروعه، لأن الله مدح به خواص خلقه.

(٨٣-١١٣) ﴿وَاتَّكَرَّ مِنْ شِعْبِهِ لِإِبْرَاهِيمَ﴾ إلى آخر القصة. أي: وإن من شيعة نوح عليه السلام، ومن هو على طريقته في النبوة والرسالة، ودعوة الخلق إلى الله، وإجابة الدعاء، إبراهيم الخليل عليه السلام.

﴿إِذْ جَاءَ رَبُّكَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من الشرك والشبه، والشهوات المانعة من تصور الحق والعمل به، وإذا كان قلب العبد سليماً، سلم من كل شر، وحصل له كل خير.

ومن سلامته، أنه سليم من غش الخلق وحسدهم، وغير ذلك من مساوئ الأخلاق، ولهذا نصح الخلق في الله، وبدأ بأبيه وقومه فقال: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ هذا استفهام بمعنى (٣) الإنكار، والزام لهم بالحجة.

﴿أَفِيكُمُ الْإِلَهَةُ دُونَ اللَّهِ تَرْيَدُونَ﴾ أي: أتعبدون [من دونه] آلهة كذباً، ليست بآلهة، ولا تصلح للعبادة، فما ظنكم برب العالمين أن يفعل بكم وقد عبدتم معه غيره؟ وهذا ترهيب لهم بالجزاء بالعقاب على الإقامة على شركهم.

وما الذي ظنتم برب العالمين، من النقص حتى جعلتم له أنداداً وشركاء.

فأراد عليه السلام أن يكسر أصنامهم، ويتمكن من ذلك، فانتهاز الفرصة في حين غفلة منهم، لما ذهبوا إلى عيد من أعيادهم، فخرج معهم ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ فَقَالَ إِنِّي سَمِعْتُ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: «لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سَمِعْتُ﴾ وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله عن زوجته: «إنها أحتي».

والقصد أنه تخلف عنهم، ليتم له الكيد بالتهمة ﴿ف﴾ لهذا ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ فلما وجد الفرصة ﴿فَرَأَى إِلَهَ الْإِلَهِينَ﴾ أي: أسرع إليها على وجه الخفية والمراوغة ﴿فَقَالَ﴾ متهمكماً بها: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ مَا لَكُمْ لَا تَقِفُونَ؟ أي: فكيف يليق أن تُعبد، وهي أنقص من الحيوانات التي تأكل أو تكلم؟ فهذه جماد لا

(١) زيادة يقتضيها السياق. (٢) كذا في ب، وفي أ: ليس. (٣) في ب: على وجه.

ولهذا قال: ﴿فَأَيُّهُمْ لَأَكْلُونَ مِنْهَا فَأَلَوْنَ مِنْهَا الْبَطُونَ﴾ فهذا طعام أهل النار، فبئس الطعام طعامهم.

ثم ذكر شرابهم فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيَّ﴾ أي: على أثر هذا الطعام ﴿لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي: ماء حارّاً قد انتهى [حره] (١) كما قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَسْتَعِينُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ وكما قال تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاهُمْ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ﴾ أي: مآلهم ومقرهم [ومأواهم] ﴿لِلَّيْلِ الْمَجِيمِ﴾ ليدوقوا من عذابه الشديد وحره العظيم، ما ليس عليه مزيد من الشقاء.

وكانه قيل: ما الذي أوصلهم إلى هذه الدار؟ فقال: ﴿إِنَّهُمْ أَلْتَمَوْا﴾ أي: وجدوا ﴿عَابِدَةَ هَرَمًا صَالِينَ﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَرِهِمْ يُهْرَعُونَ أي: يسرعون في الضلال، فلم يلتفتوا إلى ما دعتهم إليه الرسل، ولا إلى ما حذرتهم عنه الكتب ولا إلى أقوال الناصحين، بل عارضوهم بأن قالوا: ﴿إِنَّا وَمَدَنًا عَابِدَاتَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَلَٰ قَبْلَهُمْ﴾ أي: قيل هؤلاء المخاطبين ﴿الْأَوَّلِينَ﴾ وقليل منهم آمن واهتدى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُّذَبِّحِينَ﴾ يندرونهم عن غيرهم وضلالهم ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُذَرِّبِينَ﴾ كانت عاقبتهم الهلاك والخزي والفضيحة، فليحذر هؤلاء أن يستمروا على ضلالهم، فيصيبهم مثل ما أصابهم.

ولما كان المنذرون ليسوا (٢) كلهم ضالين، بل منهم من آمن وأخلص الدين لله، استثناء الله من الهلاك فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أي: الذين أخلصهم الله، وخصهم برحمته لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت حميدة.

ثم ذكر أمودجاً من عواقب الأمم المكذبين فقال:

(٧٥-٨٢) ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَيْعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾ وَجَعَلْنَا لَهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُرًّا قَالِقِينَ وَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سُلْطٰنًا عَلَىٰ نُوْحٍ فِي الْعَالَمِينَ إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ يخبر تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام أول الرسل، أنه لما دعا قومه إلى الله تلك المدة الطويلة، فلم يزددهم دعاؤه إلا فراراً، أنه نادى ربه فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيًّا﴾ الآية، وقال: ﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ فاستجاب الله له، ومدح تعالى نفسه فقال: ﴿فَلَيْعَمَ الْمُجِيبُونَ﴾ لدعاء الداعين، وسماع تبتلهم وتضرعهم.

أجابه إجابة، طابق ما سأل، نجاه وأهله من الكرب

تأكل ولا تكلم.

﴿فَرَأَى عَلَيْهِمْ صُرًا بِالْيَمِينِ﴾ أي: جعل يضربها بقوته ونشاطه، حتى جعلها جذاذاً، إلا كبيراً لهم، لعلمهم إليه يرجعون.

﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُوفٌ﴾ أي: يسرعون ويهرعون، أي يريدون أن يوقفوا به، بعدما بحثوا وقالوا: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقيل لهم: ﴿سَمِعْنَا فَنَّى بِذِكْرِهِمْ يُقَالُ لَهُ إِبراهيمُ﴾ يقول: ﴿تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَدَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مَدْيَنَ﴾ فوبخوه ولا موه، فقال: ﴿بَلْ فَعَلَهُمْ كَيْدُهُمْ هَذَا فَسْتَأْذِنُوا إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ○ ثُمَّ نَكَّسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ○ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ الآية.

و ﴿قَالَ﴾ هنا: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحُرُونَ﴾ أي: تحتونه بأيديكم وتصنعونه؟ فكيف تعبدونهم، وأنتم الذين صنعتموهم، وتركون الإخلاص لله؟ الذي ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ قالوا إِنَّمَا لَمْ نُبَيِّنْهُ أَي: عاليًا مرتفعًا، وأوقدوا فيها النار ﴿فَأَلْقَوْهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ جزء على ما فعل من تكسير آلهتهم.

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ الْأَسْفَلِينَ﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم بردًا وسلامًا.

﴿و﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعدر منهم ﴿قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ أي: مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام ﴿سَيِّدِينَ﴾ يدلني إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ يَدْعَاهُ رَبِّي شَيْئًا﴾.

﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ ولدًا يكون ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وذلك عندما أسس من قومه ولم ير فيهم خيرًا، دعا الله أن يهب له غلامًا صالحًا ينفع الله به في حياته، وبعد مماته.

فاستجاب الله له وقال: ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلِيِّ حَلِيمٍ﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك، فإنه ذكر بعده البشارة، [يا إسحاق، ولأن الله تعالى قال في بשרاه يا إسحاق: ﴿فَبَشِّرْنَاهَا﴾ يَأْسَحِقُ وَيَمِنُ وَرَأَىٰ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ فدل على أن إسحاق غير الذبيح.

ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو يتضمن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر، والعضو عن جنى.

﴿فَمَا بَلَغَ الْغُلَامَ مَعَهُ السَّعَى﴾ أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنًا يكون في الغالب، أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت

سورة الصافات

٤٤٩

سورة الصافات

﴿وَجَعَلْنَا دُرِّيَّتَهُ هُمْرًا بَالِقِينَ﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿سَلَّمَ عَلَىٰ نوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿مِنَ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨١﴾ ﴿ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْآخِرِينَ﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿وَآتَ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿أَفَكُفَرْتُمْ بِلِلَّهِتِنَا أَن نُّرِيدُونَ عِبَادَتَنَا إِلَّا بِصُلْحٍ﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿أَبَدَلْنَا مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿فَطَرْنَا نَظْرَةَ فِي التُّجُومِ﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿فَتَوْلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ ﴿٩١﴾ ﴿فَرَأَىٰ إِلَىٰ آيَةِ الْهَيْمَمِ﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿فَقَالَ أَلَا أَنَا كَلُّونَ﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿فَرَأَىٰ عَلَيْهِمْ صُرًا بِالْيَمِينِ﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُوفٌ﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحُرُونَ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿فَبَشِّرْنَاهُ بِعَلِيِّ حَلِيمٍ﴾ ﴿١٠٣﴾ ﴿فَمَا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَبْنَؤُ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ ﴿١٠٤﴾ ﴿يَتَأْتٍ أَعْمَلَ مَا تَوْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿١٠٥﴾

مشقته، وأقبلت منفعة، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا، أن الله يأمرني بذبحك، ورويًا^(١) الأنبياء وحي ﴿فَأَنْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه.

﴿قَالَ﴾ إسماعيل صابرًا محتسبًا، مرضيًا لربه، وبارًا بوالده: ﴿يَتَأْتٍ أَعْمَلَ مَا تَوْمَرُ﴾ أي: [امض] لما أمرك الله ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾. أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل جازمًا بقتل ابنه وثمره فؤاده، امتثالًا لأمر ربه، وخوفًا من عقابه، والابن قد وطَّن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده. ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: تلَّ إبراهيم إسماعيل على جبينه، ليضعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

(١) كذا في ب، وفي أ: ورأي.

سورة الصفات

٤٥٠

سورة الصفات

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١١٦﴾ وَتَدِينَهُ أَنْ يَتَّيِبَهُمْ ﴿١١٤﴾ قَدْ
صَدَّقْتَ الرُّبِّيَّ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ
الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١١٦﴾ وَتَدِينَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١١٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي
الْآخِرِينَ ﴿١١٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١١٩﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ
﴿١٢٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ
الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا
مُحْسِنٌ وَظَلَمٌ لِنَفْسِهِ مِيثُورٌ ﴿١٢٣﴾ وَلَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰ مُوسَىٰ
وَهَارُونَ ﴿١٢٤﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ
﴿١٢٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١٢٦﴾ وَءَايَيْنَاهُمَا الْكُتُبَ
الْمُسْتَبِينَ ﴿١٢٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا
عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَّمْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ
﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّمَا مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ الْيَأْسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾
إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ
الْخَلْقِ لِقَوْمِهِ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ ﴿١٣٦﴾

﴿وَتَدِينَهُ﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش ﴿أَنْ يَتَّيِبَهُمْ﴾ ○ قَدْ صَدَّقْتَ ﴿أي: قد فعلت ما أمرت به، فإنك وطئت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام ﴿لَمَوْ الْبَلَاءِ الْمُبِينِ﴾ أي: الواضح، الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبته لربه وخلته، فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم، أحبه حباً شديداً، وهو خليل الرحمن، والخلقة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة، ويقضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبيب.

فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه، بابنه إسماعيل، أراد تعالى أن يصفى وُدّه ويختبر خلته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه حباً ربه.

فلما قدم حب الله، وأثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه، فلهمذا قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْبَلَاءِ الْمُبِينِ﴾ ○ وَتَدِينَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنة إلى يوم القيامة.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ○ سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿أي: وأبقينا عليه ثناء صادقاً في الآخرين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه [فيه] محبوب معظم مثنى عليه.

﴿سَلَّمْنَا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: تحيته عليه كقوله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾.

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الله، ومعاملة خلقه أن نفرح عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن.

﴿إِنَّهُمْ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ هذه البشارة الثانية بإسحاق، الذي من ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبياً من الصالحين، فهي بشارات متعددة.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ أي: أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما، فنشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة.

أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَلَمٌ لِنَفْسِهِ مِيثُورٌ﴾ أي: منهم الصالح والطالح، والعاقل والظالم الذي تبين ظلمه بكفره وشركه، ولعل هذا من باب دفع الإيهام، فإنه لما قال: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ﴾ اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة أن تكون الذرية كلهم محسنين. فأخبر الله تعالى أن منهم محسناً وظالماً، والله أعلم.

(١١٤-١٢٢) ﴿وَلَقَدْ مَنَّآ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ﴾ إلى آخر القصة. يذكر تعالى منتهى على عبديه، ورسوليه موسى وهارون ابني عمران، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواظع وتفصيل كل شيء، وأن الله هداهما الصراط المستقيم، بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة، موصلة إلى الله، ومنّ عليهما بسلوكة.

﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ ○ سَلَّمْ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ○
أي: أبقى عليهما ثناء حسناً، وتحية في الآخرين، ومن باب
أولى وأحرى في الأولين ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ○ إِنَّمَا مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ○

(١٣٢-١٣٣) ﴿وَإِلَّا إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ○ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا
لِقَوْمِي ○ اذْعَبُوا بَعْلًا وَتَذَرُوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ○ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبَّ
آبَائِكُمْ الْأُولَى ○ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ○ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ
الْمُخْلِصِينَ ○ وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ○ سَلَّمْ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ ○ إِنَّا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ○ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ○ يمدح تعالى عبده
ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام، بالنبوة والرسالة
والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده،
ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له «بعل» وتركهم عبادة
الله، الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم، ورباهم فأحسن
تربيتهم، وأدّر عليهم النعم الظاهرة والباطنة.

وأنكم كيف تركتم عبادة الله من هذا شأنه، إلى عبادة صنم
لا يضر ولا ينفع، ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا
يتكلم!!! وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغبي؟!!
﴿كَذَّبُوهُ﴾ ○ فيما دعاهم إليه فلم يتقادوا له، قال الله متوعداً
لهم: ﴿فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ○ أي: يوم القيامة في العذاب، ولم
يذكر لهم عقوبة دنيوية.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ ○ أي: الذين أخلصهم الله، ومن
عليهم اتباع نبيهم، فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما
لهم من الله جزيل الثواب.

﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ ○ أي: على إلياس ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ ○ ثناء حسناً.
﴿سَلَّمْ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾ ○ أي: تحية من الله ومن عباده عليه.
﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ○ إِنَّمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ○ فأثنى
الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم
أجمعين.

(١٣٨-١٣٣) ﴿وَإِلَّا لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ○ إِذْ جَاءَتْهُ وَأَهْلُهُ
أَجْمَعِينَ ○ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ○ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ○ وَإِنَّا لَنُكْرَهُ
لِلنُّرُونِ ○ عَلَيْهِمْ مُّصِيبَاتٌ ○ وَيَأْتِلُّ أَفْلا تَعْقِلُونَ ○ وهذا ثناء منه تعالى على
عبده ورسوله لوط، بالنبوة والرسالة ودعوته إلى الله قومه،
ونهيهم عن الشرك وفعل الفاحشة.

فلما لم ينتهوا، نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلاً
فنجوا.

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ ○ أي: الباقيين المعذبين، وهي زوجة
لوط لم تكن على دينه.

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ﴾ ○ بأن قلبنا عليهم ديارهم ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا

سورة الصافات

٤٥١

سورة الصافات

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ ○ (١٣٧) ﴿الْإِعْبَادَ لِلَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ ○ (١٣٨)
﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ ○ (١٣٩) ﴿سَلَّمْ عَلَىٰ آلِ يَاسِينَ﴾ ○ (١٤٠) ﴿إِنَّا كَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ○ (١٤١) ﴿إِنَّ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ ○ (١٤٢) ﴿وَإِن لُّوطًا
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ○ (١٤٣) ﴿إِذْ جَاءَتْهُ وَأَهْلُهُ أَجْمَعِينَ﴾ ○ (١٤٤) ﴿إِلَّا عَجُوزًا
فِي الْغَابِرِينَ﴾ ○ (١٤٥) ﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ﴾ ○ (١٤٦) ﴿وَإِنَّا لَنُكْرَهُ
لِلنُّرُونِ﴾ ○ (١٤٧) ﴿مُصِيبَاتٍ﴾ ○ (١٤٨) ﴿وَيَأْتِلُّ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ ○ (١٤٩) ﴿وَإِن يُوَسَّسْ
لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ○ (١٥٠) ﴿إِذْ أَتَىٰ إِلَىٰ الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾ ○ (١٥١) ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ
مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ ○ (١٥٢) ﴿فَالْقَمْعَ الْخَوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ○ (١٥٣) ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ ○ (١٥٤) ﴿لَلَّبَّثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ○ (١٥٥)
﴿فَبَدَّدَهُ بِالْعُرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ ○ (١٥٦) ﴿وَأَبْتَسَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
مِّنْ يَقِطِينَ﴾ ○ (١٥٧) ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ ○ (١٥٨)
﴿فَتَأَمَّنُوا فَمَرَّعْتَهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ ○ (١٥٩) ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمَ الرِّتْكَ الْبَنَاتُ
وَلَهُمُ الْبُنُوتُ﴾ ○ (١٦٠) ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ
شَاهِدُونَ﴾ ○ (١٦١) ﴿إِلَّا أَنَّهُمْ مِن فَكِهِمْ لَيَقُولُنَّ﴾ ○ (١٦٢) ﴿وَلَدَّ
اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ ○ (١٦٣) ﴿أَصْطَفَىٰ الْبَنَاتَ عَلَىٰ الْبَنِينَ﴾ ○ (١٦٤)

سَافِهًا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ○ حتى همدوا
وخمدوا.

﴿وَإِنَّا لَنُكْرَهُ لِنُّرُونِ﴾ ○ أي: على ديار قوم لوط ﴿مُصِيبَاتٍ﴾ ○
وَيَأْتِلُّ ○ أي: في هذه الأوقات، يكثر ترددكم إليها ومروركم
بها، فلم تقبل الشك والمرية ﴿أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ ○ الآيات والعبير،
وتترجون عما يوجب الهلاك؟.

(١٣٩-١٤٨) ﴿وَإِن يُوَسَّسْ لِمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ○ إلى آخر القصة.

وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى، كما
أثنى على إخوانه المرسلين بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى
الله.

وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها،
بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿إِذْ أَتَى﴾ ○ أي: من ربه
مغاضباً له ظاناً أنه لا يقدر عليه، ويحبسه في بطن الحوت،
ولم يذكر الله ما غاضب عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، لعدم
فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه
الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه
الملام، وقيض له ما هو سبب صلاحه.

ضيزى وقول جائر، من جهة جعلهم الولد لله تعالى، ومن جهة جعلهم أردأ القسامين وأخسهما له وهو البنات التي لا يرضونهن لأنفسهم، كما قال في الآية الأخرى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتَ سِحْنَةً وَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ ومن جهة جعلهم الملائكة بنات الله، وحكمهم بذلك، قال تعالى في بيان كذبهم: ﴿أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾ خلقهم؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنهم ما شهدوا خلقهم.

فدل على أنهم قالوا هذا القول بلا علم، بل افتراء على الله، ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهْمُ﴾ أي: كذبهم الواضح ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ ولقد الله وإيتهم لكذبون.

﴿أَصْطَفَى﴾ أي: اختار ﴿الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ ما لكر كيف تمكرون هذا الحكم الجائر ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وتميزون هذا القول الباطل الجائر، فإنكم لو تذكروا، لم تقولوا هذا القول.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَنٌ مُّبِينٌ﴾ أي: حجة ظاهرة على قولكم، من كتاب، أو رسول.

وكل هذا غير واقع، ولهذا قال: ﴿فَأَنذَرْتُ بِكَيْدِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فإن من يقول قولاً، لا يقيم عليه حجة شرعية، فإنه كاذب متعمد، أو قائل على الله، بلا علم.

(١٥٨-١٦٠) ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَقَدْ عَلِمَتْ الْجَنَّةُ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾ سبوا الله عما يصفون ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ أي: جعل هؤلاء المشركون بالله بين الله وبين الجنة نسباً، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وأن أمهاتهم سرورات الجن.

والحال أن الجنة قد علمت أنهم محضرون بين يدي الله، [ليجازيهم] عبداً أذلاء، فلو كان بينهم وبينه نسب لم يكونوا^(١) كذلك.

﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ الملك العظيم، الكامل الحليم، عما يصفه به المشركون من كل وصف أوجبه كفرهم وشركهم.

﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ فإنه لم ينزه نفسه عما وصفوه به، لأنهم لم يصفوه إلا بما يليق بجلاله، وبذلك كانوا مخلصين.

(١٦١-١٦٣) ﴿فَأَنذَرْتُ وَمَا تَعْدُونَ﴾ ما أنذر عليه يقينين ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾ أي: إنكم أيها المشركون ومن عبدتموه مع الله، لا تقدرون أن تفتنوا وتضلوا أحداً إلا من قضى الله أنه من أهل الجحيم، فينفذ فيه القضاء الإلهي. والمقصود من هذا بيان عجزهم وعجز آلهتهم عن إضلال أحد، وبيان كمال قدرة الله تعالى أي: فلا تطمعوا بإضلال عباد الله المخلصين وحزبه المفلحين.

فلما أبق لجأ ﴿إِلَى الْفَلَكِ الْمَشْهُونِ﴾ بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، نقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكانهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فافترعوا على أن من قرع وغلب، ألقى في البحر عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه.

فلما [افترعوا] أصابت القرعة يونس ﴿فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ أي: المغلوبين، فألقى في البحر ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ﴾ وقت النقامة ﴿مُجْرِمٌ﴾ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسيحه وتحميده، وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

﴿لَبِيتَ فِي بَطْنِهِ﴾ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسيحه وعبادته لله، نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد.

﴿تَبَدَّدَتْ بِالْعَرَاءِ﴾ بأن قذفه الحوت من بطنه بالعراء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: قد سقم ومرض، بسبب حبسه في بطن الحوت، حتى صار مثل الفرخ الممعوط من البيضة.

﴿وَأَنذَرْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقِينٍ﴾ تظله بظلها الظليل، لأنها بادرة باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره.

ثم لطف به لطفاً آخر، وامتد عليه منة عظيمة، وهو أنه أرسله ﴿إِلَى بَابَةِ آدَمَ﴾ من الناس ﴿أَوْ زَيْدُونَ﴾ عنها. والمعنى أنهم إن ما زادوا لم ينقصوا، فدعاهم إلى الله تعالى.

﴿فَتَأْتُوا﴾ فصاروا من موازينه، لأنه الداعي لهم ﴿فَمَتَّعْتُهُمْ﴾ إلى حين ﴿بأن صرف الله عنهم العذاب، بعدما انعقدت أسبابه. قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَلَّمْتُمْ قَرْيَةً آمَنَتْ فَأَفْضَفَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَفَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخَزْزِي فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ﴾ إلى حين.

(١٤٩-١٥٧) ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ أَرَأَيْكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونُ﴾ أم خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهْمُ﴾ لَيَقُولُنَّ ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَإِيَّتُمْ لَكَذِبُونَ﴾ ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَمْكُرُونَ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أم لكم سلطانٌ مُّبِينٌ ﴿فَأَنذَرْتُ بِكَيْدِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يقول تعالى لنيبيه ﷺ: ﴿فَأَسْتَفْتِيهِمْ﴾ أي: أسأل المشركين بالله غيره، الذين عبدوا الملائكة، وزعموا أنها بنات الله، فجمعوا بين الشرك بالله ووصفه بما لا يليق بجلاله ﴿أَرَأَيْكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبُتُونُ﴾ أي: هذه قسمة

(١) كذا في ب، وفي أ: لم يكن.

(١٦٤-١٦٦) ﴿وَمَا يَتَّبِعُ إِلَّا لَكُمْ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ ○ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ○ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿﴾ هذا [فيه] بيان براءة الملائكة عليهم السلام عما قاله فيهم المشركون، وأنهم عباد الله لا يعصونه طرفة عين، فما منهم من أحد إلا له مقام وتدبير قد أمره الله به، لا يتعداه ولا يتجاوزه، وليس لهم من الأمر شيء.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ﴾ في طاعة الله وخدمته ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ الله عما لا يليق به، فكيف - مع هذا - يصلحون أن يكونوا شركاء لله؟! تعالى الله.

(١٦٧-١٨٢) ﴿وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ﴾ ○ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ ○ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ○ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ○ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَانَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ○ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ○ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ○ فَنُورِلْ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ○ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ○ أَلَيْعَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ○ فَإِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ ○ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ○ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. يخبر تعالى أن هؤلاء المشركين يظهرهم التمني، ويقولون: لو جاءنا من الذكر والكتب ما جاء الأولين، لآخضنا لله العبادة، بل لكننا المخلصين على الحقيقة.

وهم كذبة في ذلك، فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم متمردون على الحق ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ العذاب حين يقع بهم، ولا يحسبوا أيضاً أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين، أنهم الغالبون لغيرهم، المنصورون من ربهم نصرًا عزيزًا، يتمكنون فيه من إقامة دينهم. وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر بقتالهم، أنه غالب منصور.

ثم أمر رسوله بالإعراض عن عاندوا ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، ولهذا قال: ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ من يحل به النكال، فإنه سيحل بهم ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِمْ﴾ أي: نزل عليهم وقریباً منهم ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ﴾ لأنه صباح الشر، والعقوبة، والاستصال. ثم كرر الأمر بالتولي عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب.

ولما ذكر في هذه السورة، كثيرًا من أقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها فقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ﴾ أي: تنزه وتعالى ﴿رَبِّ الْعَرْزَةِ﴾ [أي: الذي عز، فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به.

﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ سلامتهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسماوات.

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الألف واللام للاستغراق، فجميع

سُورَةُ الصَّفَاتِ
٤٥٢

مَالِكٌ كَيْفَ تُحْكَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ لَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأَتُوا بِكِنَانِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الْجَنَّةَ إِنْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ الْإِعْبَادَ لِلَّهِ الْأَخْلَاصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاعِلِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِمَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَيْفَانَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَنُورِلْ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَلَيْعَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِصَاحِبِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعَرْزَةِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

سُورَةُ الصَّفَاتِ
سُورَةُ الصَّفَاتِ

أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربي بها العالمين، وأدرّ عليهم فيها النعم، وصرف عنهم بها النقم، ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكونهم، وفي جميع أحوالهم، كلها لله تعالى. فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل كمال، المحبوب المعظم. ورسله سالمون مسلم عليهم، ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة. [وأعداؤه لهم الهلاك والعطب، في الدنيا والآخرة].^(١)

تم تفسير سورة الصفات في ٦ شوال سنة ١٣٤٣ هـ على يد جامعته وكتابه: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليمًا، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

المجلد السابع من تيسير الكريم المنان في تفسير آيات القرآن لجامعه: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله السعدي، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين.

تفسير سورة ص

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِرَّةٍ وَشِقَاقِ ﴿٢﴾
 كَرَاهِلِكَمَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَ وَأَوْلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا
 أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾
 أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ
 مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِتِكَوَانِ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾
 مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا آخِلْقُ ﴿٧﴾ أَمْ نَزَلُ
 عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ
 عَذَابَ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ
 الْمَسْمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾
 جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
 نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ
 لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابِ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلِّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ
 فَحَقَّ عِقَابٌ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا الصَّيْحَةَ وَاحِدَةً مَا لَهَا
 مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا اجْعَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

عليهم، وتام الانقياد له.

ولكنهم عكسوا القضية، فنعجوا تعجب إنكار، وقالوا من كفرهم وظلمهم: ﴿هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾.

وذنبه - عندهم - أنه ﴿جَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي: كيف ينهى عن اتخاذ الشركاء والأنداد، ويأمر بإخلاص العبادة لله وحده ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي جاء به ﴿لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ أي: يقضي منه العجب لبطلانه وفساده.

﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ المقبول قولهم، محرضين قومهم على التمسك بما هم عليه من الشرك ﴿إِنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِتِكَوَانِ﴾ أي: استمروا عليها، وجاهدوا نفوسكم في الصبر عليها وعلى عبادتها، ولا يردكم عنها راد، ولا يصدركم عن عبادتها صاد ﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي جاء به محمد، من النهي عن عبادتها ﴿لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ أي: يقصد، أي: له قصد ونية غير صالحة في ذلك، وهذه شبهة لا تروج إلا على السفهاء، فإن من دعا إلى قول حق أو غير حق، لا يرد قوله بالقدح في نيته، فنيته وعمله له؛ وإنما يرد بمقابلته بما يبطله ويفسده من الحجج والبراهين، وهم قصدهم أن محمداً ما دعاهم إلى ما دعاهم،

(١-١١) ﴿صَّ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِرَّةٍ وَشِقَاقِ ﴿٢﴾ كَرَاهِلِكَمَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَ وَأَوْلَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكُفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَأَصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِتِكَوَانِ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا آخِلْقُ ﴿٧﴾ أَمْ نَزَلُ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكِّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ الْمَسْمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْنَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابِ ﴿١٣﴾ إِنْ كُلِّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا الصَّيْحَةَ وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا اجْعَلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾

وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه، فإن حقيقة الأمر أن المقسم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن الموصوف بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم [أن] ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقية بالإيمان والتصديق، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه. فهدى الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون به وبمن أنزله، وصار معهم ﴿عِرَّةٍ وَشِقَاقِ﴾ عزة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، أي: مشاققة ومخاصمة في رده وإبطاله، وفي القدح بمن جاء به.

فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسول، وأنهم حين جاءهم الهلاك نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم، ولكن ﴿لَاتٍ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي: وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم، فليحذر هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم، فيصيبهم ما أصابهم.

﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: عجب هؤلاء المكذبون في أمر ليس محل عجب، أن جاءهم منذر منهم، ليتمكنوا من التلقي عنه، وليعرفوه حق المعرفة، ولأنه من قومهم، فلا تأخذهم النخوة القومية عن اتباعه، فهذا مما يوجب الشكر

إلا ليرأس فيكم، ويكون مَعَطَّمًا عندكم، متبوعًا.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ القول الذي قاله، والدين الذي دعا إليه ﴿فِي آيَةِ الْآخِرَةِ﴾ أي: في الوقت الأخير، فلا أدركنا عليه آباءنا، ولا آباؤنا أدركوا آباءهم عليه، فامضوا على الذي مضى عليه آباؤكم، فإنه الحق، وما هذا الذي دعا إليه محمد إلا اختلاق اختلقه وكذب افتراه.

وهذه أيضًا شبهة من جنس شبهتهم الأولى، حيث ردوا الحق بما ليس بحجة لرد أدنى قول، وهو أنه قول مخالف لما عليه آباؤهم الضالون، فأين في هذا، ما يدل على بطلانه؟.

﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: ما الذي فضله علينا، حتى ينزل الذِّكْرَ عليه من دوننا، ويخصه الله به؟.

وهذه أيضًا شبهة، أين البرهان فيها على رد ما قاله؟ وهل جميع الرسل إلا بهذا الوصف يَمُنُّ الله عليهم برسالته، ويأمرهم بدعوة الخلق إلى الله، ولهذا، لما كانت هذه الأقوال الصادرة منهم، لا يصلح شيء منها لرد ما جاء به الرسول، أخير تعالى من أين صدرت، وأنهم ﴿فِي سُنِّكَ مِنْ ذِكْرِي﴾ ليس عندهم علم ولا بينة، فلما وقعوا في الشك، وارتضوا به، وجاءهم الحق الواضح، وكانوا جازمين بإقامتهم على شكهم، قالوا ما قالوا من تلك الأقوال لدفع الحق، لا عن بينة من أمرهم، وإنما ذلك من باب الاتفاك منهم، ومن المعلوم، أن مَنْ هو بهذه الصفة، يتكلم عن شك وعناد؛ إن قوله غير مقبول، ولا قادح أدنى قدح في الحق، وأنه يتوجه عليه الذم واللوم بمجرد كلامه، ولهذا توعدهم بالعذاب فقال: ﴿كُلُّ لَمَّا يَدْعُوا عَذَابٍ﴾ أي: قالوا هذه الأقوال، وتجرأوا عليها، حيث كانوا ممتعين في الدنيا، لم يصبهم من عذاب الله شيء، فلو ذاقوا عذابه لم يتجرأوا.

﴿أَنْزَلْنَا مِنْ سَمَاءٍ مَوْجَاتٍ مِمَّا يَنْزَلُ الْمَاءُ﴾ فيقولون: ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا﴾ أي: هذا فضله تعالى ورحمته، وليس ذلك بأيديهم، حتى يتحجروا على الله.

﴿أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُرًا﴾ فيقولون: ﴿فَلْيَرْفَعُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ الموصلة لهم إلى السماء، فيقطعوا الرحمة عن رسول الله.

فكيف يتكلمون، وهم أعجز خلق الله وأضعفهم بما تكلموا به؟! أم قصدهم التحزب والتجند، والتعاون على نصر الباطل، وخذلان الحق؟ وهو الواقع.

فإن هذا المقصود لا يتم لهم، بل سعيهم خائب، وجندهم مهزوم ولهذا قال: ﴿جُنُدًا مِمَّا هَتَّالِكَ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْرَابِ﴾.

(١٢-١٥) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَكَادَ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْبَادِ ○ وَنُوحٌ وَقَوْمٌ لُوطٌ وَأَصْحَبُ الْأَنْجَارِ ○ إِنَّ كُلًّا أَلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابٌ ○ وَمَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَجِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ يحذرهم تعالى أن يفعل بهم، ما فعل بالأمم من قبلهم، الذين كانوا أعظم قوة منهم، وتحزبًا على الباطل ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَكَادَ﴾ قوم هود ﴿وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْبَادِ﴾ أي: الجنود العظيمة، والقوة الهائلة.

﴿وَنُوحٌ﴾ قوم صالح، ﴿وَقَوْمٌ لُوطٌ وَأَصْحَبُ الْأَنْجَارِ﴾ أي: الأشجار واليساتين الملتفة وهم قوم شعيب، ﴿وَأَنْجَارِ﴾ الذين اجتمعوا بقوتهم وعدوهم وعدوهم على رد الحق، فلم تغن عنهم شيئًا.

﴿إِنَّ كُلًّا﴾ من هؤلاء ﴿إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ﴾ عليهم ﴿عِقَابٌ﴾ الله. وهؤلاء ما الذي يطهرهم ويزكيهم، أن لا يصيبهم ما أصاب أولئك.

فليتظنوا ﴿صَيْحَةً وَجِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾ أي: من رجوع ورد، تهلكهم وتستأصلهم إن أقاموا على ما هم عليه.

(١٦، ١٧) ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا مَجْلًا لَنَا فَطَنَّا بَلَّ يَوْمِ الْحِسَابِ ○ أَصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: قال هؤلاء المكذبون، من جهلهم، ومعاندتهم الحق، مستعجلين للعذاب: ﴿رَبَّنَا مَجْلًا لَنَا فَطَنَّا﴾ أي: قسطننا، وما قسم لنا من العذاب عاجلاً ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ولجئوا في هذا القول، وزعموا أنك يا محمد، إن كنت صادقًا فعلامة صدقك أن تأتينا بالعذاب.

فقال لرسوله: ﴿أَصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ﴾ كما صبر مَنْ قبلك من الرسل، فإن قولهم لا يضر الحق شيئًا، ولا يضرونك في شيء، وإنما يضرون أنفسهم.

(١٧-٢٠) ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ○ إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَّ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ○ وَالطُّيُورُ مَحْشُورَةٌ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ○ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾.

ومن أعظم العابدين نبي الله داود عليه الصلاة والسلام ﴿ذَا الْأَيْدِ﴾^(١) أي: القوة العظيمة على عبادة الله تعالى، في بدنه وقلبه ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاع إلى الله في جميع الأمور بالإجابة إليه، بالحب والتأله، والخوف والرجاء، وكثرة

(١) كذا في ب، وفي الأصل: ذو الأيدي.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥٤

تِلْكَ آيَاتُ

أَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ إِذْ أَلَيْبَتُهُ أَهْوَابُ ﴿١٧﴾
 إِنَّا سَخَرْنَا لِحَبَالِهِمْ مَعَهُ مِسْحَانَ بِالْعَنِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ
 مُحْشَوْرَةً كُلِّ لَهْوٍ أَهْوَابُ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَايَتْنَاهُ الْحِكْمَةَ
 وَفَصَّلَ الْخُطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أُنْتَكَبْنَا نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا
 الْمِحْرَابِ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ
 خَصَمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
 وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً
 وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ
 لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيمِكَ إِلَيْنَا نَعِيجُهُ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي
 بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
 مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
 ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَعَابٍ
 ﴿٢٥﴾ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ
 بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ
 عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا سُوٓأُ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

فقال أحدهما: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾ نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، لاقتضائها عدم البغي، وأن بغية الصادر منه أعظم من غيره، ﴿لَمْ تَسْعَ وَتَسْعُونَ نَجْمَةً﴾ أي: زوجة، وذلك خير كثير، يوجب عليه القناعة بما آتاه الله ﴿وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ قطع فيها ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أي: دعها لي، وخلها في كفالتي ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ﴾ أي: غلبني في القول، فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد.

فقال داود - لما سمع كلامه - ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما، أن هذا هو الواقع، فلهذا لم يحتج أن يتكلم الآخر، فلا وجه للاعتراض بقول القائل: ﴿لَمْ حَكَمْ دَاوُدُ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَ الْخَصْمِ الْآخَرَ؟﴾ ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيمِكَ إِلَيْنَا نَعِيجُهُ﴾ وهذه عادة الخُلَطَاءِ والقراء الكثير منهم.

فقال: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ لأن الظلم من صفة النفوس ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح، يمنعهم من الظلم ﴿وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾

(١) في النسختين: فسيقصون.

التضرع والدعاء، رجَّاع إليه عندما يقع منه بعض الخلل، بالإقلاع والتوبة النصوح.

ومن شدة إنابته لربه وعبادته، أن سَخَّرَ اللهُ الجبال معه، تَسْبِجَ معه بحمد ربها ﴿بِالْعَنِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ أول النهار وآخره.

﴿و﴾ سخر ﴿الطَّيْرَ مُحْشَوْرَةً﴾ معه مجموعة، ﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطيور لله تعالى ﴿أَهْوَابُ﴾ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَجِبَالٌ أُولِي مَعْمٍ وَالطَّيْرُ﴾ فهذه مِنَّةُ اللهِ عليه بالعبادة.

ثم ذكر مته عليه بالملك العظيم فقال: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَكُمْ﴾ أي: قويناه بما أعطيناه من الأسباب، وكثرة العَدَدِ والعُدَدِ التي بها قُوَى اللهُ ملكه.

ثم ذكر مته عليه بالعلم فقال: ﴿وَءَايَتْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ أي: النبوة والعلم العظيم ﴿وَفَصَّلَ الْخُطَابِ﴾ أي: الخصومات بين الناس.

(٢١-٢٦) ﴿وَهَلْ أُنْتَكَبْنَا نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ سُورُوا الْمِحْرَابِ﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصَمَانِ بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ○ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخُطَابِ ○ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعِيمِكَ إِلَيْنَا نَعِيجُهُ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ○ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحَسَنَ مَعَابٍ ○ يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا سُوٓأُ يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ لما ذكر تعالى أنه أتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفاً بذلك مقصوداً، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلهما الله فتنة لداود، وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه، وغفر له، وقبض له هذه القضية، فقال لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَهَلْ أُنْتَكَبْنَا نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ فإنه نبأ عجيب ﴿إِذْ سُورُوا﴾ على داود ﴿الْمِحْرَابِ﴾ أي: محل عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم يدخلوا عليه مع باب.

فذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة فزع منهم وخاف، فقالوا له: نحن ﴿خَصَمَانِ﴾ فلا تخف ﴿بَعَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ﴾ بالظلم ﴿فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، ولا تمل مع أحدنا ﴿وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾.

والمقصود من هذا، أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك فسيقصان^(١) عليه نبأهما بالحق، فلم يشتمز نبي الله داود من وعظهما له، ولم يؤنبهما.

بحكمتنا وحكمنا .

﴿ كَتَبَ آتْرَآئُهُ إِلَيْكَ مِزْرًا ﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأه الله .

﴿ لِيَذَّبُوا آيَاتِهِ ﴾ أي: هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود .

﴿ وَتَسْتَدْرِكُ أُولُو الْأَيْتِي ﴾ أي: أولوا العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب .

(٣٠-٤٠) ﴿ وَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّغِيرَتِ الْجِيَادِ ○ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحَبَابِ ○ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِيقٌ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ○ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ○ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنِّي بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ○ فَصَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رِجَاءً حَيْثُ أَصَابَ ○ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ○ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ○ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ○ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ عِنْدِنَا لَرْزُقًا وَمَحْصَنَاتٍ ○ لِمَا أَتَيْتُمْ عَلَى دَاوُدَ، وذكر ما جرى له ومنه، أتى على ابنه سليمان عليهما السلام فقال: ﴿ وَهَبْنَا لِذَاوُدَ سُلَيْمَانَ ﴾ أي: أنعمنا به عليه، وأقررنا به عينه .

﴿ نِعَمَ الْعَبْدِ ﴾ سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو ﴿ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ أي: رجَّع إلى الله في جميع أحواله، بالتأله والإنابة، والمحبة والذكر والدعاء والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله وتقديمها على كل شيء .

ولهذا، لما عرضت عليه الخيل الجياد سبق الصافنات أي: التي من وصفها الصفون، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظرٌ رائع، وجمال معجب، وخصوصًا للمحتاج إليها كالمملوك، فما زالت تُعرض عليه، حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء وذكره .

فقال - ندماً على ما مضى منه، وتقرباً إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديمًا لحب الله على حب غيره -: ﴿ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ

كما قال تعالى: ﴿ وَقِيلَ لِمَنِ عِبَادَتُ الشُّكُورِ ﴾، ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ ﴾ حين حكم بينهما ﴿ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ أي: اخترنا به ودبرنا عليه هذه القضية لئيبته ﴿ فَاسْتَعَفَّرَ رَبَّهُ ﴾ لما صدر منه ﴿ وَحَرَّ رَأْعَاكُمَا ﴾ أي: ساجدًا ﴿ وَأَنَابَ ﴾ لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة .

﴿ فَفَقَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ﴾ الذي صدر منه، وأكرمه الله بأنواع الكرامات، فقال: ﴿ وَإِنَّ لَكُم مِّنْ عِنْدِنَا لَرْزُقًا ﴾ أي: منزلة عالية، وقرية منا ﴿ وَمَحْصَنَاتٍ ﴾ أي: مرجع .

وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها .

﴿ يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ﴾ أي: العدل، وهذا لا يتمكن منه إلا بعلم بالواجب وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق .

﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴾ فتميل مع أحد، لقرابة أو صداقة أو محبة، أو بغض للآخر ﴿ وَيُضِلِّكَ الْهَوَىٰ ﴾ عن سبيل الله ﴿ ويخرجك عن الصراط المستقيم .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ خصوصًا المتعمدين منهم، ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَمَّا سُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوى الفاتن .

(٢٧-٢٩) ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ○ أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ○ كَتَبَ آتْرَآئُهُ إِلَيْكَ مِزْرًا لِيَذَّبُوا آيَاتِهِ ﴾ وَتَسْتَدْرِكُ أُولُو الْأَيْتِي ﴾ يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلاً، أي: عبثاً ولعباً من غير فائدة ولا مصلحة ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بربهم، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ فإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ .

وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن البعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر .

ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه، ولهذا قال: ﴿ أَمْ تَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ تَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ هذا غير لائق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥٥

سُورَةُ ص

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِإِذْنِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ ﴿٣٧﴾ أَمْ جَعَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ جَعَلَ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ
 ﴿٣٨﴾ كَتَبَ آيَاتِهِ عَلَيْكَ مَبْرُوكًا لِيَذَّبَ رِوَاءَ آيَاتِهِ. وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو
 الْأَلْبَابِ ﴿٣٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نَعَمَ الْعَبْدَانِ هَؤُلَاءِ
 ﴿٤٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِرَاتُ الْجِيَادُ ﴿٣٦﴾ فَقَالَ إِنِّي
 أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٢﴾
 رُدُّوَهَا عَلَيَّ فَنَفِثَ بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا
 سُلَيْمَانَ وَالْقَيْنَانَ عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ
 لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ عِبْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
 فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرٍ وَأَمْرًا فَهَاجَتْ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيْطِينَ
 كُلَّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَأَوْعَيْنَ مَفْرِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا
 عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ
 مَكَابٍ ﴿٤٠﴾ وَأَذْكَرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِي الشَّيْطَانُ
 بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا غَمْسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾

بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون
 ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ آفْقَةً﴾.

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام، من حُسن
 الصوت العظيم، الذي جعل الله بسببه الجبال الصم، والطيور
 البهم، يجاوبنه إذا رجع صوته بالتسييح، ويسبحن معه بالعشي
 والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نِعَمِ الله على عبده، أن يرزقه العلم
 النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتنَّ الله به
 على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأبيائه وأصفيائه، عندما يقع منهم
 بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم
 المحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى
 لدواد وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون
 من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى، لأن مقصود الرسالة لا
 يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة
 من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويباردهم بلفظه.

أَلْخَيْرِ وضمن «أحببت» معنى «أثرت» أي: أثرت حب الخير،
 الذي هو المال عمومًا، وفي هذا الموضع المراد: الخيل
 ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾.

﴿رُدُّوَهَا عَلَيَّ﴾ فردوها ﴿فَنَفِثَ﴾ فيها ﴿مَسْحًا بِالسُّوقِ
 وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ﴾ أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه
 وانفصاله عنه، بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية ﴿وَالْقَيْنَانَ عَلَى
 كُرْسِيِّهِ جَسَدًا﴾ أي: شيطانًا قضى الله وقدّر أن يجلس على
 كرسي ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان ﴿ثُمَّ
 أَنَابَ﴾ سليمان إلى الله تعالى وتاب.

﴿فَقَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ عِبْدِي إِنَّكَ أَنْتَ
 الْوَهَّابُ﴾ فاستجاب الله له وغفر له، ورد عليه ملكه، وزاده
 ملكًا لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخير الشياطين له،
 ينون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر
 والحلي، ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاذ وأوثقه.

وقلنا له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ ففرّ به عينا ﴿فَأَمْنُنْ﴾ على من شئت
 ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ من شئت ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا حرج عليك في
 ذلك ولا حساب، لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه.

ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في
 الآخرة خير عظيم، ولهذا قال: ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ
 مَكَابٍ﴾ أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع
 الكرامات لله.

فصل

فيما تبين لنا من الفوائد والحكم في قصة داود

وسليمان عليهما السلام

فمنها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار من
 قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة
 صبرهم وإنابتهم، ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى الله
 الذي تقربوا له، والصبر على أذى قومه، ولهذا - في هذا
 الموضوع - لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه،
 وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود، فيتسلى به.

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة
 القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها
 وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي
 له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة
 بالقوى المضعفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور، من أوصاف
 أنبياء الله وخواص خلقه، كما أثنى الله على داود وسليمان

ومنها: أن الحكم بين الناس مرتبة دينية، تولاها رسل الله وخواص خلقه، وأن وظيفة القائم بها الحكم بالحق ومجانبة الهوى، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمر الشرعية، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم، ولا يحل له الإقدام عليه.

ومنها: أنه ينبغي للحاكم أن يحذر الهوى، ويجعله منه على بال، فإن النفوس لا تخلو منه، بل يجاهد نفسه بأن يكون الحق مقصوده، وأن يلقي عنه وقت الحكم كل محبة أو بغض لأحد الخصمين.

ومنها: أن سليمان عليه السلام من فضائل داود، ومن منن الله عليه حيث وهبه له، وأن من أكبر نعم الله على عبده، أن يهب له ولدًا صالحًا، فإن كان عالمًا، كان نورًا على نور.

ومنها: ثناء الله تعالى على سليمان ومدحه في قوله: ﴿يَعْمَ الْعَبْدَ إِنَّهٗ أَوَّابٌ﴾.

ومنها: كثرة خير الله وبره بعبده، أن يمن عليهم بصالح الأعمال ومكارم الأخلاق، ثم ينهي عليهم بها، وهو المتفضل الوهاب.

ومنها: تقديم سليمان محبة الله تعالى على محبة كل شيء. ومنها: أن كل ما أشغل العبد عن الله، فإنه مشؤوم مدموم، فلْيَمَارِقْهُ وَلْيُقْبِلْ عَلَى مَا هُوَ أَنْفَعُ لَهُ.

ومنها: القاعدة المشهورة «مَنْ تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ، عَوَّضَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ».

فلسليمان عليه السلام عقر الجياد الصافنات المحبوبة للنفوس، تقديمًا لمحبة الله، فعوضه الله خيرًا من ذلك، بأن سخر له الريح الرخاء اللينة، التي تجري بأمره إلى حيث أراد وقصد، غدوها شهر ورواحها شهر، وسخر له الشياطين، أهل الاقتدار على الأعمال التي لا يقدر عليها الآدميون.

ومنها: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان عليه السلام.

ومنها: أن سليمان عليه السلام كان ملكًا نبيا، يفعل ما أراد، ولكنه لا يريد إلا العدل بخلاف النبي العبد، فإنه تكون إرادته تابعة لأمر الله، فلا يفعل ولا يترك إلا بالأمر، كحال نبينا محمد ﷺ، وهذه الحال أكمل.

(٤١-٤٤) ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا نَّوْبًا إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ۚ أَرْكَضَ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۚ وَوَهَبْنَا لَهُ إِلهَهُ وَيَسَّرْنَا مَعَهُ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرْنَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ۚ وَوَعَدْنَا فَاثْمَرِبَ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ ۚ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهٗ أَوَّابٌ ۚ أَي: ﴿وَأَذْكُرْ﴾

ومنها: أن داود عليه السلام، [كان] في أغلب أحواله لازمًا محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب؛ لأنه كان إذا خلا في محرابه، لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتًا يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود، في حالة غير معتادة، ومن غير الباب المعهود، فرغ منهم، واشتد عليه ذلك، ورآه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءه بغير استئذان، وهو الملك، ولا انتهرهما ولا وبخهما.

ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أَنْتَ ظَلَمْتَنِي» أو «يا ظالم» ونحو ذلك أو «باغ علي» لقولهما: ﴿حَصَّانِ يَبَئِ بَعْضَنَا عَلَى بَعْضٍ﴾.

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر جليل العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه لا يغضب ولا يشتم، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشتم، ولم يغضب ولم يشنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة العلاقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغي بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصًا الصلاة، من مكفرات الذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما، منقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في قلوب الخلق، فإنهم إذا علموا ببعض ذنوبهم، وقع في قلوبهم نزولهم عن درجتهم الأولى، فأزال الله تعالى هذه الآثار، وما ذاك بعزير على الكريم الغفار.

في هذا الكتاب ذي الذكر ﴿عَبْدًا أَوْبًا﴾ بأحسن الذكر، وأثن عليه بأحسن الثناء، حين أصابه الضر، فصبر على ضره، فلم يشتك لغير ربه، ولا لجأ إلا إليه .

﴿فَنَادَى رَبَّهُ﴾ داعيًا، وإليه لا إلى غيره شاكيًا فقال: رَبِّ ﴿أَنِّي مَسَى الشَّيْطَانُ بِضَبِّ وَعَدَابٍ﴾ أي: بأمر مشق متعب معذب، وكان ساطع على جسده ففخ فيه حتى تقرح، ثم تقيح بعد ذلك واشتد به الأمر، وكذلك هلك أهله وماله .

فقيل له: ﴿أَكْفَىٰ بَرِيحًا﴾ أي: اضرب الأرض بها، لينبع لك منها عين تغتسل منها وتشرب، فيذهب عنك الضر والأذى، ففعل ذلك، فذهب عنه الضر، وشفاه الله تعالى .

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ﴾ قيل: إن الله تعالى أحياهم له ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مَعَهُمُ﴾ في الدنيا، وأغناه الله، وأعطاه مالا عظيما ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ بعدنا أيوب، حيث صبر فأثبناه من رحمتنا ثوابا عاجلا وأجلا .

﴿وَذَكَرْنَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ أي: وليتذكر أولو العقول بحالة أيوب ويعتبروا، فيعلموا أن من صبر على الضر، أن الله تعالى يشبهه ثوابا عاجلا وأجلا، ويستجيب دعاءه إذا دعاه .

﴿وَعُدُّ بِيَدِكَ ضَعْفًا﴾ أي: حزمة شماريخ ﴿فَأَصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنَطْ﴾ .

قال المفسرون: وكان في مرضه وضره قد غضب على زوجته في بعض الأمور، فحلف: لئن شفاه الله ليضربنها مائة جلدة، فلما شفاه الله، وكانت امرأته سالحة محسنة إليه، رحمها الله ورحمه، فأفاته أن يضربها بضغت فيه مائة شمراخ ضربة واحدة، فيبر في يمينه .

﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ﴾ أي: أيوب ﴿صَابِرًا﴾ أي: ابتليناه بالضر العظيم، فصبر لوجه الله تعالى ﴿بِعَمِّ الْعَبْدِ﴾ الذي كمل مراتب العبودية، في حال السراء والضراء، والشدة والرخاء ﴿إِنَّهُ أَوْابٌ﴾ أي: كثير الرجوع إلى الله، في مطالبه الدينية والدنيوية، كثير الذكر لربه والدعاء، والمحبة، والتأله .

﴿٤٧-٤٥﴾ ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا إِيْرَهُمْ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَرِ﴾ ﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةِ ذِكْرَى الدَّارِ﴾ ﴿وَلَهُمْ عِنْدَنَا لِيْنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْآخِيَارِ﴾ يقول تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا﴾ الذين أخلصوا لنا العبادة ذكرا حسنا .

﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ الخليل ﴿و﴾ ابنه ﴿إِسْحَاقَ﴾ ابن ابنه ﴿يَعْقُوبَ﴾ أُولَى الْأَيْدَى أي: القوة على عبادة الله تعالى ﴿وَالْأَبْصَرَ﴾ أي: البصيرة في دين الله . فوصفهم بالعلم النافع، والعمل الصالح الكثير .

﴿إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ﴾ عظيمة، وخصيصة جسيمة وهي:

﴿وَلَهُمْ عِنْدَنَا لِيْنَ الْمُصْطَفَيْنَ﴾ الذين اصطفاهم الله من صفة خلقه ﴿الْآخِيَارِ﴾ الذين لهم كل خلق كريم، وعمل مستقيم .

﴿٤٩، ٤٨﴾ ﴿وَأَذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾ هذا ذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلاً منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال، من الأعمال، والأخلاق والصفات الحميدة، والخصال السديدة .

﴿عَبْدًا﴾ أي: ذكر هؤلاء الأنبياء الصفة وذكر أوصافهم ﴿وَذَكَرْ﴾ في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويعرف ما من الله عليهم به من الأوصاف الزكية، وما نشر لهم من الثناء بين البرية .

فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير، ومن أنواع الذكر ذكر جزاء أهل الخير وأهل الشر، ولهذا قال:

﴿٤٩-٥٤﴾ ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ﴾ ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ مُّفْنَعَةً لَهُمْ الْأَنْبِيَاءِ﴾ ﴿مُتَّكِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَكَهْمَةٍ كَثِيرَةٍ وَتَرَكِبَ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ الْأَرَابِ﴾ ﴿هَذَا مَا نُوْعِدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُم مِّن نَّفَادٍ﴾ أي: ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ربهم، بامثال الأوامر، واجتناب النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة ﴿لَحُسْنَ مَكَابٍ﴾ أي: لمأبا حسنا، ومرجعا مستحسنا .

ثم فسره وفصله، فقال: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة، لا يبغي صاحبها بدلا منها، من كمالها وتمام نعيمها، وليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين .

﴿مُفْنَعَةً لَهُمُ الْأَنْبِيَاءِ﴾ أي: مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومسكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها هم، بل هم مخدومون، وهذا دليل أيضا على الأمان التام، وأنه ليس في جنات عدن ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها .

﴿مُتَّكِينَ فِيهَا﴾ على الأرائك المزينات، والمجالس المزخرفات ﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي: يأمرن خدامهم أن يأتوا ﴿بِفَكَهْمَةٍ كَثِيرَةٍ وَتَرَكِبَ﴾ من كل ما تشتهي نفوسهم، وتلذذ أعينهم، وهذا يدل على كمال النعيم، وكمال الراحة والطمأنينة، وتمام اللذة .

﴿وَعِنْدَهُمْ﴾ من أزواجهم، الحور العين ﴿قَاصِرَاتُ﴾ طرفهن

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

٤٥٦

سُورَةُ ص

وَوَهَبْنَا لَهُ إِهْلَاقَهُ، وَمِنْهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولَى الْأَلْبَابِ

﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْتًا قَاصِرًا ضَرْبَ يَبَةٍ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا

يَعْمُ الْعِبَادَةَ إِذْ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى

الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَأَذْكُرْ

إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَذَا ذِكْرٌ

وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَكَابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتٍ عِدْنٍ مِّنْجَنَّةٍ لَهُمْ الْأَنْبُوبُ

﴿٥٠﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَنَكِهِةٍ كَثِيرَةٍ وَوَسْرَابٍ ﴿٥١﴾

﴿٥٢﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرَاتُ الْأُطُرِّ الْأَنْبَابِ ﴿٥٣﴾ هَذَا مَا تَدْعُونَ لِيَوْمِ

الْحِسَابِ ﴿٥٤﴾ إِنَّ هَذَا رِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿٥٥﴾ هَذَا وَإِنَّ

لِللَّاطِفِينَ لَشَرَّ مَكَابٍ ﴿٥٦﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا فَمِنَ الْجَهَنَّمَ

فَلِيدٌ وَفَوْهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخِرٌ مِنْ شَكْلِهِ أَرْوَجٌ ﴿٥٨﴾

هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾

قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيُسَّ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾

قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾

﴿٦٢﴾

واضلالكم وتسيبكم ﴿فَيُسَّ الْقَرَارُ﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر.

ثم دعوا على المغوين لهم، ف ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَقَالُوا﴾ وهم في النار ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ أي: كنا نزعم أنهم من الأشرار، المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون تفقدتهم أهل النار - فَبِحُجْمِ اللَّهِ - هل يرونهم في النار؟

﴿أَتَخَذْتَهُمْ سِجْرًا أَمْ رَأَيْتَ عَنْهُمْ الْآبِصْرَ﴾ أي: عدم رؤيتنا لهم دائرين أمرين:

إما أننا غالطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع، كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِرْقًا مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فاتخذتهم سِجْرًا حتى أنسوكم ذكركم وكنتم منهم نصيحون.

والأمر الثاني: أنهم لعلهم زاغت أبصارنا عن رؤيتهم معنا

على أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن، لجمالهم كلهم، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا يبغى بصاحبه بدلًا، ولا عنه عوضًا ﴿الرَّأْبُ﴾ أي: على سن واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذ.

﴿هَذَا مَا تَدْعُونَ﴾ أيها المتقون ﴿يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ جزاء على أعمالكم الصالحة.

﴿إِنَّ هَذَا رِزْقُنَا﴾ الذي أوردناه على أهل دار النعيم ﴿مَا لَمْ يَنْفَادِ﴾ أي: انقطاع، بل هو دائم مستقر في جميع الأوقات، متزايد في جميع الآتات.

وليس هذا بعظيم على الرب الكريم، الرؤوف الرحيم، البر الجواد، الواسع الغني، الحميد اللطيف الرحمن، الملك الديان، الجليل الجميل المنان، ذي الفضل الباهر، والكرم المتواتر، الذي لا تحصى نعمه، ولا يحاط ببعضه.

(٦٤-٥٥) ﴿هَذَا وَإِنَّ لِللَّاطِفِينَ لَشَرَّ مَكَابٍ﴾ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا

فَمِنَ الْجَهَنَّمَ فَلِيدٌ وَفَوْهُ حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ ﴿وَأَخِرٌ مِنْ شَكْلِهِ﴾

أَرْوَجٌ ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْجَا بِهِمْ صَالُوا النَّارِ﴾ قَالُوا

بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ لَنَا فَيُسَّ الْقَرَارُ ﴿قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ

لَنَا هَذَا فَرَدَّهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا

نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿أَتَخَذْتَهُمْ سِجْرًا أَمْ رَأَيْتَ عَنْهُمْ الْآبِصْرَ﴾ إِنَّ ذَلِكَ

لَحَقٌّ بِمَنْصُومٍ أَهْلِ النَّارِ ﴿هَذَا﴾ الجزاء للمتقين ما وصفناه

﴿وَإِنَّ لِللَّاطِفِينَ﴾ أي: المتجاوزين للحد في الكفر والمعاصي

﴿لَشَرَّ مَكَابٍ﴾ أي: لشر مرجع ومنقلب.

ثم فصله فقال: ﴿جَهَنَّمَ﴾ التي جمع فيها كل عذاب واشتد حرها، وانتهى قرها ﴿يَصَلُّونَهَا﴾ أي: يعذبون فيها عذابًا يحيط بهم من كل وجه، لهم من فوقهم ظلل من النار، ومن تحتهم ظلل.

﴿فَيُسَّ الْجَهَادِ﴾ المعد لهم مسكنًا ومستقرًا ﴿هَذَا﴾ المهاد،

هذا العذاب الشديد، والخزي، والفضيحة، والنكال

﴿فَلِيدٌ وَفَوْهُ حَمِيمٌ﴾ ماء حار قد اشتد حره، يشربونه فيقطع

أمعاءهم ﴿وَعَسَاقٌ﴾ وهو أكره ما يكون من الشراب، من قبح

وصديد، مُر المذاق، كرهه الرائحة.

﴿وَأَخِرٌ مِنْ شَكْلِهِ﴾ أي: من نوعه ﴿أَرْوَجٌ﴾ أي: عدة

أصناف من أصناف العذاب، يعذبون بها ويخزون بها.

وعند تواردهم على النار يشتتم بعضهم بعضًا، ويقول

بعضهم لبعض: ﴿هَذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ النار ﴿لَا مَرْجَا بِهِمْ

إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ﴾ قَالُوا ﴿أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْجَا بِكُمْ

أَنْتُمْ قَدْ مَتَمُّوهُ﴾ أي: العذاب ﴿لَنَا﴾ بدعوتكم لنا، وفتنتكم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥٧

سُورَةُ ص

وَقَالُوا مَا لَنَا لَنَرِي رَجُلًا كَنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٦﴾ اتَّخَذْتُمْ
 سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْبَصِيرَةُ ﴿٦٧﴾ إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
 النَّارِ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٩﴾
 رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٧٠﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ
 عَظِيمٌ ﴿٧١﴾ أَنْتُمْ مَعْرُضُونَ ﴿٧٢﴾ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى
 إِذْ يُخَصِّصُونَ ﴿٧٣﴾ إِنْ يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٤﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ
 لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧٥﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
 مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٦﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ
 أَجْمَعُونَ ﴿٧٧﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ
 يَبْنَؤُا لَيْسَ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ
 مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ
 ﴿٨٠﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا فَإِنَّكَ رَاحِمٌ رَّحِيمٌ ﴿٨١﴾ وَإِن عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ
 الدِّينِ ﴿٨٢﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
 الْمُنظَرِينَ ﴿٨٤﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨٥﴾ قَالَ فَفِعْرِكَ
 لِأَعْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٦﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨٧﴾

وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا أَي: خالقهما ومربيهما ومدبرها^(١) بجميع أنواع التدبير ﴿العزير﴾ الذي له القوة، التي بها خلق المخلوقات العظيمة ﴿الغفور﴾ لجميع الذنوب، صغيرها، وكبيرها، لمن تاب إليه وأقلع منها.

فهذا الذي يجب ويستحق أن يعبد دون من لا يخلق ولا يرزق، ولا يضر ولا ينفع، ولا يملك من الأمر شيئاً، وليس له قوة الاقتدار، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار.

﴿قُل﴾ لهم مخوفاً ومحدراً، ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ما أنبأكم به من البعث والنشور والعجزاء على الأعمال، خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله.

ولكن ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مَعْرُضُونَ﴾ كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب.

فإن شككتهم في قولي وامترتيم في خبري، فإني أخبركم بأخبار لا علم لي بها ولا درستها في كتاب، فإخباري بها على

في العذاب، وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا، فيحتمل أن هذا الذي في قلوبهم، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار، تمكنت من قلوبهم وصارت صبغة لها، فدخلوا النار وهم بهذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه، كما موهوا في الدنيا، موهوا حتى في النار ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ حَزْرُونَ﴾.

قال تعالى مؤكداً ما أخبر به، وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي ذكرت لكم ﴿لحَقٌّ﴾ ما فيه شك ولا مرية ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

(٦٥-٨٨) ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾
 رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ
 أَنْتُمْ عَنْهُ مَعْرُضُونَ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يُخَصِّصُونَ ﴿٦٧﴾ إِنْ يُوْحَىٰ إِلَيَّ
 إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٦٨﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٦٩﴾
 فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٠﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ
 كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧١﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٢﴾ قَالَ
 يَبْنَؤُا لَيْسَ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ
 مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٣﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ
 ﴿٧٤﴾ قَالَ فَأَخْرِجْهَا فَإِنَّكَ رَاحِمٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٥﴾ وَإِن عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ
 يُبْعَثُونَ ﴿٧٦﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
 الْمُنظَرِينَ ﴿٧٨﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَفِعْرِكَ
 لِأَعْوَيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ ﴿٨١﴾

هذا تقرير لألوهيته، بهذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى، وقهره لكل شيء، فإن القهر ملازم للوحدة، فلا يكون قهاران، متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يُعبد وحده، كما كان قاهراً وحده.

وقرر ذلك أيضاً بتوحيد الربوبية فقال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ

(١) كذا في النسخين.

فلما علم أنه مُنْظَرٌ، بادى ربه من خبئه بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. يحتمل أن الباء للقسم، وأنه أقسم بعزة الله ليغوينهم كلهم أجمعين.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ علم أن الله سيحفظهم من كيده.

ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه، وأنه لا يضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى، استعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم، هذا وهو عدو الله حقاً.

ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل نعمة، ذرية من شرفته وكرمه، فنستعين بعزتك العظيمة وقدرتك ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إلينا بها ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها عنا ما صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربه وعداوته، والسلامة من شره وشركه، ونحسن الظن بك أن تجيب دعاءنا، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ آلِيْعَادَ﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ أي: الحق وصفي، والحق قولي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال الله له: .

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على دعائي إياكم ﴿وَبِئْسَ مَا أَنَا مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أدعي أمراً ليس لي وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إليّ .

﴿إِنَّ هُوَ﴾ أي: هذا الوحي والقرآن ﴿إِلَّا نَذَرَ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعة للعاملين به، وإقامة حجة على المعاندين .

فهذه السورة العظيمة مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين على من كذب بالقرآن وعارضه، وكذب من جاء به، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء المتقين والطاعين، فلهذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين .

وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك، كقوله: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادًا - ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادًا﴾ - ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى﴾ - ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾ .

اللهم علمنا منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، نسيان غفلة ونسيان ترك .

﴿وَلِنَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: خبره ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب وتتقطع عنهم الأسباب .

تم تفسير سورة ص بمنه تعالى وعونه .

وجهها من غير زيادة ولا نقص أكبر شاهد لصدقي، وأدُلُّ دليل على حق ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أي: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ لولا تعليم الله إياي، وإيحاؤه إليّ، ولهذا قال: ﴿إِن يَوْحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَا أَنَا تَنْزِيلٌ مِّنِّي﴾ أي: ظاهر النذارة جليها، فلا نذير أبلغ من نذارته ﷺ .

ثم ذكر اختصام الملائكة الأعلى فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِ الْعُلَىٰ﴾ على وجه الإخبار ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ أي: مادته من طين ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ أي: سويت جسمه وتمم ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُمْ سَجِدِينَ﴾ فوطئ الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالاً لربهم وإكراماً لآدم عليه السلام، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتنح الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم الله بالسجود .

فسجدوا ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ لم يسجد ﴿أَسْتَكْبِرُ﴾ عن أمر ربه، واستكبر على آدم ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ في علم الله تعالى .

﴿قَالَ﴾ الله موبخاً ومعاتباً: ﴿مَا مَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ أي: شرفته وكرمه واختصاصه بهذه الخصيصة التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه ﴿أَسْتَكْبِرْتَ﴾ في امتناعك ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ .

﴿قَالَ﴾ إبليس معارضاً لربه ومناقضاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْ خَلْقِنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ ويزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد، فإن عنصر النار مادة الشر والفساد، والعلو والطيش والخفة، وعنصر الطين مادة الرزانة والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه، فهذا قياس شيخ القوم الذي عارض به الأمر الشفاهي من الله، قد تبين غاية بطلانه وفساده، فما بالك بأقيسة التلاميذ الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟ فإنها كلها أعظم بطلاناً وفساداً من هذا القياس .

﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿فَأَخْرِجْهَا﴾ أي: من السماء والمحل الكريم ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مبعد مدحور .

﴿وَأَنَّ عَيْنَكَ لَعَنَتِي﴾ أي: طردني وإبعادي ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: دائماً أبداً .

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ لشدة عداوته لآدم وذريته، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه .

﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ ○ ﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ حين تستكمل الذرية، يتم الامتحان .

ورجائه، وللإجابة إليه في عبوديته، والإجابة إليه في تحصيل مطالب عباده.

وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة، فإن الله بريء منه، وليس لله فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مُسْتَقْبَلٌ لِلنَّفُوسِ غَايَةَ الشَّقَاءِ.

فلذلك لما أمر بالتوحيد والإخلاص نهى عن الشرك به، وأخبر بدم من أشرك به فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي: يتولونهم بعبادتهم ودعائهم، [معتدريين] ^(١) عن أنفسهم وقائلين: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ أي: لترفع حوائجنا لله وتشفع لنا عنده، وإلا فنحن نعلم أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تملك من الأمر شيئاً.

أي: فهو لا قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص وتجروا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثل شيء، الملك العظيم بالملوك، وزعموا - يعقولهم الفاسدة، ورأيهم السقيم - أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهدون لهم الأمر في ذلك، أن الله تعالى كذلك.

وهذا القياس من أفسد الأبيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم عقلاً ونقلًا وفطرة، فإن الملوك إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم، لأنهم لا يعلمون أحوالهم، فيحتاج من يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج من يعطفهم عليه [ويسترحمه لهم] ^(٢) ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقصون حوائج من توسطوا لهم مراعاة لهم، ومداراة لخواطرهم، وهم أيضاً فقراء، قد يمتنعون لما يخشون من الفقر.

وأما الرب تعالى، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج من يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد من خلقه يجعله راحماً لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم.

وهو الغني الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلاً ^(١) في: أي: متعذرين. (٢) كذا في النسختين، ولعل الصواب (ويسترحمهم له).

تفسير سورة الزمر

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ آلَ اللَّهِ الدِّينُ الْحَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۗ﴾ يخبر تعالى عن عظمة القرآن وجلالة من تكلم به ونزل منه، وأنه نزل من الله العزيز الحكيم، أي الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي قهر بها كل مخلوق وذل له كل شيء، والحكمة في خلقه وأمره.

فالقرآن نازل ممن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن الله تعالى الكامل من كل وجه، الذي لا مثيل له، فكذلك كلامه كامل من كل وجه، لا مثيل له، فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن، ذال على مرتبه. ولكنه - مع هذا - زاد بياناً لكماله بمن نزل عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق فعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مرية فيه، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ونزل مشتملاً على الحق في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة.

فكل ما دلَّ عليه فهو أعظم أنواع الحق، من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال.

ولما كان نازلاً من الحق، مشتملاً على الحق لهداية الخلق، على أشرف الخلق، عظمت فيه النعمة وجلت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله، فلهذا قال: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ أي: أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة، والشرائع الباطنة: الإسلام، والإيمان، والإحسان - بأن نقرده الله وحده بها، وتقصد به وجهه، لا غير ذلك من المقاصد.

﴿آلَ اللَّهِ الدِّينُ الْحَالِصُ﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله الفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به؛ لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه

منهم ما سأل وتمنى، لم يتقصوا غناه شيئاً، ولم يتقصوا مما عنده، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخط، وجميع الشفعاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها.

فهذه الفروق يعلم جهل المشركين به، وسفههم العظيم، وشدة جراتهم عليه، ويعلم أيضاً الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالى؛ لأنه يتضمن القدح في الله تعالى، ولهذا قال - حاكماً بين الفريقين المخلصين والمشركين، وفي ضمنه التهديد للمشركين - : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ .

وقد علم أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَفَّارًا﴾ أي: لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم ﴿مَنْ هُوَ كَذِيبٌ كَفَّارٌ﴾ أي: وصفه الكذب أو الكفر، بحيث تأتبه المواعظ والآيات ولا يزول عنه ما اتصف به، ويريه الله الآيات، فيجحدوها ويكفر بها ويكذب.

فهذا أتى له الهدى وقد سد على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه، فهو لا يؤمن؟.

(٤) ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زعم ذلك من زعمه من سفهاء الخلق ﴿لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: لاصطفى بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاها، واختصه لنفسه وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن له حاجة إلى اتخاذ الصاحبة ﴿سُبْحَانَهُ﴾ عما ظنه به الكافرون، أو نسبه إليه الملحدون.

﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: الواحد في ذاته وفي أسمائه وفي صفاته وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء من ذلك ولا مماثل، فلو كان له ولد لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدته؛ لأنه بعضه وجزء منه، القهَّار لجميع العالم، العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن مقهوراً، وكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه.

ووحده تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهَّار لا يكون إلا واحداً، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه.

(٧-٥) ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكُونُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَآتَىٰ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ زَوْجٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٤٥٨
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾

تَزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْحَاقُّ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكُونُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾

يَخْلُقَكُمْ فِي بَطْنٍ مِنْ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِ صَمُوتُونَ ۝ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعَنْ عِبَادِي وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِي الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّكُمْ عِندَهُ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾ يخبر تعالى أنه ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: بالحكمة والمصلحة، وليأمر العباد وينهاهم، ويشبههم ويعاقبهم.

﴿يَكُونُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكُونُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل كلاً منهما على الآخر ويحل محلله، فلا يجتمع هذا وهذا، بل إذا أتى أحدهما انعزل الآخر عن سلطانه.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ بتسخير منظم وسير مقنن ﴿كُلٌّ﴾ من الشمس والقمر ﴿يَجْرِي﴾ متأثراً عن تسخيره تعالى ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو انقضاء هذه الدار وخرابها، فيخرب الله آلاتها وشمسها وقمرها، ويشيء الخلق نشأة جديدة، ليستقروا في دار القرار الجنة أو النار.

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغالب، القاهر لكل شيء الذي لا يستعصي عليه شيء، الذي من عزته أوجد هذه المخلوقات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٥٩

سُورَةُ الزَّمْرِ

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلْ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ
 مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا يَخْلُقَكُمْ فِي بَطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ
 خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ تَلِكِ ذَالِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
 الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ
 اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ
 لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ
 فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾
 وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ
 نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا
 لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ
 النَّارِ ﴿٨﴾ أَمْ هُوَ قَوْنٌ آتَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ
 الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً مِنْ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
 لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يِعْبُدُوا الَّذِينَ
 ءَأَمَنُوا أَنْفُسَهُمْ رَبُّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ
 وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

وتوحيدكم، كذلك كل أحد منكم له عمله من خير وشر ﴿وَلَا
 تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تَرْجِعُونَ﴾ في يوم القيامة
 ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إخبارًا أحاط به علمه، وجرى
 عليه قلمه، وكتبته عليكم الحفظة الكرام، وشهدت به عليكم
 الجوارح، فيجازي كلًا منكم بما يستحقه.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بنفس الصدور، وما فيها
 من وصف بر أو فجور، والمقصود من هذا الإخبار بالجزاء
 بالعدل التام.

(٨) ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ
 نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ
 عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ يخبر تعالى
 عن كرمه بعبده وإحسانه وبره، وقلة شكر عبده، وأنه حين
 يمسه الضر من مرض أو فقر أو وقوع في كربة بحر أو غيره،
 أنه يعلم أنه لا ينجيه في هذا الحال إلا الله، فيدعوه متضرعًا
 منيًّا، ويستغيث به في كشف ما نزل به ويلج في ذلك.

﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ﴾ الله ﴿نِعْمَةً مِنْهُ﴾ بأن كشف ما به من الضر
 والكربة ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلٍ﴾ أي: نسي ذلك الضر

العظيمة، وسخرها تجري بأمره ﴿الْفَقْرُ﴾ لذنوب عباده
 التوايين المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلِيَّ لِقَاءِ رَبِّكَ وَأَمَّا
 وَعَمَلٌ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ الغفار لمن أشرك به بعدما رأى من آياته
 العظيمة، ثم تاب وأتاب.

ومن عزته أن ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ على كثرتمكم
 وانتشاركم، في أنحاء الأرض ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وذلك
 ليسكن إليها وتسكن إليه، وتتم بذلك النعمة ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ
 الْأَنْعَامِ﴾ أي: خلقها بقدر نازل منه، رحمة بكم ﴿ثَمَنِيَّةً
 أَزْوَاجًا﴾ وهي التي ذكرها في سورة الأنعام ﴿ثَمَنِيَّةً أَزْوَاجًا وَمِنَ
 الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً وَمِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً﴾ ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً وَمِنَ
 الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً﴾.

وخصها بالذكر، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم
 غيرها، لكثرة نفعها وعموم مصالحها ولشرفها ولاختصاصها
 بأشياء لا يصلح غيرها، كالأضحية والهدي والعقيقة،
 ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية.

ولما ذكر خلق أئينا وأمناء، ذكر ابتداء خلقنا فقال:
 ﴿يَخْلُقَكُمْ فِي بَطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي: طورًا بعد
 طور، وأنتم في حال لا يد مخلوق تمسكم، ولا عين تنظر
 إليكم، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق ﴿فِي ظُلُمَاتٍ
 تَلِكِ﴾ ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة.

﴿ذَالِكُمْ﴾ الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس
 والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾
 أي: المألوه المعبود، الذي رباكم ودبركم، فكما أنه الواحد
 في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته
 لا شريك له.
 ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾.

بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالى للإخلاص وحده إلى
 عبادة الأوثان، التي لا تدبر شيئًا، وليس لها من الأمر شيء:
 ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ لا يضره كفركم كما لا ينتفع
 بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم
 ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ لكمال إحسانه بهم، وعلمه أن الكفر
 يشقيهم شقاوة لا يسعدون بعدها، ولأنه خلقهم لعبادته، فهي
 الغاية التي خلق لها الخلق، فلا يرضى أن يدعو ما خلقهم
 لأجله.

﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا﴾ الله تعالى بتوحيده، وإخلاص الدين له
 ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لرحمته بكم، ومحبته لإحسان عليكم، ولفضلكم
 ما خلقكم لأجله.

وكما أنه لا يتضرر بشرككم ولا ينتفع بأعمالكم

الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضر، واستمر على شركه.

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَتَدَاكًا لِيُجِلَّ عَن سَبِيلِهِ﴾ أي: ليضل نفسه ويضل غيره؛ لأن الإضلال فرع عن الضلال، فأتى بالملزوم ليدل على اللازم.

﴿قُلْ﴾ لهذا العاتي، الذي بدّل نعمة الله كفرًا: ﴿تَمَتَّعَ بِكَفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ فلا يغنيك ما تمتع به إذا كان المال النار ﴿أَفَرَبَّيْتُمْ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَعُونَ﴾.

(٩) ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلِيلٌ مَّا أَتَىٰ الْآخِرَةَ وَفَآيِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، وأن هذا من الأمور التي تقرر في العقول تبيانها، وعلم علمًا يقينًا تفاوتها، فليس المعرض عن طاعة ربه، المتبع لهواه كمن هو قانت، أي: مطيع لله بأفضل العبادات وهي الصلاة، وأفضل الأوقات، وهو أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء رحمة الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾ ربهم ويعلمون دينه الشرعي، ودينه الجزائي، وما له في ذلك من الأسرار والحكم ﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ شيئًا من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليل والنهار، والضياء والظلام، والماء والنار.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ إذا ذُكِّرُوا ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي: أهل العقول الزكية الذكية، فهم الذين يؤثرون الأعلى على الأدنى، فيؤثرون العلم على الجهل، وطاعة الله على مخالفته؛ لأن لهم عقولًا ترشددهم للنظر في العواقب، بخلاف من لا لب له ولا عقل، فإنه يتخذ إليه هواه.

(١٠) ﴿قُلْ يَجِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: قل منادياً لأشرف الخلق، وهم المؤمنون، أمرًا لهم بأفضل الأوامر، وهي التقوى، ذاكرًا لهم السبب الموجب للتقوى، وهو ربوبية الله لهم وإنعامه عليهم المقضي ذلك منهم أن يتقوه، ومن ذلك ما من الله عليهم به من الإيمان فإنه موجب للتقوى. كما تقول: أيها الكريم تصدّق، وأيها الشجاع قاتل.

وذكر لهم الثواب المنشط في الدنيا فقال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا

فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ عبادة ربهم، لهم ﴿حَسَنَةٌ﴾ ورزق واسع، ونفس مطمئنة، وقلب منشرح، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾. ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ إذا منعمت من عبادته في أرض، فهاجروا إلى غيرها، تعبدون فيها ربكم وتتمكنون من إقامة دينكم.

ولما قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ كان لبعض النفوس مجال في هذا الموضوع، وهو أن النص عام، أنه كل من أحسن، فله في الدنيا حسنة، فما بال من آمن في أرض يضطهد فيها ويمتهن، لا يحصل له ذلك؛ دفع هذا الظن بقوله: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ﴾ وهنا بشارة نص عليها النبي ﷺ بقوله: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك». تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى، أخير أن أرضه واسعة. فمهما مُتَّعِم من عبادته في موضع فهاجروا إلى غيرها. وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر:

الصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوجد الله الصابرين أجراً بغير حساب، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، وما ذلك إلا لفضيلة الصبر ومحل عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

(١١-١٦) ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنِ اعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۝ وَأُوتِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ قُلِ اللَّهُ اعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ۝ فاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنِّي الْكَيْرِينَ الَّذِينَ حَبَرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝ لَهُمْ مِنْ قَوفِهِمْ ظُلٌّ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلٌّ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَجْعَلُونَ قَاتِلِينَ ۝ أَي: ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول للناس: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنِ اعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ في قوله في أول السورة: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

﴿وَأُوتِرْتُ لِأَن أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لاني الداعي الهادي للخلق إلى ربهم، فيقتضي أنني أول من ائتمر بما أمر به، وأول من أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ، وممن زعم أنه من أتباعه، فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

سورة الزمر

٤٦٠

سورة الزمر

قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
 أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
 ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ
 قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا
 ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُونَ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ
 وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبُدُونَ فَاتَّقُونَ ﴿١٦﴾
 وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الظَّلْمَاتِ أَنْ يَعْْبُدُوا مَا آتَوْا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى
 فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ
 أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْأَوْلَىٰ ﴿١٨﴾
 أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ أَلَمْ يَأْتِ تَفَقُّدًا مِنَ النَّارِ ﴿١٩﴾
 لَكِنَّ الَّذِينَ الْفُقَارَاءَ مِنْهُمْ هُمْ عُرِفُوا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ
 مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ
 أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ
 يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مَصْفًا رَأْسًا
 ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطًّا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾

يرون في خلالها أنه مرید لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم
 البشرية في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة،
 وخاتمة البشرية ما يبشرهم به الرب الكريم من دوام رضوانه
 وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.

ولما أخبر أن لهم البشرية أمره الله ببشارتهم، وذكر
 الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ الَّذِينَ
 يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ﴿وهذا جنس يشمل كل قول، فهم يستمعون
 جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إثارة مما ينبغي اجتنابه،
 فلهاذا - من حزمهم وعقلهم - أنهم يتبعون أحسنه. وأحسنه
 على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله كما قال في هذه السورة:
 ﴿اللَّهُ زَكَرَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَدِّدًا﴾ الآية.

وفي هذه الآية نكتة وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء
 الممدوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل:
 هل من طريق إلى معرفة أحسنه، حتى تتصف بصفات أولي
 الألباب، وحتى نعرف أن من أثره علمنا أنه من أولي الألباب؟

(١) كذا في ب، وفي أ: وحذرهم من العمالة.

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ في ما أمرني به من
 الإخلاص والإسلام ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ يخلد فيه مَنْ أشرك،
 ويعاقب فيه مَنْ عصى.

﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ ﴿كما
 قال تعالى: ﴿قُلْ بَيِّنَاتٍ لِّلْكَافِرِينَ﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿وَلَا
 أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ
 مَا أَعْبُدُ﴾ لَكُم دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ حقيقة هم ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾
 حيث حرموها الثواب، واستحققت بسببهم وخيم العقاب
 ﴿وأهليهم يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم
 الحزن، وعظم الخسران ﴿أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُونَ﴾ الذي
 ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر لا ربح بعده، بل ولا
 سلامة.

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
 ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ﴾ أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ
 ظُلَلٌ﴾.

﴿ذَلِكَ﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، سوط
 يسوق الله به عباده إلى رحمته ﴿يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبُدُونَ فَاتَّقُونَ﴾
 أي: جعل ما أعهده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو عباده
 إلى التقوى، وزاجر عمّا يوجب العذاب. فسبحان مَنْ رحم
 عباده في كل شيء، وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحنتهم
 على سلوكها، ورغبهم بكل مرغبت تشتاق له النفوس، وتطمئن
 له القلوب. وحذرهم من العمل لغيره^(١) غاية التحذير، وذكر
 لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

(١٨، ١٧) ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الظَّلْمَاتِ أَنْ يَعْْبُدُوا مَا آتَوْا إِلَى اللَّهِ لَهُمْ
 الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴿أُولَئِكَ
 الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْأَوْلَىٰ﴾ لما ذكر حال
 المجرمين ذكر حال المنيبين وثوابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا
 الظَّلْمَاتِ أَنْ يَعْْبُدُوا﴾ والمراد بالظلمات في هذا الموضع عبادة
 غير الله، فاجتنبوا في عبادتها، وهذا من أحسن الاحتراز من
 الحكيم العليم؛ لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في
 عبادتها.

﴿وَأَنبَأُوا إِلَى اللَّهِ﴾ بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت
 دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلام، ومن
 الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾ التي لا يقادر قدرها، ولا يعلم وصفها، إلا
 مَنْ أكرمهم بها وهذا شامل للبشرى في الحياة الدنيا بالثناء
 الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي

قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ الآية.

﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لأحسن الأخلاق والأعمال ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: العقول الزاكية. ومن لبهم وحزمهم أنهم عرفوا الحسن من غيره، وآثروا ما ينبغي إثاره على ما سواه، وهذا علامة العقل، بل لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي لا يميز بين الأقوال حسنها وقيبحها، ليس من أهل العقول الصحيحة، أو الذي يميز لكن غلبت شهوته عقله، فبقي عقله تابعاً لشهوته، فلم يؤثر الأحسن كان ناقص العقل.

(١٩، ٢٠) ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْفِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ لكن الذين ألقوا بهم لهم عرفٌ من فوقها عرفٌ مبنيةٌ تجري من تحتها الأنهرُ وعدَّ الله لا يحلفُ الله أليمِعادُ أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب باستمراره على غيه وعناده وكفره، فإنه لا حيلة لك في هدايته، ولا تقدر تنفذ من في النار لا محالة. لكن الغنى كل الغنى والفوز كل الفوز، للمتقين الذين أعد لهم من الكرامة وأنواع النعيم، ما لا يقادر قدره.

﴿لَهُمْ عُرْفٌ﴾ أي: منازل عالية مزخرقة من حسنها وبهائها وصفاتها، أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها [أنها] ترى كما يرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا قال: ﴿مِنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ﴾ أي: بعضها فوق بعض ﴿مَبْنِيَّةٌ﴾ بذهب وفضة، وملاطها المسك الأذفر.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ المتدفقة، المسقية لللبساتين الزاهرة والأشجار الطاهرة، فتغل بأنواع الثمار اللذيذة، والفاكهة النضيجة.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَحْلِفُ اللَّهُ أَلِيمِعادُ﴾ وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوى، ليوفهم أجورهم.

(٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرْتَهُ مُمْسِكًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يذكر تعالى أولي الأبواب، ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض، أي: أودعه فيها ينبوعاً يستخرج بسهولة ويسر ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾ من بر وذرة وشعير وأرز، وغير ذلك ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ عند استكمالها، أو عند حدوث آفة فيه ﴿فَتَرْتَهُ مُمْسِكًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَلًا﴾ متكسراً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده،

وحيث يسر لهم هذا الماء وخزونه بخزائن الأرض تبعاً لمصالحهم.

ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة.

اللهم اجعلنا من أولي الأبواب، الذين نوهت بذكرهم وهديتهم بما أعطيتهم من العقول، وأريتهم من أسرار كتابك وبيدع آياتك ما لم يصل إليه غيرهم، إنك أنت الوهاب.

(٢٢) ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي: أفيستوي من شرح الله صدره للإسلام، فأتسع لتلقي أحكام الله والعمل بها منشراحاً قير العين على بصيرة من أمره، وهو المراد بقوله: ﴿فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾ كمن ليس كذلك، بدليل قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: لا تلين لكتابه، ولا تذكر آياته، ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن ربها، ملتفتة إلى غيره، فهؤلاء لهم الويل الشديد، والشر الكبير.

﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ وأي ضلال أعظم من ضلال من أعرض عن وليه؟ ومن كل السعادة في الإقبال عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل على كل ما يضره!!

(٢٣) ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَتَابِي نَفْسَعُرُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَهْدِ﴾ يخبر تعالى عن كتابه الذي نزله أنه ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ على الإطلاق. فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن. وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه أفصح الألفاظ وأوضحها، وأن معانيه أجل المعاني؛ لأنه أحسن الحديث في لفظه ومعناه، متشابهها في الحسن والانتلاف وعدم الاختلاف، بوجه من الوجوه. حتى إنه كلما تدبره المتدبر، وتفكر فيه المتفكر، رأى من اتفاهه - حتى في معانيه الغامضة - ما يبهر الناظرين، ويجزم بأنه لا يصدر إلا من حكيم عليم، هذا المراد بالتشابه في هذا الموضوع.

وأما في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أَمْ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فالمراد بها، التي تشبهه على فهم كثير من الناس، ولا يزول هذا الاشتباه إلا بردها إلى المحكم، ولهذا قال: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ تُحْكِمُكَ هُنَّ أَمْ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فجعل التشابه لبعضه.

(١) كذا في ب، وفي أ: أنه .

وهنا جعله كله متشابهًا، أي: في حسنه، لأنه قال: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ وهو سور وآيات، والجميع يشبه بعضه بعضًا كما ذكرنا.

﴿مَثَانِي﴾ أي: تشي فيه القصص والأحكام، والوعد والوعد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتشى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه، فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه المزيكية للقلوب، المكملة للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار، فكما أن الأشجار كلما بعد عهدها بسقي الماء نقصت، بل ربما تلفت، وكلما تكرر سقيها حسنت وأثمرت أنواع الثمار النافعة، فكذلك القلب يحتاج دائمًا إلى تكرر معاني كلام الله تعالى عليه، وأنه لو تكرر عليه المعنى مرة واحدة في جميع القرآن، لم يقع منه موقعًا، ولم تحصل النتيجة منه.

ولهذا سلكت في هذا التفسير هذا المسلك الكريم، اقتداء بما هو تفسير له، فلا تجد فيه الحوالة على موضع من المواضع، بل كل موضع تجد تفسيره كامل المعنى، غير مراعى لما مضى مما يشبهه، وإن كان بعض المواضع يكون أبسط من بعض وأكثر فائدة، وهكذا ينبغي للقارئ للقرآن المتدبر لمعانيه، أن لا يدع التدبر في جميع المواضع منه. فإنه يحصل له بسبب ذلك خير كثير ونفع غزير.

ولما كان القرآن العظيم بهذه الجلالة والعظمة، أثر في قلوب أولي الألباب المهتدين، فلماذا قال تعالى: ﴿نَفْسَعُرْمِنَهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ لما فيه من التخويف والترهيب المزيج ﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ﴾ إلى ذكر الله أي: عند ذكر الرجاء والترغيب فهو تارة يرغبهم لعمل الخير، وتارة يرهبهم من عمل الشر.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكره الله من تأثير القرآن فيهم ﴿هُدَى اللَّهِ﴾ أي: هداية منه لعباده، وهو من جملة فضله وإحسانه عليهم ﴿يَهْدِي بِهِ﴾ أي: بسبب ذلك ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ويحتمل أن المراد بقوله ﴿ذَلِكَ﴾ أي: القرآن الذي وصفناه لكم.

﴿هُدَى اللَّهِ﴾ الذي لا طريق يوصل إلى الله إلا منه ﴿يَهْدِي بِهِ مِنْ يَشَاءُ﴾ من عباده ممن حسن قصده، كما قال تعالى:

﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ وَضَوَّاهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾.

﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَاتَمَّ مِنْ هَادٍ﴾ لأنه لا طريق يوصل إليه إلا توفيقه والتوفيق للإقبال على كتابه. فإذا لم يحصل هذا، فلا سبيل إلى الهدى، وما هو إلا الضلال المبين والشقاء.

(٢٤-٢٦) ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعِي بوجْهه سوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ

الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَاتَمَّ مِنْ هَادٍ ﴿٢٧﴾ أَفَمَنْ يَتَّبِعِي بوجْهه سوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٨﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَذَابَهُمُ اللَّهُ الْغَزَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصِمُونَ ﴿٣٥﴾

لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ○ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ○ فَأَذَابَهُمُ اللَّهُ الْغَزَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ○ أي: أفيستوي هذا الذي هداه الله، ووقفه لسلك الطريق الموصلة لدار كرامته، كمن كان في الضلال واستمر على عناده حتى قدم القيامة، فجاءه العذاب العظيم فجعل يتقي بوجهه الذي هو أشرف الأعضاء، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه؛ فهو يتقي فيه سوء العذاب، لأنه قد غلَّت يداه ورجلاه ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي توييحًا وتقريعًا: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾.

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم كما كذب هؤلاء ﴿فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ جاءهم في غفلة، أول نهار، أو هم قائلون.

﴿فَأَذَابَهُمُ اللَّهُ﴾ بذلك العذاب ﴿الْغَزَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فافتضحوا عند الله وعند خلقه ﴿وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فليحذر هؤلاء من المقام على التكذيب، فيصيبهم ما أصاب أولئك من التعذيب.

(٢٧-٣١) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ

لَعَلَّهُمْ يَنْذَرُونَ ○ فَرَأَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ○ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا رَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ○ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ○ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ○ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ○ يخبر تعالى أنه ضرب في القرآن من جميع الأمثال، أمثال أهل الخير وأمثال أهل الشر، وأمثال التوحيد والشرك، وكل مثل يقرب حقائق الأشياء، والحكمة في ذلك ﴿لَعَلَّهُمْ يَنْذَرُونَ﴾ عندما نوضح لهم الحق فيعلمون، ويعلمون.

﴿فَرَأَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: جعلناه قرآنا عربيا، واضح الألفاظ، سهل المعاني، خصوصا على العرب ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَوْ يَجْعَلُ لَّهُمْ عِوَجًا ○ قِيمًا ○﴾

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

ثم ضرب مثلا للشرك والتوحيد فقال: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا﴾ أي: عبدا ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا رَجُلٍ﴾ أي: خالصا له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي: هذان الرجلان ﴿مَثَلًا﴾؟ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموحد مخلص لربه قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة.

ف ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على تبيين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ أي: كلكم لا بد أن يموت ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّهِمْ مِن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل ويجازي كُلا ما عمله ﴿أَحْصَنَهُ اللَّهُ وَسُوَّهُ﴾.

(٣٥-٣٢) ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ

إِذْ جَاءَهُُ الْبَيِّنَاتُ فِي جَهَنَّمَ مَتَوًى لِلْكَافِرِينَ ○ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ○ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ○ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ○ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَبِجَزَائِهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى محذرا ومخبرا: أنه لا أظلم وأشد ظلما ﴿مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا وهو كاذب، فهذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إن كان جاهلا، وإلا فهو أشنع وأشنع.

[﴿وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾] (١) أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه، فتكذبه ظلم عظيم منه لأنه رد الحق بعدما تبين له، فإن كان جامعا بين الكذب على الله والتكذيب بالحق، كان ظلما على ظلم.

﴿الْبَيِّنَاتُ مَتَوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر ﴿إِنَّكَ الشَّرَّكَ لَظَلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

ولما ذكر الكاذب المكذب وجنابته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق وثوابه. فقال: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق.

﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ أي: بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يُصَدِّقُ به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره.

﴿وَأُولَئِكَ﴾ أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين ﴿هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ فإن جمع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق والتصديق به.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ من الثواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشيتهم، من أصناف اللذات والمشتيات، فإنه حاصل لهم، معد مهيا.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ إلى عباده.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَبِجَزَائِهِمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ

(١) في النسختين: أو كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ.

الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ عمل الإنسان له ثلاث حالات: إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن.

والقسم الأخير قسم المباحات، وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب. والأسوأ: المعاصي كلها، والأحسن: الطاعات كلها. فهذا التفصيل يبين معنى الآية، وأن قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم. ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بحسناتهم كلها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لِّدُونِ وَإِنَّكَ حَسَنَةٌ يَضَعُهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(٣٧، ٣٦) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ وَيُحِبُّونَ أَنْ يُلَاقُوا اللَّهَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ﴾ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ أي: أليس من كرمه وجوده وعنايته بعبد الذي قام بعبوديته، وامتنل أمره واجتنب نهيهِ، خصوصاً أكمل الخلق عبودية لربه، وهو محمد ﷺ، فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه ودينه، ويدفع عنه من ناوأه بسوء.

﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ يُلَاقُوا اللَّهَ مِنْ دُونِهِ﴾ من الأصنام والأنداد أن تنالك بسوء، وهذا من غيهم وضلالهم ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ومن يهد الله فما له من مُضِلٍّ لأنه تعالى الذي بيده الهداية والإضلال، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ له العزة الكاملة التي قهر بها كل شيء، وبعزته يكفي عبده ويدفع عنه مكرمهم ﴿ذِي انْتِقَامٍ﴾ ممن عصاه، فاحذروا موجبات نعمته.

(٣٨) ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: ولئن سألت هؤلاء الضلال الذين يخوفونك بالذين من دونه، وأقمت عليهم دليلاً من أنفسهم، فقلت: ﴿مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لم يشبوا لألهم من خلقها شيئاً ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ الذي خلقها وحده ﴿قُلْ﴾ لهم مقررًا عجز ألهم، بعدما تبينت قدرة الله: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ أي: ضرر كان.

﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ﴾ بإزالته بالكلية، أو بتخفيفه من حال إلى حال؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ يوصل إلي بها منفعة في ديني أو دنيائي ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي﴾ ومانعاتها عني؟ سيقولون: لا يكشفون الضر ولا يمسكون الرحمة.

قل لهم بعدما تبين الدليل القاطع، على أنه وحده المعبود،

٤٦٢ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٧﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ مِنْ عِندِ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جِزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٨﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَجَزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٤٠﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴿٤١﴾ وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَتُ رَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٤٢﴾ قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿٤٤﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿٤٥﴾

وأنه الخالق للمخلوقات، النافع الضار وحده، وأن غيره عاجز من كل وجه عن الخلق، والنفع والضرر، مستجلباً كفايته، مستدفعاً مكرمهم وكيدهم: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي: عليه يعتمد المعتمدون في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، فالذي بيده - وحده - الكفاية هو حسي، سيكفيني كل ما أهمني وما لا أهمت به.

(٤٠، ٣٩) ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ من يأتيه عذابٌ يُجْزِيهِ وَيَجِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّهِمٌ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم يا أيها الرسول: ﴿يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ﴾ أي: على حالتكم التي رضيتموها لأنفسكم، من عبادة من لا يستحق من العبادة شيئاً، ولا له من الأمر شيء ﴿إِنِّي عَمِلْتُ﴾ على ما دعوتكم إليه، من إخلاص الدين لله تعالى وحده ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لمن العاقبة ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُجْزِيهِ﴾ في الدنيا ﴿وَيَجِلُّ عَلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾ لا يحول عنه ولا يزول. وهذا تهديد عظيم لهم، وهم يعلمون أنهم المستحقون للعذاب المقيم، ولكن الظلم والعناد حال بينهم وبين الإيمان.

(٤١) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾
 يخبر تعالى أنه أنزل على رسوله الكتاب المشتمل على الحق، في أخباره وأوامره ونواهيه، الذي هو مادة الهداية، وبلاغ لمن أراد الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، وأنه قامت به الحجة على العالمين.

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ بنوره واتباع أوامره إن نفع ذلك يعود إلى نفسه ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ بعدما تبين له الهدى ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا﴾ لا يضر الله شيئاً ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم عليها، وتجبرهم على ما تشاء، وإنما أنت مبلغ تؤدي إليهم ما أمرت به.

(٤٢) ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بالتصرف بالعباد، في حال يقظتهم ونومهم، وفي حال حياتهم وموتهم، فقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وهذه الوفاة الكبرى، وفاة الموت.

وإخباره أنه يتوفى الأنفس وإضافة الفعل إلى نفسه لا ينافي أنه قد وكل بذلك ملك الموت وأعوانه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْطِرُونَ﴾ لأنه تعالى يضيف الأشياء إلى نفسه، باعتبار أنه الخالق المدبر، ويضيفها إلى أسبابها، باعتبار أن من سننه تعالى وحكمته، أن جعل لكل أمر من الأمور سبباً.

وقوله: ﴿وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ وهذه الموتة الصغرى، أي: ويمسك النفس التي لم تمت في منامها ﴿فِيمِمْسِكَ﴾ من هاتين النفسين: النفس ﴿الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ وهي نفس من كان مات، أو قضى أن يموت في منامه ﴿وَيُرْسِلُ﴾ النفس ﴿الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: إلى استكمال رزقها وأجلها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ على كمال اقتداره، وإحيائه الموتى بعد موتهم.

وفي هذه الآية دليل على أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، مخالف جوهره جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله فيها، في الوفاة والإمساك والإرسال، وأن أرواح الأحياء والأموات تتلاقى في البرزخ، فتجتمع فتحدت، فيرسل الله أرواح الأحياء ويمسك أرواح الأموات.

(٤٣، ٤٤) ﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْكَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۗ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۗ لَّهُ مُلْكُ

﴿٤٣﴾ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكَ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْكَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ۗ لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَّلَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ﴿٥٠﴾

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ينكر تعالى، على من اتخذ من دونه شفعا، يتعلق بهم ويسألهم ويعبدهم ﴿قُلْ﴾ لهم - مبيها جهلهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة: ﴿أَوْلَوْكَانُوا﴾ أي: من اتخذتم من الشفعا ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أي: لا مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، بل وليس لهم عقل يستحقون أن يمدحوا به، لأنها جمادات: من أحجار وأشجار وصور وأموات، فهل يقال: إن لمن اتخذها عقلاً؟ أم هو من أضل الناس وأجهلهم، وأعظمهم ظلماً؟

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ لأن الأمر كله لله وكل شفع فهو يخافه، ولا يقدر أن يشفع عنده أحد إلا بإذنه. فإذا أراد رحمة عبده، أذن للشفيع الكريم عنده أن يشفع، رحمة بالاثنتين. ثم قرر أن الشفاعة كلها له بقوله: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جميع ما فيهما من الذوات والأفعال والصفات فالواجب أن تطلب الشفاعة ممن يملكها، وتخلص له العبادة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازي المخلص له بالثواب الجزيل: ﴿وَمَنْ أَشْرَكَ بِهِ، بِالْعَذَابِ الْوَبِيلِ﴾

بين عبادته وبعثهم، وعلمه بأعمالهم، خيرها وشرها، وبمقادير جزائها، وخلقه دال على علمه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

(٤٧، ٤٨) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ ○ وبدأ لهم سياتك ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿لما ذكر تعالى أنه الحاكم بين عبادته، وذكر مقالة المشركين وشناعتها، كأن النفوس تشوقت إلى ما يفعل الله بهم يوم القيامة، فأخبر أن لهم ﴿سوء العذاب﴾ أي: أشده وأفظعه، كما قالوا أشد الكفر وأشنعه. وأنهم - على الفرض والتقدير - لو كان لهم ما في الأرض جميعاً، من ذهبها وفضتها ولؤلؤها وحيواناتها وأشجارها وزروعها وجميع أوانها وأثاثها ومثله معه، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب وينجوا منه، ما قبل منهم ولا أغنى عنهم من عذاب الله شيئاً ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ ○ إلا من أتى الله بقلب سليم ﴿وبدأ لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون﴾ أي: يظنون من السخط العظيم، والمقت الكبير، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

﴿وبدأ لهم سياتك ما كسبوا﴾ أي: الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنيعهم وكسبهم ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم العقاب.

(٤٩-٥٢) ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَاكُمْ إِذَا حَوْلَتْهُ نِعْمَةٌ وَمِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ○ قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَتَيْنَاهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ○ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَمِعْتُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا لَهُمْ بِمُعْجِزِينَ ○ أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمسه ضرر، من مرض أو شدة أو كرب ﴿دعانا﴾ مليحاً في تفرج ما نزل به ﴿ثم إذا حوالتة نعمة منا﴾ فكشفنا ضره وأزلنا مشقته، عاد بره كافرًا، ولمعروفه منكراً، و ﴿قال إنما أوتيته على علم﴾ أي: علم من الله: أني له أهل وأني مستحق له، لأنني كريم عليه. أو على علم مني بطرق تحصيله.

قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ يتلى الله به عبادته لينظر من يشكره ممن يكفره ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشبهه عليهم الخير المحض، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر.

قال تعالى: ﴿قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: قولهم ﴿إنما أوتيته على علم﴾ فما زالت متوارثة عند المكذبين لا يقرون بنعمة

(٤٥، ٤٦) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ ○ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ يذكر تعالى حالة المشركين، وما الذي اقتضاه شركهم أنهم ﴿إذا ذكر الله﴾ توحيداً له، وأمر بإخلاص الدين له، وترك ما يعبد من دونه، أنهم يشتمزون ويفرون، ويكروهون ذلك أشد الكراهة.

﴿وإذا ذكر الذين من دونه﴾ من الأصنام والأنداد، ودعا الداعي إلى عبادتها ومدحها ﴿إذا هم يستبشرون﴾ بذلك، فرحاً بذكر معبوداتهم، ولكون الشرك موافقاً لأهوائهم، وهذه الحال أشد الحالات وأشنعها، ولكن موعدهم يوم الجزاء، فهناك يؤخذ الحق منهم، وينظر: هل تنفعهم آلهتهم، التي كانوا يدعون من دون الله شيئاً؟

ولهذا قال: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومدبرهما ﴿عليم الغيب﴾ الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا ﴿والشهادة﴾ الذي نشاهده.

﴿أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون﴾ وإن من أعظم الاختلاف اختلاف الموحدين المخلصين القائلين: إن ما هم عليه هو الحق، وإن لهم الحسنى في الآخرة دون غيرهم، والمشركين الذين اتخذوا من دونك الأنداد والأوثان، وسواها فيك من لا يسوى شيئاً، وتنقصوك غاية النقص، واستبشروا عند ذكر آلهتهم، واشتمزوا عند ذكرك، وزعموا مع هذا أنهم على الحق وغيرهم على الباطل، وأن لهم الحسنى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّابِرِينَ وَالْمُجْسِمِينَ وَالَّذِينَ اشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾.

وقد أخبرنا بالفصل بينهم بعدها بقوله: ﴿هَذَانِ حَصَّانٍ ائْتَصَمُوا فِي رِيحٍ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ رِيحٌ مِنْ نَارٍ يُصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ ○ يصهر به ما في بطونهم والجلود ○ ولمن مقلع من حديد ○ إلى أن قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُكُونُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلَوْلُؤًا وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ ظُلْمًا أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْرُ وَهُمْ مُسْتَبَدُونَ﴾، ﴿إِنَّهُمْ مِنْ شِرْكٍ بِاللَّهِ فَكَذَّ حَرَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ ففي هذه الآية بيان عموم خلقه تعالى وعموم علمه، وعموم حكمه بين عبادته، فقدرته التي نشأت عنها المخلوقات، وعلمه المحيط بكل شيء، دال على حكمه

الْبُرْجِ الرَّحْمٰنِ

٤٦٤

سُورَةُ الزَّمْرِ

وَيَذَلُّهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥٨﴾ فَإِذَا مَسَّ الْأُنثَىٰ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتُهُ
نِعْمَةً مِّثْلَ مَا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَذَقَالهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ
عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هُنُوْلَاءَ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا
وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٦١﴾ أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٢﴾
﴿ قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ
رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ
﴿٦٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ
الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَأَسْعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ
إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ
بِعَثَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٦٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ
عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٦٦﴾

رهبهم، ولا يرون له حقًا، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا ولم يغن
عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٨﴾ حين جاءهم العذاب.

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ والسيئات في هذا الموضع:
العقوبات، لأنها تسوء الإنسان وتحزنه ﴿ وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ
هُنُوْلَاءَ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا ﴾ فليسوا خيرًا من أولئك ولم
يكتب لهم براءة في الزبر.

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا - بجهلهم - أنه
يدل على حسن حال صاحبه: أخبرهم تعالى، أن رزقه لا يدل
على ذلك، وأنه ﴿ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ من عباده، سواء كان
صالحًا أو طالحًا ﴿ وَيَقْدِرُ ﴾ الرزق، أي: يضيقه على مَنْ
يشاء، صالحًا أو طالحًا، فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان
والعمل الصالح يخص به خير البرية ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴾ أي: بسط الرزق وقبضه، لعلمهم أن مرجع ذلك عائد
إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبده فقد يضيّق عليهم
الرزق لطفًا بهم؛ لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى
مراعياً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم
وفلاحهم، والله أعلم.

﴿٥٣-٥٩﴾ ﴿ قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا
مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾
وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا
تُنصَرُونَ ﴾ وَأَسْعُوا أَحْسَنَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ
يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بِعَثَّةٍ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ
عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ
أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ
الْعَذَابَ لَوْ أَنِّي لِي كَرَّةٌ فَأَكْرَمُ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ بَلَىٰ قَدْ
جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴾ يخبر
تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه ويحثهم على الإنابة قبل أن
لا يمكنهم ذلك فقال: ﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول وَمَنْ قَامَ مَقَامَهُ
مِنَ الدَّعَاةِ لَدَيْنَ اللَّهِ، مخبرًا للعباد عن ربهم: ﴿ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ
أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب،
والسعي في مسأخذ عَلام الغيوب.

﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا
بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا، وتراكمت
عيوننا، فليس لها طريق يزيلها، ولا سبيل يصرفها، فتبقون
بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم
الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه
وجوده،
واعلموا أنه ﴿ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ من الشرك، والقتل،

والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار
والصغار ﴿ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ أي: وصفه المغفرة
والرحمة، وصفان لازمان، ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم
تزل آثارهما سارية في الوجود، ماثلة للموجود، تسح يدها من
الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد
والفواضل في السر والجهار، والعتاء أحب إليه من المنع،
والرحمة سبقت الغضب وغلبته ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما
أسباب، إن لم يأت بها العبد فقد أغلق على نفسه باب الرحمة
والمغفرة، أعظمها وأجلها بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى
الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد
فهلهم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم.

ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه، والمبادرة إليها فقال:
﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ بقلوبكم ﴿ وَأَسْلُمُوا لَهُ ﴾ بجوارحكم، إذا
أفردت الإنابة دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما،
كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرنا.
وفي قوله: ﴿ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ ﴾ دليل على الإخلاص،
وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٦٥

سُورَةُ الزَّمْرِ

أَوْ تَقُولُ لَوَأَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾
 أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوَأَنَّكَ لِي كَرَةً فَاكُونَ
 مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ ءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا
 وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ
 تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي
 جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيَسْجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا
 بِمَقَارِنِهِمْ لَا يَمْسُهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ
 خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ
 السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ
 هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ تَأْمُرِيَّ وَأَعْبُدَ أَيُّهَا
 الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِن
 أَشْرَكَتَ لِیَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ
 فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّىٰ قَدَرَهُ
 وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَالسَّمٰوٰتُ
 مَطْوِيَّٰتٌ بِيَمِينِهِ ۗ سُبْحٰنَهُ ۗ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

فلهم سواد الوجوه، ولههم العذاب الشديد في جهنم،
 ولهذا قال: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحق، وعن
 عبادة ربهم، المفترين عليه؟ بلى والله! إن فيها لعقوبة وخزيًا
 وسخطًا، يبلغ من المتكبرين كل مبلغ، ويؤخذ الحق منهم
 بها.

والكذب على الله يشمل الكذب عليه باتخاذ الشريك
 والولد والصاحبة، والإخبار عنه بما لا يليق بجلاله، أو ادعاء
 النبوة، أو القول في شرعه بما لم يقله، والإخبار بأنه قاله
 وشرعه.

ولما ذكر حالة المتكبرين ذكر حالة المتقين، فقال:
 ﴿وَيَسْجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَارِنِهِمْ﴾ أي: بنجاتهم، وذلك لأن
 معهم آلة النجاة، وهي تقوى الله تعالى، التي هي العدة عند
 كل هول وشدة ﴿لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ﴾ أي: العذاب الذي
 يسوؤهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفي عنهم مباشرة العذاب وخوفه،
 وهذا غاية الأمان.

فلهم الأمن التام، يصحبهم حتى يوصلهم إلى دار السلام.
 فحينئذ يأمنون من كل سوء ومكروه، وتجري عليهم نضرة

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ مجيبًا لا يدفع ﴿ثُمَّ لَا
 تُنصَرُونَ﴾ فكانه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها
 وأعمالها؟

فأجاب تعالى بقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ
 رَبِّكُمْ﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله،
 وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير
 لهم، وترك ما يصاد ذلك. ومن الأعمال الظاهرة، كالصلاة
 والزكاة والصيام، والحج والصدقة، وأنواع الإحسان، ونحو
 ذلك، مما أمر الله به، وهو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا،
 فالمتبع لأوامر ربه في هذه الأمور ونحوها، هو المنيب
 المسلم.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعَثَهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ وكل
 هذا حثٌّ على المبادرة وانتهاز الفرصة.

ثم حذرهم ﴿أَنْ﴾ لا يستمروا على غفلتهم، حتى يأتيهم
 يوم يندمون فيه، ولا تنفع الندامة و ﴿تَقُولُ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا
 فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ أي: في جانب حقه ﴿وَإِنْ كُنْتُ﴾ في
 الدنيا ﴿لَمِنَ السَّٰخِرِينَ﴾ في إتيان الجزاء، حتى رأته عيانًا.

﴿أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ و«لو»
 في هذا الموضع للتمني، أي: ليت أن الله هداني فأكون متقياً
 له فأسلم من العقاب، وأستحق الثواب، وليست «لو» هنا
 شرطية، لأنها لو كانت شرطية، لكانوا محتجين بالقضاء
 والقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة، ويوم القيامة تضمحل
 كل حجة باطلة.

﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾ وتجزم بوروده ﴿لَوْ أَنَّ لِي
 كَرَّةٌ﴾ أي: رجعة إلى الدنيا لكنت ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. قال
 تعالى: إن ذلك غير ممكن ولا مفيد، وإن هذه أمانى باطلة لا
 حقيقة لها، إذ لا يتجدد للعبد لورود، بيان بعد البيان الأول.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ ءَايَاتِي﴾ الدالة دلالة لا يمتري فيها على
 الحق ﴿كَذَّبْتَ بِهَا وَأَسْتَكْبَرْتَ﴾ عن اتباعها ﴿وَكُنْتَ مِنَ
 الْكٰفِرِينَ﴾ فسؤال الرد إلى الدنيا، نوع عبث ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا
 نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكٰذِبُونَ﴾.

(٦١، ٦٠) ﴿وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم
 مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ○ وَيَسْجَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا
 بِمَقَارِنِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يخبر تعالى عن
 خزي الذين كذبوا عليه، وأن وجوههم يوم القيامة مسودة
 كأنها الليل البهيم، يعرفهم بذلك أهل الموقف، فالحق أبلغ
 واضح كأنه الصبح، فكما سؤدوا وجه الحق بالكذب، سود
 الله وجوههم، جزاء من جنس عملهم.

النعيم، ويقولون: ﴿لَحْمُدُ لِلَّهِ الَّذِي آذَهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

(٦٣، ٦٢) ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ۝ لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يخبر تعالى عن عظمته وكماله، الموجب لخسران مَنْ كَفَرَ بِهِ فقال: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هذه العبارة وما أشبهها، مما هو كثير في القرآن تدل على أن جميع الأشياء - غير الله - مخلوقة، ففيها رد على كل مَنْ قال بقديم بعض المخلوقات، كالفلاسفة القائلين بقديم الأرض والسموات، وكالقائلين بقديم الأرواح، ونحو ذلك من أقوال أهل الباطل، المتضمنة تعطيل الخالق عن خلقه.

وليس كلام الله من الأشياء المخلوقة، لأن الكلام صفة المتكلم، والله تعالى بأسمائه وصفاته أول، ليس قبله شيء، فأخذ أهل الاعتزال من هذه الآية ونحوها، أنه مخلوق، من أعظم الجهل، فإنه تعالى، لم يزل بأسمائه وصفاته، ولم يحدث له صفة من صفاته، ولم يكن معطلاً عنها، بوقت من الأوقات.

والشاهد من هذا، أن الله تعالى أخبر عن نفسه الكريمة، أنه خالق لجميع العالم العلوي والسفلي، وأنه على كل شيء وكيل، والوكالة التامة لا بد فيها من علم الوكيل بما كان وكيلاً عليه، وإحاطته بتفاصيله. ومن قدرة تامة على ما هو وكيل عليه ليتمكن من التصرف فيه، ومن حفظ لما هو وكيل عليه، ومن حكمة ومعرفة بوجوه التصرفات ليصرفها ويدبرها على ما هو الأليق، فلا تتم الوكالة إلا بذلك كله، فما نقص من ذلك، فهو نقص فيها.

ومن المعلوم المتقرر، أن الله تعالى منزّه عن كل نقص في صفة من صفاته، فإخباره بأنه على كل شيء وكيل، يدل على إحاطة علمه بجميع الأشياء، وكمال قدرته على تدبيرها، وكمال تدبيره وكمال حكمته التي يضع بها الأشياء مواضعها. ﴿لَّهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: مفاتيحها، علماً وتدبيراً، ﴿فَمَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلما بين من عظمته ما يقتضي أن تمتلئ القلوب له إجلالاً وإكراماً، ذكر حال من عكس القضية، فلم يقدره حق قدره فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على الحق اليقين، والصرط المستقيم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله، وما به تصلح الألسن من إشغالها بذكر الله، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله، وتعرضوا عن ذلك كل

مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعرضوا عنها بالعذاب الأليم.

(٦٤-٦٦) ﴿قُلْ أَغْوَىٰ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ۝ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ بَلِ اللَّهُ فَاعِلٌ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿قُلْ﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى عبادة غير الله: ﴿أَغْوَىٰ اللَّهُ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ أي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة، دون مَنْ كان ناقصاً من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك.

وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال مفسد للأحوال، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من جميع الأنبياء. ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ هذا مفرد مضاف، يعم كل عمل.

ففي نبوة جميع الأنبياء، أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال تعالى في سورة الأنعام - لما عدد كثيراً من أنبيائه ورسله قال عنهم: ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبَطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ دينك وآخرتك فبالشرك تحبط الأعمال ويستحق العقاب والنكال.

ثم قال: ﴿بَلِ اللَّهُ فَاعِلٌ﴾ لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته، أمره بالإخلاص فقال: ﴿بَلِ اللَّهُ فَاعِلٌ﴾ أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له ﴿وَكَوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الله، على توفيق الله تعالى، فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يشكر ويثنى عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوى. بل نعم الدين، هي النعم على الحقيقة. وفي تدبر أنها من الله تعالى، والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب، التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب جهلهم. وإلا، فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

(٦٧) ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بِإِصْرِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَعَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظموه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك من إشراكهم به مَنْ هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا

منع، ولا يملك من الأمر شيئاً.

فسوا هذا المخلوق الناقص بالخالق الرب العظيم، الذي - من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة - أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السموات - على سعتها وعظمتها - مطويات يمينه. فلا عظّمه حق عظمته، من سوى به غيره، ولا أظلم منه.

﴿سُبْحٰنَكَ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزهه وتعظيم عن شركهم به.

(٧٠-٦٨) ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرٰى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ۝ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّنَّ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ لما خوفهم تعالى من عظمته، خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغبهم ورهبهم فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام؛ أحد الملائكة المقربين، وأحد حملة عرش الرحمن.

﴿فَصَعِقَ﴾ أي: غشي أو مات، على اختلاف القولين.

﴿مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمتها، وما يعلمون أنها مقدمة له ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ ممن ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم. وهذه النفخة الأولى، نفخة الصعق، ونفخة الفرع.

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ﴾ النفخة الثانية نفخة البعث ﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ أي: قد قاموا من قبورهم، لبعثهم وحسابهم قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ﴿يَنْظُرُونَ﴾ ماذا يفعل الله بهم.

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ علم من هذا، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك. فإن الله أخبر أن الشمس تكور، والقمر يخسف، والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة، يَقْوُونَ على أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضاً من رؤيته، وإلا، فنوره تعالى عظيم، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

﴿وُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: كتاب الأعمال وديوانه، وضع ونشر، ليقراً ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال تعالى: ﴿وُضِعَ الْكِتَابُ فَرَأَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ

٤٦٦

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرٰى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ۝ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَ بِالنَّبِيِّنَّ وَالشَّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾

﴿٦٨﴾ ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّاحِقًا إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِن حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ۝ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِمَا نَسِيتُمْ مَقِيلَ الْأُمّتِ كَرِيمِينَ ۝ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُرَّاحِقًا إِذَا جَاءَهَا وَفَتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ۝ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝﴾

هَذَا الْكِتَابُ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

﴿وَجِئَ بِالنَّبِيِّنَّ﴾ ليسألوا عن التبليغ، وعن أهمهم، وشهدوا عليهم. ﴿وَالشَّهَدَاءَ﴾ من الملائكة، والأعضاء، والأرض. ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ أي: العدل التام والقسط العظيم؛ لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة، ومن هو محيط بكل شيء، وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام والذين لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدل الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر به الخلق ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعرفون به من عظمته وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يخطر بقلوبهم، ولا تعبر عنه ألسنتهم، ولهذا قال: ﴿وَوُضِعَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾.

(٧١-٧٥) ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّاحِقًا إِذَا جَاءَهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ

عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ○ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيلِينَ فِيهَا فَيَقْسَ مَوْتَى الْمُتَكَبِّرِينَ ○ وَسَيَقَ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَقَّ إِذَا جَاءَهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَلِيلِينَ ○ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ○ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَاتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَتُصَوِّفُ لِيَتَّبِعُهُمُ الْبَاقِيُّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ لما ذكر تعالى حكمه بين عباده - الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة - فرقمهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿وَسَيَقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: سوقًا عنيفًا، يُضربون بالسياط الموجعة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ أي: يدفعون إليها دفعًا، وذلك لامتناعهم من دخولها ويساقون إليها ﴿زُمَرًا﴾ أي: فرقًا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضًا، ويرأ بعضهم من بعض ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَهَا﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فُتِحَتْ﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أَبْوَابُهَا﴾ لقدمهم وقرىٰ لنزلهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ مهنئين لهم بالشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال، التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتمتكون من التلقي عنهم؟ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِ رَبِّكُمْ﴾ التي أرسلهم الله بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين. ﴿وَسُنذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قَالُوا﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبياناته، وبينوا لنا غاية التبيين وحذرونا من هذا اليوم ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

﴿وَقِيلَ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ

﴿وَقَالُوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومنّ عليهم وهداهم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعَدَّهُ﴾ أي: وعدنا الجنة على السنة رسله إن آمنًا وصلحنا، فوقى لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما مآنا ﴿وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ﴾ أي: أرض الجنة ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ أي: نزل منها أي مكان شئنا، ونتناول منها أي نعيم أردنا، ليس ممنوعًا عنّا شيء نريده ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيرًا عظيمًا

جَهَنَّمَ﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها ﴿خَلِيلِينَ فِيهَا﴾ أبدًا، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون ﴿فَيَقْسَ مَوْتَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بسبب المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل والخزي.

﴿وَقِيلَ﴾ عن أهل الجنة: ﴿وَسَيَقَ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ﴾ بتوحيده، والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفداً على النجائب ﴿إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله ﴿حَقَّ إِذَا جَاءَهَا﴾ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحبية، والمنازل الأنيقة، وهبّ عليهم ريحها ونسيمها، وأن خلودها ونعيمها ﴿وَفُتِحَتْ﴾ لهم ﴿أَبْوَابُهَا﴾ فتح إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ تهنتة لهم وترحيبًا: ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: سلام من كل أفة وشرّ حال، عليكم ﴿طِبْتُمْ﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبه وخشيته، وألستكم بذكره، وجوارحك بطاعته ﴿فَفُتِحَتْ﴾ بسبب طيبكم ﴿ادْخُلُوا خَلِيلِينَ﴾ لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون.

وقال في النار ﴿فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وفي الجنة ﴿وَفُتِحَتْ﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها فتحت لهم أبوابها، من غير إنظار ولا إمهال وليكون فتحها في وجوههم وعلى وصولهم أعظم لحرها وأشد لعذابها، وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى.

باقياً مستمراً.

وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها خواص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلاً، وبنى أعلاها وأحسنها، وغرسها بيده، وحشاها من رحمته وكرامته ما ببعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر ويتم الصفاء.

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أيها الرائي ذلك اليوم العظيم ﴿حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ أي: قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، متعرفين بكماله، مستغرقين بجماله ﴿يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا.

﴿وَفِيهِ بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿وَالنَّعْوَى﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لم يذكر الفاعل من هو، ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم، وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان وحمد عدل وحكمة.

تم تفسير سورة الزمر - بحمد الله وعونه - .

تفسير سورة المؤمن

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿حَمِّمٌ﴾ تنزيل الكتيب من الله العزيز العليم ﴿عَافِرٍ﴾ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ لَدُنِّي الْمَصِيرِ﴾ يخبر تعالى عن كتابه العظيم بأنه صادر ومتر من الله المألوه المعبود، لكماله وانفراده بأفعاله.

﴿الْعَزِيزِ﴾ الذي قهر بعزته كل مخلوق ﴿الْعَلِيمِ﴾ بكل شيء.

﴿عَافِرٍ الذَّنْبِ﴾ للمذنبين ﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ من التائبين. ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ على من تجرأ على الذنوب ولم يتب منها ﴿ذِي الطَّلَوِّ﴾ أي: الفضل والإحسان الشامل.

فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجبا لأن يكون وحده المألوه، الذي تخلص له الأعمال، قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ لَدُنِّي الْمَصِيرِ﴾.

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله، الموصوف بهذه الأوصاف، أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني، فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٤٦٧
سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ
وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٥﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
حَمِّمٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ عَافِرٍ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهٌ لَدُنِّي الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ مَا يَجِدُكَ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَعْرِزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْيَلْدِ ﴿٤﴾ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا لِأَبْطُلٍ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾ الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾

وصفاته وأفعاله؛ وهذه أسماء وأوصاف وأفعال.

وإما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبله، فهي من تعليم العليم لعباده.

وإما إخبار عن نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِي الطَّلَوِّ﴾.

وإما إخبار عن نقمه الشديدة، وعمّا يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.

وإما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿عَافِرٍ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾.

وإما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما

سوى الله وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها، والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

وإما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَهٌ لَدُنِّي الْمَصِيرِ﴾.

فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات.

الْعَظِيمِ ﴿٤٠﴾ يخبر تعالى عن كمال لطفه تعالى بعباده المؤمنين، وما قبض لأسباب سعادتهم من الأسباب الخارجة عن قدرهم، من استغفار الملائكة المقربين لهم، ودعائهم لهم بما فيه صلاح دينهم وآخرتهم وفي ضمن ذلك الإخبار عن شرف حملة العرش ومن حوله، وقربهم من ربهم، وكثرة عبادتهم، ونصحهم لعباد الله، لعلمهم أن الله يحب ذلك منهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾ أي: عرش الرحمن، الذي هو سقف المخلوقات وأعظمها وأوسعها وأحسنها، وأقربها من الله تعالى، الذي وسع الأرض والسماوات والكرسي، وهؤلاء الملائكة، قد وكلهم الله تعالى بحمل عرشه العظيم، فلا شك أنهم من أكبر الملائكة وأعظمهم وأقواهم.

واختيار الله لهم لحمل عرشه، وتقديمهم في الذكر، وقربهم منه، يدل على أنهم أفضل أجناس الملائكة، عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾.

﴿وَمَنْ حَوْلَ﴾ من الملائكة المقربين في المنزلة والفضيلة ﴿سَيَحْمِلُونَ حِمْلَهُ﴾ هذا مدح لهم بكثرة عبادتهم لله تعالى، وخصوصاً التسبيح والتحميد، وسائر العبادات تدخل في تسبيح الله وتحميده، لأنها تنزيه له عن كون العبد يصرفها لغيره، وحمد له تعالى، بل الحمد هو العبادة لله تعالى، وأما قول العبد: «سبحان الله وبحمده» فهو داخل في ذلك وهو من جملة العبادات.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهذا من جملة فوائد الإيمان وفضائله الكثيرة جداً، أن الملائكة الذين لا ذنوب عليهم يستغفرون لأهل الإيمان، فالمؤمن بإيمانه تسبب لهذا الفضل العظيم.

ثم ولما كانت المغفرة لها لوازم لا تتم إلا بها - غير ما يتبادر إلى كثير من الأذهان، أن سؤالها وطلبها غاية مجرد مغفرة الذنوب - ذكر تعالى صفة دعائهم لهم بالمغفرة، بذكر ما لا تتم إلا به، فقال: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ فعلمك قد أحاط بكل شيء، لا يخفى عليك خافية، ولا يعزب عن علمك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ورحمتك وسعت كل شيء فالكون علويه وسفليه قد امتلأ برحمة الله تعالى ووسعتهم، ووصل إلى ما وصل إليه خلقه.

﴿فَاعْتَرَىٰ لِلَّذِينَ تَابُوا﴾ من الشرك والمعاصي ﴿وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ باتباع رسلك، بتوحيديك وطاعتك ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ أي: قهم العذاب نفسه، وقهم أسباب العذاب. ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾ على السنة رسلك

(٤-٦) ﴿مَا يُجَادِلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْزُوكَ تَقَابُلُهُمْ فِي الْيَلْدِ ۝ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ يخبر تبارك وتعالى أنه ﴿مَا يُجَادِلُ﴾ في آياته ﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمراد بالمجادلة هنا، المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون، فيخضعون لله تعالى الذي يلقي الحق، ليدحض به الباطل.

ولا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فَلَا يَغْزُوكَ تَقَابُلُهُمْ فِي الْيَلْدِ﴾ أي: ترددهم فيها بأنواع التجارات والمكاسب، بل الواجب على العبد أن يعتبر الناس بالحق، وينظر إلى الحقائق الشرعية ويزن بها الناس، ولا يزن الحق بالناس، كما عليه من لا علم ولا عقل له.

ثم هدد من جادل بآيات الله ليطلها، كما فعل من قبله من الأمم من ﴿قَوْمِ نُوحٍ﴾ وعاد ﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الذين تحزبوا وتجمعوا على الحق ليطلوه، وعلى الباطل ليصروه.

﴿و﴾ أنه بلغت بهم الحال، وآل بهم التحزب إلى أنه ﴿هَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من الأمم ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ أي: يقتلوه، وهذا أبلغ ما يكون للرسول، الذين هم قادة أهل الخير، الذين معهم الحق الصرف الذي لا شك فيه ولا اشتباه، هموا يقتلهم، فهل بعد هذا البغي والضلال والشقاء إلا العذاب العظيم الذي لا يخرجون منه؟

ولهذا قال في عقوبتهم الدنيوية والأخرية: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ أي: بسب تكذيبهم وتحزبهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان أشد العقاب وأفظعه، ما هو إلا صيحة، أو حاصب ينزل عليهم، أو يأمر الأرض أن تأخذهم، أو البحر أن يغرقهم، فإذا هم خامدون.

﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: كما حققت على أولئك، حققت عليهم كلمة الضلال، التي نشأت عنها كلمة العذاب، ولهذا قال: ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

(٧-٩) ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهماً صحيحاً على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراد، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ. والذي يوجب له الجزم، بأن الله أراد أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى، والمتوقف عليه. الثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبر والتفكير في كتابه.

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني، وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله إيضاحاً، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله له. وقد كان في تفسيرنا هذا، كثير من هذا من الله علينا.

وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير المتأمل صحيح الفكرة - ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سبباً لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين - فليس لنا إلا التعلق بكرمه، والتوسل بإحسانه، الذي لا تزال تنقلب فيه في كل الآتات، وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله أن يقينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصل رحمته، إنك الكريم الوهاب، الذي تفضل بالأسباب ومسبباتها.

وتضمن ذلك، أن المقارن من زوج وولد وصاحب، يسعد بقرينه، ويكون اتصاله به، سبباً لخير يحصل له، خارج عن عمله وسبب عمله، كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم. وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم لقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ فحيثما يكون ذلك من نتيجة عملهم، والله أعلم.

(١٠-١٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُسَادُونَ لِمَقْتِ اللَّهِ أَكْبَرَ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۚ قَالُوا رَبَّنَا أُنزِلْنَا آتِنَا مِنَّا وَحْيَيْنَا وَاجْعَلْ لَنَا آيَاتِنَا فَاعْرِضْنَا يَا رَبَّنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجِ مِن سَبِيلٍ ۚ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحَدُودُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها: من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك.

﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي: صلح بالإيمان والعمل الصالح ﴿وَمِنَ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ زوجاتهم وأزواجهن وأصحابهم ورفقائهم ﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء، فبعزتك تغفر ذنوبهم، وتكشف عنهم المحذور، وتوصلهم به إلى كل خير ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها. فلا نسألك يا ربنا أمراً تقتضي حكمتك خلافة، بل من حكمتك - التي أخبرت بها على أسنة رسلك، واقتضاها فضلك - المغفرة للمؤمنين.

﴿وَفِيهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾ أي: الأعمال السيئة وجزاءها، لأنها تسوء صاحبها ﴿وَمَنْ تَوَّابٌ أَلْسِنَاتٍ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿فَقَدْ رَحِمْتُمْ﴾ لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقته السيئات وفقته للحسنات وجزائها الحسن ﴿وَذَلِكَ﴾ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة ﴿هُوَ أَلْفَوْزُ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه.

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، التي يجب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه؛ فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها، واقتضاءها، لما اقتضته من المعاصي، ونحو ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط الله بها علماً، توسلوا بالرحيم العليم.

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه، لا يُذلي على ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه.

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة، بمحبة ما يحبه من الأعمال التي هي العبادات التي قاموا بها، واجتهدوا اجتهاد المحبين، ومن العمال الذين هم المؤمنون الذين يحبهم الله تعالى من بين خلقه، فسائر الخلق المكلفين بيغضهم الله إلا المؤمنين منهم، فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله، واجتهدوا في صلاح أحوالهم، لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته، لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه.

وتضمن ما شرحه الله وفصله من دعائهم بعد قوله: ﴿يَسْتَفْهِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ التنبيه اللطيف على كيفية تدبر كتابه، وأن لا يكون المتدبر مقتصرًا على مجرد معنى اللفظ

وَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ﴾ أي: إياكم ﴿إِذْ دُعُوتَ إِلَى
 الْإِيمَانِ فَكَفَرْتُمْ﴾ أي: حين دعتمكم الرسل وأتباعهم إلى
 الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتم
 وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته
 الواسعة، فمقتكم وأبغضكم.
 فهذا ﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: فلم يزل هذا
 المقت، مستمراً عليكم، والسخط من الكريم حالاً بكم،
 حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فالיום حلٌ عليكم غضب الله
 وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه.
 فتمنوا الرجوع، و﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا آتَيْنِ﴾ يريدون الموتة
 الأولى، وما بين النفتختين على ما قيل. أو العدم المحض قبل
 إيجادهم، ثم أماتهم بعدما أوجدهم ﴿وَأَحْيَيْتَنَا آتَيْنِ﴾ الحياة
 الدنيا والحياة الأخرى ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ
 سَبِيلٍ﴾ أي: تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع،
 ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم:
 ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا دعي لتوحيده،
 وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به ﴿كَفَرْتُمْ﴾ به
 واشمازت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور. ﴿وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ
 تُؤْمَرُوا﴾ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل، وبوأكم هذا
 المقيل. والمحل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر
 ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكروهون ما هو
 خير وصلاح، في الدنيا والآخرة. تؤثرون سبب الشقاوة
 والذل والغضب، وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح
 والظفر ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ
 الْعُتَى يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.
 ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ العلي: الذي له العلو المطلق
 من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.
 ومن علو قدره، كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء
 مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار.
 ﴿الْكَبِيرِ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة والمجد، في أسمائه
 وصفاته وأفعاله، المنتزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان
 الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، وحكمه لا
 يغير ولا يبديل.

فَيَقِيهِ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمِ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ يذكر
 تعالى نعمه العظيمة على عباده، بتبيين الحق من الباطل، بما
 يري عباده من آياته النفسية والأفاقية والقرآنية، الدالة على كل
 مطلوب مقصود، الموضحة للهدى من الضلال، بحيث لا
 يبقى عند الناظر فيها والمتأمل لها أدنى شك في معرفة
 الحقائق.

وهذا من أكبر نعمه على عباده، حيث لم يبق الحق
 مشتبهاً، ولا الصواب ملتبساً، بل نوع الدلالات ووضوح
 الآيات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة،
 وكلما كانت المسائل أجلاً وأكبر، كانت الدلائل عليها أكثر
 وأيسر.

فانظر إلى التوحيد، لما كانت مسأله من أكبر المسائل،
 بل أكبرها، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت،
 وضرب الله لها الأمثال، وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا
 ذكرها في هذا الموضع، ونبه على جملة من أدلتها، فقال:
 ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾.

ولما ذكر أنه يري عباده آياته، نبه على آية عظيمة فقال:

وَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ﴾ أي: إياكم ﴿إِذْ دُعُوتَ إِلَى
 الْإِيمَانِ فَكَفَرْتُمْ﴾ أي: حين دعتمكم الرسل وأتباعهم إلى
 الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتم
 وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له، وخرجتم من رحمته
 الواسعة، فمقتكم وأبغضكم.
 فهذا ﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: فلم يزل هذا
 المقت، مستمراً عليكم، والسخط من الكريم حالاً بكم،
 حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فالיום حلٌ عليكم غضب الله
 وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه.
 فتمنوا الرجوع، و﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا آتَيْنِ﴾ يريدون الموتة
 الأولى، وما بين النفتختين على ما قيل. أو العدم المحض قبل
 إيجادهم، ثم أماتهم بعدما أوجدهم ﴿وَأَحْيَيْتَنَا آتَيْنِ﴾ الحياة
 الدنيا والحياة الأخرى ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ
 سَبِيلٍ﴾ أي: تحسروا وقالوا ذلك، فلم يفد ولم ينجع،
 ووبخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ أي: إذا دعي لتوحيده،
 وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به ﴿كَفَرْتُمْ﴾ به
 واشمازت لذلك قلوبكم ونفرتم غاية النفور. ﴿وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ
 تُؤْمَرُوا﴾ أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل، وبوأكم هذا
 المقيل. والمحل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر
 ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكروهون ما هو
 خير وصلاح، في الدنيا والآخرة. تؤثرون سبب الشقاوة
 والذل والغضب، وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح
 والظفر ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ
 الْعُتَى يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾.

﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ العلي: الذي له العلو المطلق
 من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر.
 ومن علو قدره، كمال عدله تعالى، وأنه يضع الأشياء
 مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار.
 ﴿الْكَبِيرِ﴾ الذي له الكبرياء والعظمة والمجد، في أسمائه
 وصفاته وأفعاله، المنتزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان
 الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، وحكمه لا
 يغير ولا يبديل.

(١٣-١٧) ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
 رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ ○ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ
 كَرِهَ الْكَافِرُونَ ○ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ
 عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ. يُنذِرُ يَوْمَ التَّلَاقِ ○ يَوْمَ هُمْ بَدْرُومٌ لَا يُخْفَى عَلَى
 اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لَمِنَ الْمَلَكِ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ ○ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ

وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿يُنذِرُكَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي: مطرًا، به ترتزون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه. فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها، والنعم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث، الذي تحيا به البلاد والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه - وحده - المنعم.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ إلى الله تعالى، بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذي يتنفع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.

ولما كانت الآيات ثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة.

والإخلاص معناه: تخليص القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدينونه به وتقربون به إليه. ﴿وَأَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يشكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

ثم ذكر من جلاله وكمال ما يقتضي إخلاص العبادة له فقال: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: العلي الأعلى الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه وتعالته ذاته أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر المطهر وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه، ويجعلهم فوق خلقه.

ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي فقال: ﴿يَلْقَى الرَّوحَ﴾ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى ﴿يَلْقَى الرَّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ الذي فيه نفع العباد ومصالحتهم. ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الرسل، الذين فضلهم الله، واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده، والفائدة في إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم،

﴿وَيُنذِرُكَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي: مطرًا، به ترتزون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه. فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها، والنعم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث، الذي تحيا به البلاد والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه - وحده - المنعم.

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآيات حين يذكر بها ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ إلى الله تعالى، بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذي يتنفع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة. ولما كانت الآيات ثمر التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية فقال: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة. والإخلاص معناه: تخليص القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدينونه به وتقربون به إليه. ﴿وَأَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يشكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

ثم ذكر من جلاله وكمال ما يقتضي إخلاص العبادة له فقال: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ أي: العلي الأعلى الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعًا باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه وتعالته ذاته أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر المطهر وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويقربهم إليه، ويجعلهم فوق خلقه.

ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي فقال: ﴿يَلْقَى الرَّوحَ﴾ أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى ﴿يَلْقَى الرَّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ الذي فيه نفع العباد ومصالحتهم. ﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهم الرسل، الذين فضلهم الله، واختصهم الله لوحيه ودعوة عباده، والفائدة في إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم،

﴿وَيُنذِرُكَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي: مطرًا، به ترتزون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه. فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها، والنعم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث، الذي تحيا به البلاد والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه - وحده - المنعم.

سَفَّحَ بَطْغًا ﴿٢١﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قُدِّرَتْ شفاعتهم، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها.

﴿يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جلسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة ﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة، من باب أولى وأحرى.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق، وهو المحيط علماً وكتابة وحفظاً بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاءه القدري، الذي إذا شاء شيئاً كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لَا يَقْضُونَ يَسْئَرًا﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿الْبَصِيرُ﴾^(١) بما كان وما يكون، وما نبصر، وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف المقضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترغيب والترهيب.

(٢١، ٢٢) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاخْتَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ سَدِيدٌ الْعِقَابِ﴾ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بقلوبهم وأبدانهم، سير نظر واعتبار وتفكر في الآثار ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذبين، فسيجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والخزي والفضيحة.

وقد ﴿كَانُوا﴾ أشد قوة من هؤلاء في العُدَدِ والعُدَدِ وكبر الأجسام ﴿وَوَ﴾ أشد ﴿ءَانَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ من البناء والغرس، وقوة الآثار تدل على قوة المؤثر فيها وعلى تمتعه بها ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ بعقوبته ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ حين أصروا واستمروا عليها ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ سَدِيدٌ الْعِقَابِ﴾ فلم تغن قوتهم عند قوة الله شيئاً، بل من أعظم الأمم قوة، قوم عاد الذين قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أرسل الله إليهم ريحاً أضعفت قواهم، ودمرتهم كل تدمير.

﴿يَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ لِيَوْمِ﴾
 ﴿اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٢٧﴾ وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذْ يَقُولُ
 لَدَى الْحَنَاجِرِ كَذِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ
 يُطَاعُ ﴿٢٨﴾ يَعْلَمُ حَايَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿٢٩﴾
 وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ
 شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٣٠﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي
 الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ
 كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ
 بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
 كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَاخْتَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ
 قَوِيٌّ سَدِيدٌ الْعِقَابِ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا
 وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمْلَانَ وَقُرُونَ
 فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٣٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ
 عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا
 نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٣٥﴾

ثم ذكر نموذجاً من أحوال المكذبين بالرسول، وهو فرعون وجنوده فقال:

(٢٣-٤٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ إلى آخر القصة.

أي ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إلى جنس هؤلاء المكذبين ﴿مُوسَى﴾ ابن عمران ﴿بِآيَاتِنَا﴾ العظيمة، الدالة دلالة قطعية، على حقيقته ما أرسل به، وبطلان ما عليه من أرسل إليهم من الشرك وما يتبعه ﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة بيّنة، تتسلط على القلوب فتدعن لها، كالحية والعصا ونحوهما من الآيات البيّنات، التي أيد الله بها موسى، ومكّنه مما دعا إليه من الحق.

والمبعوث إليهم ﴿وَمُوسَى﴾ وزيره ﴿وَقُرُونَ﴾ الذي كان من قوم موسى، فبغى عليهم بماله، وكلهم ردوا عليه أشد الرد ﴿فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ وأيده الله بالمعجزات الباهرة، الموجبة لتمام الإذعان، لم يقبلوها بذلك، ولم

(١) في النسختين (العليم) وهو خطأ فالوارد في الآية (البصير).

يكفهم مجرد الترك والإعراض، بل ولا إنكارها ومعارضتها بباطلهم.

بل وصلت بهم الحال الشنيعة إلى أن ﴿قَالُوا أَتَقُولُوا ابْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُمْ وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ﴾ حيث كادوا هذه المكيدة، وزعموا أنهم إذا قتلوا أبناءهم، لم يقفوا، وبقوا في رقهم، وتحت عبوديتهم، فما كيدهم ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ حيث لم يتم لهم ما قصدوا، بل أصابهم ضد ما قصدوا، أهلكتهم الله وأبادهم عن آخرهم.

(١) وتدرج هذه النكتة التي يكثر مرورها بكتاب الله تعالى:

إذا كان السياق في قصة معينة أو على شيء معين، وأراد الله أن يحكم على ذلك المعين بحكم، لا يختص به ذكر الحكم. وعلته على الوصف العام ليكون أعم، وتدرج فيه الصورة التي سيق الكلام لأجلها، وليندفع الإيهام باختصاص الحكم بذلك المعين، فلهذا لم يقل «وما كيدهم إلا في ضلال» بل قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾.

و ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متكبراً متجبراً مغروراً لقومه السفهاء: ﴿ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ أي: زعم - فبهه الله - أنه لولا مراعاة خواطر قومه لقتله، وأنه لا يمنعه من دعاء ربه. ثم ذكر الحامل له على إرادة قتله، وأنه نصح قومه، وإزالة للشر في الأرض فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ الذي أنتم عليه ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ وهذا من أعجب ما يكون، أن يكون شر الخلق ينصح الناس عن اتباع خير الخلق، هذا من التمويه والترويح، الذي لا يدخل إلا عقل من قال الله فيهم: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيحِينَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ - حين قال فرعون تلك المقالة الشنيعة التي أوجها له طغيانه، واستعان فيها بقوته واقتداره - مستعيناً بربه: ﴿إِنِّي عُدْتُ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي: امتنعت بربوبيته، التي دبر بها جميع الأمور ﴿وَمِنْ كُلِّ مَكْرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ أي: يحمله تكبره، وعدم إيمانه بيوم الحساب، على الشر والفساد.

يدخل فيه فرعون وغيره، كما تقدم قريباً في القاعدة، فمنعه الله تعالى بلطفه، من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب، وقبض له من الأسباب ما اندفع به عنه شر فرعون وملاه.

ومن جملة الأسباب، هذا الرجل المؤمن، الذي من آل فرعون، من بيت المملكة، لا بد أن يكون له كلمة مسموعة، وخصوصاً إذا كان يظهر موافقتهم ويكتم إيمانه، فإنهم يراعونه في الغالب، ما لا يراعونه لو خالفهم في الظاهر، كما منع الله

رسوله محمداً ﷺ بعمه أبي طالب من قريش، حيث كان أبو طالب كبيراً عندهم، موافقاً لهم على دينهم، ولو كان مسلماً لم يحصل منه ذلك المنع.

فقال ذلك الرجل المؤمن العاقل الحازم، مقيحاً فعل قومه، وشناعة ما عزموا عليه: ﴿أَفَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أي: كيف تستحلون قتله، وهذا ذنبه وجرمه، أنه يقول ربي الله، ولم يكن أيضاً قولاً مجرداً عن البيئات، ولهذا قال: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ لأن بيئته اشتهرت عندهم اشتهاراً علم به الصغير والكبير، أي: فهذا لا يوجب قتله.

فهلأ أبطلتم قبل ذلك ما جاء به من الحق، وقابلتم البرهان ببرهان يرده، ثم بعد ذلك نظرتم، هل يحل قتله - إذا ظهرت عليه بالحجة - أم لا؟ فأما وقد ظهرت حجته، واستعلى برهانه، فبينكم وبين حل قتله مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تنقع كل عاقل، بأي حالة قدرت فقال: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعواه أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذب عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعت من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً وقد جاءكم بالبيئات، وأخبركم أنكم إن لم تجيبوه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشويش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم.

ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ أي: متجاوز الحد، بترك الحق والإقبال على الباطل ﴿كَذَّابٌ﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله، ولا يوفق للصراط المستقيم.

أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخوارق السماوية فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

٤٧٠

لِيُذَكِّرَ

وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ ﴿٦٦﴾
 وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ
 لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٦٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ
 فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّي
 اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا
 فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي
 يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٦٨﴾ يَقَوْمُ
 لَكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ
 بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا
 أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٦٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمُ إِنِّي
 أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٧٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ
 وَعَادٍ وَثَمُودَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ
 وَيَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٧١﴾ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَشْرَافُ
 مَالِكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٧٢﴾

يقال للمشركين: ﴿أَذْعُرُوا شُرَكَاءَهُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾
 فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم الموهول، وتوجه لهم أن
 أقاموا على شركهم بذلك.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَشْرَافُ مَالِكُمْ﴾ أي: قد ذهب بكم إلى النار
 ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها
 عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يَوْمَ تُبَلِّغُ الْأَشْرَافُ قَا
 لُهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لأن الهدى بيد الله تعالى،
 فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به، لخيبته، فلا سبيل
 إلى هدايته.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ﴾ ابن يعقوب عليهما السلام ﴿مِنْ
 قَبْلِ﴾ إتيان موسى، بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم
 بعبادة ربكم وحده لا شريك له ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ
 بِهِ﴾ في حياته ﴿حَتَّى إِذَا هَلَكَ﴾ ازداد شككم وشرككم و
 ﴿فَلَمَّا كُنْتُمْ تُبْعَثُونَ﴾ من بعدوه رسولاً ﴿أَي:﴾ هذا ظنكم
 الباطل، وحسبانكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنه تعالى لا
 يترك خلقه سدى - لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسلة -

ثم حذر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة ونهاهم
 عن الاعتزاز بالملك الظاهر فقال: ﴿يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ﴾
 أي: في الدنيا ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ على رعيتمكم، تفذون
 فيهم ما شئتم من التدبير.

فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن يتم ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ
 بَأْسِ اللَّهِ﴾ أي: عذابه ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾؟ وهذا من حسن دعوته،
 حيث جعل الأمر مشتركاً، بينه وبينهم بقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا﴾
 وقوله: ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ ليفهمهم أنه ينصح لهم، كما ينصح
 لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

ف ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضا له في ذلك، ومغررا لقومه أن
 يتبعوا موسى: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ
 الرَّشَادِ﴾ وصدق في قوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ ولكن ما
 الذي رأى؟ رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقم بهم رياسته،
 ولم ير الحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقنا
 له.

وكذب في قوله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ فإن هذا
 قلب للحق فلو أمرهم باتباعه اتباعا مجردا على كفره وضلاله،
 لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه
 اتباع الحق، وفي اتباع الحق اتباع الضلال.

﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ﴾ مكررا دعوة قومه، غير آيس من
 هدايتهم - كما هي حالة الدعاة إلى الله تعالى، لا يزالون
 يدعون إلى ربهم، ولا يردهم عن ذلك راد، ولا يثنيهم عتو من
 دعوته عن تكرار الدعوة - فقال لهم: ﴿يَقَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
 مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ يعني الأمم المكذبين، الذين تحزبوا على
 أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم.

ثم بينهم فقال: ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ
 بَعْدِهِمْ﴾ أي: مثل عاداتهم في الكفر والتكذيب، وعادة الله فيهم
 بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا
 لِلْعِبَادِ﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه.

ولما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات
 الآخروية، فقال: ﴿يَا قَوْمُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ أي: يوم
 القيامة، حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أَنْ قَدْ جِئْنَا مَا وَعَدْنَا
 رَبَّنَا حَقًّا﴾ إلى آخر الآيات. ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ
 أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَمَهُمَا عَلَى
 الْكَافِرِينَ﴾.

وحين ينادي أهل النار مالكا ﴿يَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيقول:
 ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ﴾. وحين ينادون ربهم: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ
 عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيجيبهم: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُمُونَ﴾ وحين

الْحَمْدُ لِلَّهِ

٤٧١

تَوَاتُرًا

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي سَكِّ
مَمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ
مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
مُرْتَابٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ
أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ
يَطْعُمُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَهْمَكُنْ أَبْنَى لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَتَّبِعَ الْأَسْبَابَ ﴿٢٦﴾ أَسْبَبَ
السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا
وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ
وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ
ءَامَنُوا يَنْقُورُ أَتَيْعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٨﴾
يَنْقُورُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ
دَارُ الْقَرَارِ ﴿٢٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا
وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٠﴾

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه محق، وأن موسى مبطل ﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي: خسار ووبار، لا يفيد إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ معيدًا نصيحته لقومه: ﴿يَنْقُورُ أَتَيْعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد.

﴿يَنْقُورُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلاً، ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثرها، وتعملوا لها عملاً يسعدكم فيها.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي: لا يجازى إلا بما يسوؤه ويحزنه، لأن جزاء السيئة السوء.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد،

وظن أن الله لا يرسل رسولاً ظن ضلالاً، ولهذا قال: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلمًا وعلوًا، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله، وكذبوا رسوله.

فالذي وصفه السرف والكذب - لا ينفك عنهما - لا يهديه الله، ولا يوفقه للخير، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزاؤه أن يعاقبه الله بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا آيَاتَ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ﴾، ﴿وَتَقَلَّبُ أَفْتَاتِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا تَرَى يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَرَةٍ وَنَدَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ التي بينت الحق من الباطل، وصارت - من ظهورها - بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبتلوها ﴿بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾ أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم، لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان؛ لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارض بدليل شرعي أو عقلي أصلاً.

﴿كَبْرَ﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فالله أشد بغضاً لصاحبه؛ لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشتد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يمتقون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص خلق الله تعالى فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون ﴿يَطْعُمُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ متكبر في نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم.. جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضاً لموسى، ومكذباً له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعلى: ﴿يَهْمَكُنْ أَبْنَى لِي صَرْحًا﴾ أي: بناء عظيمًا مرتفعًا، والقصد منه لعلي أطلع ﴿إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ في دعواه أن لنا ربًا، وأنه فوق السموات.

ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ فزين له العمل السيء، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسناً، ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين.

﴿وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له

بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم .

﴿وَيَقَوْمٌ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ﴾ بما قلت لكم ﴿وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾ بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام .

ثم فسر ذلك فقال: ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أنه يستحق أن يعبد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها .

﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء ﴿الْعَفْوَ﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجراون على مساحطه ثم إذا تابوا وأنابوا إليه، كفر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية .

﴿لَا جَرَمَ﴾ أي: حقاً يقيناً ﴿أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: لا يستحق من الدعوة إليه والحب على اللجأ إليه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً .

﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى فسبجاري كل عامل بعمله .
﴿وَأَنْتَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ وهم الذين أسرفوا على أنفسهم، بالتجروء^(١) على ربهم، بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم .

فلما نصحهم وحذرهم وأنذرهم، ولم يطيعوه ولا وافقوه، قال لهم: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ من هذه النصيحة وسترون مغبة عدم قبولها، حين يحل بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب .

﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون: يعلم حالي وضعفي فيمعتني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تصرفون إلا بإرادته ومشيتته، فإن سلطكم عليّ، فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيتته صدر ذلك .

﴿فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ أي: وفي الله القوي الرحيم ذلك الرجل المؤمن الموفق عقوبات ما مكر فرعون وآله له: من إرادة إهلاكه وإتلافه، لأنه بادأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يحتملونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيداً، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم، على أنفسهم ﴿وَحَقَّ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾

سورة المؤمن

٤٧٢

الجزء الرابع والعشرون

﴿وَيَقَوْمٌ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَىٰ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾

﴿٤٦﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأَشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْعَفْوَ لَاجِرَمَ

أَنَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنْتَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ

﴿٤٧﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ فَوَقَدَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ

مَا مَكَرُوا وَحَقَّ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ

﴿٥١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٥٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٥٣﴾

﴿٥٤﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ

﴿٥٥﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٥٧﴾

﴿٥٨﴾ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ

أغرقهم الله تعالى، في صبيحة واحدة عن آخرهم .

وفي البرزخ ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحل بالمكذبين لرسول الله، المعاندين لأمره .

(٤٧-٥٠) ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾

﴿٥١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدَّ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ وقال الذين في النار لخزنته جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ قالوا أولم تك تأتينا برسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعوتنا للكافرين إلا في ضلالٍ﴾

يخبر تعالى عن تخاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضاً، واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾

يحتج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين .

﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ﴾ أي: الأتباع للقادة ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾

(١) في النسختين (بالتجري) .

على الحق ودعوهم إلى ما استكبروا لأجله ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ نَعًا﴾ أنتم أغويتمونا، وأضللتمونا، وزيتتم لنا الشرك والشر ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَّا نَصِيحًا مِنَ النَّارِ﴾ أي: ولو قليلا.

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ مبيين لعجزهم، ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ وجعل لكل قسطه من العذاب، فلا يزداد في ذلك، ولا ينقص منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ من المستكبرين والضعفاء ﴿لَخِرَّتْ جَهَنَّمَ أَدْعَاؤُكُمْ رَبِّكُمْ يُخَفِّفُ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ﴾ لعله تحصل بعض الراحة.

﴿قَالُوا﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعائهم لا يفيدهم شيئا: ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ التي تبيتن بها الحق والصرط المستقيم، وما يقرب من الله وما يبعد منه؟

﴿قَالُوا بَلَى﴾ قد جاءونا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة، فظلمنا وعاندنا الحق بعدما تبين ﴿قَالُوا﴾ أي الخزنة، لأهل النار، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فَادْعُوا﴾ أنتم ولكن هذا الدعاء، هل يغني شيئا أم لا؟

قال تعالى: ﴿وَمَا دَعَا الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ أي: باطل لاغ، لأن الكفر محيط لجميع الأعمال، صاذا لإجابة الدعاء.

(٥٢، ٥١) ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار ﴿لما ذكر عقوبة آل فرعون في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وذكر حالة أهل النار الفظيعة، الذين نابذوا رسله، وحاربوهم، قال: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾ أي: بالحنة والبرهان والنصر. وفي الآخرة بالحكم لهم ولاتباعهم بالثواب، ولمن حاربهم بشدة العقاب.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعٰذِرَتُهُمْ﴾ حين يعتذرون ﴿وَلَهُمْ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: الدار السيئة التي تسوء نازليها.

(٥٣-٥٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرٰءِيلَ ٱلْكِتٰبَ﴾ هدى وذكرى لأولي الألباب ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذٰنِبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ ٱلْإِبْكَرِ﴾ لما ذكر ما جرى لموسى وفرعون، وما آل إليه أمر فرعون وجنوده، ثم ذكر الحكم العام الشامل له ولأهل النار، ذكر أنه أعطى موسى ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: الآيات، والعلم الذي يهتدي به المهتدون ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرٰءِيلَ ٱلْكِتٰبَ﴾ أي: جعلناه متوارثا بينهم، من قرن إلى آخر، وهو التوراة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِیْمِ

٤٧٣

سُورَةُ ٱلْمُؤْمِنِ

قَالُوا أَوَلَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَاذْعُوا وَمَا دَعَا ٱلْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٥١﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَادُ ﴿٥٢﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّٰلِمِينَ مَعٰذِرَتُهُمْ وَلَهُمْ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرٰءِيلَ ٱلْكِتٰبَ ﴿٥٤﴾ هٰذِي وَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴿٥٥﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذٰنِبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ ٱلْإِبْكَرِ ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجٰدِلُونَ فِي ءَايٰتِ ٱللَّهِ يَغَيِّرُ سُلْطٰنًا لَهُمْ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ ٱلْإِكْبَارُ مَأْتُهُمْ بِبَلٰغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٧﴾ لَخَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلٰكِن أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحٰتِ وَلَا ٱلْمُسِيءَ قَلِيْلًا مَّا نَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٩﴾

وذلك الكتاب مشتمل على الهدى الذي هو العلم بالأحكام الشرعية وغيرها. وعلى التذکر للخير، بالترغيب فيه. وعن الشر، بالترهيب عنه. وليس ذلك لكل أحد، وإنما هو ﴿لأولي الألباب﴾.

﴿فَاصْبِرْ﴾ يا أيها الرسول كما صبر من قبلك من أولي العزم المرسلين ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: ليس مشكوكا فيه، أو فيه ريب أو كذب، حتى يعسر عليك الصبر، وإنما هو الحق المحض، والهدى الصرف، الذي يصبر عليه الصابرون، ويجتهد في التمسك به أهل البصائر.

فقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ من الأسباب التي تحت على الصبر على طاعة الله، وعن ما يكره الله.

﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذٰنِبِكَ﴾ المانع لك من تحصيل فوزك وسعادتك، فأمره بالصبر الذي فيه يحصل المحبوب، وبالإستغفار الذي فيه دفع المحذور، وبالتسبيح بحمد الله تعالى خصوصا ﴿بِٱلْعَشِيِّ ٱلْإِبْكَرِ﴾ اللذين هما أفضل الأوقات، وفيهما من الأوراد والوظائف الواجبة والمستحبة ما فيهما لأن في ذلك عوناً على جميع الأمور.

الأبرار والفقار، وكانت لكم همة عليّ، لأثرتم النافع على الضار، والهدى على الضلال، والسعادة الدائمة على الدنيا الفانية.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ لَآ رَيْبَ فِيهَا﴾ قد أخبرت بها الرسل الذين هم أصدق الخلق. ونظقت بها الكتب السماوية التي جميع أخبارها أعلى مراتب الصدق، وقامت عليها الشواهد المرئية والآيات الأفقية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مع هذه الأمور، التي توجب كمال التصديق والإذعان.

(٦٠) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَٰخِرِينَ﴾ هذا من لطفه بعباده، ونعمته العظيمة، حيث دعاهم إلى ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، وأمرهم بدعائه دعاء العبادة ودعاء المسألة، ووعدهم أن يستجيب لهم. وتوعد من استكبر عنها، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَٰخِرِينَ﴾ أي: ذليلين حقيرين، يجتمع عليهم العذاب والإهانة، جزاء على استكبارهم.

(٦١-٦٥) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْآيَاتِ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون ﴿كَذَٰلِكَ يُؤفِكُ الَّذِينَ كَانُوا يُبَايِعْتُمُ اللَّهَ وَيُبَايِعُونَكُمْ وَأَنْتُمْ كَاثِرُونَ﴾ ذلكم الله ربكم فاحسن صوركم ورفقكم من الطيبين ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ تدبر هذه الآيات الكريمة الدالة على سعة رحمة الله تعالى، وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، وتمام ربوبيته، وانفراده فيها وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها، ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحد من الأمر شيء، ولا من القدرة شيء. فينتج من ذلك أنه تعالى المألوه المعبود وحده، الذي لا يستحق أحد [غيره] (١) من العبودية شيئاً، كما لم يستحق من الربوبية شيئاً. وينتج من ذلك امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى ومحبته وخوفه ورجائه. وهذان الأمران - وهما معرفته وعبادته - هما اللذان خلق

(٥٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِيَلْقِيهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ يخبر تعالى أن من جادل في آياته ليبطلها بالباطل، بغير بينة من أمره ولا حجة، أن هذا صادر من كبر في صدورهم على الحق وعلى من جاء به، يريدون الاستعلاء عليه بما معهم من الباطل، فهذا قصدهم ومرادهم. ولكن هذا لا يتم لهم، وليسوا ببالغيه، فهذا نص صريح، وبشارة بأن كل من جادل الحق أنه مغلوب، وكل من تكبر عليه فهو في نهايته ذليل.

﴿فَاَسْتَعِذْ﴾ أي: اعتمصم والجا ﴿بِاللَّهِ﴾ ولم يذكر ما يستعذ، إرادة للعموم. أي: استعذ بالله من الكبر الذي يوجب التكبر على الحق، واستعذ بالله من شياطين الإنس والجن، واستعذ بالله من جميع الشرور.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات على اختلافها ﴿الْبَصِيرُ﴾ بجميع المرئيات، بأي محل وموضع وزمان كانت.

(٥٧-٥٩) ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُنِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ لَآ رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ يخبر تعالى بما تقرر في العقول، أن خلق السماوات والأرض - على عظمهما وسعتهما - أعظم وأكبر من خلق الناس - فإن الناس بالنسبة إلى خلق السماوات والأرض من أصغر ما يكون. فالذي خلق الأجرام العظيمة وأتقنها، قادر على إعادة الناس بعد موتهم من باب أولى وأحرى. وهذا أحد الأدلة العقلية الدالة على البعث دالة قاطعة، بمجرد نظر العاقل إليها، يستدل بها استدلالاً لا يقبل الشك والشبهة، بوقوع ما أخبرت به الرسل من البعث. وليس كل أحد يجعل فكره لذلك، ويقبل بتدبره، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ولذلك لا يعتبرون بذلك، ولا يجعلونه منهم على بال.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُنِيءُ﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي من آمن بالله وعمل الصالحات، ومن كان مستكبراً على عبادة ربه، مقدماً على معاصيه، ساعياً في مسأخه.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تذكركم قليل (١)، وإلا فلو تذكرتم مراتب الأمور، ومنازل الخير والشر، والفرق بين

(١) في النسختين (قليلًا). (٢) زيادة يقتضيه السياق.

الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده. وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخروية. وهما اللذان هما أشرف عطايا الكريم لعباده. وهما أشرف اللذات على الإطلاق. وهما اللذان إن فاتا فأتى كل خير، وحضر كل شر.

فنسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبه، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا يتعاطمه سؤال، ولا يخفيه نوال.

فقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ﴾ أي: لأجلكم، جعل الله الليل مظلمًا. ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ من حركاتكم التي لو استمرت لضرت، فتأوون إلى فرشكم، ويُلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الأدمي لا يعيش بدونه. ويسكن أيضًا كل حبيب إلى حبيبه، ويجتمع الفكر، وتقل الشواغل.

﴿و﴾ جعل تعالى ﴿النَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ منيرًا بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية. هذا لذكراه وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه وهذا لبنائه أو حدادته، أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره برًا وبحرًا، وهذا لفلاحته، وهذا لتصلح حيواناته.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ﴾ أي: عظيم، كما يدل عليه التنكير ﴿عَلَّ النَّاسِ﴾. حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرح عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكراه ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ بسبب جهلهم وظلمهم ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ الذين يقرون بنعمة ربهم، ويخضعون لله ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه.

﴿ذَالِكُمْ﴾ الذي فعل ما فعل ﴿اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ أي: المنفرد بالإلهية، والمنفرد بالربوبية. لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، ﴿خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ تقرير لربوبيته.

ثم صرح بالأمر بعبادته فقال: ﴿فَأَنذِرْ تَوَفُّكُونَ﴾ أي: كيف تصرفون عن عبادته وحده لا شريك له، بعدما أبان لكم الدليل، وأثار لكم السبيل!؟

﴿كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّيَبَتِ اللَّهُ بِجَحْدُونَ﴾ أي: عقوبة على جحدهم لآيات الله، وتعديهم على رسله، صرفوا عن التوحيد والإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِّنْ أُمَّةٍ ثُمَّ انصَرَفُوا

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّآرَبٍ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤١﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٤٢﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِّتَسْكُنُوا فِيهِ وَالتَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٤٣﴾ ذَالِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاَنذِرْ تَوَفُّكُونَ كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّيَبَتِ اللَّهُ بِجَحْدُونَ ﴿٤٤﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَكَّرًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوْرَكُمْ فَاحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَالِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتٌ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾

صَرَخَ اللَّهُ قُلُوبِهِمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَكَّرًا﴾ أي: قارة ساكنة، مهياة لكل مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها والبناء عليها، والسفر والإقامة فيها.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ سقفًا للأرض التي أنتم فيها، قد جعل الله فيها ما تنفعون به من الأنوار والعلامات التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

﴿وَصَوْرَكُمْ فَاحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم. كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

وإذا أردت أن تعرف حسن الأدمي وكمال حكمة الله تعالى فيه، فانظر إليه عضوًا عضوًا، هل تجد عضوًا من أعضائه يليق به ويصلح أن يكون في غير محله؟ وانظر أيضًا إلى الميل الذي في القلوب بعضهم لبعض، هل تجد ذلك في غير الأدميين؟ وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان، والمحبة والمعرفة، التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجمل الصور.

﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ وهذا شامل لكل طيب، من مأكَل

وَمَشْرَبٍ، وَمَنْكَحٍ وَمَلْبَسٍ، وَمَنْظَرٍ وَمَسْمَعٍ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ الَّتِي يَسْرَهَا اللَّهُ عِبَادَهُ، وَيَسِّرُ لَهُمْ أَسْبَابَهَا، وَمَنْعَهُمْ مِنَ الْخَبَائِثِ الَّتِي تَضَادُّهَا، وَتَضُرُّ أَبْدَانَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ وَأَدْبَانَهُمْ.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي دبر الأمور، وأنعم عليكم بهذه النعم ﴿اللَّهُ رَئُوفٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ ثم هكذا تنتقلون في الخلقة الإلهية حتى تبلغوا أشدكم من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة ﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوعًا وَمِنْكُمْ مَن يَتُوفَّىٰ مِنْ قَبْلُ﴾ بلوغ الأشد ﴿وَلَيَبْلُغُوا﴾ بهذه الأطوار المقدرة إلى أجل مسمى تنتهي عنده أعماركم ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

﴿فَبَارِكْ اللَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ أي: تعاظم، وكترخيره وإحسانه، المرابي جميع العالمين بنعمه.

﴿هُوَ الْحَيُّ﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية، التي لا تتم حياته إلا بها، كالسمع والبصر والقدرة والعلم والكلام، وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب إلا بإذنه ﴿وَمَا يَعْزَرُ مِنْ مَّعْمَرٍ وَلَا يُفْضِلُ مِنْ عُمْرَةٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق، إلا وجهه الكريم ﴿فَادْعُوهُ﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ﴾ أي: اقصدا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى، فإن الإخلاص هو المأمور به، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ خُفِّفَ﴾.

﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ جليلا أو حقيرا ﴿فَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لا ردي في ذلك، ولا مثنوية، ولا تمنع.

﴿الْحَكْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: جميع المحامد والمدائح والثناء، بالقول كتنطق الخلق بذكره. والفعل، كعبادتهم له، كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له، لكماله في أوصافه وأفعاله، وتمام نعمه.

(٦٩-٧٦) ﴿الَّذِي تَرَىٰ إِلَى اللَّهِ دَرَسًا﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ صُفْرُونَ﴾ ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمَا أُرْسِلُوا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿إِذِ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ في الحميم ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ﴾ ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّئِن نَّكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ ﴿أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَمَا قَسَتْ مَتْنَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ ﴿الَّذِي تَرَىٰ إِلَى اللَّهِ دَرَسًا﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ صُفْرُونَ﴾ أي: الواضحة البينة متعجبا من حالهم الشنيعة. ﴿أَلَمْ يَصْرُفْ﴾ أي:

(٦٦-٦٨) ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوبٍ ثُمَّ مِنْ تَطْفَؤٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِيَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيََكُونُوا شُيُوعًا وَمِنْكُمْ مَن يَتُوفَّىٰ مِنْ قَبْلُ وَلَيَبْلُغُوا أَجْلا مُمَسَّىٰ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وذكر الأدلة على ذلك والبيئات، صرح بالنهي عن عبادة ما سواه فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ من الأوثان والأصنام، وكل ما عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

كيف يتعدلون عنها؟ وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟ لا والله. أم يجدون شبها توافق أهواءهم، ويصلون بها لأجل باطلهم؟.

فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم، بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من الله، وبما أرسل الله به رسله الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولا. فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿إِذِ الْأَعْلَىٰ فِي أَعْتَقِهِمْ﴾ التي لا يستطيعون معها حركة.

ولست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بقلبي ولساني وجوارحي، بحيث تكون منقادة لطاعته، مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق. كما أن النهي عن عبادة ما سواه أعظم منهِّي عنه على الإطلاق. ثم قرر هذا التوحيد بأنه الخالق لكم، والمطور لخلقكم.

﴿وَالسَّلْسِلُ﴾ التي يقرون بها، هم وشياطينهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ في الحميم. أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ بوقد عليهم اللهب العظيم فيصلون

فكما خلقكم وحده، فاعبده وحده، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي

بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم.

ويقال ﴿لَهُمْ آيَاتٌ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ○ من دُونِ اللَّهِ هل نفعوكم، أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟ ﴿قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾. يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم.

ويحتمل - وهو الأظهر - أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا، الضلال الواضح لكل أحد، حتى إنهم بأنفسهم يقرون بطلانه يوم القيامة، ويتبين لهم معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْجُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْجُدُوا إِلَّا لِلنَّاسِ﴾ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآيات.

ويقال لأهل النار: ﴿ذَلِكُمْ﴾ العذاب الذي نوع عليكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾ في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه، وبالعلوم التي خالفتها بها علوم الرسل، وتفرحون على عباد الله بغيا وعدوانا وظلما وعصيانا، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

وكما قال قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾. وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب، بخلاف الفرح الممدوح الذي قال الله فيه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ إِيذِكُمْ فَلَيْفَرَحُوا﴾ وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل طبقة من طبقاتها على قدر عمله ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها أبدا ﴿فِيئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مَثْوَى يخرجون فيه، ويهانون، ويحبسون، ويعذبون، ويتدردون بين حرها وزمهريرها.

(٧٧) ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْفَ تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَدَعُوا أَوْ تَتُوبِينَكَ فَإِنَّا نُرْجِعُونَ﴾ أي: ﴿فَأَصْبِرْ﴾ يا أيها الرسول على دعوة قومك، وما ينالك منهم من أذى، واستعن على صبرك بإيمانك ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ سينصر دينه، ويُعلي كلمته، وينصر رسله في الدنيا والآخرة، واستعن على ذلك أيضا، بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿فَكَيْفَ تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَدَعُوا﴾ في الدنيا فذاك ﴿أَوْ تَتُوبِينَكَ﴾ قبل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٥

سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُءُوبٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيََتَّكِفُوا فِيكُمْ سِنْيُوا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْلُغُوا أَجْلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يَصْرَفُونَ ﴿٧٩﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ إِذَا الْأَغْطَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٨١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٨٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ آيَاتُ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٨٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٨٥﴾ أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَمَا فِيئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٨٦﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَكَيْفَ تُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِينَ نَدَعُوا أَوْ تَتُوبِينَكَ فَإِنَّا نُرْجِعُونَ ﴿٨٧﴾

عقوبتهم ﴿فَإِنَّا نُرْجِعُونَ﴾ فنجازيهم بأعمالهم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ عَفِيفًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾، ثم سلامه وصبره، بذكر إخوانه المرسلين فقال:

(٧٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ فَصَّصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ فَصِى بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ كثيرين إلى قومهم، يدعونهم ويصبرون على أذاهم ﴿مِنْهُمْ مَنْ فَصَّصْنَا عَلَيْكَ﴾ خبرهم ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ وكل الرسل مدبرون، ليس بيدهم شيء من الأمر.

وما كان لأحد منهم ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ﴾ من الآيات السمعية والعقلية ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته وأمره.

فاقتراح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات، ظلم منهم وتعت وتكذيب، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم، وصحة ما جاءوا به ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم، والفتح ﴿فَصِى﴾ بينهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي يقع الموقع، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك

المكذبين، ولهذا قال: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت القضاء المذكور ﴿الْمُتَبَلِّغُونَ﴾ الذين وصفهم الباطل، وما جاءوا به من العلم والعمل باطل، وغايتهم المقصودة لهم باطلة.

فليحذر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم، فيخسروا كما خسروا أولئك، فإن هؤلاء لا خير منهم، ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة.

(٧٩-٨١) ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ ولَكُمْ فِيهَا مَتَاعٌ وَتَسْتَلْعُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الأنعام:

منها: منافع الركوب عليها والحمل.

ومنها: منافع الأكل من لحومها، والشرب من ألبانها.

ومنها: منافع الدفء، واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها، إلى غير ذلك من المنافع.

﴿وَتَسْتَلْعُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة، وحصول السرور بها، والفرح عند أهلها ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ أي: على الرواحل البرية، والفلك البحرية، يحملكم الله الذي سخرها، وهيا لها ما هيا من الأسباب التي لا تتم إلا بها.

﴿وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نعمه، حيث أشهد عباده، آياته النفسية وآياته الأفقية، ونعمه الباهرة، وعددها عليهم، ليعرفوه ويشكروه ويذكروه.

﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ أي: أي آية من آياته لا تعترفون بها؟ فإنكم قد تقرر عندكم، أن جميع الآيات والنعم منه تعالى، فلم يبق للإنكار محل، ولا للإعراض عنها موضع.

بل أوجبت لذوي الأبواب بذل الجهد، واستفراغ الوسع، لاجتهاد في طاعته والتبتل في خدمته والانقطاع إليه.

(٨٢-٨٥) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا يَدْعُونَ﴾ ﴿فَلَمَّا يَكْفُرُكُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّتْ آيَاتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين ﴿فَيَنْظُرُوا﴾ نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِثَابِتَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَأَدِجَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَتَاعٌ وَتَسْتَلْعُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا يَدْعُونَ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمَّا يَكْفُرُكُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَّتْ آيَاتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

وإهمال ﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السالفة، كعاد وثمود وغيرهم، ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أموالاً وأشد آثاراً في الأرض من الأبنية الحصينة، والغراس الأنيقة، والزروع الكثيرة ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ حين جاءهم أمر الله، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا اقتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا ببحصونهم.

ثم ذكر جرهمم الكبير فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدى من الضلال، والحق من الباطل ﴿فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ المناقض لدين الرسل.

ومن المعلوم، أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتمسكهم، ومعاداة الحق الذي جاءت به الرسل، وجعل باطلهم حقاً، وهذا عام لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاءت به الرسل.

ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رُدَّتْ به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة، أدلة لفظية لا تفيد

شيئاً من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفه والباطل.
وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله، والمعارضة لها
والمناقضة، فالله المستعان.

﴿وَسَافَ بِهِمْ﴾ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ من
العذاب.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ أي: عذابنا، أقروا حيث لا ينفعهم
الإقرار ﴿قَالُوا أَمَّا بِاللَّهِ وَوَعْدِهِ﴾ وكفرونا بما كنا به مشركين
من الأصنام والأوثان وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم
أو عمل.

﴿فَلَمَّا بَكَ يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: ينفعهم لما رأوا بأسنا ﴿أي: في تلك
الحال، وهذه سنة الله﴾ وعادته ﴿الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾
أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان
إيمانهم غير صحيح، ولا منجياً لهم من العذاب.

وذلك لأنه إيمان ضرورة قد اضطروا إليه، وإيمان
مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو
الإيمان الاختياري الذي يكون إيماناً بالغيب، وذلك قبل
وجود قرائن العذاب.

﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ﴾ أي: وقت الإهلاك وإذاعة البأس
﴿الْكَافِرُونَ﴾ دينهم وديناهم وأحرامهم. ولا يكفي مجرد
الخسارة في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في
العذاب الشديد، والخلود فيه دائماً أبداً.

تم تفسير سورة المؤمن بحمد الله ولطفه ومعونته، لا بحولنا
وقوتنا، فله الشكر والثناء.

تفسير سورة السجدة^(١)

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨-١) ﴿حَمْدٌ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ
عَآيَتَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكْثَرِ مَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ ءَادَانَا وَقُرْ
وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عِمَلُونَ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُ الْكَوْكِبِ إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوا وَوَيْلٌ
لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ يخبر تعالى
عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تَنْزِيلٌ﴾ صادر
﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من



أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من
العلم والهدى، والنور والشفاء، والرحمة والخير الكثير، ما
هو من أجل نعيه على العباد، وهو الطريق للسعادة في
الدارين.

ثم أتى على الكتاب بتمام البيان فقال: ﴿فَصَّلْتُ ءَآيَتَهُ﴾
أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان
التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾
أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، فصَّلت آياته وجعل عربيًّا
﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: لأجل أن يتبين لهم معناه، كما يتبين
لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال، والغنى من الرشاد.

وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالاً، ولا
البيان إلا عمى فهؤلاء لم يسقِ الكلام لأجلهم، ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي: بشيراً بالثواب العاجل والآجل،
ونذيراً بالعقاب العاجل والآجل، وذكر تفصيلهما، وذكر

(١) كذا في الأصل، والاسم المشتهر للسورة هو (سورة فصلت) أو حم
السجدة.

ولما ذكر الكافرين ذكر المؤمنين، ووصفهم جزاءهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بهذا الكتاب، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص، والمتابعة ﴿هُمْ أَجْرٌ﴾ أي: عظيم ﴿غَيْرِ مَمْتُونٍ﴾ أي: غير مقطوع ولا نافذ، بل هو مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتهيات.

(٩-١٢) ﴿قُلْ أَيَّتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلَ لَهَا أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ○ وَجَعَلَ فِيهَا رُؤْسًا مِنْ فَوْقِهَا وَزَكَرَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِئَلَّا يَكُونَ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ قَوْلًا لَهَا وَالْأَرْضُ أُنْيَا طَوَعًا أَوْ كَرِهًا قَالَتْ أَنِينَا طَائِبِينَ ○ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّنَا أَسْمَاءَ الدُّنْيَا يَمْصُبِحُ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ ينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أندادًا يشركونهم معه، ويبدلون لهم ما يشاءون من عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم، الملك الكريم، الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين، ثم دحاها في يومين، بأن جعل فيها رواسي من فوقها، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار.

فكمل خلقها، ودحيها، وإخراج أقواتها، وتوابع ذلك ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِئَلَّا يَكُونَ إِلَى اللَّهِ كَيْفٌ يُعْذِرُ﴾ عن ذلك، فلا يثبتك مثل خبير، فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص. ﴿ثُمَّ﴾ بعد أن خلق الأرض ﴿أَسْتَوَى﴾ أي: قصد ﴿إِلَى﴾ خلق ﴿السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ قد ثار على وجه الماء ﴿فَقَالَ لَهَا﴾ ولما كان هذا التخصيص يوهم الاختصاص، عطف عليه بقوله: ﴿وَالْأَرْضُ أُنْيَا طَوَعًا أَوْ كَرِهًا﴾ أي: انقادا لأمرى، طاعتين أو مكرهتين، فلا بد من نفوذه ﴿قَالَتْ أَنِينَا طَائِبِينَ﴾ ليس لنا إرادة تخالف إرادتك.

﴿فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فتم خلق السموات والأرض في ستة أيام، أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيئته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة.

ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رفيق، فمن حكمته ورفقه أن جعل خلقها في هذه المدة المقطرة.

واعلم أن ظاهر هذه الآية، مع قوله تعالى في النزاعات، لما ذكر خلق السماوات قال: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ يظهر منها التعارض، مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف. والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف، أن خلق

الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يُتلقى بالقبول والإذعان والإيمان والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعًا تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: هؤلاء المعرضون عنه، مبينين عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكْتَفَةٍ﴾ أي: أغطية مغطاة ﴿وَمَا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيٍّ وَأَدَانَا وَقُرٌ﴾ أي: صمم فلا نسمع لك ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فلا نراك.

القصود من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: ﴿فَأَعْمَلُ إِنَّا عَمِلُونَ﴾ أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

﴿قُلْ﴾ لهم، يا أيها النبي: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ أي: هذه صفتي ووظيفتي، أني بشرٌ مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضلني الله عليكم، وميزني وخصني بالوحي الذي أوحاه إليّ وأمرني باتباعه، ودعوتكم إليه.

﴿تَأَسَّيْتُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى، بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك.

وفي قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصًا صالحًا نافعًا، وبفواته يكون عمله باطلاً.

ولما كان العبد - ولو حرص على الاستقامة - لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بأمور، أو ارتكاب منهي، أمرهم بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال: ﴿وَأَسْتَغْفِرُهُ﴾ ثم توعد من ترك الاستقامة فقال: ﴿وَوَيْلٌ لِلْمُصْرِكِينَ﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ○ أي: الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعًا ولا ضراً، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، ودنسوا أنفسهم، فلم يزكوا بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للخلق بالزكاة وغيرها ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم، أقدموا على ما أقدموا عليه، مما يضرهم في الآخرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٧٨

سُورَةُ السَّجْدَةِ

فَقَضْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا
 وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
 الْعَلِيمِ ﴿١٣﴾ فَإِنِ اعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ
 عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٤﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ
 خَلْفِهِمْ أَلَّا يَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً
 فَأِنَّا بِنَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كُفْرُونَ ﴿١٥﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي
 الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
 الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ
 ﴿١٦﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَدِبِقَهُمْ
 عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْأُخْرَىٰ أُخْرِجُوا مِنْهُمْ
 لَا يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى
 الْهُدَىٰ فَآخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ آهُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ
 ﴿١٨﴾ وَنَحْنُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَنَبَّأُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ
 أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٢٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهُمْ هَاشِدٌ
 عَلَيْهِمْ سَمِعَتْهُمْ آبَتْهُمُ وَأَبْصَرْتَهُمْ وَجَلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢١﴾

شرعي، ولن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

(١٦، ١٥) ﴿فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ

أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا
 بِآيَاتِنَا يَحْحَدُونَ ﴿١٤﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ
 لِنَدِبِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلِعَذَابِ الْأُخْرَىٰ أُخْرِجُوا مِنْهُمْ لَا
 يَبْصُرُونَ ﴿١٧﴾ هذا تفصيل لقصة هاتين الأمتين، عاد وثمود، ﴿فَأَمَّا
 عَادُ﴾ فكانوا - مع كفرهم بالله، وجحدهم بآيات الله، وكفرهم
 برسله - مستكبرين في الأرض، قاهرين لمن حولهم من
 العباد، ظالمين لهم، قد أعجبتهم قوتهم ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا
 قُوَّةً﴾ قال تعالى رداً عليهم بما يعرفه كل أحد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ
 اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ فلولا خلقه إياهم، لم
 يوجدوا.

فلو نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحاً، لم يغتروا
 بقوتهم، فعاقبهم الله عقوبة تناسب قوتهم التي اغتروا بها.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: ريحاً عظيمة، من قوتها

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب (وحفظاً). (٢) في النسختين

(بالأمم).

الأرض وصورتها متقدم على خلق السماوات كما هنا، ودحي
 الأرض بأن ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ وَالْحَبَّالَ أَرْسَلَهَا ﴿متأخر
 عن خلق السماوات كما في سورة النازعات، ولهذا قال:
 ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا ﴿إلى آخره ولم يقل:
 «والأرض بعد ذلك خلقها».

وقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ أي: الأمر والتدبير
 اللائق بها، الذي اقتضته حكمة أحكم الحاكمين ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ
 الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ﴾ هي النجوم يستنار بها ويُهدى، وتكون زينة
 وجمالاً للسماء ظاهراً. وجمالاً^(١) لها باطناً، يجعلها رجوماً
 للشياطين، لئلا يسترق السمع فيها ﴿ذَلِكَ﴾ المذكور، من
 الأرض وما فيها، والسماة وما فيها ﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾
 الذي عزته قهر بها الأشياء ودبرها، وخلق بها المخلوقات
 ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي أحاط علمه بالمخلوقات، والغائب
 والشاهد.

فترك المشركين الإخلاص لهذا الرب العظيم الواحد
 القهار، الذي انفادت المخلوقات لأمره ونفذ فيها قدره، من
 أعجب الأشياء، واتخاذهم له أنداداً يسوونهم به، وهم
 ناقصون في أوصافهم وأفعالهم، أعجب وأعجب، ولا دواء
 لهؤلاء إن استمر إعراضهم، إلا العقوبات الدنيوية
 والأخروية. فلهذا خوفهم بقوله:

(١٣، ١٤) ﴿فَإِنِ اعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ
 وَثَمُودَ ﴿١٤﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا
 إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَأِنَّا بِنَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كُفْرُونَ﴾.

أي: فإن أعرض هؤلاء المكذوبون، بعدما بين لهم من
 أوصاف القرآن الحميدة، ومن صفات الإله العظيم ﴿فَقُلْ
 أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً﴾ أي: عذاباً يستأصلكم ويحتاحكم، ﴿مِثْلَ
 صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ القبيلتين المعروفتين، حيث اجتاحتهم
 العذاب، وحلّ عليهم وبيل العقاب، وذلك بظلمهم وكفرهم.
 حيث ﴿جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي:
 يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتهم جميعاً واحدة ﴿أَن لَّا
 تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ أي: يأمرونهم بالإخلاص لله، وينهونهم عن
 الشرك.

فردوا رسالتهم وكذبوهم و﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾
 أي: وأما أنتم فبشّر مثلنا ﴿فَأِنَّا بِنَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كُفْرُونَ﴾ وهذه
 الشبهة لم تزل متوارثة بين المكذبين، [من الأمم]^(٢) وهي من
 أوهى الشبه، فإنه ليس من شرط الإرسال أن يكون المرسل
 ملكاً، وإنما شرط الرسالة، أن يأتي الرسول بما يدل على
 صدقه. فليُتَدَحَّحُوا إن استطاعوا بصدقهم بقادح عقلي أو

وشدتها، لها صوت مزعج، كالرعد القاصف. فسخرها الله عليهم ﴿سَجَّ لَيْلًا وَنَكِيئَةً أَيَّامًا حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا تُخَلِّ حَاوِيًا﴾، ﴿مَجَسَاتٍ﴾ فدمرتهم وأهلكتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، وقال هنا: ﴿لِنُذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ الذي اختزوا به وافترضوا بين الخليقة و﴿لِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ أي: لا ينعون من عذاب الله، ولا ينعون أنفسهم.

(١٨٠، ١٧) وَأَمَّا تُمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَجَبُوا أَعْمَىٰ عَلَىٰ أَلْدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَنِيعَةُ الْعَذَابِ آمُونًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ○ وَجَعَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْفِقُونَ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا تُمُودٌ ﴿١٨﴾ وَهِيَ الْقَبِيلَةُ الْمَعْرُوفَةُ الَّذِينَ سَكَنُوا الْحِجْرَ وَحَوَالِيَهُ، الَّذِينَ أَرْسَلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ صَالِحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ، يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ تَوْحِيدِ رَبِّهِمْ، وَيُنَاهِمُهُم عَنِ الشِّرْكِ، وَأَنَّهُمْ اللَّهُ النَّاقَةُ آيَةٌ عَظِيمَةٌ، لَهَا شَرْبٌ وَلَهُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ، يَشْرَبُونَ لَبْنَهَا يَوْمًا، وَيَشْرَبُونَ مِنَ الْمَاءِ يَوْمًا، وَلَيْسُوا يَنْفِقُونَ عَلَيْهَا، بَلْ تَأْكُلُ مِنْ أَرْضِ اللَّهِ.

ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمَّا تُمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ﴾ أي: هداية بيان، وإنما نص عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة، قد قامت عليهم الحجة، وحصل لهم البيان، لأن آية تمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأثامهم، وكانت آية مبصرة، فلها خصهم بزيادة البيان والهدى.

ولكنهم - من ظلمهم وشرهم - استجبوا العمى - الذي هو الكفر والضلال - على الهدى - الذي هو العلم والإيمان - فأخذهم العذاب بما كانوا يكسبون لا ظلمًا من الله لهم ﴿وَجَعَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْفِقُونَ﴾ أي: نجى الله صالحًا عليه السلام، ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي.

(١٩-٢٤) ﴿يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ○ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ○ وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لَمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيكَ تَرْجَعُونَ ○ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك ﴿وَلَكِن كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي قَوْمًا كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر.

وهذا الظن صار سبب هلاكهم وشقائهم، ولهذا قال: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ الظن السيء، حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله ﴿أَرَدْتُمْ﴾ أي: أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لأنفسهم، وأهليهم، وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة.

﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًىٰ لَهُمْ﴾ فلا جلدٌ عليها، ولا صبر، وكل حالة قدر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفًا، وعظم غليان حميمها، وزادت تن صديدها، وتضاعف برد زمهريرها، وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامها، وغلظ خزائنها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم. وختام ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ﴾. ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب،

ولكنهم - من ظلمهم وشرهم - استجبوا العمى - الذي هو الكفر والضلال - على الهدى - الذي هو العلم والإيمان - فأخذهم العذاب بما كانوا يكسبون لا ظلمًا من الله لهم ﴿وَجَعَلْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْفِقُونَ﴾ أي: نجى الله صالحًا عليه السلام، ومن اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك والمعاصي.

(١٩-٢٤) ﴿يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ○ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ○ وَقَالُوا لَوْلَا جُلُودُهُمْ لَمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَئِيكَ تَرْجَعُونَ ○ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي: وما كنتم تختفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك ﴿وَلَكِن كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي قَوْمًا كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر.

وهذا الظن صار سبب هلاكهم وشقائهم، ولهذا قال: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ الظن السيء، حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله ﴿أَرَدْتُمْ﴾ أي: أهلككم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لأنفسهم، وأهليهم، وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجبها لكم ظنكم القبيح بربكم، فحقت عليكم كلمة العقاب والشقاء، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب، الذي لا يفتر عنهم ساعة.

﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًىٰ لَهُمْ﴾ فلا جلدٌ عليها، ولا صبر، وكل حالة قدر إمكان الصبر عليها، فالنار لا يمكن الصبر عليها، وكيف الصبر على نار قد اشتد حرها، وزادت على نار الدنيا بسبعين ضعفًا، وعظم غليان حميمها، وزادت تن صديدها، وتضاعف برد زمهريرها، وعظمت سلاسلها وأغلالها، وكبرت مقامها، وغلظ خزائنها، وزال ما في قلوبهم من رحمتهم. وختام ذلك سخط الجبار، وقوله لهم حين يدعونه ويستغيثون: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ﴾. ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا﴾ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب،

سُورَةُ السَّجْدَةِ

٤٧٩

سُورَةُ السَّجْدَةِ

وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ يَشْهَدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٦﴾
 وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرْوْنَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾
 وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ فَمَا صَبَحْتُمْ مِنَ الْخُسْرَيْنِ ﴿٢٨﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٩﴾ * وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَيْتُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٣٠﴾ أَي: وقضينا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرْآنًا﴾ من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْوُهُمْ أَرْضًا﴾ أي: ترجعهم إلى المعاصي، وتحثهم عليها، بسبب ما زينو ﴿لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فالدنيا زخرفوها بأعينهم، ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، فأقدموا على معاصي الله، وسلكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسله والآخرة بَعُدُّوْهَا عَلَيْهِمْ وَأَنْسَوْهُمْ ذِكْرَهَا، وربما أوقعوا عليهم الشبه بعدم وقوعها، فترحلَّ خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي.

وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجودهم الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِضْ لَهُ سَطْرًا فَهُوَ لَهُ فَرِيضٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿فِي﴾ جملة ﴿أُمْرٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ لأديانهم وأخرتهم، ومن خسر فلا بد أن يذل ويشقى ويُعذب.

﴿٢٦-٢٩﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعَ لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ * فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَأْتِينَ بِمُحَدِّثِينَ أَضْلَانًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَجْعَلُهُمَا نَحْتًا أَقْدَامًا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾

الأعداء، وأوضح الحق ما شهدت به الأعداء، فإنهم لم يحكموا بغبلة لمن جاء بالحق إلا في حال الإعراض عنه والتواصي بذلك، ومفهوم كلامهم، أنهم إن لم يبلغوا فيه، بل استمعوا إليه، وألقوا أذهانهم، أنهم لا يغلّبون، فإن الحق غالب غير مغلوب، يعرف هذا أصحاب الحق وأعداؤه.

ولما كان هذا ظلماً منهم وعناداً، لم يبق فيهم مطمع للهداية، فلم يبق إلا عذابهم ونكالهم، ولهذا قال: ﴿فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. وهو الكفر والمعاصي، فإنها أسوأ ما كانوا يعملون، لكونهم يعملون المعاصي وغيرها، فالجزاء بالعقوبة، إنما هو على عمل الشر^(٢)، ﴿وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾ الذين حاربوه وحاربوا أولياءه بالكفر والتكذيب، والمجادلة والمجادلة ﴿النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ أي: الخلود الدائم، الذي لا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا هم ينصرون، وذلك ﴿جَزَاءُ مَا كَانُوا يَأْتِينَ بِمُحَدِّثِينَ﴾ فإنها آيات

ويرجعوا إلى الدنيا، ليستأنفوا العمل، ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ لأنه ذهب وقته، وعمرها ما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير، وانقطعت حجتهم، مع أن استعابهم كذب منهم ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾.

(٢٥) ﴿وَفِيضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَرَيْتُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ أي: وقضينا لهؤلاء الظالمين الجاحدين للحق ﴿قُرْآنًا﴾ من الشياطين، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْوُهُمْ أَرْضًا﴾ أي: ترجعهم إلى المعاصي، وتحثهم عليها، بسبب ما زينو ﴿لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ فالدنيا زخرفوها بأعينهم، ودعوهم إلى لذاتها وشهواتها المحرمة حتى افتتنوا، فأقدموا على معاصي الله، وسلكوا ما شاءوا من محاربة الله ورسله والآخرة بَعُدُّوْهَا عَلَيْهِمْ وَأَنْسَوْهُمْ ذِكْرَهَا، وربما أوقعوا عليهم الشبه بعدم وقوعها، فترحلَّ خوفها من قلوبهم، فقادوهم إلى الكفر والبدع والمعاصي.

وهذا التسليط والتقييض من الله للمكذبين الشياطين، بسبب إعراضهم عن ذكر الله وآياته، وجودهم الحق كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِضْ لَهُ سَطْرًا فَهُوَ لَهُ فَرِيضٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم، ونزل القضاء والقدر بعذابهم ﴿فِي﴾ جملة ﴿أُمْرٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ لأديانهم وأخرتهم، ومن خسر فلا بد أن يذل ويشقى ويُعذب.

﴿٢٦-٢٩﴾ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعَ لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ * فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ مَا كَانُوا يَأْتِينَ بِمُحَدِّثِينَ أَضْلَانًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ يَجْعَلُهُمَا نَحْتًا أَقْدَامًا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾

يخبر تعالى عن إعراض الكفار عن القرآن وتواصيهم بذلك، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعَ لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ أي: أعرضوا عنه بأسماعكم، وإياكم أن تلتفتوا، أو تصغوا إليه ولا إلى من جاء به، فإن اتفق أنكم سمعتموه، أو سمعتم الدعوة إلى أحكامه، ف ﴿الغوا فيه﴾ أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه، بل فيه المضرة، ولا تمكثوا - مع قدرتكم - أحدًا يملك عليكم الكلام به، وتلاوة الأفاظه ومعانيه. هذا لسان حالهم ولسان مقالهم في الإعراض عن هذا القرآن.

﴿لَعَلَّكُمْ﴾ إن فلعتم ذلك ﴿تَعْلَبُونَ﴾ [وهذه^(١) شهادة من

(١) في النسختين (وهذا). (٢) في ب: (الشرك).

واضح، وأدلة قاطعة مفيدة لليقين، فأعظم الظلم وأكبر العناد جحدها والكفر بها .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: الأتباع منهم، بدليل ما بعده، على وجه الحقن على من أضلهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَلَّانَا مِنَ الْحَيَاةِ وَالْآخِرَةِ﴾ أي: الصنفين اللذين قادانا إلى الضلال والعذاب، من شياطين الجنِّ وشياطين الإنس، الدعاة إلى جهنم ﴿بِمَعْمَلِهِمَا نَحْنُ أَقْدَامًا يَكُونَانِ مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ أي: الأدلن المهانين كما أضلونا وفتنونا، وصاروا سبباً لنزولنا. ففي هذا بيان حق بعضهم على بعض، وتبري بعضهم من بعض .

(٣٠-٣٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۝ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ يخبر تعالى عن أوليائه، وفي ضمن ذلك تشييطهم والحث على الاقتداء بهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ أي: اعترفوا ونطقوا، ورضوا بربوبية الله تعالى، واستسلموا لأمره، ثم استقاموا على الصراط المستقيم علماً وعملاً، فلهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الكرام، أي: يتكرر نزولهم عليهم، مبشرين لهم عند الاحتضار ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ على ما يستقبل من أمرهم، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ على ما مضى، فنفوا عنهم المكروه الماضي والمستقبل ﴿وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ فإنها قد وجبت لكم وثبتت، وكان وعد الله مفعولاً .

ويقولون لهم أيضاً - مثبتين لهم ومبشرين - : ﴿نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ يحثونهم في الدنيا على الخير، ويزينونه لهم، ويرهبونهم عن الشر، ويقبحونه في قلوبهم، ويدعون الله لهم، ويشبتونهم عند المصائب والمخاوف، وخصوصاً عند الموت وشدته، والقبور وظلمته، وفي القيامة وأحوالها، وعلى الصراط، وفي الجنة يهتتونهم بكرامة ربهم، ويدخلون عليهم من كل باب ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَدَقْتُمْ فِيمَا عَقَىٰ الدَّارُ﴾ .

ويقولون لهم أيضاً: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهَىٰ أَنْفُسُكُمْ﴾ قد أعد وهيء ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ أي: تطلبون من كل ما تتعلق به إرادتكم وتطلبونه من أنواع اللذات والمشتهيات، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر .

﴿نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾ أي: هذا الثواب الجزيل، والنعيم المقيم، نزلٌ وضيافة ﴿مِنْ غُفُورٍ﴾ غفر لكم السيئات ﴿رَحِيمٍ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٨٠

سُورَةُ السَّجْدَةِ

إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَىٰ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ فَوْلاً وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِيهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَرْتَدَّ عَنْكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسُجِّدْ لِلرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَلَا لِلشَّمْسِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ رِيبًا تَلْبِثُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣٨﴾

حيث وفقكم لفعل الحسنات، ثم قبلها منكم . فبمغفرته أزال عنكم المحذور، وبرحمته أنالكم المطلوب .

(٣٣) ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ فَوْلاً وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذا استفهام بمعنى النفي المقرر أي: لا أحد أحسن فَوْلاً . أي: كلاماً وطريقةً وحالاً ﴿وَمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ بتعليم الجاهلين، ووعظ الغافلين والمعرضين، ومجادلة المبطلين، بالأمر بعبادة الله بجميع أنواعها، والحث عليها وتحسينها مهما أمكن، والزجر عما نهى الله عنه، وتقيحه بكل طريق يوجب تركه، خصوصاً من هذه الدعوة إلى أصل دين الإسلام وتحسينه، ومجادلة أعدائه بالتي هي أحسن، والنهي عما يضاده من الكفر والشرك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومن الدعوة إلى الله، تحببه إلى عباده بذكر تفاصيل نعمه، وسعة جوده، وكمال رحمته، وذكر أوصاف كماله، ونعوت جلاله .

ومن الدعوة إلى الله الترغيب في اقتباس العلم والهدى من كتاب الله وسنته رسوله، والحث على ذلك بكل طريق موصل إليه، ومن ذلك الحث على مكارم الأخلاق، والإحسان إلى

عموم الخلق، ومقابلة المسيء بالإحسان، والأمر بصلة الأرحام، وبر الوالدين.

ومن ذلك، الوعظ لعموم الناس في أوقات المواسم والعوارض والمصائب، بما يناسب ذلك الحال، إلى غير ذلك مما لا تنحصر أفرادها، مما يشمل الدعوة إلى الخير كله، والترهيب من جميع الشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَعَمِلْ صَالِحًا﴾ أي: مع دعوته الخلق إلى الله، بادر هو بنفسه، إلى امتثال أمر الله، بالعمل الصالح الذي يُرضي ربه ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي: المتقادين لأمره، السالكين في طريقه، وهذه المرتبة تمامها للصديقين الذين عملوا على تكميل أنفسهم، وتكميل غيرهم، وحصلت لهم الورثة التامة من الرسل، كما أن من أشر الناس قولاً، مَنْ كان من دعاة الضالين^(١) السالكين لسبله.

وبين هاتين المرتبتين المتباينتين، التي ارتفعت إحداها إلى أعلى عليين، ونزلت الأخرى إلى أسفل سافلين مراتب لا يعلمها إلا الله، وكلها معمورة بالخلق ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رُبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَمْشُرُونَ﴾.

(٣٥، ٣٤) ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ وَمَا يُقْلِبُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُقْلِبُهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ أي: لا يستوي فعل الحسنات والطاعات لأجل رضا الله تعالى، ولا فعل السيئات والمعاصي التي تسخطه ولا ترضيه، ولا يستوي الإحسان إلى الخلق ولا الإساءة إليهم، لا في ذاتها، ولا في وصفها، ولا في جزائها ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾.

ثم أمر بإحسان خاص، له موقع كبير، وهو الإحسان إلى مَنْ أساء إليك فقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: فإذا أساء إليك مسيء من الخلق، خصوصاً مَنْ له حق كبير عليك، كالأقارب والأصحاب ونحوهم، إساءة بالقول أو بالفعل، فقابله بالإحسان إليه، فإن قطعك فصله، وإن ظلمك فاعف عنه، وإن تكلم فيك غائباً أو حاضراً فلا تقابله، بل اعف عنه، وعامله بالقول اللين، وإن هجرك، وترك خطابك، فطَّيَّبْ له الكلام، وابذل له السلام، فإذا قابلت الإساءة بالإحسان، حصل فائدة عظيمة. ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ أي: كأنه قريب شفيق.

﴿وَمَا يُقْلِبُهَا﴾ أي: وما يوقف لهذه الخصلة الحميدة ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ نفوسهم على ما تكره، وأجبروها على ما يحبه الله، فإن النفوس مجبولة على مقابلة المسيء بإساءته وعدم

العفو عنه، فكيف بالإحسان!؟

فإذا صَبَرَ الإنسان نفسه، وامتلأ أمر ربه، وعرف جزيل الثواب، وعلم أن مقابله للمسيء بجنس عمله، لا يفيد شيئاً، ولا يزيد العداوة إلا شدةً وأن إحسانه إليه ليس بواضع قدره، بل من تواضع لله رفعه، هان عليه الأمر، وفعل ذلك متلذذاً مستحلياً له.

﴿وَمَا يُقْلِبُهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

(٣٦-٣٩) ﴿وَمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿فَإِن اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خُضْبَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْزَلَّتْ وَرَبَّتْ ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُتَّى الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان، ذكر ما يدفع به العدو الجني، وهو الاستعاذة بالله والاحتماء من شره، فقال: ﴿وَمَا يَزْعُمُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ أي: أي وقت من الأوقات أحسست بشيء من نزغات الشيطان، أي: من وساوسه، وتزيينه للشر، وتكسيله عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ أي: أسأله مفتقراً إليه، أن يعيدك ويعصمك منه ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطرارك إلى عصمته وحمايته.

ثم ذكر تعالى أن ﴿مِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾: هذا بمنفعة ضيائه وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظلمته، وسكون الخلق فيه.

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ اللذان لا تستقيم معاش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ فإنهما مديران مسخران مخلوقان. ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، أي: اعبدوه وحده؛ لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس

(١) كذا في النسختين، ولعل الصواب (من دعاة الضلال).

منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ بِإِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله تعالى، ولم ينفادوا لها، فإنهم لن يضروا الله شيئاً، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: ﴿قَالِ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكة المقربين ﴿يُسَبِّحُونَ لَكَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ﴾ أي: لا يملون من عبادته، لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على كمال قدرته، وانفراده بالملك والتدبير والوحدانية ﴿أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَشِيعَةً﴾ أي: لا نبات فيها ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ﴾ أي: المطر ﴿أَهْرَتْ﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وَرَبَّتْ﴾ ثم أنبتت من كل زوج بهيج، فيحیی به العباد والبلاد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاهَا﴾ بعد موتها وهمودها، ﴿لَمْخِي الْمَوْتِ﴾ من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فكما لم تعجز قدرته عن إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى.

(٤٠-٤٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنُ بَلَىٰ فِي السَّمَاءِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بِنَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيْزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿الإلحاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب، بأي وجه كان، إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معاني لها ما أَرادها الله منها.

فتوعد تعالى من ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على ظاهره وباطنه، وسيجازيه على إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: ﴿أَفَنُ بَلَىٰ فِي السَّمَاءِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بِنَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ من عذاب الله مستحقاً لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير.

لما تبين الحق من الباطل، والطريق المنجي من عذابه من الطريق المهلك قال: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ إن شئتم فاسلكوا طريق الرشد الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم فاسلكوا طريق الغي المسخطة لربكم الموصلة إلى دار الشقاء.

﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم، كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾ أي: يجحدون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّا نُرِي الْأَرْضَ خَشِيعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ أَهْرَتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِينَ أَحْيَاهَا لَمَخِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَنُ بَلَىٰ فِي السَّمَاءِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي بِنَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُ عَزِيْزٌ ﴿٤٣﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٤﴾ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَقِيلُ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجْمًا لَفَلَوْنَا لُؤْلُؤًا فَفَصَلَتْ آيَاتُهُ أَتَعْجَبُ وَعَرَبِيٌّ قَلٌّ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْهُو عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُتَادَوْنَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيْبٍ ﴿٤٧﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٨﴾

والأخروية، المُعَلِّي لقدر من اتبعه ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم ﴿وَالْحَالُ إِنَّهُ لَكِنْتُ﴾ جامع لأوصاف الكمال ﴿عَزِيْزٌ﴾ أي: منيع من كل من أَرادته بتحريف أو سوء، ولهذا قال:

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والعجن، لا بسرقة ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة ولا نقص، فهو محفوظ في تنزله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزله منازل. ﴿حَمِيدٌ﴾ على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال، فلهذا كان كتابه مشتملاً على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار، التي يحمد عليها.

(٤٣) ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَقِيلُ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ﴾ أيها الرسول من الأقوال الصادرة ممن كذبك وعاندك ﴿إِلَّا مَا قَدَقِيلُ لِلرُّسُلِ مِنْ

في مكان بعيد، لا يسمع داعيًا ولا يجيب منادياً. والمقصود أن الذين لا يؤمنون بالقرآن، لا ينتفعون بهداه، ولا يصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيراً؛ لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم.

(٤٦، ٤٥) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخُتِلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ۝ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك، اختلفوا فيه؛ فمنهم مَنْ آمَنَ به واهتدى وانتفع، ومنهم مَنْ كذبه ولم ينتفع به. وإن الله تعالى لولا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجلٍ مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين، بإهلاك الكافرين في الحال؛ لأن سبب الهلاك قد وجب وحق ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي: قد بلغ بهم إلى الريب الذي يقلقهم، فلذلك كذبه وجحدوه.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة ﴿وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة.

وفي هذا حثٌّ على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع العالمين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فيحتمل أحدًا فوق سيئاته.

(٤٨، ٤٧) ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمَ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا وَعِلْمُهُ يَوْمَ يُبَادِيهِمْ آيَنَ شُرَكَائِي قَالُوا أَعَدْتُمْ لَنَا مِنْهَا مِنْ شَهِيدٍ ۚ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ نَجِيصٍ﴾ هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه فقال: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمَ السَّاعَةِ﴾ أي: جميع الخلق ترد علمها إلى الله تعالى، ويقرون بالعجز عنه، الرسل، والملائكة، وغيرهم.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار إلا وهو يعلمها تفصيلاً.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ﴾ من بني آدم وغيرهم، من أنواع الحيوانات، إلا بعلمه ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أنثى حملها ﴿إِلَّا وَعِلْمُهُ﴾. فكيف سوى المشركون به تعالى مَنْ لا علم عنده، ولا سمع ولا بصر؟

﴿يَوْمَ يُبَادِيهِمْ﴾ أي: المشركين به يوم القيامة تويحًا

قَبْلِكَ﴾ أي: من جنسها، بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد، كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسل، من دعوتهم إلى الإخلاص لله، وعبادته وحده لا شريك له، وردهم هذا بكل طريق يقدر عليهم، وقولهم: ﴿مَا آتَاكُمْ إِلَّا بِمِثْرِ مَتْنُكُمْ﴾.

واقتراحهم على رسلهم الآيات التي لا يلزمهم الإتيان بها، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب، لما تشابهت قلوبهم في الكفر تشابهت أقوالهم. وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر مَنْ قبلك.

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار على الغي فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي: عظيمة، يمحو بها كل ذنب لمن أقلع وتاب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن أصر واستكبر.

(٤٤) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا نُفِصَلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَنْعَجِمُ وَعَرَفُ قُلُوبُهُمْ لَوْلَا لَدُنَّا هَذِهِ وَشِفَاءُ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ فِي آدَانِهِمْ وَقُرٌّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يخبر تعالى عن فضله وكرمه، حيث أنزل كتابه عربيًا، على الرسول العربي، بلسان قومه ليبين لهم. وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به، والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآنًا أعجميًا بلغة غير العرب، لاعترض المكذبون وقالوا: ﴿لَوْلَا نُفِصَلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَنْعَجِمُ وَعَرَفُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: هلا بينت آياته، ووضحت وفسرت. ﴿أَنْعَجِمُ وَعَرَفُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: كيف يكون محمد عربيًا، والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون.

نفى الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الاقنياد، ولكن المؤمنون الموقنون انتفعوا به، وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم.

ولهذا قال: ﴿قُلُوبُهُمْ لَوْلَا لَدُنَّا هَذِهِ وَشِفَاءُ الَّذِي لَا يُؤْمِنُ﴾ أي: يهديهم لطريق الرشد والصرط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة، ما به تحصل الهداية التامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية، لأنه يزرع عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفى القلب.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن ﴿فِي آدَانِهِمْ وَقُرٌّ﴾ أي: صمم عن استماعه وإعراض، ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ أي: لا يبصرون به رشدًا، ولا يهتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالًا، فإنهم إذا ردوا الحق، ازدادوا عمى إلى عماهم، وغيًا إلى غيهم.

﴿أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذي ينادى وهو

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

٤٨٢

بِالْحَمْدِ لِلَّهِ

﴿٤٨﴾ إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمَ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءُئِيَ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٩﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٥٠﴾ لَا يَسْتَعْمِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاةِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤَسِّسُ قَنُوطٌ ﴿٥١﴾ وَلَئِنْ أَدْقَفْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءِ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٤﴾ سُبُّهُمْ أَلَيْسَ لَنَا الْأَلْفَاكُ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ نَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكُفَّ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٥﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ ﴿٥٦﴾

وإظهارًا لكذبهم، فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءُئِيَ﴾ الذي زعمتم أنهم شركائي، فعبدموهم وجادلتم على ذلك، وعاديتهم الرسل لأجلهم؟ ﴿قَالُوا﴾ مقرين ببطلان إلهيتهم وشركتهم مع الله: ﴿أَدْنَاكَ مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي: أعلمناك يا ربنا، واشهد علينا أنه ما مَنَّا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتها، وتبرأنا منها، ولهذا قال:

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ من دون الله، أي: ذهبت عقائدهم وأعمالهم التي أنفوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله، وظنوا أنها تفيدهم، وتدفع عنهم العذاب، وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئًا ﴿وَضَلُّوا﴾ أي: أيقنوا في تلك الحال ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي: متقذ يتقدهم، ولا مغيث، ولا ملجأ.

فهذه عاقبة مَنْ أشرك بالله غيره، بيّتها الله لعباده، ليحذروا الشرك به.

(٤٩-٥١) لَا يَسْتَعْمِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاةِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيُؤَسِّسُ قَنُوطٌ ○ وَلَئِنْ أَدْقَفْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءِ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ ○ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلا مَنْ نقله الله من هذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لَا يَسْتَعْمِلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعَاةِ الْخَيْرِ﴾ أي: لا يمل دائمًا من دعاء الله، في الغنى والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا. ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل ولا كثير منها. فلو حصل له من الدنيا ما حصل، لم يزل طالبًا للزيادة.

﴿وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ أي: المكروه، كالمرض والفقر وأنواع البلايا ﴿فَيُؤَسِّسُ قَنُوطٌ﴾ أي: ييأس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يجب ويطلب.

إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب، شكروا الله تعالى، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم استدرجًا وإمهالًا.

وإن أصابتهم مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم صبروا، ورجوا فضل ربهم، فلم ييأسوا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَدْقَفْتَهُ﴾ أي: الإنسان الذي لا ييأس من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ أي: بعد ذلك الشر الذي أصابه، بأن عافاه الله من مرضه، أو

أغناه من فقره، فإنه لا يشكر الله تعالى، بل يبغى ويطنى، ويقول: ﴿هَذَا لِي﴾ أي: أناني، لأنني له أهل وأنا مستحق له ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، وهذا إنكار منه للبعث، وكفرٌ للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له.

﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ﴾ أي: على تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، إن لي عنده للحسنى، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل [لي] في الآخرة.

وهذا من أعظم الجراءة والقول على الله بلا علم، فلهذا توعده الله بقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ أي: شديد جدًا.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ بصحة أو رزق أو غيرهما ﴿أَعْرَضَ﴾ عن ربه وعن شكره ﴿وَنَسَا﴾ أي: ترفع ﴿بِجَانِبِهِ﴾ عجبًا وتكبرًا ﴿وَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٌ﴾ أي: المرض، أو الفقر، أو غيرهما ﴿فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٌ﴾ أي: كثير جدًا، لعدم صبره، فلا صبر في الضراء، ولا شكر في الرخاء، إلا مَنْ هداه الله ومنّ عليه.

(٥٢-٥٤) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ

سُورَةُ الشُّورَى
٤٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۖ كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَنْفَطِرُنَّ مِنْ فَوْقِهِنَّ
وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبُحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِنَّ وَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي
الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ أَخَذُوا
مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ
۝ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فِرْعَانَ عَرَبِيًّا يُنذِرُ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ
حَوْلَهَا وَيُنذِرُ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فِرْقَانٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ
مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝
أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قُلْ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
إِلَى اللَّهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝

الْعَظِيمُ ۝ تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَنْفَطِرُنَّ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يَسْبُحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِنَّ وَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَالَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۝ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ فِرْعَانَ عَرَبِيًّا يُنذِرُ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَيُنذِرُ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فِرْقَانٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝ أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قُلْ اللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ يَخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ أَوْحَىٰ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ إِلَى النَّبِيِّ الْكَرِيمِ، كَمَا أَوْحَىٰ إِلَى مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، فَفِيهِ بَيَانُ فَضْلِهِ، بِإِنزَالِ الْكُتُبِ، وَإِرْسَالِ الرُّسُلِ، سَابِقًا وَوَلَا حَقًّا، وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَيْسَ بِبَدْعٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَأَنَّ طَرِيقَتَهُ طَرِيقَةٌ مِّنْ قَبْلِهِ، وَأَحْوَالُهُ تَنَاسَبُ أَحْوَالِ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ. وَمَا جَاءَ بِهِ يَشَابَهُ مَا جَاءَوا بِهِ، لِأَنَّ الْجَمِيعَ حَقٌّ وَصَدُوقٌ، وَهُوَ تَنْزِيلٌ مِّنْ تَصَفِّ بِالْأَلُوْهِةِ وَالْعِزَّةِ الْعَظِيمَةِ وَالْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ، وَأَنَّ جَمِيعَ الْعَالَمِ الْعُلُويِّ وَالسُّفْلِيِّ مَلَكَهُ وَتَحْتِ تَدْبِيرِهِ الْقُدْرِيُّ وَالشَّرْعِيُّ.

وَأَنَّ ﴿الْعَلِيُّ﴾ بِذَاتِهِ، وَقُدْرَهُ، وَقَهْرَهُ ﴿الْعَظِيمُ﴾ الَّذِي مِنْ

بِهِ مَنْ أَضَلَّ مَنَّهُ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝ سَأَرِيهَمُ أَيَّتَنَّا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِنَّ أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۝ أَي ۖ ﴿قُلْ﴾ لَهُؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ الْمَسَارِعِينَ إِلَى الْكُفْرَانِ: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ هَذَا الْقُرْآنُ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ ۖ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا ارْتِيَابٍ ۖ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ۖ مَنْ أَضَلَّ مَنَّهُ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۖ أَي: مُعَادَاةُ اللَّهِ وَرُسُلِهِ، لِأَنَّهُ تَبَيَّنَ لَكُمْ الْحَقُّ وَالصَّوَابُ، ثُمَّ عَدَلْتُمْ عَنْهُ، لَا إِلَىٰ حَقٍّ، بَلْ إِلَىٰ بَاطِلٍ وَجَهْلٍ، فَإِذَا تَكُونُونَ أَضَلَّ النَّاسِ وَأَظْلَمَهُمْ.

فَإِنْ قُلْتُمْ، أَوْ شَكَّكْتُمْ بِصِحَّتِهِ وَحَقِيقَتِهِ، فَسَيَقِيمُ اللَّهُ لَكُمْ وَيُرِيكُمْ مِنْ آيَاتِهِ فِي الْأَفَاقِ، كَالآيَاتِ الَّتِي فِي السَّمَاءِ وَفِي الْأَرْضِ، وَمَا يَحْدِثُهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ مِنَ الْحَوَادِثِ الْعَظِيمَةِ الدَّالَّةِ لِلْمُسْتَبْصِرِ عَلَى الْحَقِّ.

﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ مِمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَبْدَانُهُمْ مِنْ بَدِيعِ آيَاتِ اللَّهِ وَعَجَائِبِ صَنَعَتِهِ، وَيَا هَرَقَدْرَتِهِ، وَفِي حُلُولِ الْعُقُوبَاتِ وَالْمَثَلَاتِ فِي الْمَكْذِبِينَ، وَنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ﴾ مِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ، بَيِّنَاتٌ لَا يَقْبَلُ الشُّكَّ ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ حَقٌّ.

وَقَدْ فَعَلَ تَعَالَىٰ، فَإِنَّهُ أَرَىٰ عِبَادَهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا بِهِ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَلَكِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَوْفِقُ لِلْإِيمَانِ مَنْ شَاءَ، وَالْخَاذِلُ لِمَنْ يَشَاءُ.

﴿أَوْلَمَ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَي: أَوْلَمَ يَكْفِيهِمْ عَلَىٰ أَنَّ الْقُرْآنَ حَقٌّ، وَمَنْ جَاءَ بِهِ صَادِقٌ، بِشَهَادَةِ اللَّهِ تَعَالَىٰ، فَإِنَّهُ قَدْ شَهِدَ لَهُ بِالتَّصْدِيقِ، وَهُوَ أَصْدَقُ الشَّاهِدِينَ، وَأَيْدِيهِ وَنَصْرُهُ نَصْرًا مُتَضَمِّنًا لِشَهَادَتِهِ الْقَوْلِيَّةِ، عِنْدَ مَنْ شَكَّ فِيهَا. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِنَّ﴾ أَي: فِي شَكٍّ مِنَ الْبَعْثِ وَالْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ دَارٌ سِوَى الدَّارِ الدُّنْيَا، فَلِذَلِكَ لَمْ يَعْمَلُوا لِلْآخِرَةِ، وَلَمْ يَلْتَفِتُوا لَهَا. ﴿أَلَا إِنَّهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ عُلَمَاءُ وَقُدْرَةُ وَعِزَّةٌ.

تم تفسير سورة السجدة - بمنه تعالى -

تفسير سورة الشورى

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩-١) ﴿حَمْدٌ ۝ عَسَىٰ ۖ كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝

إياهم، فقد غلطوا أقيح غلط، فالله هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما أمكن من أنواع التقربات، ويتولى عباده عمومًا بتدبيره ونفوذ القدر فيهم. ويتولى عباده المؤمنين خصوصًا، بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم.

﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، ونفوذ المشيئة والقدرة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

(١٠-١٢) ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِن أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ لَهُ مَقَالِدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يقول تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يرد إلى كتابه، وإلى سنة رسوله، فما حكمنا به فهو الحق، وما خالف ذلك فباطل ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي﴾ أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم.

ومفهوم الآية الكريمة أن اتفاق الأمة حجة قاطعة، لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه. فما اتفقا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه، لأنها معصومة عن الخطأ. ولا بد أن يكون اتفاقها موافقًا لما في كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع، ودفع المضار، واثقا به تعالى في الإسعاف بذلك، ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: أتوجه بقلبي وبديني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان، كثيرًا ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته الكمال بفوتهما، أو فوت أحدهما، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَعْبُدُ وَإِنَّا كُنَّا نَسْتَعِينُ﴾ وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾.

﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما بقدرته ومشيئته وحكمته ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِن أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية، ويحصل لكم من النفع ما يحصل.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ أي: ومن جميع أصنافها نوعين، ذكرًا وأنثى، لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عداها باللام الدالة على التعليل: أي: جعل ذلك لأجلكم، ولأجل النعمة عليكم، ولهذا قال: ﴿يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾ أي: بينكم

عظمته ﴿كَأَدَّ السَّمَوَاتِ يَنْقُطَرْنَ﴾ من قُوَّهِنَّ ﴿على عظمها وكونها جمادًا﴾ وَالْمَلَائِكَةَ ﴿الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته، مدعون بربوبيته﴾ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴿ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال﴾ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾ عمَّا يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى ﴿هُوَ الْعَفُوُّ الرَّحِيمُ﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

وفي وصفه تعالى بهذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عمومًا، وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم - أجمعين - خصوصًا، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم، فيه من الأدلة والبراهين، والآيات الدالة على كمال الباري تعالى، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من معرفته ومحبه وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى.

وأن من أكبر الظلم وأفحش القول، اتخاذ أنداد لله من دونه، ليس يدهم نفع ولا ضرر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون الله ويطيعونه، وإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة ﴿اللَّهُ حَفِيزٌ عَلَيْهِمْ﴾ يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ فتسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أديت وظيفتك.

ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل الله ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ بين الألفاظ والمعاني ﴿لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ وهي مكة المكرمة ﴿وَمَن حَوْلَهَا﴾ من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق ﴿وَيُنذِرَ﴾ الناس ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾ الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ﴾ وهم الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، ﴿وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ وهم أصناف الكفرة المكذبين.

﴿و﴾ مع هذا فلو شاء الله لجعل الناس ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ على الهدى، لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يدخل في رحمته من شاء من خواص خلقه.

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصلاح، فإنهم محرومون من الرحمة، ف ﴿مَا لَهُمْ﴾ من دون الله ﴿وَمِنَ وَلِيِّ﴾ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب ﴿وَلَا نَصِيرَ﴾ يدفع عنهم المكروه. والذين ﴿اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يتولونهم بعبادتهم

الذي شرعه الله لهم، لا بد أن يكون مناسباً لأحوالهم، موافقاً لكمالهم، بل إنما كملهم الله واصطفاهم، بسبب قيامهم به، فلولا الدين الإسلامي، ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحي الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب.

ولهذا قال: ﴿أَنْ أَيْمُوا الَّذِينَ﴾ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى، ولا تعاونون على الإثم والعدوان ﴿وَلَا تَنَفَرُوا فِيهِ﴾ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزاباً وتكونون شيعاً، يعادي بعضكم بعضاً، مع اتفاقكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والمُجَمِّع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ أي: شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده، كما قال عنهم: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وقولهم: ﴿اجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يختار من خليقته من يعلم أنه يصلح للاجتماع لرسالته وولايته ومنه أن اجتبي هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه. فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكَ سُبُلَ السَّلَكِ﴾. وفي هذه الآية، أن الله ﴿يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ مع قوله ﴿وَأَنْتَ سَبِيلٌ مِّنْ أَنْبَاءِ إِلَى﴾ مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنابتهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصاً الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

(١٤، ١٥) ﴿وَمَا تَنَفَرُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْوَعْدُ بَعَثْنَا بِهِمُ

ويكثركم ويكثر مواشيكم بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسمائه كلها حسنى، وصفاته صفة^(١) كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثلها شيء، لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات ﴿الْبَصِيرُ﴾ يرى ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جداً، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة.

وهذه الآية ونحوها، دليل لمذاهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي مماثلة المخلوقات. وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وعلى المعطلة في قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

وقوله: ﴿لَهُمْ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له ملك السماوات والأرض، وبيده مفاتيح الرحمة والأرزاق، والنعم الظاهرة والباطنة. فكل الخلق مفتقرون إلى الله، في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، في كل الأحوال، ليس بيد أحد من الأمر شيء.

والله تعالى هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، و﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ أي: يوسع ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق على من يشاء، حتى يكون بقدر حاجته، لا يزيد عنها، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته، فلماذا قال: ﴿إِنَّهُ يَكُلُّ شَيْءٍ عَالِمٌ﴾ فيعلم أحوال عباد، فيعطي كل ما يليق بحكمته، وتقتضيه مشيئته.

(١٣) ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباد، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها؛ دين الإسلام، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباد، بل شرعه الله لخيار الخيار، وصفة الصفة وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه. فالدين

(١) كذا في النسخين، ولعل الصواب: (صفات).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ۝ فَلِذَلِكَ فَادَعُ أَهْلَ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا وَكُنَّا بِكُمْ أَعْمَلًا ۝ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝﴾
 ﴿سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ۝ فَلِذَلِكَ فَادَعُ أَهْلَ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا وَكُنَّا بِكُمْ أَعْمَلًا ۝ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝﴾
 ﴿سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ۝ فَلِذَلِكَ فَادَعُ أَهْلَ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا وَكُنَّا بِكُمْ أَعْمَلًا ۝ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝﴾

العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمته على سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب، أنهم عليه، جزء من الإسلام. وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك، لأن الكتاب الذي يدعون إليه، والرسول الذي يتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصدقاً بهذا القرآن، وبمن جاء به، فكتابنا ورسولنا لم يأمرنا، إلا بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل التي أخبر بها وصدق بها، وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته.

وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسى وعيسى، الذين لم يوصفوا لنا، ولم يوافقوا لكتابنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم. وقوله: ﴿وَأُمرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم، يا أهل الكتاب، من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم، بين أهل الأقوال المختلفة، من أهل الكتاب وغيرهم، أن يقبل ما معهم من الحق، ويرد ما معهم من الباطل ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا ﴿لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا﴾

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ۝ فَلِذَلِكَ فَادَعُ أَهْلَ الْكِتَابِ كَمَا أَمَرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا وَكُنَّا بِكُمْ أَعْمَلًا ۝ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ۝﴾
 أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنكم لا تعتروا بما أنزل الله عليكم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغياً وعدواناً منهم، فإنهم تباغضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف. فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: بتأخير العذاب القاضي ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير ذلك عنهم ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: الذين ورثوهم، وصاروا خلفاً لهم، ممن ينتسب إلى العلم منهم ﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ أي: لفي اشتباه كثير يوقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغياً وعناداً، فإن خلفهم اختلفوا شكاً وارتياباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ﴾ أي: فللدين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتبه، وأرسل رسله، فادع إليه أمتك، وحضهم عليه، وجاهد عليه من لم يقبله ﴿وَأَسْتَقِمُ﴾ بنفسك ﴿كَمَا أَمَرْتُ﴾ أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالاً لأوامر الله واجتناباً لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك. فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وتكميل غيره، بالدعوة إلى ذلك.
 ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأمته، إذا لم يرد تخصيص له.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين، إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، ولم يقل: «ولا تتبع دينهم» لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم، هو دين الرسل كلهم، ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

﴿وَقُلْ﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل

خير وشر ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: بعدما تبين الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل، لأن المقصود من الجدل، إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف والله يقول: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وإنما المراد ما ذكرنا.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ النَّصِيرُ﴾ يوم القيامة، فيجزى كلًّا بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

(١٦) ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ جَحَنَّهُمْ دَاحِضَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ وهذا تقرير لقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ فأخبر هنا أن ﴿الَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ﴾ بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُمْ﴾ أي: من بعد ما استجاب الله أولو الأبواب والعقول، لما بين لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق، من بعد ما تبين ﴿جَحَنَّهُمْ دَاحِضَةً﴾ أي: باطلة مدفوعة ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ لأنها مشتملة على رد الحق، وكل ما خالف الحق فهو باطل.

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبياناته وتكذيبها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هو أثر غضب الله عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

(١٧، ١٨) ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِكُ لَعْلَ السَّاعَةِ قَرِيبٌ ۝ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بينة، بحيث استجاب لها كل من فيه خير، ذكر أصلها وقاعدتها، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد، فقال: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ فالكتاب هو هذا القرآن العظيم، نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكله آيات بيّنات، وأدلة واضحات، على جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

وأما الميزان، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية، من الآيات الآفاقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعلل، والأحكام والحكم، داخلة في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده، ليزنوا به ما اشتبه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت رسله، فما خرج عن هذين الأمرين - عن الكتاب والميزان - مما قيل إنه حجة أو برهان أو دليل،

سُورَةُ الشُّورَى
٤٨٥
﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِكُ لَعْلَ السَّاعَةِ قَرِيبٌ ۝ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾
﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾
﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ وَشَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾
﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾

أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه.

يعرف ذلك من خبر المسائل ومآخذها، وعرف التمييز بين راجح الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه. وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة، والألفاظ المموهة، ولم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد، فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان، فوفاقه وخلافه سيان.

ثم قال تعالى مخوفًا للمستعجلين لقيام الساعة، المنكرين لها، فقال: ﴿وَمَا يُدْرِكُ لَعْلَ السَّاعَةِ قَرِيبٌ﴾ أي: ليس بمعلوم بعدها، ولا متى تقوم، فهي في كل وقت، متوقفة وقوعها، مخوف وجبتها.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ عنادًا وتكذيبًا، وتعجيزًا لربهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ أي: خائفون، لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم، لمعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ أي:

تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ومع ذلك، فنصيبه من الدنيا لا بد أن يأتيه.

﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ بأن: كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبه، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها ﴿تُؤْتِيهِ مِنْهَا﴾ نصيبه الذي قسم له ﴿وَمَا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسِرُونَ﴾ إلى آخر الآيات.

(٢١-٢٣) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِّ يَتِّمُّ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات هم ما يشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كُلَّ مَا أَسْتَلْتَهُ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرَبْ حَسَنَةً زِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يولونهم ويشتركون هم وإياهم^(١) في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس، الدعاة إلى الكفر ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم.

مع أن الدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى، ليدين به العباد، ويتقربوا به إليه، فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئاً ما جاء عن الله وعن رسوله، فكيف بهؤلاء الفسقة المشتركين هم وآباؤهم^(٢) على الكفر.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِّ يَتِّمُّ﴾ أي: لولا الأجل المسمى الذي ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه، لفضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل، لأن المقتضي للإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم. وفي ذلك اليوم ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين وجلين ﴿وَمَا كَسَبُوا﴾ أن يعاقبوا عليه.

ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه، وقد لا (١) كذا في الأصل، ولعل الصواب (هم وأولئك). (٢) كذا في الأصل، ولعل الصواب (المشركين مع آباؤهم).

بعدها امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها فهم في شقاق بعيد، أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق.

وأى بعد أبعد ممن كذب بالدار التي هي الدار على الحقيقة، وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وفضله؟ وإنما هذه الدار بالنسبة إليها، كراكب قال في ظل شجرة، ثم راح وتركها، وهي دار عبور وممر، لا محل استقرار.

فصدقوا بالدار المضمحلة الفانية، حيث رأوها وشاهدوها، وكذبوا بالدار الآخرة التي تواترت بالإخبار عنها الكتب الإلهية، والرسل الكرام وأتباعهم، الذين هم أكمل الخلق عقولاً، وأغزهم علماً، وأعظمهم فطنة وفهماً.

(١٩، ٢٠) ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ من كاذب يريد حرت الآخرة زرد لم في حريته ومن كاذب يريد حرت الدنيا تؤتية منها وما لم في الآخرة من نصيب يخبر تعالى بلطفه بعباده ليعرفوه ويحبوه، ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى، معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده - وخصوصاً المؤمنين - إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحتسبون.

فمن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلى ذلك، من فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى لملائكته الكرام، أن يثبتوا عباده المؤمنين، ويحثوهم على الخير، ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعياً لاتباعه.

ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية التي بها تقوى عزائمهم، وتنبعث هممهم، ويحصل منهم التنافس على الخير والرغبة فيه، واقتداء بعضهم ببعض.

ومن لطفه، أن قيض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها، مما يتنافس فيه أهل الدنيا، تقطع عبده عن طاعته، أو تحمله على الغفلة عنه، أو على معصيته صرفها عنه، وقدّر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: أجرها وثوابها، فأمن بها وصدق، وسعى لها سعيها ﴿زَرِدْ لَمْ فِي حَرْثِي﴾ بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة، كما قال

وصدقها، ولهذا قال: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: في التقرب إلى الله.

وعلى كلا القولين، فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألهم عليه أجرًا بالكلية، إلا أن يكون شيئًا يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وقولهم: «ما لفلان ذنب عندك، إلا أنه محسن إليك».

﴿وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿زِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ بأن يشرح الله صدره، ويسر أمره، ويكون سببًا للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ شَكُورٌ﴾ يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت، عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير، فبمغفرته يغفر الذنوب ويستر العيوب، ويشكره يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافًا كثيرة.

(٢٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِن يَشَاءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَيِّقُ الْمُنَافِقِينَ إِنَّمَا يَكْفُرُ بِنَدَاتِ الضُّمُورِ﴾ يعني أم يقول المكذوبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذبًا: ﴿افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ فرموك بأشنع الأمور وأقبحها، وهو الافتراء على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجرأون على هذا الكذب الصراح؟

بل تجرأوا بذلك على الله تعالى، فإنه قدح في الله، حيث مكث من هذه الدعوة العظيمة المتضمنة - على موجب زعمهم - أكبر الفساد في الأرض، حيث مكثه الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات، والأدلة القاهرات، والنصر المبين، والاستيلاء على من خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ، فلا يعي شيئًا ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع.

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر. ولهذا من حكمته ورحمته، وسنته الجارية، أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال.

﴿وَيُخَيِّقُ الْمُنَافِقِينَ﴾ الكونية، التي لا تغير ولا تبدل،

يقع، أخبر أنه ﴿وَإِقَاعٌ بِهِمْ﴾ العقاب الذي خافوه، لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب، من غير معارض، من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعًا فات فيه الإنظار والإمهال.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بقلوبهم بالله ويكتبه ورسله، وما جاءوا به وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يشمل فيه كل عمل صالح من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فهؤلاء ﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ أي: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض الموثقة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض المعشبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب.

رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسنًا وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقًا إلى لذاتها وودادًا ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾ فيها أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتنعم بقربه في دار كرامته؟

﴿ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: هذه البشارة العظيمة، التي هي أكبر البشائر على الإطلاق، بشر بها الرحيم الرحمن، على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل.

﴿قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه ﴿أَجْرًا﴾ فلست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والترأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾.

يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجرًا إلا أجرًا واحدًا هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني في القرابة، أي: لأجل القرابة، ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان، فإن مودة الإيمان بالرسول، وتقديم محبته على جميع المحاب بعد محبة الله، فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القرابة، لأنه ﷺ قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد، إلا ولرسول الله ﷺ فيه قرابة.

ويحتمل أن المراد إلا مودة الله تعالى الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله، والتوسل بطاعته الدالة على صحبتها

سُورَةُ الشُّورَى ٤٨٦

ذَٰلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ قَلِيلًا
 أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّرَدَّ
 لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
 كَذِبًا فَإِن يَشِءِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحْيِي الْحَقَّ
 بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ
 عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا فَعَلُوا ﴿٢٨﴾
 وَسَيَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ
 وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا
 فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُّزَلُّ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣٠﴾ وَهُوَ
 الَّذِي يُزِلُّ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ
 الْحَمِيدُ ﴿٣١﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّكَمَالِ كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَسِعَةَ جُودِهِ وَتَمَامَ
 لَطْفِهِ، بِقَبُولِ التَّوْبَةِ الصَّادِرَةِ مِنْ عِبَادِهِ حِينَ يَقْلَعُونَ عَنْ
 ذُنُوبِهِمْ، وَيَنْدَمُونَ عَلَيْهَا، وَيَعِزُّونَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَعَاوِدُوهَا، إِذَا
 قَصَدُوا بِذَلِكَ وَجَهَ رَهْمَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بَعْدَمَا انْعَقَدَتْ سَبَبًا
 لِلْهَلَاكِ، وَوَقُوعِ الْعُقُوبَاتِ الدِّيُونِيَّةِ وَالدِّيْنِيَّةِ.
 وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴿٣٢﴾ وَيَمْحُوها، وَيَمْحُو أثرها مِنْ
 الْعِيُوبِ، وَمَا اقْتَضَتْهُ مِنَ الْعُقُوبَاتِ، وَيَعُودُ النَّاسُ عِنْدَهُ
 كَرِيمًا، كَأَنَّهُ مَا عَمِلَ سَوْءًا قَطْ، وَيَجْبَهُ وَيُوقِفُهُ لَمَّا يَقْرَبَهُ إِلَيْهِ.
 وَلَمَّا كَانَتْ التَّوْبَةُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ كَامِلَةً
 بِسَبَبِ تَمَامِ الْإِحْلَاصِ وَالصَّدْقِ فِيهَا، وَقَدْ تَكُونُ نَاقِصَةً عِنْدَ
 نَقْصِهَا، وَقَدْ تَكُونُ فَاسِدَةً إِذَا كَانَ الْقَصْدُ مِنْهَا بَلُوغَ غَرَضٍ مِنْ
 الْأَغْرَاضِ الدِّيُونِيَّةِ، وَكَانَ مَحَلُّ ذَلِكَ الْقَلْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ إِلَّا
 اللَّهُ، خَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فَعَلُوا﴾.
 فَاللَّهُ تَعَالَى دَعَا جَمِيعَ الْعِبَادِ إِلَى الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّوْبَةِ مِنْ
 التَّقْصِيرِ، فَانْقَسَمُوا - بِحَسَبِ الِاسْتِجَابَةِ لَهُ - إِلَى قَسْمَيْنِ:
 مُسْتَجِيبِينَ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَسَيَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّٰلِحٰتِ﴾ أَي: يَسْتَجِيبُونَ لِرَبِّهِمْ لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ وَيَتَقَادُونَ لَهُ،
 وَيَلْبُونَ دَعْوَتَهُ، لِأَنَّ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ
 يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِذَا اسْتَجَابُوا لَهُ شَكَرَ اللَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ
 الْغَفُورُ الشُّكُورُ.
 وَزَادَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ تَوْفِيقًا وَنَشَاطًا عَلَى الْعَمَلِ، وَزَادَهُمْ
 مِضَاعَفَةً فِي الْأَجْرِ، زِيَادَةً عَنِ مَا تَسْتَحِقُّهُ أَعْمَالُهُمْ مِنَ الثَّوَابِ
 وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ.
 وَأَمَّا غَيْرُ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَهُمْ الْمَعَانِدُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ
 وَبَرَسَلَهُ، فَ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

ووعده الصادق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من
 الحق، وتثبت في القلوب، وتبصر أولي الألباب، حتى إن من
 جملة إحقاقه تعالى الحق، أن يُقَيِّضَ له الباطل ليقاومه، فإذا
 قاومه صال عليه الحق ببراهينه وبياناته، فظهر من نوره وهدايه
 ما به يضمحل الباطل وينقمع، ويتبين بطلانه لكل أحد،
 ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد.
 ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما فيها، وما اتصفت به
 من خير وشر، وما أكتته ولم تبده.

(٢٨-٢٥) ﴿هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ
 وَيَعْلَمُ مَا فَعَلُوا﴾ وَسَيَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ
 فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا
 فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُّزَلُّ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ وَهُوَ
 الَّذِي يُزِلُّ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ
 الْحَمِيدُ ﴿٣٢﴾ هَذَا بَيَانٌ لِّكَمَالِ كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَسِعَةَ جُودِهِ وَتَمَامَ
 لَطْفِهِ، بِقَبُولِ التَّوْبَةِ الصَّادِرَةِ مِنْ عِبَادِهِ حِينَ يَقْلَعُونَ عَنْ
 ذُنُوبِهِمْ، وَيَنْدَمُونَ عَلَيْهَا، وَيَعِزُّونَ عَلَىٰ أَنْ لَا يَعَاوِدُوهَا، إِذَا
 قَصَدُوا بِذَلِكَ وَجَهَ رَهْمَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بَعْدَمَا انْعَقَدَتْ سَبَبًا
 لِلْهَلَاكِ، وَوَقُوعِ الْعُقُوبَاتِ الدِّيُونِيَّةِ وَالدِّيْنِيَّةِ.
 وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴿٣٢﴾ وَيَمْحُوها، وَيَمْحُو أثرها مِنْ
 الْعِيُوبِ، وَمَا اقْتَضَتْهُ مِنَ الْعُقُوبَاتِ، وَيَعُودُ النَّاسُ عِنْدَهُ
 كَرِيمًا، كَأَنَّهُ مَا عَمِلَ سَوْءًا قَطْ، وَيَجْبَهُ وَيُوقِفُهُ لَمَّا يَقْرَبَهُ إِلَيْهِ.

ثم ذكر أن من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة
 تضر بأديانهم فقال: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾
 أي: لغفلوا عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات
 الدنيا، فأوجبت لهم الإكباب على ما تشتهيه نفوسهم، ولو
 كان معصية وظلمًا.
 ﴿وَلَٰكِن يُّزَلُّ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته
 ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ كما في بعض الآثار أن الله تعالى
 يقول: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو
 أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا
 الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح
 إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي
 من لا يصلح إيمانه إلا المرض، ولو عاقبته لأفسده ذلك، إني
 أدير أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خبير بصير».
 ﴿هُوَ الَّذِي يُزِلُّ الْغَيْثَ﴾ أي: المطر الغزير الذي به يغيث
 البلاد والعباد، ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ وانقطع عنهم مدة، ظنوا
 أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجذب أعمالًا، فينزله
 الله الغيث ﴿وَيَنْشُرُ﴾ به ﴿رَحْمَتَهُ﴾ من إخراج الأقوات للادميين

للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية.
 وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴿٣٢﴾ وَيَمْحُوها، وَيَمْحُو أثرها مِنْ
 الْعِيُوبِ، وَمَا اقْتَضَتْهُ مِنَ الْعُقُوبَاتِ، وَيَعُودُ النَّاسُ عِنْدَهُ
 كَرِيمًا، كَأَنَّهُ مَا عَمِلَ سَوْءًا قَطْ، وَيَجْبَهُ وَيُوقِفُهُ لَمَّا يَقْرَبَهُ إِلَيْهِ.
 وَلَمَّا كَانَتْ التَّوْبَةُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ كَامِلَةً
 بِسَبَبِ تَمَامِ الْإِحْلَاصِ وَالصَّدْقِ فِيهَا، وَقَدْ تَكُونُ نَاقِصَةً عِنْدَ
 نَقْصِهَا، وَقَدْ تَكُونُ فَاسِدَةً إِذَا كَانَ الْقَصْدُ مِنْهَا بَلُوغَ غَرَضٍ مِنْ
 الْأَغْرَاضِ الدِّيُونِيَّةِ، وَكَانَ مَحَلُّ ذَلِكَ الْقَلْبِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ إِلَّا
 اللَّهُ، خَتَمَ هَذِهِ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فَعَلُوا﴾.
 فَاللَّهُ تَعَالَى دَعَا جَمِيعَ الْعِبَادِ إِلَى الْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَالتَّوْبَةِ مِنْ
 التَّقْصِيرِ، فَانْقَسَمُوا - بِحَسَبِ الِاسْتِجَابَةِ لَهُ - إِلَى قَسْمَيْنِ:
 مُسْتَجِيبِينَ وَصَفَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿وَسَيَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّٰلِحٰتِ﴾ أَي: يَسْتَجِيبُونَ لِرَبِّهِمْ لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ وَيَتَقَادُونَ لَهُ،
 وَيَلْبُونَ دَعْوَتَهُ، لِأَنَّ مَا مَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ
 يَحْمِلُهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَإِذَا اسْتَجَابُوا لَهُ شَكَرَ اللَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ
 الْغَفُورُ الشُّكُورُ.
 وَزَادَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ تَوْفِيقًا وَنَشَاطًا عَلَى الْعَمَلِ، وَزَادَهُمْ
 مِضَاعَفَةً فِي الْأَجْرِ، زِيَادَةً عَنِ مَا تَسْتَحِقُّهُ أَعْمَالُهُمْ مِنَ الثَّوَابِ
 وَالْفَوْزِ الْعَظِيمِ.
 وَأَمَّا غَيْرُ الْمُسْتَجِيبِينَ لِلَّهِ وَهُمْ الْمَعَانِدُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِ
 وَبَرَسَلَهُ، فَ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

وبهائمهم، فيقع عندهم موقعا عظيما، ويستبشرون بذلك ويفرحون، ﴿وَهُوَ أَلْوَنُ﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم، ﴿الْحَكِيمُ﴾ في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الأفضال.

(٢٩) ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم ﴿خَلْقُ﴾ هذه ﴿السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتقان والإحكام دال على حكمته، وما فيهما من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة.

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالح ومنافع لعباده، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ فقدرته ومشيئته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

(٣٠، ٣١) ﴿وَمَا أَصْبَحْتُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿يخبر تعالى أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم، وأموالهم وأولادهم، وفيما يحبون، ويكون عزيزا عليهم، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبَةٍ﴾ وليس إهمالا منه تعالى تأخير العقوبات ولا عجزا.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يتولاكم، فيحصل لكم المنافع ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفع عنكم المضار.

(٣٢-٣٥) ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ إن يَشَاءُ يُسْكِنُ الرِّيحَ فَيَظْلَنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبْنَ وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِجْبٍ ﴿أي: ومن أدلة رحمته، وعنايته بعباده ﴿الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ﴾ من السفن، والمراكب النارية والشراعية التي من عظمها ﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ وهي الجبال الكبار، التي سخر

لها البحر العجاج، وحفظها من النظام الأمواج، وجعلها تحملكم وتحمل أمتعتكم الكثيرة، إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة على ذلك. ثم نبه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إِنْ يَشَاءُ يُسْكِنُ الرِّيحَ﴾ التي جعلها الله سببا لمشيها ﴿فَيَظْلَنَ﴾ أي: الجوار ﴿رَوَاكِدَ﴾ ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ينتفض هذا بالمراكب النارية، فإن من شرط مشيها وجود الريح.

وإن شاء الله تعالى أوبق الجوار، بما كسب أهلها، أي: أغرقها في البحر وأثقلها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها، فيكرهها عليه، من مشقة طاعة، أو رددع داع إلى معصية، أو رددع نفسه عند المصائب عن التسخط، ﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء وعند النعم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي ينتفع بآيات الله.

وأما الذي لا صبر عنده، ولا شكر له على نعم الله، فإنه مُعْرِضٌ أو معاند، لا ينتفع بالآيات.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ ليبتلوا بباطلهم ﴿مَا لَهُمْ مِنْ حِجْبٍ﴾ أي: لا يتقدمهم منقذ مما حل بهم من العقوبة.

(٣٦-٣٩) ﴿فَمَا أُوَيْدْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَنَعْتَجُوهَ الْدُنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ حَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوْحَشِ وَإِذَا مَا عَصَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَبُونَ﴾ هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال: ﴿فَمَا أُوَيْدْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من ملك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية ﴿فَنَعْتَجُوهَ الْدُنْيَا﴾ لذة منغصة منقطعة ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم ﴿حَيْرٌ﴾ من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما ﴿وَأَبْقَى﴾ لأنه نعيم لا منغص فيه ولا كدر، ولا انتقال.

ثم ذكر لمن هذا الثواب فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان الصحيح، المستلزم لأعمال الإيمان الظاهرة والباطنة، وبين التوكل الذي هو الآلة لكل عمل، فكل عمل لا يصحبه التوكل فغير تام، وهو الاعتماد بالقلب على الله في جلب ما يحبه العبد، ودفع ما يكرهه مع الثقة به تعالى.

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوْحَشِ﴾ والفرق بين الكبائر

والفواحش - مع أن جمعهما كباثر - أن الفواحش هي الذنوب الكبار التي في النفوس داع إليها، كالزنا ونحوه، والكباثر ما ليس كذلك، هذا عند الاقتران، وأما مع إفراد كل منهما عن الآخر فإن الآخر يدخل فيه.

﴿وَإِذَا مَا عَصَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ﴾ أي: قد تخلقوا بكمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، فصار الحلم لهم سجية، وحسن الخلق لهم طبيعة، حتى إذا أغضبهم أحد بمقاله أو فعاله، كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه، بل غفروه، ولم يقابلوا المسيء إلا بالإحسان والعفو والصفح.

فترتب على هذا العفو والصفح، من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ٥ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾.

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ أي: انقادوا لطاعته، ولَبَّوْا دعوته، وصار قصدهم رضوانه، وغايتهم الفوز بقربه.

ومن الاستجابة لله إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فلذلك عطفها على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، الدال على شرفه وفضله فقال: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: ظاهرها وباطنها، فرضها ونفلها، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾ من النفقات الواجبة، كالزكاة والنفقة على الأقارب ونحوهم، والمستحبة، كالصدقات على عموم الخلق.

﴿وَأَرْحَمُهُمُ﴾ الديني والديني ﴿شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعاً عن اجتماعهم، وتوافقهم وتواددهم وتحاببهم، وكمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمراً من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها، اجتمعوا لها وتشاوروا وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها، وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء، أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عموماً، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ أي: وصل إليهم من أعدائهم ﴿هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ لقوتهم وعزتهم، ولم يكونوا أذلاء عاجزين عن الانتصار.

فوصفهم بالإيمان، والتوكل على الله، واجتناب الكباثر والفواحش الذي تكفر به الصغائر، والانقياد التام، والاستجابة لربهم، وإقامة الصلاة، والإنفاق في وجوه

﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٤٢) ﴿إِنْ يَشَاءُ يُسَكِّنِ الرِّيحَ فَيَظَلُّنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ (٤٣) ﴿وَإِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ (٤٤) ﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ يَمَا كَسِبْنَ وَأَعِيفُنَّ كَثِيرٌ﴾ (٤٥) ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ حِصْحٍ﴾ (٤٦) ﴿فَأَوْتَيْنَهُمْ مِنْ نَفْسٍ وَفَنَعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْنَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٤٧) ﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرًا إِلَّا تُمُّ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا عَصَبُوا لَهُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (٤٨) ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾ (٤٩) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصَرُونَ﴾ (٥٠) ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٥١) ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٥٢) ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (٥٣) ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٥٤) ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّنْ سَبِيلٍ﴾ (٥٥)

الإحسان، والمشاورة في أمورهم، والقوة والانتصار على أعدائهم، فهذه خصال الكمال قد جمعوها، ويلزم من قيامها فيهم فعل ما هو دونها، وانتفاء ضدها.

(٤٣-٤٠) ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٥ وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ٥ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٥ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ ذكر الله في هذه الآية مراتب العقوبات، وأنها على ثلاث مراتب: عدل وفضل وظلم.

فمرتبة العدل: جزاء السيئة بسيئة مثلها، لا زيادة ولا نقص، فالنفس بالنفس، وكل جارحة بالجارحة المماثلة لها، والمال يضمن بمثله.

ومرتبة الفضل: العفو والإصلاح عن المسيء، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ يجزيه أجراً عظيماً وثواباً كثيراً، وشرط الله في العفو الإصلاح فيه، ليدل ذلك على أنه إذا كان الجاني لا يليق العفو عنه، وكانت المصلحة الشرعية تقتضي عقوبته، فإنه في - هذه الحال - لا يكون مأموراً به،

وفي جعل أجر العافي على الله ما يهيج على العفو، وأن يعامل العبد الخلق بما يحب أن يعامله الله به، فكما يحب أن يعفو الله عنه، فَلْيَعْفُ عَنْهُمْ، وكما يحب أن يسامحه الله، فليسامحهم، فإن الجزء من جنس العمل.

وأما مرتبة الظلم فقد ذكرها بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يجنون على غيرهم ابتداء، أو يقابلون الجاني بأكثر من جنائته، فالزيادة ظلم.

﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أي: انتصر ممن ظلمه بعد وقوع الظلم عليه ﴿فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: لا حرج عليهم في ذلك.

ودل قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ﴾ وقوله: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ أنه لا بد من إصابة البغي والظلم ووقوعه.

وأما إرادة البغي على الغير، وإرادة ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديباً يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دماءهم وأموالهم وأعراضهم، ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجع للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿وَلَمَنِ صَبَرَ﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وَعَفَرَ﴾ لهم، بأن سمح لهم عمّا يصدر منهم ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأحبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والحفظ العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلتها بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك. ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

(٤٤-٤٦) ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾ وَرَبِّ الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ○ وَرَبُّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا حَشِيعِينَ مِّنَ الدُّنْيَا يُنظَرُونَ مِّن طَرَفٍ حَقِّي وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ○ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يُصْرُونَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا

لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنه ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ بسبب ظلمه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾ يتولى أمره ويهديه.

﴿وَرَبِّ الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ مرأى ومنظراً فظيماً، صعباً شنيعاً، يظهر الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم و ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

﴿وَرَبُّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار ﴿حَشِيعِينَ مِّنَ الدُّنْيَا﴾ أي: ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم، ﴿يُنظَرُونَ مِّن طَرَفٍ حَقِّي﴾ أي: ينظرون إلى النار مسارقة وشزرراً، من هيبتها وخوفها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ حين ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم: ﴿إِنَّ الْخَسِرِينَ﴾ على الحقيقة ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ حيث فوتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهلهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم، ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: في سوائه ووسطه، منغمرين لا يخرجون منه أبداً، ولا يفتر عنهم وهم فيه ملبسون.

﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِّنْ أَوْلِيَاءَ يُصْرُونَهُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ كما كانوا في الدنيا يمتنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملوها تقطعت، وأنه حين جاءهم عذاب الله لم يدفع عنهم، ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ تحصل به هدايته، فهو لاء ضلوا حين زعموا في شركائهم النفع، ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم.

(٤٧، ٤٨) ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْفَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِّنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِّن مَّلَاجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكَيرٍ ○ فَإِن أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِن عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَجَحَّ بِهَا وَإِن نُّصِيبَهُمْ سَيِّئَةً يَمَا قَدَمَتْ أَيْدِيَهُمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامتنال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك، وعدم التسويف من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفائت. وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه؛ فيفوت ربه، ويهرب منه.

بل قد أحاطت الملائكة بالخليقة من خلفهم، ونودوا ﴿يَسْمَعُونَ الْهَيْجُ وَالْإِنسَانِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِن أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُوا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. وليس للعبد في ذلك

اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه .

وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات .

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾ عما جتتهم به بعد البيان التام ﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تحفظ أعمالهم وتساءل عنها، ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ إذا أدبت ما عليك، فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها .

ثم ذكر تعالى حالة الإنسان، وأنه إذا أذاقه الله رحمة، من صحة بدن ورزق رغد، وجاه ونحوه ﴿فَرِحَ بِهَا﴾ أي: فرح فرحًا مقصورًا عليها، لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأننته بها، وإعراضه عن المنعم .

﴿وَإِنْ نُصِيبُهمْ سَيِّئَةً﴾ أي: مرض، أو فقر، أو نحوهما ﴿يَمَّا فَدَمَّتْ أَيْدِيهمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السيئة .

(٤٩، ٥٠) ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ۝ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِشَاءً وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق لما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، حتى إن تدبيره تعالى، من عمومه، أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد، فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد، فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء .

فمن الخلق مَنْ يهب له إناثًا، ومنهم مَنْ يهب له ذكورا، ومنهم مَنْ يزوجه، أي: يجمع له ذكورا وإناثًا، ومنهم مَنْ يجعله عقيماً لا يولد له .

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، فيتصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، وبقدرته في مخلوقاته .

(٥١-٥٣) ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه. إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ۝ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مِنْ نُشَاءِ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَىٰ اللَّهِ تُصِيرُ الْأُمُورَ﴾ لما قال المكذوبون لرسول الله، الكافرون بالله: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ﴾ من كبرهم وتجبرهم، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه، للأنبياء والمرسلين، وصفوته من

الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الذَّلِيلِ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُنصِرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لِغَيْرِ سَبِيلٍ ﴿٥٠﴾ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُم مِّنْ مَّلَاجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّكِيرٍ ﴿٥١﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلَّا أَلْبَلَاغٌ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَافَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٥٢﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ ﴿٥٣﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنِشَاءً وَيَجْعَلُ مِنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٤﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه. إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥٥﴾

العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه :

إما أن يكلمه الله وحياً بأن يلقي الوحي في قلب الرسول، من غير إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاهاً .

﴿أَوْ﴾ يكلمه منه شفاهاً، لكن ﴿مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾ كما حصل لموسى بن عمران، كلم الرحمن .

﴿أَوْ﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي فد ﴿يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة ﴿فَيُوحِيَ بآذنيه﴾ أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه .

﴿إِنَّهُ﴾ تعالى علي الذات علي الأوصاف، عظيمها، علي الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات ﴿حَكِيمٌ﴾ في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع .

﴿وَكَذَلِكَ﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحاً، لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير، والعلم الغزير .

وهو محض منة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير

سبب منهم، ولهذا قال: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾ أي: قبل نزوله عليك ﴿مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أمياً لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿جَعَلْتَهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المرديّة، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم.

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: تبينه لهم وتوضحه، وتبهره وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه، ثم فسّر الصراط المستقيم فقال:

﴿صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَأْمُرْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازي كلّاً بحسب عمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

تم تفسير سورة الشورى - والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على تيسيره وتسهيله.

تفسير سورة الزخرف

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿حَمِّمٌ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَلْبَابِ لَدِينًا وَعَلَىٰ حَكِيمٍ ۝ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والآخرة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ هذا المقسم عليه، أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه، وذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: هذا الكتاب ﴿لَدِينًا﴾ في الملاء الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لعلّي في قدره وشرفه ومحله، حكيم فيما يشتمل عليه، من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان. ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده هملاً، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، ولو

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْأَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٦﴾

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمِّمٌ ﴿١﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُ فِي أُولَى الْأَلْبَابِ لَدِينًا وَعَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَيْنَ سَأَلْنَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمُ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾

كانوا مسرفين ظالمين فقال: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أي: أفنعرض عنكم، وترك إنزال الذكر إليكم، ونضرب عنكم صفحاً، لأجل إعراضكم وعدم انقيادكم له؟ بل ننزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كل شيء، فإن أمتتم به واهتديتم، فهو من توفيقكم، وإلا قامت عليكم الحجة، وكنتم على بينة من أمركم.

(٦-٨) ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝ فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ يقول تعالى: إن هذه سنتنا في الخلق، أن لا نتركهم هملاً، فكم ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ يأمرونهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجوداً في الأمم.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ جحدًا لما جاء به، وتكبراً على الحق.

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ﴾ من هؤلاء ﴿بَطْشًا﴾ أي: قوة، وأفعالاً واثاراً في الأرض، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت أمثالهم وأخبارهم، وبيننا لكم منها ما فيه عبرة ومزدجر عن التكذيب والإنكار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٤٩٠

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشَرَنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا
 كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
 لَكُمْ مِنَ النَّفْلِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ
 ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ
 الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا لَإِن رَّبَّنَا
 لَمُسْقِلُونَ ﴿١٤﴾ وَجَعَلُوا اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّا لِلْإِنسٰنِ
 لَكٰفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفٰنَكُمْ
 بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلًا
 ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ ﴿١٧﴾ أَوْ مِنْ يَنْشَوُافِ
 الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَابِ غَيْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ
 الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنثًا أَشْهَادًا خَلَقَهُمْ سَتَكِنِبُ
 شَهَدَتُهُمْ وَيَسْتَلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ
 مَا لَهُمْ بِذٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِن هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ أَلَيْسَتْ
 كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهَمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوا
 إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾

والمقصود من هذا، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره،
 من إفاضة النعم على العباد، هو الذي يستحق أن يعبد،
 ويصلى له ويسجد.

(١٥-٢٥) ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسٰنَ لَكٰفُورٌ
 مُّبِينٌ ۝ أَمْ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفٰنَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ
 أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ ۝
 أَوْ مِنْ يَنْشَوُافِ فِي الْحَلِيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَابِ غَيْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَجَعَلُوا
 الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمٰنِ إِنثًا أَشْهَادًا خَلَقَهُمْ سَتَكِنِبُ
 شَهَدَتُهُمْ وَيَسْتَلُونَ ۝ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمٰنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ مَا لَهُمْ بِذٰلِكَ
 مِنْ عِلْمٍ إِن هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝ أَمْ أَلَيْسَتْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهَمْ بِهِ
 مُسْتَمْسِكُونَ ۝ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ
 مُّهْتَدُونَ ۝ وَكَذٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفًا
 إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ۝ قُلْ أُولٰٓئِكَ
 جَحْتِكُمْ يُأْتِدْنَ وَمَا وَدِدْتُمْ عَلَيْهِمْ آثَابًا قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
 كٰفِرُونَ ۝ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ يخبر
 تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولداً،
 وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا

(٩-١٤) ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
 خَلَقْنَاهُنَّ الْعَزِيْزُ الْعَلِيْمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ مَهْدًا وَجَعَلَ
 لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 يَقْدِرُ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ
 كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ النَّفْلِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ
 ثُمَّ تَذَكَّرُوا نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ
 لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا لَإِن رَّبَّنَا لَمُسْقِلُونَ﴾ يخبر تعالى
 عن المشركين، أنك لو ﴿سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ
 لَيَقُولُنَّ﴾ الله وحده لا شريك له، العزيز الذي دانت لعزته جميع
 المخلوقات، العليم بظواهر الأمور وبواطنها وأوائها
 وأواخرها، فإذا كانوا مقرين بذلك، فكيف يجعلون له الولد
 والصاحبة والشريك؟! وكيف يشركون به مَنْ لَا يَخْلُقُ وَلَا
 يَرْزُقُ، وَلَا يُمَيَّتُ وَلَا يُحْيِي! .

ثم ذكر أيضاً، من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره،
 بما خلقه لعباده من الأرض التي مهدها وجعلها قراراً للعباد،
 يتمكنون فيها من كل ما يريدون.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: جعل منافذ بين سلاسل
 الجبال المتصلة، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار
 ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في السير في الطرق ولا تضيعون،
 ولعلكم تهتدون أيضاً في الاعتبار بذلك والادكار فيه.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ﴾ لا يزيد ولا ينقص،
 ويكون أيضاً بمقدار الحاجة، لا ينقص بحيث لا يكون فيه
 نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد، بل أغاث به العباد،
 وأنقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال: ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا﴾
 أي: أحييناها بعد موتها ﴿كَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: فكما أحيأ
 الأرض الميتة الهامدة بالماء، كذلك يحييكم بعدما تستكملون
 في البرزخ، ليجازيكم بأعمالكم.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: الأصناف جميعها، مما
 تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، من ليل ونهار،
 وحر وبرد، وذكر وأنثى، وغير ذلك ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ النَّفْلِ
 أَي: السفن البحرية، الشراعية والنارية ما تركبون ﴿و﴾ من
 ﴿الأنعام ما تركبون ۝ لَيْسَتُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ وهذا شامل لظهور
 الفلك ولظهور الأنعام، أي: لتستقروا عليها، ﴿ثُمَّ تَذَكَّرُوا
 نِعْمَةً رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها،
 والثناء عليه تعالى بذلك، ولهذا قال: ﴿وَتَقُولُوا سُبْحٰنَ الَّذِي
 سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أي: لولا تسخيرها لنا ما
 سخر من الفلك والأنعام، ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه،
 ولكن من لطفه وكرمه تعالى، وسخرها وذلها ويسر أسبابها.

ثم قال: ﴿أَمْ أَدَّبْتُم مِّن قَبْلِهِ فَمَبِيهُم مِّن قَبْلِهِ فَمَبِيهُم مِّن قَبْلِهِ فَمَبِيهُم مِّن قَبْلِهِ﴾
يخبرهم بصحة أفعالهم، وصدق أقوالهم؟.

ليس الأمر كذلك، فإن الله أرسل محمداً نذيراً إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره. أي: فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى الأوامر، فلا تم إلا الباطل.

نعم، لهم شبهة من وهى الشبهة، وهي تقليد آبائهم الضالين الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: على دين وملة ﴿وإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّهْتَدُونَ﴾ أي: فلا تتبع ما جاء به محمد ﷺ.

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا﴾ أي: منعموها، وملاها الذين أطعتمهم الدنيا، وغرتهم الأموال، واستكبروا على الحق: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ أي: فهؤلاء ليسوا ببدع منهم، وليسوا بأول من قال هذه المقالة.

وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل.

ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: ﴿أَوَلَمْ يَجْعَلْ لَّيَدَيْهِ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ أي: فهل تتبعوني لأجل الهدى؟ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ فعلم بهذا، أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الباطل والهوى.

﴿فَأَنقَمْنَا مِنْهُم بِتَكْذِيبِهِمُ الْحَقَّ، وردداهم إياه بهذه الشبهة الباطلة ﴿فَأَنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيصيبهم ما أصابهم.

(٢٦-٣٢) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ○ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ○ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ○ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ○ بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَيَاتًا مَّا جَاءَهُمُ الْخُلُقُ ○ وَرَسُولٌ مِّنْهُمْ ○ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْخُلُقُ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ○ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ ○ أَهَرُّ يَسْمُونُ ○ رَحِمَتْ رَبِّكَ إِذْ نَحْنُ قَسَمًا بَيْنَهُمْ مَّعِشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ○ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ سَخِرِيًّا ○ وَرَحِمَتْ رَبِّكَ إِذْ نَحْنُ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يخبر تعالى عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، الذي ينتسب إليه أهل الكتاب والمشركون، وكلهم يزعم أنه على طريقته، فأخبر عن دينه الذي ورثه في ذريته فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ﴾ الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم، ويتقربون إليهم:

﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ أي: مبغض له، مجتنب معاد

ولداً، ولم يكن له كفواً أحد. وإن ذلك باطل من عدة أوجه: منها: أن الخلق كلهم عباده، والعبودية تنافي الولادة.

ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه، مباين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فمحال أن يكون لله تعالى ولد.

ومنها: أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين، فكيف يكون لله البنات، ويصطفيهن بالبنين، ويفضلهن بها؟ فإذا يكونون أفضل من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومنها: أن الصنف الذي نسبوه لله، وهو البنات، أدون الصنفين، وأكرههما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك ﴿إِذَا بُرِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ من كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون الله ما يكرهون؟.

ومنها: أن الأئمة ناقصة في وصفها، وفي منطقتها وبيانها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوْ مَن يُشْرِكُ فِي آلِهَتِي﴾ أي: يجمل فيها، لنقص جماله، فيجمل بأمر خارج عنه؟ ﴿وَهُوَ فِي الْخُصَاةِ﴾ أي: عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام ﴿عَبْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: غير مبين لحجته، ولا مفسح عما احتوى عليه ضميره، فكيف ينسبون لله تعالى؟.

ومنها: أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناناً فتجروا على الملائكة، العباد المقربين، ورفوهم عن مرتبة العبادة والذل، إلى مرتبة المشاركة لله، في شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنثوية، فسيحان من أظهر تناقض من كذب عليه، وعاند رسله.

ومنها: أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله لملائكته، فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد، أنه ليس لهم به علم؟ ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم، ويعاقبون عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها عقلاً وشرعاً، فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه.

وأما شرعاً فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله، فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلاً، ولهذا قال هنا: ﴿مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يتخرصون تخرصاً لا دليل عليه، ويتخبطون خبط عشواء.

لأهله ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ فإني أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل بالحق، فكما فطرني ودبرني بما يصلح بدني ودنياي فـ ﴿سَيِّدِينَ﴾ لما يصلح ديني وآخرتي.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: هذه الخصلة الحميدة التي هي أم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبري من عبادة ما سواه.

﴿كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أي: ذريته ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ إليها ﴿يَرْجِعُونَ﴾ لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيه - كإسحاق ويعقوب - لبعض، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْجِعْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ إلى آخر الآيات.

فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والظغيان.

فقال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَذِهِ وَاَبَاءَهُمْ﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهم ونهاية مقصودهم، فلم تزل يتربي حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة ﴿حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه، ولا مرية ولا اشتباه ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قيامًا باهرًا، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وبفس دعوته ﷺ.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فإنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جعده، فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحًا شنيعًا، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أحببت الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك طغيانهم بما متعهم الله به وآباءهم.

﴿وَقَالُوا﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْيَةِ عَظِيمٍ﴾ أي: معظم عندهم، مبعث من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

قال الله ردًا لاقتراحهم: ﴿أَهْرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ أي: أهم الخزان لرحمة الله، ويدهم تديريها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاءون، ويمنعونها ممن يشاءون؟.

﴿مَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ أي: في الحياة الدنيا، ﴿وَالْحَالُ أَن رَّحِمْتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من الدنيا.

فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، هو الذي يقسمها بين عباده، فيسقط الرزق على من يشاء،

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٦﴾
 قُلْ أُولُو حِجَّتِكُمْ بَأْهَدَىٰ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُكذِبِينَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأبيه وَقَوْمه إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَذِهِ وَاَبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْيَةِ عَظِيمٍ ﴿٣٤﴾ أَهْرُ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ مَنْ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا وَرَحْمَتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا مَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُضِلَّهُمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٦﴾

ويضيقه على من يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمر كلها، دينها ودنيوها، بيد الله وحده، هذا إقناع لهم من جهة غلطهم في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم وردٌ للحق.

وقولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْيَةِ عَظِيمٍ﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هو أعظم الرجال قدرًا، وأعلاهم فخرًا، وأكملهم عقلًا، وأغزهم علمًا، وأجلهم رأيًا، وعزماً وحزمًا، وأكملهم خلقًا، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه، فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم

مثقال ذرة من كماله؟!

ومن جرمة ومنتهى حمقه، أن جعل إلهه الذي يعده ويدعوه ويتقرب إليه، صنماً، أو شجرًا، أو حجرًا، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كلُّ على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فعل السفهاء والمجانين؟.

كيف يجعل مثل هذا عظيمًا؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا ﴿لِيَسْخَذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ أي: ليسخر بعضهم بعضًا في الأعمال والحرف والصنائع.

فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتاج بعضهم إلى بعض، لتعطل كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدينية خيرٌ من النعمة الدنيوية، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾.

(٣٣-٣٥) ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾
﴿وَلِيُؤْتِيَهُمْ آيَاتٍ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾
﴿وَزُخْرَفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئًا، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئًا، لو سَّخَّ الدنيا على الذين كفروا توسيعًا عظيمًا، ولجعل: ﴿لِيُؤْتِيَهُمْ سُقْفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ أي: درجًا من فضة. ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ إلى سطوحهم.

﴿وَلِيُؤْتِيَهُمْ آيَاتٍ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ﴾ من فضة، ولجعل لهم ﴿زُخْرَفًا﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون.

ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفًا عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي، بسبب حب الدنيا.

ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعا عامًا أو خاصًا لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، منغصة، مكدره، فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، لأن نعيمها تام كامل من كل وجه، وفي الجنة ما تشبهه الأنفس وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون، فما أشد الفرق بين الدارين!!

(٣٦-٣٩) ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقِيضٌ لِمُ سَيِّطَلْنَا فَهُوَ لِمُ

قَرِينٌ﴾
﴿وَأَنْتُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾
﴿وَإِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرِينُ﴾
﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ يخبر تعالى عن عقوبته البليغة لمن أعرض عن ذكره، فقال: ﴿وَمَنْ يَعِشْ﴾ أي: يعرض ويصد ﴿عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ الذي هو القرآن العظيم، الذي هو أعظم رحمة رحم بها الرحمن عباده، فمن قبلها فقد قبل خير المواهب، وفاز بأعظم المطالب والرغائب، ومن أعرض عنها وردها، فقد خاب وخسر خسارة لا يسعد بعدها أبدًا، وقيض له الرحمن شيطانًا مريدًا يقارنه ويصاحبه، ويعده ويمينه، ويؤزه إلى المعاصي أژًا.

﴿وَأَنْتُمْ لِيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: الصراط المستقيم، والدين القويم، ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ بسبب تزيين الشيطان للباطل وتحسينه له، وإعراضهم عن الحق، فاجتمع هذا وهذا.

فإن قيل: فهل لهذا من عذر، من حيث إنه ظن أنه مهتد، وليس كذلك؟.

قيل: لا عذر لهذا وأمثاله، الذين مصدر جهلهم الإعراض عن ذكر الله، مع تمكنهم [من] (١) الاهتداء.

فزهدوا في الهدى مع القدرة عليه، ورغبوا في الباطل، فالذنب ذنبهم، والجرم جرمهم.

فهذه حالة هذا المعرض عن ذكر الله في الدنيا، مع قرينه، وهو الضلال والغي، وانقلاب الحقائق.

وأما حاله، إذا جاء ربه في الآخرة، فهو شر الأحوال، وهو إظهار الندم والتحسر، والحزن الذي لا يجبر مصابه،

والتبري من قرينه، ولهذا قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَتَسَّ الْقَرِينُ﴾.

كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾
﴿يَتَوَلَّىٰ لِيَتِي لَوْ أَتَّخَذْتُ فَلَانًا خَلِيلًا﴾
﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أي: ولا ينفعكم يوم القيامة اشتراككم في العذاب، أنتم وقرنائكم وأخلائكم، وذلك لأنكم اشتركتم في الظلم، فاشتركتم في عقابه وعذابه.

ولن ينفعكم أيضًا روح التسلي في المصيبة، فإن المصيبة إذا وقعت في الدنيا، واشترك فيها المعاقبون، هان عليهم

(١) في الأصل (على) ولعل الصواب ما أثبت.

بعض الهون، وتسلّى بعضهم ببعض، وأما مصيبة الآخرة، فإنها جمعت كل عقاب، ما فيه أدنى راحة، حتى ولا هذه الراحة. نسألك يا ربنا العافية، وأن تريحنا برحمتك.

(٤٥-٤٠) ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ فَإِنَّمَا نَذِيرٌ لِّكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْتَقِمُونَ ۖ أَوْ زُرِينَاكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ۖ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۖ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۖ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ مسلًا له عن امتناع المكذبين عن الاستجابة له، وأنهم لا خير فيهم، ولا فيهم زكاء يدعوهم إلى الهدى: ﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْأَصْمَ﴾ أي: الذين لا يسمعون ﴿أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى﴾ الذين لا يبصرون، أو تهدي ﴿مَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بين واضح، لعلمه بضلاله، ورضاه به.

فكما أن الأصم لا يسمع الأصوات، والأعمى لا يبصر، والضال ضلالًا مبيّنًا لا يهتدي، فهؤلاء قد فسدت فطرتهم وعقولهم بإعراضهم عن الذكر، واستحدثوا عقائد فاسدة، وصفات خبيثة، تمنعهم وتحول بينهم وبين الهدى، وتوجب لهم الازدياد من الردى.

فهؤلاء لم يبق إلا عذابهم ونكالهم، إما في الدنيا، أو في الآخرة، ولهذا قال تعالى: ﴿فَأِنَّمَا نَذِيرٌ لِّكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْتَقِمُونَ﴾ أي: فإن ذهبنا بك قبل أن نريك ما نعدهم من العذاب، فاعلم بخبرنا الصادق أننا منتقمون.

﴿أَوْ زُرِينَاكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ﴾ من العذاب ﴿فَأِنَّمَا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ﴾ ولكن ذلك متوقف على اقتضاء الحكمة لتعجيله أو تأخيره، فهذه حاله وحال هؤلاء المكذبين.

وأما أنت ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ فعلاً واتصافاً، بما يأمر بالاتصاف به ودعوة إليه، وحرصاً على تنفيذه في نفسك وفي غيرك ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى الله وإلى دار كرامته، وهذا مما يوجب عليك زيادة التمسك به والاهتداء، إذا علمت أنه حق وعدل وصدق، تكون بائناً على أصل أصيل، إذا بنى غيرك على الشكوك والأوهام والظلم والجور. ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي: هذا القرآن الكريم ﴿لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي:

فخر لكم، ومنقبة جليلة، ونعمة لا يقادر قدرها، ولا يعرف وصفها، ويذكركم أيضاً ما فيه الخير الدنيوي والآخروي، ويحثكم عليه، ويذكركم الشر ويرهبكم عنه. ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ عنه، هل قمت به فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به فيكون حجة عليكم، وكفراً منكم بهذه النعمة؟

﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ

الَّذِينَ كَفَرُوا

٤٩٢

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرَرًا عَلَيْهَا يَتَكَبَّرُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَعَ الْحَيَوةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَفِيضٌ لَهُ، سَيِّطَانًا فَهُوَ لِقَرِينٍ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ نَا قَالَ لِيَلْبِتْ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْفَرِيقَيْنِ ﴿٣٨﴾ وَلَنْ يَفْعَلَكَ يَوْمَئِذٍ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَتَّكِرُ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْأَصْمَ أَوْ تَهْدِي الْأَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا نَذِيرٌ لِّكَ فَإِنَّمَا مِنْهُمْ مَنْتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ زُرِينَاكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾

ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ حتى يكون للمشركين نوع حجة، يتبعون فيها أحدًا من الرسل.

فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن أحوالهم، لم تجد أحدًا منهم يدعو إلى اتخاذ إله آخر مع الله، مع أن كل الرسل، من أولهم إلى آخرهم، يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وكل رسول بعثه الله، يقول لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. فدل هذا، أن المشركين ليس لهم مستند في شركهم، لا من عقل صحيح، ولا نقل عن الرسل.

(٥٦-٤٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ إلى آخر القصة^(١). لما قال تعالى: ﴿وَسَأَلَ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ بين تعالى حال موسى ودعوته، التي هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل، ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في كتابه، فذكر حاله مع فرعون، فقال:

(١) وفي ب ذكر الآيات إلى آخرها.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ التي دلت دلالة قاطعة على صحة ما جاء به، كالعصا، والحية، وإرسال الجراد، والقمل، إلى آخر الآيات، ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿فَدَعَاهُمْ إِلَىٰ الْإِقْرَارِ بِرَبِّهِمْ، ونهاهم عن عبادة ما سواه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَصْتَكِبُونَ﴾ أي: ردوها وأنكروها، واستهزأوا بها، ظلماً وعلواً. فلم يكن لقصور بالآيات وعدم وضوح فيها، ولهذا قال: ﴿وَمَا نُزِيلُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي: الآية المتأخرة أعظم من السابقة ﴿وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ﴾ كالجراد، والقمل والضفادع، والدم، آيات مفصلات، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الإسلام، ويدعون له، ليزول شركهم وشركهم.

﴿وَقَالُوا﴾ عندما نزل عليهم العذاب: ﴿يَأْتِيهِ السَّحَابُ﴾ يعنون موسى عليه السلام، وهذا، إما من باب التهكم به، وإما أن يكون هذا الخطاب عندهم مدحاً، فتضرعوا إليه بأن خاطبوه بما يخاطبون به مَنْ يزعمون أنهم علماءهم، وهم السحرة فقالوا: ﴿يَأْتِيهِ السَّحَابُ أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهَدْتَ عِنْدَكَ﴾ أي: بما خصك الله به، وفضلك به، من الفضائل والمناقب، أن يكشف عتاب العذاب ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ إن كشف الله عتاب ذلك.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ أي: لم يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا على كفرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالذَّمَارَ النَّبَاتِ مُفْضَلَةً فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ ○ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يُمُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهَدْتَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ○ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ يَلْفُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ﴾ مستعليًا بباطله، قد غره ملكه، وأطغاه ماله وجنوده: ﴿يَقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ﴾ أي: ألسنت المالك لذلك، المتصرف فيه، ﴿وَهَٰذِهِ أَنَّنُّهْرُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ أي: الأنهار المنسحبة من النيل، في وسط القصور والبساتين، ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا الملك الطويل العريض؟

وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ يعني - قبحه الله - بالمهين، موسى بن عمران، كليم الرحمن، الوجه عند الله، أي: أنا العزيز، وهو اللذليل المهان المحققر، فأيتنا خير؟ ﴿و﴾ مع هذا فلا ﴿يَكَادُ بُيُوتٌ﴾ عما في ضميره بالكلام، لأنه

﴿وَمَا نُزِيلُهُمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿وَقَالُوا يَا تَأْتِيهِ السَّحَابُ أَدْعُ لَنَا رَبِّكَ بِمَا عَهَدْتَ عِنْدَكَ إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ أَنَّنُّهْرُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ بُيُوتٌ﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ الْمَلَأَتِيكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ إِتْمَانًا كَانُوا قَوْمًا فَدِيقِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿فَلَمَّاءَ اسْفُونا أَنْفَعْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَمَثَلًا لِلآخِرِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذْ أَقَامُوكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿وَقَالُوا أَلِٰهَتَنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ لِالْجَدَلِ لَبَّاهُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ ﴿٥٨﴾ ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مَكَرَ مَلَكِيكَةٍ فِي الْأَرْضِ يَحْتَفُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

ليس بفضيح اللسان، وهذا ليس من العيوب في شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو كان ثقیلاً عليه الكلام.

ثم قال فرعون: ﴿فَلَوْلَا أَلْقَىٰ عَلَيْهِ آسُورَةٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي: فهلاً كان موسى بهذه الحالة، أن يكون مزیناً مجملاً بالحلي والأساور؟ ﴿أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ الْمَلَأَتِيكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يعاونونه على دعوته، ويؤيدونه على قوله.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ﴾ أي: استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا على ضعفاء العقول.

فأي دليل يدل على أن فرعون محق، لكون ملك مصر له، وأنهاره تجري من تحته؟ وأي دليل يدل على بطلان ما جاء به موسى، لقلته أتباعه، وثقل لسانه، وعدم تحلية الله له؟ ولكنه لقي ملاً لا معقول عندهم، فمهما قال اتبعوه، من حق وباطل، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَتِيقِينَ﴾ فبسبب فسقهم قبيض لهم فرعون، يزين لهم الشرك والشرك.

﴿فَلَمَّاءَ اسْفُونا﴾ أي: أغضبونا بأفعالهم ﴿أَنْفَعْنَا مِنْهُمْ

تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوة والحكمة والعلم والعمل ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ يعرفون به قدرة الله تعالى على إيجاده من دون أب.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ﴾ فالجواب عنها من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أن «ما» اسم لما لا يعقل، لا يدخل فيه المسيح ونحوه.

الثاني: أن الخطاب للمشركين، الذين بمكة وما حولها، وهم إنما يعبدون أصناماً وأوثاناً، ولا يعبدون المسيح.

الثالث: أن الله قال بعد هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾ فلا شك أن عيسى وغيره من الأنبياء والأولياء داخلون في هذه الآية.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مَنَّكَ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخَلُفُونَ﴾ أي: لجعلنا بدلکم ملائكة يخلفونكم في الأرض، ويكونون في الأرض حتى نرسل إليهم ملائكة من جنسهم، وأما أتمم يا معشر البشر، فلا تطبقون أن ترسل إليكم الملائكة، فمن رحمة الله بكم، أن أرسل إليكم رسلاً من جنسكم، تتمكنون من الأخذ عنهم.

﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّسَاعَةِ﴾ أي: وإن عيسى عليه السلام لدليل على الساعة، وأن القادر على إيجاده من أم بلا أب، قادر على بعث الموتى من قبورهم، أو، وإن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان، ويكون نزوله علامة من علامات الساعة.

﴿فَلَا تَمَرَّتْ بِهَا﴾ أي: لا تشكرك في قيام الساعة، فإن الشك فيها كفر، ﴿وَأَتَّيْعُونَ﴾ بامثال ما أمرتكم، واجتتاب ما نهيتكم ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ موصل إلى الله عز وجل. ﴿وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ عما أمركم الله به، فإن الشيطان ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ حريص على إغوائكم، باذل جهده في ذلك.

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على صدق نبوته وصحة ما جاءهم به، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات.

﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي، ﴿وَلَا يُؤَيِّنُكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ أي: أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس.

فجاء عليه السلام مكملًا وتمامًا لشريعة موسى عليه

فَأَقْرَفَتُهُمْ أَجْمَعِينَ ○ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ ﴿٦٥﴾ ليعتبر بهم المعتبرون، ويتعظ بأحوالهم المتعظون.

(٥٧-٦٥) ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ○ وَقَالُوا يَا إِلَهَٰنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ○ إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ○ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنْكُمْ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخَلُفُونَ ○ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّسَاعَةِ فَلَا تَمَرَّتْ بِهَا وَأَتَّيْعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ○ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ○ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأَيِّنُكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَأَقْرَفُوا اللَّهُ وَأَتَّيْعُونَ ○ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ○ فَاتَّخَذَ الْكُفْرَانُ مِنْ بَيْنِهِمْ قُوْبُلًا لِّدِينٍ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ أَلَيْسَ يَقُولُ تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي: نهي عن عبادته، وجعلت عبادته بمنزلة عبادة الأصنام والأنداد ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ المكذبون لك ﴿مِنْهُ﴾ أي: من أجل هذا المثل المضروب ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي: يستلجون في خصومتهم لك، ويصيحون، ويزعمون أنهم قد غلبوا في حججهم، وأفلجوا.

﴿وَقَالُوا يَا إِلَهَٰنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعني: عيسى، حيث نهي عن عبادة الجميع، وشورك بينهم بالوعيد على من عبدهم، ونزل أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ﴾.

ووجه حججهم الظالمة، أنهم قالوا: قد تقرر عندنا وعندك يا محمد، أن عيسى من عباد الله المقربين، الذين لهم العاقبة الحسنة، فلم سويت بينه وبينها في النهي عن عبادة الجميع؟ فلولا أن حججتك باطلة لم تناقض.

ولم قلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ﴾ وهذا لفظ بزعمهم، يعم الأصنام وعيسى، فهل هذا إلا تناقض؟ وتناقض الحجة دليل على بطلانها.

هذا أنهى ما يقررون به هذه الشبهة [الذي] ^(١) فرحوا بها واستبشروا، وجعلوا يصدون ويتباشرون.

وهي - والله الحمد - من أضعف الشبه وأبطلها، فإن تسوية الله بين النهي عن عبادة المسيح، وبين النهي عن عبادة الأصنام، لأن العبادة حق لله تعالى، لا يستحقها أحد من الخلق، لا الملائكة المقربون، ولا الأنبياء المرسلون، ولا من سواهم من الخلق، فأى شبهة في تسوية النهي عن عبادة عيسى وغيره؟

وليس تفضيل عيسى عليه السلام، وكونه مقربًا عند ربه ما يدل على الفرق بينه وبينها في هذا الموضع، وإنما هو كما قال

(١) في النسختين: (الذي)، ولعل الصواب (التي).

السلام، ولأحكام التوراة، وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وأمنوا بي وصدقوني وأطيعون.
﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله هو المرابي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال فيه النصارى: «إنه ابن الله»، أو ثالث ثلاثة» والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم، موصل إلى الله وإلى جنته.

فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا ﴿اِخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ﴾ المتحزبون على التكذيب ﴿بَيْنَ بَيْنِهِمْ﴾ كل قال بعيسى عليه السلام مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا من هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله.

﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ آيَةِ﴾ أي: ما أشد حزن الظالمين، وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم!!

(٦٦-٧٣) ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ الأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ○ يَعْجَبُونَ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ أَهْلُوا الْيَوْمِ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ○ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ○ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ○ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ○ وَفِيهَا مَا أُغْنِي عَنْهُمْ وَالْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا كَخِلْدُونَ ○ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ يقول تعالى: ما ينتظر المكذبون، وهل يتوقعون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: فإذا جاءت، فلا تسأل عن أحوال من كذب بها، واستهزأ بمن جاء بها.

وإن ﴿الأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة، المتخالفين على الكفر والتكذيب ومعصية الله ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لأن خلتهم ومحبتهم في الدنيا لغير الله، فانقلبت يوم القيامة عداوة، ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ للشرك والمعاصي، فإن محبتهم تدوم وتتصل، بدوام من كانت المحبة لأجله.

ثم ذكر ثواب المتقين، وأن الله تعالى يناديهم يوم القيامة بما يسر قلوبهم، ويذهب عنهم كل آفة وشر، فيقول: ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ أي: لا خوف يلحقكم فيما تستقبلونه من الأمور، ولا حزن يصيبكم فيما مضى منها، وإذا انتفى المكروه من كل وجه، ثبت المحبوب المطلوب.

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

٤٩٤

سُورَةُ الزَّخْرَفِ

وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمَرَّتْ بِهَا وَأَتَّبَعُونَ هَذَا صِرَاطٌ

مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٦﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ

﴿٦٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ

وَلَأُبَيِّنَنَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

﴿٦٨﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

﴿٦٩﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا

مِنَ عَذَابِ يَوْمِ آيَةِ ﴿٧٠﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ

تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧١﴾ الْأَخْلَاءُ يَوْمَئِذٍ

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٧٢﴾ يَعْجَبُونَ لَا خَوْفٌ

عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٧٣﴾ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا

وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٧٤﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ

تُحْبَرُونَ ﴿٧٥﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ

وَفِيهَا مَا أُغْنِي عَنْهُمْ وَالْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا كَخِلْدُونَ ﴿٧٦﴾

وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٧٧﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي: وصفهم الإيمان بآيات الله، وذلك ليشمل التصديق بها، وبما لا يتم التصديق إلا به، من العلم بمعناها والعمل بمقتضاها.

﴿وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ الله مقادير له في جميع أحوالهم، فجمعوا بين الانصاف بعمل الظاهر والباطن.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ التي هي دار القرار ﴿أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أي: من كان على مثل عملكم، من كل مقارن لكم، من زوجة، وولد، وصاحب، وغيرهم.

﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي: تتعمون وتكرمون، ويأتيكم من فضل ربكم من الخيرات والسرور والأفراح واللذات، ما لا تعبر الألسن عن وصفه.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ أي: تدور عليهم خدماتهم، من الولدان المخلدن بطعامهم، بأحسن الأواني وأفخرها، وهي صحاف الذهب، وشرابهم بالظف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿وَفِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ﴾

وهذا لفظ جامع، يأتي على كل نعيم وفرح، وقرة عين، وسرور قلب، فكل ما اشتتهه النفوس، من مطاعم، ومشارب، وملابس، ومناكح ولذته العيون، من مناظر حسنة، وأشجار محلقة، ونيعم موقفة، ومبان مزخرفة، فإنه حاصل فيها، معد لأهلها، على أكمل الوجوه وأفضلها، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ .
﴿وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ وهذا هو تمام نعيم أهل الجنة، وهو الخلد الدائم فيها، الذي يتضمن دوام نعيمها وزيادته، وعدم انقطاعه.

﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ﴾ الموصوفة بأكمل الصفات هي ﴿الَّتِي أَوْرَثْنَاهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أورثكم الله إياها بأعمالكم، وجعلها من فضله جزاء لها، وأودع فيها من رحمته ما أودع.

[لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ] كما في الآية الأخرى ﴿فِيمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ رِزْقَانٌ﴾، ﴿مِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مما تتخبرون من تلك الفواكه الشهية، والثمار اللذيذة تأكلون^(١).

ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم فقال:

(٧٤-٧٨) ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ ○ لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْسَوْنَ ○ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ○ وَنَادُوا بِمَلِكِكُمْ لِيُقْضَىٰ عَلَيْنَا رَبِّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ ○ لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ .

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم ﴿فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ﴾ أي: منغمرون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، ﴿خَالِدُونَ﴾ فيه، لا يخرجون منه أبدًا.

و ﴿لَا يَفْتَرُّ عَنْهُمْ﴾ العذاب ساعة يازالته، ولا بتهوين عذابه، ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْسَوْنَ﴾ أي: آسئون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِذْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ ○ قَالَ أَخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُون﴾ وهذا العذاب العظيم، بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

﴿وَنَادُوا﴾ وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة، ﴿بِمَلِكِكُمْ لِيُقْضَىٰ عَلَيْنَا رَبِّكَ﴾ أي: ليمتنا فنستريح، فإننا في غمٍّ شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد، ف ﴿قَالَ﴾ لهم مالك خازن النار - حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم -: ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبدًا، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غمًا إلى غمهم، ثم وبخهم بما فعلوا، فقال: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ﴾ الذي يوجب عليكم أن

تبعوه، فلو تبعتموه، لفزتم وسعدتم، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ﴾ فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها.

(٧٩، ٨٠) ﴿أَمْ أَرْمَوْا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِئُونَ ○ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلَانَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ يقول تعالى: أم أبرم المكذبون بالحق المعاندون له ﴿أَمْراً﴾ أي: كادوا كيداً، ومكروا للحق ولمن جاء بالحق، ليدحضوه، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق، ﴿فَإِنَّا مُبْرِئُونَ﴾ أي: محكمون أمراً ومدبرون تديباً يعلو تديبيرهم، وينقضه ويطله، وهو ما قيضه الله من الأسباب والأدلة، لإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالى: ﴿بَلْ تَقْدِرُ بِالْإِلَهِ عَلَى الْبَطْلِ قِدْمَةً﴾ .

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم ﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: إنا نعلم سرهم ونجواهم ﴿وَرُسُلَانَا﴾ الملائكة الكرام ﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم، حتى يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضرًا، ولا يظلم ربك أحدًا.

(٨١-٨٣) ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ○ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصُوتُونَ ○ فَذَرَهُمْ مَبْجُوضًا وَيَلْعَبُونَ حَتَّىٰ يُنْفِقُوا يُومَهُمْ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ أي: قل يا أيها الرسول الكريم، للذين جعلوا لله ولدًا، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لذلك الولد، لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق انقيادًا للأمر المحبوبة لله، ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفيًا، فعلم بذلك بطلانه. فهذا احتجاج عظيم، عند من عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول الناس سبقًا إليه، وتكميلًا له، وكل شر فهم أول الناس تركًا له، وإنكارًا له، وبعثًا منه، فلو كان على هذا للرحمن ولد وهو الحق، لكان محمد بن عبد الله أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون.

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله، إثبات ما أثبتته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا، لو كان

(١) ما بين الحاصرتين جاء في نسخة أم مقدمًا على تفسير الآية السابقة ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أَوْرَثْنَاهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

حقًا، لكنك أول مثبت له. فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها عقلاً ونقلاً.

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الشريك والظهير، والعوين، والولد، وغير ذلك، مما نسبة إليه المشركون.

﴿فَدَرَهُمْ مَحْضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال، فعلومهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق، وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزكي النفوس، ولا تثمر المعارف، ولهذا توعدهم بما أمامهم من يوم القيامة فقال: ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

(٨٤-٨٩) ﴿هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ ○ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَمَلِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ○ وَلَا يَمَلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ○ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ○ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّا هَتَوَلَاءَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ○ فَاصْبِرْ لَهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ يخبر تعالى أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض، فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون لجلاله، ويفتقرون لكماله، ﴿تَسْبِيحٌ لَهُ السَّمَوَاتِ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ ○ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾، فهو تعالى المألوه المعبود الذي يألهه الخلائق كلهم، طائعين مختارين، وكارهين، وهذه كقولته تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ أي: ألوهيته ومحبته فيهما، وأما هو فهو فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله.

﴿هُوَ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئًا إلا لحكمة، ولا شرع شيئًا إلا لحكمة وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكل شيء يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها، ولا أكبر.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَمْ يَمَلِكِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ تبارك بمعنى تعالى وتعظيم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه، ولهذا ذكر سعة ملكه للسماوات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى انفراد بعلم كثير من الغيوب التي لم يطلع عليها أحد من الخلق لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُخْتَلِفٍ﴾ ○ ﴿لَا يُفْتَرُ عَلَيْهِمْ﴾ ○ ﴿فِيهِ مُبَسَّوْنَ﴾ ○ ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ﴾ ○ ﴿وَنَادُوا بِمَلَكِهِمْ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَكْتُوبُونَ﴾ ○ ﴿لَقَدْ حَسَنَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ ○ ﴿أَمْ أَمْرًا مَرًّا فَإِنَّا مُتَرَمِّضُونَ﴾ ○ ﴿أَمْ يَحْسِبُونَ أَنَّا لَأَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ ○ ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ﴾ ○ ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ○ ﴿فَدَرَهُمْ مَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ ○ ﴿هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ ○ ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ○ ﴿وَلَا يَمَلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ○ ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ ○ ﴿وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّا هَتَوَلَاءَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ○ ﴿فَاصْبِرْ لَهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ ○

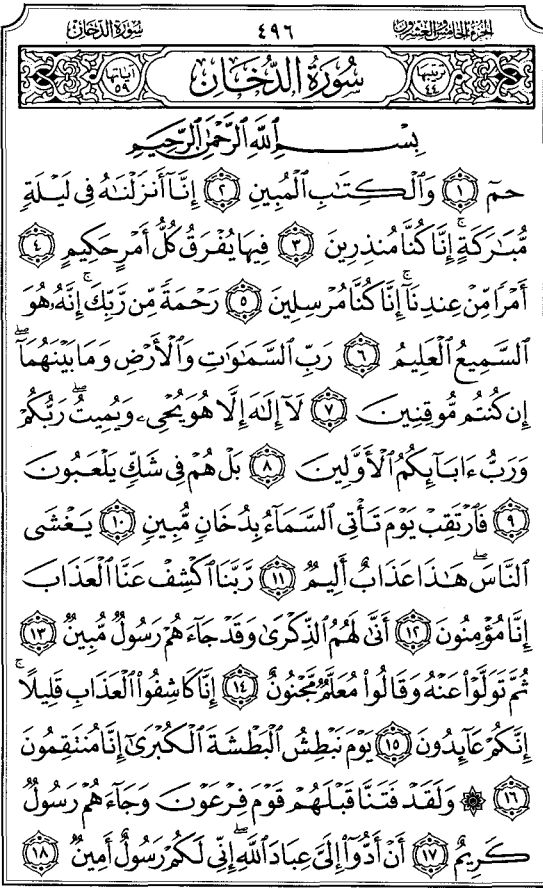
قدم الظرف، ليفيد الحصر، أي: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو.

ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل.

ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئًا، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه.

﴿وَلَا يَمَلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ﴾ أي: كل من دُعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ أي: نطق بلسانه، مقرًا بقلبه، عالمًا بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاءوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقايقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أي:



هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَتَى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْلُ نَحْنِ ۝ إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا ۝ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ ﴿١٢﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه، أنه أنزله ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبْرَكَةٍ﴾ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليلي والأيام، على أفضل الأنام، بلغة العرب الكرام، لينذر به قومًا عمتهم الجهالة، وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيئوا بنوره، ويقتبسوا من هده، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي، والخير الأخروي، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا﴾ أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن ﴿يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ أي: يفصل ويميز، ويكتب كل أمر قدره وشرعي حكم الله به.

وهذه الكتابة والفرقان الذي يكون في ليلة القدر، أحد (١) الكتابات التي تكتب وتميز، فتطابق الكتاب الأول، الذي

ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له.

﴿فَأَن يُّؤْفَكُونَ﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟ فأقراهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿وَقِيلِهِ يَرْبِ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: وعنده علم قبله، أي: الرسول ﷺ، شاكياً لربه تكذيب قومه، متحزناً على ذلك، متحسراً على عدم إيمانهم، فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة.

ولكنه تعالى حلیم يمهل العباد، ويستأني بهم، لعلمهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال: ﴿فَأَسْخَعْنَهُمْ وَقَدْ سَلَّمَ﴾ أي: اصفح عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدد منك لهم إلا السلام الذي يقابل به أولو الألباب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ أي: خطاباً بمقتضى جهلهم ﴿قَالُوا سَلَمًا﴾.

فامتثل ﷺ لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى، بالعمو والصفح، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب الجميل، فصولات الله وسلامه على من خصه الله بالخلق العظيم الذي فضّل به أهل الأرض والسماء، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء.

وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي: غبّ ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف .

تفسير سورة الدخان

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٦-١) ﴿حَمِّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَى ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ۝ يَغْشَى النَّاسَ

(١) في النسختين (أحد) ولعل الصواب (إحدى).

كتب الله به مقادير الخلائق وأجالهم وأرزاقهم وأعمالهم وأحوالهم.

ثم إن الله تعالى قد وكل ملائكة تكتب ما سيجري على العبد، وهو في بطن أمه، ثم وكلهم بعد وجوده إلى الدنيا، وكل به كرامًا كاتبين، يكتبون ويحفظون عليه أعماله، ثم إنه تعالى يقدر في ليلة القدر ما يكون في السنة.

وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته، وإتقان حفظه، واعتناؤه تعالى بخلقه ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾ أي: هذا الأمر الحكيم، أمر صادر من عندنا ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ للرسول ومنزليين للكتب، والرسول تبلغ أوامر المرسل وتخبر بأقداره، ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ أي: إن إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن، رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسول، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة، فإنه من أجل ذلك وسببه.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أي: يسمع جميع الأصوات، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة، وقد علم تعالى ضرورة العباد إلى رسله وكتبه، فرحمهم بذلك، ومنَّ عليهم، فله تعالى الحمد والمنة والإحسان.

﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي: خالق ذلك ومدبره، والمتصرف فيه بما يشاء.

﴿إِن كُنتُمْ مُّوقِنِينَ﴾ أي: عالمين بذلك علمًا مفيدًا لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات هو إلهها الحق، ولهذا قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود إلا وجهه، ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، أي: هو المتصرف وحده بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيجزئكم بعملكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر ﴿رَبِّكُمْ وَرَبِّ آبَائِكُمُ الْأُولَى﴾ أي: رب الأولين والآخرين، مربيهم بالنعمة، الدافع عنهم النقم.

فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته، بما يوجب العلم التام ويدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان ﴿فِي سَكِّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: منغمرون في الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل الذي لا يجدي عليهم إلا الضرر.

﴿فَارْتَقِبْ﴾ أي: انتظر فيهم العذاب، فإنه قد قرب وأن أوانه، ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: يوم تأتي السماء بدخان، ويقال لهم: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. واختلف المفسرون في المراد بهذا الدخان، فقيل: إنه الدخان الذي يغشى الناس ويعمهم حين تقرب النار من

المجرمين في يوم القيامة، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة، وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم.

ويؤيد هذا المعنى، أن هذه الطريقة هي طريقة القرآن في توعد الكفار والتأني بهم، وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه، وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار بمن آذاهم. ويؤيده أيضًا، أنه قال في هذه الآية: ﴿أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ وهذا يقال يوم القيامة للكفار، حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا، فيقال: قد ذهب وقت الرجوع.

وقيل: إن المراد بذلك، ما أصاب كفار قريش حين امتنعوا من الإيمان، واستكبروا على الحق، فدعا عليهم النبي ﷺ، فقال: «اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف»، فأرسل الله عليهم الجوع العظيم، حتى أكلوا الميتات والعظام، وصاروا يرون الذي بين السماء والأرض كهيئة الدخان، وليس به، وذلك من شدة الجوع.

فيكون - على هذا - قوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ﴾ أن ذلك بالنسبة إلى أبصارهم، وما يشاهدون، وليس بدخان حقيقة.

ولم يزالوا بهذه الحالة حتى استرحموا رسول الله ﷺ وسألوه أن يدعو الله لهم، أن يكشفه الله عنهم، فدعا ربه، فكشفه الله عنهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إخبار بأن الله سيصرفه عنكم، وتوعد لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب، وإخبار بوقوعه فوق، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى، قالوا: وهي وقعة «بدر» وفي هذا القول نظر ظاهر.

وقيل: إن المراد بذلك، أن ذلك من أسرار الساعة، وأنه يكون في آخر الزمان دخان يأخذ بأنفاس الناس، ويصيب المؤمنين منهم كهيئة الدخان.

والقول هو الأول.

وفي الآية احتمال أن المراد بقوله: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّبِينٍ﴾ يَعْنِي النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ○ رَبَّنَا كَشِفْنَا عَذَابَ الْعَذَابِ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ○ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ○ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعِجَتْنَاهُ مَا نَجُونُ ○ أن هذا كله يكون يوم القيامة.

وأن قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ○ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾ أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم.

وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين، لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك، بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة، وهذا الذي يظهر عندي ويترجح، والله أعلم.

سُورَةُ الدُّخَانِ

٤٩٧

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتَيْتُكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٧﴾ وَإِنِّي عَدْتُ
 بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ ﴿١٨﴾ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِي ﴿١٩﴾ فِدَاعًا
 رَبَّنَا أَنْ هَتُولَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ
 مُتَّبِعُونَ ﴿٢١﴾ وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ ﴿٢٢﴾ كَمْ
 تَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيْوُنٍ ﴿٢٣﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٤﴾ وَنِعْمَةَ
 كَانُوا فِيهَا فَكَهِنِ ﴿٢٥﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٦﴾
 فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٧﴾ وَلَقَدْ
 جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٢٨﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ
 كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُرْسِفِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى
 الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَءَايَاتِهِمْ مِنْ الْأَيْتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ
 ﴿٣١﴾ إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ﴿٣٢﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا
 نَحْنُ بِمُنذَرِينَ ﴿٣٣﴾ فَأَتُوا بِآيَاتِنَا أَنْ كُتِبَ صَدِيقِينَ ﴿٣٤﴾ أَهْمُ
 حَيْرَامٍ قَوْمٌ تَبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ
 ﴿٣٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْعَيْبِ ﴿٣٦﴾
 مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

فلما تكامل قوم موسى خارجين منه، وقوم فرعون داخلين فيه، أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا، وأورثه الله بني إسرائيل، الذين كانوا مستعبدين لهم، ولهذا قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيْوُنٍ ○ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ○ وَنِعْمَةَ كَانُوا فِيهَا فَكَهِنِ ○ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ أي: هذه النعمة المذكورة ﴿قَوْمًا آخَرِينَ﴾، وفي الآية الأخرى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: لما أتلّفهم الله وأهلكهم، لم تبك عليهم السماء والأرض، أي: لم يُحزَن عليهم، ولم يُوسَسَ على فراقهم، بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم، حتى السماء والأرض، لأنهم ما خلفوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم، ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ أي: مهملين عن العقوبة، بل اصطلمتهم في الحال.

ثم امتنّ تعالى على بني إسرائيل، فقال: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ

(١) في نسخة ب ذكر الآيات كاملة.

(١٧-٣٣) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ إلى آخر القصة^(١) لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمداً ﷺ ذكر أن لهم سلفاً من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسى، وما أحل الله بهم ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه، فقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم، الرسول الكريم الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره.

﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ أي: قال لفرعون وملئه: أودا إليّ عباد الله، يعني بهم: بني إسرائيل، أي: أرسلوهم، وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب، فإنهم عشيرتي، وأفضل العالمين في زمانهم.

وأنتم قد ظلمتموهم، واستعبدتموهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم، ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: رسول من رب العالمين، أمين على ما أرسلني به، لا أكتمكم منه شيئاً، ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانتقاد له.

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ بالاستكبار عن عبادته، والعلو على عباد الله، ﴿إِنِّي آتَيْتُكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات، والأدلة القاهرات، فكذبوه وهموا بقتله، فلجأ بالله من شرهم، فقال: ﴿وَإِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ أي: تقتلونني شر القتلات، بالرجم بالحجارة.

﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَأَعَزِّلُونِي﴾ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي، وهو مقصودي منكم، فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة، فاعتزلوني، لا علي ولا لي، فاكفوني شركم.

فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية، بل لم يزالوا متمردين عاتين على الله، محاربين لنبيه موسى عليه السلام، غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل، ﴿فِدَاعًا رَبَّنَا أَنْ هَتُولَاءَ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ﴾ أي: قد أجزموا جرماً، يوجب تعجيل العقوبة.

فأخبر عليه السلام بحالهم، وهذا دعاء بالحال التي هي أبلغ من المقال، كما قال عن نفسه عليه السلام ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه.

﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي: بحاله، وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله، ثم تبعهم فرعون، فأمر الله موسى أن يضرب البحر، فضربه، فصار اثني عشر طريقاً، وصار الماء من بين تلك الطرق، كالجبال العظيمة، فسلكه موسى وقومه.

فلما خرجوا منه، أمره الله أن يتركة رهواً، أي: بحاله، ليسلكه فرعون وجنوده ﴿إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ﴾.

إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٤٠﴾ الَّذِي كَانُوا فِيهِ ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ إِذْ يَدْعُوا أَبْنَاءَهُمْ، وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ.

﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا﴾ أي: مستكبرًا في الأرض بغير الحق ﴿وَمِنْ الْمُتْرِفِينَ﴾ المتجاوزين لحدود الله، المتجرئين على محارمه.

﴿وَلَقَدْ أَخْرَجْنَاهُمْ﴾ أي: اصطفيناهم واتقيناهم ﴿عَلَىٰ عُلُوِّ﴾ منا بهم، وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة محمد ﷺ، فضلوا العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، وامتن عليهم بما لم يمتن به على غيرهم.

﴿وَأَلَيْنَاهُم﴾ أي: بني إسرائيل ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ الباهرة، والمعجزات الظاهرة، ﴿مَا فِيهِ بَلَكَاٌ مُّبِينٌ﴾ أي: إحسان كثير، ظاهر منا عليهم، وحجة عليهم، على صحة ما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام.

(٣٤-٣٧) ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَنذَرْنَا يَا أَبَتَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهَمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هَؤُلَاءِ الْمَكِيدِينَ يَقُولُونَ مُسْتَعِدِينَ لِلْبَعثِ وَالنَّشُورِ: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: ما هي إلا الحياة الدنيا، فلا بعث ولا نشور، ولا جنة ولا نار.

ثم قالوا - متجرئين على ربهم، معجزين له - : ﴿فَأَنذَرْنَا يَا أَبَتَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين في مكان سحيق، فأبى ملازمة بين صدق الرسول ﷺ، وأنه متوقف على الإتيان بآبائهم؟ فإن الآيات قد قامت على صدق ما جاءهم به، وتواترت تواترًا عظيمًا من كل وجه.

قال تعالى: ﴿أَهَمْ خَيْرٌ﴾ أي: هؤلاء المخاطبون ﴿أَمْ قَوْمٌ تُبْعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ فإنهم ليسوا خيرًا منهم، وقد اشتروا في الإجماع، فليتوقعوا من الهلاك ما أصاب إخوانهم المجرمين.

(٣٨-٤٢) ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ وَيَقْتُلُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يَغْنَىٰ مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتام حكمته، وأنه ما خلق السماوات والأرض لعبًا ولا لهوًا، أو سدى من غير فائدة، وأنه ما خلقهما إلا بالحق، أي: نفس خلقهما بالحق، وخلقهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبده وحده لا شريك له، وليأمر العباد وينهاهم ويشيهم ويعاقبهم.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فلذلك لم يتفكروا في خلق

سُورَةُ الدَّخَانِ

٤٩٨

سُورَةُ الدَّخَانِ

إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ وَيَقْتُلُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يَغْنَىٰ مَوْلَىٰ عَنْ مَوْلَىٰ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُبْصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنْ شَجَرَتِ الزَّرْقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْحَمِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنْ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنْ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامِ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ وَرَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَاكِهَةٍ آمِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يُذَوِّقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْحَمِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلًّا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَاِنَّمَا يَسْتَرْثِيهِ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

سُورَةُ الدَّخَانِ

سُورَةُ الدَّخَانِ

السماوات والأرض.

﴿إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ وهو يوم القيامة الذي يفصل الله به بين الأولين والآخرين، وبين كل مختلفين ﴿ويقتلهم﴾ أي: الخلاق ﴿أجمعين﴾.

كلهم سيجمعهم الله فيه، ويحضرهم ويحضر أعمالهم، ويكون الجزاء عليها، ولا ينفع مولى عن مولى شيئًا لا قريب عن قريبه، ولا صديق عن صديقه، ﴿ولا هم يبصرون﴾ أي: يمنعون من عذاب الله عز وجل، لأن أحدًا من الخلق لا يملك من الأمر شيئًا.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فإنه هو الذي يتنفع ويرتفع برحمة الله تعالى، التي تسبب إليها، وسعى لها سعيها في الدنيا.

ثم قال تعالى:

(٤٣-٥٠) ﴿إِنْ شَجَرَتِ الزَّرْقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْحَمِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنْ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

وأمنين من مضرتهم، وأمنين من كل مكدر، وأمنين من الخروج منها والموت، ولهذا قال: ﴿لَا يَدُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ أي: ليس فيها موت بالكلية.

ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموتة الأولى، التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ○ فضلاً من رَبِّكَ ○ أي: حصول النعم واندفاع العذاب عنهم، من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم أيضاً ما لم تبلغه أعمالهم ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ○ وأي فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه؟.

﴿فَإِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ أي: القرآن ﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فتيسر به لفظه، وتيسر معناه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ما فيه نفعهم فيفعلونه، وما فيه ضررهم فيتركونه.

﴿فَأَرْقَبْ﴾ أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر ﴿إِنَّهُمْ مُرْتَابِعُونَ﴾ ما يحل بهم من العذاب، وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأتباعه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة. تم تفسير سورة الدخان - والله الحمد والمنة.

تفسير سورة الجاثية

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿حَمِّمٌ ○ نَزِيلُ الْكَلْبِ مِنَّ اللَّهِ الْعَزِيزُ الْمُجِيبُ ○ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ○ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُذُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ○ وَأَخْيَافَ النَّبْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَصَهْرِيْفِ الرِّيحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ○ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزَلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ ○ وَيَلَّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ○ يَسْمَعُ آيَاتُ اللَّهِ تُنَلِّى عَلَيْهِ ثُمَّ يَصُرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَئِزَةً يُمِيزُهَا ○ وَإِذَا عَلِمَ مِن مَّآئِنِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ○ مِّن رَّوَابِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ○ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْحِ أَيْدِيهِمْ ○ يخبر تعالى خبراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، أنه ﴿تنزيل﴾ ﴿من الله﴾ المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من

لما ذكر يوم القيامة، وأنه يفصل بين عباده فيه، ذكر افتراقهم إلى فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير، وهم الآثمون بعمل الكفر والمعاصي، و﴿إِنَّ﴾ ﴿طعامهم﴾ ﴿شَجَرَتِ النَّارِ﴾ شر الأشجار وأقطعها، وأن طعامها ﴿كَالْمُهْلِ﴾ أي: كالصديد المتن، خبيث الريح والطعم، شديد الحرارة، يغلي في بطونهم ﴿كَعَلَى الْحَيِّيرِ﴾ ويقال للمعذب: ﴿ذُقْ﴾ هذا العذاب الأليم، والعقاب الوخيم ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الرَّكِيمُ﴾ أي بزعمك أنك عزيز، ستمتتع من عذاب الله، وأنت كريم على الله لا يصيبك بعذاب، فالיום تبين لك أنك أنت اللذليل المهان الخسيس.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ العذاب العظيم ﴿مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ أي: تشكون، فالآن صار عندكم حق اليقين.

(٥١-٥٩) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ○ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ○ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَفَكِّينَ ○ كَذَلِكَ وَرَزَقْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ○ يَدْخُلُونَ فِيهَا بِكُلِّ فُكْهَةٍ ءَامِينِينَ ○ لَا يَدْخُلُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ ○ وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ ○ فَضلاً مِن رَّبِّكَ ○ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ○ فَإِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ○ فَأَرْقَبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَابِعُونَ﴾ هذا جزاء المتقين لله، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بتركهم المعاصي، وفعلهم الطاعات، فلما انتفى السخط عنهم والعذاب، ثبت لهم الرضا من الله، والثواب العظيم، في ظلال ظليل، من كثرة الأشجار والفواكه وعيون سارحة تجري من تحتهم الأنهار، يفجرونها تفجيراً في جنات النعيم.

فأضاف الجنات إلى النعيم، لأن كل ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور، كامل من كل وجه، ما فيه منغص ولا مكدر بوجه من الوجوه.

ولباسهم من الحرير الأخضر من السندس والإستبرق، أي: غليظ الحرير ورفيقه، مما تشبهه أنفسهم ﴿مُتَفَكِّينَ﴾ في قلوبهم ووجوههم في كمال الراحة، والطمأنينة، والمحبة، والعشرة الحسنة، والآداب المستحسنة.

﴿كَذَلِكَ﴾ النعيم التام والسرور الكامل ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ أي: نساء جميلات من جمالهن وحسنهن أنه يحار الطرف في حسنهن، وينهر العقل بجمالهن، وينخلب اللب لكمالهن ﴿عِينٍ﴾ أي: ضحاح الأعين حسانها.

﴿يَدْخُلُونَ فِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿بِكُلِّ فُكْهَةٍ﴾ مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم، ولا نظير في الدنيا.

فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها، أحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة، ﴿ءَامِينِينَ﴾ من انقطاع ذلك،

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

٤٩٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّهِ آيَاتٌ
لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَأَخْتَلَفُ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ
مِنْ رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَصَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ
يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا حَقِيقُ فَايِّ حَدِيثٍ بَعْدَ
اللَّهِ وَآيَاتِهِ يَوْمُونَ ﴿٦﴾ وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ آيَاتِ
اللَّهِ تَتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يَصُرُّ مُسْتَكَبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ لِّعَذَابِ أَلِيمٍ
﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا
وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَذَا
هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾
اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِيُنَبِّئَكُمْ
فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

وَلِيُنَبِّئَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ○ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ يخبر تعالى
بفضله على عباده وإحسانه إليهم، بتسخير البحر لسير المراكب
والسفن بأمره وتيسيره ﴿لِيُنَبِّئَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ بأنواع التجارات
والمكاسب، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى، فإنكم إذا
شكرتموه، زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجرًا جزيلًا .
﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: من
فضله وإحسانه . وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض،
ولما أودع الله فيهما، من الشمس والقمر، والكواكب،
والثوابت، والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف
الأشجار والثمار، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو
معدٌّ لمصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراته .
فهذا يوجب عليهم أن يبدلوا غاية جهدهم في شكر نعمته،
وأن تغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ .
وجملة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها، دالٌّ على نفوذ
مشيئة الله، وكمال قدرته . وما فيها من الأحكام والإتقان،

النعم الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة . ثم أيد ذلك بما
ذكره من الآيات الأفقية والنفسية، من خلق السماوات
والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من
المنافع، وما أنزل الله من الماء الذي يحيي به الله البلاد
والعباد .

فهذه كلها آيات بينات، وأدلة واضحات، على صدق هذا
القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام،
ودالات أيضًا على ما لله تعالى من الكمال، وعلى البعث
والنشور .

ثم قسم تعالى الناس، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه،
إلى قسمين:

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها، ويتنفعون فيرتفعون،
وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر إيمانًا
تامًا، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول،
وازدادت به معارفهم وألبابهم وعلومهم .

وقسم يسمع آيات الله سماعًا تقوم به الحجة عليهم، ثم
يعرض عنها ويستكبر - كأنه ما سمعها، لأنها لم تترك قلبه،
ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه .

وأنه إذا علم من آيات الله شيئًا اتخذها هزواً، فتوعده الله
تعالى بالويل فقال: ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ أي: كذاب في مقاله،
أثيم في فعاله .

وأخبر أن له عذابًا أليمًا، وأن ﴿مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ تكفي في
عقوبتهم البليغة، ﴿وَأَنَّهُ﴾ ﴿لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا﴾ من
الأموال ﴿وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ﴾ يستنصرون بهم
فيخذلهم، أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا .

فلما بين آياته القرآنية والعينية، وأن الناس فيها على
قسمين، أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية،
أنه هدى، فقال: ﴿هَذَا هُدًى﴾ وهذا وصف عام لجميع
القرآن، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى، بصفاته المقدسة،
وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله، وأوليائه،
وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو
إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان
الجزء على الأعمال، ويبين الجزء الدنيوي والأخروي،
فالمهتدون اهتدوا به، فأفلحوا وسعدوا .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ الواضحة القاطعة، التي لا يكفر
بها إلا من اشتد ظلمه، وتضاعف طغيانه ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ
أَلِيمٍ﴾

(١٣، ١٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِيَجْرِيَ الْفَلَكَ فِيهِ بِأَمْرِهِ

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

٥٠٠

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَعَآيِنَاهُمْ يَبْدَتَ مِنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبَعهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً لِحَاثِهِمْ وَمِمَّا تَهْتَكُونَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

بني إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيم على سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين.

﴿وَعَآيِنَاهُمْ﴾ أي: آتينا بني إسرائيل ﴿يَبْدَتَ﴾ أي: دلالات تبين الحق من الباطل ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ القدري الذي أوصله الله إليهم.

وتلك الآيات هي المعجزات التي رآها على يد موسى عليه السلام، فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر، فعاملوها بعكس ما يجب.

وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: الموجب لعدم الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض، والظلم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز

(١) في هذه الجملة غير واضحة، وفيها شطب، وتصويه من ب.

وبديع الصنعة، وحسن الخلق، دال على كمال حكمته وعلمه. وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دال على سعة ملكه وسلطانه. وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات، دليل على أنه الفعال لما يريد. وما فيها من المنافع، والمصالح الدينية والدنيوية، دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه وبره.

وكل ذلك دال على أنه وحده، المألوه المعبود الذي لا تنبغي العبادة والذل والمجبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة، لا تقبل ريباً ولا شكاً.

(١٤، ١٥) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها ثم إلى ربك ترجعون ﴿١٥﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق، والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام الله، أي: لا يرجون ثوابه، ولا يخافون وقائعه في العاصين، فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون. فأنتم يا معشر المؤمنين، يجزيكم على إيمانكم، وصفحكم وصبركم، ثواباً جزيلاً.

وهم - إن استمروا على تكذيبهم - فلا يحل بكم (١) ما حلَّ بهم من العذاب الشديد والخزي، ولهذا قال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكَ تُرْجَعُونَ﴾.

(١٦، ١٧) ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۚ وَعَآيِنَاهُمْ يَبْدَتَ مِنَ الْأَمْرِ ۖ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿الْكِتَابَ﴾، أي: التوراة والإنجيل، و ﴿الْحُكْمَ﴾ بين الناس، و ﴿النُّبُوَّةَ﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ من المآكل والمشارب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه الأمة، فإنهم خير أمة أخرجت للناس.

والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمة، فإن الله يقص علينا ما امتن به على بني إسرائيل، ويميزهم عن غيرهم، وأيضاً فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة، وغيرها من النعوت، قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة، فهذه الشريعة، شريعة

المحق من المبطل، والذي حمله على الاختلاف، الهوى أو غيره.

(١٩، ١٨) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَغْتَنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۗ وَإِنِ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَكِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر، من أمرنا الشرعي ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم، ولا ماشية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواه وإرادته، فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَغْتَنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لا ينعفونك عند الله، فيحصلوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر، إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا يصلح أن توافقهم وتواليهم، فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض ﴿وَاللَّهُ وَكِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

(٢٠) ﴿هَذَا بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي ﴿هَذَا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بَصِيرَةٌ لِّلنَّاسِ﴾ أي: يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيهتدون به إلى الصراط المستقيم، في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور، والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند.

(٢١) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّا يَحْكُمُونَ﴾ أي: أم حسب المسيئون، المكثرون من الذنوب، المقصرون في حقوق ربهم ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزلوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسبوا أن يكونوا ﴿سَوَاءً﴾ في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين، وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة، والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب، وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي، أن المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النصر والفلاح والسعادة والثواب، في العاجل والآجل، كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة، والعذاب والشقاء في الدنيا والآخرة.

(٢٢) ﴿وَمَلَكَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَلْمِزُ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: خلق الله السماوات والأرض بالحكمة، وليعد وحده لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة، هل شكروا الله تعالى، وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا، فاستحقوا جزاء الكفور؟.

(٢٣-٢٦) ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْرَ غَشْوَةٍ ۚ فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۚ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِن هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۚ وَإِذَا تُلِيَٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۚ قُلِ اللَّهُ يُجَسِّدُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ ثُمَّ يُحْكُمُ لَكُمْ ۖ إِنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَآ رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ الرجل الضال الذي ﴿اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ فما هويه سلكه، سواء كان يرضي الله، أو يسخطه ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله تعالى، أنه لا تليق به الهداية، ولا يزكو عليها.

﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ﴾ فلا يسمع ما ينفعه ﴿وَقَلْبِهِ﴾ فلا يعي الخير ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْرَةَ غَشْوَةٍ﴾ تمنعه من نظر الحق ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله، ولكن هو الذي ظلم نفسه، وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما ينفعكم فتسلكونه، وما يضركم فتجتنبونه.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: منكروا البعث ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ إن هي إلا عادات، وجزئي على رسوم الليل والنهار، يموت أناس ويحيا أناس، ومن مات فليس يرجع إلى الله، ولا مجازيه بعمله.

وقولهم هذا صادر عن غير علم ﴿إِن هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين، من غير دليل دلهم على ذلك، ولا برهان.

إن هي إلا ظنون، واستعدادات خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا اتَّبَعْنَا آبَاءَنَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا جراءة منهم على الله، حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بأبائهم، وأنهم لو جاءوهم بكل آية لم يؤمنوا، إلا إن تبعتهم الرسل على ما قالوا وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُجَسِّدُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ ثُمَّ يُحْكُمُ لَكُمْ ۖ إِنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَآ رَبَّ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم،

لعملوا له أعمالاً وتهاؤوا له .

(٢٧-٣٧) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبَدِّلُهُ

بِخَسْرٍ مُّتَبَدِّلُونَ ۝ وَرَأَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ

مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا

كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي

رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَأَعْرَبْنَاكَ أَنَّ ابْنِي سَقَىٰ

عَلَيْكَ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ۝ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا

رَبِّ فِيهَا فَلَمَّ مَا نَدْرَىٰ مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَبْقِينَ ۝

وَبَدَّلْنَا لَهُمْ سِنِينَ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ وَقِيلَ الْيَوْمَ

نَسْتَكْبِرُ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ ۝

ذَلِكُمْ بِأَنكُم أَغْتَدْتُمْ ءَابَتِ اللَّهُ هُرُوقًا وَعَرَفْتُمْ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا قَالِيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ

مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ۝ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْاَرْضِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ۝ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝

يخبر تعالى عن سعة ملكه، وانفراده بالتصرف والتدبير في

جميع الأوقات، وأنه ﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ ويجمع الخلائق

لموقف القيامة، يحصل الخسار على المبطلين، الذين أتوا

بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة، لأنها

متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به

الحقائق واضمحلت عنهم، وفاتهم الثواب، وحصلوا على

أليم العقاب .

ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد،

ويستعد له العباد، فقال: ﴿وَرَأَىٰ﴾ أيها الرائي لذلك اليوم ﴿كُلُّ

أُمَّةٍ جَائِئَةً﴾ على ركبها خوفاً وذعراً، وانتظاراً لحكم الملك

الرحمن .

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم

من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم

ضيعوها فيحصل لهم الخسران .

فأمة موسى يدعون إلى شريعة موسى، وأمة عيسى كذلك،

وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم، كل أمة تدعى إلى شرعها

الذي كلفت به .

هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في

نفسه، غير مشکوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ

تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا﴾ أي: إلى كتاب أعمالها، وما سطر عليها من

خير وشر، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه، كقوله

تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَلْإِيَّاهُ ۖ﴾ .

ويحتمل أن المعنيين كليهما مراد من الآية، ويدل على هذا

قوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ أي: هذا كتابنا الذي

أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل ﴿إِنَّا كُنَّا

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

٥٠١

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

أَفْرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ

وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِّنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا

إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٣٨﴾ وَإِذَا نَسِئَ

عَلَيْهِمْ ءَابَتْنَا بَيْنَتٌ مَّا كَانُ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا أَتُورِثُونَا يَا بَنِي آدَمَ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾ قُلِ اللَّهُ يُخَيِّبُكُم ثُمَّ يُثَبِّتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ

الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ

السَّمَوَاتِ وَالْاَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبَدِّلُهُ بِخَسْرٍ مُّتَبَدِّلُونَ

﴿٤١﴾ وَرَأَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَائِئَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُحْزَرُونَ مَا كُنْتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُطِيقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ

مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٤٤﴾ وَأَمَّا

الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَأَعْرَبْنَاكَ أَنَّ ابْنِي سَقَىٰ عَلَيْكَ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا

تُجْرِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا فَلَمَّ

مَا نَدْرَىٰ مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَبْقِينَ ﴿٤٦﴾

نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهذا كتاب الأعمال .

ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إيماناً صحيحاً، وصدقوا إيمانهم بالأعمال

الصالحة، من واجبات ومستحبات ﴿يُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾

التي محلها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، والعيش السليم

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ﴾، أي: المفاز والنجاة والريح، والفلاح

الواضح البين الذي إذا حصل للعبد، حصل له كل خير،

واندفع عنه كل شر .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً:

﴿أَفَأَعْرَبْنَاكَ أَنَّ ابْنِي سَقَىٰ عَلَيْكَ﴾ وقد دلنكم على ما فيه صلاحكم،

ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم، لو

وقفتم لها، ولكن استكبرتم عنها وأعرضتم، وكفرتم بها،

فجنتم أكبر جنابة، وأجرتم أشد الجرم، فاليوم تجزون ما

كنتم تعملون .

ويوبخون أيضاً بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا

رَبِّ فِيهَا فَلَمَّ﴾ منكرين لذلك: ﴿مَا نَدْرَىٰ مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْنَُّ إِلَّا ظَنًّا

وَمَا نَحْنُ بِمَسْتَبْقِينَ﴾ .

فهذه حالهم في الدنيا، وحال البعث الإنكار له، وردّ قول من جاء به، قال تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم ﴿وَحَافَّ بِهِمْ﴾ أي: نزل ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب الذي كانوا في الدنيا يستهزئون به وبوقوعه، وبمن جاء به.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْتَكْفُرُ﴾ أي: تترككم في العذاب ﴿كَأَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ فإن الجزء من جنس العمل ﴿وَمَا وَكُمُ النَّارُ﴾ أي: هي مقرم ومصيركم. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَصِيرَةٍ﴾ ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عقابه.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي حصل لكم من العذاب بسبب أنكم ﴿أَخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح.

﴿وَعَزَّكُمُ الْحَيَةُ الدُّنْيَا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأنتم إليها، وعملتكم لها، وتركتكم العمل للدار الباقية.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْعَتُونَ﴾ أي: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحًا.

﴿فَلِلَّهِ الْمُدَّةُ﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلائق، حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة.

﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: له الجلال والعظمة والمجد.

فالحمد فيه الثناء على الله بصفات الكمال، ومحجته تعالى وإكرامه، والكبرياء فيها عظمته وجلاله، والعبادة مبنية على ركنين: محبة الله، والذل له، وهما ناشئان عن العلم بمحامد الله وجلاله وكبريائه.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا لحكمة ومصصلحة، ولا يخلق ما يخلقه إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الجاثية - والله الحمد والمنة والفضل.

تفسير سورة الأحقاف

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿حَمَّ﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ○ ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما

سورة الأحقاف

٥٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَافَّ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٦﴾

وقيل اليوم ننتصركم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وماونكم النار وما

لكم من نصيرين ﴿٣٧﴾ ذلك بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وعزتمكم

الحياة الدنيا فالיום لا يخرجون منها ولا هم يستعنون ﴿٣٨﴾

فإله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين ﴿٣٩﴾ وله

الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٠﴾

سورة الأحقاف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ﴿١﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿٢﴾ ما خلقنا

السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين

كفروا عما أنذروا معرضون ﴿٣﴾ قل آراءهم ما تدعون من

دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات

أثني بي كتب من قبل هذا أو أثر من علم إن كنتم

صديقين ﴿٤﴾ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من

لا يستجيب له إلى يوم القيمة وهم عن دعابهم غفلون ﴿٥﴾

أذروا معرضون ﴿٦﴾ هذا ثناء منه تعالى على كتابه العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك إرشاد العباد إلى الانتهاء بنوره، والإقبال على تدبر آياته، واستخراج كنوزه.

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر والنهي، ذكر خلقه السماوات والأرض، فجمع بين الخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾.

وكما قال تعالى: ﴿يُرْسِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ○ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾.

فإنه تعالى هو الذي خلق المكلفين، وخلق مسانكتهم، وسخر لهم ما في السماوات وما في الأرض، ثم أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه الدار دار أعمال وممر للعمال، لا دار إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم سينتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار، وموطن الخلود والدوام، وإنما أعمالهم التي عملوها في هذه الدار، يسجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً موقراً.

﴿عَبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ .

فعلم أن جدال المشركين في شركهم، غير مستندين فيه على برهان ولا دليل، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة، وآراء كاسدة، وعقول فاسدة .

يدلُّك على فسادها استقراء أحوالهم، وتتبع علومهم وأعمالهم، والنظر في حال من أفنوا أعمارهم بعبادته، هل أفادهم شيئاً في الدنيا أو في الآخرة؟ .

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: مدة مقامه في الدنيا، لا ينتفع به مثقال ذرة، ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ لا يسمعون منهم دعاء، ولا يجيبون لهم نداء، هذا حالهم في الدنيا، ويوم القيامة يكفرون بشرككم .

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ يلعن بعضهم بعضاً، ويتبرأ بعضهم من بعض ﴿وَكَانُوا بِبَيَادِهِمْ كَافِرِينَ﴾ .

(٧-١٠) ﴿وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا نَبَّيْتُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ سُحُورٌ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّهُ قُلْ إِنْ أَفَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنْ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفْعِلُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ إِنْ أُنِجَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَمَأَمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: وإذا تتلى على المكذبين ﴿آيَاتُنَا نَبَّيْتُ﴾ بحيث تكون على وجه لا يمتري بها، ولا يشك في وقوعها وحقها، لم تفدهم خيراً، بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافتراءهم ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ سُحُورٌ﴾ أي: ظاهر لا شك فيه، وهذا من باب قلب الحقائق، الذي لا يروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا فبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، وبين السحر من المنافاة والمخالفة، أعظم مما بين السماء والأرض .

وكيف يقاس الحق - الذي علا وارتفع ارتفاعاً على الأفلاك، وفاق بضوته ونوره نور الشمس، وقامت الأدلة الألفية والنفسية عليه، وأقرت به وأذعنت أولو البصائر والعقول الرزنية - بالباطل الذي هو السحر، الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس، خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله، وهل هذا إلا من البهرجة؟ .

﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّهُ﴾ أي: افتري محمد هذا القرآن من عند نفسه، فليس هو من عند الله .

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنْ أَفَرَيْتُمْ﴾ فالله عليّ قادر وبما تفيضون فيه عالم، فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؟ .

وأقام تعالى الأدلة الدالة على تلك الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب والعقاب العاجل، ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب، والهرب من المرهوب، ولهذا قال هنا: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا عبثاً ولا سدى، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما، ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي خلقهما على عظمهما، قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن خلقهما وبقاءهما مقدر إلى ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ .

فلما أخبر بذلك - وهو أصدق القائلين - وأقام الدليل، وأثار السبيل، أخبر - مع ذلك - أن طائفة من الخلق قد أبوا إلا إعراضاً عن الحق، وصدوقاً عن دعوة الرسل، فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ .

وأما الذين آمنوا، فلما علموا حقيقة الحال قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتعظيم، فجازوا بكل خير، واندفع عنهم كل شر .

(٤-٦) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتُنزِلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْبَيِّنَاتِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِبَيَادِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله أوثاناً وأنداداً، لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، قل لهم - مبيناً عجز أوثانهم، وأنها لا تستحق شيئاً من العبادة -: ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ .

هل خلقوا من أجرام السماوات والأرض شيئاً؟ هل خلقوا جبالاً؟ هل أجروا أنهاراً؟ هل نشروا حيواناً؟ هل أنتبوا أشجاراً؟ هل كان منهم معاونة على خلق شيء من ذلك؟ .

لا شيء من ذلك، بإقرارهم بأنفسهم، فضلاً عن غيرهم، فهذا دليل عقلي قاطع على أن كل من سوى الله، بعبادته باطلة .

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلي، فقال: ﴿أَتُنْتَوِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ الكتاب يدعو إلى الشرك، ﴿أَوْ أَتُنزِلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ موروث عن الرسل يأمر بذلك .

من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل بدليل يدل على ذلك، بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل دعوا إلى توحيد ربهم، ونهوا عن الشرك به، وهي أعظم ما يؤثر عنهم من العلم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وكل رسول قال لقومه:

سورة الأحقاف

٥٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِذْ أَحْسَرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كُفْرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذْ
 نَتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا يَنْتَدِي قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَلْحَقِّ لَمَجَاءٌ هُمْ هَذَا
 سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنبئُهُ قُلُوبَ إِنْ أَفَرَّتْهُ فَلَا تَمْلِكُونَ
 لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي
 وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَا مَنِ الرُّسُلِ
 وَمَا آدُرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ أَنْ يُنْعِمَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا
 إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ
 وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
 لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ
 فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ
 إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ
 الَّذِينَ ظَلَمُوا وَسُرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا
 اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَالْخَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾
 أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

بمنزلة من لم يقدر على الشيء، ثم طفق يذمه، ولهذا قال:
 ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٌ قَدِيمٌ﴾ أي: هذا السبب
 الذي دعاهم إليه، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم
 أعظم المواهب، وأجل الرغائب، قدحوا فيه بأنه كذب، وهو
 الحق الذي لا شك فيه، ولا امتراء يعتربه، الذي قد وافق
 الكتب السماوية، خصوصًا أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي
 التوراة التي أنزلها الله على موسى ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي: يقتدي
 بها بنو إسرائيل، ويهتدون بها، فيحصل لهم خير الدنيا
 والآخرة.

﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿كِتَابٌ مُصَدِّقٌ﴾ للكتب السابقة، شهد
 بصدقها، وصدقها، بموافقتها لها، وجعله الله ﴿إِسَانًا عَرَبِيًّا﴾
 ليسهل تناوله، ويتيسر تذكره ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم
 بالكفر والفسوق والعصيان، إن استمروا على ظلمهم بالعذاب
 الويل.

ويشير المحسنين في عبادة الخالق، وفي نفع المخلوقين،
 بالثواب الجزيل، في الدنيا والآخرة، ويذكر الأعمال التي
 يندر عنها، والأعمال التي يبشر بها.

فهل ﴿تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ إن أرادني الله بضر، أو
 أرادني برحمة ﴿كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فلو كنت متقولاً
 عليه، لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كل أحد، لأن
 هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً.

ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق
 ومخاصمته، فقال: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي: فتوبوا إليه،
 وأقلعوا عما أنتم فيه، يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم، فيوفقكم
 للخير، ويشيكم جزيل الأجر.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدَعَا مَنِ الرُّسُلِ﴾ أي: لست بأول رسول
 جاءكم، حتى تستغربوا رسالتي وتستكروا دعوتي، فقد تقدم
 من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم، فلاي شيء
 تكثر رسالتي؟

﴿وَمَا آدُرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرَهُ﴾ أي: لست إلا بشراً، ليس
 بيدي من الأمر شيء، والله تعالى هو المتصرف بي وبكم،
 الحاكم عليّ وعليكم، ولست الآتي بالشيء من عندي، ﴿وَمَا
 أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ فإن قبلتم رسالتي، وأجبتكم دعوتي، فهو
 حظكم ونصيبيكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك عليّ
 فحسابكم على الله، وقد أنذرتكم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي: أخبروني، لو كان
 هذا القرآن من عند الله، وشهد على صحته الموقفون من أهل
 الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق، فآمنوا
 به واهتدوا، فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء،
 واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم
 وأشد الكفر؟

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ومن الظلم الاستكبار عن
 الحق بعد التمكن منه.

(١٢، ١١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا
 سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَافٌ قَدِيمٌ وَمِنْ
 قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا
 لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَسُرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: قال الكفار بالحق
 معاندين له، وراديين لدعوتهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾
 أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، أي: لكننا أول مبادر به، وسابق
 إليه، وهذا من البهجة في مكان.

فأي دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به
 للمؤمنين؟ هل هم أركى نفوساً؟ أم أكمل عقولاً؟ أم الهدى
 بأيديهم؟
 ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم، يُعزُّون به أنفسهم

﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ بأن يكون جامعًا لما يصلحه، سالمًا مما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، ويشب عليه.

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم، لقوله: ﴿وَأَصْلِحْ لِي﴾.

﴿إِنِّي نَبْتُ إِلَيْكَ﴾ من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلى طاعتك ﴿وَأِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿الَّذِينَ نَقَبَلْتَهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ وهو الطاعات، لأنهم يعملون أيضًا غيرها.

﴿وَنَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ في جملة ﴿أَصْحَابِ الْجَنَّةِ﴾ فحصل لهم الخير والمحجوب، وزال عنهم الشر والمكروه.

﴿وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

(١٧-١٩) ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَبِي لَبَدَّيْهِ أَبِي لَكُمَا أَتَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهَذَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهُ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمْرٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَيَوْمَئِذٍ أَعْمَلْتُمْ وَهَمَّ لَا يُظَاهَرُونَ﴾ لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الحالات، فقال: ﴿وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أَبِي﴾ إذ دعواه^(٢) إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفاه الجزاء.

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدتهما، أن يدعوه إلى ما فيه سعادته الأبدية، وفلاحه السرمدي، فقابلهما بأقبح مقابلة، فقال: ﴿أَنِّي لَكُمَا﴾ أي: تبًا لكما ولما جئتما به.

ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك فقال: ﴿أَتَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ﴾ من قبري إلى يوم القيامة ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي﴾ على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور، وجهول، ومعاند؟.

﴿وَهَمَّا﴾ أي: والداه ﴿يَسْتَغِيثَانِ اللَّهُ﴾ عليه ويقولان له: ﴿وَبِكَ ءَامِنُ﴾ أي: يبدلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما - من حرصهما عليه - أنهما يستغيثان الله له، استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريق، ويعذلان ولدتهما، ويتوجعان له، وبينان له الحق، فيقولان: ﴿إِنَّ وَعْدَ

(١) في الأصل (منها الستتان) ولعل الصواب ما أثبت. (٢) في النسختين: دعياه.

(١٣، ١٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: إن الذين أقروا بربهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته وداموا على ذلك ﴿وَاسْتَقَمُوا﴾ مدة حياتهم ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من كل شر أمامهم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما خلفوا وراءهم.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ أي: أهلها الملازمون لها، الذين لا يبعون عنها حولًا، ولا يريدون بها بدلًا.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الإيمان بالله، المقضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

(١٥، ١٦) ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي نَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلْتَهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَجَاوَزَ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده، وشكره للوالدين أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكارة وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانه، وليست المذكورات مدة سيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب.

ويستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلَيْنَ﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع - وهي ستان - إذا سقطت [من الثلاثين شهرًا]^(١) بقي ستة أشهر، مدة للحمل.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله، ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي: ألهمني ووقفني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أي: نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها، ومقابلته ومثته، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الثناء بها على الله، والنعم على الوالدين نعم على أولادهم وذريتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصًا نعم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل، من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

الله حَقٌّ ﴿٢٠﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما .

وولدما لا يزداد إلا اعتوا ونفورا، واستكبارا عن الحق، وقدحا فيه، ﴿فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى رسوله .

وكل أحد يعلم أن محمدا ﷺ أمي لا يكتب ولا يقرأ، ولا تعلم من أحد، فمن أين يتعلم؟ وأنى للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا؟ .

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ﴾ بهذه الحالة الذميمة ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب ﴿فِي﴾ جملة ﴿أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجَيْنِ وَالْإِنْسِ﴾ على الكفر والتكذيب، فسيدخل هؤلاء في غمارهم، وسيغرقون في تيارهم .

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ والخسران: فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس ماله، فالأرباح من باب أولى وأحرى، فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصلوا على شيء من النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم .

﴿وَالْكَلِّ﴾ من أهل الخير وأهل الشر ﴿دَرَجَاتٍ وَمَا عَمِلُوا﴾ أي: كل على حسب مرتبته من الخير والشر، ومنازلهم في الدار الآخرة، على قدر أعمالهم، ولهذا قال: ﴿وَلِيُوفِيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظَامُونَ﴾ بأن لا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم .

(٢٠) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ لَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَأَلْيَوْمَ يُعْرَضُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كَفَرُوا فِي الْأَرْضِ يُعَذَّبُ الْحَقِّي وَيَمَا كُنْتُمْ تُسْفُونَ﴾ يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون، فيقال لهم: ﴿أَلَيْسَ لَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا﴾ حيث اطمأنتم إلى الدنيا، واغتررتم بلذاتها، ورضيتم بشهواتها، وألهتكم طبيئاتها عن السعي لآخرتكم، وتمتعتم تمتع الأعمام السارحة، فهي حظكم من آخرتكم .

﴿فَأَلْيَوْمَ يُعْرَضُونَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: العذاب الشديد، الذي يهينكم ويفضحكم، بما كنتم تقولون على الله غير الحق أي: تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلى الله، وإلى حكمه، وأنتم كذبة في ذلك، ﴿وَيَمَا كُنْتُمْ تُسْفُونَ﴾ أي: تتكبرون عن طاعته .

فجمعوا بين قول الباطل، والعمل بالباطل، والكذب على الله بنسبته إلى رضاه، والقدح في الحق، والاستكبار عنه، فعوقبوا أشد العقوبة .

(٢١-٢٦) ﴿وَأَذْكُرُ مَا عَادَ إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾ إلى آخر القصة (١) . أي: ﴿وَأَذْكُرُ﴾ بالثناء الجميل ﴿أَمَّا عَادٌ﴾ وهو هود

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

٥٠٤

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

وَوَصِيانَا الْإِنْسَانَ بُولَدِيهِ إِحْسَنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَا إِلَهِي لَمَنَّا لَأُعَذِّبَنَّكَ أَنْ أَتَىٰ الْكُرُورُ مِنْ قَبْلِي وَهِيَ الْيَوْمَ اسْتَعِيذَانُ اللَّهِ بِكَ وَتَيْدٌ مِنْهُ وَاللَّهُ حَقٌّ يَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجَيْنِ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوفِيَهُمْ أَعْمَلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظَامُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ لَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَأَلْيَوْمَ يُعْرَضُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تُسْفُونَ ﴿٢٤﴾

عليه السلام، حيث كان من الرسل الكرام، الذين فضلهم الله تعالى بالدعوة إلى دينه، وإرشاد الخلق إليه .

﴿إِذْ أُنذِرَ قَوْمَهُ﴾ وهم عاد ﴿بِالْأَحْقَافِ﴾، أي: في منازلهم المعروفة بالأحقاف، وهي الرمال الكثيرة في أرض اليمن .

﴿وَقَدْ خَلَّتْ الْأُنذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ فلم يكن بدعاه منهم، ولا مخالفا لهم، قائلًا لهم: ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .

فأمرهم بعبادة الله، الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد، وخوفهم - إن لم يطيعوه - العذاب الشديد، فلم تفد فيهم تلك الدعوة ﴿قَالُوا أَجِئْنَا بِتَأْفِكِكَ عَنَّا هَاهُنَا﴾ أي: ليس لك من القصد، ولا معك من الحق، إلا أنك حسدتنا على آلهتنا، فأردت أن تصرفنا عنها .

﴿فَأَنبَأْنَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وهو الذي بيده أزمة الأمور والعناد .

﴿قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ فهو الذي بيده أزمة الأمور

(١) في ب، ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنْكُمْ مَن كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ .

ومقاليدها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء.

﴿وَأَبْلَعُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ أي: ليس عليّ إلا البلاغ المبين،
﴿وَلِكَيْتَ أُرْكَرَكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر من
هذه الجرأة الشديدة، فأرسل الله عليهم العذاب العظيم، وهي
الريح التي دمرتهم وأهلكتهم.

ولهذا قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي: العذاب ﴿عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ
أُودِيَّتِهِمْ﴾ أي: معترضًا كالسحاب، قد أقبل على أوديتهم التي
تسيل، فسقي نوابتهم، ويشربون من آبارها وغدرانها.
﴿قَالُوا﴾ مستبشرين: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطْرَانًا﴾ أي: هذا السحاب
سيمطرنا.

قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ أي: هذا الذي جنيت
به على أنفسكم، حيث قلتم: ﴿فَأَيْنَا يَمَآ تَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ
الصّٰدِقِينَ﴾.

﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ تدرّس كلّ شيء ﴿تمر عليه من شدتها
ونحسها. فسقطها الله عليهم ﴿سَجَّ لِيَالٍ وَكَنِينَةَ آيَاتٍ حُسُومًا
فَرَزَقَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغَيْنَ كَانَتْهُنَّ أَعْمَارًا تَحِلُّ حَارِيْرًا﴾ [﴿يَأْمُرُ رَبُّهَا﴾
أي: بإذنه ومشيته].

﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَوْنَ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم
وأنفسهم.

﴿كَذَلِكَ يَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ بسبب جرمهم وظلمهم.

هذا مع أن الله تعالى قد أدرّ عليهم النعم العظيمة، فلم
يشكروه، ولا ذكروه، ولهذا قال: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن
مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ﴾ أي: مكانهم في الأرض، يتناولون طيباتها،
ويتمتعون بشهواتها، وعمرانها عمرًا يتذكر فيه من تذكر،
ويتعظ فيه المهتدي، أي: ولقد مكنا عادًا كما مكناكم يا
هؤلاء المخاطبون، أي: فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص
بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئًا، بل غيركم أعظم
منكم تمكينًا، فلم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم ولا
جنودهم من الله شيئًا.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ أي: لا قصور في
أسماعهم ولا أبصارهم ولا أذهانهم، حتى يقال: إنهم تركوا
الحق جهلاً منهم، وعدم تمكن من العلم به، ولا خلل في
عقولهم، ولكن التوفيق بيد الله.

﴿فَمَا آغَىٰ عَنْهُمْ سَمْعَهُمْ وَلَا أَبْصَرَهُمْ وَلَا أَفْقِدْتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ﴾ لا
قليل ولا كثير.

وذلك بسبب أنهم ﴿يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على
توحيده وإفراده بالعبادة.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: نزل بهم العذاب

سورة الأحقاف

٥٥

سورة الأحقاف

﴿وَأَذْكُرْ آعَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ
مِنَ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ ۚ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ﴿٥٥﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُؤْفِكَ عَنَّا لِهَيْبَتِنَا فَأَيْنَا
يَمَآ تَعْدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ ﴿٥٦﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعْلَمُ عِنْدَ اللَّهِ
وَأَبْلَعُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ۚ وَلِكَيْتَ أُرْكَرَكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ ﴿٥٧﴾
فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أُودِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطْرَانًا
بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ۚ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٥٨﴾ تَدْرُسُ كُلَّ
شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَوْنَ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ يَجْزِي
الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٥٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَبَصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا آغَىٰ عَنْهُمْ سَمْعَهُمْ
وَلَا أَبْصَرَهُمْ وَلَا أَفْقِدْتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ ۚ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٦٠﴾ وَلَقَدْ
أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿٦١﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً
بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ ﴿٦٢﴾

الذي يكذبون بوقوعه، ويستهزئون بالرسل الذين حذروهم
منه.

(٢٨، ٢٧) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَىٰ وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فلولًا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قُرْبَانًا آلِهَةً
بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ يحذر تعالى
مشركي العرب وغيرهم، بإهلاك الأمم المكذبين، الذين هم
حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة العرب، كعاد وثمود
ونحوهم، وأن الله تعالى صرف لهم الآيات، أي: نوعها من
كل وجه ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه من الكفر والتكذيب.

فلما لم يؤمنوا أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم
آلتهم التي يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا:
﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾، أي:
يتقربون إليهم، ويتألهونهم لرجاء نفعهم.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم.

﴿وَذَلِكِ إِفْكَهُمُ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ من الكذب، الذي
يؤمنون به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن
أعمالهم ستفنعهم، فضلت وبطلت.

(٢٩-٣٢) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصُوتًا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِرِينَ ۖ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۖ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۖ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۗ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمدًا ﷺ إلى الخلق، إنسهم وجنهم، وكان لا بد من إبلاغ الجميع لدعوة النبوة والرسالة.

فإنس يمكنه عليه الصلاة والسلام، دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن فصرفهم الله إليه بقدرته، وأرسل إليه ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصُوتًا﴾ أي: وصى بعضهم بعضًا بذلك.

﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ وقد وعوه، وأثر ذلك فيهم ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِرِينَ﴾ نصحًا منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقيضهم الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

﴿قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ لأن كتاب موسى أصل للإنجيل، وعمدة لبني إسرائيل في أحكام الشرع، وإنما الإنجيل متم ومكمل ومغير لبعض الأحكام.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي﴾ هذا الكتاب الذي سمعناه ﴿إِلَى الْحَقِّ﴾ وهو الصواب في كل مطلوب وخبر ﴿وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ موصل إلى الله، وإلى جنته، من العلم بالله، وبأحكامه الدينية، وأحكام الجزاء.

فلما مدحوا القرآن وبينوا محله ومرتبته، دعوهم إلى الإيمان به، فقالوا: ﴿يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ أي: الذي لا يدعو إلا إلى ربه، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه، ولا هوى، وإنما يدعوكم إلى ربكم، ليشيكم، ويزيل عنكم كل شر ومكروه، ولهذا قالوا: ﴿يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ وإذا أجارهم من العذاب الأليم، فما ثم بعد ذلك إلا التعميم، فهذا جزاء من أجاب داعي الله.

﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ﴾ فإن الله على كل شيء قدير، فلا يفوته هارب، ولا يغالبه مغالب ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۗ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ وأي ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل، ووصلت إليه النذر بالآيات البينات، والحجج المتواترات، فأعرض واستكبر؟!

(٣٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ يَخْلُقْهُنَّ يَخْلُقْهُنَّ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتُ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت، بما هو أبلغ

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

٥٠٦

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصُوتًا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذِرِينَ ۖ قَالُوا يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۖ يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۖ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ۗ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُنَّ يَخْلُقْهُنَّ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتُ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۖ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۖ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ۖ

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

٥٠٧

سُورَةُ الْحَجَّاتِ

منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض، على عظمهما وسعتهما، وإتقان خلقهما، من دون أن يكثر بذلك، ولم يُعَيِّ بخلقهن، فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم، وهو على كل شيء قدير؟!

(٣٤، ٣٥) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۖ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلِّغْ فَهَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يوبخون، ويقال لهم: ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ فقد حضرتموه وشاهدتموه عيانًا؟ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ فاعترفوا بذنبهم، وتبين كذبهم ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: عذابًا لازمًا دائمًا، كما كان كفركم صفة لازمة.

ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال داعيًا لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر أولي العزم من المرسلين، سادات الخلق، أولي العزائم والهمم

مشمات على ذكر ثواب المؤمنين وعقاب العاصين، والسبب في ذلك، ودعوة الخلق إلى الاعتبار بذلك، فقال: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهؤلاء رؤساء الكفر، وأئمة الضلال الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته، والصد لأنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، التي هي الإيمان بما دعت إليه الرسل واتباعه.

فهؤلاء ﴿أَضَلَّ﴾ الله ﴿أَعْتَلَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأشقاها بسببها، وهذا يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا بها الحق وأولياء الله، أن الله جعل كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما قصدوا شيئاً، وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها، أن الله سبحانه عليها، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا الباطل، وهو كل غاية لا يراد بها وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة.

﴿و﴾ أما ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما أنزل الله على رسله عموماً، وعلى محمد ﷺ خصوصاً، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة. ﴿كَفَرُوا﴾ الله ﴿عَنَّهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ صغارها وكبارها، وإذا كُفِرَتْ سيئاتهم، نجوا من عذاب الدنيا والآخرة ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ أي: أصلح دينهم وديارهم، وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ثوابهم، بتتميته وتزكيته، وأصلح جميع أحوالهم، والسبب في ذلك أنهم: ﴿اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾ الذي هو الصدق واليقين، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم، الصادر ﴿مِن رَّبِّهِمْ﴾ الذي رباهم بنعمته، ودبرهم بلطفه فرباهم تعالى بالحق فاتبعوه، فصلحت أمورهم.

فلما كانت الغاية المقصودة لهم، متعلقة بالحق المنسوب إلى الله الباقي، الحق المبين، كانت الوسيلة صالحة باقية، باقياً ثوابها.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ حيث بين لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ﴾.

(٤-٦) ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَفْنَوْهُمُ فَشَدُّوا الرِّوَابِ فَإِنَّمَا مَتَابِعٌ وَمَا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الرَّبُّهُنَّ أَوْزَارَهُنَّ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرْنَا بِهِمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ○ سَيَجِدُهمُ وَصَّالِحًا بِاللَّهِ ○ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ يقول تعالى - مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم، ونصرهم على أعدائهم -: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في الحرب والقتال، فاصدقوهم القتال، واضربوا منهم الأعناق، حتى تتخونهم،

العالية، الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو لآثارهم، والاهتداء بمنارهم.

فامتثل ﷺ لأمر ربه، فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بصدده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من المعادة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعاً بأمر الله، مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكَّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأمته على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليماً.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، فإن هذا من جهلهم وحمقهم، فلا يَسْتَعْجِلَنَّكَ بجهلهم ولا يحملك ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك، فإن كل ما هوات قريب.

و ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يُرَوَّنَ مَا يُوعَدُونَ لَرَبِّئِنَّا﴾ في الدنيا ﴿إِلَّا سَاعَةٌ مِّن نَّهَارٍ﴾ فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صاترون إلى العذاب الربيل.

﴿بَلَّغْ﴾ أي: هذه الدنيا، متاعها وشهواتها ولذاتها بلغة منغصة، ودفع وقت حاضر قليل.

أوهذا القرآن العظيم الذي بينا لكم فيه البيان التام، بلاغ لكم، وزاد إلى الدار الآخرة. ونعم الزاد والبلغة، زاد يوصل إلى دار النعيم، ويعصم من العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده الخلاق، وأجل نعمة أنعم الله بها عليهم.

﴿فَهَلْ يُهْلِكُ﴾ بالعقوبات ﴿إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربه، ولم يقبلوا الحق الذي جاءتهم به الرسل.

وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم، نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القتال

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ○ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ○ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾ هذه الآيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٧

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ
 اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى
 إِذَا ائْتَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَأْتِبَعُوا وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ
 أَوْرَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَنُنصِرَهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ
 بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيِّئَاتِهِمْ
 وَيُصَلِّحُ بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴿٥﴾ وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴿٦﴾ بِتَأْيِيدِ الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 فَتَسَاءَلُهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿١١﴾

(٧-٩) ﴿بِتَأْيِيدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ
 أَقْدَامَكُمْ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَسَاءَلُهُمْ وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ ﴿٨﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا
 أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٩﴾ هذا أمر منه تعالى للمؤمنين، أن
 ينصروا الله بالقيام بدينه، والدعوة إليه، وجهاد أعدائه،
 والقصد بذلك وجه الله، فإنهم إذا فعلوا ذلك، نصرهم الله
 وثبت أقدامهم، أي: يربط على قلوبهم بالصبر والطمأنينة
 والثبات، ويصبر أجسامهم على ذلك، ويعينهم على
 أعدائهم.

فهذا وعد من كريم صادق الوعد، أن الذي ينصره بالأقوال
 والأفعال سينصره مولاة، ويسير له أسباب النصر من الثبات
 وغيره.

وأما الذين كفروا بربهم، ونصروا الباطل، فإنهم في
 تعس، أي: انتكاس من أمرهم وخذلان.

﴿وَأَصْلُ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: أبطل أعمالهم التي يكيدون بها
 الحق، فرجع كيدهم في نحورهم، وبطلت أعمالهم التي
 يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله.

ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا، بسبب أنهم ﴿كَرِهُوا

وتكسروا شوكتهم، وتبطلوا شرهم، فإذا فعلتم ذلك ورأيتم
 الأسر أولى وأصلح ﴿فَشُدُّوا الْوَتَاقَ﴾ أي: الرباط، ولهذا
 احتياط لأسرهم لئلا يهربوا، فإذا شد منهم الوثاق اطمأن
 المسلمون من هربهم، ومن شرهم.

فإذا كانوا تحت أسركم، فأنتم بالخيار بين المن عليهم،
 وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإما أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم
 حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير
 مسلم عندهم.

وهذا الأمر مستمر ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْرَارَهَا﴾ أي: حتى لا
 يبقى حرب، وتبقون في المسالمة والمهادنة، فإن لكل مقام
 مقالاً، ولكل حال حكماً، فالحال المتقدمة، إنما هي إذا كان
 قتال وحرب.

فإذا كان في بعض الأوقات، لا حرب فيه لسبب من
 الأسباب، فلا قتل ولا أسر.

﴿ذَلِكَ﴾ الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين،
 ومداولة الأيام بينهم، وانتصار بعضهم على بعض ﴿وَلَوْ يَشَاءُ
 اللَّهُ لَنُنصِرَهُمْ﴾ فإنه تعالى على كل شيء قدير، وقادر على أن
 لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً، حتى يبئد المسلمون
 خضراءهم.

﴿وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾ ليقوم سوق الجهاد، ويتبين
 بذلك أحوال العباد، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن
 إيماناً صحيحاً عن بصيرة، لا إيماناً مبنياً على متابعة أهل
 الغلبة، فإنه إيمان ضعيف جداً، لا يكاد يستمر لصاحبه عند
 المحن والبلايا.

﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ لهم ثواب جزيل، وأجر جميل،
 وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم، لتكون كلمة الله هي
 العليا.

فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم، أي: لن يحبطها ويبطلها،
 بل يتقبلها وينمها لهم، ويظهر من أعمالهم نتائجها في الدنيا
 والآخرة.

﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة ﴿وَيُصَلِّحُ
 بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾ أي: حالهم وأمورهم، وثوابهم يكون صالحاً كاملاً لا
 نكد فيه ولا تنغيص بوجه من الوجوه.

﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ﴾ أي: عرفها أولاً، بأن شوقهم
 إليها، ونعتها لهم، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها، التي
 من جعلتها القتل في سبيله، ووقفهم للقيام بما أمرهم به
 ورغبتهم فيه، ثم إذا دخلوا الجنة، عرفهم منازلهم، وما
 احتوت عليه من النعيم المقيم، والعيش السليم.

والأبنية والآلات.

﴿أَهْلَكْتَهُمْ﴾ حين كذبوا رسلنا، ولم تدف فيهم المواعظ، فلم نجد^(١) لهم ناصراً، ولم تغن عنهم قوتهم من عذاب الله شيئاً.

فكيف حال هؤلاء الضعفاء، أهل قريتك، إذ أخرجوك عن وطنك وكذبوك، وعادوك وأنت أفضل المرسلين، وخير الأولين والآخرين!؟

أليسوا بأحق من غيرهم بالإهلاك والعقوبة، لولا أن الله تعالى بعث رسوله بالرحمة والثاني، بكل كافر وجاحد؟.

[١٤] ﴿أَفَن كَانَ عَلَىٰ بَيْنِيٰ مِن رَّبِّيٰ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوٓءَ عَمَلِهِۦ وَابْتِغَىٰٓ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: لا يستوي من هو على بصيرة من أمر دينه، علماً وعملاً، قد علم الحق واتبعه، ورجا ما وعده الله لأهل الحق، كمن هو أعمى القلب، قد رفض الحق وأضله، واتبع هواه بغير هدى من الله، ومع ذلك، يرى أن ما هو عليه من الحق، فما أبعد الفرق بين الفريقين وما أعظم التفاوت بين الطائفتين، أهل الحق وأهل الغي!]^(٢)

(١٥) ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَرٌ مِن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأهْرٌ مِن لَبَنٍ لَّم يَتَغَيَّر طَعْمُهُ وَأَهْرٌ مِن حَمْرٍ لَّدُو لَشْرِبٍ وَأَهْرٌ مِن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَهَمَّ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَلِيدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي: مثل الجنة التي أعدها الله لعباده الذين اتقوا سخطه، واتبعوا رضوانه، أي: نعتها وصفتها الجميلة.

﴿فِيهَا أَنهَرٌ مِن مَّاءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غير متغير، لا بوخم ولا بريح منتنة، ولا بمرارة، ولا بكدورة، بل هو أهدب المياه وأصفاها، وأطيبها ريحاً، وألدها شرباً.

﴿وَأَهْرٌ مِن لَبَنٍ لَّم يَتَغَيَّر طَعْمُهُ﴾ بحموضة ولا غيرها ﴿وَأَهْرٌ مِن حَمْرٍ لَّدُو لَشْرِبٍ﴾ أي: يلتذ به شاربه لذة عظيمة، لا كخمر الدنيا الذي يكره مذاقه ويصدع الرأس، ويغول العقل.

﴿وَأَهْرٌ مِن عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ من شمعته وسائر أوساخه. ﴿وَهَمَّ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ من نخيل، وعب، وتفاح، ورمان، وأترج، وتين، وغير ذلك مما لا نظير له في الدنيا، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم.

ثم قال: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ يزول بها عنهم المرهوب، [فهؤلاء]^(٣) خير أم من هو خالد في النار التي اشتد حرها، وتضاعف عذابها ﴿وَسُقُوا﴾ فيها ﴿مَاءً حَمِيماً﴾، أي: حاراً جداً، ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

(١) في ب: فلا تجد لهم ناصراً. (٢) زيادة من هامش ب، بخط المؤلف - رحمه الله - . (٣) في الأصل (فأي هؤلاء) ولعل الصواب ما أثبت.

مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ من القرآن الذي أنزله الله، صلاحاً للعباد، وفلاحاً لهم، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه ﴿فَأَحْطَ أَهْلَهُمْ﴾.

(١٠، ١١) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَىٰ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول ﷺ ﴿فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب. فإنهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم قد بادوا وهلكوا، واستأصلهم التكذيب والكفر، فخذوا، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم، بل دمر أعمالهم ومكرهم. وللكافرين في كل زمان ومكان، أمثال هذه العواقب الوحيمة، والعقوبات الذميمة.

وأما المؤمنون، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب، ويجزل لهم كثير الثواب.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَىٰ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فتولاهم برحمته، فأخرجهم من الظلمات إلى النور، وتولى جزاءهم ونصرهم ﴿وَأَنَّ الْكُفْرِينَ﴾ بالله تعالى، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدوا على أنفسهم رحمته ﴿لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ يهديهم إلى سبل السلام، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه، بل أولياؤهم الطاغوت، يخرجونهم من النور إلى الظلمات، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

(١٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْمَعُونَ وَاكْبُورُ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ النَّارَ مَثْوًىٰ لَهُمْ﴾ لما ذكر تعالى أنه ولي المؤمنين، ذكر ما يفعل بهم في الآخرة، من دخول الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، التي تسقي تلك البساتين الزاهرة، والأشجار الناضرة المثمرة لكل زوج بهيج، وكل فاكهة لذيذة.

ولما ذكر أن الكافرين لا مولى لهم، ذكر أنهم وُكِّلُوا إلى أنفسهم، فلم يتصفوا بصفات المروءة، ولا الصفات الإنسانية، بل نزلوا عنها دركات، وصاروا كالأنعام التي لا عقل لها ولا فضل، بل جُلُّ همهم ومقصدهم التمتع بلذات الدنيا وشهواتها، فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة دائرة حولها، غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة، ولهذا كانت النار مَثْوًىٰ لهم، أي: منزلاً معدداً، لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم من عذابها.

(١٣) ﴿وَكَايَنَ مِن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْتَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي: وكم من قرية من قرى المكذبين، هي أشد قوة من قريتك، في الأموال والأولاد والأعوان،

فسبحان من فاوت بين الدارين والجزءين، والعالمين والعاملين.

(١٦، ١٧) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِئذٍ الَّذِينَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ۗ وَالَّذِينَ آهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَآذَانَهُمْ تَقْوَاهُمْ ۗ يَقُولُ تَعَالَىٰ: وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ ﴿مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ ما تقول استماعًا، لا عن قبول وانقياد، بل معرضة قلوبهم عنه، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ مستفهمين عما قلت، وما سمعوا، مما لم يكن لهم فيه رغبة ﴿مَاذَا قَالَ آنِئذٍ﴾ أي: قريبًا. ولهذا في غاية الدم لهم، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير لألقوا إليه أسمعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم، ولكنهم بعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهون فيها إلا الباطل.

ثم بين حال المهتدين فقال: ﴿وَالَّذِينَ آهْتَدُوا﴾ بالإيمان والانقياد، واتباع ما يرضي الله ﴿زَادَهُمْ هُدًىٰ﴾ شكرًا منه تعالى لهم على ذلك ﴿وَأَنَّهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

(١٨) ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أي: فهل ينظر هؤلاء المكذبون أو ينتظرون ﴿إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة، وهم لا يشعرون ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: علاماتها الدالة على قربها. ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ أي: من أين لهم، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؟ فقد فات ذلك، وذهب وقت التذكر، فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكركم وجاءهم النذير.

ففي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

(١٩) ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثَلَكُمْ﴾ العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه، وتمامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائنًا من كان، بل كلٌّ مضطرٌّ إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو، أمور:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٠٨

سُورَةُ الْقَاتِلَاتِ

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَيَسْمَعُونَ نَادًا كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًىٰ لَهُمْ ﴿١٦﴾ وَكَانَ مِنْ قَرِيبِهِ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرِينِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا تَأْصِرْ لَهُمْ ﴿١٧﴾ أَفَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٨﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَرٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَرٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَرٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّرْبِ بَيْنَ وَأَنْهَرٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِئذٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ آهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَآذَانَهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴿٢٢﴾ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثَلَكُمْ ﴿٢٣﴾

أحدها بل أعظمها: - تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته^(١). فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالألوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعمة الظاهرة والباطنة، والدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبه، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأولياته القائمين بتوحيده من النصر والنعمة العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة

(١) في ب: وجلاله.

الجزاء وأوفاه.

(٢٠-٢٣) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِنَّا أَنْزَلْنَا سُورَةَ مُحْكَمَةً وَذِكْرَ فِيهَا لِقَاتٍ لَرَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِنَّا عَزَمْنَا الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۚ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطِّعُوا أَرْعَامَكُمْ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّهُمْ أَصْرَهُمْ ۗ يَقُولُ تَعَالَىٰ ۗ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ۗ استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ ۗ﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

﴿فَإِنَّا أَنْزَلْنَا سُورَةَ مُحْكَمَةً ۗ﴾ أي: ملزم العمل بها ﴿وَذِكْرَ فِيهَا لِقَاتٍ﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ من كراحتهم لذلك وشدته عليهم. وهذا كقولته تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۗ﴾

ثم نذبهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ ۚ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ ۗ﴾ أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، وجمعوا عليه همهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، ويفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه.

﴿فَإِنَّا عَزَمْنَا الْأَمْرَ ۗ﴾ أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتتم ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۗ﴾ من حالهم الأولى، وذلك من وجوه: منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلق نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، وبوظيفة وقته وبوظيفة المستقبل. أما الحال فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل فإنه لا يجيء حتى تفر الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره. فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به، ووطن نفسه^(١) عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته.

(١) في ب: وتودع نفسه، وكذلك كانت في أ من قبل، ثم شطبها الشيخ - رحمه الله - وعدلها إلى: وطن نفسه.

بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمشقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وعلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على ذلك، وتواطؤها عليه. السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقاً وعقولاً، ورأياً وصواباً، وعلماً - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا الله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأقفية والنفسية التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت وانفتحت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد - على تكرار الباطل والشبه - إلا نمواً وكمالاً.

هذا وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته - فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره.

وقوله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ ۗ﴾ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والحسنات الماحية، وترك الذنوب والعتو عن الجرائم.

﴿و﴾ استغفر أيضاً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ فإنهم - بسبب إيمانهم - كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة.

ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم ويستغفر لذنوبهم. وإذا كان ما موراً بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يحب لهم من الخير ما يحب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساويهم ومعاييبهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَقَالِكُمْ ۗ﴾ أي: تصرفاتكم وحركاتكم، وذهابكم ومجيئكم ﴿وَمَثَلِكُمْ ۗ﴾ الذي به تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم

ثم كلما جاء وقت استقباله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حربي بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

ثم ذكر تعالى حال المتولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شر، فقال: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ أي: فهما أمران، إما التزام لطاعة الله، وامتنثال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتول عن طاعة الله، فما تم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي، وقطيعة الأرحام.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَفْسَدُوا فِي الْأَرْضِ، وقطعوا أرحامهم لَعْنَهُمْ اللَّهُ﴾ بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله.

﴿فَأَسْهَرُوا عَيْنَ أَبْصَرِهِمْ﴾ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرونه. فلهم أذان ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعاً تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبيانات.

(٢٤) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي:

فهل لا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلهم على كل خير، ولحذرهم من كل شر، ولملا قلوبهم من الإيمان، وأفندتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبين لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر. ولعرفهم بربهم، وأسمائه وصفاته وإحسانه، ولشوقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويل.

﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ أي: قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت، فلا يدخلها خير أبداً؟ هذا هو الواقع.

(٢٥-٢٨) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبُرِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ الْهُدَىَٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَّ لَهُمْ ۚ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيئَتُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۚ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ ۚ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَنَّبَعُوا مَا اسَّخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ﴾ يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران. ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم، وإملاء منه لهم: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمَيِّبُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوبًا﴾.

وذلك أنهم قد تبين لهم الهدى، فزهدوا فيه ورفضوه، و

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَعْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوَصَّدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ۗ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۗ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَرَهُمْ ۗ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ۗ إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبُرِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىَٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَّ لَهُمْ ۚ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَطِيئَتُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ۚ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ ۚ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ أَنَّبَعُوا مَا اسَّخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ ۗ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ۗ

﴿قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ من المبارزين العداوة لله ولرسوله ﴿سَطِيئَتُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ أي: الذي يوافق أهواءهم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدى.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها.

﴿فَكَيْفَ﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة ﴿إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الموكلون بقبض أرواحهم ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ﴾ بالمقامع الشديدة!

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه سبب ﴿أَنَّبَعُوا مَا اسَّخَطَ اللَّهُ﴾ من كل كفر وفسوق وعصيان.

﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه، ولا يدينهم منه، ﴿فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه؛ فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه.

(٢٩-٣١) ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ۗ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَنزَلْنَاهُمْ فَلَغَرَفْنَاهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَتَعْرَفَنَّهُمْ فِي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ۝ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنَ
 وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ ۖ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي
 قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ۖ مِنْ شِبْهَةِ أَوْ شَهْوَةِ بِحَيْثُ تَخْرُجَ الْقَلْبُ عَنْ حَالِ
 صِحَّتِهِ وَعَدْتَالِهِ ۖ
 أَنْ اللَّهَ لَا يَخْرُجُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْأَضْغَانِ وَالْعِدَاوَةِ
 لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ؟ هَذَا ظَنٌّ لَا يَلِيقُ بِحِكْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ
 يُمَيِّزَ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ، وَذَلِكَ بِالِابْتِلَاءِ بِالْمَحْنِ الَّتِي مِنْ
 ثَبَتِ عَلَيْهَا، وَدَامَ إِيمَانُهُ فِيهَا فَهُوَ الْمُؤْمِنُ حَقِيقَةً ۖ
 وَمِنْ رَدَّتْهُ عَلَى عَقْبِيهِ فَلَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهَا، وَحِينَ أَنَاهُ
 الْاِمْتِحَانُ، جَزَعُ وَضَعْفُ إِيمَانِهِ، وَخَرَجَ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ
 الضَّغْنِ، وَتَبَيَّنَ نِفَاقُهُ، هَذَا مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ، مَعَ أَنَّهُ
 تَعَالَى قَالَ: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلَمَرَتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ ۖ أَي:
 بِعَلَامَاتِهِمُ الَّتِي هِيَ كَالْوَسْمِ فِي وَجُوهِهِمْ ۖ
 ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۖ أَي: لَا بَدَّ أَنْ يَظْهَرَ مَا فِي
 قُلُوبِهِمْ، وَتَبَيَّنَ بَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، فَإِنَّ الْأَلْسُنَ مَغَارِفَ
 الْقُلُوبِ، يَظْهَرُ مِنْهَا مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 أَعْمَلَكُمْ ۖ فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهَا ۖ
 ثُمَّ ذَكَرَ أَعْظَمَ امْتِحَانٍ يَمْتَحَنُ بِهِ عِبَادَهُ، وَهُوَ الْجِهَادُ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ ۖ أَي: نَخْتَبِرُ إِيمَانَكُمْ وَصَبْرَكُمْ
 حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ ۖ فَمَنْ امْتَثَلَ أَمْرَ
 اللَّهِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِنَصْرِ دِينِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ فَهُوَ الْمُؤْمِنُ
 حَقًّا، وَمَنْ تَكَاسَلَ عَنْ ذَلِكَ، كَانَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي إِيمَانِهِ ۖ
 (٣٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِن
 بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَصْرِوْا اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَلِهِمْ ۖ هَذَا
 وَعَيْدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ جَمَعَ أَنْوَاعَ الشَّرِّ كُلِّهَا مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَصَدَّ
 الْخَلْقَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِي نَصَبَهُ مُوَصِّلًا إِلَيْهِ ۖ
 ﴿وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۖ أَي: عَانَدُوهُ
 وَخَالَفُوهُ عَنِ عَمْدٍ وَعِنَادٍ، لَا عَن جَهْلِ وَغْيٍ وَضَلَالٍ، فَإِنَّهُمْ
 ﴿لَن يَصْرِوْا اللَّهُ شَيْئًا ۖ فَلَا يَنْقُصُ بِهِ مَلِكُهُ ۖ
 ﴿وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَلِهِمْ ۖ أَي: مَسَاعِيَهُمُ الَّتِي بَدَلُوهَا فِي نَصْرِ
 الْبَاطِلِ، بَأَنَّ لَا تُثْمَرُ لَهُمْ إِلَّا الْخَبِيئَةُ وَالْخُسْرَانُ، وَأَعْمَالُهُمُ الَّتِي
 يَرْجُونَ بِهَا الثَّوَابَ، لَا تُقْبَلُ لِعَدَمِ وُجُودِ شَرْطِهَا ۖ
 (٣٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا
 أَعْمَلَكُمْ ۖ يَأْمُرُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَمْرٍ بِهِ تَتِمُّ أُمُورُهُمْ، وَتَحْصُلُ
 سَعَادَتُهُمْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، وَهُوَ طَاعَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ فِي
 أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَالطَّاعَةُ هِيَ امْتِثَالُ الْأَمْرِ، وَاجْتِنَابُ
 النَّهْيِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ بِالْإِخْلَاصِ وَتَمَامِ الْمُتَابَعَةِ ۖ
 وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ ۖ يَشْمَلُ النَّهْيَ عَنِ إِطْلَالِهَا بَعْدَ

عملها بما يفسدها، من منَّ بها وإعجاب، وفخر وسمعة، ومن
 عمل بالمعاصي التي تضمحل معها الأعمال، ويحبط أجرها،
 ويشمل النهي عن إسعادها حال وقوعها بقطعها، أو الإتيان
 بمفسد من مفسداتها ۖ
 فمبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها كلها داخلة في
 هذا، ومنهية عنها، ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع
 الفرض، وكراهة قطع النفل، من غير موجب لذلك ۖ
 وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال، فهو أمر
 بإصلاحها، وإكمالها وإتمامها، والإتيان بها على الوجه الذي
 تصلح به علمًا وعملاً ۖ
 (٣٤، ٣٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ
 كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۖ فَلَا تَهْتَوُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَىٰ وَأَنْتُمْ الْأَخْلَوْنَ
 وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكَنَّ أَعْمَلَكُمْ ۖ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْبُقْرَةِ قَوْلُهُ:
 ﴿وَمَنْ يَبْرِكْ دِينُهُ مِنْكُمْ عَن وَبَيْتِهِ ۖ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ
 أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ مَقِيدَتَانِ لِكُلِّ نَصٍّ مُطْلَقٍ، فِيهِ
 إِحْبَاطُ الْعَمَلِ بِالْكَفْرِ، فَإِنَّهُ مَقِيدُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ ۖ فَقَالَ هُنَا: ﴿إِنَّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا ۖ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ۝ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنَ
 وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ ۖ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي
 قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ۖ مِنْ شِبْهَةِ أَوْ شَهْوَةِ بِحَيْثُ تَخْرُجَ الْقَلْبُ عَنْ حَالِ
 صِحَّتِهِ وَعَدْتَالِهِ ۖ

أَنْ اللَّهَ لَا يَخْرُجُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْأَضْغَانِ وَالْعِدَاوَةِ
 لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ؟ هَذَا ظَنٌّ لَا يَلِيقُ بِحِكْمَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ
 يُمَيِّزَ الصَّادِقَ مِنَ الْكَاذِبِ، وَذَلِكَ بِالِابْتِلَاءِ بِالْمَحْنِ الَّتِي مِنْ
 ثَبَتِ عَلَيْهَا، وَدَامَ إِيمَانُهُ فِيهَا فَهُوَ الْمُؤْمِنُ حَقِيقَةً ۖ
 وَمِنْ رَدَّتْهُ عَلَى عَقْبِيهِ فَلَمْ يَصْبِرْ عَلَيْهَا، وَحِينَ أَنَاهُ
 الْاِمْتِحَانُ، جَزَعُ وَضَعْفُ إِيمَانِهِ، وَخَرَجَ مَا فِي قَلْبِهِ مِنَ
 الضَّغْنِ، وَتَبَيَّنَ نِفَاقُهُ، هَذَا مُقْتَضَى الْحِكْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ، مَعَ أَنَّهُ
 تَعَالَى قَالَ: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلَمَرَتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ ۖ أَي:
 بِعَلَامَاتِهِمُ الَّتِي هِيَ كَالْوَسْمِ فِي وَجُوهِهِمْ ۖ
 ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۖ أَي: لَا بَدَّ أَنْ يَظْهَرَ مَا فِي
 قُلُوبِهِمْ، وَتَبَيَّنَ بَفَلَتَاتِ أَلْسِنَتِهِمْ، فَإِنَّ الْأَلْسُنَ مَغَارِفَ
 الْقُلُوبِ، يَظْهَرُ مِنْهَا مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
 أَعْمَلَكُمْ ۖ فَيَجَازِيكُمْ عَلَيْهَا ۖ

ثُمَّ ذَكَرَ أَعْظَمَ امْتِحَانٍ يَمْتَحَنُ بِهِ عِبَادَهُ، وَهُوَ الْجِهَادُ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ، فَقَالَ: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ ۖ أَي: نَخْتَبِرُ إِيمَانَكُمْ وَصَبْرَكُمْ
 حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَتَبْلُوا أَخْبَارَكُمْ ۖ فَمَنْ امْتَثَلَ أَمْرَ
 اللَّهِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِنَصْرِ دِينِهِ وَإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ فَهُوَ الْمُؤْمِنُ
 حَقًّا، وَمَنْ تَكَاسَلَ عَنْ ذَلِكَ، كَانَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي إِيمَانِهِ ۖ
 (٣٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِن
 بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَصْرِوْا اللَّهُ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَلِهِمْ ۖ هَذَا
 وَعَيْدٌ شَدِيدٌ لِمَنْ جَمَعَ أَنْوَاعَ الشَّرِّ كُلِّهَا مِنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ، وَصَدَّ
 الْخَلْقَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِي نَصَبَهُ مُوَصِّلًا إِلَيْهِ ۖ
 ﴿وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۖ أَي: عَانَدُوهُ
 وَخَالَفُوهُ عَنِ عَمْدٍ وَعِنَادٍ، لَا عَن جَهْلِ وَغْيٍ وَضَلَالٍ، فَإِنَّهُمْ
 ﴿لَن يَصْرِوْا اللَّهُ شَيْئًا ۖ فَلَا يَنْقُصُ بِهِ مَلِكُهُ ۖ
 ﴿وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَلِهِمْ ۖ أَي: مَسَاعِيَهُمُ الَّتِي بَدَلُوهَا فِي نَصْرِ
 الْبَاطِلِ، بَأَنَّ لَا تُثْمَرُ لَهُمْ إِلَّا الْخَبِيئَةُ وَالْخُسْرَانُ، وَأَعْمَالُهُمُ الَّتِي
 يَرْجُونَ بِهَا الثَّوَابَ، لَا تُقْبَلُ لِعَدَمِ وُجُودِ شَرْطِهَا ۖ
 (٣٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا
 أَعْمَلَكُمْ ۖ يَأْمُرُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِأَمْرٍ بِهِ تَتِمُّ أُمُورُهُمْ، وَتَحْصُلُ
 سَعَادَتُهُمْ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ، وَهُوَ طَاعَتُهُ وَطَاعَةُ رَسُولِهِ فِي
 أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَالطَّاعَةُ هِيَ امْتِثَالُ الْأَمْرِ، وَاجْتِنَابُ
 النَّهْيِ عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ بِالْإِخْلَاصِ وَتَمَامِ الْمُتَابَعَةِ ۖ
 وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَلَكُمْ ۖ يَشْمَلُ النَّهْيَ عَنِ إِطْلَالِهَا بَعْدَ

والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة؟ فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده وتنشيطهم وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

(٣٦-٣٨) ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۚ إِنَّ يَسْئَلَكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّرُوا وَيَخْرُجْ أَصْعَدَكُمْ ۚ هَآتَاكُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِئَلْتَفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَخِلْ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ هذا ترهيد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب. فلا يزال العبد لاهياً في ماله وأولاده وزينته، ولذاته من النساء والمآكل والمشارب، والمسكن والمجالس، والمناظر والرياسات، لاعباً في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى تستكمل دنياه ويحضره أجله.

فإذا هذه الأمور قد ولت وفارقت، ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسارته وحرمانه وحضر عذابه، فهذا موجب للعاقل الزهد فيها، وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها.

وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا﴾ بأن تؤمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرضاته على الدوام مع ترك معاصيه، فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمم والأعمال في طلبه.

وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفاً، ليثيبهم الثواب الجزيل، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْئَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ أي: لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم، ويعتكم من أخذ أموالكم ويقانكم بلا مال، أو ينقصكم نقصاً يضركم ولهذا قال: ﴿إِنْ يَسْئَلْكُمْوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخَّرُوا وَيَخْرُجْ أَصْعَدَكُمْ﴾ أي: ما في قلوبكم من الضغن، إذا طلب منكم ما تكرهون بذله.

والدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها، أنكم تمتنعون منها أنكم ﴿تَدْعُونَ لِئَلْتَفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ على هذا الوجه الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية.

﴿فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾ أي: فكيف لو سألكم وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك.

﴿وَصَدَّوْا﴾ الخلق ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بترهيدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل وترينه.

﴿ثُمَّ مَا تَوَّأَوْا وَهُمْ كَفَّارٌ﴾ لم يتوبوا منه ﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لا بشفاعة ولا بغيرها، لأنه قد تحتم عليهم العقاب وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مغبين أعمارهم في الكفر به والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه. فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقها عن أحد، ما دام حياً متمكناً من التوبة.

وسبحان الحليم الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافهم، ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

ثم قال تعالى: ﴿فَلَا تَهْتَفُوا﴾ أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا واثبتوا، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد طلباً لمرضاة ربكم، ونصحاً للإسلام، وإغضاباً للشيطان.

ولا تدعوا إلى المسالمة والمشاركة بينكم وبين أعدائكم طلباً للراحة ﴿وَالْحَالِ أَنْكُمْ﴾ أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكَنَّ أَي: ينقصكم ﴿أَعْمَلَكُمْ﴾.

فهذه الأمور الثلاثة، كل منها مقتضى للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلى، أي: قد توفرت لهم أسباب النصر، ووعدوا من الله بالوعد الصادق، فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عدداً وعُدداً وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم، فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين بالعون والنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً، بل سيوفهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا يَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْفُونَ مَوْطِئًا يَغِيظَ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كَيْدٌ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَعْمَالَ الْمُحْسِنِينَ ۝ وَلَا يُفْقِرُونَ نَفَقَةً صَوْبَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يُقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده، وأوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئاً.

فإن الله هو ﴿الغنى﴾ وأنت الفقراء ﴿تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم لجميع أموركم.

﴿إِن تَتَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان بالله، وامثال ما يأمركم به ﴿سَتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أُمَّتَكُمُ﴾ في التولي. بل يطيعون الله ورسوله ويحبون الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يَتَّيِبُوا إِلَيْهِنَّ أَمْوَالَهُنَّ مِمَّا رَزَقَهُنَّ مِنْ رَبِّهِنَّ يَأْتِي اللَّهَ بِقَبُولٍ حُبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾.

تم تفسير سورة القتال والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الفتح

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُسِّرْ لَكَ يَمَنَّتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمرًا في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل.

وبسبب ذلك لما أمن الناس بعضهم بعضاً، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار يتمكن من ذلك.

وأمكن الحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا، فلذلك سماه الله فتحاً ووصفه بأنه فتح مبين، أي: ظاهر جلي. وذلك لأن المقصود في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله وانتصار المسلمين، وهذا حصل بذلك^(١) الفتح، ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ وذلك - والله أعلم - بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة.

وبما تحمّل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته

﴿، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

﴿وَيُسِّرْ لَكَ يَمَنَّتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعزاز دينك ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك ﴿وَيَهْدِكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي.

﴿وَيُضْرِكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي: قوياً لا يتضعض فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام، وقمع الكافرين، وذلكهم ونقصهم مع توفر قوى المسلمين ونموهم ونمو أموالهم.

ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين فقال:

(٤-٦) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَرُدَّادُوا إِلَيْنَا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ قُرْآنًا عَظِيمًا﴾ ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْمُتَنَفِّقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ بِاللَّهِ طَرَفَ السَّوَةِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوَةِ وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

يخبر تعالى عن ميثته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمر الصعبة التي تشوش القلوب وترزعج الألباب وتضعف النفوس.

فمن نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يثبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه ويتم إيقانه.

فالصحابة رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس. فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: جميعها في ملكه وتحت تدبيره وقهره. فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونيبه، ولكنه تعالى عليم حكيم، ففتفضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر.

﴿لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات.

(١) في ب: به.

سُورَةُ الْفَتْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
وَمَا تَأَخَّرَ وَيَتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢﴾
وَيُضْرِكَ اللَّهُ نُصْرًا عَزِيمًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ
الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدَّهُمْ إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ ۗ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْرًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمَاتِ
بِاللَّهِ ظَنِّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَاللَّهُ جُنُودُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ
شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَلِيُعَزِّزُوا وَنُقِرُّوهُ وَنُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ أَي: وَمَعَ
عِزَّتِهِ وَقُوَّتِهِ فَهُوَ حَكِيمٌ فِي خَلْقِهِ وَتَدْبِيرِهِ، يَجْرِي عَلَى مَا تَقْتَضِيهِ
حُكْمَتُهُ وَإِقْتَانَهُ.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ الجزء المذكور للمؤمنين ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْرًا عَظِيمًا﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

وأما المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريبهم ما يسوؤهم حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يُعَلِّي كلمته، وأن أهل الباطل ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا.

﴿وَعَصَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله. ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

(٧) ﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا حَكِيمًا﴾ كرر الإخبار بأن له ملك السماوات والأرض وما فيهما من الجنود، ليعلم العباد أنه تعالى هو المعز المذل، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ جُنْدًا لَكُمْ الْغَلِيظُونَ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيمًا﴾ أي: قويًا غالبًا قاهرًا لكل شيء. ومع عزته وقوته فهو حكيم في خلقه وتدبيره، يجري على ما تقتضيه حكمته وإقتانه.

(٨، ٩) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۚ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ وَنُقِرُّوهُ وَنُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ أيها الرسول الكريم ﴿شَهِدًا﴾ لأمتك بما فعلوه من خير وشر، وشاهدًا على المقالات والمسائل، حقها وباطلها، وشاهدًا لله تعالى بالوحدانية والانفراد بالكمال من كل وجه.

﴿وَمُبَشِّرًا﴾ من أطاعك، وأطاع الله بالثواب الدنيوي والديني والأخروي، ومنذرًا من عصى الله بالعقاب العاجل والأجل.

ومن تمام البشارة والندارة بيان الأعمال والأخلاق التي يبشر بها وينذر، فهو المبين للخير والشر، والسعادة والشقاوة والحق من الباطل.

ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: بسبب دعوة الرسول لكم، وتعليمه لكم ما ينفعم، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله، المستلزم ذلك لطاعتها في جميع الأمور.

﴿وَنُعَزِّرُوهُ وَنُقِرُّوهُ﴾ أي: تعزروا الرسول ﷺ ﴿وَنُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تعظموه وتجلوه وتقوموا بحقوقه كما كانت له المنة العظيمة برباقكم.

﴿وَنُسَبِّحُوهُ﴾ أي: تسبحوا الله ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول

النهار وآخره، فذكر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الإيمان بهما والمختص بالرسول وهو التعزيز والتوقير، والمختص بالله وهو التسبيح له والتفديس بصلاة أو غيرها.

(١٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ۚ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هذه المبايعة التي أشار الله إليها هي «بيعة الرضوان» التي بايع الصحابة رضي الله عنهم فيها رسول الله ﷺ، على أن لا يفروا عنه، فهي عقد خاص، من لوازمه أن لا يفروا، ولو لم يبق منهم إلا القليل، ولو كانوا في حال يجوز الفرار فيها.

فأخبر تعالى: أن الذين بايعوك حقيقة الأمر أنهم ﴿يَبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ويعقدون العقد معه، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: كأنهم بايعوا الله وصافحوه بتلك المبايعة، وكل هذا الزيادة التأكيد والتقوية، وحملهم على الوفاء بها، ولهذا قال: ﴿فَمَنْ نَكَثَ﴾ فلم يف بما عاهد الله عليه ﴿فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ أي: لأن وبال ذلك راجع

إليه، وعقوبته واصله له.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ ٱللَّهُ ۗ أَيُّ: أتى به كاملاً موفراً .
﴿سَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يعلم عظمه وقدره إلا الذي آتاه

إياه .

(١١-١٣) ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِن ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا
وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِٱلسَّنِيهِرِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ
يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۗ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ
أَهْلِيهِمْ أَبدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَ ٱلسَّوءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا
بُورًا ۗ وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ فإِنَّا أَعْتَدْنَا لٱلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ يذم
تعالى المتخلفين عن رسوله في الجهاد في سبيله، من
الأعراب الذين ضعف إيمانهم، وكان في قلوبهم مرض،
وسوء ظن بالله تعالى، وأنهم سيعتذرون بأن أموالهم وأهلهم
شغلتهم عن الخروج في الجهاد.

وأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم، قال الله
تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِٱلسَّنِيهِرِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فإن طلبهم
الاستغفار من رسول الله ﷺ يدل على ندمهم وإقرارهم على
أنفسهم بالذنب، وأنهم تخلفوا تخلفًا يحتاج إلى توبة
واستغفار. فلو كان هذا الذي في قلوبهم، لكان استغفار
الرسول نافعًا لهم، لأنهم قد تابوا وأنبأوا، ولكن الذي في
قلوبهم أنهم إنما تخلفوا لأنهم ظنوا بالله ظن السوء .

فظنوا ﴿أَن لَّن يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبدًا﴾ أي:
إنهم سيقولون ويستأصلون، ولم يزل هذا الظن يزين في قلوبهم
ويطمثون إليه، حتى استحكم، وسبب ذلك أمران:
أحدهما: أنهم كانوا ﴿قَوْمًا بُورًا﴾ أي: هلكى، لا خير
فيهم، فلو كان فيهم خير، لم يكن هذا في قلوبهم .

الثاني: ضعف إيمانهم وقيمتهم بوعده الله، ونصر دينه،
وإعلاء كلمته، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ أَيُّ:
فإنه كافر مستحق للعقاب ﴿فإِنَّا أَعْتَدْنَا لٱلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ .

(١٤) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن
يَشَاءُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: هو تعالى المنفرد بملك
السموات والأرض يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام
القدرية، والأحكام الشرعية، والأحكام الجزائية، ولهذا ذكر
حكم الجزاء المرتب على الأحكام الشرعية، فقال: ﴿يَغْفِرُ
لِمَن يَشَاءُ﴾ وهو من قام بما أمره الله به ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾
ممن تهاون بأمر الله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي: وصفه اللازم
الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة .

فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن

٥١٢

سُورَةُ ٱلْفَتْحِ

سُورَةُ ٱلْفَتْحِ

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ بِٱللَّهِ فَمَنْ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ
فَمَنْ نَكَتَ فَإِنَّمَا يَنْكُتُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۗ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ
ٱللَّهُ فَمَسْئُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ
مِن ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ
بِٱلسَّنِيهِرِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ ٱللَّهِ
شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا ﴿١٢﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَن لَّن يَنْقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ
أَهْلِيهِمْ أَبدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَ ٱلسَّوءِ
وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٣﴾ وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ فإِنَّا
أَعْتَدْنَا لٱلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ
يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُورًا
رَّحِيمًا ﴿١٥﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ
مَعَانِمِ لَتَأْخُذُوهُنَّ وَأَنَّا نَبْعَثُكُمْ فِيهِنَّ غَرِيبَاتٍ لَّنِ
يَدْرَأَهُنَّ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْأَرْضِ قَلِيلًا يُرِيدُونَ أَن يَسِدُوا
كَلِمَ ٱللَّهِ قُلْ لَن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكَ قَالِ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ
فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المدرار آتاء الليل
والنهار .

(١٥) ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَعَانِمِ لَتَأْخُذُوهُنَّ
ذُرُوبًا نَّبَعْتُمْ فِيهِنَّ بِرِيدَاتٍ لَّنِ يَدْرَأَهُنَّ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْأَرْضِ قَلِيلًا
يُرِيدُونَ أَن يَسِدُوا كَلِمَ ٱللَّهِ قُلْ لَن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكَ
قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا
قَلِيلًا﴾ لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم، ذكر أن من عقوبتهم
الدينوية، أن رسول الله ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا
قتال فيها ليأخذوها، طلبوا منهم الصحبة والمشاركة،
ويقولون: ﴿ذُرُوبًا نَّبَعْتُمْ فِيهِنَّ بِرِيدَاتٍ﴾ بذلك ﴿أَن يَسِدُوا كَلِمَ ٱللَّهِ﴾
حيث حكم بعقوبتهم، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك
الغنائم، شرعاً وقدرًا .

﴿قُلْ﴾ لهم ﴿لَن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكَ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾ إنكم
محرومون منها بما جنبتكم على أنفسكم وبما تركتم القتال أول
مرة .

﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ مجيبين لهذا الكلام الذي منعوا به عن
الخروج: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ على الغنائم، هذا منتهى علمهم في
هذا الموضوع . ولو فهموا رشدهم، لعلموا أن حرمانهم بسبب

سُورَةُ الْفَتْحِ

٥١٣

الْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ

قُلِ الْمَخْلُوفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ
نُقَلِّبُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا فَإِنْ طَئِعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا
وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَيْسَ
عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ
وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَمَنْ يَتَوَلَّ يَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ
الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٩﴾ وَمَغَانِمَ
كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٢٠﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ
مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ
النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتُكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا ﴿٢١﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٢﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوْلُوا الْأَدْبُرُ لَمْ يَلْبُدُواكُمْ وَلَا يَلْبُدُونَ وَلَا يَلْبُدُونَ لَكُمُ الْيَوْمَ
لَوْلَا أَلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ○ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ
كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتُكُونَ
آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ○ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا
فَدَّ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ○ يخبر تعالى
بفضله ورحمته، برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ
تلك المبايعات التي يبضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا
والآخرة.

وكان سبب هذه البيعة - التي يقال لها: «بيعة الرضوان»
لرضا الله عن المؤمنين فيها، ويقال لها: «بيعة أهل الشجرة» -
أن رسول الله ﷺ لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم
الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجيء لقتال أحد، وإنما جاء
زائرًا لهذا البيت معظماً له. فبعث رسول الله ﷺ عثمان بن
عفان لمكة في ذلك.

فجاء خير غير صادق، أن عثمان قتله المشركون.

فجمع رسول الله ﷺ من معه من المؤمنين، وكانوا نحوًا
من ألف وخمسمائة، فبايعوه تحت شجرة على قتال
المشركين، وأن لا يفروا حتى يموتوا.

عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات دنيوية ودينية، ولهذا
قال: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

(١٧، ١٦) ﴿قُلِ الْمَخْلُوفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ
نُقَلِّبُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا فَإِنْ طَئِعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ
تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ○ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ
وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لما ذكر
تعالى أن المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في
سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا
لم يكن شوكة ولا قتال، بل لمجرد الغنيمة قال تعالى ممتحنًا
لهم: ﴿قُلِ الْمَخْلُوفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتَدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾
أي: سيدعوكم الرسول ومن ناب منابه من الخلفاء الراشدين
والأئمة.

وهؤلاء القوم فارس والروم ومن نحا نحوهم وأشبههم.
﴿نُقَلِّبُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُوا﴾ أي: إما هذا وإما هذا. وهذا هو
الأمر الواقع، فإنهم في حال قتالهم، ومقاتلتهم لأولئك
الأقوام، إذ كانت شدتهم وبأسهم معهم، فإنهم في تلك الحال
لا يقبلون أن يبذلوا الجزية، بل إما أن يدخلوا في الإسلام،
وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه.

فلما أئخنهم المسلمون وضعفوا وذلوا، ذهب بأسهم،
فصاروا إما أن يسلموا وإما أن يبذلوا الجزية ﴿فَإِنْ طَئِعُوا﴾
الداعي لكم إلى قتال هؤلاء ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ وهو
الأجر الذي رتبته الله ورسوله على الجهاد في سبيل الله.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلِ﴾ عن قتال من دعاكم الرسول
إلى قتاله، ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ودلت هذه الآية على
فضيلة الخلفاء الراشدين، الداعين لجهاد أهل البأس من
الناس، وأنه تجب طاعتهم في ذلك.

ثم ذكر الأعداء التي يعذر بها العبد عن الخروج إلى
الجهاد، فقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا
عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ أي: في التخلف عن الجهاد لعذرهم
المانع.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في امتثال أمرهما، واجتناب
نهيهما ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها
ما تشتهيها الأنفس، وتلذ الأعين.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾
فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته ومخالفته.

(٢١-١٨) ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ
الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ○

مخدولون مغلوبون. وهذه سنة الله في الأمم السابقة أن جند الله هم الغالبون ﴿وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾.

(٢٤، ٢٥) ﴿هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ هُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدْرَكُمْ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ وَلَا رِجَالًا مُؤْمِنِينَ وَنِسَاءً مُؤْمِنَاتٍ لَنْ تَعْلَمُوهُنَّ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ يقول تعالى ممثلاً على عباده بالعاقبة من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أهل مكة ﴿عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: من بعد ما قدرتم عليهم، وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلاً انحدروا على المسلمين ليصيبوا منهم غرة.

فوجدوا المسلمين متبھين فأسكوهم، فتركوهم ولم يقتلوهم رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ فيجازي كل عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

ثم ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين، وهي كفرهم بالله ورسوله، وصددهم رسول الله ومن معه من المؤمنين، أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة.

وهم الذين أيضاً صدوا ﴿الْهَدْيَ مَعْكُوفًا﴾ أي: محبوساً ﴿أَنْ يَبْلُغَ حِلَّهُمْ﴾ وهو محل ذبحه وهو مكة، فمنعه من الوصول إليه ظلماً وعدواناً، وكل هذه أمور موجبة وداعية إلى قتالهم. ولكن تم مانع وهو وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين، وليسوا متميزين بمحلة أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى. فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون والنساء المؤمنات الذين لا يعلمهم المسلمون ﴿أَنْ تَطَّوَّهُمْ﴾ أي: خشية أن تطأوهم ﴿فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ والمعرة: ما يدخل تحت قتالهم، من نيلهم بالأذى والمكروه. وفائدة أخروية، وهو أنه ليدخل في رحمته من يشاء فيمنع عنهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدى بعد الضلال، فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ أي: لو زالوا من بين أظهرهم ﴿لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بأن نبیح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصركم عليهم.

(٢٦) ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحِيتَةَ حِيتَةً الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ

فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإيمان ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ شكرًا لهم على ما في قلوبهم زادهم هدى.

وعلم ما في قلوبهم من الجزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبيتهم، وتطمئن بها قلوبهم ﴿وَأَنْزَلَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ وهو فتح خبير، لم يحضره سوى أهل الحديبية.

فاختصوا بخبير وغنائمها جزاء لهم، وشكرًا على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرضاته.

﴿وَمَعَانِيَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا﴾ أي: له العزة والقدرة التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين. ولكنه حكيم، يتلي بعضهم بعض، ويمتحن المؤمن بالكافر.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَعَانِيَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾ وهذا يشمل كل غنيمة عندها المسلمين إلى يوم القيامة.

﴿فَعَجَلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي: غنيمة خبير، أي: فلا تحسبوا وحدها، بل تم شيء كثير من الغنائم سببها.

﴿و﴾ احمدا لله، إذ ﴿كَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ الْقَادِرِينَ عَلَى قِتَالِكُمْ، الْحَرِيصِينَ عَلَيْهِ﴾ عنكم ﴿فَهِى نِعْمَةٌ، وَتَخْفِيفٌ عَنْكُمْ﴾.

﴿وَلِيُكُونَ﴾ هذه الغنيمة ﴿ءَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ يستدلون بها على خبر الله الصادق، ووعد الحق وثوابه للمؤمنين، وأن الذي قدرها سيقدر غيرها.

﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾ بما يقيض لكم من الأسباب ﴿صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ من العلم والإيمان والعمل.

﴿وَأُخْرَى﴾ أي: وعدكم أيضاً غنيمة أخرى ﴿لَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وقت هذا الخطاب.

﴿فَدَّ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي: هو قادر عليها، وتحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، فلا بد من وقوع ما وعد به لكمال اقتدار الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾.

(٢٢، ٢٣) ﴿وَلَوْ فَتَنَّاكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلْيًا وَلَا نَصِيرًا ۝ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ هذه بشارة من الله لعباده المؤمنين بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم ﴿لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلْيًا﴾ يتولى أمرهم.

﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم ويعينهم على قتالكم، بل هم

كَلِمَةَ النَّفْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٧﴾
يقول تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ حيث أنفوا من كتابة «بسم الله الرحمن الرحيم» وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك السنة، لثلا يقول الناس: «دخلوا مكة قاهرين لقريش».

وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية، لم تنزل في قلوبهم حتى أوجبت لهم ما أوجبت من كثير من المعاصي.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به، بل صبروا لحكم الله، والتزموا الشروط التي فيها تعظيم حرمت الله ولو كانت ما كانت، ولم يبالوا بقول القائلين ولا لوم اللاتمين.

﴿وَأَرْزَمَهُمْ كَلِمَةَ النَّفْوَى﴾ وهي «لا إله إلا الله» وحقوقها، أَرزَمهم القيام بها فالتزموها وقاموا بها.

﴿وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم ﴿و﴾ كانوا ﴿أَهْلَهَا﴾ الذين استأهلوها لما يعلم الله عندهم وفي قلوبهم من الخير، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾.

(٢٧، ٢٨) ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ يقول تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ رأى في المدينة رؤيا أخبر بها أصحابه، أنهم سيدخلون مكة، ويطوفون بالبيت، فلما جرى يوم الحديبية ما جرى، ورجعوا من غير دخول لمكة، كثر في ذلك الكلام منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله ﷺ: ألم تخبرنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال: «أخبرتكم أنه العام؟» قالوا: لا، قال: «فإنكم ستأتونه وتطوفون به». قال الله هنا: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا بد من وقوعها وصدقها، ولا يقدر في ذلك تأخر تأويلها.

﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي: في هذه الحال المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام، وأدائكم للنسك وتكميله بالحلوق والتقصير وعدم الخوف.

﴿فَعَلِمَ﴾ من المصلحة والمنافع ﴿مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ الدخول بتلك الصفة ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾. ولما كانت هذه الواقعة مما تشوشت بها قلوب بعض المؤمنين، وخفيت عليهم حكمتها، فبين تعالى حكمتها ومنفعتها، وهكذا سائر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١٤

سُورَةُ الْفَتْحِ

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٨﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهُدَى مَعَكُمْ فَأَنْ يَبْلُغَ مَجْمَلُهُ وَلَوْ لَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُنَّ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُنَّ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ نِسَاءٍ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٩﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَرْزَمَهُمْ كَلِمَةَ النَّفْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٠﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّبَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٣١﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٣٢﴾

أحكامه الشرعية، فإنها كلها هدى ورحمة.

أخبر بحكم عام فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ الذي هو العلم النافع الذي يهدي من الضلالة، وبين طرق الخير والشر.

﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: الدين الموصوف بالحق، وهو العدل والإحسان والرحمة.

وهو كل عمل صالح مُرَكَّبٌ للقلوب، مطهرٌ للنفس، مُرَبٌّ للأخلاق، مُعِلٌّ للأقدار.

﴿لِيُظْهِرَهُ﴾ بما بعثه الله به ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالحجة والبرهان، ويكون داعيًا لإخضاعهم بالسيف والسنان.

(٢٩) ﴿يُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا مُجْتَمِعًا يَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجَجٌ أَخْرَجَ سَطْحَهُ فَفَارَزُوا فَاسْتَفَظُوا فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَصِيْطَهُمْ﴾ الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا. يخبر تعالى عن رسوله ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار، أنهم بأكمل الصفات وأجل الأحوال.

ابن القيم في «الهدى النبوي» فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وتكلم على معانيها وأسرارها قال - رحمه الله تعالى -:

فصل في قصة الحديدية

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري وقتادة وموسى بن عقبة ومحمد ابن إسحاق وغيرهم.

وقال هشام بن عروة عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديدية في رمضان، وكانت في شوال، ولهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان.

قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب.

وفي الصحيحين عن أنس: أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة، فذكر منهن عمرة الحديدية، وكان معه ألف وخمسمائة، هكذا في الصحيحين عن جابر، وعنه فيهما: كانوا ألفاً وأربعمائة. وفيهما، عن عبد الله ابن أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاثمائة.

قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مائة، قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع عشرة مائة، قال: يرحمه الله، وهم، وهو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة، قلت: وقد صح عن جابر القولان، وضح عنه أنهم نحروا عام الحديدية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فقليل له: كم كنتم؟ قال: ألفاً وأربعمائة بخيلنا ورجلنا، يعني: فارسهم وراجلهم.

والقلب إلى هذا أميل، وهو قول البراء بن عازب، ومقول ابن يسار، وسلمة ابن الأكوخ في أصح الروايتين، وقول المسيب بن حزن، قال شعبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة، وغلط غلطاً بيئاً من قال: كانوا سبعمائة.

وعذره^(١) أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء أجزاءها عن سبعة أو عشرة، وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل، فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة، فلو كانت السبعون عن جميعهم، لكانوا أربعمائة وتسعين رجلاً، وقد قال بتمام الحديث بعينه، أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة.

وأنتهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ أي: جادون ومجتهدون في عداوتهم، وساعون في ذلك بغاية جهدهم، فلم يروا منهم إلا الغلظة والشدة.

فلذلك ذل أعداؤهم لهم وانكسروا وقهرهم المسلمون. ﴿رَحْمَةً لِّبَنِيهِمْ﴾ أي: متحابون متراحمون متعاطفون كالجسد الواحد يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، هذه معاملتهم مع الخلق.

وأما معاملتهم مع الخالق فإنك ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ أي: وصفهم كثرة الصلاة التي أجل أركانها: الركوع والسجود. ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ بتلك العبادة ﴿فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم، والوصول إلى ثوابه. ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ أي: قد أثرت العبادة - من كثرتها وحسنها - في وجوههم حتى استنارت.

لما استنارت بالصلوة بواطنهم، استنارت [بالجلال] ظواهرهم.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي: هذا وصفهم الذي وصفهم الله به، مذكور بالتوراة هكذا.

وأما مثلهم في الإنجيل، فإنهم موصوفون بوصف آخر، وأنهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كَزْرَعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ﴾ أي: أخرج فراخه فوازرته فراخه في الشباب والاستواء. ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْفَةٍ﴾ جمع ساق.

﴿يَعِجُّ الزَّرْعُ﴾ من كماله واستوائه، وحسنه واعتداله. كذلك الصحابة رضي الله عنهم هم كالزراع في نفهم للخلق، واحتياج الناس إليهم، ففوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه.

وكون الصغير والمتأخر إسلامه قد لحق الكبير السابق، ووازره وعاونه على ما هو عليه من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزراع الذي أخرج شطأه، فأزره فاستغلظ.

ولهذا قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك النزال ومعامع القتال.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، فالصحابه رضي الله عنهم الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة التي من لوازمها، وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

ولنلق قصة الحديدية بطولها كما ساقها الإمام شمس الدين

(١) في ب: وعذرهم.

فصل

فلما كانوا بذئ الحليفة قلد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث عيناً له بين يديه من خزاعة يخبره عن قريش، حتى إذا كانوا قريباً من عسفان، أتاه عينه فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جمعاً، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

واستشار النبي ﷺ أصحابه أتروا أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانوهم فنصيبهم، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا تكن عنقاً قطعها الله، أم ترون أن تؤم البيت؟ فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين، ولم نجى لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذا».

فراحوا حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغميم في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هو بغبرة الجيش، فانطلق يركض نديراً لقريش.

وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمة الله إلا أعطيتهموها» ثم زجرها، فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش.

فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه، قال: فوالله! ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنها. وفزعت قريش لتزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي، إن أوديت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «أخبرهم أنا لم تأت لقتال، إنما جئنا عُمَارًا، وادعهم إلى الإسلام».

وأمره أن يأتي رجالاً بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم ويشهرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان، فانطلق عثمان، فمر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام، ونخبركم

أنا لم تأت لقتال، وإنما جئنا عُمَارًا، قالوا: قد سمعنا ما تقول، فانفذ لحاجتك.

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجاره وأردفه أبان، حتى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت، وطاف به. فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون»، فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «ذاك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه»، واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح.

فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتهن كل واحد من الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة.

فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه عن عثمان»، ولما تمت البيعة، رجع عثمان فقال له المسلمون: اشتفت يا أبا عبد الله، من الطواف بالبيت، فقال: بئسما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة، ورسول الله ﷺ مقيم بالحديبية، ما طفت بها، حتى يطوف بها رسول الله ﷺ، ولقد دعنتني قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت، فقال المسلمون: رسول الله ﷺ كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً.

وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجذ بن قيس وكان معقل بن يسار، أخذ بغصنها يرفعه عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه، أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، في أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ، من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ المطافيل، وهم مقاتلوك، وصادوك عن البيت.

قال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجى لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم، فإن شاءوا أماددهم ويخلوا بيني وبين الناس، وإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جموا، وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا، حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره» قال بديل:

سأبلغهم ما تقول .

فلما أشرف على النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له»، فبعثوها فاستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله، لا ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت .

فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت .

فقام مكرز بن حفص، وقال: دعوني آته، فقالوا: آته . فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا مكرز بن حفص وهو رجل فاجر» .

فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فبينما هو يكلمه، إذ جاء سهيل ابن عمرو، فقال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم»، فقال: هات، اكتب بيننا وبينك كتاباً، فدعا الكاتب، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما ندري ما هو ولكن اكتب: «باسمك اللهم» كما كنت تكتب . فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم . فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم» .

ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله» فقال سهيل: فوالله لو نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد ابن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «إني رسول الله وإن كذبتوني، اكتب: محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن لك من العام المقبل فكتب . فقال سهيل: على أن لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته علينا .

فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يرد إلى المشركين، وقد جاء مسلماً؟ .

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما قاضيتك عليه أن ترده، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، فقال: فوالله إذا لا أصلحك على شيء أبداً، فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي»، فقال: ما أنا بمجيزه، فقال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، قال مكرز: قد أجزناه .

فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أريد إلى المشركين، وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً .

قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا

فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئتمكم من عند هذا الرجل، وسمعته يقول قولاً، فإن شئتم عرضته عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نتحدثنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هات ما سمعته، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد، فاقبلوها، ودعوني آته، فقالوا: آته .

فاتاه فجعل يكلمه، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي محمد، رأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إني لأرى وجوهاً وأرى أوباشاً من الناس، خليفاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ قال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجزك بها لأجبتك .

وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة ابن شعبة على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر . فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال: أحر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي عُدر، أولست أسعى في غدرتك؟ .

وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم . فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فلست منه في شيء» .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ، فوالله ما تنخم النبي ﷺ نخامة، إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها جلده ووجهه .

وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره، وإذا توضعاً كادوا يقتتلون على وضوئته، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُجِدُّون إليه النظر تعظيماً له .

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي قوم، والله، لقد وفدت على الملوك: على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضعاً كادوا يقتتلون على وضوئته، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُجِدُّون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها .

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آته، فقالوا: آته .

يومئذ، فأتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله أأنت نبي الله؟ قال: «بلى»، قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى»، فقلت: علامَ نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصري، ولست أعصيه»، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، فأخبرتك أنك تأتيه العام؟» قلت: لا، قال: «فإنك آتية ومطوف به».

قال: فأتيت أبا بكر، فقلت له كما قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى تموت، فوالله إنه لعلى الحق، قال عمر: فعملت لذلك أعمالاً.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا، ثم احلقوا»، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات.

فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أتحب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة، حتى تحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلق لك، فقام فخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحلقه.

فلما رأى الناس ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

ثم جاءت نسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَعْصِمُ الْكُفْرَ﴾ فطلق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية، والأخرى صفوان ابن أمية، ثم رجع إلى المدينة.

وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ إلى آخرها، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟! فقال: «نعم»، فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟

فأنزل الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. انتهى.

ولهذا آخر تفسير سورة الفتح والله الحمد والمنة، ووصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه. نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه، وكان الفراغ من كتابته في ١٣ ذي الحجة ١٣٤٥ ووصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين أمين. بقلم الفقير إلى ربه سليمان ابن حمد العبد لله البسام. غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين أمين. ووصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين والحمد لله الذي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٥١٥
مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رِحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا لِبَتْغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْبٍ أَخْرَجَ شَطْهَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢١﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُضُوا اللَّهَ إِنْ اللَّهُ سَمِعَ عَلَيْهِمْ ﴿١﴾ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنْ الَّذِينَ يُغَضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقُورِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنْ الَّذِينَ ينادونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

بنعمته تتم الصالحات [١].
المجلد الثامن من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان من به الله على عبده وابن عبده وابن أمته: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالله بن سعدي.

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) ﴿يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُضُوا اللَّهَ إِنْ اللَّهُ سَمِعَ عَلَيْهِمْ﴾ ○ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ○ إِنْ الَّذِينَ يُغَضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقُورِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ○

ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكروه، والأجر العظيم الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب^(٤)، وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب بالأمر والنهي والمحن.

فمن لازم أمر الله، واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها، ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى.

(٥، ٤) إِنَّ الَّذِي يَتَذَكَّرُ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْرَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ○ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ نزلت هذه الآيات الكريمات في أناس من الأعراب الذين وصفهم الله تعالى بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد يا محمد، [أي: اخرج إلينا].

فدمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب. فأدب العبد عنوان عقله، وأن الله مرید به الخير، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالأداب، رحيم بهم حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات.

(٦) ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَهُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا كَفَلْتُمْ نَدِيمِينَ﴾ وهذا أيضاً من الآداب التي على أولى الأبواب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين.

فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كُذِّب، ولم يعمل به، ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير [من] الخوارج المعروفين بالصدق، ولو كانوا فاسقاً.

(١) في ب: من كان. (٢) في ب: والجائزات. (٣) في ب: عن ضده. (٤) في ب: وفيه حصول كل محبوب.

هذا متضمن للأدب مع الله تعالى ومع رسول الله ﷺ، والتعظيم له واحترامه، وإكرامه.

فأمر [الله] عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله ورسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ في جميع أمورهم، [وأن] لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمر.

فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه، ويفواته تفوته السعادة الأبدية، والنعيم السرمدى.

وفي هذا، النهي [الشديد] عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبانت سنة رسول الله ﷺ وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائناً ما كان^(١).

ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نورٍ من الله، تخشى عقاب الله.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات. ﴿عَلِيمٌ﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللواحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات^(٢).

وفي ذكر الاسمين الكريمين - بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله، والأمر بتقواه - حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال^(٣).

ثم قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ وهذا أدب مع رسول الله ﷺ في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يعض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين وتعظيم وتكريم وإجلال وإعظام.

ولا يكون الرسول كأحد، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك محذوراً، وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب [حصول الثواب و] قبول الأعمال.

ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى، أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى.

الصلح، وسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتنا فيها ونعمت، وإن **بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَمَنِلُوا آلِي تَيْبٍ حَتَّى تَبَىءَ إِلَيْكَ أَمْرُ اللَّهِ** ﴿٧﴾

أي: ترجع إلى ما حد الله ورسوله من فعل الخير وترك الشر الذي من أعظمه الاقتال.

[وقوله: ﴿فَإِنْ فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ هذا أمر بالصلح وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيث على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقرابة أو وطن أو غير ذلك من المقاصد والأغراض التي توجب العدول عن العدل.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أدائه حقوقهم. وفي الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ **أَمْرًا بِحَقِّقِ الْأَخُوَّةَ الْإِيمَانِيَّةَ: «لا تحاسدوا ولا تاجسوا ولا تباغضوا ولا يبع أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المؤمن أخو المؤمن، لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره»** (٤).

وقال ﷺ (٥): «المؤمن للمؤمن كالبنين يشد بعضه بعضاً» وشبك ﷺ بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التألف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك، إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لفرق القلوب وتباغضها [وتدابرها] فليصلح المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شنائهم.

(١) في ب: أي: الذنوب الصغار. (٢) في ب: وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له. (٣) في ب: ويقتل. (٤) في ب: أورد الشيخ الحديث كما يلي: (لا تحاسدوا ولا تاجسوا ولا تباغضوا ولا تداربوا وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه) متفق عليه. (٥) في ب: وفيهما عن النبي ﷺ

(٨،٧) ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنُرْسِمَنَّ وَلَنْ كُنَّا اللَّهُ حَبِيبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَرَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِيدُونَ ○ فَضَلَّ مَنَ اللَّهُ وَيَعْمَهُ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ أي: ليكن لديكم معلوماً أن رسول الله ﷺ بين أظهركم وهو الرسول الكريم البار الراشد الذي يريد بكم الخير، وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة، ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعتنكم ولكن الرسول يرشدكم.

والله تعالى يحب إليكم الإيمان ويزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإثاره، وبما ينصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته، وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من توفيقه للإتابة إليه.

ويكره إليكم الكفر والفسوق والذنوب أي: الذنوب الكبار، والعيصان: هي ما دون ذلك من الذنوب (١)، بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده وعدم قبول الفطر له، وبما يجعله الله من الكراهة في القلوب له (٢).

﴿أُولَئِكَ﴾ أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحببه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعيصان ﴿هُمُ الرَّشِيدُونَ﴾ أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم والصراف المستقيم.

و ضد هم الغاؤون الذين حب إليهم الكفر والفسوق والعيصان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم، ولما ﴿زَاعُوا أَرَاغَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ﴾ ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة، قلب الله أفئدتهم.

وقوله: ﴿فَضَلَّ مَنَ اللَّهُ وَيَعْمَهُ﴾ أي: ذلك الخير الذي حصل لهم، هو بفضل الله عليهم وإحسانه لا بحولهم وقوتهم. ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ أي: عليم بمن يشكر النعمة فيوفقه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

(٩، ١٠) ﴿وَإِن طَافَيْتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْتَنَلُوا فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَعَثَ إِحْدَهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَمَنِلُوا آلِي تَيْبٍ حَتَّى تَبَىءَ إِلَيْكَ أَمْرُ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَاصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ○ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ○ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَاصْلِحُوا بَيْنَ أَخْوَيْكُمْ وَأَتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ هذا متضمن لنهي المؤمنين [عن] أن يبغى بعضهم على بعض، ويقاتل (٣) بعضهم بعضاً، وأنه إذا اقتتل طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به

وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنِيءٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَدِيمِينَ ﴿٦﴾ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولٌ اللَّهُ لَوْ طَبِعَكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأُمْرِ لَعَيْتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَا يَمُنُّ وَرَبَّنَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكُرْهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرُّشْدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَافَيْتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ائْتَمَتَا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَتِلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَبْقَى إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ ت فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسَطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَخْيَبَكُمُ وَأَتَّقُوا اللَّهَ

لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتَّبِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾

ثم أمر بالتقوى عمومًا، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين ويتقوى الله الرحمة، [فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾] وإذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

وفي هاتين الآيتين من الفوائد غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة.

وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة، لأن الله أباح دمآهم وقت استمرارهم على بغيتهم خاصة دون أموالهم.

(١١) ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَنَّ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتَّبِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وهذا أيضا من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض، أن ﴿لَا يَسْخَرَنَّ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ بكل كلام وقول وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخِر بنفسه.

وعسى أن يكون المسخور به خيرا من الساخِر، كما هو (١) الغالب والواقع، فإن السخرية لا تقع إلا من قلب ممتليء من مساوئ الأخلاق، مُتَحَلٌّ بكل خلق ذميم، ولهذا قال النبي ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ثم قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يعب بعضكم على بعض، واللمز بالقول والهمز بالفعل، وكلاهما منهى عنه حرام، متوعد عليه بالنار، كما قال تعالى: ﴿وَبِئْسَ لِكُلِّ هَمْزٍ مُّزْمَرٌ﴾ الآية.

وسمى الأخ المؤمن (٢) نفسا لأخيه، لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك.

﴿وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا يعير أحدكم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه (٣) وهذا هو التنايز، وأما الألقاب غير المذمومة فلا تدخل في هذا.

﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ أي: بشما تبدلت عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه بالإعراض عن أوامره

ونواهيه باسم الفسوق والعصيان الذي هو التنايز بالألقاب.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَتَّبِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فهذا [هو] الواجب على العبد أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم باستحلاله والاستغفار، والمدح له مقابلة [على] ذمه.

﴿وَمَنْ لَّمْ يَتَّبِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح ولا تم قسم ثالث غيرهما.

(١٢) ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُ بَعْضَ الظَّنِّ إِنَّهُ وَلَا يُحْسِبُوا وَلَا يَتَّبِ بَعْضُكُمْ بَعْضًا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ نهى تعالى

عن كثير من الظن السوء (٤) بالمؤمنين، ف﴿إِنَّكُ بَعْضَ الظَّنِّ إِنَّهُ﴾ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن السوء الذي يقترب به كثير من الأقوال والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي.

وفي ذلك أيضا إساءة الظن بالمسلم، وبغضه وعداوته

(١) في ب: وهو الغالب. (٢) في ب: المسلم. (٣) في ب: بلقب يكره أن يقال فيه. (٤) في ب: السيء.

المأمور بخلاف ذلك منه .

﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي: لا تنفثوا عن عورات المسلمين ولا تتبعوها، واتركوا^(١) المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن أحواله^(٢) التي إذا فنشت ظهر منها ما لا ينبغي .

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ والغيبة كما قال النبي ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه» .

ثم ذكر مثلاً منفراً عن الغيبة فقال: ﴿يَتَجَبَّأُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ شبه أكل لحمه ميتاً المكروه للنفوس [غاية الكراهة] باغتيابه، فكما أنكم تكروهون أكل لحمه، وخصوصاً إذا كان ميتاً فاقد الروح، فكذلك [فلتكرهوا] غيبته وأكل لحمه حياً .

﴿وَالْفَوَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تُؤَابُّ رَحِيمٌ﴾ والتواب الذي يأذن بتوبة عبده فيوقفه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيم بعباده حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة، وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأن الغيبة من الكبائر لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر .

(١٣) ﴿يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله [تعالى] بث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وفرقهم وجعلهم شعوباً وقبائل أي: قبائل صغاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فإنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف ولحوق الأنساب، ولكن الكرم بالقوى .

فأكرمهم عند الله اتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقومًا، ولا أشرفهم نسبًا . ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله ظاهرًا وباطنًا، ممن يقوم بذلك ظاهرًا لا باطنًا، فيجازي كلًا بما يستحق .

وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل ذلك .

(١٤-١٨) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ○ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

٥١٧

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ ءَأَمَنُوا أَجْتَبَوْا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّكُ بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٣﴾ يَتَأَيَّمُوا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٤﴾ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٦﴾ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّا اللَّهُ نَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ إِنَّمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ○ قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ○ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ○ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ إِنَّمَا تَعْمَلُونَ﴾ يخبر تعالى عن مقالة الأعراب الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويقضيه الإيمان، أنهم ادعوا مع هذا وقالوا: آمنا أي: إيماناً كاملاً، مستوفياً لجميع أموره هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ أي: لا تدعوا لأنفسكم مقام الإيمان ظاهرًا وباطنًا كاملاً .

﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك .

﴿○ وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، أَنَّهُ ﴿لَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وإنما آمنتم خوفًا أو رجاءً أو نحو ذلك، مما هو السبب في إيمانكم، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم .

(١) في ب: ودعوا . (٢) في ب: عن زلاته .

وينبغي لهم أن يفتخروا على رسوله به^(١)، فإن المنة لله تعالى عليهم.

فكما أنه تعالى يمن^(٢) عليهم بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة، فمتمته عليهم بهدائيتهم إلى الإسلام، ومتمته عليهم بالإيمان، أعظم^(٣) من كل شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ﴾ أي: الأمور الخفية فيهما التي تخفى على الخلق، كالذي في لجاج البحار، ومهامه القفار، وما جنته الليل أو واره النهار، يعلم قطرات الأمطار وحبّات الرمال ومكونات الصدور وخبايا الأمور.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ رَدَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا يَكْتُبُهَا﴾
﴿وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾
﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحصي عليكم أعمالكم ويوفيكم إياها، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة.

تم تفسير سورة الحجرات بعون الله ومتمته وجوده وكرمه، فلك اللهم من الحمد أكمله وأتمه، ومن الجود أفضل وأعمه^(٤)

تفسير سورة ق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤-١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ الْمَجِيدَ ۝ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ قَدْ قَالُوا الْكُفْرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ لَوْذَا مَسْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَنِيفٌ ۝ يقسم تعالى بالقرآن المجيد أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الوجوه كثير البركات جزيل المبررات، والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها.

وأحق كلام يوصف بهذا، هذا القرآن الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهذا موجب لكمال اتباعه و[سرعة] الانقياد له، وشكر الله على المنة به.

(١) في ب: لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله. (٢) في ب: هو المان.

(٣) في ب: أفضل. (٤) في ب: بعد قوله: وكرمه: والحمد لله.

وفي قوله: ﴿وَلَمَّا يَدْحَلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك، فإن كثيراً منهم من الله عليهم بالإيمان الحقيقي، والجهاد في سبيل الله.

﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بفعل خير أو ترك شر ﴿لَا يَلْتَكُرْ مِنْ أَعْمَلِكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقصكم منها مثقال ذرة، بل يوفيكم إياها أكمل ما تكون لا تفقدون منها صغيراً ولا كبيراً.
﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: غفور لمن تاب إليه وأتاب، رحيم به حيث قبل توبته.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: على الحقيقة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَنَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله. فإن من جاهد الكفار، دل ذلك على الإيمان التام في القلب؛ لأن من جاهد غيره على الإسلام والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقوَ على الجهاد، فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه.

وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به الذي لا يعتره شك بوجه من الوجوه.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق دعوى كبيرة في كل شيء يدعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان. وأعظم ذلك دعوى الإيمان الذي هو مدار السعادة والفوز الأبدي والفلاح السرمدى، فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

فإبائته ونفيه من باب تعليم الله بما في القلب، وهذا سوء أدب وظن بالله، ولهذا قال: ﴿قُلْ أَعْمَلُونَ اللَّهُ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وهذا شامل للأشياء كلها التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله ويجازي عليه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

هذه حالة من أحوال من ادعى لنفسه الإيمان وليس به، فإنه إما أن يكون ذلك تعليماً لله، وقد علم أنه عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنته على رسوله، وأنهم قد بذلوا له [وتبرعوا] بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمل بما لا يجمل، وفخر بما لا

(٦-١١) ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ لما ذكر تعالى حالة المكذبين وما ذمهم به، دعاهم إلى النظر في آياته^(٣) الأفقية كي يعتبروا ويستدلوا بها على ما جعلت أدلة عليه، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ أي: لا يحتاج ذلك النظر إلى كلفة وشد رحل، بل هو في غاية السهولة.

فينظرون ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ قبة مستوية الأرجاء ثابتة البناء مزينة بالنجوم الخنس، والجوار الكنس التي ضربت من الأفق إلى الأفق في غاية الحسن والملاحة، لا ترى فيها عيبًا ولا فروجًا ولا خللاً ولا إخلالاً.

قد جعلها الله سقفاً لأهل الأرض وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع.

﴿و﴾ إلى ﴿الْأَرْضِ﴾ كيف ﴿مَدَدْنَاهَا﴾ وسعناها حتى أمكن كل حيوان السكن فيها والاستقرار^(٤)، والاستعداد لجميع مصالحه، وأرسلها بالجبال لتستقر من التزلزل والتموج.

﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: من كل صنف من أصناف النبات التي تسر ناظرها وتعجب مبصرها، وتقر عين راقمها، لأكل بني آدم وأكل بهائمهم ومنافعهم.

وخص من تلك المنافع بالذكر الجنات المشتملة على الفواكه اللذيذة من العنب والرمان والأترج والتفاح، وغير ذلك من أصناف الفواكه، ومن النخيل الباسقات أي: الطوال التي يطول^(٥) نفعها، وترتفع إلى السماء حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغه كثير من الأشجار، فتخرج من الطلع النضيد في قنوانها ما هو رزق للعباد قوتاً وأدماً وفاكهة، يأكلون منه ويدخرون، هم ومواسيهم.

وكذلك ما يخرج الله بالمطر، وما هو أثره من الأنهار التي على وجه الأرض والتي تحتها من ﴿حَبَّ الْحَصِيدِ﴾ أي: من الزرع المحصود، من بُرٍّ وشعير، وذرة وأرز ودخن وغيره.

فإن في النظر في هذه الأشياء ﴿تَبْصِرَةً﴾ يتبصر بها من عمى الجهل، ﴿وَذِكْرًا﴾ يتذكر بها ما ينفع في الدين والدنيا،

(١) كذا في ب، وفي أ: لا نقص بقلوبهم وعقولهم. (٢) في ب: وجه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: آيات الله. (٤) كذا في ب، وفي أ: القرار.

(٥) كذا في ب، وفي أ: التي يستمر نفعها، ويطول حتى تبلغ مبلغاً لا يبلغ إليه.

ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ أي: المكذبون للرسول ﷺ ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: ينذرهم ما يضرهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه، ومعرفة أحواله وصدقه.

فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه.

﴿فَقَالَ الْكَاذِبُونَ﴾ الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم^(١).

﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: مستغرب وهم في هذا الاستغراب بين أمرين:

إما صادفون في [استغرابهم و]تعجبهم، فهذا يدل على غاية جهلهم، وضعف عقولهم بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأى ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟ وهل تعجبه إلا دليل على زيادة ظلمه وجهله؟.

وإما أن يكونوا متعجبين على وجه يعلمون خطأهم فيه، فهذا من أعظم الظلم وأشنع.

ثم ذكر وجه تعجبهم فقال: ﴿أَوَدَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ فقاوسا قدرة من هو على كل شيء قدير، الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وقاوسا الجاهل الذي لا علم له بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم مدة مقامهم في برزخهم، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده محفوظ عن التغيير والتبديل، كل ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم، وهذا استدلال بكمال علمه وسعته - التي لا يحيط بها إلا هو - على قدرته على إحياء الموتى.

(٥) ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ﴾ أي:

﴿بَلْ﴾ كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى أنواع الصدق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ﴾ أي: مختلط مشتبه، لا يثبتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك: إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر.

وكذلك جعلوا القرآن عسرين، كلٌّ قال فيه ما اقتضاه رأيه الفاسد، وهكذا كل من كذب بالحق، فإنه في أمر مختلط، لا يدرى له وجهة^(٢) ولا قرار، [فترى أموره متناقضة مؤتفكة].

كما أن من اتبع الحق وصدق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعله قبيله.

ويتذكر بها ما أخبر الله به وأخبرت به رسله، وليس ذلك لكل أحد بل ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ إلى الله أي: مقبل عليه بالحب والخوف والرجاء وإجابة داعيه.

وأما المكذب أو المعرض، فما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون.

وحاصل هذا، أن ما فيها من الخلق الباهر، والشدة والقوة دليل على كمال قدرة الله تعالى.

وما فيها من الحسن والإتقان وبديع الصنعة وبديع الخلق^(١) دليل على أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم.

وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، دليل على رحمة الله التي وسعت كل شيء وجوده الذي عم كل حي.

وما فيها من عظم الخلقه وبديع النظام، دليل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد، الفرد الصمد الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذل [والحب] إلا له تعالى.

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الله الموتى، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

ولما ذكرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية خوَّفهم أخذت الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب، فيصيبيهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين فقال:

(١٢-١٥) ﴿كَذَّبَتْ قَلْبَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَأَصْحَبُ الرِّيسِ وَتَمُودُ ۝ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ۝ وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبَعِّعُ كُلَّ كَذَّبٍ أُرْسِلُ حَقٌّ وَعَبِيدٌ ۝ أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي:

كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الكرام، وأنبياءهم العظام كـ «نوح» كذبه قومه، [و «تمود» كذبوا «صالحاً»]^(٢)،

وعاد كذبوا «هوداً»، وإخوان لوط كذبوا «لوطاً»، وأصحاب الأيكة كذبوا «شعيباً»، وقوم تبع - «وتبع» كل ملك ملك اليمن

في الزمان السابق قبل الإسلام^(٣) - وقوم تبع كذبوا الرسول الذي أرسله الله إليهم، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول،

وأي تبع من التبابعة، لأنه - والله أعلم - كان مشهوراً عند العرب لكونهم من العرب العرباء الذين لا تخفى ماجرياتهم

على العرب، خصوصاً مثل هذه الحادثة العظيمة.

فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل الذين أرسلهم الله إليهم، فحق

عليهم وعيد الله وعقوبته.

ولستم أيها المكذبون لمحمد ﷺ خيراً منهم، ولا رسلهم

أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم، لثلا يصيبكم ما

٥١٨

سُورَةُ ق

سُورَةُ ق

سُورَةُ ق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ

فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَمْ دَامْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ

رَجَعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ

حَفِيفٌ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ

﴿٥﴾ أَفَأَنْتُمْ أَنْظِرُونَ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا

وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِيسًا

وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ نَبْصِرَةٌ وَدِرْكْرِي لِكُلِّ عَبْدٍ

مُنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَبَّ

وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَعْمٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾

رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ

قَبْلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٍ وَأَصْحَبُ الرِّيسِ وَتَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ

لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَبُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبَعِّعُ كُلَّ كَذَّبٍ أُرْسِلُ حَقٌّ وَعَبِيدٌ

﴿١٤﴾ أَفَعَيَّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

أصابهم.

ثم استدلت تعالى بالخلق الأول - وهو المنشأ الأول^(٤) - على الخلق الآخر وهو النشأة الآخرة.

فكما^(٥) أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد

موتهم وصيرورتهم إلى [الرفات والرمم]، فقال: ﴿أَفَعَيَّنَا﴾

أي: أفعجزنا وضعفت قدرتنا ﴿بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾؟ ليس الأمر

كذلك، فلم نعجز ونعني عن ذلك، وليسوا في شك من ذلك.

إنما هم في لبس من خلق جديد هذا الذي شكوا فيه،

والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل للبس فيه، لأن الإعادة

أهون من الابتداء كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

(١٦-١٨) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ فَسَمِعَهُ وَنَحْنُ

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ۝ إِذْ يَتَلَفَّى الصَّالِقِينَ غَنِيًّا وَعَيْنُ الرَّحْمٰنِ رَءِيفٌ ۝

(١) كذا في ب، وفي أ: وعجيب الخلقه. (٢) زيادة من هامش ب. (٣)

كذا في ب، وفي أ: وقوم تبع وهو كل ملك ملك اليمن في الزمان السابق

يقال له تبع. (٤) في ب: النشأة الأولى. (٥) كذا في ب، وفي أ: وأنه

كما أنه.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥١٩

الْقُرْآنِ

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَعَلَّمُوهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ ﴿٢٣﴾ أَفَلْيَأْتِي فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَنَّاعٍ لِلْخَبِيرِ مُعْتَدٍ مُرِيدٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانُ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْضَعُوا لِدَى وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَمِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأَرْأَيْتَ الْجَنَّةَ الْمُتَّقِينَ عِزِّ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ هُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٦﴾ يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق (١) جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يسرُّه، ويوسوس في صدره (٢).

وأنه ﴿أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق (٣) المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه (٤) في جميع أحواله، فيستحي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ﴾ أي: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ يكتب الحسنات ﴿وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿قَعِيدٌ﴾ بذلك متهيء لعمله الذي أعد له، ملازم له (٥).

﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي: مراقب له، حاضر لحاله، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ عَلَيْكُمْ حَافِظِينَ﴾ ﴿كِرَامًا كَتِيبِينَ﴾ ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ﴾.

(١٩-٢٢) ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ أي: ﴿وَجَاءَتْ﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله ﴿سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ الذي لا مرد له ولا مناص ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: تتأخر وتتكص (٦) عنه.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ﴾ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا يمكنها أن تتأخر عنه ﴿وَشَهِيدٌ﴾ يشهد عليها بأعمالها خيرا وشرها، ولهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهذا الأمر مما يجب أن يجعله العبد منه على بال.

ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا﴾ أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخاً ولو ما وتعنفاً، أي: لقد كنت مكذبا بهذا، تاركاً للعمل له فالآن ﴿كَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ الذي غطى قلبك، فكش نورك، واستمر (٧) إعراضك ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنعكس.

أو هذا خطاب من الله للعبد فإنه في الدنيا في غفلة (٨) عما خلق له، ولكنه يوم القيامة ينتبه ويوزل عنه وسنه، ولكنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت، وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذلك اليوم العظيم.

(٢٣-٢٩) ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ﴾ ﴿أَلْيَأْتِي فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ ﴿مَنَّاعٍ لِلْخَبِيرِ مُعْتَدٍ مُرِيدٍ﴾ ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانُ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿قَالَ لَا تَخْضَعُوا لِدَى وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ ﴿مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَمِيدِ﴾ يقول تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ أي: قرين هذا المكذب المعرض من الملائكة الذين وكلهم الله على حفظه، وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدَى عَتِيدٍ﴾ أي: قد أحضرت ما جعلت عليه،

(١) كذا في ب، وفي أ: أنه الذي خلق. (٢) في ب: وتوسوس به نفسه. (٣) في ب: العظم. (٤) في ب: إليه. (٥) في ب: لذلك. (٦) كذا في ب، وفي أ: تحيد. (٧) كذا في ب، وفي أ: ودام. (٨) كذا في ب، وفي أ: أنه في غفلة في الدنيا.

من حفظه وحفظ عمله، فيجازى بعمله.

ويقال لمن استحق النار: ﴿أَلْقَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾^(١)
أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثّر من المعاصي،
المجتريء على المحارم والمآثم.

﴿مَنَعَ لِلْحَيْرِ﴾ أي: يمنع الخير الذي عنده^(٢)، الذي أعظمه
الإيمان بالله، [وملائكته]^(٣)، وكتبه ورسله منافع لرفع ماله
وبدنه.

﴿مُعْتَدٍ﴾ على عباد الله، وعلى حدوده^(٤) ﴿ثُرَيْبٍ﴾ أي:
شاك في وعد الله ووعيده، فلا إيمان ولا إحسان ولكن وصفه
الكفر والعدوان، والشك والريب والشح، واتخاذ الآلهة من
دون الرحمن، ولهذا قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي:
عبد معه غيره، ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً
ولا حياة ولا نشوراً.

﴿فَالْقِيَاءُ﴾ أيها الملكان القرينان! ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ الذي
هو معظمها وأشدّها وأشنعها.

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ الشيطان، متبرئاً منه حاملاً عليه إثمه: ﴿رَبَّنَا مَا
أَفْعَيْتَنِي﴾ لأنني لم يكن لي عليه سلطان ولا حجة ولا برهان.

ولكن كان في الضلال البعيد، فهو الذي ضل وأبعد عن
الحق باختياره كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا
فُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ
لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا
أَنْفُسَكُمْ...﴾ الآية^(٥).

قال الله تعالى مجيباً لاختصاصهم: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي:
لا فائدة في اختصاصكم^(٦) عندي ﴿وَو﴾ الحال أنني ﴿قَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ﴾ أي: جاءكم رسلي بالآيات البيّنات، والحجج
الواضحات، والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي،
وانقطعت حججتكم، وقدمتم عليّ بما أسلفتم من الأعمال التي
وجب جزاؤها.

﴿مَا يَبْدَأُ الْقَوْلَ لَدَيَّ﴾ أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله
وأخبر به، لأنه لا أصدق من الله قبلاً، ولا أصدق حديثاً.

﴿وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بل أجزئهم بما عملوا من خير وشر،
فلا يزداد^(٧) في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

(٣٥-٣٠) ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾
وَأَزَلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ○ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ○ مَنْ
خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ○ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ
الْحُلُودِ ○ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ○ يقول تعالى مخوفاً
لعباده: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ﴾ وذلك من كثرة ما ألقى
فيها.

﴿وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ أي: لا تزال تطلب الزيادة من
المجرمين العاصين، غضباً لربها وغيظاً على الكافرين.

وقد وعدنا الله ملاءها، كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ
الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة
المنزهة عن التشبيه، فيزوي بعضها على بعض، وتقول: قط
قط، قد اكتفيت وامتألت.

﴿وَأَزَلَفَتِ الْجَنَّةَ﴾ أي: قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها من
النعيم المقيم والحبرة والسرور، وإنما أزلفت وقربت لأجل
المتقين لربهم، التاركين للشرك، صغيره وكبيره، الممثلين
لأوامر ربهم، المتقادين له.

ويقال لهم على وجه التهنة: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾
أي: هذه الجنة وما فيها مما تشتهي الأفس وتلد الأعين، هي
التي وعد الله كل أواب أي: رجّاع إلى الله في جميع الأوقات،
بذكره وحبه، والاستعانة به، ودعائه وخوفه ورجائه.

﴿حَفِيظٍ﴾ أي: يحافظ على ما أمر الله به، بامتثاله على
وجه الإخلاص، والإكمال له على أكمل^(٨) الوجوه حفيظ
لحدوده.

﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي: خافه على وجه المعرفة بربه،
والرجاء لرحمته ولازم على خشية الله في حال غيبه أي: مغيبه
عن أعين الناس، وهذه هي الخشية الحقيقية.

وأما خشيته في حال نظر الناس وحضورهم، فقد تكون
رياء وسمعة، فلا تدل على الخشية، وإنما الخشية النافعة،
خشية الله في الغيب والشهادة، ويحتمل أن المراد بخشية الله
بالغيب كالمراد بالإيمان بالغيب وأن هذا مقابل للشهادة حيث
يكون الإيمان والخشية ضرورياً لا اختياريّاً حيث يعاين العذاب
وتأتي آيات الله، وهذا هو الظاهر^(٩).

﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي: وصفه الإنابة إلى مولاه،
وانجذاب دواعيه إلى مراضيه.

ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي:
دخولاً مقروناً بالسلامة من الآفات والشورور، مأموناً فيه جميع
مكاره الأمور، فلا انقطاع لنعيمهم ولا كدر ولا تنغيص.

﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْحُلُودِ﴾ الذي لا زوال له ولا موت، ولا شيء من
المكدرات.

(١) في ب: قِيلَهُ. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في أ زيادة هنا هي (أنهم
أي: كثير الإنام)، ويبدو أن الشيخ سبق قلمه لآيات سورة القلم. وقد
شطب الزيادة من ب. (٤) في ب وقف عند قوله: (فأخلفتكم). (٥)
كذا في ب، وفي أ: خصامكم. (٦) كذا في ب، وفي أ: يزيد. (٧) في
ب: أتم. (٨) من قوله: ويحتمل، إلى: هذا هو الظاهر، ليس في ب.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي: كل ما تعلق به مشيئتهم فهو حاصل فيها.

ولهم فوق ذلك ﴿مَزِيدٌ﴾ أي: ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وأعظم ذلك وأجله وأفضله، النظر إلى وجه الله الكريم، والتمتع بسماع كلامه، والتنعم بقربه، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم.

(٣٦، ٣٧) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّجِيسٍ﴾ إن في ذلك لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿يَقُولُ تَعَالَى - مَخَوَّفًا لِمُشْرِكِي الْمَكْدِينِ لِلرَّسُولِ - : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أي: أمما كثيرة ﴿هُمْ أَشَدُّ﴾ من هؤلاء ﴿بَطْشًا﴾ أي: قوة وأثارا في الأرض.

ولهذا قال: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ أي: بنوا الحصون المنيعه والمنازل الرفيعة وخرسوا الأشجار، وأجروا الأنهار وزرعوا وعمروا ودمروا.

فلما كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، أخذهم الله بالعقاب الأليم والعذاب الشديد.

ف ﴿هَلْ مِنْ مَّجِيسٍ﴾ أي: لا مفر لهم من عذاب الله حين نزل بهم، ولا منقذ، فلم تغن عنهم قوتهم ولا أموالهم ولا أولادهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: قلب عظيم حي، ذكي زكي، فهذا إذا ورد عليه شيء من آيات الله تذكر بها وانتفع فارتفع^(١).

وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله، واستمعها استماعًا يسترشد به، وقلبه ﴿شَهِيدٌ﴾ أي: حاضر، فهذا له أيضًا ذكري وموعظة، وشفاء وهدى.

وأما المعرض الذي لم يلق^(٢) سمعه إلى الآيات، فهذا لا تنفذه شيئًا، لأنه لا يقبل عنده، ولا تقتضي حكمة الله هداية من هذا وصفه ونعته.

(٣٨-٤٠) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ ○ فَاَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ○ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ ○ وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْ تَعَالَى عَنْ قُدْرَتِهِ الْعَظِيمَةِ، وَمَشِيئَتِهِ الْبَارِعَةِ الَّتِي أَوْجَدَ بِهَا أَعْظَمَ الْمَخْلُوقَاتِ ﴿السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ○ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة من غير تعب ولا نصب، ولا لغوب ولا إعياء.

سُورَةُ الْقُرْآنِ الْعَلِيِّ

٥٠

سُورَةُ الْقُرْآنِ الْعَلِيِّ

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّجِيسٍ﴾ (٣٦) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (٣٨) ﴿فَاَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ (٣٩) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُورِ﴾ (٤٠) ﴿وَاسْتَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (٤١) ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ (٤٢) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُمِيتُهُمْ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ (٤٣) ﴿يَوْمَ نَشْفُقُ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (٤٤) ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (٤٥)

سُورَةُ الدَّلَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (١) ﴿فَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَقَرَأَ﴾ (٢) ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (٣) ﴿فَالْمَقْسَمَاتِ أَمْرًا﴾ (٤) ﴿إِنَّمَا نُوَدِّعُ لَصَاقُ﴾ (٥) ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَأُولِعُوا﴾ (٦)

فالذي أوجدها - على كبرها وعظمتها - قادر على إحياء الموتى، من باب أولى وأحرى.

﴿فَاَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من الذم لك والتكذيب بما جئت به، واشتغل عنهم واله بطاعة ربك وتسيحه، أول النهار وآخره، وفي أوقات الليل وأدبار الصلوات، فإن ذكر الله تعالى مُسَلِّ للنفوس مؤنس لها مُهَوِّنٌ للصبر.

(٤١-٤٥) ﴿وَاسْتَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ ○ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ ○ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ ○ يَوْمَ نَشْفُقُ الْأَرْضَ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ○ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ○ أي: ﴿وَاسْتَسْمِعْ﴾ بقلبك نداء المنادي وهو إسرافيل عليه السلام، حين ينفخ في الصور ﴿مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الخلق^(٣).

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ أي: كل الخلائق يسمعون تلك الصيحة المزعجة المهولة ﴿بِالْحَقِّ﴾ الذي لا شك فيه ولا امتراء.

(١) كذا في ب، وفي أ: وارفع. (٢) في ب: لم يصغ. (٣) في ب: من الأرض.

﴿ذَرَّوْا﴾ بليتها ولطفها وقوتها وإزعاجها .
 و ﴿الْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾: السحاب تحمل الماء الكثير الذي
 ينفع الله به البلاد والعباد .
 و ﴿الْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾: النجوم التي تجري على وجه اليسر
 والسهولة فتزين بها السماوات ويهتدى بها في ظلمات البر
 والبحر وينتفع بالاعتبار بها .
 و ﴿الْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾: الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره
 بإذن الله، فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا
 وأمور الآخرة، لا يتعدى ما قدر له وما حُدَّ ورسم، ولا
 يقص منه .

(٧-٩) ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْجُبُهِ﴾ ○ ﴿إِنَّا لَنَاقِلِينَ﴾ ○ ﴿يَوْمَكَ عَنَّا مَنْ
 أَفَكٌ﴾ أي: والسماء ذات الطرائق الحسنة التي تشبه حبك
 الرمال، ومياه الغدران، حين يحركها النسيم .

﴿إِنكُمُ﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ! ﴿لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾
 منكم من يقول: ساحر، ومنكم من يقول: كاهن، ومنكم من
 يقول: مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة الدالة على
 حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل .

﴿يَوْمَكَ عَنَّا مَنْ أَفَكٌ﴾ أي: يصرف عنه من صرف عن
 الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه،
 واختلاف قولهم دليل على فسادهم وطلانه، كما أن الحق الذي
 جاء به محمد ﷺ متفق [يصدق بعضه بعضاً] لا تناقض فيه ولا
 اختلاف، وذلك دليل على صحته، وأنه من عند الله ﴿وَلَوْ كَانَ
 مِن عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

(١٠-١٤) ﴿قِيلَ الْفَرْصُونَ﴾ ○ ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَوْكَ سَاهُونَ﴾ ○
 ﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ○ ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ ○ ﴿ذُوقُوا فَنَّتَكُمُ هَذَا
 الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَمْتِعُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿قِيلَ الْفَرْصُونَ﴾ أي: قاتل
 الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته وخاضوا بالباطل
 ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون .

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَوْكَ﴾ أي: في لجة من الكفر والجهل
 والضلال ﴿سَاهُونَ﴾
 ﴿يَسْتَلُونَ﴾ على وجه الشك والتكذيب أيان يعيشون؟ أي:
 متى يعيشون، مستبعبدين لذلك، فلا تسأل عن حالهم وسوء
 مآلهم ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ أي: يعذبون بسبب ما انطوا
 عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال [لهم]: ﴿ذُوقُوا فَنَّتَكُمُ﴾
 أي: العذاب والنار الذي هو أثر ما افتتوا به، من الابتلاء
 الذي صيرهم إلى الكفر والضلال .

﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ﴾ من القبور، الذي انفرد به القادر على كل
 شيء، ولهذا قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ ○ ﴿يَوْمَ
 تَشْفَقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ﴾ أي: عن الأموات^(١) .
 ﴿سِرَاعًا﴾ أي: يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف
 القيامة .

﴿ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي: هين^(٢) على الله، يسير لا
 تعب فيه ولا كلفة .
 ﴿نَحْنُ عَلَّمْنَا بِمَا يَكْفُلُونَ﴾ لك مما يحزنك من الأذى .

وإذا كنا أعلم بذلك، فقد علمت كيف اعتناؤنا بك،
 وتيسيرنا لأمرنا، ونصرنا لك على أعدائك فليفرح قلبك
 ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرف من نفسك .
 فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله والتأسي بأولي العزم من
 رسل الله .

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ﴾ أي: مسلط عليهم ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ
 وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ ولهذا قال: ﴿تَذَكَّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾
 والتذكير [هو] تذكير ما تقرر في العقول والفطر من محبة الخير
 وإيثاره وفعله، ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير
 من يخاف وعيد الله .

وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره
 إقامة الحجة عليه، لئلا يقول: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ .

آخر تفسير سورة ق والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً .

تفسير سورة الذاريات

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿وَالَّذِينَ ذَرَّوْا﴾ ○ ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ ○ ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ ○
 ﴿فَالْمُقْسِمَاتِ أَمْرًا﴾ ○ ﴿إِنَّمَا نَحْنُ نَصَادِقُ﴾ ○ ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هذا قسم من
 الله الصادق في قلبه بهذه المخلوقات العظيمة التي جعل الله
 فيها من المصالح والمنافع، ما جعل على أن وعده صدق،
 وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال
 لواقع لا محالة، ما له من دافع .

فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة
 والبراهين عليه، فلم يكذب به المكذبون، ويعرض عن العمل
 له العاملون .

والمراد بالذاريات: هي الرياح التي تذرو في هبوبها

﴿هَذَا﴾ العذاب الذي وصلتكم إليه، [هو] ﴿الَّذِي كُتِبَ بِهِ سَعْتِجِلُونَ﴾ .

فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال والسلاسل والأغلال والسخط والوبال .

(١٥-١٩) ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَعِيُونَ﴾ ○ عَائِزِينَ مَاءً أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ○ وَيَأْسَأِرُ فِي هُمْ يَسْتَفْتِرُونَ ○ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿ يقول تعالى - في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم التي أوصلتهم ^(١) إلى ذلك الجزاء - : ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ﴾ أي: الذين كانت التقوى شعارهم، وطاعة الله دنارهم .

﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ مشتملات على جميع [أصناف] الأشجار والفواكه التي يوجد لها نظير في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظير، مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الأذان، ولم يخطر على قلوب العباد ^(٢) .

﴿وَعِيُونَ﴾ سارحة تشرب منها البساتين، ويشرب بها عباد الله، ويفجرونها تفجيراً .

﴿عَائِزِينَ مَاءً أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ﴾ يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم، من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك راضين به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلاً، ولا ييغون عنه حولاً، وكل قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد .

ويحتمل أن لهذا وصف المتقين في الدنيا، وأنهم آخذون ما آتاهم الله من الأوامر والنواهي أي: قد تلقوها بالرحب وانسراح الصدر، منقادين لما أمر الله به، بالامتثال على أكمل الوجوه .

ولما نهى عنه بالانزجار عنه الله، على أكمل وجه، فإن الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا التي حققها أن تتلقى بالشكر [لله] عليها والالتقاد .

والمعنى الأول ألصق بسباق الكلام، لأنه ذكر وصفهم في الدنيا، وأعمالهم بقوله: ﴿إِيَّاهُمْ كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ﴾ الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿مُحْسِنِينَ﴾ .

وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم بأن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه، فإنه يراهم، وللإحسان إلى عباد الله يبذل النفع والإحسان من مال أو علم أو جاه أو نصيحة أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر، أو غير ذلك من وجوه الإحسان ^(٣) وطرق الخيرات .

حتى إنه يدخل في ذلك الإحسان بالقول، والكلام اللين والإحسان إلى المماليك، والبهائم المملوكة وغير

سورة الذاريات

٥٢١

سورة الذاريات

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ

أَفْكِ ﴿٩﴾ قُلِ الْغَرَضُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرِهِمْ سَاهُونَ ﴿١١﴾

يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمِ الَّذِينَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا

فَنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ سَعْتِجِلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَهَنَّمَ

وَعِيُونَ ﴿١٥﴾ عَائِزِينَ مَاءً أَنَّهُمْ رَبُّهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَلِيلًا مِنْ اللَّيْلِ

﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَيَأْسَأِرُ فِي هُمْ يَسْتَفْتِرُونَ

﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ

لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقًا

وَمَا تَوْعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ

نَطْفُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أُنثِلَتْ حَدِيثُ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِ ﴿٢٤﴾

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمًا قَالَ سَلِّمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَأَى إِلَيْكَ

أَهْلِيهِ فَعَجَبَ بِعَجَلِ سَمِينِ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ

﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَبَشِّرْهُ بِعَلِيمٍ عَلِيمٍ

﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَانَهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ

﴿٢٩﴾ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

المملوكة ^(٤) .

ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق صلاة الليل الدالة على الإخلاص، وتواطؤ القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿كَانُوا﴾ أي: المحسنون ﴿قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ أي: كان هجوعهم أي: نومهم بالليل قليلاً .

وأما أكثر الليل فإنهم قانتون لربهم ما بين صلاة وقراءة وذكر ودعاء وتضرع .

﴿وَيَأْسَأِرُ﴾ التي هي قبيل الفجر ﴿هُمْ يَسْتَفْتِرُونَ﴾ الله تعالى . فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه، وللإستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة ليست لغيره، كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿رَأْسُتَفْتِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ .

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ واجب ومستحب ﴿لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا

(١) في ب: وصلوا بها . (٢) في ب: قلب بشر . (٣) في ب: من وجوه البر . (٤) كذا في ب، وفي أ: التي تملك والتي لا تملك .

يطلبون منهم^(١).

(٢٠-٢٣) ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا تَوَعَّدُونَ ۝ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطَفُونَ﴾ يقول تعالى - داعيًا عباده إلى التفكير والاعتبار -: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وذلك شامل لنفس الأرض، وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار ونبات، تدل المتفكر فيها، المتأمل لمعانها على عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن. وكذلك في نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن الله وحده الأحد^(٢) الفرد الصمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى.

وقوله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ أي: مادة رزقكم من الأمطار وصنوف الأقدار الرزق الديني والدنيوي. ﴿وَمَا تَوَعَّدُونَ﴾ من الجزاء في الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار.

فلما بين الآيات ونبه عليها تنبيهًا، ينتبه به الذكي اللبيب، أقسم تعالى على أن وعده وجزاءه حق، وشبه ذلك بأظهر الأشياء [لنا]، وهو النطق، فقال: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطَفُونَ﴾.

فكما لا تشكون في نطقكم، فكذلك لا ينبغي الشك في البعث بعد الموت^(٣).

(٢٤-٣٧) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثٌ صَفِيحٌ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرِيِّ ۝ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمْنَا قَالَ سَلِّمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۝ فَرَأَى إِلَيْكَ أَهْلِيهِ فَجَاءَهُ بِعِجْلِ سَيِّبٍ ۝ فَفَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۝ قَالُوا لَا تَحْزَنْ وَنَشْرُوهُ بِعِجْلٍ عَلَيْهِ ۝ فَأَقْبَلَتْ أَمْرَاتُهُ فِي صَرَفٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝ قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۝ [قَالَ فَا حَظَبَكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ۝ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ۝ لِتُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ۝ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ۝ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَحْقِرُونَ الْعَدَابَ الْأَلِيمَ] يقول تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ أي: أما جاءك ﴿حَدِيثٌ صَفِيحٌ إِبْرَاهِيمَ الْمَكْرِيِّ﴾ ونباهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجاءوه في صورة أضياف.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلِّمْنَا قَالَ﴾ مجيباً لهم: ﴿سَلِّمْ﴾ أي: عليكم ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

ولهذا راغ إلى أهله أي: ذهب سريعاً في خفية، ليحضر لهم قراهم.

﴿فَجَاءَهُ بِعِجْلِ سَيِّبٍ ۝ فَفَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ وعرض عليهم الأكل. ف ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ حين رأى أيديهم لا تصل إليه.

﴿قَالُوا لَا تَحْزَنْ﴾ وأخبروه بما جاءوا له ﴿وَنَشْرُوهُ بِعِجْلٍ عَلَيْهِ﴾ وهو إسحاق عليه السلام.

فلما سمعت المرأة البشارة (أَقْبَلَتْ) فرحة مستبشرة ﴿فِي صَرَفٍ﴾ أي: صبيحة ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ وهذا من جنس ما يجري من النساء عند السرور [ونحوه] من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة.

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: أتى لي الولد، وأنا عجوز قد بلغت من السن ما لا تلد معه النساء، ومع ذلك فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلاً فتمَّ مانعان، كل منهما مانع من الولد.

وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود بقولها: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾.

﴿قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالى.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علماً فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

﴿قَالَ﴾ لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿فَمَا حَظَبَكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ الآيات، أي: ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استشعر^(٤) أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشئون المهمة.

﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَيْكَ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا، أشركوا بالله، وكذبوا رسولهم وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿لِتُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ۝ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ أي: معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه^(٥)، لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد.

فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقال الله: ﴿بِإِبْرَاهِيمَ أُفْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَهُ أَمْرٌ رَبُّكَ وَإِنَّهُمْ لَمِنَ أُمَّتِنَا عَدَّابٌ عَجْرٌ مَرْدُودٌ﴾.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ وهم بيت لوط عليه السلام إلا امرأته، فإنها من المهلكين.

(١) في ب: والذين لا يسألونهم. (٢) في ب: أن الله واحد أحد. (٣) في ب: فكذلك ينبغي أن لا يعتركم الشك في البعث والجزاء. (٤) كذا في ب، وفي أ: علم. (٥) في ب: على كل حجر اسم صاحبه.

في موضع، ويقول لهم: «تفضلوا أو اتوا إليه» لأن هذا أيسر عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاحظة الضيف في الكلام اللين، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضاً لطيفاً، وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: «كلوا» ونحوه من الألفاظ التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

فينبغي للمقتدى به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: «ألا تأكلون» أو: «ألا تتفضلون علينا وتشرفونا وتحسنون إلينا» ونحوه.

ومنها: أن من خاف من الإنسان^(٨) لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم [لما خافهم]: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى من صك وجهها، وصرتها غير المعهودة.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة من البشارة بغلام عليهم.

(٤٠-٣٨) وقوله تعالى: ﴿وَفِي مِوْصًى إِذْ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْنَا وَعُونَ يُسْأَلُونَ مُبِينًا ۝ فَنَوَكِّبُ بِهِمْ ۝ وَقَالَ سَجَرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝ فَأَخَذْتَهُ وَجُودُهُ فَبَدَّدْتَهُمْ فِي آلِيمٍ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ أَي: ﴿وَفِي مِوْصًى﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون وملئيه بالآيات البينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى^(٩) بذلك السلطان المبين فتولى فرعون ﴿بِرَيْبِهِ﴾ أي: أعرض بجانبه عن الحق ولم يلتفت إليه، وقدح فيه أعظم القدح فقالوا: ﴿سَجَرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: إن موسى لا يخلو إما أن يكون ساحراً وما أتى به شعبة^(١٠)، ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله.

هذا، وقد علموا، خصوصاً فرعون، أن موسى صادق، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ غَاطًّا وَعَلَوْا﴾.

وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ﴾ الآية.

﴿فَأَخَذْتَهُ وَجُودُهُ فَبَدَّدْتَهُمْ فِي آلِيمٍ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: مذنب طاغ،

(١) في ب: ليعتبروا بهم. (٢) في ب: أمر الله محمداً وأمه. (٣) في ب: في ابتداء السلام. (٤) كذا في ب، وفي أ: الخاص. (٥) في ب: لديه. (٦) كذا في ب، وفي أ: أن يستلقه. (٧) في ب: وسيد. (٨) في ب: من أحد. (٩) كذا في ب: مصححة في الهامش، وفي أ: فلما أتى فرعون. (١٠) في ب: إما أن يكون ما أتى به سحرًا وشعبة.

﴿وَرَكًّا مَبِينًا ۝ آيَةُ الَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدوقون.

فصل في بعض ما تضمنته هذه القصة

من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار، ليعتبروا بحالهم^(١)، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام حيث ابتداء الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل الذي أمر الله هذا النبي^(٢) وأمه، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع على وجه المدح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام بالقول والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلًا، ومكرمون أيضًا عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام، قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام^(٣)، فرد عليهم إبراهيم سلامًا أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الثبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ ولم يقل: «أنكرتكم»، [وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى].

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، لأن خير البر عاجله، [ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قري أضيافه].

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة التي قد أعدت لغير الضيف الحاضر^(٤)، إذا جعلت له ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

ومنها: ما من الله به على خليله إبراهيم من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضرًا عنده^(٥)، وفي بيته معدًا، لا يحتاج إلى أن يأتي به^(٦) من السوق أو الجيران، ولا غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن وكبير^(٧) من ضياف الضيفان.

ومنها: أنه قرّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله

عاب على الله، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر .

(٤١، ٤٢) ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّيمِ ۝ أَي: ﴿وَفِي عَادٍ﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة ^(١) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هودًا عليه السلام .

﴿مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّيمِ﴾ أي: كالرمم البالية، فالذي أهلكتهم على قوتهم وبطشهم، دليل على [كمال] قوته واقتداره الذي لا يعجزه شيء، المنتقم ممن عصاه .

(٤٣-٤٥) ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ جِئَ ۝ فَمَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَمُمْ يَنْظُرُونَ ۝ فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ ۝ أَي: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ [آية عظيمة]، حين أرسل الله إليهم صالحًا عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزددهم ذلك إلا عتوًا ونفورًا .

فقيل: ﴿لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ جِئَ ۝ فَمَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ أي: الصيحة العظيمة المهلكة ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إلى عقوبتهم بأعينهم .

﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ ينجون به من العذاب ﴿وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ﴾ لأنفسهم .

(٤٦) ﴿وَقَوْمٍ نُوْحٍ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح حين كذبوا نوحًا عليه السلام، وفسقوا عن أمر الله .

فأرسل الله عليهم السماء والأرض بالماء المنهمر، فأغرقهم الله تعالى [عن آخرهم]، ولم يبق من الكافرين ديارًا، وهذه عادة الله وستته فيمن عصاه .

(٤٧-٥١) ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهُ بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَدُّونَ ۝ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رِجَالًا لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ وَفَرَّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِيمٌ مُذِيرٌ مُبِينٌ ۝ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكَرِيمٌ مُذِيرٌ مُبِينٌ ۝ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا ۝ أَي: خلقناها وأتقناها، وجعلناها سقفاً للأرض وما عليها .

﴿بِأَيْدٍ﴾ أي: قوة وقدرة عظيمة ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لأرجائها وأنحائها .

وإننا لموسعون [أيضًا] على عبادنا بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه الفقار ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها .

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي

سورة الذاريات

٥٢٢

سورة الذاريات

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ ﴿وَتَرَكَافِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ ﴿٣٧﴾ ﴿وَفِي مِثْرَةَ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطٰنٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿فَتَوَلَّىٰ بَرَكِيهٖ وَقَالَ سِحْرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿٣٩﴾ ﴿فَأَخَذْتَهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ ﴿٤٠﴾ ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ ﴿٤١﴾ ﴿مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّيمِ﴾ ﴿٤٢﴾ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَنَّوْا حَتَّىٰ جِئَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿فَمَتَّوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿فَمَا اسْتَطَعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْصَرِّينَ﴾ ﴿٤٥﴾ ﴿وَقَوْمٍ نُوْحٍ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٤٦﴾ ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ ﴿٤٧﴾ ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمُهَدُّونَ﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رِجَالًا لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿فَرُّوْا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِيمٌ مُذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٥٠﴾ ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكَرِيمٌ مُذِيرٌ مُبِينٌ﴾ ﴿٥١﴾

وسعت رحمته جميع البريات .

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: جعلناها فراشا للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم .

ولما كان الفراش قد يكون صالحًا للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاده على أكمل الوجوه وأحسنها، وأثنى على نفسه بذلك، فقال: ﴿فَنِعْمَ الْمُهَدُّونَ﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته [حكيمته و] رحمته وإحسانه .

﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا رِجَالًا﴾ [أي: صنفين] ذكر وأثنى، من كل نوع من أنواع الحيوانات ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [لنعم الله التي أنعم بها عليكم] ^(٢) في تقدير ذلك، وحكيمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع .

(١) في ب: تقديم وتأخير في هذا الكلام . (٢) كذا في ب، وفي أ: نعمة الله عليكم .

فلما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لخشيته وإلانة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه، أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله.

فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله، وقد زال عنه المرهوب، وحصل له نهاية المراد^(١) والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه فراراً، لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكارة، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن [والسرور] والسعادة والفوز.

فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه.

﴿إِنِّي لَكُرْهُمُ يَوْمَ نَدِيرُ يَوْمِي﴾ أي: منذر لكم من عذاب الله، ومخوف بين النذارة.

﴿وَلَا تَجْمَعُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأنداد والقبور وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإلانة.

(٥٢، ٥٣) ﴿كَذَلِكَ مَا أَفَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أو تَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ يقول الله - مسلماً لرسوله ﷺ - عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة، ما هو منزه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادة للمجرمين المكذبين للرسول، فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم - الأولين والآخرين - هل هي أقوال تواصلوا بها، ولقن بعضهم بعضاً بها؟

فلا يستغرب - بسبب ذلك - اتفاقهم عليها: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ﴾ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟

وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنزِيلًا نَأْتِيهِ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وكذلك المؤمنون لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه والسعي فيه، بادروا إلى الإيمان برسولهم وتعظيمهم وتوقيرهم، وخطابهم بالخطاب اللائق بهم:

(٥٤، ٥٥) ﴿قَوْلَ عَنَّهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ

نُفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى آمراً رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين: ﴿قَوْلَ عَنَّهُمْ﴾ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك.

فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أدبت ما حملت، وبلغت ما أرسلت به.

﴿وَذَكَرَ فَإِنَّ الذِّكْرَ نُنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول^(٢)، فإن

الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره، وكراهة الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل ما أمر به ونهى من الشرع فإنه من التذكير، وتمام التذكير، أن يذكر ما في الأمور به من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو^(٣) معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون لذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، ويتبهاو ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمة، توجب لهم الانشغال والارتفاع.

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإلانة، واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتنع منهم الموعظة موقعها كما قال تعالى: ﴿فَذَكَرْ إِن نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ سَيَذَكِّرْ مِنْ نَحْوِهَا وَيُنَجِّبُهَا الْأَشْقَى.

وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

(٥٦-٥٨) ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ○ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْأَتَّينِ﴾ هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإلانة إليه، والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه.

وذلك يتضمن^(٤) معرفته تعالى، فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

(١) في ب: غاية المراد. (٢) كذا في ب، وفي أ: مما عرف بالفطر والعقول مجمله. (٣) كذا في ب، وفي أ: ما. (٤) في ب: وذلك متوقف.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه في جميع حوائجهم ومطالبهم الضرورية وغيرها، ولهذا قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ أي: كثير الرزق الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها.

﴿ذُرِّ الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم.

ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعدما مزقهم البلى، وعصفت بترابهم^(١) الرياح، وابتلعهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار، ولجج البحار، فلا يفوته منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين.

(٥٩، ٦٠) ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ﴾ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ أي: وإن للذين ظلموا وكذبوا^(٢) محمداً ﷺ من العذاب والنكال ﴿ذُنُوبًا﴾ أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب.

﴿فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ﴾ بالعذاب، فإن سنة الله في الأمم واحدة. فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة، ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيب لهم، ولا متقد من عذاب الله تعالى [نعوذ بالله منه].

تفسير سورة والطور

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٦) ﴿وَالطُّورِ﴾ وَكُنْتُمْ مَسْطُورِينَ ﴿ فِي رِيقٍ مَسْشُورٍ ﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴿ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنُّونَ ﴿٥٢﴾ أَوْ صَوَابِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَآغُوتٌ ﴿٥٣﴾ فَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَتَتْ بِمَلَأْمٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكَرْنَا لِلذَّكَرَى نَفْعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُنُوبًا مِثْلَ ذُنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْمِلُونَ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوْعَدُونَ ﴿٦٠﴾

سُورَةُ الطُّورِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكُنْتُمْ مَسْطُورِينَ ﴿٢﴾ فِي رِيقٍ مَسْشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ لِلْمُكذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴿١٣﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴿١٤﴾

سَيْرًا ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُكذِّبِينَ ﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً ﴾ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبُونَ ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ أَصْلُهَا فَاصْرُورًا أَوْ لَا تُصْبِرُوا سَوَاءً عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُحْزَنُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة المشتملة على الحكم الجليلة على البعث والجزاء للمتقين والمكذبين، فأقسم بالطور، الذي هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام.

وفي ذلك من المنة عليه وعلى أمته، ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمه التي لا يقدر العباد لها على عدِّ ولا ثمن.

﴿وَكُنْتُمْ مَسْطُورِينَ﴾ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم الذي هو أفضل كتاب^(٣)، أنزله الله محتويًا على نبأ الأولين والآخرين، وعلوم السابقين واللاحقين.

وقوله: ﴿فِي رِيقٍ﴾ أي: ورق ﴿مَسْشُورٍ﴾ أي: مكتوب (١) في ب: عصفت بهم. (٢) في ب: بتكذيبهم. (٣) في ب: الكتب.

مسطر، ظاهر غير خفي، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير. ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك [يتعدون فيه لربهم ثم] لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام، المعمور بالطائفتين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالوفود إليه بالحج والعمرة.

كما أقسم الله به في قوله: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وحقيق بيوت أفضل بيوت الأرض، الذي قصده بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمنًا، أن يقسم الله به، ويبين من عظمت ما هو اللاتق به وبحرمته.

﴿وَالسَّمَاءِ الْمَرَوِّعِ﴾ أي: السماء التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتمدى بعلاماتها ومنازها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ أي: المملوء ماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض مع أن مقتضى الطبيعة، أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان، ليعيش من على وجه الأرض من أنواع الحيوان.

وقيل: إن المراد بالمسجور: الموقد الذي يوقد [نارًا] يوم القيامة، فيصير نارًا تظلي، ممتلئًا - على عظمته وسعته - من أصناف العذاب.

هذه الأشياء التي أقسم الله بها، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات، ولهذا قال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

﴿مَّا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله تعالى لا يغالبها مغالب، ولا يفوتها هارب.

ثم ذكر وصف ذلك اليوم الذي يقع فيه (١١) العذاب، فقال: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ أي: تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون.

﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعن المنفوش، وتبث بعد ذلك [حتى تصير] مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وفضاعة ما فيه من الأمور المزعجة، والزلازل المقلقة التي أزعجت هذه الأجرام العظيمة، فكيف بالآدمي الضعيف؟!

﴿قَوْلٍ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف.

ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي حَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: خوض في الباطل ولعب به. فعلومهم وبحوثهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة والأعمال الصالحة.

﴿يَوْمَ يَدْعُوتُ إِلَى نَارٍ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ أي: يوم يدفعون إليها دفعًا، ويساقون إليها سوقًا عنيقًا، ويجرون على وجوههم، ويقال لهم توييحًا ولوَمَا:

﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ فالיום ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب، كما يدل عليه سياق الآية أي: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقرع: «أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون» أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر لم تقم عليكم الحجة؟.

والجواب انتفاء الأمرين.

أما كونه سحرًا، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المخالف (٢) للسحر من جميع الوجوه.

وأما كونهم لا يبصرون، فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الجليلة.

ويحتمل أن الإشارة [بقوله: ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾] إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الحق المبين، والصرط المستقيم أي: هذا الذي جاء به محمد ﷺ سحر أم عدم بصيرة بكم، حتى اشتبه عليكم الأمر، وحقيقة الأمر أنه أوضح من كل شيء وأحق الحق، وأن حجة الله قامت عليهم (٣).

﴿أَصْلَوْهَا﴾ أي: ادخلوا النار على وجه تحيط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم (٤)، وتطلع على أفئدتكم.

(١) كذا في ب، وفي أ: يقع به. (٢) في ب: المنافي. (٣) بعد قوله: والصرط المستقيم، جاءت العبارة في ب مختلفة عما في أ، وهذا نص ما في ب: (أي: أفيتصور من له عقل أن يقول عنه: إنه سحر، وهو أعظم الحق وأجله، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا). (٤) في ب: (وتشمل أبدانكم).

﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست^(١) من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها.

وإنما فعل بهم ذلك بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، [ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾].

(١٧-٢٠) ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّةٍ وَنَعِيمٍ﴾ فكيفهم يمأء أنهم رُبَّمَا وَوَقَّهْمُ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ○ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ○ مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَرَوَّحِلُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين، ذكر نعيم المتقين ليجمع بين الترغيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ لربهم الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

﴿جَنَّةٍ﴾ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار الملتفة، والأثمار المتدفقة، والقصور المحدقة، والمنازل المزخرفة.

﴿وَنَعِيمٍ﴾ [وهذا] شامل لنعيم القلب والروح والبدن.

﴿فَكَيْفَ هِيَ بِمَا أَنَّهُمْ رُبَّمَا﴾ أي: معجيبين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين.

ووقاهم عذاب الجحيم فزقههم المحبوب، ونجاهم من المرهوب لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه وبأباه.

﴿كَلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: مما تشتهي أنفسكم من [أصناف] المآكل والمشرب اللذيذة.

﴿هَنِيئًا﴾ أي: متهئين بتلك المآكل والمشرب^(٢) على وجه الفرح والسرور والبهجة والحبور.

﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة وأقوالكم المستحسنة.

﴿مُتَّكِنِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾ الاتكاء: هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية.

ووصف الله السرر بأنها مصفوفة ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، بحسن معاشرتهم، ولطف كلام بعضهم لبعض^(٣).

فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يخطر بالبال، ولا يدور في الخيال من المآكل والمشرب [اللذيذة] والمجالس الحسنة الأنيقة، لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور بدونهن^(٤).

فذكر الله أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهذا قال: ﴿وَرَوَّحِلُهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهائها، ومن الأخلاق الفاضلة ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين، ويسلبن عقول العالمين، وتكاد الأفئدة أن تطيش^(٥) شوقاً إليهن، ورغبة في وصالهن، والعين: حسان الأعين مليحاتها التي صفا بياضها وسوادها.

(٢١-٢٨) ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ○ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَلَاحِهِمْ وَلَحْمِ مِمَّا يَشْتَهُونَ ○ يَلْتَمِعُونَ فِيهَا كَأَسَا لَا لَعْنُ فِيهَا وَلَا تَأْنِيهِ ○ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وُعْدَانٌ ○ كَأَنَّهُمْ لَوْلُؤُا مُكَوَّنُونَ ○ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ○ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُتْفِقِينَ ○ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السَّمُورِ ○ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ أَكْبَرُ الرَّحِيمِ﴾ وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، أن الحق الله

(١) كذا في ب، وفي أ: وليس. (٢) في ب: متهئين بذلك على وجه. (٣) في ب: وملاطفة بعضهم بعضاً. (٤) في ب: إلا بهن. (٥) في ب: تطير.

﴿بِهِمْ﴾ ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان، أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهؤلاء المذكورون يلحقهم الله بمنازل آبائهم في الجنة وإن لم يبلغوها، جزاءً لأبائهم وزيادة في ثوابهم.

ومع ذلك لا يتقص الله الآباء من أعمالهم شيئاً. ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحداً إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كُلُّ أُمَّرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مرتبه بعمله، فلا ترز وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد. هذا اعتراض من فوائده إزالة الوهم المذكور.

وقوله: ﴿وَأَمَدَدْنَاهُمْ﴾ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع، ورزقنا العميم ﴿بِنِكَاحِهِمْ﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون. ﴿وَلَحَرٍ مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم، لحم الطير وغيرها.

﴿يَنْزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: تدور كأسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق وكأس. ﴿لَا تَلْعَوُ فِيهَا وَلَا تَأْتِمُّوهُ﴾ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه، ولا تأتيم وهو الذي فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران، ثبت الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر، مسر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب المنادمة، ولا يسمعون من ربهم، إلا ما يقر أعينهم، ويدل على رضاه عنهم [ومحبته لهم]:

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ عِلْمَانٌ لَهُمْ﴾ أي: خدم شباب ﴿كَانَتْهُمْ لَوْلُؤُهُمْ مَكْنُونٌ﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه^(١) وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم.

﴿وَأَجَلٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَسْتَأْذِنُونَ﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها. ﴿قَالُوا﴾ في [ذكر] بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الحيرة والسرور.

﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ﴾ أي: في دار الدنيا ﴿فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: خائفين وجلين، فتركنا من خوفه الذنوب وأصلحنا لذلك العيوب.

﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِنَا﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السُّمُورِ﴾ أي: العذاب الحار الشديد حره.

﴿فَمَنْ أَلَّهِ عَلَيْهِنَا﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿وَوَقَّعْنَا عَذَابَ السُّمُورِ﴾ أي: العذاب الحار الشديد حره.

(١) في ب: وقضاء أشغالهم. (٢) في ب: العبادات. (٣) كذا في ب، وفي أ: تربيص به الموت، وتنتظره فيه.

﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب؟ وقد علم أنهم الأمة الأمية، الجهال الضالون.

ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يطلع عليه أحدًا من الخلق، وهذا كله إزام لهم بالطرق العقلية والقلبية على فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها، وأسلمها من الاعتراض.

وقوله: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ﴾ بقدهم فك وفيما جئتهم به ﴿كَيْدًا﴾ يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟.

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾ أي: كيدهم في نحورهم، ومضرتهم عائدة إليهم، وقد فعل الله ذلك - والله الحمد - فلم يُبقي الكفار من مقدورهم من المكر شيئًا، إلا فعلوه، فنصر الله نبيه ودينه عليهم^(١)، وخذلهم وانتصر منهم.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ أي: ألهم إله يدعى ويرجى نفعه، ويخاف من ضره غير الله تعالى؟.

﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوجدانية والعبادة.

وهذا هو المقصود من الكلام الذي سبق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله، وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة.

وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويُصلى له ويسجد، ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة، هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد الفرد الصمد الكبير الحميد المجيد.

(٤٤-٤٦) ﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ ○ فذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ○ يَوْمٌ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يقول تعالى في [ذكر] بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا [عن الحق]، وعسوا على الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا﴾ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف أي: قطع كبار من العذاب ﴿يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ أي: هذا سحب متراكم على العادة.

أي: فلا يباليون بما رأوا من الآيات ولا يعتبرون بها. وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٥٢٥
أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَمُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ لَقَوْلُهُ
بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ
﴿٣٤﴾ أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْفِقُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ
رَبِّكَ أَمْ هُمْ الْمُصِيطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُمٌّ سَمِعْتُمْ فِيهِ فَلَيَاتِ
مُسْتَعْتَبُهُمْ سُلْطَنٌ مُبِينٌ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ ﴿٣٩﴾
أَمْ تَسْتَأْجِرُهُمْ لِيَكُونَ لَهُمْ مَغْرَمٌ مُثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ الْغَيْبُ فَهُمْ
يَكْتُمُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾
أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا
مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا
يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمٌ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا
وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ
بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾

سُورَةُ الْجِنِّ

﴿فذَرَهُمْ حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو يوم القيامة الذي يصيهم [فيه] من العذاب والنكال ما لا يقادر قدره ولا يوصف أمره.

﴿يَوْمٌ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان في الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به زماناً قليلاً، فيوم القيامة يضمحل كيدهم، وتبطل مساعيهم، ولا ينتصرون من عذاب الله ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

(٤٧-٤٩) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ○ وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ○ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ النُّجُومِ﴾ لما ذكر [الله] عذاب الظالمين في القيامة، أخبر أن لهم عذاباً دُونَ عذاب يوم القيامة^(٢)، وذلك شامل لعذاب الدنيا بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر.

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب وشدة العقاب.

(١) في ب: فنصر الله نبيه عليهم، وأظهر دينه، وخذلهم. (٢) في ب: في الآخرة أخبر أن لهم عذاباً قبل عذاب.....

ولما بين تعالى الحجج والبراهين على بطلان أقوال المكذبين، أمر رسوله ﷺ أن لا يعبا بهم شيئاً، وأن يصبر لحكم ربه القدري والشرعي بلزومه، والاستقامة عليه، ووعده الله بالكفاية بقوله: ﴿فَأِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منا وحفظ واعتناء بأمرك.

وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: من الليل.

ففيه الأمر بقيام الليل أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس، بدليل قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَرَ الْجُورِ﴾ أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر، والله أعلم.

تم تفسير سورة الطور - والحمد لله - .

تفسير سورة النجم

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٨) ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا صَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ ۝ مَا أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝ أَفَتَسْتَوِيهِ عَلَىٰ مَا رَأَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ۝ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَالْعَزَىٰ ۝ وَمِنَورَةِ الثَّلَاثَةِ الْأُخْرَىٰ ۝ الْكُمُ الدَّكُّورُ ۝ لَأَنْثَىٰ ۝ نَبَاكَ إِذَا فَسَمَهُ ضُرِيضَىٰ ۝ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَعَبَا ۝ وَكَمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ ۝ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ۝ أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَنَسَّىٰ ۝ فَلِللَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۝ وَكَمْ مِنْ مَلَكَ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَعْنَىٰ شَفَعْنَهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ۝﴾

﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي: ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي: لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى في نفسه وفي غيره.

ودل هذا على أن السنة وحى من الله لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه، لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحى يوحى.

ثم ذكر المعلم للرسول ﷺ، وهو جبريل [عليه السلام] أفضل الملائكة [الكرام] وأقواهم وأكملهم، فقال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ أي: نزل بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه السلام ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ أي: شديد القوة الظاهرة والباطنة.

قوي على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال الوحي إلى الرسول ﷺ، ومنعه من اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه ما ليس منه.

والمقسم عليه تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه، والغنى في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً في علمه، هادياً حسن القصد، ناصحاً للأمة^(١) بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وفساد القصد^(٢).

وقال: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾ لينبههم على ما يعرفونه منه من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره.

(١) في ب: للخلق. (٢) في ب: وسوء.

فرأى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

عند تلك الشجرة ﴿جَنَّةُ النَّارِ﴾ أي: الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلاً تنتهي إليه^(٥) الأماني، وترغب فيه الإرادات، وتأوي إليها الرغبات، وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن وفوق السماء السابعة.

﴿إِذْ يَبْسُ السَّيِّدَةَ مَا يَعْتَنِي﴾ أي: يغشاها من أمر الله شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل.

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ أي: ما زاغ يمينه ولا يسرة عن مقصوده ﴿وَمَا طَغَى﴾ أي: وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه، أن قام مقاماً أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه.

وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم الذي فاق فيه الأولين والآخرين، فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور:

إما أن لا يقوم العبد بما أمر به أو يقوم به على وجه التفریط أو على وجه الإفراط أو على وجه الحيدة يميناً وشمالاً، وهذه الأمور كلها متفية عنه ﷺ.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ من الجنة والنار وغير ذلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أسري به.

(١٩-٢٥) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَ مَنَوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ ۗ أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۗ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۗ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَإِبْرَاهِيمُ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۗ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَىٰ ۗ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَكْفُرُ ۗ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ۗ لِمَا زَعَىٰ تَعَالَىٰ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وأباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال.

فالآلهة التي بهذه الحال لا تستحق مقال ذرة من العبادة، وهذه الأنداد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا «اللات» من «إله» المستحق للعبادة و«العزى» من «العزيز» و«مناة» من «المنان»

(١) كذا في ب، وفي أ: الأعلى على. (٢) في ب: مباشرة. (٣) في ب: علم المخلوقات. (٤) كذا في ب، وفي أ: علومها. (٥) كذا في ب، وفي أ: إليها.

وهذا من حفظ الله لوحيه، أن أرسله مع هذا الرسول القوي الأمين.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: قوة، وخلق حسن، وجمال ظاهر وباطن. ﴿فَأَسْتَوَىٰ﴾ جبريل عليه السلام ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي: أفق السماء الذي هو أعلى من^(١) الأرض، فهو من الأرواح العلوية التي لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.

﴿ثُمَّ دَنَا﴾ جبريل من النبي ﷺ لإيصال الوحي إليه. ﴿فَنَدَّىٰ﴾ عليه من الأفق الأعلى ﴿فَكَانَ﴾ في قربه منه ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ أي: قدر قوسين، والقوس معروف ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: أقرب من القوسين، وهذا يدل على كمال المباشرة^(٢) للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

﴿فَأَوْحَىٰ﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إِلَىٰ عَبْدِي﴾ محمد ﷺ ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم، والنبأ المستقيم.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ أي: اتفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وقلبه وبصره، وهذا دليل على كمال الوحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقياً لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره، ولم يشك بذلك.

ويحتمل أن المراد بذلك ما رأى ﷺ ليلة أسري به من آيات الله العظيمة، وأنه يقينه حقاً بقلبه ورؤيته، هذا [هو] الصحيح في تأويل الآية الكريمة.

وقيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء، وتكليمه إياه، وهذا اختيار كثير من العلماء رحمهم الله، فأثبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا.

ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السياق، وأن محمداً ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية [التي هو عليها] مرتين: مرة في الأفق الأعلى تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ، ولهذا قال:

﴿وَلَقَدْ رَأَىٰ نَزْلَةَ أُفُقٍ أُخْرَىٰ﴾ أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى، نازلاً إليه.

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ وهي شجرة عظيمة جداً فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله من الوحي وغيره.

أو لانتهاه علم الخلق^(٣) إليها أي: لكونها فوق السماوات والأرض فهي المنتهى في علوها^(٤) أو لغير ذلك، والله أعلم.

﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضُ﴾ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له.

ومن المعلوم المتقرر أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، موافقاً فيه صاحبه الشريعة.

فالمشركون إذاً لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

(٢٧-٣٠) ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئُونَ لِمَلَائِكَتِكَ سِمْيَةَ

الْأُنثَى ○ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ○ فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ○ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى﴾ يعني أن المشركين بالله المكذبين لرسوله الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرأوا على ما تجرأوا عليه من الأقوال والأفعال المحادة لله ولرسوله، من قولهم: «الملائكة بنات الله»، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة، ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناناً.

والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن الله منزّه عن الأولاد والصاحبة، لأنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون إلى الله، قائمون بخدمته: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ والمشركون^(١) إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو^(٢)

الظن الذي لا يُغني من الحق شيئاً، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم^(٣) لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم ما تهواه نفوسهم، أمر الله رسوله بالإعراض عمن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم والنبأ الكريم، فأعرض عن العلم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهى إرادته.

ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصّلوها، وبأي طريق سنحت ابتدروها.

﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي: هذا منتهى علمهم وغايته. وأما المؤمنون بالآخرة المصدقون بها، أولو الألباب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة وعلومهم أفضل

(١) كذا في ب، وفي أ: وهم. (٢) كذا في ب، وفي أ: إلا. (٣) كذا في ب، وفي أ: أنه.

إلحاداً في أسماء الله وتجربياً على الشرك به، وهذه أسماء متجردة عن المعاني. فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿أَلَيْسَ الذِّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ أي: أتجعلون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى﴾ أي: ظالمة جائرة، [وأي ظلم أعظم من قسمة] تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟ [تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً].

وقوله: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَإِنَّا وَكَّرْنَا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ ديناً، وهم - في أنفسهم - ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه.

وإنما دلهم على قولهم الظن الفاسد والجهل الكاسد وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى﴾ أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد.

فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان.

وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدى، فالبقاء على هذه الحال من أسفه السفه وأظلم الظلم، ومع ذلك يتمنون الأمانى ويعترونها بأنفسهم.

ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى، وهو كاذب في ذلك فقال: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ○ فَلِلَّ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعا لأمانيتهم، ولا موافقاً لأهوائهم.

(٢٦) ﴿وَكُرْ مِنَ مَلَائِكَةٍ لَا تُعْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضُ﴾ يقول تعالى منكرًا على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وَكُرْ مِنَ مَلَائِكَةٍ لَا تُعْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئاً﴾ أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها

ورجاءها.

سورة النجم

٥٢٧

سورة النجم

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْمُونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى (٢٧)

وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ

الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨) فَأَعْرَضَ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَا يُرِيدُ إِلَّا الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا (٢٩) ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ

سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى (٣٠) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا

بِالْحَسَنَى (٣١) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنْتِمَاءِ وَالْفَوْحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ

إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ

وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بَطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تَزْكُرُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ

بِمَنْ أَتَقَى (٣٢) أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى

(٣٤) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهَوَّيْرَى (٣٥) أَمْ لَمْ يَلْبَسْ بِمَا فِي صُحُفِ

مُوسَى (٣٦) وَإِنْ تَرَاهُمْ أَلْدَى وَفَى (٣٧) أَلَا نُنزِلُ الْوَارِثَةَ وَزُرْأَتِي

(٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ

يُرَى (٤٠) ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى

(٤٢) وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكُ وَأَبْكِي (٤٣) وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتُ وَأَحْيَا (٤٤)

(٤٥)

العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ممن لا يستحق ذلك، فيكله إلى نفسه ويخذله، فضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَهْتَدَى﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

(٣٢، ٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى﴾ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنْتِمَاءِ وَالْفَوْحِشِ إِلَّا اللَّهُمَّ إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بَطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تَزْكُرُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ أَتَقَى يخبر تعالى أنه مالك الملك المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجزي عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به، ونهاهم [عنه] فيبش المطيع ويعاقب العاصي.

ليجزى الذين أساءوا العمل السيئات من الكفر فما دونه بما عملوا من أعمال الشر بالعقوبة البليغة^(١).

﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله بأنواع المنافع ﴿بِالْحَسَنَى﴾ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة.

وأكبر ذلك وأجله رضا ربهم، والفوز بنعيم الجنة^(٢). ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنْتِمَاءِ وَالْفَوْحِشِ﴾ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار كالزنا وشرب الخمر وأكل الربا والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة.

﴿إِلَّا اللَّهُمَّ﴾ وهي الذنوب الصغار التي لا يصير صاحبها عليها، أو التي يلزم بها العبد المرة بعد المرة على وجه الندرة والقلة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال:

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ فلولا مغفرته لهلكت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولهذا قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر».

[وقوله]: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بَطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه من الضعف والخور عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٣) المحرمات، وكثرة الجواذب إليها وعدم الموانع القوية.

والضعف موجود مشاهد منكم حين أنشأكم^(٤) الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم.

وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني، أن يتعمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآتات، وفراره من الذنوب التي يتمت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفتنة بعد

(١) في ب: اللفظة. (٢) في ب: والفوز بالجنة وما فيها من النعيم.

(٣) في ب: إلى فعل. (٤) في ب: حين أخرجكم.

وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم، وأوردوها شر الموارد.

وقد استدل بقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ من يرى أن القرب لا يفيد^(٥) إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا: لأن الله قال: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ فوصول سعي غيره إليه منافي لذلك، وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا يتفجع بسعي غيره، إذا أهداه ذلك الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك أن لا يملك ما وهبه له الغير من ماله الذي يملكه.

وقوله: ﴿وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإنه ينتهي العلم والحكم والرحمة وسائر الكمالات.

﴿وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَ﴾ أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور، والهمم [والحزن] وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك.

﴿وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا.

﴿وَأَنْتَ خَلَقَ الزَّوْجِينَ﴾ فسر الزوجين^(٦) بقوله: ﴿الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات ناطقها وبهيما فهو المنفرد بخلقها.

﴿مِنْ تَطْفَؤِ إِذَا تَمَنَّيَ﴾ وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها وكبيرها من نطفة ضعيفة^(٧) من ماء مهين، ثم نماها وكملها حتى بلغت ما بلغت، ثم صار آدمي منها، إما إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين.

ولهذا استدل بالبداة على الإعادة فقال: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النِّشَاءَ

الفلتة، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين^(٨)، أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً، وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَرْكُؤُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح^(٩).

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [فإن التقوى محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من بر وتقوى، وأما الناس فلا يغنون عنكم من الله شيئاً].

(٦٢-٣٣) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَدْعُو﴾ وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى ○ أَعْنَدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرِيءٌ ○ أَمْ لَمْ يَبْتَأْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُوسَى ○ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ○ أَلَا نَزَرُ وَرَزَرٌ ○ وَرَزَّ آخِرُي ○ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ○ وَأَنْ سَعَيْهِ سَوْفَ يُرَى ○ ثُمَّ يُعْرَضُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ○ وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ○ وَأَنْتَ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَ ○ وَأَنْتَ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ○ وَأَنْتَ خَلَقَ الزَّوْجِينَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ○ مِنْ تَطْفَؤِ إِذَا تَمَنَّيَ ○ وَأَنْ عَلَيْهِ النِّشَاءُ الْآخِرَى ○ إلى آخر السورة، يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ فيجرح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟

فإن سمحت نفسه ببعض الشيء القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويكدي ويمنع.

فإن المعروف ليس سجية له وطبيعة^(١٠)، بل طبعه التولي عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها.

﴿أَعْنَدُهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ بَرِيءٌ﴾ الغيب ويخبر به، أم هو متقول على الله، متجرى على الجمع بين الإساءة والتزكية^(١١) كما هو الواقع، لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك، فلاخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

﴿أَمْ لَمْ يَبْتَأْ﴾ هذا المدعي ﴿بِمَا فِي صُحُفٍ مُوسَى ○ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه.

وفي تلك الصحف أحكام كثيرة، من أهمها ما ذكره الله بقوله: ﴿أَلَا نَزَرُ وَرَزَرٌ ○ وَرَزَّ آخِرُي ○ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ أي: كل عامل له عمله الحسن والسيء، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنباً.

﴿وَأَنْ سَعَيْهِ سَوْفَ يُرَى﴾ في الآخرة فيميز حسنه من سيئه. ﴿ثُمَّ يُعْرَضُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى﴾ أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيء الخالص بالسوأى، والمشوب بحسبه جزاءً تقرّ بعدله وإحسانه الخليفة كلها،

(١) في ب: وأجود الأجودين. (٢) كذا في ب، وفي أ: تظهرونها، وتخبرون الناس بذلك على وجه التمدح. (٣) في ب: فإن الإحسان ليس سجية له وطبعاً. (٤) في ب: متجرى عليه جامع بين المحذورين الإساءة والتزكية. (٥) في ب: لا يجوز. (٦) في ب: فسرهما. (٧) كذا في ب، وفي أ: قليلة.

ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟.

فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد

المرسلين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين؟.

﴿أَرَفَتِ الْآرَافَةَ﴾ أي: قربت القيامة، ودنا وقتها، وبانت

علاماتها.

﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم

العذاب الموعود به.

ثم توعد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين

لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿أَفَمَنْ هَذَا كَلِمَتٍ

تَقْبُولُونَ؟﴾ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام

وأفضله وأشرفه تتعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة

للعادة الخارقة للأمور [والحقائق] المعروفة؟.

هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث

الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي

ليس بالهزل، وهو القرآن^(٣) العظيم الذي لو أنزل على جبل

لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام

رأياً وعقلاً وتسديداً وثباتاً وإيماناً و يقيناً، والذي^(٤) ينبغي

العجب من عقل من تعجب منه، وسفهه وضلاله.

﴿وَضَحَّكُونَ وَلَا يَتُوبُونَ﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء

به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب،

وتبكي له العيون، سماحاً لأمره ونهيه، وإصغاء لوعده

ووعيده، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة.

﴿وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ﴾ أي: غافلون عنه، لاهون عن تدبره، وهذا

من قلة عقولكم، وأديانكم.

فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم

بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى:

﴿فَاتَّبِعُوا اللَّهَ وَاتَّبِعُوا أَمْرَهُ﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك

على فضله^(٥)، وأنه سر العبادة ولبها، فإن لبها الخشوع لله^(٦)

والخشوع له والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد^(٧)،

فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض

المهينة موضع وطء الأقدام.

ثم أمر بالعبادة عمومًا، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه

(١) في ب: وهذا من نعمه تعالى أن أخبرهم أن جميع النعم منه. (٢) في

ب: فكيف تتخذ مع الله الهبة. (٣) في ب: لهم. (٤) في ب: بل أبادهم

عن آخرهم. (٥) في ب: أليس يدعو إلى كل خير، وينهى عن كل شر.

(٦) في ب: القرآن. (٧) في ب: بل الذي. (٨) في ب: يدل على

فضله. (٩) في ب: فإن روحها الخشوع لله. (١٠) في أ: القلب، وفي

ب: الكلمة غير واضحة، وقد جعلتها (العبد) لمناسبة الكلمة للسياق لقوله

فيما بعد: (قلبه وبدنه).

﴿الْأَخْرَجَ﴾ فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات

ويجازيهم على الحسنات والسيئات.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَفَنُّ وَآفَنُّ﴾ أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم

من التجارات، وأنواع المكاسب من الحرف وغيرها ﴿وَآفَنُّ﴾

أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به

مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على

عباده أن جميع النعم منه تعالى^(١)، وهذا يوجب للعباد أن

يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له.

﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الْكَافِرِينَ﴾ وهي النجم المعروف بالشعري

العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب

كل شيء، لأن هذا النجم مما عبد في الجاهلية، فأخبر تعالى

أن جنس ما يعبد المشركون، مربوب مدبر مخلوق، فكيف

تتخذ لَهَا مع الله^(٢).

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ وهم قوم هود عليه السلام حين

كذبوا هودًا فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية.

﴿وَتَمُودٌ﴾ قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود

فكذبوه، فبعث الله إليهم^(٣) الناقة آية، فعقروها وكذبوه

فأهلكهم الله تعالى.

﴿فَمَا أَتَيْنُ﴾ منهم أحدًا بل أهلكهم الله عن آخرهم^(٤).

﴿وَقَوْمٌ نُوْحٌ مِنْ قَبْلُ إِنَّمَا كَانُوا هُمْ أَطْلَمَ وَأَطْفَى﴾ من هؤلاء

الأمم، فأهلكهم الله وأغرقتهم في اليم.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿أَهْوَى﴾ أي:

أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحدًا من العالمين، قلب أسفل

ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل ولهذا قال:

﴿فَعَسَىٰ مَا عَشَىٰ﴾ أي: غشيها من العذاب الأليم الوخيم ما

غشى أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه.

﴿فَبِأَيِّ آيَةٍ آتَىٰ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ أي: فبأي نعم الله وفضله تشك

أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من

الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا

هو.

﴿هَذَا يَذِّبُ مِنَ الذُّرِّ الْأَوَّلَى﴾ أي: هذا الرسول القرشي

الهاشمي محمد بن عبد الله ليس يبدع من الرسل، بل قد تقدمه

من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلاي شيء تنكر

رسالته؛ وبأي حجة تبطل دعوته؟.

أليست أخلاقه [أعلى] أخلاق الرسل الكرام؟.

أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر^(٥)؟.

ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه

ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟.

من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة .

تم تفسير سورة النجم، والحمد لله الذي لا نحصي ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما ينبي عليه عباده، وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا كثيرًا .

تفسير سورة اقتربت

مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ۚ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ۚ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرَ ۚ﴾ يخبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وأن أوانها، وحان وقت مجيئها، ومع ذلك فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويريهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على مثله البشر .

فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على [صحة ما جاء به وصدق، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى فانشق فلقطين، فلقه على جبل أبي قبيس وفلقه على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى^(١) الكائنة في العالم العلوي التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخييل .

فشاهدوا أمرًا ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيرًا، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم وقالوا: سحرنا محمد .

ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم^(٢) إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحركم لا^(٣) يقدر أن يسحر من ليس مشاهدًا مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَقَرٌّ﴾ سحرنا محمد، وسحر غيرنا .

وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكارًا منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل^(٤) والرد لها، ولهذا قال: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: وإن يروها بل قال: ﴿وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا﴾ وليس قصدهم اتباع الحق والهدى،

سُورَةُ الْقَمَرِ

٥٢٨

سُورَةُ الْقَمَرِ

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزُّوجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٥﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ إِذَا تَمَثَّى ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ النُّشْأَةَ الْآخْرَى ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ السَّعْرَى ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ﴿٥٠﴾ وَتَمُودًا إِذْ بَقِيَ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِيَّاهُمْ كَانُوا أَهْمَ أَظْلَمُ وَأَطْنَى ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤَنَفَكَةَ أَهْوَى ﴿٥٣﴾ فَغَسَّطْنَا مَا عَشْنَى ﴿٥٤﴾ فَيَا أَيُّهَا الْعَرَبِيُّ انْتَمَارَى ﴿٥٥﴾ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولَى ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْأَرْفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَإِنْ هَذَا الْحَدِيثُ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنْتُمْ سَمِيدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْتَجِدْ لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

سُورَةُ الْقَمَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اَقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأُنذُرَ ﴿٥﴾ فَوَقَّعْنَاهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكْرٍ ﴿٦﴾

وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَإِن لَّرَّ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَأَعْلَمَ أَنَّمَا يُعْمُرُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ .

فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى لآمنوا قطعًا واتبعوا محمداً ﷺ، لأنه أراهم الله على يديه^(٥) من البيئات والبراهين والحجج القواطع ما دل على جميع المطالب الإلهية والمقاصد الشرعية .

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: إلى الآن لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالمصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالداً مخلداً أبداً .

وقال تعالى - مبيّنًا أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدى - : ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة ﴿مَا فِيهِ مُرْدَجَرٌ﴾ أي: زاجر

(١) في ب: العظيمة . (٢) في ب: من ورد . (٣) في ب: لم . (٤) في ب: بالكذب . (٥) كذا في النسختين، والمراد ظاهر وهو أن الله أراهم على يديه .

يزجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك ﴿حِكْمَةً﴾ منه تعالى ﴿بَلِغَةٌ﴾ أي: لتقوم حجته على المخالفين^(١)، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل.

﴿فَمَا تَعْنِي التَّنْذِيرُ﴾ كقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ و ﴿لَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

(٦-٨) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِيَ إِلَى شَيْءٍ تُكْفِرُ﴾ خُشَعًا أَبْصَرَهُمْ يَجْرَحُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَانَتْهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَيْسٌ﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، [فقال: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾] وانتظر بهم يوماً عظيماً وهو لا جسيماً.

وذلك حين ﴿يَدْعُ الدَّاعِيَ﴾ إسرافيل عليه السلام ﴿إِلَى شَيْءٍ تُكْفِرُ﴾ أي: إلى أمر فطيع تنكره الخليفة، فلم تر منظراً أقطع ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة.

﴿خُشَعًا أَبْصَرَهُمْ﴾ أي: من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم.

﴿يَجْرَحُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور ﴿كَانَتْهُمْ﴾ من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض ﴿جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾ أي: مبعوث في الأرض متكاثر جداً.

﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي^(٢)، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة فيلبون دعوته ويسرعون إلى إجابته.

﴿يَقُولُ الْكٰفِرُونَ﴾ الذين قد حضر عذابهم: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَيْسٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿عَلَى الْكٰفِرِينَ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين^(٣)].

(٩-١٧) ﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسْرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كٰفِرٌ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَنَذْرٍ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْرِكٍ ﴿١٧﴾ لِمَا ذَكَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَالِ الْمَكْذِبِينَ لِرَسُولِهِ، وَأَنْ الْأَيَاتِ لَا تَنْفَعُ فِيهِمْ، وَلَا تَجْدِي عَلَيْهِمْ شَيْئاً، أَنْذَرَهُمْ وَخَوَّفَهُمْ بِعَقُوبَاتِ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ الْمَكْذِبَةِ لِلرَّسْلِ، وَكَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ وَأَحْلَى بِهِمْ عِقَابَهُ.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا: ﴿لَا نَدْرَأُ إِلَهًا سِوَكُنَّا نَدْرَأُ وَدَأَّ وَلَا

سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وطغياناً وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين.

وكذبوا في ذلك، وقلبو الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة إلى الهدى والنور والرشد وما هم عليه جهل وضلال مبين.

[وقوله: ﴿وَازْدَجَرَ﴾ أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى.

فلم يكفهم - قبهم الله - عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم.

(١) في ب: العالمين. (٢) كذا في ب، وفي أ: مسرعين لنداء الداعي.

(٣) زيادة من هامش ب.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يبقي لأحد عليه حجة.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظاً وأصدق معنى وأبينه تفسيراً، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العالمون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواعظ والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة.

ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أُعِين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيعان [عليه]؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾.

(١٨-٢٢) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۚ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۚ تَرِيحُ النَّاسِ كَالْحَبِّ ذَرِيرًا ۚ فَجَاءَهُمْ شُرُجُ النُّجُومِ ۚ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ۚ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ «وعاد» هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوذاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته فكذبوه، فأرسل الله عليهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: شديدة جداً.

﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ﴾ أي: شديد العذاب والشقاء عليهم ﴿مُسْتَمِرٍّ﴾ عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً. ﴿تَرِيحُ النَّاسِ﴾ من شدتها تفرغهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم بالأرض فتهلكهم، فيصبحون ﴿كَالْحَبِّ ذَرِيرًا﴾ أي: كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي أصابته (٥) الريح فسقط على الأرض، فما أهون الخلق على الله إذا عصوا أمره.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ كان [والله] العذاب الأليم، والنذارة التي ما أبقّت لأحد عليه حجة.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ كرر تعالى ذلك رحمة بعباده وعناية بهم، حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم.

(٢٣-٣٢) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ۚ فَقَالُوا أَبَشْرًا مِّمَّا وَجَدْنَا نَبَعُهُ ۚ إِنَّا إِذًا لَّفِي سَكَلٍ مِّنْ شَعْبٍ ۚ أَهْلَيْكَ الذِّكْرَ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌّ ۚ سَيَعْمُونَ غَدًا مِّنَ الْكَذَّابِ الْأَشِرِّ ۚ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةَ فَبَنَىٰ لَهُمْ قَارِئِيهِمْ

فَعند ذلك دعا نوح ربه [فقال: ﴿أَنِّي مُلَوِّظٌ﴾ لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم.

﴿فَأَنْصِرْ﴾ اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ الآيات.

فأجاب الله سؤاله وانتصر له من قومه، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّثَمَرٍ﴾ أي: كثير جداً متتابع.

﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء لأنه موضع النار.

﴿فَأَلْقَى الْمَاءَ﴾ أي: ماء السماء والأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾ من الله له بذلك، ﴿فَدَفُورًا﴾ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين.

﴿وَحَمَلَتْهُ عَلَى ذَاتِ الْوَجِّ وَدُسِّرَ﴾ أي: ونجينا عبدنا نوحاً على السفينة ذات الألواح والدرسر أي: المسامير [التي] قد سمرت [بها] الألواحا وشد بها أسرها^(١).

﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حملة من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظ [منه] لها عن الغرق، [ونظر] وكلائه منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل.

﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كِثْرًا﴾ أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام، جزاء له حيث كذبه قومه وكفروا به فصر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يرد عنه راد، ولا صدّه عنه^(٢) صاد، كما قال [تعالى] عنه في الآية الأخرى: ﴿قِيلَ يَنْبُحُ أَيْبُطُ يَسْلُبْ مِنَّا وَبَرَكَتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَلَّكَ﴾ الآية.

ويحتمل أن المراد: إنا أهلكنا قوم نوح وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والخزي، جزاء لهم على كفرهم وعنادهم، وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف.

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده^(٣) نوح عليه السلام، ثم أبقى الله تعالى صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته، وكمال قدرته وبديع صنعته.

﴿فَهَلْ مِن مُّذَكِّرٍ﴾؟ أي: فهل متذكر^(٤) للآيات، مُلِقِ ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟.

(١) كذا في ب، وفي أ: وشدت أسرها. (٢) في ب: ولا صدّه عن ذلك صاد. (٣) في ب: لرسوله. (٤) في ب: فهل من متذكر. (٥) في ب: اقتلعت.

وَأَصْلَحَ ۚ وَبَيَّنَّهٖمُ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ ۖ فَادَاوُا صَاحِبَهُمْ
فَعَاطَى فَعَقْرٌ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذْرِي ۚ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً
فَكَانُوا كَهَيْسَةِ الْحُطَّيْرِ ۚ وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۙ أَي:
الحجر، نبههم صالِحًا عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله
وحده لا شريك له، وأنذرهم العقاب إن هم خالفوه.
فَكَذَّبُوهُ وَاسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ وَقَالُوا - كِبْرًا وَتِيهًا - : ﴿أَبَشْرًا مِّنَّا
وَاجِدًا تَبِعَهُ﴾ ٣٤ أَي: كيف تتبع بشرًا لا ملكًا، منا لا من غيرنا،
ممن هو أكبر عند الناس منا.
ومع ذلك فهو شخص واحد ﴿إِنَّا إِذَا﴾ ٣٥ أَي: إن اتبعناه وهو
بهذه الحال ﴿أَلَيْ سَلْبٍ وَسَعْرِ﴾ ٣٦ أَي: إننا لضالون أشقياء.
وهذا الكلام من ضلالهم وشقايتهم، فإنهم أنفوا أن يتبعوا
رسولًا من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر
والحجر والصور.
﴿أَلَيْ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيِّنَاتٍ﴾ ٣٧ أَي: كيف يخصه الله من بيننا
وينزل عليه الذكر؟ فأى مزية خصه من بيننا؟
وهذا اعتراض من المكذبين على الله، لم يزالوا يدلون به.
ويصولون ويجولون ويردون به دعوة الرسل، وقد أجاب الله
عن هذه الشبهة بقول الرسل لأممهم: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ
تَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ٣٨.
فالرسل من الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات، بها
صلحوا لرسالات ربهم والاختصاص بوجبه.

يوم ولهم شرب يوم آخر معلوم.
﴿كُلُّ شَرْبٍ مُّخَضَّرٌ﴾ ٣٩ أَي: يحضره من كان قسمته، ويحظر
على من ليس بقسمته له.
﴿فَعَاطَى صَاحِبَهُ﴾ ٤٠ الذي باشر عقرها الذي هو أشقى القبيلة
﴿فَعَقْرٌ﴾ ٤١ أَي: انقاد لما أمروه به من عقرها ﴿فَعَقْرٌ﴾.
﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذْرِي﴾ ٤٢ كان أشد عذاب، أرسل الله
عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجى الله صالحًا
ومن آمن معه، ﴿وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ﴾.
(٣٣-٤٠) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ ۚ إِنَّا بَعَثْنَا فِيهِمْ صَاحِبًا إِلَىٰ
عَالِ لُوطٍ يُعْذِرُ عَنْهُمْ يُسْحَرُ ۚ نَعِمَةً مِّنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ تَجْرَىٰ مِنْ شَكْرٍ ۚ
وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَا بِالنَّذْرِ ۚ وَلَقَدْ رَوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنَذْرِي ۚ وَلَقَدْ صَبَحَهم بِكْرَةٌ عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ
وَلَقَدْ بَيَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ۙ أَي:
﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ﴾ ٤٣ لوطًا عليه السلام حين دعاهم إلى عبادة الله
وحده لا شريك له، ونهاهم عن الشرك والفاحشة التي ما

﴿وَبَيَّنَّهٖمُ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ ٤٤ أَي: أخبرهم أن الماء أي:
موردتهم الذي يستعذبونه قسمة بينهم وبين الناقة، لها شرب

سبقهم بها أحد من العالمين.

فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم، حتى إن الملائكة الذين جاءوه بصورة أضياف حين سمع بهم قوم لوط، جاءهم^(١) مسرعين، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم، لعنهم الله وقبحهم، وراودوه عنهم.

فأمر الله جبريل عليه السلام فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾.

﴿وَلَقَدْ صَحِّحَهُمْ بِكُرَّةٍ عَذَابٌ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتتبعهم بحجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك للمسرفين.

ونجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم، جزاء لهم على شكرهم لربهم، وعبادته وحده لا شريك له.

(٤١-٥٥) ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ۚ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ۚ أَكْفَأُكَ حَيٌّ مِّنْ أَوْلِيكَ أَمْ لَكَ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ۚ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۚ سَيُهِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرَ ۚ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ ۚ إِنَّ الْكُفْرَ مِيزًا فِي صُلْبٍ وَسُوءِ يَوْمٍ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُرُوقًا مِّنْ سَفَرٍ ۚ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۚ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ۚ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مَّذَكِّرٍ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۚ وَكُلَّ صَعِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٍّ ۚ إِنَّ الْكُلْفَيْنِ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ۚ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ۚ أَي: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: فرعون وقومه ﴿النُّذُرُ﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات الباهرات، والمعجزات القاهرة^(٢)، وأشهدهم من العبر ما لم يشهد عليه أحدًا غيرهم^(٣)، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقهم في اليم هو وجنوده^(٤).

والمراد من ذكر هذه القصص تحذير [الناس] والمكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أَكْفَأُكَ حَيٌّ مِّنْ أَوْلِيكَ﴾ أي: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل خير من أولئك المكذبين الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيرًا منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شرًا منهم، فليسوا بخير منهم.

﴿أَمْ لَكَ بَرَاءَةٌ فِي الذُّبُرِ﴾ أي: أم أعطاكم الله عهدًا وميثاقًا في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟

ولهذا غير واقع بل غير ممكن عقلاً وشرعًا، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس

من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾. قال تعالى مبيّنًا لضعفهم وأنهم مهزومون: ﴿سَيُهِمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرَ﴾ فوقع كما أخبر، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتل من^(٥) صناديدهم وكبرائهم، ما ذلوا به^(٦)، ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين.

ومع ذلك فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن متع بلداته، ولهذا قال: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط. ﴿وَالسَّاعَةُ أَذَىٰ وَأَمْرٌ﴾ أي: أعظم وأشق وأكبر من كل ما يتوهم أو يدور بالبال^(٧).

﴿إِنَّ الْكُفْرَ مِيزًا﴾ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره من المعاصي ﴿فِي صُلْبٍ وَسُوءِ﴾ أي: هم ضالون في الدنيا، ضلال عن العلم، وضلال عن العمل الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم حتى تبلغ أفئدتهم.

﴿يَوْمٍ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألمها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويخزون، ويقال لهم: ﴿ذُرُوقًا مِّنْ سَفَرٍ﴾ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها^(٨).

وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير، فلها قال: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ فإذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون كما أراد، كلمح البصر، من غير ممانعة ولا صعوبة.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتم ﴿فَهَلْ مِنْ مَّذَكِّرٍ﴾ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم ولا فرق

(١) في ب: جاءوا. (٢) في ب: بالآيات البيّنات، والمعجزات الباهرات. (٣) في ب: ما لم يشهد غيرهم. (٤) فأغرقه وجنوده في اليم. (٥) في ب: وقتل. (٦) في ب: فأذلوا. (٧) في ب: في الخيال. (٨) في ب: خلقه.

بين الفريقين .

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدرية ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ﴾ أي: مسطر مكتوب .

ولهذا حقيقة القضاء والقدر أن جميع الأشياء كلها قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ لله بفعل أوامره وترك نواهيه الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر، ﴿فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ﴾ أي: في جنات النعيم التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار اليانعة والأنهار الجارية والقصور الرفيعة والمنازل الأنيقة، والمآكل والمشارب اللذيذة، والحدائق الحسان والروضات البهية في الجنان، ورضوان الملك الديان، والفرز بقربه، ولهذا قال: ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدَّرٍ﴾ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومنتته، جعلنا الله منهم، ولا حرمانا خير ما عنده بشر ما عندنا .

تم تفسير سورة اقتربت، والله الحمد والشكر .

تفسير سورة الرحمن

[وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٣) ﴿الرَّحْمَنُ﴾ ١ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ٢ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ٣ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ٤ ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ٥ ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ ٦ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ٧ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ٨ ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ٩ ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ١٠ ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ ١١ ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ ١٢ ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ﴾ ١٣ هذه السورة الكريمة الجليلة افتتحها باسمه «الرحمن» الدال على سعة رحمته وعموم إحسانه وجزيل بره وواسع فضله .

ثم ذكر ما يدل على رحمته وأثرها الذي أوصله الله إلى عباده من النعم الدينية والدنيوية [والأخروية وبعد كل جنس ونوع من نعمه، ينبه الثقلين لشكره ويقول: ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ﴾] .

٥٣١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّمَج بِالْبَصْرِ﴾ ٥٠ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ ٥١ ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ ٥٢ ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌّ﴾ ٥٣ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهْرٍ﴾ ٥٤ ﴿فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقَدَّرٍ﴾ ٥٥

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ١ ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ٢ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ ٣ ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ ٤ ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ ٥ ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ ٦ ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ ٧ ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ٨ ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ ٩ ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ١٠ ﴿فِيهَا فَكْهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ ١١ ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ ١٢ ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ﴾ ١٣ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ ١٤ ﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَّارٍ﴾ ١٥ ﴿فِي أَيِّ آيَةٍ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْذِبَانَ﴾ ١٦

فذكر أنه ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ أي: علم عباده ألفاظه ومعانيه ويسرها على عباده، وهذا أعظم منة ورحمة رحم بها عباده، حيث أنزل عليهم قرآنا عربيا بأحسن ألفاظ، وأحسن تفسير مشتمل على كل خير، زاجر عن كل شر .

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ في أحسن تقويم كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، قد أتقن البديع تعالى (١) خلقه أي إقنان، وميزه على سائر الحيوانات بأن ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميز الله به الآدمي على غيره من أجل نعمه وأكبرها عليه .

﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: خلق الله الشمس والقمر وسخرهما يجريان بحساب مقنن، وتقدير مقدر رحمة بالعباد وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، وليعرف العباد عدد السنين والحساب .

﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ أي: نجوم السماء وأشجار

(١) في ب: قد أتقن الباري تعالى البديع خلقه .

الأرض، تعرف ربها وتسجد له، وتطيع وتخضع^(١) وتقاد لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا﴾ سقفا للمخلوقات الأرضية.

ووضع الله الميزان أي: العدل بين العباد في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: أنزل الله الميزان، لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم لحصل من الخلل ما الله به عليم، ولفسدت السماوات والأرض.

﴿وَأَيُّمُوا الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: اجعلوه قائماً بالعدل الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ أي: لا تفقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان.

﴿وَالْأَرْضَ وَصَّعَهَا﴾ الله على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف [أوصافها و] أحوالها [لِلْأَنْسَاءِ] أي: للخلق لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مهاداً وفراداً ينون بها، ويحرثون ويغرسون ويحفرّون ويسلكون سبلها فجاءاً ويتفتعون بمعادنها، وجميع ما فيها مما تدعو إليه حاجتهم بل ضرورتهم.

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية فقال: ﴿ذِيهَا فَكَّهَةٌ﴾ وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد من العنب والتين والرمان والتفاح وغير ذلك.

﴿وَالْحَبُّ ذَاتُ الْكَوَاهِرِ﴾ أي: ذات الوعاء الذي ينقلق عن القنوان التي تخرج شيئاً فشيئاً حتى تتم، فتكون قوتاً يؤكل ويدخر، يتزود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذيدة من أحسن الفواكه.

﴿وَالنَّجْدُ ذُو الْأَصْفِ﴾ أي: ذو الساق الذي يidas فينتفع بتيته لأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب البر والشعير والذرة [والأرز] والدخن وغير ذلك.

﴿وَالرِّيحَانُ﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأرزاق التي يأكلها آدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على الخاص، ويكون الله قد امتنّ على عباده بالقوت والرزق عموماً وخصوصاً.

ويحتمل أن المراد بالريحان الريحان المعروف، وأن الله امتنّ على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة،

والمشام الفاخرة التي تسر الأرواح وتشرح لها النفوس. ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين الإنس والجن، قرهم تعالى بنعمه فقال: ﴿فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ أي: فبأي نعم الله الدينية والدينية تكذبان؟.

وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فما مر بقوله: ﴿فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ إلا قالوا^(٢): ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، فهذا الذي ينبغي^(٣) للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه أن يقرّ بها ويشكر ويحمد الله عليها.

(١٤-١٦) ثم قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ نَارٍ ﴿فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾.

وهذا من نعمه تعالى على عباده حيث أراهم [من] آثار قدرته وبديع صنعته، أن ﴿خَلَقَ﴾ أبا الإنس وهو آدم عليه السلام ﴿مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ﴾ أي: من طين مبلول، قد أحكم بله وأتقن حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ على النار^(٤).

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ أي: أبا الجن، وهو إبليس اللعين^(٥) ﴿مِنْ نَارٍ﴾ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان.

وهذا يدل على شرف عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزاة والثقل والمنافع بخلاف عنصر الجان وهو النار التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد.

ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك^(٦)، وكان ذلك منة منه [تعالى] على عباده^(٧) قال: ﴿فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾

(١٧، ١٨) ﴿رَبُّ الْمَرْغِبِينَ رَبُّ الْمَرْغُوبِينَ﴾ ﴿فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ أي: هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، [وكل ما كانا فيه] فهي تحت^(٨) تديره وربوبيته، وثأهما هنا لإرادة العموم مشرقي الشمس شتاءً وصيفاً ومغربها كذلك^(٩).

(١٩-٢١) ﴿مَرَجَ الْخَرَيْنَ بَلْقَيْنَ﴾ ﴿بَيْنَهُمَا بَرْحٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾ ﴿فِي أَيِّ

(١) في ب: وتخضع. (٢) في ب: فكلما مر بقوله: ﴿فِي أَيِّ آءِ الْآءِ رَبِّكُمَا تُكذِّبَانِ﴾ قالوا. (٣) في ب: فهكذا ينبغي. (٤) في ب: وهو الطين المشوي. (٥) في ب: لعنه الله. (٦) كذا في ب، وفي أ: مادة الثقلين. (٧) في ب: عليهم. (٨) في ب: فالجميع تحت. (٩) في ب: وثأهما هنا باعتبار مشارفها شتاءً وصيفاً، والله أعلم.

ءآلآءَ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٤﴾ المراد بالبحرين: البحر العذب والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيصب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخًا من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسماك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقرًا مسخرًا للسفن والمراكب، ولهذا قال:

(٢٤، ٢٥) ﴿وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ۝ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجوارية التي تمخر البحر وتسقه بإذن الله التي ينشئها آدميون، فتكون من كبرها وعظمتها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجارتهم وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة فلذلك قال:

﴿فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (٢٦-٢٨) ﴿كُلُّ مَنۢ عَلَيَّآ فَاِنَّ ۝ وَيَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ۝ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: كل من على الأرض من إنس وجن ودواب وسائر المخلوقات، يفنى ويموت ويبيد ويبقى الحي الذي لا يموت ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويجل ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود والداعي لأن يكرم أوليائه، وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أوليائه ويجلونه، [ويعظمونه] ويحبونه، وينيبون إليه ويعبدونه ﴿فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٢٩، ٣٠) ﴿يَسْئَلُهُ مَنۢ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك.

وهو تعالى ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ يعني فقيرًا ويجبر كسيرًا ويعطي قوّمًا ويمنع آخرين ويميت ويحيي ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا ييرمه إلحاح الملحّين، ولا طول مسألة السائلين.

فسبحان الكريم الوهاب الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعمّ لطفه جميع الخلق في كل الآتات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه.

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿٢٩﴾ يَبْتَهُمَا بَرْخٌ لَّا يَبْعِيَانِ ﴿٣٠﴾ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٣٢﴾ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٣﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٤﴾ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٥﴾ كُلُّ مَنۢ عَلَيَّآ فَاِنَّ ﴿٣٦﴾ وَيَقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ يَسْئَلُهُ مَنۢ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ يَمَعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنۢ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ۚ وَلَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِإِذْنِ رَبِّكَ ۚ إِنَّكُمْ كَانْتُمْ فِي أَهْوَابٍ مِّنۢ مَّاءٍ ﴿٤٣﴾ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شَوْاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصِرَانِ ﴿٤٥﴾ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٤٧﴾ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٠﴾

وهذه الشؤون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقديره وتدابيره التي قدرها في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت [هذه] الخليفة وأفانهم الله تعالى^(١)، وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريبهم من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه ويوحدهونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان.

وفرغ حيثذ لتنفيذ هذه الأحكام التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله:

(٣٢، ٣١) ﴿سَنَفَعُ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ ۝ فَبِأَيِّ ءآلآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

(٣٣) ﴿يَمَعَشَرُ الْجِنُّ وَالْإِنسُ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنۢ أَقْطَارِ

(١) كذا في ب، وفي أ: وأنى الله الخلق.

(٤٣-٤٥) ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ۖ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ۖ فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: يقال للمكذبين بالوعد والوعيد حين تسعر الجحيم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها، ما هو جزاء لتكذيبهم^(٣).

﴿يَطُوفُونَ فِيهَا﴾ أي: بين أطباق الجحيم ولهبها ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي: ماء حار جدًا قد انتهى حره، وزمهير قد اشتد برده وقره ﴿فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين، ذكر جزاء المتقين الخائفين فقال:

(٤٦-٦٥) ﴿وَلَمَنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّانٍ ۖ فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إلى آخر السورة أي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه وفعل ما أمره به، له جنتان من ذهب آتيتهما وحليتهما وبنائهما وما فيهما إحدى الجنتين، جزاء على ترك المنهيات والأخرى على فعل الطاعات.

ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ [أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة، نعيم الظاهر والباطن ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر]^(٤)، أن^(٥) فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة التي فيها الثمار البانعة الكثيرة اللذيذة، أو ذواتا أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه، جمع فن أي: صنف.

وفي تلك الجنتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ يفجرونها على ما يريدون ويشتهون.

﴿فِيهَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿رَوَّانٍ﴾ أي: صنفان، كل صنف له لذة ولون، ليس للنوع الآخر.

﴿تُكْوَىٰ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِن إِسْتَرْقٍ﴾ هذه صفة فرش أهل الجنة وجلسهم عليها، وأنهم متكئون عليها [أي:]. جلوس تمكن واستقرار [وراحة] كجلوس من الملوك على الأسرة.

وتلك الفرش لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله عز وجل، حتى إن بطانتها التي تلي الأرض منها من إسترق، وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم^(٦)!

﴿وَجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنى هو الثمر المستوي أي: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع.

(١) في ب: في ذلك اليوم. (٢) في ب: ذكر مته بذلك. (٣) في ب: جزاء لهم على تكذيبهم. (٤) زيادة من هامش ب. (٥) كذا في ب، وفي أ: أي. (٦) في ب: التي يباشرون.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزاً لهم: ﴿يَمَعَشَرُ لَيْلٍ ۖ وَإِلَاسٍ ۖ إِنِ اسْتَعْظَمْتُمْ أَن تَنْفُذُوا مِنۢ بَقَاةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: تجدون منفذاً مسلطاً، تخرجون به عن ملك الله وسلطانه.

﴿فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُوا إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ أي: لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم وكمال قدرة، وأتى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً؟.

ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همساً، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والمماليك والرؤساء والمرءوسون والأغنياء والفقراء.

(٣٥، ٣٦) ثم ذكر ما أعد لهم في ذلك الموقف العظيم^(١) فقال: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ ۖ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْصَرِفَانِ ۖ فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: يرسل عليكم [لهب صافٍ من النار ﴿وَنُحَاسٌ﴾ وهو اللهب الذي قد خالطه الدخان، والمعنى أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكم يامعشر الجن والإنس، ويحيطان بكما فلا تنتصران، لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله.

ولما كان تخويفه لعباده نعمة منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب، وأشرف المواهب، امتن عليهم^(٢) فقال: ﴿فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٣٧) ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ﴾ [أي: يوم القيامة من شدة الأهوال وكثرة اللبال وترادف الأوجال، فانخسفت شمسها وقمرها وانتشرت نجومها.

﴿فَكَانَتْ﴾ من شدة الخوف والانزعاج ﴿رَدَّةً كَالَّذِي هَانٍ﴾ أي: كانت كالمهل والرصاص المذاب ونحوه.

(٣٨، ٣٩) ﴿فَيَأْتِي ءَالَاءَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۖ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ أي: سؤال استعلام بما وقع، لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم.

وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ بَيضُ رُجُوهٍ وَسُودٌ مُّوجُوهٍ﴾.

(٤١) وقال هنا: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنُّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون فيها، وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ، وتقدير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة.

سورة الرحمن

٥٣٣

سورة الرحمن

يَعْرِفُ الْمَجْرُمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَيَأْتِي
 ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمَجْرُمُونَ
 ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ ﴿٤٤﴾ فَيَأْتِي ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ
 ﴿٤٥﴾ وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ ﴿٤٦﴾ فَيَأْتِي ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ
 ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَيَأْتِي ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ
 تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَيَأْتِي ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ
 زُوجَانِ ﴿٥٢﴾ فَيَأْتِي ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِعِينَ عَلَى فُرُشٍ
 بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ وَحَى الْجَنَّةِ دَانَ ﴿٥٤﴾ فَيَأْتِي ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا
 تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْنُ قَتْلَهُمْ
 وَلَا جَانَ ﴿٥٦﴾ فَيَأْتِي ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ
 وَالْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَيَأْتِي ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَاءُ
 الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ ﴿٦٠﴾ فَيَأْتِي ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ
 ﴿٦١﴾ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ ﴿٦٢﴾ فَيَأْتِي ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ
 ﴿٦٣﴾ مُدْهَامَاتٍ ﴿٦٤﴾ فَيَأْتِي ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا
 عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَيَأْتِي ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾

ومن المعلوم الفرق بين الجارية والنضاحة .

وقال في الأوليين: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ولم يقل ذلك في
 الآخرين .

وقال في الأوليين: ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زُوجَانٍ﴾ وفي
 الآخرين: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ وقد علم ما بين الوصفين
 من التفاوت .

وقال في الأوليين: ﴿مُتَّكِعِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَرْقٍ وَحَى
 الْجَنَّةِ دَانَ﴾ ولم يقل ذلك في الأخيرتين بل قال: ﴿مُتَّكِعِينَ عَلَى
 رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ .

وقال في الأوليين في وصف نسايتهم وأزواجهم: ﴿فِيهِنَّ
 قَصِيرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْنُ قَتْلَهُمْ وَلَا جَانَ﴾ وقال في
 الآخرين: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ﴾ وقد علم التفاوت بين
 ذلك .

وقال في الأوليين^(٢): ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ فدلَّ
 ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين، ولم يقل ذلك في الأخيرتين .

(١) في ب: تحت . (٢) كذا في ب، وفي أ: الأخيرتين، ويبدو أنه سبق
 قلم .

﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الطَّرْفِ﴾ أي: قد قصرن طرفهن على
 أزواجهن من حسنهم وجمالهم، وكمال محبتهم لهم،
 وقصرن أيضًا طرف أزواجهن عليهن من حسنهن وجمالهن
 ولذة وصالهن .

﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْنُ قَتْلَهُمْ وَلَا جَانَ﴾ أي: لم ينلن قبلهم أحد
 من الإنس والجن، بل هن أبقار عُرِبَ متحبات إلى أزواجهن
 بحسن التبعيل والتغنج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿كَأَنَّهُنَّ
 الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن .

﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ أي: هل جزاء من أحسن
 في عبادة الخالق ونفع عبيده إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل
 والفوز الكبير والنعيم المقيم والعيش السليم، فهاتان الجنتان
 العاليتان للمقربين .

﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ﴾ من فضة بنيانها وأنيبها وحليتها،
 وما فيها لأصحاب اليمين .

وتلك الجنتان ﴿مُدْهَامَاتٍ﴾ أي: سوداوان من شدة
 الخضرة التي هي أثر الري .

(٦٦-٧٠) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ﴾ أي: فوارتان ﴿فِيهَا
 فَاكِهَةٌ﴾ من جميع أصناف الفواكه، وأخصها النخل والرمان
 اللذان فيها من المنافع ما فيها .

﴿فِيهِنَّ﴾ أي: في الجنات كلها ﴿عَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ أي:
 خيرات الأخلاق حسان الأوجه، فجمعن بين جمال الظاهر
 والباطن وحسن الخَلْقِ والخَلْوِ .

(٧٢) ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ﴾ أي: محبوسات في خيام
 اللؤلؤ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن .

ولا ينبغي ذلك خروجهن في البساتين ورياض الجنة، كما
 جرت العادة لبنات الملوك ونحوهن [المخدرات] الخفريات .

(٧٤-٧٦) ﴿لَمْ يَطْمِئِنَّ إِسْنُ قَتْلَهُمْ وَلَا جَانَ﴾ ○ فَيَأْتِي ءَ الْآءِ رَبِّكَمَا
 تُكَذِّبَانِ ○ مُتَّكِعِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ ○ أي: أصحاب هاتين

الجتتين، متكأهم على الرفوف الأخضر، وهي الفرش التي
 فوق^(١) المجالس العالية التي قد زادت على مجالسهم، فصار
 لها رفرقة من وراء مجالسهم لزيادة البهاء وحسن المنظر .

﴿وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ العبقري: نسبة لكل منسوج نسجًا حسنًا
 فاخرًا، ولهذا وصفها بالحسن الشامل لحسن الصنعة وحسن
 المنظر ونعومة الملمس .

وهاتان الجنتان دون الجنتين الأوليين، كما نص الله على
 ذلك بقوله: ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّاتٍ﴾ وكما وصف الأوليين بعدة
 أوصاف لم يصف بها الآخرين، فقال في الأوليين: ﴿فِيهَا
 عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وفي الآخرين: ﴿عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ﴾ .

ومجرد تقديم الأولين على الآخرين يدل على فضلهما .
فهذه الأوجه يعرف فضل الأولين على الآخرين ، وأنهما
معدتان للمقربين من الأنبياء والصديقين وخواص عباد الله
الصالحين ، وأن الآخرين معدتان لعموم المؤمنين .

وفي كل من الجنات [المذكورات] ما لا عين رأت ولا أذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر، وفيهن ما تشتهيhe الأنفس
وتلد الأعين، وأهلها في غاية الراحة والرضا والطمأنينة
وحسن المأوى حتى إن كلاً^(١) منهم لا يرى أحداً أحسن حالاً
منه، ولا أعلى من نعيمه [الذي هو فيه] .

(٧٨) ولما ذكر سعة فضله وإحسانه قال : ﴿ نَبِّئَكَ أَنَّمْ رَيْكَ ذِي
الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ أي : تعظم وكثر خيره، الذي له الجلال الباهر
والمجد الكامل والإكرام لأوليائه .
تم تفسير سورة الرحمن، والله الحمد والشكر والثناء
الحسن .

تفسير سورة الواقعة

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٢) ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۖ خَافِضَةٌ
رَافِعَةٌ ۚ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۖ وَسَبَّتْ الْجِبَالُ بَسًا ۖ فَكَانَتْ هَيْبَةً
مُتَبَلِّغًا ۖ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ
وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۖ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۖ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۖ
فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ۖ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ۖ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ
عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۖ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ۖ

ودلت عليها حكمته تعالى .
﴿ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ﴾ أي : خافضة لأناس في أسفل سافلين،
رافعة لأناس في أعلى عليين، أو خفضت بصوتها فأسمعت
القريب، ورفعت فأسمعت البعيد .

﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴾ أي : حركت واضطربت .
﴿ وَسَبَّتْ الْجِبَالُ بَسًا ﴾ أي : فنتت ﴿ فَكَانَتْ هَيْبَةً مُتَبَلِّغًا ﴾
فأصبحت الأرض ليس عليها جبل ولا معلم ﴿ فَأَمَّا صَفْصَفًا ۖ
لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ۖ

﴿ وَكُنْتُمْ ﴾ أيها الخلق ﴿ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ أي : انقسمتم
ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة .

ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة فقال : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
٥٣٤
﴿ فِيمَا فَكَّهُهٗ وَنَحَلَ وَرَمَانًا ۗ ﴾ ﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَدِّبَانِ ۖ ﴿٦٩﴾
﴿ فِيهِنَّ حَيْرَاتٌ حِسَانٌ ۗ ﴾ ﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَدِّبَانِ ۖ ﴿٧٠﴾ حُورٌ
مَّقْصُورَاتٌ فِي الْجَنَّاتِ ۗ ﴿٧١﴾ ﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَدِّبَانِ ۖ ﴿٧٢﴾
لَمْ يَطْمِئِنَّا مِنْ أَسْفَلِ قُلُوبِهِمْ وَلَا جَانًا ۗ ﴿٧٣﴾ ﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَدِّبَانِ ۖ ﴿٧٤﴾
﴿ فَيَأْتِيءَ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَدِّبَانِ ۖ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَىٰ رُفُوفٍ خُضْرٍ وَعَبَقَرِيٍّ حِسَانٍ ۗ ﴿٧٦﴾ ﴿ فَيَأْتِيءَ
الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَدِّبَانِ ۖ ﴿٧٧﴾ نَبِّئَكَ أَسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ۗ ﴿٧٨﴾

سورة الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۚ لَيْسَ لَوْعِنَهَا كَاذِبَةٌ ۖ ﴿١﴾ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ ۚ ﴿٢﴾
﴿ إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ۖ ﴿٣﴾ وَسَبَّتْ الْجِبَالُ بَسًا ۖ ﴿٤﴾ فَكَانَتْ هَيْبَةً مُتَبَلِّغًا ۖ ﴿٥﴾
﴿ وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۖ ﴿٦﴾ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ ﴿٧﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ۖ ﴿٨﴾
﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ ﴿٩﴾ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ۖ ﴿١١﴾
﴿ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ۖ ﴿١٢﴾ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ۖ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ۖ ﴿١٤﴾
﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ۖ ﴿١٥﴾ مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَلِّبِينَ ۖ ﴿١٦﴾

أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۖ تعظيم لشأنهم وتفخيم لأحوالهم .

﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴾ أي : الشمال ﴿ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمِ ﴾ تهويل
لحالهم .

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ أي : السابقون في
الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول
الجنات .

أولئك الذين لهذا وصفهم، المقربون عند الله في جنات
النعيم، في أعلى عليين، في المنازل العاليات التي لا منزلة
فوقها .

(١٣) وهؤلاء المذكورون ﴿ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ أي : جماعة
كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم .

(١٤) ﴿ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴾ وهذا يدل على فضل صدر هذه
الأمة في الجملة على متأخريها، لكون المقربين من الأولين
أكثر من المتأخرين .

(١٥) والمقربون هم خواص الخلق ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ﴾

أي: مرمولة بالذهب والفضة واللؤلؤ والجوهر وغير ذلك من [الخلي] الزينة التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

(١٦) ﴿مُتَّكِنِينَ عَلَيْهَا﴾ أي: على تلك السرر جلوس تمكن وطمأنينة وراحة واستقرار.

﴿مُتَّقِلِينَ﴾ وجه كل منهم إلى وجه صاحبه من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم وتقابل قلوبهم.

(١٧، ١٨) ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: يدور على أهل الجنة للخدمة وقضاء حوائجهم، ولدان صغار الأسنان في غاية الحسن والبهاء.

﴿كَانَتْهُمْ لَوْزُوًا مَّكُونًا﴾ أي: مستور لا يناله ما غيره.

مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بأنيه شرابهم ﴿بِأَكْوَابٍ﴾ وهي التي لا عرى لها ﴿وَأَبَارِيقَ﴾ الأواني التي لها عرى.

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّيِّينَ﴾ أي: من خمر لذيد المشرب لا آفة فيها.

(١٩) ﴿لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ أي: لا تصدعهم رهوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربيها.

﴿وَلَا﴾ هم عنها ﴿يَبْزُقُونَ﴾ أي: لا تنزف عقولهم ولا تذهب أحلامهم منها كما يكون لخمر الدنيا.

والحاصل أن جميع^(١) ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة كما قال تعالى: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّدَى بَعْضِهِمْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن خَمْرٍ لَّدَى لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾.

وذكر هنا خمر الجنة ونفى عنها كل آفة توجد في الدنيا.

(٢٠) ﴿وَفَلَكَهَاتِمْ مَمَّا يَسْبُرُونَ﴾ أي: مهما تخيروا وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم من أنواع الفواكه الشهية والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه.

(٢١) ﴿وَلَمْ يَطْمِئِنَّا بِمَا يَشَاءُونَ﴾ أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي جنس من لحمه أرادوا، وإن شاءوا مشويًا أو طيبخًا أو غير ذلك.

(٢٢-٢٤) ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عينها كحل وملاحة، وحسن وبهاء، والعين: حسان الأعين وضخامها^(٢)، وحسن العين في الأنثى من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها.

﴿كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ أي: كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه، فكذلك الحور العين لا عيب فيهن [بوجه]، بل هن كاملات الأوصاف جميلات النعوت.

يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّيِّينَ ﴿١٨﴾ لَا يَصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُبْزُقُونَ ﴿١٩﴾ وَفَلَكَهَاتِمْ مَمَّا يَسْبُرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَمْ يَطْمِئِنَّا بِمَا يَشَاءُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَلِ اللَّوْلُؤِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَاءً لِّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهِمُ فِيهَا آَلٌ فَيَسْمَعُونَ مِمَّا يُحَسَّبُونَ ﴿٢٥﴾ وَطَلِحَ مَنْصُودٍ ﴿٢٦﴾ وَطَلِحَ مَمْدُودٍ ﴿٢٧﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٢٨﴾ وَفَلَكَهَاتِمْ كَثِيرَةً لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٢٩﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَنشَأْنَهُمْ إِنشَاءً ﴿٣١﴾ فَعَمَلْنَهُمْ أَجْرًا ﴿٣٢﴾ عَرَبًا أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٣٤﴾ ثَلَاثَةٌ مِّنَ الْأُولَىٰ ﴿٣٥﴾ وَثَلَاثَةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مِمَّا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ﴿٣٧﴾ فِي سَوْمٍ وَحَمِيمٍ ﴿٣٨﴾ وَظَلِيلٍ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٣٩﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤١﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٢﴾ وَكَانُوا يَقُولُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِأْتَانَا الْمَبْعُوثُونَ ﴿٤٣﴾ أَوْ آبَاءُنَا الْأُولَىٰ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّ الْأُولَىٰ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٥﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَيْنَا يَوْمَ يُعْلَمُ ﴿٤٦﴾

فكل ما تأملته منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر^(٣) ويروق الناظر، وذلك النعيم المعد لهم ﴿جَزَاءً لِّمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم.

(٢٥) ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهِمُ﴾ أي: لا يسمعون في جنات النعيم، كلامًا يلغى، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلامًا يؤثم صاحبه.

(٢٦) ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا﴾ أي: إلا كلامًا طيبًا، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب.

وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام وأسر للنفوس^(٤)، وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله.

(٢٧) ثم ذكر نعيم أصحاب اليمين^(٥) فقال: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مِمَّا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ أي: شأنهم عظيم وحالهم جسيم.

(١) في ب: كل. (٢) كذا في ب، وفي أ: ضخام الأعين. (٣) في ب: القلب. (٤) في ب: للقلوب. (٥) في ب: ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين.

(٢٨) ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُورٍ﴾ أي: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان [الرديئة] المضرة، مجعول مكان ذلك الثمر الطيب.

وللسدر من الخواص، الظل الظليل وراحة الجسم فيه.

(٢٩) ﴿وَوَطَّحَ مَضْجُورٍ﴾ والطح معروف، وهو شجر [كبار] يكون بالبادية، تضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهوي.

(٣١) ﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾ أي: كثير من العيون والأنهار السارحة والمياه المتدفقة.

(٣٢، ٣٣) ﴿وَفَلَكَهَيَّ كَبِيرَةٍ﴾ لَمْ مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تقطع في وقت من الأوقات، وتكون متمتعة [أي: متعسرة] على متبغها بل هي على الدوام موجودة، وجناها قريب يتناولها العبد على أي حال يكون.

(٣٤) ﴿وَفُؤُوسٍ مَّرْوَعَةٍ﴾ أي: مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعاً عظيماً، وتلك الفرس من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا الله.

(٣٥) ﴿إِنَّا أَنشَأْنَهُنَّ إِنْسَانَةً﴾ أي: إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا نشأة كاملة لا تقبل الفناء.

(٣٦) ﴿جَمَلْنَهُنَّ أَتْكَارًا﴾ صغارهن وكبارهن.

(٣٧) وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأن لهذا الوصف - وهو البكارة - ملازم لهن في جميع الأحوال، كما أن كونهن ﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ملازم لهن في كل حال.

والعروب: هي المرأة المتحبة إلى بلعها بحسن لفظها وحسن هيئتها ودلالها وجمالها [ومحبتها]، فهي التي إن تكلمت سبت العقول، وود السامع أن كلامها لا يقضي، خصوصاً عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنعيمات المطربة، وإن نظر إلى أديها وسمتها ودلها ملأت قلب بلعها فرحاً وسروراً، وإن برزت^(١) من محل إلى آخر، امتلاً ذلك الموضع منها ريحاً طيباً ونوراً.

ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع.

والأتراب: اللاتي على سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب، فسأوهم عرب أتراب، متفقات مؤتلفات، راضيات مرضيات، لا يُحْزَنُ ولا يُحْزَنُ، بل هن أفراح النفوس، وقررة العيون، وجلاء الأبصار.

(٣٨) ﴿لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ أي: معدات لهم مهيات.

(٣٩، ٤٠) ﴿ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأُولَىٰ﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: لهذا القسم من أصحاب اليمين عدد كثير من الأولين، وعدد كثير من الآخرين.

(٤١-٤٨) ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ فِي سُورِ وَحْمِيرٍ

﴿وَطَلَّ مِنْ يَمِينٍ﴾ لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ ○ إِنْهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ ○ وَكَانُوا يَصِيرُونَ عَلَىٰ لَيْحِنِ الْعَظِيمِ ○ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَيَّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْلَمًا أَيَّنَّا لَمَبْعُوثُونَ ○ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ﴾ المراد بأصحاب الشمال [هم] أصحاب النار، والأعمال المشثومة.

فذكر [الله] لهم من العقاب ما هم حقيقون به، فأخبر أنهم ﴿فِي سُورِ﴾ أي: ريح حارة من حر نار جهنم، يأخذ بأنفاسهم وتقلقههم أشد القلق.

﴿وَحْمِيرٍ﴾ أي: ماء حار يقطع أمعاءهم.

﴿وَطَلَّ مِنْ يَمِينٍ﴾ أي: لهب نار يختلط بدخان.

﴿لَا بَارِدٌ وَلَا كَرِيمٌ﴾ أي: لا برد فيه ولا كرم.

والمقصود أن هناك الهم والغم، والحزن والشر الذي لا خير فيه، لأن نفي الضد إثبات لضده.

ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء فقال: ﴿إِنْهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي: قد ألهمتهم دنياهم وعملوا لها وتنعما وتمتعوا بها، فألهمهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا الترف الذي ذمهم الله عليه.

﴿وَكَانُوا يَصِيرُونَ عَلَىٰ لَيْحِنِ الْعَظِيمِ﴾ أي: وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها ولا يتدومون عليها، بل يصرون على ما يسخط مولاهم، فقدموا عليه بأوزار كثيرة [غير مغفورة].

وكانوا ينكرون البعث فيقولون استبعاداً لوقوعه: ﴿أَيَّدَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْلَمًا أَيَّنَّا لَمَبْعُوثُونَ ○ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ﴾ أي: كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا، فكنا تراباً وعظاماً؟ [هذا من المحال] ﴿أَيَّنَّا لَمَبْعُوثُونَ ○ أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوْلُونَ﴾ قال تعالى جواباً لهم ورداً عليهم^(٢):

(٤٩، ٥٠) ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ○ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ أي: قل: إن متقدم الخلق ومتأخرهم، الجميع سيجمعهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم، قدره الله لعباده، حين تنقضي الخليقة، ويريد الله تعالى جزاءهم على أعمالهم التي عملوها في دار التكليف.

(٥١-٥٣) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ﴾ عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردى.

﴿الْمُكَذِّبُونَ﴾ بالرسول ﷺ وما جاء به من الحق والوعد والوعيد، ﴿الَّذِينَ مِنْ شَجَرٍ مِّنْ زُؤْمٍ﴾ وهو أقبح الأشجار وأخسها وأنتنها ريحاً وأشعها منظرًا ﴿فَمَالِئُونَ مَنَابِطَ الطُّيُونِ﴾.

والذي أوجب لهم أكلها - مع ما هي عليه من الشناعة -

(١) في ب: وإن انتقل. (٢) في ب: قال تعالى في جوابهم.

الجوع المفرط الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تقطع منه أفئدتهم.

هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

وأما شرايبهم فهو بئس الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون شرب الإبل الهيم أي: العطاش التي قد اشتد عطشها، أو [أن الهيم] داء يصيب الإبل، لا تروى معه من شراب الماء.

(٥٦) ﴿هَذَا﴾ الطعام والشراب ﴿زُرُّكُمْ﴾ أي: ضيافتهم ﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ وهي الضيافة التي قدموها لأنفسهم، وأثروها على ضيافة الله لأولياته.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۚ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَغَيَّرُ عَنْهَا جَوْلًا ۗ﴾.

(٥٧) ثم ذكر الدليل العقلي على البعث فقال: ﴿تَحْنُ حَلَقَتِكُمْ فَلَوْلَا نُصِّدُّوْنَ﴾ أي: نحن الذين أوجدناكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، من غير عجز ولا تعب، أليس القادر على ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟ بلى إنه على كل شيء قدير، ولهذا ويخهم على عدم تصديقهم بالبعث، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ.

(٥٨-٦٢) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ۗ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ۗ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ۗ تَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ۗ عَلَيْنَ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ۗ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفرايتم ابتداء خلقتكم من المني الذي تمنون، فهل أنتم خالقون ذلك المني وما ينشأ منه؟ أم الله تعالى الخالق الذي خلق فيكم من الشهوة وأنها من الذكر والأنثى، وهدى كلا منهما لما هنالك، وحبب بين الزوجين، وجعل بينهما من المودة والرحمة ما هو سبب للتناسل.

ولهذا أحالهم الله تعالى على الاستدلال^(١) بالنشأة الأولى على النشأة الأخرى فقال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أن القادر على ابتداء خلقكم قادر على إعادتكم.

(٦٣-٦٧) ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ۗ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۗ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ۗ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۗ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ۗ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ وهذا امتنان منه على عباده، يدعوهم به إلى توحيده وعبادته والإناابة إليه، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزرع والثمار، فتخرج من ذلك من الأقوات والأرزاق والفاواكه، ما هو من ضرورتهم وحاجاتهم ومصالحهم التي لا يقدر أن يحصوها، فضلاً عن شكرها وأداء حقها، فقررهم بمنته فقال:

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

٥٣٦

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ

تَمَّ إِنَّا أَنبَأُوا لَكُمْ الْغَيْبَ فَأَنْبَأْتُمْ بِهِ ۗ وَنَحْنُ الْمُنَبِّئُونَ ﴿٥٦﴾ لَأَكْلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زُقُومٍ ﴿٥٧﴾ فَالْوَنُ مِنْهَا الْبَطُونَ ﴿٥٨﴾ فَشَرِبُونَ عَلَىٰ الْعَمِيمِ ﴿٥٩﴾ فَشَرِبُوا مِنْهَا الْهَمِيمَ ﴿٦٠﴾ هَذَا تَرْوَهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٦١﴾ تَحْنُ حَلَقَتِكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ ۗ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٦٤﴾ تَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ ﴿٦٥﴾ عَلَيْنَ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۗ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٧٠﴾ إِنَّا لَمُعْرِمُونَ ﴿٧١﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٧٢﴾ أَفَرَأَيْتُمْ يَسْمُ الْمَاءِ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٧٣﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٧٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ آجَا جَا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٥﴾ أَفَرَأَيْتُمْ يَسْمُ النَّارِ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧٦﴾ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٧﴾ تَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَمَتَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٨٠﴾ وَإِنَّهُ لَفَسْمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٨١﴾

﴿ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۗ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ أي: أنتم أخرجتموه نباتاً من الأرض؟ أم أنتم الذين نميتموه؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره حتى صار حباً حصيداً وثمرًا نضيجاً؟ أم الله الذي انفرد بذلك وحده، وأنعم به عليكم؟ وأنتم غاية ما تفعلون أن تحرثوا الأرض وتشقوها وتلقوا فيها البذر.

ثم بعد ذلك لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك ومع ذلك، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار لولا حفظ الله وإيقاؤه لكم بلغة ومتاعاً إلى حين فقال:

﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ﴾ أي: الزرع المحرث وما فيه من الثمار ﴿حُطَامًا﴾ أي: فتاتاً متحطماً لا نفع فيه ولا رزق. ﴿فَظَلْتُمْ﴾ أي: فصرتم بسبب جعله حطاماً بعد أن تعبت فيه، وأنفقت النفقات الكثيرة. ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تندمون وتحسرون على ما أصابكم،

(١) في ب: بالاستدلال.

ويزول بذلك فرحكم وسروركم وتفكهكم فتقولون:

﴿إِنَّا لَمُعْتَبِرُونَ﴾ أي: إنا قد نقصنا وأصابنا مصيبة اجتاحتنا. ثم تعرفون بعد ذلك من أين أتيتم، وبأي سبب دهيتم فتقولون: ﴿بَلْ نَحْنُ مُحْرَمُونَ﴾.

فاحمدوا الله تعالى حيث زرعه الله لكم، ثم أبقاه وكماله لكم، ولم يرسل عليه من الآفات ما به تحرمون نفعه وخيره.

(٦٨-٧٠) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ○ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ○ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجْحَامًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام، ذكر نعمته عليهم بالشراب العذب الذي منه يشربون، وأنهم لولا أن الله يسره وسهله، لما كان لكم سبيل إليه، وأنه الذي أنزله من المزن، وهو السحاب والمطر ينزله الله تعالى فيكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض وفي بطنها، ويكون منه الغدران المتدفقة.

ومن نعمته أن جعله عذبًا فرائًا تسيغه النفوس، ولو شاء لجعله ملحًا أجاجًا مكروهاً للنفوس لا يتفجع به.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على ما أنعم به عليكم.

(٧١-٧٤) ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ○ ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ○ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً وَنَتَعًا لِلْمُقْبِينَ ○ فَسَيَحِبُّ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ وهذه نعمة تدخل في الضروريات التي لا غنى للخلق عنها، فإن الناس محتاجون إليها في كثير من أمورهم وحوادثهم، فقررهم تعالى بالنار التي أوجدها في الأشجار، وأن الخلق لا يقدر أن ينشئوا شجرها، وإنما الله تعالى الذي أنشأها من الشجر الأخضر، فإذا هي نار توقد بقدر حاجة العباد، فإذا فرغوا من حاجتهم أطفأها وأخمدوها. ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكَرَةً﴾ للعباد بنعمة ربهم، وتذكرة بنار جهنم التي أعدها الله للعاصين، وجعلها سوطًا يسوق به عباده إلى دار النعيم.

﴿وَمَتَاعًا لِلْمُقْبِينَ﴾ أي: [المتفيعين أو] المسافرين وخص الله المسافرين لأن نفع المسافر بذلك أعظم من غيره، ولعل السبب في ذلك؛ لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار جعلها الله متاعًا للمسافرين في هذه الدار، وتذكرة لهم بدار القرار.

فلما بين من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده وشكره وعبادته أمر بتسبيحه وتحميد^(١) فقال: ﴿فَسَيَحِبُّ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي: نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات.

واحمده بقلبك ولسانك وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يُشكر فلا يُكفر، ويُذكر فلا يُنسى، ويُطاع

فلا يُعصى.

(٧٥-٨٧) ﴿فَلَا أُنسِئُمْ مَوْعِدَ التَّجْوِيرِ ○ وَإِنَّهُ لَفَسُّهُ لَوْ

تَعَلَّمُونَ عَظِيمٌ ○ إِنَّهُ لَقَرْمَازَانٌ كَرِيمٌ ○ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ○ لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ○ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ○ أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهَوُونَ ○ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ○ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْمَخْلُوقُ وَأَنْشَأَ جِنْدًا نَّظُرُونَ ○ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصَيْرُونَ ○ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَزِيزِينَ ○ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها أي: مساقطها في مغارباها، وما يحدث الله في تلك الأوقات من الحوادث الدالة على عظمته وكبريائه وتوحيده.

ثم عظم هذا المقسم به فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَفَسُّهُ لَوْ تَعَلَّمُونَ عَظِيمٌ﴾.

وإنما كان القسم عظيمًا، لأن في النجوم وجريانها وسقوطها عند مغارباها آيات وعبرًا لا يمكن حصرها.

وأما المقسم عليه فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه ولا شك يعتره.

وأنه كريم أي: كثير الخير غزير العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه.

﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ أي: إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله^(٢)، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين لا قدرة لهم^(٣) على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه.

﴿لَا يَمْسُهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ أي: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب.

وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسه، دلت الآية - بتنبهها^(٤) - على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل: إن الآية خبرٌ بمعنى النهي، أي: لا يمس القرآن إلا طاهر.

﴿تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة، هو تنزيل رب العالمين الذي يربي

(١) في ب: وتعظيمه. (٢) في ب: لوحه ورسالته. (٣) كذا في ب، وفي أ: لها (٤) في ب: تنبيهًا.

عباده بنعمه الدينية والدنيوية .

ومن أجل تربية ربي بها عباده، إنزاله هذا القرآن الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكورًا .

ومما يجب عليهم أن يقوموا به^(١) ويعلمونه، ويدعوا إليه ويصدقوا به، ولهذا قال: ﴿أَفَهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهُونٌ﴾ أي: أفهَذَا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون أي: تختفون وتدلسون خوفًا من الخلق وعارهم وألسنتهم؟ .

هذا لا ينبغي ولا يليق، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه . وأما القرآن الكريم فهو الحق الذي لا يغالبه مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به ولا يختفى، بل يصدع به ويعلن .

وقوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ﴾ أي: تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بئس كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها وموليها .

فها لا شكرتم الله تعالى على إحسانه، إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داع لرفع النعم وحلول النقم .

﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ○ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ○ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ○ وَلَكِنْ لَا بُصُورَ﴾ أي: فها إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحترض في هذه الحالة .

والحال أنا نحن أقرب إليه منكم بعلمنا وملائكتنا ولكن لا تبصرون .

﴿فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: فها إذا كنتم تزعمون أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجازين ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها .

فحيثما إما أن تقروا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء مآلكم .

(٨٨-٩٦) ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ○ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتٌ يَنْعِيمٌ ○ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ○ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ○ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكذِّبِينَ الضَّالِّينَ ○ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ○ وَنَصِيلَةٌ يَجِيمٌ ○ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ○ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين الضالين في أول السورة في دار القرار .

ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت فقال: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَيِّتِ ○ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وهم الذين أدا

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ ٥٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهُونٌ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ ○ وَلَكِنْ لَا بُصُورَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرِيحَانٌ وَجَنَّتٌ يَنْعِيمٌ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَنَصِيلَةٌ يَجِيمٌ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

سُورَةُ الْحَرَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ○ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ○ يُحْيِي وَيُمِيتُ ○ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ ○ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ○ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

الواجبات والمستحبات وتركوا المحرمات والمكروهات^(٢) وفضول المباحات .

لهم ﴿رَوْحٌ﴾ أي: راحة وطمأنينة وسرور وبهجة ونعيم القلب والروح .

﴿وَرِيحَانٌ﴾ وهو اسم جامع لكل لذة بدنية من أنواع المآكل والمشارب وغيرهما، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيراً بنوع الشيء عن جنسه العام^(٣) .

﴿وَجَنَّتٌ يَنْعِيمٌ﴾ جامعة للأمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة التي تكاد تطير منها الأرواح من الفرح والسرور .

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَوْا نَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ○ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ○ وَأَبَشَرُوا ○ بِالْجَنَّةِ الَّتِي

(١) كذا في ب، وفي أ: عليهم به أن يقوموا به . (٢) في ب: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: إن كان الميت من المقربين إلى الله المقربين إليه بأداء الواجبات والمستحبات وترك المحرمات والمكروهات . (٣) في ب: فيكون من باب التعيير بنوع الشيء عن جنسه .

تفسير سورة الحديد

[وهي] مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْأَوَّلَ وَالْآخِرَ وَالظَّاهِرَ وَالْبَاطِنَ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِيقُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَرْجِعُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝ يُؤَلِّقُ الْيَلْبُوتَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّقُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ۝﴾ يخبر تعالى عن عظمته وجلاله وسعة سلطانه أن جميع ما في السماوات والأرض من الحيوانات الناطقة والصامته وغيرها، [والجوامد] تسبح بحمد ربها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله.

وأنها قانتة لربها متقادة لعزته قد ظهرت فيها آثار حكمته، ولهذا قال: ﴿هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ فهذا فيه بيان عموم افتقار مخلوقات العلوية والسفلية لربها، في جميع أحوالها وعموم عزته وقهره للأشياء كلها، وعموم حكمته في خلقه وأمره.

ثم أخبر عن عموم ملكه فقال: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

أي: هو الخالق لذلك، الرازق المدبر لها بقدرته ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبله شيء ﴿وَالْآخِرُ﴾ الذي ليس بعده شيء.

﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الذي ليس فوقه شيء ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الذي ليس دونه شيء.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن والسرائر والخفايا والأمور المتقدمة والمتأخرة.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة.

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق بجلاله فوق جميع خلقه.

كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلَىٰ أَوْلَادِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ۝ نَزَّلْنَا مِن عَفْوِ رَبِّكُمْ ۝

وقد أول قوله^(١) تبارك وتعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أن هذه البشارة المذكورة هي البشرى في الحياة الدنيا.

[وقوله]: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وهم الذين أداوا الواجبات وتركوا المحرمات، [وإن] حصل منهم التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بتوحيدهم وإيمانهم يقال لأحدهم: ﴿سَلِّمْ لَكَ مِنْ أَحِبِّ الْيَمِينِ﴾ أي: سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين أي: يسلمون عليه ويحيونه عند وصوله إليهم ولقائهم له، أو يقال له: سلام لك من الآفات والبلبات والعذاب، لأنك من أصحاب اليمين الذين سلموا من الذنوب الموبقات.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذِبِينَ الضَّالِّينَ﴾ أي: الذين كذبوا بالحق وضلوا عن الهدى.

﴿فَنَزَّلْنَا مِنَ جَمِيمٍ ۝ وَنَصَلْنَا جَمِيمًا﴾ أي: ضيافتهم يوم قدمهم على ربهم تصلية الجحيم التي تحيط بهم، وتصل إلى أفئدتهم.

وإذا استغاثوا من شدة العطش والظمأ ﴿يَقْنَأُوا يَمَاءً كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الذي ذكره الله تعالى من جزاء العباد بأعمالهم خيرا وشرا وتفاصيل ذلك ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أي: الذي لا شك فيه ولا مرية.

بل هو الحق الثابت الذي لا بد من وقوعه.

وقد أشهد الله عباده الأدلة القواطع على ذلك، حتى صار عند أولي الأبواب كأنهم ذائقون له، مشاهدون له^(٢) فحمدوا الله تعالى على ما خصهم به من هذه النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة.

ولهذا قال تعالى: ﴿سَيَسِّحُ بِأَسْرِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا.

والحمد لله رب العالمين حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه.

[تم تفسير سورة الواقعة]

(١) في ب: فسر. (٢) في ب: مشاهدون لحقيقته.

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾ من حَبِّ وحيوان ومطر وغير ذلك .
 ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ من نبات وشجر وحيوان وغير ذلك .
 ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾ من الملائكة والأقدار والأرزاق .
 ﴿وَمَا يَعْرَجُ فِيهَا﴾ من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال وغير ذلك .

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ .

وهذه المعية معية العلم والاطلاع، ولهذا توعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال من بر وفجور، فمجازيكم عليها وحافظها عليكم .

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكًا وخلقًا وعبيدًا يتصرف فيهم بما شاءه من أوامره القدرية والشرعية الجارية على الحكمة الربانية .

﴿وَالِإِلَهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل الليل على النهار فيغشيهم الليل بظلامه فيسكنون ويهدأون .

ثم يدخل النهار على الليل فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون فيتحرك العباد ويقومون إلى مصالحهم ومعاشهم .

ولا يزال الله يكور الليل على النهار والنهار على الليل ويداول بينهما في الزيادة والنقص والطول والقصر حتى تقوم بذلك الفصول وتستقيم الأزمنة، ويحصل من المصالح ما يحصل بذلك .

فتبارك الله رب العالمين وتعالى الكريم الجواد الذي أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة .

﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: بما يكون في صدور العالمين .

فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته^(١) .

(٧-١١) ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ○ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾
 ٥٣٨
 ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٤) لَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
 ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (٦) ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْنَوتُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٩) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَن أنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَهَلْ ءَاخِرُ كَرِيمٍ (١١)

الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ ءَايَاتٍ يَبْنَوتُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ○ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاتُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَن أنْفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمَ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِن بَعْدِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ○ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ وَهَلْ ءَاخِرُ كَرِيمٍ ○ يَأْمُرُ تَعَالَىٰ عِبَادَهُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ وَبِمَا جَاءَ بِهِ وَبِالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِهِ مِنَ الْأَمْوَالِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ فِي أَيْدِيهِمْ وَاسْتَخْلَفَهُمْ عَلَيْهَا لِيَنْظُرَ كَيْفَ يَعْمَلُونَ .

ثم لما أمرهم بذلك، ورغبهم وحثهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب فقال: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والنفقة في سبيله ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أعظمه [وأجله] رضا ربهم، والفوز بدار كرامته، وما فيها من النعيم المقيم الذي أعده الله للمؤمنين والمجاهدين .

ثم ذكر [السبب] الداعي لهم إلى الإيمان، وعدم المانع منه فقال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ

(١) كذا في ب، وفي أ: ونخذل من يعلمه لا يصلح .

أعظم درجة وأجرًا وثوابًا ممن لم يسلم ويقا تل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة غالبهم أسلم قبل الفتح .

ولما كان التفضيل بين الأمور قد يتوهم منه نقص وقدح في المفضول، احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة [كلهم] رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان ووعدهم الجنة .

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كُلاً منكم على ما يعلمه من عمله .

ثم حث على النفقة في سبيله، لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهز له فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهي النفقة [الطيبة] التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لمرضاة الله من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى [حيث] سماه قرضًا، والمال ماله والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافًا كثيرة وهو الكريم الوهاب .

وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة يوم كلٌ يبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن، ولذلك قال:

(١٢-١٥) ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ سَعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكَ يَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ○ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقَاتُ لِيَلْزِمُنَّكَ أَبْنَاؤُنَا أَنْظُرُونَا فَتَيْسَسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَصُرِبَ بِهِنَّ يَسِيرٌ لَمْ يَأْبَاطِطُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَهَرُوا مِنْ فِيكِهِ الْعَذَابُ ○ يَتَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنَّكُمْ أَفْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَلَبَّسْتُمْ بِالْأَمَانِيِّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَعَزَّكَمُ بِاللَّهِ الْعُرُورُ ○ قَالِيَوْمَ لَا يُؤْمَدُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْفَيْتُمْ النَّارَ هِيَ مَوْلَانِكُمْ وَيَسْ أَلْمَصِيرُ﴾ يقول تعالى - مبيّنًا لفضل الإيمان واغنياب أهله به يوم القيامة - : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ سَعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم، فيمشون بأيمانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة فيقال:

﴿بُشْرَانُكَ يَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ .

(١) في ب: على صحة جميع ما جاء به .

أَخَذَ مِمَّنْ فَعَرَضُوا بَأْسُنَا لِمَنْ أَضَلُّ مِنْهُمْ وَمَا الَّذِي يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، والحال أن الرسول محمدًا ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله يدعوكم .

فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته، والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان، إن كنتم مؤمنين .

ومع ذلك، من لطفه وعنايته بكم، أنه لم يكنف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم، بل أيده بالمعجزات ودلكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات .

فلهذا قال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكَ عَلَىٰ عِبْرَتِهِ عِلْمَ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به^(١)، وأنه حق اليقين .

﴿لِيُخْرِجَكُمُ﴾ بإرسال الرسول إليكم، وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة .

﴿وَمِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان .

وهذا من رحمته بكم ورأفته حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ لَّخَبِيرٌ﴾ .

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: وما الذي يمنعكم من النفقة في سبيل الله، وهو طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا .

(و) الحال أنه ليس لكم شيء بل ﴿لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فجميع الأموال ستنتقل من أيديكم أو تنقلون عنها، ثم يعود المُلْكُ إلى مالكة تبارك وتعالى .

فاغتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم وانتهزوا الفرصة .

ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٌ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلُوا﴾ المراد بالفتح هنا هو فتح الحديدية حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام واختلاط المسلمين بالكافرين والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجًا واعتز الإسلام عزًا عظيمًا .

وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدرّون على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها كالمدينة وتوابعها .

وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقا تل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٣٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
بَشِّرْتُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٦﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا انظُرُوا نَفْسِي مِنْ نُوْرِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا
فَضْرِبْ بَيْنَهُمْ بِسُورِهِ. بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ
الْعَذَابُ ﴿١٧﴾ يَتَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَهُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كَرِهْتَ فَنَنْتَهُمْ
أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ
اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿١٨﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا
مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْفَكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَانَكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ
﴿١٩﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٠﴾
اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمَصْدِقَاتِ وَأَقْرَبُوا
اللَّهِ قَرَضًا حَسَنًا يُضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿٢٢﴾

المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافات في الدار الآخرة،
كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة
لعظمتها، فعاتب الله المؤمنين [على عدم ذلك] فقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾.
أي: ألم يجيء (٣) الوقت الذي تلبين به قلوبهم (٤)، وتخشع
لذكر الله الذي هو القرآن، وتقاد لأوامره وزواجره، وما نزل
من الحق الذي جاء به محمد ﷺ؟

وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله
تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون
المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا
أنفسهم على ذلك.

﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾
أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب
لخشوع القلب والانقياد التام، ثم لم يدوموا عليه ولا ثبتوا،
بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل

(١) في ب: يمشون بنورهم. (٢) كذا في ب، وفي أ: التي. (٣) في
ب: ألم يأت. (٤) في ب: الذي به تلبين قلوبكم.

فله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم،
حيث حصل لهم كل مطلوب [محبوب] ونجوا من كل شر
ومرهوب.

فإذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به (١)، وهم قد
طفئ نورهم، وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين:
﴿انظُرْنَا نَفْسِي مِنْ نُوْرِكُمْ﴾ أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي
به لننجو من العذاب.

ف ﴿قِيلَ﴾ لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي: إن كان
ذلك ممكناً، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من
المحالات.

﴿ضُرِبَ﴾ بين المؤمنين والمنافقين ﴿بِسُورٍ﴾ أي: حائط
منيع وحصن حصين.

﴿لَمْ يَأْنِ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ وهو الذي يلي المؤمنين ﴿وَوَظَاهِرُهُ
مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ وهو الذي يلي المنافقين.

فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعاً وترحمًا:
﴿أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ﴾ في الدنيا نقول: «لا إله إلا الله»، ونصلي
ونصوم ونجاهد ونعمل مثل عملكم؟.

﴿قَالُوا بَلَى﴾ كتتم معنا في الدنيا، وعلمتم [في الظاهر] مثل
عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين من غير إيمان ولا نية
[صادقة] صالحة.

بل ﴿فَنَنْتَهُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتهم في خبر الله
الذي لا يقبل شكًا.

﴿وَعَرَّجْتُمْ الْأَمَانِيَّ﴾ الباطلة، حيث (٢) تمنيتم أن تنالوا منال
المؤمنين وأنتم غير موقنين.

﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: حتى جاءكم الموت، وأنتم بتلك
الحال الذميمة.

﴿وَعَرَّجْتُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ وهو الشيطان الذي زين لكم الكفر
والريب، فاطمأنتم به ووثقتم بوعده وصدقتم خبره.

﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ولو افتديتم
بمثل الأرض ذهبًا ومثله معه لما تقبل منكم.

﴿مَا أَوْفَكُمُ النَّارُ﴾ أي: مستقركم ﴿هِيَ مَوْلَانَكُمْ﴾ التي تتولاكم
وتضمكم إليها ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ النار.

[قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ فَأَمْتُهُ
هَكَوِيَّةٌ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ نَارٌ حَامِيَةٌ﴾.

(١٦، ١٧) ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ
وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ
الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لما ذكر حال

إيمانهم وزال إيمانهم.

﴿فَسَسَّ قُلُوبَهُمْ وَكَثُرَ مِنْهُمْ فَيَسُوتُ﴾ فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزله الله وتناطق بالحكمة، ولا ينبغي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك^(١) سبب لفسوسة القلب وجمود العين.

﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها، قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم فيجازيهم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر، قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله. وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ولم ينفذ لشرائع الله.

(١٨، ١٩) ﴿إِنَّ الْمُضْضِيْفِينَ وَالْمُضْضِيْفَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝﴾ ﴿إِنَّ الْمُضْضِيْفِينَ وَالْمُضْضِيْفَاتِ﴾ بالتشديد أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية والنفقات المرضية.

﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخرًا^(٢) لهم عند ربهم ﴿يَضْعَفُ لَهُمْ﴾ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ وهو ما أعده الله لهم في الجنة مما لا تعلمه النفوس.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ والإيمان عند أهل السنة هو ما دل عليه الكتاب والسنة، هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.

فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة. فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين ودون مرتبة الأنبياء.

[وقوله: ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ كما ورد في الحديث الصحيح: «إن في الجنة مائة درجة ما بين الدرجتين^(٣) كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله».

وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم وقربهم إلى الله تعالى. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق: المتصدقين، والصدّيقين والشهداء، وأصحاب الجحيم. فالمتصدقون: الذين كان جُلُّ عملهم لإحسان إلى الخلق، وبذل النفع إليهم بغاية ما يمكنهم

خصوصًا بالنفع بالمال في سبيل الله.

والصدّيقون: هم الذين كملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح والعلم النافع واليقين الصادق.

والشهداء: هم الذين قاتلوا في سبيل الله [الإعلاء كلمة الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم] فقتلوا.

وأصحاب الجحيم: هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله. وبقي قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله وحقوق عباده، فهؤلاء مآلهم الجنة، وإن حصل لهم عقوبة ببعض ما فعل.

(٢٠، ٢١) ﴿أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ

بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ فَتَرَاهُ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَعْفُورَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْعُرَيْرُ ۝ سَابِقُوا إِلَىٰ مَعْفُورٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، وبين غايتها وغاية أهلها، بأنها لعب ولهو تلعب بها الأبدان وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب والغفلة عن ذكر الله^(٤)، وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا.

بخلاف أهل اليقظة وعمال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله من النفع القاصر والمتعدي.

[وقوله: ﴿وَزِينَةٌ﴾ أي: تزئين في اللباس والطعام والشراب والمراكب والدور والقصور والجاه [وغير ذلك].

﴿وتفاخرٌ بينكم﴾ أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها.

﴿وتكاثرٌ في الأموال والأولاد﴾ أي: كلُّ يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهذا مصداقه، وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها.

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبرًا ولم يجعلها مستقرًا، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله^(٥)، وإذا رأى من يكآثره وينافسه بالأموال

(١) في ب: فإنه. (٢) في ب: ذخرا. (٣) في ب: ما بين كل درجتين. (٤) في ب: بلهو قلوبهم وغفلتهم. (٥) في ب: إلى ذلك.

والأولاد نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلاً بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأعنام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار الذين قسروا همهم ونظروهم إلى الدنيا^(١)، جاءها من أمر الله [ما أتلها] فهاجت وييس، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رُؤي لها مرأى أتق.

كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما أذهبا^(٢) من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، ولم يتزود منها سوى الكفن، فنبأ لمن أضحت هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للأخرة فهو الذي ينفع، ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ أي: حال الآخرة ما يخلو من هذين الأمرين.

إما العذاب الشديد في نار جهنم وأغلالها وسلاسلها وأحوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهاى مطلبه، فتجراً على معاصي الله وكذب بآيات الله، وكفر بأ نعم الله.

وإما مغفرة من الله للسيئات وإزالة للعقوبات، ورضوان من الله يحل من أحله^(٣) به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للأخرة سعيها.

فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة ولهذا قال: ﴿وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ﴾ أي: إلا متاع يتمتع به ويتفجع به، ويستدفع به الحاجات لا يغيره به، ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يفرهم بالله الغرور.

ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال:

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ والإيمان بالله ورسله^(٤)، يدخل فيه أصول الدين وفروعها ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: هذا الذي بيناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٥٤٠

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٢٢﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ لَّيْنَكُمْ وَتَكَاتُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِنَائِهِ ثُمَّ يَسِيحُ فترته مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ الْغُرُورِ ﴿٢٣﴾ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٤﴾ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٥﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَبْخُلْ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٧﴾

الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالثواب الجزيل والأجر العظيم^(٥) من أعظم منته على عباده وفضله.

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أتى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده^(٦).

(٢٢-٢٤) ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَبْخُلْ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها.

وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفئدة أولي الأبواب، ولكنه على الله يسير.

(١) في ب: مهمم ونظروهم. (٢) في ب: فأذهبا. (٣) في ب: من أحله عليه. (٤) كذا في ب، وفي أ: ورسوله. (٥) في ب: وأن ثواب الله بالأجر الجزيل والثواب الجميل. (٦) في ب: أحد من خلقه.

وأخبر الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم،
ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا بأسوا ويحزنوا
على ما فاتهم مما طمحت له أنفسهم، وتشوفوا إليه لعلمهم أن
يكون ذلك مكتوبًا في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه
ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح
بطر وأشر، لعلمهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما
أدركوه بفضل الله ومَنَّهُ، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع
التقم ولهذا قال:

﴿وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ كُلَّ مِحْتَالٍ فَخُورٌ﴾ أي: متكبر فظ غليظ،
معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه
وتلهيه كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ
إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾.

﴿الَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ وَالنَّاسِ بِالْخُبُلِ﴾ أي: يجمعون
بين الأمرين اللذين كل منهما كاف في الشر، البخل
وهو منع الحقوق الواجبة وأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم
بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحُثُّهم على هذا الخلق
الذي يجمعون بفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم
وتوليهم عنها.
﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله
شيئًا.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي غناه من لوازم ذاته،
الذي له ملك السماوات والأرض، وهو الذي أغنى عباده
وأقنأهم، الحميد الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل،
وفعل جميل، يستحق أن يحمد عليه ويشى ويعظم.

(٢٧-٢٥) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ
وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرَفُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ
عَزِيزٌ ۝ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ
وَالْكِتَابَ فَمِثْمُ مِثْمُهُمْ وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَاسْفُؤْنَ ۝ ثُمَّ قَاتَيْنَا عَلَىٰ
ءَأْتَرِهِمْ يُرْسِلْنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ
وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا
كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَبِيرٌ مِنْهُمْ فَاسْفُؤْنَ﴾ يقول تعالى:
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي الأدلة والشواهد
والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقيقته.

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب
التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم ما ينفعهم في دينهم
ودنياهم.

﴿وَالْمِيزَانَ﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال.
والدين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في
الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات
والقصاص والحدود [والموارث وغير ذلك].
وذلك ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ قِيَامًا بدين الله وتحصيلًا
لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعداها.
ولهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو
القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل بحسب الأزمنة
والأحوال.

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ من آلات الحرب،
كالسلاح والدروع وغير ذلك.

﴿وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع
الصناعات والحرف والأواني والآلات الحرف، حتى إنه قلَّ أن
يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَصْرَفُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي: ليقوم تعالى سوق
الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيبتين من ينصره،
وينصر رسله في حال الغيب التي ينفع فيها الإيمان قبل
الشهادة التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حينئذ يكون
ضروريًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي: لا يعجزه شيء ولا يفوته هارب.
ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية،
ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه
يبتلي أوليائه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب.

وقرن تعالى في هذا^(١) الموضوع بين الكتاب والحديد، لأن
بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه
الحجة والبرهان، والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه
بالعدل والقسط الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله،
وكمال شريعته التي شرعها على السنة رسله.

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً، ذكر من خواصهم النبيين
الكريمين نوحاً وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في
ذريتهما، فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا
النَّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من
ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام.

وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين
الكريمين.

﴿فَمِثْمُ﴾ أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مُهْتَدٍ﴾

(١) في ب: بهذا.

بدعوتهم، متقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسَقُونَ﴾ أي: خارجون عن [طاعة الله و] طاعة الرسل والأنبياء^(١) كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿ثُمَّ فَتَيْنَا﴾ أي: أتبعنا ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ خصص الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصاري الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام.

﴿وَأَتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ كما قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَحْكُمُكَ ذَٰلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قَبِيلٌ مِّنْهُمْ وَرَهْبَانًا أَنَّهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ الآيات.

ولهذا كان النصاري ألين من غيرهم قلوبًا، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام.

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله تعالى، ومع ذلك ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم.

فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم.

ومنهج من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿فَتَأْتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنِّيهِمْ آخِرَهُمْ﴾ أي: الذين آمنوا بمحمد ﷺ مع إيمانهم بعيسى، كل أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسَقُونَ﴾.

(٢٩، ٢٨) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ وهذا الخطاب يحتمل أنه [خطاب] لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ أي: نصيبين من الأجر نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ.

ويحتمل أن يكون الأمر عامًا يدخل فيه أهل الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٥٤١

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِيزْتُهُمْ مَّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسَقُونَ ﴿٥٦﴾ ثُمَّ فَتَيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ آخِرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسَقُونَ ﴿٥٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمَنُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٥٩﴾

وغيرهم وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم الله ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى.

أجر على الإيمان وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر وأجر على اجتناب النواهي، أو أن الثبنة المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى.

﴿وَيَجْعَلْ لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ أي: يعطيكم علمًا وهدى ونورًا تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات. ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ فلا يستكثر^(٢) هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم الذي عم فضله أهل السماوات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ولا أقل من ذلك.

[وقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلَ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ﴾ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيمانًا عامًا،

(١) في ب: طاعة رسله. (٢) في ب: فلا يستغرب كثرة.

واتقى الله وآمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم^(١) بأنهم لا يقدرّون على شيء من فضل الله أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾. ويتمنون على الله الأمانى الفاسدة.

فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله لهم كفلان من رحمته، ونور، ومغفرة، رغمًا على أنوف أهل الكتاب.

وليعلموا ﴿أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتیه من فضله ﴿وَأَنََّّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الذي لا يقادر قدره].

تم تفسير سورة الحديد، والله الحمد والمنة، والحمد لله.

تفسير سورة قد سمع الله

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤-١) ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ نُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطَاعًا سِتَيْنِ مَسْكِنًا ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾

هذه الآيات الكريمات في رجل من الأنصار اشتكته زوجته [إلى الله وجادلته]^(٢) إلى رسول الله ﷺ لما حرمها على نفسه، بعد الصحبة الطويلة، والأولاد، وكان هو رجلاً شحيحاً كبيراً. فشكت حالها وحاله إلى الله وإلى رسول الله ﷺ وكررت ذلك، وأبدت فيه وأعدت.

فقال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: تخاطبكما فيما بينكما. ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لجميع الأصوات في جميع الأوقات على تفتن الحاجات.

﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر ديب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء. وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره، وإحاطتهما بالأمر

سُورَةُ الْجَحْدِ الْاِثْنَا عَشْرَةَ

٥٤٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْتَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ۝ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا ذَلِكَ نُوعِظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِطَاعًا سِتَيْنِ مَسْكِنًا ذَلِكَ لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوا كَمَا كُتِبَ لِلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝﴾

الدقيقة والجليلة، وفي ضمن ذلك الإشارة بأن الله [تعالى] سيزيل شكواها ويرفع بلواها، ولهذا ذكر حكمها، وحكم غيرها^(٣) على وجه العموم فقال:

﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا الَّتِي وَلَدْتَهُمْ﴾ المظاهرة من الزوجة أن يقول الرجل لزوجته: «أنت عليّ كظهر أمي» أو غيرها من محارمه أو: «أنت عليّ حرام» وكان المعتاد عندهم في هذا لفظ «الظهر» ولهذا سماه الله «ظهاراً» فقال: ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ أي: كيف يتكلمون بهذا الكلام الذي يعلم^(٤) أنه لا حقيقة له، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتي ولدنهن؟.

ولهذا عظم الله أمره وقبحه فقال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أي: قولاً شنيعاً ﴿وَزُورًا﴾ أي: كذباً. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ﴾ عن صدر منه بعض المخالفات،

(١) في ب: لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) كذا في ب، وفي أ: ذكر حكم هذا الحكم وحكم غيره. (٤) في ب: يعلمون.

فتداركها بالتوبة النصوح.

﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَابِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ اختلف العلماء في معنى العود، فقيل: معناه العزم على جماع من ظاهر منها، وأنه بمجرد عزمه تجب عليه الكفارة المذكورة، ويدل على هذا أن الله تعالى ذكر في الكفارة أنها^(١) تكون قبل المسيس، وذلك إنما يكون بمجرد العزم وقيل: معناه حقيقة الوطء، ويدل على ذلك أن الله قال: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ والذي قالوا إنما هو الوطء.

وعلى كل من القولين إذا وجد العود، صار كفارة هذا التحريم ﴿تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ مؤمنة كما قيدت في آية أخرى^(٢)، ذكر أو أثنى، بشرط أن تكون سالمة من العيوب المضرة^(٣) بالعمل.

﴿مَنْ قَبِلَ أَن يَمَأَسًا﴾ أي: يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته التي ظاهر منها حتى يكفر بركة.

﴿ذَلِكُمْ﴾ الحكم الذي ذكرناه لكم ﴿ثَوَعُظْرَتٍ بِهِ﴾ أي: يبين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به، لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب، فالذي يريد أن يظهر، إذا ذكر أنه يجب عليه عتق رقبة، كف نفسه عنه.

﴿وَاللَّهُ يَمَا تَمَلُّونَ خَيْرٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله. ﴿فَمَنْ تَمَّ حَيْدٌ﴾ رقبة يعتقها، بأن لم يجدها أو [لم] يجد ثمنها عليه ﴿صِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَمَأَسًا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ﴾ الصيام ﴿فَإِطْعَامٌ سِتِّينَ مَسْكِينًا﴾.

إما بأن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم، كما هو قول كثير من المفسرين، وإما بأن يطعم كل مسكين مدًّا بزر أو نصف صاع من غيره مما يجزي في الفطرة كما هو قول طائفة أخرى.

ذلك الحكم الذي بيناه لكم ووضحناه لكم ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام والعمل به.

فإن التزام أحكام الله والعمل بها من الإيمان [بل هي المقصودة] ومما يزيد به الإيمان^(٤) ويكمل وينمو.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ التي تمنع من الوقوع فيها، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها.

﴿وَاللَّكْرِبِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي هذه الآيات عدة أحكام:

منها: لطف الله بعباده، واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام، لكل من ابتلي بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة، لأن الله قال:

﴿مِن نِّسَابِهِمْ﴾.

فلو حرم أمته، لم يكن [ذلك] ظهارًا بل هو من جنس تحريم الطعام والشراب، تجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار كما لا يصح طلاقها، سواء نَجَزَ ذلك أو علَّقه.

ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سماه منكرًا [من القول] وزورًا.

ومنها: تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته، لأن الله تعالى قال: ﴿مَا هُجِرَ أَهْنَتَهُمْ﴾.

ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويسميتها^(٥) باسم محارمه كقوله: «يا أمي» «يا أختي» ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر، على اختلاف القولين السابقين لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجزىء في كفارة الرقبة الصغير والكبير والذكر والأنثى لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إن^(٦) كانت عتقًا أو صيامًا قبل المسيس، كما قيده الله بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك أدعى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يُمْكِنُ من ذلك إلا بعد الكفارة، بادر لإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكينًا، فلو جمع طعام ستين مسكينًا، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: ﴿فَإِطْعَامٌ سِتِّينَ مَسْكِينًا﴾.

(٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُنُوتًا كَمَا كَيْتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَفَدَّ أَرْلَنَّا آيَاتِنَا بِبَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ محادة الله ورسوله:

مخالفتها ومعصيتها خصوصًا في الأمور الفظيعة كمحاداة الله ورسوله بالكفر ومعاداة أولياء الله.

وقوله: ﴿كُنُوتًا كَمَا كَيْتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم جزاء وفاقًا.

وليس لهم حجة على الله، فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البيّنات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها فهو من

(١) كذا في ب، وفي أ: أن. (٢) في ب: آية القتال. (٣) في ب:

الضارة. (٤) في ب: ويزداد به الإيمان. (٥) في ب: ويدعوها. (٦)

في ب: إذا.

المهتدين الفائزين .

﴿وَالْكَافِرِينَ﴾ بها ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي: يهينهم ويذلهم .

كما تكبروا عن آيات الله، أهانهم وأذلهم .

(٦، ٧) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ يقول الله تعالى: يوم يبعث الله الخلق ﴿جَمِيعًا﴾ فيقومون من أجدانهم سريعًا فيجازهم بأعمالهم ﴿فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ من خير وشر، لأنه علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته .

هذا ﴿و﴾ العاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصى ذلك .

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بالظواهر^(١) والسرائر، والخبايا والخفايا، ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السماوات والأرض من دقيق وجليل .

وأنه ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تناجوا به وأسرره فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ثم قال تعالى:

(٨، ٩) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ

وَيَنْتَجِرُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَوَّكُوكَ بِمَا لَوْ حُجِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُهَا فَيَكُونُ مِنَ الْمُهْلِكِ ۝ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّيُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّيُوا بِالْيَمْرِ وَالنَّقْوَى وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ النجوى: هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير وتكون في الشر .

فأمر تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة، وقيام بحق الله وعباده^(٢)، والتقوى، وهي [هنا] اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم .

فالمؤمن يمثل هذا الأمر الإلهي، فلا تجده مناجيًا ومتحدثًا إلا بما يقربه من الله، ويباعده من سخطه .

والفاجر يتهاون بأمر الله ويتناجى بالإثم والعدوان ومعصية الرسول كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءُوكَ حَوَّكُوكَ بِمَا لَوْ حُجِّكَ بِهِ اللَّهُ﴾ أي:

يسئون الأدب معك في تحيتهن لك .

﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أي: يسرون في أنفسهم^(٣) ما ذكره

عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا

سُورَةُ الْاِنْفِصَارِ

٥٤٣

سُورَةُ الْاِنْفِصَارِ

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدَنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَنْتَجِرُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَوَّكُوكَ بِمَا لَوْ حُجِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُهَا فَيَكُونُ مِنَ الْمُهْلِكِ ۝ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّيُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّيُوا بِالْيَمْرِ وَالنَّقْوَى وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فَمَنْ تَفَسَّحُوا فَالْمَجْلِسُ فَانصَبُوا وَنَسَّحُوا اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا وَيَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

تَقُولُ .

ومعنى ذلك أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم، أن ما يقولون غير محذور .

قال تعالى في بيان أنه يمهل ولا يهمل: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُّونَهَا فَيَنْسِفُهَا فَيَكُونُ مِنَ الْمُهْلِكِ﴾ أي: تكفيهم جهنم التي جمعت كل شقاء وعذاب [عليهم] تحيط بهم، ويعذبون بها ﴿فَيَنْسِفُهَا﴾ .

وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين يظهرون الإيمان، ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيرا^(٤)، وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب الذين إذا سلموا على النبي ﷺ قالوا: «السلام عليك يا محمد» يعنون بذلك الموت .

(١٠) ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول

(١) في ب: على الظواهر . (٢) في ب: بحق الله وحق عباده . (٣) في ب: يسرون فيها . (٤) كذا في ب، وفي أ: والخطاب للرسول ﷺ الذي يوهمون به أنهم أرادوا خيرا .

التعظيم خير للمؤمنين وأطهر أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأذناس التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ، والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته، صار هذا ميزاناً لمن كان حريصاً على الخير والعلم، فلا يبالي بالصدقة.

ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق على الرسول، هذا في الواجد للصدقة.

وأما الذي لا يجد الصدقة، فإن الله لم يضيق عليه الأمر، بل عفا عنه وسامحه، وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

ثم لما رأى تبارك وتعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة، سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ؛ لأن هذا الحكم من باب المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنما المقصود هو الأدب مع الرسول والإكرام له.

وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها فقال: ﴿فَإِذَا تَرْتَمَعُوا﴾ أي: لم يهن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هيناً على العبد، ولهذا قيده بقوله: ﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عفا لكم عن ذلك.

﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها وشروطها وجميع حدودها ولوازمها.

﴿وَأَتُوا الزُّكُوتَ﴾ المفروضة [في أموالكم] إلى مستحقيها. وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله، وحقوق عباده [ولهذا قال بعده]: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر.

ويدخل في ذلك طاعة الله [وطاعة] رسوله بامتثال أوامرها واجتناب نواهيها، وتصديق ما أخبرا به والوقوف عند حدود الله (١).

والعبرة في ذلك على الإخلاص والإحسان، ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي

(١) كذا في ب، وفي أ: فإن ضرهم. (٢) كذا في ب، وفي أ: يعتمدوا. (٣) في ب: وكفاه أمر دينه ودنياه. (٤) في ب: هذا أدب. (٥) في ب: للفاسح. (٦) في ب: حدود الشرع.

تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّجَوُّى﴾ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين بالمكر والخديعة وطلب السوء من الشيطان الذي كيده ضعيف ومكره غير مفيد.

﴿يَعِزُّونَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا غاية هذا المكر ومقصوده. ﴿وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالكفاية، والنصر على الأعداء، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾.

فأعداء الله ورسوله والمؤمنين مهما تناجوا ومكروا فإن ضرر ذلك (١) عائد إلى أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليعتمدوا (٢) عليه، ويثقوا بوعده، فإن من توكل على الله كفاه وتولى أمر دينه ودنياه (٣).

(١١) ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسَبَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَاسْبَحُوا بِسُحُودٍ وَإِنَّمَا قِيلَ أَنْشُرُوا فَأَنْشُرُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هذا تأديب (٤) من الله لعباده المؤمنين إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين للتسبح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود.

وليس ذلك بضار للجالس (٥) شيئاً، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه هو، والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ أَنْشُرُوا﴾ أي: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض ﴿فَأَنْشُرُوا﴾ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة.

فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات بحسب ما خصهم الله به من العلم والإيمان.

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

وفي هذه الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأدب بأدابه والعمل بمقتضاه.

(١٢، ١٣) ﴿يَتَأْتِيَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن تَرْتَمَعُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ○ أَشْفَقْتُمْ أَن تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ فَإِذَا تَرْتَمَعُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزُّكُوتَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ تأديباً لهم، وتعليماً وتعظيماً للرسول ﷺ، فإن هذا

وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم .
 (١٤-١٩) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكُذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۚ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ۝ لَنْ نُنْفِخَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ۝ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۗ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين من اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم، ونالوا من لعنة الله أوفى نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين ﴿مُتَّبِعِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَؤُلَاءِ﴾ .

فليسوا مؤمنين ظاهرًا وباطنًا؛ لأن باطنهم مع الكفار ولا مع الكفار ظاهرًا وباطنًا؛ لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم الذي نعتهم الله به، والحال أنهم يحلفون على ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون، وهم يعلمون^(١) أنهم ليسوا مؤمنين .

فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة أن الله أعد لهم عذابًا شديدًا، لا يقادر قدره ولا يعلم وصفه، إنهم ساء ما كانوا يعملون، حيث عملوا بما يسخط الله^(٢) ويوجب عليهم العقوبة واللعنة .

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أي: ترسًا ووقاية يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فيسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهي الصراط الذي من سلكه، أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صد عنه فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم .

﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته، أهانهم بالعذاب السرمدي الذي لا يُفْتَرُ عنهم ساعة ولا هم يُنظَرُونَ .

﴿لَنْ نُنْفِخَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ فلا تدفع^(٣) عنهم شيئًا من العذاب، ولا تحصل لهم قسطًا من الثواب .

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها .

﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ومن عاش على شيء مات عليه، فكما أن المنافقين في الدنيا يموهون على المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعًا، حلفوا

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِمْوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ ۖ أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَاتٍ فَاذِلُّوا تَفَعَّلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ۖ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٦﴾ لَنْ نُنْفِخَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكَ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾ ۖ اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ ۚ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۗ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٩﴾ ۖ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَلِينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُكِ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

لهم كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئًا فشيئًا، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك .

ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة .

ولهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين الذي لا يريد بهم إلا الشر، ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ .

﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ ۗ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا دينهم وديارهم وأنفسهم وأهلهم .

(٢٠، ٢١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذْلَلِينَ ۝ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبُكِ أَنَا وَرَسُولِي إِنَّكَ اللَّهُ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ هذا وعد ووعيد، وعيد لمن حادَّ الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه

(١) في ب: والحال . (٢) كذا في ب، وفي أ: يَسْخَطُهُ . (٣) في ب: أي: لا تدفع .

مخدول مذلول، لا عاقبة له حميدة ولا راية له منصوره .
ووعد لمن آمن به وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون،
فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة
في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يُخلف ولا يُغيّر، فإنه من
الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريد.

(٢٢) ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ
أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ
مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
يقول تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ
مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون
العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على
مقتضى الإيمان^(١) ولوازمه، من محبة من قام بالإيمان
وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب
الناس إليه .

وهذا هو الإيمان على الحقيقة الذي وجدت ثمرته
والمقصود منه .
وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان
أي: رسمه ووثبته وغرسه غرساً لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه
والشكوك .

وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوجهه ومعونته ومدده
الإلهي وإحسانه الرباني .

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات
النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهي الأنفس وتلذ
الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل
عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما
يعطيه من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات وجزيل الهبات
ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية
ولا فوقه^(٢) نهاية .

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع
ذلك مُؤَادِّ لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان^(٣) وراء ظهره،
فإن هذا إيمان رَغمي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من
برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق
صاحبها .

تم تفسير قد سمع الله بحمد الله وعونه وتسديده، والحمد لله
رب العالمين وصلى الله على محمد وسلم تسليمًا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٤٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ
حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ
الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الْحَشْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ
لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ
حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَنذَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ
فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرَوْنَ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ
فَاعْتَرِبُوا بَيْنَهُمْ لَوْ أَنَّ كُنْتُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
الْجَلَاءَ لَعَذَّبْتَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ﴿٣﴾

تفسير سورة الحشر

[وهي] مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ
الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ
فَأَنذَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُجْرَوْنَ بِأَيْدِيهِمْ
وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يٰٓأُولِيَ الْأَبْصَارِ ۝ إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ .
هذه السورة تسمى «سورة بني النضير» وهم طائفة كبيرة من
اليهود في جانب المدينة وقت بعثة النبي ﷺ .

فلما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفروا به في جملة
من كفر من اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن

(١) في ب: إيمانه . (٢) في ب: ولا وراءه . (٣) في ب: لمن نبذ .

سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة .
فلما كان بعد [وقعة] بدر بستة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس ها هنا حتى نقضي حاجتك فخلا بعضهم ببعض، وسؤل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فآثمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحي فيصعد فيلقبها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاها عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليُخَيَّرَنَّ بما همتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الفور إليه من ربه بما هموا به .

فنهض مسرعًا فتوجه إلى المدينة ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك . فأخبرهم بما همت يهود به .

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن اخرجوا من المدينة ولا تسكنوني بها، وقد أجتكم عشرا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه» .

فأقاموا أيامًا يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي [ابن سلول]: «أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصرم قريظة وحلفاؤكم من غطفان» . وطمع رئيسهم حُيي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك .

فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء .

فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة . واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصروهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرائعهم، وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح .

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمسها لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خيبر وفيهم حُيي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح فوجد من السلاح خمسين درعًا وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفًا .

ولهذا قال: «فَأَنْتَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسَبُوا» أي: من الأمر والباب الذي لم^(٣) يخطر ببالهم أن يؤتوا منه . وهو أنه تعالى «قَدْ فِ قُلُوبِهِمُ الرَّعْبُ» وهو الخوف الشديد الذي هو جند الله الأكبر الذي لا ينفع معه عددٌ ولا عُدَّة ولا قوة ولا شدة .

فالأمر الذي يحتسبونه ويظنون أن الغلغل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأنت نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله فهو عليه وبال^(٤) .

فأتاهم أمر سماوي نزل على قلوبهم التي هي محل الثبات والصبر، أو الخور والضعف، فأزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفًا وخورًا وجبنًا لا حيلة لهم ولا منعة معه^(٥)، فصار ذلك عونًا عليهم، ولهذا قال: «يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ» وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل .

(١) في ب: لعظمته . (٢) في ب: (عسبر) . (٣) كذا في ب، وفي أ: لا . (٤) في ب: كان وبالآ عليه . (٥) في ب: لا حيلة لهم في دفعه فصار .

فنهض مسرعًا فتوجه إلى المدينة ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم نشعر بك . فأخبرهم بما همت يهود به .

وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن اخرجوا من المدينة ولا تسكنوني بها، وقد أجتكم عشرا، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه» .

فأقاموا أيامًا يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي [ابن سلول]: «أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصرم قريظة وحلفاؤكم من غطفان» . وطمع رئيسهم حُيي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك .

فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه، ونهضوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء .

فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة . واعتزلتهم قريظة، وخانهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصروهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرائعهم، وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح .

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يخمسها لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا ركاب، وأجلاهم إلى خيبر وفيهم حُيي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح فوجد من السلاح خمسين درعًا وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفًا .

لهذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير .
فافتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في

اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ ﴿١﴾ أي: من أهل هذه القرية وهم بنو النضير. إنكم يا معشر المسلمين ﴿مَا أَوْحَفْتُمْ﴾ أي: أجلبتم وأسرعتم وحشدتم ﴿عَلَيْهِ مِنْ حَبْلِ وَلَا رِكَابٍ﴾ أي: لم تتعبوا بتحصيلها، لا بأنفسكم ولا بمواشيكم، بل قذف الله في قلوبهم الرعب، فأنتكم صَفْوًا عَفْوًا. ولهذا قال: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

من تمام قدرته أنه لا يمتنع منه (٤) ممتنع، ولا يتعزز من دونه قَوِيٌّ، وتعريف الفيء في اصطلاح الفقهاء: هو ما أخذ من مال الكفار بحق من غير قتال، كهذا المال الذي قَرُّوا وتركوه خوفاً من المسلمين، وسمي فيئاً لأنه رجع من الكفار الذين هم غير مستحقين له، إلى المسلمين الذين لهم الحق الأوفر فيه.

وحكمه العام كما ذكره الله في قوله: ﴿مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ عموماً، سواء آفاء الله في وقت رسوله أو بعده لمن يتولى من بعده أمته (٥).

﴿فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ وهذه الآية نظير الآية التي في سورة الأنفال في (٦) قوله: ﴿وَأَعْلَوْا تَمَّا غَنَمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُمُ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

فهذا الفيء يقسم خمسة أقسام:

خمس لله ولرسوله يصرف في مصالح المسلمين [العامه].

وخمس لذوي القربى، وهم بنو هاشم وبنو المطلب حيث كانوا يُسَوَّى [فيه] بين ذكورهم وإناثهم.

وإنما دخل بنو المطلب في خمس الخمس مع بني هاشم، ولم يدخل بقية بني عبد مناف، لأنهم شاركوا بني هاشم في دخولهم الشعب، حين تعاقدت قريش على هجرهم وعداوتهم (٧)، فنصروا رسول الله ﷺ بخلاف غيرهم، ولهذا قال النبي ﷺ في بني عبد المطلب: «إنهم لم يفارقوني في جاهلية ولا إسلام».

وخمسة لفقراء اليتامى، وهم من لا أب له ولم يبلغ.

وخمسة للمساكين.

وسهم لأبناء السبيل، وهم الغرباء المتقطع بهم في غير أوطانهم.

فنقضوا لذلك كثيراً من سقوفهم التي استحسوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيمهم على إخراج ديارهم وهدم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم وصاروا من أكبر عون عليها.

﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ أي: البصائر النافذة والعقول الكاملة، فإن في هذا معتبراً يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المتعین لأهوائهم الذين لم تنفعهم عزتهم، ولا منعتهم قوتهم، ولا حصنتهم حصونهم، حين جاءهم أمر الله، ووصل إليهم النكال بذنوبهم، والعبرة بعموم اللفظ (١) لا بخصوص السبب.

فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار، وهو اعتبار النظر بنظيره، وقياس الشيء على مثله، والتفكر فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم التي هي محل العقل والفكرة، وبذلك يزداد (٢) العقل وتنور البصيرة ويزداد الإيمان ويحصل الفهم الحقيقي.

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود لم يصيبهم جمع ما يستحقون من العقوبة، وأن الله خفف عنهم.

فلولا أنه كتب عليهم الجلاء الذي أصابهم وقضاه عليهم وقدره بقدره الذي لا يبدل ولا يغير، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها.

ولكنهم - وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوي - فإن لهم في الآخرة عذاب النار الذي لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله تعالى.

فلا يخطر ببالهم أن عقوبتهم قد انقضت وفرغت ولم يبق لهم منها بقية، فما أعد الله لهم من العذاب في الآخرة أعظم وأطم.

وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله وعاذوهما وحاربوهما وسعوا في معصيتهما، وهذه عادته وستته فيمن شاقه ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

ولما لام بنو النضير رسول الله ﷺ والمسلمين في قطع النخيل والأشجار، وزعموا أن ذلك من الفساد، وتوصلوا بذلك (٣) إلى الطعن بالمسلمين، أخبر تعالى أن قطع النخيل إن قطعوه أو إبقاءهم إياه، إن أبقوه إنه بإذنه تعالى وأمره ﴿وَالْخَزْيَ الْأَلْفَيْفِينَ﴾ حيث سلطكم على قطع نخيلهم وتحريقها، ليكون ذلك نكالاً لهم، وخزياً في الدنيا، وذلاً يعرف به عجزهم التام الذي ما قدروا على استنقاذ نخيلهم الذي هو مادة قوتهم، واللينية: اسم يشمل سائر النخيل على أصح الاحتمالات وأولها، فهذه حال بني النضير، وكيف عاقبهم الله في الدنيا. ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم فقال: ﴿وَمَا آفَاءَ

(١) في ب: العبرة بعموم المعنى. (٢) في ب: يكمل العقل. (٣) كذا في ب، وفي أ: به. (٤) في ب: عليه. (٥) في ب: سواء كان في وقت الرسول أو بعده على من تولى من بعده من أمته. (٦) في ب: وهي. (٧) كذا في ب، وفي أ: حين تعاقدت على هجرهم قريش وعداوتهم.

وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر الفبي في هؤلاء المعينين لـ ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ أي: مداولة واختصاصًا ﴿بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ فإنه لو لم يقدره لتداولته الأغنياء الأقبياء، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله.

كما أن في اتباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله.

ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة]، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم وبإضاعتها الشقاء الأبدى والعذاب السرمدي فقال: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ على من ترك التقوى وآثر اتباع الهوى.

(٩، ٨) ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب الموجب لجعله تعالى الأموال أموال الفبي لمن قدرها له، وأنهم يحققون بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا المحبوبات والمألوفات من الديار والأوطان، والأحباب والخلان والأموال رغبة في الله ونصرة لدين الله ومحبة لرسول الله.

فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة، بخلاف من ادعى الإيمان وهو لم يصدقه بالجهاد والهجرة وغيرها من العبادات، وبين أنصارٍ وهم الأوس والخزرج الذين آمنوا بالله ورسوله طوعًا ومحبة واختيارًا، وآووا رسول الله ﷺ ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موتلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر.

فلم يزل أنصار الدين تأوي إلى الأنصار حتى انتشر الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئاً فشيئاً وينمو قليلاً قليلاً حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسيف والسنان.

الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنهم ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ وهذا لمحبتهم لله ورسوله، أحبوا أحبابه، وأحبوا من

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا فَاقِمْهَا عَلَى أَصُولِهَا فَإِذَنْ لِلَّهِ وَلِي خَزِيءَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَا كُنَّ اللَّهُ يَسْطُرُ رُسُلَهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

نصر دينه.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾ أي: لا

يحبسون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله وخصهم به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها.

ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل من الأنصار، لأن الله قدمهم بالذكر، وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ أي:

ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم، الإيثار وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة.

ولهذا لا يكون إلا من خلُق زكي ومحبة لله تعالى، مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه حين أتر ضيفه بطعامه وطعام أهله

وأولاده وياتوا جياغاً .

والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من خصال البخل والشح .

ومن رزق الإيثار فقد وُفي شح نفسه ﴿ وَمَنْ يَوْعْ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ووقاية شح النفس يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وُفي العبد شح نفسه، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً متقاداً منشراحاً بها صدره وسمحت نفسه بتركه ما نهى الله عنه، وإن كان محبوباً للنفس تدعو إليه وتطلع إليه .

وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز .

بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير، الذي هو أصل الشر ومادته .

فهذان ^(١) الصنفان الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين وسادات المسلمين وقادات المتقين ^(٢) .

وحسب من بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم ويأتهم يهداهم، ولهذا ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم وسائر خلفهم فقال :

(١٠) ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي : من بعد المهاجرين والأنصار ﴿ يَقُولُونَ ﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ .

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، ولهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين ^(٣) التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً .

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب الشامل لقليل الغل وكثيره ^(٤) الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالاتة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين .

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم : ﴿ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ دليل على المشاركة في الإيمان ^(٥)، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة الذين لا يصدق لهذا الوصف التام إلا عليهم .

ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحدق عن قلوبهم

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكُتُبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ شَهِيدٌ لِمَن لَّمْ يَكْفُرْ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَيَنَّ الْأَدْبَارُ لَكُمْ لَئِنْ نَصَرْتُمْ لَيَنْصُرَنَّكُمْ ﴿١٢﴾ لَئِنْ نَصَرْتُمْ لَيُؤَيِّرَنَّ كَيْدَهُمْ فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُفْقَهُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بِيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرَّبُوا ذُفُوًا وَإِلَافًا وَهُمْ عَدَابُ الْمِمْ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾

لإخوانهم المؤمنين؛ لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضرًا وغائبًا حيًا وميتاً .

ودلت الآية الكريمة [على] أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض .

ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين دالين على كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جملته، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده، فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للنفي الذي صرفه راجع إلى مصالح الإسلام، وهؤلاء أهل الذين هم أهل، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه .

(١١-١٣) ثم تعجب تعالى من حال المنافقين الذين طمَّعوا إخوانهم من أهل الكتاب في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم : ﴿ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ

(١) كذا في ب، وفي أ : فهؤلاء . (٢) كذا في ب، وفي أ : المؤمنين .

(٣) كذا في ب، وفي أ : للمؤمنين . (٤) في ب : لقليله وكثيره . (٥) في ب : المشاركة فيه .

وَلَا تُطِيعُ فَيْكُوكَ أَحَدًا أَبَدًا ﴿١٤﴾ أي: لا تطيع في عدم نصرتكم أحدًا بعدلنا أو يخوفنا.

﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم.

ولا يستكثر هذا عليهم، فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم، ولهذا كذبهم [الله] بقوله، الذي وجد مخبره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال فقال: ﴿لَنْ أُرْجَاكُمْ﴾ من ديارهم جلاء ونفيًا ﴿لَا يَحْجِزُونَ عَنْهُمْ﴾ لمحبتهم للأوطان وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم^(١).

﴿وَلَنْ قُوتِلُوا لَا يَفْضَرُونَ﴾ بل يستولي عليهم الجبن ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم أحوج ما كانوا إليهم.

﴿وَلَنْ يَفْضَرُوهُمْ﴾ على الفرض والتقدير^(٢) ﴿لِيُؤْتِرَ الْأَذْبَرَ شَرًّا لَا يَضُرُّكَ﴾ أي: ليحصل منهم الإذبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

والسبب الذي أوجب لهم ذلك^(٣)، أنكم - أيها المؤمنون - ﴿أَشَدُّ رَهَبًا فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا على مخافة الخالق الذي بيده الضر والنفع والعطاء والمنع.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه، ومحبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعًا لها.

(١٤) ﴿لَا يَغْتَلِبُونَكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: في حال الاجتماع ﴿إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ أي: لا يثبتون لقتالكم^(٤) ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القرى، أو من وراء الجدر والأسوار.

فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناع، اعتمادًا [على] حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم، ولهذا من أعظم الذم.

﴿بِأَسْهُرَ بَيْنَهُمْ سَرِيذَةً﴾ أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا آفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الآفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: ﴿تَحَسَّبُهُمْ جَمِيعًا﴾ حين تراهم مجتمعين ومظاهرين.

﴿و﴾ لكن ﴿قُلُوبُهُمْ سَتَى﴾ أي: متباغضة متفرقة متشتتة. ﴿ذَلِكَ﴾ الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا عقل عندهم ولا لب، فإنهم لو كانت لهم

عقول، لآثروا الفاضل على المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطتين، ولكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية، مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا.

(١٥) وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة ﴿كَتَمَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم وقال: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ أَيَّامَ مِنَ النَّاسِ وَإِنَّ جَارَ لَكُمْ فَلَئِن تَرَآتِ الْفُلُكَيْنِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية.

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعوا عنهم العذاب حتى أتوا «بَدْرًا» بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمنائهم.

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم وأسروا من أسروا منهم وفر من فر.

وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم. هذا في الدنيا ﴿وَلَهُمْ﴾ في الآخرة عذاب النار.

(١٦) ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كَتَمَلِ الشَّيْطَانُ إِذْ قَالَ لِلنَّاسِ اكْفُرُوا﴾ أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه.

فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه و ﴿قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير.

(١٧) ﴿فَكَانَ عَقِبَهُمَا﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَدَعُوا حِزْبًا لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ الذين اشتروا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته.

وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدليهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرأ منهم وتخلي عنهم.

واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغايته ونهايته، فالمقدم على طاعته

(١) في ب: بالوعد. (٢) كذا في ب، وفي أ: على ضرب المثل. (٣) في ب: حملهم على ذلك. (٤) في ب: على قتالكم.

عاص على بصيرة لا عذر له .

(٢١-١٨) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَانظُرُوا نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ويقضيه من لزوم تقواه، سرًا وعلانية في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة .

فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم، وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم .

وإذا علموا أيضًا أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يهملها، أوجب لهم الجهد والاجتهاد .

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدتها، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصرًا في أمر من أوامره الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه وإتقانه .

ويقاس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياء بلا محالة .

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قومًا نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينجحوا ولم يحصلوا على طائل .

بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعها وفوائدها، فصار أمرهم فرطًا، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبنًا لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضاعوا في معاصيه .

فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغيره، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله ونسي حقوقه فشقي في الدنيا، واستحق

فَكَانَ عَاقِبَتُهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَانظُرُوا نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

العذاب في الآخرة .

فالأولون هم الفائزون والآخرون هم الخاسرون .

ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم^(١) ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجبًا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزله على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق .

وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على النفوس، وأيسرها على الأبدان، خالية من التكلف^(٢) لا تناقض فيها ولا اختلاف، ولا صعوبة فيها ولا اعتساف، تصلح لكل زمان ومكان وتليق لكل أحد .

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال، ويوضح لعباده في كتابه الحلال والحرام، لأجل أن يتفكروا في آياته

(١) في ب: وأمر عباده ونهاهم . (٢) كذا في ب، وفي أ: وأقلها تكلفًا .

ويتدبروها، فإن التفكير فيها يفتح للعبد خزائن العلم، ويبين له طرق الخير والشر، ويحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ويزجره عن مساوئ الأخلاق، فلا أنفع للعبد من التفكير في القرآن والتدبر لمعانيه.

(٢٢-٢٤) ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العام.

وكل إله سواه^(١) فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي، ثم كرر [ذكر] عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع ممالك لله، فقراء مدبرون.

﴿الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون، ولا يكون شيئاً إلا لحكمة ومصالحة.

تم تفسير سورة الحشر، فله الحمد على ذلك والمنة والإحسان.

تفسير سورة الممتحة

[وهي] مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٩-١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْفُوتَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَيُغَاثِ مَرْضَاتٍ تُشِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۝ إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالشُّوَءِ وَوَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ ۝ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أُولَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لَقَوْمِهِمْ إِنَّا بَرَاءُؤُا مِنْكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَأْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاعْفُ عَنَّا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ لَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقِيلُواكُمْ فِي الَّذِينَ وَلَّمْ تَجْرِمُوهُمْ مِنْ دِينِكُمْ أَنْ يَتَوَلَّوْهُمُ وَيَسْطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلْتُمْ فِي الَّذِينَ وَالْحَرْبُكَ مِنْ

(١) في ب: غيره.

﴿الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذه الآيات الكريمة قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى، عظيمة الشأن وبديعة البرهان، فأخبر أنه الله المألوه المعبود الذي لا إله إلا هو، وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل وتدبيره العام.

وكل إله سواه^(١) فإنه باطل لا يستحق من العبادة مثقال ذرة، لأنه فقير عاجز ناقص لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً، ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل، لما غاب عن الخلق وما يشاهدونه، وبعموم رحمته التي وسعت كل شيء، ووصلت إلى كل حي، ثم كرر [ذكر] عموم إلهيته وانفراده بها، وأنه المالك لجميع الممالك، فالعالم العلوي والسفلي وأهله، الجميع ممالك لله، فقراء مدبرون.

﴿الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يريد شيئاً إلا ويكون، ولا يكون شيئاً إلا لحكمة ومصالحة.

تم تفسير سورة الحشر، فله الحمد على ذلك والمنة والإحسان.

﴿الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

﴿الْقُدُّوسُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ الْفُؤَادُ أَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ سُبْحَانَ اللَّهِ عَلَمًا يَتَّبِعُونَ ۝ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

سُورَةُ الْمُحْتَمَلِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

٥٤٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ
 إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ
 وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ
 وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ
 وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ
 يَشْفِقُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ
 بِالسُّوءِ وَوَدُّوا أَنْ تُكْفَرُوا ۚ لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ قَدْ
 كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ
 إِنَّا بَرَاءٌ وَأَنْتُمْ مَعَكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا
 وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ ۗ وَالْآ
 قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا سَعْفَرْنَ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۗ
 رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَكَ مَا تَشَاءُ وَارْتَبْنَا بِكَ الْوَدَّ وَالْحُبَّ ۗ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
 فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَارْحَمْنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾

وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة وهو الله تعالى .

فلما عرضوا عن هذا الأمر الذي هو أوجب الواجبات ،

وقتمت به ، عادوكم وأخرجوكم - من أجله - من دياركم .

فأي دين وأي مروءة وعقل يبقى مع العبد إذا والى الكفار
 الذين لهذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟ ولا يمنعهم منه إلا
 خوف أو مانع قوي .

﴿ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي ﴾ أي : إن كان
 خروجكم مقصودكم به الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ،
 وابتغاء مرضاة الله (٣) فاعملوا بمقتضى هذا من موالاة أولياء
 الله ومعاداة أعدائه ، فإن هذا هو الجهاد في سبيله (٤) ، وهو من
 أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى ربهم ، ويتغون به رضاه .

﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُ ﴾ أي :
 كيف تسرون المودة للكافرين وتخفونها ، مع علمكم أن الله
 عالم بما تخفون وما تعلنون؟! فهو وإن خفي على المؤمنين

وَيُرِيكُمْ وَظَهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يُوَلِّمْهُمُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤﴾
 ذكر كثير من المفسرين [رحمهم الله] أن سبب نزول هذه
 الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة حين غزا النبي
 ﷺ غزوة الفتح .

فكتب حاطب إلى قريش (١) يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ
 إليهم ، ليأخذ بذلك يداً عندهم [لا شكاً] و[انفاقاً] ، وأرسله مع
 امرأة .

فأخبر النبي ﷺ بشأنه ، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها
 وأخذ منها الكتاب .

وعاتب حاطباً فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ .

وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالاة الكفار من
 المشركين وغيرهم ، وإلقاء المودة إليهم ، وأن ذلك مناف
 للإيمان ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام ،
 ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو ،
 الذي لا يبقى من مجهوده في العداوة شيئاً ، ويتنزه الفرصة في
 إيصال الضرر إلى عدوه ، فقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾
 اعملوا بمقتضى إيمانكم من ولاية من قام بالإيمان ، ومعاداة
 من عاداه ، فإنه عدو الله وعدو للمؤمنين .

فلا تتخذوا عدو الله ﴿ وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ ﴾
 أي : تسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها ، فإن المودة
 إذا حصلت تبعثها النصرة والموالاة ، فخرج العبد من
 الإيمان ، وصار من جملة أهل الكفران وانفصل عن أهل
 الإيمان .

وهذا المتخذ للكافر ولياً ، عادم المروءة أيضاً ، فإنه كيف
 يوالي أعدى أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر ، ويخالف ربه
 ووليه الذي يريد به الخير ، ويأمره به ويحثه عليه؟ وما يدعو
 المؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار ، أنهم قد كفروا بما جاء
 المؤمنين من الحق ، ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة ،
 فإنهم قد كفروا بأصل دينكم ، وزعموا أنكم ضلال على غير
 هدى .

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية ، ومن
 رد الحق فمحال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة
 قوله ، بل مجرد العلم بالحق (٢) يدل على بطلان قول من رده
 وفساده .

ومن عداوتهم البليغة أنهم ﴿ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ﴾ أيها
 المؤمنون من دياركم ويشردونكم من أوطانكم .

ولا ذنب لكم في ذلك عندهم إلا أنكم تؤمنون بالله ربكم
 الذي يتعين على الخلق كلهم القيام بعبوديته ، لأنه رباهم

(١) في ب : إلى المشركين من أهل مكة . (٢) كذا في ب ، وفي أ : مجرد
 رد الحق . (٣) في ب : وابتغاء رضاه . (٤) في ب : هذا من أعظم
 الجهاد في سبيله .

فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك.

فليس لكم أن تدعوا للمشركين وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ آسَفَقَارَٰ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِنِّيَآءَ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّا إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾.

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأتابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير فقالوا: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

﴿وَأِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك^(١).

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا ويمنعوننا مما يقدر عليهم من أمور الإيمان، ويفتنون أيضًا بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق، وأنا على الباطل، فازدادوا كفرًا وطغيانًا.

﴿وَاعْفِرْ لَنَا﴾ ما اقترفنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْقَاهِرُ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها فبعزتك^(٢) وحكمتك انصرنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا وأصلح عيوبنا.

ثم كرر الحث [لهم] على الاقتداء بهم فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب يسهل على العبد كل عسير، ويقلل لديه كل كثير، ويوجب له الإكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقرًا مضطرًا إلى ذلك غاية الاضطرار.

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن طاعة الله والتأسي برسول الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئًا.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي له الغنى التام [المطلق] من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه [بوجه].

فلا يخفى على الله تعالى، وسيجازي العباد بما يعلمه منهم من الخير والشكر.

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْلَكُمْ﴾ أي: موالة الكافرين بعدما حذركم الله منها ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لأنه سلك مسلكًا مخالفًا للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تهيجًا للمؤمنين على عداوتهم ﴿إِنْ يَبْقَوْكُمْ﴾ أي: يجدوكم، وتسنح لهم الفرصة في أذاكهم.

﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءَ﴾ ظاهرين ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ بالقتل والضرب ونحو ذلك.

﴿وَأَلْبِسْنَاهُمْ آلِهَتَهُمْ﴾ أي: بالقول الذي يسوء من شتم وغيره. ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

فإن احتجاجهم وقتلهم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئًا ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فلذلك حذركم من موالة الكافرين الذين تضركم موالاتهم.

قد كان لكم يا معشر المؤمنين ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي: قدوة صالحة وائتمام بضعكم.

﴿قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفًا.

﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين ومما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح فقالوا: ﴿كَفَرْنَا بِكَ يَا بَدِئَ﴾ أي: ظهر وبان ﴿بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ أي: بغض بالقلوب وزوال مودتها والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أَبَدًا﴾ ما دتم مستمرين على كفركم ﴿حَتَّىٰ تُوَفِّيُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ أي: فإذا أمتمت بالله وحده زالت العداوة والبغضاء، وانقلب مودة وولاية.

فلكم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام بلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به الله وحده.

﴿إِلَّا﴾ في خصلة واحدة وهي ﴿قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ﴾ أزر المشرك الكافر المعاند حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع فقال إبراهيم: ﴿لَأَسْتَفِرَّنَّ لَكَ وَ﴾ الحال أنني لا ﴿أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ لكني أدعو ربي عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقيًا.

(١) في ب: ما يزلنا إليك. (٢) كذا في ب، وفي أ: فمن عزتك.

﴿الْحَمِيدُ﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله.

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة^(١) الإيمانية ترجع.

فلا تياسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان.

ف ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَدَاوَةً بَيْنَهُمْ مُّؤَدَّةً﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان.

﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب، وتقليبها من حال إلى حال.

﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يتعاطمه ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره ﴿قُلْ يَكِيدِىَ الَّذِينَ أَنْفُسَهُمْ لَآ تَقْضُوا بَرَأً مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وفي هذه الآية إشارة وبشارة إلى إسلام بعض المشركين الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، والله الحمد والمنة.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمات المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه.

فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم فقال: ﴿لَا يَنْهَىٰكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْبِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوا مِن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم.

فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلحتهم في هذه الحالة لا محذور فيها ولا مفسدة^(٢) كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلماً: ﴿وَإِن جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ﴾.

[وقوله]: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ﴾ أي:

لأجل دينكم عداوة لذين الله ولمن قام به.

﴿وَأَخْرَجُوا مِن دِينِكُمْ وَظَهَرُوا﴾ أي: عاونوا غيرهم ﴿عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾.

نهاكم الله ﴿أَن تَوَلَّوهُمْ﴾ بالمودة والنصر بالقول والفعل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥٠

سُورَةُ الْمَمْتَحَنَةِ

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ
وَمَن يَتَّبِعِ الْهُدَىَٰ مِنَ اللَّهِ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَجْعَلَ
بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَدَاوَةً بَيْنَهُمْ مُّؤَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ
عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَا يَنْهَىٰكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقْبِلُوكُمْ فِي الدِّينِ
وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِينِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ
يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ
وَإَخْرَجُواكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ
وَمَن يَتَّبِعِ الْهُدَىَٰ مِنَ اللَّهِ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٩﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمْ اللَّهُ
عَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ ذَكَرْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَنفَقُوا فِي الدِّينِ
مُهَيِّجَةً فَامْتَحِنُوهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِابْتِهَاسِكُمْ إِن كُنْتُمْ مِّنْ
مُّؤْمِنِينَ فَلَا تَرْجِعُوهُمْ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَن حَلَّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ
لَهُمْ وَإِذَا تَوَلَّوهُمْ مَّا أَنفَقُوا وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ
إِذَا عَلِمْتُمُوهُنَّ مِثْرَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكُفَّارِ
وَسَلُّوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَا تُسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا
أُمَّةً قَدِ افْتَرَتْ عَلَى اللَّهِ آيَاتٍ هُتِفَتْ لَهَا زُجُودًا
مِّمَّنْ لَمْ يَكُن لَهَا كُفْرَانٌ وَلَئِن سَأَلْتُمُوهُنَّ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا
عِنْدَهُنَّ حُرًّا بِأَمْوَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَأْتِكُم مِّن لَّدُنَّ فَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ
أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَانطَوِّا الَّذِينَ ذُكِرُوا
مِنْهُمْ يَتَّبِعُوا آلَهُمْ إِنْ أَتَوْهُم بِبُرْهَانٍ وَاللَّهُ يَبْصُرُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمٌ ﴿١١﴾

وأما بركم وإحسانكم الذي ليس يتول للمشركين، فلم ينهكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الأدميين وغيرهم.

﴿وَمَن يَتَّبِعِ الْهُدَىَٰ مِنَ اللَّهِ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي.

فإن كان تولياً تاماً، صار^(٣) ذلك كفرًا مخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ وما هو دون ذلك.

(١٠، ١١) ﴿يَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مَهْجُرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِابْتِهَاسِكُمْ إِن كُنْتُمْ مِّنْ مُّؤْمِنِينَ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَنَّهُنَّ كَلِّمُنَّ مَا لَهُنَّ مِثْرَةٌ وَلَا يَكُونُ لَهُنَّ مِثْرَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكُفْرِ إِذْ ذُكِرْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَنفَقْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ مَا أَنفَقْتُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا أُمَّةً قَدِ افْتَرَتْ عَلَى اللَّهِ آيَاتٍ هُتِفَتْ لَهَا زُجُودًا مِّمَّنْ لَمْ يَكُن لَهَا كُفْرَانٌ وَلَئِن سَأَلْتُمُوهُنَّ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا عِنْدَهُنَّ حُرًّا بِأَمْوَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَأْتِكُمْ مِّن لَّدُنَّ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَانطَوِّا الَّذِينَ ذُكِرُوا مِنْهُمْ يَتَّبِعُوا آلَهُمْ إِنْ أَتَوْهُم بِبُرْهَانٍ وَاللَّهُ يَبْصُرُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمٌ﴾ لما كان صلح

(١) في ب: والمودة. (٢) في ب: ولا تبعة. (٣) في ب: كان ذلك.

فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه،
لزم أن يعطيه المسلمون من الغنيمة بدل ما أنفق^(٥).

﴿وَأْتَقُوا اللَّهَ الْذِي أُنذِرَ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإيمانكم بالله يقتضي

منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى على الدوام.

(١٢) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبْعَثَنَّ عَلَيْكَ عَلٌّ أَنْ لَا يَشْرَكَكَ

بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمُهْتَنٍ

يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعُهُنَّ

وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هذه الشروط المذكورة في
هذه الآية تسمى «بايعة النساء» اللاتي [كن] يبايعن على إقامة

الواجبات المشتركة التي تجب على الذكور والنساء في جميع
الأوقات.

وأما الرجال فينفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم
وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمثل ما أمره الله به.

فكان إذا جاءته النساء يبايعنه، والتزمن بهذه الشروط
بإيعنه، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن

من التقصير^(٦)، وأدخلهن في جملة المؤمنات بأن ﴿لَا يَشْرَكَكَ

بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ بأن^(٧) يفردن الله [وحده] بالعبادة.

﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ كما يجري لنساء الجاهلية الجهلاء.

﴿وَلَا يَزْنِينَ﴾ كما كان ذلك موجودًا كثيرًا في البغايا وذوات
الأخدان.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِمُهْتَنٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ والبهتان:
الافتراء على الغير أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت

بهن وأزواجهن^(٨) أو سواء تعلق ذلك بغيرهم.

﴿وَلَا يَعْصِيَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: لا يعصينك في كل أمر
تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمعروف، ومن ذلك

طاعتهن [لك] في النهي عن النياحة وشق الثياب وخمش
الوجه والدعاء بدعاء^(٩) الجاهلية.

﴿فَبَايِعُهُنَّ﴾ إذا التزمن بجميع ما ذكر.

﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ﴾ عن تقصيرهن وتطبيبات لخواطرن.
﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ أي: كثير المغفرة للعاصين والإحسان إلى

المدننين التائبين.

﴿رَحِيمٌ﴾ وسعت رحمته كل شيء وعم إحسانه البرايا.

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ

الحدبية صالح النبي ﷺ المشركين على أن من جاء منهم إلى
المسلمين مسلمًا، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظًا عامًا
[مطلقًا] يدخل في عمومه النساء والرجال.

فأما الرجال فإن الله لم يَنْهَ رسوله عن ردهم إلى المشركين
وفاء بالشرط وتتميمًا للصلح الذي هو من أكبر المصالح.

وأما النساء فلما كان ردهن فيه مفسد كثيرة، أمر الله
المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق

إيمانهن، أن يمتحنوهن ويختبروهن بما يظهر به صدقهن من
إيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق

بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف تعين ردهن وفاء بالشرط من غير
حصول مفسدة، وإن امتحنوهن فوجدن صادقات، أو علما

ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعهن إلى الكفار.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن
راعاهما الشارع، وراعى أيضًا الوفاء بالشرط بأن يعطوا الكفار

أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضًا عنهن.

ولا جناح حيثنذ على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن
أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من

المهر والنفقة.

وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل
للمسلم أن يمسخها ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب،

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا عِصْمَ الْكُفَّارِ﴾ وإذا نهى عن
الإمساك بعصمتها^(١)، فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى.

﴿وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم
مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين

نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا
مقابلة ما ذهب من نسائهم^(٢) إلى الكفار.

وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم، فإذا
أفسد مفسد نكاح امرأة رجل برضاع أو غيره، كان عليه ضمان

المهر.

وقوله: ﴿ذُلِّمَ الْحَكْمَ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ وَبَيَّنَّهُ لَكُمْ يَحْكُمُ بِهِ

بَيْنَكُمْ﴾^(٣)

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فيعلم تعالى ما يصلح لكم من
الأحكام ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة^(٤).

وقوله: ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ بأن ذهبن
مرتدات ﴿فَعَاقِبْتُمْ فَاتُوا الذَّرِبَ﴾ ذهبت أزواجهن مثل ما أنفقوا كما
تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهن
إلى المسلمين.

(١) كذا في ب، وفي أ: بعضها. (٢) في ب: زوجاتهم. (٣) في ب:
وبينه لكم حكم الله بينه لكم ووضحه. (٤) في ب: فيشرعه بحسب حكمته
ورحمته. (٥) في ب: فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنيمة بدل ما
أنفق. (٦) كذا في ب، وفي أ: يحصل من التقصير منهن. (٧) في ب:
بل. (٨) في ب: مع أزواجهن. (٩) في ب: بدعوى.

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ بِمَا بَعَثَكَ عَلَيْكَ أَنْ لَا يَشْرُكَنَّ
بِاللَّهِ سِتْرًا وَلَا يَشْرُفْنَ وَلَا يَرْزَيْنَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ
بِمُهْتَنٍ يَفْرِيهِنَّ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْيِصْنَكَ
فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ إِنْ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾
يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَانْتَوَلُوا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
فَلْيَسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسِ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾
يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾
كَبْرًا مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْلِتُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ
بُنِينَ مَرصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَقُولُوا لِمَ
تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ وَأَيُّ رَسُولٍ لِلَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا
زَاعُوا أَرْزَاعَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰسِقِينَ ﴿٥﴾

يَسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَسِ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾ أي: يا أيها
المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم ومتبعين لرضاه ومجانبيين
لسخطه.

﴿لَا نَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ وإنما غضب عليهم
لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار.

﴿قَدْ يَسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: قد حرموا من خير الآخرة،
فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على
شرهم وكفرهم^(١)، فتحرموا خير الآخرة كما حرموا.

[وقوله: ﴿كَمَا يَسِ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ حين أفضوا
إلى الدار الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر^(٢)، وعلموا علم
اليقين أنهم لا نصيب لهم منها.

ويحتمل أن المعنى: قد يسوا من الآخرة أي: قد أنكروها
وكفروا بها.

فلا يستغرب حينئذ منهم الإقدام على مساخط الله
وموجبات عذابه وإياسهم من الآخرة، كما يش الكفار
المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله
تعالى.

تم تفسير سورة الممتحنة، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الصف

[وهي مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ ○ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ○ كَبْرًا
مَّقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ وهذا بيان لعظمته تعالى
وقهره، وذو جميع الخلق^(٣) له تبارك وتعالى، وأن جميع من
في السماوات والأرض يسبحون بحمد الله ويعبدونه ويسألونه
حوادثهم.

﴿هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه
﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وأمره.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ أي: لم
تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه
وتتهون عن الشر، وربما نزهتم أنفسكم عنه وأنتم متلوثون به
متصفون به.

فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت
عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟.

ولهذا ينبغي للأمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة،
وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالى:
﴿أَتَذَكَّرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَسْوُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ﴾.

وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أَخَالِكُمْ إِلَّا مَا أَنْهَكُمْ عَنْهُ﴾.

(٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْلِتُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ
بُنِينَ مَرصُوصٌ﴾ هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله
وتعليم لهم كيف يصنعون، وأنه ينبغي لهم أن يصفوا في
الجهاد صفًا متراصًا متساويًا من غير خلل يقع^(٤) في
الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب، به تحصل
المساواة بين المجاهدين والتعااض وإرهاب العدو وتنشيط
بعضهم بعضًا.

ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال صف أصحابه،
ورتبهم في مواقعهم بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على
(١) في ب: وشركهم. (٢) في ب: وشاهدوا. (٣) في ب: الأشياء
له. (٤) في ب: يحصل.

بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

(٥) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِغُفَّارٍ لِّلَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَنَّهُم مُّصَدِّقَاتُ آلِ رَسُولِ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَاذِبُونَ وَلَقَدْ كَفَرَ يَاقُوبُ إِسْرَائِيلَ إِذْ رَأَىٰ رُسُلَهُ يَأْتُونَكَ بِالْبَيِّنَاتِ مَعَهَا كِتَابٌ مِّن رَّبِّكَ وَمَا هِيَ إِلَّا تُحْقِيقُ لِمَا كُنْتَ تَعْلَمُ ۗ﴾ وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فيعسى عليه الصلاة والسلام كالأنبياء^(٤)، يصدق بالنبي السابق، ويشر بالنبي اللاحق بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق والأمر والنهي.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الأدلة الواضحة الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله [حقاً].

﴿قَالُوا﴾ معاندين للحق مكذابين له: ﴿هَذَا بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وهذا من أعجب العجائب.

الرسول الذي [قد] وضحت رسالته، وصارت أئبين من شمس النهار، يجعل ساحراً بيتاً سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم^(٥) من هذا الافتراء الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته لأنه ﴿يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ ويبين له ببراهينه وبياناته.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين لا تردهم عنه موعظة ولا يزرهم بيان ولا برهان.

خصوصاً هؤلاء الظلمة القائمين بمقاولة الحق ليردوه ولينصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَابِهِمْ﴾ أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة التي يرذون بها الحق، وهي^(٦) لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل.

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة^(٧) نوره على سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبدلوا بسبب - كراهتهم - كل سبب يتوصلون^(٨) به إلى إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون.

بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهتمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

(٥) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِغُفَّارٍ لِّلَّذِينَ يَكْفُرُونَ أَنَّهُم مُّصَدِّقَاتُ آلِ رَسُولِ اللَّهِ إِنَّهُمْ كَاذِبُونَ وَلَقَدْ كَفَرَ يَاقُوبُ إِسْرَائِيلَ إِذْ رَأَىٰ رُسُلَهُ يَأْتُونَكَ بِالْبَيِّنَاتِ مَعَهَا كِتَابٌ مِّن رَّبِّكَ وَمَا هِيَ إِلَّا تُحْقِيقُ لِمَا كُنْتَ تَعْلَمُ ۗ﴾ وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فيعسى عليه الصلاة والسلام كالأنبياء^(٤)، يصدق بالنبي السابق، ويشر بالنبي اللاحق بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق والأمر والنهي.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الأدلة الواضحة الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله [حقاً].

﴿قَالُوا﴾ معاندين للحق مكذابين له: ﴿هَذَا بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ وهذا من أعجب العجائب.

الرسول الذي [قد] وضحت رسالته، وصارت أئبين من شمس النهار، يجعل ساحراً بيتاً سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم^(٥) من هذا الافتراء الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته لأنه ﴿يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ﴾ ويبين له ببراهينه وبياناته.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين لا تردهم عنه موعظة ولا يزرهم بيان ولا برهان.

خصوصاً هؤلاء الظلمة القائمين بمقاولة الحق ليردوه ولينصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَابِهِمْ﴾ أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة التي يرذون بها الحق، وهي^(٦) لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل.

﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ أي: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة^(٧) نوره على سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبدلوا بسبب - كراهتهم - كل سبب يتوصلون^(٨) به إلى إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون.

(٦-٩) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ يَا رُسُلَ اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ مَّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرُسُولِي يُأْتِي مِن بَعْدِي أُمَّةٌ مِّنكُمْ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَمَنْ يَدْعُو إِلَى الْإِسْلَامِ إِلَى الْإِسْلَامِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَابِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ يقول تعالى مخبراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿بَيِّنَاتٍ إِسْرَائِيلَ﴾ أي: آيات من التوراة ﴿يَأْتِيكُمْ﴾ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرايع السماوية.

(١) في ب: والقيام. (٢) في ب: ليس. (٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال. (٤) في ب: كسائر الأنبياء. (٥) في ب: أبلغ. (٦) كذا في ب، وفي أ: التي. (٧) في ب: وإظهار. (٨) في ب: كل ما قدروا عليه مما يتوصلون.

بالنعم المقيم .

وأتى بأداة العرض الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل متبصر، ويسمو إليه كل لبيب فكأنه قيل: ما هذه التجارة التي لهذا قدرها؟ فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ .

ومن المعلوم أن الإيمان التام هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح ومن أجل أعمال الجوارح الجهاد في سبيل الله^(٣)، فلهذا قال: ﴿وَيُؤْمِنُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم لمصادمة أعداء الإسلام والتصد نصر دين الله وإعلاء كلمته .

وتنفقون ما تسر من أموالكم في ذلك المطلوب، فإن ذلك ولو^(٤) كان كريهاً للنفوس شاقاً عليها فإنه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فإن فيه الخير الدنيوي من النصر على الأعداء، والعز المنافي للذل والرزق الواسع وسعة الصدر وانسراحه . وفي الآخرة الفوز^(٥) بثواب الله والنجاة من عقابه، ولهذا ذكر الجزاء في الآخرة فقال:

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وهذا شامل للصغائر والكبائر فإن الإيمان بالله والجهاد في سبيله مكفر للذنوب ولو كانت كبائر .
﴿وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي: من تحت مساكنها [وقصورها] وغرفها وأشجارها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات .
﴿وَسَسَكُنْكُمْ ظِلِّينَ فِي جَنَّاتٍ عَالِيَةٍ﴾ أي: جمعت كل طيب من علو وارتفاع وحسن بناء وزخرفة .

حتى إن أهل الغرف من أهل عليين، يتراءاهم أهل الجنة كما يتراءى الكوكب الدرّي في الأفق الشرقي أو الغربي .
وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان حتى إنها من صفائها يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواصفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه، ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به .

ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح،

وصاروا بمنزلة من ينفخ عين الشمس بفيه^(١) ليطفئها، فلا على مرادهم حصلوا، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها .

ثم ذكر سبب الظهور والانصار للدين الإسلامي، الحسي والمعنوي فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ أي: بالعلم النافع والعمل الصالح .

بالعلم الذي يهدي إلى الله وإلى دار كرامته، ويهدي لأحسن الأعمال والأخلاق، ويهدي إلى مصالح الدنيا والآخرة .

﴿وَيَدِينُ الْحَقِّ﴾ أي: الدين الذي يدان به ويتعبد لرب العالمين الذي هو حق وصدق، لا نقص فيه ولا خلل يعتريه، بل وأمره غذاء القلوب والأرواح وراحة الأبدان .

وترك نواحيه سلامة من الشر والفساد^(٢) فما بعث به النبي ﷺ من الهدى ودين الحق، أكبر دليل وبرهان على صدقه، وهو برهان باق ما بقي الدهر، كلما ازداد به العاقل تفكيراً ازداد به فرحاً وتصبراً .

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، ويظهر أهله القائمين به بالسيف والسنان .

فأما نفس الدين، فهذا الوصف ملازم له في كل وقت، فلا يمكن أن يغالبه مغالب أو يخاصمه مخاصم إلا فلجحه وبلسه، وصار له الظهور والقهر، وأما المتسبون إليه فإنهم إذا قاموا به واستناروا بنوره واهتدوا بهديه في مصالح دينهم ودنياهم، فكذلك لا يقوم لهم أحد، ولا بد أن يظهرها على أهل الأديان .

وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه لم ينفعهم ذلك، وصار إهمالهم له سبب تسليط الأعداء عليهم .

ويعرف هذا، من استقرأ الأحوال ونظر في أول المسلمين وآخرهم .

(١٠-١٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَجْرَجٍ يُجْرِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ إِلَيْمِ ۖ تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَسَسَكُنْكُمْ فِي جَنَّاتٍ عَالِيَةٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ إِذْ أَنْصَرْتُمْ مِنَ اللَّهِ وَفَتَحَ قَرِيْبٌ وَيَخِرَّ الْمُؤْمِنِينَ ۖ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَصْأَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَرْتُمْ إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَأَمَّنَتْ طَلِيْقَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَلِيْقَةٌ فَأَبَدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَذَابِهِمْ فَاصْبِرُوا ظَاهِرِينَ﴾ هذه وصية ودلالة وإرشاد من أرحم الراحمين لعباده المؤمنين، لأعظم تجارة وأجل مطلوب وأعلى مرغوب يحصل بها النجاة من العذاب الأليم والفوز

(١) في ب: ومثلهم كمثل من ينفخ عين الشمس . (٢) كذا في ب، وفي أ: وترك للنواهي التي تعاطيها سبب الشر والفساد . (٣) في ب: التي من أجلها الجهاد في سبيله . (٤) في ب: وإن كان . (٥) في ب: والخير الأخروي بالفوز .

فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أتى على نفسه وفوق ما يثني عليه عباده^(١).

وتبارك الجليل الجميل الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة التي من جعلتها أن الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها^(٢) ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هناهم العيش في هذه الدار المنغصة المشوب نعيمها بألمها وسرورها^(٣) بترحها.

وسميت الجنة جنة عدن لأن أهلها مقيمون فيها لا يخرجون منها أبداً، ولا يبغون عنها حولا، ذلك الثواب الجزيل والأجر الجميل، الفوز العظيم الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخرى.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة فذكره بقوله: ﴿وَأَخْرَجُوا مِنْهَا﴾ أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحيونها، وهي ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [لكم] على الأعداء، يحصل به العز والفرح.

﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ تتسع به دائرة الإسلام ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين.

وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد [إذا قام غيرهم بالجهاد]^(٤) فلم يؤسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿وَيُنِيرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: [إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدتها الله للمجاهدين في سبيله]^(٥).

ثم قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُفُورًا أَصَارَ اللَّهُ﴾ [أي:] بالأقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص على إقامته^(٦) تنفيذه على الغير، وجهاد من عانده ونابذه، بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق، بدحض حجته، وإقامة الحججة عليه، والتحذير منه.

ومن نصر دين الله، تَعَلَّمَ كتاب الله وستة رسوله، والحث على ذلك، [والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر].

ثم هيج الله المؤمنين بالافتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿كَأَنَّ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنَ أَنْصَارٍ إِلَى اللَّهِ﴾، أي: قال لهم عارضاً ومنهضاً^(٧): من يعاونني، ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي، ويخرج مخرجي؟.

فابتدر الحواريون فقالوا: ﴿تَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين.

سُورَةُ الصَّفِّ

٥٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَقَالَ عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بِيَدِي مِنَ التَّورَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْهَرُ مِنْ أَفْرَاقٍ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَ الذِّكْرِ عَلَى تَعَدُّرٍ تُنَجِّحُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَمَّنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ كَبْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأَخْرَجُوا مِنْهَا نَصْرًا مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴿١٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عَيْسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَتَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴿١٤﴾

﴿تَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ بسبب دعوة عيسى والحواريين.

﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين.

﴿أَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ أي: قويناهم، ونصرناهم عليهم. ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ عليهم وقاهرين [لهم].

فأتمم يا أمة محمد، كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم ويظهركم على عدوكم.

تمت والله الحمد^(٨).

(١) في ب: أحد من خلقه. (٢) في ب: أنه لو رأى العباد الجنة. (٣) في ب: وفرحها. (٤) زيادة من هاشم ب. (٥) في ب: جاء بدلاً من هذا الحديث ما يلي: [كما قال النبي ﷺ: (من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسلاً، وجبت له الجنة) فعجب لها أبو سعيد الخدري - راوي الحديث - فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعدها عليه ثم قال: (وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) فقال: وما هي يا رسول الله قال: (الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله) رواه مسلم. (٦) في ب: على تنفيذه. (٧) في ب: قال لهم منها. (٨) في ب: تم تفسيرها، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الجمعة

[وهي مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ﴿يَسْبِغُ لَكَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ أي: يسبح لله، وينقاد لأمره، ويتألهه، ويعبده، جميع ما في السماوات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع مماليكه وتحت تديره.

﴿الْقُدُّوسِ﴾ المعظم، المنزه عن كل آفة ونقص، ﴿الْعَزِيزِ﴾ الفاهر للأشياء كلها ﴿الْحَكِيمِ﴾ في خلقه وأمره. فهذه الأوصاف العظيمة، مما تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

(٢-٤) ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلُّوا ضَلِيلًا ۖ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة، من العرب وغيرهم ممن ليسوا من أهل الكتاب.

فامتن الله تعالى عليهم منة عظيمة، أعظم من منته على غيرهم، لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ضلال مبين، يتعبدون للأشجار والأصنام والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قوتهم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء.

فبعث الله فيهم رسولاً منهم، يعرفون نسبه، وأوصافه الجميلة وصدقه.

وأُنزل عليه كتابه ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين.

﴿وَزَكَّيَهُمْ﴾ بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة، ويفصلها لهم، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة.

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: علم القرآن^(١) وعلم السنة، المشتتمل ذلك علوم الأولين والآخرين.

فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقاً، وأحسنهم هدياً وسمتاً. اهدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم فصاروا أئمة المهتدين، وهداة المؤمنين^(٢)، فلله عليهم، ببعثه هذا الرسول

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

٥٥٣

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْبِغُ لَكَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَيْلٍ ضَلُّوا ضَلِيلًا ۖ وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٣﴾ مِثْلَ الَّذِينَ حَمَلُوا الثُّرَيَّةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمِثْلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤﴾ قُلْ يَتَىٰهَا الَّذِينَ هَادُوا وَإِنْ رَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أُولِيَاءَ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٥﴾ وَلَا يَمْنُنَوهَ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٦﴾ قُلْ إِنْ أَلْمَوْتُ الَّذِي يُقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

﴿أكمل نعمة، وأجل منحة.

وقوله: ﴿وَآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: وامتن على آخرين من غيرهم، أي: من غير الأميين، ممن يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم، أي: فيمن باشر^(٣) دعوة الرسول.

ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كل فكلا المعنيين صحيح.

فإن الذين بعث الله فيهم رسوله، وشاهدوه، وباشروا دعوته، حصل لهم من الخصائص والفضائل، ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها، وهذا من عزته وحكمته، حيث لم يترك عباده هملاً ولا سدى، بل ابتعث فيهم الرسل، وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله العظيم، الذي يؤتیه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق، وغير ذلك من النعم الدنيوية.

(١) في ب: علم الكتاب. (٢) في ب: وقادة المتقين. (٣) كذا في ب، وفي أ: باشروا.

فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز، والسعادة الأبدية.

(٨-٥) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الثَّوَابَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَا يَمْتَنُونَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝ قُلْ إِنْ الْمَوْتُ أَلَدَىٰ فُجُورِكُمْ وَمِنْهُ فَانْتَبَهُوا لَتَكُونُنَّ مِنْكُمْ جُنُودًا أَلَدًا قُلْ لِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِلشَّهِيدَةِ فَيُنشِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لما ذكر الله منته على هذه الأمة الذين اتبعث فيهم النبي الأمي، وما خصهم الله به من المزايا والمناقب، التي لا يلحقهم فيها أحد.

وهم الأمة الأمية الذين فاقوا الأولين والآخرين، حتى أهل الكتاب، الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون، والأخبار المتقدمون، ذكر أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود وكذا النصرى، وأمرهم أن يتعلموها، ويعملوا بما فيها^(١) وأنهم لم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به أنهم لا فضيلة لهم، وأن مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل فوق ظهره أسفارًا من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟.

فهذا مثل علماء اليهود^(٢) الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبطارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه، من التوراة إلا الخيبة والخسران، وإقامة الحججة عليه؟. فهذا المثل مطابق لأحوالهم.

﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، أي: لا يرشدهم إلى مصالحهم، ما دام الظلم لهم وصفًا، والعناد لهم نعتًا. ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس.

ولهذا أمر الله رسوله أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم، أنكم على الحق، وأولياء الله: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾ وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدي الذي جعله الله دليلًا على صدقهم إن تمنوه، وكذبهم^(٣) إن لم يتمنوه.

ولما لم يقع منهم، مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون ببطان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَمْتَنُونَهُ﴾

أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الذنوب والمعاصي، التي يستوحشون من الموت من أجلها.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء.

هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون منه [غاية الفرار] فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم.

ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة، إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير.

(٩-١١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَدِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة، والمبادرة إليها من حين ينادى لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العُدو الذي قد نهى عنه عند المضي إلى الصلاة.

وقوله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة وامضوا إليها.

فإن ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ من اشتغالكم بالبيع، وتقويتكم الصلاة الفريضة، التي هي من أكد الفروض.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من أثر الدنيا على الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع، مؤقت مدة الصلاة.

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال في التجارة، مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا﴾، أي: في حال قيامكم وقعودكم، وعلى جنوبكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾، أي: خرجوا من المسجد، حرصًا على ذلك اللهو، و[تلك] التجارة، وتركوا

(١) في ب: ويعملوا بها. (٢) في ب: علماء أهل الكتاب. (٣) كذا في ب، وفي أ: أو كذبهم.

الخير ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ تخطب الناس، وذلك [في] يوم الجمعة بينما النبي ﷺ يخطب الناس، إذ قدم المدينة عبر تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها، وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك أدب.

﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الأجر والثواب، لمن لازم الخير، وصبر نفسه على عبادة ربه.

﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوَمِنَ الْبِحْرَةِ﴾ التي، وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق.

فإن الله خير الرازيقين فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحتسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة:

منها: أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها، والمبادرة والاهتمام بشأنها.

ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة، فريضتان^(١) يجب حضورهما، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

ومنها: مشروعية النداء ليوم الجمعة والأمر به.

ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد نداء الجمعة، وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه.

فدل ذلك على أن كل أمر، ولو كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب، فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين^(٢) يوم الجمعة، وذم من لم يحضرهما، ومن لازم ذلك الإنصات لهما.

ومنها: أنه ينبغي للعبد المقبل على عبادة الله، وقت دواعي النفس لحضور اللهو [والتجارات] والشهوات أن يذكرها بما

عند الله من الخيرات، وما لمؤثر رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة، والله الحمد والثناء.^(٣)

تفسير سورة المنافقين^(٤)

مدينة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿ أَلْخَدُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ٥٥٤ سُوْرَةُ الْمُنَافِقِيْنَ

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوَمِنَ الْبِحْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣﴾

سُوْرَةُ الْمُنَافِقِيْنَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ أَلْخَدُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهِوَمِنَ الْبِحْرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٤﴾

ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ تَعْجَبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسْتَدَةٌ ﴿

يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو فَاذْرُهُمْ فَلْتَأْتِيهِمْ اللَّهُ أَنَّى يَقُولُونَ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَأَوْ رَوْهُمْ وَإِنَّهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿

لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز الإسلام بها^(٥)، صار أناس من أهلها، من الأوس والخزرج، يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر، ليبقى جاههم، وتحقق

دماؤهم، وتسلم أموالهم.

فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد

منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، فقال:

﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا﴾ على وجه الكذب: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾، وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب

منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، فقال:

(١) في ب: فريضة. (٢) كذا في ب، وفي أ: الخطبة. (٣) في ب: بمن الله وعونه، والحمد لله رب العالمين. (٤) كذا في النسختين. (٥) في ب: وكثر الإسلام فيها وعز.

والنفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله .

فإن ﴿الله يعلمُ إِنَّكَ لِرَسُولِهِ وَاللَّهِ بِيَهْدِي إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم .
﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾، أي: ترساً يتبرسون بها، من نسبتهم إلى النفاق .

فصدوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم ممن يخفى عليه حالهم .

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ حيث أظهروا الإيمان، وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك، وأوهموا صدقهم .

﴿ذَلِكَ﴾ الذي زين لهم النفاق ﴿ب﴾ سبب ﴿أَنَّهُمْ﴾ لا يثبتون على الإيمان، بل ﴿ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ بحيث لا يدخلها الخير أبداً .

﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ما ينفعهم، ولا يعون ما يعود بمصالحهم .

﴿وَإِذَا رَأَتْهُمْ تَمَجَّجَكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ من روائها، ونضارتها .
﴿وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾، أي: من حسن منطقهم، تستلذ لاستماعه .

فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة، والهدي الصالح شيء، ولهذا قال:

﴿كَاثِمٌ خُصْبٌ مُسْتَدَّةٌ﴾ لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر المحض .

﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك لجبنهم وفزعهم، وضعف

قلوبهم والريب الذي في قلوبهم^(١)، يخافون أن يطلع عليهم .
فهؤلاء ﴿هُرُّ الْعَدُوِّ﴾ على الحقيقة، لأن العدو البارز

التميز، أهون من العدو، الذي لا يشعر به، وهو مخادع ماهر، يزعم أنه وليّ، وهو العدو المبين .

﴿فَاخَذَهُمْ فِتْنَتُهُمْ اللَّهُ أَنَّى يُؤَفِّكُونَ﴾، أي: كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعد ما تبين أدلته، واتضح

معامله، إلى الكفر الذي لا يفيدهم، إلا الخسار والشقاء .
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ لهؤلاء المنافقين: ﴿تَصَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ

رَسُولُ اللَّهِ﴾ عما صدر منكم، لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع .

﴿لَوْأَ رَأَوْسَهُمْ﴾ امتناعاً من طلب الدعاء من الرسول .
﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ عن الحق، بغضاً له ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾

عن اتباعه بغياً وعناداً .
فهذه حالهم، عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول،

وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه، فيستغفر لهم .

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

٥٥٥

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأَوْا بِرُءُسِهِمْ
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءَ عَلَيْهِمْ
أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ
اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ
لَا تُنْفِقُوا عَلَيْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَيَلَّوْا
خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ
﴿٧﴾ يَقُولُونَ لِنَنْتَفِعَنَّ بِمَا يَنْزِلُ عَلَيْنَا لِنَعْلَمَ لَأَيِّ طَرَفٍ
مِنْهَا الْأَدَلُّ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الرَّسُولُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ
أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ
مِمَّنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي
إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَنْ
يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِيمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ النَّجْمِ

النبأ

فإنه سواء استغفر لهم أم لم يستغفر لهم فلن يغفر الله لهم؛
وذلك لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، مؤثرون
للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو
استغفر لهم كما قال تعالى: ﴿أَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ .

(٨، ٧) ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ
حَتَّى يَنْفَضُوا وَيَلَّوْا خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا
يَفْقَهُونَ﴾ يَقُولُونَ لِنَنْتَفِعَنَّ بِمَا يَنْزِلُ عَلَيْنَا لِنَعْلَمَ لَأَيِّ طَرَفٍ
مِنْهَا الْأَدَلُّ وَاللَّهُ الْعَزِيزُ الرَّسُولُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ
وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا
اجتماع أصحابه، واتلافهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول
ﷺ، قالوا بزعمهم الفاسد: ﴿لَا تُنْفِقُوا عَلَيْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ
اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾ فإنهم - بزعمهم - لولا أموال المنافقين
ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله .

(١) في ب: وضعف قلوبهم وربها .

عَظِيمٌ ﴿١﴾ .
وقوله: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يدخل في هذا النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات (٥)، ونفقة الزوجات، والمماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة كبدل المال في جميع المصالح.

وقال: ﴿مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى لم يكلف العباد من النفقة ما يعتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء (٦) مما رزقهم الله الذي يسره لهم (٧) ويسر لهم أسبابه.

فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك الموت الذي إذا جاء، لم يمكن العبد أن يأتي بمقتال ذرة من الخير، ولهذا قال:

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ يَقُولُ﴾ متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: ﴿رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: لا تدارك ما فرطت فيه.

﴿فَأَصَّدَقَ﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب.

﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا الحج وغيره.

ولهذا السؤال والتمني قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ المحتوم لها

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم، من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقين، والله الحمد.

تفسير سورة التغابن

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿سُبْحٰنَ لِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ لَهٗ الْمُلْكُ وَلَهٗ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ ۝ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كٰفِرٌ وَمِنْكُمْ مُّؤْمِنٌ وَاللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُوْنَ بَصِيْرٌ ۝ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَهُنَّ فَاَحْسَنَ صُوْرًا ۝ وَاِلَيْهِ الْمَصِيْرُ ۝ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسۡرُوْنَ وَمَا تُعۡلِنُوْنَ ۝ وَاللّٰهُ عَلِيْمٌ بِذٰلِكَ الصُّدُوْرِ﴾ هذه الآيات

(١) في ب: بالحقائق. (٢) في ب: وتبين ما في قلوبهم. (٣) في ب: سمّن كلبك. (٤) في ب: ومن اتبعه. (٥) كذا في ب، وفي أ: الكفارة. (٦) كذا في ب، وفي أ: أمرهم بجزء. (٧) في ب: مما رزقهم ويسره ويسر أسبابه.

وهذا من أعجب العجب، أن يدعي هؤلاء المنافقون، الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور (١).

ولهذا قال الله ردًا لقولهم: ﴿وَاللّٰهُ خَزٰٓئِنُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ﴾، فيؤتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، ويسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرهما على من يشاء.

﴿وَلٰكِنَّ الْمُنٰفِقِيْنَ لَا يَفْقَهُوْنَ﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيتهم. ﴿يَقُوْلُوْنَ لِنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِيْنَةِ لِنُحٰرِجَنَّ الْاَعْرٰبُ مِنْهَا الْاَذَلَّ﴾ وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام، كدر الخواطر، ظهر حينئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم (٢).

وقال كبيرهم عبد الله بن أبي ابن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني المهاجرين - إلا كما قال القائل: (عَدَّ (٣) كلبك يا كلك).

وقال: ﴿لِنِ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِيْنَةِ لِنُحٰرِجَنَّ الْاَعْرٰبُ مِنْهَا الْاَذَلَّ﴾ بزعمه أنه هو وإخوانه من المنافقين، الأعزون، وأن رسول الله ومن معه (٤) هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق.

فلهذا قال [تعالى]: ﴿وَاللّٰهُ الْعَزِيْزُ الْكَرِيْمُ وَاللّٰهُمَّ صَلِّ عَلَى الْمُرْسَلِيْنَ﴾ فهم الأعداء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار، [هم] الأذلاء.

﴿وَلٰكِنَّ الْمُنٰفِقِيْنَ لَا يَعْلَمُوْنَ﴾ [ذلك]، فلذلك زعموا أنهم الأعداء، اغترارًا بما هم عليه من الباطل.

ثم قال تعالى:

(٩-١١) ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا لَا تُلٰهِكُمْ اَمْوَالُكُمْ وَلَا اَوْلٰدُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللّٰهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْخٰسِرُوْنَ ۝ وَاَنْفِقُوْا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ اَنْ يَأْتِيَ اَحَدَكُمْ الْمَوْتُ يَقُوْلُ رَبِّ لَوْلَا اَخَّرْتَنِيْ اِلٰى اَجَلٍ قَرِيْبٍ فَاَصَّدَقْتُ وَاَكُنْ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ۝ وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللّٰهُ نَفْسًا اِذَا جَاءَ اَجَلُهَا ۝ وَاللّٰهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُوْنَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الريح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن محبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على محبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ﴾، أي: يلهه ماله وولده عن ذكر الله ﴿فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْخٰسِرُوْنَ﴾ للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى.

قال تعالى: ﴿اِنَّمَا اَمْوَالُكُمْ وَاَوْلٰدُكُمْ فَتَنَةٌ وَاللّٰهُ عِنْدَهُ اَجْرٌ

[الكريمات] مشتملات على جملة كثيرة واسعة، من أوصاف الباري العظيمة، فذكر كمال ألوهيته تعالى وسعة غناه، واقتدار جميع الخلائق إليه، وتسيب من في السماوات والأرض بحمد ربها، وأن الملك كله لله، فلا يخرج مخلوق عن ملكه.

والحمد كله له، حمد على ما له من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من الأحكام، وأسده من النعم.

وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء يريده.

وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

فلما ذكر خلق الإنسان المكلف المأمور المنهي، ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أجزأهما، [وجميع] ما فيهما، فأحسن خلقهما.

﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: بالحكمة، والغاية المقصودة له تعالى. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظرًا.

﴿وَالِيَهُ الْمَصِيرُ﴾ أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم الذي أولاكموه^(١) هل قمتم بشكره أم لم تقوموا بشكره؟.

ثم ذكر عموم علمه، فقال:

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: من السرائر والظواهر، والغيب والشهادة.

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُشِيرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أي: بما فيها من الأسرار الطيبة، والخبايا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة.

فإذا كان عليماً بذات الصدور، تعين على العاقل البصير، أن يحرص ويجتهد في حفظ باطنه، من الأخلاق الرذيلة، واتصافه بالأخلاق الجميلة.

(٦٥، ٦٥) ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُودُنَا فَكَفَرُوا وَقَوْلُوا وَاسْتَعْفَى اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ ۝ لَمَا ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ أَوْصَافِهِ الْكَامِلَةِ الْعَظِيمَةِ، مَا بِهِ يَعْرِفُ وَيَعْبُدُ، وَيُبْذِلُ الْجَهْدَ فِي مَرْضَاتِهِ، وَتَجْتَنِبُ مَسَاحَطَهُ، أَخْبِرَ بِمَا فَعَلَ بِالْأُمَّمِ السَّابِقِينَ،

سُورَةُ التَّغَابُنِ

٥٥٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَسْبِغُ لَكُمْ فِي الْمَوَالِمِ غَلِيظَةً وَفِي الْأَرْضِ لَكُمْ الْمَلَاحِقَ وَاللَّهُ الْعَلِيمُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ فَتُكْفِرُونَ

وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضَ وَالْحَقَّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾

يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تَعْلِنُونَ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ

فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَلِكَ يَأْتِيهِمْ رَسُولُهُمْ

بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشِّرْ يَهُودُنَا فَكَفَرُوا وَقَوْلُوا وَاسْتَعْفَى

اللَّهُ وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ

لِنُبُؤْتِهِمْ فَهُمْ كَاذِبُونَ وَمَا يَعْمَلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ

وَاللَّهُ عَزِيزٌ ﴿٧﴾ فَآمَنُوا بِاللَّهِ

وَرَسُولِهِ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ

يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمِلْ

صَالِحًا يَكْفُرْ عَنْهُ سَيَأْتِيهِ اللَّهُ بِذِكْرٍ خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ كَفَرَ

بِالَّذِي آتَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنْ آيَاتِنَا وَلَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ فَيَكْفُرْ بِمَا كَفَرَ سَيَأْتِيهِ اللَّهُ بِذِكْرٍ خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ كَفَرَ

بِالَّذِي آتَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنْ آيَاتِنَا وَلَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ فَيَكْفُرْ بِمَا كَفَرَ سَيَأْتِيهِ اللَّهُ بِذِكْرٍ خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ كَفَرَ

بِالَّذِي آتَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنْ آيَاتِنَا وَلَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ فَيَكْفُرْ بِمَا كَفَرَ سَيَأْتِيهِ اللَّهُ بِذِكْرٍ خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ كَفَرَ

بِالَّذِي آتَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنْ آيَاتِنَا وَلَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ فَيَكْفُرْ بِمَا كَفَرَ سَيَأْتِيهِ اللَّهُ بِذِكْرٍ خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ كَفَرَ

بِالَّذِي آتَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنْ آيَاتِنَا وَلَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ فَيَكْفُرْ بِمَا كَفَرَ سَيَأْتِيهِ اللَّهُ بِذِكْرٍ خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ كَفَرَ

بِالَّذِي آتَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنْ آيَاتِنَا وَلَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ فَيَكْفُرْ بِمَا كَفَرَ سَيَأْتِيهِ اللَّهُ بِذِكْرٍ خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ كَفَرَ

بِالَّذِي آتَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنْ آيَاتِنَا وَلَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ فَيَكْفُرْ بِمَا كَفَرَ سَيَأْتِيهِ اللَّهُ بِذِكْرٍ خَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ وَمَنْ كَفَرَ

بِالَّذِي آتَى مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ مِنْ آيَاتِنَا وَلَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

والقرون الماضين، الذين لم تزل أنباؤهم، يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم الرسل^(٢) بالحق، كذبوهم وعاندوهم.

فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا، وأخزاهم فيها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في [الدار] الآخرة، ولهذا ذكر السبب في هذه العقوبة، فقال:

﴿ذَلِكَ﴾ النكاح والربال، الذي أحللناه بهم بأنهم ﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالآيات الواضحات، الدالة على الحق والباطل، فاشمأزوا، واستكبروا على رسولهم، فقالوا:

﴿أَبَشِّرْ يَهُودُنَا﴾ أي: فليس لهم فضل علينا، ولأي شيء خصهم الله دوننا.

كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَمَا هُمْ بِحُجْرَاءَ فَفَضَّلَ اللَّهُ وَمَتَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ أَنْ يَكُونُوا رَسُولًا لِلخَلْقِ، وَاسْتَكْبَرُوا عَنِ الْإِقْتِيَادِ لَهُمْ.

(١) في ب: أولاكم. (٢) في ب: رسولهم.

فابتلوا بعبادة الأحجار والأشجار ونحوها ﴿فَكْفُرُوا﴾ بالله
 ﴿وَتَوَلَّوْا﴾ عن طاعة الله .
 ﴿وَأَسْتَعَىٰ اللَّهُ﴾ عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم
 شيئاً .

﴿وَاللَّهُ عَنِّي حَمِيدٌ﴾ أي: هو الغني، الذي له الغنى التام
 المطلق من جميع الوجوه. الحميد في أقواله وأفعاله
 وأوصافه .

(٧) ﴿رَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْتَرَفَ لَكَ بِلَىٰ وَرَبِّ لَتُعْتَرَفَنَّ لَهُمْ لَلنَّبِيِّنَ بِمَا
 عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يخبر تعالى عن عناد الكافرين،
 وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم، ولا هدى ولا
 كتاب منير .

فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم
 بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق .

﴿وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فإنه وإن كان عسيراً بل متعذراً،
 بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم لو اجتمعت^(١) على إحياء
 ميت [واحد] ما قدروا على ذلك .

وأما الله تعالى فإنه إذا أراد أمراً فإنما يقول له: كن فيكون .
 قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي
 الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِنُظُرُونَ﴾ .

(٨) ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وِرْسُولِهِ وَأَلْوَارِئِهِ الَّذِينَ آتَيْنَاهُم مَّا نَعْمَلُونَ
 خَيْرٌ﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك [منهم]
 موجب كفرهم بالله وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة والشقاء،
 وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه^(٢) .

وسماه الله نوراً، فإن النور^(٣) ضد الظلمة، وما في الكتاب
 الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدى
 بها في ظلمات الجهل المدلهمة، ويمشى بها في حندس الليل
 البهيم .

وما سوى الاهتداء بكتاب الله، فهي علوم، ضررها أكثر
 من نفعها، وشرها أكثر من خيرها .

بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل .
 والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين
 الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال
 الأوامر، واجتناب المناهي^(٤) .

﴿وَاللَّهُ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازيكم بأعمالكم، الصالحة
 والسيئة .

(١٠، ٩) ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ أَيُّوْمَ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ وَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ
 وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا

يَتَذَكَّرُونَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَسَاءَ الْمَصِيرُ﴾
 يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين
 والآخرين، ويفهم موقفاً هائلاً عظيماً، وبينهم بما عملوا .
 فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويرفع أقوام
 إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات،
 المشتملة على جميع اللذات والشهوات .

ويخفض أقوام إلى أسفل سافلين، محل لهم والغم،
 والحزن والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم،
 وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ يَوْمُ النَّعَابِ﴾ .

أي: يظهر فيه التغابن، والتفاوت بين الخلائق، ويغيب
 المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء،
 وأنهم هم الخاسرون، فكأنه قيل: بأي شيء يحصل الفلاح
 والشقاء والنعيم والعذاب؟ .

فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ﴾ [أي:]
 إيماناً تاماً، شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به .

﴿وَيَعْمَلْ صَالِحًا﴾ من الفرائض والنوافل، من أداء حقوق الله
 وحقوق عباده .

﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾، فيها ما
 تشتهيhe الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه
 القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ
 الْعَظِيمُ﴾ .

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: كفروا [بها] من غير
 مستند شرعي ولا عقلي .

بل جاءتهم الأدلة والبيانات، فكذبوا بها وعاندوا، ما دلت
 عليه .

﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَسَاءَ الْمَصِيرُ﴾ لأنها
 جمعت كل بؤس وشدة، وشقاء وعذاب .

(١١-١٣) ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ
 بِاللَّهِ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ وَعَلَيْهِ وَعَلَيْكُمْ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
 فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ○ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ
 مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وهذا عام لجميع المصائب، في النفس،
 والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم .

فجميع ما أصاب العباد، فبقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك
 علم الله [تعالى] وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته
 حكمته، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه

(١) كذا في ب، وفي أ: اجتمعوا . (٢) في ب: الإيمان به، وبرسوله،
 وكتابه . (٣) في ب: لأن النور . (٤) في ب: النواهي .

وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله وطاعة رسوله، أو عدم ذلك، عالم الغيب والشهادة.

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: هو المستحق للعبادة والألوهية، فكل معبود سواه فباطل.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾، أي: فليعتمدوا^(٨) عليه في كل أمر نابهم، وفيما يريدون القيام به.

فإنه لا يتيسر أمر من الأمور إلا بالله، ولا سبيل إلى ذلك^(٩) إلا بالاعتماد على الله، ولا يتم الاعتماد على الله، حتى

يحسن العبد ظنه بربه، ويتق به في كفايته الأمر، الذي اعتمد عليه به، وبحسب إيمان العبد يكون توكله، فكلما قوي

الإيمان قوي التوكل^(١٠).

(١٥، ١٤) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ

عُدُوًّا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَصَفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ

عَظِيمٌ﴾ هذا تحذير من الله للمؤمنين، من الاعتزاز بالأزواج والأولاد، فإن بعضهم عدو لكم، والعدو هو الذي يريد لك

الشر، ووظيفتك الحذر ممن هذا وصفه^(١١)، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد.

فنصح تعالى عباده أن توجب لهم هذه المحبة، الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد، ولو كان فيها ما فيها من المحذور

الشرعي^(١٢)، ورغبتهم في امتثال أوامره، وتقديم مرضاته بما عنده من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية،

والمحباب العالية، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية.

ولما كان النهي عن طاعة الأزواج والأولاد، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك قد يوهم الغلظة عليهم

وعقابهم، أمر تعالى بالحذر منهم، والصفح عنهم والعفو، فإن في ذلك من المصالح ما لا يمكن حصره، فقال:

﴿وَإِن تَعَفَّوْا وَصَفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لأن

الجزء من جنس العمل. فمن عفا عفا الله عنه، ومن صفح صفح الله عنه، ومن عامل الله فيما يحب، وعامل عباده كما يحبون، وينفعهم، نال محبة الله، ومحبة عباده، واستوتق له أمره.

(١) في ب: ممن. (٢) كذا في ب، وفي أ: عندها. (٣) في ب: من الأجر العظيم. (٤) في ب: وهو. (٥) في ب: في أقواله وأفعاله وجميع أحواله. (٦) في ب: كما قال تعالى مخبراً أنه يثبت المؤمنين.

(٧) في ب: بلاغاً بيتاً واضحاً فتقوم. (٨) كذا في ب، وفي أ: يعتمدوا. (٩) كذا في ب، وفي أ: لذلك. (١٠) في ب: يكون توكله قوة وضعفاً. (١١) في ب: هذه صفته. (١٢) في ب: التي فيها محذور شرعي.

في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟.

فإن قام بها فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة.

فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله قلبه، فاطمأن ولم ينزعج عند المصائب، كما يجري

لمن^(١) لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودها^(٢) والقيام بموجب الصبر فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما

يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب^(٣) كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤِتِي الصَّابِرِينَ أَجْرُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب،

أنه يخذل، ويكله الله إلى نفسه.

وإذا وُكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع، الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قبل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر.

هذا ما يتعلق بقوله: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾، في مقام المصائب الخاص.

وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن، أي: الإيمان بالمأمور به، من^(٤) الإيمان بالله

وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه، بما يقتضيه الإيمان من القيام بلوازمه

وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد، أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله وأفعاله^(٥)، وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار أن المؤمنين يشبههم الله^(٦) في الحياة الدنيا، وفي الآخرة.

وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال:

﴿ثَبِّتْ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾، فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً، وأثبتهم عند

المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

[وقوله: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَاطِيعُوا رَسُولَ﴾، أي: في امتثال أمرهما، واجتنباب نهيمهما، فإن طاعة الله وطاعة رسوله مدار

السعادة، وعنوان الفلاح.

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ [أي: عن طاعة الله وطاعة رسوله، ﴿فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلِّغُ الْمُنِينُ﴾، أي: يبلغكم ما أرسل به إليكم، بلاغاً يبين لكم ويتضح، وتقوم به^(٧) عليكم الحججة، وليس

بيده من هدايتكم، ولا من حسابكم من شيء.

(١٦-١٨) ﴿فَأَنْفِقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ وَمَنْ يُوَقِّ شَيْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ○ إِنْ تَقَرُّوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ○ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يأمر تعالى بتقواه، التي هي امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ويقيد (١) ذلك بالاستطاعة والقدرة.

فهذه الآية تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد، أنه يسقط عنه، وأنه إذا قدر على بعض المأمور، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما يقدر عليه، ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال النبي ﷺ: «إِذَا أَمَرْتُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ».

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع، ما لا يدخل تحت الحصر.

وقوله: ﴿وَأَسْمِعُوا﴾ أي: اسمعوا ما يعظكم الله به، وما يشره لكم من الأحكام، واعلموا ذلك، وانقادوا له ﴿وَأَطِيعُوا﴾ الله ورسوله في جميع أموركم.

﴿وَأَنْفِقُوا﴾ من النفقات الشرعية الواجبة والمستحبة، يكن ذلك الفعل منكم خيراً لكم في الدنيا والآخرة، فإن الخير كله في امتثال أوامر الله تعالى، وقبول نصائحه، والانقياد لشرعه، والشكر كله في مخالفة ذلك.

ولكن ثم آفة تمنع كثيراً من الناس من النفقة المأمور بها، وهو الشح المجبولة عليه أكثر النفوس، فإنها تشح بالمال، وتحب وجوده، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة.

فمن وقاه الله شر شح نفسه بأن سمحت نفسه بالإتفاق النافع لها ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لأنهم أدرکوا المطلوب، ونجوا من المرهوب، بل لعل ذلك شامل لكل ما أمر به العبد، ونهي عنه.

فإنه إن كانت نفسه شحيحة، لا تنقاد لما أمرت به، ولا تخرج ما قيلها، لم يفلح، بل خسر الدنيا والآخرة، وإن كانت نفسه نفساً سمحة مطمئنة منشحة لشرع الله، طالبة لمرضاة الله، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به، ووصول معرفته إليها والبصيرة، بأنه مرضي لله تعالى، وبذلك تفلح وتنجح وتفوز كل الفوز.

ثم رغب تعالى في النفقة، فقال: ﴿إِنْ تَقَرُّوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها ﴿يَضْعَفْهُ لَكُمْ﴾، النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿و﴾ مع المضاعفة أيضاً ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ بسبب الإنفاق

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبئس ألمصير ﴿١٦﴾ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَيْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِنَ أَرْزَاقِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عُدْوَانٌ لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢١﴾ فَأَنْفِقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِنَفْسِكُمْ وَمَنْ يُؤَقِّ شَيْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ إِنْ تَقَرُّوا لِلَّهِ قَرْضًا حَسَنًا يَضْعَفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

سُورَةُ الطَّلَاقِ

والصدقة ذنوبكم، فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِنُ بِهِنَّ السَّيِّئَاتِ﴾.

﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ حلیم لا يعاجل من عصاه، بل يمهله ولا يمهله.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

﴿وَاللَّهُ﴾ تعالى ﴿شَكُورٌ﴾ يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر.

ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، وناء (٢) بالتكاليف الثقال، ومن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه.

﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، أي: ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغال، ولا يمانع الذي قهر كل الأشياء.

(١) في ب: وقيد. (٢) في ب: وأنواع التكاليف.

﴿الْحَكْمِ﴾ في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.
تم تفسير سورة التغابن [ولله الحمد].

تفسير سورة الطلاق

[وهي مدنية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يَحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ۝ فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۝ وَإِنَّ اللَّهَ بَلِّغَ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۝ إِنَّ اللَّهَ يَبْلُغُ أَمْرَهُ ۝ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ يقول تعالى - مخاطبًا لنبيه ﷺ وللمؤمنين -:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ﴾، أي: أردتم طلاقهن التمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق، من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله.

بل ﴿طَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها، وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة.

بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحتسب بتلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك. وكذلك لو طلقها في طهر وطمى فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين، و[لا] يتضح بأي عدة تعد؟.

وأمر تعالى بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر، إن لم تكن تحيض، وليست حاملاً. فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، [وحقها في النفقة ونحوها].

فإذا ضبطت عدتها، علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق، وما لها منها.

وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه [للزوج^(١)] وللمرأة، إن كانت مكلفة، وإلا فليولياها.

وقوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ﴾، أي: في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات.

ف﴿لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ مدة العدة، بل يلزم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٥٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يَحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ أَجَلُهُنَّ فَامْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ يُوَعِّظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۝ وَإِنَّ اللَّهَ بَلِّغَ أَمْرَهُ ۝ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي يَبْسُنَ مِنَ الْمَجِيضِ مَنْ سَأَلَكِ أَنْ تَرْبِتَهُ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالَ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرٌ اللَّهُ أَنْزَلَهُ ۝ إِلَيْكُمْ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَبْعَةَ عَشْرَ ذَنْبًا ۝ وَيُعْظِمُ لَهُ أَجْرًا ﴿٥﴾

بيوتهن^(٢) الذي طلقها زوجها وهي فيها.

﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾، أي: لا يجوز لهن الخروج منها.

أما النهي عن إخراجها، فلأن^(٣) المسكن يجب على الزوج للزوجة^(٤)، لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه. وأما النهي عن خروجها فلما في خروجها، من إضاعة حق الزوج، وعدم صونه.

ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت، والإخراج إلى تمام العدة.

﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ﴾، أي: بأمر قبيح واضح، موجب لإخراجها، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر من عدم إخراجها، كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة، ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها، لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جبر لخاطرها، ورفق بها، فهي التي أدخلت الضرر على نفسها^(٥)، ولهذا في المعتدة الرجعية.

(١) زيادة من هامش ب. (٢) في ب: بل تلزم بيتها. (٣) كذا في ب، وفي أ: فإن. (٤) كذا في ب، وفي أ: يجب للزوجة عليه. (٥) في ب: عليها.

تعالى بتقواه وأن^(٣) من اتقاه في الطلاق وغيره فإن الله يجعل له فرجًا ومخرجًا.

فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طلقة واحدة، في غير حيض ولا طهر قد وطئ^(٤) فيه، فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجًا وسعة، يتمكن فيها من مراجعة النكاح^(٥)، إذا ندم على الطلاق.

والآية، وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقى الله تعالى، ولازم مرضاة الله في جميع أحواله، فإن الله يشييه في الدنيا والآخرة. ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجًا ومخرجًا من كل شدة ومشقة.

وكما أن من اتقى الله، جعل له فرجًا ومخرجًا، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والآصار والأغلال، التي لا يقدر على التخلص منها، والخروج من تبعتها.

واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة، لا يمكنه استرداها^(٦)، والخروج منها.

وقوله: ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، أي: يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه، ولا يشعر به.

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: في أمر دينه وديناه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، ويثق به في تسهيل ذلك ﴿فَهُوَ حَسِيبٌ﴾، أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي، [العزيز] الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء.

ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيرها إلى الوقت المناسب له، فلهذا قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾، أي: لا بد من نفوذ قضاؤه وقدره. ولكنه ﴿لَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِ عَلَى الْمُؤْمِنِ قُدْرًا﴾، أي: وقتًا ومقدارًا لا يتعداه، ولا يقصر عنه.

(٥، ٤) ﴿وَالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْمَجِيذِ مِنْ نَسَائِكِهِمْ إِنْ أَنْزَلْنَاهُ فَعِدَّتُهُمْ شِكْنَتُهُ أَشْهَرُ وَالَّذِي لَمْ يَحْضَنْ وَأَوْلَتْ الْأَحْمَالُ أَجْلَهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ۚ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ لِلنَّاسِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ اللَّهُ أَجْرَهُ﴾ لما ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به، يكون لعدة النساء، ذكر تعالى

وأما البائن، فليس لها سكنى واجبة، لأن السكن تبع للنفقة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن.

﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ [أي: التي حددها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها، والوقوف معها.

﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ﴾ بأن لم يقف معها، بل تجاوزها، أو قصر عنها.

﴿فَقَدْ ظَلَمَ النَّسَفُ﴾، أي: بخسها حظها، وأصاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة.

﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾، أي: شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها، لحكم عظيمة.

فمنها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة، أو لعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها، لانقضاء سبب الطلاق.

ومن الحكم: أنها مدة التريص، يعلم براءة رحمة من زوجها.

وقوله: ﴿فَإِذَا بَلَغَ أَجْلَهُنَّ﴾، أي: إذا قارب انقضاء العدة، لأنهن لو خرجن من العدة، لم يكن الزوج مخيرًا بين الإمساك والفرق.

﴿فَأَنكِهَنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ أي: على وجه المعاشرة [الحسنة] والصحبة الجميلة، لا على وجه الضرار، وإرادة الشر والحبس، فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز.

﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾، أي: فراقًا لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها.

﴿وَأَشْهِدُوا﴾ على طلاقها ورجعتها ﴿ذَوِي عَدْلٍ مِّنْكُمْ﴾ أي: رجلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور سداً لباب المخاصمة، وكتمان كل منهما، ما يلزمه بيانه.

﴿وَأَقِيمُوا﴾ أيها الشهداء ﴿الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾، أي: اتوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص.

واقصدوا بإقامتها، وجه الله وحده^(١)، ولا تراعوا بها قريبًا لقرابته، ولا صاحبًا لمحبهته.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود ﴿يُعْظَمُ بِهِ مِنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ فإن من يؤمن بالله واليوم الآخر، يوجب له ذلك^(٢) أن يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة، ما تمكن منها.

بخلاف من ترحل الإيمان عن قلبه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يعظم مواعظ الله، لعدم الموجب لذلك. ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم، أمر

(١) في ب: وجه الله تعالى. (٢) في ب: فإن الإيمان بالله واليوم الآخر يوجب لصاحبه. (٣) في ب: ووعد من. (٤) في ب: ولا طهر أصابها فيه. (٥) في ب: يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح. (٦) في ب: لا يتمكن من استرداها.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

٥٥٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العدة، فقال: ﴿وَأَلَّتِي بَيَّسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ﴾ بأن كن
 يحضن، ثم ارتفع حيضهن، لكبر أو غيره، ولم يُرَج رجوعه
 فإن عدتها ﴿ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ﴾ جعل لكل شهر، مقابلة حيضة.
 ﴿وَأَلَّتِي لَمْ يَحْضَنَّ﴾، أي: الصغار اللاتي لم يأتهن الحيض
 بعدُ، والبالغات^(١)، اللاتي لم يأتهن حيض بالكلية، فإنهن
 كالأيسات، عدتهن ثلاثة أشهر.
 وأما اللاتي يحضن، فذكر الله عدتهن في قوله: ﴿وَأَلْمَطَّلَقَتْ
 بَيْرَضَتٍ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ فُرُوعٍ﴾.
 [وقوله]: ﴿وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾، أي: عدتهن ﴿أَنْ يَضَعْنَ
 حَمْلَهُنَّ﴾، أي: جميع ما في بطونهن، من واحد، ومتعدد،
 ولا عبرة حينئذ بالأشهر ولا غيرها.
 ﴿وَمَنْ يَبَقِ اللَّهُ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، أي: من اتقى الله
 تعالى، يسره له الأمور، وسهّل عليه كل عسير.
 ﴿ذَلِكَ﴾ [أي: الحكم الذي بينه الله لكم ﴿أَمَرَ اللَّهُ أَنْزَلَهُ
 إِلَيْكُمْ﴾ لتمشوا عليه، [وتأتموا] وتقوموا به، وتعظموه.
 ﴿وَمَنْ يَبَقِ اللَّهُ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمَ لَهُ أَجْرًا﴾، أي: يندفع
 عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.
 (٧، ٦) ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكُنْتُمْ مِنْ وُجُودِكُمْ وَلَا تَضَارُوهُنَّ
 لِيَضْفُوا عَلَيْهِنَّ وَإِنْ كُنَّ أُولَاتٍ حَمْلًا فَلْيَقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ
 أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ فَسُدِّعُوا
 لَهُمْ أَمْرًا ۖ لِيَتَّقُوا دُورَ سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُتَّقِ مَعَا
 ءَآئِنَهُ اللَّهُ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيِّجَعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾
 تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات عن البيوت، وهنا أمر
 بإسكانهن وقدر الإسكان^(٢) بالمعروف، وهو البيت الذي
 يسكنه مثله ومثلها، بحسب وُجُد الزوج وعسره.
 ﴿وَلَا تَضَارُوهُنَّ لِيَضْفُوا عَلَيْهِنَّ﴾، أي: لا تضاروهن، عند
 سكنانهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يملن، فيخرجن من
 البيوت، قبل تمام الغدة، فتكونوا أتم المخرجين لهن.
 وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن
 الخروج، وأمر بسكنانهن، على وجه لا يحصل عليهن ضرر
 ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف.
 ﴿وَإِنْ كُنَّ﴾ أي: المطلقات ﴿أُولَاتٍ حَمْلًا فَلْيَقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى
 يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت
 بائنا، ولها ولحمها، إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة حتى
 يضعن حملهن^(٣)، فإذا وضعن حملهن، فإما أن يرضعن
 أولادهن، أو لا.
 ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَاتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ المسماة لهن، إن كان
 مسمى، وإلا فأجر المثل.

﴿وَأَتَمُّوا بَيْنَكُمْ بِمَعْرُوفٍ﴾، أي: ليأمر كل واحد من الزوجين
 ومن غيرهما الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة
 في الدنيا والآخرة، فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف،
 يحصل فيه^(٤) من الشر والضرر، ما لا يعلمه إلا الله، وفي
 الائتمار تعاون على البر والتقوى.

ومما يناسب هذا المقام، أن الزوجين عند الفراق وقت
 العدة، خصوصًا إذا ولد لهما^(٥) ولد، في الغالب يحصل من
 التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق،
 الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر منه البغض
 شيء كثير^(٦).

فكل منهما يؤمر بالمعروف، والمعايشة الحسنة، وعدم
 المشاقة والمخاصمة^(٧)، وينصح على ذلك.
 ﴿وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمُ﴾ بأن لم تتفقوا^(٨) على إرضاعها لولدها.

(١) في ب: أو البالغات. (٢) في ب: إسكانهن. (٣) في ب: إلى
 وضع الحمل. (٤) في ب: فيها. (٥) في ب: بينهما. (٦) في ب:
 الذي لا يحصل في الغالب إلا مقرؤًا بالبغض، فيتأثر من ذلك شيء كثير.
 (٧) في ب: والمنازعة. (٨) في ب: بأن لم يتفق الزوجان.

أنزله على رسوله محمد ﷺ، ليخرج الخلق من ظلمات الكفر والجهل والمعصية، إلى نور العلم والإيمان والطاعة.

فمن الناس من آمن به، ومنهم من لم يؤمن [به].

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَعَمَلْ صَالِحًا﴾ من الواجبات والمستحبات.
﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فيها من النعيم المقيم، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [أي:] ومن لم يؤمن بالله ورسوله، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

(١٢) ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَبْرَزُ الْأَشْرُ بِيْنَهُنَّ لِنَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [ثم] أخبر [تعالى] أنه خلق الخلق من السماوات السبع ومن فيهن، والأرضين السبع ومن فيهن، وما بينهن، وأنزل الأمر وهو: الشرائع والأحكام الدينية التي أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية، التي يدبر بها الخلق، كل ذلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها، وإحاطة علمه بجميع الأشياء.

فإذا عرفوه بأوصافه المقدسة، وأسمائه الحسنی، وعبوديه، وأحبيوه، وقاموا بحقه، فهذه الغاية المقصودة من الخلق والأمر: معرفة الله وعبادته.

فقام بذلك الموفقون من عباد الله الصالحين، وأعرض عن ذلك الظالمون المعرضون.

[تم تفسيرها والحمد لله].

تفسير سورة التحريم

[وهي] مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فُرِضَ اللَّهُ لَكُمْ حَيْضَةُ الْأَيَّامِ وَاللَّهُ مُؤْتِكُمْ بِهِ الْعِلْمَ لِلْكَرِيمِ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا تَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا تَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ تَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ إِنْ نُنَوِّبُ إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَطَهَّرْنَا عَلَيْهِ فِإِنَّ اللَّهَ هُوَ مُؤْتِكُمْ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) في ب: فسترضع له أخرى. (٢) في ب: لا خروج له منه. (٣) في ب: يتمكن. (٤) في ب: تغن عنهم.

فلترضع^(١) ﴿لَهُ أُخْرَىٰ﴾ غيرها ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا بَيْنَكُمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وهذا حيث كان الولد يقبل نُدْيَ غير أمه، فإن لم يقبل إلا نُدْيَ أمه، تعينت لإرضاعه، ووجب عليها، وأجبرت إن امتنعت، وكان لها أجره المثل، إن لم يتفقا على مسمى.

وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى، فإن الولد لما كان في بطن أمه مدة الحمل، ليس له خروج منه^(٢)، عَيَّنَ تعالى على وليه النفقة.

فلما ولد، وكان يمكن^(٣) أن يتقوت من أمه، ومن غيرها، أباح تعالى الأمرين، فإذا كان بحالة لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه، كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقاً لقوته.

ثم قدر تعالى النفقة بحسب حال الزوج، فقال: ﴿لِيُتَفَقَّ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتَيْهِ﴾، أي: لينفق الغني من غناه، فلا ينفق نفقة الفقراء.

﴿وَمَنْ قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾، أي: ضيق عليه ﴿فَلِيُنْفِقْ مِمَّا آتَتْهُ اللَّهُ﴾ من الرزق.

﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلًّا بحسبه، وخفف عن المعسر، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه، فلا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، في باب النفقة وغيرها. ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾، وهذه بشارة للمعسرين، أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة، ويرفع عنهم المشقة، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ ○ ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾.

(٨-١١) ﴿وَكَانَ مِنْ قَرَبَةٍ عَدَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَمَا سَبَّحَتْهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبَهَا عَذَابًا نَّكَرًا ○ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عِقَبُهُ أَمْرًا خُسْرًا ○ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْنَا ذِكْرًا ○ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُمِيزَاتٍ يُخْرِجُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظَّالِمَاتِ إِلَى النَّورِ وَمَنْ يُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَعَمَلْ صَالِحًا يَدْخُلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَكُمْ رِزْقًا﴾ يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية، والقرون المكذبة للرسول، أن كثرتهم وقوتهم، لم تنفعهم^(٤) شيئًا، حين جاءهم الحساب الشديد، والعذاب الأليم، وأن الله أذاقهم من العذاب ما هو موجب أعمالهم السيئة.

ومع عذاب الدنيا، فإن الله أعد لهم في الآخرة عذابًا شديدًا.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَىٰ الْأَلْبَابِ﴾، أي: يا ذوي العقول، التي تفهم عن الله آياته وعبره، وأن الذي أهلك القرون الماضية بتكذيبهم، أن من بعدهم مثلهم، لا فرق بين الطائفتين. ثم ذكر عباده المؤمنين، بما أنزل عليهم من كتابه، الذي

وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۝ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ مُسَلِّمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنِيئَاتٍ سَخِيَّاتٍ سَيِّئَاتٍ تَبَيَّنَتْ وَانْكَارًا ۗ هَذَا عِتَابٌ مِنَ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، حين حرم على نفسه سرية «مارية» أو شرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، في قصة معروفة.

فأنزل الله [تعالى] هذه الآيات ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ﴾، أي: يا أيها الذي أنعم الله عليه بالنبوة والوحي والرسالة ﴿لَمْ تَحْرَمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ من الطيبات التي أنعم الله بها عليك وعلى أمتك.

﴿تَبَيَّنَتْ﴾ بذلك التحريم ﴿مَرْضَاتٍ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه سبباً لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكماً حكماً عاماً في جميع الأيمان:

﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾^(١) أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة^(٢) بعد الحنث.

وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرَمُوا وَطَبِئَتْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسُدُّوا﴾ إلى أن قال: ﴿كَفَفَرْتُمْ ۖ إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَطَعْتُمْ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرَ رَقَبَةٍ ۖ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَلِكَ كَفْرَةٌ لِّأَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۗ

فكل من حرم حلالاً عليه: من طعام أو شراب، أو سرية، أو حلف يميناً بالله، على فعل أو ترك، ثم حنث، أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾، أي: متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يتدفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم، لتبرأ ذممكم.

﴿هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به.

فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

[وقوله]: ﴿وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسراً لها النبي ﷺ حديثاً، وأمر أن لا تخبر به أحداً، فحدثت به عائشة رضي الله عنهما. وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فَعَرَفَهَا ﷺ ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه كرمًا منه ﷺ، وحلمًا.

ف ﴿قَالَتْ﴾ له: ﴿مَنْ أَبْأَكَ هَذَا﴾ الخبر الذي لم يخرج

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَحْرَمٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَتْ مَرْضَاتٍ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا بَاتَ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا بَاتَ بِهَا يَهُدَىٰ قَالَتْ مَنْ أَبْأَكَ هَذَا قَالَ النَّبِيُّ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ إِنْ نُوِيَ إِلَىٰ اللَّهِ فَدَّ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيْلٌ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ مُسَلِّمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنِيئَاتٍ سَخِيَّاتٍ سَيِّئَاتٍ تَبَيَّنَتْ وَانْكَارًا ۗ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَأَوْا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَانْعِذُوا لِيَوْمٍ إِنَّمَا يُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦﴾

منا؟.

﴿قَالَ النَّبِيُّ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى.

[وقوله]: ﴿إِنْ نُوِيَ إِلَىٰ اللَّهِ فَدَّ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الخطاب للزوجتين الكرمتين من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سبباً لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه.

فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما^(٣) قد صغت، أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ، واحترامه، وأن لا يشققن عليه.

﴿وَإِنْ تَظَاهَرَ عَلَيْهِ﴾، أي: تعاونا^(٤) على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيْلٌ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةَ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾، أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان

(١) في ب: فقال تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ وهذا عام في جميع أيمان المؤمنين. (٢) في ب: وما به تكفر. (٣) في ب: أن قلوبكما.

(٤) في ب: تعاونا.

يدخل^(٥) تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه.

ووصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال:

﴿وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُونَ﴾.

﴿عَلَيْهَا مَلَكَةٌ غَلاظٌ شِدَادٌ﴾، أي: غليظة أخلاقهم، عظيم^(٦) انتهارهم يفزعون بأصواتهم ويخيفون^(٧) بمرأهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، ويمثلون^(٨) فيهم أمر الله، الذي حتم عليهم العذاب^(٩)، وأوجب عليهم شدة العقاب.

﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وهذا فيه أيضاً مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

(٧) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ، فيقال لهم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْدِرُوا الْيَوْمَ﴾ [أي: فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال. وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائه.

(٨) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بِيَدَيْهِمْ وَبِأَمْرِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا آتِنَا لَنَا نُورَنَا وَأَغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعدها عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضيايته، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طففت الأنوار التي تعطى المنافقين، ويسألون الله أن يتمم^(١٠) لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما^(١١) معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه^(١٢)، والقرب منه،

هؤلاء أعوانه^(١)، فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخذول^(٢).

وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه [الكريمة] وخواص خلقه، أعواناً لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى. ثم خوفهما أيضاً بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال:

﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يَبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِمَّا كُنَّ﴾، أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضق^(٣) عليه الأمر، ولم يكن مضطراً ليكن، فإنه سيلقى^(٤)، ويبدله الله أزواجاً خيراً منكن، ديناً وجمالاً، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده.

فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب.

القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها، ﴿تَتَّبِعْتِ﴾ عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله. ﴿تَتَّبِعْتِ وَأَبْكَرًا﴾، أي: بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع^(٥) فيما يحب.

فلما سمعن - رضي الله عنهن - هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا الوصف منطبقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه، دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

(٦) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَوْمًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُم نَارًا وَقُوْدُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غَلاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ أي: يا من من الله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه.

ف ﴿قَوْمًا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُم نَارًا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالاً، ونهيه اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله، ويوجب العذاب.

ووقاية الأهل [والأولاد] بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله.

فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما

(١) في ب: أنصاره. (٢) في ب: وغيره أن يناوئه فهو مخذول. (٣) في ب: لا يضيق. (٤) في ب: سيجد. (٥) في ب: وفيمن يدخل. (٦) في ب: شديد. (٧) في ب: ويزعمون. (٨) في ب: وينفذون. (٩) في ب: بالعذاب. (١٠) في ب: يتم. (١١) في ب: بما. (١٢) في ب: إلا وجهه الله.

ويستمر عليها في جميع أحواله.

(٩) ﴿يَتَّابِعُهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ يأمر [الله] تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحججة [عليهم، ودعوتهم] بالموعظة الحسنة^(١)، وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال، لمن أبى أن يجيب دعوة الله، وينقاد لحكمه، فإن هذا يجاهد ويغلظ عليه.

وأما المرتبة الأولى، فتكون بالتالي هي أحسن.

فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا، بتسليط الله لرسوله، وحزبه [عليهم، وأعلى جهادهم وقتالهم، وعذاب النار في الآخرة وبئس المصير، الذي يصير إليه كل شقي خاسر.

(١٠-١٢) ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ۝ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَوَجِّعِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَوَجِّعِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝ وَرِمَتْ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ ۝ هَٰذَا الْمَثَلَانِ اللَّذَانِ ضَرَبَهُمَا اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ، لِيبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن، وقربه منه، لا يفيد شئاً، وأن اتصال المؤمن بالكافر، لا يضره شئاً، مع قيامه بالواجب عليه.

فكان في ذلك إشارة وتحذيراً لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ لا ينعفهن شيئاً مع الإساءة، فقال:

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا﴾، أي: المرأتان ﴿تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ في الدين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفراس، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغياً.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا﴾، أي: نوح ولوط ﴿عَنْهُمَا﴾، أي: عن امرأتيهما ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ﴾ لهما: ﴿ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ﴾.

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي

يَتَّابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَكْفُرَ عَنْكُمْ سِئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَآغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

يَتَّابِعُهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَعْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَوَجِّعِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَوَجِّعِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾ وَرِمَتْ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِيمَانٌ وَإِحْسَانٌ ﴿١٢﴾

الْجَنَّةِ وَوَجِّعِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَوَجِّعِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾.

فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجيها الله من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنه كل ظالم.

فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام».

[وقوله]: ﴿وَرِمَتْ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾، أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها، ونزاهتها.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾، بأن نفخ جبريل [عليه السلام] في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى

(١) كذا في ب، وفي أ: بإقامة الحججة والموعظة الحسنة.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

﴿الْفُورُ﴾ عن المسيئين والمقصرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنبأوا، فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا.

﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾، أي: كل واحدة فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾، أي: خلل ونقص.

وإذا انتفى النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، في لونها وهبتها وارتفاعها، وما فيها من الشمس والقمر، والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات.

ولما كان كمالها معلوماً، أمر [الله] تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أرجائها، قال:

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ﴾، أي: أعذه إليها، ناظرًا معتبرًا ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾، أي: نقص واختلال.

﴿ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ والمراد بذلك: كثرة التكرار ﴿يَقَلِّبَ إِلَيْكَ الْبَصَرَ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾، أي: عاجزًا عن أن يرى خللاً أوفطورًا، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرح بذكر حسنها، فقال:

(٥-١٠) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُم عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ وللذين كذروا بربهم عذاب جهنم ويسن المصير ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ﴾ تكاد تمزج من العظيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنشَأْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير، أي: ولقد جعلنا ﴿السَّمَاءَ الدُّنْيَا﴾ التي ترونها وتليكم.

﴿بِمَصَابِيحَ﴾ وهي النجوم، على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم، لكان سقفاً مظلمًا، لا حسن فيه ولا جمال.

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة للسماء، [وجمالات] ونورًا، وهداية يهتدى بها في ظلمات البر والبحر.

ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح، أن يكون كثير من النجوم فوق السماوات السبع، فإن السماوات شفافة، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا، وإن لم تكن

(١) في ب: أي: المداومين على طاعة الله. (٢) في ب: وذلك أن.

ابن مريم [عليه السلام] الرسول الكريم والسيد العظيم.

﴿وَصَدَقْتَ يَكْمَلَنَّ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ﴾، وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإن التصديق بكلمات الله، يشمل كلماته الدينية والقدرية.

والتصديق بكتبه يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، [ولهذا قال]:

﴿وَكَاثَرَ مِنَ الْفَنَائِينِ﴾، أي: المطيعين لله المداومين على طاعته^(١) بخشية وخشوع.

وهذا وصف لها بكمال العمل، فإنها - رضي الله عنها - صديقة، والصديقية: هي كمال العلم والعمل.

تمت والله الحمد.

تفسير سورة الملك

[وهي] مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَقَلِّبَ إِلَيْكَ الْبَصَرَ حَاسِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾، أي: تعاطم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه.

من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته.

ومن عظمته كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسماوات والأرض.

و ﴿خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ أي: قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، أي: أخلصه وأصوبه، فإن^(٢) الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سينقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن اتقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

الكواكب فيها .

﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾، أي: المصابيح ﴿رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾ الذين يريدون استراق خبر السماء .

فجعل الله هذه النجوم حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبار الأرض، فهذه الشهب، التي ترمى من النجوم، أهداها الله في الدنيا للشياطين .

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ لأنهم تمردوا على الله، وأضلوا عباده، ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم، قد أعد الله لهم عذاب السعير، فهذا قال :

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ التي يهان به أهله^(١)، غاية الهوان .

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ على وجه الإهانة والذل ﴿سَبَّحُوا لَهَا سَبْحًا﴾، أي: صوتًا عاليًا فظيعة .

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾، أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضًا، وتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم، إذا حصلوا فيها؟!!

ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: ﴿كَلِمًا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَائِنَهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ ؟ أي: حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تجربوا عنها، ولم تحذركم النذر منها .

﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنشَأْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾، فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله .

ولم يكفهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالًا كبيرًا، فأثي عناد وتكبر وظلم يشبه هذا؟ .

﴿وَقَالُوا﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: ﴿أَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل والعقل

الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع [لهم] ولا عقل .

وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله علمًا ومعرفة وعملاً .

والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر .

وهم - في الإيمان - بحسب ما من الله عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

٥٦٢

سُورَةُ الْمَلِكِ

سُورَةُ الْمَلِكِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

بَرَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ

الْمَوْتَ وَالْحَيٰوةَ لِيَبْلُوَكُمْ اِيْتَكُمْ اَحْسَنَ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾

الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوٰتٍ طِبَاقًا مَا تَرٰى فِي خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِن تَفٰوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرٰى مِن فُطُوْرٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرِّيْٓنٍ

يَنْقَلِبُ اِلَيْكَ الْبَصْرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيْرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمٰوٰةَ

الَّذِيْنَ اَبْمَصْبِيْحٍ وَجَعَلْنٰهَا رُجُوْمًا لِلشَّيْطٰنِ وَاَعْدٰنَا لَهُمْ عَذَابُ

السَّعِيْرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِيْنَ كَفَرُوْا اِبْرٰهِيْمَ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيْرُ ﴿٦﴾

اِذَا الْقُوْرُ اِنْفِثَتْ سَعُوْا لَهَا شَهِيْقًا وَهِيَ تَفُوْرٌ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ

مِنَ الْغَيْظِ كَلِمًا اُلْقِيَ فِيْهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزٰنِيْنَهَا اَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيْرٌ ﴿٨﴾

قَالُوْا بَلٰى قَدْ جَاءَنَا نَذِيْرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللّٰهُ مِن شَيْءٍ اِنْ اَنْشَأْ

اِلَّا فِيْ ضَلٰلٍ كَبِيْرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوْا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ اَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيْ اَصْحٰبِ

السَّعِيْرِ ﴿١٠﴾ فَاَعْرَفُوْا بِذُنُوْبِهِمْ فَسَحَقًا لَّا صَحْبَ السَّعِيْرِ ﴿١١﴾

اِنَّ الَّذِيْنَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَّاَجْرٌ كَبِيْرٌ ﴿١٢﴾

يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير .

قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار، المعترفين بظلمهم وعنادهم :

(١١) ﴿فَاعْرَفُوا بِذُنُوْبِهِمْ فَسَحَقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾، أي: بُعداً لهم وخسارة وشقاء .

فما أشقاهم وأرداهم، حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسعير، التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفتدنتهم! .

(١٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾

لما ذكر حالة الأشقياء الفجار، ذكر حالة السعداء الأبرار^(٢)، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾، أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون فيما أمر به^(٣) .

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، وإذا غفر الله ذنوبهم وقاهم

(١) في ب: التي يهان بها أهلها . (٢) في ب: ذكر وصف الأبرار السعداء . (٣) في ب: ولا يقصرون عما أمرهم به .

شرها، ووقاهم عذاب الجحيم .

﴿و﴾ لهم ﴿أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو ما أعد الله لهم في الجنة من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات [المتوصلات]، والمشتهيات والقصور [والمنازل] العاليات، والحدود الحسان، والخدم والولدان .

وأعظم من ذلك وأكبر، رضا الرحمن الذي يحله الله على أهل الجنان^(١) .

(١٣، ١٤) ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ○ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿ هَذَا إِخْبَارٌ مِنْ اللَّهِ بِسَعَةِ عِلْمِهِ، وَشُمُولِ لَطْفِهِ، فَقَالَ: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾، أَي: كُلُّهَا سِوَاءَ لَدَيْهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهَا خَافِيَةٌ .

ف﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، أَي: بِمَا فِيهَا مِنَ النِّيَّاتِ، وَالْإِرَادَاتِ، فَكَيْفَ بِالْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ، الَّتِي تَسْمَعُ وَتَرَى؟! .
ثم قال - مستدلًا بدليل عقلي على علمه -: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، فَمَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ وَأَتَقَنَهُ، وَأَحْسَنَهُ، كَيْفَ لَا يَعْلَمُهُ؟! .

﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبايا [والخفايا]، والغيوب [وهو الذي ﴿يَعْلَمُ الْسِرَّ وَآخَفَى﴾ .

ومن معاني اللطيف، أنه الذي يلطف بعبده ووليه، فيسوق إليه البر والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصمه من الشر من حيث لا يحتسب، ويرقيه إلى أعلى المراتب بأسباب لا تكون من [العبد] على بال، حتى إنه يذيقه المكارة، ليتوصل بها، إلى المحاب الجليلة، والمقامات النبيلة .

(١٥) ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أَي: هُوَ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْأَرْضَ، وَذَلَّلَهَا؛ لِتَدْرِكُوا مِنْهَا كُلَّ مَا تَعَلَّقْتُمْ بِهِ حَاجَتَكُمْ، مِنْ غَرَسٍ وَبِنَاءٍ، وَحَرْتٍ، وَطَرَقٍ يَتَوَصَّلُ بِهَا إِلَى الْأَفْطَارِ النَّائِيَةِ، وَالْبُلْدَانِ الشَّاسِعَةِ .

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أَي: لِطَلْبِ الرِّزْقِ وَالْمَكَاسِبِ .

﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ أَي: بَعْدَ أَنْ تَتَقَلَّبُوا مِنْ هَذِهِ الدَّارِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ امْتِحَانًا، وَبَلَّغَتْهُ بِهَا إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، تَبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِكُمْ، وَتَحْشَرُونَ إِلَى اللَّهِ، لِجِجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمُ الْحَسَنَةِ وَالسَّيِّئَةِ .

(١٦-١٨) ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخِفَّفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ ○ أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ○ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمُكِّتْ كَانَ نَكِيرٌ ﴿ هَذَا تَهْدِيدٌ وَوَعِيدٌ لِمَنْ اسْتَمَرَّ فِي طُغْيَانِهِ وَتَعَدُّبِهِ، وَعَصِيَانِهِ الْمَوْجِبِ لِلنَّكَالِ، وَحُلُولِ الْعُقُوبَةِ، فَقَالَ: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ﴾ وَهُوَ

سُورَةُ الْمَلِكِ

٥٦٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ ○ أَلَا

يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ

الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ

﴿١٥﴾ ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخِفَّفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ

تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا

فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمُكِّتْ

كَانَ نَكِيرٌ ﴿١٨﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَبَقِيضْنَ مَا

يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي

هُوَ جَعَدُ لَكُمْ نَصْرَكُمْ مِّنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ

﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُتُوٍّ

وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا

عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ

فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

الله تعالى، العالی علی خلقه .

﴿أَن يَخِفَّفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ بكم وتضطرب، حتى

تتلفكم وتهلككم^(٢) .

﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾، أَي: عَذَابًا

مِن السَّمَاءِ، يَحْصِبُكُمْ، وَيَتَقَطَّرُ مِنْكُمْ ﴿فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ﴾، أَي: كَيْفَ يَأْتِيكُمْ مَا أَنْذَرْتُمْ بِهِ الرِّسْلَ وَالْكِتَابَ .

فَلَا تَحْسَبُوا أَنَّ أَمْنَكُمْ مِنَ اللَّهِ أَن يَعَاقِبَكُمْ بِعِقَابٍ مِنَ الْأَرْضِ وَمِن السَّمَاءِ يَنْفَعُكُمْ، فَسَتَجِدُونَ عَاقِبَةَ أَمْرِكُمْ، سِوَاءَ طَالَ عَلَيْكُمُ الزَّمَانُ^(٣) أَوْ قَصُرَ .

فَإِنَّ مِنْ قَبْلِكُمْ كَذَّبُوا كَمَا كَذَّبْتُمْ، فَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَانظُرُوا كَيْفَ أَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، عَاجِلُهُمْ بِالْعُقُوبَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ قَبْلَ عُقُوبَةِ الْآخِرَةِ، فَاحْذَرُوا أَنْ يَصِيبَكُمْ مَا أَصَابَهُمْ .

(١٩) ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَّتْ وَبَقِيضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ وَهَذَا عِتَابٌ وَحَثٌ عَلَى النَّظَرِ إِلَى حَالَةِ الطَّيْرِ الَّتِي سَخَّرَهَا اللَّهُ، وَسَخَّرَ لَهَا الْجَوَّ وَالْهَوَاءَ، تَصِفُ

(١) فِي ب: الَّذِي يَحْلُهُ عَلَى سَاكِنِي الْجَنَانِ . (٢) فِي ب: حَتَّى تَهْلِكُوا وَتَتَلَفُوا . (٣) فِي ب: الْأَمَدُ .

فيه أجنحتها للطيران، وتقبضها للوقوع، فتظل سابحة في الجو، مترددة فيه، بحسب إرادتها وحاجتها.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ فإنه الذي سخر لهن الجو، وجعل أجسادهن وخلقتهن^(١) في حالة مستعدة للطيران.

فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري، وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد الذي لا تبغي العبادة إلا له.

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، فهو المدبر لعباده، بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته.

(٢٠، ٢١) ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكُفْرَ لَكَبُورٌ إِلَّا فِي عُرْوٍ﴾ ○ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَلْ لَجُوا فِي عُنْوٍ وَهُمْ لَا يَخِفُونَ يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحق:

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصُرُّكَ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾، أي: ينصرمك، إذا أراد بكم الرحمن سوءاً، فيدفعه عنكم؟ أي: من الذي ينصرمك على أعدائكم غير الرحمن؟ فإنه تعالى هو الناصر المعز المذل، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبد، لم ينفعوه مثقال ذرة، على أيّ عدوٍّ كان.

فاستمرار الكافرين على كفرهم، بعد أن علموا أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن، غرور وسفاهة.

﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكَ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ﴾، أي: الرزق كله من الله، فلو أمسك عنكم رزقه، فمن الذي يرسله لكم؟ فإن الخلق لا يقدر على رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم؟ فالرزاق المنعم، الذي لا يصيب العباد نعمة إلا منه، هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة.

ولكن الكافرون ﴿لَجُوا﴾ أي: استمروا ﴿فِي عُنْوٍ﴾، أي: قسوة وعدم لين للحق ﴿وَهُمْ لَا يَخِفُونَ﴾، أي: شرود عن الحق.

(٢٢) ﴿أَفَمَنْ يَتَّبِعْ مِثْلًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَتَّبِعْ سَوْيًا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: أي الرجلين أهدى؟ من كان تائهاً في الضلال، غارقاً في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلاً، والباطل حقاً؟ ومن كان عالماً بالحق، مؤثراً له، عاملاً به يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله، وجميع أحواله؟.

فبمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

(٢٣-٢٦) ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ ○ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ

تَحْشُرُونَ ○ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ○ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ يقول تعالى - مبيناً أنه المعبود وحده، وداعياً عباده إلى شكره، وإفراده بالعبادة -:

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾، أي: أوجدكم من العدم، من غير معاون له ولا مظاهر.

ولما أنشأكم، كمل لكم الوجود، بالسمع والأبصار والأفئدة التي هي أنفع أعضاء البدن^(٢)، وأكمل القوى الجسمانية.

ولكنه^(٣) مع هذا الإناعام ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله، قليل منكم الشاكر، وقليل منكم الشكر.

﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: بشكم في أقطارها، وأسكنكم في أرجائها، وأمركم، ونهاكم، وأسدى عليكم من النعم، ما به تتنفعون، ثم بعد ذلك يحشركم ليوم القيامة.

ولكن هذا الوعد بالجزاء، ينكره هؤلاء المعاندون ﴿وَيَقُولُونَ﴾ تكذيباً: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، جعلوا علامة صدقهم، أن يخبروا^(٤) بوقت مجيئه، وهذا ظلم وعناد.

فإنما العلم عند الله لا عند أحد من الخلق، ولا ملازمة بين صدق هذا الخبر، وبين الإخبار بوقته، فإن الصدق يعرف بأدلته.

وقد أقام الله من الأدلة والبراهين على صحته، ما لا يبقى معه أدنى شك، لمن ألقى السمع وهو شهيد.

(٢٧-٣٠) ﴿قَلَمًا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ ○ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ○ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ عَاطِمًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسْتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ○ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ يعني أن محل تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدنيا، فإذا كان يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم ﴿زُلْفَةً﴾، أي: قريباً، ساءهم ذلك، وأفظعهم، وقلقل أفئدتهم فتغيرت لذلك وجوههم، ووبخوا على تكذيبهم، وقيل لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون.

فاليوم رأيتموه عياناً، وانجلي لكم الأمر، وتقطعت بكم الأسباب، ولم يبق إلا مباشرة العذاب.

ولما كان المكذبون للرسول ﷺ، [الذين] يردون دعوته، ينتظرون هلاكه، ويتربصون به ريب المنون، أمره الله أن يقول

(١) في ب: وجعل أجسادها وخلقتها. (٢) في ب: وهذه الثلاثة هي أفضل أعضاء البدن. (٣) في ب: ولكنكم. (٤) في ب: أن يخبروهم.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

٥٦٤

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكِنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٨﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنٌ بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَاسْتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الْقَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَيِّتِكُمُ الْمَقْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تَطَّعِ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُوًّا لَوَدُّهُمْ فَيَدْهُنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تَطَّعِ كُلَّ حَلَّافٍ فِي مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَازِمًا مَشَاءً بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَشِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذِ اتَّكَلَى عَلَيْهِ إِذْ يَتُنَاقَلُ أَكْ أَسْطِيرًا الْأُولِينَ ﴿١٥﴾

وذلك أن القلم، وما يسطرون به من أنواع الكلام، من آيات الله العظيمة، التي تستحق أن يقسم الله بها، على براءة نبيه محمد ﷺ، مما نسبته إليه أعداؤه من الجنون، فنفى عنه الجنون^(١) بنعمة ربه عليه، وإحسانه، حيث منَّ عليه بالعقل الكامل، والرأي الجزل، والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام، وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا. ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ أي: عظيمًا، كما يفيد التكرير، ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ أي: [غير] مقطوع، بل هو دائم مستمر. وذلك لما أسلفه النبي ﷺ من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة.

ولهذا قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ أي: عاليًا به، مُسْتَعْلَبًا بخلقك الذي منَّ الله عليك به. وحاصل خلقه العظيم ما فسرت به أم المؤمنين [عائشة رضي الله عنها] لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»،

(١) في ب: إنكم. (٢) في ب: أميتكم. (٣) في ب: تم تفسير سورة الملك، والحمد لله. (٤) في ب: عنه ذلك.

لهم: أنتم^(١) وإن حصلت لكم أمانيتكم^(٢)، وأهلكني الله ومن معي، فليس ذلك بِنافع لكم شيئًا، لأنكم كفرتم بآيات الله، واستحققتم العذاب، فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم؟.

فإذا، تعبكم وحرصكم على هلاكي غير مفيد ولا مُجِدٍ عنكم شيئًا، ومن قولهم: إنهم على هدى، والرسول على ضلال، أعادوا في ذلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقاتلوا.

فأمر الله نبيه أن يخبر عن حاله، وحال أتباعه، ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم، وهو أن يقولوا: ﴿أَمَّا بِيَدِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾، والإيمان يشمل التصديق الباطن، والأعمال الباطنة والظاهرة.

ولما كانت الأعمال، وجودها وكمالها، متوقفة على التوكل، خص الله التوكل من بين سائر الأعمال، وإلا فهو داخل في الإيمان، ومن جملة لوازمه، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

فإذا كانت هذه حال الرسول، وحال من اتبعه، وهي الحال التي تتعين للفلاح، وتتوقف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدها، فلا إيمان [لهم] ولا توكل، علم بذلك من هو على هدى، ومن هو في ضلال مبين.

ثم أخبر عن انفراده بالنعم، خصوصًا بالماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، فقال: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾، أي: غائرًا ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ تشربون منه، وتسقون أنعامكم، وأشجاركم، وزروعكم؟.

وهذا استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدر أحد على ذلك، غير الله تعالى.

تمت والله الحمد^(٣).

تفسير سورة ن

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ ○ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ○ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ○ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ ○ فَسَتَبْصُرُ وَيُبْصِرُونَ ○ بِأَيِّتِكُمُ الْمَقْتُونُ ○ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تكتب بها [أنواع] العلوم، ويسطر بها المنثور والمنظوم.

وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿حُدِّ الْمَوْتُ وَأَمْرٌ بِالْعَرْفِ وَأَعْرَضَ عَنِ الْمَهْتَدِينَ﴾، ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَّعَذَابُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الآية] ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم الأخلاق، و[الآيات] الحاثتات على الخلق العظيم^(١)، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها في الذروة العليا.

فكان ﷺ سهلاً ليناً، قريباً من الناس، مجيباً لدعوة من دعاه، قاصياً لحاجة من استقصاه، جابراً لقلب من سأله، لا يجرمه، ولا يرده خائباً.

وإذا أراد أصحابه منه أمراً وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم.

وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً له، إلا أتم عشرة وأحسنها: فكان لا يعبس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

فلما أنزله الله في أعلى المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مقتون، قال:

﴿فَسْتَبِصِرْ وَتَيْبِرُونَ ○ بِأَنِّي كُنْتُ الْمَقْتُولَ ○﴾ وقد تبين أنه أهدى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس، [وشر الناس]^(٢) للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلوهم عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك، فإنه المحاسب المجازي.

و ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ○ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية دون غيره.

(٨-١٦) ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْكٰفِرِينَ ○ وَذُوًا لَّوْ تَدْرَهُنَّ يٰكٰفِرُونَ ○ وَلَا تُطِيعُوا كُلَّ حٰلَاقٍ مَّهِينٍ ○ هٰذَا مَثَلٌ لِّبَنِي سَبِيحٍ ○ مِّنَّا لِّلْحَيْرِ مَعْتَدٍ ○ اٰتِيهِ ○ عٰثِلٌ بَعْدَ ذٰلِكَ رٰزِيهِ ○ اَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِيْنَ ○ اِذَا تَنٰكَلْنَا عَلَيْهِ ءَايٰتُنَا قَالِ اسْتَطٰرَ الْاَوَّلٰيْنَ ○ سَتَمِمْهُ عَلٰى الْفٰرُطُوْمِ ○ يَقُوْلُ اللّٰهُ تَعٰلٰى لِنَبِيِّهِ ○ ﴿فَلَا تُطِيعُوا الْكٰفِرِينَ﴾ الذين كذبوك، وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلاً لأن يطاعوا، لأنهم لا يأمرون إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالمطيع لهم مُقَدِّمٌ على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن

التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم، ويسكتوا عنه، ولهذا قال:

﴿رُدُّوْا﴾ أي: المشركون ﴿لَوْ تَدْرَهُنَّ﴾ أي: توافقهم على بعض ما هم عليه، إما بالقول، أو بالفعل، أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه.

﴿يٰكٰفِرُونَ﴾ ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره بنقض ما يصاده، وعيب ما يناقضه.

﴿وَلَا تُطِيعُوا كُلَّ حٰلَاقٍ﴾، أي: كثير الحلف، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب.

ولا يكون كذاباً، إلا وهو ﴿مَّهِينٌ﴾، أي: خسيس النفس، ناقص الحكمة، ليس له همة^(٣) في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة.

﴿هٰذَا مَثَلٌ﴾ أي: كثير العيب [للناس] والطعن فيهم^(٤)، بالغبية والاستهزاء، وغير ذلك.

﴿سَتَمِمْهُ لِّلْحَيْرِ﴾ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهي نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء.

﴿مِّنَّا لِّلْحَيْرِ﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك، ﴿مُعْتَدٍ﴾ على الخلق في ظلمهم في الدماء والأموال والأعراض^(٥) ﴿اٰتِيهِ﴾ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى ﴿عٰثِلٌ بَعْدَ ذٰلِكَ﴾ أي: غليظ شرس الخلق قاس، غير منقاد للحق. ﴿رٰزِيهِ﴾ أي: دعي، ليس له أصل ولا [مادة ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقيح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح، له زنمة، أي: علامة في الشر يعرف بها.

وحاصل هذا، أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلاف كذاب، خسيس النفس، سىء الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر عن الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، بالغبية والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين - كالوليد بن المغيرة أو غيره، لقوله عنه: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِيْنَ ○ إِذَا تَنٰكَلْنَا عَلَيْهِ ءَايٰتُنَا قَالِ اسْتَطٰرَ الْاَوَّلٰيْنَ﴾ أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله

(١) في ب: على كل خلق جميل. (٢) زيادة من هامش ب. (٣) في ب: ليس له رغبة. (٤) كذا في ب، وفي أ: في الناس. (٥) في ب: يظلمهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنْ أَعُدُّوا عَلَيْنَا حُرَّتِكُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ ﴿٢٢﴾ فَأَنْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَعَدَّوْا عَلَيْنَا حَرِدٍ قَدِيرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَأَنْتَالُونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلْقُوا لَكُمْ لَوْ لَا تَسْتَحِينُ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٣١﴾ عَسَى رَبَّنَا أَنْ يُبَدِّلَ لَنَا خَيْرًا مِنْهَا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كُنُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّتِ الْعَيْمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ آيَاتُنْ عَلَيْنَا نَالِغَةٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾

من الحيرة والانزعاج: ﴿إِنَّا لَنَلَّؤُنَّ﴾ [أي: تائهون] عنها، لعلها غيرها.

فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم، قالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة.

فقال أوسطهم ﴿أَي: أعدلهم، وأحسنهم طريقة: ﴿أَلْقُوا لَكُمْ لَوْ لَا تَسْتَحِينُ﴾ أي: تزهدون الله عما لا يليق به، ومن ذلك ظنكم أن قدرتكم مستقلة، فلولا استئثمت، فقلتم: «إن شاء الله» وجعلتم مشيئكم تابعة لمشيئة الله، لما جرى عليكم ما جرى.

ف ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، أي: استدرخوا بعد ذلك، ولكن بعدما وقع العذاب على جنتهم الذي لا يرفع.

ولكن لعل تسييحهم هذا، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم، يفتعهم في تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندموا ندامة عظيمة.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتْلَمُونَ﴾ فيما أجروه وفعلوه، ﴿قَالُوا

(١) في ب: على الخرطوم. (٢) في ب: من حيث لا يعلمون. (٣) في ب: لها.

من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها - فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

ثم توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله، بأن الله سيسمه على خرطومه^(١) في العذاب، ليعذبه عذاباً ظاهراً، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

(١٧-٣٣) ﴿إِنَّا بَلَوْتَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ﴿١٧﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٨﴾ إلى آخر القصة. يقول تعالى: إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير، وأمهلناهم، وأممدناهم بما شئنا من مال وولد وطول عمر، ونحو ذلك، مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربما يكون استدراجاً لهم، من حيث لا يشعرون^(٢).

فاغترارهم بذلك، نظير اغترار أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين زهت ثمارها وأينعت أشجارها، وأن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم، وطوع أمرهم، وأنه ليس ثم مانع يمنعم منها.

ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء، أنهم سيصرونها، أي: يجذونها مصحين.

ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويادهم إليها.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: عذاب نزل عليها ليلاً ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾، فأبادهها، وأتلفها ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾، أي: كالليل المظلم، ذهبت الأشجار والثمار، هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم، ولهذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا، يقول بعضهم لبعض:

﴿أَعُدُّوا عَلَيْنَا حُرَّتِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ﴾ ﴿فَأَنْطَلَقُوا﴾ قاصدين له^(٣) ﴿وَهُمْ يَخْفَوْنَ﴾ فيما بينهم، ولكن بمنع حق الله، ويقولون: ﴿لَا يَدْخُلُنَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ﴾، أي: بكروا قبل انتشار الناس، وتواصلوا مع ذلك بمنع الفقراء والمساكين.

ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافته، خوفاً أن يسמעهم أحد، فيخبر الفقراء.

﴿وَعَدَّوْا﴾ في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة ﴿عَلَى حَرِّ قَدِيرِينَ﴾ أي: على إمساك ومنع لحق الله، جازمين بقدرتهم عليها.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ على الوصف الذي ذكر الله كالصريم، ﴿قَالُوا﴾

يُرْتَلِّئًا إِنَّا كُنَّا طَائِفِينَ، أي: متجاوزين للحد في حق الله، وحق عباده.

﴿عَسَى رَبًّا أَنْ يَبَدِّلَنَا عَذَابًا مِمَّا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ فهم رجوا الله أن يبدلهم خيرًا منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا.

فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيرًا منها؛ لأن من دعا الله صادقًا، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سُؤْلَهُ.

قال تعالى مبيِّنًا^(١) ما وقع: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ﴾، [أي:]: الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وأثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أحوج ما يكون إليه.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ من عذاب الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، فإن من علم ذلك، أوجب له الانزجار عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب^(٢).

(٣٤-٤١) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٍ النَّعِيمِ﴾ ○ ﴿فَتَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْجَنَّةِيِّمْ﴾ ○ ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ ○ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ ○ ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخْتَرُونَ﴾ ○ ﴿أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا بَلَاغَةً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ ○ ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَيْبٌ﴾ ○ ﴿أَمْ لَمْ شُرَكَاؤُا يَشْرِكُوا بِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ يخبر تعالى بما أعدده للمتقين للكفر والمعاصي، من أنواع النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين^(٣) القانتين لربهم، المتقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه، كالمجرمين الذين أوضاعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه.

وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب، فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل، ورأيه^(٤) فاسد.

وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك، فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون [ويتلون] أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتخيروا.

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان، فليأتوا بهم إن كانوا صادقين.

ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعوهم باطلة فاسدة.

وقوله: ﴿سَلِّمُوا إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ رَيْبٌ﴾ أي: أيهم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة، فإنه لا يمكن التصدر بها، ولا الزعامة فيها^(٥).

(٤٢، ٤٣) ﴿يَوْمَ يَكْتُفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ ○ ﴿خَشِيعَةً أَنْصَرَهُمْ رَهْفَهُمْ وَانْكَشَفَ فِيهِ مِنَ الْقَلَاقِلِ سَلِيلُونَ﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل [والزلازل] والأهوال، ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده، ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة، التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحينئذ يدعون إلى السجود لله.

فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله، طوعًا واختيارًا، ويذهب الفجار والمنافقون ليسجدوا فلا يقدرين على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء.

وهذا الجزء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله، وتوحيده وعبادته، وهم سالمون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم، وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تفهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة.

ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي، [ويوجب] التدارك مدة الإمكان. ولهذا قال تعالى:

(٤٤-٥٢) ﴿فَذَرِي وَمَنْ يَكْذِبُ يَهْدَاهُ اللَّهُ جَنَّتِمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ○ ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ ○ ﴿أَمْ تَسْتَأْذِنُ أَجْرًا لَهُمْ مِنْ مَعْرَبٍ مُنْقَلَبُونَ﴾ ○ ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ○ ﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ ○ ﴿لَوْلَا أَنْ نَدَارِكُهُ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَئِنَّا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ ○ ﴿فَأَجْنِبْهُ رَبُّهُ فَعَمَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ○ ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيَلْفُوفُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُونٌ﴾ ○ ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فإن عليّ جزءهم، ولا تستعجل لهم، ف﴿سَسْأَلُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فمدمهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمال، ليغفروا، ويستمروا على ما يضرهم، فإن هذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه متين قوي، يبلغ من ضرهم وعذابهم فوق كل مبلغ^(٦).

﴿أَمْ تَسْتَأْذِنُ أَجْرًا لَهُمْ مِنْ مَعْرَبٍ مُنْقَلَبُونَ﴾، أي: ليس لنفورهم عنك، وعدم تصديقهم لما جئت به، سبب يوجب لهم ذلك،

(١) في ب: معظمًا. (٢) في ب: كل سبب يوجب العقاب ويحرم الثواب. (٣) في ب: المتقين. (٤) كذا في ب، وفي أ: ورأي. (٥) في ب: بهذه الدعوى التي تبين بطلانها، فإنه لا يمكن أحدًا أن تصدر بها ولا يكون زعيمًا فيها. (٦) في ب: وعقوبتهم كل مبلغ.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ
٥٦٦

خَشِيعَةً أَنْصُرَهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذَلَّةً وَقَدْ كَانُوا بِدْعُونَ إِلَى السُّجُودِ لَهُمْ سَلِيمُونَ ﴿٤٣﴾
فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ آجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّغْرَمٍ مُثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ ﴿٤٧﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ فِجْعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْفِقُونَكَ بِأَبْصَرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ الْحَاقَّةِ
٥٦٦

فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلى الله، لمحض مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا ينقل عليهم.

﴿أَمْ عِنْدَهُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم.

فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال:

﴿فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، أي: لما حكم به شرعًا وقدرًا، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يتلقى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يُقابل بالقبول والتسليم، والانتقاد التام لأمره.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام.

أي: ولا تشابهه في الحال التي أوصلته وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضبًا لربه، حتى ركب في البحر، فافتزع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها، أيهم يلقون لكي تخف بهم، فوقعت القرعة عليه ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾.

[وقوله: ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾، أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتم مهتم، بأن قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

فاستجاب الله له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأثبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هنا:

﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ﴾، أي: لطرح في العراء، وهي الأرض الخالية ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾، ولكن الله^(١) تغمده برحمته، فنذ وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال:

﴿فَاجْنِبْهُ رَبُّهُ﴾ أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر. ﴿فَيَجْمَلُهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم، ونياتهم [وأحوالهم].

فامثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبرًا لا يدرکه فيه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم.

حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم، أي: يصيبوه^(٢) بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحقنهم، لهذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلية، والله حافظه وناصره.

وأما الأذى القولي، فيقولون فيه أقوالًا بحسب ما توحى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَمْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

إليهم قلوبهم، فيقولون تارة: «مجنون»، وتارة: «ساحر»، وتارة: «شاعر».

قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، أي: وما لهذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم.

تم تفسير سورة القلم، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الحاقة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨-١) ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ○ مَا الْحَاقَّةُ ○ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ○ كَذَبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ○ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ○ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ○ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَمْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا

(١) كذا في ب، وفي أ: ولكنه. (٢) كذا في ب، وفي أ: أي: يصيبهم.

كفروع مصر، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى [ابن عمران] عليه الصلاة والسلام، وأراه من الآيات البيّنات، ما يتقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا، ظلماً وعلوّاً، وجاء من قبله من المكذّبين.

﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ أي: قرى قوم لوط، الجميع جاءوا ﴿بِالْحَاطِطَةِ﴾، أي: بالفعلة الطاغية، وهي (٥) الكفر والتكذيب، والظلم والمعاندة، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش (٦) والفسوق.

﴿فَمَصْرًا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ وهذا اسم جنس، أي: كل من هؤلاء كذب (٧) الرسول الذي أرسله الله إليهم.

فأخذ الله الجميع ﴿أَنْذَةً رَابِيَةً﴾، أي: زائدة على الحد والمقدار، الذي يحصل به هلاكهم.

ومن جملة أولئك قوم نوح أغرقهم الله في اليم حين طغى [الماء على وجه] الأرض، وعلا على مواضعها الرفيعة.

وامتنن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم ﴿فِي الْبَارِيَةِ﴾، وهي السفينة في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجاهم الله، فاحمدوا الله واشكروا الذي نجاكم حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيده، ولهذا قال:

﴿لِنَجْعَلَهَا﴾، أي: الجارية، والمراد جنسها لكم ﴿تَذَكُّرًا﴾ تذكركم أول سفينة صنعت، وما قصتها، وكيف

نجى الله عليها من أمن به، واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم، فإن جنس الشيء مذكّر بأصله.

وقوله: ﴿وَتَعْبَهُمْ أَذُنٌ وَعَيْبَةٌ﴾ أي: تعقلها أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها وجه الآية بها، وهذا بخلاف أهل

الإعراض والغفلة، وأهل البلادة وعدم الفطنة، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله، لعدم وعيهم عن الله، وفكرهم بآيات الله (٨).

(١٣-١٨) وقوله: ﴿إِذَا فُجِعَ فِي الْأُصُورِ نَفْعَةٌ وَجِدَةٌ﴾ ○ ﴿وَجُمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَذُكَّتَا ذَكَّةً وَجِدَةٌ﴾ ○ ﴿يَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ ○ ﴿وَأَنشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ○ ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ ○ ﴿وَنَحِيلُ عَرِشٍ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمِينَةٌ﴾ ○ ﴿يَوْمَئِذٍ تَرْتَضُونَ لَآ تَحْفَىٰ مِنْكُمْ حَافِيَةٌ﴾ ○ ﴿لَمَا ذَكَرَ مَا فَعَلَهُ

تعالى بالمكذّبين لرسله، وكيف جازاهم، وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجى الرسل وأتباعهم، كان لهذا مقدمة

لذكر الجزاء الأخروي، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة.

فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة، وأن أول ذلك

﴿فَرَكِبَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغَيْنَ كَأَنَّهُمْ آعْجَازُ نَخْلٍ حَآوِيَةٍ﴾ ○ ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾، ○ ﴿الْحَاقَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة، لأنها تحق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ومخبات الصدور.

فعظم تعالى شأنها وفتحها، بما كثره من قوله: ﴿الْحَاقَةُ﴾ ○ ﴿مَا لِحَاقَةُ ○ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لِحَاقَةُ﴾ ○ فإن لها شأنًا عظيمًا، وهو لا جسيمًا، [ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذّبة بها بالعذاب العاجل] (١).

ثم ذكر نموذجًا من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما (٢) أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، فقال:

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ﴾ وهم القبيلة المشهورة، سكان الحجر، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحًا عليه السلام، ينهاهم عما

هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوته، وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تفرق الخلق بأهوالها.

وكذلك عاد الأولى، سكان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هودًا عليه الصلاة والسلام، يدعومهم إلى عبادة

الله [وحده] فكذبوه، وكذبوا بما أخبر به (٣) من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك المعجل (٤).

﴿فَأَنَّا نُمُودُ فَأَمْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ وهي الصيحة العظيمة الفظيعة التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم

فأصبحوا موتى، لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم.

﴿وَأَنَّا عَادٌ فَأَمْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ﴾ أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد [القاصف]

﴿عَآيَةٍ﴾ [أي: عنت على خزائنها، على قول كثير من المفسرين، أو عنت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَينَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ أي: نحسًا وشرًا فظيعة عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم.

﴿فَرَكِبَ الْقَوْمَ فِيهَا صَرَغَيْنَ﴾، أي: هلكى موتى، ﴿كَأَنَّهُمْ آعْجَازُ نَخْلٍ حَآوِيَةٍ﴾ أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت

رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض.

﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المتقرر.

(٩-١٢) ﴿وَمَا يَرْعُونَ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَةَ بِالْحَاطِطَةِ﴾ ○ ﴿فَمَصْرًا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَنْذَةً رَابِيَةً﴾ ○ ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلَتُكُورِي الْبَارِيَةِ﴾ ○ ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذَكُّرًا وَنَعْبَهُمْ أَذُنٌ وَعَيْبَةٌ﴾ ○ أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطائفتين: عاد وثمود، جاء غيرهم من الطغاة العتاة،

(١) من هامش: أ. (٢) كذا في ب، وفي أ: ومما. (٣) في ب: وأنكروا ما أخبر به. (٤) في ب: العاجل. (٥) في ب: هو. (٦) في ب: المعاصي. (٧) في ب: كذبوا. (٨) في ب: وشكرهم بآياته.

أنه يفتح إسرافيل ﴿فِي الصُّورِ﴾ إذا تكاملت الأجساد نابتة.

﴿فَنَحْنُ وَجِدَةٌ﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وَجَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَةٌ﴾ أي: فتنت الجبال، وازمحت، وخلطت بالأرض، ونسفت على الأرض، فكان الجميع قاعًا صافصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها.

وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتمور وتشقق ويتغير لونها، وتتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وركب جسيم هائل، أوهاها وأضعفها.

﴿وَالْمَلَكُ﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته.

﴿وَيَجْمَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ غَنِيَّةٌ﴾ أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد والقضاء بينهم، بعدله وقسطه وفضله.

ولهذا قال: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ على الله ﴿لَا تَخْفَى مِنْكَ خَافِيَةٌ﴾ لا من أجسامكم وأجسادكم^(١)، ولا من أعمالكم [وصفاتكم]، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ويحشر العباد حفاةً عُرَاءَ غُرْلًا، في أرض مستوية، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فحينئذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

(١٩-٢٤) ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابِهِ بِسَيِّئِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُمِ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ۚ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْئِي حَسَابَةً ۚ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۚ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۚ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ۚ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِيَةِ ۚ وَهُؤُلَاءِ هُمْ أَهْلُ السَّعَادَةِ، يُعْطَوْنَ كِتَابَهُمُ الَّتِي فِيهَا أَعْمَالُهُمُ الصَّالِحَةُ بِأَيْمَانِهِمْ، تَمَيِّزًا لَهُمْ، وَتَنْوِيهَا بِشَأْنِهِمْ، وَرَفْعًا لِمَقْدَارِهِمْ.

ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور، ومحبة أن يطلع الخلق على ما مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ بِهِ مِنَ الْكِرَامَةِ: ﴿هَٰؤُمِ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ﴾، أي: دونكم كتابي، فاقراءوه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب.

والذي أوصلني إلى هذه الحال، ما مَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيَّ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْبَعْتِ وَالْحِسَابِ، وَالِاسْتِعْدَادِ لَهُ، بِالْمُمْكِنِ مِنَ الْعَمَلِ، وَلِهَذَا قَالَ:

﴿إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْئِي حَسَابَةً﴾ أي: أيقنت، فالظن - هنا - [بمعنى] اليقين.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

٥٦٧

سُورَةُ الْحَاقَّةِ

وَجَاءَ فُرْعُونَ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَةَ بِالْخَاطِئَةِ ﴿١﴾ فَعَصُوا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَاخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿٢﴾ إِنَّا لَمَأْطَعَا الْمَاءَ حَمَلَتُ كُوفِي الْجَارِيَةَ ﴿٣﴾ لَنَجْعَلَنَّهَا كَعَرِّكَ نُذِكْرَةً وَتَعِيمًا أَدْنَىٰ رِعِيَةٍ ﴿٤﴾ فَإِنَّا نَفِخُ فِي الصُّورِ نَفْحَةً وَجِدَةٌ ﴿٥﴾ وَجَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَجِدَةٌ ﴿٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿٧﴾ وَأَنْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿٨﴾ وَالْمَلِكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَجْمَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ غَنِيَّةٌ ﴿٩﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٠﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِسَيِّئِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُمِ اقْرَءُوا كِتَابِيَةَ ﴿١١﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْئِي حَسَابَةً ﴿١٢﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿١٣﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٤﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿١٥﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِيَةِ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كِتَابَهُ بِسَيِّئِهِ فَيَقُولُ يَلَيْتَنِي لَأَرْوَتَ كَثِيبَةً رَاغِبًا ﴿١٧﴾ وَلَوْلَا إِذْ بَعَثْتَنِي لَأَبْرَأْتُ لَكُم بَنِينَ كَتَّابِينَ ﴿١٨﴾ يَكْتُبُونَ كِتَابِيَةَ ﴿١٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٢٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٢٣﴾ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٢٤﴾

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ أي: جامعة لما تشتهيهِ الأنفس، وتلذذ الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ المنازل والقصور، عالية المحل.

﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ أي: ثمرها وجناها، من أنواع الفواكه، قريبة، سهلة تناول على أهلها، ينالها أهلها، قيامًا وقعودًا ومتكئين.

ويقال لهم إكرامًا: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ أي: من كل طعام لذيذ، وشراب شهِّي.

﴿هَنِيئًا﴾ أي: تامًا كاملاً، من غير مكدر، ولا منغص، وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْفَالِيَةِ﴾ من الأعمال الصالحة وترك الأعمال السيئة^(٢): من صلاة، وصيام، وصدقة، وحب، وإحسان إلى الخلق، وذكر الله،

(١) في ب: لا من أجسادكم وذواتكم. (٢) هكذا في المخطوطتين، وقد جاءت جملة: (ترك الأعمال السيئة) بين جملة (الأعمال الصالحة) وتفصيل تلك الأعمال، فصار في الكلام نوع إيهام مما دفع إلى تأخير جملة: (ترك في الطبقات السابقة) وقد جعلت الكلام كما هو مع الإشارة إلى أنها جملة معترضة.

وإنابة إليه .

فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة، ومادة لتعيمها، وأصلاً لسعادتها .

(٢٥-٣٧) ﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْقَىٰ كَيْبَهُ بِإِسْمَالِهِ فَيَقُولُ بَلِّغْتَنِي لَوْ أُرْتِ كَيْبِيَّةَ ۖ وَلَا أَدْرِي مَا حِسَابِي ۖ يَلْبِغَهَا كَاتِبُ الْقَاضِيَةِ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ ۖ هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ۖ حُدُوهُ فَعَلُوهُ ۖ ثُمَّ لَجِجِمِ صَلْوُهُ ۖ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ دَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ۖ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ۖ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۖ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا حَيْمٌ ۖ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَشَلِينَ ۖ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ۖ هُوَ لِأَهْلِ الشَّقَاءِ يُعْطَوْنَ كِتَابَ أَعْمَالِهِمُ السَّيِّئَةِ ۖ بِشِمَالِهِمْ ۖ تَمَيِّزًا لَهُمْ ۖ وَخَزْيًا ۖ وَعَارًا ۖ وَفَضِيحَةً ۖ فَيَقُولُ أَحَدُهُمْ مِنَ الْمَهْمِ ۖ وَالْغَمِ ۖ وَالْخِزْيِ ۖ ۗ﴾ : ﴿بَلِّغْتَنِي لَوْ أُرْتِ كَيْبِيَّةَ ۖ﴾ لأنه يبشر بدخول النار، والخسارة الأبدية .

﴿وَلَوْ أَدْرِي مَا حِسَابِي﴾ أي : ليتني كنت نسيًا منسيًا ، ولم أبعث وأحاسب ، ولهذا قال :

﴿بَلِّغْتَنِي كَاتِبُ الْقَاضِيَةِ﴾ ، أي : يا ليت موتي هي الموتة التي لا بعث بعدها .

ثم التفت إلى ماله وسلطانه، فإذا هو وبال عليه، لم يقدم منه لآخرته، ولم ينفعه في الافتداء من عذاب الله^(٣)، فيقول : ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَّةٌ﴾ ، أي : ما نفعني لا في الدنيا، لم أقدم منه شيئًا، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه .

﴿هَلَّاكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ﴾ ، أي : ذهب واضمحل، فلم تنفع الجنود الكثيرة ولا العُدُدُ الخطيرة^(٤)، ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدرج الرياح، وفانت بسببه المتاجر والأرباح، وحضرت بذله الهموم والغنوم والأتراح .

فحينئذ يؤمر بعذابه، فيقال للزبانية الغلاظ الشداد : ﴿حُدُوهُ فَعَلُوهُ﴾ أي : اجعلوا في عنقه غلاً يخنقه .

﴿ثُمَّ لَجِجِمِ صَلْوُهُ﴾ أي : قلبوه على جمرها ولهبها .
﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ دَرَعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة، ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أي : انظموه فيها بأن تدخل في دبره، وتخرج من فمه، ويعلق فيها . فلا يزال يعذب بهذا العذاب الفظيع، فيش العذاب والعقاب، وواحدة من له التوبيخ والعتاب، فإن السبب الذي أوصله إلى هذا المحل : ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ﴾ بأن كان كافرًا بربه، معانداً لرسله، رادًا ما جاءه به من الحق .

﴿وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ أي : ليس في قلبه رحمة، يرحم بها الفقراء والمساكين، فلا يطعمهم [من ماله]، ولا يحض غيره على إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه .
وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران : الإخلاص لله ،

الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق بوجوده الإحسان، الذي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين، بإطعامهم ما يتقوتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا .

﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَهُنَا﴾ أي : يوم القيامة ﴿حَيْمٌ﴾ أي : قريب أو صديق يشفع له؛ لينجو من عذاب الله، أو يفوز بثواب الله ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أذِنَ لَهُ﴾ ، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَيْمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ .

وليس له طعام ﴿إِلَّا مِنْ غَشَلِينَ﴾ وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة، وتنت الريح، وقبح الطعم ومرارته .

لا يأكل هذا الطعام المذموم ﴿إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ الذين أخطأوا الصراط المستقيم، وسلخوا سبيل الجحيم^(٥)، فلذلك استحقوا العذاب الأليم .

(٣٨-٥٢) ﴿فَلَا أَسِمْ بِمَا بُصِرُونَ ۖ وَمَا لَا بُصُرُونَ ۖ إِنَّهُمْ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۖ وَمَا هُوَ يَقُولُ شَاعِرٌ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ۖ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا نَدَّوُونَ ۖ نَزَّلُ مِنَ رَبِّي الْغَالِيِينَ ۖ وَكَوَلُّ قَوْلًا عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوِيلِ ۖ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۖ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۖ فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَمْدٍ عِنْدَ حَجْرَيْنِ ۖ وَإِنَّهُ لَلَّذِكْرُ لِلْمُنْفِقِينَ ۖ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ ۖ وَإِنَّهُ لَكَسْرَةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ ۖ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۖ فَسَجَّ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أقسم تعالى بما يبصر الخلق من جميع الأشياء، وما لا يبصرونه .

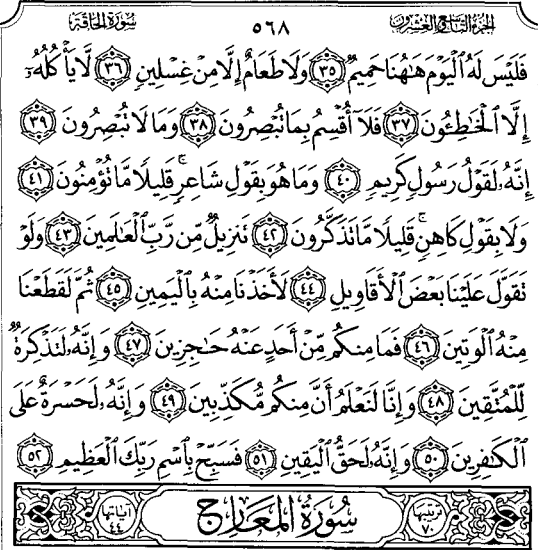
فدخل في ذلك كل الخلق، بل يدخل^(٦) في ذلك نفسه المقدسة، على صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن الله تعالى .

ونزه الله رسوله عما رماه به أعداؤه، من أنه شاعر أو ساحر، وأن الذي حملهم على ذلك، عدم إيمانهم وتذكرهم، فلو آمنوا وتذكروا، لعلما ما ينفعهم ويضرهم .

ومن ذلك أن ينظروا في حال محمد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه، لرأوا أمرًا مثل الشمس، يدلهم على أنه رسول الله حقًا، وأن ما جاء به تنزيل رب العالمين، لا يليق أن يكون قول البشر^(٧)، بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته لعباده، وعلوه فوق عباده . وأيضًا، فإن هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته .

فإنه لو تقول عليه^(٨) وافترى ﴿بَعْضَ الْأَقْوِيلِ﴾ الكاذبة،

(١) في ب : كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة . (٢) في ب : الحزن .
(٣) في ب : ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب . (٤) في ب : فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العدد ولا العُدُد . (٥) في ب : وسلخوا كل طريق يوصلهم إلى الجحيم . (٦) في ب : بل دخل . (٧) في ب : قولًا للبشر . (٨) في ب : علينا .



﴿لَاخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾ ○ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾ ، وهو عرق متصل بالقلب ، إذا انقطع مات ^(١) منه الإنسان .

فلو قدر أن الرسول - حاشا وكلا - تقوّل على الله ، لعاجله بالعقوبة ، وأخذه أخذ عزيز مقتدر ، لأنه حكيم ، على كل شيء قدير .

فحكمته تقتضي أن لا يمهّل الكاذب عليه ، الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم ، وأنه هو وأتباعه لهم النجاة ، ومن خالفه فله الهلاك .

فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات ، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات ، ونصره على أعدائه ، ومكنه من نواصيهم ، فهو أكبر شهادة منه على رسالته .

وقوله : ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ أي : لو أهلكه ، ما امتنع هو بنفسه ، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله .

﴿وَإِنَّهُ﴾ أي : القرآن الكريم ﴿لَلَّذِكْرُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يتذكرون به مصالح دينهم وديانهم ، فيعرفونها ويعملون عليها ، يذكروهم العقائد الدينية ، والأخلاق المرضية ، والأحكام الشرعية ، فيكونون من العلماء الربانيين ، والعباد العارفين ، والأئمة المهديين .

﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ﴾ به ، وهذا فيه تهديد ، ووعد للمكذبين ، فإنه سيعاقبهم على تكذيبهم ، بالعقوبة البليغة .

﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ فإنهم لما كفروا به ، ورأوا ما وعدهم به ، تحسروا إذ لم يهتدوا به ، ولم ينقادوا لأمره ، ففاتهم الثواب ، وحصلوا على أشد العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب .

﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾ ، أي : أعلى مراتب العلم ، فإن أعلى مراتب العلم اليقين ، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل ، ولا يزول .

واليقين مراتبه ثلاثة ، كل واحدة أعلى مما قبلها :

أولها : علم اليقين ، وهو العلم المستفاد من الخبر .

ثم عين اليقين ، وهو العلم المدرك بحاسة البصر .

ثم حق اليقين ، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة .

وهذا القرآن الكريم بهذا الوصف ، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية ، وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية ، يحصل به لمن ذاقه حق اليقين .

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ أي : نزهه عما لا يليق بجلاله ، وقُدِّسْهُ بِذِكْرِ أوصاف جلاله ، وجماله ، وكماله .

تم تفسير سورة الحاقة ، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً ، على كماله وأفضاله وعدله .

تفسير سورة سأل سائل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِنْ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَرَنَّهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا ﴿١٠﴾﴾

يقول تعالى مبيناً لجهل المعاندين ، واستعجالهم لعذاب الله ، استهزاء وتعتاً وتعجيراً :

﴿سَأَلَ سَائِلٌ﴾ ، أي : دعا داع ، واستفتح مستفتح ﴿بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ ○ لِلْكَافِرِينَ ○ لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم ﴿لَيْسَ لَهُمْ دَافِعٌ﴾ ○ مِنْ اللَّهِ ○ أي : ليس لهذا العذاب - الذي استعجل به من استعجل ، من متمردي المشركين - أحد يدفعه قبل نزوله ،

(١) في ب : هلك .

أو يرفعه بعد نزوله.

فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا.

ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يُظهِرُ لعباده في يوم القيامة، من عظمتهم وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملآك والأرواح، صاعدة ونازلة بالتدابير الإلهية، والشئون في الخليقة^(١).

في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن.

وقوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾، أي: اصبر على دعوتك لقومك صبرًا جميلًا، لا تَصْجُرْ فِيهِ وَلَا مَلَلٌ، بل استمِرَّ على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم وعدم رغبتهم، فإن في الصبر على ذلك خيرًا كثيرًا.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَرَأَيْنَهُ قَرِيبًا﴾ الضمير يعود إلى البعث، الذي يقع فيه عذاب السائلين بالعذاب، أي: إن حالهم حال المنكر له، والذي غلبت عليه الشقوة والسكره، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور. والله يراه قريبًا، لأنه رفيق حلِيم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب.

ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما يكون فيه، فقال:

(١٨-٨) ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ وَلَا يَسْتَلُ حِمِيمٌ حِمِيمًا وَيَصْرُوهُمْ بُودًا مُجْرِمًا لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِنِينِهِ وَصَنْجِينِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُجِيبُهُ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْفَى نَزَاعَةَ لِلشَّوِيِّ تَدْعُوًا مِنْ أَدْبَرٍ وَقَوْلًا وَجَمْعًا قَاتِلًا﴾.

أي: ﴿يَوْمَ﴾ القيامة، تقع فيه هذه الأمور العظيمة ف﴿تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْهَيْلِ﴾ وهو الرصاص المذاب، من تشققها وبلوغ الهول منها كل مبلغ.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباءً متثورًا، فتضمحل.

فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبء الضعيف، الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟.

أليس حقيقًا أن ينخلع قلبه وينزعج لبه، ويذهل عن كل

وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين^(١)، فقال: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَاكَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ أَتِنَا بِعَذَابِ إِلِيمٍ﴾ إلى آخر الآيات.

فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله، فإما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يؤخر عنهم إلى الآخرة^(٢).

فلو عرفوا الله تعالى، وعرفوا عظمتهم، وسعة سلطانه، وكمال أسمائه وصفاته، لما استعجلوا ولا استسلموا وتأدبوا، ولهذا أخبر تعالى من عظمتهم ما يضاد أقوالهم القبيحة، فقال:

﴿ذِي الْمَعَارِجِ ۝ تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحِ إِلَيْهِ﴾، أي: ذو العلو والجلال، والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة، بما دبرها^(٣) على تدبيره، وتعرج إليه الروح.

وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برّها وفاجرها، وهذا عند الوفاة.

فأما الأبرار، فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتُحْيِي رِبَهَا وتُسَلِّم عليه، وتَحْطِي بقربه، وتبتهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام، والبر والإعظام.

وأما أرواح الفجار، فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح^(٤)، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة، وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد، مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حُدَّ لها، وما تنتهي إليه من الملاء الأعلى.

فهذا المُلْك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره العَلِيُّ الأعلى.

فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره ورزقه^(٥)، ما معهم وشملهم، وأجرى عليهم حكمه القدري وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي.

فَبُؤْسًا لأقوام جهلوا عظمتهم، ولم يقدره حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان.

وسبحان الحلِيم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذوه فصبر عليهم وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية [الكريمة]،

(١) في ب: المكذبين. (٢) في ب: إما أن يدخر لهم في الآخرة. (٣)

في ب: بما جعلها. (٤) في ب: تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله.

(٥) في ب: وإحسانه. (٦) في ب: والشؤون الربانية.

أحد؟ ولهذا قال:

﴿وَلَا يَسْتَلْ حِمِيمٌ حِمِيمًا﴾ ○ بصُرُونَهُمْ، أي: يشاهد الحميم - وهو القريب - حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومحببتهم، ولا يهمله إلا نفسه.

﴿يُودُّ الْمَجْرِمُ﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِنَبِيٍّ﴾ ○ وَصَدِّقَتِهِ، أي: زوجته ﴿وَأَخِيهِ﴾ ○ وَفَصِيلَتِهِ، أي: قرابته ﴿أَلَيْ تَتُوبُ﴾ أي: التي جرت عاداتها في الدنيا أن تتناصر، ويعين بعضها بعضاً.

ففي يوم القيامة لا ينفع أحد أحداً، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله.

بل لو يفتدي [المجرم المستحق للعذاب] بجميع ما في الأرض ثم ينجيه لم ينفعه ذلك.

﴿كَلَّا﴾ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون^(١)، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء.

﴿إِنَّمَا لَطَىٰ﴾ نَزَاعَةُ لِلشَّوَى ﴿أَي: للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها^(٢).

﴿تَدْعُوا﴾ إليها^(٣) ﴿مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ ○ وَجَمَعَ فَأَوْعَى، أي: أدبر عن اتباع الحق، وأعرض عنه، فليس له فيه غرض، وجمع الأموال بعضها فوق بعض، وأوعاها فلم ينفق منها فإن النار تدعوهم إلى نفسها، وتستعد للالتها بهم.

(١٩-٣٥) ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ ○ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ○ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ○ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ○ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ○ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ○ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ○ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمِ الدِّينِ ○ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ○ إِذْ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ○ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ غَيْرِ مَلُومِينَ ○ فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ○ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ○ فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ○ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ○ وَهَذَا الوصف للإنسان من حيث هو، وصف طبيعته الأصلية، أنه هلوع.

وفسر الهلوع بأنه: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض أو ذهاب محبوب له: من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ فلا ينفق مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء ويمنع في السراء.

﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف، فإنهم إذا مسهم الخير، شكروا الله، وأنفقوا مما حولهم الله، وإذا

٥٦٩

بَصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِنَبِيٍّ ○ وَصَدِّقَتِهِ وَأَخِيهِ ○ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبُّ بِهَا ○ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ نَبِّئِهِ ○ كَلَّا إِنَّمَا لَطَىٰ ○ نَزَاعَةُ لِلشَّوَى ○ تَدْعُوا ○ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى ○ وَجَمَعَ فَأَوْعَى ○ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ○ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ○ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ○ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ○ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ○ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ○ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ○ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمِ الدِّينِ ○ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ○ إِذْ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ○ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ غَيْرِ مَلُومِينَ ○ فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ ○ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ○ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ ○ فَمَنْ ابْتغىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ○ عَنِ اليمِينِ وَعَنِ الشَّمَالِ عَزِيزِينَ ○ أَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّمَّهُ ○ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ○ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ○

مسهم الشر صبروا واحسبوا.

وقوله [في وصفهم]: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾، أي:

مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها.

وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتاً دون وقت، أو

يفعلها على وجه ناقص.

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ من زكاة وصدقة ﴿لِلسَّائِلِ﴾ الذي

يتعرض للسؤال ﴿وَالْمَحْرُورِ﴾ وهو المسكين الذي لا يسأل

الناس فيعطوه، ولا يفتن له فيصدق عليه.

﴿وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بَيَّوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يؤمنون بما أخبر الله به،

وأخبرت به رسله من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك،

فيستعدون للأخرة ويسعون لها سعيها، والتصديق بيوم الدين

يلزم منه التصديق بالرسول، وبما جاءوا به من الكتب.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ أي: خائفون وجلون،

فيتركون لذلك كل ما يقربهم من عذاب الله.

(١) في ب: قد حقت عليهم كلمة ربك. (٢) في ب: أي: النار التي

تنطلق تنزع من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة. (٣) في ب: إلى

نفسها.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُفْرَجِهِمْ حَقُّونٌ﴾ فلا يطأون بها وطأ محرماً، من زنا، أو لواط، أو وطء في دبر، أو حيض، ونحو ذلك.

ويحفظونها أيضاً من النظر إليها ومسها، ممن لا يجوز له ذلك، ويتركون أيضاً وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة.

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاحِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي: سرياتهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مُلْؤِمِينَ﴾ في وطنهم، في المحل الذي هو محل الحرث.

﴿فَمَنْ أَتَىٰ ذَنبًا رَوَّاهُ﴾ أي: غير الزوجة، وملك اليمين ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله.

ودلت هذه الآية على تحريم [نكاح] المتعة لكونها غير زوجة مقصودة، ولا ملك يمين.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَوَعْدِهِمْ رِعُونَ﴾ أي: مراعون لها، حافظون مجتهدون على أداؤها والوفاء بها.

وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، كالتكاليف السرية التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق، في الأموال والأسرار.

وكذلك العهد شامل للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد عليه الخلق، فإن العهد يسأل عنه العبد، هل قام به ووفاه أم رفضه وخانه، فلم يقم به؟

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ أي: لا يشهدون إلا بما يعلمونه من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحابي فيها قريباً ولا صديقاً ونحوه، ويكون القصد بها^(١) وجه الله.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بمدوامتها على أكمل وجوهها.

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات ﴿فِي جَنَّتِ مُكْرَمُونَ﴾ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم، ما تشتهيهم الأنفس، وتلد الأعين، وهم فيها خالدون.

وحاصل هذا، أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة والمداومة عليها والأعمال القلبية كخشية الله الداعية لكل خير؛ والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن

معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسرارهم^(٢)، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالى.

(٣٦-٣٩) ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطُونَ﴾ عَنِ الَّذِينَ وَعَىٰ الشَّمَالِ

عِزِينَ ﴿أَطِيعُ كُلَّ أَمْرٍ يُؤْتِيهِمْ أَن يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ كَلَّا إِنَّا

حَقَّقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ يقول تعالى مبيِّناً اغترار الكافرين: ﴿قَالَ

الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مُهْطُونَ﴾، أي: مسرعين ﴿عَنِ الَّذِينَ وَعَىٰ الشَّمَالِ

عِزِينَ﴾ أي: قطعاً متفرقة وجماعات متوزعة^(٣)، كل منهم بما

لديه فرح.

﴿أَطِيعُ كُلَّ أَمْرٍ يُؤْتِيهِمْ أَن يَدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بأي سبب

أطعمهم، وهم لم يقدموا سوى الكفر والجحود برب

العالمين، ولهذا قال:

﴿كَلَّا﴾ [أي]: ليس الأمر بأمانهم، ولا إدراك ما يشتهون

بقوتهم.

﴿إِنَّا حَقَّقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من ماء دافق، يخرج من بين

الصلب والتراتب، فهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا

ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

(٤٠-٤٤) ﴿قَالَ أَقِيمُ رَبِّي السِّرْقَ وَالْعُرْبَ إِنَّا لَقَدِيرُونَ﴾ عَنِ أَن نُبَيْدَ

خَيْرًا يَنْفَعُ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ﴾ فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي

يُوعَدُونَ﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفَسُونَ﴾ خَيْبَةً

أَبْصَرَهُمْ رَهَقَهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ هذا إقسام منه تعالى

بالمشارق والمغارب، للشمس والقمر والكواكب، لما فيها

من الآيات الباهرات على البعث، وقدرته على تبديل أمثالهم،

وهم بأعيانهم، كما قال تعالى: ﴿وَنُنشِئُكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوبِينَ﴾ أي: ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا

أردنا أن نعيده، فإذا تقرر البعث والجزاء، واستمروا على

تكذيبهم وعدم انقيادهم لآيات الله:

﴿فَذَرَهُمْ يَحْضُوا وَيَلْعَبُوا﴾ أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة،

والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدنيهم، ويأكلوا ويشربوا،

ويتمتعوا ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، فإن الله قد أعد لهم

فيه من النكال والوبال، ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم، ثم ذكر

حال الخلق حين يلاقون يومهم^(٤) الذي يوعدون، فقال:

﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: القبور ﴿سِرَاعًا﴾ مجيبين لدعوة

الداعي، مهطعين إليها.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصْبٍ يُؤْفَسُونَ﴾ أي: [كانهم إلى علم] يؤمّون

ويسرعون^(٥)، أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي،

والالتواء لنداء المنادي، بل يأتون أذلاء مهقورين، للقيام بين

(١) في ب: القصد بإقامتها. (٢) في ب: وحفظ حقوقهم وأماناتهم.

(٣) في ب: متنوعة. (٤) في ب: اليوم. (٥) في ب: ويقصدون.

يدي رب العالمين.

﴿خَشِيعَةً أَسْرَهُمْ رَهْمَهُمْ ذَلَّةٌ﴾ وذلك أن الذلة والقلق، قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات.

فهذه الحال والمآل، هو يومهم ﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ ولا بد من الوفاء بوعد الله.

[تمت والحمد لله].

تفسير سورة نوح عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٢٨) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾ إلى آخر السورة، لم يذكر الله في هذه السورة سوى قصة نوح وحدها لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك.

فأخبر تعالى أنه أرسله^(١) إلى قومه، رحمة بهم وإنذاراً من عذاب الله الأليم، خوفاً من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم الله هلاكاً أبدياً، ويعذبهم عذاباً سرمدياً.

فامتثل نوح عليه السلام لذلك، وابتدر لأمر الله، فقال: ﴿يَقَوْمِ إِنِّي كُنْتُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: واضح النذارة بيئها، وذلك لتوضيحه ما أنذر به، وما أنذر عنه، وبأي شيء تحصل النجاة، بين جميع ذلك بياناً شافياً.

فأخبرهم وأمرهم بزيادة ما يأمرهم به^(٢)، فقال: ﴿إِن أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِذَا اتَّقُوا اللَّهَ غُفِرَ ذُنُوبُهُمْ، وَإِذَا غُفِرَ ذُنُوبُهُمْ حُصِلَ لَهُمُ النُّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ، وَالْفَوْزُ بِالنُّوَابِ.

﴿يُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: يمتعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى، أي: مقدر [البقاء في الدنيا]، بقضاء الله وقدره، [إلى وقت محدود]، وليس المتاع أبداً، فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال:

﴿إِن أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لما كفرتم بالله وعاندتم الحق، فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكياً لربه:

﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: نفوراً عن الحق وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة، لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه.

سُورَةُ نُوحٍ

٥٧٠

الْبِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ ﴿١﴾ عَلَيَّ أَنْ تَبْدِيلَ خَيْرَاتِهِمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٢﴾ فَذَرَهُمْ حَوْضًا وَبَلَعُوا حَتَّىٰ يَلْقَؤُا تَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصَبٍ يُوْفُونَ ﴿٤﴾ خَشِيعَةً أَسْرَهُمْ رَهْمَهُمْ ذَلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٥﴾

سورة نوح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي كُنْتُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِن أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا أَمْرًا يَغْفِرُ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِن أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٤﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٥﴾ وَإِنِّي كُنْتُ لَمِنَ الدَّاعِينَ لِيُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغَعِمَ فِي مَا إِذَا نَهَمُوا وَأَسْتَعَشَّوْا بِيَابِهِمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَارًا ﴿٦﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٧﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٨﴾

﴿وَإِنِّي كُنْتُ لَمِنَ الدَّاعِينَ لِيُغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: لأجل أن يستجيبوا، فإذا استجابوا غفرت لهم، فكان هذا محض مصلحتهم، ولكنهم أبوا إلا تمادياً على باطلهم، ونفوراً عن الحق.

﴿جَعَلُوا أُصْغَعِمَ فِي مَا إِذَا نَهَمُوا﴾ حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام.

﴿وَأَسْتَعَشَّوْا بِيَابِهِمْ﴾، أي: تغطوا بها غطاء يغشاهم، بعداً عن الحق، وبغضاً له.

﴿وَأَصْرُوا﴾ على كفرهم وشركهم ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا﴾ على الحق ﴿أَسْتَكْبَارًا﴾ فشرهم ازداد، وخيرهم بعد.

﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جَهَارًا﴾ أي: بسمع منهم كلهم.

﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ كل هذا حرص ونصح، وإتيانهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود^(٣).

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها.

﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغبهم

(١) في ب: أنه أرسل نوحاً. (٢) في ب: وأمرهم بأصل ذلك. (٣) في ب: بكل طريق يظن به حصول المقصود.

بمغفرة الذنوب، وما يرتب عليها من حصول الثواب،
واندفاع العقاب.

ورغبتهم أيضًا بخير الدنيا العاجل، فقال: ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِذْرَارًا﴾ أي: مطرًا متتابعًا، يروي الشعاب والوهاد،
ويحيي البلاد والعباد.

﴿وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِينَ﴾، أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها
ما تطلبون من الدنيا، وأولادكم.

﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ وهذا من أبلغ ما يكون
من لذات الدنيا ومطالبتها.

﴿مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ أي: لا تخافون لله عظمة، وليس
لله عندكم قدر.

﴿وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا﴾ أي: خلقًا [من] بعد خلق، في بطن
الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التمييز، ثم
الشباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق^(١)، فالذي انفرد بالخلق
والتدبير البديع، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد.

وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأن
الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم،
واستدل أيضًا عليهم بخلق السماوات، التي هي أكبر من خلق
الناس، فقال:

﴿أَلَمْ تَرَ تَوْرًا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا﴾ أي: كل سماء
فوق الأخرى.

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ لأهل الأرض ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ
بِرَاجًا﴾.

ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في
الشمس والقمر الدالة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم
الرحيم يستحق أن يعظم ويحب ويعبد ويخاف ويرجى.

﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ حين خلق أباكم آدم وأنتم في
صلبه.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ عند الموت ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ للبعث
والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ أي: ميسوطة مهياة للارتفاع
بها.

﴿لِتَسْلَكُوا مِنْهَا شِبْلًا وَجِبَابًا﴾ فلولا أنه بسطها، لما أمكن
ذلك، بل ولا أمكنتهم حرثها وغرسها، وزرعها، والبناء
والسكون على ظهرها.

﴿قَالَ نوحٌ﴾ شكايًا لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير،
ما نجع فيهم ولا أفاد.

﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ فيما أمرتهم به ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّا يَزِدُّهُم مَّا لَّهُمْ وَوَلَدَهُ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧١

سُورَةُ نُوْحٍ

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِذْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنِينَ وَيَجْعَلْ
لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾ مَا لَكُمْ لَّا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾
وَقَدْ خَلَقْنَا أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَ تَوْرًا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ
طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ بِرَاجًا ﴿١٦﴾
وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلَكُوا مِنْهَا
شِبْلًا وَجِبَابًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّا يَزِدُّهُ
مَالُهُمْ وَوَلَدَهُ إِلاَّ خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا
لَا نَدْرَأُكَ ءِالَهَتَكَ وَلَا نَدْرَأُكَ وَدَا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغوْثَ وَيَعوقَ
وَسُرًّا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا نَزِدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ ضَلَالًا ﴿٢٤﴾
مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أَغْرُقُوا فَأَدْخَلُوا أَتَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِّنْ دُونِ
اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ
دِيَارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يَضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلاَّ أَفْجَارًا
كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَبِّ اغْصِرْ لِي وَلِوَالِدِي وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِي
مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ بَأْسًا ﴿٢٨﴾

إِلاَّ خَسَارًا﴾ أي: عصوا الرسول الناصح الدال على الخير،
واتبعوا الملأ والأشراف الذين لم تزدهم أموالهم ولا أولادهم
إلا خسارًا، أي: هلاكًا وتفويتًا للأرباح، فكيف بمن انقاد
لهم وأطاعهم؟!
﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كَبِيرًا﴾، أي: مكرًا كبيرًا بليغًا في معاندة
الحق.

﴿وَقَالُوا﴾ لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿لَا نَدْرَأُكَ
ءِالَهَتَكَ﴾ فدعواهم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك،
وأن لا يدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون. ثم عينوا آلهتهم،
فقالوا: ﴿وَلَا نَدْرَأُكَ وَدَا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغوْثَ وَيَعوقَ وَسُرًّا﴾.

وهذه أسماء رجال صالحين، لما ماتوا، زين الشيطان
لقومهم أن يصوروا صورهم، لينشطوا - بزعمهم - على
الطاعة، إذا رأوها.

ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن
أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر،

(١) في ب: ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق.

سُورَةُ الْجِنِّ ٥٧٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوْحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدًّا رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صُحْبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَفُولُ سَفِينًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَاظُنَّا أَن لَّنْ نَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَتَمَّتْ طَنُوءًا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَحْدِثُهُ شَهَابًا صَدًّا ﴿٩﴾ وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَا مِمَّا الصَّلِحُونَ وَمِنَادُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرِيقَ قَدَادًا ﴿١١﴾ وَأَنَاظُنْنَا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُهْدَىءَ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحْزَنُ فَجَسَدًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

لا ملجأ منه إلا إليه .

(١٣) ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُهْدَىءَ﴾ وهو القرآن الكريم، الهادي إلى الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده، أثر في قلوبنا ف ﴿آمَنَّا بِهِ﴾ .

ثم ذكروا ما يرغب المؤمن فقالوا: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ﴾ إيمانًا صادقًا ﴿فَلَا يَحْزَنُ فَجَسَدًا وَلَا رَهَقًا﴾، أي: لا نقصًا ولا طغيانًا، ولا أذى يلحقه^(٥)، وإذا سلم من الشر، حصل له الخير، فلا إيمان سبب داع إلى حصول كل خير، وانتفاء كل شر .

(١٤) ﴿وَأَنَا مِمَّا الصَّلِحُونَ وَمِمَّا الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الجاثرون، العادلون عن الصراط المستقيم .
﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ أي: أصابوا طريق الرشد، الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها .

(١) في ب: سلكتنا طريقه . (٢) في ب: من الخلق . (٣) في ب: كان الإنس يعوذون بالجن عند المخاوف والأفراع، ويعبدونهم . (٤) في ب: ويحتمل أن الضمير وهي الواو يرجع إلى الجن . (٥) في ب: فقالوا: ﴿فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ فَلَا يَحْزَنُ فَجَسَدًا وَلَا رَهَقًا﴾ أي: من آمن به إيمانًا صادقًا فلا عليه نقص ولا أذى يلحقه .

فاليوم إذ بان لنا الحق، رجعنا إليه^(١)، وانقذنا له، ولم نبال بقول أحد من الناس^(٢)، يعارض الهدى .

(٦) ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم، عند المخاوف والأفراع^(٣)، فزاد الإنس الجن رهقا، أي: طغيانًا وتكبرًا، لما رأوا الإنس يعبدونهم، ويستعيذون بهم .

ويحتمل أن الضمير في (زادوهم) يرجع إلى الجن ضمير الواو^(٤)، أي: زاد الجن الإنس ذعرًا وتخوفًا لما رأوهم يستعيذون بهم، ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد مخوف، قال: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قوم» .

(٧) ﴿وَأَتَمَّتْ طَنُوءًا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَن لَّنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ أي: فلما أنكروا البعث، أقدموا على الشرك والطغيان .

(٨) ﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ أي: أتيناها واختبرناها، ﴿فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا﴾ عن الوصول إلى أرجائها، [والدنو منها] .

﴿وَشُهَبًا﴾ يرمى بها من استرق السمع، وهذا بخلاف عادتنا الأولى، فإننا كنا نتمكن من الوصول إلى خبر السماء .
(٩) ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ﴾ فتلفف من أخبار السماء ما شاء الله .

﴿فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَحْدِثُهُ لَمْ يَشْهَبَا صَدًّا﴾ أي: مُرْصِدًا له، معدًا لإتلافه وإحراقه، أي: ولهذا له شأن عظيم، ونبأ جسيم .
وجزموا أن الله تعالى أراد أن يحدث في الأرض حادثًا كبيرًا، من خير أو شر، فلهدا قالوا:

(١٠) ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشْرٌ أُرِيدُ يَمُنُ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ أي: لا بد من هذا أو هذا، لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيرًا أنكروه، فعرفوا بفضولهم، أن هذا الأمر يريد الله، ويحدثه في الأرض .

وفي هذا بيان لأدبهم، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تادبًا مع الله .

(١١) ﴿وَأَنَا مِمَّا الصَّلِحُونَ وَمِمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: فساق وفجار وكفار .

﴿كُنَّا طَرِيقَ قَدَادًا﴾ أي: فرقًا متنوعة، وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون .

(١٢) ﴿وَأَنَاظُنْنَا أَن لَّنْ نُعْجِزَ اللَّهُ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ أي: وأنا في وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله، وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله، فلن نعجزه في الأرض، ولن نعجزه إن هربنا، وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته،

(١٥) ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَأَنَّهُمْ لِيَجْهَنَّمَ حَطَبًا﴾ وذلك جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم.

(١٦) فإنهم لو ﴿اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ المثلَى ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ أي: هنيئًا مريئًا، ولم يمنعم ذلك، إلا ظلمهم وعدوانهم.

(١٧) ﴿لَفَتْنَهُمْ فِيهِ﴾، أي: لنختبرهم فيه ونمتحنهم ليظهر الصادق من الكاذب.

﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾، أي: من أعرض عن ذكر الله، الذي هو كتابه، فلم يتبعه، ويتقد له، بل غفل عنه ولهي، يسلكه عذابًا صعدًا، أي: شديدًا بليغًا.

(١٨) ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة، مبنية على الإخلاص لله، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته.

(١٩) ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾، أي: يسأله ويتعبد له، ويقرأ القرآن، كاد الجن من تكاثرهم عليه أن يكونوا ﴿عَلَيْهِ﴾ ليدعوا، أي: متلبدين متراكمين، حرصًا على سماع ما جاء به من الهدى.

(٢٠) ﴿قُلْ لَهُمْ يَا أَيُّهَا الرِّسُولُ! مِثْنًا حَقِيقَةً مَا تَدْعُو إِلَيْهِ: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾، أي: أوحده، وحده لا شريك له، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان، وكل ما يتخذة المشركون من دونه.

(٢١) ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ فإني عبد ليس لي من الأمر ولا من التصرف شيء.

(٢٢) ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ﴾ أي: لا أحد أستجير به ينقذني من عذاب الله. وإذا كان الرسول الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضراً ولا رشداً، ولا يمنع نفسه من الله [شيئاً]، إن أَرَادَهُ بِسُوءٍ، فغيره من الخلق، من باب أولى وأحرى.

﴿وَلَنْ أُجِدَ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحِدًا﴾، أي: ملجأً ومنتصراً.

(٢٣) ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِي﴾، أي: ليس لي مزية على الناس، إلا أن الله خصني ببلاغ رسالاته ودعوة الخلق إلى الله، وبهذا^(١) تقوم الحججة على الناس.

﴿وَمَنْ بَصَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ وهذا المراد به المعصية الكفرية، كما قيدتها النصوص الأخرى المحكمة.

وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب الخلود في النار، كما دلت على ذلك آيات القرآن، والأحاديث عن النبي ﷺ،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧٣

سُورَةُ الْقُلُوبِ

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾

وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَأَنَّهُمْ لِيَجْهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾

وَأَلَّوْا اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ﴿١٦﴾ لَفَتْنَهُمْ فِيهِ

وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ

الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ

يَدْعُوهُ كَادُوا أَنْ يَنْشُرُوا عَلَيْهِ لُيْلًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ

بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي

لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أُجِدَ مِنْ دُونِهِ مَلْتَحِدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا

مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِي وَمَنْ بَصَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ

خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ

مَنْ أضعف ناصرًا وأقل عددًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ

مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا

يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ

يَسْأَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رِصْدًا ﴿٢٧﴾ لَعَلَّوْنَ قَدْ أَبْلَغُوا

رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

وأجمع عليه سلف الأمة، وأئمة هذه الأمة.

(٢٤) ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ﴾، أي: شاهدهو عيانا، وجزموا أنه واقع بهم.

﴿سَيَعْلَمُونَ﴾ في ذلك الوقت حقيقة المعرفة ﴿مَنْ أضعف ناصرًا وأقل عددًا﴾ حين لا ينصرهم غيرهم، ولا أنفسهم ينتصرون، وإذ يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة.

(٢٥) ﴿قُلْ لَهُمْ إِنْ سَأَلُوكَ [فقالوا]: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ؟﴾: ﴿إِنْ أَدْرَيْتَ أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا﴾، أي: غاية طويلة، فعلم ذلك عند الله.

(٢٦) ﴿عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار، والغيب.

(٢٧) ﴿إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾، أي: فإنه يخبره بما اقتضت حكمته، أن يخبره به.

وذلك لأن الرسل ليسوا كغيرهم، فإن الله أيدهم بتأييد ما أيده أحدًا من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على

(١) في ب: ودعوة خلقه إليه وبذلك.

حقيقته، من غير أن تتخبّطهم الشياطين، ولا^(١) يزيدوا فيه أو ينقصوا، ولهذا قال:

﴿فَإِنَّهُ يَسْأَلُكُم مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾، أي: يحفظونه بأمر الله.

(٢٨) ﴿لِيَعْلَمَ﴾ بذلك ﴿أَن قَدْ أَنْبَغُوا رَسَلَتِ رَبِّهِمْ﴾ بما جعله لهم من الأسباب.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾، أي: بما عندهم، وما أسروه وأعلنوه.

﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾.

وفي هذه السورة فوائد كثيرة:

منها: وجود الجن، وأنهم مكلفون مأمورون مكلفون منهيون، مجازون بأعمالهم، كما هو صريح في هذه السورة.

ومنها: أن رسول الله ﷺ رسول إلى الجن، كما هو رسول إلى الإنس^(٢)، فإن الله صرف نفر الجن، ليستمعوا ما يوحى إليه، ويبلغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجن، ومعرفتهم بالحق، وأن الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحقّوه من هداية القرآن، وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله، وحفظه لما جاء به.

فحين ابتدأت بشائر نبوته، والسماء محروسة بالنجوم، والشياطين قد هربت عن أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأن الله رحم به الأرض وأهلها رحمة ما يقدر لها قدر، وأراد بهم ربهم رشداً، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه، ومعرفته في الأرض، ما تبتّج له القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائر الإسلام، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام.

ومنها: شدة حرص الجن لاستماع الرسول ﷺ، وتراكمهم عليه.

ومنها: أن هذه السورة، قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك، وبينت حالة الخلق، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة؛ لأن الرسول محمداً ﷺ، إذا كان لا يملك لأحد نفعاً ولا ضرراً، بل ولا يملك لنفسه، علم أن الخلق كلهم كذلك، فمن الخطأ والغلط^(٣) اتخاذ من هذا وصفه إلهاً [آخر] مع الله.

ومنها: أن علوم الغيوب قد انفرد الله بعلمها، فلا يعلمها أحد من الخلق، إلا من ارتضاه الله وخصه^(٤) بعلم شيء منها.

تم تفسير سورة قل أوحى إلي، والله الحمد^(٥).

تفسير سورة المزمّل

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ ۖ قُرْ أَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا ۖ نَفْصَهُ أَوْ أَنْقَضْ

مِنَهُ قَلِيلًا ۖ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۖ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا

تَقِيلًا ۖ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا ۖ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا

طَوِيلًا ۖ وَادْكُرْ آتَمَ رَبِّكَ وَتَنبَلْ إِلَيْهِ تَنبِيلًا ۖ رَبُّكَ الشَّرِيفُ الْغَرِيبُ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۖ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۖ

وَذَرِكِ وَالْكُودِيْنَ أُولِي الْأَلْعَمَةِ وَمَهَلُكُمْ قَلِيلًا﴾ المزمّل: المتغطي بشيابه

كالمدرثر، وهذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه

الله برسالته، وابتدأه بإنزال [وحيه بإرسال] جبريل إليه، فأرى

أمرًا لم ير مثله، ولا يقدر على الثبات له إلا المرسلون، فاعتراه في ابتداء ذلك^(١) انزعاج، حين رأى جبريل عليه

السلام، فأتى إلى أهله فقال: «زملوني زملوني» وهو ترعد

فرائضه.

ثم جاء جبريل، فقال: «اقرأ»، فقال: «ما أنا بقارئ»،

فغظه حتى بلغ منه الجهد، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ

ثم ألقى الله عليه الثبات، وتابِع عليه الوحي، حتى بلغ مبلغًا ما

بلغه أحد من المرسلين. فسيحان الله، ما أعظم التفاوت بين

ابتداء نبوته ونهايتها، ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف، الذي

وجد منه في أول أمره.

فأمره هنا بالعبادات المتعلقة به، ثم أمره بالصبر على أذية

أعدائه^(٢)، ثم أمره بالصدع بأمره، وإعلان دعوتهم إلى الله.

فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، ويؤكد الأوقات

وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالى أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال:

﴿قُرْ أَيْلًا إِلَّا قَلِيلًا﴾.

ثم قدر ذلك، فقال: ﴿نَفْصَهُ أَوْ أَنْقَضْ مِنَهُ﴾، أي: من

النصف ﴿قَلِيلًا﴾ بأن يكون الثلث ونحوه ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾، أي:

على النصف، فيكون الثلثين ونحوها.

﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبير

(١) في ب: من غير أن تقربه الشياطين فلا. (٢) في ب: مبعوث إلى الجن كما هو مبعوث إلى الإنس. (٣) في ب: من الخطأ والظلم. (٤)

في ب: واختصه. (٥) في ب: تم تفسيرها، والحمد لله رب العالمين.

(٦) في ب: فاعتراه عند ذلك. (٧) في ب: على أذية قومه.

والتفكر، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهيو والاستعداد التام له.

فإنه قال: ﴿إِنَّا سَلَفْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا قَبِيلًا﴾، أي: نوحى إليك هذا القرآن الثقيل، أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتبها له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه.

ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال:

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾، أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيْلًا﴾، أي: أقرب إلى تحصيل^(١) مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن^(٢) القلب واللسان، وتقل الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره.

ولهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود^(٣)، ولهذا قال:

﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾، أي: تردداً في حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب، وعدم تفرغه للتفكير التام. ﴿وَأَذْكُرُ اسْمَ رَبِّكَ﴾ شامل لأنواع الذكر كلها ﴿وَتَبْتَئِلُ إِلَيْهِ تَبْتِيْلًا﴾، أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله، والإجابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدني من رضاه.

﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ وهذا اسم جنس، يشمل المشارق والمغرب [كلها]، فهو تعالى رب المشارق والمغرب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء، وخالقه، ومدبره.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال:

﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾، أي: حافظاً ومدبراً لأمرك كلها.

فلما أمره الله بالصلاة خصوصاً، وبالذكر عموماً، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية، في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل^(٤) من الأعمال، أمره بالصبر، على ما يقول فيه المعاندون له ويسبون، ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله، لا يصد عنه صاد، ولا يردده راد، وأن يهجرهم هجرًا جميلاً، وهو الهجر، حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم^(٥) بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدهم بالنبي هي أحسن.

﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: اتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أهملتهم، فلا أهملهم.

وقوله: ﴿أُولَى النَّعْمَةِ﴾، أي: أصحاب النعمة والغنى،

سُورَةُ الْمَزْمَلِ
٥٧٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَتَابِعُهَا الْمَزْمَلُ (١) قَوْلَ اللَّيْلِ لِأَقْلِيلًا (٢) تَصَفَّهُ أَوْ انْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا

(٣) أَوْزَدَ عَلَيْهِ وَرَتَلَ الْقُرْآنَ أَنْ تَرْتِيْلًا (٤) إِنَّا سَلَفْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا

تَبْتِيْلًا (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيْلًا (٦) إِنَّ لَكَ فِي

النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (٧) وَأَذْكُرُ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبْتَئِلُ إِلَيْهِ تَبْتِيْلًا (٨)

رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا (٩) وَأَصْبِرْ

عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيْلًا (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ

أُولَى النَّعْمَةِ وَمَهَلْهُمْ قَلِيلًا (١١) إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا (١٢)

وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا (١٣) يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ

وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيْلًا (١٤) إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا

عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا (١٥) فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ

فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيْلًا (١٦) فَكَيْفَ تَنْفَعُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ

الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مِنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا (١٨)

إِنْ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخِذْ إِلَى رَبِّهِ سَبِيْلًا (١٩)

الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ أَكْفَرًا أَسْتَفْتَى﴾.

ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال:

(١٢-١٤) ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالًا وَجَحِيمًا﴾ و﴿طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ و﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيْلًا﴾. أي: إن

عندنا ﴿أَنْكَالًا﴾، أي: عذاباً شديداً، جعلناه تنكياً للذي لا يزال مستمراً على الذنوب^(٦).

﴿وَجَحِيمًا﴾، أي: ناراً حامية ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته، وكرهه طعمه وريحه الخبيث الممتن.

﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾، أي: موجعاً مقطعاً، وذلك ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ من الهول العظيم.

﴿وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَهِيْلًا﴾،

أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المشثور.

(١) في ب: حصول. (٢) في ب: عليه. (٣) في ب: فإنه لا تحصل به هذه المقاصد. (٤) في ب: وفعل المشق. (٥) في ب: بل يعاملهم.

(٦) في ب: على ما يغضب الله.

يمضي منهما، ويبقى .

﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْا﴾، أي: [لن] تعرفوا مقداره من غير زيادة ولا نقص، لكون ذلك يستدعي انتباهًا، وعناء زائدًا، أي: فحفف عنكم، وأمركم بما تيسر عليكم، سواء زاد على المقدر، أو نقص .

﴿فَاقْرَأْ مَا يَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾، أي: مما تعرفون، ومما لا يشق عليكم، ولهذا كان المصلي بالليل مأمورًا بالصلاة ما دام نشيطًا، فإذا فتر، أو كسل، أو نرس، فليسترح ليأتي الصلاة بطمأنينة وراحة .

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْجُوعًا﴾ يشق عليهم صلاة ثلثي الليل، أو نصفه، أو ثلثه، فليصل المريض، المتسهل عليه^(٣)، ولا يكون أيضًا مأمورًا بالصلاة قائمًا عند مشقة ذلك، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة، فله تركها [وله أجر ما كان يعمل صحيحًا] .

﴿وَأَخْرُونَ بِضُرُونٍ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، أي: وعلم أن منكم مسافرين، يسافرون للتجارة، ليستغنوا عن الخلق، ويتكففوا عن الناس^(٤)، أي: فالمسافر حاله تناسب التخفيف، ولهذا خفف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمع الصلاتين في وقت واحد، وقصر الصلاة الرباعية .

وكذلك ﴿أَخْرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَأْ مَا يَسَّرَ مِنْهُ﴾، فذكر تعالى تخفيفين، تخفيفًا للصحيح المقيم، يراعي فيه نشاطه، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت، بل يتحرى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول .

وتخفيفًا للمريض أو المسافر، سواء كان سفره للتجارة، أو لعبادة، من قتال أو جهاد، أو حج، أو عمرة، ونحو ذلك^(٥)، فإنه أيضًا يراعي ما لا يكلفه .

فله الحمد والشاء، الذي ما جعل على الأمة في الدين^(٦) من حرج، بل سهل شرعه، وراعى أحوال عباده، ومصالح دينهم، وأبدانهم وديانهم .

ثم أمر العباد بعبادتين، هما أمُّ العبادات وعمادها . إقامة الصلاة التي لا يستقيم الدين إلا بها، وإيتاء الزكاة التي هي برهان الإيمان، وبها تحصل المواساة للفقراء والمساكين، ولهذا قال:

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ بأركانها، وشروطها، ومكملاتها .

(١٦، ١٥) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قُرُونٍ مِن قَبْلِكَ ۖ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ ۚ إِنَّكَ عَلَىٰ عِندِ رَبِّكَ بِرَأْسِ الْكُرْسِيِّ ۚ أَلَمْ نَجْعَلْ لَكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلَمْ نَجْعَلْ لَكَ صُلْبًا ۚ وَإِن تَرَىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ أَتْمَلِكُ مَا يَكْفُرُ بِآيَاتِنَا أَكْثَرَ مِمَّا يَشْكُرُ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ رَبِّنَا كَانَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّبِينٍ ۚ﴾

وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفرة، حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه، فأخذه الله أخذًا وبيلًا، أي: شديدًا بليغًا .

(١٨، ١٧) ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ۚ وَالسَّمَاءَ مَنطِقًا ۚ بَدَأُ مَا كَانَ عَدُوًّا مُّغْمُوزًا ۚ أَي: فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة من يوم القيامة، اليوم المهيل أمره، العظيم قدره^(١)، الذي يشيب الولدان، وتذوب له الجمادات العظام، فتفطر به السماء وتشر به نجومها ﴿كَانَ وَعْدُهُ مُّغْمُوزًا﴾، أي: لا بد من وقوعه، ولا حائل دونه .

(١٩) ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ ۚ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [أي: إن هذه الموعظة التي نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأحواله^(٢) تذكرة يتذكر بها المتقون، وينزجر بها المؤمنون . ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، أي: طريقًا موصلًا إليه، وذلك باتباع شرعه، فإنه قد أبانه كل البيان، وأوضحه غاية الإيضاح .

وفي هذا دليل على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم، ومكّتهم منها، لا كما يقوله الجبرية: إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم، فإن هذا خلاف النقل والعقل .

(٢٠) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنُسُكًا وَمَلَائِكَةٌ صَائِمَةٌ يَخُوفُونَ رَبَّهُمْ وَهُمْ لَا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُّخَوِّفُهُمْ ۚ أَلَمْ نَجْعَلْ لَكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۚ وَلَمْ نَجْعَلْ لَكَ صُلْبًا ۚ وَإِن تَرَىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ أَتْمَلِكُ مَا يَكْفُرُ بِآيَاتِنَا أَكْثَرَ مِمَّا يَشْكُرُ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَ رَبِّنَا كَانَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّبِينٍ ۚ﴾

وذكر في أول هذه السورة أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل، أو ثلثه أو ثلثيه، والأصل أن أمته أسوة له في ذلك وفي هذا الموضوع، أنه امتثل ذلك، هو وطائفة معه من المؤمنين .

ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقة على الناس، أخبر أنه سهل عليهم في ذلك غاية التسهيل، فقال: ﴿وَاللَّهُ بِقَدْرِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، أي: يعلم مقاديرهما، وما

(١) في ب: خطره . (٢) في ب: وأحوالها . (٣) في ب: ما يسهل عليه . (٤) في ب: ويتكففوا عنهم . (٥) في ب: أو لعبادة من جهاد أو حج أو غيره . (٦) في ب: حيث لم يجعل علينا في الدين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧٥

سُورَةُ الْمَدْثَرِ

إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِ أَيْلٍ وَبِصْفَةٍ وَتُكَلِّمُ بِطَائِفَةٍ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُبَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنكُمْ مَّرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَأُوا اللَّهَ قُرْآنًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا وَسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا عَفْوَ رَحِيمٌ

سُورَةُ الْمَدْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمَدْثَرُ ﴿١﴾ قُرْآنًا زَيْدًا ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَيَتَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾
وَالرَّجْرَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُوتَ وَتَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾
فَإِذَا انْفَرَقَ فِي التَّائِقِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَ يَوْمِ عَسِيرٍ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ
عَسِيرٍ لَّيْسَ ﴿١٠﴾ ذَرْبِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَجِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا
مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهْدتُ لَهُ مَتْمِهْدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يُطْمَعُ
أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِنْدَآءًا ﴿١٦﴾ سَاءَ رُفْقَهُ بِصُعُودًا ﴿١٧﴾

ليكون ذلك ادعى لتركه.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته.

﴿وَيَتَابَكَ فَطَهِّرْ﴾، يحتمل أن المراد بتيابه أعماله كلها، وبتهيورها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتفتيتها عن المپلات والمفسدات، والمنقصات من شرك ورياء، [ونفاق]، وعجب وتكبر وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عبادته.

ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصًا في الصلاة التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة. ويحتمل أن المراد بتيابه، الثياب المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن [جميع] النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصًا في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأمورًا بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن.

(١) في ب: أرحم بها من نفسها. (٢) في ب: تم تفسيرها والحمد لله.

(٣) في ب: بالإعلان بالدعوة.

﴿وَأَقْرَأُوا اللَّهَ قُرْآنًا حَسَنًا﴾، أي: خالصًا لوجه الله، من نية صادقة، وتبنيًا من النفس، ومال طيب، ويدخل في هذا الصدقة الواجبة والمستحبة.

ثم حث على عموم الخير، وأفعاله، فقال:

﴿وَمَا تَقْدِمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَّحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمُ أَجْرًا﴾، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

وليعلم أن مقال ذرة من الخير في هذه الدار يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تقضت بغير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها منها^(١).

فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

﴿وَأَسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وفي الأمر بالاستغفار، بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة.

وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلًا أو يفعله على وجه ناقص.

فأمر بترقيق ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب أثناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته، ومغفرته، فإنه هالك. تم تفسير سورة المزمّل^(٢).

تفسير سورة المدثر

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْثَرُ ﴿١﴾ قُرْآنًا زَيْدًا ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَيَتَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرَّجْرَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَمُوتَ وَتَكُونَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٦﴾ وَالْمَدْثَرَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ، وَأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ بِالْاجْتِهَادِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ الْقَاصِرَةِ وَالْمَتَعِدِيَةِ، فَتَقَدَّمَ هُنَاكَ الْأَمْرُ لَهُ بِالْعِبَادَاتِ الْفَاضِلَةِ وَالْقَاصِرَةِ، وَالصَّبْرِ عَلَى أَدَى قَوْمِهِ.

وأمره هنا بإعلان الدعوة^(٣)، والصدع بالإنذار، فقال:

﴿قُرْ﴾ [أي:]: بجد ونشاط ﴿فَأَذِّنْ﴾ للناس بالأقوال والأفعال التي يحصل بها المقصود، وبيان حال المنذر عنه،

﴿وَالرَّجِزَ فَاهْتَجِرْ﴾، يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان، التي عبدت مع الله، فأمره بتركها والبراءة منها، ومما نسب إليها من قول أو عمل.

ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمراً له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها^(١)، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه.

﴿وَلَا تَمَنَّ سَكْرًا﴾، أي: لا تمنن على الناس، بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتكثر^(٢) بتلك المنة، وترى لك [الفضل] عليهم بإحسانك المنة.

بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وأنس [عندهم] إحسانك، ولا تطلب أجره إلا من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره، على حد سواء.

وقد قيل: إن معنى هذا، لا تعطني أحدًا شيئاً، وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصاً بالنبي ﷺ.

﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾، أي: احتسب بصبرك، واقصد به وجه الله تعالى.

فامتثل رسول الله ﷺ لأمر ربه، وبادر فيه، فأندر الناس، وأوضح لهم بالآيات البيّنات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله^(٣)، من الأصنام وأهلها، والشر وأهله.

وله المنّة على الناس - بعد منّة الله - من غير أن يطلب منهم على ذلك^(٤) جزاء ولا شكوراً.

وصبره أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة^(٥)، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

(٨-١٠) ﴿فَإِذَا نَفَخَ فِي الْسَاقِطِ﴾، فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلق^(٦) للبعث والنشور.

﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ﴾ لكثرة أهواله وشدائده.

﴿عَلَى الْكٰفِرِينَ عَسِيرٌ﴾ لأنهم قد آيسوا من كل خير، وأيقنوا بالهلاك والبور.

ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير، كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾.

(١١-٣١) ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ﴿وَبَيْنَ شُهُودًا﴾، وَوَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿ثُمَّ يَطَّعُ أَنْ أَزِيدَ﴾، ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِينًا﴾، سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾، ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾، ﴿ثُمَّ عَسَىٰ وَهَسَرَ﴾، ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ﴾، ﴿فَقَالَ إِنْ

هَذَا إِلَّا بَعْرٌ يُؤْتَرُ﴾، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾، سَأَصْلِيهِ سَفَرٌ ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَفَرٌ﴾، ﴿لَا تُفِي وَلَا تَدْرُ﴾، ﴿لَوَاعِمٌ لِلْبَشَرِ﴾، ﴿عَلَيْهَا تَسْمَعُ عَنَرٌ﴾، ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيُرَدِّدَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيَّانَا وَلَا يَزَانَبَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَقُولُ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ تَرَضًى وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنِ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾، هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، معاند الحق، والمبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقفة، فذمه الله ذمًا، لم يذمه^(٧) غيره، وهذا جزاء كل من عاند الحق ونابذه، أن له الخزي في الدنيا، ولعذاب الآخرة أخصى، فقال:

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾، أي: خلقتني مفردًا، بلا مال، ولا أهل، ولا غيره، فلم أزل أنميه وأربيه^(٨).

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا﴾، أي: كثيرًا ﴿و﴾ جعلت له ﴿بَيْنَ﴾، أي: ذكورًا ﴿شُهُودًا﴾، أي: دائما حاضرين عنده [على الدوام]، يتمتع بهم، ويقضي بهم حوائجه، ويستنصر بهم.

﴿وَوَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا﴾، أي: مكنته من الدنيا وأسبابها، حتى انقادت له مطالبه، وحصل على^(٩) ما يشتهي ويريد.

﴿ثُمَّ﴾ مع هذه النعم والإمدادات ﴿طَّعُ أَنْ أَزِيدَ﴾، أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة، كما نال نعيم الدنيا.

﴿كَلَّا﴾، أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه.

وذلك لأنه ﴿كَانَ لِآيَاتِنَا عِينًا﴾، أي: معانداً عرفها، ثم أنكرها، ودعته إلى الحق، فلم ينفذ لها.

ولم يكفه أنه أعرض وتولى عنها، بل جعل يحاربها، ويسعى في إيظالها، ولهذا قال عنه:

﴿إِنَّهُ فَكَّرَ﴾ [أي: في نفسه]، ﴿وَقَدَّرَ﴾ ما فكر فيه، ليقول قولاً يبطل به القرآن.

﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾، ﴿ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ لأنه قدر أمراً ليس في طوره، وتَسَوَّرَ على ما لا يناله هو ولا أمثاله.

﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ما يقول، ﴿ثُمَّ عَسَىٰ وَهَسَرَ﴾ في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضاً له.

﴿ثُمَّ أَذْبَرَ﴾، أي: تولى ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ نتيجة سعيه الفكري،

(١) في ب: صغارها وكبارها. (٢) في ب: فتستكثر. (٣) في ب: وهجر كل ما يعبد من دون الله وما يبعد منه. (٤) في ب: أن يطلب عليهم بذلك. (٥) في ب: وصبر لربه أكمل صبر، فصبر على طاعة الله وعن معاصيه، وصبر على أقداره المؤلمة. (٦) في ب: الخلائق. (٧) في ب: لم يذم به غيره. (٨) في ب: أربيه وأعطيه. (٩) في ب: وحصل له.

والعلمي والقولي، أن قال:

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۝ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الشَّرِّ ۝ أَي: ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضًا كلام البشر الأخيار، بل كلام الفجار منهم، والأشرار، من كل كاذب سحار. فتبًا له، ما أبعده من الصواب، وأحراه بالخسارة والتباب!﴾

كيف يدور في الأذهان، أو يتصوره ضمير كل إنسان، أن يكون أعلى الكلام وأعظمه، كلام الرب العظيم، الماجد الكريم، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟! أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد، على وصفه كلام المبدئ المعيد^(١)؟

فما حقه إلا العذاب الشديد والنكال، ولهذا قال تعالى:

﴿سَأُصْلِبُ سَفْرًا ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَفْرٌ ۝ لَا يُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ أَي: لا تبقي من الشدة، ولا على المعذب شيئًا، إلا وبلغته. ﴿لَوَائِمَةٌ لِلشَّرِّ ۝ أَي: تلوحهم [وتصليهم] في عذابها، وتقلقهم بشدة حرها وقرها.﴾

﴿عَلَيْهَا سِتْعَةٌ عَشْرٌ ۝ من الملائكة خزنة لها، غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.﴾
﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً ۝ وَذَلِكَ لَشِدْثِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ.﴾
﴿وَمَا جَعَلْنَا عَدْتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا ۝، يحتمل أن المراد: إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة نكالهم فيها، والعذاب يسمى فتنه، [كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُقْتَلُونَ﴾].

ويحتمل أن المراد: أنا ما أخبرناكم بعديهم، إلا لنعلم من يصدق ومن يكذب ويدل على هذا، ما ذكره بعده في قوله: ﴿لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيُرَدِّدَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْتَابًا ۝، فإن أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فآمنوا بها، وصدقوا، ازداد إيمانهم.﴾

﴿وَلَا يَرْتَابُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ ۝ أَي: ليزول عنهم الريب والشك.﴾

وهذه مقاصد جليلة، يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام، التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله، محصلًا لهذه الفوائد^(٢) الجليلة، ومميزًا للكاذبين من الصادقين.

ولهذا قال: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ۝، أي: شك وشبهة ونفاق.﴾

﴿وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ۝ وهذا على وجه الحيرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧٦

سُورَةُ الْمَدَّثَرِ

إِنَّهُ فَعَكَرَ وَفَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَسَفَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِبُ سَفْرًا ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَفْرٌ ﴿٢٧﴾ لَا يُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَائِمَةٌ لِلبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا سِتْعَةٌ عَشْرٌ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَدْتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَفِيقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيُرَدِّدَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيْتَابًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكَبِيرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٌ لِلبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لَمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَّقُوا أَوْ يَتَّخِذُوا كُلٌّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينًا ﴿٣٧﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ فِي جَنَّاتٍ يَسَاءَلُونَ عَنَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٩﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٠﴾ قَالُوا لَوْ نَرَاكَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَلَوْ نَرَاكَ نُطْعِمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٢﴾ وَكُنَّا تَخَوِّضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٣﴾ وَكُنَّا نَكْذِبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٤﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٥﴾

والشك والكفر منهم بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل، ولهذا قال:

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ۝ فمن هداه الله، جعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه.﴾

ومن أضله جعل ما أنزله على رسوله، زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمه في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم.﴾

فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إِلَّا هُوَ﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب.﴾

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلبَشَرِ ۝، أي: وما هذه الموعظة والتذكارة، مقصودًا به العبث واللعب، وإنما المقصود به أن يتذكر [به] البشر ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم فيتركونه.﴾

(٣٢-٥٦) ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ۝ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝ إِنَّهَا

(١) في ب: على وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالى. (٢) في ب: المقاصد.

ونجادل به الحق.

﴿وَكَاذِبٌ يَّوْمَ الدِّينِ﴾ هذا أثر الخوض بالباطل، [وهو] التكذيب بالحق، ومن أحق الحق يوم الدين، الذي هو محل الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق.

فاستمرنا على هذا المذهب الفاسد^(١) ﴿حَتَّىٰ آتَنَّا الْيَقِينَ﴾ أي: الموت: فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل، وانسد في وجوههم باب الأمل.

﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم^(٢).

فلما بين الله مال المخالفين، ورهب مما^(٣) يفعل بهم، عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال:

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾، أي: صادين غافلين عنها. ﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في نفرتهم الشديدة منها، ﴿حُمْرٌ مُّتْتَفِرَّةٌ﴾ أي: كأنهم حمر وحش، نفرت ففر بعضها بعضاً، فزاد عدوها. ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾، أي: من صائد ورام يريدھا، أو من أسد ونحوه.

وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون الدعاوي الكبار.

ف﴿يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا يتقاد للحق إلا بذلك، وقد كذبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فإنهم جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا.

ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ لا نعطيهم^(٤) ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز.

﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الآخِرَةَ﴾ فلو كانوا يخافونها، لما جرى منهم ما جرى.

﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ﴾ الضمير إما أن يعود على هذه السورة، أو على ما اشتملت عليه [من] هذه الموعظة.

﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾ لأنه قد بين له السبيل، ووضع له الدليل.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإن مشيئته^(٥) نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرية، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية

إِلْحَادِي الكَرِيَّ ○ نَذِيرًا لِلنَّاسِ ○ لِمَن شَاءَ يَنْكُرُ أَن يُقَدَّمَ أَوْ يُؤَخَّرَ ○ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ○ إِلَّا أَصْحَابَ اليَقِينِ ○ فِي جَنَّتِ يَسَاءَلُونَ ○ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ○ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ○ قَالُوا لَوْ نَكُن مِن الصَّالِينَ ○ وَلَوْ نَكُن نَطْمَعُ اليَسْكِينِ ○ وَكُنَّا نَحْضُ مَعَ الْخَافِيِينَ ○ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ○ حَتَّىٰ آتَنَّا اليَقِينَ ○ فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ○ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ○ كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُّتْتَفِرَّةٌ ○ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ○ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ○ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الآخِرَةَ ○ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ○ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ ○ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ النُّفُورِ وَأَهْلُ العُفُورِ ○

﴿كَلَّا﴾ هنا بمعنى: حقاً، أو بمعنى «ألا» الاستفتاحية.

فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إداره، والنهار وقت إسفاره، لاشتمال المذكورات على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته، وسعة سلطانه، وعموم رحمته وإحاطة علمه.

والمقسم عليه، قوله: ﴿إِنَّمَا إِلْحَادِي الكَرِيَّ﴾، أي: لإحدى العظائم الطامة والأمور الهامة.

فإذا أعلمناكم بها، وكتتم على بصيرة من أمرها، فمن شاء منكم أن يتقدم، فيعمل بما يقربه من ربه، ويدينه من رضاه، ويزلفه من دار كرامته.

أو يتأخر [عما خلق له، و] عما يحبه الله [ويرضاه]، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ الآية.

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من أعمال السوء وأفعال الشر، ﴿رَهِينَةٌ﴾ بها موثقة بسعيها، قد ألزم عتقها، وغل في رقبته، واستوجبت به العذاب.

﴿إِلَّا أَصْحَابَ اليَقِينِ﴾ فإنهم لم يرتعنوا، بل أطلقوا وفرحوا.

﴿فِي جَنَّتِ يَسَاءَلُونَ ○ عَنِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي: في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين: أي حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالى؟.

فقال بعضهم لبعض: «هل أنتم مطلعون عليهم»، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم:

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ﴾ أي: أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي ذنب استحققتموها؟.

﴿قَالُوا لَوْ نَكُن مِن الصَّالِينَ ○ وَلَوْ نَكُن نَطْمَعُ اليَسْكِينِ﴾ فلا إخلاص للمعبود [ولا إحسان] ولا نفع للخلق المحتاجين.

﴿وَكُنَّا نَحْضُ مَعَ الْخَافِيِينَ﴾، أي: نخوض بالباطل،

(١) في ب: الباطل. (٢) كذا في ب، وفي أ: ولا يرضى أعمالهم. (٣)

في ب: وبين ما يفعل بهم. (٤) في الأصل (أن نعطيهم) ولعل الصواب ما

أثبت. (٥) في ب: فإن مشيئة الله.

الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة وفعلاً، وجعل ذلك تابعاً لمشيئته.

﴿هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ﴾، أي: هو أهل أن يتقى ويعبد، لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه، واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر، والله الحمد (١).

تفسير سورة القيامة

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَأَمَةِ ○ أَيْحَسُّ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ○ بَلْ قَدَّرِينَ عَلَيَّ أَنْ سُؤْيَ بَنَانَهُ ○ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ○ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ○ لَيْسَتْ «لَا» [ها] هنا نافية [ولا] زائدة، وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح، فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم.

﴿وَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَأَمَةِ﴾ وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سُميت «لؤامة» لكثرة تردها وتلومها، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت (٢)، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه من تفریط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة.

فجمع بين الإقسام بالجزاء، وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء، ثم أخبر مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة، فقال:

﴿أَيْحَسُّ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ بعد الموت، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؟.

فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عماد البدن، فرد عليه بقوله:

﴿بَلْ قَدَّرِينَ عَلَيَّ أَنْ سُؤْيَ بَنَانَهُ﴾، أي: أطراف أصابعه وعظامه، المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن، لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان، فقد تمت خلقة الجسد، وليس إنكاره لقدرة الله تعالى قصوراً بالدليل الدال على ذلك، وإنما [وقع]

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

٥٧٧

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّفَاعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَانَهُمْ حُرْمُ مَسْتَفْتِرَةٍ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّثْقَلَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ ﴿٥٤﴾ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفَرَةِ ﴿٥٦﴾

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقِيمُ بِالنَّفْسِ الْوَأَمَةِ ﴿٢﴾ أَيْحَسُّ الْإِنْسَانُ أَنْ يَجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلْ قَدَّرِينَ عَلَيَّ أَنْ سُؤْيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ﴿٥﴾ يَسْتَلْ أَيَّانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ إِذَا رَأَىٰ الْأَبْصَرَ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرَ ﴿٨﴾ وَجَمَعَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمُرَّةُ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُدْنُو الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ لَقِيَ مَعَادِيزِرَهُ ﴿١٥﴾ لَأَخَّرَهُ بِهِ لِسَانًا لِّتَعَجَّلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنْ عَلَيْنَا جَمْعُهُمْ وَقُرْآنُهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ قُرْآنَهُ فَقَرِّءْهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيَانُهُ ﴿١٩﴾

ذلك منه، أن قصده وإرادته أن يكذب (٣) بما أمامه من البعث.

والفجور: الكذب مع التعمد.

ثم ذكر أحوال القيامة فقال:

(٧-١٥) ﴿وَإِذَا رَأَىٰ الْأَبْصَرَ ○ وَخَسَفَ الْقَمَرَ ○ وَجَمَعَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ○ يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمُرَّةُ ○ كَلَّا لَا وَزَرَ ○ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ○ يُدْنُو الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ○ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ○ وَلَوْ لَقِيَ مَعَادِيزِرَهُ﴾ أي: إذا كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم، وشخصت فلا تطرف كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ○ مُهْطِعَاتٌ مُّقْبِعَاتٌ رُّؤُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾.

﴿وَخَسَفَ الْقَمَرَ﴾، أي: ذهب نوره وسلطانه.

﴿وَجَمَعَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامة، ويخسف القمر، وتكور الشمس، ثم يقذفان في النار، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران، وليرى من عبدهما، أنهم كانوا كاذبين.

(١) في ب: تمت لله الحمد والمنة. (٢) في ب: على ما فعلت. (٣) في ب: لأن إرادته وقصده التكذيب.

وكذلك إذا كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان، أن لا يبادر برده أو قبوله، حتى يفرغ من ذلك الكلام، ليتبين ما فيه من حق أو باطل، وليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه.

وفيها: أن النبي ﷺ، كما بين للأمة ألفاظ الوحي، فإنه قد بين لهم معانيه.

(٢٥-٢٠) ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ○ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ○ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ○ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ ○ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَايِرَةٌ ○ تَنْظُرُونَ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ○﴾ أي: هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ وتسعون فيما يحصلها، وفي لذاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها؛ لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولع بحب العاجل، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم، فلذلك غفلتم عنها، وتركتموها، كأنكم لم تخلقوا لها، وكان هذه الدار هي دار القرار التي تبدل فيها نفائس الأعمار، ويسعى لها آتاء الليل والنهار، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل.

فلو آثرتم الآخرة على الدنيا، ونظرتم للعواقب نظر البصير العاقل، لأنجحتم، وربحتم ربحاً لا خسارة معه، وفزتم فوزاً لا شقاء يصحبه.

ثم ذكر ما يدعو إلى إثارة الآخرة، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾، أي: حسنة بهية، لها رونق ونور، مما هم فيه من نعيم القلوب، وبهجة النفوس، ولذة الأرواح. ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ أي: تنظر إلى ربها^(٥)، على حسب مراتبهم:

منهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيا، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وجماله الباهر، الذي ليس كمثلته شيء، فإذا رآوه نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللذة والسرور، ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوههم، فزادوا جمالاً إلى جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا منهم.

وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَايِرَةٌ﴾، أي: معسبة ومكدرة^(٦)، خاشعة ذليلة ﴿تَنْظُرُونَ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا

﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ حين يرى تلك القلائق المزعجات: ﴿إِنَّ الْفَرْقَ؟ أي: أين الخلاص والفرار، مما طرقتنا وأصابنا^(١)؟. ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾، أي: لا ملجأ لأحد دون الله.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ الشَّكُورُ﴾ لسائر العباد، فليس في إمكان أحد، أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع، بل لا بد من إيقافه، ليجزى بعمله، ولهذا قال:

﴿يَوْمَئِذٍ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾، أي: بجميع عمله الحسن والسيء، في أول وقته وآخره، وينبأ بخبر لا ينكره.

﴿وَبَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾، أي: شاهداً ومحاسباً.

﴿وَكَلَّا الْفَرَىٰ مَعَادِيرُهُ﴾ فإنها معاذير لا تقبل، ولا تقابل ما يقرر به العبد^(٢)، فيقر به، كما قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

فالعبد وإن أنكر، أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره، لا يفيدانه شيئاً، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره، وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأن استعنا به، قد ذهب وقته، وزال نفعه: ﴿فِيَوْمِئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

(١٦-١٩) ﴿لَا تَحْرُكُهُ بِهِ سَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ○ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ○ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ○ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ﴾ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي، وشرع في تلاوته عليه، بادره النبي ﷺ، من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه، فنهاه الله عن هذا، وقال: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾.

وقال هنا: ﴿لَا تَحْرُكُهُ بِهِ سَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾، ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقراه، ويجمعه الله في صدره فقال:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ فالحرص الذي في خاطرك، إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان، فإذا ضمنه الله لك، فلا موجب لذلك.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾، أي: إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى الله^(٣) إليك، فحيثئذ اتبع ما قرأه وأقرأه.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتِهِ﴾، أي: بيان معانيه، فوعده بحفظ لفظه، وحفظ معانيه، وهذا أعلى ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربه، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا، أنصت له، فإذا فرغ قرأه.

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم، أن لا يبادر المتعلم المعلم، قبل أن يفرغ من^(٤) المسألة التي شرع فيها، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه.

(١) في ب: والفكاك مما طرقتنا وألم بنا. (٢) في ب: بل يقرر بعمله.
(٣) في ب: إذا كمل جبريل ما يوحى إليك. (٤) في ب: أن لا يبادر المتعلم للمعلم قبل أن يفرغ المعلم. (٥) في ب: أي: ينظرون إلى ربهم.
(٦) في ب: كدرة.

فَأَوْزَعُ، أي: عقوبة شديدة، وعذاب أليم، فلذلك تغيرت وجوههم وعيست.

(٢٦-٤٠) ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ○ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ○ وَظَنَّتْ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ○ وَاللَّفَّتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ ○ إِنْ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ ○ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ○ وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ○ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمَطِّي ○ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ○ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ○ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ○ أَلَمْ يَكُ نَظْفَةً مِّنْ مَّيِّمٍ يُمَتِّئُ ○ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَخْلَقٍ فُسُوئِ ○ جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ○ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾ يعظ تعالى عباده، بذكر حال المحضض عند السياق^(١)، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لشفرة النحر.

فحينئذ يشتد الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة.

ولهذا قال: ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾، أي: من يرقيه، من الرقية، لأنهم انقطعتم آمالهم من الأسباب العادية، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية^(٢).

ولكن القضاء والقدر، إذا حتم وجاء فلا مرد له.

﴿وَظَنَّتْ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾ للدنيا.

﴿وَاللَّفَّتِ السَّاقِ بِالسَّاقِ﴾ أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي ألفت البدن^(٣)، ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى حتى يجازيها بأعمالها ويقررها بفعالها.

فهذا الزجر [الذي ذكره الله] يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها، ويزجرها عما فيه هلاكها.

ولكن المعاند الذي^(٤) لا تتفع فيه الآيات، لا يزال مستمرًا على بغيه، وكفره وعناده.

﴿فَلَا صَدَقَ﴾ أي: لا آمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

﴿وَلَا صَلَّى ○ وَلَكِنْ كَذَّبَ﴾ بالحق في مقابلة التصديق ﴿وَتَوَلَّى﴾ عن الأمر والنهي، هذا وهو مطمئن قلبه، غير خائف من ربه.

بل يذهب ﴿إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمَطِّي﴾، أي: ليس على باله شيء.

توعده بقوله: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ○ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ وهذه كلمات وعيد كررها لتكرير وعيده.

ثم ذكّر الإنسان بخلقه الأول، فقال: ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾، أي: معطلًا^(٥)، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يُثاب ولا يُعاقب؟.

هذا حسيان باطل، وظن بالله بغير ما يليق بحكمته.

﴿أَلَمْ يَكُ نَظْفَةً مِّنْ مَّيِّمٍ يُمَتِّئُ ○ ثُمَّ كَانَ﴾ بعد المني ﴿عَاقِبَةً﴾ أي:

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

٥٧٨

الْمُرَادُ بِالْمَيِّمِ

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿١﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٣﴾
إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٤﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بِآسِرَةٍ ﴿٥﴾ نَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٦﴾
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٧﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٨﴾ وَظَنَّتْ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٩﴾ وَاللَّفَّتِ
السَّاقِ بِالسَّاقِ ﴿١٠﴾ إِنْ رَيْكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقِ ﴿١١﴾ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴿١٢﴾
وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَمَطِّي ﴿١٤﴾ أَوْلَىٰ لَكَ
فَأَوْلَىٰ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿١٦﴾ أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴿١٧﴾
أَلَمْ يَكُ نَظْفَةً مِّنْ مَّيِّمٍ يُمَتِّئُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ فَخْلَقٍ فُسُوئِ ﴿١٩﴾ فَعَجَلَ مِنْهُ
الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٢١﴾

سُورَةُ الْأَنْشُرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾
إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾
إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ
الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾

دما ﴿فَخَلَقَ﴾ الله منها الحيوان وسواه أي: أنقنه وأحكمه.

﴿جَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ○ أَلَيْسَ ذَلِكَ﴾ الذي خلق الإنسان [وطوره إلى] هذه الأطوار المختلفة ﴿بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ﴾، بلى إنه على كل شيء قدير.

تم تفسير سورة القيامة، والله الحمد والمنة، وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤^(٦).

المجلد التاسع من تيسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى الله: عبدالرحمن بن ناصر بن عبدالرحمن السعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين آمين.

(١) في ب: بذكر المحضض حال السياق. (٢) في ب: فتعلقوا بالأسباب الإلهية. (٣) في ب: أن تخرج الروح من البدن الذي ألفت. (٤) كذا في ب، وفي أ: النبي. (٥) في ب: أي: مهطلًا. (٦) في ب: والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة هل أتى على الإنسان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ۝ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن تَطْفَئٍ أَمْشَاجٍ يَتَّبِعُهُ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرَ وَإِنَّمَا كَفُرًا ۝ ذَكَرَ اللَّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ الْكَرِيمَةِ ، أَوَّلَ حَالَةِ الْإِنْسَانِ وَمَبْتَدَأَهَا وَتَمَاسُطَهَا وَمَتَهَا .

فذكر أنه مر عليه دهرٌ طويل ، وهو الذي قبل وجوده ، وهو معدوم بل ليس مذكوراً .

ثم لما أراد الله تعالى خلقه ، خلق [أباه] آدم من طين ، ثم جعل نسله متسلسلاً ﴿مِن تَطْفَئٍ أَمْشَاجٍ﴾ ، أي : ماء مهين مستقذر ﴿يَتَّبِعُهُ﴾ ، بذلك ، لنعلم هل يرى حاله الأولى ، ويفظن لها أم ينساها وتغره نفسه؟ .

فأنشأه الله ، وخلق له القوى الباطنة والظاهرة ، كالسمع والبصر ، وسائر الأعضاء ، فأتىها له وجعلها سالمة ، يتمكن بها من تحصيل مقاصده .

ثم أرسل إليه الرسل ، وأنزل عليه الكتب ، وهدها الطريق الموصلة إلى الله ^(١) ، ورغبه فيها ، وأخبره بما له عند الوصول إلى الله .

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك ، ورهبه منها ، وأخبره بما له إذا سلكتها ، وابتلاه بذلك ، فانقسم الناس إلى شاكر لنعمة الله عليه ، قائم بما حملة الله من حقوقه .

وإلى كفور لنعمة الله عليه ، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية ، فردّها ، وكفر بربه ، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك .

ثم ذكر تعالى حال الفريقين عند الجزاء فقال :

(٤-٢٢) ﴿إِنَّمَا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَكِينًا ۖ وَاعْتَدْنَا وَسْعِيرًا ۝ إِنَّمَا الْأَبْرَارُ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝ إِلَى آخِرِ الثَّوَابِ .

أي : إنا هيأنا ، وأرصدنا لمن كفر بالله ، وكذب رسله ، وتجراً على المعاصي .

﴿سَكِينًا﴾ في نار جهنم ، كما قال تعالى : ﴿ثَمَرٌ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ .

﴿وَاعْتَدْنَا﴾ تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ، ويوثقون بها . ﴿وَسَوْعِيرًا﴾ أي : ناراً تستعر بها أجسامهم ، وتحرق بها

أبدانهم ، ﴿كَمَا فَضَيْتَ جُلُودَهُمْ بَدَلْتَهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ . وهذا العذاب دائم لهم أبداً ، مخلدون فيه سرمداً .

وأما ﴿الْأَبْرَارَ﴾ وهم الذين برت قلوبهم ، بما فيها من محبة الله ومعرفته ، والأخلاق الجميلة ، فبرت جوارحهم ^(٢) ، واستعملوها بأعمال البر .

أخبر أنهم ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾ ، أي : شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور ، أي : خلط بكافور ، ليبرده ، ويكسر حدته ، وهذا الكافور [في غاية اللذة] ، قد سلم من كل مكدر ومنغص موجود في كافور الدنيا ، فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا ، تعدم في الآخرة ^(٣) .

كما قال تعالى : ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۖ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ ، ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ ، ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ ، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَدَّ الْأَعْيُنُ﴾ .

﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ ، أي : ذلك الكأس اللذيذ ، الذي يشربون به ، لا يخافون فغاده ، بل له مادة لا تنقطع ، وهي عين دائمة الفيضان والجريان ، يفجرها عباد الله تفجيراً ، أنى شاءوا ، وكيف أرادوا .

فإن شاءوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات ، أو إلى الرياض الناضرات ، أو بين جوانب القصور ، والمسكن المزخرفات ، أو إلى أي جهة يرونها من الجهات الموثقات .

وقد ^(٤) ذكر جملة من أعمالهم في أول هذه السورة ، فقال : ﴿يُؤْتُونَ بِالذَّكْرِ﴾ ، أي : بما ألزموا به أنفسهم لله من النذور والمعاهدات .

وإذا كانوا يوفون بالنذر ، وهو لم يجب ^(٥) عليهم ، إلا بإيجابهم على أنفسهم ، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية ، من باب أولى وأحرى .

﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ ، أي : منتشرًا فاشياً ، فخافوا أن ينالهم شره ، فتركوا كل سبب موجب لذلك .

﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ﴾ ، أي : وهم في حال يحبون فيها المال والطعام ، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم ، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم ﴿وَمُسْكِينًا وَنِيَمًا وَأَسِيرًا﴾ .

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى ، ويقولون بلسان الحال : ﴿إِنَّمَا نَطْعَمُكَ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُزِيدُ مِنْكَ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ ، أي : لا جزاء ماليًا ، ولا ثناء قولياً .

(١) في ب : الطريق الموصلة إليه وبينها . (٢) في ب : أعمالهم . (٣) في ب : الموجودة في الدنيا تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة . (٤) في ب : ثم ذكر . (٥) في ب : الذي هو غير واجب .

عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِالْأَلْدَرِ وَيَخْفُونَ
يَوْمًا كَانَتْ شَرُّهُ مَسْطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْثُ مَسْكِنًا
وَيَسْمَاوَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُنْقِطُكُمْ لَوَجْهِ اللَّهِ لَنْ نُزِجَنَّكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا
﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ
الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَهُ وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَّهْمُ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا
﴿١٢﴾ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرُونَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾
وَدَائِبَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَفْئِدُهُمْ نَذِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِمَائِدَةٍ
مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرًا مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾
وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا
﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَوْهُمُ حَسِبْتَهُمْ ثُؤُلُوهَا مَشُورًا
﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتُمْ ثَمْرًا رَأَيْتُمْ نَيْعًا وَمَلَكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَلَيْهِمْ ثَابُ سُدُنٍ
خَضِرٌ وَإِسْتِزْقٌ وُحْلُو آسَاوَرٍ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَمَهُمْ رُبُّهُمْ شَرَابًا
طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيَكُمْ مَشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا
نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ أَنْ تَذِيرًا ﴿٢٣﴾ فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَطِعْ
مَنْهُمْ أَثِمًا أَوْ كُفُورًا ﴿٢٤﴾ وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾

وخدمتهم.

﴿وَلَدْنَاهُمْ مَخْلَدُونَ﴾ أي: خلقوا من الجنة للبقاء، لا يتغيرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن.

﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ﴾ متشربين في خدمتهم ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾ من حسنهم ﴿ثُؤُلُوهَا مَشُورًا﴾، وهذا من تمام لذة أهل الجنة، أن يكون خدامهم الولدان المخلدون، الذين تسر رؤيتهم، ويدخلون على مساكنهم، آمينين من تبعتهم، ويأتونهم بما يدعون، وتطلبه نفوسهم.

﴿وَإِذَا رَأَيْتُمْ ثَمْرًا﴾ أي: هناك في الجنة، ورمقت ما هم فيه من النعيم^(٣)، ﴿رَأَيْتُمْ نَيْعًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ فتجد الواحد منهم، عنده من القصور والمسكن والغرف المزينة المزخرقة، ما لا يدركه الوصف.

ولديه من البساتين الزاهرة، والثمار الدانية، والفواكه اللذيذة، والأنهار الجارية، والرياض المعجبة، والطبوع

(١) في ب: ﴿وَتَلَاتُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة.
(٢) في ب: لم تكفهم لربهم. (٣) في ب: أي: رمقت ما أهل الجنة عليه من النعيم الكامل.

﴿إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا﴾، أي: شديد الجهمة والشر ﴿قَطَطِيرًا﴾، أي: ضنكنا ضيقًا.

﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ﴾ فلا يحزنهم الفرع الأكبر، وتتلقاهم الملائكة، [هذا يومكم الذي كنتم توعدون].

﴿وَلَقَّهْمُ﴾ أي: أكرمهم وأعطاهم ﴿نَصْرَهُ﴾ في وجوههم ﴿وَسُرُورًا﴾ في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن.

﴿وَجَزَّهْمُ بِمَا صَبَرُوا﴾ على طاعة الله، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلم يتسخطوها.

﴿جَنَّةً﴾ جامعة لكل نعيم، سالمة من كل مكدر ومنغص. ﴿وَحَرِيرًا﴾ كما قال [تعالى]: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه.

﴿مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ الاتكاء: التمكن من الجلوس في حال الرفاهية والطمأنينة [الراحة]، والأرائك: هي السرر التي عليها اللباس المزين.

﴿لَا يَرُونَ فِيهَا﴾، أي: في الجنة ﴿شَمْسًا﴾ يضرهم حرها، ﴿وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾، أي: بردًا شديدًا، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تتألم من حر ولا برد.

﴿وَدَائِبَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ أَفْئِدُهُمْ نَذِيلًا﴾، أي: قربت ثمراتها من مريدها تقريبًا ينالها وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

ويطاف على أهل الجنة أي: يدور [عليهم] الخدم والولدان^(١) ﴿بِكَائِبَةٍ مِّنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا﴾ قواريرًا من فضة، أي: مادتها من فضة، [وهي] على صفاء القوارير، ولهذا من أعجب الأشياء، أن تكون الفضة الكثيفة، من صفاء جوهرها، وطيب معدنها، على صفاء القوارير.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾، أي: قدروا الأواني المذكورة على قدر ربيهم، لا تزيد ولا تنقص، لأنها لو زادت نقصت لذتها، ولو نقصت لم تف بربهم^(٢).

ويحتمل أن المراد: قدرها أهل الجنة بنفوسهم بمقدار يوافق لذتهم، فأتتهم على ما قدروا في خواطرهم.

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا﴾ أي: في الجنة من كأس وهو الإناء المملوء من خمر ورحيق، ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ أي: خلطها ﴿زَنْجَبِيلًا﴾ ليطيب طعمه وريحه.

﴿عَيْنًا فِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿سُنَّ سَلْسَبِيلًا﴾ سميت بذلك لسلاستها ولذتها وحسنها.

﴿وَيَطُوفُ﴾ على أهل الجنة، في طعامهم وشرابهم

المطربة [المشجية] ما يأخذ بالقلوب، ويفرح النفوس. وعنده من الزوجات اللاتي هن في غاية الحسن والإحسان، الجامعات لجمال الظاهر والباطن، الخيرات الحسان، ما يملأ القلب سرورًا، ولذة وحبورًا.

وحوله من الولدان المخلدن، والخدم المؤبدن، ما به تحصل الراحة والطمأنينة، وتم لذة العيش، وتكمل الغبطة. ثم علاوة ذلك ومعظمه، الفوز بروية^(١) الرب الرحيم، وسماع خطابه، ولذة قربيه، والابتهاج برضاه، والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم، كل وقت وحين.

فسبحان الملك المالك، الحق المبين، الذي لا تنفذ خزائنه، ولا يقل خيره، فكما لا نهاية لأوصافه، فلا نهاية لبره وإحسانه.

﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ﴾، أي: قد جللتهم ثياب السندس والاستبرق الأخضران اللذان هما أجل أنواع الحرير، فالسندس: ما غلظ من اللديج^(٢)، والاستبرق: ما رق منه. ﴿وَحُلُواْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، أي: حلوا في أيديهم أساور الفضة، ذكورهم وإناثهم، ولهذا وعد وعدهم الله، وكان وعده مفعولا، لأنه لا أصدق منه قليلا ولا حديثا. وقوله: ﴿وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، أي: لا كدر فيه بوجه من الوجوه، مطهرا لما في بطونهم من كل أذى وقذى.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ الجزاء الجزيل والعطاء الجميل ﴿كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ على ما أسلفتموه، من الأعمال. ﴿وَكَانَ سَعِيرًا مُّشْكُورًا﴾ أي: القليل منه، يجعل الله لكم به من النعيم المقيم، ما لا يمكن حصره.

(٢٣) وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ فيه الوعد والوعيد، وبيان كل ما يحتاجه العباد. وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتم القيام، والسعي في تنفيذها، والصبر على ذلك.

(٢٤) ولهذا قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آئِمًا أَوْ كُفُورًا﴾، أي: اصبر لحكمه القدري، فلا تسخطه، ولحكمه الديني، فامض عليه، ولا يعوقك عنه عائق.

﴿وَلَا تُطِعْ﴾ من المعاندين، الذين يريدون أن يصدوك ﴿ءَائِمًا﴾ أي: فاعلا آئما ومعصية ولا ﴿كُفُورًا﴾، فإن طاعة الكفار والفجار والفساق، لا بد أن تكون في المعاصي، فلا يأمرهم^(٣) إلا بما تهواه أنفسهم.

(٢٥) ولما كان الصبر يساعده القيام بعبادة الله^(٤)، والإكثار من ذكره، أمره الله بذلك، فقال: ﴿وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾، أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذلك

الصلوات المكتوبات وما يتبعها من النوافل، والذكر، والتسبيح، والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات. (٢٦) ﴿وَمِنَ آيَاتِ مَا تَسْجُدُ لَهُ﴾، أي: أكثر [له] من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة^(٥).

﴿وَسَخِّهَ لِيَلًا طَوِيلًا﴾، وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الرِّزْقُ﴾ ○ ﴿فُرُ إِلًا قَلِيلًا﴾ الآية^(٦).

(٢٧) [وقوله]: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ أي: المكذبين لك أيها الرسول! بعد ما بينت لهم الآيات، ورغبوا ورهبوا، ومع ذلك، لم يفد فيهم ذلك شيئا، بل لا يزالون يؤثرون ﴿الْعَاجِلَةَ﴾ ويطمثون إليها.

﴿وَيَذَرُونَ﴾ أي: يتركون العمل، ويهملون ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ أي: أمامهم ﴿يَوْمًا نَقِيلًا﴾ وهو يوم القيامة الذي مقدره خمسون ألف سنة مما تعدون.

وقال تعالى: ﴿قَوْلَ الْكٰفِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾. فكأنهم ما خلقوا إلا للدين، والإقامة فيها. (٢٨) ثم استدل عليهم وعلى بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ﴾، أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾، أي: أحكمنا خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريده.

فالذي أوجدهم على هذه الحالة، قادر على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار، لا يليق به أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا ينهاون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال:

﴿بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ بَدِيلًا﴾، أي: أنشأناهم للبعث نشأة أخرى، وأعدناهم بأعيانهم^(٧)، وهم بأنفسهم أمثالهم. ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرٌ﴾، أي: يتذكر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب.

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾، أي: طريقا موصلا إليه، فالله يبين الحق والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها، أو النفور عنها، مع قيام الحجة عليهم^(٨).

(٣٠) ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإن مشيئة الله نافذة. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، فله الحكمة في هداية

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: وذلك متضمن لكثرة الصلاة. (٦) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٧) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(١) في ب: برضا. (٢) في ب: ما غلظ الحرير. (٣) في ب: لا يبد أن تكون معصية لله، لأنهم لا يأمرهم. (٤) في ب: يستمد من القيام بطاعة الله. (٥) في ب: أكمل الآيات ﴿بِصَفِّهِ أَوْ أَنْفُسِ بَيْنَ قَلِيلًا أَوْ زَيْدًا عَلَيْهِ﴾. (٦) في النسختين بضمير المخاطب للجمع في كل هذه الكلمات، ولعل الصواب ما أثبت. (٨) في ب: إقامة للحجة، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

المهتدي، وإضلال الضال.

﴿يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقتها.

﴿وَالظَّالِمِينَ﴾ الذين اختاروا الشقاء على الهدى ﴿أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [بظلمهم وعدوانهم].

تم تفسير سورة الإنسان، والله الحمد والمنة^(١).

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٥) ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ وَالْمُرْسَلَاتِ عَصْفًا ○ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ○

فَالْقُرَيْشِ فَرَقًا ○ فَالْمَلَقِيَّتِ دَكْرًا ○ عُدْرًا أَوْ نُدْرًا ○ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ ○

فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ○ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرْجَتْ ○ وَإِذَا

الرُّسُلُ أُوذِقَتْ ○ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ○ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ○ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ

الْفَصْلِ ○ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ○ أقسم تعالى على البعث والجزاء

بالأعمال^(٢)، بالمرسلات عرفًا، وهي الملائكة التي يرسلها

الله تعالى بشئونه القدرية، وتدبير العالم وبشئونه الشرعية،

ووحيه إلى رسله.

و ﴿عُرْفًا﴾ حال من المرسلات، أي: أرسلت بالعرف،

والحكمة، والمصلحة، لا بالنكر والعبت.

﴿وَالْمَلَقِيَّتِ عَصْفًا﴾ وهي [أيضًا] الملائكة التي يرسلها الله

تعالى، وصفها بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره، كالريح

العاصف.

أو: أن العاصفات، الرياح الشديدة، التي يسرع هبوبها.

﴿وَالنَّشْرِ نَشْرًا﴾ يحتمل أنها الملائكة^(٣)، تنشر ما دبرت

على نشره، أو أنها السحاب التي يُنْشِرُ بها الله الأرض،

فيحييها بعد موتها.

﴿فَالْمَلَقِيَّتِ دَكْرًا﴾ هي الملائكة، تلقي أشرف الأوامر، وهو

الذكر الذي يرحم الله به عباده، ويذكرهم فيه منافعهم

ومصالحهم، تلقيه إلى الرسل.

﴿عُدْرًا أَوْ نُدْرًا﴾، أي: إعدارًا، وإنذارًا للناس، تنذر الناس

ما أمامهم من المخاوف، وتقطع معذرتهم^(٤)، فلا يكون لهم

حجة على الله.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ﴾ من البعث والجزاء على الأعمال

﴿لَوَاقِعٍ﴾، أي: متحتم وقوعه، من غير شك ولا ارتياب.

فإذا وقع حصل من التغيير للعالم والأحوال الشديدة، ما

وَمَنْ أَيْلَ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿١٦﴾ إِنَّا هُوَ لَا يُجِيبُونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذُرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿١٧﴾ حَنَّ خَلَقْتَهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَلْنَا أَمْثَلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَذِهِ بَذِكْرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٠﴾ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢١﴾

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ وَالْمُرْسَلَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّشْرِ نَشْرًا ﴿٣﴾

فَالْقُرَيْشِ فَرَقًا ﴿٤﴾ فَالْمَلَقِيَّتِ دَكْرًا ﴿٥﴾ عُدْرًا أَوْ نُدْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا

تُوعَدُونَ لَوَاقِعٍ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرْجَتْ ﴿٩﴾

الرُّسُلُ أُوذِقَتْ ﴿١٠﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ ﴿١١﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ

الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿١٥﴾

وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الْفَصْلِ ﴿١٧﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ

لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿٢٠﴾

كَذَلِكَ نَفْعُ الْإِنْسَانِ بِمَا كَسَبَ ﴿٢١﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٢﴾

كَذَلِكَ نَفْعُ الْإِنْسَانِ بِمَا كَسَبَ ﴿٢٣﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

يزعج القلوب وتشتد له الكروب، فتطمس النجوم، أي: تتناثر وتزول عن أماكنها وتنسف الجبال، فتكون كالهباء المثور، وتكون هي والأرض قاعًا صفصفا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا.

وذلك اليوم هو اليوم الذي أقتت فيه الرسل، وأجلت

للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال:

﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ﴾ استفهام للتعظيم والتفخيم، والتوهيل.

ثم أجاب بقوله: ﴿لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾ [أي: بين الخلائق،

بعضهم لبعض، وحساب كل منهم منفردًا.

ثم توعد المكذب بهذا اليوم، فقال: ﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ

لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، أي: يا حسرتهم وشدة عذابهم، وسوء منقلبهم،

أخبرهم الله، وأقسم لهم، فلم يصدقوه، فاستحقوا^(٥) العقوبة

البلغية.

(١٦-١٩) ﴿أَلَمْ تُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ○ ثُمَّ نُنْعِمُهُمُ الْآخِرِينَ ○ كَذَلِكَ

(١) في ب: تمت والله الحمد. (٢) في ب: على الأعمال. (٣) في ب:

يحتمل أن المراد بها الملائكة. (٤) في ب: أعذارهم. (٥) في ب:

فلذلك استحقوا.

الذي أعد [للمجرمين] للمكذبين، أن يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿أَطْلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثُلُثِ شَبَعٍ﴾، أي: إلى ظل نار جهنم، التي تتمايز في خلاله ثلاث شعب، أي: قطع من النار، أي: تتعاوره وتتناوبه، وتجتمع به.

﴿لَا ظِلِّيلٌ﴾ ذلك الظل، أي: لا راحة فيه، ولا طمأنينة. ﴿وَلَا يُعْنَى﴾ من مكث فيه ﴿مِنَ اللَّهَبِ﴾، بل اللهب قد أحاط به، يمنة ويسرة، ومن كل جانب، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، ﴿لَهُمْ مِّنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاسِقٌ﴾ وكذلك تجزي الظليلين. ثم ذكر عظم شرر النار، الدال على عظمها وفضاعتها، وسوء منظرها، فقال:

﴿إِنهَا تَرْمِي بِشَكْرٍ كَالْقَصْرِ﴾ كأنه جملت صفر وهي السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة، وهذا يدل على أن النار مظلمة لهبها وجمرها وشررها، وأنها سوداء، كريمة المرأى^(٤)، شديدة الحرارة، نسأل الله العافية منها، [من الأعمال المقربة منها].

﴿وَيَوْمَ يُنَادِي لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(٣٥-٤٠) ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾ ولا يؤذن لهم فيمذرون ﴿وَيَوْمَ يُنَادِي لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ هذا يوم الفصل جمعنا والآولين ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِي لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد.

﴿وَلَا يُؤذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ﴾، أي: لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَا وَالْأُولَى﴾ لفصل بينكم، ونحكم بين الخلائق.

﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ﴾ تقدرن على الخروج من ملكي، وتنجون به من عذابي، ﴿وَيَكِيدُونَ﴾، أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان، كما قال تعالى: ﴿بِمَعَشَرٍ لَّيْلِ وَالْآيَاتِ إِذْ اسْتَعْظَمَ عَنْ تَفَتُّوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَأَنذَرُوا لَا تَسْفُدُونَ إِلَّا سُلْطٰنِي﴾. ففي ذلك اليوم، تبطل حيل الظالمين، ويضمحل مكرهم وكيدهم، ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم كذبهم في تكذيبهم ﴿وَيَوْمَ يُنَادِي لِلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(٤١-٤٥) ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ ﴿وَوَافِكَةٍ يَمَا يَشْتَهُونَ﴾ ﴿كَلُوا وَأَشْرَبُوا هَيْتًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ﴿إِنَّا كَذٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِي لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ لما ذكر عقوبة المكذبين، ذكر ثواب^(٥)

فَعَلَّ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِي لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: أما أهلكتنا المكذبين السابقين، ثم تتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة، في كل مجرم لا بد من عذابه^(١)، فلم لا تعتبرن بما ترون وتسمعون؟

﴿وَيَوْمَ يُنَادِي لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعدما شاهدوا من الآيات البيّنات، والعقوبات والمثلثات.

(٢٠-٢٤) ﴿أَلَمْ تَخْلُقْنَا مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ ﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِي لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: أما خلقناكم أيها الآدميون ﴿مِن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾، أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصلب والترائب، حتى جعله الله ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهو الرحم، به يستقر وينمو. ﴿إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ ووقت مقدر.

﴿فَقَدَرْنَا﴾ أي: قدرنا ودبرنا ذلك الجنين، في تلك الظلمات، ونقلناه من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى أن جعله الله جسداً، ثم نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذلك.

﴿فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [يعني بذلك نفسه المقدسة] حيث كان قدراً تابعاً للحكمة موافقاً للحمد^(٢).

﴿وَيَوْمَ يُنَادِي لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ بعدما بين الله لهم الآيات، وأراهم العبر والبيّنات.

(٢٥-٢٨) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِهَاتًا﴾ ﴿أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًّ شَيْخَتَيْنِ وَأَسْفَيْنَا مَاءَ فُرَاتًا﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِي لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: أما امتنا^(٣) عليكم، وأنعمنا، بتسخير الأرض لمصالحكم، فجعلناها ﴿كِهَاتًا﴾ لكم ﴿أَحْيَاءً﴾ في الدور ﴿وَأَمْوَاتًا﴾ في القبور، فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنتها، فكذلك القبور، رحمة في حقهم، وستراً لهم، عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيًّ﴾ أي: جبلاً ترسي الأرض، لئلا تميد بأهلها، فنبتها الله بالجبال الراسيات الشامخات، أي: الطوال العراض.

﴿وَأَسْفَيْنَا مَاءَ فُرَاتًا﴾، أي: عذاباً زللاً، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسْفِئْهُمُ الْمَاءُ الَّذِي تَشْرَبُونَ﴾ ﴿أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أَجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِي لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ مع ما أراهم الله من النعم التي انفراد الله بها، واختصهم بها، فقابلوها بالتكذيب.

(٢٩-٣٤) ﴿أَطْلِقُوا إِلَى مَا كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿أَطْلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثُلُثِ شَبَعٍ﴾ ﴿لَا ظِلِّيلٌ وَلَا يُعْنَى مِنَ اللَّهَبِ﴾ ﴿إِنهَا تَرْمِي بِشَكْرٍ كَالْقَصْرِ﴾ ﴿كَأَنَّهُ جَمَلٌ صَفَرٌ﴾ ﴿وَيَوْمَ يُنَادِي لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ هذا من الويل

(١) في ب: عاقبه. (٢) في ب: لأن قدره تابع لحكمته موافق للحمد.

(٣) في ب: أما متنا. (٤) في ب: كريمة المنظر. (٥) في ب: ثواب.

المحسنين، فقال:

﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ﴾ [أي:] للتكذيب، المتصفيين بالتصديق، في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم.

ولا يكونون كذلك، إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات.

﴿فِي ظِلِّهِ﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية.

﴿وَعُيُونٍ﴾ جارية من السلسيل، والرحيق وغيرهما.

﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾، أي: من خيار الفواكه وطبيها، ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من المآكل الشهية، والأشربة اللذيذة، ﴿هَنِيئًا﴾، أي: من غير منغص ولا مكدر.

ولا يتم هناؤه، حتى يسلم الطعام والشراب، من كل آفة ونقص، وحتى يجزموا أنه غير منقطع، ولا زائل.

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأعمالكم، هي السبب الموصل لكم إلى هذا النعيم^(١) المقيم.

ولهكذا كل من أحسن في عبادة الله، وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال:

﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ○ وَيَلِيَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ولو لم يكن لهم من هذا الويل، إلا فوات هذا النعيم، لكفى به حرمانًا وخسرانًا^(٢).

﴿٤٦-٥٠﴾ ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ﴾ ○ وَيَلِيَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ○ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ لَا يَرْكَبُوا لِلْمُكَذِّبِينَ ○ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ هذا تهديد ووعيد للمكذبين، أنهم وإن أكلوا في الدنيا، وشربوا وتمتعوا باللذات، وغفلوا عن القربات، فإنهم مجرمون، يستحقون ما يستحقه المجرمون، فستقطع عنهم اللذات، وتبقى عليهم التبعات.

ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وقيل لهم: ﴿ارْكَعُوا﴾ امتنعوا من ذلك.

فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب يزيد على هذا؟! ﴿وَيَلِيَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق، ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق.

﴿فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾، ألباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلًا عن الدليل؟ أم بكلام كل مشرك كذاب، أفاك ميين؟.

فليس بعد التور الميين، إلا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق، الذي قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح، والإفك الميين^(٣) الذي لا يليق إلا بمن يتاسبه.

﴿٥٠-٥١﴾ ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ○ عَنِ النَّارِ الْعَظِيمِ ○ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ○ كَلَّا سَعَلْتُهُمْ ○ فَوُ كَلَّا سَعَلْتُهُمْ﴾ أي: عن أي شيء يتساءل المكذوبون بآيات الله؟ ثم بين ما يتساءلون عنه فقال: ﴿عَنِ النَّارِ الْعَظِيمِ ○ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، أي: عن الخبر العظيم الذي طال فيه نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك، ولا يدخله

﴿١﴾ في ب: إلى جنات النعيم. (٢) في ب: حزنًا وحرمانًا. (٣) في ب: الذي قامت عليه الأدلة والبراهين القاطعة إلا الإفك الصراح والكذب الميين.

أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَلِيَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ تَجْعَلِ الْأَرْضَ كَهَاتَا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ سَلْمَخَتٍ وَأَسْفَيْنَاكُمْ مَاءً فَرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيَلِيَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ أَطْلِقُوا إِلَىٰ مَا كُنْتُمْ بِهِ تَكْدِبُونَ ﴿٢٩﴾ أَنْطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّمَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمْلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَلِيَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا أَيُّومٌ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ وَيَلِيَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا أَيُّومُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ﴿٣٩﴾ وَيَلِيَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّا الْمُنْفِقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيَلِيَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كَلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ تُجْرَمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيَلِيَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ لَا يَرْكَبُوا لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٨﴾ وَيَلِيَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنِّي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

فتبًا لهم، ما أعماهم! وويحًا لهم ما أخسرهم وأشقاهم! نسأل الله العفو والعافية، [إنه جواد كريم. تمت].

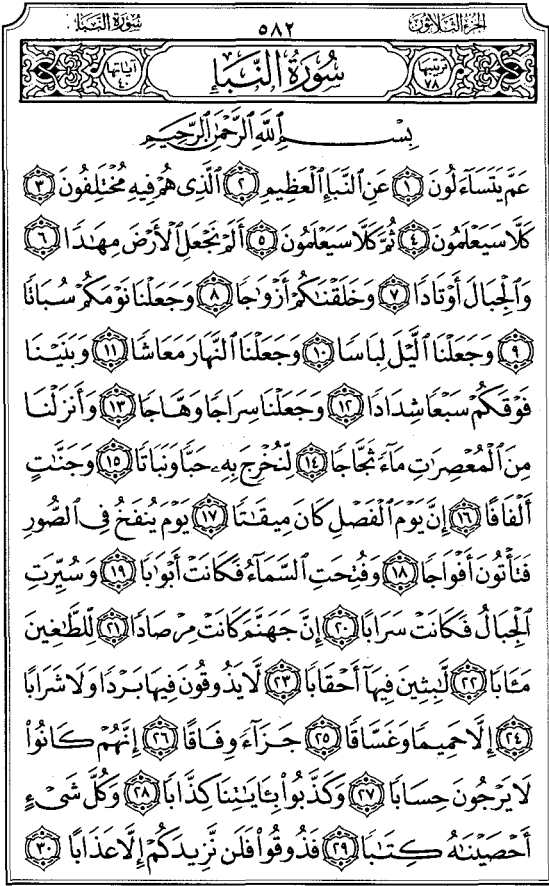
تفسير سورة عم

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥٠-٥١) ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ○ عَنِ النَّارِ الْعَظِيمِ ○ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ○ كَلَّا سَعَلْتُهُمْ ○ فَوُ كَلَّا سَعَلْتُهُمْ﴾ أي: عن أي شيء يتساءل المكذوبون بآيات الله؟ ثم بين ما يتساءلون عنه فقال: ﴿عَنِ النَّارِ الْعَظِيمِ ○ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾، أي: عن الخبر العظيم الذي طال فيه نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك، ولا يدخله

(١) في ب: إلى جنات النعيم. (٢) في ب: حزنًا وحرمانًا. (٣) في ب: الذي قامت عليه الأدلة والبراهين القاطعة إلا الإفك الصراح والكذب الميين.



فالذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة^(٧) التي لا يقدر قدرها، ولا يحصى عددا كيف [تكفرون به، و] تكذبون ما أخبركم به، من البعث والنشور؟ أم كيف تستعينون بنعمه على معاصبه، وتجحدونها؟! (١٧-٣٠)

(١٧-٣٠) ﴿٦﴾ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٦﴾ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِیْمِ ﴿٢﴾ الَّذِیْ هُوَ فِیْهِ مَخْلُوفُونَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَیَعْمُونَ ﴿٤﴾ نُو كَلَّا سَیَعْمُونَ ﴿٥﴾ اَلَّذِیْ جَعَلَ لَلاَِرْضَ مَهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ اَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ اَرْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اَیْلًا لِّبَاسًا ﴿١٠﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَاَنْزَلْنَا مِنْ اَلْمُعْصِرَاتِ مَاءً تَجَاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِیْهِ حَیًا وَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا اَلْفَاقًا ﴿١٦﴾ اِنْ یَوْمَ اَلْفَصْلِ كَانَ مِیْقَاتًا ﴿١٧﴾ یَوْمَ یُفْخَعُ فِی الصُّورِ فَاَتُونَ اَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُیْحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ اُتُوْبًا ﴿١٩﴾ وَسُرَّتْ اَلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ اِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّغِیْنِ مَنَابَاٍ ﴿٢٢﴾ اَللَّیْسِیْنَ فِیْهَا اَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَا یَذُوْقُوْنَ فِیْهَا بَرْدًا وَّلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ اِلَّا حَمِیْمًا وَّعَسَاقًا ﴿٢٥﴾ جَرَاءً وَّفَاقًا ﴿٢٦﴾ اِنَّهُمْ كَانُوْا لَا یَرْجُوْنَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوْا بِآیٰتِنَا كِذَابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَیْءٍ اَحْصَيْنٰهُ كِتٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوْقُوْا فَلَئِنْ نَزِیْدْكُمْ اِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويجحده المعاندون، أنه يوم عظيم، وأن الله جعله ﴿مِيقَاتًا﴾ للخلق ﴿يُفْخَعُ فِي الصُّورِ فَاتُونَ أَفْوَاجًا﴾، ويجري فيه من الزعازع

(١) في ب: ثم ذكر. (٢) في ب: على ما جاءت به الرسل. (٣) في ب: مذلة. (٤) في ب: فتكون. (٥) في ب: لتسكن. (٦) في ب: الذي صار ضرورة للخلق، وبالوواج: وهي حرارتها على ما فيها من الإضاج والمنافع. (٧) في ب: الجليظة.

الريب، ولكن المكذبون بقاء ربهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية، حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال: ﴿كَلَّا سَیَعْمُونَ ﴿٤﴾ نُو كَلَّا سَیَعْمُونَ ﴿٥﴾﴾، أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب، ما كانوا به يكذبون، حين يُدْعَوْنَ إلى نار جهنم دعا.

ويقال لهم: ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكْذِبُونَ﴾. ثم بين^(١) تعالى النعم والأدلة الدالة على صدق ما أخبرت^(٢) به الرسل، فقال:

(٦-١٦) ﴿اَلَّذِیْ جَعَلَ لَلاَِرْضَ مَهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ اَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ اَرْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اَیْلًا لِّبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَاَنْزَلْنَا مِنْ اَلْمُعْصِرَاتِ مَاءً تَجَاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِیْهِ حَیًا وَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا اَلْفَاقًا ﴿١٦﴾﴾ أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جليظة، فجعلنا لكم ﴿اَلْأَرْضَ مَهْدًا﴾، أي: ممهدة مهيأة^(٣) لكم ولمصالحكم، من الحروث، والمسكن والسبل.

﴿وَالْجِبَالَ اَوْتَادًا﴾ تمسك الأرض لثلاث تضرب بكم وتميد. ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ اَرْوَاجًا﴾، أي: ذكروا وإنائنا، من جنس واحد، ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون^(٤) المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية، وفي ضمن هذا الامتتان بلدة المنكح.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾، أي: راحة لكم، وقطعاً لأشغالكم التي متى تمادت بكم، أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس، لتنتقطع^(٥) حركاتهم الضارة، وتحصل راحتهم النافعة.

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾، أي: سبع سماوات، في غاية القوة، والصلابة والشدة.

وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفاً للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس، فقال:

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا﴾، به بالسراج على النعمة بنورها الذي صار كالضرورة للخلق، وبالوواج الذي فيه الحرارة على حرارتها، وما فيها من المصالح^(٦).

﴿وَاَنْزَلْنَا مِنْ اَلْمُعْصِرَاتِ﴾، أي: السحاب ﴿مَاءً تَجَاجًا﴾، أي: كثيراً جداً.

﴿لِّنُخْرِجَ بِیْهِ حَیًا﴾ من برّ وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك مما يأكله الآدميون.

﴿وَبَاتًا﴾ يشمل سائر النبات، الذي جعله الله قوتاً لمواشيهم.

﴿وَجَعَلْنَا اَلْفَاقًا﴾، أي: بساتين ملتفة، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة.

ومنجى، ويُعَدُّ عن النار.

وفي ذلك المفاز لهم ﴿حَدَائِقَ﴾ وهي البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية في الثمار التي تتفجر بين خلالها الأنهار، وخص الأعناب لشرفه وكثرته في تلك الحدائق. ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس ﴿كَوَاعِبَ﴾ وهي النواهد اللاتي لم تتكسر نديهن من شبابهن وقوتهن ونضارتهن^(٦).

والأتراب: اللاتي على سن واحد متقارب.

ومن عادة الأتراب أن يكنّ متآلفات، متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدل سن الشباب^(٧).

﴿وَكَأْسًا دِهَانًا﴾، أي: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾، أي: كلامًا لا فائدة فيه ﴿وَلَا كَذِبًا﴾، أي: إثمًا.

كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهَا إِلَّا فِيْلًا سَلْمًا﴾.

وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل [من فضله وإحسانه] ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ﴾ لهم ﴿عَطَاءً حِسَابًا﴾، أي: بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها ثمنًا لجنته ونعيمها^(٨).

(٣٧-٤٠) ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ ◦ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَن أُوذِنَ لَهُ الرِّجْنُ وَقَالَ صَوَابًا ◦ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ أَخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَا ◦ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ◦ أي: الذي أعطاهم هذه العطايا هو ربهم ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي خلقها ودبرها ﴿الْخَلْقِ﴾ الذي رحمته وسعت كل شيء، فرباهم ورحمهم، ولطف بهم، حتى أدركوا ما أدركوا.

ثم ذكر عظمته وملكوته العظيم يوم القيامة، وأن جميع الخلق كلهم ذلك اليوم ساكتون لا يتكلمون، و ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾، ﴿إِلَّا مَن أُوذِنَ لَهُ الرِّجْنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين:

أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لَهُ فِي الْكَلَامِ، وَأَنْ يَكُونَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ صَوَابًا.

لأن ﴿ذَلِكَ الْيَوْمَ﴾ هو ﴿الْحَقُّ﴾ الذي لا يروج فيه الباطل،

والفلاقل ما يشيب له الوليد، وتترزع له القلوب.

ففسير الجبال، حتى تكون كالهواء الميثوث، وتشقق^(١) السماء حتى تكون أبوابا، ويفصل الله بين الخلائق، بحكمه الذي لا يجور، وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله، وأعددها للطاغين وجعلها مثنى لهم ومآبًا، وأنهم يلبثون فيها أحقابًا كثيرة، و «الحقبة» على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة.

وهم إذا وردوها^(٢) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾، أي: لا ما يبرد جلودهم، ولا ما يدفع ظمأهم.

﴿إِلَّا حَمِيمًا﴾، أي: ماء حارًا، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم.

﴿وَسَخَّابًا﴾ وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية التنن، وكراهة المذاق.

وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة جزاء لهم ووفاقًا على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها لم يظلمهم الله، ولكن ظلموا أنفسهم، ولهذا ذكر أعمالهم التي استحقوا بها هذا الجزاء، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾، أي: لا يؤمنون بالبعث، ولا أن الله يجازي الخلق، بالخير والشر، فلذلك أهملوا العمل للأخرة.

﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا﴾، أي: كذبوا بها تكذيبًا واضحًا صريحًا، وجاءتهم البيئات فعاندها.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من قليل وكثير، وخير وشر ﴿أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾ أي: كتبناه^(٣) في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون، أنا عذبانهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة.

كما قال تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكُتُبَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوتَيْنَا مَالٌ هَذَا الْكُتُبِ لَا يَغَايِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَيْنَاهَا وَوَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا﴾.

﴿فَدُورُوا﴾ أيها المكذبون! هذا العذاب الأليم، والخزي الدائم ﴿فَلَن تَرِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ وكل وقت وحين يزداد عذابهم.

[وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار، أجازنا الله منها].

(٣١-٣٦) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَارًا﴾ ◦ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ◦ وَكَوَاعِبَ أَزْوَاجًا ◦ وَأَكْأْسًا دِهَانًا ◦ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَابًا ◦ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً حِسَابًا﴾ لما ذكر حال المجرمين، ذكر مآل المتقين، فقال:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَارًا﴾ أي^(٤): الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه^(٥) فلهم مفاز

(١) في ب: وتنشق. (٢) في ب: فإذا وردوها. (٣) في ب: أنبتناه.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فقال: إن المتقين. (٥) في ب: عن معصيته.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وهي الناهد التي لم يتكسر نديهن من شبابهن ونضارتهن وقوتهن. (٧) في ب: أعدل ما يكون من الشباب. (٨) في ب: وجعلها سببًا للوصول إلى كرامته.

ولا يرفع فيه الكذب.

وفي ذلك اليوم ﴿يَقُومُ الرُّوحُ﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أشرف الملائكة^(١).

﴿وَالْمَلَائِكَةُ﴾ أيضًا يقوم الجميع ﴿أَصْفَاءَ﴾ خاضعين لله ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ إلا بما أذن لهم الله به^(٢).

فلما رغب، ورهب، وبشر، وأنذر قال:

﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا﴾، أي: عملاً وقدم صدق،

يرجع إليه يوم القيامة.

﴿إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ لأنه قد أرف مقبلاً، وكل ما هو آت فهو قريب.

﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾، أي: لهذا الذي يهيمه،

ويفرغ إليه، فلينظر في هذه الدنيا إليه^(٣) كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفُسًا أَلْفَاظًا وَلَتَنْظُرَنَّ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَأَتَقْوُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ الآيات.

فإن وجد خيراً فليحمد الله، وإن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا كان الكفار يتمنون الموت من شدة الحسرة والندم.

نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشر كله، إنه جواد كريم.

تم تفسير سورة عم، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة النازعات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٤) ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُؤًا ﴿وَالسَّيِّخَاتِ سَبًا﴾

﴿فَالسَّيِّغَاتِ سَبًا﴾ ﴿فَالْمُدْرِرَاتِ امْرَأًا﴾ ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ ﴿تَتَّبِعُهَا

الرَّادِفَةُ﴾ ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ ﴿أَبْصُرُهَا خَشِيعَةٌ﴾ ﴿يَقُولُونَ أَوْنَا

لَمَرْدُودُونَ فِي لَمَفَافَةٍ﴾ ﴿أَوَّٰدًا كُنَّا عِظْمًا نَجْرَةً﴾ ﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ

خَاسِرَةٌ﴾ ﴿فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ﴾ ﴿فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ هذه الإقسامات

بالملائكة الكرام وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر

الله، وإسراعهم في تنفيذ أمره، يحتمل أن المقسم عليه:

الجزء والبعث، بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك.

ويحتمل أن المقسم عليه، والمقسم به متحذان، وأنه أقسم

على الملائكة لأن الإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة.

ولأن في ذكر أفعالهم هنا ما يتضمن الجزاء الذي تتولاه

الملائكة عند الموت وقبله، وبعده، فقال:

﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ وهم الملائكة التي تنزع الأرواح بقوة،

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

٥٨٣

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَائِقَ وَأَعْنَابًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا
دِهَانًا ﴿٣٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِدَابًا ﴿٣٥﴾ جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءً
حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ
مِنَهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ
إِلَّا مَن أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْمُلَقَّ بِفَمَن
شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَتَابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّا أَنْذَرْتَكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ
يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا ﴿٤٠﴾

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُؤًا ﴿٢﴾ وَالسَّيِّخَاتِ سَبًا ﴿٣﴾

﴿فَالسَّيِّغَاتِ سَبًا ﴿٤﴾ فَالْمُدْرِرَاتِ امْرَأًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾

﴿تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصُرُهَا

خَشِيعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَوْنَا لَمَرْدُودُونَ فِي لَمَفَافَةٍ ﴿١٠﴾ أَوَّٰدًا كُنَّا

عِظْمًا نَجْرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا هِيَ زَجْرَةٌ

وَجِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أُنثِيَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿١٥﴾

وتغرق في نزعها، حتى تخرج الروح، فتجازى بعملها.

﴿وَالنَّشِيطَاتِ تَشَاطُؤًا﴾ وهم الملائكة أيضًا، تجتذب الأرواح

بقوة ونشاط، أو أن النشط يكون لأرواح المؤمنين، والنزع

لأرواح الكفار^(٤).

﴿وَالسَّيِّخَاتِ﴾ أي: المترددات في الهواء صعودًا ونزولًا

﴿سَبًا﴾.

﴿فَالسَّيِّغَاتِ﴾ لغيرها ﴿سَبًا﴾ فتبادر لأمر الله، وتسبق

الشياطين في إيصال الوحي إلى رسل الله، حتى لا تسترته^(٥).

﴿فَالْمُدْرِرَاتِ امْرَأًا﴾ الملائكة الذين وكلهم الله أن يدبروا كثيرًا

من أمور العالم^(٦)، العلوي والسفلي، من الأمطار، والنبات،

والأشجار، والرياح، والبحار، والأجنة، والحيوانات،

والجنة، والنار [وغير ذلك].

(١) في ب: أفضل الملائكة. (٢) في ب: إلا يذنه. (٣) في ب: فلينظر

في هذه الدار ما قدم لدار القرار. (٤) هكذا في ب معدلاً في هامش

النسخة بخط الشيخ، وفي أ: أن النزع يكون لأرواح المؤمنين والنشط

لأرواح الكفار. (٥) في ب: ثلاثا تسترته. (٦) في ب: الذين جعلهم الله

يدبرون كثيرًا من أمور العالم.

فرعون مما دعاه إليه موسى .

﴿فَأَنزَلْنَا آيَةَ الْكُرْبَىٰ﴾ ، أي: جنس الآية الكبرى، فلا ينافي تعددها ﴿فَأَلْفَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ و﴿نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾ .

﴿فَكَذَّبَ﴾ بالحق ﴿وَعَصَى﴾ الأمر، ﴿ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى﴾، أي: يجتهد في مبارزة الحق ومحاربهته .

﴿فَحَسَرَ﴾ جنوده أي: جمعهم ﴿فَنَادَىٰ﴾ فقال لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَىٰ﴾ فأذعنوا له، وأقروا بباطله، حين استخفهم .

﴿فَأَنذَهُ اللَّهُ تَكَاَلُ الْأَجْرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ أي: صارت عقوبته ^(١) دليلاً وزاجراً، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة .

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾، فإن من يخشى الله، هو الذي ينتفع بالآيات والعبر .

فإذا رأى عقوبة فرعون، عرف أن كل من تكبر وعصى، وبارز الملك الأعلى، عاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قبله، فلو جاءته كل آية لم يؤمن [بها] .

(٢٧-٣٣) ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ أَنَّىٰ أَنزَلْنَا سَنَكُمَا فَسَوَّيْنَاهَا ۖ وَأَنطَشْنَا لَيْلَهَا وَأَخْرَجْنَا صُنْحَهَا ۖ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۖ أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۖ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا ۖ مَتَّعْنَا لَكُمْ وَلِأَنْفُسِكُمْ ۖ يَقُولُ تَعَالَىٰ - مَبِينًا دَلِيلًا ۖ وَاضْحًا لِمَنْكِرِي الْبُعْثِ، ومستعدي إعادة الله للأجساد :-

﴿أَنْتُمْ﴾ أيها البشر ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَرَأَيْتُمْ﴾ ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر ﴿بَنَاهَا﴾ الله .

﴿رَفَعْنَا سَنَكُمَا﴾، أي: جرمها وصورتها ﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ بإحكام وإتقان، وبحير العقول، ويذهل الأبواب .

﴿وَأَنطَشْنَا لَيْلَهَا﴾، أي: أظلمه، فعمت الظلمة [جميع] أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض .

﴿وَأَخْرَجْنَا صُنْحَهَا﴾، أي: أظهر فيه النور العظيم، حين أتى بالشمس، فامتد ^(٢) الناس في مصالح دينهم ودنياهم .

﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ أي: بعد خلق السماء ﴿دَحَاهَا﴾، أي: أودع فيها منافعها .

وفسر ذلك بقوله: ﴿أَخْرَجْنَا مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۖ وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا﴾، أي: ثبنتها في الأرض .

فدحى الأرض بعد خلق السماء، كما هو نص هذه الآيات [الكريمة] .

وأما خلق نفس الأرض، فمتقدم على خلق السماء كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا كُنَّ نَفْسٌ مِّنْ أَلْفَاظٍ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۖ وَهُوَ يَعْلَمُ مَا يُخْفَىٰ ۖ إِلَىٰ أَن

(١) في ب: وابتعته بالوحي واجتياه . (٢) في ب: أي: جعل الله عقوبته . (٣) في ب: فانشره .

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ وهي قيام الساعة .

﴿تَتَّبِعُهَا آزَافَةٌ﴾ أي: الرجفة الأخرى التي تردفها، وتأتي تلؤها .

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِعَةٌ﴾ أي: موجفة ومتزعجة من شدة ما ترى وتسمع .

﴿أَبْصَرُوهَا خَشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة حقيرة، قد ملك قلوبهم الخوف، وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف، [واستولت عليهم] الحسرة .

يقولون، أي: الكفار في الدنيا، على وجه التكذيب: ﴿أَوَدَا كُنَّا عَظْمًا مَّجْرَةً﴾، أي: بالية فتاتا .

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، أي: استبعدوا أن يعينهم الله، ويعيدهم بعدما كانوا عظامًا نخرة، جهلاً [منهم] بقدره الله، وتجرؤا عليه .

قال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه: ﴿فَاتَمَّا هِيَ بَرْجَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، ينفخ فيها في الصور .

فإذا الخلائق كلهم ﴿بِالسَّاهِرَةِ﴾، أي: على وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم الله، ويقضي بينهم بحكمه العدل، ويجازيهم .

(١٥-٢٦) ﴿هَلْ أُنذِرَكَ حَدِيثٌ مُّوسَىٰ ۖ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۖ وَأَهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكِبَ ۖ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَخَشِيَ ۖ فَأَنزَلْنَا آيَةَ الْكُرْبَىٰ ۖ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۖ ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَىٰ ۖ فَحَسَرَ فَنَادَىٰ ۖ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَخْلَىٰ ۖ فَأَنذَهُ اللَّهُ تَكَاَلُ الْأَجْرَةَ وَالْأُولَىٰ ۖ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۖ يَقُولُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿هَلْ أُنذِرَكَ حَدِيثٌ مُّوسَىٰ﴾، وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه .

أي: هل أتاك حديثه ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتّن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي، والاجتباء ^(١) فقال له:

﴿أَهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾، أي: فانه عن طغيانه، وشركه، وعصيانه، بقول لين، وخطاب لطيف لعله ﴿يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾

﴿فَقُلْ﴾ له: ﴿هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكِبَ﴾، أي: هل لك في خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الأبواب، وهي أن

تُرَكِّي نفسك، وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟ .

﴿وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه .

﴿فَنَخِّنْ﴾ الله، إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع

قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ سَمَاءِ رَبِّهِ دُعَانٌ فَقَالَ لَهَا وَيَلْأَرْضِ أَنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَنْتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١).

فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الكثيفة الغبراء، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، لا بد أن يعيث الخلق المكلفين، فيجازيهم على أعمالهم، فمن أحسن فله الحسنى، ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه.

ولهذا ذكر بعد هذا القيام الجزاء^(٢)، فقال:

(٣٤-٤١) ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّلَامَةُ الْكُبْرَىٰ ۖ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ۖ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ ۖ فَمَا مَنَ طَعْنٌ ۖ وَءَاثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَهَيَّ النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۖ أَي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى التي يهون عندها كل شدة، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه، [وكل محب عن حبيبه].

و ﴿يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ﴾ في الدنيا، من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسنة، ويغمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئته.

ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا، سوى الأعمال.

﴿وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَىٰ﴾، أي: جعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد قد برزت^(٣) لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر بها.

﴿فَمَا مَنَ طَعْنٌ﴾، أي: جاوز الحد، بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.

﴿وَأَثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ على الآخرة، فصار سعيه لها، ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

﴿فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [له] أي: المقر والمسكن لمن هذه حاله.

﴿وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي: خاف القيام عليه، ومجازاته بالعدل فأثر هذا الخوف في قلبه، فنهى نفسه عن هواها الذي يقيداه^(٤) عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة، الصادقين عن الخير.

﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ﴾ [المشتملة على كل خير وسرور ونعيم] ﴿هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ لمن هذا وصفه.

(٤٦-٤٧) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ۖ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ۖ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَىٰ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ نَّحْوِهَا ۖ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرْوَاهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ أي: يسألك المتعنتون

سورة النازعات

٥٨٤

سورة النازعات

إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِاللَّوَادِ الْمَقْدِسِ طُورَىٰ ﴿١٦﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقَالَ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكَبَ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَذْبَرَ سَعْيَهُ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَارِبِكُمْ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٢٦﴾ إِنَّكُمْ أَشْدَّ خَلْقًا أَوْ أَسْمَاءً بُنْدَهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْعَهَا فَسَوَّيْنَهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالُ أَرْسِنَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَعًا لِّكُلِّ لَوْحَةٍ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّلَامَةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرْزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَمَا مَنَ مِنْ طَعْنٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَىٰ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ نَّحْوِهَا ﴿٤٥﴾ كَانَتْهُمْ يَوْمَ يُرْوَاهَا لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

سورة النازعات

المكذبون بالبعث ﴿عَنِ السَّاعَةِ﴾ متى وقوعها و ﴿أَيَّانَ مُرْسَلُهَا﴾، فأجابهم الله بقوله:

﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا﴾، أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها، ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة. ولهذا لما كان علم العباد للساعة، ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خفائه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه فقال:

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَىٰ﴾، أي: إليه ينتهي علمها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا رَبِّي لَا يُجِيبُنَا لَوْحَهَا إِلَّا هُوَ قُلْتُكَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْلَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَتَّىٰ عَنَّا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا رَبِّي وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٥).

(١) وقع هنا سبق قلم من الشيخ - رحمه الله - فقال: إلى أن قال: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَىٰ سَمَاءِ رَبِّهِ دُعَانٌ فَقَالَ لَهَا وَيَلْأَرْضِ أَنْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَنْتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ و صواب ذلك ما أثبتته. (٢) في ب: ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزاء. (٣) في ب: هيت. (٤) في ب: الذي يصددها. (٥) وردت الآية ناقصة في وسطها من نسخة أ، ووردت ناقصة من آخرها من نسخة ب فأنتمتها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٨٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يَتَزَكَّى ۚ (٣) أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ (٤) أَمَا مِنْ سَتَعَيْنِ ۙ (٥) فَأَنْتَ لَمْ تَصْدَقْ ۖ (٦) وَمَا عَلَيْكَ الْأَلْبُرَى ۚ (٧) وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۙ (٨) وَهُوَ يَخْشَى ۙ (٩) فَأَنْتَ عَنْهُ لَهَايٍ ۙ (١٠) كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ (١١) فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۖ (١٢) فِي ضَعْفٍ مُكْرَمٍ ۖ (١٣) مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ۙ (١٤) بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۙ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۙ (١٦) قَبْلَ الْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ ۙ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۙ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۙ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۙ (٢٠) ثُمَّ أَمَانَهُ وَأَقْبَرَهُ ۙ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۙ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرَهُ ۙ (٢٣) فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ۙ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۙ (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۙ (٢٦) فَأَبْنَا فِيهَا حَبًّا ۙ (٢٧) وَعَسْنَا وَقْضَابًا ۙ (٢٨) وَرَيْثُونًا وَتَخْلًا ۙ (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۙ (٣٠) وَفِكَهَةً وَأَبًّا ۙ (٣١) مَنَّاعًا لَكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ ۙ (٣٢) فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَةُ ۙ (٣٣) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۙ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۙ (٣٥) وَصَاحِبِيهِ وَبَنِيهِ ۙ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۙ (٣٧) وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ۙ (٣٨) ضَاخِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ۙ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۙ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَفَرَةٌ ۙ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ ۙ (٤٢)

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ مِّنْ يَّحْشَهَا﴾، أي: إنما نذارتك، [نفعها] لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم سوى الاستعداد لها، والعمل لأجلها. وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالي به، ولا بتعنته، لأنه تعنت مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثًا، ينزه الحكيم عنه. [تمت]، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة عبس

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٠) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يَتَزَكَّى ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ أَمَا مِنْ سَتَعَيْنِ ۙ فَأَنْتَ لَمْ تَصْدَقْ ۖ وَمَا عَلَيْكَ إِلَّا يَرْكَى ۚ وَأَمَا مِنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۙ وَهُوَ يَخْشَى ۙ فَأَنْتَ عَنْهُ لَهَايٍ ۙ سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه.

وجاءه رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصًا على هداية الخلق، فمال ﷺ [وأصغى] إلى الغني، وصد عن الأعمى الفقير رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعًا في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف فقال:

﴿عَبَسَ﴾ [أي: في وجهه] ﴿وتَوَلَّى﴾ في بدنه لأجل مجيء الأعمى له.

ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه فقال:

﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ﴾ أي: الأعمى ﴿يَتَزَكَّى﴾ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة ويتصف بالأخلاق الجميلة. ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾؟ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل (١) بتلك الذكرى.

وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكورين، فأقبالك على من جاء بنفسه مفتقرًا لذلك منك (٢)، هو الأليق الواجب.

وأما تصديقك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل، ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يتركي، فلو لم يتركك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة أنه: «لا يترك أمر معلوم

لأمر موهوم، ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة».

وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم المفتقر إليه الحريص عليه أزيد من غيره.

(١١-٣٢) ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۖ فِي ضَعْفٍ مُّكْرَمٍ ۖ مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۙ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ۙ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ۙ قَبْلَ الْإِنْسَانِ مَا أَكْفَرَهُ ۙ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۙ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ۙ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۙ ثُمَّ أَمَانَهُ وَأَقْبَرَهُ ۙ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ ۙ كَلَّا لَمَّا يَقِضْ مَا أَمَرَهُ ۙ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۙ وَعَسْنَا وَقْضَابًا ۙ وَرَيْثُونًا وَتَخْلًا ۙ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۙ وَفِكَهَةً وَأَبًّا ۙ مَنَّاعًا لِّكُمْ وَلَا تَعْمِكُمْ ۙ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ أي: حقًا إن هذه الموعظة تذكرة من الله يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي، فإذا تبين ذلك ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ أي: عمل به كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾.

ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمتها ورفع قدرها فقال:

(١) في ب: فينتفع. (٢) في ب: مفتقرًا لذلك مقبلًا.

الجهد في الإجابة إليه، والإقبال على طاعته، والتصديق بأخباره.

(٣٣-٤٢) ﴿وَإِذَا جَاءَتِ الصَّلَاةُ﴾ ○ يَوْمَ يَذُورُ الْمَرْءُ مِنْ أَجْرِهِ ○ وَأُمِّيهِ ○ وَأَبِيهِ ○ وَصَاحِبِيهِ ○ وَيَبِيهِ ○ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ ○ وَوَجُوهُ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ○ صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ ○ وَوُجُوهُ عَلَيْنَا غَرَّةٌ ○ تَرَهَقُهَا قَرَّةٌ ○ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجْرَةُ ○ أَي: إذا جاءت صيحة القيامة التي تصخ لهولها الأسماع، وتنزع لها الأفتدة يومئذ، مما يرى الناس من الأهوال وشدة الحاجة لسالف الأعمال.

﴿يَذُورُ الْمَرْءُ﴾ من أعز الناس عليه وأشفقهم لديه ﴿مِنْ أَجْرِهِ ○ وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ ○ وَصَاحِبِيهِ﴾ أَي: زوجته ﴿وَيَبِيهِ﴾. وذلك لأنه ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُعْنِيهِ﴾ أَي: قد أشغلته نفسه، واهتم لفكائها، ولم يكن له التفات إلى غيرها، فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء.

فأما السعداء فوجههم [يومئذ] ﴿مُسْفِرَةٌ﴾ أَي: قد ظهر فيها السرور والبهجة من ما عرفوا من نجاتهم وفوزهم بالنعيم. ﴿صَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهُ﴾ الأشقياء ﴿يَوْمَئِذٍ عَلَيْنَا غَرَّةٌ ○ تَرَهَقُهَا﴾ أَي: تغشاها ﴿قَرَّةٌ﴾ فهي سوداء مظلمة مدلهمة قد أيست من كل خير، وعرفت شقاءها وهلاكها. الذين كفروا بنعمة الله وكذبوا بآيات الله، وتجراؤا على محارمه.

نسأل الله العفو والعافية، إنه جواد كريم، [والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة التكوير

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٤) ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ○ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ○ وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ○ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ ○ وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ○ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ○ وَإِذَا الْكُلُوبُ رُجِحَتْ ○ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُحِلَتْ ○ يَا أَيُّ ذُنُبٍ قِيلَتْ ○ وَإِذَا الصُّخُوفُ نُفِرَتْ ○ وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ○ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ○ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِقَتْ ○ عَمِلْتَ تَقْسًا مَا أَحْصَرْتَ ○ أَي: إذا حصلت هذه الأمور الهائلة تميز الخلق، وعلم كل أحد ما قدمه لآخرته، وما أحضره فيها من خير وشر، وذلك إذا كان يوم القيامة تكور الشمس أي: تجمع وتلف ويخسف القمر ويلقيان في النار.

﴿فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ ○ مَرْفُوعَةٍ﴾ القدر والرتبة ﴿مُطَهَّرَةٍ﴾ [من الآفات] و﴿عَنْ أَنْ تَنَالَهَا أَيْدِي الشَّيَاطِينِ أَوْ يَسْتَرْقُوا﴾.

بل هي ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ﴾ وهم الملائكة [الذين هم] السفراء بين الله وبين عباده. ﴿كَرَامٍ﴾ أَي: كثيري الخير والبركة ﴿بِرُؤُوسِهِمْ﴾ قلوبهم وأعمالهم.

وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء، ولم يجعل للشياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب الإيمان به وتلقيه بالقبول.

ولكن مع هذا أبى الإنسان إلا كفوراً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَبَدَّلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ لنعمة الله وما أشد معاندته للحق بعد ما تبين، وهو ما هو؟ هو من أضعف الأشياء خلقه الله من ماء مهين، ثم قدر خلقه وسواه بشراً سوياً، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة.

﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ أَي: يسر له الأسباب الدينية والدنيوية، وهداه السبيل [وبيّنه] وامتحنه بالأمر والنهي.

﴿ثُمَّ أَنَا إِلَهُهُ فَآقَرُهُ﴾ أَي: أكرمه بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات التي تكون جيفها على وجه الأرض.

﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرُهُ﴾ أَي: بعثه بعد موته للجزاء. فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم يشاركه فيه مشارك.

وهو - مع هذا - لا يقوم بما أمره الله ولم يقض ما فرضه عليه، بل لا يزال مقصراً تحت الطلب.

ثم أرشده تعالى إلى النظر والتفكير في طعامه، وكيف وصل إليه بعد ما تكررت عليه طبقات عديدة ويسره له فقال:

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ○ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ○ أَي: أنزلنا المطر على الأرض بكثرة.

﴿ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ لِلنَّبَاتِ﴾ ﴿شَقًّا ○ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أصنافاً مصنفة من أنواع الأطعمة اللذيذة والأقوات الشهية ﴿حَبًّا﴾ وهذا

شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها. ﴿وَعَبْنًا وَضَبًّا﴾ وهو القَتُّ ﴿وَزَيْتُونًا وَتَلْحَاجًا﴾.

وخصص هذه الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها. ﴿وَسَدَائِقَ غَلْبًا﴾ أَي: بساتين فيها الأشجار الكثيرة الملتفة.

﴿وَفَيْكِهِمْ وَأَبًّا﴾ الفاكهة: ما يتفكه فيه الإنسان من تين وعنب وخوخ ورمان، وغير ذلك.

والأَبُّ: ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: ﴿مَنْعًا لِّكُلِّ وِلَاةٍ مِّمَّكَرٍ﴾ التي خلقها الله وسخرها لكم.

فمن نظر في هذه النعم أوجب له ذلك شكر ربه، وبذل

وهذه الأوصاف التي وصف الله بها يوم القيامة، من الأوصاف التي تتزعج لها القلوب، وتشد من أجلها الكروب، وترتعد الفرائص، وتعم المخاوف، وتحت أولي الأبواب للاستعداد لذلك اليوم، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم، ولهذا قال بعض السلف: من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأيي عين فليتدبر سورة ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾.

(١٥-٢٩) ﴿فَلَا أُنْمِئُ بِالْخَيْسِ ○ الْجَوَارِ الْكُنَيْسِ ○ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ ○ وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ ○ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ○ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ○ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ○ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ○ وَقَدْ رَأَى بِالْأَفْئِ الْيَبِينِ ○ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ○ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ○ فَأَيُّ تَاهُونَ ○ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ○ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَفِيحَ ○ وَمَا نَسَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ○ أَقْسَمُ تَعَالَى بِالْحَلِيِّ﴾ وهي الكواكب التي تخنس أي: تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق، وهي النجوم السبعة السيارة: «الشمس»، و «القمر»، و «الزهرة»، و «المشتري»، و «المريخ»، و «زحل»، و «عطارد»، فهذه السبعة لها سيران: سير إلى جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك^(٤).

وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها. فأقسم الله بها في حال خنوسها أي: تأخرها، وفي حال جريانها وفي حال كنوسها أي: استثارها بالنهار. ويحتمل أن المراد بها جميع النجوم^(٥): الكواكب السيارة وغيرها.

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَسَ﴾ أي: أدبر، وقيل: أقبل.
﴿وَالصُّبْحِ إِذَا نَفَسَ﴾ أي: بانت^(٦) علائم الصبح، وانشق النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس.
وهذه آيات عظام أقسم الله بها على علو سند القرآن^(٧) وجلالته وحفظه من كل شيطان رجيم فقال:

﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا لِذِي الْقُرْبَى الْعَلَمِينَ ○ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينِ ○ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾.
ووصفه الله بالكرام لكرم أخلاقه، وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة وأعظمهم رتبة عند ربه.
﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ على ما أمره الله به.
ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم.

﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ أي: تغيرت، وتساقطت^(٨) من أفلاكها.

﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ أي: صارت كشيء مهيباً، ثم صارت كالعهن المنفوش، ثم تغيرت وصارت هباء منبثاً، وسييرت عن أماكنها.

﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ أي: عطل الناس حينئذ نفائس أموالهم التي كانوا يهتمون لها ويراعونها في جميع الأوقات، فجاءهم ما يدهلهم عنها، فنبه بالعيشار - وهي: النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم - على ما هو في معناها من كل نفيس.

﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ أي: جمعت ليوم القيامة ليقصص الله من بعضها لبعض، ويرى العباد كمال عدله، حتى إنه ليقصص من القراء للجماء^(٩)، ثم يقول لها: كوني تراباً.

﴿وَإِذَا الْيَحَاذُ سُحِرَتْ﴾ أي: أوقدت فصارت - على عظمها - ناراً تتوقد.

﴿وَإِذَا الْغُفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ أي: قرن كل صاحب عمل مع نظيره، فجمع الأبرار مع الأبرار، والفجار مع الفجار، وزوج المؤمنون بالحوار العين، والكافرون بالشياطين، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾، ﴿أَحْضَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْجَعَهُم﴾.

﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُيِّتَتْ﴾ وهي التي كانت الجاهلية الجهلاء تفعله من دفن البنات وهن أحياء من غير سبب، إلا خشية الفقر، فتسأل: ﴿أَيُّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب ففي هذا توبيخ وتقرير لقاتليها^(١٠).

﴿وَإِذَا السُّحُفُ﴾ المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر ﴿نُشِرَتْ﴾ وفرقت على أهلها، فأخذ كتابه بيمينه، وأخذ كتابه بشماله أو من وراء ظهره.

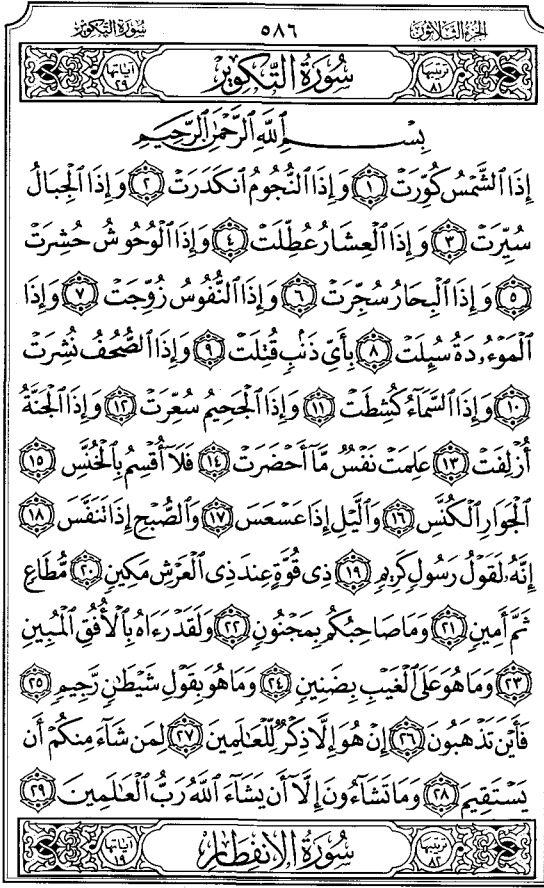
﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ أي: أزيلت كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقُّ السَّمَاءُ بِالسَّعَةِ﴾، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ﴾، ﴿وَالْأَرْضُ جَبِيحًا مُبْقِضَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ أي: أوقد عليها فاستعرت، والتهبت التهاباً لم يكن لها قبل ذلك.

﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُنزِلَتْ﴾ أي: قُرِبَت للمؤمنين.

﴿عَمِتَ نَفْسٌ﴾ أي: كل نفس، لإتيانها في سياق الشرط.
﴿مَا أَحْضَرَتْ﴾ أي: ما حضر لديها من الأعمال [التي قدمتها] كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾.

(١) في ب: وتناثرت. (٢) في ب: حتى إنه يقصص للشاة الجماء من الشاة القراء. (٣) في ب: ولكن هذا فيه توبيخ وتقرير لقاتليها. (٤) في ب: مع سائر الكواكب والفلك. (٥) في ب: الكواكب. (٦) في ب: بدت. (٧) في ب: أقسم الله عليها لقوة سند القرآن.



﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾ أي: جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة وخصيصة من الله اختصه بها.

﴿مَكِيْنٍ﴾ أي: له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم.
﴿مُطَاعٍ تَمَّ﴾ أي: جبريل مطاع في الملأ الأعلى، لديه^(١) من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رأيه.

﴿أَمِيْنٍ﴾ أي: ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدى ما حد له، وهذا [كله] يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هذا الملك الكريم الموصوف بتلك الصفات الكاملة.

والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات وأشرف الرسائل.

ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن ودعا إليه الناس فقال:

﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ﴾ وهو محمد ﷺ ﴿بِمَجْنُوْنٍ﴾ كما يقوله أعداؤه المكذوبون برسالته، المتقولون عليه من الأقوال التي يريدون أن يطفئوا بها ما جاء به ما شاءوا وقرءوا عليه.

بل هو أكمل الناس عقلاً، وأجزلهم رأياً، وأصدقهم لهجة.

﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأَفْقِ الْمَبِيْنِ﴾ أي: رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق المبيّن، الذي هو أعلى ما يلوح للبرص.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِيْنٍ﴾ أي: وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم يزيد فيه أو ينقص أو يكتم بعضه، بل هو أمين

أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشح بشيء منه عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا

مرءوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا

علماء ربانيين، وأجباراً متفرسين، إليهم الغاية في العلوم، وإليهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهوم، وهم الأساتذة وغيرهم قصاراه أن يكون من تلاميذهم.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطٰنٍ رَّجِيْمٍ﴾ لما ذكر جلالة كتابه^(٢) وفضله بذكر الرسولين الكريمين، اللذين وصل إلى الناس على

أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى، دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه فقال:

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطٰنٍ رَّجِيْمٍ﴾ أي: في غاية البعد عن الله وعن

قربه.

﴿فَإِن تَذَهَبُوْنَ﴾ أي: كيف يخطر هذا ببالكم، وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات

الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون، [وأرذل] وأسفل الباطل؟! هل هذا إلا من انقلاب الحقائق.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعٰلَمِيْنَ﴾ يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والردائل

[والأمثال] ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة

يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادتين.

﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيْمَ﴾ بعدما تبين الرشد من الغي والهدى من الضلال.

﴿وَمَا نَشَأُوْنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللّٰهُ رَبُّ الْعٰلَمِيْنَ﴾ أي: فمشيئته نافذة لا يمكن أن تعارض أو تمنع.

وفي هذه الآية وأمثالها رد على فزقتي القدرية النفاة والقدرية المجبرة كما تقدم مثلها [والله أعلم والحمد لله].

(١) في ب: لأنه. (٢) كذا في ب، وفي أ: جلالته.

تفسير سورة الانفطار

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّدَكَ فَعَدَلَك ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿ كَرَامًا كَلْبًا ﴿ تَكْذِبُونَ بِالَّذِينَ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿ كَرَامًا كَنِينٍ ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿

فحينئذ يكشف الغطاء، ويزول ما كان خفيًا، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسائر.

هنالك بعض الظالم على يديه إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خف والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه، وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي^(٣).

[وهناك] يفوز المتقون - المقدمون لصالح الأعمال - بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، والسلامة من عذاب الجحيم.

(٦-١٢) ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّدَكَ فَعَدَلَك ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿ كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿ كَرَامًا كَنِينٍ ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿ يقول تعالى معاتبًا للإنسان المقصر في حق ربه، المتجرىء على مساخطه^(٤): ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿ أنها ونا منك في حقوقه؟ أم احتقارًا منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟.

أليس هو ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّدَكَ ﴿ في أحسن تقويم؟. ﴿فَعَدَلَك ﴿ وركبك تركيبيًا قويما معتدلاً في أحسن الأشكال وأجمل الهيئات.

فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم، أو تجحد إحسان المحسن؟.

إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك، فاحمد الله أن لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار أو نحوهما من الحيوانات.

[فلهذا قال تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿ وقوله: ﴿كَلَّا بَلْ تُكْذِبُونَ بِالَّذِينَ ﴿ أي: مع هذا الوعظ والتذكير لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء.

سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ

٥٨٧

سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَرَتْ ﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿ يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّدَكَ فَعَدَلَك ﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿ كَرَامًا كَلْبًا ﴿ تَكْذِبُونَ بِالَّذِينَ ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿ كَرَامًا كَنِينٍ ﴿ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَكَاوَعُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿

وأنتم لا بد أن تحاسبوا على ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كرامًا يكتبون أقوالكم وأفعالكم يعلمون أفعالكم، ودخل في هذا أفعال القلوب وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تكروهم وتجلوهم وتحترمهم.

(١٣-١٩) ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ﴿ المراد بالأبرار القائلون بحقوق الله وحقوق عباده، الملازمون للبر في أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن في دار الدنيا [وفي دار البرزخ وفي] دار القرار.

﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ ﴿ الذين قصروا في حقوق الله وحقوق عباده الذين فجرت قلوبهم فججرت أعمالهم ﴿لَفِي جَحِيمٍ ﴿ أي: عذاب أليم في دار الدنيا، و[دار] البرزخ وفي دار القرار.

(١) في ب: وتناثر. (٢) في ب: بأن أخرج. (٣) في ب: إذا رأى ما قدمت يده وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي. (٤) في ب: المقصر في حقه المتجرى على معاصيه.

من تعصبه واعتسافه، وتواضعه من كبره، وعقله من سفهه، نسأل الله التوفيق لكل خير.

ثم توعده تعالى المطففين وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه فقال:

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿١﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣﴾﴾ فالذي جرأهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر، وإلا فلو آمنوا به، وعرفوا أنهم يقومون بين يدي الله، يحاسبهم^(١) على القليل والكثير، لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه. (١٧-٧) ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٥﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿٦﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٧﴾ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿٨﴾ وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿٩﴾ إِذَا نُلِّقُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١١﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٢﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٣﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ تَكْفِيرًا ﴿١٤﴾﴾ يقول تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ﴾ [وهذا شامل لكل فاجر] من أنواع الكفرة والمنافقين والفاستقين ﴿لَفِي سِجِّينٍ﴾ ثم فسر ذلك بقوله:

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿١٥﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ﴾ أي: كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة، والسجّين: المحل الضيق الضنك، و «سجين» ضد «عليين» الذي هو محل كتاب الأبرار كما سيأتي.

وقد قيل: إن «سجين» هو أسفل الأرض السابعة مأوى الفجار، ومستقرهم في معادهم.

﴿وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ ثم بين المكذبين بأنهم^(١٦) ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي: يوم الجزاء يوم يدين الله فيه الناس بأعمالهم.

﴿وَمَا يَكْذِبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ على محارم الله، متعد من الحلال إلى الحرام.

﴿أَثِيمٍ﴾ أي: كثير الإثم، فهذا الذي يحمله عدوانه على التكذيب، ويحملة [عدوانه على التكذيب ويوجب له] كبره رد الحق ولهذا:

﴿إِذَا نُلِّقُ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ الدالة على الحق [على] صدق ما جاءت به رسله، كذبها وعاندها و ﴿قَالَ﴾: هذا ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: من ترهات المتقدمين وأخبار الأمم الغابرين ليس من عند الله، تكبراً وعناداً.

(١) في ب: وهي مدنية. (٢) في ب: وعقاب. (٣) في ب: بأنهم. (٤) في ب: لهم. (٥) كذا في ب، وفي أ: سرقة للناس. (٦) في ب: وعيداً. (٧) في ب: يدخل في ذلك. (٨) في ب: الحجة. (٩) في ب: أنهم سيقومون بين يدي الله فيحاسبهم. (١٠) في ب: ثم بينهم بقوله.

﴿يَصَلُّونَهَا﴾ ويعذبون [بها] أشد العذاب ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾ أي: يوم الجزاء على الأعمال. ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ﴾، أي: بل هم ملازمون لها لا يخرجون منها.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ ثم ما أدرك ما يوم الذين ﴿ففي هذا تهويل لذلك اليوم الشديد الذي يحير الأذهان.

﴿يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا﴾ ولو كانت لها قربة [أو حبيبة] مصافية فكل مشتغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها.

﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ فهو الذي يفصل بين العباد ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه [والله أعلم].

تفسير سورة المطففين

وهي مكية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿وَيَلَّ لِلْمُطَفِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾﴾. ﴿وَيَلَّ﴾ كلمة عذاب ووعيد^(٢) ﴿لِلْمُطَفِّينَ﴾. وفسر الله المطففين بقوله^(٣) ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ﴾ أي: أخذوا منهم وفاة عما ثبت لهم قبيلهم يستوفونه كاملاً من غير نقص.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ﴾ أي: إذا أعطوا الناس حقه الذي للناس^(٤) عليهم بكيل أو وزن ﴿يُخْسِرُونَ﴾ أي: ينقصونهم ذلك، إما بمكيال وميزان ناقصين، أو بعدم ملء المكيال والميزان أو نحو ذلك، فهذا سرقة [لأموال] الناس^(٥) وعدم إنصاف [لهم] منهم.

وإذا كان هذا الوعيد^(٦) على الذين يبخسون الناس بالمكيال والميزان، فالذي يأخذ أموالهم قهراً أو سرقة، أولى بهذا الوعيد من المطففين.

ودلت الآية الكريمة على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والمعاملات.

بل يدخل في [عموم هذا]^(٧) الحجج والمقالات، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد [منهما] يحرص على ما له من الحجج، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما لخصمه من الحجج^(٨) [التي لا يعلمها]، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو، وفي هذا الموضوع يعرف إنصاف الإنسان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٨٨

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ

كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلُومُ بَوْمٍ ذِي كُنُودٍ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَوْمَ لَا بَأْسَ لَهُم بِالسَّمِيعِ أَعْيُنُهُمْ لِيَكْفُرُوا ﴿١١﴾ وَمَا يَكْتُوبُ بِهِ إِلَّا لَأَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ إِذْ أَنْتَلَى عَلَيْهِمُ الْبُنَاتُ قَالَ أَسْطِيرُ الْأُولَىٰ ﴿١٢﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٣﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿١٦﴾ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٨﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿١٩﴾ يَتَشَاهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢١﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٢٢﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٣﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿٢٤﴾ خِتْمُهُ مَسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٥﴾ وَمُرَاجِعُهُ مِنَ الشَّجَرِ عُنَابٌ تُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِظِينَ ﴿٣١﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٢﴾

فإن توالي اللذة والسرور^(٤) يكسب الوجه نورًا وحسنًا وبهجة.

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة والذها.

﴿مَخْتُومٍ﴾ ذلك الشراب ﴿خِتْمُهُ مَسْكٌ﴾.

يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك، ويحتمل أن المراد أنه [الذي] يكون في آخر الإناء الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر.

فهذا الكدر منه الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق، يكون في الجنة بهذه المثابة.

﴿وَفِي ذَلِكَ﴾ النعيم المقيم الذي لا يعلم مقداره وحسنه إلا الله.

﴿فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ أي: يتسابقوا في المبادرة إليه

وأما من أنصف، وكان مقصوده الحق المبين، فإنه لا يكذب بيوم الدين، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة ما يجعله حق اليقين، وصار لقلوبهم مثل الشمس للأبصار^(١)، بخلاف من ران على قلبه كسبه، وغطته معاصيه فإنه محجوب عن الحق.

ولهذا جوزي على ذلك بأن حُجب عن الله، كما حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله.

﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ﴾ مع هذه العقوبة البليغة ﴿لصَالُوا الْجَحِيمِ﴾.

ثم يقال لهم توبيخًا وتقريعًا: ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْفُرُونَ﴾.

فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم وعذاب التوبيخ واللوم، وعذاب الحجاب من رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار.

ودل مفهوم الآية على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويبتهجون بخطابه ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات التحذير من الذنوب، فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئًا فشيئًا، حتى ينطمس نوره، وتموت بصيرته، فتقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقًا، والحق باطلاً، وهذا من بعض^(٢) عقوبات الذنوب.

(٢٧-١٨) ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿٩﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿١٠﴾ يَتَشَاهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ عَلَى الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿١٢﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿١٣﴾ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ﴿١٤﴾ خِتْمُهُ مَسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿١٥﴾ وَمُرَاجِعُهُ مِنَ الشَّجَرِ عُنَابٌ تُشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٦﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿١٧﴾ يَتَشَاهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٨﴾ كِتَابٌ مَرْمُومٌ ﴿١٩﴾ يَتَشَاهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٠﴾ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّ كِتَابَ الْفَجَارِ فِي أَسْفَلِ الْأَمْكَنَةِ وَأَضِيقَهَا، ذَكَرَ أَنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ فِي أَعْلَاهَا وَأَوْسَعَهَا وَأَفْسَحَهَا.

وأن كتابهم المرموم ﴿يَتَشَاهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ من الملائكة الكرام وأرواح الأنبياء والصديقين والشهداء، ويُنوّه الله بذكرهم في الملأ الأعلى.

و«عليون» اسم لأعلى الجنة.

فلما ذكر كتابهم ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن.

﴿عَلَى الْأَرَآئِكِ﴾ أي: [على] السرر المزينة بالفرش الحسان.

﴿يَنْظُرُونَ﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى

وجه ربهم الكريم.

﴿تَعْرِفُ﴾ أيها الناظر إليهم ﴿فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ أي:

بهاء النعيم^(٣) ونضارته ورويقه.

(١) في ب: وصار لبصائرهم بمنزلة الشمس للأبصار. (٢) في ب: من أعظم. (٣) في ب: أي: بهاء. (٤) في ب: فإن توالي اللذات والمسرات والأفراح.

فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، وأروهم^(٥) في العذاب والنكال الذي هو عقوبة الغي والضلال. نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليهم حكيم.

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١٥-١) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وُحُوتٌ ۖ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۖ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ وَإِذَا الْإِنْسَانُ أَنْكَرَ ۖ كَذِبًا إِلَىٰ رَبِّكَ كَذِبًا مَلْفَقِيهِ ۖ فَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَٰ كِتَابِهِٖ سَيِّئًا ۖ فَسَوْفَ يُجَاسَبُ جَسَابًا ۖ سِيرًا ۖ وَيُنْقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ وَأَمَّا مَنْ أُوْفِيَٰ كِتَابِهِٖ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ۖ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ۖ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۖ إِنَّهُمْ ظَنُّوا أَن لَّنْ يُحَورَ ۖ بَلَىٰ ۖ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ۖ يقول تعالى مبيّنًا لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۖ أَي: انفتحت وتمايز بعضها من بعض، وانتشرت نجومها وخسف بشمسها وقمرها.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ۖ أَي: استمعت لأمره وألقت سمعها وأصاحت لخطابه.

وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم لا يعصى أمره ولا يخالف حكمه.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ۖ أَي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم فسويت، ومدها الله تعالى مد الأديم حتى صارت واسعة جدًا، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فقصير قاعًا صنفصفاً، لا ترى فيها عوجًا ولا أمًا.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ۖ من الأموات والكنوز.

﴿وَتَخَلَّتْ ۖ منهم، فإنه ينفخ في الصور فتخرج الأموات والأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۖ يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا مَلْفَقِيهِ ۖ أَي: إنك ساع إلى الله وعامل بأوامره ونواهيه،

(١) في ب: المحسنين. (٢) كذا في ب، وفي أ: مغبوطين. (٣) في ب: وهذا أشد. (٤) في ب: مع الأمن. (٥) في ب: حين رأوهم.

والأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بذلت فيه نفاس الأنفاس، وأحرى ما تراحمت للوصول إليه فحول الرجال.

(٢٨) ومزاج هذا الشراب من تسنيم وهي عين ﴿يَتَرَبَّبُ بِهَا الْمَعْرُورُونَ﴾ صِرْفًا وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين الذين هم أعلى الخلق منزلة، وممزوجة لأصحاب اليمين أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

(٢٩-٣٦) ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۖ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۖ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۖ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُونَ ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفَظِينَ ۖ فَأَلْبِسُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۖ عَلَىٰ الْأَرَابِكِ يُنظَرُونَ ۖ هَلْ تُؤْتَبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ لما ذكر تعالى جزاء المجرمين وجزاء المؤمنين^(١)، و[ذكر] ما بينهما من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزئون بهم ويضحكون منهم ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم، احتقارًا لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين لا يخطر الخوف على بالهم.

﴿وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ ۖ صباحًا أو مساء﴾ ﴿انْقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي: مسرورين مغتبتين^(٢).

وهذا من أعظم^(٣) ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن^(٤) في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجروا على القول عليه بلا علم.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفَظِينَ﴾ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرسوا على رميهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم.

قال تعالى: ﴿فَأَلْبِسُوا﴾ أي: يوم القيامة ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون.

والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿عَلَىٰ الْأَرَابِكِ﴾ وهي السر المزيئة.

﴿يُنظَرُونَ﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

﴿هَلْ تُؤْتَبُ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟.

ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تُلَاقِي الله يوم القيامة فلا تعدم منه جزاء، بالفضل إن كنت سعيدًا؛ أو بالعدل إن كنت شقيًّا^(١).

ولهذا ذكر تفصيل الجزاء فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَ بَيِّنَةٍ﴾ وهم أهل السعادة.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله [تعالى] له: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا سترتها لك اليوم».

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ﴾ في الجنة ﴿مَسْرُورًا﴾ لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب.

﴿وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَ وِرَاءَ ظَهْرِهِ﴾ أي: بشماله من خلفه^(٢).

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا﴾ من الخزي والفضيحة وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها.

﴿وَيَصِلُ سَعِيرًا﴾ أي: تحيط به السعير من كل جانب ويقلب على عذابها، وذلك لأنه في الدنيا ﴿كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ لا يخطر البعث على باله وقد آساء، ولم^(٣) يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

﴿بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب.

(١٦-٢٥) ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ○ وَالْقَمَرِ إِذَا اسْتَقَ ○ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ○ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ○ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ○ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ○ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ○ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ○ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ○ أَقْسَمُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ بِآيَاتِ اللَّيْلِ، فَأَقْسَمُ بِالشَّفَقِ الَّذِي هُوَ بَقِيَّةُ نَوْرِ الشَّمْسِ الَّذِي هُوَ مُفْتَحُ اللَّيْلِ.

﴿وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها.

﴿وَالْقَمَرِ إِذَا اسْتَقَ﴾ أي: امتلأ نورًا بإيداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع، والمقسم عليه قوله: ﴿لَتَرْكَبَنَّ﴾ [أي:] أيها الناس ﴿طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ أي: أطوارًا متعددة وأحوالًا متباينة، من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح.

ثم يكون وليدًا وطفلاً ثم مميِّزًا، ثم يجري عليه قلم التكليف والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويجازى بأعماله.

فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد دالة على أن الله وحده هو المعبود، الموحد، المدبر لعباده، بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير، عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم.

ومع هذا، فكثير من الناس لا يؤمنون ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ أي: لا يخضعون للقرآن ولا يتقادون

سُورَةُ الشَّقَاقِ

٥٨٩

الْمِائَةِ وَالْأَلْفِ

عَلَىٰ الْأَرَآئِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثَوَابَ الْكِفَارِ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

سُورَةُ الشَّقَاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ

﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ وَيَأْتِيهَا

الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدًّا فَمَا لَمْ يَأْتِكِهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ

كَيْفَهُ بِبَيِّنَتِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنْقَلِبُ

إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْفَىٰ كَيْفَهُ وِرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ

يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصِلُ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾

إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَا أَقْسِمُ

بِالشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اسْتَقَ ﴿١٨﴾

لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ

عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٢٢﴾

﴿٢٣﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٤﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٦﴾

لأوامره ونواهيهِ.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ أي: يعاندون الحق بعد ما تبين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عنادًا لا حيلة فيه.

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ أي: بما يعملونه ويتوونه سرًّا، فالله يعلم سرهم وجهرهم وسيجازيهم بأعمالهم ولهذا قال: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وسميت البشارة بشارة لأنها تؤثر في البشارة سرورًا أو غمًّا.

فهذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن وعدم الإيمان [به].

ومن الناس فريق هداهم الله فأمنوا بالله وقبلوا ما جاءتهم به الرسل، فأمنوا وعملوا الصالحات.

فهؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

تم تفسير السورة، والله الحمد.

(١) في ب: جزاء بالفضل أو العدل بالفضل إن كنت سعيدًا، وبالعبودية إن كنت شقيًّا. (٢) في ب: من وراء ظهره. (٣) في ب: ولا.

تفسير سورة البروج

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ الْبُرُوجِ
٥٩٠
سُورَةُ الْبُرُوجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُرِّعَتْ عَلَيْهَا قُوعِدٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَهُمْ فِيهَا كَالْحَرِيِّ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وِعِيدٍ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنثِقَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ بَلِ الْكُفْرُ أَفْسَدُ ﴿١٨﴾ بَلِ الْكُفْرُ أَفْسَدُ ﴿١٩﴾ بَلِ الْكُفْرُ أَفْسَدُ ﴿٢٠﴾ بَلِ الْكُفْرُ أَفْسَدُ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْضُومٍ ﴿٢٢﴾

سُورَةُ الطَّارِقِ

قُوعِدٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ .

وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب الذي تنفطر منه القلوب .

وحضورهم إياهم عند إلقاءهم فيها، والحال أنهم ما تقموا من المؤمنين إلا خصلة^(١) يمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد أي: الذي له العزة التي قهر بها كل شيء، وهو حميد في أقواله وأوصافه وأفعاله .

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ خلقًا وعبيدًا يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه^(٢) .

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ علمًا وسمعًا وبصرًا .

أفلا خاف هؤلاء المتمردين على الله أن يطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم مماليك لله^(٣)، ليس لأحد

(١) في ب: على الدخول . (٢) في ب: حالة . (٣) في ب: يتصرف فيهم بما يشاء . (٤) في ب: أفلا خاف هؤلاء المتمردين عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنهم مماليك لله .

(١-٢٢) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُرِّعَتْ عَلَيْهَا قُوعِدٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَهُمْ فِيهَا كَالْحَرِيِّ ﴿١٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وِعِيدٍ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أُنثِقَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ بَلِ الْكُفْرُ أَفْسَدُ ﴿١٨﴾ بَلِ الْكُفْرُ أَفْسَدُ ﴿١٩﴾ بَلِ الْكُفْرُ أَفْسَدُ ﴿٢٠﴾ بَلِ الْكُفْرُ أَفْسَدُ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْضُومٍ ﴿٢٢﴾ . ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ أي: [ذات] المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته وسعة علمه وحكمته .

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ وهو يوم القيامة الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم وقاصيهم ودانيهم، الذي لا يمكن أن يتغير ولا يخلف الله المعاهد .

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف، أي مبصر ومُبصر وحاضر ومحضور، وراء ومُرْتَبِي .

والمقسم عليه ما تضمنه هذا القسم، من آيات الله الباهرة وحكمه الظاهرة ورحمته الواسعة .

وقيل: إن المقسم عليه قوله: ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك .

و«الأخدود»: الحفر التي تحفر في الأرض .

وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قومًا كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودهم للدخول^(١) في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فسق الكافرون أخدودًا [في الأرض]، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها .

فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا لعنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ .

ثم فسر الأخدود بقوله: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ﴾ إِذْ هُرِّعَتْ عَلَيْهَا

على أحد سلطة من دون إذن المالك؟.

أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم مجازٍ لهم على فعالهم^(١)؟.

كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى^(٢) عن سواء السبيل.

ثم وعدهم وأوعدهم وعرض عليهم التوبة فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ فَمَا لَمْ يَبُوءُوا لَهُمْ عَذَابَ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ أي: العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أوليائه وأهل طاعته وهو يدعوهم إلى التوبة.

ولما ذكر عقوبة الظالمين ذكر ثواب المؤمنين فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بقلوبهم ﴿وَسَكَنُوا الصَّلَاةَ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ الذي حصل به الفوز^(٣) برضا الله ودار كرامته.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام، [لقوية] شديدة وهو بالمرصاد للظالمين.

كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظُلُمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَمَعِيدٌ﴾ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادة، فلا مشارك له في ذلك^(٤).

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعها لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأتاب.

﴿الْوَدُودُ﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء.

فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب.

ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعاً لها كانت عذاباً على أهلها.

وهو تعالى الودود الواؤد لأحبابه كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ والمودة هي المحبة الصافية.

وفي هذا سر لطيف حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنبأوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأضلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت.

فبينما هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه فأخذ بخطامها، فإله أعظم فرحاً بتوبة العبد من هذا يراحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

فإله الحمد والثناء وصفو الوداد، ما أعظم بره وأكثر خيره وأغزر إحسانه وأوسع امتنانه!!

﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾، أي: صاحب العرش العظيم الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي.

فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة لمقاة في فلاة بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، وهذا على قراءة الجبر يكون «المجيد» نعمتاً للعرش.

وأما على قراءة الرفع فإن المجيد نعت لله^(٥)، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ أي: مهما أراد شيئاً فعله، إذا أراد شيئاً قال له: كن فيكون، وليس أحد فعلاً لما يريد إلا الله.

فإن المخلوقات ولو أرادت شيئاً، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع، والله لا معاون لإرادته، ولا ممانع له مما أراد.

ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاء به رسله فقال: ﴿هَلْ أُنذِرُكَ حَدِيثُ الْجُمُودِ﴾ فرعون ومؤدج وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين.

﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد لا تنفع فيهم الآيات، ولا تُجدي لديهم العظات.

﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ أي: قد أحاط بهم علماً وقدرة، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمُرْصَادِ﴾.

فيه الوعيد الشديد للكافرين من عقوبة من هم في قبضته وتحت تدبيره.

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم.

﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ من التغيير والزيادة والنقص ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

تم تفسير السورة.

(١) في ب: مجازيهم عليها. (٢) في ب: والجاهل في عمى وضلال.

(٣) في ب: حصل لهم الفوز. (٤) في ب: فلا يشاركه في ذلك

مشارك. (٥) في ب: فإنه يكون نعمتاً لله.

تفسير سورة الطارق

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٧) ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنَّهُ عَلَىٰ جِوَاهِرٍ لَقَائِدٌ ۝ يَوْمَ تَبْيَأُ السَّرَائِرُ ۝ مَا لَكَ مِنْ فُؤَادٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝ وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضُ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ وَمَا هُوَ بِأَنْفَالٍ ۝ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤْيَا ۝﴾ يقول [الله] تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝﴾

ثم فسر الطارق بقوله ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ أي: المضيء الذي يثقب نوره، فيخرق السماوات [فينفذ حتى يرى في الأرض] والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب.

وقد قيل: إنه «زحل» الذي يخرق السماوات السبع وينفذ فيها^(١)، فيرى منها.

وسمي طارقاً لأنه يطرق ليلاً.

والمقسم عليه قوله: ﴿إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وستجازى بعملها المحفوظ عليها.

﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ أي: فليتدبر خلقته ومبدأه فإنه مخلوق ﴿مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ وهو المني الذي ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة وهي ثدياها، ويحتمل أن المراد: المني الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائب، ولعل هذا أولى، فإنه إنما وصف الله به الماء الدافق، والذي يحس [به] ويشاهد دفقته هو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل في الرجل، فإن الترائب للرجل بمنزلة الثديين للأنثى، فلو أريدت الأنثى لقال: «من بين الصلب والثديين» ونحو ذلك، والله أعلم.

فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث والنشور [والجزاء].

وقد قيل: إن معناه أن الله على رجوع الماء المدفوق في الصلب لقادر، وهذا - وإن كان المعنى صحيحاً - فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده:

﴿يَوْمَ تَبْيَأُ السَّرَائِرُ﴾ أي: تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان

سورة الطارق

٥٩١

الجزء الثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ۝ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجِيمٍ لَقَائِدٌ ۝ يَوْمَ تَبْيَأُ السَّرَائِرُ ۝ مَا لَكَ مِنْ فُؤَادٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝ وَالسَّمَاءُ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضُ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۝ وَمَا هُوَ بِأَنْفَالٍ ۝ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ رُؤْيَا ۝﴾

سورة الأعلى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝ الَّذِي خَلَقَ سَمَوَاتٍ ۝ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهْدَى ۝ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝ سَنُقَرِّبُكَ ۝ فَلَا تَسْتَعِي ۝ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ۝ وَيَسْمُرُكَ ۝ لِللَّيْسِيِّ ۝ فذَكَرْ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَى ۝ سَيَذَكَّرُكَ مِنْ يَحْشَى ۝ وَيَنْجِنِبُهَا الْأَسْفَى ۝ الَّذِي يَصْلِي النَّارَ الْكُبْرَى ۝ ثُمَّ لَا يَمُوتُ ۝ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَى ۝ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ۝

في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

ففي الدنيا تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عياناً للناس، وأما في القيامة فيظهر برُّ الأبرار وفجور الفجار وتصير الأمور علانية.

﴿مَا لَكَ مِنْ فُؤَادٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ يدفع بها عن نفسه^(٢) ﴿وَلَا تَسْمُرُكَ﴾ خارجي^(٣) ينتصر به، فهذا القسم على حالة العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

ثم أقسم قسمًا ثانيًا على صحة القرآن فقال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ﴾ أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك الآدميون والبهائم، وترجع السماء أيضًا بالأقدار والشئون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: القرآن ﴿لَقَوْلٍ فَصَلَّى﴾ أي: حق وصدق بين واضح.

(١) في ب: وينفذها. (٢) في ب: أي: من نفسه يدفع بها. (٣) في ب: من خارج.

ويذكر فيها نعمه الدينية.

ولهذا امتنَّ الله بأصلها ومنشأها^(٤)، وهو القرآن فقال:

﴿سَنُفِّرُكَ فَلَا تَنَسَى﴾ أي: سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب ونوعيه قلبك فلا تنسى منه شيئاً.

وهذه بشارة كبيرة من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ، أن الله سيعلمه علماً لا ينساه.

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة بالغة.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده أي: فلذلك يشرع ما أراد، ويحكم بما يريد^(٥).

﴿وَيُنَبِّئُكَ لِلْغَيْبِ﴾ وهذه أيضاً بشارة كبيرة^(٦)، أن الله ييسر رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسيراً^(٧).

﴿فَذَكِّرْ﴾ بشرع الله وآياته ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أي: ما دامت

الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه. ومفهوم الآية أنه إن لم ترفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشرأ وينقص من الخير لم تكن الذكرى مأموراً بها، بل منهياً عنها.

فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون وغير منتفعين.

فأما المنتفعون فقد ذكرهم بقوله: ﴿سَيَذَكَّرُكَ مَن يَخْتَنِي﴾ الله تعالى فإن خشية الله تعالى وعلمه بأن سيجازيه على أعماله^(٨) توجب للعبد الانكفاف عن المعاصي^(٩)، والسعي في الخيرات.

وأما غير المنتفعين فذكرهم بقوله: ﴿وَيَجَنَّبُكَ الْأَسْخَى﴾ الذي يصلى النار الكبرئى وهي الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ أي: يعذب عذاباً أليماً من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم كما قال تعالى: ﴿لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّى﴾ أي: قد فاز وريح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوىء الأخلاق.

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أي: اتصف بذكر الله وانصبغ به

﴿وَمَا هُوَ بِالْقَلْبِ﴾ أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقاتلات، وتفصل به الخصومات.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: المكذبين للرسول ﷺ وللقرآن ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ليدفعوا بكيدهم الحق ويؤيدوا الباطل.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ لإظهار الحق، ولو كره الكافرون؛ ولدفع ما جاءوا به من الباطل؛ ويعلم بهذا من الغالب، فإن الأدمي أضعف وأحقر من أن يغالب القوي العليم في كيده.

﴿فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَهْمُ لَهُمْ رُؤْيَا﴾ أي: قليلاً، فسيعلمون عاقبة أمرهم حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة الطارق، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة سبح

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٩) ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّىٰ ○ وَالَّذِي قَدَّرَ

فَهَدَىٰ ○ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ○ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَىٰ ○ سَنُفِّرُكَ فَلَا تَنَسَىٰ ○

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ○ وَيُنَبِّئُكَ لِلْغَيْبِ ○ فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى ○ سَيَذَكَّرُكَ مَن يَخْتَنِي ○ وَيَجَنَّبُكَ الْأَسْخَى ○ الَّذِي يَصَلَّى النَّارَ

الْكَبْرَى ○ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ○ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّى ○ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ○ بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ○ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْوَى ○ إِنَّ هَذَا لَنبِيُّ

الصُّحُفِ الْأُولَى ○ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ○ يَا مَرْءَ تَعَالَى بِتَسْبِيحِهِ

المتضمن لذكره وعبادته، والخضوع لجلاله، والاستكانة لعظمته، وأن يكون تسبيحاً يليق بعظمة الله تعالى، بأن تذكر

أسماءه الحسنى العالية على كل اسم بمعناها الحسن العظيم^(١١). وتذكر أفعاله التي منها: أنه خلق المخلوقات فسواها أي: أتقنها وأحسن خلقها.

﴿وَالَّذِي قَدَّرَ﴾ تقديرًا تتبعه جميع المقدرات ﴿فَهَدَى﴾ إلى ذلك جميع المخلوقات.

وهذه الهداية العامة التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها:

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى﴾ أي: أنزل من السماء ماء، فأنبث به أنواع^(١٢) النبات والعشب الكثير، فرغ فيها الناس والبهائم، وكل حيوان^(١٣).

ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى نباته ووصَّح عشبه.

﴿فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى﴾ أي: أسود أي: جعله هشيماً رميمًا،

(١) في ب: بمعناها العظيم الجليل. (٢) في ب: أصناف. (٣) في ب: وجميع الحيوانات. (٤) في ب: وماداتها. (٥) كذا في ب، وفي أ: يحكم بما أراد، ويحكم بما يريد. (٦) في ب: أخرى. (٧) كذا في ب، وفي أ: يسيراً. (٨) في ب: والعلم بمجازاته على الأعمال. (٩) في ب: الانكفاف عما يكرهه الله.

قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً الصلاة التي هي ميزان الإيمان، فهذا معنى الآية الكريمة.

وأما من فسر قوله: ﴿تَرَكَّى﴾ بمعنى أخرج زكاة الفطر ﴿وَدَكَرَ أَسْرَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ أنه صلاة العيد، فإنه وإن كان داخلًا في اللفظ وبعض جزئياته، فليس هو المعنى وحده.

﴿بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا﴾ أي: تقدمونها على الآخرة وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل، على الآخرة.

[﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾] وللآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب ﴿وَأَبْقَى﴾ لكونها دار خلد وبقاء وبقاء، والدنيا دار فناء.

فالمؤمن العاقل لا يختار الأردأ على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة بترحة الأبد.

فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة.

﴿إِنَّ هَذَا﴾ المذكور لكم في هذه السورة المباركة من الأوامر الحسنة والأخبار المستحسنة ﴿لَقَدْ أَلْصَحِفُ الْأُولَى﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى اللذين هما أشرف المرسلين، سوى النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذه أوامر في كل شريعة لكونها عائدة إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كل زمان ومكان.

تم تفسير سورة سبوح، والله الحمد.

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٦) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعُنْتِيبَةِ﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ

عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿صَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ شَقَقَى مِنْ عَيْنٍ آيَاتِهِ ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ

إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ﴾

لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿فِيهَا عَيْنٌ

جَارِيَةٌ﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ وَمَنَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿وَزَكَرَاتُ

مَبْنُوتَةٌ﴾ يَذْكُرُ تَعَالَى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأحوال

الطامة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجازون بأعمالهم،

ويتميزون [إلى] فريقين: فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير.

فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في [وصف] أهل

النار:

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خَشِيعَةٌ﴾ من الذل

والفضيحة والخزي.

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ
٥٩٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْعُنْتِيبَةِ ﴿١﴾ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴿٢﴾
عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿٣﴾ صَلَّى نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ شَقَقَى مِنْ عَيْنٍ آيَاتِهِ ﴿٥﴾
لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾
وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لَسَعِيهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾
وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَمَنَارِقٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَكَرَاتُ مَبْنُوتَةٌ ﴿١٦﴾
أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ
رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكَرْنَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ
بِمُعْظِيظٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ
الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ أي: تابعة في العذاب تُجْرُ على وجوهها وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد [بقوله]: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان صار يوم القيامة هباءً منثورًا.

وهذا الاحتمال وإن كان صحيحًا من حيث المعنى، فلا

يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال

الأول؛ لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود

هنا بيان وصف أهل النار عمومًا، وذلك الاحتمال جزء قليل

من أهل النار بالنسبة إلى أهلها^(٢)؛ ولأن الكلام في بيان حال

الناس عند غشيان الغاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في

الدنيا.

وقوله: ﴿صَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ أي: شديدًا حرها، تحيط بهم من

كل مكان ﴿شَقَقَى مِنْ عَيْنٍ آيَاتِهِ﴾ أي: حارة شديدة الحرارة ﴿وَإِنْ

سَتَعَيْنَا يُغَاوَأُ يَمَاءً كَالْمُهْلِ يَسْوَى الْجُوهَةَ﴾ فهذا شرابهم.

(١) في ب: بعد. (٢) في ب: جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار.

وأما طعامهم ف﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرِيحٍ﴾ لا يُسَوِّنُ وَلَا يُعْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال.

وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والتتن والخسة، نسأل الله العافية.

وأما أهل الخير فوجوههم يوم القيامة ﴿تَأَعَّمَةٌ﴾ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السورور.

﴿لَيْسَعِيهَا﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله.

﴿رَاضِيَةٌ﴾ إذ وجدت ثوابه مدخرًا مضاعفًا فحمدت عقباه، وحصل لها كل ما تمنناه.

وذلك أنها ﴿وِي جَنَّاتٍ﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها ﴿عَالِيَةٍ﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عليين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

﴿فَطَرَفُهَا دَائِبَةٌ﴾ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة المثمرة بالثمار الحسنة السهلة التناول، بحيث يتناولونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة أو يستعصي عليهم منها ثمرة.

﴿لَا تَسْمَعُ فِيهَا﴾ أي: الجنة ﴿لَيْتَةً﴾ أي: كلمة لغو وباطل فضلًا عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلامٌ حسن [نافع] مشتمل على ذكر الله تعالى وذكر نعمه المتواترة عليهم، [وعلى] الآداب المستحسنة^(١) بين المتعاشرين، الذي يسر القلوب ويشرح الصدور.

﴿وَيَبَا عَيْنٍ جَارِيَةٍ﴾ وهذا اسم جنس أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاءوا وأتى أرادوا.

﴿وَيَبَا سُرُرٍ مَرْبُوعَةٍ﴾ و «السُرر» جمع «سرير» وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة.

﴿وَأَكْوَابٍ مَوْسُوعَةٍ﴾ أي: أوإن ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة قد وضعت بين أيديهم وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم، يطوف بها عليهم الولدان المخلدون.

﴿وَأَنْوَاعٍ مَصُوعَةٍ﴾ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما مما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والاتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها، ويصُفُّوها بأنفسهم.

﴿وَرِزْقًا مَبْنُوعًا﴾ والزرايبي [هي]: البسط الحسان، مبنوثة أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

(١٧-٢٦) ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ

كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿يقول تعالى حثًا للذين لا يصدقون الرسول ﷺ وغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحده:

﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ أي: [ألا] ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد وذلكها لمنافع الكثيرة التي يضطرون إليها.

﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ بهيئة باهرة، حصل بها استقرار الأرض^(٢) وثباتها عن الاضطراب، وأودع الله فيها من المنافع [الجليلة] ما أودع.

﴿وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ أي: مدت مدًا واسعًا وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلاق^(٣) على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها والبناء فيها وسلوك الطرق الموصلة^(٤) إلى أنواع المقاصد فيها.

واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر^(٥) الناس، خصوصًا في هذه الأزمنة التي وقف الناس على أكثر أركانها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعد. فإن التسطيح إنما ينافي كروية الجسم الصغير جدًا، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر. وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبر والسعة^(٦) فيكون كرويًا مسطحًا، ولا يتنافى الأمران كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ أي: ذكّر الناس وعظّمهم وأنذرهم وبشّرهم، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطرًا عليهم، مسلطًا موكلاً بأعمالهم. فإذا قمت بما عليك فلا عليك بعد ذلك لوم كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِدَ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ﴾ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿فَيَعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ﴾ أي: الشديد الدائم ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ أي: رجوع الخليفة^(٧) وجمعهم في يوم القيامة.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ فنحاسبهم على ما عملوا من خير وشر. آخر تفسير سورة الغاشية، والحمد لله رب العالمين.

(١) في ب: الحسنة. (٢) في ب: الاستقرار للأرض. (٣) في ب: العباد. (٤) في ب: طرقها. (٥) في ب: كثير. (٦) في ب: الذي هو كبير جدًا واسع. (٧) في ب: الخلاق.

تفسير سورة الفجر

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿وَالْفَجْرِ ۝ وَلَيْلٍ عَشْرٍ ۝ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ ۝ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ الظاهر أن المقسم به، هو المقسم عليه، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمراً ظاهراً مُهِمّاً، وهو كذلك في هذا الموضع.

فأقسم تعالى بالفجر الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، كما في إدبار الليل وإقبال النهار من الآيات الدالة على كمال نذرة الله تعالى، وأنه وحده المدير^(١) لجميع الأمور الذي لا تنبغي العبادة إلا له.

ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها.

ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح: ليلي عشر رمضان، أو [عشر] ذي الحجة، فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها.

وفي ليالي عشر رمضان ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها صيام آخر رمضان الذي هو ركن من أركان الإسلام.

وفي أيام عشر ذي الحجة، الوقوف بعرفة الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان، فما رُئِيَ الشيطان أحقر ولا أدر منه في يوم عرفة، لما يرى من تنزّل الأملاك والرحمة من الله لعباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة.

ولهذه أشياء معظمة مستحقة لأن يقسم الله بها. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ أي: وقت سرياته وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون، ويعطمنون، رحمة منه تعالى وحكمة.

﴿هَلْ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ أي: [لذي] عقل؟

نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(٦-١٤) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِ ۝ وَرَفْعُونَ ذِي الْأَرْوَادِ ۝ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْعَالَمِ ۝ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيْلٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِ ﴿٨﴾ وَرَفْعُونَ ذِي الْأَرْوَادِ ﴿٩﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْعَالَمِ ﴿١٠﴾ فَكثُرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١١﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٢﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِيَا لَمْرَصَادٍ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذِمَّا أَبْتَلَنَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا إِذِمَّا أَبْتَلَنَاهُ فَقَدَرْنَا عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٥﴾ كَلَّابٌ لَّا تَكْرُمُونَ ﴿١٦﴾ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاتِ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ أَمْوَالَ حَبَآجِمًا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِئَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَبْدَأُ الْإِنْسَانَ وَإِنَّ لَهُ الذِّكْرَ ﴿٢٣﴾

رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لِيَا لَمْرَصَادٍ يقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بقلبك وبصيرتك كيف فعل بهذه الأمم الطاغية، وهي ﴿إِرَمَ﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ أي: القوة الشديدة والعتو والتجبر.

﴿الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا﴾ أي: مثل عاد ﴿فِي الْعَالَمِ﴾ أي: في جميع البلدان [في القوة والشدة] كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادَّكَّرُوا ۗ أَلَا اللَّهُ لَمَلَكُؤُنَّ فُلُحُونُ﴾.

﴿وَرَفْعُونَ ذِي الْأَرْوَادِ﴾ أي: وادي القرى، نحتوا بقوتهم الصخور فاتخذوها مساكن.

﴿وَرَفْعُونَ ذِي الْأَرْوَادِ﴾ أي: [ذي] الجنود الذين ثبثوا ملكه، كما ثبث الأوتاد ما يراد إمساكه بها.

﴿الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْعَالَمِ﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وثمود ورفعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وأدوا عباد الله في دينهم ودنياهم، ولهذا قال:

(١) في ب: وأنه تعالى هو المدير.

تعالى: ﴿بَلْ تُؤْتِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾، ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَالِيَةَ﴾ و﴿تَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾.

(٣٠-٢١) ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجَاءَ يَوْمِيذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمِيذٍ يَبْدَأُ الْإِنْسَانَ بِأَنَّهُ لَهُ الْذِكْرَى يَقُولُ يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمِيذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا وَلَا يُوثِقُ وِقَافَهُ أَحَدًا﴾ و﴿يَتَأَيَّبُ النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةَ﴾ و﴿أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَضَةً﴾ و﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتٍ﴾. ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس [كل] ما أحببتم من الأموال وتنافستم فيه من اللذات بياق لكم، بل أمامكم يوم عظيم، وهول جسيم، تدك فيه الأرض والجبال وما عليها، حتى تجعل قاعًا صافصافًا، لا عوج فيه ولا أمت.

ويجيء الله تعالى لفصل القضاء بين عباده في ظلل من الغمام.

وتجيء الملائكة الكرام أهل السماوات كلهم ﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفا بعد صف، كل سماء يجيء ملائكتها صفا يحيطون بمن دونهم من الخلق، وهذه الصفوف صفوف خضوع وذل للملك الجبار.

﴿وَجَاءَ يَوْمِيذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ تقودها الملائكة بالسلاسل. فإذا وقعت هذه الأمور ف﴿يَوْمِيذٍ يَبْدَأُ الْإِنْسَانَ﴾ ما قدمه من خير وشر.

﴿وَأَنَّ لَهُ الْذِكْرَى﴾ فقد فات أوانها وذهب زمانها. ﴿يَقُولُ﴾ متحسرا على ما فرط في جنب الله: ﴿يَلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ الدائمة الباقية، عملا صالحا كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ يَلَيْتَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا﴾ و﴿يَتَوَلَّىٰ لَيْتَىٰ لَوِ أَخَذْتُ فَلَانًا حَلِيلًا﴾.

وفي الآية دليل على أن الحياة التي ينبغي السعي في أصلها وكمالها^(٢) وفي تميم لذاتها، هي الحياة في دار القرار، فإنها دار الخلد والبقاء.

﴿فَيَوْمِيذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا﴾ لمن أهمل ذلك اليوم ونسي العمل له.

﴿وَلَا يُوثِقُ وِقَافَهُ أَحَدًا﴾ فإنهم يقرون بسلاسل من نار، ويسحبون على وجوههم في الحميم، ثم في النار يسجرون، فهذا جزاء المجرمين.

وأما من اطمأن إلى الله وآمن به، وصدق رسله فيقال له: ﴿يَتَأَيَّبُ النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةَ﴾ إلى ذكر الله، الساكنة [إلى] حبه، التي قرت عينها بالله.

(١) في ب: لمن يعصيه. (٢) في ب: السعي في كمالها وتحصيلها وكمالها.

﴿فَاكْتَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ﴾ وهو العمل بالكفر وشعبه من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله.

فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم، أرسل الله عليهم من عذابه ذنوبًا وسوط عذاب. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِيَالْمِرْصَادِ﴾ لمن عصاه^(١)، يمهله قليلا ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

(٢٠-١٥) ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْبَيْتَ﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاتِ أَكْلًا لَمًّا﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه.

وأنه إذا ﴿قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ أي: ضيقه، فصار بقدر قوته لا يفضل منه، أن هذا إهانة من الله له، فرد الله عليه هذا الحساب بقوله:

﴿كَلَّا﴾ أي: ليس كل من نعمته في الدنيا فهو كريم علي، ولا كل من قدرت عليه رزقه فهو مهان لدي.

وإنما الغنى والفقر، والسعة والضيقة ابتلاء من الله وامتحان يمتحن به العباد، ليرى من يقوم له بالشكر والصبر، فيثبه على ذلك الثواب الجزيل ممن ليس كذلك فيقله إلى العذاب الوبيل.

وأيضا، فإن وقوف همه العبد عند مراد نفسه فقط، من ضعف الهمة، ولهذا لاهمهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين فقال:

﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْبَيْتَ﴾ الذي فقد أباه وكاسبه، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه.

فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه، ولهذا يدل على عدم الرحمة في قلوبكم، وعدم الرغبة في الخير.

﴿وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمُسْكِينِ﴾ أي: لا يحض بعضهم بعضا على إطعام المحاويع من المساكين والفقراء، وذلك لأجل الشح على الدنيا ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب، ولهذا قال:

﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاتِ﴾ أي: المال المخلف ﴿أَكْلًا لَمًّا﴾

أي: ذريعا لا يتقون على شيء منه.

﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ أي: كثيرا شديدا، وهذا كقولهم

﴿أَرْجِيهِ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ الذي رباك بنعمته، وأسدى عليك من إحسانه ما صرت به من أولياته وأحبابه ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَةً﴾ أي: راضية عن الله وعن ما أكرمها به من الثواب، والله قد رضي عنها.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ وادْخُلِي جَنَّتِي ﴿وهذا تخاطب به الروح يوم القيامة، وتخاطب به في حال الموت﴾^(١).

[والحمد لله رب العالمين].

تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد^(٢)

مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٢٠-١) ﴿لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبْدًا ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ لَّهُمْ عَيْنَيْنِ ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ وَهَدَيْنَاهُ الْعُقَبَةَ ﴿وَمَا آدْرَبُكَ مَا الْعُقَبَةُ﴾ وَمَا آدْرَبُكَ مَا الْعُقَبَةُ ﴿يَتِيمًا فَكْرَفَيْنَا﴾ أَوْ إِطْعَمَهُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ﴾ أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبُنَا لَهُمُ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ الْأَمِينِ الَّذِي هُوَ مَكَّةُ الْمَكْرَمَةُ، أَفْضَلُ الْبُلْدَانِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، خُصُوصًا وَقْتُ حُلُولِ الرَّسُولِ ﷺ فِيهَا.

﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾ أي: آدم وذريته.

والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد.

وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريحه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم.

وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الأباد.

ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم وأقوم خلقة، مقدر^(٣) على التصرف والأعمال الشديدة.

ومع ذلك [فإنه] لم يشكر الله على هذه النعمة [العظيمة]، بل بطر بالعافية وتجرى على خالقه، فحسب بجهله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينزع، ولهذا قال تعالى:

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ ويطغى ويفتخر بما أنفق من

سُورَةُ الْبَلَدِ ٥٩٤
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَقُولُ يَلِيَّتَنِي قَدَمْتُ لِحِيَاتِي ﴿١﴾ فَيَوْمِئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ﴿٢﴾
وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدًا ﴿٣﴾ يَتَائِبُنَا النَّفْسَ الْمُطْمَئِنَّةَ ﴿٤﴾ أَرْجِيهِ
إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً ﴿٥﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٦﴾ وَاَدْخُلِي جَنَّتِي ﴿٧﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أَقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حَلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ ﴿٣﴾
لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾
يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبْدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾
أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ
التَّجْدِيذَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا أَفْهَمَ الْعُقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا آدْرَبُكَ مَا الْعُقَبَةُ ﴿١٢﴾
فَكْرَفَيْنَا ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَمَهُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾
أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَوَاصَوْا
بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ﴿١٧﴾ أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْيَمِينَةِ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ
كَفَرُوا يَتَائِبُنَا لَهُمُ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ ١٥٩

الأموال على شهوات نفسه، ف ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَا لَا لُبْدًا﴾ أي: كثيرًا بعضه فوق بعض.

وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكًا، لأنه لا يتنفع المنفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله وربح أضعاف أضعاف ما أنفق.

قال الله متوعداً هذا الذي يفترخ بما أنفق في الشهوات:

﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ﴾ أي: أيحسب^(٤) في فعله هذا، أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟

بل قد رآه الله وحفظ عليه أعماله، ووكّل به الكرام الكاتبين لكل ما عمله من خير وشر.

ثم قرره بنعمه فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ عَيْنَيْنِ﴾ ولسانًا وشفَتَيْنِ ﴿للجمال والبصر والنطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا.

(١) في ب: وقت السياق والموت. (٢) في ب: سورة البلد. (٣) في ب: يقدر. (٤) في ب: أيطن.

تفسير سورة الشمس وضحاها

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٥) ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرُ إِذَا لِلَّهَا ۝ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ۝ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ۝ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا ۝ وَالْأَرْضَ وَمَا حَمَلَهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا ۝ وَقَدْ حَابَّ مَنْ دَسَّاهَا ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ۝ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَكَدَمْتُمْ عَلَيْهِنَّ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝﴾ أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة على النفس المفلحة وغيرها من النفوس الفاجرة فقال:

﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ أي: نورها ونفعها الصادر منها.
 ﴿وَالْقَمَرُ إِذَا لِلَّهَا﴾ أي: تبعها في المنازل والنور.
 ﴿وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا﴾ أي: جلى ما على وجه الأرض وأوضحه.
 ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ أي: يغشى وجه الأرض فيكون ما عليها مظلمًا.

فتعاقب الظلمة والضياء والشمس والقمر على هذا العالم بانتظام وإتقان وقيام^(٥) لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده الذي كل معبود سواه فباطل.
 ﴿وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَاهَا﴾ يحتمل أن «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسما وبانيتها الذي هو الله تبارك وتعالى.

ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسما وبانيتها، الذي هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان.
 ونحو ذلك قوله: ﴿وَالْأَرْضَ وَمَا حَمَلَهَا﴾ أي: مداها ووسعها، فتمكن الخلق حيثئذ من الانتفاع بها بجميع وجوه^(٦) الانتفاع.
 ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ يحتمل أن المراد نفس سائر المخلوقات الحيوانية كما يؤيد هذا العموم.
 ويحتمل أن المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف بدليل ما يأتي بعده.

وعلى كل، فالنفس آية كبيرة من آياته التي حقيقة بالإقسام

ثم قال في نعم الدين: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي: طريقي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال والرشد من الغي.
 فهذه المنن الجزيلة تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكر الله على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصيه^(١)، ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك.

﴿فَلَا أَفْلَحَ الْعَبْدُ﴾ أي: لم يقتحمها ويعبر عليها، لأنه متبع لشهوته^(٢).

وهذه العقبة شديدة عليه، ثم فسر [هذه] العقبة بقوله:
 ﴿فَأَكْرَهِي﴾ أي: فكها من الرق بعقتها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكاك الأسير المسلم عند الكفار.

﴿أَوْ إِطْعَمْتُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْبَغَةٍ﴾ أي: مجاعة شديدة بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾ أي: جامعا بين كونه يتيما فقيرا ذا قرابة.
 ﴿أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة.

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٣) أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات بجوارحهم من كل قول^(٤) وفعل واجب أو مستحب.

﴿وَتَوَّاصُوا بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقدار الله المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضا على الاتقياء لذلك، والإتيان به كاملا منشرحا به الصدر مطمئنة به النفس.
 ﴿وَتَوَّاصُوا بِالرَّحْمَةِ﴾ للخلق من إعطاء محتاجهم وتعليم جاهلهم والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه.

أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة ﴿أَصْحَابُ الْكَيْبَةِ﴾ لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عبادته، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَكِيدُونَ﴾ بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، [ولا آمنوا به] ولا عملوا صالحا، ولا رحموا عباد الله.

﴿هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ۝ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ أي: مغلقة في عمد ممددة، قد مدت من ورائها، لئلا تفتتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة.

[والحمد لله].

(١) في ب: على معاصي الله. (٢) في ب: لهواه. (٣) سبق قلم الشيخ فزاد في الآية ﴿وَكَيْدًا فَالْكَاذِبِينَ﴾ فحذفت الزيادة في الآية وأبقيت التفسير. (٤) في ب: فدخل في هذا كل قول. (٥) كذا في ب، وفي أ: وانتظام. (٦) في ب: أوجه.

بها^(١)، فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل [والحركة] والتغير والتأثر والانفعالات النفسية من الهم والإرادة والقصد والحب والبغض.

وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه^(٢)، آية من آيات الله العظيمة.

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَعَتْ﴾ أي: طهر نفسه من الذنوب ونقاها من العيوب ورفأها بطاعة الله، وعلاها بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ أي: أخفى نفسه الكريمة التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها بالتدسس بالذائل، والدنو من العيوب والافتراء للذنوب، وترك ما يكملها وينميها واستعمال ما يشينها ويدسيها.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا﴾ أي: بسبب طغيانها وترفعها عن الحق وعتوها على رسل الله^(٣).

﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَى﴾ أي: أشقى القبيلة، [وهو] «قدار بن سالف» لعقرها حين اتفقوا على ذلك، وأمره فأتمر لهم.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ صالح عليه السلام محذراً:

﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَيْهَا﴾ أي: احذروا عقر ناقة الله التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنا أن تعقروها.

فكذبوا نبيهم صالحاً ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم والرجفة من تحتهم، فأصبحوا جائمين على ربهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً.

﴿فَسَوَّيْنَاهَا﴾ عليهم أي: سوى بينهم بالعقوبة^(٤) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ أي: تبعثها.

وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، الحكيم في كل ما قضاه وشرعه؟

تمت والله الحمد.

تفسير سورة والليل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٢١) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ○ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ

وَالْأُنثَى ○ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ○ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ○ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ○ فَسَنَسِرُهُ لِلْعُسْرَى ○ وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ ○ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ○ فَسَنَسِرُهُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٩٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ○ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا ○ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّهَا ○

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ○ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ○ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ○

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ○ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ○ قَدْ

أَفْلَحَ مَنْ رَكَعَتْ ○ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ○ كَذَّبَتْ ثَمُودُ

بِطَغْوَيْهَا ○ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ○ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ

نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ○ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ

عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ○ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ○

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ○ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ○ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ○

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ○ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ○ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ○

فَسَنَسِرُهُ لِلْعُسْرَى ○ وَأَمَّا مَنْ كَفَرَ ○ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ○

فَسَنَسِرُهُ لِلْعُسْرَى ○ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ○ إِنَّ عَلَيْنَا

لِلْهُدَى ○ وَإِنَّا لَنَالُهَا لَآخِرَةً وَآوَّلَى ○ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ○

لِلْعُسْرَى ○ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ○ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأَوَّلَى ○ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ○ لا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ○ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ○ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ○ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ○ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى ○ إِلَّا أُتِيَاهُ وَجَ وَرَى الْأَخْلَى ○ وَسَوْفَ يُرِىُّهُ هَذَا قِسْمَ مَنِ اللَّهِ بِالزَّمَانِ الَّذِي تَقَعُ فِيهِ أَعْمَالُ الْعِبَادِ عَلَى تَفَاوُتِ أَحْوَالِهِمْ فَقَالَ:

﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [أي: يعم] الخلق بظلامه فيسكن كل إلى ماواه ومسكنه، ويستريح العباد من الكد والتعب.

﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ للخلق، فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في مصالحيهم.

﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ إن كانت «ما» موصولة كان إقساماً بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه^(٥) خالق الذكور والإناث، وإن كانت مصدرية كان قسماً بخلقه للذكر والأنثى.

وكمال حكمته في ذلك أن خلق من كل صنف من الحيوانات التي يريد بقاءها ذكراً وأنثى ليبقى النوع ولا

(١) في ب: يحق الإقسام بها. (٢) في ب: على ما هي عليه. (٣) في ب: على رسولهم. (٤) في ب: في العقوبة. (٥) في ب: بكونه.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي: إن الهدى المستقيم طريقه، يوصل إلى الله ويدين من رضاه.

وأما الضلال فطرق مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها إلا للعذاب الشديد.

﴿وَإِنَّا لَنَّا لَأَكْرَهَةٌ وَأُولَىٰ﴾ ملكًا وتصرفًا ليس له فيهما مشارك، فليرغب الراغبون إليه في الطلب، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين.

﴿فَأَنْذَرْتُكَ نَارًا تَلْبَنُ﴾ أي: تستعر وتتوقد.

﴿لَا يَصَلُّهَا إِلَّا الْآشَقَىٰ ۝ الَّذِي كَذَّبَ﴾ بالخبر ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الأمر.

﴿وَسَيَجَنَّبُهَا الْأَتَقَىٰ ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ﴾ بأن يكون قصده به تزكية نفسه، وتطهيرها من الذنوب والعيوب^(٤)، قاصدًا به وجه الله تعالى.

فدل هذا على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ترك واجب كدين ونفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل تكون عطيته مردودة عند كثير من العلماء، لأنه لا يتزكى بفعل مستحب يفوت عليه الواجب.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَجْزَىٰ﴾ أي: ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزى إلا وقد كافأه بها، وربما بقي له الفضل والمنة على الناس، فتمحض عبدًا لله، لأنه رقيق إحسانه وحده.

وأما من بقي^(٥) عليه نعمة الناس لم يجزها ويكافئها، فإنه لا بد أن يترك للناس، ويفعل لهم ما ينقص [إخلاصه].

وهذه الآية وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل: إنها نزلت في سببه، فإنه - رضي الله عنه - ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي [نعمة] الدعوة إلى دين الإسلام، وتعليم الهدى ودين الحق، فإن الله ورسوله المنة على كل أحد؛ منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل. فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿إِلَّا أَنْعَاهُ وَجَّهَ رَبِّهِ الْأَعْمَلُ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والمثوبات.

والحمد لله رب العالمين.

يضمحل، وقاد كلاً منهما إلى الآخر بسلسلة الشهوة. وجعل كلاً منهما مناسباً للآخر، فتبارك الله أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا [هو] المقسم عليه أي: إن سعيتكم أيها المكلفون لمثاقوت تفاوتاً كثيراً، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو وجه الله الأعلى الباقي؟ فيبقى السعي له^(١) ببقائه وينتفع به صاحبه أم هي غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي بطلانها ويضمحل باضمحلها؟.

وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله تعالى بهذا الوصف. ولهذا فضل الله تعالى العاملين، ووصف أعمالهم فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ﴾ [أي: ما أمر به من العبادات المالية كالزكوات والكفارات والنفقات، والصدقات والإنفاق في وجهه الخير. والعبادات البدنية كالصلاة والصوم نحوهما. والمرغبة منهما كالحج والعمرة ونحوهما].

﴿وَأَتَقَىٰ﴾ ما نهى عنه من المحرمات والمعاصي، على اختلاف أجناسها.

﴿وَصَدَقَ بِالْحَقِّ﴾ أي: صدق بـ «لا إله إلا الله» وما دلت عليه من جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها من الجزاء الأخروي.

﴿فَسَيَسِّرُ لِيَسْرَىٰ﴾ أي: سهّل عليه أمره ونجعله يسيراً له^(٢) كل خير، يسيراً له ترك كل شر، لأنه أتى بأسباب التيسير فيسر الله له ذلك.

﴿وَأَمَّا مَنْ يَخَلْ﴾ بما أمر به فترك الإنفاق الواجب والمستحب، ولم تسمح نفسه بأداء ما وجب لله.

﴿وَاسْتَفْتَىٰ﴾ عن الله، فترك عبوديته جانباً، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربه، الذي لا نجاة لها ولا فوز ولا فلاح إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه.

﴿وَكَذَّبَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بما أوجب الله على العباد التصديق به من العقائد الحسنة.

﴿فَسَيَسِّرُ لِيَسْرَىٰ﴾ أي: للحالة العسرة والخصال الذميمة، بأن يكون يسيراً للشر أينما كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي، نسأل الله العافية.

﴿وَمَا يُعْنِي عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي أطغاه واستغنى به وبخل به إذا هلك ومات، فإنه لا يصحبه إلا عمله الصالح^(٣).

وأما ماله [الذي لم يخرج منه الواجب] فإنه يكون وبالاً عليه إذ لم يقدم منه آخرته شيئاً.

(١) في ب: العمل له. (٢) في ب: أي: يسر له أمره ونجعله سهلاً عليه. (٣) في ب: فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح. (٤) في ب: والأدناس. (٥) في ب: بقيت.

تفسير سورة والضحي

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ وَمَا فَلَىٰ ۝
وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝
فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَر ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَر ۝ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝﴾
أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحي، وبالليل إذا سجدى وادلهمت ظلمته، على اعتناء الله برسوله ﷺ فقال:

﴿مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ﴾ أي: ما تركت منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ رباك ورعاك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

﴿وَمَا فَلَىٰ﴾ ك الله، أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفى الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحا إلا إذا تضمن ثبوت كمال.

فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها وترقيته في درج (١) الكمال ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبلية فقال: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك فإن لها الفضل على الحالة السابقة.

فلم يزل ﷺ يصعد في درج (٢) المعالي، ويمكن له الله دينه وينصره على أعدائه ويسدد له أحواله حتى مات، وقد وصل إلى حال لا يصل (٣) إليها الأولون والآخرون من الفضائل والنعم وقررة العين وسرور القلب.

ثم بعد ذلك، لا تسأل عن حاله في الآخرة من تفاصيل الإكرام وأنواع الإنعام.

ولهذا قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة.

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله (٤) [الخاصة] فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ أي: وجدك لا أم لك ولا أب، بل قد مات أبوه وأمّه وهو لا يدبر نفسه، فأواه الله وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب حتى أيده الله بنصره وبالمؤمنين.

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب

سُورَةُ الضُّحَىٰ ٥٩٦
لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا
الْأُتْقَى (١٧) الَّذِي يُوْفِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ
نِعْمَةٍ تُجْرَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١)

سُورَةُ الضُّحَىٰ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَعَدَكَ رَبُّكَ وَمَا فَلَىٰ (٣)
وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ
فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا
فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَر
(٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَر (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١)

سُورَةُ الشَّرْحِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَنْشَرِ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (٢) الَّذِي
أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ
مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ (٨)

ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ أي: فقيرا ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ بما فتح الله عليك (٥) من البلدان التي جبيت لك أموالها وخراجها.

فالذي أزال عنك هذه النقائص سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى وأواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران.

[ولهذا قال:] ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَر﴾ أي: لا تسئ معاملته اليتيم ولا يضق صدرك عليه ولا تنهره، بل أكرمه وأعطه ما تيسر، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَر﴾ أي: لا يصدر منك إلى السائل (٦) كلام، يقتضي رده عن مطلوبه بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك أو رده بمعروف [وإحسان].

وهذا يدخل فيه السائل للمال والسائل للعلم، ولهذا كان

(١) في ب: درجات. (٢) في ب: درجات. (٣) في ب: ما وصل.

(٤) كذا في ب، وفي أ: الأحوال. (٥) في ب: فأغناك الله بما فتح

عليك. (٦) في ب: لا يصدر منك كلام للسائل.

العسر يسراً».

وتعريف «العسر» في الآيتين يدل على أنه واحد، وتكثير «اليسر» يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين.

وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له.

ثم أمر الله رسوله أصلاً والمؤمنين تبعاً بشكره والقيام بواجب نعمه فقال:

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ أي: إذا فرغت من أشغالك ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء.

﴿وَالِلَّهِ رَبِّكَ﴾ وحده ﴿فَارْغَبْ﴾ أي: أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عباداتك^(١).

ولا تكن ممن إذا فرغوا وفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين.

وقد قيل: إن معنى قوله: فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها فانصب في الدعاء.

والى ربك فارغب في سؤال مطالبك. واستدل من قال بهذا القول على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات، والله أعلم بذلك. تمت، والله الحمد.

تفسير سورة والتين

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨-١) ﴿وَالَّتَيْنِ وَالرَّيْثُونِ﴾ ○ وَطُورِ سِينِينَ ○ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ○ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ○ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ○ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ○ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ الْبَلَدِينَ ○ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ○ . ﴿التين﴾ هو التين المعروف، وكذلك «الرَّيْثُونِ» أقسم بهاتين الشجرتين لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام.

﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ أي: طور سيناء محل نبوة موسى ﷺ. ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وهي مكة المكرمة محل نبوة محمد ﷺ.

(١) في ب: دعواتك.

المعلم مأموراً بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرته بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده وإكراماً لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد.

﴿وَأَمَّا يَنْعِمَ رَبِّكَ﴾ [وهذا يشمل] النعم الدينية والدنيوية ﴿فَحَدَّثْتُ﴾ أي: أثنى على الله بها وخصَّصها بالذكر إن كان هناك مصلحة.

وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن.

تفسير سورة ألم نشرح [لك صدرك]

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨-١) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ○ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ○ أَلَيْدَةً أَنْفَقَ ظَهْرَكَ ○ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ○ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ○ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ○ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ○ وَالِلَّهِ رَبِّكَ فَارْغَبْ ○ يقول تعالى - ممتناً على رسوله -: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ أي: نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله والانصاف بمكارم الأخلاق والإقبال على الآخرة وتسهيل الخيرات.

فلم يكن ضيقاً حرجاً لا يكاد يتقاد لخير ولا تكاد تجده منبسطاً.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ أي: ذنبك ﴿أَلَيْدَةً أَنْفَقَ﴾ أي: أثقل ﴿ظَهْرَكَ﴾ كما قال تعالى: ﴿لَيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أي: أعلينا قدرك، وجعلنا لك الثناء الحسن العالي الذي لم يصل إليه أحد من الخلق.

فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله ﷺ، كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان، والإقامة، والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلى الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ. وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم، ما ليس لأحد غيره بعد الله تعالى. فجزاه الله عن أمته أفضل ما جرى نبياً عن أمته.

وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ○ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجه، كما قال تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

وكما قال النبي ﷺ: «وإن الفرج مع الكرب، وإن مع

سُورَةُ التَّيْنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾
 لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾
 إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾
 فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّكْرِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْحَكِيمِينَ ﴿٨﴾

سُورَةُ الْعَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ
 الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّا إِنَّ
 الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ
 الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ وَأَمَرَ
 بِالْقَوْلِ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كُلَّ لَيْلٍ
 لَّمْ يَنْتَه لَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةِ كَذِبٍ خَاطِقَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾
 سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا نُطِيعُ مَا نَسَجَدُ وَأَقْرَبَ ﴿١٩﴾

فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة التي اختارها وابتعث منها أفضل النباتات^(١) وأشرفها.

والمقسم عليه قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ أي: تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد ما يحتاج إليه ظاهراً أو باطناً شيئاً.

ومع هذه النعم العظيمة التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشغولون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمور وسفاسف الأخلاق. فردهم الله في أسفل سافلين أي: أسفل النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم، إلا من من الله عليه بالإيمان، والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية.

﴿فَلَهُمْ﴾ بذلك المنازل العالية و﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، بل لذات متوافرة، وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة، في أبد لا يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها.

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّكْرِ﴾ أي: أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما به يحصل لك اليقين، ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفر بشيء مما أخبرك به؟.

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ الْحَكِيمِينَ﴾ فهل تقتضي حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يُثابون ولا يُعاقبون؟. أم الذي خلق الإنسان أطواراً بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون ونحوها يؤمرون.

تمت، والله الحمد.

تفسير سورة اقرأ

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١٩) ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ○ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ○ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ○ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ○ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ○ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ○ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ○ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ○ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ ○ أَوْ أَمَرَ بِالْقَوْلِ ○ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ○ أَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ○ كُلَّ لَيْلٍ لَّمْ يَنْتَه لَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ○ نَاصِيَةِ كَذِبٍ خَاطِقَةٍ ○ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ○ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ○ كَلَّا لَا نُطِيعُ مَا نَسَجَدُ وَأَسْجُدُ﴾

واقرب﴾ هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله ﷺ.

فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ فامتنع وقال: «ما أنا بقارىء» فلم يزل به حتى قرأ.

فأنزل الله عليه: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ عموم الخلق.

ثم خص الإنسان وذكر ابتداء خلقه ﴿بِاسْمِ عَلَقٍ﴾ فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره، لا بد أن يدبره بالأمر والنهي، وذلك بإرسال الرسول إليهم^(٢) وإنزال الكتب عليهم.

ولهذا ذكر^(٣) بعد الأمر بالقراءة خلقه^(٤) للإنسان.

ثم قال: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ أي: كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود الذي من كرمه أن علم بالعلم^(٥).

و ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ○ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فإنه تعالى أخرجهم من

(١) في ب: أفضل الأنبياء وأشرفهم. (٢) في ب: بإرسال الرسل. (٣) في ب: ولهذا أتى. (٤) في ب: بخلقه. (٥) في ب: بأنواع العلوم.

بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم.

فعلمه القرآن وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم وتضبط الحقوق وتكون رسلاً للناس، تنوب مناب خطابهم.

فله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرون لها، على جزاء ولا شكور، ثم من عليهم بالغنى وسعة الرزق.

ولكن الإنسان - لجهله وظلمه - إذا رأى نفسه غنياً طغى وبغى وتجبر عن الهدى، ونسى أن إلى ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى بنفسه، ويدعو [غيره] إلى تركه، فينبى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان، يقول الله لهذا المتمرد العاتى:

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الْمَالُ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ نَسَّيْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْحَيَاةَ الْآخِرَةَ سَوَاءً مِمَّا نَمُوتُ بِهِ نَسِيًّا أَوْ أَنَّكُمْ كُفِّرْتُمْ ۗ وَلَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا الْأَذَىٰ لَهُمْ ۗ﴾

فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟ أليس نهيه من أعظم المحادة لله والمحاربة للحق؟ فإن النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى.

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ الْتَاهِي بِالْحَقِّ وَنُؤِيَّتْ عَنْ الْأَمْرِ، أَمَا يَخَافُ اللَّهَ وَيَخْشَىٰ عِقَابَهُ؟ ۗ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۗ مَا يَعْمَلُ وَيَفْعَلُ؟ ۗ﴾

ثم توعده إن استمر على حاله فقال: ﴿لَا لِيَنَّ لَكُمْ بَنَاتٍ ۗ عَمَّا يَقُولُ وَيَفْعَلُ ۗ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۗ﴾ أي: لناخذن بناصيته أخذاً عنيقاً، وهي حقيقة بذلك، فإنها ﴿نَاصِيَةٌ كَذِبِيَّةٌ خَاطِئَةٌ ۗ﴾ أي: كاذبة في قولها خاطئة في فعلها.

﴿فَلْيَعْلَمُ ۗ هَذَا الَّذِي حَقَّ عَلَيْهِ الْعِقَابُ ۗ﴾ (١) ﴿نَادِيَةً ۗ﴾ أي: أهل مجلسه وأصحابه، ومن حوله ليعينوه على ما نزل به.

﴿سَنَعَزُّ الْأَرْبَابِيَّةَ ۗ﴾ أي: خزنة جهنم لاخذه وعقوبته. فليظنر أي الفريقين أقوى وأقدر؟ فهذه حالة الناهي وما توعد به من العقوبة.

وأما حالة المنهي فأمره الله أن لا يصغي إلى هذا الناهي ولا ينقاد لنيه فقال:

﴿كَلَّا لَا طُعْمُهُ ۗ﴾ [أي:] فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين.

﴿رَأْسِيَدٌ ۗ لِرَبِّكَ ۗ وَأَقْرَبٌ ۗ﴾ منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تُدني من رضاه وتقرب منه، وهذا عام لكل ناهٍ عن الخير ومنهي عنه، وإن كانت نازلة في

شأن أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وعبث به (٢) وأذاه.

تمت والله الحمد.

تفسير سورة القدر

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥-١) ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۗ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۗ لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَرِيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۗ نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۗ سَلَّمَ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۗ﴾ يقول تعالى - مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره -: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۗ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبْرَكَةٍ ۗ﴾ وذلك أن الله [تعالى] ابتداءً بإنزاله (٣) في رمضان [في] ليلة القدر ورحم الله بها العباد رحمةً عامة، لا يقدر العباد لها شكرًا.

وسميت ليلة القدر لعظم قدرها وفضلها عند الله، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدرية.

ثم فحّم شأنها وعظم مقدارها فقال: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۗ﴾ أي: فإن شأنها جليل وخطرها عظيم.

﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ حَرِيرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۗ﴾ أي: تعادل من فضلها ألف شهر، فالعمل الذي يقع فيها خير من العمل في ألف شهر [خالية منها].

وهذا مما تتحير فيه (٤) الألباب، وتندش له العقول، حيث من تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر، عمر رجل معمر عمراً طويلاً، نيفاً وثمانين سنة.

﴿نَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ وَالرُّوحَ فِيهَا ۗ﴾ أي: يكثر نزولهم فيها ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۗ﴾ سَلَّمَ هِيَ ﴿أَي: سالمة من كل آفة وشر، وذلك لكثرة خيرها.

﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۗ﴾ أي: مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر (٥).

وقد تواترت الأحاديث في فضلها، وأنها في رمضان وفي العشر الأواخر منه خصوصاً في أوتاره، وهي باقية في كل سنة

(١) في ب: العذاب. (٢) في ب: وعذبه. (٣) في ب: ابتداءً بإنزاله القرآن. (٤) كذا في ب، وفي أ: به. (٥) كذا في ب، وفي أ: تنتهي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر.

إلى قيام الساعة.

ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف، ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان رجاء ليلة القدر، [والله أعلم].

تفسير سورة لم يكن

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٨-١) ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ۝ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ۝ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ۝ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۝ جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ ۝ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أَي: [من] اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ من سائر أصناف الأمم.

﴿مُنْفَكِينَ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه أي: لا يزالون في غيهم وضلالهم لا يزيدهم مرور السنين^(١) إلا كفراً.

﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ الواضحة، والبرهان الساطع، ثم فسر تلك البينة فقال:

﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ﴾ أَي: أرسله الله يدعو الناس إلى الحق، وأنزل عليه كتاباً يتلوه، ليعلم الناس الحكمة ويزكيهم، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ولهذا قال:

﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ أَي: محفوظة عن قربان الشياطين لا يمسها إلا المطهرون، لأنها في أعلى ما يكون من الكلام.

ولهذا قال عنها: ﴿فِيهَا﴾ أَي: في تلك الصحف ﴿كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ أَي: أخبار صادقة وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم.

فإذا جاءتهم هذه البينة، فحينئذ يتبين طالب الحق ممن ليس له مقصد في طلبه، فيهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة.

وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا

سُورَةُ الْقَبْرَةِ ٥٩٨

سُورَةُ الْقَبْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَّمَ هِيَ حَتَّى مَطَلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾

وصاروا أحزاباً ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾ التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق.

ولكنهم لرداءتهم ونذاتهم لم يزدهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البصيرة إلا عمى، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد.

فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا ﴿اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أَي: قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله وطلب الزلفى لديه.

﴿حُنَفَاءَ﴾ أَي: معرضين [مائلين] عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد.

وخصّ الصلاة والزكاة [بالذكر] مع أنهما داخلان في قوله: ﴿لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وَذَلِكَ﴾ أَي: التوحيد والإخلاص في الدين هو ﴿دِينُ الْقِيمَةِ﴾ أَي: الدين المستقيم الموصل إلى جنات النعيم، وما

(١) في ب: الأوقات.

سواء فطرق موصلة إلى الجحيم.

ثم ذكر جزاء الكافرين بعد ما جاءتهم البينة فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ قَدْ أَحَاطَ بِهِمْ عَذَابُهَا، واشتد عليهم عقابها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يفتر عنهم العذاب وهم فيها ملبسون.

﴿أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفاضوا بنعيم الدنيا والآخرة.

﴿جَزَاءُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ﴾ أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها.

﴿يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فرضي عنهم بما قاموا به من مرضيه، ورضوا عنه بما أعد لهم

من أنواع الكرامات وجزيل المثوبات.

﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء الحسن ﴿لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ﴾ أي: لمن خاف الله فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته^(١).

[تمت والحمد لله].

تفسير سورة إذا زلزلت^(٢)

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٨) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ

أَنْفَعَالَهَا ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾ يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿يَأْنُ رَبِّكَ

أَوْحَى لَهَا ﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْنَانًا لِيُرَوُا أَعْمَلَهُمْ ﴿فَمَنْ

يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا

يَرَهُ﴾ يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تنزلزل

وترجف وترتج، حتى يسقط ما عليها من بناء وعلم^(٣).

فتتدك جبالها، وتُسَوَّى تلالها، وتكون قاعاً صَفْصَفاً لا

عوج فيه ولا أمت.

﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَعَالَهَا﴾ أي: ما في بطنها من الأموات

والكنوز.

﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم

مستعظماً لذلك: ﴿مَا لَهَا﴾؟ أي: أي شيء عرض لها؟.

﴿يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ﴾ الأرض ﴿أَخْبَارَهَا﴾ أي: تشهد على

العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من

جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم.

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

٥٩٩

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

جَزَاءُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَسِبَ رَبَّهُ ﴿٨﴾

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَنْفَعَالَهَا

﴿٢﴾ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾

يَأْنُ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْنَانًا

لِيُرَوُا أَعْمَلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا

يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

سُورَةُ الْعَجَّازِيَّاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَّاتِ صَبِيحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُعْرَجَاتِ صَبِيحًا

﴿٣﴾ فَاتَّرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوْسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ

لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكِ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحَبِطِ

الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾

ذلك ﴿يَأْنُ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ [أي: وأمرها أن تخبر بما عمل عليها، فلا تعصي^(٤) لأمره.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ﴾ من موقف القيامة حين يقضي الله بينهم ﴿أَشْنَانًا﴾ أي: فرقاً متفاوتين.

﴿لِيُرَوُا أَعْمَلَهُمْ﴾ أي: ليريهم الله ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويريهم جزاءه موفراً.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ وهذا شامل عام للخير والشر كله،

لأنه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء، [وجوزي عليها] فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْتَضَرًا وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ شَرٍّ مُدْرَأَةً لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾، ﴿وَجِدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾.

وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

(١) في ب: بما أوجب عليه. (٢) في ب: الزلزلة. (٣) في ب: ومعلم. (٤) كذا في ب، وفي أ: ولا تستعصي.

تفسير سورة العاديات

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿وَالْمَدْيَنَاتِ صَبَاً ۝ فَالْمُؤَبَّرَاتِ فَدَحَاً ۝ فَالْمُعِيرَاتِ صَبَاً ۝ فَالْفَرْنَ بِهٖ نَفْعًا ۝ فَوْسَطَانَ بِهٖ جَمْعًا ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهٖ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهٗ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝ وَإِنَّهٗ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعِثَ رَافِعٌ مَّا فِي الْقُبُورِ ۝ وَخُصِّلَ مَّا فِي الْأَشْدُرِ ۝ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝ أَقْسَمُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بِالْخَيْلِ لِمَا فِيهَا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الْبَاهِرَةِ وَنِعْمَ الظَّاهِرَةُ مَا هُوَ مَعْلُومٌ لِلْخَلْقِ ۝ وَأَقْسَمُ [تعالى] بها في الحال التي لا يشاركها [فيه] غيرها من أنواع الحيوانات فقال:

﴿وَالْمَدْيَنَاتِ صَبَاً﴾ أي: العاديات عدوًّا بليغًا قويًّا، يصدر عنه الضجيج، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد العدو^(١).

﴿فَالْمُؤَبَّرَاتِ﴾ بحوافرن ما يطأن عليه من الأحجار ﴿فَدَحَاً﴾ أي: تنقدح^(٢) النار من صلابة حوافرن [وقوتهن] إذا عدون.

﴿فَالْمُعِيرَاتِ﴾ على الأعداء ﴿صَبَاً﴾ وهذا أمر أغلبي، أن الغارة تكون صباحًا.

﴿فَالْفَرْنَ بِهٖ﴾ أي: بعدوهم وغارتهم ﴿نَفْعًا﴾ أي: غبارًا.

﴿فَوْسَطَانَ بِهٖ﴾ أي: براكهن ﴿جَمْعًا﴾ أي: توسطن به جموع الأعداء الذين أغار عليهم.

والمقسم عليه قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهٖ لَكَنُودٌ﴾ أي: لمنوع للخير الذي عليه لربه^(٣).

فطبيعة [الإنسان] وجبلته أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتزودها كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق.

﴿وَإِنَّهٗ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك لا يجحده ولا ينكره، لأن ذلك أمر بيِّن واضح.

ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي: إن العبد لربه لكنود، والله شهيد على ذلك، ففيه الوعيد والتهديد الشديد لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.

﴿وَإِنَّهٗ﴾ أي: الإنسان ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ أي: المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾ أي: كثير الحب للمال.

وحبه لذلك، هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدم شهوة نفسه على حق^(٤) ربه، وكلُّ هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار وغفل عن الآخرة.

ولهذا قال - حائثًا له على خوف يوم الوعيد -:

﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ أي: هلَّا يعلم هذا المغتر ﴿إِذَا بُعِثَ رَافِعٌ مَّا فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أخرج الله الأموات من قبورهم لحشرهم ونشورهم.

﴿وَخُصِّلَ مَّا فِي الْأَشْدُرِ﴾ أي: ظهر وبان [ما فيها] وما استتر في الصدور من كمائن الخير والشر، فصار السر علانية والباطن ظاهرًا، وبان على وجه الخلق نتيجة أعمالهم.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية ومجازيهم عليها.

وخص خبره^(٥) بذلك اليوم، مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد بذلك، الجزاء بالأعمال^(٦) الناشئة عن علم الله واطلاعه.

تفسير سورة القارعة

[وهي مكية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-١١) ﴿الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ۝ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ۝ فَأَمَّا مَنْ نَقَلَ مَوَازِينَهُ ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ ۝ نَارُ حَامِيَةٍ ۝﴾

﴿الْقَارِعَةُ﴾ من أسماء يوم القيامة سميت بذلك، لأنها تفرق الناس وترجعهم بأهوالها.

ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: ﴿الْقَارِعَةُ ۝ مَا الْقَارِعَةُ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ۝ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أي: كالجراد المنتشر الذي يموج بعضه في بعض، والفراش: هي الحيوانات التي تكون في الليل، يموج بعضها ببعض لا تدري أين توجه.

فإذا أوقد لها نار تهافت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول.

(١) في ب: عُدوها. (٢) في ب: تنقدح. (٣) في ب: الله عليه. (٤) في ب: على رضا ربه. (٥) في ب: خيرهم. (٦) في ب: المراد بهذا الجزاء على الأعمال.

وأما الجبال الصم الصلاب فتكون ﴿كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ أي: كالصوف المنفوش الذي بقي ضعيفاً جداً تطير به أدنى ربح.

قال تعالى: ﴿وَرَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾. ثم بعد ذلك تكون هباءً متثوراً، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد، فيحسب ذلك تنصب الموازين وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء.

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت حسناته على سيئاته ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ في جنات النعيم.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته، ﴿فَأُتْمَهُ هَاوِيَةٌ﴾ أي: مأواه ومسكنه النار التي من أسماؤها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾.

وقيل: إن معنى ذلك فأم دماغه هاوية في النار أي: يلتقي في النار على رأسه.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ﴾ وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله هي: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ أي: شديدة الحرارة قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفاً نستجير بالله منها.

تفسير سورة ألهاكم التكاثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٨) ﴿الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ○ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ○ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ○ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ○ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ○ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ○ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ○ ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ يقول تعالى موبخاً عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفته والإجابة إليه وتقديم محبته على كل شيء:

﴿الْهَنَكُمُ﴾ عن ذلك المذكور ﴿التَّكَاثُرُ﴾ ولم يذكر المتكاثر به ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاترة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى (١).

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم [وتشاغلكم] ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فانكشف لكم حينئذ الغطاء، ولكن بعدما تعذر عليكم استنفاة.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

٦٠٠

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١) إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ (١١)

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣)

يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ (٤)

وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) فَأَمَّا

مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٧)

وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُتْمَهُ هَاوِيَةٌ (٩)

وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَةٌ (١٠) نَارُ حَامِيَةٍ (١١)

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْهَنَكُمُ التَّكَاثُرُ (١) حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ (٢) كَلَّا سَوْفَ

تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ

عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا

عَيْنَ الْيَقِينِ (٧) ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (٨)

ودل قوله: ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أن البرزخ دار مقصودٌ منها النفوذ إلى الدار الباقية (٢)، لأن الله سماهم زائرين ولم يسهمهم مقيمين.

فدل ذلك على البعث والجزاء بالأعمال (٣)، في دار باقية غير فانية، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ○ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ○ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ○ أي: لو تعلمون ما أمامكم علماً يصل إلى القلوب، لما ألهاكم التكاثر ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة.

ولكن عدم العلم الحقيقي صيركم إلى ما ترون. ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ أي: لتردن القيامة فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي: رؤية بصرية كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُهَا وَلَمْ يَجِدُوا عِنَهَا مَصْرَفًا﴾.

﴿ثُمَّ لَتَسْتَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ الذي تنعمتم به في دار

(١) في ب: وليس المقصود منه وجه الله. (٢) في ب: الآخرة. (٣) في ب: على الأعمال.

سُورَةُ الْعَصْرِ ٦٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾

سُورَةُ الْهُمَزَةِ ٦٠٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبَلِّ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُحْمَةً ﴿١﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعَادِ ﴿٢﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٣﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعَادِ ﴿٤﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٥﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٦﴾

سُورَةُ الْفَيْتَانِ ٦٠٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْفَيْتَانِ فَفَعَلْ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفَيْلِ ﴿١﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعَادِ ﴿٢﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٣﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعَادِ ﴿٤﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٥﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٦﴾

تفسير سورة الهمزة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٩) ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُحْمَةً ﴿١﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعَادِ ﴿٢﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٣﴾ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْعَادِ ﴿٤﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ﴿٥﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٦﴾﴾

﴿وَبَلِّ﴾ أي: وعيد ووبال وشدة عذاب ﴿لِكُلِّ هُمْزَةٍ لُحْمَةً﴾ الذي يهزم الناس بفعله ويلمزمهم بقوله، فالهماز: الذي يعيب الناس ويطعن عليهم بالإشارة والفعل، واللاماز: الذي يعييبهم بقوله.

ومن صفة هذا الهماز اللماز أنه لا همَّ له سوى جمع العمال

الدينا، هل قمتم بشكره وأديتم حق الله فيه ولم تستعينوا به على معاصيه، فينعمكم نعيماً أعلى منه وأفضل.

أم اغتررتم به ولم تقوموا بشكره؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله فيعاقبكم على ذلك قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ هُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا قَالُوا يَا قَوْمِ نَحْنُ أَكْفَرُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَاصْبِرُوا هَلْ يَأْتِيكُمْ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ يَحْفَظُكُمْ وَنَحْنُ أَكْفَرُ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية.

تفسير سورة والعصر

[وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ أقسم تعالى بالعصر الذي هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابع. والخاسر مراتب متعددة متفاوتة:

قد يكون خساراً مطلقاً كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم واستحق الجحيم.

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان إلا من اتصف بأربع صفات:

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به.

والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها: الظاهرة والباطنة المتعلقة بحق الله وحق عباده^(١)، الواجبة والمستحبة.

والتواصي بالحق الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضاً بذلك، ويحثه عليه ويرغبه فيه.

والتواصي بالصبر على طاعة الله وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة.

فبالأميرين الأولين يكمل الإنسان^(٢) نفسه وبالأميرين الأخيرين يكمل غيره.

ويتكامل الأمور الأربعة يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح [العظيم].

(١) في ب: بحقوق الله وحقوق عباده. (٢) في ب: العبد.

وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرهابات دعوته ومقدمات^(١) رسالته، فله الحمد والشكر.

تفسير سورة لإيلاف قريش

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤-١) ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ ○ لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف ○ فليعبدوا ربَّ هذا البيت ○ الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوفٍ ○ قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجور متعلق بالسورة التي قبلها أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام لأجل التجارة والمكاسب. فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظَّم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي سفر أرادوا.

ولهذا أمرهم الله بالشكر فقال: ﴿فليعبدوا ربَّ هذا البيت﴾ أي: ليوحده ويخلصوا له العبادة. ﴿الذي أطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوفٍ﴾ فرغد الرزق والأمن من المخاوف من أكبر النعم الدنيوية الموجبة لشكر الله تعالى.

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة. وخصَّ الله بالربوبية البيت^(٢) لفضله وشرفه، وإلا فهو رب كل شيء.

تفسير سورة الماعون

[وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٧-١) ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْبَيْتِ﴾ ○ فذلك الذي يدعُ أليئيس ○ ولا يحضُّ على طاعة المسكين ○ فويلٌ للمُصَلِّين ○ الذين هم عن صلاتهم ساهون ○ الذين هم برباهم ○ ويستمعون الماعون ○ يقول تعالى ذامًا لمن ترك حقوقه وحقوق عباده:

(١) في ب: أدلة. (٢) في ب: الربوبية بالبيت.

وتعديده والغبطة به، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصللة الأرحام ونحو ذلك.

﴿يَحْسَبُ﴾ بجعله ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدُوهُ﴾ في الدنيا، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله الذي يظن أنه ينمي عمره.

ولم يدر أن البخل يقصف الأعمار ويخرب الديار، وأن البر يزيد في العمر.

﴿كَلَّا لَيَكِيدَنَّ﴾ أي: ليطرحن ﴿فِي الْخَطْمَةِ﴾ ○ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْخَطْمَةُ ○ تعظيم لها وتهويل لشأنها.

ثم فسرها بقوله:

﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ﴾ التي وقودها الناس والحجارة ﴿الَّتِي﴾ من شدتها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْآفِيَّةِ﴾ أي: تنفذ من الأجساد إلى القلوب.

ومع هذه الحرارة البليغة هم محبوبون فيها، قد أسوا من الخروج منها.

ولهذا قال: ﴿إِنهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ﴾ أي: مغلقة ﴿فِي عَمْدٍ﴾ من خلف الأبواب ﴿مُؤَمَّدَةٍ﴾ لئلا يخرجوا منها.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾.

[نعوذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية].

تفسير سورة الفيل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٥-١) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ○ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضَلُّيلٍ ○ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ○ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ○ فِعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّاكُولٍ ○ أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ، ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخراجه.

فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاءوا بجمع لا قبيل للعرب به من الحبشة واليمن.

فلما انتهوا إلى قرب مكة ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفًا على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، أي: متفرقة تحمل حجارة محماة من سجيل.

فرمتهم بها، وتبععت قاصيهم ودانيهم، فجمدوا وهمدوا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم ورد كيدهم في نحورهم، [وقصتهم معروفة مشهورة].

سُورَةُ الْكَوْثَرِ
٦٠٢

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَلْفُ قُرَيْشٍ ① إِلا فِيهِمْ رَحَلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ
فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ② الَّذِي أَطْعَمَهُمْ
مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ③

سُورَةُ الْمَاعُونِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ ① فَذَلِكَ الَّذِي
يَدْعُ الْيَتِيمَ ② وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ③
فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ④ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ
⑤ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ⑥ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ⑦

سُورَةُ الْكَوْثَرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ① فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ②
إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ③

والفضل الغزير الذي من جملته ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة من النهر الذي يقال له: «الكوثر».

ومن الحوض (٧) طوله شهر وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، آتيته كنجوم (٨) السماء في كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً.

ولما ذكر منته عليه أمره بشكرها فقال:

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ﴾ خصص هاتين العبادتين بالذكر لأنهما من أفضل العبادات وأجل القربات.

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع [في] القلب والجوارح لله، وتقلها في أنواع العبودية.

وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النخائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي: مبغضك وذامك ومنتقصك ﴿هُوَ

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ﴾ أي: بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ أي: يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه لقساوة قلبه؛ ولأنه لا يرجو ثواباً ولا يخشى (١) عقاباً.

﴿وَلَا يُحِصُّ﴾ غيره ﴿عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين.

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ أي: الملتزمون (٢) لإقامة الصلاة ولكنهم ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ أي: مضيعون لها تاركون لوقتها مفوتون لأركانها (٣).

وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات، والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الذم واللوم (٤).

وأما السهو في الصلاة، فهذا يقع من كل أحد حتى من النبي ﷺ.

ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة، وعدم الرحمة، فقال:

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ أي: يعملون الأعمال لأجل رياء الناس.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي: يمنعون إعطاء الشيء الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية أو الهبة، كالإناء والدلو والفأس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها، والسماحة به (٥).

فهؤلاء - لشدة حرصهم - يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

وفي هذه السورة الحث على إكرام (٦) اليتيم والمساكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص [فيها] وفي جميع الأعمال.

والحث على [فعل] المعروف وبإبدل الأمور الخفيفة كعارية الإناء والدلو والكتاب ونحو ذلك، لأن الله ذم من لم يفعل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الكوثر

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٣-١) ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْسِرْ ۝

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ممتناً عليه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير الكثير

(١) في ب: يخاف. (٢) كذا في ب، وفي أ: الذين ملتزمون. (٣) في ب: مخلون بأركانها. (٤) في ب: الذم والوعيد. (٥) في ب: يبذله والسماح به. (٦) في ب: إطعام. (٧) كذا في ب، وفي أ: ومن الحوض الذي يقال له: الكوثر. (٨) في ب: عدد نجوم السماء.

الْأَبْتَرُ أَي: المقطوع من كل خير مقطوع العمل مقطوع الذكر.
وأما محمد ﷺ فهو الكامل حقاً، الذي له الكمال الممكن
في حق المخلوق من رفع الذكر وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ.

تفسير سورة الكافرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا
أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ
عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝﴾ أي: قل للكافرين معلناً
ومصرحاً ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي: تبرأ مما كانوا يعبدون من
دون الله ظاهراً وباطناً.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ لعدم إخلاصكم لله في
عبادته^(١)، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة.
ثم كرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني
على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً.

ولهذا ميز بين الفريقين وفصل بين الطائفتين فقال:
﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَىٰ
شَاكِرَتِهِ﴾، ﴿أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُوا وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

تفسير سورة النصر

وهي مدنية^(٢)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٣) ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ
يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ
كَانَ تَوَّابًا﴾ في هذه السورة الكريمة بشارة وأمر لرسوله عند
حصولها، وإشارة وتنبية على ما يترتب على ذلك.

فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول
الناس في دين الله أفواجاً، بحيث يكون كثير منهم من أهله
وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المبشر به.

وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمر الله رسوله أن
يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره.

وأما الإشارة فإن في ذلك إشارتين:

إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين^(٣) ويزداد عند حصول
التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ۝ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُ إِنَّكَ كَانَ تَوَّابًا ۝

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝ سَبَّحْنَاهُ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝

والله يقول: ﴿لَيْنَ سَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾.

وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه
الأمّة، لم يزل نصر الله مستمراً، حتى وصل الإسلام إلى ما لم
يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره،
حتى حدث من الأمّة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلاههم
الله^(٤) بتفريق الكلمة وتشنت الأمر، فحصل ما حصل.

[ومع هذا] فللهذه الأمّة وهذا الدين من رحمة الله ولطفه ما
لا يخطر بالبال أو يدور في الخيال.

وأما الإشارة الثانية فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ
قد قُرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به.

وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة
والحج وغير ذلك.

فأمّر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال إشارة
إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره
بأفضل ما يجده، صلوات الله وسلامه عليه.

(١) في ب: إخلاصكم في عبادتكم لله. (٢) في ب: وهي مكة. (٣)

في ب: إشارة أن النصر يستمر للدين. (٤) في ب: فابتلوا.

وَلَمْ يُؤْكَدْ ۖ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدًا ﴿٥﴾ أَي: ﴿قُلْ﴾ قولاً جازماً به معتقداً له عارفاً بمعناه .

﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أَي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال الذي له الأسماء الحسنى، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل .
﴿اللَّهُ أَصْكَمٌ﴾ أَي: المقصود في جميع الحوائج .

فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الحليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي [كمل في رحمته، الذي] وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه .

ومن كماله أنه ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤْكَدْ﴾ لكمال غناه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوًا أَحَدًا﴾ لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله تبارك وتعالى .

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات .

تفسير سورة الفلق

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۖ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۖ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۖ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۖ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ أَي: ﴿قُلْ﴾ متعوذاً: ﴿أَعُوذُ﴾ أَي: الجأ والوذ وأعصم ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، أَي: فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح .

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ وهذا يشمل جميع ما خلق الله من إنس وجن وحيوانات، فيستعاذ بخالقها من الشر الذي فيها .

ثم خص بعدما عمّ فقال:

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ أَي: من شر ما يكون في الليل حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة والحيوانات المؤذية .

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ أَي: ومن شر السواحر اللاتي يستعن على سحرهن بالنفث في العقد التي يعقدنها على السحر .

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ والعاسد هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب .

فكان ﷺ يتأول القرآن ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي» .

تفسير سورة تبت

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٥) ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۖ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ سَيَصَلَّىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۖ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۖ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة [والأذية] للنبي ﷺ، فلا فيه دين ولا حمية للقرابة - فيحبه الله - .

فذهمه الله بهذا الذم العظيم الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة فقال:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أَي: خسرت يدها وشقي ﴿وَتَبَّ﴾ فلم يربح .

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ﴾ الذي كان عنده وأطغاه ولا ماكسبه فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به .

﴿سَيَصَلَّىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أَي: ستحيط به النار من كل جانب هو ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ .

وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول الله ﷺ، تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ، وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعد له في عنقه حبلاً ﴿مِّن مَّسَدٍ﴾ أَي: من ليف، أو أنها تحمل في النار الحطب على زوجها متقلدة في عنقها حبلاً من مسد .

وعلى كل، ففي هذه السورة آية باهرة من آيات الله .

فإن الله أنزل هذه السورة وأبو لهب وامرأته لم يهلكا .

وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان . فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة .

تفسير سورة الإخلاص

[وهي] مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٤) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۖ اللَّهُ أَصْكَمٌ ۖ لَمْ يَكِدْ

سُورَةُ الْاِخْلَاصِ ٦٠٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ① اللَّهُ الصَّمَدُ ② لَمْ يَلِدْ
وَلَمْ يُولَدْ ③ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ④

سُورَةُ الْفَلَقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِنْ
شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي
الْعُقَدِ ④ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤

سُورَةُ النَّاسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهٍ
النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي
يُوسَسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥

فإنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا القوم الضالون.

وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلاماً دائماً دائمين متواصلين أبد الأوقات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير كتاب الله بعونه، وحسن توفيقه، على يد جامعه، وكتابه «عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله» المعروف بابن سعدي، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، وذلك في غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين وثلاثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ (٣).

فاحتجج إلى الاستعاذة بالله من شره وإبطال كيده .
ويدخل في الحاسد العاين؛ لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع خبيث النفس .
فهذه السورة تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشر عموماً وخصوصاً .
ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره ويستعاذ بالله منه ، [ومن أهله] .

تفسير سورة الناس

وهي مدنية^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١-٦) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهٍ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوسَسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥﴾ وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها وما أدتها الذي من فنته وشره أنه يوسوس في صدور الناس، فيحسن [لهم] الشر ويريهم إياه في صورة حسنة وينشط إرادتهم لفعله .
ويقبح لهم الخير ويثبطهم عنه ويريهم إياه في صورة غير صورته .

وهو دائماً بهذه الحال يوسوس ويخنس، أي: يتأخر إذا ذكر العبد ربه، واستعان به على دفعه .
فينبغي له أن [يستعين] ويستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم .

وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها، وبألوهيته التي خلقهم لأجلها، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم، الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير .

والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس .

ولهذا قال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ .

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا .

ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنوبًا لنا حالت^(٢) بيننا وبين كثير من بركاته وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته .

ونرجوه ونأمل منه أن لا يحرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا،

(١) عدلت بخط مغاير في ب إلى: مكة . (٢) في ب: ذنوبنا التي حالت .

(٣) في ب: وقع النقل في شعبان ١٣٤٥، ربنا تقبل منا واعف إنك أنت الغفور الرحيم .

الملاحق

١- أصول وكرليات: من أصول التفسير وكرلياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن.

٢- تفسير الآيات الذي اختلف فيها النسختان.

أصول وكمليات

من أصول التفسير وكمياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن. (١)

في الأمم، ووقوع المثالات التي شاهدها الناس في الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين من الكفار والمشركين والملحدن بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم، في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية، والنعم العظيمة. وأن من تفرد بالكمال المطلق، والنعم كلها، هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون، إذا مُيزَّ وحقق وُجد شرًّا وباطلاً، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير: إذا فهمت ما دلَّت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمنًا، فاعلم أن لوازم هذه المعاني، وما لا تتم إلا به، وشروطها وتوابعها، تابعة لذلك المعنى فما لا يتم الخبر إلا به، فهو تابع للخبر، وما لا يتم الحكم إلا به، فهو تابع للحكم، وأن الآيات التي يُفهم منها التعارض والتناقض، ليس فيها تناقض ولا تعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة للاتقة بها. وأن حذف المتعلقات، من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي، والقرينة الحالية، كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود، لا بد منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان أمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقااص؛ كان إثباتاً للكمال المنافي لذلك النقص. وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه وتزههم عن شيء من النقااص، فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص، ومثله نفي النقااص عن دار النعيم، يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكمليات: أنه إذا وضع الحق وظهر ظهوراً جلياً، لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات، وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض

(١) هذه الخاتمة جعلها الشيخ - رحمه الله - في آخر الجزء الخامس لما طبع في حياته، وقد جعلتها في خاتمة التفسير.

النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، تعمُّ، وكذلك المفرد المضاف بعم، وأمثلة ذلك كثيرة.

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفرداً مضافاً إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولا تعتبر سبب النزول وحده، فإن «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب».

وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لا تزال تحدث، على العمومات القرآنية، فبذلك تعرف أن القرآن تبيانٌ لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث، ولا يستجد أمر من الأمور، إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تُفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كمليات القرآن، أنه يدعو إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرده بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عُبد من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه، ببيان إحكامه، وتمامه، وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه. ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ، من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحدٌ من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به، إن كانوا صادقين.

ويُقر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان، وبالنصر والظهور، وبشهادة أهل العلم المنصفين. ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه، وبين ما كان عليه أعداؤه، والمكذبون به، من الكذب في أخبارهم، والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقِه للسموات والأرض، اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى. ويذكر أيضاً أيامه

المحقق، وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئًا كثيرًا، فالإيمان هو: التصديق الجازم، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح.

والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده. وكذلك أمر الله بالتقوى، ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات، وزوال المكروهات. والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسمًا لتوقي جميع المعاصي، والبر اسمًا لفعل الخيرات، وإذا أفردهما، دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدي، وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه، وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل.

فالمهتدي: من عرف الحق، وعمل به، وضده: الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به فهو الغاوي، ومن جهل الحق فهو الضال.

أمر الله بالإحسان، وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيع من النفع المالي والبدني والقولي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم.

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم، وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن، من الصلاح. وأيضًا يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا: الفساد.

والإفساد، قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين، وعلى الموقنين، وأنهم هم المستفوعون بالآيات القرآنية، والآيات الألفية.

واليقين أخص من العلم، فهو: العلم الراسخ، المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر، وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم

العاجل والآجل في عدة آيات، نحو تسعين موضعًا، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه. والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمانة بالسوء عنها. والصبر على أقدار الله المؤلمة، فيتلقاها بصبر وتسليم، غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر، وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة.

وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والشأن على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية، في مواضع كثيرة. أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، وأنهم المنتفعون بالآيات، التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبدُ مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه، فينهي نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة، ورحمته الخاصة به. فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات، وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حال من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة، وأثنى على المنيبين، وأمر بالإنابة إليه. وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله، في كل حالة من أحواله، ينب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه، باللهج بذكره في كل وقت.

[والإنابة أيضًا: الرجوع إلى الله، بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فتكون الأعمال والأقوال، موزونة بميزان الشرع^(١)].

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين، وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص.

وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده: الرياء، والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر، وذم الكبير والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة.

والتكبر هو: رد الحق، واحتقار الخلق، وضد ذلك:

(١) ما بين القوسين في هامش النسخة بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله -.

واللطف، والتأييد.

الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العباد، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله.

ودعاء المسألة، وهو: سؤال الله جلب المنافع، ودفع المضار.

الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والمآكل، والمشارب والمكاسب. والخبيث: ضد ذلك.

وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا اللَّزِينُ ءَأَمِنُوا أَنفُسُهُمْ مِن طَبِيبَتِ مَا كَسَبَتْهُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾^(١).

النفقة، تشمل النفقة الواجبة: كالزكاة، والكفارة، ونفقة النفس، والعائلة، والماليك، والنفقة المستحبة: كالنفقة في جميع طرق الخير.

التوكل على الله والاستعانة به، قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة.

وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع الثقة به في حصول ذلك.

العقل الذي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المتفكرون بالآيات. هو: الذي يفهم، ويعقل الحقائق النافعة، ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: حجّر، ولُب، ونُهي، لأنه يحجر صاحبه وينهاه عما يضره.

العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي تهدي إليها.

والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده: الجهل.

لفظ الأمة في القرآن على أربعة أوجه: يراد به الطائفة من الناس وهو الغالب. ويراد به المدة، ويراد به الدين والملة، ويراد به الإمام في الخير.

لفظ استوى في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عُدِّيَ «على» كان معناه العلو والارتفاع، ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

وإن عُدِّيَ «إلى» فمعناه قصد، كقوله: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾.

(١) لم يتم الشيخ - رحمه الله - الآية، وبتمامها يتضح مراده، وتمامها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُمُوا إِلَيْهِ مِنْهُ تَتَفَتَحُونَ وَكُنْتُمْ بِآيَاتِهِ إِلَّا أَنْ تُخْبِتُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

التواضع، فقد أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وأن لا يحترق الخلق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه.

العدل هو: أداء حقوق الله، وحقوق العباد.

والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دماهم وأموالهم وأعراضهم. الصدق هو: استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك.

حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ ويراد بها ما أباحه الله وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾.

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد. فيشمل ذلك أداء حقوق الله، وخصوصاً الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

العهود والعقود، يدخل فيها التي بينه وبين الله، وهو: القيام بعبادة الله مخلصاً له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

الحكمة والقوام: فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. والإسراف والتبذير: مجاوزة الحد في الإنفاق. والتقتير والبخل عكسه؛ التقتير في النفقات الواجبة.

المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعاً وعقلاً، والمنكر عكسه.

الاستقامة: لزوم طاعة الله، وطاعة رسوله على الدوام. مرض القلب هو: اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأموال المحرمة.

النفاق: إظهار الخير، وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادي والنفاق العملي.

القرآن، كله مُحْكَمٌ، وأُحْكِمْت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق، وأحكامه في غاية الحسن. وكله متشابهٌ من جهة اتفاهه في البلاغة والحسن، وتصديق بعضه لبعض وكمال اتفاهه.

ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابهه ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني. ومحكمه، واضح مبين صريح في معناه، إذا رُدَّ إليه المتشابه، اتفق الجميع، واستقامت معانيه.

معية الله التي ذكرها في كتابه، نوعان: معية العلم والإحاطة، وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا.

ومعية خاصة، وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة،

في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

(العليم الخبير) وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والإسرار والإعلان، وبالواجبات، والمستحيلات، والممكنات، وبالعالم العلوي، والسفلي، وبالماضي، والحاضر، والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

(الحكيم) وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه، وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك: فيحكم بين عباده، في شرعه، وفي قدره، وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها. (الرحمن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرؤوف، الوهاب).

هذه الأسماء تقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه، التي عم بها جميع الوجود، بحسب ما تقتضيه حكمته، وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر، والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُمِبَهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ﴾ الآية.

والنعم والإحسان، كله من آثار رحمته، وجوده، وكرمه، وخيرات الدنيا والآخرة، كلها من آثار رحمته. (السميع) لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تقنن الحاجات.

(البصير) الذي يبصر كل شيء وإن رق وصغر، فيبصر دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء. ويبصر ما تحت الأرضين السبع، كما يبصر ما فوق السماوات السبع. وأيضاً سميع بصير، بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

(الحميد) في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

(المعجيد، الكبير، العظيم، الجليل) وهو الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى، وله التعظيم والإجلال، في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه، وإجلاله، والخضوع له، والتذلل لكبريائه.

وإن لم يُعَدَّ بشيء، فمعناه «كَمَل»، كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾.

التوبة: ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً.

الصراط المستقيم، الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه، هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله ﷺ.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق، يشمل جميع ما يقرب إلى الله: من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسبيح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

فصل

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة فنقول:

قد تكرر اسم (الرب) في آيات كثيرة.

و«الرب» هو: المربي جميع عباده، بالتدبير، وأصناف النعم، وأخص من هذا، تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم، وأرواحهم، وأخلاقهم، ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

(الله) هو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

(الملك، المالك) الذي له الملك، فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق، في الخلق، والأمر، والجزاء، وله جميع العالم، العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك، ومضطرون إليه.

(الواحد الأحد) وهو الذي توخَّد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك، ويجب على العبيد توحيده، عقداً، وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرده بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

(الصمد) وهو الذي تقصده الخلائق كلها، في جميع حاجاتها، وأحوالها وضروراتها، لما له من الكمال المطلق،

وصحة ما جاؤا به .

(المهيمن) المطلع على خفايا الأمور، وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علماً .

(القدير) كامل القدرة . بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سواها وأحكمها . وبقدرته يحيي ويميت، ويبعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قاله له: «كن فيكون» . وبقدرته يقرب القلوب، ويصرفها على ما يشاء ويريد .

(اللطيف) الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والباطن، والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصل إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى «الخير» وبمعنى «الرؤوف» .

(الحسيب) هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر، بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها .

(الرقيب) المطلع على ما أكتته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجراها، على أحسن نظام وأكمل تدبير .

(الحفيظ) الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أوليائه، من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم، وجزأها .

(المحيط) بكل شيء علماً، وقدرة، ورحمة، وقهراً . (القهار) لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته، وكمال اقتداره .

(المقيت) الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقنات . وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء، بحكمته وحمده .

(الوكيل) المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته . الذي تولى أوليائه، فيسره لليسرى، وجنبهم العسرى، وكفاهم الأمور . فمن اتخذه وكيلاً كفاه ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ .

(ذو الجلال والإكرام) أي: ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة، والوجود، والإحسان العام والخاص . المكرم لأوليائه وأصفيائه، الذين يجلوته، ويعظمونه، ويحبونه .

(الودود) الذي يحب أنبياءه ورسله، وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه وُدّاً، وإخلاصاً، وإنابة من جميع الوجوه .

(العفو، الغفور، الغفار) الذي لم يزل، ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالغفران والصفح عن عباده، موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفوه ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو، لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ .

(التواب) الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً، تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين: أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم، قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم .

(الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ) أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المتمتزة عن جميع العيوب، والمتمتزة عن أن يقاربه أو يماثله، أحد في شيء من الكمال ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أندَادًا﴾ .

فالقُدوس كالسلام، يفيان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى، ثبت الكمال كله .

(العلي، الأعلى) وهو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر، فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، ويجمع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى .

(العزیز) الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة، وخضعت لعظمته .

(القوي، المتين) هو في معنى العزيز . (الجبار) هو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى «الرؤوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لا ذبه، ولجأ إليه .

(المتكبر) عن السوء، والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه .

(الخالق، البارئ، المصور) الذي خلق جميع الموجودات، وبرأها، وسواها بحكمته، وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل، ولا يزال على هذا الوصف العظيم .

(المؤمن) الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، ويكامل الجلال والجمال، الذي أرسل رسله، وأنزل كتبه بالآيات والبراهين . وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم

فجميع المصالح والمنافع، منه تطلب، وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء، بحكمته ورحمته. (الشهيد) أي: المطلع على جميع الأشياء، سمع جميع الأصوات، خفيها وجليها. وأبصر جميع الموجودات، دقيقتها وجليلها، صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده، وعلى عباده، بما عملوه.

(المبدئ، المعيد) قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، ابتداء خلقهم؛ ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم، ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي المسيئين بإساءتهم، وكذلك، هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئاً فشيئاً، ثم يعيدها كل وقت.

(الفعال لما يريد) وهذا من كمال قوته، ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريدُه يفعلُه بلا ممانع، ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين، على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له: «كن فيكون». ومع أنه الفعال لما يريد، فإنارادته تابعة لحكمته وحمده، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة، لكل ما فعله ويفعله.

(الغني، المغني) فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالفاً، قادراً، رازقاً، محسناً، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني، الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه، غني عاماً، والمغني لخواص خلقه، بما أفاض على قلوبهم، من المعارف الربانية، والحقائق الإيمانية.

(الحليم) الذي يبدؤ على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة العصاة بعصيانهم. ويستعذبهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينبوا.

(الشاكر، الشكور) الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة، تقرب الله منه أكثر.

(القريب، المحيب) أي: هو تعالى، القريب من كل أحد، وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد، بعلمه، وخبرته، ومراقبته، ومشاهدته، وإحاطته. وقرب خاص من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو قرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره، من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسديده، ومن

(الفتاح) الذي يحكم بين عباده، بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدرية، وأحكام الجزاء. الذي فتح بلفظه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفة، ومحبته، والإجابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة، والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب، التي ينالون بها خير الدنيا والآخرة ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

(الرزاق) لجميع عباده، فما من دابة في الأرض، إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان: رزق عام، شمل البر والفاجر، والأولين والآخرين، وهو رزق الأبدان.

ورزق خاص وهو رزق القلوب، وتغذيتها بالعلم والإيمان.

والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين، على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

(الحكم، العدل) الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة، بعدله وقسطه. فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يُحمّل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

(جامع الناس) ليوم لا ريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم، فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين، بكمال قدرته، وسعة علمه.

(الحي، القيوم) كامل الحياة والقائم بنفسه، القيوم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم، وجميع أحوالهم، «الحي»: الجامع لصفات الذات، و«القيوم»: الجامع لصفات الأفعال.

(النور) نور السموات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته، والإيمان به، ونور أفئدتهم بهدأيته، وهو الذي أنار السموات والأرض، بالألوان التي وضعها، وحجابها النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

(بديع السموات والأرض) أي: خالقهما ومبدعهما، في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

(القابض، الباسط) يقبض الأرزاق والأرواح، ويبسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

(المعطي، المانع) لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع،

قلوبهم منية إليه، متفاداة لأمره.

وللرشيد معنى، بمعنى الحكيم فهو: الرشيد في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير، ورشد، وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

(الحق) في ذاته وصفاته. فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فهو الذي لم يزل، ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً.

ف قوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق وكل شيء ينسب إليه فهو حق، ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، وأن الله هو العلي الكبير.

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾،
﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾، ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. وصلى الله وسلم على محمد، وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك، وكتبه، العبد الفقير إلى ربه «عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي». غفر الله له ولوالديه، ومشايخه، وأحبابه، وجميع المسلمين. آمين

آثاره الإجابة للداعين، والإثابة^(١) للعابدين، فهو المجيب إجابة عامة، للداعين، مهما كانوا، وأين كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا، الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة، للمستجيبين له، المتقادين لشرعه، وهو المجيب أيضاً للمضطرين، ومن انقطع رجائهم من المخلوقين، وقوي تعلقهم به، طمعاً، ورجاءً، وخوفاً.

(الكافي) عباده جميع ما يحتاجون، ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه وديناه.

(الأول، والآخر، والظاهر، والباطن).

قد فسرها النبي ﷺ تفسيراً جامعاً واضحاً، فقال يخاطب ربه: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء».

(الواسع) الصفات، والنعوت، ومتعلقاتها، بحيث لا يُحصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، واسع العظمة، والسلطان، والملك، واسع الفضل، والإحسان، عظيم الجود والكرم.

(الهادي، الرشيد) أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل

ملحق بتفسير الآيات الذي اختلفت فيها النسختان

المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه.

ومن تأمل الآيتين، اتضح له أن القول الآخر في الآية، هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التربص أربعة أشهر وعشراً، على وجه التحتميم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت، أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم، حولاً كاملاً، جبراً لخاطرها، وبراً بميتهم، ولهذا قال: ﴿وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ أي: وصية من الله لأهل الميت، أن يستوصوا بزوجته، ويمتعوها ولا يخرجوها.

فإن رغبت أقامت في وصيتها، وإن أحببت الخروج فلا حرج عليها، ولهذا قال: ﴿فَإِنْ حَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ﴾ أي: من التجمل واللباس. لكن الشرط، أن يكون بالمعروف، الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار، وختم الآية بهذين الاسمين العظيمين، الدالين على كمال العزة، وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته، حيث وضعها في مواضعها اللاتقة بها.

(٢٤١، ٢٤٢) ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّحٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿ لما بين في الآية السابقة، إمتاع المفارقة بالموت، ذكر هنا أن كل مطلقة، فلها على زوجها، أن يمتهها ويعطيها ما يناسب حاله وحالها، وأنه حق، إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة.

فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق، وطلقها قبل الدخول، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره.

وإن كان مسمى لها، فمتاعها نصف المسمى.

وإن كانت مدخولاً بها، صارت المتعة مستحبة، في قول جمهور العلماء.

ومن العلماء من أوجب ذلك، استدلالاً بقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ والأصل في «الحق» أنه واجب، خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة.

فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين، أنى على أحكامه وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقتها للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده، أن يعقلوا عنه ما بينه، فيعقلونها حفظاً، وفهماً، وعملاً بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

(٢٣٨، ٢٣٩) ثم قال تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْاُوسَطَى وَفُؤُومُوا لِلَّهِ قَلْبَيْنِ ۗ فَإِنْ خِفْتُمْ فِرَاجًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ يأمر تعالى بالمحافظة ﴿عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ عمومًا، وعلى ﴿الصَّلَاةِ الْاُوسَطَى﴾ وهي العصر خصوصًا.

والمحافظة عليها: أداؤها بوقتها، وشروطها، وأركانها. وخشوعها، وجميع ما لها، من واجب ومستحب.

وبالمحافظة على الصلوات، تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وَفُؤُومُوا لِلَّهِ قَلْبَيْنِ﴾، أي: ذليلين مخلصين خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع.

وقوله: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ حذف المتعلق، ليعم الخوف من العدو، والسبع، وفوات ما يتضرر العبد بفوته، فصلوا ﴿رِجَالًا﴾ ماشين على أرجلكم.

﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ على الخيل والإبل، وسائر المركوبات، وفي هذه الحال، لا يلزمه الاستقبال، فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن، صلى صلاة كاملة.

ويدخل في قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضًا، الإكثار من ذكر الله، شكرًا له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، لما فيه سعادة العبد.

وفي الآية الكريمة، فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم، الإكثار من ذكر الله.

وفيه الإشعار أيضًا أن الإكثار من ذكره، سبب لتعليم علوم آخر، لأن الشكر مقرون بالمزيد.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَّعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ حَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

(٢٤٠) اشتهر عند كثير من المفسرين، أن هذه الآية الكريمة، نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذُرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، وأن الأمر كان على الزوجة، أن تربص حولاً كاملاً، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر.

ويجيبون عن تقدم الآية الناسخة، أن ذلك تقدم في الوضع، لا في النزول، لأن شرط النسخ أن يتأخر عن

أَتَيْتَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي كُلِّ سُبُوتٍ مِائَةَ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُصَلِّفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ .

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق، أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والعاملون أجرهم عنده مدخرًا، أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم، ما لا يمكن التعبير عنه .

والمراد بالقرض الحسن: هو ما جمع أوصاف الحسن، من النية الصالحة، وسماحة النفس، بالنفقة، ووقوعها في محلها وأن لا يتبعها المنفق متًا ولا أذى؛ ولا مبطلاً ومنقصًا .

(٢٤٦) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَدَىٰ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لَنَبِيِّ لَّهُمْ أَعَنْتَ لَنَا مَلِكًا نُنْقِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى آخر القصة. يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة، ليعتبروا وليرغبوا في الجهاد، ولا ينكلوا عنه، فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، والناكلين خسروا الأمرين .

فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة؛ تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكًا؛ لينقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقاتل مقال .

وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا، مجرد كلام لا فعل معه، فأجابوا نبيهم بالعزم الجازم، وأنهم التزموا ذلك التزامًا تامًا، وأن القتال متعين عليهم، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم؛ ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم .

(٢٤٧) وأنه عين لهم نبيهم طالوت ملكًا، يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت، وثم من هو أحق منه بيتًا وأكثر مالًا .

فأجابهم نبيهم: أن الله اختاره عليكم؛ بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة؛ وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة، وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال؛ ولا يكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة في بيوتهم، فالله يؤتي ملكه من يشاء .

(٢٤٨) ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بإقناعهم بما ذكره؛

من كفاءة طالوت؛ واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم: ﴿إِنَّ آيَةَ مَلِكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ النَّبُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَيَقِفَ وَمِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ﴾ وكان

(٢٤٣) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَئِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حل الوباء بديارهم، فخرجوا بهذه الكثرة، فرارًا من الموت، فلم ينجهم الفرار، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بتقيض مقصودهم، وأمانتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم، فأحياهم، إما بدعوة نبي، كما قاله كثير من المفسرين، وإما بغير ذلك .

ولكن ذلك، بفضل وإحسانه، وهو لا زال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله بالاعتراف بها وصرفها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصرُوا بواجب الشكر .

وفي هذه القصة، عبرة بأنه على كل شيء قدير، وذلك آية محسوسة على البعث، فإن هذه القصة معروفة منقولة، نقلًا متواترًا عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى، بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين .

ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفًا من الأعداء، وجبتًا عن لقاءهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال، وأخبر عن بني إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم .

وعلى الإحتمالين فإن فيها ترغيبًا في الجهاد، وترهيبًا من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يغني عن الموت شيئًا. ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ .

(٢٤٤، ٢٤٥) ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كَثِيرَةً ۝ وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرجعون﴾ جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأمرين، وحث على الإخلاص فيه، بأن يقاتل العبد، لتكون كلمة الله هي العليا، فإن الله ﴿سميع﴾ للأقوال، وإن خفيت، ﴿عليم﴾ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها .

وأيضًا، فإنه إذا علم المجاهد في سبيله، أن الله سميع عليم، هان عليه ذلك، وعلم أنه بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، وأنه لا بد أن يمددهم بعونه ولطفه .

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أقرض الله المليء الكريم، ووعده المضاعفة الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ

وحياً من الله، مطابقاً للواقع، وفي هذه القصة عبر كثيرة للأمة.

منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة كما أن الناكلين، ولو استراحوا قليلاً، فإنهم سيتبعون طويلاً.

ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء: إنه ينبغي للأمر للجيوش أن يتفقدوها عند فصولها، فيمنع من لا يصلح للقتال، من رجال وخيل وركاب، لضعفه، أو ضعف صبره، أو لتخذيذه، أو خوف الضرر بصحته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور البأس، تقوية المجاهدين، وتشجيعهم، وحثهم على القوة الإيمانية، والاتكال الكامل على الله، والاعتماد عليه، وسؤال الله الثبوت، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان، ولكن عند حضوره، تنحل عزمته، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد».

فهؤلاء الذين عزموا على القتال، وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم، لما جاء الوقت، نقص أكثرهم، ويشبه هذا قوله ﷺ: «أسألك الرضا بعد القضاء»؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفس، هو الرضا الحقيقي.

(٢٥٣) وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَنْهَاهُمْ مِّنْ كَلِمٍ لَّهِ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَخْتَلَفْنَا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى الْبَنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَدِهِمْ مِّنْ بَدِيٍّ مَا جَاءَتْهُمْ الْبِنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ فَعَلَ مَا يُرِيدُ﴾ يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة، والتخصيصات الجميلة، بحسب ما من الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل؛ واليقين الراسخ، والأخلاق العالية، والآداب السامية، والدعوة، والتعليم، والنفع العميم.

فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم

هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء.

فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت، ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم، حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ فحينئذ سلموا وانقادوا.

(٢٤٩) فلما ترأس فيهم طالوت، وجندهم ورتبهم، وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والهمم، ما يحتاج إلى تمييز الصابر من الناكل، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ تمرن عليه وقت حاجة إلى الماء.

﴿فَمَنْ شَرَبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّيْ﴾ أي: لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره، ووفور جزعه، ﴿وَمَنْ لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيْ﴾ لصدقه وصبره، ﴿إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾ أي: فإنه سماح فيها.

فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء، شربوا كلهم منه ﴿إِلَّا قَلِيلاً يَنْهَاهُمْ﴾ فإنهم صبروا ولم يشربوا. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ قَالُوا﴾ أي: الناكلون أو الذين عبروا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَاوِزٍ وَجُؤُودٍ﴾.

فإن كان القائلون هم الناكلين، فهذا قول يبررون به نكولهم. وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت، فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كَمْ مِّن فِتْنَةٍ فَلَئِنَّ غَلَبَتِ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ يَّذُنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بعونه وتأييده، ونصره، فثبتوا، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده.

(٢٥٠) ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ﴾ ﷺ ﴿جَاوِزَ﴾ وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم.

﴿وَمَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: داود ﴿الْمُلْكُ وَالْحِكْمَةُ﴾ النبوة والعلوم النافعة، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

(٢٥١) ثم بين تعالى فائدة الجهاد فقال: ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ باستيلاء الكفرة والفجار، وأهل الشر والفساد.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حيث لطف بالمؤمنين، ودافع عنهم وعن دينهم، بما شرعه وبما قدره.

(٢٥٢) فلما بين هذه القصة قال لرسوله ﷺ: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَنْوَلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

ومن جملة الأدلة على رسالته، هذه القصة، حيث أخبر بها

من رفعه فوق الخلائق درجات. الله في يوم لا تغد فيه المعاوزات بالبيع ونحوه، ولا التبرعات، ولا الشفاعات، فكل أحد يقول: ما قدمت لحياتي.

فتقطع الأسباب كلها، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به، يوم لا يتفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَضْعَفُ مِمَّا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَأَمْنُونَ﴾، ﴿وَمَا تَقْتُلُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ جَزَاءُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ وذلك لأن الله خلقهم لعبادته ورزقهم وعافاهم ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً واستعانوا بنعمه على الكفر والفسوق والعصيان، فلم يبقوا للعدل موضعاً فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

(٢٥٥) ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ أخبر ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة، وسعة الصفات للباري تعالى.

فأخبر أنه ﴿الله﴾ الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فالألوهية غيره، وعبادة غيره باطلة.

وأه ﴿الْحَيُّ﴾ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر، والقدرة، والإرادة، وغيرها، والصفات الذاتية.

كما أن ﴿الْقَيُّومُ﴾ تدخل فيه جميع صفات الأفعال، لأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدتها وأبقاها، وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقائها.

ومن كمال حياته وقيوميته، أنه ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ﴾ أي: نعاس ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ لأن السنة والنوم، إنما يعرضان للمخلوق، الذي يعتره الضعف، والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك جميع ما في السماوات والأرض، فكلهم عبيد لله مماليك، لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿إِنْ

وخصّ عيسى ابن مريم أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقاً، وعبدته صدقاً، وأن ما جاء به من عند الله كله حق، فجعله يبرئ الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وكلم الناس في المهد صبياً، وأيده بروح القدس، أي: بروح الإيمان.

فجعل روحانيته فائقةً روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عامّاً لكل مؤمن، بحسب إيمانه، كما قال: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ لكن ما لعيسى أعظم مما لغيره، لهذا خصه الله بالذكر.

وقيل: إن روح القدس - هنا - جبريل، أيده الله بإعانتة ومؤازرته، لكن المعنى هو الأول.

ولما أخبر عن كمال الرسل، وما أعطاهم من الفضل والخصائص، وأن دينهم واحد، ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك ومقتضاه، أن تجتمع الأمم على تصديقهم، والانقياد لهم، لما آتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم.

فمنعهم من آمن، ومنهم من كفر، ووقع لأجل ذلك الاقتتال الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضاً - بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال - ما اقتتلوا.

ولكن حكمته، اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى، يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسبباتها، وأنه إن شاء أبقاها، وإن شاء منعها، وكل ذلك تبع لحكمته وحده، فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيئته ممانع ولا معارض ولا معاون.

(٢٥٤) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خَلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ يحث الله المؤمنين على النفقات، في جميع طرق الخير؛ لأن حذف المعمول يفيد التعميم ويذكرهم نعمته عليهم بأنه هو الذي رزقهم، ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم، بل أتى بـ «من» الدالة على التبعض، فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق.

ومما يدعوهم أيضاً إخبارهم أن هذه النفقات، مدخرة عند

ليسرى، ويجنبهم العسرى.

وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير وليهم، ولا هم الله ما تولوا لأنفسهم، وخذلهم، ووكلمهم إلى رعاية من تولاهم، ممن ليس عنده نفع ولا ضرر، فاضلوهم وأشقوهم، وحرموهم هداية العلم النافع والعمل الصالح، وحرموهم السعادة، وصارت النار مآواهم، خالدين فيها مخلدين.

اللهم تولنا فيمن توليت.

(٢٥٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبُدُ وَيُيْتُّ قَالَ أَنَا أُخِي - وَأُيْتُّ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ يقص الله علينا من أنباء الرسل والسالفين، ما به تتبين الحقائق، وتقوم البراهين المتنوعة على التوحيد.

فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم ﷺ، حيث حاج هذا الملك الجبار، وهو نمرد^(١) البابلي، المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاботه في هذا الأمر، الذي لا يقبل شكاً، ولا إشكالاً، ولا ريباً، وهو توحيد الله وربوبيته، الذي هو أجلى الأمور وأوضحها.

ولكن هذا الجبار، غره ملكه وأطفاه، حتى وصلت به الحال إلى أن نفاه، وحاج إبراهيم الرسول العظيم، الذي أعطاه الله من العلم واليقين، ما لم يعط أحداً من الرسل، سوى محمد ﷺ.

فقال إبراهيم مناظراً له: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُعْبُدُ وَيُيْتُّ﴾ أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها، وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مبهاتاً: ﴿أَنَا أُخِي - وَأُيْتُّ﴾ وعنى بذلك أنني أقتل من أردت قتله، وأستبقي من أردت استبقاءه.

ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير، وحيدة عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذي تفرّد بإيجاد الحياة في المعدومات، وردّها على الأموات، وأنه هو الذي يميّت العباد والحيوانات بأجلها، بأسباب ربطها وبغير أسباب.

فلما رآه الخليل مموهاً تمويهاً، ربما راج على الهمج الرعاع، قال إبراهيم - ملزماً له بتصديق قوله إن كان كما يزعم: ﴿فَأَنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِي بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: وقف، وانقطعت حجته، واضمحلت شبهته.

وليس هذا من الخليل انتقالاً من دليل إلى آخر، وإنما هو إلزام لنمرد، بطرد دليله إن كان صادقاً، وأنى بهذا الذي لا

يقبل الترويج والتزوير والتمويه.

فجميع الأدلة: السمعية، والعقلية، والفطرية، قد قامت شاهدة بتوحيد الله، معترفة بانفراده بالخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه، لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكره إلا معاند مكابر، مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد.

(٢٥٩، ٢٦٠) ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء، فقال: ﴿أَوْ كَأَيُّ مَرٍّ عَلَى قَوْمٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَسْتَنْهَ وَأَنْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْمَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَأَنْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِئُهَا ثُمَّ كَسَّوْهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَاءَ مِنَّا فَتُحَدِّثُ الرِّبْعَةَ مِنَّا الطَّرِيقَ فَمَا تَصْرَفُ إِلَيْكَ أَمْ أَجْعَلُ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ نُنزِّلُ عَلَيْكَ مَائِدًا مِّنَ السَّمَاءِ وَتَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

هذان دليلان عظيمان، محسوسان في الدنيا قبل الآخرة، على البعث والجزاء، واحد أجراه الله على يد رجل شاك في البعث على الصحيح، كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليله إبراهيم.

كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده، فهذا الرجل مر على قرية قد دمرت تدميراً، وخوت على عروشها، قد مات أهلها وخربت عمارتها، فقال - على وجه الشك والاستبعاد -: ﴿أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا؟﴾ أي: ذلك بعيد، وهي في هذه الحال، يعني: وغيرها مثلها، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة.

فأراد الله رحمته ورحمة الناس، حيث أماته الله مائة عام، وكان معه حمار، فأماته معه، ومعه طعام وشراب، فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة، فلما مضت الأعوام المائة، بعثه الله، فقال: ﴿كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ وذلك بحسب ما ظنه، فقال الله: ﴿بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ﴾ والظاهر أن هذه المجاورة على يد بعض الأنبياء الكرام.

ومن تمام رحمة الله به وبالناس، أنه أراه الآية عياناً، ليقتنع بها، فبعدها عرف أنه ميت قد أحياه الله، قيل له: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَى

(١) كذا في الأصل وسيأتي بعد قليل تسميته (بنمرد).

ف فعل ذلك، و فرق أجزاءهن على الجبال، التي حوله،
ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سرعات، لأن السعي:
السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمهن، وإنما جئن
طائرات، على أكمل ما يكون من الحياة.

وخص الطيور بذلك، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من
غيرهن.
وأيضاً أزال في هذا كل وهم، ربما يعرض للنفس
المبطله، فجعلهن متعددات أربعة، ومزقهن جميعاً، وجعلهن
على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهراً علناً، يشاهد من قرب
ومن بعد، وأنه نجاهن عنه كثيراً، لئلا يظن أن يكون عاملاً
حيلة من الحيل، وأيضاً أمره أن يدعوهن فجئن مسرعات.
فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته.
وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله
وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتام عدله وفضله.

(٢٦٢، ٢٦١) ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَلْبَنَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ لِكُلِّ سُنْبُلَةٍ وَآتَتْ حَبًّا وَاللَّهُ يُضْعِفُ
لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝ الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ
لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ هذا حث عظيم من الله لعباده في
إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل في
هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في
سبيله، وفي تجهيز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع
المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين.

ويلى ذلك الإنفاق على المحتاجين، والفقراء والمساكين.
وقد يجتمع الأمران، فيكون في النفقة دفع الحاجات،
والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه
المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال:
﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق،
من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها،
فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع
متسلسلة، ومصالح متنوعة، فكان الجزء من جنس العمل.
ثم أيضاً ذكر ثواباً آخر للمنفقين أموالهم في سبيله، نفقة
صادرة، مستوفية لشروطها، منتفية موانعها، فلا يتبعون المنفق
عليه متاً منهم عليه، وتعداداً للنعم، وأذية له، قولية أو فعلية.
فهؤلاء ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ بحسب ما يعلمه منهم،
وبحسب نفقاتهم ونفعها، وبفضله الذي لا تناله، ولا تصل
إليه صدقاتهم.

﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فنفي عنهم المكروه

طَعَامِكُمْ وَشَرَابِكُمْ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ أي: لم يتغير في هذه المدد
الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله، فإن الطعام والشراب -
خصوصاً ما ذكره المفسرون: أنه فاكهة وعصير - لا يلبث أن
يتغير، وهذا قد حفظه الله مائة عام، ﴿وَرُ﴾ قيل له: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى
حِمَارِكَ﴾ فإذا هو قد تمزق وتفرق، وصار عظاماً نخرة.

﴿وَأَنْظُرْ إِلَى أَعْيُنِكُمْ كَيْفَ نُشْرِكُهَا﴾ أي: نرفع بعضها
إلى بعض، ونصل بعضها ببعض، بعدما تفرقت وتمزقت،
﴿ثُمَّ نَكْشُوهَا﴾ بعد الالتئام ﴿لَحْمًا﴾ ثم نعيد فيها الحياة.
﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ رأي عين لا يقبل الرب بوجه من
الوجوه، ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

فاعترف بقدرة الله على كل شيء، وصار آية للناس، لأنهم
قد عرفوا موته وموت حماره، وعرفوا قضيته، ثم شاهدوا هذه
الآية الكبرى، هذا هو الصواب في هذا الرجل.

وأما قول كثير من المفسرين: إن هذا الرجل، مؤمن أو نبي
من الأنبياء، إما عزيز أو غيره، وأن قوله: ﴿أَنْ يَحْيِيَ هَذِهِ اللَّهُ
بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يعني: كيف تعمر هذه القرية بعد أن كانت خراباً،
وأن الله أماته، ليريه ما يعيد لهذه القرية من عمارتها بالخلق،
وأنها عمرت في هذه المدة، وتراجع الناس إليها، وصارت
عامرة، بعد أن كانت دامرة - فهذا لا يدل عليه اللفظ، بل
ينافيه، ولا يدل عليه المعنى.

فأي آية وبرهان، برجع البلدان الدامرة إلى العمارة،
وهذه لم تزل تشهد، تعمر قرى ومسكن، وتخرب أخرى،
وإنما الآية العظيمة في إحيائه بعد موته، وإحياء حماره، وإبقاء
طعامه وشرابه، لم يتعفن ولم يتغير.

ثم قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ صريح في أنه لم يتبين له إلا
بعدما شاهد هذه الحال الدالة على كمال قدرته عياناً.

(٢٦٠) وأما البرهان الآخر، فإن إبراهيم قال طالباً من
الله، أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾
ليزيل الشبهة عن خليله.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿يٰٓأَبْرَاهِيمُ﴾ يارب، قد آمنت أنك على كل
شيء قدير، وأنك تحيي الموتى، وتجازي العباد، ولكن أريد
أن يطمئن قلبي، وأصل إلى درجة عين اليقين.

فأجاب الله دعوته، كرامة له، ورحمة بالعباد، ﴿قَالَ فَخُذْ
أَبْرَةً مِّنَ الطَّيْرِ﴾ ولم يبين أي الطيور هي، فالآية حاصلة بأي
نوع منها، وهو المقصود، ﴿فَصَرْهَنَّ إِلَيْكَ﴾ أي: ضمنهن،
واذبحهن، ومزقهن.

﴿ثُمَّ أَجْعَلَ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا
وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

الماضي، بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب، واندفع عنهم المكروه.

(٢٦٣) ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعَهَا أَدَىٰ

وَأَللَّهُ عَزَّيْزٌ حَلِيمٌ﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان: المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية سالحة، ولم يتبعها المنفق متاً ولا أذى.

ثم يليها قول المعروف، وهو الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة: الإحسان بالعمو والمغفرة، عمن أساء إليك، بقول أو فعل.

وهذان أفضل من الرابعة، وخير منها وهي: التي يتبعها المتصدق الأذى للمعطي، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشرّاً.

فالخير المحض - وإن كان مفضولاً - خير من الخير الذي يخالطه شر، وإن كان فاضلاً، وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤذي من تصدق عليه، كما فعله أهل اللؤم والحمق والجهل.

﴿وَأَللَّهُ عَزَّيْزٌ﴾ عن صدقاتهم، وعن جميع عبادته.

﴿حَلِيمٌ﴾ مع كمال غناه، وسعة عطاياه، يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافهم ويرزقهم، ويدر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي.

(٢٦٤-٢٦٦) ثم نهى أشد النهي عن المن والأذى،

وضرب لذلك مثلاً، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا

صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِيقَةً تَالِيَةً وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ

وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانَ عَلَيْهِ رَأْبٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ

صَلْدًا لَا يُعْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

الْكَافِرِينَ ۝ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ ءَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ

وَتَبْيِينًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَمَاتَتْ

أُكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُهْبِطْ وَابِلٌ قَطَلُ وَاللَّهُ يَمَّا تَصَلُونَ

بَصِيرٌ ۝ أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّجِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي

مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَسْوَءُ الْبُكْرِ وَلَمْ دُرِّيَتْ

ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ

لَكُمْ الْآيَاتِ لِمَا كُنْتُمْ تَنفَرُونَ﴾ ضرب الله في هذه الآيات

ثلاثة أمثلة: للمنفق ابتغاء وجهه ولم يتبع نفقته متاً ولا أذى.

ولمن أتبعها متاً وأذى. وللمرائي.

فأما الأول، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة،

لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَبْيِينًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ينفقون، وهم ثابتون على وجه

السماحة والصدق، فمثل هذا العمل ﴿كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ﴾ وهو المكان المرتفع، لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها غزير.

فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير، حصل ظل كاف، لطيب منبتها، وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها. ولهذا آتت ﴿أُكْلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ أي: مضاعفاً.

وهذه الجنة التي على هذا الوصف، هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل.

وأما من أنفق لله، ثم أتبع نفقته متاً وأذى، أو عمل عملاً، فأتى بمبطل لذلك العمل، فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة، لكن سُلِّطَ عليها ﴿إِعْصَارٌ﴾ وهو الريح الشديدة ﴿فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ وله ذرية ضعفاء، وهو ضعيف قد أصابه الكبر.

فهذه الحال من أفضح الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أَيُّودٌ أَحَدَكُمُ﴾ إلى آخرها بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلفها دفعة واحدة، بعد زهاء أشجارها، وإيناع ثمارها، مصيبة كبرى.

ثم حصول هذه الفاجعة - وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء، لا مساعدة منهم له، ومؤنتهم عليه - فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل، الذي عمل لله، ثم أبطل عمله بمناف له، يشبه حال صاحب الجنة، التي جرى عليها ما جرى، حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث: الذي يرائي الناس، وليس معه إيمان بالله، ولا احتساب لثوابه، حيث شبه قلبه بالصفوان، وهو الحجر الأملس، عليه تراب يظن الرائي أنه إذا أصابه المطر، أنبت كما تنبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالحجر، الذي أصابه الوابل الشديد، فأذهب ما عليه من التراب، وتركه صلداً.

وهذا مثل مطابق لقلب المرائي، الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع.

فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها، تؤسس عليه، ولا غاية لها، تنتهي إليها، بل ما عمله، فهو باطل، لعدم شرطه.

والذي قبله بطل بعد وجود الشرط، لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف، لوجود شرطه الذي هو: الإيمان والإخلاص والثبات، وانتفاء الموانع المفسدة.

وهذه الأمثال الثلاثة، تنطبق على جميع العاملين، فلينز

العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة، والأمثال المطابقة.

﴿وَذَلِكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾.

(٢٦٩) ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ لما ذكر أحوال المنفقين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، وينالون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه. والحكمة هي: العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حرق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع الخلق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام. ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم ﴿إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وهم أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه.

وهذان الأمران: وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات.

وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: «لا حسد إلا في اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها للناس».

(٢٧٠، ٢٧١) ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ○ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفَقْرَةَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَحْمِلُونَ خَيْرٌ﴾ يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر الناذرون، فإن الله يعلم ذلك.

ومضمون الإخبار بعلمه، يدل على الجزاء، وأن الله لا يضيع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه، من نيات صالحة، أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم، أو يقتحمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه

(٢٨٧، ٢٨٨) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَرْجَبْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِصَادِقِينَ إِلَّا أَنْ تُحِصُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ○ السَّيِّئَاتُ يَذَّكَّرُ بِهَا الْقَرْيَةُ وَالْمَرْكُ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يحث البارئ عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض، من الحبوب والثمار، وهذا يشمل زكاة التقدين، والعروض كلها - المعدة للبيع والشراء - والخارج من الأرض: من الحبوب والثمار، ويدخل في عمومها الغرض والنفل.

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها، ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء الدون، يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه، لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض.

فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والممنوع إخراج الرديء، فإن هذا لا يجزىء عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المندوب.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثهم عليها، لنفعهم، ومحض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه، وسعة عطاياه، فهو الحميد فيما يشربه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام.

وحميد في أفعاله، التي لا تخرج عن الفضل والعدل والحكمة. وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يبلغ العباد كنهها، ولا يدركون وصفها.

فلما حثهم على الإنفاق النافع، ونهاهم عن الإمساك الضار، بين لهم أنهم بين داعيين.

داعي الرحمن، يدعوهم إلى الخير، ويعددهم عليه الخير، والفضل والثواب العاجل والآجل، وإخلاف ما أنفقوا.

وداعي الشيطان، الذي يحثهم على الإمساك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفتقروا. فمن كان مجيباً لداعي الرحمن، وأنفق مما رزقه الله، فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيباً لداعي الشيطان، فإنه إنما يدعو حزبه، ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي: واسع الصفات، كثير الهبات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وعليم بمن هو أهل، فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يعني أنه ينبغي أن تتحروا بصدقاتكم الفقراء، الذين حسبوا أنفسهم في سبيل الله، وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوهم اضطرارًا، لم يلحفوا في السؤال.

فهذا الصنف من الفقراء أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكرًا لهم على ما اتصفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق لا إلى الخلق.

ومع ذلك فالإنفاق في طرق الإحسان وعلى المحاويع حيثما كانوا، فإنه خير وأجر، وثواب عند الله ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِّبَاعِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

فإن الله يظلمهم بظلمه يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات، ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكربات. وقوله: ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك بأنه عند ربهم يدل على شرف هذه الحال ووقوعها في الموقع الأكبر كما في الحديث الصحيح: «إن العبد ليتصدق بالتمره من كسب طيب، فيقبلها الجبار بيده، فيريها لأحدكم كما يري أحدكم فلهو، حتى تكون مثل جبل العظيم».

(٢٧٥-٢٨١) ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْطِئُ الشَّيْطَانَ مِنَ الْمَيْمَنِ ذَلِكَ يَأْتُهُمْ قَالُوا إِنَّمَا اتَّبَعْنَا مِثْلَ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ○ يَمْحُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصِّدْقَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ○ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ○ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ○ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ بُشْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَطْلُمُونَ وَلَا تَطْلُمُونَ ○ وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَلْتَضْرِبُوا إِلَى مَيْسَرَةٍ وَإِنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ○ وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ لما ذكر الله حالة المنفقين وما لهم من الله من الخيرات، وما يكفر عنهم من الذنوب والخطيئات،

أنصار، ينصرونهم ويمنعونهم، وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات.

وأخير أن الصدقة إن أبداها المتصدق، فهي خير، وإن أخفاها، وسلمها للفقير، كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير، إحسان آخر.

وأيضًا فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السعة الذين يظلمهم الله في ظله: «من تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه».

وفي قوله: ﴿وَإِنْ تُخْفُوا وَتُؤْتُوهُمَ الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ فائدة لطيفة، وهو أن إخفاءها خير من إظهارها، إذا أعطيت للفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري، لم يكن في الآية، ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع تدل على مراعاة المصلحة، وربما كان الإظهار خيرًا، لحصول الأسوة والافتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ في هذا: أن الصدقات يجتمع فيها الأمران:

حصول الخير، وهو: كثرة الحسنات والثواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الديني والأخروي، بتكفير السيئات. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كلًا بعمله، بحسب حكمته.

(٢٧٢) ﴿أَلَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُلَاقِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي: إنما عليك - أيها الرسول - البلاغ، وحث الناس على الخير، وزجرهم عن الشر، وأما الهداية، فييد الله تعالى.

ويخبرهم عن المؤمنين حقًا، أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم، واحتساب ثوابه، لأن إيمانهم يدعوهم إلى ذلك، فهذا خير وتركية للمؤمنين ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص.

وكرر علمه - تعالى - بنفقاتهم، لإعلامهم أنه لا يضع عنده مثقال ذرة: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

(٢٧٤، ٢٧٣) ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْتَسِبُ لَهُمُ الْجَاهِلُ الْأَغْنِيَاءُ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ○ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْإِتِّبَاعِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ

ءَامُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ ﴿الآية﴾
 لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب
 الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصاً إقامة الصلاة وإيتاء
 الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وإن الزكاة
 إحسان إلى الخلق ينافي تعاطي الربا، الذي هو ظلم لهم
 وإساءة عليهم.

ثم وجه الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه ويذروا ما
 بقي من معاملات الربا، التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك وأنهم
 إن لم يفعلوا ذلك، فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من
 أعظم ما يدل على شناعة الربا، حيث جعل المصر عليه
 محارباً لله ورسوله.

(٢٧٩) ثم قال: ﴿وَإِنْ تَبْتُمْ﴾ يعني من المعاملات
 الربوية.

﴿فَلَكُمْ رُؤُوسٌ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ﴾ الناس بأخذ الربا
 ﴿وَلَا تَظْلَمُونَ﴾ ببخسكم رؤوس أموالكم.

فكل من تاب من الربا، فإن كانت معاملات سالفة فله ما
 سلف، وأمره منظور فيه، وإن كانت معاملات موجودة وجب
 عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة فقد تجرأ على
 الربا.

وفي هذه الآية بيان لحكمة الربا، وأنه يتضمن الظلم
 للمحتاجين بأخذ الزيادة وتضاعف الربا عليهم، وهو واجب
 إنظارهم.

ولهذا قال: ﴿وَإِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرٍ فَغَطْرُهُ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ أي:
 وإن كان الذي عليه الدين معسراً، لا يقدر على الوفاء، وجب
 على غريمه أن يُظنَّه إلى ميسرة.

وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح أن يوفي
 ما عليه.

وإن تصدق عليه غريمه - بإسقاط الدين كله أو بعضه - فهو
 خير له، ويهون على العبد التزام الأمور الشرعية، واجتناب
 المعاملات الربوية، والإحسان إلى المعسرين، وعلمه بأن له
 يوماً يرجع فيه إلى الله، ويوفيه عمله، ولا يظلمه متقال ذرة كما
 ختم هذه الآية بقوله: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَىٰ اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ
 كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

(٢٨٢، ٢٨٣) ثم قال تعالى: ﴿يَتَّيِبُهَا لِلرَّبِّ ۖ ءَامُوا إِذَا
 نَدَّيْتُمْ بِدِينِ اللَّهِ أَجْرًا ۖ مُسَمًّى فَآسَؤُهُ ۖ وَلِيَكْتُبَ بَيْنَكُمْ كِتَابًا
 بِأَمَدٍ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۖ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ
 الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ۚ فَإِنْ كَانَ الَّذِي
 عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلْيُنَظَّرْ

ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم
 يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في طلب
 المكاسب الخبيثة كالمجانين عوقبوا في البرزخ والقيامة، أنهم
 لا يقومون من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ
 الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ أي: من الجنون والصرع.

وذلك عقوبة وخزي وفضيحة لهم، وجزاء لهم على
 مراتبهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إِنَّمَا أَلَمْتُكَ مِثْلَ الْإِبْرَاءِ﴾ فجمعوا
 - بجرأتهم - بين ما أحل الله وبين ما حرم الله، واستباحوا
 بذلك الربا.

ثم عرض تعالى العقوبة على المرابين وغيرهم فقال: ﴿فَمَنْ
 جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ بيان مقرون به الوعد والوعيد.

﴿فَأَنْهَى﴾ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ مما
 تجرأ عليه وتاب منه.

﴿وَأَمْرُهُ إِلَىٰ اللَّهِ﴾ فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على
 توبته فالله لا يضيع أجر المحسنين.

﴿وَمَنْ عَادَ﴾ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لآكل الربا
 ﴿فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ في هذا: أن الربا
 موجب لدخول النار والخلود فيها وذلك لشناعته، مالم يمنح
 من الخلود مانع الإيمان.

وهذا من جملة الأحكام التي تتوقف على وجود شروطها
 وانتفاء موانعها وليس فيها حجة للخروج كغيرها من آيات
 الوعيد.

فالواجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمن
 العبد بما تواترت به النصوص، من خروج من في قلبه أدنى
 مثقال حبة خردل من الإيمان، من النار.

ومن استحقاق هذه الموبقات لدخول النار إن لم يتب
 منها.

ثم أخبر تعالى أنه يمحق مكاسب المرابين ويربي صدقات
 المنفقين عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق أن الإنفاق
 ينقص المال وأن الربا يزيده، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته
 من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره.

فالمتجرئ على الربا، يعاقبه بنقص مقصوده وهذا مشاهد
 بالتجربة ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾.

﴿وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَتَمًّا﴾ وهو الذي كفر نعمة الله
 وجدد منه ربه وأتم بإصراره على معاصيه.

ومفهوم الآية أن الله يحب من كان شكوراً على النعماء تائباً
 من المآثم والذنوب.

ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِي

ليحظى بثوابها .

ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفاً بالعدل معروفاً بالعدل؛ لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتبراً عدلاً عند الناس رصياً، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصلًا بها المقصود، الذي هو حفظ الحقوق .

ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها، أن يحسن الكاتب الإنشاء والألفاظ المعتمدة في كل معاملة بحسبها، وللعرف في هذا المقام اعتبار عظيم .

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد، التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى، أن يقضي بكتابته حاجات العباد، ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَأْبُ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ .

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب هو اعتراف من عليه الحق، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك - لصغره أو سفهه، أو جنونه، أو خرسه، أو عدم استطاعته - أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه .

ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق التي تثبت بها الحقوق، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب ما أملى عليه من عليه الحق .

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين: من الصغار والمجانين والسفهاء ونحوهم .

ومنها: أن الولي يقوم مقام موليه في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه .

ومنها: أن من أمته في معاملة وفوضته فيها فقوله في ذلك مقبول وهو نائب منابك لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب منابهم فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر أولى بالقبول واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف .

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق - إذا أملى على الكاتب - أن يتقي الله ولا يبغض الحق الذي عليه، فلا يتقصه في قدره، ولا في وصفه، ولا في شرط من شروطه، أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك، فهو من المطففين الباخسين .

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجليلة والحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها .

بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا جَاهِلِينَ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبُ الشَّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَمْسَلْتُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقَوْمٌ لِلشَّهَدَةِ وَأَذَقَ آلَا تَرْثَابًا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكْتُبُكُمْ وَاللَّهُ يَكْتُبُ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ ۝ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنِ مَقْبُوضَةً فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فليؤدِّ الَّذِي أُوتِيَ مِنْهُمُ وَيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَدَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ ءَإِيْمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿١١٢٩﴾ .

احتوت هاتان الآيتان على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم، إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة، والإصلاحات التي لا يترشح العقلاء أعلى ولا أكمل منها، فإن فيها فوائد كثيرة .

منها: جواز المعاملات في الديون، سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلاً ثمنه، فكله جائز، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين فإنه من مقتضيات الإيمان، وقد أقرهم عليه الملك الديان .

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المداينات وحلول الإجازات .

ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولاً فإنه لا يحل، لأنه غرر وخطر، فيدخل في الميسر .

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون .

وهذا الأمر قد يجب، إذا وجب حفظ الحق، كالذي للعبد عليه ولاية كأموال اليتامى، والأوقاف والوكلاء والأمناء وقد يقارب الوجوب، كما إذا كان الحق متمحصاً للعبد، فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب، بحسب الأحوال المقضية لذلك .

وعلى كل حال، فالكتابة من أعظم ما تحفظ بها هذه المعاملات المؤجلة، لكثرة النسيان، ولوقوع المغالطات، وللاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى .

ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل، فلا يميل مع أحدهما لقرابة ولا غيرها، ولا على أحدهما لعداوة ونحوها .

ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال، ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما وبراءة ذمهما كما أمره الله بذلك، فليحتسب الكاتب بين الناس هذه الأمور،

أو أحدهما .

وفي هذا أيضًا أن الشاهد والكاتب - إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة - أنه يسقط عنهما الوجوب .

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف، لا يحل إضرارهم وتحميلهم ما لا يطيقون، ف ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ .

وكذلك على من أحسن وفعل معروفًا أن يتم إحسانه، بترك الإضرار القولي والفعلي بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك .

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة حيث وجبت، لأنه حق أوجهه الله على الكاتب والشاهد، ولأنه من مضارة المتعاملين .

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجليلة، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ لَكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ وهذه مصالح ضرورية للعباد .

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان .

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة أن يعود بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة بتذكير الكاتب بقوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾، ومع هذا: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته» .

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكتاب فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص ويتبعض، ولهذا لم يقل: «فأنتم فساق» أو «فاسقون» بل قال: ﴿فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ فيقدر خروج العبد عن طاعة ربه فإنه يحصل به من الفسوق بحسب ذلك .

واستدل بقوله تعالى: ﴿رَأَيْتُمْ أَهْلَ الْبُيُوتِ إِذْ جَاءَهُمُ الْمُرْسَلُونَ﴾ أن تقوى الله وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: علمًا تفرقون به بين الحقائق والحق والباطل .

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمنه أيضًا تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه تبيان كل شيء .

ومنها: مشروعية الوثيقة بالحقوق، وهي الرهون

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المداينات فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعًا حاضرًا فبني على الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة، لكثرتة وحصول المشقة فيه .

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن أو تعذر أو تعسر فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات: بيوع الإدارة، وبيوع الديون، وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها .

وإذا قيل: قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم، ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق وأقواها، وليس فيها ما ينافي ما ذكره النبي ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين .

فباب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين ينظر فيه إلى المرجحات والبيئات، بحسب حالها .

ومنها: أن شهادة المرأتين قائمة مقام الرجل الواحد في الحقوق الدنيوية، وأما في الأمور الدينية - كالرواية والفتوى - فإن المرأة فيه تقوم مقام الرجل والفرق ظاهر بين البايين .

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالبًا، وقوة حافظه الرجل .

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته فذكره الشاهد الآخر فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان إذا زال بالتذكير لقوله: ﴿أَنْ تَنْسِيَ الشَّاهِدُ مِمَّا شَهِدَ فَإِنْ تَذَكَّرْتُمْ فَهُوَ أَحْسَنُ﴾ ومن باب أولى، إذا نسي الشاهد ثم ذكر من دون تذكير فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين .

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته - ولو غلب على ظنه - لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم .

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع إذا دعي للشهادة، سواء دعي للتحمل أو للأداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها وأخبر عن نفعها ومصالحها .

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكاتب ولا بالشاهد بأن يدعي في وقت أو حالة تضرهما .

وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمتعاملين وأن يضار الشهود والكتاب، فإنه أيضًا نهى للكاتب والشاهد أن يضار المتعاملين

حدث به العبد نفسه ما لم يعمل أو يتكلم، فتلك الخطرات التي تتحدث بها النفوس التي لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهي العزائم المصممة، والأوصاف الثابتة في النفوس: أوصاف الخير وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: استقر فيها وثبت من العزائم والأوصاف. وأخبر أنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فمن تمام قدرته محاسبة الخلائق وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

(٢٨٥، ٢٨٦) ﴿أَمَّا أَرْسُولٌ مِمَّا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفِرُّ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ثبت عنه ﷺ أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلته كفتاه أي: من جميع الشرور، وذلك لما اجتوتتا عليه من المعاني الجليلة، فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان، بجميع أصوله في قوله: ﴿فَوَلُوا أَمَانًا بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا﴾ الآية.

وأخبر في هذه الآية أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول العظيمة وبجميع الرسل، وجميع الكتب ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض وكفر ببعض، كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة.

وفي قرن المؤمنين بالرسول ﷺ والإخبار عنهم جميعًا بخبر واحد، شرف عظيم للمؤمنين.

وفيه أنه ﷺ مشاركٌ للأمة في توجه الخطاب الشرعي له، وقيامه التام به، وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه.

وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ هذا التزام من المؤمنين عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد، ومضمون ذلك تضرعهم إلى الله في طلب الإعانة على القيام به، وأن الله يغفر لهم ما قصروا فيه من الواجبات، وما ارتكبوه من المحرمات، وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه الأدعية النافعة، والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: «قد فعلت».

فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعًا، ومن أفرادهم، إذا لم يمنع من ذلك مانع في الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذه في الخطأ والنسيان، وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحملهم من المشاق والآصار

والضمانات التي تكفل للعبد حصوله حقه، سواء عامل برًا أو فاجرًا، أمينًا أو خائنًا، فكم في الوثائق من حفظ حقوق وانقطاع منازعات.

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن أن يكون مقبوضًا، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد يكون الرهن مقبوضًا، يدل على أنه قد يكون مقبوضًا تحصل به الثقة التامة، وقد لا يكون مقبوضًا، فيكون ناقصًا.

ومنها: أنه يستدل بقوله: ﴿فَرَهْنٌ مَقْبُوضَةٌ﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن، أن القول قول المرتهن صاحب الحق، لأن الله جعل الرهن وثيقة به، فلو لا أنه يقبل قوله في ذلك، لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود.

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة ولا شهود، لقوله: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُوْذِئِ الَّذِي أَوْثِنَ مِنْتَهُمْ﴾ ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه، ولهذا أمر الله في هذه الحال من عليه الحق، أن يتقي الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من ائتمنه معاملته فقد عمل معه معروفًا عظيمًا، ورضي بدينه وأمانته فيتأكد على من عليه الحق أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله، وامتنالًا لأمره، ووفاء بحق صاحبه الذي رضي بأمانته ووثق به.

ومنها: تحريم كتم الشهادة وأن كاتمها قد أثم قلبه، الذي هو ملك الأعضاء وذلك لأن كتمها كالشهادة بالباطل والزور، فيها ضياع الحقوق وفساد المعاملات، والإثم المتكرر في حقه وحق من عليه الحق.

وأما تقييد الرهن بالسفر - مع أنه يجوز حضرا وسفرا - فللحاجة إليه، لعدم الكاتب والشهيد.

وختم الآية بأنه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل ما يعمله العباد، كالترغيب لهم في المعاملات الحسنة والترهيب من المعاملات السيئة.

(٢٨٤) ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُخَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ لِمَنْ يَكْتُمُهُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَكْتُمُهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخبر تعالى بعموم ملكه لأهل السماء والأرض وإحاطة علمه بما أبداه العباد وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه الأبواب إليه إنه ﴿كَانَ لِلرَّؤُوفِ رَحِيمًا﴾.

ويعذب من يشاء وهو المصير على المعاصي في باطنه وظاهره.

وهذه الآية لا تنافي الأحاديث الواردة في العفو، عما

والجهالات، وفرق به بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصراط المستقيم، وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به واهتدوا، حصل لهم به الخير الكثير والثواب العاجل والآجل.

و ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيَنَّ اللَّهُ﴾ التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَابٍ﴾ ممن عصاه.

ومن تمام قيومته تعالى أن علمه محيط بالخلائق ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ حتى ما في بطون الحوامل. فهو ﴿الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ من ذكر وأُنثى، وكامل الخلق وناقضه، متقلبن في أطوار خلقته وبيد حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك - فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص، أو ينعت بدم ﴿الْحَكِيمُ﴾ في خلقه وشرعه. (٨، ٧) ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ تُحَكِّمُ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّا بَعْضُ كُلِّ قُرْآنٍ عِنْدَ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ○ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ يخبر تعالى عن عظمته وكمال قيوميته، أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد - ولن يوجد - له نظير أو مقارب في هدايته، وبلاغته وإعجازه وإصلاحه للخلق وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين الذي لا يشبهه غيره، ومنه آيات متشابهات تحتمل بعض المعاني ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردا حتى تضم إلى المحكم.

فالذين في قلوبهم مرض وزيف وانحرف لسوء قصدهم يتبعون المتشابه منه فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلباً للفتنة وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم، ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف - فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فعلعلمهم أن المحكمات معناها في غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه الذي تحصل فيه الحيرة، لناقص العلم

والأغلال ما حمله على من قبلهم، ولم يحملهم فوق طاقتهم وقد غفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين.

فسأل الله تعالى بأسمائه وصفاته، وبما من به علينا من التزام دينه، أن يحقق لنا ذلك وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

ويؤخذ من هنا قاعدة التيسير، ونفي الحرج في أمور الدين كلها.

وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ: في العبادات وفي حقوق الله تعالى وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم وتوجه الذم.

وأما وجوب ضمان المتلفات خطأ أو نسياناً، في النفوس والأموال، فإنه مرتب على الإلتلاف بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان والعمد.

تم تفسير سورة البقرة والله الحمد والثناء وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران

وهي مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٦-١) ﴿آلِهَ ○ اللَّهُ ○ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيُّ الْفَرِيدُ ○ زَكَرَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ○ مِنْ قَبْلِ هَذِهِ لِنَّاسٍ وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيَنَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَابٍ ○ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ○ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، ﴿آلِهَ﴾ من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله

فأخبر تعالى أنه ﴿الْعَلِيُّ﴾ كامل الحياة ﴿الْفَرِيدُ﴾ القائم بنفسه المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق الذي لا ريب فيه، وهو مشتمل على الحق ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من الكتب، أي: شهد بما شهدت به، ووافقها وصدق من جاء بها من المرسلين.

﴿و﴾ كذلك ﴿أَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿وَمِنْ قَبْلِ هَذَا الْكِتَابِ هُدًى لِنَّاسٍ﴾.

وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ، وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق من الضلالات، واستنقذهم به من

وناقص المعرفة.

لما ذكر يوم القيامة ذكر أن جميع من كفر بالله، وكذب رسول الله، لا بد أن يدخلوا النار ويصلوها، وأن أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم شيئاً من عذاب الله، وأنه سيجري عليهم في الدنيا من الأخذات والعقوبات، ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾ وعجل لهم العقوبات الدنيوية متصلة بالعقوبات الآخروية.

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فإياكم أن تستهينوا بعقابه فيهون عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب.

(١٢، ١٣) ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ وَلَٰكِن سَعْتُهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَبِئْسَ الْإِلَهَادُ ۝ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئْتَيْنِ الْأَثَمَاتِ وَمَا تَقْبَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَخْرَجْنَا كَافِرَهُ يَرَوْنَهُمْ وَيَنْهَاهُمْ وَأَعْيُنُ اللَّهِ يُبَيِّنُ يَصَرِّوهُ مَنِ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَكِ لِسَبْرٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ وهذا خبر وبشرى للمؤمنين، وتخويف للكافرين أنهم لا بد أن يغلبوا في هذه الدنيا، وقد وقع كما أخبر الله، فغلبوا غلبة لم يكن لها مثل ولا نظير.

وجعل الله تعالى ما وقع في «بدر» من آياته الدالة على صدق رسوله، وأنه على الحق وأعداءه على الباطل، حيث التقت فئتان، فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً مع قلة عددهم. وفئة الكافرين يناهزون الألف، مع استعدادهم التام في السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بنصره، فهزمهم بإذن الله ففي هذا عبرة لأهل البصائر.

فلولا أن هذا هو الحق الذي إذا قابل الباطل أزقه واضمحل الباطل، لكان - بحسب الأسباب الحسية - الأمر بالعكس.

(١٤، ١٥) ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَكُعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ۝ قُلْ أَوْفَيْتُكُمْ بِحَيْثُ مَنَ دَلَيْتُمْ لِيِنَّ أَنْتَقُوا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْمَعَادِ﴾ أخبر تعالى في هاتين الآيتين عن حالة الناس في إيثار الدنيا على الآخرة، وبين التفاوت العظيم والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس زينت لهم هذه الأمور، فرمقوها بالأبصار واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع، قد جعلوها هي أكبر همهم ومبلغ علمهم، وهي - مع هذا - متاع قليل متقض في مدة يسيرة.

فهذا ﴿مَتَكُعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ﴾. ثم أخبر عن ذلك بأن الممتقين لله، القائمين بعبوديته، لهم

فيردون المتشابه إلى المحكم فيعود كله محكمًا، ويقولون: ﴿أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ للأمر النافعة والعلوم الصائبة ﴿إِلَّا أُولَآئِكَ الْأَلْبَابِ﴾ أي: أهل العقول الرزينة. ففي هذا دليل على أن هذا من علامة أولي الألباب، وأن اتباع المتشابه من أوصاف أهل الآراء السقيمة والعقول الواهية، والقصود السيئة.

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَكْمِلُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي وتؤول إليه تعين الوقوف على «إلا الله»، حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل: معنى التفسير ومعرفة معنى الكلام كان العطف أولى، فيكون هذا مدحاً للراسخين في العلم أنهم يعلمون كيف يتزلون نصوص الكتاب والسنة محكمها ومتشابهها.

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين دعوا الله تعالى أن يشتمهم على الإيمان فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا﴾ أي: لا تملها عن الحق إلى الباطل.

﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تصلح بها أحوالنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ أي: كثير الفضل والهبات.

وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين أنهم يسألونه أن لا يزيغ قلوبهم بعد إذ هداهم، وقد أخبر في آيات آخر الأسباب التي بها تزيغ قلوب أهل الانحراف، وأن ذلك بسبب كسبهم كقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا سَرَفًا﴾ ﴿وَتَقَلَّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَنْصَرَفَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّْلَ مَرَّةٍ﴾.

فالبعد إذا تولى عن ربه ووالى عدوه، ورأى الحق فصدف عنه، ورأى الباطل فاختره، ولاه الله ما تولى لنفسه، وأزاع قلبه عقوبة له على زيغ، وما ظلمه الله ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأمانة بالسوء والله أعلم.

(٩) ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ الْأَعْيَادُ﴾ هذا من تمة كلام الراسخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعد به وذلك يستلزم موجه ومقتضاه؛ من العمل والاستعداد لذلك اليوم فإن الإيمان بالبعث والجزاء أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير والرغبة من الشر، اللذين هما أساس الخيرات.

(١٠، ١١) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُنْفِكَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَزْوَاجَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَآئِكَ هُمُ وَقُودُ النَّارِ ۝ كَذَّابٌ عَالِي فَرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

إليه من العقاب، وما يفوتهم من الخير والثواب، وذلك بما كسبت أيديهم: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمِيدِ﴾.

(٢٦، ٢٧) ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَفَّى الْمَلِكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذَلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أصلاً وغيره تبعاً - أن يقول عن ربه معلناً بتفرده بتصريف الأمور، وتدبير العالم العلوي والسفلي، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق والتصريف المحكم، وأنه يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء.

فليس الأمر بأمني أهل الكتاب ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله والتدبير له، فليس له معارض في تدبيره ولا معاون في تقديره، وأنه كما أنه المتصرف بمداولة الأيام بين الناس، فهو المتصرف بنفس الزمان.

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي: يدخل هذا على هذا، ويحل هذا محل هذا ويزيد في هذا ما ينقص من هذا، ليقم بذلك مصالح خلقه.

ويُخرج الحي من الميت كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها، والمؤمن من الكافر والميت من الحي. كما يخرج الحبوب والنوى، والزروع والأشجار، والبيضة من الطائر، فهو الذي يخرج المتضادات بعضها من بعض، وقد انقادت له جميع العناصر^(١).

وقوله ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ أي: الخير كله منك ولا يأتي بالחסنات والخيرات إلا الله، وأما الشر، فإنه لا يضاف إلى الله تعالى لا وصفاً ولا اسماً ولا فعلاً، ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضائه وقدره.

فالخير والشر كله داخل في القضاء والقدر، فلا يقع في ملكه إلا ما شاء، ولكن الشر لا يضاف إلى الله فلا يقال: «بيدك الخير والشر» بل يقال: «بيدك الخير» كما قاله الله وقاله رسوله.

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: «وكذلك الشر بيد الله» فإنه وهم محض ملحظهم حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلنا.

وقوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وقد ذكر الله في غير هذه الآية الأسباب التي ينال بها رزقه كقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ

(١) قدم الشيخ - رحمه الله - هذا الجزء من الآية، وقد أثرت إبقاء على ما هو عليه، مع التنبيه إلى هذا التقديم.

لله، وأن من اتبعه كذلك قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص.

وأن يقول للناس كلهم من أهل الكتاب والأميين أي: الذين ليس لهم كتاب من العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم، والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وأنا ليس علي إلا البلاغ، وقد أبلغتكم وأقمت عليكم الحججة.

(٢١، ٢٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَأْتِيَتُهُمُ الْعَذَابُ الَّذِي لَمْ يَرْجُوا فَاتُخِذُوا لِحْيَتِهِمْ سَبْعًا بِمَا كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَهُمْ فِيهَا فِي حَيْثُ أُوتُوا لِيَكْفُرُوا بِهِمْ وَيَرْجُوا جَاءَ اللَّهُمْ فَسَبِّحْ لَهُم بِعَذَابِ اللَّهِ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّصِيرِ﴾ أي: الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسل الله، والجنابة العظيمة على أعظم الخلق حقاً على الخلق وهم الرسل، وأئمة الهدى الذين يأمرون الناس بالقسط، الذي اتفقت عليه الأديان والعقول.

فهؤلاء قد ﴿حَبِطَتِ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ واستحقوا العذاب الأليم، وليس لهم ناصر من عذاب الله، ولا منقذ من عقوبته.

(٢٣-٢٥) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فُرْقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ۝ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن نَّمَسَّكَ النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّبُوا فِي بَيْنِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ يَوْمَ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوَقَّيْتُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظَلِّمُونَ﴾ أي: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ و ﴿يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ﴾ الذي يصدق ما أنزله على رسوله.

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فُرْقًا مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ عن اتباع الحق فكأنه قيل: أي داع دعاهم إلى هذا الإعراض، وهم أحق بالاتباع وأعرفهم بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ؟ فذكر لذلك سببين:

أمنهم، وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لا تسهم إلا أياماً معدودة حدودها بحسب أهوائهم الفاسدة، كان تدبير الملك راجع إليهم حيث قالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَهَنَّمَ إِلَّا مَن كَانَ هُوَ أَوْ نَصْرَتَهُ﴾ ومن المعلوم أن هذه أمني باطلة شرعاً وعقلاً.

والسبب الثاني: أنهم لما كذبوا بآيات الله وافتروا عليه، زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغترتوا بذلك، وتراءى لهم أنه الحق، عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق فهؤلاء كيف يكون حالهم - إذا جمعهم الله يوم القيامة، ووفى العاملين ما عملوا وجرى عدل الله في عبادته، فهنالك لا تسأل عما يصلون

يَجْعَلُ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٢٨﴾

فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق إلا من الله، ويسعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأباحتها.

(٢٨) ﴿لَا يَخْذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَعْصِ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ هذا نهي من الله وتحذير للمؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض والله وليهم.

﴿وَمَنْ يَعْصِ ذَلِكَ﴾ التولي ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّمْ يَنْكَمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا﴾ أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين فلکم - في هذه الحال - الرخصة في المسالمة والمهادنة لا في التولي الذي هو محبة القلب الذي تتبعه النصره.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ أي: فخافوه واخلشوه، وقدموا خشيتهم على خشية الناس، فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد وقد أخذ بنواصيرهم وإليه يرجعون، وسيصيرون إليه فيجازي من قدم خوفه ورجاهه على غيره بالثواب الجزيل، ويعاقب الكافرين ومن تولاهم بالعذاب الويليل.

(٢٩، ٣٠) ﴿قُلْ إِنْ تَحْسَبُوا مَا فِي سُودْرِكُمْ أَوْ بُتُّوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَعَلَّمَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ وَاللَّهُ زَوُّهُ بِالْعِبَادِ﴾ يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور، سواء أخفاه العباد أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه فهو العظيم القدير على كل شيء الذي لا يمتنع عن إرادته موجود.

ولما ذكر لهم من عظمته وسعة أوصافه، ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضًا داعيًا آخر إلى مراقبته وتقواه وهو أنهم كلهم صائرون إليه وأعمالهم - حيثنذ من خير وشر - محضرة.

فحيثنذ يغتبط أهل الخير بما قدموا لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً، ويودون أن بينهم وبينه أمداً بعيداً.

فإذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه وكادح في هذه الحياة وأنه

لا بد أن يلاقي ربه ويلاقي سعيه أوجب له أخذ الحذر والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة التي توجب السعادة والثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمتهم، وكمال عدله، وشدة نكاله، ومع شدة عقابه فإنه رؤوف رحيم.

ومن رأفته ورحمته أنه خوف العباد وزجرهم عن الغي والفساد كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات -: ﴿ذَلِكَ يُؤْتِي اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ لِيَجْازِيَ قَانِقُونَ﴾ فرأفته ورحمته سهلت لهم الطرق التي يتالون بها الخيرات، ورأفته ورحمته حذرتهم من الطرق التي تقضي بهم إلى المكروهات.

فنسأله تعالى أن يتمم علينا إحسانه بسلك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق التي تقضي بسالكها إلى الجحيم.

(٣١، ٣٢) ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ إِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكُفْرِينَ﴾ هذه الآية هي الميزان التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلامه محبة الله اتباع محمد ﷺ الذي جعل متابعته وجميع ما يدعو إليه طريقاً إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة، وامتنال أمرهما واجتنب نهيهما.

فمن فعل ذلك أحبه الله وجازاه جزاء المحبين وغفر له ذنوبه وستر عليه عيوبه، فكأنه قيل: ومع ذلك فما حقيقة اتباع الرسول وصفها؟

فأجاب بقوله: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ بامتنال الأمر واجتنب النهي وتصديق الخبر ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن ذلك فهذا هو الكفر والله ﴿لَا يُحِبُّ الْكُفْرِينَ﴾.

(٣٣، ٣٤) ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَی الْمَلَكِينَ ۝ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إلى آخر القصة.

لله تعالى من عباده أصفياء يصطفهم ويختارهم، ويمن عليهم بالفضائل العالية والنوع السامية، والعلوم النافعة والأعمال الصالحة والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار وما احتوت عليه من كمل الرجال الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير تسلسل في ذرايعهم، وشمل ذكورهم ونساءهم. وهذا من أجل منته وأفضل مواقع جوده وكرمه.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يستحق الفضل والتفضيل فيضع فضله حيث اقتضت حكمته .

(٣٦، ٣٥) فلما قرر عظمة هذه البيوت ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة وكيف تنقلت بهما الأحوال من ابتداء أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران قالت - متضرعة إلى ربها، متقربة إليه بهذه القربة التي يحبها التي فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته - : ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي: خادمًا لبيت العبادة المشحون بالمتعبدين .

﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ هذا العمل أي: اجعله مؤسسًا على الإيمان والإخلاص، مثمرًا للخير والثواب ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ فَلَمَّا وَصَّعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَصَّعْتُهَا أَنْتَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَصَّعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ .

كان في هذا الكلام نوع تضرع منها، وانكسار نفس حيث كان نذرًا بناء على أنه يكون ذكرًا، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك ما يحصل من أهل القوة، والأنتى بخلاف ذلك، فجير الله قلبها، وتقبل الله نذرها، وصارت هذه الأنتى أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال:

(٣٩-٣٧) ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: ربيت تربية عجيبة دينية أخلاقية أدبية كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها ويسر الله لها زكريا كافيًا . وهذا من منة الله على العبد أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين .

ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلا كد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به .

إذ ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ وهو محل العبادة وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ هنيئًا معدًا .

﴿قَالَ يَتَرَمَّ آتَىٰ لِلرَّبِّ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

فلما رأى زكريا هذه الحال، والبر واللطف من الله بها ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد على حين اليأس منه فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ فَتَدَاتُهُ الْمَلَكُوتُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ اسمه أي: الكلمة التي من الله «عيسى ابن

مريم» .

فكانت بشارته بهذا النبي الكريم تتضمن البشارة بـ «عيسى» ابن مريم والتصديق له، والشهادة له بالرسالة .

فهذه الكلمة من الله كلمة شريفة، اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ .

وقوله: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ أي: هذا المبشر به وهو «يحيى» سيد من فضلاء الرسل وكرامهم: و «الحصور» قيل: هو الذي لا يولد له، ولا شهوة له في النساء، وقيل: هو الذي عُصِمَ وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين . ﴿وَتَبَيَّنَّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الذين بلغوا في الصلاح ذروته العالية .

(٤٠) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي كُنُّن لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ فهذان مانعان فمن أي طريق - يارب - يحصل لي ذلك، مع ما ينافي ذلك!؟

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ فإنه - كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك، لأنه الفعال لما يريد الذي قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته، فلا يتعاصى على قدرته شيء من الأسباب، ولو بلغت في القوة ما بلغت .

(٤١) ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ ليحصل السرور والاستبشار وإن كنت - يارب - متيقنًا ما أخبرتني به، ولكن النفس تفرح ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللطف .

﴿قَالَ آيَتُكَ إِلَّا نُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا﴾، ﴿و﴾ في هذه المدة ﴿أَذْكُرُ رَبِّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحُ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ أول النهار وآخره، فمنع من الكلام في هذه المدة فكان في هذا مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير والمرأة العاقر .

وكونه لا يقدر على مخاطبة آدميين، ولسانه منطلق بذكر الله وتسيحه آية أخرى .

فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار وشكر الله . وأكثر من الذكر والتسبيح بالعشايا والأبكار .

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران على زكريا، فإن ما من الله به عليها من ذلك الرزق الهني الذي يحصل بغير حساب، ذكره وهيجه على التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب، ولكنه يقدر أمورًا محبوبة على يد من يحبه ليرفع الله قدره ويعظم أجره .

(٤٢) ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم، وأنها بلغت في العبادة

النبوة والدعوة والإرشاد.

فكلامه في المهدي فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته، وبراءة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، وكلامه في كهولته فيه نفعه العظيم للخلق، وكونه واسطة بينهم وبين ربهم في وحيه وتبليغ دينه وشرعه.

ومع ذلك فهو ﴿مِنَ الْمُتَّبِعِينَ﴾ الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحبه وأستتهم بالثناء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته وخدمته.

(٤٧) ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ وهذا من الأمور المستغربة ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ليعلم العباد أنه على كل شيء قدير وأنه لا ممانع لإرادته.

(٤٨، ٤٧) ﴿إِذَا قُضِيَ الْأَمْرُ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وَيَمِئُهُمُ الْكِتَابُ﴾ أي: جنس الكتب السابقة، والحكم بين الناس ويعطيه النبوة.

(٤٩) ﴿وَمَا يَجْعَلُهُ رَسُولًا إِلَىٰ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ﴾ ويؤيده بالآيات البينات والأدلة القاهرة حيث قال: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ تدلهم أي رسول الله حقًا.

وذلك ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا يَأْذَنُ اللَّهُ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ﴾ وهو ممسوح العينين، الذي فقد بصره وعينيه ﴿وَالأَبْرَصَ﴾ وأخي المومنين يَأْذَنُ اللَّهُ وَأُبْرِئُكُمْ يَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَخْضَرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ إن في ذلك المذكور ﴿لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّكَ التَّوْرَةَ﴾ فأيده الله بجنسين من الآيات والبراهين الخوارق المستغربة التي لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان بها، والرسالة والدعوة والدين الذي جاء به وأنه دين التوراة ودين الأنبياء السابقين، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين.

فإنه لو كان من الكاذبين لخالف ما جاءت به الرسل، ولناقضهم في أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه رسول الله، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه.

وأيضا فقولته: ﴿وَلَأَحْجِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: ولأخفف عنكم بعض الأصار والأغلال.

(٥١، ٥٠) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ وَرَبُّكُمْ فَأَعِدُّوا لَهُ﴾ وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل: عبادة الله وحده لا شريك له وطاعتهم.

وهذا هو الصراط المستقيم الذي من يسلكه أوصله إلى جنات النعيم، فحينئذ اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى، فمنهم من آمن به واتبعه، ومنهم من كفر به وكذبه، ورمى أمه بالفاحشة كاليهود.

والكمال مبلغًا عظيمًا فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَا لَكَ مِنْ الصِّفَاتِ الْجَلِيلَةِ وَالْأَخْلَاقِ الْجَمِيلَةِ.

﴿وَطَهَّرَكَ﴾ من الأخلاق الرذيلة ﴿وَاصْطَفَاكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ولهذا قال ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام».

(٤٣) فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك لتعجب بنعم الله وتشكر الله وتقوم بحقوقه، وتستغل بخدمته، ولهذا قالت الملائكة: ﴿يَمْرُؤُا أَتَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: أكثرني من الطاعة والخضوع والخشوع لربك، وأدبني ذلك ﴿وَأَسْجُدِي وَأَزْكِي مَعَ الرَّاكِبِينَ﴾ أي: صلي مع المصلين، فقامت بكل ما أمرت به وبرزت وفاقت في كمالها.

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بها مفصلة محققة لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله العزيز الحكيم لا يتعلم من الناس - قال تعالى - : ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَهُمْ أَقْلَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ حيث جاءت بها أمها فاختصموا أيهم يكفلها، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم يريد الخير والأجر من الله، حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقترعوا عليها، فألقوا أقلامهم مقترعين، فأصاب القرعة زكريا رحمة من الله به وبها.

فأنت - يا أيها الرسول - لم تحضر تلك الحالة لتعرفها فتقصها على الناس وإنما الله نباك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص، أنه يحصل بها العبرة وأعظم العبر، الاستدلال بها على التوحيد والرسالة والبعث، وغيرها من الأصول الكبار.

(٤٥) ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ أَسْمُ الْمَسِيحِ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهَاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: له الوجاهة، والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق.

ومع ذلك فهو - عند الله - من المقربين، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله، وأعلاهم درجة وهذه بشارة لا يشبهها شيء من البشارات.

(٤٦) ومن تمام هذه البشارة أنه: ﴿يَكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْهَدْيِ﴾ فيكون تكليمه آية من آيات الله، ورحمة منه بأمه وبالخلق ﴿و﴾ كذلك يكلمهم ﴿كهلاً﴾ أي: في حال كهولته، وهذا تكليم

أهل الأديان السابقة.

ثم لما بعث سيد المرسلين وخاتم النبيين ونسخت رسالته الرسائل كلها، ونسخ دينه جميع الأديان، صار المتمسك بغير هذا الدين من الهالكين.

(٥٨) وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ أي: هذا القرآن العظيم الذي فيه نبأ الأولين والآخرين والأنبياء والمرسلين - هو آيات الله البينات وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم، صادق الأخبار حسن الأحكام.

(٥٩-٦٢) ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ○ ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ ○ ﴿فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَمَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ ○ ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لما ذكر قصة مريم وعيسى ونبأهما الحق، وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية فقد كذب على الله وكذب جميع أنبيائه وكذب عيسى ﷺ فإنه الشبهة التي عرضت لمن اتخذها إلهاً شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح لكان آدم أحق منه فإنه خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك فاتفق البشر كلهم على أنه عبد من عباد الله فدعوى إلهية عيسى بكونه خلق من أم بلا أب دعوى من أبطل الدعاوى.

وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه أن عيسى - كما قال عن نفسه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ وكان قد قدم على النبي ﷺ وفد نصارى نجران وقد تصلبوا على باطلهم، بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبد الله ورسوله حيث زعموا إلهيته.

فوصلت به وبهم الحال إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم، فإنه قد اتضح لهم الحق ولكن العناد والتعصب منعاهم منه. فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين فتشاوروا هل يجيبونه إلى ذلك؟

فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً وأنهم - إن باهلوه - هلكوا هم وأولادهم وأهلوم، فصالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه المoadعة والمهادنة. فأجابهم ﷺ ولم يرحبهم، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن

(٥٢) ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ والافتراق على رد دعوته ﴿قَالَ﴾: نادياً لبني إسرائيل على مؤازرته ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيزِيُّ﴾ أي: الأنصار.

﴿وَمَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ أُمَّتًا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّ سُلَيْمَانَ﴾ وهذا من منة الله عليهم وعلى عيسى، حيث ألهم هؤلاء الحواريين الإيمان به، والافتقار لطاعته، والنصرة لرسوله.

(٥٣) ﴿رَبَّنَا أَمَّا مَنَا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وهذا التزام تام للإيمان بكل ما أنزل الله، ولطاعة رسوله.

﴿فَاكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ لك بالوحدانية ولنبيك بالرسالة ولدينك بالحق والصدق.

(٥٤) وأما من أحسن عيسى منهم الكفر وهم جمهور بني إسرائيل، فإنهم ﴿مَكَرُوا﴾ بعيسى ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ بهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمُنْكَرِينَ﴾ فاتفقوا على قتله وصلبه وشبهه لهم شبه عيسى.

(٥٥) فقبضوا على من شبهه لهم به وقال الله لعيسى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فرفعه الله إليه وطهره من الذين كفروا وصلبوا من قتلوه ظانين أنه عيسى وباؤوا بالإثم العظيم.

وسينزل عيسى ابن مريم في آخر هذه الأمة حكماً عادلاً يقتل الخنزير ويكسر الصليب ويتبع ما جاء به محمد ﷺ ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مغرورون مخدوعون.

وقوله: ﴿وَجَاعِلِ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ قَوْقُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ المراد بمن اتبعه: الطائفة التي آمنت به ونصرهم الله على من انحرف عن دينه.

ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ فكانوا هم أتباعه حقاً، فأيدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية.

ولكن حكمة الله عادلة فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين نصره الله النصر المبين، وأن من ترك أمره ونهيه ونبذ شرعه وتجرأ على معاصيه إنه يعاقبه ويسلط عليه الأعداء والله عزيز حكيم.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي مَرَّجُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

(٥٦، ٥٧) فقد بين ما يفعله بهم فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ○ ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

وهذا الجزاء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف من جميع

المباهلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين .

(٦٢) ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ أي: الذي لا ريب فيه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات وأذعنت له سكان الأرض والسموات .

ومع ذلك فهو ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها^(١) .

(٦٤) ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوِيَّةٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَسْبُدَ إِلَّا لِلَّهِ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ هذه الآية الكريمة، كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحياناً في الركعة الأولى من سنة الفجر: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية .

ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون واحتوت على توحيد الإلهية المبني على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية .

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهدوا .

وإن ﴿تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ كقوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إلى آخرها .

(٦٥-٦٨) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هَذَا نَسْبُؤُنَا إِلَى اللَّهِ وَنَسْبُؤُكُمْ إِلَى اللَّهِ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ○ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ○ إِنَّكَ أَوَّلُ النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَرَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ كانت الأديان كلها: اليهود والنصارى والمشركون، وكذلك المسلمون كلهم يدعون أنهم على ملة إبراهيم .

فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به محمد ﷺ وأتباعه وأتباع الخليل، قبل محمد ﷺ .

وأما اليهود والنصارى والمشركون فإبراهيم بريء منهم ومن ولايتهم، لأن دينه الحنيفية السمحة التي فيها الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين .

وأما دعوى اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم فقد علم أن اليهودية والنصرانية التي هم يدعون أنهم عليها، لم تؤسس إلا بعد الخليل .

ككيف يحاجون في هذا الأمر الذي يعلم به كذبهم وافتراؤهم؟! فهب أنهم حاجوا فيما لهم به علم، فكيف يحاجون في هذه الحالة؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان، يُعلم فساد دعواهم .

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ وَرَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فكلمة قوي إيمان العبد تولاه الله بلطفه ويسره ليسرى وجنبه العسرى .

(٦٩-٧٤) ﴿وَدَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَو يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ○ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تُشْهَدُونَ ○ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبَسُونَ الْحَقَّ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ○ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَأَمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكُفِرُوا بِالَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِمْ سَبِيحًا ○ وَلَا تَقُولُوا إِلَّا لِمَنْ تَحِبُّ وَيُنكَرُ قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَن يُؤْتِيَهُ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ ○ يَخْتَصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ هذا من ملة الله على هذه الأمة حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب وأنهم - من حرصهم على إضلال المؤمنين - ينوعون المكرات الخبيثة .

فقالت طائفة منهم: ﴿ءَأَمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ﴾ أي: أوَّلُه وارجعوا عن دينهم آخر النهار، فإنهم - إذا رأوكم راجعين وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم، وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم ولا يوافق الكتب السابقة لم يرجعوا .

هذا مكرهم والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء، وهو الذي بيده الفضل يختص به من يشاء فخصَّكم - يا هذه الأمة - بما لم يخص به غيركم .

ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق إذا وصلت حقيقته إلى القلوب لم يزد صاحبه - على طول المدى - إلا إيماناً و يقيناً .

ولم تزد الشبه إلا تمسكاً بدينه وحمداً لله، وثناء عليه حيث منَّ به عليه .

وقولهم: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ يعني: أن الذي حملهم على هذه الأعمال المنكرة الحسد والبغى، وخشية الاحتجاج عليهم .

كما قال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ

(١) لم يفسر - رحمه الله - الآية الثالثة والستين، وقد قام النجار بإضافة تفسيرها من عنده .

الكتاب وهم كذبة في ذلك ويصرحون بالكذب على الله وهم يعلمون حالهم وسوء مغبتهم .

(٧٩، ٨٠) ﴿مَا كَانَ لِيَسْرَ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَ وَالنُّوْمَةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ۝ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾
 أي: يمتنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر من الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعي - أن يأمر الناس بعبادته، ولا بعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أربابًا، لأن هذا هو الكفر فكيف وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده!!

هذا من الممتنع لأن حاله وما هو عليه وما من الله به عليه من الفضائل والخصائص تقتضي العبودية الكاملة والخضوع التام لله الواحد القهار .

وهذا جواب لوفد نجران حين تمادى بهم الغرور، ووصلت بهم الحال والكبر أن قالوا: أتأمرنا - يا محمد - أن نعبدك؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فبين الباري انتفاء ما

قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان .
 (٨١، ٨٢) ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝ فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ النَّاسِ الْفٰسِقُونَ﴾
 هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم بسبب ما أعطاهم ومن به عليهم، من الكتاب والحكمة المقتضي للقيام التام بحق الله وتوفيته، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم بعث بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط، والأصول التي اتفقت عليها الشرائع أنهم يؤمنون به وينصرونه .

فأقروا على ذلك واعترفوا، والتزموا وأشهدهم وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق .

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم قد اتفقا وتعاهدوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق بالإيمان والنصرة لمحمد ﷺ .

فمن ادعى أنه من أتباعهم فهذا دينهم الذي أخذه الله عليهم، وأقروا به واعترفوا . فمن تولى عن اتباع محمد ممن يزعم أنه من أتباعهم، فإنه فاسق خارج عن طاعة الله، مكذب للرسول - الذي يزعم أنه من أتباعه - مخالف لطريقه .

وفي هذا إقامة الحجة والبرهان على كل من لم يؤمن

يُرَدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَمَا آتَا حَسَكًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ ۗ﴾ الآية .

(٧٥، ٧٦) ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقِطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ بَلْ مِنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَأَقْبَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾
 يخبر تعالى عن أهل الكتاب أن منهم طائفة أمناء بحيث لو أمته على قناطر من النقود، وهي المال الكثير يؤده إليك ومنهم طائفة خونة يخونك في أقل القليل . ومع هذه الخيانة الشنيعة فإنهم يتأولون بالأعداء الباطلة فيقولون: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتَيْنِ سَبِيلٌ﴾ أي: ليس علينا جناح إذا خانهم واستبحنا أموالهم، لأنهم لا حرمة لهم .

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن عليهم أشد الحرج فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار العرب، وبين الكذب على الله وهم يعلمون ذلك ليسوا كمن فعل ذلك جهلاً وضلالاً .

ثم قال تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس الأمر كما قالوا . فإنه ﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَأَقْبَىٰ﴾ أي: قام بحقوق الله وحقوق خلقه، فإن هذا هو المتقي والله يحبه . أي: ومن كان بخلاف ذلك فلم يف بعهده وعقوده، التي بينه وبين الخلق، ولا قام بتقوى الله فإن الله يمقته وسيجازيه على ذلك أعظم النكال .

(٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكْرِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدين، فيختارون الحطام القليل من الدنيا ويتوسلون إليها بالأيمان الكاذبة، والعهود المنكوثة فهؤلاء ﴿لَا يُكْرِمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: قد حق عليهم سخط الله، ووجب عليهم عقابه وحرموا ثوابه ومنعوا من التزكية وهي التطهير .

بل يردون القيامة وهم متلوثون بالجرائم، متدنسون بالذنوب والعظائم .

(٧٨) ﴿وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونُ آلِيَنَّهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي: وإن من أهل الكتاب فريقًا هم محرفون لكتاب الله، ﴿يَلُونُ آلِيَنَّهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي .

ثم هم - مع هذا التحريف الشنيع - يوهمون أنه من

وذنوبهم، المصلحين لعيوبهم فإن الله يغفر لهم ما قدموه ويعفو عنهم ما أسلفوه.

ولكن من كفر وأصرّ على كفره، ولم يزد إلا كفرًا حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله، ولو بذلوا ملء الأرض ذهبًا ليفتدوا به لم ينفعهم شيئًا فعيادًا بالله من الكفر وفروعه.

(٩٢) ﴿لَنْ نَنالُوا إِلَيْكَ حَتَّى تُنْفِقُوا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّكَ اللَّهُ بِهِ عَلِيمٌ﴾ يعني: لن تنالوا وتدركوا البر الذي هو اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون من أطيب أموالكم وأزكاها. فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق ورحمتها وورقتها.

ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن أثر محبة الله على محبة نفسه، فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أنفق الطيبات وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ووقفه أعمالًا وأخلاقًا لا تحصل بدون هذه الحالة.

وأيضًا فمن قام بهذه النفقة على هذا الوجه كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة من طريق الأولى والأخرى، ومع أن النفقة من الطيبات هي أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره فإن الله به عليم.

وسيجزي كل منفق بحسب عمله سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالنعيم الأجل.

(٩٣، ٩٤) ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِيَّ إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِّلَ التَّورَةَ فَلْ قَاتُوا بِالتَّورَةِ قَاتِلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فمن أفتك على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنبوته عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، أنهم زعموا أن النسخ باطل، وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله.

فكذبهم الله بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام - قبل نزول التوراة - كان حلالًا لبني إسرائيل إلا أشياء يسيرة حرّمها إسرائيل - وهو: يعقوب عليه السلام - على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه.

ثم إن التوراة فيها من التحريمات التي نسخت ما كان حلا

بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسلمة الذين يزعمون أنهم أتباعهم حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ.

(٨٣-٨٥) ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْتَغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ ﴿قُلْ ءَأَمِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكَ إِزْهَامٌ وَإِسْمِيلٌ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ومن يتبع غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة، قد اتفقت عليها الكتب والرسول، وأنها هي الفرض الموجه لكل أحد، وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابتغى غيرها فعمله مردود، وليس له دين يعول عليه.

فمن زهد عنه ورغب عنه فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران؟ أو إلى اتخاذ الأحبار والرهبان والصلبان، أو إلى التعطيل لرب العالمين؟ أو إلى الأديان الباطلة، التي هي من وحي الشياطين؟ وهؤلاء كلهم - في الآخرة - من الخاسرين.

(٨٦-٩١) ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْلَمُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقَبِّلَ قُوبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُغْفَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ يعني: أنه يبعد كل البعد أن يهدي الله قوما عرفوا الإيمان، ودخلوا فيه وشهدوا أن الرسول حق، ثم ارتدوا على أعقابهم ناكسين ناكثين لأنهم عرفوا الحق فرفضوه.

ولأن من هذه الحالة وصفه، فإن الله يعاقبه بالانتكاس وانقلاب القلب جزاء له، إذ عرف الحق فتركه والباطل فأثره، فولاه الله ما تولى لنفسه.

فهؤلاء ﴿عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ خالدين في اللعنة والعذاب ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ إذا جاءهم أمر الله، لأن الله عمرهم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءهم النذير.

ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد الناكثين من كفرهم

قبل ذلك شيء كثير .

قل لهم - إن أنكروا ذلك - : ﴿قَاتِلُوا بِالزُّورَةِ فَاَتْلُوهَُا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بزعمكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم .

وهذا من أبلغ الحجج أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره، فإن انقاد للحق فهو الواجب، وإن أبى ولم ينقد بعد هذا البيان تبين كذبه وافتراؤه وظلمه، وبطلان ما هو عليه وهو الواقع من اليهود .

(٩٥) ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: قل صدق الله في كل ما قاله، ومن أصدق من الله قيلاً وحديثاً، وقد بين في هذه الآيات من الأدلة على صحة رسالة محمد ﷺ، وبراهين دعوته وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب، الذين كذبوا رسوله وردوا دعوته فقد صدق الله في ذلك، وأتق عباده على ذلك ببراهين وحجج، تتصدع لها الجبال وتخضع لها الرجال .

فتعين عند ذلك على الناس كلهم اتباع ملة إبراهيم، من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله وكل كتاب أنزله، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة .

فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئاً من الشرك وأهله .

(٩٦، ٩٧) ﴿إِن أَوْلَىٰ بِيَّتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي لَكَذَىٰ بِنِكَ مَبَارَكًا وَهُدًىٰ لِلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا تُرَاهِمُونَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته وإقامة ذكره وأن فيه من البركات وأنواع الهدايات وتنوع المصالح والمنافع للعالمين - شيء كثير وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات تذكر بمقامات إبراهيم الخليل وتقلاته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم .

وفيه الأمن^(١) الذي من دخله كان آمناً قدراً، مؤمناً شرعاً ودينياً .

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها وتكثر تفصيلاتها - أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه وزاد يتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة، والتي ستحدث .

وهذا من آيات القرآن حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها، فمن أذعن لذلك وقام به فهو من المهتمدين المؤمنين، ومن كفر فلم يلتزم

حج بيته فهو خارج عن الدين، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين .

(٩٨، ٩٩) ﴿قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَآلِهِ شَيْدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ۝ قُلْ يَٰأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّا آمَنَ تَبِعُوهَا عَوجًا وَأَنتم شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لما أقام - فيما تقدم - الحجج على أهل الكتاب - مع أنهم قبل ذلك يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم - وفتح المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله، وصددهم الخلق عن سبيل الله، لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه .

(١٠٠، ١٠١) ﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ۝ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لما أقام الحجج على أهل الكتاب ووبخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم حريصون على إضرامكم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان .

ولكن - والله الحمد - أنتم - يامعشر المؤمنين - بعدما من الله عليكم بالدين، ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبحبله - الذي هو دينه - يستحيل أن يردوكم عن دينكم لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس المشرقة الأنوار تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية وأفضل مطلوب .

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ﴾ أي: يتوكل عليه ويحتمي بحماه ﴿فَقَد هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية .

(١٠٢-١٠٥) ﴿يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ۝ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا رِعْضَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءُ فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَاصْبِرْتُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَاتَّكفُفْ بِرُكُوبِكُمْ أَنَّهُ يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتْلِحُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ عَدَاؤُا عَظِيمٌ﴾ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا

(١) مراد المؤلف - رحمه الله - في أي من الحرم: الأمن وقد غيرت الكلمة في المطبوع إلى: وفيه الحرم الذي من دخله .

خالدون.

وتسود وجوه أهل الشقاوة الذين كذبوا رسله وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيعاً وأنهم يوبخون فيقال لهم: ﴿ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ فكيف اخترتم الكفر على الإيمان؟! ﴿ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾.

(١٠٨، ١٠٩) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ يَا لَحِقٌ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ○ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿ ينبي تعالى على ما قصه على نبيه من آياته، التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل وبين أولياء الله وأعدائه وما أعد لهؤلاء من الثواب وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله وحكمته، وأنه لم يظلم عباده، ولم ينقصهم من أعمالهم أو يعذب أحداً بغير ذنبه أو يحمل عليه وزر غيره.

ولما ذكر أن له الأمر والشرع ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان فقال: ﴿ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فيجازي المحسنين بإحسانهم والمسيئين بعصيانهم.

وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة بين عبادته أنه الحاكم المطلق، فله الأحكام القدرية والأحكام الشرعية والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عبادته في الدنيا والآخرة.

ومن سواه من المخلوقات محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

(١١٠، ١١١) ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ○ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤَلِّمُوكُمْ أَذًى ثُمَّ لَا يَضُرُّوكُمْ ﴾ هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس نصحاً ومحبة للخير، ودعوة وتعليماً وإرشاداً، وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وجمعاً بين تكميل الخلق والسعي في منافعهم بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله والقيام بحقوق الإيمان.

وأن أهل الكتاب لو آمنوا بمثل ما آمنتم به لاهتدوا وكان خيراً لهم، ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير فهم فاسقون خارجون عن طاعة الله، وطاعة رسوله، محاربون للمؤمنين، ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم، ومع ذلك فلن يضرروا المؤمنين إلا أذى باللسان، وإلا فلو قاتلوهم لولوا

بشكر نعمه العظيمة بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته وترك معصيته مخلصين له بذلك وأن يقيموا دينهم ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكّرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين، فجمعهم بهذا الدين وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً وكانوا على شفا حفرة من النار فأنقذهم من الشقاء ونهج بهم طريق السعادة.

﴿ كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ إلى شكر الله والتمسك بحبله، وأمرهم بتتبع هذه الحالة، والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية.

﴿ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ وهو الدين أصوله، وفروعه وشرائعه ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْقُرْآنِ ﴾ وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ وهو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً ﴿ وَأُوَلِّيكُمْ هُمْ الْمُلْكُوتُونَ ﴾ المدركون لكل مطلوب الناجون من كل مرهوب.

ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس عموماً وخصوصاً، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم أو على وجه الخصوص أو قام بنصيحة عامة أو خاصة فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين الذين جاءهم الدين والبيئات الموجب لقيامهم به واجتماعهم، ففارقوا واختلفوا وصاروا شيعاً ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيء، وبغي من بعضهم على بعض ولهذا قال: ﴿ وَأُوَلِّيكُمْ هُمْ عَذَابَ عَظِيمٍ ﴾.

(١٠٦، ١٠٧) ثم بيّن متى يكون هذا العذاب العظيم ويمسهم هذا العذاب الأليم فقال: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَسَوْدَى وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ○ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِمَا رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾.

يخبر تعالى بتفاوت الخلق يوم القيامة، في السعادة والشقاوة وأنه تبيض وجوه أهل السعادة الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله، وامثلوا أمره واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى يدخلهم الجنات، ويفيض عليهم أنواع الكرامات، وهم فيها

الأدبار ثم لا ينصرون. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْفِرِينَ﴾ وهم الذين قاموا بالخيرات وتركوا

المحرمات لقصد رضا الله وطلب ثوابه.

(١١٦، ١١٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا

أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ سَخِيًّا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ○ مَثَلُ

مَا يُفْقُونَ فِي هَلَاكِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ

قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتُهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِن أَنفُسَهُمْ

يُظَلِمُونَ﴾ بَيَّنَّ تَعَالَى أَنَّ الْكُفْرَانَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَكَذَبُوا

رساله أنه لا يقذهم من عذاب الله متقد ولا ينفعهم نافع، ولا

يشفع لهم عند الله شافع، وأن أموالهم وأولادهم التي كانوا

يعدونها للشدائد والمكاره لا تفيدهم شيئاً، وأن نفقاتهم التي

أنفقوها في الدنيا لنصر باطلهم ستضمحل.

وأن مثلها ﴿كَمَثَلِ﴾ حرث أصابته ﴿ريح﴾ شديدة ﴿فِيهَا

صِرٌّ﴾ أي: برد شديد - أو نار محرقة - أهلكت ذلك الحرث

وذلك يظلمهم، فلم يظلمهم الله ويعاقبهم بغير ذنب وإنما

ظلموا أنفسهم.

وهذه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُفْقُونَ أَمْوَالَهُمْ

لِيُصْذَبُوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُفَيْقُهَا ثُمَّ تَكَثَّرَ عَلَيْهِنَّ حَسْرَةٌ ثُمَّ

يُعْلَبُونَ﴾.

(١١٨-١٢٠) ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِن دُونِكُمْ

لَا يَأْتُونَكُمُ خَبَالًا وَدُوًّا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِن أَفْوَاهِهِمْ وَمَا

تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ○ هَتَأْتُمْ

أَوْلَادَ حَبِيبَتِكُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا

وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْآنَايِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْطِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

بِدَابِّ الصُّدُورِ ○ إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً سَوْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا

بِهَا وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا

تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ هذا تحذير من الله لعباده عن ولاية الكفار

واتخاذهم بطانة، أو خصيصة وأصدقاء يسرون إليهم ويفضون

لهم بأسرار المؤمنين، فوضح لعباده المؤمنين الأمور الموجبة

للبراءة من اتخاذهم بطانة بأنهم لا يأتونكم خبالاً أي: هم

حريصون غير مقصرين في إيصال الضرر بكم، وقد بدت

البغضاء من كلامهم، وفتلت ألسنتهم، وما تخفيه صدورهم

من البغضاء والعداوة أكبر مما ظهر لكم من أقوالهم

وأفعالهم.

فإن كانت لكم فهم وعقول فقد وضع الله لكم أمرهم.

(١) قد يشكل - على القارئ - هذا الموضع إذ هو عن ملك اليهود

لفلسطين مع أن الشيخ ألف التفسير قبل ذلك، ولكن هذه الجملة الموضوعية

بين القوسين المرتكين زيادة من هامش النسخة، لعل الشيخ كتبها بعد سنين

من كتابته التفسير، والله أعلم.

وقد وقع ما أخبر الله به فإنهم لما قاتلوا المسلمين ولوا

الأدبار ونصر الله المسلمين عليهم.

(١١٢) ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيُّنَ مَا تُفْقُوا إِلَّا يَجْعَلِ مِنَ اللَّهِ وَجَلِي

مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

كَانُوا يُكْفَرُونَ يَتَّبِعْتِ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا

وَكَانُوا يُعْتَدُونَ﴾ هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم

الذلة، فهم خائفون أينما تقفوا ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة

وسبب يأمنون به يرضخون لأحكام الإسلام، ويعترفون

بالجزية.

أو ﴿بِحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم

ونظارتهم [كما شوهد حالهم سابقاً ولاحقاً، فإنهم لم يتمكنوا

في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين، إلا بنصر

الدول الكبرى وتمهيدهم لهم كل سبب] (١).

﴿وَبَاءُوا بِغَضَبِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: قد غضب الله عليهم وعاقبهم

بالذلة والمسكنة، والسبب في ذلك كفرهم بآيات الله وقتلهم

الأنبياء بغير حق أي: ليس ذلك عن جهل، وإنما هو بغي

وعناد.

تلك العقوبات المتنوعة عليهم ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يُعْتَدُونَ﴾

فالله تعالى لم يظلمهم ويعاقبهم بغير ذنب، وإنما الذي أجراه

عليهم بسبب بغيهم وعدوانهم، وكفرهم وتكذيبهم للرسول

وجناياتهم الفظيعة.

(١١٣-١١٥) ﴿لَتَبْلُوَنَّ سَوَاءَهُ مِمَّنْ أَهْلَ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ

آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَهُ ءَاتِيْلٌ وَهُمْ يَسْتَحْجِدُونَ ○ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ

الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي

الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ○ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ

يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُفْرِينَ﴾ لما ذكر الله المنحرفين من أهل

الكتاب بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين

لأصول الدين وفروعه.

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهو

الخير كله، وينهون عن المنكر وهو جميع الشر. كما قال

تعالى: ﴿وَمِن قَوْمٍ مُّؤْمِنٍ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ والمسارعة إلى الخيرات قدر زائد

على مجرد فعلها فهو وصف لهم بفعل الخيرات، والمبادرة

إليها وتكميلها بكل ما تتم به من واجب ومستحب.

ثم بين تعالى أن كل ما فعلوه من خير قليل أو كثير فإن الله

تعالى سيقبله حيث كان صادراً عن إيمان وإخلاص ﴿فَلَنْ

يُكْفَرُوهُ﴾ يعني: لن ينكر ما عملوه ولن يهدر.

جرى عليهم من المصيبة، أدخل فيها تذكيرهم بنصره ونعمته عليهم يوم «بدر» ليكونوا شاكرين لربههم وليخفف هذا فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ في عددكم وعددكم فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر في قلة ظهر، وورثاة سلاح وأعداؤهم يناهزون الألف في كمال العدة والسلاح.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكُرُونَ﴾ الذي أنعم عليكم بنصره. ﴿إِذْ تَقُولُ﴾ مبشراً ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ مثبتاً لجنانهم: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ﴾ بَلَاءٌ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا أَي: من حملتهم هذه بهذا الوجه.

﴿يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِمِثْلِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ أي: معلمين علامة الشجعان.

واختلف الناس، هل كان هذا الإمداد حصل فيه من الملائكة مباشرة للقتال، كما قاله بعضهم أو أن ذلك تثبيت من الله لعباده المؤمنين، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين كما قاله كثير من المفسرين.

ويدل عليه قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِيَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ وفي هذا أن الأسباب لا يعتمد عليها العبد بل يعتمد على الله.

وإنما الأسباب وتوفرها فيها طمأنينة للقلوب وثبات على الخير.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمَهُمْ فَيَنْفَلِتُوا حَايِبِينَ﴾ أي: نصر الله لعباده المؤمنين لا يعدو أن يكون قطعاً لطرف من الكفار أو يتقلبوا بغیظهم لم ينالوا خيراً كما أرجعهم يوم الخندق بعدما كانوا قد أتوا على حرد قادرين أرجعهم الله بغیظهم حائبين.

(١٢٨) ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ لما أصيب ﷺ يوم «أحد» وكسرت رابعيته وشج في رأسه جعل يقول: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم وكسروا رابعيته» فأنزل الله تعالى هذه الآية وبين أن الأمر كله لله، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربه، مدبرون لا مدبرون.

وهؤلاء الذين دعوت عليهم أيها الرسول أو استبعدت فلاحهم وهدايتهم، إن شاء الله تاب عليهم ووقفهم للدخول في الإسلام وقد فعل فإن أكثر أولئك هدامهم الله فأسلموا، وإن شاء عذبهم فإنهم ظالمون مستحقون لعقوبات الله وعذابه.

(١٢٩) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يخبر تعالى أنه هو المتصرف

وأيضاً فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين، وفي مقابلة إسانكم؟

فأنتم مستقيمون على أديان الرسل، تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجل الكتب وأشرف الرسل، وأنتم تبدلون لهم من الشفقة والمحبة ما لا يكافئونكم على أقل القليل منه. فكيف تحبونهم وهم لا يحبونكم، وهم يداهنونكم وينافقونكم فإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا مع بني جنسهم عضوا عليكم الأنامل من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم.

قال تعالى: ﴿ثُلٌّ مِّنْهُمْ لِيَغِظَكَ﴾ أي: سترون من عز الإسلام وذل الكفر ما يسوؤكم وتموتون بغیظكم، فلن تدرخوا شفاء ذلك بما تقصدون.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ فلذلك بين لعباده المؤمنين ما تنطوي عليه صدور أعداء الدين من الكفار والمنافقين.

﴿إِنْ تَسْتَكْمِبُوا حَسَنَةً﴾ عز ونصر وعافية وخير ﴿تَسُوْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ﴾ من إدالة العدو أو حصول بعض المصائب الدنيوية ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ وهذا وصف العدو الشديد عداوته.

لما بين تعالى شدة عداوتهم وشرح ما هم عليه من الصفات الخبيثة أمر عباده المؤمنين بالصبر ولزوم التقوى وأنهم إذا قاموا بذلك فلن يضرهم كيد أعدائهم شيئاً فإن الله محيط بهم وأعمالهم وبمكائدهم التي يكيدونكم فيها.

وقد وعدكم عند القيام بالتقوى أنهم لا يضرونكم شيئاً فلا تشكوا في حصول ذلك.

(١٢١-١٢٣) ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْفَقَاتِلِ﴾ إلى آخر القصة. وذلك يوم «أحد» حين خرج ﷺ بالمسلمين حين وصل المشركون - بجمعهم - إلى قريب من «أحد» فترأهم ﷺ منازلهم ورتبهم في معادهم، ونظمهم تنظيمًا عجيبًا يدل على كمال رأيه وبراعته الكاملة في فنون السياسة والحرب، كما كان كاملاً في كل المقامات.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لا يخفى عليه شيء من أموركم. ﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ وهم بنو سلمة وبنو حارثة لكن تولاهما البارئ بلطفه ورعايته وتوفيقه.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فليتوكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فإنهم إذا توكلوا عليه كفاهم وأعانهم، وعصمهم من وقوع ما يضرهم في دينهم ودنياهم.

وفي هذه الآية ونحوها وجوب التوكل، وأنه على حسب إيمان العبد يكون توكله والتوكل هو اعتماد العبد على ربه في حصول منافعه ودفع مضاره، فلما ذكر حالهم في «أحد» وما

في العالم العلوي والسفلي وأنه يتوب على من يشاء فيغفر له ويخذل من يشاء فيعذبه .

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فمن صفته اللازمة كمال المغفرة والرحمة، ووجود مقتضياتهما في الخلق والأمر، يغفر للتائبين ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

تم الجزء - المجلد الأول - من «تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن» بخط مؤلفه عبدالرحمن الناصر بن سعدي ٩ ربيع أول ١٣٤٣ غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين .

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم، ويليه المجلد الثاني أوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا﴾.

الفهرس

- ٧٠٣ ٢٧- تفسير سورة النمل
- ٧١٧ ٢٨- تفسير سورة القصص
- ٧٣٤ ٢٩- تفسير سورة العنكبوت
- ٧٤٧ ٣٠- تفسير سورة الرُّوم
- ٧٥٨ ٣١- تفسير سورة لقمان
- ٧٦٦ ٣٢- تفسير سورة السجدة
- ٧٧٢ ٣٣- تفسير سورة الأحزاب
- ٧٩١ ٣٤- تفسير سورة سبأ
- ٨٠٣ ٣٥- تفسير سورة فاطر
- ٨١٣ ٣٦- تفسير سورة يس
- ٨٢٣ ٣٧- تفسير سورة الصافات
- ٨٣٤ ٣٨- تفسير سورة ص
- ٨٤٤ ٣٩- تفسير سورة الزُّمر
- ٨٦٠ ٤٠- تفسير سورة المؤمن (غافر)
- ٨٧٦ ٤١- تفسير سورة السجدة (فصلت)
- ٨٨٦ ٤٢- تفسير سورة الشُّورى
- ٨٩٨ ٤٣- تفسير سورة الزخرف
- ٩٠٩ ٤٤- تفسير سورة الدخان
- ٩١٣ ٤٥- تفسير سورة الجاثية
- ٩١٨ ٤٦- تفسير سورة الأحقاف
- ٩٢٥ ٤٧- تفسير سورة القتال (محمد ﷺ)
- ٩٣٣ ٤٨- تفسير سورة الفتح
- ٩٤٢ ٤٩- تفسير سورة الحجرات
- ٩٤٧ ٥٠- تفسير سورة ق
- ٩٥٣ ٥١- تفسير سورة الذاريات
- ٩٥٩ ٥٢- تفسير سورة والطور
- ٩٦٥ ٥٣- تفسير سورة النجم
- ٩٧١ ٥٤- تفسير سورة اقتربت (القمر)
- ٩٧٦ ٥٥- تفسير سورة الرحمن
- ٩٨١ ٥٦- تفسير سورة الواقعة
- ٩٨٧ ٥٧- تفسير سورة الحديد
- ٩٩٥ ٥٨- تفسير سورة قد سمع الله (المجادلة)
- ١٠٠٠ ٥٩- تفسير سورة الحشر
- ١٠٠٧ ٦٠- تفسير سورة الممتحنة
- ١٠١٢ ٦١- تفسير سورة الصف
- ٥ كلمة الناشر
- ٧ مقدمة صاحب الفضيلة: عبدالله بن عبدالعزيز بن عقيل
- مقدمة فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين رحمه
- ٨ الله تعالى
- ٩ مقدمة المحقق
- ١٨ تنبيه
- ١٩ مقدمة المؤلف
- فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من بدائع الفوائد
- ٢٠ لابن القيم رحمه الله تعالى
- ٢٧ ١- تفسير سورة الفاتحة
- ٢٩ ٢- تفسير سورة البقرة
- ١٢٥ ٣- تفسير سورة آل عمران
- ١٧٤ ٤- تفسير سورة النساء
- ٢٣٨ ٥- تفسير سورة المائدة
- ٢٧٧ ٦- تفسير سورة الأنعام
- ٣١٧ ٧- تفسير سورة الأعراف
- ٣٥٧ ٨- تفسير سورة الأنفال
- ٣٧٣ ٩- تفسير سورة براءة (التوبة)
- ٤٠٩ ١٠- تفسير سورة يونس
- ٤٣٢ ١١- تفسير سورة هود
- ٤٥٣ ١٢- تفسير سورة يوسف
- ٤٧٦ ١٣- تفسير سورة الرعد
- ٤٨٧ ١٤- تفسير سورة إبراهيم
- ٤٩٧ ١٥- تفسير سورة الحجر
- ٥٠٥ ١٦- تفسير سورة النحل
- ٥٢٦ ١٧- تفسير سورة بني إسرائيل (الإسراء)
- ٥٤٥ ١٨- تفسير سورة الكهف
- ٥٦٩ ١٩- تفسير سورة مريم
- ٥٨٤ ٢٠- تفسير سورة طه
- ٦٠٣ ٢١- تفسير سورة الأنبياء
- ٦٢٢ ٢٢- تفسير سورة الحج
- ٦٤٠ ٢٣- تفسير سورة المؤمنون
- ٦٥٦ ٢٤- تفسير سورة النور
- ٦٧٥ ٢٥- تفسير سورة الفرقان
- ٦٨٩ ٢٦- تفسير سورة الشعراء

- ١٠٩٢- تفسير سورة الشمس وضحاها (الشمس) ١٠٩٢
- ١٠٩٣- تفسير سورة الليل ١٠٩٣
- ١٠٩٥- تفسير سورة الضحى ١٠٩٥
- ١٠٩٦- تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك (الشرح) ١٠٩٦
- ١٠٩٦- تفسير سورة والتين ١٠٩٦
- ١٠٩٧- تفسير سورة اقرأ (العلق) ١٠٩٧
- ١٠٩٨- تفسير سورة القدر ١٠٩٨
- ١٠٩٩- تفسير سورة لم يكن (البينة) ١٠٩٩
- ١١٠٠- تفسير سورة إذا زلزلت (الزلزلة) ١١٠٠
- ١١٠١- تفسير سورة العاديات ١١٠١
- ١١٠١- تفسير سورة القارعة ١١٠١
- ١١٠٢- تفسير سورة أهاكم التكاثر (التكاثر) ١١٠٢
- ١١٠٣- تفسير سورة والعصر ١١٠٣
- ١١٠٣- تفسير سورة الهمزة ١١٠٣
- ١١٠٤- تفسير سورة الفيل ١١٠٤
- ١١٠٤- تفسير سورة لإيلاف قريش (قريش) ١١٠٤
- ١١٠٤- تفسير سورة الماعون ١١٠٤
- ١١٠٥- تفسير سورة الكوثر ١١٠٥
- ١١٠٦- تفسير سورة الكافرون ١١٠٦
- ١١٠٦- تفسير سورة النصر ١١٠٦
- ١١٠٧- تفسير سورة تبت (اللهب) ١١٠٧
- ١١٠٧- تفسير سورة الإخلاص ١١٠٧
- ١١٠٧- تفسير سورة الفلق ١١٠٧
- ١١٠٨- تفسير سورة الناس ١١٠٨
- ١١٠٩- الملاحق ١١٠٩
- أصول وكليات من أصول التفسير وكلياته لا يستغني
عنها المفسر للقرآن ١١١١
- تفسير الآيات التي اختلفت فيها النسختان ١١١٨
- ٦٢- تفسير سورة الجمعة ١٠١٦
- ٦٣- تفسير سورة المنافقين ١٠١٨
- ٦٤- تفسير سورة التغابن ١٠٢٠
- ٦٥- تفسير سورة الطلاق ١٠٢٥
- ٦٦- تفسير سورة التحريم ١٠٢٨
- ٦٧- تفسير سورة الملك (تبارك) ١٠٣٢
- ٦٨- تفسير سورة ن (القلم) ١٠٣٦
- ٦٩- تفسير سورة الحاقة ١٠٤٠
- ٧٠- تفسير سورة سأل سائل (المعارج) ١٠٤٤
- ٧١- تفسير سورة نوح ١٠٤٨
- ٧٢- تفسير سورة قل أوحى إلي (الجن) ١٠٥٠
- ٧٣- تفسير سورة المزمل ١٠٥٣
- ٧٤- تفسير سورة المدثر ١٠٥٦
- ٧٥- تفسير سورة القيامة ١٠٦٠
- ٧٦- تفسير سورة هل أتى على الإنسان (الدهر) ١٠٦٣
- ٧٧- تفسير سورة المرسلات ١٠٦٦
- ٧٨- تفسير سورة عم (النبا) ١٠٦٨
- ٧٩- تفسير سورة النازعات ١٠٧١
- ٨٠- تفسير سورة عبس ١٠٧٤
- ٨١- تفسير سورة التكويد ١٠٧٥
- ٨٢- تفسير سورة الانفطار ١٠٧٨
- ٨٣- تفسير سورة المطففين ١٠٧٩
- ٨٤- تفسير سورة الانشقاق ١٠٨١
- ٨٥- تفسير سورة البروج ١٠٨٣
- ٨٦- تفسير سورة الطارق ١٠٨٥
- ٨٧- تفسير سورة سبح (الأعلى) ١٠٨٦
- ٨٨- تفسير سورة الغاشية ١٠٨٧
- ٨٩- تفسير سورة الفجر ١٠٨٩
- ٩٠- تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد (البلد) ١٠٩١